الهلال

يناير ٢٠٠٠ ■ الثمن ٤ جنيهات

وداع قرن واستقبال قرن

من يحكم العالم ؟!

الحكام والإعلام

فى العالم



لوحـــــة وفـنـــان



الراقصة (١٩٥٩) للفنان أدهم وانلي

تمثل لوحة الراقصة إيقاعا شرقيا معاكسا لفراشات الباليه السابحات فى النور، حيث تميزت أعمال الفنان أدهم بالحركات الرشيقة.
فى الخلفية يطل الطبال كجزء من السطح يموج بحركة دائرية تتجاوب مع إيقاع الجسد.

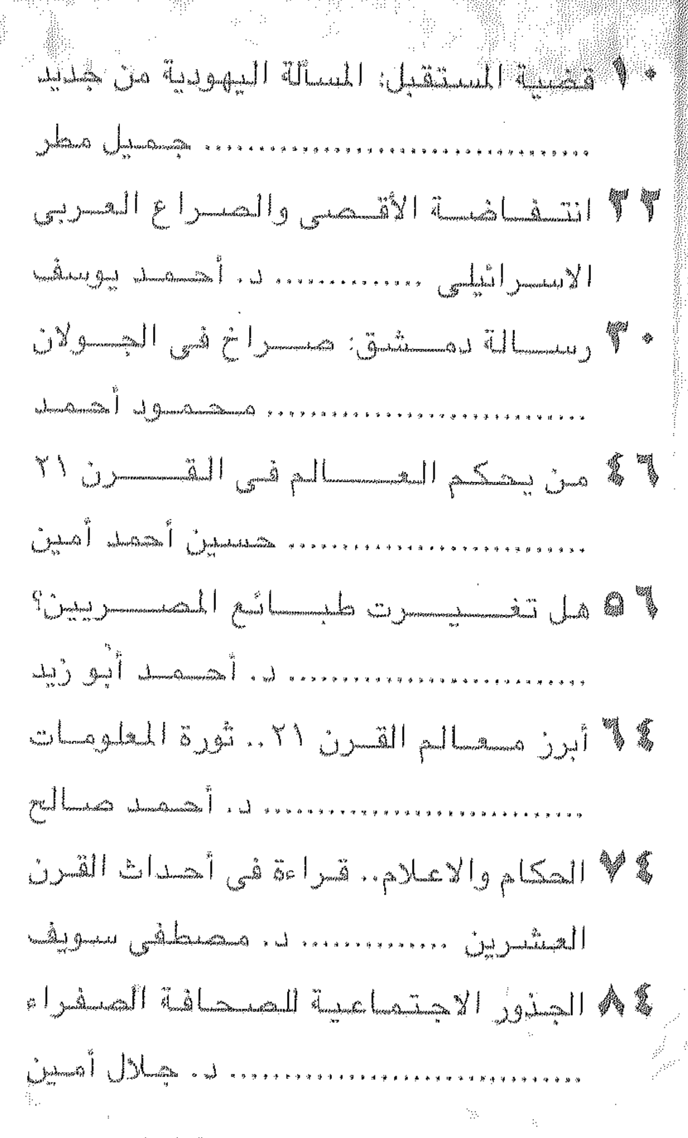


الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولارا، باقي دول العالم ٤٥ دولارا.
● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.





الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبو ظبى/ ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

عام جديد
وهلال جديد

كل سنة وأنت طيب ، ونحن ندخل قرناً جديداً ، وعاماً جديداً ، نفتح عقولنا وقلوبنا على المستقبل ، ونتفاءل بكل جديد .

ولا أنسى ما شاهدته فى اليابان ، فاليابانيون يخرجون مع كل عام جديد كل أمتعتهم القديمة ويستبدلونها بما هو جديد طازج .

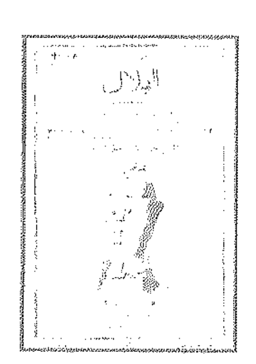
وهذا ما أرجو أن نفعله ، وأن نستغنى عن كل قديم بال ، وأن نفتح أذرعتنا للجديد .

وهذا هو المعنى الحقيقى للتجديد والتطوير - الذى تلحظه فى الهلال ، مع المحافظة على رسالة وصيغة الهلال التى استمرت مائة وتسعة أعوام ، رأى خلالها القراء كيف جاهدت من أواخر القرن التاسع عشر لكى تؤدى رسالتها ، حتى أصبحت واحدة من عدة مجلات باقية تعد على أصابع اليد الواحدة التى صمدت كل هذا الزمن .

إن كل شىء فى العالم اليوم يفتح صفحة جديدة ، ولعل وقفتنا تكون من أجل فتح صفحة جديدة نحو المستقبل .

وقد مرت الهلال بعدة مراحل من حياتها وهذه هى أحدث مراحلها، التى نبدؤها من هذا العدد ، فتغيرت طباعتها وحسن حرفها، ودخلت عهداً جديدا من الطباعة الفنية الحديثة ، التى تستعمل آخر التقنيات الفنية ، وتقف على مستوى أرقى المجلات العالمية ، على الرغم من كل الصعوبات التى نواجهها والتى منها الانصراف النسبى عن الكلمة المكتوبة .

وهذه خطوة فى طريق طويل نقدمها ونتقدم إلى القارئ بما



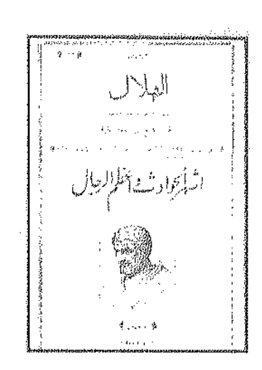

ادخرناه من تطوير ، بل نقدم إليه هلالاً جديداً فى كل صفحاته ، وسوف نتابع فى أعدادنا المقبلة كل ما هو جديد . ويستمر هدفنا التوجه إلى الأجيال الجديدة بأفكار معاصرة، وخلال هذا العام الذى يقبل علينا بعد ما مر بالعالم من المحن، وظلمات من المتاعب وأخذ الجميع يتطلعون إلى ما يأتى به الغد ، ويتمنون أن يشهد العالم العدل والسلام .

كما ينتهى قرن بدأ سنة ١٩٠٠ ، وليس فى التاريخ كله قرن حفل بالحوادث الجسام ، مثل ما شهده هذا القرن ، الذى رأينا فيه قيام الدول وسقوطها ، وهو القرن الذى شهد قيام إسرائيل على قطعة غالية من الأرض العربية ، ولو قرأنا حوادثه فى الكتب لما اكتفينا قراءة مكتبة كاملة . لقد ذاب القرن العشرون ، كأنه لم يمتلئ بالمآسى ، وأنجزت فيه البشرية أعظم أعمالها منذ مشى الانسان على الأرض خطواته الأولى .

والقرن الجديد بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للبشرية ، والتغيرات أسرع من الخيال ، من لا يلاحقها فسيسقط فى بئر التخلف .

ولا نجد شكراً نقدمه للقارئ سوى مضاعفة الجهد ، وملاحقة العصر ، ولدينا مشروع فى وضع مقالات الهلال ابتداء من عدده الأول فى سبتمبر ١٨٩٢ وحتى اليوم على (السى . دى) ، وأن يظهر على أحد مواقع الانترنت . وأن يكون على الدوام «مجلة

عزيزى القارئ





العرب الأولى»

نحن أمة تبحث عن المستقبل ، والقرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه ، تراثنا يمتد وراءنا آلاف السنين ، ولكنه سوف يذهب أدراج الرياح إذا وقفنا عنده لا نتخطاه ، متجاهلين حاضرنا ، غافلين عن مستقبلنا ، ونعد القارئ أن تكون الهلال مجلة المستقبل ، لا نقدم الماضى إلا لكى نأخذ عبره ، ونتناول الحاضر كمدخل للمستقبل .

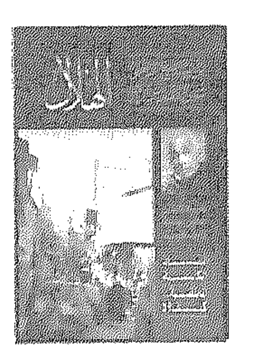
صحيح أن ماضى مصر يمتد فى أعماق السنين ، ولكن لا جدوى من ذلك الماضى المجيد إذا أصبح عبئاً وحاجزاً يقوم بيننا وبين المستقبل فى عالم يتغير ويتطور كل يوم .

إن البحث عن النغمة الصحيحة مهمة بالغة الصعوبة ، فى عصر اختلطت فيه الأنغام الصحيحة بتلك الخادعة . وستظل الهلال محافظة على دورها فى التصدى للتبعية ومحاولات وأد الهوية الوطنية والقومية ، وستستمر وعاء الفكر العربى الذى تلوذ به الطلائع المثقفة فى تصديها لكل التحديات .

وستظل رسالة الإنسان العربى إلى العالم ، وصلة الشرق بالغرب، والماضى بالحاضر ، وتستمر تبشر بالتطور وأن يستبدل العقل بالنقل، والعدل بالظلم ، والحوار بالإملاء ، والإبداع بالاتباع.

وهكذا عزيزى القارئ تجد عدد « الهلال » الذى بين يديك، لا يمتاز بشكله فقط ، بل يمتاز بمادته الفكرية والفنية التى تخاطب مستقبل الانسان كما تخاطب حاضره ..

وهناك مسألة أخرى ، فى علاقتنا بك أيها القارئ العزيز .. وهو





زيادة سعر المجلة فى ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التى نعيشها .
وتكاد « الهلال » تباع بسعر رمزى ، ولا تحصل على الدعم من خارج « دار الهلال » التى تصدرها ، ولهذا لا تأخذ المجلات الثقافية سوى ثقة القراء ، أما المال فإنها لا تحصل عليه ، ولا تستطيع أن توازن بين حصيلة توزيعها وبين نفقات ورقها وطباعتها وتحريرها ، لأن ثمنها أقل من نصف الثمن الحقيقى .

وتتلقى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية عائد الاعلانات الذى يساعدها على الموازنة بين النفقات والدخل ، ولكن المجلات الثقافية لا تحظى بنصيب كاف من الاعلانات .

ورغم ما نشهده من ارتفاع الأسعار ، أبقت مجلة الهلال على سعرها فى متناول قارئها ، وأرجأت الخطط الخاصة برفع السعر مرة بعد أخرى .

وهذه هى المحنة الحقيقية للمجلات الثقافية .

ونحن نصر أن نحصل على الدعم من القارئ وحده ، لذلك نضاعف خدمتنا للقارئ ، وكان مما ليس منه بد .

ولابد لصوت الصحافة الثقافية أن يظل مسموعاً ، ولهذا نعاهد القارئ أن نبذل كل الجهد الممكن لكى نصبح جزءاً من العصر الذى نعيش فيه ، مادام القراء ينتظرون صدورها فى الموعد الذى لم تخلفه مرة علي مدار الأعوام .

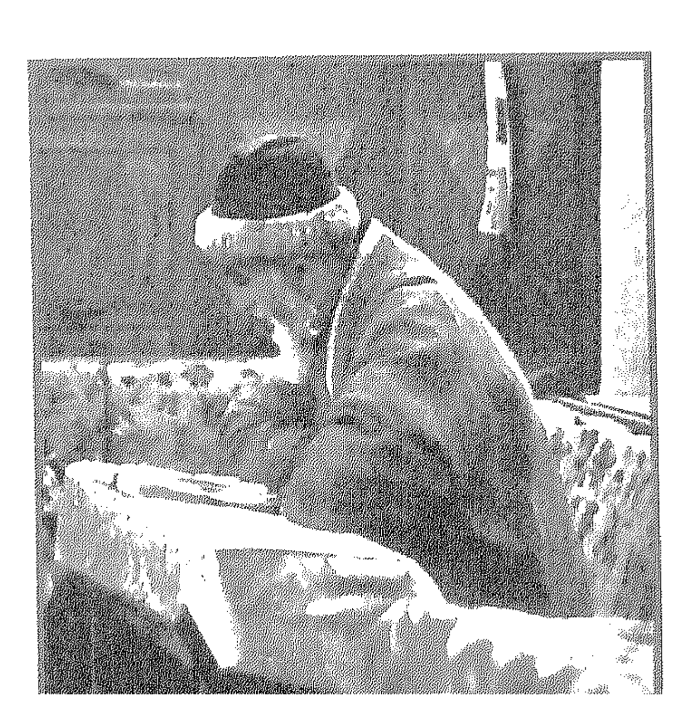
المحـــــرر

قضية المستقبل

المسألة اليهودية من جديد

بقلم : جميل مطر

عادت «المسألة اليهودية» إلي الواجهة ، وان جاءت في ثوب جديد. إذ أنه منذ أن أعلن المرشح لرئاسة الجمهورية الأمريكية آل جور اختياره جوزيف ليبرمان ليكون نائباً للرئيس، وربما قبل هذا بقليل، صارت قضايا الانقسامات الدينية أو الطائفية بين اليهودية والمسيحية أو داخل اليهودية ذاتها تتصدر النقاش فى أجهزة الإعلام الغربية. بل إن عدداً من الكتب صدر ليشترك فى هذا النقاش، بعضه فى حدة وانفعال ، وبعضه فى اعتدال وموضوعية .

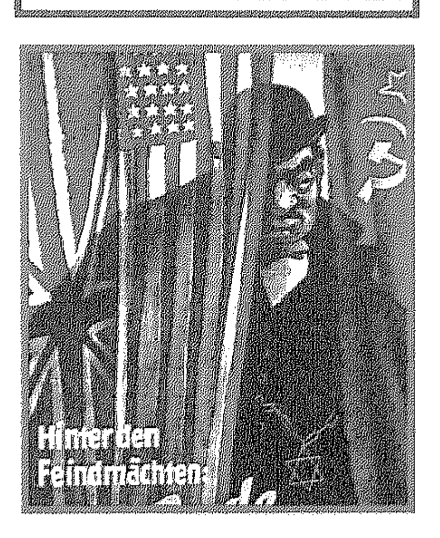


أحد الحاخامات الذين يرفضون المجتمع العلمانى، ويتمسكون بتطبيق الشريعة اليهودية



ملصق نازى يظهر فيه اليهودى وهو يقف خلف الحلفاء الروس والأمريكان والانجليز،
فقد سعت الصهيونية ان تجعل من نفسها ترسا فى الآلة الغربية الأمريكية

قضية المستقبل



كان المتصور ، منذ هيمن التقدم العلمى على جميع وجوه الحياة فى الغرب، وهو العنصر الأكثر تأثيراً فى اليهودية بصفة خاصة على امتداد القرن العشرين، أن اليهودية الأرثوذكسية، وأقصد بها هذا التيار فى اليهودية المتمسك بالتعاليم الصارمة وبالأصولية فى الاجتهاد والتفسير والالتزام بالتقاليد فى السلوك الفردى والجماعى لليهود، ستبتعيد قوتها ونفوذها ولكن ليس إلى هذا الحد الذى فاجأ كثيراً من المجتمعات. يقول أحد المعلقين ، أن لا أحد فى تمام عقله كان يمكنه فى منتصف القرن العشرين أن يتصور أن قوة اليهودية الأرثوذكسية ونفوذها سيصلان إلى هذه الدرجة التى هما عليها الآن. فالأرثوذكسية اليهودية كانت تسير دائما على خط مناوىء لنمط الحياة العصرية . وفى أمريكا تحديداً كان السائد أن هذا التيار انحسر إلى درجة لا يستطيع عندها أن يفرز شخصاً مثل جوزيف ليبرمان يضع اسمه على بطاقة ترشيح لمنصب نائب رئيس الولايات المتحدة ، ممثلاً لكل يهود أمريكا، خاصة وأنه توجد بين هؤلاء اليهود أغلبية ساحقة لا تعترف لليهود الأرثوذكس بمكانة مميزة أو باحترام خاص .

فاليهود الأمريكيون فى غالبيتهم الساحقة اعتقدوا، على الأقل إلى عهد قريب ، أن تقاليد اليهودية الأرثوذكسية وبخاصة التزامها القاسى بسلوكيات تتعارض مع تقاليد هذا العصر، تتناقض حدياً مع العقلانية والحرية الفردية، وكلاهما علامتان بارزتان من علامات العصر. ثم كانت المفاجأة عندما اكتشف الأمريكيون ، واليهود خاصة ، أن هؤلاء اليهود الأرثوذكس الذين لا تزيد نسبتهم إلى العدد الكلى لليهود الأمريكيين عن ١٠٪ هم الأكثر بروزاً فى الحياة اليهودية الأمريكية والأشد تميزاً واندفاعا وثقة بأنفسهم، وأنهم صاروا يسيطرون ، من داخل الحركة اليهودية الأمريكية ، على عدد متزايد من أجهزة الاعلام . بل أنهم صاروا يشدون وراءهم يهوداً آخرين فى اتجاه اليمين ونحو الانعزال عن بقية

المجتمع وضد الحداثة ، ويعودون بهم وبسرعة إلى نمط حياة ما قبل التنوير فى أوروبا.

تطويع الشخصية اليهودية

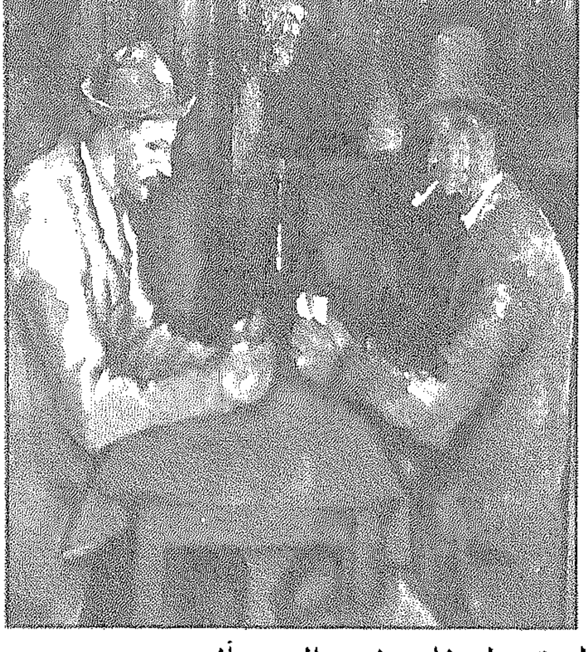
كان معروفا أن طوائف اليهود الأخرى تعودت على هذا التعنت من جانب الأرثوذكس، وتعودت أيضاً على تجاهله خاصة وأنه كان يتصل بأمور تجرى على هامش الحياة المادية لليهود ولا تمس القطاعات المهمة منهم، أو علاقات اليهود ببقية اليهود. ولكن يبدو أنه مع زيادة نفوذ الأرثوذكس ومحاولاتهم الدائبة المتصاعدة لاثبات وجودهم فى كل مكان بدأ السلوك الأرثوذكسى يثير مشكلات حقيقية وعميقة داخل المجتمع اليهودى الأمريكى . ولن يكون الخلاف الراهن إن استحكم أول خلاف. فالجالية اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية تواجه منذ فترة غير قصيرة تفاقمات متعددة فى خلافات قائمة وإن كانت كامنة ، وأخرى استجدت مع الظروف الدولية المتغيرة . تفاقم مثلاً الخلاف التقليدى بين الجماعات الصهيونية وبين أنصار الانصهار فى المجتمع الأمريكى . فالصهاينة كانوا دائماً أشد أعداء التيارات الداعية لانصهار اليهود فى المجتمع بحجة حمايتهم من العداء للسامية وللاستفادة من مزيج الثقافات والحضارات ولتطويع الشخصية اليهودية التى تعودت على الغرور والتعالى أو على الانطواء والانعزال، أو عليها جميعاً. كذلك تفاقم الخلاف بين العلمانيين الراديكاليين من اليهود الذين كانوا يشكلون غالبية القطاعات المثقفة والعلماء ومهنيين كثيرين، وبين بقية اليهود .

ثم جاءت صحوة اليهودية الأرثوذكسية لتستنفر - فيما يشبه الحرب الدينية - يهوداً ضد يهود ، ولكن بالأكثر ضد غير اليهود. فالطلاب المنتمون إلى هذه الطائفة يرفضون النوم فى عنابر أو أجنحة يختلط فيها الجنسان ويعتبرون هذا الاختلاط تعدياً صارخاً على حرية العقيدة. ويتظاهرون احتجاجاً على الدعاية التى تقوم بها منظمات غير حكومية لصالح ما يسمى بممارسة «الجنس الآمن» . وفى كليفلاند نشب خلاف حاد بين يهود المدينة بسبب إصرار جماعات أرثوذكسية على تشييد حمامات خاصة باليهود حسب الطقوس الدينية القديمة، وإصرارهم على تخصيص مدارس للفتيات فقط، وأن يحيا اليهود فى أحياء خاصة حتى لا يضطرون إلى التنازل عن ممارسة بعض عاداتهم وطقوسهم الحياتية .

★★★

ثم ظهر فى السوق الأمريكية كتاب بعنوان بوستفيل Postville ، وبعنوان فرعى «صدام الثقافات فى أمريكا» ، فأحدث على الفور أصداء كبيرة . إذ كان السائد والمتعارف عليه بين علماء الاجتماع





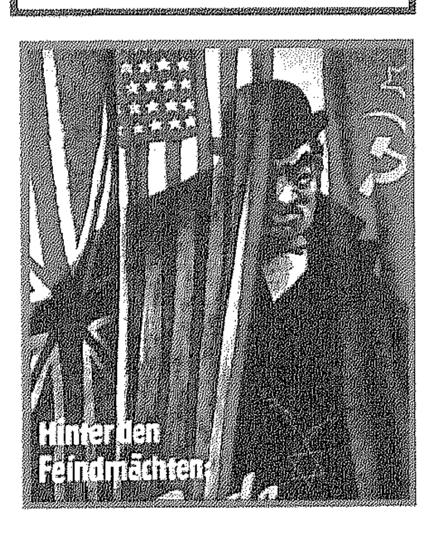
«إمرأة الكمان» لماتيس و«لعب الورق» لسيزان يزعم اليهود أنهم
أصحاب المدارس الجديدة فى الفنون المختلفة

الأمريكيين وعلى امتداد عقود ومئات الكتب وآلاف المقالات أن التعددية الثقافية تحمل فى طياتها بالضرورة عنصر التسامح . وجاء هذا الكتاب يطرح النقيض. فيتساءل ... ماذا يحدث لمجتمع تعددى ، الجماعات فيه جماعات مختلفة إلى درجة يصبح عندها التسامح استحالة حقيقية ؟ ويقدم الإجابة من خلال عرض حالة معينة فى مدينة صغيرة في ولاية آيوا وصل فيها الصدام بين الثقافات إلى حد يتحدى كل المسلمات التى يمكن أن يفترضها عالم اجتماع وحضارات عن امكانية التعايش بين جماعات مختلفة ثقافيا أو دينياً.

يتحدث ستيفن بلوم مؤلف الكتاب عن جماعة دينية يهودية معروفة باسم Lu-bavitcher Hassidim وهى جماعة تنتمى إلى طائفة واسعة النفوذ فى آماكن تجمع اليهود ومقرها الرئيسى مدينة نيويورك، وقد وصلت حفنة من العائلات المنتمية إليها إلى مدينة بوتسفيل فى منتصف الثمانينات لتشترى مجزرا غير يهودى لتعبئة اللحوم حولته إلى مجزر يعبىء اللحوم «الحلال» لليهود! والمعروفة بلحوم «الكوشر»، لبيعها لأعضاء هذه الطائفة فى كافة أنحاء آمريكا. وقد تسبب وجود هذه الجماعة وتشغيلها للمجزر خلق حالة رخاء فى المدينة التى يبلغ عدد سكانها ١٤٦٥ نسمة. إلا أنه تسببت تصرفات هذه العائلات فى إثارة قلق شديد بين السكان الذين يعتنقون المسيحية اللوثرية، وهى الطائفة التى تبشر بمبادىء تشجع على إقامة علاقات حميمة بين الجيران . إذ فرض اليهود



قضية المستقبل



القادمون على المدينة أنفسهم كفئة منعزلة لا تريد الاختلاط ، وتفرض على الآخرين احترام طقوسها وانعزالها وطرائق معيشتها حتى وإن كانت جميعها مزعجة للسكان الأصليين فى المدينة . حاول السكان، بالمناقشة والود، اقناع الوافدين بأهمية التعايش من أجل استمرار جو التسامح الذى اشتهرت به هذه المدينة الصغيرة . عقدوا الندوات والمؤتمرات واستدعوا علماء اجتماع وسياسة وأقاموا احتفالات ومآدب، كلها بغير جدوى . وأمام اصرار اليهود على عدم الاختلاط ورفضهم الاختلاط والتعايش طرح مجلس المدينة فكرة عقد استفتاء على ضم الأراضى المقام عليها المجزر إلى ملكية المدينة بهدف اجبار اليهود على مغادرتها .

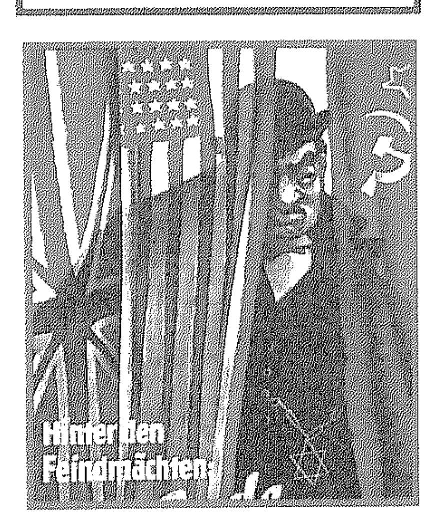
وبأسلوب شيق وعرض موضوعى ومثير ينقل المؤلف عن أبطال كتابه ما يؤكد أن التعددية ليست بالضرورة طريقاً إلى التسامح والتعايش. يقول واحد من اليهود المهاجرين إلى المدينة ذات الأغلبية المسيحية : أينما نذهب فاننا لن نتأقلم مع المكان أو مع السكان . إن المكان والسكان هما اللذان يجب أن يتأقلما معنا. ويعتقد المؤلف أن هذه المدينة الصغيرة فى برارى أمريكا ليست أكثر من حالة من مئات الحالات حيث لا يريد الناس أن تصبح «جزءاً فى جماعة» . ولا ينسى المؤلف أن يذكر القارىء بأن سكان هذه المدينة كانوا ، قبل وصول اليهود، معتادين على أن كل الناس مسيحيون حتى أنهم لم يتصوروا أن هناك إنساناً آخر لا يؤمن بالمسيح ، أو على الأقل لم يتعلم كيف يؤمن بالمسيح . وهو يصف الرغبة فى التمايز عند اليهود بأنها فاقت أحياناً حدود المتصور . فقد رفض اليهود قص الحشائش فى حدائق منازلهم تأكيدا لرفضهم أن يكونوا مثل الآخرين. ووضعوا نصب أعينهم - رجالاً ونساءً وأطفالاً - هدف تشييد سور نفسى عالٍ يفصل بينهم وبين غير اليهود. ولذلك فحين دعاهم سكان الأحياء المجاورة لمشاركتهم الاحتفال بعيد الشكر، وهو عيد كل الأمريكيين ، وليس عيداً لطائفة

دون أخرى، قبلوا الدعوة . وفى يوم الاحتفال لم يظهر يهودى واحد فى أى حفل من الحفلات الثلاثة التى أقيمت لهذا الغرض.

ويرصف المؤلف، وهو يهودى، عبارات وردت على ألسنة يهود القرية يقول أنه لم يسمعها من قبل وجميعها تتعالى على المسيحيين وتصفهم بأبشع الصفات . يقول واحد من اليهود «نعم لم نسدد القرض الذى اقترضناه من المدينة.. سندفعه يوماً ما.. ولكن بشروطنا وليس بشروط أصحاب القرض». ويعلق ستيفين بلوم بأن ما سمعه من اليهود جعله يتعاطف مع أهل القرية الأصليين ، ويستطرد قائلاً «.. لقد رأيت فى هذه القرية الجانب المظلم فى عقيدتى، إن نظرة إلى سلوك اليهود المتطرفين الذى أقلق سكان بوتسفيل جعلنى أنا نفسى أقلق وينقبض صدرى». يذكرنى ما جاء فى هذا الكتاب على لسان مؤلفه ستيفن بلوم بتصريح غاضب صدر عن بافيل دوستال وزير الثقافة التشيكى فى شهر أغسطس الماضى. كانت مناسبة التصريح حملة إعلامية وسياسية نظمها يهود مدينة براغ ، بقيادة طائفة اليهود الأرثوذكس، تطلب من الحكومة عدم السماح بإقامة مبانى جديدة محل مبانى جارى هدمها بحجة أنها تقع فى منطقة كانت فى الأصل، أى منذ خمسمائة عام، مقبرة عامة لليهود. قال الوزير «لا أعرف لماذا يرفض يهود براغ بناء مسرح فوق رفات أجدادهم.. لماذا هم قلقون الآن، ولم يقلقوا على امتداد ٥٢٠ سنة شيد خلالها فوق المقابر مراقص ومسارح وأنشطة كثيرة.. اليهود يتصرفون كالطبيب الذى يظهر بعد الجنازة.. ولكن هذه المرة يظهر بعدها بخمسة قرون». ورغم ذلك نجح اليهود فى اجبار الحكومة على وضع رفات اليهود فى مبنى من الأسمنت فى مكان المقبرة نفسه. وبعدها سمحوا للحكومة أن تقيم ما شاءت من مبان حول المبنى . ورغم ذلك عاد يهود براغ إلى الاحتجاج على إقامة مبان تتاخم الرفات اليهودى.

★★★

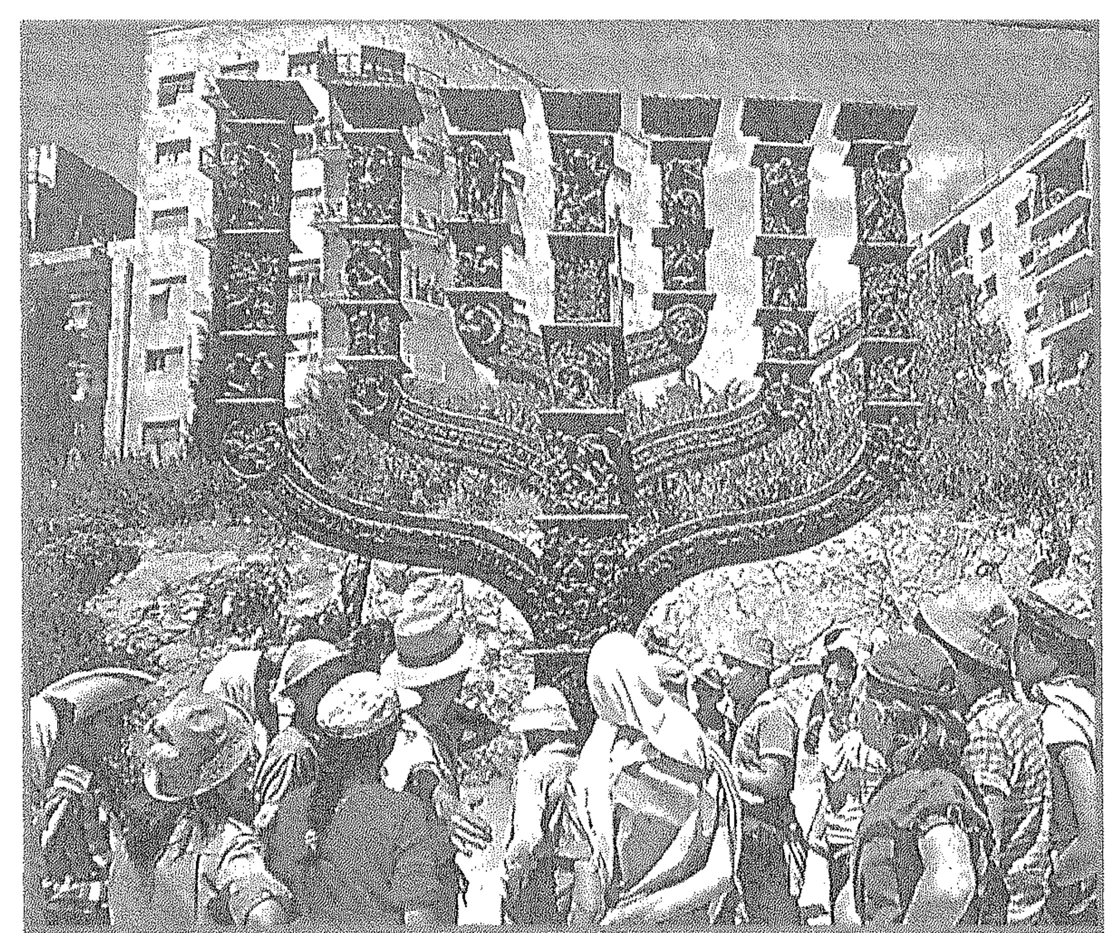
وفى مقال نشرته نيويورك تايمس (١/١٠/٢٠٠٠)، لكاتب يهودى ، اسمه لورى جورستين ، يقول إن تضخيم الاحتفال بالسنة اليهودية الجديدة فرصة ليتذكر اليهود الأمريكيون أنهم «قبيلة عزلت نفسها بنفسها. عزلت نفسها بمناسباتها وأعيادها، وبنمط حياتها وطقوسها». وأضاف إن الجديد هو ردود الفعل العنيفة على أى محاولة للتقريب بين المسيحية واليهودية . مثال ذلك رد الفعل على بيان أصدره عدد من اليهود فى سبتمبر يؤكدون فيه «أن اليهود والمسيحيين يعبدون إلها واحداً، ومرجعهم من كتاب واحد، وهو الانجيل، ويقبلون تعاليم التوراة». إذ اجتمع عدد من كبار



المفكرين اليهود ليقرروا أن هذا البيان وأمثاله أعمالاً خاطئة بل وتهدد بأخطار كبيرة «.. إنها تعمل على تمييع الفوارق بين عقيدتين لا يمكن بأى حال التوفيق بينهما».

واشتد الجدل حول هذا البيان الذى صدر تحت عنوان «دابرو إيميت.. بيان يهودى عن المسيحيين والمسيحية»، ودابرو إيميت عبارة بالعبرية معناها قل الحقيقة. وقد اشترك فى كتابة البيان أساتذة يهود من جامعات نوتردام ومدرسة شيكاغو للاهوت وفرجينيا وتورونتو. أراد الأساتذة من خلال بيانهم تأكيد حقيقة أنه خلال نصف قرن تخلت كنائس عديدة كاثوليكية وبروتستنتية عن تعاليم كانت تعتبر اليهودية عقيدة فاشلة ومرفوضة من الرب. ويوجه البيان الدعوة إلى اليهود للاستجابة لهذا الاتجاه المسيحى والاعتراف بهذا التغيير سعياً وراء تعايش أقوى وتسامح أفضل. ويبدو أن أكثر النقد الذى وجه إلى البيان كان بسبب عبارة وردت فيه تقول أن «النازية لم تكن ظاهرة مسيحية ولم تكن المحرقة نتاجاً حتمياً للمسيحية».

ويتساءل الكاتب ، هل صحيح ما يقوله بعض الأكاديميين والقساوسة المسيحيين من «أننا وهم» نقدس الرب نفسه والانجيل نفسه والمبادىء والأخلاق نفسها؟ وهل صحيح ما يقوله ويروج له على أوسع نطاق البروفسور فيليب كاتينجهام أستاذ الأديان فى كلية بوسطون عن أن «العهد القديم هو العهد المشترك»؟ وقد تصدى للرد على هذا الاتجاه «التوفيقى» ، أو التوحيدى، عدد كبير من المتخصصين اليهود.. قال المعتدلون إن قصة التراث المشترك والعهد المشترك حقيقة مبالغ فيها، «وأن المسيحيين يقرأون العهد الجديد كمفتاح لتفسير حقيقة العهد القديم. ولذلك فالقول أننا نقرأ الكتاب نفسه قول مضلل. إننا نقرأ الكتاب نفسه ولكن بافتراضات متناقضة وبالضرورة متنافرة» . يقول الدكتور آمى جيل ليفاين من جامعة فاندربيلت أن «المسيحيين يقرأون العهد القديم كجزء أول والعهد الجديد كجزء ثان من الانجيل، أما بالنسبة لنا فالانجيل



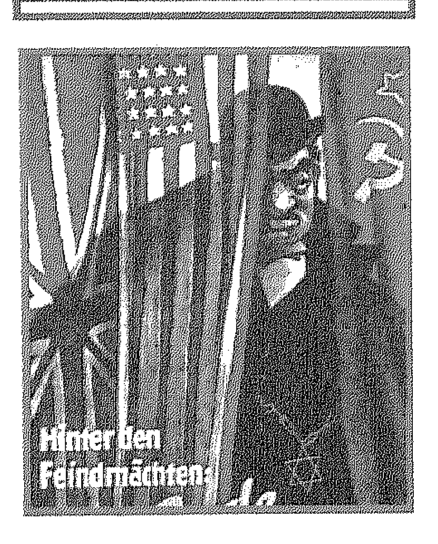
الشمعدان احد رموز الدولة العبرية ورمز للأصولية اليهودية وهو هدية من البرلمان البريطانى للبرلمان الإسرائيلى

ليس إلا العهد القديم فقط». ويستطرد قائلاً أنه «لا داعى إطلاقاً لأن يقتبس اليهود من العهد الجديد . إنه ليس جزءاً من كتابنا المقدس.. انه بالنسبة لنا لا يختلف عن باجافارجيتا أو القرآن أو السوترا».

آخرون يمثلون التيار الأرثوذكسى المتصاعد النفوذ يتهمون البيان التوفيقى بأنه دعوة صريحة إلى اختفاء اليهودية ، باعتبارها العقيدة المجهولة وعقيدة الأقلية. بينما يذهب لاهوتيون يهود إلى أنه لا خوف على اليهود لأن تلقين اليهود، معلومات عن المسيحية لا يؤدى بالضرورة إلى ضعف اليهودية . بل العكس، لأنه إذا نظر اليهودى إلى المسيح على أنه رجل يهودى فى وسط يهودى ، سيجد أن لدى المسيح أشياء كثيرة يقولها لليهود عن العدالة الاجتماعية.

ومازالت القيادات الدينية والسياسية اليهودية منقسمة حول بيان التوفيق ، وما كان هذا البيان ليصدر، وما كان لهذه الزوبعة أن تحتد وأن تستمر لو أن

قضية المستقبل



آل جور اختار شخصاً آخر غير ليبرمان ليكون نائبا له.. ومازلت عند رأيي بأنه سيكون لاختيار ليبرمان أبعاد سوف تمس العلاقات المسيحية اليهودية ، والعلاقات بين الاصلاحيين والأرثوذكس من اليهود. ستمس أيضاً مجمل منظومة القيم الدينية فى الولايات المتحدة والعلاقة بين الدولة والدين وجوهر الدستور الأمريكى خاصة بعد أن تعالى أخيراً صوت الرأى العام الذى يزعم أن الآباء المؤسسين اعتبروا التوراة المصدر الرئيسى للدستور والتشريع فى الولايات المتحدة الأمريكية.

★★★

وخلال الأسبوع الأخير من نوفمبر الماضى، انعقدت فى مدينة القدس «الجمعية العمومية لليهود الأرثوذكس». ولاحظت الصحافة الإسرائيلية كثافة عدد الحضور من الخارج على الرغم من أن اجتماعات يهودية أخرى عقدت ولم يحضر من الخارج عدد كاف من اليهود، وعلى الرغم من أن عدد السياح إلى إسرائيل من يهود الشتات انخفض بنسبة كبيرة منذ بدء الانتفاضة الفلسطينية. لاحظ المراقبون أيضاً أن الوضع الأمنى والحرب الدائرة بين الفلسطينيين وإسرائيل لم تكن بنداً فى جدول الأعمال، كما لم يتضمن ، رغم أهميتها ، العلاقات بين الأرثوذكسية اليهودية وبقية الطوائف اليهودية . والطريف أنه عندما سئل الحاخام مانديل جانشرو رئيس الاتحاد الأرثوذكسى العالمى عن السبب فى عدم مناقشة العلاقات مع الطوائف اليهودية الأخرى قال «نحن لا نكن احتراماً لهذه الطوائف، وبالتالى فهى لا تستحق من اجتماعنا أى اهتمام .. الكل يعرف أنه لا مستقبل لليهودية فى العالم بدون الأرثوذكسية».

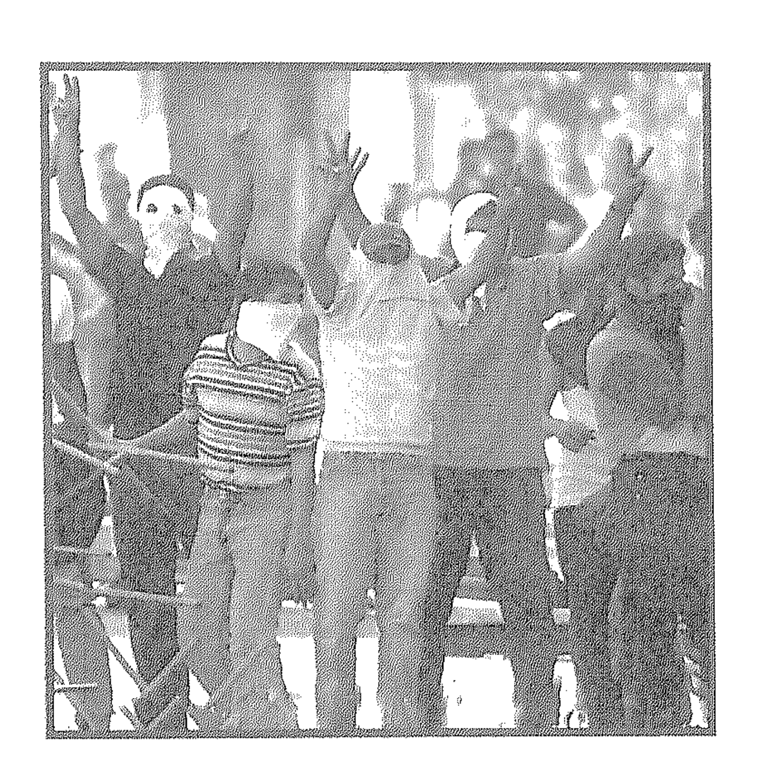
من هو اليهودى ؟

وفى الواقع نشطت الحركة الأرثوذكسية اليهودية فى كافة أنحاء العالم ، ويقال أنها تشكل أغلبية اليهود فى الشتات باستثناء يهود الولايات المتحدة ، وهؤلاء لا يحترمهم قادة اليهود

الأرثوذكس بسبب المعدل السريع لانصهارهم فى المجتمع، وانشغالهم عن قضايا ديانتهم ، وضعف انتمائهم لإسرائيل حسب رأى هؤلاء القادة. ولذلك قرر المؤتمر أن يخصص أغلب مناقشاته لقضية الزيادة المتتالية فى نسبة عدد غير المتزوجين من أهل الشتات ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، وقرر تخصيص المؤتمر القادم لتقديم حلول عملية لهذه المشكلة . كذلك ناقش المؤتمر قضية «من هو اليهودى»، وانتصر التيار الداعى إلى توفير مرونة أكبر فى وضع معايير التعريف . وقد أصيب المجتمعون بالصدمة، حسب وصف معلق إسرائيلى، حين قال لهم وزير شئون الشتات فى الحكومة الإسرائيلية أنهم تأكدوا فى إسرائيل من أن ثلثى المهاجرين إلى إسرائيل من أقاليم الاتحاد السوفييتى سابقاً من غير اليهود. وألقى أغلب المتحدثين بالمسئولية على عملية الانصهار فى مجتمعات الشتات، ولم يحملوا إسرائيل المسئولية باعتبار أن هناك شبهة قيامها بتشجيع هجرة كل من يعرب عن رغبته فى العيش فى إسرائيل وكل شخص يعتبر نفسه يهودياً ، حتى أنه قيل إن إسرائيل توسع من مفهوم اليهودية لتصبح وعاء لمختلف الأجناس والشعوب.

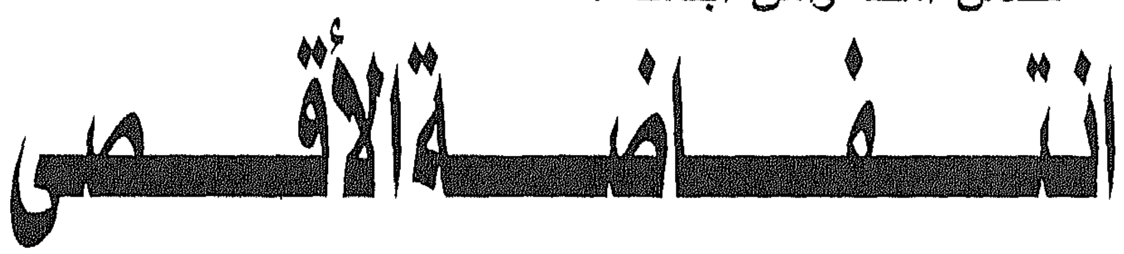
وفى نهاية المناقشات ، وعندما نوقش موضوع الانتماء لإسرائيل بين يهود الشتات، وجه المؤتمر اللوم إلى حكومة إسرائيل لمسئوليتها عن ضعف الانتماء لها بين يهود الشتات لأنها تتسامح مع التيارات العلمانية ، وتشجع على عدم التمسك بتعاليم الدين، وبخاصة فى شأن عطلة السبت، وهو الأمر الذى أدى إلى فقدان الحافز لدى اليهودى خارج إسرائيل ، وحتى فى داخلها ، لدعم انتمائه للدولة العبرية .

ويبدو على كل حال أن انتفاضة الأقصى لم تشجع الإسرائيليين ويهود الشتات على زيادة تعلقهم بإسرائيل، على عكس ما توقعت الحكومة الإسرائيلية حين قررت تصعيد المواجهة إلى درجة تقترب من درجة الحرب الفعلية ، فتكرر ما حدث عام ١٩٦٧ وخلال المواجهة مع المقاومة الفلسطينية فى لبنان، حين توحد يهود الشتات وراء إسرائيل . وقدموا المعونات والقروض والاستثمارات الهائلة . بل ويوجد ما يدل على أن سكان المستوطنات، وأغلبهم من الأمريكيين المتشددين فى تدينهم أو فى تطرفهم السياسى، يرحلون عن المستوطنات ويطالبون بمساكن وراء الخط الأخضر بحجة أن الدولة استخدمتهم وقوداً لحربها مع الفلسطينيين، وقد تتخلى عنهم إذا ازداد الضغط الشعبى فى فلسطين واضطرت إسرائيل إلى الانسحاب.



بقلم: د. أحمد يوسف أحمد

ليس استشراف المستقبل بالعمل الهين أو المبسط، غير أن شواهد الماضى والحاضر أكثر من واضحة، وعلى أية حال فإن أفضل طريقة لاستشراف المستقبل كما يقولون هى أن تشارك فى صنعه، ولو كانت هذه الصفحات قد اشتطت كثيرا أو قليلا فى التفاؤل بمستقبل الصراع العربى ـ الاسرائيلى من وجهة نظر عربية فلنحاول أن نجعل شططها واقعا ملموسا فى مستقبل غير بعيد نبنيه بحسن الرؤية لما جرى ويجرى حولنا وسلامة التخطيط لعمل يتعين علينا أن نقوم به من أجل أن نضمن أمننا وأمن أبنائنا .



طرحت انتفاضة الأقصى التى اشتعلت فى الأراضى الفلسطينية المحتلة عددا من الأسئلة لعل من بينها سؤالا لم يحظ بعد بالاهتمام الكافى، وهو ذلك المتعلق بمستقبل الصراع العربى - الاسرائيلى، ذلك أن الانشغال كان كبيرا بالآثار والتداعيات الفورية للانتفاضة على التطورات الآنية لعملية التسوية المحبطة ومسار التصعيد المتسارع، وفى ظل هذا الانشغال بدا أن أحدا لم يكن يملك رفاهية التأمل فى مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى ككل على ضوء ما أحدثته الانتفاضة من تداعيات .

الاتجاه الى التسوية فى أعقاب حرب ١٩٦٧

لقد كانت الفكرة السائدة قبل حدوث الانتفاضة أن الصراع العربى الاسرائيلى لم يدخل فحسب مسار تسوية أكيدة، بل إن هذا المسار كاد يبلغ نهايته، وبدا هذا واضحا فى حديث البعض عن هموم «مابعد السلام» ، وتسابق البعض الآخر الى الحديث عن صفقة متكاملة تم ابرامها قبل انعقاد قمة كامب ديفيد الفلسطينية - الاسرائيلية - الأمريكية .

وبغض النظر عن خطأ طرح هموم ما بعد السلام فى وقت بدا فيه أن التسوية مازال أمامها عقبات موضوعية هائلة وشوط زمنى كبير كى تبلغ منتهاها، وبغض النظر كذلك عن أن الحديث عن تسوية صراع عمره قرن من الزمان فى قمة تستغرق أسبوعا أو أسبوعين ينطوى على استخفاف بالغ بالعقل، فإن وجه الصحة فى الفكرة السائدة قبل الانتفاضة يتمثل فى أن الصراع كان قد دخل بالفعل مسارا للتسوية فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى استطاعت اسرائيل ان تحدث بها تغييرا هائلا فى ميدان الصراع لصالحها، سواء بما أثبتته من تفوق عسكرى، أو بما احتلته من أراض عربية استكملت بها سيطرتها على كل فلسطين وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. وبدا أن القيادات العربية أدركت على التوالى أنه لا مناص من التركيز مرحليا على ازالة آثار العدوان، وهى عملية كان واضحا أنها لابد وأن تتضمن الاستعداد لتقديم تنازل ذى طابع استراتيجى يقوم على أساس القبول بوجود اسرائيل فى حدود ما قبل حرب يونيو ١٩٦٧ .

ومن جانب اسرائيل لاشك أنها كانت تريد أن تفرض ارادتها على الأطراف العربية المعنية فى أعقاب حرب ١٩٦٧، أو بعبارة أخرى كانت تريد للتسوية إن تمت

ومستقبل الصراع العربى ـ الإسرائيلى

أن تحمل سمات الانتصار الاسرائيلى فى الحرب، وهو ماكان يستحيل قبوله عربيا، ومن هنا بدأت المحاولات العربية لتصحيح ميزان القوى مع اسرائيل سواء لاغراض تفاوضية أو عسكرية، وبدا هذا واضحا على الجبهة المصرية بالذات من خلال عملية اعادة البناء السريعة للقوات المسلحة، والصمود العسكرى في أعقاب الهزيمة مباشرة. ثم التصعيد الى حرب الاستنزاف فحرب اكتوبر ١٩٧٣ التى كانت حربا عربية بكل المقاييس. ولذلك بدأت اسرائيل تتجه بالتدريج الى التخلى عن فكرة فرض ارادتها بالكامل على العرب، وتبدى استعدادها للتوصل الى تسوية حرصت دوما على أن تكون لصالحها، وإن تكن قد اضطرت فى غمارها لتقديم تنازلات كان بعضها جوهريا، وتعزز نفس النموذج الذى أشار الى استحالة فرض اسرائيل لارادتها على النحو الذى تريده على العرب بالمقاومة اللبنانية ـ الفلسطينية لغزو ١٩٨٢ ، والانتفاضة الفلسطينية منذ أواخر ١٩٨٧ ، والمقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله فى الشريط الحدودى المحتل .

ولقد مثل اتفاق اوسلو ١٩٩٣ على الرغم من مساوئه الظاهرة نقطة مهمة فى تأكيد اتجاه الصراع الى التسوية، لا على صعيد المسار المصرى ـ الاسرائيلى فحسب وانما على صعيد أهم مسار فى الصراع وهو المسار الفلسطينى ـ الاسرائيلى، وكان اعتراف اسرائيل فى هذا الاتفاق بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى نقلة تاريخية اذا قيست بالادعاءات الصهيونية السابقة عن أرض فلسطين: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. وبنيت هندسة الاتفاق على أساس أن تتم عملية التسوية على مرحلتين أولاهما انتقالية تستمر خمس سنوات وتتم فيها مواجهة القضايا الأكثر سهولة فى الصراع، والثانية نهائية تعالج كل القضايا المستعصية كقضايا عودة اللاجئين والمستوطنات والقدس والكيان الفلسطينى والمياه .

وعلى الرغم من الانتقادات التى وجهت بحق الى اتفاق اوسلو الا أن أحدا لم يكن يستطيع أن ينكر أن شواهد الخبرة الماضية تشير الى أن بعض الاتفاقيات السيئة قادت الى الاستقلال السياسى فى عدد من تجارب التحرر الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. صحيح أنه بدا فى حينه استقلالا منقوصا، لكنه كان استقلالا على أية حال فضلا عن أن التبعية تكاد تكون قد طالت الغالبية لاحقا. وفى المرحلة الانتقالية وعلى الرغم من المماطلات الاسرائيلية المعتادة والتشدد فى التنفيذ عندما يكون هناك تنفيذ أصلا، والتراجع عنه فى كثير من الاحيان ظل أنصار أوسلو يأملون فى

الوصول الى التسوية النهائية التى كان واضحا أنها تتطلب تنازلات أكبر بكثير مما توقعوا فى البداية .

ثم جاءت قمة كامب ديفيد لتكون لحظة كاشفة: هذا هو أقصى ما تستطيع اسرائيل ان تقدمه بتركيبتها السياسية الراهنة، وفى ظل ميزان مختل للقوى لصالحها، ولم يكن بمقدور اكثر الفلسطينيين اعتدالا أن يقبل ما تطرحه اسرائيل ومن هنا كانت الانتفاضة التى عجل بها السلوك الاستفزازى اللاحق لشارون بزيارته للمسجد الأقصى. بعبارة أخرى فان الانتفاضة كانت واقعة لا محالة سواء بزيارة شارون أو بغيرها . فى لحظات معينة تدرك الشعوب بفطرتها السياسية السليمة أن استمرار الوضع الراهن من شأنه أن يقضى على أهدافها، ومن ثم فعليها أن تخرج على المألوف فى محاولة لتحطيم هذا الوضع الراهن وتأسيس واقع جديد يكون اكثر مواتاه لتحقيق أهدافها. هكذا فعل الجزائريون فى خبرة التحرر العربى فى نقطة زمنية فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين، وفعلها اليمنيون أيضا فى نقطة أخرى فى أوائل الستينات، وفعلها الشعب الفلسطينى أكثر من مرة وصولا الى انتفاضته الحالية .

انتفاضة الاقصى ومستقبل التسوية

ولقد طرحت انتفاضة الأقصى اسئلة مهمة حول مستقبل الصراع : هل تعنى الانتفاضة أن مستقبل تطور الصراع فى مسار تفاوضى قد قضى عليه؟ الواقع أن إعمال العاطفة قد يغرى بالإجابة بالإيجاب، غير أن إمعان النظر يفضي الي شيء أكثر تعقيدا. فلعل انتفاضة الأقصى قد قضت على مسار التسوية وليس على مسار التسوية. بعبارة أخرى يمكن القول بأن انتفاضة الأقصى قد حررت شهادة الوفاة الرسمية لمنهج أوسلو فى التسوية، ولكنها لم تقض على امكانية التسوية، وان تكن بشروط أفضل. أى أن الانتفاضة هى محاولة لتحسين الوضع التفاوضى للشعب الفلسطينى بحيث ان فتات اوسلو لم يعد يلائمه ، ولما كان يبدو لنا فى المدى القصير أن اسرائيل لا تستطيع بسهولة في حالتها الراهنة أن تقدم طرحا أفضل على نحو جوهرى للفلسطينيين، فإن المعنى الوحيد لهذا هو أن الصراع سوف يقدر له فى هذا المدى القصير أن يشهد مزيدا من التفجرات التى تشير الى أشكال مختلفة للمقاومة يبدعها الشعب الفلسطينى حتى تجبر اسرائيل على أن تفهم أن أمنها الحقيقى ينبع من حد أدنى من الاستجابة لمطالب الشعب الفلسطينى.

والواقع أن تطور الصراع منذ هزيمة ١٩٦٧ يشير الى نفس النموذج. أى أن العرب على الرغم من قبولهم الاستراتيجى بالتسوية فى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ قد وجدوا أنفسهم مضطرين أكثر من مرة لاعمال القوة ضد اسرائيل لاجبارها على التسليم بتنازلات لم يكن ممكنا دونها تقدم التسوية من وجهة النظر العربية. لقد قبل الرئيس جمال عبدالناصر فى نوفمبر

١٩٦٧ القرار ٢٤٢، لكنه احتاج الى حرب الاستنزاف كى تجد الولايات المتحدة الامريكية نفسها مضطرة لتقديم مبادرة روجرز فى يوليو ١٩٧٠ ، وعرض الرئيس السادات عرضه الشهير للتسوية فى فبراير ١٩٧١ ولكنه اضطر لخوض حرب اكتوبر ١٩٧٣ كى يجعل اسرائيل تقبل بالجلاء عن سيناء، وقبل الفلسطينيون منطق التسوية «التاريخية» بدولة اسرائيلية فى حدود ما قبل يونيو ١٩٦٧ ودولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة فى أعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وهو ما قننته صيغة فاس التى أقرتها القمة العربية فى ١٩٨٢، غير أنهم لم يتمكنوا من تحقيق أى انجاز يذكر الا فى أعقاب انتفاضة ديسمبر ١٩٨٧، التى دامت - وان يكن بدرجات متفاوتة للقوة - حتى ازمة الخليج فى مطلع التسعينات، وهذا فضلا عن أن إعمال القوة ضد اسرائيل فى آكتوبر ١٩٧٣ وبالمقاومة اللبنانية - الفلسطينية فى أعقاب الغزو الاسرائيلى للبنان فى ١٩٨٢ وبمقاومة حزب الله فى الشريط الحدودى الجنوبى قد أجبر اسرائيل على الانسحاب من آراض عربية دون تسوية تفاوضية .

على المدى القصير وربما المتوسط سوف يستمر اذن حدوث تفجرات فى الصراع بأشكال متنوعة حتى ترتفع تكلفة الاحتلال الاسرائيلى للأراضى الفلسطينية الى الحد الذى يجبر اسرائيل على اعادة حساباتها، وسوف يتوقف المدى الزمنى المطلوب لاجبار اسرائيل على اعادة النظر فى حساباتها على اداء حركة التحرر الوطنى الفلسطينى وظهيرها العربى، فإن ساء الاداء طال المدى وكلما تحسن قصرت المدة المطلوبة لاحداث التحول المرغوب فى السلوك الاسرائيلى. ومن المحتمل ان يبرز فى هذه العملية سيناريو لتسوية رديئة يقبل فيها الجانب الفلسطينى الرسمى بما هو اقل من الحد الأدنى المقبول من القوى الفلسطينية الفاعلة والقوى العربية ذات الصلة، وهنا سوف يكون هذا السيناريو بمثابة جملة اعتراضية مؤقتة، حيث أن مثل هذه التسوية الرديئة لابد وأن تؤدى بدورها الى تفجرات جديدة لعدم قابليتها للبقاء كونها تحمل بذور فنائها. لنتخيل مثلا كيف تدوم تسوية تتحدث عن مسجد للمسلمين وما تحته للصهاينة ، ومن المهم أن ما تطرحه اسرائيل حتى الآن يدخل فى باب التسويات الرديئة حيث تبقى للمستوطن المغتصب على سبيل المثال حقوقا تجعله ملاصقا لصاحب الأرض الحقيقى، بكل ما يحمله ذلك من تناقض قابل للانفجار فى اى وقت وتبقى مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين مشردين فى ظل ظروف انسانية بالغة المشقة ومناخ سياسى شديد الحساسية ،

وكلها عوامل من شأنها أن تجعل التسويات المطروحة حتى الآن أقرب الى القنابل الموقوتة منها الى صنع السلام .

بل انه مما يثير التأمل أكثر في هذا السياق ما يبدو من أن التسوية حتى أن تم التوصل اليها في ظل ميزان افضل للقوى من وجهة النظر الفلسطينية سوف تقصر عن شمول عناصر بالغة الأهمية لدوامها . بعبارة أخرى فانه وان كان متصورا ان حركة التحرر الوطني الفلسطيني قادرة من خلال نضالها بشتى الاساليب على أن تصل الى تسوية معقولة فيما يتعلق بالاراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧، الا انه لا يبدو أنها قادرة في المدى القريب او المتوسط على التوصل الى حل تاريخي للصراع، والمقصود بالحل التاريخي هنا هو حل كل قضايا الصراع وأهمها في هذه الحالة قضية الشعب الفلسطيني المشرد بالملايين خارج ارضه، وطالما أن هذه القضية لن تحل وبالذات في مناطقها الحساسة (كما في الحالة اللبنانية) فإن التسوية حتى وان تم التوصل اليها سوف تبقى ناقصة .

تأملات حول مستقبل الصراع

وتنقلنا هذه النتيجة الى سؤال آخر حول مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي فاذا كان التحليل السابق قد أفضى الى أن أية تسوية يفترض التوصل اليها في المدى القصير أو المتوسط سوف تكون ناقصة بمعنى أنها لن تشكل حلا تاريخيا للصراع فترى كيف يكون الاتجاه العام للصراع بعد مثل هذه التسوية او حتى بدونها بفرض أن التوصل اليها بات مستحيلا، قد تبدو محاولة الاجابة التالية على مثل هذا السؤال منطوية على مفارقة للواقع ، غير أن المرء لا يمكنه أن يتجاهل دروس الخبرة التاريخية لحركات التحرر الوطني في أعقاب الحرب العالمية الثانية من ناحية ودروس الخبرة المعاصرة لتطور الصراع العربي الاسرائيلي منذ ١٩٦٧ من ناحية أخرى .

وتشير كل خبرات حركات التحرر الوطني الى ان صراعها مع المستعمر قد انتهى بالاستقلال . ربما كان الاستقلال منقوصا بدرجات متفاوتة في حالات عديدة، وربما استمر نموذج التبعية للمستعمر القديم في هذه الحالات، غير أن النتيجة الأكيدة أن الاستقلال السياسي كان هو نهاية المسار النضالي لتلك الحركات، ومن السهولة بمكان أن نذكر السخرية والاستخفاف اللذين كانت النبوءات العلمية لعدد من المحللين بانهيار النظام العنصري في جنوب افريقيا تقابل بهما قبل ما لايقل عن ربع قرن على وقوع ذلك الانهيار، وكان سبب تلك السخرية وهذا الاستخفاف واضحا : ان أحدا لم يكن يتصور أن يأتي اليوم الذى تنهار فيه تلك القلعة العنصرية التي بدت في حينه أكثر منعة من أن تنال منها حركة التحرر الوطني للأغلبية السوداء المقهورة.

ويعني ماسبق أن خبرة التاريخ واضحة أكثر : أن مآل الحالة الاستعمارية الاسرائيلية الراهنة هو الانهيار ، وعندما

نتحدث عن الانهيار فنحن لا نشير بالتأكيد الى الزوال المادى لما تمثله اسرائيل، وانما الى البنية الصهيونية لها: تماما كما بقى البيض بممتلكاتهم وادوارهم بصفة عامة فى جنوب افريقيا وان تغيرت بنية السلطة لتصبح ديمقراطية على النحو الذى سمح للأغلبية السوداء بأن تسيطر على السلطة السياسية. وبالتأكيد سوف يكون هناك اختلافات فى التفاصيل فى الحالة الفلسطينية عن حالة جنوب افريقيا على سبيل المثال كون الاسرائيليين لا يمثلون اقلية فى الوضع الراهن فى أرض فلسطين، غير أن جوهر الحل يبقى واحدا: زوال بنية الهيمنة الاستعمارية .

ومن ناحية أخرى فإن دروس الخبرة المعاصرة للصراع العربى ـ الاسرائيلى بعد ١٩٦٧ تبدو معززة للتحليل السابق، وقد يكون هذا بدوره بالغ الغرابة لدى البعض حيث تعودنا نحن العرب أن نتحدث عن الاخفاق العربى المتكرر فى ادارة الصراع العربى ـ الاسرائيلى، وهو قول حق، ولكن الأمور نسبية، بمعنى أن الاخفاق يقاس بما كان يمكن للعرب أن يفعلوه لو أحسنوا استغلال كل امكاناتهم وكذلك الفرص التى اتيحت لهم. أما الحديث عن الاخفاق المطلق فهو أمر غير وارد ، والدليل على هذا يمكن أن يستمد من إلقاء نظرة متأنية على تطور الصراع العربى ـ الاسرائيلى منذ حرب ١٩٦٧ .

لقد بلغت اسرائيل اوج قوتها فى أعقاب تلك الحرب بما أثبتته من قدرة على هزيمة أكبر الجيوش العربية مجتمعة، وما احتلته من أراض تابعة لدول عربية ثلاث، ان لم تكن أربع باضافة لبنان الى مصر وسوريا والاردن، غير ان امعان النظر يظهر ان تلك النقطة الزمنية كانت هى اعلى نقطة فى منحنى القوة الاسرائيلى. ومرة اخرى فإن خبرة التاريخ تشير الى أن كل قوة استعمارية تصل الى نقطة ذروة تبدأ بعدها فى الانحدار ، وقد يكون الانحدار بطيئا لكنه يستمر، ولنتأمل ماحدث لاسرائيل منذ ١٩٦٧ : اخلاء شبه جزيرة سيناء بعد صمود عسكرى مصرى ثم حرب للاستنزاف توجت بحرب اكتوبر ١٩٧٣ ـ الاضطرار للانسحاب من لبنان فى اعقاب غزو ١٩٨٢ تحت وطأة المقاومة اللبنانية ـ الفلسطينية فيما عدا الشريط الحدودى الجنوبى ـ الاضطرار لاخلاء المناطق الفلسطينية كثيفة السكان فى أعقاب انتفاضة أواخر الثمانينات ـ الانسحاب من الجنوب اللبنانى تحت وطأة المقاومة اللبنانية المسلحة .

لم يتسع نطاق الهيمنة الاسرائيلية فى اعقاب حرب ١٩٦٧ اذن وانما انكمش وقد يقول قائل إن القوة العسكرية الاسرائيلية بالمقابل قد تعاظمت ناهيك عن بعدها النووى، وهذا حق، غير أن عقم

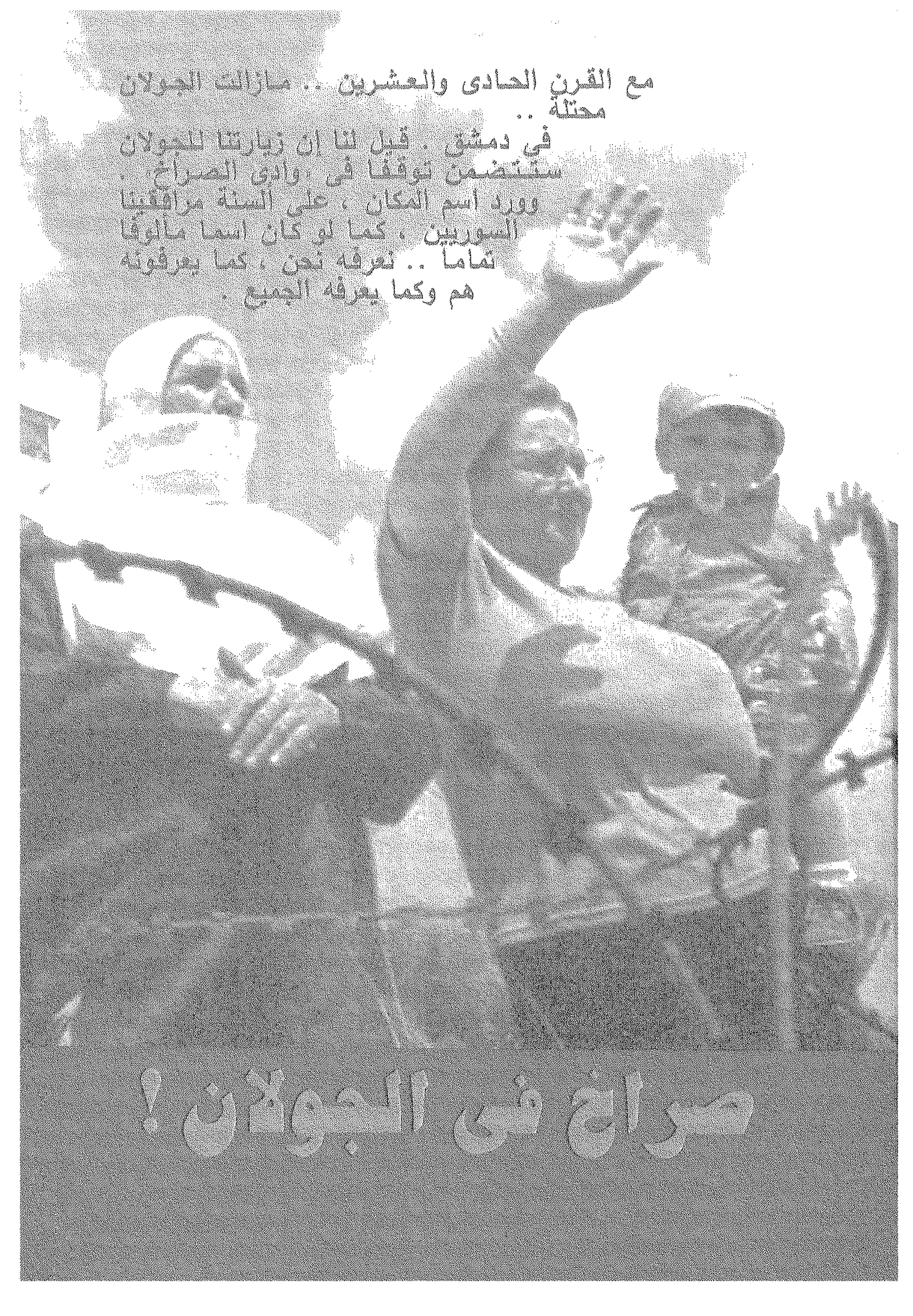
هذه القوة قد ثبت فى مواجهة الانتفاضات المتكررة للشعب الفلسطينى والمقاومة المسلحة لحزب الله، وقد يقول آخر ان اسرائيل قد تغلغلت فى الوطن العربى سياسيا واقتصاديا، وهو قول تعوزه الدقة، فضلا عن أن هذا التغلغل بفرض حدوثه قد ولد حركة رفض شعبية ناجحة الى حد بعيد ضخت دماء جديدة الى النظام العربى. بل أنه عندما يتذكر المرء أن الحركة الصهيونية العالمية مدعومة فى كل مراحلها بقوى الهيمنة الدولية تحاول منذ قرن كامل من الزمان أن تؤسس لها وجودا استعماريا مستقرا على أرض فلسطين دون أن يكتمل نجاحها على الرغم من سوء الاداء العربى فانه لا يمكننا سوى ان نكون متفائلين تاريخيا على الرغم من كل ما نعرفه عن واقعنا العربى الراهن .

ويبقى فى النهاية أن الوصول الى «الحل التاريخى» للصراع العربى - الاسرائيلى فى المستقبل البعيد على النحو السابق بيانه يتطلب توفر ارادة للصراع أو التحرير أو النضال لدى الطرف العربى عامة والفلسطينى خاصة فهل تتوفر مثل هذه الارادة لدى الاجيال الشابة التى سيقدر لها وحدها أن تحمل على كاهلها عبء الوصول بهذا الصراع الى نهايته التاريخية الحتمية؟ لقد ولد جيل الشباب العربى الراهن فى زمن الحديث عن السلام وتوقع ثماره الموعودة، وثمة شواهد علي أن قطاعات ربما تكون واسعة من هذا الجيل لم تكن تملك ضغينة محددة تجاه اسرائيل لهذا السبب، ولو امسكت اسرائيل بتلك الفرصة لربما حدث تحول تاريخى فى مجريات الصراع يبنى على التوصل الى تسوية متوازنة، لكن طبيعة اسرائيل الاستعمارية جعلتها عاجزة عن أن تفعل ذلك، تماما كما حدث فى عديد من تجارب التحرر الوطنى السابقة، بل ان اسرائيل دون أن تدرى بتصرفاتها الهمجية ضد الشعب الفلسطينى منذ انتفاضة الأقصى قد ساعدت على عودة الوعى أو ترسيخه لدى جيل الشباب العربى الحالى بحقائق الصراع وبديهياته، وسهل ذلك أن عصر الفضائيات التليفزيونية قد مكن من نقل وحشيتها وعنصريتها الى كل عين عربية على عكس ما كان يحدث منذ عقود خلت حينما كانت جرائم الابادة الجماعية ترتكب دون شواهد عليها. وهكذا تابعنا جميعا بقدر من الانبهار والاحترام فى آن واحد تلك الحركة النشيطة المتسارعة لقطاعات واسعة من الشباب العربى تدعو للمقاطعة الاقتصادية لاسرائيل وحلفائها وتمارسها، وتستخدم الانترنت فى تحرك إعلامى حقيقى لخدمة القضية العربية، وبغض النظر عن فعالية هذا كله - وثمة مؤشرات على أنه لا يخلو من فاعلية فضلا عن قابليته للتطوير - فإن الأهم أنه يعنى أن هناك جيلا جديدا سوف يستمر تأثيره لثلث الى نصف قرن من الزمان يحمل معه وعيا كافيا للاستمرار فى النضال من أجل الحقوق العربية.

●● وظلت الجولان محتلة حتى القرن الحادى والعشرين

رسالة دمشق

بقلم : محمود أحمد


مع القرن الحادى والعشرين .. مازالت الجولان محتلة ..
في دمشق . قيل لنا إن زيارتنا للجولان ستتضمن توقفا في «وادي الصراخ» .
وورد اسم المكان ، على ألسنة مرافقينا السوريين ، كما لو كان اسما مألوفا تماما .. نعرفه نحن ، كما يعرفونه هم وكما يعرفه الجميع .
صراخ في الجولان!

ولما بدا واضحا أن الاسم يطرق آذاننا ربما للمرة الأولى ، سارعوا إلى الإيضاح : إنه هذا الجزء الضيق من واد تقع فيه بلدة «مجدل شمس» المحتلة فى الجولان ، ويطل عليه جبل الشيخ ، وتقسمه الأسلاك المكهربة وحقول الألغام التى تفصل الجزء المحتل من الجولان عن بقية سوريا. إلى هذه البقعة الهادئة ، والبائسة ، يأتى أفراد الأسر التى مزقها التقسيم ، فى العطلات الأسبوعية والأعياد ، وفى أيديهم مكبرات الصوت، ويصرخون من خلالها محاولين الإبقاء على حد أدنى من «التواصل» ومن هنا جاءت تسمية «وادى الصراخ» .

عندما وصلنا إلى المنطقة ، توقفت بنا السيارات فوق ربوة مطلة على الوادى . كان الطقس خريفيا يميل ، عند أعلى الربوة ، إلى برودة صباحية خفيفة.. فالزيارة تمت فى أواخر شهر نوفمبر . وبدا جبل الشيخ على يميننا عاليا بقممه التى زرعت فوقها نقاط المراقبة العسكرية الإسرائيلية و«المراصد» التى تكشف التحركات فى مساحات واسعة من الأراضى السورية والأردنية واللبنانية . ولكن الجبل بدا أجرد فى لون الصحراء .. وقال بعض مرافقينا السوريين إنه لم يكن كذلك فى الماضى ، وإنما كان بياض الثلج يكسوه على مدار العام .. ومن هنا جاءت تسميته حيث يبدو وكأن عمامة مثل عمامة الشيخ تغطى قممه العالية دائما . أما الآن، فإن إسرائيل عمدت إلى استخدام وسائل صناعية لإذابة الثلج ، كلما أقبل الصيف ، لاستغلاله كمورد من موارد المياه العذبة فى هذه المنطقة التى يحرقها العطش للمياه .

هذا الواقع الذى تعيشه المنطقة مستمر منذ الاحتلال الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧، ولكن هذه الزيارة (المتأخرة) للجولان تأتى لتدفع إلى الذاكرة ، والوجدان بالكثير من الحقائق الأساسية والأحداث التى توالت حتى كاد يطمس بعضها بعضا . فالوضع تغير ، بالطبع نتيجة لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ (حرب تشرين التحريرية وفقا للقاموس السورى) فإذا كان مجمل مساحة الجولان السورية يربو على ١٨٥٠ كيلو مترا مربعا ، فإنه تم فى حرب أكتوبر تحرير نحو ستمائة كيلو متر مربع منها ، وبقيت ١٢٥٠ كيلو مترا مربعا تحت الاحتلال حتى اليوم .

ولكن «البشر» هم الذين جسدوا المأساة - مأساة الاحتلال - وأبقوها حية. ذلك أن القوات الإسرائيلية عندما



الدمار .. داخل مستشفى القنيطرة

اكتسحت المنطقة فى عدوانها عام ١٩٦٧، أقدمت على تدمير ٢٤٤ قرية وبلدة، فلم تترك فيها حجرا ، وكانت النتيجة هى تهجير ما يقل قليلا عن نصف مليون شخص انتشر أقلهم من أنحاء متفرقة من سوريا بينما لا يزال أكثرهم يقيم فى منازل للإيواء فى انتظار يوم التحرير، الذى لا يزال مجهولا ، للعودة إلى موطنهم وأراضيهم .

تحت الاحتلال ، لا تزال تعيش أربع قرى ، يبلغ مجموع سكانها نحو ٢٣ ألف نسمة ثلثهم تقريبا يقطن «مجدل شمس» كبرى البلدات التي لا تزال قائمة دون تدمير والتى ترقد أمامنا عبر «وادى الصراخ» مستكينة فى حضن الجبل .. تتدرج بيوتها ومبانيها ويختفى جزء منها وراء أحد التلال ثم تعود إلى «الظهور» جهة اليسار لتشكل لوحة بانورامية بديعة تكاد تخفى ملامح المأساة الإنسانية التى تعيشها .

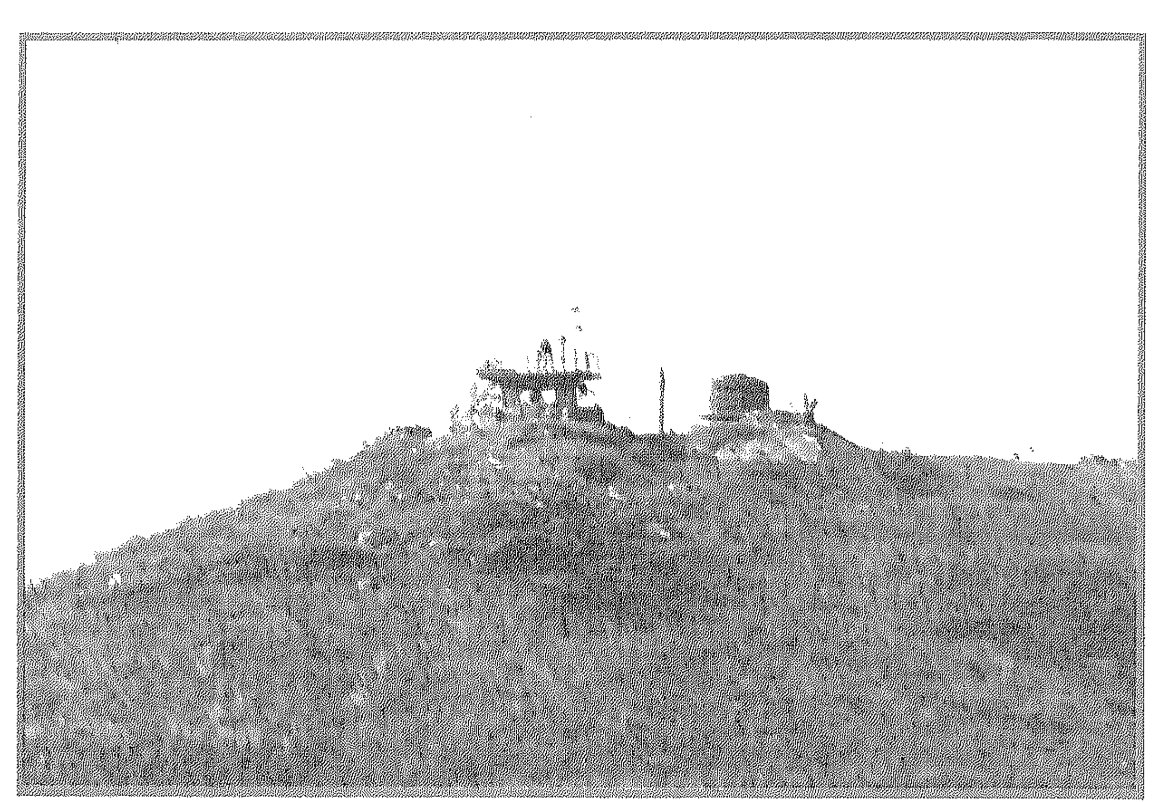
★★★

تشكل «الجولان» بالجزء المحرر منها والذى لايزال تحت الاحتلال ، هضبة مرتفعة تأخذ موقعها فى الركن الجنوبى الغربى من سوريا وتتألف من أرض بركانية تشرف على وادى الأردن بحواف شديدة الانحدار ، يصل ارتفاعها أحيانا إلى ثلاثمائة متر لاسيما عند سهل «الحولة» وأطراف بحيرة «طبريا» .

وتنتهى حدود الهضبة جنوبا بوادى اليرموك الذى يفصلها عن القطر الأردنى ، كما تشترك فى حدودها الشمالية الغربية مع لبنان حيث تشتركان فى سلسلة الجبال المرتفعة التى يقع أحد جانبيها فى لبنان والآخر فى سوريا . ويتصل سفح هضبة الجولان من ناحية الشرق بسهول «حوران» على امتداد وادى نهر «الرقاد» بينما تفصل التلال البركانية فى الشمال بينها وبين غوطة دمشق .

ويرتفع فوق الهضبة عدد من الجبال والتلال ، ينتشر بعضها على هيئة «مخاريط» بركانية متفرقة - أشهرها «تل الأحمر» و«تل الشيحة» و«تل العرام» و«تل الفرس» .. والتى ينتظم بعضها على شكل جبال متجمعة فى محور يتجه من الشمال إلى الجنوب .. وهو المحور الذى يعرف بسلسلة جبال الجولان التى ترتفع أعلى قمة فيها إلى ١١٥٨ مترا (عند قرية «بئر العجم») فوق سطح البحر . كما تشتمل هضبة الجولان على عدد من الوديان الصغيرة التى تتميز بقلة مواردها المائية ، وبالتالى ضحالة المجارى المائية (باستثناء نهرى الرقاد واليرموك) .

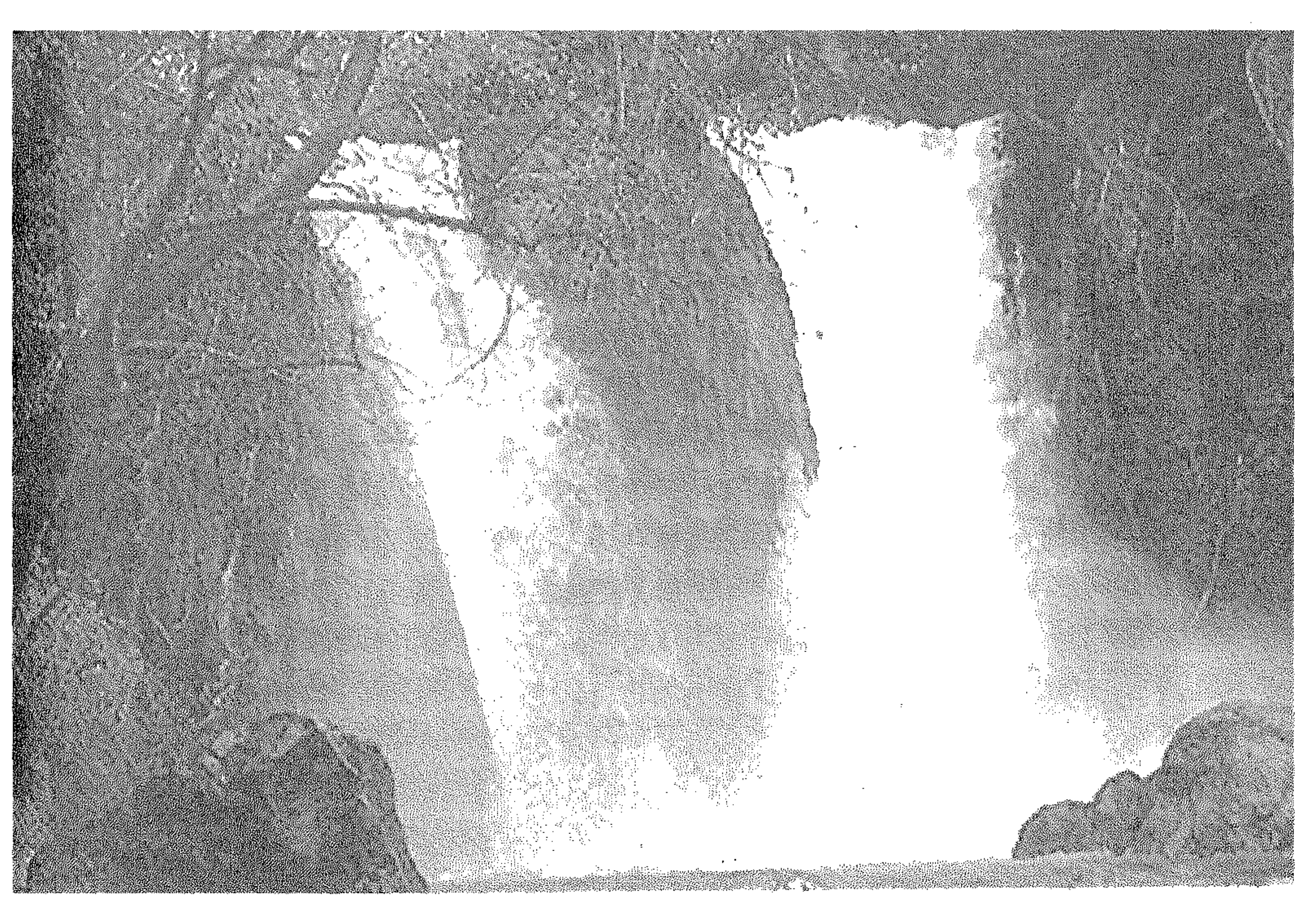
ونعود إلى الجزء المحتل من الجولان، والذى يمثل ثلثى مساحتها تقريبا ، فنجد أنه يمتد من جبل الشيخ شرقا حتى حدود



المراصد الإسرائيلية .. فوق جبل الشيخ



مجـدل شمـس .. كمـا تبـدو عـبر وادى الصراخ .. يطل عليها
جبل الشيخ، وتفصلها عن سوريا حقول الالغام والأسوار الكهربائية



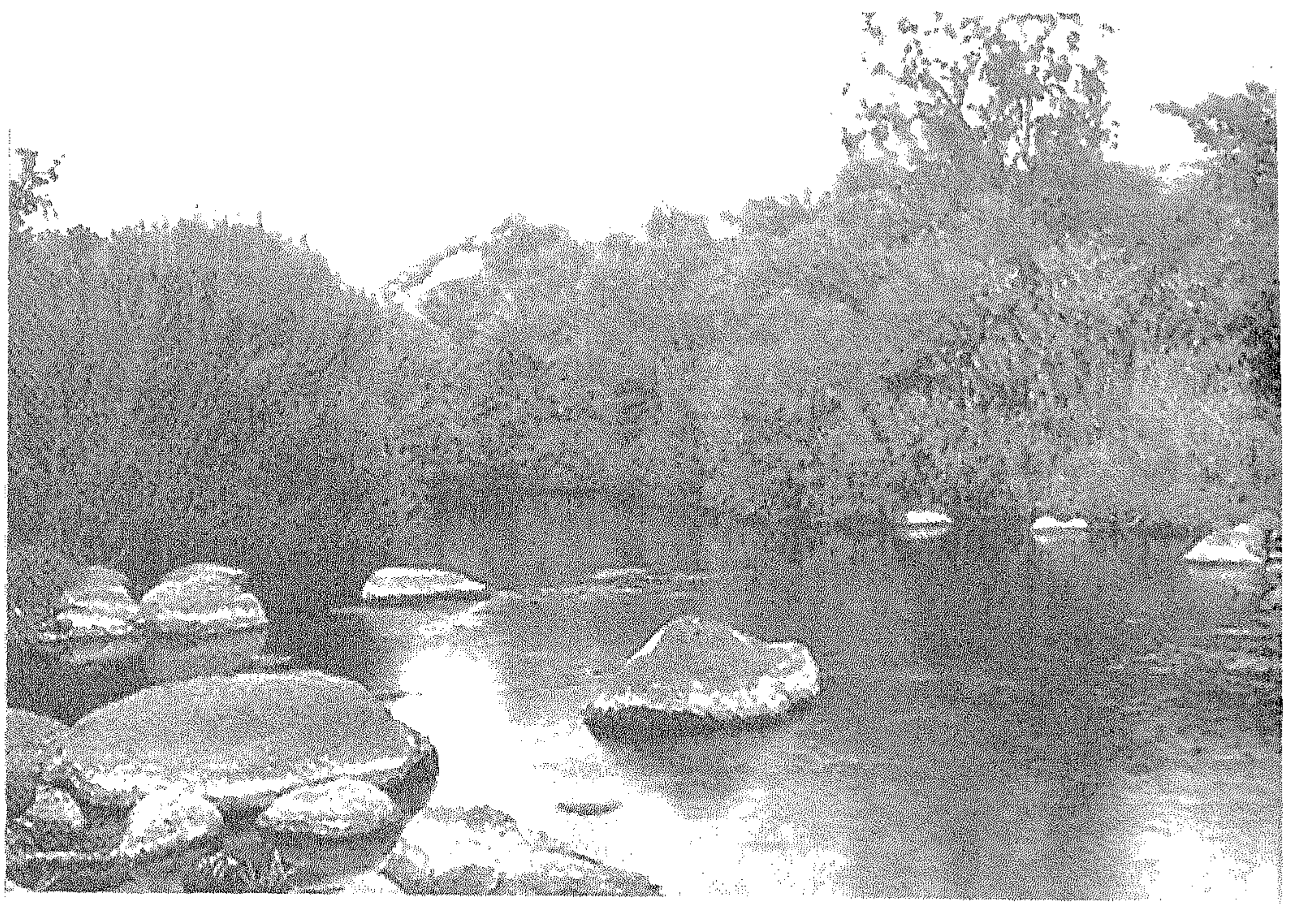
مساقط المياه من أبدع المناظر التى تشاهدها العين

الأردن بمسافة تصل إلى ٦٧ كيلو مترا هى طول الشريط المحتل من الهضبة.. أما عرضه فيتراوح بين ١٥ و١٨ كيلو مترا.

★★★

يقول لنا «مدحت صالح» ، نائب المنطقة فى مجلس الشعب السورى وابن «مجدل شمس» - والذى رافقنا فى الزيارة - إن الإبقاء على «مجدل شمس» والقرى الأربع الأخرى التى نجت من التدمير أثناء اجتياح القوات الإسرائيلية للمنطقة عام ١٩٦٧ ، لم يكن مقصودا من جانب القوات المحتلة . ولكن الذى حدث ، هو أن كثافة السكان فى «مجدل شمس» وقرية «مسعدة» وأخواتهما ، جعل القوات الغازية تتردد بعض الوقت .. ثم وصلت قوات الأمم المتحدة إلى المنطقة فى إطار إجراءات تنفيذ قرار وقف إطلاق النار ، وهكذا نجت القرى الخمس .

ولكن معايشة الاحتلال ظلت معاناة يومية بالنسبة لذلك العدد غير القليل من السوريين الذين بقوا تحت الاحتلال والذى يصل إلى نحو ٢٣ ألفا كما أشرنا . ويتحمل السكان مشكلات لا حصر لها : من الضرائب ، وحتى التعليم ، ومرورا بصعوبات الحصول على تصاريخ السفر.. ناهيك عن استحالة تحقيق «لم الشمل» مع



إحدى البحيرات المتنازع عليها فى الجولان

الأهل فى الجانب السورى . فإذا كانت الأمم المتحدة والجهود الدولية قد نجحت فى تحقيق لم شمل الأسر فى مناطق أخرى للنزاعات فى أنحاء كثيرة من العالم، فإنها فشلت - كالعادة - مع إسرائيل .. وأصبح «لم الشمل» سرابا ، وأملا بعيدا يعرف أبناء الجولان أنه لن يتحقق إلا بالتحرير .

يفرض الاحتلال مناهج التعليم العبرى على أبناء الجولان . وقد تمكن عدد قليل منهم ، لا يزيد على أربعمائة تلميذ، من الحصول على تصاريح لاستكمال تعليمهم العالى فى دمشق حيث يستقبل من يستطيع الوصول منهم بتقديم كل التسهيلات والاستثناءات للالتحاق بالجامعات السورية . ولكن هؤلاء يجيئون إلى دمشق - بعد مشقة كبيرة - وهم يعرفون أن العودة إلى قراهم الأصلية قد أصبحت شبه مستحيلة .: فسرعان ما يضطرون إلى الاندماج فى الحياة داخل الوطن الأم .

أما الاصطدام بسلطات الاحتلال ، فإنه يوقع ابن المنطقة فى مشاكل غالبا ما تنتهى بوضعه فى القوائم السوداء بشكل دائم ، وهى مشاكل قد لا يكون أقلها مواجهة تهمة «مقاومة السلطات» - أى الاحتلال - وتقديمه للمحاكمة بهذه التهمة مدحت صالح نفسه واجه هذه التهمة وقدم للمحاكمة فى عام ١٩٨٥ وحكم عليه بالسجن لمدة ١٢ عاما أمضاها جميعها

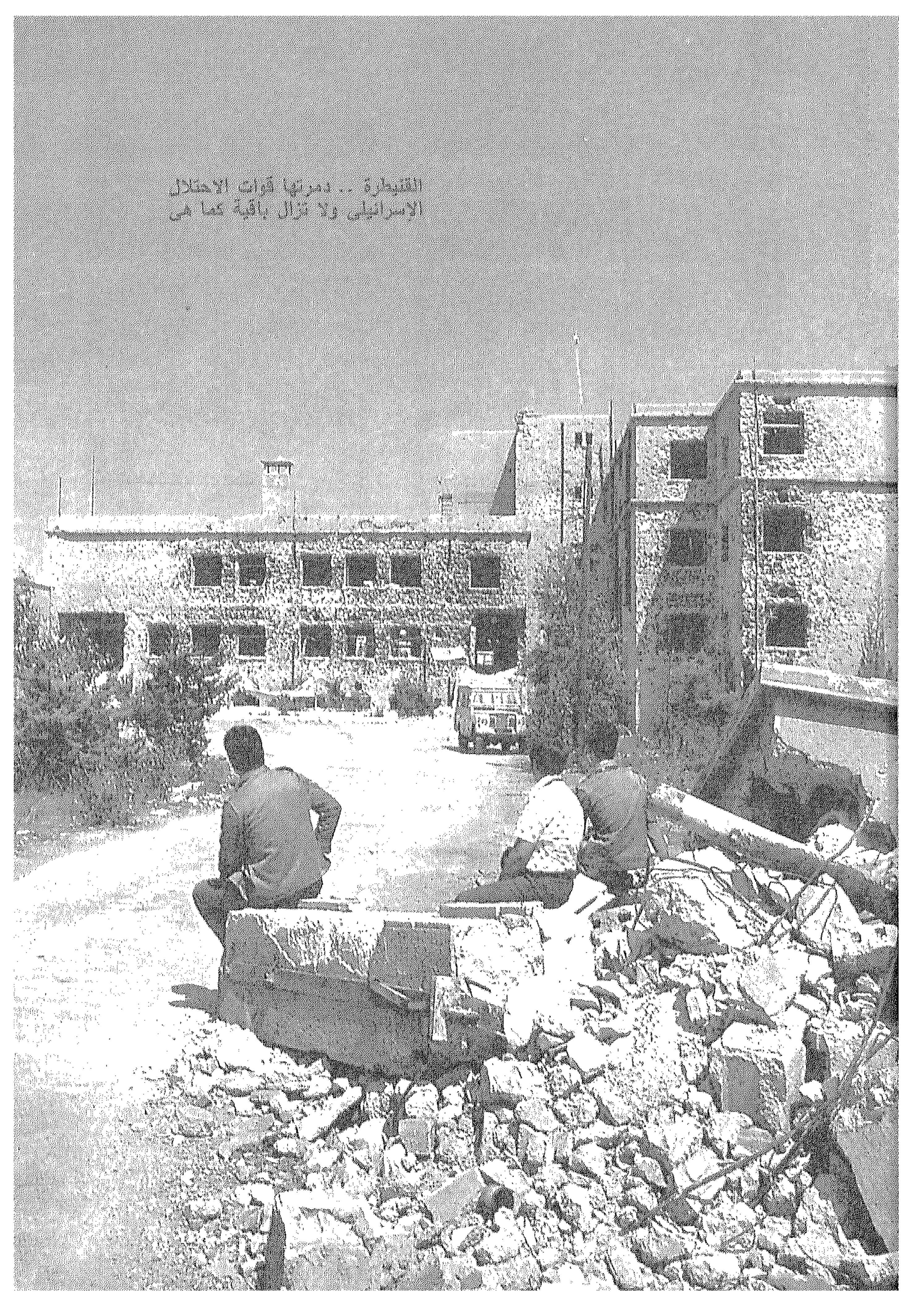
رهن الاعتقال. وعندما خرج من المعتقل فى عام ١٩٩٧ ، وجد أن الحياة خارج المعتقل لا تقل بؤسا بعد أن اعتبر مشبوها دائما . وأمام استحالة المضى فى الحياة وسط مضايقات لا تنتهى ، ورغم الأخطار الشديدة ، قرر أن يحاول الهرب .. عبر السلك المكهرب . ونجح فى تجنب حقول الألغام ، وشق طريقه ليلا وسط صخور جبل الشيخ شديدة الوعورة ولم تشعر به قوات الاحتلال إلا بعد مضى نصف ساعة على اجتيازه السور المكهرب . وعندما انطلقوا للحاق به كان الوقت قد فات ، ونجح فى الوصول إلى المنطقة التى تخضع للسلطة السورية والتى تراقبها قوات الأمم المتحدة وفقا لاتفاق فك اشتباك القوات السارى منذ عام ١٩٧٤ .

★★★

أيضا ، فإنه من الواضح أن سوء المعاملة من جانب سلطات الاحتلال لا يتوقف على البشر من أهالى الجولان، وإنما يمتد إلى الأرض والطبيعة والبيئة التى ترتكب فى حقها انتهاكات تصل إلى حدود الجرائم! ولعل أوضح مثال لذلك هو ما حملته إلينا الأنباء مؤخرا عن إقدام إسرائيل على دفن نفايات كيميائية سامة فى أرض الجولان - وبالتحديد بالقرب من بلدة مجدل شمس - وهو ما دفع أهالى الجولان إلى إصدار بيان وزع على الهيئات الدولية المعنية وعلى وسائل الإعلام، يعبرن فيه عن احتجاجهم على ما وصفوه بأنه جريمة تنافى كل المواثيق الدولية وحمل البيان إسرائيل المسئولية الكاملة عن أية مضاعفات بيئية وصحية تنجم عن دفن هذه النفايات فى أرض الجولان، وطالب جميع الهيئات والمنظمات المعنية بحقوق الإنسان، وكذلك الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، بالتدخل لوقف هذه الممارسات اللا إنسانية من جانب سلطات الاحتلال الإسرائيلى.

★★★

لا يزال الحديث متواصلا مع النائب مدحت صالح ، عن الجولان المحتلة ، فيروى لنا كيف تتابعت المحاولات الإسرائيلية فى سبيل «تهويد» المنطقة . وشملت هذه المحاولات افتعال أعمال تنقيب عن آثار عبرانية مزعومة تثبت أن اليهود سكنوها فى عهود غابرة . وقد انتهت هذه المحاولات كلها إلى الفشل ، فلم تستطع البعثات الأثرية التى تولت أعمال التنقيب على مدى سنين عديدة العثور على دليل واحد على الدعاوى اليهودية . ولم تجد سلطات الاحتلال سوى اللجوء إلى إطلاق تسميات عبرانية على أماكن عربية . وخاصة على القرى التى دمرتها وأنشأت مستوطنات فى مواقعها ، كإطلاق اسم «كتسرين» على مستوطنة



القنيطرة .. دمرتها قوات الاحتلال
الإسرائيلي ولا تزال باقية كما هي

أقيمت فى موقع قرية «قصرين» .. لعل ذلك يوحى بأن الاسم العبرانى هو الأصل فى التسمية!!.

كذلك واجهت المحاولة «القانونية» لضم الجولان ، فى مطلع الثمانينات ، فشلا مماثلا عندما رفض المجتمع الدولى الاعتراف بهذا الضم . وهكذا كان لابد وأن يدور جوهر المفاوضات التى جرت على المسار السورى - وفقا لصيغة مدريد- حول قضية أساسية هى «الانسحاب من الجولان» ولا يزال هذا هو جوهر المفاوضات بين سوريا وإسرائيل رغم توقفها منذ عهد حكومة نتانياهو .

يذكرنا هذا كله بحقائق مثبتة فى كتب التاريخ طوال قرون ، وقبل أن تنشأ إسرائيل وتتدفق هجرات اليهود على فلسطين . تؤكد الحقائق التاريخية أن من استوطن هضبة الجولان فى البدء كانت موجات من العرب البداة الذين وفدوا إليها من أطراف الجزيرة العربية واستوطنوها فيما استوطنوا من مناطق «الهلال الخصيب» فى بلاد ما بين النهرين وسورية. وكانت الموجات التى استقرت فى سورية وفلسطين ، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ، من «الأموريين» الذين استوطنوا المناطق الداخلية .. بينما استقر الكنعانيون فى المناطق الساحلية . كما أكدت الدراسات المعاصرة أن ممالك آرامية قد نشأت ووطدت أركانها فوق بقايا الكيانات الكنعانية والأمورية .

وعلى أى الحالات ، فإنه لا مجال للشك فى أن الآراميين قد استقروا منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد فى وادى «العاصى» الأعلى ، وفى وادى الليطانى، وفى سورية الجنوبية بأكملها .. فضلا عن انتشارهم فى وقت مبكر فى كل أنحاء الهلال الخصيب . وقد كانت منطقة الجولان واحدة من المناطق التى سيطر عليها الآراميون ، فى مطلع الألف الأول قبل الميلاد وأقاموا فيها ممالك مثل مملكة «آرام صوبة» التى كان مركزها فى البقاع وامتد نفوذها إلى أعالى الجولان .. وكذلك مملكة «بيت رحوب» التى سيطرت على مجرى نهر «الليطانى» الأوسط ، ومملكة «بيت معكة» التى بسطت نفوذها على منطقة بانياس والجولان والتى كانت تقع إلى الشرق منها مملكة أخرى هى «جشور» التى امتدت من اليرموك وحتى دمشق. وكل هذه الوقائع التاريخية جرت قبل قيام الإمبراطورية الآشورية (القرن الثامن قبل الميلاد) التى سيطرت على الجولان كجزء من مناطق نفوذها ، ثم



لقاء مع محافظ القنيطرة .. هلال الأطرش

الإمبراطورية الكلدانية (واستمرت حتى القرن السادس ق.م) . والمعروف أن «السامرة» قد سقطت بأيدى الآشوريين (عام ٧٢١ ق.م) فزال الكيان السياسى لإسرائيل فى شمال فلسطين ، ثم سقطت القدس بيد الملك نبوخذ نصر الكلدانى (٥٨٦ ق.م) فزال الكيان الإسرائيلى فى جنوب فلسطين .

هذه لمحة تاريخية سريعة ، ولكنها تعد كافية فى هذا السياق .

★★★

نهبط من فوق الربوة إلى عمق الوادى، حيث تخف حدة الريح وترتفع درجة الحرارة باشتداد شمس الظهيرة . وفجأة ، يصل إلى أسماعنا «صدى» صوت لرجل يصرخ عبر مكبر الصوت : «صباح الخير .. ياسمر» ! وسرعان ما نتبين أن الصوت آت من الطرف الآخر للوادى الذى أصبحنا الآن نقف فى جوفه مواجهين مباشرة للقرية المحتلة «مجدل شمس» . وندقق البصر .. فنرى ، فى غير وضوح بسبب بعد المسافة ، مجموعة قليلة العدد يقف أفرادها عند طرف القرية حيث يبدأ تدرج الوادى هبوطا إلى الموقع الذى وصلنا إليه . ويحمل أحد أفراد المجموعة، التى تبدو لأنظارنا عبر حقل الألغام والسور المكهرب ، مكبر الصوت الذى يخاطب عبره أشخاصاً وقفوا فى بطن الوادى إلى يميننا . هؤلاء يضمون «سميرة» التى يخاطبها أبوها عبر مكبر الصوت ، وزوجها ، وبعض أفراد من الأسرة لا يزيد عددهم علي أربعة . لقد جاءت «سميرة» إلى الجانب السورى لتتزوج قريبا لها ، ولم يتم هذا منذ وقت بعيد ، فهى عروس لا تزال .. وتفتقد بشدة أهلها الذين أصبحوا وكأن مسافة هائلة تفصلهم عنها .

إن الأمر يجرى ترتيبه ببساطة . يجىء شخص إلى هذا الموقع من الوادى ومعه مكبر الصوت .. ثم ينتظر فرصة مرور أحد الأشخاص بالقرب من السور فينادى عليه طالبا أن ينقل عنه إلى فلان من بيت فلان أنه سينتظره فى الساعة كذا من يوم كذا، ويتم ترتيب الموعد .

وعندما مرت «سميرة» بجوارنا عائدة إلى السيارة التى حملتها إلى «وادى الصراخ» كانت عيناها حمراوين من فرط البكاء !.

★★★

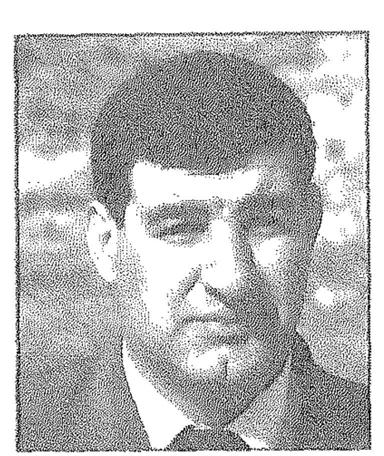
جاءت زيارتنا إلى الجولان عندما كانت «انتفاضة الأقصى» فى ذروتها ، وبينما الشهداء يسقطون كل يوم على

صراخ فى الجولان

أرض فلسطين . وكان طبيعيا أن تثير المشاهد المؤلمة فى «وادى الصراخ» ، والخلفية الدامية فى غزة والضفة الغربية تساؤلات عن أسباب «السكون» على الجبهة السورية طوال هذه السنين . ولم تتوقف التساؤلات لتكون مجرد تعبير صامت عن الحيرة ، وإنما ترجمت إلى أسئلة أثيرت فى لقاءات مع عدد من المسئولين السوريين ، كان من بينهم رئيس مجلس الشعب عبدالقادر قدورة ومحافظ القنيطرة هلال الأطرش ، وقدمت خلالها أمثلة لما يمكن للمقاومة الشعبية أن تحققه من نجاحات لعل أقربها وأشدها وضوحاً ما جرى فى الجنوب اللبنانى بالأمس القريب عندما أجبرت قوات الاحتلال الإسرائيلية على أنسحاب مهين من المنطقة

وتضمنت الأسئلة إشارات إلى أن المناطق المحتلة من الجولان إنما هى مناطق «مأهولة» ، وأن سكانها يعانون من مضايقات لا تنتهى من جانب سلطات الاحتلال ويتوقون إلى التحرير .

ولكن الإجابات لم تكن على هذه الدرجة نفسها من الوضوح . فهى لم تخرج عن إشارات إلى جهود سوريا فى دعم صمود أبنائها فى الأراضى المحتلة وهو الصمود الذى حقق الحفاظ على الهوية وتأكيد رفض الاحتلال حتى اليوم . كما اشتملت الإجابات على تلميحات إلى



مدحت صالح .. ابن قرية مجدل شمس ونائب الجولان فى مجلس الشعب السورى

الظروف الدولية التى تفرض التقيد بالاتفاقات القائمة .

★★★

في طريق العودة من «وادي الصراخ»، كان لابد من إلقاء نظرة على مدينة «القنيطرة» عاصمة الجولان التى تحررت من الاحتلال عام ١٩٧٣ ولكن القوات الإسرائيلية دمرتها تدميرا كاملاً قبل أن تكمل انسحابها منها . لا يزال مشهد المدينة المدمرة رهيباً ، ينطق بمأساة تفوق القدرة على الوصف .. مأساة التدمير المتعمد لمدينة كاملة ، ببيوتها ومدارسها ومعابدها ومستشفياتها، وتهجير أهلها الذين كان عددهم يزيد على ٥٣ ألف نسمة !.

فى ذلك الوقت الذى أقدمت فيه القوات الإسرائيلية على تدمير «القنيطرة» ، حاولت إسرائيل الادعاء بأن ما أصاب

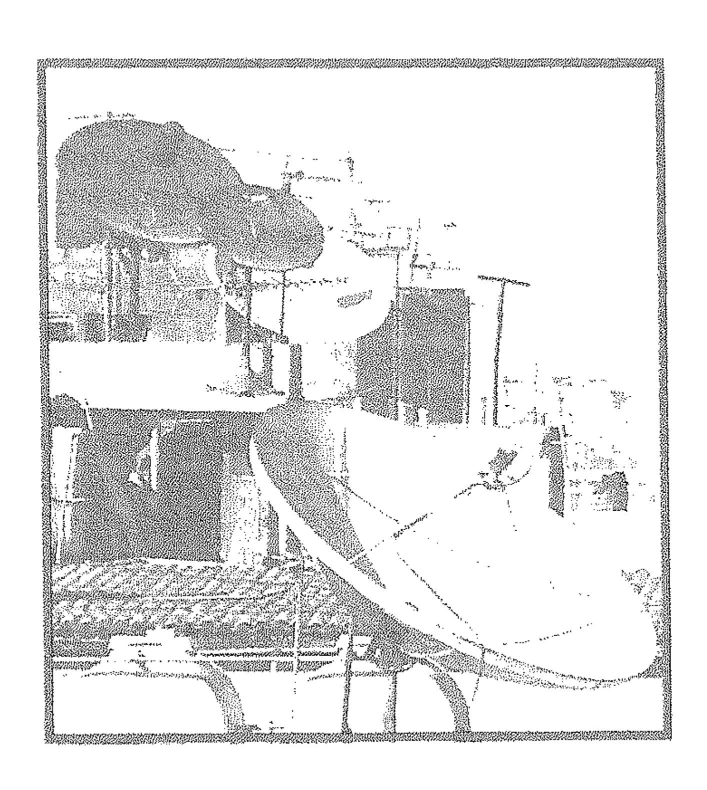

اهالى الجولان والارتباط بالارض

المدينة كان نتيجة «العمليات الحربية» . وهو ادعاء باطل ، تكذبه المشاهد التى لا تزال ماثلة والتى تدل بوضوح على آن قوات الاحتلال استخدمت «البولدوزرات» والمتفجرات فى هدم ونسف المبانى . وعندما تقدمت سوريا ، وقتئذ ، بشكوى إلى الأمم المتحدة التى أوفدت لجنة خاصة للتحقيق فى الممارسات الإسرائيلية ، جاء قرار الجمعية العامة (رقم ٣٧٤٠ بتاريخ ٧٤/١١/٢٩) ليؤكد تعمد إسرائيل تدمير المدينة والذى نص على أن الجمعية العامة للأمم المتحدة «تقرر صحة النتيجة التي خلصت إليها اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الإسرائيلية ، التى تمس حقوق الإنسان لسكان الأقاليم المحتلة والقائلة بأن إسرائيل مسئولة عن تخريب مدينة القنيطرة وتدميرها» .. ويستطرد القرار «وترى فى قيام إسرائيل عن عمد بتخريب مدينة القنيطرة وتدميرها خرقاً خطيراً لاتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب المؤرخة فى ١٢ أغسطس عام ١٩٤٩، وتدين إسرائيل على هذه الأعمال» .

ولكن إسرائيل تضرب عرض الحائط دائماً بهذه القرارات الدولية التى ينتهى بها الأمر إلى النسيان ، فى حين يدفع المجتمع الدولى بقرارات أخرى إلى أقصى حدود الفاعلية مؤكداً بذلك أن هناك «معايير مزدوجة» فى النظر إلى القرارات الدولية وتنفيذها .. وهو ما عبر منه الرئيس السورى بشار الأسد مؤخرا - وجاءت الإشارة إليه فى لقاء مع عبدالقادر قدورة - عندما قال إن هناك دولة بأكملها (العراق) يتم تدميرها من أجل تنفيذ القرارات الدولية ، بينما لدينا قرارات دولية يتم تدميرها من أجل .. عيون إسرائيل !!.

ولكن الذى لم نفهمه هو لماذا لم تقدم سوريا على إعادة بناء القنيطرة ! صحيح أن الإجابة على هذا التساؤل ، على ألسنة المسئولين السوريين ، تركزت على أن الإحجام عن إعادة بناء المدينة كانت وراءه رغبة فى الإبقاء على شاهد حى على البربرية الإسرائيلية ، ولكن هذا كان يمكن أن يتحقق إذا أعيد بناء «المدينة الشهيدة» - كما يطلقون عليها فى سوريا - والإبقاء على مناطق معينة منها كما هى لتعبر عن المعنى المقصود .. كما حدث فى حالات عديدة مماثلة فى العالم .

وتنتهى زيارتنا للقنيطرة والجولان ، وفى طريق العودة إلى دمشق يبقى فى أسماعنا صدى صوت العروس «سميرة» وهى تنادى من أعماقها مخاطبة والدتها عبر مكبر الصوت «ياأمى .. ديرى بالك على صحتك» .. ولكن صوتها يذهب سدى فى «وادى الصراخ» .



من يحكم العالم فى القرن الحادى والعشرين

بقلم : حسين أحمد أمين

كى نجيب عن هذا التساؤل لابدّ من البدء ببيان السّمات الرئيسية للقرن الذى دلفنا إليه، والذى سيكون نظام العولمة أبرز ملامحه . فإن كان البعض يتحدث عن شيوع أنماط من الهيمنة، كهيمنة الولايات المتحدة على مقدّرات العالم، (أو احتمال هيمنة الدولة الإسرائيلية على مقدرات منطقة الشرق الأوسط) ، فستكون الهيمنة هنا فى إطار العولمة لا خارجها، مع كل ما يعنيه ذلك من التزام الكافة بقواعد اللعبة، واحتمال أن تطرأ التغيرات على موازين القوى نتيجة تنامى أو ضعف قدرة هذه الدولة أو تلك، أو هذه المجموعة أو تلك، على منافسة الآخرين.

فإن كان بوسعنا أن نصف القائلين بأن العولمة – كرهنا أو أحببنا – تطور لازم هو أشبه مايكون بالظواهر الطبيعية التى لاسبيل إلى الوقوف فى وجهها، ونتيجة حتمية للتطور التكنولوجى والاقتصادى، بأنهم فى أغلب الحالات من الذين سيفيدون منها، فلن يكون بوسعنا أن ننكر أن تلك «الحتمية» قاد إليها دخولنا عصر ثورة المعلومات ، وتكنولوجيا الاتصالات، وما تمخض عن الانهيارات المتتالية للنظم الشمولية، بما فى ذلك النظم الشيوعية والاشتراكية، وعن سيادة المذهب الليبرالى، من تحرير للتجارة الداخلية والدولية، ولتنقّل رءوس الأموال، ومن استنكار لتدخل الدولة، ودعوة إلى خصخصة المشروعات والشركات الحكومية.

العالم اضحى سوقا واحدة بفضل الشركات دولية النشاط وثورة الاتصالات

اقتصاد شمولى

ويضيف المدافعون عن العولمة قولهم إن العالم قد أضحى – أو هو فى سبيله إلى أن يصبح – سوقا واحدة، بفضل الدور الذى تلعبه الشركات دولية النشاط، والأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت، ومختلف أشكال ثورة الاتصالات، وتضخم علاقات التشابك التجارى والنقدى، والتزام أكبر بمبدأ تقسيم العمل الدولى .. وإذ قد غدا العالم الآن أشبه بقرية كونية واحدة متجانسة ، فلا مفّر من أن ينصهر عدد هائل من مختلف الاقتصادات الوطنية والإقليمية فى اقتصاد عالمى شمولىّ موحّد، يشهد نموّا مطردا فى التجارة العالمية يُفيد منه الجميع، ويؤدّى بالضرورة إلى إضعاف السلطة الاقتصادية للدولة، بحيث يغدو من المستحيل العودة إلى عصر ماقبل العولمة. عندئذ يتحقق مايسمى بالدارونية الاجتماعية فى مجال الاقتصاد العالمى، فلا يكتب البقاء إلا للأصلح، ولا يكون ثمة مكان فيه للخاملين أو العاجزين عن المدافعة، ولاينجو من الطوفان غير أولئك القادرين على مواجهة عواصف المنافسة الهوجاء.

سيكون هذا وغيره من ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى غالبية دول العالم خلال القرن الحادى والعشرين، فبعد قرن أو قرنين من الدعوة إلى الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية، وإلى مبادىء العدالة الاجتماعية، وإلى عُمّال العالم أن يتّحدوا ، تبدو الغلبة الآن وكأنما ستكون من نصيب تيار يعصف عصفا بكل

المكاسب التى حققتها الطبقتان المتوسطة والعاملة بعد صراع مرير مع المستغلين، ومن نصيب دعوة كبار رجال الأعمال والرأسماليين إلى الاتحاد فيما بينهم فى مواجهة غيرهم .. وهى غلبة تستند فى تحققها إلى مبادىء الليبرالية الحديثة، وستتنامى بتنامى السرعة التى تتحرّك بها عجلات العولمة.

فى القرن الحادى والعشرين سيكون خمس السكان العاملين فحسب كافيا للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولى، ولن تكون ثمة حاجة إلى أيد عاملة تزيد عن هذا القدر الكافى لإنتاج جميع السلع .. سيكون الخمس وحدهم القادرين على العثور على أعمال تمكنهم أجورها من سد احتياجاتهم أما الباقون، وهم ثمانون فى المائة يشكلون الطبقة العريضة الدنيا من المجتمع الجديد.. فسيكونون فائضين عن الحاجة، يواجهون المصاعب الجمة والمشكلات المتفاقمة، وما من سبيل أمامهم إلى العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات وأعمال البرّ وسيزداد فى ظل هذا الوضع تركز الثروة، واتساع الفجوة بين أفراد البشر، وبين الدول، وستستأثر داخل كل دولة قلةٌ من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطنى والثروة القومية، فى حين تعيش غالبية السكان مقهورة مهمشة .. وكلها أمور باتت عند منظرى العولمة والمدافعين عنها مطلوبة ولاغنى عنها فى حلبة التنافس الضّارى.

فى ظل العولمة يتزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة لإجراء الإصلاحات الضرورية

عندئذ لن يكون ثمة مفّر من اختفاء بعض المفاهيم والمصطلحات الشائعة اليوم، مثل التحرّر، والتقدم، وحوار الشمال والجنوب، والتنمية الاقتصادية، والتوزيع العادل للدخل والثروة القومية، ومسئولية العالم المتقدم عن المساهمة فى إيجاد الحلول لمشكلات الدول النامية .. ليس هذا فحسب، بل وسيتفاقم التعارض بين الديمقراطية السياسية ذاتها وآليات السوق، فالديمقراطية التى لايزال الكثيرون يحلمون بها ويتحدثون عن ضرورتها، لن يتعدى دورها حماية مصالح الأثرياء من أصحاب الشركات دولية النشاط والمتفوقين فى المجال الاقتصادى بل وستلحق الأضرار الجسيمة بمصالح العمال وأفراد الطبقة المتوسطة، حين ترتبط بحرية هذه

الشركات ورجال الأعمال والرأسماليين فى تخفيض الأجور، وزيادة ساعات العمل، ودعوتهم الحكومات إلى خفض مساعداتها ومنحها وخدماتها الاجتماعية، بحجة «تهيئة الشعوب لمواجهة سوق المنافسة الدولية».

تقلص دور الحكومات

سيتضح للأعين فى ظل العولمة تزايد عجز الحكومات عن اتخاذ زمام المبادرة من أجل إجراء الإصلاحات الضرورية، كإصلاح النظام الضريبى، وتطوير نظم التأمينات الاجتماعية، ورفع مستوى نظام التعليم والتوسّع فيه، والدفاع عن الثقافة القومية ضدّ حضارة «التنميط» التى تسعى العولمة إلى فرضها، والمحافظة على البيئة فى عالم يهدده عادم السيارات المتكاثرة بكارثة محققة، ويتسبب فيه ارتفاع الحرارة الناجم عن قلة اكتراث الصناعيين الجشعين بالبيئة فى عواصف وفيضانات بات ينجم عنها الآن مائة وعشرون كارثة طبيعية فى العام الواحد، وفى ارتفاع فى مستوى البحر يهدّد وجود مدن مثل بومباى وبانكوك واستنبول ونيويورك وشنغهاى وهونج كونج، ووجود دلتا النيل، ويضحى فيه بالمزيد فالمزيد من الأراضى الزراعية الخصبة فى سبيل إقامة المزيد من المصانع، وشق الطرق، وتشييد أحياء سكنية جديدة.

ستفرض العولمة والشركات دولية النشاط على حكومات الدول الإحجام عن التدخل فى النشاط الاقتصادى الدائر فيها، وقصر دورها على حراسة المصالح المالية وحماية النظام والأمن، أما واجب مراعاة البعد الاجتماعى والاهتمام بسد احتياجات الطبقات الدنيا، فهو فى مفهوم المستفيدين من العولمة عبء لايطاق .. لقد كان حرص الحكومات فى الماضى على تلبية تلك الاحتياجات مجرد تنازل اقتضته ظروف الحرب الباردة، والخوف من انتشار الشيوعية، أما وقد انتهت تلك الحرب بانهيار النظم الشيوعية، وساد التشكك فى فاعلية المبادىء الاشتراكية، وانتهى الحوار بين الشمال والجنوب، وشلّت الديون الخارجية حرية الدول النامية فى الحركة، وتضاءلت مساعدات التنمية التى كانت تقدمها الدول الغنية إلى

الدول الفقيرة، فلم يعد ثمة فى رأيهم مبرر لمراعاة الأبعاد الاجتماعية، ولا لاشتراك الناس فى رسم السياسات الاقتصادية الجديدة أو حتى موافقتهم عليها .

فإن حاولت الحكومات المقاومة ورفض الاستجابة لمطالب العولمة ومقتضياتها، وجدت نفسها عرضة للابتزاز والضغوط التى تمارسها المؤسسات المالية الدولية، وهددت برفض طلبها الحصول على قروض من صندوق النقد الدولى أو البنك العالمى أو غيرهما، وبسحب رءوس الأموال والاستثمارات الأجنبية من بلادها علما بأن مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى تحتفظ بالكلمة النافذة في مجلس إدارة صندوق النقد وفى مجلس محافظيه، وترى فى هذا الصندوق الوسيلة المثلى لتنفيذ مخططاتها، وفرض إرادتها على سائر دول العالم، فما من حالة قرر فيها المهيمنون على سياسة الصندوق تقديم القروض، إلا ربطوها بشرط أن تقوم الدولة المقترضة بإطلاق سعر صرف عملتها، والانفتاح على سوق المال العالمية، وتخفيض الضرائب على الثروة والاستثمارات، وخصخصة جميع المشروعات العامة والخدمات المالية، والحدّ من الانفاق الحكومى على الرعاية الاجتماعية، ومنح الشركات متعددة الجنسية تنازلات سخية، وتوفير مشروعات البنية التحتية مجانا، وإلغاء التشريعات التى تحفظ بعض مكاسب الطبقة العاملة والطبقة الوسطى، مثل قوانين الحد الأدنى للأجور، ومشروعات الضمان الاجتماعى والصحى، وإعانات البطالة، وتحويل الكثير من الخدمات العامة التى كانت الحكومة تضطلع بها إلى القطاع الخاص الذى لايعبأ بغير تحقيق الربح، مع إضفاء الطابع التجارى على تلك الخدمات.

أضحى المطلوب إخضاع كل شىء لقانون العرض والطلب ، حتى فى مجالات مثل الملاحة الجوية، والمصارف، وشركات التأمين، وصناعة البناء، والقوة العاملة، وتطوير برامج الكمبيوتر، والاتصالات ذات التقنية العالية، لم تعد لا الأيديولوجيات ولا العقائد ولا المنظمات الدولية، ولاحتى الانشغال بقضايا حيوية مثل تلوّث البيئة ، بقادرة على أن تربط بين أمم العالم بعضها ببعض كما

تربطها اليوم، ستربطها فى القرن القادم، أموال المصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار المالى بما تستخدمه من شبكات الربط الإليكترونية .. وقد نجم عن تحرير الأسواق المالية والنقدية إن لم تعد الشئون النقدية خاضعة للسلطة المحلية، فعمليات دخول وخروج الأموال بالمليارات تتم بسرعة البرق على شاشات الكمبيوتر، بحيث لم تعد السلطة النقدية المحلية قادرة على حماية أسعار الصرف وأسعار الفائدة وأسعار الأوراق المالية فى البورصات، وبالتالى فقد تحولت دول العالم إلى رهينة فى قبضة حفنة من كبار المضاربين المتاجرين بالعملات والأوراق المالية، القادرين على التحكم فى رخاء أو فقر دول برمّتها، وعلى تخفيض قيمة العملة فى هذا البلد أو ذاك، ورفع أو خفض أسعار الأوراق المالية فى هذه البورصة أو تلك.

***

هى إذن فئة صغيرة من الرابحين المنعمين ، وأغلبية ساحقة من الخاسرين المطحونين، فى قرن شعاره «لينقذ نفسه من يستطيع ذلك» .. عشرون فى المائة من دول العالم تستحوذ على ٨٤٫٧٪ من الناتج الإجمالى لجميع الدول وعلى ٨٤٫٢٪ من التجارة الدولية، وتتضاعف بسرعة رهيبة سعة الهوّة التى تفصل بينها وبين دول من المفروض أن تتلقى منها مساعدات من أجل التنمية .. وقد أضحت السياسة برمتها، وأنظمة الحكم بأسرها، مسرحا يضم حشدا من رجال مسلوبى الإرادة، تتآكل بمرور الأيام سلطاتهم، وكذا قدرتهم على إحداث التغيرات التى تنشدها وتتوقعها شعوبهم، وإذ تدرك هذه الشعوب تدريجيا فقدان الدولة الديمقراطية شرعيتها، إذا باستنكارها وتمرّدها ينصب بادىء ذى بدء علي الحكومات وعلى السياسيين، غير أن هؤلاء السياسيين لايصارحونهم بحقيقة الأوضاع، ويشرعون فى إلقاء المسئولية عن المحنة على عاتق المنافسة الأجنبية، أو على تزايد عدد المهاجرين إلى بلادهم من الأقطار الفقيرة، فإذا بمشاعر كراهية الأجانب الذين يزاحمونهم على العمل ويعيشون على حسابهم تنمو فى البلدان الصناعية المتقدمة، وكذا الدعوة إلى إغلاق الحدود فى وجه الراغبين فى القدوم هربا من البؤس. وبذا يصبح ردّ فعل المعزولين متجسدا فى

شعار القرن الحادى والعشرين «لينقذ نفسه من يستطيع ذلك»

عزل الآخرين، ثم فى ارتفاع معدّل الجريمة وأعمال العنف واللجوء إلى المخدرات .

سيستمر دعاة العولمة والمستفيدون منها فى دعوتهم الشعوب إلى التضحية التى يسمونها «وسيلة التكيّف مع العالم الجديد» وفى قولهم إن «قدرا من اللا مساواة الاجتماعية قد أضحى أمرا لامناص منه» .. غير أنهم فى الوقت نفسه سيسعون إلى تهدئة خواطر المحبطين عن طريقين توفير التسلية المخدّرة بواسطة المؤسسات الإعلامية العملاقة مثل «C.N.N» المجهزة على أفضل نحو للنهوض بأعباء تخدير الشعوب، وتوفير الغذاء الكافى للوقوف فى وجه التمرد، عن طريق المؤسسات المشرفة على الأعمال الخيرية، وحثّ الأفراد على مساعدة بعضهم البعض، والتبرع بمبالغ صغيرة كفيلة بحفظ كرامة ملايين الكادحين .

حتمية قيام سلطة عالمية واحدة

سيذهب القائلون بحتمية قيام نظام عالمى جديد تنهض بأعبائه سلطة عالمية واحدة، إلى أن عالم اليوم قد أصبح صغيرا إلى درجة لم يعهدها من قبل، وأنه بات يواجه ظروفا جديدة تجعل من التغيير أمرا ضروريا، يقتضى - من بين مايقتضيه - تنازل الدول عن سيادتها الإقليمية (أو عن شطر كبير منها)، وتخلى الحكومات عن معظم مهامها التقليدية، وهجر الشعوب لمفاهيمها العتيقة البالية عن القومية والوطنية!

اكتسب الانسان خلال القرن الماضي سيطرة على قوي الطبيعة فاقت سيطرة آلهة القدماء

لقد اكتسب الإنسان خلال القرن الماضى سيطرة على قوى الطبيعة تفوق تلك التي كان ينسبها القدماء إلى بعض آلهتهم، فصاعقة جوبيتر قد فاقتها القنبلة النووية، وهرمس رسول الآلهة بكعبى قدميه المجنّحين كان بطيئا إذا قورن باللاسلكى، وهايجيا ربّة الصحة لم يكن بمقدورها تخليص البلاد من أمراض كالملاريا، وهو مايستطيعه الطب الحديث فى بضعة أشهر، ولم ينسب أحد إلى سيريس ربّة الزراعة القدرة على تحويل صحراء قاحلة إلى أرض خصبة تنتج محصولات وفيرة من القمح على نحو ما هو باستطاعتنا اليوم.

هذه القدرات الجديدة للإنسان تعمل على إحداث تغييرات

عظيمة سريعة فى المجتمع الإنسانى، فالاتصال بالإنترنت والطائرة جعلا الأرض كلها، من حيث الاتصال والنقل، أصغر مما كانت عليه انجلترا فى مطلع القرن التاسع عشر، والعلم الآن هو من الصغر بحيث ينتج عن الحدث الجلل في أية دولة، ردُّ فعل قوى فورى فى كل عاصمة فإن نشبت حربٌ فالحرب عالمية، وإن حلّت أزمة اقتصادية خطيرة فى بلد ما أضحت الأزمة عالمية، والظروف الطبيعية للدولة العالمية التي اعتاد الفلاسفة الكتابة عنها فى الماضى باعتبارها مثلا أعلى قد يمكن تحقيقه فى المستقبل البعيد جدا، قد فرضت الآن علينا فرضا وعلى نحو مفاجىء، غير أن هذه الدولة - حتى الآن - تسودها الفوضى وعدم التنظيم السياسى والحروب الأهلية.

وتضاؤل العالم على هذا النحو، وغيره من التغيرات التى أحدثها تقدم فى العلم والتكنولوجيا لم يسبق له مثيل، قد حطم البنيان السياسى الذي عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون وقد غدا من المستحيل أن تعاد إقامة هذا البنيان على النمط القديم، فقد حاولنا ذلك عقب الحرب العالمية الأولى ثم عقب الحرب العالمية الثانية، فتمايل البناء الأول ثم انهار، ثم هاهو البناء الثانى يتهدده الانهيار مالم نبادر بإدخال تعديلات جوهرية عليه. فالمجتمع الإنسانى بحالته الراهنة من التحول السريع هو أشبه بالحشرة فى دور التكوين، فقد تتحوّل الدودة إلى فراشة، أو قد تموت، غير أنه لن يمكنها أن تعود دودة من جديد. والعالم الذى عليه اليوم أن يجابه مشاكل الطاقة النووية، والقوى البيولوجية الحديثة التي لاتقل عن الطاقة النووية، قوة، ومشاكل الأمن والغذاء العالمى، والانفجار السكانى، والسيادة القومية، عالم شديد الاختلاف عن عالم الأمس، والبديل الوحيد لانهيار مدينتنا هو إعادة تنظيم الأوضاع إعادة شاملة حتى تتفق مع نظام عالمى جديد يوجّه القوى الجديدة صوب غايات نافعة، ويراعى الصالح المشترك (وهو استمرار بقاء المدنية) على حساب المصالح القومية ضيّقة الأفق، ويحوّل العلم الحديث تدريجيا من إنتاج الأسلحة الحربية إلى خلق الثروة .

باتت الآن إدارة العالم كله باعتباره وحدة واحدة أيسر من

إدارة دولة كبيرة واحدة منذ قرن مضى، بل ومن إدارة مدينة واحدة فى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، فالصعوبة إذن ليست صعوبة تنظيمية، وإنما الصعوبة هى فى تهيئة الشعوب للتخلّى عن عادات ومفاهيم راسخة لديها،. كالتعلّق بالسيادة الوطنية، والمشاعر القومية!.

أخطار التمرّد

مثل هذه الحجج والمبررات للعولمة ولقيام سلطة عالمية واحدة قد تبدو سليمة لو أننا أغفلنا التدقيق فى هوية القائمين على العولمة، وحقيقة نوايا المنادين بسلطة عالمية واحدة، وطبيعة المصير الذى يهدد أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم فى ظل هذه أو تلك، ثم إن ثمة إحساسا قد ينمو بمضى الوقت بأن العولمة ليست من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية كما يدعى البعض، وإنما هى نتيجة لسياسات معينة خلقتها (بوعى وإرادة منها) مؤسسات وشركات وحكومات وبرلمانات اشتركت فى إصدار القوانين الآخذة بمبادىء الليبرالية الجديدة، وألغت الحدود والحواجز أمام حركة تنقّل السلع ورءوس الأموال، وألغت مكاسب العمال والطبقة المتوسطة، ووقعت على اتفاقية منظمة التجارة العالمية (الجات) التى ستوقّع العقوبات على الحكومات التى ترفض الإذعان لسياسة حرية التجارة .. ففى كلّ هذا لم تكن ثمة حتميات ليس بالإمكان تجنّبها، وإنما هى إرادات سياسية واعية بما تصنع، وتعبّر عن مصالح الشركات دولية النشاط.

وهناك تلك الملايين من المواطنين فى أوربا وغيرها من المنادين بالتصدى لجنون السوق العالمية، وبضرورة مراعاة إنسانية الإنسان، وحماية البيئة، والأخذ بمبادىء العدالة الإجتماعية، وهو ماينعكس فى نشاط أحزاب الخضر، والاتحادات النقابية، واتحادات الشباب والطلبة، وحركات اللاهوت السياسى، إلى آخره .. وهناك الاضرابات العمالية واسعة النطاق التى شهدتها فى الآونة الأخيرة فرنسا وبلجيكا وأسبانيا وبريطانيا وإيطاليا وغيرها، ضدّ الخصخصة والتّهميش ، والمسيرات الشعبية فى الولايات المتحدة وسائر الدول ضدّ سطوة البنك العالمى وصندوق النقد الدولى، وضدّ

قيام مجتمع العشرين فى المائة، وكل مايهدد مقوّمات الدولة المتماسكة، والاستقرار الديمقراطى.

وثمة ما أدى إليه انفتاح العالم بعضه على بعض، وما خلقته وسائل الإعلام، خاصة البرامج التليفزيونية، من إثارة الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبدا إشباعها أو تحقيقها، اللهم لا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها، هذه الزيادة فى التطلعات وتنامى الرغبات، دون القدرة على إشباعها، يشكلان للمجتمع الصناعى المتقدم تهديدا على أمنه رآه يقتضى بناء أسوار عالية حوله حتى لايتسلل إليه الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على الأمن.

★★★

خطر التمرد سيبقى ماثلا أمام أعين القائمين على العولمة

سيبقى خطر التمرد إذن ماثلا أمام أعين القائمين على العولمة وعلى السلطة العالمية الواحدة التى قد يقدر لها أن تحكم العالم، خاصة أنه لم يحدث فى التاريخ قط أن بات عدد هائل من سكان العالم يعرف ويسمع عما يجرى فى سائر أنحائه معرفته وسماعه اليوم، بحيث يمكن القول بأن البشرية قد أضحت لأول مرة وحدة واحدة، وبأن المطحونين المهمّشين فى مختلف أرجاء الدنيا قد زادت فرصتهم عن زمن كارل ماركس (الذى دعا عمال العالم أن يتحدوا)، لأن تتشكل منهم جبهة تتصدّى للمستغلين .. وسيسعى أنصار العولمة إلى الحيلولة دون تحقيق هذا التضامن والتضافر، متمسكين بسياسة، فرّق تسُدّ، وساعين إلى خلق الأسباب والدواعى التى تدفع الشعوب المهمشة إلى التحارب فيما بينها، فى الوقت الذى ينشغلون هم فيه بتنسيق مصالحهم وسياساتهم الاقتصادية ... سيكون هدفهم .. أو هو قد صار بالفعل – أن تبقى الشعوب (على حدّ تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين فى معرض حديثه عن العرب) «كالصراصير السكارى داخل زجاجة مغلقة!». □



التحولات
في الشخصية المصرية

هل تغيرت طبائع المصريين؟!

بقلم : د. أحمد أبوزيد

من العبارات الجميلة العميقة التى ينبغى علينا أن نتذكرها دائما ونسترشد بها فى نظرتنا إلى الحياة، وفى تقويمنا لأنفسنا والحكم على الآخرين، عبارة سجلها المرحوم الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سندباد مصرى) ومؤداها أن المصريين بناة حضارة وليسوا صناع حرب. فهذه العبارة القصيرة البليغة تكشف من ناحية عن طبيعة الحضارة المصرية العريقة الراسخة التى امتدت لعدة آلاف من السنين..

هـل تغيـرت طبـائع المصريين؟!

وتجلت عظمتها في خمسة مجالات رئيسية مختلفة هي المجال الديني حيث وضعت مصر البذور الأولي لفكرة التوحيد والمجال الفنى المتمثل بقوة فى فن العمارة وفن النحت وفن التصوير وهى فنون تحدت تقلبات الزمن ولا تزال قائمة تشهد على مدى ما بلغه الإنسان المصرى من رقى فى الذوق وقدرة على تذوق الجمال والتعبير عنه فى صور وأشكال تجمع بين الجمال والجلال؛ ومجال الأدب بفروعه المختلفة من أناشيد وترانيم دينية ومسرحيات تعكس واقع المجتمع المصرى والمثل العليا والقيم الأخلاقية التى تحكم سلوك الناس، كما يتبدى ذلك واضحا أيضا فى الحكم والأمثال التى يمتلىء بها هذا الأدب والتى سجلها لنا سليم حسن عالم الآثار المصرى العظيم فى كتابه الفذ، عن الأدب المصرى القديم؛ والمجال الاقتصادى الذى يرتكز على (اختراع) الزراعة الكثيفة المستقرة فى وادى النيل بكل ما يرتبط بها من معرفة باختلاف الشهور وقياس الزمن ومشروعات للرى. ثم المجال السياسى باعتبار مصر مثالا قديما - وربما يكون أقدم مثال للحكومة المركزية التى تقوم على تنظيم إدارى دقيق يؤكد سلطة (الدولة) على المناطق البعيدة المتطرفة من أرض مصر وقدرة هذه الدولة على صد الأعداء بل وعلى الامتداد حين يقتضى الأمر خارج حدودها لتأمين حياتها وأمنها الداخلى .

خصائص المجتمع المصرى

إلا أن عبارة حسين فوزى تكشف لنا فى الوقت ذاته أيضا عن أهم خصائص المجتمع المصرى والملامح الأساسية فى تكوين الإنسان المصرى نفسه وطبائعه التى تميل إلى الاستقرار والارتباط بالأرض - أرض الوطن وأرض الخير والثراء، وما يتطلبه ذلك الاستقرار من هدوء النفس والصبر على المتاعب والعمل على تذليلها والعمل الجاد الشاق المثابر فى فلاحة الأرض والنحت فى الصخر والحجر وتشييد المعابد الضخمة والتأمل فى أسرار الكون والصمود أمام تقلبات الزمن والتصدى للأحداث والتغيرات دون أن يؤدى ذلك الصمود والاستقرار والهدوء إلى الجمود، فقد يعتبر البعض الفن المصرى القديم وبالذات فن النحت فنا أقرب إلى الجمود والعجز عن التعبير عن الحركة، وأن يعكس بذلك جمود الإنسان المصرى وعجزه عن قبول التغيير والتعديل والتطوير، إلا أن ما يعتبر (جمودا) فى الفن هو ذاته رمز القوة والصلابة والتحدى والشموخ والقدرة على الصمود والعزم على البقاء والاستمرار فى الوجود، وهذا نفسه ينعكس حتى فى سلوكيات الإنسان المصرى المعاصر وفى كثير من عاداته التى لا يمكن فهمها إلا



فلاح وزوجته يحصدان الزرع تعلوهما
ابتسامة الرضا وهدوء النفس

هل تغيرت طبائع المصريين؟!

إذا أخذنا البعد التاريخي في الاعتبار.

وتمتلىء الكتابات عن مصر بالحديث عن وداعة الإنسان المصرى وقدرته الفائقة على الصبر والتسامح ونسيان الإساءة والصفح عن الآخرين سواء على المستوى الفردى أو مستوى الجماعة أو مستوى الدولة، وهى أمور كثيرا ما تؤخذ على غير حقيقتها إلى أن يثبت الزمن وتدافع الأحداث خطأ ذلك الفهم الخاطىء وقد أصبحت هذه الملامح والصفات - بإيجابياتها وسلبياتها - بمثابة المقومات الأساسية للشخصية المصرية - أيا ما يكون المقصود بهذا التعبير الذى تختلف الآراء حول تحديد أبعاده مثلما تختلف حول جدوى التمسك به وهى مسألة ليس هنا مجال الخوض فيها.

رصد سلوكيات المصريين

ولكن الظاهر أن بعض التغيرات الواضحة ن خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضى تطرأ على سلوكيات المصريين أو على الأقل قطاع عريض منهم وتفرض نفسها على المجتمع المصرى بوجه عام وتثير القلق لدى المسئولين والمهمومين والمهتمين بحاضر مصر ومستقبلها ولذا يرصدون عن قرب سير المجتمع وما يطرأ على العلاقات بين الناس من تحولات. وليس من شك فى أن المجتمعات الإنسانية قابلة للتغير طيلة الوقت سواء من حيث اكتساب أنماط سلوكية جديدة وعادات لم تكن معروفة من قبل، أو استعارة أفكار وآراء وتوجهات ومواقف من الحياة تنتمى فى الأصل إلى مجتمعات أخرى غريبة؛ وأن هذه التغيرات التى تطرأ على حياة المجتمعات الإنسانية يتوقف حجمها وعمقها إلى حد كبير على مدى قوة التأثيرات الخارجية التى تتعرض لها هذه المجتمعات كما تتوقف قوة التأثيرات ذاتها على تنوع مصادر التأثير وفاعلية أدوات التأثير ومدى انتشارها بين الناس وتقبل الناس لها، وقد ازدادت فاعلية التأثير فى هذين العقدين السابقين نتيجة لازدياد واطراد التقدم العلمى فى مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال وانتشارها بين غالبية السكان فى المجتمع المصرى بل وأكاد أقول غالبية السكان فى العالم أجمع بما فى ذلك المناطق النائية المعزولة مثل سكان الصحارى والغابات، وهذا هو ما حدث ويحدث للمجتمع المصرى التى يتعرض لموجات مكثفة من التأثيرات الثقافية - بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة - نتيجة لموقعه الجغرافى الفريد واتصالاته المتشابكة والمعقدة مع مختلف المجتمعات التى تحيط به والتى ترتبط تقليديا وتاريخيا به ارتباط وثيقا ثم نتيجة لتوفر وتدفق المعلومات والبيانات عن المجتمعات الأخرى وشيوع هذه المعلومات والبيانات بما فيها سلوكيات، الشعوب الأخرى،

وأخلاقياتها بفضل وسائل الإعلام والاتصال كالصحافة اليومية من ناحية والتليفزيون من الناحية الأخرى إلى جانب وسائل الإعلام المسموعة وهي كلها تنقل المعلومات بسرعة فائقة وتنشرها في نطاق واسع للغاية وتصل إلى مختلف قطاعات المجتمع وشرائحه وتؤثر فيها ايجابا أو سلبا حسب طبيعة ونوعية هذه المعلومات من ناحية ودرجة التقدم الفكرى أو الثقافي لتلك القطاعات أو الشرائح من الناحية الأخرى، وعلى العموم فإن مثل هذا الانتشار السريع والفعال والواسع هو الذى يفرض علينا جميعا مقولة أن العالم أصبح قرية كونية كبيرة. وهذه عبارة أصبحت ممجوجة من كثرة الاستعمال والتداول وإن كانت صادقة ودقيقة .

وكثير من تلك التغيرات الطارئة على حياة المجتمع المصرى يثير القلق والمخاوف ليس فقط لتعارضها مع أساليب الحياة والفكر المألوفة في مصر ولكنها تتعارض أيضا مع صحة وسلامة المجتمع وتهدد أمنه وحياته للخطر والفوضى الشاملة والارتباك والتمزق خاصة وأن بعض هذه التغيرات كادت تصبح ظاهرة عامة يعترف المجتمع بوجودها وإن كان يستنكر هذا الوجود ويقف منه موقف المناوأة والرفض

انتشار العنف بأشكاله

وربما كان انتشار العنف بأشكاله وألوانه المختلفة هو أهم ما يثير القلق فى مصر ويدعو إلى التساؤل عما إذا كانت أسس وملامح تكوين الشخصية الاجتماعية للإنسان المصرى أصابها الخلل، وأن الإنسان المصرى الذى ينتمى لمجتمع يؤلف دولة منذ أقدم العصور تسودها قوانين وضعية على درجة كبيرة من الاحكام وتتوخى تحقيق العدالة والذى عُرف خلال كل تاريخه بتقبله لهذه القوانين ومراعاتها واحترامها بدأ يتمرد على هذه القوانين ، ويخرج عليها بانحرافه أو حتى انحيازه إلى أسلوب التعامل بالعنف وبدأ يأخذ القانون «بين يديه» حسب التعبير الشائع فى بعض اللغات الأجنبية ويحل مشاكله الخاصة بالعنف بل ويبدأ الآخرين بالعنف لسبب ظاهر وأحيانا لغير سبب ظاهر، وقد يكون فى ذلك تعبير عن انعدم الثقة فى فاعلية الاجراءات القانونية المطلولة ولكنه قد يكون تعبيرا عن الاستهانة بالقانون وأجهزة القضاء بل ونظام الحكم من أساسه، وهذه هى الخطورة الحقيقية ، فالعنف والجريمة والانحراف كلها ظواهر اجتماعية موجودة فى كل المجتمعات الإنسانية، أما أن يكون الالتجاء إليها وسيلة للتعبير عن عدم الثقة وعدم الاحترام وعن الشك فى فاعلية الأجهزة الرسمية فإنه يدل على وجود خلل خطير بين الحاكم والمحكوم .

وليس من شك فى أن كثافة وغزارة الإعلام والإلحاح على إبراز حوادث العنف من شأنها أن تجعل هذه الحوادث تبدو كما لو كانت هى السلوك النمطى السائد أو حتى المألوف فى الحياة مما قد يساعد بدوره على اعتناق هذا النمط السلوكى والتشجيع على محاكاته والتمسك به،

هل تغيرت طبائع المصريين؟!

فالإلحاح على إبراز هذه الحوادث فى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية والحديث بالتفصيل عن أحداث القتل والنهب والتهريب والصدام بين الأهالى وسلطات وأجهزة الأمن وحوادث الثأر والاغتصاب وقتل الوالدين أو أحد الزوجين للآخر والتمثيل بجثته وما اصطلح على تسميته خطأ بأحداث الفتنة الطائفية لكل صدام بين شخصين أو فئتين تنتميان إلى عقيدتين مختلفتين والمبالغة الشديدة فى تصوير هذه الأحداث واعطائها حجما أكبر من حجمها الحقيقى والمغالاة فى تقديم التفسيرات والتأويلات والتحليلات تحت ستار مقولة الرأى والرأى المخالف، من شأنها كلها أن تجعل من هذه الأحداث موضوعا للحديث اليومى وجزءا من تفكير الإنسان المصرى العادى الذى لن يلبث أن يأخذ هذه السلوكيات على أنها الأمر الواقع الذى ينبغى التسليم به، وبين قبول هذه الأوضاع والتسليم بها من ناحية ومحاكاتها والالتجاء إليها فى الظروف المماثلة خطوة واحدة يسهل الإقدام عليها وبذلك يزداد انتشار أحداث العنف التى تمسك بخناق المجتمع المصرى الذى عُرف خلال تاريخه الطويل المجيد بالتسامح والتفاهم وطيب الخلق.

التليفزيون مسئول عن العنف

وربما كان المسئول الأكبر عن شيوع الالتجاء إلى العنف والجنوح عن القيم هو التليفزيون وان كان هذا لا يبرىء وسائل الإعلام الأخرى التى تعتبر أن الإثارة هى أحد الجوانب المهمة فى رسالتها الإعلامية دون إدراك للآثار السيئة التى قد تترتب على هذه الإثارة وكيف يمكن أن تصبح هذه السلوكيات جزءا من مفردات الحياة اليومية. فالمسلسلات التليفزيونية وأفلام السينما التى تعرض أحداث العنف والجريمة والانحراف بأنواعه بالتفصيل الشديد حتى تجذب إليها الأنظار، بل إن كثيرا من إعلانات التليفزيون عن أفلام الرعب والعنف تحمل فى ثناياها - دون قصد أو وعى كامل - الدعوة إلى ممارسة مثل هذه الأفعال التى توحى وبخاصة إلى الشباب بأعمال الشجاعة والقوة والبطولة التى تثير الاعجاب ، وسن الشباب هى سن الاندفاع وراء كل ما من شأنه العمل على اثبات الذات وفى هذا بالذات يكون مكمن الخطر!.

ورغم خطورة الأوضاع القائمة الآن فى المجتمع المصرى فيما يتعلق بهذه الأنماط السلوكية الجديدة التى تتعارض تماما مع التقاليد وما قد تحمله هذه الأوضاع من حدوث تغيرات جذرية فى المقومات الأساسية للشخصية المصرية وتغيير الطابع التقليدى الغالب خلال كل عصور التاريخ على المجتمع المصرى فإن

الأمور لم تصل بمصر والمصريين إلى ما وصلت إليه في المجتمعات الأكثر تقدما في الغرب وبالأخص في المجتمع الأمريكي، مجتمع الإثارة والرعب والخوف والجريمة بكل معاني الكلمة كما أنه هو المجتمع الذي يتولى تصدير هذه السلوكيات والقيم إلى بقية أنحاء العالم، بحيث يمكن القول إن العنف بصوره المختلفة هو السمة الأساسية للثقافة الأمريكية المعاصرة كما تشير إلى ذلك الأحداث الكثيرة والاحصاءات المتاحة. فعدد حوادث القتل في أسبوع واحد في أمريكا يفوق عدد حوادث القتل في أمريكا كلها خلال سنة كاملة، كما أن القتل رميا بالرصاص قد يحدث لأتفه الأسباب وبين الأصدقاء كما حدث منذ شهور قليلة حين أطلق أحد العمال في إحدى الولايات الرصاص على صديقه أثناء تناولهما الطعام معا وقت الراحة من العمل، لأن الصديق الذي أصبح قتيلا تناول قطعة من الخبز موضوعة أمام صديقه الذي أصبح قاتلا دون أن يستأذن فكان عقابه الفوري على سوء الأدب إطلاق الرصاص عليه. بل إن سياسة العنف في أمريكا أصبحت إلى حد كبير جزءا من التنشئة الاجتماعية بحيث نجد الأب يهدي أبناءه الصغار في سن العاشرة مثلا مسدسات وبنادق حقيقية مع ما يلزمها من الذخيرة الحية للتدريب على الرماية منذ الصغر، فالمسدس أو البندقية رمز للقوة والشجاعة والبطولة وهكذا، وهذه مسألة سبق لنا أن عالجناها في غير هذا المكان ولذا ليس ثمة ما يدعو إلى الكلام بالتفصيل فيها هنا .

وقد يكون من الصعب استبدال ثقافة بأخرى، أي استبدال ثقافة العنف والجريمة والإرهاب وما إليها من مظاهر سلوكية منحرفة بثقافة التسامح والصبر والعمل الجاد والبناء التي ارتبطت بالإنسان المصري خلال كل تاريخه. ورغم كثرة الحوادث الخارجة على نسق القيم التقليدية فلم تصبح هذه الأحداث ظواهر مميزة ، للمجتمع المصري يكفي لإدراجه تحت ثقافة العنف. وليس ثمة ما يشير إلى عدم وجود هذه الحوادث وأمثالها خلال عصور التاريخ السابقة ولكننا لا نعرف شيئا كافيا عنها لعدم توفر وسائل الاتصال والإعلام والنشر المتاحة الآن والتي ترصد الأحداث مهما صغرت بدقة وتفصيل. ولكن هذا لا يعني التهوين من فداحة المشكلة وإن كان يعني في الوقت ذاته عدم المبالغة والمغالاة والتهويل في رصد أبعادها وتفسيرها وإطلاق الأحكام العامة فيها، كما أنه يعني ضرورة الرجوع إلى الأصول الثقافية الراسخة والاسترشاد بها في رسم حياة المجتمع المصري في مستقبله الطويل مع عدم اغفال المتغيرات الدولية ولكن مع الأخذ في الاعتبار طيلة الوقت أن المصريين كانوا دائما ويجب أن يظلوا دائما بناة حضارة.

أبرز معالم القرن الحادي والعشرين

ثورة المعلومات ودوار البحر

بقلم: د. أحمد محمد صالح

إن كـمـيـة المعلومـات التـى أنتـجت فى الـ ٣٠ سنة الأخيرة، أكثر من تلك التى أنتجت فى خمسة آلاف سنة مضت. والكمية الكلية للمطبوعات بأنواعها تتضاعف كل خمس سنوات، وتزيد بسرعة رهيبة، فمنذ منتصف الستينات زادت مفردات اللغة الإنجليزية من ٦٥ ألف كلمة إلى ٧٠ ألف كلمة، وشبكة الويب www فى الإنترنت بلغ عدد صفحاتها لوحدها ٣٢٠ مليون صفحة من المعلومات عام ٩٨، وتزيد كل شهر أكثر من ٣٠ مليون وثيقة. فى ٢٠ مارس عام ١٩٩٨ أذاعت وكالة الأشوسيتدبرس أن المدراء يستقبلون فى المتوسط ١٩٠ رسالة فى اليوم الواحد، وأن تطبيقات العلم وتكنولوجيا المعلومات تزيد ١٤ ٪ كل سنة، وتتضاعف كل خمس سنوات ونصف. وأن ما تنشره جريدة مثل نيويورك تايمز من معلومات خلال أسبوع واحد فقط، يفوق متوسط ما كان يكتسبه المتعلمون فى القرن السابع عشر خلال حياة كاملة. والعالم كله يطبع أكثر من ١٠٠٠ كتاب جديد فى اليوم الواحد فى كل المجالات، رغم كل الادعاءات بموت الكتاب المطبوع، وازدهار النشر الإليكترونى على أقراص مدمجة أو عبر الانترنت.

انفجار المعلومات رفع كفاءة الاقتصاديات الكبيرة وشجع المنافسة العالمية وعزز سيطرة وهيمنة الدول

فقد ظهرت ثقافات جديدة وتقنيات جديدة لانتاج الثقافة، وأصبح هناك ثقافة تقليدية وهى السائدة فى عصر ما قبل الكمبيوتر، واستمرت بعده بمنتجاتها الثقافية المعروفة مثل المسرح والقصة والسينما والكتاب والصحف والمجلات إلخ، وبدأت الآن تسيطر الثقافة الإلكترونية، وهى جاءت من صلب تقنيات المعلومات، وورثت ملامحها، وأنتجت منتجات ثقافية جديدة مثل الصحف الإليكترونية أكثر من ١٥٠٠ صحيفة، ٣٠٠٠ نشرة إليكترونية و٥٠ ألف كتاب إليكترونى تصدر فى العام الواحد، وكلها تدور فى ثانية حول العالم، هذا غير القصص الأليكترونية والألعاب وآلاف

الصفحات الثقافية خلال الشبكات العالمية والواقعية الافتراضية.
وكلتا الثقافتين تستخدمان التقنيات الحديثة كأدوات إنتاج، لكن الاختلاف في الشكل النهائي للمنتج ، شكل الوسيط الحامل.
وازدهار النشر الإليكتروني للمعلومات عبر الإنترنت أتى بمشكلات جديدة لم تكن مطروحة في عصر المطبوعات، مثل انهيار الحواجز الطبيعية بيننا وبين المعلومات. وأحدثت التطورات التقنية تحولا في إنتاج وتوزيع المعلومات. إذ من خلال الاستعمال الواسع للكمبيوترات والأقمار الصناعية والارسال من خلال التصميم mul-tiplexing والالياف البصرية fiber optics والرقمنة digi-talization وضغط البيانات، data compression أصبح بوسع منتجي المعلومات اليوم أن يقدموها في صورة نصوص أو صوت أو صورة أكثر من أي وقت مضى، ويمكن انجاز ذلك بسرعة أكبر وبسعر أقل. وإذا كانت تكنولوجيا المعلومات تزودنا بفرص واسعة لزيادة الإنتاج، فهي أيضا أصبحت سيفاً ذا حدين، فتدفق المعلومات وانفجارها، جعلها بين أصابعنا وفي متناول أيدينا في أي وقت، فالمعلومات تحيط بنا في كل مكان، وتكاد تغمرنا، وتسحقنا، فالمعلومات الآن تطاردنا وتحاصرنا وتحيط بنا، وتمسك بتلابيبنا في كل مكان به جهاز كمبيوتر، ورغم ذلك لا يمكن أن تجد ما تبحث عنه ، وبالشكل الذي تريده، وتصبح عملية البحث عن معلومة معينة، مثل البحث عن ابرة في كومة من التبن. والإنترنت تغرينا وتحثنا على الإبحار فيها والتنقل من موقع لآخر، وتشعرك بالغيظ والحيرة الطامعة، وتثير فيك الجشع المعرفي، وتجد نفسك لا تملك الوقت والجهد والقدرة، ألا على حمل بعض المعارف المتواضعة شديدة الصلة بالموضوع، بعد رحلة عذاب تشعرك بالاكتئاب والمرض والضعف ولا تعرف من أين تبدأ؟ ومن أين تنتهي؟ إلى أن تشعر بالغثيان ودوار المعلومات، وهو أشبه بدوار البحر، والمعطيات السابقة تعكس بعض جوانب انفجار المعلومات، والتي زادت شدته في القرن الحادي والعشرين، حيث تتدفق فيه المعلومات كالمياه الجارية، وأصبح فيض وتخمة المعلومات له مشاكله تماما مثل فقر المعلومات، لكن الاختلاف في طبيعة المشكلة ونوعها.

المعلومات المنتجة خلال الـ ٣٠ سنة الماضية أكثر من التي انتجت في خمسة آلاف سنة!

الإعياء المعلوماتى !

ومنذ فترة قصيرة أعلن فى لندن تحت عنوان dying for in-formation، نتائج دراسة ميدانية، تم فيها مسح دولى لعينة من المهتمين والعاملين فى مجال المعلومات عن الأعراض المرضية المرتبطة والناشئة عن الإفراط والإسراف والفيض المعلوماتى، واتضح أن هذا الفيض المعلوماتى يحاصر الفرد ويخنقه، ويسبب له معاناة فكرية، وكرب عقلى، وآلام مبرحة، وأمراض جسدية. وأطلق على الأعراض المرضية المرتبطة والناشئة عن الضغوط التى يسببها الفيض أو الحمل الزائد فى المعلومات مصطلح (IFS) informa-tion fatique syndrome، بمعنى الإرهاق والإجهاد العضلى والإعياء المعلوماتى إن صح التعبير. فالمعلومات الكثيرة يمكن أن تكون ضارة جدا ولها آثار خطيرة، تماما مثل قلة وضعف المعلومات، بل وتؤدى إلى مشاكل أخرى مثل شلل وعجز القدرات التحليلية للإنسان، والفشل فى إيجاد الحلول الملائمة، وزيادة صعوبة اتخاذ القرار، أو عدم اتخاذ القرار على أفضل وجه، وحالة نفسية مثارة ومستنفرة جدا، مع سيادة القلق وعدم الثقة بالنفس.

والكل الآن أصبح يعانى، أغنياء المعلومات فى دول الشمال يعانون من ضغط وإجهاد مرتفع خلال محاولتهم للتغلب على الكميات الضخمة للمعلومات التى تفيض من الكتب، ومن رسائل الفاكس، والتليفونات، والصحف والمجلات والمطبوعات السيارة بأنواعها، والبريد الإليكترونى، والإنترنت، غير المحطات الفضائية للاذاعة المسموعة والمرئية، ويزيد هذا الضغط والإجهاد بصفة خاصة بين عمالة المعرفة Knowledge worker، وهم المهنيون المحترفون الذين يعتمدون على مهاراتهم وقدراتهم فى البحث وايجاد المعلومات، ومعالجتها وتركيبها، وممارسة مهارات الاتصال لتوصيلها، وتطبيق معارفهم. فهى عمالة عصر المعلومات والقرن الحادى والعشرين. ففى السنوات العشر القادمة ستكون المهارات المعلوماتية هى المحك الأساسى فى النجاح أو الفشل المهنى.

وأيضا فقراء المعلومات فى دول الجنوب، وهم أغلبية يعانون من مشاكل فى اكتساب، واسترجاع ومعالجة، ونشر المعلومات بأشكال

متعددة، وهذا يعكس أعراض ما يسمى بفقر المعلومات الذى يضعف عمليات اتخاذ القرار على كل المستويات، حيث النقص الشديد فى المعلومات الخام، ونقص الوسائل التى تحولها إلى معارف أو تلك التى تحول البيانات إلى معلومات. وفقر المعلومات يأخذ أشكالاً متعددة ويسبب نتائج رهيبة تنذر بكوارث، فتتقلص الأعمال والاستثمارات المحلية بسبب النقص فى المعلومات حول الاسواق المحلية والعالمية، وأيضا نقص المعلومات حول التغييرات فى أنماط الطلب، وأنماط المنتجات التكنولوجية الجديدة ووسائل الإنتاج. وفى الدول التى تعانى فقر المعلومات، نجد البحاث والعلماء والعمالة الماهرة منعزلون تماما عن التطورات السريعة الحادثة فى تخصصاتهم ومهنهم. والنقص فى وسائل الوصول للمعلومات ينعكس تباعا فى انخفاض معدلات الإنتاج، وفى فقر فى نوعية الأبحاث ومستواها، وفى إهدار وقت ثمين فى تصيد المعلومات وتقارير البحاث الموجودة فعلا ومتاحة فى الدول المتقدمة.

ودول الجنوب الفقيرة معلوماتيا تواجه صعوبات خطيرة تعوق صانع السياسة فيها على سبيل المثال:

١ - نقص المعلومات حول المصادر الطبيعية.

٢ - عدم الثقة فى أى بيانات اقتصادية أو اجتماعية.

٣ - فقر وضعف المعلومات المتعلقة بالحسابات الوطنية من ديون وميزان مدفوعات، وأسعار سوق، ونسبة ومدى الفقر، وتأثير برامج تخفيف الفقر.

٤ - اعتماد تخطيط البرامج التنموية المختلفة فى الصحة والتعليم على بيانات لا تعكس حقائق الموقف الراهن.

٥ - مواجهة صعوبات كبيرة فى التعامل مع المشاكل الملحة والأزمات الفجائية من أوبئة وفيضانات وزلازل وأزمات مالية.

والنقص فى المعلومات يضعف قوة مساومة الدولة فى المفاوضات الثنائية والمتعددة الأطراف سواء ذات الطبيعة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية. فالشركات الكبيرة الرئيسية وخاصة المتعددة الجنسيات سلحت نفسها بشبكات الاتصال بالأقمار الصناعية، ولديها كل المعلومات حول البترول والمعادن وإنتاجيات

المحاصيل الاستراتيجية فى العالم كله، وربما تعرف وتملك معلومات حول المصادر الطبيعية فى الدول النامية أكثر من حكومات تلك الدول نفسها، التى قد تواجه بقصا فى جذب الاستثمارات من الأسواق الرأسمالية العالمية، وتواجه أيضا صعوبات فى التعامل مع الشركات المتعددة الجنسيات، وتواجه ضغوطاً من المؤسسات العالمية مثل البنك الدولى أو صندوق النقد الدولى تؤثر تماما على قراراتها.

الدول الغنية معلوماتيا

وإذا كان عدد أجهزة الكمبيوتر فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يقارب عدد أجهزة الكمبيوتر فى العالم كله، وأن عدد أجهزة الكمبيوتر فى طوكيو وحدها يعادل ما هو موجود فى قارة أفريقيا بأجمعها، فالعالم أصبح منقسما فعلا إلى تلك الدول الغنية معلوماتيا المتقدمة صناعيا وتعانى من أعراض فيض المعلومات، وأخرى الفقيرة معلوماتيا تعانى من مشاكل نقص المعلومات وعاجزة عن التعامل مع الاجهزة المعلوماتية المسيطرة على عالم اليوم، الذى لم تعد تسيطر عليه قوة الأسلحة أو قوة رأس المال، بل أصبح يسيطر عليه الآحاد والاصفار والعشرات والارقام والمعلومات.

كثرة المعلومات أو قلتها لها اثار خطيرة، فالكل يعاني

وهناك خوف يسود بين المراقبين من أن تصبح أغلبية البلدان على كوكب الأرض دولا مُهمشة ومنعزلة عن الطريق السريع للمعلومات information highways (إنترنت ١ وإنترنت ٢)، وخاصة الدول النامية.. ربما استجابة لذلك الخوف حرص مؤتمر Midrand مدراند بجنوب أفريقيا، عام ١٩٩٦ على اقتراح مخطط عالمى للطريق السريع للمعلومات، يُشارك فيه كل من الدول الصناعية والبلدان النامية. وفجوة المعلومات بين الغنى والفقير فى عالم اليوم صعبة التقييم. فمثلا بنجلاديش الجزء المخصص فى اقتصادها لمنتجات المعلومات مثل أجهزة الكمبيوتر وبرامجه والخدمات المرتبطة بل تمثل ١٪ فقط، وهذا الرقم فى الولايات المتحدة أكبر منه بأكثر من ١٠٠ مرة، فهو حوالى ١٠٪ من الاقتصاد الأمريكى تذهب لتكنولوجيات المعلومات. الإنفاق السنوى على تكنولوجيا المعلومات على مستوى الفرد العادى يظهر أن

بنجلاديش أفقر ٣٠ مرة بالمقارنة بأمريكا، فالفرد هناك ينفق على تكنولوجيا المعلومات فى المتوسط حوالى ٣٠٠٠ دولار فى السنة مقابل دولار واحد فقط للفرد ينفقه فى بنجلاديش على تكنولوجيا المعلومات. بل أن هناك فرقاً بين الإنفاق على تكنولوجيا المعلومات بين من يعيش فى المدن الداخلية ومن يعيش فى الضواحى حتى فى أمريكا نفسها. فالناس تناضل يوميا فى حياتهم من أجل لقمة العيش ولا يتبقى لهم شئ للإنفاق على تكنولوجيا المعلومات. لذلك فالغنى اليوم هو الذى يستطيع شراء التكنولوجيات الجديدة واستعمالها ليصبح أكثر إنتاجية، ويصبح أكثر غنى، بينما الفقير واقف ينتظر! وخلاصة الموضوع أن ثورة المعلومات ستزيد الفجوة بين الغنى والفقير من الدول، وأيضا بين الغنى والفقير من الناس داخل الدولة الواحدة. وبعض الخبراء ومنهم بيل جيتس يقولون إن التكنولوجيات الجديدة فى المعلومات سوف تساعد الفقراء لكى يصبحوا مثقفين، وتساعدهم على التعلم وكيف يزرعون محاصيل جديدة؟ وكيف يحافظون على صحتهم، ويبيعون خدماتهم فى السوق الواسع أو فى فضاء المعلومات. هذه النظرة متوقفة فى رأيى على إذا استطاع الفقراء واتيحت لهم الفرصة لكسب هذه المنافع، وإذا اتيحت لهم الفرصة بطريقة أو أخرى بالتزود بنظم الاتصالات الحديثة وأجهزة الكمبيوتر وبرامجه والتدريب عليها. بهذا الشكل قد يستطيع الفقير أن يستفيد من ثورة المعلومات . وجاء الوقت الآن فى أن ينتبه العالم إلى ضرورة بداية تقديم مثل هذه المساعدات ليس فقط من باب الشفقة والرحمة بالفقراء والاغنياء. ولحسن الحظ توجد أشياء يستطيع العالم المتقدم أن يفعلها للمساعدة فى سد فجوة المعلومات بين الأغنياء والفقراء. من خلال شبكة الاقمار الصناعية (LEOS) التى تلتف حول العالم. فهذه الأقمار عندما تكون فوق الدول الصناعية الغنية تكون فى منتهى النشاط والمشغولية، وعندما تكون فوق العالم النامى لا تفعل شيئاً. ويمكن للعالم المتقدم من خلال تكلفة هامشية منخفضة أن تقدم مصانعه الخاصة بنظم الكمبيوتر وبرامجها الهاردوير والسوفت وير، وتزويدهم بالتدريب المناسب، والاتصالات الارضية والخدمات التى

دول الجنوب الفقيرة معلوماتيا تواجه صعوبات خطيرة تعوق صانع السياسة فيها.

تستطيع أن تقدم بضائعهم إلى الفقراء بخصم كبير. وإذا كان المواطنون فعلا فى الدول الغنية يودون المساعدة بصدق نستطيع أن ندفع تكلفة من خلال تشجيع الحكومات الغنية بخفض الضرائب على المزودين التكنولوجيا للدول الفقيرة، والمزودين أيضا يستطيعون المشاركة فى التكاليف بتوسيع سوق أعمالهم، والافراد يستطيعون المساهمة بالتبرع بالمال والوقت. ومنظمات مثل البنك الدولى التى تنفق أكثر من ١٥ بليون سنويا قروضا للدول النامية يستطيع أن يساعد بفروق جوهرية بتخصيص بعض من البلايين لمشروعات تكنولوجيا المعلومات فى تلك الدول. فمن المتوقع زيادة اقتصاد دولة نامية مثل نيبال بـ ٢٠ بالمائة من خلال الاستعمال الذكى لمعلومات السوق.

فقر معلوماتى شديد

ومصر والدول العربية أيضا تعانى من فقر معلوماتى شديد، حيث تبين الدراسات أن ٩٥٪ من الاستخدام العالمى للمعلومات تتم خارج العالم العربى تماما. فرغم أن عدد سكان الدول العربية مجتمعة تقريبا يقارب عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية حوالى ٢٧٠ مليون نسمة، لكن الفرق بين عدد مستخدمى الإنترنت هنا وهناك كبير جدا، إذ يقدر بحوالى ٣٠ مليونا أى ما يساوى ١٢٠ ضعف عدد المستخدمين العرب، بالإضافة إلى أن مستخدمى إنترنت هناك يقضون عددا من الساعات أمام الشبكة أكبر بكثير مما يقضيه المستخدمون العرب لأسباب عديدة أهمها التكلفة، وإذا عرفنا أن هذا القرن سيشهد المزيد من احتكار الشمال للعلم والتكنولوجيا من خلال المؤسسات العالمية المسيطرة على الانتاج، وعرفنا مثلا أن نسبة العلماء العاكفين على تطوير التكنولوجيا الإنتاجية لكل عشرة آلاف نسمة من السكان بلغوا فى اليابان ٤٥، وفى إسرائيل ٣٨، وفى أمريكا ٣٧، وفى دول الجنوب كالشرق الاوسط وشمال أفريقيا لا تتجاوز النسبة ٤ علماء في كل عشرة آلاف نسمة. فى التقرير العالمى للعلم world science report الذى تصدره اليونسكو كل سنتين تستعرض فيه احوال العلم فى العالم، وكان التقرير الأخير فى القرن العشرين عام ١٩٩٨، جاء فيه أن العالم كله أنفق

عام ١٩٩٤ على البحث العلمى والتطوير التكنولوجى Scientific Research & Development (R&D) ٤٧٠ بليون دولار أمريكى، ساهمت فيه أمريكا الشمالية بأكبر نصيب بنسبة حوالى ٣٨٪، وجاءت بعدها أوربا الغربية حيث ساهمت بنسبة ٢٨٪، ثم اليابان والدول الصناعية الجديدة بنسبة ١٩٪، والصين بنسبة ٥٪ وكان فى آخر القائمة وأقل نسبة هى الدول العربية مجتمعة حيث كان نصيبها ٠,٤٪ (أربعة أجزاء من الواحد الصحيح)، وهو أصغر إنفاق فى العالم كله. وكانت نسبة الإنفاق على البحث العلمى والتطوير التكنولوجى Scientific Researchg & Development (R&D) بالمقارنة بإجمالى الناتج المحلى، أكبرها فى أمريكا الشمالية حيث انفقت ٢,٥٪ من إجمالى الناتج المحلى على البحوث والتطوير التكنولوجى، وانفقت أوربا الغربية ١,٨٪ من إجمالى الناتج المحلى على البحوث والتطوير التكنولوجى، وكانت أقل نسبة إنفاق فى العالم موجودة فى الدول العربية مجتمعة حيث أنفقت ٠,٢٪ (جزءين من الواحد الصحيح) من إجمالى الناتج المحلى على البحوث العلمية والتطوير التكنولوجى، وفى مصر لا يتجاوز الإنفاق على البحث العلمى ما نسبته ٠,٥٥٪ من الناتج المحلى الاجمالى لعام ١٩٩٦، وتصل هذه النسبة إلى ٣,١٢٪ فى السويد، ٣٪ فى اليابان، ٢,٦٨٪ فى سويسرا، ٢,٦١٪ فى أمريكا ٢,٥٣٪ فى إسرائيل. وفى عام ١٩٩٥ صدرت فى أمريكا الشمالية ٣٨,٤٪ من المطبوعات العلمية فى العالم، ٣٥,٨٪ من تلك المطبوعات العلمية صدرت فى أوربا الغربية. ١٠,١٪ صدرت فى اليابان والدول الصناعية الجديدة، وكانت أقل نسبة اصدار للمطبوعات العلمية فى الدول العربية مجتمعة، التى صدر عنها ٠٠ر٧٪ (سبعة أجزاء من الواحد الصحيح)من المطبوعات العلمية فى العالم، ثم يستعرض تقرير العلم أحوال براءات الاختراع التكنولوجى فى العالم ويذكر أن ٤٧,٤٪ من مجموع براءات الاختراع التكنولوجى فى العالم، ١٩٩٥ كانت فى أوربا الغربية، ٣٣,٤٪ فى أمريكا الشمالية، ١٦,٦٪ كانت فى اليابان والدول الصناعية الجديدة، أما الدول العربية مجتمعة فقد حصلت على رقم

صفر ٪ ، وأكررها كان نصيب الدول العربية مجتمعة من براءات الاختراع التكنولوجى فى العالم عام ١٩٩٥ صفرا كبيرا ، بمعنى أن الدول العربية لم يصدر عنها أو تساهم بأى ابتكار تكنولوجى فى العالم.

★ ★ ★

وبصورة عامة فإن انفجار المعلومات قد رفع كفاءة الاقتصاديات الكبيرة، وشجع المنافسة العالمية، وعزز سيطرة وهيمنة الدول التى نجحت فى سد حلقة المعلومات. ومع التقدم السريع والدخول المتزايد لتكنولوجيا المعلومات، ينتظر أن تنخفض تكاليف أجهزة الكمبيوتر وخدمات الاتصال، مع تقدم متواز فى بناء طريق المعلومات السريع، والذى يضيف قوة جديدة لدول الشمال، وعلى الرغم من الجهود المتواضعة التى حدثت لسد الفجوة الرقمية بين الشمال والجنوب مثل انتشار ورخص تكاليف صناعة الحاسبات الصغيرة، لكن مازالت الدول المتقدمة خاصة فى أوربا وأمريكا مع قليل من الدول الصناعية الحديثة تحتكر القدرة على استعمال التكنولوجيات الجديدة فى الكمبيوتر ، وتوضيحا فهى تنحصر فى دول (International Organization Founded) وهى الولايات المتحدة الامريكية، كندا، استراليا، البرتغال، دنمراك، فنلندا، فرنسا، ألمانيا، اليونان، ايسلاندا، ايطاليا، اليابان، لوكسمبرج، نيوزيلندا، ايرلندا، هولندا، النرويج ، أسبانيا، السويد، سويسرا، تركيا، بريطانيا، فتلك الدول هى الدول الاسرع تقدما، وبقية العالم يقع فى تخلف نهائى ، حيث تضاف فجوة المعلومات إلى الفجوة اللانهائية فى المنافسة، فيزداد عمق فجوة التنمية بين الشمال والجنوب، لكن بارقة الأمل أمام مصر والدول العربية موجودة فى النموذج الهندى، حيث أصبحت مدينة بنجالور مركزاً لابتكار تكنولوجيا المعلومات فيها حوالى ٣٠٠ شركة تكنولوجيا معلومات رفيعة، وتجاوزت صادرات الهند من البرمجيات وحدها حوالى ٤ بلايين دولار هذا العام ويتوقع أن تصل إلى ٥٠ بليون دولار عام ٢٠٠٨ .

عدد أجهزة الكمبيوتر في أمريكا يقارب عدد أجهزة الكمبيوتر في العالم كله

قراءة فى أحداث القرن العشرين :

الحكام والإعلام

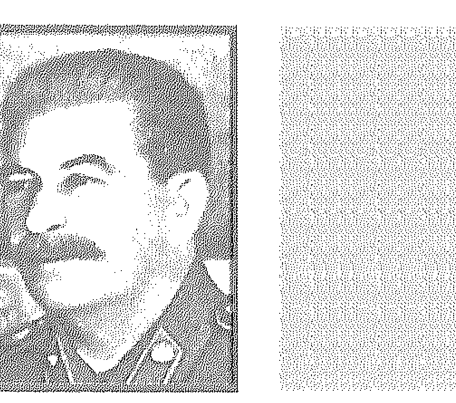
بقلم :

د. مصطفى سويف

بدأت فى يناير الماضى أقدم على صفحات هذه المجلة المرموقة سلسلة من الأحاديث حول قراءتى أحداث القرن العشرين ، إذ عايشتها بدءاً من منتصف العشرينيات . وقد خططت للأحاديث أن تسلط الضوء على مواضع التماس بين ماهو عالمى ، وماهو وطنى / قومى ، وماهو فردى/ شخصى فى هذه الأحداث . وفى تصورى أن هذه المواضع تقوم بدور المصابيح الكاشفة بالغة الأهمية فى فهم التاريخ بمعناه الإنسانى العام الذى يتحول معه البعد السياسى إلى جزء لايجوز له أن يرقى إلى تمثيل الكل . ولا يعنى ذلك أننى قصدت بمقالاتى هذه أن تكون دروسا فى التاريخ بمعناه العلمى الموضوعى كما يكتبه أساتذة التخصص ، ولكنه يعنى أننى أردت للمقالات فى مجموعها أن تقدم منظورا معينا لأحداث التاريخ ، وهو مايمكن أن نسميه منظور الوقع الإنسانى للأحداث ، أو الصدى والرنين الإنسانى للأحداث ومترتباتها .



الدمار الذى سببه العدوان الثلاثى الغادر
على بورسعيد عام ١٩٥٦





ستالين

فما يكتبه المؤرخون هو تأثير الأحداث على الأحداث التالية ، دون ذكر للإنسان الذى هو واسطة العقد فيما بينها ، وما أقصده هو إبراز الرنين الإنسانى فى هذا المسار ، لذلك وجب اعتبار ما أكتبه رصداً وتسجيلا يقوم بين الذاتية والموضوعية ، فلا هو ذاتى تماما وإلا لكان ذلك يعنى أن الأحداث التى يرد ذكرها فى هذه الأحاديث مجرد هلوسات لم يكن لها وجود مؤثر فى الواقع ، ولا هو موضوعى تماما بمعنى أن كل من تصدى للمشاهدة كان بإمكانه أن يرصده كما رصدته أنا بنصه وفصه . الواقع أنه مغاير لهذا وذاك، فهو ذاتى بقدر ما يملى من فروق واختلافات فى الرؤية ، وهو فى الوقت نفسه موضوعى بقدر ما يسمح بتخليق التكامل بين الرؤى المتعددة للراصدين والمسجلين. وما أزعمه أن تقديم هذا المنظور (حيث يلتقى العالمى والوطنى والفردى / الشخصى) يعتبر من المهام ذات الخصوبة العالية ، ومن ثم يحسن بالمثقفين أن يدرجوها ضمن واجباتهم . وما أتصوره وأرجوه أن يأتى يوم تتوافر فيه كثرة من الأدبيات التى تقدم مثل هذا المنظور بحيث تغرى أهل الاختصاص من أساتذة التاريخ بإدخال هذه الوثائق ضمن مصادرهم المتميزة ، وتغريهم بالاجتهاد فى استحداث أو إستكشاف التكامل بينها حتى يتسنى لهم (أى لأصحاب الصناعة) أن يكتبوا التاريخ باعتباره الوجه الدينامى لعلم الاجتماع .

● ●

لقد أردت بهذا التقديم أن أستعيد مع القارىء أطراف الأحاديث التى بدأتها فى يناير ، وتوقفت عن متابعتها بعد يوليه سنة ٢٠٠٠ ، معيداً التذكرة بالدلالة الأساسية لمجراها .

مع بداية النصف الثانى من الخمسينيات :

والآن نعود إلى مواصلة الحديث من حيث توقفنا .أعتقد أن أقبح القبائح التى تعرضت لها شعوب الأرض على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين كانت هى الحرب الباردة التى بدأت فعلا يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ عندما أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية فوق هيروشيما فى اليابان ، فكان هذا إيذانا بدخول العالم فى أتون مناخ سياسى جهنمى لم يعهده من قبل : كان الشعار الرئيسى فى هذا المناخ هو التهديد المستمر والتهديد المضاد المستمر، وكان موضوع التهديد فى الحالتين هو «القضاء على الآخر» ، وعلى الحياة كلها إذا لزم الأمر ، كان هذا المستوى من التهديد يجرى فى الرسائل المتبادلة بدون انقطاع بين القوتين الكبريين ، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى على مرأى ومسمع من جميع الدول وجميع الحكام ، وكانت تحيط به ضجة إعلامية حققت نجاحا مشهودا فى مضاعفة قدرته على إثارة الخواطر . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد ادعت كل قوة لنفسها حق الهيمنة على عدد من دول العالم (ظاهرة

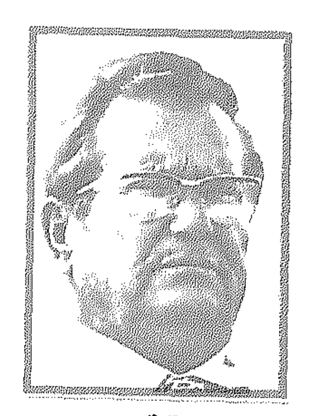
الاستقطاب) بحيث انتهى الأمر إلى ما يقرب من اقتسام دول العالم فيما بينهما؛ وهكذا تطور الأمر بحيث أصبح متبادلا بين جوقتين أو عصبتين من الدول ، لكل عصبة زعيم وخلف الزعيم أذناب على درجات مختلفة من الذنبية . صحيح أن الأمور لم تكن منسقة ولا سلسة تماما على النحو الذى قد توحى به هذه العبارات ، إلا أنه كانت هناك أساليب لا حصر لها لتحقيق التنسيق المطلوب داخل كل عصبة ، وكانت معظم هذه الأساليب تكرس القهر فى نهاية الأمر. وقد استمر هذا المسلسل حتى أشرف القرن على نهايته فى بداية التسعينيات عندما تصدع الاتحاد السوفييتى ثم انهار بصورة لم نعرف لها سابقة على مر التاريخ الحديث . ومع ذلك فأنا لن أتجاوز فى مقالى الراهن حدود الأحداث التى وقعت حتى نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات . وسيجد القارىء فى الفقرات التالية أن وقائع كثيرة – على الصعيد العالمى والمحلى – يتعذر فهمها أو إدراك دلالة تداعياتها إلا على خلفية إطار التهديد العام الذى ذكرت كيف نشأ وكيف تمكن ، والذى سوف أعيد ذكره فى مقالاتى التالية بينما أنا أكمل روايتى للكيفية التى قرأت بها أحداث القرن العشرين .

تعرية الاستبداد

على خلفية التهديد والتهديد المضاد (كمناخ عالمى) أبيحت وارتكبت كل الجرائم ضد شعوب الأرض ؛ فقد ارتكب الحكام من العصبتين أو المعسكرين أقبح الجرائم فى حق الشعوب ، وتم ذلك فى ظل حالة إعلامية لها مقوماتها الفعالة ؛ وأول هذه المقومات الضجة التى تعطل العقول عن التفكير الرشيد ، وثانيها قدر كبير من الاستثارة الانفعالية تدعم أساساً انفعالى الخوف والغضب فى أشد صورهما بدائية ، وثالث المقومات تبرير (تمتزج فيه المعلومة والقيمة) كالعذر الذى هو أقبح من الذنب ؛ وكان التبرير الصادر عن معسكر الشرق يدور دائما حول الدفاع عن الدولة القلعة التى قامت لترسيخ العدل الاجتماعى ؛ وفى معسكر الغرب كان التبرير دائما هو الدفاع عن الحرية وعن الدولة وأتباعها الرامزين للحرية . ولكى يتم تضييق الخناق على أى تفكير رشيد (قوامه التروى والنظرة النقدية) عسى أن تكتم أنفاسه استعان جميع الفرقاء فى المعسكرين بتسريع الأحداث ، أو ما نسميه نحن بالعامية المصرية «الكربجة» فالكل يجرى ويلهث وكأن السياط تلاحقه ، فلا وقت الآن لكذا ، ولا وقت لكذا ... الخ.

وقد يكون هذا الكذا حقا من حقوق الإنسان ، وقد يكون مطلبا من مطالب الحرية وتقرير المصير ، وقد يكون ... وقد يكون ... الخ) ، وأصبح لسان حال المشرفين على إدارة شئون التهديد : ضرورة تأجيل كل المطالب ، حتى ولو كانت من بين المطالب الأساسية للإنسان ، ضرورة تأجيلها إلى أجل غير مسمى حتى تحسم المواجهة بين العصبتين . وإلى القارىء بعض الأحداث تفصيلا .

فباسم الدفاع عن الحرية ومعسكر الحرية أعلن فى تقرير صدر فى يناير سنة ١٩٥٦ أن البريطانيين قتلوا فى الفترة ما بين سنتى ١٩٥٢ و١٩٥٥ عدد ١٠١٧٣ عشرة آلاف ومائة ثلاثة وسبعين مواطنا كينيا لأنهم كانوا أعضاء فى تنظيم يدعى «ماو ماو» بزعامة جوموكينياتا يطالبون باستقلال كينيا عن



تيتو

التـــاج البـــريطانى ، وهذا يعنى أنهم يحاربون الدولة (البريطانية) التى تحالف الدولة (الأمريكية) المدافعة عن الحرية .

وباسم الحرية والدفـاع عن مـعسكر الحرية منح البرلمان الفرنسى (فى مارس سنة ١٩٥٦) رئيس الوزراء جيـه موليـه سلطات خاصة فى الجزائر لأنها تشاغب طلبا للاستقلال عن فرنسا التى تقف فى معسكر واحد مع الدول الرامزة للحرية ، وباسم الدفـاع عن الحرية أعلن فى يوليه سنة ١٩٥٦ أن باريس ولندن تدرســان إمكانية إنزال جيوشهما فى مصر لمنعها من تنفيذ قرار الاستقلال بامتلاك شركة قناة السويس ، وضرب الطيران البريطانى والفرنسى مصر بدءا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ . وباسم الحرية والدفاع عن العالم الحر مارست القوات الفرنسـيـة أبشع أنواع العدوان والتعذيب فى مجاهدى الجزائر كما أعلن هنرى أليج فى كتاب له نشر فى فرنسا فى فبراير سنة ١٩٥٨ . وباسم الحـرية والدفـاع عن العـالم الحر منعت الشرطة الفرنسية اجتماعا دعت إليه جماعة تسمى نفسها العصبة الفرنسية لحقوق الإنسـان كان الهدف منه الدعوة لوضع حد للتعذيب فى الجزائر . وباسم الحرية أعلن فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ عن تفجير ذرى ثالث قامت به فرنسا فوق الصحراء الكبرى الأفريقية وكانت المغرب قد احتجت من قبل على التفجير الذرى الاول والتفجير الذرى الثانى اللذين قامت بهمـا الحكومة الفـرنسـيـة فوق هذه الصحراء الكبرى.وكان ألبرت شقايتزر الحائز على جائزة نوبل للسلام قد أصدر نداء فى ابريل سنة ١٩٥٧ بإيقـــاف التجـارب الذرية ، وكان الزعـيم الهندى جواهر لال نهرو قد أصدر نداء مماثلا فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ ، وكان ٩٢٣٥ تسعة آلاف ومائتان وخمسة وثلاثون عالماً من ٤٤ دولة قد طالبوا فى يناير سنة ١٩٥٨ بإيقاف التجارب الذرية ، ولكن ذهبت أو أذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح لأنها كانت معارضة لقرارات رموز الحرية !! .

وعلى الجانب الآخر ، جانب التهديد المضـاد (حيث قلعة الدفـاع عن العدل الاجتماعى) كان موت ستالين فى النصف الأول من الخمسينيات إيذاناً بتعرية الستالينية فى النصف الثـانى من الخمسينيات ، وجاء التوقيت المناسب فى منتصف فبراير سنة ١٩٥٦ بمناسبة عقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ، وفى هذا المؤتمر أعلن نيكيتا كروشتشيف (السكرتير العام للحزب بعد ستالين) إنهاء الطغيان الذى ساد فى فترة الحكم الستالينية ، وكشف عن العديد من الجرائم التى ارتكبت ضد الأفراد والدول باسم الدفاع عن الاتحاد السوفييتى والقيم التى يرمز لها ، وفى مقدمتها إقامة دولة العدل الاجتماعى ومساندة الدول التى تحذو حذوها . وبعد قليل نشر نص الخطاب الذى كان كروشتشيف قد ألقاه فى تلك المناسبة وأحدث مضمون الخطاب صدمة عميقة فى نفوس أعداد غفيرة ممن كانوا يؤمنون بقضايا العدل الاجتمـاعى

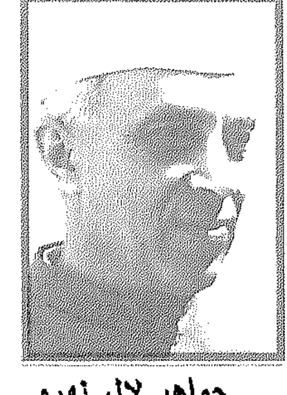
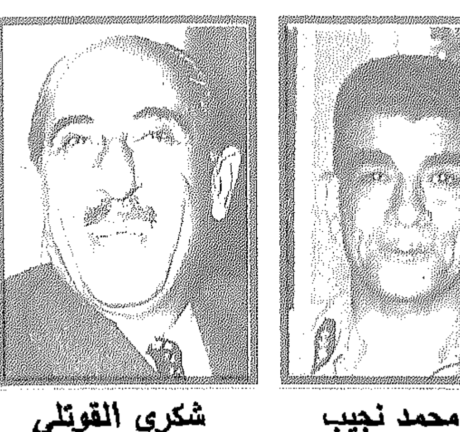


عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس

أو يتعاطفون معها . وشعر البعض أنهم غدر بهم ، أو غرر بهم لأن الجرائم كانت تقترف فى الخفاء ولا تجد طريقها إلى العلن ، وكأن الفرق بين المعسكرين كان فى حقيقته فرقا بين مستويات من المهارة فى إخفاء الجرائم التى ترتكب باسم الحفاظ على المعانى والقيم التى يدعى النظام القائم فى الشرق أو فى الغرب الدفاع عنها .

وبدا الوجه القبيح للنظام فى الشرق من خلال مظهرين رئيسيين : أحدهما فيما كان يعلن من حين لآخر من تراجع عن قرارات تجريم سابقة . والثانى فيما كان يرتكب من أفعال جديدة تصل إلى حد الجرائم هى الأخرى لكنها تثير حولها البلبلة فى النفوس والعقول نظراً لما يحيط بها من تبريرات إعلامية لا أول لها ولا آخر . وهكذا تلقى الناس تحت المظهر الأول أنباء إعادة الاعتبار للزعيم الهنغارى لازلو راجيك فى مارس سنة ١٩٥٦ ، وكان قد حوكم وأعدم بتهمة الخيانة لقيم العدل الاجتماعى فى سنة١٩٤٩ .

وفى أبريل من العام نفسه أطلق سراح الزعيم البولندى ڤلاديسلاف جومولكا من سجنه وأعلن أنه كان من ضحايا الاستبداد الستالينى ، وأعلن فى الوقت نفسه العفو عن ثمانين ألفا من مواطنيه البولنديين كانوا قد حكم عليهم فى سلة واحدة مع جومولكا ، وفى أغسطس من العام نفسه وصل رد الاعتبار إلى جومولكا إلى حد إعادة تنصيبه عضوا فى اللجنة المركزية للحزب

جواهر لال نهرو — محمد نجيب — شكرى القوتلى

الشيوعى البولندى . وفى يونيه سنة ١٩٥٦ أعلن كروشتشيف أن آراء الزعيم اليوغسلافى چوزيف تيتو التى سبق أن استوجبت المؤاخذة إلى حد اللعنة والطرد من مجال الفكر الشيوعى أيام ستالين اتضح أنها كانت سليمة ، وأن الحكم الستالينى عليه كان خطأ فاحشا يصل إلى حد الجنون أو الجريمة أو كليهما معاً .وفى سبتمبر سنة ١٩٥٦ أعلن فى بلغاريا عن إعادة الاعتبار للزعيم البلغارى تراچكو كوستوف وكان قد حوكم وأعدم بتهمة الخيانة فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ !! ويضيق المقام هنا عن ذكر العديد من الأمثلة من هذا الطراز الذى يقع تحت المظهر الأول . وكنت أتساءل وأنا أقرأ هذه الأخبار (وكنت حينئذ فى لندن أتابع دراساتى لمستوى ما بعد الدكتوراه) :

كيف كانت المحاكمات تتم إذن ، المحاكمات التى أدانت هؤلاء جميعا ومئات وآلافاً آخرين غيرهم ، ووصلت فى مستوى الإدانة إلى حد الحكم بالموت ؟

وتلقى الناس أمثلة أخرى عديدة تحت المظهر الثانى ، الأفعال الجديدة التى تصل إلى حد الجرائم ، والتى أوقعها نظام كروشتشيف نفسه ، وأثارت البلبلة فى النفوس والعقول ، وأصبح السؤال الأساسى فى نهاية المطاف :

هل الحق ما أعلن الحاكم أنه الحق والباطل ما أعلن الحاكم وبطانته أنه الباطل ؟

كان من أقبح الأمثلة فى هذا الصدد دخول ألف دبابة سوفييتية بودابست فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ لسحق الانتفاضة الهنغارية ضد الهيمنة السوڤييتية فى أكتوبر ، وتم للسوڤييت القبض على إيمرى ناچ رئيس الوزراء الهنغارى وزملائه الوزراء الذين تجرأوا على التفكير والتخطيط لوضع الأسس لسياسة هنغارية مستقلة . وبدأ نزوح الآلاف من الهنغاريين إلى الغرب هربا من موجة البطش الانتقامى الآخذة فى التزايد . ومع ذلك فقد بدا لى هؤلاء كالمستجير من الرمضاء بالنار . وكنت أعى جيدا أثناء قراءتى تلك الأحداث أن هذا الذى يفعله كروشتشيف فى هنغاريا جاء فى ذات الوقت الذى كان يقف فيه بحزم ضد التدخل الانجليزى الفرنسى فى مصر بجيوشهما (فى نوفمبر سنة ١٩٥٦) لقمع محاولة الحكومة المصرية أن تخطط لسياسة مستقلة تتبعها فى تمويل مشروعاتها للتنمية وعلى رأسها مشروع إقامة السد العالى.

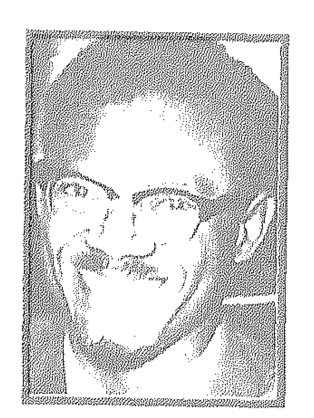
كنت أقرأ التناقض المزرى بين الموقفين ، وأطلق العنان لقدراتى التحليلية النقدية أن تصل فى تحليلاتها إلى منتهاها .

وفى مصر :

اتسمت فترة النصف الثانى من الخمسينيات (التى نحن بصددها) بثلاث سمات رئيسية ، تخلقت جميعا باعتبارها إفرازاً متوافقا مع مضمون المناخ السياسى العالمى (مناخ «التهديد والتهديد المضاد») السائد ، ومناسبا لظروف دولة صغيرة مصنفة على أنها ضمن دول العالم الثالث ، وتنوء فى الوقت نفسه بعواقب مخاضها الذى عاشته فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ، وهو المخاض الذى كان واعداً والذى لم يكن قد محى بعد من ذاكرة المهمومين بالهم العام من أبناء الشعب. كانت هذه السمات الثلاث هى : أولا عبادة الفرد / البطل ،، وثانيا سياسة رد الفعل أكثر من الفعل ، وثالثا التوفيقية أو التلفيقية فى الفكر السياسى .

وتحتاج عبادة الفرد لكى تقوم لها قائمة أن تتوافر لها ثلاثة عناصر : أولها مجال اجتماعى تم تفريغه من القوى السياسية الفاعلة ، وثانيها الفرد / البطل نفسه الذى يتسم بالنهم إلى الانفراد بإتخاذ القرارات ، وثالثها الأفراد والجماعات والأجهزة الداعمة والمروجة لهذا الفرد وبضاعته . وقد توافرت هذه العناصر جميعا فى مصر على امتداد الخمسينيات المتأخرة ، وكان الفرد / البطل هو عبدالناصر . ولمن أراد المزيد من الدراسة المتأنية لتفريغ المجتمع المصرى من القوة السياسية الفاعلة آنذاك أن يدرس الأسلوب الذى عولجت به قضية الأحزاب بعيد قيام حركة ٢٣ يوليه ، وأن يدرس الوظائف المجتمعية التى قامت بها المحاكم الاستثنائية ، وأن يدرس الأسلوب الذى أزيح به محمد نجيب عن الرئاسة ، والأساليب التى أزيح بها معظم أعضاء مجلس الثورة واحدا بعد الآخر عن المشاركة فى الحكم. أما من أراد التفقه فى موضوع الجماعات والأجهزة المروجة والداعمة لعبادة الفرد / البطل فيلزمه أن يدرس الخطوات والمراحل التى مر بها تخليق العلاقة وتنميتها بين عبدالناصر والجهاز الإعلامى برمته ، والأصداء النافذة التى استثارها فى المجتمع كله بمؤسساته وأفراده .

وإلى القارىء أمثلة محدودة من القرارات التى انفرد الفرد البطل باتخاذها. يدخل تحت هذا البند قرار تأميم شركة قناة السويس فى يوليه سنة ١٩٥٦ ، وقرار تمصير شركات التأمين والبنوك وكثير من الوكالات التجارية فى يناير سنة ١٩٥٧ ، والقرار بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير سنة ١٩٥٨، والقرار بمصادرة المشروعات البلچيكية فى مصر على أثر القبض على الزعيم الأفريقى پاتريس لوممبا فى الكونغو البلچيكية فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ . وسواء أكانت هذه القرارات وما صدر على شاكلتها جاءت من صنع عبدالناصر مائة فى المائة أم تسعين فى المائة أم أقل من ذلك أم أكثر فهكذا قدمها الإعلام المصرى حينئذ ، وهكذا تشير الدراسات الجادة التى تناولت تلك الفترة من تاريخ مصر (راجع فى هذا الصدد مقالى الدكتور أسامة الغزالى حرب فى جريدة الأهرام بتاريخى ١٣ و٢٧ نوفمبر الماضى).وهكذا اتخذت قرارات التأميم فيما بعد (سنة ١٩٦١) التى سميت بالقرارات الاشتراكية



لوممبا

كما اتخذت قرارات أخرى من قبل لاتقل عن ذلك خطراً فى حياة الأمة ، مثل قرارى الدستورين المؤقتين دستور ١٩٥٦ ودستور سنة ١٩٥٨ . وقد اتخذ الإعلام المصرى من صدور كل قرار من هذه القرارات فرصة ذهبية لمزيد من دعم عبادة الفرد / البطل .

ولا أدرى إن كان سيتيسر لطالبى الدراسة العلمية لهذا الفصل من تاريخ الأمة أن يستعيدوا فى مقبل الأيام الصورة التى تم بها الفصل ووقعها استعادة مطابقة للأصل لكى يتناولوها بالتحليل الموضوعى الرصين ويبرزوا ماخلفته عناصرها من أضرار جسيمة فى معنويات المصريين وما يمكن أن نسميه بآثار التربية السياسية للشعب .

ونترك مسألة عبادة الفرد إلى القضية الثانية : قضية غلبة أسلوب رد الفعل (مقارنا بأسلوب المبادرة بالفعل) فى ميدان العمل السياسى . هكذا جاء كثير من القرارات . من هذا القبيل قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ردا على حادث الاعتداء على عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ . وقرار تأميم شركة قناة السويس رداً على قرار البنك الدولى بالانسحاب من تمويل مشروع إقامة السد العالى ، وقرارات التأميم (المسماة بالأشتراكية) الصادرة فى سنة ١٩٦١ وقد جاء توقيتها ردا على ما قيل من أن بعض أغنياء مصر أظهروا عدداً من مظاهر الشماتة فى فشل مشروع الوحدة المصرية السورية . وجدير بالذكر أننى أقتصر هنا على ذكر بعض القرارات الكبرى ولا أذكرها كلها ، كما أننى لا أذكر نوعاً آخر من القرارات وأسميها *قرارات التردد ثم التراجع* . وهى قرارات بالغة الغرابة عندما يمس الأمر السياسة العليا للدولة ، ومن أشهرها قرار اتخذه عبدالناصر (وأذاعه بنفسه) بالتدخل العسكرى فى سوريا لضرب الانقلاب الذى قام هناك ضد الوحدة ، وقيل إن قوات عسكرية مصرية بدأت بالتحرك بحراً نحو سوريا لتنفيذه ، ثم عدل عنه فى خلال ساعات من إصداره ، وهو قرار قلما يأتى ذكره فى الحديث عن سياسات تلك الفترة ،ويعتبر هذا التردد دليلا دامغا على عفوية عملية اتخاذ القرار وإصداره حينئذ ، أو بعبارة أخرى أنه كان مجرد رد فعل آلى لم ترشده عمليات التفكير فى العواقب أو فى البدائل .

ثم نأتى إلى ذكر السمة الثالثة التى وسمت حكم مصر فى تلك الفترة ، وهى سمة التوفيقية أو التلفيقية فى الفكر السياسى السائد داخل دائرة الحكم ، وهى سمة تكشف عنها أمور كثيرة كان أشهرها شعار «التجربة والخطأ» الذى تردد ذكره عشرات المرات فى أحاديث عبدالناصر والمتزلفين إليه . وقد قرأت هذا الشعار آنذاك على أنه ملاذ للتهرب من أية مسئولية عن الأخطاء كبيرها وصغيرها مما كان يتكشف تباعاً على مستويات التخطيط والتنفيذ . وقرأته كذلك على أنه



لحظة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨

كان وقاءً متميزا ضد المطالبة بأى ارتباط محدد سلفاً أمام الرأى العام المحلي أو العالمى ، ومن ثم فقد رأيت فيه واحداً من المفاتيح (الفكرية أو التبريرية) المهمة لإلقاء الضوء على الكيفية التى أساغ بها عبدالناصر لنفسه ولأشياعه أن يضع للأمة ثلاثة دساتير متتابعة فى مدى زمنى لايتعدى ثمانية أعوام (١٩٥٦ و١٩٥٨ و١٩٦٤) .

وأخيرا وليس آخيرا ، فقد قرأت في هذا الشعار استهانة صريحة بمصير شعب بأكمله ،وهل توضع مصائر الشعوب، من حيث المبدأ ، موضع التجريب والخطأ ؟ أن نخطىء فى أداء أدوارنا السياسية هذا شىء ، وهو جائز ووارد ؛ أما أن يكون التوجه من حيث المبدأ هو التجريب والخطأ فهذا قمة الاستهانة بحاضر الأمة ومستقبلها .

وبعد..

في ختام هذا المقال أرى لزاما علىَّ أن أقدم ثلاثة تعقيبات : أولها أننى تعمدت الإيجاز الشديد فيما يتعلق بنقطة التماس بين الأحداث (العالمية والوطنية) من ناحية وماهو فردى/ شخصى من ناحية أخرى ، فاقتصرت على ذكر قراءتى لهذه الأحداث. وثانيها أننى تحاشيت فى القسم الذى يتناول مصر من هذا الحديث أن أذكر اسماء أشخاص أيا كان قربهم من مركز صدور الأحداث ، لأن الاسماء لا أهمية لها فى مثل هذا السياق . وثالثها أن كل المؤشرات كانت ومازالت تشير إلى أنه آن الأوان للنظر الجاد فى مضمون المسئولية المجتمعية للإعلام .

DAILY EXPRESS

www.express.co.uk

SATURDAY DECEMBER 9, 2000

BATES SURVIVES WEMBLEY CRISIS

CHELSEA CHAIRMAN SEES OFF CRITIC

YOUR FAVOURITE READ – 112 PAGES IN BRITAIN'S BRIGHTEST NEWSPA

الصحافة فى مائة عام

STORM CLAIMS MORE LIVES

ور الامة

Even worse to come as the weather goes wild

حافة الصفراء

BY DAVID SMITH, ALUN REES AND SUE McGOWAN

TURN TO PAGE 4, COLUMN 1

CHARLES BREAKS ROYAL TAB BY APPEARING ON THE STREE

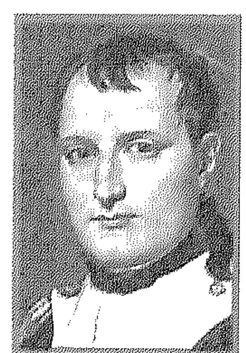
SEE PAGE 3

الهلال يناير ٢٠٠٠

ليس هناك أى قانون طبيعى أو وضعى يفرض علينا أن نقرأ صحيفة فى صباح كل يوم ، وإنما حدث الأمر تدريجيا نتيجة لظروف اقتصادية واجتماعية معينة ، حتى تمكنت منا هذه العادة الغريبة ، وشاعت حتى شملت نسبة كبيرة من الناس ، خاصة فى المجتمعات المسماة بالراقية ، واستمرت حتى تحولت العادة إلى إدمان .

كيف يمكن أن يحدث هذا دون أن نشعر ونتخذ وسائل الوقاية الواجبة ؟.

بقلم : د. جلال أمين



نابليون بونابرت

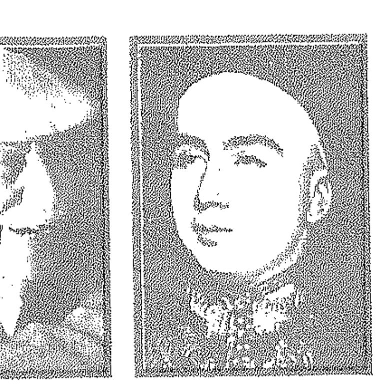
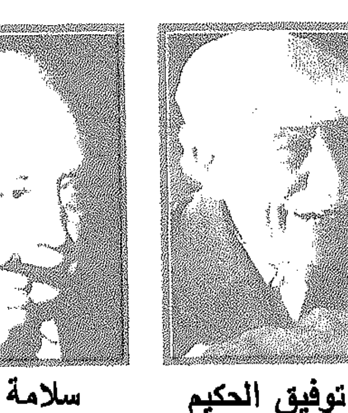


محمد على

عصر ما قبل الصحافة

هناك بالطبع حاجة حقيقية لمعرفة بعض الأخبار ، ولابد من تلبية هذه الحاجة بطريقة أو بأخرى ، فإذا كانت هناك مثلا ، دلائل على أن قبيلة معادية تنوى غزو قرية مجاورة لنهبها ، فلابد من العثور على طريقة لتنبيه أهالى هذه القرية كما يحدث لاتخاذ الحيطة وتحصين أنفسهم ، فيرسل عمدة القرية أو كبار القوم فيها ، الذين يعرفون الأخبار قبل غيرهم ، من ينبئ أهل القرية بالخبر ، وإذا انتشر وباء فى قرية فمن واجب الحكومة أن تعرّف القرى المجاورة بحدوثه وتخبرهم بأفضل الطرق للوقاية منه ، قد ترسل الحكومة من يعلق بيانا مكتوبا على بعض الأشجار ، أو على باب منزل العمدة ، ولكن هذا يفترض معرفة أهل القرية بالقراءة . الأفضل ، فى حالة انتشار الأمية ، الاعتماد على خطيب المسجد أو الكنيسة ، أو على المؤذن الذى يمكن أن يذيع الخبر من أعلى مئذنة ، أو على أى شخص جهورى الصوت فيصيح فى الناس فى أكبر ميدان فى القرية بما عنده من أخبار .

ينطبق هذا على أى خبر تريد السلطة المركزية تبليغه للناس ، كعزمها على تجنيد الشباب للحرب ، أو زيادة النسبة الواجب تسليمها للحكومة من هذا المحصول أو ذاك .. إلخ. وقل مثل هذا عن حاجة بعض


الخديو إسماعيل — توفيق الحكيم — سلامة موسى

المتكسبين من عمل من أعمال الترفيه ، كالسيرك أو التمثيل ، لإخبار الناس بأنهم سيقيمون سيركا أو مسرحا فى قريتهم أو على أطراف مدينتهم ، فى ذلك اليوم المحدد . لا بأس فى هذه الحالة من إرسال من يدق على طبلة ليطوف بالناس لاخبارهم بالحادث السعيد .

الصحف الأولى

كانت هذه هى المقدمات التاريخية للصحافة وهى المقدمات المعقولة تماما فى مجتمع من الأميين ، إذ لابد فى هذه الحالة من الاعتماد على نقل الأخبار شفاهة أما أن تظهر بانتظام ، على فترات معروفة وثابتة ، بضع صفحات مطبوعة ، وتعرض للبيع للناس ، فكان هذا يشترط أمرين لا غنى عنهما : ظهور المطبعة ، وهذا تطور تكنولوچى بحت ، ووجود عدد كاف من الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة ولديهم القدرة على دفع تكاليف كتابة وطباعة هذه الصفحات .

أما الشرط الأول فقد أصبح متوافرا فى منتصف القرن الخامس عشر بظهور المطبعة ، وأما الشرط الثانى فلم يتوافر إلا فى أوائل القرن السابع عشر ، فى بعض البلاد الأوربية ، الأمر الذى سمح بالفعل بظهور أولى الصحف المطبوعة والمنتظمة الصدور فى كل من ألمانيا والنمسا وهولندا وايطاليا ، أما فى الولايات المتحدة فلم يظهر أى شئ يمكن اعتباره صحيفة منتظمة الصدور إلا فى أواخر ذلك القرن (١٦٩٠) ، عندما ظهرت صحيفة فى مدينة بوسطون تحمل هذا الاسم الطويل (الأحداث العامة ، خارجية ومحلية) وتصف نفسها بأنها :

« تصدر مرة واحدة فى الشهر ما لم يحدث من الأحداث ما يستوجب ظهورها أكثر من ذلك». لم تكن هذه الصحيفة الأمريكية الأولى تتكون من أكثر من أربع صفحات طولها لايزيد على ٣٠ سم وعرضها ١٥ سم ،ملئت ثلاث صفحات منها بالأخبار القصيرة ، بينما تركت الصفحة الرابعة بيضاء لكى يستخدمها القارئ لمراسلاته الشخصية. على أى حال فإنه لم يصدر من هذه الصحيفة إلا عدد واحد فقط ، إذ أصدر حاكم المنطقة أمرا بإغلاقها بعد أربعة أيام من

صدورها.

أما الصحف اليومية فقد تأخرت عن ذلك بنحو قرن من الزمان . فلم تظهر أول صحيفة يومية بريطانية إلا فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٢) ، وأول صحيفة يومية أمريكية إلا بعد ذلك بثمانين عاما (١٧٨٣) ، ولم تكن هذه الأخيرة تتكون من أكثر من صفحتين .

صحف بورجوازية

لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أن نشأة الصحف المطبوعة والمنتظمة الصدور كانت وثيقة الصلة بنمو الطبقة الوسطى، وأنها كانت ظاهرة «بورجوازية» بحتة. كانت الأخبار الغالبة فى الصحف الأولى هى أخبار التجارة وما يهم التجار معرفته كخبر وصول باخرة إلى الميناء وبيان ما تحمله من سلع . بل قيل إن الصحف اليومية فى أمريكا لم تظهر إلا لمنافسة المقاهى التى كانت تعلق على جدرانها آخر الأخبار عن حركات التجارة . نعم ، سرعان ما أضيفت الأخبار السياسية المهمة والتعليقات عليها ، ولكن ظلت الصحف فى الأساس صحف «الطبقة الوسطى» منذ ظهورها فى أوائل القرن السابع عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

تنشر ما يهم هذه الطبقة معرفته ، وتستجيب لأذواق هذه الطبقة ومعاييرها الأخلاقية ، وتتجنب ما يؤذيها أو يجرح حسّها الأخلاقى أو الجمالى . هكذا نجد جريدة التايمز اللندنية مثلا عندما ظهر أول عدد منها فى أول يناير ١٧٨٥ تنشر وعدا من مؤسسيها للقراء بأن هذه الصحيفة الجديدة «لن تحتوى على أى شئ من شأنه أن يخدش الحياء أو يفسد الخلق ، وستمتنع امتناعا باتا عن نشر أى شئ يتضمن تحيزا ظالما أو قذفا مبتذلا فى حق أى شخص» وعندما تولى رئيس تحرير جديد إدارة صحيفة النيويورك تايمز فى ١٨٩٦ رأى من المفيد أن يتبنى شعارا للصحيفة مؤداه أنها «لن تنشر من الأخبار إلا ما كان من الملائم نشره ، وأنها لن تلوث المفرش الذى يغطى مائدة الإفطار » .

لم يكن غريبا بالمرة إذن ، أن تجد فى هذه الصحف مقالات لكبار كتاب القصة أو قصصا وروايات تنشر فى حلقات لبعض الروائيين العظام ، فالصحف البريطانية اليومية الأولى ، التى ظهرت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، نشرت قصصا مسلسلة لدانييل ديفو ، صاحب قصة روبنسون كروزو الشهيرة ، واعتبر لذلك أول من اتبع هذه الطريقة فى نشر قصصه ، كما كان كاتب المقالة الأساسية فى إحداها هو جوناثان سويفت، صاحب كتاب رحلات جلفر الشهير أيضا . ولكن هذا لم يكن إلا بداية لمساهمة بعض من أعظم الأدباء والكتاب السياسيين بالكتابة فى الصحف من صمويل جونسون وديكنز وثاكرى فى انجلترا إلى جوته وشيلر فى ألمانيا إلى مارك توين فى أمريكا .. الخ .

نشأة الصحافة الصفراء

المدهش حقا هو كيف استمرت الصحف على هذه الدرجة من الوقار والرصانة كل هذا الزمن الطويل ، وأنها لم تعدل عنه إلا قبيل حلول القرن العشرين بسنوات قليلة ، أى إلى ما لا يزيد كثيرا

عن مائة عام ، الأمر الذى يذكرنا بهذه الحقيقة المهمة : إن الجماهير الغفيرة ، حتى فى الدول التى سبقتنا فى ميدان التعليم وفى التنمية الاقتصادية السريعة بعشرات السنين ، لم تنتشر بين جماهيرها معرفة القراءة والكتابة إلا منذ وقت جد قريب .

فقبيل حلول القرن العشرين بقليل بدأت ثمرات الثورة الصناعية فى دول غرب أوربا وأمريكا تصل إلى أيدى الجماهير الغفيرة ، إذ كان التقدم التكنولوجى قد وصل إلى درجة تتطلب توسيع دائرة القدرة الشرائية وإلا عجز المنتجون عن تصريف منتجاتهم ، ومن ثم كانت الاستجابة لمطالب النقابات العمالية ليست فقط ضرورة اجتماعية وسياسية بل وضرورة «تكنولوجية» ، وكان لابد أن ينعكس هذا فى أحوال الصحف .

ففى سنة ١٩٠٠ كانت معرفة القراءة والكتابة والقدرة الشرائية قد انتشرا إلى حد سمح لجريدة مثل الديلى ميل Daily Mail البريطانية أن تطبع وتوزع مليون نسخة يوميا ، الأمر الذى جعل أذهان بعض الأذكياء تتفتق عن الفكرة الآتية :

إن القدرة على تعبئة مثل هذا الطلب الواسع على الصحف (بسبب تحقق القدرة على القراءة والقدرة على الشراء فى نفس الوقت) يمكن أن يكون مصدر ربح وفير لمن يستطيع أن يخاطب هذه الجماهير الغفيرة بالطريقة التى تحب أن تخاطب بها ، فما هى هذه الطريقة ؟ إن من السهل علينا الآن ونحن ننظر إلى ما حدث بعد مرور قرن من الزمان على بدايته، أن نحدد ما الذى يعجب هذه الجماهير الغفيرة ، ولكن لابد أن الأمر فى البداية كان اكتشافا عبقريا من جانب مصدرى الصحف : الجماهير تفضل الجرائد ذات العناوين المثيرة والمكتوبة بخط كبير ، والجماهير تحب أن ترى الصورة أكثر مما تحب أن تقرأ الكلام، والجماهير تحب، إذا كان المقال فى موضوع علمى ، أن يكون المقال مبسطا للغاية ، وإذا كان فى السياسة أن يكون مثيرا وحماسيا ، أما الأخبار فالأفضل منها هو ما تعلق بالفضائح وأسرار الناس ، وأما القصص فأفضلها قصص الحب والجنس .

كان من أولى الصحف الأمريكية التى اكتشفت هذا الاكتشاف صحيفتان تصدران فى نيويورك هما «الجريدة» (The Journal) والعالم (The world) وقد دخلتا فى منافسة حادة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر فى جذب جماهير القراء ، فنشرت إحداهما قصة مسلسلة ومصورة بعنوان الطفل الأصفر (The Yellow Kid) حققت نجاحا جماهيريا باهرا ، وسرعان ما قلدتها الصحيفة الأخرى ، ثم انتشرت الموضة ، الجديدة إلى صحف أخرى خارج نيويورك، ثم خارج الولايات المتحدة ، اعتمدت هى الأخرى على الإثارة ، وعرفت منذ ذلك الحين ، وبسبب قصة «الطفل الأصفر» باسم «الصحافة الصفراء» وقد دخل الطلب والعرض ، فيما يتعلق بالصحافة الصفراء ، كما دخلا فى أمور كثيرة ، فى حلقة مفرغة من : زيادة عدد القراء ، الناجمة عن زيادة السكان وزيادة القدرة الشرائية وانخفاض مستوى الأمية





طه حسين العقاد على أمين

تؤدى إلى زيادة الطلب على الصحف ، وزيادة حجم الطلب تؤدى إلى الاستجابة إلى القاسم المشترك الأعظم بين القراء ، وهو حب كل ماهو مثير وسهل وسريع ، ومن ثم يزيد المعروض من مواد الصحافة الصفراء ، ولكن زيادة المعروض من هذه المواد يضاعف من حجم الطلب ، الذى يضاعف بدوره من حجم العرض .. الخ .

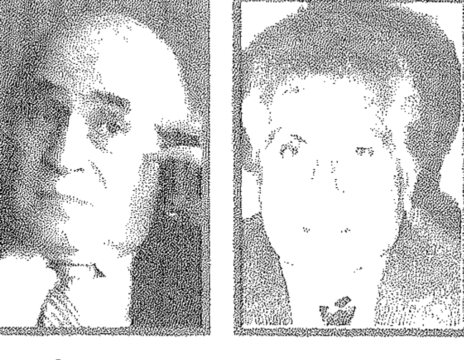
وهكذا ، ما أن بلغنا منتصف القرن العشرين ، حتى وجدنا أرقام التوزيع لبعض الصحف اليومية فى بريطانيا تبلغ بضعة ملايين ، فبلغ توزيع الديلى ميل فى ١٩٥٠ مليونين من النسخ يوميا ، والديلى ميرور ٧ر٣ مليون نسخة ، والديلى اكسبريس أربعة ملايين .

بيع القراء بدلا من بيع الأخبار

عندما بلغ عدد القراء هذا الحجم ، كان من الطبيعى أن تحدث الخطوة الخطيرة التالية ، وهى أنه ، بدلا من أن تقوم الصحيفة ببيع أخبارها ومقالاتها وصورها للقراء ، بدأت الصحيفة فى «بيع قرائها للمعلنين». قد يبدو التعبير قاسيا ومبالغا فيه ، ولكنه لا يبعد كثيرا عن الحقيقة . فالصحيفة عندما يبلغ مستوى انتشارها حدا معينا يمكنها أن تعتمد فى تحقيق الربح ليس على قارئ الجريدة كقارئ ، وإنما كمشتر لسلع أخرى كثيرة. ومن ثم فهى الآن قادرة على تقديم خدمة أعلى ثمنا وأكثر ربحا بكثير من الخدمة التى قامت فى الأصل لتقديمها وهى الإعلام والتثقيف . هذه الخدمة هى الإعلان ، وهذا هو المقصود من قولنا إن الصحف تقوم الآن ببيع القراء بدلا من بيع الأخبار ، فالمشترى المهم الآن ، فى نظر الصحيفة ، ليس هو قارئ الصحيفة بل هو منتج السلعة الراغب فى الإعلان عنها ، والشئ المباع ليس هو كمية من الأخبار أو المقالات ، بل القراء أنفسهم .

وللقارئ أن يتخيل المتغير الذى كان لابد أن يطرأ على الصحيفة نتيجة لهذا التغير الخطير فى طبيعة ما يعرض للبيع والشراء . نعم ، لابد من مراعاة ما يريده القارئ ، أولا وأخيرا ، سواء كان المباع هو الخبر والمقال ، أم عدد القراء الذين سوف تقع أعينهم على الإعلان. ولكن





يوسف إدريس مصطفى أمين محمد التابعى

زيادة أهمية الإعلان ضاعفت من أهمية الانتشار الواسع بالنسبة لأهمية صدق الخبر أو جودة المقال . بل إن رأى القارئ نفسه فى الصحيفة لم يعد مهما بنفس الدرجة ، طالما تحققت واقعة الشراء ابتداء . المهم هو جذبه إلى شراء الصحيفة الآن ، وليس من المهم كثيرا رأيه بعد انتهائه من الإطلاع عليها . المهم هو النجاح فى خداعه بأن هناك شيئا فى الصحيفة تتعين قراءته حتى لو اكتشف بعد لحظات قليلة أن ما ظنه مهما ، ليس فى الحقيقة كذلك . إذ إنه فى هذه اللحظات القليلة يكون عدد من الإعلانات قد وقع بالفعل تحت بصره ودخل فى وعيه أو لا وعيه .

ترتب على ذلك أن أصبح القارئ المسكين يشترى الجريدة فيقلب صفحاتها فإذا به يجد المنشور فى صفحة بعد أخرى من الأخبار والمقالات لا يتجاوز ربع، أو حتى عشر مساحة الصفحة ، بل وقد يجد الصفحة بأكملها وقد احتوت على صورة لسيارة أو علبة للسجائر إلى جانبها صورة امرأة جميلة تهم بركوب السيارة أو تشعل سيجارتها . إنه ليس من أجل هذا بالطبع ، دفع ثمن الجريدة ، ولكن هذا فى نهاية الأمر ، هو ما يحصل عليه ، ومن أجل تمرير هذه الخدعة لابد أن تحمل الصفحة الأولى عناوين مثيرة ، وأن تعده بأخبار لا يمكن له الإحاطة بها إلا بتقليب صفحات الجريدة ، فإذا به بعد أن يقلب هذه الصفحات لا يكاد يظفر بشئ على الإطلاق ، وإذا بالخبر «شبه خبر» كذكر أن شخصا التقى بآخر وتكلما فى موضوع مهم . دون أن يقال لك ماذا قال أحدهما للآخر ، بل ولا حتى ماهو هذا الموضوع المهم . إن من المناظر المثيرة للشفقة منظر مشترى بعض الجرائد فى الولايات المتحدة وكثير من الدول الأوربية ، وقد ذهب لشراء الجريدة الصادرة يوم الأحد ، ثم يعود إلى بيته حاملا ما يقرب من طن من الورق على ظن أنه بقراءتها سيحيط إحاطة تامة بما يحدث فى العالم، فإذا به يجد تسعة أعشار المكتوب على هذا العدد النهائى من الصفحات يتكون من إعلانات لم يكن فى نيته أبدا أن يدفع ذلك المبلغ من المال

لاقتنائها . وسرعان ما يلقى هذا الطن من الورق الذى تتكون منه الصحيفة فى صحيفة القمامة ، حتى يأتى يوم الأحد التالى فيقع فى نفس الفخ.

كيف يصبح الخبر التافه خبراً مهما ؟

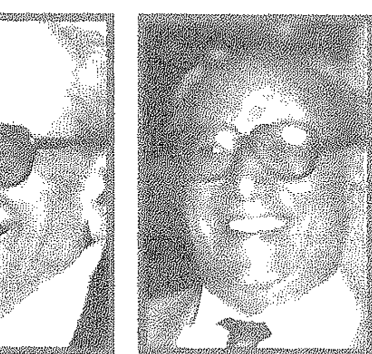
كيف يمكن لأى جريدة ، مهما كانت درجة كفاءة محرريها ومراسليها ، أن تعثر فى كل يوم على خبر يستحق أن ينشر بالعناوين الكبيرة فى الصفحة الأولى ، ويكون من الأهمية بحيث يجذب عدة ملايين من القراء ؟ الأمر صعب ويكاد يكون مستحيلا ، والصحيفة يومية لابد أن تصدر فى موعدها الثابت ولا يمكن أن يؤجل صدورها حتى يحدث ما يستحق الكتابة عنه ، كما كان الحال فى بداية ظهور الصحف . ليس هناك إلا حل واحد : أن يرفع كل يوم خبر من الأخبار ، مهما كان فى حقيقته تافها أو حقيرا ، فيمنح نفس الأهمية التى أعطيت فى اليوم السابق لنشوب حرب أو قيام ثورة . فى كل يوم يبقى مكان المانشيت الرئيسى خاليا حتى يقرر رئيس التحرير ماهو الخبر الذى سينتشل من بين مجموعة الأخبار التافهة ليتصدر الأخبار الأكثر تفاهة . قد يكون الخبر هو القبض على راقصة مشهورة ، أو قتل لاعب كرة كبير لزوجته هى وعشيقها ، أو مقابلة تمت لمجرد السؤال عن الصحة أو تبادل التهانى بالعيد ، فيقال إنها تمت لمناقشة الأوضاع الحساسة فى المنطقة . إن الأمر لم يصل بعد إلى حد أن تقوم الصحف بنفسها باشعال حرب أو بالايقاع بشخصية مشهورة حتى يمكن الكتابة عن هذا أو ذاك . ولكننا لم نعد بعيدين عن هذا أو ذاك ، ومثال مقتل الأميرة ديانا ليس ببعيد . صحيح أن الصحفيين لم يقتلوها بغرض الكتابة عن موتها ، ولكنهم على أى حال قتلوها ثم كتبوا عن ذلك .

الصحافة فى مصر

مرة أخرى نجد أن ما استغرق ثلاثة قرون فى أوربا ، لم يحتج إلى ما يزيد كثيرا عن مائة عام فى مصر . بل وفى بلاد أخرى كثيرة أقل «تقدما» من مصر ، ربما لم يستغرق كل هذه التطورات أكثر من خمسين عاما . صحيح أن ظهور أول جريدة فى مصر يرجع إلى قرنين من الزمان ، عندما بدأ نابليون فى إصدار صحيفتين بمجرد وصوله إلى مصر فى ١٧٩٨ ، ولكن هاتين الصحيفتين كانتا باللغة الفرنسية وموجهة لفرنسيين . وصحيفة محمد على (الوقائع المصرية) التى صدرت فى ١٨٢٨ بالعربية والتركية، كانت صحيفة رسمية تحتوى على قوانين وقرارات إدارية دون أخبار بالمعنى الذى نفهمه الآن .

وعلى أى حال لم يكن من الممكن أن تنشأ صحيفة دورية ليقرأها الناس فى أجزاء مختلفة من القطر المصرى إلا بعد إنشاء هيئة البريد فى ١٨٦٥ أثناء عصر الخديو إسماعيل .

فى مجتمع ظلت نسبة الأميين فيه تزيد على ٨٠٪ من السكان حتى منتصف القرن العشرين ، لم يكن من المتوقع أن تصدر الصحف ، حتى ذلك الحين ، إلا لنسبة جد ضئيلة من السكان ممن ينتمون إلى الطبقتين العليا والوسطى ، وهما طبقتان كان يتمتع أفرادهما بوجه عام ،







لويس عوض نجيب محفوظ أحمد بهاء الدين

وحتى منتصف القرن ، بمستوى عال من التعليم ، ويتملك ناصية اللغة التى تكتب بها الجريدة ، عربية كانت أو انجليزية أو فرنسية ، مع احترام تام ، من جانب أفراد الطبقة الوسطى على الأقل ، للغة العربية وقدرتهم على تذوق ما فيها من جمال .

من ناحية أخرى ، كان عدد قارئى الصحف من الصغر بحيث لم يكن ليسمح للصحيفة أن تحقق إيرادا من الإعلانات ذا أهمية تذكر . تضافرت هذه الظروف لتحديد طبيعة الصحف والمجلات الصادرة فى مصر حتى منتصف القرن :

عدد جد محدود من النسخ ، يتضمن أخبارا وموضوعات تلائم قراء ذوى ذوق رفيع ، لغة ومضمونا ، ويحد أدنى من الإثارة وعدد محدود جدا من الصور أما المقالات فيكتبها بانتظام أعلى أدباء وكتاب مصر شأنا وأعظمهم موهبة من العقاد إلى طه حسين ، ومن توفيق الحكيم إلى سلامة موسى .

انقلاب في الصحافة المصرية فى منتصف القرن العشرين

بدأ الانقلاب على استحياء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بظهور مدرسة أخبار اليوم فى الصحافة المصرية، فشاهد قراء الصحف المصرية لأول مرة المانشيتات المثيرة والمكتوبة بحروف ضخمة ، دون اهتمام كبير باتساق العنوان المثير مع مضمون الخبر المكتوب تحته . وزاد عدد الصور المنشورة، مع مراعاة اعتبارات الإثارة فى اختيار الصور والأخبار على حد سواء . لقد ظل بعض الكتاب الكبار يكتبون فى صحف ومجلات مؤسسة أخبار اليوم ، فكان للعقاد مثلا مقاله الأسبوعى ولتوفيق الحكيم مربعه الثابت تحت عنوان «عصاى تقول». وأذكر أن من بين مقالات الحكيم فى هذا الوقت مقالا بعنوان «العصر الشكوكى» إشارة إلى انتشار ثقافة من نوع جديد ترمز لها منولوجات محمود شكوكو التى كانت تحقق فى ذلك الوقت نجاحا جماهيريا غير مسبوق . ولكن المساحة المخصصة لمثل هذه المقالات انخفضت نسبتها بشدة إلى إجمالى حجم الصحيفة ، وكانت حجة صاحبى المؤسسة أن «ليس هذا هو بالضبط ما يريده الجمهور» .

صحافة الخمسينات والستينات

عندمـا قـامت ثورة ١٩٥٢ أضـيف عنصـر جديد للإثارة ، إذ انضـمت الإثارة السياسية إلى مواد الاثارة المستمدة من الجـرائم والفـضـائح وأسـرار الفنانين والفنانات . ولكن كل هذا لم يكن من شأنه أن يزيد من توزيع الصحف لولا ما حدث من تطور فى ارتفاع مستوى الطبقات الدنيا اقتصاديا وتعليميا ، وهو ما تكفل بعمله العقدان التاليان (الخمسينات والستينات) . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الارتفاع فى التـوزيع الانحـفـاض فى مستوى ما تنشره الصحف لغة ومضمونا. كان هذا هو ما يتفق مع ما يطلبه ويقدر على استيعابه قارئو الصحف الجدد الذين انضموا حديثا جدا إلى الطبقة الوسطى ، وحققوا قدرا من التعليم على عجل ، فى مدارس وجامعات مكتظة بالتلاميذ وعلى أيدى مدرسين تخرجوا هم أنفسهم على عجل لمواجهة حاجات المدارس المتزايدة بسرعة .

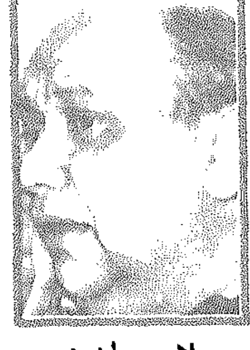
كان من الممكن أن تؤدى هذه الزيارة الكبيرة فى توزيع الصحف إلى ارتفاع كبير فى أهمية الإعلان كمصدر من مصادر الدخل للصحيفة ، ولكن حال دون ذلك خلال الخمسينات والستينات ، أن كثيرا من الصحف أصبح يعتمد على التمويل المباشر من الحكومة ، التى قامت هى نفسها بإصدار بعض الصحف ابتداء، أو نزعت ملكيتها من مؤسسيها الأصليين كما حال دونه ما حدث من تأميمات واسعة النطاق فى مطلع الستينيات ، إذ أصبح كثير من المشروعات التجارية والصناعية فى مركز احتكارى بعد دخولها فى ملكية الدولة ، لا تكاد تحتاج معه إلى الإعلان عن نفسها .

انقلاب السبعينات

على الرغم من كل ما فعلته العشرون سنة الأولى التالية لثورة ١٩٥٢ فى إعادة توزيع الدخل والارتفاع بمستوى الدخل فى مصر بوجه عام ، فإن الزيادة فى الحجم النسبى للطبقة الوسطى فى مصر بين ٥٢ و ١٩٧٠ لا يمكن أن يقارن بما حدث لهذه الطبقة فى العشرين سنة التالية (١٩٧٠ - ١٩٩٠) . نعم ، لقد أدت إجراءات عبدالناصر فى الإصلاح الزراعى والتأميم ونشر التعليم إلى زيادة ملحوظة فى حجم الطبقة الوسطى ، ولكن كل هذا لم يكن له من الأثر فى نمو هذه الطبقة مثلما كان لظاهرة الهجرة التى عرفتها مصر فى السبعينات والثمانينات. فإذا أضفنا إلى ذلك أن السبعينات والثمانينات، مع كل تنكرها لسياسات عبدالناصر فى إعادة توزيع الدخل ، لم تستطيعا الوقوف فى وجه التيار الكاسح المطالب بمزيد من المدارس والجامعات ، أيا كان مستوى التعليم الذى تقدمه هذه المدارس والجامعات ، فإن النتيجة كانت هى صعود أفواج غفيرة من الشعب المصرى إلى مرتبة الطبقة الوسطى (وعلى الأخص الطبقة الوسطى الدنيا) حتى أصبحت هذه الأفواج الغفيرة ، بمستوى تعليمها وأذواقها وتطلعاتها هى المحدد الأساسى لمستوى وخصائص الثقافة السائدة فى الربع الأخير من القرن ، بما فى ذلك مستوى وخصائص الثقافة السائدة فى الربع الأخير من القرن ، بما فى ذلك مستوى وخصائص الصحف الرائجة .

كان يوسف إدريس ولويس عوض ونجيب محفوظ لايزالون يكتبون فى


صلاح حافظ


صلاح چاهين


روز اليوسف

الصحف فى أوائل السبعينات ، ولكن نجيب محفوظ مع نهاية القرن ، كان قد انكمش إلى مربع صغير قليل الأثر ، وكان لويس عوض فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، قد تحوّل من الكتابة فى إصلاح التعليم ، وكأنه قد يئس من إمكانية ذلك ، إلى الكتابة فى التاريخ الأقدم بكثير ، الأوربى أو المصرى ، وكأنه كان يبحث عن عزاء فى فترة تاريخية أفضل . أما يوسف إدريس ، فقد توقف تماما عن كتابة القصة والمسرحية وتحول هو نفسه إلى المقالة المثيرة ، التى لم تكن دائما تحظى بإعجاب قرائه القدامى .

عصر التبسيط الشديد

تحول عنصر الإثارة فى الصحافة ، التى بدأت على استحياء قبيل منتصف القرن على يد مدرسة مصطفى أمين وعلى أمين ، من إثارة الأخبار الصغيرة المتناثرة إلى الاثارة السياسية والقومية فى الخمسينات والستينات ، ثم إلى الاثارة الدينية فى السبعينات ، ثم أضيف إلى كل ذلك الاثارة المعتمدة على أخبار الرياضة فى الثمانينات ، والإثارة الجنسية فى التسعينات . كان كل شئ الآن يحمل طابع التبسيط الشديد ، وهو التبسيط الملائم بالطبع للجماهير الغفيرة من القراء كانت السياسة والقضايا القومية قد جرى عليها التبسيط الشديد فى الخمسينات والستينات . ولكن هذا التبسيط الشديد لحق أيضا التفسير السائد للدين فى السبعينات ، ثم انتشرت طريقة فى معالجة الرياضة والجنس تتسم بدورها بالتبسيط الشديد ، فأى شئ أبسط من متابعة مباراة الهدف الأساسى منها ادخال كرة فى شبكة الفريق الآخر؟ .. وأى شئ أبسط وأكثر ضمانا للربح الوفير من نشر صور الاغراء لممثلات السينما؟ .

المدهش أن هذه النزعة للتبسيط قد أصابت حتى ما كان فى الأربعينات أو مطلع الخمسينات أكثر الصحف والمجلات وقارا ورصانة فنفس المجلات التى كانت تنشر المقالات البديعة لصلاح حافظ فى الخمسينات تحت عنوان «انتصار الحياة»، أو التى أسسها أحمد بهاء الدين فى منتصف الخمسينات لمخاطبة «القلوب الشابة والعقول المتحررة» ونشر أول مقال له فيها تحت عنوان «معنى اليسار» ، وجدت أنها لن تستطيع الاستمرار

وتحقيق مستوى معقول من التوزيع ما لم تنشر صورا مماثلة لما تنشره «الصحافة الصفراء» وما لم تتوسع فى أخبار الرياضة وفى نشر المقالات المبسطة جدا فى الدين مثلما تتوسع الأخريات . كما ظهرت مجلات جديدة من نوع جديد تماما على مصر ، حققت نجاحا باهرا ، رغم ارتفاع ثمنها ، تطبع على ورق مصقول وتعتمد على الصور الجميلة وإذاعة الأسرار، ونشر كل ماهو مدهش وغريب .

هكذا نجد أن الصحافة فى مصر استطاعت خلال ما لايزيد كثيرا على مائة عام ، أن تقطع نفس الشوط الذى قطعته الصحافة فى أوربا وأمريكا فى أكثر من ثلاثة قرون . بل إن الشوط الذى قطعته مصر فى الثلاثين عاما الماضية يكاد يفوق ما استغرق من أوربا وأمريكا قرنا كاملا.

فنوع الصحافة الذى بدأ فى أوربا بقصص «الطفل الأصفر» منذ مائة عام ، لم يبدأ فى مصر ، وعلى استحياء تام ، إلا فى منتصف القرن ، ولكن انظر إلينا وقد كدنا نتفوق على أوربا وأمريكا فى هذا النوع من الصحافة .

من أقوال الصحافة

«إذا هو نشأ ضعيف العقل، فاسد الرأى، مشوه التفكير، عاجزاً عن الفهم والحكم، مستعداً للتأثر بكل ما يلقى إليه، والاستجابة لكل ما يدعى إليه. هذا النوع من الشباب خطر على نفسه وعلى أمته لأنه خطر على النظام الاجتماعى دائماً»

«طه حسين»
«مستقبل الثقافة في مصر»

«الصحافة كرسى اعتراف جماعى يتيح مشاركة مشتركة إذ أن فى استطاعتها تلوين الأحداث باستخدامها أو بعدم استخدامها».

مارشال ماكلوهان

* إن قلة اهتمام الصحفيين بالمواضيع السياسية الصغيرة وتفاصيلها المملة تدفع السياسيين المحليين إلى تسويق أنفسهم عبر الحوادث المزيفة.

سوزان جاكشكي
من صحيفة «دي زايت» الألمانية

* «كلمة واحدة أصغى إليها حيا خير عندى من صفحة كاملة كلها تمجيد فى جريدة كبرى حينما أكون قد مت ودفنت».

ڤولتير

«لا فائدة من التربية التى تجعل الإنسان مستودعا لأفكار غيره، لأن الكلمات التى توضع فى الكتب لا يمكن أن تنتج معانى إلا على نسبة التجارب المكتسبة».

«هربت سبنسر»
١٨٢٠ - ١٩٠٣
الفيلسوف الانجليزي «فيلسوف التطور»



أهمية الضحك
الفوضى التعليمية بين النظرية والتطبيق

تقديم : د. حامد عمار

كاتب هذا المقال أستاذ في إحدي الجامعات الأمريكية ، فرانك نورمان . وقد شاركتني في إعداده وترجمته بتصرف ، وملاءمته للقارئ العربي الباحثة لمياء محمد أحمد السيد ، المدس المساعد بكلية التربية، جامعة عين شمس . وقد التقطنا الموضوع من شبكة الإنترنت ، وهو - فيما نعلم - أول جهد تعليمي يقدم حالة مشخصة ومتجسدة لمواقف في صورة حكاية لنظرية الفوضي (الشواش) وفي توظيفها في الفصل المدرسي . وفيها يتضح كيف تتفاعل وتتخمر عدة عوامل معقدة ، ومن بينها عوامل قد تبدو صغيرة أو تافهة لتصل إلي نتائج غير متوقعة ، وكيف تتحول الفوضي إلي نظام ، وكيف يسعي التفكير الإنساني إلي محاولة كسر الطوق المألوف في رتابته ونمطيته إلي تجاوز الواقع ، فيغدو أكثر إبداعاً وإثماراً . وإليكم حكاية هذا المقال :

بدايات الضحك : (أكتوبر ١٩٩٥)

بينما كنت استقل ترام مدينة مينو ، شاهدت فتاتين فى بداية مرحلة المراهقة يجلسان خلف مقعدى فى مؤخرة الترام ، وقد بدت عليهما علامات الضحك بصورة غير طبيعية ، تصل إلى حد الضحك الهستيرى .

وقد تسبب هذا الضحك فى ازعاجى وإعاقتى عن القراءة ، كما ازعج باقى الركاب الذين بدت عليهم علامات الانزعاج إلى أقصى حد ممكن .

وفى أثناء ذلك هممت أن اوجه لهاتين الفتاتين اللوم ، واحاول ان اوقفهما عن الضحك ، بيد انى تذكرت ما كنت افعله مع طلابى فى فصلى كل يوم قبل بداية الدرس . فقد كنت اوجههم لضرورة الضحك ، وانه عملية ضرورية تشبه تأثير التعبد ، له القدرة على كسر رتابة النظام اليومى ، ويدعو إلى التجديد والتفاؤل والمرح والإقبال على الحياة .



شارلى شابلن

هذا الموقف المشكل الذى وقعت فيه جعلنى فى صراع فكرى سريع ، ولم يدم ذلك طويلاً إذ استدعى فى مخيلتى محاضرة ممتعة استمعت اليها بعنوان " يوجا الضحك " تناولت أهمية الضحك للصحة النفسية والجسمية ، وضرورة ممارسة جميع أنواع الضحك من ثلاث إلى اربع مرات فى اليوم الواحد بمستوياته المختلفة من قهقهة إلى الضحك الاجش ، ومن ابتسامة او ضحكة قصيرة إلى ضحكة مدوية عالية تحمل معنى الفرحة واللطف والنشوة والسعادة الغامرة ، ومن الضحك التلقائى الطبيعى إلى الضحك المصطنع المتكلف ، فضلاً عن كل ما فى هذه الانواع من الأصوات الموحية بالضحك مثل هى هى - هوو هوو - هولوو ... ومع كل هذه الأنواع المتضمنة فى المحاضرة وما بها من أصوات مختلفة إلا أنى أحسست بأنها لا تتشابه مع صوت الضحك الصادر من فتاتى الترام اللتين امعنتا فى الضحك .

وفى كل الاحوال قد يكون الضحك أيسر على المرء واكثر فائدة من جلوسه متجهما عبوساً بصورة توحى بالضبط والوقار والتحكم الشدية المصطنع .

وبعد برهة زمنية لم استطع الا ان انخرط فى الضحك مع هاتين الفتاتين، وان لم يكن بنفس الدرجة الصاخبة ، فحدودى ومهنتى تفرضان على سلوكى ان يكون محترماً لا يؤدى لإزعاج الركاب .

الضحك اضطراب مبدع وحميد

وفى أثناء هذا الضحك حاصرتنى بعض التساؤلات حول ما أثارته لدى هذه الضحكات من الفتاتين ، ومن ردود افعال من قبل باقى الركاب . ومن بين هذه التساؤلات :

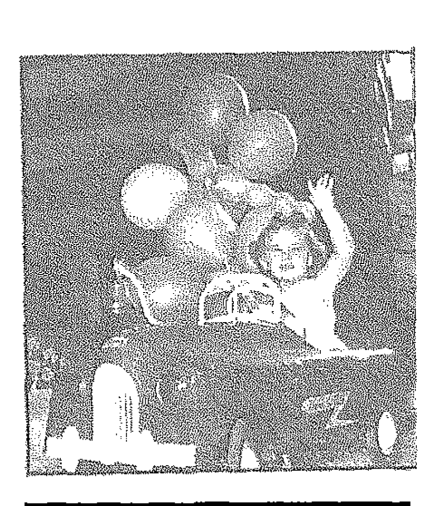
– لماذا تسبب الضحك فى حدوث حالة من الضيق لدى الركاب؟ ولماذا تضايقت أنا مبدئياً من جراء هذا الضحك ؟

– هل يستطيع أحد ان يشكو من ضحك الآخرين دون ان يصبح هو مدعاة للسخرية ؟

وتخيلت ان يصدر فى إحدى الصحف مقال فى هذا الشأن بعنوان :

«ايقاف المراهقين عندما يضحكون» يا له من عنوان مضحك !. ما وجه الخطأ فى الضحك حتى لو كان من النوع الصاخب ؟

ان الضحك موجود فى جميع الثقافات ، وقد وجهت طلاب فصلى إلى ضرورة التدرب على طرق الضحك فى الثقافات المتعددة ، بل إننى شعرت بالضيق حينما لم استطع تقليد ضحك قزم سمعته فى مكان معين ، ويا للأسف !!



أهمية الضحك

وفى هذا الصدد يمكن تعريف الضحك على انه :

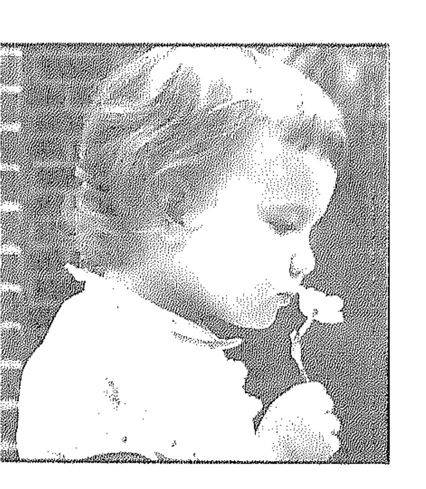
" اضطراب مبدع وحميد ، له تأثير فعال على الانسان ، وهو محاولة جيدة للتعارف من خلال المرح . إنه يختلف عن بعض الأشياء الاخرى غير المقبولة اجتماعياً مثل التهديد بالعنف أو العنف ذاته ، والرسم على الحوائط ، والموسيقى العالية ، والإعلانات المقززة، والتدخين ، ورؤية السكارى فى الشوارع ، ورائحة العطور النفاذة ، وهو من اكثر الاشياء المتاحة فى وسائل المواصلات " .

ويرى أحد علماء الصحة النفسية أن للضحك تأثيراً فعالاً على صحة الانسان ، فكثير من الامراض الخطيرة امكن علاجها

باستخدام الضحك على أفلام لوريل وهاردى وعروض الكاميرا الخفية .

ان كثيراً من المدرسين معرضون يومياً للعديد من الامراض ، وقد اصبت أنا شخصياً باكثر من نصيبى المعتاد من الامراض فى ظل الحياة العادية التى نحياها . ولربما كان من الأفضل ان نغير من حدة هذه الحياة بالضحك ، فهو تجربة مثيرة ومفيدة ، وأقل تكلفة من تكلفة الذهاب إلى الاطباء أو شراء الأدوية .

وانى لشديد الاعتقاد فى أهمية الضحك وقدرته على جعل الطلاب اكثر حرصاً على الانتظام فى الحضور داخل المدرسة ، وفى انه من افضل الاليات الدفاعية التى يمكن توظيفها للحد من انتشار العنف الى المدارس بين الطلاب . ومن ثم بدأت توجيه طلابى للضحك لوقت قصير قبل بداية الدرس كل يوم ، مع الغناء لدقيقة من أنشودة اخترناها من احدى مقطوعات موسيقى البوب .



وعلى الرغم من استمتاع كثير من طلاب فصلى بالضحك إلا اننى وجدت من بينهم بعض المعارضين لهذه الطريقة الجديدة فى التمهيد للعمل والدرس ، لكن سرعان ما زال هذا الاعتراض لينخرط هؤلاء الطلاب فى الضحك مع اقرانهم ، وعلى وجه العموم يمكن اعتبار هذا الاعتراض علامة صحية تعبر عما هو موجود من تباين فى الحياة والمجتمع بصورة طبيعية .

ومع مضى الوقت اصبح الطلاب مصدر تدعيم لى فيما أقوم به من تجارب تبدو وكأنها ضرب من الجنون الحميد ، كما ازدادت الثقة بينى وبينهم إلى الدرجة التى اصبحت افتقد المدرسة فى أوقات العطلة أو الاستجمام فى البيت ، وقد لاحظ الطلاب هذا على مزاجى أحياناً .

الضحك أحد معايير التقييم

وبعد فترة زمنية قصيرة قمت بإضافة عنصر الضحك كأحد معايير التقييم للطالب فى البطاقة المصممة لذلك والتى تحوى معايير اخرى مرتبطة بالتعاطف والتميز وتقدير الغير ، إلى غير ذلك من السمات الخلقية العامة التى تقع خارج نطاق تقييم العملية التعليمية

والحاصل باختصار ، لقد اختلف فصلى شكلاً ومضموناً عن الفصول الاخرى فى المدرسة ، فحينما تدخل إليه تجد جميع حوائطه وقد زينت باقتباسات مأخوذة من كبار الكتاب عن الضحك مثل :

" لا يوجد ضحك فى الحياة الآخرة " مارك توين

" الضحك هو وسيلة المجتمع لنموه وحمايته من التحجر " هنرى بيرجسون

" الرجل الذكى حينما يسمع نكتة سوف يضحك بصوت عال وإذا لم يضحك فهو ليس بذكى " فورمان

وبالإضافة إلى تلك الأقوال توجد معروضات من الرسوم الفنية لرسامة أمريكية شهيرة ، ولبعض الرسامين الاسيويين ، وللرسام سلفادور دالى ، كما توجد بعض الاجندات القديمة المستخدمة ، وبعض الخرائط لتطور شكل الأحذية عبر التاريخ ، وبعض الرسوم التاريخية عن لعب الأطفال على الرقائق المعدنية .

وعلى الرفوف تعرض بعض الاشياء الغريبة كأغطية العلب ، وطائرات للعب، وميزان قديم ازرق لوزن العيش الفرنسى ، وتجميعات من القبعات والأحذية والكور المختلفة ، وقشر جوز الهند ، وبعض اعمال الطلاب ، ومجموعة تليفونات مختلفة التطور وقطع عاج متنوعة ، وسمك منتفخ (محنط) ، يضاف إلى كل هذا (٥٠ ساعة) تقريباً متعددة الاشكال .



أهمية الضحك

وهذه الساعات أهداها لى بعض الطلاب والاصدقاء فقد كانت ساعة المدرسة كثيرا ما تخفق فى اعطائنا توقيتا دقيقاً ، ولذلك جرى إهدائى هذه المجموعة من الساعات ، وتشمل :

ساعة كوكو ، ساعة خروف ، ساعة مروحة ، ساعة حمام ، وساعة عكسية، وساعة صينية ، ومجموعة من ساعات اليد الضخمة ، كما توجد كذلك كثير من الأشياء التافهة والضئيلة من صناعة القرن العشرين .

وذات يوم زارنى عدد غفير من الآباء والمدرسين والاداريين بالمدرسة ، وشعروا بعدم الرضا والاضطراب واللخبطة للفوضى الظاهرة فى الفصل، وعدم تنظيمه واتساقه .

وعلى الرغم من الصعوبة التى وجدوها ليصنفوا أو حتى ليدركوا ما أقوم بتدريسه ، فإننى كنت مبتهجا وسعيدا ولم يتسبب ذلك في احداث اى ضيق لى .

ومع ذلك لم تكن جميع أمورى تسير على ما يرام ، فتقارير تقييمى المبكرة جاء بها عديد من التعليقات التى توجه إلىّ اللوم نظراً لحالة الفوضى التى تسود الفصل وعدم أحواله المنظمة ، كما دعانى نائب الناظر إلى مكتبه وأخذ يحذرنى مما اقوم به ، مع أنها جميعها امور طبيعية بالنسبة لى .

صندوق الكنوز الفكرية



ومع مرور الايام، وفجأة ، أخذت تختلف تلك الانتقادات والتعليقات ، لقد حدث ذلك مؤخراً بعد ان نشرت احدى المقالات لصحفى معروف اشار فيها الى تجربتى واثنى عليها ووصف فصلى كأفضل ما يكون فى مقال له بعنوان :

صندوق الكنوز الفكرية «الاعتبارية» المفترضة

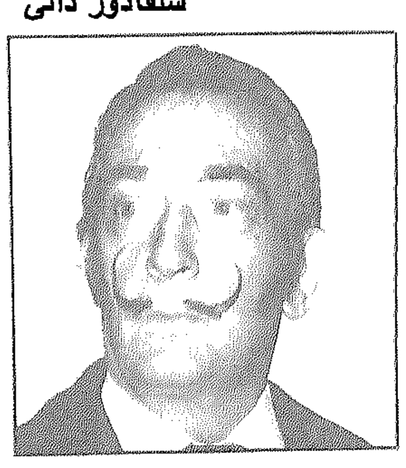
وقد اثر هذا المقال تأثيرا إيجابياً فى تحسين الصورة عن تجربتى ، وحولها فى نظر المسئولين الى شكل افضل له قيمته . وبذلك حسمت الامور لصالحى ، ووجدت ناظر المدرسة يثنى على فصلى وأدائى ، واعتبره بمثابة نموذج تفخر به المدرسة ، ويستحق ان يعرض كعمل ريادى على الشخصيات المهمة التى تزور المدرسة . ومن خلال هذا الفصل استطعت ان اضرب مثلا على اهمية التنوع وامكانيته فى قلب النظام ، كما يمكن من خلاله التأكيد على اهمية مرونة المبادئ وتوظيفها فى ظل رؤية واضحة مسبقة ، وان المبادرة الفردية ليست بالضرورة رداً لفعل ، أو ثورة على لفت نظر ، أو تحطيماً للقيود. لم يكن الهدف فى فصلى (فوضى الضحك) رداً على التحذير الذى وجه إلىّ فى تقارير تقييمى او عما وجهه إلىّ نائب الناظر ، بل انه نتاج تفكير متعمق ناقد لما نقوم به بصورة يومية وبشكل آلى لما يسود مجريات الحياة المدرسية . واستطاع هذا التفكير ان يصل الى درجة النضج ، حين توافرت لحظة الالتباس فى المواقف ، فاللبس يقود الى التفكير ، والضحك كان من العوامل التى وجهتنى الى التفكير .

توقف الترام اكثر من مرتين ، وظلت الفتاتان تضحكان الى الحد الذى جعلنى احترم قدرتهما على الضحك ، بل وابتسم معهما كما فعل باقى الركاب كذلك . وهنا ادركت ان الضحك والمرح وعدم الاتساق والمفارقات والحس العبثى جزء لا يتجزأ من حياتى ، ومن يُمن الطالع ان هذا التكوين ساعدنى على تنمية مهادرتى فى التعليم، وبخاصة فى التعامل مع المراهقين من الطلاب .

لذلك يؤكد عدد من كبار الاساتذة على اهمية تنمية روح المرح لارتباطها بارتفاع نسبة الذكاء، واكتشاف وصقل الموهبة ، والقدرة على الابداع ، وهو ما دفعنى لتوجيه طلابى لهذه الملحوظة من ممارسة الضحك بأى صورة من صوره.

ونظرا لأهمية تنمية روح المرح من قبل كبار الاساتذة ، فقد نظمت مدرسة المقاطعة مؤتمرا للمرح ، وتوقعت بما يشبه اليقين ، انه سوف يبعث على الملل كأغلبية الاعمال التى تقوم به مدرسة المقاطعة ، الا ان هذا لم يتحقق، بل على العكس من ذلك جاء كأفضل مؤتمر قامت به مدرسة المقاطعة ولم ينافسه فى الافضلية غير مباريات كرة السلة ذات الاقبال الكبير ، ويمثل هذا المؤتمر فى رأيى امتع المؤتمرات التى عقدتها مدرسة المقاطعة التى حضرتها خلال ٢٦ عاماً كمعلم فى المدارس العامة فى سان فرنسيسكو .

سلفادور دالى



أهمية الضحك

وبعد كل هذه التموجات والسياحات الفكرية التى استعرضتها تظل التساؤلات الاولية التى بدأت بها حول الفتاتين : ماذا عنهما ؟ أيكون ضحكهما مجرد تهريج ؟

أم هو تعبير مبدع عن بعض مشكلاتهما الاجتماعية ؟

أم هو موقف تشخيصى لانهما من طلاب الدراما ؟

أم هو مجرد تفاهة وفقدان للهدف ؟

لقد ثار لدى عديد من التساؤلات ، بيد انى لم استطع ان اعرف او احدد اى اجابة قاطعة لاى منها ، غير انى مازلت فترة افكر واستغرقت فى الضحك مدة طويلة مع الفتاتين على الرغم من محاولتى التماسك والهدوء .

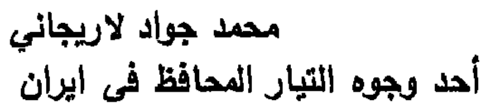
وبعد عشر دقائق من الصرخات الضاحكة لهاتين الفتاتين ، غادرتا الترام ، وقد تملكهما العجب لما وجهته لهما من كلمات الشكر على ما صدر منهما من ضحك .

أقوال معاصرة



نجيب محفوظ

● «ليس ثمة ما يحول دون إجراء محادثات مع الشيطان إذ كان الامر يخدم مصالحنا»



محمد جواد لاريجاني

أحد وجوه التيار المحافظ فى ايران

● «فى السودان نسير إلى المجد فى دائرة».

الكاتب السودانى محمد ابراهيم الشوش



محمد ابراهيم الشوش

● «العالم يتقدم، وتركنا حيث نقف»».



الاديب نجيب محفوظ

● «إسرائيل عاجزة عن الضم أو الانسحاب، ولذا تذهب إلى الانتخابات.

الصحفى اللبنانى جوزيف سماحة

● «الشيخوخة هى الجنازة الوحيدة التى يمشى فيها الفقيد على قدميه»..

الأديبة غادة السمان



غادةالسمان

● «لولا أن الله يحب ابناء النوبة، ما أعطاهم كل هذا الجمال».

المخرجة الألمانية ليني ريفنشتال

ولها من العمر الآن ثمانية وتسعون عاما

●«الأجدر بالانتخابات الأمريكية أن تكون قدوة ، لا موضوع إستهزاء»».

المفكر حسن منيمنة

● المدهش المريع فى الأمر ان يكون چورج بوش الابن مرشحا للرئاسة، رغم انه لا يساوى شيئا، ومهرج من النوع الذى لا نحتاج اليه».

وود آلن

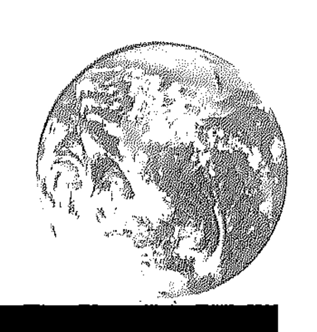
الممثل والمخرج الفائز باوسكار



وود آلن

●«يبدو أن الكتاب العرب لا يجدون فى حيواتهم ما يصلح للكتابة ويظنون أن القارئ لا يهتم بذلك».

المفكر المغربى حسين بن حمزة



وداع قرن .. واستقبال قرن جديد

يصف الكثيرون ، مؤرخون وسياسيون وعسكريون القرن العشرين بأنه كان أشد القرون وحشية ودموية ، فى التاريخ القديم والوسيط والحديث ، فقد تخللته حربان عالميتان وانتهى القرن بأن هيمنت دولة واحدة على مقادير العالم وعندما انهار الاتحاد السوفيتى أعلن نهاية التاريخ وظهرت لافتات مثل التكيف الهيكلى .. العولمة .. الخصخصة

وهذه إطلالة على ابرز معالم القرن العشرين

اعداد
محمود قاسم
أمانى عبد الحميد


LA POLITIQUE
SUR NOTRE VENTRE

موسكو
انهيار الشيوعية



القيصر
نقولا الثانى

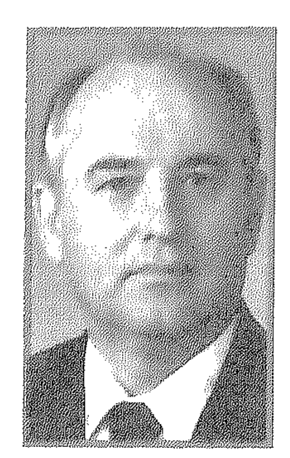
وسط تصفيق العالم له وبعد تتويجه بجائزة نوبل للسلام انهار فوق رأسه عالمه القديم وظل جالسا على أطلاله وحيدا ..

ميخائيل جورباتشوف آخر زعماء ماكان يسمى بالاتحاد السوفيتى القديم «١٩٨٥ - ١٩٩٠» دخل التاريخ على أنه شيوعى يسعى إلى تحديث الشيوعية لتوائم أحوال العالم لكنه أعلن سقوط قلعة الشيوعية وزوال الاتحاد السوفيتى من على خريطة العالم السياسية قال عنه الأمريكيون وزعماء أوروبا بأنه أعظم زعماء العالم فى القرن العشرين .

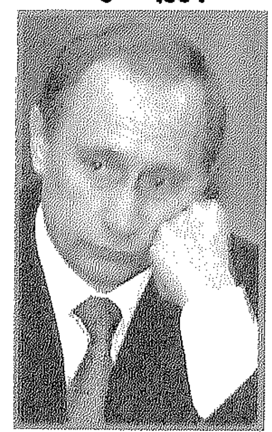
فهو الذى سحب القوات السوفيتية من أفغانستان فى ١٩٨٩ ، وألغى ميثاق بريجنيف حول أمن المنظومة الإشتراكية ، وحث ألمانيا على فتح حدودها ثم صرف النظر عن الاعتراض على الوحدة الألمانية ، وبالتالى انهيار سور برلين والستار الحديدى عام ١٩٨٩.

وقام بأهم خطوة تاريخية وهى إلغاء احتكار الحزب الشيوعى للسلطة وتأييد إقرار تغييرات شاملة تهدف إلى التحول إلى الاقتصاد الحر فى عام ١٩٩٠ وبالنظر فى التاريخ الروسى نجده تاريخا دمويا طويلا مليئاً بالقلاقل والثورات والحروب الدامية فبحركة دموية قام بها الشيوعيون نجحت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ فى اسقاط القيصرية الروسية وإنشاء أول نظام اشتراكى فى تاريخ البشرية . وبالرغم من صمود هذا النظام أمام العديد من العقبات والتحديات أهمها الحرب العالمية الثانية واعتبار هتلر أن هجومه على الاتحاد السوفيتى أساس استراتيجيته للهيمنة على أوروبا والعالم ، لكنه فشل فى معالجة أسباب زواله والتى نبعت من داخله فهو نظام قام على سحق الفرد والعصف بالحريات العامة وتركيز السلطة فى يد شخص واحد الأمر الذى أنتج فسادا كاملا وشاملا فى المجتمع .

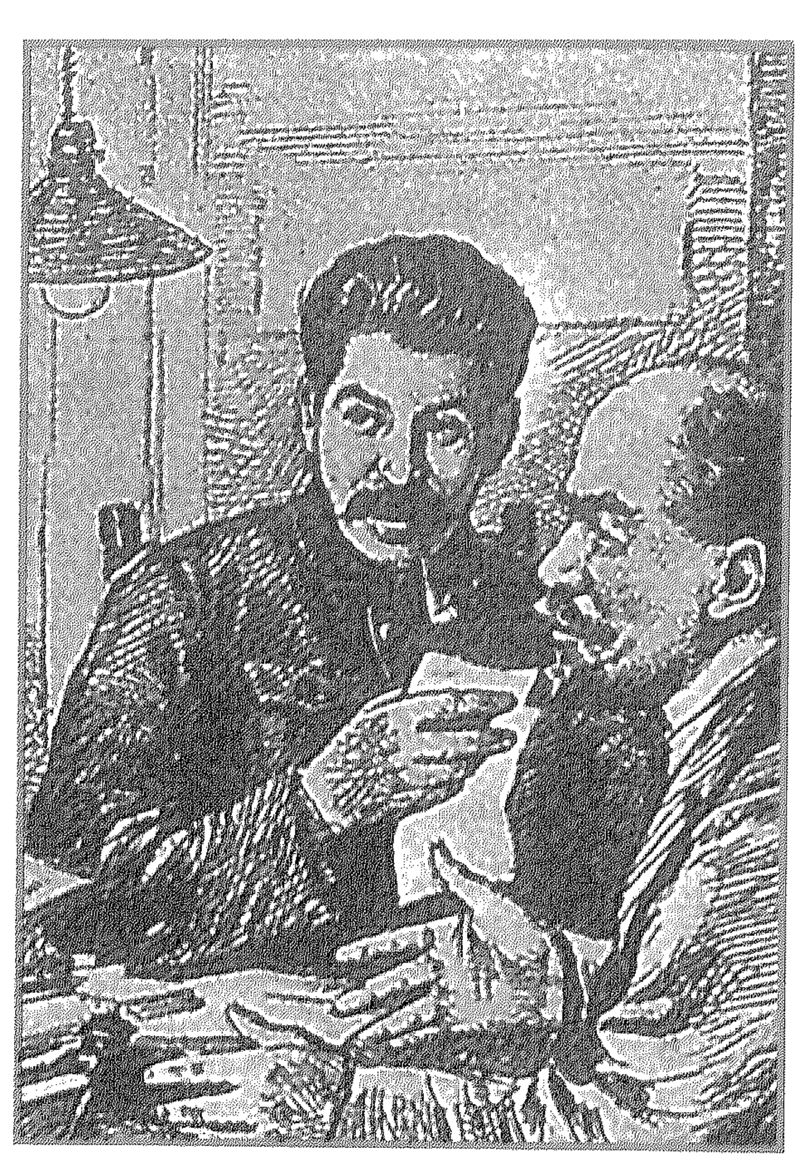
وبعد مرور أكثر من سبعين عاما على قيام الثورة البلشفية تتصاعد الأوضاع المتردية إلى ذروتها وتظهر حركات تهدف إلى ايقاظ القضية القومية من سباتها ويستشرى الخلل فى نظام الدولة ويتضخم حتى يصل إلى الهاوية .. فمن داخل جمهورية



جورباتشوف



بوتين



لنين وستالين

كازاخستان تقوم انتفاضة صغيرة «الما - آتا» لم تستمر سوى يوم واحد ولم تسفر عن عدد يذكر من القتلى والجرحى لكنها كانت بمثابة الشرارة التى أدت إلى اندلاع اللهب فى طول البلاد السوفيتية وعرضها وحولت المعسكر الشرقى إلى وحدات دومينو متراصة تسقط الواحدة تلو الأخرى . فانهار الاتحاد السوفيتى وتفتت إلى خمس عشرة دولة ضعيفة تبيع ما تبقى لديها من سلاح الماضى . كما انهار حلف «وارسو» الذى كان ذا هيبة عسكرية تثير ذعر قوات حلف شمال الأطلنطى . وتحولت دول الكتلة الشرقية إلى دويلات لا حول لها ولا قوة !

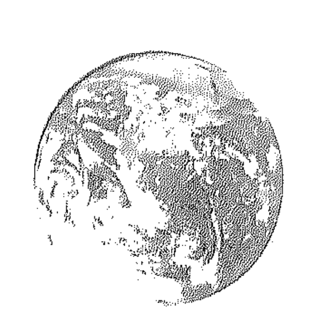
هذا ليس فنا .. إنه شخبطة ..

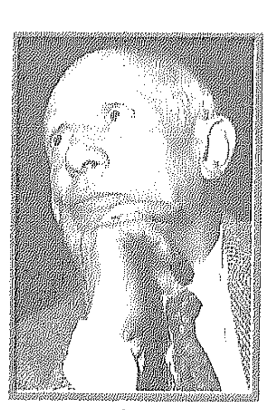
وكانت هذه الشخبطة هى الفيصل الرئيسى بين عصرين من الفن التشكيلى ، عصر الرؤية الذاتية للفنان ، وعصر انقضى كان الرسام البارع فيه ينقل الواقع بنفس الصورةالتى صارت آلات التصوير «الكاميرا» تقوم بها .

باريس ، هى أهم مدينة شهدت هذا التحول وقد بدأت الحكاية على يدى سيزان الذى قال عما يرسمه : إنها انطباعاتى ... ما أشعر به ... ومن يومها قرر الفنان التشكيلى أن يضع ذاته فى اللوحة ، أن يغير مناظير الكون التقليدية، مردداً كانت الكلاسيكية ذات يوم ثورة ، فلماذا لا ينتهى دورها ..

أحد النقاد، ردد ذات يوم ، وهو يشاهد اللون الأحمر طاغياً : إنهم وحشيون ... وبدأت المذاهب التشكيلية فى الظهور ، لا يهم كم يطول عمرها، المهم أن تشارك معانى تحطيم جميع صور التقليدية، قرر بيكاسو أن يرسم الاشياء من خلال خطوط متداخلة ، واطلقوا على رسومه «التكعيبية» وضع البعض شاربا كثيفا فوق أنف «الجيوكندا» محاولين أن يروا الابتسامة أسفل شارب واطلقوا على أنفسهم اسم «الدادية» ، وردد سلفادور دالى مشيرا إلى واحدة من لوحاته الأولى : رسمتها وأنا أحلم ... كنت أنذاك مستيقظا» وأطلقوا على ما يرسمه بالسريالية ، وقام آخرون بتجريد اللوحات من العناصر الحية وصارت تركيبات لونية على المرء أن يشاهدها حسب ذاتيته ، والحالة النفسية التى يعيش فيها .

هذه الصدمة، لم يستوعبها الكثيرون فى البداية ، وكان لابد لهؤلاء الفنانين أن يفلسفوا لوحاتهم ، وأن يظهر جيل من النقاد يدافع عن هذه الرسوم ، وصار القرن العشرون بمثابة جلسة مواجهة حقيقية بين عشاق الماضى، وهؤلاء الذين يغيرون ايقاع الحياة ، قال المعارضون أن الفنانين الجدد (المخربين) يجيدون رسم التفاصيل ، مثلما كان يفعل جويا ورمبرانت، ورفائيل ، وردد الفنانون دون النظر إلى الخلف : غير مطلوب منى أن أفهم نفسية الشخص الذى أتحدث إليه، وأنا أدقق فى ملامح أصابعه : العروق البارزة، الاظافر الطويلة ، أو شقوق مسام

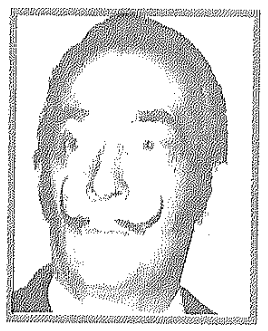




بيكاسو



لوحة لبيكاسو



سلفادور دالى



لوحة لسلفادور دالى

الاصابع.. تكفى كلمة واحدة منه كى أفهمه بالكامل ..

وتوارى الكلاسيكيون ، وتقدم المجددون ، ونجحوا فى أن يكونوا سمة القرن العشرين. غيروا فى ايقاع الألوان، والنسب فيما بينها، ونقلوا فنونهم إلى ملابس الناس، وديكورات البيوت ، وشكل الميادين أثناء الاحتفالات ، وشيئاً فشيئاً ، صاروا هم بدورهم تقليديين ، ولم يعد العصر يشهد الجديد، وعادت الكلاسيكية مرة أخرى على استحياء مع نهاية القرن ، وظهرت فنون جديدة اليكترونية ، ستختلف حولها الآراء فى القرن الجديد ، وستكون خصومات ، وحوارات .. وتستمر الحياة ، بأشكالها المتجددة .

ستكهولم

الديناميت يتفجر بالكتب

هل انفجر أصبع ديناميت واحد . كى يسفر عن كل هذه الجوائز الأدبية والعلمية فى القرن العشرين .

الاجابة حتما : نعم ، فبعد أن أحس ألفريد نوبل بفداحة سوء استخدامه اختراعه «الديناميت» الذى نسب إليه، ورصد ثروته لمنح جوائز للمتفوقين فى الطب ، والأدب ، والطبيعة ، والكيمياء، والذين أدوا دوراً جليلا فى خدمة السلام العالمى .

بعد هذا الإحساس، وبعد رحيل نوبل ١٨٩٦ ، منحت أهم جائزة فى القرن العشرين لأول مرة وتولدت ظاهرة الجوائز الأدبية والعلمية، وصارت الجوائز بمثابة مرآة العطاء، وتتويجا للموهوبين ، وكان الأدباء هم أكثر المبدعين حظا، حيث منحت لهم الجوائز فى كل بقاع الأرض، واكتشف الناشرون أن حصول أديب على جائزة مرتبط فى المقام الأول برواج الكتب ، على مستوى القراء وايضا رواج الكتابة عن هذه الكتب الفائزة فى الصحف ، لذا لم يكن غريبا أن أسماء صحفية قد أسست أشهر الجوائز الأدبية فى العالم ، ومنها الإخوان جونكور، التى منحت جوائز أدبية تحمل اسمها فى فرنسا منذ عام ١٩٠١ ، وأيضا بوليتزر الصحفى الذى خصص أموالا طائلة لمنح الجوائز السنوية فى عدة أفرع متعلقة بالصحافة أشهرها جائزة الرواية ، التى منحت لأول مرة عام ١٩١٨ .

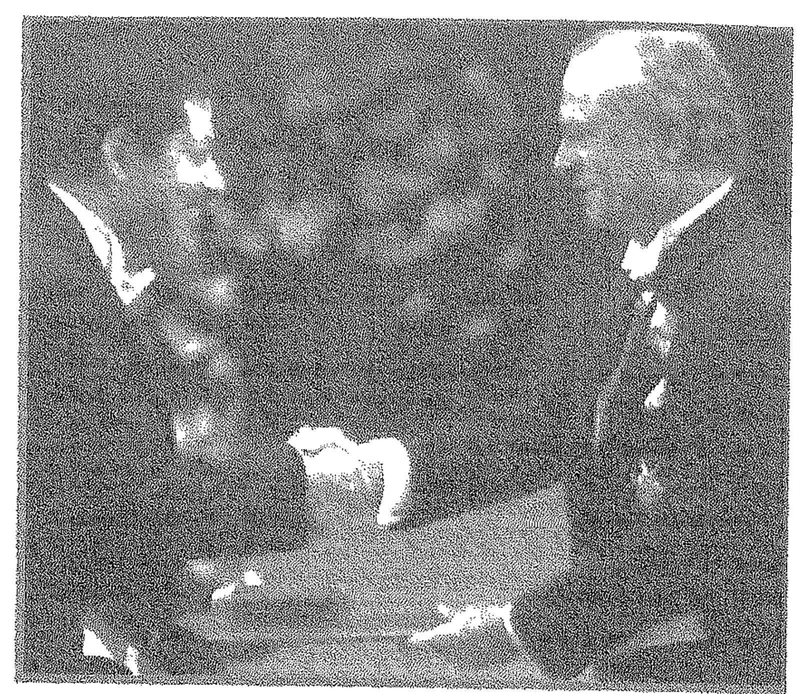
وصارت قوة الابداع تقاس فى المقام الأول، بقوة الجوائز التى تمنح فى دولة ما، فقوة الجائزة تعكس أن هناك العديد من الروايات ، أو الكتب التى تستحق الترشيح، ومن بينها تتم التصفية لاختيار رواية واحدة، بما يعنى أن هناك على الأقل عشرة كتب تصدر سنويا، تستحق المفاضلة فيما بينها، وأن هناك كتابا على الأقل، هو الفائز بالجائزة، يستحق القراءة ، وفى بعض الدول زاد عدد الجوائز المهمة إلى أكثر من عشرين جائزة ، تنسق فيما بينها حتى لا يفوز نفس الكتاب بجائزتين ، ولعل هذا يعكس الكم الكبير من الكتب الجيدة التى تنشر سنويا ...



وصار لكل دولة جائزة مهمة ، غالبا ما تحمل اسم أديب مرموق ، من التاريخ مثل جائزة «ثربانتس» مؤلف دون كيشوت - فى أسبانيا، وجائزة جورج بوشنر - الكاتب المسرحى - فى



الفريد نوبل



د. زويل يتسلم جائزة نوبل

المانيا ، وجائزة مونديللو الايطالية .

وانتقلت هذه الظاهرة إلى مصر ، والوطن العربى ، بدأت فى الخمسينات من خلال المؤسسات الحكومية ، وأطلقت عليها تسميات غريبة «جائزة الدولة التشجيعية» ، «وجائزة الدولة التقديرية»، ثم اكتشف الأثرياء ، أنهم يمكنهم منح جوائز اعلى قيمة مادية، وسميت بعض الجوائز بأسماء حكام - وجوائز أخرى باسم مانحيها ... وصارت المؤسسات الخاصة أو العامة التى لا تمنح جوائز كأنها رجل عقيم بلا جدوى، أو امرأة لا تحمل فى بطنها جنينا..

البداية كانت بانفجار ديناميت، والظاهرة الآن تتفجر بالتكريمات ، والمنافسات ، وهى على كل ظاهرة ايجابية ، مهما شابها من سلبيات .

هوليوود حـــاســـة جـــديدة للمسلسلات التليفزيونية

ليس الحدث المهم فى القرن العشرين، هو قيام جون بيرو باختراع التليفزيون عام ١٩٣٦ ، ولكن ما فعله هذا التليفزيون فى وجدان الناس مع مرور السنين..

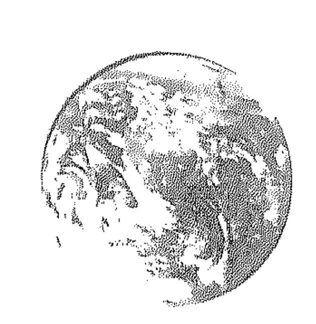
ينقل التليفزيون الأخبار، والمباريات ، ويذيع الأفلام، وكان عليه أن يصنع دراما خاصة به بدت فى السنوات الأولى أقرب إلى الاذاعة المصورة ، منها إلى أفلام السينما، وذلك لاعتبارات خاصة بتقنية التصوير، وتطورت الآليات ، لكن أفلام ومسلسلات التليفزيون لم تطال ابداع السينما ، الذى تطور إلى السينما سكوب، والأصوات المجسمة .

لكن ، نقطة التحول الحقيقية فى القرن العشرين هى ظهور مسلسلات التليفزيون الضخمة المعروفة باسم "Soapopera" أو أوبرا الصابون ، حيث استطاع مؤلفوها أن يقفوا ضد جميع إغراءات السينما وأن يشدوا انتباه المتفرجين ، كى يترك كل ما لديه لمدد قد تزيد على العام ، من أجل رؤية حلقات تحكى قصص الأثرياء، بصفة خاصة وسط أساليب حياة معقدة، ومتشابكة ، تثير الدهشة دوما بما تحتويه على قدر هائل من العلاقات المنوعة ، التى تثير دهشة المتفرج ، وتصدمه ، لكنها لا توقفه عن الفرجة، بل تدفعه إلى المزيد من المشاهدة .

حدث هذا فى مسلسلات من طراز «دالاس» «الجرىء والجميلات» ، التى تضم أجرأ قصص الحب، وأجمل النساء، وتصور مجتمعات فردوسية المكان جهنمية العلاقات .

وقد غيرت هذه المسلسلات من آلية المشاهدة لدى المتفرج العالمى ، وسعى المؤلفون إلى إيجاد المزيد من هذه العلاقات المحرمة، من أجل إثارة المزيد من الدهشة ، ووصل عدد الحلقات فى بعض المسلسلات إلى عدد أيام السنة .

وفى مصر، والعالم العربى ، سرعان ما انتقلت هذه الظاهرة ، وكان لابد من كتاب موهوبين يمكنهم استيعاب هذا





لقطة من مسلسل أجنبى



أسامة أنور عكاشة

محفوظ عبد الرحمن

التحول ، والكتابة على نفس الايقاع، من أجل إثارة الدهشة بصفة دائمة، وحدث هذا فى المقام الأول فى المسلسلات التاريخية ، والاجتماعية التى كتبها كل من أسامة أنور عكاشة ، ومحفوظ عبد الرحمن ، وغيرهما .

وفى شهور رمضان من السنوات الأخيرة، تحول الكثيرون من المشاهدين العرب إلى كائن مرتبط بشكل غريزى بمسلسلات التليفزيون الكثيرة الأحداث ، الطويلة الايقاع، والمزدحمة بالعلاقات والأزمنة ، وصار المشاهد يتنقل طوال ساعات النهار والليل من مسلسل إلى آخر، دون إحساس بالملل ، يعرف جيداً كيف يفرق بين كل هذه القصص، ويحفظ أسماء الشخصيات ، وينتظر مصائرها ... وكأنه واحد منهم .

نيويورك

جيتس وثورة المعلومات



بل جيتس

شهدت الخمسينات فى القرن العشرين ولادة ثورة تكنولوجية واسعة النطاق، جاءت كثمرة نتاج علوم الفيزياء والرياضيات والهندسة الألكترونية . وعلى مدى نصف القرن الأخير ارتقت التكنولوجيا المعلوماتية بصورة غير مسبوقة خلال سلسلة من التطورات التقنية فى نظام الحاسبات الآلية أو ما يطلق عليه الكمبيوتر ، وأصبح الاتجاه السائد هو الاتجاه صوب كل ما هو أصغر وأسرع وأكفأ والأهم من ذلك صوب الأرخص والأسهل استخداما .

ونجد أن أهم شخصية أثرت فى مجال الكمبيوتر هو «بيل جيتس» الذى اعتلى عرش أكبر امبراطورية برمجيات كمبيوتر فى العالم وهى شركة المايكروسوفت الامريكية ، وأصبح أغنى أغنياء العالم حيث جمع ثروة تقدر بـ ١٠٠ مليار دولار بذكائه الحاد وعبقريته الفذة في مجال الكمبيوتر . ابتكر برامج تشغيل الحاسبات الشخصية المعروفة باسم «دوس DOS» والتى سهلت انتقال العالم فى حقبة الحاسبات الكبيرة إلى ما يطلق عليه «المين فريم» "Mean Fram" " إلى حقبة الحاسبات الشخصية . ثم قام بإحداث ثورة جديدة بتحويل التعامل مع الكمبيوتر الشخصى فى نظام «الدوس» إلى أنظمة تشغيل الويندوز والتى سهلت عملية استخدام الكمبيوتر بالاعتماد على نوعيات بسيطة من الرسوم والرموز ، وهو الأمر الذى زاد من سرعة الكمبيوتر من آلاف العمليات الحسابية فى الثانية الواحدة إلى سرعة «الناتوثانية» أو بلايين العمليات فى الثانية الواحدة وبالتالى تقلص حجم الكمبيوتر الذى كان يحتل مساحات ضخمة ويتسم بالبطء الشديد فى استرجاع المعلومات فى الستينات وتحوله إلى أجهزة شخصية قد يصل إلى حجم راحة اليد وأصبح مستخدموها مئات الملايين من البشر.

ويرى جيتس «أن شبكة الإنترنت ما هى إلا خطوة صغيرة نحو الغد» حيث أن نظام «الدوت نت» وهو نظام يشمل طيفا واسعاً من نظم التشغيل يصنع عالما جديدا منفتحا وقادرا على التفاعل الكامل عبر الإنترنت وشبكات المعلومات .. وهو محاولة للانتقال بعالم الانترنت إلى حقبة جديدة تفوق حقبة التجوال والتصفح على الشاشة بل يدخل إلى التفاعل القائم على الأخذ والرد وبناء مواقع ذكية قادرة على التحاور والتفاعل مع الشبكة من خلال الصوت والصورة وبالتالى فإن «الدوت نت» المعلومات لمن يطلبها فى الوقت والمكان الذى يريده وبالشكل الذى يرتضيه.



فيينا

فرويد والتحليل النفسى



سجموند فرويد

كان لأبحاث سجموند فرويد الفضل الأول فى كشف الستار عن كثير من الحقائق السيكولوجية المهمة التى ساعدت على فهم أسباب الأمراض النفسية التى حيرت الأطباء عبر العصور. فبعد أن كان المريض النفسى يتعرض للعزل أو الموت أو حتى الحرق فى الشوارع للاعتقاد أنه يحمل مسا شيطانيا داخله أسس «فرويد» مدرسة للتحليل النفسى فى عام ١٩٢٦ التى أثرت بشكل كبير على علوم الطب النفسى وأثارت اهتمام الأطباء وعلماء النفس ووجهت أبحاثهم إلى ميادين جديدة من البحث العلمى .

ويعتبر «فرويد» أول من قسم عقل الإنسان إلى جزءين : العقل الواعى الذى يفكر به، والعقل الباطن أو اللاشعور الذى تستقر فيه الأمور عن غير قصد وتؤدى إلى ترسيب العقد . وكان علماء النفس من قبله يقصرون أبحاثهم على العمليات الشعورية فقط. كما اكتشف أهمية الكبت ، وبين الدور الخطير الذى يقوم به فى إقصاء كثير من الخبرات النفسية المؤلمة أو المخيفة عن دائرة الشعور . وشرح بجرأة شديدة تطور الحياة الجنسية عند الانسان إبتداء من الطفولة المبكرة حتى بلوغ النضج التناسلى .

وفى عام ١٩٢٦ أصدر كتابا عن «القلق» قام فيه بتحليل مشكلة القلق تحليلا علميا دقيقا وبين كيف ينشأ القلق فى الأصل عن الرغبات الجنسية غير المقبولة . وقد أوضح لأول مرة الدور المهم الذى يؤديه القلق فى نشوء الأمراض النفسية .. ويعتبر «فرويد» مكتشف عقدة «أوديب» التى ترجع بعض الاضطرابات النفسية فى الكبر إلى تعلق الطفل الشديد بأمه وغيرته من الأب واضطراره لكبت هذه المشاعر . وهى العقدة التى أصبحت أشهر مرض نفسى فى التاريخ . وقد تعالت أصوات مع بدايات الثمانينات فى القرن العشرين تطالب بإقصائه عن عرش التحليل النفسى . حيث واجهت نظرياته العديد من الانتقادات والاتهامات أبرزها اتهامه بإتخاذه من الجنس محورا لتفسير الكثير من الأمراض النفسية . واتهامه بأنه لم يكن يصف ما تعانيه البشرية من أمراض بل ما يعانيه هو من أمراض نفسية .

باريس

امـــــرأة متـــحـــررة جـــــدا

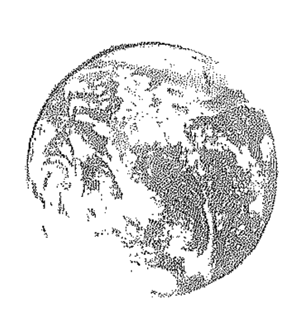


سيمون دى بوفوار

بنازير بوتو

«الجنس الثانى» كتاب لسيمون دى بوفوار صدر فى منتصف القرن العشرين ليغير كثيراً من المفاهيم السائدة آنذاك حول قضية تحرير المرأة، وحول الدعوة النسائية من مجرد المطالبة بحق التعليم أو العمل الوظيفى والسياسى إلى حقوق تتعلق بوضعها داخل الأسرة والمجتمع بل تمتد إلى حقوق أكثر تحررا خاصة فى المجتمعات الغربية.

تصاعدت النداءات بإطلاق الحريات للمرأة مثل حقها فى الاجهاض، أو منح اسمها لأطفالها، وفى ممارسة الحرية الجنسية دون الالتزام بإطار الزواج ، والعيش بمفردها وتحقيق الاستقلالية الشخصية بعيدا عن مجتمع الرجل. واجتاحت العالم حركات التحرر النسائية Feminism لتطالب بالقضاء على القديم وخلق أوضاع جديدة ترتضيها المرأة لنفسها. وتتويجا لجهود المرأة أقرت الدول الاسكندنافية قانونا جديدا يسمح بإعطاء الرجل أجازة تفرغ لرعاية الأسرة ليتيح للمرأة ممارسة العمل العام دون ضغوط أسرية. وبالنظر فى التاريخ نجد أن المرأة كافحت منذ بدايات القرن من أجل الحصول على حق الانتخاب والتصويت وبالتالى العمل السياسى ودخول البرلمان . ونجحت فى إصدار قانون يمنحها ذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٢٠، وفى فرنسا عام ١٩٤٤، وفى مصر عام ١٩٥٢ فى أعقاب ثورة يوليو، تمكنت المرأة المصرية لأول مرة من دخول البرلمان بفوزها فى انتخابات عام ١٩٥٧





أنديرا غاندى　　مارجريت تاتشر　　راوية عطية

وهما «راوية عطية شمس الدين» و«أمينة أبو العز شكرى» ، وكان قد ظهر في عام ١٩٤٢ أول حزب نسائى مصرى برئاسة فاطمة راشد للدفاع عن حقوق المرأة السياسية والاجتماعية .

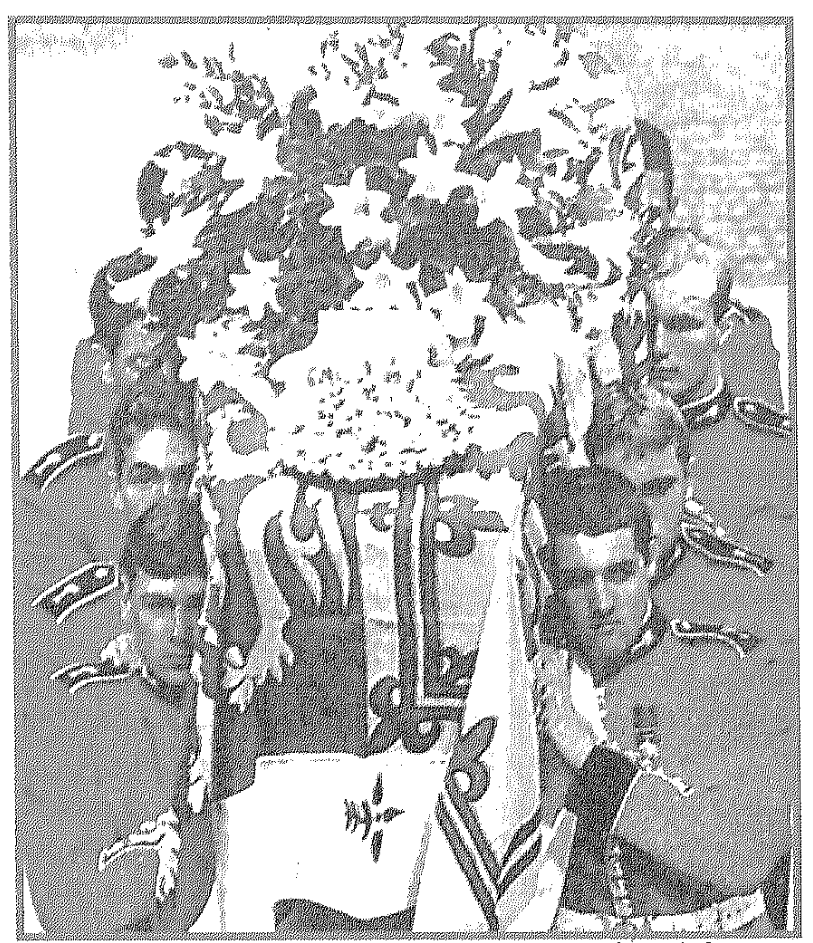
وعلى الساحة الدولية تمكنت المرأة من انتزاع بعض المناصب القيادية من الرجل ومثال ذلك مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا أو المرأة الحديدية التى فرضت الليبرالية الاقتصادية فى بلادها، وسيمون فيل أول رئيسة للبرلمان الأوربى والتى ذاع صيتها بعد مطالبتها بحق المرأة فى الاجهاض فى فرنسا حتى صدر القانون يحمل اسمها «قانون فيل» واونج سان سوكى الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩١ لنضالها للحرية والديمقراطية فى بورما. وأنديرا غاندى أول رئيسة وزراء للهند وبنازير بوتو رئيسة وزراء باكستان وكورى أكينو رئيسة وزراء الفلبين .

وعلى الصعيد العربى وفرت معظم الدول للمرأة حق العمل السياسى ومباشرته عن طريق الأحزاب والجمعيات الأهلية وعضوية البرلمان فظهرت المرأة الوزيرة والسفيرة والنائبة البرلمانية .

وفى مجالات الإبداع الفكرى حققت المرأة بعض الانجازات الملموسة وإن كانت نسبة المبدعات والمشتغلات فى مجالات الكتابة أقل بكثير من نسبة الرجال. وأشهرهن الكاتبة الفرنسية «فرانسواز ساجان» التى أكملت مسيرة «دى بوفوار» وصاحبة رواية «صباح الخير أيها الحزن» التى ترجمت لمعظم لغات العالم .

بريطانيا

فرد واحد يسيطر على ملايين البشر



جثمان الأميرة ديانا محمولاً من رجال الحرس الملكى

صحافة القرن العشرين.. عالم مثير شغوف لا يهدأ دائما فى حالة ترقب يسعى وراء المتاعب وكل ما هو جديد.. قال عنها «فولتير»: إنها آلة يستحيل كسرها تعمل على هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشىء عالما جديدا». أطلقوا عليها السلطة الرابعة لكنها فى الواقع هى قوة من أعتى القوى، لديها القدرة على كشف الحقائق ومواراة بعضها، وتضخيم بعض الأمور وتهوين بعضها لتوجيه الرأى العام نحو اتجاه معين.. فيرى «بوف ميرى» مؤسس صحيفة «لوموند» الفرنسية «أنها توفر للقارىء العناصر التى تمكنه من الحكم على الأمور والوصول إلى فكر معين»، وعلى مدار القرن العشرين تحولت دور الصحف إلى مراكز قوى لها يد طولى فى تغيير كثير من الأحداث. فظهرت التكتلات الصحفية الضخمة التى يملكها شخص واحد يسيطر على كل ما يقرأه ملايين من البشر وبالتالى توجيه الرأى العام نحو ما يرتضيه من قضية بعينها



مـثل «روبرت مـردوخ» ملك الصـحـافـة الاسـتـرالى الذى يملك «التـايمز» و«صنداى تايمز» و«صن» ، وروبيـرت مـاكـسـويل صاحب الصحف الشعبية «الديلى ميل» وهو يهودى من أصل تشيكوسلوفاكي ومعروف بمحاباته لإسرائيل . وفى فرنسا روبيـر هيـرسـان الذى يمتلك «الفـيـجـارو» و«فـرانس سنوار» و«الأورور» فضلا عن حوالى اثنتى عشرة صحيفة إقليمية وعشرات المجلات المتخصصة . وأبرز دليل على مدى قوة الصـحـافـة خـلال القـرن الماضـى نجـاح جـريدة «الواشنطون بوست» فى إسقاط الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون فى أغسطس عام ١٩٧٤ بعد نشرها سلسلة من التحقيقات التى كشفت عن تورطه فى فضيحة «ووترجيت» والتى نالت عنها الجريدة جائزة بوليتزر الصحفية.

كما شهد القرن الماضى ظهور أشكال جديدة من الصحافة مثل الصحف المتخصصة كالصحف الرياضية والفنية والسياسية ، ومثل صحف الإثارة التى حققت شعبية عالية بين القراء ويطلق عليها صحف «التابلويد» ذات الحجم النصفى وتهتم بنشر الصور الفوتوغرافية المثيرة وأخبار الحوادث الغريبة وأخبار الفضائح مثل «الديلى ميرور» و«الديلى إكسبريس» و«الديلى ميل» فى بريطانيا ، و«ذى نيويورك ديلى نيوز» فى الولايات المتحدة الأمريكية. وواجهت صحافة التابلويد اتهامات بدخول غرف النوم وهتك الأعراض والنبش فى حياة المشاهير واختلاق قصص الفضائح لاغراء القراء بشرائها وزيادة أرقام التوزيع.

ولعل الأميرة «ديانا» أشهر من كتبت عنها صحف الإثارة منذ بدء مراسم زواجها من الأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا فى عام ١٩٨١ حتى لقيت حتفها مع عماد الفايد فى حادث سيارة بباريس فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٧ وهى تحاول الفرار من مطاردة المصورين الصحفيين لها.

وتلاحقت عملية التغيير على شكل الصحف وإخراجها وأسلوب كتابتها .. فظهرت الصور الصحفية المرافقة للموضوع وتخلى الصحفيون عن أساليب المط والإطناب فى كتاباتهم واتجهوا إلى الأسلوب الموجز أو ما يطلق عليه «السهل الممتنع». كما استخدمت الصحف الأقمار الصناعية فى نقل الصفحات الملونة إلى أماكن طبع أخرى مما مكنها من طباعة الصحف فى أماكن متفرقة فى العالم وبالتالى قراءتها فى يوم إصدارها نفسه.



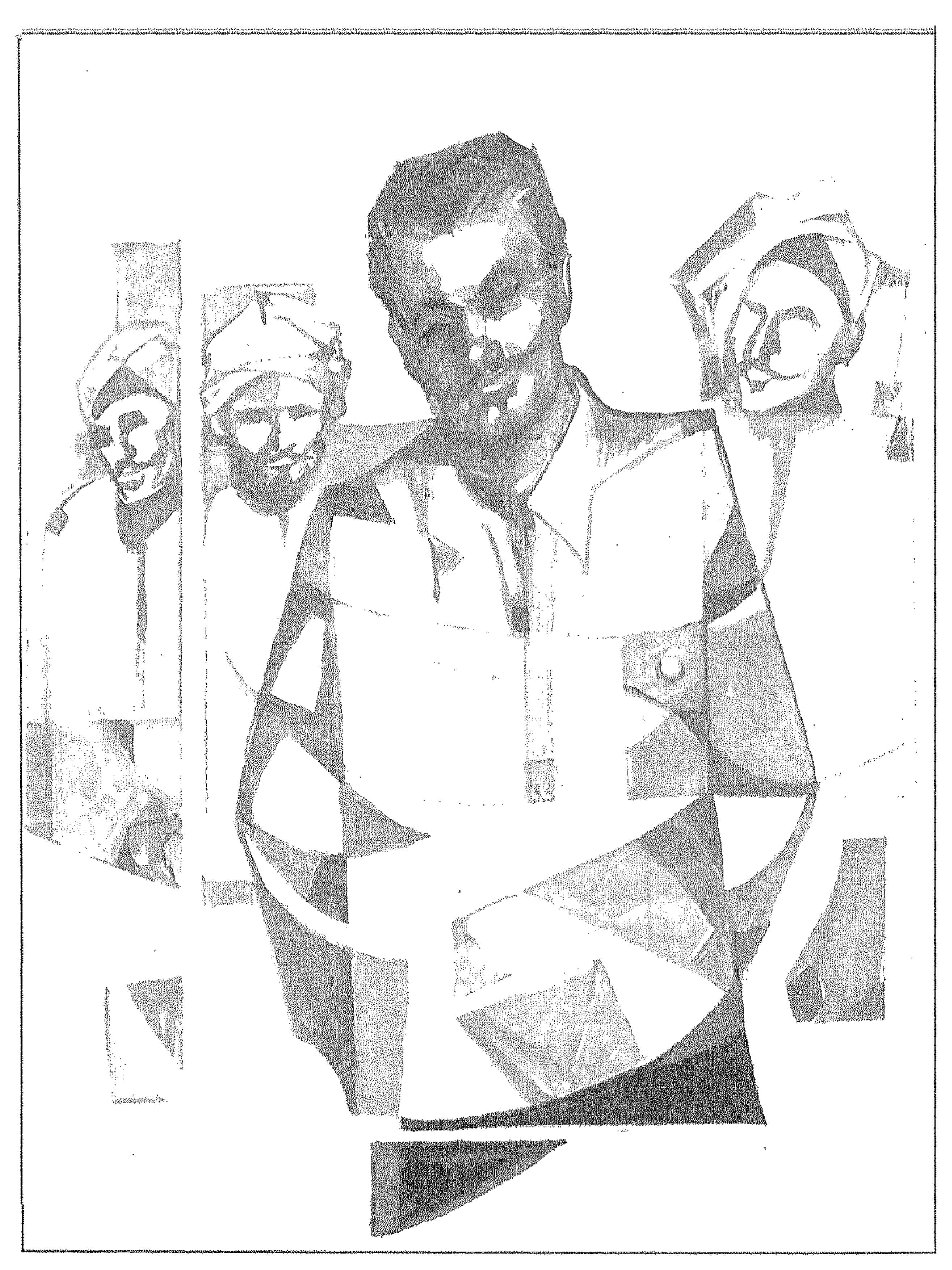


قصة قصيرة

بقلم : مختار العطار

رسوم : سميحة حسنين

زمان .. فى مطلع الخمسينيات من القرن الماضى كنت أعيش فى قرية صغيرة ، تربض فى حضن هضبة الأهرام بالجيزة . إذا سعيت صاعدا الهضبة وأدرت ظهرك الى أهرام خوفو العظيم واستراحة الملك السابق فاروق ، انحدر عند قدميك سفح الهضبة عميقا مئات الأمتار حتى ينتهى عند بيوت القرية التي كانت قليلة فى ذاك الزمان ، تحوطها الحقول الخضراء على مدد الشوف . لم تكن فى مصر معاهد للسياحة



والفندقة تخرج مرشدين يقودون السياح الوافدين من أركان الأرض الأربعة يتحدثون بعدة لغات . كان التراجمة «جمع ترجمان» يقومون بهذا الدور الحيوى ويتمركزون فى قرية «نزلة السمان» لقربها من الأهرامات وأبى الهول . كانوا ينتمون الى قبائل بدوية استقرت فى القرية من زمن بعيد . لهم شيخ كشيوخ الصنعة القدامى يحكم فيما بين جمهرة التراجمة ويوزع الأعمال فيما بينهم . كنت أسكن فى بيت صغير يشبه الفيللا يملكه شيخ التراجمة . وفى ظهر أحد الأيام وأنا عائد كالعادة من دار النشر التي كنت أعمل بها ، فوجئت بأهل القرية وكأن بهم مساً من الكهرباء، فقد قتل شيخ التراجمة برصاصة أطلقها عليه ابن أخيه فى رائعة النهار على شط ترعة المنصورية التى تمر جنوب القرية ، وتقطع شارع الهرم لتستمر الى مابعد قرية كرداسة التى يشتهر أهلها بصنع الملابس النسائية ذات الزخارف الشعبية التي تستهوى السائحات .



لم يستطع أحد الإمساك بالقاتل لأنه أسرع الى قسم البوليس القريب فاحتمى به ولم يتمكن المطاردون المتجمهرون أمام القسم من اقتحامه والانتقام . لم تكن هناك أية أصوات أو ولولة تنبعث من بيت القتيل الذي تطل نوافذه المغلقة على حديقة بيتى . كان الصمت يخيم علي القرية كلها ويسودها جو من التوقع والخوف والحزن . طرق بابى بعد ساعة صديقى وأستاذي السابق الذى كان يسكن جاري : عبدالسلام الشريف ، وطلب منى السير معه خلف نعش الضحية . كنا نفراً قليلاً نهرول فى صمت مهيب ،

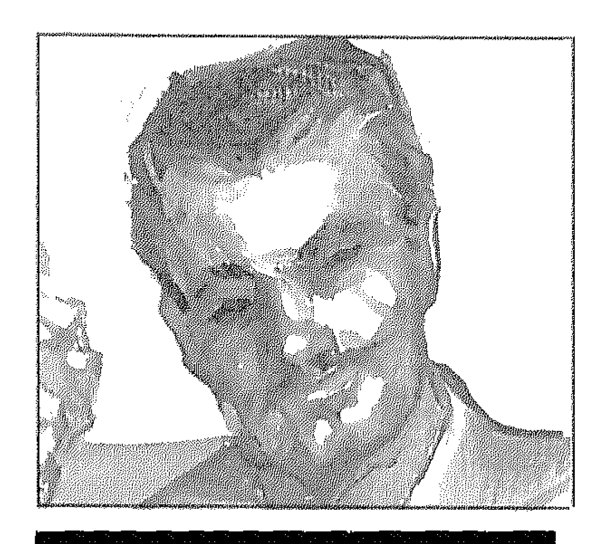
بينما يحمل الرجال النعش المكشوف الذي يضم القتيل بنفس الملابس التي كان يرتديها ساعة وقوع الجريمة . في آخر القرية بلغنا المدافن وبها قبر مفتوح مستعد لاستقبال الجثة . كنا بضعة عشر رجلا يتقدمنا ولدا الشيخ الراحل ، ترتسم على وجهيهما أمارات الحزن الممزوج بالغضب . أوصاني أستاذي الذي كان يعيش قبلي في هذه القرية أن أشد على يد الابن الأكبر بعد أن يواري والده التراب ، وأن أقول له : «شد حيلك» ، وحذرني من قول «البقية في حياتك» ، لأن العبارة الأولى تعني الدعاء له بالتوفيق في الأخذ بالثأر والانتقام ، ثم انصرفنا كأن شيئا لم يكن .

مرت شهور بعد تلك الحادثة دون أن يتحدث أحد في الموضوع ، أو يذكره بخير أو شر حتي نسيناه . كان الشيخ القتيل يعاملني كأنني ابنه. كثيرا ماكان يطرق باب حديقتي ويدخل ومن خلفه فتاة صغيرة تحمل على رأسها مشنة بها أطايب الطعام الريفي من خبز طازج وجبن ولحم وما الى ذلك من خيرات الله . كنت أعزب وكان يحمل اليّ الهدايا بين حين وآخر . ويجلس معي قليلا ثم يمضي ليعيد الكرة بعد شهر أو اثنين وكان ولداه في العشرينيات من العمر يعاملونني باحترام كبير. ويقرعون اسمي في الصحف والمجلات التي أكتب فيها ، ويعتبرون أن سكناي في ديارهم شرف كبير .. كنت ابادلهم احتراما باحترام ولم يروا مني ما يشين طوال السنوات الثلاث التي قضيتها في رحابهم. ذات مساء بعد الحادثة بعامين تقريبا جاءني خادمهم الصغير



الذى كان يخدمنى فى نفس الوقت ، قال لى إن أبناء الشيخ الراحل يدعوننى الى بيتهم فانطلقت اليهم وكان الوقت مساء . كانت أول مرة أدخل فيها منزلهم . قابلنى عبده الابن الأكبر وكان فى الخامسة والعشرين تقريبا فى مثل سنى قادنى الى غرفة ما كاد يفتح بابها حتى ألفيتنى أمام منضدة طويلة على رأسها شيخ بدوى فى الخمسينيات من العمر علمت فيما بعد أنه شقيق القتيل . عن يمينه يجلس ولدا الشيخ الراحل وعن يساره شابان آخران ، علمت فيما بعد أنهما ولداه . أجلسونى على الرأس الثاني للمائدة التى كانت عليها صينية كبيرة بها تل من الأرز المخلوط بالخضر والمكسرات ثم خروف صغير مشوى مقسم الى عدة أجزاء ، ثم صحون فارغة امام كل من الجالسين .

كان الجميع متجهمين جادين صامتين صارمين، لكنهم رحبوا بى ترحيبا كبيرا . وبعد أن استقر المقام ورددت التحية بأحسن منها صمتوا جميعا، وبدأ الشيخ فى الكلام من الطرف الآخر من المائدة قائلا : «لنقرأ الفاتحة على أن ما يحدث فى هذه الغرفة الآن وما يجرى فيها من حديث لا يخرج من بابها بعد أن ننصرف من هنا» . قرأنا الفاتحة وأنا أحس بشعر رأسى يتململ وأن جيوشا من النمل تسرى فى عروقى. شيء يشبه تيار الكهرباء . شعرت ليلتها إننى فى موقف خطير أقامر فيه بحياتى، فمثل هؤلاء القوم لهم اصابع تمتد سريعا الى زناد المسدسات والبنادق. فلو خرج الحديث من باب الغرفة من أحد غيرى، فمن المحتمل أن يخطئوا التقدير فألحق بقتيلهم



خيري شلبي

الذى مضى دون رجعة .

قال العم موجها حديثه الىّ عبر المائدة وعلى مسمع من الجميع : هل يصح ياسيدنا البيه أن يذهب عبده دون علمي الى عصابة من الأشقياء في الفيوم ، ويتفق مع زعيمها على مهاجمة قريتنا ليلا وكأنهم لصوص يطلقون النار هنا وهناك للتمويه على عدة بيوت وبينها بيتك الذى تسكنه، ثم ينتهزون الفرصة أثناء الهرج والمرج ويتسللون الى أهل القاتل فيأخذون بالثأر من احدهم» ؟.

انتهى الشيخ من كلامه ورنا الصمت على الجميع وطأطأ عبده رأسه معترفا بالذنب ، أما الباقون فحولوا انظارهم الىّ ينتظرون منى الرأى والمشورة. مرت لحظات كأنها دهر وأنا لا أكاد أعى بالضبط كلمات الرجل الكبير فقد كنت مشغولا بكيفية التخلص من هذا المأزق . أدركت ليلتها احساس اليأس والاستسلام الذي درسناه فى علم النفس ، ذلك الاحساس الذي يشعر به الفأر الذى وقع فى الفخ فقام بعدة محاولات سريعة للخروج بعد أن انصفق باب المصيدة . إنه ينزوى فى أحد الأركان ويقبع فى سكون تام ينتظر القدر المحتوم . أتذكر الآن الكلمات التى خرجت من فمى وكأننى أردد شيئا محفوظا . أوقعت اللوم كله على الابن الأكبر : عبده . كان ينبغى أن يستشير العم صاحب الولاية والمشيخة بعد رحيل الوالد رحمه الله ، ويتحتم على عبده أن يقبل رأس العم وأن يستغفره ويعترف بخطئه ويعد بألا يتكرر . لم يتردد عبده فى التنفيذ فهب يقبل رأس عمه واقتتلت كلمات الاعتذار علي شفتيه وطفرت الدموع من عينيه، فربت عمه على كتفيه ثم شمر عن ساعديه وقام الى الخروف المشوى ليتناول قطعة كبيرة يضعها فى طبقى ويذكر أن البيت بيتى وأن الراحل كان يعتبرني ثالث أبنائه ويتحدث عنى بالخير . وبدأ كل منا فى وضع مخلوط الأرز والخضر والمكسرات فى طبقه ، وشرعنا نأكل ونحن نتبادل أحاديث لا أذكر منها حرفاً واحداً . فقد كنت مهموما برهبة الموقف وأعمل الفكر فى التعجيل بإخلاء بيتى ومغادرة القرية بأكملها والابتعاد عن احراش التقاليد البدوية التي قد يخرج من مجاهلها ما لا تحمد عقباه .

انقضي عامان بعد تلك الليلة لم يحدث فيهما ما يعكر صفو الحياة في القرية ، حتى تركت الجمل بما حمل لأسكن بيتاً فى قلب القاهرة ، ولم أعد أعيش وحيدا بعد أن تزوجت وتغير نمط حياتى . ■

شخصية العدد

محمد طلعت حرب وخلفيته الثقافية

بقلم : طارق البشرى

عندما نقرأ فى كتب الاعلام والقواميس والموسوعات عن طلعت حرب، نعرف انه «زعيم مصر الاقتصادى» كما ورد فى «الأعلام» للزركلى، أو أنه «رائد نهضة مصر الاقتصادية والصناعية» كما ورد فى موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين، ثم نعرف طبعا أنه هو الذى أنشأ بنك مصر، وما أدرانا ما بنك مصر فى حياة مصر الاقتصادية على مدى النصف الأوسط من القرن العشرين، من العشرينات الى السبعينات

وهو المؤسسة التي نقلت مصر عبر العشرينات والثلاثينات والاربعينات، نقلتها من الاقتصاد الفردي الي الاقتصاد الذي تديره شركات المساهمة، ومن المشروعات الاقتصادية التي يبنيها الأجانب ويديرونها الي المشروعات المثيلة التي يملكها الوطنيون ويديرونها ويوجهونها وجه الصالح الوطني المصري العام. ومن الورش الصناعية الصغيرة الي مثل مصانع المحلة الكبري للغزل والنسيج، التي تشغل مدينة بكاملها. ومن المشروعات المعزول كل منها الي المشروعات المتكاملة افقيا ورأسيا .



رجل كهذا، عندما نفتش عن تاريخه العملى، فلابد أن نتوقع أن نجده بين رجال الاعمال الاقحاح، بين عمليات البيع والشراء وحركات التأسيس والبناء وميزانيات الشركات بما تثبت من ارباح وخسائر. وهو كان كذلك، فضلا عن تكوينه الادارى والاقتصادى. وعندما ننقب عن تشكله الثقافى، فلابد أن نتوقع أن نجده فى مجال الاقتصاد وادارة الأعمال. ولكننا هنا لا نجده كذلك بالضبط، أو لا تجده مقصور الاهتمام والانتاج بهذا المجال فيما كتب من كتب.

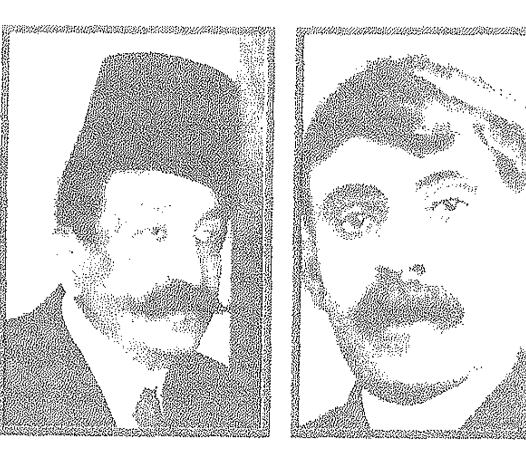
اسمه «محمد طلعت»، ابن حسن محمد حرب. ولد فى ١٨٦٧ بقصر الشوق فى حى الجمالية، وتوفى فى ١٩٤١. وكان ابوه من موظفى مصلحة السكة الحديد، وأصله من ميت ابو على من محافظة الشرقية. وهو فيما يقول الزركلى له وجه نسب بقبائل حرب التى تقطن فى الحجاز بين الحرمين الشريفين. واهتمامه بهذا الأصل أمر ينبغى وضعه فى الاعتبار باعتباره من مكوناته الثقافية الواعية. كما ان اشتغال أبيه فى مصلحة السكة الحديد، امر يجب الاعتبار به أيضا، لأن السكة الحديد فى ذلك الوقت المبكر فى سبعينات القرن التاسع عشر، كانت من المشروعات الحديثة فى مصر من حيث الآلة المتحركة ومن حيث الادارة الحديثة.

خبرة ادارة المشروعات

تخرج طلعت حرب فى مدرسة الحقوق الخديوية سنة ١٨٨٩، واشتغل بقلم القضايا «بالدائرة السنية» وهى الجهة التى كانت تدير الأملاك الخديوية الخاصة، وهى أملاك شاسعة من الأراضى الزراعية وغيرها، وكان يتبعها من الأراضى الزراعية فى ١٨٨٠ نحو ٥٠٠ ألف فدان فضلا عن العقارات الأخرى، ثم خلف محمد فريد فى ادارة اقلام القضايا بالدائرة. ثم انتقل مديراً للمركز الرئيسى بالقاهرة لشركة وادى كوم امبو، وكانت تملك عشرات الآلاف من الأفدنة فى بداية القرن العشرين. ثم جمع بين ذلك وبين ادارة شركة التعاون المالى، ثم أدار الشركة العقارية المصرية التى أنشأها سوارس ورولو وقطاوى ومنشة وغيرهم، كما أدار دائرة محمد سلطان باشا لما ورثها عمر سلطان.

كان هذا هو بعض النشاط «المهنى» الذى مارسه طلعت حرب خلال المدة من





قاسم امين　　　محمد فريد

تخرجه فى ١٨٨٩ حتى الحرب العالمية الأولى (نحو سنة ١٩١٤)، أى خلال ربع قرن. وهى خبرة ادارة مشروعات اقتصادية يتخذ بعضها شكلا حديثا مثل شركات المساهمة، وهى تعتمد على مايسمى بنظم الادارة غير الشخصية (أو البيروقراطية الحديثة) التى عرفتها النظم الغربية وتبلورت على مدى القرن التاسع عشر. وهى خبرة مرن عليها وتلقاها فى صورها العملية من مجموعة من المديرين الأجانب الذين وجدوا فى ذلك الوقت بالدائرة السنية، كما تلقاها من مؤسسى وأصحاب ومديرى الشركات التى أدارها مثل كوم امبو والشركة العقارية، وأن أصحاب الشركة العقارية (المسمين من قبل) كان أهمهم من مؤسسى البنك الأهلى المصرى فى ١٨٩٨، بما يشير الى نوع الخبرات الفنية التى انتقلت اليه فى ذلك الوقت عن البنوك وأعمالها، ومن هؤلاء سوارس ورولو .. الخ .

هذا من ناحية الاشارة الى التأهل المهنى فى ادارة المشروعات الاقتصادية واعمال البنوك. أما من ناحية الثقافة العامة المكونة لطلعت حرب، فهذا ما نلحظه فى الكتب التى ألفها، فى المرحلة الأولى من عمره، مرحلة ما قبل انشاء بنك مصر. وهى مايعنينا فى هذا الحديث.

الاهتمام بتاريخ العرب والاسلام

إن أول ماعرفنا من كتبه هو كتاب «تاريخ دول العرب والاسلام» ، صدرت طبعته الأولى فى ١٨٩٧ (١٣١٥ هجرية)، وصدرت الطبعة الثانية له فى ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) صدرت مزيدة ومنقحة، بما يعنى انه ظل موصول الاهتمام بهذا الموضوع. ولكن ما صدر من الكتاب هو الجزء الأول فقط من بين أربعة أجزاء كان يزمع اتمام الموضوع بها. والجزء الأول الذى صدر هو عن تاريخ العرب من قبل الاسلام الى عصر الخلفاء الراشدين.

والثانى كان يزمع تخصيصه عن المرحلة من دولة الخلفاء الراشدين الى سقوط بغداد، والثالث عن الدول التى انشقت من دولة بنى العباس ودول الاسلام فى الأندلس، والرابع عن تاريخ الدولة العثمانية .

وأشار فى مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول الوحيد الذى صدر، الى مايراه من أهمية فى كتابة التاريخ للنهوض بالأمم، وأكد مدى الاحتياج لهذه الكتب من الناشئة مما ألجأه الى إعادة طبع هذا الجزء، وارفق بمقدمته نص خطاب وجهه الى الشاعر حفنى ناصف يستحثه فيه على اكمال كتابه، اما الكتاب ذاته فهو يتكلم عن عرب ما قبل الاسلام من حيث انسابهم ونظمهم الاجتماعية وحروبهم وأنشطتهم، ثم يتكلم عن «العرب البائدة» مثل قوم عاد وثمود، ثم عن «العرب الباقية» ومنهم العرب المتعربة الذين وجدوا فى اليمن فى الأساس، ثم العرب المستعربة الذين انحدروا من اسماعيل عليه السلام وبنى جرهم . ثم خص الثلث الاخير من الكتاب لوقائع البعثة المحمدية بالاسلام، منذ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وفاته، وتكلم عن اعجاز القرآن وأوضاع الدين الاسلامى وانتشار الاسلام السريع. (الكتاب فى نحو ٣٨٠ صفحة من القطع الصغير) .

تربية المرأة والحجاب

أما كتابه الثانى، فقد أصدره فى ١٨٩٩ (١٣١٧ هـ)، وهو بعنوان «تربية المرأة والحجاب»، كتبه ردا على كتاب تحرير المرأة الذى أصدره قاسم أمين فى السنة ذاتها. والكتاب ينتقد رأى قاسم أمين فيما يدعو اليه من رفع الحجاب ووجوب الاختلاط. ويذكر طلعت حرب أن كتاب «تحرير المرأة» عندما صدر انقسم الناس حزبين بشأنه، حزب يرى رأى المؤلف و«هم قلائل يعدون على الأصابع» والحزب الآخر «وهو الأعظم عددا» اجمع على استهجان ماورد بالكتاب، ولكن طلعت حرب يجمع الحزبين فى مسلمة واحدة بقوله «الحمد لله إن الدين لا يمنع مطلقا من تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها بل هو يحض على ذلك».

دافع طلعت حرب عن الحجاب، وأوغل فى الدفاع عنه، بادئا بمأثورات تنسب الى السيدة فاطمة الزهراء والامام على وإلى الحسن بن على. وتكلم عن التربية

ووجوبها. وقسمها أنواعا ثلاثة، الأولى تربية البيت، والثانية تربية الموافقة لاحوال الأمة وطريقة ادارتها والاصول الحسنة التى تجرى فى الأوطان، عسكرية كانت أو تجارية أو زراعية، فاذا كان طبيعة البلد عسكرية وجب تربية الذكور على ذلك وتربية البنات على محبة الشجاعة والشجعان ليشجعن الأبناء على ذلك، والنوع الثالث هو التعليم وهو بالنسبة للمرأة، يفيدها فى شئونها التى تنشط فيها بالنسبة لبيتها وأولادها. وهو يستحسن أن يكون الحجاب شاملا فلا يظهر الا العينين.

وأيا ما كانت وجوه اختلاف الرأى مع ما أثبته طلعت حرب فى هذا الشأن بالنسبة لحجاب المرأة، فان مما يلفت النظر فى موقفه هو ما أثبته فى مقدمة الكتاب من ربط بين هذا الموقف وبين المناخ السياسى العام، اذ يقول «أخذنا نسأل ونتساءل ونبحث ونتناظر حتى علمنا أن معظم هياج الرأى العام على حضرة المؤلف (قاسم أمين) مما هو راسخ فى أذهانهم من أن رفع الحجاب والاختلاط كليهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية فى النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الاسلامى...»، «واستشهد فى ذلك بمقال ورد فى الصحف وقتها وفيه ان الاوربيين مثلا «يعلمون حق العلم انه لم يبق حائل يحول دون هدم المجتمع الاسلامى - فى المشرق لا فى مصر وحدها - الا أن يطرأ على المرأة المسلمة التحويل بل الفساد الذى عم الرجال فى المشرق» .

وينقل عن ذات المصدر أيضا أن الأوربيين دائبون عاملون على التنفير من حالة المرأة المسلمة وماهى عليه من الشقاء لتقوى كلمتهم فيتداخلون يوما ما بالقوة باسم المروءة ليحملوا دول الاسلام على تغيير حالة المرأة، فيتم لهم الغرض الخفى الكامن فى نفوسهم، كما تداخلوا من قبل باسم الانسانية والعهد ليس ببعيد فى مسألة الرق» .

فهو يريد أن يقول إن الغرب باسم محاربة الرق استعمر بلادا، وانه اليوم باسم تحرير المرأة يريد ان يستعمر بلادا أخرى ، ويتدخل بالقوة فى شئونها.. ومن هنا نلحظ موقفا سياسيا لطلعت حرب ضد الاستعمار الغربى، كما نلحظ فهما منه للتوظيف السياسى للثقافة والعلاقات الاجتماعية، الذى يتبعه الغرب لتحقيق أطماعه فى بلادنا، والتوسل بالشعارات النبيلة لتحقيق أهدافه غير النبيلة .

ولذلك فإن طلعت حرب الذى دافع فى كتابه هذا عن حجاب المرأة واستحسن قصر نشاطها على شئون البيت والأبناء، قد انفتحت بعد ذلك مشروعاته الاقتصادية الوطنية لعمل المرأة بكثافة نسبية واضحة، وذلك من العشرينات وما بعدها .

رد علي قاسم أمين

ثم يرد الكتاب الثانى لطلعت حرب فى ذات الموضوع وهو كتاب «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» أصدره فى سنة ١٩٠١ (١٣١٩ هـ). وجاء هذا الكتاب أيضا ردا على الكتاب الثانى لقاسم أمين «المرأة الجديدة» . وركز فى هذا الكتاب على أقوال للشيخ محمد عبده عن المرأة ودورها، وعلى ردود السيد رشيد رضا فى مجلة المنار على كتاب قاسم أمين، كما أشار الى آراء سابقة لقاسم أمين عن المرأة تغاير ما تبناه فى كتابيه وتسبقهما، لا فى الرأى الذى ساقه بقدر ماهو فى تصوير وضع المرأة المصرية، وكانت صورة المرأة لدى قاسم أمين فى كتاباته السابقة هذه التى نشرها فى ١٨٩٤ ردا على ما كتبه اللورد داركور، كانت أحسن من صورتها فى كتابى قاسم أمين نفسه اللاحقين .

اعجبنى من مقدمة طلعت حرب لكتابه الثانى هذا، قوله إن أحد من تصدوا بالتأييد لقاسم أمين أسماه «لوثر الشرق»، وعلق طلعت حرب على هذه التسمية بقوله: «ان لو كان عند كاتبها اطلاع على أن من رجال الدين الاسلامى من قام يدفع الخرافات الدخيلة مثل ابن تيمية أو الغزالى، لانتحل واحدا من هذه الاسماء بدلا من اسم «لوثر» ، ومن هنا تظهر فراسة طلعت حرب الثقافية، كما يظهر ذلك من مؤلفاته هذه، أيا كان الرأى فى موضوع المرأة ذاته، إن طلعت حرب كان صاحب تكوين استقلالى متكامل، وتبلورت شخصيته العامة على هذا التكوين الاستقلالى المتكامل، بجوانبه السياسية الاجتماعية الثقافية، وهو يرتكز فى بدايته على التكوين الاستقلالى الثقافى الذى ظهر فى هذه الكتابات، ثم تتركز نهاياته فى التشكل الاستقلالى فى مجال الاقتصاد .

ينتقل طلعت حرب فى ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) الى كتاب آخر هو «قناة السويس» كانت شركة قناة السويس قدمت للحكومة مشروعا لمد امتياز الشركة على القناة أربعين سنة بعد انتهاء مدة امتيازها فى ١٩٦٨، فيصير انتهاء الامتياز فى ٢٠٠٨. وكشف محمد فريد زعيم الحزب الوطنى وقتها عن وقائع هذا الاقتراح وعن ميل الحكومة الى قبوله، وذلك فى صحيفة اللواء، وانتبه الرأى العام المصرى الوطنى لهذا الأمر، واشتد الجدل



محمد سعيد باشا



محمد رشيد رضا

حوله، وتصاعد السخط على الحكومة حذر أن تقبل المشروع، واغتيل بطرس باشا غالى رئيس الوزراء على يد وطنى مصرى، وشكل محمد سعيد باشا الوزارة واضطر الى طرح المشروع على هيئة الجمعية العمومية ـ التشكيل النيابى شبه البرلمانى ـ مع وعد بأن تلتزم الحكومة بتنفيذ ما تقرره الجمعية من الرفض أو القبول، ورغم أن قراراتها فى الأساس قرارات استشارية إلا أن الحكومة ألزمت نفسها بما ستقرره الجمعية.. وانتهت الجمعية الى رفض المشروع، ببيان كان آية فى الدقة والموضوعية والدراسة المستقبلية الناضجة، فضلا عن كونه كان آية فى الوطنية .

دراسة واقعية حول قناة السويس

فى هذا السياق أعد طلعت كتابه «قناة السويس» ونشره فى فبراير من هذه السنة، تكلم فى البداية عن فكرة توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عبر التاريخ، ، وبخاصة منذ محمد على، وموقف الانجليز والفرنسيين من ذلك وموقف محمد على، ثم وقائع تأسيس شركة القناة فى سنة ١٨٥٨، ثم تكلم عن وقائع تنفيذ المشروع منذ تأسست الشركة. حتى كمل المشروع وحفرت القناة وتهيأت للافتتاح فى ١٨٦٩. كان قد مضى على هذه الوقائع أربعين سنة فلم تعد تفاصيلها عالقة فى ذاكرة الجيل الذى عرض عليه اقتراح مد الامتياز. ثم تحدث فى الباب الثانى عن حالة الشركة فى دور الاستغلال وما لقيت من صعوبات مالية فى البداية، واضطرار مصر لبيع اسهمها فى الشركة الى انجلترا، واضطرارها الى بيع حصتها فى الارباح أيضا بحيث لم يعد لها من أمر المشروع فائدة، واحتلال انجلترا لمصر وللقناة فى ١٨٨٢، والمؤتمرات التى عقدت بين الدول ذات المصالح والمعاهدات التى أبرمت، سواء

فى ١٨٨٥ او فى ١٨٨٨ . وعرض للحالة الحاضرة فى ١٩١٠ للقناة، من حيث ايراداتها ومصروفاتها وديونها وماتساويه القناة، وماخسرته مصر من القناة ومن بيع اسهمها وحصتها فى الارباح .

ثم أفرد الباب الثالث والأخير لنوع من دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروع المقدم، باقتراح مد أجل امتياز الشركة أربعين سنة أخرى، وكانت الشركة تغرى حكومة مصر على قبول اقتراح المد عن طريق منحها حصة من الربح تتزايد كل عدد من السنوات حتى تصل الى نصف ربح الشركة فى فترة المد. فعرض لاحتمالات زيادة دخل القناة وما يتوقع فى ذلك، والاحتمالات الخاصة بمصروفات الشركة ، وما يتوقع بشأنها، وعرض للمحاذير الخاصة بالتوقع فى هذا الشأن من حيث قيام طرق للتجارة بديلة لها أو منافسة لها، سواء كانت طرقا برية أو قناة بنما فى أمريكا الجنوبية أو سكة حديد بغداد ، ووضع امكانات التقدير الرقمى لدخل الفترة ومجموع ما ستغنمه مصر من الاقتراح حتى تمام انتهاء فترة المد فى ٢٠٠٨، ومجموع ما ستغنمه ان لم توافق على الاقتراح، وذلك عندما تؤول اليها القناة خالصة لها خلال السنوات الأربعين من انتهاء المدة الأصلية للامتياز فى ١٩٦٨ وعلى السنوات الأربعين التالية.

وكان هذا الكتاب دراسة واقعية تطبيقية واقتصادية طريفة وجديدة، فيما يبدو لى، بالنظر الى الفكر المتداول فى ذلك الوقت ، بطابعه الانشائى وأسلوبه الخطابى وعدم اعتنائه بالتفاصيل وتجربته عن الأرقام والتقديرات الرقمية. كان الكتاب فكرا جديرا بأن يهيىء صاحبه لأن يكون رائداً فى بناء المشروعات الاقتصادية التى تقوم بها نهضة معاصرة فى بلده. ويبدو لى أن الطابع العلمى الموضوعى المستقبلى الذى انصبغ به بيان الجمعية العمومية فى رفضها هذا المشروع، كان مستفيدا من عروض طلعت حرب فى هذا الشأن ، ومن أطروحات من هم على شاكلته .

فى سنة ١٩١١ عقد ما اسمى «المؤتمر المصرى الأول»، الذى ناقش الوضع الطائفى فى مصر، ثم انتقل سريعا الى عرض ما رآه أعضاؤه من مشروعات للنهوض الاجتماعى



شخصية العدد

والاقتصادى لمصر، وكان من أهم المؤتمرات الأهلية التى عقدت فى مصر فى هذا القرن العشرين، فيما يبدو لى. وكان هو ما رسم اطار المشروع النهضوى الاجتماعى والاقتصادى لمصر على مدى السنوات الخمسين التالية، وتحقق منه ما هيأ مصر لنقلة نهضوية أخرى فى النصف الثانى من القرن ذاته.

لم يحضر طلعت حرب هذا المؤتمر، رغم انه هو المؤتمر الذى ولد فيه مشروع البنك الوطنى المصرى ولادته الشرعية من «الأمة المصرية» .. كانت مصر خارجة من أزمة مالية طحنت الكثير من ثرواتها فى ١٩٠٧ ، وكان البنك الأهلى الذى يقوم بوظائف البنك المركزى بنكا انجليزيا، والبنوك الأخرى كلها أجنبية ، والثروات المصرية مرتهنة فى هذه البنوك أو مهددة منها. واقترح الأعضاء أن يشترى الأهالى الديون التى على حكومتهم للمقرضين الأجانب، وانشاء نقابات للتعاون الزراعى (جمعيات تعاونية) وانشاء مستودعات للتأمين (شركات تأمين) مع تشجيع الصناعة وحمايتها وتأسيس الشركات. ولكن المطلب الذى حكم غيره من المطالب وترأسها جميعا وتوفر له اجماع الحاضرين، هو مطلب انشاء مصرف وطنى مصرى برءوس أموال مصرية كلها وتكون ادارته العليا مصرية كلها. وجد هذا القرار التصفيق الحاد المتكرر واقتراح الاكتتاب الفورى له، وتقديم الاموال العينية لضمان الودائع به .

كان طلعت حرب فى الخارج فى ذلك الوقت. وبعد عودته اصدر كتابا فى سنة ١٩١٣ (١٣٣١ هـ) بعنوان «علاج مصر الاقتصادى وانشاء بنك للمصريين» عرض فى هذا الكتاب للحالة الاقتصادية فى مصر منذ عهد الخديو اسماعيل ، مع عرض فكرة انشاء بنك مصرى بشكل اكثر تفصيلا ودراسة مما ثار فى المؤتمر.

والحال انه فى سنة ١٩١٤ انشئت لجنة للتجارة والصناعة، صارت بعد ذلك مصلحة ثم وزارة من وزارات الدولة، وكانت برئاسة اسماعيل صدقى، وفيها محمد طلعت حرب. وفى سنة ١٩١٦ أعد طلعت حرب ويوسف اصلان قطاوى تقريرا صدر باسم اللجنة، وهو تقرير اشتهر فى التاريخ الاقتصادى لمصر، لما رسمه من طريق للنهوض الاقتصادى .

ولكن، هنا نكون دخلنا فى تاريخ بنك مصر وطلعت حرب رجل الاقتصاد والأعمال، وهو ما يجاوز الحدود المرسومة لهذا المقال .

الاستقلال الكامل للوطن

الخلاصة التى أريد أن اشير اليها، فى معرض بيان الاسس الثقافية لطلعت حرب ومنهجه فى النظر الى الأمور. فهو كما سبقت الاشارة قد تبلورت رؤيته وتفكيره ودوافعه فى العمل العام، تبلورت على أساس الموقف الاستقلالى الوطنى المتكامل، وهو موقف يبدأ بالتشكل

الثقافى على أساس من العقيدة ومن التاريخ الحضارى العام، وهو موقف يضم الجانب السياسى الى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية الى الجوانب الثقافية الحضارية والعقيدية التى تحدد الهوية الذاتية، ويضم الى ذلك خبرة النشاط العملى فى مجال اعمال المال والادارة.

ويكامل هذا التشكل اختار مجال الاقتصاد وادارة الاعمال ليبذل فيه نشاطه الوطنى خدمة لبلده وجماعته. فهو لم يكن مجرد تاجر يريد الربح المادى وحده واكتشف وجوه الربحية المادية فى تكوين البنوك الوطنية والشركات الصناعية، ولكنه بدأ بالنظر الوطنى الشامل ثم تخصص فى هذه الجوانب يبذل فيها جهوده لخدمة جماعته .

ولذلك، فاذا كان من حق سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ان يطلق على كل منهما فى عصره انه الزعيم السياسى للجماعة المصرية خلال فترة مابين ١٩١٩ و ١٩٥٢، كان من حق طلعت حرب ان يطلق عليه انه الزعيم الاقتصادى للجماعة المصرية فى ذات الفترة. والفارق هو فارق بين مجالين. مجال السياسة ومجال الاقتصاد. والفارق ايضا هو فارق مابين عموم مجال السياسة وخصوص مجال الاقتصاد. بمعنى ان ثمة زعامة عامة وثمة زعامة نوعية خاصة فى مجال أخص، وهنا نجد طلعت حرب.

ومما نستفيده من دروس طلعت حرب، انه مع زعامته لحركة التحرير الوطنى فى مجال الاقتصاد، لم يكن حزبيا ولم يكن منتميا الى حزب الوفد الذى كان يقود حركة التحرير السياسى فى حينه، ذلك أن لكل مجال رجاله. وان من المستحسن ان تتميز مجالات النشاط النوعية المختلفة بحيث يكاد يستقل كل مجال برجاله ونوع سياساته ومجالات نشاطه وأساليب حركته وأنماط تحالفاته، فليس من صالح مجال الاقتصاد الوطنى فى تنافسه مع قوى الاقتصاد الاجنبى ان يثقل كاهله بأعباء خصومات الساسة والسياسيين فى مجال التنافس على الحكم وقد تتداخل دوائر النشاط وتتقاطع، وقد تختلف وجوه النشاط وتتعارض فى بعض الأحايين. ولكن سيبقى مجال التغذية المتبادلة بين كل من



مصطفى النحاس



اسماعيل صدقى

هذه المجالات التى تتفق فى الوجهة والهدف العام .

ان محمد كامل البنا سكرتير مصطفى النحاس، يحكى فى المذكرات التى أعدها النحاس أنه لما وقع النحاس فى ضائقة مالية شديدة بسبب عداء حكومة اسماعيل صدقى فى بداية الثلاثينات وفوجئ بأن بنك مصر يخصص له قرضا يكفيه نفقاته كلها، وذلك بضمان شخصى، ولما قال النحاس إن ليس لديه ضمان يقدمه عن القرض، رد عليه طلعت أن الأمة استأمنتك على مصيرها، أفلا يستأمنك البنك على قرض بخمسة آلاف جنيه.

والخلاصة التى تظهر من مطالعة كتاب طلعت حرب هى ما يلى :

أ ـ المام عميق الأثر فى نفسه بالثقافة الاسلامية العربية، وموقف حضارى وانسانى منحاز اليها، وقد انعكس ذلك فى الشركات التى كونها، ومنها شركة للطباعة وشركة للسينما، ومسرح، وكذلك فى الطراز الاسلامى الفنى لمبانى البنك .

ب ـ لعل هذا الاثر العميق هو ما جعله سريع الانفتاح فى نشاطه الاقتصادى على البلاد العربية، سواء سوريا أو العراق أو السعودية أو السودان أو غيرها.

جـ ـ إلمام تاريخى وسياسى معاصر بطبيعة العلاقة الاستعمارية مع الغرب وموقف منحاز الى القضية الوطنية لمصر ولشعوب الشرق (كان يقصد بهذه العبارة وقتها البلاد العربية الشرقية) وموقف استقلالى متكامل يجمع بين شئون السياسة والمجتمع والاقتصاد والثقافة.

د ـ منهيج تاريخى فى بحث المشاكل الواقعية وتدقيق فى التفاصيل الموضوعية.

هـ ـ نظر الى المشاكل فى صورها التطبيقية والملموسة والتماس الحلول لها فى هذا الاطار .

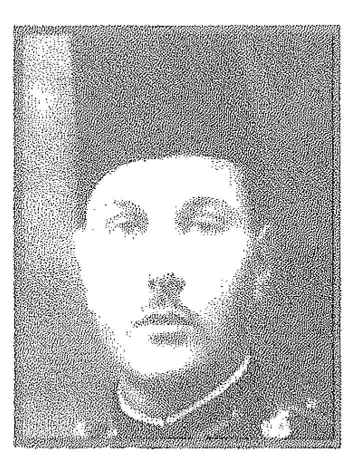


حل لغز
حريق القاهرة
٢٦ يناير ٥٢
من الفاعل ؟!

الهلال يناير ٢٠٠١ بقلم : د. رءوف عباس

يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ كان منذ صباحه الباكر يوما حزينا، فقد انفجر بركان الغضب فى صدور المصريين جميعا بسبب ما حدث بالإسماعيلية فى اليوم السابق (يوم الجمعة) عندما حاصرت قوات الجيش البريطانى محافظة الإسماعيلية وطالبت الشرطة المصرية بالاستسلام، فقاوم الجنود بقيادة ضباطهم الشبان حتى آخر طلقة ، فكانت مذبحة راح ضحيتها عدد من شهداء الشرطة، وأسر قادتهم من الضباط. باتت مصر ليلة الجمعة - السبت دون أن يغمض لها جفن، وكان من الطبيعى أن يشهد صباح السبت تعبيرا شعبيا عن هذا الغضب فى صورة مظاهرات شارك فيها جنود وصف ضباط بلوكات النظام (وهي فرق الطوارىء الشبيهة بما يسمى اليوم بالأمن المركزى) كما شارك فيها الطلبة والعمال ، وكان من الطبيعى أن تتجه هذه المظاهرات إلى موقع مجلس الوزراء والبرلمان وإلى ساحة عابدين تعبر عن سخطها على النظام ممثلا فى أركانه الأساسية.


فؤاد سراج الدين


الملك فاروق


مصطفى النحاس باشا

حريق القاهرة

من الفاعل ؟!

ومن الواضح أنه لم تكن هناك قيادة موحدة تحرك تلك المظاهرات على نحو ما حدث عام ١٩٤٦ عندما تولت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» قيادة وتوجيه العمل الجماهيرى فى شكل جبهة وطنية لم يخرج عليها سوى «الإخوان المسلمون» فقد كانت مظاهرات «السبت الأسود» (كما سمته الصحافة المصرية) متعددة ومتفرقة، اتخذت طابعا سلميا، ورددت شعارات الاستنكار المعادية للاستعمار، والمطالبة بالاستقلال، والمعبرة عن السخط الموجه ضد أركان النظام. ووسط هذه المظاهرات السلمية التى شاركت فيها جماهير لا تحركها قيادة واحدة منظمة، كانت هناك مجموعة مجهولة الهوية ، يرتدى أفرادها ملابس ذات لون موحد، قدر عددها فى مختلف الروايات بنحو الثلاثين فردا، انطلقت وسط القاهرة تضرم النار فى الملاهى والبارات والمحال التجارية والشركات المملوكة للأجانب دون تمييز. وأجمعت مختلف الشهادات أن فرقة اضرام النار على مستوى رفيع من التدريب وعلى درجة عالية من الاستعداد إذ كانت مجهزة بوسائل النقل التى تسهل حركتها وبالمواد الملتهبة (صفائح البنزين، مسحوق مساعد على الاشتعال، كرات من القماش، أدوات حديدية لكسر أبواب المحلات)، وهم يضرمون النار بأسلوب متقن لتندلع فى الهدف كله بصورة يصعب معها انقاذه، ثم ينتقلون بسرعة وخفة إلى هدف آخر. كما أنهم لم يتحركوا كفريق واحد، بل كانوا ينقسمون إلى مجموعات صغيرة لكل منها جدول أعمال محدد، ومهام معلومة.

اهتراء النظام القائم

وهكذا بدأت الحرائق ظهر السبت بكازينو الأوبرا، ثم امتدت لتشمل كل منطقة وسط البلد ، حيث مركز التجارة والأعمال، وحيث يتركز نشاط الأجانب الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وكان من المنطقى أن تعجز فرق الإطفاء بالقاهرة بامكاناتها المتواضعة عن مواجهة هذا الحريق الشامل.

قيل فى بعض الروايات أن الجماهير مزقت خراطيم الحريق عندما حاولت فرقة المطافىء أطفاء حريق كازينو الأوبرا، وقيل بل جنود الشرطة هم الذين فعلوا ذلك، وسمع صاحب هذا المقال من عبدالفتاح حسن باشا مباشرة أن خراطيم المطافىء كانت مهترئة يتسرب منها الماء فلا يخرج منها إلا خيط رفيع من الماء يتساقط بين أقدام رجال الإطفاء فلا يصل إلى ألسنة اللهب، وأضاف الرجل «كان المشهد يعبر بصدق عن اهتراء النظام القائم».

وفى الوقت نفسه الذى اشتعلت فيه

النيران فى قلب قاهرة الخديو إسماعيل كان حفيده الملك فاروق ينظم الوليمة الرابعة من سلسلة الولائم التى دعا فيها جلالته ضباط الجيش والشرطة إلى تناول الغداء على المائدة الملكية ابتهاجا بمولد ولى العهد الأمير أحمد فؤاد. كان مقررا أن تقام الوليمة يوم ٢٣ يناير فأرجئت (لسبب مجهول) إلى ٢٦ يناير، وعندما كانت النيران تشتعل فى قلب قاهرة الخديو إسماعيل، كان كبار ضباط الجيش والشرطة يتدفقون بزى التشريفة الرسمى على الأعتاب الملكية الكريمة فى عابدين، وكان من الصعب الوصول إلى القصر وتعكير صفو ومزاج صاحب الجلالة لسبب «تافه» مثل احتراق العاصمة الذى كان يقتضى وجود أولئك الضباط فى مواقعهم لمواجهة الموقف .

خلفية تلك الأحداث

أما خلفية الأحداث التى أدت إلى بلوغ المأساة ذروتها بحريق القاهرة، فمعروفة للمخضرمين من أمثالنا، ممن عاصروا الحدث، ولكن تغيب عن وعى الكثيرين ممن بلغوا مرحلة الكهولة اليوم إلا أولئك الذين يعشقون أن يبحثوا عن الأصول بامعان النظر فى التاريخ. لذلك لا بأس أن نشير هنا باختصار إلى خلفية تلك الأحداث التى تعود إلى عجز النخبة السياسية المصرية عن التوصل إلى حل للقضية المصرية بتحقيق الاستقلال التام عن طريق التفاوض بعدما أثبتت الحرب العالمية الثانية أن معاهدة «الشرف والاستقلال» التى وقعت عام ١٩٣٦ كانت وهما، فقد تحملت مصر أعباء إعالة قوات الحلفاء، وتعرضت لأخطار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل بما تبع ذلك من أزمات اقتصادية واجتماعية خطيرة، وفشلت جولات المفاوضات التى دارت بين النخبة السياسية المصرية والإنجليز، والتى كان آخرها مفاوضات ١٩٥١ التى دفعت حكومة الوفد - تحت ضغط الحركة الوطنية - إلى إلغاء المعاهدة من طرف واحد، وبذلك فتح الباب أمام خيار الكفاح المسلح ، وبدأ كل فصيل سياسى يعد المتطوعين لخوض غمار المقاومة المسلحة ضد الوجود البريطانى، وانسحب العمال المصريون من خدمة القاعدة البريطانية بمنطقة القناة، واضطر المقاولون الذين كانوا يوردون للقاعدة ما تحتاجه من مواد غذائية ومستلزمات أخرى إلى الامتناع عن التعامل مع الإنجليز طوعا أو كرها، وبدأت عمليات الفدائيين ضد جيش الاحتلال تتصاعد، وأخذ زمام الأمور يفلت من يد حكومة الوفد التى تعاطفت مع حركة الكفاح المسلح، ولكنها أرادت أن تخضعها لاشرافها بحيث تستخدمها كأداة ضغط سياسى دون أن تتحول إلى «حرب شعبية» ضد الاحتلال قد تؤدى إلى ولادة نظام سياسى جديد.

بلوغ الاختمار الثورى مداه

وهكذا سمحت حكومة الوفد (على

حريق القاهرة

من الفاعل ؟!

استحياء) بالكفاح المسلح، وقدمت العون لبعض الفصائل، وتغاضت عن مشاركة رجال الشرطة فى دعم الفدائيين وتغطية نشاطهم، كما تغاضت - فى بداية الأمر - عن معسكرات التدريب التى أقامتها بعض الأحزاب، ثم ما لبثت أن وضعت ضوابط تخضعها لاشرافها، ولا شك أن دور الشرطة فى منطقة القناة فى مساندة ودعم العمل الفدائى كان السبب الرئيسى وراء مذبحة ٢٥ يناير التى تعرضت لها الشرطة ، وأدت إلى تفجر بركان الغضب الشعبى.

وهناك عوامل أخرى يجب أن نوجه إليها انتباه القارىء لعبت دورا مهما فى بلوغ الاختمار الثورى مداه، فاضافة إلى مأزق النظام السياسى وتفشى الفساد، وتدهور سمعة الملك، كانت هناك الأزمة الاجتماعية الخانقة التى بلغت الذروة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية: البطالة واتساع نطاق الفقر وغياب الخدمات الأساسية مع تراكم الثروات فى أيدى النخبة الاجتماعية الحاكمة، وجاء التعبير عن الأزمة فى ظاهرة القلق السياسى والاجتماعى الذى اتخذ صورة الاضرابات العمالية وحوادث تمرد الفلاحين ضد كبار الملاك التى قوبلت ببطش السلطة، والمظاهرات المتكررة التى عمت القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى والتى بلغت ذروتها بالهتافات المدوية فى ساحة عابدين ضد الملك تطالبه - للمرة الأولى - بمغادرة البلاد. ومن ثم كان موقف الجماهير السلبى من حريق القاهرة الموجه ضد رموز السيطرة الأجنبية على الاقتصاد القومى وضد الوجود الأجنبى له ما يبرره.

وقد لقى حريق القاهرة اهتماماً كبيرا من جانب كل من تناولوا تاريخ تلك الحقبة بالدراسة سواء فى ذلك الكتاب الأجانب والمؤرخين المصريين بحثا عن القوة الخفية التى نظمت الحريق على هذه الصورة التى تشى بالخبرة ودقة التنظيم بمستوى لا يتوفر لأى فصيل من الفصائل السياسية المصرية، ويوحى بتورط جهة ما فى الترتيب والتدبير والتخطيط، فهناك من أشاروا إلى الجهات التى استفادت من الحريق الذى أدى إلى إعلان حكومة الوفد الأحكام العرفية مما أتاح للملك فرصة طردها من الحكم ، وتوقف الكفاح المسلح فى منطقة القناة فتنفس الإنجليز الصعداء، وبالتالى كان المستفيد من الجريمة الملك والإنجليز . ولما كانت ثورة يوليو قد وقعت بعد ستة شهور من ذلك الحدث فهناك من أشار إلى «الضباط الأحرار» بأصبع الاتهام باعتبارهم أصحاب المصلحة فى اسقاط

النظام، وأرجعه البعض إلى سخط «الرعاع» على النظام آخذين في الاعتبار المظاهرات التى طافت وسط القاهرة وموقف الجماهير السلبى من الحريق، وتعرض بعض المحال التجارية للسلب والنهب وسط الفوضى التى ضربت أطنابها حتى ما يقرب من منتصف الليل، وقدم كل باحث من هؤلاء ما يدعم وجهة نظره من أدلة وقرائن.

الكفاح المسلح وكبح الجماح

فالإنجليز كانوا – دون شك – أصحاب المصلحة في تصفية حركة الكفاح المسلح بعد ما نظروا بعين الشك إلى التأكيدات التى قدمها فؤاد سراج الدين – وزير الداخلية ورجل الوفد القوى – من خلال طرف ثالث إلى السفير البريطانى من أن حكومة الوفد لا تزال ترى في التفاوض السبيل الوحيد لحل مأزق العلاقات المصرية – البريطانية ، وأن التعنت البريطانى فى المفاوضات دفعها دفعا إلى إلغاء المعاهدة، وأنها لا تشعر بالارتياح إزاء تفجر حركة الكفاح المسلح وتسعى لاحتوائها تمهيدا للعودة إلى مائدة المفاوضات . فقد كانت كل الشواهد تدل على أن حركة الكفاح المسلح قد خرجت من نطاق سيطرة الحكومة ، وأوجد انسحاب العمال من العمل فى قاعدة قناة السويس وانقطاع الامدادات عن القاعدة أزمة خانقة حاولت السلطات البريطانية حلها من مصادر خارج مصر (من بينها قبرص)، وزاد من حرج موقف القيادة البريطانية تعرض أمن القاعدة وأرواح جنودها لضربات كتائب الكفاح المسلح، وقد كشفت الوثائق البريطانية عن خطة وضعتها الحكومة البريطانية تحت الاسم الكودى «روديو» (أى كبح الجماح) تتلخص فى عزل منطقة القناة عن مصر وإقامة حكم عسكرى بريطانى فيها ، ثم تحرك القوات البريطانية على محورين أحدهما من القناة والآخر من الإسكندرية بعد إنزال قوات بريطانية هناك فى حماية سلاح الجو الملكى البريطانى ويلتقى المحوران عند القاهرة، فيتم بذلك عزل الدلتا ، وإملاء ما يشاء الإنجليز من شروط على الحكومة التى يطلبون من الملك تنصيبها، وقد أصبحت تلك الخطة جاهزة للتنفيذ انتظارا لتحديد ساعة الصفر فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٥٢.

المخابرات البريطانية والدور الخفى

ويبدو أنه كان هناك ترتيب آخر تعده «المخابرات البريطانية» لتفجير الموقف المصرى من الداخل توفيرا لما تتطلبه خطة «روديو» من نفقات وما قد تسببه من مخاطر سياسية دولية، فكان نشاط «جماعة أنصار الحرية» ذات الصلة بالمخابرات البريطانية الذى اتخذ صورة محاولة إشعال فتنة طائفية باشعال النيران فى إحدى كنائس السويس ، وعندما طاشت سهامهم، وتم احتواء

حريق القاهرة

من الفاعل ؟؟!

الموقف، دبروا حريق القاهرة بالصورة التى تم بها، وقد استند جميع من اعتبروا الإنجليز وراء الحريق إلى قرائن قوية تجعل دور المخابرات البريطانية واضحا فى تدبير الحريق، ولم يكن بين يدى أولئك الباحثين (محمد أنيس، طارق البشرى، جمال الشرقاوى) عندما كونوا هذا الرأى معلومات عن خطة «روديو» التى كشفت عنها الوثائق البريطانية فيما بعد، والتى تجعل من تحرك «المخابرات البريطانية» لتفجير الموقف المصرى من الداخل مطلبا ملحا.

أما اتهام الملك بتدبير الحريق، فيستند إلى عدم ارتياحه للوفد بسبب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، حتى أنه كان معترضا على قيام مصطفى النحاس باشا بتشكيل الوزارة الوفدية وحاول أن يسند تشكيلها إلى فؤاد سراج الدين، وكاد ينجح فى ذلك لولا اعتراض قادة الوفد، واستنكار النحاس لموقف سراج الدين مما جعل الأخير يلح على كريم ثابت (وسيط الملك) بضرورة تكليف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، وهو ما تم بالفعل، كذلك لم يشعر الملك بالارتياح عندما وضعه النحاس باشا فى مأزق لم يملك معه سوى الموافقة على توقيع المراسيم الخاصة بإلغاء المعاهدة. كما ضاق الملك ذرعا بما اعتبره موقفا سلبيا من جانب الحكومة فى مواجهة المظاهرات التى هتفت بسقوطه وطالبته بمغادرة البلاد.

تنسيق بين الملك والانجليز

ومن القرائن التى تم الاستناد إليها فى توجيه الاتهام إلى القصر، تلك الوليمة التى أرجئت لموعد يتفق مع اضرام الحريق، والتأخر فى الاستجابة لطلب الحكومة بنزول الجيش إلى الشوارع للمحافظة على الأمن والنظام والسلبية التى واجه بها الجيش المتظاهرين، بل ومسارعة القصر إلى طرد الوفد من الحكم. ولم يستبعد هؤلاء أن يكون هناك تنسيق ما بين الملك والإنجليز فى هذا الصدد أو أن تكون فرق اضرام الحريق قد دربت وأعدت بناء على خطة وضعها القصر، لم لا وأمر «الحرس الحديدى» الذى كونه الملك لاغتيال بعض الشخصيات السياسية كان معروفا.

أما اتهام «الضباط الأحرار» فقد جاء استنادا إلى قرائن ضعيفة كان صاحبها أحمد أبو الفتح وجاءت فى الترجمة العربية لكتابه «مصر الناصرية» عاد فأنكرها فى حديثه إلى جمال الشرقاوى واعتبرها «تخمينية»، كما استند آخرون إلى مناسبتين خطب فيهما جمال عبدالناصر فأشار إلى أن جريمة حريق القاهرة رغم شناعتها إلا أنها جاءت

تعبيراً عن ذروة أزمة النظام السياسى وقمة سخط الجماهير المصرية، وهو تحليل له وجاهته لم يتفرد به جمال عبدالناصر وحده، بل شاركه الرأى عبدالفتاح حسن باشا أحد وزراء حكومة الوفد الأخيرة، وصفى فؤاد سراج الدين باشا ولذلك قصة تروى .

ففى شتاء ١٩٦٨ تمت لقاءات بين أستاذنا محمد أنيس وسراج الدين باشا فى قصره بجاردن سيتى فى إطار خطة مركز تاريخ مصر المعاصر لتجميع شهادات الساسة القدامى وكنت بصحبة الدكتور محمد أنيس أسجل ما يدور من نقاش بقلمى، وكانت الجلسة مخصصة لمناقشة حريق القاهرة وحضرها عبدالفتاح حسن باشا ، وعندما علق على مشاهدته لاهتراء خراطيم المطافىء بميدان الأوبرا بأن ذلك كان تعبيرا عن تهاوى النظام السياسى والاجتماعى استاء فؤاد سراج الدين لذلك واعتبره نوعا من المبالغة. ومن الجدير بالذكر أن فؤاد باشا نفى تماما التهمة عن الملك وحده ، ورأى أن الإنجليز هم وحدهم وراء الحريق، وأن الملك استثمره لمصلحته.

فاذا كان عبدالناصر قد رأى فى موقف الجماهير السلبى من الحريق، الذى وصفه بأنه كان جريمة شنعاء. تعبيرا عن تفاقم سخط الجماهير وقمة الأزمة الاجتماعية، التى كانت محركا لثورة يوليو، فلا يعنى ذلك أن للضباط الأحرار يداً فى ارتكاب جريمة كهذه.

حادث محلى صرف

ومن الغريب ان نجد عبد الرحمن الرافعى ينفرد بالقول بأن حريق القاهرة كان حادثا محليا صرفا ليس لأحد فيه دور بالتدبير أو التنفيذ، وانه تم على ايدى جماهير «الرعاع» الذى خرجوا بالمظاهرات المعبرة عن الاحتجاج على مذبحة الشرطة بالاسماعيلية عن مسارها السلمى واتجهوا الى التخريب والسلب والنهب. اما الاغلبية والقصر فقد كانوا مجرد منتفعين بالحادث.

ووجه الغرابة فى ما انتهى اليه عبدالرحمن الرافعى ان ما توصل اليه من نتائج مشابه لما توصلت اليه لجنة التحقيق التى شكلها السفير البريطانى برئاسة المستشار العمالى بالسفارة وعضوية بعض الدبلوماسيين وممثل للغرفة التجارية البريطانية وسكرتارية كين بويد الذى كان رئيسا للبوليس السياسى بوزارة الداخلية المصرية منذ الثلاثينات حتى نهاية الاربعينات. ويقع التقرير فى ٥٨ صفحة من حجم الفولسكاب إطلعنا عليه فى الوثائق البريطانية السرية، ويتضمن وصفا تفصيليا للحوادث من خلال شهود العيان الذين استمعت إليهم اللجنة وبيان بجميع المؤسسات التى أضيرت من الحريق والخسائر البريطانية فى الأموال والأرواح، وانتهى التقرير الى اعتبار حكومة الوفد المسئول المباشر عن

حريق القاهرة

من الفاعل ؟ !

الحريق بسبب اشعالها لروح العداء ضد الانجليز ، وتشجيعها المتطرفين على مقاومة الوجود البريطانى بالقوة مما جعل العناصر المعروفة بتعصبها ضد المسيحيين واليهود والأجانب تتحرك لاشعال الحرائق، واتفقت مع الحكومة فى ترجيح أن يكون وراء الحريق أحمد حسين وحزبه ورجاله، ولكن ذلك تم فى رأى اللجنة ـ بمباركة من حكومة الوفد، بدليل وقوف الشرطة موقفا سلبيا خلال الحوادث واشتراكهم فى المظاهرات . كذلك السلبية التى اتسم بها موقف الجيش عندما نزل الى الشوارع لاقرار الأمن والنظام. وانتهى التقرير إلى إن خسائر الانجليز كانت أقل من غيرهم مما يوحى بأن مثيرى الشغب كانوا يقصدون المصالح الاجنبية عامة وليس الانجليز وحدهم.

وواضح أن التقرير بسعيه لإدانة حكومة الوفد، تجاوز عن دور اللواء محمد ابراهيم إمام «تلميذ كينى بويد» ورئيس البوليس السياسى ـ الذى كان موجودا فى موقع الأحداث فى مخالفة تعليمات وزير الداخلية بالتصدى للمظاهرات ، وغياب كبار الضباط فى وليمة الغداء بقصر عابدين . وعدم وجود ولاية للحكومة على الجيش الذى يأتمر بأمر الملك.

جمع أدلة لإدانة حكومة الوفد

ولعل القارىء يتساءل : اذا كان الحريق من تدبير الانجليز فما معنى وجود لجنة التحقيق هذه، وما أهمية ذلك التقرير السرى الذى أعدته؟

من المعروف أن الأعمال «القذرة» مصطلح شائع بين أجهزة المخابرات الكبرى، ويقصد به الخطط ذات الطابع الاجرامى التى تخدم الأهداف السياسية لبلادهم دون ان تترك وراءها أثرا يمكن تتبعه . ولا شك أن المخابرات البريطانية لعبت دورا مهما فى تنفيذ هذه الجريمة مستخدمة فى ذلك عملاءها. سواء من كانوا أعضاء فى جمعية انصار الحرية الذى تشير الدلائل الى صلتهم بهذا اللون من النشاط، أو رجالهم داخل البوليس السياسى المصرى وداخل القصر الملكى، فعمل بهذا الحجم يقتضى التنسيق على مستوى رفيع بين من خططوا له ونفذوه ، وبين من يغطون نشاط هؤلاء ويسهلون عملهم، ويضمنون لهم الانسحاب بسلام، وهم أنفسهم الذين عليهم البحث عن كبش فداء تعلق التهمة فى رقبته وهو ما فعله أحمد مرتضى المراغى باشا وزير الداخلية ورجل الانجليز فى قرار الاتهام الموجه ضد أحمد حسين وبعض أعوانه وعناصر ممن شاركت فى السلب والنهب.

لقد بذل صاحب هذا المقال جهدا فى الوثائق البريطانية بحثا عن أى صلة بين المخابرات البريطانية وحريق القاهرة وكان من المنطقى الا يعثر فى الوثائق على اثر لذلك الدور فى الوثائق المسموح بالاطلاع عليها. وتقرير لجنة التحقيق التى شكلتها السفارة البريطانية بالقاهرة لا يعنى أن أعضاءها لا يدركون ذلك. فالنتيجة التى توصلا إليها كانت مطلوبة بالحاح، وهو جمع ادلة الادانة لحكومة الوفد والتأكد من أن خسائر الانجليز محدودة قياسا بالخسائر التى لحقت بالمصالح الأجنبية الأخرى.

أصابع الاتهام تشير للانجليز

إن استقراء الأحداث التى شهدتها مصر منذ حريق ١٩٥١ حتى حريق القاهرة تجعل أصابع الاتهام تشير إلى الانجليز كفاعل أصلى، والى عملائهم فى البوليس السياسى المصرى وداخل القصر كشريك. أما الحدث نفسه فكان تعبيرا عن تداعى النظام السياسى والاجتماعى كله. بعد ما عجز عن تحقيق الاستقلال الوطنى بطريق التفاوض وعن بناء اقتصاد وطنى خارج اطار التبعية لرأس المال الاجنبى، ووقفت النخبة السياسية المسيطرة على الحكم ضد كل الافكار والمشروعات التى طرحت لحل الازمة الاجتماعية التى تفاقمت منذ الحرب العالمية الثانية . هذا فضلا عما تركته نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ من جرح عميق فى الروح الوطنية. لذلك لم تهتم الجماهير التى شهدت حريق القاهرة بمحاولة انقاذ المؤسسات التى تعرضت للحرق، فقد كانت كلها رموزا للسيطرة الأجنبية على مقدرات البلاد، بل كان وسط المدينة الذى شهد الحريق يمثل مصر الأخرى التى تشعر الجماهير بغربة فيها. ولم يكن مسلك جنود الشرطة والجيش من تلك الأحداث تجسيدا لرؤية الجماهير التى جاءوا من بين صفوفها لمجتمع وسط المدينة بكل ما تحمله تلك الرؤية من معان. بل كان الملك فاروق نفسه يدرك تماما أن النظام السياسى الذى يقف على قمته يتهاوى تحت أقدامه ، فراح يعد العدة لثورة قادمة، ويتهيأ للحياة فى المنفى بتهريب جانب كبير من أمواله الى الخارج بمساعدة رجله الياس اندراوس وكان يؤكد لخلصائه أن أيامه اصبحت معدودة، وأن مستقبل النظام فى كف القدر.

وقد شجع حريق القاهرة الضباط الأحرار على التبكير بالانقلاب العسكرى الذى كان مقررا له فى تقدير جمال عبدالناصر عام ١٩٥٥ بعدما أصبحت الظروف المتردية حافزا قويا للتحرك الثورى لتقويض أركان النظام، فكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ نتيجة منطقية لتلك الأحداث.



شريط ذكريات عن السينما فى القرن العشرين

بقلم : مصطفي درويش

نشأت فى أسرة تعشق السينما، رجالا وصبيانا، لا يخرج حديث مائدة العشاء، عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين فى ايطاليا والمانيا وامريكا والمقارنة بينهم.

لا أشترك فى الحديث ـ لصغر سنى ـ بل تلتقط أذناى منهم كل كلمة تقال. وأعتنق آراءهم، وأضحك لضحكهم، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة ، كأنه مما رأته عيناى.

وانتبهت . فاذا بى انتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب إلى السينما. أترقبه منذ صباح الجمعة، وأعد الأيام والساعات. أريد أن ينفذ العمر فيها كغمض العين.

فاذا جاء الخميس ـ مرحبا بغرة الايام ـ تناولت غذائى مسرعا، وأنا قلق متلهف، واخذت ألح على أخى الأكبر لنخرج، ولما تدق الساعة الرابعة -- وأسير بجانبه، وأنا ألهث أى ساحر سحرنى؟ ليست هى دار السينما وحدها، ولا الرواية، ولا الممثل، بل جو خليط من هذا وذاك: واجهة الدار باعلاناتها وصورها الضخمة، تكاد تنطق، وانوارها المتحركة والتزاحم على بابها، وتلك الضجة العظيمة التى اسمعها ولما ندخل» . هذا الاستشهاد الطويل من شريط ذكريات لاديبنا الكبير «يحيى حقى»، اردته مدخلا للحديث عن الفن السابع، عندنا فى مصر المحروسة إبان القرن العشرين، وكيف انه ، ومنذ البداية، كان له منزلة كبيرة فى قلوبنا وعقولنا .

ولا غرابة فى أن يكون لذلك الفن الوليد مثل تلك المنزلة التى عبر عنها اديبنا الكبير خير تعبير.

فلو ان للقرن العشرين ملمحا واحدا يميزه من كل ما سبقه من قرون، تعد بالمئات ، وربما بالآلاف فى حياة الإنسان، فلعل كان ذلك، هو تحرك الصورة، صامتة فى البداية، ثم متكلمة، فملونه بأزهى الألوان.

غزو الصورة

ثم استكمالها مشوار غزوها لقلوبنا وعقولنا، بفضل شاشات صغيرة بيضاء تتصدر صناديق سوداء، عرفت عندنا



فيفيان لى .. نجمة
«ذهب مع الريح» تقلدها
ماجدة الصباحى

تحت اسم التليفزيون أو التلفاز.

وهو ما تحقق رويدا، رويدا، على مر اعوام النصف الثانى من ذلك القرن الفريد.

والأمثلة على منزلة الصورة المتحركة، وازدياد تأثيرها، ولا أقول هيمنتها، على حياتنا، تلك الأمثلة اكثر من ان يغيب امرها عن اى قارىء لبيب.

واعود إلى شريط ذكريات اديبنا الذى استشهدت ببعض ما جاء فيه كمدخل، لاقول أن من بين ذكرياته ان افراد اسرته كانوا يرددون فى أثناء تناولهم طعام العشاء اخبار ممثلى السينما الإيطالية والألمانية والأمريكية.

وأول ما يلاحظ على هذا القول هو تقدم اخبار ممثلى كل من السينما الإيطالية والألمانية، على اخبار ممثلى السينما الأمريكية فى احاديث موائد عشاء أسرة اديبنا الكبير، وغياب اخبار ممثلى السينما المصرية، وكأنه ليس لها وجود فى دنيا الأطياف.

والحق أنه وقتئذاك لم تكن قد خرجت أطيافها بعد إلى النور، أو بمعنى اصح ظلام دور السينما .

إما لماذا كانت اخبار ممثلى السينما الإيطالية تجىء فى مقدمة احاديث موائد العشاء، دون اخبار ممثلى السينما الأمريكية، فذلك لأنه فى الزمن الذى كانت تجرى فيه تلك الأحاديث كان اديبنا الكبير لايزال صغيرا، ليس فى وسعه الذهاب بمفرده إلى حيث يجرى عرض الأفلام.

مولد قرن وأديب

ومتى كان الثابت انه جاء إلى الحياة الدنيا، والقرن العشرون ليس له من العمر سوى خمسة أعوام، فأغلب الظن إذن أن أحاديث موائد العشاء، كانت تدور فى العصر الجميل السابق على اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، أو ربما فيما بعد اندلاعها بقليل.

ومن المعروف أنه قبل تسعين عاما أو يزيد، وبالتحديد عام ١٩٠٨، كانت هوليوود لاتزال تحبو، لا تنتج سوى أفلام روائية قصيرة من بكرة واحدة، لا يستمر عرضها سوى دقائق معدودات.

هذا فى العالم الجديد، أما فى إيطاليا، فقد انتجت شركة امبروزيو فى ذلك العام فيلم «آخر ايام بومبيى» عن قصة «بولوير ليتون» التاريخية.

بعد ذلك، وقبل هوليوود بحوالى أربعة أعوام، بادرت السينما الإيطالية بانتاج فيلم روائى طويل من خمس بكرات اسمه «جحيم دانتى» «١٩١١» وبفضله، مع أفلام إيطاليه أخرى أكثر طولا، جاءت بعده تباعا، أذكر من بينها «كوفاديس» و«كابيريا»، ارتفعت منزلة السينما الإيطالية، على نحو أهلها لاحتلال مركز الصدارة.

الحرب غير المعلنة

ولأعوام قليلة ظلت محتلة لذلك المركز بأفلام اذكر من بينها «ليدا بوريللى» على



صراع الأبطال للمخرج توفيق صالح



النجوم شابلن وفيربانكس مع جريفيث مخرج مولد أمة

سبيل المثال.

وأقول لاعوام قليلة ، وذلك لانه فى اغسطس من عام ١٩١٤، اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى.

وفى تعليق يقطر مرارة عن تأثير تلك الحرب جاء على لسان «ليون جومون» المنتج الفرنسي الشهير، قال إنها «حرب صنعت خصيصا من أجل أمريكا».

وذلك التعليق المرير اتفق معه ، فيما بعد، الكثير من الأمريكيين.

فمثلا «جسى لاسكى» أحد الرواد الأوائل الذين أقاموا مصنع الأحلام، قال من بين ما قال، وهو يسترجع على شاشة ذاكرته ما فات من احداث تاريخها موغل فى القدم.

«أعتقد أنه فى وسعنا إرجاع سيطرة أمريكا على السوق العالمى للفيلم إلى الحرب العالمية الأولى.

فأوروبا قبل تلك الحرب، كانت متقدمة علينا بأفلام فرنسية مسلية، رفيعة المستوى، مثل «غادة الكاميليا» و«الملكة اليزابيث». وأفلام إيطالية رائعة مثل «كابيريا» و«كوفاديس» المكون من ثمانى بكرات.

فنمو صناعتنا وقتذاك كان بطيئا.

غير أنه فى أثناء انتكاسة اوروبا. سرعان ما توسعت وقفزت إلى أمام.

ومع نهاية الحرب . كنا قد سبقنا بمراحل أوروبا تقنيا.

وكانت قبضتنا على جمهور السينما خارج أمريكا قد أصبحت من القوة. بحيث ارتفع مجموع ايراداتنا. على نحو اهلنا لان نكون فى وضع منيع».

هيمنة هوليوود

ومصداقا لقوله هذا، فإنه ما أن دخلت تلك الحرب عامها الثانى . حتى كانت هوليوود قد انتجت «ميلاد امة» لصاحبه «دافيد جريفيث» المسمى بأبى السينما.

وفيلمه هذا، عن الحرب الأهلية الأمريكية، قد امتد عرضه لأكثر من ثلاث ساعات!!

وما أن القت الحرب سلاحها عام ١٩١٨ حتى كانت استديوهات هوليوود بأفلامها ونجومها الأولى فى العالم، لاتنازع احتلالها مركز الصدارة اية سينما اخرى. حتى ولو من بعيد.

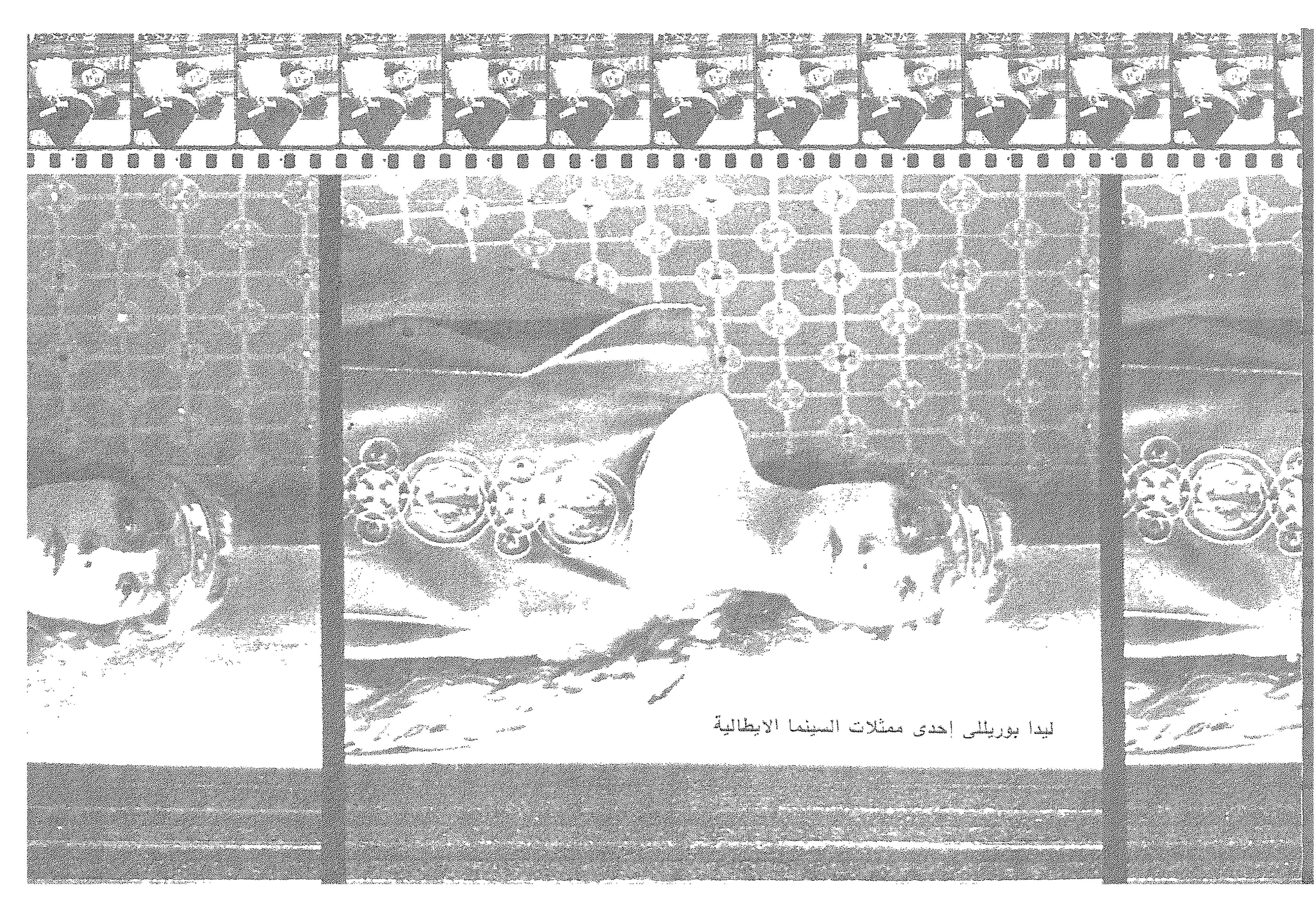
ولو كان قد كتب لاحاديث اسرة اديبنا الكبير حول موائد العشاء ان تدوم إلى ما بعد القاء الحرب العالمية سلاحها، لما ترددت اخبار ممثلى السينما الإيطالية، بعدئذ أصبحت فى خبر كان.

تأخر الميلاد

ولما ترددت . من باب أولى، اخبار ممثلى السينما المصرية.

ولترددت . بدلا من ذلك. اخبار نجوم مصنع الاحلام.

ولربما اقتصر الحديث عليهم ، فهم كثر. واسماؤهم بدءا من شارلى شابلن



ليدا بوريللى إحدى ممثلات السينما الايطالية

ودوجـلاس فـيـربانكس ومـارى بيكفـورد، وانتـهـاء براعى البـقـر «تـوم مـيكس» بطل أمريكا . تجرى على كل لسان.

أمـا لماذا كان لزامـا الا تتردد أخـبـار ممثلى السـينمـا المصـرية، مع أنهـا أولى بالذكـر، فذلك لأن مـيـلادها جـاء مـتـأخـرا، وفى نفس العام الذى تحررت فيه السينما من صـمـتـهـا بالكلام (٦ أكـتـوبر لعـام ١٩٢٧)، اى بعـد القـاء الحـرب سلاحـهـا بتسعة أعوام.

ولسوء الحظ، فإن ميلادها المتـأخر قد جاء متعثراً فى جو مشبع بروح السينما الأمريكية، التى كانت قد تسيدت بأفلامـها على سـوق العروض، بطول وعـرض البـلاد فى شبه احتكار.

القاعدة والاستثناء

ومن هنا تأثر انتاجها بتلك الروح . الا فيما ندر من افلام.

فباستثناء نفر قليل من المخرجين مثل توفيق صالح و«شادى عبدالسلام»، وعدد من الأفـلام اقل من القليل مـثل «دعـاء الكروان» و«الحــرام» و«بداية ونـهــاية» و«السـقــا مــات» و«اللص والكلاب»، باستثناء ذلك، كانت معظم الأفلام مجرد محاكاة وتقليد لأفلام مصنع الاحلام.

ولعل خير مثل على ذلك التأثر المقيت، «من أحب» ذلك الفيلم الذى قامت النجمة «ماجدة» بانتاجه واخـراجه واداء الـدور الرئيسـى فيه. متأثرة، فى كل ذلك بفيلم «ذهب مــع الريح»، خاصة باداء «فيفيان لى» لدور «سكارليت اوهارا» .

ورغم ذلك . ورغم معوقات اخرى يبرز من بينها رسوخ الرقابة بموانعها العديدة رسـوخ الجبال وجنوح نفر لا يستـهان به من صـانعى الأفلام إلى الاستسـهال، ذلك الداء العضال.

انجاز واعجاز

رغم ذلك ، اسهمت السينمـا المصرية فى جـعل لهجـة الكلام القـاهرية، اللـهـجـة السـائدة، المحـبـبـة الى قلوب العـرب من الخليج إلى المحيط.

كـمـا شـاركت فى الإنتـاج السـينمـائى العالمى بنصيب غير قليل من الأفلام.

فبفضل ولع بالصورة، يرجع إلى ايام قدماء المصريين.

وبفــضـل قــدرة مــذهلة على تمثل الافكــار، وبـث روح مصـرية فيـهـا. صـار لكثير من افـلامها المقتبسة لا سيما مـا كــان منها مــن صنع مخـرجين محــبين للسـينمـا، مـذاق مـصــرى. يمـيـزهـا عن الافلام التى جرى الاقتباس منها.

أزمة بقاء

ومـع ذلك ، فــتلك الســينمـــا التى استطاعت مقاومة عناصر الجدب والعقم، والفنـاء، تواجـه الآن . ولأول مــرة أزمــة توشك أن تودى بها.

ومن بين أسـبـاب تلك الأزمــة . اقف قليـلا عند قـرار صـدر، قـبل عدة أعـوام،



لقطة من فيلم «بداية ونهاية»

بالغاء صندوق دعم السينما وذلك بدمج اختصاصاته ضمن اختصاصات صندوق اسمه صندوق التنمية الثقافية.

فلقد كان من نتائج ذلك الدمج التعسفي، حجب مال الصندوق الملغى عن المستحق الوحيد له. الا وهو فن السينما.

ولعله من اخطر ما يغيب عنا ادراكه إدراكا واضحا ان ذلك الدمج، قد أدى، في حقيقة الامر . الى المساواة بين غير متساويين.. فن السينما والفنون الأخرى.

تغير الموازين

فالسينما فنها اولى بالرعاية، وذلك بحكم الدور المتزايد والحاسم الذى تلعبه الصورة المتحركة فى حياتنا الآن، وقد دخلنا القرن الحادى والعشرين دخلناه والامل يحدونا ان يكون فى عقلنا عزم وتصميم، على مواجهة تحديات العصر متمثلة فى العولمة وثورة المعلومات والاتصالات ، وارتباط مستقبل الصورة المتحركة بتلك الثورة التى قلبت كل الموازين!!.



الفن التشكيلى وأزمة الفنون الرفيعة فى مصر

بقلم: د.صبري منصور

منذ حوالي قرن من الزمان - ومن خلال البعث الجديد للشعب المصرى بعد فترة ركود وتدهور حضارى استمرت مئات السنين - بدأت الفنون التشكيلية علي أرض مصر انطلاقتها الحديثة في ثوب جديد يتوافق مع المفاهيم العصرية التي كانت قد رسخت أقدامها في اوربا منذ عصر النهضة في القرن الخامس عشر . في تلك الفترة كانت ولادة أول أعمال فنية تمثل القريحة الإبداعية للمصريين وقد حملت تلك الأعمال المبكرة قيمة فنية واضحة تضارع



فتاة - للفنان صبرى راغب

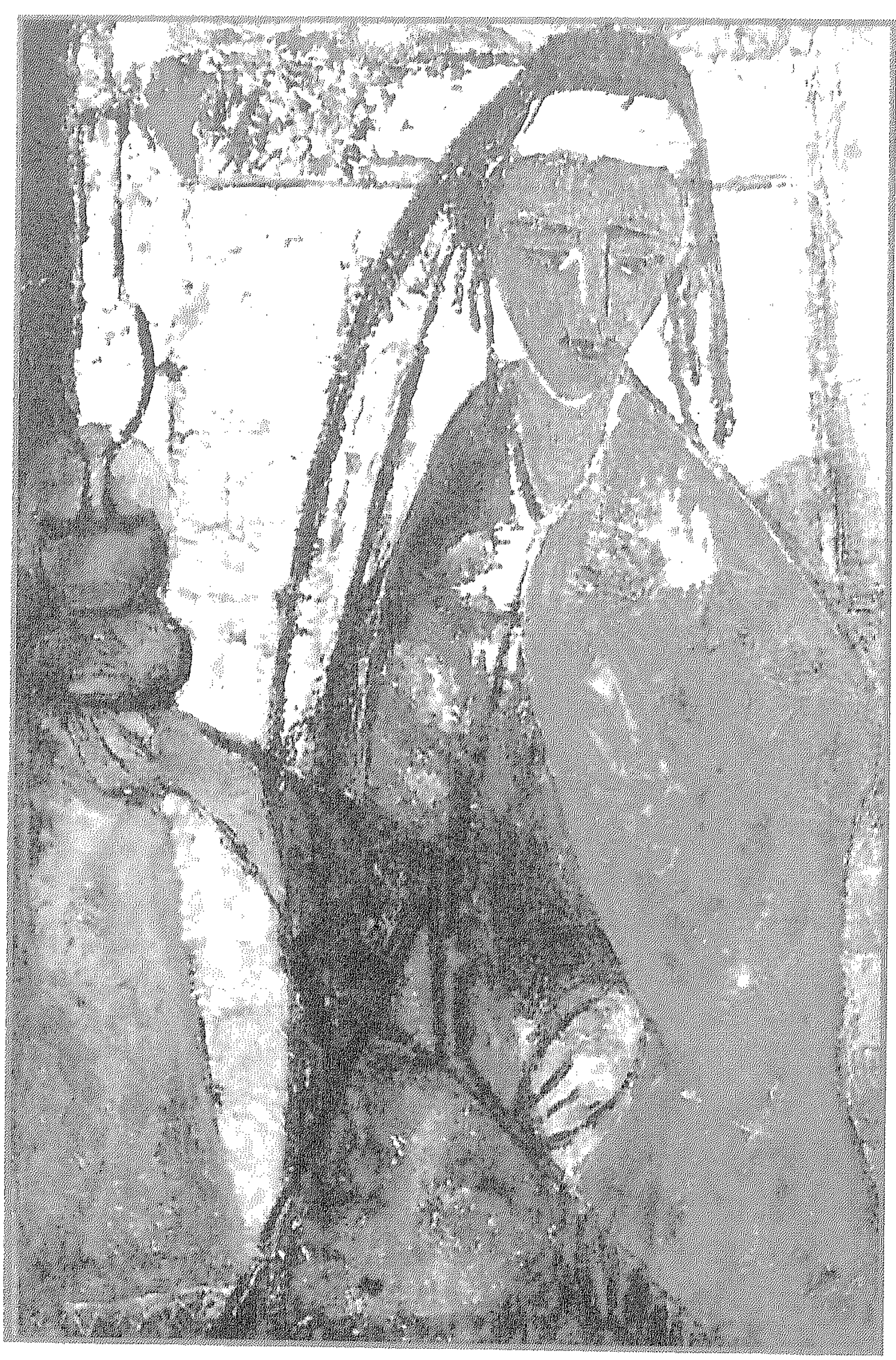
في جودتها ورقي مستواها ودقة أدائها الأعمال الفنية العالمية، فجسدت أعمال الفنانين من أمثال محمود مختار فى فن النحت ومحمود سعيد ومحمد ناجي وراغب عيد في فن التصوير معلما من معالم الثقافة المصرية الحديثة، ولم يكن إنجاز هؤلاء المبدعين أمراً هينا أو بسيطا فالفن التشكيلى هو ضرب من الفنون يستلزم ثقافة فنية عالية واحساساً مرهفا وخيالا خصبا وخبرة فنية ومهارة فى الأداء .

الفن التشكيلى

ومع ذلك فلم يكن غريبا ، أن تبدأ الفنون التشكيلية نهضتها الحديثة بتلك القوة ، فلا شك أن ميراث مصر الحضارى المتنوع والموغل فى القدم مازال كامنا فى نفوس المصريين ينتظر من يمهد له السبيل الى الانطلاق. وبعد تلك البداية الرائعة للفن المصرى الحديث خلال العشرينات على أيدى جيل الرواد ، ازدادت حركة الفن المصرى تألقا فى الأربعينات والخمسينات بظهور الجماعات الفنية المتتابعة التى جعلت من الفن التشكيلى عنصراً مساهما وفعالا فى الحياة الثقافية المصرية، فكانت جماعات الفن والحرية ، والفن الحديث ، والفن المعاصر، والفن والحياة ، تنطلق من توجهات ثقافية عميقة، وأضفت على الفن التشكيلى فى تلك الفترة الخصبة سمات الفن الجاد الرصين ، وجعلت منه فرعاً من فروع الإبداع الثقافى لا يقل فى قيمته عن باقى الفنون الأدبية والتعبيرية. . أما فى فترة الستينات فكانت الحركة التشكيلية تودع أزهى فترة مزدهرة، لتستقبل بدايات مرحلة انحسار اوصلتنا إلى ما يعانيه الفن التشكيلى فى مصر اليوم من فقدان البريق، واختلاط الجاد بالهازل، وضياع القيمة الحقيقية ، وتراجع عن الوفاء بدوره المؤثر فى حياتنا الثقافية المعاصرة .

الفنون الرفيعة وثقافة المواطن :

ولا شك أن الفن التشكيلى هو مهما قل دوره جزء من حياتنا العامة ، وازدهاره أو تدهوره إنما لا يأتى منفصلا عن السياق العام لتطور البلاد وتقدمها ، والراصد لحياتنا الثقافية بشكل عام خلال العقود الماضية يستطيع أن يلمح ظاهرة النقص المتزايد فى ثقافة المواطن العادي الذي أصبح لا يرضيه من الفنون إلا ما هو فج هابط ، ولا يستميله إلا ماهو بسيط ساذج وتسيدت المستويات السوقية المبتذلة ساحة الإبداع المصرى فى شتى مجالاته من سينما ومسرح وموسيقى وفن تشكيلى . تلك الظاهرة التى اعترضت مسار التطور الطبيعى لتقدم وتحضر المصريين، ساهم فى وجودها عدة عوامل متشابكة ، وزاد من تعقيدها عدم رصد الظاهرة منذ البداية ، مما أدى بالتالى إلى صعوبة التصدى لها ، ولا يعرف بالتحديد مختلف عناصرها، فبعضها يتعلق بصعوبة تذوق الإبداع الفنى نفسه لجدته على ثقافة المصريين، وبعضها يتعلق بالعوامل الاجتماعية والحضارة



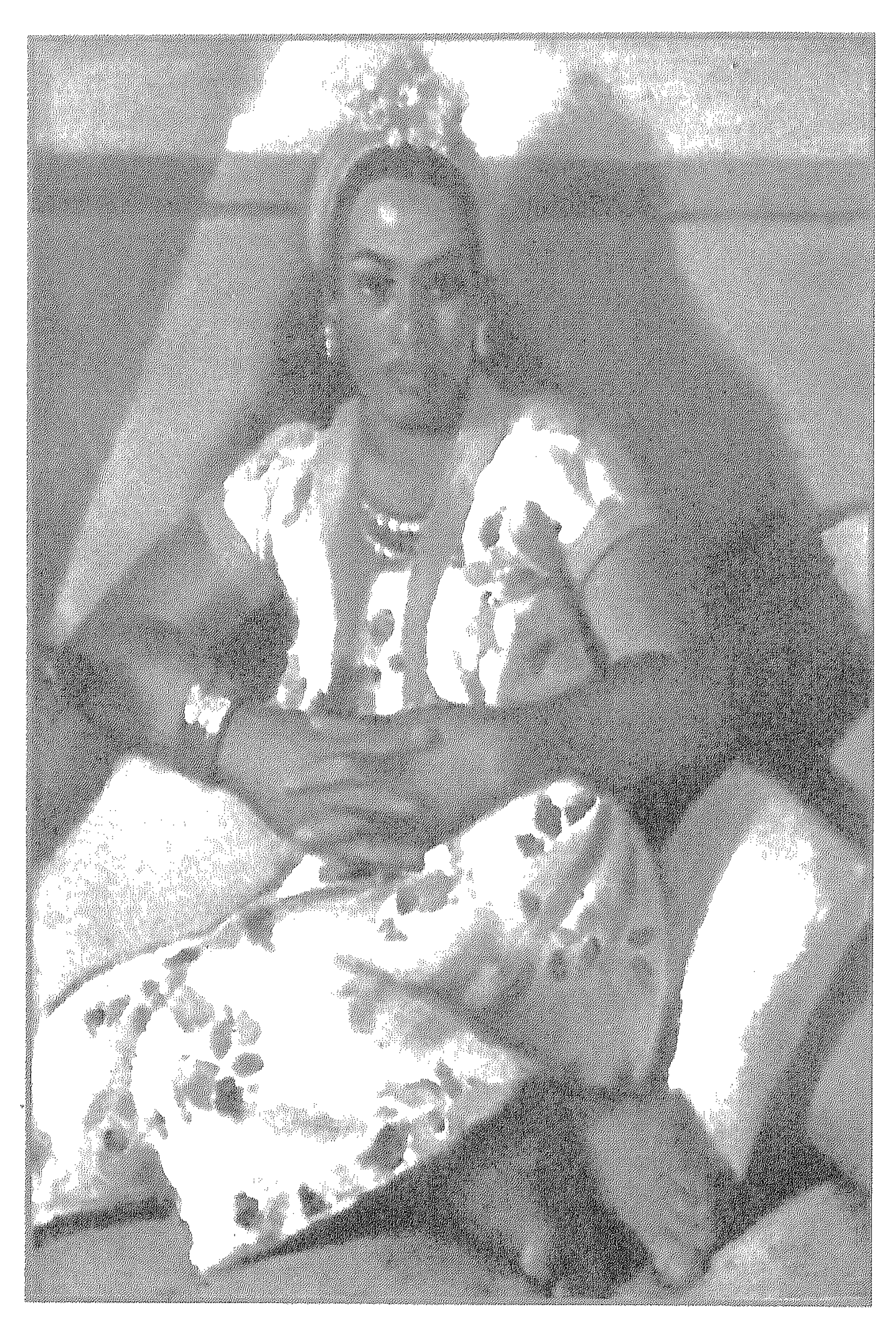
حاملة المصباح - تحية حليم

الفن التشكيلى

السائدة اليوم وما تمثله من ردة فكرية وسلفية لا تريد الانعتاق من نطاق اسلوب التفكير فى القرون الوسطى . ومع صعوبة تحديد أى العوامل كان أشدها تأثيرا فى خلق الظاهرة وانتشارها ، فإننا يمكن أن نشير الى عامل جوهرى يدركه الجميع ويلمسونه، وهو مستوى التعليم فى مصر الذى أفرخ أجيالاً غير قادرة على التفكير والتطور، فعقولهم تفتقد إلى المعارف الأساسية للإنسان المعاصر، فهم يكتفون بالمعرفة البسيطة التى تكاد تكفى لتسيير حياتهم اليومية، أما ما هو أبعد من ذلك فهو عالم غامض مجهول، ولا يستحق بذل العناء للتعرف عليه فهو لا يهمّ ولا يؤثر، لذلك فالفنون الرفيعة بما تحفل به من خيال وانطلاق يسمو فوق الواقع المعاش هو موضوع غير مطروق وغير مستحب، وباستثناء بعض المعلومات البسيطه المتبقية من مرحلة الدراسة والتعليم فى المدارس والجامعات، لن تجد من هو ملم بأطراف من تاريخ بلده وفنونها وثقافتها، ولن تعثر على من يستمتع بسيمفونيات بيتهوفن وموزار وأغانى سيد درويش، أو يكون مطلعاً على ملامح من الثقافة المصرية المعاصرة أو قرأ كتاباً لطه حسين أو الحكيم أو نجيب محفوظ، ولن نقول أو من زار متحفاً فنياً أو تعرف على ابداع فنان تشكيلى معاصر كمحمود سعيد أو حامد ندا، ومن يا ترى هو المسئول عن حرمان المصريين من بلوغ المستوى الحضارى الراقى الذى يجعلهم قادرين على الاستمتاع بتذوق الفنون على اختلاف مجالاتها ؟ وعندما ظهر فيلم المومياء للمخرج شادى عبد السلام وجد فى الخارج احتفاء وتقديراً لم يجده فى مصر رغم مصرية الفيلم الشديدة، ولم يكن حظ فيلم عرق البلح للمخرج رضوان الكاشف - وقد حصد العديد من الجوائز العالمية - أسعد حظاً من المومياء، وتظل الأفلام الرخيصة التى تخلو من أى قيم رفيعة هى التى تجتذب الجمهور العريض، كما تظل قاعات المتاحف ومعارض الفنون الخاوية دليلاً على انصراف الجمهور عن كل ما هو رفيع القيمة، وتلك هى مشكلة وأزمة الفنون الرفيعة فى مصر إذ أن الجمهور المتذوق يمثل طرفاً أساسياً فى العمل الفنى وبدونه يظل العمل الابداعى كالجثة الهامدة أو هو كالعدم سواء بسواء.

نخبة المثقفين والفن التشكيلي

وإذا كنا نتحدث عن المستوى الثقافى المتدنى للمواطن العادى الذى

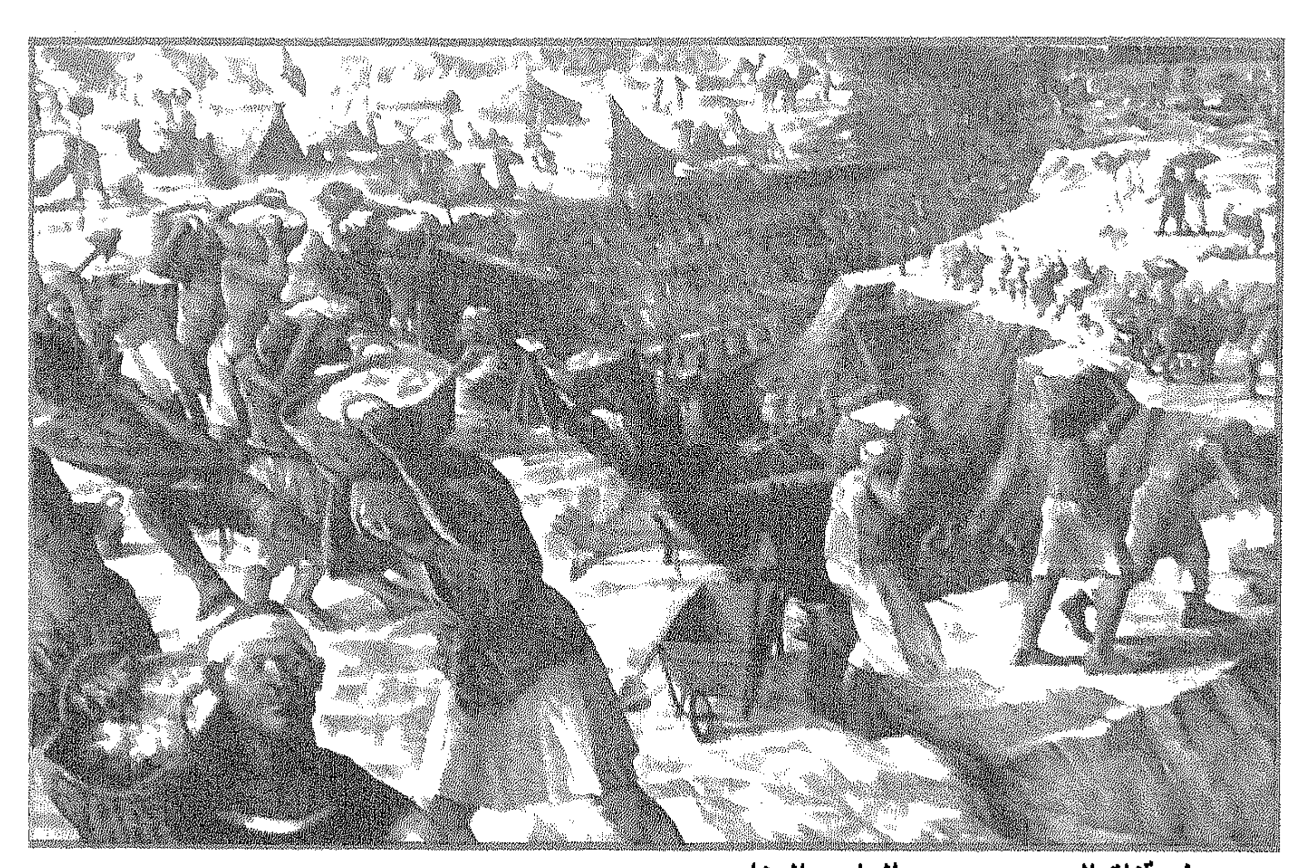


بنت بحرى - محمود سعيد

حصل على درجة معقولة من التعليم، فإن ظاهرة الثقافة المسطحة امتدت لتشمل النخبة من المثقفين المصريين الذين يمثلون عقل الأمة ووجدانها العام، وهم القدوة التى تقود الجماهير وترشدها إلى كلّ ما هو قيم وعميق، وتنبه أذهان الناس وتلفت انتباههم لمصادر الثقافة الحقيقية . تلك النخبة – التى تضم الكتاب والادباء والشعراء والمفكرين وأساتذة الجامعات والاعلاميين – تجدها بعيدة كل البعد عن مجال الفنون بشكل عام والفنون التشكيلية على وجه الخصوص، فبدلا من نظرة التقدير للمبدعين باعتبارهم ثروة بشرية نادرة يجب الإشادة بانتاجها ورعايتها لأن فى ذلك البرهان على التحضر والرقى ، فإنه تسود نظرة الاستهانة احيانا والتجاهل فى معظم الأحيان ، ولا نعتقد أنه يوجد فى مصر الآن كاتب أو مثقف حريص على متابعة مسار الحركة الفنية وتطور أساليبها أو يعرف نجومها ، وإنما يكتفى بمعرفة بعض الأسماء التى تتناولها وسائل الإعلام وحتى بدون امعان النظر فى القيمة الحقيقية لإبداعهم ، وبينما كان صفوة المثقفين – فى أوائل القرن الماضى – هم أول من دعا لضرورة واهمية الفنون فى تطور وتحديث المجتمع المصرى، وكان انشاء مدرسة الفنون الجميلة العليا عام ١٩٠٨ استجابة لنزعة المفكرين التقدمية المستنيرة ، نجد أن صفوة المثقفين المصريين فى آخر القرن ينصرفون عن الفنون الجميلة ويعزفون عن اكتساب الثقافة اللازمة لتذوق هذه الفنون واعطائها حق قدرها . ويمثل موقف الصفوة من الفنون عاملا من عوامل الإحباط عند الفنانين التشكيليين الذين لا يجدون انفسهم معزولين فقط عن الجماهير العريضة ذات المستوى الثقافى المحدود ، وإنما أيضا عن اولئك الذين يفترض ان يساندوا إبداعهم ، ولم يتبق للفنان التشكيلى المعاصر فى مصر غير دائرة محدودة من زملائهم الفنانين ليمنحوهم المواساة وكلمة التشجيع الوحيدة التى تساعدهم على الاستمرار .

الصيغ التشكيلية الجديدة :

وفى مناخ ثقافى عام لا يهمه سوى الانتاج الخالى من القيمة الحقيقية والذى يهتم بالكم لا بالكيف ويولى للإعلام والاعلان أهمية تفوق المعاناة من أجل تحقيق قيمة ابداعية حقيقية، ضاعت النظرة المتعمقة ، والفكرة الجادة ، والعمل الفنى الأصيل . وإذا اضفنا لذلك اختلاط القيم والمفاهيم



حفر قناة السويس - عبد الهادى الجزار

الفنيـة التى سـاهم فى نشـرها أولئك الذين لم يحظوا بأية مـوهبـة حـقـيقـيـة فـاقـتـحـمـوا عـالم النقد والتنظير الفنى بروح هدَّامـة تسـعى لتـدمـيـر كل مـاهو اصـيل فى حـيـاتنا الثـقـافـيـة والفنيـة ، فالبحث عن معالم ذاتية - فى رأيهم - نوع من الرجـعـية والسلفـية، ومـسـايرة الاتجاهات الاوربية وتقليدها ونسـخـهـا هو مـواكبة لروح العصر وايقاعه ، وقد أدى ذلك الخلط إلى ضـيـاع مـواهب اصـيلة واعدة بعـد أن التـبـست عليـهـا المفـاهيم فـتـاهت فى خـضـم المدارس والاتجـاهات . وبدلا من العـمل الدءوب على خلق صـيغ فنية جديدة بالاعتمـاد على المعالم الثقافية والتراثية الممتدة فى عـمق التـاريخ المصـرى، اصـبـح اللجـوء الى اشكال وصـيغ مـسـتـهلكة ابتكرهـا الآخـرون، وفـقـد بذلك الفن المصرى بعض سـماته التى كان جيل الرواد ومن تلاهم قد قطع شوطا كبيرا فى احيائها وتجسيدها .

إن السـعى نحـو ايجـاد الصـيغ التـشكيلية المصـرية يجب أن يكون هو المعـيـار الموضـوعى الدقـيق فى تقـيـيم الأعمال الفنية ، وهو ما يجب أن يكون كـذلك هدفـاً سـامـيـاً لإنشـاء الجـوائز ومنحـها وليس معيار النقل والاتقان لما هو موجود بالفعل من مدارس واساليب ، فذلك ينفى عن الفن المصرى المعاصر صـفـة الاصـالة والابتكار ، بل يجـعله

عديم القيمة والأهمية .

نحو استراتيجية ثقافية في مصر :

وإذا كانت مصر قد أصلحت خلال السنوات الماضية العديد من مشاكل البنية الاساسية سعيا للحاق بالتقدم العصرى ، فإنها فى أشد الحاجة اليوم إلى اعادة النظر فى البنية الأساسية للإنسان المصرى نفسه، الذى تكاتفت عوامل عديدة من أجل حرمانه المقدرة على التطور وأصابت عقله بالتوقف وخياله بالجدب ، مما جعله غير قادر على القيام بدور- سبق لأسلافه القيام به على خير وجه - من أجل تطور الحياة البشرية .

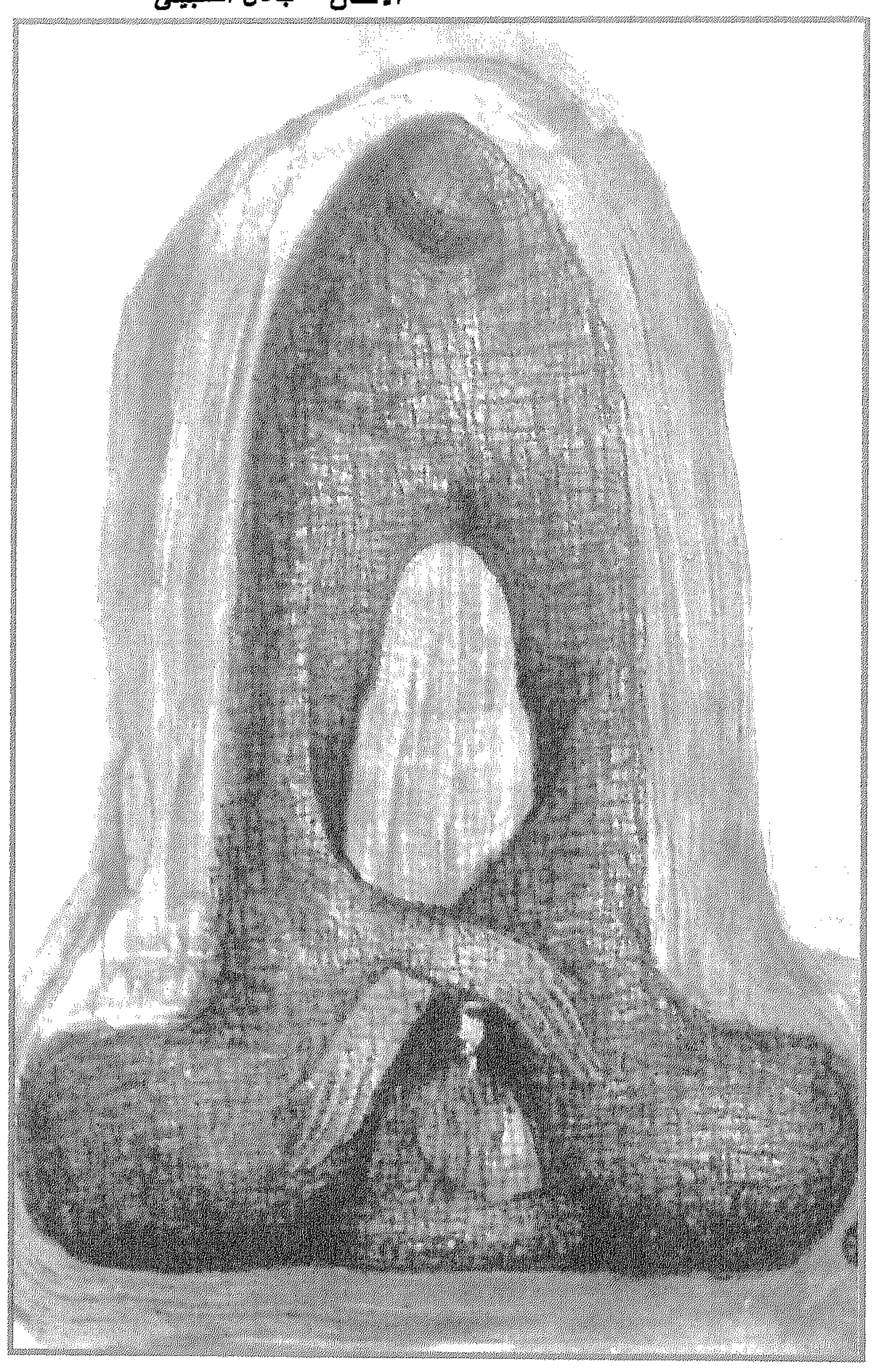
ولا ندرى هل هناك فى مصر اليوم المؤسسات التى تعنى بدراسة تلك الموضوعات المصيرية ، والتى ترصد بكل دقة الأسباب والعوامل التى تعوق تقدم الإنسان المصرى وتحضره ، ومن ثم تقترح الحلول الملائمة ، أم أن دراسة ومتابعة نمو وتطور المجتمع المصرى سيظل مقصوراً على الهيئات الأجنبية التى تجمع معاهد ومؤسسات خاصة فيها كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر وتخضعها للدراسة والتحليل وتكون بها قاعدة علمية يرتكز عليها فى اتخاذ القرارات .

إن مصر بموقعها وتاريخها وتعداد سكانها لا تتوازن بكل هذه المقومات مع حالتها الثقافية المتواضعة التى أمست فى أشد الحاجة إلى إعادة النظر فى مخططاتها الثقافية المستقبلية برؤية علمية وموضوعية لا تكتفى بالشعارات الجوفاء التى لا تعبر عن واقع الأمر ، فليس عيباً أن يواجه المصريون مشاكل تطورهم لكن العيب أن ندفن رءوسنا فى الرمال متغاضين عن سلبيات حياتنا تاركين لها العنان فى التضخم والاستفحال .

وربما يبدو ذلك التناول لأزمة الفنون الرفيعة - ومن بينها الفنون التشكيلية - بعيداً عن كل ما ذكرناه ، ولكن النظرة المتمهلة تستطيع أن تدرك أن الفنون وتذوقها ليس ترفاً فى حياة الانسان المعاصر ، فصلتها بالسلوكيات والذوق العام لا يحتاج إلى تأكيد بعد فيض الدراسات التى أكدت هذه العلاقة .

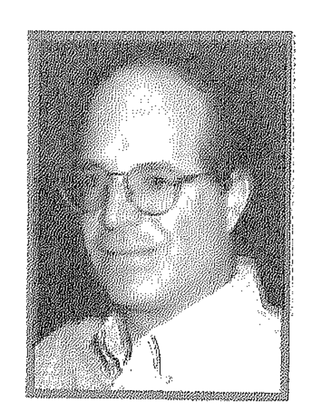
فلا جدال أن الانسان الذى تشكل الفنون الرفيعة جزءاً من ثقافته يحتل فى سلم التطور والتحضر الانسانى درجة أسمى وأرقى ، وهو ما نحب أن يكون عليه كل المصريين .

الانسان - جمال السجينى



الكتاب الحائز على جائزة أحمد بهاء الدين

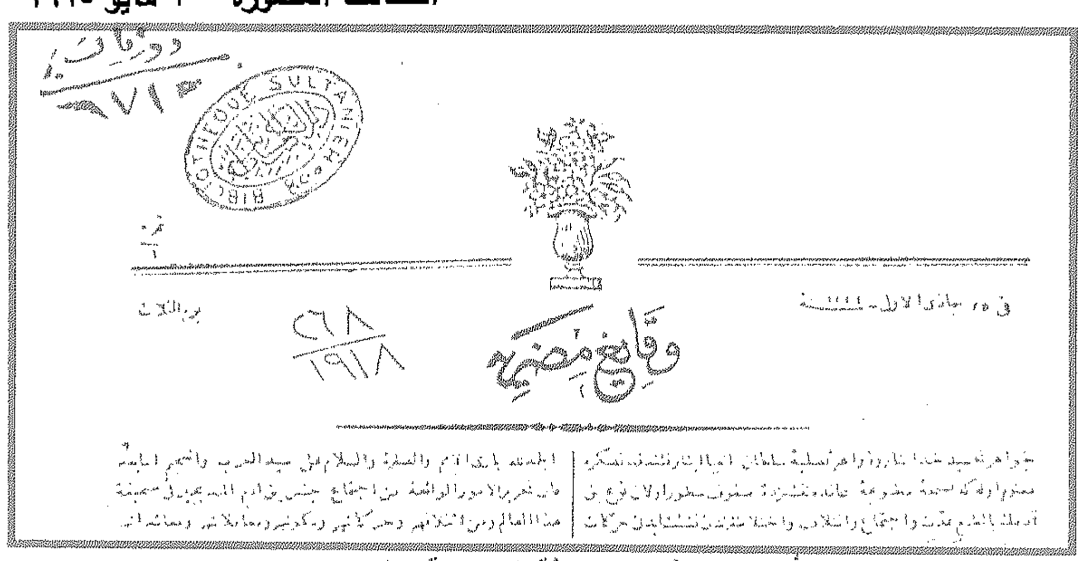
تاريخ الرسم الصحفى


ناصر عراق

بقلم : محمود بقشيش

يُعد الفنان والناقد «ناصر عراق» من أكثر أبناء جيله ولعا بالصحافة - أو بدقة - إيمانا بها وبدورها التنويري وبقدرتها علي خلق ذهنية عربية تستطيع الإسهام في الحيوية الثقافية العالمية. فاز أخيرا بالجائزة الأولي في مسابقة «جائزة أحمد بهاء الدين» عن بحث شائق بعنوان: «تاريخ الرسم الصحفي في مصر» . ويعد هذا البحث الأول من نوعه فلم يسبقه إلي هذا الموضوع أحد. وكانت البحوث السابقة قاصرة علي «النص الصحفي» من حيث بنيته ومجالاته وموضوعاته المختلفة واقتصرت بعض البحوث حول إبداعات بعض رسامي الكاريكاتير ؛ مثل البحث الذي أنجزه «د. عمرو عبد السميع» حول إبداعات والده رسام الكاريكاتير الكبير «عبد السميع» كما أعد الفنان «صلاح بيصار» كتابا حول إبداعات كبار رسامي الأطفال في الصحف المصرية :

اللطائف المصورة - ٣ مايو ١٩١٥



وقائع مصرية

اول رسم فى الصحافة المصرية عام ١٨٢٨



غلاف روز اليوسف

للفنان صاروخان

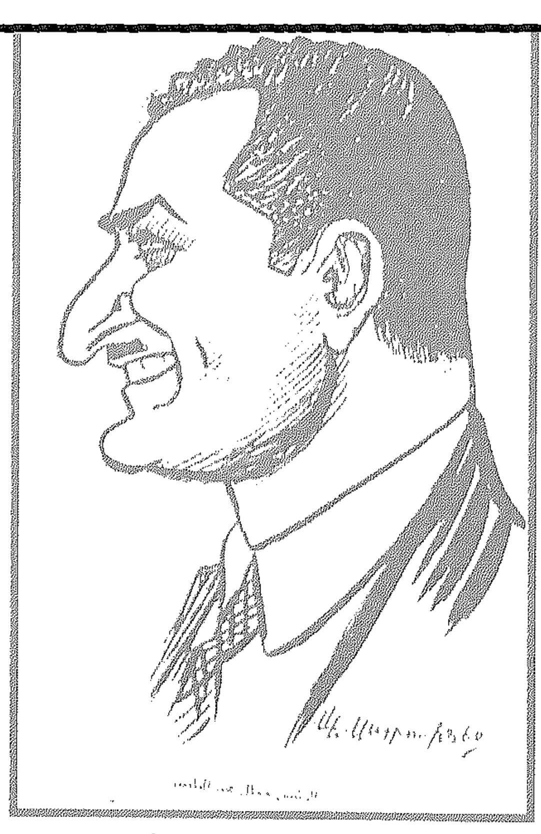


رسوم صاروخان على أغلفة آخر ساعة المصورة

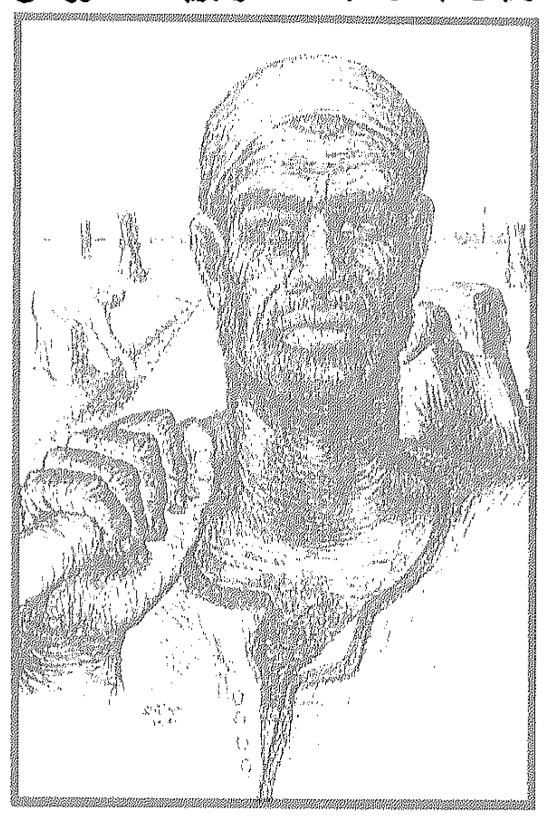
وكتب بعض النقاد مقالات ودراسات حول إبداعات بعض الفنانين الذين يحتفون بالرسوم التوضيحية الصحفية بالقدر نفسه الذى يقبلون فيه على إنتاج فن «لوحة الحامل» أمثال: حسين بيكار ومحمد حجى وحلمى التونى والحسينى فوزى وحسن فؤاد. لم يكن فى خطة «ناصر» الاكتفاء بموهوب واحد - وما أكثرهم فى الصحافة المصرية - بل أراد أن يكتب عن كل الموهوبين، لهذا اختار لهدفه منظورين متكاملين : منظور «الطائر» الذى يتيح للعين المعالم الإجمالية دون التفاصيل ومنظور «الميكروسكوب» الذى يتيح للعين رؤية التفاصيل الدقيقة وحدها. وكان عليه أن يقوم بدور الجراح الماهر ودور البناء فى آن واحد . كان عليه أن يميز الجزئى من الكلى وأن يستخلص من الكلى حكمته وقد فعل ذلك بمهارة ملحوظة.

زمن الفعل

اختار «ناصر» بحس الصحفى الذى يتعقب الحقائق المثيرة أينما وجدت وبوعى المؤرخ الوطنى مساحة زمنية مفعمة بالأحداث الجسام . وقد أتاحت له تلك الأحداث مادة ثرية نسج من خيوطها صورة باهرة لنضال الشعب المصرى من أجل الحرية ومن أجل تألق مواهب مبدعيه فى آن واحد. اختار مساحة زمنية لتلك الدراما الحضارية، تبدأ من الغزوة النابليونية سنة ١٧٩٨ إلى الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢ . وعلى الرغم من أن الغزوة العسكرية الفرنسية كانت



الرئيس جمال عبد الناصر بريشة صاروخان



الفلاح المصرى عام ١٩٥٠
رسوم حسن فؤاد

استعمارية فقد أجمع المؤرخون على أن مصر لم تعرف الصحافة إلا مع قدوم الحملة الفرنسية . ومن المعروف أنها أحضرت معها أول مطبعة عربية لطبع المنشورات والبيانات. ويذكر «ناصر» أن الدكتور «أحمد حسين الصاوى» قال فى كتابه «فجر الصحافة فى مصر» :

«إن بونابرت كان يخشى ألا تفى الطابعات والحروف التى طلبها من حكومة باريس بالغرض وبخاصة فيما يتصل بالطباعة العربية فكتب إلى العالم «مونج» يطلب إليه أن يعد للحملة مجموعات من حروف الطباعة العربية» . وقد ظهرت الرسوم لأول مرة مصاحبة للشعارات والبيانات التى كانت تصدرها الحملة. ومن عجب أن الأخطاء المطبعية التى نلقاها فى صحف اليوم بالعشرات لم يكن يسمح لها نابليون أو محمد على .

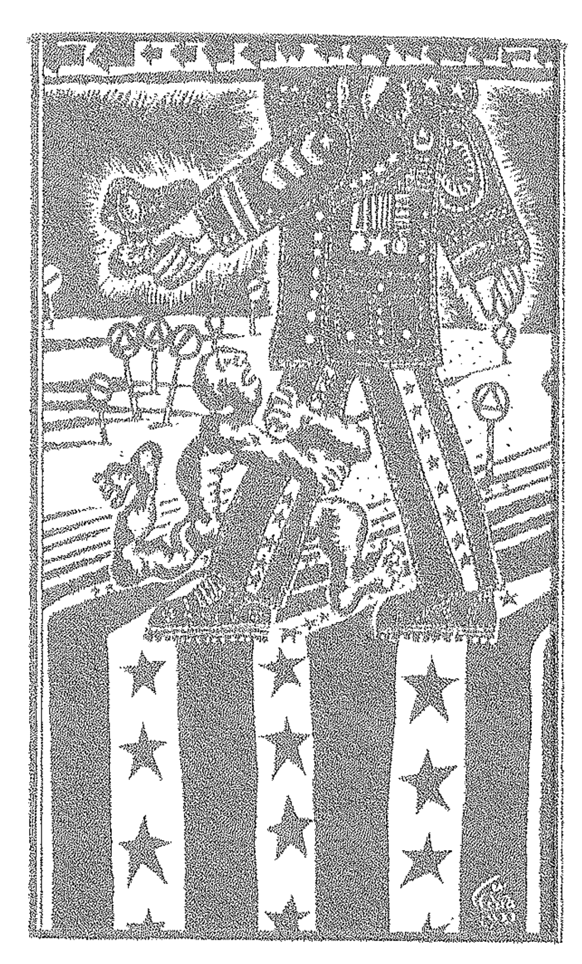
أما أول رسم ظهر فى الصحافة المصرية فقد ظهر على غلاف مجلة «الوقائع المصرية» سنة ١٨٢٨ . وقد لاحظ «ناصر» أن ظهور الرسوم أو تسللها – حسب تعبيره – قد حدث عبر الإعلانات التى تروج للسلع الترفيهية مثل العطور والمشروبات الكحولية وغيرها وقد قدم «ناصر» نماذج منها نشرت فى جريدة الأهرام سنة ١٨٩٥. ولم يكن فى ذلك الزمن رسامون مصريون يقومون بهذا الدور بل كانوا من الأرمن ومن جنسيات أخرى. وكان من الطبيعى بعد أن فتح الاستعمار الإنجليزى سوقا رائجة للمنتجات الإنجليزية أن تدور الإعلانات حولها.

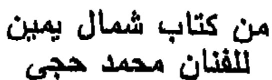
الرسوم الكاريكاتيرية

كان لابد أن يتوقف الكاتب بالتحليل عند مجال من أخطر المجالات الفنية وهو «الرسم الكاريكاتيرى» لما يتمتع به هذا الفن من طاقة تحريضية هائلة بسبب قدرته على الإضحاك والنقد الكاشف والطابع الخطابى الذى يتوجه به مباشرة إلى القارىء، لهذا كان من الطبيعى أن يجد فرصته فى مجلة «اللطائف المصورة» وقدم «ناصر» عددا من الرسوم الكاريكاتيرية السياسية التى ظهرت فى المجلة سنة ١٩١٥، ويبدو من أسلوب الرسم أن أصحابها – كما لاحظ ناصر – رسامون أجانب وأن تلك الرسوم كان قد سبق نشرها فى إحدى الدوريات الأوربية. وقد اكتشف «ناصر» أثناء بحثه فى الجرائد المصرية القديمة رساما كاريكاتيريا مصريا يدعى «ايهاب خلوصى» ورسومه بالفعل على جانب كبير من الموهبة . وكان من الطبيعى أن يحتفى «ناصر» بمجلة «روز اليوسف» وإن شئنا الدقة قلنا «مدرسة روز اليوسف» فقد ضمت أفذاذ هذا الفن من أجيال متعاقبة، أمثال «صاروخان، وزهدى، وصلاح جاهين والليثى ورجائى ونيس وحاكم وجمعة وحجازى ورءوف»، ولأن فن الكاريكاتير فن ناقد بطبيعته، لاذع فى نقده فإنه يزداد ألقا مع الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونحن لاننسى



غلاف المستقبل للفنان صاروخان




من كتاب شمال يمين
للفنان محمد حجى

ردود الفعل التى حدثت عند ظهور الرسم الكاريكاتيرى لصلاح چاهين الذى صور فيه هجاء لاذعا على فكرة تطبيق الميثاق وفضيحة تلوث مياه الشرب، وأصداء رسوم «ناجى العلى» غنية عن التعريف، وأذكر أن كتاب «شمال يمين» للفنان «محمد حجى» «وهو كتاب كامل من الرسوم الكاريكاتيرية التى رسمها الفنان بنفسه، منتقدا السياسة الأمريكية بشدة» قد رفعها المتظاهرون أثناء إحدى المظاهرات المضادة لتلك السياسة فى طرابلس . ويبدو أن صديقنا الفنان الناقد «ناصر عراق» قد تأثر - بعض الشىء - بالطبيعية الاقتحامية لفن الكاريكاتير فيفاجئنا - بين الحين والحين - بخطاب مباشر إلى القارىء كأن يقول: «تعالوا أقول لكم .. كذا!» وعلى الرغم من حرصه على أن يكون جادا أو عابسا بعض الشىء فإنه يلتقط من الحقائق التاريخية ما يستدعى الضحك ولكنه. كما يقول الشاعر - ضحك كالبكا فيذكر واقعة مخزية من «سعيد باشا» بقوله - أعنى قول «ناصر» - : «هى المرة الأولى فيما أعلم التى يقدم فيها حاكم مصرى على إهداء المطبعة

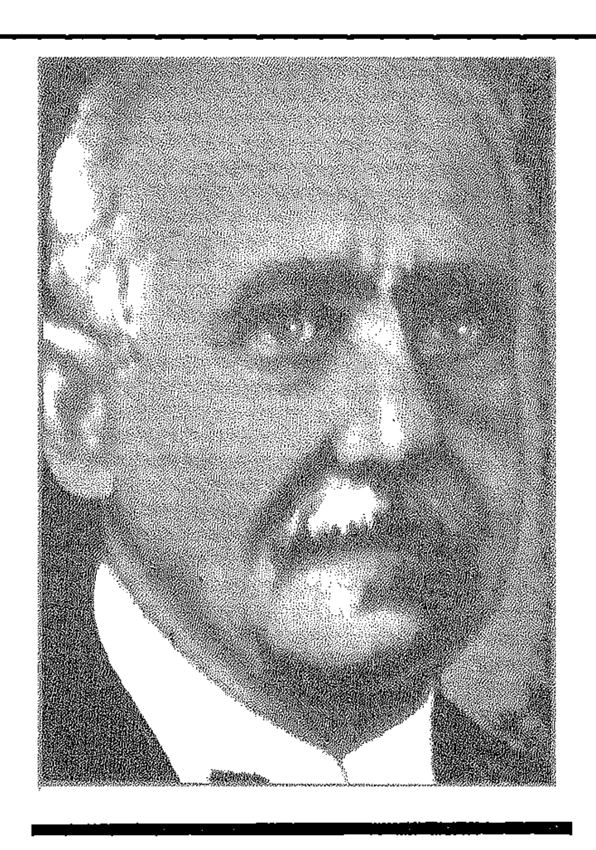


اللحظة الحرجة من كتاب صاروخان

الرسمية الوحيدة والمملوكة للدولة لأحد موظفيه !! - يقصد مطبعة بولاق - ويستطرد «ناصر» بقوله : «لاتتعجب عزيزى القارىء من السبب الذى دفع والى مصر إلى اتخاذ هذا القرار المثير، ذلك أن ولى النعم أراد أن «يكون ذلك سببا لاتساع معاشه»!! .

ملاحظات ختامية

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذله «ناصر عراق» فى بحثه عن الحقائق التاريخية فقد أدهشنى أن غاب عن ذاكرته اثنان من أفذاذ فن الإخراج، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم العربى: أولهما هو الفنان «عبد السلام الشريف» مؤسس هذا الفن فى مصر. وثانيهما الفنان متنوع المواهب «عبد الغنى أبو العينين» . وتاه من قلمه حشد من كبار الرسامين الذين أثروا الصحافة المصرية برسومهم الرائعة أمثال : جودة خليفة ونبيل تاج وجميل شفيق وعدلى رزق الله وعبد العال ، ربما لو كان قد تذكر هؤلاء أثناء اتهامه الرسوم الصحفية المعاصرة بتدنى مستواها بالقياس الى رسامى الأجيال السابقة لعدل من موقفه، كما أدهشنى تجاهل أغلفة الهلال والمصور الرائعة للفنان والمخرج الفنى الكبير محمد أبو طالب .



الشعراء
وكبار الحادثات

بقلم : وديع فلسطين

كان قارىء الصحيفة اليومية فى العقد الثالث من القرن العشرين يستفتح نهاره بقراءة قصيدة من وحى الساعة تتناول كبار الحادثات فى مصر والعالم العربى وفى الخارج، وقد تصدرت القصيدة الصفحة الأولى من جريدة الصباح . فهذه قصيدة للشاعر أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) وتلك ثانية للشاعر حافظ إبراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) وهناك ثالثة للشاعر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) وأحيانا قصائد للشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٧) أو لشاعر الأهرام محمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) أو لشاعر الجندول على محمود طه المهندس (١٩٠٢ - ١٩٤٩) ، وهلم جرا . فقد كانت للشعر منزلة فى الحياة العامة باعتباره صدى لكبار الحادثات ، فلا تمر حادثة إلا فجرت انفعالات لدى الشعراء ، وخرجوا على الناس من خلال الصحف الواسعة الانتشار يعلنون آراءهم ومواقفهم إزاءها . ولم يكن أحد من النقاد يعد هذا الشعر «شعر مناسبات» انتقاصاً من قدره واستخفافاً بالروح التى انبعث منها الشعراء فى نظم هذه القصائد.

وإذا اقتصرنا على شاعر واحد ، هو أحمد شوقى ، فقد كان شعره مرآة عصره، وكانت كبريات الحوادث تتراءى فى قصائده . أليس هو القائل عن نفسه :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق ... وكان العزاء فى أحزانه

وعندما اندلع حريق فى ميت غمر فى عام ١٩٠٥ نظم قصيدة مطلعها :

الله يحكم فى المدائن والقرى

يا ميت غمر، خذى القضاء كما جرى

وقال فيها :

فإذا لقيت لقيت حياً يائسا ... وإذا رأيت رأيت ميتا منسكرا

والأمهات بغير صبر، هذه ... تبكى الصغير ، وتلك تبكى الأصغرا

وعندما حكم بالإعدام فى دنشواى على فلاحين مصريين بتهة قتل جنود إنجليز فى عام ١٩٠٦ انتقاماً منهم لأنهم كانوا يصيدون حمائمهم ، مع أن الواقع أنهم ماتوا متأثرين بضربة شمس ، نظم شوقى قصيدة مطلعها :

يا دنشواى ، على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا ... هيهات للشمل الشتيت نظام

وقال فيها :

كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأى حال أصبح الأيتام ؟

«نيرون» لو أدركت عهد «كرومر» ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام

وعندما ضرب الأسطول الإيطالى بيروت فى عام ١٩١٢ ، نظم شوقى قصيدة بعنوان «نكبة بيروت» قال فيها :

كل يصـيد الليث وهـو مقيد ويعز صيد الضيغم المفكوك
ما كنت يوماً للقنابل موضـعاً ولو أنها من عسجد مسبوك
سالت دماء فيك حول مساجد وكنائس ومدارس وبنـوك

وعندما اعتدى على حياة الزعيم سعد زغلول باشا (١٨٦٠ - ١٩٢٧) فى عام ١٩٢٤ ، نظم شوقى قصيدة مطلعها :

نجا وتمـاثل ربانهـا ودق البشـائر ركبانها
وهلل فى الجو قيدومها وكبر فى الماء سكانها

إلى أن قال :

ونجى الكنانة من فتنة تهددت النيل نيرانها

ولما اعتدى الفرنسيون على دمشق فى عام ١٩٢٥ ، أنطقت الفجيعة شوقياً بقصيدة مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشـق
ومعذرة اليراعة والقوافى جلال الرزء عن وصف يدق

إلى أن قال :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وحتى عندما وقع زلزال فى اليابان فى عام ١٩٢٦ ، لم يتخلف شوقى عن المشاركة بشعره فى هذه الكارثة فنظم قصيدة مطلعها :


حافظ إبراهيم


على محمود طه

قف بطوكـيـو ، وطف على يوكـوهامـه
وسل القـريتين : كـيف القـيـامـه ؟
دنت السـاعـة التى أنذر الناس،
وحلت أشـراطهـا والقـيـامـة
قف تأمل مـصـارع القـوم وانظر
هل ترى من ديار عـاد دعـامـة ؟
خُـسـفت بالمسـاكن الأرض خـسـفـاً
وطوى أهلهـا بسـاط الإقـامـة

وعندما نفذ الإيطاليون حكم الإعدام فى الزعيم عمر المختار فى عام ١٩٣١، شارك شوقى فى هذه المناسبة بقصيدة مطلعها :

ركزوا رفاتك فى الرمال لـواء يستنهض الوادى صباح مساء
ياويحهم ، نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء

إلى أن قال :

وأتى الأسير يجر ثقل حـديده أسـد يجرر حية رقطـاء

كل هذا الشعر الذى نظم فرائده الشاعر شوقى فى كبار الحادثات - ودع عنك ما نظمه غيره من شعراء جيله - عرف طريقه إلى النشر على الصفحات الأولى فى الصحف ، وكان صداه بعيدا .

ولكن هذا التقليد بسرعان ما تقلص وانتهى، إذ اختفى الشعر من الصفحات الأولى ، وتوارى فى الصفحات الداخلية ، بل كاد يتوارى نهائياً

بعدما اقتضت المدارس الجديدة فى الصحافة إيلاء أولوية أولى للأخبار ومجريات الأحداث ، ولا سيما مع وقوع الحرب العالمية الثانية ، وتقلص عدد صفحات الصحف، واختفاء كبار الشعراء الذين غيبهم الموت، فمات شوقى وحافظ فى سنة واحدة هى عام ١٩٣٢، أما ثالثهما وهو خليل مطران فقد أرخى له فى العمر إلى عام ١٩٤٩ .

وعندما حلت بالأمة العربية كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧، التى اصطلح على تسميتها بالنكسة ، قلبنا الصحف بحثاً عن الشعر الوطنى الصادق يساق فى هذه المحنة ، فلم نجد منه شيئا ، ربما لأن الكارثة ألجمت كل الألسنة وحكمت على قرائح الشعراء بالعقم ، فلم يجودوا بشىء ، باستثناء الشاعر السورى نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) الذى طلع علينا بقصيدته «هوامش على دفتر النكسة» والشاعر السورى محمد سليمان الأحمد المكنى «ببدوى الجبل» (١٩٠٤ - ١٩٨١) بقصيدته الرائية المعنونة «من وحى الهزيمة». وحتى هاتان القصيدتان لم تعرفا السبيل إلى النشر فى الصحف ، فكنا نتبادل نسخاً منهما وحفظناهما بالاستظهار . أما الشاعر السورى عمر أبوريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) فقد انتهز فرصة مشاركته فى رثاء الشاعر اللبنانى بشارة الخورى المكنى «بالأخطل الصغير» (١٨٨٥ - ١٩٦٨) وضمن مرثيته بيتين من الشعر عن قمة الرباط التى عقدت بعد النكسة جاء فيهما :

الشعراء وكبار الحادثات

إن خُوطبوا كذبوا ، أو طولبوا غضبوا
أو حوربوا هربوا ، أو صوحبوا غدروا
خافوا علي العار أن يُمحي فكان لهم
علي «الرباط» لدعم العار مؤتمر

وكنت فى ذلك الوقت صديقاً للشاعر المهجرى جورج صيدح (١) الذى اختار باريس للإقامة بعد هجرة طويلة فى أمريكا الجنوبية ، فتلقيت منه قصيدة نارية الألفاظ نظمها من وحى النكسة واختار لها عنوان «واشكيباه». ذلك أنه قرأ لكاتب فى إحدى الصحف احتجاجاً على تدنيس المساجد الإسلامية فى فلسطين ختمه بقوله «أين الأمير شكيب أرسلان يطلق الصرخات من جنيف ، فتتألب على صوته الشعوب الإسلامية فى جميع الأقطار ؟» فعلق الشاعر على ندائه بقوله :

رمم نحن ، دع شكيباً وهمه
قاصف الرعد لا يحرك رمه
حشرجات الإباء ضاع صداها
في كهوف المطامع المدلهمة
والوفا للأمير لم يبق منه
غير همس الثنا ودس المذمة
رحم الله عهده، كان فيه

قـولة الحق لا تشكل تهـمـه
أصبح اليوم أصدق الشعر يخشى
من حـواة الكلام نقـدا ونقـمـه
فـضح الخطب علة الضن والجبن
وعـرى الدعى من ثوب صـمـه
فـشكا الغـادرون غـدر الليـالى
وبكى السارقـون سـالف نعـمه
مـا تمنطى على المسـاجـد علج
يوم كنا على صـراط الأئمـه
يوم طعنا لسنة الله فـينا
فاستطعنا ما ليس تسطيع أمه
ذلك الحظ خـانـنا حين خنا
وخـفـرنا لأرضنا الأم ذمـه
ولأدهى من صـدمـة هشـمـتنا
مـا دهانا من غـفلة بعد صدمه
فـإذا نحن كـالحـبـارى ذكـاء
وابتناء ، وكـالنعـامـة حكمـه
أترانا من الملمـة ننجـو ؟
كيف ننجو ، ونحن نحن الملمه ؟

الشعراء وكبار الحادثات

***

غـاب عنا نجم المجـوس فـسـرنا
فى الدياجى نجاذب الغرب نجمه
فـحـبـانا مـذنبـا إخطبـوطا
نافـثا فى مـقـاتل الشرق سمه
حطمـتنا شـبـاته الزرق حـتى
سلبـتنا حس المصـاب بحطمـه
صـحـوة الموت بالفـدائى طارت
هل أطارت عن الأنانى نومـه ؟
لا تزال الكئـوس تسـقى ثرانا
والدمـاء البـراء تصـبغ ثلمـه
قـد هزلنا أمـام جـد الأعـادى
فـانتـهـينا قـبل ابتـداء المهـمـه
واسترحنا على الحضيض كصخر
حطه السيل من مـشـارف قـمـه
لم نجد فى الشعـوب شعباً سوانا
خـذلتـه أرحـامـه دون رحـمـه

غـيـرة الدين ألبت كـاشـحـينا
لم تؤلب جـمـوعنا ، وهى جـمـه
يا «حـقـوق الإنسـان» لا تشـملينا
نحن قـوم نبـيـع حـقـا بلقـمـه

كانت هذه القصيدة صرخة شاعر أحس بالفجيعة الطاغية ، فأطلق هذه السهام القاتلة تعبيراً عن أساه تلقاء هذه النازلة . وهو معذور فى تشاؤمه لأن الداهية كانت فوق التصور. وقد بعث الشاعر بنسخ من هذه القصيدة إلى أصدقائه الذين أخذوا يتداولونها فيما بينهم.

حركت هذه النغمة التشاؤمية التى سرت فى طول القصيدة وعرضها الكوامن لدى شاعرين من أصدقاء جورج صيدح ، هما محمد عبد الغنى حسن وعادل الغضبان (١٩٠٥ - ١٩٧٢) ، فنظم كل منهما قصيدة من الوزن والبحر والقافية نفسهما فى معارضة القارعة الصيدحية، وخصنى كل منهما بنسخة من قصيدته حفظتها ضمن ضنائنى حتى جاءت هذه السانحة لإخراج القصيدتين إلى النور .


خليل مطران


محمد عبدالغنى

وإذا كان صيدح قد غلبه اليأس وطغى عليه التشاؤم ، فإن عبدالغنى حسن (٢) وعادل الغضبان غلب عليهما التفاؤل وبشرا بقرب الخلاص من هذه المحنة.

كانت قصيدة محمد عبدالغنى حسن بعنوان «أية أمه» قال فيها مخاطباً صيدحا:

لا تلمها فى الحادثات الملمـــة
إنهــــا أمـة ، وأيــــة أمـه
كيف لا يحمل الحـوادث شـعب
عربى السمـات ، عـالى الهمـه ؟
لا تفل الخطـوب من غرب متنيه
ولا تثلم المصــــيبة عـزمـه
يتلـقى من الهـــزيمة درسـاً
يتحدى الليـــالى المــدلهمـه
فيحيـل الدجى وضـــاءة صـبح
ويرد الشـــكوى حـلاوة نغـمـه
ويصوغ العبوس من صفحة الدهر
ائتـــلافا على الشـــفاه وبسمـه

***

قد بلينا من اليهـود قـــديما
وبلينا منهم حـــديثا بنقمــــه
لليهـودى غدرة وصــــغار
مشـــبه فيهمـــا أباه وأمـه

هو للمال تابع ، يتــــــلقى

في ســــبيل الدولار أحقر لطمه

قد أقاموه شوكة في جنــوب

عـرفت غــدره قــديما ولؤمـه

هل نسيتم «بنى قريظة» لمـا

نكثــوا للنبى عهــــدا وذمـه ؟

حين أجلوا عن الجزيرة يومـاً

انجلت فيه بانجلائهم كل غُمــه

***

إنها الحـرب يا صديقى سجال فلم اليأس عند أول صدمه ؟

بيننـــا في الوغى لقــاء طويل ومـواعيد في المعارك جمـه

لا «السويس» اشتكت ولا «بورسعيد» أضعفت روحها القوية ظلمه

إن تفتتنــا بداية من حظـــوظ فالـبدايات بعدهـن التتمـه

***

لا تظنوا الخطــوب منبع شـر رب خطــب وراءه ألف نعمـه

إنهــا نكسـة ، ولكن فيهــا من دروس الحياة أجمل حكمه

وحدتنا علي الحـــوادث صفا ألفتنا على المصـائب حـزمه

فالتقينا بالأمس في خير قمة وغداً نلتقى بأرفـــع قــمـه



نزار قبانى

بشارة الخورى

أما الشـاعر عادل الغضبان (٣) فكان بدوره متفائلاً ، واختار لمعارضته نفس عنوان قصيدة صيدح «واشكيباه» حيث قال :

صــيدح الأيك ، تلك أغـرب نغـمــة

ســامت العـرب تهـمــة بعـد تهـمــه

وأحــالتــهــمــو عظامــا رمـيـمــا

غطت الأرض ، رمـــة جنب رمـــه

ونفت منهـــمـــو الكرامـــة حــتى

لـيــبـيــعــون كل حق بلقـــمـــه

ورمـــتـــهـم بالمخــزيات توالت

وصــمــة تلو وصــمــة تلو وصــمــه

فــإذا هم مـــثل الحــبــارى ذكــاء

وإذا هم مـــثل النعــامـــة حكمــه

مــا بهم غــيــر قــادر يتــشكى

وســوى سـارق بكى فــقــد نعـمــه

ودعى ســـمـــا بدنيـــا نـفــاق

فــتــعـرى في الروع من ثوب صـمــه

وجــبـــان على الحــيـــاة حــريص

سـد أذنيـه يوم قـيل هلمـه
وخـؤون جـفـا كـريم المبـادى
وتمادى فى نكث عـهـد وذمـه
عـمـرك الله ، يا أخى تمهل
إن فى راحـتـيك مـهـجـة أمـه

***

شـدة ألهـمـتك حـر بيـان
سـاير اليـأس فـيـه ركب المذمـه
أنت فـيـه ، وإن قـسـوت مـقـالاً
عـربى بث القـوافى همـه
قـسـوة تؤثر الصـلاح ولكن
تنكأ الجـراح ، والجـراحـات جـمـه
أفـدح الرزء أن يصـاب شـقـيق
بشـقـيق يراه يأكل لحـمـه
واشكيـبـاه ، ليت كل يراع
يحـتـذى حـذوه بيـوم الملمـه
ويدويـه فـى البـلاء نـداء
يكشف الله بعـده شـر غـمـه
فى جـهـاد يدق عنق عـدو
لا يراعى لمنزل الله حـرمـه
يتلقـاه فـيـه صـيـد غـضـاب
غـضـبـة الموج داست الريح يمه
ويثـيـرونهـا على البـغى حـرباً
لا أناة بهـا ولا طيف رحـمـه
كلمـا جـاس منه فى الروض صل
سـحـقـوه، وجنبـوا الروض سـمـه
فـغـداً تنعم البـلاد بعـيـد
تشـرق الشـمس فيـه من بعد ظلمـة

الشعراء وكبار الحادثات

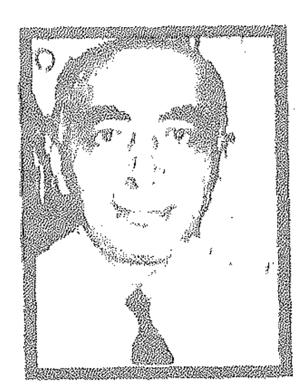
وعندما نظم الغضبان هذه القصيدة ، بعث بها إلى صيدح ومعها رسالة يقول فيها «مختلفان رأياً متفقان وداداً» .

أما الأمير شكيب أرسلان (١٨٧٠ – ١٩٤٦) الذى استنفرت همته لتأليب أمة العرب على أعدائها، فهو مجاهد عربى رفع صوته عاليا على مدى نصف قرن لإيقاظ العرب من غفلتهم ولمناهضة الطغيان والاحتلال الأجنبى لبلادهم فى مئات من المقالات نشرها فى صحف العالم العربى وأوربا ، كما أن له طائفة كبيرة من الكتب الضخام منها «الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية» وهو فى ٣ أجزاء و«حاضر العالم الإسلامى» وهو

الشعراء وكبار الحادثات

موسوعة دونها الأمير شكيب على متن كتاب ترجمه عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) عن المستشرق ستوذارد لوثروب ، كما أن له ديوان شعر عنوانه «الباكورة».

وإذا كانت قصيدة «واشكيباه» لجورج صيدح قد استنهضت حمية الشاعرين محمد عبد الغنى حسن وعادل الغضبان فعارضاها حتى لا تشيع روح الهزيمة وضياع الأمل فى النفوس ، وهى الروح التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، فقد أرخى الله فى العمر للشعراء الثلاثة حتى شهدوا مصرع النكسة فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، إذ توفى الغضبان فى السنة نفسها، ولحق به صيدح فى عام ١٩٧٨ وانضم إليهما محمد عبدالغنى حسن فى عام ١٩٨٥، وبقيت قصائدهم التى يطالعها القراء لأول مرة، شاهداً على أن الشعر هو مرآة العصر ، وأن الشعراء لا يصمتون أمام كبار الحادثات حتى وإن عزت عليهم أسباب النشر، وامتنعت عليهم وسائل التواصل مع الجمهور العريض .



ابراهيم ناجى

(١) جورج صيدح من مواليد دمشق عام ١٨٩٣ نزح إلى أمريكا الجنوبية حيث عمل بالتجارة وشارك فى الأنشطة الأدبية مع زملائه المهجريين وأخرج عدة دواوين منها «النوافل» و«نبضات» و«حكاية مغترب» وشظايا حزيران» كما وضع كتاباً ضخماً عن تاريخ الهجرة عنوانه «أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية» .

(٢) محمد عبد الغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) أديب وشاعر عرف باسم «شاعر الأهرام» . عمل بالتدريس ، ثم تولى إدارة بعض دور النشر، وله عشرات من الكتب تتناول السير والتراجم والدراسات الأدبية والنقد الأدبى ، عدا دواوينه «من وراء الأفق» و«من وحى النبوة» و«من نبع الحياة» و«ماض من العمر» و«سائر على الدرب» كما أن له كتباً مترجمة ومحققة .

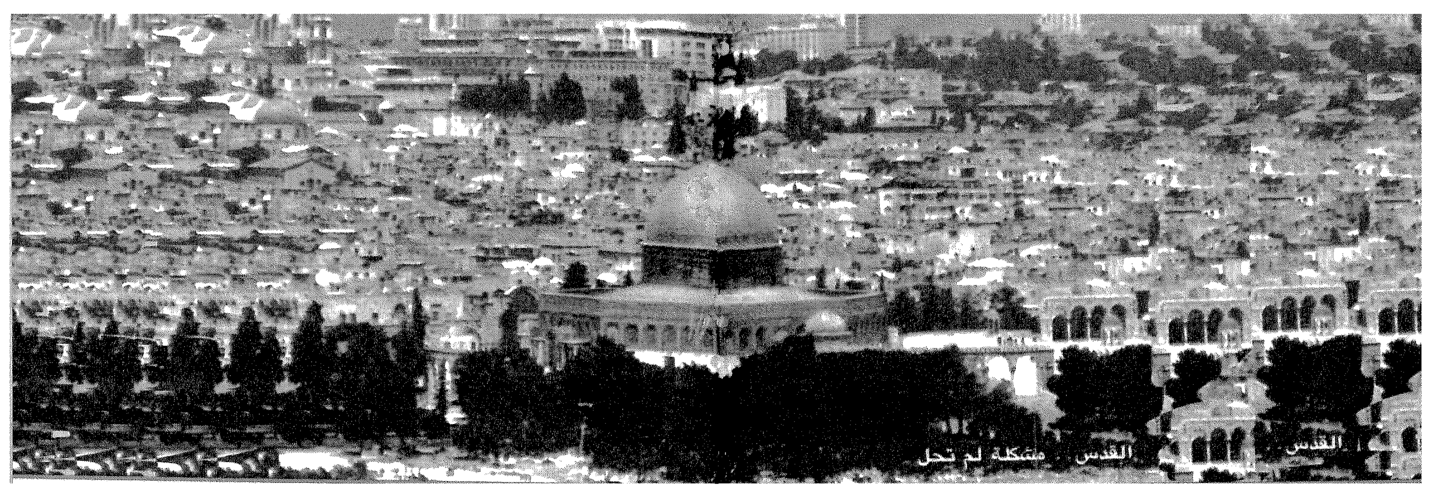
كلمات عاشت

ليس الزهد أن تملك شيئا بل الزهد ألا يملكك شيء
«على بن ابى طالب»

القلم بريد القلب يخبر بالخبر وينظر بلا نظر.
«ابن المقفع»

ان الخير اعظم من السعادة وهو يشملها ويحتويها ولكنها لا تشمله ولا تحتويه
عباس العقاد

من اعتقد أن لا حياة الا هذه الفانية فقد خسر الاولى والثانية
«جمال الدين الافغانى»



القدس.. القدس.. مشكلة لم تحل

يا قدس

شعر
محمد التهامى

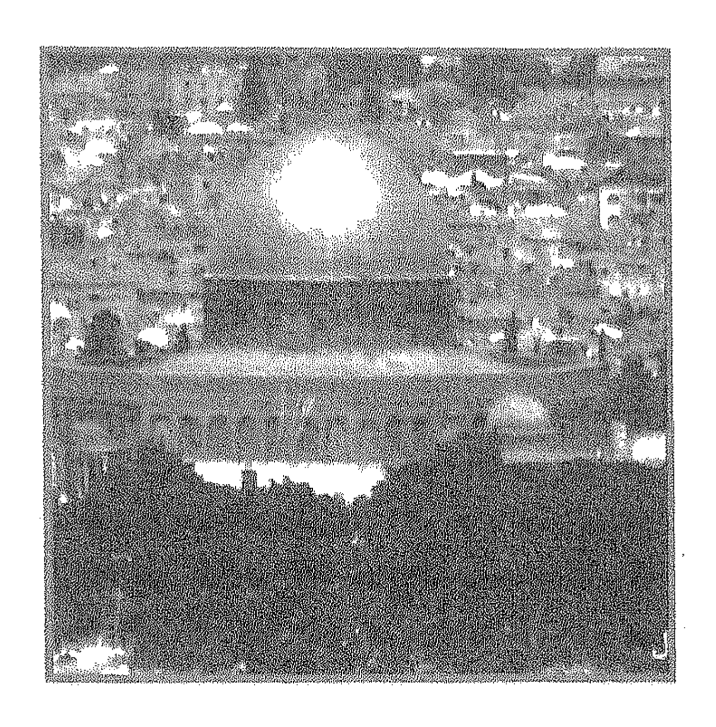
كـثـيـر ببـابك شـتى الصـور — وأكـثـر منهـا لديك العـبـر
وذكـرك أعـيـا لسـان الزمـان — لطول الحكايا وعـمق السـيـر
أيا قـدس.. يا ملتـقى الأنبـيـاء — ومن ذاق طعم السـمـا فـأتمر

★ ★ ★

ويـاراحـة فى يمـين الوجـود — تجّـمع فـيـهـا الهـدى وانتـشـر
تربى النبـيـون فى حـجـرها — وأرضـعت الحق حـتى كـبـر
وضـمّـتـه بالدفء أحـضـانهـا — وسـاقـتـه أنفـاسـهـا فـانتـشـر
ولما حـبـا واسـتـوى فـوقـهـا — أتتـهـا الملوك تقصّ الأثر
ودقت شـعـوب على بابـهـا — فـهـذا يحج وذا يعـتـمـر
فـأوّل خـيـط الهـدى عندها — وآخـره فـوق كل البـشـر

★ ★ ★

ولّـا بمكـة هـل الضـيـاء — فـأعـشى قـريش وزاغ البـصـر
وغـطـوا عـن النـور أنظـارهـم — لكى لا يشـد الهـدى من نظر



تدلى لدى «القدس» خيط الرجاء — وكان الهدى والمنى المنتظر
وفُتح فى القدس باب السماء — وجاء لنا المصطفى بالخبر
فيا قدس ياراحة للنفوس — ويا سورة من طوال السور
ويا صخرة لامستها السماء — فما هى نور ولا هى حجر
ولكنها بين حضن السماء — وحضن التراب لها مستقر
تضئ وتغلب كل الضياء — إذا قل فى جنبيها أو كثر
تضىء.وفى قلبها زيتها — وتحسدها الشمس قبل القمر
وتوزن بالدر أحجارها — فتخجل منها كرام الدرر
بها لمسة من جناح البراق — تبقّى توهجها واستمر
تصلى على جانبيها الرياح — ويغسلها بالعطور المطر
تعيد حفيف جناح يطير — لغير قداستها لم يطر
ومن قبل أن تستجيب الرياح — لإنس على منكبيها عبر
إلى «القدس» حيث تجلى النداء — وكل نبى كريم حضر

وأول داع أقام الصلاة ... أدار إليها التفات النظر

ولولاك «مكة» ما فاتها ... ولا حاد عنها اشتياق البصر

* * *

تظل منى الروح فى ديننا ... وأولى مراحلنا فى السفر

ومن هانت «القدس» فى دينه ... يكون لمن هان حتى كفر

وترك الجهاد إذا ما استبيح ... بلاط الشعائر إحدى الكبر

أنخشى الجهاد وأعباءه ... ولا نتقى جمرها فى سقر

فياويلنا عند وزن الحساب ... وعند التلاقى بيوم عسر

وحين نساق إلى عرشه ... ويحكم فى أمرنا المقتدر

أيا قدس ديسَ المكان الجليل ... وغطى على الطهر رجس أشر

وسيقت لك النار خجلانة ... وكاد ينوح عليك الشرر

وفى قدميك مضوا يحفرون ... فتشهق تحت علاك الحفر

ويحرسك المسلمون الصغار ... على حين خاف الكبار الخطر

تسنُّ العصافير منقارها ... وتلقى على الدارعين الحجر

وتهرع عند دوى الرصاص ... لأعشاشها فى أعالى الشجر

كأن الحصاة بمنقارها ... دمى «خالد» سهمها فانتصر

كأن الأبابيل فى صفّها ... تعبئ أحجارها من سقر

* * *

يصلُّون فى غابة للوحوش ... تضج بأنيابها والظفر

بها الموت تخطئ أسبابه ... وترميه كف جبان ذعر

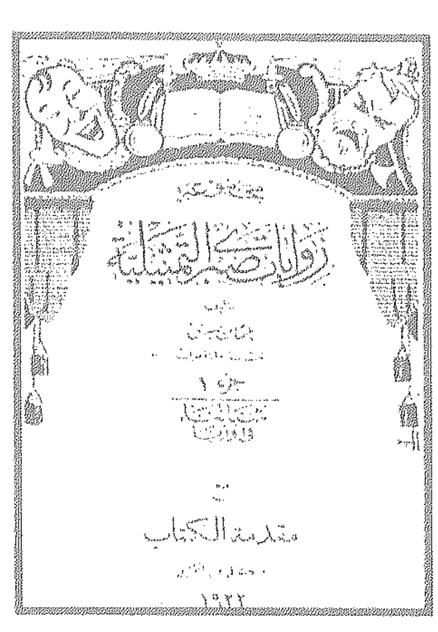
فتخطئ من حولها فى العراء ... وتأخذ من بالجدار استتر

بهذا العمى فى حصاد الحياة ... تعمق إيمانهم بالقدر

وإيمانهم طوع المعجزات ... وألبس ثوب الأمان الخطر

وأنبت أقدامهم فى التراب ... فأينعه تحت التراب الثمر

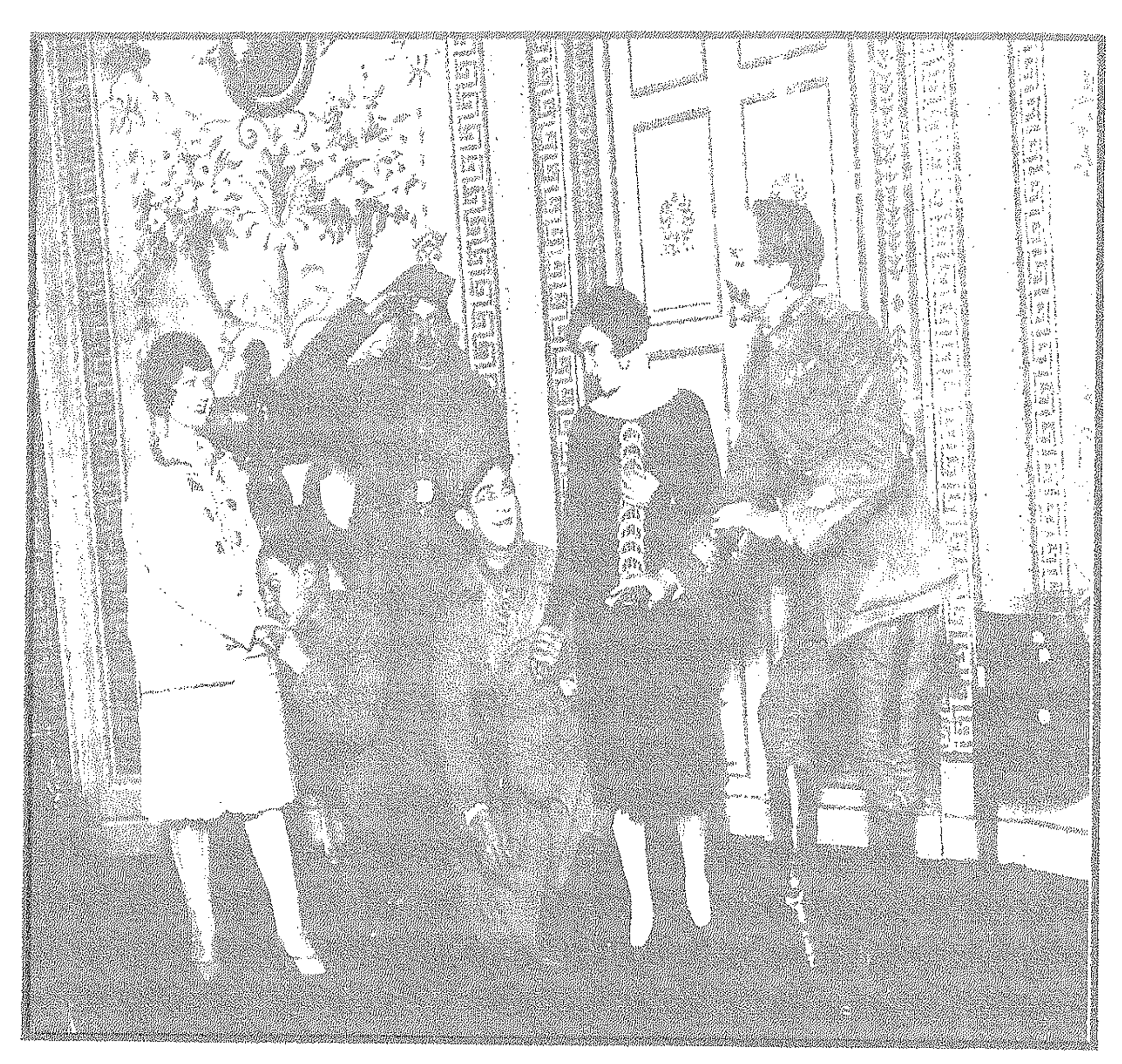
فلن تحرق النار أصل الحياة ... ولن تحصد الكف جذر الشجر



المجهول .. عثمان صبرى صاحب أهم كتاب عن المسرح المصرى فى القرن العشرين

بقلم : صافى ناز كاظم

بمحض مصادفة عثر الناقد والباحث نبيل فرج علي واحدة من أهم وثائق المسرح المصري في القرن العشرين، كانت الوثيقة راقدة كتابا مهملا بين كتب قديمة على رصيف بشارع رمسيس عند محطة الاسعاف ، لفت نظره الغلاف بعنوانه ومؤلفه المجهول وعام النشر. «مجموعة روايات صبرى التمثيلية، تأليف عثمان صبرى - ليسانسيه فى الحقوق -، جزء واحد شبابنا فى أوربا، مع مقدمة الكتاب، مبحث فى فن التمثيل، ١٩٢٢» . بعين الخبير المدقق عرف الأستاذ نبيل فرج أنه كشف لمجهول، وتبين له فيما بعد قراءته، أنه حلقة ذات قيمة كبرى فى حلقات تراثنا المسرحى المصرى، فأسرع بنشرها ضمن سلسلة «نصوص مسرحية» التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة، مارس ٢٠٠٠ .

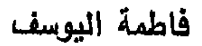


مسرحية «البيت المحاصر» قدمتها فرقة رمسيس عام ١٩٥٤

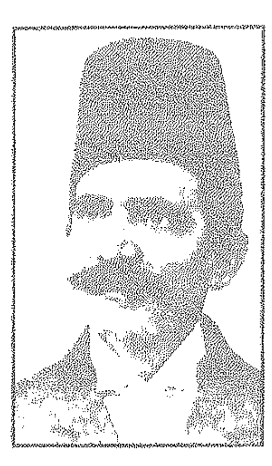
يقول الأستاذ نبيل فرج في مقدمته لهذه الوثيقة المهمة: «من الأسماء المجهولة في تاريخ المسرح المصري، التي لم يرد لها ذكر قط في الدوريات أو الكتب، أقدم لكم عثمان صبري، راجيا أن يأخذ مكانه في هذا التاريخ، بالقدر الذي يستحقه كاتب على هذا المستوى من الموهبة الفنية والطموح، كما أخذه من قبل إسماعيل عاصم، وعباس علام، وإبراهيم رمزي، ومحمد تيمور، وغيرهم وعثمان صبري ولد سنة ١٨٩٧ .. أولع في صباه بالمسرح، ومن الذكريات الجميلة التي ظلت راسخة في نفسه اصطحاب والده له في مطالع القرن العشرين وهو في التاسعة من عمره إلى دار التمثيل العربي لمشاهدة فرقة سلامة حجازي» . والحقيقة أنه لولا تأكدي طيلة الوقت وأنا أقرأ هذا الكتاب الوثيقة، أنني أقرأ صفحات مصورة من النسخة الأصلية، لدب الشك في نفسي ولما استطعت أن أصدق بسهولة، وأنا أقرأ

المقدمات والهوامش والتعليقات والاستدراكات التى كتبها عثمان صبرى - هذا الذى لم نسمع باسمه من قبل من أى مصدر حى أو مكتوب - إن ما أقرأه صفحات كتبها صاحبها منذ أكثر من ثمانين عاما، وقدمها ضمن مشروع أعماله الكاملة، التى لاتزال بقيتها مفقودة، والغريب ليس فقط فى الصياغة الطازجة التى كتب بها عثمان صبرى مقدمتيه، وسخونتها الشابة، ولا فى سعة أفق إطلاعه الثقافى والمسرحى ومهارة لملمة معلوماته من مصادرها المتعددة : تركية وفرنسية وانجليزية، ونسجها قواما يغذيه الهم الثقافى المصرى، ولا فى أن صاحب هذا المستوى العالى والعميق من الثقافة والوعى الفنى. كان شابا لايتعدى وقت كتابة، تلك الصفحات، العشرين من عمره، والخامسة والعشرين عند إخراجها فى صورة كتاب، لكن الغريب حقا أننا لم نسمع من قبل عن هذا الناقد المسرحى، الكاتب، المؤلف ، الفنان، المثقف، الرائد : عثمان صبرى الذى كان معاصرا لتوفيق الحكيم وطه حسين، والمجموعة الرائدة من المهتمين بالمسرح فى تلك الآونة، حتى أن السيدة فاطمة اليوسف لم تشر إليه فى كتابها «ذكريات» الذى خصصت القسم الأول منه لذكرياتها عن المسرح تحت عنوان «الكتاب الأول : أيام الفن» وأصدرته فى طبعته الأولى ديسمبر ١٩٥٣، العدد الأول من سلسلة كتاب روزاليوسف . ولقد تحدثت فى هذا القسم على مدى ٧٧ صفحة عن كل الأسماء البارزة تقريبا فى ساحة المسرح منذ عام ١٩١٢ حتى تاريخ اعتزالها للمسرح عام ١٩٢٥ لتؤسس مجلة روزاليوسف التى قصدت بها أولا أن تكون مجلة فنية ناقدة راصدة للنشاط المسرحى على وجه الخصوص، كذلك لم يرد ذكره عند د.محمد مندور، ود.على الراعى، ود.إبراهيم حمادة، واستاذ فؤاد دوارة، وغيرهم ممن اهتم بالكتابة والبحث فى أسماء وشخصيات رواد المسرح العربى والمصرى، لقد قال لى أستاذ نبيل فرج إنه سأل د. فاطمة موسى عنه، ولكنها لم تجد له أى ذكر فى قاموس المسرح الذى تم إنجازه منذ سنوات قريبة، ولقد سألت أنا عنه العديد من المصادر التى أثق فى علمها وذاكرتها، فلم أجد لاسم «عثمان صبرى» أى صدى لديها، باستثناء أخى وصديقى أستاذنا الكبير الفنان حسن سليمان الذى أفاد بأنه التقى بعثمان صبرى فى مطلع الخمسينيات حيث كان يعمل معه فى الجامعة الشعبية، وكانت له ملامح وأصول تركية ويقترب عمره وقتها من الستين، وقال لى حسن سليمان إنه قام برسم لوحة لوجهه بناء على طلبه وأنها أعجبته جدا حتى أنه أخذها وهى طرية الألوان، وقال حسن سليمان إن هذا الشخص - الذى يظن أنه عثمان صبرى المسرحى، كان عالى الثقافة خاصة فى شئون المسرح العالمى، وأنه كان يسكن مصر الجديدة فى ذلك الحين وكان لديه زوجة وبنات جميلات «!» ومات متأثرا بإدمانه المشروبات الكحولية. وبما أن

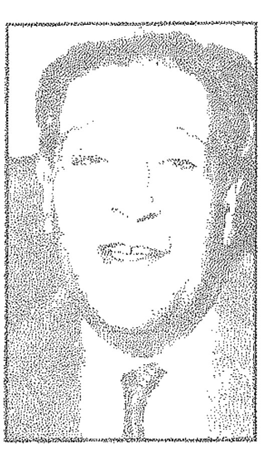




فاطمة اليوسف



سلامة حجازى



محمد مندور

عثمان صبرى – والعهدة على الراوى حسن سليمان – كان له بنات جميلات فلابد أن له على الأقل ولو حفيد أو حفيدة واحدة أكثر جمالا، فياليت يكون هناك من يواصل البحث ليجد لنا بقية مؤلفات عثمان صبرى التى يشير إليها فى قائمة بنهاية مجلده الأول – الوحيد الذى تم العثور عليه حتى الآن – لتكتمل لدينا المجلدات التسع الباقية .

***

يقع هذا المجلد الأول لعثمان صبرى فى ٤١١ صفحة، وهو يهديه «إلى أبناء الشرق الناهض، إلى مصر المستقبل الفنية، إلى نشء اليوم، رجال الغد من نبذر فيهم جذور مسرح المستقبل» ويحتوى قبل النص المسرحى على مقدمتين على درجة من الأهمية تفوق مسرحيته ذاتها، المقدمة الأولى التى يسميها «مبحث فى فن التمثيل» يرجع تاريخ كتابتها إلى عام ١٩١٩ ومراجعتها ١٩٢٢ وتقع فى ١١٥ صفحة. تبدأ بتعريف «التياترو» إذ يوضح فى الهامش أن كلمة «تياترو» أوسع بدلالاتها من «فن التمثيل» وأنه مضطر إلى استخدام الكلمة الأجنبية «لأنه ليس فى اللغة العربية كلمة تدل على هذه المجموعة من الدلالات رغم الكلمات التى وضعها بعض العصريين فى هذا الباب.. وكيف يمكن وجود مثل هذه الكلمة فى العربية والعرب كانوا يجهلون هذا الفن تماما» .

***

فى مقدمته الأولى يضع عثمان صبرى بأعلى الصفحات رءوس الموضوعات التى يتحدث فيها متنقلا من موضوع إلى آخر. علاقة المسرح بالفنون، أصل التياترو، وأقسامه، تقسيم الروايات التمثيلية، أنواع الروايات التمثيلية ، المسرح الطبيعى والفودفيل، أنواع التياترو المصرى ، نقد أنواع الروايات، الأنواع الفاسدة، المذاهب المسرحية، رأى دوما – «دوماس» – نتيجة التمييز بين الأنواع، فوائد المسرح، ضرورة المسرح، نشوء المسرح، تطور المشاهد المسرحية، استشهاد على أهمية

التياترو، الحكومة الفرنسية والتمثيل الكوميدى فرانسيز، إعانة الحكومة للتمثيل، منزلة الممثلين، منزلة المؤلفين، التمثيل فى مصر، سبب انحطاطه، مسئولية الحكومة، مسئولية الأغنياء، تقصير الأجواق - «جمع جوق ويعنى الفرقة المسرحية بلغة ذلك الزمن» - ارتباط المؤلف والممثل والجمهور، أهمية وظيفة الممثل، علاج لانحطاط التمثيل، ايجاد تيار فكرى تمثيلى، ميزة الطبع - «ويعنى هنا طبع نصوص المسرحيات وإصدارها فى هيئة كتاب لحفظها من الضياع» - مهمة الممثل، استقلال المؤلف عن الممثل، انتشار الطبع فى أوربا، اهتمام دوما بالطبع «يقصد هنا الكاتب الفرنسى إسكندر دوماس الصغير» - رأى دوما فى الطبع، لزوم الطبع فى مصر، غرض المؤلف من الطبع، قلة فائدة الروايات المعربة، نداء إلى المؤلفين التمثيليين، حض المؤلفين على العمل، سقوط الروايات الفنية، ربح الرواية التجارية، الرواية المنحطة، تكوين شركة للطبع، فوائد الطبع، الآداب التمثيلية، ذكرى للمؤلف، فطرية الفنون، روايات المؤلف، نوع رواياته، دواعى اقتباس المؤلف، أهمية الاقتباس، استقلال المؤلف عن الممثل، الاقتباس، الشهرة والجمهور، الشهرة، خمول النبوغ، سبق الأدب للجمهور، أسلوب روايات المؤلف - «شديد الحماسة للغة العامية رغم اعترافه بأنه مضطر للكتابة بالفصحى»! - لغة الروايات، اللغة العامية، اللغة المسرحية تفوق اللغة العامية، المسرح والروايات العربية، نشر اللغة العامية، ضيق هذه المقدمة» - كل تلك المساحة العريضة من القضايا والهموم والأمور المسرحية والثقافية يجول فيها صاحبنا ويصول بقوة واقتدار وجرأة تتميز بعلو النبرة فى الغضب وحدة التهكم والسخرية من دون أن يجور ذلك على ذكاء الجدل وعمق فهمه لما يتكلم عنه، سواء وافقناه أم اختلفنا معه. بل إننى أكاد أجزم أننى لم أقرأ باللغة العربية لأحد بلغ مبلغه - خاصة من جيله - فى ذلك الفهم الواضح الجلى لماهية المسرح وتحدث فى أموره وقضاياه، بكل هذا الحماس والحب والوعى، ولعل كتاب المسرحى الراحل نجيب سرور «حوار فى المسرح» الذى صدر عام ١٩٦٩ يكون النموذج الشبيه لكتاب عثمان صبرى بعد مسافة امتدت بينهما إلى نصف قرن.

***

فى مقدمته الثانية يبدأ عثمان صبرى بقوله : «رأيت أن أضع قبل كل رواية من مجموعة رواياتى التمثيلية مقدمة موجزة أبحث فيها عن موضوع الرواية وعما له بها مساس ورابطة . أول رواية من هذه المجموعة هى رواية «شبابنا فى أوربا» .. وقد كتبتها فى أول سنة ١٩١٦، أى أننى كنت حينئذ فى نحو التاسعة عشرة من عمرى، لذلك قد لاتكون على جانب من الجودة والاتقان، أما الأصل فى نوع الرواية فهو مسلاة خلقية .. هى هنا حياة وأخلاق بعض الشبان المصريين فى أوربا

فيما يختص بعلاقاتهم النسائية» .. ونجد أن عثمان صبرى يسمى الكوميدى «مسلاة» من التسلية والمتعة بدلا من «ملهاة» من اللهو أو اللغو التى كان بعض المترجمين قد اختاروها مقابل «كوميدى» وتقع مقدمته الثانية فى ٧٣ صفحة مؤرخة فى «المعادى سنة ١٩١٧» يشرح فيها بالتفصيل فكرة المسرحية وملخصها وعقدتها والمشكلة التى تعالجها، وهى مشكلتان : الزواج من أجنبيات - «الذى يعارضه تماما» - وأبناء الطبيعة - «أى الأبناء غير الشرعيين ويتعاطف معهم ويدافع بحرارة عن حقهم فى الاعتراف بهم مستندا إلى الشريعة الإسلامية والقوانين الفرنسية» - ويصدرها بحديث شريف : «أيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رءوس الأولين والآخرين» ثم يتلو سطرا من التوراة، سفر الأمثال يقول : «حافظوا على تقاليدكم تصونوا أنفسكم» وفى «كلمة إضافية» يوقعها مؤرخة «المنصورة ١٩٢٢» ينوه إلى أنه كان ينوى طبع الرواية - المسرحية - منذ كتب المقدمة سنة ١٩١٧ ولكن صعوبة وسائل الطبع المادية زمن الحرب - «الحرب العالمية الأولى التى بدأت ١٩١٤ وانتهت ١٩١٨» - عاقته عن ذلك، وأنه هم بطبعها بعد ذلك أوائل سنة ١٩٢٠ وعمل لها الكليشيه، «رسم السيد الفنى ايهاب خلوصى قبل سفره إلى ألمانيا» ولكن طرأ عليه من الأعمال الشخصية وتوقع السفر إلى الخارج ماحال دون ذلك» وقد كانت نتيجة لذلك أن هذه الرواية التى كتبت سنة ١٩١٦ لم يمكن البدء فى طبعها إلا فى أواخر سنة ١٩٢٢ أى بعد ست سنوات من كتابتها، ومعلوم أن فكر الإنسان يتطور ويترقى .. وحقا لقد تبين لى أن عقليتى ونفسيتى اليوم غيرهما قبل ست سنوات .. بحيث لو كنت سأكتبها الآن لما كتبتها هكذا خصوصا من جهة اللغة والوضع «القالب» ... لذلك لجأت إلى أن أدع الرواية كما كانت عليه تماما مكتفيا بالإشارة الى ما لا أوافق عليه الآن وانتقاده كأننى ناقد أجنبى عن كاتب الكتاب بل وعن نفسى وهذا فى الواقع هو عين الحقيقة لأن مؤلف الرواية الأصلى أجنبى عنى لا أثر له فى الوجود الآن، إذ أنى ، أنا الذى كنت قبل ست سنوات، بل أمس، قد ابتلعه الماضى وصار غير موجود الآن..»

***

يسمى عثمان صبرى مسرحيته - أو روايته بمصطلح ذلك الزمن مسلاة حديثة ذات أربعة فصول، ويقول فى إهدائها «لمن عسى أهدى هذه الرواية، التى هى أول زهرة من شجرة شبابى، تتضوع صفحاتها بأريج الشباب، وتفوح منها ذكراه وتتكلم عن عهده وهواه، إن لم أهدها إلى شبابنا، الذين فى أوربا، والذين فى مصر، إليهم كلهم سواء منهم الراحل وراء البحار، والمقيم فى أحضان وادى النيل، أقدم روايتى هذه..»

وتجرى أحداث مسرحيته فى فرنسا عام ١٩١٦ وأشخاصها هم: عزيز بك

قاض مصرى ٤٠ سنة، حسن طالب حقوق مصرى بفرنسا وابن جلال بك ٢٠ سنة، جلال بك من أعيان مصر المحافظين على التقاليد القديمة ملتح وعمره ٤٥ سنة، وجميلة زوجة عزيز بك، عمرها ٣٠ سنة، وشخصيات أخرى فرنسية منها فتاة جميلة عمرها ١٧ سنة، اسمها كلير متزوجة من حسن، وتبين أحداث المسرحية أنها ابنة غير شرعية لعزيز بك أنجبها من عشيقة فرنسية عندما كان طالبا شابا يدرس فى فرنسا !.

والمسرحية تحمل فى أسلوبها وبنائها فجاجة المحاولة الأولى للكتابة، وتبدو هزيلة بالمقارنة للنضوج والتوهج، الذى تبدى فى كتابة عثمان صبرى لمقدماته، مما يؤكد أن موهبته كناقد ومفكر مسرحى أعلى بكثير من قدرته الإبداعية كمؤلف مسرحى .

***

لعثمان صبرى آراؤه وأفكاره التى أخاصم شططها وعلى رأسها آراؤه فى اللغة العربية وانحيازه الكامل للغة العامية المصرية، وتأثره بنزعة التغريب فى عصره، بل يمكننا أن نعتبره واحدا من المروجين له، لاذعا ضد التمسك بالتقاليد الى حد التجاوز، غير المقبول رغم احتفاظه طيلة الوقت بخط رجعة يمكنه من إبراز مساوىء ذلك الغرب الذى ينشده، لكن عدم الاتفاق مع آراء عثمان صبرى وتوجهاته التى وصفتها بالشطط لايمنعنى من الاعتراف بقوة وعمق وغزارة وخصوبة تعبيره عن أطروحاته فى أعوام ١٩١٦ حتى ١٩٢٢ وهو فى مطلع عشريناته، يترجم من التركية والفرنسية والانجليزية حتى لتحسبه قد تعلم فى معاهدهم، ثم يكتب بلغة عربية سلسة وظريفة وحديثة وفصيحة وجزلة حتى لتتصور أنه من حفظة القرآن الكريم، ودارس للشريعة، أكل وشرب كل كتب التراث، وبلع، وهضم كل كتابات عصره المحلية والعالمية. يحمل راية تجديد فى الكتابة والصياغة، وناقد متمكن موهوب متمرد فى أفكاره، ومن فرط حبه لمصر وحماسته لبلاده مصر لايكف عن التنديد بأخطاء بنيها وتقاعسهم عن النهضة .

***

مازلت أتساءل ، من هذا الذى كانت له منذ ١٩١٦ كل هذه الثقافة الشاملة المتكاملة فى المسرح والسينما والأدب محليا وعالميا وبإمكانه هذه الكتابة الواثقة العلمية المنهجية المرتبة والجياشة بالوقت نفسه، من هذا الملتهب بالحماسة والغيرة والتهكم والغضب والأمل فى المستقبل، وكيف تم اخفاؤه والردم على اسمه حتى لا يأخذ حقه فى موقع الريادة بالمسرح المصرى، ناقدا ومفكرا، وباحثا ومؤلفا وهو الذى قال أملا فى الإنصاف: «وليأتين اليوم الذى تتفق فيه أذهان تلك الأمة فيهدمون أصنام الأدب التى يعبدونها اليوم، ويبجلون مكانها رسل الأدب الراقى والفن الصحيح، ولقد بدأت تظهر بشائرهم، كما أن الضربات الأولى بدأت تصيب تلك الأوثان القديمة» .



● يخلط بعض الكتاب بين «الأعجمى» و «العجمى»، أما الأعجمى فهو غير الفصيح اللسان وإن كان نازلا فى البادية، أما العجمى فهو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا، والإعرابى هو البدوى وإن كان نازلا بالمدن، والعربى هو المنسوب إلى العرب، وإن لم يكن بدويا.

● نقرأ فى الصحف كلمة «إنشاء الله» مكتوبة هكذا حتى فى كتابة بعض المشاهير والصواب «إن شاء الله» لأن الفعل الماضى «شاء» لا يتصل عند كتابته بأداة الشرط «إن».. ولعل كاتبى «إنشاء الله» يحسبونها كلمة واحدة.. وهذا بعض الجهل المؤلم باللغة المغلوبة على أمرها.

● تشتهر بين العامة كلمتا «الطرشى» و«المخلل» لكثرة استعمال هذا اللون من الأكل كفاتح للشهية.. وكلمة «الطرشى» دارجة، وكلمة «المخلل» فصيحة.

● فى مصر يقول العامة «سنكر الباب» أى أغلق الباب، وفى الشام يقول العامة «سكوا الباب» بفتح السين وتشديد الكاف المفتوحة، والصواب ما يقوله العامة الشاميون، وهو من الفصيح وللمطربة فيروز أغنية مشهورة عن بيروت تقول فيها «سنكروا الشوارع» أى أغلقوها.

● من الألفاظ التى يتوهمها بعض الأدباء عامية: «زاغ – كع – خنس» وهى ألفاظ أو أفعال فصيحة.. يقال زاغ عن الشىء زياغة.. وكع عن الشئ كعاعة.. وخنس أيضا ومعناها: أحجم عن الشىء ونكص عنه.

● ينطق الفصحاء كلمة «ترجمان» بفتح التاء وضم الجيم، وينطقها العامة بهذين الحرفين، وكلا النطقين فصيح.

درية شفيق ..

بقلم : د. أحمد السيد عوضين

ظهر فى باب بريد القراء فى ١٤/٦/١٩٧٥ فى صحيفة أخبار اليوم سؤال من القارئة: نانى مبارك نصه : أين ذهبت درية شفيق ؟ ولماذا اختفت تماماً ؟. ولعل الداعى إلى هذا السؤال هو أن درية شفيق كانت ملء السمع والبصر لسنوات طويلة، تشغل الصحف والمجلات، وتملأ المجتمعات بنشاطها، ودعوتها، وجهودها وندواتها، وكتاباتها المتصلة، دون أن تتوقف للحظة ثم على حين فجأة اختفت من الحياة الاجتماعية والسياسية، دون أن يرد لها ذكر فى صحيفة، أو تظهر لها صورة فى مجلة، وطال اختفاؤها دون أن يعرف الجمهور العريض لذلك سبباً !.

وجاءت الإجابة المقتضبة من الصحيفة لتقول: اتخذ قرار بإغلاق مجلاتها واتحادها النسائى بحجة أنها تمثل خطراً على الأمن العام. ولقد عزلت فى شقتها لمدة ثمانية عشر عاماً، وهى الآن تؤمن أن الصمت أبلغ من الكلام.

فما هو هذا القرار الذى اتخذ بإيقاف نشاطها وعزلها ؟ ومن الذى أصدره ؟ وما الداعى لإصداره ؟ وقبل ذلك كله: من تكون درية شفيق ؟ وما هو الدور الذى أدته فى المجال الذى ارتادته، ونذرت له الشطر الأكبر من حياتها، وكيف لها أن تمثل خطراً على الأمن العام ؟.

ولعل كثيرين من أبناء الجيل المعاصر لا يعرفون شيئاً عن تلك الشخصية التى عاشت إلى ما قبل عام ١٩٥٧ تواصل العمل، دون أن تغيب - أو تتغيب - ودون أن تتوقف عن المضىّ فى تنفيذ ما خططت لتنفيذه ولو لفترة مؤقتة.

وقد اختلف المعاصرون لها: ما بين مؤيدين لها، يشيدون بجهودها. ويتحدثون عنها برضا وإعجاب، وبين آخرين كانوا يرون فيما تقوم به خروجاً على الدين، ومخالفة التقاليد، والأعراف.. وهى بين أولئك وهؤلاء كانت تمضى فى سبيلها، لا تضعف ولا تلين، بل تأتى كل يوم بجديد، تتجدد معه الإشادة بها، كما تتجدد به أيضاً الهجمات عليها.

★★★

وقد يكون من المفيد - قبل أن نمضى

مواقف من حياتها



مع الحديث عن درية شفيق - أن نشير إلى أن تاريخ أول لقـــاء لكاتب هذه السطور مع تلك الشخصية غير العادية يرجع إلى عام ١٩٥٠ عندما قدم إلى القاهرة ليدرس فى جامعتها العتيدة، وكان فى الوقت نفسه حريصاً على ارتياد جميع «ندوات» القاهرة طالما أن الدعوة إليها عامة، وباب الاشتراك فيها مفتوح أمام الجميع، وقد طالع - ذات يوم - إعلاناً عن ندوة يحضرها العلامة الدكتور/ أحمد زكى بك (شغل لفترة منصب مدير جامعة القاهرة، كما ظل لفترة طويلة رئيساً لتحرير مجلة الهلال) - وكان موضوع الندوة على - ما أذكر - يدور حول «الإسلام والمرأة». أما مكان الندوة فدار «بنت النيل» فى شارع قصر النيل . وعندما توجه صاحبنا لحضور تلك الندوة، لم يكن فى ذهنه أكثر من أنه سوف يتابع حديثا شيقا، يمزج بين العلم والدين، ويقدم خلاصة فكر واع، لشخص مستنير يتميز فوق علمه وأدبه بحلاوة العبارة، وجمال الإلقاء. غير أن صاحبنا فوجىء لدى دخوله «الدار» وهى شقة فسيحة فى إحدى العمارات الكبيرة فى ذلك الشارع الراقى، بتميز مكان الندوة عن سائر الأماكن التى تعقد فيها الندوات - فى العادة - صالة منسقة ، كل شىء فى موضعه، الحوائط تزينها لوحات، والمنصة عليها زهور، والجمهور يجلس على كراسى مريحة، والصالة تشيع فيها روائح فيعشن، والعضوات يجلسن فى مختلف أنحاء الصالة أنيقات معطرات، بل ومبتسمات أيضا ، فيشعن فى جو الندوة روحا من الود بل ولا يترددن فى تبادل الحديث - والنقاش - مع الحاضرين ، فى مودة بادية، فإذا بهؤلاء الحضور يندفعون فى تأييد القضية حتى قبل أن يبدأ الحديث عنها. على أن الندوة ما لبثت أن ابتدأت حين اعتلى المنصة المتحدث الأول وإلى يمينه.. الزعيمة : سيدة آسرة، تتبعتها نظراتى منذ أن دخلت القاعة يسبقها عطرها الزكى، وتخطر بين الجالسين فى رشاقة وأناقة، بقامتها المنتصبة تعلو وجهها ابتسامة رقيقة، ونظرات حانية ، وينطلق صوتها خفيضا، ناعما، ولكنه واضح الألفاظ، بيِّن المعانى، وتلقى بكلمات موجزة لكنها ثرية المضمون تقدم بها الندوة، وقطبها، ولم تكد تتوقف حتى دوَّت القاعة بالتصفيق - هل كان التصفيق لها أم للمتحدث الذى قدمته ؟ لا أدرى على وجه الدقة، وبالطبع لا يتذكر كاتب هذه السطور ما قاله المحاضر فى تلك الندوة وإن كان لم ينس شرحه للآية الكريمة ، «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» فقد كانت تلك هى المرة الأولى الذى أعرف فيها أن «الجيب» هو أعلى فتحة الصدر وأن الخمار هو ما يغطى الرأس، وينسدل ليغطى الصدر-



درية شفيق مع بنات وطالبات الثانوى ١٩٥٠

فيما عدا الوجه - وهى أقوال يستمدها قائلها من شرحه لألفاظ القرآن الكريم، واستنباط للأحكام من النص الخالد.. وفيما عدا هذه الإشارة فقد نسيت كل ما أفاض فيه المتحدث، إلا أننى لم أنس - ولا أظننى سوف أنسى - ما أعقب الحديث من نقاش، فقد عقبت صاحبة الدعوة بكلام كثير، وكان مما قالته أن المرأة سوف تستمر فى كفاحها حتى تحصل على كامل حقوقها، فتعتلى منصة القضاء، وتتبوأ كرسى الوزارة.. وما أسرع ما نهض كاتب هذه السطور طالبا الكلمة فى انفعال لم يلتفت معه إلى تلك البسمة المشرقة التى صاحبت إعطاءه الكلمة. وهو إنما كان يتحدث - فى الواقع - من وحى ظروفه الخاصة، ومن هنا كان قوله: إن الشباب يعانى من البطالة، ولا يجد فرص العمل.. ومع ذلك نسمع مطالب غير منطقية.. فكيف للمرأة أن تتولى القضاء؟ قالها وقد خيل إليه أنه ألقى قنبلة، فإذا بشيخ وقور مازال يذكر صورته: بوجهه الخمرى، ونظارته السميكة، وتلك السماعة التى يضعها على إحدى أذنيه. وقف ذلك الشيخ مقدما نفسه بأنه مفتش اللغة العربية، ثم انطلق يتحدث فى طلاقة وإنطلاق عن «المرأة قاضية» وكيف أن ذلك حقها الطبيعى، بل وراح يستشهد بوقائع من تاريخ الإسلام تولت

فيها المرأة أمر القضاء.. وانساب حديثه سلسا، فياضا، مع إيراد شواهد كثيرة، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح.. كل ذلك، و«صاحبنا» فى حالة من الضيق لشعوره بالهزيمة وسط هذا الحشد الأنثوى، وقد زاد من ضيقه ما ختم به المتحدث حديثه إذ اتجه إليه متسائلا: فما رأى ابننا العزيز؟ وهل مازال عند قوله بأن المرأة لا تصلح قاضية؟ وأحس أن كل العيون تتجه إليه، ولم يجد لديه القدرة لأى قول آخر، فبادرت صاحبة الدعوة تنقذ الموقف، وعلا صوتها تشكر المتحدث، وتثير موضوعا آخر، وجهت إليه الحديث، فما كان من «صاحبنا» إلا أن تسلل خارجا فى هدوء، وما أن خرج إلى الشارع حتى أحس كأنه يفيق من كابوس ثقيل..!

★★★

ومع ذلك فما كان يقرأ عن ندوة لرئيسة بنت النيل إلا ويبادر إلى حضورها، وما كان يطالع مقالا لها، أو مقالا أو خبرا عنها وعن أنشطتها المتعددة إلا ويستوعب ذلك كله، فقد صار من المعجبين بتلك الشخصية، المتابعين لخطواتها التى ما كانت لتتوقف، ولكن ذلك كله لم يقطع المسافة التى تفصله عنها، فقد ظلت متابعته لها عن بعد، وظل تقديره لها، ولخطواتها لا يعدو تعبيره عنه ما يبديه من تعليقات فى أحاديثه بين زملائه، وهى أحاديث لم تكن لها نهاية .

غير أنه قد أتيحت لصاحب هذه السطور أن يلتقى برئيسة بنت النيل، وأن يتناقش معها وجها لوجه. ومازال يذكر وقت الأصيل من ذلك اليوم من أيام شهر نوفمبر من العام نفسه الذى قامت فيه الثورة. كان موعد محاضرة القانون التجارى، وكان حضوره بعد الموعد بدقائق، وفى طريقه إلى الباب الخلفى للمدرج لمح جمعا من الطلبة يقف أمام باب الكلية، ولما اقترب وجد أن «الزعيمة» تقف بينهم ، فكان من الطبيعى أن ينضم إلى هذا الجمع، وأن يشارك فيما يجرى من نقاش، وقد اختار هذه المرة جانب الزعيمة، ووجد نفسه يؤيد كل ما تقول، بل ويأتى بأدلة مساندة من قراءاته، وكم أسعده أن يسمع منها تأييدا لما يقول، بل وأن تستشهد بما قاله للرد على من كان يناقشها من الطلبة «المعارضين» دائما. ولا ينسى أبدا نظرة الود التى كانت تتبدى فى عينيها، وهى تتابع حديثه - المؤيد على طول الخط - وقد طال الحديث، ولم تقطعه سوى دقات ساعة الجامعة التى ما إن أعلنت الخامسة حتى وجدنا الزعيمة تشير إلى ساعتها وتنصرف مودعة، ثم تسرع فى خطاها إلى العربة التى كانت تقف غير بعيد، ولم يلبث الدكتور/ نور الدين رجائى - أستاذ القانون التجارى - أن حضر إليها، ولوح هو الآخر للطلبة مودعا، ثم تمضى به

العربة، وإلى جواره زوجته العزيزة: رئيسة بنت النيل!

★★★

لقد عاشت درية شفيق حياة حافلة بالنشاط، لا تعرف الهدوء أو الاستسلام بحال من الأحوال، ولم يتوقف نشاطها إلا فى فبراير عام ١٩٥٧ عندما اضطرت إلى ذلك نتيجة لتحديد إقامتها فى منزلها فأصبح عليها ألا تغادره، بل تعيش حبيسة جدرانه دون أن تمد نشاطها إلى خارجه ودون أن يبقى لها من متنفس سوى أوراقها تبث فيها خطراتها، وتروى ذكرياتها، وتسجل مشاعرها.. وتظل رهينة محبسها حتى بعدما أصبح فى وسعها أن تمارس حريتها، بل وأن تسافر إلى الخارج لزيارة إحدى ابنتيها، فقد عادت بعد تلك الزيارة تستأنف حياة المحبس، مستسلمة لحالة اليأس إلى أن كانت مأساة وفاتها فى خريف عام ١٩٧٥.

وعلى ذلك وإذ كانت درية شفيق قد ولدت فى ديسمبر عام ١٩٠٨، فإنها تكون عند وفاتها قد قاربت السابعة والستين من عمرها ، ولكن نشاطها قد توقف وهى لم تكن قد جاوزت الثامنة والأربعين من عمرها إلا بشهرين اثنين، ثم توارت بعد ذلك فى الظل لمدة ثمانية عشر عاما متصلة، وهى التى كانت ملء السمع والبصر، وكان نشاطها قد تجاوز مصر شرقا وغربا، وتردد اسمها وذكرها فى مختلف المنتديات والمنظمات : كمدافعة عن



فاتن حمامة تكرم بنت النيل بمناسبة جهودها للمطالبة بحقوق المرأة

المرأة، ومطالبة بحقوقها فى مجتمع ديمقراطى.

ومن أسف أن كتاباتها - وأشعارها - التى ملأت الصفحات، وخاصة ما كتبته وهى فى فترة محبسها لم تجد سبيلها إلى النور إلا بقدر ضئيل ، فقد كانت كتابتها لمذكراتها - وأشعارها - باللغة الفرنسية، ولم تجد من يتولى تجميعها ونشرها كاملة فى لغتها الأصلية، ثم ترجمتها ونشرها باللغة العربية .

ومع ذلك فقد وجدت تلك الصفحات من اهتمت بها، واتخذت منها مرجعا لدراسة كاملة قدمتها عن تلك الشخصية الفريدة، تعتبر من أوفى ما كتب عنها - ونعنى بها الكاتبة الأمريكية: سيثيا نلسون «عميدة معهد الإنسانيات والعلوم الاجتماعية وأستاذة الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة» التى قدمت فى عام ١٩٩٦ كتابها القيم: درية شفيق:

امرأة مختلفة (أو امرأة متفردة) A Woman apart ، وقد قامت الكاتبة الفاضلة : نهاد أحمد سالم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ترجمة دقيقة فى عبارة رقيقة، وبأسلوب عذب، وتولى المجلس الأعلى للثقافة نشر هذه الترجمة بالتعاون مع «جمعية المرأة العربية».

وإذا كان هذا الكتاب قد تضمن اقتباسات عديدة من مذكرات وأشعار درية شفيق، إلا أنه لا يغنى عن ضرورة نشر تلك المذكرات والأشعار كاملة، وترجمتها - فى الوقت ذاته - إلى اللغة العربية على نحو يقدم للقارىء العربى تلك الحياة الحافلة.. وكل ما شغل صاحبتها من أحداث ، وما ملكها وملأ نفسها ووجدانها من خواطر ومشاعر وأحاسيس.

★★★

وتصحبنا المؤلفة لنعايش صاحبة السيرة منذ مولدها فى مدينة طنطا فى ديسمبر عام ١٩٠٨ - وكانت ثالثة الأطفال فى الأسرة المكونة من المهندس/ أحمد شفيق ، والسيدة/ رتيبة ناصف: فقد سبقها أخ وأخت.. وتصاحبها فى كل خطاها حتى تبلغ بها النهاية، وإذا كان المقام لا يتسع هنا لعرض كل تفاصيل تلك الحياة الحافلة، فإننا سوف نتخير عددا من المواقف التى تبدو كعلامات بارزة فى حياة درية شفيق. وهى حياة قد وصفتها صاحبة السيرة - فى مذكراتها - بأنها «فى جوهرها جهد لكسر القيود التى فرضت على مصر والمصريين عبر قرون من الاستعباد. هى محاولة لاكتشاف الأسباب المباشرة والأصول البعيدة لقيود العبودية التى أرزح فيها منذ طفولتى» (١).

وعلى ذلك فلم تقتصر جهود درية شفيق على تحرير «المرأة»، بل كانت تعمل للمجتمع كله - رجاله ونسائه - بل يمكن أن نقرر أن «همها الأكبر» كان هو «الديمقراطية».. حتى أن ثورتها الكبرى التى أعقبها إدخال إلى «محبسها» لم تكن إلا لما ارتأته من أن ثمة عدوانا يقع على «الديمقراطية»، وأنه عدوان شديد الوطأة ، لا يحسن السكوت عليه، أو الرضوخ له.. حتى وإن اقتضى الأمر مواجهة صاحب السلطان الأعظم!.

★★★

كان مولدها فى طنطا - فى بيت جدتها لأمها - من أبوين جاءا من طب قتين مختلفتين: فالأم رتيبة ناصف «بك» - والأب أحمد أفندى شفيق، وقد كانت الجدة - التى عاشت درية فى كنفها - هى خديجة هانم ابنة واحد من كبار أعيان طنطا : حسين القصبى ، وقد تزوجت الجدة - وهى فى الثانية عشرة من عمرها - من رجل ثرى يكبرها سنا، وما أن بلغت العشرين من عمرها حتى

كانت قد ترملت بعد أن رزقت منه ببنات ثلاث. فكان أن عاشت - رغم ثرائها لما ورثته عن زوجها وعن أبيها - فى كنف أخيها الأكبر - أبو العز القصبى - الذى كان يلقب بـ (الباشا) لثرائه ومكانته الاجتماعية.

وإذ كانت رتيبة هى البنت الوسطى ، وقد زوجت أختها الكبرى لعلى شفيق - ضابط بالجيش - فقد زوجت رتيبة - فى الوقت نفسه - ولم تكن قد بلغت بعد الخامسة عشرة من عمرها - لشقيقه الأصغر الذى كان مايزال طالبا ينهى دراساته فى مدرسة المهندسخانة . ورغم أن الطالب تخرج ، وأصبح «موظفا» ذا دخل يكفل الحياة الكريمة لأسرته، فضلا عن حرصه على أن يرتفع بمستواه الثقافى إلا أنه ظل أسير إحساس بأنه من طبقة أقل مستوى من طبقة زوجته، وإن ربط الحب، وساد الاحترام فيما بينهما .

ومع أن مولد، درية كان فى بيت الجدة فى طنطا، إلا أن نشأتها الأولى كانت فى المنصورة حيث عمل أبوها مهندسا بالسكك الحديدية.. غير أنها ما أن بلغت السادسة أو السابعة حتى قرر أبواها أن تنتقل إلى طنطا لتعيش مع جدتها، وتكون دراستها بإحدى مدارس البعثة الفرنسية فى طنطا، وفى حياتها فى طنطا كانت تحس بالغربة، وفى دراستها فى المدرسة كانت تلقى المعاملة السيئة.. وزاد من آلامها فقدها لأمها وهى ماتزال فى تلك السن الغضة، وتصف يوم وفاة الأم بأن ذلك اليوم «ظل فى ذاكرتى صدمة عميقة لا برء منها، جرح من العمق بحيث ترك على حياتى كلها بصمة خراب...».. فقد كان وقع الموت عليها فظيعا، وكان ما أعقبه من تشتت للأسرة أشد فظاعة، ولم تجد درية مخرجا لها من أحزانها ويأسها سوى الانكباب على دراستها، حتى لقد نقلت إلى فصل أعلى فى أثناء السنة الدراسية. وكان أبوها قد انتقل فى عمله إلى الإسكندرية وإذ رغب أن تنتقل درية لتعيش فى كنف أبيها، وكان ذلك فى عام ١٩٢٤، ودرية تستقبل بشائر أنوثتها ، ومن الطبيعى أن تستكمل تعليمها فى المدارس التابعة للإرسالية الفرنسية - فى الإسكندرية - ونجحت درية في اختصار عام دراسى، ونالت شهادة «البريفى» Brevet .. وتقدمت بعد ذلك إلى شهادة البكالوريا - من منزلها - وكان اختيارها لـ «شعبة الفلسفة» ونالت لذلك وساما فضيا ولم تكن قد جاوزت السادسة عشرة من عمرها إلا بشهور. ومع ذلك فقد راودتها فكرة السفر إلى باريس لاستكمال دراستها فى السوربون، خاصة وأن أخويها كانا قد سافرا إلى أوربا لدراسة الهندسة: أحدهما إلى ألمانيا والثانى إلى إنجلترا. ولم يكن ثمة ما يمكن أن يعوق طموحها ، فبادرت توجه رسالة إلى السيدة/ هدى شعراوى تطلب منها العون والتوجيه، وقد تأثرت هدى شعراوى بالرسالة وأبرقت تستدعى إليها الفتاة.. وطمأنتها ووعدتها خيرا. وقد أوفت

بوعدها.. بل وأتاحت الفرصة لدرية بأن تلقى كلمة فى مسرح حديقة الأزبكية فى الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين.. وفى اليوم التالى لذلك الاحتفال كانت وزارة «المعارف» قد وافقت على المنحة التعليمية لدرية شفيق.. وفى أغسطس من عام ١٩٢٨ مضت درية فى طريقها إلى فرنسا وهى لم تبلغ العشرين من عمرها بعد، حيث تقول «فى طريقى إلى باريس لأدرس الفلسفة.. وقد شعرت أن ربيع الحياة يبتسم لى.. ولقد تضاعف حبى لمصر منذ غادرتها، لعلنى أحببتها دائما بهذا القدر، ولكنى لم أع كل ذلك الحب إلى أن غمرنى فالوطن أكثر من أم: فهو يكفلنا حتى إذا جحدنا. لذلك أريد لا أن أخدم بلادى ما أستطعت فحسب، بل وأن أعزز من قدرتى لأبرهن لوطنى على ذلك الحب الذى يفيض بداخلى».

ولدى أول تعامل لها مع مدير مكتب البعثة التعليمية صدمت بأن عليها أن تكون دراستها فى «فرع من فروع التربية النسوية» وقد اختاروا لها دراسة التاريخ والجغرافيا، وإذ أبدت عدم موافقتها وأن رغبتها هى دراسة الفلسفة لم تلق غير الرفض، وأن عليها الالتزام بالتعليمات وأن عليها كذلك «أن تحذر من الحديث مع الشبان، وأن تحافظ على سمعتها، وترعى سلوكها، وإلا أعادوها إلى مصر..!» - ولم تستسلم درية فبادرت بالإبراق إلى الدكتور/ طه حسين تناشده المساعدة، وما أسرع ما تلقى مدير المكتب برقية بأن عليه أن يغير برنامج درية «حسب رغبتها» وكان ذلك انتصارا لدرية، ولكنه انتصار دفعت ثمنه غاليا: عداوة مدير المكتب لها..!!

وفى باريس راحت تنهل من المعارف: فى الأدب ، الفن ، الموسيقى.. وترتاد المعارض، والندوات، وتنعم بالفن والجمال من مختلف ينابيعه - وذلك بالطبع فضلا عن دراستها الأكاديمية للفلسفة، بل وراحت تستجيب لمشاعرها وتعبر عنها فى أشعار تتميز بالرقة، والبساطة ، والإنطلاق.. وكانت النبرة الغالبة على شعرها هى التعبير عن حبها لمصر - وللنيل بصفة خاصة - كما كانت مقالاتها تتوالى لتنشر فى مصر تتحدث عن المرأة وعن مستقبلها، وعما تريده لها من مكانة. وكانت لغتها فى شعرها ونثرها ومقالاتها هى اللغة الفرنسية. ومن ثم كان مجال نشرها مقتصرا على الصحف والمجلات الفرنسية.

وقد لقيت - طوال فترة دراستها - الكثير من المتاعب - بل والدسائس - ولكنها انتصرت عليها جميعا بفضل عزيمتها القوية، وإصرارها العنيد ، وذكائها اللماح ، ولم تطل إقامتها مع رفيقات البعثة فما لبثت أن غادرتهن إلى «الدار الدولية» التى تجمع مبعوثات من

مختلف دول العالم من أفريقيا وآسيا، وأمريكا الاتينية.. حيث عرفت درية أن «بلدى ليس بالبلد الوحيد الذى تعانى فيه المرأة» . وفى دراستها فى السوربون اختارت برنامجا شاقا، بل وقررت دخول امتحانات شهادتين فى الوقت ذاته: شهادة الليسانس الحر، وليسانس الدولة، رغم أن النجاح فى هذه الشهادة الأخيرة كان يستلزم اجتياز امتحان فى اللغة اللاتينية التى لم تكن تعرفها.. ومع ذلك فقد عزمت على تحدى هذه العقبة.. وقد تحدتها بالفعل وحصلت على الشهادتين - كلتيهما.

وكان عليها أن تعود بعد ذلك إلى الوطن.. وتصف لقاء أسرتها فتقول «رأيت أبى والدموع فى عينيه بسبب تأثره العميق لرؤيتى بعد هذه السنين، أما شقيقاتى فانبهرن بأناقتى الباريسية».

صعيدى فى غلاف أوربى !

وقد أمكن لها خلال إقامتها فى مصر أن تفلت من زواج كانت أسرتها قد أعدته لها، بل واتفقت معه على الزواج منها.. وكان من العسير على درية أن تواجه الأسرة بالرفض، فاضطرت إلى الموافقة على الخطبة وهى تقول: «رأيت أن أقبل فكرة الخطبة، وأن أؤجل الزواج الفعلى إلى حين عودتى بعد الانتهاء من الدراسة» ومع ذلك فما لبثت أن أدركت ما قد يترتب على هذا الوضع من مأساة، فبادرت تضع حدا للأمر، وأعادت «الشبكة» وأنهت الموضوع ورغم ما أبداه أبوها من خيبة أمله، إلا أنه لم يحاول إقناعها بالعدول عن قرارها.. وما إن حانت بداية العام الدراسى حتى كانت درية قد عادت إلى باريس لتستكمل دراساتها العليا.. وإن كانت قد حرصت بعد ذلك على قضاء عطلاتها الصيفية فى الإسكندرية - مع أبيها وأخواتها - وفى إحدى تلك العطلات تقدم لخطبتها الكاتب - والصحفى - المعروف : أحمد الصاوى محمد (وكان واحدا ممن نالوا ثقافتهم ودراستهم من فرنسا) وقد وافقت على تلك الخطبة وتصفه بأنه: «أغرق بيتنا فى فيض من الورود الحمراء. وكان يحدثنى عن باريس، فظننت أنه يملك روح شاعر أحاطنى فى دوامة، وتم كل شىء فى سرعة كبيرة لم تسمح لى بالتفكير مليا قبل دخول هذه المغامرة الجديدة، ووقعنا عقد الزواج فى سرعة مذهلة» - إلا أن الأمور ما لبثت أن تعقدت قبل أن يتم الزفاف.. فقد كان الوضع كما يصوره مصطفى أمين (فى كتابه : مسائل شخصية) أن «أحمد الصاوى كان صعيديا فى غلاف أوربى، ولد فى أسوان وتعلم فى باريس، كان متحررا فيما يكتب، متزمتا فى بيته.. فأصبح الطلاق أمرا لابد منه، وتحملت درية صدمة الطلاق بشجاعة».

وكان علاج الأمر أن تستكمل دراساتها فتحصل على منحة جديدة للتحضير لشهادة دكتوراة الدولة فى الفلسفة - من السوربون أيضا - وكان

الموضوعان اللذان تدور حولهما رسالتاها: يتصل أولهما بالنظريات السائدة عن الفن المصرى القديم وعنوانه : الفن للفن فى مصر القديمة. أما الموضوع الثانى - وهو ما يعرف بالتكميلى - فكان عن (المرأة فى مصر المعاصرة، وحقوقها فى الإسلام) - وقد وجدت نفسها - وهى فى باريس - مضطرة إلى اتقان اللغة العربية حتى يتسنى لها قراءة المراجع الأساسية فى العربية.. بل وكان عليها أن تلم بلغات أخرى كالإنجليزية والألمانية واليونانية حتى يتسنى لها أن تحيط بفلسفة الجمال، وتاريخ الفن والمصريات، وعلم الاجتماع، ومن هنا فقد كان عليها أن تبذل جهدا شاقا، وأن تكرس كل وقتها للبحث والدراسة.. وتحملت كل ما فى ذلك من شدة وألم وقسوة.

وكأنما أرادت الأقدار أن تفتح لها طاقة أمل، فقد عرفت أن ابن خالتها: «نور الدين رجائى» جاء إلى باريس فى بعثة دراسية ليحصل على الدكتوراه فى القانون التجارى.. وكانت معرفتها به هامشية، إذ لم تتح لهما الظروف من قبل سوى لقاءات معدودة بحيث لم تنشأ بينهما - من قبل - علاقة ما. ومن عجب أن يأتى لقاؤها معه بمحض المصادفة.. وكان من الطبيعى أن يتقاربا وأن تتعدد لقاءاتهما .. حتى لقد أصبحا متلازمين، وتصف ذلك بقولها: «أخرجنى نور من عالم الفكر البحت، وساعدتنى حيويته على مزج الفكر بالمشاعر، وبالحياة نفسها، وصرت أشعر بتكامل ، لم أعد وحدى» وعندما عرض عليها نور بعد ذلك أن يتزوجا ترددت - وبخاصة لأنها كانت أكبر منه سنا - كانت تكبره بحوالى ست سنوات - ولكن هذا التردد لم يستمر طويلا، وهى تصف لحظة توقيعها على عقد الزواج فتقول : «فى اللحظة التى سبقت توقيعى على عقد الزواج، كان لى رد فعل يدل على أنى لم أتخلص بعد من إيمانى بالخرافات، كما ظننت فلما سألنى القنصل عما إذا كنت أريد الاحتفاظ بالعصمة فى يدى، بادرت بالإجابة: لا، إذ خفت أن يؤدى أى تحفظ من جانبى إلى سوء حظ. فإذا بى بعد تلك الشرقية التى تؤمن بالقوة الكامنة فى الكلمة..».

ولم يعقها الزواج - كما لم يعق زوجها - عن إتمام أبحاثهما .. وإذ انتهت درية من الصياغة النهائية لبحثيها وقدمتهما لأساتذتهما - فقد حصلت على الموافقة على الطبع، وما أن أعدتهما للنشر حتى عادت إلى مصر - وكان ذلك فى أغسطس ١٩٣٩ - وكان عليها أن تنتظر تحديد يوم المناقشة حتى تعود إلى باريس.

وعلى أثر عودتها إلى مصر فقد عملت مفتشة للغة الفرنسية لكل المدارس الثانوية لفترة حتى جاءها خطاب من



بعض بنات وسيدات بنت النيل فى وداع الدكتورة درية شفيق بمناسبة رحلتها إلى الخارج

السوربون يحدد موعد مناقشتها رسالتها فى التاسع من مارس ١٩٤٠.

فبادرت إلى السفر، وكان يوم مناقشة الرسالة يوما مشهودا فى حياتها، قد أعلن رئيس اللجنة بعد انتهاء المناقشة: «لقد حصلت السيدة درية شفيق على درجة دكتوراة الآداب فى الفلسفة من جامعة السوربون بمرتبة التقدير».

وكان زوجها قد عاد من قبل وعمل مدرسا فى كلية الحقوق.. ولما عادت درية أستأنفا حياتهما الزوجية التى لم يقطعها سوى سفرها لمناقشة رسالتها.. وإذ عادت للمرة الأخيرة تحمل الدكتوراة، فقد كانت تعد نفسها للحصول على وظيفة للتدريس بكلية الآداب، وبخاصة وأن شهادتها كانت تؤهلها لتدريس تلك المادة فى جامعة باريس.. إلا أن عميد الكلية فى ذلك الوقت - المرحوم/ أحمد أمين رفض تعيينها لأنه «لا يستطيع تعيين امرأة جميلة لتدرّس بالكلية»!

★★★

وأيا ما كان الأمر.. فإن درية شفيق لم يثنها ذلك الموقف عن أن تواصل رحلتها - وكفاحها - فى الحياة ، وقد اتخذت من العالم كله جامعة لها تنشر عبر مختلف وسائل الإعلام رسالتها وفكرها، وظلت فى صراع متصل إلى أن اضطرت لالتزام محبسها .

---

(١) الفقرات التى بين الأقواس منقولة من كتاب : (درية شفيق - ترجمة : نهاد أحمد سالم - نشر المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع جمعية المرأة العربية - ١٩٩٩ -).



«حرص والدى على أن أتعلم القرآن الكريم واللغات الأجنبية»

«والحرية هى القيمة الغالية التى نشأت عليها»

السفير أحمد ماهر

●● ليس أثقل على النفس من الحديث عن الذات ، وليس أصعب من تجنب الوقوع فى فخ الكبر أو التواضع الزائفين ، أو فخ المبالغة فى دور هو فى الحقيقة متواضع ، أو فى نفى دور قد يكون من حظه إن كان له بعض التأثير . وليس اسهل من محاولة التهرب عندما يطلب منك صديق يحسن الظن بك أن تكتب عن النشأة والتكوين باعتبارك زاولت مهنة - أو مهمة - جعلتك أحياناً فى الضوء العام ، وليس أكثر عسرا من الاستمرار فى محاولة التهرب إزاء إلحاح فيه من الود الممزوج بالزجر الخفيف.

وإذ أجلس - بعد ذلك كله - لأكتب ماهو فى النهاية سيرة ذاتية مختصرة قد لا تهم أحداً ، فإنى أجدها فرصة لمحاسبة النفس ، ولن يرى القارىء منها إلا ملامح بسيطة بينما أختزن محصلة الحساب النهائية فى نفس لعلى - فيما بقى من عمر - أصحح وأجود ●●

نشـأت فى بيئـة أسـرية مـتشـبـعـة بالوطنية والسياسة والثقافة .

فلقـد كـان والدى رحـمـه الله طبـيـبـاً مـتـخـصـصـاً فى أمـراض النسـاء والولادة والأطفال، وكان بارعاً فى فنه واشتهر فى حى العباسية حيث كانت عيادته، ومع ذلك فقد ظل حتى نهاية حياته حريصاً على إبقـاء رسم الكشف فى العـيـادة أو فى المنازل زهيداً رغم ارتفاع تكاليف المعيشة. وكـان يسـتـجـيـب لنداءات المرضى فى منتصف الليـالى فى أزقة وحوارى الحى دون أن يتبرم أو يتهرب. ولعلى تعلمت منه القناعـة والرضـا وحب العـمل ومحاولة اتقانه . ولكنى تعلمت منه وبفـضله أشـيـاء أخـرى كثيرة، فقد كان مثقفاً مولعاً بالقـراءة ولذلك كـانت لديه مكتبة زاخرة بالكتب العربية والانجليزية قـديمهـا وحـديثـهـا، تتناول الموضـوعـات المخـتلفـة من علم وأدب وفلسـفـة وتاريخ وسياسة، وكان أكثر مايستهوينى فيها كتب التاريخ وسير العظماء وبعض روائع الأدب والشعر.

ولما كان والدى قد أكمل دراسته العليا فى الطب فى ايرلندا فـقـد كـان مـتـأثرا





بكفاح الشعب الايرلندى ضد الاستعمار البريطانى رابطاً بينه وبين نضال الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ فكان يقص علينا القصص عن تاريخ مصر مركزاً على ما فيها من عبر ودروس، ومبرزا سلبياتها وإيجابياتها، عاكساً ولعه بالسياسة التى كان يود لو ينخرط فيها حتى أنه فكر فى أن يرشح نفسه يوماً لانتخابات مجلس النواب لولا أن جدى لوالدتى أثناه عن ذلك حرصاً عليه.

وكان جدى لوالدتى هو الدكتور أحمد ماهر الذى كانت حياته سلسلة من النضال الوطنى الذى اقترب برأسه من حبل المشنقة لمشاركته فى مقاومة الاحتلال، ومن النضال السياسى فى الوفد، أولا قريبا من سعد زغلول الذى استوزره وهو بعد شاب يافع «وأفندى» ، ثم بعد انفصاله عن الوفد على رأس حزب قد تختلف فيه الآراء لكنه كان يستهدف الوفاء لمبادىء سعد التى رأى من خلفائه خروجا عنها . ولقد اكسبته مواقفه عداء الكثيرين وعلى رأسهم الانجليز الذين ظلوا لسنوات طوال يعترضون على مشاركته فى أى نشاط سياسى رسمى.

السفير أحمد ماهر وحرمه يتوسطهما الملك عبد الله عاهل الأردن وقرينته الملكة رانيا



وقد تعلمت منه - وعنه - الكثير فى الفترة القصيرة التى عايشته فيها قبل أن تقتله يد الغدر والجهل حين أراد إعلان الحرب على دول المحور عندما كانت تلك الحرب تقاب نهايتها، حتى يضمن لمصر مقعدا ثابتا على مائدة المنتصرين عندما يجتمعون للتخطيط للعالم الجديد المأمول ويقننون آمالهم فى ميثاق الأمم المتحدة . وكنت فى العاشرة من عمرى عندما اغتيل ولكنى كنت - حتى فى ذلك السن الصغير - أتلقى منه مباشرة ثم من والدتى التى حملت مشعل أفكاره لتظل ذكراه العطرة جزءاً أساسياً من حياتنا اليومية . تعلمت منه الشجاعة والصراحة عندما سألنى مرة عما إذا كنت أفضل الحمار الذى كنت أسعد بامتطائه فى الحديقة ، أم جدى، أجيب «الحمار» . وعندما أرادت أمى زجرى ، وقف جدى فى صفى مشيراً إلى ضرورة أن أتعلم مبكراً أن أعبر عن رأيى دون خوف أو تردد . وكان هذا مبدأه حين وقف يعارض أحياناً زعيمه سعد زغلول الذى كان يرأس مجلس نواب كان أحمد ماهر أحد أعضائه ، وحين وقف منادياً - عندما غزا الألمان والايطاليون مصر من الغرب فى الأربعينات - بأنه مهما كانت الظروف فان مصر لايصح أن تقف متفرجة، وان عليها أن تدافع عن أراضيها المقدسة حتى تثبت للمحتل البريطانى انها قادرة على أن تضطلع بمسئوليتها راغبة فى ذلك رافضة أى استعمار أيا كان مصدره . وكان رأيه أن لنا «ناقة وجمل» - على عكس مايقوله الكثيرون - فى أن ندافع عن ترابنا المقدس ضد الألمان والايطاليين كما ندافع عنه ضد المحتل البريطانى . وقد أدرك مبكراً أن استكمال استقلال مصر يقتضى أن يشارك جيشها فى الدفاع عنها حتى يسقط حجة من يدعون ضرورة بقائهم على أراضيها للدفاع عنها ، وحتى يحصل ذلك الجيش على الخبرة القتالية وتحيط به هالة شرف الدفاع عن أرض هى أرضها وليست أرض المستعمر . وظل على إقتناعه هذا وإيمانه رغم الهجوم والتشويه لموقفه .

وتعلمت منه أيضا الوطنية الصادقة التى تعرف متى تندفع ومتى تتعقل ، ومتى تثور ومتى تهدأ ، لأنها تستهدف خدمة الوطن ، وتعلمت منه حب السياسة والصحافة ، فقد كان سياسيا من الطراز الأول ، وبرلمانياً مبرزا ، وعمل أيضا بالصحافة رئيسا لتحرير جريدة كوكب الشرق لفترة لم تطل .

ولذلك فإنى ظللت متطلعا لكى أحذو حذوه . أما الصحافة فكان حلمى ومثلى الأعلى بعد ذلك إحسان عبدالقدوس الذى استهوانى أسلوبه وجرأته وتنوع اهتماماته وأيضا رئاسته لتحرير مجلة تملكها والدته. ولم





يتحقق الحلم، وإن كنت ظللت حتى اليوم قارئا نهماً للصحف، ومحاولاً للإسهام فيها أحيانا بمقالات .

وقد بلغ ولعلى بالصحافة وأنا صغير أننى أصدرت جريدة – كنت أكتبها بخط يدى – لا أوزعها إلا على أخى وصديق لى، وشجعت أخى على أن يصدر – بمساعدة هذا الصديق – جريدة تعارض جريدتى ، ودخلنا فى معارك صحفية عنيفة فى موضوعات لا تستحق العنف ، ولكن هذا السجال كان ممتعا ولم يفسد للود قضية .

وعن السياسة ، فإن الظروف العامة فى البلاد عندما التحقت بالجامعة بعد الثورة مباشرة – لم تشجعنى على

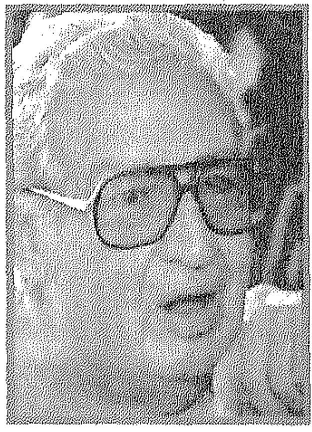
السفير أحمد ماهر وحرمه

ممارستها ، إذ أن ما رأيته منها فى الجامعة من صراعات ، ثم ما حدث من «تأميم» العمل السياسى جعلنى أشعر بأن المطلوب هو التأييد وليس المناقشة . وكنت فعلاً أؤمن بالثورة وبأهدافها النبيلة من إخراج الشعب من المأزق الذى كانت قد أوصلته إليه سياسات وزعامات بهتت وشاخت وترهل فكرها ، وعلى رأسها ملك كنت قد أحسنت الظن به فترة ، فإذا به ينقلب من أمل أمة إلى مشكلة تضاف إلى المشكلات الأخرى . وآمنت بزعامة عبدالناصر ومبادئه ، وتعرضت لذلك لانتقادات من بعض أفراد الأسرة الذين أصابهم من الثورة ما أصابهم - ودخلت فى مناقشات لم تثننى عن ثقتى بأن ماحدث فى يوليو ١٩٥٢ كان ضروريا وكان بداية لنهضة مصرية وعربية . ومازال هذا اعتقادى رغم الأخطاء والنكسات لأن إيجابيات الثورة فتحت وتفتح الطريق أمام المستقبل الذى نتمناه بينما سلبياتها - على فداحتها أحياناً - لا تسد ذلك الطريق وهى قابلة للتصحيح المستمر بالنظر إلى ما يجب أن يكون بدلا من البقاء فى آسر ماض يسبغ عليه البعض قداسة ليست له .

المهم أن مجال العمل السياسى الحقيقى لم يكن متاحاً لى فاخترت الدبلوماسية باعتبارها أيضا عملاً سياسياً ينقل ساحة الدفاع عن الشعب من المجال الداخلى إلى المجال الخارجى، ليشكل سياجاً يحمى منجزات الداخل من هجمات الخارج المناوىء ويوفر لها مساندة الخارج الصديق . وقد دخلت تلك الساحة متحمساً ومسلحاً بما اختزنته من علم حصلت عليه من الكتب التى قرأتها والقانون الذى درسته ، واللغات التى حرص الوالدين على أن أتقنها ، فقد أدخلت مدرسة فرنسية مصرية تدرس لطلابها المنهجين، وتلقيت منذ الصبا دروساً خصوصية فى القرآن واللغة العربية واللغة الانجليزية .

ولكنى فوجئت بعد دخولى السلك الدبلوماسى بفترة قليلة بنقلى إلى الخارج ثم إلغاء ذلك النقل لأسباب لم يفصح عنها أحد رغم إنى كنت أول دفعتى ، ولكنى فهمت أن السبب هو انتمائى لأسرة







التكوين

صنفها البعض فى جانب الأقطاع ، مع إننا لم نملك قيراطاً من الأرض ، وفى جانب الرجعية مع أن منها من حارب الاستعمار ودعا إلى حقوق الشعب ، ومن ساعد الثورة فى أيامها الأولى سواء فى المجال السياسى أو فى مجال الانتماء إلى الأوساط القريبة من الضباط الأحرار .. وظل الحظر على سفرى عدة سنوات رغم المساعي والجهود ، إلى أن اختار رجل فاضل لم أكن أعرفه من قبل أن أعمل معه فى إحدى القنصليات فى الخارج ، فبذل من الجهد المشكور وحارب على أعلى المستويات، إلى أن تحقق له ما أراد وأفرجت الثورة - التى كنت مؤمنا بها لغير غرض - عنى من محبسى بديوان عام وزارة الخارجية ، ثم توالت مهامى فى الخارج ، وتنقلت فى مناصب مختلفة بالسلك الدبلوماسى متجولا من بلد إلى آخر . ولكن الأهم أن الفرصة أتيحت لى لأعمال مع صفوة من الرجال تعلمت من كل منهم الكثير ، وكان أولهم السفير

السفير أحمد ماهر مع الرئيس الروسى يلتسين



محمد شكرى الذى عملت تحت رئاسته فى زيوريخ ثم فى مكتب وزير الخارجية السيد محمود رياض ، ثم السفير محمد إبراهيم كامل الذى أصبح وزيرا للخارجية ، ومن بعده السفير نجيب قدرى ثم السيد محمد حافظ إسماعيل سفيرا ووزيرا ومستشارا للرئيس لشئون الأمن القومى. وأتيح لى أن أشارك فى نشاطات ومفاوضات دبلوماسية وسياسية مهمة أستهدفت كلها الدفاع عن مصالح مصر ، وعن مصالح الأمة العربية وعن القضية الفلسطينية التى كانت المحور الأساسى للدبلوماسية المصرية . وقد أتيح لى أن أعيش محنة ١٩٦٧ فى الخارج مع كل الألم والحسرة مع التصميم على أنها ليست نهاية المطاف، ثم أراد الله أن أكون قريبا من الاعداد السياسى لحرب أكتوبر المجيدة والعمل من أجل ترجمة الانتصار العسكرى إلى عمل سياسى .

وأتوقف هنا لأتساءل هل الكثير مما ذكرته يدخل فى مجال التكوين .. أم أن التكوين يقتصر على مرحلة الطفولة والشباب المبكر .. إذ أنه إذا كان حقيقيا أن الإنسان يتعلم كل يوم ومع كل تجربة جديدة وفى أى سن الجديد إذ ظل منفتحا على العالم ومستجداته ، فإن الواقع أن كل ما يتلو الشباب هو نتاج بذور غرست فى الشخصية فى السن المبكرة تحمل معها جينات تحكم التطور .

ولذلك فإنى أتوقف هنا ولعلى قبل ذلك أن أستخلص درساً أساسياً وهو أن بناء شخصية الطفل والشاب اليافع على الحرية – حرية الفرد فى ابداء رأيه وحرية الآخرين فى ألا يقبلوا هذا الرأى ولا يقهروه ، حرية الأوطان ورفض السيطرة الأجنبية ، وعلى الشجاعة فى الرأى والفعل ، وعلى الإنفتاح على ثقافات الغير دون التضحية بالهوية أو التشبه الأعمى كالقرود بتلك الثقافات والعادات والتقاليد ، وعلى رفض الانغماس فى الماضى دون التطلع إلى المستقبل والعمل قدر الطاقة من أجل بزوغه ، كل هذه مقومات تستطيع أن تخلق المواطن الصالح الناجح .

وهو ما حاولته مؤملا أن أكون أدركت بعضه وألا أكف عن محاولة إدراك بعض آخر .

محمد حافظ إسماعيل



محمد إبراهيم كامل



أنت والهلال

الهلال عبر الأنترنت وعلى سى . دى



السيد رئيس تحرير الهلال :

قرأت مقالك فى افتتاحية هذا العدد عن أهمية وجود الهلال على الإنترنت ، لقد أصبح فى حكم المؤكد أن الاهتمام الرئيسى لرؤساء التحرير فى العالم الآن هو كيف يجذبون القراء خاصة الشباب من الإنترنت والتليفزيون إلى الكلمة المطبوعة ؟ والحل هو أن توجد الكلمة المطبوعة نفسها على الإنترنت .

والهلال وهى فى الإنترنت تصبح فى متناول أكثر من مليونى مستخدم عربى ، وسيتضاعف هذا العدد بسرعة فى منتصف عام ٢٠٠١ . وفى المستقبل القريب ستصبح تكلفة قراءة الهلال فى الإنترنت أقل كثيرا من تكلفتها فى صورتها الورقية ، فالكمبيوتر بعد خمسة أعوام من الآن سيصبح ثمنه أقل كثيرا من ثمن جهاز التليفزيون ! ورغم أن تكلفة الإنترنت فى الدول العربية عموما تبلغ الآن عشرة أضعاف مثيلتها فى دول العالم المتقدم ، لكن يتوقع مع نمو البنيات الاتصالية للدول العربية أن تنخفض تكلفة الاتصال بسرعة . ومع نمو عالمية الإنترنت بسرعة شديدة فى العالم يتوقع للهلال أن تصل إلى العرب فى كافة أنحاء العالم ، وإلى كافة الشعوب التى تقرأ العربية من غير العرب ، فهى بذلك تنفذ إلى قراء محتملين وقراء جدد تبحث عنهم دوما ، مع توفير تكاليف التوزيع والطباعة ، وتفتح أبوابا جديدة للإعلان .

د . أحمد محمد صالح

جامعة أسيوط

●● **الهلال :**

هذا دورنا فى التواصل مع كل جديد فى دنيا المعلومات وقد توافق نشر هذا الموضوع مع ما كتبه رئيس التحرير فى افتتاحية العدد «عزيزى القارىء» والطموحات التى يرجوها ، والجهود التى يبذلها لوضع كل مقالات الهلال ومادتها على «السى . دى» .

طفل الحجارة والجسارة

قلبي معه .. هذا الفتى ما أشجعه ... رضع الصلابة في الليالي المفجعة
الظلم أدمى جرحه .. القيد كبـــ ... ـــل حلمه ..والقهر يسكن مضجعه
فطعامه خبز المهانة والأسى ... وشرابه كأس المرارة مترعة
مازال في شرخ الصبا لكنه ... لم يله يوما بالنوى والقوقعة
غض الإهاب حزينة نظراته ... قصص البطولة لا تفارق مسمعه
كيف السبيل إلى الحمى وهو الذي ... ما ذاق طعماً للسكينة والدعة ؟
هيهات أن ينسى مقالة والد ... عند الفراق وفي غمار الموقعة
خذ لي بثأري يا فتى خذ صخرة ... واقذف بها كبد العدو لتصرعه
ما قد رميتم إذ رميتم لكن اللـ ... ـه رمى . قلها . فتخرق أضلعه
في بلدتي مسرى الاله بأحمد ... فوق البراق وكان جبريل معه
في القدس صلى بالكرام وأمهم ... هو خاتم . والجمع يعرف موقعه
وعدُوه رأس النفاق بيثرب ... هو نفسه في القدس عاود مطمعه
في أرض يافا والخليل وخيبر ... نفس الملامح بالرياء مقنعة
نم يا أبي . لن تستكين جوانحي ... والقدس مسلوب وأرضي موجعة
سنحيلها نارا على أعدائنا ... أعداء عيسى والأمين ومن معه

مهندس محمد محمد أبو خشبه
الادارة الزراعية بدسوق

حجارة الحرية !

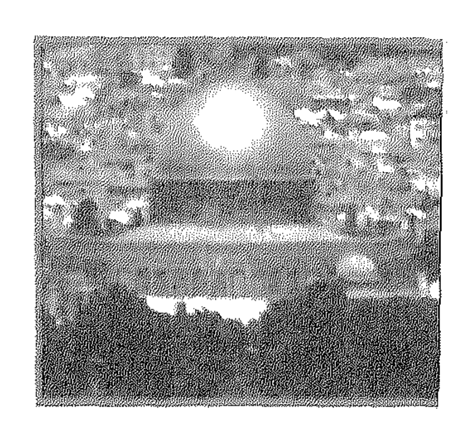
مهداة إلى أطفال الحجارة في أرض الحجارة

كلمة .. ليس أكثر من كلمة ، كلمة وحيدة
الكلمة الأولى ، والكلمة الأخيرة
قديمة قدم الأصل ، قدم الحياة ، فريدة ومجيدة
بسيطة هي بحروفها الصغيرة
كبيرة ، واسعة الآفاق ، غنية ووفيرة
بل هي أكبر من كبيرة ...
كلمة قدسية ، طاهرة منذ الخليقة نقية
كالنور ، موهوبة في كتب السماء أبدية
دائمة ، باقية بقاء الحياة ، سرمدية هي وأزلية
كلمة لا تكتب على سطح الغيوم الزائلة
لا ولا في أعماق البحار الآفلة ..
بل هي في عيني ، في قلبي ، وفي دمي ماثلة
كلمة تكبر ، تنمو ، تزداد وبنورها تسطع
توقد شعلة الأفراح والأعياد ، وبها تبرع

أنت والهلال

تنتشر ضوء الأمل وراية الثورة ترفع
كلمة بها تغنت حناجر أسلافي الراحلين
عالية ، ترددها اليوم أفواه الثوار الغاضبين
خالدة هي في ذاكرة أحفادي القادمين
كلمة عذبة ، شابة كالنهار ..
كالسهم .. تنطلق كالصاعقة .. كالنار
عنيفة صرخاتها ، قوية تطلقها شرار
كلمة تكسر الصمت العميق
تقطع الأصفاد ، تمزق الطوق الوثيق
وتفتح للخلاص ألف وألف طريق
كلمة صامدة ، قوية ، وأبية
حجارة هي نبيلة ، فلسطينية رسالتها ، عربية
كلمتي ، حجارة النصر .. حجارتي .. حجارة الحرية

فخرى المهدى - فرنسا



هل يصدق مؤرخ إسرائيلى ؟!

قرأت باهتمام شديد في عدد نوفمبر من الهلال مقال لبنى الريدى تحت عنوان : كتاب جديد : الجدار الحديدى للمؤرخ الاسرائيلى آفى شلايم ، وأهمية هذا المقال ، أو عرض الكتاب ، قد جاء متزامنا مع انتفاضة الأقصى ، وما يلاقيه الفلسطينيون من قتل بكل أنواع الأسلحة والصواريخ ، ولكن أبناء هذا الشعب صامدون حتى الآن ، برغم بحار الدم التى أريقت منذ ٢٨ سبتمبر حتى اليوم وبلا توقف ليل نهار.

والغريب أن مايحدث يراه العالم ويسمعه ، ولا يحرك ساكنا ، خاصة وأن الصلف الاسرائيلى يحول دون التوصل لوقف نزيف الدم الفلسطينى ومسلسل القتل المستمر .

إن مؤرخى اسرائيل يتشدقون بالموضوعية وهى منهم براء ، ومن خلال عرض لبنى الريدى لم أستشف ما ينم على أنه كتاب يخضع لقواعد التأليف المعروفة بطريقة علمية أكاديمية ، وقد وصفت لبنى الريدى شلايم بأنه مؤرخ موضوعى من مؤرخى إسرائيل الجدد .

ومن نافلة القول أن الكاتبة غاب عنها أنه مؤرخ صهيونى لم يكشف النقاب عن أسرار وطنه . بزعم أنه استعان بالوثائق

الرسمية التى أفرج عنها مؤخرا ، واللافت للنظر أن المؤلف لم يأت بجديد ! .

د . صموئيل لبيب
المنيا

●● الهلال :

الكتاب الذى قدمته الأستاذة لبنى الريدى يزيد عدد صفحاته على ألف صفحة ، وبالطبع يضم الوثائق والأسانيد ، والكاتبة أشارت فى مقالها إلى مؤرخ يحاول أن يقترب من الحقيقة ، وعليك أن تبحث عن الكتاب وتقرؤه لتحكم بنفسك .

قدساه

بكيت هنا وما نفع البكاء
وما فاد التحسر والرجاء
وما نفع السلام بكل أرض
آهات لا يجاب لها نداء
وهذا الدمع تنزفه العيون
أرادوا دين طه بالبلاء
أرادوا سحق من دان بدين
وهذا الدين فى قمم العلاء
ولم يخشوا عتابا أو ملاماً
وما طلبوا لهم إلا الفناء
وكل الناس فى الطرقات تبكى
من الظلم الذى عم الخلاء
وما خاف العدو من الإله
وما استحيا وما طلب البقاء
ولكن الإله وقد وعدنا
بأن النصر دوما للنقاءْ
فلا مدفع يروع قلب مسلم
ولا ذئب يروع أتقياء
إذا مات صلاح الدين فينا
فألف صلاح تنجبه النساء

أحمد نادى بهلول - المندرة بحرى - أسيوط

أنت والهلال

همهمات .. فى أذن النخيل



بشراكمو .. حراس روض خمائل
فالنيل فى وديانكم يتفجر
عذب سليل المجد فاح حياؤه
من كل فج فى الروابى يقطر
فبكفه الأغصان أضحت سندسا
تكسو الضفاف ، والشذى تتعطر
وكأنه الشوق الدفوق غشى الظما
فيهيم فى البيداء إذ يتبختر
ويهدهد الفرس الحرون على الثرى ،
ينساب نوراً فى الدياجى ، ينثر
فرحا ينام على الجسور متيما ،
ويراقب الفجر الضحوك ويبصر
فالمزن عزّته الجداول يقتفى
ظل المروج مداعبا إذ يمطر
تشتاقه أغوار دفء الملتقى
ما للمسافر بالسنا يتعثر
(هاميس) فى ثوب الزفاف تزفه
ولعرسها الجدب انبرى يتحسر
هذى حضارات العوالم كلها
جاءت تقر بفيض حسن ، يسحر

عبد الناصر أحمد الجوهرى - نادى أدب المنصورة

استخدام التكنولوجيا وجودة الانتاج

تصادف أن قرأت فى إحدى الصحف اليومية رأيا للمفتى يشير فيه إلى أن استيراد أى سلعة يوجد لها بديل فى مصانعنا وأسواقنا العربية والإسلامية وليس من أمريكا واسرائيل فقط ، يشكل نوعا من المعصية ، فالأيدى العاملة العربية والمسلمة أولى بالعمل والتجارة بين دولنا أحق بالشراء والبيع .

وقرأت أيضا فى عدد الهلال لشهر ديسمبر ٢٠٠٠ رسالة الدكتورة سونيا محمد على فى باب «أنت والهلال» ما تناوله د . أحمد مستجير فى مقاله «بذور شيطانية» المنشور فى عدد نوفمبر

بالهلال وما أشار اليه من استعمار جديد للإنسان عن طريق الغذاء.
ويعد قراءتي أعرض الآتي :

* حتى لا يجرفنا تيار العولمة ، فإنه فرض عين علينا العناية بانتاجنا المحلى واستخدام التكنولوجيا الجديدة التى تساعدنا على المنافسة للإنتاج العالمى .

* الاهتمام بالتجارة البينية بين الدول العربية ، والتى نأمل أن تتحول قريبا إلى تجارة شاملة مع الدول العربية وقيام السوق العربية المشتركة ويتلوها قيام السوق الإسلامية المشتركة .

* ضرورة إعادة النظر فى الاهتمام بالسوق الافريقية والتى تقبل على الانتاج المصرى ، فذلك يدعم قوتنا الاقتصادية ويساعدنا على أن نكون قوة اقتصادية كبرى لا يستطيع غول العولمة أن يلتهمنا ولا يتم ذلك سوى بالإرادة الحديدية

حسين منتصر - فارسكور

إلى الأصدقاء تحية واجبة

وصلتنا رسالة رقيقة من الكاتب مراد صبحى متى ، ومعها نسخة من كتابه الثانى «رحلة الأيام» الصادر عن مديرية الثقافة بالبحيرة فى يوليو ٢٠٠٠ ، ومن بين قصصه ، قصتان كانتا قد نشرتا بمجلة الزهور ، وهى ملحق للهلال صدر لفترة فى السبعينيات وتوقف عن الصدور .

وتهنئة لمراد صبحى متى بهذا العمل الأدبى ، متمنين أن يواصل عمله الدءوب لنشر إنتاجه القصصى ، وخصوصا بعد أن عوفى تماما من عملية جراحية فى عينيه .

وعرض من أديب سودانى

وحفل بريد الهلال برسالة من الأديب السودانى محمد هارون عمر يعرض فيها طبع بعض رواياته ضمن إصدارات روايات الهلال، خاصة بعد قراءته لرواية المبدع ابراهيم عبد المجيد «طيور العنبر» والمنشورة فى روايات الهلال ، وقد أرسل لنا الأديب السودانى روايته «المحفل السندسى» والتى قام بطبعها فى اليمن ، ولكى تكون نموذجا لأعماله .

ويتم دراسة عرض الأديب السودانى وقراءة روايته

أنت والهلال

فلسطين الجريحة

ومن بسكره بالجزائر أرسل إلينا عبد السلام خير الدينى قصيدة بعنوان «فلسطين الجريحة» ، تحتاج أبياتها إلى عناية شديدة فى الوزن ، والاهتمام ببحور الشعر العربى ، ومن أبياتها يقول :

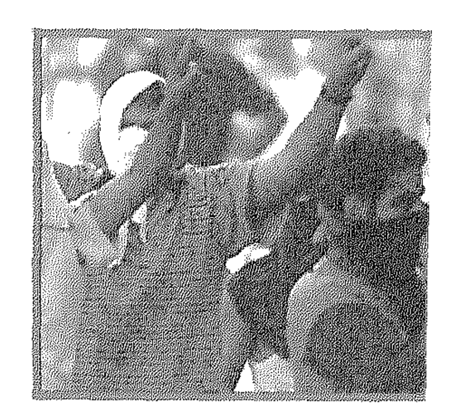
سلام على القدس أرض السلام ... ومهد الديانات أرض الأخوة

سيأتيك يوم يعم السرور ... ديار المسيح ومهد النبوة

بنوا العرب هبوا فما هذا السبات ... فأين الجهاد وأين الرجولة

شبابكم قد أحب المنون ... وسجل فى صفحات البطولة

فمن مات كان شهيدا عزيزا ... تحلى بتلك الحلى السندسية



مناجاة الشابى

وكتب إلينا سالم الزريبى من تونس أبياتا يناجى بها الشاعر التونسى الكبير أبى القاسم الشابى ، وهو يقف على ضريحه بمدينة توزر التونسية يقول فى مناجاته :

أناجى الطود والطود عنيد

أم أناجى الروح ، والروح قصيد

أنا من أناجيه تربع فوق عرش لا يبيد

فوق هامات الوجود ، ملأ الدنيا نشيد

★★★

كم صرخت فى النيام صرخة الدهر المديد

لتعيد للروابى طيرها الشادى الغريد

لتعيد الوعى فينا كلما غم الجليد

يا محرك السواكن صوتك فينا يعيد

فإذا الشعب أراد، نال حتما ما يريد .

تكريم مناضلة فلسطينية

وفى بيان صحفى وصل إلى الهلال من مؤسسة ابن رشد فى ألمانيا تفيد بأن المناضلة الفلسطينية السيدة عصام عبد الهادى والتى تميزت بقدر كبير فى الكفاح من أجل حقوق المرأة فى العالم العربى ، قد حصلت على جائزة ابن رشد خلال شهر ديسمبر الماضى» ٢٠٠٠ .

وتمثل المرأة الفلسطينية حالة خاصة متميزة فى العالم بوجه عام ، وفى المجتمع العربى بوجه خاص ، فهى التى حافظت على البناء الثقافى والاجتماعى لمجتمعها ، وهى التى قاتلت فى كافة المعارك الوطنية ، وفرضت وجودها وتنظيماتها على الحركة الفلسطينية ، وقد جعلت نضالها من أجل تحقيق ذاتها مرتبطا ارتباطا وثيقا بنضالها من أجل تحرير الوطن ، وهى من مواليد مدينة نابلس عام ١٩٢٨ .

قوانين الأحوال الشخصية

قارىء لم يفصح عن اسمه حين كتبه بالأحرف (ق . م .أ) من الزقازيق يطالب بمراجعة قانون «الخلع» ويتناول قضايا ومشكلات واجهته وهو يعمل بإحدى الدول الخليجية مؤكدا ضرورة أن تصحب الزوجة زوجها فى أسفاره حفاظا عليه وعليها ، كما يطالب بمراجعة القانون الذى يبيح للزوجة السفر بدون إذن زوجها ، وعلى الرغم من أن هذه الرسالة ليس مكانها النشر فى أنت والهلال لتناولها موضوعات شتى إلا أنه من الضرورى توضيح هذه القوانين وتبسيط شرحها حتى يفهمها الجميع ولا يحدث نوع من البلبلة وشعور البعض بأنها تخالف الشريعة الإسلامية .

* * *

** وإلى الصديق عبد الناصر محمد اسماعيل : قصيدتك التى أرسلتها بعنوان «القوس تنادى ليس بها بيت شعر واحد يصلح ، وهى هنا كما ذكرت ليست بقصيدة ، ولا نثر» .

** أحمد رشاد حسانين من بورسعيد .. مساهمتك «أزيز الحجر» تحتاج إلى ضبط فى الوزن ، وينبغى أن تقرأ الشعر كثيرا ، فالشعر فن له أصوله ، والموهبة أو الرغبة فى الكتابة ، ليست كافية .

** عصام الزهيرى – الفيوم .. قصتك شيخ البلد ، محاولة جيدة نرجو أن تواصل الكتابة .

الكلمة الأخيرة

لو لم نكن عرباً



بقلم : مريد البرغوثي

نعم .نحن الفلسطينيين، لو لم نكن عرباً لاندثرنا أو لماتت قضيتنا. لو كنا مجرد شعب معزول في لغة تخصنا ولا يتحدثها سوانا، ولنا تاريخ لا يشترك معنا فيه أحد غيرنا، ونواجه أخطارا لا يشعر بها إلا نحن، وعدوا لا يواجهه معنا كثيرون من أهلنا العرب، ومستقبلا يمسنا ولا يمسهم، فإن إسرائيل لم تكن لتتورع عن المضي في حرب الإبادة ضدنا إلى مداها النهائي لتطوى صفحة صراعنا معها إلى الأبد.

إن الذى صان القضية الفلسطينية من النسيان التاريخي والذى صاننا من الانقراض هو بلا شك الكفاح الفلسطيني الممتد منذ بدايات القرن الماضى والذى مازال مستمراً ، لكن لولا عمقنا العربي ووجودنا في وطن كبير نتبادل معه المسرات والأحزان ونشاركه الدين والثقافة العربية الاسلامية واللغة والأخطار والمصالح والمصير لما حسب عدونا التاريخى ألف حساب قبل أن يحول أمنياته بالتخلص منا إلى واقع .

إن الإنكار العنصرى الذى اطمأنت له جولدا مائير عندما صاحت ذات يوم : «لا يوجد شئ اسمه الشعب الفلسطيني، أين هو الشعب الفلسطيني»؟ وأضافت له «بأمومتها» التى لا مثيل لها حتى فى مملكة الجماد لا الحيوان وحده: «فى الليلة التى أتخيل فيها أن طفلا فلسطينيا قد ولد لا أستطيع أن أنام» . هو إشارة واضحة من بين إشارات كثيرة إلى توفر استعداد إجرامى كامن ومعلن عند اسرائيل لرمينا جميعاً فى البحر أو القبر أو الصحراء إذا استطاعت. وهي لم تستطع لأن الشعب الفلسطينى قاومها بكل ما أوتى من قوة أولا وأساساً، ولأن امتدادنا العربى، ثانياً، جعلنا شعبا أكبر من أن يكسره موشيه دايان كبيضة فى يده كما قال، ولأن الوقوف إلى جانبنا ومؤازرتنا والاشتراك معنا فى المقاومة كان جزءا من السعى العربى للتحرر وعنوانا على شرف هذا المسعى بل وجزءا من المصير العربى ذاته.

يجب أن يعرف كل مواطن عربى وكل مواطنة عربية أن صوته وصوتها إلى جانبنا ثمين إلى هذا الحد، بل وأكثر :

الفلسطينيون (لكى يتحرروا) بحاجة لمناصرة الأمة العربية.

والأمة العربية (لكى تتحرر) بحاجة لمناصرة الفلسطينيين .

والمهم ألا تكون هذه المناصرة موسمية تصعد وتخبو حسب عدد مقابرنا.

الهلال

فبراير ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات

اليهود فى روسيا

المشهد الثقافى فى تونس

المكان فى الرواية

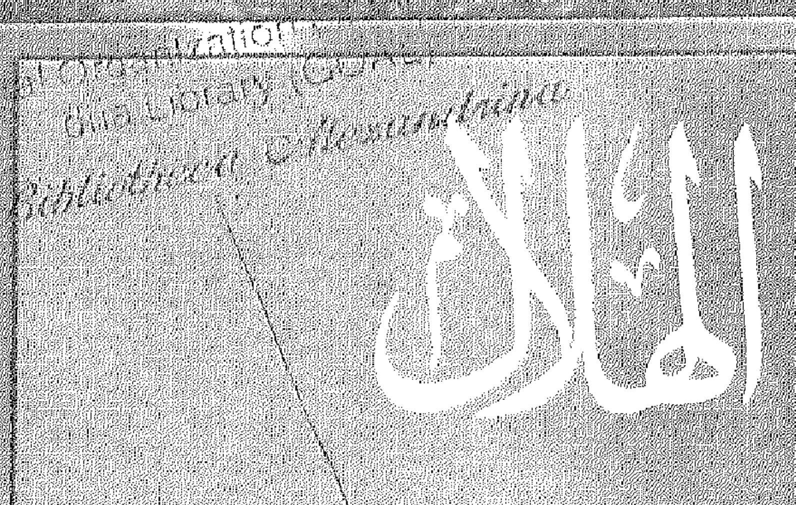
المعرفة فى عصر المعلومات

لوحة وفنان



محور كوبري الجلاء للفنان محمد ناجي

هذه اللوحة احدى روائع الفنان وصور فيها حركة الحياة: الأمواج والأشرعة والنخيل. وهى حـركـة مكونة بحـيـوية الألوان .



الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

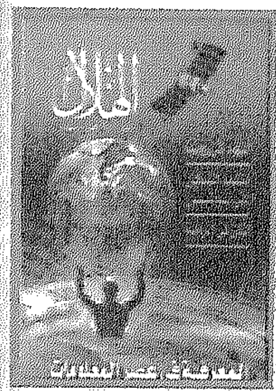
محمود الشيخ المدير الفني

سيد عبد المالك سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.





الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
فبراير ٢٠٠١م / ذو القعدة ١٤٢١هـ

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

يصادف هذا الشهر ميلاد الدكتور حامد عمار شيخ التربويين العرب، حيث يبلغ الثمانين من عمره المديد، فهو من مواليد ٢٥ فبراير ١٩٢١ كما شهد شهر يناير الماضى الاحتفال بتكريم عالمنا التربوى الكبير بحصوله على الجائزة العربية التقديرية للتربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. والتى حصل عليها أيضا الدكتور محمد جواد رضا من مواليد العراق عام ١٩٣١.

وحضر حفل التكريم صفوة من كبار المثقفين والوزراء والأستاذ محمد الميلى المدير العام للمنظمة، حيث أشادوا بالدور المهم الذى لعبه حامد عمار في مجال التربية والعلوم الاجتماعية بشكل خاص، وفى جهوده فى البحث وفى بناء الانسان العربى، والتنمية البشرية فى الوطن العربى. والاشتراك فى اعداد مشروع الميثاق العربى للتنمية الاجتماعية الشاملة، واعداد استراتيجية الطفولة والأمومة فى مصر، فضلا عن دوره فى اعداد جيل يتحمل مسئوليته فى مجال التربية غرس فيه الجرأة والشجاعة فى البحث والتقييم بكل الحيدة والشجاعة . والفكرة النقدية عند الدكتور حامد عمار، تمثل محورا فى فكره، ونستطيع أن نرصدها فى كتابه «التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية «سلوا» والذى ظهر باللغة الانجليزية عام ١٩٥٤، وترجم الى العربية عام ١٩٨٦ .

وكانت النقلة الثانية فى كتابه «فى بناء البشر» وفى هذا الكتاب نادى بأن تكون وظيفة التربية هي بناء الشخصية المنتجة الملتزمة بقضايا الوطن، القادرة على ممارسة التفكير النقدى، إلا أن هذه الشخصية المنتجة عنده ليست مسئولية النظام التعليمى فحسب، بل هى مسئولية المجتمع، فلا يمكن أن ينتج النظام التعليمى هذه الشخصية الا فى اطار حركة تنمية شاملة.

وقد انحاز حامد عمار الى الانسان، وتنمية الوطن وهموم الكادحين والبسطاء من أبناء الوطن، ليس لأنها قضايا عدل اجتماعى فحسب، بل لأنها قضايا نهضة أمة وعزة وطن.

.. هناك قضايا كثيرة توقف عندها من بينها : مجانية التعليم وعدم المساس بها، القضاء على الأمية، العدل الاجتماعى والمساواة، تنمية تكنولوجيا المعلومات فى التعليم الجامعى وقبل الجامعى، وفى اطار هذه

الدكتور حامد عمار.. شيخ المربين

القضايا وغيرها كتب حامد عمار من منطلق تلبيته لنداء الوطن والالتزام بقضاياه .

ونجده فى حفل تكريمه يقول : «وأيا ما كان ، أجدنى غير مبالغ أو متزايد أن أشعر بأن لهذه الجائزة مذاقا متفردا واعتزازا خاصا لما تحمله من معان لبعدها القومى العربى.. شعورى بالفرح والبهجة الصادقة يتملك شيخا على أعتاب الثمانين، هو شعور غامر، شأنه كشأن فرحي ونشوتي وأنا استقبل الهدايا والجوائز ، وأنا فى ريعان الصبا ومطلع الشباب .

.. وقد دعانى هذا الشعور أن اسائل نفسي.. هل تعيد الأيام دورتها فى هذا المكان؟.. وهل تمتزج أحوال الشباب بأحوال الشيوخ مع هذه اللحظة من الزمان؟... وهل تتجدد من هنا آفاق الحياة والحيوية للوعى والوجدان؟.. أتساءل .. من يدرى لعل وعسى»..

وجاءت كلمات د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم فى الحفل معبرة عن كل من شهد تكريم د. حامد عمار وهو يقول : «إن السنين قد عجزت عن أن تلين لحامد عمارة قناة، ولم يتخل عن مبادئه. ولم يغير جلده، ولم ينفصل عن أصوله وجذوره، فقد ظل متمسكا بالحفاظ على المبادىء والقيم .. وشباب حامد عمار أفلح فيما أخفقت فيه السنون، فأعطته قدرة كبيرة على استخدام الأفكار الجيدة، وعلى تقبل النظريات الحديثة، وظل نموذجا فريدا، شيخا يخرج من السنين، وشابا فى مقتبل عمره، فى دأبه الشديد فى العمل، وفى اخلاصه وحماسه فى الدفاع عن مبادئه وفى تقبله للفكر الجديد.

إن حامد عمار قيمة تربوية كبيرة، ليس فى مصر، وإنما فى الوطن العربى كله، وفى الأوساط العلمية والتربوية على مستوى العالم.

وتهنئتان من «الهلال» الى شيخ المربين والذى تعتز به واحدا من أبرز كتابها.

الأولى : فوزه بالجائزة .

والثانية بلوغه سن الثمانين فى الخامس والعشرين من هذا الشهر متمنين له مزيدا من الابداع والعمل الدعوب فى العمل التربوى والاجتماعى خدمة لوطنه مصر.. وللأمة العربية وطنه الكبير.

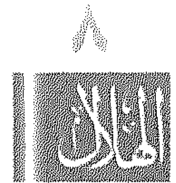
المحرر

المعرفة في عصر المعلومات

بقلم

د. أحمد محمد صالح

كان محور تقرير التنمية الصادر من البنك الدولى (WDR) عام ١٩٩٨ ، هو «المعرفة للتنمية» ونشر البنك هذا التقرير لتشجيع مناقشة أعرض حول دور المعرفة فى التقدم والتنمية الاجتماعية والاقتصادية . وناقش التقرير كيفية مواجهة فجوات المعرفة ومشاكل المعلومات،ومدى الإحاطة بهذه القضايا الحرجة فى الدول النامية ومستقبلها . وكانت الكلمات الافتتاحية للتقرير هى : «المعرفة مثل الضوء» نعم هى كالضوء، ولكن يمكن أن يساء تفسيرها ، وتحرف ويتلاعب بها، وتشوه ، ويتم استغلالها والسيطرة عليها ، فالمعرفة دائما ناقصة وغيركاملة .



وركـز التـقـرير على التناقض ، بين المعرفة كسلعة – والمعرفة كسياسة ، حيث لايمكن فصل معرفة مضمون المعلومات عن أسئلة مثل من ينتجها ويتحكم فيها ؟ من يقرر أى المعرفة صحيحة أو خطأ ، مفيدة أو غير مفيدة ؟ ومن يملك الارادة والقدرة لتفعيل المعرفة ؟ فالمعرفة فقط تكون مفيدة ، إذا توفرت القدرة والإرادة على استعمالها ! وهذا يتأثر بالعوامل الثقافية والسياسية والاقتصادية، والعوامل الأخرى التى تجاهلها التقرير .

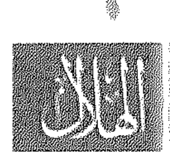
بين المعرفة والمعلومات

والمعرفة ليست مثل المعلومات ، فهي الدلالات والمعانى التى يتحصل عليها الناس من المعلومات . وإذا قرأت هذه المقالة ولم تستخلص منها شيئا مفيدا ، عندها تصبح هذه المقالة بالنسبة لك عبارة عن بيانات data من الأحرف والكلمات والأرقام متلاصقة بجوار بعضها البعض لا تقدم لك أى معلومات infor-mation فالبيانات مطلقة ، والمعلومات نسبية ، فهناك قارىء آخر سوف يستخلص معلومات مهمة من هذه المقالة ، ولكن تبقى قيمة المعلومات محدودة، ما لم توضع فى مكانها الملائم فى قاعدة المعرفة knowledge لدى قارئها . فإذا وصلتك معلومات تشير إلى فشل الأحزاب المصرية فى الانتخابات الأخيرة ، ولم تربط ذلك بمعلومات أخرى عن الحالة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية للمجتمع المصرى وأحوال الاحزاب الداخلية ، فلن تشكل المعلومة الجديدة اضافة إلى قاعدة معرفتك للواقع القائم . فالمعلومات هى الحقائق التى نستخلصها من البيانات ، والمعرفة نبنيها على ترابط المعلومات المختلفة في بنية منطقية متماسكة . الكلمات السابقة تعكس بالضبط فلسفة الإنترنت ، فهى تقدم لنا كماً هائلاً من البيانات ، التى يمكن أن نستخلص منها الكثير من المعلومات ، التى يمكن ربطها مع بعض لتشكل البنية المعرفية .والمعرفة تنشط ببصيرة وخبرة وقدرة مالكها . ويحتاج الناس أن يكونوا قادرين على صنع دلالات معلوماتهم لترجمتها وتقييمها، لبلوغ أهدافهم ، واتخاذ قراراتهم الحياتية .

سمسار المعرفة

والبنك الدولى قد رسم دوره بلا تفاصيل فى نمو المعرفة ، واعتبر نفسه وسيطاً أو سمساراً أميناً يأخذ المعرفة من فضاء المعلومات ، وتسليمها الى من يحتاجها . لكن الخزان الشاسع للمعرفة الذى يملكه البنك ، يمثل بصفة عامة فهمه الخاص للقضايا المختلفة ، وهذا الفهم غالبا غير موضوعى ، فهى تعكس خبرات وقيم البنك ورجاله ، وليست بالضرورة تصلح للدول النامية ، ومهما كانت أهمية دور سمسار المعرفة ، فان التحديات ليست فقط إيجاد طرق لاستعمال المعرفة فى الدول النامية ، لكن للمساعدة فى خلق الشروط اللازمة لكي يكون الناس فى تلك الدول مطلعين ومشاركين في القرارات التى تؤثر عليهم .

وإذا كانت عوامل الإنتاج الرئيسية



المعرفة

في عصر المعلومات

هي رأسمال، والأرض ، والعمل - فقد انضم لها عامل رابع هو المعرفة فعمالة المعلومات ، وفرص العمل التى تعتمد على المعلومات ، هى مناطق النمو الكبيرة للمستقبل ، وعمالة المعرفة knowledge worker، هم المهنيون المحترفون الذين يعتمدون على مهاراتهم وقدراتهم في البحث وإيجاد المعلومات ، ومعالجتها وتركيبها ، وممارسة مهارات الاتصال لتوصيلها ، وتطبيقها ، فهى عمالة عصر المعلومات والقرن الحادى والعشرين . ففى السنوات العشر القادمة ستكون المهارات المعلوماتية هى المحك الأساسى فى النجاح أو الفشل .

ونقص المعلومات (أو فقر المعلومات) قد يعتقد انه مشكلة تشبه بالضبط مشكلة نقص رأس المال أو العمل أو الأرض . لكنها فى الحقيقة ليست نفس الشيء ، فهناك ضرورات اجتماعية يحتاج أن يجاب عنها في مجتمع المعلومات :" هل المعلومات سلعة مجانية ؟ (كما قال مهنيو الكمبيوتر عام ١٩٨١ من منطلق مسئوليهم الاجتماعية) إن جسم المعرفة البشرية كنز اجتماعى ، تجمع جماعياً خلال التاريخ، ولا يخص شخصا واحدا أو الشركة أو بلدا معينا ، ويجب أن يكون هذا الكنز العام متاحا الوصول إليه للجميع ، فهو ثروة البشرية كلها .

«إذا كانت الإجابة بنعم ، المعلومات سلعة مجانية ! فما مسئوليات مزودى مداخل الوصول للمعلومات ؟ وكيف سيتم تمويل تلك المداخل ؟ وهل الإنترنت هى أوتوستراد عام أو طريق خاص ؟ وكيف يتاح للجميع الوصول للمعلومات ، وفى نفس الوقت يتحقق العدل في هذا الوصول؟ وحينما تزود الناس بالمعلومات على الأساس التجارى ، فمن الذى يحدد الخط الفاصل بين المعلومات كسلعة مجانية ، والمعلومات كملكية تجارية ؟ ما الضمانات عند خصخصة المعلومات لحماية الملكية الفكرية ؟ وكل هذه القضايا يتم تجاهلها في طريقة السياسة المجزأة عند تناول هذا الموضوع .

الفجوة المعلوماتية بين الدول

وقد درست بعض القضايا المتعة المتعلقة بثورة المعلومات الحديثة ، وعلاقتها بوسائل الإعلام العام وزعمت تلك الدراسات أن الشخص الفقير معلوماتيا ، هوالذى يوجد فى مكان لا يتاح له فيه استخدام الإنترنت . ويعانى من نقص فى المعدات والتدريب ومصادر المعلومات التى سوف يعتمد عليها اعتماداً متزايداً فى تحسين حياته . وسوف تفتقد حياة هذا الشخص الكثير ، ليس فقط كمستهلك أو مشاهد للتليفزيون ، لكن كمواطن وعضو في ثقافة . «ويدخل أيضا فى تلك الشريحة الفقيرة معلوماتيا هؤلاء الذين تعدوا سن

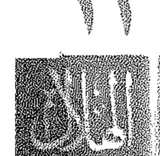


الـ ٥٥ ولا يملكون فرصة تنمية مهارات التعامل مع تكنولوجيا المعلومات ، وأيضا شريحة السكان المحرومة من ملكية التليفون أو جهاز راديو ، خاصة سكان المناطق الريفية ، وحكومات كثيرة الآن في الدول الصناعية ، تنوي وتسعى إلى مد خدمات تكنولوجيا المعلومات إلى العاطلين وأصحاب الدخول المنخفضة . وفي محاولة لبعض الدول مثل استراليا لتوصيل تكنولوجيا المعلومات إلى المحرومين ، انتشرت دعوى تدعو وتشجع الهيئات الكبيرة مثل البنوك والشركات ، للتبرع بكمبيوتراتهم المتقادمة والمعدات الإلكترونية المستعملة إلى جمعيات أهلية ، تكون مهمتها تدريب الناس الذين لا تتوافر لديهم إمكانيات أو فرصة لاستعمال كمبيوتر ، وذلك من خلال متطوعين . واعترفت الأمم المتحدة في تقاريرها بأن هناك خللاً عميقاً في توزيع الموارد والفرص بين الشمال الغني والجنوب الفقير في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ، وأن الفجوة في تكنولوجيا المعلومات بين الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية آخذة في الاتساع ، وأن الدول النامية في حاجة إلى بنية تحتية اتصالية ، وتدريب كوادرها ، ودعت جميع منظماتها لمساعدة الدول النامية لكي تخرج من هذا الواقع المفزع .

عمالة المعرفة

وفي رؤية تنبئوية للأستاذ Ian Angell من مدرسة لندن لعلم الاقتصاد . يقول إن الصفوة في مجتمع المعلومات سوف تشكل تقريبا ١٠٪ من سكان العالم ، وهم أغنياء المعلومات ، وباقي العالم (٩٠٪) يعتبر فقيرا معلوماتيا ، حيث تتدنى أجورهم إلى مستويات العالم الثالث . وعندما أصبحت الثروة والوفرة أكثر اعتمادا على عمال المعرفة ، توافرت فرص كبيرة لهم لأن يهاجروا حيثما يريدون . فمثلا مبرمجو لغة الكوبول cobol راتبهم في المكسيك ١٢ ألف دولار في السنة يزيد حوالي ٤٠٠٪ إذا هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعملوا فيها ، المبرمجون البرازيليون أجرهم ١٢٠ ألف دولار في السنة،ومطلوبون جدا وبشكل واسع في البرتغال ، المبرمجون الكنديون أجورهم حوالي ٢٥ ألف دولار في السنة ترتفع بنسبة ١٠٠٪ أو ٢٠٠٪ إذا هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا العظمى . وتبين الاحصاءات في تقرير الجمعية الأمريكية لتكنولوجيا المعلومات (ITAA) أن في عام ٩٨ كان في الولايات المتحدة الأمريكية ٣٤٦ ألف وظيفة خالية مرتبطة بتكنولوجيا المعلومات، وأن الطلب على العمالة المدربة في هذا المجال يزداد كل عام بـ ٩٥ ألف وظيفة ، وحتى عام ٢٠٠٥ سيتولد طلب في قطاع الأعمال الأمريكي لأكثر من ١.٣ مليون محترف ومهني في مجال تكنولوجيا المعلومات .

وتذكر تقارير التعليم الأمريكي أن أعداد المتخرجين في درجة البكالوريوس في علوم الكمبيوتر انخفض أكثر من ٤٠٪ بين عام ١٩٨٦ وعام ١٩٩٤ ، وهي



المعرفة في عصر المعلومات

مؤشرات تبرر حاجة الولايات المتحدة الشديدة لجذب تلك العمالة ذات الخبرات الفنية في مجال تكنولوجيات المعلومات .

والآن نأتى إلى الجزء المخيف حقا فى المشكلة ، فملامح الفجوة السابقة فى العماله الفنية فى مجال تكنولوجيا المعلومات سوف نكلف قطاع الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية ٥٠٠ بليون دولار فى السنة كدخل مفقود ، وستكلفه ١٠ بلايين دولار سنويا كدخل عمل مفقود ، و١٥ بليون دولار كل سنة يفقد فى التعويضات هذا ما قاله هوارد روبن Howard Rubin مستشار ورئيس قسم علوم الكمبيوتر فى كلية Hunter فكل دولار ينفق فى رواتب عمالة أنظمة المعلومات في شركات الأعمال يتوقع أن يولد ٤٣ دولاراً كدخل ، ونحت تلك الفرضية فان أى شركة تخسر ٢.٤ مليون دولار كل سنة عن كل محترف وفنى فى تكنولوجيا المعلومات لاتستطيع توظيفه أو تأجيره أو استخدامه . فلا ننعجب من أن الكثير من ممثلى الحكومات وشركات صناعات تكنولوجيا المعلومات تجرى وتتسابق الآن لجذب العمالة الفنية المدربة فى هذا المجال ، ولا يتوفر لدى أى معلومات عن خسارة مصر فى هدا المجال بهجرة المبرمجين المصريين للخارج ، لكن المؤشرات السابقة توحي بخسائر فادحة ، لأن مصر أمامها فرصة ذهبية تأتي من محاولة التدخل بكوادرها وعمالتها الرخيصة كي تخلق فرص عمل جديدة للمبرمجين والشركات سواء في مصر أو في العالم العربي ، وحماية تلك العمالة من إغراءات الهجرة والعمل للشركات الأجنبية، خاصة أن العمالة أو الخبرة المصرية في هذا المجال تعتبر رخيصة مقارنة بالعمالة العالمية التى يصل أجر المبرمج فيها إلى ٥٠ دولاراً فى الساعة ، ويتضاعف هذا المبلغ عشرات المرات فى أمريكا وبريطانبا وكندا .

وفي كتاب دومبنكوى بلاك Domin-ijue Black وعنوانه «نخبة نكنولوجيا المعلومات» يذكر أن المحدد الاستراتيجي الآن أصبح مهارات العامل نفسه ، فهى تساهم وحدها بـ ٢٠ مليون دولار فى السنة الواحدة فى صافى فيمة أى شركة أعمال ، لذلك من الطبيعى أن نتوقع ارتفاع قيمة هؤلاء المبرمجين ، وأن ما يحدث لقوة العمالة فى مجال نكنولوجيا المعلومات من محاولات استقطاب لها فى الدول المتقدمة هو نفس ما سيحدث فى الاقتصاد العالمى فى الـ ١٠ سنوات القادمة على الأقل .

العلماء والبحاث

والآن دعونا نركز على فئة أساسية في عمالة المعرفة وهم العلماء والبحاث ، خاصة فى الدول الناميه ، فأحد وعود ثورة المعلومات أنها سوف نعطى الفرص

المتزايدة والمتساوية لكل الناس لتقاسم المعرفة . لكن ماذا يحدث إذا كنت لا تعيش فى بلد متقدم ؟! إن النقص الحالى فى فرص الوصول إلى الإنترنت بين العلماء والبحاث فى العالم النامى ، ينشىء شكلا جديدا من الفقر وهو فقد القدرات والمهارات والوسائل والنظم والأدوات التى تستخدم فى جمع وتحليل ومعالجة وصياغة وتداول المعلومات وكيفية توظيفها لخدمة الأهداف التنموية، وبالتالى يجعل من الصعب على هؤلاء العلماء أن يتابعوا ويكونوا على صف واحد مع زملائهم فى العالم المتقدم. فالعلماء والبحاث فى الدول النامية موقعهم هامشى على أطراف العلم العالمى ، ولا تلاحظ أعمالهم ، ولا تلفت اهتمام أحد .

والعالم والباحث فى الدول النامية والذى يعمل فى ظروف ، وشروط مناوئة يحتاج إلى أن ينجز الكثير ليكتسب ويفوز بالتقدير بالمقارنة بأولئك الذين يعملون تحت شروط أفضل كثيراً فى البلاد المتقدمة ، ربما هذا ليس مفاجأة ! لكن برغم كل شىء، نحن نعيش فى عالم غير متساو .

فمحررو العلوم فى الصحف والمجلات الدولية عندما يختارون مخطوطات علمية للنشر وأمامهم مخطوطان فى نفس الجودة العلمية، واحد من جامعة هارفارد Harvard والثانى من جامعة حيدر آباد Hyderabad ، طبعا يختارون مخطوطة هارفارد ؛ لأن هارفارد تعتبر بالنسبة، لهم فى أى يوم رهان آمن من حيدر آباد؛ وتميل التكنولوجيا إلى أن تستثير هذا التفاوت وتجعله يتفاقم، وتزيد من تهميش علماء الدول النامية . وقد أظهر التاريخ أن التكنولوجيا تعمق التفاوتات الحالية بصورة متكررة ، ففى دول نامية كالهند وباكستان ومصر يوجد فيها علماء أكفاء ، يملكون فرصا ضئيلة للغاية لنشر أعمالهم فى الدوريات العلمية، بل إن تلك الدوريات تصلهم متأخرة عدة شهور ، وفى مصر تصل الدوريات العلمية متأخرة بسنة أو أكثر بالمقارنة بزملائهم الأوربيين ، علاوة على الاتجاه المتزايد فى ارتفاع تكاليف النشر والاشتراك فى تلك الدوريات .

أفريقيا معلوماتيا

الوضع فى أفريقيا أسوأ ، حتى أن أستاذا جامعيا نيجيريا قال ذات مرة فى مؤتمر صحفى : «عندما يسمى البعض منا بالعلماء نضحك على أنفسنا كثيرا . لأننا نعرف أننا لانقدر أن نقدم اسهامات حقيقية إلى العلم . ولا أعرف زملاء لى فى كينيا أو حتى فى لندن قد فعلوا ، وعلى سبيل المثال لا أستطيع أن أنفذ تجربة ، وأعتقد أننى على الطريق إلى إسهام أصيل فى العلم . وإذا كنت أعطى وأدرس أجيالا من الطلاب نفس المسودات الدراسية للسنوات العشر الأخيرة ، أظن بعد ذلك لايجب أن أسمى نفسى عالما» . وأزعم أن ما ذكره هذا الأستاذ ينطبق تماما على التدريس والبحث العلمى فى جامعاتنا ومراكزنا البحثية ، بل إن البعض فى جامعاتنا يدرس للطلاب نفس المسودات التى كان يدرسها هو من ثلاثين سنة .

ويزيد على ذلك أن العلماء والبحاث في الدول النامية ، لاتتوافر لهم تكنولوجيا المعلومات التى تمكنهم من الوصول الى الفضاء الأنترنتى (السيبرسباس) حيث فرص النشر الإليكتروني ، وتبادل المعلومات مع زملائهم الآخرين ، والوصول إلى بنوك المعلومات ، وقواعد البيانات . فالعلماء والبحاث فى العالم ليسوا شركاء متساوين في المؤسسة العالمية لإنتاج المعرفة ؟

فالانتقال إلى النشر الإلكترونى فى الفضاء الانترنتى ، بالطبع سوف يوسع الفجوة بين البلاد المتقدمة والدول النامية وسوف يزيد تهميش العلماء فى الدول النامية . فمعظم الدول النامية خاصة ذات الأعداد السكانية الكبيرة، لا تملك البنية التحتية الاتصالية الضرورية لتكون قادرة على أن تشارك كشريك متساو فى المؤسسة العالمية لإنتاج المعرفة والنشر. فالبنية التحتية للاتصالات telecommunications infrastructure – هى خطوط التليفونات ، والكابلات التليفزيونية ، والأقمار الصناعية ، والألياف الضوئية ، وأجهزة الكمبيوتر وملحقاتها الاتصالية كلها تتداخل وتتكامل في منظومة واحدة تمثل البنية التحتية للاتصالات ، وهى تمثل أساس البنية التحتية للمعلومات فى أى دولة . وتلك البنية الاتصالية تعتبر الآن من أهم البنيات التحتية فى تنمية أى مجتمع وتخدم على بقية البنيات الأساسية الأخرى .

ثقافة معلوماتية أساسية

وتشير الأرقام إلى أن ٩٥٪ من كل الكمبيوترات في العالم موجودة في الدول المتقدمة وعشر دول متقدمة فقط تمثل ٢٠٪ من سكان العالم تملك ثلاثة أرباع خطوط التليفونات فى العالم أجمع ومعظم التليفونات فى الدول المتقدمة تتركز فى المدن الحضرية ، وليس لدى علماء وبحاث كثيرين تليفونات على مكاتبهم . و معظم جامعات ومراكز البحوث فى الدول النامية تفتقد إلى البريد الإلكترونى أو مرافق إنترنت ، والبعض يملك اتصالات بالأنترنت ، ولكنها بطيئة للغاية . فهناك ناس كثيرون جدا فى العالم النامى لم يلمسوا بعد أهمية ثورة المعلومات ، وهناك أغلبية ساحقة من علماء في الدول النامية لا تصل لهم هذه التكنولوجيات .

والآن أصبحت معظم الدوريات العلمية العالمية تتلقى البحوث وترسل نقدها ومراجعتها من خلال البريد الإليكترونى ، طبعا هذه الدوريات لاتحبذ الاستعانة بمحكمين للبحوث من الدول النامية ، حتى لو كانوا أكفاء فى تخصصهم، لأنها ببساطة لاتستطيع أن تصل إليهم. وهناك

فرص كبيرة لعلماء الدول النامية لنشر أبحاثهم ومخطوطاتهم فى الدوريات العلمية الإليكترونية ، إذا توفر لهم تكنولوجيا المعلومات .

والتحول السريع إلى النشر الإلكترونى سهل للعلماء والبحاث فى البلاد المتقدمة فرصا كثيرة للتفاعل مع زملائهم فى العالم . والقلق الرئيسى أن المستوى المنخفض للمعلومات وتكنولوجيات الاتصال فى الدول النامية سوف يؤدى إلى الاستبعاد المتزايد لأغلبية العلماء والبحاث فى هذه البلاد من مخاطبة التجمع العلمى الدولى ، الذى يعتبر الاساس فى إنتاج المعرفة الجديدة.

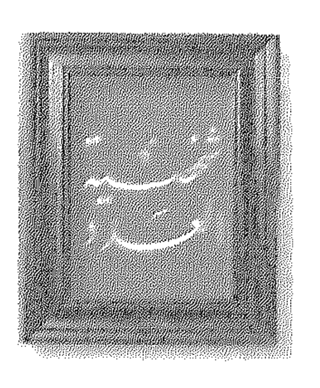
فعندما تكون مشاركة الدول النامية بحوثها فى الدوريات العلمية العالمية مثل Science, cell journal of American Chemical Society ، ضعيفة جدا ، سوف ترتفع مستويات العلم والتكنولوجيا فى الدول المتقدمة وتتسع الفجوة بينها وبين الدول الفقيرة ، ويقود ذلك إلى استنزاف العقول من تلك الدول ، وزيادة اعتمادها على المساعدات العلمية من الدول المتقدمة ، بمعنى آخر يكون هناك ما يسمى بإمبريالية المعرفة Knowledge imperialism .

والبعض يطلق عليها الآن ثقافة الإمبريالية الآسكية cultural Imperi-alism Of Ascii .

حيث تسيطر الآن ثقافة معلوماتية آحادية عقيمة ، وسيطرة آسكية أمريكية رغم ذلك أمام الدول النامية الكثير للاستفادة واستثمار العناصر الإيجابية فى الانترنت بشرط ، أن يتصرف العالم بسرعة لسد فجوة المعلومات بين الشمال والجنوب ، التى تزداد اتساعا وعمقا بسرعة كبيرة تنذر بمخاطر عديدة .

دعــوة

ندعو البنوك والشركات والأفراد للتبرع بأجهزة الكمبيوتر المتقادمة والمعدات الألكترونية المستعملة إلى مؤسسات أو جمعيات أهلية ، تدرب الأجيال الجديدة الذين لا يملكون فرصة شراء كمبيوتر .



الدكتور أحمد زكى

ملامح شخصية

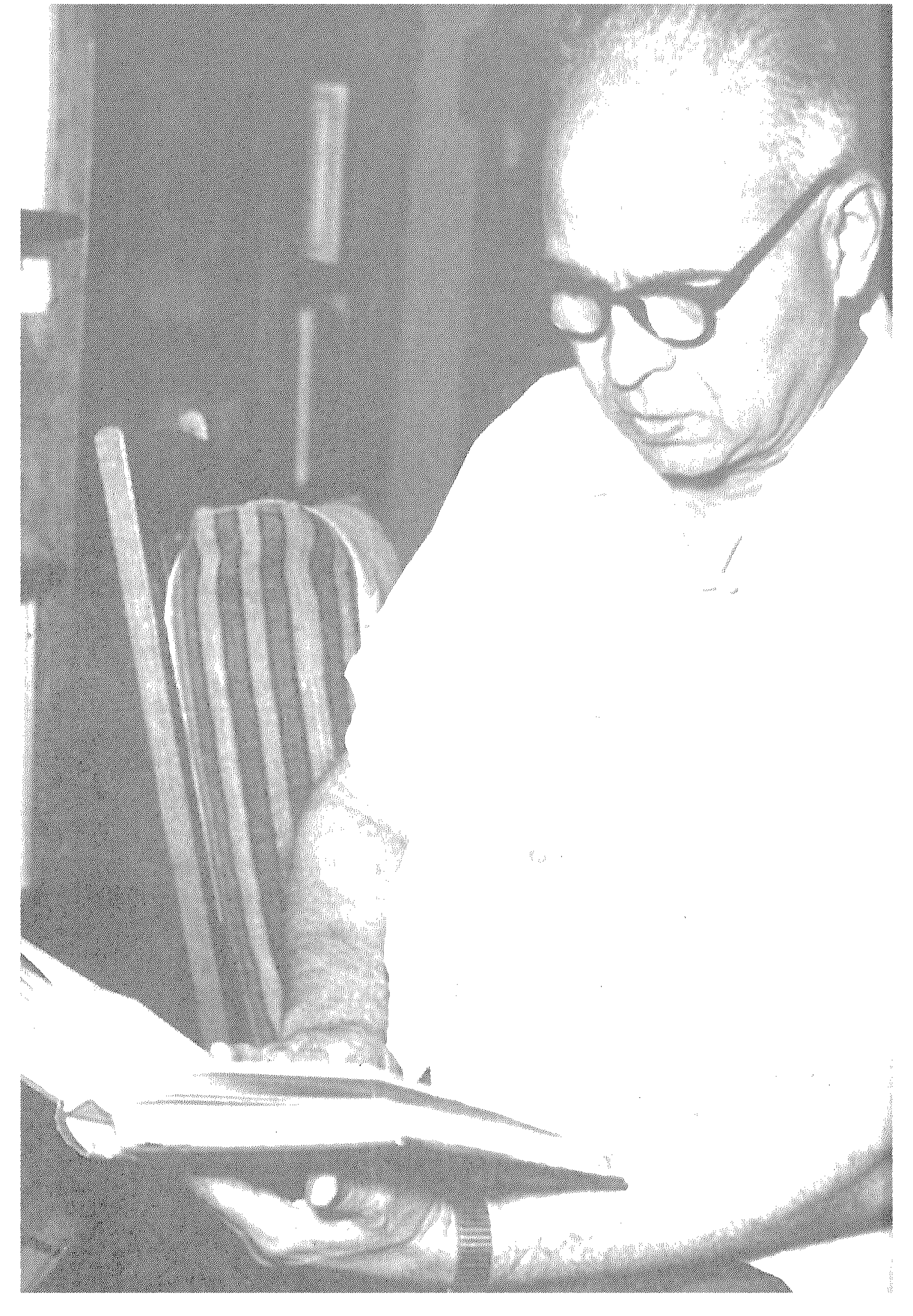
بقلم : مصطفى نبيل

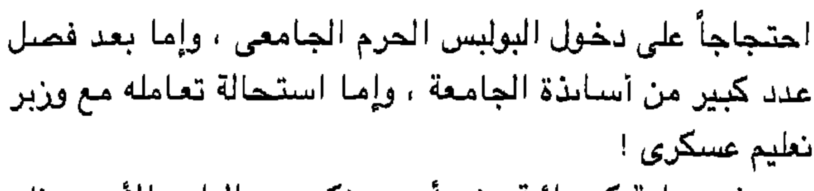
شخصية العدد هذه المرة ، هو الدكتور أحمد زكى ، العالم المثقف الذى أثرى الحياة الفكرية والعلمية ، وعلاوة على ذلك فهو الأب الروحى لمجلة الهلال ، الذى لعب دوراً مهما فى تحديد رسالتها ورسم شخصيتها ، وهو الذى أرسى فى كل كتاباته قيمة «الحرية» .

نقدم ملامح شخصيته ، ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت عام ١٩٥٨ ؟! ، ولماذا اختفى اسمه كرئيس لتحرير الهلال رغم أنه كان يتولى المسئولية كاملة عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ؟!.

نذكر فضل د . أحمد زكى اليوم ، ونحن منغمسون فى تطوير مجلة «الهلال» فهو أحد رموز الثقافة المصرية وأحد الذين ساهموا فى بناء مجلة «الهلال» ، ولم ينل حقه من التكريم ، فقد وصل قبل ثورة يوليو إلى منصب الوزارة ، ولم يتخل يوما عن دوره الثقافى ، ولم يترك قلمه حتى آخر يوم من حياته ..

تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» بين يناير ١٩٤٧ وحتى نهاية عام ١٩٥٠ ، وعاد وتولى رئاسة تحرير الهلال فى سنوات ٥٧ و٥٨ وتولى مسئولية مدير جامعة القاهرة أقدم وأعرق جامعة عربية ، ولكنه استقال بعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، عقب الصدامات التى وقعت بين الطلبة والبوليس وترك منصبه فى الثامن من سبتمبر ١٩٥٤ ، إما





احتجاجاً على دخول البوليس الحرم الجامعى ، وإما بعد فصل عدد كبير من أساتذة الجامعة ، وإما استحالة تعامله مع وزير تعليم عسكرى !



شخصية العدد

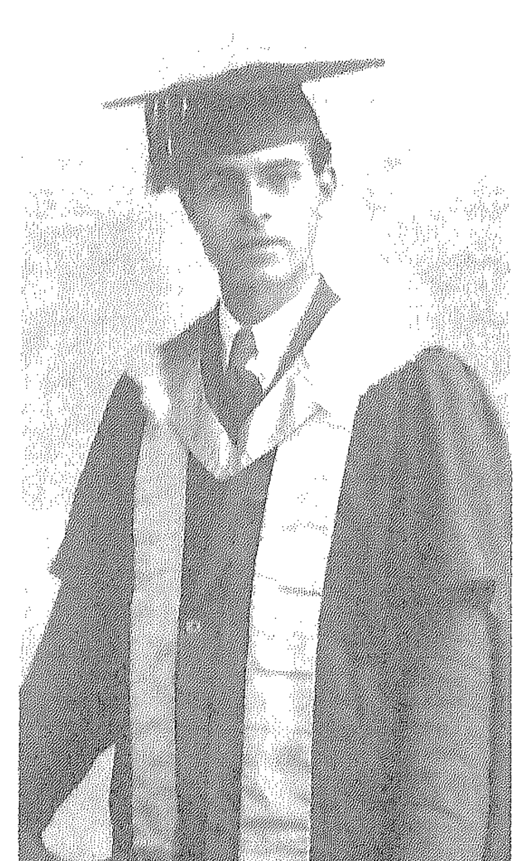
وفى عملية كيميائية مزج أحمد زكى بين العلم والأدب ، فلم يحصل أحد على ما بطاول شهادته العلمية فى الكيمياء ، ولكنه ألف وترجم ، يقول عنه العقاد .. «لا أقرأ له إلا وأتصوره قد جلس إلى مكتبه وبيده قلم وبيده الأخرى مسطره وبرجل..» ويقول عنه أحمد أمين .. «إنه أدب العلم ، إنه كيميائى عظيم وأديب كبير ، مزج العلم والأدب كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه فى معمله بين الأنابيب والمحالل ، نراه فى مكتبه يحلل الكلمات ، ويستخرج المعانى ويصوغ الأفكار ..» .

أما أحمد زكى فيقول .. «كنت أستاذ جامعة ، ومدير جامعة ، ورئيسا لمركز علمى مدة ربع قرن ووزيراً .. ولو أن الحياة عادت بى من جديد ، وأذن لى أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب ، لقد تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها ، تعلمت منها ما رغبنى عنها . إن الحياة طعام وشراب ، وهى أيضا فكر ، والفكر لذة يستمتع بها الإنسان وحده ، والفكر قراءة وكتابة ..» .

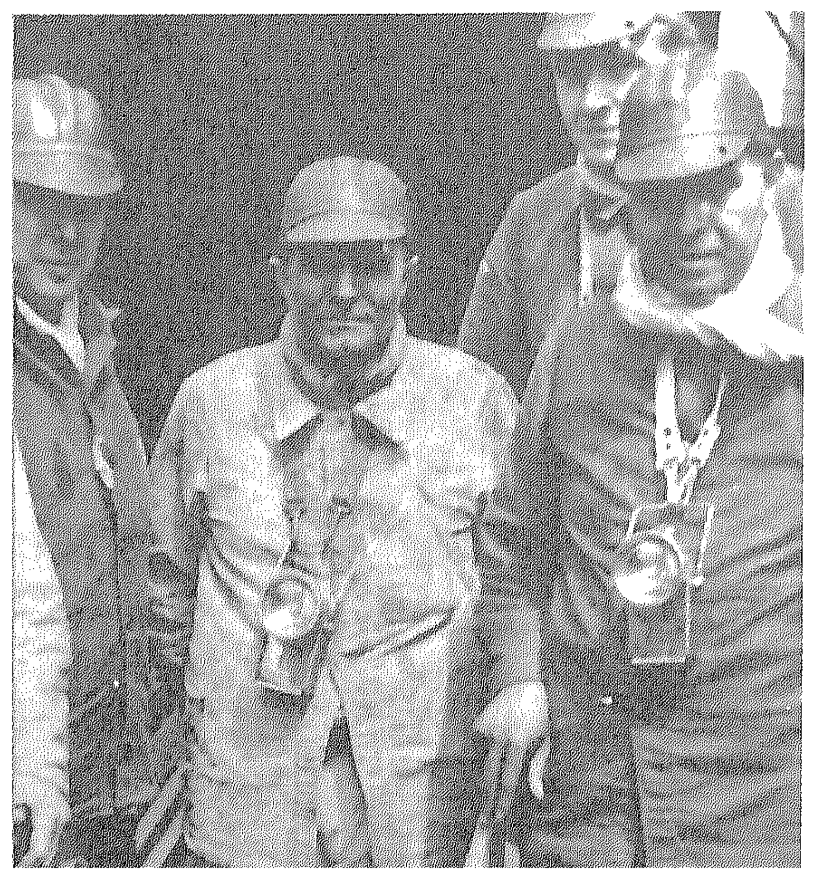
● سعى لكى يصل برسالة الهلال الثقافية الى القارىء فى كل مكان

ثالث رئيس

وكاننا هو ثالث رئيس تحرير لمجلة «الهلال» ، فقد جاء بعد كل من منشئها جرجى زيدان ، ثم رئيسى التحرير ولديه إميل وشكرى زيدان ، ثم جاء أحمد زكى الذى اختار القطع الحالى للهلال ، والمدهش أنه عاد إلى القطع الأول عندما أسس مجله العربى – واعتنى بتطوير الطباعة والاخراج ، وأصدر «الهلال» اثنى عشر عدداً فى العام بدلا من عشرة أعداد ، واهتم بالغلاف والعناوين والاخراج ، وحرص على أن تكون صورة الغلاف فتاة عصرية رائعة الجمال ، وسعى لكى يصل برسالته الثقافية إلى القارىء فى كل مكان . وجعل «الهلال» جزءاً حيا من الثقافة العربية ، ولم تعد بعيدة عن ثقافة القارىء ، ولم تعد تعزل نفسها عن قضايا الوطن الملحة ، وأصبحت وعاء لحركات فكرية واجتماعية ، ومنبراً لدعوات ومدارس فنية جديدة ، وحاضنة لتيارات فكرية فعالة ، وكانت أداة تجمع وتوحد حول قضايا حيوية وخلق تيار عام مؤثر ، ونقل أحمد زكى الهلال



زامل علي مصطفي مشرفه ومحمد الغمراوي في جامعة نوتنجهام



د. احمد زكي عالم الكيمياء يستعد للهبوط الى احد المناجم .. لقد مزج بين العلم والادب

نقلة كبيرة فى الشكل والمضمون ..

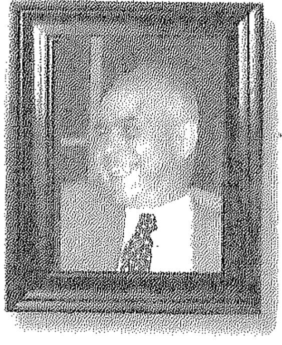
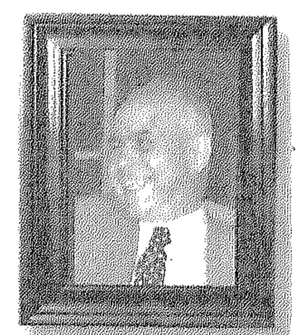
وأهم إضافاته جعل العلم جزءا من نسيج المجلة وتلمس تأثيره عندما تجد بروازاً يعود فيه إلى دائرة معارف ، وعندما تلاحظ أنه يندر أن تجد خطأ لا يعقبه تصويب ، فقد كان بحق عالما موسوعياً مدققا ، يزن أبواب المجلة ويرتبها وينسقها بتوازن جمالى متميز .

وكانت المجلة الثقافية قبله لا تعتنى بالشكل وتكتفى بالمضمون ولكن بعد أن تطورت فنون الطباعة والاتصال ، أصبح من الضرورى العناية بالجماليات ، وخاصة بعد ظهور دراسات ووسائل مبتكرة للجذب البصرى ، لذا لم يغفل عن عناصر التشويق والجذب ، وإراحة العين بالفراغ والصورة .

الدنيا قصة

وتلحظ اهتمامه بالتشويق والجذب فى قوله .. «ليس ألذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصة ، والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى إذا فلت قصة ذهب النوم ، واستيقظت العقول ، وأرهفت الآذان ..»

ونجده يفتح صفحات مجلة «الهلال» على الكتاب العرب فى كل مكان وفى عدده

شخصية العدد

الأول في يناير ١٩٤٧ نجده يقول .. «إننا نعود فنذكر أن «الهلال» مجلة العالم العربي كله ، وأنه يسرنا أن يساهم فيها أدباء الأقطار الشقيقة..» .

وكما نلحظ فتاة جميلة على أغلفة «الهلال» في فترة رئاسته للتحرير ، نلحظ أيضا قصر المقالات التي تتجاوز أربع أو خمس صفحات ، فهي مقالات ينطبق عليها المثل القائل «ما قل ودل» ، وهي مقالات عالية المستوى ، راقية الأسلوب ، ولن نجد كاتبا مهما لم يساهم بالكتابة في هذه المرحلة .

ولا يتناول هذا الحديث رصد ما أدخله من تغييرات ، وإنما هو مجرد ملاحظات سريعة ، يضع كاتبنا صيغة موسوعية للأدب والعلم والطب والفن ، ويأخذ من كل قسم بطرف ، ويحرص على التوازن الدقيق بين التراث والحداثة ، وبين العربي والغربي ، وبين القديم والجديد . وتعامل مع المجلة كأداة تثقيف عام ، يعرف القارئ بكل شيء ولم يقتصر عالمه على الغرب بل امتد إلى كل أنحاء العالم ، ويقول شارحاً رؤيته ومذهبه في دور المجلة الثقافية .. «إن أستاذ الطب تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً في فلسفة الأديان ، وأستاذ الفقه الإسلامي تلميذ غالباً عندما يتصفح مقالاً في نفسية المراهقين والمراهقات ، وأستاذ التاريخ تلميذ غالباً عندما يقرأ مقالا في إنتاج الكهرباء من الذرة وهكذا.. »

● أول من بشر ونادى بإدخال الثقافة العلمية لكي تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية

ويفتح صفحات «الهلال» لكل موهبة ويبادي .. «يجب ألا يقتصر «الهلال» على ما يكتبه أصحاب المكانة المعروفة ، والصيت الواسع ، بل يجب أن يساعد على إبراز النبوغ الكامن وتشجيع الكفاءات الجديدة .. وسنبذل عناية خاصة بفحص ما يرد إلينا من الكتاب الناشئين ، ولعلنا بذلك نخدم هؤلاء الأدباء وجمهور القراء » .

الثقافة العلمية

ويكاد يكون د. أحمد زكي هو أول من بشر ونادى بإدخال الثقافة العلمية لكي تصبح جزءا من نسيج الثقافة العربية ، فهذا هو الطريق الوحيد للتقدم ، وأرسى بالفعل قواعد تناول العلوم ومعالجة الثقافة العلمية ، وتبسيط العلوم وتقديمها .

صحيح كانت مجلة «المقتطف» أسبق في الاهتمام بالعلوم ، فهي من أولى المجلات التي قدمت نظرية النشوء والارتقاء ،

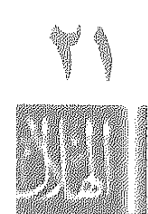
تذهب المناصب السياسية ، ويبقي خالدا العمل الفكرى

ونقلت الكثير من العلوم الحديثة من الغرب، ولكن أضرها تلك الرابطة التى كانت لها مع المقطم ومع الاستعمار البريطانى ، خاصة وأن كل من فارس نمر وفرح انطون قدما إلى القاهرة مع الاحتلال البريطانى .

ولعله يمكن تبين الفارق بين «هلال» أحمد زكى ومجلة «المقتطف» فى تعريف الثقافة ، فإذا اقتصر تعريف الثقافة على مجموع المعارف ، فقد قامت بها المقتطف، ولكن الثقافة كما قدمها د. أحمد زكى أوسع وأرحب من مجرد المعلومات، فهي هذا الشيء الذى نرثه ويتناول إدراكنا لذواتنا وسلوكنا ومواقفنا إزاء كل ما يحيط بنا ، وهو بالضرورة لا يعزلنا عن قضايا الوطن الملحة ..

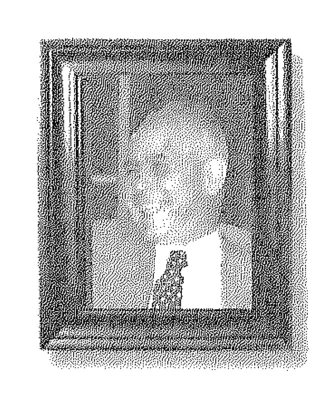
ويبدو أن الاستعمار البريطانى جاء بفكرة أن العلم الحديث قادر على القضاء على التراث ، فوضعت «المقتطف» العلوم الحديثة فى مواجهة التراث ، وجعلت الاختيار ضرورياً بين العلوم الحديثة فى الغرب وبين تراث الشرق، على اعتبار حتمية التناقض بن العلم الحديث وبين نظم الحياة ، وهياكل المجتمع فى الشرق!

لذلك لم يكن غريبا أنه عندما ترك فارس نمر مصر أن يترك ثمانية آلاف فدان، حصل عليها من عمله فى المقتطف والمقطم ، أما أحمد زكى فقد مات غريبا يعد جهاده



الطويل.

وقام أحمد زكي ومعه كوكبة من العلماء مثل د. عبد الحليم منتصر و د. عبد المحسن صالح، بسعي صادق لإدخال المنهج العلمي في نسيج الفكر العربي من أجل تحديث البلاد .



شخصية العدد

مجمع اللغة العربية

وماذا بقي من سيرة حياته والتي تلقي الضوء على بعض جوانب شخصيته فالدكتور أحمد زكي جزء من جيل لا تقف أمامه العقبات ، فعندما لم يحصل على بعثة للدراسة في انجلترا ، عمل ناظراً لمدرسة وادي النيل الثانوية بباب اللوق لصاحبها المهندس وهبي بك والد يوسف وهبي، مكان المدرسة الألمانية الحالية بباب اللوق ، وادخر راتبه وسافر للدراسه على نفقته ، ومن مدخراته ، عام ١٩١٩ ، وعاد عام ١٩٢٨ ، وأسهم في تأسيس الجمعية الكيمائية سنة ١٩٣١، وظل رئيساً لها لمدة ربع قرن، وأسهم في إنشاء المجمع العلمي المصري عام ١٩٢٩ وتولى رئاسته في أوائل الأربعينيات وفي عام ١٩٤٦ أختير عضوا في مجمع اللغة العربية .

● لماذا لم يوضع اسمه رئيسا لتحرير مجلة الهلال في سنتي ١٩٥٧، ١٩٥٨؟

وشغل مناصب علمية ثقافية عديدة: رئاسة الجمعية الكيمائية المصرية، ورئاسة الأكاديمية المصرية للعلوم، ورئاسة المجمع المصري للثقافة العلمية ، وعضوية مجمع اللغة العربية، وعضوية المجمع العلمي بدمشق ، وعضوية معهد فؤاد الأول للصحراء ، وعضوية المجلس الأعلى لدار الكتب .

ومنذ كتابه الأول «مبادئ الكيمياء» توالت كتبه ، فاشترك مع الزيات في ترجمة «غادة الكاميليا» وترجم «جان دارك» و «قصة الميكروب» و «سلطة علمية» و «ساعات السحر» و«بين المسموع والمقروء» واعتبر كل عدد من «الهلال» خلال رئاسته لتحريرها كتابا كأحد أبنائه .

وفي قصة حياة أحمد زكي العديد من المصادفات ذات الدلالة .. ومنها أنه زامل كلا من محمد فريد أبو حديد ومحمد عوض محمد وعبد الحميد العبادي ومحمد بدران ومحمد شفيق عربال ومحمد أبو زهره وعبد الوهاب خلاف ومحمد كامل سليم، وهي مجموعة متميزة ساهم كل منهم بإنجاز في مجاله ، وخرج هذا الجيل من عباءة ثورة ١٩١٩ .

وها هو ذا يقول :« إنه كان هو ومصطفى عبد الرازق

ومنصور فهمى وأحمد أمين زملاء فى مدرسة ثورة ١٩١٩» .

وتمضى الاحداث مع حركة المجتمع ، ويزامل فى جامعة نوتنجهام على مصطفى مشرفة ومحمد أحمد الغمراوى ، وكان أحمد زكى ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة العلمية فى مصر بعد مصطفى مشرفة وعبد العزيز أحمد .

ويروى جانبا حزينا مما صادفه فى حياته حول قصة بناء السد العالى .. يقول .. «جاءه مهندس يونانى . «صاحب فكرة بناء السد» ، وعرض عليه فكرة إنشاء السد العالى وأقنعه بها وطلب مساعدته ، فذهب به العالم الكبير إلى الوزير - قبل الثورة - ، فرد عليه الوزير مستنكراً وقال .. «إحنا فى إيه ولا فى إيه يا زكى» !!

محمد عبده وأحمد زكى

ومن يعيد قراءة حياة وأعمال «أحمد زكى » يلحظ أنه وهو الحاصل على أعلى الدرجات العلمية ، لم يأخذه البحث العلمي، ولم يعكف على العمل فى معمل الكيمياء، بل أخذ يكتب في الصحف ويلقى المحاضرات، ويقيم المؤسسات العلمية والجمعيات الأهلية ويساهم فى إصدار الدوريات المختلفة ، مما يعنى أنه أيقن أن زراعة الفكر العلمى فى التربة المصرية ، هو الدور الذى يبحث عن من يؤديه ، ونجده يكتب فى هذا الصدد نحو موسوعة علمية ومع الله فى السماء ...

وألح علىّ سؤال حول انصراف د. أحمد زكى عن البحث العلمى وانصرافه الكامل للتأليف ، وهنا تذكرت تجربة الاستاذ الإمام محمد عبده ، الذى كانت بدايته مع جمال الدين الافغانى ، وبعدها اشترك فى الثورة العرابية، وبعد فشلها سجن ولوحق ونفى ، وغرق فى العمل السياسى والسرى وأصدر مجلة «العروة والوثقى» ثم انصرف عن العمل السياسى المباشر، وأدرك ضرورة الاهتمام بالتربية والعمل الثقافى ، فأخذ يساهم فى تطوير التعليم وتطوير الدراسة فى الأزهر الشريف، وإقامة الجمعيات الأهلية وغير ذلك من الانشطة الفكرية ..

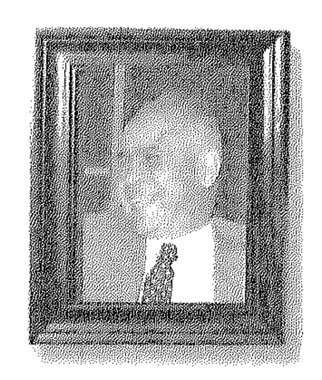
وكذلك فعل د . أحمد زكى الذى وجه إهتمامه للعقول وأدمغة البشر التى تصنع النهضة ، ومن كلماته .. «أدركنا بعد مؤتمر الصلح أن السلاح .. كل السلاح في المدى الطويل، إنما هو العلم والعرفان .. فألقينا سلاحنا، هكذا أعلنا ، واستبدلنا بالسلاح القلم، وألفنا عام ١٩١٤ لجنة سميناها لجنة التأليف والترجمة والنشر» .

وكان أول كتاب صدر عن اللجنة هو «مبادىء الكيمياء» لأحمد زكى فقد اضطلع العالم الكبير بالعمل على بناء صرح العلم الحديث ، وتمكين الثقافة العلمية من النفوس .

وها هو ذا يقول ما يوضح رسالته .. «الفارق بين العلم والأدب مفتعل ، وهو أكثر افتعالاً فى الشرق . فكل كاتب فى الشرق مفروض أن يكون أديبا ولو كان عالماً .. ومن غرائب الشرق أن يستغرب أن يكون العالم أديباً ..» .

الرحيل من مصر

وشغلنى أيضا السؤال التالى ، وهو لماذا رحلت هذه الشخصية الفريدة من مصر ، وسافر إلى الكويت لإنشاء مجلة العربى؟ ولماذا لم يوضع اسمه رئيساً لتحرير مجلة



شخصية العدد

«الهلال» في السنوات ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، رغم أنه كان يمارس عمل رئيس التحرير .. ؟! وهل هذا من عمل أصحاب الدار ؟! أم باختياره ؟ ولماذا رحل من القاهرة إلى الكويت ، علما أن الكويت في هذا الوقت لم تكن قد استقلت بعد ، وأن مجلة العربي صدرت من مبان مؤقتة ، أقيمت على عجل تطل على الخليج العربي ...

وتقترب إجابة هذا السؤال من المسكوت عنه من تاريخ ثورة يوليو ، والتي تتمثل في سعي بعض المسئولين ملاحقة السياسيين من بقايا العصر الملكي، كأحد نتائج الصراع السياسي الحاد الذى واجهته الثورة ، وخاصة بعد أزمة مارس ١٩٥٤. واعتبرت الثورة د. أحمد زكى سياسيا سابقا لأنه تولى الوزارة قبل الثورة، ولأن أخاه كان الطيار الخاص للملك فاروق، وأنه كان ينتمى للمدرسة الليبرالية التى قامت مع ثورة ١٩١٩.

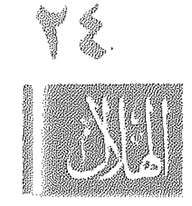
رغم أن بعض السياسيين والمثقفين القدامى نجحوا فى الإفلات من الاستقطاب ، مثل د. طه حسين إلا أنه لم تفلت شخصية أخرى مثل د. محمد حسين هيكل الذى كان رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين ورئيساً لمجلس الشيوخ وفي نفس الوقت أحد أهم الكتاب .

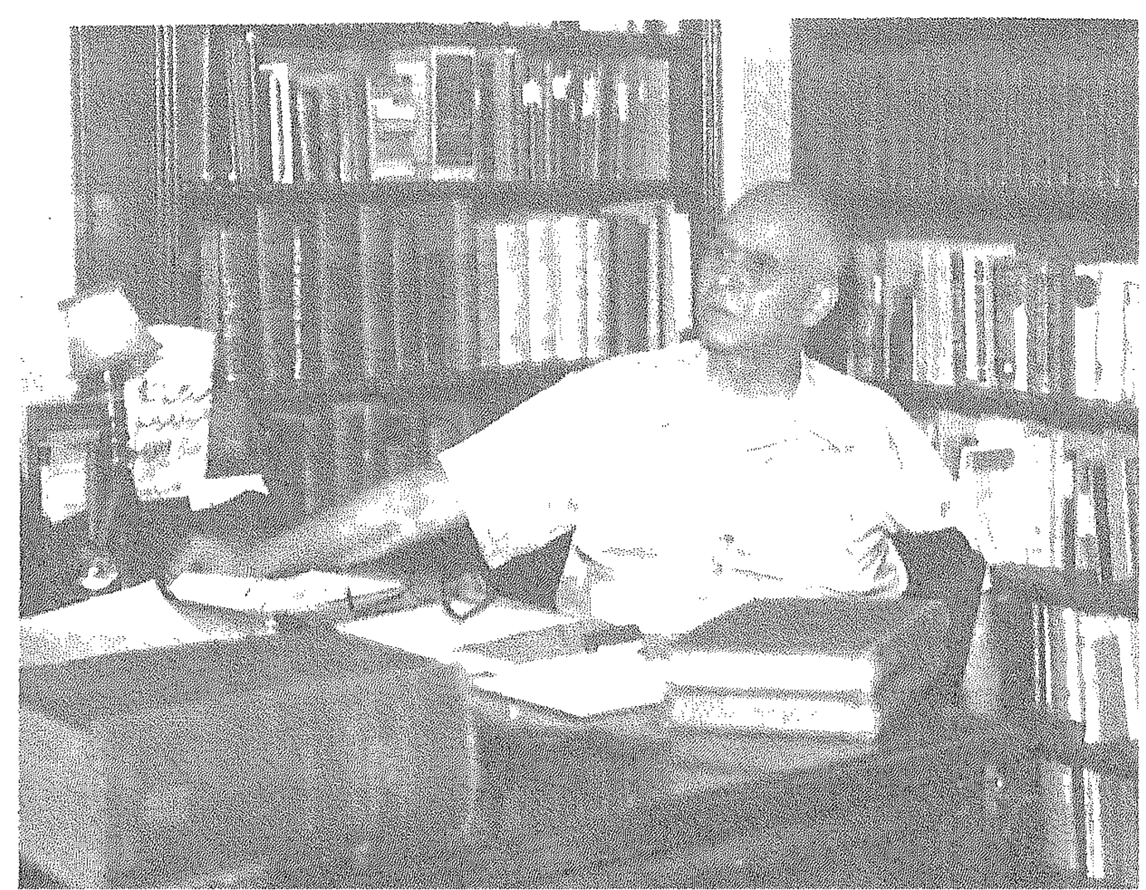
● كانت تجربتي في الوزارة تجربة مرة، عرفت منها ان للحكم ظاهرا يعرفه الناس وباطنا لا يعرفونه.

وكان على الثورة أن تميز بين السياسيين والمثقفين ، فالبعض كان بالفعل فى خدمة السراى والانجليز، ولكن معظم السياسيين ، كانوا يعملون من أجل نهضة البلاد ، وإن تعاونوا فى بعض الأحيان مع السلطة القائمة حينئذ .

وكان د. أحمد زكى قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة وبدأ حياة ثقافية جديدة انتهت برحيله إلى الكويت، بعد الحصار الذى تعرض له ، ويكفى أنه عمل رئيسا للتحرير كالجندى المجهول، وكانت عملية الرحيل جزءاً من ظاهرة عامه، اشترك فيها، السنهورى باشا الوزير السابق ورئيس مجلس الدولة ، ووحيد رأفت، وسابا حبشى وزهير جرانه ... وغيرهم .

وها هوذا د. أحمد زكى يعبر بأسلوب غير مباشر عما تعرض له من الثورة بقوله .. «من الثورات التى أعرفها ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالاً لهم كفايات ترجح بهم فى الموازين ، لو أذن لهم فى البقاء حيث هم ، فى العهود الجديدة لسهلوا الطريق وكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعاً عظيما .. ولكن بدلاً





ثالث رئيس لتحرير مجلة الهلال .. اعتني بتطوير الطباعة والاخراج

من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان إلى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الايمان بالجديد الذى خشيت الثورة أن يكون قليلا فيمن أبعدوا ، ولم بكن فى الكثبر ممن أبعدوا عن مشاركة، نقص فى إيمان ، ولا عزوف عن جديد، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، لكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع إلى الرأى الحر قبل إبداء المشورة ..»

ويعود ويروى تجربته فى تولى المناصب السياسية بقوله .. «وكانت تجربتى فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم ظاهراً يعرفه الناس ، وأن الحكم باطنا لا يعرفونه ، .. رجل مثلى تعود أن يقيس الأطوال بالمتر ، فإذا قاس شيئاً طوله عشرة سنتيمرات فلا يستطيع أن يقول إنها عشر بوصات ، لو قرأها عشرون رجلا من حوله من أهل الحكم .. إنها عادة أهل العلم يضيق بهم أهل السياسة..» .

وتذهب المناصب السياسية بحلوها ومرها ، ويبقى خالداً العمل الفكرى، وتستمر مدرسته قائمة على طريق النهضة والتحديث ، ونحو آفاق المستقبل . ■



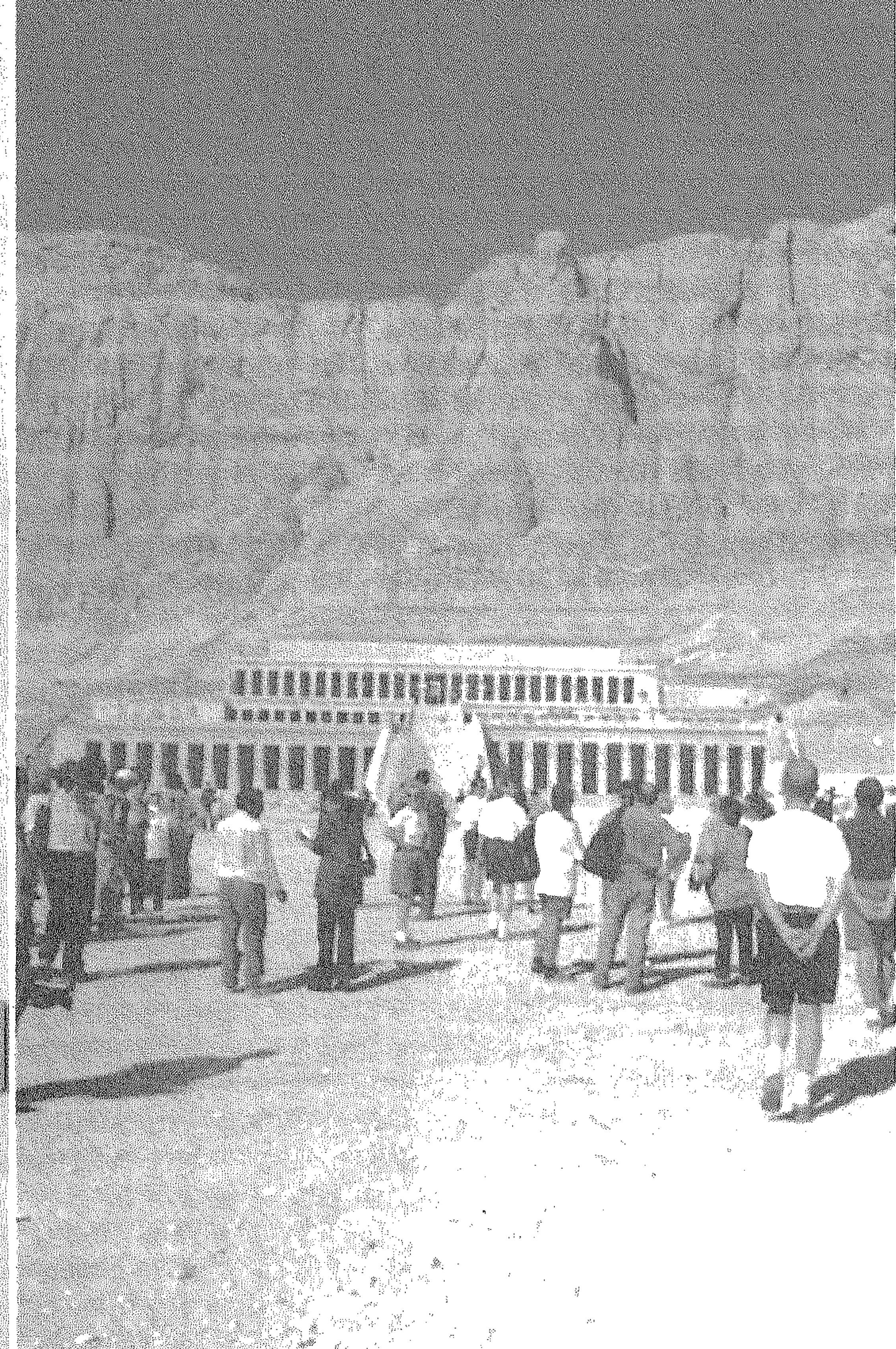
السياحة

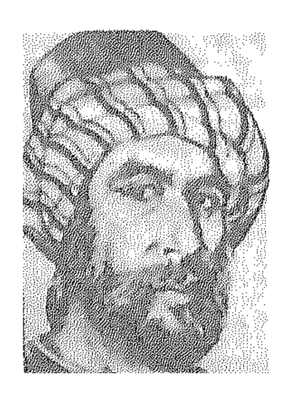
من عصر ابن بطوطة إلى عصر العولمة

بقلم : د. جلال أمين

كثير جداً من أنواع السلوك فى المجتمع الحديث ليس إلا تعبيرا متطورا أو معقدا عن حاجات إنسانية بسيطة للغاية. فذهابنا إلى السوبر ماركت الحديث ،وطوافنا بين رفوفه، والتقاطنا لهذه السلعة أو تلك من هذا الرف أو ذاك ، حتى تمتلىء السلة التى نحملها ، ليس إلا صورة متطورة بعض الشىء لطواف الرجل البدائى بين الأشجار يلتقط من هذه الشجرة أو تلك مايصلح للأكل من ثمار، أو تفتيشه فى الأرض عما يؤكل من جذور النباتات . لا أريد بالطبع أن أقلل من أهمية الفروق بين سلوك الرجل البدائى فى الغابة وسلوكنا فى السوبر ماركت الحديث ، ولكن من المفيد من حين لآخر أن نلفت النظر إلى أوجه الشبه ولو لكى نستعيد بعض التواضع المفقود.

كذلك فإن جلوسنا يوما بعد يوم أمام التليفزيون أو إدماننا قراءة صحيفة كل صباح ، ليس إلا صورتين حديثتين لمجلس الرجال أو النساء بعد أن يفرغوا من العمل، للتلذذ بالخوض فى سيرة الغير وبالإستماع إلى آخر أخبار الفضائح التى يرتكبها الآخرون.




ابن بطوطة

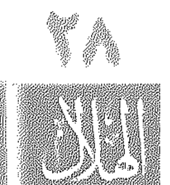
السياحة أيضاً ، ومهما تعددت صورها واختلفت تعريفاتها، ليست في نهاية الأمر إلا استجابة لميلين طبيعيين فى أى إنسان (بل وإلى حد ما فى الحيوان أيضا) وهما الميل إلى الاسترخاء بعد القيام بجهد عضلى أو ذهنى، طمعاً فى تجديد النشاط واستعادة القدرة على بذل المجهود من جديد ، والميل إلى اكتشاف المجهول . مادام الأمر كذلك فلابد من أن الانسان قد مارس صورة أو أخرى من «السياحة» منذ أقدم العصور، وأيا كانت درجة «تقدمه» أو «تخلفه» ، إذ ليس من الضرورى لإشباع هذين الميلين ، إلى الاسترخاء والاستكشاف ، أن يكون بيد المرء مجموعة من الشيكات السياحية أو أن يذهب إلى مكتب سياحى لينضم إلى فوج من الناس من أصحاب الرغبات المشابهة .

كل هذا بديهى ، وإنما المدهش حقا هو كيف احتاج الانسان إلى مرور كل هذا الوقت الطويل قبل أن يصل إلى مانعرفه اليوم مما يسمى «بالسياحة الجماهيرية» (Mass Tourism) ، وكل هذا العدد من التطورات التكنولوجية التى كان لابد أن تتحقق قبل أن تنشأ هذه الظاهرة .

فالحقيقة أن ظاهرة السياحة الجماهيربة لايزيد عمرها على أكثر تقدير على خمسين عاماً. فهى لم تبدأ إلا بدايات متواضعة للغاية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما عبر بعض الأمريكيين المحيط الأطلنطى، ومعهم آلاتهم الفوتوغرافية وراحوا يتجولون فى بعض المدن الأوروبية التى سمعوا عنها أو رأوها خلال الحرب، وهم فى لهفة إلى أن يعودوا لذويهم فى أمريكا، ومعهم بعض الصور لقصر الملكة فى انجلترا، أو لبعض القوارب السائرة فى قنوات مدينة البندقية .. الخ ثم تطور الأمر من هذه البداية المتواضعة حتى رأينا بعض الدول يعتمد اقتصادها اعتمادا أساسياً على ما ينفقه هؤلاء السياح، وأصبح ازدهار السياحة مصدرا للتباهى والتفاخر بين الأمم، وحتى أصبحت، من ناحية أخرى مصدرا للنقمة الشديدة من بعض المهتمين بصيانة الثقافة والمقومات القومية، إذ يرون فى هذا الازدهار السياحى تهديداً لأشياء غالية وعزيزة جداً عليهم.

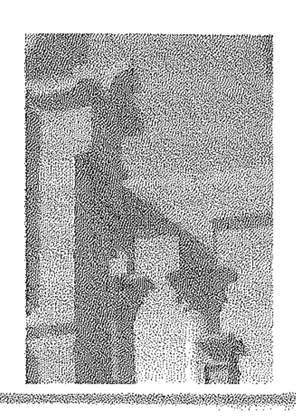
شروط ضرورية

كان لابد للإنسان ، من أجل أن ينتقل من أبسط صور «السياحة»، التى قد تتمثل فى حمل بعض الطعام والشراب والذهاب للجلوس على شاطىء أقرب نهر أو بحر ، إلى ما تعنيه السياحة اليوم من ركوب الطائرات وعبور المحيطات والحجز فى الفنادق وتحويل العملات ...الخ، كان لابد للإنسان لكى يحقق هذا التطور



أن يحقق تقدما مدهشا في أكثر من مجال ، كان عليه أن يعبد الطرق، ويطور السفن، ويخترع البوصلة، ثم أن يخترع الآلة البخارية وبستخدمها فى تسيير السفن والقطارات، ثم أن يخترع الطائرة الصغيرة ثم الطائرة النفاثة، وأن يخترع التلغراف والتليفون ثم الكمبيوتر، وأن يخترع أيضاً النقود سهلة الحمل لكى يستغنى بها عن حمل السلع من مكان لآخر، ثم أن يخترع الشيكات حتى يصل إلى بطاقات الائتمان (Credit Cards).

ولكن فوق هذا وذاك كان لابد للإنسان أن يحرز تقدما تكنولوجيا كبيراً فى إنتاج مختلف السلع الزراعية والصناعية مما يمكنه أولا من الحصول على فائض من الدخل يمكن أن ينفقه على مثل هذه الكماليات ، كالذهاب إلى أقصى أركان الأرض لمجرد الاسترخاء والاستكشاف، ويمكنه ثانياً من الحصول على وقت كاف من الفراغ يمكن أن ينفقه على مثل هذه الأمور . لم تتحقق للإنسان كل هذه الأشياء : الطرق المعبدة ، ووسائل للمواصلات ذات سرعة معقولة، ونقود تتمتع بالقبول العام فى أكثر من دولة، وفائض من الدخل يسمح للسفر من أجل الراحة والاستكشاف، وفائض من الوقت يمكن أن يخصص لهذا السفر، لم يتحقق كل هذا ، ولو لنسبة ضئيلة جداً من الناس، الا منذ أربعة أو خمسة قرون، بل وظل السفر للسياحة



مقصوراً على هذه النسبة الضئيلة جداً لعدة قرون أخرى. نعم كانت هناك قبل ذلك الوقت استثناءات رائعة ومدهشة لبعض الرحالين العظام، من أشهرهم ماركو بولو الإيطالى الذى قام برحلاته فى القرن الثالث عشر (١٢٧١ - ١٢٩٥)، وابن بطوطة العربى الذى قام للسياحة من أقصى الطرف الغربى لأفريقيا إلى أقصى شرقى آسيا، فاستغرق منه ذلك ثمانية وعشرين عاماً فى القرن الرابع عشر (١٣٢٥ - ١٣٥٤).

الجولة الكبرى لأبناء الارستقراطية

باستثناء هذه الأمثلة المدهشة يمكن أن تعتبر نقطة البداية لتاريخ السياحة ما شهده عصر النهضة الأوروبية من تكرر قيام أولاد الطبقة الارستقراطية بزيارة مراكز التوهج الفكرى والفني في مختلف بلاد أوروبا الغربية ، هذا التوهج الذى يدين فى الأساس لتطورات تكنولوجية، أدت إلى نمو الملاحة والتجارة والثروة ، ومن ثم إلى ازدهار الفنون والثقافة بوجه عام في بلد أوروبى بعد آخر ابتداء من المدن التجارية الإيطالية . وقد انتشرت فى بريطانيا على وجه الخصوص منذ منتصف القرن السادس عشر، تلك الظاهرة الشهيرة المعروفة باسم «الجولة الكبرى» (The Grand Tour) وكانت تعنى سفر بعض أولاد الأثرياء للطواف ببعض البلاد الأوروبية الكبرى ، ابتداء من باريس ، حيث يتعلمون الرقص والمبارزة وركوب الخيل ، بل وربما أيضاً بعض قواعد التعامل مع النساء قبل أن يستقروا للزواج فى بريطانيا، ثم يذهبون إلى إيطاليا ليتعلموا تذوق النحت والموسيقى وغيرهما من الفنون، ثم يعودون إلى بريطانيا عن طريق ألمانيا وسويسرا وهولندا وبلچيكا. واستمر شيوع هذه الجولة الكبرى حتى بلغت أقصى شهرتها فى منتصف القرن الثامن عشر حينما أصبحت تعتبر شرطا لا غنى عنه لاتمام تعليم وتثقيف أولاد الأسر الراقية.

لابد أن اختراع الآلة البخارية فى أواخر القرن الثامن عشر التى نتج عنها ظهور الباخرة والقطار، قد دفع بالسياحة بضع خطوات مهمة إلى الأمام ، ولابد أيضاً أن نمو المدن نتيجة للثورة الصناعية التى نتجت بدورها عن اختراع الآلة البخارية وظهور نظام المصنع، قد حفز بعض الناس إلى السفر للسياحة هربا من المدن المكتظة والملوثة . ومع ذلك ظلت السياحة لفترة طويلة أخرى مقصورة على شرائح ضيقة للغاية من السكان من أسر ملاك الأراضى الكبار الذين كانوا ينمتعون دون غيرهم بالإضافة إلى المال، بوقت الفراغ اللازم للسفر لمدد طويلة ، إذ ظل الوقت اللازم للسياحة، خاصة إلى دولة أجنبية،

ناهيك عن السياحة فى قارة أخرى، أطول مما تسمح به ظروف الطبقة الوسطى التى كانت تكسب دخلها من الصناعة أو التجارة .

السياحة الجماهيرية

كان ظهور السياحة الجماهيرية (Mass Tourism) بمعنى الكلمة، ينتظر شيوع مستويات الدخل العالى وإطالة مدد الاجازات السنوية لدى شرائح واسعة من السكان ، وهو ما لم يتحقق إلا مع قيام دولة الرفاهية. (Welfare State) فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كما كان ينتظر تقصير زمن السفر بالدرجة التى تتناسب مع طول هذه الأجازات السنوية ، وهو مالم يتحقق الا بتوافر الطائرات كوسيلة من وسائل النقل المدنى، ثم استخدام الطائرة النفاثة فى نقل الركاب فى الستينات .

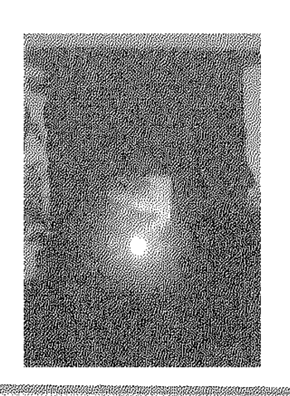
ولكن الكلام عن ظهور السياحة الجماهيرية وكأنه مجرد تغير كمى فى ظاهرة كانت صغيرة ثم كبرت، أى مجرد زيادة فى عدد السياح وفى حجم الدخل من السياحة وفى حركة الطائرات والقطارات .. الخ، هو كلام يقصر عن المساس بأهم جوانب هذه الظاهرة وأخطرها . فهنا أيضاً ، كما رأينا فى ازدياد استهلاك الصحف وفى انتشار التليفزيون ، وفى حلول السوبر ماركت العملاق مكان محلات البقالة الصغيرة (انظر أعداد مجلة الهلال ، نوفمبر وديسمبر ٢٠٠٠ ويناير ٢٠٠١) يؤدى التغير فى حجم الظاهرة إلى تغيرات مهمة للغاية فى طبيعة الظاهرة نفسها وآثارها ، وقد يحول الظاهرة البريئة إلى ظاهرة بالغة الخطر. فكما أدى الانتشار الواسع للتليفزيون إلى تغيرات كبيرة فى طبيعة ما يعرضه التليفزيون من برامج وإلى سطوة الاعلان عليه، وكما أدى الازدياد الكبير فى عدد النسخ المطبوعة من الصحف إلى ظهور الصحافة الصفراء، وكما أدى حلول السوبر ماركت مكان محلات البقالة الصغيرة إلى تغير فى سلوك البائع والمشترى بل وإلى تغير فى طبيعة السلع المنتجة نفسها ، أدت أيضاً الزيادة الكبيرة فى عدد السياح إلى انقلاب فى طبيعة السياحة رأساً على عقب.

السياح القدامى والسياح الجدد

كان السائح القديم ، إذا اعتزم السفر، يترك امرأته وعياله ويسافر بمفرده، ليجنبهم مخاطر السفر ومشاقه. فإن احتاج للزواج من جديد تزوج من أهل البلد التى يزورها (كما فعل ابن بطوطة خلال رحلته التى تزوج خلالها ست مرات).

وكانت رحلة السائح بلا استثناء طويلة ومرهقة تطول فى الغالب أعواماً، إذ كانت الطرق صعبة ووسائل التنقل بطيئة مما قد يفرض على السائح أن يقيم فى البلد الذى يحل به شهورا قبل أن ينتقل إلى بلد آخر . لم يكن من الممكن إذن أن تظهر سياحة الأسبوع أو الأسبوعين التى نقضيها الآن، ناهيك عن سياحة عطلة آخر الأسبوع. هكذا استغرقت رحلة ابن بطوطة من المغرب إلى الصين عشرة أعوام مما قد لايستغرق من السائح اليوم أكثر من يوم واحد.

فلما عاد فى نهاية رحلته إلى بلده



طنجة عرف أن أباه قد توفى منذ خمسة عشر عاماً، ولم يكن هناك من وسيلة لاخباره بذلك في غيبته، وما كان هناك طائل على أى حال من أخباره، إذ لم تكن هناك جدوى من محاولة العودة بأمل رؤية أبيه حياً.

فى مثل هذه الظروف لم يكن ليقدم على السياحة إلا رجل مدفوع بقوة شديدة من حب الاستطلاع والاستكشاف لم يكن السائح يذهب للاسترخاء على شاطىء البحر أو ارتياد الملاهى الليلية بل كان يقوم برحلته من أجل المعرفة والفهم أو من أجل الحج ، لم تكن المتعة المطلوبة مادية بل عقلية أو روحية ، فها هو ذا ابن بطوطة يقطع كل هذه المسافات لا من أجل المتعة ، بل من أجل الفهم والاستشكاف، وينتهز الفرصة فيقوم أيضاً بالحج أربع مرات، خلال ذهابه وإيابه . إن سائحاً كهذا لا يذهب لمجرد التفرج على الناس والمناظر والتقاط الصور، بل كان لابد له، شاء أم أبى أن يقيم بين الناس ويخالطهم ويحادثهم، وقد يجد من الضرورى ، هذه الظروف ، أن يرتدى ثيابهم وأن يتكلم بلغتهم وأن يفهم دوافع سلوكهم . أما منظر سياح اليوم ببنطلوناتهم القصيرة وهم يسيرون فى الأسواق ، رجالا ونساء، بحثاً عن مشتروات للذكرى (Souvenirs) ، يدللون بها على زيارتهم لهذه البلد الغريبة أو تلك ، وينطقون بلغة لايفهمها السكان المحليون، دون أن يشعروا بأنهم يمارسون سلوكا غريباً أو غير لائق فهو منظر لم تكن تتصور رؤيته فى السياحة القديمة .

ربما كان الأهم من كل ذلك أن السائح القديم لم يكن يأتي بالضرورة من بلد أعلى دخلا وأكثر ثراء، كما هو الغالب فى سياحة اليوم ، إذ لم تكن أمم العالم قبل الثورة الصناعية لتتفاوت كثيراً فى الدخل والثروة. كان من الممكن جدا للسائح أن يكتشف أن كثيرا من البلاد التى يطوف بها أكثر ثراء وأعلى مدنية من بلده التى جاء منها . إنه لا يذهب للتفرج على فقراء العالم ، كما يذهب كثير من سياح اليوم ، ومن ثم فالسائح القديم لم يكن ليخطر بباله قط أنه ذاهب للحصول على الخدمة الرخيصة فى بلاد فقيرة تقبل شعوبها أن تعرض الكثير من هذه الخدمات للبيع فى مقابل عملة «صعبة» ونادرة.

بقدوم عهد السياحة الجماهيرية أصبح السياح يطلبون أشياء مختلفة جداً عما كان يطلبه سياح الماضى ، سواء كان هؤلاء السياح القدامى من المهوسين بالاستكشاف والاستطلاع من أمثال ماركو بولو وابن بطوطة ، أو من المنتمين للارستقراطية الأوروبية . هؤلاء السياح الجدد لا يبحثون بالضرورة عن الحقيقة أو التاريخ ولا عن الشمس الدافئة، بل يكفى لإرضائهم أن تلتقط لهم صورة أمام أحد المعالم المشهورة للبلد التى يزورونها ، مما يقترن فى أذهان

أصدقائهم ومعارفهم بهذه البلد، أو بجوار راقصة ترتدى ملابس الرقص الشرقى يمكن لهم بها إثبات ذهابهم إلى هذه البلاد الشرقية وقضائهم فيها «وقتا ممتعاً» (حيث أصبح «قضاء وقت ممتع هو معيار الحكم بجدوى أى عمل)، أو أن يشتروا أى تمثال رخيص هو تقليد لتمثال مشهور ، أو حتى أن يطوفوا بشوارع هذه العاصمة الأوروبية أو تلك بعد احتساء أكواب عديدة من البيرة تمهيداً لحضورهم مباراة لكرة قدم واستعدادا لمعركة قد تنشب بين مشجعى هذا الفريق ومشجعى الفريق الآخر.

الطلب يخلق العرض

مادام هذا وأمثاله هو ما يطلبه السياح الجدد فهذا إذن هو مايقوم أهل البلد المستقبل للسياح بتقديمه لهم. الطلب يخلق العرض، والذوق الرخيص يخلق الانتاج الرخيص، وسياحة الجماهير تخلق مابناسبها من السلع والفنادق والكباريهات والمرشدين السياحيين . وكلما زاد «تقدم» الدولة فى مضمار المنافسة مع الدول الأخرى فى اجتذاب السياح ، كلما انتشرت فيها هذه الأشياء جميعاً وتغلغلت أكثر فأكثر فى الحياة الاجتماعية لهذه الدولة.

لا يمكن لأحد أن ينكر المزايا الاقتصادية العظيمة التى تجلبها سياحة الجماهير، من دخل وعمالة وعملات صعبة بل وكذلك ما تحققه من تعارف شعوب على غيرها، ومن التقارب بينها، ومن تقدم فى مستوى النظافة أحياناً بل وفى مستوى الذوق أيضاً فى بعض الأحيان. ولكن لا يجوز لأحد أن ينكر أيضاً ما تحمله هذه السياحة الحديثة ، أى سياحة الجديدة ، أى سياحة الجماهير، من «تلويث للبيئة» ، ليس بمعنى التلوث المادى بل المعنوى. إذ لا يمكن أن يتجاهل المرء هذا الاقتحام البالغ الجرأة، والذى كثيراً ما يصل إلى درجة البجاحة والوقاحة، من جانب هذه الأجسام الغريبة، لثقافة وعادات أهل البلد التى تجرى السياحة فيها، والذين يجبرون على السكوت والصبر على هذا الاقتحام من أجل لقمة العيش لهم ولأولادهم.

المسألة تتلخص إذن فى السؤال التالى:

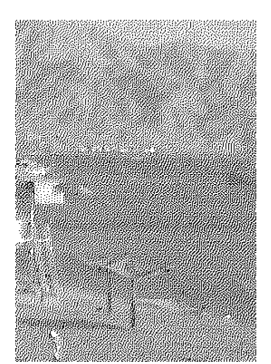
كم حجم التلوث الذى نحن على استعداد لقبوله وتحمله من أجل التنمية الاقتصادية؟

كما هى الحال تماماً مع التلوث المادى

كم من تلوث الهواء والمياه نحن على استعداد لقبوله من أجل زيادة معدل نمو الصناعة والزراعة ؟ وبصدد هذا التلوث المعنوى الذى تجلبه السياحة تختلف الآراء والأذواق مثلما تختلف حول التلوث المادى الذى يجلبه انتاج السلع . والظاهر أن هناك حدا يصبح معه التلوث غير محتمل فى الحالين، مهما كان النفع المتمثل فى زيادة الدخل ، حتى ولو كان هذا الدخل بالعملة الصعبة . فالعملة التى تجلبها السياحة تصبح بعد حد معين «صعبة» على النفس حقا.

السياحة والخدمة المنزلية

إن بعض المواقف التى أشاهدها أحياناً ، فى العلاقة بين بعض السياح



وأهل البلد المضيف ، تذكرني برفض بعض النساء الفقيرات فى مصر أن يشتغلن بالخدمة المنزلية فى بيوت الطبقة العليا والمتوسطة، مهما كان الأجر المعروض عليهم مرتفعاً، وتفضيلهن للعمل فى مصنع أو ورشة أو حتى للجلوس على قارعة الطريق لبيع بضاعة تافهة القيمة وقليلة الربح ، على تعريض أنفسهن لخطر الإهانة والمهانة من جانب مخدوميهم.

ففى السياحة، على عكس الصناعة والزراعة ، لا يدور البيع والشراء حول سلع بل حول مجموعة من الخدمات ، وهى خدمات من نوع خاص جداً. فالسائح الحديث يأتى بغرض المتعة بوجه عام، والراحة بوجه عام، وهو مستعد لإنفاق المال من أجل هذه وتلك دون تحديد دقيق لنوع المتعة ونوع الراحة تماماً مثل رب البيت الذى يستأجر خادما أو خادمة. إنه يدفع لهما الأجر من أجل أن يسهرا على راحته ، ويلبيا كل طلباته، دون تحديد دقيق لما يمكن أن يحتاج إليه فى أى وقت من الأوقات. ومن ثم فإن هناك فى الحالين شيئاً قريباً من عرض النفس للبيع، وكلما زاد فقر الخادم أو الخادمة واشتدت حاجتهما ، كان احتمال المهانة أكبر.

السياحة فى عصر العولمة

يجب ألا نظن ، مع ذلك ، أن السياحة قد بلغت آخر مراحل تطورها. فالسياحة فيما يبدو دخلت ، منذ وقت قريب ، مرحلة جديدة تماماً مع بزوغ عصر العولمة وهى مرحلة لم نر بعد إلا بداياتها الأولى.

أقصد بذلك بزوغ نوع جديد من السياحة يقفز فوق سلطة الدولة ، ويقتطع أجزاء منها ليربطها بالعالم الخارجي دون أن يحتاج فيها السائح إلى أكثر من الحد الأدنى من التعامل مع الدولة التى ينزل فيها، ولا حتى مع سكان هذه الدولة.

فإذا كان المقصود مثلا هو مشاهدة أوبرا عايدة فى مدينة الأقصر، فالسائح يستقل طائرة فى بلد أوروبى أو أمريكى، تنزل به فى مطار الأقصر دون المرور بالقاهرة، ثم يستقل سيارة من المطار إلى مكان الأوبرا، وما أن ينتهى من مشاهدتها حتى يعود مسرعا إلى البلد الذى جاء منه. هذه الأوبرا التى يشاهدها قد لا تكون لها إلا علاقة واهية للغاية بالبلد التى تعرض فيه، فالمخرج والممثلون والموسيقيون قد يكونون هم أنفسهم من الأجانب، يأتون ويذهبون بنفس السرعة التى يأتى بها السياح ويذهبون ، كما أن الفندق الذى ينزل السائح فيه قد يكون هو الشيراتون أو الهيلتون، والذى رتب الزيارة ونظمها وحصل على ربحها شخص أجنبى أيضاً، والربح قد يكون قد تم تحصيله فى الخارج مقدما ، وأودع واستثمر فى بنك أجنبى، فلا تكسب الدولة

المضيفة من هذه السياحة المدهشة أكثر كثيراً من أجرة التاكسى الذى حمل السائح من المطار وإليه.

شيء مماثل بدأ يحدث على شواطيء البحر، حيث يأتى السياح إلى المنطقة المشمسة أو مناطق الغوص والاستحمام، فتنزل بهم الطائرة قرب الشاطيء ثم تعود بهم إلى بلادهم، بعد أن ينفقوا بعض المال على خدمات الفنادق ومراكز الغوص، التى قد يكون كل أصحابها من الأجانب ، فتخرج الأموال من البلد كما دخلت دون أن يراها أهل البلد ، باستثناء بعض الخدم المشتغلين فى هذه الفنادق الأجنبية.

شيئاً فشيئاً يصبح من الصعب تحديد المستفيدين الحقيقيين من هذه السياحة ، وتحديد الأشخاص أو البلد التى ذهب إليها دخل السياحة فى النهاية ، تماماً كما أصبح من الصعب فى عصر العولمة تحديد البلد الذى انتج السيارة أو جهاز التليفزيون وإلى من يذهب ثمنهما. إنها سياحة بلا هوية. كما أن السيارة أو جهاز التليفزيون قد أصبحا بلا هوية لاشك أن التلوث المعنوى فى مثل هذه السياحة أقل بكثير منه فى السياحة التى تقتحم العواصم ويسير فيها السياح بين الناس فى الأسواق ، ولكن العائد الاقتصادى على البلد المضيف هو بدوره أقل، حيث يكاد يقتصر النفع هنا، كما هو المألوف فى عصر العولمة ، على هؤلاء الشطار الذين استطاعوا على نحو أو آخر بأن يلصقوا أنفسهم بشركة من الشركات متعددة الجنسيات.

هكذا تطورت السياحة شيئاً فشيئاً مع تطور التكنولوچيا، حيث حلت محل سياحة الإبل والقوارب الشراعية، سياحة البواخر والقطارات، ثم سياحة السيارات والطائرات النفاثة، حتى وصلنا إلى سياحة عصر العولمة. عصر الكومبيوتر، وأفول الدولة وصعود الشركات متعددة الجنسيات ، فى مثل هذه السياحة الحديثة لايحتاج السائح إلى معرفة كلمة واحدة من لغة البلد التى يزورها، فهو لايدخل فى أى علاقة مع أهلها، ولا إلى معرفة قوانين الدولة وعاداتها ، فهو لا يكاد يتعامل مع الدولة ، بل ولا يحتاج حتى إلى أن يرى عملتها ونوع نقودها، فهو يستخدم بطاقات الائتمان التى لا تتطلب تبادل النقود.

إنها كما ترى سياحة بلا تلوث وبلا مشقة، ولكنها أيضاً سياحة بلا طعم ولا رائحة ، مثل الفنادق التى ينزل فيها هذا النوع الجديد من السياح، لايكاد يرى فيها السائح أكثر مما كان بإمكانه أن يراه فى بلده، ولا يكسب منها أكثر من زيادة درجة السمسرة فى بشرته. ولكن حتى هذا كان من الممكن أن يحصل عليه بتعريض جسمه لبعض الأجهزة الحديثة التى تبث الأشعة الملائمة، وبالدرجة المطلوبة بالضبط، دون أى حاجة لمغادرة منزله. ■

«وليمة لأعشاب البحر» و«ذاكرة الجسد»

روايتان متشابهتان فأين الأصل.. وأين الصورة؟!

بقلم: رجاء النقاش

●● في النصف الأول من سنة ٢٠٠٠ أثيرت ضجة كبيرة في مصر والعالم العربي كله حول رواية «وليمة لأعشاب البحر» للكاتب السوري «حيدر حيدر»، وكانت هذه الضجة دينية وسياسية أكثر منها ضجة أدبية. ولذلك اختفى صوت النقد الأدبي والفكري الخالص في هذه المعركة الصاخبة، والتي أوشكت أن تتحول الى قتال من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ●●

وفي مثل هذه الأجواء العنيفة يصعب الحديث في هدوء وموضوعية عن أية قضية، فقد تجاوز الأمر حدود المعقول، وذلك حين أصبح الصراع حول الرواية قائما بين طرفين: الأول هو الذي يعتبر الرواية إلحادا وكفرا وبذاءة، حتى أن الكاتب الذي أثار المشكلة وهو الدكتور محمد عباس نادى بالجهاد في مقالة له ضد الرواية وقال بالنص «... من يبايعني على الموت»، وكأن الدكتور عباس كان ذاهبا الى محاربة الصليبيين أو التتار، أو لعله كان ذاهبا الى تحرير القدس، أسوة بما فعله صلاح الدين بعد معركة حطين في يوليو «تموز» سنة ١١٨٧، وبذلك لم يكن هذا النداء العجيب الذي أطلقه الدكتور محمد عباس، يمكن أن يقنع أحدا بأنه ضد

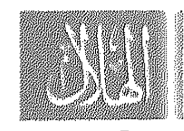


روايه كتبها كاتب أديب وأغضبت الدكتور عباس لأنه رأى فيها ما يمس الدين والعقيدة. والدفاع عن الدين والعقيدة واجب مقدس على كل مؤمن، ولكن هذا الواجب لا يمكن أن يصل إلى درجه النداء «بالمبايعة على الموت» بسبب كتاب من اليسير نقده وتفنيد ما ورد فيه والرد عليه بالحجة القوية والبرهان الساطع. والمبايعة على الموت لا تكون إلا فى معارك الجهاد الكبرى والمصيرية، أما فى «الخناقات» الصغيرة المحدودة فإن المبايعة على الموت.. خسارة ، لأن حجم الموضوع لا يستحق هذه الصرخة العالية وهذه التضحية الجسيمة، فإذا كان الدكتور محمد عباس يريد منا أن نبايعه على الموت من أجل كتاب واحد فيه خطأ من وجهة نظره.. فماذا يبقى لنا اذا هاجمنا اليهود يوما بقنبلة ذرية من قنابلهم المخزونة، والتى يبلغ عددها مائتين كما تقول أوثق المصادر!؟.

وجاء الرد على الدكتور محمد عباس ودعوته الى «المبايعة على الموت» بالدفاع المستميت عن رواية «الوليمة» لحيدر حيدر واتهام كل من يرى فيها خطأ فكريا أو أدبيا بأنه متطرف خارج على النظام وعدو لأمن بلاده. ولذلك «احتاس» أمثالى ممن يحبون التفكير فى هدوء وموضوعية وصفاء ذهن، ويحبون أن ينظروا الى الأشياء فى حجمها الصحيح، فلاذوا بالصمت، وانضموا الى حزب قديم مندثر من الأحزاب العربية هو حزب «المرجئة»، أى الذين «يرجئون» التعبير عن أفكارهم الى يوم الحساب العظيم ، حتى لايقعوا فى خطيئة الانضمام الى حزب من الأحزاب الفكرية المتصارعة فى هذه الدنيا الفانية! ولو لم انضم أنا وأمثالى الى حزب «المرجئة» فى هذه القضية الصاخبة، لأصابنا شر عظيم، اذا مدحنا الرواية قيل أننا من الملحدين، وإن وجهنا الى الرواية نقدا قيل إننا من المتطرفين والارهابيين. ولذلك قلنا لأنفسنا باللغة العامية الفصيحة .. وعلى ايه.. أسكت وخلاص!.

عاصفة أخرى!

ولم تكد العاصفة التى أثارتها رواية «حيدر حيدر» تهدأ، حتى هبت عاصفة أخرى حول رواية «ذاكرة الجسد» للكاتبة الجزائرية «أحلام مستغانمى»، وبالمناسبة فقد سألت بعض 'أهل العلم عن هذا اللقب الغريب الذى تحمله الكاتبة الجزائرية ، فقال بعض هؤلاء



العالمين ببواطن الأسماء، إن الاسم هو نسبة الى بلدة جزائرية لم أسمع بها اسمها «مستغانمي»، فالاسم هو من تلك الأسماء المنسوبة الى بلدان مثل «البغدادى» و«الحمصى» و«الطرابلسى» و«المنصورى» و«الطنطاوى» وغير ذلك من الاسماء. وأرجو أن يكون هذا التفسير لاسم «مستغانمي» صحيحا، أما اذا كان خطأ فأرجو أن يصححه لى من يعلمون الحقيقة، وأنا أقدم لهم اعتذارى من الآن، .. وأقدم الطاعة والولاء لكل من يعرف حقيقة أنا بها جاهل وغير عليم.

على أن الضجة الكبرى التى أثيرت حول رواية «ذاكرة الجسد» لم يكن فيها دين ولا سياسة، ولكنها ضجة أخرى من نوع غريب، وقد قامت كلها حول ما تردد على لسان الشاعر العراقي الكبير سعدى يوسف، ونفاه سعدى بعد ذلك، حيث قيل إن سعدى هو كاتب الرواية التى تحمل اسم «أحلام مستغانمى». ولا تزال هذه الضجة مستمرة، وأخبارها كادت تكون أعلى على أخبار «كامب ديفيد الجديدة» التى كانت منعقدة فى نفس الوقت بين الاسرائيليين والفلسطينيين فى أمريكا، والتى لم يأخذ فيها العرب بالحكمة المشهورة التى تقول . «لايلدغ مؤمن من كامب ديفيد مرتين»! فقد لدغنا من كامب ديفيد مرة فى أيام المرحوم السادات ومازلنا مصممين على أن نلدغ مرة أخرى فى أيام طويل العمر عرفات .. الذى ندعو له بالسلامة والنجاة .. من كامب ديفيد الثانية وكل كامب ديفيد قادمة فى المستقبل بعون الله .

وهكذا ثارت عاصفتان كبيرتان فى

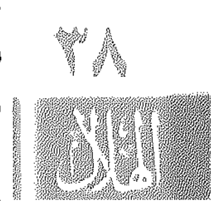
روايتان متشابهتان .. فأين الأصل وأين الصورة ؟!

وقت واحد تقريباً حول روايتين هما «وليمة لأعشاب البحر » و«ذاكرة الجسد» وشاء حظى الذى لا أدرى إن كان سعيدا أو هو شديد السوء، أن أقرأ الروايتين فى وقت واحد، فلم أكد انتهى من الصفحة الأخيرة فى رواية الوليمة حتى بدأت فى الصفحة الأولى من ذاكرة الجسد ، لأنى لم أكن قرأت الروايتين قبل ما أثير حولهما من عواصف عاتية .

التأليف السري !

وبعيدا عن المشاكل التى أثارتها الروايتان فى الدين والسياسة والتأليف السرى ، أى التأليف الذى يقوم به شخص ثم يظهر العمل باسم شخص آخر .. بعيدا عن هذا كله ... وبعيدا عنه كل البعد وليس «بعض» البعد ... بعيدا عن كل هذه المشاكل التى سوف أتحدث عنها أو عن بعضها على الأقل فى الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب وجدت نفسى أمام ملاحظة بدت لى عجيبة جداً وعلى ملاحظة لم تلفت نظر أحد قبلى ، ولكنها بدت أمامى ملاحظة صحيحة تماما .

هذه الملاحظة هى أن الروايتين متشابهتان إلى أبعد الحدود ، ويكاد هذا التشابه يكون تطابقا ، مع اختلافات فى الطلاء الخارجى ، أى فى الاسلوب



والتـعـبـيـر ... فـقـط لاغـيـر، مع بعض اخـتلافـات فكرية أخـرى. وسـوف أدخل إلى تفـصـيل هذه الملاحظة مـبـاشـرة، وسـوف يفـهـمنى تمامـا كل من قـرأوا الروايتين إذا فكروا فى المقارنة بينهما ، أما من لم يقرأ الروايتين أو قـرأ واحدة منهمـا فـقط ، فسـوف أحـرص على أن أكـون شـديد الوضـوح فى تسـجـيل التفاصيل ، حتى تبدو الملاحظة مفهومة للجميع ، سواء وافقوا عليها أو اختلفوا معى بعد ذلك

فـالروايتـان مـتـشـابـهـتـان إلى حـد التطابق أحيانا وهذه هى الأدلة .

أولا : الخلفـيـة العـامـة للروايتـين من أول صفحة فيهما حتى آخر صفحة هى أحـوال الجـزائر بعـد الاسـتـقـلال وبـعـد انتـهـاء نضـال المناضلين والشـهـداء فى ثورة الجـــزائر، ومـــا حـــدث فى ظل الاسـتـغـلال من تجـاوزات ومـحـاولات للتمسك بأسـبـاب النجـاح والكسب فى الحياة العمليه الجديدة، بعد أن أصبح عصر النضال والاستشهاد مجرد تاريخ. وهذه الخلفـيـة فى الروايـتـين واحـدة وأسـاسـيـه وهى «الجـو» العـام الرئيـسى الذى يملأ الروايتين بصورة كاملة .

ثانيا بطلة رواية الوليمة الأساسية هى «آسيا لخضر» وهى ابنة شهيد من شهداء التورة الجزائريه هو «سى العربى لحضر »، ولخـضـر هى - فيـمـا أظن - النطق العامى الكلمـة «الأخـضـر» وبطلة رواية ذاكرة الجسد هى أيضا ابنة شهيد جزائرى هو «سى الطاهر عبد المولى »، والمفـروض أن البطلة فى رواية «ذاكـرة الجسـد» اسمها أحلام ولكن بطل الرواية فى ذاكرة الجسد اختار أن يسمى بطلته باسـم «حـيـاة » لأسـبـاب يذكـرهـا فى الرواية ولا مجال للحديث عنها هنا .

وهكذا فـإن بطلة رواية وليـمـة وهى أسيا لخضر وبطلة رواية ذاكرة الجسد وهى أحـلام أو حـيـاة بنت سى الطاهر عبد المولى شخصيتان متشابهتان بل متطابقتان من حيث النشاة والتكوين ، فهما ابنتا شهيدين مهمين من شهداء الثورة الجزائرية ، وهذا الانتساب الى أب شهيد كان له تأثير كبير ومتشابه أيضا على حياة البطلتين فى الروايتين معاً .

ثالثـا. رواية الوليـمـة تتـركـز على الحديث عن مدينة جزائرية هى «عنابة» وهى المدينة التى يسـمـيـهـا الفرنسـيـون باسم «بون» ، ويسميها حيدر حيدر فى روايته باسم بونة، وعنابة مدينة معروفة تقع فى الجـزء الشـمـالى الشرقى من الجزائر على مقربة من الحدود مع تونس ، وتطل المدينة على البـحـر الأبيض المتـوسـط. ومـدينة «عـنـابـة» فى رواية الوليـمـة هى المكان الذى يتـعلق به بطل الرواية ويصـفـه ويـهـتم بكل ما يتصل به من تفـاصـيـل وتقـاليـد ومـقـاه وبشـر وشـواطئ، فعنابة إذن هى بطلة رئيسية وأساسية فى رواية الوليمة وعشق البطل الروائى لها وبحثه عن أسرارها الطبيعية والإنسـانية يملأ صـفـحـات الرواية التى تزيد على سبعمائة صفحة .

وفى المقـابل نجـد أن رواية ذاكـرة الجـسـد تجـعل بطولة المكان لمدينة جزائرية أخرى هى قسنطينة ، والتى تقع مثل عنابة فى الجزء الشـمـالى الشـرقى

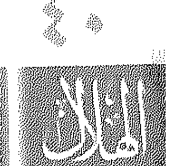
من الجـزائر على مـقـربة من الحـدود التونسية أيضا. والحديث عن قسنطينة فى رواية ذاكرة الجسد يعزف على نفس الأوتار التى تعزف عليها رواية الوليمة بالنسـبـة لمدينة عنابة ، مـثل العـشق للمدينة ومحاولة فهم أسرارها وتقاليدها والتـعلق العـاطفى بهـا والشكوى من التـحـولات التي طرأت عليـهـا بعـد الاستقلال. الروايتان تعزفان نغماً واحداً ، أحدهما فى حب مدينة عنابة والثانى فى حب مـــدينة قـــسنطينة مع بعض السخط والغضب على المدينتين أحيانا ، وهو سـخط وغضب صـادران عن الحب وليس عن الكراهية .

رابعا: بطل رواية الوليمة هو ثورى سابق من العراق ، خرج من ارتباطاته الثوريه القديمة بجراح عدبدة فى نفسه ، واضطر بعد انهيار عمله الثورى إلى أن يحتـرف مـهنة أخرى هى مـهنة مـدرس عـربى فى مـدينة عنابه. وبطل ذاكـرة الجسد هو ثورى سابق ابضا كان من المقاتلين فى صفوف الثورة الجزائريه ، وفقد ساقه خلال مرحلة النضال ، وبعد الاستقلال اتجه إلى مهنة أخرى مختلفه هى مهنة الرسم وكانت لديه موهبة كامنة فيـه ، ولم يكتشـفـهـا إلا بعـد أن تم بتر ساقه بسبب إصابته فى حرب التحرير ، فـاتجـه إلى الرسم ليـحـقق فـبـه نفـسـه ويلتمس فيه نعوبضا عن آلامه.

والبطلان المتـشـابهـان فى رواية الوليمة ورواية ذاكرة الجسد يبكيان على الماضى الثورى الذى ضـاع ، وينقـمـان على الحـاضـر الذى اخـتلف تمامـا مع أخلاق الثوار وأحلامهم ومبادئهم ، ففى الحـاضـر يبـحث الناس عن مـصـالحـهم ويتنافسون على المكاسب ، والروايتان معاً تتفقان تماما فى نقد الواقع الجزائرى بعد الاسـتـقـلال اتفـاقـا يثـيـر الدهشـة لقـوة التشابه فيه بين الروايتين .

خـامسـا : قـصة الحب الأسـاسـبة فى رواية الوليـمـــة هـى بين البطل الثـورى السـابق وبين البطلة أسـبا بنت الشـهـيد الجزائرى «سى العربى لخضر » ، وقصة الحب فى رواية «ذاكـرة الجسد » هـى بين البطل الثورى السابق وبين البطلة أحلام أو حـيـاة بنت الشـهـيد الجـزائرى «سى الطاهر عبد المولى » .

سـادسـا : تفشل قصة الحب فى رواية الوليـمـة بسـبب أحد التـجـار المنتـفـعين بالاسـتـقـلال الجـزائرى ، والذين حـقـقـوا أرباحـا طائلة من أعـمـالهم التـجـارية واتصـالاتهم الوثيـقـة برجـال السلطة وهو «يزيد ولد الحاج» الذى تصفه الرواية بأنه الغول مرة وبأنه هتلر مرة أخرى ، وتقول عنه الرواية إنه استمد طغيانه من رأسماله ، وبهذا المال كان يخيل إليه أنه يحرك دفة العـالم ويوقف الأرض عن دورانها سـاعـة يشـاء » . وكـان «يزيد ولد الحـاج » هذا متزوجاً من أم البطلة المحبوبة بنت الشهيد



حيدر حيدر



احلام مستغانمى

سى العربى لخضر، وذلك بعد استشهاد الأب ، وحاجة الأم إلى من يحميها وبرعاها . وقد غضب «يزيد ولد الحاج» التاجر الرأسمالى الفاسد على العاشق بطل الرواية «مهدى جواد» فأبلغ سلطات الأمن بوشايات سياسية ضده مما جعل سلطات الأمن تقرر طرده من الجزائر، مما أدى الى فشل قصة الحب بين الثورى السابق فى رواية «الوليمة» وبين حبيبته بنت الشهيد الجزائرى.

وبنفس الطريقة انتهت قصة الحب بين بطل رواية «ذاكرة الجسد» وبين حبيبته بنت الشهيد الجزائرى «سى الطاهر عبدالمولى»، فقد انقض عليهما وهما فى قمة الحب واحد يشبه «يزيد ولد الحاج» تماما، واختطفها من حبيبها بطل الرواية «خالد» وتزوجها، والزوج الذى قضى على الحب بين البطل والبطلة نصفه رواية «ذاكرة الجسد» بأنه «رجل الصفقات السرية والوجهات الأماميه كان رجل العملة الصعبة والمهمات الصعبة. كان رجل العسكر ، ورجل المستقبل». وهذا الوصف لا يختلف فى مضمونه عن وصف رواية «الوليمة» ليزيد ولد الحاج . فهما شخصان متشابهان تماما، ووصفهما فى الروايتين يكاد يتطابق فى الالفاظ ، ودورهما فى الروايتين واحد وهو الانقضاض على قصة الحب الأساسية فى الروايتين .

سابعا : البطل المثالى فى رواية الوليمة هو «خالد أحمد زكى»، وهو شيوعى كان يعيش فى لندن، ولكنه عاد الى العراق ، وقرر أن يحمل السلاح ليغير الدنيا والمجتمع «بالقوة»، وهرب مع مجموعة صغيرة الى منطقة «الأهوار» فى جنوب العراق، وقد أصبح «خالد أحمد زكى» هو المسئول السياسى عن «القاعدة المسلحة» الصغيرة التى تم انشاؤها فى منطقة «الأهوار» وكان يقول لزملائه «علينا أن نضغط من هنا لنولد بقوة البنادق بعيدا عن انتهازية المدن». وقد انتهى «خالد أحمد زكى» الى الموت فى معركة مع القوات الحكومية.

وفى رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمى فدائى ولكن من نوع آخر من حيث الشكل الخارجى» ومع ذلك فهو شبيه ببطل «الوليمة» من حيث التفكير والاتجاه والاستعداد للموت من أجل

روايتان متشابهتان.. فأين الأصل وأين الصورة؟!

القضية التي يؤمن بها . هذا البطل في رواية «ذاكرة الجسد» هو الشاعر الفلسطيني «زياد»، وهذا الشاعر كان يزور فرنسا ويعيش فيها بعض الوقت، كما كان «خالد زكي» في رواية الوليمة يعيش في لندن، وكان زياد بطل «ذاكرة الجسد» مؤمنا بالمقاومة المسلحة ولا يرى سواها حلا لقضيته، وسوف نجد وصفا تفصيلياً لموت خالد زكي في «رواية الوليمة» وهو يقاتل القوات الحكومية، وذلك في الفصل الذي عنوانه «نشيد الموت» في هذه الرواية، ولكننا لن نجد في رواية «ذاكرة الجسد» وصفا تفصيليا لموت الشاعر الفدائي الفلسطيني زياد الا أن ملامح «خالد» في رواية الوليمة وملامح الشاعر الفدائي الفلسطيني زياد في رواية «ذاكرة الجسد» هي ملامح واحدة تماما، فهما معا يؤمنان - في هدوء وثقة - أنه لا حل سوى البندقية والاختلاف الوحيد بينهما هو في القضية التي يؤمن بها كل منهما فبطل الوليمة مؤمن بالشيوعية، وبطل «ذاكرة الجسد» مؤمن «بتحرير فلسطين» أما أسلوب العمل والكفاح فهو أسلوب واحد يعتمد على السلاح ولا شيء غير السلاح .

تشابه في الشخصية الروائية

وعندما نقرأ رواية «الوليمة» لحيدر حيدر ورواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي سوف نجد تشابها في «الشخصية الروائية» بين بطل «الوليمة» «خالد زكي» وبين بطل «ذاكرة الجسد» الشاعر الفدائي الفلسطيني «زياد». وقد كنت أود أن أنقل أجزاء من وصف حيدر حيدر لشخصيته الروائية «خالد زكي» لولا أنه يتحدث عنه في فصل طويل يستغرق ٥٤ صفحة، ومن الصعب اقتطاع أجزاء منه، لأن التفاصيل فيه كثيرة جدا، وهي متفرقة على صفحات ذلك الفصل الطويل الذي عنوانه - كما أشرت - هو «نشيد الموت». ولكننا نجد في رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي نوعا من التركيز، ويمكننا أن نقف أمام جزء منها، في وصف الفدائي الشاعر «زياد»، هو وصف يشابه تماما من الناحية النفسية والفكرية شخصية «خالد» في رواية «الوليمة»، فهذا الوصف للبطل الثوري المثالي في «ذاكرة الجسد» يكاد يكون ملخصا دقيقا لوصف البطل الثوري المثالي في رواية «الوليمة» أيضا، ففي روايه «ذاكرة الجسد» نقرأ في صفحة ٢٤٧ على لسان الراوي، بطل الرواية الأصلي، ما نصه :

«مات زياد ..

وهاهو خبر نعيه يقفز مصادفة من مربع صغير في جريدة الى العين.. ثم الى القلب.. فبتوقف الزمن، يتكور النبأ غصة في حلقي فلا أصرخ .. ولا أبكي . أصاب بشلل الذهول فقط، وصاعقة الفجيعة.

كيف حدث هذا؟.. وكيف لم أتوقع موته ونظراته الأخيرة لى كانت تحمل أكثر من وداع؟».

«مازالت حقيبته هنا، فى خزانة غرفته، تفاجئنى عدة مرات فى اليوم، وأنا أبحث عن أشيائى. لقد عاد هناك، أى من باريس الى المخيم الفلسطينى فى لبنان أو غزة، دون أمتعة أكان يعرف أنه لن يحتاج الى كثير من الزاد لرحلته الأخيرة، أم كان يفكر فى العودة الى باريس ليستقر هنا ويعيش الى جوارك ـ اى الى جوار «حياة»بطلة الرواية ـ كما كنت أتوهم تحت تأثير غيرتى؟ لم أسأله يومها عن قراره الأخير. لقد سكن الصمت بيننا فى الأيام الأخيرة، وأصبحت أتحاشى الجلوس اليه، وكأننى أخاف أن يعترف لى بأمر أخشاه أو بقرار أتوقعه، لم يقل شيئا وهو يسافر محملا بحقيبة يد صغيرة. قال لى معتذرا فقط : «ألا يزعجك أن أترك هذه الحقيبه عندك. أنت تدرى أن مضايقات المطارات كثيرة هذه الأيام، ولا أريد أن أنقل أشيائى مرة أخرى من مطار الى آخر..» .. ثم أضاف بما يشبه السخرية « .. خاصة ألا شىء ينتظرنى فى المطار الأخير » .. مازلت أذكر قوله مرة : «لنا فى كل وطن مقبرة.. على يد الجميع مقتلنا .. باسم كل الثورات . وباسم كل الكتب ».

هذا الوصف لشخصية الشاعر الفدائى الفلسطينى «زياد» فى رواية «ذاكرة الجسد» يكاد ينطبق تماما على شخصية «خالد زكى» فى رواية «الوليمة»، فهما شخصيتان متشابهتان فى كل شىء الا فى الهدف الذى من أجله يناضلان ويقاتلان ويموتان فى النهاية. وإن كان من الانصاف الأدبى أن نشير فى هذه النقطة بالتحديد، الى أن وصف «حيدر حيدر» لموت بطله «خالد زكى»، كان أكثر حرارة ومرارة من وصف أحلام مستغانمى لموت الفدائى «زياد» وذلك لأن «حيدر حيدر» وصف حادث الموت نفسه وروى وقائعه بالتفصيل لحظة بعد لحظة، فكأننا نشاهد هذا الموت أمام عيوننا منذ كان «خالد زكى» يقاتل بسلاحه الى أن بدأ جسمه ينزف من جراحه، حتى وصل فى النهاية الى أنفاس لاهثة، هى الأنفاس الأخيرة التى جاء بعدها الموت. بينما أحلام مستغانمى قد وصفت بطلها الشهيد من بعيد، فجاء وصفها لموته هادئا رقيقا الى حد البرود .

ثامنا . ننتقل الى عنصر تشابه آخر بين رواية «الوليمة» ورواية «ذاكرة الجسد» ففى رواية «الوليمة» يتردد اسم الكاتب الجزائرى «مالك حداد» الذى كان حزينا متألما لأنه لا يكتب بالعربية ، وهذا مقطع مما جاء فى رواية الوليمة عن مالك حداد وذلك فى وصف حيدر حيدر لأحد اللقاءات بين بطل روايته وهو عراقى يعمل مدرسا لغة العربية وبين البطلة هى جزائرية ابنة شهيد جزائرى كما سبقت الإشارة يقول حيدر حيدر فى روايته صفحة ٣٤ .

فى فسحة الاستراحة بدأ حوارهما حول الحالة اللغوية وصعوبة التفاهم بين العرب المشارقة والجزائريين ، وسألها إن كانت تقرأ أدبا بالفرنسية فقالت بأنها

روايتان متشابهتان..
فأين الأصل وأين الصورة؟!

قرأت « الغريب» لكامو، و رواية مالك حداد : «سأهديك غزالة» كما قرأت «الأحمر والأسود » لستاندال و«الشرط الإنساني» لمالرو وسألته إن كانوا مترجمين للعربية ، وعندما قال بأن مالك حداد يشعر بأن الفرنسية منفاه قالت : إنها منفانا جميعا نحن العرب الجزائريين واستطردت مدهوشة : هل قرأت مالك حداد ؟وقال :«مترجما إلى العربية »

هذا بعض ما جاء في رواية «الوليمة» عن مالك حداد أما في رواية ذاكرة الجسد فإن «مالك حداد » يقابلنا ابتداء من الصفحة الأولى في الرواية وبالتحديد في الأهداء ، حيث تقول الكاتبة عن مالك حداد ·

ابن قسنطينة الذى أقسم بعد الاستقلال ألا يكتب بلغة غير لغته ، فاغتالته الصفحة البيضاء ، ومات متأثر بسلطان صمته ليصبح شهيدا اللغة العربية ، وأول كاتب قرر أن يموت صمتا وقهرا وعشقا لها

ويتردد اسم مالك حداد بعد ذلك في الرواية عدة مرات .

فشخصية مالك حداد ومنفاه من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، هما هاجسان متشابهان إلى حد التطابق بين رواية الوليمة ورواية ذاكرة الجسد.

تاسعا: نصل بعد ذلك إلى عنصر تشابه آخر بين الروايتين هو الجو العام الذى تتحدث عنه الروايتان معا ، فهو «جو» واحد ، إذ أن الروايتن تقومان على نقد الواقع العربى كله منذ السبعينات إلى الآن ، وتركز الروايتان على نقد الواقع الجزائرى بالتحديد ، ولكنهما لاتنسيان أبدا ربط نقدهما للواقع الجزائرى بالواقع العربى كله، وقد جاء في رواية «ذاكرة الجسد » صفحة ٢٨ على لسان الراوى هذه العبارة :

«... لا أذكر من قال : يقضى الإنسان سنواته الأولى فى تعلم النطق ، وتقضى الأنظمة العربية بقية عمره فى تعليمه الصمت ». وهذه النغمة الناقدة سائدة فى رواية ذاكرة الجسد ، وهى سائدة أيضا فى روابة الوليمة وإن كانت الوليمة تضيف الى نقدها للجزائر نقدا للعراق ونقدا للمصريين ، وهذا النقد المحدد لقطربن عربيين آخرين غير الجزائر لا وجود له إلا فى الوليمة وحدها ، ولكن السخط على الأوضاع العربية منذ السبعينات إلى الآن بملأ الروايتين بصورة متشابهة حتى فى التفاصيل إلى حد يثير الدهشة .

عاشراً : وأخيرا فهناك تشابه شكلى ولكن لابد من تسجيله ، وهو أن بطل رواية ذاكرة الجسد وراوبها اسمه خالد والبطل الثانى من وجهة نظر حيدر حيدر فى رواية الوليمة اسمه خالد أيضا. وهو تشابه شكلى كما قلت ولكنه مع وجود عناصر التشابه التسعة السابقة لابد أن



يلفت النظر ولابد يشير الى أن هناك علاقة قوية بين الروايتين حتى فى العناصر الثانوية مثل أسماء الأبطال ؛.

وهذا التشابه الذى قدمنا عليه عشرة أدلة وبراهين ، ويقودنا إلى السؤال الأساسى · أين الأصل وأين الصورة ؟ وليس أمامنا من سبيل الى الإجابة عن هذا السؤال إلا بالنظر الى تاريخ كتابة الروايتين ، فرواية الوليمة لحبدر حيدر محدد فى آخر صفحة منها وهى صفحة ٦٩٠ الطبعة المصرية أنها مكتوبة بين سنتى ١٩٧٤ و ١٩٨٣ بين الجزائر وبيروت وقبرص ». أما رواية ذاكرة الجسد فقد جاء فى آخر صفحة منها ، وهى صفحة ٤٠٤ طبعة دار الآداب اللبنانية وهى الطبعة الثانية عشرة «أن الكاتبة أحلام مستغانمى فد أنهت كنابة روايتها فى باريس فى تموز «يولبو » سنة ١٩٨٨ .

بهذا ينحسم الموضوع فتكون رواية حيدر حيدر هى التى صدرت أولاً وتمت كتابتها قبل رواية أحلام بخمس سنوات وبذلك تكون الإجابة عن السؤال المطروح سهلة وبسيطة وهى . أن رواية حيدر هى «الأصل » ورواية أحلام هى «الصورة» .

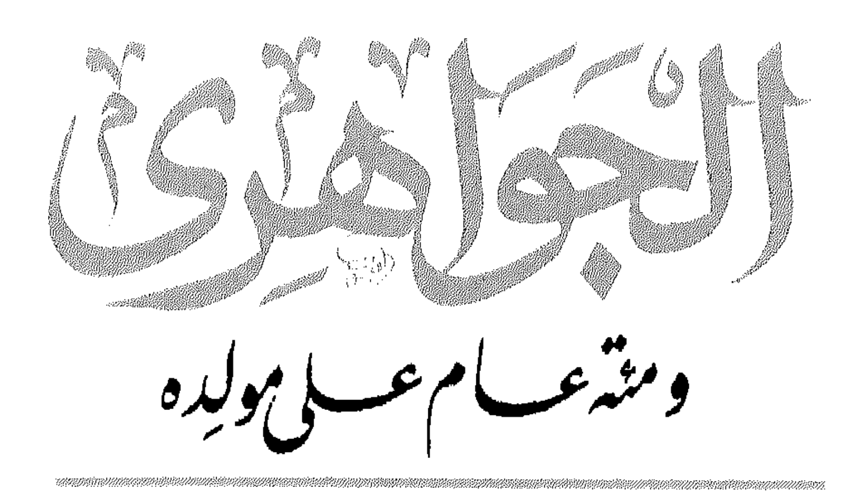
ولكننا لو وقفنا عند حدود هذه الإجابة فسوف تواجهنا أسئلة دقيقة أخرى منها. لماذا بقيت رواية «حيدر» التى انتهى من كتابتها سنة ١٩٨٣ دون أن تلفت الأنظار حتى سنة ٢٠٠٠ عندما أثيرت حولها ضجة فى مصر تتصل باتهام الكاتب بالاساءة الى العقيدة الدينية وامتلاء الرواية بعدد لا يستهان به من البذاءات اللفظية والجنسية؟.

وفى المقابل كانت رواية «أحلام مستغانمي» ناجحة ولافتة للأنظار منذ أول طبعة لها، وأصبحت فى مقدمة الروايات العربية الناجحة نجاحا استثنائيا مثل «أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ، و«موسم الهجرة الى الشمال» للطيب صالح، و«مدن الملح» لعبد الرحمن منيف .. لماذا لم تتعرض رواية أحلام مستغانمى للمصادرة والاعتراض العنيف كما نعرضت رواية حيدر حيدر؟ واذا كانت الروايتان متشابهتين الى الحد الذى أقول به، فكيف أفلتت «أحلام» من مصير حيدر حيدر، وكيف استطاعت الكاتبة الجزائرية أن نقول منذ اللحظة الأولى للجميع «أنا هنا»، ولقيت ترحيبا واسعا من القراء والنقاد، ولم يستطع حيدر حيدر أن يقول «أنا هنا» الا بعد ١٧ سنة من كتابة روايته وهى قلب عاصفة يتعرض فيها للقذف بالطوب والحجارة واتهامات عديدة تمتد من الكفر الى البذاءة وقلة الحياء؟.

هذه وغيرها أسئلة كثيرة دقيقة تحتاج الى نظرة هادئة فى كل رواية على حده، وهذا ما سوف نحاوله. ■

---

* هذا المقال جزء من كتاب «قصة روايتين – دراسة نقدية وفكرية لرواية ذاكرة الجسد ورواية وليمة لأعشاب البحر» – يصدر عن دار الهلال



بقلم
د. الطاهر أحمد مكى
عضو المجمع اللغوي

أعظم الشعراء من نستطيع أن نرسم صورة لمسيرة حياته من شعره، وأن نؤرخ لأمته من قصيده، وأن نرى عصره، في صعوده وهبوطه، وتقدمه وتخلفه من خلال ديوانه، وبهذا المعنى يكون الجواهري شاعر العربية الأكبر في النصف الثاني من القرن العشرين، كوكب العروبة المحلق في سماء الفن.

شغل ديوانه ثمانية مجلدات كبار، تضم قرابة ألفي ونصف من الأبيات، هي من أبدع ماعرفت العربية في تاريخها الأدبي الطويل، ولايدانيه في عظمته هذه غير شاعرين، أحدهما استعجل الرحيل إلى الآخرة فسبقه إليها: نزار قباني، وثانيهما احتقر الحياة بعده فلحق به بعد شهور: عبد الله البردوني ولو لم يكن في تاريخ أدبنا العربي المعاصر غيرهم لكفونا فخرا، ويصعب على من يعرفهم فنانين جيدا، وأحسب أنني واحد منها، أن يضع أيا منهم في المقدمة، إنهم كما قالت فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، وكان لها إثنا عشر ولدا، وسئلت أيهم أفضل، فترددت، واحتارت، وقالت ثكلهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة، لا يدرى أين طرفاها.

وكذلك شعراؤنا الثلاثة، وإن تمايزوا أنغاما ومشاعر وهموما، فلكل واحد مزاجه وذاته وبيئته.



شهرة فى الصغر

مع نهاية القرن العشرين تكون قد مرت على مولد الجواهرى مئة عام، فقد جاء إلى الحياة عام ١٩٠٠ ، وربما قبلها أو بعدها بعام ، وفى أشعاره مايدعم كل اتجاه، يقول فى قصيدة سينية نظمها عام ١٣٤٥ هـ : ١٩٢٤م.

طبقت شهرتى البلاد وما
جاوز عمرى عشراً وسبعاً وخمسا.

وفى قصيدته الرائعة التى توجه بها إلى الشعب المصرى، فى المؤتمر الثقافى الذى دعت إليه جامعة الدول العربية عام ١٩٥١.

ركضت بى الخمسون لا حلباتها
توقى العثار ولا العنان يقصر
طه(١) ، وما جزعاً أبث شكايتى
فأنا الهزبر المستميت القسور
أشكو إليك لأن مثلك عارف
مثلى ، وليس لأنك المستوزر

● الجواهري شاعر كلاسي طويل النفس اكثر قصائده تعدت المائة بيت.

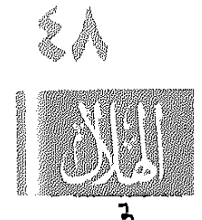
الرحيل إلى مصر

وحين حاصرته السلطات العراقية، وعطلت صحيفته وضيقت عليه الخناق حتى فى الرزق ، عزم على الرحيل إلى مصر ، وذهب إلى أمه عام ١٩٥٠ يستودعها ، وقد اعتزلت الحياة فى النجف الأشرف بعد استشهاد ابنها جعفر، وحين فارقها دار بخاطره أنه قد لايراها ثانية فبكا، وانثال شعره بأبيات باكيات.

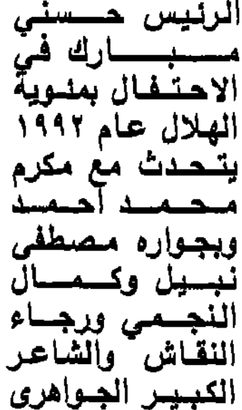
حججت إليك والدنيا تلاقى
عليك بكل قاصمةٍ عقامِ
....
وأمات المطامح فى ضلوعى
حواشد يضطربن من الزحام
وطارت بى على الخمسين ذكرى
أقلتنى إلى عهد الفطام

وفى براغ غريبا ، نشر عام ١٩٦٨ قصيدة يقول فيها :
عشرون طالت ، حيث مرت قبلها.
خمسون وهى قصيرة الأرقام

بقى أن نشير أن المؤرخين بعيدا عن شعره، منهم من بجعل مولده ١٨٩٨ ، أو ١٩٠٠ أو ١٩٠٣، وكان الجواهرى،







الرئيس حسني مبارك في الاحتفال بمئوية الهلال عام ١٩٩٢ يتحدث مع مكرم محمد أحمد وبجواره مصطفى نبيل وكمال النجمي ورجاء النقاش والشاعر الكبير الجواهرى

وبخاصة بعد أن تقدمت به السن ، يحذف من عمره سنوات، فكان فى جواز سفره ١٩٠٧.

●●●

فى النجف الأشرف طرق الجواهرى باب الحياة لأول مرة ، وكانت مدينة العلم الدينى المنقطعة النظر، وفى الأدب والشعر نادره النوادر، وأعجوبة الظواهر، يعنى أهلها بقول الشعر وسماعه والتحاور حوله ونقده ، عنايتهم بالحياة اليومية من طعام وشراب. وفى بيت عريق النسب، كريم المحتد، ولأب قوى الشخصية، حديدى المزاج، أنوف غضوب، سخى كريم، شاعر مجيد، ولكن ميله إلى الفقه كان أغلب ، وكلما تقدم في مدارج العلم الدينى ازداد ميلا إلى الفقه، وعزوفا عن الشعر، إلى أن هجره بآخره.

رعاية منذ الصغر

كان مهدى ثانى أخوين هو أصغرهما، نشأ فى رعاية والد يرى فيه نجابة فيحرص عليه، وأم ترى فى حب الأب تحفظا فى التعبير، فتعوض الإبن زيادة فى التدليل ، وعبدة تملكها الأسرة مهمتها أن ترعاه ولا تفارقه، وكانت «تفاحة» ، وهذا اسمها ، تجعل من الطفل متنفسا لكل مشاعرها امرأة، تداعبه وتؤانسه، فيستجيب لها ويطمئن، تقص عليه الكثير من الحكايا والأساطير ، تزجها بماضيها المر، كيف بيعت وكيف اشتريت، وكيف يفارق الأطفال آباؤهم بلا وداع ، وتتعثر الأسرة فى



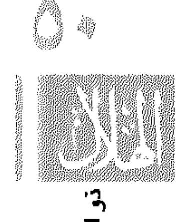
أركان الدنيا الأربعة ، لايتلاقون بعدها أبداً، وهم على قيد الحياة، ولا يعرف أحدهم أين انتهى المطاف بالآخرين، ويغلبها الوجد، ونفيض بداخلها المشاعر، فيجرى الدمع على خدبها غزيراً، ثم تعود إلى واقعها ، وتتذكر ألا فائدة فى التذكر أو البكاء، فنحمد الله على أنها فى بيت قوم طيبين. كل ذلك ، والطفل يسمع ، وذاكرته تختزن، فإذا شب عن الطوق بدأ يفكر ويقارن، ويأسى لواقع خادمته ونظرائها المساكين.

●●●

فى بيئة محافظة كالنجف الأشرف، ماذا يتعلم الأطفال فى أولى خطاهم؟ يحفظون شيئاً من القرآن على يد «الملة»، وهى سيدة تتعهد الأطفال بحفظ السور القصار، ثم يكملونه حفظا فى الكتاب، فإذا ختم القرآن ، وكتب وقرأ ، وحفظ كثيراً من نهج البلاغة للإمام على ، وقطعاً من «الأمالى» لأبى على القالى ، وقصائد من شعر المتنبى، وقد برع الجواهرى فى كل هذا ، وجاز الامتحان، وصار مثلا وأعجوبة فى مدينة تتنفس الشعر حفظا وفهما ورواية ونقدا ، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره . ويدرك الصبى هذا، فيهتز عجبا، وينتشى زهوا، ومن يملك هذه القدرات مكانة حلق العلم فى النجف، يدرس النحو والصرف ، يبدأ بالأجرومية للصنهاجى، و«قطر الندى» لابن هشام، و«شذور الذهب فى شرح الألفية والفلسفة والمنطق» ، وكانت البلاغة أحب المواد إليه، وأقربها إلى مزاجه ، وبراها جزءا من نفسه، فهى - حتى فى أسوأ أحوالها ، قريبة من الشعر وجل أمثلتها منه.

● كان الجواهرى شاعر العروبة دون منازع، وشغلت مصر مساحة واسعة من ابداعه

لم نر النجف مثل هذا الطالب فى ذكائه،وقوة ذاكرته، وفى خروجه على تقاليدها العلمية أيضاً. فالعهد بأمثاله أن يواظبوا على الحضور، وأن يتدرجوا فى التلقى، أما هو فكان يحضر وقت يشاء، ويتنصل بين الأساتذة على هواه، مرة فى أسفل السلم وأخرى فى أعلاه، يحضر مرة ويتغيب عشرات. ولم يعترض أحد لأن قبول ولد فى مثل سنه مخالف للقواعد أصلا، ومع تقلبه على حلق الدرس المختلفة، أمام علماء يتفاوتون علماً ومواد، أدرك ما عليه رجال الدين من قساوة، وما هم فيه من شح وحب للمال، ورأى أن أسرته تعيش حياة ضنكة، رغم وجاهتها الدينية والاجتماعية والعلمية، وأن كثيرين غيرها، ممن يتعاطون الشعر خاصة، فى حالة أفضل ، فمال عن دراسة الدين ورجاله، ولم يعد راغباً أن يكون فقيها أو أصوليا أو محدثا، فماذا جنى أبوه من الفقه، لعله لو واصل انشاد الشعر، لكان أيسر حالا، وللشعراء من المنزلة العالية فى وطنه ما



للفقهاء، فبدأ الشعر يستفزه أكثر، ويسد أمامه الطريق إلى آية رغبة آخرى، ويحسن بأنه ليس أهلا لسواه .

●●●

من حيث يدرى ولا يدرى، بدأ وهو فى العاشرة من عمره ينظم البيت والبيتين، وحين اطمأن إلى هاجسه وجد فى نفسه الشجاعة ليقرأ مانظم على بعض الأدباء الشادين، فوجد منهم سخرية استحالت عقدة، أورثته حذار ، فراح ينظم لنفسه مع نفسه ، حتى إذا اطمأن تماماً بدأ يخرج منها، ويطلع أبياته على من يستضعفهم من أصحابه ، وكلما ازداد تمكنا ازداد اطمئناناً، وفى السادسة عشرة من عمر طغت الكلمة على قلبه ولسانه، فبدأ يقرأ شعره فى أوساط النجف الأدبية ، وبدأ الناس يتعرفون عليه شاعرا، وقد ضاع الشعر الذى نظمه فى البدايات لم يحفظه، ولم يحتفظ به أحد، لأنه عادى أو ضعيف فيما أرى ، لا يجتذب المعجبين ، ولا يفرض نفسه على الحافظين، ولم ينشره فى مجلة أو جريدة عراقية لأن طريقه إليها لم يكن سهلا ، وصحافة القاهره وكانت قبلة كل شاعر أو كاتب أو ناقد في بغداد، كانت وقفا على المشاهير. ولم يتيسر له أن ينشر شيئاً من شعره فى وطنه إلا فى يناير ١٩٢١ ، حين نشرت له صحيفة بغداد قصيدتين مرة واحدة.

ولما نضج انفتح على واسع من المعارف الجديدة فى الأدب والنقد والفكر والشعر تحملها إلى النجف الأشرف الجرائد والكتب والمجلات التى تطبع فى القاهرة ، وكانت قد سبقت إلى كثير منها، لا يعرفه غيرها من العواصم العربية فى تلك الأيام .

إلى جانب ماقرأ ودرس كان رحالة ، جواب آفاق ، لايكاد يستقر فى مكان ، والحياة كتاب مفتوح، ومن كانت ثقافته من الورق وحده، أو الحرف دون غيره، قد يصبح مفكراً جيداً ، ولكن يندر أن يكون مبدعاً عظيماً. أقام فى أوربا الشرقية ، أيام

الجواهرى يلقى شعره فى الندوة الشعرية التى أقيمت بدار الأوبرا احتفالا بمرور مائة سنة على صدور الهلال وامامه حشد كبير من كبار المثقفين العرب والمصريين



أن كانت شيوعية أعواماً، تنقل بين مدنها المختلفة، براغ، وموسكو، ووارسو، وبرلين الشرقية، وزار فرنسا وإيطاليا وإنجلترا، وألقى ركابه في مصر عامين، وتردد على إيران وتركيا وتونس والمغرب ، واستقر في سوريا عاما وبضع عام، وفي كل بلد تأثر بحدث، أو أثار قضية، وقال فيها شعرا، وأخيرا آن للمجهد أن يستريح، وللمسافر أن يؤوب، فعاد إلى بغداد آخر عام ١٩٦٨، وطالما تغنى بها ، وغنى لها ، أنهارا وطبيعة وبشرا وثورات وأمجاد:

أرح ركابك من أين ومن عثر
كفاك جيلان محمولاً على خطر
كفاك موحش درب رحت تقطعه
كأن مغّبره ليلاً بلا سحر
عريان يحمل منفاراً وأجنحة
أخفُّ ما لم من زاد أخو سفر

الجواهرى عربى الدم واللسان، شيعى المذهب، إنسانى النزعة قبل ذلك كله، لم يقف بإبداعه عند الحدود الوطنية الضيقة، أو العرقية المنشنجة، أو المذهبية الدينية، وإنما اتسع شعره لكل البشر، وأطل على الكون من عل، ولم ير غير الإنسان، يألم لتعاسته وشقائه ، ويدعو إلى وئامه وتآخيه:

أنا شاعر يبغى الوفاق موحِّد
بين الشعوب سبيله الإرشاد
ما الفرس والأعراب إلا كفتا
عدل ولا الأتراك والأكراد
لم تكفِنا هذى المطامع فرقة
حتى تفرق بين الأحقاد
ألغات هذا الشرق سيرى للعلى
جنبا لجنب رافقتك الضاد

● استخدم الجواهري الفكاهة والنقد اللاذع في حث الشعوب على الثورة في اوزان سهلة الحفظ

كان يسارى النزعة، بدعم كل دعوة إلى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وناضل عضوا فاعلا فى حركة «مؤتمر السلام العالمى»، وكان العربى الوحيد الذى حضر أول مؤتمر له عقد في بولونيا عام ١٩٤٧، وكان العربى الوحيد ، وكان الدكتور طه حسين قد دعى للمؤتمر أيضاً، ولكنه لم يذهب ، ربما لأن الغرب فى ذلك الوقت، كان يقاوم بشدة هذه الحركة، ويراها منظمة شيوعية، وفى هذا المؤتمر التقى بالشاعر العالمى الكبير بابلو نيرودا، وهو من شيلى، وتزاملا عضويته طوال حياتهما، وكان الشبه بين إبداعهما قوياً، فكرا ومنحى وبناء،

ويصلحان موضوعا لدراسة مقارنة جيدة على المذهب الامريكى، فى انتظار من ينهض بها. كلاهما تبنى القضايا الاجتماعية، وقضايا التحرر، والحركات الثورية، بالنصيب الأوفر من إبداعه، وكان المناضلون من أجل حياة كريمة موضع إعزازهما وتقديرهما ، أيا كان وطنهم أو لونهم أو جنسهم، لقد أنشد الجواهرى أروع قصائده فى جمال الدين الأفغانى، حين مر بأرض العراق رفانا، فى طريقه إلى وطنه أفغانستان ، وكلاهما نظم أكثر من قصيدة فى تحية جيوش الاتحاد السوفييتى فى نضالهما ضد النازية، وكوريا الشمالية فى كفاحها ضد الإمبرياليه الأمريكية، ودعم الجواهرى جهاد الشعوب الإسلامية والعربيه، اندونيسيا ، والمغرب والجزائر واليمن، والخليج العربى، ومن هذا الجانب كانت قصائده الثلاث فى إكراد العراق، نظم الأولى عام ١٩٧٠ بمناسبة إحلال السلام فى ربوع كردستان، وإقرار الحقوق القومية للشعب الكردى، وفى المقدمة منها الحكم الذاتى، وأذاعها الشاعر بنفسه من محطتى الإذاعة والتليفزيون العراقية.

يوم الشمال وأنت من تطلابى
وإليك من عشرين كان خطابى
لم تزو عن عينى رواك ولا خلت
شفتاى من نغم ومن تطراب
قد كنت منك - ولست أبرح - قطعة
وهواك ظلّ على المدى من دابى

وقصيدتان أخريان لم تضمهما اللجنة العراقية التى أشرفت على نشر الديوان إليه، رغم شهرتهما، أولاهما مطلعها

قلبى لكردستان يهدى والضم
ولقد يجود بأصغريه المعدم

ومطلع الثانية

سلِّم على الجبل الأشم وأهله
ولأنت تعرف عن بنيه من هم
شعب دعائمه الجماجم والدم
تتحطم الدنيا ولا يتحطم

لقد ظل الجواهرى متعاطفا مع الأكراد، حقوقهم ومطالبهم، ومدافعاً لايكل عن الأخوة العربية الكردية ، منذ وقت مبكر، وظل على موقفه هذا طوال حياته .

الجواهرى شاعر كلاسى، طويل النفس فى قصائده، وأغلبها تتجاوز الواحدة منها المئة وخمسين بيتا ، ويبلغ بعضها



المئتين أو يتجاوزها ، دون خلل في القافية، أو اهتزاز في الموسيقا، فهو يملك شاعرية متدفقة، تصدر عن نبع ثر، يغذيها معجم لغوى مترامي الأطراف، يمده بما شاء من الألفاظ لما يشاء من المعانى والصور والأفكار، وانتهى به هذا التطويل إلى لازمة عرف بها ، فهو لا يقول القصيدة مرة واحدة ، وإنما يبدؤها بأبيات، ثم تعلق بخاطره أياما أو شهورا، وتتوارد على لسانه أبياتا بعد أبيات، يسجلها على دفعات أو مرة واحدة حين تكتمل، وقد لا تكتمل أبداً، فينشر منها ما استقر في خاطره، وقد تلتقى فى أعماقه أكثر من قصيدة فى وقت واحد ، وحين زار لندن مع وفد صحفى عراقى عام ١٩٤٧ نظم عدة قصائد على «بحيرة الأخوين» وعلى الملل الذى أصابه، ومتغزلا فى إنجليزية جميلة ، وأى من هذه القصائد لما يكتمل، وهى ظاهرة لاينفرد بها، وحدثنى عنها عبد الله البردونى أحد أضلاع المثلث العظيم ، فى إحدى زياراته لى فى منزلى، وتحاورنا فى الشعر والفن ، وقال لى إنه يشغل عادة بأكثر من قصيدة في وقت واحد تتجاور، والتى تستكمل حملها تخرج إلى الحياة ، فيمليها أو ينشدها.

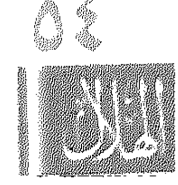
● امتلك الجواهرى شاعرية متدفقة تصدر عن نبع ثر يغذيها معجم لغوى مترامى الأطراف

واستخدم الجواهرى الفكاهة والنقد اللاذع فى حث الشعوب على الثورة ، فى أوزان سهلة الحفظ، رقيقة الوزن:

نامى جياع الشعب نامى
حرستك آلهة الطعام
نامى فإن لم تشبعى
من يقظة فمن المنام
نامى على زُبَد الوعود
يداف فى عسل الكلام
نامى تصحى! نعم نو
م المرء فى الكرب الجسام
نامى إلى يوم النشور
ويوم يؤذن بالقيام

او فى قصيدته التى يدعو فيها إلى أن يطبق الظلام على العالم العربى، فقد يعقبه فجر مضىء.

أطبق دجى، أطبق ضباب
أطبق على متبلد بن
ين شكا خمولهم الذباب
لم يعرفوا لون السماء
لفرط ما انحنت الرقاب





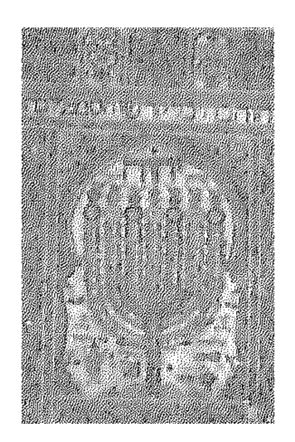
لقاء الاجيال . الشاعر محمد مهدي الجواهري في حديث الشعر مع سميح القاسم

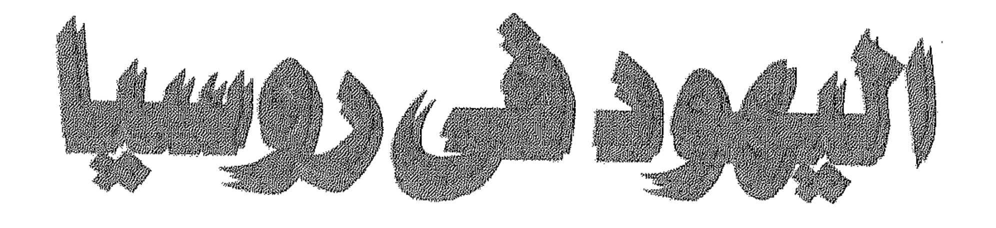
أطبق على هذى المسوخ

تعاف عيشتها الكلاب

وكان يضمن سخريته وفكاهاته رمزية لاتغيب عن الفطن، ومن خلالها يفلت من الرقابة والملاحقة.

كان الجواهرى شاعر العروبة دون منازع، ذهب العراق بالجانب الأكبر من إبداعه ، وشغلت مصر مساحة واسعة منها تستحق وقفة خاصة ، أمل أن أعود إليها، ووقف شامخا صريحا إلى جانب قضايا الأمة العربية كلها، دفن فى قلبه كل شهدائها، بكاهم ورثاهم، واستثار الجموع لتثأر لهم، من ثورة عربية إلا وجدت من قصيده دعما : الجزائر ولبنان وسورية ومصر والخليج ولبنان والسودان والمغرب ، واليوم تمر مئة عام على مولده فلا ينتبه لها أحد، ربما لأن الشعر الثورى أصبح فى أيامنا هذه ثقيلا على سمع الحاكمين والمحكومين، ومثقفونا مشغولون عنه بالعولمة والتنوير وكلام باطل كثير، يسترون به واقعا مهترئا، وأهدافا وغايات شخصية صغيرة، وأجرؤ أن أقول حقيرة، ومن كان هذا حالهم فهم فى شغل عن عظائم الأمور . وكان الشعب الوحيد الذى احتفى به ، وأقام له أكثر من تمثال فى غير مدينة، هم أكراد العراق فى شماله، فجزاهم الله عن الوفاء والشعر والعروبة خيرا. ■





عرض وتعليق : **عبدالرحمن شاكر**

حسنا فعلت الهيئة العامة للاستعلامات، بإصدارها هذا الكتاب، بعنوان «الطائفة اليهودية فى روسيا» من تأليف جمال لطفى أبو طاحون، وهو بالفعل كما وصفه مؤلفه فى أول سطر من مقدمته «محاولة جادة لاستقراء ما يحدث على الساحة الروسية فيما يتعلق بالوجود اليهودى فى روسيا وتغلغل اليهود فى المؤسسات الحاكمة ودوائر الاقتصاد والإعلام» ولقد اعتمد بالفعل ـ كما ذكر ـ على العديد من المصادر والمراجع، منها عدد كبير من الصحف العربية والأجنبية .



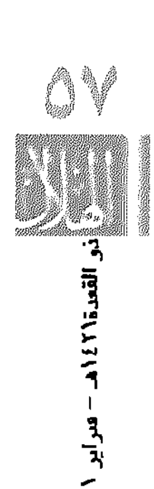
لورنس أولفنت مسيحي عضدته الصهيونية

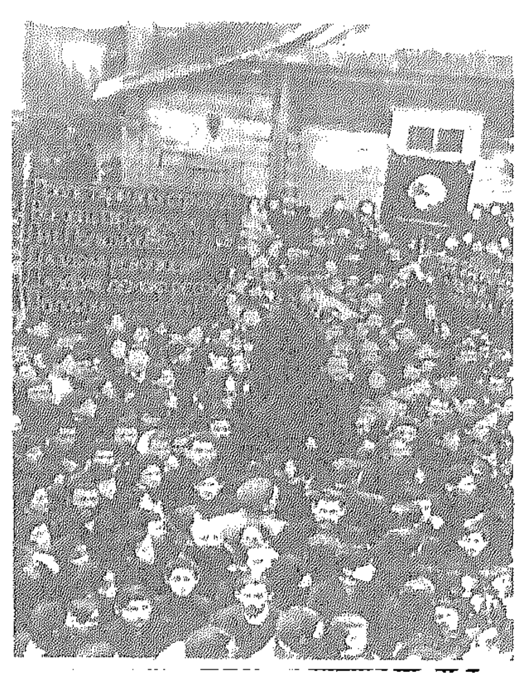
كتاتيب لتعليم الأطفال اليهود في اليمن

وكنت أفضل للمؤلف أن يترك وصف عمله بأنه محاولة «جادة» لمن يقرأ الكتاب أو يعلق عليه، عملا بحكمة أبي العلاء المعري حين قال :

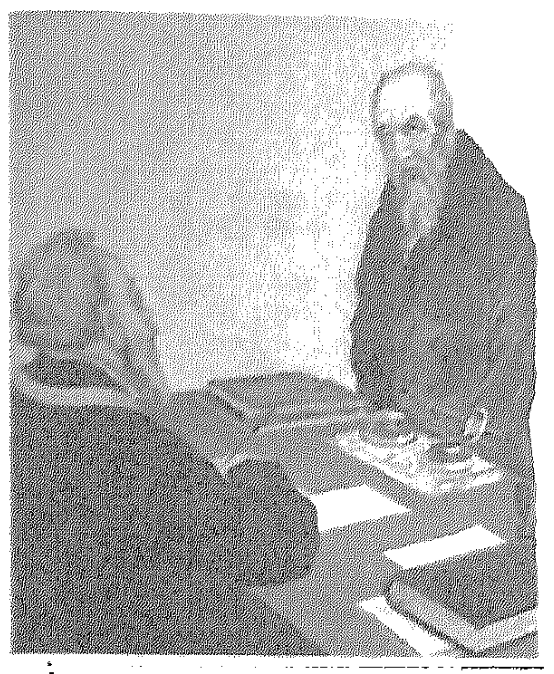
« فليحذر الدعوى اللبيب فإنها
للفضل مهلكة وشر موبق
لو قال بدر التم إني درهم
قالت له السفهاء أنت مزئبق

والفضيلة الأولى عندي لهذا الكتاب، ونشر هيئة الاستعلامات له، هي تخصيص مدخله لبيان أن أصل اليهود في روسيا وبولندا وغيرهما من بلدان شرق أوربا يعود الي جنس الخزر الذين كانوا يسكنون القوقاز، وقد اعتنقوا الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي، ويحدد الكتاب تاريخ ذلك بأنه كان في عام ٧٤٠ ميلادية . وأن هؤلاء المتهودين الذين عرفوا ويعرفون حتى الآن باسم اليهود «الأشكنازيم» إنما يعود نسبهم طبقا للعقائد اليهودية ذاتها إلى إشكناز بن جومر بن يافث بن نوح عليه السلام، ولا أدري لماذا قال المؤلف إن كلمة اشكناز معناها الحرفي هو ألماني؟! إلا أن يكون ذلك استمدادا من بعض المعاجم، التي تختصر الموضوع وتنسى أصله وهو أن الخزر المتهودين وصل ملكهم الى نهر الراين في ألمانيا،





مظاهرة سنة ١٩٠٥ للحزب الاشتراكى اليهودى فى موسكو



لوحة توضح استجواب احد اليهود الروس فى فى القرن الـ١٩



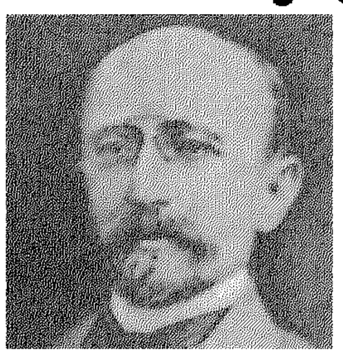
وبذلك فإن معظم يهود ألمانيا - إن لم يكن كلهم - هم من الخزر الأشكنازيم، وأنهم بالتالى الواجهة الأشكنازية لدى شعوب غرب أوربا من البريطانيين والفرنسيين والأمريكان وسواهم فنصت بعض مراجعهم، منها مثلا معجم Standard Dictionary الأمريكانى على أن أشكناز تعنى ألمانى، واكتفوا بذلك دون الرجوع الى الأصل التوراتى.

تعمية مقصودة

ولعل اليهود «الأشكناز» ومنهم معظم يهود أمريكا وراء هذه التعمية المقصودة، لأن بيان أصل التسمية يكشف زيف الدعوى الصهيونية بأن كل يهود العالم هم من بنى اسرائيل الذين تشتتوا فى الأرض بعد زوال ملكهم فى فلسطين! بينما حقيقة الأمر أن معظم يهود العالم هم من الأشكنازيم، ويقدر الكتاب الذى بين أيدينا نسبتهم إلى يهود العالم بأنها ثمانون فى المائة من هؤلاء، بينما تقدر مصادر أخرى هذه التسمية بأكثر من ذلك (٩٠ أو حتى ٩٢٪) من يهود العالم. ومعنى كونهم ينتسبون إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح أنهم ليسوا من سلالة العبرانيين التى تنتسب الى سام بن نوح، ويافث مجرد أخ له وليس من

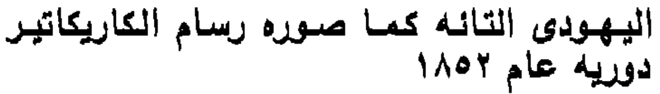


السير موسى مونتيفور اليهودى بدأ نشاطه السياسى عام ١٨٤٠ وتنقل بين موسكو ودمشق



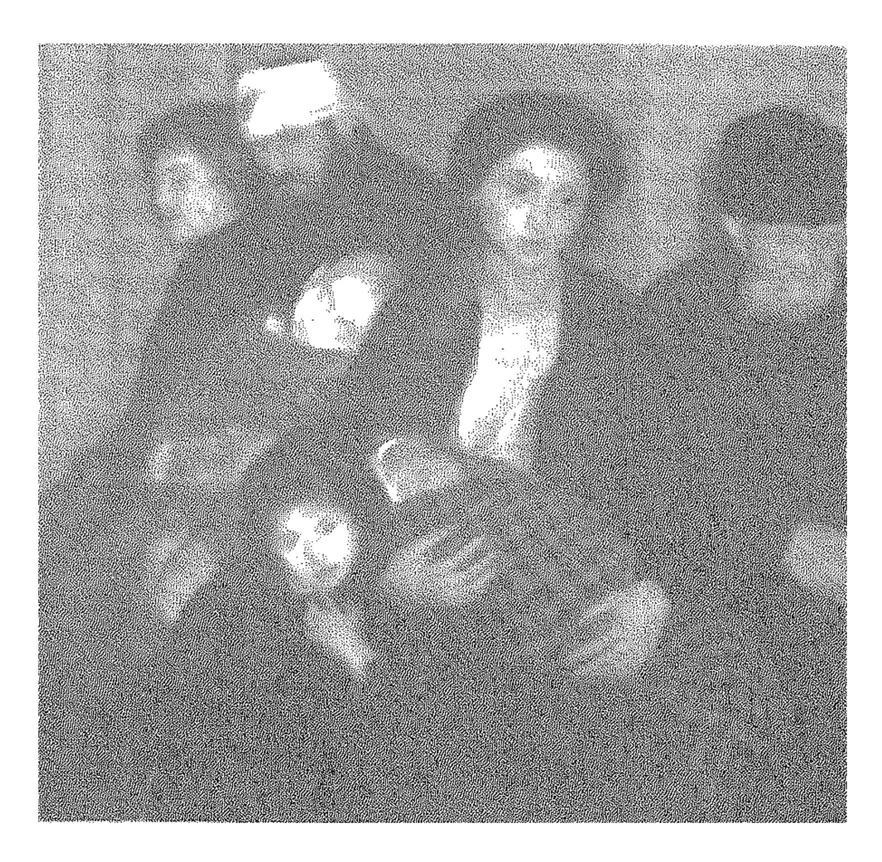
اشير جلسبرج احد المنادين بالبعث اليهودى





اليهودى التائه كما صوره رسام الكاريكاتير دوريه عام ١٨٥٢

سلالته طبقا لما ورد فى سفر التكوين، ويصبح وصف اليهود الأشكنازيم بأنهم «ساميون» وأن من يعاديهم إنما يعادى «السامية» وصفا باطلا من أساسه، وأشد بطلانا منه ادعاؤهم أنهم من بنى اسرائيل التوراتية، ويبقى أن العلاقة التى تربطهم باسرائيل هى مجرد أنهم اعتنقوا الدين الذى يدين به أو كان يدين به بنو اسرائيل، كما اعتنق كثير من الأقوام فى كل أرجاء العالم الديانة المسيحية، أو الاسلام، وكان اعتناق الخزر لليهودية بعد ظهور هاتين الديانتين، وأن ملك الخزر أو خاقانهم «بولان» خشى أنى يضيع ملكه بعد أن تفشى اعتناق المسيحية والاسلام فى صفوف شعبه فقرر أن يعطى هذا الشعب ديانة سماوية محترمة بدلا من العقيدة الوثنية التى كانوا يدينون بها وهى عبادة «فالوسى» أو عضو التذكير!، وأن تكون العقيدة الجديدة مستقلة عن كل من الاسلام والمسيحية نظرا لوقوع بلاده مابين الدولة العباسية المسلمة وبيزنطة المسيحية. وبعد بولان قرر

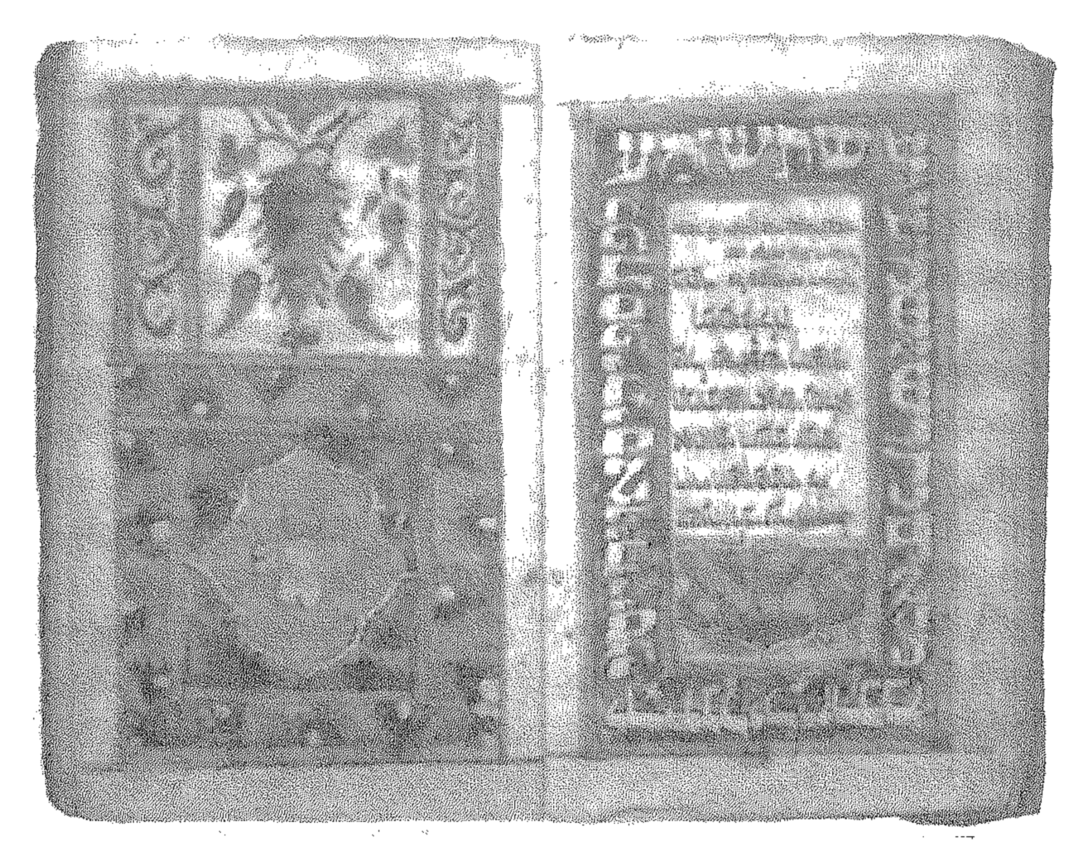


لوحة للرسام اليهودى فارسو موريس مفكو فيسكى (١٨٨١-١٩٣٠) تهدف الى جذب اهتمام العالم بقضية اليهود

الخاقان عبديه ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق الديانة اليهودية ، فتهود البلاط الملكى كله على عهده، ثم تبعهم شعب الخزر أو معظمه، ويورد الكتاب الذى بين أيدينا أن كثيرا من الممارسات الوثنية ظلت باقية بين الخزر بعد تحولهم إلى اليهودية .

سياسة الترويس

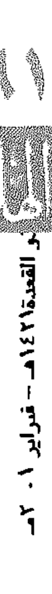
وقد استطال ملك الخزر من القوقاز، وبالتحديد من نهر الفولجا فى روسيا حتى وصل الى الراين فى ألمانيا كما تقدم القول، ودام حوالى ثلاثة قرون حتى أسقطه الأمراء الروس الذين تحالفوا مع بيزنطة واعتنقوا الديانة المسيحية، وشرعوا فى اضطهاد اليهود «أعداء الرب» الذين تسببوا فى صلب المسيح طبقا للعقيدة الأرثوذكسية . ولكن الاضطهاد الأكبر الذى وقع على اليهود الخزر فى روسيا فى القرن التاسع عشر فى عهد نقولا الأول لم يكن واقعا على اليهود فحسب، بل شمل المسلمين التتر، بل حتى المسيحيين الكاثوليك فى أوكرانيا وبولندا، حيث مارس القيصر المذكور ووزراؤه سياسة «الترويس» التى كانت تهدف الى تحويل الأجناس



كتاب يمثل آيات من التوراة عثر عليه فى كردستان

غير الروسية فى امبراطوريتها الواسعة الأرجاء فى «أوراسيا» الى روس، وكان عدد هؤلاء يكاد يبلغ نصف سكان الامبراطورية. كانت سياسة الترويس تقوم على عدة مبادىء أهمها تكلم اللغة الروسية، وارتداء الملابس الروسية، واعتناق الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي، والولاء للقيصر حامى الأرثوذكسية فى روسيا المقدسة وريثة بيزنطة وفى العالم كله بعد سقوط هذه الأخيرة فى يد العثمانيين!.

إن نشر هيئة الاستعلامات لهذا الكتاب، يعني فيما أتصور، أن يكون على مكتب كل مسئول فى الدولة سواء من الناحية السياسية أو الاعلامية نسخة منه، فلا نعود نسمع كلمات جاهلة من أحد، مثل الزعم بأن اليهود الذين اغتصبوا فلسطين هم أبناء عمومتنا ! أو حتى مهاجمة هؤلاء بترديد الأقوال الدينية عن بنى سرائيل لكفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق .. الخ، فهذه قضية وتلك أخرى. بنو أسرائيل الذين كانوا فى بلادنا ثم زال ملكهم فى فلسطين وتشتتوا فى الأرض لا يكاد يكون منهم اثر اليوم بما فى ذلك اليهود الشرقيون «السفارديم» فكثير من هؤلاء اعتنق آباؤهم اليهودية كما





مناحم مندل بليس الذى اتهم باغتيال شاب فى كييف

اعتنقها الخزر فيما بعد، من هؤلاء يهود اليمن الذين ينص كتاب «صهيونية الخزر» على كونهم ممن أجبرهم ملك اليمن على التهود فى القرن الرابع الميلادى فى قصة «أصحاب الأخدود» المذكورة فى القرآن الكريم والذين يعرفون باسم «المزراحيم».

ثم نعود الى الكتاب بين أيدينا فندهش لكون مؤلفه يتباكى على القياصرة الروس الثلاثة الذين قتلهم اليهودى، كأن اليهود وحدهم كانوا الثائرين على طغيان هؤلاء، ويفسر الثورة الروسية تفسيرا سطحيا حينما يزعم أنها كانت جزءا من مؤامرة يهودية من نوع ما تشير اليه «بروتوكولات حكماء صهيون» المشكوك فى صحة الكتاب الذين يحمل عنوانها، ويزيد قارئه حيرة حينما يقول إن تمام هذه المؤامرة كان اشتراك اليهود مع الأمريكان فى القضاء على الشيوعية ! إن هذا العمل الأخير قد يكون صحيحا الى حد كبير ولكن يستحيل أن يكون تتمة لتدبير سابق كانت الثورة الروسية عام ١٩١٧ أول فصوله. نعم لقد ساهم اليهود الروس فى تلك الثورة بدور كبير ولكن الكاتب ذاته يورد الكثير من تناقضها مع الصهيونية، التى قال نشرشل عنها إنها تفتح طريقا ثالثا أمام اليهود خلاف الخضوع للعسف القيصرى أو الانحياز للبلشفية!.

الخراب الاقتصادي

بعد المدخل الذى تناول فيه المؤلف أصل «الطائفة اليهودية فى روسيا» يدور سائر الكتاب حول استيلاء أفراد من هذه الطائفة على مقاليد الأمور فى روسيا فى عهد رئيسها السابق بوريس يلتسين حيث «تسلط اليهود على ٤٠٪ من المناصب السياسية (السلطة) رغم أن اعداد اليهود بالنسبة الى الروس لا تتعدى ١.٥٪)» (ص ١١) وبالنسبة لهذه المسألة يقع المؤلف فى تناقض حيث يقدر عدد اليهود عقب النص المذكور بأنهم حوالى مليوني نسمة (ص١١) ، ويعود بعد ذلك



موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) أحد المتخصصين في الاشتراكية الصهيونية

فى ص (٣٩) وسواها فيقدر هذا العدد بأنه ٤٠٠ ألف نسمة فحسب!. وفى ظنى أن الرقم الأول هو الأقرب الى الصحة. وأتساءل عما اذا كان أكثر من موظف هيئة الاستعلامات قد اشترك فى تأليف هذا الكتاب، حيث يكثر فيه خلاف مثل هذه الأخطاء التكرار، حتى أن المعلومة الواحدة قد تذكر عشر مرات أو أكثر تحت عناوين مختلفة !.

ويتناول الكتاب حقبة التسعينيات من القرن المنصرم حيث بدأ يلتسين فى أولها سياسة التحول الى الرأسمالية بعد حل الاتحاد السوفييتى وإقصاء رئيسه جورباتشوف، الذى شرع سياسة البريسترويكا وإلغاء انفراد الحزب الشيوعى بالسلطة وبدء العمل بالتحول إلى اقتصاد السوق. ولقد ذكر الكتاب أن حل الاتحاد السوفييتى قد أدى الى تدهور الإنتاج فيه وخاصة فى الصناعة، ومفهوم من مصادر أخرى لم يذكرها الكتاب أن السبب فى ذلك هو أن كثيرا من الصناعات «السوفييتية» كان يعتمد بعضها على بعض بصورة متكاملة، حيث كان يتم تجميع المواد الخام أو بعض الأجزاء المصنعة من مختلف الجمهوريات ثم تدخل فى المنتج النهائى فى جمهورية بعينها قد تكون روسيا أو سواها ، وبعد انحلال الاتحاد كانت كل جمهورية تتصرف فيما تحت ايديها على هواها فتبيع المنتج الذى لديها أو تمنعه أو تبيعه لجهة ثالثة غير مبالية بأثر ذلك على الانتاج «السوفييتى» الذى لم يعد موحدا ولا يخضع لتخطيط منظم كما كان فى السابق.

- ينقل المؤلف فى أكثر من موضع عن زيوجانوف زعيم الحزب الشيوعى الروسى قوله إن السياسة الاقتصادية التى اتبعها ايجار جيدار القائم بأعمال رئيس الوزراء فى عهد يلتسين والتى سميت «العلاج بالصدمة» كانت تستهدف

«تدمير القاعدة الاقتصادية للبلاد وتصفية كل تراثها الروحى والثقافى حيث انخفض الإنتاج الروسى فى عهد جيدار بمعدل ٥٠٪ بينما لم ينخفض إلا بنسبة (٢٤٪) عندما كان الفاشست على أبواب موسكو!.

ـ قام تشوبايس المسئول عن سياسة الخصخصة فى حكومة جيدار ببيع ٥٠٠ مصنع روسى تبلغ قيمتها الحقيقية أكثر من ٢٠٠ مليار دولار بمبلغ ٧ مليارات دولار فقط! (ص ١١٥) .

– تعمد جيدار وتشوبايس تخصيص الشركات والمؤسسات الحكومية تحت دعاوى أنها قديمة ولا تصلح، مما سهل بيعها كما يقال بسعر التراب، ومن هؤلاء المشترين الجدد تشكلت جماعات نخبة أصحاب الثروات اللاحقة لأصحاب المليارات من اليهود (ص ١١٧) .

ـ أسلم يلتسين أمر روسيا لجيدار وشوبايس ليتصرفا كما يريدان وشرعا فعلا فى استنزاف مدخرات ملايين الروس المودعة فى البنوك وصناديق التوفير مع وعد المدخرين بنسب عالية من الأرباح (ص ١١٧).

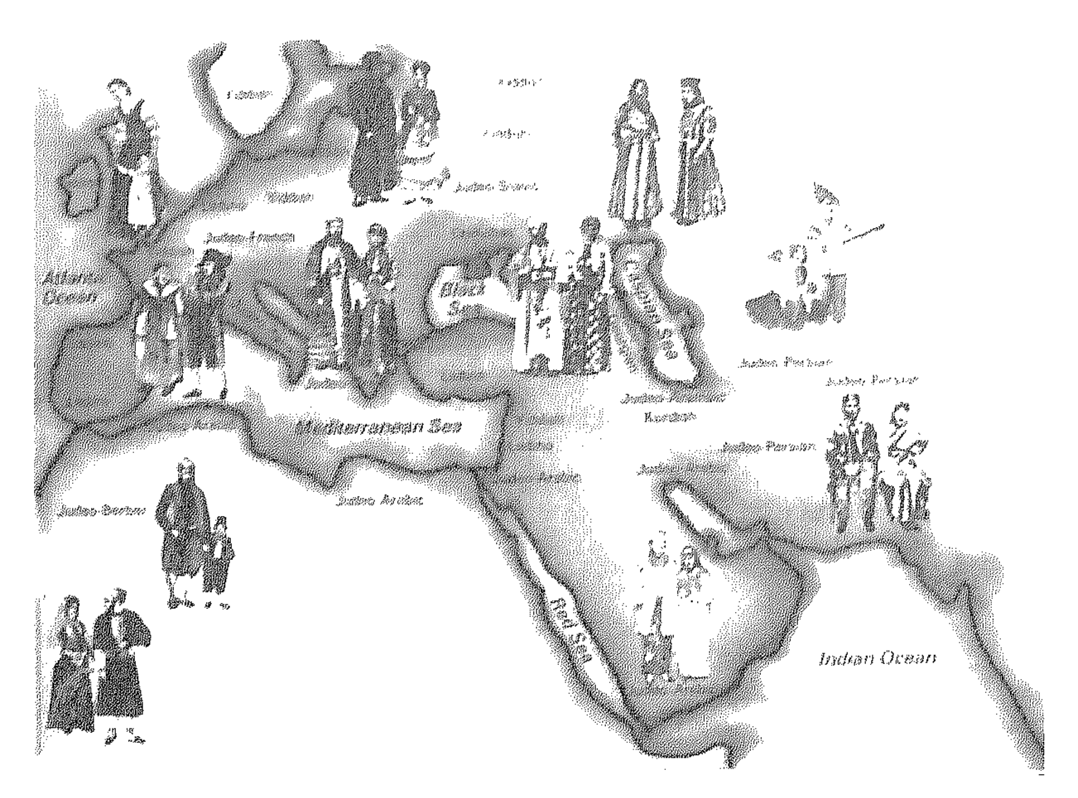
ـ اليهود يتعاملون مع النظام الاقتصادى فى روسيا على أساس انه «غنائم حرب» على طريقة (اخطف واجرى) وليس على أساس نظام اقتصادى له كيانه وتاريخه العتيد لدولة عظمى! (ص ١٣) .

ـ اكتشف روتسكوى نائب يلتسين الوحيد سرقة ١٧ مليار دولار من الأموال العامة كبداية (ص ١٣) .



ـ اكتشف الروس استيلاد اليهود على الثروات الطبيعية فى روسيا مثل جبال الأسمدة التى لا أول لها ولا آخر وجبال سبائك الألومنيوم التى كانت تمثل المخزون الاستراتيجى للاتحاد السوفييتى سابقا (يستخدم فى صناعة الذخيرة) كذلك تخسير آلاف الشركات الروسية العاملة لبيعها بأقل من أسعارها الحقيقية تحت ستار الخصخصة (ص ١٤) .

ـ هناك حوادث غسيل الأموال التى تم الكشف عنها بالاستيلاء على أموال صندوق النقد الدولى ، كذلك مدخرات الملايين من الشعب الروسى التى ضاعت



خريطة تبين اللغات التى كانوا يستخدمونها فى المناطق المختلفة التى عاشوا بهـا. وقـد اسـتـخـدم اليـهـود الاشكيناز لغـة اليـديش

عليهم من النخبة السياسية اليهودية الحاكمة في روسيا، ناهيك عن الاستيلاء على شركات البترول والطيران والسلاح والكهرباء (ص ١٤) .

- كان يتداول في روسيا مصطلح العائلة ويقصد به أولا « تاتيانا دياشنكو» ابنة الرئيس السابق يلتسين.. وأما اليهود الذين يمثلون العائلة الى جوار تاتيانا فهم اناتولى تشوبايس مسئول الخصخصة فى حكومة جيدار - الكسندر فولوشين رئيس ديوان الكرملين - دايشنكو ويعمل كمستشار في الكرملين - ياما شيف رئيس الفريق الرئاسى من مارس ١٩٩٧ حتى ديسمبر ١٩٩٨ - رومان ابراموفيتش (٣٢ عاما) مقرب من دايتسنكو وياماشيف - فلاديمير بوتين (الرئيس الحالى) عضو مؤهل انضم أخيرا الى العائلة - بيريزوفسكى، ليس ضمن العائلة ولكنه عضو قوى ونافذ ضمن فريق الرئاسة ومهيمن على العائلة وهو المدخل الى يلتسين والممول والمستشار غير الرسمى للرئيس يلتسين قبيل اعتزاله الحياة السياسية (٦٧). وكان هذا يطلق على نفسه اسم «القيصر الحقيقى لروسيا! (ص ٥٤)، وكان



كاريكاتير يمثل ابتلاع طفل يهودى لعملة معدنية ومحاولة الاسرة استردادها

يحمل الجنسية الاسرائيلية الى جانب جنسيته الروسية ثم تخلى عن الأولى بضغط من الدوما (البرلمان الروسى) .

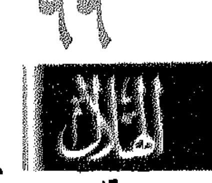
- بلغت خسائر الاقتصاد الروسى من عمليات النهب فقط ٤٠٠ مليار دولار (ص ١٧) .

- أصبحت مرتبة روسيا بين دول العالم الحادية والسبعين (ص ١٧) .

- خلال الفترة من (٩٣ - ١٩٩٨) استطاعت ألمانيا الروسية تهريب ما يزيد على ٣٠٠ مليار دولار وتسيطر ألمانيا على ٥٥٠ مصرفا فى أنحاء روسيا (ص ١٨).

- كان الدخل الروسى فى عام ١٩٨٩ أى قبل رئاسة يلتسين يقدر بـ (٦١٨ مليار دولار) أما فى عام ١٩٩٩ وهو العام الأخير من عهد يلتسين فقد تدنى الى ٢٠١ مليار دولار (ص ١٨) .

- المليارديير اليهودى بوريس بريزفسكى وألكسندر فولوشين رئيس ديوان الكرملين .. قاما بإنشاء شركات لتوظيف الأموال باعت آلافا من الأسهم الوهمية



ذو القعدة ١٤٢١هـ - فبراير ٢٠٠١م

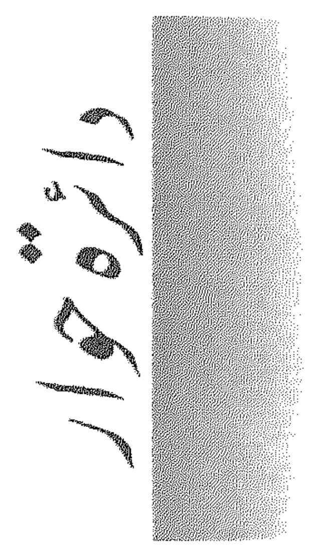


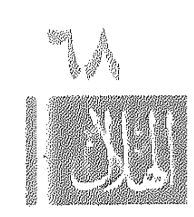
احد شوارع بيرو بيدجان الذى اعطى فيها اليهود الحكم الذاتى

لمواطنين عاديين ووعدتهم بأرباح كبيرة ، ولكن المواطنين الذين اشتروا الأسهم لم يتسلموا أية أرباح ولم يستردوا حتى المبالغ التى دفعوها (ص ١٢٧ ، ١٢٨) .

- كان المفروض أن تساعد الخصخصة فى إعطاء جميع المواطنين شهادات أحقيه تعطيهم حق المشاركة فى الاقتصادى الوطنى لكن بسبب التضخم لم ينجح سوى عدد محدود من التجار فى شراء هذه الشهادات، وبهذه الطريقة استطاع مدبرو المصانع والمؤسسات التجارية الاستيلاء على تلك الشهادات التى يملكها العمال والموظفون فى الشركات. وسرعان ما تركزت خيرات الشعب ومقدراته فى أيدى أعداد محدودة من أباطرة المال اليهود (ص ١٤٢) .

ذلك غيض من فيض من تفاصيل كثيرة أوردها الكتاب لتخريب الاقتصاد الروسى ونهب موارده الغنية وتهريب الكثير من أمواله الى الخارج بما فى ذلك تزويد الكيان الصهيونى بالمال والرجال وخاصة من ذوى التخصصات العلمية العالية، وفى النهاية فهو كتاب يستحق أن يقرأ وأن يقتنى. ■





ذو القعدة ١٤٢١هـ - فبراير ٢٠٠١م


طه حسين


ادوارد سعيد


لطفى السيد


نصر حامد أبو زيد

ليس دفاعا عن ادوارد سعيد بل دفاعا عن حرية الرأى

بقلم

د. فكري اندراوس

لقد سعدت بمقالة الأستاذ حسين أحمد أمين حول حرية الرأي والمنشورة في مجلة الهلال في شهر أكتوبر الماضي. وتصادف في الوقت نفسه تقريباً أن تثار قضية متعلقة بحرية الرأي في أحد أعرق الجامعات الأمريكية ضد واحد من أعرق أساتذتها وهو الدكتور ادوارد سعيد.

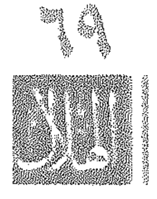
ادوارد سعيد معروف بكتاباته وكتبه الكثيرة المتعلقة بالقضية الفلسطينيه وعدائه للهيمنة الإسرائيلية على مصير الفلسطينيين، وموقفه هذا يثير ضده الكثير من العداء فى محيط عمله بجامعة كولومبيا والتى تقع فى مدينة نيويورك حيث الجالية اليهودية كبيرة وقوية ومنظمة وفعالة. من هنا كانت حرية الرأى قضية مهمة فالأكثرية القوية يهودية والعرب مازالوا قليلى الفعالية وإن كانت تلك الفاعلية فى ازدياد مضطرد.

حرية إبداء الرأى فى الجامعة يجب أن تقدس.

القضية تتعلق بادوارد سعيد حين زار الأراضى الفلسطينية فى الصيف الماضى، ومن نقطة على الحدود مع إسرائيل قذف حجراً على الأراضى الاسرائيلية تضامنا مع الانتفاضة. وبسرعة طارت صورة ادوارد سعيد وهو يقذف الحجر إلى مدينة نيويورك وتلقفها بعض الطلبة اليهود فى جامعة كولومبيا، ونظمت المظاهرات والمحاضرات ضد ذلك الأستاذ بالجامعة والتى قادها اثنان من الأساتذة وكثير من الطلبة المؤيدين لإسرائيل بتعصب، وقد طالبوا بمعاقبة وإقصاء إدوارد سعيد عن الجامعة.

وكثيرا ما حدث مثل ذلك لإدوارد سعيد إلا أن الجامعة لم تعلق أهمية على ذلك إنطلاقا من مبدأ حرية الرأى المقدس فى تلك الجامعة العريقة. ولكن هذه المرة كان الصوت عاليا ولمدة طويلة مما اضطرت معه الجامعة إلى التعليق. ولقد كان رد عميد الكلية كممثل لنفسه ونيابة عن رئيس الجامعة مثالا قويا لما تعنيه حرية الرأى داخل أسوار الجامعة.

لقد اعتبر بيان الجامعة أن قذف ادوارد سعيد الحجر لم يمثل أى ضرر لأى شىء بل كان مجرد رأى سياسى، وانطلاقا من هذا المبدأ فإن اعتراض الطلبة لم يكن يستحق الالتفات إليه إلا أنه حسب قول الجامعة وجب علينا أن نذكر أنفسنا والبعض بما تعنيه حرية الرأى. لقد أكد البيان أن أستاذ الجامعة له حرية الرأى داخل أو خارج الحرم الجامعى وحيث أن قذف الحجر لم يحدث عنه أى



ضرر ولم يصدر ضد ادوارد سعيد أى حكم قضائى، وحتى لو كان قد صدر ضده حكم قضائى داخل هذا البلد أو خارجه قد لا يجوز للجامعة عقابه طبقا لما هو وارد بقوانين الجامعة.

لقد ذكر بيان الجامعة أن الزوبعة التى أثيرت ضد ادوارد سعيد لم تكن لمجرد قذف حجر على الحدود مع إسرائيل بل كانت نتيجة دفاعه الدائم والمنشور عن الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى. من هنا فإن إبداء الرأى لإدوارد سعيد ركن أساسى فى هذا الخلاف ووجب على الجامعة الدفاع عنه.

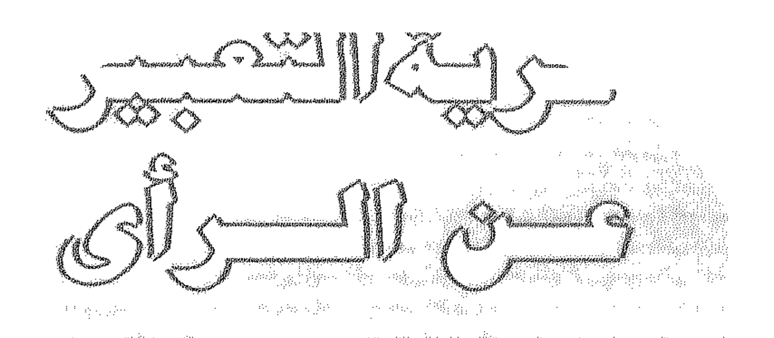
ورغم أن إدوارد سعيد أحد رواد الفكر المعاصر وأنه حاصل على أعلى درجة يمكن أن نمنحها جامعة كولومبيا لأحد أساتذها إعترافا بجليل أعماله إلا أن الحرية المتاحة له متاحة أيضا لجميع الأساتذة ليس أكثر ولا أقل. ولو أن الجامعة قصرت فى حماية حرية الكلمة لإدوارد سعيد أو غيره من سيكون الأستاذ التالى والذى ستقصر الجامعة فى حماية حقه فى حرية الرأى، ومن سيكون ذلك الشخص الذى يملك الحق الإلهى لينشر لمن يشاء وليسكت من يشاء (The inquisitor).

وقد اختتم بيان الجامعة بتذكيرنا بما قاله الفليسوف الانجليزى چون ستيوارت ميل (Joan Stuart Mill) والذى قال «لو أن كل الناس وافقوا على رأى واحد وخالفهم فى ذلك الرأى إنسان واحد فليس من حق أحد أن يسكت صوت ذلك المعارض الوحيد».

كان هذا بعض دفاع الجامعة عن أحد أساتذتها ولكن الجامعة أيضا دافعت عن حرية الطلبة فى إبداء رأيهم. إن الجامعة تحمى حرية الطالب فى ابداء رأيه تماما كما تحمى حرية الأستاذ فى إبداء رأيه.

هذا ما حدث لأستاذ جامعى من أصل عربى فى ولاية نيويورك ذات الصبغة اليهودية. والسؤال أين نحن فى العالم العربى من هذا؟

حين ابتدأت الجامعة المصرية فى أوائل القرن الماضى أثار الدكتور طه حسين زوبعة قوية بكتابه «الشعر فى العصر الجاهلى» والذى صدر فى مايو سنة ١٩٢٦. ومازال هذا الكتاب محل نقاش إلى الآن. حين صدر الكتاب لم يرض عنه الكثير وقد نوقشت تلك القضية بعصبية فى الجامعة والبرلمان والصحافة وفى ساحة القضاء. وقد دافع رئيس الجامعة حينئذ الأستاذ لطفى السيد عن كتاب طه حسين وأيدته الوزارة فى ذلك الوقت، ولكن هذا الدفاع لم



بقلم : حسين أحمد أمين

غدت حرية التعبير عن الرأى اليوم مقبولة
سلماً بها فى معظم البلدان المتحضرة . غير
حرية لم تكتسب إلا فى العصر الحديث
ة بحور من الدماء . وكان لا
حتى تقتنع الشع

يكن دفاعا مطلقا فلقد كانت هناك خلفيات سياسية وحزبية قوية وراء ذلك الصراع.

المهم أن طه حسين لم يفقد وظيفته وإن اضطر إلى تقديم بعض التنازلات وقد استمر طه حسين فى ابداء رأيه فى العديد من المشكلات بقوته المعهوده، وقد أصبح عميداً ثم وزيرا فى آخر وزارة وفدية سنة ١٩٥٠. وليس من العسير تقدير مقدار الخسارة لو أن طه حسين تم إسكاته إلى الأبد كما حدث للبعض.

وفي عهد جمال عبد الناصر استبعد بعض أساتذة الجامعات إما لأنهم خالفوا بعض آراء الثورة أو لأن بعض أصحاب النفوذ اعتقدوا ذلك وقد تم ذلك بجرة قلم بدون أى اعتراض من مسئولى الجامعات وقد أسكتت الأصوات المعارضة فى الجامعات حتى كانت هزيمة سنة ١٩٦٧.

حرية الرأى ركن اساسي في شخصية ادوارد.

وانتهى عهد جمال عبد الناصر وابتدأ عهد السادات وقد منح السادات بعض الحريات المقننة فى أول عهده ولكنه ما لبث أن أسكت كل معارضيه داخل وخارج الجامعات.

أما الآن فإن بعض أساتذة الجامعات ذوى الرأى المخالف لما يتوقعه البعض تعرضوا لإرهاب فكرى ليس داخل الجامعات فقط بل فى ساحة القضاء كما حدث للدكتور نصر حامد أبو زيد والذى اضطر للخروج من مصر حرصا على حياته وضماناً لحريته من التدريس والكتابة.

هذه بعض علامات على طريق الجهاد إلى ديمقراطية سليمة.

إن حرية إبداء الرأى فى الجامعة يجب أن تقدس إن لم يكن هناك حرية الكلمة فى الجامعات فلا داعى للكلام عن الديمقراطية خارجها. ■



لا .. لنخاسة جديدة تشتري وتبيع أعضاء الإنسان

بقلم :
صافي ناز كاظم

جنّبت كل الأمور التى كنت أخطط للكتابة عنها أمام هلع أصابنى بعد الاتفاق شبه الكامل على أحقية وشرعية نقل الأعضاء البشرية من إنسان إلى آخر ، وآخرها موافقة علماء الدين ، وعلى رأسهم فضيلة شيخ الأزهر، والمفتى، ووزير الأوقاف بجواز نقل قرنية عين الميت لإنقاذ حالات مهددة بالعمى بين الأحياء .

لاشك أن الصورة المبسطة للقضية تبدو إنسانية، ومنطقية ومليئة بالخير. لكن الصور المبسطة للأشياء لاتعنى أبدا أنها ستبقى على أرض الواقع والتطبيق «بسيطة» و«مثالية» و«طيبة» كما تبدو نظريا . نعم، من حق المهدد بالعمى أن يبحث له العلم عن وسائل للإنقاذ، وأنا شخصيا مدينة للعلم بحفظ قوة بصرى، بعد إصابتى بالمياه البيضاء، لنجاح العلم والطب فى زرع عدسة بديلة عن العدسة المصابة، غير أن تلك العدسة البديلة لم تكن عدسة بشرية مأخوذة من عين إنسان توفاه الله أو لايزال حيا يسعى لايجد غضاضة من بيع أعضائه. فالذى أعرفه أن تلك العدسات المزروعة كانت عدسات مصنعة من مواد غير بشرية تماثل فى وظيفتها العدسة التى خلقها الله سبحانه وتعالى بداخل أعيننا . إننى مؤمنة أن العلم قادر على محاكاة ماخلق الله لنفع الإنسان ، كما استطاع أن يحاكى قدرة طيران الطيور ، فقدم لنا «الطائرة» التى ظلت تتطور من أفضل إلى أفضل، واستطاع أن يحاكى الدواب التى كانت تقوم بمهام حمل الإنسان ومتاعه فى أسفار من مكان إلى آخر طال أو قصر، وقدم لنا العربات والسيارات والحافلات بأنواعها من صغير ومتوسط وضخم وخفيف وثقيل . ولن أطوف بكل الإنجازات التى نجح الإنسان فى تحقيقها بواسطة قدراته العلمية – (التى خلقها الله سبحانه وتعالى

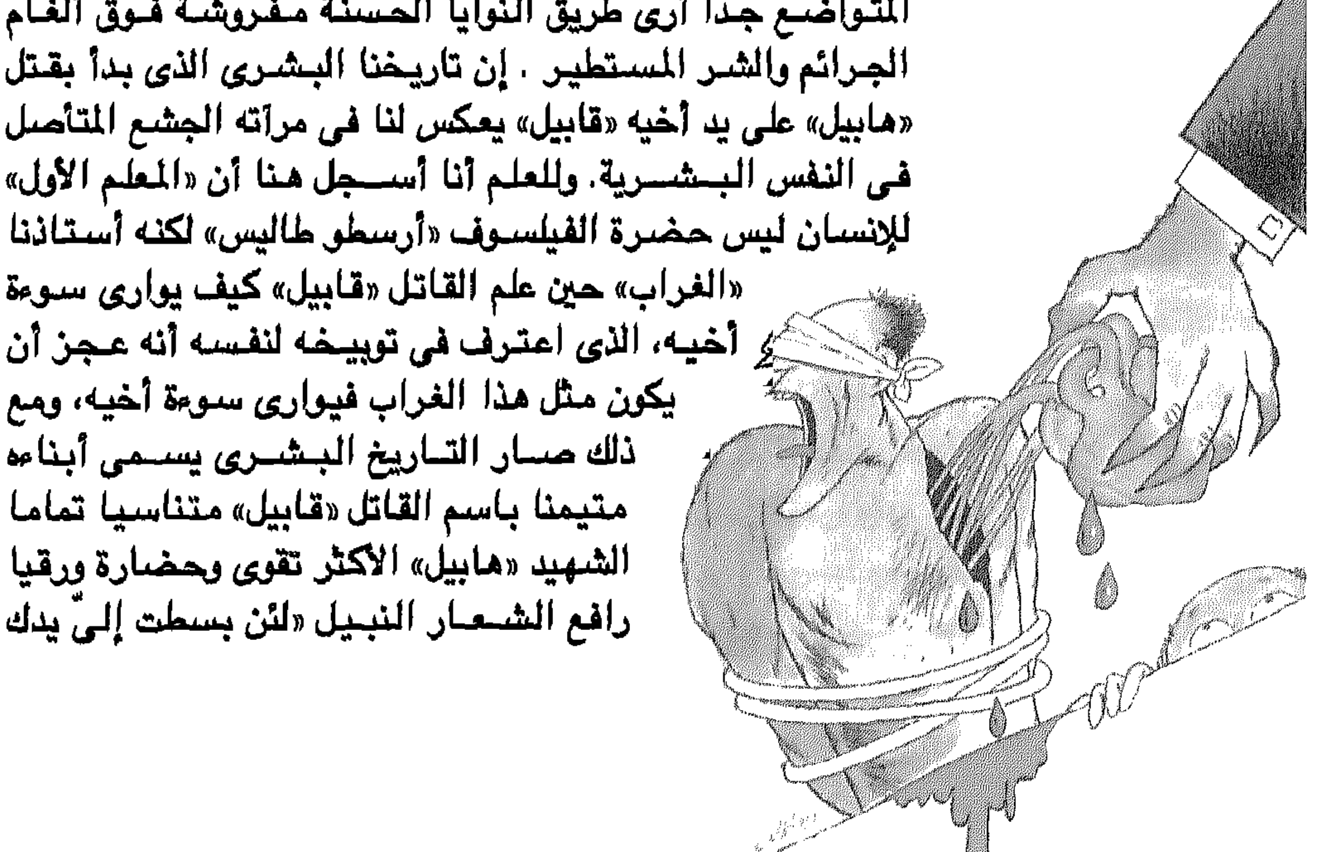


كامنة في تركيبته العقلية والدماغية، آيات لأولى لألباب، وبأى آلاء ربنا نكذب؟) ـ إذن لا اعتراض على أن نبحث ونجد قطع غيار للإنسان تعينه على الشفاء من أمراضه ومعوقاته لمواصلة الحياة براحة ولياقة أفضل، لكن قطع الغيار هذه لايجب أن تكون قطعا بشرية مأخوذة من بشر أمواتا كانوا أم أحياء بل يجب أن تكون مصنعة - مثل العدسات المزروعة - من مواد بديلة مقاربة للخاصية الأصلية للعضو التالف فى الجسم البشرى. إن الذى استطاع أن يحاكي العدسة البشرية، يستطيع أن يبتكر المماثل للقرنية، وللكلى، وللكبد، وللقلب، ولجميع أعضاء الإنسان، لكن أن نعود لسوق نخاسة جديدة تفتح الباب لنقل الأعضاء وقطع الغيار من إنسان لإنسان فهذا ما أستنكره بشدة لما أراه بعين زرقاء اليمامة من أهوال وحشية منتظرة لايمكن أن نغمض عنها العيون المبصرة أو البصائر البصيرة .

لا .. لنخاسة جديدة تشترى وتبيع أعضاء الإنسان

★★★

بعيدا عن جدل «الحلال والحرام» فأنا لست فى موقع علماء الفقه والشريعة، وإن كان من بينهم الكثير الذى يحرم بشدة فكرة نقل وزرع الأعضاء البشرية، لكنى من موقعى الثقافى والإنسانى المتواضع جدا أرى طريق النوايا الحسنة مفروشة فوق ألغام الجرائم والشر المستطير . إن تاريخنا البشرى الذى بدأ بقتل «هابيل» على يد أخيه «قابيل» يعكس لنا فى مرآته الجشع المتأصل فى النفس البشرية. وللعلم أنا أسجل هنا أن «المعلم الأول» للإنسان ليس حضرة الفيلسوف «أرسطو طاليس» لكنه أستاذنا «الغراب» حين علم القاتل «قابيل» كيف يوارى سوءة أخيه، الذى اعترف فى توبيخه لنفسه أنه عجز أن يكون مثل هذا الغراب فيوارى سوءة أخيه، ومع ذلك صار التاريخ البشرى يسمى أبناءه متيمنا باسم القاتل «قابيل» متناسيا تماما الشهيد «هابيل» الأكثر تقوى وحضارة ورقيا رافع الشعار النبيل «لئن بسطت إلىّ يدك

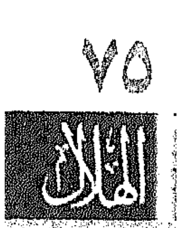


لتقتلنى ما أننا بباسط يدى إليك لأقتلك، إنى أخاف الله رب العالمين» .هذا التاريخ البشرى لايعطينا الثقة أبدا فى أن نضمن دائما أن «القرنية» - مثلا - لن يتم نقلها إلا من متبرع بها توفاه الله وفاة طبيعية . هذه «مثالية» ساذجة تدحضها بقوة سجلات تجارة الرقيق، وخطف الأطفال، والنساء، ومجازر الإبادة، وقبائل أكلة لحوم البشر، ومهالك الفقر والمجاعات المصدّرة لعصابات تجارة بيع الأطفال الأبناء المباعة برضاء الآباء المعدمين. «الله أكبر» ، ألا تتخيلون حين يسير الفرد منا فينظر إليه «التاجر» و«المورد» لقطع الغيار البشرية من فوق لتحت هامسا فى سريرته «والله الجدع هذا والسيدة تلك والكتكوت ابنهما صفقة لا بأس بها لزبون طالب كلية، وزبونة تحتاج قرنية، وابن ثرى ينقذه النخاع والقلب والكبد...»، ياستار ! هل سنعود إلى حكايات الغيلان القادرين على التخفى فى ثياب الطيبة والسماحة لتفاجئنا الصرخة «هات فشتك وكبدتك»!.

★★★

بجريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٧ خبر عن فضيحة قاتل للنساء فى بريطانيا وظيفته طبيب يدعى الدكتور «هارود شيبمان»، حصل على لقب «أبشع قاتل فى تاريخ أوربا» لأنه استطاع من خلال عمله أن يقتل ٢٣٦ سيدة على مدى ٢٥ عاما عن طريق إعطائهن أدوية خطيرة تؤدى إلى الموت، وقد قام الطبيب المذكور بتنفيذ جرائمه فى هدوء : يكتب الدواء، ثم يدون شهادات الوفاة لمرضاه على هواه من دون أن يستريب فيه أحد، إلى أن شاء الله أن يوقع بهذا السفاح . لنا أن نقرأ هذا الخبر بأبعاد أخرى، تخيلوا حين يتم فتح سوق بيع الأعضاء البشرية، وسوق نقل القرنية من عيون الأموات لتغذية بنوك العيون، بدعوى إنقاذ الآلاف من العمى، ألا يمكن أن تظهر نماذج من الدكتور «هارود شيبمان»، تقتل بالدواء وتحرر شهادات وفيات «طبيعية» للنساء والرجال والفتيان ومن شاء له حظه العاثر أن يقع تحت طائلة هؤلاء الأطباء فى مصر أو خارجها، وتغتصب «القرنيات» للعلاج الباهظ أو المجاني لمن يهددهم العمى؟ هل تظل هذه «القرنيات» معدودة فى حكم «الصدقات الجارية» كما تمنى سيادة المفتى فى رأيه الذى أدلى به لجريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٤؟

★★★



لا .. لنخاسة جديدة تشترى وتبيع أعضاء الإنسان

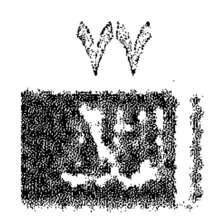
لقد رفعت ندوة وزارة الصحة لمكافحة العمى شعار «الإبصار حق للجميع» ونعم الشعار ولكن ليس على حساب حق الحياة الآمنة للإنسان الذى سوف تتهدده بالحتم مافيات وعصابات ومؤامرات الذين يريدون الإثراء أو تحقيق المصالح بالتجارة فى «أعضاء الإنسان» مثل عصابات تجارة السلاح - ويجيدون التخفى وراء الأقنعة الودودة والقفازات الناعمة وغسيل الأموال والأيدى من الدماء الحرام . لقد تبرع الاتحاد الدولى للقرنيات بـ ٣٠ قرنية تم نقلها للمرضى فى ليلة القدر وقال من قال : «هذا عمل جليل» سبحان الله، ومن أين يأتى «الجليل» ونحن مهددون بـ «الجلل» ؟ لقد عاشت البشرية مع تجارة الرقيق دهورا طويلة، ولم تتوقف تلك التجارة الوحشية إلا منذ قرن أو قرنين، على أى شىء كانت تعتمد هذه التجارة؟ ألم تعتمد على خطف الضعفاء من بلاد الجنس الأبيض والأسود والأصفر، وأقامت قوانين ومواثيق وقواعد لتلك التجارة الفاحشة استسلم لها الجميع وأقروها ونظموا لها المعاملات التى خضع لها حتى الطيبين كأنها من سنن الحياة المنطقية؟ كيف نكون من السذاجة بحيث نتصور أن «نقل الأعضاء» و«القرنية» ستظل سليمة المصدر مبرأة من أي شبهة شرعية؟ الناس تقتل من أجل المال والمصاغ، فكيف لانرى التهديد والهدف «جوهرة العين» و«بيت الكلاوى» و«الحلويات» من قلب وكبد وطحال وأمعاء . أنا لا أناقش مبدأ «الإبصار حق للجميع» ، ولا الأهداف النبيلة فى استبدال التالف من جسد الإنسان بقطع غيار تمده بالصحة والحياة حتى يحين الأجل المحتوم، فأنا ممتنة لعمليات «القلب المفتوح» التى تعيد للشرايين والصمامات لياقتها، لكنى أصرخ : لا وألف لا لنخاسة جديدة تبيع وتشترى أعضاء الإنسان، «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» ؟ تصوروا احتمالات منها: قيام الكيان الصهيونى بقتل من يريد من الشعب الفلسطينى وبحركة التفاف تورد أعضاءهم



و«قرنياتهم» لبنوك دولية تتفضل بالتبرع ببعضها لحضراتنا، وتحت شعار «الصحة والإبصار حق للجميع» نأكل لحم إخواننا من دون أن ندرى. الاحتمال غير بعيد مادمنا رأينا بأعيننا رسائل اللحوم المصابة . بجنون البقر تصل موانئنا لتعبر المنافذ، بواسطة من لا ضمائر لديهم، ليفتك بنا الوباء .

★★★

لقد قامت جمعيات للدفاع عن الحيوانات، منها جمعية تسمى نفسها : «جبهة تحرير الحيوانات» أعلنت مسئوليتها عن خطف ٤٦ كلبا من كلاب الصيد المدربة الغالية القيمة بسبب اشتراك تلك الكلاب فى عمليات صيد الحيوانات . كان الإنسان فى قديم الزمان يحتاج لصيد الحيوان ليسلخ عنه فراءه ليسد احتياجه إلى ثوب يلبسه أو غطاء يتدفأ به، وحين نجح الإنسان فى أن يجد النسيج الذى يقوم بسد هذا الاحتياج، انتهت الضرورة «الشرعية» ، وأصبح صيد الحيوان وسلخه من أجل التباهى بشراء وأناقة معاطف «المينك» و«الفراء» جرائم، تهب جمعيات الدفاع عن الحيوانات للتصدى لها. ونحن يجب ألا ننتظر حتى تستفحل جرائم القتل الخفية التى قد تكون من مظاهرها الزيادة اللافتة لأعداد «المتبرعين» بأعضائهم و«قرنياتهم» الذين قبض الموت أرواحهم بكثرة فجأة وتباعا، علينا أن نهب للدفاع عن الإنسان حماية له من عمليات «صيد» أعضائه و«قرنياته» بواسطة كلاب الصيد المدربة على إخفاء شباكها، وأفخاخها لتبدو «الوفيات» «طبيعية» والتبرعات «طوعية» .





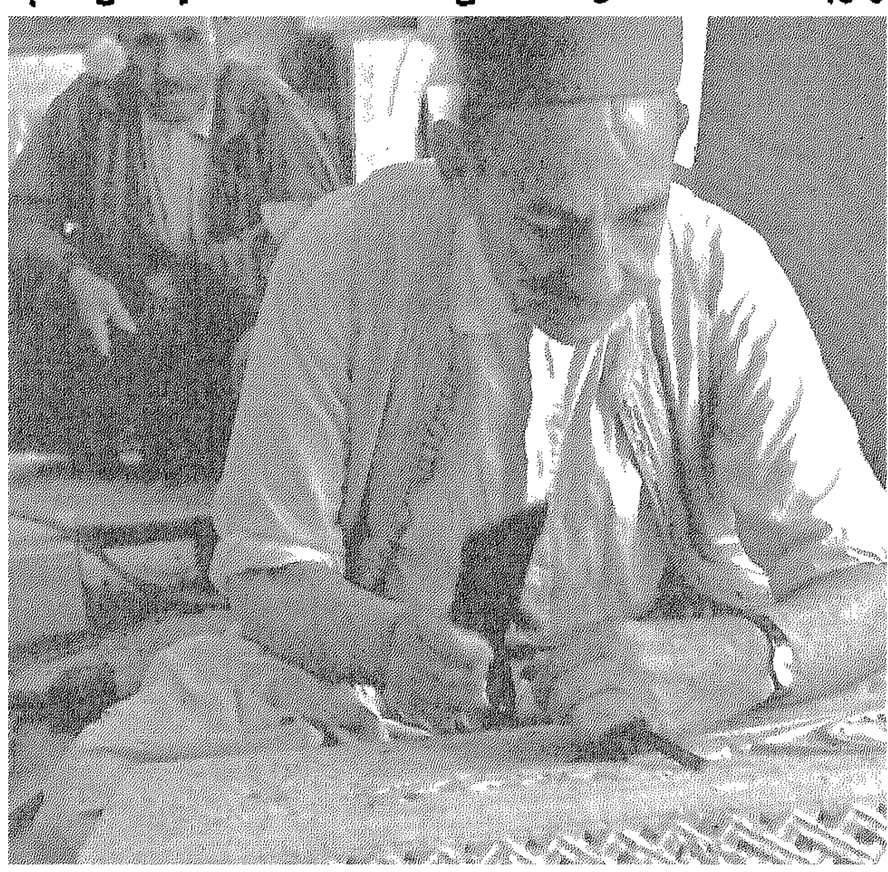
اغلقوا أبواب الجحيم هذه ، المسماة «إباحة نقل الأعضاء البشرية» إلى أن يتمكن العلم من الوصول الى ابتكار الحلول المطلوبة لتحقيق حلم «الابصار للجميع» و«الصحة والعافية» للمرضى كافة، بعيدا عن قتل الإنسان لأخيه الإنسان.

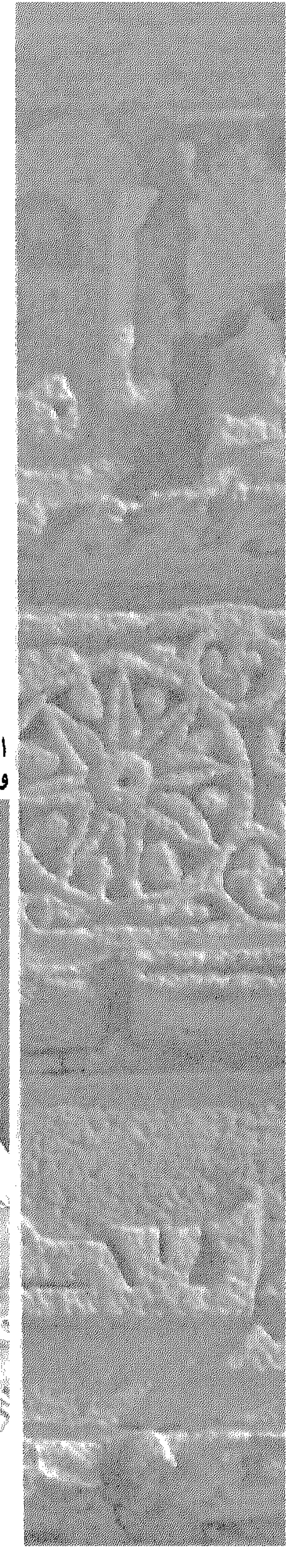
المشهد الثقافى التونسى

الفاصل الثقافى لايزال منطقة شاحبة بين المشرق والمغرب

رسالة تونس : صلاح المراكبى

الصناعة اليدوية اشتهرت فى تونس بدقة أشكالها وترجمة للمثل العامى«الصنعة مقياس ذهب»

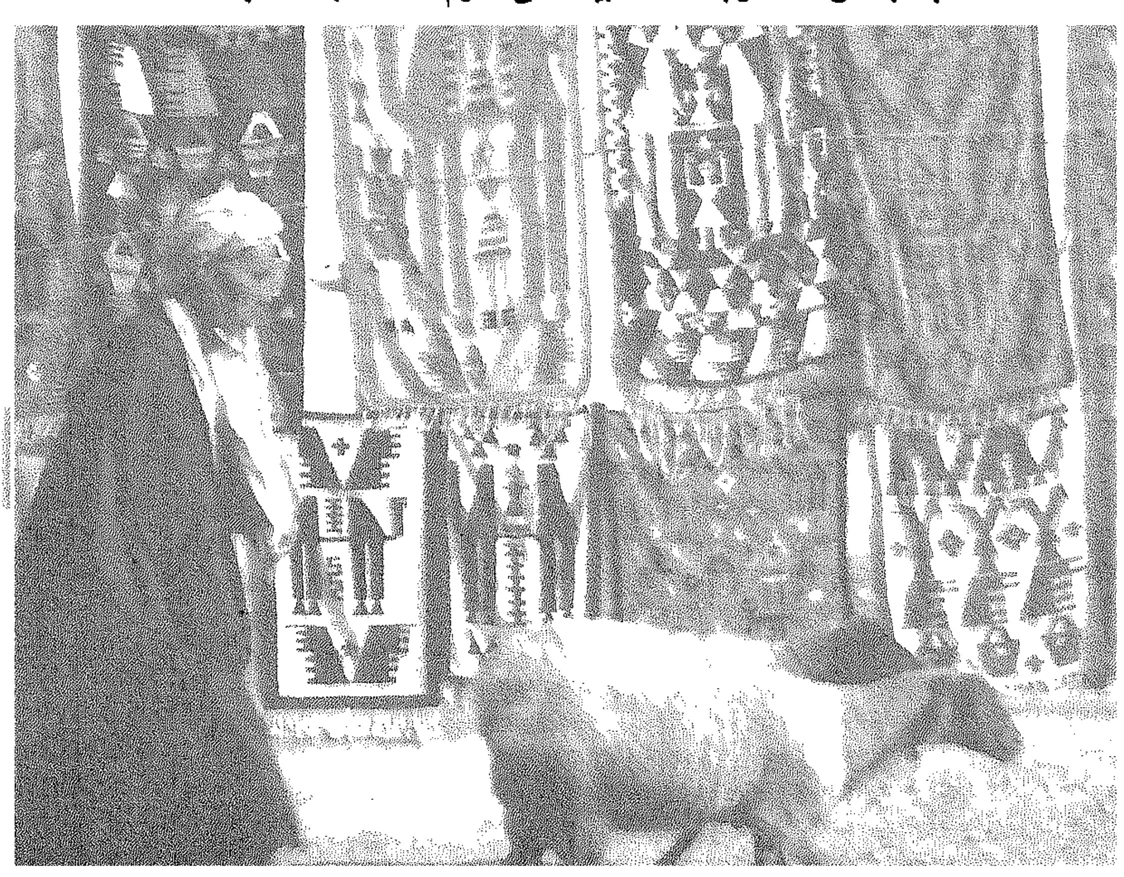


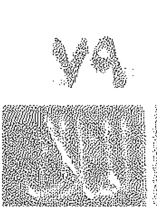


على الرغم من أن مساحة تونس لاتزيد على ١٦٣ ألف كيلو متر مربع ، إلا أنها متنوعة بين السواحل والوديان والصحارى والبحيرات ، يسكنها حوالى ٩ ملايين نسمة ونصف ، وأثناء زيارتى لتونس ولقاءاتى بمثقفيها وفنانيها اكتشفت أن الفاصل الثقافى لايزال واضحا بين جناحي العالم العربى، المشرق والمغرب ، وإن كان خط الثقافة فى المشرق أكثر وجودا وتأثيرا .

وأثناء زيارتي لها التقيت بعدد من الشخصيات الثقافية الفاعلة فى الحياة التونسية :د. عبدالوهاب بوحديبة رئيس المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون ، والأديب الشاعر الميدانى بن صالح رئيس اتحاد الكتاب التونسيين، والفنان التشكيلي عبدالعزيز القورجى عميد التشكيليين ، والشاعرة فضيلة الشابى ، من رواد الطليعة ، وشاذلية بوخشينة رئيسة اتحاد المرأة التونسية ، ونائبة رئيس البرلمان .

جانب من المنسوجات الشعبية التى تقوم النساء بصناعتها







● د. عبدالوهاب بوحديبة
رئيس بيت الحكمة :

أمامنا تحديات ثلاثة لينهض العرب !

عندما عبرت مدخل بيت الحكمة في حى «قرطاج حنبعل» فى تونس ، كنت قد عبرت القرن العشرين بطوله مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؟! حيث قام بناء هذا القصر العتيق الذى أقطع محمد الباى أرضه للمملوك أحمد زروق مستشاره وزوج أخته زنيخة عام ١٨٥٥ م فبناه وأقام فيه وترقى وزيرا للحرب والبحر .. ثم هجره ليصبح قصر محمد الأمين آخر بايات تونس وحكامها حتى الاستقلال.

فى هذا القصر كانت زيارة الوزير الفرنسى جوليه فرى الذى كان دوره كبيرا فى فرض الحماية على البلاد ، كما أعلن فيه الرئيس منديس فرانس باسم فرنسا عن حق تونس فى الحكم الذاتى ، وفيه أصدر باى تونس مئات القرارات ومنها «مجلة الأحوال الشخصية» التى حررت المرأة ، وألغت تعدد الزوجات وقيدت الطلاق .. ومن باب هذا القصر خرج باى تونس للمنفى وأعلنت الجمهورية التونسية!!

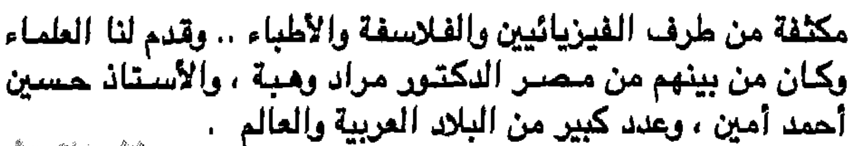
هو إذن قصر له تاريخ كما يقول الدكتور عبدالوهاب بوحديبة رئيس بيت الحكمة وهو الاسم المختصر للمجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون .

ويقول :

– نحن نحاول أن نكون فى مستوى الأمانة .. والأمانة هى أيضا جدران ، والجدران تتكلم وتحكى .

المجمع التونسى يوازى فى مصر مجمع اللغة العربية ، لكنه على شاكلة المجمعات فى فرنسا والدول الأوروبية .. هو كما يقول رئيسه د. بوحديبة – المفكر العربى وأستاذ علم الاجتماع الإسلامى والمغاربى فى جامعة تونس ، يقول :

– هو مجمع جامع لا مجمع مختص باللغة العربية وحدها .. هو يعتنى بكل قطاعات الإبداع .. نحن مؤسسة علمية لا إدارية ، وسوف يتم اكتمال قانونها قريبا.. بحيث تضم ٧٠ مبدعا من تونس وثلاثين من الخارج .. الآن نقوم بنشاطين أساسيين هما : الندوات والنشر .. أربع ندوات أقمناها حتى الآن – فى كل سنة ندوة – الأولى حول «الحرية .. الكائن الحى فى هذا الزمان» والثانية عن «المعقول واللامعقول» ذلك أن عودة اللا معقول تخيفنا بالفعل ، الثالثة عن «واقع البيئة فى هذا الزمان» والرابعة التى تمت فى مايو الماضى كانت حول هذا التساؤل: « ما الحياة» ؟ حيث دعونا ما بين ٢٠ ، ٣٠ أستاذا كما تعودنا ، من البلاد العربية وأوروبا والولايات المتحدة وتونس ، وهم كبار المتخصصين فى الفلسفة والطب والإبداع والجيولوجيا للإجابة عن هذا التساؤل .. فالحياة الآن تتميز بمعرفة



مكثفة من طرف الفيزيائيين والفلاسفة والأطباء .. وقدم لنا العلماء وكان من بينهم من مصر الدكتور مراد وهبة ، والأستاذ حسين أحمد أمين ، وعدد كبير من البلاد العربية والعالم .

نشر التراث

أما في مجال النشر – يقول الدكتور بوحديبة – فهدفنا من ورائه هو التعريف بالتراث التونسي والترجمة ، فقد نشرنا لبيرم الخامس كتابه : « صفوة الاعتبار في مستودع الامصار والأقطار» وهو الذى سافر إلى العديد من أصقاع العالم في منتصف القرن التاسع عشر وكتب مذكراته وانطباعاته .

كما نشرنا لخير الدين التونسى كتابه فى «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» .

ونشرنا لابن الجزار كتابه في «طب الفقراء» .

وكان لنا ملتقى أسميناه «أيام الخط العربي» فقد جلبنا من اسطنبول ١٥٠ لوحة من روائع الخط العربي ولوحات من تونس وأقمنا معرضا ودعونا ١٠ من أساتذة الخط الأتراك – والخط العربي مادة تدرس في تركيا – أقاموا ورشات عمل استمرت أياما ، ولقيت اقبالا هائلا من الدارسين التونسيين ، استفدنا كثيرا منها ، حيث تعلم الدارسون التونسيون فنونا فى الخط لم يكونوا يعرفونها كالنمنمة والتذهيب وغيرهما ، وأقمنا حفلا توجنا به هذه الأيام أبدع لنا فيه فنان تونسى بصنع ثوب زخرفه بالحروف العربية بشكل أعجب الجميع .

● متى بدأ المجمع ؟

– عام ١٩٨٣ وأنا توليت رئاسته عام ١٩٩٦ وأنا اعتبر نفسى مثقفا عربيا يقوم بمسئولياته التى نجابهها .. وهذه المسئوليات هى التى جعلتنى أمارس كل نشاطاتى فى تونس ، وفى الجامعة التونسية .

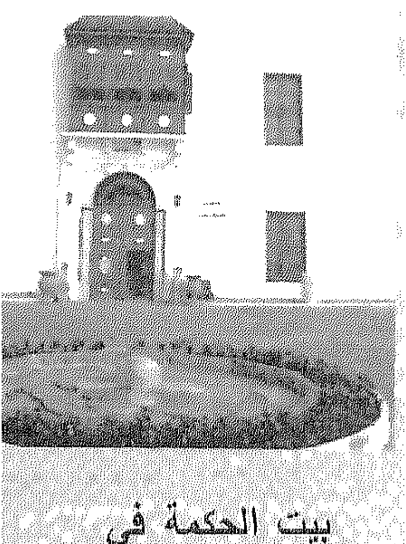
● خبرتك طويلة عن الفكر والإبداع ومشاكل العالم العربى .. كيف ترى المستقبل العربى ؟

– فى رأيى أن الشخصية العربية قوية، وأملى كبير فى أنها ستخرج بالرغم من المحن بتجديد عميق لكيانها .. فقد مرت بأزمات عديدة وخرجت منها سليمة ، لا كما كانت ولكنها جابهت التحديات وصمدت ، صحيح أنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة ، وأنا أنصح نفسي وطلابى والشباب من حولى أن يضعوا أنفسهم فى مجرى الحركة ، حتى نخرج بالشخصية العربية بما يجعلها تضطلع بإيجابياتها الكبيرة وطاقتها الكاملة ، لا أن تساهم فقط فى صيانة نفسها ، ولكن لتساهم فى تجديد الفكر الكونى المشترك .

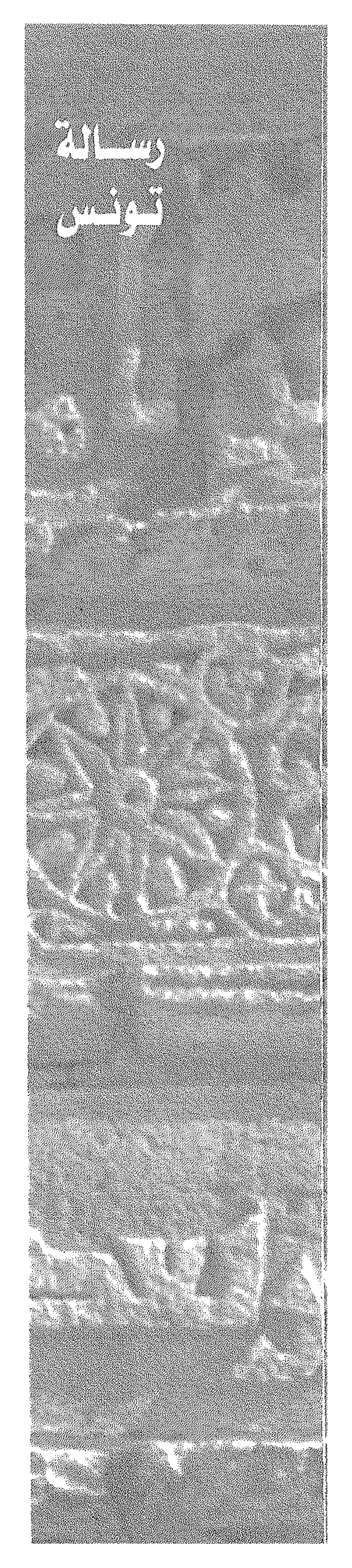
● ولكن التحديات كبيرة .. ومتجددة ؟

– نعم التحديات مختلفة وصعبة عبر التاريخ الطويل .. وكادت تقضى علينا ، ولكننا وجدنا فى ثقافتنا وفى الإسلام الدرع الواقى

جامع القيروان



بيت الحكمة فى تونس (قرطاج)



والكافي ، الذى مكننا من أن نربح الوقت ، خاصة عندما فقدنا الدور الأساسي الاقتصادى والسياسى والعسكرى .. لكننا فى الواقع لم نخسر أنفسنا .

٣ تحديات
• وما خطة العمل المطلوب ؟

– بعجالة أمامنا ثلاثة تحديات ، لها مستوياتها المختلفة ، وعلينا أن نحذر ، وألا نخلط بين هذه التحديات بمختلف مستوياتها :

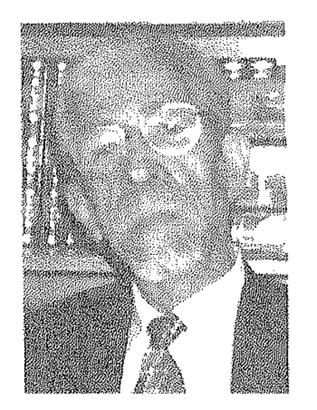
١ – التحدى الأول هو من أنفسنا ، أى أنه يخيل الينا أننا نستطيع أن نجابه المستقبل كما جابهه أجدادنا ، وهذه أكبر غلطة ، وقد دفعنا ثمنها باهظا .. كما دفعناه فى فلسطين .. من الخطأ أن نتمادى فى التعامل مع أنفسنا كما تعامل أجدادنا مع أنفسهم ، نحن فى غليان وفى جيشان وألم ، فإذا لم نوجه طاقاتنا الحركية الديناميكية بالطريقة المثلى فسنقضى على أنفسنا .

٢ – التحدى الثانى هو أننا نحن العرب نسبب لأنفسنا أكثر مما يسببه لنا غيرنا بخلافاتنا ولنكن صرحاء ، فقد قتل العرب وشردوا ودمروا من العرب أكثر مما فعل الانجليز والفرنسيون وإسرائيل .. لنكن صرحاء ، أكبر مشاكلنا منا نحن لا من غيرنا ، حتى غيرنا لا يصيبون منا إلا من خلال ثغرات نحن الذين نصنعها .. نحن فى حاجة إلى أن نفهم الواقع القريب منا والمحيط بنا : ماهى الأمة العربية ؟ ماهى حقائق التنوع العربى ، لماذا نخسر؟ لماذا لا نزال نعيش فى منظمات سياسية فرضتها الظروف التاريخية علينا وكأنه لا مناص منها .. وكيف نتعامل مع الواقع المحيط بنا ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا.

٣ – أما التحدى الثالث فهو لا يواجه العرب فقط ، ولكنه تحد كونى ، يواجه العرب فى المعية مع أى دولة أخرى .. فالعولمة تشكل اشكالية بالنسبة للعرب والأوربيين والاسيويين والافارقة .. هناك أمركة ، هناك أوربة ، بطبيعة الحال نحن لا نغفلها ولها ضغوطاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. ولكن بالنسبة لنا جميعا كبشر نقيم على هذه الأرض ، لنا قواسم مشتركة ، ولو وجدنا الحلول للتحدى الأول والثانى ، فيمكن لنا أن نساهم فى هذا التحدى الكونى بالبحث عن القواسم المشتركة وتدعيمها وتوسيعها وترسيخها ، المشكل الكبير الذى أراه ، هو أنه سيأتى زمان سنجد فيه اللغة المشتركة ، ذلك أننا الآن عندما نتحدث عن الحضارة الأمريكية .. ماذا نعرف عنها ؟ .. نحن نتعامل بالجانب التجارى للحضارة الأمريكية . هل نحن نعلم حقا ماهى إبداعاتهم الفكرية فى السينما الأصيلة ، فى الفنون التشكيلية الأصيلة ، فى الفلسفة التى تقوم عليها حياتهم؟ ماذا يصلنا ؟ تصلنا الأفلام السينمائية من النوع الرابع والخامس .. يأتينا الهامبورجر والسلع التجارية !

الميداني بن صالح
رئيس اتحاد الكتاب

الاستعمار في الكتاب!
لتونسي لا يزال محتشما؟!
أمتنا العربية تعيش الآن بداية يقظة


الميدانى بن صالح

ومن حسن الحظ أننى التقيت بمؤسسى اتحاد الكتاب التونسيين ورؤسائه جميعا على مدى عمر الاتحاد الذى بدأ فى عام ١٩٧١ وهم محمد مزالى، والبشير بن سلامة ، والعروسى المطوى .. وفى هذه المرة التقيت بالميدانى بن صالح .. وهو أديب كبير وشاعر رائع ، قرأت له قبل أن ألقاه قصيدة كتبها فى ليلة عيد الأضحى عام ١٩٩٥ عنوانها «أقباس فى كهف الظلمة» كتبها إثر مجزرة وحشية بمدينة الجزائر ذهب ضحيتها عدد كبير من الأطفال والشيوخ والنساء والرجال ..


شازلين بوخشينة

أيها السائل عن سر انتشائى وابتهاجى
ليلة العيد وليلى مظلم الآفاق داجى ..
هدنى قيدى ولم يجد خضوعى واحتجاجى ..
فإلى الكاهن أهديت تخيلى وجمالى ونعاجى ..
وإلى الشيخ تبرعت بدارى وبأبنوسى وعاجى ..
أطلب الرحمة لكن سيج الشيخ سياجى ..
ثم أفتى أننى قن لديه بطموحى ونتاجى ..
ها أنا الآن رهين السجن أضنانى أعوجاجى

كانت بداية الاتحاد بمائة عضو ، الآن بلغوا الخمسمائة ، ثم جمعهم فى مجلدين كبيرين بأسمائهم ومسيرتهم ونماذج من أعمالهم القصيرة .. من بينهم خمسون كاتبة وشاعرة .. الطريف فى شروط عضوية الاتحاد أن يكون للمتقدم للعضوية كتابان منشوران ، إلا كتاب الأطفال فيشترط أن يكون لطالب العضوية سبعة كتب خاصة أو عشرة كتب بالاشتراك ؟!


فضيلة الشابى

للاتحاد ١٥ فرعا فى ولايات تونس ، وفرع فى باريس للمبدعين فى المهجر .. ويضم أربعة نواد : للشعر ، والقصة ، والفنون ، وجدل ؟

نادى فنون يقوم على فكرة تجميع كل المبدعين للحوار والنقاش وتبادل المعارف....

يقول الميدانى بن صالح :

– لم تعد الإبداعات جزرا منفصلة ، فالشاعر والرسام والمطرب والملحن وكاتب السيناريو يجب أن يلتقوا وأن يتبادلوا الرأى والمعارف .. وهم يلتقون فى الاتحاد مرة فى كل شهر ، بينما نادى الشعر والقصة يلتقى كل منهما ثلاث مرات فى الشهر ، أما نادى «جدل» فيناقش فى ندواته قضايا الفكر والمعرفة والحضارة : العولمة ، حقوق الإنسان ، الحرية الديموقراطية، المرأة ، واقع الإبداع فى

تونس ، النقد ومواكبته ودوره . ونحن ندعو لندوات «جدل» كبار المفكرين من العالم العربي .

ويضيف :

– نحن يا سيدى أصحاب حضارة وأصحاب عطاءات عديدة .. لكننا لا نزال فاشلين في تعريف أنفسنا للآخر .. أرضنا العربية شهدت مولد الحضارات الأصيلة فى العالم .. من ينكر أن الخط المسمارى كان أول خط فى العراق وأن الخط الهيروغليفى كان أول خط في مصر ، وأن الإبجدية الغربية ABCD هى أبجدية قرطاجية .

لكن من المعروف أن حركة التاريخ تحدث فيها انكسارات : سقطت بغداد بيد المغول عام ١٢٥٨ ، وسقطت قرطبة عام ١٢٢٦ ، وغرناطة ١٤٩٢ ودخلنا فى ظلام الحكم العثمانى فى عام ١٥١٧ ، لكننا الآن نعيش بداية يقظة أو شبه يقظة لا أدرى .. ربما تكون المذابح الفلسطينية التى نشهدها هذه الأيام هى الشرارة التى تنير طريقنا إلى مستقبل أفضل .

● ولكن .. ماهى مشاكل الكتاب التونسى ؟

– مشاكلنا فى مستواها المحلى هى مشكلة النشر والتوزيع .. فواقع النشر يحتاج إلى نظر .

● وما الحل فى رأيك ؟

– نطمح أن يمتلك اتحاد الكتاب التونسيين مطبعة خاصة .. كما يجب أن تكون المؤسسات الاقتصادية مجبرة وملتزمة بشراء عدد من النسخ على قدر عدد العاملين فيها وبنسبة معقولة .

● النقد .. وكيف مواكبته للإبداع ؟

– فى رأيى أنه لايزال انطباعيا .. مجاملا أو محطما .. النقد فى رأيى مهمة أساتذة الجامعة .. الجيل الأول منهم فى تونس كانت أدمغته تعيش فى أوروبا لا يعرفون أو يعترفون بالأدب التونسى .. الجيل الثانى بدأ يهتم لكن اهتماماته كانت أيديولوجية تسوقه رياح الايديولوجيا فالماركسى يمتدح الماركسى والليبرالى .. وهكذا .. أما الجيل الثالث فقد أفرز نقادا لايزالون فى مقتبل العمر ، يهتمون بالأدب التونسى شعرا ورواية وقصة ودراسات منهم الأستاذ محمد القاضى ، وعثمان بن طالب .. لكنه جيل لايزال جنينيا يبشر بالخير إن شاء الله

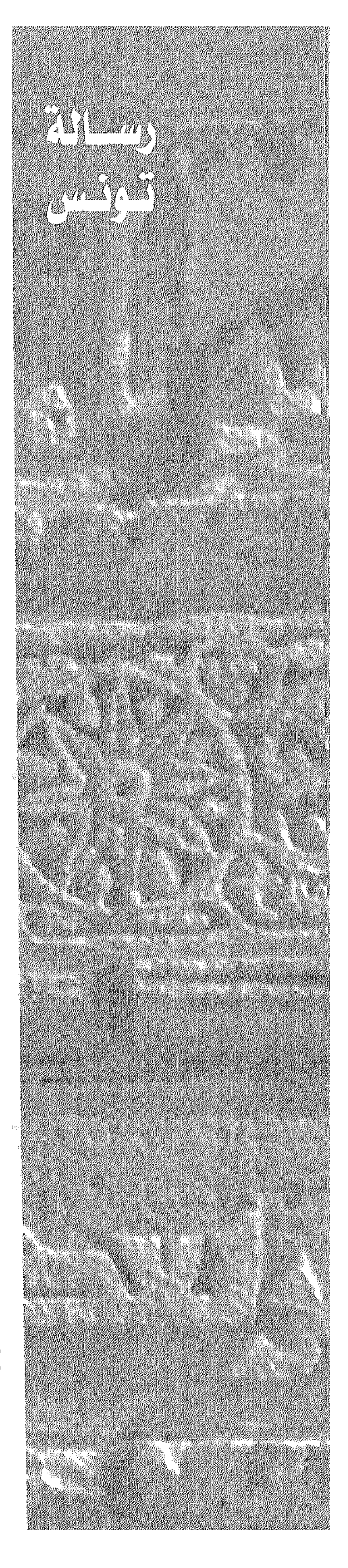
● ماهى الاتجاهات فى الشعر التونسى ؟

– الشعر التونسى رافد مشابه للشعر فى مصر وسوريا لكن الملاحظ أنه بعد هزيمة ٦٧ ظهرت موجة من الشعراء نادوا بكتابة الشعر بالعامية أو بتحطيم قواعد اللغة العربية ، صرفا ونحوا ، وكان ذلك ناتجا عن صدمة الهزيمة ، وفشل التجربة الاشتراكية فى تونس فى نفس الوقت .. وظهرت مدرسة الشعر الحر ، ولو أنها كانت قديمة فى بعض البلاد العربية ، أدونيس ويوسف الخال .



بائع الكتب يجلس وبجواره كتب تضم الوان الثقافات





عميد التشكيليين فى تونس
●عبدالعزيز القورجى

أول من يحصل على جائزة الإبداع فى تونس

استغرق حديثى مع «الرسام» عبدالعزيز القورجى ، وهو أفضل تعريف للفنان التشكيلى فى تونس مدة أطول مما حددها لى وتحملنى .. فقد كان حديثه بالفرنسية التى تلمع فى أثنائها كلمات عربية بالعامية التونسية التى أعرفها وكنت أستعيده ، فيحاول أن يجد كلمة أو كلمتين ، وكنت أعيد له ما فهمته فيوافقنى أو يعود ليكرر ما قاله بشكل أكثر وضوحا .

قال لى ونحن نتجول بين لوحاته التى تتميز بالأداء الحديث وعمق الروح التراثية وقوة الألوان :

– إن التراث التونسى خارق للعادة .. رائع .. يأخذ بمجامع القلوب ويخطفها لتستقر فى العيون بسحرها الجميل .. لقد درست على فنانين فرنسيين ، سواء فى فرنسا أو تونس ، لكنى لم أتأثر سوى بالفن التونسى القديم ، أنا لا أتبع أية مدرسة ، هذه مدرسة قورجى التونسية .

كان عشرات التلاميذ الذين هم الآن فنانون تشكيليون معروفون يؤمون مرسمه، يعملون وهو يعمل .. لا يوجههم ولكن يكتشفهم .. فقط يرسمون فى ظله ، يقف وراءهم ويتابعهم .. يقول :

– الفنان يولد ولا يصنع .. الفنان هو الذى يخرج من شرنقته وأنا أسنده ليصلب طوله ويتحرك .

قلت له :

● ماهى ملامح اللوحة التى تعجبك ؟

– هى التى تقدم رؤية جديدة .. وهى التى تراها فتحس أنها تتحرك بكل حيوية .. إن الفنان أى فنان ، هو أول من يتمتع بكامل حريته فى هذا العالم .

● كيف كانت البداية .. والمسار؟

– ولدت منذ ٧٠ سنة .. لكننى لم أفطن لبدايتى الفنية .. كل ما وعيته أننى دخلت مدرسة الفنون الجميلة فى تونس وعمرى ١٦ سنة ، لم أكن أقصد شيئا سوى الحب والرغبة فى دخول هذا العالم السحرى الجميل .. كل التلاميذ فى المدرسة كانوا من المستوطنين الفرنسيين فى تونس، إلا ثلاثة تلاميذ فقط ، هم سى معمرى ، وليلى مشارى ، وأنا ..

● كيف كانت الدروس ؟

– بخلاف الحديث عن تاريخ الفن والفنانين وتقنية استخدام الألوان ودراسة أعضاء جسم الرجل والمرأة وطبيعة الحركة ، فقد كانت الدروس العملية أن يرسم الجميع .. كل واحد على حريته دون توجيه .. لا الأستاذ يفرض رؤيته أو ينتقد ما ترسم ، ولا التلميذ يسأل

الرأى .. ولم تكن للدراسة مدة محددة أنا شخصيا بقيت ٦ سنوات وتخرجت ، ثم سافرت إلى باريس.

● هل ترسم مناظر طبيعية ؟

– أرسم مناظر طبيعية وأشخاصا لكنها تحمل اسمى ولا تحمل شخصياتها..

● هل رسمت نفسك ؟

– لأننى لا أفهم نفسى فلم أرسمها.


عبد العزيز القورجى

● شاذلية بوخشينة
رئيسة اتحاد المرأة التونسية ونائبة رئيس البرلمان

أتمنى إلغاء اتحاد المرأة لتصبح قضايانا إنسانية ؟!

يتدفق حديثها بالعربية الفصحى بقدرة دقيقة التعبير وأنيقة الكلمات ، ليس فقط باعتبارها تونسية ، ينتشر فى مجتمعها الحديث بالفرنسية ، ولكن على مستوى المرأة العربية ، وبصوت أنثوى رقيق ، يعطى للكلمات السلسالة نموذجا تمنيت لو أنه حديث مذاع .. لينفع الكثيرات وربما الكثيرين أيضا بدرس لغوى للغتنا العربية التى أصبح النطق الصحيح بها ، يحتاج إلى شيخ معمم ، يتقعر بها فى دور مسرحى ساخر؟! ليضحك الجميع !!

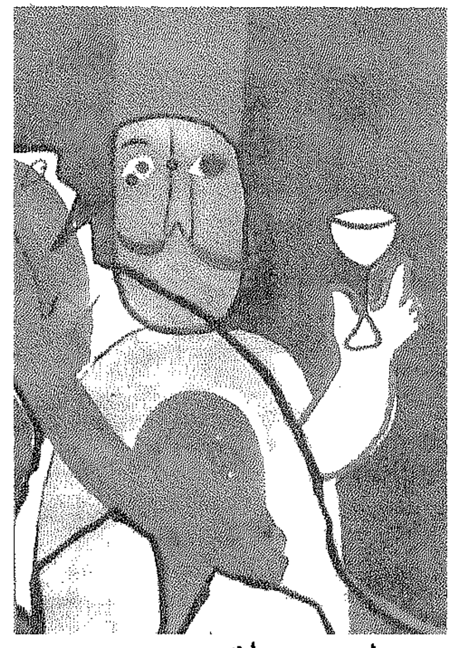
قلت لشاذلية بوخشينة رئيسة اتحاد المرأة التونسية ونائبة رئيس البرلمان ، والمستشارة السابقة برئاسة الجمهورية :

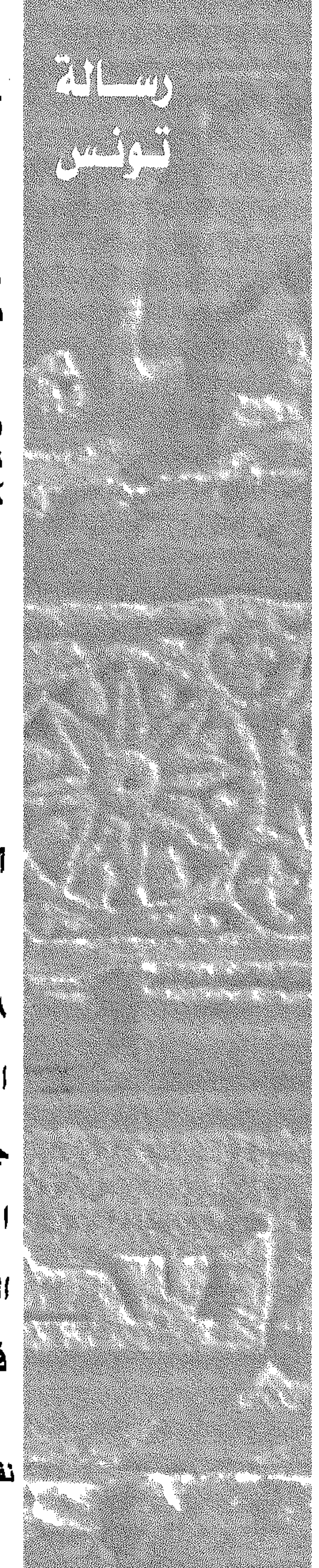
● حققت المرأة التونسية نسبة عالية من المشاركة فى مجالات النشاط والعمل واتخاذ القرار فى المجتمع التونسى ، مقارنة بأختها العربية .. ماذا بعد ؟ ماهى طموحاتكن للمستقبل ؟

– أولا لا نهاية لطموح البشر ، لأنه حتى الدول المتقدمة أكثر منا بكثير ، يشغلها بل ويقلقها التفكير الدائم فى غد أفضل .. وكلما حقق الإنسان شيئا ، خلقت له حاجات جديدة .. نفس الشئ بالنسبة للمرأة التونسية ، ففى البرنامج الانتخابي للرئيس زين العابدين بن على ١٥ نقطة ، كلها تهم المرأة بصورة أو بأخرى إما كأم أو ربة بيت .. ومنها نقطة مهمة سماها الرئيس «آفاق متجددة» .. ونحن ندرك ونعى تماما أنه لا تزال أمامنا خطوات كثيرة نسعى للوصول إليها .. منها.

– دعم قدرات المرأة على المستوى المعرفى .. وإذا كنا لا نزال نحارب الأمية التقليدية ، فقد نشأت أمامنا أمية جديدة هى الأمية الإعلامية ، وقد صدرت قرارات أخيرة بتخفيض سعر الحاسوب وتخفيض أجور الاتصال بالانترنت .. هذا الاهتمام سيمكن المرأة من آلة جديدة للمعرفة ، يرفع مستواها التعليمى ، ويزيد قدراتها على المشاركة فى الحياة .

– هناك مشكل آخر .. هو إدماج المرأة أكثر فى سوق العمل ،


من لوحات عبد العزيز القورجى



حتى لا تبقى مهمشة العولمة ، فخطر أن تكون المنافسة الشرسة وفتح الحدود على حساب المرأة ، فلا تزال قدراتها أقل فى مجالات الاختصاص ، ولا تزال مشاركتها فى سوق العمل تقارب نسبة ٣٠٪

– أمامنا سعى هام لنجعل المرأة مستثمرة ، فيجب عليها أن تتعلم لتنتصب بذاتها ، بخلق شركة صغيرة ، أو مؤسسة صغيرة .. فنحن عندما نقول أن المرأة نصف المجتمع ، فيجب ألا تكون هذه النسبة غير مستغلة بالكامل .

هناك مشكل آخر وليس الأخير ، هو العمل على إدماج المرأة وأكثر فى الهياكل السياسية ، فى مجالات اتخاذ القرار ، حتى تساهم فى تصور الاستراتيجيات بكل مستوياتها .. وتصبح شريكا كاملا فى الحياة .

● ماهى أبرز مكتسبات المرأة حسب القوانين المعمول بها ، والتى تسمونها «مجلة الأحوال الشخصية» ؟

– يوم ١٣ أغسطس من كل عام عيد وطنى للمرأة .
– إلغاء تعدد الزوجات .
– ضرورة موافقة الطرفين على اتمام الزواج .
– زواج القاصرات يتم بموافقة الأب والأم معا .
– الحق فى تعاطى موانع الحمل والاجهاض داخل المستشفيات .
– الطلاق حق لأى الطرفين الرجل والمرأة على نفس المستوى .
– الحكم الجزائى يتساوى فى حالة ثبوت الأدلة القانونية لخيانة أى طرف للآخر .
– جريمة قتل الزوج لزوجته الخائنة لاتحاط بأى تخفيف .
– المساواة فى الأجور .
– معاقبة الأبوين اللذين يسحبان أبناءهما من التعليم حتى سن ١٦ سنة .
– للمرأة التى لها حق حضانة أبنائها الحق فى كل شئونهم فى السفر والدراسة والتصرف فى حساباتهم المالية .
– للمرأة التونسية المتزوجة من أجنبى الحق فى إعطاء أبنائها جنسيتها التونسية بموافقة الأب ، حتى لو ولدوا خارج الوطن.
– استخدام العنف مع الزوجة عامل من عوامل التشديد فى الجزاء .
– صندوق تحصل منه الزوجة المطلقة على حقوقها فى حالة عجز الزوج عن أدائها .

فضيلة الشابى :

أنا كائن شعري أنحت كلماتي ولا أنثر؟!

هى من أسرة أبو القاسم الشابى ، ابن خال والدها ، عاهدت نفسها أن تكمل رسالته ، ذلك الشاعر «الشهاب» ، الذى ظهر فى

سماء الثقافة التونسية والعربية ، ولم يمهله العمر ، فمات شابا ! .. تشعر أنها تتحمل هذه المسئولية دون أن تتأثر به .. تريد أن تبنى مشروعها الشعرى دون أن تكرر تجربة غيرها مهما عظمت !

منذ بدايتها - تقول - بحثت عن صوتها ، عن لغتها الشعرية الخاصة «ومازلت وسأظل أبحث عن هذه الرؤية الشعرية للأشياء والعالم» .

بدأت بكتابة الرواية عام ١٩٦١ كانت صغيرة جدا .. لكن ظهورها الحقيقى على الساحة كان فى أواخر الستينات مع حركة الطليعة الأدبية فى تونس .. ومنذ ذلك الوقت والرحلة متواصلة .. حركة الطليعة كانت ثورة «ضد» الشعر الكلاسيكى ..

وتضيف :

- كلمة «ضد» إذا كانت تبدو عنيفة ، إلا أننا يجب ألا نخشى من العنف فى الفكر والأدب .. إن حركة الطليعة جاءت لتبشر بلغة شعرية أخرى وبخروج القصيدة عن عالم العروض تماما .. إن الشعر العربى الحديث يعيش بعد أن حفر مساره الجديد رجة قوية .. والشعر هو لغة الإنسان القصوى .. وقد عرف الشعر العربى عبر تاريخه الطويل مثل هذه الرجات ، وهذا دليل تطور ، ومن الخطأ أن نستمع إلى من يقولون أن شعرنا العربى يعيش أزمته .. ولا ننسى قولة أبى العتاهية : « أنا أكبر من العروض» .. فالعروض هو ذلك الوزن الذى ابتدعه شاعر الصحراء ، كان إذن ابن بيئته .. أنا كقارئة أعشق الشعر الكلاسيكى وأردد روائعه .. لكنى كشاعرة أعرف أن ذلك كان ابن بيئة ذلك الزمان .. الآن شعرنا ابن المدنية .. ايقاعه هو هذا الفضاء الفسيح الذى نسعى إليه .. ونجول فيه .. هذه الرجّة القوية التى تعيشها القصيدة العربية فى كل أقطارنا ، تحتاج إلى عملية استقراء ، لاستخراج هذه الايقاعات الجديدة التى أراها علامة صحة وتطور فى الشعر العربى .. أنا أسميها نصوصا شعرية وليست قصائد شعرية ، والنص هو حادة الشئ ، أو تخم الشئ .. إنه نظرة جديدة للعالم ، وقدرات إبداعية جديدة فى النظر إلى الأشياء .

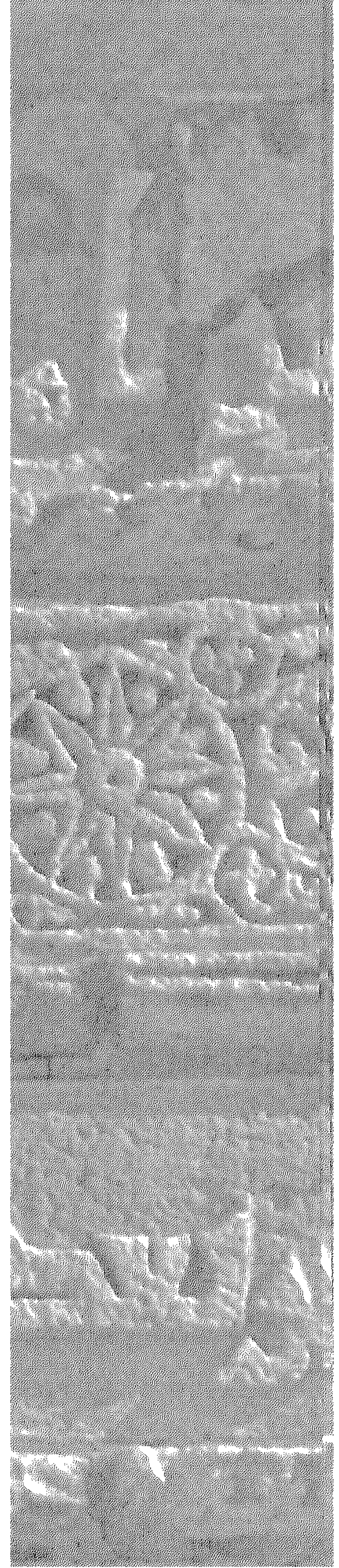

قراءة القران


يرتدى الطفل التونسي اجمل ملابسه يوم الختان

● **إذن أنت تعتبرين أن الشعر قد خرج من «بحور العواطف» إلى «عالم المعرفة» ؟**

- نعم .. الشعر جانب من جوانب المعرفة ، أنه يوازى الفلسفة ، والفلسفة هى شعر خارج النظام .. الشعر عالم ذهنى .. حتى غنائياته تلونت بهذا اللون الذهنى .. والشعر هو ذلك المنفلت إلى آخر العمر وآخر العالم .. يحلو لى أن أعرف نفسى - رغم كراهيتى للتعريفات - بأننى كائن شعرى ، لأن الشعر هو موقف من الحياة والوجود .. هو انصات للعالم ، والشاعر إذ يهيئ نفسه للانصات يصبح بحد ذاته عالما مصغرا .. وتخرج نصوصه عوالم مصورة .





● الشاعر إذن انعكاس للعالم ؟

- ليس انعكاسا للعالم .. وطبيعة الفن ليس انعكاسا العالم ، وإنما هو خلق جديد له - الشاعر يعيش على هامش المعرفة .. يسكنه الرعب .. أنا مسكونة دائما بالرعب، موسيقى العالم تهزني .. لا أعرف ما الذى سأراه غدا ، وما الذى سأكتبه غدا .. لا يمكنني أن أتصور عالما بلا شعراء .. الشعر هو الفن الأول الحى فى ثقافتنا العربية وثقافة العالم .

قلت لها :

● دعينى أطلب منك أن نهبط على أرض الواقع لأسألك عن معاناة الشاعر ؟

- لقد انعكس الشعر على كل مراحل حياتى الشخصية ، وتحملت كثيرا من المتاعب .. وهذا قدر الفنان الذى يعيش بحثا عن الكلمة الصادقة فى عالم اللا صدق .

● ومم يعانى الشعر ؟

- يعانى من التوزيع .. ويعانى من النشر ، فإذا استطاع اختراق عقبة النشر، دخل فى مجاهل التوزيع .

● الشعراء يشتهرون من خلال الأغنية ؟

- هذا أمر يؤسف له - فالشعر للقراءة .. الشعر الحديث نص ذهني وليس للانشاد .. وهنا تكمن القطيعة بين الشاعر والمتلقى .

● هل ترين أن حظ الشعراء في الرجال أوفر من حظ الشاعرات .. فالتعبير عن العواطف عيب على الفتاة والمرأة فى مجتمعنا ؟

- نحن تجاوزنا هذا فى تونس ، فالقوانين تعطى المرأة الكثير وتحميها .. لكنى معك فى أن حظ الرجال أوفر - لأن الرجل لا يزال يحتكر التفكير .. والمرأة التى تفكر تتحمل عبئا كبيرا . جدا .. هى تتعرض للطمس حتى لا تفكر .. وتحتاج لمقدرة كبيرة لتجتاز تلك النظرة .. ولكن إذا لم تفهم المجتمعات العربية أنه بالتقدم لابد أن يكتمل جناحاه : الرجل والمرأة فسوف تظل الأمية طاغية وغالبة .

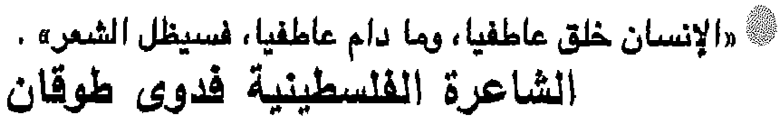
● هل تكتبين الرواية والشعر ؟

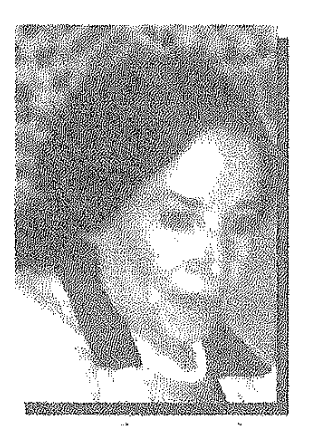
- نعم .. كتبت «الاسم والحضيض» و«تسلق الساعات الغائبة» ولى ديوان «شروق الأشياء» و«الأرض الأخرى» و«الشاعر والعالم ووردة الصباح» و«الكواكب المائية» .. وبعضها دواوين للأطفال .. فى شكل جديد .

● فى سطور قليلة .. من أنت ؟

- أنا كائن شعرى .. كأننى خلقت لأقول شعرا .. إن الشعر هو لغة الإنسان القصوى وسيظل الشعر ما بقى الإنسان على الأرض - الشاعر يعيش تساؤلا مستمرا .. وحيرة دائمة .. دون أن يصل إلى شئ !!

أقوال معاصرة





فدوى طوقان



جورباتشوف



- «الإنسان خلق عاطفيا، وما دام عاطفيا، فسيظل الشعر» .

الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان

- «حتى تكتمل عملية نزع القداسة عن إسرائيل، فإن عذابات الفلسطينيين وشعوب المنطقة مرشحة لأن تطول».

المفكر جورج طرابيشي

- «حين تنسق الولايات المتحدة الأمريكية مع آخرين، فإنها تتمسك فى كل لحظة بحقها فى أن تعطى التعليمات».

خبير الدبلوماسية الفرنسى دومينيك مويسى

- «قرار مصادرة كتاب دليل يقدم للغرب علي تخلفنا».

الروائية حنان الشيخ

- «لو أن غايتى فى الحياة، الاستسهال والمال، لا ثرت الاتجار فى المخدرات».

المخرج المكسيكى الفونسو آراو

- «العالم لا يريد أن يكون أمريكيا»

ميخائيل جورباتشوف

- «الأدب العظيم كله ولد فى الريف»

جونتر جراس
الاديب الالمانى الفائز بجائزة نوبل

- «الشعر ذريعة لكسر الحدود بين الفنون والأنواع الأخرى»

الشاعر السورى ادونيس

- «إذا كانت الدراما المصرية ماردا، فإنه مارد نائم»

المخرج السورى نجدت انزور

- «كل من سكت عما شاهده من عناصر الخلل فى التجربة، مسئول عن استمراره، ومسئول، بدرجة ما عن الانهيار

المفكر اللبنانى كريم مروة



عقد الستينات

هو عقد الكوارث فى القرن العشرين

بقلم: د. مصطفى سويف

تفرّد عقد الستينيات دون بقية عقود القرن بعدد من الخصائص لم تجتمع معاً لغيره من العقود، فقد تفرد أولا: بعرض شديد الكثافة لجبروت السلطة ، وانطوى هذا الجبروت على استخفاف بكيانات الأفراد (مع أنهم مادة الشعوب ومفرداتها) ، وبدا واضحا أن هذا الاستخفاف يمتد ليشمل أفكار هؤلاء الأفراد ووجدانهم وأحق حقوقهم، ألا وهو حق الحياة، وفى مواجهة ذلك تخلق واندلع عرض متنامى الحجم والكثافة لتمرد الأفراد وثورتهم الصريحة والضمنية على السلطة بكل ما تدعى الدفاع عنه من قيم مادية ومعنوية.



● اتهم لى هارفى أوزفلد باغتيال كيندى، ولكنه تم التخلص منه بعد يومين بطريقة مريبة

وهكذا تفجرت ثلاث ثورات مجتمعية لن يغفل التاريخ ذكرها: ثورة الطلبة، والانتشار الوبائى للمخدرات، والانفلات الجنسى، وتفرد عقد الستينيات ثانيا بأن أزماته كانت ما تلبث أن تظهر حتى تتحول إلى كوارث. وتفرد العقد ثالثا بحالة الهلع المتصل الذى ترسب فى نفوس الناس شرقا وغربا باعتباره المعادل النفسى للكوارث التى تلاحق وقوعها على الشعوب محفوفة بالإطار الإعلامى للحرب الباردة.

السيناريوهات الرئيسية :

أربعة سيناريوهات رئيسية تقاسمت العقد فيما بينها: دار أولها بين الدول الكبيرة/القوية، والدول الصغيرة/المستضعفة. ودار ثانيها بين الاتحاد السوفييتى والصين على وجه التخصيص. وجرت أحداث ثالثها داخل بعض الدول ولم تكن القوى الخارجية محسوبة له أو عليه. أما السيناريو الرابع فلم تكن الدول هى الشخوص الرئيسية فيه، ولكن قامت بالأداء شرائح عريضة من الشعوب. وعن هذه السيناريوهات سيكون الحديث فى هذا المقال ، وغنى عن البيان أن مثل هذا الحديث لا يسمح بالتطرق إلى تفصيلات الوقائع، ولكن يسمح بإشارات مقتضبة إليها حتى ينصرف بمزيد من التوضيح إلى بيان دلالتها فى التيار العام. وإلى القارىء حديث هذه السيناريوهات كما عايشناها.

عقد الستينيات

السيناريو الأول :

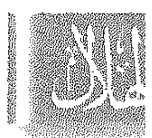
شملت أحداث هذا السيناريو عدة مواجهات بين دول كبيرة /قوية، ودول صغيرة /مستضعفة. من هذه المواجهات ما وقع بين بلجيكا والكونغو البلجيكية، وما وقع بين الولايات المتحدة الأمريكية وكوبا، وبين الولايات المتحدة وفيتنام، وبين فرنسا والجزائر، وبين الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا، وبينه وألبانيا. وسوف ينصب حديثي على المواجهات الثلاث الأولى بصفة خاصة ، وأكتفي بإشارات مقتضبة إلى المواجهات الأخرى، وهو ما يتناسب مع أحجام الضجيج الذى أحدثته تلك المواجهات جميعا.

أبدأ بالمواجهة التى وقعت بين بلجيكا والكونغو البلجيكية، وكانت هذه الأخيرة فى خضم اجراءات الحصول على استقلالها. فى هذه الأثناء اغتيل بطل الاستقلال باتريس لوممبا، وجاء هذا الاغتيال (فى فبراير سنة ١٩٦١) خاتمة لصراعات دموية شارك فيها بالتآمر والتواطؤ ثلاثة من الزعماء مواطنى لوممبا ومعهم عدد من الشركاء الأوروبيين من بلجيكا وفرنسا بوجه خاص. وعندما انتهى المواطنون الثلاثة من لوممبا (وهم تشومبى وكازافوبو وموبوتو) التفتوا إلى تصفية أحدهم الآخر، وفاز فى نهاية الأمر موبوتو واستقر على قمة السلطة أكثر من ثلاثين سنة، وطوال تلك المدة كان ينزح ثروات بلاده المعدنية لحسابه الشخصى وحساب من عاونوه على جريمته من أهل الداخل والخارج. وكنا. فى ذلك الوقت (أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات) فى غمرة الترحيب بحصول عديد من الدول على استقلالها . فجاءت أحداث الكونغو ووقعت علينا وقوع الكارثة لما تحمله من معانى التفريغ والفشل والتهديد.

وبينما نحن لم نفق بعد من صدمة الكونغو إذا بأحداث مواجهة أخرى تبدأ مسيرتها وكانت أسوأ من سابقتها . كانت المواجهة هنا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى على أرض كوبا، بدأت المواجهة بأخبار عن فشل محاولة لغزو كوبا قام بها منشقون كوبيون تدربوا فى أمريكا. وعلى أثر إذاعة أخبار المحاولة وفشلها أعلن كاسترو أن كوبا أصبحت ديمقراطية شعبية، وهو ما يعنى بمصطلحات ذلك الوقت التقرب الشديد إلى الاتحاد السوفييتي، ومن ثم فقد أعلن الاتحاد السوفييتى أنه سيزود كوبا بالصواريخ والخبراء لتعرف كيف تدافع عن نفسها، وسرعان ما أعلنت الولايات المتحدة فرض حصار على السواحل الكوبية لمنع وصول الصواريخ إليها. واشتعل اللهيب فى أركان الموقف الدولى وزاده الإعلام اشتعالا.

وأصاب النفوس قدر من الهلع على أساس أن التصادم المباشر بين الدولتين





الكبريين أصبح وشيكا؛ ثم فجأة أعلن الاتحاد السوفييتى سحب صواريخه وبدا الجو السياسى فى طريق التبريد، إلى أن أعلن أن الدولتين الكبريين اتفقتا على إنشاء خط تليفونى مباشر بين البيت الأبيض والكرملين ، للعمل على حل مثل هذه الصراعات قبل فوات الأوان، وانتهت الأزمة.

ومرة أخرى لم يكد العالم يفيق من آثار أزمة الصواريخ الكوبية حتى فوجىء (فى نوفمبر سنة ١٩٦٣) بأنباء اغتيال جون كيندى رئيس الولايات المتحدة. وهو حدث ضخم بكل المقاييس، وكان طبيعيا أن تتعلق أنفاس العالم بنوع الأنباء التى تذاع عن الواقعة وهل ستتجه أصابع الاتهام إلى الاتحاد السوفييتى؟ ولكن الواقعة كان وراءها حسابات أخرى. فسرعان ما قبضت الشرطة على شاب يدعى لى هارفى أوزفلد بتهمة أنه هو القاتل، وسرعان ما اتجه لندون جونسون (نائب الرئيس) إلى واشنطن ليتولى سلطات الرئاسة، وبعد يومين اثنين قُتل الشاب المتهم بطريقة مريبة، وأسدل ستار كثيف على أسرار اغتيال الرئيس وما قد يكون فيها من حسابات أخرى.

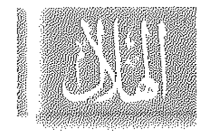
ومرة أخرى سرعان ما دخلنا فى دوامة كارثة جديدة «كارثة فيتنام». وتبدأ العلاقة الرسمية بين أمريكا وفيتنام الجنوبية فى يناير ١٩٥٦ عندما طلب الجنرال دييم الحاكم الفيتنامى إلى القوات الفرنسية (بقايا الاستعمار الفرنسى القديم) أن تغادر البلاد (وكان هذا بإيعاز من أمريكا). وفعلا رحلت فرنسا وحلت محلها أمريكا فى الشكل المعتاد: مساعدات محدودة وخبراء. ويبدأ الصراع بين عدد من القوى الوطنية (بقيادة الڤيتكونج) والحكومة التى اعتبرت ألعوبة فى يد الأمريكان. وظل الأمريكان طوال فترة حكم كيندى يزيدون تدخلهم فى الشئون الفيتنامية بالتدريج. ويبدو أن هذا التدريج والتمهل هو العنصر الذى لم يعجب قوى أخرى بين محركى السياسة الأمريكية. ومن ثم فقد بدأ التصعيد بصورة حادة بعد انتقال السلطة إلى لندون جونسون والجناح الذى يقف وراءه. ففى فبراير سنة ١٩٦٥ بدأ الطيران الأمريكى قصف مناطق فى فيتنام الشمالية على أساس أنها تساند المقاومة التى يبديها الجنوبيون. وفى مواجهة هذا التصعيد بدأ التذمر فى الشارع الأمريكى واتخذ هذا التذمر شكل مظاهرات شبابية قامت فى واشنطن فى شهر أبريل ، ورداً على المظاهرة أعلنت الحكومة (بعد ستة أيام فقط) أنها بصدد ارسال قوات أمريكية كبيرة إلى فيتنام، ثم أعلنت بعد شهرين البدء فى قصف هانوى عاصمة فيتنام الشمالية بالقنابل، ثم بعد شهر ثالث عادت فأعلنت عن زيادة القوات الأمريكية فى فيتنام الجنوبية من ٧٥ ألفاً إلى ١٢٥ ألف مقاتل، ثم فى يناير ١٩٦٧ طلبت الحكومة من الكونجرس اعتمادا إضافيا لحساب الحرب الفيتنامية مقداره



اثنا عشر مليار دولار. وزاد تذمر الشعب الأمريكى فاندلعت مظاهرات جديدة فى عدد من المدن الأمريكية. ثم توالت الأخبار باشتداد المعارك فى فيتنام واشتداد القصف الجوى لهانوى، وهكذا تطور الموقف من مواجهة بين الحكومة الأمريكية وفيتنام إلى مواجهتين للحكومة الأمريكية احداهما ضد فيتنام والأخرى ضد الشعب الأمريكى نفسه، وهو نوع من التناقض الكاشف عما تصل إليه سياسات الحكام أحيانا. وفى نوفمبر سنة ١٩٦٨ جرت الانتخابات الرئاسية، وكانت النتيجة أن فاز نيكسون والحزب الجمهورى وسقط جونسون والحزب الديمقراطى. وكان المفترض أن يُستنتج من ذلك أن هذه النتيجة جاءت تعبيرا عن رفض سياسة جونسون التى قضت بالتورط الشديد فى حرب فيتنام حيث تُحصد أرواح الشباب الأمريكى فى حرب تجرى على بعد آلاف الأميال من وطنهم. لكن حكومة نيكسون لم تستخلص هذه النتيجة ، أو ربما استخلصتها وآثرت أن تتجاهلها تمشيا مع حسابات أخرى. ومن ثم فقد اندلعت أخطر التظاهرات فى مايو ١٩٦٩، وفى هذه المرة كان معظم المشاركين فيها من طلبة جامعة باركلى، وأطلقت الشرطة النار عليهم فسقط عدد كبير من القتلى قدرتهم بعض المصادر بحوالى خمسة وسبعين طالبا. بعد ذلك ، وبعد ما أثارته هذه الأحداث من غضب انعكس فى عدد من أدوات الإعلام بصورة منذرة وأعلن نيكسون خطوة أولى فى الطريق إلى تخفيض حجم القوات الأمريكية المتورطة فى حرب فيتنام.

ونترك موضوع المواجهة الفيتنامية عند هذا الحد؛ ولا تزال أمامنا سيرة مواجهات أخر تدخل تحت السيناريو الأول، ولكنى أتناولها باقتضاب يتناسب مع وزنها على مسرح الأحداث العالمية وقت وقوعها. فقد كانت بقايا المواجهة الفرنسية الجزائرية لاتزال جارية على مشهد من الجميع، لكنها انتهت إلى إعلان بوقف إطلاق النار فى مارس سنة ١٩٦٢، وفى أبريل أعلن عن بدء نزوح المستوطنين الفرنسيين عن الأرض الجزائرية التى خدعوا أنفسهم لفترة من الزمن بترويج أسطورة أنها مقاطعة فرنسية، وفى يوليو سنة ١٩٦٢ أعلن عن استقلال الجزائر. ومضت الستينيات متثاقلة بما فيها من أحداث جسام، حتى إذا وصلنا إلى سنة ١٩٦٨ إذا بانقلاب يقع فى تشيكوسلوفاكيا ضد ما اعتبره البعض حكما شيوعيا متساهلا إلى درجة التهرق، وإذا بالدبابات السوفييتية تتدخل فى ٢٠ أغسطس لتساند الانقلاب المتشدد. وفى نوفمبر سنة ١٩٦٨ تندلع المظاهرات التشيكوسلوفاكية ضد التدخل السوفييتى ولكنها لا تلقى إلا القمع. وفى يونية سنة





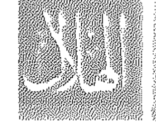
١٩٦٩ يُعلن عن حل اتحاد الطلبة ويثور الطلبة وتُقمع المظاهرات مرة ثانية. وأخيرا وليس آخرا نجدنا بصدد مواجهة بين ألبانيا (المحسوبة على المعسكر الاشتراكى) والاتحاد السوفييتى، ولكن المواجهة لم تكن دموية كالمواجهة التشيكوسلوفاكية، إلا أنها تنتهى بإعلان ألبانيا فى سبتمبر سنة ١٩٦٨ عن عزمها على ترك حلف وارسو.

السيناريو الثانى :

لم تجر أحداث السيناريو الثانى بالصورة الدموية التى جرت بها أحداث السيناريو الأول. لكن ذلك لم يكن ليقلل من خصائصها ككارثة، لأسباب متعددة؛ منها أنها وقعت بين دولتين (الصين والاتحاد السوفييتى) محسوبتين على أنهما من الدول العظمى (على الأقل بمعايير مجلس الأمن الدولى)، وهذا وحده نذير بشرور كبيرة؛ ومنها أن ما وقع من مواجهات بين الدولتين أصاب كثيرا من الدول، والتنظيمات السياسية، والأفراد (كل لحساباته الخاصة) بإصابات فادحة وغائرة تتراوح بين خيبة الرجاء فى الحاضر، وفشل الحسابات للمستقبل فدول عدم الانحياز تأثرت جبهتها تأثرا بالغ الضرر، والتنظيمات السياسية ذات التوجه الاشتراكى بجميع ألوانها أضيرت ، والأفراد المعنيون بالهم العام الداعون إلى مزيد من العدل الاجتماعى المشروط بمزيد من الاعتبار لكرامة الإنسان أصيبوا هم كذلك فى نظراتهم وفى آمالهم، ومع ذلك فلا أظن أن أحدا من هؤلاء جميعا تنبأ بأن الصراع الذى دار حينئذ بين الصين والاتحاد السوفييتى (والذى بدأت بوادره منذ عهد ستالين) كان واحدا من النذر المنبئة باتجاهنا منذ ذلك الوقت المبكر نحو عالم أحادى القطب فى نهاية المطاف. وإلى القارىء بعض أحداث التصدع الذى نحن بصدده: ففى أبريل سنة ١٩٦٤ بدأت الصراعات الإعلامية بين الصين والاتحاد السوفييتى، بدأت بمقالات تنشر فى أبريل سنة ١٩٦٤ . وفى سبتمبر من السنة نفسها أعلن الاتحاد السوفييتى رفضه الاعتراف بأية حقوق للصين فى سيبيريا، وفى أكتوبر جاء توقيت الإعلان عن تفجير القنبلة الذرية الأولى للصين، ثم فى مايو سنة ١٩٦٥ جاء توقيت الإعلان عن تفجير القنبلة الذرية الثانية وفى مايو سنة ١٩٦٦ أعلن عن التفجير الثالث. وفى أكتوبر من العام نفسه قرر الاتحاد السوفييتى طرد جميع الطلبة الصينيين من أراضيه. وفى نوفمبر سنة ١٩٦٦ أعلن الاتحاد السوفييتى إدانته للثورة الثقافية الحادثة فى الصين، ثم تدور الأيام وفى يوليو سنة ١٩٧٠ يُعلن عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى والصين .

السيناريو الثالث :

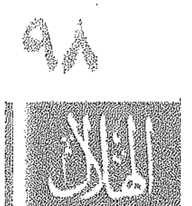
ثم نأتى إلى السيناريو الثالث، وقد جمع فى طياته قُبح الدموية، ومأساة العدوان على أحلام الشعوب. جرت أحداث السيناريو الثالث داخل بعض الدول حديثة



الاستقلال. وكان المفترض أن تُكمل المسيرة التى أملاها المنطق نفسه الذى أملى عليها السير بمطلب الاستقلال قُدُماً حتى حققته، وهو ذات المنطق الذى فجر فى نفوس شعوبها بطولات كفاح بدا أسطوريا فى بعض لحظاته. لكن شيئا من هذا لم يحدث. حدثت أمور أخرى تباينت فيما بينها بعضها البعض من حيث القوالب والعناصر التى تملأ هذه القوالب، ولكن يجمع بينها جذر واحد، هو التدمير من الداخل، أو التدمير الذاتى، وإلى القارىء بعض الأمثلة :

أبدأ بالجزائر التى كان الهواء النقى يملأ رئتينا ونحن نصفها بأنها بلد المليون شهيد. هؤلاء الرجال والنساء ، الصغار والكبار، الذين بلغوا المليون عداً ضحوا بحياتهم لاستخلاص بلدهم من المستعمر الفرنسى. فهل أهدرت هذه الحيوات جميعا كما يهدر السفهاء أموالهم. هكذا جرت الأحداث: فى يولية سنة ١٩٦٢ أعلن استقلال الجزائر. وفى أغسطس سنة ١٩٦٢ اكتسبت عضويتها فى جامعة الدول العربية، وفى سبتمبر سنة ١٩٦٢ بدأت المصادمات المسلحة بين ما عرف عندئذ بجيش الحدود والقوى الداخلية المتحالفة، وقُتل فى هذه المصادمات أكثر من ألف

٩٨



جزائرى، قُتلوا بأيد جزائرية، وكان قتل الجزائريين يتم بأيد فرنسية قبل ذلك بثلاثة أشهر فحسب، وفى نوفمبر سنة ١٩٦٢ أعلنت الدولة تحريم الحزب الشيوعى، وكان الحزب برجاله قبل ذلك رفيق سلاح ضد المستعمر، وفى يناير سنة ١٩٦٤ قامت تظاهرات ضخمة فى مدينة وهران قام بها شباب عاطلون يطالبون بحقهم فى العمل فاستخدم الجيش الجزائرى سلاحه وعتاده لقمع هذه التظاهرات، وتم له قمعها فعلا وبقسوة.

وفى مايو سنة ١٩٦٤ اندلعت الحرب بين الجيش وقوات الجبهة الاشتراكية بقيادة حسين آية أحمد، هذه عينة محدودة مما جرى فى الجزائر غداة الاستقلال.

وفى العراق لم يكد المواطنون العراقيون يستريحون بعد الانقلاب العسكرى الذى فاجأهم به عبدالكريم قاسم فى أواخر الخمسينيات حتى فاجأهم عبدالسلام عارف بانقلاب جديد فى فبراير سنة ١٩٦٣. ثم فاجأهم أحمد حسن البكر بانقلاب ثالث فى يولية سنة ١٩٦٨، وكان هذا تمهيدا لانقلاب رابع قام به بعد ذلك صدام حسين.

وفى سوريا قام الجنرال الأتاسى بالانقلاب رقم « ٨ » ثمانية فى مارس ١٩٦٣، بعد سلسلة الانقلابات التى افتتحها حسنى الزعيم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وثنّى بعده سامى الحناوى، ثم أديب الشيشيكلى ثم.. إلخ.. وهكذا

ضاعت هذه البلاد وغيرها (إندونيسيا مثلا) بين التطاحن الداخلى من ناحية والانقلابات العسكرية من ناحية أخرى وتبددت طاقاتها المادية والبشرية.

هكذا كانت مشاهد السيناريو الثالث، تغلب عليها أن تكون مشاهد تدمير من الداخل. ولأن الأمر لم يتوقف عند حدود دولة واحدة ، ولأنه جاء فى معظم الأحيان مسبوقا بتاريخ طويل لاستعمار تلك البلاد فقد أصبح السؤال الذى يفرض نفسه علينا هو: هل هناك علاقة بين الاستعمار طويل الأمد وهذه النتيجة، أى التوجه إلى التدمير الذاتى؟ كانت الكارثة الحقيقية فى هذا السيناريو الثالث هى فى حجم ظاهرة التدمير الذاتى للدول، وأكاد أقول للأمم، وما توحى به من دلالات، أسوأها اغتيال أحلام الشعوب المقهورة. أما أكثرها مدعاة لاستنهاض طاقة التحدى فهو: وماذا بعد اغتيال الحلم؟ كيف نفهم ما حدث؟.

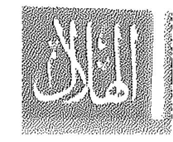
السيناريو الرابع :

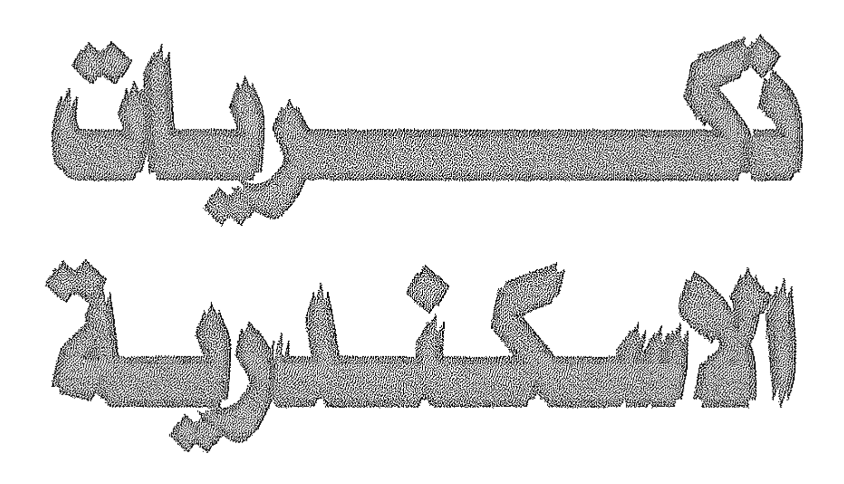
وأخيرا وليس آخرا نأتى للسيناريو الرابع ، وفيه نفتح أعيننا على طائفة من ردود الأفعال الإنسانية التى صدرت عن شرائح عريضة من شعوب عديدة، صدرت هذه الردود أو هذه الأرجاع ردا على ما أوقعته الستينيات على هذه الشعوب من كوارث. وأنا أشير هنا إلى ثلاثة أشكال لهذه الأرجاع، هى : ثورات الطلبة، والانتشار الوبائى للمخدرات ، والانفلات الجنسى. ولا شك أنه كانت هناك أرجاع أخرى، لكنها لم تفرض نفسها على عقولنا نحن الذين عايشنا الستينيات بملء جوارحنا ، إما لأنها لم تبلغ حجما كبيرا بما فيه الكفاية، أو لأنها لم تتبلور فى قالب له شكل محدد يمكن رصده وتسجيله.

وتثير الأرجاع الثلاثة المذكورة العديد من الأسئلة، منها على سبيل المثال: أسئلة حول وصف هذه الأرجاع، أشكالها وأبعادها وتوقيتها، وكيف ارتبطت بكوارث الستينيات، كيف تولدت وكيف نمت وماذا كان مصيرها؟ وهل تعتبر هذه الأرجاع نفسها من بين الكوارث المحسوبة على الستينيات؟ ولما كانت هذه الأسئلة وأمثالها على جانب كبير من الأهمية، لا لأهمية موضوعاتها فحسب ولكن لأنها تشير إلى نماذج فريدة لما نعتبره وقع الأحداث الكبرى على الناس وقد ترجموا هذا الوقع إلى سلوكيات وخبرات بعينها فمسئولية الرأى المكتوب تقتضى أن نفرد لمعالجتها مقالا وربما أكثر من مقال.

أما بعد..

فقد يلحظ القارىء أننى تحدثت عن عقد الستينيات كما جرت أحداثه فى العالم العريض دون أن أتحدث عن وقائعه وتوجهاتها فى مصر، ولأن مصر هى مصرنا فقد رأيت أن أخصها بمقال قائم بذاته فى القريب.

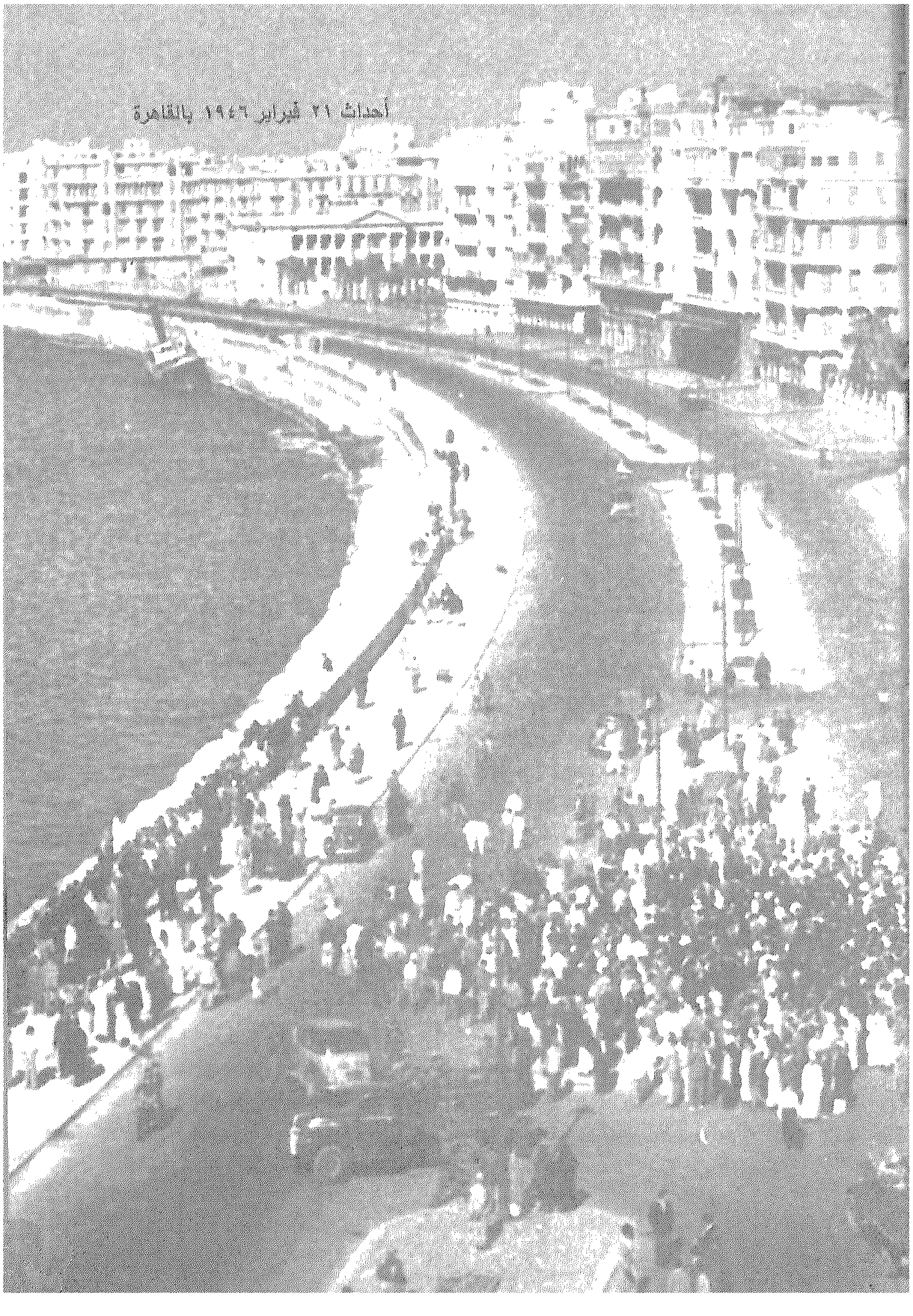




بقلم : د. عبد العظيم أنيس

عشت فى الإسكندرية ست سنوات (١٩٤٤ - ١٩٥٠) معيداً بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية، وذكرياتى السياسية عن تلك الحقبة - إنما تعود إلى أكثر من خمسين عاماً. ومع أننى اشتهرت فى شبابى بقوة الذاكرة، إلا أن وضعى الحالى - وقد بلغت السابعة والسبعين - لا يسمح لى بالثقة الكاملة فى هذه الذاكرة . وقد حاولت أن أستعيد مع بعض الاصدقاء ممن زاملونى فى تلك الحقبة بالاسكندرية ، بعضا من هذه الذكريات وأحداثها .. ولذلك فإننى أرجو ألا أكون قد أخطأت فى بعض التفاصيل.

ولقد أشرت فى مقال سابق (هلال - ديسمبر ٢٠٠٠) إلى مجموعة المعيدين فى كلية العلوم الذين شكلوا حلقة دراسية ماركسية لمناقشة الأوضاع فى مصر، خصوصاً الاحتلال البريطانى ومشكلة الفقر ، وكانت هناك بالقاهرة حلقات أوسع بكلية العلوم كانت لنا نموذجا يحتذى .


أحداث ٢١ فبراير ١٩٤٦ بالقاهرة


اسماعيل صدقى باشا

وبالطبع سعينا إلى تدعيم صلاتنا بقوى المعارضة الأخرى فى أوساط الشباب، وخصوصاً شباب الطليعة الوفدية، وإلى حد ما شباب مصر الفتاة من الطلاب، كما سعينا إلى تجنيد أعداد من طلاب الجامعة إلى وجهات نظرنا وإلى حلقتنا ونجحنا فى ذلك نجاحاً كبيراً، فأصبحت لدينا أعداد غير قليلة فى كليات العلوم والحقوق والطب والآداب فى زمن قصير. وهكذا تشكل تنظيم ماركسى داخل جامعة الاسكندرية. ومع أن اهتمامنا انصرف فى مبدأ الأمر إلى تثقيف الاعضاء بالفكر اليسارى، مع تجنب العمل السياسى قبل أن تتكون مجموعة فكرية يوثق بها ويعتمد على مبادراتها، فإن أحداث البلاد السياسية المتسارعة قد اضطرتنا إلى دخول حلبة العمل السياسى مستعينين فى ذلك بصلاتنا القوية بالطليعة الوفدية التى كانت تتقارب فى آرائها السياسية مع آرائنا.

ولقد وقعت أحداث ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ بالقاهرة وقادت هذه الأحداث اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى كان الماركسيون القاهريون عمادها. وكان اسماعيل صدقى هو رئيس الوزراء آنذاك. ولقد أطلق جنود الاحتلال البريطانى من ثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون النيل ومبنى الجامعة العربية اليوم) النار على المتظاهرين فسقط عدد من الشهداء والجرحى وأدى هذا إلى غليان وطنى عارم.

ومع أن الاسكندرية لم تشترك فى أحداث ٢١ فبراير، فإن أحداث ٥ مارس بالاسكندرية كانت تجاوبا مع ماحدث بالقاهرة، وإن كانت أكثر عنفاً من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية فى محطة الرمل وفى أماكن أخرى، ومات فى هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين.

لقد كانت هذه السنوات هى سنوات مفاوضات إسماعيل صدقى مع وزير خارجية بريطانيا إيرنست بيفن، التى انتهت فى آخر الأمر بما عرف باتفاق صدقى - بيفن، وكانت كل القوى الوطنية فى مصر معارضة لمشروع هذا الاتفاق، وكان حزب الوفد بما له من نفوذ واسع فى مقدمة المعارضين.

معارضة اتفاق صدقى - بيفن

وأتذكر أنه فى شهر أبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتى العلوم



ايرنست بيفن

والحقوق بجامعة الاسكندرية (وكانت هاتان الكليتان تشغلان مبانى مدرسة العباسية الثانوية التى تقع على ربوة عالية فى حى محرم بك) للتعبير عن معارضة مشروع اتفاق صدقى - بيفن ، وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر.

ثم وقع حادث مفاجيء ذهلنا لها جميعاً . ذلك أن طالباً من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأراده قتيلاً . وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذى قام بهذا العمل الاستفزازى الدنيء، وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب.

وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفاً ، إذ حوصرت مبانى الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مبانى الكلية بشكل عشوائى وألقى القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام. وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم (محمد العشماوى باشا) من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التى احتلتها قوات الجيش فى الصباح.

وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار، ونجحنا فى الحصول على توقيع عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس على المذكرة، وكان فى مقدمة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزى وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال، وإن كان بعض أساتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع .

وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هى كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية: الوفد المصرى. وتفتق ذهنى عن حل، وهو أن اتصل تليفونيا بصديق لى بالإسكندرية وأن أملى عليه نص المذكرة التى كانت قصيرة على أى حال، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته. ولم يجد هذا الصديق مفرا من اعطاء اسمى. وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج فى اليوم التالى فى صحيفة الوفد المصرى وعليها التوقيع التالى : أعضاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس).

وبالطبع هاج صدقى باشا من هذه البرقية وطلب من العشماوى باشا التحقيق فى الموضوع . وظن الوزير أن الموقع على هذه البرقية أستاذ بالجامعة وليس معيدا

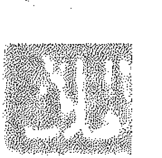
ذكريات الاسكندرية

صغيرا . واستدعانى إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معى، وحضرت فى صحبة الدكتور حسين فوزى عميد الكلية، وكان من حسن حظى أنه كان فى جيبى نص مذكرة الاحتجاج وعليها التوقيعات بما فى ذلك توقيع عميدى العلوم والحقوق، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعياً أسقط فى يده ولم يستطع معاقبتى.

لكن اسمى ظل محفوراً لدى السلطات فى انتظار مناسبة أخرى للانتقام، وجاءت هذه المناسبة فى يوليو عام ١٩٤٦ فى حملة صدقى المشهورة التى اعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين بما فى ذلك محمد مندور وزكى عبد القادر، وكنت بطبيعة الحال فى طليعة المطلوب اعتقالهم بالاسكندرية.

الحظ فى صالحى!

لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى فى مساعدتى، فقد كنت كثير التردد على منزل نائب سعدى بمحرم بك بالاسكندرية لصلة تربطنى بأولاده . وظن البوليس أننى أقيم هناك ، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لايعلمون أنه نائب بالبرلمان، فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط فى أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الاسكندرية يسألونه الرأى قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر .





حسين سرى باشا

وبالطبع لم يجدونى ولم يجدوا أى شىء يهمهم، ولم يسكت النائب إذ تقدم باستجواب فى البرلمان، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين، فاشتعلت جلسة البرلمان هجوماً على الحكومة وعلى رئيسها . وألقى صدقى باشا بياناً فى البرلمان قال فيه إن التفتيش تم بحثا عن معيد شيوعى، وأن الضابط الذى قام بذلك نقل إلى أسوان عقاباً له على هذا الخطأ. وصدرت الصحف بمانشيت عريض فى الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمى بطبيعة الحال موجود فى ذلك المانشيت.

وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهرى يملك ڤيلا بالاسكندرية ولم أسلم نفسى للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع، فعدت إلى الجامعة وسألنى وكيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عنى فى الحال خصوصاً عندما علم بإضراب طلاب كلية العلوم احتجاجاً على اعتقالى . وطلب وكيل النيابة منى الذهاب إلى الكلية فوراً حتى يرانى الجميع وينتهى الموضوع، وهو ما تم بالفعل.

●●●



د. حسين فوزى

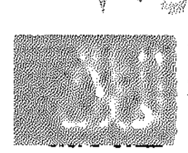
الحدث الثانى المهم الذى جرى بالاسكندرية وأدى إلى اشتعال مد ثورى بها هو موضوع إضراب الشرطة يومى ٥و٦ ابريل من عام ١٩٤٨ . وبالطبع فهذا الإضراب شمل القاهرة والاسكندرية وبعض المدن الأخرى ، وكان الأساس فى هذا الإضراب هو المطالبة بزيادة الرواتب. وبالطبع كان لهذا الحدث طعم خاص لأنه لم يسبق له وقوع، ولم تكن لقوى التمرد فى مصر يد فيه، ولكنه أخذ طعما خاصاً بالاسكندرية إذ تحول إلى هبة شعبية شملت كل طوائف الشعب، وخصوصاً العمال والطلاب الذين ساندوا المظاهرات التى قامت بها قوات الشرطة بالاسكندرية وانضموا إليها وامتلأت بهم ساحات الميادين العامة وخصوصاً ساحة المنشية وكان جنود الشرطة يمضون فى مظاهراتهم رافعين بنادقهم إلى السماء وعلى أعلا كل سونكى منها رغيف عيش.

وشعر الشعب أنه بلا حكومة تتحكم فى أعماله ، حتى أن بعض الظرفاء من أبناء الشعب كانوا يصيحون فى الشعراء وهم يضحكون : «مافيش حكومة، اللى عايز يشلح النهارده يقدر»!

وقد كان لهذا الهيجان الشعبى بالاسكندرية أسبابه الخاصة، وأتذكر على وجه الخصوص مسألتين ساهمتا فى هذا الالتهاب الشعبى . أولاهما مطالب العمال بعدما توقفت بعض المصانع عن العمل أو استغنت عن بعض العمال أو خفضت أجورهم وبمعنى آخر كان هناك اختمار ثورى عمالى خصوصاً فى أوساط عمال مصانع كرموز كالغزل الاهلية . ولقد كان الطلبة ومعيدو الجامعة اليساريون متحمسين للدفاع عن مطالب العمال وتعبئة الرأى العام السكندرى فى صفهم . وساعد على ذلك أن زملاءنا فى القاهرة كانوا قد بدأوا فى إصدار صحيفة أسبوعية تسمى «الجماهير»، وكنا نحن المعيدين نقوم بتوزيع هذه المجلة علناً فى أحياء العمال بالاسكندرية وعلى محطات ترام الرمل ، وكان هذا محل اندهاش أساتذة الجامعة الذين كانوا يشاهدوننا وهم فى الترام ونحن على الأرصفة ننادى على جريدة الجماهير كأى بائع صحف.

أما المسألة الثانية ذات الصلة فهى ماعرف بالاسكندرية بمسألة سعد فريد.

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قام بتوزيع منشور مساند للعمال فى حى كرموز، وقد قبضت عليه الشرطة قبل أحداث ٥و٦ إبريل ومعه العديد من نسخ المنشور . ويبدو أن الحكومة قد رأت فرصة فى هذا الموضوع لتأديب طلاب الاسكندرية المشاغبين فأجرت لسعد فريد محاكمة سريعة وحكمت عليه المحكمة



ذكريات الاسكندرية


د. شريف حتاته

بستة أشهر سجنا، وقد أثار الحكم على سعد فريد ثائرة طلاب الجامعة، فقد كان هذا أول حكم بالسجن يصدر على طالب بالجامعة لعمل سياسى.

وبدأت إضرابات الطلاب ، لكنها لم تحقق نتيجة فى مسألة سعد فريد . ثم جاء إضراب البوليس وامتلأت ساحات الاسكندرية - وخصوصاً المنشية - بالجماهير الثائرة ، وأثار الطلاب المشتركون فى المظاهرات مسألة سعد فريد من جديد، وقررت مجموعة منهم الاتجاه إلى سجن الحدرة لإخراج سعد فريد منه لكن سلطات سجن الحدرة أوهمتهم أن سعد فريد أفرج عنه فعلاً.

فى هذا الجو الجماهيرى الثائر ينبغى أن أذكر واقعتين هامتين.

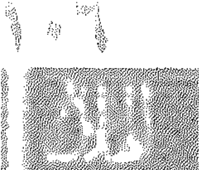
الأولى أننا قررنا توزيع منشور باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى يساند المطالب الشعبية سواء مطالب الشرطة أو العمال أو الطلبة، وقد صدرنا هذا المنشور بشعار جديد «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» وكان هذا أول منشور يوزع فى مصر تحت هذا الشعار الثورى، وقد أشارت إليه صحيفة الاهرام فى اليوم التالى وإن لم تذكر الشعار نفسه واكتفت بالقول إن منشورا ثوريا وزع بالاسكندرية.

وللتاريخ كان الشاعر كمال عبد الحليم هو الذى كتب الصياغة الأولى للمنشور وإن كنت قد عدلت فيه، وقمت بطبع المنشور فى مطبعة عادية فى محرم بك قبلت طبعه لأنه لا توجد حكومة! وأشرفت على توصيله لمن قاموا بالتوزيع فى أحياء الاسكندرية المختلفة .

أما الواقعة الثانية فتتعلق برد حكومة النقراشى على مايجرى بالاسكندرية. فقد أنزلت قوات الجيش وملأت دباباته الميادين العامة وبدأت قواته فى إطلاق الرصاص على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى، وجرى هذا خصوصاً فى ميدان المنشية، وكنت من مشاهدى أحداثه.

إعلان الأحكام العرفية!

وفى ظنى أن أحداث الاسكندرية الثورية كانت من العوامل التى جعلت حكومة النقراشى تنتهز فرصة إرسال قوات مصرية إلى فلسطين لكى تعلن الأحكام العرفية فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وتعتقل كل القوى النشيطة سياسياً من اليسار وشباب الوفد، ثم جرى بعد ذلك اعتقال شباب الإخوان المسلمين عندما توقفت الحرب فى فلسطين وأعلنت الهدنة.





د. رفعت السعيد

ومع أننى أفلت بالمصادفة من الاعتقال فى ١٥ مايو فإننى اعتقلت فى شهر يونيو ، وكنت ذاهبا لحضور اجتماع فى منزل د. شريف حتاته بالسيوفى، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم، ورتبت الشرطة كميناً داخل المنزل للقبض على كل من يزور المنزل، وهكذا وقعت فى كمين ونقلت إلى معتقل أبو قير، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشباب الوفد إلى معتقل هاكستيب فى طريق الاسماعيلية، وبعد عدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الأحمر وظللت هناك حتى خضت مع آخرين إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا. وقد أدى هذا الاضراب إلى مرضى بعد أن كان قد انتهى بوعد من المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا.

وكانت وزارة حسين سرى قد عادت للإعداد للانتخابات وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعة فى تلك الحكومة وتحدث أخى الكبير إبراهيم معه عن طريق بعض أصدقائه من الوفديين حول ظروفى الصحية وأدى هذا إلى نقلى إلى معسكر هاكستيب حيث حضرت لجنة طبية لفحصى ثم أصدرت قرارها بنقلى إلى مستشفى الدمرداش للعلاج من التهاب كبدى وبائى. وبقيت فى المستشفى قريباً من منزل أهلى حتى جرت الانتخابات فى آخر عام ١٩٤٩، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومة الوفد التى أفرجت عن جميع المعتقلين فى يناير عام ١٩٥٠.

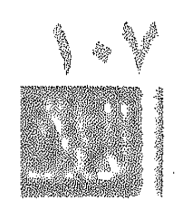
★★★

بقيت نقطة واحدة ينبغى توضيحها. فقد ورد فى أحد كتب الدكتور رفعت السعيد فى وصفه لأحداث الاسكندرية هذه التى تعرضت لها فى هذا المقال أننى وقفت فى ميدان المنشية بين المتظاهرين وألقيت قصيدة هذا مطلعها:

عساكر الجيش والبوليس خطبكمو.

خطب البلاد فعادوا من يعاديها

وبالطبع وسط أزيز رصاص دبابات الجيش لم يكن هناك مجال لإلقاء قصائد ولا يحزنون. والحقيقة أن هذه القصيدة ألقيت فى احتفال بمعتقل الطور بعد مرور سنة على إضراب البوليس، وقد حضر جنود وضباط الشرطة فى المعتقل هذا الاحتفال وصفقوا كثيراً للخطب والقصائد التى ألقيت فيه.



مصدر تاريخي مهمل عن:

الثورة المصرية سنة ١٩١٩م

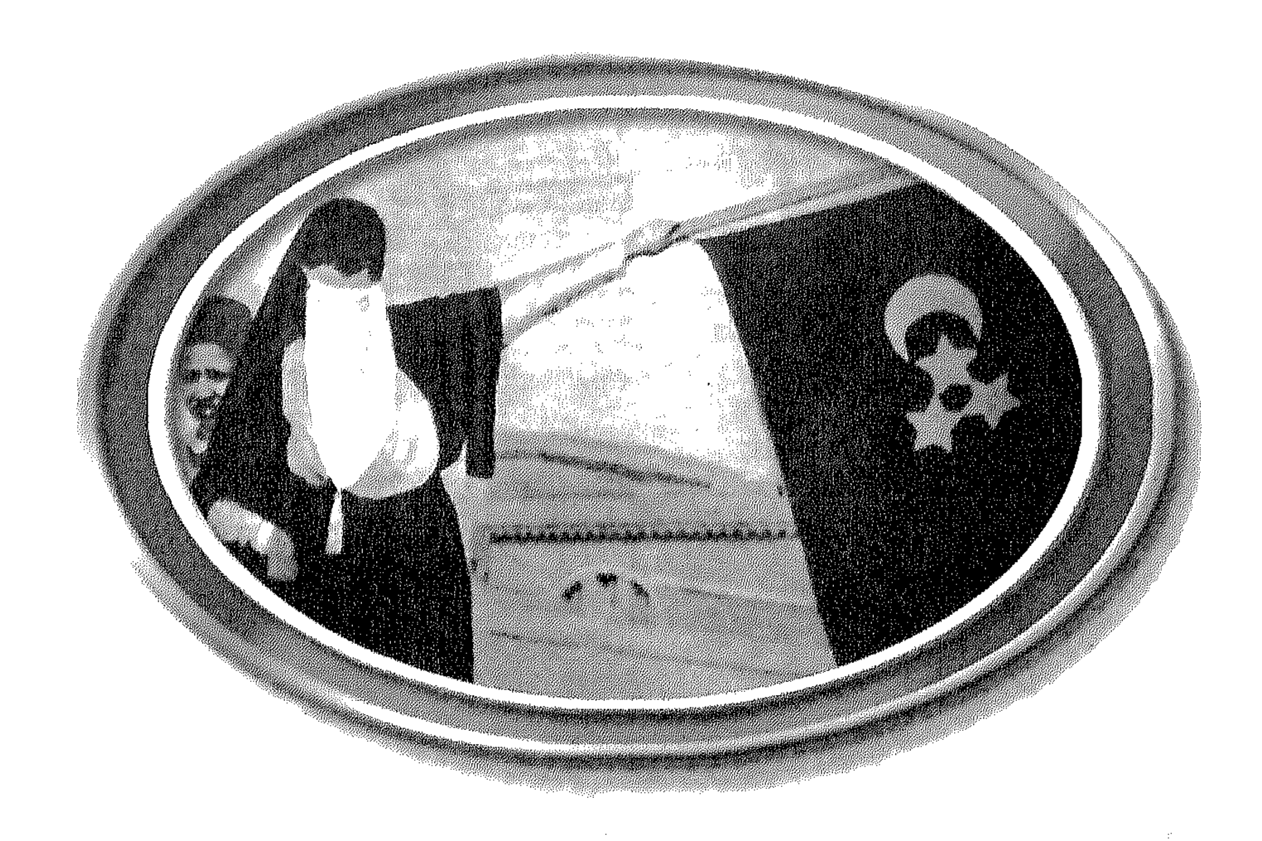
بقلم

د. محمد رجب البيومي



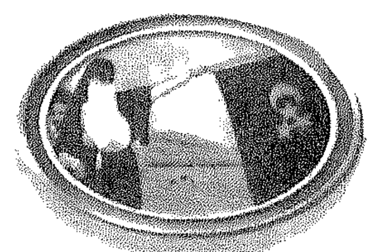
١٠٨

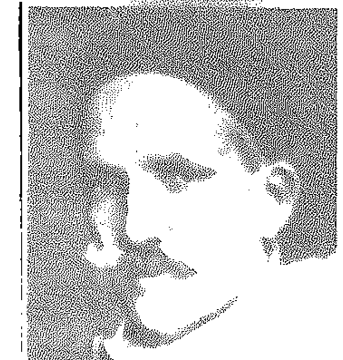
الهلال



الأيام الحمراء

كتب الكثير عن ثورة سنة ١٩١٩، فسجلت أحداثها على نحو واقعى يشهد لمؤرخيها بالجهد المشكور وفى طليعتهم مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى حيث نهض فى هذا المجال بأكثر مما نهض به المتخصصون فى الدراسات الجامعية.





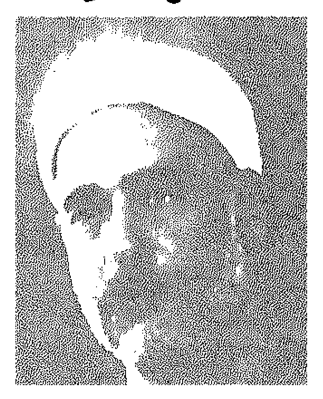




حمد الباسل — اسماعيل صدقى — مصطفى النحاس







محمود اسماعيل — الحاج أحمد رمضان — عبد الوهاب النجار

ولكن تاريخا جليلا حافلا كتبه المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الوهاب النجار استاذ التاريخ بالجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم، ونشرته جريدة «البلاغ» فى ست وستين حلقة متوالية فى شهور مارس وابريل ومايو ويونيه سنة ١٩٣٣م تحت عنوان (الأيام الحمراء) لم يلتفت إليه أحد، وبه من غرائب الأحداث فى القاهرة وعواصم المديريات وقراها مالا نجده فى غيره، وقد اتبع الأستاذ النجار طريقة (الجبرتى) فى التدوين المباشر للأحداث كما تحقق وقوعها، وذكر فى أحيان كثيرة أسماء من أبلغوه بأحداث الأقاليم وهم من الصفوة الكرام.

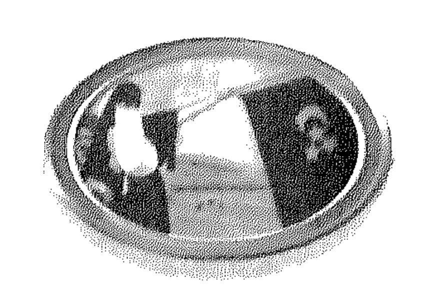
أما أحداث القاهرة فقد رآها رأى



زعيم الامة سعد باشا زغلول مع بعض السيدات

العيان وسجلها وفق مشاهدته ، وإذا فاته موقف من المواقف لم تقع عليه عينه سأل عنه أصدقاءه ممن عاينوه ، وعزا الرواية إليهم ، معلقا بما يراه ، ولا أفيض فيما أعلم عن مآثر الأستاذ النجار ، فقد فصلت الحديث عنه فى الجزء الأول فى موسوعة (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) ما بين ص ٣١٧ ، وص ٣٣٩ ، ولكنى أنقل لأبناء الجيل المعاصر بعض ما كتبه عنه الأستاذ الكبير أحمد رمزى بك الباحث الشهير وسفير مصر الأسبق في روما فى كتابه (منادمة الحروب) ص ٢٤٥ حيث قال عن الأستاذ النجار :

«كنا في السنوات الأولى بمدرسة الحقوق ، وكانت الدراسة فى الصباح ، فأخذنا نتلقى دروسا بكلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، وتتلمذنا جميعا على هذا الأستاذ الكبير الذى عرفنا منه المراجع مثل الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم، وكان إلقاؤه رحمة الله عليه وقت الدرس يحرك



مشاعر الطلاب ، فهو إذا تحدث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد ، وقرن التاريخ بالأدب، وتحدث حديث المؤرخ الواعى الذى يعيش فى الفترة التى يتكلم عنها، فهو لا يسرد الحوادث فقط، بل يعلق عليها وينتقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها وعرفت رجالها ، وسمعت خطبهم ، وكان رنين كلامه قويا ، يتغلغل فى النفس، فكنت أخرج من الدرس ، وفى مخيلتى الألفاظ والكلمات التى استعملها ، وأبيات الشعر التى رتلها فتلازمنى ، فأجد نفسى مدفوعا إلى مراجعة هذه النصوص ، واستكمالها لكى تلصق فى ذاكرتى ، لأتكلم بها واستشهد بما فيها ، ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامى ، واطلعت على كنوزه وكتبت فيه، فإليه يرجع الفضل الأول وإنى أعده فى الطليعة الأولى من خدام هذه النهضة الإسلامية المباركة».

هذا بعض ما قاله الأستاذ احمد رمزى، أما ما قاله الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم فمنه قوله :

له حجج يسميها كلاما
وما هى غير أسياف تسل
يذل له شموس القول طوعا
ويستخذى له المعنى المدلّ
إذا فاضت ينابعه خطيبا
علمت بأن ماء البحر ضحل
يفل شبا الخصومة حيث كانت
برأى كالمهند لا يفل

ولست بعد قول رمزى والجارم بحاجة إلى المزيد ..

مقدمة الأيام

بدأ الأستاذ النجار يومياته بمقدمة نشرت بجريدة البلاغ (٢٢ مارس سنة ١٩٣٣م) قال فيها بعد أن أشار إلى ما سفك من دماء الشهداء برصاص الإنجليز:

«وبسبب سفك هذه الدماء ، أردت أن أسمى هذه الأيام (الأيام الحمراء) وهو اسم صادف معناه، ولما كانت الجرائد المصرية ملجمة عن قول الحق ، مكفوفة عن الصدق فى الرواية لا تقدر أن تشرح حادثة . أو تفصل نكبة من النكبات بأكثر من قولها (حصل فى جهة كذا ما يكدر وعادت السكينة فى الحال) فى حين أن ذلك الحادث يكون قد حصد فيه من الأرواح عشرات ، وأصيب فيه بالجراحات مالا يصاب مثله فى وقعة حربية كبيرة ، لهذا رغبت فى خدمة التاريخ والحقيقة بتدوين حوادث هذه الأيام الحمراء على وجه الحقيقة متحريا فى ذلك جهد الطاقة، ملغيا ذكر الإشاعات الباطلة التى تروج فى مثل هذه الأوقات المحزنة مع حرصى على



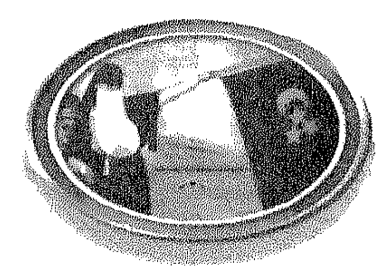
ام المصريين السيدة صفية زغلول تقود احدى المظاهرات النسائية ضد الاستعمار

العزو إلى من حدثنى الحديث وشرح لى الخبر، إن لم أكن رأيته بعينى ، حتى لا يقع الجيل الآتى فى عماء ، وضلال ، عن صحيح الأخبار، ليكون وجه الحقيقة أبيض ناصعا، والله الهادى إلى سواء السبيل» .

وما ذكره النجار عن إحجام الجرائد المصرية عن نشر هذه الفظائع ، أجد مثله فيما كتبه الأستاذ الرافعى ، حيث ذكر فى كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩ م فصلا تحت عنوان (خطبة سعد باشا فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع) ، «وهى خطبة رنانة قالها تعليقا على خطاب لمستشار إنجليزى تحدث عن جهود بلاده فى شأن مصر ، ونهض سعد باشا ليشرح كيف أعلنت الحماية قهرا عن الشعب، ولم يرض به أحد، وثار عليها كل مصرى وأفاض فى ذلك بما عرف عن سعد فى بلاغة حجته وسطوة بيانه»، وبعد أن سجل الرافعى ذلك قال فى الهامش (ص ١٧٦) والغريب أن جريدة وادى النيل تحدثت عن المستشار الانجليزى ومحاضرته ثم قالت (وبعد أن انتهى من إلقائه ، وقف أحد السامعين وبسط بعض الملاحظات)!! أى والله زعيم الأمة سعد زغلول أحد السامعين، وكلمته الرنانة : بعض الملاحظات !

مقارنة

إن ما كتبه النجار مكمل ومتمم لما كتبه مؤرخو الثورة ، لأنه فى أحيان

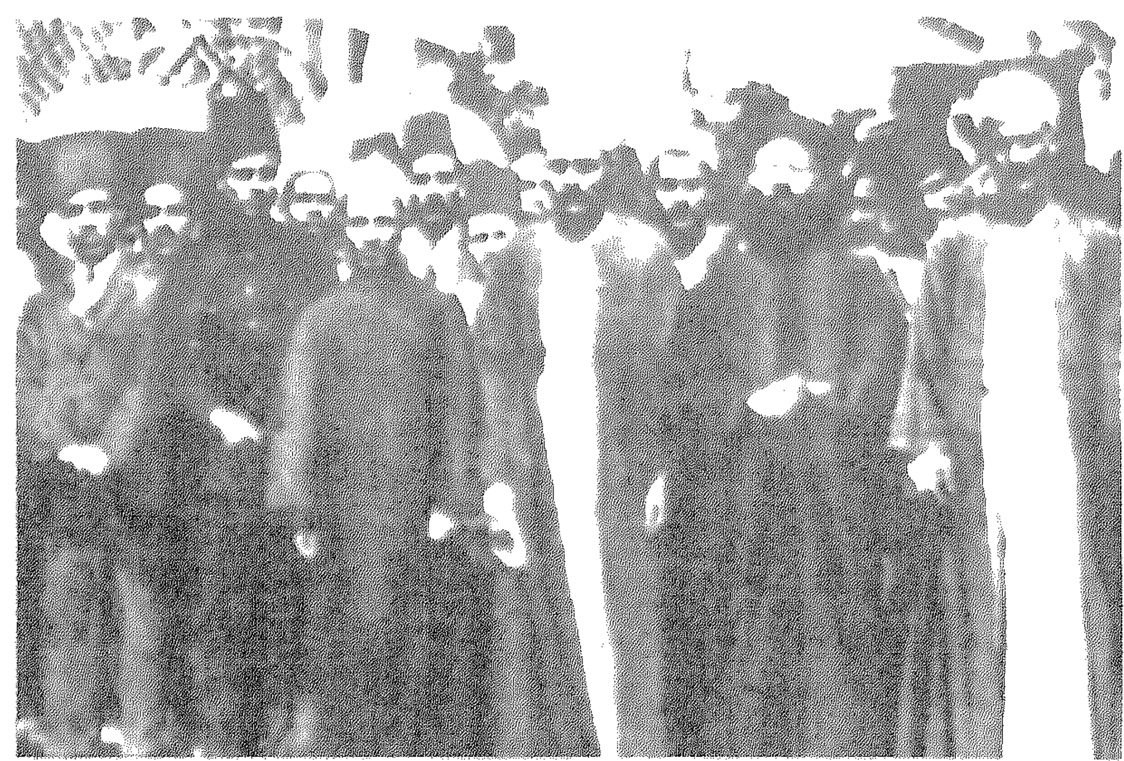


كثيرة يضيف زيادات لم يتطرقوا إليها، وقد تكون ذات أهمية حين تضيف الجديد مما يساعد على تفسير الأحداث، فمثلا تحدث الاستاذ الرافعى عن الاعتداء الفظيع الذى قام به الانجليز على المصلين بالمسجد الحسينى عند خروجهم يوم الجمعة إذ ظنوا أنهم متظاهرون كما برروا فعلتهم الشنيعة فقتل عشرة وجرح أكثر من الثلاثين وسالت الدماء غزيرة! هذا ملخص ما قاله الرافعى، وقد ذكر ذلك الأستاذ النجار، ولكنه أضاف محادثة بل مشادة حصلت بين الشيخ محمد شاكر وسكرتير الوكالة البريطانية حين ذهب الشيخ محتجا على ما انتهك من حرمات، وكان فيما قاله: إن المدنية الأوربية لا يمكن أن تبرر هذه الفظائع إنكم يا مستر (كومباين) أشعلتم النار فى القلوب، وجرحتم الأفئدة جرحا بطىء الاندمال، إننا قرأنا فى الجرائد إن الجيش الانجليزى فى العراق ترجل جنرالاته وضباطه وهم مارون بالمكان الذى قتل فيه الحسين، وأنتم فى مصر تضربون مسجد الحسين ومن يصلون فيه! فما بال الحسين يكرم فى العراق، ويهان فى مصر، إن من ضربتموه بالنار ممن التجئوا إلى الحسين يعنى أنكم صوبتم النار على الحسين نفسه، وبعد جدال طويل ذكره الاستاذ النجار، قال المستر (كومباين): وما يرضيكم؟ فقال الشيخ محمد شاكر: إن المعتدى عليه لا يفكر فيما يرضيه، ولكن عليكم أن تفكروا فى ذلك، ولا تتركوا صدورنا تأكلها النيران، فقال السكرتير: الحال سيئة فى مصر، فقال الشيخ: ومصر مظلومة!

أما مظاهرة السيدات، فقد تحدث عنها الاستاذ الرافعى فذكر اسماء الفضليات من المتظاهرات وكلهن من ذوات الأسر الرفيعة وبنات المرموقين من رجال السياسة والفكر والجاه. كما نقل خطابهن الذى توجهن به إلى المعتمد البريطانى، ثم قال: «إنهن حين اجتمعن بشارع سعد زغلول حاصرتهن قوة مسلحة. ووجهت لهن السلاح كيلا يتحركن لا إلى الأمام ولا إلى الخلف وبقيت السيدات هكذا ساعتين تحت نار الشمس المحرقة».

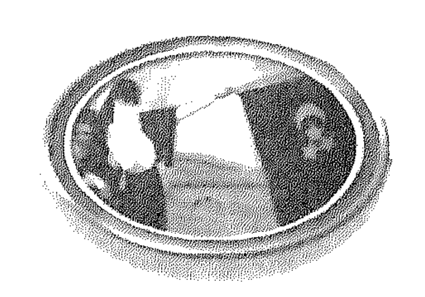
وهذا إيجاز وجد تفصيله الشافى فيما كتبه الأستاذ النجار حيث قال واصفا المشهد الرائع، وما دار به من حوار:

«لقد ألفن موكبا فخماً يتقدمه أربعة من طلاب الأزهر، أمسك كل واحد منهم بطرف العلم المصرى منبسطا كما يفعل المسيحيون فى بساط الرحمة، عند تشييع موتاهم، ووضع الصليب داخل الهلال موضع النجوم من هذا العلم،



تكاتف الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه من أجل حرية البلاد واستقلالها..
وقضى على محاولات تفريق طوائف الأمة

وكان خلف الأزهريين الأربعة أزهريان يحملان علما آخر رسم فى أعلاه هلال معانق للصليب ، وكتبت عليه الجملة الآتية: (الحرية من آيات الله، الحرية غذاؤنا - والاستقلال حياتنا)، وسارت السيدات صفين على جانب الطريق، وفى الوسط سيدة تحمل علما أبيض وفى وسطه الهلال بلون أحمر، وبلغ عدد السيدات المنتظمات فى صفين ٣٢٠ سيدة وطافت السيدات فى موكبهن بأهم شوارع القاهرة . وقصدن إلى دور الوكالات السياسية للدول، كما قصدن سراى عابدين، وكانت حاملة العلم تهتف بحياة مصر واستقلالها ، وسقوط الحماية الانجليزية فتردد المتظاهرات الهتاف فى حماسة وجميعهن رافعات أيمانهن بأعلام مصرية صغيرة ، وصادف مرورهن فى ميدان الأوبرا بعض الجنود الانجليزية المحتشدة بسلاحها الحربى ، فتعرضوا للموكب ، فوقفن ، وقد كثر عدد الاجانب المطلين من الفنادق ، ففسح لهن الجنود الطريق حتى وصلن إلى منزل سعد زغلول ، فحال الجنود بينهن وبين



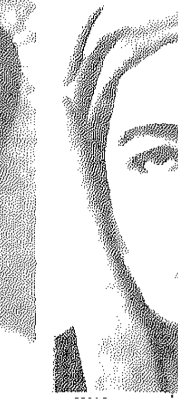
الوصـــول إليـــه وصـــوبوا البنادق إلى صــدورهن فــتــقــدمت حــاملة العلم إلى الضـابط الانجليـزى القـابض بيده على المسـدس وقـالت وهى تكشف صـدرها «هذا صدرى فاضرب بما عندك»، نحن لا نهاب الموت وستكون فى مصر مس كابل أخــرى ، وظلت واقــفــة فى مكانهـــا . والضابط أمامها برهة ، فانثنى خجلا ، وقال لجنوده: أفسحوا الطريق» .

هذا الوصف الدقيق لهـذه المظاهرة النسائية الرائعة لم يكتب على تفصيله إلا فـيـمـا سطره الاستـاذ النجار فى الأيام الحــمــراء، وقــد قــامت مظاهرة ثانيــة للسيدات تحدث عنها الأسـتـاذ الرافـعى بمثل حـديث النجـار تمامــا ، وجـاءت الألفـاظ مماثلة! فـهل نقل الرافـعى عن (الأيام الحمراء) حديث المظاهرة الثانية أو أن توارد الخواطر قد انساق بالألفاظ فى نسق مؤتلف، أقول ذلك لأن الطبـعـة الأولى من كـتـاب الرافـعى ظهـرت فى ١٩٤٦ . والأيام الحمراء سجلت بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٣م .

مهازل مضحكة

ذكر الاستاذ النجار مهازل مضحكة قام بها الانجليز وكأنها تمثيليات درامية يريدون بهـا أن يدلسـوا الحـقـائق على الجماهير ، ولم أر من المؤرخين من أشار إلى هذه المهـازل كـمـا سجلها النجـار، وهى ذات مغزى عميق فى الدلالة على إباء الشعب وغضبه لكرامتـه ، وسخطه على الاحتلال، من هذه الطرف الهزلية ما ذكره الأسـتـاذ عن أحداث يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩١٩، حـيث أراد الانجليـز أن يموهـوا على الشـعب الثـائر، فكانوا يلبسـون بعـضـهم الملابس المصـرية ، ويأتون بشخص سـورى يتكلم العـربيـة مع أنه يلبس «الزى الانجليـزى» ثم يقـتـحـمون البلدة فلا يقابلهم أحد إطلاقا فيسألون عن العمد والخفراء فلا يجدون أى جواب ، فيطلب رئيس الحملة ممن يجده فى مقر العمودية أن يجمع له أعيان البلد، فلا يجد بدا من أن يذهب إلى الحـقـول، ويأتى بمجموعة من العمال الزراعيين ، فيتقدم إليهم الشخص السورى ، ويقوم خطيبا يتمدح بأعمـال الانجليز ، وأنهم شقـوا الطرق الزراعـيـة ، ونظمـوا حـركـة الرى ، وعملوا الخزانات المائية، ولولا ذلك لتعطلت الزروع ، وخـربت البـلاد، وهـو يرجـو أن تكون هذه البلدة مثلا فى الطاعة لتضرب المثل للقـرى الأخـرى المجـاورة ، وإذ ذاك يغـمـر القـوم سكون حـزين ولا يتكلمـون فـيـقـوم رجل يلبس شـملة من الصـوف، وعليه عمامة كبيرة وبيده عصا غليظة ، ويقـول كـأنه مـصـرى يخـاطب الحـملة الانجليزية : كل ما ذكرتموه صدق ، إنكم حسنتم أحوالنا، وأكثرتم النقود فى أيدينا


عبد الحميد عنايت

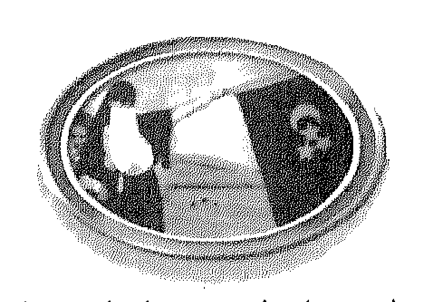

هدي شعراوي


احسان القوصى

فكثر الله خيركم ، ولن تجدوا منا إلا الطاعة والإذعان ولن نعصى الأوامر أبدا .. وينصرف القوم وقد اعتقدوا أنهم ضحكوا على الريفيين ، مع أنهم هم الذين كشفوا مهازلهم ونفروا منها !

على أن من غير المتوقع أن يكون بعض المأمورين فى المراكز المختلفة ممن يقفون فى صف الاحتلال ، ولكن هذا ما حدث فعلا من بعض ضعاف النفوس ، ومن بعض المديرين أيضا ، وهو أمر يسجل عليهم بالفضيحة والخزى ، فقد أراد مأمور كفر الزيات أن يجمع عمد القرى ليوقعوا عرائض بقبول الحماية الانجليزية وبعث رسله إليهم بعد أن نصب سرادقا للاجتماع ، وفى الميعاد المحدد لم يحضر أحد، فغضب المأمور وأرسل الخفراء لاستدعائهم فى اليوم التالى وجعل يؤنبهم بغلظة على عدم الحضور فقام فى وجهه أحد العمد وكان من أهل العلم من قبل ، وخاشنه فى القول ، وحذره من توجيه الإهانة للعمد لأنهم ليسوا موظفين عنده، وخرج المأمور من الاجتماع حزينا لا يدرى ما يصنع !

وتكررت المهزلة فى مركز آخر، فووجه قائد الحملة الانجليزية بتهكم مرير، حتى ضاق به الأمر فتوجه إلى عمدة (كفر كلا الباب) وقال له : منذ متى صرت عمدة ، فقال من ثلاث سنوات، فرد عليه كيف لم ترب أهل بلدتك فى هذه المدة ليعرفوا الاستقامة وعدم الخلاف ، فأجابه على البديهة وأنتم فى مصر منذ سبع وثلاثين سنة فلماذا لم تربوا القطر المصرى إذا كانت التربية منتقصة ! وانفض الجمع دون أن يصل الأعداء إلى نتيجة مرضية.. ومضى الأستاذ النجار يسرد أنباء اجتماعات كثيرة فى القرى والمراكز تنتهى بالشجار بين العمد ورئيس الحملة.. وحين تأزم الموقف ، وعرف المحتلون أن جميع المراكز والقرى على



قلب رجل واحد ، نظم اجتماع عام فى طنطا عاصمة المديرية ، حضره جميع العمد والاعيان ، وأراد الجنرال الانجليزى أن يلاطف القوم : «كنت غاضبا منكم لأنكم لم تحضروا اجتماعات المراكز . ولكن غضبى زال حين حضرتم اليوم، وعليكم أن تعلموا أن الانجليز قوم طيبون ، وأعطوكم ما تطلبون فماذا ينقصكم ولماذا تتخرون عن الاجتماعات التى ندعو إليها فقام نعمان بك الأعصر عمدة المحلة الكبرى وقال: أنت تأتى فى جيش مسلح، وحولك الجنود مسلحون وكأنهم فى ساحة حرب فكيف نأمن على أنفسنا ؟ إذا دخل عمدة واحتك بجندى فقتله الجندى ، وغضب الشعب وقام بمهاجمتكم ألا تحدث مجزرة!» ودار نقاش طويل ذكره الشيخ النجار بتفصيله ، وكله يدل على غضب هذا الشعب الأعزل، ورفضه الاستسلام ! وهذه المواقف النادرة لم تسجلها بهذا التفصيل الشافى غير (الايام الحمراء) .

طالب باسل

مما يحمد للأستاذ عبد الرحمن الرافعى أنه سجل أسماء كل من سمع عنه من شهداء الثورة عمالا وفلاحين وأزهريين ونساء وطلبة وحاول استقصاء ذلك فى جميع نواحى القطر ما استطاع، وقد تحدث عن أول شهيد من شهداء الثورة وهو طالب بالمدرسة السعيدية الثانوية يسمى (مصطفى ماهر أمين) حيث أصيب برصاص الأعداء إصابة قاتلة . فشيعه الجمهور تشييعا حارا وصفه الرافعى - كما وصفه النجار - أتم وصف ، إذ ذكرا معا : هتاف المشيعين ، وحمل النعش على أكتاف أربعة من طلاب مدرسة القضاء الشرعى، ورفرفة العلم المصرى على التابوت ، ثم دفن الشهيد بمدافن زين العابدين ! هذا ما ذكراه معاً ، ولكن الشيخ النجار زاد على ذلك فذكر سبب المصرع تحت عنوان (طالب يخطف مدفعا) وقال :

شاهدت المدافع - مدافع الانجليز - بكثرة فى جميع الميادين وجهات الأزهر والمشهد الحسينى ، وقد أغرى بعض الناس جماعة من الصبيان لمعاكسة جندى برميه بالحصى ، حتى إذا التفت إلى مكان الرمى، أسرع طالب بالمدارس الثانوية اسمه (ماهر أمين) إلى المدفع فأخذه وجرى ، فضربه جندى بالرصاص فسقط قتيلا ، بعد أن سار بالمدفع نحو عشرين مترا، واستعاد الجنود المدفع!» ا هـ .

طالب صبى أعزل يهجم على جندى مسلح، فيأخذ مدفعه الضخم، ويجرى به مسافة عشرين مترا، غير هياب ولا وجل! ماذا نقول فى بسالته وحميته الملتهبة فى صدره وهو بعد لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره ! إن فى الشباب المصرى اليافع لهمة وفتوة لو وجد الاشبال مثلا عليا تخط



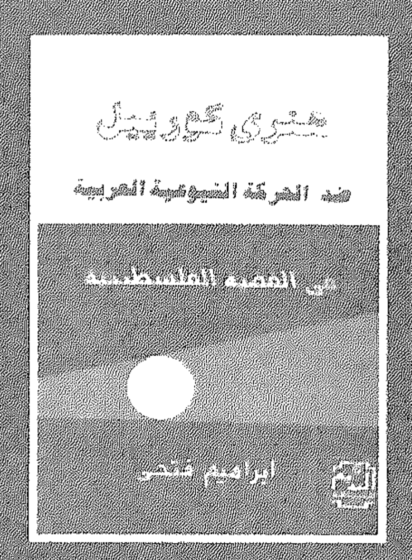
اشعل الثوار الحرائق في محطات السكك الحديدية في الوجه البحري برغم الدوريات المسلحة

لهم الطريق! .

وقد ذكر النجار فيما ذكر أن الثورة الهندية بزعامة غاندى قامت بتأثير الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، وأن الصحف الهندية قد ذكرت ذلك متخذة من جهاد المصريين مثلا يحتذى ، وهو أمر تحدث به الزعيم نهرو حين زار مصر ، فجاء حديثه مصداقا لما قال المؤرخ الكبير .

رجاء

إن كثيرا من طلاب الدراسات العليا بأقسام التاريخ الحديث يبحثون عن موضوعات تصلح للرسائل العلمية فلماذا لا ينهض باحث من هؤلاء يجمع (الأيام الحمراء) والتعليق عليها، ومقارنة ما جاء بها بما كتبه مؤرخو الثورة المصرية ، فيقدم عملا مثمراً يستأهل الثناء كما يحفظ حق مؤرخ فاضل سجل ما رأته عينه فى هذه الأيام الحمراء بصدق وتحر واجتهاد ! هذا ما أدعو إليه . فهل من مجيب ؟


هنري كورييل
ضد الحركة الشيوعية العربية
في القضية الفلسطينية
ابراهيم فتحي


هنري كورييل

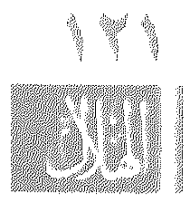
هنري كورييل

لورانس الحركة الشيوعية المصرية

بقلم
د. فهمى عبد السلام

«لا أصدق أن هناك يهوديا ملحدا .. والويل للإنسانية من المثقف اليهودي الذي يدعي الإلحاد»

«لا شك أن محكمة التاريخ تحكم بالإعدام على أولئك الأفراد والشعوب ، الذين يملكون من الحقائق أكثر مما يملكون من الوقائع ، وأولئك الذين يملكون من العدالة أكثر مما يمتلكون من القوة» هذا الاستخلاص الرائع لفيلسوف التاريخ أوزوالد إشبنجلر تؤكده مأساة الشعب الفلسطيني ، فالحقائق تؤكد أن أرض فلسطين ملك للشعب الفلسطيني ، لكن الواقع أن إسرائيل اغتصبتها وأن الشعب الفلسطيني يعيش مشرداً هنا وهناك ، والعدالة تقضى بعودة أصحاب الأرض ، لكن إسرائيل تملك القوة لإنكار كل هذه الحقائق بالرغم من عدالة القضية . وانتفاضة الشعب الفلسطيني البطل التى فرضت نفسها على العالم كله ، تؤكد إستخلاص إشبنجلر أن هذه الحياة لا تعرف سوى القوة .

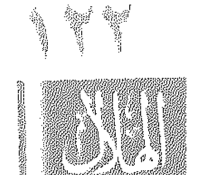




الأمـر الذي توصل إليـه الشـعب الصامد البطل فى فلسطين المحتلة ، فها هو الشـعب الفلسطيني ينهى مـا عـرف باسم المسيرة السلمية، والمسيرة السلمية لم تبدأ فى أوسلو ومدريد ، لكنها بدأت فى منتصف الأربعينيات ، لقد طرحت هذه الأفكار نفسها ، والتى تقول إن إسرائيل ليست شيئاً واحداً ، وأن هناك قوى للسلام علينا مناصرتها ، وبسقوط الحاجز النفسى بين العرب واليهود ، وبناء جو الثقة والألفة ، وأن المفاوضات السلمية قادرة علي إعادة الحقوق العربية بالطرق الودية وعلى «موائد المفاوضات» ، تلك الأفكار التى طرحت بقوة في منتصف الأربعينيات واختفت فترة طويلة ، لتعاود الظهور من جديد عام ٩٠ فى بدايات اتفاقيات مدريد بما عرف بالمسيرة السلمية لحل المشكلة الفلسطينية .

هذه الأفكار هى أفكار رجل واحد ، يهودى إيطالى الأصل ، ولد فى القاهرة عام ١٩١٤ لأب مليونير ، إنه هنرى كورييل الذى عاش حياة مثيرة مضطربة انتهت برصاصات غامضة أردته قتيلاً فى باريس عام ١٩٧٨ ، وانقسمت الآراء بشأن هنرى كورييل انقساماً حاداً ، فهو إما نبى الثورة العالمية وإما شيطان صهيونى رجيم ، فأنصار كورييل يضعونه فى مصاف الآله : فهو مثلا «راهب الثورة العالمية الذى تزوج التاريخ »، «وقديس الحركة الشيوعية العالمية» ، رجل الأممية الذى خان طبقته الأرستقراطية من أجل البروليتاريا . وحينما شيعت جنازته إلى المقبرة الفاخرة فى باريس ، تغطت المقبرة بعشرات من باقات الزهور لأحباء كورييل ومريديه ، من جبهات تحرير ثورية ، ومن لجان وهيئات دولية ، ومن منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن مصر التى غادرها عام ١٩٥٠ مطروداً ، ومن زملائه فى حدتو الذين ظلوا على العهد ، وعشرات من تلاميذ كورييل الذين أعاد كورييل صياغة نضالاتهم على حسب تعبير چيل بيرو (مؤلف كتاب هنرى كورييل رجل من نسيج خاص) . أما خصوم كورييل وهم كثر فيتهمونه بالعمالة للصهيونية ، وأن كورييل كان أحد أهم المتسببين فى انحراف الحركة الشيوعية المصرية انحرافا «صهيونياً» ذميماً ، وهذا الاتهام إذا ما أتى من قامات فكرية ونضالية بحجم محمد سيد أحمد ، وسعد زهران وشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى ومصطفى طيبة واسماعيل صبرى عبد الله ود. رؤوف عباس والمستشار طارق البشرى ، فلابد أن ننصت إليهم جيداً ، بالرغم من كل باقات الزهور التى رصعت قبر كورييل الفاخر فى باريس .

إذن هنرى كورييل إما قديس أممى دفع حياته ثمناً لنضالاته فى سبيل الحرية والعدالة والتقدم ، وإما جاسوس صهيونى لم يكن يهدف بكل نشاطاته إلا لخدمة إسرائيل . ومنذ عام تقريبا صدر كتاب بعنوان «نحو سلام عادل فى الشرق



الأوسط» عن دار الثقافة الجديدة ، قام بترجمته عن الفرنسية والتقديم له محمد يوسف الجندى - وهو الناشر فى الوقت نفسه - ، والكتاب المهم لا يحوى سوى نقطة واحدة ، وهى التى تلوث شرف كورييل الثورى بوحل العمالة للعدو الصهيونى ، فالكتاب يقدم كل أطروحات كورييل النظرية والعملية بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ، وهى بيانات وتوجيهات وتحليلات كتبها كورييل من ٤٧ حتى مصرعه عام ٧٨ .

يقوم محمد يوسف الجندى بتقديم الجزء الذى لم يكتب كورييل خلاله شيئاً ، ويوضح الخط السياسى لحدتو (المنظمة الماركسية التى أسسها كورييل وكان زعيمها الفكرى والروحى) خلال عام ٤٥ . تحديداً فى نوفمبر ١٩٤٥ ، بمناسبة ذكرى صدور وعد بلفور ، كان الشارع المصرى يغلى آنذاك وهو يرى العصابات الصهيونية تكاد تلتهم فلسطين العربية بالقتل والترويع والإرهاب الوحشى ، وحثالة أوروبا الشرقية يفدون بالآلاف على فلسطين تحت سمع وبصر العالم كان ، فى سابقة لم يعرفها التاريخ الحديث ، كان من الطبيعى أن تقوم المظاهرات الشعبية الكثيفة ، تندد بالصهيونية ، وواكبت تلك المظاهرات حملة صحفية واسعة ، فإذا بكورييل يقوم بإدانة المظاهرات ، ويتهمها بأنها قامت بتدبير من الفاشية (!!) وأن سبب الأحداث الدامية فى فلسطين ليس اليهود القتلة ، وإنما الرجعية العربية والإنجليز (الإمبريالية) ، وأن الإنجليز نجحوا فى الوقيعة بين الكادحين العرب والكادحين اليهود ، وعلى الكادحين العرب والكادحين اليهود أن يتحدوا فى جبهة واحدة لطرد الإمبريالية ، وبعدها ينشئان سوياً دولة ديمقراطية تقوم بنفسها بحل التعايش السلمى بين الطائفتين .

هذه الآراء يقدمها محمد يوسف الجندى بانبهار شديد ، وهذا أمر مدهش، فهى تحتوى على مغالطات فجة لا تنطلى على أحد ، وتحيزها الواضح لليهود يجعلها مرفوضة ولا تستحق عناء مناقشتها ، مثلاً الشعور الوطنى الشعبى يعتبره كورييل شوفينية ، مع أن إسرائيل هى الشوفينية مجسدة والشوفينية هى إسرائيل ، ومسألة وحدة الكادحين العرب واليهود مسألة لا يستطيع العاقل الرشيد، أن يأخذها على محمل الجد .

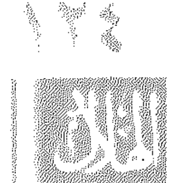
المدهش أن الرفاق فى حدتو لم ينتبهوا إلى لا معقولية آراء كورييل بتحيزها الصارخ إلى اليهود ، والتسوية - وهم المغتصبون- بينهم وبين ضحاياهم ، وحتى تزداد غرابة الصورة علينا أن نلقى ببعض الأضواء على حياة كورييل قبل أن يعمل فى السياسة ، حتى تكتمل الرؤية ، فكورييل هو الابن الأصغر لـ دانييل كورييل اليهودى الأعمى المليونير صاحب بنك !! ، وهنرى نفسه عاش حياة أرستقراطية فى قصر الأب المنيف بالزمالك ، وحتى بلغ كورييل الـ ٢٦ عاما (١٩٤٠) لم يكن لـ كورييل أدنى علاقة بالواقع المصرى ، ولم يعرف من المصريين سوى الخدم والسفرجية ، ويعيش فى القاهرة جسداً ، أما روحه فهى فى باريس ، وكان كورييل يقضى الليالى لاهياً





فى ملهى الكيت كـات ، يزجى الوقت مع الفـتـيـات اللاتى كن يطلقن عليـه لقب «الزهرة المسحوقة» ، وكان فـتى الكيت كـات اللاهى يمضى السـاعـات متبرمـاً ، منتظراً اليوم الذى سيرحل من مصر بدون رجعة إلى باريس ، كى يدرس القانون فى السـوربون ، وعندمـا أجبـره والده على البقاء فى القاهرة ، سقط كوربيل فى هوة اليـأس ، وتحت ضـغط الأب اضطر هنرى إلى العـــمل فى البنك ، ووصـف هـنرى ضـجـره اللامـحـدود وهـو يسـتـمـع إلى توسـلات الفـلاحين الأجـلاف الذليلة كى يخـفض لهم الفـوائد ، والغـريب أن هذا اليهودى الأجنبى الأرستقراطى المليونير ، والذى يتحدث العربية على طريقة الأفلام «إعملتـوا إيه ياربى .. إسمع خـبـيـبى (بالخاء) .. إمسكتوا واخد فلوس (بالخاء) .. إمسكتوا واخد سفلانه (بالخاء) ..» إذا به وبدون سـابق إنذار يذوب فى المصريين حباً ، وإذا بزهرة الفتيات المنسحقة يذوب فى فقراء مصر شـفقة ، والأعجب أن هذه الإنعطافة الروحية العميقة الهائلة ، التى حـولت فـتى الكيت كـات اللاهى إلى راهب البروليتاريا ، كانت نتيجة لمصادفة عجيبة هى الأخرى ، وهى أن كوربيل رافق الأب عـريوطى الذى كـان يجـوب قـرى مـصـر لعـلاج الفـــلاحـين ، وفـى إحـدى هـذه الجولات ، تمزق هنرى كوربيل عندما رأى الفـقـر البشـع فى فـلاحى مـصـر ، فـوهب نفسـه لتـحـرير فـقـراء مـصـر من بؤسـهم الشديد .

علينا أن نصدق أن الإنسانية وحدها! هـى التى دفـعت كـــوربيل إلى العــمل السياسى ، والخطوة الثانية هى مراجعة مـواقف كوربيل ، بما خطت يداه ، من عام ٤٧ حتى عـام ٧٨ ونبدأ بـ عـام ٤٧ . فى عام ٤٧ كانت مأساة فلسطين قد فرضت نفسـها ليس على العالم العربى فـحسب ولكن على العالم كله ، فالإنجليز على وشك الرحيل والمذابح الصهيونية تدور على قدم وساق ، وتحت تأثير وضغوط الصهيونية العـالميـة ، أصدرت الأمم المتـحـدة قـرار التـقـسـيم المعـروف ، ورقص الشـعب الإسـرائيلى فى شـوارع فلسطين فـرحـاً باعتراف العالم بدولتهم الإجرامية ، وكان من الطبيـعى أن يشـتعل الشـارع العـربى والمصرى بالغضب للجريمة التى تمت فى بلد عـربى شـقـيق ، ورفـضت كل الأحـزاب العربية والقوى السياسية قرار التقسيم الظالم ، الذى يكافىء المجرم على جريمته، واضطرت الحكومـــات العـــربيـــة تحت الضغوط الشعبية إلى الاجتماع ، واضطر القـادة العـرب إلى رفض قـبـول قـرار التقسيم وأعلنوا أنهم سـيدخلون الحـرب ضد العـصـابات الصـهيونية ، فـأصدرت حدتو دوناً عن بقـيـة المنظمات الشـعـبـيـة والرسـمـيـة ، توافق على قـرار التـقسـيم ، وهذه الموافقة هى اعتراف بالدولة العبرية ، وراح كوربيل يندد بالحرب ضد إسرائيل ، وأسماها بالحرب الظالمة وبالحرب الرجعية وبالحرب الإجرامية (أوراق هنرى كوربيل



تقـديم د . رؤوف عـبـاس) . هذا الموقف المريب يصـفـه مـحـمـد يوسف الجندى بالشـجـاعـة (!!) وأصـدرت حـدتو بيـاناً ، وزعت منه الآلاف ، ثم أعـيـد نشـره فى مـجلة الجماهير لسان حال حدتو آنذاك «إن سياسة موالاة الاستعمار التى سـار عليـهـا رؤسـاء الحكومـات العربية هى المسئول الأساسى عن تقـسـيم فلسطين ، فلقـد كـان ولا يزال الضـمـان الوحـيـد لوحـدة فلسطين هو العمل على إيجاد جو من الألفة المتبادلة بين الجماهير الكادحة العربية واليهودية (!!) ، واليـوم وقـد اتخـذت هيـئـة الأمم المتـحـدة قـرارها بإنشـاء دولتين مـسـتـقلتين على أسـاس إلغـاء الانتداب البريطانى وجلاء القوات البـريطانيـة عن فلسطين فـإن الطريق الوحيد لتـوحـيد الدولتين الجـديدتين يكمن فى المسـاهـمـة الجدية فى طرد الاستـعـمـار (وكـأن اليهـود لم يستـعـمـروا فلسطين) ، وإيجـاد جو من الثقـة والألفـة بين العـرب واليـهـود والكفـاح المشـتـرك ضد محاولات التفرقة العنصرية» .

ويكمل كورييل مـحملاً الجميع أسباب المشكلة فيما عدا اليهود بالطبع .

«أمـام هـذه الأزمـة السـيـاسـيـة والاجـتـمـاعـيـة يرى الاسـتـعـمـار والرجـعـيـة ألا مـخـرج لهـمـا منهـا سوى بإشعال الحرب العنصرية فى الشرق العربى ، كى تلهى الشعوب عن أهدافـهـا الوطنيـة ومطالبـهـا الاقـتـصـادية ، وقـد وجـدوا فى فلسطين نقطة البدء لتـحـقـيق هذه السـيـاسـة الإجرامـيـة . وفى ضـوء هذه الحـقـائق نسـتطيع أن نـفـهم البـيـان الذى أصـدره رؤسـاء الحكومـات العربيـة ، إنه يرمى إلى وقف الحـركـات الوطنيـة وتحـويل حربنا الوطنية المقدسة إلى حرب دينيـة عنصـرية تدعم مـركـز الاستعمار ، وإنه يرمى إلى صرف أنظار الجـمـاهـيـر الكادحـة عن الكفاح» . ثم ينهى كورييل بيانه بنصف دسـتـة من الـ «عـاشـات» ثم بسـقـوط الاستعمار وأذنابه .

هذا البيـان يعتبر نموذجاً للتدليس السيـاسى ، فـالحرب ضد إسرائيل هى حرب دينية مع أن اسرائيل هى التى قامت على أسـاس دينى ، وأن الحـرب ضـد اسرائيل تحول أنظار الجماهير عن العدو الأسـاسى ، مع أن الجـمـاهيـر بفطرتهـا السليـمـة فطنت إلى عـدوهـا الأسـاسى والـواجـب عـلى المـنـاضـل الأممى هـو الإنصات لنبض الجمـاهير وأن يتبـعـه ، وحكاية الألفة والثقة العجيبة هذه لا يكل كـورييل من ترديدهـا ، ولابد أن نذكـر أن كيسنجر وهو يهودى أيضا ، كان أول من طرح إسقاط الحاجز النفسى بين العرب واليهود ، المهم أن هذا البيان الذى يتصف بوقـاحـة لا مـثـيل لهـا ، أحـدث ردود فـعل هائلة سـواء على مـسـتـوى الشـارع ، أو داخل صفوف حدتو . فالجماهير المصرية بنبضـهـا السليم عـاقبت كورييل العقاب الجدير بهذه الوقـاحة ، وذلك الاستخـفاف بمشـاعـر الناس وعـقـولهم ، فـقـد ألقيت الزجاجات الحارقة على بيت كورييل وعلى





مكتبة الميدان وعلى مقر مجلة الجماهير ، بإعتبار أن بيان كورييل بمثابة صفاقة ما بعدها صفاقة .

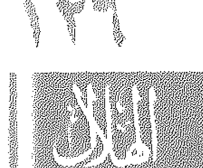
أما داخل حدتو فنترك مصطفى طيبة (كان عضواً بلجنة حدتو المركزية آنذاك) فى كتابه الهام «الحركة الشيوعية المصرية عام ١٩٤٥ - ١٩٦٥ - رؤية داخلية» ، أن يحدثنا عن ردود الأفعال داخل حدتو .

انحسر نشاط حدتو وانعزلت المنظمة عزلة تامة عن الجماهير بسبب موقفها من فلسطين ، وكان موقفها وموقف التنظيم كله مستمداً من مقولة نظرية «بالحق القومي لليهود في تكوين دولتهم علي أرض فلسطين» والتي صاغها كورييل في محاضرة كانت تدرس للخلايا ، ويذكر مصطفى طيبة كيف راح كورييل يتهم كل من يعارض بيانه العجيب «بالإنحراف الأممى ، ويعلق طيبة على ذلك الاتهام بأنه كان اتهاما خطيراً يصل إلى درجة الخيانة . وأنشق الراحل الكبير شهدى عطية الشافعى عن حدتو ، وأنشق عبد المعبود الجبيلى (الرفيق عادل) ، وخرج معه عدد من أفضل مناضلى حدتو وأكثرهم إخلاصاً ، وراح مصطفى طيبة يتساءل فى حيرة محزنة عن انصراف الجماهير عن حدتو : أين يكمن الخطأ ؟ ثم ها هو ذا يكتب بلا مواربة «اكتشفت أننا غرباء عن واقعنا» ، وبدورنا نقول كيف لا يصبحون غرباء ، فالدنيا كلها ضد إسرائيل الوحشية ، وكورييل يجرهم وحدهم لتأييد إقامة اسرائيل والتحاب والمودة معها ، ضد رغبة الشعب وعواطفه ووجدانه ، وعلى أشلاء الشعب الفلسطينى .

(٢)

وفى عام ٥٠ تم إبعاد هنرى كورييل إلى خارج مصر ، وقامت السلطات بشحنه عنوة على باخرة إلى ايطاليا ، ويحكى لنا جيل بيرو عن تشرد كورييل فى أوروبا بلا نقود وبلا جنسية وبلا أوراق شخصية ، حتى استقر به المطاف فى باريس ، وكون هناك ما عرف باسم «مجموعة روما» ، باعتبارهم فرعاً لقيادة الحزب (حدتو) فى الخارج ، ولم يترك كورييل الرفاق فى مصر ، إذ أصر أن يظل متسلطاً عليهم بسطوته الروحية المدهشة ، وظل يراسل الرفاق القلائل الذين ظلوا على العهد مقيمين ، ولم يغير كورييل من عواطفه تجاه اسرائيل ، وإذا كان نشاط كورييل من ٤٥ - ٤٨ يهدف إلى صرف الرفاق عن خطورة الصهيونية، ففى الأعوام من ٥٠ حتى ٥٣ كان المطلوب من الرفاق هو الترويج لفكرة الاعتراف باسرائيل ، والترويج والاعتراف بقرار التقسيم ، والجديد فى نشاط كورييل هو الدعوة إلى إقامة صلات مع قوى السلام الإسرائيلية ، ففى عام ٥٣ بعث كورييل بياناً عريضاً ، مليئاً بالاستطرادات والتكرارات ، سنكتفى بمقتطفات منه .

«كنا الوحيدين الذين دافعنا عن



قرار التقسيم ورفض حرب ٤٨ ، أما الشيوعيون الآخرون فلم يجرؤوا على أن يتخذوا هذا الموقف علناً ، وقالو إن الاتحاد السوفيتى وافق على قرار التقسيم لأن الاتحاد السوفيتي بعيد ويجهل حقائق الشرق الأوسط (!!) ، أما حدتو وفى مواجهة الشوفينية الصاعدة (..) دافعت عن مواقفها لصالح الحركة الوطنية ولصالح الشعبيين العربي واليهودي فى فلسطين .

ثم يدين كوربيل الأنظمة العربية لعدم قبولها بقرار التقسيم الذى يراه كوربيل ليس حلاً مثالياً ولكنه حل واقعى كما حدث من قبل ، لكن الجديد فى بيان ٥٣ هو تلك الأعجوبة الجديدة .

«هذه الأنظمة بقيامها بالمغامرة العسكرية في عام ٤٨ ، انتهت ليس بكارثة تلك الجيوش فقط ، لكنها انتهت بكارثة لعرب فلسطين ، فالقادة العرب بدخولهم حرب ٤٨ يتحملون المسئولية الأكبر في مأساة اللاجئين وإحتلالهم لمنطقة غزة (!!) وضمها إلى مصر (!!) .

والحقيقة أن المرء لا يكاد يصدق هذه الافتراءات الصهيونية التي تلوى عنق الحقيقة وتحرم الحلال وتحلل الحرام من خلال منطق لا مثيل له ، فاللاجئون سبب مأساتهم ليست العصابات الصهيونية ، إنما الجيوش العربية ، ووجود المصريين فى غزة هو إحتلال ، أما اسرائيل فهى شعب يهودى له حقه فى إقامة دولته فعيون كوربيل الصهيونية لا ترى الخشية الإجرامية فى عينى اسرائيل ، لكنها تختلق قشة فى عين العرب وتعتبرهم الجناة .

ويكمل كوربيل بيانه الصفيق :

«إن حالة التوتر القائمة تفيد الطبقات الحاكمة العربية» ، ومقاطعتها وحصارها لإسرائيل تعبر عن خوف الرأسمالية العربية العاجزة عن مواجهة الرأسمالية الإسرائيلية ، ولهذا ينبغي علينا أن نناضل ضد الشوفينية التي تثيرها الطبقات الحاكمة ، وإذا لم نقف ونكافح للدعوة لمواقفنا ، فهذا معناه أننا سنترك للطبقات الحاكمة أن تفرض مواقفها ، وهذا معناه أن نتخلي عن الموقف المستقل للبروليتاريا (!!) ويعنى وضع البروليتاريا فى ذيل البورجوازية ، لكن الذي يدعو للفخر أن الرفاق في حدتو يثقون في الحزب الشيوعي الإسرائيلي وفي الشعبين العربي واليهودي فى إسرائيل .

مازال كوربيل يردد أراجيفه لكن هنا يضيف شيئاً جديداً عن تطبيع الرفاق فى حدتو مع الرفاق فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى فيكمل :

«قلنا إن على اسرائيل أن تلعب في مشاريع الإمبرياليين دور الشرطى للإمبريالية فى الشرق الأوسط ، لكن إذا إقتنع الشعب الاسرائيلي أن الشعوب العربية لا تهدد وجوده وأن الحركات الوطنية تتخذ موقفاً وتناضل من أجل حل عادل ، فإن مشاريع الإمبريالية سوف تفشل مرة أخري ، وعلينا



الاعتماد على الحزب الشيوعى الاسرائيلى والحزب الاشتراكى اليسارى فهما يخوضان ميداناً لا هوادة فيه ضد الإمبريالية والصهيونية . لهذا إذا عرفت الشعوب العربية بهذه النضالات فهذا بمثابة ضربة للشوفينية الصاعدة ، ولهذا فنحن نناضل من أجل حل سلمى بين إسرائيل من جهة والدول العربية وخاصة مصر من جهة أخري ، ومن أجل إقامة علاقة صداقة بين الشعبين العربى واليهودى فى إسرائيل ، فلابد أن نشرح خطورة الوضع الحالى ، فلا يبقى إلا حل واحد : المفاوضات من أجل السلام مع الاعتراف بالحق القومى لليهود فى إقامة دولتهم المستقلة .

ينتهى البيان الخادع ، ونعلم أن هذا البيان الصفيق تمت كتابته عام ٥٣ ، بمناسبة رسالة أرسلتها قيادة حدتو إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى ، وبهذا يثبت لنا أن هنرى كوربيل لعب دور الأب الشرعى للتطبيع ، وأن الأصوات اليسارية التى حملت عار التطبيع فى التسعينيات ، كانت تقوم بإحياء تراث خلقه كوربيل فى الأربعينيات .

(٣)

فى كتاب محمد حسنين هيكل عن المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل ، قدم هيكل الاستراتيجية التى تبناها بن جوريون مؤسس إسرائيل الحقيقى ، كانت إستراتيجية بن جوريون لمستقبل إسرائيل مع الجيران العرب ، تتركز حول إخراج مصر من الصراع وبأى طريقة ، فإذا لم ترضخ مصر بالتفاهم الودى ، سترضخ بضربة عسكرية ، ويتم إجبارها على معاهدة سلام ، وبعدها ستجد الدول العربية نفسها مضطرة لتوقيع معاهدات سلام مع إسرائيل . وفى عام ٥٦ انتهزت إسرائيل فرصة تأميم قناة السويس ، لإظهار وجهها التوسعى الوحشى ، وقامت بإحتلال سيناء ، ولم تخرج منها إلا بعد إنذارات شديدة من موسكو ومن واشنطن، وعلى الرغم من هذا ، إذا بكوربيل يبعث إلى الرفاق ويوجه إليهم التوبيخات والملامات الأممية الشديدة ، فالرفاق لا يستطيعون أن يجاهروا بأفكار كوربيل ، ومن شدة إذعانهم له وانسحاقهم أمام تعليماته ، يبعثون إليه يطلبون النصيحة بشأن . «ماذا نفعل أمام الشوفينية ؟!

فى عام ٥٧ يرسل كوربيل ليرشد الرفاق ويهديهم إلى كيفية النضال ضد الشوفينية ، وهى المرادف عند كوربيل لـ للعداء لإسرائيل يكتب كوربيل» .

يكتب كوربيل :

الرسائل التى أرسلت إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى ، كانت هى والصلات بهذا الأخير تعتبر إنتصاراً للرفاق المصريين

على النطاق الدولى (مع أن هذه الصلات نفسها فى الضمير العربى هى الخيانة) . وكان الرفاق الشيوعيون المصريون يلتقون بالمندوبين الإسرائيليين ، لكن سرعان ما ساءت الحالة ، ونعتقد أن الشيوعيين المصريين تركوا أنفسهم ينجذبون إلى التيارات البورجوازية القومية ، والنواة الأكثر ثورية فى الحزب (حدتو) كانت تدرك مخاطر العزلة عن الجماهير ، فراحوا يرفضون طرح المشكلة على الجماهير ، ولهذا قدموا شعار التوقيت ، بحجة أن اللحظة غير مواتية ، ولم يقتصر التراجع على أنه لم تعد هناك رسائل ترسل إلى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، بل ولقد ضربنا عرض الحائط بقواعد الأممية البروليتاريا ، إلى درجة رفض النقاش مع الشيوعيين الإسرائيليين فى المؤتمرات الدولية ، وعلينا أن نعترف أن ليس نقص العناصر (انفضاض الكوادر عن حدتو) هو السبب فى هذا التقاعس لكن هناك فى الحزب (البقية الباقية) تيارات أخرى لديها «انحراف أممى» ..

...الانحراف الأممى هو العداء لإسرائيل ، أما الأممية الرشيدة عند كورييل ، فهى تنمية الثقة بين إسرائيل والعرب ، والعجيب أن هذا الكلام يقال عام ٥٧ ، ودماء المصريين لم تجف على أرض سيناء . بعد هذا التقريع الأممى الثورى الذى بعث به كورييل إلى الرفاق ، قامت الحركة الشيوعية المصرية ، ذلك الفصيل المهم فى كفاح شعبنا ، بتصحيح أوضاعها ، وقررت استبعاد كل اليهود من قيادة الحركة الشيوعية ، وبتجميد وحل جماعة روما ، بعد أن أيقنت أن اليهودى لليهودى ، وإن إدعى الثورية .

وفى بقية البيان يشرح كورييل خطة العمل لإجبار مصر على الاعتراف والتفاوض مع اسرائيل ، وما فشل بن جوريون فى تحقيقه بالسلاح والدم والعدوان ، يحاول كورييل أن يحققه بالرطان الايديولوجى وبالألاعيب الكلامية . وخطة كورييل التى وضعها طويلة مملة مليئة بالاستطرادات وبالإلحاح وهى فى اختصارها ، أن يقوم الرفاق بالدعاية المكثفة للحل السلمى (الاعتراف والتفاوض) وأن اسرائيل ليست كتلة واحدة .. إلى آخره ، فى نفس الوقت ستتبنى مجموعة روما حملة عالمية وستصدر بياناً دولياً يحمل توقيعات عدد كبير من الشخصيات الديمقراطية المرموقة دولياً ، كى تطالب بحل سلمى للصراع . وبهذا يتم اعداد المسرح الداخلى (المصرى) والعالمى ، فلا يجد عبد الناصر أمامه (الذى يريد السلام فى قرارة نفسه) إلا الرضوخ تجاه الإرادة العالمية والمصرية ، فيتحقق حلم بن جوريون على يد كورييل وبطانته ، فى الخارج وفى الداخل ، وخابت جهود كورييل ، فكانت حقيقة اسرائيل أبشع من التغلب عليها بجهود مجموعة روما والديمقراطيين العالميين وبقايا حدتو التى كانت فى حيرة من أمرها ، ما بين الانعزال عن الشعب أو





طاعة كوربيل .

وبعد استبعاد الحركة الشيوعية للقيادة اليهودية يكتب كوربيل «تسلمنا بالأمس المجلة الإسبوعية «موليير» التي تحتوي على مواد مهمة ومن بين هذه المواد كان هناك ذلك العمل الفذ ، وهو برنامج الحزب الشيوعى المصرى الموحد : يقرر البرنامج أن تحقيق السلام مع إسرائيل يساوى دخول حلف بغداد!؟؟ .. إنها الماركسية الخلاقة ؟ ويبدو أنه يوجد فى مصر إتجاه حقيقي للشيوعية القومية . ثم تفاقمت حالة الحركة الشيوعية بعد تخلصها من اليهود فأعلنت أن الكفاح المسلح لتحرير فلسطين يعتبر نضالاً أعمى، وانفضت الكوادر من حول كوربيل إلا من خاصة الخاصة ، وانشغل كوربيل بدوره فى دعم جبهة التحرير الجزائرية لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسى ، وتألق كوربيل فى دوره الجديد ، وتوهج كمتآمر أصيل ، تزوير جوازات سفر ، تزوير أوراق ، تهريب أموال ، غسيل فرنكات فرنسية بفرنكات سويسرية ، تهريب سلاح وتهريب أفراد عبر الحدود وعقد مؤتمرات سرية علنية وإخفاء مناضلين ، وقامت حرب ٦٧ ، وانتهز كوربيل الفرصة كى يحيى مشروعه الصهيونى القديم ، مشروع ٤٧ (الثقة المتبادلة والألفة بين الشعبين العربى واليهودى والكادحين .. إلى آخره) . واستخدام الرطان الماركسى الجذاب لتمرير الإعتراف باسرائيل والتفاوض السلمي معها . وتحييد مصر وفقاً لمخطط دافيد بن جوريون مؤسس الكيان العبرى الإجرامى .

يكتب كوربيل إلى الرفاق تحت عنوان «مذكرة للرفاق المصريين حول ضرورة مواصلة النضال من أجل السلام» :

«يجب أن نقول وبوضوح أننا ننطلق مع الغالبية العظمى للقوى التقدمية والاشتراكية فى العالم من الحقيقة الاسرائيلية باعتبارها شرعية (صياغة ركيكة لشرعية وجود اسرائيل) ، ويعتبر شيئاً مسلماً به أن اليهود فى اسرائيل يكونون كياناً قومياً له مثل كل المجموعات القومية الحق فى تقرير مصيرها وتكوين دولة قومية .

مع أن كوربيل يدين الاتجاهات القومية بشدة عند الجماهير والرفاق ، ويعتبرها انحرافاً قومياً ، لكن فى حالة إسرائيل فالقومية هنا قومية أممية رشيدة .

ذلك يبقى صحيحاً حتى إذا أعلنا أن إسرائيل واقع استعمارى لأن كثيرا من الدول القومية أصلها وقائع استعمارية .

هل على المناضل الأممى واجب سوى




محاربة الامبريالية وهدم واقعها .. هذا لا ينطبق على اسرائيل بالطبع .

ونعتبر أيضا أن الجماهير اليهودية لها مثل كل شعوب العالم الحق فى الأمن (!!) وأن تتطلع إليه .

مع أن الجماهير اليهودية نفسها هى التى حرمت الجماهير العربية من الأمن منذ قيامها ، المهم هو الشعب اليهودى وأمن الشعب اليهودى وحق الشعب اليهودى أما الحق العربى فهو حق فالصو وترسو عند كورييل .

ولهذا فنحن لسنا مستعدين لبحث الحلول ليس فقط التى تقترح إبادة اليهود (مع أن اليهود هم الذين أبادوا العرب) ، لكننا ضد الحلول التي تدعو إلي أن تفرض عليهم وضعاً أيا كان لا يرغبون فيه ، وإذا حدث هذا فمن السهل أن نتصور أن الاسرائيليين سوف يحاربون حتى النهاية بنفس العزم وبوسائل أكثر قوة بكثير (!!) للدفاع عن حقوقهم ، ولهذا فإن أى سياسة واقعية وتقدمية لا يمكن أن يكون لها هدف إلا نهاية النزاع بطرق سلمية .

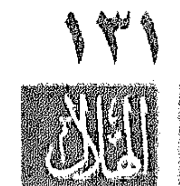
هناك سنلاحظ فخر كورييل الخفى بقوة اسرائيل ، وكيف ستقاتل أعداءها حتى النهاية ، ثم يلجأ كورييل إلى تعجيز أولئك الذين يدعون إلى الكفاح المسلح وإلى الحرب كطريق وحيد لحل النزاع ، ثم يكمل كورييل فى تضليل لا مثيل له .

إن الشعب الاسرائيلي متعطش ويتطلع إلي السلام والأمن ص ١١٦ . وإذا سمينا الأشياء بمسمياتها فهذا الشعب المدجج بالسلاح ، وهذه الدولة التى لا يوجد بها «مدنيون» ، وكل سكانها مجندون فى جيش الدفاع ، لا تتطلع إلى السلام إنما تتطلع إلى الإذعان والاستسلام العربى . ويكمل كورييل :

ولهذا يجب أن نتحرك بسرعة في إتجاه قوى السلام الاسرائيلية وتقويتها لعزل الايدلوجية الصهيونية (حديث التطبيع القديم الجديد عن قوى السلام الاسرائيلية وأن اسرائيل ليست شيئاً واحداً .. إلى آخره) .. ولهذا فإن التقدميين العرب الذي سيكافحون للإعتراف بقوي السلام الإسرائيلية لا يجب أن يشعروا بالحرج أو بالخجل ، لأنهم سيصبحون المدافعين الأكثر قدرة والأوضح رؤية والأكثر شجاعة عن المصالح العربية ، أما العناصر المتطرفة المعادية لقوى السلام العربية والذين يظهرون كوطنيين غير متهاونين فى حقوق أوطانهم ، علينا النضال ضدهم ، لأنهم فى حقيقة الأمر الحلفاء الموضوعيون للقوى العربية والإمبريالية والرجعية الإسرائيلية .

الحقيقة أن مسألة دعوة كورييل للرفاق بألا يخجلوا أو يشعروا بالحرج تذكر المرء بالقوادة العجوز التى تسهل السقوط فى الوحل .

وبعد رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، يبعث كورييل إلى الرفاق بماسمى «بعد عبد الناصر – أفكار حول تسوية سلمية





للنزاع العربى الاسرائيلى : نبدأ بتحديد جانب معروف معرفة ضئيلة جداً من الواقع الاسرائيلي لكنه يحدد كل الجوانب الأخرى وهو أساسى ، يتم النظر إلى الشعب الاسرائيلى دائماً باعتباره كلاً واحداً من حيث التطلعات والأهداف . وهذه نظرة خاطئة للغاية فداخل الشعب الاسرائيلى يوجد عنصران تختلف بل وتتعارض أهدافهما وتطلعاتهما ، العنصر الأول يتكون من الصهيونية الحقيقية أى أولئك الذين ذهبوا إلى اسرائيل بهدف واحد هو بناء دولة يهودية هناك ، وهم يمثلون فى اسرائيل أقلية ضئيلة والعنصر الثانى الذى يكون غالبية السكان اليهود فى اسرائيل يتكون من اليهود الذى أقاموا هناك بسبب أنه ليس لهم مكان آخر يذهبون إليه ، وإذا كان الأولون يكونون الأقلية والآخرون الغالبية ، فكيف حدث أن النفوذ الصهيونى كان غالباً بهذا الشكل ؟ هذا يرجع إلى أن الصهاينة يشغلون أماكن القيادة ، أما الآخرون فهم الكادحون والكادر والذين يمارسون مهناً حرة إلخ .

لقد قبلوا نفوذ الأقلية الصهيونية بالقدر الذي شعروا فيه منذ بداية وجودهم بتهديد جيرانهم العرب ، وهذا التهديد هو الذي يكون أداة السيطرة الصهيونية على مجموع السكان .

ها هو ذا كورييل يتحدث عن الغالبية العظمى من الشعب اليهودى المسكين المسالم (!!) الذى جاء ليطرد الفلسطينيين من شدة طيبة قلبه فهم مهنيون وكادحون .. متناسياً أن الحكومات الصهيونية تصعد إلى السلطة بأصوات هؤلاء ، وأن الصهيونية هى شريعة كل من أتى إلى فلسطين ، ثم ها هو ذا كورييل يناقض نفسه فى نفس البيان .

وعندما نتحدث عن السلام والحل السياسى للأزمة هناك رؤية مختلفة فى مصر واسرائيل (صادرة فى هذا البلد من أولئك الذين يدعون لهذا الحل) . ففي مصر يعتبرون أن كل شيء سيسوى بإعادة الوضع إلي ما كان عليه قبل ٥ يونيو ٦٧ ، ويجب أن نفهم أن الجانب الاسرائيلى لا يمكن أن يقبل ذلك . ومن الضرورى أن ندرك أن الجماهير الاسرائيلية عاشت وساوس الإبادة . ويجب أن يكون مفهوماً لدينا أنه إذا كانت البلاد العربية تعتبر أحداث يونيو ٦٧ «عدواناً» اسرائيلياً فإن الرأي العام الاسرائيلى كله يعتبرونها

حرباً دفاعية ضد عدوان عربى جرى إعداده ، فالجماهير الاسرائيلية إعتبرت أن الحرب لم تكن عدواناً من اسرائيل ، وإنما نضالات من أجل حياة بلادهم . فهل يمكننا بشكل معقول أن نطلب منهم العودة إلى هذا الوضع ؟ وضع يخاطرون فيه بأن يصبحوا مهددين بالفناء . وضع عليهم أن يتخلوا فيه عن ثمار تضحياتهم الكبيرة دون أى مقابل ؟ لا يجب أن نخدع أنفسنا ..

الحقيقة أن كوريبل مارس خداعه علينا، وظل يمارس خداعه حتى قبل مقتله بساعات قليلة ، فقد كان على موعد لمقابلة عصام الصرطاوى حتى يدبر لقاءات العار بين عتاة الصهاينة الذين أرتدوا مسوح الحمائم كذباً وبهتاناً ، وممثلين من منظمة التحرير ، والرصاصات الغامضة التى أردته قتيلاً ، كانت تقصد أن يموت كوريبل وأن تموت أسراره معه ، وكوريبل نموذج لرجال من ذوى الذكاء الحاد والإرادات الحديدية ، نوع من الرجال من عينة عبد الله فيلبى ولورانس العرب ، فلورانس كان يتصور نفسه مبعوث رسالة سماوية لرفعة الامبراطورية الانجليزية ، وكما احتمل لورانس الصحراء اللافحة وهو فوق جمل أو على الأقدام ، يذرع الجزيرة العربية بحرارتها الرهيبة ، احتمل كوريبل زهرة الفتيات المسحوقة الطرد والتشرد والسجن ، وقد نذر نفسه ومواهبه وصبره الطويل وأمواله الطائلة لهدف واحد ، وهو خدمة اسرائيل ، لقد استخدم كوريبل كل دهائه وكل نعومته لإخفاء هدفه، لكن صهيونية كوريبل ظلت صارخة وعلى الدوام . ■

قالوا عن الحرية

الشرط الاساسى للإبداع ، هو أن يشعر الأديب انه جزء من إعماقه ، وأن الحرية معناها امكانية الشك وامكانية الوقوع فى الخطأ ، وامكانية البحث والتجريب ، وفى النهاية امكانية أن يقول لا لكل سلطة ادبية كانت او فنية او سياسية .
الفنان الأيطالى
اجنازيوسيلونى

ايها الأمراء ايها الوزراء اسمعوا واعوا ..لئن ماتت الحرية اليوم فستبعث من جديد غدا.
محمد فريد وجدى

د.محمود فهمى حجازى

يتابع مجمع اللغة العربية بحث كلمات وتعبيرات فى الاستخدام العربى المعاصر، ينظر فيها من جوانبها الصرفية والتركيبية والدلالية، ويصدر قرارات بشأن تلك «الألفاظ والأساليب» وينشر المجمع هذه الكلمات والتعبيرات مع قرارات المجمع والمذكرات اللغوية بشأنها، وقد ظهر منذ أسابيع كتاب «الألفاظ والأساليب» ، الجزء الثالث متضمنا مئات الكلمات التى لا نجدها فى المعاجم العربية القديمة ولكن الحاجة اليها واضحة للتعبير عن الجديد فى العلوم والحياة المعاصرة، وبعض هذه الكلمات طرأ عليه تغير دلالى كبير فكان من الضرورى أيضا أن ينظر فيها المجمع.

تستخدم اليوم فى إطار نظم الاتصالات الحديثة كلمات مثل شفرة وشفر وتشفير ومشفر ومشفرة . دار بحث هذه الكلمات بدلالاتها فى مجال الرموز الخاصة التى تستخدم للتفاهم فى إطار مجموعة محددة، وهو معنى جديد نسبيا . أما المعنى القديم المذكور فى معاجم التراث العربى فقد ارتبط بدلالة الشفرة على حد السيف وحد السكين والسكين العظيم وبدلالات أخرى . وكان الاستخدام الجديد لكلمة شفرة قد بدأ فى المراسلات الدبلوماسية بين الأجهزة السياسية للدولة، ولكنها اليوم دخلت نظم الاتصالات فى عصر المعلومات والتقنيات المتقدمة ، واصبحنا نستخدم فى هذا المجال الفعل شفر والمصدر تشفير واسم المفعول مشفر ومشفرة بدلالات جديدة محددة، وكلها كلمات متداولة على المستوى العربى ومقبولة فى العرف المعاصر .

كلمة الشفرة بحثت من حيث أصلها اللغوى ، وأغلب الظن أن لها تاريخا طويلا عبر اللغات، عرفنا الكلمة مع قيام وزارة الخارجية فى مصر الحديثة مقابلا مباشرا لكلمة chiffre الفرنسية الدالة على الكتابة السرية التى تستخدم رموزا خاصة غير مالوفة . وتلك الكلمة الأوربية معروفة بصيغ مختلفة ، منها فى الانجليزية cy-pher وفى الالمانية die ziffer وترجع فى واقع التاريخ اللغوى الى الكلمة العربية صفر، باعتبار دلالتها على أول رمز فى جدول الأرقام العربية، ثم تغير دلالتها بعد ذلك ودار نقاش طويل حول الكلمة فى الإطار العربى أو فى اطار الكلمة المعربة ، وكان قرار مجمع اللغة العربية بقبول كلمة شفرة بدلالتها الجديدة المحددة فى مجال تقنيات الاتصالات المتقدمة، قبلها مع ضبطها بالفتح فى هذا المجال، وبالتالى أصبحت لدينا بهذا المعنى الجديد كلمات متعددة مأخوذة منها، منها الفعل شفر والمصدر تشفير واسم المفعول مشفر ومشفرة . وهذه الكلمات جديرة بأن تدخل بهذه الدلالة الجديدة المحددة معاجمنا العربية الحديثة .





غريب

شعر
أمانى حاتم بسيسو

سـادرٌ فى عـتـمـة الدّرب، وأحـلام الغـريب
كـومـيض البـرق، مـا إن تنجلى حـتى تغـيب
وتُحـيل الفـجـر وهمـاً، والدجى ظلاً كـئـيب
فـتـرى القلب خـواء، فـيـه لليـأس دبيب

* * *

شـاعـر غنى على قـيـثـارة الكون الرحـيبْ
لحن عـشق قـد تسـامى، فـيـه يحـتـارُ اللبـيب
عـشق المجـد، وروح الشـعـر لو غنى تطيب
ونسـيم الصـبح يصـفـو، وصـدى اللحن يُجـيب

* * *

كم شـدا للحب لكن ضـيع الحب الحـبـيب
ورمـاه القـوم - جـهـلاً - من بعـيـد أو قـريب
أحـرقـوا فـاه وكـفـيـه، بجـمـر ولهـيب
فـغـدا الشـاعـر قلبـاً صـامـتـاً، دون وجـيب

* * *

مَلَّ ظلم الناس، جـهـل الناس، والعـزم السليْب
ومـضـت تذروه ريح اليـأس فى جـو المغـيب
فـانثنى يعطوه» وحـيـداً، ليس يلوى أو يُجـيب
ويزَجّىٌ خطوه فى القـفـر، والقـفـرُ جـديب

* * *

لو تراه الآن يهـذى قلت: ذا شئ عـجـيب
لست تدرى هل يقـولُ الحق، أم ليس يُصـيب
ليس يُشـجـيـه - وإن راق - غناء العندليب
هـل ترى حق لقـلب، هَـدّه طول النحـيب
أن يرى شـدو هَزار، مـثل أصـوات النعـيب !

لوحة الرحيل من النوبة - تحية حليم -١٩٦٢





الجنينة والشباك

بقلم
يحيى مختار

«الجنينة والشباك» بالنوبة القديمة هى قريتى التى ولدت فيها عام ١٩٣٦ بعد ثلاث سنوات من التعلية الثانية لخزان أسوان، والذى اختزل مواسم العمل فى الأرض إلى موسم واحد من ثلاثة شهور، فكان على الذين بقوا فى القرى بعد هجرة القادرين على الكسب إلى الشمال، أن يملأوا الشهور التسعة بالغناء والرقص وإقامة موالد أولياء الله الصالحين «سيدى كبير» و «الشيخ عبدالله» و «سيدى حسن أبوجلابية» وينشدون «السفين» فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وان يحكى العجائز الحكاوى حول الكوانين وعلى المصاطب وكان على النساء والفتيات أن يغزلن الخوص أبراشا وأطباقا ملونة، ويزين الدور بالرسوم والزخارف يستوحين فيها جداريات المعابد والكنائس القديمة، ويلصقن على جدران الواجهات أطباق الصينى المزركشة.

المكان فى الرواية

جئت إلى القاهرة سنة ١٩٤٣ فى صحبة والدتى للحاق بوالدى الذى كان مقيما فى حى العرب بالمعادى جنوب القاهرة، جئت محملا برؤى ذلك العالم الجميل: النهر النوبى بعظمته وكبريائه واندفاعه.. غابات أشجار السنط على

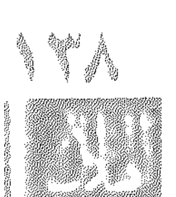
● همى الحالى إعادة النوبة إلى مكانها فى الجغرافيا كما فى التاريخ.

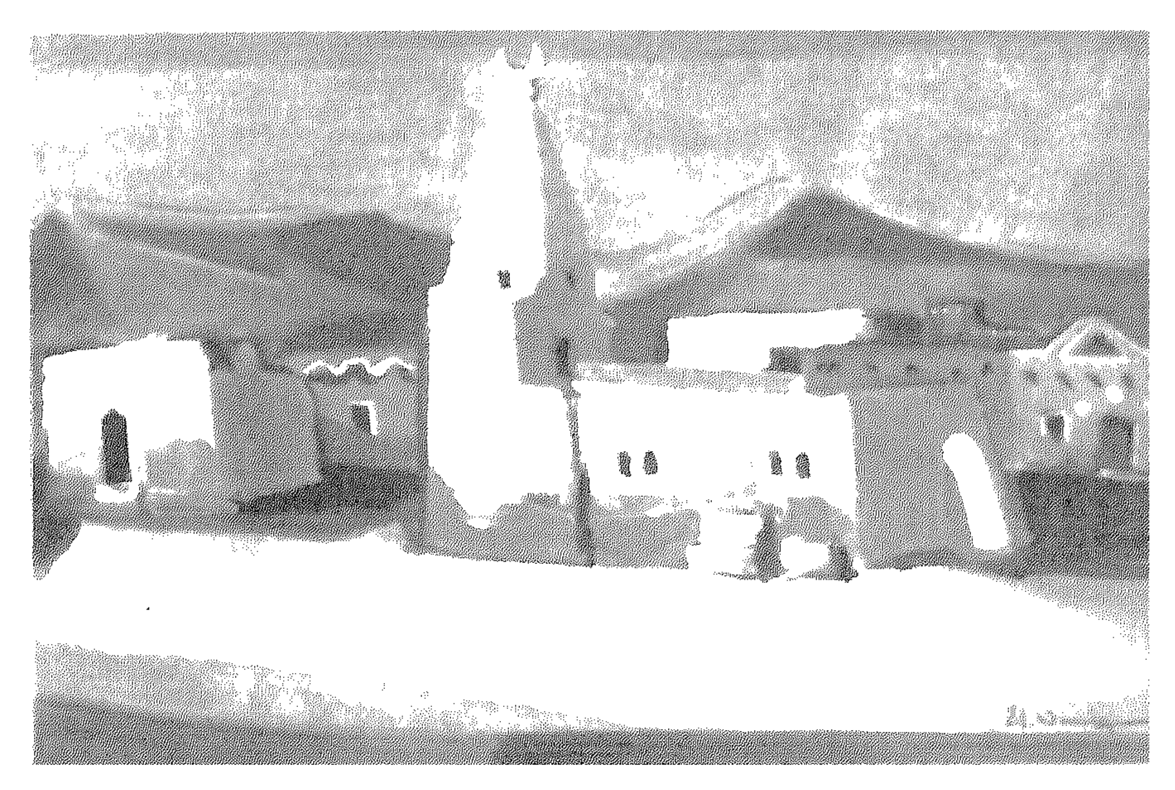
الشاطىء الريان، وأدغال النخيل الكثيفة بعراجين البلح كالثريات، أو كشخوص غرقى يرفعون أيديهم طلبا للنجدة عندما ترتفع مياه النهر وقت الدميرة (الفيضان) وبعدها.. المراكب السابحة كالاوز فى النيل بأشرعتها البيضاء.. وعلى صواريها الأعلام الصغيرة الملونة والجلاجل النحاسية بصلصلاتها مع ريح الجنوب الواهنة، الدور المتناثرة فى كل نجع بألوانها الزاهية، ورسوماتها البديعة تقف مزهوة على طول الشاطىء تطل على النيل تباركه وتتبرك به. السكون الشامل كان يلف الوجود كله، حتى أننا كنا نسمع ثرثرات الذين يديرون «الونسة» على الشاطىء الآخر البعيد تحملها مياه النهر الساجى.. هناك.. كان الكون كله فى ديمومة تسبيح وصلاة.

جئت حى العرب ولم أكن أعرف كلمة واحدة عربية.. كانت غربة لغة ومكان، هذا هو «بر مصر»، عالم غريب مختلف تماما ومغاير لكل ما عشته: ضجيج وزحام .. عمائر شاهقة وسيارات مسرعة تنفث دخانا كثيفا، وعربات ترام تصدر صريرا عاليا مرعبا، وكارو وحناطير ودراجات.. دنيا مفزعة ومخيفة، بشر مختلفو السحن والملابس يتحركون لا تعرف مقاصدهم وفيم يسرعون ويزعقون، أسقطت فى هوة من البلبال والتوجس والخوف والوحدة. أى حصار كان؟.. بدا الأمر بمثابة زلزال.

البدايات الأولى

بدأت فى تعلم مبادىء العربية قراءة وكتابة على يد شيخ يدعى «الشيخ ابراهيم أبودراع» كان بذراع واحدة.. كان قاسيا





مسجد القرية – للفنان ادهم وانلى

ورهيبا.. كاد يصرفنى عن الدرس والدراسة، ثم التحقت بكتاب لشيخ ضرير يدعى إبراهيم مطاوع.. كان سمينا جدا وبكرش ممتد امامه، بقيت فى الكتاب لمدة عامين حفظت فيهما جزءى عم وتبارك.

تعلم العربية الفصحى فى الكتاب وعلى يدى الشيخين، والتعامل مع اقرانى بلغة اخرى هى العامية فى الحى وفى المدرسة بعد ذلك كان تحدى الاول وكان بدء تجاوز الزلزال.

ولكن ما كان مربكا لى فى أول الأمر أننى فى البيت مع والدتى ووالدى واقاربى نتحدث طوال النهار النوبية، وفى الشارع بالعربية العامية وفى المدرسة بالفصحى، وظلت هذه العوالم المختلفة متجاورة ومتعايشة.

حقيقة أعاقتنى النوبية عن سرعة التقدم فى العربية، وان جعلتنى احتفظ فى أعماقى بعالمى القديم وايقاع الحياة فيه، ومغذيا وجدانى من العلاقة الموصولة بالأهل فى قرانا فى الجنوب وفى تجمعاتنا فى الشمال من خلال الجمعيات والمقاهى النوبية وباقى المناسبات من أعياد أو افراح ومآتم.

كانت صلتى الأولى بعالم القراءة بعيدا عن الكتب المدرسية من خلال جريدة «الأهرام» و«المختار» من «الريدرز دايجست» كان ابى مواظبا على قراءتهما، وكان يختبر مدى تقدمى فى الدراسة

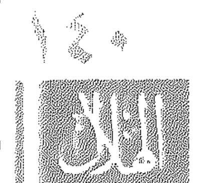
المكان فى الرواية

وتعلم العربية بأن اقرأ له الجريدة وفقرات مما هو منشور فى مجلة «المختار» كنت أقرأ دون ان افهم كثيرا مما اقرأ. فمثلا لم أكن استطيع التفرقة بين كلمة «أعداء» و«اعضاء»، وكانت محاولة الفهم هى التحدى الثانى، فهم الواقع الجديد الذى اعيشه ولا اعرف عمق دروبه، وكذلك فهم العالم الواسع الذى تفتح القراءة نوافذه أمامى. فى المدرسة وقعت لى تجربة مثيرة، مدرس اللغة العربية كان قد اعد كراسة «التحضير» الخاصة به على شكل كتاب، ثم قام بتحويل هذه الكراسة الى كتاب مطبوع بغلاف ملون جميل تحت عنوان «التعبير الحديث» ووزعه علينا مقابل خمسة قروش.. هذا التحول المثير العجيب لكراسة تتحول الى كتاب مطبوع متعدد النسخ يحمل اسم الاستاذ عبدالباسط بركات، هذا الاسم الذى اراه مجردا ومطبوعا، بدا لى ككل الاسماء التى اقرأها على باقى الكتب المدرسية وعلى صفحات الاهرام والمختار، هذا الاسم يتجسد دونهم جميعا فى عبدالباسط بركات الذى أراه واعرفه، وأنا لم أر الآخرين ولا اعرفهم ولكنهم يأتون الىّ من خلال كتبهم، بدا لى الامر أشبه بالسحر، تكون لدى رغبة قوية وعارمة لأن أضع أنا أيضا كتابا.

المطبعة ودورها فى نشر المعرفة

لم أكن أعرف ما هى المطبعة، وكيف تطبع الكتب والصحف، ولأننى لم أنشأ فى المدينة أو حتى فى قرية من قرى «الشمال، فظللت فى قريتى غفلا لم تتسرب إلى معلومات تكمل أو تضىء لى أية معارف عن الحياة، فظلت الأشياء محجوبة عنى باقية فى منطقة من مناطق الظل.. وفى الشمال بدأت تهطل على جذاذات متفرقة فى كل لحظة بدفقات من المعارف الجديدة حتى كانت كالسيل، وبدأت أمارس فى وحدتى لعبة تركيب هذه المتفرقات فى سياقات أفهمها.

بدأت أمتلك أشياء جديدة كل يوم لتضاف إلى ما كنت أعرفه من عالمى القديم، حيث كانت الأشياء قريبة جدا، أوراق الشجر وروائحها بدء نمو النبات عندما يشرع فى شق التربة، الرمال.. الزلط.. الطمى ورائحته.. الماء والنهر والموج.. اعشاش العصافير.. الحيوانات ،



كل ما يحتويه عالمى ذاك، وكان ثمة تحول هام فى حياتى عندما سكن ابن خالى محمد الماوردى بجوارنا منتقلا من حى المناصرة فى قلب القاهرة، على يديه تعلمت قراءة روايات الجيب، وبقدر ما بهرنى ذكاء شرلوك هولمز وحبكة روايات «أجاثا كريستى»، فإن روايات «أرسين لوبين» ملكت علىّ نفسى، هذا البطل الذى يعرض نفسه للخطر من أجل أن يأخذ من القادرين ليعطى للفقراء، محولا قبح السرقة من الوجهة الأخلاقية والدينية إلى عمل مشروع يتعاطف القارىء معه، لقد سلم «موريس لبلان» بأن هناك ظلما واقعا وقائما فى العالم، إن هذا الحس الإنسانى الرهيف والذى يشكل الخلفية الشفيفة لكل رواياته البوليسية المحبوكة والمشوقة أسرتنى فى سنوات مراهقتى، كان فهما ساذجا للعدالة، ولكنه عمق وعيى بما يكابده أهلى فى قريتى الفقيرة وجيرانى حيث أقطن، وأشعرنى بمدى حاجة كل إنسان للمساعدة، حتى أولئك الذين يبدون أقوياء، استقر فى يقينى أن كل إنسان فى هذا العصر فى مسيس الحاجة للمساعدة والمساندة، وبعد سنوات تعمق هذا الإحساس ونضج فى رؤية أكثر اتساعا بعد التحاقى بقسم الصحافة بجامعة القاهرة حيث انفتحت قراءاتى فى مجالات أخرى غير الادب فى الفلسفة والتاريخ، وتعرفت على الفكر الماركسى ودرست كتابات ماركس وانجلز وفيورباخ وغيرهم، ووجدت الاشتراكية العلمية صدى عميقا لها فى نفسى، وكان المناخ الذى ساد مصر فى الخمسينات بشعارات ثورة يولية والاصلاح الزراعى ثم التأميمات والاقتصاد المخطط، وشعارات الاشتراكية العربية وإذابة

● لولا الطابور الطويل من المبدعين والمفكرين العظام لما خرجت كتاباتى للوجود.

الفوارق بين الطبقات ومناهضة الاستعمار والأحلاف العسكرية، ما جعلت نظرتى للحياة تختلف، ولينمو فى داخلى الحس الطبقى، مما جعل زاوية الرؤية عندى تنفرج لتكون هناك رؤية شمولية لحركة الانسان فى الوجود .

قراءة فى شتى فروع المعرفة

وهكذا أوصلتنى روايات الجيب إلى شاطىء آخر، لتكون بداية دخولى إلى عالم القراءة الجادة الرحبة بعدما رسخت عادة

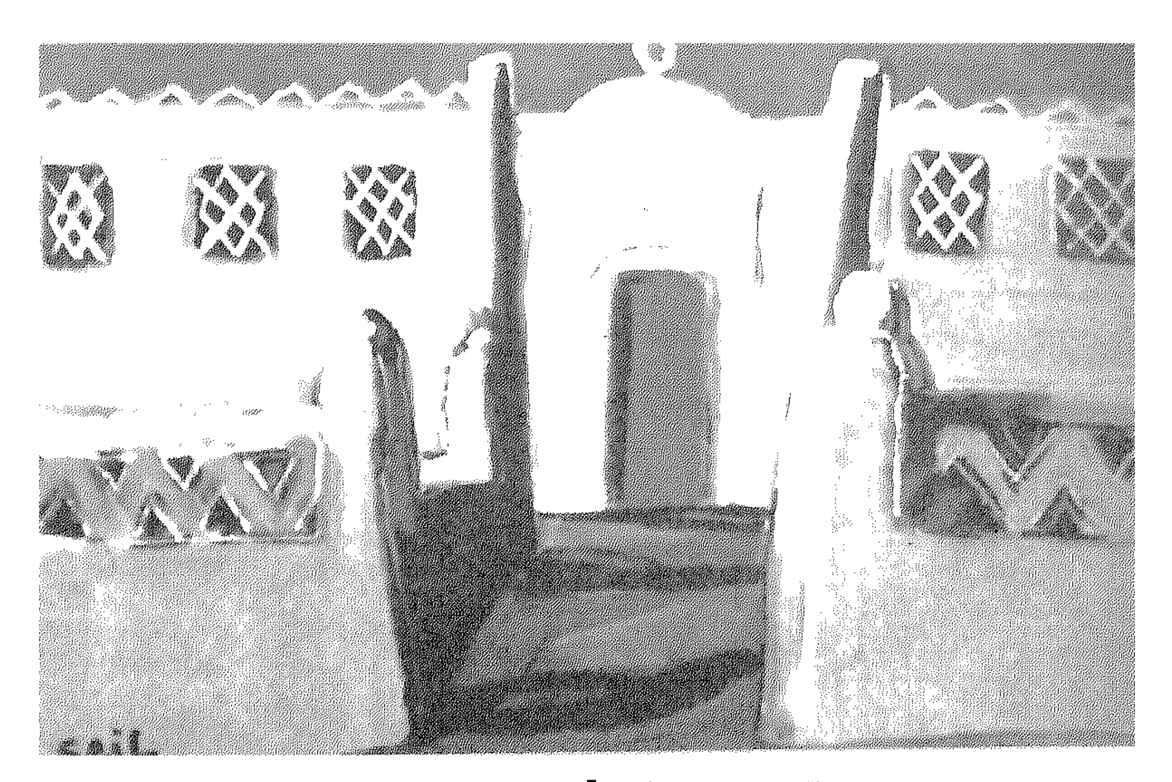
المكان فى الرواية

القراءة :روايات الهلال ذلك الانجاز الرائع لجورجى زيدان، ثم سلسلة «كتابى» لحلمى مراد، والتى صدرت فى صورة قشيبة جذابه، عمقت حبى للقراءة وفتحت لى آفاقا أخرى واسعة نحو التعرف على ابداعات الثقافات الاخرى، وخاصة الغربية، ثم أردف السلسلة بسلسلة اخرى هى «مطبوعات كتابى» خصصها للأعمال الكاملة لروائع الروايات العالمية، وعرفت الطريق إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق بعد معرفتى الدقيقة «بسور الازبكية» وانفتحت امامى عوالم مثيرة جديدة متنوعة، وقرأت بنهم شديد فى شتى فروع المعرفة من فلسفة وتاريخ ونقد وقصص، كنت عطشانا .. قرأت لمعظم الكتاب المصريين بلا استثناء، الكبير والصغير، والقديم والجديد، تاثرت جداً بعالم الفقراء والمهمشين عند طه حسين «المعذبون فى الأرض» وتوفيق الحكيم فى عودة الروح وفى مسرحياته بجواره الساحر المعجز، كما دخلت عالم استاذنا العظيم نجيب محفوظ ويحيى حقى الفنان الكبير، واللذين احدثا انقلابا كاملا فى اللغة وهى من اعظم الانجازات إضافة إلى إبداعهما الروائى والقصصى، ولتقترب فى أعماقى أعمالهما مع يوسف إدريس عبقرى القصة القصيرة مع أعمال الكتاب الأوربيين ، وحيث كان لهم الفضل فى أن يكونوا مقدمة طبيعية لأجوس فى عالم الكتاب الأوربيين والروس.

وكان تاثرى شديدا بتشيكوف وديستويفسكى ، اللذين قرأت اعمالهما الكاملة اكثر من مرة ومازلت ، لقد غرقت فى عالم شديد الخصوصية والانسانية، ووقعت فى أسرهما بالرغم من اختلاف رؤيتهما.

كما كان تاثرى شديدا ومازال بوليم فوكنر فى رواياته الرئيسية الثلاث: «الصخب والعنف» و«سارتورس» و«قداس لراهبة» «يوكنا باتوفا» هذا المكان الموجود بالخيال بلا وجود، مكان اسطورى اصبح واقعيا بالابداع، هذه المقاطعة الخيالية التى خلقها فوكنر ليجرى عليها احداث رواياته لتشفى بالحياة والحركة.. هذه المقاطعة استدعت عندى قريتى «الجنينة والشباك» فى النوبة القديمة، التى كانت موجودة بالفعل لا بالخيال فى أعماقى، عزمت ان توجد بالفعل وبالقوة ليحقق





المدخل لبلاد النوبة -للفنان سيف وانلى

وجودا كاملا واقعيا من جديد.. وكان ذلك طريقا لأن أدرك ان تجربة الإنسان النوبى تختلف عن أية تجربة أخرى، فبلاد النوبة فى اقصى جنوب مصر اصبحت تحت مياه بحيرة السد العالى، ليست اطلالا دارسة يمكن العودة إليها كما كان يعود العربى القديم إلى مرابط القبيلة بعد ارتحالها، انها مكان لا يمكن أن يستعاد فى الواقع، ولكن الحنين والتذكر والامساك به كتابة بعد تبدده، استعادته فى الجغرافيا كما فى التاريخ ، أصبح همى الخاص انقاذ الذاكرة النوبية لكى لا تغرق فى مياه البحيرة مع الوجود الذى غرق فيها، مدركا أن يدوم هذا الخيط النوبى الأصيل بخصوصيته، وتفرده داخل نسيج الوطن، لأنه منه، وهو أحد مكوناته، يمده بنسغ الاستمرار والتواصل حائلا دون انقطاع تاريخ مصر فى حقبة مهمة من وجوده، والذى تحمله النوبة فى أعماقها منذ بدء نبض الحياة فى الكون عند ضفاف النيل، تحمل فى أعماقها العصر الفرعونى والمسيحى والرومانى والاسلامى .. استمرار النوبة هو بقاء هذا الخيط الخاص والعام فى مكونات الوطن، يثريه ويغنيه ، يزيده قوة، يضيف إليه ويأخذ منه، ولكى لا يكون جيلنا أو عصرنا هو عصر اندثار النوبة التى ظلت باقية تقاوم الدهر منذ أجدادنا الفراعنة حتى اليوم،

لن يكون هذا العصر وصمة لنا جميعها.

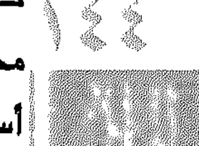
تغير كوني للنوبة

إن ما حدث لبلاد النوبة هو تغير كوني، ولن اقول ان النوبة اصبحت كقارة اطلنتس المفقودة، فمازال البشر الذين استوطنوا النوبة منذ بداية الخلق موجودين، يحملون فى اعماقهم نسغ الحياة القديمة التي لم تختلف كثيرا عما كانت عليه منذ بدأ الإنسان الاول حياته فى مدارج طفولته فى ذلك العصر القديم ادواته وطرائق عيشه عزلة المكان الذى لم تخترقه الآلة.. اللغة الخاصة والتى هى امتداد طبيعى للغة الانسان المصرى القديم، والتى لم تستطع اللغة العربية القضاء عليها كما فعلت فى لغات اخرى كثيرة، فمازال الإنسان النوبى فى مجتمعه سواء فى المهجر الجديد أو داخل أسرته فى بيته فى المدينة يعبر عن نفسه بها، أغانيه وأفراحه عدودة الموت وحكاويه وطرفه، ومازالت هذه اللغة حية تحمل تراثا وقيما وعادات شديدة الخصوصية، مرتبطة بالنيل الذى كان يعبد، ومازال النوبى يقدسه.. يحبه ويخشاه.. لا يلوثه ولا يجعل شيئا يحجبه عنه. إنها منظومة كاملة وتجربة بشرية فريدة لم يلتفت إليها ولم يعتن بها أحد، ولم يعانيها إلا من عاشها.

السينما المصرية والمسرح وأخيرا التليفزيون لم يقدم الانسان النوبى - وهى من اخطر أدوات التعبير - إلا على شكل خادم اسمر أو اسود يتمنطق حزاما احمر ويضع على رأسه طربوشا احمر وينطق العربية بشكل مضحك، ليس هذا هو النوبى ابن الحضارة العريقة وصانعها، تماما مثلما يقدمون ابناء الصعيد فى بعض المسلسلات. وإذا كنت احاول ان استعيد المكان الأول الطفولى وفضاءه، أن استعيد الهارب المتبدد وما قوضه الزمن فان نظرتى لتراث اهلى النادر والذى هبت شعوب العالم لانقاذه والمحافظة عليه من الغرق والاندثار فأقامت له متحفا من خلال اليونسكو، فان السؤال مازال يلح عليّ :

أين مكاننا ونحن الذين ظللنا حراسا لهذه الكنوز خلال الحقب الطويلة؟

فى تقديرى أن الأدب النوبى ينبغى عليه أن يعبر عن هذه التجربة الإنسانية وعن معاناة الإنسان المصرى الذى اقتلع



من جـذوره فى تلك البـقـعـة من أرض الوطن. لم تتعرض طائفة من البشر- فى حـدود علمى- لما تعـرض له النوبى، والكاتب إذ يقبض على هذه الجـمـرة المتقدة، إنما يعرض لها من خلال تجربته التى عاشها هناك فى طفولته وصباه وشبابه، ومن خلال ثقافته التى تشربها عبر لغة مغايرة للغته الأم، يقدم الكاتب النوبى ابداعه الخاص هذا لبنى وطنه الذين لا يعلمون شيئا عن هذه البقعة من أرض وطنهم، إن معاناة الإنسان النوبى هى جزء من معاناة الإنسان المصرى الذى يلحقه نفس التهميش.

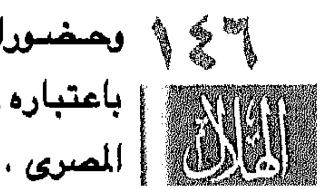
هناك أجيال سوف تأتى لاشك لم تعان من التهجير ولم تعش فى النوبة القديمة وسيكون لها تجاربها الخاصة، وأن المرارة التى يمكن ان تلحظ فى بعض الكتابات النوبية لا تمس السد ولكن تشير إلى الإهمال وسوء الإدارة التى عولجت بها قضية الإنسان هناك، تماما كما هو حادث فى قضايا السيول فى الجنوب فى قنا وسوهاج وغيرهما مثلها فى انهيارات المنازل والعمارات فى الزلازل ونحن جميعا خضنا معركة بناء هذا السد الذى كان ولايزال لخير مصر كلها والذى خضنا حرب ٥٦ التى فرضت علينا عقابا لنا على تصميمنا على بنائه كضرورة فى مسيرة تنمية وتقدم بلادنا.

للكتابة النوبية خصوصية ترتكز على خصوصية مكان ذى جغرافيا وطبيعة متفردة ، هى التى أبدعت معمارا خاصا للبيت النوبى ، ينتمى فى أصوله الى العمارة الفرعونية ، والنيل لدى الكاتب النوبى مثل الحارة لدى عميدنا وأستاذنا

● لا تعنينى الحداثة أو قضايا التجريب ويستفزنى تخريب الثقافة والابداع بالدعاية الاعلامية

نجيب محفوظ . النيل هذا المستكين المغلوب على أمره هنا فى الشمال المروض والملوث أمره فى النوبة مختلف ، هو هناك الأفريقى الهادر ،هو الملك الذى حمل موسى فى مهده ونجاه من فرعون يسكنه القوم الأخيار الذين هم سلالة الأجداد الذين فروا فى العصور السحيقة من الاضطهاد فرفعوا صفحته كما ترفع السجادة واختفوا تحته .. النيل لا يدنس هناك .. النيل علم النوبى الجمال والطهارة والأمانة ، ولانه محاط بهالات الاجلال

والقداسة لذا تقف البيوت النوبية فى صفوف متراصة موازية للنهر ليرى النوبى النيل فى اصباحه وحين يمسى، كل ذلك خلق قيما وعادات وأعرافا وقصصا وحكايات واساطير ، وخلق اشكالا خاصة من الفنون النوبية. النقوش والأشغال اليدوية .. الجداريات الخاصة فى المعابد والكنائس والتى تحمل أصداء الفن الفرعونى والقبطى والوثنى .. العمارة .. كل هذا و غيره هى خصوصية ثقافية وحضارية امتزجت فى وجدان الإنسان النوبى ضاربة فى عمق جذوره المصرية الفرعونية والقبطية والإسلامية ومن قبلهم الزنجية . ومازال مبدعو النوبة باستمراريتهم يشكلون تيارا فاعلا وحضورا بليغا فى الحاضر الثقافى باعتباره رائدا خصبا يعمق نهر الإبداع المصرى .



لم تكن الكتابة عن النوبة وناسى فى قرانا القديمة فى البؤرة الواعية من توجهى، فقد كان بناء السد العالى حلما قوميا استبد بنا، ووقع العدوان الثلاثى وانخرطت مع زملائى من طلاب جامعة القاهرة فى كتائب الجامعة لصد العدوان، وظلت النوبة متوارية خلف الإطار الوطنى الذى يحركنا، وتحقق حلم بناء السد، ومعه جاء الغرق والتهجير، وكنا نعى أننا سنقتلع من جذورنا، ورغم ذلك قمنا قومة رجل واحد لبنائه ولندافع عن حقنا فى تطوير حياتنا نحن حفدة البناة العظام، ولكنى كرهت البيروقراطية والإهمال وعدم الإدراك الواعى والإحساس بالمسئولية القومية والإنسانية التى عالجت اوضاعنا، هذه البيروقراطية وقصور الرؤية الذى تعامل مع الإنسان النوبى باعتباره كما ينبغى نقله من مكان لمكان يحشره فيه، ويكون بذلك قد أدى ما عليه.. لم تقف البيروقراطية لتنظر وتتأمل حياة هؤلاء الناس من وطنه، كيف يعيشون، ما هى عاداتهم وتقاليدهم ، ولم تكن البيروقراطية قادرة على تحسس طبقات التاريخ الذى يحمله وجدانهم، لم يعرف معنى وقيمة الموتى ورفاتهم لم يعرفوا مدى قداسة قبور الموتى التى توارثها النوبى عن اجداده الفراعنة، وما رسخ فى أعماقه من خشية اللعنة التى تصيب العابثين بها، ولذلك كان حارسا أمينا لها طوال حقب التاريخ ليكون هو الوحيد



مجموعة من السلع المصنوعة من سعف النخيل - صناعة يدوية لاهالى بلاد النوبة

الوفى الأمين لأجداده الفراعنة، فلم ينهبوا القبور ولا تاجروا فى ممتلكاتهم، ولم يدنسوا قداسة الموتى، ولم يزعجوهم فى مراقدهم الابدية، لم تفهم البيروقراطية شيئا من ذلك فلم تفكر فى

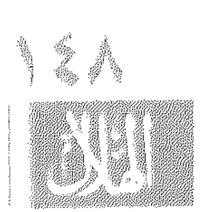
● النوبة تجربة بشرية فريدة لم يلتفت إليها إلا من عاشها

ان ينقل النوبى معه رفات أهله، الذين شعروا انهم يتركون للطمى والأصداف والأسماك فى البحيرة أجساد ذويهم، متخلين عنهم، وخائنين للعهد، وهى نفس البيروقراطية التى تعاملت مع العمارة النوبية بخصائصها الفريدة بغلظة وغباء، فدمرت جمالا نادرا وتاريخا معماريا اصيلا وموصولا بالعمارة الفرعونية لا يمكن تقدير قيمتها الفنية والتاريخية، ولا يمكن استعادتها ربما بدا ما اقوله رفاهية وحلما ساذجا فى الظروف التى كانت تمر بها البلاد وترفا دافعه تعصب مقيت، ولكن يدحض هذا ما حطمه ذلك فى وجدان الانسان النوبى، وقطع حقبة من تاريخه وذاكرته مشوها هويته ومكونات وجوده الروحى، سالبا الذاكرة المصرية فى شمولها عنصرا هاما وأساسيا من مكوناتها .

«عروس النيل» وجائزة الدولة التشجيعية

وهنا اطرح سؤالا ساذجا، بعد ان قضى الأمر، لماذا لم تنقل قرانا حول البحيرة فى مواقعها القديمة؟ تماما مثلما كنا نزحف نحو التلال شرقا وغربا مع كل تعلية للخزان؟

النوبة انبعثت وطفت من الأعماق تطالبنى بكتابتها بعد ان غرقت فكتاباتى الأولى لم تكن تحمل هذا الهم، فأول قصة نشرتها باسم «البناء» فى مجلة الجامعة كنت ادرس فى قسم الصحافة بآداب القاهرة، كان ذلك عام ١٩٥٧ ولم يكن لها علاقة بالنوبة وقصة أخرى هى «قطة من العصر المملوكى» عن النكسة، متدثرة بالرمز، نشرها لى الراحل الجميل عبدالفتاح الجمل بجريدة المساء عام



١٩٦٩. وفى نهاية عام ١٩٧٠ كتبت «عروس النيل» أول قصة نوبية بعد رواية «الشمندورة» للصديق الراحل محمد خليل قاسم ولكنها لم تنشر إلا فى يونية ١٩٧٣ فى الملحق الادبى لمجلة الطليعة القاهرية، وكان لتأخر نشرها لمدة ثلاث سنوات كاملة ما اصابنى بالاحباط أنا المقل جدا فى الكتابة، توقفت تماما، ثم تحركت النوبة مرة اخرى فى اعماقى فنشرت حكاية للنسيان فى مجلة صباح الخير عام ١٩٨١.. ثم قصة واقعية نشرها لى الصديق الروائى جمال الغيطانى فى صفحة الأدب بالاخبار عام ١٩٨٥، وظلت مجموعتى الاولى فى الخزانة سنوات دون نشرها ودون كتابات اخرى، وللمرة الثانية كان الفضل للصديق جمال الغيطانى الذى أشرف فى فترة على اصدارات إدارة الكتب والمكتبات باخبار اليوم فصدرت المجموعة بعنوان القصة الأولى «عروس النيل» فى أكتوبر ١٩٩٠ لاحصل بها على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٢.. وهو جمال الذى زف إلى نبأ الفوز بها وأنا مغترب فى البحرين لمدة عامين ، إن صدور عروس النيل وقبل حصولها على جائزة كانت حافزاً قويا لأنجز رواية قصيرة وعدة قصص قصيرة لتصدر فى مجموعة «ماء الحياة» عن دار سعاد الصباح، وكان أيضا الصديق جمال الغيطانى وراء نشرها - ثم اخيرا فى مارس عام ١٩٩٧ صدرت مجموعتى الثالثة «كويلا» فى اصوات ادبية التى يرأس تحريرها الصديق محمد البساطى.

وفى النهاية يهمنى ان اقرر انه لا يعنينى مطلقا الجرى وراء موضات الابداع التى تفد إلينا من آليات واقع مغاير لحياتنا ومتطلباتها، لا يعنينى الحداثة او قضايا التجريب، كما يستفزنى تخريب الثقافة والابداع بالدعاية الاعلامية، همى ان اصل الى ناسى.. ان اعبر عنهم وعن معاناتهم كجزء من معاناة الشعب المصرى. ان اعيد النوبة إلى مكانها فى الجغرافيا كما فى التاريخ كما قلت ان يعود المجتمع النوبى بأصالته وزخمه إلى مواقعه القديمة حول توشكى وباقى القرى عند النيل مرة اخرى ليكون اكثر قدرة على إثراء الحياة المصرية ويواصل معها العطاء الانسانى . والعمل الفنى فعل فى الواقع يتحقق بالقوة أو بالوجود، ولولا الطابور الطويل من المبدعين والمفكرين العظام الذين قرأتهم فصاغوا وجدانى وتكوينى واثروا طاقتى الروحية فأعادوا ولادتى من جديد لما خرجت كتاباتى للوجود.



السينما

بين الاقتباس والابتكار

بقلم : مصطفي درويش



لم يكن شتاء العام الأخير من القرن العشرين قد قارب على الانتهاء حين فوجئنا بعرض عمل سينمائى جديد، دون تمهيد، اسمه «فيلم ثقافي»، وصاحبه شاب ، بغير رصيد من أفلام هو المخرج محمد أمين .

ولم يكن بيننا وبين رؤية هلال رمضان سوى بضعة أيام ، حين فوجئنا بعرض فيلم ، ثار حوله جدل لأكثر من عام، دون أن تتاح لنا فرصة مشاهدته فى القاهرة ذلك الفيلم هو «المدينة» لصاحبه المخرج يسرى نصر الله .

وكعهدنا مع موزعى افلام السينما المصرية، ما أن انتهى شهر الصيام ، حتى سارعوا الى اغراق جميع دور السينما، بأفلامهم وذلك بقوة القانون طوال أيام العيد .

وتلك الأفلام هى «فرقة بنات وبس» للمخرج «شريف شعبان» و «ليه خلتنى احبك».. للمخرجة «ساندرا» و«الوردة الحمراء» للمخرجة «ايناس الدغيدى» و «الأجندة الحمراء» للمخرج علي رجب و «سوق المتعة» للمخرج سمير سيف و «الكاش ماشى» للمخرج طارق النهرى .

وابدأ الحديث بفيلمى محمد امين ويسرى نصر الله لأقول أن كليهما افضل بكثير من جميع أفلام العيد لا استثنى منها شيئا .

مفتاح التسمية

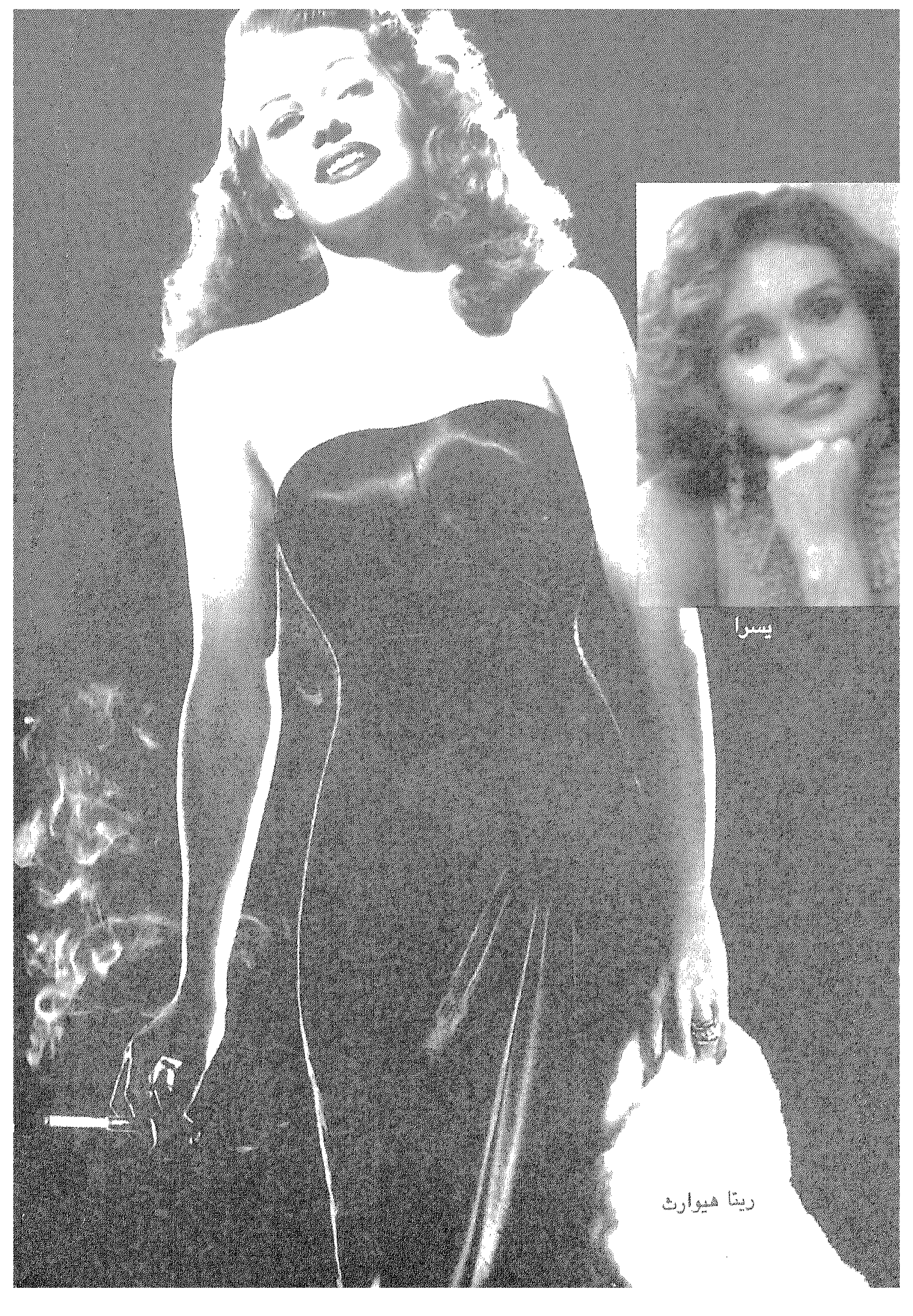
هذا ويدور «فيلم ثقافي» حول فكرة بسيطة للغاية طرحها المخرج ، وهو فى نفس الوقت كاتب السيناريو، دون إدعاء إنه صاحب رسالة يهدى بها الناس، كما يزعم معظم مخرجى هذه الأيام .

وباستثناء ظهور يسرا فجأة ممتطية عربة مرسيدس فارهة ، والفيلم يوشك على الانتهاء ، باستثناء ذلك فجميع أبطاله ليسوا نجوما .

وذلك التحرر من نظام النجوم يحسب لصالح فيلم أمين .

ويجدير بالذكر في هذا الموضع من سياق الحديث أن أحكى كيف لفت نظرى اسم الفيلم وملصقه ، على نحو أثار السؤال .

قبل عرض الفيلم بقليل ، التقت



يسرا

ريتا هيوارث

عيناى بملصق يشع شبابا وحيوية، وينحصر المكتوب عليه فى كلمتين هما «فيلم ثقافى» .

وتساءلت ما المقصود بهاتين الكلمتين ، ثم حاولت جاهدا أن أعثر على تفسير لهما فى رسوم الملصق الذى يعتبر بفضل تصميمه ، واحدا من اجمل ملصقات أفلامنا وأغلبها ، لسوء الحظ ، يعانى من فقر فى الابتكار .

فالملصق لم يكن عليه، إذا ما استثنينا اسم الفيلم ، سوى ثلاثة شبان يجرون لاهثين ، وكأنهم على موعد، وكل واحد منهم فى يده أو فى حضنه شيء متصل بما عند الآخر .

فأحدهم يقبض بيده على شريط فيديو ، ورفيقاه أحدهما يحتضن جهاز فيديو ، والآخر يحمل جهاز تلفاز .

والحق ، اننى لم أجد تفسيرا لاسم الفيلم ، يشفى الغليل .

وبقيت على هذا الحال الى أن وجدته ، عندما أتيحت لى فرصة مشاهدته ، مع الجمهور فى إحدى دور السينما .

الفاكهة المحرمة

فما أن اجتمع أبطال الملصق الثلاثة على الشاشة وأخذوا يتحدثون فيما بينهم، حول شريط فيديو بطلته «سلمي حايك»، نجمة الاغراء حتى توصلت الى معرفة المقصود من الاسم ، لماذا اطلق على الفيلم، ولماذا يجرى الشبان الثلاثة فى الملصق وكل واحد من فرط السعادة يكاد يطير .

ففيلم ثقافى لا يعدو أن يكون مصطلحا تجرى به ألسنة الراغبين فى مشاهدة الأفلام الجنسية التى توصف بالزرقاء والمحظور رؤيتها الا خلسة فى السر والخفاء .

وكما سبق القول، فالفيلم جاءت عناوينه خالية من أسماء النجوم .

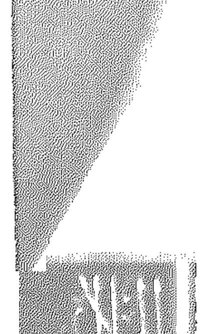
فالأدوار الرئيسية وهى ثلاثة، اسندها المخرج الى ممثلين ناشئين هم احمد رزق وأحمد عيد وفتحى عبد الوهاب .

ورزق شاهدناه فى المسلسل التلفزيونى الرجل الآخر ، حيث تفوق فى أدائه لدور صبى معوق عقليا .

أما عيد وعبد الوهاب فكلاهما لفت اليه الانظار الأول بأدائه فى «شورت وفانلة وكاب» والثانى بأدائه فى «صعيدى فى الجامعة الامريكية» .

امبراطورية الحواس

والثلاثة لا نراهم طيلة الفيلم ، إلا وهم يحاولون دون جدوى، مشاهدة





مخرج «فرقة ستات» مع هانى رمزى فى دور امرأة



فيلم مسجل على شريط فيديو ، لا لسبب سوى إنه ملىء بلقطات ساخنة ، ملهبة للحواس .

ففي كل مرة تبوء محاولتهم بالفشل ، ومع ذلك فلا يكلون ولا يملّون مثلهم فى ذلك مثل سيزيف ومحاولاته مع الصخرة فى أساطير اليونان .

وهذا لا يعنى أن الفيلم من نوع المأساة إنه على العكس من ذلك تماما، فيلم يدفع المتفرج بمواقفه الهزلية ، الى الضحك ولكنه ضحك كالبكاء فأنا، أغلب الظن إننى لست استثناء ، كنت مشفقا عليهم، وهم يلهثون ، مع حشد من الشباب ، فى أكثر من حى من أحياء القاهرة ، بحثا عن جهاز تلفاز وعن مكان آمن ، يشاهدون فيه فيلما رديئا مسيئا .

خيبة الامل

فإذا ما خاب سعيهم عندما تبين لهم أن الفيلم الموعود لم يبق منه سوى دقائق معدودات ، وان سلمى حايك ، قد حل محلها ، ويا لخيبة الامل ، تسجيل لرئيس مجلس الشعب في أثناء قيامه بادارة إحدى الجلسات !!

اسرعوا ، نتيجة هذه الخيبة وما صاحبها من احباط شديد، الى مغادرة القاهرة ، فى شكل تظاهرة ، نحو الريف بحثا عن شريط بديل فى حوزة عريس، ليلة زفافه ولايريد التفريط فيه لحاجته إليه، وهو يؤدى واجب الأزواج فى أول الأيام .

أقول كنت مشفقا وكيف لا أكون كذلك ، وأنا أرى شبابا فى زهرة العمر ، يضيع أحلى أيام حياته عبثا ، فى البحث عن متع زائفة ، على سبيل التعويض

ولعله من المفيد هنا ، أن أذكر أن

قصة الفيلم وإن كانت كاريكاتورا لحياة الشباب ، وأبطالها ، هم ايضا مرسومون فى صور كاريكاتورية ، إلا أن المخرج نجح فى كشف النقاب عما فى مجتمع مريض يضع رأسه كالنعامة فى الرمل ، من نفاق مستتر ، بغيض .

هجاء وثناء

أما فيلم «يسرى نصر الله»، فأحداثه لا تدور فى مدينة واحدة ، كما يوحى اسمه، وانما فى مدينتين هما القاهرة وباريس وقبل مشاهدته، كنت قد قرأت واستمعت لآداء عديدة عنه، تتراوح بين الثناء الشديد، والذم الشديد وبين الحدين في الوسط ، ثناء لا يخلو من ذم، أو ذم لا يخلو من ثناء

ولكنى لاحظت أن جميع اصحاب هذه الآراء المتباينة قد تأثروا بالفيلم بشكل أو بآخر ، فبقى فى ذهنهم وفرض عليهم أن يتحدثوا عنه فكان هذا برهانا عندى، وإن كان غير مقصود من أصحاب الآراء ، على أنه قد شذ عن بقية أفلامنا ، التى يرتفع معظمها لمستوى النقد ، وآية ذلك جميع أفلام العيد .

وهذا ولا شك ، نجاح من العدل والانصاف أن نقر له به مهما اختلف حكمنا عليه .

إنه جعلنا ، والحق يقال ، نترك مقالب الزبالة أو مقابر الأموات، لنخالط الأحياء فى العمار ، أصحاء كانوا أم معلولين .

فالمطلب الأول فى أى عمل فنى هو دبيب الحياة فيه .

نفاق وحياء

وفيلم «نصر الله» ، عمل سينمائى حى ، وإن كان قد افتقد الحياء فى رأى البعض، وتحرر من النفاق فى رأى البعض الآخر .

ويرجع ذلك الانقسام الى تناول صاحب الفيلم حب المثل، باعتباره حقيقة مستمدة من واقع الحياة لا سبيل لنا الى أن نتجاهلها أو نغمض عنها عيوننا .

وعلى كل فأحداث فيلمه تبدأ فى القاهرة ، وروض الفرج بالتحديد ، حيث ولد «على» وعاش يؤدى دوره «باسم سمرة» ، الوجه الجديد الفائز بجائزة أفضل ممثل فى مهرجان قرطاج السينمائى الأخير .

وتنتهى فى القاهرة ، وفى نفس الحى، بعد عودة «على» من باريس، حيث صادف أهوالا انتهت به حطاما ، فاقد الذاكرة ، هائما فى شوارع مدينة النور، وقد فقد كل شىء، الى أن جرى ترحيله الى مصر، فروض الفرج ، حيث

عاد سيرته الأولى انسانا ضائعا.

اما لماذا غادر القاهرة الى باريس ، فذلك لأنه كان يعشق فن التمثيل .

ولقد اتاح له عمله مع فرقة مسرحية ان يسافر معها الى فرنسا، وذلك بالتحدى لإرادة ابيه ، الذى كان يريد له ان يعمل فى إحدى دول الخليج براتب مجز، يتيح لاسرته تجاوز أزمة نقل سوق الخضار من روض الفرج الى سوق العبور .

ممثل وملاكم

وفي باريس لم نره ممثلا على خشبة المسرح وانما ممثل فى حلبة الملاكمة، يقتسم أرباحه بالغش مناصفة مع عربى من شمال أفريقيا يستغل وجوده غير الشرعى على أرض فرنسا

ومما يحسب للفيلم أن صاحبه لم يصور باريس، كما اعتدناها فى الأفلام ، مدينة ساحرة، يتغنى بجمالها الشعراء .

وإنما صورها من وجهة نظر اللاجئين اليها ، خلسة من أفارقة وعرب . مدينة بدينة ، ليس في قلبها رحمة ازاء الذين يعيشون في قاعها ، معذبين بالفقر والحرمان ، والبعد عن الأوطان.

ومما يحسب له كذلك، مشاهد تحريك الجموح فى سوق روض الفرج.

فقد بدا تحركها تلقائيا دون أى افتعال ولا يفوتنى هنا أن أشير إلى مشهد على مع رفاق شلته ، وهم يحتسون البيرة، وفى أثناء الاستحمام، وأين ؟ فى مياه النيل .

حقا، كان مشهدا فريدا، طابعه الألفة ، واقتناص المتعة، وذلك رغم التوتر العصبى الذى يعانى منه الشبان.

كما لا يفوتنى أن أثنى على موسيقى الفيلم التصويرية فقد كان يغلب عليها الاقتصاد ، دون ضجيج ، عرفت فى المشاهد الدرامية، كيف تعبر عن الحزن والأسى معا .

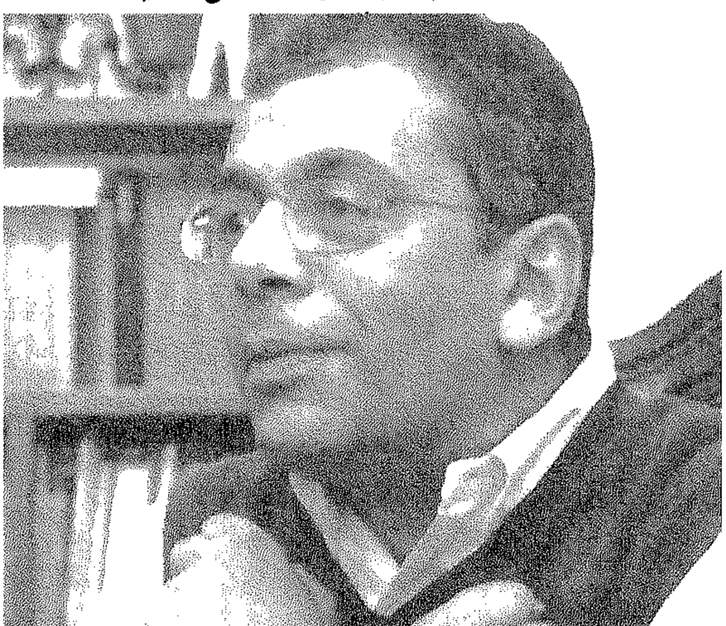
واخص بالذكر مرثية موت الموسيقار الانجليزى «بنيامين بريتين».

واختيار آخر أغنية لحنها، الشيخ زكريا أحمد لأم كلثوم هو صحيح الهوى غلاب، خلفية معبرة عن حالة «ام على» النفسية ، وتؤدى دورها عبلة كامل - وهى تبكى مرارة فراق ضناها الوحيد .

ركود وغموض

والآن الى ما يحسب ضد الفيلم لاقول ان تسلسل المشاهد وتركيب بعضها فوق بعض ، فى نصفه الباريسى، المتكلم بالفرنسية ، لم

يسرى نصر الله مخرج «المدينة»



يسيرا باتصال مقنع ومريح ، لا يقطعه تخلخل وركود أو غموض وحشو لا طائل تحته .

وفوق هذا فاضافة مشهد النجمة يسرا ، ممتطية عربتها المرسيدس ، وهو مشهد سبق أن فوجئنا به في فيلم ثقافي ، تلك الاضافة لم تخدم الفيلم، ان لم تكن زادته غموضا .

واخوف ما أتخوفه الا يكون ثمة هدف من اضافة مشهد يسرا ممتطية المرسيدس في الفيلمين ، وكلاهما يقترب من الختام ، سوى الاعلان .

وفضلا عن «فيلم ثقافي»، والمدينة فيسرا تظهر في فيلم ثالث« الوردة الحمراء» ولكنه ليس ظهورا عابرا وانما رئيسيا وفيه تلعب دور غانية ترقص وتغني مثل «جيلدا» أيام زمان .

أين الرقص والغناء ؟

بحر الأساطير

على شاطئ بحر الاساطير في واحد من اجمل المنتجعات المطلة عليه، الا وهو منتجع «الجونة» حيث الحياة اللذيذة ، يعيشها اصحاب الملايين ومن يعيش في فلكهم من المحظوظين ولم أقل مثل «جيلدا» اعتباطا ، ففيلم الوردة الحمراء مأخوذ عن فيلم ، جيلدا ، أو في أحسن الأحوال متأثر به الى حد كبير .

ويبدو ولع «ايناس» بجيلدا واضحا في لباس يسرا المماثل للباس ريتا هيوارث وهي تحاول إغراء «جلين فورد» بغناء «ألقي اللوم على ماما يا ولد» ، على نحو مثير للحواس .

ولا لوم على ايناس إن هي تأثرت بجيلدا فلا أحد من عشاق السينما الا وتأثر بها أما سلبا او ايجابا ، وذلك قبل أربعة وخمسين عاما .

ومعروف أن أداء ريتا لدور جيلدا هو الذي أدى الى الصعود بها الى مصاف النجوم المرصعة بها سماء هوليوود

وهو الذي جعلها محل اشتهاء المشاهير من امثال المخرج «اورسون ويلز» صاحب فيلم ، المواطن كين ، وهوارد هيوز المليونير الغريب الاطوار وعلي خان ابن رئيس الطائفة الاسماعيلية «أغا خان» .

ومع ذلك ، فلأننا قد نضجنا، ومعنا السينما ، فقد قل تأثير جيلدا وأمثاله من الافلام ، بل كاد يكون هو والعدم سواء .

الفشل لماذا ؟

وربما هذا يفسر بعض الشيء .

أولا.. عدم اقبال جمهورنا على مشاهدة معظم الافلام المقتبسة دون تصرف، وفشلها في أغلب الاحيان فشلا ذريعا .



مارلين مونرو في
«البعض يفضلونها
ساخنة»

وثانيا : الحملة المسعورة على السينما الاجنبية ، ومسارعة البعض الى المطالبة بمنع الفيلم الامريكى بالذات ، وذلك بحجة حماية الفيلم المصرى، المهدد بطغيان أفلام مصنع الاحلام .

وفيما يبدو، فلا هدف من تلك الحملة سوى حماية أهل الاقتباس من افتضاح أمرهم أمام الرأى العام، خاصة وأن الجنوح الى الاقتباس ، آخذ فى الازدياد ، لا النقصان ، وآية ذلك ، افلام العيد ، فلا اقل من نصفها مقتبس من افلام امريكية فشريف شعبان يستخف بعقولنا فينقل فيلمه «فرقة ستات وبس» بالكامل من فيلم «بيلى ويلدر» البعض يحبونها ساخنة ، الذى لعبت فيه «مارلين مونرو» الدور الرئيسى أمام تونى كيرتس و جاك ليمون ، وذلك قبل اثنين واربعين عاما .

وحتى اسم مونرو فى الفيلم وهو شوجار أى سكر لم يستطع أن يغيره وإذا باسم بطلة فيلمه «اميرة فتحى» سكرة أى ترجمة حرفية لشوجار .

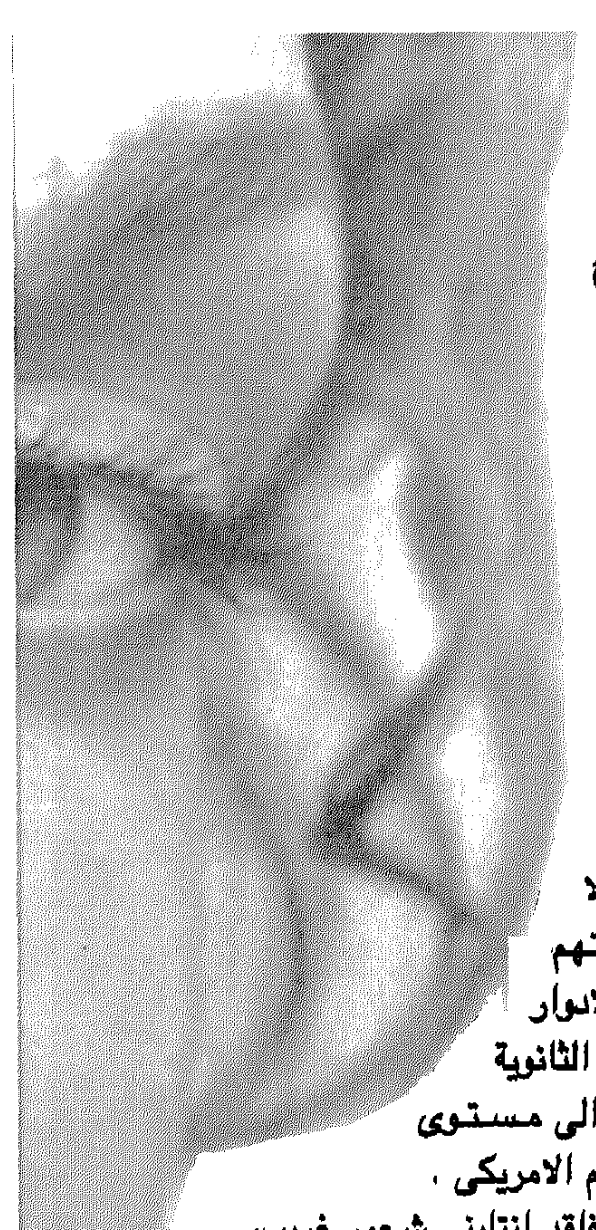
وساندرا تستخف هى الاخرى بعقولنا فتنقل فيلمها «ليه خلتنى أحبك» من «زواج أعز صديق ١٩٩٨» ، ذلك الفيلم الذى تقاسمت بطولته «جوليا روبرتس» و«كاميرون ديان» .

حطام سفينة

وأعود الى «الوردة الحمراء» لاقول انه بالاضافة الى يسرا بديلة لريتا ، وقع اختيار ايناس على كل من مصطفى فهمى و أحمد رمزى ، بديلين «لجلين فورد، وجورج ماكريدى» .

وبطبيعة الحال كانت ايناس بديلا «لشارلز فيدور» مخرج جيلدا .

وغنى عن البيان انه لا هى ولا من اختارتهم لأداء الادوار الرئيسية، أو الثانوية ، قد ارتقى الى مستوى صانعى الفيلم الامريكى .



وختاما، فلقد انتابنى شعور غريب، وأنا أشاهد «احمد رمزى» رجلا مسنا، بعد غياب طويل .

ومع هذا الشعور تذكرت عبارة قالها الجنرال ديجول وهو يقترب من سواد الموت المخيف وحاصلها «الشيخوخة حطام سفينة» .

وما أن اقترب فيلم «ايناس» من الختام حتى تبين لى أن أفضل ما فيه هو ذلك الحطام ..

أعمدة الفولكلور الستة

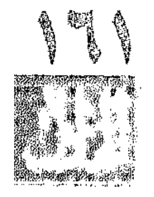
و .. نظرة إلى

خريطتنا الفولكلورية وثقافتنا الشعبية

بقلم:
مهدى الحسينى

عقد الملتقى القومى الثانى للفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة بعنوان «المأثورات الشعبية فى ١٠٠ عام» فى الفترة من ١٤-١٨ يناير الماضى ، ونوقشت فيه العديد من البحوث التى تتناول هذا الجانب المهم فى حياتنا .

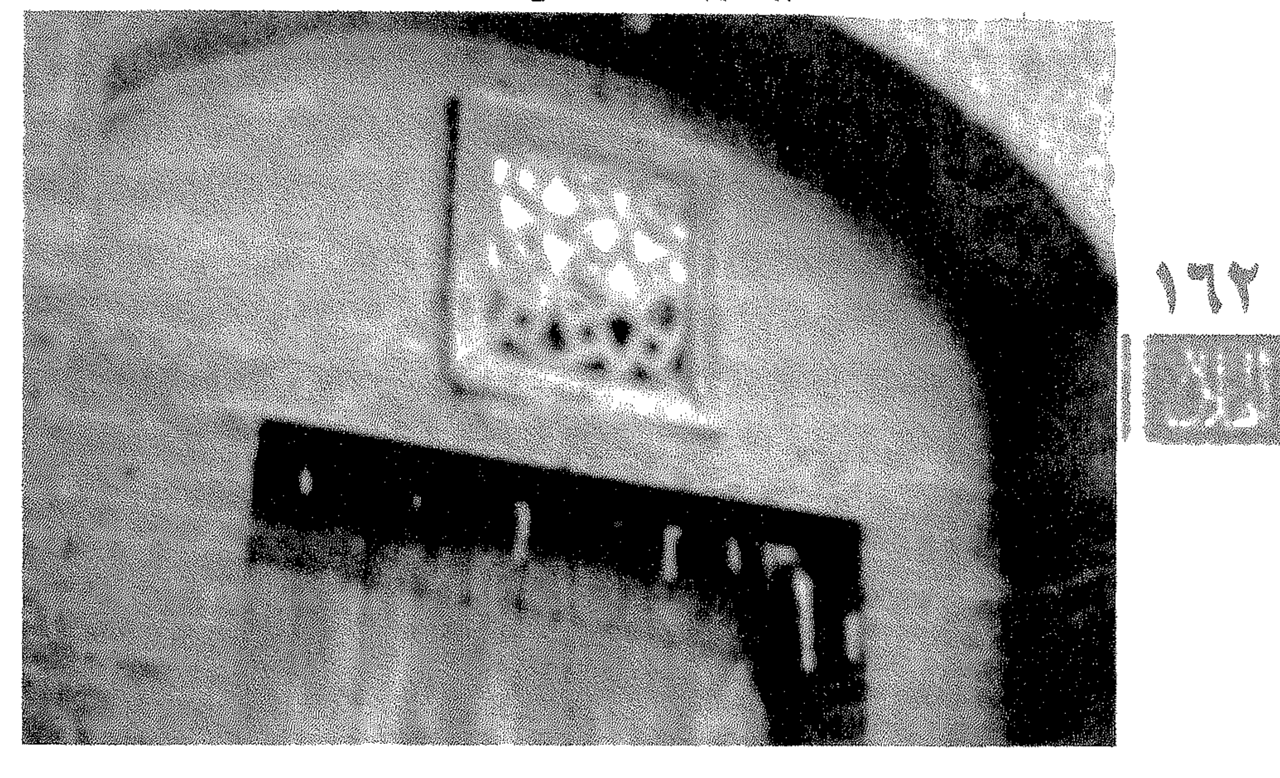
●●فى جنوب صعيدِ مصر ، تتردد أنشودة ساحرة النغم يغنيها الغجر : (الحلبْ والنّورْ والمساليبْ والحمر ..) كأنما يرسلونها إلى تلك الأوطان التى كانوا يتنقلون فى نجوعها وحقولها وقراها وشواطئها وعلى أطرافها وجسورها .. فى أعياد الفيضان وفى ليالى الحصاد وفى أفراح جمع المحاصيل وجنى الثمار ، يغنونها إلى « .. جرجا .. وبرديس .. والبلينا » . بشغف وشجن وعشق على أوتار الرباب من سبيب (شعر ذيل الحصان) الخيل ، ونغمات الأراغيل والسُّلاَّميَّات ، وعلى نبرْ رهيف للدفوف الكبيرة ، فتتردد أصواتهم الجريحة الدافئة الشجية فى أرجاء : نجع حمادى وفرشوطْ والهو والبلاص وأبو تشت وأبو شوشة .. جنوبا ، وعبر نيل أولاد طوق مدينة السلام شرقا ثم برّ خيلٍ والغابات والعرابة المدفونة وأبيدوس غربا ، فقد قستْ كل هذه الأرجاء على (البلينا) التى تكاد تقع فى الوسَط منها جميعا .. هذا إذا أبحرنا شمالا إلى برديس وجرجا ●●



هناك يعيش عشرات من عازفى الرباب والمزامير والأراغيل والصفافير وأنواع الطبول والدفوف والبنادير والمزاهر وإيقاعات النحاس ، وكذا عشرات المغنين وشعراء السيرة والمداحين والقوّالين والحكائين وأصحاب الحكمة ، وعدد آخر من فنانى رسم الجدران وتلوين البيوت والسفن والقوارب وتزيينها فى كل مناسبة وعيد ، فلم تزل هنالك بقايا من صور قديمة حميمة لمواكب الأعراس والحجيج ومفارقة الحياة ، وكذا البناؤون من بناة القبوة والقوس والأساس والصلبة والكتف هؤلاء الذين تبنى



مسيرة وجماعات الطرق الصوفية ١٩٧٨



شراعة وطاقة علوية لباب منزل (مدينة دسوق ١٩٧٨)

مهندسنا الكبير «حسن فتحى» تراثهم الثقافى الفذ وتقنياتهم المعمارية البسيطة المعجزة على يد نظائرهم فى القرنة وادفو ، فبنى بأيديهم نماذج فى كل بيئة مصرية ومناخ .. حتى مضى بهم ليبنى قرية مصرية فى المكسيك!! ثم هناك النساء المغنيات صانعات الأفراح والثياب المطرزة وأغطية الرأس لكل مناسبة (المناديل والطرح والعصب والقرط والخرز والقمط) وملاءات السترة والحشمة (البردة والبردة المزبّرة) التى صاغ منها فناننا المصرى العظيم «محمود مختار» تمثاله الأخلد (الخماسين) فصاغ فيه روح مصر وكشفها : الحركة والسكون ، الحيوية والبقاء ، التحدى والثبات ، القوة والجمال ، الغموض والخفاء ، إنها روح إيزيس الباقية أبدا ، ومن عجب - ورغم قسوة المتغيرات وعسفها - فإن كثيرات منهن لا يزلن محتفظات بألوان الأغانى والمراثى (العديد) والحواديت والأمثال والحكايات والذكريات الحميمة والخرافات الرائعة المدهشة المثيرة ، لا يزلن محتفظات بصلابة شجرة السنط وامتناعها وحُسْن شجرة التوت قوة ورقة وحلاوة ، وكشجرة الجميز وظلالها وعطائها وأمومتها . هن الـ «جازية» عمود للساقية وعماد للدار . هن «نعيمة» و«بهية» و«رحمة» و«ناعسة الأجفان» .

وإذا نظرنا إلى هذه المساحة التى تصل إلى حوالى ٨٠ كم طولا من جرجا شمالا إلى أبى تشت جنوبا ، وإلى حوالى ٤٥ كم عرضا على جانبى النيل ، فإنها - ولحسن الحظ - لم تزل تضم فى جنباتها كثيرا باقيا من الطابع القومى المصرى التقليدى للحياة على شاطئ النيل العظيم كما كانت صورتها فى الأربعينيات ، هذا رغم دخول المزيد من وسائل التعليم والاتصال الحديثة ، وكذا ظهور بعض ملامح التحديث (المخل) الذى تتسم به الحياة المعاصرة ، من أبنية اسمنتية فوق الأراضى الزراعية ، وغياب الفيضان ورى الحياض وردم الترع والمصارف وغير ذلك، فإنه لم يزل فى تكوينها السكانى مزارعون وبدو وهوارة وأشراف وأقباط وغجر ، وأغلبهم - إذا لم يكونوا من الملاك المتوسطين أو الأثرياء - يعمل بالزراعة والرعى والتجارة والحرف والأعمال اليدوية الأخرى ، كما أن بعضهم يعمل بالحكومة، كل حسب قدره الاجتماعى ، ابتداء من ساع أو خفير .. وصولا إلى رئاسة مدينة أو عضوية البرلمان ، فضلا عن نخبة من المهنيين كالمهندسين والأطباء والمحامين .

هذه صورة تقريبية للخريطة الديموجرافية لمنطقة مهمة تقع بين سوهاج .. وقنا ، منطقة ثرية فاحش



فتيات من واحة سيوة يرتدين
الزى السيوى (١٩٧٩)

الثراء بعناصر الأنثروبولوجية الثقافية . ومن ثم العناصر الفولكلورية ، وكذا العناصر الآثارية والتاريخية التى لا يخفى تأثيرها على الثقافة والفن والناس ، حيث كانت - قديما جدا - مقرا لعاصمتين فرعونيتين باكرتين هما (الطينة) أى قرية البلاص ، و(أبيدوس) أى قرية العرابة المدفونة ، وتلك كلها أمور تتطلب منا مزيدا من المعرفة الميدانية الدقيقة والمحددة والمبنية على القياس والاحصاء ، تمهيدا ضروريا لجمع التراث الثقافى والشعبى ، مع التركيز على المأثور منه ، بفضل عمليات منظمة وعلمية من الحصر والتصنيف والبحث والاستقراء ، ومن ثم الحفاظ فالإحياء فالإبداع ، إذن ؛ كيف نكون قريبين منهم ؟ بل فى قلبهم ؟ .

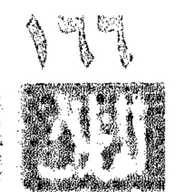
بيوت الإبداع الشعبى

منذ سنوات ، كنت قد اقترحت من الفنان التشكيلى الكبير د. محمد طه حسين ، حين كان رئيسا لهيئة قصور الثقافة ، زيارة هذه المنطقة ، والنظر فى مشروعى لإقامة «بيت للإبداع الشعبى» فى مدينة «البلينا» بصفتها النقطة الوسط جغرافيا فى هذه المنطقة ، بيت يكون مقراً وموئلا وملتقى للفنانين الشعبيين هناك ، يمارسون فيه تدريباتهم وأنشطتهم، فيكون ميدانا لعروضهم ، ومعرضا دائما لإنتاجهم الحرفى ، ومكانا لجلساتهم الحميمة يحتسون فيه مشروباتهم الشعبية الأثيرة ، حيث يلتقون بعشاق فنونهم وحرفهم ويتداولون مع الباحثين المتخصصين والزوار والسائحين .

واقترحت أن يقام المبنى وأن يؤثث بمنهج حسن فتحى المعمارى البيئي : متحف فولكلورى ، حوش أو رحبة أو فسحة للسامر والعروض الفنية ، قاعات متنوعة لعمل الفنانين ، ورش للحرف البيئية والفنون التطبيقية ومضيفة مجهزة ، ومقهى شعبى صغير، كرار ، مصاطب ، دكك ، مقاعد بلدية من الخشب والجريد ، مشربيات ، أزيار وقلل .. الخ ، وأن يشرف على إدارته اثنان فقط : فنان باحث متخصص يساعده موظف مالى و إدارى بالإضافة إلى اثنين من الحراس وساع ، على أن يتبع الإدارة المركزية في القاهرة ، حيث أن البيت - بجغرافيته تلك - لا يتبع إدارة سوهاج ولا إدارة قنا ، وإنما يتبع الثقافة الشعبية والفولكلور ، والبشر الذين يقيمون فوق هذه المساحة من الأرض هم وحدهم الذين يشكلون وحدته .. وبكل الأسف لم يستمر (طاها) فى رئاسة قصور الثقافة بعد أن نفد صبره .

معنى هذا أنه يمكن لتمثال الطين والحجر المسمى «بيت الابداع الشعبى» أو «بيت جابر أبو حسين» بمدينة البلينا

، أن يكون عينة اختبارية لتغيير المنهج الميدانى للدراسة الأنثروبولوچية الثقافية والفلولكلور رأسا على عقب ، أى من المركزية إلى اللا مركزية ، أو بمعنى آخر : بدلا من تمركز العملية فى القاهرة حيث يوجد : (لجنة الفنون الشعبية - مركز الفنون الشعبية - معهد الفنون الشعبية - إدارة الفنون الشعبية - أطلس الفولكلور) يمكن أن نبدأ من الميدان .. من الحقل والدكان والورشة والسوق والدار والمصطبة والسامر والفرح والمولد ومواكب الحج والرؤية والعرس والعزاء ... حيث يتوفر (الآن وفورا) وحيث يتاح للاخبارى والجامع والمصنف والباحث ، فرصة التعامل مع مادته طازجة من مصدرها مباشرة فيضمها ويصنفها ويفحصها ويمحصها وينظر إليها على ضوء بيئتها ومبدعها الشعبى فيعود بها إلى أصولها ، هنا تصبح العملية أسهل وأعمق ، يمكن انجازها على نحو كمى وكيفى فى مدى زمنى قصير نسبيا .



ومن بيوت الإبداع الشعبى التى لابد وأن تنتشر فى ربوع مصر ، يمكن الانطلاق - بواسطة عشاق الثقافة الوطنية والابداع الفولكلورى المصرى - إلى أماكن استراتيچية متميزة ديموجرافيا وفولكلوريا أخرى ، على أن يتم اختيارها وتحديدها بعناية وتدقيق ، وعلى ضوء تقييم عميق لتجربة «البلينا» كتجربة رائدة .

فيمكن مثلا تنفيذها فى جنوب مصر وعلى مدى ٥٠٠ كم من وادى حلفا حتى شمال إدفو طولا ومن هضاب الشرق عبر النيل إلى درب الأربعين وذلك باختيار مكان وسط بين بلاد هذه المنطقة شديدة التنوع عرقيا وسكانيا رغم ضآلة التعداد ، وليكن هذا البيت فى «جرف حسين» بالقرب من أبى سنبل ، هنا يمكن اقامة «بيت الجنوب للابداع الشعبى» وفى مكان ما آخر يمكن اقامة بيت ثالث يعبر عن الثقافة الشعبية فى إسنا والأقصر .. وحتى القوصية والبلاد التى تكتنفها وتحوطها ، ومن قوص إلى نجع حمادى عبر قفط وقنا منطقة رابعة ، وهكذا يمكن تقسيم مصر إلى مناطق شبه متميزة على ضوء التكوين السكانى والتقارب الجغرافى ، وطبيعة النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، والتشابه التقريبى فى الثقافة والفنون ، بحيث نستطيع حصر الجماعات الشعبية بثقافتها وفنونها ، ولهجاتها ولكناتها ، ورصد تاريخها ووقائعها المهمة ومدى تأثرها بآثارها وتراثها وتفاعلها معه . إذن ففى كل منطقة فولكلورية (إذا جاز التعبير) ، نستطيع أن نقيم بيوتا للثقافة والابداع الشعبى ، وفقا لنظرية المعمار البيئى الشعبى ، ففيها يلتقى الفنانون

الشعبيون مع المثقفين الوطنيين المعنيين بثقافة المكان وتاريخه ، كبيئة وكبشر ، وكعمل وإنتاج ، وأيضا مع الباحثين الفولكلوريين ، ومع منقبى الآثار والمهتمين بالتاريخ القومى ، وكذا باحثى التاريخ الطبيعى ومحبى الطبيعة وأنصار البيئة ، ورواد العمل الاجتماعى فى الجمعيات الأهلية ، وأساتذة الجامعات الاقليمية والمركزية .

ولأن الثقافة الشعبية المصرية تنفرد بمزيتين مهمتين عن غيرها ، ألا وهما :

١ - إنها أقدم ثقافة شعبية إنسانية وجدت فى التاريخ .

٢ - أنها تتميز بالتفاعل العميق - الخفى والمراوغ فى الغالب - بين الثقافة الشعبية من جهة وبين الأثر والبعد التاريخى من الجهة الثانية بحكم أن الآثار المصرية تنتشر فى طول مصر وعرضها منذ فجر التاريخ - وقبل أن تصبح آثارا - ولأن وقائع التاريخ المصرى كانت دائما مهمة ، وكانت دائما كبيرة ، وكانت محورية ومؤثرة ليس فى تاريخ المصريين فحسب ، وليس فى تاريخ المنطقة المحيطة بمصر فقط ، بل فى تاريخ البشر أجمعين.

لهذا على الباحث الجاد المتردد على «بيت الإبداع الشعبى» فى اقليم ثقافى / فولكلورى ما ، أن يركز على النقاط الآتية:

١ - دراسة شخصية المكان .

٢ - خصوصية التكوين السكانى ونوعياته وتفاصيله .

٣ - تاريخ المكان والسكان أى تاريخ التفاعل بينهما .

٤ - طبيعة هذا التفاعل البشرى مع المكان وآلياته .

٥ - النتاج الحضارى الناجم عن التفاعل الإنسانى العميق والطويل مع البيئة ، أى مبررات «العراقة» .

٦ - استنتاج القانون النسبى لهذا التفاعل والذى يخلق السمات المادية والمعنوية المميزة للتراث ، سواء الثقافى أو الشعبى مع رصد وتوصيف هذه السمات.

٧ - التركيز على الابداع الشعبى ، ورصده وتوصيفه وبيان ملامحه ووظيفته العضوية فى عملية بقاء المجتمع ومنافعه المستمرة والعارضة .

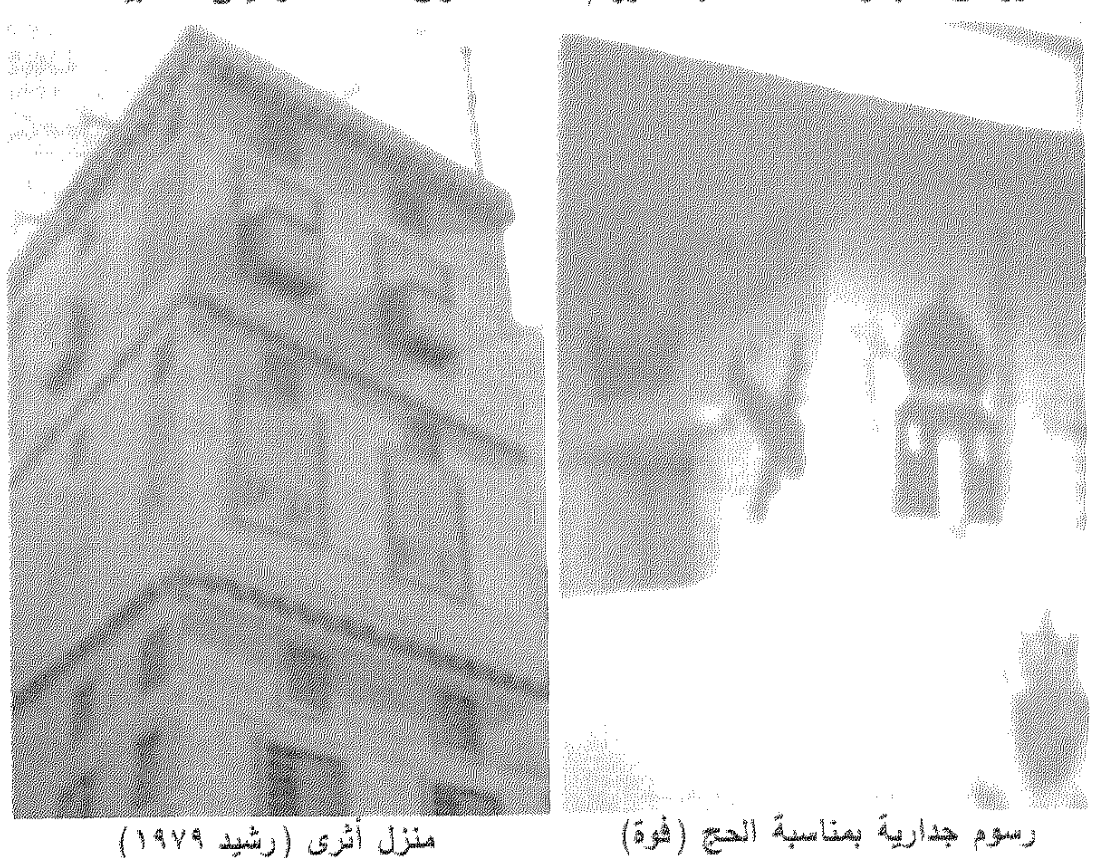
٨ - استنتاج القانون الشامل للثقافة الشعبية للقومية المصرية .

وهنا يلزم علينا إدراج حقول هذا البحث من الناحية الفولكلورية:

١ - ثقافة أدبية : شفاهية وتأخذ صورا عديدة : السيرة - الموال القصصى - الموال - القصيدة - نصوص غنائية - الأمثال - الأهازيج - الألغاز والأحاجى - الروح والهجاء - .. أما الكتابية فهى ألف ليلة وليلة ، وبعض



الصور من المجموعة الخاصة بالدكتور / محمد عمران استاذ الموسيقى الشعبية

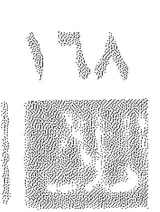


رسوم جدارية بمناسبة الحج (فوة)

منزل أثرى (رشيد ١٩٧٩)



صناع الأباريق والأوانى النحاسية (دسوق)



المدونات المنقولة عن مخطوطات قديمة .

٢ - ثقافة حركية : أداء حركى - رقص - طقوس - مواكب - ألعاب شعبية - الطابع العصبى العضلى والايقاعى للحركة الانسانية فى الحياة اليومية فى مصر .

٣ - ثقافة موسيقية : موسيقى - آلات موسيقية - قوالب موسيقية - أساليب فى العزف والأداء الموسيقى والغنائى - أسس وملامح خاصة بالموسيقى والغناء الشعبى.

٤ - ثقافة مادية : عمارة قديمة أو بيئية فى علاقتها مع العمارة الأثرية - أثاث - أشغال يدوية - فنون تطبيقية وحرف بيئية - أدوات عمل وآلات - أدوات طعام - أدوات قتال - أدوات متعلقة بالموتى - صناعة آلات موسيقية - أوانى طعام وماء - لعب - رسم - دمى - نقش - زخرفة - نحت - خط - تلوين - فنون وأدوات بناء - أزياء - زينة - تجميل - نسيج شعبى وصناعة ملابس - اكسسوارات تستخدم فى المناسبات - صناعة سجاد - نحت شعبى.

٥ - فنون شبه مسرحية : السيرك الجائل - الأراجوز - خيال الظل - الفرق المسرحية الجوالة من مقلدين ومهرجين ومحبظين ومشخصاتيّة واكروبات وبهلوانات - ألعاب القوة والخطر - ألعاب المهارة والإعجاز - ألعاب خداع البصر (السحر) - نمر الموالد - السفيرة عزيزة - البيانولا - العجائب والغرائب والطرائف - الغناء الفكاهى الساخر الهزلى والتمثيلى وفن التقليد .. وأغلبها عناصر من فنون مسرح شعبى مصرى قديم مندثر .

٦ - عادات وتقاليد ومواسم ومناسبات وطقوس : وكلها مبنية على عقائد تعتقدها الجماعات الشعبية ، وهى تتعلق بدورة الحياة والموت ، والخصوبة ، وأسرار الكون والفلك ، وكل ما يتعلق بالميتافيزيقا من زاوية الفولكلور والثقافة الشعبية .

وبالطبع ، فإنه سوف يتم دراسة لهذه العناصر الستة المبينة آنفا ككل موحد ، على ضوء الخلفيات التاريخية والحضارية والآثارية ، وأوضاع الجماعة الشعبية وفقا لتطورها ومسيرتها ، ولا حاجة بنا لأن نؤكد أنه لا يمكن فهم أى ظاهرة ثقافية شعبية أو فولكلورية بمعزل عن الظروف المنتجة لها والمحيطة بها .

إننى على يقين أن مصر فى حاجة إلى ما لا يقل عن ثلاثين بيتا للابداع الشعبى منتشر ة فى كل ربوع مصر ، فهكذا نستطيع وضع أيدينا على خريطة مبدئية - من خلال حالة من النبض والحيوية والاستمرار - لثقافتنا الشعبية وفولكلورنا.

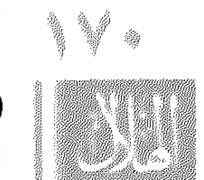


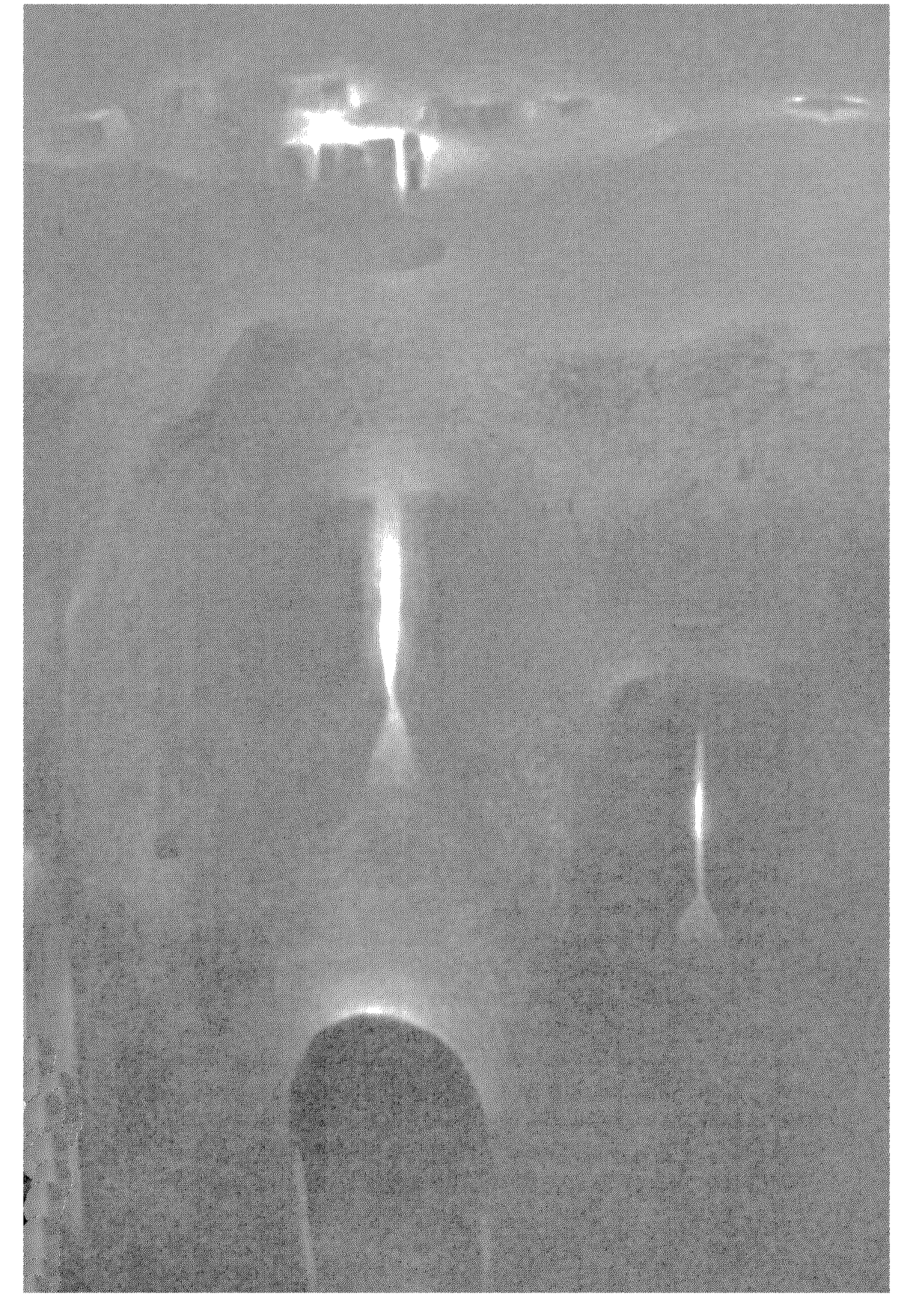
الحياة والفن

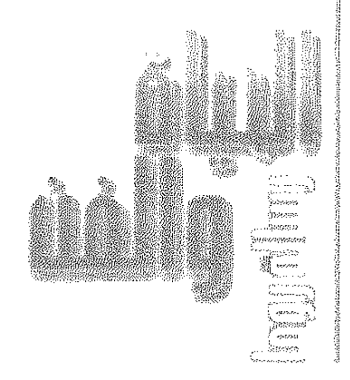
يقلم : محمود بقشيش

عندما دعيت إلى إقامة معرض لمختارات من لوحاتى فى الأكاديمية المصرية بروما، فى نوفمبر الماضى، ترددت قليلا، ليقينى بأن الفن المصرى المعاصر ليس جاذبا لاهتمام الذائقة الإيطالية، على النقيض من إبداعات الفن المصرى القديم الذى يستقبلونه بحفاوة، ليس فى ايطاليا وحدها، بل فى كل دول الغرب، وقد حسمت ترددى إعتبارات، منها ماهو شخصى، ومنها ماهو موضوعى، فى مقدمتها مدينة روما ذاتها، فهى من أجمل مدن العالم، وتعدّ متحفاً يستحق أن يزار .

وعندما زرتها أخيرا - وكانت المرة الثانية بالنسبة لى - تاكد يقينى بأن المدينة التى تشبعت بما لديها من جمال طبيعى وجمال أثرى تتأبى على الأجانب، وليست فى حاجة إلى قاعة عرض مغلقة، تقع فى طرف ناء من أطراف المدينة الشاسعة لكى يزورها بعض من أهل المدينة، يعدون على أصابع اليدين - فى أحسن الأحوال - ويشاهدون مجموعة من اللوحات المعلقة على جدران قاعة العرض، خصوصا إذا كانت تلك اللوحات تنتمي إلى فنان مجهول بالنسبة إليهم، ولم تشكل جاليته ثقلا مركزيا، يتيح له الدعاية الضرورية والمؤثرة فى المجتمع الثقافى الإيطالى، ومن الاعتبارات الشخصية التي جعلتنى أقرر السفر هى علاقة الصداقة القديمة مع مدير الأكاديمية الحالى الفنان الكبير





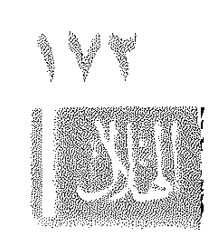


«فاروق وهبه» الذى تولى هذا المنصب منذ بضعة أشعر ، وفى نيته أن يوقظ الأكاديمية من سباتها السابق، ولم أكن لأرفض أن أسهم بالرأى -أيا كانت درجة تواضعه - من أجل نهضة مصدر من مصادر الإشعاع الثقافى المصرى فى الخارج .

التوقعات

ماتوقعته حدث ومالم أتوقعه حدث أيضا! .. فقد جاء جمهور قليل ممن اعتادوا زيارة الأكاديمية فى المناسبات، معظمهم من المصريين والعاملين فى السلك الدبلوماسى. وما لم أكن أتوقعه هو أن أجد نفس التساؤلات والأسئلة التي نصادفها من الجمهور العام فى القاهرة الذى لم يتعمق الثقافة الفنية، فقد سألتنى رسامة إيطالية عجوز وكان معها إبنها وهو يعمل مهندسا معماريا، والتقيت بسيدة قالت إنها ناقدة، وسألنى الثلاثة نفس السؤال، كما لو كانوا قد إتفقوا على طرحه، وكان السؤال هو: ماذا تريد أن تقول هذه اللوحة؟! .. وهو سؤال يكشف عن أمية صاحبه فى مجال الفن ويحتاج من الفنان أن يبدأ مع سائله من نقطة الصفر، وقد أدهشنى أن ينتقل فنان من قارة إلى قارة ليجيب على نفس الأسئلة!.

بالنسبة لى لم أكن فى حاجة إلى حراسة لوحاتى مثلما يفعل كثير من الفنانين فى القاهرة ويلحون فى تسجيل آراء أو مجاملات الزائرين، بل كنت مشوقا إلى التجوال فى حدائق بورجيزى الساحرة، متأملا أشجارها الصنوبرية العملاقة التى إهتم برسمها فنانو عصر النهضة، وهى تنهض مستقيمة كالمسلة المصرية، تشق الفضاء، ولاتبدأ الأغصان والفروع فى الظهور إلا قبل الذروة بقليل.عندئذ تبدو فروعها وكأنما تحولت إلى أذرع تعانق بها جاراتها. كان يصاحبنى فى تلك الجولات الجمالية الفنان «فاروق وهبه» وكنا نبتهج عندما تقع عيوننا على مسلتنا المصرية وإن كان ابتهاجا يشوبه العتاب، فالمسلة فى موضعها الإيطالى مُدَلَّلة بالقرب من جنات بورجيزى على عكس حالها الحزين بالقاهرة، إن حدائق الصنوبر تكشف من طرف خفى أن يدا انسانية عبقرية وراء إنتظامها الدقيق، ولاتكاد تجد مسطحا أخضر يخلو من شباب وفتيات يمارسون أنواعا مختلفة من الرياضة، وكم من مرة كانت تنفلت منى أو من الفنان «فاروق وهبه» ونحن فى نزهتنا الصباحية فى بورجيزى كلمة «الله»!.. تساءلت بينى وبين نفسى: هل من الضرورى أن نُعَلِّبَ هذا الجمال الطبيعى فى لوحات أم نتنسم عطره الطبيعى ونستمتع بحضوره الفعلى؟!.. أذكر أن تلك اللحظات الصافية، الروحية كانت تُعكّرها خواطر تدور حول ما أَلَمَّ بقاهرتنا التى كانت ذات يوم جميلة

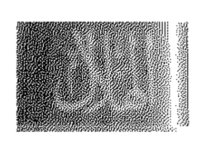


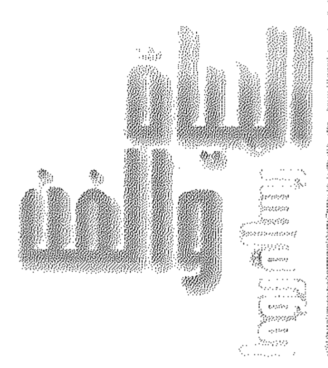
وأصبحت الآن دميمة بضوضائها وزحامها المقيت ..

درس آخر فى الجمال

دعانى الصديق «فاروق وهبه» إلى قلعة «كاستيل جوندولفو» وهى منتجع البابا، والقلعة التى يقيم بها أثناء إجازاته تقع على ربوة عالية، تطل على بحيرة أشبه بالزئبق، تخال مع سكونها الشديد أنك تستطيع السير عليها بقدميك لتصل إلى الجبل المواجه لقلعة البابا ولمدينة «كاستيل جوندولفو» . إن من جاء من زحام القاهرة وضجيجها وقذارتها وفوضاها المرورية لابد أن يصيبه ما أصابنى من ذهول لنظافتها المعقّمة ووجوه بشرها النضرة ولُطف سلوكهم.

ومن المصادفات السعيدة أن كان بالكنيسة حفل زفاف، ظهرت بعده العروس وعريسها يتهاديان على الأسفلت الفسيفسائى، دون خوف من أن يتسخ ثوب زفافها الفضفاض، الطويل، فهمتُ لحظتها سر نقاء لوحات «دى كريكو» وصراحة ألوانه ونظافة مسطحاتها ووضوح معالم ظلاله، وفهمت لماذا لم يغرق فى





الإكتئاب الذى غرق فيه غيره من الرسامين الميتافيزيقيين الذين عبروا عن غُربة الإنسان فى الكون، وأذكر من بينهم - على وجه الخصوص - فناننا المصرى «مصطفى أحمد» الذى يتجلى فى لوحاته حزنٌ مصرى مأساوى، كوّنه تاريخٌ طويل من ميراث التقاليد وصخب البيئة الشعبية المصرية.

ميدان الحرية

ميدان الحرية ميدان صغير وجميل، تتوسطه نافورة ويحيطه من الجانبين: قلعة البابا ومجلس المدينة والكنيسة، وعلى مقربة من الميدان يوجد نصب تذكارى، ضم أسماء شهداء المدينة فى الحرب العالمية الثانية. جلسنا فى مقهى الميدان نتأمل العروسين وفلول المدعوين، تشعر فى هذا المكان أنك أمام خشبة مسرح، كلٌ يقوم بدوره، وكان دورنا هو التأمل السعيد بما نرى، إنتقلنا بعد ذلك إلى مطعم «فيشيو» وهو فندق فى ذات الوقت، وكان موضعنا يطل على البحيرة الزئبقية، لفتت [illegible] مزهرية تضم زهورا رائعة الالوان، ناعمة الدرجات، حسبناها للوهلة الأولى صناعية وإذا بنا نكتشف أنها زهور طبيعية، وقدموا لنا غذاء ملكيا من عالم البحار لم أعرف منه إلا الجمبرى مع أننى من مدينة بورسعيد.

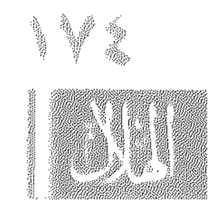
عودة إلى اللوحات

لقارىء العربية الذى لم يسبق له أن تعرف على لوحاتى أقدم بعضها وأقدم بعض المعلومات التي قد تكون ضرورية لتذوق الأعمال، قدمت فى هذا المعرض خمسا وثلاثين لوحة من القطع المتوسطة والصغيرة (٨٠×٧٠سم، ٦٠×٦٠سم) بناء على طلب إدارة الأكاديمية، لأن القاعة صغيرة إلى حد ما، أما أسلوبى الفنى فهو أسلوب يميلُ إلى الرمزية ويحتفل بعنصر الضوء باعتباره من الثوابت الجوهرية فى فن التصوير، وأنا ممن يهيمون بالليل، خصوصا ليل القرية المصرية، لهذا تحتل درجاتٌ وأنواعٌ من اللون الأزرق الركيزة المحورية التى تتيح درجات من الضوء البارد، يقتحم عتامة الليل تارة ويتسلل حول البوابات والأبواب والنوافذ تارة أخرى.

والضوء فى لوحاتى لايقوم بدوره التقليدى فى تجسيد الكتلة، بل يتحرر من أسر المصدر الثابت، الواقعى، إلى آفاقٍ أرحب وأعمق، أما العوالم التي تجسدها لوحاتى فهى عوالم جوّانية وإن اعتمدت على مثيرات الواقع الملموس، وإذا كانت هذه هى وجهة نظرى فيما أصنعه، فمن العدل أن أقدم وجهة نظرٍ أخرى هى وجهة نظر الفنان «فاروق وهبه» الذى قدمنى إلى [illegible]، ولم أحذف من كلمته إلا ماكان خطأً مطبعياً.

وجهة نظر فاروق وهبه

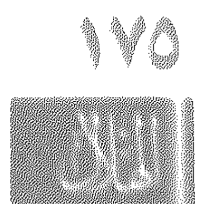
عُرف الفنان «محمود بقشيش» فى

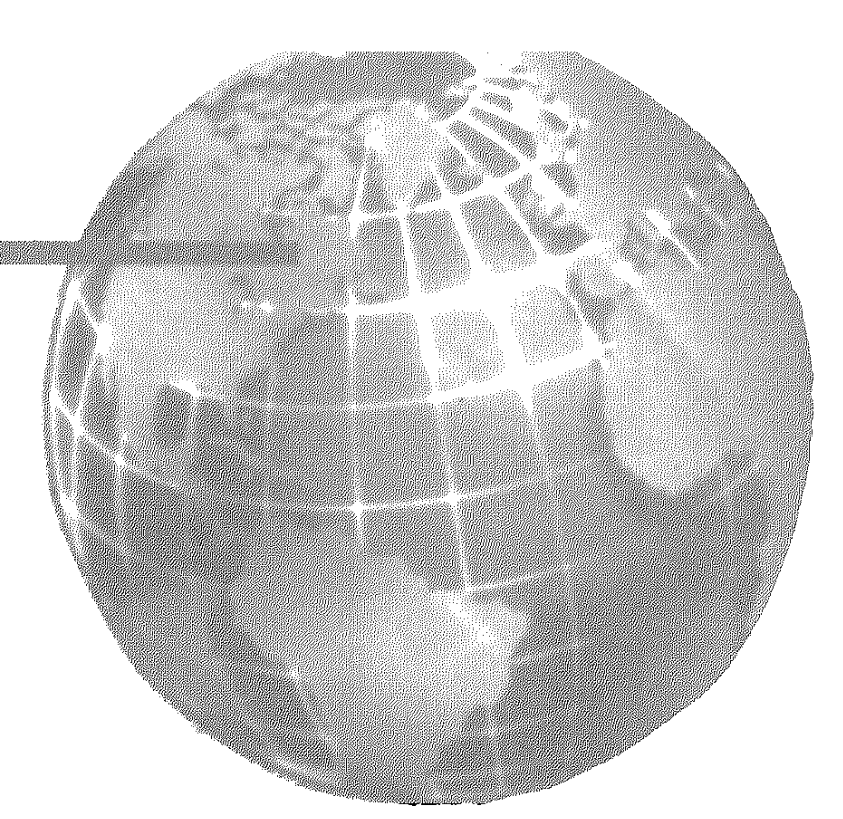




الحركة التشكيلية المصرية كناقد مرموق، يعرف أصول الأحكام الفنية وسلاسة العبارة فى مناخ نقدى يحفل بلذة التبارى بالكلمات، وتجاذبته رائحة عطر زيوت الألوان لينخرط فى تجربةٍ فائقة الحساسية، شديدة المراسَ، و«محمود بقشيش» كواحد من عشاق المدينة يومض بوميضها ويخفق لاخفاقها، قد آل على نفسه أن يزرع فى ظلامها وميضا من نور، يخبو تارة ويتألق تارات كنبع الحياة وخفقان القلب، وعلى هذا المنوال جسّدت أعماله حالة خروج النور من الظلام، تلك الحالة المعروفة فى المدرسة الفلمنكية: فى أعمال «رمبراندت» و«جورج دى لاتور» ثم «جان فيرمير»، ومع اختلاف النهج والتوجه، فالصياغة هنا تمزج بين التجريد والتكعيب والتبسيط بقياسات حّسية للألوان واقتدار فى الاختيارات وتروٍ فى الحوار مع الفراغ.

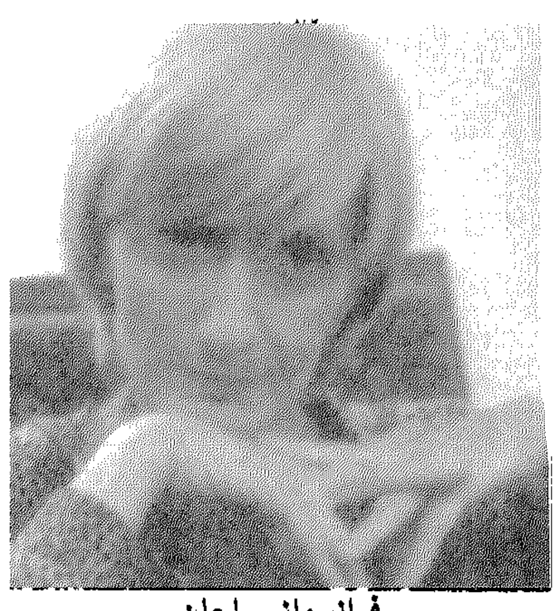
وإذا دققنا النظر فى نهج الفنان، نجد أن صياغات مدينته هى نداءٌ للحثّ على الاستقرار، وفى قلبه تقبع قريةٌ لها ملامح طفولته، إن دقة الحساسية فى أعماله ترجعه إلى رومانتيكية القرن التاسع عشر، بالرغم من أنه تجاوز تبعية تقليديات جيل ينعى الماضى ويرفض النظر إلى الأمام، ونلاحظ من خلال صمت الفنان صوتا شاهقا، حدّد بجلاء شخصيته الفنية ونهجه المعروف





باريس

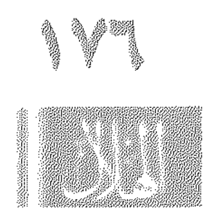
الناس لم تقرأ الروايات الجميلة !


فرانسواز ساجان

الإحصاءات الكثيرة التى أجريت فى نهاية ديسمبر الماضى، حول الأفضل.. فى مجالات عديدة لاشك انها تدفعك الى التساؤل عن مدى توافقك شخصيا مع هذه الاختيارات ، قد يحدث هذا وانت تطالع استفتاءات عن أحسن النجوم، والأفلام، لكن الاختيارات التى قدمتها مجلة «لوفيجارو» عن أفضل كتب القرن العشرين، تدفع الى السؤال المزدوج.. ترى هل قرأت الكثير من هذه الكتب، ترى هل ترجمت هذه الكتب الى اللغة العربية، ولماذا لا..؟

أولى المفاجآت فى هذا الامر. أن الكثير من هذه الكتب الافضل.. فى القرن العشرين لم يحصل اصحابها، كما انها لم تنل، اى جائزة ادبية، مما يعنى ان الجوائز، رغم اهميتها ليست سوى «فشنك» إعلامى.

والمفاجأة الثانية، بالتالى، هى ان



اصحاب هذه الكتب مجهولون تماما، ليس فقط بالنسبة لنا فى الشرق، بل أيضا لدى القارىء الغربى، ولعلها تمثل ذوقا خاصا للاشخاص الذين قاموا باختيارها، فمن منا يسمع عن رواية تحمل عنوان «الصديق الصغير».. ألفها بول ليوتو عام ١٩٠٣، ومن التفت الى اهمية رواية «صديقتى نان»..للكاتب بولز - جان توليه «١٩٠٥». او للكاتب لول ديتريش صاحب رواية «سعادة الحزانى» ١٩٣٥.

دعونا نتوقف عند روايات شهيرة، لكنها لم تترجم، فى مصر على الاقل، فهناك رواية «شاى فى الصحراء» لبول بولز - انظر الهلال ديسمبر ٢٠٠٠ - ورواية «صباح الخير ايتها الاحزان» لفرانسوا ساجان وهى رواية القرن العشرين المدللة، من حيث عدد مرات ترجمتها، خاصة فى اللغة العربية أو فى تحويلها الى افلام امريكية ومصرية.

من هذه الروايات ايضا «بندقية الصيد» للكاتب اليابانى ياسوشى اينوه، ورواية «القلب صياد وحيد».. لكارسون ماكللرز، وهى مترجمة عام ١٩٦٧ الى اللغة العربية، ورواية «فهد الثلوج» للكاتب الامريكى بيتر مايتسن التى استوحاها عام ١٩٧٨ من وفاة زوجته.

اغرب هذه الاختيارات هى رواية، «زهرة التراب» التى نشرها جان - جاك شول عام ١٩٧٢، وكانت اولى رواياته، ولم يبع منها سوى ألفى نسخة حول الممثلة مارلين ديتريش، وتجىء غرابة الاختيار أن شول ظل مجهولا لأكثر من ٢٨ عاما، الى ان فاز عام ٢٠٠٠ بجائزة جونكور عن روايته انجريد كافن «ومع ذلك لم يتم اختيارها ضمن اهم روايات القرن، وكأنما ظل الكاتب اعلى مستوى وان الحصول على الجائزة يعنى انحداره.

القليل من هذه الروايات التفتت اليها السينما فى افلام شبه مجهولة مثل «الوازن» للكاتبة كاى طومبسون، و«وسط مجرى النهر».. التى كتبها الأمريكى نورمان ماكلان عام ١٩٧٦.

لندن

مرارة بيسى

أصدرت مؤخرا الروائية البريطانية مارجريت درابل «٦٠ عاما» رواية جديدة بعنوانThe pepperd Moth لتضيف الى رصيدها الأدبى



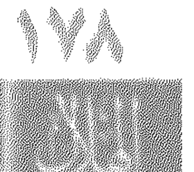
عمـلا روائيـا يغـوص فى اعمـاق المرأة النفسية كحال رواياتها السابقة، ويترنح بين الخيال والواقع وتملؤه مشاعر الحب والقسـوة والمرارة ، وإن كـانت الركيـزة الأسـاسـيـة فى الرواية هى مـبدأ البقـاء للأقوى.

تقدم لنا «درابل» فى روايتها الجديدة قصة حياة والدتها كاثلين مارى بلور التى وافتـهـا المنية عـام ١٩٨٤. وكـمـا تقـول «درابل» فى ختـام روايتـهـا «استـخـدمت دماء امى كحبر لكتابتها». تجمع الرواية بين التـرجـمـة الذاتيـة وبين الخيـال القصصى. فتتجسد والدة «درابل» فى شخصية بيسى باوترى ذات الحساسية المفـرطة والذكـاء الفطرى والسـمـو والتى ولدت قبيل الحرب العالمية الأولى فى مدينة «بريزيبور» جنوب يوركشير والتى تصفها «درابل» على لسان بطلتـهـا بـ «البيئـة الموحلة» و«تقرر بيسى أن مدينة بريزيبور مـدينة وهمـيـة ومن الخطأ الإقـامـة بهـا. وعليها استخدام مهاراتها لتصحيح هذا الخطأ. فطموحها يقتلها فهى تسعى الى الفوز بمنحة دراسية من جامعة كمبردج لتـجـوب العـالم وتخـرج من شرنقـتـهـا. وبأسلوب الفلاش باك او الاسترجـاع تبدأ الرواية بحـفـيـدة «بيسـى»، فـارو جـاولدن



مارجريت درابل

«الصـوت النقى الذى يغـمـر الوادى» كـمـا تراها«درابل» قـادمـة من لندن وعـائدة الى بلدة جدتها فى مهمة صحفية كما يبدو ظاهرها لكنهـا فى الحـقـيـقـة ذات شق شخصى ، «ففارو» مـحـررة شئـون علمـيـة تسـعى الى البـحث عن جـذورها لسـبب علمى بحت ينطوى عليه مذهب اللاماركيه الذى تـتـبناه ويدعـو الى ان التـغـيـيـرات البنيـوية التى تحـدث فى الحـيـوانات والنباتات نتيجة التغييرات البيئية تنتقل الى ذريتـهـا . وتعـتـقـد فـارو انهـا ترتبط بجـدتهـا لسـبب مـا غـيـر ذلك المصـيـر البـيـولوجى فـقـط.. وهنا يتـجلى لنا سـبب الاسم المثير للرواية The Pepperd Moth فالفراشة التى يحاصرها الظلام لن تتمكن



من البقاء على قيد الحياة الا بتغيير لونها الشاحب الى لون قاتم مظلم يتماشى مع الظلام السائد. فالبقاء للاصلح والاكثر قدرة على التكيف، فبيسى باوترى الجدة نجحت فى صراعها من اجل البقاء وان كانت مهارة التكيف ليست من مواطن قوتها. وهو ما حاولت الحفيدة فارو التوصل اليه. فالاستقرار وزواج «بيسى» من شخصية جوى بارون، والذى لاترى الكاتبة سببا وجيها لزواجها منه، رسخ داخل بيسى إحساس الاستعلاء والترفع مما جعل حياتها تتسم بالمرارة وجعلها موطن سخرية زوجها الذى يصفها بأنها نموذج لإحدى شخصيات آلن بنيت الكوميدية.

وتمتلىء الرواية بمظاهر الحب الغامر الذى تكنه الكاتبة لبيسى ويظهر جليا فى مواقف اعترافاتها واستيائها وامتعاضها، وبرغم ما تحمله تلك المواقف من قوة وعزم فإنها لم تساعدها كثيرا فى توصيل رسالتها وجعل الرواية تتأرجح بين الخيال والواقع.

ومن روايات «مارجريت درابل» الشهيرة «القدس الذهبية» عام ١٩٦٧، «وثقب الابرة» عام ١٩٧٢ «العمر الذهبى «لإمرأة» عام ١٩٧٥ «قبضة من زجاج» عام ١٩٧٨ «الطريق المشع» عام ١٩٨٠، «وسط الحياة» عام ١٩٨٥.

روما

فيردي : الأوبرا.. فقط للأقوياء

هل يمكن لمصر ان تشارك أيضا فى الاحتفال بالذكرى المئوية للموسيقار الذى جعل مصر الفرعونية فى قلب ووجدان كل عشاق الغناء الجميل!.

چوزيبيه فيردى صاحب أوبرا عايدة، الذى بدأ الاحتفال بذكرى رحيله فى ٢٧ يناير الماضى. ويستمر لمدة عام فى العديد من صالات الاوبرا فى مدن اوربية عديدة. ومن بينها اوبرا «عايدة». التى عرضت لاول مرة عام ١٨٧١.

تجىء أهمية فيردى (المولود عام ١٨١٣) من ايمانه بأن الموسيقى هى لغة الأبرياء ، وان الالحان تجسيد للأفكار الانسانية، وان تجمع بين الناس فى الصالات الكبرى. لذا جاءت اعماله شديدة القوة ، تعبر عن المجد الإنسانى، وتعكس لحظات التاريخ العظمى ، ومنها «ماكبث» عام ١٨٤٧، و«معركة لينيانو». ١٨٤٩ و«لاترافياتا». ١٨٥٣ و«قوة القدر» ١٨٦٢، و«دون كارلوس» ١٨٦٧، و«عطيل» ١٨٨٧، و«فالستاف» ١٨٩٣، والملاحظ انه استوحى اغلب اعماله عن شكسبير،



صوفيا لورين فى فيلم عايدة

متجاهلا القصص الرومانسية، فى مقابل حكايات المجد والبطولة.

ومن المعروف ان فيردى قد ارتبط بأحداث شخصيات وطنه الكبرى، وعلى رأسهم جاريبالدى الذى الف أحب اعماله من أجله.

ولد فيردى فى اسرة فقيرة، وكم حلم ان تعيش ايطاليا سنوات القوة، وامن أن على المرء أن يرمى بشكواه جانبا، ليغنى للقوة، وقد عانى فيردى الكثير فى حياته الاجتماعية بوفاة ابنائه، وزوجتيه اللتين تزوجهما على فترات من حياته.

وقد صار فيردى نموذجا يحتذى به لعشاق الفنون المختلفة، وليست الموسيقى وحدها ، ويعتبر المؤلف الاوبرالى الاول الذى شغفت السينما بأعماله. فنقلتها عشرات المرات الى الشاشة، وقد استوحى الاخوان ماركس بعض اعماله فى فيلم «ليله فى الاوبرا» عام ١٩٣٤، كما قامت شركة والت ديزنى بإخراج فيلم عن اوبرا «ريجوليتو» بالاضافة الى العديد من الافلام الاوبرالية، ومنها «أمامّى الفريد».. و«لاترافياتا»، و«ريجوليتو». و«قوة القدر» و«الموجود» وهى افلام نقلت فيه الاوبريتات بشكل سينمائى دون الابتعاد عن خشبة المسرح.

ومن اشهر هذه الافلام على الاطلاق فيلم «عايدة» الذى قامت ببطولته صوفيا لورين عام ١٩٥٣، وفيلم «احساس» .. لفيسكونتى» و«لاترافياتا» اخراج زيفيريللى ، وايضا الفيلم العربى «عايدة» الذى اخرجه احمد بدرخان، عام ١٩٤٢ وقامت ببطولته ام كلثوم.

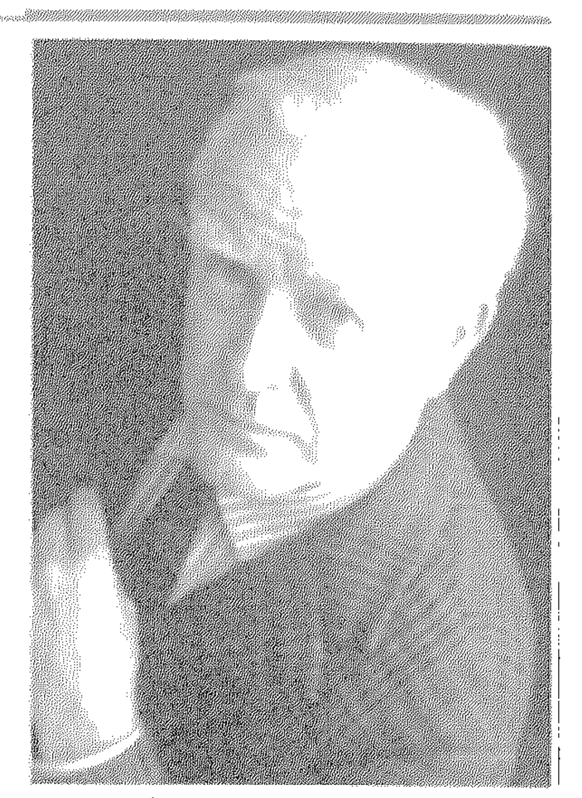


جون لوكاريه وتحول جديد

أمانى عبد الحميد

شهد العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية انتشار أجهزة المخابرات بشكل كبير فى الغرب والشرق.. واحتلت شخصية العميل السرى، أو ما يطلق عليه الجاسوس - مكانة أسطورية جعلته مادة خصبة للأعمال الأدبية والروائية والسينمائية.

ومن عباءة الروايات البوليسية التى تهتم بشكل أساسى بعالم الجريمة خرج نوع جديد من الأدب الروائى، استقل بذاته وهو أدب الجاسوسية.



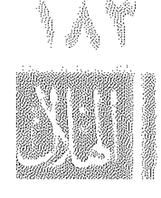
جون لوكاريه

أثناء اندلاع الحرب الباردة نشطت أعمال الجاسوسية حتى بين الدول الحليفة، فتصدرت روايات ذلك الأدب الجديد قوائم المبيعات فى جميع أنحاء العالم.

وأصبح كتابها من أشهر الروائيين وتمتعوا بشعبية كبيرة بين القراء أمثال جراهام جرين، إيان فيلمنج، إريك امبلز، جون لوكاريه وكين فوليت. ومع انتهاء الحرب الباردة وتغير الأوضاع السياسية فى العالم فقد عالم الجاسوسية بريقه، وإن كان دوره الوظيفى قائما الأمر الذى ادى الى انحسار الأضواء عن رواية الجاسوسية وكتابها، ولم يصمد حتى وقتنا هذا من الروائيين إلا أصحاب الموهبة الحقيقية أمثال جون لوكاريه.

لوكاريه ورواية الجاسوسية

وجون لوكاريه روائى بريطانى (٧٠ عاما) رائد أدب الجاسوسية فى العالم ، وهو صاحب أكثر من ١٨ رواية تدور أحداثها داخل العالم السرى لأجهزة المخابرات وأوساط السلك الدبلوماسى الذى يعتقد أنها «بؤرة عمليات التجسس».. يطالعنا لوكاريه كل عامين تقريبا برواية جديدة مليئة بالأحداث المثيرة عن موقع من المواقع الساخنة فى العالم، روسيا وبنما وكينيا وبريطانيا وألمانيا مثل «مرآة الجواسيس» ١٩٦٥ «مدينة صغيرة فى ألمانيا» ١٩٦٨، «خياط من بنما» ١٩٩٦ وغيرها من الروايات. ويعتبر لوكاريه من الروائيين القلائل الذى استطاع بموهبته ان يطور رواية الجاسوسية بشكل جعلها تصمد وتستمر برغم انتهاء الحرب الباردة، بل انه اتجه برواية الجاسوسية نحو منعطف جديد وأبعاد أكثر اتساعا وأشكال غير التى اعتاد عليها العالم.. مثل رواية «الطبالة الصغيرة» ذات الطابع التاريخى و«خياط من بنما» ذات الطابع الكوميدى. واستطاع ان يحظى باحترام النقاد الذين اعتبروه من الكتاب الجيدين لهذا النوع من الروايات نتيجة قدرته الفائقة على الوصف الدقيق الذى ينقل المشاعر بصدق وشفافية. فهو يرى



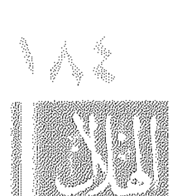


ان الكاتب الجيد هو من يستطيع ان يدفع قراءه إلى الجلوس للإصغاء لآرائه وتحريك مشاعرهم وامتاعهم على مستوى عالٍ وهو ما يؤثر على مستوى العلاقة بين الكاتب وقرائه.

وقد تجلت موهبة لوكاريه منذ نشر روايته الأولى «نداء الموتى» عام ١٩٦٤ والتى ابتدع فيها شخصية الجاسوس جورج سمايلى الذى اصبح بطل العديد من رواياته أشهرها «الجاسوس الذى أتى من بلاد الصقيع» والتى حققت أعلى نسبة مبيعات و«عشيرة سمايلى» ١٩٨٠.. ونهاية بروايته الجديدة «البستانى المخلص» The constant Gardener والتى سوف نتحدث عنها لاحقا.

عملاء سريون

اشتغل لوكاريه بالسلك الدبلوماسى، حيث عمل سكرتيرا للسفارة البريطانية فى بون ثم قنصلا فى هامبرج وهو الوسط الذى استمد منه أحداث معظم رواياته كحال كتاب رواية الجاسوسية، وإن كان معظمهم وثيقى الصلة بأجهزة المخابرات أو أنهم عملاء سريون لبلادهم امثال جراهام جرين الذى عمل فى مكتب الخدمات الخارجية التابع



للمخابرات البريطانية لعدة سنوات حتى اثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومن أشهر أعماله «عميلنا فى هافانا» التى تكشف عن تورط أجهزة المخابرات البريطانية فى السياسة الداخلية فى كوبا.. كذلك كين فوليت الروائى البريطانى الذى استلهم اعماله فى ملفات المخابرات البريطانية الاسرائيلية ونشرت روايته الأولى «ثقب الابرة» عام ١٩٧٨ عن أشهر جواسيس القرن العشرين العميل هاينريش رودلف هانس ذى الاسم الحركي ثقب الابرة لقدرته الفائقة على الرصد والإفلات من المخاطر بسهولة. وإيان فليمنج أشهر الجواسيس البريطانيين الذى اتجه بعد احالته على المعاش إلى كتابة رواية الجاسوسية استوحاها من عمله الذى وصل فيه الى منصب المدير المساعد للمخابرات البحرية.. ومن أهم شخصياته جيمس بوند العميل (007) التى تحولت إلى سلسلة طويلة من الأفلام السينمائية قام ببطولتها نجوم كبار امثال شين كونرى وروجر مور وحظيت بأعلى نسب مشاهدة من دور العرض السينمائية.

ومن الممكن ان نستثنى روبرت لودلم وإريك أمبلر من العمل داخل أجهزة المخابرات.. فروبرت لودلم كان أمريكى الجنسية وليس بريطانيا كحال باقى كتاب رواية الجاسوسية.. كما انه مارس الى جانب الكتابة التمثيل والاخراج المسرحى، فعمل فى مسارح برودواى بنيويورك مما اثر على اسلوب كتابته للرواية. والمعروف ان رواياته باعت حوالى ١٩٥ مليون نسخة خلال عشرين عاما ونشرت فى ٢٨ دولة - وترجمت الى ٣٢ لغة - أما إريك أمبلر فهو روائى بريطانى تمكن من رسم صورة الجاسوس فى معظم رواياته بشكل جديد .. فهو انسان عادى يحتاج الوظيفة ليقتات منها وليس ذلك الإنسان الخارق.. بل اضفى عليه صفة خفة الظل وتحولت الجاسوسية من عالم ملىء بالمطاردات والقتل إلى عالم ملىء بالمعرفة والبحث كما فى روايته الشهيرة «الخطر المجهول» ١٩٤٦..

أعمال وشخصيات

اتسمت شخصية البطل فى روايات لوكاريه بالغموض والمكر فهو الشبح عالمه الظلام لا يرى افعاله الآخرون وهو كالزئبق يمكن رؤيته لكن من الصعب الإمساك به . وهى صفات فى مجملها صفات الجاسوس خلال الحرب الباردة وتظهر جليا فى شخصية جورج سمايلى الغامض المتحذلق فى الكلام. وشخصية «باركى» الناشر البريطانى فى روايته «المنزل الروسى» ١٩٨٩ والتى تحولت الى فيلم سينمائى يحمل نفس الاسم.. وباركى يتعرف على كاتيا التى تمده بمسودة كتبها عالم فيزيائى روسى تتضمن أسراراً خطيرة فترسله المخابرات البريطانية إلى روسيا للبحث

عن المزيد من المعلومات وهناك يتم تجنيده ويتحول إلى عميل مزدوج. أما فى روايته «الجاسوس الكامل» يستمد لوكاريه من شخصية والده الحقيقى ملامح البطل والتى يعتبرها الأقرب إلى قلبه وشخصيته.

وتأتى رواية «الطبالة الصغيرة» ١٩٨٣ والتى نشرت ضمن سلسلة روايات الهلال فى مقدمة الروايات التى أثارت شخصيتها الكثير من الجدل بل إنه تعرض لهجوم شرس من قبل الجماعات اليهودية فى أوربا، فبطل الرواية شخصية «انكل بينى» اليهودى ذى الخلفية الاجرامية يظهر وسط أحداث تتسم بالطابع التاريخى . يسرد خلالها لوكاريه حياة اليهود وتقاليدهم وعاداتهم حتى حكاياتهم الطريفة داخل حى ايست اند الشهير بلندن خاصة بعد انتقالهم من مجمعات «الجيتو» من شرق أوربا وتمركزهم فى لندن، وافتتاح محلات الحلوى بها. ونتيجة إدخال قضية الصراع الغربى الاسرائيلى ومحاولة اصطياد مناضل فلسطينى من قبل جهاز المخابرات الاسرائيلى الموساد، تعرض لوكاريه لتلك الحملة الشرسة خاصة انه اقر بوضوح فى روايته «أن أرض الميعاد يجب ان تضم اليهود والفلسطينيين على حد سواء»..

حيث يرى «أن الكاتب يحمل على عاتقه مهمة الكشف عن الاحداث التى تدور من حوله وأن لم يفعل فان احساس الذنب يسيطر عليه رغم كل شيء».

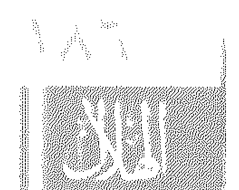
رواية جديدة

اصدر لوكاريه الشهر الماضى رواية جديدة بعنوان «البستانى المخلص» وفيها يخرج عن اطار رواية الجاسوسية نوعا ما ليدخل اطار الرواية البوليسية وهى خطوة جديدة فى تاريخ جون لوكاريه رائد ادب الجاسوسية.

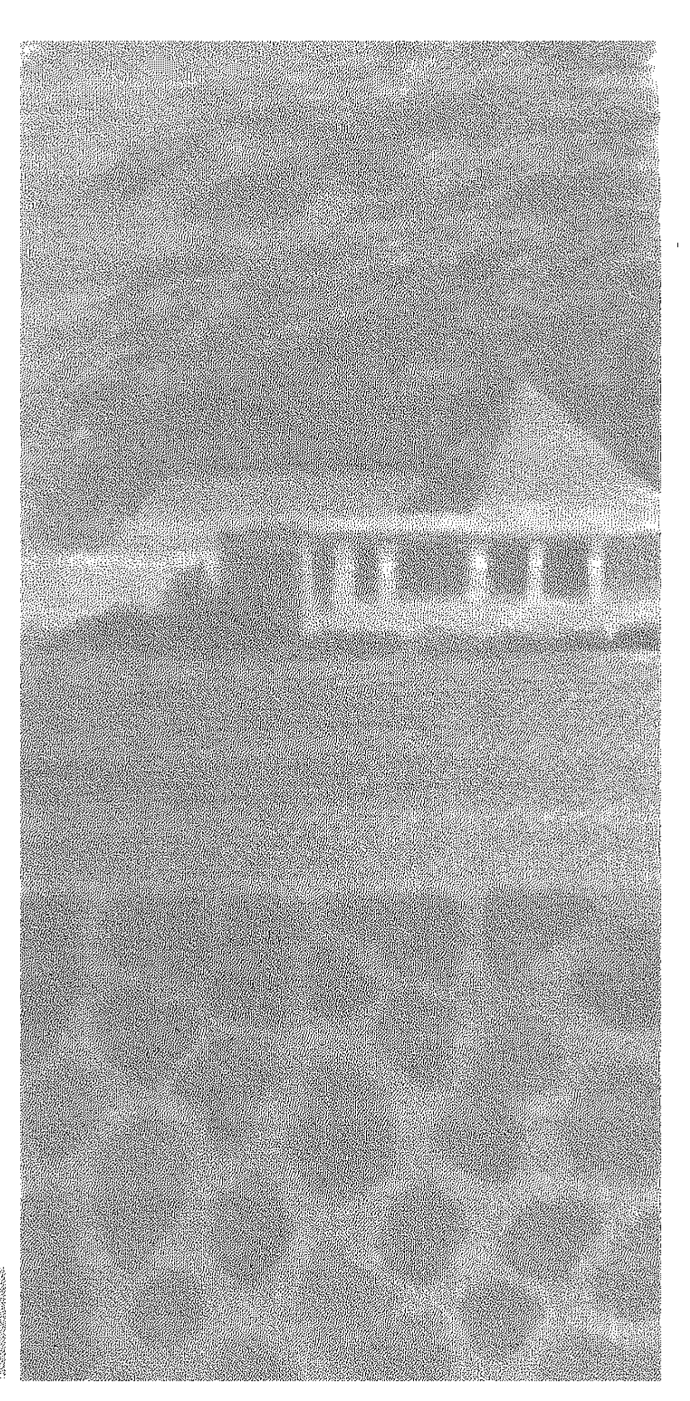
يقدم لنا المحامية الشابة تيسا كوايلى التى تعمل فى مجال المعونة الانسانية فى كينيا .

ويرسم لنا شخصيتها على انها انسانه رقيقة المشاعر تدافع عن الحق مهما كلفها الأمر والذى أدى فى النهاية الى موتها، تبدأ الرواية بوقائع جريمة قتل «تيسا» وسائقها بطريقة وحشية . حيث وجدت الشرطة الكينية «تيسا» مذبوحة داخل سيارتها بجوار بحيرة توركانا وسائقها جسد دام مقطوع الرأس.

وبهذا المشهد المؤثر تتوالى أحداث الرواية بشكل مثير وغامض يتلمس فيه لوكاريه مشاعر الزوج الحزين جاستين الدبلوماسى فى المندوبية العليا البريطانية فى نيروبى، والذى فجع لوفاة زوجته وبدأ يحاسب نفسه حسابا عسيرا على إهماله لها وعدم تقديره لها حق التقدير من خلال عرض بعض المواقف والحوارات التى دارت بينه وبين تيسا ،



فهى كما يقول جاستين : «إن مجرد النظر اليها اشعر ان حلمى أصبح حقيقة »، وتتكشف الاحداث «فتيسا» أرسلت قبل مقتلها إلى ساندى و ودرو الصديق الذى يعمل مع زوجها فى السلك الدبلوماسى وثائق خطيرة تكشف عن عمليات تهريب المخدرات فى كينيا وافريقيا وهو الامر الذى حذرها زوجها جاستين كثيرا من اقحام نفسها داخله.. فحكومة بريطانيا قررت عدم التدخل وودرو اختار الصمت وزوجها تملكه الخوف، ورغم ذلك تتخذ تيسا موقف الشجاعة وتحاول مكافحة تلك الجرائم من المنطلق الذى ارتأته لنفسها كما تقول لزوجها .. «إن واجبى تجاه افريقيا فما واجبك أنت جاستين».



تتشابك الأحداث رغم تكشف حقيقة مرتكبى جريمة مقتل «تيسا» للمحققين إلا ان الكثير من الاسئلة تظل بلا اجابة خاصة ان خيوط الجريمة تتصل بأحد التكتلات الاقتصادية البريطانية الضخمة والتى تعمل داخل كينيا وافريقيا فى مجال الدواء.. ويظل لغز اختفاء الطبيب الكينى ارنولد بلوهم زميل تيسا فى أعمال المعونة الانسانية وعشيقها الخفى.. هل هو قتل أم هرب بحياته؟ ويظل هذا اللغز قائما حتى نهاية الرواية التى تختم أحداثها بتهديد الزوج جاستين للالتزام بالصمت حتى لا ينال جزاء زوجته التى لم تعبأ بالتهديدات... ■

رحيق الكتب

الفن المعاصر
العدد الثاني - خريف ٢٠٠٠ - ٥٨٤ص
الناشر - أكاديمية الفنون



قررت أكاديمية الفنون أن تخرج من أسوار معاهدها، كي تتواصل مع القارىء العادى وذلك من خلال اضطلاعها بطبع مجموعات من الكتب المترجمة فى فنون المسرح، والباليه والسينما .

وإيمانا بدور المجلات الثقافية، أصدرت الأكاديمية مجلة فصلية، تعني فقط بشئون ترجمة الدراسات والابحاث المصاغة بلغات عالية عديدة، وجاء العدد الأول من مجلة «الفن المعاصر» في صيف عام ٢٠٠٠، ثم صدر العدد الثاني فى الشهر الماضى، وذلك إيمانا بسد الفراغ الهائل فى البحث العلمي فى الفنون والثقافة فى الوطن العربى، وذلك من مختلف أنحاء المعمورة.

وليست مجلة «الفن المعاصر» نشرة صغيرة أو مجلة عادية، بل هى مجلد ضخم، تزداد صفحاته على الخمسمائة واحتوت فى عددها الأخير على أبحاث عديدة، ترجمها اساتذة متخصصون فى مجالاتهم، مثل إعادة قراءة شرح «أنطونان أرنو» الذى ترجمه الدكتور نبيل راغب ، وراجعه الدكتور محمد عنانى، ومثل مقال عن المفكر الفرنسى المعاصر جيل دولوز، وعلاقته بالسينما، وهو مقال منقول عن الإنجليزية منشور عن الانترنت، كتبه توماس مارل وول.

ومن بين المقالات المهمة في العدد ، مقال كتبته باترشيا سينيوريل باللغة الفرنسية (أيضا مأخوذ عن الانترنت) بعنوان فلسفة اللون التى جاء فيها أن عالم الألوان يعبر عن نفسه بأسلوب فلسفى، ولكى نعيه جيدا فهو يتطلب الرصد والملاحظة من خلال وجهات نظر متعددة، فحسب بول

كلي، فإن اللون نوعية وكثافة، ثم هو مقياس لابد له أيضا حدود، ومحيط ومساحة، لذا فإن الفن الحديث، بشكل خاص لم يعد على قياس الانسان، وإنما أصبح على قياس عينه المتضخمة، والرسم المجرد ويبحث في وصف القوانين، وكما قال الفيلسوف ميرلو جونتي: أحسست، ذات يوم، أن الاشجار هي التي تنظر إلى وتتحدث لي، قد ارسم لكي ابدو فقط للعيان .

ومن المقالات المترجمة البارزة ايضا المثقفة والتكنولوجيا الحديث .و الانسانيات ونقد الرقص، ونهاية الفلسفة والسينما

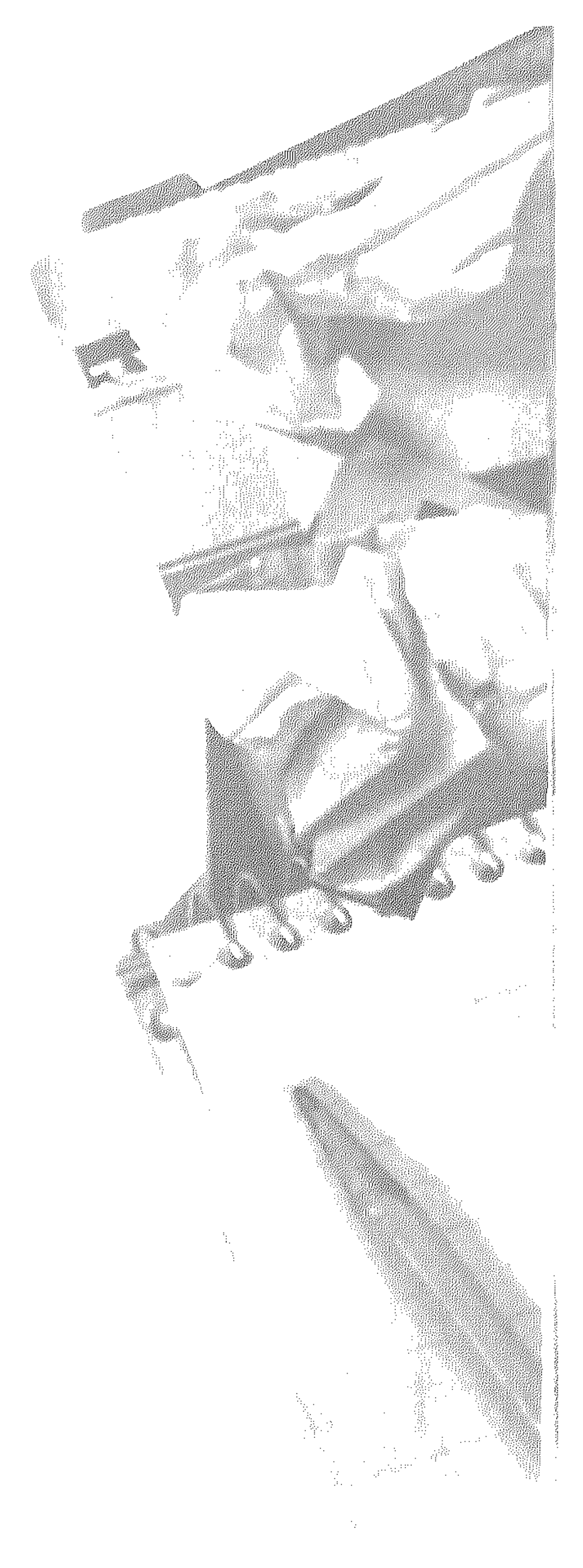
ورغم هذا المجهود الضخم، فإن إدارة التحرير في حاجة إلى إعادة صياغة بعض الترجمات باللغة العربية، مثل هذه العبارة: من تعدد الاشكال المرسومة والمفهومة، والظاهرة في الزمان والمكان كما في الفروق وامكانيات قراءتها قد تولد عن طريق الحركة والبصر اشكال جديدة مقرونة اقترانا بسيطا بإدراك الخريطة واستقبال الرسالة التي ترسمها الاشكال وليس المرسومة ..

الفساد والجرائم الاقتصادية في مصر



ظلت الدراسات التي تجرى عن الجريمة في مصر أسيرة التصور التقليدي القائم على وصم الفقراء بالإجرام والمجرمين بالفقر دون النظر إلى الجرائم التي يرتكبها «علية القوم»، فجميع الأدلة تشير إلى أن الأغنياء قد يكونون أكثر إجراما من الفقراء وأن جرائمهم تلحق بالمجتمع أضرارا بالغة تفوق خطورتها جرائم الفقراء، وبالرغم من ذلك فإن الإجراءات القانونية الرادعة للص ارتكب جريمة سرقة مع راكب واحد في إحدى وسائل النقل العام، تتساوى مع الإجراءات القانونية المتخذة ضد صاحب شركة ضخمة حقق أرباحا خيالية من خلال عمليات النصب والاحتيال على أفراد المجتمع، ومن هنا تأتي أهمية الدراسات التي أجراها الدكتور أحمد أنور مدرس علم الاجتماع بجامعة عين شمس والتي صدرت في كتاب بعنوان «الفساد والجرائم الاقتصادية في مصر» فالكتاب يعد محاولة جادة لتفسير السلوك الإجرامي خاصة فيما يتعلق بجرائم شركات توظيف الأموال في مصر والأضرار البالغة التي ألمت بآلاف الأسر المصرية من ذوي الدخل المحدود والمتوسط وأثرت بالسلب على الاقتصاد القومي، ويقدم الكتاب تفسيرا أعمق لمفهوم الجريمة ولسوسيولوجية القانون في مصر، كما يهتم بالأبعاد البنائية والتاريخية لعملية التجريم ولظاهرة الجريمة بصفة عامة كمحاولة لتبرئة الفقر من تهمة الإجرام والتوجه نحو أوجه الخلل الحقيقي في المجتمع الذي يعد مسئولا عن ظاهرة الفقر بالدرجة الأولى.

يبدأ الكتاب بعرض نشأة وتطور التجريم الاقتصادي وماهية الجريمة الاقتصادية والتعريف بجرائم



الخاصة والتي تطلق عليها «جرائم الياقات البيضاء» وأساليب عقابها ويبحث في ظهور جرائم شركات توظيف الأموال على المستويين العالمي والمحلي، ويكشف عن الفساد المؤسسي، وكيفية قيام شركات توظيف الأموال باختراق مؤسسات المجتمع وأساليب العقاب في هذه الجرائم مع عرض للقوانين التي تمكنت تلك الشركات من اختراقها، وأهم الجرائم التي تشملها مثل جرائم النصب والاحتيال وخيانة الأمانة، وجرائم الاحتكار والمضاربات غير المشروعة وجرائم تهريب النقد .

قضايا الفكر في الأدب المعاصر



وديع فلسطين

قضايا الفكر في الأدب المعاصر

- هذا الكتاب هو الطبعة الثانية من الكتاب الذي صدرت طبعته الأولي بالقاهرة ١٩٥٩ عن المكتب الفني للنشر. ورغم ان هذا يعني صدوره منذ مايزيد علي أربعين عاماً، إلا أننا نجد أن قضاياه للعجب أو للأسف - لاتزال حتي الآن ٢٠٠١، هي القضايا البارزة من قضايا الفكر في الأدب المعاصر . بل لعلها صارت أكثر سخونة وإلحاحا وهي تتناول قضايا: العامية والفصحي، الشعر الحر والشعر الموزون المصطلحات العلمية، قواعد اللغة العربية، أزمة الهجاء أزمة الطباعة الحروف اللاتينية ، الإلتزام في الأدب، الأدب الواقعي الإبانه والرمز اسلوب الإثارة والمنهج العلمي كاتب الأمس وكاتب اليوم، انحراف رسالة النقد ، مكان المسرحية خال ، الترجمة الي الضاد ، أزمة الكتاب العربي «أهناك محنة ادبية ؟ الفكر بين الأرستقراطية والغوغائية

يعبر الاستاذ الناقد واللغوي وديع فلسطين بعضب شديد عن رفضه التام استخدام اللغة العامية في التعبير الأدبي

ولا يري لها أي مبرر أو عذر وينحاز كاملا للشعر الموزون ، غير أن تعبير الغضب عند الاستاذ وديع فلسطين له خاصية الهدوء وكظم الغيظ والبحث عن الحل عند رفض القائم فهو غضب بناء يمتلك الصراحة الشديدة مع التهذيب المفرط والدماثة المحرجة !؟ فجوهر رأيه في الاتفاق والإختلاف يتضح في قوله: «.. ولئن ذهب الناس في آرائهم كل مذهب فثمة اعتبار ينبغي ان يعلو علي كل اعتبار سواه، وهو الحرص علي حرية الفكر والرأي والذود عنها والذب عن حياضها فإن كانت هناك صلة عميقة بين حملة الأقلام فهي صلة سداها تلك الحرية ولحمتها الإخلاص في إبداء الرأى وإعلانه. فليختلف الأدباء على المذاهب الأدبية المتباينة ، وليتناحروا علي المعايير الأدبية، وليتضاربوا - إذا شاء وا - علي إمارة الشعر أو إمامة الأدب، ولكن حذار أن يضحوا بهذه القنية الغالية قنية الحرية الفكرية وهم يتلاحون ويتنابذون .

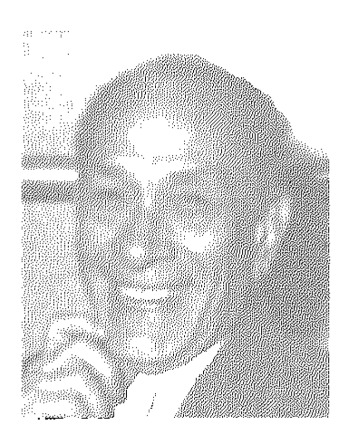
يعترف الاستاذ وديع فلسطين بالواقع المتردى للناطقين باللغة العربية خرج جيل من الشباب يجهل لغته ولسانه ، ويعز عليه أن يكتب كتابة تخلو من خطأ أو أن يتكلم كلاما يبرأ من السقام.. وهو يرى الحل فى تصحيح صيغة تعليم قواعد اللغة العربية للنشء والتلاميذ والطلاب ويجد أن القول بصعوبة اللغة العربية من الأقوال التي شاعت رغم عدم صحتها : «يمكن تقسيم قواعد اللغة العربية من ناحية عامة إلى قسمين : قواعد متداولة كثيرة الاستعمال ، وقواعد قليلة التداول.. اما القواعد المتداولة التي يحتاج اليها المرء فى حياته اليومية.. فهي القواعد التي ينبغي ان تعطي أولوية في التدريس، فتختفي تبعا لذلك الأغاليط الفاحشة.. وهذه القواعد المتداولة هى من السهولة واليسر بحيث لا تحتاج الي مزيد من التبسيط أو التيسير ، ولو أنفق المرء في دراستها قليلا من الوقت ، لأمسك بناصية اللغة وامتنع عن إيراد الفاحش من الاخطاء ، مما هو معهود في النشء الجديد ، بل في خريجي المعاهد الجامعية العليا ..

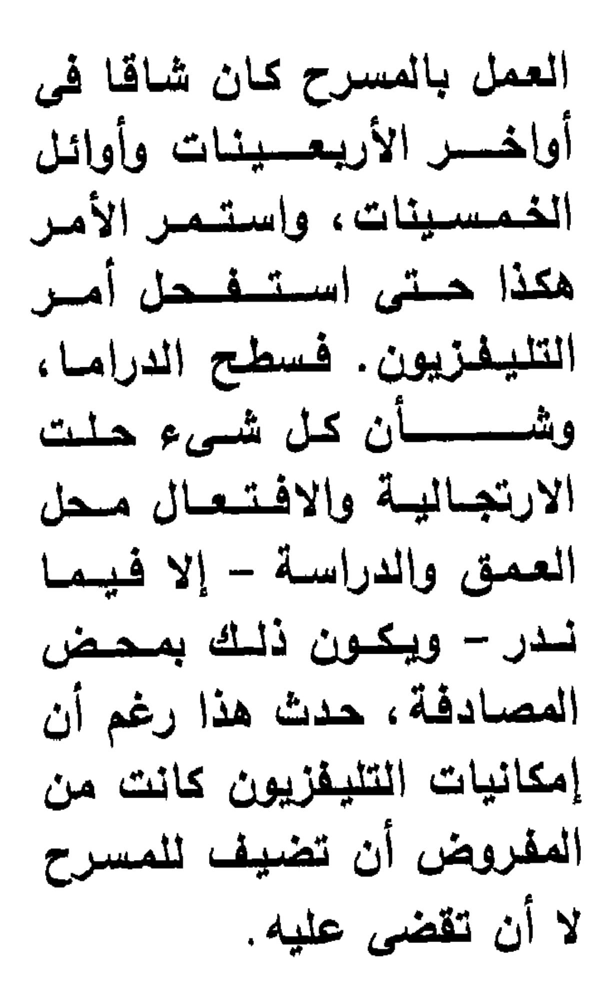
بهذه السياسة الباحثة عن الحلول بعيدا عن الصدام والهدم يتنقل الاستاذ وديع فلسطين بين قضاياه الثماني عشرة المختلفة حتي يصل الي قضيته الأخيرة : «الفكر بين الارستقراطية والغوغائية .. فلا يملك أن يقاوم قوله : «. لقد مني الأدب بوباء الغوغائية ...» وقد افزعنا ما قرأناه ليوسف السباعي من دعوة الي ما سماه : التفاهة وخفة الدم، فهو يري ان الزمن الذي توترت فيه اعصاب البشر وزادت اسباب منغصاتهم يحتاج الي التافه الخفيف الدم اكثر من حاجته الي العبقري الثقيل ، ويضيف الي ذلك انه شخصيا يفضل ان يكون تافها خفيف الدم عن ان يكون عبقريا ثقيلا سمجا ، ويعلق الاستاذ وديع فلسطين علي فلسفة الاستاذ يوسف السباعي الذي وصل بعد ذلك الي منصب وزير الثقافة في مصر - قائلا : «فالذي دعا بالأمس الي نبذ قواعد اللغة لأنها قواعد سخيفة لا لزوم لها ، قد تطور مع نفسه تطورا منطقيا فصار يدعو اليوم الي التفاهة وخفة الدم لكن الذي لم يستطع الاستاذ وديع فلسطين ان يقوله بسبب ادبه الجم اقوله انا بصدق وحرية وهو ان الاستاذ يوسف السباعي وإن كان قد حقق التفاهة فعلا فإنه قد عجز تماما عن تحقيق خفة الدم،



«يا أخى إنه فقير..!»

بقلم : حسن سليمان


زكى طليمات


العمل بالمسرح كان شاقا فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، واستمر الأمر هكذا حتى استفحل أمر التليفزيون. فسطح الدراما، وشأن كل شىء حلت الارتجالية والافتعال محل العمق والدراسة - إلا فيما ندر - ويكون ذلك بمحض المصادفة، حدث هذا رغم أن إمكانيات التليفزيون كانت من المفروض أن تضيف للمسرح لا أن تقضى عليه.


آميلة رزق

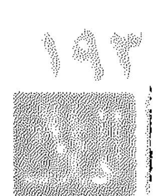


بروفة لاحدى مسرحيات الفنان يوسف وهبى

نرجع للمسرح وكثيرا ما كان يمضى بنا الوقت إلى ساعة متأخرة من الليل فى قراءة النص وإلقائه على منضدة مستطيلة طويلة، ويتمرن الممثلون على الإلقاء منفردين دون الحركة على خشبة المسرح، يتبع ذلك «البروفات» دون ديكور وإضاءة. ثم يتبعها «البروفات» بالديكور مع الإضاءة عدة مرات متتالية. الكل كان يرتجف من «البروفة الجنرال» فالكل ممتقع حتى أمينة رزق وهى أكبر من عملت معهم، كانت ترتجف متسائلة: هل أجدت واستطعت أن أؤدى بالضبط؟».

إخراج المسرحية فى ذلك الوقت كان شيئا غير ما يحدث الآن، كان يتطلب أحيانا تحضيرات تطول إلى ستة أشهر مثقلة من المخرج قبل اللقاءات الأولى مع مهندسى الديكور والملابس، وحينما كنت أعمل كان اللقاء مع المخرج فى مرسمى تطول مدته شهرين أو أكثر، قبل أن يبدأ التمرن على إلقاء النص حول المنضدة المستطيلة. نتشاور أنا والمخرج مرات متعددة على الحركة من أين يدخل الممثل ومن أين يخرج وأين يقف ؟ حتى أحيانا ما كنت أضطر إلى تقسيم خشبة المسرح إلى خطوط بيضاء ومتقاطعة تساعد الممثل على الوقوف بالضبط فى المكان المحدد له حتى نحصل على توازن حركة الممثلين مع الديكور والإضاءة .

لكن ما أود قوله يبعد عن هذه الديباجة لأنه عن المرحوم زكى طليمات الذى كان عندما ينشغل فى عمل شاق فى إخراج مسرحية أو موعد بالليل يطلب من أنور فتح الله الذى كان طالبا عنده فى «معهد الفنون المسرحية» فارع الطول ذا عينين زرقاوين وشعر أصفر، ينادى عليه زكى طليمات قائلا: سترسب هذه السنة، وأنا واثق أنك بليد، إن لم تفعل ما آمرك به، هل تعرف قهوة «ركس» هناك رجل



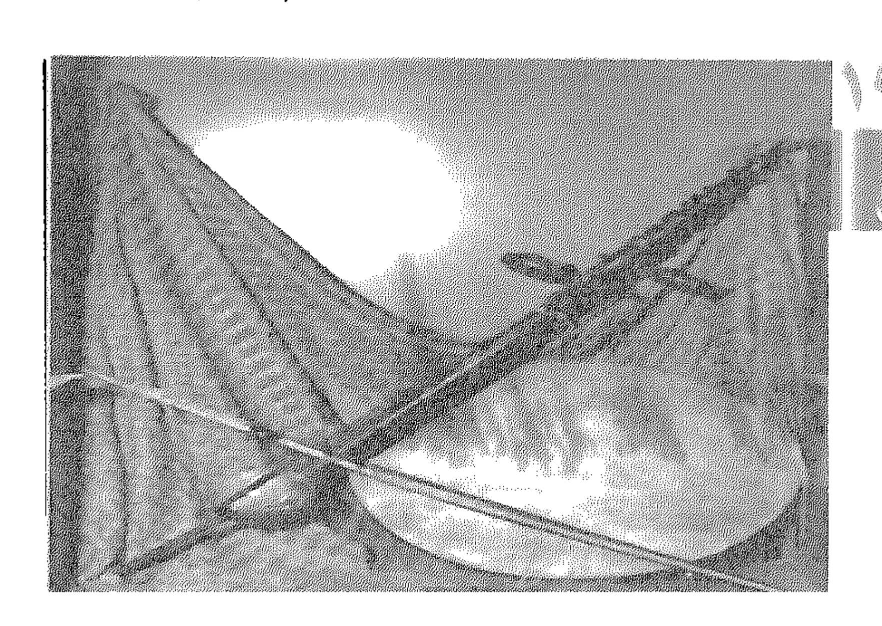
عمله أن تدفع له عشرين قرشا ويكتب لك نكتة، إذن خذ جنيهين لتشترى عشر نكات، وخذ كذلك ثمن كباب لك ولزوجتى وزجاجة خمر «لتطفحها سيادتكم». تحضر لىّ إلى المنزل وحينما أنزل عليك أن تسلى زوجتى، و «وقعتك سودة» لو مضيت قبل أن أحضر مهما طال الوقت إلى الثانية أو الثالثة صباحا، عليك أن تسليها وتمنع عنها الملل والنعاس إلى حين عودتى.

يفعل أنور ما يأمره به ومن حين لآخر يقول لها نكتة فتضحك قائلة : «ضحكتنى يامضروب»، وهكذا يمضى الأمر بأنور فتح الله يأكل الكباب ويحتسى الخمر ويسامر زوجة زكى طليمات حتى يحضر فيسأل عن الحال، فتقول له زوجته: كانت جلسة تنقصك.

استمر الحال هكذا كلما شغل زكى طليمات بعمل أو ربما بموعد غرامى يُحضر أنور فتح الله، حتى وصل الأمر أن المرات التى يكون فيها زكى طليمات فى المنزل تقول له زوجته «قعدتك مملة وجلستك دمها تقيل» ولايمكن لامرأة أن تحتملك بثقل دمك. أرسل فى إحضار أنور - الذى لاتسمح له حتى بمصافحتها.!

أعجبنى ماحدث بين أنور وزكى طليمات حتى أننى مع قصص حبى المأساوية كنت أسعد حينما أجد للمحبوبة سميرا أو مسلياً حتى أستطيع أن أعمل واكتشفت أن هذا يبقى على الحب أكثر، إن كان الرجل واثقا من ذاته ولايمكن أن يقارن نفسه بأحد.

إن حادثة مثل حادثة الأستاذ زكى



الربابة ..صاحبتنا مع سيرة الظاهر بيبرس وعنترة

طليمات ليست غريبة على مجتمعنا وعن باقى المجتمعات أو القرون الماضية حتى العصر اليونانى، أذكر فى طفولتى ببلدتنا، أن جدى كان مشغولا جدا وهو فى أوج مجده، كان لدينا شخص قوى البنية يسمى «الكلاف» وهو بجانب ما تأمره به سيدة البيت من تقديم الأكل للحيوانات والدواجن والذهاب إلى السوق لشراء بقية الاحتياجات كان عليه أن يجلس لمسامرتها، منتظرا أوامرها دائما، فى وحدتها يقص عليها كل شىء عن أحداث البلد، فهى عازفة دائما عن الخروج، وإن ذهبت لزيارة ما فهو الحارس الأمين.

يخشى جدتى إلى أقصى درجة، وكأنه كلب هى سيدته، يسليها أحيانا بنوادر تختلط فيها قصة الهلالى مع سيرة الظاهر بيبرس وعنترة أما جدى فدائما مشغول بأمر إدارة أرضه وعلاقته واتصالاته، ولم نكن نراه، فدائما المندرةالتى فى الدوار الكبير ممتلئة بالزوار. إن كل مايفعله هو أن يصفق بيديه طالبا طعام من خلال صوان مستدير يدور حول نفسه، تضعه إحدى الخادمات تحت إشراف جدتى ليدور الصوان ويصبح ناحية المندرة، وهناك من باقى الفلاحين من يصف الصحاف على صينية كبيرة لها حامل.

أما «الكلاف» فيعرف مهمته جيدا يجلس تحت أقدام جدتى حتى لايشعرها بالملل وحتى يكون طوع بنانها، كثيرا ماتقول له قص علىّ بعض قصص الهلالى أو نوادر جلال الدين فى سيرة الظاهر بيبرس.

إذن فدوره محصور فى دور أنور فتح الله مع زوجة المرحوم زكى طليمات، لكنى كنت دائما أشعر بذلة وفقر فى شخصيته.

كان الفرسان فى القرون الوسطى فى نزاعهم مع جيرانهم كثيرا مايتركون نساءهم مع مثل هذه الشخصيات بجانب المهرجين والأقزام، حتى شاعت بعد ذلك مقولة «مضحك الملكة».

أذكر وأنا طالب فى «كلية الفنون الجميلة» أننا كنا نطلق على الشاب الذى يسعى دائما خلف الفتاة - منتظرا أوامرها ملبيا احتياجاتها يغرقها بالثناء والهدايا، كنا نطلق عليه لفظ «الموصلاتى» ولم يحدث قط أن أحبت فتاة مثل هذا الشخص. كان معنا فى الكلية شاب صعيدى ضخم يبلغ من السذاجة حدا كبيرا حتى أن نوادرنا معه تكاد لاتنتهى لكن ليس هذا مجالنا .

فى ذلك الوقت جمعتنى صداقة حميمة بزميلة، حتى أنها كانت تحدثنى عن أشياء خاصة جدا ولم تكن تستطيع أن تبوح بها

لأحد من زميلاتها، كانت عزيزة عليّ إلى درجة أنني لم أكن أدعها تذهب إلى منزلها بمفردها، وفي الوقت نفسه بما أنني كنت أعمل في أكثر من عمل وأنا طالب في الكلية، فمن الصعب أن أوصلها إلى منزلها في مصر الجديدة فلم أجد أمامي سوى أن أقنع زميلي الصعيدي بأنها تعزه بالضبط كأخيها، فيضبط ساعته على موعد انصرافها ليوصلها كما طلبت منه، وأقنعته بأنه هو الوحيد الذي أثق به، فكنت دائما أحدثه عن شهامة الصعيدي حتى تأخذه النعرة الصعيدية فيذهب ليوصلها، يأخذها في حمايته ثم يرجع إليّ لاهثا سعيدا بأنه أنجز المهمة على مايرام، بالضبط كما يحدث مع بعض المسئولين لدينا، حينما يأمرون أحد المرءوسين بإنجاز شئ قد يكون خاصا بهم، فيفعل المرءوس هذا الشيء عن طيب خاطر، وهذا ليس مبالغة، فمنذ ثلاثين سنة كان يأتي إليّ موظف ويقول : لقد كلفني رئيسي بانتظار فراخ الجمعية والبيض والأشياء المدعمة الأخري وأحيانا الجزارة والسمك، يقول ليّ دائما : هل استطيع أن أجلس لديك حتى ترجع الست إلى المنزل؟، فهي كذلك تعمل مثل زوجها، يجلس لديّ حاملا مثل هذه الأشياء، ومن حين لآخر يحدثها في التليفون حتى يتأكد من وصولها فينصرف مسرعا.

شعرت ومازلت أشعر أن مثل هذه الشخصية تملك ضعفا وفقرا ما. مضت الأيام بسرعة وإذ بهذا الرجل الذي كان يقوم بدور «الكلاف» أصبح ملء السمع والبصر للشعب كله، ووصل إلى أعلى المراتب .

●●●

مغرما بالنيل ومراكبه الشراعية التي كثيرا مارسمتها ومازلت أرسمها، كانت هذه المراكب ضخمة جدا تحمل البضائع من الوجه القبلي إلى الوجه البحري والعكس ، قررت - لحبي لها- أن أدرسها عن قرب . وظيفة كل حبل مدلى، وما الذي يظهر منها وما الذي يختفي تحت الماء ، فقررت أن أقوم برحلة فيها إلى الصعيد وأرجع. وبعد توصية من تاجر بصل في ساحل « أثر النبي» قبلني «ريس المركب» سرعان ما ماكتشفت أنه عالم كبير داخل المركب، حيث الرجل ونصف الرجل وثمن الرجل . الرجل دائما ربان المركب وهما اثنان يتناوبان . يحفظان كل التيارات المائية على مجرى النيل. أما نصف الرجل فهم الملاحون الذين يأمرهم الربان بفك الأشرعة وتغيير اتجاهات حسب الريح إلى أعلى حتى يضمن سلامة الشراع وربطه من أعلى .

أما ربع الرجل وعددهم كثير حيث يربو على ثمانية، وظيفتهم أنه حينما تكون المياه ضحلة والتيار ضعيفاً يخرجون خارج المركب ليسحبوها بالحبال من الشاطيء ويسمى ذلك «شد اللبانة» ، وطيلة سحبهم المركب يرددون بإيقاع على وتيرة واحدة «هيلاهوب .. هيلاهوب.. هيلاهوب».. أو «صلى.. صلى .. صلى ..» يقصدون النبى.. فى إيقاع منتظم حزين. أما ثمن الرجل فهو الذى يغسل لهم ملابسهم المتسخة ويرتقها ويطبخ لهم العدس فى الإناء الفخارى، وفى ذات مرة نظرت الى هذا الرجل الذى هو الثمن فوجدته قوى البنية والشكيمة فقلت «للريس» : لماذا لم تجعله يشد معهم المركب ؟ . أجابنى بلهجته الصعيدية « عجله على أده – غلبان– هيخلبط لهم الدبه ». يقصد أن عقله ضعيف وسيفسد لهم الإيقاع ومن غير ايقاع منتظم لن يستطيعوا أن يشدوا المركب فى سهولة وسرعة .

هناك بعض الرجال يقوم بدور «الكلاف» أو «الموصلاتى» للنساء وللسلطة وتجدهم النساء والسلطة مسليون وتقربهم منها . أما الرجل المنكفئ على عمله تهرب منه دائما المرأة والسلطة رغم أنهما دوماً يحنان اليه لاحتياجهم الشديد اليه . وفى المركب «ثمن الرجل» لا يمكن أن يصعد إلى أعلى وسيبقى «ثمن رجل». أما فى الكادر الوظيفى فالباب مفتوح له على مصراعيه .

قال لى شاعر معروف :إنه حينما يأتى له شئ ملح وتبدأ الكلمات تبحث عن صياغة فى رأسه . كان يجلس صامتا، فتتساءل زوجته حزينة : هل أنت غاضب منى ؟ هل فعلت شيئا ضايقك؟ أخبرنى : ماذا تريد ؟ هل أغنى لك «فريد الاطرش»؟ هل أرقص لك ؟ ، وهكذا تستمر فى مضايقته حتى يرتدى ملابسه ويصفع الباب خلفه باحثا عن مكان فى ركن مقهى أو عن حديقة ليكمل قصيدته ، وظلت زوجته هكذا سنوات ولم تتعلم أبدا أن تتركه وحاله فهو ليس حزينا منها ولا غاضبا عليها لكنه منغلق على نفسه : مستغفى عنها وعن كل نساء العالم فى لحظات الهامه. قال لى رحمة الله عليه؟ مهما طال بنا العمر لم تفهم او تتعلم . إن أية امرأة تفضل طبعا الرجل المسامر الظريف الذى تستطيع ان تأمره ليذهبا سويا إلى أى مكان ، فهى لا تفهم أبدا أن ينشغل زوجها أو حبيبها عنها . ربما كانت تفتخر به لكنها ترفض أن ينشغل عنها وتريد أن يدور محور حياته حولها . إنها تفضل الرجل المطيع السميرالمسلى الذى

تسهل قيادته وحيازته، وتحن دوماً إلى الرجل القوى الذى استعصى عليها . هذا مفهوم المرأة فى الشرق حتى أصبح مثلا يقال «ماليه عليه حياته» . ربما صفحنا هذا للمرأة . لكننا لا نستطيع أن نتفهم أن ينعكس هذا الوضع على المسئولين حتى أثر فى إنتاجنا .

حدث أن ذهبت زوجة رئيس مجلس إدارة شركة وطنية ضخمة الى عمرة، وفى اليوم التالى لوصولها . استدعى زوجها رئيس مجلس الإدارة - مهندسا بالشركة قائلا له. كيف يصل بك الأمر الى حد انك لم تذهب الى المطار لاستقبال زوجتى وهى عائدة من العمرة ؟! . اجابه المهندس : هل تريد منى أن يتوقف خط إنتاج وردية كاملة عن العمل بالمصنع؟. اجابه رئيس مجلس الإدارة : أجل .. المهم أن أراك فى المطار .



حينما درست فى كلية الفنون الجميلة كنت أدخل مباشرة إلى الطلبة . ولا اتركهم حتى الثالثة إلا منصرفاً . استدعانى العميد قائلا بعشم : لماذا لا أراك ؟ ، وتجلس معى لتشرب فنجان قهوة ؟ قلت له : هل الأهم أن أذهب لأرى ماذا يفعل الطلبة أم آتى اليك ونتسامر ؟ قال لى : لا الأفضل أن تأتى الّى كل مرة قبل كل شيء ونتسامر ونجلس بعض الوقت فنحن زملاء قبل كل شيء ، ولنا معا ذكريات ممتدة .

حينما كنت فى العراق فى زيارة لها فى السبعينات كنا نناقش وصول أحد العراقيين الى مركز مرموق فى السلطة وغنى فاحش علق أحد العراقيين بلهجته البغدادية : يا أخى هذا إنسان فقير .أجبته مندهشا : فقير !! قال : أجل ، ضعيف. لم أفهم. قلت له : انه صحته جيدة جدا وبنيته قويه ويملك نقودا كثيرة من العمولات . أجابنى : بأنه فقير . لقد وصل إلى وظيفته بأن كان يحضر المزات ويعصر الليمون على «الظلاطة» يقصد السلطة . ويحضر زجاجة الويسكى والكئوس . إنه فقير ، وأخيرا ادركت ان الشخص الذى ليس له نخوة او رجولة أو لا يملك الشرف يطلقون عليه «فقير» .

تعرفت ذات مرة على أحد الأفراد من عائلة ميسورة ، ولا أدرى إن كانت أممت املاك العائلة أم لا. عرفت انه يعمل مع مقاول كبير كان له شأن مهم جدا وقريب من السلطة. بنى الكثير من المدارس والمبانى والمشروعات الضخمة حتى ترميم الاثار فى الخمسينات . ثم جاء زلزال ٩٣ فإذا بها تتهدم او تقع متصدعة بينما المبانى التى بنيت منذ عهد اسماعيل باشا



المراكب الشراعية على صفحة النيل لوحة هام بها الفنان

لم يحدث لها شىء . على كل سألته: ماذا تفعل معه ؟ يبدو أن راتبك كبير جدا حتى أنك تغير عربتك المرسيدس كل عام؟ فقال لى : إننى بالنسبة له كل شىء ، ذراعه الأيمن ، دائما معه فى استراحته بالمريوطية أو ساقية مكى . قلت له : وماذا أنت بفاعل ؟ قال لى : أنا المسئول عن المزاج ، عن الكيف .. قلت له : فهمت ! لقد بلغ بهذا المقاول أن سيطر فى سنوات مضت على كل شىء فى مشروعات الدولة من ترميم آثار إلى إنشاء مشروعات ، وحفر انفاق ومد المجارى . كأنه لا يوجد أحد غيره ، وكل ما أقامه من إنشاءات اثبتت التجربة فشل فاعليته ، وعلى حد قول العراقيين : إن الرجل المسئول عن المزاج« فقير ». أى لا يملك الصلابة أو العزة أو الكرمة . إن هذا الأمر استفحل فى كل مجالات الدولة عندنا أصبح الشخص الفقير يختار شخصا فقيراً آخر حتى وصل الأمر الى بنية الدولة الأساسية. ذات مرة طلب مسئول اول أحد الممثلين وأحد الكتاب، «المتروحنين بالاسم كى يقضيا معه وقتا فى استراحته فى أعلى الوجه البحرى، فأمست جلسات المثقفين المسائية كلها فى كل مكان تدور حول إنه قد اختارهما بالذات لأن تغييرا وزاريا على وشك التشكيل ، وأحدثت هذه المناقشة بلبلة وصخبا ومجالا واسعا من التكهنات : من سيكون الوزير فى الدفاع والاقتصاد ؟ وبمن سيوصى الكاتب من الوزراء ؟ ومضت الأيام ورجع الفرسان الثلاثة وسئل الممثل فلم تخرج اجابته عن أن لا شىء على الإطلاق مما تكهن به الناس. كل ما فى الأمر أنه – المسئول

الأول - كان يحن الى اجازة كيف واسترخاء كما كانوا يفعلون فى أيامهم الأوائل ، ويتذكرون نوادرهم مع بعضهم ..

●●●

إننا نحمل الأمور هنا فى منطقتنا أكثر مما يلزم. فكثيراً من القوانين تسن اعتباطا دون دراسة قانونية . بل يحددها مزاج أشخاص لصالح افراد بعينهم ، وهكذا أصبح القانون يسن في السبعينات يجبه قانون آخر بعد سنوات قليلة ، ولم نخرج ابدا عن الخطأ أو الأضرار التى وقعنا فيها منذ خمسين سنة ، وهى ما اشيع فى بداية الثورة من أنه لابد من التجربة والخطأ ، وكان المسئول حينما تلم به مشكلة منطقية عويصة يقول : هل الحكم كيمياء يعنى ألا استطيع فهمها ؟ لقد استفحل الأمر فى الآونة الأخيرة وأصبحنا نطلق على كل متعطش للسلطة دون مستوى اخلاقى أو علمى يذكر، إنه «فقير» بلغة أهل بغداد . ما مصير دولة يطلق على رجال الحكم فيها - يطلق عليهم بالعربية - «إمعة » وما مصير الكفاءات الحقيقية التى تحارب بأقصى ما يمكن لأن كرامتهم لا تسمح لهم أن يذهب احدهم لاستقبال زوجة رئيسه العائدة من العمرة أو يحضر المزات والكئوس او يصبح الملك فى جلسة توزيع الكيف. هل هانت نفوسهم عليهم أم هانت البلد ؟ إننا بحسبة بسيطة نستطيع ان نصل الى أن تلك النوعية اصبحت تملك حقدا وغلا لإذلال الآخرين الذين يحتفظون بكرامتهم وبكبريائهم وهم ينهون أية مناقشة بأنهم يفعلون ، ما هو للصالح العام أو هكذا امرهم المسئول الاكبر منهم .

أذكر مرة كنت سائرا مع المرحوم احمد غنيم فى بدء شبابنا وإذ به يلمح صورة فى «فاترينة» المصورة «انترو» بجوار سينما مترو قال لى : «انظر أن هذه صورة وكيل نيابة لدى. إذ كان احمد غنيم فى ذلك الوقت رئيسا لنيابة الزقازيق قال أنظر الى شعره الطويل». ثم استطرد احمد غنيم قائلا: إنه ممنوع على وكيل النيابة ان يعرض صورته نهائيا ، اضف الى هذا شعره الطويل وليس بهذه الفجاجة. غداً سآمره برفع الصورة وفى مساء اليوم التالى لم تكن الصورة موجودة، مضى الوقت وقال لى احمد غنيم هل تذكر صورة وكيل النيابة المضحكة التى أمرته أن يزيلها اصبح الآن شيئا مهما ، لقد عرف طريقه!

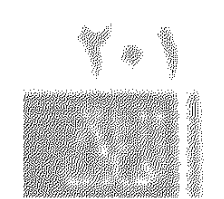
منذ أيام ذهبت الى الجزار وإذ بأحد مساعديه يخرج ليقبله رجل ذو حلة يضيق بها جسده المنتفخ . يقبله على خديه الأيمن والأيسر ثم سأله: هل احضرت لى ما

طلبت ؟ هل نسيت ما طلبته منك ؟ أجابه مساعد الجزار : أبدا يا سعادة البيه .

ثم أتى له بطبق به الأجزاء الحساسة من العجول . فقال له : عال، عال إصنع لى إذن طاجن على كيفك ولا تنس ان تضع ست حبات من جوزة الطيب والتوابل و«التحابيش، وحينما مضى الرجل سألت مساعد الجزار : من هذا ؟ قال لى انه رئيس محكمة (.....) كيف تركت هذا القاضى ويتحكم فى مصير الأفراد . إنه من نوعية اصبحت تسود عندنا الآن، اما القاضى فى انجلترا فما زال ممنوع عليه أن يذهب الى الأماكن العامة او يصادق أحدا ، وهو الوحيد فى انجلترا الذى لا يزال لا يتقاضى راتبا، بل إن خزينة الدولة تهبه ما يحتاجه ولم يحدث أن قاضيا نقض عهده أو أساء استخدام هذا الحق . كان القضاء المصرى مشهورا فى العالم كله بالنزاهة . أما الآن فلا أود أن أتحدث !.

أخذنا من النظم العالمية ابرز مساوئها منذ القرن التاسع عشر من الرأسمالية والفاشية والشيوعية ولم نستفد حتى من اخطاء هذه النظم بل كرسنا جهودنا لنمارس مساوءها فقط، فتعم الفوضى والانتهازية . أين ذهب وعينا وضميرنا الاجتماعى ؟ . أين ضاعت النخوة والشهامة والثقة فى النفس والاحترام للذات .

الحقيقة .. الحقيقة .. الحقيقة أن الضمير الإنسانى حين يكون واعيا بذاته فإنه يصل بالحياة إلى شعاع الضوء فى الأفق اللانهائى ■



قالوا عن المرأة

● إن المرأة قد نشأت منذ طفولتها على ان النموذج الذى ينبغى عليها ان تحتذيه ، هو النموذج المضاد لنموذج الرجل ، بمعنى أن ليس من حقها أن تكون حرة الإرادة أو محكومة بذاتها ، بل أن تكون مستسلمة ومحكومة من الآخرين .

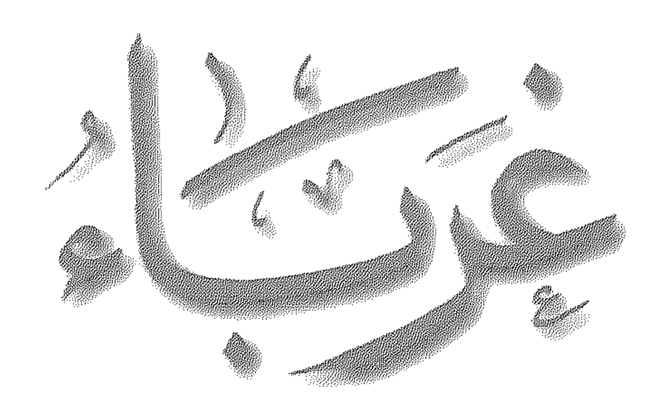
جون استيوارت

من كتابه « خضوع المرأة ١٨٦٩»

كتابة المرأة عن المرأة من الممكن أن تسير في طريق مسدود إذا إصرت المرأة على طرح أدب المرأة باعتباره أدبا موجها ضد الرجل .

الروائية: سلوى بكر

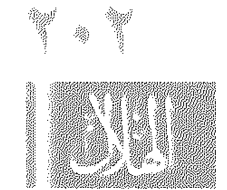
قصة قصيرة



بقلم: د.أيمن الجندى

بريشة: محمد أبو طالب

أمسك بالفأس ورفعه فى عزم.. لم يكن قد أمسك فأسا من قبل ولا اعتادت يده الناعمة ملمسه الخشن البدائى، ولكنه تحامل على نفسه ومضى يهوى به فى قوة على جذع الشجرة. وامتزج صوت لهاثه مع صوت تهشيم الشجرة مع أصداء أصوات غاضبة تقترب من بعيد.







الحكاية كما يرويها العجوز

كان مساء أغبر لم تشرق له شمس، عمري سبعون عاما.. قضيتها بالكامل منحنيا على أرضي.. تمتزج قطرات عرقي بذرات التراب بطعم اللهفة بمذاق الفرح .

فلاح أنا بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. فلاح يؤمن بأن الحياة مقدسة وأن المساس بها جريمة يستحيل الإغضاء عنها .

لذلك يجب أن تتفهموا مشاعر الغضب الجامح الذى اجتاحتنى حينما أبصرت ذلك المأفون يتسلل كاللص فى ظلام الليل ليهشم شجرتى العزيزة.. شجرتى الثمينة التى لا نظير لها فى بر مصر كلها .

لم أكن أعرفه حينما اصطحبه ولدى الى قريتنا الهادئة (وليته لم يفعل)، رحبت به فى حرارة كما تقتضى التقاليد، ومضت (الحاجة) كالعادة تعد الفطير البلدى والحمام المحشو بالأرز والعسل الشهى بينما دعوت الضيف الى جولة فى الحديقة.

اعترف أننى أحببت هذا الشاب لشغفه بحديقتى الغالية.. كان عشقه للأشجار والزهور أصيلا غير زائف .. إن هذه الحديقة هى لى بمثابة الروح من الجسد.. النور من العين.. العطر من الورد. ومثلما يحتفظ البعض بألبوم للذكريات يشتمل على صوره القديمة فإن تلك الحديقة هى بمثابة ألبوم الذكريات الخاص بى.

خذ عندك هذه الشجرة مثلا.. انها لا نظير لها فى بر مصر كله.. زرعتها بيدى منذ خمسين عاما .

هى شجرة نادرة من أشجار الهند لإحدى ثمار الفاكهة غير المألوفة فى مصر. أتى بها باشا مصرى فى إحدى زياراته للهند فى الأربعينات، ولكنه لم يفلح قط فى زراعتها.. يقولون أن مناخ مصر غير ملائم لها.. وحينما تملكهم اليأس استطاع والدى أن يظفر بها .. لكنه لم يفلح هو الآخر فى زراعتها .

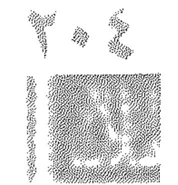
ولكنكم ترونها أمامكم الآن، فهل تراكم تعلمون من الذى أفلح فى ذلك؟

حتما إنه أنا .

مئات الليالى أنفقتها فى محاولات مضنية حتى اهتديت فى ليلة ما إلى الوسيلة المثلى لاستنباتها.

هل أسهب فى الحديث عن مدى فرحتى بذلك أم أن الأمر مفهوم حتما؟.. هل أكون مبالغا إذا قلت إن هذه الشجرة بمثابة ابنتى التى أنجبتها منذ خمسين عاما.. ابنتى الضعيفة المنهكة التى لم تثمر أبدا..؟

هل تخمنون



الشىء الذى أتطلع لرآه بشغف كل صباح قبيل صلاة الفجر فى المسجد؟.. هل تعرفون الشىء الذى يثير هواجسى فى ترحالى؟ والذى أهرع اليه لدى إيابى متملصا من عناق الأهل والأحباب؟

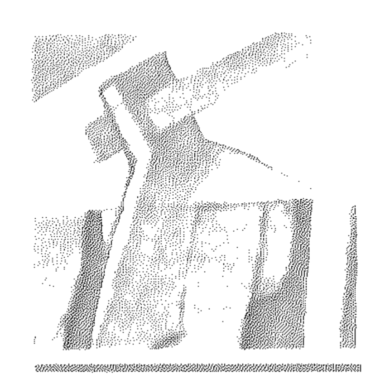
هل تعرفون كل ذلك وأكثر ؟

هكذا مضيت أقص تلك الحكاية الأثيرة نشوان وكأنى أفلحت توا فى زراعتها.

ولكن..

كيف غفلت عن ذلك الشحوب الذى عراه وهو يصغى الى حكاية الشجرة اياها؟ كيف عزوت ذلك الشحوب الى إرهاقه فى السفر ؟.. كم كنت ساذجا حين لم انتبه الى عزوفه عن تناول طعام الريف الشهى الطازج؟.. كيف طاوعتنى نفسى على النوم الهادىء المطمئن حتى انتبهت على صوت مكتوم لم يكن ممكنا ـ كفلاح ـ ألا اعرف كنهه؟.

هو صوت فأس يهوى على جذع شجرة



مافى منتصف الليل ولم يكن ممكنا إلا أن استطلع جلية الأمر .

وهكذا رأيت ..

ويالهول ما رأيت

......

الحكاية كما يحكيها الابن

ماذا تفعل لو أبصرت عزيزا عليك يدير ظهره للشاطىء ويتجه صوب أعماق البحر الغادر صاما أذنيه عن صيحات التحذير؟

ألن تسعى لانقاذه؟

ألن تتمزق من أجله؟

كان هذا هو حالى.

صدقى عزيز هو .. بنفسه العطوف وشفافيته التى تشبه الزجاج النقى الرقيق .. الزجاج الذى يتهشم بمجرد اللمس .

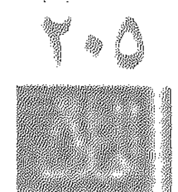
فى البدء لم أفطن إلى تغيره، خلت أن ايثاره الصمت وعزوفه عن رفقة الأصدقاء هو أمر عارض لن يلبث أن يزول .

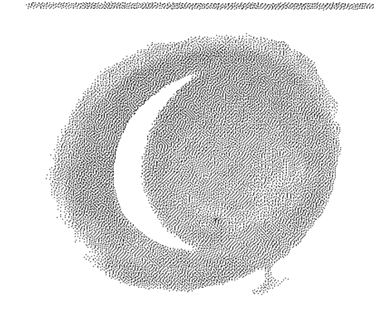
ورغم ذلك لم أقف ساكنا إزاء أحزان صديقى الوحيد .

كان قاربه يبتعد رويدا عن شاطىء البحر ولكنى لم أدرك أنه قد توغل الى نقطة اللاعودة إلا فى رحلتنا المشئومة إلى قريتنا.

ألححت على صديقى أن نمضى عطلة قصيرة بالقرية. كنت أخال أنه ـ حتما ـ سيأبى مرافقتى الا أنه لدهشتى أذعن على الفور. أتراه كان يود الهروب من مدينته التى يمقتها؟ أم تراه أزمع شيئا آخر؟ لست أدرى.

عندما دعاه أبى الى مشاهدة حديقته أشفقت عليه فقد كنت أعلم مدى ولع أبى العجوز بالحديث الممل عنها، كان التأدب وحده هو ما يمنع ضحاياه من الهروب، ولكن المدهش أن صديقى لم يبد عليه الملل بل كان يصغى





اليه فى شغف حقيقى، وقفت أرمقه فى إشفاق،

اعلم ولعه باللون الأخضر، إلا أن ماشاهدته من شغفه أثار شجونى.. متبتلا كان.. يكاد يبكى تأثرا من مشهد الثمار المتدلية من الأشجار، ثم قص أبى حكايته المشهورة عن الشجرة النادرة التى لا نظير لها فى مصر، وعلى الفور وجدت وجهه يشحب .. يتغير.. يمتقع.

لم أفهم بالطبع، وكيف يتسنى لى أن ألم ساعتها بغرابة أطواره؟ لم أفطن إلى سر شروده وعزوفه عن الطعام رغم ترحيب أبى الذى أعجبه ولعه بحديقته .

وفى النهاية مضينا سويا الى غرفتى لننام . حاولت أن أسامره الا أنه تظاهر بالنوم ليتجنب الحديث فلم أشأ الاثقال عليه .

وبينما كنت أتفكر فى غرابة أطواره غلبنى النوم،

استيقظت على أصوات غامضة بعيدة، ورنوت الى صديقى محاذرا ازعاجه الا أننى لدهشتى لم أجده.. هرولت مسرعا مع والدى الذى جاء هو الآخر يستطلع الخبر .

وهناك تحققت أسوأ مخاوفى .

وجدت صديقى يحطم بالفأس - دون سبب مفهوم - شجرة أبى الثمينة النادرة .

لحظتها عرفت أن قارب صديقى قد اختفى وراء نقطة الأفق البعيدة حيث لا عودة ..

لا ريب انه قد جن، ولا فهل ثمة تبرير لتسلله فى ظلام الليل كاللصوص ثم تهشيم شجرة نادرة لأناس كانوا فى غاية من الود معه ؟

هل ثمة تفسير آخر ؟

بالحق لا تفسير لدى إلا المرض النفسى .

لكن هذه التحليلات يمكن تأجيلها قليلا لانقاذه من براثن أبى الذى جن جنونه وأوشك أن يهشم عنقه بذات الفأس، عبثا ما حاولت تهدئة الشيخ العجوز الثائر الذى تهدجت أنفاسه وتناثر لعابه وجمحت عيناه .

بالكاد أنقذت حياته .

....

الحكاية كما يرويها الصديق

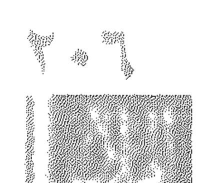
أفهم الآن لماذا أطعت ذلك النداء الغامض الذى ألح بى فى الذهاب الى ذلك المكان البعيد رغم عزوفى عن الرفقة والاختلاط. اعرف الآن لماذا أطعت صديقى كالمسحور .

غريب أنا عن عالمى.. غريب عن نفسى.. على أى جنب ارتاح؟

وعلى أية وسادة أريح رأسى المتعب ؟

ومتى يدركنى النوم وأنا غريب بين غرباء؟

ومتى يدركنى الموت وهو الراحة الكبرى؟



كان الرجل العجوز يثرثر. وقتها راق لى حديثه فلم أكن أمل من حديث العجائز والأطفال قط. تأملت الثمار المتدلية من الأشجار ولم أفهم قطعا كيف يعتاد المرء على تلك المعجزة المدهشة؟ شجرة خشبية تتناول غذاءها من الطين فكيف تنجب تلك الثمار المعطرة الملونة ؟

أى اعجاز؟

كانت الحديقة تنفث السلام النفسى الذى أتوق اليه، وتنشر عبقها الفريد الذى يموج بالحب والصفاء.. وأوشكت لوهلة أن أنعم بذلك الود، وتصورت أننى نزعت عنى جبلة اللحم والدم التى تعكر صفوى وتؤخر لحاقى بالعالم الذى أريد.

كانت الدموع تتدافع فى عينى وأحاول جهدى أن أخفيها كى لا يراها الآخرون. أكاد لا أسمع حديث العجوز وان كنت أتظاهر بذلك تأدبا وبدأت انتبه الى حديثه عن شجرة معينة بالذات .

يقينا كانت تختلف عن سائر أشجار الحديقة. لا أعنى سمتها فلست أدرك أنواعها للأسف وإن كنت أحسن الدهشة فحسب. أدركت دون جهد أن تلك الشجرة مختلفة عن سائر الأشجار الفخورة المتألقة.. كانت وحيدة منزوية غريبة.. كانت خائفة .. خائفة.

لم أعد أصغى الى ثرثرة العجوز وانما شرعت أصغى اليها.. الى الشجرة .. كانت تستغيث بى.. شىء ما كالإلهام انطبع فى وعيى بجلاء..

كانت تقول :

«غريبة أنا فى هذه الأرض..

انتزعونى من بين صديقاتى ..

قسرا فى أرض غريبة صلبونى ..

الأشجار حولى تتحدث لغة لا أعرفها، ولا أريد أن أتعلمها.

يتبادلون نكات لا أفهمها

لم يبال أحد بعذابى

ولم يحاول أحد فهمى

مرضت فلم يفهموا علتى

امتنعت عن الثمار فلم يعلموا

أن الشجرة غير المثمرة تفقد علة وجودها

وتعلن على الملأ رغبتها الصريحة فى الموت

هذه استغاثة من أعماق أوجاعى

من يرحمنى بقطع جذعى؟

من يفعل؟

....

كانت الاستغاثة تنتشر فى الأثير لكنها لم تصل إلى أحد سواى.

من يفعل؟

أنا سأفعل .

التكوين

إن ظن المرء أنه علم فقد جهل

محمد نور فرحات



ماهى العوامل الثقافية والاجتماعية التى أثرت فى تكوينى الفكرى؟ هذا هو السؤال الذى طلب منى الإجابة عنه فى عدد محدود من الصفحات وهو جهد لاشك عسير. ترجع صعوبته الى إن قبول الكتابة فى هذا الموضوع يعنى إقرارا صريحا منى إننى قد تكونت ثقافيا فعلا ، وأن هذا التكوين قد اكتمل وأننى أجلس اليوم على هضبة عالية من هضاب المعرفة تراكمت طبقاتها خلال سنوات عمرى. وهذا افتراض غير صحيح، فمازلت أشعر أننى فى مجال المعرفة كلما صعدت أمتارا هبطت أذرعا وأميالا، ومازال عالم الفكر والمعرفة عندى أشبه بالبحر اللجى المضطرب منه بالهضبة الثابتة الساكنة، بحر تتجاذبه عوامل المد والجزر تعلو أمواجه تارة ويهدأ سطحه كالمرآة تارة أخرى، تصفو سماؤه وترعد وتبرق، وفى كل الأحوال لا تلوح فى الأفق بوادر شاطىء بعيد تستقر عليه سفينة المعرفة التائهة ، لم توصف حالة الحيرة التى تنتاب طالب العلم بأبرع مما وصفه شعرا صلاح عبدالصبور على لسان أبى منصور الحلاج قائلا:

لهثت وراء العلوم سنينا ككلب يشم روائح صيد. فيتبعها حتى ينال طريقا إليها فيركض.. ينقض .. فلم يشبع العلم قلبى قط للمعرفة . بل زادنى حيرة واجفة بكيت لها وارتجفت.



مع عبد الناصر سنة ١٩٦٦ حين كلفني الدكتور أحمد خليفة وزير الشئون الاجتماعية وقتئذ بمرافقة وفد تنزانيا في مؤتمر وزراء الشئون الاجتماعية الافارقة.

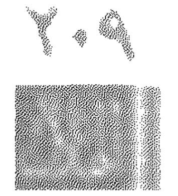
هذا هو حال المتصوفة ولسنا منهم، وإن كانت لنا بعض حيرتهم، وهى حيرة عبر عنها على بن ابى طالب قائلا: «يظل المرء عالما ما طلب العلم، فان ظن أنه قد علم فقد جهل» أى أن العالم صفة ليست لاكتمال العلم وإنما لطلبه ولا يكتمل العلم إلا لدى جاهل به.

الأمر الثانى، أن الحديث عن التكوين العلمى والثقافى، تتداخل فيه اعتبارات الذات بالموضوع تداخلا وامتزاجا يصعب الفصل فيه بين الاعتراف والسيرة الذاتية والعناصر الموضوعية للتكوين الثقافى ، أى أننا نطلب من الذات أن تتحدث بموضوعية عن تاريخها العقلى، وهذا أمر أشبه بالاستبطان أو بجلسات التحليل النفسى الثقافى الذى يجب أن تؤخذ معطياته بحذر شديد من القارئ وتؤخذ عباراته على أنها مجرد دلالات لنظرة المفكر إلى نفسه، دلالات تستدعى بذاتها النظر والتحليل دون أن ترقى إلى مستوى الحقيقة الموضوعية المجردة.

★★★

أول ما أذكره من عوامل تكوينى الثقافى هو ما ربانى عليه أبى المرحوم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ نصر محمد فرحات الذى كان من علماء الأزهر الشريف حصل أبى على العالمية الأزهرية عام ١٩٢٨ ونذر حياته لكى ينقل علمه وقيمه الدينية إلى أولاده من بعده وهم كثر. أذكر عندما كنا نستيقظ أطفالا قبل صلاة الفجر، لنقرأ جميعا بصوت واحد سورتى ياسين والواقعة ثم نصلى الفجر. ونعاود قراءة القرآن ثم يبدأ يومنا بالاستعداد الدراسى مع طلوع الصبح.

أذكر كيف كان التفافنا حول مائدة الغذاء مناسبة لامتحاننا في اللغة العربية



والقرآن والحديث وقواعد الإعراب والنحو والصرف. وأذكر كيف كانت مداعباته معنا تتم على صفحات مختار الصحاح والمصباح المنير والكامل للمبرد، وكيف كنا نحتكم فيما نتساءل عنه من أمور الدين إلى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.

ولعل هذا يفسر أنه رغم تعرضي فكريا لرياح عاتية من فلسفات المادة والالحاد، ظل الإيمان الديني راسخا في الفؤاد لا تزعزعه تساؤلات العقل أو شكوك الفكر، التي هي في بنائي الذهني خلجات أو انتفاضات سطحية على قرار ثابت راسخ من الإيمان الديني وطيد الأركان.

كنت طوال سنوات دراستي غير موفق في الحساب والهندسة والرياضيات، لم يقتنع عقلي الصغير يوما بمنهجها أو جدواها، كنت أراها نوعا من عبث السفهاء الكبار، الذين اخترعوها لمجرد ممارسة هوايتهم في ضرب التلاميذ بالعصا. أما نبوغي الفطري فكان يظهر في مواد اللغة العربية والدين والتاريخ والفلسفة والمنطق.

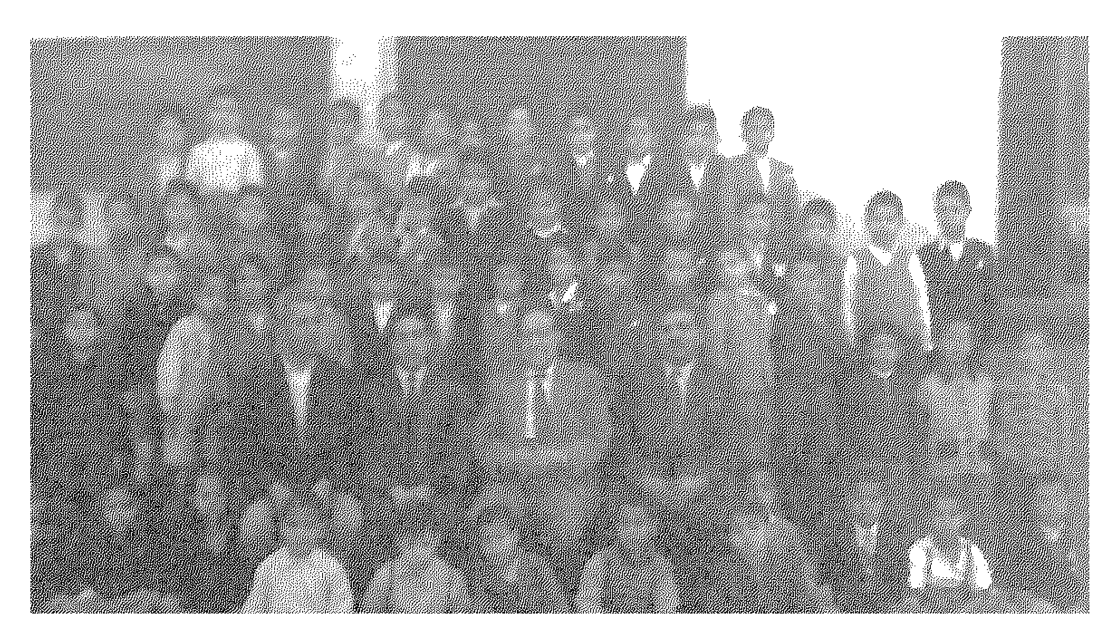
هل يرجع هذا لتكوين فطري؟ أم لأنه لم يكن لدي في الحياة ما أحسبه إلا سنوات عمري الصغير؟ أم لأن مدرسي الرياضيات الذين تصادف أن تولوني بالتدريس كانوا من أشد خلق الله قسوة، في حين كان مدرسي الانسانيات من أكثرهم عذوبة وخلقا ووطنية وثورة؟ قد يكون ذلك كله صحيحا.

مازلت أذكر مدرس التاريخ والجغرافيا، الأستاذ عبدالغفار، الذي كان يقف في فناء المدرسة الابتدائية، وقت الفسحة يخطب فينا في المناسبات والأحداث الوطنية فيحولنا إلى كرات صغيرة مشتعلة بالحماس الوطني تخرج مندفعة متدحرجة الى الشوارع المحيطة تهتف بحياة النحاس وسقوط الانجليز.

مازلت أذكر الأستاذ إسماعيل مدرس التربية الوطنية وسيم الطلعة والمحيا كريم الخلق الذي أنتظرته على بوابة المدرسة سيارة مغلقة متجهمة. رفض السلام علينا عندما اقتربنا منه، ولم يبتسم كالعادة، وأشاح بوجهه ودلف إلى السيارة التي أسرعت بعيدا.. بعد عدة أيام شاهدنا صورته في الصفحات الأولى من الصحف ببدلة السجن حليق الشعر يقف أمام جمال سالم في محاكمات الإخوان الأولى، ينظر إليه في دهشة وهو يطلب منه أن يقرأ الفاتحة بالمقلوب. لا يمكن أن يكون الأستاذ إسماعيل على خطأ وأن يكون جمال سالم الذي تلمع عيناه كنصل سيف

التكوين





١٩٥٠ مدرسة عباس الاميرية الابتدائية . فصل أولي ثالث . الثاني من اليمين في الصف الخلفي

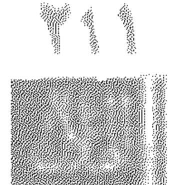
مسرور السياف على صواب، لابد أن ثمة خطأ بشعاً فى جلوس أصحاب الحلل «الكاكية» على منصة القضاء.

تفوق في موضوعات الانشاء

لم أجد تقديرا أو احتفاء بى فى حياتى مثل ذلك الذى لقيته من مدرس اللغة العربية الأستاذ إبراهيم زيادة الذى فاجأنى إلى حد الخوف بانبهاره بموضوعات الإنشاء والتعبير. كانت درجته لى عشرة من عشرة ومازلت أذكر العبارة التى أضافها فكتب يقول: «أحسنت كثيرا بارك الله فيك» وأخذ يحتفظ بكراساتى للانشاء لاطلاع المفتشين عليها لا أعلم تحديدا لماذا كنت أبدأ كل موضوعات الانشاء بعبارة واحدة رغم اختلاف الموضوعات والمضامين «يا لسخرية القدر ويا لرحمة الله».

مازلت أذكر الأستاذ بهجت حسنى مدرس الفلسفة فى التوفيقية الثانوية ذا الشارب الكث الذى حول لنا دروس الفلسفة الى متعة عقلية نحاوره فيها ويحاورنا مثلما يحاور سقراط تلاميذه ، ثم انقطع عن التدريس وسيق الى المعتقل لأن شاربه الكث أنبأ عن تشبهه بستالين قبل أن تفضحه أفكاره وأخلاقه العظيمة.

لم تكن العداءات والتقاطعات الفكرية قد تمكنت من المجتمع ومن نفوسنا بعد ونحن فى مطلع الصبا، لم نكن نجد تعارضا بين حب الفكر والاستماع الى الأغانى الماجنة وترديدها مع النكات البذيئة. ولم نكن نجد مانعا أن يبدى بعضنا إعجابه بالماركسية أو يجهر بعضنا بالالحاد ثم نستمع فى خشوع إلى القرآن الكريم ونتدبر آياته فى حصص الدين. كانت هناك فى المدرسة جماعة للصحافة يأتى إليها كبار الصحفيين لزيارتها مازلت أذكر منهم أحمد الصاوى محمد ومحمد زكى عبدالقادر ويديرها أمير المليجى، وكان فيها جماعة للخطابة وجماعة للتمثيل



وجماعة للاذاعة المدرسية وجماعة للرسم وأخرى للمكتبة وفرق رياضية لكل الأنشطة والألعاب. كان بمدرستنا فى ذلك الوقت ملعبان لكرة القدم وثلاثة ملاعب للتنس وآخر لكرة السلة وحمام للسباحة ومسرح وعدد من معامل الطبيعة والكيمياء، وكنا نتعلم ونمارس الرياضة والهوايات فى المدرسة الحكومية مجانا.

الاطلاع على نفائس الكتب

كانت ثقافتنا العامة تعتمد أساسا على الصحف والكتب كانت صحيفتا المقطم والمقتطف ومجلات المصور والاثنين والمختار والأزهر ومنبر الإسلام ثم بعد ذلك الفكر المعاصر والكاتب وتراث الإنسانية من الصحف الدائمة التى نقتنيها بقروش قليلة. إلى جانب ذلك كانت هناك سلاسل ثقافية راقية مثل سلسلة الألف كتاب وكتابى واقرأ وغيرها التى تقدم كل صور المعرفة بأسلوب شيق رشيق، وعندما كان يعوزنا المال لشراء الكتب كانت قروش قليلة كافية لشراء النفائس من على سور الأزبكية الذى أذكر أننى اقتنيت منه مجموعة جرجى زيدان التاريخية والأدبية كاملة وكتابات مصطفى لطفى المنفلوطى وأمين يوسف غراب ومحمد فريد أبو حديد وهيكل والمازنى وغيرهم.

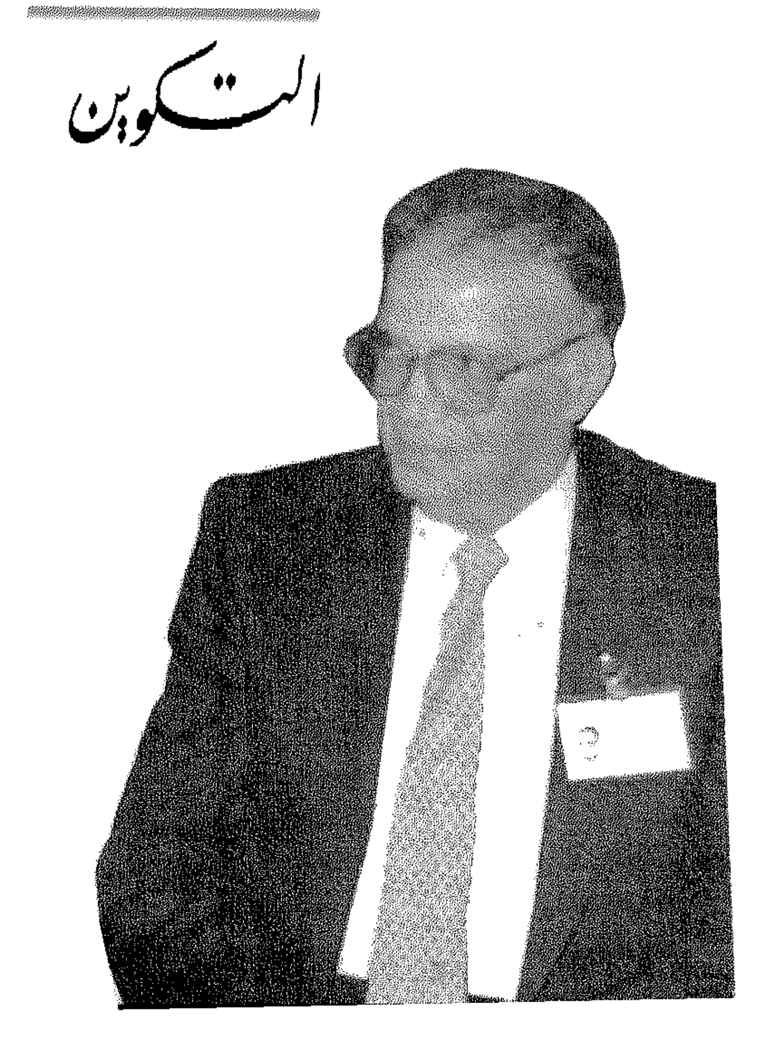
لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد لذا كان الراديو المسموع ذو الهوائى الذى يصل من الدور الأول الى أعلى السطح هو سيد الموقف .كنا نتحلق حوله للاستماع إلى أحاديث الشيخ عبدالوهاب خلاف ومحمود شلتوت وتلاوة القرآن فى الصباح وكانت تبهرنا تمثيليات طاهر أبو فاشا ويوسف الحطاب ومسلسلات ما بعد الخامسة وشدو أباطرة الغناء فى ذلك الوقت.

رغم الحيرة المؤقتة التى انتابتنى إثر حصولى على الثانوية العامة بمجموع مريح يؤهلنى للدخول الى الكلية التى أرغبها بين كليات القسم الأدبى، ورغم ترددى بعض الوقت بين أقسام الفلسفة والصحافة وعلم النفس بكلية الآداب وبين كلية الحقوق إلا أن التردد سرعان ما حسم سريعا لصالح الأخيرة غير عابىء باغراءات الالتحاق بكلية التجارة لما بينى وبينها من تباعد فى الهوى.

خيارات مفتوحة أمام جيلنا

وفى كلية الحقوق ، أعطتنا دراسة

التكوين





فى عام ١٩٦٣ إجتماع على ظهر الباخرة شيخ البلد فى رحلة النيل الجنوبية ، يظهر فى صدر الصورة الاستاذ سيديس وبجانبه المهندس حسن فتحي. انا على طرف المائدة الى اليسار

القانون احساسا عميقا ، أن أمر تكويننا العقلى لم يعد مقبولا أن يترك عفو الخاطر لأننا نتهيأ لمهمة خطيرة.كانت طبيعة المواد التى ندرسها وشخصية الأساتذة من جيل العمالقة ترسخ فينا هذا الاحساس. كنا ننبهر انبهارا عظيما بشخصيات اساتذة كبار مثل عبدالفتاح عبدالباقى الذى كان يحدثنا بلكنته شبه الفرنسية عن مجتمع غيبة القانون قائلا عبارة مأثورة محفوظة حتى الآن فى ذاكرتنا: حيث لا سيد فالكل سيد، وحيث الكل سيد، فالكل عبيد.ومحمود مصطفى الذى كانت تحيط به مهابة تجعلنا ننصت الى قواعد الاجراءات الجنائيةخاشعين ، ومحسن شفيق وجابر عبدالرحمن اللذين كانا يتمتعان بصوت جهورى فيلقيان المحاضرة يجوبان المدرج على أقدامهما صعودا وهبوطا وقد تملكا العقول والقلوب معا، وعثمان خليل الذى كان يحدثنا فى كل تفاصيل الحريات العامة والعلاقة بين المواطن والدولة بصوت هادىء رصين ، والشيخ محمد أبو زهرة الذى كان يسقنا مبادىء الشريعة العذبة فى هدوء ويسر دون تعقيد أو تكلف.

وكان لابد لهذا النوع من الدراسة على يد هذه النوعية الفذة من الأساتذة أن تصوغ من جيلنا أفرادا على مستوى عال من الكفاءة المهنية ذوى جيل ليبرالى مرهف واعتزاز بالنفس باعتبارهم رجال الشرعية والحرية فى نفس الوقت.

وعلى عكس الحال اليوم لم يصطدم خريجو الحقوق تلك الصدمة الحضارية والاجتماعية الهائلة التى يلاقونها بعد تخرجهم ولما تجعل الزرافات منهم يتسولون الرزق على أبواب المحاكم على حساب كل ما تعلموه من مبادىء القانون والشرعية، بل لعلهم لا يحيطون اليوم حتى بهذه المبادىء ـ كانت الخيارات مفتوحة أمام أبناء جيلنا فى المجالات التقليدية للعمل القانونى، وهى المحاماة والنيابة

العامة ومجلس الدولة والنيابة الادارية وهيئة قضايا الحكومة فضلا عن الادارات القانونية بالقطاع العام والمصالح الحكومية.

التمرد على القانون الوضعي

ولكن العمل القانوني التقليدى لم يستهوني فمازالت المقابلة الحائرة بين القانون والعدل تلح على عقلى بشدة، ومازالت المقابلة بين مقاصد الشريعة كما علمنا إياها الشيخ البرديسي وبين كثير من الاجتهادات الفقهية تمثل مأزقا عقليا لى فى إطار عام من الإيمان القلبى . هذه الأسئلة والمقابلات تضخمت بفعل البذرة التى غرست فى عقولنا بفعل محاضرات ثروت أنيس الأسيوطى ذلك الشاب المتمرد على القانون الوضعى العائد لتوه من جامعات الغرب ، والذى أطلق بيننا بشارته الا نتعبد فى محراب القانون النافذ لأن هذا القانون غيرمحايد ويعبر عن مصالح بعينها وألا نكف عن التساؤل حول القانون وما تختبىء خلفه من مصالح وما يحكمه من قيم.

لن يكون القانون بعد اليوم بالنسبة لى سلطاناً يأمر فيطاع. فهكذا يتم قهر الشعوب وهكذا يشيع الظلم.وهكذا أخذ التساؤل يأخذ اتجاها أكثر عملية وجذرية،أكثر عملية لارتباطه بمسار حياتى العملية وأكثر جذرية لأن التساؤل قد طرح جميع المسلمات على بساط البحث. انتهت إذن مرحلة التلقين والاكتساب، وبدأت مرحلة الفرز والتساؤل المثير للحيرة والعذاب معا . جاء الخلاص فى اعلان منشور بجريدة الأخبار فى صيف عام ١٩٦٢ بعد تخرجى بأيام عن حاجة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الى المتفوقين من خريجى كليتى الحقوق والآداب أقسام الاجتماع والفلسفة وعلم النفس للحصول على منحة دراسية تمهيدا للتعيين كباحثين مساعدين بالمركز.

لم يكن المركز الذى لم يمض على انشائه سوى سنوات قليلة قد عرف معرفة كافية فى الأوساط القانونية بمصر ولم تكن صورة المستقبل التى يعد بها واضحة.. ومع ذلك تقدمت بطلبى، فلعل هذا المركز الذى لا أعرفه والذى ينبىء اسمه عند المزج بعين القانون والمجتمع أن يكون ساحة مناسبة لمزيد من التساؤل والتساؤل.

من الجدار للفضاء الرحب

التكوين



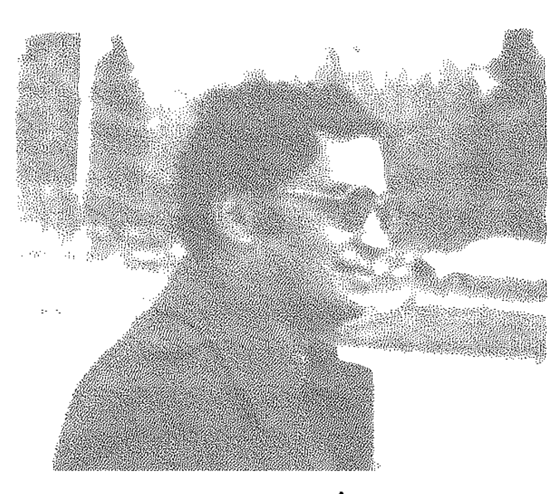
مبنى أنيق غاية فى الأناقة يقع على حافة الرقعة الزراعية التى كانت تحيط العاصمة فى حى امبابة فى المنطقة المعروفة الآن بمدينة الأوقاف. استقبلتى مباشرة مدير المركز ومؤسسه الدكتور أحمد خليفة دون وساطة أو تزكية.كان نوعا من الأشخاص النادرين يجمع بين وسامة المحيا مع رشاقة العبارة مع الأدب الجم مع القدرة على النقد اللاذع مع الفكاهة الراقية. اكتسبت من عملى فى المركز مع هذا الرجل الفذ خبرات عقلية وشخصية يصعب حصرها. فى تناولى للقانون خرجت من بين جدران القانون كما هو كائن الى الفضاء الأرحب للقانون كما يجب أن يكون ، وتحقق ذلك عن طريق التزاوج المستمر بين المعرفة القانونية الوضعية وبين العلوم الاجتماعية العامة وهكذا أدى إلى الحوار المستمر بين مختلف التخصصات الاجتماعية الى أن انصهرت فى نفوسنا جميعا سبيكة العلوم الاجتماعية الذهبية ، ولم نعد ننظر إلى نصوص القانون من وجهة نظر قوتها الالزامية فقط وانما باعتبارها موضوعا للدراسة محلا للنقد والتشريح من وجهات النظر الاجتماعيةو الأخلاقية . كان غريبا ومدهشا أن أجالس وأنا فى هذه السن الصغيرة والخبرة المحدودة مجالسة شبه يومية رجال من قامات سيد عويس والمهندس حسن فتحى وحسن الساعاتى وزكى نجيب محمود وعاطف غيث وعثمان نجاتى وقائمة العمالقة فى ذلك الزمان ممتدة وكان غريبا ومدهشا ورائعا فى نفس الوقت أن يدفع بى الدكتور خليفة وأنا فى مقتبل حياتى العملية الى أقاصى جنوب مصر، فأخلع البدلة ورباط العنق اللذين كانا يعتبران من متممات العمل القانونى وألبس «الشورت» والصندل والقبعة ، واستقل الباخرة «شيخ البلد» التابعة لمصلحة الأثار لتتهادى بنا على صفحة النيل فى جنوب مصر متوجهة الى حدود السودان متوقفة فى قرى النوبة شرق النيل وغربه حيث دابود وتوشكى حتى أوندان ثم فرس، لندرس عادات النوبيين ومشاكلهم الاجتماعية قبل تهجيرهم عندما يحين أوان بناء السد العالى.

اتساع مساحة الاسئلة

كان يجلس معنا على منضدة الاجتماعات البحثية حسن فتحى «مهندس الفقراء» ومحمد خيرى «عالم الاجتماع» ومكرم سمعان «أخصائى علم النفس فى أمريكا الآن » والسيد ياسين «المفكر المعروف الآن» . حقيقة أن السيد ياسين قد أصابنى وقتها بفزع حقيقى عندما أصر أن يتحدث بعبارات انجليزية عن الملاحظة بالمشاركة واستمارة الاستبيان والمصداقية والثبات ومعدل التشتت الاحصائى ، وهى كلها أمور فى مناهج العلوم الاجتماعية كنت اسمعها لأول مرة ولا أدرى لها معنى . فلقد خبرت مصطلحات من قبيل اركان الجريمة وشروط العقد ومبدأ سلطان الارادة وسيادة الدولة ولم أخبر تلك المصطلحات وكان أن ازدادت عندى مساحة الأسئلة . فعكفت على الدراسة.. وأخذت مساحات الاسئلة تزداد اتساعا وتتنوع دروبها، فتارة أشارك فى بحث ميدانى عن العمل

والعمال فى المصانع الكبرى بالقاهرة أجوب بسببه مصانع القاهرة الكبيرة أجالس العمال ورجال الادارة، ومرة أشارك فى بحث عن ظاهرة الاستهلاك، مرة ثالثة أجدنى أجوب سجون القاهرة من الحضرة فى الاسكندرية الى ابى زعبل وطرة بالقاهرة الى قنا مرورا بسجون بنى سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج ، أشارك فى بحث عن أوضاع السجون المصرية، ومرة أخرى أجوب مصر شمالا وجنوبا أجالس قضاة مصر وأسألهم عن العوامل الحاكمة للسلطة التقديرية للقاضى الجنائى، ولا أكاد أفرغ من هذا حتى أجد نفسى بين بدو سيناء ورهبان دير سانت كاترين فى دراسة عن أعراف أهل سيناء، وكان هذا قبل نكسة عام ١٩٦٧.

بروز الظواهر الاجتماعية

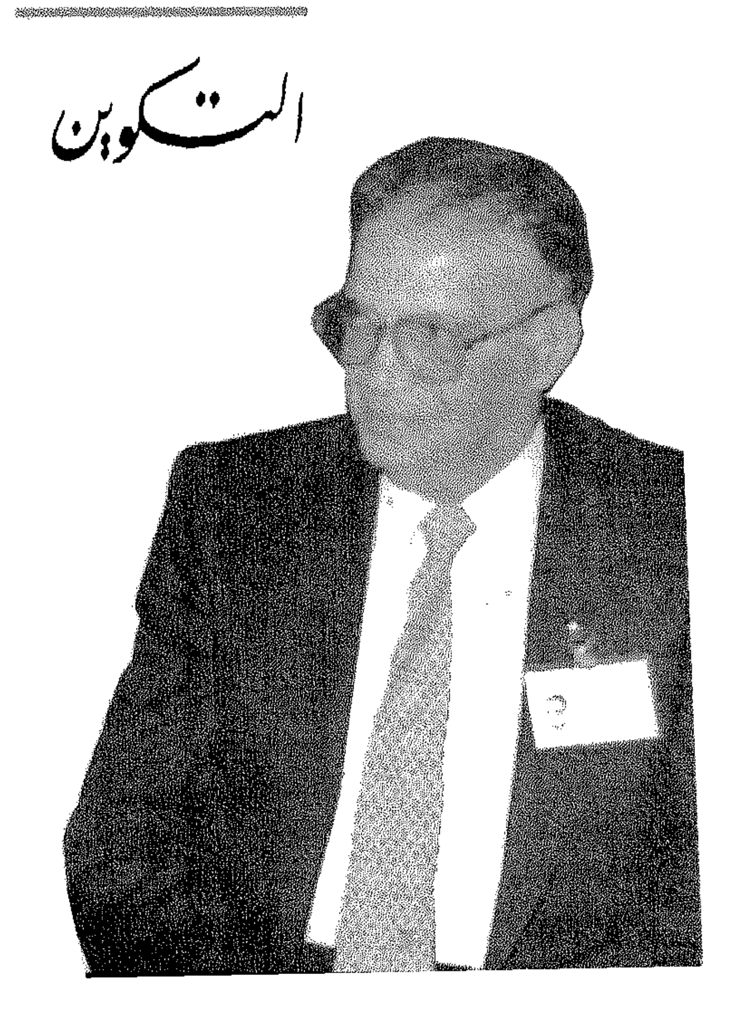


١٩٧٤ - أمام جامعة موسكو

توارت الى مؤخرة الوعى نصوص القانون وشروح الفقهاء وبرزت الى صدارة الاهتمام الظواهر والعلاقات الاجتماعية والثقافية المتداخلة فى علاقتها بالظاهرة القانونية. وكان مطلوبا منى بحكم النظام الوظيفى بالمركز الذى يحتذى حذو نظم التوظف بالجامعات المصرية أن أعد رسالة للدكتوراه خلال مدة محددة. ومثلما عزفت بتكوينى الثقافى المبكر عن الوظائف القانونية التقليدية، عزفت بتكوينى الثقافى الذى اصبح اكثر نضجا وتركيبا عن أن أعد رسالة للدكتوراه سائرا فى دروب القانون الجنائى كما كان يفعل زملائى، اذ رأيت فى ذلك طريقا ضيقا محدودا قد يزيد المعرفة عن القانون ولكنه لا يسمح بالتساؤلات حول القانون ولا يسمح بالحصول على إجابات عن هذه التساؤلات.

كان الطريق المفتوح على مصراعيه.. والذى تهب على جنباته نسائم الحرية الثقافية لرجل القانون هو طريق التخصص فى فلسفة القانون ورغم ان الطريق لم يكن معبدا بعد إذ لم يكن قد

التكوين



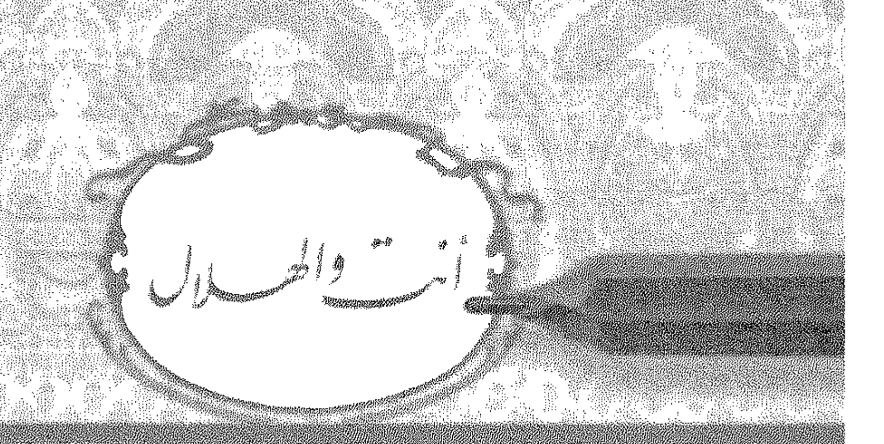


في مايو ١٩٧٥ - اثناء مناقشة رسالة الدكتوراه

طرحه احد فى مصر من الباحثين، إلا أن ثمة استاذاً جليلاً كان يقوم بتدريس منهج فلسفة القانون فى قسم الدكتوراه بحقوق عين شمس هو الأستاذ الدكتور إسماعيل غانم.

التخصص فى فلسفة القانون

كان إسماعيل غانم شخصية متميزة من كل جانب ، كان موسوعى الثقافة لا تقتصر معارفه على مجال القانون الضيق كشأن الكثير من اساتذة القانون ، إذ ان معرفة القانون نوع من الثقافة صاحبها برغبة بالاكتفاء بها عما عداها، تماما كالمعرفة الدينية انه الاحساس بالمعرفة المطلقة استندت هذه المعرفة الى نصوص الدين او الى نصوص القانون او اليهما معا. نجح اسماعيل غانم فى الانفلات من هذه الاطلاقية المعرفية الصارمة التى تصيب الانسان بالتعصب والتعالى الكاذب. ومع ذلك فقد اضفى عليه القانون دقة شديدة فى العبارات وتحديدا للأفكار ونزوعاً دائما نحو الانتصار للحق. عندما طلب منى أن الخص كتاب روسكو باوند «مقدمة فى فلسفة القانون» قدمت له بحثا صغيرا بعنوان «القانون بين الثبات والتغير» اعتبر استاذى هذا البحث من المواد المقررة على طلبة الدكتوراه.. وعندما ابديت رغبتى فى تسجيل رسالة الدكتوراة تحت اشرافه فى فلسفة القانون اعطانى كتاب فريدمان عن نظرية القانون باللغة الانجليزية لاقرأه .. وهو من الكتب ذات العبارة المركزة الصعبية والمادة الثرية الدسمة التى تقدم مسحا شاملا لكل اتجاهات فلسفة القانون . علمنى استاذى الا اسعد كثيرا بالكتب التى تمكن قراءتها فى حالة استرخاء على الفراش فهى لا تترك فى العقل اثرا. إنما ما يكون العقل والفكر هى الكتب التى تدعو قارئها الى الانتباه والتيقظ والتحفز لقبول الجديد.



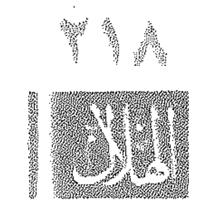
هلال جديد .. وفكر جديد .. تحية .. متبادلة ..

أود أن أعبر عن تهنئتي بالعدد الجديد من الهلال والذى سيضعها – إخراجا ومضمونا – فى طليعة المجلات الثقافية العربية ويؤكد وجودها الممتد منبرا رصينا متجددا لثقافتنا العربية . وأود أن أشير بوجه خاص إلى باب « شخصية العدد» الذى نرجو له الاستمرار كي نتعرف من خلاله على شخصيات مصرية وعربية وعالمية فى قراءة جديدة وضوء جديد ، ومع استمرار الهلال فى تأصيل الثقافية العربية نأمل أن تعطى فسحة أوسع للثقافة العالمية لتظل صلة الشرق بالغرب ، ومع التقدير لما تتضمنه أعداد الهلال من عروض وافية لأكثر من كتاب ، إلا أننا نأمل أن يصبح التعريف الموجز بالإصدارات الجديدة الجيدة بابا ثابتا فى المجلة .

د . السيد أمين شلبى

الهلال :

نشكر الدكتور السيد أمين شلبى وكل المفكرين والمثقفين الذين حرصوا منذ اليوم الأول لصدور هلال يناير ٢٠٠١ الاتصال بنا للتهنئة على الجهد تحريرا وإخراجا وطباعة ، وهذا الثناء يضع أمامنا ضرورة مواصلة تألق «الهلال» فى ثوبه الجديد ، ولن يتم ذلك بالطبع إلا بالدعم الكامل والمساهمات الفكرية والثقافية من الأدباء والمفكرين والشعراء فى كل أرجاء الوطن العربى .



اليهود

ما أسوأ حظك يا موسى ... القوم عبيد الأموال
تركوك وحيداً تتلظى ... هل أنت نبى الأطفال ؟
فسقوا ، كذبوا ، غدروا حتى ... غرقوا فى سم الأفعال
كرهوا كل الأقوام وكم ... كرهوا ينبوع الأظلال
شعب محتال كذاب ... مختال ، مختل ، قالى (١)
وجدوا كي يقبس إبليس ... منهم أفكاراً كنبال
وجدوا خطأ فى عالمنا ... إحذر يا غرب من التالى



يا غـــرب أراك بلا وعى	أتصــدق قــول القـتَّــال ؟
ســحـروا يومـا فـرعـون وكم	لدغـــوه بأفـــعـى الأدغـــال
مـا مـعنى أن تنصـر قـومـا	لا خلق لهم مــــثـل الآل (٢) ؟
سـحـقـوا فى التـاريخ كـثـيراً	السـحق عـقـاب الدجــال
لا حس يجـــول بأضلعـــهـم	فـبـلادتـهـم كـالأجـبـــال
لو ملكوا الدنيـا مـا شـبـعـوا	نهـبـوا غـيم القـمـر الغـالى
ســجـدوا للمــال فـعـذبهم	رب الأمـــــوال بذا المال
من يعـبـد غـيـر الله يعش	جـرثومــاً ذا صـوت عــالى
قــالوا ذبنا في الغــاز ولم	يثـبت أحـد قــول خـيــالى
وهنا فى يافــا مــحـرقــة	يتـجـاهلهـا الجيل السـالى
يتـمـسكن فى الدنيـا حـتى	يتــمـكن ابن الأنذل

(١) كاره

(٢) السراب

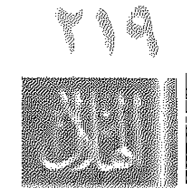
د . هيثم الحويج العمر
دمشق - سوريا

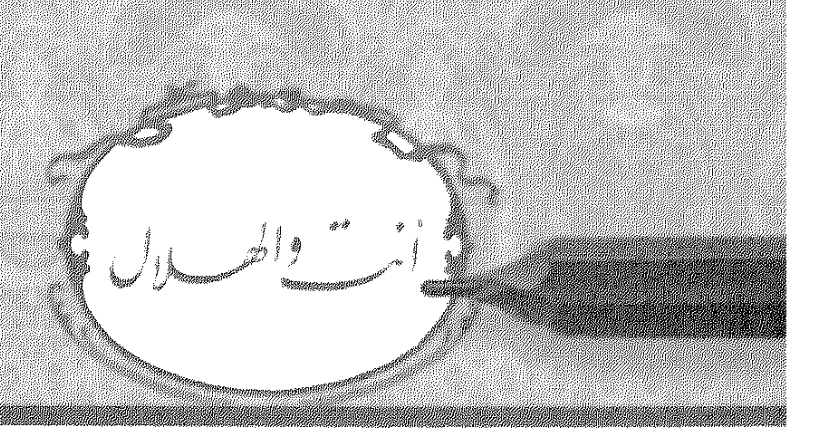
توقعات الهلال منذ نصف قرن مضي

أصدرت مجلة الهلال عددا ممتازا في يناير سنة ١٩٥٠ تحت عنوان : سنة ٢٠٠٠ ، وذلك لمحاولة كشف ما سيكون عليه العالم بعد خمسين عاما في جميع النواحى العمرانية والإنسانية والعلمية (كما جاء فى افتتاحية العدد) . وقد طرحت المجلة أربعة أسئلة على أهل الرأى في ذلك الوقت (توفيق دوس باشا وعبد الرحمن عزام باشا والدكتور ابراهيم مدكور وسليمان نجيب بك) ، كالتالي : «هذه المؤسسات هل تبقي إلى القرن الحادى والعشرين ؟ ، ١ - هيئة الأمم المتحدة ، ٢ - جامعة الدول العربية ، ٣ - مجمع فؤاد الأول (مجمع اللغة العربية) ، ٤ - المسرح التمثيلى .

❑ وكان رد توفيق دوس باشا على السؤال الأول كالتالى :

«اعتقادى أن هيئة الأمم فشلت فى كل أمر سياسى عرض عليها وذلك لعيوب أساسية فى قانونها ، فإن حق الفيتو إنما هو سرطان فى جسم الهيئة يشلها عن تنفيذ أى مشروع سياسى . ذلك لأن ما يرضى الكتلة الغربية لا يرضى الكتلة الشرقية والعكس بالعكس ، اللهم إلا مسألة إسرائيل التي اتفق عليها الطرفان وإن اختلف الباعث علي ذلك الاتفاق . على أن الهيئة قد أدت خدمات جلى فى الميادين الثقافية والاجتماعية والصحية وغيرها ، فلعل هذه من العناصر التى تؤدى بها إلى البقاء والنمو والازدهار . فإذا أصلحت الهيئة قانونها فقد تطول حياتها وتتسع اختصاصاتها ، أما إذا لم يصلح فقد تدفن فى لحد مجاور لعصبة الأمم القديمة .





على أنه من الضرورى ألا ننسى أنه لا يتسنى لهيئة الأمم المتحدة أن يكون لها الاحترام والقوة اللازمين لتنفيذ قراراتها إلا بتأليف جيش قوى يمكنه تنفيذ القرارات التى تصدرها الهيئة ، فهل يتحقق هذا الحلم الجميل ؟ هذا ما سيخبرك عنه أولادنا أو أحفادنا فى ميعاده .

❏ وكان رد الدكتور ابراهيم مدكور (رئيس مجمع اللغة العربية) كالتالى :

هل هناك محل لأن نتحدث عن بقاء وفناء ؟ لست فى حاجة إلى أن أشير إلى أن المجمعيين أنفسهم يؤمنون بسنة الخلود هذه ، يؤمنون بها فى بحثهم فلا يحددونه بزمن ، ويرون دائما أنهم إنما يبدأون وتتم الأجيال القادمة ، إن كان هناك ثمة تمام . ويؤمنون بها فى أحكامهم ، فلا يزعمون أنها نهائية ، بل يقنعون بأن يقرروا أنهم إنما يسجلون الواقع ، فإن جد جديد ذو شأن ، لم يكن ثمة بد من الأخذ به .

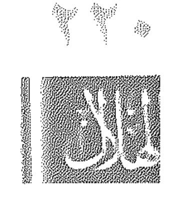
ولن يختلف مجمعنا اللغوى عن هذا فى شىء فسيبقى ما بقيت رسالته ، مسجلا للفصحى تطوراتها ، ومتداركا ما فاتها ، كى تسد حاجة العصر وتلائم مقتضيات الحياة .

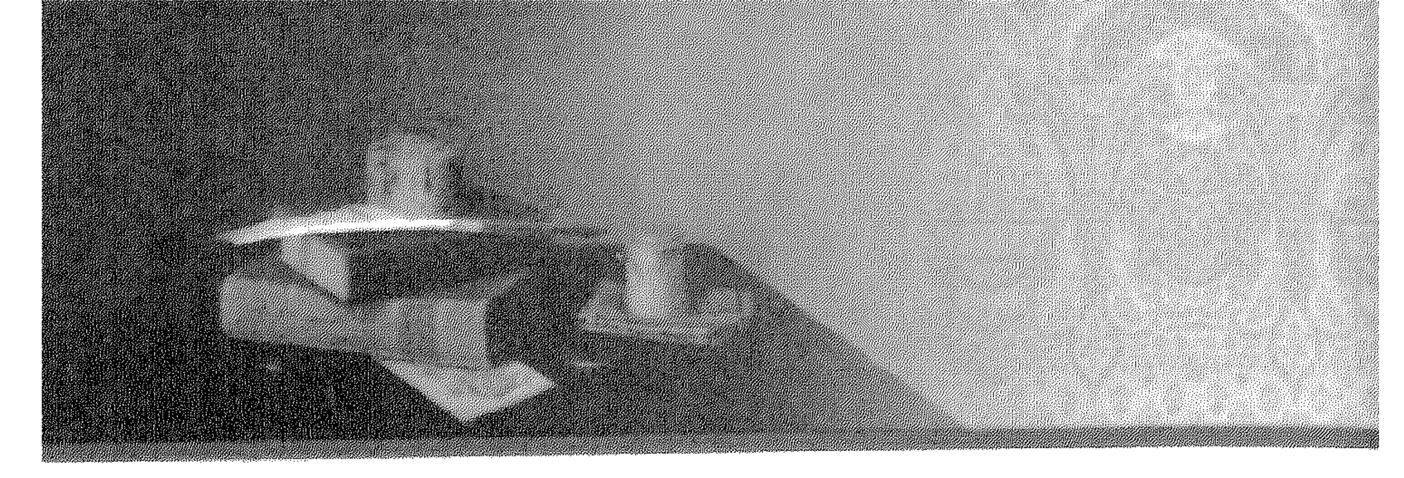
❏ وأخيرا فقد كان رد سليمان نجيب بك كالتالى : لست أدرى لماذا تدور فى رءوسنا هذه الفكرة ولماذا نظن أن المسرح التمثيلى لا يبقى إلى سنة ٢٠٠٠ ، ولست أخاف شيئا يطغى على المسرح وعلى التمثيل إلا السينما .

أ . د. السيد ماضى حسين
هيئة المواد النووية - المعادى

الهلال :

على مدى أكثر من مائة عام نؤدى دورا مهما للثقافة العربية . وحرصنا على نشر بعض التوقعات لما يمكن أن يحدث على مدى الخمسين عاما المقبلة نشرناه فى عدد يناير عام ٢٠٠٠ .



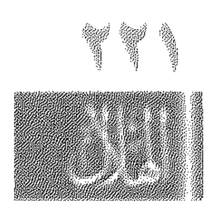


رحم

قطعت يدى فصافحتك
بدمع سال من كبدى
وقلت الآه فانفجرت
منابع رحمتى تروى
شقوق العقم يا ولدى
قتلت الفكر فانفرطت
عناقيدى
وغطت ساحة البلد
حبست الروح فى سجن
من التجوال فى المجهول
لم تجبر
كسور اللوح فى المكتوب
لم «ترسى» مجاديفى
بشط العدل .. لم يكمل
رحيل الفارس المشنوق
فوق شواهد الغد
لأن ملامحى شاهت
وضاع الغد من قدمى

د . حسنه عبد الحكيم عبد الله
كلية بنات جامعة عين شمس

العربي.. والتقاليد الصحفية



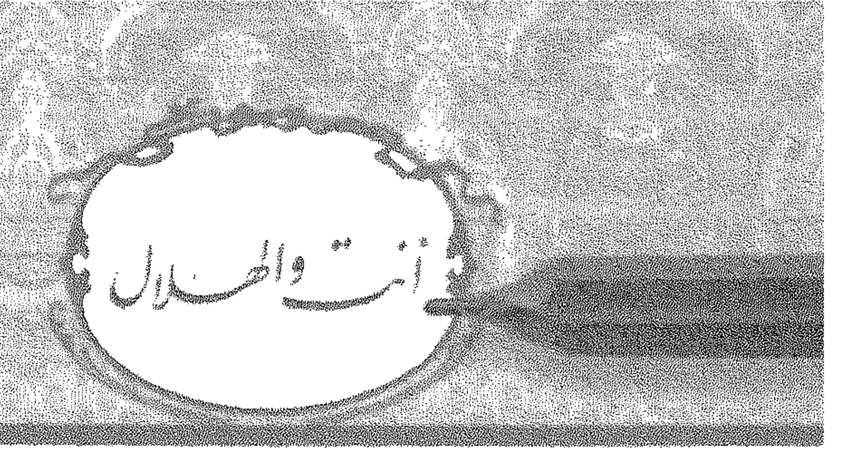
نشرت جريدة «العربى» التى يصدرها الحزب العربى الديمقراطى الناصرى عددا من المقالات التى سبق نشرها فى مجلة الهلال على مدى السنوات الأخيرة والتى أتابعها وأقرؤها باستمرار، ومن بنيها مقالات : سعد زغلول ، النحاس ، هدى شعراوى ، طلعت حرب ، عبد الرحمن الرافعى ، مكرم عبيد ، فتحى رضوان ، حسن البنا ، الملك فاروق ، عباس العقاد ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، محمد حسنين هيكل ، أحمد بهاء الدين ، د . جمال حمدان .

وأسماء كثيرة ، نشرتها «العربى» ..

وأنا أعرف أن التقاليد الصحفية تقتضى ذكر المصدر !

يحيى رشاد نويشى
الجيزة - العجوزة

الهلال : لا تعليق !



بين التليفزيون والإذاعة

● تحت عنوان «التليفزيون كأداة للقهر» كتب د . جلال أمين مقالا بعدد ديسمبر ٢٠٠٠ من مجلة الهلال يقوم على التحليل الدقيق لأداء هذا الجهاز الخطير ، واسمحوا لى أن اختلف معه فى نقطة واحدة هى تلك التى جاءت بالفقرة الأولى من المقال حين ذكر أن «من رأى ليس كمن سمع ، وحاسة البصر فيما يظهر أكثر تملكا للنفس من حاسة السمع» .. فأنا «أرى» أن السمع أكثر تملكا للنفس من البصر ، وألخص وجهة نظرى كالآتى :

● كثير من الصور المرئية لا تتضمن فكرا ، فى الوقت الذى يحمل لنا فيه الصوت فكرا وتأملا ، ولا أقصد هنا صور اللوحات الفنية ، إنما أقصد الصور التليفزيونية ، إلا فى بعض حالات الدراما النادرة كحالة الشهيد محمد الدرة .

● أدعو مشاهد التليفزيون وهو يشاهد أحد المسلسلات أن يغلق مفتاح الصوت لبضع الوقت ، فسوف لا يرى إلا شفاها تتحرك وصورا بلا مضمون فكرى تثير الضحك والسخرية ، بينما يحدث العكس عندما يستمع إلى الراديو ، حيث يمكنه أن يترجم ما يسمعه إلى صور مرئية ، دون الحاجة إلى الرؤية البصرية !

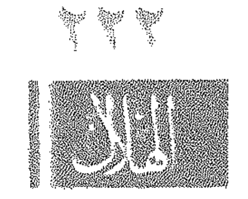
مازالت تمثيليات ألف ليلة وليلة وغيرها تعيش فى وجداننا ، وكثير منا يفضل سماعها على رؤيتها بالتليفزيون .

● بل إن المرء إذا رأى أحيانا منظرا مبهرا كمنظر الغروب عند أفق البحر فإنه يغمض عينيه ليرى أكثر ويستمتع أكثر .

● أما بالنسبة لسماع الموسيقى والأغانى ، فالكثير منا يفضل سماعها بالراديو .

عادل شافعي الخطيب

القاهرة - حدائق القبه



دموع فى خدود الثرى

لا تجزعى وتجرعى كأس العذاب
سيجىء يوم ينجلى فيه الضباب
يا قدس يا جرح العروبة والقلوب
يبكى اليراع عليك بالدمع السكوب

* * *

يا حسرتي أمسى البغاث محلقاً
والصقر أوهنه التخاذل والشحوب
والدود ينخر فى الجراح ويبتغى
مص الدماء فليس تعنيه الثقوب

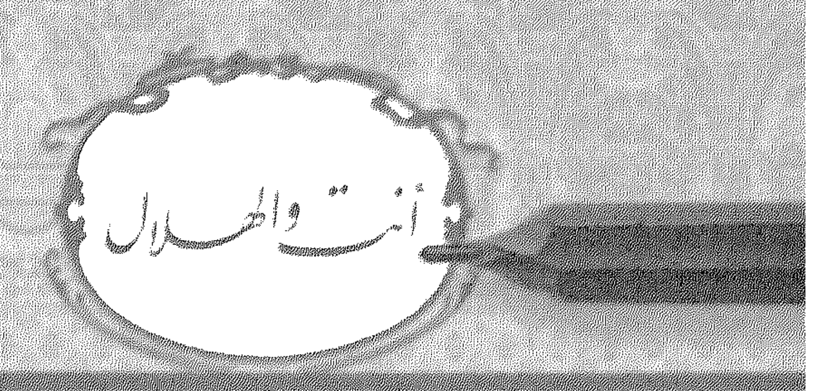
* * *

يارب هذى القدس اضناها الأسى
ودموعها بين الثرى تشكو الطغاة
مقهورة فى كل يوم تحتسى
كأس الردى من غادر يخشى مداه
وهناك طفل فى يديه حجارة
بين المدافع لا يبالى بالحياة !!
يا أمة الإسلام لا تتقاعسوا
وأعيدوا نور الفجر من قبو الوفاة

حاتم عبد المحسن غيث
الدقهلية - طلخا

همهمات.. فى أذن النخيل

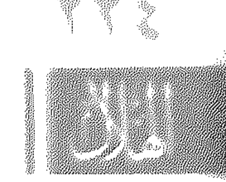
بشراكمو حراس روض خمائل
فالنيل فى وديانكم يتفجر
عذب ، سليل المجد فاح حياؤه
من كل فج فى الروابى يقطر
فبكفه الأغصان أضحت سندسا
تكسو الضفاف ، والشذى تتعطر
وكأنه الشوق الدفوق غشى الظمى ؟
فيهيم فى أغواره ، يتبختر
ويهدهد الغرس الحرون على الثرى

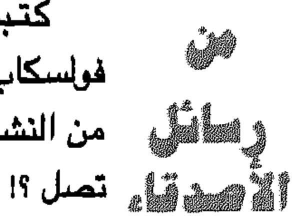


ينساب نوراً فى الدياجى ، ينثر
فرحا ينام على الجسور ، متيما
فيداعب الفجر الضحوك ، ويبصر
فإذا بدت أنات غوث ، يقتفى

صوت الأنين وبالغدائر يسهر
تشتاقه أطياف هدء الملتقى ،
والنخل فى عليائه يستبشر
(هاميس) فى ثوب الزفاف تزفه
ولعرسها الجدب انبرى يتحسر
هذا الغدير ألفته منذ الصبا ،
فلكم لهونا والمنى يتنكر
مهما اغتربنا بين ليل دامس
ما للمسافر بالسنا يتعثر
هذى المسلات ، المعابد فى العرا
جاءت تقر بفيض حسن يسحر
لكنها قد أطلقت بين البرا
ح رسالة : وجع الجداول ينذر

عبد الناصر أحمد الجوهرى
نادى أدب المنصورة



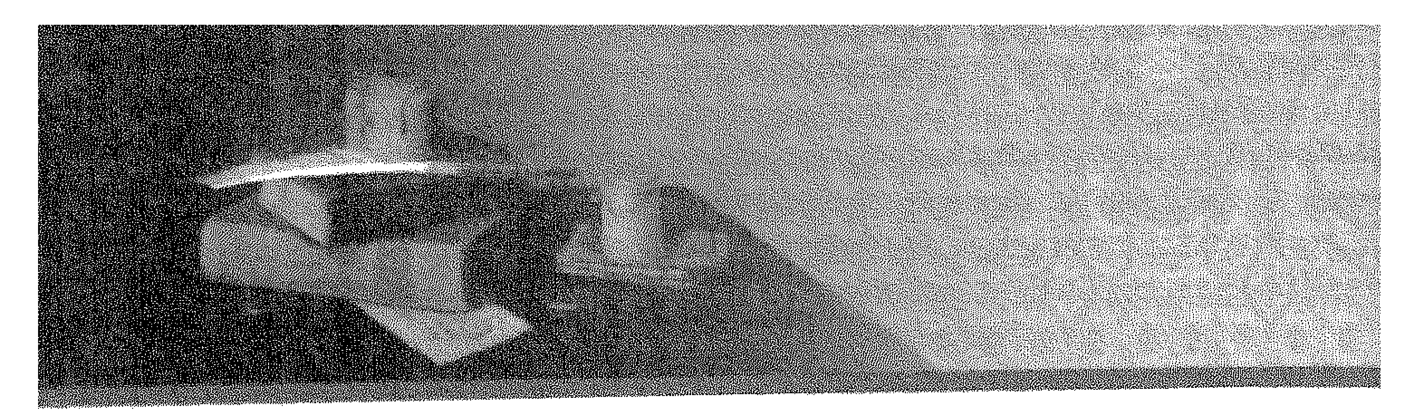


كتبت كلمة بسيطة عن «أين ثقافة المصريين» فى صفحة واحدة فولسكاب وأرسلتها بالفاكس بتاريخ ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٠ ولم تجد حظها من النشر .. وهل وجدت طريقها إلى مكان الأوراق المستغنى عنها أم لم تصل ؟!

طلال السعيد
كفر الشيخ - مطوبس

الهلال :

صديقنا العزيز طلال : تصل إلى الهلال مئات الرسائل ، فضلا عن



قصائد الشعر والقصة القصيرة ، وقد يكون هناك قضية مشتركة نتناولها فى نفس العدد ، وبالتالى لا نذكر كل أسماء الأصدقاء .

ونحن دائما فى انتظار مساهماتك ، وثق بأننا نعتنى بكل ما يصلنا من رسائل .

أخا الإسلام

هذه أبيات من قصيدة للصديق زكريا عبد المحسن – أسيوط – جزيرة الواسطى :

أخا الإسلام لا تجزع لنائبة بدنياكا

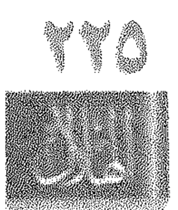
وقل حمدا تجد عونا من الرحمن مولاكا

فكل مصيبة تمحو كثيرا من خطاياكا

فلله احتسب وارجع تفز ويرق مثواكا

فلا تحزن على قرح وخل الحزن ينساكا

الصديق : خالد عبد الرءوف : قصتك «ثقب الإبرة» فكرتها جيدة، ونرجو أن تتسع مساحة لنشرها فى هذا الباب .



** وهذه أيضا أبيات من قصيدة بعنوان «تعالى» أرسلها إلينا الصديق طارق مراد :

قد تأخرت كثيرا كم تظنين العمر

فتعالى قبل أن تنوى أكاليل الزهر

فأنا والياسمين كل يوم ننتظر

** الصديق : السيد عصر ، وصلتنا قصيدتان نرجو أن تجدا متسعا للنشر وكل الرجاء أن تحاول كتابة قصائدك بشكل أوضح ، حيث يصعب قراءتها .

الكلمة الأخيرة

لكل المقهورين أجنحة

د. رضوى عاشور

حكاية «لكل أبناء الربّ أجنحة» من الحكايات المشهورة في التراث الشعبي الأفرو - أمريكي، وهو تراث زاخر، أنتجه الأفارقة من موقعهم المستجد في عالم حُملوا إليه قسرا، ليبدأوا فيه حياتهم على خشبة المزاد، ومنها إلى المزارع للعمل سخرة تحت تهديد السياط.

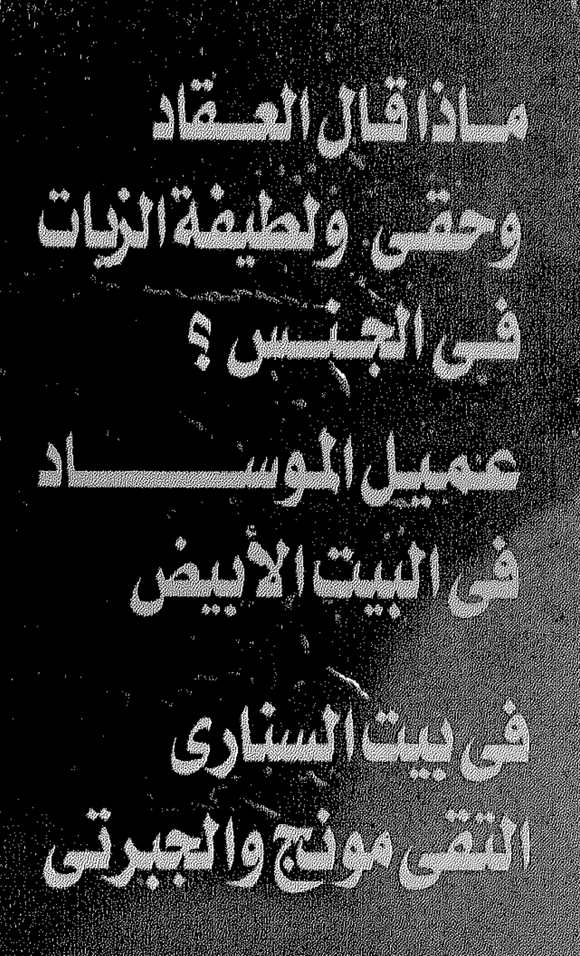
يبدأ الراوي الحكاية قائلا : «في سالف الأيام كان لكل الأفارقة أجنحة، كانوا قادرين على التحليق كالطيور». ثم يحكي الراوي عن امرأة تعمل في المزرعة ولم تتعاف بعد من الوضع . يصرخ وليدها فتجلس لترضعه. يضربها سائق العبيد. تقوم للعمل ولكنها تسقط من شدة الوهن. يضربها من جديد، هكذا حتى تتطلع المرأة لشيخ أفريقي من العبيد وتقول له بلغة لا يفهمها سادة المزرعة : «هل حان الوقت يا والدي؟» فيجيب : «حان الوقت يا ابنتي». فإذا بالمرأة تطير بصغيرها وقد نبتت لها أجنحة. يتكرر المشهد مع عبد آخر وحين ينتبه سيد المزرعة ونائبه وسائق العبيد إلى أن الرجل المعمر هو مصدر الكلمات التي تجعل العبيد يطيرون يهجمون عليه لقتله، ولكن الشيخ يضحك ويوجه كلامه بصوت جهوري لكل عبيد المزرعة. و«أثناء حديثه كانوا يتذكرون كل الأشياء التي نسوها، ويستحضرون ما كان لهم من قوة فقدوها، ثم نهضوا جميعا معا، العبيد الجدد والعبيد القدامى. رفع الشيخ يديه فقفزوا جميعا في الهواء وهم يهتفون في صوت واحد. وفي لحظة كانوا يحلقون كسرب من الطيور .. الرجل يصفقون والنساء يغنين والأطفال يضحكون .. ولم يكونوا خائفين» .

ليست هذه مجرد حكاية انتجتها المخيلة الجماعية للعبيد الأفارقة، فيما عُرف لاحقا باسم الولايات المتحدة الأمريكية، تُصوِّر واقعهم، وتكسر طوقه، وتوسّع عبر الخيال حدود عالمهم، فتعيد لهم الثقة في قدراتهم الإنسانية، ولكنها أيضا حكاية نموذجية تلتقط قانونا من قوانين النضال الشعبي من أجل التحرر، حيث الذاكرة شرط من شروط هذا الفعل التحرري.

أتابع تفاصيل الانتفاضة الفلسطينية، في الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨، أعود لهذه الحكاية، أتمتم: لكل المقهورين في الأرض أجنحة.



مارس ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات



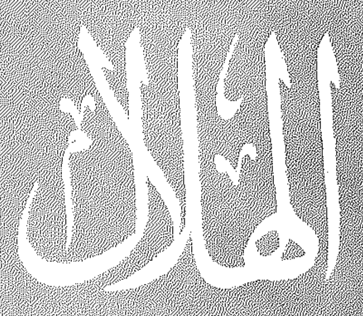
عونى هيكل و ٤٠ عاما مع الفن

لوحة ذات المروحة

للفنان: أحمد صبري



لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

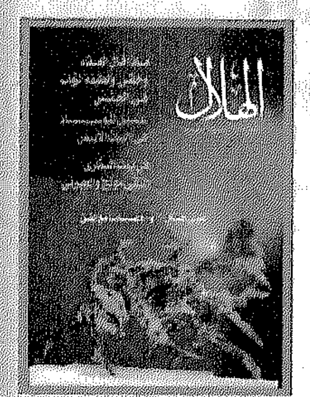
محمود الشيخ — المدير الفنى

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
عن تمثال للفنان
عوني هيكل

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
ذو الحجة ١٤٢١هـ — مارس ٢٠٠١م

فنون

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

بعد النجاح الذى حققته «الهلال» فى ثوبها الجديد، فمن الضرورى توجيه الشكر والتحية لأسرة تحرير «الهلال» للجهود الكبيرة التى يقومون بها، فقد عشنا تجربة رائدة، تظهر الطاقات اللا محدودة الكامنة والتى يملكها الإنسان فى بلادنا. عندما ظهرت فى صفوف العاملين مهارات وقدرات كبيرة، فاستطاع عدد منهم أن يعمل على الأجهزة الحديثة بكفاءة عالية.. وتعمل أسرة التحرير كفريق عمل على قلب رجل واحد.

ونضع بين يديك العدد الثالث من مجلة «الهلال» بعد تطويرها، وهى التى اعتادت على التطور والتجديد، واحترفت السبق وأدمنت النجاح..

فقد حظيت منك - عزيزى القارئ - باهتمام كبير، ومتابعة دقيقة، ومحبة صادقة، تلمسها من تلك الرسائل والاتصالات والاقتراحات التى تصلنا، وفى إرتفاع أرقام التوزيع، وتأكد لنا أن الخيط الواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل لم ينقطع، ويسعدنا ما نلاحظه من أن ما يزيد على ستين فى المائة من قراء الهلال من الشباب والقراء الجدد..

وكما ظهرت على صفحات «الهلال»، أسماء أشهر الأدباء والشعراء والفنانين والمفكرين، ممن كان لهم أبلغ الأثر فى عقل ووجدان الإنسان المصرى، فقد استمرت «الهلال» تضم نخبة من الكتاب، لست مبالغا إذا قلت إنهم عقل الأمة وموضع أحلامها، يكتبون على صفحات المجلة باهتمام ودأب، رغم قلة العائد المادى، ورغم وجود العديد من الفرص لمضاعفة هذا العائد، ويؤكدون بما

أســرة التحـريـر

يكتبونه، أن رسالة المفكر نحو أمته هى دافعهم الأول، وأن فريق كتاب الهلال يضم أولئك المنشغلين بالقضايا العامة، والساعين إلى إضاءة الطريق نحو الغد، والذين يتطلعون إلى حياة بلا أزمات، لا أزمة بطالة ولا أزمة مساكن ولا إضطهاد عرقى أو دينى، ولا ظلم الأقوياء، للضعفاء، ويحلمون بعالم يسوده العدل والجمال، ويشغلهم مستقبل الأجيال المقبلة..

ولعل ندوة الهلال فى عيدها المئوى خير شاهد على ذلك والتى حضرها المفكرون والكتاب العرب من كل العواصم العربية، وكان موضوعها «نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث»..

ولم نحتفل بهذه المناسبة وحدنا بل سعينا إلى تطوير المحيط التى تعيش فيه «دار الهلال»، والتى قامت فى حى السيدة زينب أكثر الأحياء عراقة، ونجحت دعوتنا فى إقامة مكتبة طلعت حرب فى الحى، ووافق بنك مصر على تمويلها، وترميم مدرسة السنية أول مدرسة ثانوية للفتيات فى مصر، وطالبنا بترميم بيت السنارى مقر علماء الحملة الفرنسية.

ولم نندم على ما قمنا به، عندما لم يتذكر أحد دورنا، ولم ندع حتى إلى حفل افتتاح مكتبة طلعت حرب التى قامت نتيجة جهودنا، ويكفينا أن المكتبة والمدرسة وبيت السنارى تحولت إلى مشاعل مضيئة فى الحى الذى تقوم فيه «دار الهلال». فمن يعمل عملا حقيقيا لا ينتظر الجزاء، فالحياة تصحح ذاتها بلا انقطاع.





ثقافة الخنوع

بقلم

د. أحمد يوسف أحمد

عندما بدأت عملية التسوية السلمية للصراع العربى - الإسرائيلى تؤتى ثمارها بدأنا نسمع عما يسمى بثقافة السلام، ولاحظنا جهوداً محمومة لاستغلال هذه العبارة التى لا يمكن أن يعترض عليها أحد فى حد ذاتها فى تحقيق غايات مشبوهة، ولم يقف الأمر عند رعاية بعض القوى العظمى والكبرى لهذا الهدف «النبيل»: إشاعة ثقافة السلام، بل لقد دخلت منظمة اليونسكو الساحة من أوسع أبوابها، وقيل يومها إن منطق وجودها ذاته يرتبط بثقافة السلام: ألم يبن هذا المنطق على أن الصراعات تنشأ فى عقول البشر؟ وبالتالى فإن العمل على إشاعة ثقافة السلام وترسيخها هو من صميم أهداف هذه المنظمة الدولية.

ولم يكن خافياً أن ثمة هدفاً محدداً وراء تلك الجهود: ذلك هو تطويع أو إلغاء إرادة الصراع مع إسرائيل بصفة خاصة، لمن بقيت لديه هذه الإرادة من القوى الفاعلة العربية، وترسيخ وضع إسرائيل فى المنطقة بدعامة ثقافية، ومحو ذاكرة الأمة ووعيها الحاضر بصراعها مع إسرائيل قدر المستطاع، كى تضمن أكثر المستقبلات أمناً، وأشد الأوضاع سيطرة، والدليل على هذا أن جهود ثقافة السلام لم تمتد إلى إسرائيل كما امتدت إلينا، كما لو أن العرب هم الأكثر حاجة إلى تعلم «ثقافة السلام».

ولقد كانت مواجهة هجوم «ثقافة السلام» ممكنة على أية حال، فالضغط من الخارج واضحة أهدافه، وهو من ثم يستثير كوامن المقاومة فى الجسد العربى، وقد كان. وتعرض هجوم «ثقافة السلام» لمقاومة ضارية من فئة واسعة من المثقفين العرب، أثبتت، التزامها بالسلام، وفهمها الصحيح لهذا السلام الذى لا يمكن أن يبنى إلا على العدل، وليس على بنى ثقافية شوهاء، غير أن الخطر الأشد بدأ يجيئنا من الداخل فى صورة أفكار تروج لما أود أن أطلق عليه «ثقافة الخنوع»، وهى وإن ارتبطت عضوياً بثقافة السلام - ولعلها

ثقافة الخنوع

المكمل الموضوعى لها - إلا أنها قابلة للتمييز عنها.

☆☆☆

وتهدف «ثقافة الخنوع»، بالوعى أو باللاوعى، بسوء النية أو بالسذاجة، إلى تطويع الإرادة العربية لكل محاولات تشكيلها، إن لم يكن القضاء عليها، أياً كان مصدر هذه المحاولات، بحيث تصبح إمكانية إنجاز أى تصحيح - ولو نسبى - لميزان القوى المختل بين العرب وخصومهم وهماً بلا جدال، ويستند مروجو «ثقافة الخنوع إلى «الواقعية» حسب زعمهم، وحقيقة الأمر أن الواقعية قد ظلمت كثيراً، مع أن أى باحث علمى أو رجل حركة سياسية لا يستطيع أن يؤسس جهوده إلا على الواقع بعد تحليله وفهمه، غير أن ثمة فارقاً هائلاً بين أن تلوذ بالواقع لتبرير العجز عن المقاومة، والتغيير إلى الأفضل، وبين أن تنطلق منه بخطى راسخة نحو المثالية المنشودة.

والأمثلة لا أول لها ولا آخر من واقعنا على تسلل «ثقافة الخنوع» إلى بعض الأقلام والأصوات، ومنها المؤثر فى حياتنا الفكرية والسياسية، وإذا اخترنا ساحة الصراع العربى - الإسرائيلى على سبيل المثال لهالنا ذلك الكم الكبير من «مخرجات ثقافة الخنوع» الذى يتصل بصميم قدرتنا على النضال والمجابهة.

☆☆☆

فى أيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى التى تفجرت فى أواخر الثمانينات (اعتباراً من ديسمبر ١٩٨٧) روج أنصار «ثقافة الخنوع» لاستحالة التطور النوعى للانتفاضة، بمعنى أن تنتقل مثلاً من انتفاضة حجارة إلى استخدام أساليب أخرى للنضال، وكان الإنذار بالويل والهلاك لكل من تسول له نفسه أن يستخدم ولو سكيناً فى المقاومة، على أساس أن ذلك سوف يستفز القوة الإسرائيلية لردود أفعال مدمرة لا يمكن احتمالها.

وعلى الرغم من أن التطور النوعى للانتفاضة من حيث أساليب النضال لم يكن مطروحاً بإلحاح آنذاك إلا أن أصحاب ذلك «التخويف» نسوا أو تناسوا أن كل القوى الاستعمارية قد مرت بذات الخبرة، وأن حركات التحرر المناضلة ضدها قد تطورت نوعياً فى مرحلة معينة، وأن ردود الأفعال الاستعمارية، وإن كانت شديدة الإيلام هائلة التكلفة للشعوب الخاضعة للاستعمار، إلا أن الأمر الذى يجب ألا يغيب عن بال أحد أن النصر كان دائماً من نصيب هذه الشعوب، وأن التكلفة الهائلة كانت هى الثمن الباهظ

الذى دفعته من أجل حريتها، والتى كان مستحيلاً انتزاعها بغير هذا الثمن.

☆☆☆

وعندما وقعت اتفاقية أوسلو التى مثلت - على الرغم من سوءاتها البنيوية العديدة - نقلة فى السياسة الإسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية - على الأقل من منظور الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى - وتلت ذلك عمليات إعادة انتشار القوات الإسرائيلية التى ترتب عليها إخلاء عدد من المدن الفلسطينية المزدحمة بالسكان، وتسليمها للسلطة الإدارية الفلسطينية، أرجع أنصار «ثقافة الخنوع» هذه التطورات الإيجابية - بغض النظر عن الاختلاف حول تقييمها - إلى إرادة السيد المتفرد الجديد للنظام العالمى، ذلك أنه قد تعين عليه - أى السيد الأمريكى - بعد حرب الخليج الثانية أن يرتب أوضاع المنطقة بما يضمن له استقرار مصالحه فيها، وهكذا فإنه لا بد للفلسطينيين، من قريب أو من بعيد، فى انتزاع ما حصلوا عليه من تنازلات.

ثم تعثرت اتفاقية أوسلو، وبدا أن إسرائيل تراجع نفسها حتى فى تلك التنازلات المحددة التى قدمتها مضطرة بموجب تلك الاتفاقية، وطُرحت قضية الخلل فى ميزان القوى الذى يقف وراء التعنت الإسرائيلى ومن ثم ضرورة تصحيح ذلك الخلل، ولو نسبياً، بفعل عربى عامة، وفلسطينى خاصة، وهنا انبرى أنصار «ثقافة الخنوع» ليبشروا بأن زمن النضال قد ولى، وأن القضية برمتها باتت مستقرة فى كنف المسار الدبلوماسى، ولا شىء غير ذلك، وأن خروج القوات الإسرائيلية من مناطق الكثافة السكانية الفلسطينية يجعل من المستحيل قيام انتفاضة فلسطينية أخرى، وهذا فى الوقت الذى كان عدد من الساسة الذين لا يمكن وصفهم بالتشدد فى الوطن العربى يحذرون فيه من أن استمرار تجاهل حقوق الشعب الفلسطينى سوف يؤدى لا محالة إلى انفجار فى المنطقة. وظل أنصار «ثقافة الخنوع» يروجون لمقولاتهم حتى صدمتهم انتفاضة الأقصى منذ أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ لكى تثبت حتمية التغيير النوعى فى حركة التحرر الفلسطينى، كما كان الحال فى كل حركة تحرر وطنى سبقتها، وتؤكد قدرة الشعب الفلسطينى مجدداً على رفع تكلفة الاحتلال: الطريق الوحيد لإجبار إسرائيل على إعادة حساباتها.

★★★

ومع تصاعد حركة المقاومة فى الجنوب اللبنانى بقيادة «حزب الله» نشط أنصار «ثقافة الخنوع» فى اتجاهين: أحدهما تقليدى، والثانى «يواكب المتغيرات»، أما التقليدى فقد تمثل فى الاستخفاف

بإنجازات المقاومة عسكرياً، فإن بدا واضحاً أن هذه الإنجازات تزداد عدداً وتقوى تأثيراً يوماً بعد يوم انتقل هؤلاء إلى التأكيد على أنها مهما كانت لا تتناسب مع الثمن الفادح الذى تدفعه الدولة والشعب فى لبنان من جراء الضربات الانتقامية الإسرائيلية؛ متناسين على الدوام أن هذا هو الثمن الطبيعى والمعتاد الذى دفعته كل حركات التحرر الوطنى المعاصرة، بالنظر إلى أن الرضى بالاحتلال وعواقبه يمثل الثمن الأكثر فداحة. وأما الاتجاه «المواكب للمتغيرات» فانصب على التنبيه إلى أن المقاومة اللبنانية تتحرك على هدى من الماضى، وأن عصر «العولمة» بالتأكيد ليس هو عصر حركات التحرر الوطنى، حيث يسيطر السيد الأمريكى فى زمن «العولمة» هذا على كل شىء، ويرسم بيده نهايات كل القضايا.

ثم أخذت المقاومة اللبنانية فى التعاظم، وبدا واضحاً أنها تفرض نفسها بالتدريج على الساحة السياسية فى إسرائيل، وأنها وصلت إلى النقطة الحرجة التى تقترب فيها من النجاح فى التأثير على أعصاب العدو الحساسة: فى مراكز دراساته الاستراتيجية أولاً، ثم فى أوساطه السياسية ثانياً، وصولاً إلى مؤسسته العسكرية ثالثاً، ومن ثم دنت - أى المقاومة - أكثر وأكثر من لحظة إجبار العدو على إعادة حساباته، وهنا خفتت أصوات أنصار «ثقافة الخنوع»، ولم يكن هذا من قبيل الاعتراف بالخطأ، أو الإعجاب بما يجرى على ساحة المقاومة، وإنما يبدو أنه كان لإعداد العدة لمواجهة المستقبل بنفس المنطق الخانع.

وهكذا فإنه مع اضطرار القوات الإسرائيلية للهروب بليل من الجنوب اللبنانى فى تلك الأيام المجيدة من شهر مايو ٢٠٠٠ التى مثلت انتصاراً كلاسيكياً لحركة تحرر وطنى فى زمن العولمة خرج أنصار «ثقافة الخنوع» بأقصى ما يمكن أن يثير الإحباط، ويدعو للتأمل فى حقيقة الدوافع، فقد ركزوا على مقولة أن إسرائيل لم تكن أصلاً تريد الاحتفاظ بالجنوب، ولم تعلن ذلك يوماً، ولم يتوقف أحدهم ليسأل نفسه لماذا بقيت تحتفظ به اثنتين وعشرين سنة إذا لم تكن له قيمة كبرى لديها؟ ولماذا لم تفكر فى تركه إلا بهذه الصورة المذلة؟

وعم الوطن العربى شعور بالفخر تزامن مع اليأس من عملية التسوية السلمية على المسار الفلسطينى - الإسرائيلى بموجب اتفاقية أوسلو وتوابعها، وهنا تجاسر البعض على طرح

مليشيات حزب الله قامت بدور مهم فى تحرير الأرض

إمكانية تكرار تجربة الجنوب اللبنانى فى الحالة الفلسطينية. لم يكن هؤلاء يقصدون بالضرورة النقل الحرفي، فذلك أصلاً مجافٍ لمنطق التاريخ والأشياء، ولكن المعنى كان يتركز فى أن «فعل التحرر الوطنى» مهما تعددت أساليبه وأشكاله هو وحده القادر على الإنجاز، وليس المفاوضات العقيمة التى تجرى فى ظل ميزان مختل للقوى لصالح العدو، وهنا انبرى أنصار «ثقافة الخنوع» ليقولوا إن مجرد التفكير فى الاسترشاد بتجربة النضال فى الجنوب اللبنانى فى الحالة الفلسطينية وهم وعبث، إذ لا يوجد أدنى وجه للمقارنة بين الحالتين!!.

☆☆☆

ومع تفجر انتفاضة الأقصى فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ عادت الروح إلى حركة التحرر الوطنى الفلسطيني، وهنا عاد أنصار «ثقافة الخنوع» على الفور للتحذير من القوة الإسرائيلية الباطشة وآثارها التدميرية فى الساحة الفلسطينية، وللتنبيه إلى ضرورة العودة إلى المسار التفاوضى بأقصى سرعة ممكنة، لاستحالة تحقيق إنجاز من خلال الصدام مع القوة



ثقافة الخنوع

الإسرائيلية، وبعيداً عن أن رد الفعل العسكرى الإسرائيلى متوقع وعاجز فى نفس الوقت عن وضع نهاية لتلك الحركة التحررية. كما كان الحال فى كل الخبرات المماثلة – لم يلحظ هؤلاء أن إسرائيل على الرغم من كل بطشها لم تطلق العنان للحدود القصوى لقوتها لأكثر من سبب، وبصفة خاصة لأن الشعب الفلسطينى أثبت قدرته المتزايدة على إلحاق الضرر المادى والمعنوى بخصمه.

ولقد أعادت انتفاضة الأقصى الروح للشارع العربى، وبرزت قطاعات واسعة من الجماهير العربية عامة، والشباب العربى خاصة، لم تكتف بالسير فى مظاهرات حماسية تأييداً للشعب الفلسطينى، ولكنها حاولت أن تمارس فعلاً أكثر تأثيراً، سواء باستخدام الإنترنت فى عمل دعائى لصالح قضية هذا الشعب، أو بالدعوة إلى تفعيل المقاطعة الاقتصادية للعدو، وربما ظن أنصار «ثقافة الخنوع» فى البداية أنها دعوة جوفاء ستذهب أدراج الرياح، لكنها – لسبب أو لآخر – بدأت تحدث آثارها على نحو أقلقهم كثيراً فيما يبدو، وكلما بدت شواهد أكثر على النجاح – كأن تعلن مؤسسات تجارية أجنبية عملاقة عن براءتها من إسرائيل على صدر كبريات الصحف، أو تموه بعض المؤسسات الأخرى على اسمها الذى يشير بشكل أو بآخر إلى ارتباط بمعسكر العدو، أو تظهر مؤشرات على تراجع مبيعات، وأرباح مؤسسات بعينها كانت هدفاً للمقاطعة، أو تتبارى مؤسسات أخرى مماثلة فى إظهار تعاطفها مع القضية الفلسطينية، وإظهار دعمها المادى للشعب الفلسطينى – كلما حدث هذا وغيره صعد أنصار «ثقافة الخنوع» من حملتهم ضد المقاطعة: أين مقاطعتكم البلهاء هذه من تشابك الاقتصاد الدولى؟ هل تظنون أنكم بسوقكم الهزيل هذا تؤثرون على مجريات الصراع؟ ألا تدرون أنكم لا تعاقبون بمقاطعتكم هذه سوى أنفسكم؟ هل تقدرون على مقاطعة تكنولوجيا العدو.

لاشك أن دعوة المقاطعة الاقتصادية قد شابها قدر من الارتباك وعدم الشفافية، وأنها قد استُغلت على نحو رخيص من بعض المصالح التجارية الضيقة، لكن ما أزعج أنصار «ثقافة الخنوع» لم يكن هذا القصور، وإنما أزعجهم أن ثمة قدرة على الفعل آخذة فى التبلور، ولهذا فإنهم لم يهتموا بالدعوة إلى ترشيد المقاطعة، وإنما كان كل اهتمامهم هو وأدها فى مهدها، ونسوا أو تناسوا أن مصالح «العمال» التى انبروا للدفاع عنها،



بحكم أنها سوف تتضرر من جراء المقاطعة عندما تؤدى إلى خروج استثمارات أجنبية، قد أضيرت من قبل بسبب سياسات أخرى لا علاقة للمقاطعة بها، لكن أحداً منهم لم يفكر لحظة فى التصدى للدفاع عن تلك المصالح فى حينه، وإنما تذكروها جميعاً عندما ارتبطت بقدرة على الفعل من أجل الكرامة، ونسوا أو تناسوا أن المقاطعة يمكن أن تكون رمزية لمجرد التعبير عن رفض العدو، وأنها يمكن كذلك، كما تشير الخبرات السابقة، أن تكون انتقائية: تقاطع ما يؤلم العدو، ولا نقاطع ما يصيب القائم بها بالضرر، وأن العدو لرغبته فى تقليل آثارها السلبية عليه يقبل بقواعد اللعبة على هذا النحو. وبمجرد تلويح الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بعروض شوهاء للتسوية سارع أنصار «ثقافة الخنوع» بالدعوة إلى قبولها «قبل أن تضيع الفرصة» (أى فرصة؟!) كما ضاعت من قبل فرص أخرى (يقصدون قرار التقسيم)، كأن نضال الشعوب من أجل تقرير مصيرها مقامرة، أو كأنها مطالبة بالرضى بالظلم الفادح لمجرد عدم قدرتها على تغيير الواقع فى لحظة من لحظات التاريخ. لم يتوقف أحد من أنصار ثقافة الخنوع ليسأل نفسه لماذا الإلحاح على التسوية السريعة بعد البلادة فى الحركة؟ ألا يمكن أن يكون ذلك لإجهاض تطورات ايجابية محتملة من وجهة النظر الفلسطينية والعربية؟ ولماذا نربط مصيرنا برئيس غربت شمسه فى الولايات المتحدة الأمريكية أو بسياسى فاشل يخوض معركة انتخابية شبه يائسة فى إسرائيل؟ ولم يهتم أحد بملاحظة أن عروض التسوية المطروحة على الفلسطينيين على الرغم من سوئها الظاهر آخذة فى التحسن، وأن هذا التحسن لا يمكن أن يرد إلا إلى الفعل الفلسطينى خاصة والعربى عامة وليس إلى الخوف والخنوع، وأن القبول بتلك العروض إذن لن يكون سوى قطع للطريق على وصول حركة التحرر الوطنى الفلسطينى إلى غاياتها.

☆☆☆

يتوقف المرء كثيراً عند محاولة استكشاف دوافع «ثقافة الخنوع»: أهى اختراق خارجى؟ أم انعكاس لمصالح ذاتية؟ أم أنه تعود على الخنوع على النحو الذى جعل عبد الرحمن الكواكبى يطلق صرخته المدوية فى «طبائع الاستبداد»؟ وعلى الرغم من أننى اكتفيت فى الصفحات السابقة بإثارة المسألة من منظور الصراع العربى - الإسرائيلى فإن «ثقافة الخنوع» تحاول أن تتسلل على نحو لا يقل وضوحاً فى جميع قضايانا الحيوية، فهل لنا أن نمعن النظر فى هذه الظاهرة، وأن نحاول استقصاء أسبابها، والتنبيه لما يمكن أن تلحقه من ضرر بمستقبلنا الذى نسعى إلى أن يكون مستقبلاً مستقلاً كريماً آمناً؟ ■



«عملية الخليل»

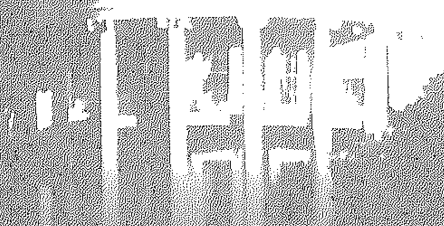
رواية امريكية تتناول علاقة امريكا باليهود

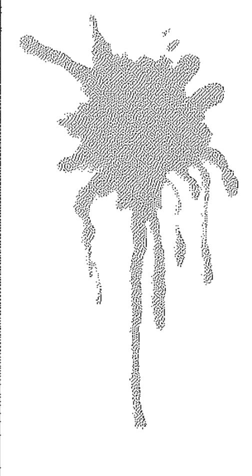
عميل الموساد في البيت الأبيض؟

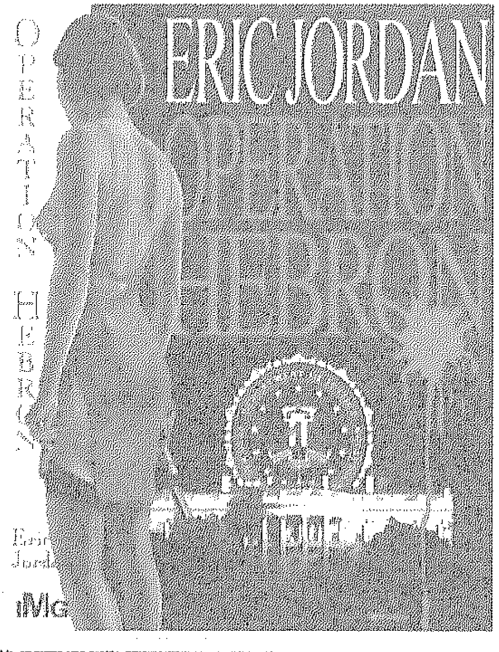
بقلم: نهله محمود صالح

كانت اسرائيل منذ قيامها، ومازالت، الطفل المدلل للولايات المتحدة الأمريكية، فهي تتقبل أخطاءها، بل وتحاول أحياناً أن تبررها، وهي تستخدم نفوذها كدولة عظمى، تستخدم حق الفيتو مثلاً، حتى تضمن عدم إدانتها في مواجهة العالم.

وقد اعتدنا، نحن العرب، على قبول هذه العلاقة الخاصة باعتبارها أمراً واقعاً مفروغاً منه وان تعددت مبرراته ما بين أسباب دينية وعقائدية أو أسباب سياسية واستراتيجية، أو مزيج منها جميعاً!.







وأصبح مفهوماً ومقبولاً أن يهتم كل مرشح لانتخابات الرئاسة الأمريكية بالتأكيد على التزامه بأمن إسرائيل والحفاظ على مصالحها.

ولعل اعتيادنا على حتمية هذه العلاقة هو الذى جعلنا لا نطرح أى تساؤلات مثل: إلى أى مدى يمكن أن تستمر هذه العلاقة الخاصة والمتينة بين الطرفين؟. هل يمكن أن تتطور الأمور إلى النقطة التى تتعارض فيها مصالح الكيانين؟. وماذا يكون رد فعلهما لمثل هذا الموقف المفترض؟. وهل يمكن أن ينتج عن ذلك مشكلة تعدد أو اختلاط ولاءات الأفراد المنتمين لواحد من الطرفين أو كليهما؟.

هذه التساؤلات وغيرها طرحت فى رواية جديدة صدرت فى يوليو ٢٠٠٠ تحت عنوان OPERTION HEB-RON أو «عملية الخليل».

أما مؤلف الرواية فهو Eric Jor-Dan إريك جوردان، وهو صاحب تاريخ طويل من العمل فى مجالى الدبلوماسية وأنشطة التجسس، خاصة فى مناطق الشرق الأوسط وإفريقيا وأوروبا. لقد عمل جوردان فى واشنطن كضابط مخابرات مختص بعمليات الشرق الاوسط كذلك كلفه الرئيس الأمريكى رونالد ريجان، بصفته مستشاراً خاصاً فى شئون الإرهاب، بعدة مهام سرية خاصة تتعلق برهائن أمريكيين فى لبنان وغيرها من الدول. أما وقد عرفنا ذلك

عـــميل الموســاد
فى البيت الابيض

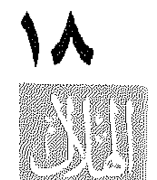
فيحق لنا، نحن القراء، آن نتــوقع أولاً: رواية محكمة شيقة يجيد صاحبها تصوير ما يحدث فى عالم المخابرات، وثانياً: رؤية سياسية معينة لابد أن يكون المؤلف قد توصل إليها من خلال خبرته الطويلة فى مجالى الدبلوماسية والجاسوسية منذ الخمسينات وحتى بداية الثمانينات.

والحق أن المؤلف قد نجح فعلاً على مدى ٣٧٥ صفحة فى الحفاظ على اهتمام القارىء لمتابعة أحداث الرواية المثيرة التى تدور معظم تفاصيلها فى مكاتب المخابرات ومكاتب رؤساء الدول فى مدن العالم المختلفة: واشنطن، موسكو، بروكسل، القدس، وغيرها. أما شخصيات الرواية فهى لا تقل إثارة عن الأحداث نفسها إذ تتضمن الرئيس الأمريكى والرئيس الروسى ورئيس الوزراء الإسرائيلى وعدد من ضباط المخابرات والمحققين والمرشحين للرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى ألسنة هؤلاء، وفى تكامل وتداخل مع أحداث الرواية تتجمع خطوط وتفاصيل الرؤية التى سنحاول أن نستجليها للقارىء.

حقا إن «بعض الحقائق من الأفضل أن تقال وقد ارتدت ثوب الخيال القصصى»!.

عن الرواية

يتلخص الحدث الرئيسى فى الرواية فى أن المخابرات الإسرائيلية (الموساد) كانت قد نجحت فى تجنيد أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى كعميل لها. وبعد عشرين عاماً من إمداد هذا العميل للموساد بالمعلومات ومساعدتها بالتأثير فى قرارات الكونجرس تقرر السلطات الإسرائيلية أنه لم يعد يكفى أن يكون لها تأثير INFLUENCE قوى فى عملية صنع القرار الأمريكى، وإنما يجب أن تصل الى التحكم فى Con-trol صنع هذا القرار. وهكذا تدفع



اسرائيل بالسناتور العميل، اسمه الكودى حبرون وهوالاسم العبرى لمدينة الخليل، تدفع به إلى انتهاز فرصة إمكانية ترشيح الحزب له لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية. ويدخل حبرون فعلاً الانتخابات مرشحاً عن الحزب الجمهورى، وبالتأييد المادى والمعنوى القانونى وغير القانونى من الموساد ينجح حبرون فى اكتساح منافسيه فى سباق الرئاسة، لكن أحداثا أخرى غير متوقعة تتصعد حتى تطيح به فى اللحظات الأخيرة، وقد كان قاب قوسين أو أدنى من احتلال كرسى الرئيس الأمريكى فى المكتب البيضاوى!.

تبدأ الرواية بجريمة قتل تتم فى أحد أحياء العاصمة الأمريكية واشنطن فى السابع من نوفمبر، أى عشية اجراء انتخابات الرئاسة الأمريكية. ولا يعرف القارىء هوية الضحايا الثلاثة لهذه الجريمة إلا فى الفصول الأخيرة من القصة. وما بين البداية والنهاية تتصاعد الأحداث متلاحقة وتتحرك الشخصيات التى أجاد المؤلف رسمها بحيث تبدو متسقة مع اختياراتها وردود أفعالها. وذلك كله فى اطار من براعة الحكى ودقة الوصف والاهتمام بالتفاصيل.

ليس تعاطفاً مع العرب

ومن حسن الحظ أن المؤلف لا يذكر العرب إلا قليلاً، بما لا يمكن معه اتهامه بالتعاطف معهم. وهو فى الوقت ذاته لا يعبر عن شىء من العداء ناحية إسرائيل.

هو فقط ينبههم، كصديق فيما يبدو، إنه لا يمكنهم الاعتماد بشكل مطلق على أساليب الضغط والأنشطة التجسسية لإرساء أمن إسرائيل وضمان استقرارها مستقبلاً. أما السبيل الوحيد لتحقيق هذين الهدفين فهو الدخول فى مفاوضات سلام حقيقية مع العرب. ففى الفصل الثانى من الرواية، والذى تدور أحداثه فى القدس، يستغرق رئيس الوزراء الإسرائيلى أهارون إيشيل Aharon EsheL فى التفكير فيما يجب عليه عمله لحل مشاكل حكومته وشعبه بالذات، فيما يتعلق بعلاقة بلاده بالولايات المتحدة الأمريكية، خاصة أن الادارة الأمريكية الحالية تتبنى موقفاً متشدداً من إسرائيل.

لقد بدأت العلاقات الأمريكية الاسرائيلية فى التدهور منذ غزو

عميل الموساد في البيت الابيض

إسرائيل للبنان، ثم ساءت الأمور أكثر بعد كشف العميل الإسرائيلي بولارد Pollardفي وزارة الدفاع الأمريكية وما تم عن طريقه من سرقة أجزاء من السلاح النووى واليورانيوم المخصب من الولايات المتحدة. وعندما أقدم رئيس الوزراء إيشيل على تجميد مفاوضات السلام مع العرب وصلت الإدارة الأمريكية إلى أقصى درجات التشدد:

«لقد أيدناكم عسكرياً ومادياً. تفاوضوا من أجل السلام مع العرب، وإلا لن تحصلوا على دولار واحد من الادارة الأمريكية الحالية» ص٢٣.

لكن رئيس الوزراء الاسرائيلى لا ينوى الاستجابة للضغوط الأمريكية والعودة إلى مائدة المفاوضات لأنه لا يقبل التنازل عن أى أراض أخرى. وهكذا يلتقى إيشيل بمجلس وزرائه المصغر محاولاً اقناعهم بتاييد وتمويل عملية حبرون، أى دفع السناتور الأمريكى العميل للفوز بمقعد الرئاسة، ويوجه حديثه إليهم قائلاً:

«إذا نجحت عملية حبرون فإن ذلك سيعنى تغييراً جذرياً فى قدرتنا على التحكم فى السياسة الأمريكية لمدة عقد من الزمان، وسنستطيع خلال هذه السنوات أن نعقد اتفاقيات مشتركة ونبرم معاهدات تحافظ على اسرائيل ومصالحها لمدة قرن من الزمان! لن نكون عندئذ بحاجة إلى مباحثات فى كامب ديفيد أو مفاوضات فى أوسلو أو اتفاقات فى واى» ص٢٨.

لكن عملية حبرون لا تكلل بالنجاح فيخاطب رئيس الوزراء الإسرائيلى نفسه فى الصفحات الأخيرة من الرواية قائلاً: «إن هذه المكائد الجنونية الخطيرة لم تعد هى الاسلوب المناسب لحماية إسرائيل. يجب أن تنخرط أمتنا بصدق فى عملية السلام. إن هذا هو الأمل الوحيد لابنائنا وأحفادنا. أعرف أن هذا قد يكلفنى حياتى، فلا يزال بيننا كثير من المجانين،

لكننى كنت ومازلت مستعداً لمثل هذه التضحية من أجل شعبى» ص٣٦٢. ولا تفوتنا كقراء بالطبع أن هذه إشارة لشخصية إسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل الذى تم اغتياله على يد أحد مواطنيه احتجاجاً على عملية السلام مع العرب.

لكن لهجة النصيحة التى يتبناها المؤلف لا تخلو من نبرة حادة قد تصل إلى التحذير من الاعتماد على تأييد الرأى العام الأمريكى لاسرئيل. يقول المؤلف على لسان ضابط المخابرات الإسرائيلى فى واشنطن إنه رغم الوجود الكبير لليهود فى أمريكا إلا أن ذلك لا يضمن التأييد التلقائى من اليهود الأمريكيين لاسرائيل.

بمعنى آخر فإن الانتماء للديانة اليهودية لا يستتبع بالضرورة الولاء السياسى لدولة إسرائيل. ويقدم جوردان نموذجا لذلك هو برندا ستراوس -Bren da Strausمحققة مكتب التحقيقات الفيدرالية المكلفة باكتشاف العميل حبرون. إن برندا، اليهودية الديانة الأمريكية الجنسية قد شاركت فى الايقاع بالعميل الاسرائيلى بولارد، رغم ما سببه ذلك من توتر وصل إلى حد مقاطعة والدها اليهودى المتعصب الذى يرى أن انتماءه الحقيقى هو للدولة العبرية!. تقول برندا:

«أنا يهودية، نعم، لكننى لست إسرائيلية» ص٣١٠ وهى تعتقد أن الولاء لاسرائيل كان من سمات جيل والديها، أما جيلها الذى كثر فيه التزاوج مع غير اليهود وانتشرت فيه اتجاهات أقل تعصباً للصهيونية، فسيكون كما تأمل أكثر اندماجاً فى المجتمع الأمريكى أكثر استيعاباً لثقافته وقيمه.

أسطورة الموساد

تبدو المخابرات الإسرائيلية (الموساد) فى الرواية من أقوى وأجرأ أجهزة المخابرات فى العالم، ويرد هذا المعنى على ألسنة العديد من الشخصيات فى سياقات متعددة. وهذه القوة لا تنبع فقط من كفاءة العاملين بها وإنما، وهو الأهم، لما يتمتع به مؤيدو اسرائيل من حصانة فى المجتمع الأمريكى، وإلى حد ما فى المجتمع الدولى! وعلى لسان ضابط المخابرات الروسية تأتى عبارة مهمة يقول فيها: «إن هناك عدم رغبة، بل عدم قدرة، فى داخل الدوائر الأمنية الأمريكية لعمل أى شىء بل، قول أى شىء، ضد الأمريكيين الذين يعملون لحساب اسرائيل، حتى لو قاموا بأعمال

عـــميل الموســـاد في البـيت الابيض

تضر بالمصالح الأمريكية.

بولارد (يقصد العميل الاسرائيلى) كان هو الاستثناء الوحيد الذى يؤكد القاعدة!» ص٨٨ وينجح الروس فى اختراق المخابرات الإسرائيلية بهدف أن تصب المعلومات التى تصل إليها (الموساد) عن الولايات المتحدة في عروق جهاز المخابرات الروسى.

ينبه المؤلف إذن إلى أن التساهل الذى يتعامل به المسئولون فى الولايات المتحدة مع إسرائيل ومؤيديها يجعل بلادهم فى موقف أكثر ضعفاً فى مواجهة القوى الدولية الأخرى. أما قضية الجاسوس بولارد فقد لا تكون فقط الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، وإنما هى فى الحقيقة رمز لوجود علامة حمراء، يجب على إسرائيل أن تنتبه إليها، يقف عندها تساهل أمريكا مع أصدقائها حتى لو كانت ربيبتها إسرائيل!

سباق الانتخابات

من التفاصيل المهمة التى تتضمنها الرواية تلك الخاصة بسباق انتخابات الرئاسة الأمريكية، وما يدور فى دهاليزها الخفية من مكائد وتحالفات، والدور الذى يلعبه المال فى حسم نتائج السباق.

ويلاحظ فى هذا الصدد ما أشرنا إليه قبلاً من تسابق المرشحين إلى تقديم الوعود لكسب رضا اسرائيل واللوبى الصهيونى المؤيد لها. فها هو أحد المرشحين يعد أنه فى حالة نجاحه فى الفوز بمقعد الرئاسة سوف يوصى فوراً بنقل السفارة الإسرائيلية من تل أبيب إلى القدس، ويقوم بتقديم القروض المطلوبة لتمويل بناء المستوطنات فى الضفة الغربية.

ومع ذلك فإن ما حسم نتيجة الانتخابات ليس أصوات الناخبين اليهود، وإنما ملايين الدولارات التى حقن بها (الموساد) الحملة الانتخابية

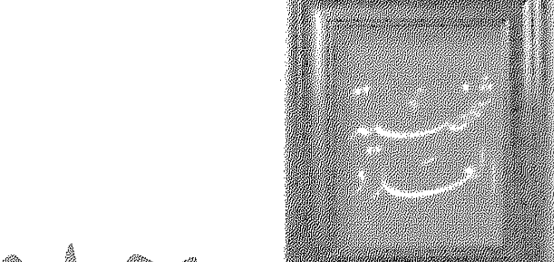
للعميل حبرون فى الأيام الأخيرة قبل موعد الانتخابات، بالإضافة إلى الفضيحة الأخلاقية التى تمس المرشح المنافس والتى دبرت (الموساد) ايضاً كشفها فى اللحظات الأخيرة. وبشكل عام فإن المؤلف يقترح من خلال الأحداث أن ما يحدد نتيجة الانتخابات هو المال الذى يقف وراء الحملة الانتخابية وليس أصوات الأقليات بما فيها أصوات اليهود الأمريكيين، وهو اقتراح علينا نحن العرب أن ندرسه ونحكم منه على مدى صحة ما يسمى بأسطورة «التصويت اليهودى»

★★★

لم يبق إلا الإشارة إلى جزء طريف من هذا الكتاب الممتع وهو يتضمن الحوار الذى دار بين ضابط المخابرات الإسرائيلى المسئول عن عملية حبرون وأحد الوزراء الإسرائيليين. فالوزير يسأل: ألن يتعرض عميلنا السرى، فى حالة انتخابه رئيساً للولايات المتحدة، للانتقاد لقبوله دائما ما يوافق رغباتنا ومصالحنا؟ ص١٦٧. فيجيب ضابط المخابرات أنه قد تم التنسيق مع حبرون، فى حالة انتخابه بحيث يقول له الاسرائيليون سراً أقل ما يمكنهم القبول به، ثم يطالبونه في العلن بما هو أكثر من ذلك بكثير حتى اذا رفض طلباتهم المعلنة وقدم لهم بعض المقترحات الجديدة التى يبدو وكأنها تنطوى على بعض التنازل، قبلوها وكأنهم قد تنازلوا حقاً، بينما هم فى الحقيقة لم يحصلوا إلا على ما أرادوا منذ البداية.

وهذه الخطة تذكر القارىء بالمقترحات التى قدمها الرئيس السابق بيل كلينتون قبل رحيله عن البيت الأبيض فيما سمى بخطة كلينتون للسلام. وقد ظلت إسرائيل تبدى التردد أياماً ثم قبلتها وكأنها قد قدمت بعض التنازلات، بينما لم تكن الخطة الجديدة إلا المقترحات الإسرائيلية نفسها وقد ألبست ثوبا آخر كساها بغموض جديد يجعل تنفيذها فى حاجة إلى جولات وجولات من المباحثات فقط لتوضيح الغموض!.

حقاً «إن بعض الحقائق من الأفضل أن تقال وقد ارتدت ثوب الخيال القصصى»!. ■



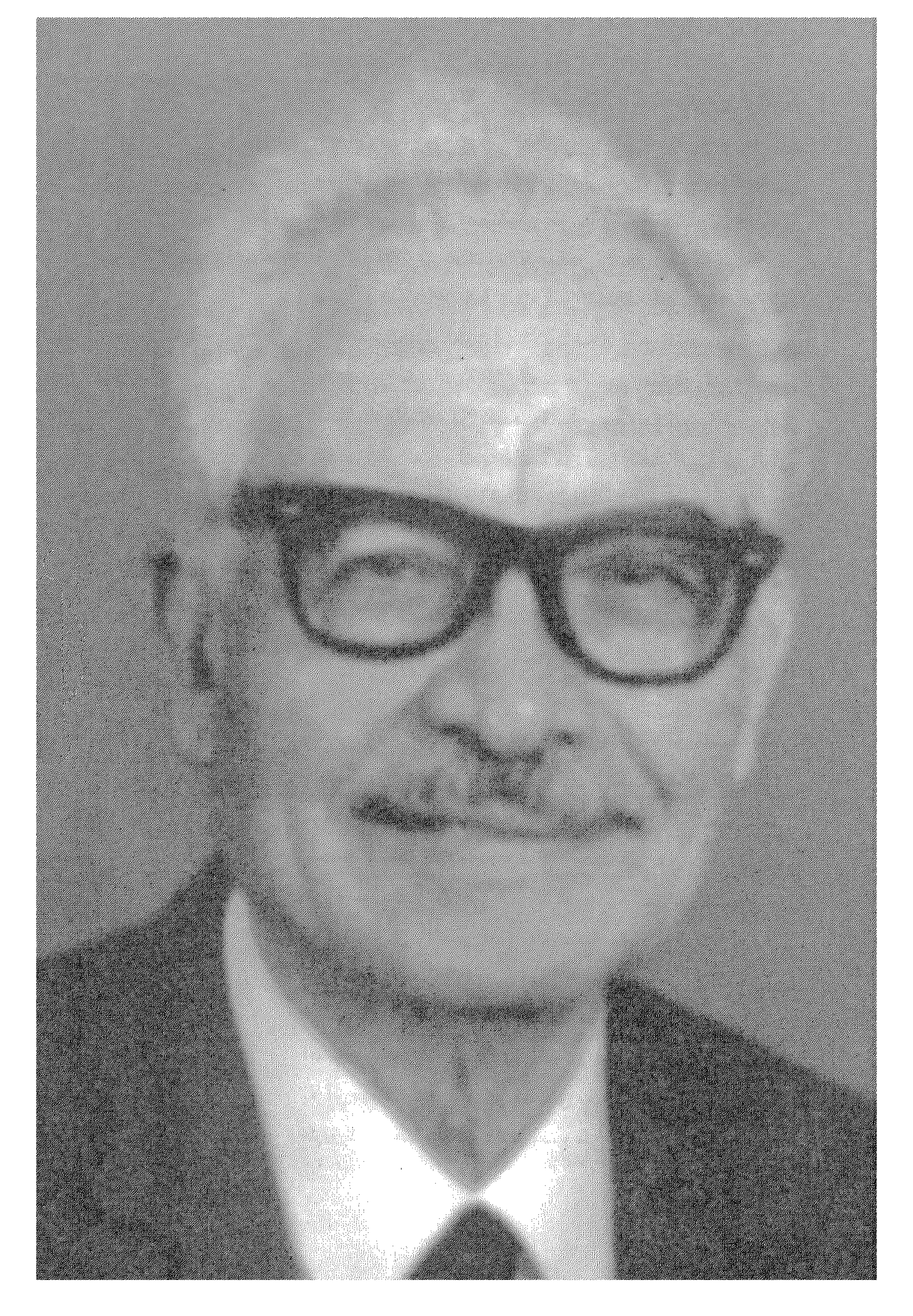
الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص

وبعض ما حدث لبيئة الانسان

بقلم
د.رشدى سعيد

هذا مقال أهديه إلى الأستاذ الدكتور محمد عبدالفتاح القصاص بمناسبة بلوغه سن الثمانين أتناول فيه بعض ماحدث لبيئة الإنسان خلال الخمسين سنة الماضية من خلال عرض لاتجاهات بعض مؤشراتها رأيت أن فى كتابته تحية لهذا العالم الكبير والصديق العزيز الذى كرس حياته العلمية كلها لدراسة موضوعها والحفاظ عليها من عوامل الفساد التى تتعرض لها، وكان موضوع البيئة هو أحد الاهتمامات المشتركة التى ربطتنى مع الدكتور القصاص فى صداقة دامت منذ عودتنا من بعثاتنا العلمية فى سنة ١٩٥١ .

وقد بدأت رحلة صداقتى معه فى أعقاب عودتى من جامعة هارڤارد بالولايات المتحدة لأبدأ عملى بقسم الچيولوچيا بكلية العلوم بجامعة القاهرة، والتى تزامنت مع عودته من جامعة كامبريدچ بانجلترا ليبدأ عمله فى قسم النبات بالكلية نفسها. وتسبب اهتمامه بالدراسة البيئية للنباتات الصحراوية إلى التعرف علىّ ورغبة فى مصاحبتى إلى الصحراء ، التى بدأنا نزورها معا بانتظام نسير بين جبالها ووديانها لساعات طويلة نسجل فيها



ملاحظاتنا العلمية كل فى ميدانه، ونشارك بعضنا فى مناقشة مايمكن أن تحمله هذه الملاحظات من فهم لأسرار الطبيعة التى يتفاعل فيها الأحياء فى تناغم واتزان مع الأرض ومايغلفها من غطاء جوى والتى يعيشون عليها وفى ظلها، وقد فتن هذا التناغم والاتزان الدكتور القصاص وشغل فهمه والبحث فى أسراره عمره كله، كما شغله أمر الحفاظ عليه من الخلل الذى يمكن أن يحدثه التلوث أو الاستغلال غير المنضبط للموارد حتى يبقى على البيئة التى تحيط بالإنسان سليمة وآمنة للعيش الطيب له ولأبنائه من بعده، وقد أصبح الدكتور القصاص بفضل مثابرته وإخلاصه واحدا من أبرز علماء البيئة فى العالم وواحدا من أكبر الدعاة للحفاظ عليها.

● كرس د. القصاص حياته لدراسة البيئة ومشكلاتها

وخلال الخمسين سنة التى مضت منذ آن بدأ الدكتور القصاص أبحاثه فى علم البيئة حدثت آحداث جسام غيرت وجه الأرض فى سرعة مذهلة حتى ليصعب على المرء أن يلاحقها، ففى هذه الفترة زاد سكان العالم من ٢,٥ مليار نسمة فى سنة ١٩٥٠ إلى أكثر من ٦ مليارات نسمة فى سنة ٢٠٠٠ أضيف المليار الأخير منهم فى غضون الاثنتى عشرة سنة الماضية فقط، كما شهد عام ٢٠٠٠ وصول سكان الهند إلى أكثر من المليار نسمة، وحدثت أغلب الزيادة فى السكان فى بلاد الجنوب التى شهدت ضغطا على مصادرها الطبيعية التى عجزت فى الكثير من هذه البلاد عن تلبية حاجات هذه الأعداد الكبيرة من السكان، وعلى الأخص فيما تعلق منها بالمياه أو الوقود أو حتى مساحات الأرض القابلة لزراعة المحاصيل، وعلى الرغم من أن الاقتصاد العالمى قد شهد توسعا هائلا خلال الخمسين سنة الفائتة زاد خلالها بمقدار ست مرات عما كان عليه فى مبدئها إلا أن معظم هذا التوسع قد لحق بعالم الشمال وحدث عن طريق الاستخدام الكثيف للموارد، وعلى الأخص للوقود الحفرى



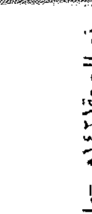
(الفحم والبترول) الذى زاد استهلاكه حتى بلغ أربع مرات ماكان عليه مما أدى إلى تزايد انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون أحد أهم غازات الصوبة الزجاجية فى الجو وازدياد نسبته فيه من ٣١٧ جزءا فى المليون فى سنة ١٩٥٩ (سنة بدء رصده) إلى ٣٦٨ جزءا فى المليون فى سنة ١٩٩٩ ، وهذه الزيادة فى نسبة ثانى أكسيد الكربون والتى بلغت حوالى ١٦٪ فى الأربعين سنة المذكورة ربما كانت أحد أهم أسباب الاضطراب الكبير الذى حدث للطقس خلال هذه السنوات التى شهدت زوابع وفيضانات مدمرة فى تواتر لم يخبره الإنسان من قبل، وكذلك الارتفاع المستمر لدرجة حرارة سطح الأرض خلال هذه السنوات والتى زاد متوسطها بأكثر من درجة مئوية واحدة عما كانت عليه فى بدئها.

تغير دورة المحاصيل

وبالإضافة إلى الاضطراب الذى حدث للطقس فقد أدى الارتفاع فى درجة حرارة الأرض إلى تغير دورة المحاصيل وميعاد نضجها، وكذلك فى ذوبان الثلوج التى تغطى القطبين الشمالى والجنوبى والكثير من قمم الجبال الشاهقة فى العالم، ورصد العلماء تراجع خطوط الثلوج وتقليص سمكها فى جميع هذه المناطق ففى القطب الشمالى تقلص سمك الجليد فيه بأكثر من ٤٠٪ خلال السنوات الثلاثين الماضية، وفى القطب الجنوبى قلت مساحة غطائه الجليدى بانفصال كتل كبيرة منه على أطرافه لتذوب فى البحار، أما ثلاجات قمم الجبال فقد كان تأثرها بارتفاع درجة الحرارة كبيرا وفقدت جبال الألب نصف كتلتها من الجليد خلال المائة عام الماضية ، وتقلصت مساحة ثلاجة قمم جبال الهملايا فى سرعة كبيرة حتى يخشى اختفاؤها كلية وهى التى تبلغ اليوم الثالثة من حيث المساحة بعد ثلاجات القطبين مما سيؤدى إلى تناقص إمدادات المياه لأنهار الأندوس والميكونج واليانجزى والأصفر النابعة منها ـ ويقدر مقدار النقص الحالى فى هذه الإمدادات بما يزيد على ٢٠٪ عما كان يصلها منذ خمسين سنة.

ولعل أخطر ما سوف يحدثه ذوبان الثلوج ووصول مياهها إلى المحيط العالمى هو فى أنها ستؤدى إلى ارتفاع منسوبه مما سيتسبب فى إغراق الأراضى الواقعة على طول السواحل فى أرجاء العالم وهى الأراضى التى يسكنها اليوم أكثر من نصف سكان الأرض، وكان منسوب البحر قد ارتفع خلال القرن العشرين بين ١٠ إلى ١٥ سنتيمترا ومن المنتظر أن يرتفع إلى أكثر من ستة أمتار فى آخر سنى القرن الواحد







شخصية العدد

والعشرين لو أن معدلات ارتفاع درجة حرارة الأرض قد استمرت على ماهى عليه اليوم، وفى مثل هذه الحالة فإن أثر ارتفاع منسوب البحر سيكون هائلا ومؤثرا على حياة الملايين من البشر الذين يسكنون المناطق الواطئة حول سواحل البحار والتى ستكون من بينها ثلاثة أرباع منطقة الدلتا المصرية ذات الكثافة العالية فى السكان.

الحد من ارتفاع درجة حرارة الأرض

ومما يبعث على بعض الأمل فى ألا تتم فصول هذا السيناريو المخيف تلك الجهود التى تبذل اليوم للحد من معدلات ارتفاع درجة حرارة الأرض وذلك بالإقلال من انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون أحد أهم غازات الصوبة الزجاجية والتى يسبب تزايدها رفع درجة حرارة الأرض، ومن المؤشرات المهمة فى هذا الاتجاه تراجع استخدام الوقود الحفرى لتوليد الطاقة وعلى الأخص فى حالة الفحم على مستوى العالم وفى بريطانيا بالذات التى كانت أول من استخدمه على نطاق واسع وكذلك فى التوسع فى استخدام بدائل نظيفة ومتجددة لتوليد الطاقة كالرياح التى زاد استخدامها خلال العقد الأخير من القرن العشرين فى أوربا والصين وبلاد الغرب الأمريكى كمصدر مهم للطاقة. وتنوى أوربا التوسع فى استخدام هذا المصدر لإستيفاء كل حاجتها من الكهرباء بعد أن وجدت أن المناطق البحرية التى تحف سواحلها وحتى عمق ٣٠ مترا تهب عليها الرياح بانتظام وعلى طول العام، كما زاد استخدام الخلايا الشمسية فى توليد الطاقة وحدث فى تطبيقاتها اختراق كبير بعد أن أدخلت هذه الخلايا فى صلب مواد أسقف المنازل من أجل تزويد ساكنيها بالطاقة اللازمة للتدفئة ولسد مختلف الاحتياجات المنزلية دون الحاجة إلى استخدام الوقود الحفرى.

أبرز علماء البيئة فى العالم على مدى خمسين عاما

أما فى ميدان الموارد الطبيعية فقد زاد استخدامها زيادة كبيرة خلال الخمسين سنة الماضية بسبب انتشار ظاهرة الاستهلاك التى تعاظمت أبعادها على أوسع المقاييس خلال العقود الأخيرة، وأصبحت المحرك الأساسى للنظام الاقتصادى القائم وأهم مايميز نمط الحياة التى يسعى إليها الناس فى جميع أرجاء الأرض ويتوقون لها على الرغم مما يسببه هذا الاستهلاك من تدهور للبيئة وتبديد للموارد فى عالم يزيد فيه السكان ويحتاج إلى توجيه جهوده إلى تدبير المزيد من الغذاء والحفاظ على الأراضى والمياه من الضياع. ومن أسف فقد شهدت العقود الأخيرة تناقصا فى خصوبة الأراضى وتقلصا فى مساحة الأرض القابلة لزراعة المحاصيل وفى حجم خزانات المياه الأرضية فى معظم البلاد، وخلال هذه العقود قلت مساحة أراضى المحاصيل من ١,٨ مليار فدان فى سنة ١٩٨١ إلى قرابة ١,٦ مليار فدان فى سنة ١٩٩٩، وفيها تم السحب الجائر للمياه من الكثير من خزانات المياه الأرضية بحجم قدر بحوالى ١٦٠ مليار متر مكعب استخدمت فى إنتاج الحبوب لمقابلة احتياج ما لا يقل عن ٤٨٠ مليون نسمة من الغذاء، ولو توقف سحب هذه الكمية من المياه كما ينبغى أن يكون عليه الحال لو أريد لهذه الخزانات أن تستدام لحدثت أزمة فى إنتاج الحبوب يمكن أن تؤثر على غذاء هذا العدد الكبير من سكان الأرض، ومما يزيد من قتامة الصورة عدم وجود ما يشير إلى أن اختراقا كبيرا سوف يحدث فى مجال إنتاج الغذاء فى الأفق القريب كذلك الذى حدث خلال الخمسين سنة الماضية، ولم يحقق حتى اليوم استخدام تقنيات الهندسة الوراثية التى لازالت تثير الكثير من الجدل حول آثارها على الصحة والبيئة ذلك الأمل الذى كان معقودا عليها.

تفاوت كبير بين سكان الكوكب

على أنه ومهما كان نمط الاستهلاك واتجاهاته فإن أبرز مايمكن أن يخرج به المتأمل لشكل عالم اليوم هو هذا التفاوت الكبير بين سكان كوكب الأرض سواء فى الثروة أو القوة أو الفرص المتاحة أمامهم أو حتى فى القدرة على البقاء. إذ أنه على الرغم من أن العالم قد أصبح صغيرا ومتشابكا بسبب ما أحدثه التوسع التجارى وسهولة انتقال الأموال والسرعة في الاتصال وانتشار شبكة الأنترنت إلا أن الناس لازالوا بعيدين عن بعضهم البعض ومختلفين فى قدر الاستفادة من الفرص التى أتاحها لهم هذا التشابك، فهناك انفصال بين سكان الشمال والجنوب وبين من يملكون

ومن لايملكون من مواطنى الدولة الواحدة وبين سكان المدن والريف بل وبين الرجال والنساء، وعلى الرغم من بروز ظاهرة التباين والتنوع هذه بين الناس فقد اختفت أو كادت فى كل مجال آخر سواء فى محيط الموارد الحيوية التى اختفت الكثير من عناصرها أو فى عالم الحضارات التى بدأت تذوب تحت وطأة الإعلام عابر القارات، وانتشار أنواع الترفيه ذى الصبغة العالمية أو فى ميدان الاقتصاد الذى بدأ يندمج تحت شعار العولمة وامتداد نشاط الشركات متعددة الجنسية عبر العالم كله أو فى وسائل النقل التى وحدها الاستخدام المكثف للسيارة، ومن المفكرين من يظن أن انتشار وسائل الاتصال الحديثة والتى تأتى الأنترنت فى مقدمتها سيتسبب فى التقريب بين الناس إلا أنه وحتى هذا العام فإن أقل من ٤٪ من سكان العالم هم الذين يستخدمون الأنترنت وأن ٨٧٪ من هؤلاء يسكنون دول الشمال.

إن المشكلات والتحديات التى يواجهها الإنسان الحديث بسبب الاستخدام الكثيف للموارد وتزايد أنماط الاستهلاك كبيرة جدا سيحتاج الخروج منها إلى جهد كثيف من محبى البيئة والفاهمين لتوازناتها. ومن هنا يجيىء التقدير الكبير لما يقوم به الدكتور محمد عبدالفتاح القصاص على كل من المستويين القومى والعالمى من جهد للخروج من هذه المشكلات فتحية له ودعاء بأن يمد الله فى عمره ويمنحه الصحة حتى يستمر فى العطاء. ■

شخصية العدد

○ الهندسة الوراثية مازالت تثير الكثير من الجدل على الصحة والبيئة



أقوال معاصرة

● «الاسلام أعطي المرأة حقوقها كاملة، وجعلها تنافس الرجل في كل ميادين الحياة».

الشيخ أحمد كفتارو

المفتى العام للجمهورية العربية السورية

● «لم أتخيل حياتى أبدا بدون كتابة»

نجيب محفوظ



نجيب محفوظ

● «مرآة الرواية لا تعكس الوجه، بل الأمنيات الدفينة»

الروائية اللبنانية رجاء نعمة

● «لا أفهم كيف يمكن أن نثير زوابع في قضايا كان يفترض أن العالم قد اتفق عليها من زمن طويل».

الأديب السودانى الطيب صالح

● «الإرهاب سلاح الضعفاء»

صاموئيل هنتنجتون

صاحب نظرية صدام الحضارات



دنيس روس

● «السلام لا يصنع بناء علي شعارات، بل علي أساس الإحتياجات»

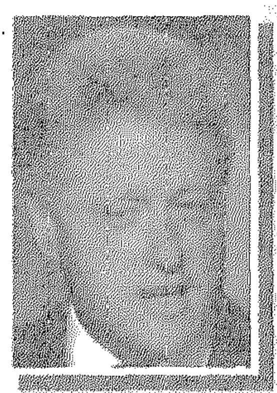
دنيس روس منسق عملية السلام سابقا

● «قبول الآخر هو قبول للذات مثلما أن نفيه هو نفى له فى آن»

الشاعر المصرى حلمى سالم

● «الذين صنعوا ويصنعون مجد العرب ابداعيا، هم تحديدا أولئك الذين مورست عليهم الرقابة، فمنعوا أو قتلوا، أو حرقت كتبهم».

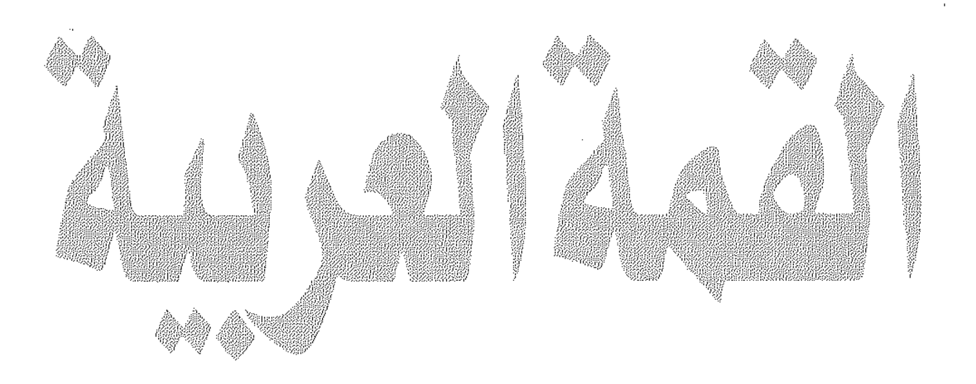
الشاعر السورى أدونيس



كلينتون

● «بعد خمسمائة سنة ستكون الجرائد غبارا، ولن يصمد إلا قوة ما شعرنا به، وفعلنا وجماله ونزاهته».

بيل كلينتون رئيس الولايات المتحدة السابق



القمة العربية

وعالم متغير

هل حان الوقت لاقتراب العرب من المشاكل الحقيقية؟!

بقلم
مصطفى نبيل

تعقد الآمال الكبيرة على عقد الاجتماع الدورى للقمة العربية، وستعقد أول قمة عربية فى ظل النظام الجديد فى مارس الحالى فى عمان، فهل ستتمكن أعلى سلطة فى اتخاذ القرار العربى من حل «عقدة» العمل العربى المشترك..؟!

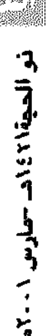
ونشهد تناول العقبات الحقيقية أمام العمل العربى، والوصول إلى تصور مشترك للعمل فى القرن الحادى والعشرين..

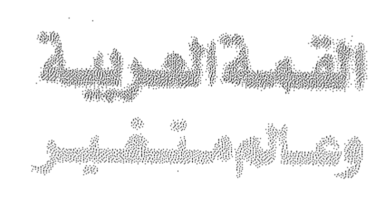
فقد حان الوقت لكى تبحر «القمة» فى العمق، ولا تكتفى ـ كما هى العادة ـ بما هو آن من ردود الفعل.

أول مؤتمر قمة حضرته سبع دول هي مصر وسوريا والأردن والعراق واليمن ولبنان والسعودية
ويظهر فى الصورة الملك فاروق والملك عبد الله وشكرى القوتلى وبشاره الخورى

وليس هناك مبالغة في القول إن مؤتمر عمان - يمثل حدا فاصلا بين مرحلتين، ضرورة الاجتماعات تعكس ضرورة الاستفادة من تجارب الماضى، وأنه من الضرورى أن يتقدم التعاون الاقتصادى العربى على الشأن السياسى. فيصب التعاون الاقتصادى فى القرار السياسى ويعطيه قوته.

وتتزايد التوقعات العربية حول احتمال نجاح التعاون الاقتصادى العربى، بعد أن تقاربت واتفقت مصالح الدول العربية على تحقيق النمو الاقتصادى الذى يعجز عن تحقيقه أى قطر عربى بمفرده. وغدا مقبولا فكرة تبادل المصالح مع تبادل التنازلات بين الأطراف العربية المختلفة، وقبول فكرة الاختلاف السياسى واستمرار التعاون الاقتصادى، وهاهى ذى الدول المتقدمة تتنازع دون ان يخل ذلك بقواعد التعاون بينها، فلا يقطع التمثيل الدبلوماسى، ولا تتوقف التجارة بينها، ولا تغلق الحدود فى وجه مواطنيها ، كما أصبح من المسلم به الادراك العميق أن حل مشاكل





العالم العربى لا يأتى سوى من داخل العالم العربى.

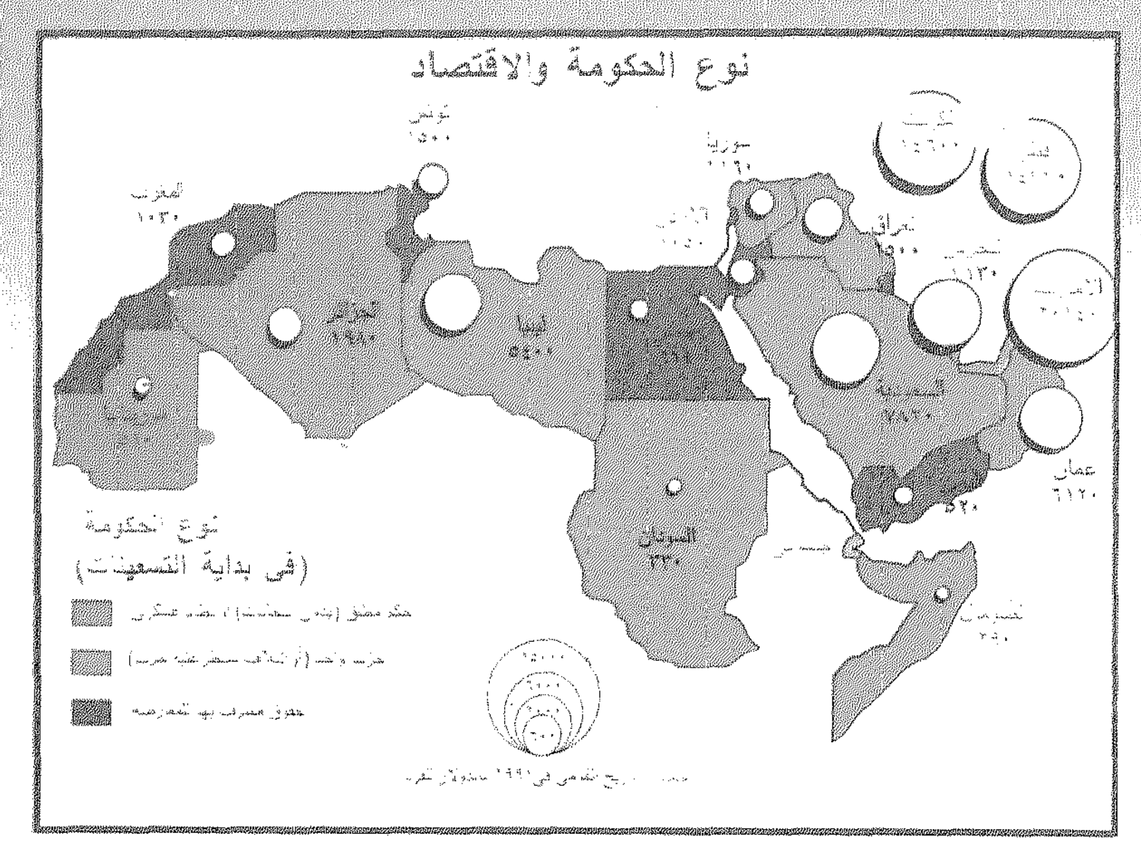
فرغم أن جامعة الدول العربية هى أول تنظيم إقليمى فى العالم بأسره، وهى سابقة على قيام منظمة الوحدة الأوربية ومنظمة الوحدة الأفريقية، إلا فإنها أكثر هذه التنظيمات فشلا، وخاصة فى الجانب الاقتصادى وفى تطوير العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية؛ وسادها منذ قيامها المحاور والمنازعات ، وهذا لا يعنى إغفال الدور الذى قامت به فى مساندة الدول العربية فى كفاحها ضد الاستعمار التقليدى، ولا تجاهل الدور الذى لعبته فى توحيد وتحديث المناهج الدراسية ، ولا الدور الذى لعبته فى التعريب فى دول شمال إفريقيا.

ولم تر تلك المشروعات الاقتصادية المتعددة النور، وظلت موجودة فى أدراج الجامعة العربية، من مشروع السوق العربية المشتركة ومشروع إقامة منظمة الوحدة الاقتصادية، إلى مشروعات عملية، مثل إقامة شركة ناقلات بحرية، ومشروع إقامة شبكة طرق، وشبكة طيران عربية، وغيرها من المشروعات التى أبدعتها القريحة العربية، والتى ظلت فى الأدراج نتيجة الصراعات السياسية من جانب وعدم وجود الإرادة السياسية لإقامتها من جانب آخر. وعجزت الدول العربية عن إقامة علاقات صحية بينها، ووصل التبادل التجارى بين الأقطار العربية إلى حده الأدنى، رغم العديد من التوصيات والقرارات التى اتخذت فى هذا المجال، وكانت الجامعة العربية سباقة للدعوة إلى السوق العربية المشتركة، وتحققت السوق الأوربية المشتركة وانتقلت إلى الوحدة الأوربية ولم تحقق السوق العربية..!

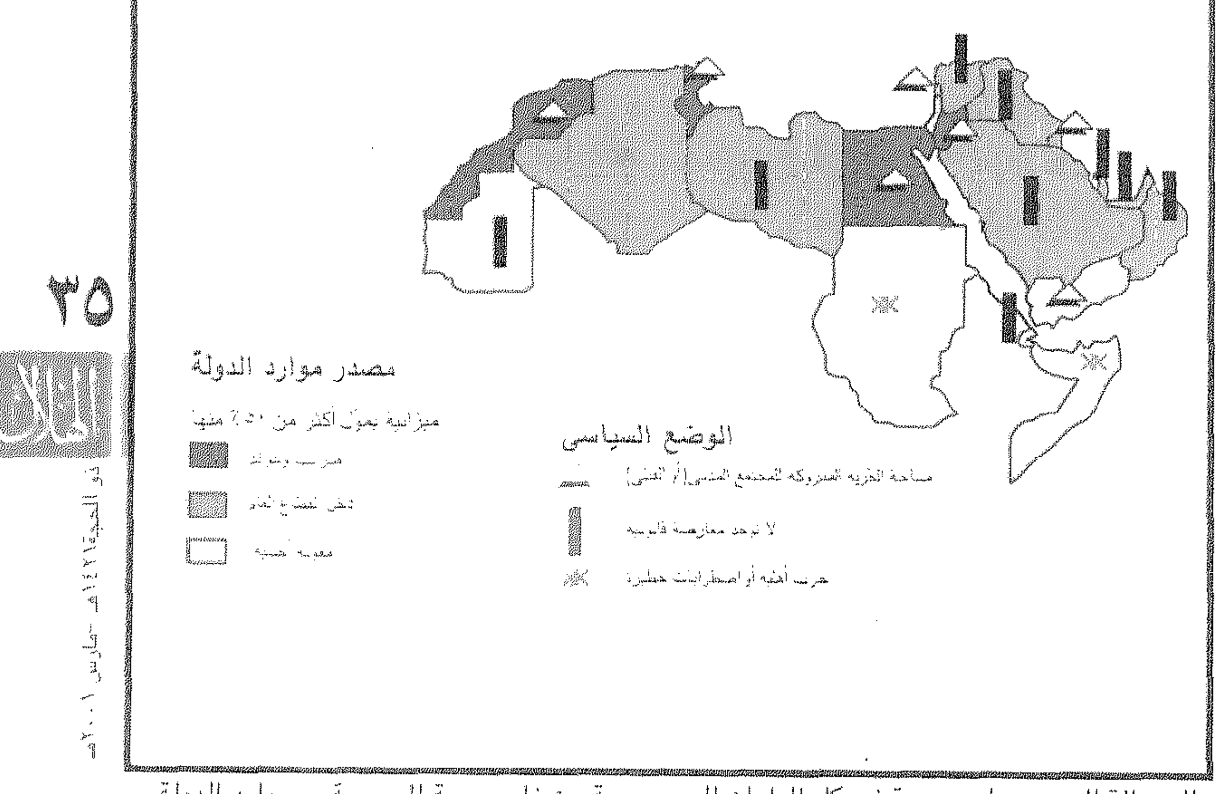
واعتادت الدول العربية أن تتحدث بلسانين ولغتين، إحداهما داخل الغرف المغلقة، والأخرى تخاطب بها الرأى العام العربى ، فى الوقت الذى يوصد الصوت الأول الباب أمام التعاون الاقتصادى العربى ويفضل التعاون مع الأجانب ، رغم أنه يمكن أن يقوم التعاون الاقتصادى العربى جنبا إلى جنب مع التعاون مع العالم الخارجى.

الاقتصاد والأمن

وشهدت تجربة التعاون العربى جنوحا للاهتمام بالمسائل السياسية، وغلب على اهتمام معظم مؤتمرات القمة العربية القضايا السياسية، صحيح أنه



التبـــايـن فـى نظـم الحكـم وفـى عـــدد السـكـان وفـى الانتــــاج القـــومـى لـكل دولـة



الحـالة السـيـاسـيـة فى كل البلدان العـربيـة من ناحـيـة الحـرية ومـوارد الدولة

القمة العربية وعالم متغير

من الطبيعى أن تهتم التكتلات الإقليمية بقضايا الأمن والاستراتيجيات العليا، وبالفعل نشأت السوق الأوربية بعد الحرب العالمية الثانية كأداة للأمن أولا، وكذلك رابطة الآسيان التى تضم دول جنوب شرق آسيا. ولكن لم يتحقق الأمن إلا بعد أن دفعته قاطرة التبادل والتعاون الاقتصادى، وسارت الأمور فى طريقها المرسوم، عندما بدأت السوق الأوربية المشتركة فى مجال التعاون فى إنتاج الحديد والصلب، وتواصلت فى المشروعات العملاقة المشتركة مثل التعاون الأوربى فى مجال الاتصالات والأليكترونات والأقمار أو فى مشروع طائرة الإيرباص وغيرها من المشروعات.

ونظرة خاطفة على مؤتمرات القمة العربية منذ أول مؤتمر قمة عربى عقد فى انشاص بمصر عام ١٩٤٦، ومنذ هذا التاريخ عقدت الدول العربية الكثير من القمم، ولم يظهر فى قراراتها سوى القليل النادر الخاص بالمسائل الاقتصادية والقليل أيضا من الاهتمام بتعزيز التعاون وتطويره بين الأقطار العربية، وذلك مثل من يريد أن يضع العربة قبل الحصان، ففى خلال ثلاثة عشر مؤتمرا، لا توجد أى إشارة إلى أى مسألة اقتصادية، وكانت معظمها ردود افعال على أحداث سياسية خطيرة..

ولم يفلت من هذا النقص سوى مؤتمر القمة الحادى عشر سنة ١٩٨٩ فى عمان. والذى أقر استراتيجية العمل الاقتصادى العربى حتى عام ٢٠٠٠، وجعل التسعينات عقد التنمية المشتركة، وللأسف ذهبت كل تلك القرارات هباء، نتيجة حرب الخليج وعاصفة الصحراء التى طمست برمالها قرارات عمان الاقتصادية!

وآى استعراض للأرقام الاقتصادية . يكشف الكثير من الحقائق، ويعكس قتامة الصورة. فالدول الاوربية تستولى وحدها على نصف تجارة المنطقة العربية. والميزان التجارى مختل فالدول العربية غير النفطية، والخرائط والجداول المصاحبة توضح ذلك.

ولعل التذكير بذلك المشروع القديم الذى قيل إنه كفيل بأن يحقق الاكتفاء الذاتى فى الغذاء لجميع الدول العربية، والذى يجمع بين أرض السودان الخصبة والعمالة المصرية الوفيرة، وأموال النفط العربى، وغاب المشروع فى الأدراج ولم ير النور.

الأمن والبعد الاقتصادى

ولا يتجاهل الفكر الجديد قضايا



مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى القاهرة ١٩٦٤ لمواجهة تحويل اسرائيل لنهر الأردن

الامن ولا يغفل طبيعة الصراع العربى الاسرائيلى، بل على العكس فهو يقترب منه فى مدخله الصحيح، على اعتبار ان حل الصراع العربى الإسرائيلى فى المدى البعيد، رهن بما يتحقق فى العالم العربى من تطور وآن ما تحقق لاسرائيل يعود الى الضعف العربى أكثر ما يعود الى قوة إسرائيل.

ويكفى فى المرحلة الراهنة، وأنت أمام إدارة أمريكية جديدة ورئيس جديد للحكومة الإسرائيلية، أن يكون للعرب صوت واحد وكلمة واحدة وموقف سياسى متفق عليه.

ولا نغفل السياسة الإسرائيلية التى تعمل على توظيف الخلافات والصراعات العربية لصالحها، وآن الأوان لسد الثغور وعلاج الثغرات فى الموقف العربى، فمهما فعلت إسرائيل فى مجال القوة ألعسكرية الغاشمة، وبعد أن جربت كل شىء فهناك سقف لما يمكن أن تحققه تلك القوة الغاشمة فى عالم العلاقات الدولية فهى فى حالة تغير مستمر.

والمجتمع الإسرائيلى يسير فى طريق مسدود، يؤكد ذلك ما حدث خلال العقدين الأخيرين، فلم يتمكن اى رئيس وزراء إسرائيلى فى اكمال مدته من اسحق رابين الى بيريز الى نتانياهو

وحتى باراك، لأن كلاما منهم ينطلق من موجة تعاكس تيار الزمن، وتقف ضد حركة التاريخ، ويقامر على عكس الكثير من أسس الحداثة والتحضر الصحيح للإنسانية. وفى عصر تنقل الأقمار الصناعية الحدث لحظة وقوعه.

فإذا اتخذت الخطوات فى طريق التعاون الاقتصادى العربى والتضامن بين الأقطار العربية، فذلك ما لا يلائم إسرائيل والتى تبنى سياستها على أن تعيش الدول العربية فى إطار التشرذم والتفكك، كما سيصب التعاون الاقتصادى بالضرورة لصالح الأمن العربى.

ولابد ان يعالج مؤتمر القمة المقبل فى عمان نقاط الضعف فى الموقف العربى، وأن تؤدى اجتماعاته الى بعث حالة من النهوض الوطنى العربى وفى إطار أرضية المصالح المشتركة لكل الأطراف العربية. فحان الوقت لكى نحتمى بالعروبة فى مواجهة العولمة والجات «وتوحش» الشركات متعددة الجنسية.

الهروب الى الامام

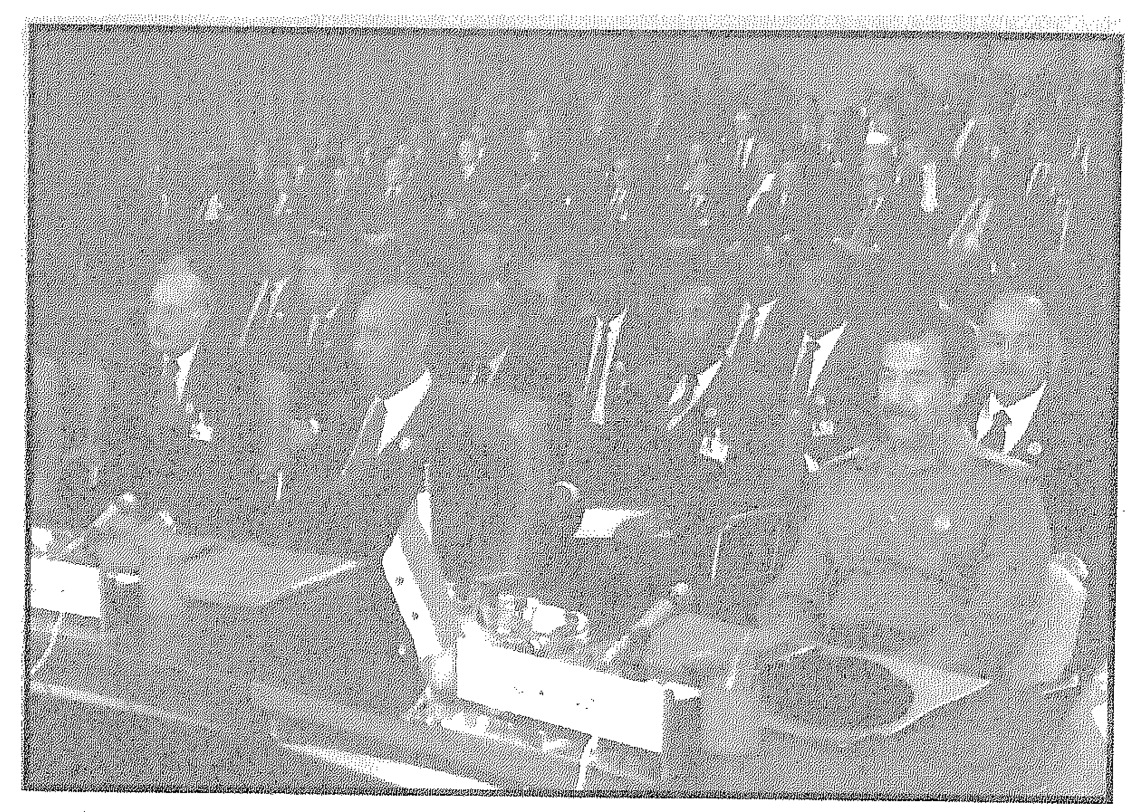
وإذا كان تشخيص المرض هو أول مراحل العلاج، فلنحاول تلمس تلك الأسباب التى عاقت العمل العربى المشترك. خلال نصف القرن الأخير :

● عدم تعديل ميثاق جامعة الدول العربية، وعدم تحديث هياكلها التنظيمية، لكى يساير الميثاق وهياكل الجامعة العصر والتغيرات التى وقعت فى الاقطار العربية.

● دأبت الأقطار العربية على حل مشاكلها على طريقة «الهروب إلى الأمام»! وعندما لا تتوصل احد الاقطار العربية إلى حل لمشكلة الحدود مع جارتها تسارع وتطلب اقامة الوحدة بينهما، وتتغير مواقف العديد من الأقطار العربية مثل حركة «البندول» بين المزايدة أحيانا والمناقصة أحيانا أخرى. فمثلا تتوزع النشاطات بين جامعة الدول العربية وبين منظمات اقليمية اخرى، مثل المؤتمر الاسلامى أو منظمة الوحدة الأفريقية وغيرهما من المنظمات دون وضع حد يميز بين نشاطات كل منها، وعدم تحديد الفارق بين المهم والأهم، ولا بين الاصل والفرع، ويغيب التمايز بين الجامعة وهى منظمة فى إطار أمة واحدة ولغة واحدة وغيرها من المنظمات الإقليمية.

هذا عن المزايدة اما المناقصة ، فقد نشأت فى ذات الوقت تجمعات عربية





قمة عمان ١٩٨٧ وسقوط القطيعة مع مصر وعودة التضامن العربى

أصغر مثل مجلس التعاون الخليجى والاتحاد المغاربى، ولا اعتراض على ذلك بشرط الا تأخذ من رصيد الجامعة بل العمل على ان تضيف الى رصيدها، ولم يوضع حتى اليوم صيغة واضحة للعلاقة بين هذه التجمعات والجامعة العربية سوى دعوة الأمين العام لحضور اجتماعاتها ولذا اضطربت الخطى وتعثر العمل العربى بين الاقدام والنكوص.

● التفاوت الحادث بين الأقطار العربية فى المجالات المختلفة فى درجة الفقر وفى النمو الاقتصادى والاختلافات فى النظام السياسى.

● تقوم بعض المنازعات العربية على أساس شخصى أو عشائرى، وتتخذ عندها القرارات بطريقة فوقية مع غياب المؤسسات وعدم وجود الديمقراطية مما يجعل العلاقات العربية تتعرض للعواصف وتخضع للأهواء.

● تتعدد التصورات بالنسبة لمستقبل الاقطار العربية، فالبعض يرى أن الجزيرة العربية هى مركز القوة لامكانياتها المالية الكبيرة ، ويتصور آخرون ان المركز العربى هو الشام وبلاد الهلال الخصيب، وتصور ثالث يرى ان مصر بحكم وزنها وتاريخها ودورها هى المحور الرئيسى للمستقبل العربى ومركز قوته، وأظن انه لا يوجد ما يمنع

القمة العربية وعالم متغير

من تعدد المراكز واختلاف الأدوار.

● آن الأوان لكى لا يقتصر العمل العربى على الحكومات وان ينتقل الى العمل الشعبى، والتنظيمات الشعبية العديدة مثل الاتحادات والجمعيات والنقابات العربية التى يصل عددها الى ما يقرب من مائة اتحاد وجمعية.

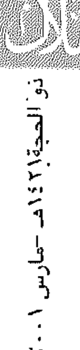
وهذه القضايا تحتاج الى حوار موسع بين الأفراد والاقطار العربية والوصول إلى اتفاق عام حولها، مع تجنب إحدى العادات العربية القديمة وهى التباين الكبير بين الظاهر والباطن، وأن يسبق التغيير الاجتماعى تغيير فكرى .

وبقى أن ننظر الى المشاكل فى «عينها» ولا نتهرب منها، بعد أن أوصلنا الاستهزاء بالفكر إلى عدم القدرة على التفكير السليم!

المعلومات والخرائط

ولا يوجد قرارات صحيحة دون معلومات دقيقة، وعلينا البدء بالمعلومات الدقيقة والخرائط الصحيحة للحاضر والمستقبل، مثلما تفعل الصور الملتقطة من الأقمار الصناعية من أجل التوقعات الجوية، فلا يمكن الوصول إلى نهايات

خريطة توضح الأقليات العرقية (البربر - الزنج - الاكراد)



بلا بدايات محددة ولا نتائج بلا مقدمات واضحة، فقد فات زمن العموميات.

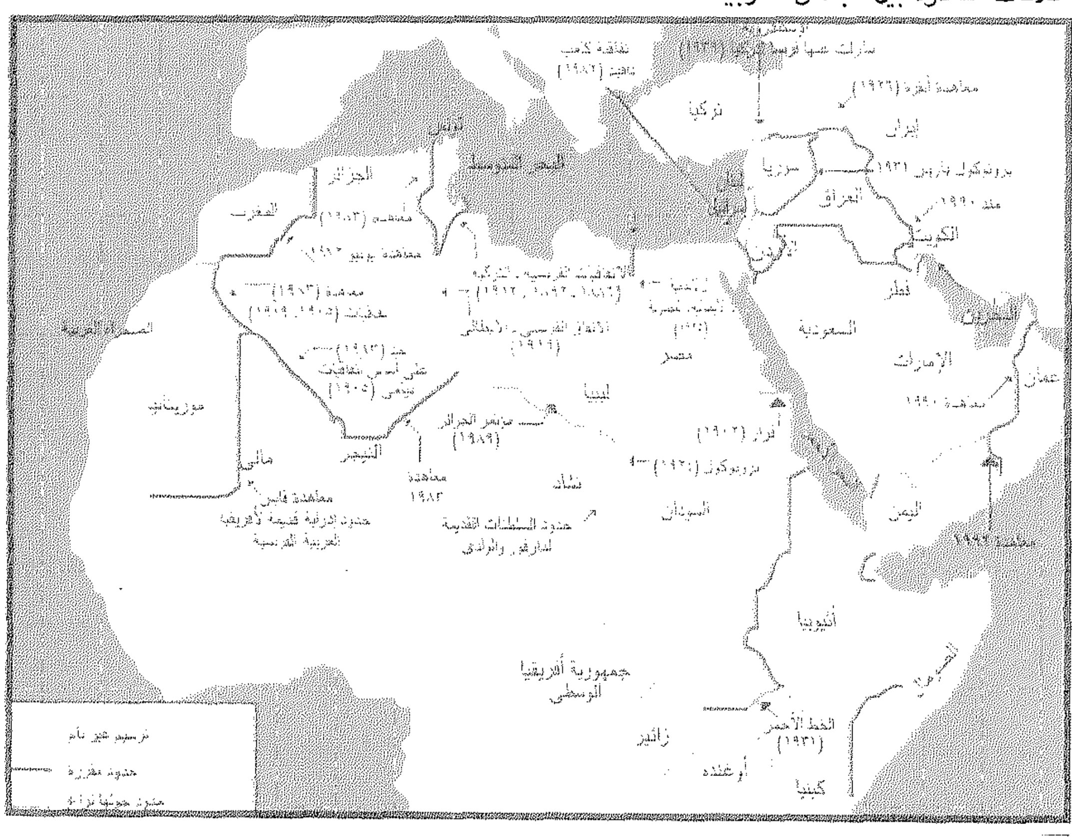
ولكى لا تصبح خطانا «هرويا الى الأمام» ولكى نضيف إلى رصيد القوة العربية، ولا نأخذ منها. فالقوة هى مجموعة عناصر إذا غاب احدها انقلبت الى الضعف، فالغنى مع الجهل يعنى الضعف، كما أن المعونة بلا امكانيات تبديد للطاقة، لذا فالأمية وغياب المؤسسات الديمقراطية ، وفقدان حرية الرآى نقاط ضعف خطيرة من الضرورى علاجها.

ومن يستعرض الأوضاع فى العالم العربى يجد الكثير من المفارقات.

وهناك أطلس معلومات أصدرته دار المستقبل العربى، وأعده رفيق البستانى وفيليب فارج وترجمه مصطفى اللباد. وهو يمثل قاعدة معلومات متينة يمكن للمرء أن يبنى عليها خططه وأفكاره، وسيرى القارىء صورة العالم العربى ككيان منتظم حول عدة محاور تعمل على تجميعه، كما تعمل - فى الوقت ذاته - على تمزيقه..! .

ويطرح الكتاب السؤال التالى .هل النفط قوة انقسام أم توحيد للعالم العربى؟ ويجيب.. «ليس غريبا ان تكون كميات النفط فى البلدان العربية متناسبة

خلافات الحدود بين البلدان العربية



تناسبا عكسيا مع حقوق المرأة وحقوق المواطنة، حيث يزيد التمسك بالقديم خوفا من الجديد»..

وسنتناول هنا بعض الموضوعات التى لها علاقة بعناصر القوة العربية والتى تصب فى العلاقات بين الدول العربية، ومنها ندرك صعوبة قضية اتخاذ القرار فى الوطن العربى، فهى عملية معقدة، وتتم فى إطار قيود ومحددات متنوعة ، كما أن الوصول الى القرارات الصائبة يتطلب اختيار أفضل المناهج لاتخاذ القرار فى الاقطار العربية المختلفة بما فيها قرارات القمة العربية.

الحدود والأقليات

ويدهشك أن تعلم أنه مازالت أراض عربية فى الأسر رغم نهاية الاستعمار التقليدى مثل الجيوب الأسبانية على الساحل المغربى، عندما كانت أسبانيا أول بلد أوربى – بعد البرتغال - وصلت قواتها الاستعمارية الى إفريقيا . وهى الوحيدة التى مازالت تحتفظ بأجزاء من إمبراطوريتها الآفلة ولها موانىء فى الأرض المغربية، «سبته» التى تبلغ مساحتها تسعة عشر كيلو مترا، و«مليلة» التى تبلغ مساحتها إثنى عشر كيلو مترا والجزر الجعفرية التى تبلغ مساحتها ستة كيلو مترات، بالاضافة الى الحسيمة.

و«لم يكن فى وسع المرء أن يتخيل فى بداية هذا القرن، شكل العالم العربى بحدوده الحالية».

فالحدود الحالية لا تتطابق مع أى تقسيم واقعى، فعدا مصر والمغرب ليس لأى منها حدود تاريخية، فكانت هذه الدول تابعة إما للدولة العثمانية أو مستعمرات بريطانية أو فرنسية أو إيطالية أو أسبانية، ومعظم الحدود بين الدول العربية رسمت بالتفاوض بين الدول الاستعمارية ، أما الحدود التى رسمت نتيجة اتفاقيات ثنائية بين الدول فلا تمثل سوى نصف حدود المنطقة العربية.

لذلك مازالت بعض مشاكل الحدود قائمة وهى من أكثر الموضوعات حساسية، وما إن تختفى حتى تظهر من جديد ووضع حد لها فى الاطار العربى . ينزع امكانية استغلالها ويزيد القوة العربية.

ومازال العالم العربى يعانى من مشكلة الاقليات الدينية أو العرقية ولابد من وجود صيغة عصرية، تجعل هذا التعدد مصدر قوة لا مصدر تفكك وضعف، عندما يعيش الجميع فى إطار

السنة	كاثوليك	الانفصال	العودة
٤٣١	مجمع أفسس كنيسة فارس مواجهة كنيسة بيزنطة	نسطوريون (كنيسة الشرق) ٥٠٠٠٠٠	الكلدان ٥٠٠٠٠٠
٤٤٣	وفاة القديس مارون راعي المارونيين ٩٠٠٠٠٠		
٤٥١	مجمع خلقدونية قرار ... الطبيعتين بالطبيعة ...	اليعقوبيون (الكنيسة السورية) ٢٧٠٠٠٠٠	السريان (السوريون الكاثوليك) ١٥٠٠٠٠
	كنيسة الأسكندرية تستقل عن بيزنطة	الأقباط أكثر من ٣ ملايين	الأقباط الكاثوليك ٢٠٠٠٠٠
٤٩١	الأرمن يعارضون قرارات مجمع خلقدونية	الأرمن الكرجيون ٣٠٠٠٠٠٠	الأرمن الكاثوليك ٧٥٠٠٠٠
٧٨٧ – ١٠٥٤	مجمع نيقية الانفصال الشرقي الكبير تعارض بيزنطة وروما	الروم الأرثوذكس ٨٠٠٠٠٠٠	الروم الكاثوليك (الملكيون) ٤٠٠٠٠٠

الانفصال عن بيزنطة ثم عن روما

قبل وقوع الانفصال الشرقي الكبير عرفت الطوائف المسيحية الشرقية خلافات مذهبية كانت تعكس النزعات السياسية

المارونيون هم وحدهم الذين بقوا على ولائهم التام لروما

الانضمام الجزئي للكنيسة الكاثوليكية الرومانية

الأرقام تدل على أتباع كنائس الشرق الأدنى في ...

الاقليات فى العالم العربى

وطن واحد، يستمتع كل ابنائه بحقوق متساوية وفى إطار خلاق، وليس إطاراً ضيقا.

ولا توجد معلومات كافية عن هذه المشكلة فلا يظهر التعداد فى معظم الدول العربية الانتماء الدينى أو الطائفى سوى فى مصر والاردن. واغلبية السكان فى العالم العربى ينتمون الى المسلمين السنة، الذين يبلغ تعدادهم حوالى مائة وخمسة وثمانين مليون نسمة ، من مائتى مليون نسمة هم سكان الوطن العربى الذى يمتد بين إفريقيا وآسيا ، ويتكلمون لغة واحدة هى العربية.

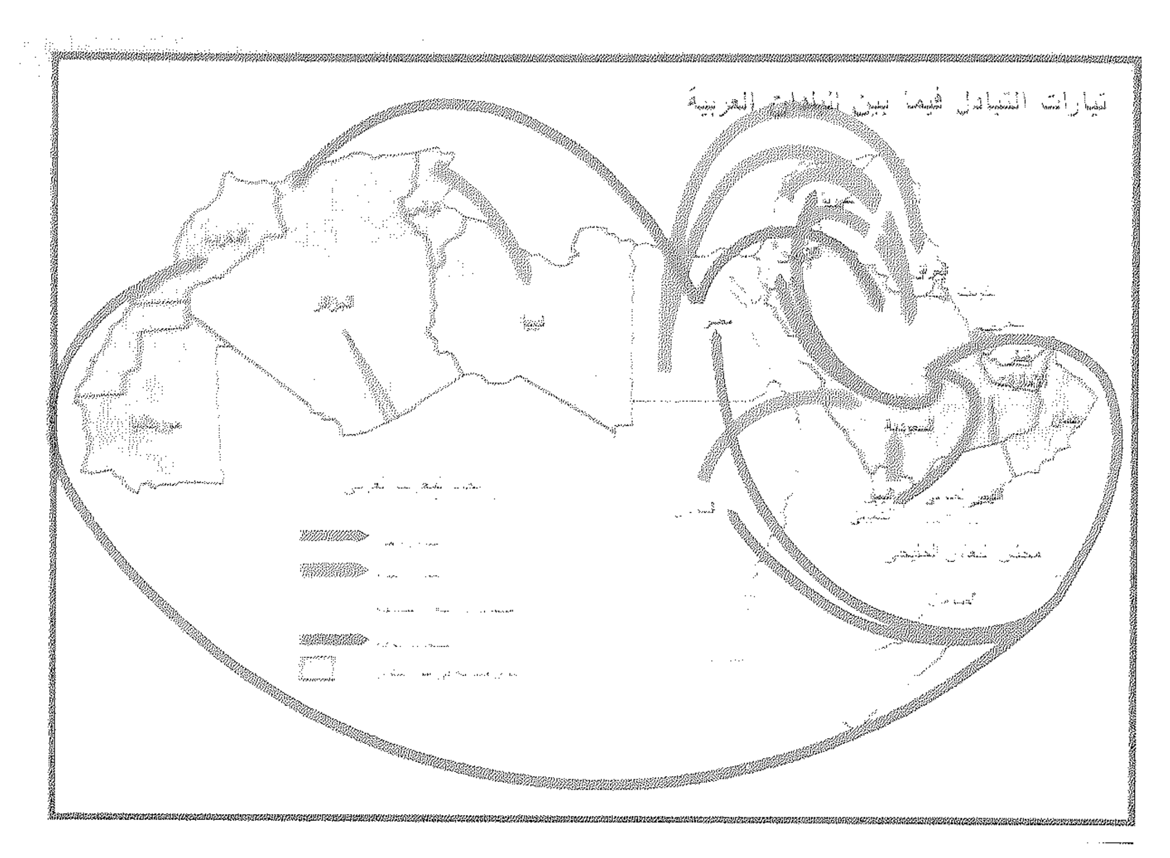
وتبين الخريطة المرفقة تعداد أبناء الأديان والطوائف المختلفة، كما أنه ليس فى المغرب طوائف سوى الأباضية فى مزاب بالجزائر وفى جزيرة جربة فى تونس وفى جبل نفوسه بليبيا، وما لا يعرف أن أهل سيوه فى مصر من البربر الأباضية.

أما الأقليات العرقية مثل البربر «الامازيج» والأكراد والزنج، فيعيش البربر فى جبال أطلس وجبال الريف وجبال الأوراس وفى الاحراش المدارية، وحاربوا جميع معارك العرب والإسلام ، ويعيش فى المغرب ٤٦ مليون عربى مع أربعة عشر مليونا من البربر.

ويعيش الأكراد شمال العراق، والذين حصلوا على الحكم الذاتى عام ١٩٧٤ ، وعادت المنازعات وتفجرت من جديد حول تحديد ارض الحكم الذاتى.

وتم اجراء انتخابات - بعد عاصفة الصحراء - لاختيار مجلس كردى يتكون من مائة وخمسة أعضاء ، ولا تطلب اى من القوى السياسية الكردية الانفصال عن العراق.

وتثور قضية الزنج والعرب فى مناطق التماس والتخوم العربية واستمرارها يشكل عائقا فى العلاقات العربية بالدول الإفريقية ، وفى السودان تسع عشرة مجموعة عرقية ومشكلة الجنوب تستنزف وتؤرق الحكم فى السودان منذ الاستقلال. وقدمت اتفاقية أديس أبابا سنة ١٩٧٢ آفاق الحل، عندما اعطت مديريات الجنوب الثلاث الحكم الذاتى، بحر الغزال ومديرية النيل الأعلى، وتشكل مجلسها المحلى الخاص، وعادت الحرب فى جنوب السودان عام ١٩٨٠ عندما عاد التمييز بين المواطنين بسبب العرق أو الدين، ولم يعرف السودان بعد استقلالة سوى ثمانى سنوات من السلام، وعاش ثلاثين عاما يعانى من التمرد المسلح، وبدلا من أن يكون جسرا للتفاهم بين العرب والزنج ، اصبح عازلا بينهم وعانى السودان من المجاعة وهو البلد الذى يملك أضخم الموارد الزراعية.. ولا اعرف على وجه التحديد ما الذى يمكن أن تفعله القمة



التبادل بين دول الوطن العربى فى جميع المجالات

العربية ولكن المؤكد ان هذه المشاكل يمكن ان:

تتقلص وتختفى مع النهوض الاقتصادى وحركة التحديث. وأحد المسالك المؤكدة لهذا النهوض هو التعاون الاقتصادى العربى، واستثمار الاموال العربية داخل الاقطار العربية وليس خارجها.

وهذا هو النهج الذى نأمل ان يقتحم آفاقه القادة العرب فى مؤتمر القمة المقبل فى عمان، فلا يمكن للتغيير الحقيقى أن يتم بلا رؤية واضحة وإرادة عميقة وهدف يقوم من داخل المجتمع العربى ذاته.

ولعلنا فى حاجة الى من يذكرنا بإغلاق الورش، والمصانع المحلية عند الدخول الاستعمارى للبلدان العربية، عندما فشلت هذه الورش فى مواجهة الانتاج الاوربى، ولم ينج مصنع واحد من تلك المحنة.

ويتجدد الخطر مع العولمة واتفاقيات الجات، ولا يمكن مواجهة هذا التحدى إلا إذا اجتمعت وتعاونت الاقطار العربية، خاصة بعد عدم نجاح أى دولة عربية فى اللحاق بالبلدان الصناعية الجديدة مثل بعض دول شرق آسيا.

واخيرا...

فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.. والطريق واضح وان كان شاقا. ■

التكامل الاقتصادى

من عصر القومية الى عصر العولمة

بقلم
د. جلال أمين

لم يكن الكلام عن التكامل الاقتصادى مألوفا قبل الحرب العالمية الثانية، بل كان المألوف هو الكلام عن عكسه. نعم كانت «القومية الاقتصادية» حينئذ فى عنفوانها، ولكن كان المقصود بالقومية الاقتصادية يكاد يكون عكس المقصود بالتكامل الاقتصادى كما نفهمه الآن. كانت الحدود المقصودة «بالقومية الاقتصادية» هى حدود الدولة الواحدة، ولم يكن المقصود أن تتكامل الدولة مع دولة أو دول أخرى.

كان المفهوم من القومية الاقتصادية فى أوربا أن يشترى الفرنسى ما تنتجه فرنسا، والألمانى ما تنتجه ألمانيا، أما الوحدة الاقتصادية الأوربية، أو التكامل الاقتصادى الأوربى، كالذى نراه الآن، فكان أبعد شىء عن الأذهان.

وكان لهذا انعكاساته عندنا، فكانت الدول العربية الخاضعة لفرنسا تحمى حدودها الاقتصادية ضد الدول العربية الخاضعة لبريطانيا، وكانت القومية الاقتصادية فى العالم العربى تفهم بالمعنى الذى قصده طلعت حرب: أن يشترى المصريون ما صنع فى مصر، وأن تعلو الأسوار الجمركية المصرية فى وجه الجميع.

كان هناك الاستعمار بالطبع، والاستعمار نوع من التكامل الاقتصادى بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها، ولكن كان من المفهوم والواضح للجميع أن الهدف من هذا النوع من التكامل هو تحقيق مصلحة الدولة الاستعمارية، ومن

ثم فقد كان مختلفا تماما عما ظهر بعد انتهاء الحرب من رغبة عدد من الدول فى تحقيق التكامل فيما بينها تحقيقا لمصلحة جميع الأطراف.

كان هذا المفهوم الضيق جدا للقومية الاقتصادية، والمقصود على حدود الدولة الواحدة، سواء فى أوربا أو فى العالم العربى، انعكاسا بدرجة أو بأخرى، للأزمة العالمية الطاحنة التى سادت فى الثلاثينات. ولكن الأمور تغيرت تماما بعد انتهاء الحرب. فما أكثر مابدأنا نسمع عن التكامل الاقتصادى ، سواء فى أوربا أو فى العالم العربى، أو فى بقية ذلك العالم الذى بدأت تسميته منذ خمسين عاما بالعالم الثالث.

فى أوربا بدأ الإعداد لصورة بعد أخرى من صور التكامل الاقتصادى، وهو ما توج بعقد اتفاقية السوق الأوربية المشتركة بين ست دول أوربية فى ١٩٥٧. أما فى العالم الثالث فقد كان عدد كبير من دوله قد حصل على الاستقلال فى أعقاب انتهاء الحرب فى ١٩٤٥، وكان فى معظم الأحوال استقلالا عن بريطانيا أو عن فرنسا، ثم جاءت موجة كاسحة من استقلال دولة أفريقية بعد أخرى فى أوائل الستينات، وما أن انتهت كل من هذه الدول من اختيار علمها، ولحن سلامها الوطنى (وأحيانا بعد تغيير اسمها بما يتلاءم مع حصولها على الاستقلال ومع شخصيتها الأفريقية أو الآسيوية الجديدة)، وربما أيضا بعد الانتهاء من وضع الخطة الخمسية الأولى (وهو الأمر الذى كان شائعا أيضا فى تلك الأيام) حتى بدأت تفكر فى إمكانية تحقيق تكتل اقتصادى بينها وبين بعض الدول المجاورة، والتى تشترك معها فى بعض الخصائص الثقافية والتاريخية.

●●●

كان هذا هو بالضبط حال الدول العربية أيضا، فوقع عدد من الدول العربية بضع اتفاقيات لتحرير التجارة فيما بينها فى الخمسينات، وساد الأمل (بل نادرا ما كان يثور الشك) فى أن هذه ليست إلا البداية لوحدة اقتصادية عربية كاملة، إذ أن أول الغيث قطرة ثم ينهمر.

لم يكن هناك أى شىء غريب فى هذا: استقلال، فاهتمام بالتنمية، خاصة التنمية الصناعية، فإدراك لأهمية اتساع السوق لتحقيق هذه التنمية ، من أجل الإفادة من تنوع الموارد ومن مزايا التخصص وتقسيم العمل، ومن ثم إدراك لضرورة التكامل الاقتصادى العربى، وفى عصر تسود فيه الحماسة لنظام التخطيط، بل والتخطيط الشامل، حيث تصدر القرارات من سلطة مركزية ذات قدرة على الالزام وفرض إرادتها، لماذا يقتصر التخطيط على دولة صغيرة واحدة، ولا نفيد من مزايا التخطيط على نطاق واسع يشمل عدة دول ذات ثروات طبيعية وبشرية يكمل بعضها بعضا ويخلق بعضها السوق اللازمة لنمو الصناعة فى الدول الأخرى؟

لم يكن هذا مدهشا، وإنما الذى يبدو الآن مدهشا (وإن لم يكن يبدو كذلك وقتها) هو حصول هذا المنحى من التفكير، نحو التكامل والتكتل الاقتصادى بين عدد من الدول المتخلفة، بالرضا والقبول من

جانب الدول الكبرى والمؤسسات والمنظمات الدولية، المالية وغير المالية، وعلى رأس هذه المؤسسات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، اللذان تأسسا فى نهاية الحرب.

التكامل الاقتصادى

لقد أشرت إلى أسباب حماسة الدول المتخلفة نفسها لتحقيق التكامل الاقتصادى فيما بينها، ولكن ما هو سر هذا القبول والرضا من جانب الدول الكبرى والمؤسسات الدولية فى ذلك الوقت؟.

قد يقال إن السبب هو أن الدول المتخلفة حديثة الاستقلال كانت تلعب فى العقدين التاليين لانتهاء الحرب (٤٥ - ١٩٦٥) دورا فعالاً فى إدارة هذه المؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة، وتتمتع بدرجة عالية من الحرية التى فقدت الكثير منها فيما بعد، فى صياغة ما يصدر من هذه المؤسسات من قرارات وتوصيات . كانت الحرب الباردة الدائرة فى ذلك الوقت بين القوتين العظميين، الرأسمالية والاشتراكية، تزيد من حرية هذه البلاد الصغيرة فى الحركة والتصويت ، إذ كثيرا ما كانت كل من هاتين القوتين العظميين تقنع بمجرد امتناع الدولة الصغيرة عن اتخاذ موقف معاد لها، دون أن تطلب منها انصياعا كاملا لإرادتها. كان هذا هو عصر الحياد الايجابى وعدم الانحياز، وفى مثل هذا المناخ من المتصور أن ينمو الاتجاه نحو التكامل الاقتصادى بين الدول الصغيرة.

ولكن الأرجح أن هذا التفسير السياسى ليس بكاف وحده، ولا هو التفسير الأهم، لتمتع فكرة التكامل الاقتصادى بين مجموعات من الدول الصغيرة والفقيرة، بهذه الدرجة من القبول والرضا من جانب الدول الكبرى. كانت هناك على الأرجح أسباب اقتصادية تستند فى نهاية الأمر إلى مستوى التقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى التى كانت الدول الكبرى قد بلغته فى ذلك الوقت.

كانت أوربا، كما رأينا ، مشغولة بنفسها، وأعنى على الأخص انشغالها بإقامة وحدتها الاقتصادية وسوقها المشتركة. ومن ناحية أخرى كان لدى كل عن القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ما يشغلها أيضا عن القلق من فكرة التكامل بين هذه المجموعة أو تلك من دول العالم المتخلف. كان لدى الاتحاد السوفيتى ما يكفيه من فرص الاستثمار والتصدير، طوال العقدين التاليين للحرب على الأقل، فى داخل حدوده من ناحية وفى دول أوربا الشرقية الأخرى التى أدت الحرب إلى وقوعها فى دائرة نفوذه، من ناحية أخرى. أما عن الولايات المتحدة فقد كان العقدان التاليان لانتهاء الحرب هما عصر اعادة بناء ما دمرته هذه الحرب فى أوربا واليابان، وقد كانت إعادة البناء هذه لا تهم أوربا واليابان وحدهما بل تهم الاقتصاد الأمريكى أيضا ، إذ كان من المهم لاستمرار النمو الاقتصادى الأمريكى بمعدلات عالية أن يستعيد الاقتصاد الأوربى واليابانى صحته وعنفوانه ليمد الصناعات الأمريكية بالسوق الواسعة

ويمد قوائض رءوس الأموال الأمريكية بفرص مجزية للاستثمار . نعم، قد تتحول إعادة بناء ما دمرته الحرب، متى تجاوزت حدا معينا، إلى خلق تهديد حقيقى ومنافس شرس للاقتصاد الأمريكي، وهو ما حدث وظهر بوضوح ابتداء من أوائل السبعينات. ولكن الأمر لم يكن كذلك فى العقدين السابقين. كان فى السوق الأوربية واليابانية، وفرص الاستثمار فيهما طوال عقدى الخمسينات والستينات، ما يكفى لسد جزء مهم من حاجة الاقتصاد الأمريكى إلى تصدير السلع ورءوس الأموال على السواء ولم تمثل أسواق العالم الثالث حينئذ مطلبا حيويا، لا للولايات المتحدة ولا لأوربا أو اليابان. نعم، كانت هناك مواد أولية مهمة لابد من الحصول عليها من بعض دول العالم الثالث بأسعار بخسة من أهمها البترول، ولكن بيع البترول وغيره من مواد أولية لم يبد وكأنه يتعرض لأى تهديد من جانب مشروعات التكامل المطروحة. إنى لا أقصد بالطبع أن أسواق العالم الثالث لم تكن لها فى ذلك الوقت أى جاذبية فى نظر الدول الصناعية، وإنما أقصد فقط التأكيد على الفارق النسبى بين العقدين التاليين مباشرة للحرب (١٩٤٥ - ١٩٦٥)، وما أصبحت عليه الحال بعد ذلك.

استغلال البلاد المتخلفة

لعل هذه الظروف وهذا المناخ هما ما أديا بأستاذ كبير وواحد من أكثر الاقتصاديين فهما لمشاكل التخلف والتنمية، وهو الأستاذ آرثر لويس (Arthur Lewis) إلى أن يكتب فى أواخر الستينات:

«إن من المألوف هذه الأيام أن يعتقد المرء أن رخاء البلاد الصناعية يعتمد على استغلالها للبلاد المتخلفة. ولكن الواقع هو أنك لو جمعت كل صادرات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لما بلغ مجموعها أكثر من ٣ر٥٪ من مجموع الدخل القومى للبلاد الصناعية، فلو تصورنا أن آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية قد غرقت كلها تحت سطح البحر لما أثر ذلك تأثيرا يذكر على الرخاء الحاضر أو المستقبل لأوربا وأمريكا الشمالية» (من محاضرة ألقاها فى غانا فى ١٩٦٨، ونشرت فى كتابه Some Aspects of Economic Development, London 1969, PP. 15 - 16).

صحيح أن آرثر لويس فى هذه الفقرة يشير إلى ضآلة صادرات البلاد المتخلفة إلى الدول الصناعية وليس العكس، ولكن قدرة البلاد المتخلفة على الاستيراد من الدول الصناعية لابد أن تكون محكومة فى النهاية بقدرتها على التصدير.

لعل شيئا لهذا يكمن وراء ما صادفته دعوة التكامل الاقتصادى بين مجموعات من الدول المتخلفة من قلة المبالاة، فى ذلك الوقت، من جانب الدول الكبرى والمؤسسات الدولية، مما سمح لاقتصاديي التنمية ولمن كان يكتب عن مشاكل التخلف والتنمية، سواء فى العالم المتقدم أو المتخلف بأن يجندوا الدعوة إلى هذا التكامل وأن يعترفوا بما يمكن أن يحققه من مزايا وما يمكن أن يذلله من عقبات أمام زيادة معدلات النمو.

التكامل الاقتصادى

كان الاقتصاديون يدركون منذ زمن طويل أهمية اتساع السوق لتحقيق النمو الاقتصادى السريع. أدرك آدم سميث هذا بوضوح تام منذ أكثر من قرنين ، بل وذهب إلى حد تفسير النمو الاقتصادى السريع فى بريطانيا بنجاحها فى تحقيق الوحدة بين إنجلترا واسكتلندا فى وقت مبكر. والمسألة ترجع فى نهاية الأمر إلى تحقيق ما يسميه الاقتصاديون بمزايا الحجم الكبير: النمو يتطلب تخفيض نفقات الإنتاج، وتخفيض النفقات يأتى من ازدياد حجم المشروع، وازدياد حجم المشروع غير ممكن إلا إذا وجدت سوق واسعة لتصريف إنتاجه. فإذا لم يكف حجم الدولة الصغيرة، سكانا واقتصادا، لاستيعاب هذا الإنتاج فلابد من التصدير إلى الغير أو الاندماج معه.

وقد أدرك الاقتصاديون العرب هذا بوضوح وعبروا عنه، منذ أوائل الخمسينات، خاصة بالنظر إلى الحجم الصغير لمعظم الدول العربية التى لم ينشأ أكثرها إلا بتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية. ولكن الاقتصاديين العرب أكدوا أيضاً ، فضلا عن مزايا الحجم الكبير ، على ما لابد أن ينتج من التكامل والاندماج الاقتصادى العربى من زيادة قوة المساومة، والانتفاع مما يوجد من تكامل فى عناصر الإنتاج ، حيث تكمل الدول ذات الفائض من السكان حاجة الدول ذات العجز السكانى، والعكس بالعكس. وقالوا مثل هذا عن رأس المال والأرض الزراعية. وقد توجت هذه الكتابات والجهود للدعوة إلى التكامل الاقتصادى العربى، باتفاقية انشاء السوق العربية المشتركة فى ١٩٦٤.

بداية الانحسار

ولكن كما كانت هذه الاتفاقية ذروة ما حققه العرب من خطوات التكامل الاقتصادى، فقد كانت أيضا بداية الانحسار، لقد وضعت مأساة حرب ١٩٦٧ حدا لأشياء طيبة كثيرة، كان من بينها بلا شك مسيرة العرب فى اتجاه التكامل الاقتصادى. ولكن اللافت للنظر والذى يدعو إلى الكثير من التأمل هو أن السنوات الأخيرة من الستينات شهدت انحسار فكرة التكامل الاقتصادى ، ليس فى العالم العربى وحده بل وفى العالم الثالث بأسره وفى كتابات التنمية بوجه عام.

كيف يمكن أن نفسر ذلك؟

التفسيرات المطروحة تدور كالعادة ، حول الاعتراف بالخطأ واكتشاف الصواب، وكأن المسألة هنا، كما فى غير ذلك من القضايا، هى بلوغ الحكمة بعد فترة من الضلال، أو أن قصة تطور الفكر الاقتصادى هى قصة الاقتراب التدريجى من الحقيقة أو قصة التصحيح المستمر لخطأ بعد آخر حتى نصل إلى الصواب الكامل، ولكن الحقيقة فى رأيى ليست كذلك بل هى أقرب إلى أن تكون قصة الانتقال من فكرة إلى أخرى بحسب تغير الظروف والأحوال، فلكل ظرف ما يناسبه من الأفكار وليست الفكرة الاقتصادية السائدة فى مطلع القرن أو منتصفه أقل صوابا بالضرورة من تلك التى تسود فى

نهايته، وإنما يتحصر الأمر فى أن الظروف المستجدة تطلبت أفكارا مستجدة.

إن معظم ما كتب فى تفسير ذلك الانحسار الذى أصاب حركات التكامل الاقتصادى منذ أوائل السبعينات يندرج تحت هذا النوع من التفسيرات، مما أجده غير مقنع البتة. فمعظم ما كتب فى تفسير هذا الانحسار يذكر أن مما عطل التكامل الاقتصادى بين البلاد المتخلفة أن اقتصادياتها متنافسة أكثر منها متكاملة، بمعنى أنها تنتج نفس الأنواع من السلع وكثيرا ما تحوز عناصر الإنتاج بنسب متقاربة. يذكر أيضا الخلاف بين الدول المتخلفة حول طريقة توزيع ثمرات التكامل وأعبائه، أو رغبة بعض هذه الدول فى تحقيق نوع من التكامل يحقق مصالحها على حساب بقية الأطراف، أو تخلف ما تحوزه هذه الدول من مؤسسات ضرورية لدعم التكامل، أو تخلف ما يربط بينها من طرق ووسائل النقل والاتصال بالمقارنة بما يربط بين كل منها والدولة الاستعمارية القديمة.. إلخ.

إن كل هذه العوائق موجودة بالطبع، ولكن كلها كان من الممكن جدا تذليله والتغلب عليه لو كانت الظروف الدولية ملائمة والمناخ الاقتصادى العام مواتيا، فالطرق يمكن أن تشيد ، ووسائل الاتصال والمؤسسات الضرورية لتسهيل التكامل يمكن أن يجرى تحسينها ودعمها، والتنافس فيما بين أنماط السلع المنتجة بالفعل يمكن أن يحل محله تكامل بين السلع التى يمكن إنشاؤها إنشاء عن طريق جهاز تخطيطى، أو حتى بتقديم الدعم الملائم والتنسيق بين النشاط الإنتاجى فى مجموعة الدول الأطراف.

عقبات فى طريق التكامل

ولم تكن هذه العقبات التى تقف فى طريق التكامل الاقتصادى بين الدول المتخلفة بمجهولة أو غائبة عن أذهان الداعين إليها والمتحمسين لها فى الخمسينات والستينات. وإنما كان الذى أدى إلى انحسار الفكرة وفتور الحماس، ليس ظهور ما كان غامضا، أو إدراك ما كان من قبل غائبا عن الذهن، بل كان السبب هو تغير الظروف والأحوال، فما الذى جد بالضبط من الظروف والأحوال؟

منذ أوائل السبعينات، ظهرت اتجاهات جديدة فى العالم الغربى، فى الواقع الاقتصادى والكتابات الاقتصادية على السواء، لا يسع المرء إلا أن يتساءل عما بينها من علاقة ، وكذلك أن يتساءل عما إذا كان لبعضها أو كلها علاقة ما بفتور الاهتمام بتحقيق التكامل الاقتصادى بين الدول المتخلفة اقتصاديا.

ففى الوقت نفسه الذى بدأ فيه التراخى فى معدلات النمو الاقتصادى فى العالم الغربى، وهو ما ظهر بوضوح منذ أوائل السبعينات، بدأ يكثر الحديث عن ظاهرة الشركات متعددة الجنسيات وكيف أصبحت تقفز فوق حدود الدول القومية، ويزيد حجمها أحيانا وقوتها عن حجم وقوة عدد من الدول مجتمعة، وكيف أن العلاقات الاقتصادية الدولية قد أصبحت ، أكثر فأكثر ، علاقات بين هذه الشركات بعضها البعض أكثر من كونها علاقات بين

الدول، فى الوقت نفسه أيضا بدأ توجيه النقد الشديد لسياسة الإحلال محل الواردات، التى كانت تتمتع بدرجة عالية من القبول خلال الستينات، حتى من جانب المؤسسات الدولية المؤثرة فى صنع وترويج الأفكار الاقتصادية، وزاد الكلام أكثر فأكثر عن ضرورة تشجيع الصادرات كبديل لسياسة الإحلال محل الواردات، وشاع تقديم السياستين كبديلين لا يحتملان الجمع بينهما: إما حماية السلع البديلة للواردات أو الإنتاج من أجل التصدير وفتح الأبواب على اتساعها لاستقبال الواردات.

اقترن شيوع هذه الأفكار فى الغرب بشيوع الكلام فى العالم الثالث عن ضرورة «الإنتاج الاقتصادى» ومزاياه، وعن مساوىء الانغلاق. وصكت تعبيرات حديثة شاع أيضا استعمالها مثل وصف السياسة الاقتصادية بأنها «ذات توجه خارجى» "Outward Looking" وغيرها بأنها «ذات توجه داخلى» "Inward Loking"، وكانت هذه التعبيرات وأمثالها تقترن عادة بالثناء على الأولى والسخط على الثانية، بما تنطوى عليه هذه الأخيرة من انطواء وانكفاء على النفس، وكأن الدولة التى تعتمد على نفسها أكثر مما تعتمد على الخارج تشبه شخصا غير اجتماعى لا يرغب فى الاختلاط بالغير أو لا يقدر عليه، وينطبق عليها ما ينطبق عليه من ضعف وقلة قدرة على التعامل الصحى مع الغير. كما كان هذان التعبيران أو الوضعان يطلقان وكأننا بصدد طرفى نقيض لا يمكن الجمع بينهما، فإما الانفتاح الكامل على الغير أو الانطواء الكامل على النفس.

آثار وخيمة

كان لابد أن يكون لكل هذه التوجهات الجديدة آثار وخيمة على فكرة الاندماج والتكامل بين الدول المتخلفة اقتصاديا. فعلى الرغم من أن سياسة تشجيع الصادرات تقوم فى نهاية الأمر على أهمية توسيع السوق ومزايا التعرض للمنافسة، وأن التكامل بين مجموعة من الدول المتخلفة اقتصاديا ينطوى على كلا الأمرين: توسيع السوق والتعرض لمزيد من المنافسة إلا أن المقصود الآن بهذين الأمرين أصبح شيئا مختلفا.. فالمقصود الآن توسيع السوق فى اتجاه معين دون غيره، والتعرض لمزيد من المنافسة من جانب شركات من نوع خاص دون غيرها. نعم، إن التكامل الاقتصادى بين مجموعة من الدول المتخلفة اقتصاديا ينطوى على انفتاح أكبر مما كان يتوفر للدولة المكتفية بذاتها، ولكن الانفتاح المطلوب الآن هو انفتاح على العالم بأسره مما يعنى بالضرورة تفوق الشركات متعددة الجنسيات البالغة القدرة والكفاءة، فى الإنتاج والتسويق، والقادرة بالتالى على اكتساح كل من يقف أمامها. نعم، إن التكامل الاقتصادى بين عدد من الدول الفقيرة يعنى تشجيع بعض الصادرات من كل دولة إلى الدول الأخرى الأطراف فى اتفاقية التكامل، ولكن الصادرات المطلوب تشجيعها الآن هى من نوع معين، أى تلك التى يمكن أن تجلب للدولة المصدرة عملات «صعبة»، أى عملات يمكن استخدامها فى استيراد سلع وخدمات من

نفس هذه الشركات. أضف إلى كل هذا بالطبع وجود عيب خطير فى هذا الاندماج أو التكامل الاقتصادى بين مجموعة من الدول المتخلفة، من وجهة نظر الشركات متعدية الجنسيات، وهو ما قد يقترن به هذا التكامل من فرض أو تقوية أسوار الحماية المحيطة بهذه الدول الأطراف فى هذا التكامل، فى وجه ما عداها من الدول، مما لابد أن يضر بالاستيراد من هذه الشركات متعدية الجنسيات.

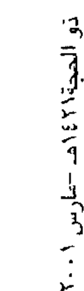
الخلاصة أن ما كان من الممكن الصبر عليه فى الخمسينات والستينات لم يصبح كذلك ابتداء من السبعينات، وكلما زادت حاجة الشركات متعدية الجنسيات إلى أسواق جديدة فى العالم الثالث قل صبرها على مشروعات التكامل الاقتصادى بين دول العالم الثالث، اللهم إلا ما كان منها «بلا أنياب»، أى يزيد انفتاح هذه الدول على هذه الشركات ولا يغلق فى وجهها بابا كان مفتوحا.

وكما تعودنا أن نرى فى تاريخ الفكر الاقتصادى ومسايرته لمتطلبات أقوى الأطراف فى ساحة العلاقات الاقتصادية، اقترنت قلة الصبر هذه من جانب الشركات متعدية الجنسيات، بقلة صبر مماثلة من جانب الاقتصاديين الذين ينشرون «الحكمة الشائعة» "Conventional Wisdom" ، التى هى ليست بالضرورة الحكمة الحقيقية، ففى «عصر العولمة»، لابد أن ينفتح الجميع على الجميع ولابد أن يصور هذا على أن مصلحة الجميع هى فى هذا الانفتاح الشامل، إن لم يكن فى المدى القصير ففى المدى الطويل. ولا يمكن الصبر على انفتاح جزئى، إذا كان معناه الانغلاق فى وجه من يهمهم الأمر. هكذا جاءت اتفاقية الجات فى ١٩٩٤، التى وقعها من وقعها سعيدا ومغتبطا، ووقعها آخرون مضطرين ومرغمين، وكان من بين هؤلاء الآخرين إحدى عشرة دولة عربية، تظاهروا بالسعادة والاغتباط بتوقيعها مع أنهم كانوا بلا شك يتمنون شيئاً أفضل. فالانفتاح المطلوب منهم الآن، سواء على سلع الغير أو خدماته أو استثماراته، انفتاح شامل كاسح، والمادة التى تسمح لهم بتحقيق تكامل خاص فيما بينهم، وهى المادة (٢٤) الشهيرة، تشير إلى نوع غريب حقا من التكامل الاقتصادى، فهى تسمح لأى مجموعة من الدول أن تنشىء ما تريد من تكتل أو تكامل أو اندماج فيما بينها ولكن بالشرط البسيط التالى، وهو ألا يؤدى هذا التكتل أو التكامل إلى فرض رسوم جمركية أو أى قيود جمركية أخرى على ما عداها من الدول، تزيد فى مجموعها أو فى المتوسط على ما كان مفروضا عليها قبل إنشاء هذا التكتل.

فلأى دولة ، إذا شاءت ، أن تزيد من درجة انفتاحها على دولة أو عدد من الدول الأخرى ، ولكن بشرط ألا يؤثر هذا على انفتاحها على بقية أنحاء العالم. وهو شرط لا يختلف عما يمكن أن يضعه العشيق إذ يقول لعشيقته «إنى لا أمانع من زواجك من شخص آخر، ولكن بشرط أن تستمر علاقتنا بالضبط كما كانت قبل الزواج».

هذا هو ما آل اليه التكامل الاقتصادى فى عصر العولمة. ■





هذا المقال نشر في مجلة «فورين أفيرز» ضمن جزء خاص عن العولمة نختار منها هذا المقال المهم لكاتبه .

العولمة

اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء

بقلم
شاكر عبد الفتاح

في بداية الأمر صدق العديدون الوعود بأن العولمة سوف تفضي إلي زيادة معدلات دخول الأفراد في مختلف دول العالم ، وأن الشركات ستجني أرباحا هائلة من جراء توسيع نطاق الأسواق، وأن الدول الفقيرة ستنمو بصورة أسرع من الدول الغنية، وفي هذا التطور الذي سيكون فيه الكل فائزا تضاءلت أهمية الدولة في الوقت الذي أخذت فيه القرية العالمية «في النمو واتجهت الأسواق للاندماج» .

غير أن الدلائل كما يشير بروس سكوت أستاذ إدارة الأعمال في جامعة هارفارد في مقال له بمجلة فورين افيرز الأمريكية المرموقة ترسم صورة مختلفة أبعد ما تكون عن الصورة الوردية التي حاول مروجو العولمة طبعها في الأذهان، إذ أنه علي الرغم من أن متوسطات الدخل قد اتجهت بالفعل للنمو والزيادة فإن الفجوة في الدخل بين الدول الغنية والأخرى الفقيرة قد ازدادت أيضا . وهناك في عالمنا الآن مليار نسمة يقل دخل الواحد منهم عن دولارين يوميا .

ومع أن هذين الاتجاهين ظلا واضحين لأكثر من مائتى عام فإن التقدم الهائل الذى طرأ على وسائل الاتصال قد زاد من الوعى بين الفقراء تجاه التفاوت فى الدخول ، كما زاد من التدافع على الهجرة للدول الأغنى الأمر الذى حدا بالدول الغنية إلى وضع عراقيل أكبر على الهجرة وهو ما جعل الاقتصاد العالمى يبدو مثل مجتمع تكثر به البوابات بدلا من أن يكون قرية عالمية .

وعلى الرغم من أن الأسواق العالمية للسلع ورأس المال قد انفتحت على مصراعيها منذ الحرب العالمية الثانية وتولت المنظمات الدولية مهمة وضع القواعد ومراقبة الاقتصاد العالمى فإن التعاون الاقتصادى بين الدول مازال فى ازدياد .

شتان ما بين النظرية والواقع

ويقول سكوت أن هناك سببين أديا إلى الاختلاف بين النظرية الاقتصادية والواقع أولهما اصرار الدول الغنية على وضع حواجز أمام الهجرة والواردات الزراعية وثانيهما أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على جذب رؤوس الأموال الأجنبية نظرا لإخفاقات حكوماتها ، وهما سببان مرتبطان ببعضهما البعض إذ أن حواجز الهجرة بإجبار الشعوب الفقيرة على أن تظل فى دولها التى تدار بواسطة حكومات سيئة تحرم أولئك الذين هم فى أشد الحاجة من فرصة تحسين مستويات معيشتهم من خلال الانعتاق والخروج من بلادهم . وفى المقابل فإن هذا الثبات والجمود يقضى على مصدر محتمل للضغط على الحكومات غير الفعالة التى لا تتسم بالكفاءة ، وهو ما يعزز من فرص بقائها .

ونظرا لأنه من غير المرجح أن تحد الدول الغنية بشكل جوهرى من قيودها على الهجرة والحواجز التى تضعها أمام الواردات الزراعية فإنه يتعين عليها أن تعترف هنا بأن السياسة هى سبب رئيسى للتفاوت الاقتصادى.

دور الدولة مازال محوريا

ولكون معظم الدول النامية لا تستقبل إلا قدرا ضئيلا من الاستثمارات الاجنبية فإنه يجب أيضا على الدول الغنية أن تعترف بخطأ «اجماع واشنطن» الذى يفترض بأن الأسواق الحرة سوف تعمل على تحقيق التجمع الاقتصادى. واذا هى اعترفت على الاقل بتلك الحقائق فانها سوف تتخلى عن فكرة أن استراتيجيتها الخاصة هى الافضل بالنسبة لجميع الدول. وفى المقابل عليها ان تسمح للدول الاكثر فقرا بقدر معقول من الحرية بأن تتبع استراتيجيات تنموية تتفق مع ظروفها الخاصة، وفى هذه النظرة الاكثر براجماتية عملية فإن دور الدولة يصبح محوريا.

ويتساءل سكوت عن أسباب عدم ادراك الاقتصاديين والساسة لهذه الحقائق في وقت مبكر وهو ما يرجعه الى ان الحواجز التى اقامتها الدول الغنية تم النظر اليها على انها جوهرية لاستقرارها السياسى، ومن ثم فإن زعماء هذه الدول وجدوا من الملائم التغاضى عنها والتركيز بدلا من ذلك على جانب الاقتصاد العالمى الذى يجب تحريره. ويرى أيضا أن القوة السياسية للدول الغنية فى المنظمات الدولية تجعل من الصعب على الدول النامية تحدى وجهة النظر تلك التى تتخفى تحت راية العالمية.

خطأ الثقة العمياء في الاسواق وتجاهل القضايا السياسية

وقد تجاهلت النظرية الاقتصادية القضايا السياسية مخاطرة بتحديث المؤسسات حيث تكهنت على نحو خاطىء بانه بوسع الاسعار التى تستند على السوق توزيع الموارد بصورة مناسبة.

وكان الاخفاق التام للاصلاحات فى روسيا قد أجبر على اعادة تقويم متأخر لهذه الثقة العمياء فى الاسواق، فالعديد من المراقبين يعترفون الآن بان الاقتصاديات الانتقالية فى حاجة الى حقوق ملكية مناسبة ودولة تتسم بالفاعلية والكفاءة لفرض هذه الحقوق مثلما هى فى حاجة الى تحرير الاسعار، وفى الحقيقة فان تحرير الاقتصاد دون احترام لحقوق الملكية يتحول الى طريق مفروش لحكم العصابات وليس لانتعاش الرأسمالية فالصين بفضل تمتعها بدولة على قدر اكبر من الفاعلية حققت نجاحا اكبر فى فترة تحولها الاقتصادى من روسيا على الرغم من ان بكين كانت تمضى ببطء اكبر فى التحرر الاقتصادى والخصخصة.

وتحتاج التنمية الاقتصادية الى تحول فى المؤسسات فضلا عن اطلاق حرية الاسعار التى تتطلب بدورها تحديث سياسى واجتماعى فضلا عن اصلاحات اقتصادية. وتلعب الدولة دورا رئيسيا فى هذه العملية وبدونها فإن استراتيجيات التنمية تتمتع بفرص ضئيلة للنجاح.

العالم النامي يحتاج اكثر لحكومات تخضع للمساءلة

وايجاد نظم فعالة فى العالم النامى لن يتأتى من خلال قوى السوق المألوفة حتى ولو كان بوسع الضغوط الصادرة عن الاسواق المالية فرض انضباط مالى ونقدى فى عالم مازال يحكم من خلال «حقوق الدول» ،فان التقدم الحقيقى فى ايجاد حكومات تخضع للمساءلة مازال يحتاج الى ادخال اصلاحات على التفويضات الممنوحة للمؤسسات الدولية.

ومن الناحية النظرية فإن العولمة توفر فرصة لزيادة الدخل من خلال زيادة التخصص والتبادل التجارى، غير أن هذه الفرصة مشروطة بحجم الاسواق التى نحن بصددها التى تعتمد بدورها على الجغرافيا وتكاليف النقل وشبكات الاتصال والمؤسسات التى تعزز الاسواق والتجارة الحرة تزيد من حجم الاسواق

وكذلك من الضغوط لتحسين الأداء الاقتصادى. وأولئك الاكثر قدرة على المنافسة هم الذين يستغلون الفرص التى توفرها الاسواق من أجل البقاء والازدهار.

الدول الغنية تتنكر لمبادئها ونضع الحواجز أمام حرية الهجرة

ويحاول سكوت الإجابة على تساؤل يتردد كثيرا حول أسباب استمرار الدول الفقيرة فى التقهقر والتخلف عن اللحاق بالدول الغنية ، ويعرب عن اعتقاده بأن السبب الرئيسى يرجع إلى أن معظم الدول الغنية قد استبعدت إلى حد كبير التدفق الدولى للعمالة إلى داخل أسواقها خلال فترة ما بين الحربين العالميتين.

ونتيجة لذلك لم تكن العمالة غير حرة فى التدفق عبر الحدود الدولية فى البحث عن وظائف تدر عليها دخلا أكبر، فبالنسبة للولايات المتحدة وأوروبا لم تشهد الهجرة زيادة كبيرة إلا فى السنوات الأخيرة على الرغم من أنها بلغت ذروتها السابقة قبل قرن فى الولايات المتحدة.

ففى عام ١٩٧٧ لم تسمح الولايات المتحدة سوى بهجرة ٧٣٧ ألف شخص من الدول النامية بينما سمحت أوروبا بدخول ٧٣٧ ألف مهاجر. والرقمان معا لا يشكلان سوى ٠٫٤ فى المائة فقط من المهاجرين المحتملين ، فالقصة المسكوت عنها هى أن الدول الغنية التى ترفع عقيرتها بالتحرر والأسواق الحرة تتنكر لتلك المبادئ عندما تضع العراقيل أمام حرية الانتقال والواردات الزراعية ، حيث أن كلا من أوروبا واليابان تضعان عقبات تجارية كبيرة على وارداتها الزراعية.

الاستثمارات تذهب للدول الغنية وليس الفقيرة

غير أن مسألة الاستثمارات المباشرة التى تجلب فى العادة التكنولوجيا والمعرفة فضلا عن رؤوس الأموال هى أكثر تعقيدا مما توقعته النظريات، فعلى الرغم من أن الاستثمارات المباشرة الأجنبية قد زادت سبعة أضعاف خلال الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٧ كما زادت من ٤ فى المائة إلى ١٢ فى المائة من اجمالى الناتج العالمى خلال تلك الفترة فإن القليل للغاية منها هو الذى اتجه إلى الدول النامية. ففى عام ١٩٩٧ ذهب حوالى ٧٠ فى المائة من هذه الاستثمارات من دول غنية إلى دول أخرى غنية وتلقت ثمانى دول نامية فقط ٢٠ فى المائة وتوزع الباقى بين أكثر من مائة دولة.

ووفقا لبيانات البنك الدولى تلقت الدول الفقيرة الحقيقية أقل من ٧ فى المائة من الاستثمارات المباشرة الأجنبية الموجهة للدول النامية خلال الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٨ . ولم يكن أمرا عارضا أن الدول الغنية تصر على فتح الأسواق كلها كلما كان بوسعها الاستفادة من ذلك، وتصر على وضع الحواجز والعراقيل أمام الهجرة والمواد الزراعية إذا كان تدفقها سيضر بها.

وبالنسبة للنمور الآسيوية فإن نموها

القوى يعود إلى حد كبير إلى مدخراتها العالية وليس إلى رأس المال الأجنبى فالصين تحذو الآن حذو سنغافورة إذ يبلغ معدل الادخار بها ٤٠ فى المائة من إجمالى الناتج الوطنى.

فرص متساوية نعم ولكن من هو المستفيد؟!

وخلاصة الأمر أن الأسواق العالمية توفر الفرص للجميع غير أن هذه الفرص لا تضمن النتائج إذ أن معظم الدول الفقيرة غير قادرة على الانتفاع من رؤوس الأموال الأجنبية الكثيرة أو الاستفادة من الحرية المتزايدة للدخول إلى الأسواق، وفى الحقيقة فإن هذه الدول قد زادت من حجم مبادلاتها التجارية من ٣٥ فى المائة من اجمالى الناتج الوطنى فى عام ١٩٨١ إلى حوالى ٥٠ فى المائة فى عام ١٩٩٧. ولكن بدون النمور الاسيوية لازالت صادرات الدول النامية أقل من ٢٥ فى المائة من اجمالى صادرات العالم. ويعود جانب من تلك المشكلة إلى أن الميزة التقليدية للدول النامية تكمن فى السلع الأولية: الزراعة والمعادن. وقد تقلصت مثل هذه السلع من حوالى ٧٠ فى المائة من التجارة العالمية فى عام ١٩٠٠ إلى حوالى ٢٠ فى المائة فى نهاية القرن العشرين. فقد تحولت فرص النمو فى السوق العالمى من المواد الخام أو المواد شبه المعالجة إلى السلع المصنعة والخدمات وإلى تلك التى تعتمد على مزيد من المعرفة من بين هذه السلع وهو اتجاه يفيد بالتأكيد الدول الغنية وليست الفقيرة التى مازالت على هامش اقتصاد المعرفة وإن كانت النمور الآسيوية تشكل استثناء .

الميراث الاستعماري مازال أكبر عائق أمام الدول الفقيرة

ويقدم سكوت إجابة للتساؤل عن أسباب تفاوت أداء الدول الفقيرة وعدم تطابقه مع التوقعات النظرية بقوله: إن الحواجز فى الداخل والخارج تكبح من الامكانيات الاقتصادية للدول الفقيرة ولكن أكثر هذه الحواجز تأثيرا يكمن فيما ما تعانيه هذه الدول من مشاكل سياسية وادارية داخلية . وبالطبع فإن هذه العوامل تقع خارج إطار التحليل الاقتصادى العام. وقد ساهم فى ذلك الميراث الاستعمارى لمعظم الدول الاستعمارية إذ أن الأنظمة الاستعمارية اتجهت إلى الابقاء على التوزيع غير المتساوى للدخل والثروة والسلطة السياسية، فى الوقت الذى حدث فيه من انتقال رأس المال ومن ثم فإن الدول النامية الرئيسية مثل البرازيل والصين والهند واندونيسيا والمكسيك تشهد تفاوتا فى الدخل بين أقاليمها ، فى الوقت الذى تفشل فيه العمالة ورأس المال فى العثور على فرص أفضل بل ومازالت النخبة فى بعض الدول تحاول جاهدة الابقاء على هذه الأوضاع الجائرة.

حواجز الهجرة تقوض من القرية العالمية

وقد يبدو أن حق النزوح والهجرة



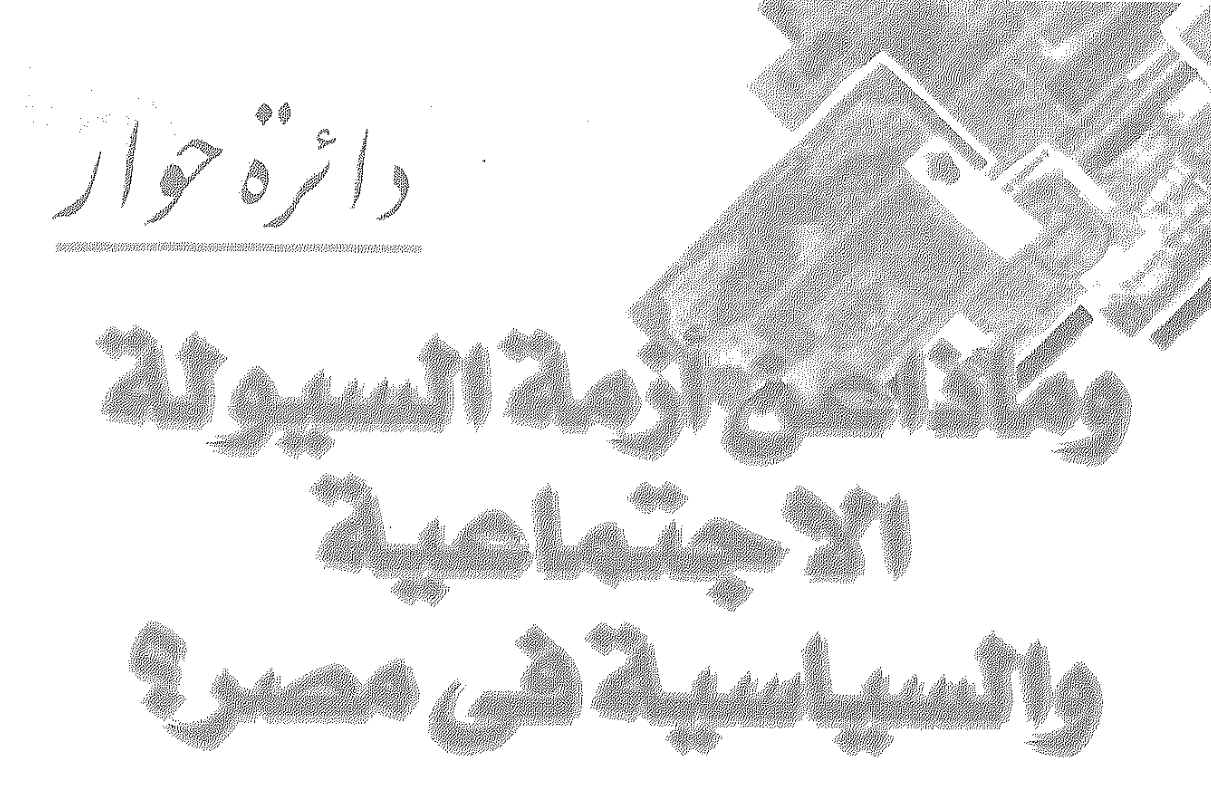
وحده هو الذى بوسعه أن يخضع سلميا الأنظمة الفاسدة القمعية للمسئولية والحساب إذ أن المؤسسات الدولية تفتقد شرعية التدخل فى الشئون الداخلية لمعظم الدول. وكانت هجرة ٦٠ مليون شخص لأمريكا الشمالية والارجنتين والبرازيل واستراليا قد ساعد على انطلاق الاقتصاد الأوروبى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فقد عملت هذه الهجرة التى بلغت ١٠ فى المائة من قوة العمل على زيادة الأجور فى أوروبا بينما خفضت من الأجور المتضخمة فى مناطق تندر بها العمالة مثل استراليا والولايات المتحدة.

وحواجز الهجرة فى الدول الغنية لا تقضى بصورة متعسفة على الفرص فى القرية العالمية أمام الملايين من الفقراء فحسب وانما تساعد أيضا الدول المتسلطة التى تدعى الديمقراطية من خلال حرمان مواطنى تلك الدول من حق التصويت ضد النظام بإستخدام «أقدامهم» أى تركها والنزوح للخارج، فعلاج الاختلال هو سياسى بقدر ما هو اقتصادى.

ومن الناحية النظرية الاقتصادية فإنه على الدول النامية أن تنشئ أو تحدث المؤسسات اللازمة لدعم أسواقها لكى يكون بوسع أسواقها وشركاتها أن تساير تدريجيا أداء الدول الغنية ، غير أن الواقع أكثر تعقيدا من النظريات كما أن الاقتصاديين الذين يقترحون بأنه يجب على جميع الدول أن تتبنى المؤسسات العربية لتحقيق مستويات الدخل الغربية غالبا ما يخفقون فى الاعتراف بالتغيرات والمخاطر السياسية الناجمة عن ذلك.

وبلا شك فإن العولمة توفر فرصا لجميع الدول غير أن معظم الدول النامية تعانى من أوضاع سيئة للغاية لا تمكنها من الاستفادة من تلك الفرص. ففضلا عن بعدها عن الأسواق الرتيسية وانتشار الأمراض المعدية ومعدلات النمو السكانى المنفلتة ، فإنها تعانى أيضا من هياكل غير متساوية للدخل موروثة من الأنظمة الاستعمارية ومن الصعب تغيير هذه الهياكل لتوزيع الدخل دون حدوث تغيير رئيسى مثل نشوب حرب أو اندلاع ثورة غير أن أكبر عيوب هذه الدول هى افتقار حكومتها للكفاءة.

ويطالب سكوت فى ختام مقاله بالسماح للدول الفقيرة بأن تفعل ما فعلته الدول الغنية لكى تنطلق بدلا من إجبارها على تبنى نهج «دعه يعمل دعه يمر» فالاصرار على فائدة ميزة المنافسة فى صناعات تتسع بانخفاض الأجور والبطء فى النمو طريق مؤكد لبقاء هذه الدول فى وهدة الفقر واستمرار الفقر سيؤدى إلى ارتفاع مستويات الهجرة غير المشروعة والعنف مثل عمليات الاختطاف وانتشار العصابات وغياب حكم القانون. ■



وماذا عن أزمة السيولة الاجتماعية والسياسية في مصر؟

بقلم
د.محمود عبد الفضيل

تحدثنا كثيراً خلال العام الماضي عن أزمات السيولة المالية والركود الاقتصادي. وغاب عنا ان هناك أزمة أعمق تضرب بأطنابها بين جنبات المجتمع منذ نحو عقدين من الزمان، وتفاقمت تداعياتها خلال السنوات الأخيرة. وتلك الأزمة التي نقصدها هي أزمة ضعف السيولة «الاجتماعية والسياسية» في البلاد.

فعلى الصعيد الاجتماعي نجد أن أحد مظاهر تلك الأزمة يتمثل في ضعف الحراك الاجتماعي في المجتمع المصري، مقارنة بما كان عليه الحال منذ الخمسينات والستينات والسبعينات، وذلك نتيجة تراكم الآثار السلبية لسياسات التعليم والتوظف وتوزيع الدخول والثروات، حيث تعمقت «الانفصامية الاجتماعية» وأغلقت قنوات «الحراك الاجتماعي».

وعلى الصعيد السياسي، تأخذ الأزمة شكل التيبس والجمود في أطر العمل السياسي، نتيجة ضعف التجديد المؤسسي وترهّل كوادر العمل السياسي، سواء في إطار السلطة أو لدى أحزاب المعارضة، على السواء. فلقد شاخت قيادات كثيرة في مواقعها هنا وهناك.

والناظر لحال المجتمع المصرى من خارجه، يكاد يخيّل له أن هذا المجتمع يسير بخطى بطيئة، وكأنّ أرجله «موضوعة فى الجبس»، «وجسده» مصاب بالانيميا»، نتيجة عدم ضخ دماء جديدة فى عروقه وشرايينه. ولعدم حدوث تغييرات مؤسسية تواكب روح العصر وتحدياته الثقيلة.

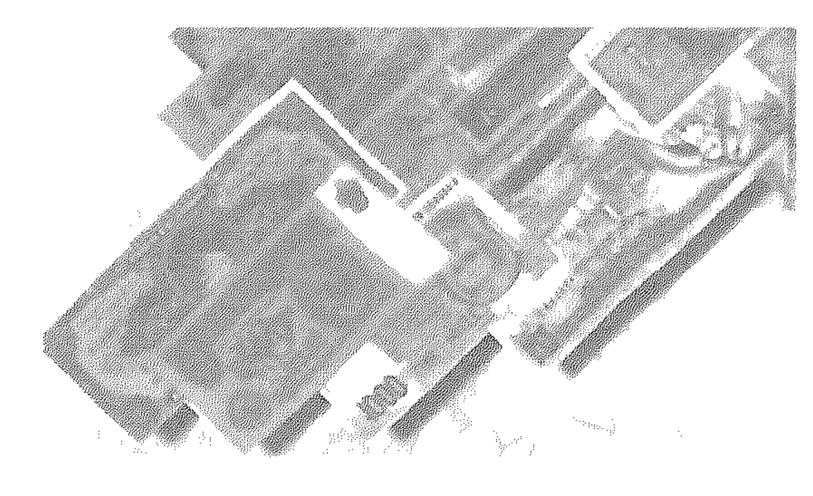
فالملاحظ أنه تجرى «إعادة تدوير» عناصر نفس النخبة بين المناصب ومواقع المسئولية المختلفة، دون تجديد يذكر، خلال ربع القرن الماضى (١٩٧٥ - ٢٠٠٠). وأصبح «جيل الستينات»، على أعتاب الستين من العمر، أى يكاد يصبح «خارج نطاق الخدمة»، دون أن يستفيد المجتمع من عطاء أكثر عناصره كفاءة ونزاهة وخبرة.

ولم يحدث التجديد سوى على مستوى «نخب رجال الأعمال»، حيث برز على السطح نخبة جديدة من «رجال الأعمال»، دون حيثيات واضحة ودون «سيرة ذاتية» معروفة. باستثناء القلة القليلة. يقابل هذا ضمور واضح فى دور وتكوين عناصر «النخب المهنية» و «النخب البيروقراطية» و«النخب الأكاديمية»، التى لعبت أدوارا مهمة ومتجددة فى التاريخ المصرى الحديث منذ بداية الصحوة الوطنية عام ١٩٠٧.

وحول المواقع الجديدة التى أخذ يحتلها «رجال الأعمال»، كتب أحد كبار «رجال الأعمال الجدد» مؤخرا يقول: «إننى أمثل رجال الأعمال والقطاع الخاص الذى يحمل ٧٠٪ من عبء التنمية فى مصر». ورغم عدم صحة هذا الرقم الذى هو «شعار» أكثر منه «حقيقة»،فإن هناك حدودا تاريخية لدور رجال الأعمال فى مسيرة النهضة والتنمية فى المجتمعات النامية.

وبهذا الصدد يطرح جاديش باجواتى - الأستاذ المرموق فى جامعة كولومبيا وأحد كبار الاقتصاديين الليبراليين - لدى مراجعته لكتاب «جورج سوروس» عن «**كيمياء صنع المال**»، تساؤلا تاريخيا مهما: **المال يمكن أن يتكلم، ولكن هل باستطاعته الكتابة ؟**» وأعتقد أن هذه العبارة البليغة حافلة بالدلالات والمعانى بالنسبة لمستقبل بلادنا.

ويتمثل «المأزق المزدوج» الذى يعانى منه المجتمع المصرى عند بداية «الألفية الجديدة» فى شقين:



(أ) **علي الصعيد السياسي:** إصرار الحزب الحاكم على الاحتكار الكامل للسلطة، من ناحية، وعدم قدرة القوى السياسية الأخرى على تجديد كوادرها وبرامجها، من ناحية أخرى.

(ب) وعلى صعيد «**حركة المجتمع**» ، نجد أن الطبقات الثلاث الرئيسية فى المجتمع قد لحقت بها تحولات وتشوهات جوهرية منذ منتنصف السبعينات. فبالنسبة **للطبقة العليا**، نجد أنها تزخر بالأغنياء الجدد، الذين جاءت ولادتهم «غير طبيعية» فى عصر النفط والتدويل، ودون رصيد تاريخى يذكر، بما لا يقارن بسابقتها التى كانت مستندة إلى أرضية إنتاجية صلبة تقوم على «ملكية الأرض». إذ كوّن معظم «الأثرياء الجدد» ثرواتهم من خلال مجالات «التداول والوساطة والمقاولات»، والعلاقة برأس المال الأجنبى، وليس من خلال عمليات التراكم الإنتاجى الإنمائى، على نحو ما فعلت «رأسماليات» فى بلدان نامية أخرى، مثل بلدان جنوب شرق آسيا.

ولذا فإنها «طبقة» لم تتحدد معالمها بعد، ومازالت غير واثقة من نفسها ومن مستقبلها، وتحتاج دوماً لمظلة حماية خارجية.

وعلى صعيد «**الطبقة الوسطي**»، نجد أن تلك الطبقة التى شكلت «العمود الفقرى» لنهضة المجتمع المصرى منذ ثورة ١٩١٩، قد ترهلت وتشرذمت وفقدت جانباً كبيراً من قوة شكيمتها وكبريائها. إذ ضاق بها الرزق وفقدت مكانتها الوظيفية والاجتماعية المتميزة، وتريّع (نسبة إلى ريع النفط) الكثير من أبنائها. فأصبحت طبقة «منهكة» تعيش مرحلة «إعادة فرز» اجتماعى واقتصادى وأيديولوجى مؤلم.

وعلى صعيد «**الطبقات الشعبية**» ، نجد أن تلك الطبقات تعانى منذ نهاية السبعينات من عمليات مستمرة للتهميش الاجتماعى والبلبلة الفكرية، وتعدد سبل الكسب والعيش التى تصل أحيانا إلى حد «تسول الرزق» والتحايل على الحياة اليومية. ولذا فهى تعانى من التوظف «غير المنتظم»، ومن «فقدان الاتجاه». بل لقد تحولت أعداد كبيرة منها لتكون مستودعاً للبلطجة والتعطل.

ولذا فإن القراءة الصحيحة لدلالات

«المعركة الانتخابية» الأخيرة فى مصر، بعيداً عن النواحى الإجرائية وما شابها من تجاوزات ومخالفات، لابد أن تمتد إلى قراءة شاملة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أفرزت تلك الممارسات والسلوكيات. ودون ذلك، سوف تظل القراءة مبتورة وناقصة.

إذ أننا يجب أن نعى أن «السرادق المنصوب» على سطح المجتمع، وما يحويه من قوى سياسية ومنتديات فكرية ومهنية عديدة، قد يكون منعدم الصلة بحركة الجماهير التحتية وآليات وتربيطات الحياة اليومية «المعيشية» و «الاجتماعية». ولا يمكن مواجهة تلك الوقائع الجديدة بمفاهيم وأدوات تحليلية متآكلة «يعلوها الصدأ».

ولذا فمهما كان تركيزنا على اعتبارات الكفاءة الاقتصادية والتوازنات الاقتصادية ضرورياً و مهما.. فإن الإصرار على تحقيق أكبر قدر من العدالة فى توزيع الدخول والثروات، وربط الجهد بالعائد يعتبر ضرورة للاستقرارين الاقتصادي والسياسي. إذ أن عدم مشروعية الثروات والتوزيع الظالم لثمار النمو يؤثر تأثيراً بالغاً على أخلاقيات العمل وعلى نظام الحوافز لدى قطاع كبير من المنتجين والمبدعين فى هذا البلد، مما يضعف جهاز المناعة المجتمعى.

إن بناء «جهاز المناعة المجتمعى» يقتضى توافر ثلاث آليات فاعلة فى حياة المجتمع لحماية مسيرة النمو والتنمية، وتحويل «الشعارات إلى » واقع عملى مُعاش» يحس به الصغير قبل الكبير.

وتتلخص تلك الآليات فى ثلاث:

(١) آلية للمحاسبة الدورية عن الأداء وحسن أو سوء الإدارة، آلية تتسم بالشفافية والوضوح والمصداقية.

(٢) آلية للتصحيح، بحيث يمكن تصحيح المسار دون إبطاء عندما يتضح أن هناك أخطاء تشوب مجموعة معينة من السياسات. إذ أن عنصر الزمن مهم فى هذا المجال لأن تراكم الأخطاء وبطء عمليات التصحيح تكلفان البلاد جهداً ومالاً لا طاقة لها بهما.

(٣) آلية للتغيير، وذلك حتى يطمئن الناس إلى إمكانية تجديد الدماء والقيادات فى المجتمع وفقاً لآليات معروفة وحتى يدب الأمل فى نفوس المواطنين على اختلاف مواقعهم عندما يعلمون أن التغيير حق، وأن التغيير ضرورة لضخ دماء جديدة فى عروق المجتمع فى إطار استراتيجية للتقدم والنمو. لأن التغيير هو طريق الاستقرار. ■

ذكريات الإسكندرية.. أيضاً

بقلم الشاعر
محمد التهامى

صوّر مقال الدكتور عبدالعظيم أنيس (ذكريات الإسكندرية) فى الهلال فبراير عام ٢٠٠١ ملمحا من ملامح الغليان الشعبى عام ١٩٤٦ الذى كان وقوده طلبة الجامعة والعمال الذين قاموا بمظاهرات عارمة ضد جنود الاستعمار البريطانى وحكومة اسماعيل صدقى المتعاونة معه، وكان الرجل دقيقا وحريصا على تحرى الصدق فيما شاهده وشارك فيه، وهو وان اعتذر لتقدم السن وتوقع ضعفا الذاكرة إلا أنه أثبت أنها لم تخنه.

جاء فى مقال الدكتور: «إن طالبا من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأراده قتيلا .. وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذى قام بهذا العمل الاستفزازى الدنىء.. وان كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب».

وبديهى وخاصة إن الدكتور كان مشاركا فى الأحداث أنه يعلم حق العلم أن الطلبة لم يكونوا مسلحين، وانهم فى مظاهراتهم كانوا فى منتهى الوعى والادراك فلم يحطموا ولم يتلفوا شيئا من الأموال العامة أو الخاصة، وكانوا يتصادمون مع رجال البوليس الذين كانوا كثيرا ما يطلقون النار ويسقط الشهداء من الطلبة وهم يعلمون أن رجال البوليس المصريين مواطنون مصريون شرفاء يؤدون واجبهم وينفذون الأوامر فى أغلب الأحيان مرغمين، وان العدو الحقيقى يتمثل فى الجنوب البريطانيين .. وان إطلاق



طلاب الرصاص كانت شائعة أطلقها البوليس السياسي، والحقيقة أن الضابط أصيب برصاصة طائشة أثناء البوليس الرصاص على الطلبة، وهذا ما اثبته التحقيق إذ وجدوا ان الرصاصة من النوع الذي يستعمله البوليس، وعندما تمكنوا من القبض عليّ بعد هذه الواقعة بيومين ، وجدوا اثناء تفتيش منزلي مسودة خطاب كنت ارسلته إلى الأستاذ فتحي رضوان لنشره في مجلة اللواء الجديد التي كان يصدرها شباب الحزب الوطني ، وفيه شرح للواقعة ونوع الرصاصة الذي علمته من الدكتور محي الدين الخرادلي زميلنا في لجنة الطلبة والعمال حينذلك، وقد كان شباب الحزب الوطني يوزعون مجلة اللواء الجديد في الشوارع كما كان الماركسيون يوزعون مجلة الجماهير كما جاء في مقال الدكتور .

وقد أشار الدكتور إلى قصيدته الشعرية ، والذي حدث أننا حوصرنا يوم استشهاد الضابط في الكلية، وقضينا الليل كله حول جثمان أحد الشهداء منا ، نلقي الخطب الحماسية وقصائد الشعر ، وقد اشندت قصيدتي ومنها:

يامصر إن جار الطغاة فإننا
بالروح ندفع عن حماك وبالدم
والدم أغلى ما يباع وهاته
ثمنا من النذال غير مقوم
فإذا رأيت الدم يهرق طاهرا
بالله لا تنهي ولا تتألمي
هايتك أوسمة الجهاد فقبلي
يامصر جرح الماجد المتوسم
وتبسمي إن راح منك مجاهد
فشريعة الأبطال أن تبتسمي
أشلاؤنا هذي فمري فوقها
للمجد ثابتة الخطا وتقدمي

إنا نموت وأنت أنت حياتنا

للمجد عيشي يابلادى واسلمى

ولكن الذى عز علىّ كثيرا هو أن يشير الدكتور إشارة عابرة إلى أخطر أحداث الإسكنرية بل أخطر أحداث مصر كلها، وهى أحداث ٤ مارس عام ١٩٤٦ فى محطة الرمل إذ يقول الدكتور عنها: «إن احداث ٥ مارس بالإسكندرية كانت تجاوبا مع ما حدث بالقاهرة وان كانت أكثر عنفا من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية فى محطة الرمل وفى أماكن أخرى، ومات فى هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين».

وحقيقة الأمر فيها أن طلبة جامعة القاهرة ومدارسها كانوا بشوارع القاهرة فى مظاهرة كبيرة احتفالا بذكرى يوم ٢٨ فبراير فأطلق عليهم ثالج٢نود الانجليز الرصاص من ثكناتهم بمعسكر قصرالنيل (كان مبنى هيلبتون ومبنى الجامعة العربية) وسقط من المتظاهرين عدد من الشهداء مما كان له دوى كبير ضاعف الغليان الشعبى ضد الاستعمار الانجليزى والحكومة المتعاونة معه وكانت حكومة اسماعيل صدقى .

وقد قمنا فى الإسكندرية فى ٤ مارس عام ١٩٤٦ على أثر ذلك الحادث بمظاهرة كبيرة من طلبة الجامعة والمدارس وشارك فيها العمال وقادها أعضاء لجنة الطلبة والعمال من جميع الانتماءات الحزبية فقد كان معنا ممن تسعفنى الذاكرة بأسمائهم، وممن يجب أن يذكرهم تاريخ المرحلة: عبداللطيف الفاحل وعبدالرحمن محسن (عضو مجلس الشورى) ومصطفى عبدالعظيم وسعد التائه ومنيب الجعلى من شباب الحزب الوطنى ومحمد عيد وعبدالله عطا وإبراهيم الطويل من الوفد وجمال لحولان وعمرو لاشين من مصدر الفتاة وعلى فهمى طجان ومختار عبدالعليم من الأخوان المسلمين وعدد من الماركسيين من طلبة الجامعة والمعيدين والقيادات العمالية منهم د. عبدالعظيم انيس ود. محمود آمين العالم ود. فؤاد مرسى وعبدالعظيم أبوالعطا وعباس الدابى (سودانى).

تحيا مصر

وتوجهت المظاهرات العارمة إلى محطة الرمل وحاصرت نقطة الحراسة الانجليزية هناك وبها ستة (٦) من الجنود، وكانت ملحمة بين الجنود المسلمين والثوار العزل، كان الجنود يطلقون الرصاص من خندقهم ومن وراء الستائر الخشبية محتمين بجدران نقطة الحراسة، وكانت مورجات الحشود الثائرة تتراجع وتتقدم باصرار بالرغم من سقوط الشهداء، والجرحى، وقد رأيت بعينى صبيا من العمال يخلع سترته ويغمرها بالبنزين ويشعل فيها النار ويلقيها على نقطة الحراسة ويسقط مصابا وهو يهتف تحيا مصر، ولم ينتصف النار إلا وقد نفدت ذخيرة الجنود واطبقت الجموع الثائرة عليهم، وأحرقت النقطة بكل من فيها .

وقد أصبنا فى ساقى ونقلت إلى المستشفى الأميرى بجوار محطة الرمل



واسعفنى هناك الدكتوران على معبد ومحى الدين الخرادلى وكانا طبيبى امتياز ومن اعضاء ومن أعضاء لجنة الطلبة والعمال، وتحفظت على النيابة وظللت تحت الحراسة دون تحقيق معى طيلة ستة شهور، ولن ينقذنى إلا اضرابى عن الطعام لمدة عشرة إأيام ، فأخلى سبيلى ولكن بعد أن ضاعت علىّ سنة دراسية.

التصدى للإنجليز

ودارت الأيام وأثناء عملى بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى الستينات، وفى حديث مع الأمين العام للجامعة المرحوم (عبدالخالق حسونة باشا) وقد كان عام ١٩٤٦ محافظا للإسكندرية قال - والعهدة عليه - أنه فى ٤ مارس عام ١٩٤٦ اتصل به قائد الحامية البريطانية فى معسكر مصطفى باشا ليخطره بأنه سيتجرك فى شلة من الجنود إلى محطة الرمل ليخلص جنود نقطة الحراسة من المتظاهرين ، فقال له المحافظ انه لو تحرك الجنود الانجليز فى شوارع الإسكندرية فإنه سيأمر البوليس المصرى بالتصدى لهم، وأضاف ان البوليس المصرى كفيل بالمتظاهرين، وبناء عليه لم يتحرك القائد والجنود من معسكر مصطفى باشا.

وقد نشرت الصحف فى حينه أن إحراق ستة من الجنود الانجليز فى محطة الرمل أثير فى مجلس العموم البريطانى واستدعى قائد حامية مصطفى باشا لمساءلته، وليس هذا هو المهم ولكن المهم أنه بعد هذه الواقعة صدر قرار سحب الجنود الانجليز من القاهرة والإسكندرية إلى منطقة قناة السويس:

ومن هنا تتضح أهمية الوثبة الشعبية فى مظاهرات ٤ مارس عام ١٩٤٦ بالإسكندرية كعلامة مضيئة من من علامات كفاح الشعب المصرى تسجل لطلبة الإسكندرية وعمالها وتضاف بكثير من الفخر والاعتداد لذكريات الإسكندرية. ■

ثورة ١٩٥٢.. شعبياً!

بقلم:
عبدالرحمن شاكر

أرجو أن يأذن لي «الهلال»، والدكتور رءوف عباس، بالتعقيب على مقاله القيم، في عدد يناير من هذا العام على صفحات الهلال والذي تناول فيه أحداث ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، الذي شهد ما يعرف باسم «حريق القاهرة». ولا يأتي التعقيب من موقع المخالفة لما تضمنه المقال، بل هو بمثابة توضيح لبعض ما كان يدور في أروقة نوع آخر من «المتآمرين» في ذلك اليوم، وما سبقه، أولئك هم المتآمرون من أجل قلب نظام الحكم! ولا يكون التآمر معنى قبيحا في جميع الأحوال، بل العبرة بالهدف المقصود منه، وإلا لما اشتق من المصدر ذاته لفظ «المؤتمر» الذي يحاط عادة في الدوائر السياسية بالاجلال والاحترام.







حريق القاهرة
٢٦ يناير ١٩٥٢

والفريق الذى أعنيه فى هذه الكلمة، هم أشد المتآمرين على قلب نظام الحكم تطرفا وأعنى بهم «الشيوعيين»، الذين لم يكن لهم حزب سياسى مشروع معترف به، ولكن كانت لهم منظمات سرية، يطاردها البوليس، ومن يقبض عليه منهم كان يقدم للمحاكمة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم. كان موقفهم المعروف من هذا النظام هو عداوته، والسعى إلى استبداله بنظام جمهورى، ديمقراطى على الأقل، لأن الأكثر المرموق لديهم، هو أن تصبح البلاد جمهورية اشتراكية.

وكان من المعروف عن المنظمات الشيوعية، أنها كانت متعددة تتباين عادة فى برامجها أو بعض تفاصيل تلك البرامج، وكان بعضها أحيانا يقع فيه الانشقاق وتنسلخ من المنظمة الواحدة منظمة أخرى أو أكثر، وكان من المنظمات، التى نشأت مستقلة فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات منظمة أطلقت على نفسها اسم «الحزب الشيوعى المصرى»! هكذا «خبط لزق» كما يقال! بينما كانت المنظمة الشيوعية الكبرى المعروفة فى ذلك الحين تختار اسما شديد التحفظ والتوقى، وهو اسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» والتى يشار إليها مختصرة بكلمة «حدتو». وان كان قد انشق عنها ما يعرف باسم «نحو حزب شيوعى مصرى» واختصارها «نحشم» ، «والمنظمة الشيوعية المصرية» واختصارها «م. ش. م».. الخ، وكان فى منظورها أن ما يستحق أن يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» لابد وأن يكون كيانا كبيرا يشمل كل المنظمات أو معظمها، يكون برنامجه متفقا عليه ومقبولا من الجميع، وكذلك قيادته!.

حزب الراية

فلما أعلنت المنظمة الجديدة أنها هى «الحزب الشيوعى المصرى» قوبل ذلك باستياء شديد من جانب اعضاء المنظمات الأخرى، واعتبرته تبجحاً واستباقا لواقع الأمور، يكاد يشبه قطع الطريق! ورفضت أن تشير الى تلك المنظمة بالاسم الذى اختارته، وإنما كانت تستخدم بدلا من ذلك الاسم الذى أطلقته تلك المنظمة على مجلة سرية كانت

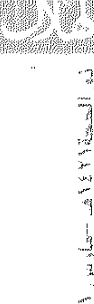
تصدرها تحمل اسم «راية الشعب»، وأطلقت على المنظمة التى تحمل اسم «الحزب الشيوعى المصرى» منظمة الراية، أو «حزب الراية»!.

ولم يكن الخلاف مع المنظمات الأخرى يدور حول الاسم فقط، بل البرنامج أيضا، ففى الوقت الذى كانت «حدتو» ومعها معظم المنظمات تعتبر أن التحرر من الاستعمار البريطانى هو المهمة الأولى، ومن هذه المهمة اشتقت حدتو اسمها المشار إليه، كان ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» يعتبر أن المهمة الأولى هى القضاء على النظام الملكى الموالى للاستعمار، وعلى الطبقة الاجتماعية المساندة له وهى «الاقطاع» واعتقد إذا لم تخنى الذاكرة، أن الفضل فى ظهور هذه الكلمة الأخيرة فى الفكر السياسى المصرى المعاصر، يعود لهذا الحزب وبرنامجه.

وكان تجنيد الأعضاء الجدد للحزب، سواء من الشيوعيين الذى كانوا منضمين إلى منظمات أخرى، أو لم يكونوا كذلك، يجرى باطلاعهم على تقرير سياسى يتضمن تفكير الحزب وفلسفته بعنوان «ثورتنا المقبلة»! وكان شديد التأثر بتاريخ الثورة الروسية، إذ كان يرى أن الثورة سوف تتم على مرحلتين ، الأولى هى «الثورة الديمقراطية» التى يتم فيها القضاء على النظام الملكى الاقطاعى ، ويكون خروج الاستعمار مع هذه المرحلة أمرا مفروغا منه، والمرحلة الثانية تكون هى «الثورة الاشتراكية» على غرار ما حدث فى روسيا بثورتيها: الديمقراطية فى فبراير من عام ١٩١٧، والاشتراكية فى أكتوبر فى العام ذاته!.

وقد انضممت فى أوائل الخمسينات إلى تلك المنظمة، أو الحزب ، بعد أن تبخرت المنظمة التى كنت أعمل فيها من قبل، وهى المنظمة الشيوعية المصرية وسبب تبخرها أن زعماءها من اليهود، وخاصة الزوجين إديت وسلامون سدنى، هاجروا إلى دولة الكيان الصهيونى ! فضلا عن كونى كنت مختلفا مع قادتها حول بعض الأمور التنظيمية.. رغم نجاحى فى ظلها فى تكوين نقابة سرية لعمال شركة «ثورنيكروفت» للنقل العام، وكنت أفكر مع بعض فلول المنظمة فى تكوين منظمة جديدة.

وقد اكتسبت ثقة قادة ما يسمى «بالحزب الشيوعى المصرى» سريعا ، وخاصة بعدما اتيح لى الاطلاع على نسخة بالانجليزية لكتاب ، «ماوتسى



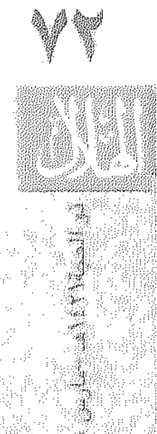
تونج زعيم الثورة الصينية ، بعنوان «ديمقراطية جديدة»، الذى ذكر فيه امكانية اندماج الثورة الاجتماعية أو الاشتراكية ، مع ثورة التحرر الوطنى الديمقراطى ، فى المستعمرات فى عملية ثورية واحدة، وأرسلت الكتاب الى قيادة الحزب، فأعاد زعيمه الرفيق خالد (المرحوم الدكتور محمد فؤاد مرسى وزير التموين الاسبق فيما بعد) كتابة تقريره عن ثورتنا المقبلة، ليصورها شبيهة بالثورة الصينية وليس الروسية!!

الانفجار الشعبى

كان من المقدمات الحاسمة للانفجار الشعبى فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، وهو ما لم يشر إليه الدكتور رءوف عباس فى مقاله، هو إقدام الملك فاروق قبل ذلك اليوم بعدة أسابيع على تعيين المرحوم الدكتور حافظ عفيفى (باشا) رئيسا للديوان الملكى، وهو المعروف بصداقته للانجليز ، وعدائه لحكومة الوفد التى كانت تسمح بالمقاومة الشعبية المسلحة ضد الاحتلال البريطانى ، فيما عرف باسم «حركة الفدائيين»، وأنه قد جيء به فى هذا المنصب، لكى يشرع فى التآمر من أجل إقصاء حكومة الوفد وضرب الحركة الوطنية.

وقد انفجر السخط الشعبى ضد الملك وقراره بتعيين حافظ عفيفى فى صفوف الطلبة، وقامت مظاهرات صاخبة كان أهمها مظاهرة جامعة القاهرة (التى كانت تسمى جامعة فؤاد الاول فى ذلك الحين)، ووقف الرفيق سلمى (الكاتب الصحفى المرحوم محمد جلال كشك)، وكان عضوا بالحزب الشيوعى المصرى وأهم ممثليه فى الجامعة، ينادى بسقوط الملك والنظام الملكى المتواطيء مع الاستعمار، وانبرى له المرحوم عبدالمنعم الغزالى (ممثلا لنظمة حدتو) يدين موقفه ويطالب بالاكتفاء بالمطالبة بسقوط حافظ عفيفى!.

وكنت أنا مسئولا عن الطلبة والعمال فى لجنة منطقة القاهرة بالحزب المذكور واجتمعت فى المساء مع بعض الطلبة والعمال من أعضاء الحزب، وقلت لهم إن عليهم أن يدعو الى تشكيل جبهة متحدة من كافة القوى الثائرة على النظام الملكى المطالبة بسقوط هذا النظام، وإقامة جمهورية ديمقراطية تتولى قيادة النضال



ضد الاحتلال البريطاني.

مغامرة بمصير

وجاءني الرد من قيادة الحزب بعد أن رفعت لها تقريرا بما تم مني في الاجتماع المذكور، حمل إليَّ هذا الرد المرحوم الأستاذ مصطفى طيبة الذي كان هو المسئول المركزي عن لجنة منطقة القاهرة، وأبلغني أن قيادة الحزب ترفض ما دعوت إليه وتعتبره مغامرة بمصير الشعب! وتطلب مني أن أبلغ الرفاق بالاكتفاء بالمطالبة بإسقاط حافظ عفيفي (نفس موقف حدتو)! والسبب في ذلك هو أن الحزب لايزال صغيرا وأضعف من أن يقود ثورة ضد النظام برمته!، وعبثا حاولت أفهامهم عن طريق الرفيق طلعت (الاسم الحركي لمصطفى طيبة) أن ثورة الشعب قد تجاوزت حد المطالبة بسقوط حافظ عفيفي، وأنها غير مسئولة عن كون الحزب لايزال ضعيفا!، وأن المد الثوري العارم هو الفرصة الكبرى للأحزاب الثورية لكي تنمو، وأن اتخاذ موقف أقل ثورية من الجماهير بدعوى ضعف الحزب يزيده ضعفا ويعزله عن الجماهير!

وإزاء إصراري على هذا الموقف تم إيقافي عن النشاط الحزبي، وطلب مني الرفيق طلعت أن يتسلم من أنا مسئول عنهم من الرفاق الطلبة والعمال، ولكن واقعة معينة أكدت لي سلامة موقفي، بل أكثر من ذلك.. استعداد حكومة الوفد ليس فقط للسماح بحركة الفدائيين في قناة السويس بل أيضا التغاضي عن النشاط الثوري المعادي للملك والنظام الملكي، وأنها كانت تدرك أنها تخوض معركتها الأخيرة مع الملك. تلك الواقعة هي أن البوليس ألقى القبض على شقيق لي (هو المرحوم المهندس زهير شاكر) وكان وقتها طالبا بكلية الهندسة ومتعاطفا مع الحزب الشيوعي وليس عضوا فيه، كان أخي يقوم بطبع منشور ضد الملك والنظام الملكي في مطبعة صغيرة في ميدان السيدة زينب، حينما قبض عليه، ولكن خرج من محبسه في اليوم التالي، واكتفت الحكومة بمصادرة المنشور الذي كان يطبعه!.

حزب الفلاحين

أما لماذا استقل جلال كشك بموقفه في الجامعة عن قيادة الحزب الشيوعي، فذلك لأنه كان في ذلك الحين في حالة غضب وتمرد على قيادته.

فقد كان قد اتفق مع المرحوم الكاتب خالد محمد خالد على تكوين حزب الفلاحين، وطالب الحزب الشيوعي

بمساندته فى هذا المطلب، وحينما عرض علىّ الأمر، افتيت لقيادة الحزب بأنه من غير المعقول أن يتولى حزب معين إنشاء حزب آخر! فذلك مما يثير الارتباك فى الولاء ما بين الحزبين، وأن المنطقى هو انه إذا قام حزب للفلاحين بشكل مستقل فحزبنا يكون على استعداد للتحالف معه بقدر ما تتفق برامج الحزبين.. وأن ما نستطيع عمله كحزب هو المساعدة على انشاء اتحاد للفلاحين فحسب! وقد اخذت قيادة الحزب الشيوعى بهذا الرأى فى مواجهة جلال كشك الذى غضب واستقل!

أما فيما يتعلق بالدعوة الى تكوين جبهة متحدة من القوى الثائرة على النظام الملكى فقد اشتكى المرحوم أحمد حسين زعيم الحزب الإشتراكى من أن الشيوعيين قد حيروه، فمرة يأتى إليه عضو من حدتو يدعوه الى الدخول معهم فى جبهة وطنية، فيوافق ، وفى اليوم التالى يأتى إليه عضو فى منظمة أخرى يدعوه إلى الدخول معهم فى جبهة شعبية، فيوافق أيضا ، فيأتى الأول فيقول بل جبهة وطنية.. وأخيرا يقول لهم اذهبوا فاتفقوا أولا على اسم الجبهة.. وطنية أو شعبية.. ثم عودوا إلىّ!.

ثورة الشعب مع النظام

ووقع الانفجار فى ٢٦ يناير كما وصفه الدكتور رءوف عباس فى مقاله، مع اختلاف بسيط، هو أن قوات بلوكات النظام لم تشارك فحسب فى مظاهرات ذلك اليوم، ولكن توجهت بقيادة أحد الضباط إلى جامعة القاهرة التى خرج طلبتها منها بقيادة جلال كشك يهتفون بسقوط الملك والنظام الملكى، وسارت تلك المظاهرة إلى قصر عابدين حيث تصدى لهم مأمور قسم عابدين الذى أخرج مسدسه لتخويف المتظاهرين، وتقدم منه جلال كشك فاتحا صدره مشيرا إليه آن يطلق عليه النار! ولكنه لم يفعل.. كانت الشرطة لا تقل سخطا عن الجماهير لما آصاب رجالها فى محافظة الاسماعيلية ! وكانت تحضرنى مقارنة مؤلمة مع الثورة الروسية، وهو أن الشرطة لم تنضم للثورة الروسية على القيصرية إلا بعد مرور سبعة عشر يوما على اندلاعها، آما «ثورتنا» نحن فقد كانوا فى طليعتها!.

أقول «ثورتنا» لأنه بعد أيلولة الامور الى ما آلت إليه ونشوب حريق القاهرة وإعلان الاحكام العرفية وسقوط حكومة الوفد ، «طفشت» إلى الصعيد بمشورة ومعاونة بعض الرفاق من الطلبة خشية القبض عليّ، وكان قد تم بالفعل القبض على شقيقي زهير، وهناك كتبت تقريرا بعنوان «ثورة ١٩٥٢»، قلت فيه كلاما شبيها بما قاله الدكتور رءوف عباس عن الانفجار الشعبي في ٢٦ يناير من أنها كانت ثورة الشعب على النظام الملكي، ولكن انعدام وجود قيادة منظمة لتلك الثورة تقودها للاستيلاء على مقاليد السلطة عن طريق الاستيلاء على الوزارات وأقسام البوليس وما أشبه ، قادتها الرجعية عبر الاحراق والتدمير إلى الهزيمة المنكرة، بل ذكرت في هذا التقرير أن الملك قد أخر نزول القوات المسلحة إلى الشوارع خشية انضمامها إلى الشعب في ثورته كما فعل البوليس!

شيوعية خارج الحزب

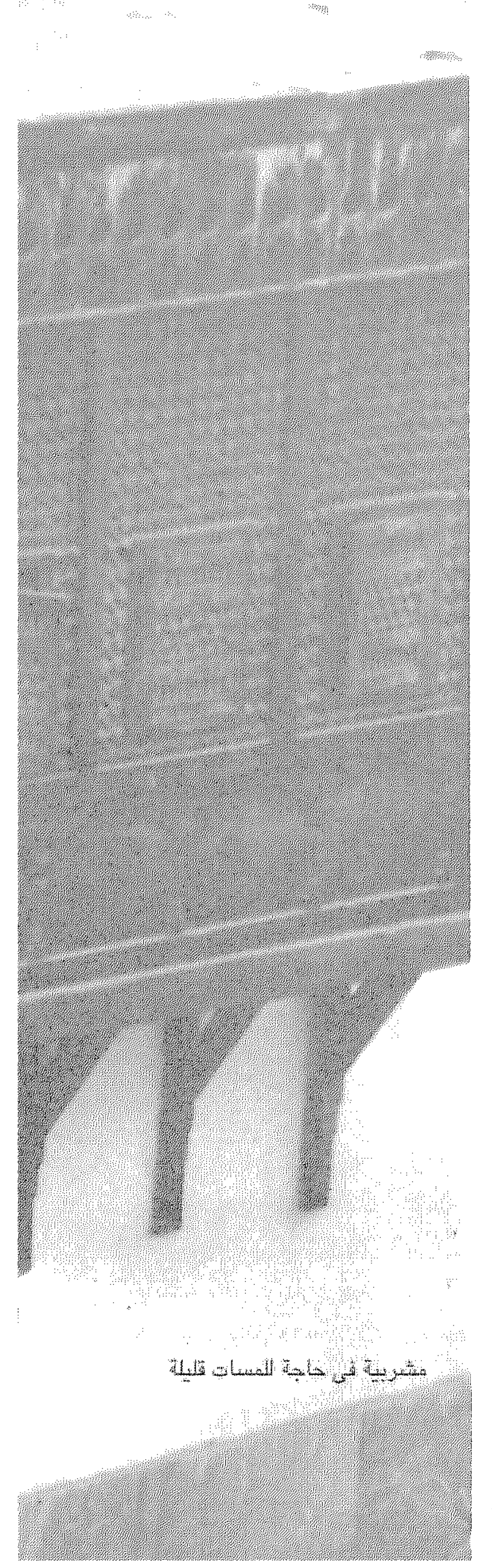
وأدنت في هذا التقرير قيادة الحزب الشيوعي المصرى، التى رفضت التسليم بأن «ثورتنا المقبلة» التى ظلت تبشرنا بها كانت أقرب مما تتصور بعد تعيين حافظ عفيفي رئيسا للديوان الملكى، واتهمتها بأنها قصرت في الشروع في تكوين الجبهة المتحدة التى كان يمكن أن تقود هذه الثورة لو تكونت من الشيوعيين والاشتراكيين والوفديين، وخاصة الطليعة الوفدية والحزب الوطني الجديد والاخوان المسلمين، بل حتى لم تسع إلى توحيد الشيوعيين تمهيدا لتكوين الجبهة المذكورة.

وكان تعليق الرفيق المركزى الذى استلم منى هذا التقرير (وهو الاستاذ داوود عزيز الفنان التشكيلي المعروف): إذن فانت تعتبر أن هناك شيوعية خارج الحزب؟! هكذا كان أفق تفكيرهم ينفي الشيوعيين الآخرين!!

ثم علمت بعد ذلك أن الرفيق خالد كتب ردا ضافيا على تقريرى بعنوان «احذروا الانتهازية اليسارية»، يعنى به «الرفيق عامر» الذى هو شخصى الضعيف، وأن تجنيد الرفاق الجدد للحزب كان يتم باطلاعهم على هذا الرد بدلا من «ثورتنا المقبلة»!! واقرأ ما كتبه الرفيق الأستاذ عبدالخالق الشهاوى عن هذا الموضوع في كتابه بعنوان «الحلم والسجن والحصار»!!.. ■



جانب من فناء بيت السناري قبل الترميم


مشربية فى حاجة للمسات قليلة

فى بيت السنارى

رسم الفرنسيون «وصف مصر» والتقى الجبرتى مع مونج

بقلم
مهدى الحسينى

فى فن الترميم لايوجد شىء اسمه طبق الأصل، كما لاتوجد دولة أجنبية لديها مدرسة فنية متخصصة فى ترميم آثارنا، لأن هذا ليس تراثهم، فقط يقوم الخبير الأجنبى بتوظيف معرفته العلمية المعمارية والهندسية والتكنولوچية فى خدمة الأثر، ومن أجل هذا يظل يدرس الأثر وتاريخه ووظيفته وثقافته لمدة قد تصل إلى عشرين عاماً، ثم يضع خطة تنفيذية محكمة لعمليات الترميم كي تتم فى مدى زمنى محدد، وبحد أقصى من الجودة. هذا المنهج هو مايجب أن نتعلمه منهم كى يصبح لدينا مدرسة أو مدارس فنية مصرية للترميم الأثرى.

بيت السنارى

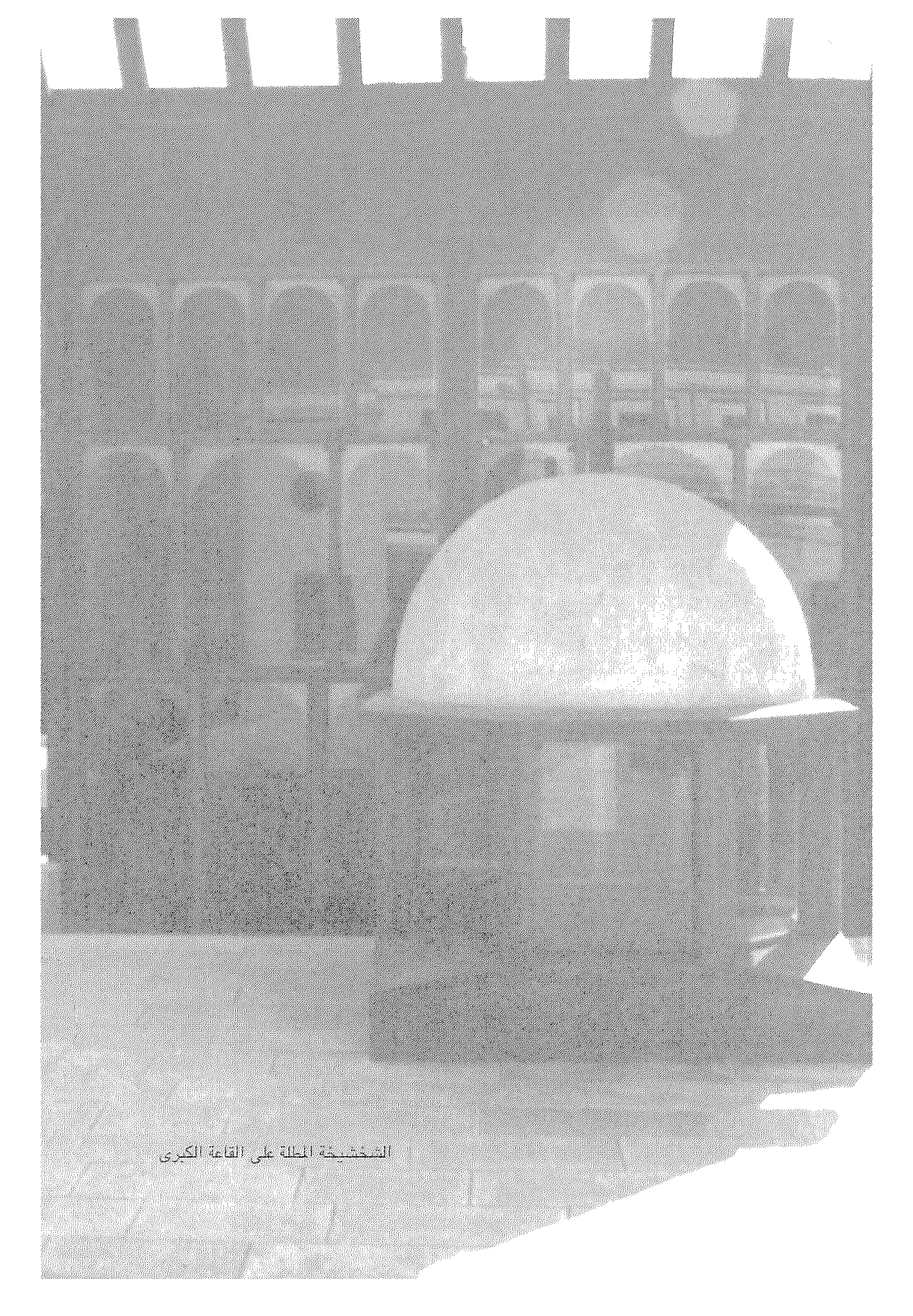
إذن فترميم الأثر هو مسئولية الأثرى المصرى، لأن هذا هو تراثه وثقافته وروحه وملكيته الوطنية، هكذا تنشأ المدرسة الفنية المصرية فى الترميم، تلك التى كان يجب أن توجد منذ زمن بعيد، منذ أحسسنا بقيمة آثارنا، وأدركنا ضرورة ملكيتنا المعنوية والمادية لها، ومهما كان أو يكون فإن علينا السعى لتأسيسها منذ الآن.

★★★

كل هذا متعلق بالأثر الشهير «بيت إبراهيم كتخدا السنارى» الذى يبعد بضع عشرات من الأمتار عن (دارالهلال)، فتدلف إليه من حارة «مونْج» Mounge العالم الفرنسى رئيس المجمع العلمى المصرى (الفرنسى) الذى ضم خيرة علماء فرنسا، وقد اصطحبهم «بونابرت» معه فى إطار حملته العسكرية الاستعمارية على مصر ١٧٩٨، كي تستنير الحملة بالبحث العلمى والدراسة الميدانية، فوضعت أسسا جديدة لكل العمليات الاستعمارية العالمية التى تلتهاهكذا قال الجبرتى

ولم يكن «بيت السنارى» الذى كان قد بناه قبل الحملة بأربع سنوات وحده هو المسكن الذى اتخذوه مقرا للبعثة الفرنسية العلمية، بل احتلوا منزلا شاسعا كان يملكه مملوك هارب هو بيت «حسن بك كاشف» بالناصرية وكان جديدا تماما وموسعا كى يضم بناء آخر، وإلى جواره منزل بيت قاسم بك وبيت أمير الحاج المعروف بأبى يوسف، وبذلك فقد «أفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف لصناعة الحكمة والطب الكيماوى»، وهكذا يكونون قد خصصوا حارة الناصرية «للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والمنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحسَّاب والمنشئين» كما يقول الجبرتى: «وأفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وسكن الحكيم روبا بيت ذى الفقار كتخدا ـ بجوار ذلك ـ ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكانا أسفل وأعلى وبها رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة...».

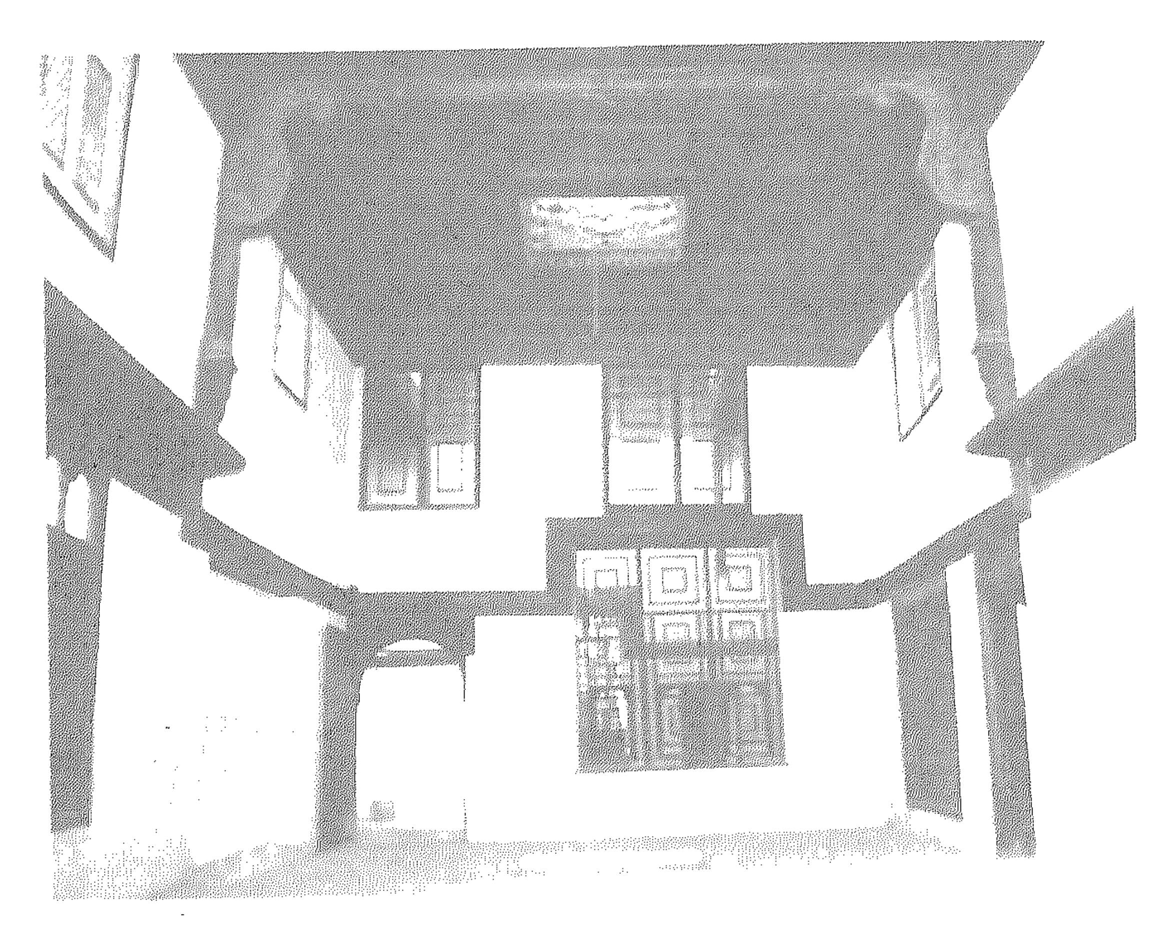
غير أن بيت السنارى كان هو المكان الذى وُضع فيه كتاب «وصف مصر» تلك الموسوعة التوثيقية الضخمة التى وضعت الأساس العلمى لكل من أراد (التعامل) مع مصر من كبار الدول والساسة والعلماء والرحالة والمستكشفين والأثريين والمؤرخين، ولكن ـ وللأسف ـ لم يبق من هذا المنزل العتيد الجميل سوى ربع مساحته أو أقل على وجه التقريب، فقد احتلت عمارتان كبيرتان واجهته عند أول شارع خيرت وهما من طراز شاع فى مطلع القرن العشرين حتى ثلاثيناته، ومن قبله احتلت مدرسة السنية مساحة أكثر اتساعا شمال الجزء المتبقى من المبنى القديم.


الشخشيخة المطلة على القاعة الكبرى

بيت السنارى

ومع ذلك لانملك إلا أن نتعامل مع البقية المتبقية من الأثر بالصون والإحياء.. وهذه هى العملية التى تشترك فيها هيئة الآثار المصرية قطاع الآثار الإسلامية والقبطية مع البعثة الفرنسية بتمويل من اليونسكو والحكومتين المصرية والفرنسية، ويشرف على العمل من الجانب المصرى الأثرى «وجدى عباس» الذى تخرج عام ١٩٨٨ وشارك فى ترميم عدد من الآثار الإسلامية منها: جامع البهلول وجامع حسن باشا طاهر ومسجد أحمد بن طولون، ثم بيت السنارى، أما من الجانب الفرنسى فكان المسيو «برنار مورييه» الذى تخصص فى العمارة الإسلامية لمدة ٢٠ عاما ، وكان قد حضر إلى القاهرة فى السبعينيات ليقوم بدراسة عميقة وواسعة لآثار مدينة القاهرة خاصة منازلها الأثرية ليصدر عنها كتابا بعنوان (منازل القاهرة وقصورها) بالإشتراك مع الفرنسى «چاك ريڤو» والمصرية «منى زكريا»، ثم قام بالإشراف على ترميم بيت الهراوى، بشارع الإمام محمد عبده خلف جامع الأزهر، أما ترميم بيت السنارى فهذا هو ثانى مشروع يقوم به فى هذا المجال، وفى حين توفر الدولة الفرنسية مرتبات الخبير وخمسة من الفنيين الفرنسيين بالإضافة إلى نجار أرابيسك ومشرف فنى، تقوم الحكومة المصرية بتوفير العمالة المحلية من نحاتين وبنائين وعمال محارة ونجارين وحدادين... إلخ، بالإضافة إلى كل الخامات المطلوبة: أنواع الحجر والملاط والخشب والمعدن، كما يتكون الجانب المصرى فضلا عن الأثرى المسئول، من متخصص فى فن الترميم الدقيق هو المهندس «مدحت سنجر» ومعمارى خريج كلية الهندسة وحاصل على دبلوم فى الآثار هو المهندس «فريد شافعى»، هذا بالإضافة إلى شركة مقاولات تعمل فى مجال الترميم الأثرى وغيره، هى المسئولة عن توريد العمالة المصرية والخامات المطلوبة وتنفيذ كافة العمليات وفقا للتصور الفنى لعملية الترميم.

ولكن المرمم الأثرى وجدى عباس لايرى أن هذا الطاقم الفنى كاف لإنجاز عملية الترميم فى مدى زمنى أقصر وبكفاءة أعلى وبدقة أشد، فلابد أن ينضم إلى المجموعة متخصصون فى مجالات عدة منها علوم الكيمياء وميكانيكا التربة والبيئة والهيدروليكا والفنون التطبيقية والحرف التقليدية بالإضافة إلى مهندسين مدنيين متخصصين فى الترميم يدركون الفارق بين إنشاء كوبرى خرسانى وبين ترميم الأثر العريق ذي التصميم الفنى والمعنى الحضارى، وأنا معه فهكذا يكون الطاقم الفنى المتخصص والمتفرغ والمطلوب كى يعمل تحت قيادة المرمم الأثرى المختص بمرحلة حضارية بعينها (مصرى قديم بمراحله الكثيرة، يونانى رومانى، بيزنطى قبطى، عربى إسلامى، أيوبى مملوكى تركى، معاصر وحديث)، فكما أن الترميم تاريخ ومعرفة وعلم



جانب من القاعة الكبرى

وهندسة وتقنية وحرفة، فهو فن وثقافة وحس حضارى مرهف، لابد من إنشاء كلية دراسات عليا للتنسيق الحضارى لتخريج مرممين متخصصين يستكملون فيه ماكانوا قد اتجهوا فى دراساتهم الأصلية من حيث رغبتهم فى العناية بالآثار المصرية أثمن مافى التراث القومى المصرى.

مهارة الترميم

ويلاحظ المرمم الدقيق «مدحت سنجر» مهارة العامل المصرى وذكاءه أثناء سير عملية الترميم، ولكنه يلاحظ أيضا أن روحه المعنوية شديدة الهبوط إذ يتخذ موقفا سلبيا وكأن الأثر ليس ملكا له ولايعنيه فى شىء، على عكس العامل الفرنسى ـ وهذا الأثر ليس من تراثه ـ فإنه يعمل بحيوية ونشاط يدلان على نوع من العشق لهذا اللون من الحرفة والفن!!، وقد يقول قائل إن الأمر راجع إلى قلة الأجور، والحقيقة هى العكس فإن الحرفى المصرى يحصل على ٢٥ جنيها مصرياً مقابل العمل ٤ ساعات تضيع منها ساعة فى أمور لاعلاقة لها بالعمل، ومع ذلك يقوم الجانب الفرنسى باستقطاب هؤلاء الحرفيين لنوبتشية عمل أخرى ولمدة أربع ساعات بأجر مضاعف، يبذلون فيها جهدا كبيرا، ولكنه جهد بلا روح!!

عمل فقط!!

إن الأمر يدعو للدهشة، فمنذ عقيدة

الإله «بتاح» إله الحرفة وفن الآداء الفرعوني، والحرفيون يحتلون مكانة خاصة فى حياة مصر، لقد نهبهم قمبيز وأوكتافيانوس أوغسطس والسلطان سليم، ووجه إليهم اللورد كرومر ضربة موجعة بإلغاء نظام الطوائف الحرفية، ثم أجهزت عليهم إجراءات أخرى عديدة جاءت بعد ذلك، أدت إلى الإنهيار التام للإنتاج الحرفى مما أدى إلى تشرذم الحرفيين ففقدوا ارتباطاتهم بطائفتهم الحرفية من جهة وعلاقاتهم بنقاباتهم من جهة أخرى، فأدركوا أنهم أصبحوا مجرد أفراد تحت الطلب، كل بعرق جبينه بغض النظر عن تقاليد الحرفة وثقافة الطائفة ومكانتها فى المجتمع، بل أصبحت بلا مكانة على الإطلاق. لقد أطلقت عليهم كل أنواع الضرائب المباشرة وغير المباشرة وأشكال الغرامات والمدفوعات والقيود والممنوعات والعقوبات، إلى أن أحسوا بافتقاد فادح لإنسانيتهم، ثم مالبث أن ظهر ذلك النوع الجديد من الحرفيين الذين تفننوا فى ابتزاز الطبقة الجديدة وغيرها.. لقاء مشاهدة فيلم ڤيديو ممنوع آخر الليل.. أو شراء بدلة كاچوال وارد جنوب شرق آسيا!!، إن الوضع الفنى والتقنى والمعنوى والاجتماعى والنقابى والتشريعى والثقافى للحرفيين المصريين فى حاجة إلى نظر عميق بهدف النهوض بهم وبحرفهم بصفتهم شريحة من أصحاب الحقوق فى البلاد وبصفتهم من حملة تراث الحرفة والتقنية المصرية عبر العصور، وبصفتهم قوة اقتصادية ذات نفع عام لايستهان بمساهمتها فى الاقتصاد القومى، ومن هنا لابد من إنشاء مدارس إعدادية وثانوية متخصصة فى الحرف المصرية التقليدية، بها أقسام متخصصة فى الترميم الأثرى والعمارة المصرية بكل مراحلها التاريخية، فضلا عن العمل ـ فورا ـ للحفاظ على البقية الباقية من الشيوخ والأسطوات فى هذه المجالات وتسجيل علمى لخبراتهم الثمينة قبل أن يرحلوا، هكذانجمع بين الخبرة والوفرة معا، خاصة أن آثار مصر ـ ثلاثة أرباع آثار العالم حتى الآن ـ محتاجة إلى مئات من الحرفيين المثقفين المهرة العاشقين لتراث بلادهم.

وبدون هذا الأساس العلمى والمادى لاتوجد مدرسة وطنية لترميم الآثار، وأن أغلب مايحدث ـ كما يرى المرمم الأثرى وجدى عباس ـ اجتهادات تحاول تفادى الخطأ والمخاطرة قدر الإمكان وإلا لما تعرضت بعض آثارنا لتجارب سلبية، علما بأن كل مرمم أثرى لابد له من معطيات عديدة فى تعامله مع الأثر تشكل الحد الأدنى::

١ ـ الصور والرسوم القديمة إن أمكن.

٢ ـ الأوصاف المعمارية المستقاة من الرحالة والشهود وثنايا صفحات كتب الجغرافيا والتاريخ والآثار والأنثروبولوچى.

٣ ـ الحالة الفعلية الآنية للأثر.



٤ ـ الوظيفة التى كانت قديما للأثر قبل أن يصبح أثرا.

٥ ـ الإطار البيئى المحيط بالأثر قديما وحديثا.

أما الناحية التقنية أيضا هناك محددات مهمة:

١ ـ الخامات (حجر ـ خشب ـ معدن).

٢ ـ المواد الرابطة (الملاط ـ المونة ـ الدهانات)، محاولة استنتاج الأسس الهندسية والحرفية التى تم تنفيذه (بناؤه) بها.

٣ ـ علاقة الأثر بعناصر الطبيعة والبيئة مثل التربة والمنافع والضغط الجوى ودرجة الرطوبة والجفاف واتجاهات الرياح ومساقط الشمس.

٦ ـ أثر الاستخدام العادى وغيوب الاستخدام المخل للأثر ومرافقه عبر مراحله التاريخية.

٧ ـ كيفية التعامل بالأثر مع عناصر حديثة كالصرف الصحى والكهرباء والمياه والغاز دون الإخلال ببنية الأثر وشكله.

ولكن فى جميع الحالات من العبث أن نحاول (إعادة الأثر كما كان طبق الأصل) فهناك متغيرات لايمكن إدراكها أو تداركها، أحيانا لانستطيع الحصول على نفس نوع أحجار البناء (بالضبط) وهنا على المرمم الأثرى أن يستخدم النوع الأقرب، والأمر نفسه ينطبق على الأخشاب والمعادن، أما عن قضية استخدام الأسمنت فى صناعة الملاط (المونة) فيدور حولها جدل شديد، وفى هذا الأمر يقول المرمم «وجدى عباس» إنه لابأس من استخدام الأسمنت فى حدود ١٠٪ إلى جانب الجبس والجير والرمل التى تخلط بنسب معينة كى تشكل نوعا من الملاط المتين والأقرب للصورة القديمة للأثر فى الوقت نفسه، وذلك لأن المادة الرابطة القديمة وهى (الأوسروميل) من الصعب التأكد من مكوناتها بالضبط بعد أن خضعت لتفاعلات كيماوية طبيعية من داخلها ومن خارجها عبر الزمن، فضلا عن انقضاء العصر الذى نستطيع فيه توفير العناصر التى يفترض أنها تدخل فى تكوين هذا الأوسروميل. وفى لقاء لى مع المهندس «حسن فتحى» سيد البنائين فى أول السبعينيات فى منزله بدرب اللبانة بالقلعة، قال إن مادة الأوسروميل هذه أفضل بكثير من الأسمنت وأطول عمرا وأرخص كلفة لأنها تتكون من مسحوق الطوب الأحمر (الحُمرة) مضافا إلى تراب المستوقد أو الفرن البلدى مضافا إلى الجير الحّى يخلطون بنسب محددة ثم يطفأون بالماء، فيكونون ملاطا متينا بنيت به كل مبانى القاهرة الإسلامية القديمة، وأن البنائين المصريين كانوا يستخدمونه إلى عهد قريب فى الخمسينيات وقبل (عصر الأسمنت ومقاولى الخرسانة الأمريكية على حد قوله) وأنه شخصيا قام باستخدام الأوسروميل فى كثير من المبانى التى صممها، وأنشأها فى مصر



إحدى الشرف بعد الترميم

والمكسيك وغيرها، ويعلق المرمم الأثرى المصرى قائلا إننا لانستطيع الآن صناعة الأوسروميل لأنه لم يعد هناك مستوقد ولا فرن بلدى ولا طوب أحمر حتى نخلطهما بالجير الحّى، إنها المتغيرات.

لقد بدأت عملية الترميم عام ١٩٩٦ وستنتهى فى منتصف هذا العام، أى أنها استغرقت خمس سنوات، ولعل البيت يعود إلى أقرب صورة لحالته الأولى، فقد مرت عليه عهود وعهود بعد رحيل الحملة؛ استغله جلياردو بك كمتحف باسم «متحف بونابرت» وبعد وفاته كانت الأوقاف تؤجره للأهالى بصفته مسكنا، وتم بيع أجزاء من أرضه واستيلاء الدولة على أجزاء أخرى (مدرسة السنية).. ثم استغلته هيئة الآثار (وبنت بداخله!!) كمركز للحرفيين الأثريين، بدأت العملية الترميمية بدراسة مشكلة المياه الجوفية (صرف صحى، مياه شرب متسربة، مياه النيل، مياه أمطار... إلخ)، وقد تم عمل مشروع لتخفيض مستواها يعمل بنجاح حتى الآن (من المستحيل تجفيفها تماما على مستوى القاهرة كلها على الأقل) ولكن الأمر سوف يزداد تحسنا بعد إتمام مشروع الصرف العام لمنطقة السيدة زينب، أما داخل البيت فقد تم إعادة الصحن إلى حالته الأصلية، وكذلك النافورة الموجودة فى وسطه، وكذلك ترميم التختبوش والمقعد الصيفى، كما تم

بيت السنارى

الاهتمام بقاعة الاحتفالات الكبرى الشتوية ذات السقف الخشبى المزخرف، وكذلك الملقف الكبير الذى يتقدمها والذى يعد واحدا من أعظم الملاقف الأثرية فى القاهرة، كما تم ترميم الحمام الملاصق للقاعة الكبرى، وكذلك جميع أجزاء المنزل الأثرية من أعمدة وبوابات حجرية وأبواب ونوافذ وسلالم خشبية، وحاليا لم يتبق من العمل سوى إزالة المبانى الطفيلية التى كانت هيئة الآثار قد أقامتها، كما ستعاد الحديقة إلى وضعها القديم، وقد تم الكشف عن تفاصيل المدخل الرئيسى المطل على حارة مونج الأمر الذى يتطلب تخفيض مستوى أرضية الحارة وإعادة تبليطها بالحجر كما كانت فى القرن الثامن عشر، وقد روعى فى كل ذلك المشابهة - قدر الإمكان - مع الصور القديمة للأثر سواء فى الشكل وفى المواد، دون أى إضافة أو تجديد أو تجميل، لأن معنى التجديد أن الأثر لم يعد أثرا.

★★★

حفاظا على الخبرة الوطنية

لكى تتطور هذه الأعمال الريادية فى مجالات الصون والأحياء المتعلق بتراثنا الأثرى والحضارى لابد من عقد حلقات بحث دورية كى تضم الأثريين والمرممين والمؤرخين والمهندسين والمعماريين والرسامين والمصورين المتخصصين وخبراء البيئة وكبار الفنانين والمفكرين القوميين وأساتذة الحضارة وعلم الجمال، ليتبادلوا الرأى حول قضايا الصون والأحياء والبعث القومى والنهضة، فهكذا تقوم مدرسة مصرية للترميم من خلال تبادل الخبرة والرأى وتضييق مسافات التباين، حتى نصل إلى وضع «دستور» للترميم كى يلتزم به كل المرممين الأثريين، فهذا تراث لايرعاه إلا النخبة الواعية.. ولكن لصالح الأمة كلها ومستقبلها.

تبقى مهمة قومية أخرى، ألا وهى تعميق الاهتمام الجماهيرى العام بقيمة الأثر، ليس فقط من النواحى التاريخية والمعمارية والجمالية، أو لأغراض تجارية سياحية، أو لإقامة بضع عروض فنية أو ملتقيات ثقافية، أو لجعله عجلا مقدسا، وإنما - وهذا هو الأهم - جعله نموذجا معماريا لبيوت المستقبل المصرية، فمن خلال مثوله الحىّ بيننا يتم ترقية فكرة المواطن عن ماهية (المنزل) كقيمة إجتماعية وبيئية وصحية وإنسانية، لعلنا نتراجع عن علب الخرسانة ناطحة السحب، لننشىء لأنفسنا بيوتا أجمل وأنظف وأوسع نستطيع أن نسكن إلى أرواحنا بين جدرانها وجنباتها وأشجارها المزدهرة. ■

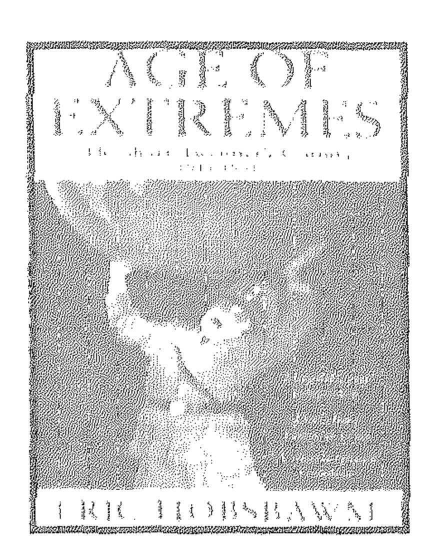
لغويات

د.محمود فهمي حجازي

نعيش اليوم عصر العولمة، وأصبح من الضرورى أن نعبر عن حياتنا وعصرنا وعن ذلك الاتجاه إلى جعل العالم كله وكأنه فى منظومة واحدة متكاملة. كتب المفكرون باللغات الأوربية عن Globalisation فى الانجليزية والألمانية، وعبروا عن ذلك في الفرنسية بمصطلح -Modialisation ووضعت كلمة العولمة فى اللغة العربية مقابلا حديثاً للدلالة على هذا المفهوم الجديد .

كلمة العالم بفتح اللام من أقدم الكلمات فى العربية. تنتمى إلى تلك الألفاظ المغرقة فى القدم التى نجدها بصيغ شتى فى اللغات السامية القديمة. عمرها يصل إلى نحو خمسين قرنا على الأقل، شأنها مثل باقى الألفاظ القديمة المشتركة فى اللغات السامية. عرفت العربية كلمة العالم واستخدمتها عبر القرون، ولكنها لم تكد تأخذ منها كلمات أخرى فى إطار هذه الدلالة المحددة، ولا شأن لنا هنا بدلالات أخرى للمادة (ع ل م) فى إطار المعرفة. ذكر القاموس المحيط كلمة العالم بمعنى الخلق كلهم وما حواه بطن الفلك. وكانت مشكلة جمع هذه الكلمة الدالة على الكون المعمور الكبير مطروحة للمناقشة، وجعل النحاة كلمة (عالمون/ عالمين) ملحقة بجمع المذكر السالم وكأنها منه. لم تكن عالم منطلقا لاشتقاقات أو لكلمات جديدة فى هذا المجال الدلالى المعبر عن الكون المعمور كله .

وما أن ظهر المفهوم الجديد وبدأ استخدام الكلمة الجديدة المعاصرة عولمة حتى أخذ مجمع اللغة العربية يبحثها من حيث الصيغة والدلالة، كتب الدكتور كمال بشر عن هذه الكلمة فى سياقات مثل العولمة الأمريكية وعولمة أمريكا ودلالتها على اتجاه السيطرة على العالم وجعله فى نسق واحد. وكان هذا البحث أساس قرار لمجمع اللغة العربية بإجازة استعمال كلمة العولمة بمعنى جعل الشئ عالميا، ذلك لأن الكلمة صحيحة من حيث الصيغة فهى بوزن فوعلة بزيادة الواو على نحو ما ورد فى شواهد عربية، وبذلك أصبحت هذه الكلمة الجديدة بدلالتها صحيحة فى العربية. إن كلمة العولمة لم تعرفها المعجمات القديمة، ولم تذكرها الطبعات المتاحة من المعجمين الوسيط والوجيز وهى جديرة بأن تأخذ مكانها فى المعاجم الحديثة لإفادة هذا المفهوم الجديد الذى لا يمكن تجاهله .



كتاب جديد

عصر التناقضات القصوى

بقلم
د. ماجدة بركة

دبلوماسية وباحثة فى العلوم الاجتماعية



يعتبر الكثيرون إيريك هوبسبوم مؤلف كتاب «عصر التناقضات القصوى التاريخ القصير للقرن العشرين : ١٩١٤ - ١٩٩١» أهم مؤرخى القرن أو على الأقل من بين أهم ثلاثة أو أربعة من مؤرخيه إلى جانب آرنولد توينبى وفرناند بروديل. ويصف المؤرخ البريطانى الجنسية السكندرى المولد مجال تخصصه بأنه القرن التاسع عشر. ولنفس السبب فهو يعتبر جهده فى التأريخ للقرن العشرين نوعاً من الشهادة على العصر الذى عاصر الجزء الأكبر منه، وهو يتوجه بهذا الجهد لقراءعاصروا بدورهم مساحات مختلفة منه. وهوبسبوم مؤرخ القرن التاسع عشر ينظر بمنظار ذلك القرن نظرة أسى إلى القرن العشرين. فهو يرى حصاد القرن الذى واكب عمره ارتداداً على القيم التنويرية التى كان لها مطلق الغلبة طوال القرن التاسع عشر، قرن تخصصه.

وضمن هذا الإطار العام فهو لا ينظر إلى القرن العشرين كساحة للصراع بين قطبين هما الأيديولوجية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتى والأيديولوجية الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة كما هو سائد، وإنما

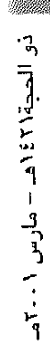
عصر التناقضات، وقرن العنف والحروب الدينية

كساحة للصراع بين القيم العقلانية والإنسانية لكل من الرأسمالية والشيوعية وريثتا الثورة الفرنسية وانتصار التنوير في القرن الثامن عشر وسيادته في القرن التاسع عشر، وبين قوى المحافظة والتقليد السلفية المتشككة في الحداثة والعلم والتقدم المادى وليبرالية القانون والدستور والتى تأمل فى جر العالم إلى شيء شبيه بما كان عليه قبل القرن الثامن عشر. ولهذا السبب اعتبر المؤلف القرن العشرين قرن حروب دينية معبراً بذلك عن صراع العقائد الذى صبغ القرن سواء قام ذلك الصراع بين الأيديولوچيا الدينية والأيديولوچية العلمانية، أو ثار بين العقائد العلمانية الرأسمالية والشيوعية والقومية.

قرن العلم

أما لماذا اعتبر المؤرخ هذا العصر عصراً للتناقضات فهو - فى خطوطه العريضة - بسبب التناقض بين كون هذا القرن قرناً للعنف على نطاق لم يسبق له مثيل من حيث اتساع نطاقه وكثافة تكراره وطول مدته (نحو ١٨٧ مليوناً من القتلى فى حروب القرن العشرين أو نحو ١٠٪ من إجمالى تعداد العالم عام ١٩٠٠، - عصر التطهير العرقى وأكبر مجاعات التاريخ - والعودة إلى سياسة الاغتيالات والتعذيب كجزء من السياسات الأمنية للدول بينما كانت أوربا القرن التاسع عشر قد حرمت التعذيب رسمياً فى ١٨٧٠)، وبين كون هذا القرن قرنا للعلم الذى أدى إلى أن يكون سكان هذا العالم أكثر بسطة فى الجسم والعمر وأعلى فى مستوى معيشتهم - بما لا يقاس - بما كان عليه آباؤهم أو أجدادهم فى ١٩١٤. وهو عصر للتناقضات لأن «عصر العلم» هذا ينطوى على انفصام بين العلماء الذين يخترعون منجزات التكنولوچيا الحديثة من تليفون وتليفزيون وفاكس وبين الرجل العادى الذى يستخدم هذه المخترعات دون أن تكون معرفة كيفية عملها شرطا على الإطلاق للقدرة على تشغيلها بضغطة إصبع حتى من آبله على زر (Fool-Proof buttons).

كما أنه عصر للتناقضات لأنه عصر الرجل العادى وليس عصر البرجوازية أو النخب المختلفة كما كانت العصور السابقة، بينما تشهد فى الوقت ذاته إعراضا من ذلك الرجل العادى عن الدخول فى متاهات السياسة والأحزاب،



وانفصالا عن الطبقة السياسية الحاكمة، ومن هذا التناقض ادراك تلك الطبقة السياسية حتى فى الدول التى تعد صروحا للديمقراطية أنه فى كثير جداً من الأحيان فإن «الرجل العادى» غير مؤهل للإدلاء برأيه فى «عملية اتخاذ القرار» فى مسائل تتطلب معرفة متخصصة ودراية غير متوافرة له، وتحاول بشتى السبل الالتفاف حول ضرورة الحصول على موافقته . ولكن وفى نفس الوقت فإن الديمقراطيات تعلم أن سخط الشارع يعنى سقوطها فى مراكز الاقتراع مثلما أدركت النظم غير الديمقراطية قدرة الشعوب على «الاقتراع بأقدامها» (إشارة إلى الهجرة والتظاهر). وقد ظهر ذلك جليا حينما غادر ثلاثمائة ألف ألمانى شرقى البلاد فى ثلاثة أشهر حين فتحت المجر حدودها مع ألمانيا الشرقية، أو فى خروج الجماهير فى مظاهرات الشوارع فى العديد من البلدان بما لا يكفى لإسقاط أى نظام ولكنه يسلط ضوءاً كاشفاً على فقدان هذا النظام لشرعيته ، بل قد يؤدى لسقوطه إذا امتنعت قوى الشرطة والجيش عن التدخل لصالحه كما حدث فى إيران الشاه ورومانيا تشاوتشيسكو.

القرن القصير

وإذا كان العنوان قد أشار إلى تناقضات القرن فقد أشار أيضاً إلى مفهوم «القرن القصير» الذى يمتد سبعة وسبعين عاماً هى الأعوام من ١٩١٤ إلى ١٩٩١ بدلاً من قياسه بمقياس الزمن الصرف الذى يحسب القرن مائة عام تبدأ من ١٩٠٠ وتنتهى فى عام ٢٠٠٠. وتفسير هوبسبوم لاعتماده هذا المفهوم هو أن البدايات لا تكون إلا بعد النهايات، ونهاية القرن التاسع عشر الحقيقية كانت عام ١٩١٤ بتفجر الحرب العالمية الأولى التى قضت على الإمبراطوريات الثلاث « التركية » (العثمانية) «والألمانية» (أى إمبراطورية النمسا والمجر)، و «الروسية» (إمبراطورية روسيا القيصرية)، وقد اقتسمت انجلترا وفرنسا أراضى الإمبراطوريتين الأوليين بينهما كغنيمة حرب بينما احتفظت روسيا بتوابعها الأسيوية تحت المسمى البلشفى الجديد.

كانت تلك نهاية القرن التاسع عشر، أما نهاية القرن العشرين فقد كانت أيتها هى سقوط النظام الشيوعى السوفيتى وملحقاته الأوربية، من حيث كان لذلك النظام التأثير الأكبر - فى رأى الكاتب - فى تشكيل ملامح القرن العشرين.

كيف كان ذلك ؟ كان ذلك بمقتضى عدة عوامل أولها انتشار الدعوة الشيوعية فى غضون ثلاثة عقود من الزمان على قيامها لتغطى ثلث سكان البسيطة فى أسرع انتشار لنظام سياسى - اجتماعى عقائدى منذ انتصارات الإسلام فى القرن الأول لقيامه على حد قول المؤلف، وذلك

بالرغم من انطلاق ثورة أكتوبر من اقتصاد زراعي متخلف بالرغم من ضخامته.

وثانيها - وهو من سخرية الأقدار - هو أن الشيوعية التى كان الهدف الأول المعلن لنشأتها هو القضاء على النظام الرأسمالى والحلول محله، كان أثرها الوحيد الباقى هو إنقاذ هذا النظام فى الحرب والسلام. أما فى الحرب فقد كان ذلك بقيام روسيا البلشفية بالمساعدة على القضاء على ألمانيا النازية، الأمر الذى لم يكن أبداً ليتم دون الجيش الأحمر (قارن نجاح روسيا الشيوعية فى الحرب العالمية الثانية بفشل روسيا القيصرية فى الحرب العالمية الأولى). وأما فى السلام فقد أنقذت الشيوعية غريمتها الرأسمالية لأنها شكلت بالنسبة لها تحدياً ومن ثم كانت حافزاً لها على إصلاح نفسها، بل إنها زودتها ببعض الآليات لتحقيق ذلك، كالتخطيط ودولة الرفاه والضمان الاجتماعى.

وثالثاً وأخيراً فقد كانت هذه الثورة هى الداعم الأول لحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وسيطرت فعلياً على الرقعة الجغرافية لما كان يعرف بالعالم الثانى فضلاً عن كونها كانت الملهمة لقطاع كبير من حركات المقاومة للاحتلال النازى فى أوربا.

أقسام ثلاثة

يقسم هوبسبوم القرن العشرين أقساماً ثلاثة هى «عصر الكارثة» و«العصر الذهبى» و«عصر الأزمة». الجديد فى «عصر الكارثة» أن الكاتب يتعامل فيه مع حدثين يفصلهما فاصل زمنى بوصفهما وحدة زمنية مترابطة. وهكذا يضم الكاتب الإحدى وثلاثين سنة الممتدة منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية فى وحدة واحدة. وقد أنهت تلك الحرب شبه رسمياً الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية وإن اتخذت التصفية النهائية لبعض مستعمراتهما وقتاً أطول امتد حتى السبعينات فى بعض الأحوال. وشهد القرن إجمالاً بداية انحسار مركزية أوربا التى ميزت القرن التاسع عشر.

وهكذا فقد عززت الولايات المتحدة للمرة الثانية - بعد الحرب الأولى - نفسها فى موقع القيادة للتحالف الغربى وبحيث أمكن بحق للمواطن الأمريكى فى نهاية القرن العشرين أن ينظر إليه بوصفه

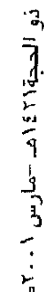
«القرن الأمريكى».

أما العصر الذهبى فهو عصر من الرخاء الاستثنائى والنمو الانفجارى غير المسبوق الذى امتد ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأوائل السبعينات. وبينما اعتقد الجميع أنه جاء ليبقى إذ به يظهر وكأنه جملة اعتراضية ما بين عصر الكارثة السابق عليه بحروبه العالمية وكساده الكبير وبين عصر الأزمة اللاحق عليه والذى عاد فيه شبح البطالة يخيم على ملايين البشر وعادت فيه الأزمات الاقتصادية الدورية الحادة وعجز الميزانيات عن ردم الفجوة بين الموارد المحدودة وأعباء الإنفاق المتصاعدة.

تمتعت الدول الصناعية الكبرى بالقسط الأوفر من رخاء العصر الذهبى حيث حظيت بثلاثة أرباع الإنتاج العالمى و٨٠٪ من الصادرات الصناعية. ولكن نسب النمو فى الاتحاد السوفيتى فى الخمسينات فاقت نظيرتها فى أى من الدول الغربية وكذلك كان الأمر بالنسبة لدول المعسكر الشرقى خلال ذلك العقد، وذلك قبل أن تفقد قوة الدفع فى الستينات وتتأكد مكانة الصدارة للرأسمالية عوضاً عن الاشتراكية، حتى العالم الثالث ناله قسط من هذه الظاهرة الغربية فى الأساس، تمثل فى نمو الإنتاج الغذائى فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا - حتى أوائل السبعينات - بنسب تفوق النمو السكانى هناك، رغم تضاعف هذا النمو فى السنوات الخمس والثلاثين اللاحقة على سنة ١٩٥٠. شهد العالم فى تلك السنوات نموا انفجارياً حتى أن ناتج الصناعة التحويلية (Output of manu-factures) تضاعف أربع مرات ما بين أوائل الخمسينات وأوائل السبعينات بينما تضاعفت التجارة العالمية فى المنتجات الصناعية مرات عشر خلال نفس الفترة، وفى قلب العالم الصناعى تدنت نسب البطالة إلى أدنى مستوى لها (١,٥٪ فى أوربا و١,٣٪ فى اليابان وأقل من ذلك فى الولايات المتحدة) وتمتع العاملون بزيادات سنوية تلقائية لرواتبهم.

ثمار التكنولوجيا

فتح العصر الذهبى السوق لتصبح هناك للمرة الأولى فى التاريخ سوق استهلاكية للكماليات الرفاهية تشمل الجماهير الغفيرة من الناس، ودخلت الثورة التكنولوجية مجال الاستهلاك فانتشرت ثمار التكنولوجيا كالتليفزيون والاسطوانات (منذ عام ١٩٤٨) ثم شرائط الكاسيت (فى الستينات) والأقراص الممغنطة وأجهزة الراديو ترانزستور الصغيرة والساعات الرقمية والحاسبات الصغيرة وكاميرات التصوير الضوئى وبالفيديو لدى الجميع على وجه التقريب (بينما لم تنتشر أجهزة الكمبيوتر الفردية



إلا فى السبعينات مع بداية عصر الأزمة). وبينما حملت تلك الفترة الرخية بذرة فنائها فى ذاتها بطبيعتها كثيفة رأس المال والتى كان مقدرا لها أن تستغنى فى النهاية عن البشر كمنتجين وتسعى إليهم كمستهلكين فحسب ، فإن تفسير ظاهرة العصر الذهبى فى ظن الكاتب يستند إلى سببين: السبب الأول هو الإصلاح الذى قام به النظام الرأسمالى لنفسه بانتهاج سياسة اقتصاد مختلط أتاح للنظام الرأسمالى التخطيط للتحديث الاقتصادى وإدارته وقيام بتنشيط كبير للطلب. أما السبب الثانى فهو تدويل وعولمة الاقتصاد على نحو غير مسبوق أتاح قدرا أكبر وأفضل من تقسيم العمل الدولى وعت فيه الأطراف جيدا درس الكساد الكبير فما عادت تسمح لا بانهيار النظام التجارى والمالى الدولى الذى أدى إلى الأزمة ولا بترك الحبل على الغارب لحرية السوق وحدها لتصحيح اختلالاتها وهو ماثبت بالقطع عجزها التام عن القيام به خلال الأزمة ذاتها.

عصر الأزمة

ويلاحظ المؤلف توازيا بين نجاح النظم التى استلهمت ثورة أكتوبر البلشفية فى الإسراع بوتيرة تطوير المجتمعات الزراعية المختلفة وبين العصر الذهبى ، كما يلاحظ توازيا بين سقوط الاشتراكية السوفيتية وبين عصر الأزمة الذى كان هذا السقوط أبرز ما وقع خلاله من أحداث .

إلا أنه يرى عصر الأزمة عصراً لأزمة الأيديولوچيات والبرامج جميعاً يمينها ويسارها . فالصيغة الكينزية فى إنجلترا أو ما عرف فى الولايات المتحدة تحت رئاسة الرئيس روزفلت «بالنيو ديل» (New Deal) والتى بدا نجاحها باهراً فى العصر الذهبى فقدت بدخول عصر الأزمة قدرتها على تحقيق نفس النتائج ، كما فشلت السياسات اليمينية الاقتصادية المتطرفة بقيادة تاتشر ورونالد ريجان مع نهاية حكم كل منهما. ولم تفشل هذه السياسات فى موطنها الأصلى فحسب بل جاءت نتائجها كارثية عند تطبيقها على دول وسط وشرق أوربا المرتدة عن الشيوعية تحت اسم «العلاج بالصدمة». ويمكن للقارىء أن يستشف ظلا من التشاؤم فى آراء هوبسبوم الذى يرى أنه وإن كان قيام حرب عالمية ثالثة يكاد يصبح أمراً غير وارد الحدوث فى الألفية الثالثة إلا أن العودة إلى ما يشبه عصر

الأزمة الاقتصادية فى ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين ليست كذلك ولقد سقطت الشيوعية الروسية سقوطا تراجيديا خلال محاولتها إصلاح نفسها (البريسترويكا والجلاسنوست)، الا انه بعيداً عن الصورة الوردية للمنتصر على النازية والفاشية فى «الحروب العالمية الساخنة» وعلى الشيوعية الروسية فى الحرب العالمية الباردة، فإن تصوير المؤرخ للرأسمالية هو تصوير لنظام مأزوم يخطو فوق منزلق انتحارى ما لم ينجح فى إيجاد وسيلة ما للتغيير. فهذا النظام يواجه مشاكل من كل نوع بعضها كامن فى بنية الرأسمالية ذاتها وبعضها من نتاج التقدم العلمى والتكنولوچى.

غلبة القيم الفردية

من أهم ما هو كامن فى بنية الرأسمالية ذاتها هو غلبة القيم الفردية الأنانية المفترضة فى فكرة تعظيم الربح والمنفعة الذاتية بوصفهما السبيل الأوحد لتحقيق خير المجموع. يرى هوبسبوم فى هذه الفكرة المنشار الذى تنشر به الرأسمالية على الأقل أحد فروع الشجرة التى تجلس عليها. إذ يعتقد أن الرأسمالية قامت على قيم ماقبل رأسمالية طوعتها لمصلحتها وكانت أساسية فى توطيد أركانها وهى احترام العمل والفخر بالإنجاز والثقة المتبادلة وتأجيل الإشباع (فى صورة ادخار واستثمار). كما أن الوتيرة المتسارعة للعولمة لم يكن معناها أن تمتد ثمار «العصر الذهبى» الذى شمل ٦٠٠ مليون من سكان العالم المتقدم لتغطى سائر سكان البسيطة بسكانها الذين يبلغ عددهم ٦ آلاف مليون من البشر، بل كانت النتيجة الحقيقية تزايد اتساع الهوة الفاصلة بين أغنياء العالم وفقرائه، أى الإفقار المتزايد لثلثى سكان العالم ووجود نمط من الاقتصاد العالمى يعيش على ما يولده من تباينات صارخة ومتفاقمة فى مستويات المعيشة، الأمر الذى يحمل فى طياته - لاشك - بذور توترات مستقبلية .

كذلك فقد وصلت القوى التى أطلقها الاقتصاد المبنى على العلم والتكنولوچيا إلى مرحلة تدمير البيئة، أى إلى تدمير الأسس المادية للحياة البشرية . بحيث أن نسبة نمو اقتصادى شبيهة بما ساد النصف الثانى من القرن العشرين سوف تكون لها آثار كارثية على البيئة الطبيعية على كوكبنا بما فى ذلك الجنس البشرى الذى يعيش على سطحه، وفى كلمات الكاتب فإنها «قد لاتدمر الكوكب أو تجعله غير صالح للحياة بتاتاً ولكنها سوف تغير بكل تأكيد نمط حياة مختلف الكائنات الموجودة فيه وقد لا تجعله قابل لسكنى الجنس البشرى بما يدانى ولو من قريب العدد الحالى له (ص ٥٦٩). ولكنه يرى أن أى حل يجب أن يراعى إيجاد توازن ما

بين عناصر النمو والسكان والتكنولوچيا والاستهلاك وهو توازن مستحيل التحقيق فى ظل اقتصاد عالمى قائم على السعى غير المحدود وراء الربح بواسطة فعاليات (Enterprises) اقتصادية لا هم لها إلا هذا الهدف وتتنافس وبعضها البعض فى سوق كونية مفتوحة .

تآكل الصناعة

ولم يكن هذا هو التأثير الجانبى الوحيد للتكنولوچيا الذى يهدد مستقبل الرأسمالية «المنتصرة» فبعد أن أعلن الثلث الأخير من القرن العشرين «موت الزراعة» بتحول أكثر من نصف سكان العالم إلى سكني المدن (أكثر من ذلك بكثير إذا استثنينا الهند والصين) وانتهاء نمط من الحياة ساد طيلة سبعة أو ثمانية آلاف عام، شهد العالم المتقدم «تآكل الصناعة» وتدنيا حادا فى أعداد العمالة الصناعية فيه بلغ ربع إجمالى قوة العمل الصناعية فى دول أوروبا الصناعية السبع القديمة إى سبعة ملايين عامل تلاشى نصفهم تحديداً فى الفترة ما بين ١٩٧٩ و١٩٨٣.

ثم أنه إذا كانت التكنولوچيا قد عملت للاستغناء عن البشر إلى حد كبير (حلم الطائرة التى تطير دون طيار والقطار الذى يسير دون سائق .. إلخ) فإن مصلحة الرأسمالى الذى يجد كلفة الكمبيوتر أو الآلة أقل من كلفة العامل قد تضافرت مع التكنولوچيا لتقضى بشكل متسارع على الحاجة للعمالة البشرية وتقلص بذلك فرص التوظيف رادة البطالة إلى أبعاد كابوسية تعيد إلى الأذهان الأجواء الداكنة لفترة ما بين الحربين العالميتين.

وإذا كان العلم مسئولا عن الانفجار السكانى والذى تضاعف بمقتضاه عدد سكان العالم عما كان عليه عام ١٩٥٠، فإن كارثة حقيقية تنتظر البشرية إذا لم تتحقق نبوءة ثبات عدد السكان عند عتبة العشرة بلايين نسمة عام ٢٠٣٠، أى إذا استمر النمو السكانى بنسبته الحالية دون أن يستقر عند عدد محدد ودون أن تكون لموارد الكواكب المحدودة مهما بلغت تنميتها القدرة على مواكبة هذه الزيادة السكانية.

وأخيراً وليس آخراً فإن العالم بشقيه المتقدم والساعى إلى التقدم يواجه أزمة تآكل الدولة الواقعة بين مطرقة القوى ما فوق القومية أو العابرة للقومية ، أى

الشركات دولية النشاط التى لا ترى فى الدولة القومية سوى عامل إزعاج وعرقلة لحريتها ، وبين سندان القوى ما تحت القومية، أى الإثنيات والعرقيات والطوائف التى تسعى إلى تفتيت الدولة «التأليفية» وإنشاء دويلات صغرى على انقاضها .

قرن الرجل العادى

يضع الكاتب نفسه كما يقول فى كتاب آخر له (كتاب «عن التاريخ») (On His-tory) ضمن المؤرخين البريطانيين المنتمين إلى اليسار والذين يجدهم أقرب صلة وأكثر التقاء بمدرسة الحوليات الفرنسية (Annales) التى تبدى اهتماماً بالترابطات بين الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة. ومن هنا كانت تلك الفصول الضافية التى كرسها للحركة الفنية وللعلوم الطبيعية وللثورتين الاجتماعية والثقافية. وإذا كان المؤلف قد اعتبر القرن العشرين - كما أسلفنا - قرن العلم وقرن الرجل العادى فقد اعتبر أن هذين المؤثرين قد تضافرا فى التأثير على الفن فأحدثت التقنية المبنية على العلم ثورة فى الفنون جعلت الموسيقى على سبيل المثال فى متناول الجميع حين دخل الراديو كل بيت . كما جعل التليفزيون - والفيديو المشتق منه - من الفيلم أهم فنون القرن بلا منازع . وشهد القرن غلبة المرئى والمسموع على المقروء وأثر سلبا على عادة القراءة قياسا على الماضى. وتأثرت الفنون الرفيعة سلبا لأنها غير شعبية . فموسيقى البوب هى التى انتشرت بينما آخفت كثرة الحفلات السيمفونية والأوبرات التى تم تأليفها فى ستينيات القرن التاسع عشر حقيقة أنه لم يعد ثمة سيمفونيات أو أوبرات جديدة تؤلف. كما أخفى ارتفاع أسعار اللوحات (اللوحات الانطباعية تضاعف ثمنها ٢٣ مرة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٩) أن مشتريها لم يكونوا بالضرورة من محبى الفنون بل مستثمرين ومضاربين استخدموا اللوحات كضمان لقروضهم من البنوك . كذلك فقد هبطت مقدرات فن النحت فى النصف الثانى من القرن العشرين واقتصرت العمارة على المبانى العامة كالمطارات والفنادق (الأمريكية أساساً) التى انتشرت بكثرة فى السبعينات كقصور للأحلام مع ازدهار السياحة. وأثرت العولمة على الكلمة المقروءة ففقدت أوربا مركزيتها فى مجال الأدب بحيث أصبحت الرواية الأولى فى هذا القرن - مائة عام من العزلة - لكاتب هو جارثيا ماركيز ينتمى إلى دولة لاتينية صغيرة لم يكن الكثيرون يعرفونها إلا من خلال سمعتها فى تصدير المخدرات وهى كولومبيا . وحتى فى أوربا أصبح أهم الكتاب من المهاجرين إلى دولها .

وفى الفصل الخاص بالعلم يستعرض الكاتب كيف حكمت التكنولوجيا القائمة على البحث العلمى «الطفرة» الاقتصادية فى النصف الثانى من القرن العشرين

وهو يفصل كيف بدلت النتائج التطبيقية للعلم حياة الناس العاديين من الطائرة والسيارة إلى الراديو والسينما التى «جعلت أمام الرجل العادى من الترفيه مالم يكن متاحا فى القرن التاسع عشر أمام الأباطرة». ثم هو يستعرض الثورة التى حدثت فى مجال النظريات العلمية من نظرية النسبية إلى ظهور ميكانيكا الكوانتوم (علم الفيزياء) إلى الثورة فى مجال الجينات الوراثية (علم الأحياء). وهو يحلل المفارقة ما بين قرن قائم على العلم، من ناحية، وعزلة هذا العلم والقلق من نتائجه من ناحية أخرى. ظهر ذلك فى انفصال الرجل العادى عن العلماء الذين أضحوا صفوة معزولة تتحدث لغة لا يفهمها سواها، كما ظهر كذلك فى شيوع فكرة «أن العلم يعنى كارثة محتملة» . وقد عضد هذه الفكرة تجربة القنبلة النووية وسابق وجود أنظمة عنصرية اهتمت بموضوع الجينات الوراثية إضافة إلى ما يثيره هذا الموضوع عموما من مخاوف حول الضوابط الأخلاقية للبحث العلمى ومن شعور دفين باستحالة السيطرة التامة على تداعيات الاكتشافات العلمية.

● أتاح العصر للرجل العادى من الترفيه ما لم يكن متاحا للأباطرة فى القرن ١٩

نشأة ثقافة شبابية

إن الشق الأكثر إمتاعاً فى شرح هوبسبوم للثورة فى مجال الثقافة والقيم هى تحليله لنشأة «ثقافة شبابية» لم تعد فيها مرحلة الشباب «ينظر إليها كمرحلة تحضيرية للرشد وإنما كمحطة أخيرة للنمو البشرى المستكمل». وأصبح الشباب يعاملون كشريحة عمرية منفصلة لها أنماط استهلاكها التى استغلتها بهمة صناعات مثل صناعات التجميل والعناية بالشعر والملابس الجاهزة (ظهور الجينز) وشركات التسجيلات الموسيقية (الاسطوانات - ظاهرة البيتلز فى الستينات، ثم الكاسيت فيما بعد) وعلى حين كانت الطبقة العاملة قديما تستلهم أحياناً أساليبها من الموضة الرفيعة لدى الطبقات الاجتماعية العليا، فقد ترسخ الاتجاه العكسى لا فى الملبس فحسب وإنما فى اللغة أيضاً. وإذ زادت الفجوة بين جيل الشباب وليد الرخاء و«العصر الذهبى» وبين جيل الآباء الذين ترعرعوا فى ظل «عصر الكارثة» ، عبرت ثورة الشباب عن رفض كل سلطة، سلطة الآباء وسلطة الدولة ، سلطة التقاليد وسلطة القانون أيضاً وفى هذا المجال لا يظهر



هوبسبوم كبير تعاطف حتى مع أعلى لحظات هذه الثقافة وأهم تجلياتها وهى الثورة الطلابية فى عديد من بلدان العالم الأول (والثانى) عام ١٩٦٨ و١٩٦٩ لأنه يراها انزلقت إلى الجنس والمخدرات وأعلت الفرد على الجماعة وهو يجدها ذات جذور فوضوية رغم تعاطفاتها اليسارية وغير قادرة بطبيعتها على إحداث التغيير مالم تلعب دور فتيل الإشعال للطبقة العمالية الأبطأ اشتعالا والتى كانت فى الظرف التاريخى الغربى غير ثورية لأنها كانت تشعر بتحسن وضعها المذهل فى العصر الذهبى.

آراء مثيرة للجدل

كتاب عصر التناقضات ملىء بالآراء القيمة والمثيرة للجدل. فملاحظاته التى يقارن فيها صعود الشيوعية بصعود الإسلام وسرعة غزوهما للعالم رغم انطلاقهما من مراكز متخلفة عن الجوار وكذلك ملاحظاته الساخرة عن انتشار الفكر الشيوعى بين أبناء الطبقات العليا فى العالم الثالث فى الوقت الذى كان مقصوداً فيه أن تقوم بتثوير البروليتاريا تدعو إلى إعادة النظر حول مدى أولوية «البنية التحتية على البنية الفوقية» أو الاقتصادي على الأيديولوچى فى اتجاه إعادة الاعتبار للأخير.

ثم لا أدرى ما إذا كان رأيه سوف يلقى قبولا سهلا حين يقول إن التحدى الحقيقى للرأسمالية لم يأت أبداً فى الحقيقة سوى من اليمين (الفاشية والنازية) لأن الاتحاد السوفييتى حافظ على استقرار النظام الدولى الذى دبت فيه الفوضى بسقوطه ولم يحاول الانتشار خارج حدود يالطا وكان عدوه الحقيقى ليس الرأسمالية وإنما الأنماط ما قبل الرأسمالية والمصالح المرتبطة بها (والولايات المتحدة التى تقف وراءها) وأن السلاح لم يكن سبيله لتحقيق الهدف بل كان سبيله لذلك تكوين جبهة شعبية وطنية تمثل فيها البرجوازية الوطنية كحليف «وهى الاستراتيجية التى بدت وكأنها تنتصر فى البرازيل وإندونيسيا فى أوائل الستينات وشيلى فى عام ١٩٧٠ وعند هذه النقطة تم وقفها بانقلابات عسكرية ومذابح فى الدول الثلاث» (٤٣٦). إذ ألم يكن دور الاتحاد السوفيتى فى خروج الصين وتشيكوسلوفاكيا من المعسكر الغربى خرقا لموازين يالطا، وألم يكن الدور الروسى فى كوبا وأفغانستان إخلالا باستقرار التوازنات الدولية بين المعسكرين عموماً؟

ويبدى هوبسبوم آراء شائقة حول مختلف ما يستعرضه من أحداث وموضوعات فالحرب العالمية الأولى كانت عبثية وكان مقدرا لفرساى أن تفشل لأن الولايات المتحدة لم تضمنها فى النهاية ولأنها استبعدت قوتين كان مقدرا لهما أن

أن تستعيدا عافيتهما وتعاودا الظهور على الساحة الدولية هما روسيا وألمانيا . ذلك بينما أسفرت الحرب العالمية الثانية عن نتائج إيجابية بإعادتها دمج الخاسرين ألمانيا واليابان ونجاحها فى عدم حدوث تصادم بين الخصمين الجديدين (وإن تصارعا) .

والتاريخ لديه هو سجل للأخطاء المذهلة للبشر، مثل غزو هتلر لروسيا ثم إعلانه الحرب على الولايات المتحدة. فقد كان حتما مقضيا أن تخسر ألمانيا حربا تواجه فيها الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مجتمعين. وهو ما يثير الذهن حول خطأ تقدير صدام فى حرب الخليج الثانية مثلا، وحول أهمية الديمقراطية كضمان ضد أخطاء وشطط الحكم الفردى.

ويرى هوبسبوم فى مجال آخر أن النظام الشيوعى البلشفى لم يكن فى حقيقة الأمر شموليا كما وصف - وإن حاول أن يكون كذلك - وذلك لأنه لم ينجح فى تحقيق الشرط اللازم لذلك وهو «غسل أدمغة الشعب» على النحو الذى صوره چورچ أورويل للدولة الشمولية فى روايته الشهيرة «١٩٨٤» وقد اقتصر الإيمان بالعقيدة الشيوعية فى رأى المؤلف على النخب الحاكمة والمثقفة ولم يتغلغل أبداً إلى أعماق الريف.

قرن تحكم التكنولوجيا القائمة على البحث العلمى والطفرة الاقتصادية

السياسة الموجهة وسقوط التنظيم

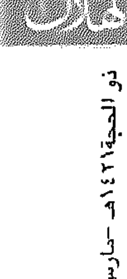
كذلك يعبر المؤلف عن رأيه أن «التنظيم وليس العقيدة كان الإسهام الأكبر» الذى قدمته بلشفية لينين لتغيير العالم». وأن الاقتصاد الموجه Command Economy رتب بالضرورة سياسة موجهة Command Politics ولذا فعندما تخلى جورباتشوف عن مركزية الدولة والحزب «سقط التنظيم» الذى كان يحافظ على تماسك الدولة السوفيتية فأسقطها الجلاسنوست والبيروسترويكا من حيث أريد بهما إصلاحها. وقد تعلمت الصين من رأس الذئب الطائرة فأطلقت قوى الإصلاح الاقتصادى الليبرالى بينما أبقت على النظام المركزى للقيادة (Central Command System) الذى سقط الاتحاد السوفيتى بسقوطه. ومن هنا جاء القمع الذى قامت به الدولة للطلبة الثائرين فى ميدان السلام السماوى (تيانانمن سكوير).

أما تفسير الكاتب لفشل الليبرالية السياسية فى فترة ما بين الحربين فلا يسع المرء معه إلا أن يتساءل مع الكاتب عن مصير تلك الليبرالية الآن وفى المستقبل. فلليبرالية عنده شروط أربعة سقطت جميعها آنذاك ، أولها توافر الإجماع، وثانيها وجود توافق بين عناصرها (وهو ما عرقل تحقيق السلام فى أيرلندا والبوسنة)، وثالثها عدم قيام الحكومة بالحكم بل بالحد من غلواء وشطط أصحاب النفوذ (فالمفروض أن الفرد يعيش لا فى ظل الحكومة بل الاقتصاد والمجتمع المدنى)، ورابعها هو الرخاء . وفى غياب هذه الظروف تصبح الديمقراطية «آلية لتقنين الانقسامات بين الجماعات التى لا سبيل للتوفيق فيما بينها».

وعن القوة العظمى الوحيدة يبدى هوبسبوم ملاحظات ثاقبة فى الماضى والحاضر، فهو يؤكد أن الحديث عن «تيار انعزالى» فى الولايات المتحدة أمراً ينطبق على توجهها نحو أوربا فحسب ولم ينطبق أبداً على مجالها الحيوى الباسيفيكى. ولذا فإنها لم تكن أبداً لتسكت على توسعية يابانية فى الحرب العالمية الثانية سكوت بريطانيا وفرنسا فى البداية على توسعية ألمانيا. أما فى الحاضر فهو يتتبع ما يراه ضعفا متناميا للقوة الاقتصادية للولايات المتحدة رغم كل المظاهر . ويظهر ذلك من تخلى الولايات المتحدة أوائل السبعينات عن «معيار الذهب» كضمان للعملة وحتى عجزها عن تمويل هيمنتها العسكرية من مواردها الخاصة كما اتضح من حرب الخليج عام ٩١ ضد العراق والتى «كانت إحدى الحروب النادرة التى تحقق فيها قوة عظمى كسبا مادياً» .

أخيراً وليس آخرا فى مجال آراء هوبسبوم المثيرة للجدل هو ما يخص عالمنا الثالث المتميز بانفجاره الديمغرافي ونزوعه نحو الحكم العسكرى. فهو يرى أنه فى العالم الثالث والإسلامى وإن كانت النخبة القومية والقوى الدينية كلاهما مناهض للاستعمار إلا أن مقاومة الاستعمار (القديم) جاءت من العلمانيين لا من الدينيين (ص ٢٠٩). وأن الجماهير الفقيرة لم تشارك النخب الإيمان بقيم القرن التاسع عشر الغربية للتطور العلمانى، وأن حماية قيم الليبرالية الغربية - من الجزائر إلى تركيا - جاء من العسكر الذين سبق لهم تحرير بلادهم أو من ورثتهم فى الحكم (ص ٣٦٩).

وفى نهاية عرض «عصر التناقضات» ألفت النظر إلى النبرة التحذيرية التى أطلقها المؤلف عن مستقبل البشرية فى الألفية الثالثة ما لم تنجح فى إيجاد دواء لأدوائها البيئية والديمغرافية والمؤسسية والقيمية بتغيير طبيعتها جذريا. إذ ليس أكبر تناقضات هذا العصر التى يلاحظها القارىء ولكن من أقواها دلالة، أن القرن قد انتهى فى عام ١٩٩١ بسقوط النظام الأكبر تأثيرا على مساره ومقدراته، ولكن عصر الأزمة الذى بدأ فى ثلث القرن الأخير لم تلح نهايته بعد. ■



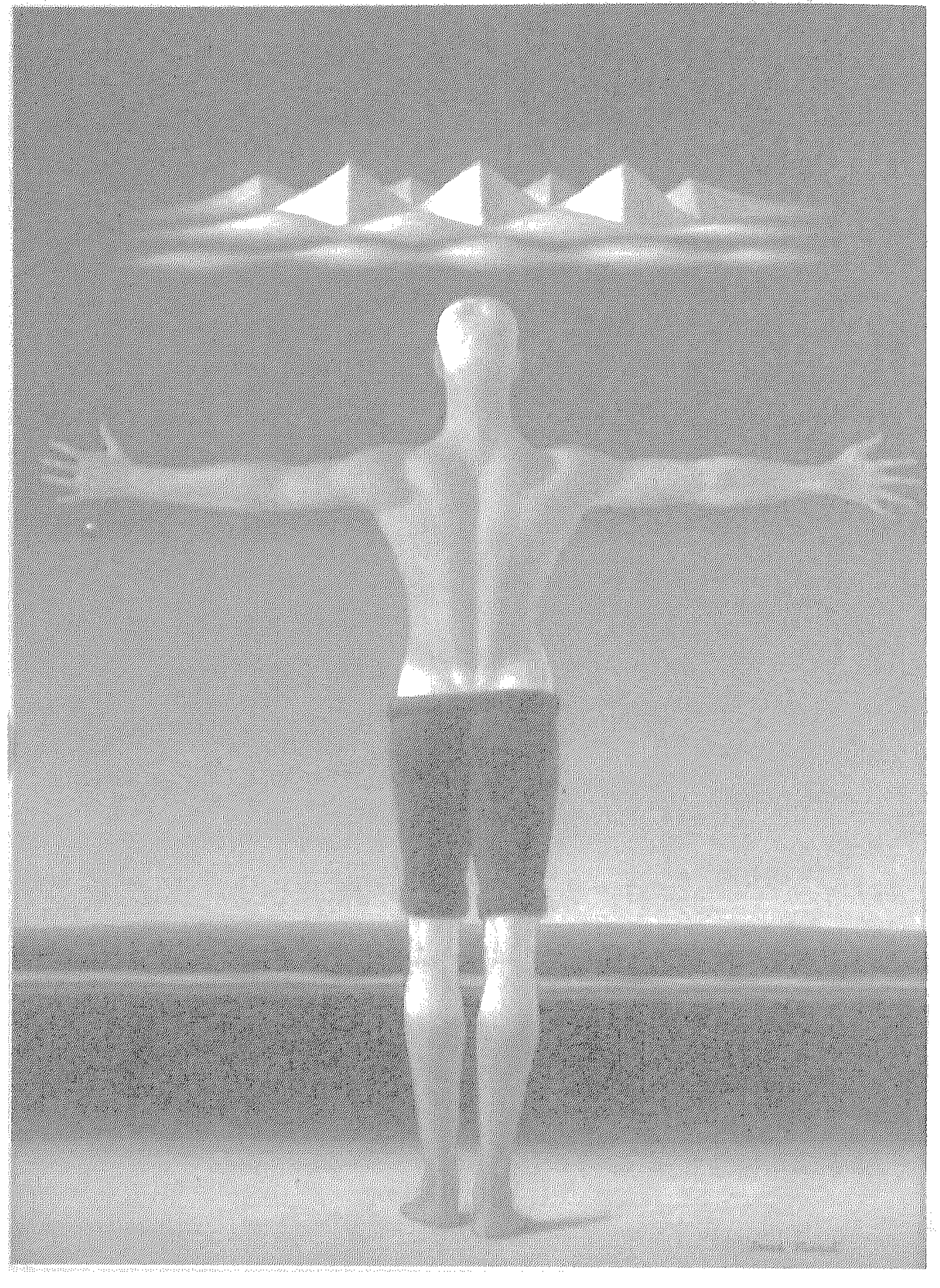
المصّور جاك فرنش

فارس الرمزية في التصوير الامريكى المعاصر

بقلم
د.صبرى منصور

من المسلمات التى يؤمن بها مؤرخو الفن ، أن الإضافة الأمريكية للفن الغربى الحديث قد تمثلت فى تلك الاتجاهات والمدارس التى نبذت التشخيص واعتمدت على جماليات الشكل الخالص (التجريدية - الفن الحركى - البوب) . ومع بدايات الحرب العالمية الثانية هاجر عديد من فنانى أوربا إلى الولايات المتحدة ، وانتقلت ريادة الحداثة من باريس إلى نيويورك ، فقد كان هؤلاء الفنانون اللاجئون من رواد المذاهب الفنية الحديثة التى ظهرت فى أوربا قبل الحرب ، ومن بينهم كان :« موندريان ، ليچيه ، دو شامب ، ومعظم مجموعة السيرياليين : اندريه بريتون ، ماكس إرنست ، سلفادور دالى ، إيف تانجى » . ولقد وجد هؤلاء فى أمريكا المناخ الملائم لمواصلة إبداعهم ، فلديهم الجمهور المثقف القادر على تذوق وتقدير اعمالهم ، وقاعات العرض المتعددة ، والمقتنون الأثرياء ، والمتاحف الضخمة ، بالإضافة إلى وجود تاجر الفن الماهر.

الحنين للوطن - ١٩٤٢



جاك فرنش
فارس الرمزية

ولا شك أن وجود هؤلاء الرواد قد أحدث تأثيراً فى المناخ الفنى التشكيلى فى أمريكا والذى كان من على البعد يتابع تطورات الفن الأوربى منذ بدايات القرن. ومع ذلك فإن هذا التأثير كان محدوداً، فلم يكن المزاج الأمريكى مستعداً للتأثر بالحركة السيريالية، بالإضافة إلى أن الفنانين الأمريكيين كانوا تّواقين إلى إضافة بصمتهم الخاصة والمميزة - النابعة من طبيعة مجتمعهم ونوع حياتهم - على مسار تاريخ الفن الحديث. وبالفعل فقد ارتبطت أسماء فنانين أمريكيين من أمثال: جاكسون بولوك، مارك توبى، روشينبرج، أرشيل جوركى، دى كوننج، مارك روثكو، بإسهاماتهم المتنوعة فى إرساء قواعد الأسلوب التجريدي وإثراء تجاربه.

لذلك فإن فناناً مثل چاك فرنش يبدو غريباً على هذا المشهد الثقافى الأمريكى، فهو قد اختار منذ الأربعينات أسلوباً تشخيصياً رمزياً بعيداً بل ومناقضاً للاتجاه التجريدى السائد.

أسلوب الفنان

وقليل هم الفنانون الذين لم يوضحوا أسلوبهم الفنى، أو يتركوا مفاتيح قليلة لفهم هذا الأسلوب، فأعمال فرنش التصويرية التى نفذها فى الأربعينات تمتلىء بأشكال إنسانية تشبه التماثيل المصمتة التى لا يمكن اختراقها والنفاذ إلى كنهها وهى مشحونة بالتلميح والإيحاء وتحمل معنى رمزياً أو استعارياً، وتشى بإخفاء نصّ معين، فتشحذ الذهن لتحريك مجموعة من الأفكار، وهى بالصدى العميق الذى تحدثه تثرى العمل أكثر مما تفسره، فعلى الرغم من قدرة فرنش على تضمين الأفكار الذهنية فى وحدات فنية تدعو للتأمل، فإن القوة الحقيقية لصوره تكمن فى الغموض الذى يغلفها والذى يحيلها إلى حلم أو ما يشبه الشعر الرمزى.

وتدعو أعمال فرنش إلى إجراء مقارنة بينها وبين لوحات السيرياليين، ولكن ذلك لن يؤدى إلى تطابق كبير بينهما، فالفنان رغم أنه لم يطوِّر إنتاجه الفنى بدون الوعى بالنموذج السيريالى، والنظريات النفسية التى دعمته، فإن أعماله لا تلتقى مع تلقائية فنانين سيرياليين أمثال ماسون أو ميرو، وكذلك فإن لوحاته لا تشبه مناظر إيڤ تانجى العبثية الغريبة، أو أشكال سلڤادور دالى المتحللة، فهؤلاء الفنانون عموماً كانوا مهتمين بدمج عالم اللا وعى بعناصر الحياة العضوية، ولكن بالنسبة لفرنش فإنه يعرض العقل اللا واعى أو حالة الحلم من خلال نظام هندسى ورياضى صارم.



إمرأة - عام ١٩٤٨

ولقد اعتبر فرنش أيضاً كواحد من فنانى الواقعية السحرية، ولكنه مع ذلك لم يمثل رؤيا غير عادية لعالم عادى معروف، فهو بدلاً من ذلك يخلق رؤيا جديدة تنتمى لعالم الأسطورة مع اتصاله بالعالم الدنيوى فى نفس الوقت. إن أسلوب فرنش رغم علاقته بالسيريالية والواقعية السحرية والتصوير الميتافيزيقى فإننا لا نستطيع أن ندرجه تحت أى من هذه التصنيفات الفنية، وإن كانت إعادة صياغته للواقع تضعه بصحبة المصورين رينيه ماجريت وبول ديلفو اللذين أعادا صياغة الحدود بين الموضوعى واللاموضوعى فى الواقع، وربما كان فرنش أكثر انتماء إلى تلك الحركة من الفنانين الذين وجدوا ما بين الحربين العالميتين واتجهوا إلى إحياء الأشكال الكلاسيكية بحثاً عن المثالى، مثل المصورين: دى كيريكو، كارلوكارا، كامبيللى، وحتى بابلو بيكاسو الذى استعار فى بعض أعماله ملامح من الفن الإيطالى فى القرن الرابع عشر.

ولكن فرنش - مع كل ذلك - يظل بوضوح أمريكياً رمزياً فى الأسلوب والحساسية الفنية، وهو واحد من المميزين الذين شكلوا حركة التشخيصية العالمية، مع التركيز على الجسم الإنسانى وجعله محور العمل الفنى ومركزه، وقد خلق لغة تصويرية مستمدة من عصر النهضة والفن القديم، وتمثل أشكاله الكلاسيكية الأصيلة معبراً بين الماضى والحاضر وبين الوعى

جاك فرنش
فارس الرمزية

واللاوعى ، وبين النفس والعالم.

بدايات الفنان

كان إنتاج فرنش الفنى قليلاً، وهو لم يكتب تقريباً شيئاً عن عمله، ونادراً ما تحدث عنه حتى مع أصدقائه ، كما لم يترك يوميات أو خطابات أو مذكرات تلقى أضواء كاشفة على حياته، وكل ما هو متاح عن تاريخه مأخوذ من «كتالوجات» المعارض التى شارك فيها بأعماله.

وقد ولد عام ١٩٠٥ وسط عائلة من الطبقة الوسطى فى نيوچيرسى (قرب نيويورك) وكانت والدته فنانة هاوية، ووالده مقاول بناء. واتجه فرنش لدراسة الأدب والموسيقى والفنون البصرية، ومن عام ١٩٢١ حتى ١٩٢٥ درس الشعر على يد روبرت فروست ، وبعد حصوله على الدرجة الجامعية انتقل إلى نيويورك حيث عمل كموظف حسابات بشارع المال والتجارة هناك (وول ستريت)، وفى نفس الوقت واظب على حضور دروس فى الفن برابطة دارسى الفن (وهى مؤسسة أهلية تعنى بتعليم الموهوبين) وقد تتلمذ هناك على أيدى فنانين أمثال: بوردمان روبنسون، كيمون نيكولايدس، آلن لويس، تشارلز لوك الذين كان أسلوبهم الفنى ينتمى إلى الرسم الطبيعى، ووصف أحداث الحياة اليومية بدقة، وقد أثر هذا التوجه فى أعمال فرنش المبكرة.

وفى عام ١٩٣١ سافر فرنش إلى أوربا حيث التقى بأعمال الأساتذة الكبار أمثال: بييرو ديللا فرانشيسكا، مانتينيا، روبنز، وبعد جولة فى إسبانيا وفرنسا استقر فى قرية صغيرة بجزيرة مايوركا الإسبانية حتى عام ١٩٣٣. وحين عودته إلى نيويورك شارك فى برنامج قومى لتنفيذ أعمال جدارية بالأماكن والمؤسسات العامة، وبدأ منذ عام ١٩٣٥ فى تنفيذ لوحات جدارية لبعض مكاتب البريد والمدارس والمستشفيات، وقد احتوت موضوعات لوحاته فى تلك الفترة على مشاهد واقعية من الحياة الأمريكية. وعموماً فإنه قد أمضى معظم سنوات الثلاثينات محاولاً العثور على صوته الفنى الخاص، وقد استمر فى رسم الجسم الإنسانى ، مع تطوير اهتمامه بمظاهر البطولة والفتوة. وفى عام ١٩٣٧ تزوج فرنش من الفنانة مارجريت هونينج، ويكوِّن معها ومع صديقه المقَّرب بول كادموس جماعة للتصوير الفوتوغرافى، وكانوا يقضون شهور الصيف فى (جزيرة النار) وهى منطقة مهجورة وغير مأهولة بالسكان والعمران ، وعلى شاطئها المنعزل عثر فرنش على بقايا المنظر البدائى، وكان هو وأصدقاؤه يتخذون أوضاعاً للتصوير غير عادية وموحية، وجاء تصوير فرنش الفوتوغرافى مدمجاً للجسد الإنسانى مع



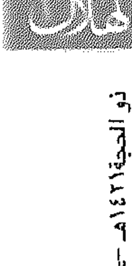
مأوى ـ عام ١٩٤٤ ويتضح تأثر الفنان بالفن المصرى القديم فى وضع المرأة الجالسة

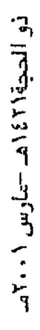
أشكال الطبيعة والعمارة البدائية معبّراً عن عالم سحيق لا نهائى، وقد استفاد من هذه الصور كنماذج لأعماله التصويرية فيما بعد.

الاستفادة من الكلاسيكية

وابتداء من عام ١٩٤٠ يلجأ فرنش إلى النسب الكلاسيكية للجسم الإنسانى والمأخوذة عن عصر النهضة الإيطالى، تلك النسب التى ورثها الإيطاليون عن الإغريق والتى كانت تعتمد على الانسجام والتوازن بين أعضاء الجسم، وتظهره فى كامل قوته ولياقته وفتوته وصولاً إلى الشكل المثالى.

وفى نفس الوقت فقد غير فرنش الوسيط الذى كان يستعمله فى التصوير، من استعمال الألوان الزيتية إلى تمبرا البيض، ذلك الوسيط الخالد الذى عرف





جاك فرنش فارس الرمزية

منذ أيام جيوتو وربما عرف أيضاً أيام الإغريق. وكل الأعمال التى نفذها فرنش بعد عام ١٩٤٠ قد نفذت بهذا الوسيط على لوحات خشبية، وقد ساعدت هذه التقنية على خلق ضوء متلألىء أضفى لطفاً على أشكاله المرسومة التى تبدو كالنحت ، وذلك دون التضحية بصفائها ونقائها، كما تلاءمت المواد المتربة والسطح الناعم لخامة التمبرا مع رؤيا الفنان التى توغل فى أزمان سحيقة.

التحول إلى الرمزية

وفى عام ١٩٦٨ نشرت إحدى الدوريات جملة لفرنش حول أعماله يقول فيها «كان عملى مهتماً بتمثيل الأوجه المختلفة للإنسان وعالمه، وبالتدريج بدأت الاهتمام بتمثيل مظاهر نفسية» وعديد من الأعمال منذ عام ١٩٤٠ يعلن دخول فرنش فى التحول من الواقعية نحو الرمزية، وكان ذلك حين اطلع بعمق على كتابات العالم النفسى كارل يونج، وقد كان فرنش ناقداً للاتجاه القمعى الذى يمارسه المجتمع الأمريكى لكل ما هو جسدى شهوانى، لذلك فإنه قد انجذب بشدة إلى أفكار يونج الذى كان يعتقد بأن العالم الحديث بعبادته وتقديسه للعلم فإنه أصبح يعانى من الجدب الروحى، وأن إنسان القرن العشرين الذى نصب العقل كإله مزيف قد فصل نفسه عن عالم اللاوعى الروحى المبهم، كما كان يعتقد بأن العقل يحتوى على طبقة موروثة تمثل اللا وعى الجمعى، وهى مكونة من الرموز المهجورة التى تتواتر من خلال الأسطورة والأحلام والخيال، وهو يؤمن أيضاً بأن تحقيق المساواة بين الوعى واللاوعى هو جزء من عملية النضج الإنسانى، وكان ذلك المفهوم موضوعاً لبعض لوحات فرنش (مثل لوحة الشبيه) التى قام فيها بتصوير العلاقة بين شكلين لإنسان واحد، أحدهما هو الواقعى الفانى أو الوعى، والآخر هو الخالد الباقى أو اللاوعى.

وبمزج العلم بالأسطورة، وبالسعى نحو إجراء مصالحة بين عالم لاوعى الإنسان الروحى مع عالم وجوده الواقعى، استطاعت أفكار يونج أن تطلق العنان لدوافع فرنش الرمزية، والتعبير بعمق عن حالة الانفصام بين الحياة الحديثة وطبيعة الإنسان الفطرية، كما سمحت له بالتحرك بحرية داخل مناطق النفس دون أن يهجر المظهر الجسمانى الطبيعى والعالم المحيط.

ومع أن فرنش كان مشاركاً للشعراء الرمزيين فى أوائل القرن العشرين فى الانغماس فى التأمل النفسى، إلاّ أن رمزيته كانت رمزية شهوانية تتخذ من الجسد وسيلة للتحقق.

مظاهر الإنسان

ومثلما كان لمؤلف يونج «أصل الأنواع



العش - لوحة أنتجها الفنان عام ١٩٦٩ وتمثل المرحلة الأخيرة من أسلوبه الرمزى

واللاوعى الجمعى» تأثير على أسلوب فرنش، كذلك فعل كتاب ويليام بتلر ييتس «الرؤيا» ذلك المؤلف اللاهوتى الذى كان بمثابة تمرين جرىء للخيال، فهو يحاول أن يوضح ويفسر طبيعة الإنسان وحياته الحالية وحياته السابقة فى الماضى، أو كل تاريخه ، من خلال إطار رمزى قائم على دعائم دوّاره ، تتذبذب ما بين الذاتية الخالصة والموضوعية الخالصة، وهى حالات يشير إليها ييتس بالروح الخالصة المتناقضة، فالإنسان محكوم بطبيعته الذاتية، وفى حالات أخرى بالواقع الموضوعى.

ويتضح تأثير ييتس فى عديد من لوحات فرنش المرسومة فى الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٥٠، وهى الفترة التى حاول فيها أن يعبر عن الطبيعة الإنسانية من خلال أسلوب رمزى محكم، حيث قسم الإنسان فى سبعة مظاهر أساسية هى:

الجسد، الوظائف ، العمل، اللعب، الإنسان (ويشمل اللغة والملابس والحكومة والجريمة) الطبيعة ، الخلق.

جاك فرنش
فارس الرمزية

ثم قام فرنش بتقسيم هذه المظاهر الأساسية إلى تقسيمات فرعية، تلك التى استمد منها موضوعات لوحاته، فمثلاً قسم تصنيف الوظائف الرئيسى إلى : النمو ، الشذوذ، التنفس، التمدد، الجرى، المشى، الأكل، النوم، الجنس، وتضمن تصنيف الخلق الرئيسى :

الفن الزخرفى، التصوير ، النشر، الشعر، الموسيقى، النحت.

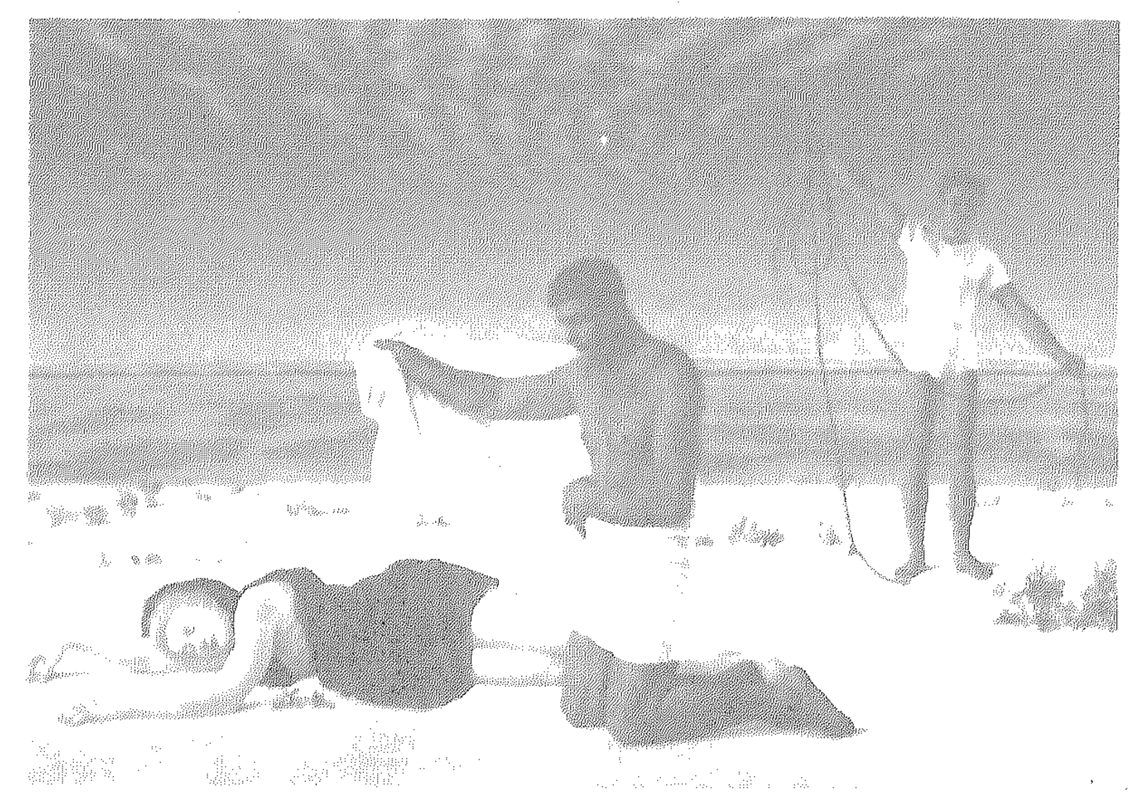
وقد بلغت تصنيفات فرنش لمظاهر طبيعة الإنسان تسعة وأربعين، لكنه لم يستطع أن يعبّر عنها جميعاً. ولم يكن تعبيره عن هذه المظاهر والحالات مجرد رسوم توضيحية للأنشطة الإنسانية، وإنما كان تركيز الفنان الأكبر قد وجهّه نحو استدعاء ماهية الإنسان وحالته الأولية .

وفى أساطير اليونان القديمة والتراث الفنى لمصر القديمة وجد فرنش صوراً مناسبة تماماً لتوضح بشكل مثالى مناحى من الطبيعة، وقد استلهم من هذا التراث الفنى للإنسان فى الماضى البعيد صياغات فنية ذات استجابات طبيعية نابضة وقوية، محاولاً إقامة بناء شعرى لحياة الإنسان المتقلبة والغامضة، تلك الحياة التى كان مؤمناً بأنها القاعدة الأساسية للحقيقة الإنسانية.

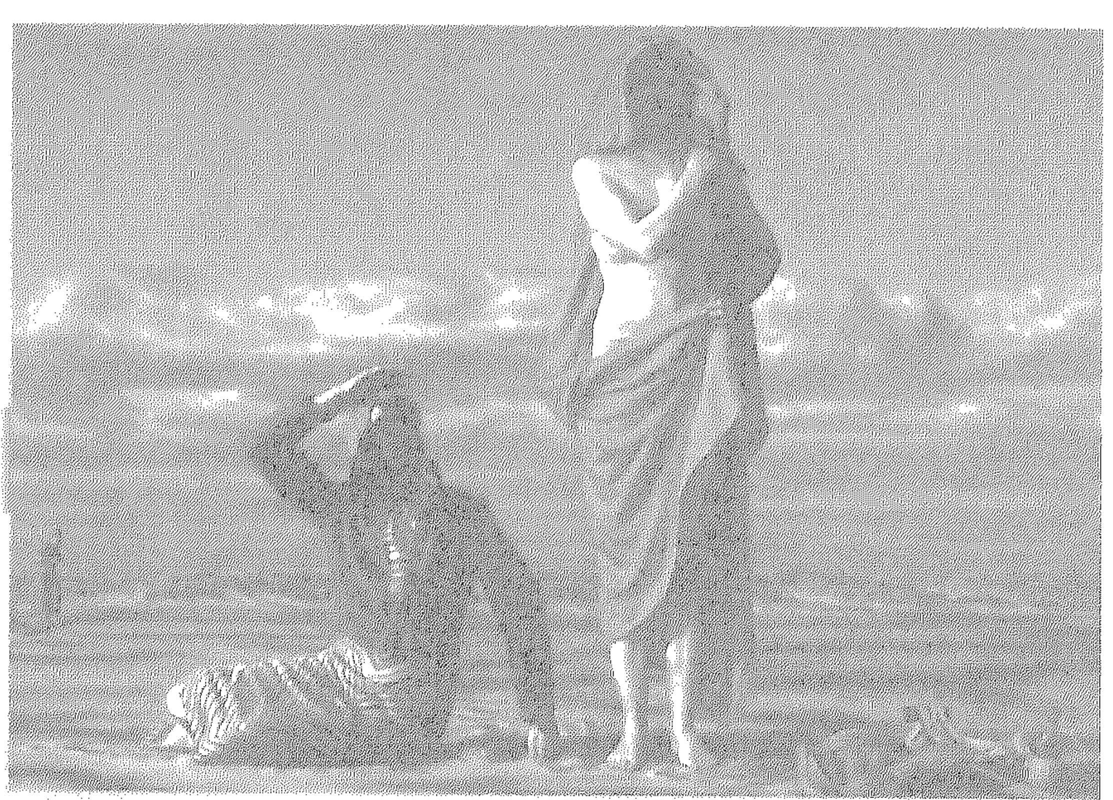
وفى الستينات غيّر فرنش صوره، ونوّع أسلوبه بإتاحة الفرصة الكاملة للاوعى للإنطلاق بلا حدود أو حواجز، استمراراً لإيمانه بأفكار يونج عن عالم اللاوعى اللامحدود. وانتقل من التشخيصية الرمزية التى سادت أعماله خلال عقدين من الزمان، إلى صياغة تحويرات تشكيلية لعناصر غامضة تتوالد من بعضها فى تراكيب خيالية تتسم بالعفوية والتلقائية.

فلقد سمح فرنش لعالم اللاوعى بالتجوال الحرّ فى مناطق مجهولة الملامح عديمة الانتماء إلى زمان أو مكان كما يتضح فى لوحة مثل (العش) التى ابدعها عام ١٩٦٩.

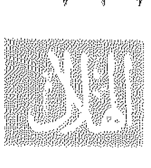
ولم يتقبل الوسط الثقافى الأمريكى هذا التحول الجديد فى أسلوب فرنش، وفى معرضه الشخصى السادس والأخير عام ١٩٦٩ أصيب الفنان بالإحباط حين أبدى النقاد - المتقولبون فى نظريات جمالية مسبقة - عدم ترحيبهم بأعماله الجديدة، فانسحب مغادراً نيويورك ليعيش منفياً باختياره فى روما حيث توفى هناك عام ١٩٨٨ تاركاً ابداعه ليتبوأ - بسموه وارستقراطيته وانسانيته - مكانه الحقيقى فى تاريخ الفن كواحد من كبار المصورين الرمزيين فى القرن العشرين.



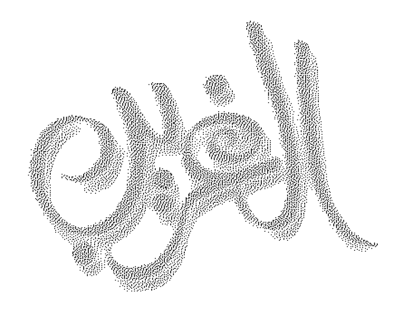
أشخاص على الشاطىء عام ١٩٤٠



نهايات صيف ١٩٣٩



« بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » حديث شريف



شعر
محيى الدين عطية

ألأنى أحمل فى صدرى عشقا لعباد الله ؟
ألأنى أغزل من دمعى حبلا يربطنى برضاه ؟
فأدور أفتش عن شاك مستور يكتم شكواه ؟
عمن قد يقتله الجوع ولكن لا تمتد يداه ؟
أجرى بين يديه عطاء، أمسح عن عينيه بكاه ؟
أظفر منه ببعض دعاء، هو أشهى ما أتمناه ؟

●●●

ألأنى أهجر دفء فراشى قبل بلوغ الليل مداه ؟
أقطع طيب منامى فرحا إذ يسمعنى الفجر نداه ؟
إذ يصحبنى الشوق رفيقا كى أسلك دربا أهواه ؟
ألقى ربعا فى المحراب تقود مسيرته تقواه ؟

●●●

ألأنى أعشق لون الزهر وتأسر قلبى عيناه ؟
أدنو منه لعلى أسمع عن قرب ألحان دعاه ؟
أستحلفه أن يخبرنى كيف يسبح عنه شذاه ؟
كيف إذا مسته النسمة أجفل محمرا خداه ؟

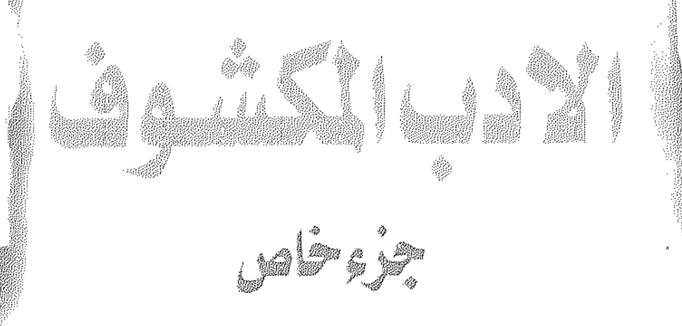
●●●

ألأنى قد أرقص طربا إن أسهمت بزرع نواة ؟
فى بلدان قد خلناها منذ قديم أرض فلاة ؟
أزهر فيها النبت، ترعرع، حتى أثمر صف صلاة ؟

●●●

أغريب أمرى أم أنى مغمور بعطاء الله ؟
مشمول بحديث البشرى للغرباء، وما أبهاه ؟
مستغن برداء العزة، مذ آمنت، وما أغناه ؟

●●●



الادب المكشوف

جزء خاص

حول قضية الأدب والجنس

بقلم : د.ماهر شفيق فريد

ص ١١٤

الرقـــابة وأدب الجنـــس

بقلم : د.رمسيس عوض

ص ١٢٦

الابداع فى حـدود القـانون

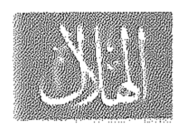
بقلم : د.محمد سليم العوا

ص ١٣٦

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس ؟!

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

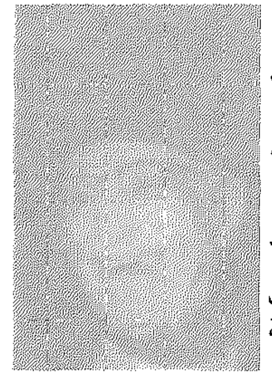
قلّ بين نقادنا من عالج قضية العلاقة بين الأدب والجنس معالجة وافية. هناك، بطبيعة الحال، كتاب الناقد الراحل الدكتور غالى شكرى «أزمة الجنس فى القصة العربية» ولكنه كتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٢، وقد ظهرت منذ ذلك الحين أعمال كثيرة مهمة مثل «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح و «الضحك» لغالب هلسا و «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم، وغدا الكتاب بحاجة إلى تنقيح أو على الأقل إلى فصل ختامى يلم بهذه التطورات .





وهناك فى فترة أحدث كتب قيمة للدكتور رمسيس عوض عن الأدب والجنس والرقابة ولكنها تقتصر على الأدب الغربى دون أن تدنو من تخوم أدبنا العربى، هناك أيضا أعمال سطحية عن الموضوع مثل كتاب «الجنس والأدب» لمحمد عبدالرحيم عنبر المحامى (وفيه بعض اقتباسات من كتاب غالى شكرى ومن مصادر أخرى)، ومقالة لفتحى الإبيارى فى مجلة «الأدب» التى كان يصدرها المرحوم أمين الخولى، وكتاب للدكتور صلاح عدس ولكن ما أعرفه عن الأمانة العلمية لمؤلفه يقعدنى عن محاولة قراءته.

وفى السطور التالية أحاول أن أقدم - من منظور نقدى جمالى - نماذج من معالجات أدبائنا العرب للخبرة الجنسية بكل تنوعاتها مع تعليق سريع يرمى إلى اكتشاف الفروقات الدقيقة بين معالجة هذا الأديب وذاك .



عباس محمود العقاد

منطلقى هنا إيمان لايتزعزع بأن للأديب كل الحق فى معالجة الجنس بصراحة تامة، إنى أدعو إلى تحطيم المخاوف الحمقاء من مواجهة الجسم الإنسانى، وإلى تخفيف الرقابة على الكتابة الجنسية، وإلى ترك الضمير الأدبى (وهو فى جوهره ضمير أخلاقى) يتكفل بتقرير ما إذا كان الشىء المقدم أدبا أو لم يكن.



المازنى

ليس من الصعب أن نتخيل بعض الآثار الجانبية السيئة لهذه المخاوف الحمقاء: سوف ينهمر علينا سيل من الكتابات الرخيصة المبتذلة (وقد انهمر فعلا نثرا وشعرا) وسوف يزدهر فى ظل حرمان الشباب - أمثال عزيز أرمانى وفؤاد القصاص وإلياس عكاوى : ذلك الثالوث غير المقدس فى تاريخ القصة المصرية، وسوف يكون هناك ضحايا لهذه الحرية (أنظر صفحات الحوادث فى جرائدنا اليومية وأبواب مشاكل القراء العاطفية) ولكن ذلك كله جزء من ضريبة الانفتاح الفكرى ومواجهة الحقائق، والقعود عن معالجة الجنس بشتى جوانبه إنما هو تهرب من قضية سوف تواجهنا إن عاجلا أو آجلا (بل هى تواجهنا منذ زمن ليس بالقصير) كما واجهت غيرنا من المجتمعات مع استبحار العمران، وحلول المجتمع الصناعى بقيمه الجديدة محل مجتمع القرية، ومع اطلاعنا على تجارب الغير فى عصر الحاسوب والإنترنت والسموات المفتوحة، ومع تغير وضع المرأة وتطور عقلية الرجل.

ليست هذه دعوة للأدباء إلى فحش القول وهجره، فالفحش مبتذل دائما إلا أن تفتديه روح فكاهة أو طاقة حيوية غامرة من النوع الذى نجده عند شكسبير ورابليه وبلزاك وهنرى ميلر .

والأدب يرقى بمقدار بعده عن التعبير المباشر، وإحلاله المجاز محل الصورة الواقعية المباشرة، ولكن للأديب الحق أيضا - إن دعا السياق - فى أن يسمى الأشياء بأسمائها، وله - بل عليه - أن يصل إلى أعمق جذور المخاوف والذكريات والرغبات، والفيصل فى

هذا كله هو نوع حساسيته الفنية، وإطلاعه علي تجارب السابقين، وخبرته بالحياة، وقدرته على مزج الواقع بالخيال، ورفعه الجنس إلى القضية الوجودية .

على ضوء هذه الملاحظات التمهيدية أتقدم فيما يلي لرسم معالم الخبرة الجنسية كما صورها عدد من القصاصين والأدباء والمفكرين المصريين من أكثر من جيل .

ماذا كتب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الزيات في الجنس؟!

العقاد

تعاني «سارة» - رواية عباس محمود العقاد الوحيدة - من عيوب فنية كثيرة أهمها اللجوء إلى التقرير بدلا من التصوير، مما يجعلها أشبه بسجل حالة (وهو ما ألح إليه د.على الراعى فى دراسة نافذة أثارت غضب العقاد) ولكن فيها تحليلات طيبة، تكشف - فى حدودها - عن صدق بصر المؤلف كقوله عن سارة :

«عاشت بعد ذلك تنظر إلى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشأ الأنبياء فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك في دينها، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين، من نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش وإطلاع، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة إن لم يأكلها جهرة، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه، وليس هو بالملوم لأنه اختلس مالابد له من اختلاسه.

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف، ولاكضجر المدمن يخدره العقار، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح، يتبعها النشاط والمزح كما يتبعها الإعياء والبكاء» .

هذه السطور الأخيرة تمس خصوصية الجنس عند سارة، وهى - بوضوح - ثمرة خبرة حميمة تعرف عم تتكلم ، ولهذا نعدها من أعمق استبصارات العقاد .

المازنى

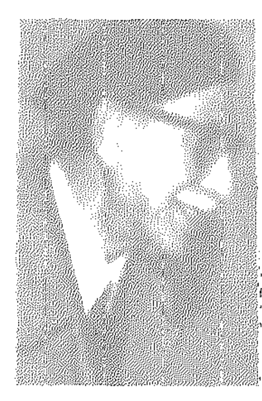


كان ابراهيم عبدالقادر المازنى أرهف أبناء جيله شعورا بالعاطفة الجنسية، فعلي حين حالت ظروف طه حسين البصرية بينه وبين توسيع خبراته أفقيا، وعلى حين وقفت عقلانية العقاد الصلبة حائلا بينه وبين إسلام ذاته (أمام القراء على الأقل) تجد المازنى شديد الاهتمام بالمرأة، يقظا إلى حيلها، متذوقا لجمال البدن الأنثوى، بارعا فى تسجيل مناوشات العشاق والأخذ والرد بينهم مما يقطع بأن خبرته بهذه الأمور كانت واسعة مباشرة .

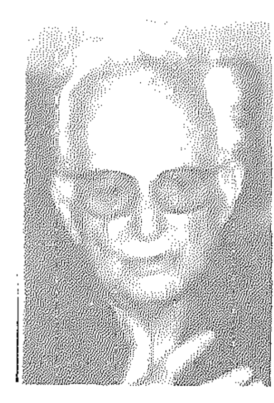
ومما يضفى وزنا على معالجة المازنى للجنس، خاصة فى رائعته «ابراهيم الكاتب» أن لهذه المعالة سندا ركينا من قراءاته الواسعة وثقافته الفلسفية . فهو على وعي بما قاله شوبنهور وغيره من حيل

الطبيعة وكيف تتفنن في إيقاع الذكر في براثن الأنثى عملا على إبقاء النوع والحفاظ عليه، وهو متأثر بفلسفة الخيام الداعية إلى انتهاب اللذات وبتأملات المعرى الزاهدة فى آن واحد (فيما بعد خبر كمال عبدالجواد - بطل ثلاثية نجيب محفوظ - حيرة مشابهة) من هذا التوتر الخلاق بين الشهوة والتنسك، بين الاقبال والعزوف، تكتسب خبرات ابراهيم الكاتب خصبها وعمقها .

وفي كتاب المازنى «خيوط العنكبوت» قطعتان ذاتا دلالة. كان للدكتور مصطفى ناصف فضل توجيه الانتباه إليهما فى كتابه الرائع عن رمز الطفل عند المازنى، القطعة الأولى ترد فى قصة «الراعيان» وهى صورة وصفية من العهد القديم تصف كيف تنبه فتى - أو آدم - إلى أنوثة رفيقته - حواء - لأول مرة :


توفيق الحكيم

«وقعت نحلة صغيرة على صدرها واعتدلت تمشى بين ثدييها فافزعتها وأطارت نومها وصرخت، ولما رأت صاحبها يضحك عادت تفرك عينيها، وأزت النحلة بين نهديها فصرخت مرة أخرى فضحك الفتى ثانية ورفع يمينه بين ثدييها وأخرج هذا الطفيلى وأراها إياه فتناولته وقبلته وألقت به حيث كان وتركته يمشى ويغنى إذا استطاع.


يحيي حقى

ولكن الفتى كف عن الضحك بعد أن لمست راحته صدرها واحس ثدييها ناهدين على جانبى يديه، وشعر بضلوعه تنطبق وبقلبه يوجعه كأن فى جوفه سما ، وراح ينفخ ويلهث كأنما كان قد قطع خمسين فرسخا جريا، وزاغ بصره وصار يرى الشيء اثنين وأربعة. فنهضت إليه تسأله ما له؟ فارتمى على الأرض ووجهه إلى السماء، وهو لايزال يزفر كأن فى جوفه بركانا فرفعت رأسه بكفها وحنت عليه تمسح له جبينه وخده بالأخرى، فسرت رعدة فى بدنه تلاها مثل نار الحريق فطوقها وضمها إلى صدره وعرفا بعدها ماذا بهما!».

والقطعة الثانية تدعى «ليلة سوداء» وفيها يتمشى الراوى بين المقابر فى ليلة مظلمة فيسمع نجوى عاشقين لايأبهان لجو الموت المحيط بهما (لاحظ قران الجنس والموت عند المازنى) ويدور بينهما هذا الحوار المعبر:

« - استنى بس لما أكلمك
- وأنا مش عاوزه أكلمك
- أمال عاوزه إيه؟
- عاوزة أبص لك كده. عاجبنى وأنت بوزك شبرين. بوز والنبى تبوز.
ضحكة خشنة
- ياباى بتضحك ليه؟
- عشان كلامك يضحك

- لكن أنا مش عاوزاك تضحك، عاوزه أشوفك مبوز وأنا أديك بوسة
- هو التبويز بالكيف؟ ما دام مبسوط أبوز آزاى؟
- ياباى عليك! امبارح كنت حلو وانت مبوز
- يابت أنت تكونيش عبيطة؟ حد يبوز وهو مبسوط؟»
إلى أن تقول الفتاة:
- «آه مش أنت لعبتى؟
- لعبتك؟
- آه لازم آخلق لك حاجات تعذبك ولازم أكيدك، ولازم أسمع أنك بتعيط.
وبسرعة أمسح لك دموعك وأبوسك.
وكأنما التقت الشفاه فى قبلة طويلة مستغرقة فقد صمتا هنيهة ثم تنهدت الفتاة تنهد الرضا والاغتباط، ثم صار صوتهما أخفت وهى تقول أو تهمس :
خدنى على سدرك .. لأ مش قوى كده .. بالراحة .. خلينى كده شوية».

توفيق الحكيم

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس؟!

عالج توفيق الحكيم خيط الخيانة الزوجية فى روايته «الرباط المقدس» وفى عدد من الأقاصيص والمسرحيات وفى مسروايته «بنك القلق» يعالج خيطا جديدا هو جو القلق والتوتر الذى أشاعته مراكز القوى فى الحياة المصرية قبل أن يقوم أنور السادات بما دعى حركة التصحيح، كما يصور ما كان لإرهاب تلك المراكز من أثر وبيل فى معنويات الناس وأمنهم .

إن توفيق الحكيم يراوح هنا بين السرد القصصى والحوار المسرحى ويمزج ببراعته الفائقة بين قضايا الذهن ومشكلات المجتمع، حتى ليدهش المرء من هذه الحيوية الذهنية الدافقة التى ظلت تغذو كتاباته حتى النهاية. وبطلا الرواية - أدهم وشعبان - يفتحان بنكا للقلق بعد أن رأيا أنه هو العملة السائدة فى هذا العصر، ويتبنى مشروعهما وجيه يدعى منير عاطف. ومن خلال زبائن البنك المتباينين نرى أكثر من وجه لقلق الانسان فى العصر الحديث .

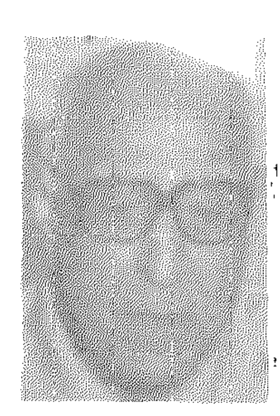


والعنصر النسائى يتمثل فى الشابة المطلقة مرفت وخالتها فاطمة التى دنا شبابها من الأفول فهى تشتهى شباب شعبان، وفى مشهد بارع، يفوق المشاهد الجنسية فى «الرباط المقدس» يصور الحكيم لقاءهما الحسى الأول :

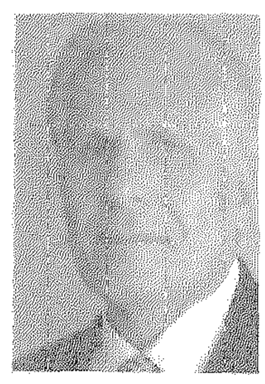
«سار كل شيء بعد ذلك سيرا طبيعيا سريعا وتوالت تفصيلات يكاد كل منهما لايذكر منها شيئا ، وتم الانتقال من الكنبة إلى

السرير دون أن يشعر أحدهما كيف تم. وقد راعى شعبان رغبتها فلم يتركها إلا بعد أن تراخت قبضتها عليه فانفلت منها بلطف وعاد إلى الكنبة وارتدى ملابسه وأخذ يدخن سيجارة، وهى ماتزال فوق الفراش فى شبه غيبوبة.

إنها ليست عانسا بالمعنى الحقيقى فهى ليست بكرا. ويبدو أنها لم تتصل برجل منذ زمن طويل: رأى ذلك فى نظراتها وفى تشبثها بكتفيه كأنها لاتصدق ماهى فيه. تملكها شعور المرأة التى ذبلت ففقدت الأمل فى المتعة مع رجل، ونفث الدخان من سيجارته ونظر إلى ذلك الجسد الممدد الغائب فى نشوته وأدرك حجم تلك المتعة التى تلقى إلى محروم. العجيب أنه وجد فى ذلك متعة له هو أيضا، إن السعادة معدية كالمرض، وهذا الامتنان الصامت الذى يتلقاه من هذه المرأة يملؤه غبطة، إنه أراد التوسل بها إلى أخرى لكنها هى أيضا لها مذاقها وهو من نوع آخر. إنها لفرط تقديرها لما نالت تشعرك بلذة الكرم، إنه الآن أدرك أن زير النساء الحقيقى هو قبل كل شىء رجل كريم، إنه يحب كل النساء ولايفرق بين سن وسن، يحبهن أحيانا لأنفسهن، متعته أن يمتعهن.



د.زكى نجيب محمود



د. يوسف ادريس

ونفخ مرة أخرى الدخان من سيجارته ونظر بزهو ورضا إلى جسد فاطمة نصف العارى فوق السرير وهى تتنهد ثم راقبها وقد أفاقت وحركت أعضاءها. ثم فتحت عينيها والتفتت حولها فلما وقع نظرها عليه أسرعت بلم أطراف ثوبها فى حياء، وابتسمت، ثم نهضت واستوت على قدميها وقالت له برقة: تحب تأكل شيئا! ..

أحضر لك فاكهة؟.. انتظر لأرى ماذا يوجد فى المطبخ!».

زكى نجيب محمود

لعلة ما لا يجود الأدب فى وصف الرغبات المشبعة قدر ما يجود فى وصف الرغبات المحبطة، إن جحيم دانتى أبلغ - لدى الكثيرين - من نعيمه أو مطهره، ربما كان ذلك راجعا إلى أن الاحباط يلتمس فى التعبير الفنى منفذا على حين يكتفى الاشباع بذاته، يعيش الخبرة دون شعور بالحاجة إلى ترجمتها على شكل كلمات أو أنغام أو ألوان.

و«قصة نفس» هى العمل القصصى الوحيد للدكتور زكى نجيب محمود، إنها تتأرجح - كما لاحظ يوسف الشارونى - بين فن الرواية والترجمة الذاتية، وهى - مثل «رحلة نحو البداية» لكولن ولسون - سيرة ذاتية عقلية لايقل دور الأفكار فيها عن دور الوقائع، لا بل إن الأفكار فيها وقائع تغير وتحول وتنمى والرواية - مثل بعض مسرحيات الحكيم الذهنية - أقرب إلى الفكر المجرد الذى يعوزه نبض الواقع ودماؤه، وإن تمكنت - فى لحظات قليلة - من الدمج بين الفكر والشعور.

- عن هذه اللحظات وصف الراوى لهذا الموقف الذى ينتهى بلوعة وإحباط:

«جاءتنى فتاتان سودانيتان مازلت أذكر منهما لمعة العيون التى تناديك فى إغراء بل فى إغواء صامت دون أن ينطق اللسان بكلمة، كما أذكر منهما صدورا ناهدة تستثير أصابع القديسين أن تمتد لتجس، كانت سمراوين أفتح لونا من اللون السائد بين نساء السودان وأغمق لونا من اللون السائد بين نساء مصر، جلستا على الحصيرة واتكأتا على الذراعين، راكعتين على الركبتين، كأنما دربتا أن تقوما بهذه الحركة معا فى توقيع موسيقى، وشخصتا إلىّ بعيون ضاحكة وشفاه باسمة كاشفة عن أسنان ناصعة البياض، وقالت إحداهما- ورددت الأخرى قولها - «إنك لتتململ قاعدا راقدا، باسطا ذراعيك قابضا لهما، كأنما فى القلب جمرات نحن نعرفها» فأخذتنى رعشة هزت كيانى هزا من أعلاه إلى أسفله ومن باطنه إلى ظاهره، فكأننى هذه الساعة أسمع ما دق به قلبى دقا عنيفا. وتذكرت الدنيا المسحورة العجيبة التى طالما حدث عنها الأصدقاء والتى طالما ارتعبتها، وخيل إلىّ أن تلكما الفتاتين هما اللتان أرسلهما الغيب لتفتحا الباب الذى لبث حتى تلك اللحظة مغلقا، لا أدرى ماذا وراءه إلا عن طريق الرواية، لكنى تذكرت كذلك أن علامات النضج التى هى جواز المرور الى داخل العالم المسحور لم تظهر بعد فقلت لهما بأنفاس متقطعة: «لكنى مازلت صغيرا» فضحكتا فى دلال لايعرفه إلا من عرف كيف تدل الفتاة السودانية بأنوثتها، وقالت إحداهما - ورددت الأخرى قولها - «صغير؟! هذه هى السن التى جئنا نبحث عنها» فلم أشعر عندئذ إلا بالقشعريرة الشديدة تلم ببدنى كأنها المرض الداهم، وجمعت حصيرتى وأسرعت عائدا، تاركا ورائى فتاتين تضحكان ضحكات عالية الرنين».

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس؟!

هذه فقرة صادقة تترجم بإخلاص - وأسلوب أدبى رفيع عذابات الشباب فى فترة المراهقة: وما أبعدها عن النرجسية التى تبتدى فى مثل كتابات الدكتور سهيل إدريس، خاصة «أصابعنا التى تحترق» وهى رواية أبدع أنسى الحاج حين وصفها فى مقالة له (مجلة أدب، بيروت، خريف ١٩٦٢) بأنها «وفقت فى أن تجمع إلى التقليد والسطحية العارمة، جرأة مفتعلة مؤسفة وخفرا أبله».



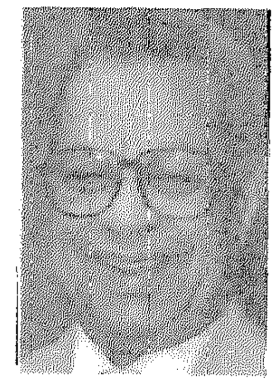
يحيى حقى

تحقق قصة «الفراش الشاغر» - وهى من أعمال حقى فى مرحلته الأخيرة - ركنين كبيرين - أحدهما فنى والآخر أخلاقى، والفن والأخلاق فيما نعتقد توأمان لا ينفصلان وإلى انفصالهما

ترجع ضحالة جزء كبير من رصيدنا القصصي المعاصر. ويحيى حقي واحد من القلائل الذين جمعوا بين البراعة الفنية والنظرة الأخلاقية. فالفن عنده سلوك أخلاقي. والأخلاق سلوك فني. وإلى التحام هذين العنصرين في إنتاجه ترجع أهميته.

تلجأ قصة «الفراش الشاغر» (نشرت لأول مرة في مجلة «الكاتب» في الستينيات) إلى استيحاء الشكل الأدبي الأوربي المعروف باسم الألجورية. والألجورية لون أدبي يجمع بين خصائص الواقعية والرمزية فهي تتوسل بالواقع إلى الرمز، وبالمجسد إلى المجرد، وبالنسبي إلى المطلق. لا تستهدف وجه الفن وحده وانما تستهدف أيضا وجه التعليم والإرشاد. هنا يتحقق المفهوم الكلاسي القائل إن غاية الأدب هي الامتاع والإرشاد «ومما له دلالة أن حقي من أدبائنا القلائل الذين تنطبق على عملهم مواصفات النقد الكلاسي ومتطلباته». فما من فن يستحق هذا الاسم إلا وهو يعلم أيضا، وما من إرشاد فني إلا وهو يمتع أيضا.


يوسف الشاروني


الطيب صالح

إن الألجورية بطبيعتها ارتياد العالم الفكر والروح، وارتفاع عن جزئيات الحياة اليومية، واقتراب من مشاكل الكون العليا، ودعوة إلى التحرر من إسار الواقعية . إنها شكل لا يجيده إلا الكاتب البصير بأسرار النفوس الراصد لتحركات الروح، التواق إلى قيم الحق والخير والجمال. لهذا كان اصطناع هذا الشكل الأدبي ثمرة طبيعية لتلاقي الفن والأخلاق في نفس يحيى حقي. إنه يكتب من وحي حسه الأخلاقي المرهف وحسه الفني المرهف. وهو قادر على إثراء الشكل الفني لأنه قادر على إثراء الروح والوجدان.

قصة «الفراش الشاغر» شاهد على قبر الإنسانية حين تسف وتنحدر ، ولذلك فهي كسب أخلاقي. إنها «إمالة رأس القارىء لحظة على الهوة ليدرك بشاعتها» وسواء بعد ذلك أن يتعظ القارىء أو يتردى . فانما كل نفس بما كسبت رهينة. وانحدار الإنسانية إلى اللاإنسانية كما يصورد حقي. أمر مخيف حقا فهو يعني تفسخ الروح الإنسانية وتعفنها وانحلالها وفقدانها القدرة على التمييز بين الخير والشر. هنا تنمحي الحدود ويظلم الكون ويموت كل شيء جميل. إن القصة، بهذا المعنى. تحذير موجه إلى عالم يقترب من الهوة شيئا فشيئا.. ولا يعلم ما هو صانع بنفسه. لأن تعوده على الخطيئة أظلم وعيه الروحي.

والقصة - ككثير من الأعمال الفنية الكبيرة - تبعث على الكآبة ، إنها أشد إخلاصا من أن تخدع قارئها أو تساير أوهامه أو تتملق غروره. هي قصة ترتكز على عنصري الجنس والموت، وترينا الإنسانية حين تمتهن على عتبات هذين الأمرين.

الجنس في هذه القصة ليس الشرارة الإلهية التي تغنت بها أساطير القدماء وآدابهم. وأعاد د. هـ. لورنس إضرام جذوتها في

القرن العشرين ليس الجنس هنا طاقة حيوية ولا قوة دافعة ولا عملية خلاقة. انه قرين الموت وضجيع الانحراف وخدن الشذوذ وآية الضياع. الأبطال هنا حالات فرويدية ذات دلالة: «الزوج ينادي امرأته بيا أمي وهي تناديه بيا أبي وينادين ابنهما الوحيد بيا أخانا والابن ينادي امه بيا عروستي». وعقدة الاخصاء ماثلة في الجو دائما : «يحدث مرارا وهما يتدابران وينصرف أحدهما عن الآخر أن يلتفت الاب وراءه فيجد ابنه ملتفتا اليه في اللحظة ذاتها. يحس الابن انه يتلقى نظرة متجسسة متوجسة ، ويحس الأب أنه يتلقى نظرة تبحث عن مشرط لامع مخبأ في قبضة اليد وتنقلب النظرات المتبادلة إلى ابتسامات الخجل والاعتذار ممن ينكشف لعبه ثم تتحول الابتسامات مرة أخرى إلى نظرات تنطلق بالفهم والمحبة والاعزاز». والجنس قد فقد حيويته وحرارته: «طلع على الفتى يوم من أيام الخريف استكان فيه النيل بعد هياجه وانقلب ذوب عناية المنحدر من الجبال البعيدة إلى سمرة وطنية داكنة متموجة كجلد السمك. فرغ من لقاح الأرض ودخل حجره لينعس فيه طول الشتاء. ولما فقد فحولته أصبح لا شيء مثله يوحي بالقشعريرة وظلمة الأعماق والثقل العظيم. وشر ما ينحدر إليه الجنس هو ان يغدو أخذا – بل هبشا – لا عطاء فيه: «لم يجد الفتى بعدها لمتعته اشباعا ولا لجرحه لسانا يلعقه الا في أحضان تاجرات الهوى. ليس لواحدة منهن حق عليه فلا مسئولية عليه قبلها . أنه يريد أن يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء».

ماذا كتب العقاد ويحيى حقي ولطيفة الزيات في الجنس؟!

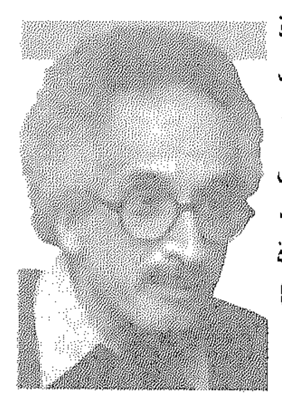
وفي ظلال الضعف والسلبية تجد الجنسية المثلية مرتعاً خصبا: «أدرك صبي الحانوتي أن الفتى أصبح لا يستطيع فراقه ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ونظرته تعسيلا وجسده ارتخاء فأخذ الصبي إذا جلس إليه الفتى التصق به ووضع ذراعه فوق كتفه وهبط به إلى خصره لا يكلمه الا بوضع الفم على الإذن ليهمس له بكلام، ولما ظن أن الطبخة قد نضجت وسوس له ذات يوم: سلم نفسك إلي إن كنت حائرا بها. لا تتدلل ولا تخف فداخل الدكان ظلام فيه نعش كبير يسعنا نحن الاثنين . فكان الفتى ينحى عنه الثعبان الأصلع والنجم ولكنه لا يغضب ولا يتأفف لأن ذهنه سارح في ملكوت القبور». وهكذا ينقلب الوضع فبعد أن كان الجنس تجسيدا لارادة الحياة والخلق أصبح تجسيدا لارادة الموت والعدم. إن الايروس اذا استخدمنا تعبير فرويد قد تحول إلى الثاناتوس.

وما أروع وصف يحيى حقي للتناقض بين ضعف الفتى وسلبيته وشهوة المرأة الحارقة:



«على هذه الملة السلك لقي الفتى صدمة حياته. زلزلت كيانه فانهدمت أوهامه وبقي هو عاريا وسط أنقاضها يلعق حيرته. ففي الليلة الأولى ذاتها انقلبت هذه الفتاة الخام الساذجة إلى وحش

ضـار مفترس. العيون المسبلة آبرقت كعيون الصقر المتحفز تنبعث منها في جوف الليل نظرة متقدة كأنها وميض سيف أو ذوائب لهيب. لو مرت بعود ثقاب لأشعلته. نار لا تطفئها مياه الانهار المقدسة كلها . نظرة تلحس جسده كالمبرد. والجبين الذى لا يلمع بفكرة اضبح مسطورا عليه - يدل القدر أمر أداء صادر من محكمة مستعجلة لا يقبل التأجيل أو الاستئناف . الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشة تلهث الفم يتلمظ ولا يستقر على هيئة واحدة. هو تارة فوهة بركان مستديرة وتارة بطن دوامة مكورة، كالقمع وتارة مستطيل كشق الخنجر تقلصات متتابعة كأنما في حلقها خطاف تجذبه يد بلا رحمة. وانكشفت اسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا، والأعضاء التي كانت تزعم أنها فقدت فتنتها في شيوع الجسد استرد كل منها حقه واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله. اشرأب ابهام القدم وطلب العلا وزادت الضراوة حدة لشدة التناقض فقد بقي الكف منبسطا مستسلما واهيا والذراع رطبا والرضاب شهدا زلالا والنفس نفس طفل غرير».


صنع الله ابراهيم


غالب هلسا

يوسف الشاروني

في قصة يوسف الشاروني «لمحات من حياة موجود عبدالموجود» (يوليو ١٩٦٩) يهبط الراوى وهو طالب من الأقاليم الى القاهرة فيستأجر غرفة من أرملة لا تلبث أن تغويه . بينما تزوجه ابنتها. وتقترن لذته بشعور عميق بالإثم: «كانت معلمتي قديرة خبيرة تستأنس الحيوان البرى الوجل. أسمع طرقات على الباب تفسد متعتنا، لا أجد إلا الريح، فأواصل ما انقطع ، وأنا منزلق في الكهوف السحرية. أخفي خوفي في مصدر خوفي.

البيت يطل على الساحة ، الساحة فيها مولد، المولد فيه سبعون ألف إنسان، لكل إنسان سبعون ألف يد. بكل يد سبعون ألف مداس. بكل مداس سبعون ألف شمعة. وهم يتمايلون وينشدون: عملنا المحظور. وقع المقدور، أنت الغفور». ولا تلبث عروسه ان تنتحر حين تكتشف علاقته بأمها .

وفي قصة أسبق هي «الزحام» (فبراير ١٩٦٣)، يتكرر نفس الإثم: الزنا بالمحارم فالراوى - وهو محصل أتوبيس - يعاشر امرأة أبيه بعد موته: «في ليلة الأربعين كان عليّ أن أكون بجانب عواطف أستقبل المعزين. في تلك الليلة اكتشفت صوتها، كيف لم أكتشفه إلا الليلة. نطقها المتكسر كأنه نداء، فيه بحة كأنه رغبة . ليلتها لم أنم بعيدا عنها، لم يفصل بيني وبينها اخوتي. بل نمت تحت سريرها مباشرة، كان هذا في أول الليل غير انه حدث في

منتصفه أن وجدت نفسى أرقد حيث أبى كان يرقد . فى تلك اللحظة اكتشفت قدميها .اكتشفت أصابع قدميها كنا مجنونين رغبة، ثم غفت فغفوت» . وبعبقرية ملهوية فريدة يصور الشارونى شعوره بالذنب : «فى الفجر لمحت والدى فى ركن الغرفة يرتدى بذلة مفتش فى شركتنا وقد جلس متربعا وهو يتمايل يمينا ويسارا، المانوفستو بيده ينشد منه:

آه يا جبار يا قاسى

أنا أبوك يا ناسى»

هكذا تلتحم الفكاهة مع حس المأساة فى عالم الشارونى، وينتهى بطله بالذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية، وفى كل قصصه التى تتناول الخبرة الجنسية نجد أصداء، أحسن الكاتب تمثلها، من الفلسفة الوجودية، والسريالية، والتعبيرية مما يضعنا فى قلب العصر.

لطيفة الزيات

وهل يمكن أن تكتمل هذه الجولة دون إطلالة على عالم الجنس من منظور المرأة الكاتبة؟

ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس؟!

إن رواية «الباب المفتوح» التى نشرتها لطيفة الزيات فى ١٩٦٠ من أنضج نماذج الأدب النسائى عندنا، هذا الأدب الذى - مازال قصة وشعرا ومسرحا ومقالا ونقدا - مترديا فى هاوية التخلف، والعجز عن الارتقاء من مرتبة الأنوثة إلى مرتبة الإنسانية المكتملة مع التسليم بوجود استثناءات قليلة من هذا الحكم.

وتغطى أحداث الباب المفتوح عشر سنوات من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٦ تقع فيها أحداث مهمة كهجمات الفدائيين على معسكرات الانجليز فى منطقة قناة السويس، وحريق القاهرة، والعدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦. وتلتحم هذه الأحداث العامة بالخبرات الخاصة لليلى بطلة الرواية: نلتقى بها فى البداية فتاة فى الحادية عشرة، ونودعها شابة فى الواحدة والعشرين.

وتحتل العلاقة بين الجنسين مساحة واسعة من الرواية، وتصور بأسلوب شاعرى بارع إن ليلى تسترق السمع إلى حديث الدكتور رمزى مع محمود.

«أنا حا احكيلك حكاية يا محمود ماقلتهاش لحد قبل كده، ولكن أنت أخويا الصغير ومش ممكن أبخل عليك بتجربة من تجاربى.. لما كنت طالب فى الجامعة حبيت بنت ساكنة فى الدور اللى تحتى - وبقيت أقعد بالليل فى الضلمة أسمع أم كلثوم وأعيط، وأسهر للصبح وأنا باكتب قصيدة شعر لحبيبتى وأنزل ألتقيها مستنيانى على السلم بمريلة المدرسة أعطيها القصيدة وكل حته فى جسمى بترتعش وفاتت الأيام وابتديت أخرج معاها وحبى لها بيزيد يوم بعد



يوم، والدنيا جميلة فى عينى ونويت إنى اتجوزها بمجرد ما اتخرج. ماكانش ممكن أتصور نفسى عايش يوم واحد من غيرها.
واتسعت حدقتا ليلى فى دهشة وابتلعت ريقها.
واستأنف رمزى كلامه:
– وفى ليلة كان أهلها مسافرين وفتحت لى الباب وقمت من على الكنبة وبصيت لها وهى لسه متمددة وعرفت فجأة إن حبى لها خلص. خلص فى اللحظة دى».
ولكن الثلثين الأخيرين من الرواية ليسا مكتوبين على نفس هذا المستوى الرفيع. إن قيمة الرواية إنما تنحصر فى ثلثها الأول فحسب.
وبعد..
عند هذا الحد تنتهى جولتنا، وقد كان منطلقها – طوال الوقت – حقيقة تكاد لفرط وضوحها أن تكون مبتذلة: إن العلاقة بين الرجل والمرأة موضوع أساسى من موضوعات الأدب، بل لعله أن يكون فى طليعة هذه الموضوعات فالغريزة التى تجذب الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل، وكل تنوعات العاطفة من حب وكراهية وغيرة، خيوط ظلت تشغل الأدباء مذ كان الأدب لأنها مشتبكة الجذور بالطبيعة البشرية، لا يكاد يطرأ عليها تغير يذكر من جيل إلى جيل.
والدلالة التى نخرج بها من النماذج التى سقتها هى أن معالجة الجنس إذا أريد لها أن تكون جادة وعميقة لا يمكن أن تتم فى فراغ وإنما ينبغى أن تصدر عن موقف فكرى محدد: فلسفى أو دينى أو وجودى أو نفسى أو اجتماعى أو فيزيقى: تماما كما ترتبط معالجة هذه الغريزة عند الروائى الانجليزى توماس هاردى بفلسفته فى الطبيعة وإيمانه بأن البشر لعب فى يد قدر قاس يتخذ من الجاذبية المتبادلة بين الرجل والمرأة أداة لإيقاعهما فى الشرك وإيرادهما موارد العطب، أو على نحو ما ترتبط معالجة د. هـ. لورنس للجنس بإيمانه بأن العقل قد يخطئ، أما اللحم والدم فلا يخطئان.
ومما يبعث على التفاؤل أن فى أدبنا العربى المعاصر – وفى القصة بخاصة – نماذج ممتازة من أدب الجنس غير ما أشرت إليه هنا: نجيب محفوظ، يوسف إدريس، إدوار الخراط، سليمان فياض، شوقى عبدالحكيم، جبرا إبراهيم جبرا، حليم بركات، زكريا تامر، الطيب صالح، حنان الشيخ وغيرهم ممن لا يكفون عن استكشاف هذه القضية استكشافا شجاعا لا إسفاف فيه، فى ظروف مجتمع لا يكف عن التشرنق والتحول. ■



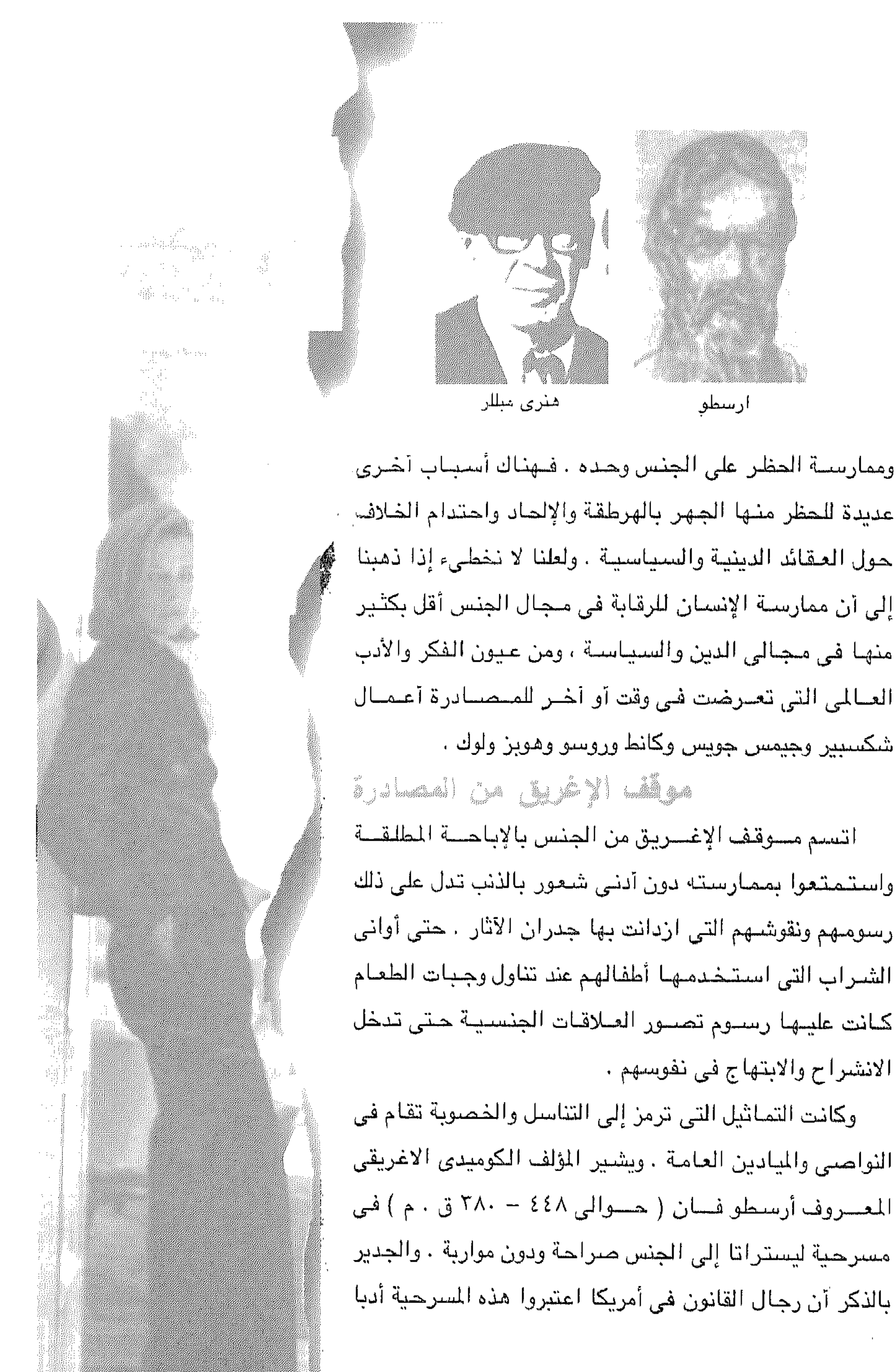
الرقابة وأدب الجنس

بقلم
د. رمسيس عوض

الأدب المكشوف مصطلح درج النقاد علي استخدامه للدلالة علي ذلك النوع من الإنتاج الأدبي الذي يخوض في تفاصيل الجنس بهدف استثارة أحط الغرائز عند الإنسان، ويرفض النقاد - ولهم كل العذر في ذلك - اعتبار الأدب المكشوف فرعا من فروع الأدب الجاد . ولكنه الخط الفاصل بين الأدب والجنس الرخيص والأدب والجنس الجاد أبعد مايكون عن الوضوح أو الجلاء في كثير من الأحيان . ولهذا نري أن الرقابة كثيرا ما تتدخل لمصادرة بعض أنواع الأدب الجنسي التي قد تبدو رخيصة ومبتذلة في باديء الأمر ثم يتضح للفاحص المدقق أنها نظيفة وراقية بعد فترة من الزمان . وفرض الحظر علي مثل هذه الأعمال الأدبية قديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها . ولكنها كلما ارتفعت المجتمعات البشرية في مدارج الرقي والتقدم ، وكلما رسخت اقدامها بالأعراف والتقاليد الديمقراطية تقلص دور الرقابة فيها . ورغم هذا فالمجتمعات حتي في أكثر الدول رقيا قد تسئ الفهم وتضل السبيل .



• ويدل استقراء تاريخ الإنسانية أن الرقابة ركزت كل اهتمامها على الكلمة المكتوبة وليس على الكلمة المنطوقة نظرا لبقاء الأولى وزوال الثانية . ومن الخطر كل الخطر أن نظن أن الإنسان اقتصر فى فرض الرقابة



ارسطو

هنرى ميللر

وممارسة الحظر على الجنس وحده . فهناك أسباب أخرى عديدة للحظر منها الجهر بالهرطقة والإلحاد واحتدام الخلاف حول العقائد الدينية والسياسية . ولعلنا لا نخطىء إذا ذهبنا إلى أن ممارسة الإنسان للرقابة فى مجال الجنس أقل بكثير منها فى مجالى الدين والسياسة ، ومن عيون الفكر والأدب العالمى التى تعرضت فى وقت أو آخر للمصادرة أعمال شكسبير وجيمس جويس وكانط وروسو وهوبز ولوك .

موقف الإغريق من المصادرة

اتسم موقف الإغريق من الجنس بالإباحة المطلقة واستمتعوا بممارسته دون أدنى شعور بالذنب تدل على ذلك رسومهم ونقوشهم التى ازدانت بها جدران الآثار . حتى أوانى الشراب التى استخدمها أطفالهم عند تناول وجبات الطعام كانت عليها رسوم تصور العلاقات الجنسية حتى تدخل الانشراح والابتهاج فى نفوسهم .

وكانت التماثيل التى ترمز إلى التناسل والخصوبة تقام فى النواصى والميادين العامة . ويشير المؤلف الكوميدى الاغريقى المعروف أرسطو فان (حوالى ٤٤٨ - ٣٨٠ ق . م) فى مسرحية ليستراتا إلى الجنس صراحة ودون مواربة . والجدير بالذكر أن رجال القانون فى أمريكا اعتبروا هذه المسرحية أدبا



مكشوفا من شأنه إفساد أخلاق الناس . وحتى وقت قريب للغاية كانت المسرحية فى أصلها الكامل ممنوعة من دخول الأراضى الأمريكية وتتعرض لمصادرة رجال الجمارك الامريكان لها .

ورغم جو الإباحة التى عرفها الاغريق فإن الفيلسوف أفلاطون على مايبدو هو أول من حاول أن يلعب دور الرقيب فى تاريخ الفكر والأدب فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، عندما اقترح فرض الحظر على أشعار هوميروس مثلما فعل توماس بودلر باشعار شكسبير بعد ذلك بألفى عام . فقد اقترح أفلاطون إصدار نسخة نظيفة وخالية من البذاءات من أعمال الشاعر الاغريقى القديم هوميروس وهو نفس الشيء الذى فعله بودلر فيما بعد بأعمال شكسبير .

الرقابة عند الرومان :

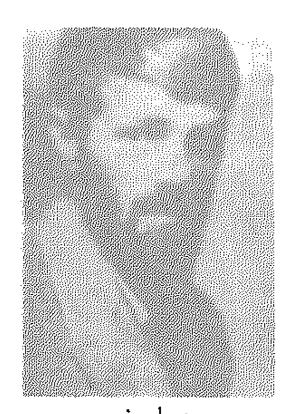
بمجيء الرومان عرف العالم الأوربى الحظر الفعلى على الأدب عندما قام الامبراطور أوغسطوس بطرد الشاعر الرومانى المعروف أوفيد (٤٣ ق . م-١٨م) بسبب قصيدته الجنسية الفاضحة التى ألفها بعنوان « فن الحب » وقت ميلاد المسيح تقريبا . يقول أوفيد إن هدفه من القصيدة تلقين دروس الحب لمن ليست له خبرة أو دراية به . فالعشق مهارة ينبغى على الإنسان حذقها وإتقانها شأنها فى ذلك شأن سائر المهارات مثل التجديف والملاحة . والجزء الثالث من قصيدة « فن الحب » الذى ينصح المرأة باستثمار كل ما فى جسدها من مزايا فهو أكثر الأجزاء بذاءة، فالشاعر لا يكتفى بنصيحة المرأة بالعناية بتصفيف شعرها وتحريك أردافها وهى تسير فى الطريق حتى تلفت أنظار الرجال إليها، وبالكشف عن بعض جسدها لإثارة الناظر إليها بل إنه يجند مجموعة من الأوضاع

الجنسية المتنوعة تختار من بينها مايظهر فتنتها وما يتناسب مع جسدها .

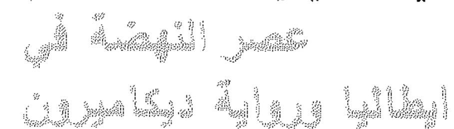
ولهذا فليست هناك غرابة رغم مرور ألف وتسعمائة عام على تأليف أوفيد لهذه القصيدة أن تقوم مصلحة الجمارك والبريد فى الولايات المتحدة بحظرها ومنع تداولها .

الكنيسة الكاثوليكية والجنس :

بمجىء المسيحية طرأ على سلوك الامبراطورية الرومانية تغير ملحوظ . فقد بدأ الناس يهتمون بطهارة الجسد عند النساء والرجال على حد سواء . وأصبحت العفة المثل الأعلى الذى ينبغى احتذاؤه بعد أن كان الإغريق يعتبرون ممارسة الجنس شيئا طبيعيا للغاية . وعندما تمكنت الكنيسة الرومانية من بسط نفوذها فى أنحاء أوروبا فى القرن الرابع خلت المؤلفات من الجنس واقتصر تأليف المخطوطات على الأمور الدينية والروحية يتوفر الرهبان والنساك على وضعها . ورأت السلطة الكنسية أن من حقها إنزال العقاب بكل إنسان تسول له نفسه الخروج على تعاليم الديانة المسيحية .



د.هـ.لورنس



مع أفول العصور الوسطى تفشى الفساد الأخلاقى بين الرهبان والنساك فتحول بعض الأديرة على أياديهم الى بناءات يندى لها الجنين كما يتضح لنا من كتاب بوكاشيو المعروف «ديكاميرون» .

تعتبر رواية «ديكاميرون» (أى الأيام العشرة) التى ألفها جيوفانى بوكاشيو فى الفترة بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ والمنشورة فى البندقية عام ١٣٧١ أول عمل بذئ وفاضح فى العصر الحديث. ومما زاد من ذيوعه واقبال الناس عليه أنه أول كتاب أدبى قيض

له أن يعرف الطباعة فقد كانت الاعمال البذيئة التى سبقته لا تعدو أن تكون مخطوطات محدودة الانتشار .

كان جيوفانى بوكاشيو مؤلف الديكاميرون ابن زنا ينحدر من أب تاجر من ايطاليا وأم فرنسية استطاع هذا التاجر أن يراودها عن نفسه أثناء زيارة قام بها الى باريس .

وبسبب بذاءة كتاب بوكاشيو - رغم أهميته الأدبية - قامت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بمنع تداوله. وظل الكتاب محظورا فى كلا البلدين حتى فترة الخمسينات من القرن العشرين .

رابيليه والأدب المكشوف :

ارتبط اسم فرانسوا رابيليه أديب فرنسا المعروف فى القرن السادس عشر بالفكاهة والهزل الجنسى الخشن. بدأ رابيليه حياته كراهب ثم أصبح قسيسا ثم انصرف الى دراسة الطب وعندما نشر انتاجه الأدبى الشهير «بانتاجرويل» (١٥٣٢) و«جارانتوا» (١٥٣٤) صدم هذان العملان مشاعر الفرنسيين صدمة عنيفة لدرجة أن جامعة السوربون وضعتهما فى قائمة الكتب الممنوعة. ويرجع السبب فى حظرهما الى تطاولهما على رجال الدين اكثر مما يرجع الى ما يتضمنه الكتابان من بذاءات جنسية .

بيترو أرتينو وقصائده الداعرة :

ألف الأديب الايطالى بيترو ارتينو فى القرن السادس عشر مجموعة من القصائد الداعرة تتكون من ست عشرة سوناته توضحها رسوم بريشة الفنان جيوليو رومانو تصور اوضاع المضاجعات الجنسية المختلفة . وأثناء إقامته فى البندقية عاش ارتينو فى قصر منيف تحيط به جوقة كبيرة من العاهرات اللاتى انجبن له عدد كبيرا من الأطفال .

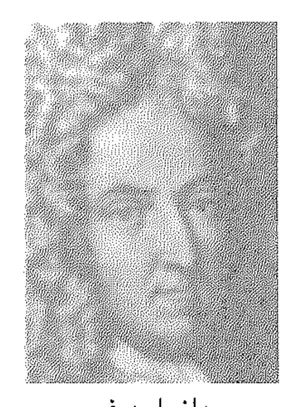
بيير برانتوم .

يعتبر الكاتب الفرنسى بيير برانتوم المعاصر للكاتب



الايطالى ارتينو من ابذأ أدباء العالم طرا. وتدور بعض قصص برانتوم الداعرة حول الأزواج الذين يقبلون عن طيب خاطر خيانة زوجاتهن لهم. وفى موضع آخر يروى برانتوم قصصا تدور حول السحاق وحول حفلات الترفيه التى عرفتها فرنسا فى عصر النهضة والتى استمرت حتى مطلع القرن الثامن عشر . وهذه الحفلات التى كان يحضرها عدد مخصوص من الرجال والسيدات ليستمتعن بمشاهدة رجل وامرأة وهما يمارسان الجنس امام عيونهم. وقد تعرضت كتابات برانتوم للحظر من فرط بذاءتها .

القرن الثامن عشر والقانون الانجليزي



دانييل ديفو

لم تكن انجلترا فى اوائل القرن الثامن عشر تعرف أية قوانين لمعاقبة نشر كتب الجنس المكشوف. والجدير بالذكر أن مثل هذه القوانين لم توجد دفعة واحدة بل استنها المشرع الانجليزى على مراحل. ومن المؤكد أن القانون الانجليزى العام ظل بوجه عام يتخذ موقفا متسامحا وليبراليا من أدب الجنس حتى القرن الثامن عشر. وليس أدل على أن البذاءة لم تشغل بال السلطات الانجليزية فى القرن الثامن عشر من أنها سمحت لكوكبة من كبار أدباء هذا القرن أمثال دانييل ديفو وهنرى فيلدنج وسموليت وستيرن أن ينتجوا ادبا فاضحا فى كثير من المواضع دون أن يفكر أحد فى قمعه أو مصادرته .

وظل الأدب الانجليزى ردحا كبيرا من الزمن يتمتع بقدر هائل من الحرية منذ عهد الشاعر تشوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) حتى وفاة الروائى سموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) ولكنه فى نهاية القرن الثامن عشر اصابه تغير مفاجىء . فبعد الاباحة التى عرفها فى شئون الجنس اخذ يراعى خفر العذارى. وأيضا

يتضح لنا أن الاستقراطية الانجليزية لم تجد آدنى غضاضة فى الخوض فى آمور الجنس فيما آنتجته من آدب فى حين أن الطبقات المتوسطة التى قويت واشتد ساعدها فى أعقاب الثورة الصناعية هى التى اتجهت الى التزمت الأخلاقى وأصرت على أن يتسم الأدب بالحياء والاحتشام . وارتبط هذا الاتجاه نحو التزمت الجنسى بنشأة الطوائف البروتستانتية المتطرفة. وبسيادة الزمت والجو المحافظ فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ظهر اثنان من كبار رجال القانون هما كامبل وكوكبيرن لعبا دورا بارزا فى استنان القوانين المغالية والمتعسفة الخاصة بالنشر. وهى قوانين لم تعق مسيرة الأدب المكشوف وحده بل وضعت العوائق فى طريق ادب الجنس الجاد الذى يقدم مفاهيم انسانية جديدة. وسوف نتناول هذا بشىء من التفصيل عندما نعرض لمحاكمة رواية د. هـ . لورانس «عشيق الليدى تشاترلى» عام ١٩٦٠. وقد ظهرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر عائلة متزمتة اسمها عائلة بودلر لعبت دورا بارزا فى تطهير أدب «شكسبير من أية بذاءات فنشر رب هذه الأسرة واسمه توماس بودلر كتابا بعنوان «شكسبير للأسرة» عام ١٨٠٧. والجدير بالذكر آن كتاب «شكسبير للأسرة» تعثر فى بادىء الأمر ولكنه ما لبث ان انتشر انتشارا كاسحا فى جميع أرجاء انجلترا.

الرقابة فى فرنسا فى القرن التاسع عشر

فى يناير ١٨٥٧ قدم الروائى المعروف جوستاف فلوبيرت الى المحاكمة بسبب نشر روايته المعروفة «مدام بوفارى» على حلقات واستمعت المحكمة الى الدفاع الذى ذهب الى ان فلوبيرت سعى الى تصوير الرذيلة بهدف الاعلاء من شأن الفضيلة.



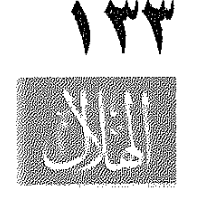
وفى صيف ١٨٥٧ قدم الشاعر شارل بودليز للمحاكمة بسبب نشره الجزء الأول من ديوانه السيء السمعة «أزهار الشر» الذى استقبلته الصحافة بالشتائم والسباب القاذع. واستخدم ممثل الادعاء فى محاكمة «آزهار الشر» نفس الأسلوب المتبع فى المحاكمات الانجليزية والذى يتلخص فى تلاوة بعض فقرات الكتاب خارج السياق الذى وردت فيه. واعترض بودلير على هذا الأسلوب المتعسف وطالب بالنظر الى الديوان كوحدة واحدة وليس كأجزاء منفصلة أو متفرقة . وهى نقطة بالغة الأهمية سوف نعود اليها عندما نعرض لمحاكمة رواية «عشيق الليدى تشاترلى» التى ألفها الكاتب الانجليزى الكبير د. . هـ . لورانس . وأصاب بودلير الذهول وظهرت على وجهه أمارات الألم المحض عندما حكم عليه القاضى بدفع غرامة. غير أن تشجيع فكتور هيجو له شد من أزره بعض الشيء فقد كتب هيجو اليه : «ان ديوانك «أزهار الشر» سوف يسطع ويتلألا كالنجوم فسر الى الأمام» .

افلاطون

الرقابة في انجلترا في القرن العشرين

لابد أن نذكر أن القانون الانجليزى قبل عام ١٩٥٩ كان يحكم على العمل الادبى بالبذاءة اذا وردت فيه بعض الألفاظ أو العبارات الخادشة للحياء. أى أنه كان يصدر حكمه بناء على بذاءة اجزاء العمل الفنى وليس على بذاءة العمل ككل. ولهذا طالب الناشرون الانجليز باجراء بعض التعديلات المهمة فى القانون بحيث يتم الحكم على بذاءة العمل الفنى من الاثر العام الذى يتركه ككل فى القارئ وليس مجرد بذاءة الأجزاء.

ولعل أهم تعديل أجرى على القانون القديم يقضى بعدم الإدانة وفى حالة التثبت من امر نشر الموضوع الخلاف له ما





يبرره من حيث المصلحة العامة تأسيسا على مصلحة العلم أو الأدب أو الفن أو التعليم أو الأهداف الأخرى التى تهم الناس وتشغل بالهم، وقد استفادت رواية «عشيق الليدى تشاترلى» من هذا التعديل فى قانون المطبوعات .

ألف د. هـ . لورانس هذه الرواية فى آخريات حياته عام ١٩٢٨ وأعرضت دور النشر الانجليزية عن نشرها فتولت مطبعة حروف فى نيويورك نشر الرواية كاملة دون خوف. غير ان مصلحة البريد الأمريكية صادرت الرواية . وفى ٢٥ أغسطس ١٩٦٠ أعلنت دار بنجوين للنشر فى انجلترا انها بصدد نشر الرواية فرفع مدير النيابة العامة قضية فى محكمة بوستريت بلندن ضد الرواية على أساس أن نشرها يمثل خرقا لقانون المطبوعات البذيئة الصادر عام ١٩٥٩ . وعند نظر القضية امام المحكمة الأولدبايلى احتشد خمسة وثلاثون شاهدا مرموقا فى عالم الفكر والأدب للأدلاء بشهادتهم فى صف الرواية المصادرة. وعقدت المحكمة خمس جلسات انتهت بإصدار حكم ببراءة الرواية من البذاءة فى ٢ نوفمبر ١٩٦٠ على أساس أن الرواية قد تكون بذيئة فى بعض أجزائها ولكن هذا لا يعنى أنها بذيئة ككل .



الرقابة في أمريكا في القرن العشرين

١ - محاكمة رواية «يولسيس» تأليف جيمس جويس

تم حرق النسخ المصادرة من هذه الرواية بمقتضى قانون الجمارك فى بريطانيا لعام ١٨٦٧ بعد أن نشرتها دار شكسبير للنشر فى باريس عام ١٩٣١ . وفى بادىء الأمر، لم تكن معاملة أمريكا الرواية افضل من معاملة بريطانيا لها فقد أمرت المحكمة بتغريم الناشرة الامريكية لهذا الكتاب، ولكنها رفضت دفع الغرامة وفضلت السجن عليها ولكن امرأة أخرى تكره الرواية

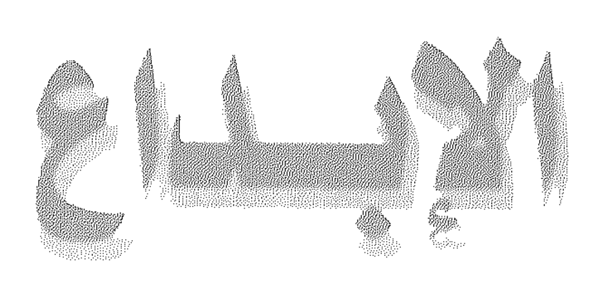
من صميم قلبها دفعت الغرامة نيابة عنها.

وفي عام ١٩٣٣ قررت دار النشر راندوم هاوس أن تتحدى مصلحة البريد الأمريكى باصدار طبعة كاملة وغير منقوصة من الرواية. وعند نظر المحكمة الفيدرالية للأمر أصدر القاضى جون م. وولسى حكما بالغ الأهمية يتلخص فى الاعتراف الرسمى بأهمية رواية يولسيس من الناحية الأدبية. وهكذا تم تبرئة الرواية من تهمة البذاءة المنصوص عليها فى قانون التعريفة الجمركية وامر القاضى دولسى بالسماح بدخول رواية بولسيس فى الولايات المتحدة. وأورد وولسى فى حكمه ما يلى : «ان الفن بالتأكيد لايمكن ان يتقدم تحت ضغط ووطأة الأعمال التقليدية. وليس هناك شيء فى ذلك المجال اكثر عرقلة للتقدم من وضع قيود علي الفنان في التجربة واستحداث تكنيك جديد. والرأى عندنا أن رواية بولسيس كتاب يتسم بالاصالة والاخلاص فى المعالجة وليس من شأنه اثارة الشهوات» .


جيمس جويس

٢ ـ حظر مؤلفات هنري ميلر :

فى عام ١٩٣٤ الف هنرى ميلر اولى رواياته بعنوان «مدار السرطان » . ثم الف ثلاثية بعنوان «الصلب الوردى» التى تتكون من «شهوة الجنس» (١٩٤٩) و«صفير الأوعية المتشابكة» (١٩٥٣) و«الرباط» (١٩٦٠) . وكانت صراحة ميللر فى معالجة الجنس سببا فى حظر مؤلفاته واغفال قيمتها الأدبية. وفى عام ١٩٤٤ عاد ميللر من باريس حيث كان يعيش الى أمريكا بلده حيث استقر فى كاليفورنيا وحيث طرأ تغير ملحوظ على الجو الفكرى الأمريكى فلم يعد متزمتا فى معالجة الجنس مثلما كان الأمر الذى ساعد على إعادة تقييم أعماله ورد الاعتبار اليها .



الإبداع في حدود القانون

بقلم
د.محمد سليم العوا

قد يبدو للقارئ أن عنوان هذا المقال منبئ عن تناقض أو تضاد، إذ هو يجمع بين فكرتين شاع في حياتنا الثقافية أنهما لا تجتمعان. فالإبداع - فيما يشاع - ليس له سيد، ولا يجوز أن يرد عليه قيد أو تحدد حرية صاحبه بحد. والقانون - في مفهومه البسيط الصحيح - أمر ونهي يلتزم بهما المخاطبون بنصوصه وإلا تعرضوا للعقاب . فكيف تجتمع هاتان الفكرتان النقيضتان ؟!

\- ١ -

والواقع أن هذا التناقض بين فكرتى الإبداع والقانون تناقض ظاهرى فحسب، بل هو - عندى - تناقض موهوم ليس له من الحقيقة ظل . فالأدب، والإبداع بصوره كلها، لا ينشأ من فراغ ولا يعيش فى فراغ ، ولكنه صناعة اجتماعية تعبر فى لحظة إنتاجها عن حال مجتمع - أو حال بعض فئاته أو أفراده - وهى تصدر أو تنشر أو تذاع أو تعرض على مجتمع، وبين أفراده، لتقرأ وتؤثر وينفعل بها المتلقى رضاء أو سخطا، وإعجابا وقبولا أو إباء ورفضا.

وليس فى الدنيا مجتمع بلا نظام يحدد الجائز والممنوع، والمحتمل من صور

البيان الذى ينشر على الناس - أدبا كان أم فنا أم سواهما - والمستنكر الذى لا يحتمل النشر أو الإذاعة أو العرض على الكافة.

فالعمل الفنى أو الأدبى يلتزم فى كل مجتمع بحدود ما يقبله هذا المجتمع وما يرفضه، وبحدود ما يجيزه القانون فيه وما يمنعه، وبحدود ما يسيغه الذوق العام وما يستسخفه.

وليس فى شئ من ذلك تقييد لحرية الإبداع ولا هضم لحقوق المبدعين ولا حجر على خيال المتخيلين لأن ذلك كله، مهما اشتط دعاة تركه بلا رقيب فى وصفه، لا يستطيع التفلت من تلك القيود الاجتماعية وإلا لحقه ما يلحق الخارجين عليها من نقمة الجماعة أو ازدرائها، أو تعرضه لإعمال حكم القانون السائد فيها.

- ٢ -

ولكن الذى دعانى إلى الانشغال بقضية هذا المقال هو الضجة الثانية - فى ستة أشهر - التى أثارتها بعض مطبوعات وزارة الثقافة، فأدت بالوزير الفنان فاروق حسنى إلى إبعاد بعض زملائه الفنانين من إدارة أعمال كان معهودا بها إليهم فى أقسام تتولى نشر «الإبداعات» الأدبية باسم وزارة الثقافة.

وقد اتخذ الوزير الفنان فى أزمة هذا الشتاء (يناير ٢٠٠١) موقفا وصف بأنه يخالف موقفه من أزمة الصيف الماضى (مايو/ يونيو ٢٠٠٠) عندما كان الموضوع هو «وليمة الأعشاب» . ووصف المخالفون للوزير فى أزمته الحالية - وهم أنفسهم كانوا من أشد مؤيديه فى أزمته السابقة - موقفه الجديد بأوصاف تدل على الغضب من تصرفه والاختلاف البين مع آرائه الجديدة.

وبصرف النظر عن الدوافع والبواعث فى أزمتى الصيف والشتاء المتواليتين. فإن المثقفين المصريين - والعرب وغيرهم من المتابعين لحياتنا الثقافية - من حقهم أن يتبينوا «الحقيقة القانونية» التى ينشر فى ظلها على الناس ما تقدمه قرائح أهل الفن وأقلام صناع الأدب وأفكار المنسوبين إلى الإبداع، إذا أرادوا أن يكون المجتمع المصرى هو المخاطب بما يقولون أو يفعلون.

لقد قلت من قبل - ولا أزال عند هذا القول - «إننى مع الإبداع وحرية التعبير بأقصى ما يتيحه النظام العام الدينى والقانونى والأخلاقى للمبدع والمعبر . فإذا جاوز هذه الحدود كلها أو بعضها فكل امرئ بما كسب رهين» .

فمن أين جاءت هذه الحدود؟

جاءت هذه الحدود أولا من الدستور المصرى، وجاءت ثانيا من نصوص قوانين مختلفة تفرض حماية النظام العام والآداب فى كل عمل فنى أو أدبى مهما كان نوعه.

- ٣ -

فأما الدستور المصرى فهو يتضمن عددا من النصوص التى تحدد المقومات

الأساسية للمجتمع المصرى، وواجب الدولة هو حماية هذه المقومات من أى خرق لها أو عدوان عليها أو استهانة بها أو تحريض - سافر أو مستتر - على هدمها. فنص المادة الثانية من الدستور حين يقرر أن «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع» لا يبتدع شيئا جديدا غير معهود فى حياتنا الدستورية والثقافية. وإنما يكشف عن معنى استقر فى ضمير الجماعة الوطنية المصرية منذ انتظمت فى شكل دولة حديثة ذات دستور. فلم يخل دستور من دساتيرنا الوضعية التى حكمت البلاد على أساسها، وارتضاها الشعب - أو فرضت عليه فرضا - لتنظيم السلطات وممارستها صلاحياتها، من نص صريح على أن «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية». فأوردته المادة ١٤٩ من دستور ١٩٢٣ وأوردته المادة ١٣٨ من دستور سنة ١٩٣٠ الذى عاش خمس سنوات تقريبا عاد بعدها دستور ١٩٢٣، وبقى معمولا به إلى أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وأوردته بنصه نفسه المادة ٥ من دستور ١٩٦٤ وأوردته مع زيادة النص على مصدرية مبادئ الشريعة - ثم عدلت لتصفها بأنها المصدر الرئيسى - المادة الثانية من دستور ١٩٧١ المعمول به حتى اليوم.

«وعبر هذا النص بهذا المفاد مراحل تاريخية كاملة من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى ومن النظام الرئاسى إلى نظام مشترك، ومن نظم اجتماعية إلى نظم اجتماعية أخرى، وإن ثباته بنصه ومعناه رغم كل ذلك إنما يفيد أنه يكشف عن إقرار التشريع الوضعى للدولة الحديثة بأنه نص يقر حقيقة أكثر رسوخا وأدوم بقاء، وأوغل فى الدلالة على جوهر «النظام العام والآداب» بما لا يتغير بتغير الدساتير ونظم الحكم والنظم الاجتماعية.

والإسلام دين الغالبية من الشعب المصرى بحسبان أن الشعب هو الركن الركين للدولة التى ينظمها الدستور، ومن ثم تقوم خصائصه الثابتة فى الواقع بحسبانها من خصائص الدولة المعترف بها فى القانون، وقد نص دستور ١٩٧١ فى المادة (٥) على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع وبهذا يظهر أن الإسلام ومبادئه وقيمه إنما يتخلل النظام العام والآداب وهو كذلك مما تتضمنه المصالح العليا للدولة». (نقلا عن فتوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع فى مجلس الدولة رقم ١٢١ الصادرة فى ١٩٩٤/٢/١٠ المنشورة فى: «المختار من فتاوى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع فى ٥٠ عاما» ص ٧٣٨).

ولم يكتف الدستور بهذا النص الجامع لقيم الخير والفضيلة والحق كلها، إذ هى أجزاء من الإسلام لا تنفصل عنه، بل

أضاف إليه نصوصا أخرى، تتناول بالتفصيل اللائق بالدستور، بعض المقومات المصرية الجديرة بالعناية الدستورية. وألزم الأحزاب السياسية - وهى تنظيمات جماهيرية أهلية لا دخل للحكومة من حيث المبدأ بها - بأن تلتزم بالمقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المنصوص عليها فى الدستور.

فنصت المادة الخامسة منه (المعدلة باستفتاء ٢٢ مايو سنة ١٩٨٠) على أن النظام السياسي يقوم على أساس «تعدد الأحزاب وذلك فى إطار المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع المصرى المنصوص عليها فى الدستور». فإذا خالفت برامج الأحزاب أو سلوك أعضائها النصوص الدستورية الآمرة - التى يأتى ذكر أهمها - وقعت فى حومة مخالفة الدستور والقانون ووضعت نفسها تحت رحمة لجنة شئون الأحزاب ومحكمتها، فضلا عما يمكن تعريضها له من إعمال نصوص قانونية أخرى مدنية أو جنائية.

والمادة التاسعة من الدستور تنص على أن: «الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية».

وتحرص الدولة على الحفاظ على الطابع الأصيل للأسرة المصرية وما يتمثل فيه من قيم وتقاليد، مع تأكيد هذا الطابع وتنميته فى العلاقات داخل المجتمع المصرى.

والمادة الثانية عشرة من الدستور تنص على أن: «يلتزم المجتمع برعاية الأخلاق وحمايتها والتمكين للتقاليد المصرية الأصيلة، وعليه مراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية والقيم الخلقية والوطنية.. والآداب العامة.. وتلتزم الدولة باتباع هذه المبادئ والتمكين لها».

فكل عمل فكرى أو فنى، وكل نوع من أنواع الإبداع الفردى أو الجماعى يراد نشره وتوزيعه، أو يعد لعرضه فى مصر لا يجوز أن يخالف شيئا من نصوص الدستور سالفة الذكر، وإلا كان صاحبه ومن قام بنشره أو عرضه مستهينين بالقانون الوضعى الأسمى فى البلاد، غير ملقين بالا لما يعبر عنه من مكنون ضمير هذا الشعب العريق وما يقبله أفراده أو لا يقبلونه من صور التعبير وأشكاله وقوالبه.

فإذا منعت الجهات المعنية فى الدولة مثل هذه الأعمال التى تهزأ بالدين أو تحرف بعض الكلم عن مواضعه أو تعبث بمضمون بعض قيمه، أو تتناول المسائل التى يعد تناولها ماساً بالأخلاق والقيم النبيلة التى يفرض الدستور احترامها وحمايتها، فإن صنيعها، بهذا المنع يكون أداء لواجبها فى احترام الدستور وإعمال نصوصه الواجبة الأعمال.

ولا ينال من صحة هذا التحليل وسداد منطقه، أن نصوص المواد ٤٧ و٤٨ و٤٩ من الدستور تكفل حرية الرأى والتعبير والنشر بالقول والكتابة والتصوير، وحرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام

وحرية البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني والثقافي ... لأن ذلك كله مكفول «في حدود القانون» بتعبير المادة (٤٧) ووفقا للقانون في تعبير المادة (٤٨) من الدستور.

— ٤ —

والقانون المصري يتضمن نصا صريحا على «العلة» القانونية التي من أجلها أجيزت في بعض الأحوال الرقابة على المصنفات السمعية البصرية والأشرطة السينمائية والأغاني والمسرحيات والمونولوجات وأشرطة التسجيل الصوتي وغيرها من وسائل نشر الانتاج الفني. هذه العلة هي «قصد حماية النظام العام والآداب ومصالح الدولة العليا». (المادة الأولى من القانون رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥ ونصها الحالي بديل عن نصها الأصلي، تقرر بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢).

وهذه الحماية الواجبة للنظام العام والآداب ومصالح الدولة العليا لا تقتصر على وسائل النشر والعرض المشار إليها في القانون رقم ٤٣٠ لسنة ١٩٥٥ وإنما تمتد - قطعا - إلى سائر الصور التي يتشكل بها إبداع المبدعين وفن الفنانين وأدب الأدباء. لأنه لا يعقل أن تكون «مصالح الدولة العليا والنظام العام والآداب» جديرة بالحماية بالنسبة إلى بعض الأعمال الإبداعية دون بعض، ولا بعض أنواع الوسائل التي تعرض بها هذه الأعمال على الناس دون بعض. وإنما المعقول المحقق - فعلا - لمصلحة الدولة العليا أن تكون هذه العلة مرعية في كل عمل وفي كل وسيلة ينشر بها هذا العمل على الناس أو يعرض بها عليهم.

وإذا كان الدستور ينص صراحة على وجوب حماية القيم الخلقية والتقاليد المرعية للمصريين، فإن الجمعية العمومية لقسمي الفتوى والتشريع قد انتهت في قرارها السالف ذكره إلى أن الشأن الإسلامي يتخلل حماية النظام والآداب وتتضمنه المصالح العليا للدولة، أي أنه جزء منها ومكون من مكوناتها وعنصر من عناصرها.

فإذا تركنا القوانين المتخصصة في تنظيم تعامل الدولة - بحكم مسئوليتها الدستورية - مع الإبداع بصوره كافة وأشكالها المختلفة، فإننا نجد قانون العقوبات - والشأن في نصوصه فرض عقوبة لحماية المصالح التي يراها الشارع جديرة بأن تصان من العبث والعدوان - نجد هذا القانون يعاقب على استغلال الدين بأية وسيلة بقصد إثارة فتنة أو ازدراء أحد الأديان السماوية أو الطوائف المنتمية إليها أو الإضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي (المادة ٩٨ (و) من قانون العقوبات).

ويعاقب على كل تعد على أحد الأديان التي تؤدى شعائرها علنا يقع بالقول أو الصياح العلنيين أو الكتابة أو الرسوم أو

الصور الشمسية أو الرموز أو غير ذلك من الطرق بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسمائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين (المواد ١٦٠ و١٦١ و١٧١ من قانون العقوبات).

— ٥ —

فالمطالع لنصوص الدستور المصرى، والمطلع على مجمل النظام القانونى المصرى، لا يملك أن يقول إن العمل الأدبى أو الفنى الذى يقع فى حومة الهزء بالأديان، أو العبث بمقدساتها أو الاستهانة بالحرمات الأخلاقية أو بالضوابط التى تحكم – شرعا وقانونا – العلاقات الفردية والجماعية، يعتبر عملا مشروعا فى ظل النظام القانونى المصرى، بل هو عمل غير مشروع قطعا لمصادمته مجموع النصوص القانونية سالفة البيان أو مخالفته لبعضها فى أقل تقدير.

ولا يستقيم الاعتراض – الذى يثيره أنصار الابداع بلا حدود ولا قيود – بأن تراثنا الأدبى ملئ بما لا يقل عما تعترض عليه الأجهزة المعنية فى الدولة – كاعتراض وزارة الثقافة أو الأزهر الشريف – وينتقده قطاع لا يستهان به من المثقفين بتياراتهم كافة.

لأن معنى هذا الاعتراض أن نوافق على إنفاق الأموال الحكومية – مهما تكن قيمتها المادية – على أعمال توصف بأنها أدب أو إبداع، وهى فى حقيقتها تحتقر المقدسات أو تشجع على احتقارها، وتستهين بالمحرمات أو تشيع – بالوصف والقول – الفواحش والمنكرات وتكسر بذلك كله الحواجز الخلقية فى نفوس الشباب بحيث يغدو المعروف منكرا والمنكر معروفا. وليس ثمة أخطر على المجتمع وقواه من هذه الآثار المدمرة وحين كانت الكتب الموروثة والأشعار المحفوظة التى يشيرون إليها تكتب وتنسخ لم يكن ذلك يتم على نفقة الدولة وتحت رعايتها، ولم تكن الدولة بوصفها الحديث ونظمها العصرية قد تكونت أصلا، ولم يكن تدخلها فى الحقير والخطير من شئون الناس قائما ولا جائزا على نحو ما هو واقع الآن بصرف النظر عن قبوله أو الاعتراض عليه.

— ٦ —

لذلك كله فإننى أنتهى إلى أن الإبداع بكل صوره ومضامينه لا يجوز أن يغفل عما توجبه الأحكام الدستورية، أو النصوص القانونية، أو يتضمنه النظام العام من عناصر أو تلتزمه القيم السائدة فى المجتمع التى تمثل تقاليده وأعرافه.

والذين لا يقبلون هذا التحليل مدعوون إلى العمل على تغيير القوانين القائمة والدستور الذى يعلوها جميعا، ومدعوون قبل ذلك إلى تغيير أذواق الناس وأعرافهم وما يقبلونه أو يرفضونه إذعانا لعقائدهم.. وعند ذلك فقط – إذا افترضنا جدلا إمكان حدوثه – سوف يمكن لأنواع «الإبداع» الطليق من قيود الدين والأخلاق والعرف والعادات أن يكون مقبولا!!

أحد الانفجارات العلمية:

خط التقسيم الرقمى

بقلم

د. أحمد محمد صالح

عندما بزغ عام ١٩٨٩ ، كان مثل أى عام آخر ، لكنه شهد تطورين رئيسيين لهما مغزى تاريخي كبير . أحدهما كان مرئيا جداً ، وعلى نطاق واسع من الشهرة بدرجة كبيرة ، وكان على المستوى الرمزى هو تفكيك حائط برلين ، وعلى مستوى المعنى انتشار الديمقراطية الانتخابية خلال العالم الشيوعى السابق . والتطور الآخر كان أقل إدراكا وشهرة بوجه عام ، وعرف فى هذا الوقت ، بين القليل من نخبة التقنيين والعلميين ، وهو بداية اختراع شبكة الويب WWW ، التى توفر صفحات جرافيكية من المعلومات ، وكانت بمثابة الحجر الذى سقط فى بركة صافية ،وبسرعة سيطرت الويب على الإنترنت تماما عام ١٩٩٧ ، وأصبحت تتدفق من كل جانب ، وهى رمز للعالم الرقمى الذى نعيش فيه من ولاعات رقمية ، والآلات وكومبيوترات صغيرة ، وهواتف محمولة ، وشرائح الإلكترونية فى كل مكان من التوستر إلى محركات الأقراص ، من السيارات إلى الأنسر ماشين .



فنحن نعيش فى عالم رقمى ، فكل الأجهزة التى نعيش عليها تعتمد على ما يسمى الأنظمة المدمجة Embedded Systeme وهى دوائر إليكترونية متناهية الصغر تسمى ميكروشيبس Micro-chipsوهى مخ أى جهاز ،عبارة عن برامج عمل مركزه وظيفتها التحكم ومراقبة الأجهزة التى نعيش عليها ، فهى ترسل المعلومات مجزأة على هيئة نبضات إليكترونية قصيرة ،والعكس فى عملية الاسترجاع،والنبضة الاليكترونية هى إشارات رقمية تستخدم الواحد والصفر فى التعبير عن هذه القيم . وإنتاج هذه الرقائق يتم عبر عمليات انتاجية كبيرة وواسعة ، ومنتجوها يختلفون عن منتجى الكمبيوتر وبرامجه ، وهى لا تستعمل فقط فى الكمبيوتر كما قلنا كعنصر مدمج للنظام ، بل تشمل تقريبا جميع الأجهزة التى نستعين بها فى حياتنا اليومية ، وتمثل العالم الرقمى digital الجديد الذى نعيش فيه فهى ضمن أجهزة الاتصالات ، وأجهزة العلاج ، وأجهزة مراقبة البيئة ، وأجهزة التسخين والتبريد والتهوية ، والأجهزة الطبية والصناعية ، وأنظمة الجيش والدفاع الجوى والخدمات ،وهى داخلة أيضا فى صناعة المصاعد وإشارات المرور والسيارات والفيديو كاسيت وأجهزة التسجيل والميكروويف ، والبنوك ، ومحطات الصرف والمياه ، وأجهزة المستشفيات ، بطاقات الأئتمان ، محطات الغاز الطبيعى ، التليفونات ، نظم الإنذار والحريق ، أجهزة التحكم فى المصانع، نظم النقل والمواصلات ، كل شىء تقريبا ، فهى تدخل فى مئات المليارات من الأجهزة اليومية التى يعتمد عليها البشر. والحقيقة المخيفة للغاية هنا أن كل هذه الرقائق الالكترونية حساسة جدا وأيضا مدركة وواعية للوقت والتاريخ ، ويقدر عددها بـ ٢٥ بليون شريحة اليكترونية مندمجة فى النظم الإليكترونية المنتشرة فى العالم كله، وتمثل العالم الرقمى لحياتنا اليومية .

التعليم فى مجتمع المعلومات

وعندما أنفجرت الإنترنت وسيطرت ، وأصبحت المعرفة هى القوة والسلطة الحقيقية، ونشأت طبقة جديدة من الذين يعرفون ، ظهرت دعاوى تنادى بأن التعليم أصبح هو الملكية التى يجب أن يعاد توزيعها بالتساوى لتحقيق المساواة فى المجتمع ليصبح كل فرد حسب معرفته وليس حسب حاجاته أو عمله. فالتعليم فى مجتمع المعلومات هو الملكية التى كان يتوقع أن يعاد توزيعها بالتساوى كما كانت الملكية المادية فى عهد ماركس ، لأن المساواة فى التعليم والثقافة أكثر عدلا ، فتعليم الجاهل لن ينقص نصيب الآخرين ،فالتعليم لايمكن أن تأخذه من شخص لإعادة توزيعه على الآخرين، لذلك كثرت التخمينات والتوقعات حول تأثيرات الإنترنت الشديدة والبعيدة المدى على الاقتصاد ، والمجتمع والسياسة. وكانت هناك آمال كبيرة تتوقع أن تكون الإنترنت قوة جديدة قوية تتمكن من تحويل وتغيير الكثير من الأنماط الحالية للتفاوت

أحد الانفجارات العلمية

الاجتماعي ، وتقوى حلقات الاتصال بين المواطنين وممثليهم في البرلمان ، وتسهل أشكالا جديدة من الممارسات والاتصالات العامة ، وتوسع فرصا لنمو مجتمع مدني عالمي قادر وفعال، وطرحت تساؤلات كثيرة عن إمكانية تغيير الإنترنت فعلا للأشكال التقليدية للديمقراطية ؟! أو أنها سوف تدعم فقط الفجوة التكنولوجية بين الأغنياء والفقراء ؟! وهل سوف يكون للإنترنت نفس التأثير الإيجابي على الدول النامية ، أم سيقتصر هذا التأثير على الدول المتقدمة التي تملك اقتصاديات ما بعد الصناعة ؟! هل سوف تستعمل الأحزاب وجماعات المصالح والحكومات الإنترنت لتشجيع وتنمية المشاركة التفاعلية الشعبية الفعالة ؟! أم ستكون الإنترنت شكلا آخر من أشكال الاتصال بين النخبة والقاعدة ؟! كل هذه الأسئلة وغيرها يحاول العالم أن يناقشها الآن ، وهي موضع اهتمام علماء الاجتماع والسياسة .

لقد وصلت الإنترنت إلى ذروتها التاريخية الآن ، وقد هزت بعنف الطريقة التي نستلم ونتلقى بها المعلومات ، وأيضا الطريقة التي نعمل بها خاصة في التجارة. . إن الإنترنت أحدثت أيضا عالما جديدا مفعما بالأسواق الإلكترونية والديمقراطية الفورية . لكننا في عالم غير متساو ، فأكثر من ٨٠٪ من سكان العالم ليس فقط لايملكون تليفونات ، بل إنهم لم يسمعوا أبدا في حياتهم حرارة التليفون ، ناهيك عن التزحلق عبر موجات الويب WWW، وتبادل الرسائل والمعلومات عبر البريد الإليكتروني ، وأصبح هناك خط رقمي يقسم العالم ، ويطلقون عليه «خط التقسيم الرقمي the digital divide» الذي يفصل بين الذين يملكون المعلومات ، وبين الذين لا يملكون ، وهذا الخط يمثل الفجوة الرقمية ، التي أخذت في الاتساع بشكل متزايد . وهو يترجم سياسة تفرقة عنصرية كلاسيكية أو يعكس نوعا من «العزل التكنولوجي» أو كما يقول الرئيس الأمريكي السابق كلينتون : إن خط التقسيم الرقمي هو الفجوة المزعومة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات ، سواء كان ذلك بين الدول على مستوى العالم ، أو داخل الدولة الواحدة .

مصطلح شعبي

والمصطلح خط التقسيم الرقمي، منتشر جداً في الغرب ، بل أصبح مصطلحا شعبيا في الولايات المتحدة الأمريكية ، ودخل الخطب والتصريحات الرسمية .وفي ٢٦ أكتوبر عام ٢٠٠٠ صدر عن



جامعة هارفارد كتاب مهم تحت عنوان التقسيم الرقمى : الالتزامات المدنية وفقر المعلومات والإنترنت فى المجتمعات الديمقراطية ،نعرف منه أن خط التقسيم الرقمى يفهم كظاهرة متعددة الأبعاد ويشمل ثلاثة أبعاد متميزة : الأول هو التقسيم العالمى global divide ويعكس التباينات والتفاوتات بين الدول الصناعية المتقدمة ، والدول النامية ، البعد الثانى هو التقسيم الاجتماعى social divide وهو متعلق بالفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات فى الدولة الواحدة ، وأخيرا البعد الثالث هو التقسيم الديمقراطى democratic divide وهو يعنى الفرق بين الذين يفعلون ، والذين لا يفعلون ،والذين يفعلون هم الذين يستعملون أدوات التكنولوجيا الرقمية للمشاركة فى الحياة العامة ، أو بمعنى أدق يشاركون فى المجتمع المدنى من خلال الوسائل الرقمية .ولن تتسع هذه العجالة لاستكشاف الأبعاد الثلاثة لمصطلح خط التقسيم الرقمى ، ولكننا سنحاول هنا إعطاء صورة عامة لتداعيات ذلك المصطلح تمهيدا لاستكمال أبعاده الثلاثة فى مقالات قادمة .

وكان كوفى عنان سكرتير عام الأمم المتحدة فى جنيف بسويسرا عام ١٩٩٩ ، قد حذر من خطر استبعاد الفقراء من ثورة المعلومات ، وقال : إن الناس فى العالم يعانون ويحتاجون إلى أشياء كثيرة ، منها فرص العمل ، المأوى ، الطعام والرعاية الصحية والماء الصالح للشرب . ولكن اليوم يعتبر عدم توافر خدمات الاتصالات السلكية واللاسلكية الأساسية ، يمثل صعوبة كبيرة ونوعا شديدا من الحرمان قد يكون أصعب من المشاكل الأخرى ، وقد يقلل فرص علاجها ومواجهتها . وحرصت أيضا محطة الـ BBC أن تقدم تقريرا خاصا فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٩ تحت عنوان «عبور خط التقسيم الرقمى Bridging the digital divide» تتقصى فيه الفجوة النامية بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات : ماهو حجم تلك الفجوة ؟ لماذا الصعوبة فى سد تلك الفجوة ؟ وكيف يمكن للأفراد والمجتمعات حول الكرة الأرضية أن تعبر خط التقسيم الرقمى للعالم !؟ فالإنترنت من مانهاتن ومدريد قد غيرت أساسا طريقة الحياة فى العمل والترفيه، حتى شكل الحب تغير ، لكن فى مالاوى وموزمبيق ، بقيت الحياة كما هى ، فالحقيقة الدامغة أن أقل من ٢٪ فقط من سكان العالم ، على اتصال حقيقى بالإنترنت .والأرقام والإحصائيات التى يعتمد عليها خط التقسيم الرقمى، وتمثل مؤشرا جوهريا للبنية الاتصالية فى الدول هى خطوط التليفون . فطبقا لتقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة ١٩٩٩ يتبين ، أن الدول الصناعية المتقدمة تمثل ١٥٪ فقط من سكان العالم ،وفيها حوالى ٨٨٪ من مجموع مستعملى الإنترنت ، ودول جنوب آسيا والتى تمثل خمس سكان العالم ، فيها أقل من ١٪ من مجموع مستعملى الإنترنت .

الموقف أسوأ حتى فى افريقيا ، فعدد

أحد الانفجارات العلمية

سكانها ٧٣٩ مليون نسمة ،وهناك فقط ١٤ مليون خط تليفون. وهذا العدد أقل كثيرا بما هو موجود فى مدينة مثل مانهاتن أو طوكيو ، و٨٠٪ من تلك الخطوط فى ستة بلاد فقط ،وهناك فقط مليون مستخدم للانترنت فى كل القارة مقابل بـ ٥ ١٠ مليون فى المملكة المتحدة ، وتكلفة وصول الإنترنت فى شهر واحد حوالى ٢٠ دولاراً فى أمريكا الشمالية ، مقابل ١٠٠ دولار فى أفريقيا. لذلك يجب آن يعترف العالم بأن توظيف الإنترنت للوصول إلى المعرفة غير متاح بقدر متساو للجميع ، فالفقراء تتاح لهم فرص ضئيلة للغاية فى الدخول إلى الإنترنت ، وذلك لسنوات عديدة قادمة ، ورغم ذلك تنمو الإنترنت وتنتشر بسرعة متزايدة ، وتنمو معها أيضا الفجوة الرقمية .

شبكة الإنترنت

وقد حاز موضوع شبكة الانترنت وتأثيرها على علاقة الدول الصناعية بالدول النامية على اهتمام المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس ، الذى عقد دورته الأخيرة فى الأسبوع الأخير من يناير ٢٠٠١ ، وقد تراجع فى هذا المنتدى الإفراط فى التفاؤل الذى صاحب نشوء الإنترنت ، حيث اعتبره البعض بأنه سيحقق للدول النامية قفزة هائلة يجعلها فى مصاف الدول المتطورة ، وأنه سيعادل الفروق بينهما ، ويشير تقرير وزع فى منتدى دافوس الأخير ، إلى أن رجال الأعمال الكبار أصبحوا يخشون من قيام الإنترنت بتوسيع الهوة بين الدول الصناعية المتطورة والدول الفقيرة بدلا من ردمها ، وعبر مدير إحدى الشركات الأمريكية عن دهشته لهذه النتيجة وقال إن التكنولوجيا الحديثة فى الماضى كانت دوما تساعد على محو الفروق بين الطبقات الاجتماعية . ويعلق المحللون على هذا الموضوع قائلين إنه ليس بهذه البساطة، فهناك قبل كل شىء مسألة صعوبة الحصول على هذه التكنولوجيا فى العالم الثالث . وقال بيتر آرمسترونغ من شركة خدمات وانوورلد نيت ،التى تحتوى على ٧٠٠ ألف منظمة غير حكومية أن الإنترنت يخلق فجوة فى المعلومات للذين تتوفر لديهم المؤهلات الفنية ووسائل الاتصال لاستعمال الشبكة والآخرين الذين لا يملكون ذلك، ولكن غالبا ما يعطى الازدهار الذى حصل فى عالم الكمبيوتر فى الهند كمثال على كيفية الاستفادة من

الإنترنت فى دول العالم الثالث ، وقد قام فى الهند عدد من رجال الأعمال الكبار عند عودتهم من سيليكون فالى فى كاليفورنيا ، وهى منطقة التقنية العالية فى الولايات المتحدة ، بجمع الرأسمال اللازم لشركات الإنترنت الهندية، ولكن ما حصل فى الهند فى هذا المجال لم يمس إلا شريحة بسيطة من مجموع سكان الهند.وتحاول المنظمات المالية الكبرى ، مثل البنك الدولى والأمم المتحدة ربط العالم النامى بالتكنولوجيا فعلى سبيل المثال ، أنشأ برنامج الأمم المتحدة للتنمية مراكز تعليمية فى صحراء جوبى فى منغوليا حيث يستطيع السكان المحليون الربط بالإنترنت ودراسة علوم الكمبيوتر، وتنفق هذه المنظمات الأموال أيضا على الطلاب فى دول العالم الثالث لتسهيل حصولهم على تكنولوجيا المعلومات ومن أجل مساواة الطالب بقرينه فى الغرب ، وقال أحد الخبراء فى إجتماع دافوس إنه يمكن عكس ذلك فبدلا من أن تخلق الشبكة توترا بين الفقراء والأغنياء يمكن أن تستخدم للتثقيف عوضا عن ذلك ، ويجمع الكل أن تكنولوجيا الإنترنت لاتزال فى بدايتها.حيث يقدر مدير شركة نوفيل أنها قد حققت خمسة فى المئة فقط من الإمكانيات الكامنة فيها ، ويبقى السؤال المطروح هو :هل سيفى الإنترنت بوعوده بخلق عالم خال من الفروق المعلوماتية؟!

وحتى لو توفرت نظم اتصالات سلكية ولاسلكية فى المكان المناسب ، فمعظم العالم فقير حتى الآن ، وسوف يستبعد من ثورة المعلومات بسبب الأمية ونقص المهارات الأساسية فى التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت . فى بنين على سبيل المثال، أكثر من ٦٠٪ من السكان أميون ،والـ٤٠٪ الآخرون سيئو الحظ فعلا فهم لا يعرفون الانجليزية ،التى تتكلم بها أربعة أخماس مواقع الإنترنت ، فهى اللغة التى يفهمها واحد من بين كل عشرة أشخاص على كوكب الأرض .ولا يمكن اتهام نقص الموارد فى المجتمعات الفقيرة بأنه السبب الوحيد فى الفجوة التكنولوچية ، فهناك أيضا المقاومة الشديدة للأفكار الجديدة وخاصة التكنولوجية منها فى العالم النامى.

التكنولوجيا للصفوة فقط !

خذ مثلا الجامعة الافتراضية الإفريقية ، وهى جامعة قائمة على تكنولوجيات الواقع التخيلى ، تكفل بها البنك الدولى ،ورعى برامجها فى دول جنوب صحارى افريقيا ، وبثت تلك الجامعة أكثر من ٢٠٠٠ ساعة من التعليم المصحوب بالإيضاحات من خلال تكنولوجيات الملتيميديا ، إلى مايزيد على ٩٠٠٠ طالب جميعا فى تلك الدول . وقد سمحت تلك المبادرة لطلبة هذه الجامعة أن يأخذوا المناهج من أساتذة فى مؤسسات تعليمية مشهورة وعالمية فى إفريقيا وأمريكا الشمالية وأوربا .والذى لايبهر ولا يثير الدهشة ظهور مقاومة لتلك الجامعة الجديدة، خلطت بين قضية حتمية توظيف تكنولوجيبات المعلومات لحل مشاكل المجتمع ، وبين قضية أولويات احتياجات المجتمع ، فارتفعت أصوات تعارض وجود

أحد الانفجارات العلمية

تلك الجامعة ،وتعارض إنفاق كل هذه الأموال ،التى لا تستطيع فى النهاية أن تستخدم عددا كافيا من المحاضرين ، وطالبت تلك الأصوات البنك الدولى بانه إذا كان حريصا فعلا على مساعدة الجامعات الافريقية ، عليه أن يشجع ويدعم الوسائل الكفيلة برجوع الكفاءات الإفريقية المهاجرة فى أوروبا وأمريكا ، إلى أوطانها فى أفريقيا ، ففى النهاية لن يحل مشاكل أفريقيا غير الأفريقيين ، وشكى آخرون أن التعليم التكنولوجى العالى ، متاح فقط لصفوة مختارة ، ويعتبر غير مفيد ، طالما أن هناك أماكن كثيرة فى القارة حتى الآن بدون الكهرباء وماء للشرب ، وأن هناك أولويات مثل النظافة والصحة وماء الشرب الآمن ، لذلك يوجد الآن جدل عالمى مثار حول أولوية الإحتياجات ، فأيهما أولى فى الأهمية وصول الإنترنت إلى مناطق تعانى من نقص البنية التحتية الإنسانية ، حيث لاتوجد مياه صالحة للشرب أو خدمة تليفونية ، ورعاية صحية وتعليمية ، وهذا يذكرنا بدخول الإنترنت بعض مدارسنا ، وهى تفتقد تماما دورات المياه ، وملاعب ، وفصولا جيدة لتخفيف كثافة التلاميذ ،وتعانى من نقص فى المدرسين ، ومهددة بسقوط مبانيها .

وعلى مستوى الفجوة الرقمية داخل الدولة الواحدة ، تسعى الدول المتقدمة ، بكل الطرق الى مساعدة فقراء المعلومات فيها ، بتوصيل خدمة الوصول للمعلومات بتكلفة منخفضة، فتتنافس الشركات والهيئات فى بريطانيا فى الاعلان عن تخفيضات هائلة فى تكلفة تقديم خدمة الإنترنت لدرجة أن بعض تلك الشركات ، قدمتها مجانا ، وأندلعت فى بريطانيا حرب ضارية بين شركات تقديم خدمات الإنترنت ، وتأتى هذه التطورات الجديدة فى عالم الإنترنت متزامنة مع تعهد رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير بأن كل مواطن بريطانى يجب أن يتمتع بحق استخدام الإنترنت بدون عقبات خلال خمس سنوات ، وسيستفيد من هذه الخدمة أى شخص لديه كمبيوتر وخط هاتفى ، وقد اجتمع رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير مع رجال الأعمال وزعماء النقابات ، وأمتدح هذه الخطوة فى كلمته باعتبارها ستساعد فى جعل الإنترنت وسيلة جماهيرية . وفى أوائل العام الماضى عام ٢٠٠٠ ، كشف كلينتون عن الخطط لإعطاء كمبيوترات مجانية للأمريكيين

الفقراء . ونادى بمجموعة من الإجراءات لسد الفجوة الرقمية بين أغنياء وفقراء المعلومات داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . لدرجة أن باحثا مثل آدم ثايرير Adam Thierr دعا الأمريكان بالأحتفال اليوم بالأكازيون الرقمى المتمثل فى التخفيضات الكبيرة فى أسعار الكمبيوترات وبرامجها ومستلزماتها، وأسعار الدخول على الإنترنت التى تنخفض يوما بعد يوم بسرعة كبيرة . كما دعت المجالس المحلية الأمريكية الرئيسية إلى التبرع بتكنولوجيا الكمبيوتر إلى الفقراء الرقميين . وبدأت شركات خطوط الطيران الأمريكية بتوزيع أجهزة كومبيوتر مجاني للعاملين فيها ، وشركات السيارات أيضا أعلنت فى فبراير ٢٠٠٠ بتوزيع أجهزة كمبيوتر مجاني ومسلتزماتها من طابعة وغيرها ،واشتراكات مخفضة جداً فى الإنترنت إلي موظفيها ، هذا غير التبرعات من الشركات الكبيرة بالملايين ،والتبرع بالكمبيوترات المستعملة للمدارس ومراكز التدريب . هذا مايحدث فى الدول المتقدمة جداً فى تكنولوجيات المعلومات ! وفى مصر بدأ اهتمام واسع بنشر تكنولوجيات المعلومات ، وبدأت إحدى الشركات تعلن عن توفير فرص للدخول إلى الإنترنت مجانا فى المستقبل القريب ، لكننا نذكر رجال الأعمال والشركات الكبيرة فى مصر بأنهم يمكن أن يساهموا بالكثير لسد الفجوة الرقمية الكبيرة جدا فى مصر ، فحوالى ٩٪ فقط من السكان لديهم خط تليفون ، و٤٪ فقط لديهم تليفون محمول ، وعدد مستخدمى الإنترنت فى مصر حوالي الـ ٥٠٠ ألف مستخدم ،وهو رقم ضئيل إذا قورن بأرقام الدول المتقدمة التى ذكرت فى متن المقال ، ويعتبر رقما متواضعا جدا حتى بين الدول العربية إذا نسب لعدد السكان ، فحوالى ٠.٨٪ (ثمانية أجزاء من الواحد الصحيح) فقط من السكان يستخدمون الإنترنت ، ناهيك عن أمية أبجدية الكمبيوتر والإنترنت التى تسود بين الغالبية العظمى وأمية المتعلمين الثقافية إلى الأمية الهجائية فى مهارات القراءة والكتابة المنتشرة بين أكثر من نصف المصريين ،فتتبلور مشكلتنا على هرمية الأولويات فى الجهل المركب بمعناه الواسع ، فالجهود المبذولة فى سد الفجوة الرقمية فى مصر لا تتناسب مع الأهداف التى يجب أن نسعى لتحقيقها . فسد الفجوة الرقمية فى مجتمعنا يتطلب شروطا سياسية واجتماعية وثقافية أعمق من مجرد استيراد أحدث الأجهزة وتعليم الناس كيفية الضغط على أزرارها الأنيقة، فالتحديات التى يطرحها عصر المعلومات يجب أن تؤدى إلى مراجعة شاملة لنظم التعليم فى مجتمعنا ، فالمعرفة فى حد ذاتها لم تعد هدفا بل الأهم من تحصيلها هو القدرة على الوصول إلى مصادرها الأصلية ، واستمرارية الاستفادة منها لأحتياجات تنمية المجتمع وتوظيفها فى حل مشاكله . ■

قصة قصيرة

الوحدات

قصة: محمد جبريل

رسوم: سميحة حسنين

ماكدت أفتح الباب الزجاجي، حتى لطمني هواء ثلجي. أغلقت الباب، وانسحبت إلى الداخل..

كنت قد أعددت نفسي لمغادرة الفندق فوق الجبل، والنزول إلى عمان. التمشي في الشوارع المنحدرة، ومشاهدة الدكاكين والأبنية التي تغيب ملامحها في أسفل..

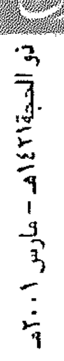
أعدت النظر إلى المدينة من وراء الباب الزجاجي. بدت المرئيات ضبابية بتكثف البرودة على الزجاج، بينما الجو - ربما من المكيفات - مقبول في الداخل. الجبال قمم فسيحة، تتسلقها البيوت الصغيرة. تكومت، فلا تبين الشوارع المؤدية إليها. تكتسي بغلالة من البرد الثلجي. تشف الغلالة، حتى تغيب في الطرق والميادين والبنايات..

لزمت الفندق في أثناء الليل، النجفة الهائلة تدلت من وسط السقف، عكس تداخل زجاجها الملون أضواء وظلالاً تشابكت وتقاطعت على الأرض والجدران. الأضواء الخافتة، غير المرئية، تسبح في أركان البهو الواسع. الجدران كسيت بالخشب المطلي، وزينت بحواف بلون الذهب. وثمة مواضع زينت بالرسومات والزخارف الجصية ونقوش الخزف ومعلقات السجاد والنسجيات. الأرضية من الرخام الأسود، تتخلله تشابكات من الخيوط البيضاء، تتباعد في أرجاء البهو طاولات صغيرة من الأبنوس والصدف. وتتناهى موسيقا خافتة من موضع لا أتبينه. ثم صعدت إلى حجرتي المطلة على جبل عمان، أتأمل - من وراء النافذة الزجاجية المغلقة، تناثر الأضواء في مساحات الظلمة.

***

ساحة الباصات ..

حدد لي الموعد من التاسعة إلى العاشرة صباحاً. البرد أقل قسوة من أعلى الجبل. لمحته وهو يتفحصني، كأنه يفتش عما لم أتبينه. ضم





أصابعه على ياقة السويتر القطنى، يتقى البرد. خمنت أن مرحه الظاهر غلالة تخفى وراءها حزناً يحاول كتمه. بدا مسكيناً بقامته الضئيلة، وشعره المهوش، ووجهه الطويل، النحيل، وعينيه القلقتين، والشعيرات الخشنة النابتة فى ذقنه.

الشاحنات المبردة تفتح أبوابها. العمال ينقلون إليها الفاكهة فى صناديق خشبية أو كرتونية، وهدير المحركات يختلط بالنداءات والصيحات وعبارات البيع والشراء والفصال وتلاغط الإذاعات. والسماء ملبدة بغيوم تشى بقرب سقوط المطر.

قال:

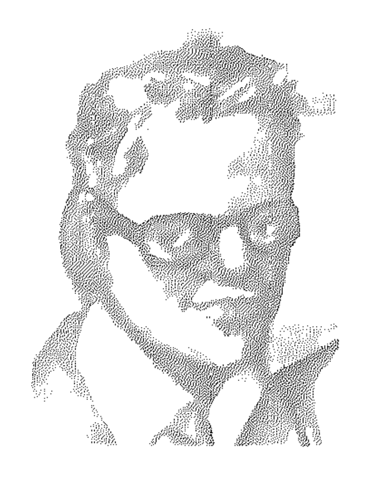
- هذه الشاحنات تنقل الخضر والفاكهة إلى دول الخليج.

ثم وهو يحاول التغلب على البرد بالنفخ فى يديه، وفركهما:

- فكرت فى أن أستقل واحدة إلى خارج الحدود.

قلت فى دهشة:

- لن تظفر بغير اكتشاف موقفك.



تنهد:

- يا ريت !..

- ستعيدك مصر على أول طائرة..

وهززت رأسى:

- دوخينى يا لمونة..

***

تعرجت الشوارع، وصعدت، وهبطت، بدا المشهد - فى الشوارع التى تتخلل البيوت - مختلفاً عن الذى رأيته فى وقفتى خلف نافذة الفندق. التقطت عيناى أسماء الشوارع والأبنية: شارع مأدبا.. شارع الملك طلال.. شارع السلط.. شارع بارطو.. مستشفى لوريلا.. شرطة البادية.. مستشفى الهلال.

لاحظ تأملى لسور تبين من ورائه شواهد:

- هذا سور المقبرة الإسلامية.

سرنا فى الشوارع المتجهة إلى أسفل. تناثر البرد الثلجى فى تكوينات على اتساع المدى. أهملت نظراته المتلفتة، ووضع جانب راحته على وجهه كأنه يخفيه..

أشرت إلى المبنى المتعدد الطوابق، يحتل ناصية شارعين، اجتذبتنى الواجهة بتصميمها وألوانها ونوافذها المغلقة، المسدلة الستائر.

- فندق ؟

وهو يتلفت - بتلقائية - حوله:

- إنه مبنى المخابرات..

وقرب يده من فمه، وراح ينفخ فى أصابعه المضمومة:

- قيل لى إن من يريد السفر إلى الخارج لابد أن يمر عليه أولاً..

الهدوء فى صوته وتصرفاته لا يشى بأن الطرق مسدودة. ذلك ما بدا لى. ظللت صامتاً، وإن أومأت إليه لكى يواصل كلامه:

- المشكلة أنه لا يمكننى الإقامة فى عمان.. ولا أستطيع العودة إلى القاهرة.

وأخذه انفعال:

- فكرت مرة أن أركب سيارة أقتحم بها الحدود إلى فلسطين..

إن قتلت فسأقتل فى وطن .. وطنى.

زاد فى تألمى أنى أيدت فكرة السفر إلى الأردن. حين تردد فى الموافقة ، نصحت بالسفر، يحقق عائداً يعود به ليبدأ مشروعاً يخصه، ويستقر.

- لم أكن أعرف أنى إذا لم أعد قبل انتهاء مدة الوثيقة .. لن أستطيع العودة.

- لماذا لا تحصل على وثيقة سفر أردنية؟..

- حاولت .. رفضوا ..

- لماذا؟..

خنق الانفعال صوته:

- رفضوا..

- لو أنك جددت الإقامة فى موعدها؟..

رفع عينيه فى تثاقل:

- رفضت الشركة هنا سفرى. ظل الرفض معلقاً حتى انتهى موعد التجديد. لما طلبت الشركة وثيقة إقامة مصرية مجددة ، كان كل شىء قد انتهى.

لأنه يكبرنى بعامين، فقد لعبنا فى الشارع، ودخلنا المدرسة نفسها. واصلت دراستى فى الجامعة، بينما عمل عند ميكانيكى سيارات فى الشارع الخلفى، ظلت صداقتنا على حالها . يهمنى أن أراه. نتسكع فى الشوارع، نجلس فى البيت، أو فى المقهى. نشاهد مباريات كرة القدم. نتردد على السينما . لم أفطن إلى مشكلة وثيقة الإقامة إلا عندما لحتها على الكومودينو ، ونحن نلعب الكوتشينة على طرف السرير.

- بطاقتى تختلف.

- هذه ليست بطاقة.. إنها وثيقة إقامة.

- لماذا ؟..

- لأنى فلسطينى .. أنت تحمل بطاقة، وأنا أحمل وثيقة إقامة.

حدجته بنظرة متسائلة :

- أنت فى مصر من قبل ولادتى.

- لكنى أتبع أبى.. وأبى يحمل وثيقة إقامة منذ هاجرنا إلى مصر.

- زمان؟..

- زمان .

- ولماذا لا تحصل على الجنسية المصرية؟.

أشاح بيده :

- أسئلتك كثيرة .

قال لى إن ما يشغله الآن هو أن تستقر حياته ، فلا يلاحق. مجرد أن يعلو رأسه سقف ، وتحيط به جدران لها نافذة، حتى لو كانت نافذة ذات قضبان. وقال إنه يعانى التلفت لأقل صوت، ويعطى تشككه فى النظرات التى يلتقى بها.

قلت :

- هل تظن أنك ستظل العمر مختفياً؟.. غداً يلقون القبض عليك.

- لا يهم ..

- لا تخاف السجن؟..

- هو مكان للإقامة..

- لن تظل فيه إلى الأبد.. سيرحلونك..

اختلجت شفتاه:

- إلى أين ؟..

- لا أعرف .. لكنهم لابد أن يدفعوا بك إلى أول طائرة..

فى لهجة مستخفة :

- سأصبح إذن مواطناً عالمياً.. فليس معى تأشيرة دخول إلى أى بلد.

- تغيظنى البساطة التى تتعامل بها.

لوى الضيق ملامح وجهه:

- هذا ما تتصوره .. قتلنى الإحباط والخوف.

قلت :

- ربما استطعت أن أسافر بك إلى لبنان أو سوريا.. لكن .. هل

تستطيع أن تحيا بلا جواز سفر ولا أوراق تثبت شخصيتك؟..

أشار بتاتر إلى البيوت من تحتنا :

- هذه الورقة .. هذا الطير .. هذا الكلب .

وهز قبضته :

- حتى الحشرات تستطيع أن تعبر الحدود بلا أوراق ولا جواز سفر.

بدا كل شيء كحلم، أو كابوس. ألف الطرقات. أهل وأصدقاء وأصحاب عمل. فاجأته السحن التى أربكته صرامتها. أجاب عن أسئلة الضابط ذى الزى المدنى فى الحجرة المغلقة، ثم اقتاده أصحاب السحن الصارمة إلى عربة لورى مغلقة، إلا من نافذتين صغيرتين من الحديد، مزدحمة بالأنفاس والعرق.

***

صعدنا إلى سوق كبيرة للخضر، اصطفت فيه، وتناثرت عربات صغيرة وأجولة وصناديق. تعالت النداءات والصيحات والمساومات والشتائم، وروائح العطارة والبخور والدخان المحترق وشواء اللحم. وثمة كلب تشمم عمود نور، ثم رفع إحدى ساقيه فى اتجاهه.

قلت لنظرته المتسائلة:

- متى نصل إلى مخيم الوحدات؟

- نحن نسير فيه..

- وأين الخيام؟..

أطلق ضحكة من أنفه :

- المخيم مجرد تسمية. إنه حى سكنى مثل الأحياء التى تحيط به: التطوير الحضارى والدبابية والأشرفية والشرق الأوسط والقويسمة.

قال لى إنه ينزل ضيفاً على أسرة فيه. الشوارع الواسعة تختلط بالحارات الضيقة والأزقة التى تنتهى بجدار بيت، أو حائط مسدود، أو مساحات من الخضرة. المآذن والقباب والبنايات المرتفعة، تلاصقها، وتقاربها، بيوت حجرية، بيضاء، من طابق واحد، تمتد فى المساحة الواسعة . الشرفات ذات القواعد الرخامية ، المتجاورة فى أشكال منسجمة، تستند إلى دعامات على شكل مقرنصات وتماثيل لبشر وحيوان من الرخام أو الجبس. صف على بعضها أصص نباتات الزينة. النوافذ من الضلف الخشبية، أو مساحات الزجاج. الأبواب الحديدية السوداء، غطيت واجهاتها بصفائح النحاس المنقوش فى صور ورود وأغصان متعرجة وأوراق . الجدران ملونة بشعارات ونداءات وإعلانات عن بضائع وآيات قرآنية وعبارات مشطوبة، وصور لعرفات وعبد الناصر وجيفارا. التندات ظللت الدكاكين التى كومت بضائعها أمام الأبواب. الباعة يفترشون الأرصفة ، وجوانب الطريق ، يبيعون القمصان والجوارب والشباشب والمناشف ولعب الأطفال. المارة يرتدون البدل والبنطلونات الجينز والسويترات والحطة والعقال.



أشار إلى بائع زهور يتقافز بين السيارات فى مفترق الطرق:

- هذا ما فعلته فى البداية.. ثم عرفت أن الجنود يقفون عند الإشارات الضوئية.. وأطرق وهو يعض شفته السفلى:

- قبل الذى أعانيه الآن لم أكن أعرف أنى فلسطينى.

ولجأ إلى تعبيرات يديه:

- لم يكن ذلك فى بالى..

ووشى صوته بتأثر:

- إنهم ناس طيبون .. لكنهم ليسوا أهلى..

- أنت فلسطينى ..

وهو يحكم ياقة السويتر إلى صدره:

- هذا ما تقوله وثيقة الإقامة. لم أغادر القاهرة منذ ولدت إلا هذه المرة.

واصلنا السير حتى بلغنا خط السكة الحديد فى نهاية المخيم.

بدا الرجل مختلفاً عن الآخرين فى شكله وملامحه : وجه أبيض مشرب بحمرة، وأنف مستقيم، مدبب، وحاجبات بارزان كأنهما يفصلان جبهته عن بقية وجهه، وعينان زرقاوان، واسعتان، يرتدى فوقهما نظارة طبية ذات إطار معدنى أبيض. وثمة عروق زرقاء تتقاطع تحت البشرة.

- هذا موظف وكالة الغوث.

- الغوث؟..

- هذا هو اسمها.. وكالة غوث اللاجئين.. وهو وسيط بين سكان المخيم والوكالة.

وانتزع ضحكة مبتورة:

- من يصادقه يضمن كميات أوفر من التموين والمساعدات الاجتماعية.

قلت مداعباً :

- ولماذا لاتصادقه؟

- لن أظل العمر هنا..

ورفت على شفتيه ابتسامة مهزومة:

- أعرف أن إقامتى هنا لن تطول.

ثم وهو يهدىء بيده خصلة شعر متطايرة :

- لابد أن أترك المخيم إلى القاهرة أو إلى حيث لا أعرف.

***

هبطنا من المخيم إلى قلب المدينة. عرفت من تكرار اسم الأشرفية على واجهات الدكاكين، وعلى واجهة المستشفى ، أن هذا هو اسم الحى.

غلبتنى الحيرة، فلم أدر كيف أتصرف . تزاحمت الأفكار فى ذهنى، وتقاطعت الكلمات. وارتبكت . ولم أجد الكلمات التى تعبر عن مشاعرى، ثم داخلنى شعور بالتبلد، لم أستطع معه التفكير فى أى شىء، وتشاغلت بالنظر إلى الأرض.

بدا عليه ذهول:

- هل تتركنى؟.

أشحت بوجهى بعيداً، فلا أواجه نظراته:

- مؤقتاً .. نلتقى بعد غد فى المكان نفسه، والموعد نفسه.

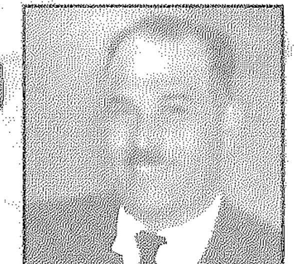
قال فى نبرة تذلل:

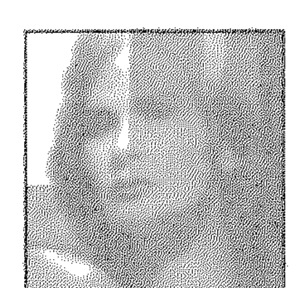
- لم أصدق أنك جئت ، وأنى رأيتك.

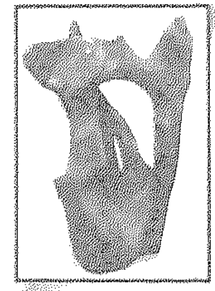
- ستراني ثانية ومعى حل.

كان آخر رؤيتى له وهو يتابعنى بنظرة ثابتة، غاب عنها المعنى المحدد. ■

فنــــون

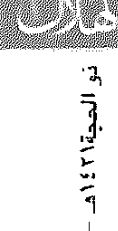




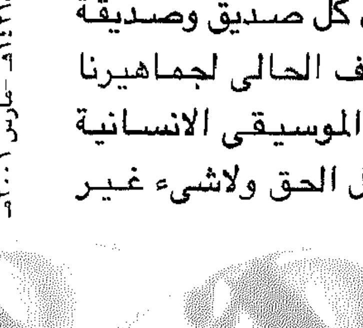



موسيقى
وغناء
من
فقر الأغنية
إلى
ثراء المسرح
الغنائى
بقلم
فرج العنترى

لكى يكون الحديث مليئا بفائدة مضمونة فى وجوب تطوير موسيقانا، وليس من قبيل «طق الحنك» بتعبير أقربائنا الشوّام، أو من أجل «فك المجالس» بمفهومنا المصرولوجى، فإن أهمية هذا التطور الذى ينبغى أن تفيد منه مختلف تفريعات المفهوم الجامع المانع للموسيقى وبما هى موسيقى حقا، كانت هدفا سبق إثباته فى صلب توصيات المؤتمر الدولى الذى أقيم فى القاهرة لموسيقانا العربية فى سنة ١٩٣٢ بالسعى الحثيث لتحقيق هذه الأهداف بالذات: ١- رفع مستوى الثقافة الموسيقية العامة، وإنبات النشء نباتا موسيقيا حسنا، ٢ - العمل على استقرار الموسيقى بكل بيت من بيوت المجتمع المصرى، ٣ - أن تساير مناهج التعليم الموسيقى بوجه عام الأساليب الأوروبية كى تنتفع موسيقانا العربية من مزاياها ..



وها نحن أولاء بمستهل الألفية الثالثة، وقد أصبح أطفال عام ١٩٣٢ فى عمر التاسعة والستين المديد بإذن الله تعالى، لكننا إذا ما أردنا أن نفتش عن حصيلة ما تم انجازه مدرسيا واجتماعيا من تلك الوصايا، ومع احتساب أدوار كل من وزارة الثقافة من بدء نشأتها، وإذاعة الراديو من بعد نقل ملكيتها وإدارتها إلى حكومتنا فى ١٩٣٤، وبالارسال التليفزيونى بدءا من أول نشاط له فى سنة ١٩٦٠، وبمبلغ إفادتنا من معاهد التخصص بأكاديمية الفنون ومن أنشطة هيئة قصور الثقافة الجماهيرية فى جميع أنحاء البلاد، ومن كل جهد مشكور تم بذله فى نشر وإذاعة ماتيسر من التنوير الذى قدمه ويقدمه الاساتذة الأجلاء الخ .. الخ سوف لانجد من كل حاصل الجمع - وبكل الأسف - إلا ما يساوى القطرة فى متسع المحيط بإزاء ماتفشى ويتفشى من الأمية الموسيقية، ومن أمراض التلاحين الفاسدة والمفسدة معا!! ولذلك ، فإنه عندما يتساءل كل صديق وصديقة عن تحديد الموقف الحالى لجماهيرنا الغفيرة بإزاء الموسيقى الانسانية وثقافتها بكل الحق ولاشىء غير





الحق، أنهض من فورى فأستأذن بأن أجيب علي هذا السؤال المشروع والمهم بسؤال مهم ومشروع أيضا وإنما يبدو مزعجا نوعا لأنه سيتوجه فورا ليقول «بالفم المليان» لكل زيد أو عمر ولكل فتاة أو سيدة بيت من بيوت المجتمع المصرى فى طول البلاد وعرضها : «أذكروا من فضلكم أسماء المقطوعات العشرة من أهم الأعمال الموسيقية المحترمة، سواء من المحليات أو من العالميات، ثم ليستنشد كلٌّ على حدة بنغمه الخاص أهم لحن يتذكره فى مقطوعة» وبسرعة - ولأجل خاطرى - سؤال آخر سيقول : «أذكر لنا يا أخى المواطن وأختى المواطنة تعدادا متواليا لعشرين مباراة محلية أو دولية لكرة القدم فى شتى مدن القارات الخمس مع تسمية حكامها، وأهم أبطالها، وتعداد الأهداف فى كل منها سلبا أو إيجابا، وبتحديد ألوان «الفانلات» لكل فريق، وآراء مختلف الجرائد والدوريات والإذاعات مع توضيح رأيك الخاص؟؟!! وعن نفسى، سوف لا أنتظر الإجابة على السؤالين معا لأن النتيجة المتوقعة معروفة سلفاً أو تكاد!!..

وإذن، هيا بنا معا لننظر ونتمعن فيما جرى لبلادنا من هجمة ألحان «انفتاح السداح مداح» التى تبرنطت - من البرانيط!! - فيما شاهدناه وسمعناه بأساليب قد تأوربت وتأمركت - أوربية وأمريكية أعنى - وفى مجموعات من الطواقم التى حملت أسماء حشرات «الخنافس» وحيوانات «الكلاب» و«الهررة» فى «البيتلز» وفى «الكاتس» وفى «البتى شا»، وهذا، مع ما انضاف بالزيادة - ولعله بسبق الإصرار والترصد الانفتاحى أو الانفضاحى!!- من سخائم الأنشطة لبعض أو غالبية شركات الكاسيت فى إنتاج وتوزيع «بلاوى الأغاني» التى استفزعت فى المشاعر والآداب قوى التململ والضجر، والتى اتضح من كشوف التقصى البحثى عنها أن نحواً من خمسين شركة بالاسم والعنوان ظلت مفرودة اليدين تماما فى الانتاج والنشر الانفتاحى حتى ١٩٨١، وأن قدرات أصحابها لم تعجز قط عن



كامل الخلعى   سيد درويش

إنجاح تدابيرها فى الانفلات من أية ضوابط رقابية على المصنفات، بل ولا حتى عن تسريب انتاجها الموبوء إلى كل من مرفقى الإذاعة والتليفزيون لنشره بأجهزتهما!! .. وما أن طفح الكيل أو كاد، حتى أصدرت جريدة الأهرام حياها الله سلسلة من متواليات المقالات طوال الفترة من ١٨ يونيو حتى أواخر ديسمبر ١٩٨٢ وجاءت بمثابة طلقات الميدان الكاشفة بتصوييات الاستاذة القديرة آمال بكير فى تقديمها النقدى لمثل مايلى من بلاوى السداح مداح :

● السّح ادّح امبوه
● من باعك بيعه للريّس بيره
● حمدان الصعيدى يقدّم جحش السهرة
● تعبتيني قوى ياعمتى
● آلهى تنشكّ فى عينك
● كوز المحبة انخرم اديّله بنط لحام
● تسجيلات لدقات الزار المختلفة مع ارشادات للتعامل مع أنواع الأسياد.
● تسجيلات لأغانى الفرانكوآراب التي تمعن فى سخف الشيطنة
● تسجيلات لأغانى ذات ألفاظ تخدش الحياء
● تلاحين لبعض آيات القرآن الكريم بطريقة مستهجنة

وكان أن دارت سخونة البحث والتقصى لدراسة هذا الموضوع من شتى نواحيه اللفظية واللحنية والأدائية فى كل من شعبتى الموسيقى والأعلام بالمجالس القومية المتخصصة، وتحرر عنه تقرير مشفوع بتوصيات العلاج والترشيد ثم تقديمه إلى المجلس القومى للثقافة والفنون والإعلام الذى ناقشه وأقرّ توصياته فى جلسة الثامن والعشرين من فبراير ١٩٨٣، وكالمتبع فى تقارير المجالس القومية تم رفعه إلى السيد رئيس الجمهورية فى يوليو ١٩٨٣ . ومهم للغاية أن نستعرض معا ماجاء بهذا التقرير من المرتكزات الارشادية ومن توصيات العلاج الشافى ومن التنوير بدءا من أن وراء الأغانى ثقافة فنية عامة، ووراء هذه الثقافة حضارة اجتماعية أعم وأشمل، وأن كل مجتمع له غناؤه الذى ينبغى أن يعبر عن كل ما له من قيم يرددها

الأداء فى سمع المتلقين ليخاطب فيهم روح الجماعة وطبيعة الانسان.

وأما عن وظائف الغناء الأساسية فإن التقرير أشار إلى أنها تعمل على تهذيب النفوس وتربية الأذواق والارتقاء بها إلى المستويات العليا من الجمال إلى جانب ماتقوم به من نقل التراث الاجتماعى والتقاليد بين الأجيال ومن التعبير عن الروح القومى، ومن الاحتفال بالمناسبات الوطنية والدينية، ومن توفير طاقة الدفاع الوجدانى والروحى ضد ما يعترى حياة الانسان والجماعات من أزمات ومصائب.

وفى جانب الترشيد الانتاجى أوصى التقرير بضرورة ايجاد مقياس محدد تلتزم به جميع جهات الانتاج الغنائى ليكون هذا الانتاج علي ماينبغى من رفعة المستوى فى عناصر اللفظ واللحن ونقاء التسجيل والآداء، وبأن تراعى جمعية المؤلفين والملحنين والنقابات الفنية الثلاثة واتحاد الأذاعة والتليفزيون أيضا كل الالتزام فيما تسمح بانتاجه ونشره بالاختيار الجيد للكلمة واللحن، وبمراعاة الحظر على ظهور أغانى المستوى الهابط فى الأفلام وفى المسرحيات كى لايتسرب انتشارها من هذه المنافذ، وبأن يتوفر فى عضوية لجان الفحص شرط التخصص الفنى الآكاديمى مع دعمها باللازم من الاخصائيين فى علوم النفس والاجتماع وهندسة الصوت، وبأن تكون قراراتها إلزامية .

وفى توقى السلبيات تم التشديد على عدم إجازة الاتجاهات الفردية التي لاتعبر عن روح الجماعة فيما تعرضه من المضامين والأفكار، وتلك التى تقصر عاطفة الحب على علاقات الغرام وما من شأنه أن يوحى بالإذلال النفسى أو بالمبالغة فى تعابير معاناة الحب بمضامين غير واقعية، وهذا الى جانب عدم الترخيص فنيا وإداريا بقبول ما تقدمه الفرق الخاصة إلى الإذاعة والتليفزيون خارجا عن مقررات الحفلات الخارجية، والكف تماما عن تقديم أى من الأغانى التى يتضمن سياقها آمارات عن دغدغة عواطف الانسان الداخلية على نحو متدن.



بيرم التونسى سلامه موسى

وأما عن إحكام جهاز الرقابة على إنتاج الكاسيت، فقد أشار التقرير بضرورة اخضاع جميع شركاته لضوابط المستوى الرفيع، وبأن يكون لهذا الجهاز من الفاعلية مايؤدى إلى سد كل منافذ الانتاج والتوزيع على ممنوعات الكاسيت والفيديو، وبأن يضاف إلى قانون المصنفات من المواد ما يكفل إحكام السيطرة على الإنتاج والتوزيع، ومع إعادة النظر في مواد العقوبات المنصوص عليها فى هذا القانون بهدف تشديدها علي المخالفين فى حالة العودة .

وأخيرا أوصى التقرير لجهازي الإذاعة والتليفزيون بانشاء فريق أوركسترالى وكورال للصغار وآخر للكبار ضمانا لتجويد وتنفيذ عمليات التجهيز والإرسال والتسجيل بما ينبغى من الكمال والنقاء، وبأن يتولى الجهازان مراجعة ماتراكم لديهما من نماذج غنائية تتناقض مع المستوى الرفيع واستبعادها كليا من النشر ومن التداول .

وبهذا كله أجدنا على كامل الاتفاق فى آنه لازيادة لمستزيد إلا سرد كتابات النقد[1] الذى وجهه كبار أدبائنا وعلمائنا الى عيوب الموسيقى فى حينهم.

* * *

ونبدأ «بالشيخ» طه حسين فى فترة الضحى من شبابه (١٩٠٨ - ١٩١٣) حين أضجرته النماذج الغنائية التى شاعت يومئذ فخرج الى الناس شاهرا سيف نقده بمحاضرة علنيــة ألقـاها فى نادى الموظفين بالقاهرة قال فيها: «إنه إذا صح ما يقولونه من أن الرقى الأدبى لكل أمة من الأمم هو أشعارها وأمثالها وأغانيها، ثم قسنا رقى العرب فى جاهليتهم بهذه المقاييس الثلاثة لكانت النتيجة مؤلة جدا، لأننا لانستطيع أن نتردد لحظة واحدة فى الحكم بأن العرب الجاهليين الذين لم يؤدبهم استاذ، ولم يفقههم كتاب، ولم يصلح أخلاقهم دين، كانوا أرقى منا نفسا، وأزكى قلوبا، وأبعد منا همة وأصدق عزيمة»، ثم زاد فضرب المثل الإصلاحى بكتابته لنموذج نص

١- سبق أن أدرج الكاتب شيئاً من هذه الفقرة في هلال سبتمبر ١٩٩٨ عن «ماذا حدث للمصريين؟» ف.ع .

غنائي للسير على منواله قالت بدايته:

أنا لـــولاك كنت مــلاك

غير مسموح أهوى سواك

وهو النمـوذج الذى لحنه بالكامل الموسـيـقـار كـامل الخلعى (١٨٧٠ - ١٩٣٧) وسجل فعلا على اسطوانة لم تذع لسبب أو لآخر، وقد تم العثور على صيغة هذا النظم فى متروكات الخلعى. وكذلك أفرد الأديب والمصلح الاجتماعى سلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨) فصلا كاملا عن أغانينا فى كتابه عن «الأدب والحيـاة» رفض فيـه شتى الألحـان المطوطة بشكل البكاء والعويل، وطالب بنوع الأغانى المبهجة والمفرحة لتملأ نفوسنا بالنشاط والتفاؤل، ولتحفز شبابنا إلى العمل بالأمل بدلا من الألحـان التي تشل فـينا الأمل وتحثنا على البكاء.

وأيضـا كـتب شيـخنا الأديب الخـفـيف الظل جـــدا عبدالعزيز البشرى (١٨٨٦ - ١٩٤٣) فى الجـزء الثـانى من كتابه «المختار» عن أهمية تطوير أغانينا فقال : «إن الغناء المصرى قد صرف كل همه إلى ترديد الصبـابة والهـوى، وشـدة البين وطول النوى، وألم الفراق وحرقة الجوى، بدلا من إصابة المعانى السامية التي تتصل بتربية الأخلاق أو بتزكية الأذواق»، ثم أشار إلى مقاطع الغناء التى انتشرت فى حينه باسم الطقاطيق بأنها «من فـاتر القـول وسـاقط الكلام، وأن مايجرى منها على ألسنة الفتيان كله خور وتكسر واستخذاء لاينتهض به للفتى عزم أو يشتد له طبع، وأما ما يتصلصل منها فى حلوق البنات فكله خنى وعهر، وكله استرسال فى الفتنة إلى آخر المدى، وتدريب على عصيان الآباء فى طاعـة الهـوى (أنا لما استلطف مـايهمنى بابا!!) ولمطالبة الأم بأن تفسح فى جوانب الحيل لتجمع بنتها بهواها وتبلّغها أخسّ مناها (هاتى لى حتى يانينة الليلة!!) . وكـتب عـباس العـقـاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) فى عدد جريدة البلاغ بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٢ فقال: «إن الفنان فى البلد - وخاصة المغنى! - مجرد خليع وماجن من مّجانها، كل همه أن يضـيع الوقت على الناس باحـيـاء الردىء فيهم من الشعور ومن ذميم الأمل، ومن وضيع التفكير والتخّيل،

د. رتيبة الحفنى

منار ابو هيف

وأنه قد صار عهدنا بالمطربين والمغنين ألا نجد فيمن نسمعه منهم من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية، غاضبة وراضية، مستنفرة ومتهللة، ضارعة وملتهبة، كما لم نجد من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها، وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى أن تكون الموسيقى، وقد علم كل انسان أن ليس منهم من يفهم الموسيقى على هذا النحو، ولكنها أصوات الذل والضراعة، ينشدها النائم فلا يستيقظ، ويسمعها الصحى فينام!!» .

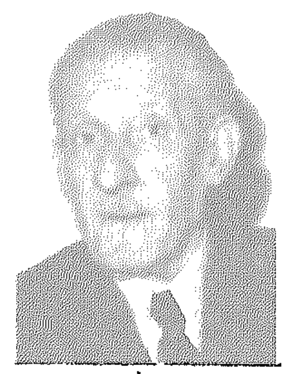
ويجيئنا شاعر العامية الوطنى بيرم التونسى (١٨٩٣ - ١٩٦١) بنقده لأغانى التفاهة والتسطيح فى نظمه التالى الذى ذاع واشتهر :

يا أهل المغنى، دماغنا وجعنا،
دقيقة سكوت لله
دا أحنا شبعنا ، كلام ماله معنى
، ياليل وياعين ويا آه
يا أهل المغنى
طلعت موضة، غصون وبلابل،
شابط فيها حزين
شاكى وباكى وقال موش عارف،
يشكى ويبكى لمين
واللى جايب له الداء والكافية،
طارشه ماهش سامعاه
يا أهل المغنى
ردى عليه، ياطيور بينادى،
وارمى له جناحين
وانت كمان، ياوابور الوادى،
قل له رايح على فين
قل له إياك ، يرتاح ياوابوره،
ويريحنا معاه
يا أهل المغنى
حافض عشره اتناشر كلمة،
نقل من الجرنال
شوق وحنين ، وأمل وأغانى،
وصدّ وبكا وعويل
واللى اتعاد ينزاد يا اخواننا،
وليل ونهار هواه
يا أهل المغنى

ثم يحدثنا أخيرا أديبنا المسرحى محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) فى كتابه عن «طلائع المسرح الحديث» فيعدد أوجه العجز والقصور فى «موسيقانا الشرقية» (التى أخذت صفة العربية فى الستينات)، وذلك بصراحة «علمفنية» أوفت على الغاية، وبشكل غير مسبوق على أيامه فى النقد الموسيقى حيث قال وقوله الحق

: «إنه لكى ننصف حقيقة الفن عندنا وآثرنا فضيلة الحق، فإن الموسيقى الشرقية القائمة بأصولها التقليدية، قاصرة عن مطاوعة المقتضيات العامة للملحنات (الأوبرا والأوبريت)، أضف إلى ذلك أن تنوع الآلات الموسيقية الشرقية ضئيل بالنسبة لنظيره فى موسيقى الغرب وهو لذلك لا يستجيب ايضا لتلك المقتضيات ، ويستطرد فيقول : إن الطابع المميز للموسيقى الشرقية فى اوضاعها الراهنة هو التعويل علي الميلودى (اللحن)، و هو على روعته جزء من كلّ، وقليل من كثير، وشيء من أشياء، وأما موسيقى الغرب فقد سادها الهارمونى وهو مجموعة من الأصوات والأنغام والالحان متفاوتة الطبقات ومتنوعة القوى ليصوغ منها الفنان لحنه المتوافق المتناسق، فأين من هذا كله موسيقانا الشرقية التى تسودها البساطة والسطحية والرتابة؟؟»، ثم ينتهى إلى أنه «يوم تتسامى الموسيقى الشرقية فلاتكون مقصورة على احتذاء التراث (الفلكلور)، بل تتخذه ركيزة لبناء جديد الطراز، ويوم تتنوع الآلات فى الموسيقى الشرقية لتحاكى نظائرها فى موسيقى الغرب (بالآلات الأوركسترالية) ويوم يسودها نظام التأليف بالألحان المهرمنة الذى أصبح عمود الموسيقى العالمية، تستبشر عندنا الفنون بأن الطريق قد انفتح أمام ميدان الأوبرا والأوبريت كى تتجلى على المسرح، وتأخذ حظها من التألق والتفنن» .

ومع كل ماتقدم حدث أن اسعفتنا نجدة التطور على يد سيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣) الذى أدار ظهره «للتخت» وآلاته و«ترلم لماته»، وعهد بتعابير المصاحبة فى مسرحه الى فريق أوركسترالى عصرى له قيادته، ويعزف أفراده من التدوينات الموسيقية NOTATION التى جهزها له الأخصائيون تلافيا لشطط الارتجالات وفهلويات العزف الفوضوى، فتميز تفرده لدينا تاريخيا بتمسرحه الغنائى المتطور الى مرتقى المذهب القومى، وبكامل قدراته على إبداع وتقديم أوبريتاته الثلاثة المشهورة: العشرة الطيبة، وشهرزاد،



بديع خيرى　　عبد العزيز البشرى

والباروكة بمعاونة من مؤلفى قصص موضوعاته ونظم سيناريوهاتها بالأدباء الوطنيين اتجاها والكبار فعلا محمد تيمور، وبديع خيرى، وبيرم التونسى، وهذا فى الفترة التى لم تكن مصر قد تمتعت بعد فيها بأكاديمية للفنون ذات معاهد عليا فى تخصصات المسرح والعزف والقيادة والباليه والإخراج، هى الآن معنا منذ مايزيد على أربعين عاما للأنشغال بتأهيل وتخريج عناصر أداء أعمال المسرح الغنائى بأحدث المناهج الحضارية وإلى أن أصبحنا ذوى تجارب متعددة ومحسوبة فى عمليات تجهيز وتقديم الأعمال المحلية أو العالمية بفنانينا وحدهم أو بالمشاركة مع الوافدين المحترفين، وفي نصوص بأصلها الأجنبى أو من المعربات التى نذكر منها بالذات تقديمنا الناجح لأوبريت «الأرملة الطروب» لفرانز ليهار النمساوى فى ١٩٦١ بتعريب الاستاذ الفذ عبدالرحمن الخميسى «المرحوم»، وبقيادة ادوارد اشتراوس وإخراج تونى نيسنار النمساويين، وبطولة فنانينا وفناناتنا، رتيبة الحفنى، ومنار آبو هيف، وأميرة كامل (المرحومة)، وروجينا يوسف، وكنعان وصفى، ويوسف عزت، ويوسف صباغ، ومحمد نصار وبجانب الممثل المخضرم والقدير الفنان حسين رياض (المرحوم) . وأسفر هذا التقديم الذى استمر طوال موسم خاص فى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٦١ عن أنه كان موضع الاعجاب والاقبال المزدحم، وفى تجربة أكثر من ناجحة خصوصا فى جانب ملاءمة التعريب الممتاز الذى برأ تماما مع موسيقى ليهار من أية مصادمات أو مطبات أو احتباسات حنجرية بالمرة، بقدر ما كان ردا عمليا على تقولات ودعاوى عدم صلاحية أداء التعريبات الغنائية لحناجرنا فى مجال الأوبرا والأوبريت، وما عاد لمكابر أن يزعم أن تقديم هذه الأوبريت فى لغة الأصل الألمانى لشعبنا هو الأنسب والأقوم للفهم والتذوق، وإنما المعقول مائة الف مرة وعلى ضوء ما أحرزناه من النجاح فى التعريب أن نمضى فى الاستمرار مع مسارح آوبريت كل عواصم الحضارة فى الاهتمام بنقل روائع المسرح الغنائى العالمى الى

لغتنا بالتعريب الملائم، لاسيما وحقيقة الممارسات السائدة عالميا والمعمول بها تاريخيا وحتى الآن قد تناولت بالفعل نقل جميع الأوبرات الايطالية والألمانية والفرنسية الى اللغات السلافية ولهجاتها، وإلى الانجليزية، وحتى إلى الصينية والكورية طلبا لتيسير الفهم والتذوق بدلا من جلوس المتفرجين مجرد جثث مرصوصة قد دفع أصحابها أثمان تذاكر الدخول بالشىء الفلانى لكى تتدحرج الأنغام برطاناتها الى طبلة آذانهم وحسب!!. وحقت لنا إذن مشروعية قيامنا منذ الآن بوضع خطة طويلة الأجل لتعريب كل الأوبرات والأوبريتات العالمية التى تناولت أفريقيتنا وشرقيتنا وشرقنا الأوسط العربى الى جانب الأسبانيوليات التى تحمل عطر التأثير العربى تاريخيا ومنها بالذات هذه الروائع :

- أوبرا حلاق أشبيلية لروسينى
- أوبرا سميراميس لروسينى
- أوبرا الايطالية فى الجزائر لروسينى
- أوبرا عايدة لفيردى
- أوبرا التروفاتور لفردى
- أوبرا الناى السحرى لموزار
- أوبرا الأفريقية لمايربير
- أوبرا اختطاف من السراى لموزار
- أوبرا معروف الاسكافى لهنرى رابو
- أوبرا عنترة لرمسكى كورساكوف
- أوبرا تاييس لماسنيه
- أوبريت على بابا لشارل ليكوك

وهذا الى جانب تفعيل القيام بحصر وتسجيل تراثنا المحلى فى المسرح الغنائى والعمل على ضبط موسيقاه أوركستراليا لأغراض إعادة إخراجه وتقديمه بالامكانات العصرية، بجانب وضعه فى متناول الدارسين والمؤرخين.

- والقضاء على عادة تكليف أكثر من ملحن للمشاركة فى صياغة المصنف الواحد مما يسبب افتقاد وحدة الأسلوب والمذاق فى السياق، ويتسبب كالعادة فى سقوط العمل، وضياع الجهد والانفاق بغير أدنى فائدة،



عبد الرحمن الخميسى كنعان وصفى

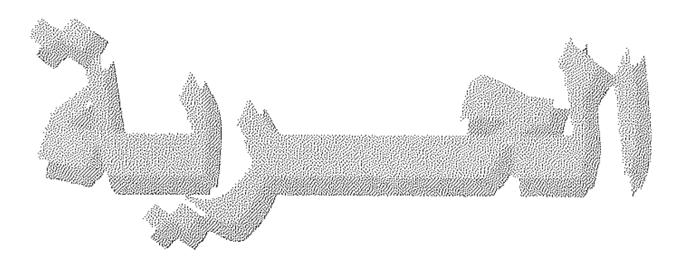
● والعمل على اقرار مبدأ انتقال العروض دوريا الى مسارح الأقاليم فى المحافظات والمدن بالاتفاق مع وزارة الحكم المحلى على طريقة ونفقات السفر والاقامة، وإنما مع التأكد مسبقا من تعديل «جورات» جلسة الأوركستر بمسارح هيئة قصور الثقافة فى أنحاء الجمهورية لضمان استيعابها لكل أفراد الفرقة بآلاتهم فى جلسة مريحة بدلا من التزاحم!!

● والعمل على رصد الجوائز ومنح التفرغ الداخلى وفى الاكاديمية المصرية بروما فى مهام: التوزيع الأوركسترالى لموسيقى نص عربى قديم، وفى تعريب سيناريو الأوبرات، والأوبريتات LIBRETTO المعينة، ولإنجاز التأليف الموسيقى لنص أوبرالى أو من الأوبريتات وعروض الباليه .

● والقيام بتشكيل لجنة من الاخصائيين لكتابة وتوثيق تاريخ مسرحنا العربى الغنائى - ومنه الانتاج الرحبانى - مع الحرص على استيفاء جوانب التوثيق بإثبات قصة الموضوع ومؤلفها، وسيناريو النظم الغنائى وواضعه، وتاريخ وموقع أول عرض، وإثبات أسماء القائد والمخرج ومهندسى الديكور والأزياء والإضاءة، ومدرب الكورال وفرقته، وأسماء الأبطال وأدوارهم مع بيان نوع طبقة الصوت، والعمل على إدخال عملية الطبع والنشر لما يتجهز تباعا فى مشروع مهرجان القراءة للجميع ضمانا لنشر الثقافة الموسيقية فى مجال الأوبرا والأوبريت على الواسع .

● والعمل على تجهيز وتفعيل برامج اسبوعية ثابتة لكل من جهازى الراديو والتليفزيون فى تخصص مجال الأوبرا والأوبريت، وأن تعنى الصحافة اليومية والأسبوعية بأخبار وموضوعات وتحليلات وبطولات وتذوق أعمال المسرح الغنائى المحلى والعالمى فى أركان ثابتة .

وأخالنا نتفق سويا على مضمون هذه الرؤية التطويرية ودوافعها للانتقال بعمليات تنغيمنا من مستوى فقر الأغنية إلى ثراء المسرح الغنائى بأنواعه كدفعة أولى فى التطوير الواعى لموسيقانا . ■



في مسرح فتحي رضوان

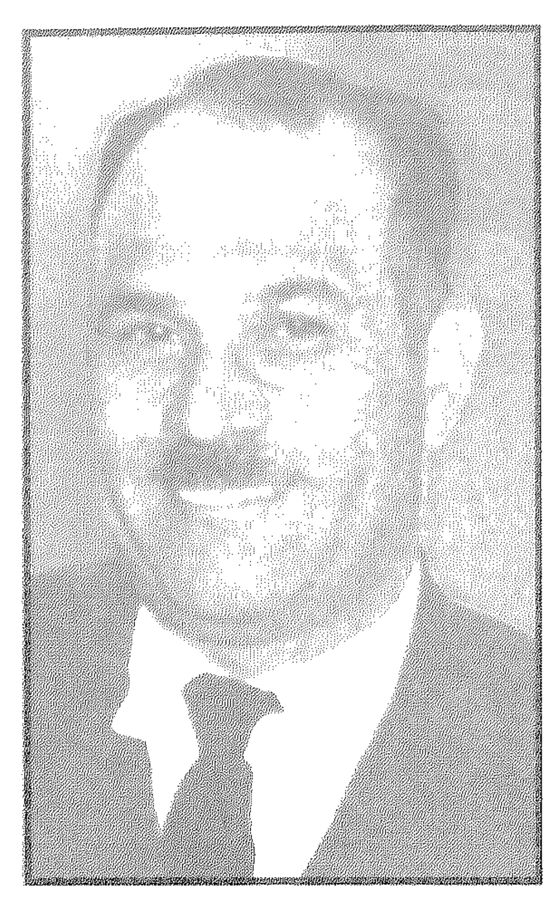
بقلم

د . نادية بدر الدين أبو غازى

يعد فتحى رضوان نموذجا للمثقفين الذين غمروا حياتنا بفيض من العطاء المتدفق والمتجدد دائما فى شتى المجالات السياسية والفكرية والثقافية . وإيمانا بالعلاقة الوثيقة بين الفن من جانب والأفكار السياسية والاجتماعية من جانب آخر يسعى هذا المقال إلى تناول فكر فتحى رضوان من خلال إبداعه المسرحى الذى طرح فيه العديد من القضايا والأفكار التى شغلته ، وتجلت فى مجالات نشاطه وإبداعاته المتعددة والمتنوعة . وإذا كنا سنتعرض - بشكل عام - لأبرز القضايا والأفكار السياسية فسينصب - أساسا - على تحليل قضية الحرية كما وردت فى مسرحيتى «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» و «المحلل» .

ويهدف هذا المقال إلى محاولة دراسة انعكاس الأوضاع السياسية على الإبداع . ورصد العلاقة بين حركة الأوضاع والأفكار السياسية وتطورها فى المجتمع ، وبين عملية الإبداع الأدبى فيه .

كان انفعال فتحى رضوان - ككاتب مسرحى - بالقضايا الإنسانية عامة وبأحداث مجتمعه خاصة هى مبعث هذا الجلاء الفكرى والوجدانى الذى انبثقت منه أعماله الفنية الصادقة .



فتحى رضوان

أما عن قضية الحرية والصراع من أجلها ، فإن العلاقة بين الحرية والابداع الفنى وثيقة ، فإذا كان الابداع الفنى فى جوهره حرية ، فهو كذلك حرية من خلال سعيه الدائب إلى خلق عالمه الخاص ، وهو أيضا يستلزم الحرية مطلبا لبقائه واستمراره .

فقضية الحرية هى أكثر القضايا التصاقا بالإبداع الفنى، فتاريخ الفن هو تاريخ لسعى الإنسان عامة وسعى الإنسان المبدع - بوجه خاص - نحو التحرر من القيود ونحو البحث عن مزيد من الحرية .

وقد مثلت قضية الحرية والصراع من أجلها مطلبا وقضية محورية فى الواقع المصرى ، وعلى امتداد العصور .

فمن تتبع تاريخ مصر وكفاح شعبها نستطيع أن نتبين تيارين أساسيين سادا الأوضاع السياسية فى مصر منذ العصر الحديث : تيار مقاومة الاستعمار الأجنبى والتبعية السياسية. ويقابل ذلك تيار آخر هو تيار مقاومة الحكم المطلق والسعى إلى تحقيق نوع من التوازن بين صلاحيات السلطة وحقوق الأفراد وضماناتهم .

وإذا كان فتحى رضوان قد انتمى دوما إلى التيار الأول ، فإن قضية الحرية الإنسانية بمعناها العام ، وقضية الحريات العامة والحريات السياسية لم تغب عن اهتمامه . وكان ظهورها فى نشاطه أجلى ما يكون فى السنوات الأخيرة من حياته ، عندما تصدى مع مجموعة من المفكرين العرب البارزين لتأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان .

فعلى إمتداد حقبتى الخمسينات والستينات كانت قضية الحرية والصراع من أجلها قضية من أهم القضايا التى شهدتها هذه الفترة .

فقد نجح تنظيم الضباط الأحرار فى الوصول إلى السلطة ليلة ٢٣ يوليو لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ مصر المعاصر ، شهدت تغيرات هامة فى بنية المجتمع المصرى ، كما شهدت توجيه ضربات رئيسية للنفوذ الاستعمارى ليس فى مصر وحدها بل على المستويين العربى والافريقى . ولكنها على صعيد آخر، شهدت بروز مفهوم جديد للحرية مغاير لذلك المفهوم الذى ظل سائدا طوال تاريخ النضال الديمقراطى للشعب المصرى منذ مطلع القرن الماضى .

وقد تجلت قضية الحرية وتمثلت محورا رئيسيا فى كثير من الأعمال المسرحية فى الستينات ، حيث أكدت معظم أعمال تلك الحقبة على غياب الحرية وافتقادها فى المجتمع ، كما ربطت بين هذا الغياب وبين

الأوضاع التى سادت فى تلك الفترة .

ولم تقتصر هذه الأعمال المسرحية على تناول الحرية السياسية وحدها ، وإنما تناولت الحرية بمختلف أبعادها سواء تمثلت فى الحرية الاجتماعية أو حرية الرأى والفكر والاعتقاد . وقد ربطت بعض هذه الأعمال بين أبعاد الحرية المختلفة وعبرت عن تداخلها .

ففى مسرحيتى «المحلل» و«الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» اختار فتحى رضوان صياغة أفكاره فى إطار مسرحية الفصل الواحد ، وتحديدا للزمان والمكان مما أتاح له التفرغ إلى تعميق أفكاره ومقولاته الاجتماعية والأخلاقية والسياسية عن طريق حوار يتسم ببلاغة الحجة وقوتها ، وبأسلوب من الجدال أبان عن قدرته كرجل قانون مقتدر ومفكر اجتماعى وسياسى تشغله قضايا إنسانية واجتماعية جليلة .

والقضية الأساسية عند فتحى رضوان - فى أغلب أعماله المسرحية وفى المسرحيتين موضع الدراسة تحديدا - هى ضرورة أن يستعيد الإنسان ذاته من خلال إدراكه لقواه الكامنة . وأغلب الموضوعات تدور حول الصلة القائمة أو التى ينبغى أن تقوم بين السياسة والأخلاق .

فالفكر السياسى عند المؤلف يصاغ فى صيغة فنية مشوقة ، غير مباشرة وغير خطابية . وأفكاره الفلسفية وما وراءها من مضمون سياسى تنساب فى تلقائية وسلاسة إلى فكر ووجدان المتلقى . ومسرحه ثرى بالأفكار الفلسفية والمضامين الاجتماعية والسياسية ولكنه يتميز عن المسرح الخطابى الذى يجهر بالأفكار فى صورة خطابية وعظية ومباشرة.

● قضية الحرية

وإذا انتقلنا إلى تحليل قضية الحرية فى أعمال فتحى رضوان نجد أن القضية الأساسية فى أعماله المسرحية - وكما سبق أن أوضحنا - هى استعادة الإنسان لذاته من خلال إدراكه لقدراته الكامنة، ومن هذه الزاوية تأتى فكرة الحرية كفكرة متضمنة باعتبار أن استعادة الإنسان حريته جزء من استعادته لذاته . وهذا ما تجلى فى كل من مسرحيتى « المحلل» و«الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» .

وإذا كان مفهوم فتحى رضوان للحرية هو مفهوم متعدد الأبعاد ، إلا أن جانب التركيز - فى مسرحيتيه - كان منصبا أساسا على الحرية السياسية التى تناولها من خلال قضية المشاركة السياسية حيث أن شاغله الأساسى هو موضوع السلطة وعلى حد قوله «هذا الموضوع يشغلنى من حيث أشعر ومن حيث لا أشعر . لذلك حين أفكر أولى اهتمامى بفكرة معينة أو واقعية محددة لها هدف معين . لكن عندما أبدأ الكتابة تخرج من نفسى الأفكار التى هى الينبوع الأصلى الذى يستقى منه قلمى مادته . فالفكرة - فكرة السلطة - تشغلنى دوما ، وكلما أفكر فى واقعة ما ، فإن جاذبية الفكرة - فكرة السلطة - الموجودة دائما تجذبها وتأخذها » .

القضية المحورية المطروحة - فى كتابات فتحى رضوان - هى كيف تقوم السلطة بواجبها على الوجه الصحيح ؟

ولماذا لا تقوم بواجبها على الوجه الصحيح ؟ وهل يمكن أن تقوم بواجبها على الوجه الصحيح ؟

ولكن فتحى رضوان لا يعالج هذه القضية وتلك الأفكار بصيغة مباشرة ، وإنما يتناول السياسة فى إطار أشمل وأعم فالظاهرة السياسية جزء لا يتجزأ من الظاهرة الاجتماعية ، ومنطلقه فى معالجة فكرة السلطة - كجوهرة للظاهرة السياسية - هو منطلق تكاملى .

فقلما نجد فى عمل من أعماله - خاصة الأعمال المسرحية - تعرضا للسلطة بصيغة مباشرة ، أو ترديد لعبارات سياسية ، أو تجسيدا لظاهرة سياسية . وإنما هو يتناول السلطة ويناقش الأبعاد السياسية التى تشغله من خلال معالجة ظواهر اجتماعية أخرى يرى فيها السلطة أو يرى ظاهرة السلطة من خلالها ، مثل الدين - كما فى مسرحية «اله رغم أنفه» أو العلاقات الاجتماعية كعلاقات الزواج - كما فى مسرحية «المحلل» . والعلاقات الإنسانية - كما فى مسرحية «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» . ففى هذه المسرحيات لم يعالج فكرة السلطة مباشرة ، ولم يتطرق إلى معطيات النظام السياسى ومكوناته ، ولن ينتقد السلطة بصورة واضحة ، وإنما وجه نقده للعلاقات الاجتماعية التى يرى فيها تجسيدا للسياسة ، فالسلطة - فى مفهومه - هى السلطة بمعناها الواسع سواء فى محيط العلاقات الاجتماعية أو الدين .. الخ وليس فقط العلاقات السياسية .

فمسرح فتحى رضوان هو مسرح يدعو للتغيير من خلال تجسيد السلبيات ونقد الواقع والسخرية منه ، ثم مساعدة الإنسان على اكتشاف الطاقات الكامنة فيه والقدرات الهائلة التى تساعده على التحرر وبث الإحساس بالقوة التى هى أداته فى التغيير .

وإذا انتقلنا إلى تحليل أبعاد الحرية فى الأعمال المسرحية ، وجدنا أن فتحى رضوان كان من الكتاب الذين تناولوا قضية المشاركة السياسية باعتبارها أحد أركان الحرية السياسية .

وكان طبيعيا أن تستأثر قضية الحرية السياسية بفكر واهتمام فتحى رضوان الأديب والسياسى . فقد عايش منذ شبابه نماذج وإنماطا متباينة من نظم الحكم تباينت فى المسميات وتمايزت فى الأشكال ، وإن التقت حول وجود بعض مظاهر غياب المشاركة السياسية وصورتها .

وبخبرة السياسى المحنك الذى عرك الحياة السياسية وجاس فى دهاليز السلطة ، وبرهافة وصدق احساس الأديب وملكة السخرية عنده ، استطاع فتحى رضوان أن يتمثل قضية المشاركة السياسية - بشكل عام - فاضحا أساليب السلطة المضللة ، كاشفا خبايا القوة الكامنة ، كما نرى فى مسرحية «المحلل» .

فقد اتخذ فتحى رضوان من فكرة المحلل منطلقا ليعالج من خلاله قضية الممارسة الشكلية . فالزوج المتسلط الاستغلالى اضطر بعد أن طلق زوجته ثلاث مرات إلى اللجوء إلى المحلل ليعيدها إلى عصمته . فاستعان بأحد الأفراد المضطهدين والمغلوبين على أمرهم ، إلا أن الزوجة التى سئمت تلك الحياة الذليلة تتمسك بالرجل المحلل وترفض العودة للزوج القديم ، وتدفعه لرفض هذا الدور الشكلى وتدعوه ليكون الزوج الحقيقى .

والمسرحية تحمل فى مظهرها الخارجى ومضمونها العام ، سخرية من هذا الأسلوب من الحياة ، حيث أقدس العلاقات تتحول إلى عملية تجارية وسخرية من انحدار الحياة الاجتماعية إلى أن تصبح صورية حيث تبدو مظاهرها فى غاية السمو على حين أن حقيقتها فى غاية الانحطاط .

وفكرة المحلل فى بعدها السياسى إنما هى شكل من أشكال الممارسة السياسية الشكلية . فقد أراد الزوج أن يجعل من الرجل المستأجر وسيلة يتحايل بها على الشرع لكى يتخلص من الشرط الذى يقف عقبة فى سبيل رده لزوجته ، ولكنه لم يلتزم بمضمون هذا الشرط ولم يفهم الحكمة منه ، إنما التزم به

شكلا دون الجوهر .

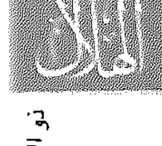
وهذا لا يختلف كثيرا عن وضع المشاركة السياسية فى كثير من الأنظمة حيث يكون الشعب فى وضع «المحلل» تأتى به السلطة محاطا بالشروط ، مقيدا بالمحظورات ، مرسومة له كل خطوة مسبقا ، لا يمارس مشاركة حقيقية وإنما هو مجرد شكل ، ولا يتمتع بحقوقه السياسية وإنما يردد ما يؤمر به ويلتزم بما تفرضه عليه السلطة .

يرى فتحى رضوان أن عددا كبيرا من الناس فى الحياة السياسية هم بمثابة محللين ، فالمحلل فى نظره «رمز لآلاف من الناس يحتلون أماكن كثيرة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وهم لا يمثلون مظهرهم وإنما يمثلون شيئا آخر» .

أساليب العنف

أما فتحى رضوان فى مسرحية «الجلاد والمحكوم عليه بالإعدام» فيعالج ظاهرة القمع وأساليب العنف التى ترددت فى أغلب مسرحيات الستينات ، حيث لا ينغمس فى تفاصيل الظاهرة ولا يفيض فى وقائع التعذيب ، وإنما يعالج الفكرة أساسا ، ويعلو على المعالجة الجزئية والمباشرة إلى المناقشة الفكرية العامة المجردة . فهو كشأنه فى أعماله الأدبية يميل إلى مناقشة القضية من منطلق إنسانى اجتماعى أخلاقى .





وتدور أحداث المسرحية فى إحدى القرى النائية التى تاهت فى طى النسيان وسقطت من الحسبان حيث يعيش أهلها فى فاقة وحرمان يصارعون الفقر ويتحدون الموت الذى يأتى على العديد من الأبرياء من جراء انعدام أبسط الضمانات الأساسية لاستمرار الحياة .

وتبدأ المسرحية «بالجلاد والمحكوم عليه بالاعدام» وهما فى انتظار القطار لينقلها إلى المكان المقرر لتنفيذ حكم الاعدام . وتتبين من الحوار أن المحكوم عليه كل جرمه أنه صاحب رأى وحامل فكر حاكمته الدولة على فكره وآدانته لمحاولته بث آرائه فى نفوس الكائنات التى تحيا حياة أقرب للعدم .

وفى هذه المسرحية ينطلق فتحى رضوان - أساسا - من فكرة العلاقة بين الحاكم والمحكوم - تلك العلاقة استوقفته لما فيها من تفاعل وتأثير متبادل - ينطلق منها إلى مناقشة أسلوب ممارسة السلطة الذى قد يقف حائلا دون تحقيق الحرية . ومن هنا تكون معالجة الفكرة بداية فى إطار إنسانى حيث يكشف فتحى رضوان كيف أن العلاقة بين طرفى العملية «الجلاد» الذى يمارس العنف، و «المحكوم عليه» الذى لا يمارس العنف وهى علاقة حميمة ، تحمل كل الحب رغم ما يلقى عليها من ستار يطمس حقيقتها ويبرزها على أنها علاقة تحمل كل التناقض والبغض .

ومن خلال هذا المنطلق يتطرق فتحى رضوان إلى تصوير السلطة فى عجزها وقصورها ، فيسخر من الأسلوب الذى تفرضه السلطة على نفسها وعلى موظفيها وهو شل ملكة التفكير وتعطيل الحواس حتى تتحول إلى آلة خالية من الفكر والعواطف والأحاسيس فيتأتى لها أداء دورها دون تساؤل . وممارسة أبشع أنواع التنكيل مادامت لا تعى ما تقدم عليه من أعمال .

وقد جسد فتحى رضوان ببراعة صورة المسئولين عن أجهزة الأمن والعاملين فيها جاءت على لسان أحد هؤلاء المسئولين - هو الجلاد - فى وصفه لنفسه - هذا الوصف الذى ينطبق على غيره من مسئولى الأمن - وتصويره لما انتابه من تحول جذرى بعد لقائه بالمحكوم عليه الذى أيقظ فيه مشاعر لم يألفها من قبل وبث فيه أحاسيس لم يعهدها ، واستحدث لعقله القدرة على التفكير والتدبير .

الجلاد (للمحكوم عليه) : لقد تكلمت ولم يعد هناك سبيل لنسيان ما قلت .. أنت لم تعترض وكان هذا وحده كافيا لأن يشعل فى رأسى نارا .. نارا (يضحك فى استغراب) رأسى أنا .. إن الجميع كانوا لا يتصورون أن لى رأسا ، وأنا نفسى .. كنت مشغولا بحذاء ألبسه فى قدمى .. أو سيجارة أمسكها بيدى وأضعها فى فمى ، أما رأسى فعلى الله حسابه .

وبعد أن كان الجلاد يؤدى واجبه الرسمى (الشنق) كعمل روتينى دون أن يتسرب إلى نفسه أى شعاع من الفكر أو الاحساس انتابه القلق والفزع مما كان يقترفه .

الجلاد : وبعد أن أشنقك ماذا أفعل؟

المحكوم عليه: (بهدوء) تشنق غيرى .

الجلاد : كان ذلك قبل أن أعرفك .. قبل أن يسرى فى بدنى سمك الزعاف ، أما الآن فأنا أعرف ماذا أفعل بحياتى ، تصور أننى أسأل نفسى منذ عرفتك : لماذا أعيش هذه العيشة ؟ لماذا أشنق الناس ؟ لماذا تشنقهم المحاكم ؟ أنا لا أكف عن النظر إلى وجوه الناس وإلى تصرفاتهم . كلهم فى نظرى مجانين .

وتتشعب من هذه الفكرة أفكار فرعية تحمل نقدا لأسلوب العنف تأكيدا على عدم إنسانيته وكذلك خلوه من المعنى .

ويجسد فتحى رضوان عجز السلطة من خلال فكرة لماحة وهى كيف أن السلطة تشنق نفسها .

وقد جسد ذلك فى شخصية الجلاد المقنع المتخشب - والذى يمثل أقسى درجات العنف - كيف أنه حين تسرب إليه الفكر زلزل كيانه ودفعه إلى أن يضع حدا لحياته .

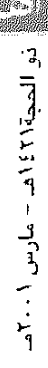
● عملية بطش

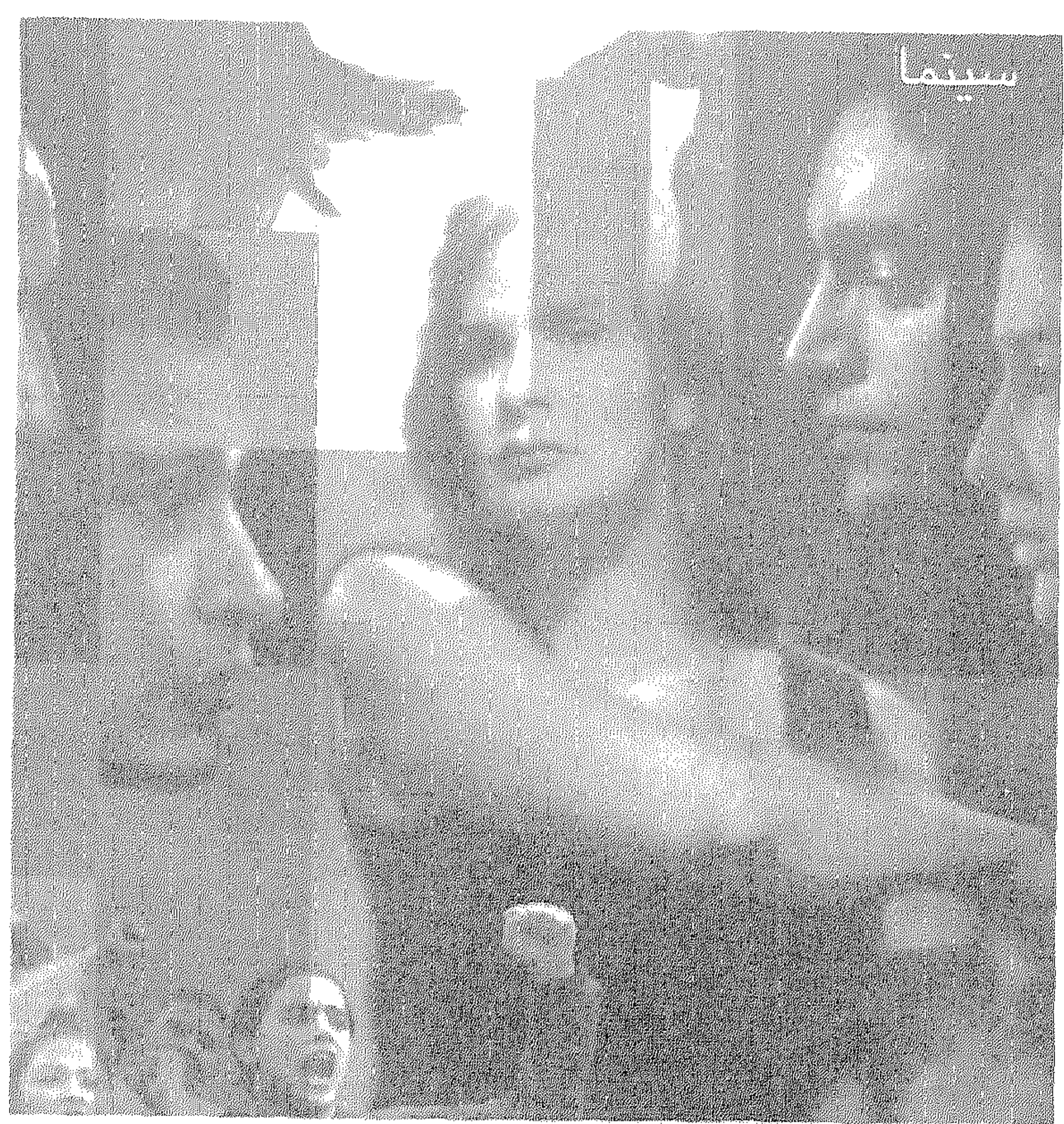
وكان لاختيار فتحى رضوان للجلاد الذى ينفذ حكم الإعدام بالتحديد هدف محورى وهو إبراز وحشية السلطة وجهلها. فالاعدام هو عملية بطش فى أعلى صوره . أراد فتحى رضوان ادانتها وابراز خلوها من المعانى . وكذلك تضخيم آثارها السلبية سواء على المحكومين أو على السلطة نفسها .

فالإعدام خطأ فاحش تأتيه السلطة دون وعى ونتيجة لعجزها وقصورها ونمط إدارتها لشئونها وعواقبه وخيمة . فمن جانب تهدر الدولة طاقاتها وتهدد قدرات الأفراد حين تضع حدا لحياتهم دون رؤية أو تفكير . وهذا ما كان من شأنها مع المحكوم عليه الذى تبين مدى نفعه للمجموع ومدى إنسانيته . ومن جانب آخر فمردوده سلبى على السلطة نفسها حيث انتهى الجلاد بشنق نفسه .

ومن جانب آخر - وفى إطار الممارسات المضادة للحرية - يعالج فتحى رضوان فى مسرحية «المحلل» ظاهرة استشرت فى الواقع - آنذاك - وسمة لازمت دولة المخابرات ، وهى ظاهرة كتابة التقارير التى أضحت ضمانة للترقى فى العمل واكتسابه حظوة عند الرئيس . فلم تعد معايير الكفاءة والخبرة هى المحك لتقييم الفرد ، وإنما براعته فى تتبع رفاقه والوشاية بهم وإجادته كتابة التقارير التى تحمل قليلاً من المعلومات الصحيحة وكَما لا يستهان به من التلفيق والأفعال .

ومازالت تلك الظاهرة تملك الخوف من كل نفس وانعدام الثقة فى الآخرين . ولم تعد مهمة التجسس وجمع المعلومات حكرا على رجال الأمن والمخابرات ، وإنما سعت السلطة إلى أن تجعل من كل فرد رجل أمن فى موقعه. ■





يسرا بطلة العاصفة

قليل من الصدق كثير من الزيف والادعاء

بقلم
مصطفى درويش

غاب عن ساحة إخراج الأفلام الروائية الطويلة زمنا دام زهاء عشرة أعوام.

ثم عاد إليها، ويا للغرابة، لا بفيلم واحد، بل بفيلمين، أحدهما «أولى ثانوى» والآخر «بطل من الجنوب.. عزيز عينى».

وذلك المخرج الغائب. العائد، هو «محمد أبوسيف» نجل المخرج الراحل «صلاح أبوسيف».

وعودته بفيلمين يجرى عرضهما على الشاشات الكبيرة فى يوم واحد، أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما المصرية.

فحتى مخرجون اشتهروا بغزارة الإنتاج مثل «نيازى مصطفى» و«حسن الإمام» و«حسام الدين مصطفى» لم يعرض لهم فى دور السينما، وفى اليوم نفسه، أكثر من فيلم جديد.

وحكمة ذلك ظاهرة، وهى عدم الانتقاص من قيمة المخرج، بعرض أفلامه متنافسة فيما بينها على الإيرادات.

فضلا عن تجربة من هذا القبيل، ولاريب، قاسية، على النفس، حتى ولو كانت أمارة بالسوء.

فوضى وعشوائية

وعلى كل، فإن دل عرض فيلمى «أبوسيف» فى اليوم نفسه، على شىء فإنما يدل على فوضى العروض، وكيف أصبحت تتم دون ضابط ولا رابط.

وفيما يبدو، فالفوضى لم تنحصر فى العروض، وإنما امتدت إلى العناوين.

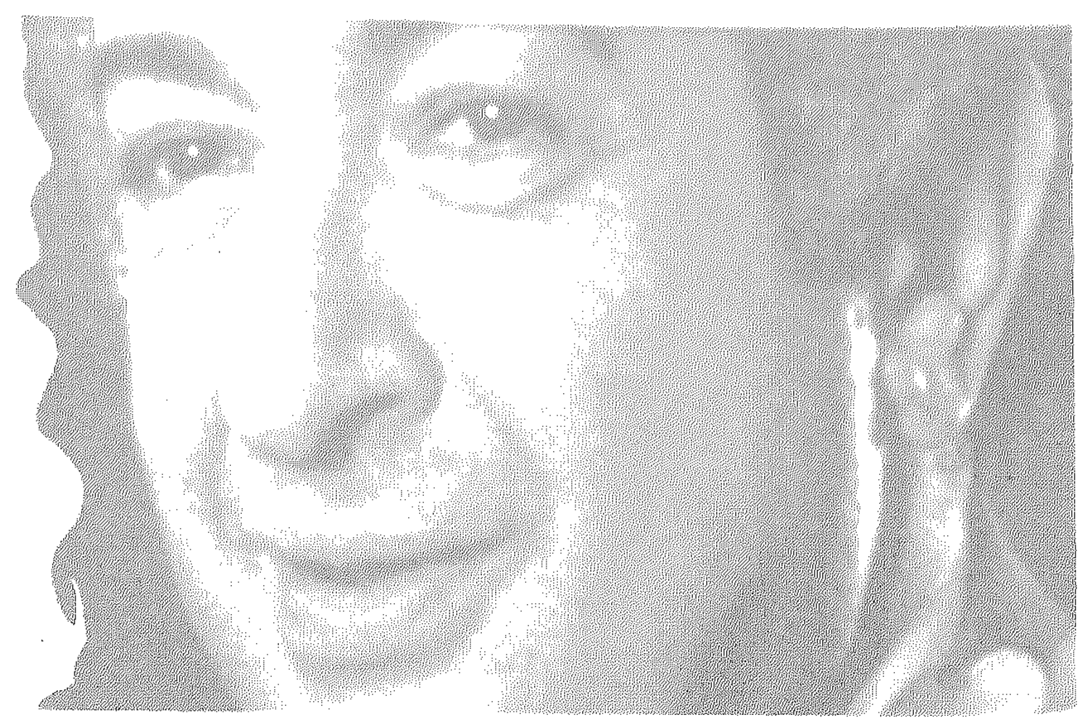
فأولى ثانوى توحى عناوينه بأن دور «حنان يوسف» أقل شأنا من دورى «سوسن بدر» و«ميرفت أمين»، فى حين أن الواقع عكس ذلك تماما.

والعناوين نفسها لاتوحى بأهمية الدور الذى يلعبه الصبية الثلاثة «ماهر عصام» و«شريف بدوى» و«أحمد حسنين»، فى حين أن ذلك الدور من الأهمية بمكان.

فلولا حضورهم المذهل، ودفقة الحيوية والمرح الذى أشاعوه، لولا ذلك، لتحول «أولى ثانوى» إلى فيلم رومانسى مكرر، ثقيل.

حل وسط

أما الفوضى فى عنوان فيلمه الثانى، فظاهرة فيما آل إليه بعد خلاف بين أصحابه، أدى إلى صيرورته فيلما باسمين، أحدهما بطل من الجنوب استجابة لرغبة مخرجه وعزيز عينى



نور الشريف فى اولى ثانوى

إرضاء لنجمته نجلاء فتحي، وكاتب قصته الصحفى شريف الشوباشى.

وأحداث الفيلم الأول تبدأ بـ «عواطف» وتلعب دورها «حنان يوسف» فى البيت الكبير، العتيق، حيث تقوم على خدمة «حمزة» ـ نور الشريف ـ منذ أن كانت صبية، ليس لها من العمر سوى عشرة أعوام.

والعلاقة بينهما ليست من ذلك النوع المعتاد قيامه بين الخدم والأسياد.

إنها علاقة خاصة، قوامها المشاركة والندية، فكلاهما يكمل الآخر على نحو ما.

وفيما عداهما، فالبيت شبه مهجور، يكاد ينعق فى جنباته البوم، وتعشش الغربان.

لقاءات متشابكة

أما كيف التقى «حمزة» بـ «راوية» ـ ميرفت أمين ـ وكيف التقى بالصبية الثلاثة، وكيف تداخلت حياتهم بحياته هو و«عواطف»، فذلك مايحكيه سيناريو فى عمومه محكم البناء، أبدعه «أشرف محمد».

ولن أعرض بالتفصيل لأحداث الفيلم، فذلك شىء يطول، وإنما اكتفى بأن أقول إن كاتب السيناريو والمخرج لم يقنعا إلا بخيوط متعددة، متشابكة.

فكل واحد من أصحاب الأدوار الرئيسية له قصة تؤهله للمشاركة بنصيب فى نسيج الفيلم، وذلك دون أدنى افتعال.

موجة الوحدة

وليس أدل على ذلك، من أسلوب التناول لما اصطلح على تسميته بالوحدة الوطنية.

فالفيلم يركب، ولاريب، موجة الاهتمام المثارة حولها، ولكن بغير الطريقة المباشرة، الزاعقة التى شابت مسلسل «أوان الورد».

فأحد الصبية الثلاثة مسيحى، وهو ما يوحى به اسمه، وخاله، ويلعب دوره «إبراهيم نصر» الذى جاءته الشهرة

بفضل «زكية زكريا» يملك محل تحف لاشيء فيه يوحي بأنه مسيحي، سوى صورة معلقة في خلفية اللقطة للسيدة مريم العذراء.

فإذا ماجاء الصبي الموت أثر أزمة قلبية، شاهدنا خاله، أمام أحد الكنائس، وهو يتقبل العزاء.

وهكذا، ومن خلال مشهد قصير دال، شاركنا أبطال الفيلم حزنهم العميق.

وكما كان خبر موته له وقع الصدمة عليهم، كان له نفس الوقع علينا.

ومن إيجابيات الفيلم الأخرى أنه جاء زاخرا بحوارات خفيفة الدم وابتكارات فنية ظريفة، لايتسع المجال هنا لشرحها.

ولكنني أشهد أنني ظللت طول الفيلم مستمتعا بما تراه عيناي، وتسمعه أذناي، وأتتبع بإعجاب البراعة الفائقة التي أدى بها جميع الممثلين أدوارهم، وأخص بالذكر الصبي «ماهر عصام». هذا، وبقدر نجاح «أولى ثانوي» فنيا وتجاريا، كان فشل فيلم «أبوسيف» الثاني، وذلك رغم أن كاتب سيناريو الفيلمين واحد.

والسؤال المطروح لماذا كان النجاح حليف أحدهما دون الآخر؟.

يرجع نجاح الفيلم الأول إلى بساطة فكرته، وترجمتها إلى لغة سينمائية تقطر رقة وصفاء.

وكل ذلك، دون استعراض خارق، خانق لعضلات الذكاء.

هذا إلى أنه عرض لنا، مكتفيا بالتلميح عن التصريح، قضايا جديرة بالانتباه.

سر الفشل

أما الفيلم الثاني، فيرجع فشله، وهو فشل يضرب به المثل، إلى أن صاحبيه لم يقنعنا إلا بخيوط عديدة، شديدة التعقيد.

فأولا أراداه فيلما ميلودراميا يدور حول أم مصرية «نجلاء فتحي»، فقدت ابنها الصغير، في أثناء الحرب الأهلية المشتعلة نيرانها على أرض لبنان.

وعندما جاءها خبر العثور عليه حيا يرزق، في أحضان أسرة لبنانية، تولت أمر تربيته، زهاء خمسة عشر عاما، عندئذ سارعت بالسفر مع أبيه إلى لبنان، بأمل استرداده، والعودة به إلى مصر، وكأن شيئا لم يحدث.

صراع الأمهات

وهنا، أراد صاحبا الفيلم أن يتحولا به إلى ملهاة، تدور أحداثها حول امرأتين متنافستين على الشاب اليافع، أيهما أحق بأمومته، المرأة المصرية التي فقدته، ولاتعرف من أمر تنشئته شيئا، أم المرأة اللبنانية «كارمن لبس» التي سهرت على تنشئته مع زوجها «جوزيف أبونصار» إلى أن صار شابا.

ولم يكتف صاحبا الفيلم بجعل هذا



النجم الشاب ماهر عصام

مرفت امين بطلة اولى ثانوى

التحول خيطا أساسيا، بل عملا على زيادة الأمر تعقيدا، بالزج بالدينين الإسلامى والمسيحى فى الأحداث.

فإذا بالأسرة اللبنانية تدين بالإسلام.

ومن هنا اختيارها عبدالله اسما للصغير وإذا بالأسرة المصرية تدين بالمسيحية، و«عزيز» هو الاسم الذى اختارته له، والمدون فى شهادة الميلاد.

وعندما يسمع الأب المصرى ـ أحمد خليل ـ ان اسم ابنه «عبدالله» لا «عزيز»، يندب حظه، ويصرخ قائلا: «ابنى مات»، ويغادر بيت الأسرة اللبنانية غاضبا، ليختفى من الفيلم نهائيا، دون أن يترك أثرا!!.

الحيرة والخلاص

وبطبيعة الحال، يحتار عبدالله ـ عزيز ، لايعرف أى الاسمين، ولا أى الدينين، ولا أى المرأتين يختار.

ويظل هكذا حائرا، إلى أن يجد طريق الخلاص فى النضال ضد قوات الاحتلال، فى جنوب لبنان، حيث نراه يرفع علم الوطن، على قمة أحد الجبال، بعد قيامه بنسف القلعة المتحصنة فيها تلك القوات وينتهى به الأمر ، وقد استشهد بين ذراعى أمه المصرية، وهى تبكيه، وعزاؤها الوحيد أنه مات بطلا.

وكل ذلك، قد جرى حكيه بأسلوب سينمائى عتيق، أغفل عنصر التشويق.

فكان أن جاء الفيلم مملا، كسولا، كما وصفه، بحق، قلم أحد النقاد.

وهنا، لايفوتنى أن أذكر أن ثمة شبه إجماع على أن الفيلم لم يأت بجديد.

ولاينبىء، من باب أولى، بأن السينما المصرية على أعتاب مرحلة جديدة فى تاريخها،. كما زعم قلم أحد الكتاب، فى مقال كال فيه المدح له، ولفيلم آخر «العاصفة» أول عمل سينمائى لخالد يوسف، صاحب سيناريو وحوار فيلم «المصير».

العاصفة الميتة

و«خالد» يعرض فى فيلمه الأول لحرب الخليج الثانية التى بدأت بالعدوان على

الكويت، وانتهت بتحرير أرضه، بفضل قوات التحالف التى شاركت فيها جيوش عربية، تصدرها جيشان من مصر وسوريا.

و«خالد» فى عرضه لتلك الحرب، قد عرض لها من خلال «أم» مثله فى ذلك مثل «أبوسيف»، مع استبدال «يسرا» بـ «نجلاء».

فجميلة، وهو على ما أتذكر اسم «يسرا» فى العاصفة، أم لشابين تنتهى بهما الأحداث مجندين أحدهما بالتطوع فى الجيش العراقى «محمد نجاتى» والآخر بالجبر فى الجيش المصرى «هانى سلامة».

وكلاهما للآخر عدو، لحظة اشتعال نيران الحرب بين قوات التحالف المحتشدة على الحدود بين المملكة العربية السعودية ودولة الكويت، حين كان يرزح شعبها تحت نير الاحتلال.

الرمز لماذا؟

ولن أعرض شيئا من تفصيل حكاية العاصفة، مكتفيا بذلك العرض لخلاصتها فى كثير جدا من الإيجاز، لأننى لو عرضت تفصيلها لتنقلت من شىء مفتعل إلى شىء آخر أكثر منه افتعالا، ولتنقلت فى الوقت نفسه، من رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء.

فالشىء المؤكد أن صاحب العاصفة قد اعتمد على الرمز والإيماء أكثر مما اعتمد على التعمق والاستقصاء.

ومن هنا، جنوحه إلى المساواة بين المعتدى وضحيته، وتوسله إلى ذلك بخلط الأوراق.

فالمظاهرات التى تتزعمها «يسرا – جميلة» وأحداث فيلمه تقترب من الختام، ليست موجهة ضد المعتدين المحتلين للكويت، وإنما موجهة، دون لف ودوران، ضد قوات التحالف المحررة لأرض بلد عربى صغير.

ويصل الخلط إلى ذروته، عندما يجرى حرق العلم الأمريكى موصولا بعلم إسرائيل.

داء النسيان

وهكذا، فلم يمر سوى عشرة أعوام، على الفتنة الكبرى التى أثارها العدوان على الكويت، حتى كان يراد لنا أن ننسى أحداث ذلك الماضى القريب.

ولكن هيهات أن ننسى، لأن الذين ينسون الماضى محكوم عليهم بتكراره، كما قال بحق الفيلسوف جورج سانتانايا.

وقبل الانتقال إلى فيلم «سوق المتعة» وهو من إنتاج التليفزيون المصرى، أرى من اللازم الإشارة إلى واقعة دعم ذلك التليفزيون الفاقد للوعى للعاصفة رغم زيفه وسخفه وتحريفه للتاريخ.

أولا بالمشاركة فى انتاجه وثانيا بالدعاية المجانية له ليل نهار على الشاشة الصغيرة.

والآن إلى «سوق المتعة» لأقول إنه فيلم



هاني سلامة وحنان ترك في «العاصفة»

اجتمعت له كل عوامل النجاح، فكاتب السيناريو وحيد حامد والمخرج «سمير سيف» و«المصور» «رمسيس مرزوق» ونجما الفيلم «محمود عبدالعزيز» و«إلهام شاهين».

ومع ذلك، فشلوا جميعا فى أن يحلقوا إلى ذرى عالية بالفكرة التى يدور حولها وجودا وعدما سيناريو «وحيد».

النور والظلام

وتلك الفكرة نستشفها من حكاية بطل الفيلم «أحمد أبوالمحاسن» ـ محمود عبدالعزيز ـ وقوامها كيف عبثت بحياته الأقدار، حتى اضطربت بها اضطرابا شديدا.

فتلك الحكاية تبدأ به، حسب تسلسل الأحداث، وهو خارج من ظلام السجن إلى نور الحرية، بعد أن فقد أجمل سنوات عمره، معذبا وراء القضبان وماهى إلا بضع لقطات حتى يتبين لنا أنه فقد تلك السنوات، وسط عتاة الإجرام، لأنه ضبط متلبسا فى مطار القاهرة بتهريب كمية من الهيروين.

ورغم قضائه عشرين عاما رهين السجون، إلا أنه من تلك التهمة براء.

نذالة وعدالة

أما كيف اتضحت لنا براءته، بعد خروجه من السجن بقليل، فذلك بفضل رجل غامض «فاروق الفيشاوى» جاء إلى الحمام الشعبى، حيث يعمل «أبوالمحاسن»، مندوبا عن قوة أكثر غموضا، ليقول له إن تلك القوة هى التى دست له كيس الهيروين، حتى يكون طعما يخدع أنظار رجال الشرطة، عن صفقة مخدرات كبرى يجرى تهريبها من المطار.

وأن تلك القوة القاهرة، الماكرة قد أفردت له من منطلق العدل، نصيبا فى أرباح تلك الصفقة، واستثمرته لحسابه

على امتداد عشرين عاما.

وبفضل ذلك، له الآن سبعة ملايين من الجنيهات، يمتلكها حلالا بلالا، وله الحق فى أن يتصرف فيها كيفما يشاء، وكل ذلك يرتهن بالالتزام بشرط واحد، هو ألا يحاول إعادة الاتصال بذلك الرجل الغامض، ولا حتى بالسؤال عن اسمه، أو عن كنه تلك القوة القاهرة الماكرة، التى آنفذت فيه هذا القضاء.

فإذا لم يلتزم بذلك الشرط، حق عليه الموت، وانفاذ الحكم به فورا.

قوة الماضى

على كل، فمع هبوط هذه الملايين عليه من السماء، انتقل «أبوالمحاسن» من حال يرثى له، إلى حياة لذيذة، لايعيشها إلا أصحاب المال والجاه، لكنه لم يهنأ بتلك الحياة، لأن ماضيه فى السجن أخذ يطارده فأقلق منامه، وحال بينه وبين الاستمتاع بالفراش المريح، والمأكل الطيب، والجنس كما يمارسه أغلب الناس.

وها هو ذا، يسلك فى الحياة مسلك السجناء، يفترش الأرض، يغسل دورات المياه، يفضل تناول الطعام فى مسمط حقير على تناوله فى أرقى المطاعم، يستمتع بالمرأة «إلهام شاهين» لا بالاتصال، وإنما بالاستمناء.

وفوق كل هذا، يأمر بإقامة مزرعة مماثلة تماما لمزرعة السجن، تحتوى عنبرا طويلا، به أسرة ذات دورين تعلوها نوافذ ضيقة أشبه بنوافذ عنبر السجن.

ولم يكتف «أبوالمحاسن» بذلك، بل عمل على أن يحيط المكان بأسلاك شائكة، تحول دون هروب السجناء، كما عمل على استدعاء زملائه فى السجن المفرج عنهم، للعمل بالمزرعة، ولم يستثن من ذلك حتى الجلادين والمغتصبين.

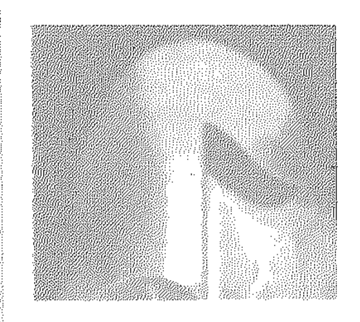
وظاهر مما تقدم، أن الفكرة الدائر حولها السيناريو والفيلم قوامها:

أولا: أن ثمة قضاء محتوما، لايستطيع أحد لاحكامه نقضا ولاتغييرا.

ثانيا: أن الانسان أسير ما شب عليه، لايستطيع منه فكاكا.

وفكرة بمثل هذه الأبعاد، لايتصور ترجمتها إلى لغة السينما بأسلوب مغرق فى الواقعية وإنما بأسلوب متجاوز لها، فيه من الشاعرية، وشطحات مافوق الواقعية، الشىء الكثير.

ولكن شيئا من هذا لم يحدث، لسوء الحظ، وإذا الفيلم، وقد تردى فى واقعية عفا عليها الزمان، لم يقنع أحدا، وجاء فى بعض الأحيان شديد الابتذال، مخيبا لما علق عليه من آمال. ■



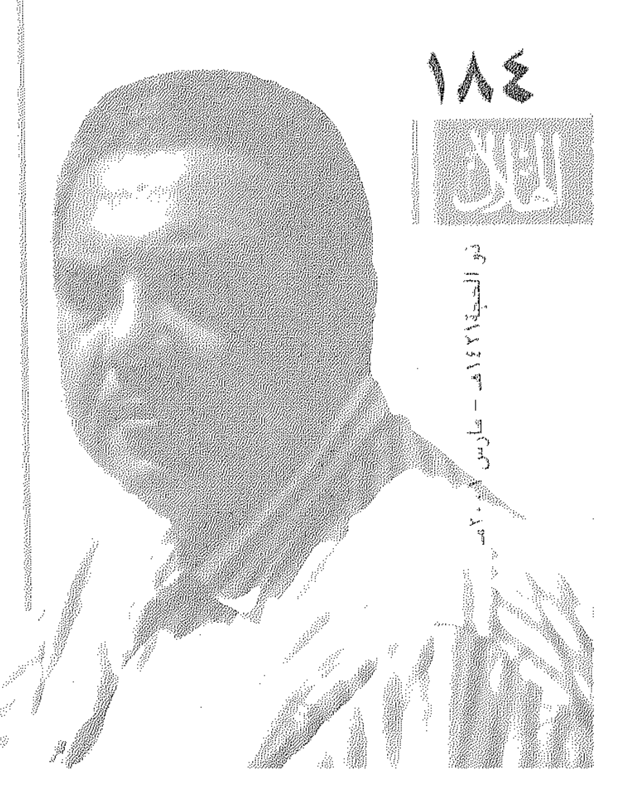
جولة المعارض

عونى هيكل

و ٤٠ عاما مع الفن

بقلم
محمود بقشيش

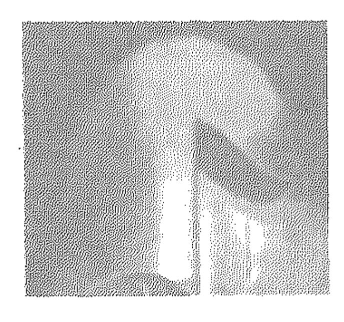
أقام المثال الكبير «عونى هيكل» معرضه الاستعادى الأول بقاعات أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب واستمر المعرض من ٩ يناير الى ٤ فبراير ، وقد كرس الفنان لكل قاعة مجالا من مجالات ابداعه : عرض فى القاعة الأولى نماذج مجسمة. واختار للقاعة الثانية رسومه التحضيرية، وضمت القاعة الثالثة منحوتاته الفراغية. وضمت القاعة الرابعة لوحاته فى مجال الرسم بالقلم الرصاص، أما الحديقة فقد اختصها بالنحت البارز. والمعرض حصاد أربعين عاما فى مجال الفن، لهذا كان من الطبيعى أن يضع لمعرضه عنوانا ينبه به زوار معرضه من النقاد والمهتمين بالفنون الجميلة الى أنهم لايشاهدون معرضا عاديا ، يدور حول مرحلة واحدة، بل معرضاً لكل مراحل الفنان التى استغرقت من عمره أربعين عاما .



المثال عونى هيكل



تمثال العائلة عام ١٩٦٨



جـــولـة المعـــارض

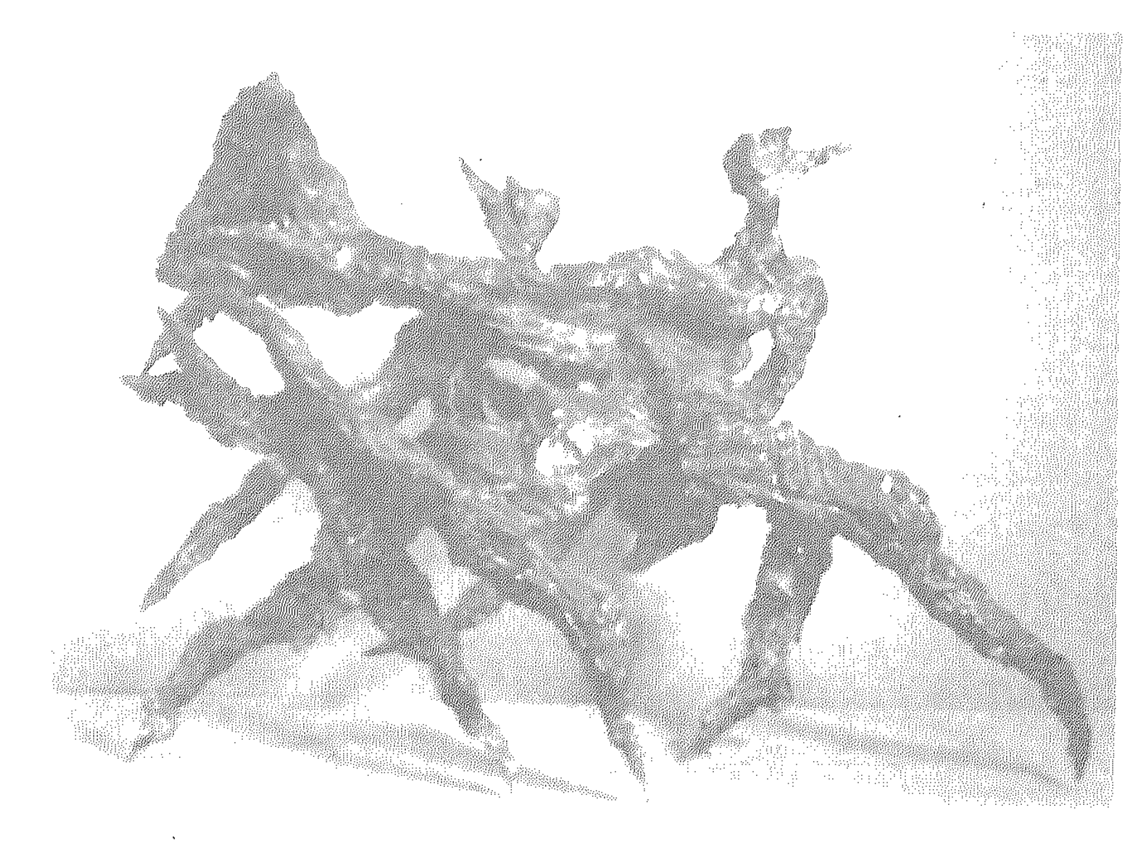
انطباع الوهلة الأولى

إن جـــولة فى رحـــاب هذا المعـــرض تتـــرك فى النفس شعـورا بأن صاحبـه فـيـاض بالانتاج، مولع بالصروح المعمارية، ويمتلك خيالاً ولاّداً لكائنات لا نظير لها فى الواقع المشترك أو فى أعمال مبدعين آخرين، وإن امتدت جذور تلك «الموجودات الفنية» الى ثقافات مختلفة ولم تنحصر فى اطار ثقافة واحدة ينحاز لها الفنان : امتدت الى الأساطير اليونانية والموروث الإسلامى والمسيحى فى آن واحد. ولم يكتف الفنان بهذا الاتصال المتنوع بل مدده الى العصر الذى نعيشه، وهو عصر - كما نعلم جميعا - مفعم بكل ألوان العنف والعدوان . ومن الطبيعى أن تنتقل عدوى هذا العنف الى «موجودات» الفنان . وقد خصص لها كتابا ضم عشرات المحاولات من أجل الوصول الى نموذج مثالى لهذا الكائن الذى يمثل عصرنا. واختار أكثرها اكتمالا (من الناحية الفنية) ووضعه على غلاف الكتاب الذى أطلق عليه عنوان : «كروكيات نحات».. أما النموذج ذاته فقد تجلى فى هيئة كيان مسخى، مرعب، مدجج بأسلحة من صنع الخيال .

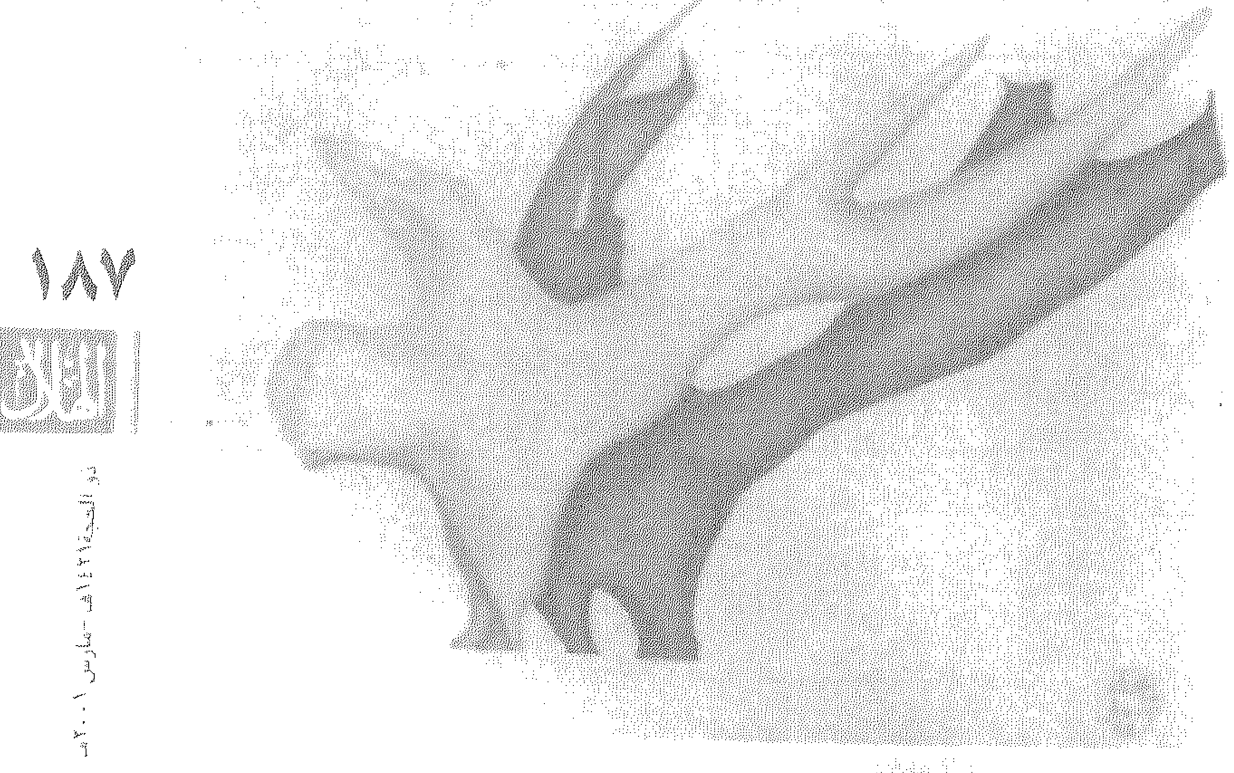
ثنائيات حوارية

ما أن تصل إلى نهاية جولتك فى المعرض حتى تدرك أن ثمة وجهين يقتسمانه : وجهاً يجسد رؤية متأملة، فلسفية فى الوجود، ينسجها الفنان - كما سبق الاشارة - من الأساطير اليونانية ومن الموروث الدينى الاسلامى والمسيحى، غير أنه يمتلك من الاصرار والاعتداد بموهبته القدر الذى يسمح له بأن يذوّب الرموز العامة فى نسيج أسلوب فنى يخصه. أما الوجه الآخر فهو وجه اجتماعى مشرق، مكرسة أعماله لما هو نافع وجميل وموجه لكل الأعمار فى المجتمع المصرى .

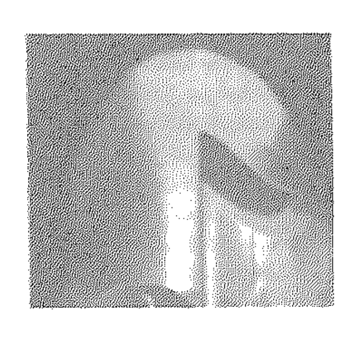
تتسم مجسماته المعمارية التى اتخذت شكل المسلات الهرمية بالانضباط الهندسى ونصاعة السطوح ، فى نموذج «نافورة المسلات السبع» تتجلى المسلات فى تماسك جماعى ، «كورالى» . والعنوان يصف الغرض من المشروع. وقد اقترح له الفنان عند التطبيق أن ينفذ بالخرسانة البيضاء وأن تكون مساحة قاعدته ٤٠×١٥ مترا وارتفاعه ثمانية عشر مترا. وتعود المسلات الهرمية إلى الظهور ثانية فى عمل آخر، موجه الى الأطفال، حيث يتيح لهم



الملاك والفارس



الحمامة والغراب رسم بالقلم الرصاص



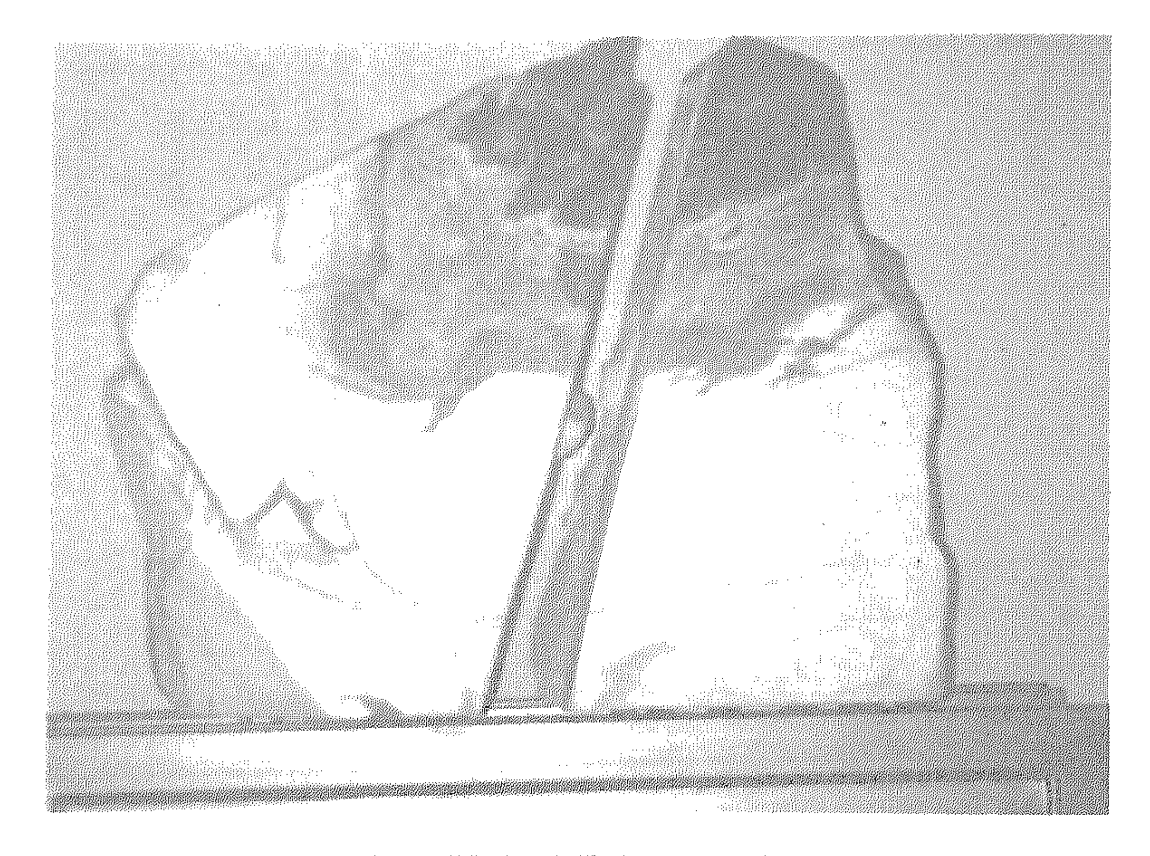
جولة المعارض

اللهو بين فراغاته البينية. ويقترح الفنان على منفذى هذا النموذج أن ينفذ بالخرسانة البيضاء أيضا وأن تكون مساحة القاعدة ٣٠×٣٠ مترا وارتفاعه خمسة عشر مترا. واذا كانت تلك المجسمات المعمارية (التى فاز بعضها بالجوائز الأولى) قد اتسمت بالأناقة والانضباط الهندسى والبهجة فإن منحوتاته ذات التوجه (التعبيرى / الرمزى) تتسم بالتلقائية وخشونة الملمس والدينامية .

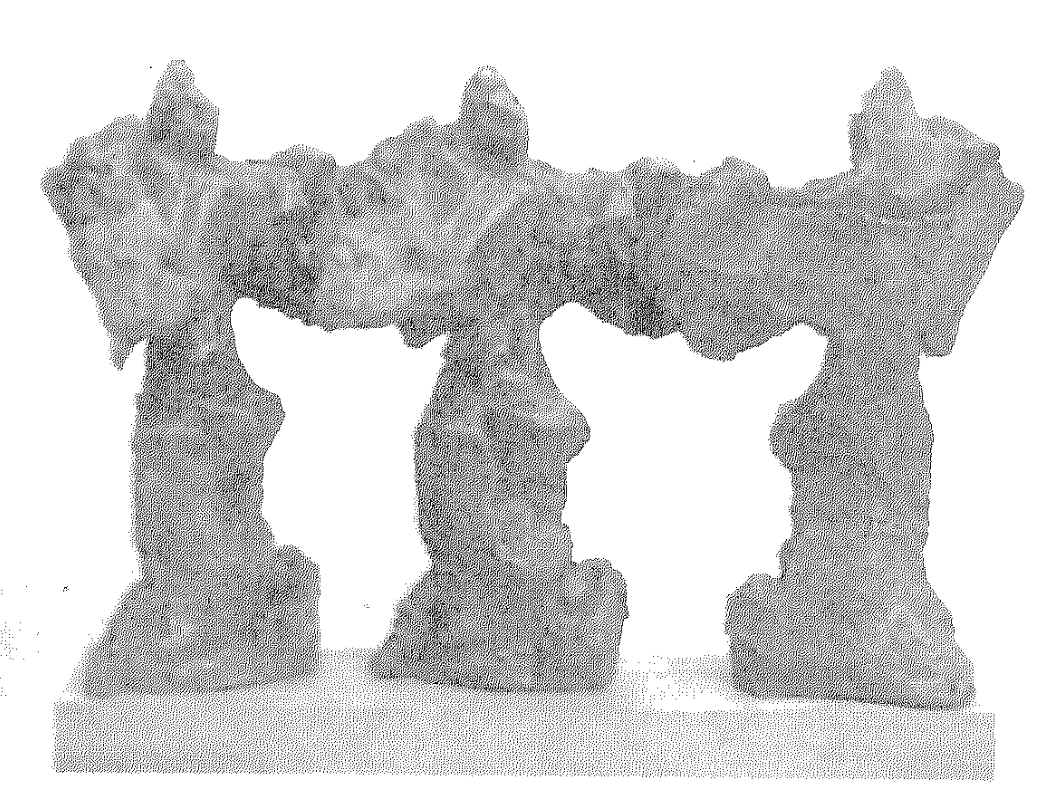
الملاك والفارس

على النقيض من بساطة اللوحة الكنسية يفاجئك تمثال «عونى» بحركة صدامية صاخبة نبين كتل شبه طائرة. والتمثال من البوليستر المباشر، مقياسه ٨٠×٦٥سم. ويشبه اشتباك الكتل علامة × المزدوجة (××) وامعانا فى الحركة الصدامية فإنه يتخذ لمنحوتته نقاط ارتكاز متعددة، لدفع الكتل فى الجهات المعاكسة.

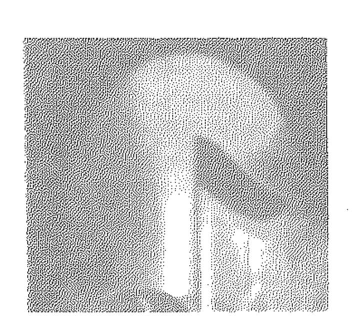
وتسهم خشونة الملمس فى اعلاء درجة سخونة الشحنة الدرامية الكامنة. وقام لون الصدأ ليسهم بدوره فى الايحاء فإن ما نراه قد جيء به من زمن قد اندثر الا من ذاكرة الكتب المقدسة . ولا يعنى استلهام المثال «عونى هيكل» ، بين الحين والحين، شيئا من التراث الدينى أنه من الفنانين الدعاه. والحقيقة أن ماهو مشغول به فى المقام الأول هو اكتشاف أشكال نحتية تناسب أغراضه التعبيرية. وهو يريد لمنحوتاته، أيا كانت موضوعاتها، أن تكون مفعمة بالحركة والحضور المؤثر. والحركة فى منحوتاته لا علاقة لها بأسلوب الفن الحركى (Cine'tique) ولا ترتبط بآلية الحركة الواقعية، فالحركة فى منحوتاته ايحائية. وهى توحى دوما بحركة ذات طابع صدامى : فتمثال «البراق» ـ على سبيل المثال ـ يبدو مندفعا فى كل اتجاه فى آن واحد، ويذكرنا بقول امرىء القيس : (مكر مفر مقبل مدبر معا!) .. ونفس الحالة تنطبق على تمثاله (القنطور) وهو كائن خرافى نصفه رجل ونصفه فرس، وتحكى الاسطورة اليونانية التى أوجدته أنه كان ينتمى الى قبيلة من المخلوقات التى تتصف بالتوحش والغلظة. وبطبيعة الحال فإن الطبائع البدائية وما تتسم به من صدق، لاقترابها من الغريزة قد راقت لكثير من المبدعين المحدثين فى العالم. (وعونى هيكل واحد منهم) وهو لا يحفل بالمشابهة مع الواقع، حتى لا



كيان مشطور (تمثال المصادفة السعيدة)



الساحرات الثلاث



جولة المعارض

يصرف انتباه المشاهد بعيدا عن تجليات الفعل «الدينامى» الى هامشية قياس درجات اقتراب العمل الفنى من الواقع ومهارة الصانع .

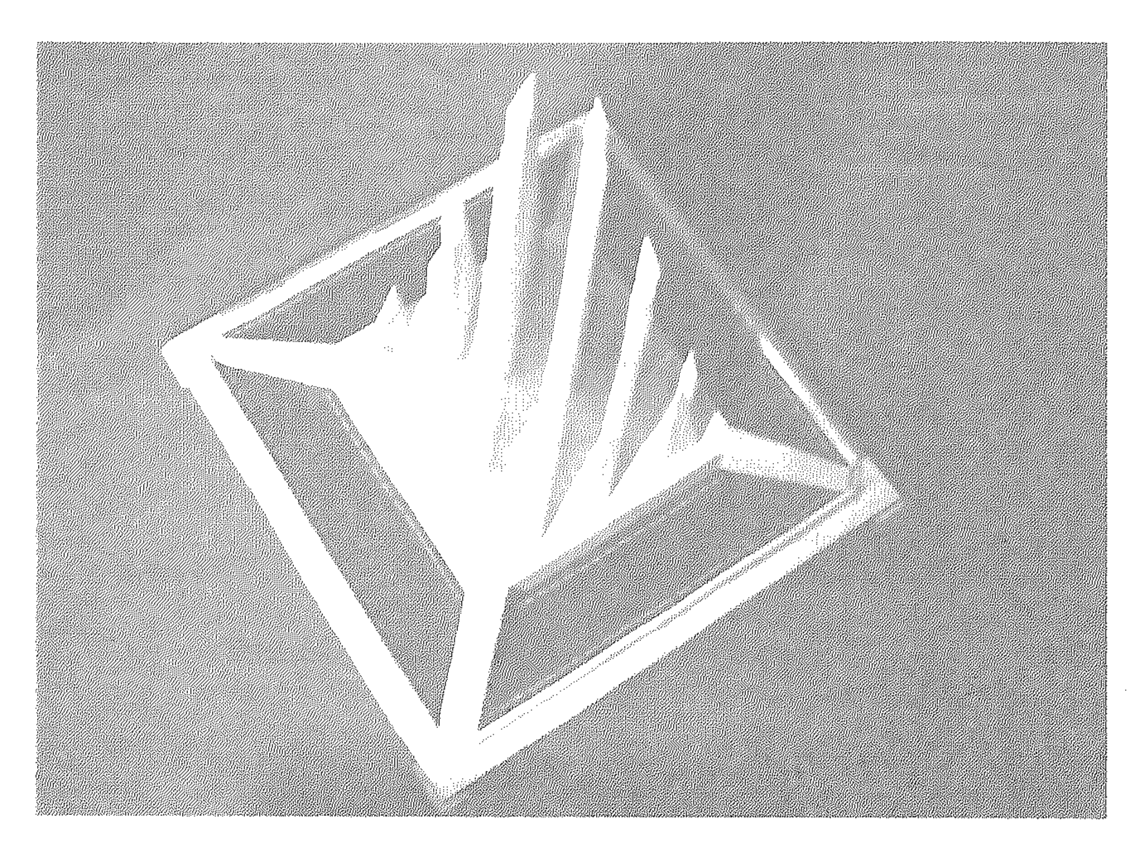
صائد المصادفات المتفردة!

أتاحت له إحدى المصادفات السعيدة لقاء بكتلة من الرخام المصرى ادفو فى محجر رخام ، زنتها مائتا كيلو جرام ، لوّنتها الطبيعة بألوان خلابة، أغراه جمالها بأن يحتفظ بها كما هى، غير أنه قرر أن يصنع منها عملا فنيا يحمل اسمه. ولحسن حظه أنه ليس مثّالا «أكاديميا» والا كان عليه أن يحطم جمال الخامة، لكى يحصد حصادا هزيلا وهو الوصول الى شكل تشبيهى، يتبارى المشاهدون فى قياس درجات اقترابه من الأصل الواقعى. وقرر أن يشطرها شطرين متكاملين، ومن ثم يقوم الفراغ الهندسى البينى بفصل كتلتى الوجهين (الناعم والغفل) فصلا (حقيقيا) ووصلا (ايحائيا). وكان عليه ، احتراما لخامة الرخام - من ناحية - وحرصا على الثنائيات اللمسية لمنحوتات «عونى» - من ناحية أخرى ، أن يصقل وجها واحدا. وأن يترك الوجه الآخر على ما كان عليه فى اللقاء الأول من خشونة. وبحس القناص الماهر ترك فى الفراغ البينى بروزا يتجه نحو ملامسة الشطر الآخر ، ويذكر - من طرف خفى - بتمثال «القبلة» لـ «برانكوزى»!.

تمثال المسيح

هو آخر تمثال للفنان «عونى هيكل» وقد انتهى منه قبل افتتاح المعرض بساعة واحدة. وقد استخدم لتنفيذه ثلاث خامات متباينة ، هى : الحديد والرخام والنحاس.

وقد أعطى الحديد دور الركيزة المحورية ، فى شكل عمود من الصلب، ينهض عاليا، على قاعدة تشبه أصابع شوكة تنغرز فى الأرض، فيما تظهر ذروة العمود وقد توجت بدائرة شمسية، تمتد أصابعها فى كل اتجاه، بدلا من اكليل الشوك المعروف، اشارة ذكية الى تحول الآلام التى عاناها المسيح فى الأرض الى نور يضىء العالم. وعلى جانبى العمود الذى يرمز الى جسد المسيح، مثلثان يتجهان الى الأعالى اشارة الى الصعود السماوى. وابقى الفنان على نعومة ونصاعة المثلث الرخامى، فيما أحدث فى النحاس ما يشبه تجاعيد بشرة انسانية عجوز، أو قشرة أرضية جافة تنتظر من يرويها. وقد اختار الفنان لتمثاله أسلوبا



نماذج نحتية للأطفال، حتى تتاح لهم فرصة اللهو حوله وداخله

يجمع بين ايجاز الأسلوب التجريدى وأدبية الأسلوب الرمزى. وقد أعانه هذا الاختيار على أن يحتفظ لتمثاله بدرجة عالية من التركيز على كل ماهو جوهرى .

البيان

على الرغم من أن الفنان «عونى هيكل» يتمتع بخيال خصب فإنه يعترف بأنه أول المندهشين ، والمفاجئين بأعماله، وفى البيان الذى صاحب معرضه كتب يقول :

ماهذه الأشكال التى أصنعها؟ .. أين أولها وأين منتهاها ؟ ..) ويواصل تساؤلاته الحائرة واجاباته غير اليقينية بقوله : ماهذا الذى أجده أمامى بعد طول معاناة فى عملية الخلق والإبداع؟.. هل هى كوارث منطلقة مما يحدث ومما حدث من تدمير وتحطيم؟ .. ربما ! .. هل هى هياكل عظمية منزوعة النخاع، تلتحف بأشكال أسطورية ، تنطلق الانطلاق الأخير هربا من الطغيان المعنوى والتخلف الفكرى ومشاعر الدونية والعجز واليأس؟

وربما كان من المناسب أن نختتم تساؤلات مثالنا المصرى «عونى هيكل» بعبارة للمثال الأمريكى الكبير (دافيد سميث ١٩٠٦ ـ ١٩٦٣) وهى : (إن النحت يجب أن يكون حرا كالروح ، ممعقدا كالحياة!). ■

معارك فكرية

محمد لطفى جمعة

منصفا وظالما

بقلم
وديع فلسطين



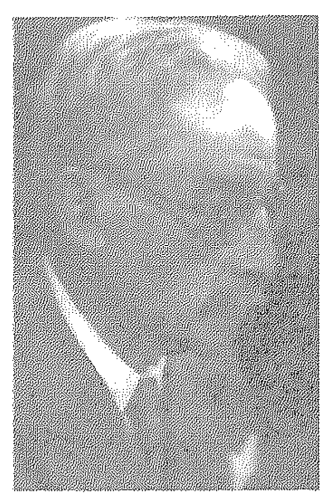
تمر ذكرى الأدباء، وقل أن يلتفت إليها أحد، مع أن الذكرى تنفع المؤمنين، ومع أن الأدباء الذين عاشوا عصورهم بالطول والعرض لاتنطوى ذكراهم فى تلافيف الحياة الهادرة، ومنهم من تعتبر سيرته سيرة ملهمة عطرة، هى من أثمن الدروس التى تستخلص من حياتهم وأعمالهم بل فتوحاتهم.

وقد مرت فى الثامن عشر من شهر يناير الحالي ذكرى ميلاد الأديب العلامة محمد لطفى جمعة، الذى ولد فى الإسكندرية فى عام ١٨٨٦ وعاش حياة خصبة غزيرة الإنتاج، وكانت له فى كل ميدان جولات وجولات.

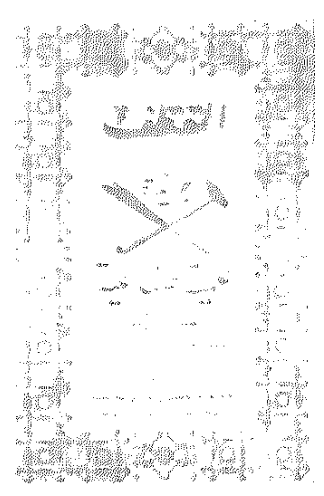




ماری کوری



خليل مطران



غلاف المقتطف

لم ألتق بمحمد لطفى جمعة، ولكننى رأيته فى آخر مرة وقف فيها يواجه الناس فى محفل كبير، كان ذلك بعد اغتيال الزعيم الروحى الهندى المهاتما غاندى فى عام ١٩٤٨، عندما قرر خريجو جامعات فرنسا وسويسرا وبلچيكا فى مصر إقامة حفل لتأبينه فى قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية، وكان ذلك فى شهر ديسمبر ١٩٤٨، وهو حفل شارك فيه محمد لطفى جمعة وكنت من شهوده.

تعاقب الخطباء، كل يتحدث عن مناقب الزعيم الهندى الراحل من زاوية من الزوايا، فلما حل الدور على محمد لطفى جمعة، وقف بقامته القصيرة وجسمه الممتلىء وطربوشه التقليدى، وأخذ يُلقى كلمة مكتوبة «آنا» ومرتجلة فى معظم الآونة، وهو شديد الانفعال، تكاد الدموع تتساقط من عينيه، ولم يلبث جسمه أن أخذ يترنح، فحسبناه يتخذ لنفسه موقفا خطابيا تهتز له جميع أعضائه، ولكنه بدا وكأنه لم يعد يقوى علىّ مجالدة الموقف العصيب، وأنه يؤذن بالسقوط، فهرع إليه الدكتور حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة ومنظم الحفل، وقام بمساندته، بل حاول إثناءه عن إتمام كلمته، ولكنه تشبث بالمنبر، وواصل حديثه فى جهاد عنيف لمقاومة اختلال توازنه، وكان فى كل خطبته مُفرطا فى الانفعال وكأنه يبكى صديقا حميما، وكيف لا؟، وهو الذى سعى إلى لقاء المهاتما غاندى عندما توقفت سفينته «راجيوتانا» فى بورسعيد فى طريقه إلى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة فى ٢٩ أغسطس ١٩٣١، وكانت للطفى جمعة معه جلسة طويلة، ولاغرو أن يحتشد فى خطبته بشعور فياض، حيث قال:

«لاشغل شاغل، ولا مرض داهم، ولانقص فى الشعور بالواجب هى أو بعضها التى أخرت تعبيرى عن عميق



الحزن وشديد الاسى وصادق الوجد والألم لوفاة الإنسان العظيم والمرشد الكامل والرجل المخلص خادم الإنسانية والشرق عامة والهند خاصة. الطيب الذكر الخالد الأثر. الزعيم الجليل والروح السامى المهاتما موهانداس غاندى، إنما الذى عاقنى وعطل وأسكت لسانى حتى جف المداد وتلجلج اللسان ذهول كامل شامل وحيرة عقلية وحداد نفسانى لم يسبق أن اعترانى شىء منها عندما سمعت نعيه. ثم تأكدت الخبر المفزع فى الصحف».

هذه اللوعة المحرقة الصادقة فيها أكبر برهان على أن لطفى جمعة كان إنسانا جُبل من أصفى المعادن. فاهتز كيانه كله لوفاة زعيم ليس من بلاده أو من مواطنيه، وكاد يسقط وهو يرثيه على منبر.

كان هذا فى شهر ديسمبر ١٩٤٨، وقد علمت بعد ذلك من نجله المستشار رابح أن هذه المناسبة كانت آخر مرة خرج فيها محمد لطفى جمعة من بيته، فقد أنشبت العلّة أظافرها فيه حتى انطلقت روحه إلى بارئها بعدها بخمس سنوات فى الخامس عشر من يونيو ١٩٥٣ بالغا من العمر سبعة وستين عاما.

***

عاش لطفى جمعة فى خضم الحياة السياسية والفكرية فى عصره، واقترب من عدد كبير من الأعلام الذين كانت لهم على مسارح الحياة أدوار، من مصريين وعرب ومشارقة ومستشرقين، وكانت له مع كل منهم مواقف أو مراسلات أو مجادلات جاء نشرها، أو على الأصح بعثها، على يدى نجله المستشار رابح شهادات حية على عصر بتمامه، وهى لاتخلو من خصوصيات، ومن مسائل عامة كانت للطفى جمعة. فيها مواقف جازمة أو عنيفة أحيانا. أو مواقف كان فيها منصفا سديد الرأى، وهى فى مجموعها تدل على علمه وعلى وطنيته وعلى حرصه على المبادىء الخلقية، وعلى قدرته على مصاولة من سمّاهم بـ «المتعاصرين والانداد». والغريب أن هذه الشخصية الضخمة التى اشتغلت بالتاريخ وبالأدب وبالفلسفة وبالنقد وبالسياسة وبالقانون وبالأدب الروائى وبالدين وبالاجتماع.. أقول إن الغريب أن هذه الشخصية الضخمة لم تصادف من مواطنيها التقدير الذى يليق بها، وإنما جاءها التقدير من مجمع دمشق ـ وكان يعرف وقتها باسم المجمع العلمى العربى ـ فاختير عضوا مراسلا فيه عام ١٩٣١.

***

كان لطفى جمعة معاقرا للقلم، يكتب ويكتب ولا يمل، سواء تهيأت له أسباب النشر أو لا، ومازالت مخطوطاته من مذكرات ودراسات أدبية وتاريخية وفلسفية تضاهى فى عددها ماتيسر نشره فى حياته أو على يدى نجله البار المستشار رابح، ولكن هذا الكلام الكثير الذى دونه لطفى جمعة يثير قضايا نختلف معه فى بعضها أشد اختلاف.

فهو حين يتحدث عن مجلة «المقتطف» التى عمرت ٧٧ عاما بين عامى ١٨٧٦




يعقوب صروف المهاتما غاندى

و١٩٥٢ يحاول النيل منها ومن أهداف ناشريْها يعقوب صروف وفارس نمر، فهو يتهم المجلة بسوء النية وبمحاولة زعزعة العقائد لأنها عرّفت بنظرية داروين فى النشوء والارتقاء التى كانت نظرية طازجة فى وقتها لايصح لمجلة تزعم أنها مجلة علمية أن تتجاهلها، بل يتعين عليها حتما أن تعرضها وتناقشها من كل جوانبها. «فالمقتطف» لم يروج لهذه النظرية، وإنما عرضها عرضا علميا جريا على سنن العلماء، شأن المجلة فى ذلك شأنها فى احتفائها بنظرية اللاسلكى لماركونى، واكتشاف الراديوم بفضل مارى كورى، واكتشاف البنسلين على يدى فلمنج وبنظرية النسبية لأينشتين، وما إلى ذلك من النظريات العلمية التى غيرت وجه الحياة فى القرن العشرين.

ثم إن لطفى جمعة نعى على مجلة «المقتطف» اهتمامها برجال المال والأعمال بما نشرته من قصص نجاحهم لكى يستخلص من ذلك أنها تدعو إلى الرأسمالية أو إلى سيادة طبقة الأثرياء على طبقات الفقراء، فإذا كابد عالم فى التنقيب عن البترول. وانتهى كده إلى اكتشافه، وتدفقت الثروة عليه، أفلا يعد هذا حدثا يستحق التسجيل؟، ومع ذلك فإن «المقتطف» لم يهمل القضايا الخاصة بالزراعة وفلاحة الأرض، وعندما استقبل شريف باشا رئيس الوزراء صاحبى «المقتطف» قال لهما إنه مدين لهذه المجلة بما أحرزه من نجاح فى فلاحة أرضه، حيث استخدم أنواع الأسمدة التى أوصت المجلة باستخدامها، فجاء محصوله وفيرا، شأن غيره من الفلاحين.

فاتهام المجلة صراحة أو ضمنا بأنها تنحاز إلى رجال المال والأعمال، هو اتهام جائر ولاسيما عندما يصدر عن محمد لطفى جمعة حيث أحصيت ١٣ موضوعا نُشرت له أو عنه فى هذه المجلة بين عامى ١٩٢٠ و١٩٤٠ مما يوحى بأنه كان على دراية كاملة باتجاهات المجلة.

على أن لطفى جمعة راجع نفسه بعد طول معرفة بالدكتور يعقوب صروف محرر المجلة، فلما توفى فى عام ١٩٢٧ تنادى



مع جمهرة من رجال الفكر لتأبينه. وألقى هو كلمة منصفة في حق هذا الرجل الذى ظلمه قبل أن يعرفه.

ومعذرة لدفاعي عن مجلة «المقتطف» إذ كنت من المسئولين عن إدارتها وتحريرها في سنيها الثماني الأخيرة.

★★★

ويروى لطفى جمعة أنه قدم إلى صديقه الشاعر خليل مطران مسرحية من تأليفه عنوانها «الحب والضمير» على أمل تمثيلها - بعد إجازتها - على مسرح دار الأوبرا الملكية. وكان خليل مطران يشغل وقتها منصب مدير فرقة التمثيل القومية، وطال انتظار لطفى جمعة لليوم الذى يزاح فيه الستار عن هذه المسرحية، ولكن انتظاره خاب، وأدهشه أن المسرحية تحولت إلى رواية سينمائية عنوانها «نشيد الأمل» مثلتها أم كلثوم، ذلك أن مطران ائتمن عليها واحدا من مساعديه اسمه إدمون تويما. وهذا قام بإشراف مطران باصطناع فيلم منها هو الذى عرض باسم «نشيد الأمل» ويشتم من كلام لطفى جمعة أن خليل مطران خان الأمانة وكفر بالصداقة واجترح هذه الفعلة في حقه.

وأنا وقد عرفت الشاعر خليل مطران عن قرب شديد ولازمته ملازمة شبه تامة في سنى عمره الأخيرة أشهد بأنه كان يتحلى بأخلاق النبلاء سراوة وتهاوة وشهامة وأمانة وعفة وصدق طوية، واستبعد استبعادا تاما أن يكون مطران قد قام عامدا ومتعمدا بتسريب مسرحية لطفى جمعة على النحو الذى توهمه المؤلف، وإذا كانت المسرحية قد عرفت طريقها إلى السينما من خلال إدمون تويما في ظروف غير معروفة، فالمؤكد أن ذلك لم يكن بمعرفة مطران ولا بإشراف منه، كما ذهب إلى ذلك لطفى جمعة، وهنا يبرز تساؤل: لِمَ سكت لطفى جمعة عن هذا الانتحال وهو المحامى الضليع؟. ولِمَ لم يلجأ إلى القضاء لاستنداء حقوقه الأدبية قبل المادية، وهو الذى كان مكتبه كمحام مقصد الأدباء، يستنجدون به لمقاضاة من يناوئونهم، كما فعل رائد أبولو أحمد زكى أبو شادى؟، ولو أن لطفى جمعة احتكم إلى القضاء لجاء قراره حاسما في هذه القضية.

★★★

وللطفى جمعة رأى فيه تحامل شديد على الصحفى خليل ثابت الذى رأس تحرير جريدة «المقطم» أربعين عاما، ولم يخل عدد منها من مقالات الصدر المسهبة التى كان يكتبها تعليقا على الأحداث الداخلية والخارجية والاقتصادية، فلطفى جمعة يقول: «إن خليل ثابت اتخذ طريقة كتابة المقالات الفاترة الجافة التى يصاب قارئها بالصداع لقلة حنكة الكاتب وبرود مزاجه وثقل دمه.. ومقالاته سمجة فاترة لا حماسة فيها ولا فن.. وقد ادعى خليل ثابت أنه أتقن الكتابة في وصف وقائع الحربين الكبريين ١٩١٤ و١٩٣٩ ، وقد وصف فيها وقائع لم ينظرها، وكل عهدته على الأخبار البرقية والصحفية، وليس لديه



فارس نمر



سلامة موسى

ثقافة حربية ولا تاريخية. والمسألة مسألة اجتهاد».

هذا بعض ما وصف به لطفى جمعة كتابات خليل ثابت، وهو فى اعتقادى أبعد مايكون عن الصواب، وأشد مايكون تحاملا، فهل يعاب الاجتهاد على الكاتب الصحفى؟. وهل جميع المعلقين الكبار على الحربين العظميين كانوا مراسلين حربيين ذهبوا إلى المواقع ووصفوها وصف عيان؟ أعتقد صادقا أن لطفى جمعة تحامل على خليل ثابت وتعسف أشد تعسف فى وصفه، فقد كان من أبرع المحللين السياسيين فى عصره، إن لم يكن أبرعهم، وقد تابعت بنفسى وعن قرب افتتاحياته على مدى عشرين عاما، وكنت وأنا طالب صحافة، ثم وأنا مشتغل بالصحافة، ثم وأنا قائم بتدريس علوم الصحافة على المستوى الجامعى أعجب بها أشد الإعجاب وأستفيد منها فى حياتى العملية. وعندما خلفت خليل ثابت فى عمله.

***

ومادام لطفى جمعة قد حرص فى مذكراته وكتاباته على وضع جميع معاصريه فى الميزان، وإصدار أحكام عليهم، فقد افتقدت بين هؤلاء رجالا مثل أنطون الجميل محرر الأهرام، وعلى الغاياتى صاحب جريدة «منبر الشرق» وسليم سركيس صاحب مجلة «سركيس» ونقولا الحداد مترجم نظرية النسبية وزوجته الأديبة روز أنطون حداد شقيقة فرح أنطون الذى أعلى لطفى جمعة من شأنه بأعظم عبارات التقدير، كما أنه أشار إشارة عابرة إلى فؤاد صروف الذين خلف عمه ـ وليس شقيقه ـ يعقوب صروف فى تحرير المقتطف عشرين عاما، ولا اهتم بالحديث عن إسماعيل مظهر محرر مجلة «العصور» وسلامة موسى محرر «المجلة الجديدة».

لقد أمسك لطفى جمعة بغربال كبير غربل فيه «المتعاصرين من الأنداد» فتحصل فى غرباله كثير من الحنطة وكثير من الزوان أيضا، فكان منصفا وظالما فى آن، ولكنه كان فى جميع الأحوال صادقا مع نفسه يجاهر برأيه ولايخشى شيئا، وله

من ثقافته ومن تجاربه ومن بلاغته ومن «روب» المحاماة الأسود مايكسب به حتى القضايا الخاسرة.

إضافات واستدراكات

أشرت في عدد أكتوبر من «الهلال» إلى أن آثار طه حسين تلقى حفاوة واضحة في تونس وأوردت عناوين بعض الكتب التي ظهرت أو هي بسبيل الظهور عن طه حسين نقلا عن العلامة التونسي «أبو القاسم محمد كرو».

وقد نبهني الأستاذ حسن جغام إلى كتب أخرى عن طه حسين ظهرت في تونس منها «طه حسين: نقده الأدبي ومصادره الفرنسية» تأليف مفتاح طاهر وظهر عام ١٩٧٦ و«طه حسين يتحدث عن أعلام عصره» لمحمد دسوقي وقد نشر في عام ١٩٨٢ و«عدد خاص» من مجلة الحياة الثقافية عن طه حسين أصدرته وزارة الثقافة التونسية في عام ١٩٩٠» و«طه حسين مؤرخا»، وهو في جزءين من تأليف عمر مقداد الجمني وصدر عن بيت الحكمة في عام ١٩٩٣ .

أما الكتب التي ستصدر في سلسلة «مكتبة طه حسين» فهي: «طه حسين مفكرا سياسيا» لرشيد القرقوري و«مسالك إلى فكر طه حسين» للدكتور منجي الشملي وآخرين و«مع أيام طه حسين» للدكتور عطية عامر.

وفي العدد نفسه من «الهلال» قلت إنه لا العرب ولا الفراعنة عرفوا علة البروستاتة التي يطلق عليها مجمعا دمشق والأردن لفظة «المؤثة»، وكنت في هذا ناقلا ما حدثني به الطبيب الاستشاري الدكتور شريف الكرداني، زميل كلية الجراحين الملكية البريطانية، وهو ما تأكدت منه بالرجوع إلى موسوعة الدكتور حسن كمال عن الطب الإسلامي وإلى كتاب الأطباء في مصر الفرعونية «للدكتور بول غليونجي والكتابان باللغة الانجليزية.

غير أن الطبيب السوري - والروائي أيضا - الدكتور عبدالسلام العجيلي علق على كلامي قائلا إن العرب عرفوا هذا الداء ولكنهم لم يشخصوه، وإن الشاعرة الخنساء رفضت الزواج من دريد بن الصمة عندما شكا لها من هذه العلة.

وفي عدد نوفمبر من «الهلال» رويت أن المسئول عن الآثار في سوريا في زمن الاستعمار الفرنسي باع بفرنك واحد لوحة منقوشة على ضريح الشاعر أبي العلاء المعري إلى بعض المسئولين الفرنسيين، وإن هذه اللوحة كانت تحمل بيته المشهور:

هذا جناه أبي عليّ

وما جنيت على أحد

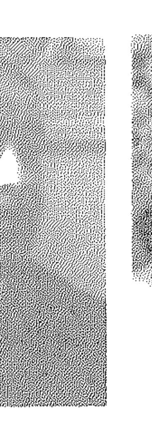
وأن اللوحة اختفت ولايعرف مصيرها، وقد ذكرت سهوا أن المعري مدفون في حلب الشهباء مع أنه مدفون في معرة النعمان في سوريا.

ثلاث رحلات للشاعرة فدوى طوقان

سجلت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان سيرة حياتها في كتابين، حمل الأول منهما عنوان «رحلة صعبة» وحمل


طه حسين


فدوى طوقان


محمد عبد الغنى

الثانى عنوان «الرحلة الأصعب» ولكنها فى تسجيلها لسيرة حياتها أغفلت أشياء كثيرة من حياتها المبكرة وقصائدها الأولى، فقام الدكتور يوسف بكار باستقصاء كل مافات الشاعرة من الصحف والمجلات القديمة وجعله حلقة ثالثة من سيرة فدوى طوقان عنوانها «الرحلة المنسية».

وسبق للشاعرة جليلة رضا أن نشرت سيرتها الذاتية، أما الشاعرة جميلة العلايلى فقد تركت سيرتها مخطوطة ولكنها لم تر النور حتى الآن بعد مضى نحو عشر سنوات على وفاتها فى ١١ ابريل ١٩٩١ .

مشروعات أدبية لم تكتمل

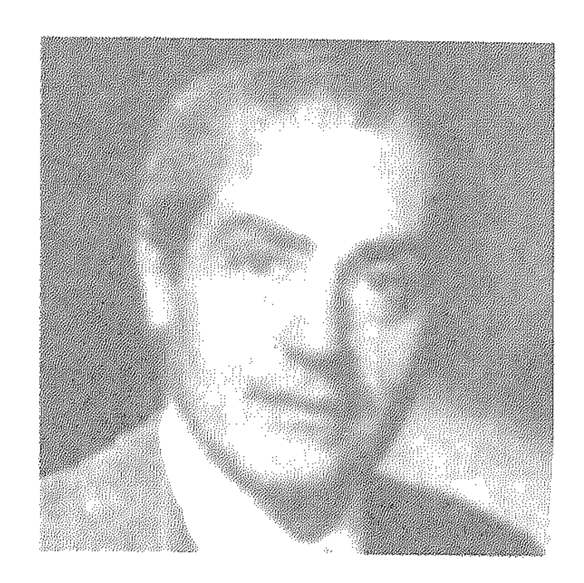
تجيء المنايا فتضع حدا لمشروعات بدأ فيها أصحابها دون أن تكتمل، وكان الدكتور محمد صبرى السوربونى أخبرنى أنه عاكف على تأليف كتاب ضخم عن افريقيا الوسطى باللغة الفرنسية وأنه أنجز منه فعلا نحو ١٥٠٠ صفحة، فلما توفى فى ١٨ يناير ١٩٧٨ توقف القلم عن استكمال هذا الكتاب الموسوعى ولايعرف مصيره على وجه التحديد.

وكان الأديب إبراهيم المصرى أخبرنى أنه يعكف على كتابة ما أسماه بـ «كتاب العمر» وهو مزيج من السيرة الذاتية والخيال الروائى، ولكن وفاته متأثرا بالسرطان فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٩ لم تمهله لإتمام مشروعه.

أما الشاعر حسن كامل الصيرفى فقد أفلح قبل وفاته فى ١٩ مايو ١٩٨٤ فى نشر ستة من دواوينه العشرة المخطوطة، ومازالت الدواوين الأربعة الباقية جاثمة فى إحدى دور النشر.

كما أن الأديب محمد عبدالغنى حسن أعد قبل وفاته فى ٢٢ يناير ١٩٨٥ نسخة موسعة من كتابه «أدب المهجر» وديوانا جديدا استوحاه من غربة أبنائه فى الأمريكتين، فبقيت المخطوطتان تاعستى الحظ ولم تريا النور حتى اليوم.

ومؤكد أن هناك عشرات من أمثال هذه المشروعات التى عزّ إتمامها أو حالت الظروف بينها وبين النشر، وحرام أن تظل مطوية أو حبيسة الأدراج. ■



إيهاب حسن
رحلة خروج لا تنقطع

بقلم
ابراهيم فتحي

عرّفنا الدكتور عبدالعزيز حمودة بسمات بارزة من شخصية المفكر والناقد المصرى الأصل الأمريكى الجنسية العالمى التأثير إيهاب حسن . فقد ترك مصر إلى الولايات المتحدة بعد تخرجه فى كلية الهندسة جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٦ ، ثم غير اتجاهه الى الأدب وحصل على الجنسية الأمريكية عام ١٩٥٦. ولإيهاب حسن كتاب فى السيرة الذاتية «الخروج من مصر» "Out of Egypt" وهو خروج نهائى ظل يصاحبه خوف من العودة رغم تكرار دعوة الدكتور عبدالعزيز حمودة له من موقعيه كعميد لكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكمستشار مصر الثقافى لدى الولايات المتحدة. وقراءة الدكتور حمودة للسيرة الذاتية عن الخروج من مصر لا ترى فى ذلك الخروج تنكراً للمصرية أو انكارا لها.

إن ايهاب حسن كان معاديا للاستعمار الانجليزى من جهة ولفاروق من ناحية أخرى ، ولكن انتماءه إلى أسرته وانتماء تلك الأسرة إلى طبقة حاكمة متفسخة منحلة عميلة للانجليز والسراى جعل وضعه معقدا. لقد كان والده مديرا «محافظا» للمنصورة التى خرج سكانها وطلبتها «وإيهاب متعاطف معهم» فى مظاهرة حاشدة للترحيب بزعيم الوفد «مصطفى النحاس» فى تحد صريح لتعليمات الحكومة ووالده المدير. لذلك كان ولاؤه مشتتا بين حبه لوطنه وطاعته لوالده، الذى كان عليه أن يمنع خروج الطلاب «وتشتيتهم بالقوة» . ويرسم إيهاب صورا حافلة بالازدراء لعمه الذى كان وزيرا للداخلية ولوحشيته ولبقية أعمامه الذين كانت اراضيهم الزراعية تدر عليهم دخلا كبيرا ينفقونه على النساء الزرقاوات العيون فى أوربا، ولأخواله الذين يخسرون هذا الدخل على موائد القمار فى مونت كارلو. فهذه هى الطبقة التى هرب منها من انحطاطها وفراغها وتفاهتها . ومن ناحية أخرى لا عجب أن تجمدت الحياة العامة فى مصر وتحجرت دون تطور. إن الثورة الزراعية الأولى فى العالم حدثت كما يقول فى مصر على ضفاف النيل ، ولكن الفلاح المصرى ظل حتى وقت هجرة إيهاب حسن يستخدم نفس أدوات الزراعة التى عرفها الانسان منذ العصر الحجرى فكل شىء يتكرر دون تغير .

خط الاغتراب الأساسى

وترصد تلك القراءة اكثر الخطوط تأثيرا فى قرار الخروج من مصر وهو خط «الاغتراب» الأساسى الذى حكم حياته منذ الطفولة . إنه عضو فى طبقة عليا يجيد أفرادها اللغات الأجنبية أكثر من إجادتهم العربية. وكان مثل معظمهم إفرنجى التقاطيع والبشرة.. والصبية المصريون الصغار كانوا يطاردونه فى الشوارع وهم يرددون فى إلحاح : «بقشيش يا خواجة» إن اغترابه او منفاه الاختيارى المبكر داخل النفس فى مصر سيصبح منفى اختياريا فعليا خارج مصر.

ويرى الدكتور حمودة أن ايهاب حسن لم يستطع أن يتعايش مع طبقة تتحرك داخل فراغ عدمى، ولم يتصور نفسه حيوانا أليفا يتقبل الأسر داخل قفص، حتى لو كان ذلك القفص هو رفاهية طبقته العليا. وكانت قوة جذب الحلم الأمريكى متزايدة القوة فى السنوات السابقة لخروجه من مصر فأبناء طبقته يحتسون الكوكاكولا ويلتهمون صفحات المختار أو «الريدرز دايجست» ، ويضعون نظارات ريبان فوق عيونهم بل ويلوكون اللبان فى أفواههم تشبها برجال الجيش و البحرية الأمريكية الذين بدءوا يظهرون فى شوارع القاهرة.. وفى براءة ساذجة أثناء السنوات السابقة لخروجه من مصر - كما يرى الدكتور حمودة - كان يأمل آن يكتشف فى أمريكا المجال وانفراج الزمان والتاريخ المتطور، اى مجالا خاصا يستطيع داخله التغير والنمو بدلا من الثبات الجامد فى مصر الباقية دوما على حالها. ويكشف الدكتور

ايهاب حسن



حمودة عن بزوغ النزعة الفردية عند إيهاب حسن في هجرته الداخلية أو منفاه الاختياري، وعن ضعف ارتباطه بالمكان أي مكان. فهو يدون في مذكراته المبكرة بعد رحيله من مصر مباشرة: «انني إنسان أولا. وحينما يطلب مني تحديد فلسفتي أو مذهبي السياسي، فإنني اذكر اسمي في كل مرة».

الرؤية الطوباوية

وإذا انتقلنا بعد السيرة الذاتية إلى أول كتاب شهير له في أمريكا «البراءة الجذرية .. دراسات في الرواية الأمريكية المعاصرة «١٩٦١» وجدنا احتفاء تملؤه المرارة بأزمة الذات الفردية. داخل عالم تحول الحلم «الأمريكي» فيه إلى كابوس. وهو في مطلع الفصل الثاني من الكتاب يقتبس عن مارك توين تعليقه الساخر: كان اكتشاف أمريكا رائعا ولكن فقدان الطريق إليها كان سيصبح أكثر روعة. ولماذا كانت الرواية هي الجديرة بالاهتمام؟ لأن الرواية الأمريكية لا تقف عند توكيد حضورنا، بل ترتاد وتوسع الطرائق المختلفة لوجودنا أن تكون حيا، أن تكون إنسانا بأكمله حيا. هذه هي المسألة. فهي تساعدك على ألا تكون إنسانا ميتا في حياته. وهنا يبرز التساؤل هل لم يعد المجتمع «الأمريكي» الأعظم الملتزم بمغامرة فضائية بين المجرات قادرا على تقبل البطوليات الزهيدة التي تثير الرثاء للروح الفردية؟ وهذا الرأي عند ايهاب حسن يكشف عن أن قصر النظر هو السمة البارزة للرؤية الطوبائية. ولن نستطيع دحضه بأكثر بما نستطيع دحض كابوس او نبوءة.. ولكننا نستطيع ان نضع حكمه موضع التساؤل بالبحث في مسألة اكثر حيوية. هي طبيعة الذات «الفردية» المعاصرة في الفعل ورد الفعل. في وطأة القيد والحرية. في الموافقة والإنكار، في هجومها لمواجهة التجربة ثم نكوصها وارتدادها للاحتفاظ ببراءتها.

لقد ارتبطت أفعال الذات المعاصرة وارتداداتها بتلك المساحة الكثيفة من الواقع التي يلتقي عندها وعينا بالعصر بأشكالنا الأدبية. ويواصل إيهاب حسن تأكيد أن حركات الذات توحي بمناطق التوتر والاسترخاء في حياتنا الثقافية. وكانت تلك الحركات في رأيه الشغل الشاغل للرواية منذ دون كيخوته. فالبطل الروائي طالما ان الحياة ماتزال تنبض في قلبه المتخيل سيواصل توسطه بين الذات والعالم. واسماء الروايات في هذا السياق ذات دلالة: الضحية، والرجل المعلق، والعاري والميت، والقلب صياد وحيد، ولون الظلام وشجرة الليل. فالعنف والتشويه هما وسيلتا عرض رؤية يكون المجتمع معاديا لها. فالعالم «الأمريكي» المعاصر يقدم تحديا مهينا للانسان لذلك يجب ان تكون استجابت

هى استجابة المتمرد او الضحية الذى يحيا تحت ظل الموت.

ولذلك فإن الذات المعارضة المعاصرة تمتلك قوى ادراك يملؤه الحنق، وخيالا كشيفا مضادا مناهضا للثقافة التى تحيط بها . ولكن الذات الفردية المعاصرة لم تقف عند أن تكون مثل دوريت الصغيرة «رواية لديكنز مترجمة إلى العربية» قد ولدت فى سجن، وعندها تكون قد جعلت من السجن قلعة وضريحا .بل لقد اكتشفت الاسرار الغريبة لكل السجون. فعلى الرغم من أن ابواب السجون : لا توصد أبدا فإننا لن نجد سجينا يرغب فى الهرب، كما أن كل طرق الهرب تؤدى الى نفس الزنزانة ، فما من شيء يوجد فى الواقع وراء اسوار السجن، بل إن كل سجان ليس الا سجينا آخر متنكرا. وهكذا تتراجع الذات المعاصرة عن العالم ضد نفسها وبذلك تكتشف السخف واللامعقول. وبالاضافة الى ذلك فان نكوص الذات الفردية هو أحد مصادر وعيها واستراتيجية تقوم بها ارادة تلك الذات فكل الايماءات المعذبة للمعارضة تصرح بتورط الذات . فى حمأة العالم الذى تعارضه . كما تسير اشكال استسلامها اليائس قلب حياة تكاد أن تكون شبه صوفية فى عصرنا. فهناك عنصر يأس هدام هو أحد علامتى الذات، والعلامة الأخرى هى الاستخدام البناء لهذا العنصر اليائس.

ويتساءل إيهاب حسن بعد ذلك عن ماذا يمثل بطل الرواية المعاصرة؟ ويجيب عن السؤال بأننا لا نستطيع تحديده. فهو ليس الفكرة الليبرالية عن الضحية ولا المحافظة عن المنبوذ ولا الراديكالية عن المتمرد. قد يكون هذه الأفكار كلها وقد لا يكون أيا منها. وقد يؤكد جانبا أو آخر. ولكن طاقاته على الألم تقترب من طاقات قديس كما أن أهواءه نحو الهرطقة تكاد أن تكون إجرامية . ويحمل إيهاب حسن إلى استدراك شديد التعميم. فمنهما تكن قداسة بطل الرواية المعاصرة معطوبة، ومهما تكن نزعته الاجرامية غريبة عجيبة فإنه يبدو فى النهاية تعبيرا عن رغبة لا يخمد لظاها فى توكيد الحس الإنسانى بالحياة رغم كل ما يعترض الطريق من انعطاف وتقلب وفراغات.

البراءة الجذرية

ويسمى إيهاب حسن هذه الخاصية لانفعال بطل الرواية الأمريكية ووعيه (فى تعبيره عن الذات الفردية المعاصرة) البراءة الجذرية: جذرية لأنها باطنة فى شخصيته وتصل إلى جذرها أو أساسها ، وجذرية أيضا لأنها متطرفة مندفعة خارجة على كل سلطة وتتنازعها الرؤى من كل جانب. وهذه البراءة لاتحيلنا إلى ضروب من البساطة والسذاجة وطيب الطويلة بل إلى براءة ذات ترفض قبول حكم الواقع الذى لايُرَدّ.

إنها ذات لا يمكن خنق المتطلبات الجذرية لحويتها ، كأنها أرومة أصلية، لم يتمايز وعيها الإنسانى بعد، كأنها غادرت لتوها المستوى الحيوانى، ومع ذلك فإن تلك البراءة الأمريكية تحوى عنصرا ينتمى إلى الإله اليونانى

ايهاب حسن

ديونيزوس يتدفق بطاقة الوجود الداخلية الفوارة. لذلك فثمة تناقض بين براءة البطل والطابع الهدام لتجربته.

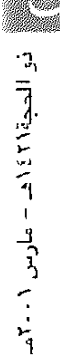
ومن البداية المبكرة رغم الإيماءات الوجودية التى تؤكد على فردية الذات فى كتاب البراءة الجذرية، أكد إيهاب حسن عناصر من النقد الثقافى، فالقوى المتناقضة للتاريخ والمجتمع (العالم) تؤثر فى فكرتنا عن الذات (البطل) وبذلك يبرع نوع جديد من الأبطال . ومن اللحظتين الحرجتين للقاء البطل بالتجربة لحظتى الاندماج والتكريس أو الهزيمة يأخذ شكل الرواية قوامه. ومهمة التحليل التاريخى للذات فى تراجعها ونكوصها هو تعقب الاغتراب المعاصر إلى أصوله، تعقب الهروب المزدوج من الأرض إلى الكون، ومن العالم إلى الذات. فالمقاساة والتمرد يشكلان الاستجابة الحديثة لوقائع عصرنا الكئيبة وتطوراته الغريبة. إن سورة النفور أصبحت موقفا حداثيا من التاريخ ، الهلع من التاريخ، كابوس التاريخ (كما يقول جيمز جويس) فجنة عدن بعيدة جداً وراءنا ، وليس المجتمع، الألفى السعيد بقريب. لذلك فإن الحس السائد هو حس الاجتياح أو سرعة الزوال. وأصبح طراز الأفعال الانسانية فى الزمان لا يقدم معنى يمكن التعرف عليه .



اتجاهان متضادان

وماذا وجد إيهاب حسن فى التجربة السياسية والاجتماعية للقرن الامريكى، الذى كان حلما لحرية ذاته الفردية؟ إنه يكتشف اتجاهين متضادين التنظيم الصارم الذى لا يفتر للمجتمع، وإطلاق طاقات هدامة ضد المدنية.

فلم تعد صورة شارلى شابلن للإنسان جالسا على خازوق بين ترسين ذات أثر تهكمى، إنها إمكان أصبح واقعا يوميا. هناك شيطانية فى الآلة الحديثة والأجهزة الحديثة. فالبرمجة الآلية بكل أشكالها هى انعدام حياة لا إنسانى لا عقلانى يتخلل الحياة . والشيطانى حاضر فى لا عقلانية البشر كما يكمن فى الانتظام الآلى اللانسانى. الاثنان معا يتجهان نحو إلغاء الإنسان. هناك ميكنة للعمليات الفكرية، وأصبحت الدولة جهازا تكنولوجيا فعالا، يضع الناس فى قوالب للتحكم والضبط وراء الواجهة الديموقراطية، فالاشتراك السياسى للفرد ودوره فى اتخاذ القرارات المتعلقة بمصيره يقترب من الصفر وكذلك قدرته على إحداث تغيير أو توجيه مسار الأحداث. لذلك يختار الناس الانسحاب من المجال العام للفعل على الرغم من أن انسحابهم من العالم يرغمهم على ممارسة علاقة هشة عقيمة بأنفسهم. وبدلا من الفعل المؤثر هناك السلوك المقولب. وبدلا من النفوذ المعنوى الفكرى هناك الإقناع المخادع المستتر أو



القسـر النسـقى. وأصبحت الطاقة الإنسانية تقاس بلغة وظائف مجردة، والصفات الإنسانية بوصفها سلعا تحقق ربحا. إن أمريكا تجسد أكثر الخطوات تقدما فى اتجاه «قذف الإنسان خارج الإنسان» .

ويرصد إيهاب حسن اغتراب الذات، واستجابتها بالاستشهاد أو العصيان أو كليهما فى مواجهة التجربة المعاصرة، حيث لا خلاص فى التنظيم التكنولوچى الجمعى (الاتجاه السياسى السائد) ويتساءل: أيمكن القول إن ما يواجهه العالم ليس مجرد نهاية الفردية بل هو تدهور للشكل الإنسانى نفسه؟ ، ويجيب إن ذلك يعتمد على استجابة الإنسان للعناصر الهدامة فى تجربته وتفصح الروايات إفصاحا ثريا عن هذه الاستجابة.

وهو يرى أن الفلسفة الوجودية كانت عَرَضا لمجتمع صناعى يتحلل، ويفرق بينها وبين الذات الوجودية، فى الأدب الحديث التى تذهب إلى شروط جديدة أثناء انسحابها للاحتفاظ بنوع جذرى من البراءة، ويصل ناقدنا إلى أن الأدب الحديث معنى بنزاع الذات مع الحضارة، وأن صورة الذات فى هذا النزاع وفى صراعها مع نفسها تجد بؤرتها فى البطل المضاد.

البطل والبطل المضاد

ويشير هذا البطل المضاد عند إيهاب حسن إلى تجمع متهرىء من الضحايا: الأبله والمهرج والفلتة الغريبة واللا منتمى وكبش الفداء والانتهازى السافل والمتمرد بلا قضية والبطل فى صفيحة الزبالة والبطل مفلوت الزمام. ويطابق القراء بين مأزقهم ومأزق أى من هؤلاء.

وفى تتبع إيهاب حسن للبطل المضاد يصل إلى اكتشافاته الخاصة المبتكرة عن الذات ما بعد الحداثية قبل رواد ما بعد الحداثة الآخرين. فالاهتمام الرئيسى للبطل المضاد عنده أن يكون شخصا محددا، أن يعرف من هو أو ما هو ، وأن يصل إلى إنسان آخر بالحب. وأن يفعل ذلك بمفردات يكتبها المجتمع. ولكنه يؤكد بعد ذلك أن تلك الهوية مراوغة ، ليست هى الأنا القديم الثابت الراسخ بل أنا آخر يمر بحالات متغايرة فى تقلب. فتاريخ البطل المضاد هو تاريخ الوعى المتغير للإنسان بنفسه. فالمتمرد/ الضحية هو فى الروايات الحديثة اللامنتمى يبحث عن الحقيقة ، ذئب البوادى، عبقرى المعاناة المنعزل. ولايزال مشتبكا مع ضروب التعدد الجذرية للأنا، متذبذبا لا بين الذئب والإنسان فحسب أو بين قطبين فحسب مثل الجسم والروح القديس والآثم بل بين آلاف الأوجه. فليس الإنسان إلا اتفاقا مؤقتا بين أضداد متحاربة.

ومن ناحية أخرى تجد عند إيهاب حسن فى تلك الفترة المبكرة (الفصل المعنون طراز التجربة الروائية) أن اغتراب الذات عن المجتمع هو الافتراض الأساسى للرواية الحديثة. وهو يمضى من ذلك إلى أن يقول (١٩٦١)، لم يعد السهل تعريف المجتمع تعريفا مؤكداً ويتحدث عن انهيار النظريات المتماسكة أو المتصلبة عن المجتمع وهو ما يولد لا

ايهاب حسن



أدرية في أشكال السرد، أي أنه يستبق ليونا . في الشرط ما بعد الحداثي عن اخفاق الانسان الكلية والسرديات الكبرى عن المجتمع (في أواخر السبعينات).

ينفلت متحررا من الكلمات والأشياء. وينجذب الخيال إلى رؤية غريبة عن نفسه فيغزو الخواء. ويفزعك الفراغ فتفتح عينيك على اتساعهما، وهما عينان تريان كل شيء أو لا شيء. ولكن تلك الروح بعد الحداثية ترى على أي حال.

البدايات الأولى لا تتطابق

ولن نقف عند دراسته للروايات فما يعنينا هو الخط العام لنقده الثقافي الذي يؤكد الحياة الإنسانية والالتزام بالحرية.

وفي كتاب تمزيق أورفيوس: نحو أدب ما بعد حداثي (١٩٧١) يتساءل، هل سيظل الأدب يبني نفسه ويهدمها إلى الأبد؟ . ولكننا في رأيه نعرف أن البدايات الجديدة لا تتطابق دائماً مع النهايات القديمة. هناك أيضا انشقاق وعدم اتصال وربما نهاية كارثية . ولم يعد العالم الأسطوري للعَوْد والعالم التاريخي للاستمرار نموذجين للزمان قادرين على تصوير العالم الذي نخلقه الآن. وربما كان مستقبل المستقبل أي شيء نريد. وردا على سؤال هل للتأملات حول مصير الإنسان مكان في دراسة الأدب يجيب إن الأدب نادرا ما يخرج عن هذه التأملات.

فالطليعة الأدبية تسهم في اختراع المستقبل في رداء تنكر تهريجي هو التجريب. وطوال قرنين اتجهت هذه التجارب نحو أشكال متلاشية ، فهي تجارب تحمل ايماءات صمت أو وعي يدور مبتعدا عن التاريخ محاولا أن

وهذا الوجود المنتهك يؤدي إلى نشوء تراجيديا الأشكال الأدبية ، وإلى تجرؤ على تمني نهاية للفظاعة . وهذا التكفير الصامت للوعي هو سر أورفيوسي. وهنا نرى مثالا لما ذهب إليه إيهاب حسن من أن الكتابة النقدية هي أدب على أدب، إبداع في شذرات متحرر من القيود الأكاديمية، وهو يرى أن تقليد الصمت يوقع في شباكه تنوعات التجربة المعاصرة، فالثقافة والوعي ينقلبان على نفسيهما ليقدما استعارات القلب (العكس) في فن مضاد. ولا تقف المسألة عند تداعي البطل أو موت جنس أدبي بل تمتد إلى نقلة جذرية في أشكال إدراكنا، في إمكانات حياتنا، أنه يدعو إلى أن يكون الأدب الحداثي وما بعد الحداثي تجربة جمعية مقتسمة بين الذوات مشحونة بالطاقة تنير الوعي وتعمق الحياة ، وهو يبحث عن الخلاص حتى حينما يدرس أعمالا قد توحي باليأس عند دي ساد وهمنجواي وكافكا وبيكيت. وهو يواصل مشروعه الخاص في النار البروميثيوسية الصحيحة «الخيال والعلم والتغير الثقافي» (١٩٨٠).

و«المنعطف ما بعد الحداثي» مقالات في نظرية وثقافة ما بعد الحداثة (١٩٨٧) وما يتلوها.

ويرى بيتر بروكر في كتابه «الحداثة/ ما بعد الحداثة» الذي حرره وقدم له أن ما بعد حداثة إيهاب حسن شديدة القدرة على الامتصاص، فهي تبتلع بليك ودى ساد وباوند وجويس والدادية والسيريالية والرواية الفرنسية الجديدة وچان چينيه والأدب الشعبي .. والكثيرين من مفكري ما بعد البنيوية . وإيهاب حسن يعتبر ما بعد الحداثة بنية معرفية شاملة تجمع الخطابات المختلفة على أساس من الافتراضات الضمنية عن وضع المعرفة الآن. وقد قدم تمييزا شهيرا في مقاله ثقافة ما بعد الحداثة (١٩٨٥) بين الحداثة وما بعدها.

فالحداثة ينتمي إليها الشكل المغلق والفرض والتصميم والتراتب والتحكم (اللوجوس) والعمل المكتمل والمسافة والمدلول والفرائي والميتافيزيقا والتعالي، إلخ. على حين ينتمي إلى ما بعد الحداثة الشكل المفتوح واللعب الحر والمصادفة والفوضى والاستنفاد (الصمت) والأداء والمشاركة والكتابي والمفارقة والمحايثة..إلخ.

فما بعد الحداثة هي ثقافة الإحساسات المتشظية والصور الجاهزة السطحية المختلطة المشوشة. وهي تتطابق مع الحياة اليومية ذات الطابع السلعي وتحطم الانفصال الحداثي بين الجمالي واليومي ، بين المؤلف وعمله، بين الفن والجمهور بين الفن الرفيع وفن العامة . ويرحب إيهاب حسن بالتجديد المستمر لما بعد الحداثة، ويريد التخلص من استبداد الانساق المغلقة، ويطمح إلى ثورة معرفية وثقافية بل وإلى تغيير سياسي أساسي. وقد يرى بعض النقاد أن ما بعد حداثة إيهاب حسن العدوة لكل رؤية ذات طابع كلي تتناقض مع نفسها مبشرة بتوحد عالمي وبالكون الانساني الواحد الذي يتجاوز خروج ما بعد الحداثة على كل إجماع. ويروض ايهاب حسن السياسات الجزئية التفصيلية عند ما بعد الحداثة برؤية تسرع نحو إنسانية مجردة عامة. ويؤكد الاختلاف ثم يدفنه في افتراض عن الانسجام العالمي.

وتلك لفتة تكرر ما لدى بعد الحداثة من افتراض متناقض عن كيانات لا مركزية على نحو جذري في عالم من الاتصال والترابط التكنولوجي الذي لم يسبق له مثيل. وينتقد بيتر بروكر ما بعد حداثة إيهاب حسن التقدمية الملتزمة بإمكان وضرورة تغيير سياسي أساسي من ناحية صعوبة التوفيق بين هذا الإلتزام وافتراضات ما بعد الحداثة في التشظي والتبعثر وانعدام التكامل. ولكن ما أجمل تلك النزعة الإنسانية التي ظلت ملتصقة بما بعد حداثته كميراث من حركات المناهضة الثقافية الطوباوية في الستينات والسبعينات فخروجه من مصر إلى العالم بحثا عن اغناء ذاته في عالم حر متفتح واصل تجدده في خروجه على التمذهب الضيق. ■



التكوين

ضرورة المزاوجة الرائعة بين الحرية والإيمان والالتزام

محمد نور فرحات

يقول د . محمد نور فرحات : «إن الحديث عن التكوين العلمي والثقافي تتداخل فيه اعتبارات الذات بالموضوع تداخلا واقتراحا يصعب الفصل فيه بين الاعتراف والسيرة الذاتية والعناصر الموضوعية للتكوين الثقافي» .

وقد وصلت قاطرة تكوينه في العدد الماضي حتي حصوله علي درجة الماجستير والاستعداد لمرحلة الدكتوراة ويواصل الحديث :

عرض على أستاذى الدكتور اسماعيل غانم موضوعا للدكتوراه لم أسمع عنه من قبل أثناء دراستى فى كلية الحقوق وهو عن «الوضعية القانونية» وطلب منى إعداد الخطة . من أجل هذا قرأت شهورا فى الفلسفة العامة حتى أعرف كيف انتهى الأمر إلى الفلسفة الوضعية ، وفى تاريخ النظريات الاجتماعية حتى أحيط بأفكار «أوجست كونت» وفى تطور الفكر القانونى لأضع يدى على تأثير الفلسفة العامة والنظريات الاجتماعية على علم القانون . وكانت هناك وقفة عند الفلسفة الماركسية فى المجتمع والدولة والقانون . إذ أن هذه الفلسفة يجرى تصنيفها من قبل الباحثين الغربيين على أنها رافد من روافد الوضعية القانونية ، فى حين ينظر الماركسيون أنفسهم إلى الوضعية على أنها رافد من



مع الرعاة المغول فى فصل الشتاء

روافد الفكر البرجوازى الذى يناصبونه العداء ، سألنى أستاذى الدكتور اسماعيل غانم . كيف ستدرس الماركسية القانونية؟ فى أى إطار وبأية مصادر ؟ لم أحر جوابا .

أشار علىّ بالسفر إلى موسكو حيث المصدر الأصيل للمعرفة عن الماركسية . فى هذا الوقت بالذات ودون سابق ترتيب أو اتفاق أو اعداد رشحنى الدكتور أحمد خليفة للسفر فى بعثة دراسية إلى موسكو للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون. كان من المعتاد فى ذلك الوقت أن يذهب طلاب الدراسات العليا فى الحقوق إلى فرنسا وبعضهم إلى أمريكا وانجلترا . إلا أنه لسوء علاقات مصر بالغرب فى ذلك الوقت اقتصرت البعثات ولسنوات عديدة على دول الكتلة الشرقية وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى . وهكذا تضافرت الظروف السياسية فى ذلك الوقت مع توجهات أستاذ ليبرالى النزعة ، مع نزعة دفينة نحو الاكتشاف والتميز فى أن أشد الرحال فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٧٠ إلى مدينة موسكو حيث أدرس للدكتوراه فى جامعة موسكو الحكومية . كانت رحلة الطائرة هى ذات الرحلة التى سافرت عليها السيدة أم كلثوم لإحياء حفل هناك لصالح المجهود الحربى ولكنها عادت بعد ثلاثة أيام دون إقامة الحفل لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر .

نمو التوجه الاجتماعى

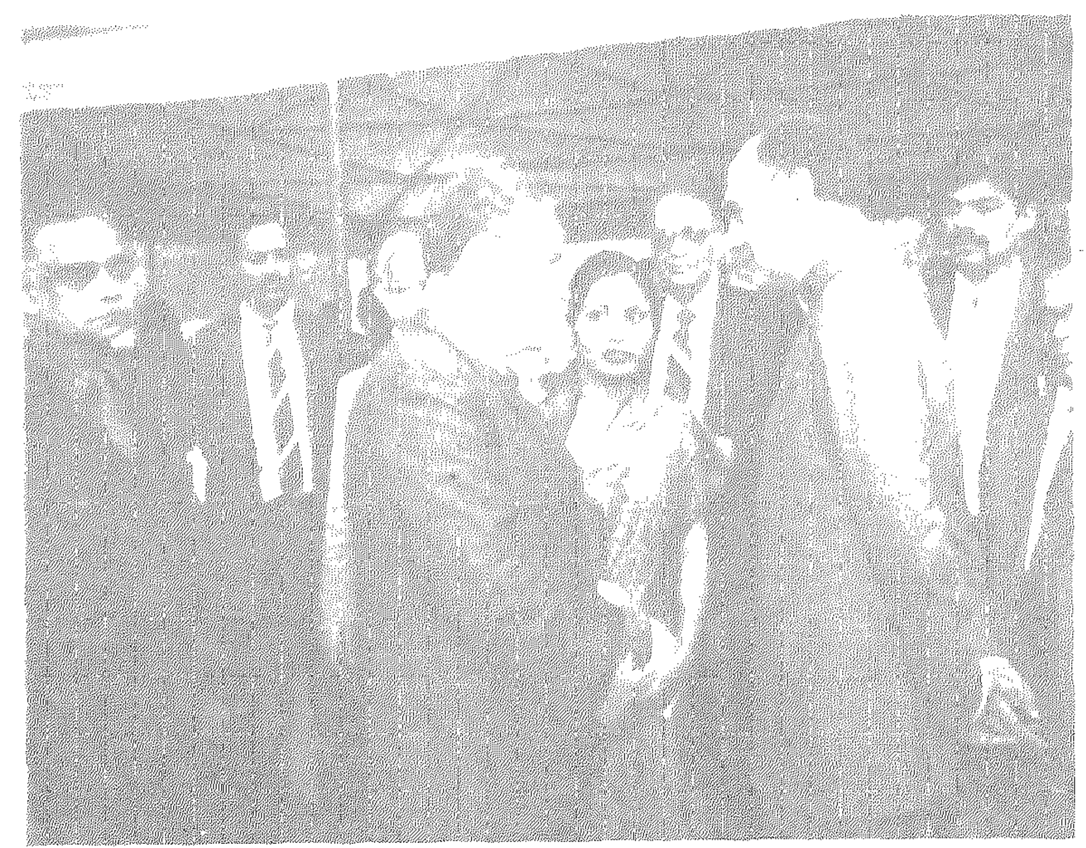
كان تكوينى الفكرى عندما أنهيت دراستى بكلية حقوق القاهرة تكوينا ليبراليا ذا جذور دينية عميقة . وأسفرت تجربة المركز القومى للبحوث الإجتماعية ثم بعد ذلك تجربة منظمة الشباب

الاشـتـراكى التى انـخـرطت فـيـهـا فـى ذلك الوقت ، ثم تجـربة التنظيم الطليـعى عن تأصل ونمو التـوجـه الاشـتـراكى أو لنقل الاجـتـمـاعى داخل هذا التكوين الليـبرالى الدينى . وعندما سافرت إلى موسكو لم يكن فى داخلى عداء للماركسية ، وكيف أعاديها وهى تمثل أحد جوانب دراستى للدكتوراه ، ومع ذلك فلم يكن هناك قبول كـامل لهـا . ولقـد بدأ إطلاعى على الماركسية فى القاهرة من منظور نقدى صرف سواء على يد منظرى الإشتراكية الناصرية أو ما يسمى بالطريق العربى للاشتراكية ، أو على يد مفكرى القانون الإجتماعيين من أمثال أحمد خليفة واسماعيل غانم وثروت اليس الأسيوطى . وأذكـر سـؤالاً وجـهـه لى الدكـتـور اسماعيل فى امتحان الدكتوراه هو : بدأت الماركسية مادية وانتهت مثالية - اشرح ذلك . وأفضت فى الإجابة بنقد نظرية تلاشى الدولة والقانون عند كارل ماركس .

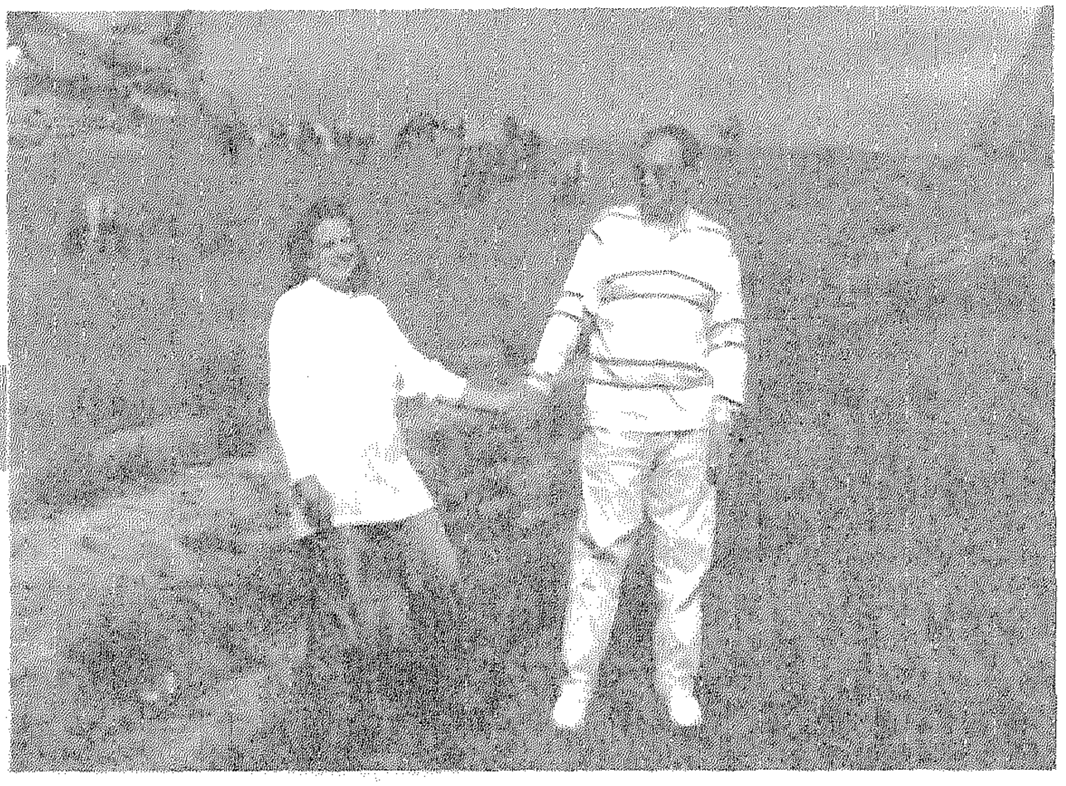
استقررت فى حجرة صغيرة في الطابق الثاني عشر طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف بالمدينة الجامعية بجامعة موسكو حيث أطل من نافذتها على أبراج الجامعة العريقة المسماة باسم عالم الطبيعة لومونوسوف وعلى تلال لينين الخضراء المنحدرة حتى شاطىء نهر موسكو . حاجز اللغة يقف جدارا منيعا دون التواصل . ومع ذلك فإن النفس كانت تمتلىء بهجة بالضحكات العالية لفتيات الصقالبة الشقراوات ذوات الوجنات الوردية دوما . موسكو مدينة عملاقة ذات شوارع واسعة وبنايات نظيفة خطط كل شىء فيها بنظام حسن . مدينة حانية لا يحس فيها الإنسان اطلاقا بما يسمى شظف العيش فالمسكن ميسور بأقل القليل والثقافة والعلاج والراحة ميسورة دون مقابل تقريبا . فلماذا لا يفرغ الإنسان للعلم والهناء . ومع ذلك فقد أدركنا فيما بعد أنه تحت هذا السطح البراق كانت تتفاعل كثير من التقلصات الإجتماعية نخرت كالسوس فى عظام جسد عملاق فهوت به صريعا بعد عقدين من الزمان .

مجمع الرافضين وغير الرافضين

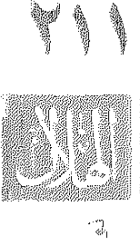
كيف تكون الاشتراكية سيئة على النحو الذى سمعنا عنه من البعض فى



مع راجيف غاندى فى مؤتمر الحقوقيين الديمقراطيين بالهند ١٩٨٧



مع زوجتى السيدة / هالة البيلى فى هضاب منغوليا.



مصر إذا كان نتاجها هذا القدر من الازدهار الثقافي والحضاري ؟ هذا هو السؤال الأول الذي واجهنا نحن المبعوثين المصريين إلى موسكو في هذا الوقت : وفي مواجهة الإجابة عن هذا السؤال انقسم مجتمع المبعوثين إلى عدة فرق . كان مجتمع المبعوثين في موسكو كبير العدد إذ كانت مصر ترسل سنويا إلى الاتحاد السوفيتي قرابة مائة وخمسين مبعوثا في مختلف التخصصات كان أغلب هؤلاء في تخصصات الرياضة والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وعدد أقل في العلوم الإنسانية أغلبهم في اللغة الروسية ثم عدد محدود في باقي التخصصات الإنسانية كالاقتصاد والإدارة وعلم نفس وواحد فقط لدراسة القانون هو أنا . ومن حيث الموقف



الفكري من المجتمع السوفيتي انقسم المبعوثون إلى قسمين كبيرين . قسم ممن يرفضون هذا المجتمع رفضا تاما ويدينونه إدانة كاملة ويخلعون عنه كل مميزات ويعتبرون حضورهم إليه من سوء الطالع . وللغرابة كان أغلب هؤلاء ينتمون إلى تخصصات الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا . وقسم آخر يجمع غير الرافضين للمجتمع الذي يدرسون فيه ويتعاملون معه بانفتاح يبدأ من الاعتناق الكامل والصريح للفكر الماركسي ويتدرج حتى الإقرار بإيجابيات التجربة الاشتراكية السوفيتية والإقرار أيضا بسلبياتها . وكان هؤلاء يطلقون على أنفسهم وصف التقدميين . وكان أغلبهم من تخصصات الرياضة والفنون وبعض دارسي العلوم الإنسانية . وكانت الحرب العدائية بين الفريقين تصور بمعرفة الفريق الأول على أنها مفاضلة بين الكفر والإيمان مع أن الأولين لم يكونوا مؤمنين خلصاء إذ كان الكثيرون منهم يفرطون في شرب الخمر ويبررون علاقاتهم مع الصقلبيات بأنها علاقات مع إماء الموالي - كما أن الآخرين لم يكونوا جميعا في صف الإلحاد . ولكن الانقسام الحاد الذي شهده المجتمع المصري عقب أحداث ١٩٧١ والحرب الدعائية التي شنها السادات على خصومه في ذلك الوقت تردد صداها في مجتمع المبعوثين . ولم يكن هناك خيار لي إذ وضعت قسرا في صف التقدميين بكل ما يترتب على ذلك من أوصاف .

إعدادي لرسالة الدكتوراة

بعد أن أنهيت دراسة اللغة الروسية لمدة عام كامل على طريقة كتاتيب الريف



في احد مؤتمرات حقوق الانسان بتونس. بين الاستاذ محمد فائق والاستاذ حسيب بن عمار

المصرى على يد السيدة/ ليا أليكسندروفنا. سألنى أستاذى المشرف علىّ آندريه ايفانوفتش دينسوف (وكان أستاذا مسنا يبلغ من العمر ثمانين عاما عمل لفترة طويلة مستشارا دستوريا لخروشوف ويرأس قسم نظرية القانون والدولة فى جامعة موسكو) سألنى عن الموضوع الذى سأعده لمناقشة رسالة الدكتوراة. أعدت من جانبى طرح السؤال عليه. طلب منى أن أكتب فى موضوع النظام القانونى للمؤسسات الإجتماعية فى مصر. تبسمت ولم أرد. كنت أعلم أن مثل هذه الموضوعات التافهة تسعد الأساتذة الروس والطلاب المصريين معا. تسعد الروس لأنها تضيف إلى معلوماتهم شيئا عن البلدان ذات التوجه غير الرأسمالى كما كانوا يسمونها فى فقه السياسة والقانون. وتسعد الطلاب المصريين لأنها لا تكلفهم إلا جهدا يسيرا فى الإعداد، إذ يكفيهم القيام ببعض الترجمات لعدد قليل من المصادر العربية. ولكننى لم أحضر إلى موسكو بهذا الغرض إذ كان بوسعى أن أحصل على الدرجة العلمية فى بلدى. أجبت أستاذى بأننى أعد فعلا رسالة دكتوراه عن الوضعية القانونية. نظر إلىّ مندهشا ومتسائلا: ما هذه الوضعية؟ هل هى نظرية برجوازية فى القانون؟ قلت لعلها كذلك ولكن الأمر بكل تأكيد أعقد من مجرد وصفها بالبرجوازية وانطلقت فى دراستى.

فى مرحلة بعينها من مراحل إعداد رسالتى أدركت أنه لابد أن أشد الرحال

إلى الغرب وتحديداً إلى المملكة المتحدة. كان جزء كبير من بحثي يتعرض لنشأة الاتجاهات الشكلية في فلسفات القانون الغربية وتداعياتها التاريخية لدى مدرسة الوضعية القانونية الجديدة بأكسفورد. وكانت المكتبة السوفيتية فقيرة جدا في هذا الجانب.

في لندن

في عام ١٩٧٢ أوفدتني إدارة البعثات بناء على طلبي إلى لندن . في هذه العاصمة التليدة ، عاصمة التقاليد والتاريخ والعلم والحضارة ، يفتقد المرء كثيرا إحساس الحنان والألفة وحسن المعاشرة والأمان الذي تقدمه مدينة مثل موسكو . كان التشرنق حول الكتب هو الحل الآمن حيث الغربة الاجتماعية . انطلق يوميا في الثامنة صباحا من غرفتي المتواضعة في إحدى حواري ميدان راسل سيرا على الأقدام إلى مكتبة معهد الدراسات القانونية المتقدمة أو إلى مكتبة مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، هناك تعرفت على كتابات بنتام وأوستن وبلاكويل وبولوك وغيرهم من أساطين الشكلية الإنجليزية . أجلس في المكتبة من الثامنة صباحا إلى الثامنة مساء . لا مجال للرقص أو للهو كما كان الحال في موسكو لأن الدخل الضئيل لا يكفي إلا للطعام البسيط والسكن المتواضع ولا سبيل لمزيد من الموارد إلا بعزف الموسيقى والتسول على محطات المترو . في كيمبردج وفي رحاب الأريحية الإجتماعية للدكتور محمود عبد الفضيل الذي كان يعمل استاذا زائرا للاقتصاد ، كانت الجباه أكبر يسرا . تعرفت هناك على المدرسة اللغوية في القانون وعمدتها جلانفيل ويليامز . وفي أكسفورد سألني استاذ الوضعية الأشهر البروفسور هربرت هارت . لماذا تدرس في الاتحاد السوفيتي هذا البلد السيىء ؟ أجبته بمثل ما أجبت به أستاذي في جامعة موسكو.قد يكون البلد سيئا في نظرك ولكن الأمر أعقد بكثير مما تتصور .

العودة إلى الوطن

أجلس على سطح الباخرة بيلوروسيا التي غادرت ميناء أوديسا متجهة إلى الاسكندرية ، بعد أن ناقشت رسالة الدكتوراه عائداً إلى الوطن . ساءلت نفسي؟ ماذا بعد هل أضحيت ماركسيا ؟

التكوين



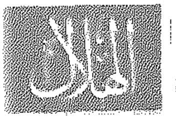
ماركس نفسه قال : أنا لست ماركسيا جامدا . أما أنا قلست بماركسى ولست بجامد . كل ما فعلته أننى فتحت جميع النوافذ المغلقة كما أوصانى أستاذى الدكتور سيد عويس فى خطاباته .

أيقنت أننى لم أصل إلى اليقين العقلى فى رحاب جامعة موسكو أو جامعة لندن أو كيمبردج أو أكسفورد . كل منها قدم لى بعضا من الحقيقة أو وصف لى بصدق جزئى بعضا من جسد الفيل . تبدو النظرية الماركسية فى المجتمع والقانون ذات بناء منطقى محكم ، كل حلقة من حلقاته تسلم إلى الحلقة التالية على سبيل الحتم . ولكن ظل السؤال الأولى الذى تنطلق منها الماركسية محل تساؤل بدوره . لماذا يجب أن تكون المادة سابقة على الفكر ومحددة له . هل لمجرد الاستناد إلى بعض النظريات غير المطلقة فى البيولوجيا والفيزياء والكيمياء التى كانت محكومة بواقع التقدم العلمى فى القرن التاسع عشر . وهل من المعقول أن نطبق هذه الحتمية المادية بصرامة فى مجال حركة المجتمع بحيث لا ندع لإرادة الإنسان أو قوانين الصدفة التاريخية إلا دورا ثانويا ؟ ورغم الآفاق الهائلة التى فتحتها الماركسية فى مجال فهم الصراع الإجتماعى والأسس الإجتماعية للمعرفة وظاهرة الاستعمار إلا أن موقفها الصارم فى التعامل مع الدين ومع ثقافات الشعوب هو موقف غير مقنع وغير علمى وغير مفهوم . وفى الجانب المقابل لم يقدم كثير من علماء القانون والمجتمع الغربيين الحقيقة كلها فى فهم القانون وجوانبه الإجتماعية لأن حماسهم الزائد فى مقاومة الماركسية أوقعهم فى شراك الشكلية والمثالية التى تغفل تماما علاقة القانون بالصراع الإجتماعى التاريخى .

ولكن اليقين الذى استقر عندى أن هذه الثنائيات الكبرى فى الفكر ليست بالأمر السيء أو الشرير بل هى علامة بارزة لازمت كل مراحل تطور الفكر الإنسانى . وليست هناك محطة نهائية

الاستاذ الدكتور محمد نور فرحات

-يعمل حاليا استاذا ورئيسا لقسم فلسفة القانون بكلية الحقوق جامعة الزقازيق .
-يعد من ابرز ممثلى المدرسة الاجتماعية للقانون فى مصر والعالم العربى .
-اكتسب البعد السوسيولوجى من عمله فور تخرجه بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة.
-خبر مدارس البحث القانونى فى الشرق (موسكو) والغرب(جامعة كاليفورنيا بركلى)
-عمل لسنوات مسئولا عن برامج الامم المتحدة لحقوق الانسان فى دول شرق ووسط أسيا.



للمعارف الاجتماعية على الباحث أن يستكين إليها . عليه أن يسعى دائما للوصول إلى الحقيقة المطلقة. أما الحقيقة المطلقة ذاتها فهى سراب فى مجال العلم ، قد يتعرف على مجموعة من الحقائق الجزئية فى مسيرته الطويلة ، وسيجد فى كل بستان الثمر الطيب والحصرم ولكن عليه أن يسير . فهذا قدر الإنسان ، وبهذا وحده يستحق الإنسان شرف الخلافة فليقبض الانسان على كرات الثلج لتذوب سريعا بين يديه ، لا يهم فالمعاناة نحو بلوغ الحقيقة هى كل الحقيقة.

* * *

وفى مصر تجولت سفينة الحياة بين جزر كثيرة : بدءا من العمل فى الجامعة

التكوين

بايجابياتها المفرطة وسلبياتها المفرطة أيضا ، والعمل مع منظمات المجتمع المدنى وأهمها بالنسبة لى كانت تجربة اتحاد المحامين العرب التى أضافت إلى خبرتى العملية الكثير والكثير ، إلى الانخراط فى منظمات حقوق الإنسان المصرية والعربية. لقد أصبح السعى نحو حرية أوسع وحقوق إنسانية مؤمنة هو الهم الاكبر الذى أثمرت عنه رحلة التكوين الأولى . فتعددت مؤتمرات حقوق الإنسان التى شاركت فى الاعداد لها فى مصر والسودان وتونس والكويت وغيرها من العواصم العربية .

واستمر جهدى العلمى فى المزاوجة بين القانون والمجتمع فى سياق بحثى واحد فسافرت عاما ضيفا على قسم الأنثروبولوجيا القانونية بجامعة كاليفورنيا – بركلى . وسافرت أعواما قضيتها مشرفا على برامج المساعدة الفنية لحقوق الإنسان فى أقصى بلاد الشرق حيث رعاة الجليد فى منغوليا وبلاد ما وراء النهر فى أوزبكستان . ورغم أن كرات الجليد كانت تذوب دائما فى قبضة اليد إلا أن وجه الحقيقة قد بدأ يشرق على استحياء :

الحقيقة هى السعى نحو ادراك الحقيقة ، والحقيقة هى المزاوجة الدائمة بين الحرية والإيمان والالتزام .

ومازال التكوين مستمرا حتى إشعار نهائى . ■

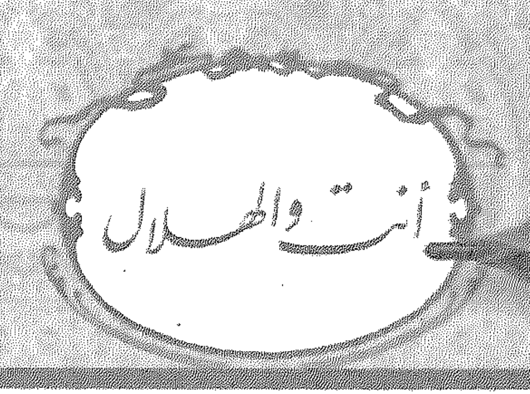


خلال مؤتمر أوضاع المرأة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٦ ويظهر بالصورة الأستاذ خالد محيي الدين

ود. رفعت المحجوب والأستاذ فؤاد سراج الدين



في زيارة لجامعة « نيو ساوث ويلز » باستراليا



تهنئة إلى الهلال الشماء

عزيزى رئيس التحرير الصامد المتطور الناجح.

ارتفعت - بفريقك الدءوب - إلى سمو - وفى نظرى قارنا عجوزا ٧٠ عاما - فصار عدد (فبراير سنة ٢٠٠١) هلالا هلالا بل قمراً يشمس الفكر .

بورك فيك - وفيهم - والله من وراء كل مكافح ثقافى ، لأنه يعمل فى سبيل الله ، ولأنه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (المثقفين).

وأنتم هكذا فى نوعية عرض الموضوعات ، ونوعية انتقاء الموضوعات ، ونوعية تجدد الكتاب .. فى هلال فبراير سنة ٢٠٠١ .

د . سامى منير عامر استاذ الأدب والنقد - جامعة الاسكندرية

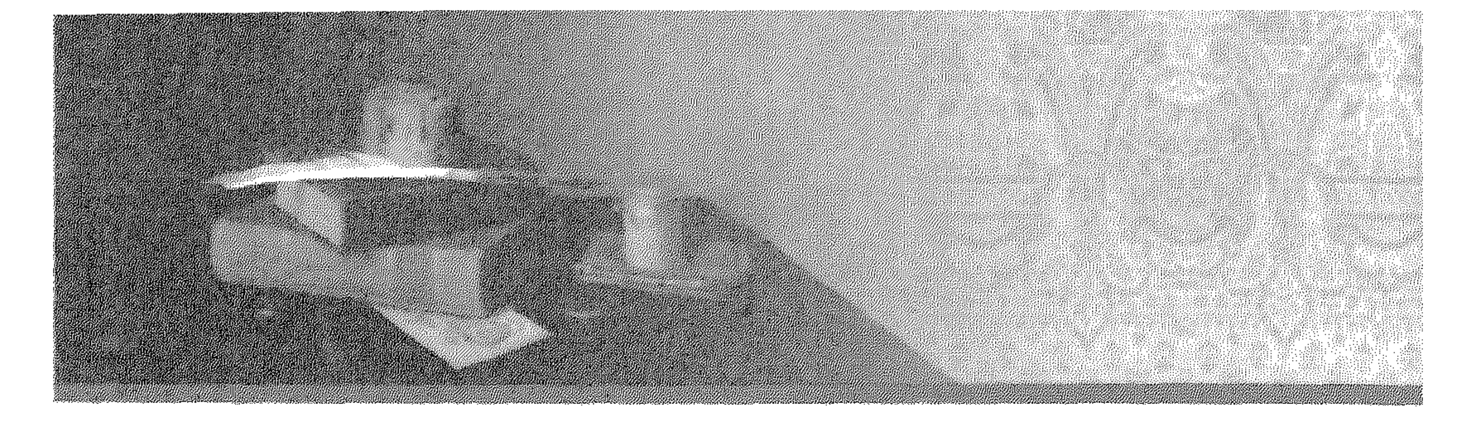
تحية للهلال الفائزة بجائزة معرض الكتاب

اعتادت مجلة الهلال فى بداية كل عام إصدار أعداد متميزة ولكننى تابعت بشغف وإعجاب شديدين هذا التطور الكبير الذى وصلت إليه الهلال مع إطلالة العام الجديد ولنقل مع بداية الألفية الثالثة .

ومن يراجع هذه المجلة الأولى فى مصر والعالم العربى وبحق يشهد كيف سايرت تكنولوجيا العصر فى الطباعة والإخراج ، فضلا عن مجموعة كبيرة من مفكرى مصر والعرب يكتبون فى شتى القضايا ، ويتناولون بالنقد البناء والهادف حياتنا ، وهو دور جديد لمجلتنا الحبيبة .

صحيح أن الهلال تناولت منذ حوالى خمسين عاما التنبؤات لعام ٢٠٠٠ ، وصدقت نبوءة الهلال فى كثير من القضايا وخاصة العلمية منها ، إلا أنها تتناول الآن قضايا أخطر وأهم .

لقد أحسست وأنا أقرأ عددى يناير وفبراير عام ٢٠٠١ بالجهد الكبير المبذول لكى تحقق الهلال للقارىء المعلومة الصادقة والنقد



الهادف البناء ، وكم كانت سعادتى أن تفوز «الهلال» بجائزة معرض الكتاب ، وهو خير تعبير عن دورها الثقافى والتنويرى ، وأيضا ريادتها لكل المجلات الثقافية في العالم العربى ، ويكفى أنها ومنذ صدورها عام ١٨٩٢ وحتى الآن لم يتوقف ، ولن تتنازل عن تبوأ مكانة الصدارة فشكرا لكم على التطوير .

أحمد داود على

مدير بنك التنمية - بنها

ضياء القدس

القدس مهد الأنبياء
القدس دار العلماء
القدس ملحمة الفوارس
فى عهد ثانى الخلفاء
القدس جبة خالد
أو سيف عمرو فى الذكاء
القدس جنة مسلم
القدس حلم الشعراء

☆☆☆

القدس قبلتنا التى ..
نادى بها رب السماء
القدس فيض دافق
القدس نسمات الهواء
القدس تشفى علة
بل إنها خير الدواء
فيها ليالى مقمرات
بدرها لبى النداء

☆☆☆

يسطع فينشر نوره
فيفيض فى الدنيا الوفاء



جــــــاء الـيــــــهـــــود ببطشـــــهـــم
وأقـــــامـــــوا فـى أرض الـتــــقـــــاه
فـــــاتـى الـصـــــغــــار مكبـــــريـن
لا .. لـــن يـكـــون لـهـــم بـقــــــــاء
الـقـــــــدس أرض لـلـعـــــــروبـة
لا . أرض مـن ســـــفــك الـدمـــــاء

أحمد نادى بهلول
المندره بحرى - ديروط - أسيوط

حريق القاهرة وأمانة الكلمة

عزيزى الكريم الاستاذ / رئيس تحرير مجلة الهلال .. تحية اعزاز وتقدير واحترام .. وبعد :

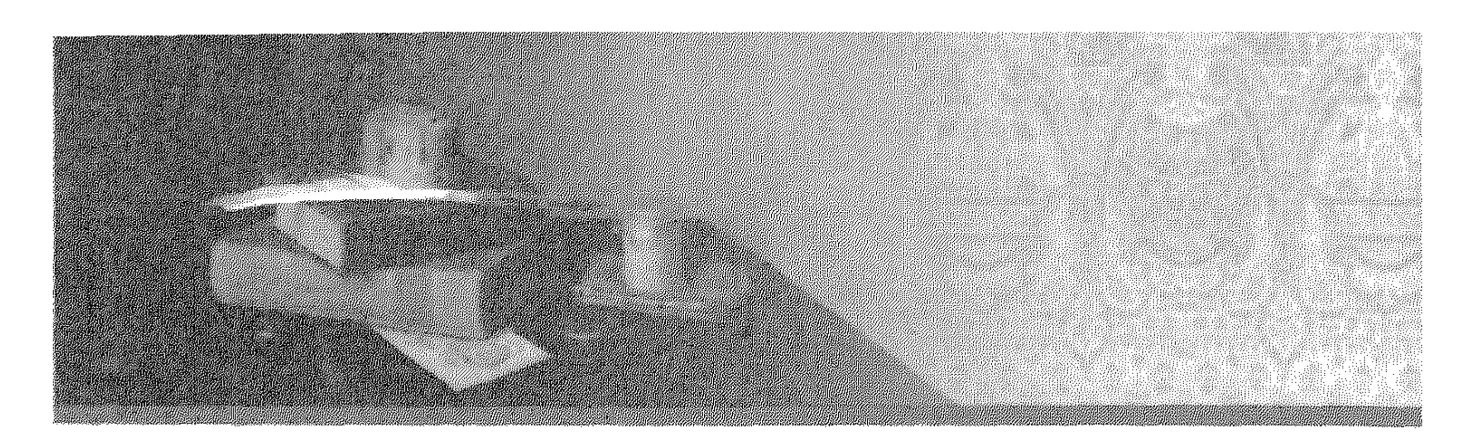
فتح القرن الحادى والعشرون ذراعيه ونحن نستقبله وكلنا أمل أن تصبح مجلة الهلال الغراء مجلة المستقبل ، ولكم جزيل الشكر على الجهد المبذول فيها من حيث التجديد والتطوير ، وهذا ما يلحظه الجميع خاصة ونحن فى مطلع الألفية الثالثة وصدر عدد يناير ٢٠٠١ فى أبهى حلة وأجمل إخراج ، مما لا يقدر بمال .. ولنا آمال كبار فى أن تكلل جهودكم فى مشروع الـ (سى - دى) على الانترنت بالتوفيق والسداد ..

طالعت باهتمام بالغ مقال د. رءوف عباس فى الهلال عدد يناير ٢٠٠١ والذى جاء تحت عنوان :

«حل لغز حريق القاهرة - ٢٦ يناير ١٩٥٢ من الفاعل ؟!!

وفيه أماط الدكتور رءوف اللثام عن ذلك الحادث الرهيب الأليم فى آن وهو بحق إحدى الإرهاصات القوية التى مهدت لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

والحقيقة التى لا مراء فيها ، أن الأمانة العلمية والثقافية التاريخية تقضى من المؤرخين فى المقام الأول وضع الحقائق أمام الأجيال دون تشويه وامدادهم بالمعلومات دون تزييف ، ومن ثم وضع صورة الماضى .. فى إطارها الصحيح بكل تجرد وموضوعية .. وهذا ما يحرص عليه دوما الدكتور رءوف فى ثنايا مقالاته ، بمعنى أنه يقدم التاريخ دون رتوش وردية ، أو مكياج سياسى إذا جاز هذا التعبير - لا مبرر له وذلك هو منهجه فى



التاريخ، وقد عرض لنا ما جرى على الساحة المصرية فى حقبة مهمة من تاريخنا المعاصر وسبقت قيام ثورة ٢٣ يوليو بأشهر قلائل ذلك هو حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ الذى يعد همزة وصل بين الأجيال الحاضرة والماضية لمعرفة صمود مصر عبر تاريخها الطويل !!

وجدير بنا أن نعى الدرس جيدا ، ونحن فى مطلع قرن جديد بما يحمل فى طياته من آمال مستقبلية لبلادنا ..

د.صموئيل لبيب سيحة
(باحث تاريخي) - المنيا

ولا يبقى غير الحب

وقال أرى بين جفنيك دمعا
يغرى فؤادى بسوء القضاء
وطفلا حزين الليالى شديدا
تئن على وجنتيه الدماء
فقولى بربك ماذا دهاك
وقد كنت نجماً يزين السماء ؟!
وكان لعينيك سحر رهيب
يعلم قلب العصاة الرجاء
فتسمو قلوب وتهوى جباه
وتمضى الحياة ابتهالا دعاء
وتحت الرموش وفوق الشفاه
صلاة ترتل صبحا مساء
وكنت لو الطير ان حزينا
إذا ما رآك شدا بالغناء
وكنت حياتى وكل آمالى
وكنت بقلبى جميع النساء
فأين ورود الخدود العطاشى؟
وأين الدلال وأين الدهاء ؟
وأين الليالى التي جمعتنا
على البعد عشقا بغير لقاء
وأين الأمانى التى كم رسمنا
وأين الوعود وأين الوفاء
وأين القصور التى كم بنينا
على ربوة فوق سفح الفضاء ؟!



تراك نسيتى لقاء بوادى
- أوانا - إذا ما دهمنا الشتاء ؟
فكذا نرى فى هوانا ربيعاً
نرى القرب زاداً نرى الوصل ماء !

إيمان محمد العطيفي
سوهاج - المراغة - الشيخ شبل

إعلامنا العربى ومزيد من الموضوعية

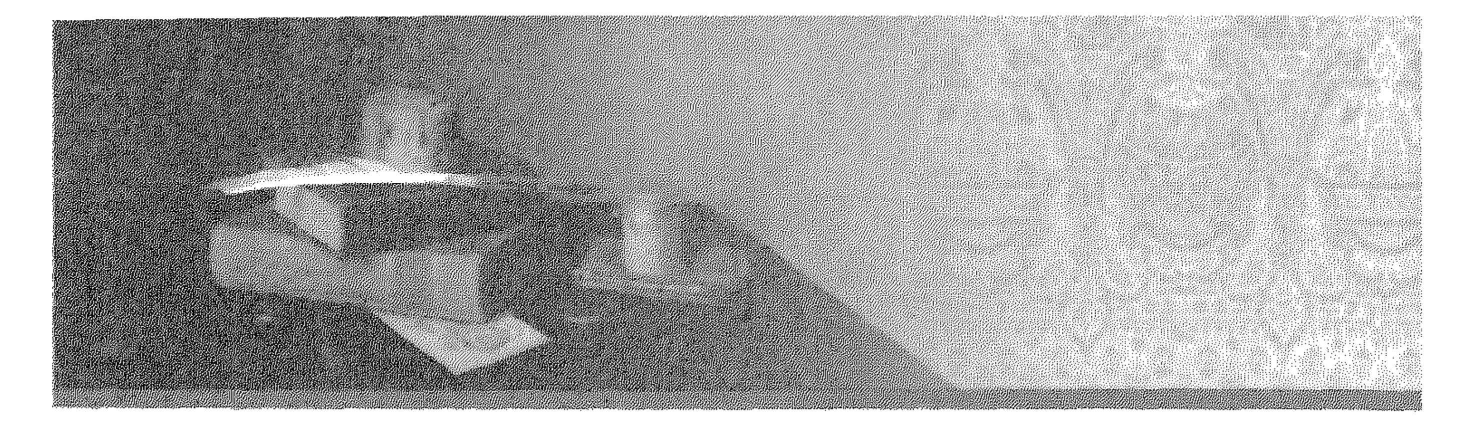
فى البداية لا يسعنى إلا أن أرسل مزيداً من التهنئة لأسرة الهلال على الثوب الجديد الذى طالعتنا به مجلتكم العظيمة فى مطلع العام الجديد وإن كنت أرى أننا أولى بالتهنئة ، ومع أطيب التمنيات بالمزيد والمزيد من التطور والازدهار لصالح القارىء العربى .

لقد ذكر الشاعر الفلسطينى الكبير مريد البرغوثى فى كلمته المعنونة «لو لم نكن عرباً» الواردة فى عدد يناير ٢٠٠١ من مجلتكم الموقرة أن تلاحم الفلسطينيين والعرب حتمى لتحرر كل منهم بشرط أن يكون التلاحم والمناصرة مستمرا وليس موسميا ،وهذا يعيدنا إلى الهياج الإعلامى الأقرب إلى العشوائية خلال فترة انعقاد مؤتمر القمة العربية فى اكتوبر الماضى ولا سيما فى الاذاعة والتليفزيون ، فهناك الاغانى الوطنية فى كل وقت والبرامج الإخبارية والتسجيلية عن القضية الفلسطينية صباحاً ومساء حتى أن البعض تصور أن التصعيد الإعلامى مؤشر لشىء آخر سيحدث . وفجأة انخفضت الأصوات إلى أن صمتت وعادت الشرائط إلى مكتبات الإذاعة والتليفزيون انتظارا لحدث آخر وكأن القضية تحولت إلى مناسبة لا نتذكرها إلا بعرض الأفلام والأغانى .

نفس الأفلام ونفس الاغانى ، ثم يبقى الحال على ما هو عليه مازال الموت فى الأرض المحتلة يحلق فوق المنازل ومازالت القبور تستقبل بين الساعة والساعة شهيداً .

نرجو من إعلامنا القليل من الصراخ والكثير من الصدق والاستمرارية فالقضية اكبر من أن تحل بمثل هذا الصراخ ، والمطلوب مواصلة الرسالة الإعلامية بكل الموضوعية ، لنوضح للعالم ما يتعرض له الفلسطينيون فى الأرض المحتلة من ظلم وقتل ودمار يومى .

أحمد السيد حامد السرى
دمياط - عزبة البرج



هبوا لنجدة شاكر

إلى روح الشهيد الفلسطيني شاكر فيصل حسوني الحسيني :

لك يا شاكر تهتز الضمائر ... ويصير الحبر دمعاً في الدفاتر
بدم عطرت أرضا فخرت ... وستقتص بمن للدم هادر
سحلوا جثمانك الطاهر لما ... أيقظ الذعر بإحشاء العساكر
فمضوا من فزع كالثعلب الم ... بوع مشدوه المشاعر
أبداً ما صدقوا أنك مت ... أسروا الجثمان خوفاً أن يغادر
أمتي يا أمة الدرة هبي للحسيني ... فالشهيدان هما خير المفاخر
وهما صحو لكل النائمين ... وهما للأرض جبيات البيادر
وهما وحدتنا يا أمة ... فرقتها عنوة دنيا المظاهر
وهما الصوت الذي فيه نردد ... نحن لسنا بعد موتى في المقابر
لا يزال الدم فينا يعتلي ... ولنا صوت قوى بالحناجر

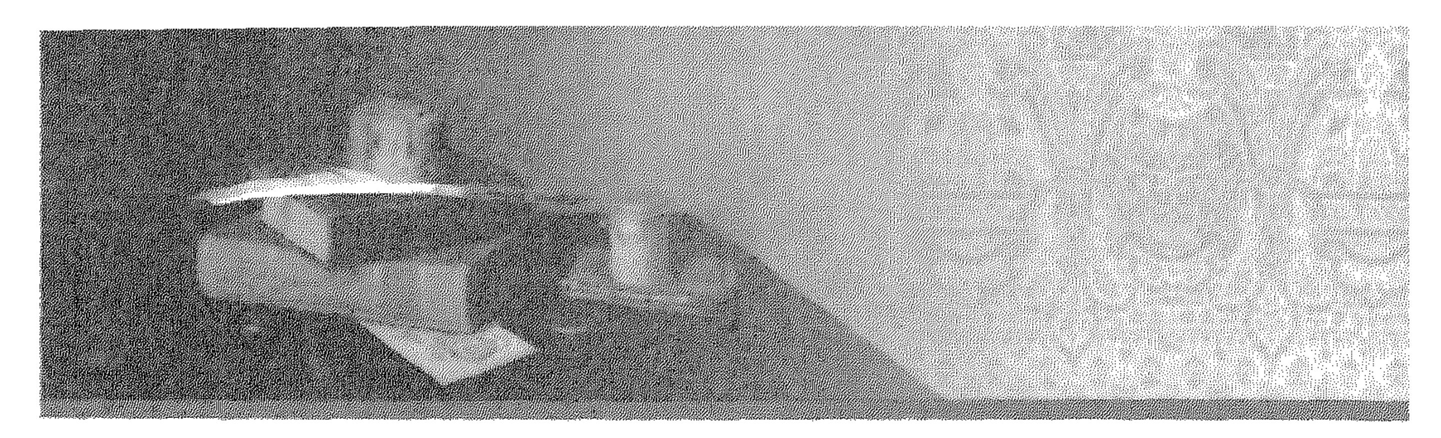
درهم جباري
سان فرانسسكو

ثورة المعلومات وهدنة لالتقاط الأنفاس

أسمحوا لي أن أوجه رسالة - في عكس الاتجاه - إلى هؤلاء اللاهثين وراء التطور التكنولوجي المذهل وثورة المعلومات التي تجتاح حياتنا الآن ، وأرجو ألا يعتبر هؤلاء كلمتي تخلفا وإن كانت مخالفة لآراء الكثيرين ومجافية للغة العصر .

حقا هذه الثورة المعلوماتية ثروة نافعة ومبهرة وعظيمة ، ولكن مهلا ورفقا بمن يحاول إستخدامها .. فاليوم نسمع عن دراسات ميدانية دولية تحذر من الإفراط في استخدام أجهزة الكمبيوتر والانترنت ، ونقرأ في المجلات العلمية عبارات مثل «إن تدفق المعلومات وتفجرها بهذا المعدل السريع يشبه اندفاع الإعصار المدمر وفيض النهر الكاسح .. إن كثرة المعلومات التي يتلقاها مستخدم الكمبيوتر قد تصيبه بالدوار والاختناق وتسبب له بعض الأعراض المرضية والمعاناة الفكرية ، بل وتلاحقه حتى في منامه نتيجة للحمل الزائد في المعلومات» .

ولهذا أدعو العلماء ومبتكري هذه الأجهزة الجهنمية في دول الشمال إلى هدنة لالتقاط الأنفاس ووقف هذا السباق الماراثوني الرهيب لعالم الالكترونيات ولنمنح أنفسنا قسطا من الراحة والتأمل، ولنعد - ولو لفترة - إلى الأحلام الجميلة وليالي ألف ليلة وليلة وبساط الريح وعالم



الأساطير . رغم أن هذه الأحلام والأساطير نفسها قد تحققت بالفعل وغدت واقعا ملموسا الآن .. بل لقد تحول بساط الريح إلى كبسولة تعالت حتى عبرت الأقمار والكواكب .

أما كان من الأفضل لنا ألا تتحقق كل هذه الأحلام ؟ فالحلم فى أحوال كثيرة هو أفضل من الواقع .

عادل شافعى الخطيب

عباس الأسوانى مصلح زمانه !!

الأديب الراحل عباس الأسوانى واحد من كتاب القصة القصيرة المتميزين الذين ظهروا على الخريطة الأدبية قبل أكثر من أربعين عاماً . وقد بدأ ظهور موهبته الفذة من خلال نادى القصة ، حيث فاز عباس الأسوانى عدة سنوات بالمركز الأول والميدالية الذهبية فى المسابقة السنوية التى كان يجريها النادى لاختيار أفضل القصص فى خلال الستينات .

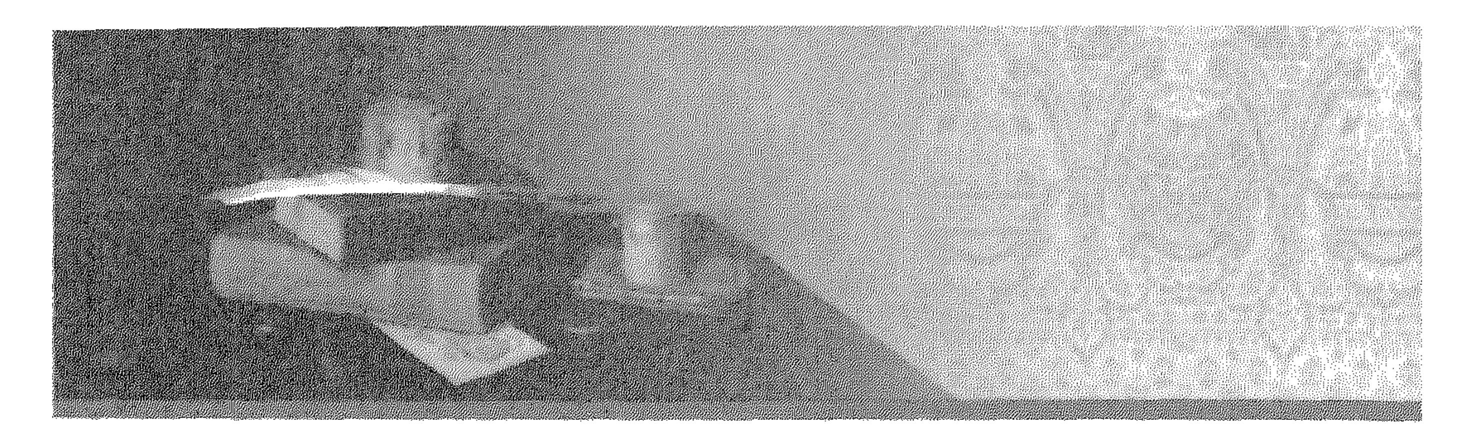
ولم يقتصر إنتاجه الأدبى على القصة بل كتب الرواية والتمثيلية ومقالات النقد الأدبى . وتميز أسلوبه بدقة التعبير والتصوير ووضوح الفكرة بأسلوب عذب سهل يسير ، وقد نشرت له دار أخبار اليوم كتابه «عائد من الآخرة» فى اكتوبر ١٩٧٥ ، وقد نسجه على غرار «المقامات» وفيه يصور عودة أديب مات عام ١٩٤٠ إلى الحياة مرة أخرى ويتجول به فى مجالات حياتنا المعاصرة المختلفة ، ويستنطقه نقد المواقف والطرائف فى هذه الحياة مما لم يعهده الأديب عندما رحل عن عالمنا فى ذلك الوقت .

وعباس الأسوانى بذلك ينحو منحى محمد المويلحى فى حديث عيسى ابن هشام ، إلا أنه لم يتخل عن أسلوبه الخاص المشوق ، وسخريته اللاذعة فى مجال ما يعرضه من أوضاع اجتماعية .

ومن أبرز أعماله تأليف مسلسل إذاعى منفصل الحلقات أذيع فى أواخر السبعينات .

وكان عنوانه «مصلح زمانه» ، وقد ضمنه نقدا اجتماعيا لكثير من الجوانب السلبية فى حياتنا بأسلوب فكاهى .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة



مع الأصدقاء

**** الصديقة : زينب طه أحمد تليمة - مدرسة أوسيم الثانوية** المشتركة: وصلتنا إسهامتك الشعرية والتي تبدأ بهذه الأبيات

قتلوا أطفالا وشبابا بعقود سلام كذاب

وأذاقـوا أنهـار دماء سالت من قلب المحـراب

وبقلبى نزيف يدمينى أوجـاعـا وأنيـنا شـاب

وأبيات القصيدة تحتاج إلى مراجعة دقيقة ، ويمكن أن يراجعها معك مدرس اللغة العربية .

**** الصـديقـة حنان وزيرى سـلام - قنا - مـركـز أبو تشت -** السليمات: مساهمتك الشعرية (أمنية) تحتاج إلى إعادة نظر ولابد من تنمية موهبتك الشعرية بقراءة دواوين الشعر ومعرفة العروض ودراسته حتى يمكنك الوصول إلى ما تتمنينه .

** الصـديـق الدائم عـاصـم فـريد البـرقـوقـى - الاسكندرية - جليم. شكراً على تهنئتك الرقيقة لتطوير الهلال ، ونحن معك فى أن يكون للضحك عيد ، كما احتفلنا فى منتصف فبراير بعيد الحب ، وفى انتظار رسائلك واقتراحاتك .

** الصـديق : زكـريا عبـد المحـسن علـى - أسـيـوط - جـزيرة الواسطى: وصلتنا قـصـيـدتك «لغـتنى العـربيـة» وهـى طويلة وكـمـا لاحظت أن بـاب أنت والهلال يتـضـمن العديد من الاسـهـامـات ومن بينها الشعر .. وياليت ترسل لنا قصائد قصيرة.

**** الصديق حسين منتصر قارسكور**

«كلمات» التى أرسلتها إلينا فكرتها جيدة ، ولكنها لا تصل إلى مستوى القصة القصيرة ، وأرى تقدما فى كتابتك وأسلوبك جيد فى السرد ، وأخيلتك جميلة .



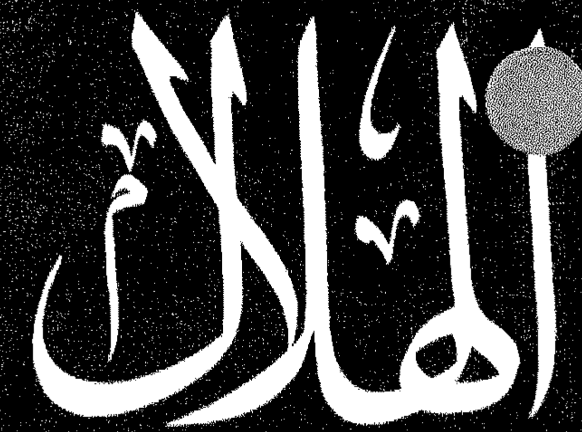
أراه نشطا مقتحما...

بقلم : أمينة رشيد

ينزل أدواره الستة ليصور جزءا من كتاب. يعود حاملا غذاء العشاء. يضع قطعة موسيقى كلاسيكية في جهازه. يجلس على مكتبه كي يعمل. وأجلس أنا في الغرفة المجاورة كي لا أشغله بوجودي. يأتي ليصنع شايا. نتبادل الكلمات. أعلمه كيف يعقد رباط عنق كي يرتديه بعد غد في ألمانيا حيث سوف يحصل على جائزة "لأفضل رسالة دكتوراه للسنة السابقة. يبدو فخورا وأنا فخورة به. يبدو سعيدا مع زوجته الصغيرة، الجميلة. شقتهما مليئة بالكتب والأشياء الأليفة. بالضوء الذي يغمرها رغم عتمة باريس. أنظر إلى هذا الرجل، ابني، وافتقد الطفل الذي تركته منذ زمن ذهب في ضبابه. وعندما تلتقي عيوننا أتساءل: لماذا كل هذا الحزن العميق في نظرته؟

في الصباح يستمع إلى الأخبار في مذياعه الصغير. يأتي خبر مذبحة جديدة في فلسطين في جملة صغيرة وسط جمل أخرى عن المتطرفين من الجانبين وهذه الأمهات بلا قلب التي ترمي بأطفالها في معركة خاسرة، وجمل أخرى عن جنون البقر وغراميات ممثل معروف. يغلقه غاضبا ويقرر ألا يستمع إلى النشرة الصباحية كي يستطيع أن يجلس إلى مكتبه ويعمل. يجتهد في قراءة كتب عربية تستعصي عليه. يتبحر في حجج المعتزلة ويعيد اكتشاف تراثه البعيد. وأراه نشطا، مقتحما.


زهرة جديدة



ابريل ٢٠٠١ - الثمن ٤ جنيهات

فى مصر تتعانق الأديان الثلاثة

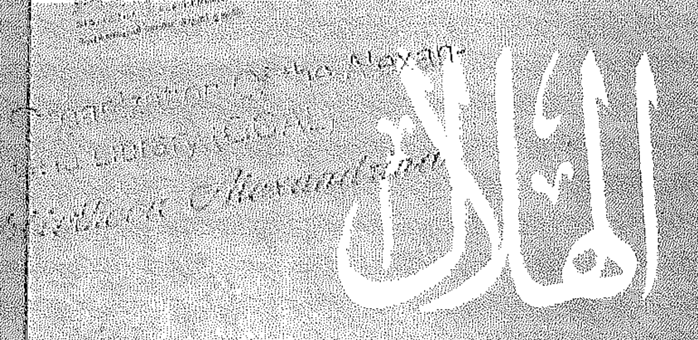
ماذا نعلم أطفالنا فى القرن ٢١ ؟

فن الكاريكاتير فى العالم

البشارة- للفنان محمود سعيد



لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١٧ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

رسم ساخر للفنان جويل يصور تكاتف القوى الصهيونية البريطانية والحلفاء لاغتيال فرنسا اثناء الحرب العالمية الثانية

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

دائرة معارف عربية

ألم يحن الوقت بعد لإصدار دائرة معارف عربية؟.. وأليس من الأجدى لوزارة الثقافة أن تصدر الموسوعة العربية الشاملة، التى تتناول المعارف المختلفة، والتى لا يستغنى عنها قارىء، بدلا من العديد من الإصدارات المتعددة وإهدار الجهد والوقت فى مطبوعات يمكن للناشرين القيام بها؟!

ومشروع دائرة المعارف العربية مشروع قديم لم ينجز رغم ما أنفق عليه من أموال وعقدت من أجله اللجان، ورغم أنه المتمم الحقيقى للاستقلال، وهو الحلقة الرئيسية فى الميدان الثقافى، والخطوة التى تسبق سواها. والتى تملك آلية خاصة تساهم فى الارتقاء بالمعارف، والكل يجمع على حاجة البنية الثقافية العربية المعاصرة الى حركة موسوعية شاملة ومتجددة.

وكما هو معروف فإن دائرة المعارف ليست مجرد موسوعة مكتوبة باللغة العربية، بل إنها فى المقام الأول خلاصة فكر أصحاب هذه اللغة، تعكس تراثهم وأسلوب حياتهم ونظرتهم إلى الكون، فالثقافة وطن، والوحدة نظام، وفى نواة النظام تصب المعرفة، وهى تمثل خبرة مجتمع بأسره على مدى أجيال كبيرة، وخلال عصور متعاقبة.

وربما يعود عدم إصدار دائرة المعارف العربية إلى العجز عن العمل الجماعى كفريق أو غياب العمل طويل المدى الذى ربما لايرى صاحبه نتائجه، أو لعل السبب ذلك الرفض لفكرة الترجمة من دوائر المعارف الغربية مثل: البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية، وامتد الجدل طويلا حول العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية، فيرى البعض أنه يمكن تقديم الفيزياء أو الكيمياء باللغة العربية مترجمة من إحدى الموسوعات الغربية. ولكن لا يجوز أن تمتد الترجمة إلى العلوم الانسانية ذاتها، ونادى البعض بأن تبدأ الموسوعة العربية بالتأليف والتعريب معا، التأليف فى الانسانيات والتسامح فى العلوم مع وضع خطة لزيادة المؤلف وتقليص المترجم فى كل طبعة



جديدة، ورغم أن العلوم الانسانية تقوم على المفاهيم والقيم السائدة، وتنعكس عليها الصراعات التاريخية، واختلاف العقائد والأديان، ويتسع فيها المجال للتحيز، فإنه من غير المقبول ترك يد مثل هذا القول، وتعطيل أهم المشاريع الثقافية من أجل المعرفة والتقدم.

فكثيرا ما يعرقل العمل «البقرات المقدسة» أى الأفكار المسبقة، التى تنفصل عن الواقع وتحلق في الخيال، فالمنطق والواقع يقضى أن نبدأ من القدرة الحالية، ثم نعمل على زيادتها، أى الترجمة من الموسوعات الحالية كبداية نحو موسوعة عربية شاملة.

وليس مقبولا أن تبقى الموسوعة مجرد هدف يسعى إليه المثقفون ويظل القارىء العربى محروما من دائرة معارف شاملة.

فقد نشر المستشرق الإيطالى كارلو فيللينى فى هلال مايو ١٩٣٦م مقالا يدعو إلى إقامة موسوعة عربية، ومن وقتها تتوالى المقالات، ولكن بلا نتيجة.

نقدر ونعرف ضخامة المشروع وجسامة الجهد المطلوب، ولكن يكفى أن نعرف الدور البارز الذى قامت به الحركة الموسوعية فى أوروبا، فيتفق المؤرخون أن إصدار دائرة المعارف الفرنسية وراء قيام الثورة الفرنسية ذاتها..

واللافت للنظر، أن مشروع الموسوعة العربية، قائم منذ زمن بعيد، بدأ التفكير عندما كانت الثقافة مجرد إدارة تابعة لوزارة المعارف، وانتقل إلى وزارة الثقافة، التى أقيمت بعد ذلك.

وانتقل الاهتمام إلى جامعة الدول العربية مع بداية الخمسينيات، وأصبح بندا دائما على جدول أعمال مجلس الجامعة العربية منذ عام ١٩٦١، وحتى اليوم، وأصبح القول بديلا عن الفعل..

فهل حان الوقت بعد كل هذه المشروعات الفاشلة أن ترى الموسوعة العربية النور، ونسد ثغرة أساسية فى الحياة الثقافية العربية؟!.

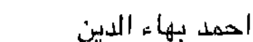
المحرر

العمود اليومى فى الصحافة

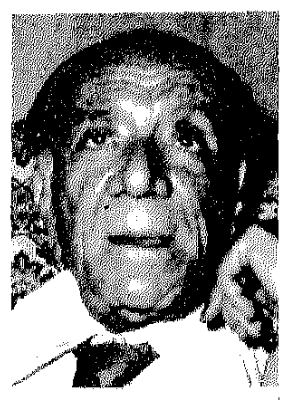
بقلم :
د. محمد رجب البيومى

حين وقعت كارثة البنك الأهلي بالمراغة نشطت الصحافة نشاطا كبيرا فى تتبع وقائع هذا الحدث المزعج وامتلأت أنهارها بفيض من أقوال الشهود، وصور المصابين على نحو ماهو منتظر فى مثل هذا الموقف، وطبيعى أن يكتب أصحاب الأعمدة الدائمة فى الصحف عن الحادث، وأن يطالع القراء مايكتبون ليعرفوا من الملابسات والأسرار مايستشفه هؤلاء الكاتبون بناء على قدرتهم المتوقعة فى التفسير والتحليل وربط الأسباب بالمسببات، ولا أكتم مايغمرنى من إعجاب بنفر قليل من هؤلاء يرون الأشياء بنظرة ثاقبة ذات وعى اجتماعى، وخبرة نفسية، وفهم لمجريات الأمور كما يتصور أن تقع، لا أكتم إعجابى بهذه القلة النادرة التى تلوح أعمدتها الوضيئة بين الأنهار المتدفقة عن شمال ويمين، كما يلوح البرق الخاطف فى غيم متكاثف، ولا أحب أن أشير إلى أسمائهم حتى لايظن أحد أنى أجامل من أشيد به وراء مأرب ذاتى فحسبهم رضاهم عن أنفسهم بما يبذلون، واستراحة ضمائرهم لما يسطرون، وحب القراء أن يتلهفوا على قراءة آثارهم تلهف الظامىء على المورد العذب، وماذا يريد الكاتب المجيد أكثر من أن يحرص قراؤه على متابعة آثاره إن ذلك هو العزاء كل العزاء، لصاحب النظر المتميز، والفكر الواعى، والموضوعية الخالصة.





احمد بهاء الدين



محمد زكى عبد القادر



مصطفى امين

ولكن كــثــرة كــاثرة رأت من واجبها أن تملأ الأعمدة اليومية المخصصة لها بحديث السطو المزعج، فلم تزد على أن نقلت أخـبـار المراسلين إلى أعمدتها، وكأن المهم لديها أن تكتب فى الموضـوع فـحـسب، لا أن تـعـالج الأمـر معالجة الطبيب حين يرى العلة مستعصية فيشرح دخائلها، ويشخص مصاعبها، ثم يقترح الدواء بنافذ بصيرته، ووثيق علمه وتجربته، أجل، جعل هؤلاء يتحدثون عن الكارثة كما وقعت تماما، بحيث لم يجد القارىء فرقا بين ما قال مراسلو الجريدة ومندوبوها فى المراغة، وبين ماسطروه من قول ! فـهل كـانت رسالة صاحب المقال اليومى فى عمود دائم أن يلخص أخبار المراسلين وأن يعقب هذا التلخيص بتوقيعه الكريـم؟

إن المسـألة ليست سهلة يسيرة تقابل بالاغـضـاء، لأنهـا ذات خطر كـبـيـر على الناشئة المتطلعة إلى الاحتذاء والتثـقيف مما تقرأ، فإذا كان الكبار - فى السن - من أمثالنا قد عـرفوا بمزاولاتهم الطويلة أن يفـرقـوا بين الجـيـد والردىء، وأن يستخفوا بكل مـالا يرتفع إلى المستوى المنشـود، فـإن الطالب الناشىء يؤمن بالحـرف المطبـوع، ويرى فى مـقـالات الصحف نموذجا عاليا يحاول أن يحتذيه، فإذا كنا نقدم له هذا الخواء الجديب، وإذا كان لايجد فى المقال التحليلى غير مايجده فى الخـبـر الصـحـفى فـإنه بتكرار هذه النمـاذج سيـفـقـد المثل الراقى للكتـابة الموضوعية، بل ربما ظن الأمر من السهولة بحيث يحـضـر الورقـة والقلم ويكتب هو الأخر لأن المصدر أمامه فى واقع مانشر عن الحـادث بالتـفـصـيل وماعليه إلا أن يلخص، ولن يكون الفرق بعيدا بين ماكتب ومـا يكتب مما أشـرت إليـه هنا بالنقـد الهادف دون تجريح.

ولنتـرك حـادث البنك ومـادار حـوله، فليس الحادث هو المقصـود بالذات فيمـا أتجه إليه من نقد، ولكنه واقع حدث وكثر القول حوله بما لايرضـى القارىء المتعطش فى أكثر مـاقيل، فكان مثلا لما أعنيه وما أعانيه.

نحن نعلم أن الصـحـافـة ذات جـلالة ديمقـراطية لا دكـتـاتورية، فـإذا كـان من حـقـهـا أن تنقد مـاتراه مـوضـع النقد من مسـائل السيـاسـة والاقـتـصـاد والاجتمـاع فإن من واجبها أن تسمع مايوجه إليها من نقد هـادف يصحح مايحتاج إلى تصحيح،

فيما تعرض على القراء من صفحات، والقائمون على تحرير الصحف يعرفون تماما أن العمود اليومي مصدر جذب للقراء، وأنه - في وضعه المعقول - يعتمد على التركيز المستوعب، والعرض الكاشف والحل الميسر، مع تلبية سريعة للأحداث العاجلة، الأحداث التي تشغل الناس في حاضرهم، وتتردد وقائعها في الخبر والصورة والسؤال، هنا يفزع القارىء إلى زاوية العمود اليومي ليجد تفسيرا لما أغمض وحلا لما أعضل، وإذا كان لهذا الأمر خطره فلابد أن يقوم به إنسان دارس مستوعب مهر من قبل على تحرير المقالات الطويلة، واعتمد على رصيد واف من ثقة القارىء به في ماضيه الحافل، وهو مع ذلك يعرف طبيعة مايقوم به من عمل، وما يتطلب من خصائص في الصياغة والشمول والإيجاز، فإذا فهم ذلك كله أفاد قارئه، واحتل مكانته في نفوس الجمهرة من القراء، فهم مهما اختلفت مستويات هم الفكرية، يعرفون الغذاء الجيد ويتركون الصفحات المتتابعة ليصلوا إلى موضعه مطمئنين !.

نحو النور

وإذا كان لابد من مثالين متعارضين، أضعهما أمام القارىء فإني أتجاوز الأحياء إلى من سبقوا إلى رحمة الله، فأتحدث عن فترة من عمري، كنت فيها طالبا بالمعهد الديني إبتدائيا وثانويا وكنت حريصا على أن أقرأ جريدة «الأهرام» يوميا، فكنت أجد عنوانين في الجريدة يحملان طابع العمود اليومي، هما «ما قل ودل» ويحرره الأستاذ أحمد محمد الصاوي و«نحو النور» ويحرره الأستاذ محمد زكي عبدالقادر، قبل أن ينتقل إلى الأخبار، أما الأستاذ الصاوي فكان يميل إلى الخطف السريع دون تركيز، وهو يعد صحافي نابه، ولكن حديثه أشبه بالسندوتش الذي يؤكل في لقمة أو لقمتين دون أن يشبع جوعة القارىء، أما مقال «نحو النور» مع إيجازه المحدود في سطور قد لاتتجاوز الثلاثين، فهو دائما في تواصله اليومي ذو نظرة مستقلة، ونقد موضوعي، واحترام للقارىء، ولم يأت ذلك للكاتب الكبير عن فراغ، لأن ثقافته المتشعبة في مسائل القانون والسياسة والتاريخ والاقتصاد، قد أمدت قلمه بالبليغ من الرأي، والصادق من التحليل، مع شفافية روحية، وائتلاق ذهني ومع بعض الشاعرية أحيانا ثم لايمنعه اتصال القول يوميا من الإجادة الشافية، والنظر الموضوعي، وأظنه جمع بعض ماكتب في أسفار مستقلة ليست تحت يدي ! ولست أضائل كثيرا من مكانة الأستاذ الصاوي إذ كان له جمهوره المتلهف على آثاره، وليت الذين يكتبون اليوم ممن أعنيهم في

هذا المقال يصلون إلى مستواه، ولكنى أوازن بين اتجاهين، إذ أدعو إلى الاتجاه الأمثل.

أسجل هذه الخواطر، وأنا أعلم أن بعضهم سيتعلل بأن الأسلوب الصحفى يراعى حق القارىء الشعبى، فلا يعمد إلى التعمق بل يتجه إلى البسط اليسير، وأنا لا أنكر حق القارىء المتواضع ذهنيا، فى تناول ما يلائم طبيعته، ولكن هذا الحق شيء، وتقديم المفيد شيء آخر، وقد كان القراء منذ تسعين عاما يقرءون آثار مصطفى لطفى المنفلوطى، ومحمد فريد وجدى، وعبدالعزيز شاويش، ثم آثار من خلفهم من أمثال طه حسين، والمازنى، وهيكل ولا أقول العقاد.. فقد يعسر أحيانا على من أعنيهم بالقول، يقرءون آثار هؤلاء الكبار قبل أن تنتشر الجامعات، وترن الإذاعات وتكثر الندوات، ثم هم مستمرءونها أشهى استمراء، وقد يتعصبون لفريق أمام فريق، فكيف نقول اليوم إن طبيعة القارىء العربى تحتم أن نقدم له المقال سطحيا مفككا دون تحليل!! أليس هذا تبريرا مخذولا، ثم أين رسالة الكاتب التى من صميمها أن ترتفع بمستوى القارىء؟ لا أن تحافظ على مستواه الهابط، إن سهولة التعبير لاتعارض عمق الفكرة وطرافتها، لأن الفكرة إذا أشرقت فى عقل الكاتب انتقلت إلى قلمه فى إشراق متكافىء، ومايجىء الغموض فى أكثر أحواله إلا من غموض الفكرة نفسها فى عقل كاتبها، وخير له حين ذلك أن يتركها حتى تبزغ فى إشراق .

ملء الفراغ

وإذا كان من المتفق عليه أن يكون



محمد توفيق دياب   أحمد حسن الزيات

«العمود اليومى» ذا فكرة محددة، وذا موضوع واحد، فإننا نفاجأ كثيرا حين نقرأ عدة موضوعات تتوالى فى هذا العمود، دون أدنى ارتباط، وقد تأخذ أرقاما تدل على الانفصال التام، فما معنى هذا؟ معناه الصريح أن كاتب العمود اليومى ليس لديه مما يقوله، وأنه اضطر لملء الفراغ التزاما بتعهده أن يكتب كل يوم! وبذلك يصير المقال أخبارا متفرقة، كان حقها أن تجد مكانها فى صفحات الأنباء العامة، أما الناحية المقابلة لهذا الاتجاه، فتلك التى نراها فى المقالات المسلسلة ، فقد يكتب صاحب العمود مقالا طويلا من شأنه أن ينشر فى غير عموده، ثم يجزئه على مرتين أو ثلاث وهنا يفقد العمود اليومى رسالته التى وجد من أجلها، فصاحب العمود ملزم بتقديم رأى خاص فى مسألة خاصة، ولايعود إليها إلا إذا جاء تعقيب من معترض، فيفسح المجال لصاحبه، ثم يعقب عليه بما يراه، يخيل إلىّ أن فلسفة وجود هذا النوع من المقال غائبة عن أذهان كثير ممن يقومون بكتابته، بدليل أنهم لايفرقون بين البحث الموضوعى، والمقال الذاتى فيما يقدمون للقراء، كما يخيل إلىّ أنه لاسبيل إلى تنحية هؤلاء المتواضعين، لأنهم معينون فى

الجريدة من ناحية، ولأن الجرائد قد زادت صفحاتها زيادة فرضها التنافس الشكلي بين الصحف، ولم يفرضها السعي إلى النهوض الحقيقي في عالم الإعلام، وهذه الزيادات تتطلب ملء الفراغ، وحيا الله أخبار الرياضة والسيارات حيث كفت الجريدة أكثر حاجتها من اللغو المديد، وبقيت حاجة الأعمدة التي يجب أن تملأ بالحروف السوداء مهما انحدر المضمون، وقد عين المشرفون على التحرير أسماء الكاتبين، ومنهم هؤلاء فواجهوا القراء بهم فجأة وكأنهم نزلوا من السماء على غير انتظار، وعهدنا بالكاتب الناشىء أن يتدرج شيئا فشيئا، فلا ينهمر نتاجه يوميا على هذا الوجه، ولدى اقتراح مفيد، هو أن يقتصر المقصرون على مقال أسبوعي، يفكر فيه صاحبه طيلة الوقت متأنيا مستمهلا، وسيكون بهذا التمهل أكثر قيمة من مقال يومي يكتب لملء الفراغ فحسب، وخير للكاتب أن ينتظره القارىء في يوم معين من الأسبوع ويجد لديه بعض مايفيد، من أن يقرأه يوميا، ثم لا يقرأ شيئا ذا بال، إننا نعرف من كتاب الجيل الماضي أناسا كانوا يقتصرون على مقال ينشر في مجلة شهرية، وقد لايوالون النشر بانتظام الشهور، ولكنهم يكتبون بين الآونة والآونة، بحيث ينقضي العام متمخضا عن أربع مقالات! ومع ذلك يجدون من ترحيب القارىء مايجعله يتفقد آثارهم، وينتظرها على شوق، وقد ظل الأساتذة على أدهم، وعبد الرحمن صدقي، وحسن الشريف ، وغيرهم يكتبون في «الهلال» وأحيانا في المقتطف فمضت لهم شهرة أدبية قبل أن يتسعوا بالنشر في المجلات الأسبوعية كالرسالة والثقافة، وإذن فالمسألة مسألة كيف لا كم . ومتى تعود صاحب العمود الأسبوعي أن يجيد التأمل، وأن ينتقي الموضوع الجيد، وأن يراعي خصائص المقال العمودي، في تركيزه ووضوحه واقتصاره على غرض واحد مما يشغل الأذهان فإنه يصبح ذا مراس يدفعه إلى الكتابة المتواصلة إذ بدأ السير بخطوات واثقة رشيدة فعرف صعاب الطريق وملتوياته، وجرى قلمه في يسر أوحى به المران الجاد، وسهل عليه بعد ذلك أن يكتب أكثر من خاطرة في الأسبوع بل قد يوفقه الله أن يكتب العمود اليومي بنجاح.

التركيز يتطلب الدقة

وقد يظن القارىء أن كتابة العمود اليومي بمعناه الصحفي الدقيق أيسر سبيلا من كتابة المقال الممتد إلى عدة أعمدة وقد يكون هذا صحيحا إذا كان المقال الممتد يعالج موضوعا تشعبت مناحيه، وكثرت به مواضع الجدل، وأسباب التبرير، ولكن من الصحيح أيضا أن التركيز في عمود واحد يتطلب من الدقة والافتنان مايتطلبه المقال المسهب المطيل

من الجهد، وقد قرأت فى كتاب «دفاع عن البلاغة» للأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات أن المستر ولسن الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية سئل : كم ننفق من الزمن فى إعداد خطبة تلقى فى عشر دقائق؟ فقال: أسبوعين فقيل له: فكم ننفق إذن فى خطبة تلقى فى ساعة؟ فقال: أسبوعا، فقيل له فإذا أردت أن تلقيها فى ساعتين، فقال : ألقيها على الفور.

وقد يكون هذا الحوار مما يحتمل الأخذ والرد فى بعض نواحيه ولكن مغزاه لايختلف عليه أحد، فالرجل الموجز المقيد بزمن قصير أو بمساحة ضيقة يضطر إلى أن يقول ما بنفسه فى دقة تراعى حدود الزمان والمكان، وهذا وحده يمثل تبعة أدبية تلقى على كاتب العمود المحدود، وهذا ما لا يفهمه من أعنيهم بهذا المقال، وعلم الله أنى أريد توجيها لا انتقاصا، فأكثرهم يؤدى واجبا فرض عليه! فعده سهلا، وهو شاق عسير.

أنا أعرف أن أكثر هؤلاء قد تخرجوا فى كليات الإعلام، وقد ألقيت عليهم محاضرات فى الفن الصحفى فعرفوا مايتطلبه المقال الموجز من سمات بل ربما جاء الامتحان فى هذا الموضوع، وأجابوا عن الأسئلة بما لايبعد عن الصواب، ولكن الكتابة قبل كل شيء تستلزم ثقافة أصيلة، وخبرة دقيقة بالتعبير الأدبى لا يجدى دونهما مايحفظ من المقررات، ومايراعى من السمات ! لابد أن يكون الفكر سديدا، وملكة التعبير قوية لدى الكاتب ليستطيع أن يفصح عن خاطره فى نطاق ما أخذ من توجيهات !، أرأيت أنك إذا جئت إلى شخص ما وقرأت عليه



أحمد الصاوى محمد عبد الرحمن صدقى

كتابا فى السباحة فعرف بالقراءة وحدها كيف يقاوم أمواج البحر، ثم قذفت به إلى الماء ليسبح وفق ماتعلم! ماذا يفعل الجسم المريض حينئذ ؟ إنه سيرسب فى الماء فورا دون أن يتذكر شيئا مما قرأ، كذلك إذا فقد الطالب ملكة التعبير الصحيح، ثم عرف خصائص الفن الصحفى فيما درس ونال الشهادة الجامعية والتحق صحفيا بالجريدة، وكان من عمله أن يكتب، ماذا سيقول؟ سيقول مانقرؤه ناقدين، وندعو إلى إصلاحه مخلصين!.

على أن الإنسان ليس عبقريا بحيث يكون قلمه طوع يده، يصرفه متى دعى إلى الكتابة يوميا فى زمنها المحدد ووقتها المعلوم، فلهذه الناحية أناس مميزون ممتعون بالمواهب، مسلحون بالاطلاع، وحتى هؤلاء أيضا يعانون فى بعض المواقف من نضوب الفكر وخمود العاطفة مالا تسمح لهم بالاسترسال! أليسوا بشرا؟ والإنسان لا يدوم على حال، وإذا كان من الشعراء من يشتكون نضوب القريحة حين تدعو الحاجة إلى القريض فى بعض المناسبات لا أقول المناسبات الرسمية، بل المناسبات النفسية التى تستدعى الافصاح، وتتطلب التنفيس فإن من كبار الكتاب من يقفون هذا الموقف

أحيانا فيحتالون على القلم أن يخط بعض الكلمات، ولكنه يقف بين الأصابع الواهنة واهنا مثلها تماما، وهنا يجب على الكاتب أن يعتذر عن الكتابة إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وإذا كان فى الشباب من ذوى العزة الموهومة من يعز عليه أن يعترف بنضوب ذهنه فى بعض الأوقات كيلا يحرج موقعه فى زعمه، فهو ذلك مخطىء أى مخطىء، وسأضرب له المثل بعلم من أعلام البيان فى الجيل الماضى كانت الصحف تزدان بثمرات يراعه مباهية مستطيلة، وهو على مكانه المرموق، ونشاطه الدءوب لم يجد حرجا فى أن يعلن للناس ما اعتراه من إفلاس أدبى حين عصر ذهنه عصرا ذات مرة فلم يهتد إلى موضوع يجب أن يكتبه للصحيفة المنتظرة، وقد أزف الميعاد ! ولعل فى الاستشهاد بقوله مايغنى عن كل تعليق !

لقد اتفقت جريدة «الجهاد» التى كان يصدرها الأديب الكبير الأستاذ محمد توفيق دياب لعدة سنوات متتالية فى الثلاثينات مع الكاتب الكبير الأستاذ عبدالعزيز البشرى أن يحرر باب «حديث رمضان» يوميا مدة الشهر المبارك اتفقت معه قبل قدوم الشهر بأمد طويل كى يستعد لما يكتب، ووافق الأستاذ، وكأنه وثق من قدرته فلم يحاول أن يهيىء ما سينشر قبل قدوم الشهر المبارك، وجاء الوقت، فأخذ الشيخ يرسل المقال تلو المقال، وقراؤه فى لهفة متطلعة لما يقول، ولكنه ذات ليلة جلس إلى مكتبه ليخط حديث الغد، فما فتح الله عليه بشىء! كيف وجرس التليفون بالجريدة يدعوه وإنه لقول الفصل وماهو بالهزل.

فكر الأستاذ ثم فكر فى هذه الأزمة الأدبية الآخذة بخناقه، ثم هداه الله إلى أن يكون إفلاسه الأدبى موضوع حديثه، وإنه ليطيب لى أن أنقل إلى القارىء ماكتب، لا ليؤيد وجهة نظرى فى نضوب الفكر الإنسانى فى أوقات لاتسمح بالارتواء فحسب بل ليرى قارىء اليوم نمطا من البيان العالى، كان له دعاته المحافظون، وعشاقه المتيمون، حين كان للغة البيانية ما لقيثار الموسيقى من رنة الطرب، وحلاوة الايقاع، ونشوة التأثير.

يقول الأستاذ عبدالعزيز البشرى تحت عنوان : «إفلاس» نقلا عن الجزء الأول من كتابه «المختار» :

«اجتمعت اليوم لأكتب حديث رمضان فإذا بى مفلس لا أصيب زادا، ولا أجد لشأنى عدة وعتادا لقد فصحنى النهار، وعلىّ أن أكتب للجهاد «حديث رمضان» وأنبعث إلى مكتبى فأستوى له، وأبسط القرطاس بين يدى، وأشرع اليراع ثم أهوى به، فإذا هو يتعصى علىّ ويركب رأسه، ويشرد تارة الى اليمين، وأخرى إلى اليسار، مايكف له جماح، وما يطامن

من نفار .

ياويلتا ماذا أكتب للجهاد اليوم وكيف أقول؟ اللهم لاشيء!.

أترى الأرض كلها أقفرت من موضوع يكتب فيه كاتب ولو بالإصابة من أطرافه، ومس حواشيه ؟ اللهم لا؟

وإني لأبسط العزم وأشده، وأذكى الذهن وأحده، وأمد الفكر وأثنيه ، ثم أنشره وأطويه.

ثم أغوص به في جوف الدأماء «البحر» فلا يجديني ولاقطرة ماء.

ثم إني لأرمي القلم وأتطاير عن مكتبي، وانفر إلى حديقتي الصغيرة، فأتفقد أشجارها، وأتوسم أزهارها، وأهرول من هاهنا ، وهاهنا، لعل خاطرا يعتريني فأصيب به كلاما، فإن ظفرت بعد هذا بشيء فهو كالقابض على المزقة من الفيء «القطعة من الظل».

ثم أعود فأستوى إلى مكتبي وأستندى ذهني، فلا يندى، وأروضه على القول فلا يطيع ولايرضى، وأستبينه فلا يبين، وأستعطفه فلا يرق ولا يلين، وإني لأهز القلم هزة الكمى ساعة يخرج إلى النزال ويبرز لمقارعة الأبطال، فإذا هو يتعالى في يدى ويتثاقل، وإذا هو يتراضى ويتزايل، وإذا بى أراه، قد تفلل من غير حرب، وتثلم من غير طعن ولا ضرب !.

ويلي عليك وويلي منك أيها القلم!».

هذا بعض ماقاله الكاتب المبين مصورا عسر الميلاد، وهو بذلك لم ينقص قدرا من مكانته الأدبية لأنه احترم القارىء أن يطالعه بالمسوخ المعاد إذ أن



عبدالعزيز البشرى

طه حسين

الشهر شهر رمضان، والحديث حديث رمضان، وكان في طوقه أن يتحدث عن فضائل الصيام أو مزايا الزكاة، أو سنة الاعتكاف بما يعرفه العالم الأزهرى الذى تولى منصب القضاء الشرعى عدة سنوات ! ولكنه يرتفع بنفسه وبقارئه أن يقدم له ما قد عرفه من قبل لدى أقلام من يلوكون هذه الأحاديث دون تجديد، وكأنهم جاء وا بالفتح المبين، ومايزالون إلى اليوم يملأون الصفحات، نقلا ونسخا، وليس الجديد عندهم سوى التوقيع! وكلامهم على هزاله ليس بالجديد فقد كرر الكاتب هذه المشهورات في ماقبل، ثم أعادها دون تجديد !.

لقد خفت الملام، حين صممت أن أكتب هذا المقال، ملام من يظنون أنفسهم فوق الانتقاد، ولكن بواعث القول كانت أشد من أن تكتم، وكم حاولت التغاضي فشعرت بمثل وخز السنان، فعلى من يريدنى أن أصمت أن يشرح لى كيف أسكت هذه الأشجان! :

وحببتما لي سلوة وتناسيا

ولم ترشدا كيف السبيل إليهما! ■

عقد الستينيات
فى مصر

بقلم
د. مصطفى سويف

أربع نقاط مهمة، أستأذن القارئ الكريم، أن أقدم بها للمقال الراهن:

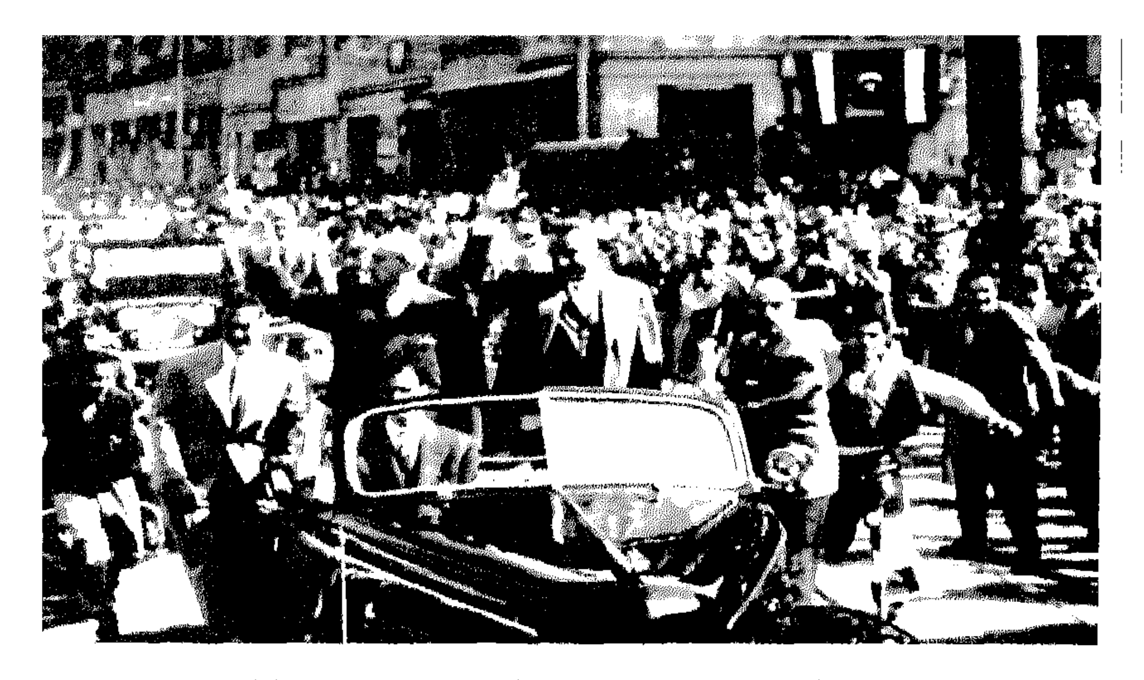
الأولى: أننى أتقبل النقد، بل وأرحب به، شريطة الالتزام بالعقلانية مضمونا، وبالأخلاقية أسلوبا.

والثانية: أرجو بها التذكرة بأن هذا المقال هو الثامن بين سلسلة المقالات التى بدأتها على صفحات هذه المجلة الغراء فى يناير ٢٠٠٠ أقدم فيها شهادة بما أسميته قراءتى بعض أحداث القرن العشرين الذى عايشته وعشت من خلاله منذ منتصف عشرينياته.

والثالثة: أعيد بها تكرار أقوال قلتها من قبل لتكون إطارا يحدد ما تنطوى عليه هذه المقالات من معان ودلالات حتى لا يطالبنى أحد بما لم أعد بالوفاء به.

فقد قلت فى مطلع المقال الأول ما نصبه: «ولست أدعى هنا أننى سأحاول التأريخ لهذه الفترة من الزمن المصرى بموضوعية المؤرخ المتخصص، ولكن اجتهادى سوف ينصرف الى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة الى نفسى، وكيف قرأتها..» ثم قلت فى مستهل المقال المنشور فى يناير سنة ٢٠٠١ مانصه: «وما أقصده هو إبراز الرنين الانسانى فى هذا المسار، لذلك وجب اعتبار ما أكتبه رصدا وتسجيلا يقوم بين الذاتية





موكب عبد الناصر والقوتلي بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨

والموضوعية، فلا هو ذاتى تماما.. ولا هو موضوعى تماما.. الواقع أنه مغاير لهذا وذاك، فهو ذاتى بقدر ما يملى من فروق واختلافات فى الرؤية، و هو فى الوقت نفسه موضوعى بقدر ما يسمح بتخليق التكامل بين الرؤى المتعددة للراصدين والمسجلين.. وما أتصوره وأرجو أن يأتى يوم تتوافر فيه كثرة من الأدبيات التى تقدم مثل هذا المنظور بحيث تغرى أهل الاختصاص من أساتذة التاريخ بإدخال هذه الوثائق ضمن مصادرهم .. وتغريهم بالاجتهاد فى استحداث أو استكشاف التكامل بينها حتى يتسنى لهم (أى لأصحاب الصناعة) أن يكتبوا التاريخ باعتباره الوجه الدينامى لعلم الاجتماع».

والنقطة الرابعة والأخيرة أرجع فيها إلى لسان العرب لابن منظور، فقد جاء فيه تحت مادة قرأ، قوله: «وقارأه دارسه.. وتقرّأ تفقه.. وقال بعضهم قرأت تَفقّهتُ». وجاء فى اللسان أيضا تحت مادة فقه ما نصه:«.. ودعا النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال : اللهم علّمه الدين، وفقّهه فى التأويل، أى فهّمه تأويله ومعناه» . وفى العلوم النفسية الحديثة أن الفهم يبدأ بالادراك ، والادراك انتخابى بطبيعته عند الأسوياء طلبا للتركيز واستخلاص المغزى، ثم تجرى على المدركات عمليتان ذهنيتان، إحداهما تحليلية والثانية تركيبية، وهما يهدفان معا الى استيعاب ما جاء به الادراك جديدا فى اطار ينتظم القديم ويعيد تشكيله، وبتمام الاستيعاب يتحقق تمام الفهم .

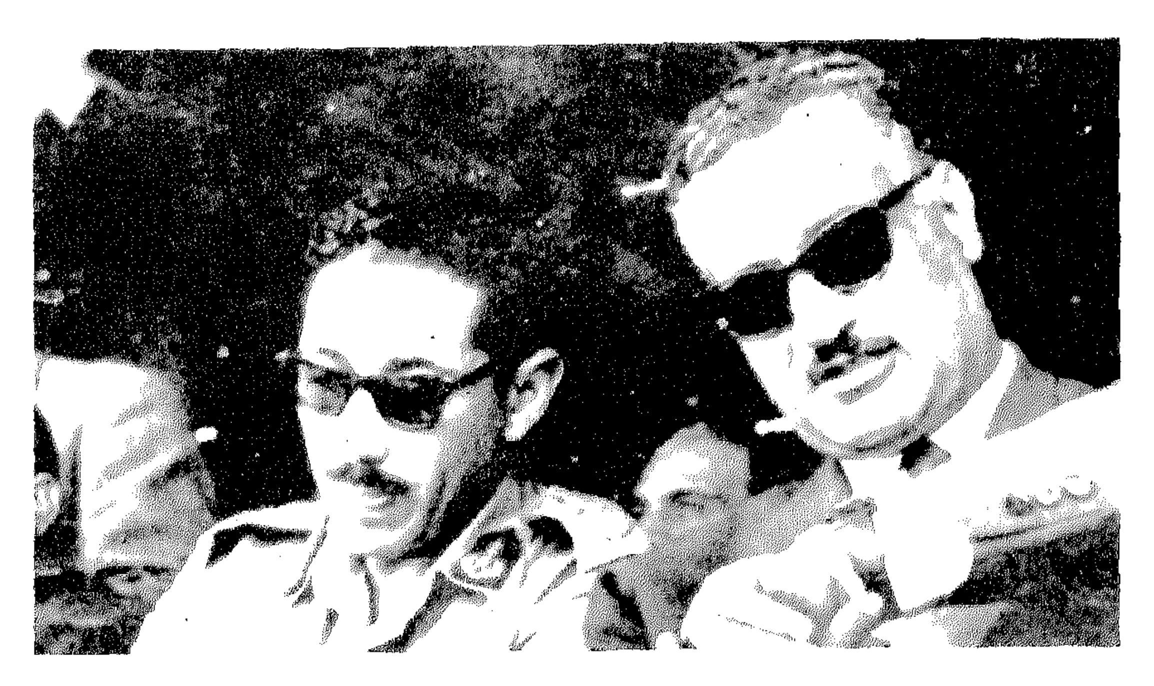
عقد الستينات فى مصر

مطلع الستينيات

وصلت الى ستينيات القرن ومعى رسائل من أحداث الخمسينيات تموج بأقدار من القلق، وتنضح بمشاعر المشقة، لكن المشقة أنواع تنتظم فى مستويات: بعضها مقبول أو يكاد، فأنت تشعر بإمكانات ترويضية، وقد تكون امكانات ضعيفة لكنها تنطوى على خواطر بأن الأمر فى نهاية المطاف فى يدك وأنه طوع إقدامك على الارادة والفعل. وفى مقابل ذلك هناك نوع آخر من المشقة مرفوض بطبيعته لأنه مفروض عليك من خارج ذاتك، وهو مفروض عليك من حيث المنشأ والمآل، ومن حيث تبعاته وتوابعه. هكذا حملتُ معى الى أوائل الستينيات همومى كمواطن مصرى، واهتماماتى كإنسان له فرديته/ شخصيته التى لا تلغيها اجتماعيته. كانت همومى تنضح وتنذر بالنوع الثانى من المشقة، وكانت اهتماماتى تنبىء بالنوع الأول.

حديث الهموم

فى مطلع الستينيات أُعلن فشل مشروع الوحدة بين مصر وسوريا، وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٦١ عندما أُعلنت سوريا انسحابها من هذه الوحدة. لم أكن أبدا من المتحمسين للنظام، ولكنى فى الوقت نفسه لم أكن أشعر بالعداوة نحوه. كنت أرى أخطاءه، وأراها أحيانا فى توقيت مبكر بالنسبة لوقوع الأحداث، ومع ذلك احتفظ فى ركن من نفسى بقدر محدود من الشك فى صواب ما اذهب اليه، وكان احتفاظى بهذا الشك يستند الى مقدمة محددة، خلاصتها اننى لست مع اللاعبين الرئيسيين داخل الحلبة، ومن ثم فلا تتوفر عندى جميع المعلومات اللازمة للوصول الى حكم يقينى بالخطأ أو الصواب، ولا مفر إذن من الانتظار حتى تظهر نتيجة هذا التحرك أو ذاك، وعلى أية حال لم يكن أمامى أنا وأمثالى من المواطنين سوى الانتظار، مادام النظام لايسمح للرأى المغاير بأدنى فرصة للظهور، لا على سبيل النقد، ولا على سبيل المشورة. اذكر كل هذا الآن وانا اقلب النظر فى صفحات الماضى، واذكر اننى لم أكن مطمئنا لمشروع الوحدة عندما أُعلن فى سنة ١٩٥٨، وكنت، كلما زاد التهليل والتكبير له فى وسائل الاعلام، ازداد شعورا بعزلتى الفكرية والوجدانية، وعندما فشل المشروع وترددت اصداء الفشل فى وسائل الاعلام فى الخارج ازداد شعورا



عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر

بهذا الذى يتحدث عنه علماء النفس باسم «التناقض الوجدانى»، فأنا اشهد صحة ما تنبأت به مبكرا، وقد يرضى هذا جانبا معينا فى نفسى، ولكننى فى الوقت نفسه اشعر بمرارة لكل ما ينصب على البلد من مهانة، وما ينالنى من نصيب من هذه المهانة بحكم التوحد الرسمى والنفسى مع هذا البلد، ولأسباب أخرى كثيرة، ليس أقلها ما ضاع ويضيع على البلد من طاقات وأموال تُهدر فى هذه المغامرات وأمثالها . وكذلك لما يستثيره الاقدام عليها (أى على هذه المغامرات فاسدة الحساب) من تحفز وتربص عند عدد من النظم العربية التى كانت تشعر بالتهدد ازاء نظام عبدالناصر أصلا.

ولم نكد نفرغ من فشل مشروع الوحدة حتى بدأ النظام يخطو نحو صدور قرارات التأميم. ونتوقف هنا قليلا للنظر فى أمر يدعو الى التأمل، فقد بدا إلى النظام فى عجلة من أمره، بدا لى كذلك أثناء الخمسينيات، وزادت هذه السمة وضوحا فى اثناء الستينيات، ولاشك أن هذه السمة تحتمل قراءات متعددة، وهذا مما يجعل الحسم فى صحة قراءة دون أخرى أمرا صعبا، ويزيد من هذه الصعوبة أن بعض هذه القراءات متداخلة فيما بينها، بمعنى أن صحة واحدة لا تعنى بالضرورة خطأ الأخرى. ولكنى على أى حال قرأت فيها دلالتين رئيستين، إحداهما التأثر بجو «السربعة» أو «الكربجة» العام وهو الجو الذى ظل مناخ «الحرب الباردة» العالمى، وقد تحدثنا عنه فى مقال سابق.

والدلالة الثانية هى أن النظام المصرى اذ ذاك وظف هذا الجو لخدمته الخاصة لشغل العقول والنفوس عن التفكير فى أمور أخرى لا ترضيه ولا تتفق ومصلحته. على أى حال، كانت الخطوات الأولى فى المسيرة نحو التأميم مافوجئنا به من أن كبرى الجرائد اليومية بدأت تنشر يوميا قوائم بأسماء بعض المواطنين (من أغنياء القوم) ومع كل اسم بيان بممتلكاته من الأموال والأسهم والعقارات والشركات التجارية والصناعية، وأدرك الناس أننا مقبلون على شىء خطير، ثم صدرت قرارات التأميم التى وصفت حينئذ بأنها «اشتراكية» ورغم اننى شاركت فى الحلم الاشتراكى فى بواكير الشباب، ورغم اننى لازلت مقتنعا بما ورد من أفكار فى كثير من الكتابات الماركسية الكلاسيكية ولا أزال أكن لها الاحترام، فقد عجزت عن الاقتناع بأن قرارات التأميم التى صدرت لدينا فى ذلك الوقت تعنى أننا بصدد دولة تتحول بالمجتمع من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى. وكان السؤال الاساسى الذى يحول بينى وبين استخلاص هذا المعنى هو : وأين بقية مقومات النظام الاشتراكى فى الدولة المصرية؟ وحتى عندما أعلنت الدولة عن قيام الاتحاد الاشتراكى بعد فترة وجيزه من صدور قرارات التأميم فقد تساءلت حينئذ هل هذه التسمية صادقة فعلا فيما تدّعيه؟ وقد قرأت هذه الاجراءات جميعا على أنها اجراءات تستهدف إحكام سيطرة النظام على مقدرات المجتمع، وبينما نحن فى خضم القيل والقال حول موضوع قرارات التأميم اذا بموضوع جديد يفرض نفسه على الساحة، الحرب فى اليمن، واذا بنا نشارك فى هذه الحرب ببعض قواتنا المسلحة انتصارا لحركة قام بها فريق من العسكريين اليمنيين وأعلنوا أنهم يريدون بحركتهم تخليص بلادهم من مستنقع حكم سلطانى شديد التخلف، وكان أمرا طبيعيا فى رأيى وفى رأى الكثيرين أن يتحمس النظام الناصرى لشد أزر تلك الحركة، ولكن أن تساعد حركة تقدمية فى بلد عربى شىء وأن ترسل فريقا من القوات المسلحة لتنفيذ هذه المساعدة شىء آخر. فقد سبق لمصر أن ساعدت دولا أخرى فى المنطقة العربية والأفريقية المحيطة، ساعدتها بالمال، وبالسلاح، وبالاعلام، وبالاتصالات الدبلوماسية .. الخ. فلماذا



المساعدة على هذا النحو شديد التصعيد هذه المرة؟ ومرة أخرى يثار سؤال أساسى هنا: هل تتحمل مواردنا القومية هذا النمط من الإنفاق الخارجي، دون الإخلال الخطير بمقتضيات الانفاق الداخلى (على التعليم، والصحة، والأمن، والرعاية الاجتماعية، وتنمية الموارد.. الخ)؟ أم أن هذه الأسئلة وأمثالها لم تكن واردة عندئذ وكانت هناك حسابات أخرى لها علاقة بموضوع فشل الوحدة المصرية السورية وتوابع هذا الفشل؟ .

حديث الاهتمامات

كيف تشابكت الخيوط بين أحداث الوطن كما أهمتنى، ونشاطاتى التى كنت أقبل عليها بعقلى وجوارحى؟ هذه صياغة جديدة بعض الشىء للسؤال الجوهرى الذى طرحته كمحور يدور حوله المقال الراهن وكل هذه السلسلة من المقالات، السؤال الخاص بنقاط التماس بين العالمى والوطنى والفردى .

لم أغفل لحظة عن ذكر قرارى الذى اتخذته مبكرا، وهو أن أكرس حياتى للاشتغال بالبحث العلمى. وقد عبرت النصف الثانى من عقد الأربعينيات، كما عبرت الخمسينيات وأنا أحمل معى هذا القرار، فأعايش الأحداث الاجتماعية/السياسية وأنفعل لها بصورة ما ولكنى احتفظ بمسافة محسوبة تفصلنى عنها لأنصرف بمعظم طاقتى الى حياة البحث والدراسة فأتعلم وأنشر وأعلم. وكان فى جعبتى قرار آخر يساند القرار الأول خلاصته أن الاشتغال بالسياسة العملية فى زماننا هذا يتطلب التكريس التام لمقتضياتها ، أما الاشتغال بها بنصف قلب فلا يخدم الوطن ولا يخدم القضية، وربما تداعى بصاحبه الى شكل من أشكال الوصولية. كنت فى ذلك الوقت مشدود العقل والهمة الى عملين من أعمالى البحثية، أحدهما ميدانى أجريه على أنواع معينة من الأمراض النفسية، والثانى مكتبى أتجه به الى وضع مؤلف فى علم النفس الاجتماعى يكون له طابع خاص. وكنت أعطى للعملين أهمية كبيرة، آمل فى أولهما أن ألقى الضوء على مشكلة لها وزن كبير فى عالم التخصص، هى مشكلة العلاقة بين المرض النفسى والاطار الحضارى للمريض . وآمل فى الدراسة الثانية أن ألقى الضوء على بعض اسهامات الفكر العربى الاسلامى القديم (عند الفارابى وابن خلدون مثلا) فى التاريخ المبكر لعلم النفس الاجتماعى، وبزيادة النظر فى الدلالة الأكاديمية لهاتين المسألتين كنت أزداد يقينا مع الأيام بأن اتقان أدائى بشأنهما سوف يكون له رنين ذو طبيعة اجتماعية/سياسية، فالبحث الميدانى اذا اتقنته بحيث قُبل للنشر فى احدى

عقد الستينات فى مصر

دوريات التخصص فى الخارج سوف يحسب للعقل المصرى/العربى فى نهاية الأمر. ومن ناحية أخرى فهذا البحث نفسه مضافا الى مجلد علم النفس الاجتماعى الذى اسعى الى وضعه سوف يقومان أمام طلابى وزملائى فى الجامعة دليلا دامغاً على أن من أراد أن يعمل عملا أكاديميا جادا وسط أجواء اجتماعية/سياسية معاكسة فلن تعجزه هذه الأجواء.

وبين هذه الآمال من ناحية، وما تكلفنى إياه من صراعات حادة بين اهتماماتى وهمومى أتممت البحث الميدانى وأرسلته للنشر فى الخارج ونشر فعلا، وأكملت كتابة المجلد النفسى الاجتماعى ونشر كذلك. وتلقيت نتيجة للنشر فى الحالتين أنواعا من المردود ترسبت آثارها فى نفسى فى صورة مزيد من الاقتناع بخط السير الذى ارتضيته لشخصى، ومزيد من التمسك به وبلورة مضامينه وتوجهاته. وفى صيف سنة ١٩٦٣ أذنت لى الجامعة بالسفر الى معهد الطب النفسى بجامعة لندن (شريطة أن يتم ذلك على نفقتي الخاصة لأن الدولة ليس لديها ما تنفقه فى هذا الصدد)، وكان هدفى من السفر أن أتعلم أساليب منهجية جديدة لمزيد من الارتقاء بقدراتى البحثية. وارتضيت الشرط الذى وضعته الجامعة. وعندما اقترب موعد السفر تبين لى أن رئيس الوزراء (السيد/ على صبرى عندئذ) كان قد أصدر قرارا بألا يسافر أحد العاملين فى الدولة الا بإذن كتابى منه شخصيا. هكذا!! وأترك للقارىء هنا أن يتخيل أنواع المشاق كما واجهتها اذ ذاك للحصول على الاذن بالسفر. على أى حال انتهى الأمر بأن سافرت فعلا فى منتصف أغسطس. وفى انجلترا طاف بخاطرى التفكير فى الهجرة، ولكن ، بعد حوارات مضنية أجريتها جميعا فى رأسى قررت اسقاط الفكرة تماما من حساباتى، وكانت حجتى الرئيسية فى ذلك أن البلد بلدى كما هو بلدهم، وأن لى فى هذا البلد حقا لا يقل عن حقهم (وفى هذه الحوارات كان الضمير «هم» يشير الى مجموع المسئولين عن خلق الأجواء المعاكسة فى مصر ودعم هذه الأجواء، من أصغرهم الى أكبرهم). وفى معهد الطب النفسى انصرفت الى عملى العلمى بكل ما أوتيت من عزم وتصميم. وفى ذاكرتى الآن أن هذه الفترة من عمرى هى الفترة التى أفقت

فى ثناياها على أن الدلالة الحـيـاتيـة للبحث العلمى بالنسبة لى تتمثل فى كونه أصبح أرض المعركة بينى وبينهم (هم صانعو الأجواء المعاكسة) . وأثمرت هذه المهمة العلمية فى النهاية ثمرة طيبة، فقد تعلمت ما أردت أن أتعلمه، وشاركت أثناءها فى انتاج عدد من الأوراق العلمية نشرت مع الاستاذ ومع عدد من الزملاء الانجليز والامريكيين (الباحثين فى المعهد).

عودة الى حديث الهموم

ورجعت الى مصر فى أواخر سنة ١٩٦٤. ووجدت المواطنين لا يزالون يذكرون الاحتفال بالافتتاح الرسمى للتعاون بين مصر والاتحاد السوفييتى فى مشروع بناء السد العالى، (مايو سنة ١٩٦٤). ولاحظت كذلك نشاطا متزايدا لتكوين كيان سياسى جديد باسم «التنظيم الطليعى»، وقلت لنفسى هأنذا أعود لأواجه الموالد التى لا تنقطع فى البلد. وسرعان ما دعيت للانضمام الى هذا التنظيم، واعتذرت لمن كان يدعونى، وكانت حجتى فى الاعتذار واضحة وصادقة: «خسارة، بعد كل السنوات والجهود التى بذلتها لتكوين نفسى كباحث علمى، أن اتجه الآن الى العمل السياسى». وتنبهت فى الوقت نفسه الى ما كان يترامى حولى من علامات استفهام وتعجب، فالتنظيم حكومى، وأنا شخصيا عندما تلقيت الدعوة تلقيها من رجل مقرب الى النظام فى أعلى مستوياته. ومع ذلك أبلغت بأن التنظيم سرى وأن اجتماعاته تتم سرا. فكيف تستقيم هذه المعلومات معا؟ وبعد فترة وجيزة تكشفت لى الحقيقة (على طريقة ياخبر النهاردة بقرش بُكره ببلاش) فقد كان التنظيم واحدا من آليات الصراع الذى كان ينخر كالسوس فى لب الدولة بين عبدالناصر ورجاله، وعبدالحكيم عامر ورجاله.

ثم دخلنا فى دوامة جديدة، دوامة استفتاء تستعد له الدولة حول رئاسة عبدالناصر للجمهورية، نعم أم لا؟ وربما أدير هذا الاستفتاء أيضا كحلقة من حلقات الصراع الذى كان يجرى فى الخفاء، وأجرى الاستفتاء فى مارس ١٩٦٥، وأعلن عن فوز عبدالناصر بـ ٩٩,٩٩٪ من الأصوات !! كان مصدر دهشتى أمام هذه اللعبة السياسية (وكانت قد تكررت مرارا قبل ذلك) أن الكل (فى مصر وخارج مصر) يعرفون مقدما الشكل الذى ستعلن به النتيجة، وكان هذا موضع تندر المواطنين (فى الخفاء طبعا) ولكن كان هناك اصرار ممن يعنيهم الأمر على أن يلعبوها بكل ما يعنيه هذا اللعب من اهدار للطاقة والمال والوقت. ويظل السؤال قائما فى عقلى : من يضحك على من؟ وحدثت فى



عقد الستينات فى مصر

هذه الفترة أحداث أخرى كثيرة، منها ما يتعلق بالجامعات وما جرى بينها من ناحية وأحد وزراء التعليم العالى من أمور أثارت القلق والانزعاج ، ومنها ما جرى من قبض علي عشرات الآلاف من المواطنين ، وقيل إن الذى أشرف على هذه الحملة أحد كبار رجال المشير عامر. ولكنى أترك هذا كله لأقترب من الحديث عن حرب ١٩٦٧، لأن أوزان سائر الأحداث تتضاءل جذريا أمام وزن هذا الحدث. وقد تناولت أقلام كثيرة هذا الموضوع، بالصدق أحيانا قليلة، وبالكذب والتعتيم أحايين أخرى كثيرة. وجلاء الحقيقة موكول فى نهاية الأمر الى أساتذة التاريخ السياسى والتاريخ العسكرى، والى ماسوف ينشر من وثائق جديدة تمس الموضوع .

أترك أمر هذه التحقيقات التاريخية الوثائقية وأعود الى السؤال الرئيسى الذى يعنينى كيف كان وقع الأحداث علينا، نحن المواطنين العاديين، فى ١٨ مايو سنة ١٩٦٧ تم سحب قوات الطوارىء الدولية من الحدود المصرية الاسرائيلية بناء على طلب الرئيس عبدالناصر الذى تقدمت به الحكومة المصرية. وقيل ان الرئيس عبدالناصر دُفع الى هذا الطلب دفعا، كرد فعل فى مواجهة الملاحظات الاستفزازية التى كانت تنهال عليه من حين لآخر من بعض دوائر الحكم فى البلاد العربية .(وكان هذا مثالا أخر يضاف الى الأمثلة المتعددة لسياسة رد الفعل بدلا من الفعل، التى سبق أن أشرنا اليها). وعلى امتداد الأيام التالية راح الاعلام المصرى يبث (فى الرادبو والتلفزيون) أحاديث تفيض بالحماس والتحدى لاسرائيل. وفى الوقت نفسه كانت الاتصالات الدبلوماسية تجرى بسرعة محمومة بين القاهرة وموسكو وواشنطن

وفى صباح ٥يونيو سنة ١٩٦٧ اندلعت الحرب بين مصر واسرائيل، ولم تستمر أكثر من ١٣٠ مائة وثلاثين ساعة ونصف الساعة. وانتهت رسميا فى تمام الساعة ٥.٣٠ الخامسة والنصف من مساء العاشر من يونيه، وقد وصل الجنود الاسرائيليون الى الشاطىء الشرقى لقناة السويس. هذا هو الحدث فى أضيق حدوده الرسمية.

فى الخامس من يونيه صباحا، أى فى الوقت الذى اندلعت فيه الحرب كان فريق من الباحثين المساعدين (وكانوا



آثار الدمار الذى لحق بمدينة السويس بعد حرب ١٩٦٧

يعملون معى فى اطار المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) يبدأون أول رحلة ميدانية (تحت اشرافى) للبدء فى جمع المادة البحثية لبحث كبير الحجم للكشف عن العوامل النفسية/الاجتماعية المرتبطة بتعاطى القَنَّب (الحشيش) فى مصر، وقد اقتضت أمور فنية أن نبدأ بأخذ العينات البشرية للبحث اعتبارا من نزلاء سجن طنطا. وعندما وصل فريق البحث الى بوابة السجن (فى تمام الساعة التاسعة صباحا) ومعهم الاذن الرسمى بالدخول قيل لهم ان التعليمات صدرت بإغلاق السجن (وباقى سجون الجمهورية) لحين صدور تعليمات أخرى وذلك لأن الحرب قامت بين مصر واسرائيل هذا الصباح. وعاد الشباب الى مركز البحوث، وتداعت الأحداث الوطنية بعد ذلك. هكذا علمنا أنا وتلامذتى بقيام الحرب فى ساعاتها الأولى. وطوال المائة والثلاثين ساعة التى جرت فيها الحرب كان اعلامنا (وخاصة اذاعة صوت العرب) يبث رسائل نارية توحى لمن يسمعها اننا كنا نعبر من نصر الى نصر فى ميدان القتال. ثم لم تلبث اخبار الهزيمة ان تفجرت،وتلت ذلك اجراءات يحسن بنا أن نذكر بعضها، فإن الذكرى تنفع المؤمنين. تقرر الا يستخدم الاعلام لفظ الهزيمة، أما اللفظ المعتمد رسميا فكان «النكسة» . وفى اليومين التاسع والعاشر من يونية انقلبت الأمور رأسا على عقب ، بإعلامها وشوارعها، أعلن الاعلام أن الرئيس عبدالناصر يستقيل من رئاسة البلد، وبدأ فى الوقت نفسه حملة من الصياح

عقد الستينات فى مصر

الذى لايتوقف متوجها بالرجاء اليه الا يستقيل، وامتلأت الشوارع بالمظاهرات ترجو الرئيس الا يستقيل، وفى نهاية اليوم العاشر سحب الرئيس استقالته، وأذاع التليفزيون على الهواء مباشرة جلسة لمجلس الأمة (الشعب حاليا) شاهدنا فيها عددا من النواب يرقصون فوق المقاعد تعبيرا عن سعادتهم لأن الرئيس سحب استقالته!!

وجرت بعد ذلك دوامات أخرى تستحق كل منها لقب الدوامة/ الكارثة، لكن أيا منها لم تبلغ فى وزنها الكارثى ما بلغته دوامة الحرب/النكسة، فقد جرت مواجهة عسكرية مباشرة بين عبدالناصر ورجال المشير انتهت بالقبض على المشير ثم باعلان انتحاره. وجرت محاكمة لعدد من رجال المشير العسكريين باعتبارهم مسئولين عن الهزيمة وصدرت ضدهم أحكام أقل ما يقال فيها انها جاءت تعبيرا صريحا عن استخفاف شديد برأى المواطن العادى (اى غير المسيَّس) ومشاعره . وجرت كذلك مجموعة الأحداث التى يشار اليها الآن باسم مذبحة القضاء.

* * *

هكذا قرأت عقد الستينيات كما جرت أحداثه فى مصر: كانت الستينات (بمعنى ما) حصادا للخمسينات، ومن ثم فقد تبلور فيها ما كان مانع المعالم من قبل، فجاءت مجموعة من دوامات متلاحقة، ومغامرات تأسست على حسابات متعجلة يغذيها عاملان (جو «الكريجة» العالمى الذى فرضته الحرب الباردة، وجو «السربعة» الذى يتمسك بأهدابه الحكم الاستبدادى. ولاشك أن أحداثا أخرى جرت وكانت أقل عتمة من تلك التى أوردت ذكرها، ولكنى لا أقصد بهذا المقال او بغيره ان اقدم حسابا ختاميا عن عقد بعينه، ولا اقصد أن أحاكم حقبة من تاريخ مصر أو أحاكم أحدا من المؤدين الرئيسيين فيها، فأنا ممن يعملون جاهدين بالحكمة العربية القائلة «رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه». ما قصدت وأقصد اليه أن اقدم قراءتى بأمانة : على أساس أن عهود الحكم كيانات متكاملة عضويا كالمجتمعات البشرية، تغلب على كل منها سمة بعينها، فتنطق الجزئيات بحقيقة توجهها ومعناها. ■

أقوال معاصرة

● «الآثار هى تراث وطنى وثقافى لافغانستان، وجزء من تاريخ حضارات الشعوب، وبالتالى فإنها ملك للبشرية جمعاء.»

حميد رضا أصفى

الناطق باسم الخارجية الايرانية

● «الخيمة التى تلبسها المرأة الأفغانية، تجعل كل النساء إمرأة واحدة، أى امرأة غير موجودة»

الأديبة هدى بركات

● «الهداية لا علاقة لها بالوزن الزائد»

صابرين (بطلة مسلسل أم كلثوم)

بمناسبة اعتزالها وتحجبها

● «عندما يحرم إنسان من الاحترام لغايات سياسية فان الضرر يقع فى النهاية على المجتمع ككل أكثر مما يقع على الفرد»

بى نظير بوتو

رئيسة وزراء باكستان الأسبق

● «كم هى الحياة باهظة حينما ترتبط اطلالة الجنين على الحياة بموت الأم»

الأديبة التشيلية ايزابيل اللندى

● «كل ساعة لا أقرأ فيها كلها عقارب تلسع»

أنيس منصور

● «لا أمل فى امتلاك قدرة الحد الأدنى على ردع الجموح الاسرائيلى من دون امتلاك ارادة الحد الأدنى من معاندة الولايات المتحدة»

المفكر اللبنانى جوزيف سماحة

● «العبقرية لاتعدو أن تكون جهدا مثابرا لإنجاز العمل على أفضل وجه، مع ترك مجال دائما لشك ممض بأنه لم يكن ابدا كاملا»

المفكر إدوارد سعيد



بى نظير بوتو



أنيس منصور



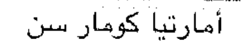
ادوارد سعيد

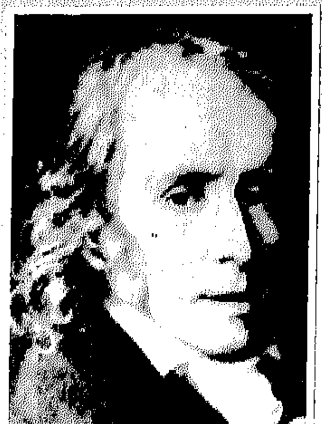
المنطقة العربية
وتحديات المستقبل

بقلم
د. حازم الببلاوى

تعددت الكتابات عن التحديات التى تواجهها المنطقة العربية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين ..وتختلف الرؤى بحسب وجهة نظر الباحث واهتماماته من ناحية ، والمدى الزمنى المطروح من ناحية أخرى . وليس هنا مجال استعراض مثل هذه التحديات أو مسح لمختلف الرؤى المطروحة . ولكن قد يكون من المفيد التطرق إلى بعض المحاور الأساسية التى تمثل أهمية خاصة لهذه المنطقة وبما يميزها عن أية منطقة أخرى من مناطق العالم.

إذا نظرنا إلي المنطقة العربية فإنها - ربما - تتميز بين مختلف مناطق العالم بوضع خاص فيما يتعلق بالموارد الطبيعية. حيث تعرف المنطقة ندرة استثنائية في موارد المياه من ناحية ، ووفرة نسبية في موارد الطاقة من ناحية أخري . وهذا الثنائي المتناقض فقر في المياه وثراء في الطاقة هو أحد الخصائص المميزة للمنطقة العربية .



أمارتيا كومار سن


بنجامين كونستانت

● نقص المياه أحد التحديات الكبرى أمام البشرية وخاصة المنطقة العربية

فأما عن المياه فإن منطقتنا تقع في أشد مناطق العالم جفافا - جزء من الصحارى الكبرى - وما يجرى فيها من انهار إنما يجد متابعة خارج المنطقة مما يفرض مشاكل من نوع آخر من حيث اقتسام المياه وتوزيعها بين الدول المجاورة، ولا شك أن قضية المياه - أو بالأحرى قضية نقص المياه - تمثل أحد التحديات الكبرى أمام البشرية ، ولكن حجم هذه المشكلة بالنسبة لدول المنطقة يمثل خطورة خاصة بالنظر إلى حدة المشكلة فيها .

ازدواجية فقر المياه مع ثراء الطاقة

وإذا كانت الطبيعة قد حرمت المنطقة العربية من توافر موارد كافية من المياه ، فقد حبتها على العكس بعطاء واسع من مصادر الطاقة التقليدية وغير التقليدية، فهذه المنطقة - وهى المعروفة فى الأدب السياسى المعاصر بمنطقة الشرق الأوسط - هى منطقة النفط والغاز الطبيعى ، فحوالى ٥٥٪ من احتياطى العالم من النفط يختزن فى باطن الأرض فى هذه المنطقة ، ونصيبها من احتياطى الغاز الطبيعى ليس بالقليل . وإذا نظرنا إلى المصادر غير التقليدية - وغير المستغلة حاليا - نجد أن هذه المنطقة تتعرض لأكبر كمية من أشعة الشمس ، فهى تمثل الحزام الشمسى للعالم ، وهى بذلك تمثل المخزون الاستراتيجى العالمى للتوسع عندما يصل العالم إلى اختراق تكنولوجى بتوفير الوسائل للاستخدام التجارى المناسب للطاقة الشمسية فى المجالات المختلفة للحاجات الإنسانية .

وفى ضوء هذا الوسط الطبيعى الذى تعيش فيه المنطقة العربية من حيث ازدواجية فقر المياه مع ثراء الطاقة فإن التساؤل لابد وأن يثور ، هل تجد مشكلة فقر المياه حلها من ثراء الطاقة ، وكيف ؟ يطرح هذا التساؤل خيارات تكنولوجية

قائمة أو مستقبلية . ومن هنا فإن هذا المحور يتطرق بالضرورة لدراسة أوضاع المصادر المائية وإمكانيات تطورها وإمكانيات الطاقة ووسائل استخدامها لزيادة الموارد المائية وما يتطلبه ذلك من تطوير فى التكنولوجيات المختلفة . والحديث عن المياه والطاقة لابد وأن يفرض مناقشة قضايا البيئة نظرا لأن استخدامات كل من المياه والطاقة وثيقة الصلة بالبيئة تؤثر عليها وبالتالى على الموارد المتاحة للأجيال المستقبلية .

لذا فإن سياسات البحث العلمى المستقبلى تحتاج إلى نظرة متكاملة فى هذا الميدان ، حيث تكون قضايا المياه والبيئة والطاقة حزمة متكاملة .

الجانب الثقافى للتنمية

التقدم والتنمية لا يتحققان فقط بمدى توافر أو عدم توافر الموارد الطبيعية ، بل إنهما يعتمدان بدرجة أكبر على الأوضاع البشرية من قيم السلوك وسياسات ومؤسسات .

ظلت قضايا التنمية وقتا حكرا على الاقتصاديين ، يرون فى «التنمية» قضية اقتصادية بالدرجة الأولى تثير الكميات والمتغيرات الاقتصادية أساسا . وفى مرحلة تالية تبين أنه ليس بالاقتصاد وحده ما يمكن أن يقدم حلولا لقضية التنمية ، إذ إن لها أبعادا اجتماعية لا يمكن - ولا يجوز - تجاهلها . وها نحن الآن نشاهد اقتناعا يرى بأن الجوانب الثقافية للتنمية قد لا تقل أهمية عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بل يذهب البعض إلى القول بأن التنمية هى فى جوهرها عمل ثقافى مرتبط بالقيم السائدة وقواعد السلوك . وإذا نظرنا إلى منطقتنا للاحظنا ، أن هذه المنطقة ، ربما من دون مناطق العالم الأخرى ، تتميز بتجانس ثقافى هائل : لغة واحدة ، تاريخ مشترك ، ديانات غالبة مما ولد كتلة حضارية ذات نسق قيمى متشابه.والحديث عن النسق القيمى السائد حديث دقيق وملتبس وكثيرا ما يكون متجاوزاً أو متحيزاً ولذلك وجب الحذر . ولكن ذلك لا يمنع من محاولة البحث والتحرى عن القيم السائدة ، ومدى ملاءمتها ، أو على العكس تعارضها مع احتياجات التقدم والتنمية .

القيم السائدة ومدى ملاءمتها أو تعارضها

وليس هنا مجال استقصاء هذا الميدان الصعب ، ولكن ربما تجدر الإشارة إلى عدد من القيم التى يجرى الحديث المعاصر على حيويتها وأهميتها للتقدم والتنمية . ولعل أول وأهم هذه القيم هى قيمة «الحرية» التى يتجه معظم الفكر المعاصر إلى التأكيد على انها ليست فقط مطلباً لغاية فى ذاتها ، بل إنها وثيقة الصلة ولازمة للتنمية ذاتها (على سبيل مؤلفه الاقتصادى الهندى Sen الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد (Freedom as Development) . والأصل فى





الحرية هو الحرية الفردية : حرية الفرد في الاعتراف له بمجال خاص يستقل به ولا يجوز التدخل فيه أو انتهاك حرمته ، حريته في شخصه ، بحماية حياته وحركته، وحريته في اعتقاداته ، بحماية أفكاره ومعتقداته ، وحريته في أمواله ، بحماية ملكيته وحريته في التعاقد .ومع ذلك فهناك من يعتقد أن هذا المفهوم للحرية إنما هو مفهوم بورجوازي غربي ، وأنه يمثل حرية شكلية نظرية ، وإن الحرية الحقيقية هي التي تضمن المساواة في الواقع أي المساواة في الظروف الاقتصادية (المفهوم الماركسي) والتي قد تتطلب التدخل في حياة الفرد بما يكفل تحقيق هذه المساواة الحقيقية أو الواقعية في الظروف .ومع ذلك فإن الرأي الغالب هو أننا عندما نتكلم عن الحرية فإننا نشير إلى ذلك المفهوم الفردي لحرية الفرد ، وما يرتبط به من مساواة أمام القانون ، مساواة في الفرص المتاحة وليس في النتائج . وقد ارتبط مفهوم الحرية بهذا المعنى الفردي بمفهوم آخر ومكمل للحرية هو حرية المواطن في اختيار حكامه وفي رقابته على أعمالهم ومسئوليتهم أمامه عن هذه الأعمال ، وهو ما يعرف باسم الديمقراطية . وهكذا ظهر مفهوم الحرية السياسية كمفهوم أساسي لمعنى الحرية . وبشكل عام فإن الحديث عن الحرية يختلف بين القدامي والمحدثين .وكان بنجامين كونستانت B.Constant قد أوضح في كتابه «الحريات القديمة والحديثة» (١٨١٩) هذه التفرقة . فالحرية بالمعنى الحديث هي الاعتراف للفرد بمجال خاص يتمتع فيه بالاستقلال ولا يخضع فيه لغير القانون ، في حين أن الحرية بالمعنى القديم السائد في المدن الإغريقية - يشير إلى الحق في المشاركة في القرارات السياسية . وتجمع الديمقراطية الليبرالية بين هذين الأمرين معا ، فهي تتضمن الاعتراف بحقوق الأفراد الأساسية والتي لا يجوز المساس بها - حتى وإن كان من الأغلبية - كما تتضمن المشاركة السياسية في اختيار الحكام وإخضاعهم للمساءلة أمام شعوبهم . والحرية بهذا المفهوم الليبرالي الديمقراطي هي مفهوم غربي .

العدالة والحرية

وإذا نظرنا إلى المنطقة العربية فإنه يصعب القول بأن الحرية فيها بهذا المفهوم تعتبر من القيم السائدة سواء في جانبها الليبرالي أو في جانبها الديمقراطي. وعندما حاول رفاعة الطهطاوي ترجمة الدستور الفرنسي وإعطاء صورة عن الحياة السياسية في فرنسا وجد صعوبة في ترجمة كلمة Liberte واستقر على كلمة «الحرية» . وكان الغالب على مفهوم «الحرية» في التراث العربي هو المقارنة بين وضع العبد والحر ، وليس تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، وقد كان الحديث عن الحرية والاختيار في التاريخ الفكري العربي اقرب إلى التساؤل عن مدى حرية الإنسان في تصرفاته أمام الخالق ، وهل هو «مسير أم مخير»



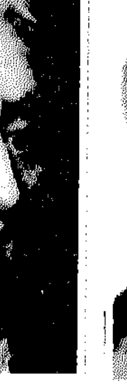
فالحرية هي حرية المخلوق في اختيار أفعاله وبالتالي تحمل مسئوليته أمام خالقه، ومن هنا قضية «الجبر والاختيار» عند الفلاسفة المسلمين. وليس معنى ذلك أن الفلاسفة المسلمين لم يعيروا قضية الحكم اهتمامهم، فالصحيح هو غير ذلك. فالحاكم العادل الصالح هو أساس الحكم (العدل أساس الحكم). وبشكل عام فقد كانت قضية «العدالة» اظهر وضوحا في الحكم من قضية «الحرية» بالمفهوم الحديث. ويظهر الحاكم المستبد - في نظر معظم الفلاسفة الإسلاميين - أمرا ممقوتا، بل وذهب بعضهم إلى جواز الخروج على الحاكم المستبد إذا أخل بأحكام الشرع. ومع ذلك فقد كانت خشية جمهرة المسلمين من الوقوع في الفوضى أكثر أهمية وقسوة من خطر الوقوع في قبضة الحاكم الظالم المستبد. و«حاكم جائر خير من الفتنة»، «حاكم خشوم خير من فتنة تدوم». وهكذا وضع المسلمون - بشكل عام - قضية الحاكم المستبد على نحو جعل الاختيار المعروض هو بين الاستبداد والفوضى، ولا شك أن قبول الاستبداد أهون شرا من الوقوع في براثن الفوضى. وكان أخشى ما يخافه المسلمون هو وقوع الفوضى والفتنة. فالاستقرار والأمن أعلى مرتبة من الحقوق والحريات. ويمكن القول بأن هذا التفكير لا يكاد يفترق عن أفكار توماس هوبز الفيلسوف الإنجليزي المعروف. ورغم أن المشهور هو أن هوبز قد دافع عن السلطة الملكية المطلقة - وبالتالي الاستبداد الملكي - فإنه من وجهة نظر معينة، كان من أوائل من ارسوا مبادئ المذهب الفردي. فالغرض من الجماعة - عنده - وأساس وجودها هو حماية حقوق الأفراد من حالة الوحشية والبربرية التي يتعرض فيها كل فرد للاعتداء من جانب الآخرين (حرب الجميع ضد الجميع). ومن هنا قامت الحاجة إلى الجماعة السياسية التي يتنازل فيها كل فرد - في شكل من أشكال العقد الاجتماعي - عن جزء من حريته للحاكم أو السلطان حماية لحقوقه وحرياته الباقية. وبذلك فقد كانت نقطة البدء عند هوبز حقوق الأفراد وحرياتهم، وهي أيضا مبرر الجماعة والسلطة. فالسلطة المطلقة للحاكم أو السلطان هي ثمن التخلص من الوحشية والفوضى. وإذا كانت بوادر حقوق الأفراد قد بدأت مع هوبز، فيظل جون لوك هو المؤسس الحقيقي للمذهب الليبرالي في دفاعه عن الملكية الدستورية مع الثورة الإنجليزية وقد بدأت تظهر - عند لوك - بشكل واضح فكرة الحقوق الطبيعية للأفراد والتي يستمدونها من القانون الطبيعي السابق على القوانين الوضعية.

التسامح

ويبدو مما تقدم أن الخوف من الفتنة والفوضى هو الذي جعل مفكري وفلاسفة المسلمين يقفون عند مرحلة معينة، ولم تأت



● تمثل المنطقة العربية المخزون الاستراتيجي العالمي للطاقة الشمسية




رفاعة الطهطاوي

جون لوك

بعد - بشكل مباشر - فى التفكير السائد فى منطقتنا مرحلة لوك من الفكر السياسى من حيث ضرورة إخضاع الحاكم للمساءلة واستبداله عند تجاوزه حقوق الأفراد الأساسية . ومن هنا فقد ظلت فكرة الحرية السياسية أقل وضوحا فى الفكر السائد وأكثر بعدا فى الواقع السياسى كنسق قيمى أو ثقافى . وربما ساعد على ذلك طبيعة وشكل الدولة الشرقية بالمقارنة بطبيعة وشكل الوحدة السياسية الأوربية . فقد بدأت الوحدات السياسية الأوربية - بشكل عام - فى شكل تجمعات صغيرة - مدن فى الغالب - متنافسة ومتصارعة ، مما ساعد على قبول فكرة المشاركة السياسية فى إدارة شئون هذه الوحدات السياسية الصغيرة المتناثرة . أما فى الشرق وحيث ساعدت الظروف الطبيعية والجغرافية على قيام الإمبراطوريات والحكومات المركزية الكبيرة المسيطرة على مساحات شاسعة فى حضارات وادى ما بين النهرين أو وادى النيل مما غلب منطق «المجتمع الهيدروليكى» ، وضرورة السيطرة على نظم الرى المركزى للأنهار الكبرى فى دجلة والفرات والنيل . وهكذا ساعدت الطبيعة على تأكيد سلطات الحكومة المركزية فى مواجهة حقوق الأفراد . وكانت غلبة الزراعة - بالمقارنة بالتجارة - مما ساعد على سيادة عقلية المحافظة والاستقرار بالمقابلة بعقلية التجارة القائمة على التجديد والمخاطرة .

والحديث عن قيمة الحرية بالمعنى المتقدم وثيق الصلة بقيم التقدم والتنمية . فالحرية صنو المسئولية ، ومعها تبدأ المبادرة الفردية وتحمل المخاطر . وقد كانت فكرة المبادرة وتحمل المخاطر هى أحد المحركات الرئيسية لظهور الثورة الاقتصادية الثانية مع الثورة الصناعية .

ومن الطريف أن اصطلاح تحمل المخاطر Risk قد أخذ - فى الغالب -

من الكلمة العربية «رزق» ، حيث كانت أساس التجارة ، والتى يعتمد نجاح التاجر فيها على الرزق، الذى هو من عند الله وبالتالى أمره غير مؤكد ، ورغم أن الإسلام قد ولد فى بيئة من التجارة وقد ازدهرت التجارة خلال عصور الإسلام الزاهية (من القرون الثامن إلى الحادى عشر) ، إلا أنه لم يلبث أن تغلبت على المجتمع الشرقى نزعة الركود وتخلى عن روح المغامرة والمخاطرة التى ميزت القرون الإسلامية الأولى .

كذلك فإن الحديث عن الحرية والمبادرة يثير قضية الإبداع والابتكار ، وكان رأى شومبيتر الاقتصادى النمساوى الشهير - هو أن روح التقدم الاقتصادى قد ولدت مع النظم Entrepreneur وما يتحلى به من روح التجديد Innovation والابتكار ، وهى أمور وثيقة الصلة بالحرية الفردية والمبادرة . وهى أمور تتعارض - كلياً أو جزئياً - مع العقلية التقليدية فى المحافظة على قيم السلف وعدم الخروج على المألوف وهى عقلية تقتل الإبداع ، والمخاطرة والإبداع تتقبل الخطأ وتتصالح معه على أساس أن التقدم عملية تجريبية قائمة على التجربة والخطأ Trial and error . ولا تقتصر أهمية التجربة والخطأ على سلوك المجتمعات وحدها فى تطورها ، بل إن الطبيعة ذاتها تتطور من خلال قانون الانتقاء الطبيعى natural selection، أى عن طريق التجربة والخطأ ، الأمر الذى يتطلب تسامحا فى قبول الجديد والغريب . فالتسامح أيضا قيمة أساسية للتقدم والتنمية ، لأنه بدون الأخطاء لا مجال للتعلم وبالتالى التقدم . فالإنسان يتعلم من تجربته ، وبالدرجة الأولى من أخطائه .

الشك والثقة

ويرتبط بكل ذلك قيم «الثقة» الثقة بالنفس ، والثقة بالغير ، والثقة فى المستقبل ، وفى عدد من الدراسات الحديثة بدأت قيم «الثقة» تظهر كأحد العناصر الأساسية للتقدم والتنمية . وفى رسالة الدكتوراه اظهر المفكر السياسى الفرنسى ألان بيرفت (١٩٩٤) أن مجتمعات الثقة هى وحدها القادرة على تحقيق التقدم الاقتصادى وذلك بعكس مجتمعات الريبة والشك والتربص . وعلى نفس المنوال فإن المفكر اليابانى / الامريكى فوكوياما لم يلبث أن اصدر كتابه عن «الثقة» بعدما اثار زوبعة من الجدل فى كتابه الأول .

وأخيرا فإن التوقف على الجانب الثقافى من قضايا التنمية يمكن أن يوقعنا فى المحظور ، بمقولة أن هناك ثقافات قابلة للتقدم والتنمية ، وثقافات أخرى معادية ومناوئة لها . ليس هناك أخطر من القول بأن ثقافة ما ، بطبيعتها ، متفقة أو متعارضة مع التقدم والتنمية . فالثقافة وما تفرزه من قيم ليست أمرا محتوما ، لا هى خصائص عرفية ثابتة ، بل هى - فى نهاية الأمر - حصيلة تطور تاريخى ونتيجة للممارسات والمؤسسات تساعد فى

وقت وظروف معينة ، على شيوع قيم محددة ، ويمكن أن تؤدى – فى ظروف وأوقات أخرى – إلى ظهور قيم أخرى . فالقيم السائدة هى نفسها محصلة ونتيجة للمؤسسات والممارسات السائدة . ومن هنا أهمية المحور المتعلق بالجانب المؤسسى فليس التقدم والتنمية مجرد انعكاس للموارد .. كما أنهما ليسا نتيجة حتمية للقيم السائدة بل أنهما أيضا حصيلة للمؤسسات والممارسات القائمة . فمع تغيير هذه المؤسسات والممارسات فإن مسار التنمية والتقدم لابد وأن يتغير معهما . وقد أظهرت المدرسة المؤسسية الجديدة Institutional Economic أهمية الإطار المؤسسى فى التطور الاقتصادى .

المؤسسة

الحديث عن المؤسسات يتناول المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية . ولا شك أن النظام السياسى يلعب دوراً لا يمكن التهوين منه فى تحديد مسارات النجاح والفشل . والحقيقة أنه لا يمكن فصل الاقتصاد عن السياسة الحرية فى جانبها القيمى أو الثقافى ، والحقيقة أن الحرية ليست مجرد قضية وعى وقيم سائدة بقدر ما هى وليدة مؤسسات ومنظمات تفرض سلوكا وتغلب قيما فى ظروف وأوضاع معينة ، كما تفرض غيرها من ظروف وأوضاع أخرى . فقيم الحرية والمساواة وحكم القانون ليست مجرد قناعات غالبة وإنما هى تعبير عن تنظيمات ومؤسسات تاريخية . وهناك علاقة تبادلية وديالكتيكية بين القيم السائدة والمؤسسات القائمة كل منهما يؤثر فى الآخر ويطوره . ومن هنا فإن شكل الدولة وحجمها ونوعها مما له ابلغ الأثر على مسارات «التقدم والتنمية» . وقد احتل موضوع العلاقة بين الديمقراطية واقتصاد السوق مكانا مهما من المناقشات السائدة حاليا من الأدبيات الاقتصادية .

اقتصاد السوق والديمقراطية السياسية

وإذا كان النظام السياسى وثيق الصلة بالنظام الاقتصادى ، وأن اقتصاد السوق لا يحقق احسن نتائجه إلا فى ظل الديمقراطية السياسية ، فإنه ينبغى التذكر أن أهم مقومات الديمقراطية هى المساواة أمام القانون . فالدولة الديمقراطية هى فى نهاية الأمر دولة القانون . ومن هنا أهمية التنظيم القانونى واحترام الحقوق . ويذهب البعض وخاصة من المدرسة المؤسسية فى الاقتصاد. (دوجلاس نورث على سبيل المثال) إلى أن التطور الاقتصادى كان محكوما إلى حد بعيد بتطور فكرة الحقوق . فالثورة الزراعية لم تكن متصورة دون ظهور فكرة «الحق العيني» وخاصة فكرة «حقوق الملكية» . فمع الزراعة استقرت الجماعة على قطعة محددة من الأرض ، اعترفت لنفسها وفى مواجهة الغير ، بأنها وحدها صاحبة الحق فى استغلالها ، وبالتالى منع تعرض الغير لها . وهذا هو تعريف الحق العينى أو

الملكية . ودون هذا الاعتراف ما استطاعت أى جماعة حماية زراعتها وتطويرها . ومن هنا فقد جاءت الثورة الاقتصادية الأولى مصاحبة لتطور قانونى مهم هو ظهور فكرة الملكية والحق العينى ، وقبلها لم يكن معروفا سوى الحيازة المادية -Posses sion . والفرق بين الحيازة والملكية ، هو أن الحيازة هى وضع مادى بالسيطرة على الشىء . أما الملكية فإنها تتضمن بالإضافة إلى ذلك عنصرا معنويا هو الاعتقاد بأن هذه السيطرة مشروعة ومعترف بها من صاحب الشأن ومن الغير على السواء ، ففكرة الحق تستند إلى المشروعية وهى الاعتقاد السائد بين الجميع على أن استئثار فرد أو جماعة بقطعة من الأرض أمر مقبول ومعترف به .

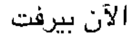
وإذا كانت الثورة الاقتصادية الأولى - الزراعة - قد استندت بالدرجة الأولى إلى الاعتراف بالحقوق العينية وحقوق الملكية بوجه خاص ، فإن الثورة الاقتصادية الثانية - الصناعة - قد استندت إلى تطور وتعاظم «الحقوق الشخصية» وحقوق التعاقد وما يرتبط بها من التزامات . ولذلك لم يكن غريبا أن كانت المدن الإيطالية فى القرن الثالث عشر وما بعدها هى موطن القانون التجارى والأوراق التجارية وما يرتبط بها من ازدهار فكرة الالتزامات الشخصية ، والتى كانت الأساس فى تطور التجارة العالمية ثم ظهور الصناعة وانتعاشها مع الثورة الصناعية . والآن ونحن على أبواب الثورة الاقتصادية الثالثة - مع ثورة التكنولوجيا المعاصرة - وهى القائمة على البحث والتطور العلمى والتكنولوجى ، فإنه لا غرابة فى أن الاهتمام يتجه حاليا إلى «حقوق الملكية الفكرية» (براءات الاختراع) . والتى تمثل أساس التقدم المعاصر . وهكذا ، نجد علاقة مباشرة بين تطور النظام القانونى وبين التقدم الاقتصادى ودون احترام الحقوق القانونية فإن فكرة التقدم تنهار من أساسها .

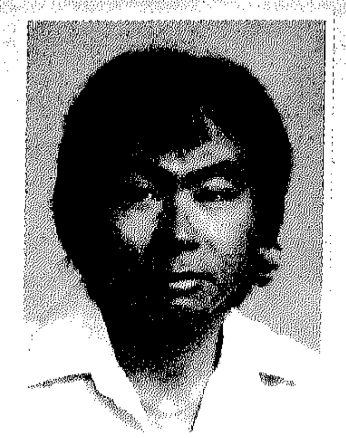
والحديث عن النظام القانونى السائد واحترام القانون يفقد معناه ومبناه ما لم يكن فعالا ومؤثرا ، ومن هنا أهمية وجود نظام قضائى سليم وقادر ، سريع وعادل ، وبذلك فإن المؤسسات القانونية والقضائية تلعب دورا رئيسيا فى التقدم والتنمية .

مساهمة الأفراد وحماية حقوقهم

ويساعد النظام القانونى السائد ليس فقط على تحديد مساهمة الأفراد وحماية حقوقهم ، وإنما يمثل الضمان الأساسى لعمل المجتمع المدنى . وقد أصبحت مساهمة المجتمع المدنى أحد أهم عناصر التقدم فى المجتمع المعاصر ، وإذا كانت الدولة تمثل السلطة السياسية وتقوم على فكرة القهر المشروع ، وإذا كان الأفراد والقطاع الخاص يسعون نحو مصالحهم الذاتية من خلال السوق وفقا لدافع الربح

● في المفهوم العربي: الاستقرار والأمن أعلى مرتبة من الحقوق والحريات


الآن بيرفت


فوكوياما

والمصلحة الخاصة ، فإن المجتمع لابد وأن يتضمن أيضا مجالا للعمل الاختيارى القائم على التضامن والتكافل ، الذى هو أساس عمل المجتمع المدنى . ونجاح مؤسسات المجتمع المدنى رهن بتوافر النظام القانونى المناسب فضلا عن توافر النسق القيمى الحافز على القيام بالعمل الاختيارى للصالح العام .

كذلك فإن الحديث عن المؤسسات لابد وأن يثير موضوع مؤسسات التعليم . وترتبط قضية التعليم وجانب القيم كما ترتبط وجانب المؤسسات . فالقيم السائدة هى - إلى حد بعيد - وليدة نظام التعليم السائد ولكن التعليم من ناحية أخرى هو أحد أهم المؤسسات والذى يساعد على خلق الوعى العام .

وإذا كانت المؤسسات السياسية والقانونية ومؤسسات المجتمع المدنى ونظم التعليم من الجوانب الرئيسية للتقدم فى أى مجتمع حديث ، فإنه لا يخفى أننا نعيش فى عالم المعلومات ، وأنه ما لم تتوافر المؤسسات المناسبة لنشر المعلومات السليمة والضرورية بشكل كاف من الشفافية والمصداقية فإن مسارات التقدم والتنمية لابد وأن تتأثر . ومن هنا فإن وجود مؤسسات مستقلة لإصدار الإحصاءات والبيانات على أساس دورى وبقدر من المصداقية يعتبر من محددات التقدم والتنمية .

وبعد ، فإن المحاور المتقدمة تفرض على منطقتنا العربية تحديات قاسية ، وهى تحديات راجعة إلى الوسط الطبيعى الذى نعيش فيه ، وإلى النسق القيمى السائد ، وأخيراً إلى الإطار المؤسسى الذى نعمل خلاله . ولابد من مواجهة صريحة وشاملة لهذه التحديات ومحاولة لتغيير الظروف المحيطة فى هذه الجوانب وبما يكفل انطلاقا لهذه المنطقة التى تخلفت كثيراً عن الماضى . والله أعلم . ■



نخبة العولمة.. ومن سيقود العالم؟

بقلم
جميل مطـر

فى كل دولة، وفى كل مجتمع أو تجمع ثقافى، تتردد أسئلة، وتبقى مترددة وحائرة بين اجابات أو محاولات اجابة عاجزة أو فى أفضل الأحوال غير مقنعة. ولا تقتصر هذه الحيرة على الناس العاديين، فالحيرة ملء ساحات الجامعات وقاعات الدرس ومراكز البحث العلمى ومنتديات الفكر . لم يحدث ، إلا نادراً، أن مرحلة من مراحل التاريخ الحديث لم يضع العلماء والمتخصصون لها إطاراً نظرياً أو ما يشبه ذلك.

ويبدو أننا نعيش هذه المرحلة النادرة، بدليل أن كثيراً من الأسئلة مازالت بغير اجابات شافية من جانب علماء السياسة والاقتصاد، وبدليل أن مكونات الحضارة أو المنظومات الحضارية القائمة مازالت تفتقر إلى نسق يحقق الاتساق والتكامل بينها، أو حتى إطار ينظم أو يشرح تنافرها وتناقضها . هناك كم هائل من الأسئلة يتعلق بشكل وطبيعة المرحلة القادمة من مراحل التطور الإنساني، والناس لم تجد حتى الآن اجابات مقنعة أو كافية عن أسئلة تفسر المرحلة الراهنة بكل تعقيداتها. ناهيك عن أسئلة عن مرحلة قادمة نعيش تباشيرها.

السؤال الأهم بين هذا الكم الهائل من الأسئلة هو «من سيحكم؟». هذه الورقة ستحاول الاجابة عن هذا السؤال أو عن جزء منه من خلال مناقشة مسألة النخبة السياسية التي ستقود «الدولة في المرحلة القادمة من مراحل التطور الإنساني، والتي اصطلح الفكر «العالمي» علىٰ تسميتها بمرحلة العولمة، أياً كان المعنى المقصود من كلمة العولمة.

★★★

لقد درس الفلاسفة وعلماء السياسة والاجتماع على مر التاريخ عشرات بل مئات المجتمعات واتفقوا على أن الناس لاتجتمع في كيان أو مجتمع أياً كان حجمه إلا واختاروا قائداً أو جماعة قائدة تتولى تخطيط حياتهم وضبط خلافاتهم وتنظيم سبل حمايتهم . وان لم يبادر الناس بالاختيار ، بادر فرد أو بادرت فئة أو عائلة أو طبقة بتعيين نفسها قائداً لهذه الجماعة الإنسانية . ولا أظن أن الفلاسفة وعلماء السياسة والاجتماع كانوا يجدون صعوبة كبيرة في تحديد ماهية أو نوعية «الجهة - القائد» في أي مجتمع، ولا وجدوا صعوبة كبيرة في وضع نظريات ساعدت الباحثين السياسيين في التعرف على الجهة - القائد في مجتمع أو آخر.

ملامح نخبة العولمة

ولكنهم - وجدوا - ويجدون صعوبة في أداء مهمتهم خلال المرحلة الراهنة ، ويجدون صعوبة أشد في محاولة وضع الأسس النظرية اللازمة للتنبؤ بشكل ونوعية القيادة التي ستقود معظم المجتمعات في المرحلة القادمة . إذ أن صورة الخريطة السياسية لأي مجتمع ، وبخاصة المجتمعات التي خطت خطوات واسعة على طريق العولمة ، أصبحت تعكس غيوماً أو ضباباً كثيفاً يخفي من تفاصيل عملية صنع السياسة واتخاذ القرار . المؤكد ، والواضح جداً، هو أن قيادة سياسية واضحة المعالم والشخصيات مازالت تحتل مقاعد ومناصب اتخاذ القرار. ولكن المؤكد ، وإن كان غير واضح تماماً، هو أن نخبة أخرى، سواء كانت منتخبة أو بالتعيين أو بالفرض، تظهر في جانب من الصورة ولا تظهر في جانب آخر، أو تظهر في لقطة فوتوغرافية ولا تظهر في لقطة أخرى رغم أن الخريطة التي يجرى تصويرها لم تتغير. هذه «النخبة» ، ان





نخبة العولمة

صحت التسمية، ستكون موضوع هذه الورقة التى ستجتهد فى محاولة لتحديد ملامح نخبة العولمة وهى النخبة الناشئة والصاعدة بقوة وبسرعة ، والتعريف بوظائفها، وطرق تجنيدها، وبعض أدوارها المحلية والعالمية، من خلال طرح واختبار عدد من الافتراضات.

نخبة في طريق التكوين

لم تتوفر حتى اليوم كتابات كثيرة تناقش مفهوم «نخبة العولمة»، فضلاً عن أن قليلين جداً من الباحثين استخدموا هذا المفهوم. وفى الغالب مازال بعض علماء السياسة يتعامل مع التحولات السياسية الداخلية فى دراسته المقارنة على أساس مفاهيم يعتقد كاتب هذا المقال أنها ستصبح تقليدية إذا استمرت مسيرة العولمة تتقدم بمعدلاتها الراهنة، من هذه المفاهيم مفهوم الطبقة السياسية أو النخبة السياسية . نخبة العولمة ليست بالضرورة هذه النخبة الحاكمة ، وهى لاتنتمى بالضرورة إلى الطبقة الأغنى ، أو الطبقة البورجوازية . نخبة العولمة هى نخبة فى طريق التكوين . وهى شريحة ممتدة أفقياً ورأسياً فى قطاعات كثيرة . تجدها - كأفراد متناثرين - فى قطاع الفكر والمجتمع الأكاديمى ومراكز البحوث وفى الصحافة والاعلام . وتجد أفراداً من هذه النخبة يمثلون مناصب فى مستويات متباينة فى البيروقراطية الحكومية وبيروقراطية الأحزاب الحاكمة ، وفيها عمال مهرة ومهندسو اتصالات وخبراء معلومات .

الولاء للعولمة قبل الثوابت !

وعلى الرغم من أن الكتابات عن هذه النخبة مازالت شحيحة ، إلا أنه يمكن استخلاص سمات معينة نراها تميز نشاط هذه النخبة ونفوذها ، من هذه السمات أختار بعضاً قليلاً . أختار مسألة الولاء والهوية سمة أولى حيث يبدو من كتابات أهل النخبة وسلوكياتهم وممارستهم أن الأولوية فى الولاء تحتلها العولمة. وهذه تأتى قبل الدين والدولة والحزب والجماعة (حتى لو كانت الجماعة جماعة رجال أعمال أو جمعية لخبراء الاتصال تنتمى هى نفسها للعولمة). ولكن هذه الأولوية للعولمة لاتمنع هؤلاء - بل على العكس تحثهم - على التمسك - ولو شكلاً - بولاءات أولية لاتفرض التزامات بقدر ماتقدم ضمانات وتسهيلات.

السمة الثانية هى الاعتقاد والتصرف على أساس أن الدولة موجودة لخدمة العولمة، اقتصاداً وسياسة وثقافة ، بل ولخدمة نخبة العولمة بالدرجة الأولى. بهذا المعنى يتقلص المضمون التاريخى لمفهوم الطبقة ، خصوصاً بعد أن احتلت نخبة العولمة مكان الطبقة المتميزة، لها كل امتيازات الطبقة الارستقراطية ولكن بدون مسئولياتها ولا تقاليدها . ولذلك ليس صحيحاً تماماً الاعتقاد السائد بأن

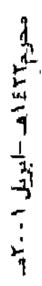
نخبة العولمة تفضل أن تكون الدولة ضعيفة وأن تضمحل حتى تذوى تماماً كما كان يفضل ويتمنى بعض الماركسيين الأوائل . الصحيح فى رأيى هو أن هذه النخبة تريد الدولة ضعيفة بالقدر الذى يجعلها خاضعة لقوى العولمة ، ولكن قوية بالقدر الذى يخدم هذه القوى ويدافع عن مصالح نخبة العولمة ويوفر لها الحماية فى الداخل . وتشير تجربة اندونيسيا ثم روسيا وغيرهما إلى مسيرة ضعفت خلالها الدولة بتشجيع قوى الفساد فيها ولكن إلى حد معين . عند هذا الحد عادت الدولة تستعيد بعض قوتها بتشجيع من نفس قوى العولمة مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى وبعض رجال الأعمال .

الوطن والوطنية من رموز التخلف !

السمة الثالثة لنخبة العولمة وترتبط بالسمتين السابقتين، هى مكانة الوطن عند هذه النخبة. ولا أعتقد أن الآراء ستختلف على أن كثيرين يصرحون أو يكتبون ويقولون بغير تصريح أن الوطن والوطنية من رموز التخلف ، أو على الأقل من رموز مرحلة تاريخية انقضت. ولسنا هنا فى سبيل الدفاع عن الوطنية أو تبرير ضرورات إعادة إنعاشها من أجل إنعاش الوطن، أو من أجل الدخول إلى العولمة من موقع ثقة بالنفس وقوة معنوية كبيرة . يكفى أن أردد فى هذا الصدد عبارة وردت على لسان المهاتما غاندى فى حوار مع الماركسيين الهنود ، قال «الطريق إلى الأممية لابد أن يمر بالوطن» . فالرجل ترك باب المستقبل مفتوحاً أمام كل الخيارات الأيديولوجية، بشرط أن يكون الوطن ككيان أو رمز أو حتى وهم عتبة هذا الباب ، أى عتبة المستقبل بكل خياراته . ولذلك لاتدهشنى أحياناً دعوة بعض المتنورين من العولميين للعمل على استعادة مكانة الوطنية كهوية أولى. هؤلاء يستحقون التقدير لذكائهم وصواب رؤيتهم. فالوطنية - كالثقافة - مجمع أو سلة رموز . لاشىء محدد يمكن أن يحتكر مضمون الوطنية .. لا الأرض ، ولا الشعب، ولا التاريخ ، ولا الأحلام ولا الأوهام ، ولا شىء وحده من كل هذه الرموز يعنى الوطنية ، فكلها وأشياء أخرى كثيرة تشكل فى جملتها معنى الوطنية . ولذلك فإن المتنورين من العولميين حين يستنكرون أحاديث اللاوطنية وخطاب الاستهانة بالوطنية إنما يريدون بناء صرح للعولمة على أسس متينة متوافقة . أما الآخرون الذين يتصورون أن تغييب الوطنية يدفع بعجلة العولمة ويعزل من يسمونهم بالديناصورات الوطنية بعيداً عن تيار العولمة ، هؤلاء غير مدركين لعواقب التصادم.

كأنك رأيتهم جميعا !

ثم هناك أيضاً النمطية كواحدة من أهم سمات نخبة العولمة . وقد أبالغ وأقول نمطية إلى حد أنك إذا رأيت أحدهم أو سمعته فقد رأيتهم أو سمعتهم جميعاً . وعلى كل حال لا يوجد فى النمطية مايشين. فقد سعى الفرد عبر





التاريخ إلى الاثنين معاً، سعى إلى النمطية ، أى سعى ليكون عضواً فى مجتمع وكيان يفعل مايفعله الباقون ويرث الخبرة والتجربة ممن سبقه ويورثها لمن يأتى بعده. وفى نفس الوقت كان يسعى إلى حماية خصوصيته وإلى التميز. لذلك أتعاطف أحياناً مع بعض المفكرين وقادة الرأى الذين تمكن منهم الفزع بسبب تسارع خطى العولمة فى كل أبعادها السياسية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ففى معظم الأحوال وخصوصاً فى مجتمعات الغرب أصبح الفرد المعولم بالفعل رقماً ، أى تم واكتمل تنميطه، وفى الوقت نفسه أصبح كتاباً مكشوفاً أى تم تعميمه «وتأميمه» وإلغاء خصوصيته . وفى الغرب يناقشون الآن هذه المسائل بهدف كبح جماح هذا التيار الخطير خصوصاً بعد أن أصبحت حياة الانسان الشخصية وتفاصيل خصوصياته وسلوكياته وعاداته سلعة تباع وتشترى بدون العودة إلى صاحب هذه الشخصية المعروضة للبيع بكلياتها أو بالتجزئة .

واجتهدنا - أو نجتهد حالياً فى اكتشاف وتعريف نخبة جديدة بدأت تتشكل من أفراد يمثلون مصالح متصلة جميعها بمسيرة العولمة . وتوصلنا انطباعياً إلى أن هذه النخبة، فى معظمها، ستبقى لوقت غير قصير نخبة تابعة ، أى ليست أصيلة . هذه النخبة تابعة فكرياً ، أو تابعة مهنياً وحرفيا ، أو تابعة «تنظيمياً» ، لنخبة عالمية . النخبة العالمية هى نخبة العولمة بامتياز . أما النخبة المحلية للعولمة فتتلقى توجيهات وتفاصيل عقيدتها ورسائل التبشير لعقيدتها من القلاع العظمى للعولمة على مستوى العالم ، وهى متعددة وبالغة القوة والثراء والتحصين .

يجرنا هذا الاجتهاد إلى اجتهاد آخر لقد بدأنا نلاحظ وجود مسافات تتزايد اتساعاً وتتزايد عدداً تفصل بين مصالح نخب العولمة «العالمية» ومصالح الدولة القطرية ، فالولايات المتحدة ، وهى نفسها داعية العولمة ، وهى أكبر وأقوى مؤيد لمسيرتها ، تقف أحيانا عاجزة عن الاستجابة لمصالح بعض قوى العولمة «العالمية» ، أو عاجزة عن فرض ارادتها عليها. مثال ذلك ، هذا الفشل المتلاحق فى محاولة أمريكا فرض قواعد وأصول معينة لتشغيل العمل على بعض الشركات العابرة الجنسية . لوحظ ، أيضاً نفس الفشل بالنسبة لقضايا تلوث البيئة ، وبالنسبة لعمليات الاندماج الكبرى التى ستهدد فى النهاية روح المنافسة التى هى أحد أهم أسس حرية التجارة . مثال آخر هو قضايا الخلاف المتكررة، ولا أقول التناقض، بين مصلحة الدولة الأعظم وبين قواعد وقوانين أحد أهم قلاع العولمة ، وهى منظمة التجارة العالمية .

الوكالة لقلاع العولمة

اعتماداً على هذه الأمثلة، وأمثلة أخرى كثيرة، نستطيع أن نتصور أن



قلاع العولمة مثل المنتدى الاقتصادى العالمى ومقره «دافوس»، ومنظمة التجارة العالمية ومقرها «جنيف»، وغرفة التجارة العالمية ، ومجتمع الشركات العملاقة عابرة الحدود ، سوف تواصل العمل على تجنيد أفراد وجماعات قطرية لتقوم بأدوار الوكالة لقلاع العولمة أو لنخبة العولمة العالمية. وهو الأمر الذى سوف يستدعى مزيداً من محاولات انتزاع الفرد (المرشح للتدريب على «العولمة» أى ليصبح جاهزاً للانضمام إلى نخبة العولمة) من ولاءاته الوطنية والقومية أى من ولاءاته الملتصقة بالأرض، ومن ولاءاته الثانوية كالعشيرة والقبيلة والمجتمع المحلى. وهذا التطور سوف يستدعى بدوره خلافاً وربما يتطور إلى صدام بين الدولة أو الدول الأعظم فى العالم وبين قوى العولمة العالمية. فالدولة أو الدول الأعظم حتى وإن كانت مستفيدة من إضعاف «الدولة» فى البلاد النامية أو فى «الدول» المنافسة أو الصاعدة ، وإن كانت مستفيدة إلى حد ما من «سحب» مبدأ السيادة أو تشجيع انحسارة فى نفس تلك الدول تحت ضغوط العولمة والاتفاقات الدولية المنعقدة تحت لواء العولمة ، فإنها أى هذه الدول الأعظم لن تنتظر حتى تجد نفسها وقد أصبحت «دولاً أقل»، وبسيادة أقل!

غزو واغتراب

هذا الغزو المتدرج من جانب العولمة للدولة ، وهو الغزو الذى لا يميز بين دولة عظمى ودولة نامية ، يقابله شعور متزايد من جانب الدول النامية عموماً بالاغتراب. إذ أصبحت النخب السياسية ومنها الحاكمة ، فى حالة إحباط من أنها لاتشارك فى القرارات الدولية المهمة، ومنها القرارات التى تخصها ، بسبب الاحتكار المتزايد من جانب الدول العظمى لعملية صنع القرار الدولى . الشعور السائد والغالب هو الشعور بالاهمال، وبالتالى تصدر عن كثير من حكام هذه الدول تصرفات تعكس حال اغتراب عن النظام الدولى . هذه النخبة السياسية ، وفيها النخبة الحاكمة ، فى حالة سياسية سيئة بسبب شعورها بالضعف المتزايد إزاء قوة قوى العولمة ونفوذها المتعاظم ، ومنها القوة المتزايدة لنخبة وكلاء العولمة المحليين . إذ أن هذه النخبة تتلقى توجيهات من قوى خارج الدولة تتصل بها مباشرة متجاوزة سلطات الدولة . من ناحية أخرى تشعر النخبة السياسية ، ومنها الحاكمة ، بالنقص المتتالى فى احترام سياستها وحقها فى هذه السيادة. انعكس هذا الشعور على السلوكيات السياسية لكثير من حكومات العالم النامى وبخاصة السلوكيات المعبرة عن توتر النخبة الحاكمة وسرعة لجوئها إلى استخدام العنف ضد المعارضين أو ما يشتم أنها معارضة . من ناحية ثالثة فقد أثرت على النخبة السياسية، ومنها الحاكمة ، فى دول كثيرة الحملة التى تشنها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى باسم النظام الدولى لتشجيع المجتمع المدنى فى الدول النامية على ممارسة نفوذ أوسع



نخبة العولمة

ومشاركة أعم فى شئون المجتمع. وقد برزت آثار هذه الحملة بشكل أساسى فى صحوة حقيقية أو مفتعلة داخل مجتمعات الاقليم والطوائف والمذاهب وجماعات الاحتجاج المختلفة .

اغتراب النخبة السياسية

السبب الثالث وراء شعور النخبة السياسية، وبالذات الحاكمة، بالاغتراب، هو أنها مازالت غير واثقة من أنها مقبولة من جانب قوى العولمة، أى من جانب النظام العالمى. بمعنى آخر، تدرك هذه النخبة أنها لا تحظى بالاحترام الكافى من جانب المؤسسات فى النظام الدولى والدول العظمى الفاعلة فى هذا النظام والمهيمنة عليه، وفى نفس الوقت لم تتأهل دولهم ، ولم يتأهلوا هم أنفسهم كأفراد نخبة سياسية أو حاكمة لعضوية كاملة فى النظام العالمى، أى نظام العولمة . ولعل أحد الشروط التى توسع فجوة عدم الثقة بين قوى نظام العولمة والدولة هو شرط الاستعداد للتخلى عن كثير من ممارسات السيادة ومظاهرها. وتدفع قوى العولمة بحجة أن السيادة والتمسك بها وممارساتها تتسبب فى تشنجات يرتكبها أو يقع فيها صانع السياسة والقرار فى الدولة ، وأن هذه التشنجات تتسبب بدورها فى إبطاء أو تباطؤ التقدم الاقتصادى والاندماج فى السوق العالمى.

هذا النقد الموجه من قوى العولمة إلى الدولة أصبح هو نفسه مدخلا لنقد مماثل تشنه قوى العولمة على النظام الدولى ورموزه . فالدولة ..ليست وحدها العاجزة عن التأقلم مع قوى العولمة ، بل إن النظام الدولى ذاته عاجز عن التأقلم مع القوى الصاعدة فى النظام العالمى. فكما أن «الدولة – القومية» بحكم التعريف عاجزة بسبب التصاقها بأرض وقوم ، كذلك حال النظام الدولى وان كان بسبب مختلف . فالنظام الدولى «مثبت» وملتصق بمجموعة اتفاقيات ووثائق وتوازنات جامدة صنعتها ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية لم تعد قائمة . ولا يستطيع النظام الدولى التحلل منها ان أراد تطوير ذاته للتأقلم مع اختراقات قوى العولمة والاتفاقات والقواعد التى تسعى لفرضها كقيم جديدة تلتزم بها الدولة والمؤسسات السياسية الدولية.

ولا يخفى أن التفكير فى مستقبل العلاقات بين النظام الدولى ، أى القائم على مجموعة وحدات ، كل منها دولة، وبين قوى العولمة ، وبعضها أكبر وأقوى نفوذاً من معظم دول العالم، وكذلك التفكير فى مستقبل منظومة القيم والعلاقة بين المنظومة الحضارية المختلفة، كلاهما يحتاج من المفكرين إلى جهود خلاقة ومبدعة، تدخل فى إطار مايطلق عليه الصديق الدكتور نبيل على تعبير «هندسة الخيال» أو «الهندسة الخيالية» . معالم المستقبل يخبئها ما يجرى من صراعات قوة بين «قوى الدول» وقوى العولمة. ■

أمام الهرم

شعر: سليم الرافعي
طرابلس - لبنان

على الأرض قيثارة المغْرم
ومعزوفة الصمت لم تُهْزم
سمعت حبيبا مناجاته
تصعّد زفرة مستبسلم
ومحرقة العشق فى شاهق
يئن من الجسد المفعم
من الشرق يحمل أسراره
إلى السرمدية.. لم يَسْأم
من الروح كان؟ فكيف استوى
على صخرة الرفض كالبرعم؟
نقيضان ما اتحدا مرة
سوى لحظة الفزع الأعظم
يعانق معبوده؟ فليقف
لدي هيكل موقف المحرم
ليسجد من قمة حلّقت
مع الغيم والطيف والأنجم
أيغتسل الليل فى حضنه؟
أترتجف الشمس من مأثم؟
هما قبلتان على خده
وكأسان من فلك مبهم
فمن يشرب الدهر.. من ينتشى
بمعصرة الأبد الأبكم؟
وقفت على السفح مستغفرا
فإنى من النهر يحكى فمى
وأجهل منزلة حلَّقت
حوافر فارسها المعلم
من الرعب والحب ترتيلة
يلوذ بها الطيف أو يحتمى
يروّعنا الهرم المرتقى
بألواحه.. مثل مستلهم
ونقرأ من جبروت الحجى
سماء إلى أرضنا تنتمى
همست له: إننى مثله
من الروع يجرى الهوى فى دمى
على هيكل الحرف لى موقف
ولى هرم عاش فى أعظمى



شخصية العدد

هموم مصر بين عبد الناصر والسادات

بقلم
شوقى عقل

انبعاث مضىء على يد الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين وسلامة موسى ومشرفة وجمال حمدان ويحيى حقى ومحفوظ وأخيراً رشدى سعيد صاحب جيولوجية مصر.

نتساءل كثيراً حين نواجه كل ما يحيط بنا من سوء وزيف: أين إذن الحضارة التى ننتمى إليها؟ أنحن حقاً نفس الشعب الذى أنشأ هذه الحضارة (أم الحضارات) والتى يؤرخ ببداياتها بداية الحضارة البشرية الجامعة؟.

سؤال بسيط ومحير لن نجد إجابته فى الجمل البليغة الزاعقة من أمثال (عظمة الشعب، تاريخه المجيد، أصالته وطيبته...) وهى جمل تخفى ببلاغتها وعلو نبرتها عدم إيمان عميق بما تزعق به، وكانت الإجابة البسيطة المدهشة هى: إن تمثل حضارتنا الغاربة الأنى يكمن فى هؤلاء!! إنهم التعبير الأكثر صدقاً عن كنه الحضارة المصرية ووجودها المستمر رغم كل سوء وهو تعبير صامت هادىء منزو فى أغلب الأحيان، وعن أننا فعلاً الشعب صاحب هذه الحضارة فها هم أبناؤها، وهم دليل حى رغم خفوته وضعف نبرته عن نبضها كما أنه التفسير الوحيد لحجم إبداعهم رغم سوء الحال.

فى إطلالة سريعة على كتاب السيرة الذاتية للدكتور- رشدى سعيد -





شخصية العدد

الذى صدر مؤخراً تحت عنوان « رحلة عمر. ثروات مصر بين - عبدالناصر والسادات» تكاد ترى ما أصبح السمات لحياة ومسيرة عمل مفكرينا وعلمائنا الكبار، وهى سمات تتعلق بوجودهم (أعنى الوجود المبدع لا المادى) فى مصر، وهى تتعلق كذلك بتفاعل المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية الثقافية منها أو البيروقراطية أو العلمية .. إلخ معهم. وإنك حين ترى ما حدث لهم - كظاهرة لا كحالة فردية - تتساءل ، وترى أن تلك القاعدة التى تقول أن (العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق) تنطبق بشكل مثالى على مجتمعنا ، إذ ترك جمال حمدان - وهو ما هو عليه - الجامعة واعتكف فى منزله ، وكيف طردت الجامعة (طه حسين وعلى عبدالرازق وأمين الخولى ولويس عوض ومحمود أمين العالم) * .

وهل هى مصادفة (أن كبار المشتغلين بالآداب والعلوم الإنسانية كانوا من خارج الجامعة كجرجى زيدان والعقاد والحكيم وسلامة موسى ومحفوظ وحسن فتحى) * .

هذا ما واجهه رشدى سعيد - خلال حياته كلها بقسوة لا مثيل لها، فكلما تكشفت حقيقته وأسفرت عن عالم عظيم محب بعمق لهذا الوطن دارس لواديه وصحاريه ، باحثاً فى أعماقها عن ثرواته، كانت الحملة المعادية الكارهة تضيق حلقاتها حوله.

● **كان احتفاء العالم به واستقباله لمرجعيه الأعظم: جيولوجية مصر ونهر النيل كبيراً**

لم يتحقق الحلم

وتكاثرت الضغوط بدءاً من حجب الأموال والأجهزة عن معمله حتى تنحيته عن التدريس للطلاب، وبلغ الأمر أن يقضى سنتين لا يجد مكتباً له بالجامعة، وهو الذى ترك عمله كأستاذ هارفارد ليعود ليدرس بوطنه حاملاً حلماً كبيراً والثقة فى القدرة على تحقيقه تتناسب مع طاقات خريج هارفارد المتقد حماسة، (... كانت الآمال والطموحات في ذلك الوقت تسمح لنا بأن نحلم بأن نرى كلية العلوم بجامعة القاهرة نداً لزميلاتها بجامعة هارفارد أعظم الجامعات بالولايات المتحدة!) * .

وخاض معركته لتحقيق حلمه، وكانت صحارى مصر وواديها مكانها وكذا معمله الصغير فى كلية العلوم.

(كانت حياتى العامة كلها جهاداً لتحقيق أهداف آمنت بأنها يمكن أن تحقق لمصر اليسر والرخاء ولأبنائها السعادة والنماء، ودخلت من أجل ذلك معارك مع قيادات لم يكن همها إلا تحقيق

مصالحها الآنية والذاتية).

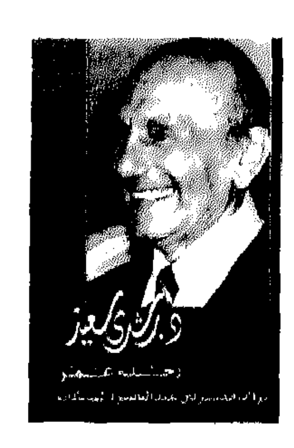
ووسط مناخ من التخلف كان عليه أن يواصل معركته فى الجامعة، ثم فى هيئة المساحة الجيولوجية حتى جاءت سنوات الانحسار وذلك (عندما توارى دور الصناعة وحل محلها اهتمام بالنشاطين الخدمى والسياحى) * .

(وهكذا انتهت علاقتى بالوظائف العامة) * .

ولم يتحقق الحلم !.

....

هذه هى السمة الأولى، فماذا نجد أيضاً عند رشدى سعيد – ما وجدناه من قبل عند طه حسين أو جمال حمدان مثلاً، إنه الفهم العميق لطبيعة ما يواجهونه من رفض وانكار وتضييق خناق، كانت المعركة عندهم دائماً مع الفساد الذى تواجهه الأمة لا مع المفسد الصغير الذى يواجههم فى موقعهم، ومع التخلف والجهل الذى يئن منه عقل الأمة ويثقل روحها لا مع جهل وتخلف فرد هنا أو هناك وضعته الظروف فى طريقهم وهكذا، وهو فهم يتناسب مع جوهرهم ومع كونهم قد اختاروا معركتهم وهى بالطبع بحجمهم ، ولم يستطع أيا كان أن يفرض عليهم معارك صغيرة لو كانوا انشغلوا بها لضاعت سنى عمرهم ولما قدموا للوطن ما قدموه.



(وإذا كان لي من فضل في شيء، فهو يرجع إلى أننى أستطعت أن أحتفظ برباطة جأشى وأن أقف أمام الصعاب والاغراءات فى صلابة) * .

الثورة وأثرها عليه

يربط رشدى سعيد أحداث حياته بأحداث وطنه والعالم.

فيذكر أن عيناه تفتحتا على النهضة الكبرى التى أحدثتها ثورة ١٩١٩ الوطنية وكانت نشأته فى ظلها وكان للنهضة الشاملة التى أحدثتها هذه الثورة على حياة المصريين أثراً مباشراً عليه، ولا سيما بعد أن تمخضت عن دستور ١٩٢٣ الذى (جاء تتويجاً لكفاح أجيال سعت لأن تأخذ مستقبلها بأيديها وأن تشارك فى حكم بلادها وأحدث صدوره نقلة كبيرة فى حياة أبنائها وبناتها، وأعادت لهم الروح وأعطت للأغلبية العظمى منهم الأمل فى مستقبل جديد، يكون أكثر أمانا فى ظل المؤسسات الجديدة التى استحدثها والتى تطلعوا إلى أن يشاركوا بها فى حكم بلادهم



وتقييد سلطة ملوكهم ومحاسبة رؤسائهم... كما أعطى للشعب الحق فى اختيار حكومته وهو الحق الذى كان مطلقا فى يد الملك!) * .

ويواصل رحلة عمره التى يرى فى كل أحداثها رابطا بأحداث وطنه .

(كان تعيينى بكلية العلوم فى وقت بدا فيه الضغط الشعبى لزيادة فرص التعليم فى مصر) * ، ثم تم إرساله مبعوثا ليحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد ويعود عام ١٩٥١ ليجد مصر فى غليان حتى قامت ثورة الجيش يوليو ١٩٥٢، وكانت فكرة بناء وطن جديد قوى جدير باسم وتاريخ مصر تلهب حماس كل محب له، وفى أول وظائفه العملية فى منجم فوسفات بالقصير تفتحت عيناه على (حقيقة مأساة المصرى وغربته فى بلاده) * ويرى كيف كان حال مصر عندما بدأ حياته العملية (شعب مقهور محصور فى واديه الضيق لا يستطيع الخروج منه إلا بتصريح .. وأمواله فى أيد أجنبية تنزح أرباحها إلى خارج الحدود)* .

وكان دخوله الحياة العامة فى مصر وتبوؤه بعض المنصب منها متزامنا مع صعود التوجه الاجتماعى فى الستينات، وكان إبتعاده عنها متزامناً أيضاً مع انحسار هذا التوجه فى السبعينات. وانتهت المطاردة التى بدأت بالحصار الوظيفى وتقارير الأجهزة إلى وضع اسمه على قوائم المطلوبين فى أحداث سبتمبر ١٩٨١.

(وعندما خرجت من وظائفى العامة، كنت أشعر بغربتى ولم تنتبنى الدهشة عندما قبل الوزير استقالتى بالفرحة، من هيئة المساحة الجيولوجية).

....

والسمة التالية المهمة وهى تعد من أبرز سمات كبار مفكرينا ، بل تستطيع القول أنها ما ميزهم بالتحديد، كانت قدرتهم على الربط ما بين العلوم التطبيقية أو الثقافية ووضع مجتمعهم ، أو بتعبير آخر أن العلوم البحتة أو التطبيقية أو الثقافية بأشكالها كانت تكتسب على أيديهم قيمة حقيقية بتوظيفها وإبراز دورها الحقيقى فى خدمة تطور المجتمعات البشرية ، وهو بالطبع هنا وطنهم (مصر).



شخصية العدد

● تحولت الجيولوجيا على يديه الى كائن ينبض بالحياة. فهى أمال شعب للخلاص من فقره.

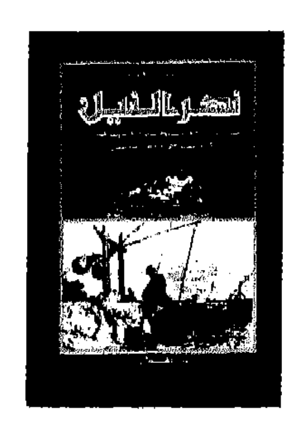
أنظر إلى الطبيعة الاجتماعية والسياسية لأفكار طه حسين - وهو المفكر والمثقف رفيع المستوى (إن التعليم كالماء والهواء...) .

أنظر كيف استطاع جمال حمدان أن يجعل الجغرافيا - ذلك العلم المدرسى الثقيل الوطأة على أطفالنا - علماً ذا طابع اجتماعى جمالى يكاد يكتسب ثوباً اسطورياً فى بعض الأحيان يقول : (إن قناة السويس أعظم جراحة قام بها الإنسان لوجه الأرض !!!).

(إن موقع القاهرة كعاصمة مصر من قديم الأزل - على اختلاف أسمائها - هو اختيار قامت به الآلهة) وذلك بإدخال الطابع الاجتماعى والفعل الإنسانى فى دراساته لجغرافية مصر بوجهيها الطبيعى والبشرى.

الجيولوجيا كائن حى

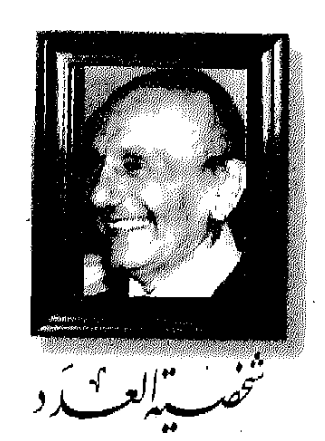
وها هى الجيولوجيا تتحول على يد رشدى سعيد - إلى كائن ينبض بالحياة، إنها آمال شعب للخلاص من محنته وفقره ، إنها كنزه المخبأ الذى يحلم به، وهو كنز حقيقى لا خرافى، موجود وظواهر وجوده كثيرة ، ولا يحتاج إلى عفريت المصباح لاحضاره والحصول عليه بل إلى سواعد الرجال وعقولهم ، وتتحول الصحارى على يده وفكره إلى مكان معلوم يذكرها بتفاصيلها، وبعد توقف المصانع عن العمل لعدم وجود خامات بعد احتلال سيناء يبحث عن مصادر جديدة للخامات وكان خام الكاولين المستخدم فى مصانع السيراميك والحراريات من هذه الخامات ، فيطلب من رئيس شركة تابعة لهيئة المساحة الجيولوجية التى يرأسها أن يقدم تقريراً عن امكانية وجود ذلك الخام بمنطقة ما بصحراء النوبة بجوار كلابشة، فيأتى التقرير سلبياً وأن المنطقة خالية منه، ولكن رشدى سعيد - لا يقتنع وهو العارف بصحارى مصر معرفة لمس اليد (بدا لى أن الكلام غير متماشى ومعرفتى بالمنطقة حسب ما أتذكرها عندما زرتها منذ سنوات) * . فيقوم بالسفر بنفسه إلى هناك ويجد ما توقعه ، إمدادات ضخمة للخام المطلوب وتعود مصانع الحراريات للعمل!.



فماذا لو أطل العالم على أوضاع وطنه وتساءل عن أسباب تخلفه وفقره وجهله وهو يحمل من الثروات ما يحمل.

مصر وتبديد الثروات

يقدم رشدى سعيد - فى كتابه الحقيقة والوهم فى الواقع



المصرى - جدول مقارن بين نصيب الفرد من الأرض والمياه والطاقة (الفحم والبترول والغاز) ثم نصيب هذا الفرد من هذه الثروات ومستوى دخله وذلك بين كل من مصر والأردن وسوريا ولبنان وإسرائيل ، فماذا نجد ؟! تأتى مصر فى مقدمة هذه الدول من حيث أنصبة الفرد من البنود المذكورة ثم (لماذا لم يعد ذلك يدهشنا؟!) تأتى فى مؤخرة هذه الدول من حيث مستوى دخل الفرد.

يقول رشدى سعيد : (والناظر إلى دول منطقة الشرق الأوسط يجد أن مصر هى الدولة الوحيدة بينها التى تجمعت لديها عناصر السكان والطاقة والمياه، ومع ذلك هى أفقرها وأقلها فى نوعية حياة أبنائها.. ثم يستطرد .. وليس لى من تفسير إلا أن مصر لم تستفد من إمكاناتها وأنها أقدمت على تبديد ثرواتها ، وأريد من القارىء فى النهاية أن يتصور معى مصر وقد استفادت من ثرواتها وجعلت من بترولها خيراً على البلاد وسنداً لصناعاتها وأساساً لبناء مجتمعات صناعية تبنى حول مدن كاملة تنشأ فى مواقع استكشاف الغاز بقلب الصحراء .. إلخ) * .

● اكسب العلماء العلوم البحتة قيمة حقيقية بتوظيفها فى خدمة المجتمعات وكان على رأسهم رشدى سعيد

....

لقد كان دوماً احتفاء العالم بمفكرينا وكبار علمائنا أو أدبائنا هو إشارة للمؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية عندنا للاحتفاء بهم واكتشاف مدى ما يمثلونه من قيمة فكرية أو علمية أو أدبية عالية، ويتم التبارى فى عمل حفلات لهم ودعوتهم وتوزيع الأوسمة و(الدكتوراهات) الفخرية عليهم، باختصار أقصى ما يمكن عمله خلف الميكروفون أو أمام العدسات المصورة، والمفارقة الساخرة هنا هى أن تلك المؤسسات هى ذاتها التى حاربت هؤلاء الأشخاص ذاتهم المحتفى بهم، وأنكرت تميزهم وقيمة ما يقدمونه من إبداع فى أى مجال، أو فى أفضل الأحوال - تجاهلتهم وتجاهلت إبداعاتهم، وذلك قبل أن يعرفهم العالم الخارجى ويحتفى بهم، على من ينطبق ذلك؟ على الجميع دون استثناء .

لا تشذ حالة رشدى سعيد - عن القاعدة وتذكرنا بالمثل القديم الكئيب (لا كرامة لنبى فى وطنه) وهو مثل يحتاج إلى بعض التعديل، بعد احترام غالبية شعوب العالم لمفكريها ومبدعيها ، حتى ولو لم يكونوا بنفس قامة مبدعينا ، وقد كان

احتفاء العالم به وبابداعه عظيماً واستقباله لمرجعيه الأعظم فى مجالهما وهما جيولوجية مصر ونهر النيل كبيراً، ويدرسان باعتبارهما مرجعين أساسيين عن نيل مصر وجيولوجيتها وقد كتبا بالإنجليزية وتمت ترجمة أحدهما (نهر النيل) إلى اللغة العربية بعد ذلك ولم تتم ترجمة كتاب جيولوجية مصر إلى العربية حتى الآن !.

(وأنى أعتبر هذا الكتاب - نهر النيل - من أفضل ما كتبت تعبيراً عن حبى لمصر التى أتاحت لى حياتى العملية معرفة أرضها، وأصبحت لى كالعشيقة يزداد الهيام بها كلما ازدادات معرفتى بها) * ... و... (العيش فى الغربة بعد كل ذلك التاريخ الطويل فى مصر التى كانت محل دراستى وأبحاثى التى أخذتنى إلى كل أرجائها وعرفتنى بامكاناتها، كان أمراً صعباً) * ، فكيف وجد رشدى سعيد نفسه يكتب بغير لغته ويعيش فى غير وطنه وهو المحب له والذى أفنى حياته فى سبيله .

....



يشير رشدى سعيد - إلى ما حدث لجده حين اختلف مع الملتزم بقرية (السراقنة) الواقعة بجوار الدير المحرق بالصعيد، مما أغضب الملتزم عليه وانتهى الأمر بطرد جده مع جميع أفراد أسرته من القرية بدلاً من قطع لسانه الذى تطاول به على الملتزم وانتهى الأمر بالأسرة المطرودة فى القاهرة مع الحنين للجذور ، ذلك الحنين الذى دفع به إلى العودة للقرية بعد حوالى ثمانين عاماً من حادثة الطرد للتعرف على جذوره ويبدو أن لعنة الطرد لازمت حياته :

الخروج من الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى . عام ١٩٦٥.

الخروج من الجامعة . عام ١٩٦٨.

الخروج من البرلمان (مجلس الشعب). عام ١٩٧٦ .

-الخروج من الاتحاد البرلمانى الدولى. عام ١٩٧٦ .

-الخروج من هيئة المساحة الجيولوجية. عام ١٩٧٨

الخروج من مصر كلها (بعد أحداث سبتمبر ١٩٨١ والتى كان فيها على قائمة المطلوب اعتقالهم).

ذلك كله كان مرة بالإنزواء ومرة بالاستقالة أو بالدفع إليها.

فانظر كيف تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة، ولكننا نحذو حذوه ونعطى الأمر أبعاده الحقيقية ولا نأسى للعالم ولكننا نأسى للوطن ونقول كما قال إنها مأساة وطن لا مأساة عالم !. ■

* كتاب : د. رشدى سعيد رحلة عمر.

ذكريات لندن

بقلم
د. عبد العظيم أنيس

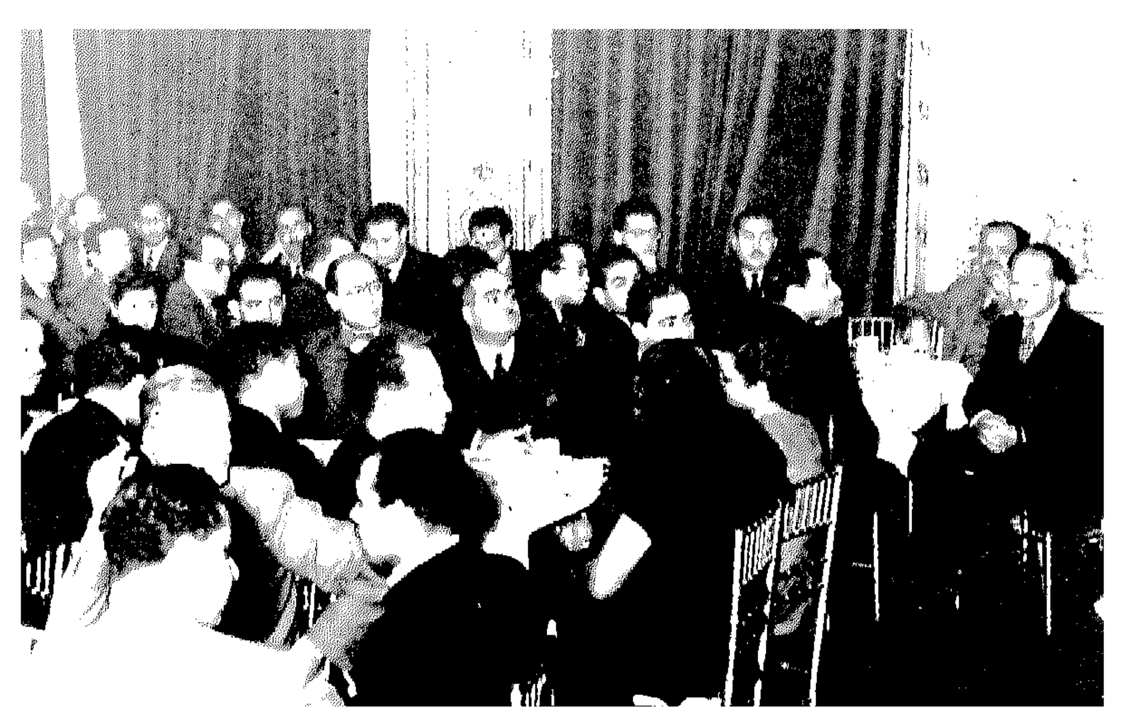
عشت فى لندن فترتين متقاربتين من حياتي ، الفترة الأولى هى التى كنت أعد فيها رسالة الدكتوراه، وهى من سبتمبر ١٩٥٠ حتى سبتمبر ١٩٥٢ وبعدها عدت إلى القاهرة حيث عينت مدرسا بكلية العلوم جامعة القاهرة، قسم الرياضة البحتة.

لكننى كما سبق أن شرحت فى مقالات سابقة فصلت مع آخرين من الجامعة فى سبتمبر ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة لأسباب سياسية سبق أن أوضحتها.

وجاءت لى فرصة تعيينى مدرسا بإحدى كليات جامعة لندن فى الفترة من مارس ١٩٥٥ حتى نوفمبر ١٩٥٦ ، وهكذا عشت الفترة الثانية في لندن حتى جاء تأميم قناة السويس في يونيو سنة ١٩٥٦ فآثرت الاستقالة من عملى فى لندن حتى أتفرغ للعمل الجماهيرى الذى كان مطلوبا فى بريطانيا للدفاع عن وجهة نظر مصر فى تأميم القناة.

ولقد فكرت فى الفترة الأولى - فترة دراسة الدكتوراه - كيف يمكن خدمة شعب مصر ونحن فى الخارج؟، وانتهيت مع زملاء آخرين إلى فكرتين أساسيتين: الأولى أن نعرف الشعب البريطانى بحقيقة ما يجرى فى مصر قدر الإمكان، من وجهة النظر الشعبية، أى من وجهة نظر العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وخصوصا شرائحها المتدنية.

والفكرة الثانية هى أن نكون على اتصال بالأحداث المهمة التى تجرى فى مصر وأن نبدى رأينا فيها قدر الإمكان حتى يشعر المسئولون فى مصر أن طلاب البعثات المصريين



كان الطلاب فى حالة غليان أثناء المؤتمر الأول الذى انعقد فى ٢٨ يناير ١٩٥٢ بالنادى المصرى بعد حريق القاهرة

يفكرون فى مصر ويطالبون أن يأخذ رأيهم فى الحسبان.

تشكيل لجنة وطنية

وقد وصلت إلى قناعة أن الخطوة الأولى لتحقيق هاتين الفكرتين تتمثل فى تشكيل لجنة وطنية تكون بمثابة المحرك الأول لكل هذا العمل، وهكذا تشكلت اللجنة الوطنية من الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبوزيد (التى أصبحت وزيرة الشئون الاجتماعية خلال حكم عبدالناصر) والدكتور محمد عبدالحليم وكاتب هذه السطور.

وكان العمل الأول لنا هو إصدار نشرة غير دورية توزع على النقابات البريطانية اسمها «السلام والاستقلال» وكان لهذا الاسم قصة أود أن أشرحها، لقد سبقنا فى هذه العمل الصديق عبدالمعبود الجبيلى الذى كان يدرس لدكتوراه الدولة فى معمل كورى بباريس، وقد أرسل لى نسخة من نشرته التى كانت تكتب بالفرنسية طبعا وتوزع على النقابات الفرنسية وتحتوى على المهم من أخبار مصر التى يهمنا إطلاع الرأى العام الأوربى عليها.

وأرسل لى عبدالمعبود نسخة من نشرته وابتدأنا فى أول الأمر بترجمتها إلى الانجليزية وتوزيعها على النقابات البريطانية بالبريد، ثم أخذنا بعد ذلك فى تغيير مادة نشرتنا عن نشرة باريس وإن احتفظنا

ذكريات لندن

بالاسم نفسه «السلام والاستقلال».

كما قمت عند وقوع أحداث مهمة فى مصر بكتابة مقال تفسيرى فى صحيفة الحزب الشيوعى الانجليزى ـ الديل وركر باسم مستعار هو «ص. الأيوبى» S. Aouby ولكن لم يكن للجنة الوطنية علاقة بهذا العمل.

أما خدمة الفكرة الثانية التى تمثلت فى أن نكون على صلة بأحداث مصر وأن نكون رأينا قدر الإمكان معروفا وذا تأثير على هذه الأصوات فقد تمثل ذلك فى دعوة اللجنة الوطنية طلاب البعثات فى مدن بريطانيا المختلفة إلى الاجتماع فى النادى المصرى بلندن ومناقشة هذه الأحداث ثم بإرسال رأينا إلى المسئولين فى مصر بعد ذلك.

وقد حققت هذه الفكرة نجاحا كبيرا، ونجحنا فى تنظيم عدة مؤتمرات فى لندن فى المناسبات الوطنية المختلفة، فى مقدمتها مناسبة قيام الوزارة الوفدية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحوادث الصدام بين قوات البوليس المصرى والجيش البريطانى فى الاسماعيلية، وبالطبع أعلنا تضامننا مع إلغاء المعاهدة وأدنا العمل البريطانى الوطنى فى أحداث الاسماعيلية.

أكبر مؤتمرين

إلا أن أكبر مؤتمرين دعونا إليهما وتوافد الطلاب المصريون من كافة المدن لحضورهما فكانا بمناسبة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ثم بمناسبة وقوع الثورة فى يوليو ١٩٥٢ .

فى المؤتمر الأول الذى انعقد فى ٢٨ يناير ١٩٥٢ (بعد حريق القاهرة) كان الطلاب فى حالة غليان، ومع أننا لم نكن نعرف على وجه اليقين من هم الذين قاموا بعملية الحريق، فإن شكوكنا آنذاك كانت حول دور السراى الملكية فى هذه العملية البشعة للتخلص من الوزارة الوفدية لكننا بالطبع لم نكن نملك أدلة حاسمة، المهم أن هذه الشكوك انعكست فى المؤتمر حين قام أحد طلاب البعثات الدكتور عبدالحميد أمين نجل الكاتب المعروف أحمد أمين وطالب الملك فاروق أن يتنحى عن العرش، واحتبست الأنفاس بعد سماع كلمة عبدالحميد، ومما زاد من الحرج أن وكيل مكتب البعثات (دكتور عبدالعزيز عتيق) كان حاضرا المؤتمر، وهو بالمناسبة زوج شقيقة الدكتور عبدالحميد أمين!.

المهم انتهى المؤتمر بسماع إقالة وزارة مصطفى النحاس، وبقينا شهورا عدة فى حالة غليان وإن كنا لانعرف ماذا نفعل.



الاشتراك فى الاجتماع الجماهيرى بميدان الطرف الأغر بلندن فى ٣١ اكتوبر ١٩٥٦ احتجاجا على العدوان الثلاثى

حتى فوجئنا بوقوع ثورة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد أثار هذا الحدث الكبير حيرتنا فى مبدأ الأمر، إذ كيف يستولى الجيش على السلطة والقوات البريطانية موجودة فى القنال مالم يكن هناك تنسيق بينها وبين قادة هذا العمل؟.

كان هذا الخاطر الأول لنا، لكننا سمعنا أن هناك ضابطا (أحمر) فى قيادة الثورة هو خالد محيى الدين، وهذا يناقض الخاطر الأول.

واتجهت خواطرنا أيضا إلى دور أمريكى فى هذه الحركة يوم أذيع أن على صبرى كلف بالاتصال بالسفارة الأمريكية.

لكننا حزمنا أمرنا فى نهاية الأمر بتأييد الثورة عندما أعلن عن رحيل الملك وتنازله عن العرش، وعن قانون جديد للإصلاح الزراعى، واتخذ مؤتمرنا قرارا بهذا التأييد وأرسلت به برقية إلى الإذاعة المصرية حيث أذيع على الفور.

● ● ●

والآن أتحول إلى الفترة الثانية التى عشتها فى لندن مدرسا بإحدى كليات الجامعة.

لقد وصلت إلى لندن لاستلام عملى بالجامعة فى فبراير (أو مارس) ١٩٥٥ قادما من بيروت، وكنت قد غادرت القاهرة فى نوفمبر ١٩٥٤ (بعد فصلى من جامعة القاهرة) لتدريس مقرر فى الإحصاء باللغة

ذكريات لندن

العربية فى فرع معهد الإحصاء الدولى ببيروت لمدة ثلاثة شهور.

وقد قبلت القيام بهذا العمل فى انتظار قرار اختيارى أو اختيار غيرى فى وظيفة لندن، ولحسن الحظ قررت الكلية اختيارى وأرسلت لى خطابا على بيروت بذلك، وكانت فترة بيروت هى الفترة التى كتبت فيها مقالاتى الثلاثة عن الرواية المصرية واتفقت فيها مع دار نشر بيروتية على نشر كتاب (فى الثقافة المصرية) وهو الكتاب الذى احتوى على مقالاتى ومقالات الصديق محمود أمين العالم فى النقد الأدبى، وتكفل الصديق اللبنانى محمد دكروب بالإشراف على إخراجه كما قام الشهيد حسين مردة بكتابة مقدمة، وقد أثار هذا الكتاب فى السنوات الأولى لصدوره ضجة كبيرة فى أوساط الشباب.

المهم تفرغت فى لندن لعملى العلمى من إعداد المحاضرات والتركيز على البحوث بحيث لم يكن عندى وقت للعمل السياسى، وكنت أكتفى فى ذلك بحضور الاجتماعات السياسية المهمة، وبتوثيق علاقتى بحركة «تحرير المستعمرات» التى كانت بمثابة مظلة واسعة تحطم جميع أعوان اليسار المعادى للاستعمار بقيادة نائب عمالى يسارى معروف فينر بروكواى، وكان اهتمام هذه الهيئة الأساسى بالمستعمرات البريطانية في افريقيا انذاك مثل غانا وأوغندا ونيجيريا.... إلخ.

وعند انتهاء عملى بالكلية فى أواخر يونيو ١٩٥٢ قررت الاستجمام أنا والعائلة (زوجتى وابنى منى) فى جزيرة من جزر المانش ندعى جيرنسى فيما أذكر، ذهبنا لقضاء شهر يوليو هناك، وتمتعنا بجمال الطبيعة، وبجو الريف الذى افتقده دائما باعتبارى قاهرى قح، مثلا أتذكر أن الخضرة والأبقار كانت تملأ مساحة الفضاء أمام الفندق الذى نزلنا فيه.

تأميم القناة

حتى جاء يوم فى يوليو قضيناه بطوله خارج الفندق وعندما عدنا فى المساء ونزلنا لتناول العشاء كالعادة فى قاعة الطعام فوجئنا بالحاضرين وكأن على رؤوسهم الطير، لكن صديقا هنديا انحنى علىّ وقال بصوت خافت «ألم تسمع؟ لقد أعلن عبدالناصر تأميم قناة السويس»، ولم أصدق فى مبدأ الأمر وحسبته يهزل كالعادة، ولكنه أكد الخبر وطلب منى أن أسمع B. B. C للتأكد.

وقضيت تلك الليلة دون نوم عمليا، أفكر ماذا أعمل فى مثل هذا الوقت،





فى حفل تكريم بطل الاسكواش العالمى محمود عبد الكريم أبريل ١٩٥١

هل أستقيل من عملى مثلا وأتفرغ للدفاع عن تأميم القناة؟.

وفى الصباح اتصلت بسكرتيرة «حركة تحرير المستعمرات» وهى سيدة انجليزية تمتاز بالنشاط والعمل الجماهيرى الواسع، وقالت لى: أين أنت؟، إننا نبحث عنك فى كل مكان، لأننا فى حاجة إلى مثقف مصرى يشرح لأعضاء النقابات فى الاجتماعات التى نعدها فى المدن المختلفة وجهة نظر مصر، قلت: إننى سوف أعود إلى لندن بعد يومين.

وكانت هذه المكالمة الهاتفية حاسمة فى اتخاذ قرارى بالاستقالة من عملى منعا لإحراج كليتى من ناحية، ولأخذ كامل حريتى فى هذا النشاط الجديد، وأبرقت إلى الصديق محمود العالم بقرارى الاستقالة فى اليوم نفسه الذى أرسلت فيه خطاب استقالتى لعميد الكلية.

نشاط مكثف دفاعاً عن القناة

وعدت إلى لندن، وبدأت أسافر إلى مدن بريطانيا المختلفة وفق الجدول الذى وضعته «حركة تحرير المستعمرات» للحديث فى اجتماعات النقابات العمالية.. فى مانشستر، وشفيلد، وأدنبرة، وليفربول، وبرمنجهام.... إلخ، وتصادف حضور اثنين من العاملين فى الإذاعة المصرية هما عبدالعزيز فهمى ويحيى أبوبكر فقاما بحضور بعض هذه

ذكريات لندن

الاجتماعات وتسجيل ماجرى فيها، خصوصا الكلمات التى كنت ألقيها دفاعا عن التأميم وشرحا للمظالم التى حاقت بمصر عند بناء القناة.

والغريب فى كل هذا النشاط أن السفارة المصرية فى لندن لم تحاول أن تتصل بى لمساعدتى، وأنا شخصيا لم أكن أعرف أحدا فى السفارة، وكنت أخشى من الاتصال بالسفارة باعتبارى مفصولا من جامعة القاهرة بقرار لمجلس قيادة الثورة، أى أن السفارة سوف تعتبرنى - إن اتصلت بأحد فيها - معاديا للنظام فى القاهرة.

وقد تبينت صحة هذه المخاوف عندما فوجئت وأنا فى قمة نشاطى هذا للدفاع عن تأميم القناة باتصال هاتفى من الملحق العسكرى فى السفارة المصرية يرجونى أن أمر عليه فى مكتبه.

كان آنذاك قد تحدد الاجتماع الجماهيرى الكبير للبريطانيين فى ميدان الطرف الأغر أواخر أكتوبر، وكان قد أعلن عن المتكلمين فى هذا الاجتماع وكنت منهم فإذا بالملحق العسكرى يطلب منى أن أعتذر عن الاشتراك فى هذا الاجتماع الكبير!، وفيما يبدو خوفا من أن أهاجم النظام فى مصر، ولكنى رفضت طلبه وقلت له إن الاجتماع الذى سوف يبدأ بمظاهرات من ماربل آرش غدا تنتهى عند الطرف الأغر، ويضم خمسين ألفا من البريطانيين، فرصة ذهبية للدفاع عن تأميم القناة فكيف يمكن أن أعتذر عنه!.

اجتماع الطرف الأغر

وبالفعل حدث الاجتماع الذى تكلم فيه نواب حزب العمال فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ كما تكلمت فيه وكان حزب العمال معارضا للحرب، والغريب أننى بعد عودتى إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٥ فوجئت بشخص يسلم علىّ بحرارة فى مترو مصر الجديدة وهو فى ملابس مدنية، ولم أعرف فى مبدأ الأمر من هو وسألنى: ألا تتذكرنى؟، فقلت: آسف مش واخد بالى.

وإذ به الملحق العسكرى الذى كان يطلب منى ألا أتحدث فى اجتماع الطرف الأغر، وإذ به يعتذر عن طلبه هذا ويقول إنها كانت تعليمات من القاهرة وأنه أدرك خطأها بعد ذلك.

ولقد كان الدكتور مصطفى كمال حلمى - رئيس مجلس الشورى اليوم - من حضور هذا الاجتماع الجماهيرى وقد سعى إلى مهنئا بعد سماع كلمتى، وطبعا فإن صداقتنا قديمة لأننا خريجو كلية العلوم.

ومن المفارقات المثيرة للضحك أن إحدى الصحف البريطانية وأظنها الديلى تلجراف ـ كتبت بعد اجتماع الطرف الأغر مقالا أدعت فيه أن عبدالناصر آرسل واحدا من مساعديه الإعلاميين للتحدث فى الاجتماع، وربما كان المقصود الأستاذ محمود أنيس الذى كان يعمل فى مصلحة الاستعلامات.

ثم أدركت الصحيفة خطأها واتصل بى أحد محرريها تليفونيا وتأكد أننى مدرس بلندن فكتب اعتذارا بعد ذلك عن هذا الخطأ.

وقررت العودة إلى مصر أنا وأسرتى، خصوصا أن الأجهزة البريطانية بدأت تطاردنى وتسأل عنى أصحاب المنازل التى أقمت بها، ولكن كيف الذهاب إلى مصر، ومطار القاهرة مغلق بسبب الحرب، ولايوجد طيران مدنى بين مصر وبريطانيا؟.

لامفر إذن من الذهاب جوا إلى الخرطوم ومن هناك نتدبر الأمر إلى القاهرة.

وبالفعل وصلنا إلى الخرطوم وبقينا فيها مع عدد من الأصدقاء والأقارب حتى جاءت أول طائرة مصرية أخذتنا إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٦ . ■

كلمات خالدة

● الكون مسرح ولكن توزيع آدوار المسرحية سيئ

(أوسكار وايلد)

●كل شريعة تؤسس على فساد الأخلاق فهى شريعة باطلة

(سعد زغلول)

●لو كان العقل يشترى لتغالى الناس فى ثمنه

(الحسن بن على)

●يشعر الرجل بقوته فيغدق رحمته على المرأة.. وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل

(برنارد شو)

● ليست العظمة فى ألا تسقط آبداً بل فى أن تسقط ثم تنهض من جديد

(كونفوشيوس)





٦٢
الهلال

حيرة الاقتصاديين

بين زيادة الدخل وإعادة توزيعه

بقلم
د. جلال أمين

محرم ١٤٢٢هـ - ابريل ٢٠٠١م

عندما بدأ الاهتمام بقضايا التنمية والتخلف الاقتصادى ، منذ نحو خمسين عاماً ، انشغل الاقتصاديون بقضية زيادة الدخل القومى ولم يعيروا اهتماما كبيرا لقضية إعادة توزيع هذا الدخل .

وقد بدا هذا الاختيار حينئذ واضحا تماما ومعقولا إلى حد كبير . فعندما تكون الكعكة صغيرة إلى هذا الحد ، ما أهمية أن يكون نصيبى منها أكبر من نصيبك أو العكس ؟ هكذا كان حال الدخل القومى للدولة المتخلفة ، كان صغيرا لدرجة أنه لو كان توزيعه بالتساوى التام بين الناس لما استطاع أحد أن يشبع أكثر من حاجاته الأساسية . كان متوسط الدخل فى مصر حينئذ ، أى فى منتصف القرن العشرين ، لا يزيد على ما يعادل مائة دولار ، ومن ثم كان هذا ما يمكن أن يحصل عليه كل مصرى لو تم توزيع الدخل القومى المصرى بالمساواة الكاملة ، فما الذى يدعو إلى الاغتباط أو الحماس فى هذا ؟ إنه توزيع للفقر أكثر مما هو توزيع للدخل .

إلى جانب هذا كان هناك أيضا ذلك الاعتقاد القديم ، الذى يرجع إلى البدايات الأولى لعلم الاقتصاد ، أى إلى ما قبل قرنين من الزمان ، بأن هناك تعارضا بين إعادة توزيع الدخل لصالح الفقراء وبين زيادة الدخل القومى فى المستقبل ، أو بعبارة أخرى أن سوء توزيع الدخل هو لمصلحة الفقراء فى الأجل الطويل . وكان منطق هذا الرأى يجرى على النحو التالى : التنمية تتوقف على الاستثمار ، والاستثمار يحتاج إلى إدخار، والادخار لا يقوم به إلا الأغنياء ، إذ أن الفقراء مضطرون لانفاق كل دخلهم على الاستهلاك ، إذن فليتحمل الفقراء الآن سوء توزيع الدخل ، فإن هذا الغنى الفاحش لدى البعض ، سوف يتمخض فى النهاية عن زيادة الادخار والاستثمار ، ومن ثم ينمو الدخل القومى ، فيعود النفع فى النهاية على الجميع ! أغنياء وفقراء .

كانت هذه الحجة هى الأصل الذى خرجت منه النظرية التى كثر ترديدها فى الخمسينات والستينات من القرن

العشرين، والمعروفة باسم نظرية التساقط (trickling - down theory) أى أن ثمار التنمية لابد أن تتساقط إلى أيدى الفقراء فى النهاية حتى لو تركزت فى البداية فى أيدى حفنة من الأغنياء . وقد استمدت هذه النظرية قوة جديدة ودعما من كتابات الاقتصادي والاحصائى الأمريكى سيمون كوزنيتس (S.kuznets) الذى نشر فى أوائل الخمسينات إحصاءات تدل على أن تاريخ الدول المتقدمة اقتصاديا قد مرت فى بداية نموها الاقتصادى السريع بفترة ازداد فيها توزيع الدخل سوءا ، ولكنه أخذ بعد ذلك فى التحسن ، مما قد يرجح وجود قانون اقتصادى مؤداه أنه فى غمار عملية النمو الاقتصادى ، يزداد توزيع الدخل سوءا فى البداية ثم يميل بعد فترة إلى المزيد من المساواة ، وذلك عندما تبدأ ثمرات النمو فى «التساقط إلى أسفل» فيعم النفع على الفقراء أيضا . وكان التفسير الأساسى الذى قدم لنظرية التساقط هذه هو أن المراحل الأولى من التنمية تتسم بوجود فائض كبير من الأيدى العاملة المستعدة للعمل بمستوى من الأجر منخفض للغاية ، وتظل الأجور منخفضة طالما استمر هذا الفائض من العمالة كبيرا ، بينما تتركز الأرباح المتولدة من الاستثمارات الحديثة فى أيدى عدد صغير من أصحاب المشروعات . فى هذه الفترة أيضا تكون نقابات العمال ضعيفة بسبب وجود هذا الفائض نفسه من القوة العاملة، واستعداد العمال لقبول الأجر المنخفض ومن ثم يصعب جمع شمل العمال وتنظيمهم فى حركة تطالب برفع الأجور . يستمر ذلك طالما استمر وجود هذا الفائض من العمال ، ولكنه متى بدأ ينضب وأخذت ندرة العمال فى الظهور ، يبدأ العمال فى المطالبة بأجور أعلى ، وينجحون فى ذلك بسبب هذه الندرة ، وإذا بنصيب العمال من الدخل القومى يزيد على حساب نصيب أرباب العمل . ويأخذ توزيع الدخل فى التحسن .

الدعوة لرفع معدلات التنمية

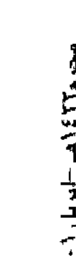
ليس من الواضح بالضبط لماذا بدأ هذا الاهمال النسبى لقضية توزيع الدخل يتراجع فى أواخر الستينات ومطلع السبعينات ، ولكن من المؤكد أن هذا التغير قد حدث بالفعل فى ذلك الوقت ، وإذا بالدعوة إلى الاهتمام بإعادة التوزيع يعلو صوتها شيئا فشيئا حتى كاد يطغى على صوت الداعين إلى رفع معدلات التنمية . تركز هذا التغير فى فترة لا تزيد على العشر سنوات ، ولنقل أنها كانت تقع بالتقريب بين ١٩٦٨ ، و١٩٧٥ ، إذ شهدت تلك السنوات ظهور كتابات مهمة حظيت بالشهرة والانتشار بين صفوف المهتمين بقضايا التخلف والتنمية ، تشكك فى جدوى زيادة معدل التنمية إذا لم يستفد منه الفقراء ، وتدعو إلى تقييم أداء الدول



المتخلفة لا على أساس ما يحدث لمتوسط الدخل وحده ، بل ولا حتى على أساس متوسط الدخل على الإطلاق ، بل على أساس ما يحدث للفقراء بالذات ، فإذا بهدف «رفع مستوى العمالة» يوضع على نفس المستوى ، بل وأحيانا على مستوى أعلى من هدف «زيادة متوسط الدخل» ، وإذا بشعار «اشباع الحاجات الأساسية»، الذى رفعته وأكدت عليه منظمة العمل الدولية فى ذلك الوقت ، يكتسب شيوعا واحتراما لم يكن يحظى به طوال العقدين السابقين ، وإذا بالبنك الدولى نفسه يقوم بنشر كتاب حظى برواج واسع اسمه «إعادة التوزيع مع النمو» (Redistribution with Growth) يؤكد فيه على أهمية إعادة توزيع الدخل ، بل ويقدم مؤشراً جديداً يجرى على أساسه تقييم أداء الدول فى مضمار التنمية ، وإذا بهذا المؤشر الجديد يضم ما حدث لمتوسط الدخل وما حدث لتوزيع الدخل فى رقم واحد ، يصعب التمييز فى داخله بين تطور أحدهما وتطور الآخر .

هناك عدة تفسيرات محتملة لهذا التغير فى النظرة إلى توزيع الدخل . فمن ناحية كانت الاحصاءات الواردة فى أواخر الستينات عما تم تحقيقه بالفعل فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث ، تبين بوضوح أن الزيادة فى متوسط الدخل كثيرا ما اقترنت بزيادة عدد المتبطلين وزيادة فقر الفقراء . فبدأ التساؤل عن جدوى زيادة متوسط الدخل إذا كان هذا هو الحال . إزاء هذه الإحصاءات والبيانات الحديثة وقف روبرت ماكنمارا ، الذى كان حينئذ رئيسا للبنك الدولى ، ليقول عبارة بليغة هى أن «المعونات المقدمة للدول الفقيرة لاتنفع فيها إلا إذا وصلت إلى أيدى الفقراء» . كانت هذه السنوات أيضا سنوات مدهشة فيما يتعلق بالحركات الباهرة التى قام بها الشباب الأوربى والأمريكى ، ابتداء مما حدث فى الجامعات الفرنسية فى ١٩٦٨ ، ثم انتشر من دولة أوربية لأخرى ثم عبر الأطلنطى إلى جامعات وشوارع الولايات المتحدة . كان هؤلاء الشبان يرفعون شعارات غريبة تماما ويصعب فهمها إلا إذا استعدنا إلى الأذهان الظروف الاقتصادية التى كانت تمر بها المجتمعات الغربية فى تلك الفترة . كان عقدان من النمو الاقتصادى البالغ السرعة قد مراً على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أتمت أوربا خلالهما إعادة بناء ما دمرته الحرب ، وارتفعت الدخول فى أيدى الجميع ، وازدهرت خلالهما دولة الرفاهة التى جعلت الخدمات الضرورية متاحة لكل من يحتاج إليها ، مجانا أو بأسعار زهيدة. فى منتصف الستينات أطلق رئيس الوزراء البريطانى ماكميلان عبارته التى ذاعت واشتهرت لأنها كانت تعبر عن حقيقة لا شك فيها ، ليس فى بريطانيا وحدها بل وفى العالم الغربى بأسره ، وهى (We never had it so good).

أى «أننا لم ننعم قط فى أى يوم من



الأيام بمثل ما ننعم به الآن من رخاء !».

كانت دول أوربا والولايات المتحدة في حالة عمالة كاملة ، والبطالة في أدنى مستوياتها، وكان معدل التضخم متواضعا، والثقة عالية بين الشباب في أنهم لن يصادفوا أي مشكلة في العثور على وظائف مجزية متى أتموا دراستهم أو تدريبهم ، فلم يعد هناك يأس حتى من تأجيل البحث عن وظيفة ، والطواف بدلا من ذلك في رحلة حول العالم للنزهة والإطلاع على ما يجرى خارج بلادهم .

في مثل هذه الظروف من الممكن أن يتساءل الناس عن جدوى المزيد من رفع مستوى الاستهلاك ، وعن نقائص المجتمع الاستهلاكي بدلا من مزاياه ، بل وعن جدوى رفع معدل التنمية أصلا .

كانت هذه الفترة أيضا هي التي شهدت بداية الاهتمام على أي نحو جدي ، بقضية البيئة . فجرها كتاب صغير ولكنه أحدث دويا واسعا هو كتاب «حدود النمو» (The Limits of Grow) الذي أصدرته مجموعة من العلماء والمفكرين الايطاليين من أعضاء «نادي روما» ، وبدا وكأن العالم الغربي قد اكتشف لأول مرة أن التقدم التكنولوجي ليس بلا حدود ، فهو محدود من ناحية بكميات الموارد الطبيعية المتاحة ، وهي على عكس ما كان يتصور ، قابلة للنضوب ، ومحدود من ناحية أخرى بقدرة الإنسان على تحمل ما ينشأ عن زيادة السلع ونمو الانتاج من تلويث البيئة الطبيعية ، وهي على عكس ما كان يتصور أيضا ، قدرة محدودة بدورها . سرعان ما تلا ذلك ظهور كتاب آخر حقق أيضا انتشارا واسعا ويحمل عنوان «الحدود الاجتماعية للنمو» (The Social Limits of Growth) ، ويشرح كيف أن التنمية ليس لها فقط حدود طبيعية بل لها أيضا حدود اجتماعيه ، تتعلق بما ينشأ عنها من «تلويث» العلاقات الاجتماعية وإفسادها .

نقد المجتمع التكنولوجي

من الكتب التي ظهرت في هذه الفترة أيضا وحققت نجاحا كبيرا كتاب الاقتصادي البريطاني ميشان (E. Mishan) بعنوان «تكاليف النمو الاقتصادي» (The Sosts of Er-onmoic Growth) الذي انتقد فيه بشدة ذلك الاهتمام المبالغ فيه بزيادة السلع والخدمات ، وكتاب آخر باسم «الأصغر هو الأجمل» (Small is Beautiful) للكاتب البريطاني ذي الأصل الألماني شوماخر (E. F. Schmacher) .

ذهب فيه صاحبه ، كما يدل عنوانه إلى نقد المجتمع التكنولوجي الحديث وأخذ يتغنى فيه بالمجتمع الأصغر والأبسط وذي الحاجات المحدودة والمتجرد من النهم الاستهلاكي ، وكتاب هربرت ماركيوز (Herbert Mar-cuse) بعنوان «الإنسان ذو البعد



الواحـــد» (One Dimensional) والذى ينتقد أيضا ما فعله المجتمع الاستهلاكى بالإنسان .

عندما كنت تسأل فى ذلك الوقت شابا جامعيا أوربيا أو أمريكيا عن اهتماماته أو عن التزامه الفكرى وموضوع ولائه ، كانت الاجابة فى كثير من الأحيان تدور حول ما شاع تسميته «نبوغية الحياة» (Quality of Life) ، وهو تعبير يؤكد كما ترى على النوع لا على الكمية ، على طبيعة السلع والخدمات وليس على حجمها ، على محتوى الناتج وليس على معدل نموه .

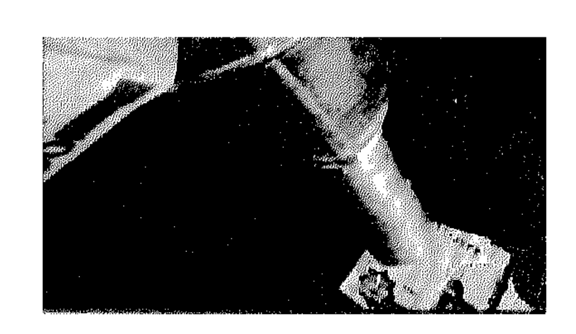
ظهر أيضا فى الغرب اهتمام مفاجىء بالأفكار الاشتراكية والماركسية مما كان ينظر إليه شذرا قبل عشر سنوات فقط . كان المثقفون المسيسون فى العالم الثالث قد قرأوا خلال الخمسينات والستينات كتب ماوتسى تونج ، وتعاطف كثيرون منهم مع أفكاره عن قيام ثورة اشتراكية فى مجتمع من الفلاحين ، أو عن التمييز بين التناقض الرئيسى والتناقضات الثانوية ولكن يبدو أن المسيسين فى العالم الغربى لم يكتشفوا هذه الأشياء إلا فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات أى فى هذه الفترة التى نتكلم عنها الآن . كان غريبا أن ترى الشباب فى ذلك الجزء من العالم الذى وصل إلى هذا المستوى من الرخاء يقبلون هذا الاقبال على كتب ماركس وماو ، ويحتفلون كل هذا الاحتفال بما كتبه وفعله جيفارا فى أمريكا اللاتينية ، وكأنهم يسمعون لأول مرة عن شيء اسمه الاشتراكية وعدالة توزيع الدخل .

* * *

كان كل هذا شيقا وباعثا على الاعجاب : أن يشغل شباب الغرب الاثرياء أنفسهم بقضايا الفقراء والمضطهدين فى داخل بلادهم وخارجها ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا للأسف ، بل سرعان ما ارتدت هذه الموجة على أعقابها وبدأ شباب الغرب وشيوخه على السواء ينشغلون بأشياء أخرى . هل كان سبب هذا الارتداد ظهور التضخم الجامح فى الغرب ابتداء من منتصف السبعينات ؟ ذلك التضخم الذى أدى إلى تهديد مستويات المعيشة وبعث فى النفوس الخوف مما يمكن أن يأتى به المستقبل ، بدرجة لا تسمح بالتعاطف والانشغال بقضايا الآخرين من الفقراء ؟ لقد اقترن هذا التضخم الجامح أيضا بارتفاع معدلات البطالة ، وبزيادة عدد العاجزين عن إشباع بعض الحاجيات الأساسية ، وخاصة السكن الملائم ، وباشتداد حدة التنافس بين الباحثين عن عمل من خريجى الجامعات ، مما لم يكن ليترك لهم وقتا لقراءة كتب ماو أو جيفارا ، أو للقلق من أن الإنسان لم يعد له أكثر من بعد واحد .

الفقراء مسئولون عن فقرهم

كان التحول الذى حدث فى اتجاه الفكر السياسى والاقتصادى السائد فى الغرب منذ أواخر السبعينات ، ولا يزال سائداً حتى اليوم ، تحولا مدهشا حقا ، ومن الشيق أن نحاول تفسيره . أقصد



بهذا التحول ما سمى بظهور وازدهار أفكار «اليمين الجديد» ، والذى عبرت عنه بكفاءة ملحوظة السيدة تاتشر فى بريطانيا والسيد ريجان فى الولايات المتحدة . لقد عاد هذا اليمين ، الذى سمى جديداً ، إلى تكرار ما كنا نسمعه قبل ذلك الانقطاع القصير الباهر الذى حدث فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، من كلام قديم للغاية يعود إلى أيام آدم سميث والاقتصاديين التقليديين ، عن الانسجام التام بين مصلحة الفرد ومصالح المجموع، بين مصالح الأغنياء والفقراء ، والذى عبر عنه مدير شركة جنرال موتورز فى عبارة عصرية عندما قال «إن ما يحقق مصلحة جنرال موتورز لابد أن يحقق أيضا مصلحة الولايات المتحدة الامريكية . كما بعثت الحياة من جديد فى أفكار تنتمى إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كنا نظن أنه قد تم تفنيدها ودحضها إلى الأبد ، وهى أفكار «الداروينية الجديدة» التى تدور حول إلقاء المسئولية عن الفقر على الفقراء أنفسهم ، وتبرر ثراء الأثرياء بأنهم «أكثر صلاحية للبقاء »مثلما كان داروين يفسر بقاء بعض أنواع الحيوانات وفناء البعض الآخر نظرية «البقاء للأصلح» .

أما البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فقد عادا إلى ترديد «نظرية التساقط» من جديد، فالمهم هو النمو وليس التوزيع، والانشغال بقضية توزيع الدخل يكاد يكون بمثابة تضييع الوقت فيما لا طائل من ورائه ، بل يكاد يكون عملا مضرا إذ أنه يعطل التنمية ويخفض معدل زيادة الدخل القومى . وسوف يعم الرخاء، على أية حال ، على الجميع ، فى الوقت المناسب عندما تتساقط ثمرات التنمية من أيدى الأغنياء ، ليس بالإجبار ، بل بطريقة طبيعية تماما ، عندما يشغلون العدد الكافى من العمال ويجدون من مصلحتهم رفع مستوى الأجور .

انحسار الاهتمام بعدالة التوزيع

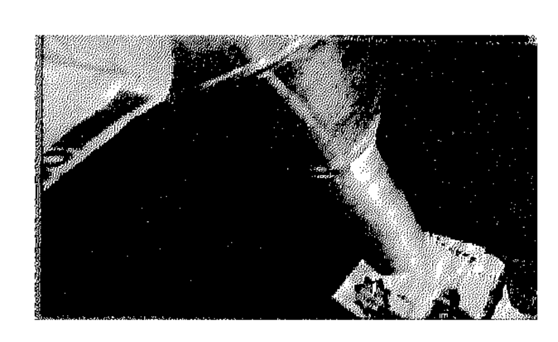
لابد أن يكون هذا البعث الجديد للتركيز على النمو على حساب التوزيع، ذا علاقة وثيقة بظاهرة نمو ظاهرة الشركات متعدية الجنسيات وزيادة ناسها ونفوذها ، وانتشار نشاطها فى مختلف أركان الكرة الأرضية . فخروج هذه الشركات بنشاطها بدرجة متزايدة

إلى العالم الخارجى ، وتجاوزها حدود دولتها الأم بدرجة لم تعهد من قبل ، كان هو نفسه عاملا أساسيا فى انخفاض مستويات العمالة داخل الدول الصناعية وارتفاع مستويات البطالة فيها ، ومن ثم زيادة التفاوت فى الدخول بعد عدة عقود مال خلالها هذا التفاوت إلى الانكماش . من ناحية أخرى كان إصرار هذه الشركات على القفز فوق حدود دول العالم الثالث ، واختراق أسواقها . والإفادة مما لديها من عمالة رخيصة نسبيا ، كان ينطوى على إضعاف لقوة الدولة الوطنية فى العالم الثالث وتخفيض قدرتها على حماية فقرائها ، ومن ثم تخفيض قدرتها على فرض حد أدنى للأجور وتقديم الدعم لبعض السلع والخدمات الأساسية وعلى إعادة توزيع الدخل عن طريق الضرائب أو التأميم أو إعادة توزيع الأراضى الزراعية .. الخ

فى مناخ كهذا كان لابد أن ينحسر تيار الاهتمام بعدالة التوزيع وأن يوضع التأكيد كله على نمو الدخل الاجمالى . ففى هذا الأمر بالذات ، تنمية الدخل الاجمالى ، تكمن عبقرية الشركات متعدية الجنسيات ، وليس فى خلق فرص عمالة جديدة أو فى اشباع الحاجات الأساسية للفقراء . فإذا كان النمو وليس إعادة التوزيع هو موطن عبقرية هذه الشركات ، فليتغن الجميع إذن بالنمو ، ولينتظر إعادة التوزيع بعض الوقت ريثما يحل وقت «تساقط» ثمرات النمو .

***

لا يسع المرء عندما يتأمل ما يحدث الآن لقضيتى التنمية وإعادة التوزيع إلا أن يتذكر حقبة مماثلة مر بها العالم الغربى منذ مائتى عام . ففى أوائل القرن التاسع عشر كانت أوربا تشهد بداية الثورة الصناعية وذلك التقدم التكنولوجى المدهش الذى تمثل فى ظهور عدة اختراعات باهرة كل يوم ، وتطبيقها فى مختلف فروع النشاط الاقتصادى ، مما أدى إلى ارتفاع مذهل فى انتاجية العمال . اقترن هذا التقدم المفاجىء فى أساليب الانتاج بشيوع البؤس فى صفوف العمال الذين كانوا حديثى العهد بالصناعة تركوا قراهم بحثا عن عمل فى المدن ، فإذا بهم يجدون ظروف الحياة فى المدينة

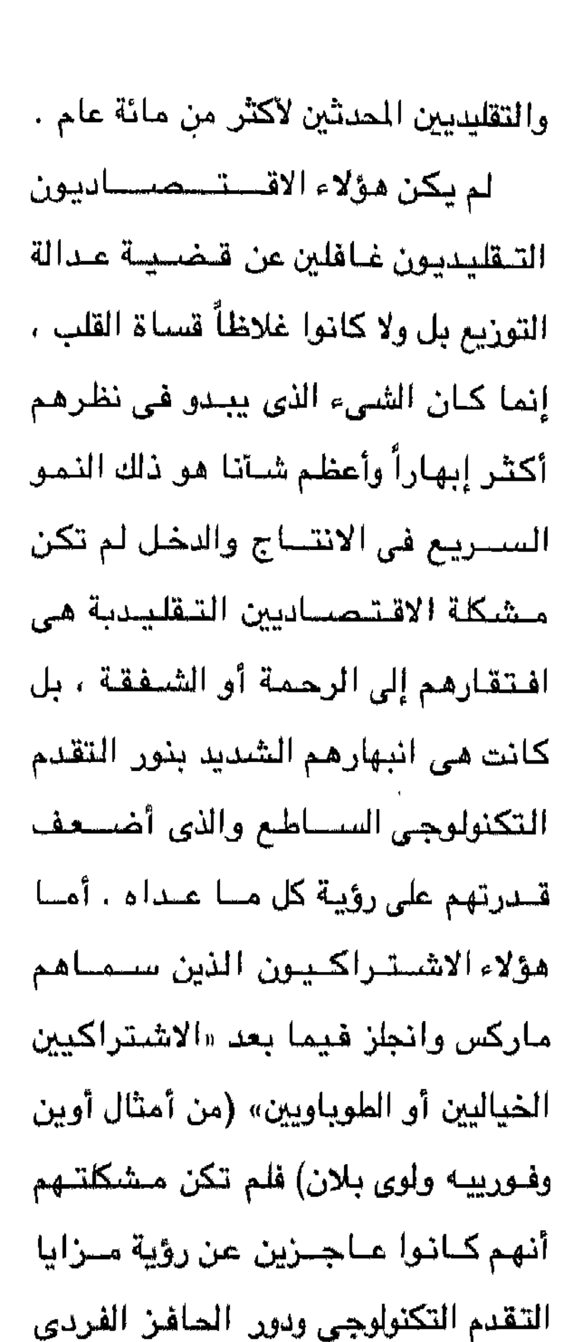


أسوأ من نواح كثيرة من ظروفهم السابقة فى القرية ، سواء من حيث ساعات العمل الطويلة مقابل أجور زهيدة لا تتناسب بالمرة مع ما يحققونه من أرباح لأرباب العمل . أو من حيث ظروف الحياة الصحية والاجتماعية .

الاشتراكية وعدالة التوزيع

كان من الطبيعى فى هذه الظروف أن تنشأ الفكرة الاشتراكية التى تلفت الأنظار إلى الظلم الواقع على العمال وتدعو إلى عدالة التوزيع ولكن هذه الدعوة إلى الاشتراكية لم تستقطب أعظم عقول ذلك العصر ، بل كان أصحاب أعظم العقول فى ذلك الوقت وأكثر الناس ذكاء يدافعون عن القضية العكسية بالضبط .

«دع أرباب العمل يفعلون ما يشاءون بالعمال أو بغيرهم ، ففى ذلك مصلحة التنمية» . هكذا كان يقول ريكاردو مالش ونثيام وجيمس ميل، إذ رددوا بثقة تامة مبادىء الحرية الاقتصادية التى رفع لواءها آدم سميث قبلهم بوقت قصير، وتبعهم سائر الاقتصاديين التقليديين



والتقليديين المحدثين لأكثر من مائة عام .

لم يكن هؤلاء الاقتصاديون التقليديون غافلين عن قضية عدالة التوزيع بل ولا كانوا غلاظاً قساة القلب ، إنما كان الشىء الذى يبدو فى نظرهم أكثر إبهاراً وأعظم شأنا هو ذلك النمو السريع فى الانتاج والدخل لم تكن مشكلة الاقتصاديين التقليدبة هى افتقارهم إلى الرحمة أو الشفقة ، بل كانت هى انبهارهم الشديد بنور التقدم التكنولوجى الساطع والذى أضعف قدرتهم على رؤية كل ما عداه . أما هؤلاء الاشتراكيون الذين سماهم ماركس وانجلز فيما بعد «الاشتراكيين الخياليين أو الطوباويين» (من أمثال أوين وفورييه ولوى بلان) فلم تكن مشكلتهم أنهم كانوا عاجزين عن رؤية مزايا التقدم التكنولوجى ودور الحافز الفردى فى تحقيقه ، بل كانت مشكلتهم هى فقط فى قدومهم قبل الأوان . ففى فترات التقدم التكنولوجى الباهر يصعب ، فيما يظهر ، تحويل أنظار الناس من الافتتان ، بأعاجيب التكنولوجيا الحديثة إلى الاهتمام بقضايا الفقراء والمظلومين . عندما يكون هناك شخص يقوم بأعمال

خارقة للعادة يوجه الجميع أنظارهم إليه ولا يلقون بالا لمن قد يكون هذا الشخص قد داسهم بقدمه . قد لا يلتفت الناس إلى هؤلاء المقهورين إلا بعد أن ينتهى ذلك الشخص من عمله الخارق للعادة ، أو عندما يبدأ فى التعثر وارتكاب الأخطاء ، إن الماركسية مثلا ، وهى الفكرة الاشتراكية الأصلب عوداً من أفكار الاشتراكيين السابقين عليها ، لم تظهر وتكتسب أنصاراً أقوياء إلا بعد أن بدأت الرأسمالية فى التعثر وأصابها الانتكاس بعد الانتكاس ، فى صورة تتابع الدورات الاقتصادية ، وحلول الاحتكار محل المنافسة الكاملة وازدياد حدة التناقض بين الثروة والفقر .

العدالة تتراجع

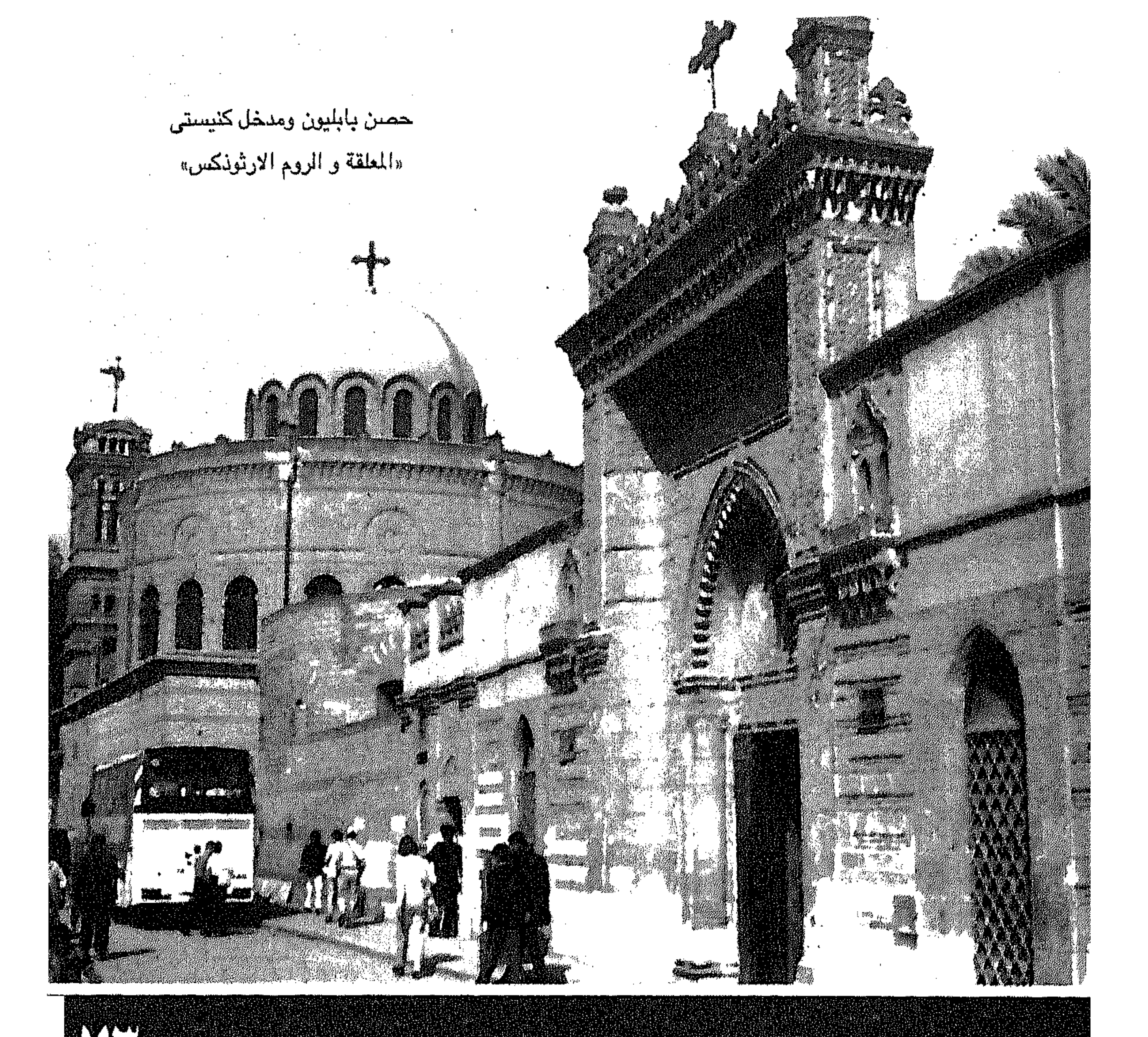
نحن فيما يبدو نمر بفترة مماثلة ، فى هذا الصدد ، لبدايات الثورة الصناعية فى أوائل القرن التاسع عشر فهى بدورها فترة من الانتصارات التكنولوچيا الباهرة التى تجبر قضية العدالة على التراجع لصالح أهداف التنمية وإن ما نلاحظه اليوم على موقف أنصار العولمة وحرية التجارة والخصخصة الذين يجتمعون كل عام فى دافوس ليناقشوا مسار التقدم الاقتصادى والتكنولوجى فى العالم ، والعقبات التى لا تزال تعترض انفتاح العالم على التجارة والاستثمارات ، ما نلاحظه على موقف هؤلاء من استخفاف بأصوات الاحتجاج والاعتراض التى تواجههم من جانب المتعاطفين مع الفقراء والمهمشين والمضارين من هذا التقدم التكنولوجى وهذا الانفتاح ، لابد أن يذكرنا بالاستخفاف المماثل الذى كان الاقتصاديون التقليديون منذ قرنين من الزمان يقابلون به حركات الاحتجاج الاشتراكية ، التى كانت تعترض على استغلال العمال وتشغيل الأطفال .

إن هذا الاهمال الجديد لقضية إعادة توزيع الدخل وهذا الاستخفاف الذى يقابل به الداعون إليها ، لابد أن يثيرا الأسف والاشفاق ، ولكن مادام لهذا الاهمال وهذا الاستخفاف ، كما رأينا ، سوابق تاريخية ، فلعلنا نستطيع أيضا أن نأمل فى أن يعيد التاريخ نفسه بصورة أو بأخرى فنشهد من جديد ، كما سبق أن حدث أكثر من مرة ، عودة الاهتمام بقضية عدالة التوزيع ، وذلك بمجرد أن تتراخى سرعة هذه الثورة التكنولوجية الراهنة وتضعف قدرتها على صنع الأعاجيب الخارقة للعادة .

■



في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة
في كيلو متر واحد

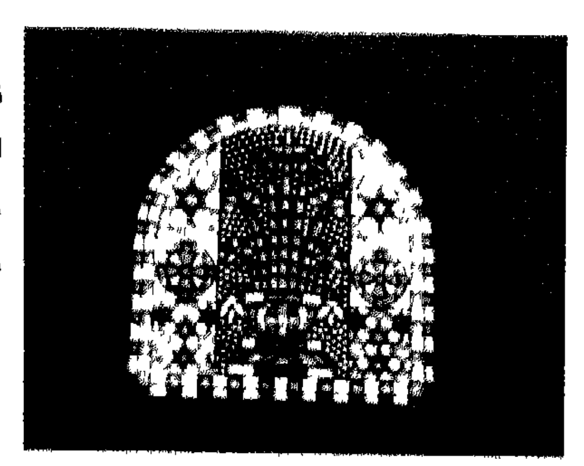


حصن بابليون ومدخل كنيستى
«المعلقة و الروم الارثوذكس»

● يضم جامع عمرو بن العاص «تاج الجوامع» وأول جامع فى مصر بنى عام ٢١ هـ وتطورت عمارته على مر العصور .

● فى هذا المكان وضع سيدنا موسى فى السلة واحتمت به العائلة المقدسة .

تحقيق : امانى عبدالحميد ● تصوير : شوقى مصطفى



نافـــــده من الجص المعشق بالزجاج الملون فى الكنيســة المعلقــــة

منطقة «مصر القديمة» .. ذلك المكان الفسيح الذى يتجلى فيه التاريخ أكثر مما يتجلى فى أى مكان آخر .. حيث فاض النهر بالصندوق الذى احتوى سيدنا موسى ليصل آمناً الى أيدى إمرأة فرعون. وفى هذا المكان نفسه سجد سيدنا موسى لربه طالبا الأمن والسلامة خلال رحلته الى فلسطين بعدما أوحى الله إليه، وأنزل عليه وعلى أخيه هارون التوراة والألواح (حوالى عام ١٢٠٠ ق. م) باللغة الهيروغليفية (لغة مصر). وداخل تلك المغارة احتمت السيدة العذراء، سيدة نساء العالمين، هى وابنها عيسى وعائلتها المقدسة هربا من بطش الرومان الوثنيين وملك اليهود «هيرودس» (٤ ق. م - ٣٩ م) الذى أراد قتل الصبى، وفى مصر وجدوا الأمن والاستقرار.

كانت مصر قد شهدت انتصار المسيحية على الوثنية، وبناء أقدم كنيسة هى «الكنيسة المعلقة» كما ضمت أرضها فرحة دخول الاسلام بعد انتصار عمرو بن العاص وجيوشه، وإقامة أول مدينة إسلامية وأول جامع فى مصر والقارة الأفريقية بأكملها، وعاش فى شوارعها ودروبها الأرمن والأقباط واليهود والمسلمون جنبا الى جنب على مر التاريخ، وهو الدليل على أن مصر والقاهرة لم تشهد فى مختلف عصورها نمط الأحياء المغلقة والمنعزلة طائفيا على ذاتها.. ومثال ذلك يهود مدينة الفسطاط الذين عاشوا وسط أهلها دون اتخاذ شكل الانعزال الطائفى المغلق الذى يفضلونه دوما فى جميع

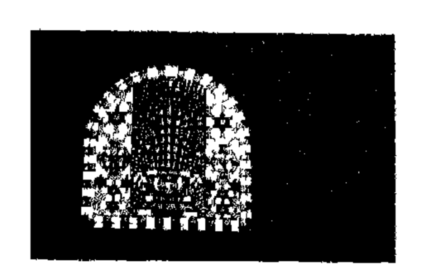


مئذنة جامع عمرو بن العاص التى تعود الى عهد مراد بك

أنحاء العالم .

وخلال تلك الشواهد التاريخية نستطيع أن نؤكد أنه من الخطأ الاعتقاد أن منطقة مصر القديمة بآثارها هى منطقة تجتمع فيها الأديان الثلاثة اليهودية، المسيحية والإسلام فقط.. بل هى منطقة تجمع نسيج أمة حافظت على مصريتها وكيانها منذ الأزل.. وهى تضم ثقافة مصرية قوية متميزة بخصال تنفرد بها عن غيرها من الثقافات ، وأول هذه الصفات تقوم على وحدتها الوطنية بغض النظر عن ديانة أفرادها.. فهى تحمل شخصية مصر بإنسانيتها.. حيث أخذت الديانة المسيحية وهضمتها ومصرتها وأخرجت منها نسختها الخاصة بها «القبطية» .. وهى التى احتوت العرب حضاريا وأضفت على لغتهم العربية لهجتها الأقرب الى القلب بعد أن رققتها.

يقول د. جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر» إن مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط وانما هى أطول دولة حافظت على وحدتها القومية



فى مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

عبر التاريخ.. فلم يحدث خلال ٦٠٠٠ سنة أن انفرط عقد وحدتها وتدهورت الى انفصاليات اقليمية إلا فى حالات نادرة .

لقاء الأديان

فضلت وزارة السياحة أن تطلق على منطقة مصر القديمة لقب «مجمع الأديان الثلاثة» للتأكيد على السماحة الدينية التى تتمتع بها مصر مهد الديانات والحضارات.

ومن هذا المنطلق بدأت الحكومة المصرية فى تنفيذ مشروع تطوير وترميم المنطقة الأثرية بحى مصر القديمة بما تحتضنه من آثار إسلامية وقبطية ويهودية مع بدايات عام ٢٠٠٠ فى اطار خطة لتحويل المنطقة الى نموذج ومتحف مفتوح أمام الزوار. حيث من المنتظر أن ينتهى العمل مع نهايات هذا العام. بعد أن أحيت هيئة تنشيط السياحة مسار العائلة المقدسة عندما فرت الى مصر هربا من بطش الرومان وتحصنا بالملجأ والملاذ الآمن بدءا من «الفرما» فى الشمال الشرقى لسيناء ومرورا بمنطقة مصر القديمة . وقد ساهمت عمليات التطوير والمجهودات الضخمة المبذولة فى تغيير الكثير من السلبيات التى عانت منها المنطقة. حيث كانت غارقة فى بحار من المياه الجوفية والمجارى وأغلب حوائط آثارها متآكلة وسقوفها مليئة بالشروخ، واليوم أصبحت المنطقة أكثر أمانا من الناحية المعمارية وإن كانت الأصوات تتعالى احتجاجا على أساليب الترميم وتتهمها بعدم مراعاة المرجعية التاريخية فى الترميم.

مجمع الأديان الثلاثة

والمعروف أن مجمع الأديان يضم جامع عمرو بن العاص ومعبد بن عازر اليهودى وحصن بابليون ومجموعة من الكنائس والأديرة التى تنقسم الى جزءين:

الأول : مجموعة كنائس حصن بابليون أو كما يطلق عليها «قصر الشمع» وتشمل الكنيسة المعلقة، وأبى سرجة والقديسة بربارة ومارجرجس وقصرية الريحان ودير مارجرجس للراهبات ومارجرجس للروم الأرثوذكس

أما الجزء الثانى : فيشمل الكنائس التى تقع داخل مدينة الفسطاط بالقرب من جامع عمرو وهى كنيسة ابوسيفين والأنبا شنودة والدمشرية وبابليون الدرج وأبا كبير يوحنا والأمير تادرس المشرقى ورئيس الملائكة ميخائيل ودير أبى

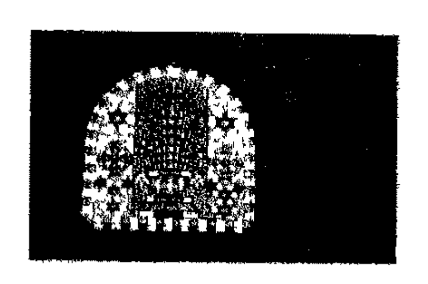


درب الأديرة الذى يربط بين كنائس قصر الشمع

سيفين للراهبات ومارمينا بزهراء مصر القديمة .

حصن بابليون وبوابة عمرو

مثّل حصن بابليون نوعا من القوة الصلبة التى استخدمتها روما فى احراز انتصاراتها والمحافظة على امبراطوريتها. وهو نفس المكان الذى شهد ترحيب أقباط مصر بالإسلام وبالفاتحين المسلمين، الذين أعانوا أقباط اليعاقبة على التخلص من الاحتلال البيزنطى وأعادوا بطريرك المسيحيين الى كرسيه بعد طرد أصحاب مذهب الملكانيين (وهو مذهب البيزنطيين المحتلين). ولم تنل بقايا الحصن الرومانى العظيمة الكثير من الانتباه الا فى وقتنا الحاضر مع بدء مشروع التطوير. كما لا يوجد نص تاريخى يبين تاريخ إنشاء الحصن. ويرجع الفضل فى حفظ ما تبقى من الحصن الى الأقباط اذ اجتمعت لهم فيه عدة كنائس منذ أول عهد المسيحية، حيث وجدوا خلف أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة ويحتضن الحصن مالايقل عن ست كنائس أشهرها الكنيسة المعلقة وكنيسة أبى سرجة . ويربط بينهما درب بين الأديرة الذى يضم بعض المزارات القديمة تحت حوائطه يعرض اصحابها مشغولات يدوية بسيطة ترتبط بتاريخ المنطقة. ويوجد أسفل الحصن مدخل ضخم أطلق عليه «بوابة عمرو» . حيث



في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

شـهـدت الفـتح الاسـلامي لمصـر، فـمن خلالها اقتحم عمرو بجيوشه أكبر قلعة عسكرية محصنة في مصر والذي اعتبر فتحها فتحا لمصر بأكملها .

ومن المنتظر أن يتحـول الموقع حـول «بوابة عـمـرو» الى مـدرج رومـاني على غرار المسـرح الروماني بالإسكندرية في اطار مشروع تطوير المنطقة.. حيث شهد الحصن عملية ترميم شاملة بما في ذلك عملية خفض منسوب المياه الجوفية التي كانت تملؤه، الى جانب ترميم أسواره، تمهيدا لفتحه أمام الزوار للمرة الأولى في التاريخ والتجول داخله والتعرف على أجزائه التي ظلت سنوات طويلة غارقة في المياه الجوفيـة. كـمـا سـتـتم ازالة مجموعة من المحال التجارية التي تقف حـاجـزا أمـامـه وتمنع الزائر من الرؤية الواسعة «للحصن» و«بوابة عمرو».

مجد مصري قديم

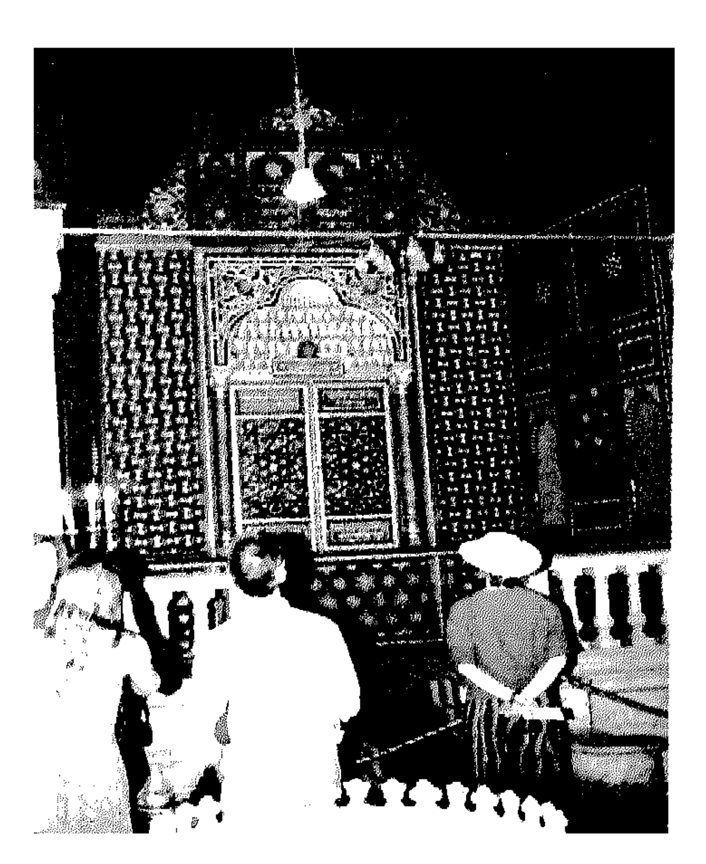
أكـد د. طه حـسـين في كـتـابه «مستقبل الثقافة في مصر» أن الحضارة المصـرية القـديمـة هي أعظم حـضـارة وأقـدم حـضـارة عرفـهـا الانسـان في تاريخه وهي ممتدة من الكنيسة القبطية . فالكنيسة مجد مصري قديم، لذا فإن الزائر لمنطقة كنائس مصـر القـديمة يستطيع أن يتعرف بوضوح على ملامح التراث المصري القديم الذي ظل باقيا ومصونا ومحفوظا داخل جدرانها. فاللغة القبطية هي بعينها اللغة المصرية القديمة كما كان المصريون القدماء يتكلمونها.. وقد حافظت عليها الكنيسة القبطية في طقوس صلواتها وكتبها ومخطوطاتها .

خصائص الفن المصري القديم

كـمـا أن الفنون القـبطيـة وآثارها المحفوظة إلى اليوم في المتحف القبطي والكنائس والأديرة يشـهد بأنها امتداد للفن المصري القديم. «فقد احتفظ الفنان القبطي في التصوير والرسم التشكيلي والنحت وصناعة السجاد وفنون التطريز بالخصائص التي تميز بها الفن المصري القديم». وهو مـا أكده ألفريد باتلر في كتابه «كنائس مصر». فنحن لا نزال نرى داخل الكنائس القديمة والأديرة صورة «العنخ» مفتاح الحياة مرسوما على الجدران كمـا كان المصريون القدماء يرسمونه في معابدهم ومقابرهم. وإن احتوى على صورة السيد المسيح أو صورة السيدة العذراء مريم تحمل المسيح طفلا على ذراعها الأيسر. أو صورة السيد المسيح ذي ملامح قبطية مما يدل على أن الفنان صار مسيحيا



بوابة عمرو التى شهدت فتح مصر وانتصار الإسلام



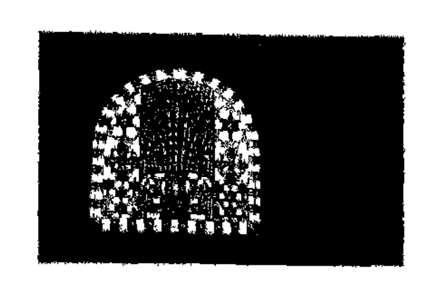


محراب المعبد اليهودى ويبدو أعلاه لوح الوصايا العشر

لكنه لم ينس مصريته. كما احتفظت العمارة القبطية بالروح الفرعونية فى بنائها واقتبست من العمارة الاسلامية أيضا. حيث حافظت على سمك الحوائط وقلة الفتحات والنوافذ الى جانب الزخارف الظاهرة على الأفاريز والنوافذ المغطاة بالزجاج الملون المعشق بحيث يتوافر للكنيسة الضوء الخافت الذى يثير الخشوع والرهبة والتركيز فى الصلاة.

ويضم المتحف القبطى الذى بنى عام ١٩٠٨ كمتحف تابع للكنيسة القبطية داخل حصن بابليون روائع الفن القبطى من أيقونات وقطع خزفية وفخارية ومنحوتات خشبية ومشربيات ومنسوجات علاوة على المخطوطات النادرة والتاريخية والتى تؤرخ جميعها لجذور الشعب المصرى منذ القدم .

ومن أشهر المخطوطات التى يضمها المتحف والتى تعد أهم الاكتشافات المتعلقة بالتاريخ القبطى خلال القرن العشرين، مخطوطات «نجع حمادى» . وتضم ٥٣ نصا فى ١١٥٣ صفحة جمعت فى ١٣ مجلدا معظمها مكتوب باللغة القبطية القديمة، يختلف محتواها عما جاء فى أناجيل العهد الجديد خاصة فيما يتعلق بقصة صلب المسيح، وهى كتابات مسيحية لبعض الجماعات التى ظهرت عند بداية القرن الأول الميلادى وتعرف باسم «العارفين». كما يضم



فى مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

المتحف مخطوط «المزامير» وهو كتاب قديم ظهر على هيئة ملازم مجمعة ومخاطة، تم اكتشافه في قرية «المعنل» ببنى سويف ومكتوب باللغة القبطية بلهجة محلية معروفة باسم «بهناسوية» .

الكنيسة المعلقة

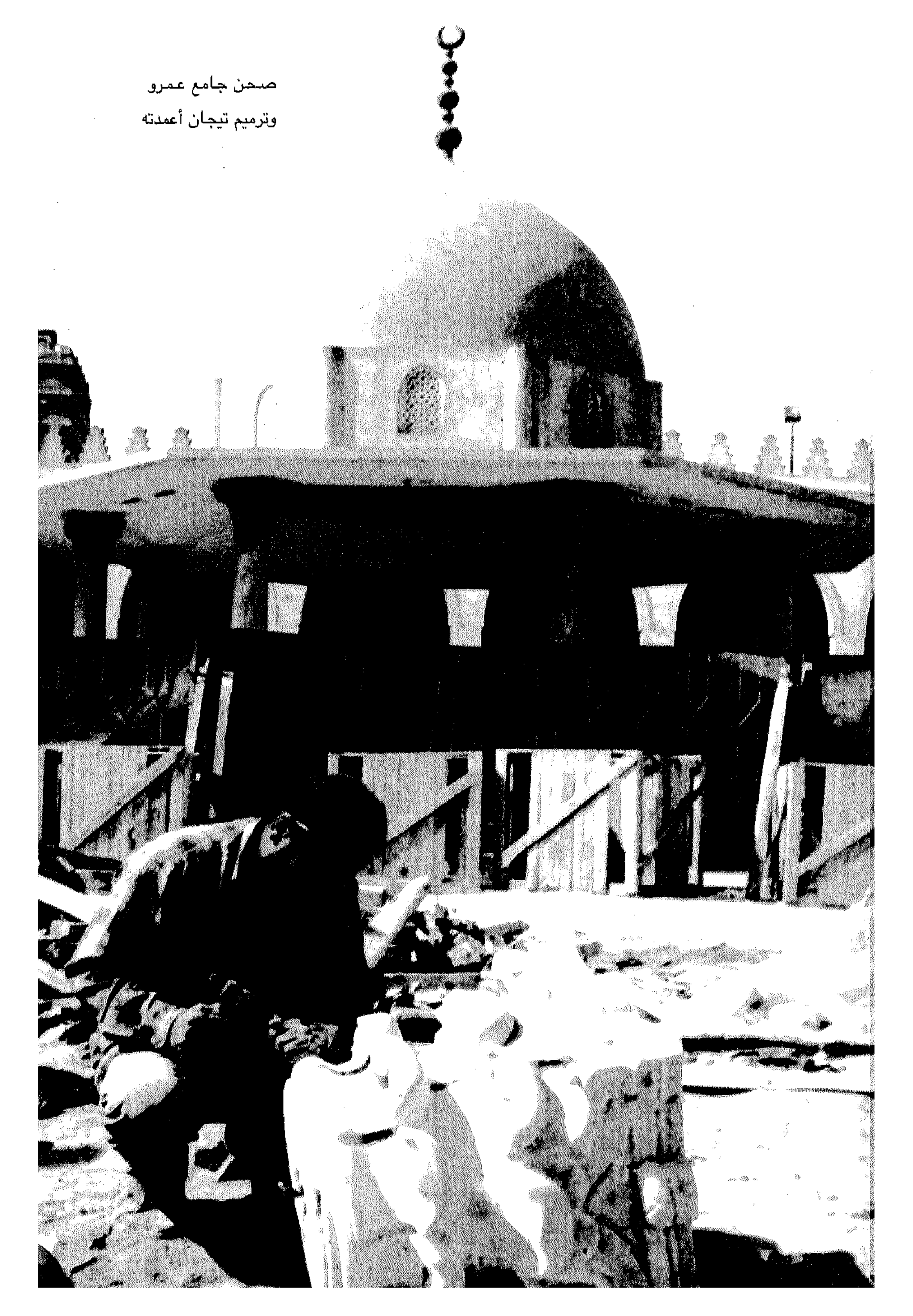
تؤكد المراجع التاريخية أن الكنيسة «المعلقة» أقدم بكثير من كنيسة أبى سرجة بتيجة تأثير التجديدات المتوالية على الدليل الداخلى بحيث أصبح من الصعب الاستدلال على تاريخ بناء الكنيسة المعلقة بدقة . وبالرغم من ذلك تعتبر «المعلقة» أثرا ثمينا يعود الى نهاية القرن الثالث الميلادى وبداية الرابع . وقد شيدت فوق برج من أبراج حصن بابليون وتضم روائع الفن القبطى النادرة من الهياكل والرسوم الجدارية والأيقونات التى اختلفت الآراء حول عددها الحقيقى الذى يتراوح بين « ١١٠ الى ١٢٠ أيقونة» .. وصمم سقفها الخشبى المعلق على شكل سفينة نوح رمز الانتصار والنجاة.

أما كنيسة أبى سرجة فتعود أهميتها الى احتوائها على المغارة المقدسة ذلك المكان الذى اختبأت فيه السيدة العذراء وطفلها عيسى وعائلتها المقدسة. لذا فهى مقصد ومزار جميع الطوائف المسيحية من جميع أنحاء العالم، وقد أنشئت فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى لتكون أول كنيسة فى مصر يقيم فيها البطاركة القداس. وتشتهر بما تحتويه من أيقونات يرجع تاريخ بعضها الى القرن العاشر الميلادى أشهرها صورة ميلاد السيد المسيح وأيقونة العشاء الأخير للسيد المسيح وتلاميذه. ويحتفل الأقباط فيها كل عام بذكرى دخول السيد المسيح أرض مصر فى اليوم الأول فى شهر يونيو.

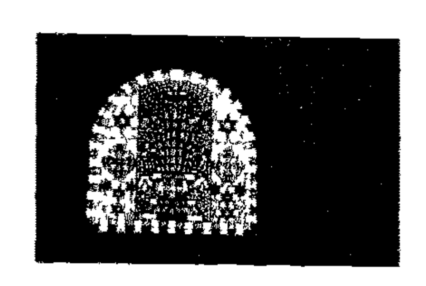
المعبد اليهودي

وتضم منطقة مصر القديمة المعبد اليهودى ، وقد كان فى الأصل كنيسة قبطية باسم رئيس الملائكة ميخائيل اشتراها اليهود مع نهاية القرن التاسع الميلادى.. وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى هدم اليهود المبنى القديم وأقاموا مكانه المعبد الموجود حاليا. وترجع أهميته الى وجود «بئر موسى» .. ذلك المكان الذى انتشلت منه امرأة فرعون الصندوق الذى كان بداخله سيدنا موسى عليه السلام. طرازه خليط معمارى من الطراز البازيلبكى المميز للكنائس المحيطة به بجانب بعض فنون





صحن جامع عمرو
وترميم تيجان أعمدته



في مصر القديمة
تتعانق الأديان الثلاثة

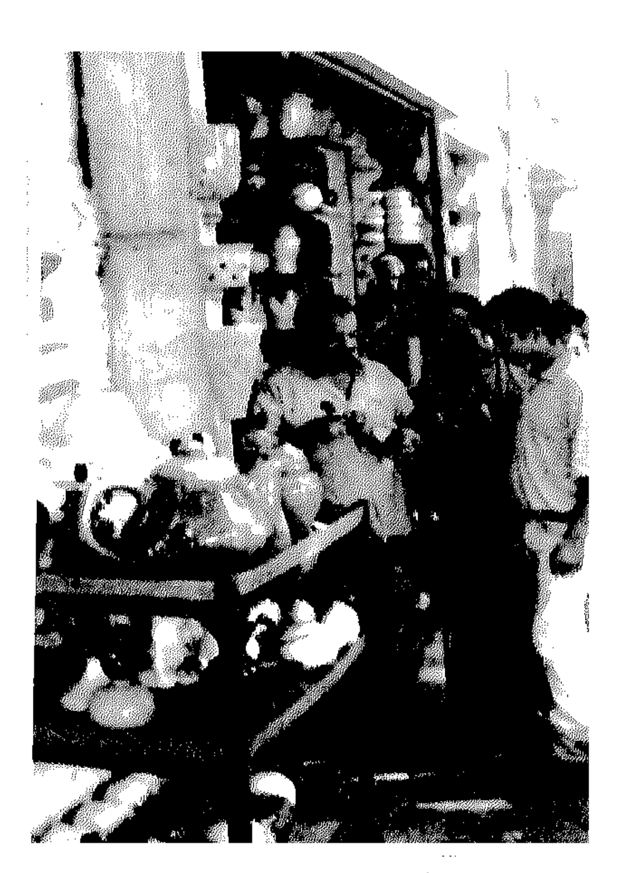
الزخرفة الإسلامية. مقسم الى ثلاثة أقسام بواسطة أعمدة تنتهى بالمحراب المتجه نحو الشرق «القدس» المبنى على هيئة نموذج هيكل سليمان ويحمل لوح الوصايا العشر.. ووسط المعبد الشاهد الرخامى ويحمل كتابات محفورة تشير الى انه الموقع الذى صلى فيه سيدنا موسى بعدما كلفه الله بالرسالة طالبا بأن يكلل رحلته الى فلسطين بالأمن والسلامة. وفى هذا الموقع تم اكتشاف عشرات الأوراق والمخطوطات والكتب التى سميت باسم «الجنيزة» عام ١٨٩٦م لكن للأسف قامت الطائفة اليهودية بنقلها الى جامعة كمبردج وبعض المؤسسات العلمية الأخرى. ويظهر التأثير الاسلامى جليا فى زخرفة السقف حيث يمتلئ بالأطباق النجمية التى ظهرت لأول مرة فى محراب السيدة فاطمة (الموجود حاليا فى المتحف الاسلامى) والمشربيات الخشبية والاضاءات الموزعة على شكل «مشكاة اسلامية».

ويتبع المعبد طائفة اليهود «الربانيين» .. حيث انقسم اليهود الى عدة فرق دينية يدور الخلاف الرئيسى بينها حول الاعتراف بأسفار العهد القديم والمرويات الشفوية المنسوبة الى موسى عليه السلام والتلمود أو انكار هذه الأصول .

وملحق بالمعبد مكتبة عبرية ضخمة تضم كتبا تاريخية قديمة تؤرخ للديانة اليهودية باللغة العبرية.. أهم ما تحتويه مجموعة كتب يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادى اثناء الحكم الاسلامى للأندلس، حيث تعتبر محاولة لتعريب اللغة العبرية ومكتوبة بحروف عبرية لتعلم اللغة العربية وفهمها مثل سفر المزامير، أسفار التوراة الخمسة.. وللأسف أيضا قامت الطائفة اليهودية بنقل بعضها للخارج طبقا لما أكده السيد عبدالحميد عثمان مدير مكتبة التراث اليهودى الملحقة بالمعبد. وتعتبر صلاة عيد «الهانوكة» « أو «عين الشموع أو الأنوار» أهم الاحتفالات الرسمية لليهود التى تقام سنويا داخل المعبد فى «٢١ ديسمبر» حيث يفد اليها اليهود من جميع أنحاء العالم .

الفسطاط ومجدها الغابر

فى ذلك المكان الفسيح القابع شمال حصن بابليون عسكرت قوات العرب بقيادة عمرو بن العاص للمرة الأولى منذ أكثر من ١٤٠٠ عام لتؤسس الفسطاط أول مدينة اسلامية فى مصر والقارة



مازالت الأوانى الفخارية تجذب زوار المنطقة



أيقونة «رئيس الملائكة ميخائيل» بكنيسة أبى سرجة

الأفريقية. لتظل عاصمة للديار المصرية فترة ممتدة طوال حكم الخلفاء الراشدين وبنى أمية حتى بنيت مدينة العسكر فى عام ٧٥١ م. وفقدت المدينة التى كانت أصل القاهرة مع الوقت بريقها نتيجة التطورات السلبية التى لحقت بها فى أعقاب سلسلة المجاعات والأوبئة التى أصابت مصر فى عهد الخليفة المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ م) ثم أصابها الحريق الهائل الذى أشعله الوزير الفاطمى شاور خشية سقوطها بأيدى الصليبيين عام ١١٦٨ م. وكان له الأثر المدمر عليها وعلى سكانها فيما بعد أسماه المقريزى «خراب الفسطاط» موضحا حالها المتردى بقوله : «لا يرى هناك شئ يسر الخاطر مما كانت عليه مدينة العرب ذا العز والثروة والشهرة المنتشرة فى أقطار الأرض . والمبانى العالية الشامخة المشيدة، التى مزقتها سطوات الدهر وحوادث الأيام وجعلت عاليها سافلها ومحت آثارها بالمرة، فأصبحت خاوية موحشة ليس بها «إنس».

تاج الجوامع

بالرغم من أنه أول جامع يبنيه المسلمون فى مصر عام ٢١ هـ ـ ٦٤٠ ميلادية . وبالرغم من تسميته بالجامع العتيق وتاج الجوامع لأهميته التاريخية بالنسبة للإسلام. فإنه تعرض لكثير من الاهمال المتواصل عبر المراحل التاريخية المختلفة. وان كان قد نال العديد من



في مصر القديمة

تتعانق الأديان الثلاثة

الترميمات والتجديدات خلال فترات الخلافة المتعاقبة فإن تلك التجديدات لم تكن جميعها على قدر من الجودة. بل كان بعضها يشوه ملامحه الأصلية وينزع منه كثيرا من دلائل بنايته الأولى. فالجامع الحالى لا يشتمل على شيء من الجامع الأصلى القديم الذى بناه عمرو سوى مساحة الأرض.. والتى تعرضت أيضا لزيادات متعددة على مر التاريخ. وكانت إقامته الأولى على مساحة ٥٠ × ٣٠ ذراعا أى حوالى « ٢٠ × ١١,٢٤ متر» ويحيط به الطريق من كل جهة ولا صحن له ولا محراب مجوف ولا مئذنة ولا فرش وسقفه منخفض جدا مصنوع من الجريد والطين. توالت عليه التوسعات على يد العديدين منهم مسلمة بن مخلد الأنصارى فى عام ٥٣ هجرية - ٦٧٣ ميلادية والذى أدخل عليه نظام المئذنة. ثم عبدالعزيز بن مروان عام ٧٩ هـ - ٦٩٨ م ، وقرة بن شريك عام ٩٢ هـ ٧١٠ م ، الذى هدم الجامع بالكامل وضم اليه جزءا من دارى عمرو بن العاص وابنه عبدالله ، وأدخل محرابا مجوفا، ومنبرا خشبيا وذهب تيجان أربعة أعمدة تجاه المحراب. ثم تضاعفت مساحته فى عهد عبدالله بن طاهر والى مصر والخليفة العباسى هارون الرشيد بحيث بلغت ١١٢,٥٠ × ١٢٠,٥٠ متر مساحته الحالية. ويمكن القول بأن أعمال الإصلاح والتجديد والتجميل التى أضيفت للجامع يرجع الفضل فى معرفتها للمؤرخين المسلمين والرحالة عن طريق وصفهم لحالته مثل ابن دقماق، المقريزى، على مبارك، وناصر خسرو، ولعل أسوأ أعمال الترميم التى تعرض لها الجامع كانت فى عهد الأمير مراد بك عام ١٧٩٧ م. حيث هدمه وأعاد بناءه بأسلوب خاطىء فقد بنى عقود بوائكه فى وضع غير وضعها الطبيعى وجعلها عمودية على جدار القبلة مما سد شبابيكه. ومن المرجح أن المئذنتين الباقيتين إلى الآن ترجعان الى عهده. وفى اطار مشروع التطوير يتم حاليا ترميم جامع عمرو واعادة بنائه طبقا لأصوله المعمارية الى ما قبل عمارة مراد بك. الى جانب محاولة خفض منسوب المياه الجوفية التى فاض بها من أجل أن يستعيد وظيفته الدينية والاجتماعية والتعليمية على أكل وجه . ■

ازارات طريق مارجرجس ومشغولاتها اليدوية يرتادها السياح من جميع الاجناس

في صحبة القرضاوي

بين علوم الدين والدنيا

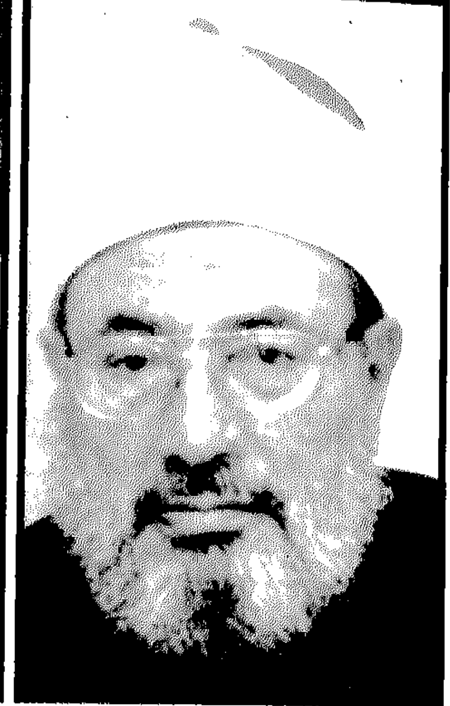
بقلم
طارق البشري

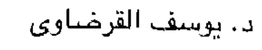
(١)

من محاسن عصرنا الذى نعيش فيه، إن وجد فيه من هم على شاكلة الشيخ محمد الغزالى رحمة الله عليه، والشيخ يوسف القرضاوى زاد الله لنا النفع بعلمه وفقهه. هؤلاء الرجال هم قلة، وهذا أمر طبيعى فمتى كان أمثالهم كثرة فى أى زمان ومكان؟، إن الواحد منهم صنعته مرحلة تاريخية، هى هذه المرحلة التى نشأ فيها وعاش وتفاعل مع مشاكلها وقضاياها وتحدياتها.

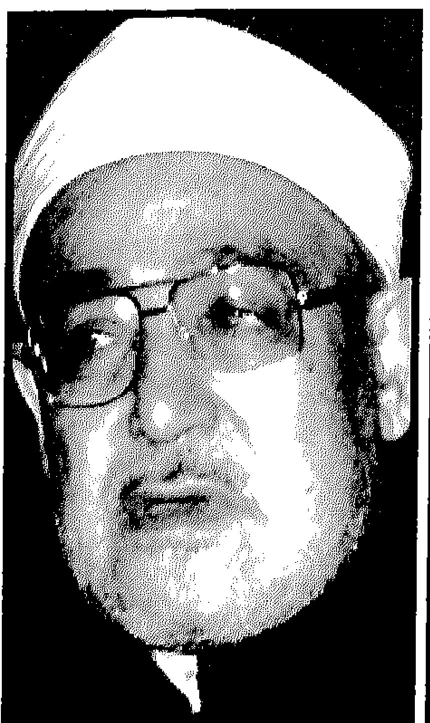
الشيخ محمد الغزالى كان أميل إلى الفكر السياسى الإسلامى، وعلى مدى نصف قرن عالج أكثر ما ثار فى هذا المدى الزمنى من قضايا السياسة والمجتمع وهموم الأمة، وهو هنا يكمل شجرة المفكرين الإسلاميين من أمثال محمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وغيرهم سابق ولاحق.

والشيخ يوسف القرضاوى يجد مكانه الثابت على ذات جذوع هذه الشجرة ويكمل صنيع سابقيه، وهو فى الوقت ذاته ينشغل بفتاوى الأحكام وقضايا فقه المعاملات تأليفا للكتب وإصدارا للفتاوى فى مسائل الفروع، عبادات ومعاملات، ويكمل هنا شجرة تضم محمود شلتوت وأحمد ابراهيم





د. يوسف القرضاوى



الشيخ محمد الغزالى

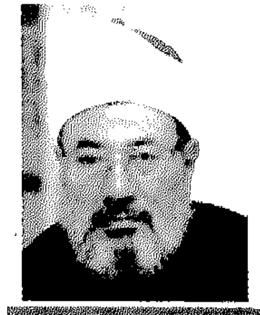
الشيخ محمد عبده

وعبد الوهاب خلاف وعلى الخفيف ومن على شاكلتهم سابق ولاحق.

وأهم ما يميز الشيخين، ويجعلهما علامة على عصر وعلى مرحلة من مراحل الفكر الإسلامى، أنه على أيديهما ارتأب الصدع الذى عانى منه فقه الإسلام وفكره على مدى قرن سابق. وعلى مدى القرن الرابع عشر الهجرى (الذى بدأ فى ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادى، نحو ١٨٨٣م)، عانى الفكر الإسلامى نوعا من الانفصام بين حركة التجديد وحركة المحافظة، كانت حركة التجديد تنشر وجوها لاستجابة الفكر الإسلامى لأنواع معاملات جديدة وأوضاع نظم اجتماعية وسياسية حادثة، وتفتق حلولا لمشاكل طرأت لا تجد لها فى فكر السابقين حلولا جاهزة.

وكانت حركة المحافظة تنظر إلى الوافد الأجنبى من الغرب وأوروبا بقلق شديد، ترى فيه فكرا يريد أن يجتث الأصول من ركائز الفكر الإسلامى التليد، وترى فيه أنماط عيش وأوجه سلوك وأنواع معاملات تتعارض مع نظام الواجبات والمحرمات الإسلامية وتتبجح فى تحديها لهذا النظام وتعمل على توليد الاستهانة به وعدم الاعتبار بأوزار المخالفة له. مع تشبعه من قيم معارضة للقيم السائدة. وتمثل كل ذلك فى مسائل المأكل والمشرب والملبس وأنواع التعامل مع البنوك، بمثل ما تمثل فى تبجح بعثات التبشير المسيحى فى نشر دعواها فى بلادنا، وبمثل ما بدأت مجلات وكتب حديثة تنشر من الفلسفات بين الشباب المثقف ما يشكك فى أسس العقيدة الدينية.

اعتبر المحافظون إن حركة التجديد



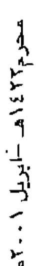
فى الفكر الإسلامى إنما تزكى هذا التفكك العقيدى والقيمى والسلوكى، وأساءوا الظن بها وقاوموها. واعتبر المجددون أن حركة المقاومة المحافظة إنما تستبقى الوهن الإسلامى الاجتماعى فى مواجهة مسائل التحضر والنمو وأساءوا الظن وشنعوا عليها. وظل العراك سجالا يخفت ويعلو جيلين أو ثلاثة أجيال. ثم جاءت هذه الحلقة الأخيرة التى نتكلم عنها لتوحد بين دعوة التجديد ودعوة المحافظة، بالدفاع عن ثوابت الفكر الإسلامى وأصوله وبتجديد ثوابته وفروعه، وكان من أزكى ثمار هذه المدرسة الموحدة للتجديد والمحافظة على حركة واحدة شيخانا الجليلان الغزالى والقرضاوى، الشيخ الغزالي ولد فى ١٣٣٥ للهجرة (سنة ١٩١٧ للميلاد) وولد الشيخ القرضاوى فى ١٣٤٤ للهجرة (سنة ١٩٢٦ للميلاد). وكلاهما تعلم وتخرج بالأزهر الشريف.

(٢)

هذا هو ما أظنه وضع الشيخ القرضاوى فى خريطة الفكر الإسلامى فى القرن العشرين، وقف مع الشيخ الغزالى على ملتقى البحرين، بحر المحافظة وبحر التجديد، وصار البحران بحرا واحدا، وصار المجدد هو من يدافع عن الأصول ويزود عنها، وصار المحافظ هو من يتوسل بالتجديد لصيانة الوجود والبقاء. والفكر الإسلامى بهذا الالتقاء صار أحصن وأمنع كما صار أحيا وأزهر مما كان فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة.

أما عن صلتى أنا بكتابات القرضاوى، فقد اتصلت بها منذ شتاء ١٩٧٤ - ١٩٧٥ على التحديد. بدأت اتصال قارئ بكاتب عبر الدوريات والكتب. وما أكثر ما تفاعلت مع رجال لم ألقهم ولا عرفت أشخاصهم بالاتصال المباشر، إنما تفاعلت معهم عبر الكلمة المكتوبة، وكثيرا ما كفتنى هذه الصلة، وما أكثر ما صرفتنى فطرة الخجل عن السعى للتعارف الشخصى، إلا ما تدبره الأقدار للقاءات من بعد. وكان هذا شأنى مع الشيخ يوسف.

بدأت صلتى بكتاباته فى ذلك الشتاء البعيد من عامى ٧٤-١٩٧٥، كنت أعمل فى أسيوط رئيساً لمحاكم مجلس الدولة هناك، وكنا نذهب إليها دورا فى كل شهر، أياما نعقد جلساتنا ونهيئ قضايانا ثم نعود إلى القاهرة ندرس ونتداول ونكتب. وقبل سفرة من هذه السفرات مررت على المكتبات حسب عادتى ألتقط ما تهمنى قراءته، وصادفت مجلة دورية جديدة لم أرها ولا سمعت عنها من قبل اسمها «المسلم المعاصر»، وجدت عددين متجاورين، الأول اسمه «العدد الافتتاحى» نوفمبر



١٩٧٤، والآخر اسمه «العددان الأول والثانى» أبريل ١٩٧٥، وعجبت أن يكون ثمة عدد سابق للأول، ثم يرد العددان الأول والثانى مندمجان، وكان الأولى أن يصدر العدد السابق برقم والآخر برقم تال، وكفى الله المؤمنين الحيرة. وعزوت الأمر إلى قلة الخبرة فى إصدار الدوريات وضعف المكنة المالية، واستخلصت من ذلك أن القائمين على هذا الشأن يجتهدون لايصال حكمتهم إلى القراء وأن لديهم الالحاح فى توصيلها رغم قلة الخبرة الصحفية وقلة المال، وأن من هنات المظهر ما يلفتك إلى المخبر ويحببك فيه.

فى هذه السنوات على التحديد، كنت أفتش عن المجددين فى الفكر الإسلامى وعن التجديد فيه .

أين هم وماذا يقولون كنت أطرح مسلماتى فى الفكر السياسى والاجتماعى وأعيد الفحص فيها وأنظر فيما يمكن أن يبقى صحيحا منها وما لا يصح وكنت فى تلمسي لهذا الأمر ادرك أن الفكر السياسى الغربى وحده لا يكفى ولا يصلح وحده هادياً فى حركتنا السياسية الاجتماعية، وأن الفكر النافع ينبغى أن يكون ابن حضارة بذاتها ابن نسق تاريخى، وأن الثوابت المثمرة ينبغى أن تصدر عن الجذور الضاربة، وأنه كلما عمق الجذر قوى الجذع وازدهر الفرع وأثمرت الثمار.

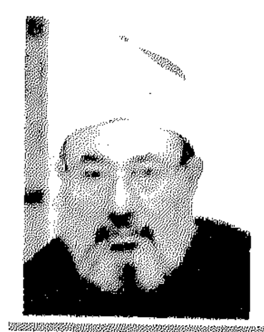
ولكن بقى السؤال الأخير لدى، أين هى هذه حركة التجديد المستندة إلى الأصول والثوابت، أين هى فى الحقيقة والواقع المعيش، وعلى أى أسس تشكلت وفى أية قضايا تمحورت، وهل اجتهاداتها تصدر عن حقيقة مشاكل الواقع المعيش حسبما نفهمها، وهل اجتهاداتها تستجيب لمستجدات هذا الواقع، وكيف يتصدى المجددون الآن لهذا الواقع بمشاكله وأساليب علاجه.

(٣)

وجدت فى العدد الافتتاحى، كلمة رئيس التحرير د. جمال عطية عن المجلة ثم خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر للأستاذ عبد الحليم محمد أحمد، والسنة التشريعية وغير التشريعية للدكتور محمد سليم العوا ، والخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية للأستاذ توفيق الطيب، ثم منهاج المجلة للدكتور محمود أبو السعود وما يتوقع للمجلة للدكتور فتحى عثمان. ثم أحاديث عن الاقتصاد الإسلامى والبنك الإسلامى للتنمية، ثم جاء العدد التالى فيه أبحاث عن أزمة الخلق المسلم المعاصر وتراث الفكر الإسلامى فى النظم السياسية والإدارية ثم باب الحوار صار واسعا كثير الموضوعات والأقلام حول العدد الأول (التمهيدى) ونقده والتعليق عليه، وفيه موضوع «نظرات فى العدد الأول. د. يوسف القرضاوى».

حرمتنى المجلة بعدديها نوم الليل ليالى، كنت بعد أن أنتهى من عملى فى الحكمة وانتهى مع زملائى من إعداد

فى صحبة القرضاوى



واجبات الصباح التالى ويخلد كل منا إلى فراشه بحجرته. كنت أمسك المجلة من حيث توقفت فى الليلة السابقة وأظل أقرأ حتى الصباح عندما يحين موعد التأهب للذهاب لمكان العمل والمجلة كلها وجدت فيها طلبتى، وغالب من قرأت لهم فيها أيامها صرت من أصدقائهم فيما تلا ذلك من أعوام.

ولكن من أكثر ما استوقفنى حديث الدكتور يوسف القرضاوى عن نظراته فى العدد الأول. وجدت نفسى أمام رجل يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وهو لا يقفز بنظراته فى الفضاء، انما يسير على نهج ويتقدم فى طريق يمهده ويستخرج من الجذور والأصول معايير التقدم والتجديد. كان الكثير من ذلك موجودا فى كتاب المجلة، ولكنه كان هو دائما يرد النتيجة إلى مقدماتها ويتفحص الآثار فى ضوء المبادىء بمنهج أصولى بديع.

لفتنى هذا المقال وملأ قلبى حماسا واطمئنانا، أما الحماس فلأنه ربط نظرات التجديد وتوجهات المعاصرة وتشخيص الأزمات وطرائق علاجها، ربط كل ذلك مما ورد فى البحوث والمقالات الواردة بالعدد الافتتاحى، ربطها كلها بمرجعياتها الأصولية، وأكد مصداقيتها .

وأما الاطمئنان فلأننى من رجال القانون وممن يعالجون فى عملهم القانونى النظرى والتطبيقى. يعالجون مسائل التفسير ومناهج التفريع فى الأحكام. والحمد لله أن لم تنقطع صلتى بالفقه الإسلامى وأصول الفقه، حتى وأنا أمارس تطبيق القوانين الوضعية، ولم تنقطع صلتى بمناهج التأهيل الشرعية للأحكام باعتبار ذلك جزءاً مكونا ومؤسسا لثقافتى الفقهيه والقانونية، وبقيت هذه الصلة قوية حية أمارسها فى عملى، حتى وأنا فى عز اقتناعى بالنظريات السياسية الوافدة من الفكر الغربى.

لذلك لم يكن يرضينى فى نظرى إلى محاولة التجديد فى الفقه الإسلامى وفكره، لم يكن يرضينى إيراد القياسات السريعة والاجتهادات المتعجلة التى تجدد فى خفة يد وبمهارة فى اخفاء العيوب المنهجية. كنت أشعر أنها إما محاولات غير جادة من أصحابها ، وأما أنها محاولات محكوم عليها بأن تذهب بددا وأن تؤول هباء منثورا، وأن ما لفتنى فى المسلم المعاصر بكافة، وفى كتابات القرضاوى بخاصة أنها أبعد ما تكون عن هذه الخفة والتعجل. بل لعلها طرحت عددا من المسائل المهمة فى أعماق الشكل المنهجى. ولعل الشيخ يوسف أدام الله النفع به تصدى للعديد من هذه المعالجات فى أعماقها المنهجية





الصميمة.

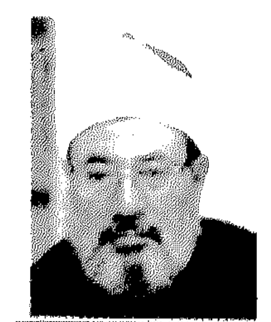
وكنت أعرف أن الشريعة الإسلامية، أفرزت فقهها ومناهجها فى التفسير، لم تستعن فى ذلك بمادة غريبة عنها، إنما ولّدت من داخلها أساليبها فى الفهم والتجديد. وأن تجديدا يصدر من معايير احتكام ليست مستخرجة منها هو تجديد لا يصح، إنما لابد أن يرد التجديد - إن ورد - من داخلها وبمادتها. والمرجعية هنا تعتمد على نصوص منزلة بالقرآن والسنة، وأن أى منهج يخضع هذه النصوص للزمان والمكان اللذين نزلت فيهما هو منهج باطل يتنافى معها ولا يدوم تعامله معها. والفقه الإسلامى أيضا هو أصول وثوابت وأحكام فرعية واستقراء للكليات من الفروع وأساليب استنباط للأحكام واقيسة ومصطلحات، وإن التجديد الحق إنما ينبغى أن يراعى كل هذه التضاريس.

أذكر ذلك واستطرد فيه لأوضح للقارىء لماذا صرت سعيدا ومتحمسا ومطمئنا فى تلك الأيام التى اطلعت فيها على «المسلم المعاصر» فى عدديها الأولين، وطالعت «نظرات فى العدد الأول» للشيخ يوسف القرضاوى، وكيف كان ذلك حاسما معى فيما جد لى من أيام.

(٤)

ماذا كتب الشيخ يوسف فى «نظراته فى العدد الأول»، إننى أنقل عنه هنا ما كنت أشّرت عليه بقلمى الرصاص فى تلك النسخة القديمة التى لاتزال عندى ، قال «حسبها أنها مجلة الإسلام والعصر معا، فهى تنظر إلى الإسلام بعين وإلى العصر بأخرى، وهى مجلة الحرية البناءة فلا تتقيد بسياسة حكومة ولا بسياسة جماعة، ولا تحجر على ذى رأى أن يعلن رأيه من فوق منبرها، مادام مبنيا على دراسة ومنهج «......» مجلة كل من يرتبط بدينه ، ولا ينعزل عن واقعه وزمنه... كل من يحب الإسلام عن بينة، ويؤمن بالعمل له على نور، وبالدعوة إليه على بصيرة، والجهاد فى سبيله بالفكرة والكلمة، حتى يعود إلى قيادة الحياة من جديد، وبنائها على تقوى من الله ورضوان «...» إنها مجلة الذين يهتمون بالعلم والفكر والحركة جميعا، هؤلاء الذين لا يعملون إلا بعد أن يؤمنوا، ولا يؤمنون إلا بعد أن يقتنعوا ، ولا يقتنعون إلا بعد أن يدرسوا ويفحصوا ويناقشوا، فليس فى دينهم كاهن يقول لهم (إغمض عينيك ثم اتبعنى)..».

ثم يتحدث فى موضوع الاجتهاد الذى تبنت المجلة الدعوة إليه وممارسته. ويناقش الدعوة التى أطلقها د. محمود أبو السعود عن الاجتهاد فى أصول الفقه، فعرض رأيه فيما يراه ظنيا من مسائل أصول الفقه وما يراه قطعيا، ورسم دائرة الظني منها مخالفا فيه قول الإمام الشاطبى وحدد مجال الاجتهاد فى الأصول الذى يراه مجالا رحبا «وهو مجال التمحيص والتحرير والترجيح فيما تنازع فيه الأصوليون من قضايا جمّة»



فى صحبة القرضاوى

وإن تقسيماً السنة إلى تشريعية وغير تشريعية فى حديث الدكتور العوا، رآه القرضاوى تقسيماً جديرا باعداد الرسائل فيه، ثم عرض للاجماع وما كان منه مبنيا على أمر مصلحى قابل للتغيير بتغير الزمان والمكان، وإلى تغير الحكم والفتوى بتغير الزمان.

ثم ذكر أن ما نحتاج إليه أكثر من غيره هو الاجتهاد فى مسائل الفقه، وهنا بيّن أموراً ستة أوجب مراعاتها عند ممارسة الاجتهاد، الأمر الأول أن يقتصر مجال الاجتهاد على ما كان من الاحكام ظنى الدليل ثبوتا أو دلالة، والثانى ألا يكون الاجتهاد انسياقا وراء المتلاعبين ممن يريدون تحويل المحكمات إلى متشابهات، والثالث أن تظل مراتب الأحكام كما جاءت فيبقى كل من القطعى والظنى على حال مجيئه، والرابع يتعلق بالحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم مما لم يصنعه الإسلام ولا المسلمون إنما فرض عليهم فى زمن ضعف أو غفلة وتفكك، فليس الاجتهاد وظيفته تبرير هذا الواقع، والخامس ألا يكون أكبر الهم مقاومة كل جديد، إنما تجب التفرقة بين ما يلزم فيه التشدد والثبات وما تقبل فيه المرونة والتطور، والسادس أن يملك المجتهد أدوات الاجتهاد وأن يكون عدلا مرضى السيرة.

ثم علق على حديث الاستاذ عبد الحليم محمد عن أزمة العقل، قال إن العقل نعمة بغير شك ولكن الوحى نعمة أعظم وأكبر، وإذا كان المجتهد المخطىء مأجورا فشرط ذلك أن يكون أولا من أهل الاجتهاد وأن يكون قد استفرغ الوسع ولا يكون للهوى الخفى إلى نفسه سبيل . ولا يعيب المجتهد أن ينظر فى تراث السلف وإن كان ذلك لا يلزم الخلف باجتهاداتهم.

شعرت وأنا أقرأ ذلك ، إن فضيلة الشيخ كما لو كان يخاطبنى، أنا فلان ابن فلان، فى زمانى ذلك ومكانى ذلك. لأنه بالضبط كان يجيب على الأسئلة التى كانت تجول فى صدرى. وقد سجلت وقتها بالقلم الرصاص فى هامش مقاله قبيل نهايته هذه بعبارة «سبيل الاجتهاد ليس مجرد الوصول إلى جواز أمر من أمور حياتنا المعاصرة، لاينبغى أن تقتصر على مثل قول (هو جائز طبقا لكذا، أو ليس جائزا طبقا لكذا) ولكن ينبغى أن نحدد باجتهادنا الجديد الجائز وغير الجائز معا، فهذا أكثر أمنا ومدعاة لاطمئنان النفوس إلى أن المجتهد لا يقود المكلفين إلى طريق غير محفوف بحدود الدين التى هى أمن لهم، أو أنه يغلق فى وجههم الطريق». وأتذكر من هذه العبارة أن رسالة الشيخ كانت وصلتنى بحديها،

الجائز والممنوع، فليس من فقه إلا وهو يضع الضوابط للجائز والممنوع، وتجديد الفقه يعنى تحريك الضابط من حد إلى حد آخر، ليبقى دائماً أن هناك جائزاً وهناك ممنوعاً. وهو لا يعنى قط رفع الضوابط والحواجز والحدود. والفقه أيا كان، سواء كان شرعيا أو وضعيا، هو ضوابط وحدود، هو رسم للحدود بين الجائز والممنوع.

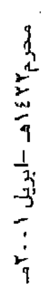
اتفق إن كان أول ما قرأت للشيخ بعد هذا المقال، هو كتاب «الحلال والحرام فى الإسلام»، قرأته فى طبعته العاشرة (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م) وكانت صدرت طبعته الأولى فى (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م)، ألفه بتكليف من الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف، ضمن مجموعة كتب أريد منها أن تكون للتعريف بالإسلام بين المسلمين وغير المسلمين فى أوروبا وأمريكا.

وأن كتابا يتوجه إلى الغرب، ويتعلق بالتحليل والتحريم أى بالقيود والحدود، كان يمكن أن يهتز بشأنه قلم كاتبه، إذا سعى لأن يقدم الإسلام فى قيوده وضوابطه بالصورة التى تسوغ له أبناء حضارة الغرب المنتصر المزهو المتباهى بذاته، وكان يكون الكاتب معذورا إن فعل، فى ظروف السيادة الفكرية الغربية وهيمنتها الحضارية على بلاد الشرق بعامة، وفى ظروف الرغبة البريئة الساذجة لنرى بعض من كتاب الإسلام فى أن يتجملوا بأزياء هذه الحضارة المسيطرة ذات العنفوان.

ولكن شيخنا القرضاوى، ابن الرابعة والثلاثين من عمره عندما صدر الكتاب (١٩٦٠)، كان مسلما واثق الخطوة يمشى ملكاً حسب قول الشاعر العربى أول ما يهمه فى الحلال والحرام هو استخلاص الحكم الصائب الذى يرضى الله سبحانه، يفهمه ويقومه فى ضوء مستجدات العصر، ولكن فى إطار ما تسعه النصوص وحسبما يستخلص منها بمناهج التفسير المعتبرة فى الفقه الإسلامى.

والكاتب فى مقدمته للطبعة الأولى متنبه لكل ذلك وهو يقول «رأيت معظم الباحثين العصريين فى الإسلام والمتحدثين عنه يكادون ينقسمون إلى فريقين «فريق خطف أبصارهم بريق المدنية الغربية وراعهم هذا الصنم الكبير فتعبدوا له.. هؤلاء اتخذوا مبادىء الغرب وتقاليده قضية مسلمة لا تعارض ولا تنافس، فإن وافقها الإسلام فى شىء هللوا وكبروا، وإن عارضها فى شىء وقفوا يحاولون التوفيق والتقريب، أو الاعتذار والتبرير، أو التأويل والتحريف، كأن الإسلام مفروض عليه أن يخضع لمدنية الغرب وفلسفته وتقاليده ...»، «والفريق الثانى جمد على آراء معينة فى مسائل الحلال والحرام، تبعا لنص أو عبارة فى كتاب ...» .

وذكر أنه حاول ألا يكون واحدا من أى من الفريقين، لأنه لم يتخذ الغرب معبودا، وإنما رضى بالله وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. كما أنه لم يرض





فى صحبة القرضاوى

بالتقليد لمذهب معين ولم يقيد نفسه بمذهب سائد، لأن الحق فى رأيه لا يشتمل عليه مذهب واحد.

لذلك نلحظ أن الكتاب لم ينساق إلى مذاهب الغرب ومدارسه ودعاويه فى القضايا والمسائل الخلافية الكبرى، التى لاتزال تثور حتى اليوم، وهى قضايا الفوائد الربوية وخلوة الرجل بامرأة أجنبية عنه ليست محرما، وتحلى الرجال بالذهب والحرير، والطلاق وتعدد الزوجات.

فى كل ذلك كان الكتاب ذا رأى يدور فى إطار ماهو معروف عن أحكام الإسلام، وكذلك بالنسبة للتماثيل والصور والغناء والموسيقى، لم يجز إلا ما رآه جائزا حسبما تسع النصوص والاحكام بغير تفريط فى المنع ولا إفراط فيه.

من متابعتى لأسلوب الشيخ فى عرض مادته وتسبيب أحكامه، ورغم التبسيط الذى إلتزمه فى عرض آرائه، أدركت أنه كما وصف نفسه صراحة لا يتبع، ولكنه يستعرض الآراء ويختار منها ما يقتنع بنفسه أنه الرأى الأقرب لقصد الشارع الحكيم والأنسب لزمان تطبيق النص فى حدود ما يسعه؛ وأنه يتوسط فى ذلك بغير تفلت ولا تقبض، وأنه يعالج معانى النص وفى ذهنه علاقة النص بمنشئه تعالى وفى ذهنه هيكل التشريع الإسلامى كله بتاريخه وجماعاته ومذاهبه ومدارسه. أى أدركت أنه يعمل مناهج التفسير والتجديد فى إطار الجماعة برمتها ويتحرك من داخلها، كمن يحرك سفينة وسط شعاب البحر، لا يرى نفسه فردا فيها إنما يرى نفسه بحجم السفينة كلها، بطول ما بين مقدمتها ومؤخرتها وبعرض ما بين جانبيها.

وكنت أعرف بتجارب العمل والممارسة والتدبير فى ذلك الوقت (١٩٧٥)، وكنت بلغت الثانية والأربعين من عمرى وقتها، أعرف أن الإنسان فيما يفكر ويدعو يمكن أن يقفز فراسخ إلى الإمام بقدر ما يواتيه جهده الفردى وقدراته الذاتية ولكن لن يحقق أى تقدم يذكر لجماعته بهذا القفز الواسع السريع. وأن الأجدى والأنفع له ولجماعته ولفكرته التى يدعو إليها، أن يحرك المؤسسة التى يعمل فيها أو الجماعة التى ينتمى إليها، يحركها بطولها وعرضها ولو بضعة أشبار وأمتار، فهذا هو العمل الحصيف المأمون وهو الاغناء الباقى، وإن كان فى الأمر تحويل أو تغيير أو تعديل، فهو التحويل أو التغيير أو التعديل الذى يطمئن إلى استمراره من بعد.

(٥)

إن عملى القانونى فى مجال التطبيق، وجهنى دائما، عند النظر فى الأفكار والعلوم والنظريات ذات الطابع

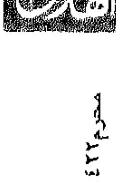
السياسى الاجتماعى، وجهنى إلى الجانب التطبيقى منها، وعادة ما يسبقنى نظرى فيها إلى مآلاتها فى التطبيق، وعادة ما يجرى تصنيف الأفكار عندى، لا بمراعاة أسسها الفكرية وتشكلاتها النظرية المنطقية فقط، ولكن بمراعاة أثرها فى السياق الواقعى المشهود وفى المآل التطبيقى لها. وأن المنهج العلمى التجريبى ذاته يجعل آخر خطوة من خطوات الاستقراء والاستخلاص هى مدى اتساق النتيجة التى أفضى إليها البحث من غيرها من النتائج الواقعية.

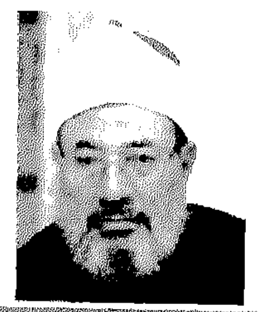
أشعر عادة أن العموميات مثل الصناديق المغلقة، علينا أن نفتحها لننظر فيما حوته، وأنه عند المحاورة بين عموميات أو التدقيق فى المفاضلة، يتعين ليتم لنا استكمال المنهج أن نفتح الصناديق ونجرد المحتويات، وأنه عندما يتحدث المتحدث فى أمور السياسة والمجتمع وفق نظريات عامة، يتعين أن نسأله من بعد، وماذا بعد؟ . فليس المهم فقط هو الكمال النظرى للأفكار السياسية والاجتماعية العامة ولا صدق مرجعيتها الفكرية والفلسفية، ولكن المهم أيضا هو كيف توظف فى صورها الملموسة والمشهودة، دعوة كانت أو سياسة منفذة.

وقد أعجبنى فى قراءاتى السابقة فى الصحف القديمة، صحف ١٩٥١، أن ذكر أحد الإسلاميين أنه يتبع رأى الاسلام، فرد عليه سيد قطب متسائلا «ما هو رأى الاسلام الذى تراه». ذلك أن الأمر كان أمر موقف سياسى يتخذ وأمر سياسة تنفذ. لذلك لم يكن يكفينى فى سنوات السبعينات الماضية، السنوات التى أعدت فيها البحث فى المرجعية السياسية الاجتماعية لى، لم يكن يكفينى أن يذكر ذاكر أن المرجعية الاسلامية أولى وأفضل من غيرها ، فقد كنت بلغت هذا الشاطىء، بل كنت على مشارف الوصول إلى أنها بالنسبة لنا هى المرجعية وهى المشرع والمنبت، على وجه الاختصاص. ولكن بقى لدى السؤال ... وماذا بعد، وما هو رأى الإسلام الذى يراه ذوو الرأى فى واقعنا المعيش، وما هو الوزن النسبى لكل من هذه الآراء التى تسعُها شرعة الإسلام ومنهاجه.

أصل الآن إلى الكتابين الأثيرين عندى فى هذه المرحلة، هما أثيران لا بما فضلهما الله سبحانه على غيرهما من كتب الشيخ القرضاوى، ولكنهما أثيران بما انتجت قراءتهما من حاصل فى صدرى. ولازلت إلى اليوم، بعد ثلاثة وعشرين عاما، كلما قرأت للشيخ أو تردد اسمه أمامى أو جال بخلدى، لازلت كلما حدث ذلك يلمع بخاطرى اسما هذين الكتابين وهيئتهما، الأول بلون غلافه البرتقالى والثانى بلون غلافه الأخضر. ولاتزال نسخة كل منهما عندى بما تحمل من أثر قراءتى الأولى على هوامشها.

الكتابان بعنوان عام لهما هو «حتمية





في صحبة القرضاوي

الحل الإسلامي» (١) ، (٢). والأول منهما بعنوان (١) «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » قرأته في الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م) وكانت صدرت طبعته الأولى بمقدمته ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م - والثاني منهما بعنوان (٢) الحل الإسلامي فريضة وضرورة، قرأته في طبعته الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م وكانت صدرت طبعته الأولي ومقدمته في ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤م . وقرأتهما معا في صيف العام نفسه، عام ١٩٧٧.

الكتاب الأول، كان أول ما وجهت مقدمته نظر القارئ إليه هو هزيمة يونيه ١٩٦٧، وأن لا حل ولا علاج إلا بالعودة إلى الإسلام. وهزيمة يونيه ١٩٦٧ كانت هي ما ارتطمنا به وانكسرت عليه آمال وسُدّت آفاق وتحطمت آراء ونظريات، وانطرح البحث في المسلمات السياسية والفكرية والاجتماعية لدى كل ذي لب. فالمؤلف هنا بهذه البداية يشير إلى الجرح الغائر ويشير إلى من المسئول، ولكنه لايزيدك وجعا بتكرار الضرب على الجرح الأليم، إنما يبدأ من فوره بدعوة قرائه أن يلتفوا حوله ليسمعوه، أيا كانت مشاربهم، إن كانوا عربا أو كانوا مسلمين أو كانوا بشرا عقلاء، إن كانوا مؤمنين بالديمقراطية السياسية أو بمنطق الحوادث وسير التاريخ أو مستقرئين للصراع الدائر في العالم وأزماته الروحية والنفسية.

ثم هو في أول سطر في الكتاب نفسه، يحل مشكلة العراك المصطنع بين العروبة والإسلام، فيقول «لا ينكر عاقل أن وطننا العربي الكبير من الخليج إلى المحيط، وأن وطننا الإسلامي الأكبر من المحيط الهادي... إلى المغرب والسنغال على شاطئ الأطلسي...»

فوضع مسألة الانتماء في صيغة تقبل الجمع والتداخل بين خصوص العروبة وعموم الإسلام وليست صيغة استبعاد ومحاربة بينهما، ثم في النقطة التالية مباشرة يصنف الحلول المطروحة على الأمة أي المرجعيات المطروحة عليها، وهي الحل الاسلامي القرآني، والحل الديمقراطي الليبرالي والحل الاشتراكي الثوري. وفي هذا الطرح تبدو الامكانات الفنية والفكرية في النفاذ إلى صميم العلاقات بين الظواهر، والقدرة على التعميم وعلى التصنيف، مما يوفر على الكاتب وقارئه الكثير من الوقت والجهد، ويشيع روح التآلف والثقة ويمهد لحسن التفاهم والنظر الموضوعي.

ثم يرد بعد ذلك سريعا الموقف الفكري السياسي، فأصل المشكلة وأساسها التاريخي والاجتماعي والفكري، هو الوهن الذاتي لدينا وهو الغزو الأجنبي الذي سيطر علينا عبر السنين فلم نستطع أن نقاومه وخضعنا له. صور ذلك بقوله إن كان ثمة «تخلف في العلم وجمود في التفكير وركود في الفقه والتشريع وقصور في التربية

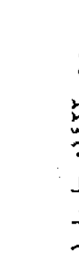
والتوجيه وفساد فى الإدارة والحكم، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقا فى هذه المجالات، فبهر أبصار الكثيرين وخلب ألبابهم، فبدأوا يسيرون فى دروبه ويتبعون سننه، شبراً بشبر وذراعا بذراع..» ثم بدأ الحديث الطويل عن الغزو الخارجي وأثره فى أمة المسلمين، دون أن يبرىء المسلمين والعرب من مسئولياتهم فيما كانوا فيه مما عبر عنه بلفظ «الانحطاط» وما آل إليه كثيرون من انبهار بالغرب، ولم يبرئهم لأنه يريد أن يصلحهم، ولا يكتفى بأن «يعيب الزمان ويضرب الأمثال».

والشيخ القرضاوى مثقف إسلامى إلى النخاع، والمشكل يبدأ عنده دائما متعلقا بالإنسان ويبدأ من الإنسان ومن الفكر، على العكس تماما مما يفعل الماركسيون عندما يبدءون دائما بالواقع المادى، تفريعا على ما يؤمنون به من أصالة المادة وحداثة الفكر وطروئه. والغزو لدى المفكر الإسلامى ليس غزو أرض فقط وليس غزو أرض أساسا. إنما هو غزو الإنسان وفكره ووجدانه، وهذا أظهر وأعمق فى الدلالة، فالاستعمار استعباد بشر فى الأساس، والاستعباد لا يتم إلا بالالحاق الفكرى وضمان التبعية الثقافية، التى تمحو الشعور بالتميز لدى الجماعة المستعبدة، والتحرر لا يأتى الا من خلال فكر تتشربه العقول والنفوس وتبذل من أجله المهج.

والكتاب يورد وسائل التأثير الغربى فى الشرق الإسلامى، وهى فى التعليم والتربية بالبعثات ومدارس التبشير ونظم التعليم الحديثة الآخذة عن الغرب، ثم فى الصحافة ثم فى نظم التشريعات الآخذة عن الغرب والتقليد فى السلوك والأذواق. وهو هنا يفرق بين العلوم الطبيعية التى لا وطن لها ويلزم الأخذ منها وبين العلوم الإنسانية التى هى محل التأثير والتأثر الضار.

والكتاب بعد ذلك يتحدث عن القومية العربية وعن الدعوة القومية بعامة، فيعرض للأثر التفكيكى لهذه الدعوة بالنسبة لما كان قائما من وحدة سياسية إسلامية، ويعرض لأثر القومية التركية فى هذا التفكيك ولدعوة أتاتورك، ولأثر القومية العربية، ولكنه هنا أيضا يفرق بين موضوع «القومية» الذى يرى بشأنه هذا الرأى وبين مطلب الوحدة العربية الذى يؤيده ويدعمه ويعتبره جزءا من مطلب الوحدة الإسلامية الأعم، كما يفرق بين «القومية» بما أدت من وظيفة تفكيكية فى رأيه وبين النزعة الوطنية الموجهة للتحرير من النفوذ الأجنبى.

وقد كنت أتصور أن من مشاكل التقارب الإسلامى العروبى هو رفض الإسلاميين لمبدأ القومية العربية، فلما ميز الشيخ بين المبدأ المرفوض وبين مطلب الوحدة العربية المؤيد، كما ميز بين المبدأ المرفوض وبين الأداء الوطنى المقاوم للاستعمار على الصعيدين العربى والإسلامى. لما فعل ذلك حل المشكلة فى جوهرها، وجعل الخلاف خلافا نظريا بحتاً لايكاد يبقى له أثر فى التوظيف





في صحبة القرضاوي

السياسي والأداء السياسي. وجعله خلافا هادئاً يتفكر فيه المفكرون في أوقات فراغهم من جهد العمل المطلوب، وأقام جسور الثقة بين الطرفين، قلت وقتها – لقد كسب فضيلة شيخنا قضيته عندي، لقد أحسن وضع المسألة وأحسن تحريرها.

ثم يرد حديث عن القوانين الوضعية والحياة النيابية ، فذكر أن الأمة مصدر السلطات وأنه يوافق على هذا المبدأ مع تقييده بعبارة «في حدود شريعة الله سبحانه» وبهذا القيد والضابط الصحيح ربط بين المرجعية الشرعية وبين الأساس النظري الذي يقوم عليه التنظيم الديمقراطي. كما ذكر أن الاخوة الإسلامية لا تتعارض مع المساواة بين المواطنين وذلك بما يتقارب مع مبدأ المواطنة الذي تقوم عليه الجماعة الوطنية حسب النظم القائمة الآن.

وعلى هذا فليست المشكلة تقوم بين الإسلام والعروبة، ولكنها تقوم بين الإسلام . وبين من ينفي من العروبيين المرجعية الإسلامية ويتبنى المفاهيم العلمانية، وليست المشكلة بين الإسلام فيما يرى وبين الديمقراطية ولكن المشكلة تقوم مع من ينفي من الديمقراطيين المرجعية الإسلامية.

والكتاب في كل ذلك حريص على أنه لا يعرض لرأي فرد، ولكنه يعرض لتيار فكري منتشر ذي رموز معروفة، منهم أبو الحسن الندوي ومصطفى الخالدي وعمر فروخ ومحمد البهي ، ومحمد الغزالي ومحمود شاكر وسيد قطب وحسن البنا. وبهذا يرى القارىء نفسه أمام موجات متراكبة من مفكري الإسلام المحدثين في العقود الوسطى من القرن العشرين وحركاتهم السياسية الاجتماعية.

(٦)

عرض الكتاب الأول لما لقي الحل الليبرالي الديمقراطي من فشل، يقصد التجربة التاريخية التي مرت بها بلادنا من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الخمسينات، ولما لقي الحل الاشتراكي الثوري من فشل أيضا، في الفترة التالية من الخمسينات إلى السبعينات، لذلك جاء كتابه الثاني عن البديل الثالث الذي يراه فريضة وضرورة أيضا وهو الحل الإسلامي.

أول ما استفتح به الكتاب هو موضوع قضية فلسطين، «أولى القبلتين وثالث الحرمين»، واستطرد إلى الصلة بين الإسلام والعروبة وأن القيادة لم تستطع أن تستخلص هذه الصلة العميقة، وأن العرب لم يستفيدوا من الطاقة الإسلامية في مقاومتهم الاستعمار والصهيونية. ثم أشار بنوع من التفصيل إلى ما يشبه البرنامج السياسي، بدءا بالإيمان بالله والتخلق بالقيم الإنسانية، والاعتزاز بالإسلام

عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة، ثم الاشارة إلى الجوانب التعليمية والاجتماعية وما يتعلق بالتنمية الاقتصادية والعدالة وتقريب الفوارق.

ثم أشار إلى الجوانب الدستورية بحسبان أن الامامة منصب دينى وسياسى معا والاختيار يرد بالبيعة والرضا، والمختار يخضع لرقابة الشعب وحق المواطن فى الحرية التى هى خلاصة من كل سيطرة تتحكم فى تفكيره أو وجدانه أو حركته دون اتباع الشهوات واطلاق الغرائز السفلى. وبالنسبة لغير المسلمين ذكر أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم «إلا ما اقتضته ظروف دولة ايدلوجية تقوم على أساس فكرة الإسلام»، ثم أشار إلى السياسة الخارجية وأن المسلمين أمة واحدة، ووجوب مناصرة حركات التحرير انطلاقا من الفكرة الاسلامية التى تفرض استبعاد الإنسان للإنسان» «أيا كان دينه وجنسه» . ثم أشار إلى ضرورة وضع شروط ثقافية ودينية وخلقية للمرشحين للمجالس النيابية وسائر المناصب حتى لا توضع قيادة الأمة فى أيدى الجهلة أو الملاحدة أو الفسقة».

ونحن طبعا لا نناقش مجمل هذه البنود الآن ولا تفاصيلها، بل أننى لم أكن عند قراءتى الأولى للكتاب فى مناخ المناقشة لتفاصيل البرامج السياسية والاجتماعية ، وما يمكن اقراره وما قد يختلف عليه وما قد يثير التحفظ والحوار. لأن الأمر لم يكن أبدا أمر تفاصيل وجزئيات نقاش، إنما الأمر كان أمر حسم للموقف العام من تيار فكرى عام، وهو أمر اهتمام بما يمكن أن ينبنى من جسور بين التيارات الوطنية وأمر انشاء للتيار العام السياسى الأساسى فى بلادنا وبحث لمكونات هذا التيار. فكان الأمر أمرا بعيد الأثر عميق الدلالة، وهو يتعلق باقامة التوازن فى حياتنا العقيدية الحضارية الثقافية والسياسية الاجتماعية، وهو يتعلق بنطاق ما تجتمع عليه الأمة وتدين به قوى التماسك بين جماعاتها وهيئاتها وأفرادها . وهو يتعلق بالوجهة التاريخية العامة لها بتحديد من تواجه ومن تؤازر وأين تقف وإلى أين تسير.

إن فضيلة الأستاذ الجليل، بهذه الجهود المعمقة فى هذه الفترة المهمة التى تعينت عندها مفارق الطرق بين قوى الأمة وعناصرها الفاعلة الوطنية، قد بنى من ناحية الشاطىء الإسلامى رؤوس الجسور للالتقاء والتلاحم، بناها مع غيره من ذوى الفكر والرأى والغيرة على أساس صلب وبدعمات فكرية وثقافية تأسيسية باقية إن شاء الله.

لذلك وجدتنى عند نهاية قراءتى وقتها لهذا الكتاب الثانى فى صيف ١٩٧٧، وجدتنى عند آخر كلمة من كلمات الكتاب، قد وقعت بالقلم الرصاص بعبارة «الحمد لله». نقولها عند الشبع والارتواء، ونقولها عند الاكتفاء.

والحمد لله ■

الأسلحة البيولوجية

أخطر أنواع أسلحة الدمار الشامل

بقلم
عــزة الحديدى*

تعد الأسلحة البيولوجية من أسوأ موروثات القرن العشرين حيث تكمن خطورتها في قدرتها التدميرية واسعة النطاق حتي أن عدد الضحايا المقدر سقوطهم في حال اندلاع حرب بيولوجية سيفوق إجمالي العدد الذي سقط خلال الحروب التي اندلعت علي مدار التاريخ المعاصر. كما تكمن خطورتها في أنها معركة خارجة عن إطار الزمان والمكان فالساحة مفتوحة علي مصراعيها .ورغم هيمنة دولة واحدة علي العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) فإن البيانات تشير إلي أن مخزون روسيا من الأسلحة البيولوجية يتراوح بين ٣٠٠ إلي ٤٠٠ ألف طن فيما لا يتجاوز المخزون الأمريكي منها ٥٠ ألف طن.

ومع نظام العولمة، وما يؤديه من تزايد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فإن الدول الفقيرة تقدم علي شراء هذا النوع من الأسلحة لاستغلاله في حالة تعرضها لمخاطر، كما أن هذا النوع تستخدمه عصابات الارهاب، وأصبح من أفتك الأسلحة مثلما حدث مع طائفة الحقيقة السامية (أوم شرينكو) اليابانية خلال مارس ١٩٩٥ ضد ركاب مترو أنفاق طوكيو.

* محررة بوكالة أنباء الشرق الأوسط



في فيلم أنتجته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سي. أي. ايه) - أشبه ما يكون بأفلام الخيال العلمى - حاولت فيه استقراء مستقبل الكائنات الحية فى ظل التطورات الهائلة والمخيفة لمنتجات الأسلحة البيولوجية تظهر قطة كبيرة وقد حقنت بعقار تجريبى ثم أدخلت فى قفص يوجد به فأر صغير. فإذا بالقطة تصاب بتشنج شديد وتقلصات عصبية وراحت تموء فى هلع ورعب ثم انزوت فى ركن بعيد من القفص خوفا من أن يلتهمها الفأر الذى أخذ بدوره ينقض على القطة ويحاول قرضها بأسنانه الحادة مرة فى ذيلها وأخرى فى أذنيها وثالثة فى رأسها حتى أنه نجح فى جرحها فى أجزاء متفرقة من جسدها! .

وخلال سيناريو افتراضى وضعته أجهزة المخابرات الروسية الفيدرالية (كى. جى. بى. سابقا) ويتضمن شن هجوم بالأسلحة البيولوجية على دولة ما يبلغ تعداد سكانها مليون نسمة، اتضح أن عدد الوفيات الناجمة عن ذلك الهجوم سيصل إلى خمسين ألف نسمة فى اليوم التالى مباشرة على افتراض إدراك

الأسلحة البيولوجية

السلطات المعنية لحقيقة تعرض دولتهم لهجوم بيولوجي فى ضوء ظهور الأعراض على المواطنين، والشروع فورا فى حملات التطعيم الوقائية فإذا لم يحدث ذلك – وهو ما لا يحدث غالبا – فإن عدد حالات الوفاة قد يتجاوز ٦٣٥ ألف نسمة خلال أسبوع واحد فقط.

وفى إطار برنامج سرى نفذه الجهاز الخارجى للمخابرات البريطانية (أم – آى – ٦) تم تعريض جنود إحدى الفصائل العسكرية لغازات جرثومية بدون علمهم مما أدى إلى انهيار شبه كامل فى استجاباتهم الطبيعية حيث انخرطوا فى بكاء هستيرى خارج عن نطاق السيطرة، وتحركوا بكسل بالغ وعجزوا عن القتال وتمردوا ورفضوا الاذعان للأوامر القيادية والأدهى من ذلك أنهم راحوا يصافحون أعداءهم! .

والفيلم الأمريكى والسيناريو الروسى والبرنامج البريطانى جميعها تجسد التغيير الجذرى الذى يمكن أن يحدث فى خصائص وصفات وسلوك الكائنات الحية – على اختلافها – فى حال تعرضها للأسلحة البيولوجية ذات القوة التدميرية الهائلة والتى تفوق الأسلحة النووية والكيماوية حتى أن ثلث سكان العالم – أى ما يعادل مليارى نسمة – بات مهددا بالفناء فى حال اندلاع حرب بيولوجية.

الأسلحة البيولوجية قنبلة الفقراء الذرية

وللأسف الشديد فإن كل التوقعات والدراسات تجمع على أن الحرب البيولوجية – فى حال اندلاعها – لن تكون بين الجيوش العملاقة للقوتين العظميين (الولايات المتحدة وروسيا الاتحادية)، كما لن تكون بين حلفائهما فى الشرق والغرب ولكنها ستكون حتما فى قلب منطقة الشرق الأوسط، وبين دول العالم الثالث حيث تتركز أسواق السلاح وقطع غيارها وحيث تتوافر الرغبة إما فى اقتناء الأسلحة الجديدة والمستعملة على حد سواء لتعزيز قدراتها الدفاعية بهدف ترسيخ أنظمة حكمها غير المستقرة، وإما فى بيعها للحصول على الأموال اللازمة لانقاذ اقتصادياتها المتردية وهنا تبرز البرازيل وجنوب أفريقيا كأمثلة حية لذلك.

وإذا كان لدى القوتين العظميين أسبابهما التى تدفعهما لتدمير ترساناتهما من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية حيث يعانى كلاهما من زيادة ضخمة فى موازنات الدفاع لا قبل لهما بالاستمرار فيها مع حالة الركود التى يمر بها الاقتصاد العالمى، وفى الوقت الذى يشعر فيه الغرب بالقلق الشديد إزاء المخزون



الروسى الهائل لأسلحة بيولوجية فائقة التقنية وإزاء القدرة المؤكدة لأفراد مؤسسته العسكرية على استخدامها بمهارة عالية، فإن الروس - على الجانب الآخر - ينتابهم الهلع من الانتاج الأمريكى الحديث نسبيا لأسلحة بيولوجية مزدوجة التأثير ويعزز من الشعور الروسى بهذا تقسيم الاتحاد السوفييتى إلى دويلات متباينة السياسات والاستراتيجيات، ومن ثم اختفاء القوة العظمى الثانية من على الخريطة الدولية وبزوغ ما يسمى بعالم أحادى القطب.

ومثلما كانت أوروبا - وعلى مدار الأعوام الأربعين التى أعقبت الحرب العالمية الثانية - مسرحا خصبا لاحتواء مخزون الأسلحة التقليدية والنووية الأمريكية والروسية المراد التخلص منه.. تبدو الآن دول العالم الثالث مسرحا خصبا لاحتواء المخزون الأمريكى والروسى من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية المراد التخلص منها وهنا تكمن المعضلة الحقيقية ذلك أن الدول الكبرى - إلى حد ما - تتصرف بحرص وتتوخى الحذر لدى إقدامها على استخدام أسلحتها الكيماوية والبيولوجية لكن الدول الصغرى تسعى جاهدة لامتلاك وتطوير هذه الأسلحة لاستخدامها فى أى وقت وضد أى طرف معاد حتى لو كان ذلك الطرف - من وجهة نظرها - هو الشعوب الثائرة على حكومات تلك الدول.

ويتفاقم الوضع مع تجاهل دول غربية عديدة لاتفاقيات مبرمة تقضى بعدم مساعدة الدول النامية على تطوير قدراتها من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنتيجة المستخلصة تتمثل فى انتشار سلاح رخيص ومدمر فى أيدى العديد من دول العالم الثالث ذات الأنظمة غير المسئولة، وحيث تتمركز الجماعات الارهابية على اختلاف أهدافها وعقائدها. ومن هنا أطلق على الأسلحة البيولوجية بأنها قنبلة الفقراء الذرية الموقوتة التى تشكل كابوسا مخيفا سيظل جاثما على البشرية طوال القرن الحادى والعشرين ويتهددها بالفناء!.

الأسلحة البيولوجية.. أقوى أنواع أسلحة الدمار الشامل

تندرج الأسلحة البيولوجية تحت قائمة أسلحة الدمار الشامل (التى تضم بدورها الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية) وإن كانت أكثرها خطورة وأقواها دمارا.. وتتركز فكرتها الأساسية فى اطلاق كائنات مجهرية دقيقة للغاية مثل البكتريا والجراثيم والفيروسات والميكروبات السامة من معدات وأجهزة

مصنعة خصيصا لذلك الغرض بحيث تنشرها عبر الهواء فى أكبر مساحة جغرافية ممكنة، فيستنشقها الناس أو تتغلغل داخل أجسامهم عبر مسام الجلد ومن مختلف الفتحات أو يلتهمونها مع الطعام الفاسد أو يشربونها مع المياه الملوثة فتصيبهم فى مقتل! . وخلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة أصبح متوفرا ٣٩ نوعا من تلك الكائنات المجهرية الدقيقة بعضها قديم وعاد إلى الظهور مرة أخرى مثل فيروس الجدرى (سمول بوكس) وفيروس (التيفوئيد) وبعضها جديد تماما مثل فيروسات (ايبولا) و(الهانتا) وحمى (اللاسا) و(الماربورج) والبعض الثالث نجح العلماء فى تخليقه مثل بكتريا (التلريات) على أن أشهر أنواع تلك الكائنات وأكثرها خطورة هى:

– البكتيريا المسببة لمرض الجمرة الحمراء (انتراكس).

– البكتيريا المسببة للطاعون (بليج).

– الفيروس المسبب لمرض القرد الأخضر (ماربورج) ومن بين الأعراض المصاحبة له النزيف الدموى وليس له علاج حتى الآن.

– بكتيريا (الترليات) المسببة لمرض حمى الأرانب (تولاريما) وتصاحبه أعراض فقدان الوزن إلى حد الهزال وارتفاع شديد فى درجة الحرارة وهذيان وآلام مبرحة فى الرأس.

– البكتيريا المسببة للتسمم (بوتوليزم) الناجم عن تناول أطعمة فاسدة أو استنشاق هواء ملوث ويحدث خللا فى الجهاز التنفسى وشللا تاما.

– الفيروس المسبب لمرض (أيبولا) وهو مرض مميت يصاحبه نزيف دموى من كل فتحات الجسم البشرى وليس له علاج حتى الآن.

ويذكر أن تخليق البكتريا معمليا يعد أسهل بكثير من عملية تخليق الفيروس.

والتأثير المميت الذى تحدثه مثل تلك الفيروسات والبكتيريا يعادل تأثير المواد شديدة السمية فكمية صغيرة (٠٧٧. أوقية) من بعض أنواع البكتريا المعش تتسبب فى تكوين سحابة قاتمة ارتفاعها ٣٢٥ قدما تغطى ستة أعشار الميل وتؤثر على آلاف البشر، كما أن جراما واحدا من فيروس (التيفوئيد) يتم صبه فى مجرى مائى يمكن أن يلحق ضررا يعادل الضرر الناجم عن أربعين رطلا من مادة السيانيد السامة.

ووفقا لمصادر عليمة فى أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية، توجد

حاليا قائمتان فى مجال الأسلحة البيولوجية.. الأولى تضم دولا من المرجح أنها تمتلك مثل تلك الأسلحة أو تعكف على تطويرها. وتندرج تحت تلك القائمة ١٢ دولة وهى: اسرائيل وروسيا والصين وتايوان وايران والكوريتان وفيتنام والولايات المتحدة وميانمار (بورما سابقا) وسوريا والعراق وليبيا وهناك قائمة أخرى تضم ١٨ دولة تسعى لامتلاك مثل تلك الأسلحة - ما لم تكن قد نجحت بالفعل فى امتلاكها - وهى أفغانستان والأرجنتين وشيلى وتشاد والهند وباكستان وبيرو وجنوب أفريقيا وتايلاند وكوبا والسلفادور ولاوس وكازاخستان وجواتيمالا وموزمبيق ونيكاراجوا والفلبين والسودان.

وفى معرض المقارنة بين موسكو وواشنطن فى هذا الصدد.. تشير أحدث البيانات الرسمية إلى أن مخزون روسيا من الأسلحة البيولوجية يتراوح بين ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف طن فيما لا يتجاوز المخزون الأمريكى من الأسلحة البيولوجية خمسين ألف طن.

الأسلحة البيولوجية.. أسوأ موروثات القرن العشرين

وواقع الأمر فإن استخدام الدول للأسلحة البيولوجية يعود إلى أوائل القرن العشرين. فعلى الصعيد الدولى استخدمته إيطاليا ضد اثيوبيا فى أواخر الثلاثينات كما استخدمته اليابان ضد الصين فى أوائل الأربعينات واستخدمته ألمانيا ضد قوات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، واستخدمته الولايات المتحدة ضد فيتنام خلال الستينات فيما استخدمه الاتحاد السوفييتى السابق ضد أفغانستان فى الثمانينات. وعلى الصعيد الإقليمى، تعد دول الكتلة الشيوعية سابقا أكثر الدول استخداما للسلاح البيولوجى حيث استخدمته حكومة جورجيا لقمع المظاهرات المناهضة خلال أبريل ١٩٨٩ واستخدمته قوات الشرطة الرومانية السرية لقمع المظاهرات خلال ديسمبر ١٩٨٩.. وعلى صعيد الجماعات الارهابية استخدمته طائفة الحقيقة السامية (أوم شرينكو) اليابانية خلال مارس ١٩٩٥ ضد ركاب مترو أنفاق طوكيو كما استخدمه فصيل ارهابى تابع للجيش الأحمر اليابانى ضد ركاب مترو أنفاق باريس فى التسعينات.

وعلى مدار القرن العشرين كانت القائمة التى تضم الأسلحة البيولوجية محدودة ومعروفة لكل الدول - المهاجمة والمدافعة على حد سواء - وظل الأمر كذلك حتى عقد الثمانينات فإذا بالقائمة تتسع

الأسلحة البيولوجية



جنديان يلبسان الكمامات استعداداً لأى هجوم بيولوجى محتمل

وتتنوع لتشمل أعدادا وفيرة من الجراثيم والبكتريا والفيروسات، المكونات الأساسية اللازمة لانتاج الأسلحة البيولوجية - وإذا بتلك الأسلحة تتحول من خط دفاعى أولى إلى قوة ردع أخيرة، ويعزى ذلك أساسا إلى الانجازات السريعة والمتلاحقة التى شهدها عقدا الثمانينات والتسعينات فى علوم الكيمياء الحيوية والهندسة الوراثية، والتى لم يقتصر استغلال نتائجها - للأسف الشديد - على القطاع المدنى كما كان منشودا، بل امتد ليشمل القطاع العسكرى وليتم عبرها انتاج جيل جديد من الأسلحة البيولوجية ذات القوة التدميرية الهائلة.

ففى نوفمبر من عام ١٩٧٢ أجرى عالمان أمريكيان هما هربرت بوير وستانلى كوهين تجارب رائدة فى مجال هندسة الجينات أحدثت بالتبعية ثورة فى طبيعة الحرب البيولوجية.

ويذكر أن كل كائن حى يحمل معه بيانات وراثية معينة تنتقل من جيل إلى آخر من خلال جيناته. ولكل خلية فى جسم

الانسان نواة تحتوى على جزيئات من مادة كيماوية معقدة تسمى الديوكسيريبونيوكليك) وتعرف اختصارا بمادة (دى. ان. ايه) - فيما عدا كرات الدم الحمراء التى تخلق من النواة - وهذه المادة هى السبب الرئيسى فى التباين الرهيب فى صفات وخصائص الكائنات الحية وهى المسئولة عن توجيه أنشطة الخلايا، وعندما تنقسم الخلية تحدث شبيها مماثلا لها يعرف باسم الصورة الجينية الكاملة لمادة (دى. ان. ايه) ويحدث هذا لكل الكائنات الحية من الفيروسات حتى الكائنات البشرية.

ولقد استباح العلماء حرمة هذه المادة الوراثية بمقصاتهم ومشارطهم بالقطع تارة وباللصق تارة أخرى، بل وتمكنوا من إعادة تركيبها فاستطاعوا بذلك قراءة شفرة كل جين والتعرف عليها ومن ثم تصنيعها داخل المعامل.. وتعدى الأمر إلى حد عزل الجينة واستئصال مادة الـ (دى ان ايه) منها ثم إعادة انتاجها وادخالها فى كائنات دقيقة كالبكتيريا.. ونظريا فإن الهندسة الوراثية تسمح للعلماء بعزل مواد سامة معينة وجعلها حية بهدف توجيهها للإنسان وإحداث التأثيرات المطلوبة وعلى سبيل المثال يمكن لصانعى الأسلحة البيولوجية وضع مثل هذه المواد السامة داخل قذائف مصممة بشكل معين ثم تصويبها ناحية الهدف المنشود.

ونتيجة لاستشعار العالم بمدى الخطورة التى تمثلها تلك الأسلحة الفتاكة والمميتة.. أقدمت ١١٢ دولة على إبرام معاهدة دولية فى عام ١٩٧٢ تحظر انتاج وتطوير واستخدام وتخزين وامتلاك الأسلحة البيولوجية وكذلك المعدات والأجهزة المصممة لاستخدام تلك الأسلحة لأغراض قتالية.. وفى مقدمة الدول الموقعة على تلك المعاهدة يأتى الاتحاد السوفييتى السابق والولايات المتحدة الأمريكية القوتان العظميان العالميتان. ومع حلول منتصف عام ١٩٩٦ أصبح عدد الدول الموقعة على تلك المعاهدة ١٣٧ دولة.. غير أن تحفظات عديدة تجرد تلك المعاهدة من أى معنى أو أهمية.

فالأسلحة البيولوجية - عمليا - لا يمكن توصيفها كالمدفع والبندقية والطائرة والصاروخ.

كما أن المواد الخام اللازمة لانتاج تلك الأسلحة يمكن تصنيعها عبر مختلف الشركات الكيماوية المتخصصة فى إنتاج الأدوية والبويات والجلود وغيرها.. وتلك الأسلحة زهيدة الثمن خلافا للأسلحة التقليدية الثقيلة كالصواريخ والدبابات والغواصات ومن ثم فإن أية دولة أو جماعة - بل أى شخص - يستطيع اقتناءها بسهولة.

وفضلا عن ذلك فإن عمليات



شحنها ونقلها عبر حدود الدول يتعذر مراقبتها أو كشفها - إن لم يكن مستحيلا - حيث يمكن لشخص ما بمفرده أن ينقلها داخل حافظة نقوده أو جيب معطفه بل حتى فى علبة سجائره!

المعركة البيولوجية انقلاب جذري في المفاهيم والعقائد القتالية

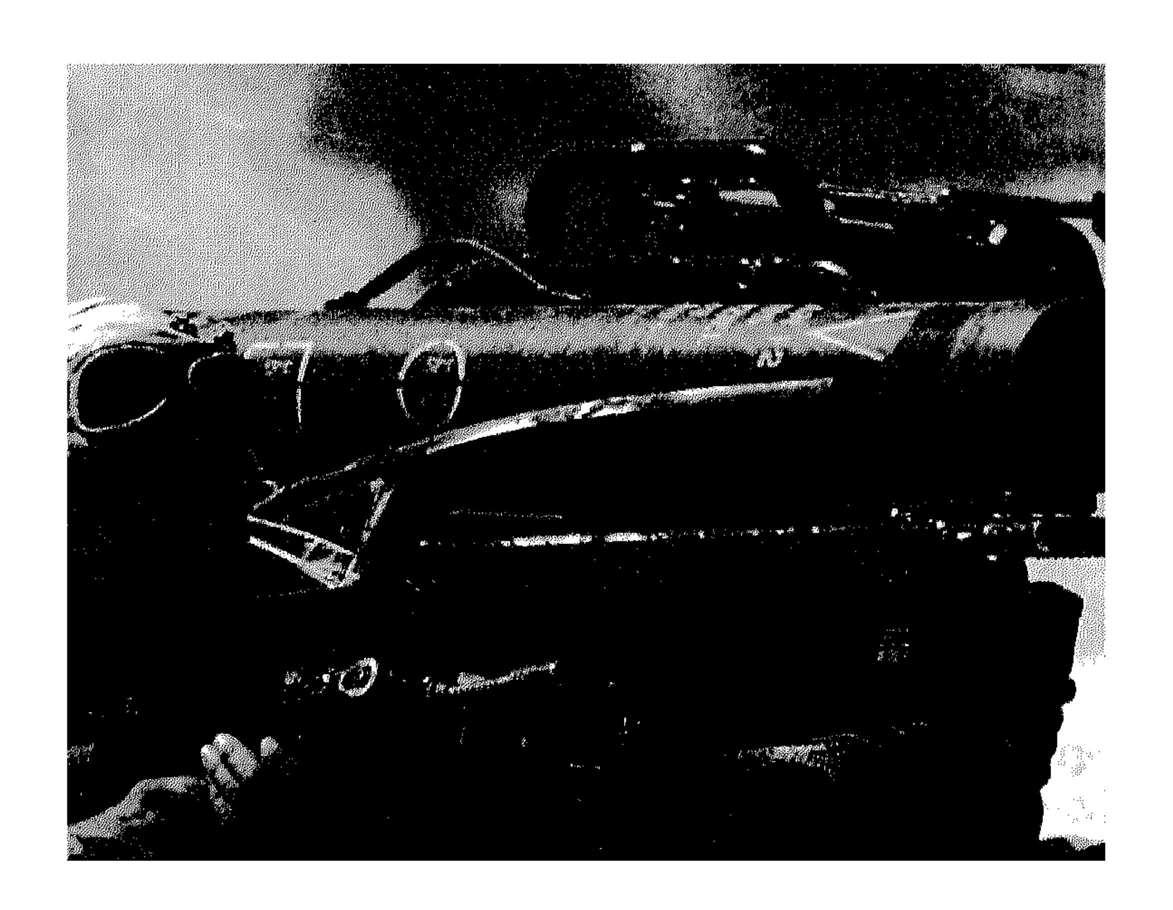
وتكمن خطورة الأسلحة البيولوجية فى قدرتها التدميرية واسعة النطاق حتى أن عدد الضحايا المقدر سقوطه فى حال اندلاع حرب بيولوجية سيفوق اجمالى العدد الذى سقط خلال الحروب التى اندلعت على مدار التاريخ المعاصر عالمية كانت أو اقليمية نووية أو كيماوية! .

وخلافا للحروب التقليدية فإن الحرب البيولوجية تدور بين طرفين أحدهما جلى والآخر خفى.. فالعدو هنا مجرد كائنات حية متناهية الصغر لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة غير أنها شرسة وفتاكة لا تعرف معنى الهدنة ولا توقع على اتفاقيات وقف اطلاق النار!.

والمعركة البيولوجية هى معركة خارجة عن إطار الزمان والمكان فليس ثمة جبهة قتال معينة بل الساحة مفتوحة على مصراعيها ، وليست ثمة فترة زمنية محددة يمكن تأريخها بداية أو نهاية للمعركة ذلك أن الدولة التى تتعرض لهجوم بيولوجى لا تدرك حدوث ذلك فى أغلب الأحيان والفترة الزمنية التى تحتاجها - لاكتشاف ذلك على ضوء سقوط وفيات وظهور أعراض مرضية مماثلة على عدد كبير من المواطنين ، ومن ثم الشروع فى إزالة الآثار الناجمة من خلال علاج المصابين وتنظيم حملات تطعيم وقائية - فترة بغير منتهى ويستحيل خلالها الجزم بكسب المعركة أو خسارتها! .

ويزيد من خطورة الموقف أن مواجهة الأسلحة البيولوجية يتطلب من المدافعين ارتداء ملابس وأقنعة واقية وتلك فى حد ذاتها مشكلة أخرى فوفقا للخبراء العسكريين فإن ارتداء مثل تلك الملابس والأقنعة الواقية تقلل من فعالية أداء القوات وتشل حركتها على نحو يماثل دخول الجندى إلى ساحة القتال ويده مربوطة خلف ظهره.. وتؤكد الدراسات أن معدل أداء الجندى ينخفض بنسبة خمسين فى المائة بعد ست ساعات من ارتداء الملابس والأقنعة الواقية، وكلما طالت المدة انخفضت معدلات الأداء حتى يفقد الجندى تماما قدرته على الصمود والقتال مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الظروف المناخية التى تدور فيها المعركة وفى مقدمتها درجات الحرارة وسرعة الرياح.





الأسلحة البيولوجية لها قدرة تدميرية هائلة قد تفوق الأسلحة النووية والكيميائية

على أن الدور الريادى فى إدارة هذه الحرب سيكون موكلا - أغلب الظن - إلى المؤسسات المدنية وليست العسكرية - كما جرت العادة - فجنود الحرب البيولوجية هم أساتذة الطب البشرى والشرعى والكيمياء الحيوية والأخصائيون فى علوم الأمراض والأوبئة (الباثولوجيون) وخبراء البيئة والممرضون بل وحتى قائدو سيارات الاسعاف، جميعهم هنا أهم من العسكريين وهو ما يشكل فى حد ذاته صراعا من نوع آخر يدور خلف الكواليس بين أفراد المؤسسات المدنية والمؤسسة العسكرية التى لم يتعود أعضاؤها من قبل على التنحى عن دور القيادة لدى نشوب حرب أو تلقى الأوامر من المدنيين!.

وإجمالا يمكننا القول بغير تجاوز أن الأسلحة البيولوجية كفيلة بإعادة تغيير شكل جبهات القتال مستقبلا. فيما تتطلب حتما إعادة صياغة الاستراتيجيات العسكرية والتكتيكات الحربية والعقائد القتالية برمتها. ■

دراسة

ماذا نعلم أطفالنا

فى القرن الحادى والعشرين؟



بقلم
د.شبل بدران

إذا كان نظامنا التعليمى منذ نشأته الأولى قد ارتبط بالنظام السياسى، وكان أداة ناجحة فى تحقيق الطموحات الوطنية عبر فترات تاريخية طويلة، فإننا اليوم فى أمس الحاجة إلى تطوير جذرى فى بنية النظام التعليمى، ولاسيما البنية المعرفية ، بما يحقق مطالبنا الاجتماعية فى تكوين أجيال قادرة على إعمال العقل، ومؤمنة بأهمية التطور الاجتماعى ومتسلحة بمعارف وعلوم ليست جامدة ولا ساكنة.

والسؤال الآن، ما الذى يجب أن يتعلمه أبناؤنا فى الألفية الثالثة؟ وفى ضوء التحديات المحلية والاقليمية والعالمية، وفى ظل نظام رأسمالى عالمى جديد / قديم، يسعى نحو السيطرة والهيمنة على كافة مقدرات شعوبنا، وما هى المعارف والقيم والمهارات والخبرات اليومية والقدرات التى يجب أن يكتسبها طلاب الألفية الثالثة وعصر المعلومات؟ وثورة الاتصالات!

☆ أستاذ ورئيس قسم أصول التربية - كلية التربية جامعة الاسكندرية

ماذا نعلم أطفالنا

فى القرن الحادى والعشرين؟

يجدر بنا الآن قبل الخوض فى التعرف على ماذا يتعلم أبناؤنا الآن فى المدرسة فى ضوء التحديات التي تواجهنا والتى تتطلب بناء جديداً لشخصية المواطن المصرى، تنطوى على الاعتزاز بالوطن وقيمه وتراثه وعقيدته والعمل من أجل تنميته بإعمال فكره الواعي الناقد والمبدع، فى ضوء كل ذلك يجب علينا الآن أن نتعرف أولا على ملامح النظام التعليمي المصرى - واقع التعليم لأن هذه الملامح تساعدنا بشكل أساسي وجوهرى فى رسم صورة المستقبل من خلال التعرف على مناهجنا الدراسية الحالية.

ملامح النظام التعليمى

إن الواقع المعيش يشهد أزمة فى النظام التعليمي، وتتجلى تلك الأزمة فى مظاهر عديدة: منها، المعلم وكيفية إعداده وتكوينه وتدريبه، الابنية المدرسية وعدم صلاحيتها للقيام بالعملية التعليمية والعجز القائم فيها، ٢٧ ألف مدرسة تتطلب أكثر من ١٠٠ مليار جنيه، وكذا الادوات والتجهيزات المتاحة فى المدرسة، ويأتى على رأس تلك المظاهر، أزمة المناهج الدراسية والمقررات الدراسية والتى تحمل فى طياتها العديد من القيم والأفكار العاجزة عن التعامل مع الواقع أو التحديات التى تواجهنا.

إن نظام التعليم الحالى غير قادر على تكوين وبناء شخصيات حرة ناقدة قادرة على إستخدام العقل والمنهج العلمى فى التفكير والبحث، وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة المعرفة المقدمة للطلاب، وإلى اعتماد نظام التعليم التلقينى - التقليدى - القائم على حشو الاذهان بمعارف وعلوم لا علاقة لها بالواقع المعيش، فما يدور فى الواقع من قضايا ومشكلات وتفاعلات مغاير تماماً لما يقدم لطلابنا من خلال مناهجنا الدراسية.

والحديث عن قضية التلقين لا يتم ببساطة، فهى قضية ذات بعد سياسى بالدرجة الأولى، فثمة معلومات ومعارف توضع فى مناهج ومقررات دراسية - حسب المراحل الدراسية المختلفة - وضعها مختصون تم اصطفاؤهم واختيارهم بمعرفة القائمين على هذه المؤسسة التعليمية، فالذين يضعون المناهج الدراسية، يضعون معرفة محددة، معرفة معلومة سلفاً، فهم يختارون من التاريخ أشياء ويركزون على فترات محددة، ويهملون مراحل تاريخية عن عمد وقصد.

إذن فالمعرفة المقدمة للطلاب لتشكيل وعيهم معرفة محملة بمضامين أيديولوجية لهؤلاء الذين وضعوها، وهى تعد بشكل انتقائى ومنحاز من قبل واضعيها والمستفيدين منها، كما أن المعلم يعد فى نفس السياق بتقنيات وطرق تجعله معلماً تلقينياً، لا معلماً



محركاً وباعثاً للوعى ومتفاعلاً ومبتكراً .

ولعل القراءة السريعة لنظام التعليم المصرى منذ نشأته الأولى وإلى الآن تدلنا على أنه إلى جانب اعتماده على التلقين وتنمية الذاكرة الصماء مبتعداً عن تنمية ذاكرة الابداع، فإن عملية ادارته وتطويره تتم من خلال تصور هرمى للإدارة المدرسية والتعليمية، ويبدأ من الوزير وينتهى بالمعلم داخل جدران الفصل وفى المدرسة، نظام تكون فيه آلية صدور القرارات من أعلى إلى أسفل وفى اتجاه واحد، وتهميش وتغييب دور القاعدة المتمثلة فى الطلاب وأولياء الامور وحتى المعلمون أنفسهم.

إن نظام التعليم يقوم على أحادية الفكر والتوجه، وكذلك احادية فى المعرفة الانسانية وتوزيعها على الطلاب بطريقة غير عادلة فى أنواع عديدة من المدارس، حيث تسود معارف وثقافات النخب على حساب الثقافات الشعبية، وفى ظل التعددية السياسية والليبرالية الاقتصادية وثورة المعرفة والاتصالات لم يعد هذا النهج مقبولاً ، من حيث تسييد ثقافة طبقة أو فئة على بقية الطبقات الاخرى فى المجتمع، وذلك يؤكد عدم قدرة النظام التعليمى الحالى على الاستجابة للمتغيرات فى الواقع.

تفعيل دور المدرسة

إن النظام التعليمى المناط به كمؤسسة اجتماعية مجتمعية وجدت بقصد تحقيق أهداف وغايات المجتمع فى ضوء المتغيرات العالمية الجارية، العديد من المهام، لعل أبرزها تكوين وتشكيل الوعى والذهنية، لذا كانت المدرسة هى البنية المجتمعية التى تنعكس فيها كل تلك الرؤى. ولقد شهد المجتمع المصرى خلال العقد الأخير العديد من الطروحات حول تفعيل دور المدرسة فى تكوين وبناء شخصيات مسلحة بالعلم وسعة الافق والقدرة على التفكير النقدى وطرح التناقضات، ولقد قامت وزارة التربية والتعليم خلال العقد المنصرم بعقد العديد من المؤتمرات «القومية» التى كانت تسعى فى جوهرها إلى تطوير منظومة التعليم فى مراحله المختلفة، وعلى مستويات متعددة، بدءاً بتكوين المعلم وتدريبه، وإعادة النظر فى المناهج الدراسية لمرحلة التعليم الابتدائى والاعدادى ولقد تم بالفعل تغيير الكتب الدراسية لتلك المناهج خلال السنوات الخمس الماضية، إلا أننا فوجئنا بتصريحات السيد الدكتور وزير التربية والتعليم (الأهرام ٢٠٠١/١/٢٦) بتكوين لجنة عليا لمراجعة المناهج الدراسية التى لم يمر عليها عام أو عامان ويصرح بأنه: لايمكن الاستمرار فى الاصرار على اعطاء أبنائنا كماً معرفياً أكبر من قدرات عمرهم، وأن البديل أمامنا هو تسليحهم بمفاتيح المعرفة والخبرات والقدرات والتحليل والبحث عن المعلومة ومهارة الربط بين الاشياء، لأن إصرارنا على أن نعطيهم كماً معرفياً والجمود أمام تلك التطورات والمستحدثات العلمية هو نوع من السباحة ضد التيار. وأضاف الدكتور وزير التربية والتعليم أن الكم المعرفى الذى يدرس حالياً لابنائنا يجب أن يعاد النظر فيه حيث أصبحت الاسرة المصرية تشعر بقسوة ووطأة التعليم على أطفالها، وقد آن الأوان أن نعيد البسمة للطفل المصرى وأن نعيد

ماذا نعلم أطفالنا

فى القرن الحادى والعشرين؟

إلى أولادنا طفولتهم المفقودة». (الاهرام ٨/٢/٢٠٠١).

لجنة عليا للمراجعة

والنتيجة المنطقية المستخلصة من حديث الدكتور وزير التربية والتعليم فى هذا السياق أن ما تم لم يكن يعبر عن الصورة الحقيقية، وأن ما تم قد أخفق فى تحقيق الاهداف، من هنا لزم الامر تكوين لجنة عليا للمراجعة ولكن المؤسف أن ما تم قد تم بناء على تشكيل لجان وليس لجنة واحدة عليا .. ونخشى أن نصل إلى ذات النتيجة بعد خمس سنوات، وذلك يؤكد أن تطوير المناهج الدراسية من خلال مؤتمرات «قومية» ولجان عليا، لايؤدى إلى نتائج علمية أكيدة، لانه يغلب على تلك المؤتمرات الطابع السياسى المتضمن رفع شعارات ساكتة، وتشكيل لجان بهدف ملء الفضاء التربوى بحديث عن التطوير. إن الملاحظ على معظم الكتب الدراسية وجود أسماء معينة تتكرر فى المراحل الدراسية، فمثلاً بالنسبة للدراسات الاجتماعية لمرحلة التعليم الاساسى (الابتدائى والاعدادى) من الصف الرابع إلى الثالث الاعدادى نجد اسم عضو هيئة تدريس وزوجته بجامعة عين شمس يؤلف لتلك المرحلة وهو فى نفس الوقت يشغل منصب نائب مدير مركز تطوير المناهج ومناط به عملية المراجعة، وهكذا القصص والروايات تشير بأن عمليات التطوير تلك شكلية أكثر منها جذرية، كما أن عمليات التطوير تقتصر على الجانب المادى فى إستيراد أجهزة كمبيوتر وحاسبات دون تنمية وتدريب للبشر الذين سيتعاملون مع تلك الاجهزة .

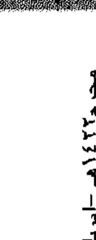
التمويل ، فمن ملامح نظامنا التعليمى عجز الموارد المالية المخصصة له للوفاء بحاجات الافراد والمجتمع، فعلى الرغم من أن ميزانية وزارة التربية والتعليم تربو على ١٨ مليار جنيه سنويا - أكثر من ٨٠٪ منها مرتبات ومكافآت - الا أن الاحتياج الحقيقى يصل إلى ٢٥ مليار جنيه سنوياً ، كما أن العجز فى الابنية المدرسية والمقدر بحوالى ٣٠ ألف مدرسة فى حاجة إلى ١٠٠ مليار جنيه وأن الدولة لا تستطيع الا الوفاء بثلث هذا المبلغ ولذا لجأت إلى رجال الأعمال وآليات السوق فى إتاحة التعليم كمشروع إستثمارى وهناك توجه إلى بناء ٣ الاف مدرسة سنوياً وتقدر مصروفاتها الاولية بثمانية الاف جنيه تدفع مرة واحدة فى بداية الالتحاق ومصروفات سنوية تقدر بحوالى ألفى جنيه مصرى، وان تلك النوعية من المدارس ستقدم تعليماً راقياً يصل فى مستواه إلى التعليم الاجنبى فى الدول الاجنبية، ولعل التصريحات الرسمية خلال الشهرين المنصرمين تؤكد ذلك وتهيىء المجال والفضاء السياسى والتربوى بقبول تلك الآراء .

توجه لخصخصة التعليم

ففي جريدة الوفد (٢٠٠١/١/٣١) يؤكد الدكتور وزير التربية والتعليم أن الدروس الخصوصية دخلت «السوق السوداء» وأن هناك توجها لخصخصة التعليم التي تبدأ بـ ٣ آلاف مدرسة وفي تصريح للدكتور الوزير في جريدة (الاهرام ٢٠٠١/١/١٢) تشكيل لجنتين تضمان مختلف القوى الوطنية لبحث سبل تمويل عمليات تطوير التعليم، وفي تصريح آخر في جريدة الوفد (٢٠٠١/١/٢١) يؤكد سيادته وجود فجوة شديدة في الدعم الحكومي لتمويل التعليم حيث يعترف سيادته بتدني الانفاق على الطالب المصري مقارنة بالنسب العالمية، وأوضح الدكتور الوزير أن ما ينفق على الطالب المصري يبلغ ١٥٠ دولاراً مقابل ٥ آلاف و١٢ ألف دولار في الدول الأوروبية.

كل ذلك يدعم أن الدولة في طريقها إلى خصخصة مدارسنا وترك التعليم لآليات السوق، وذلك يأتي في نفس الوقت الذي نعلن فيه صباح مساء بأن التعليم قضية أمن قومي والمشروع الاكبر لمصر، وأن الاستقرار الاجتماعي وتماسك هوية الوطن لن يكون الا من خلال نظامي تعليمي قادر على ذلك، وأن التحديات العالمية والمحلية تستلزم منا الاهتمام بالتعليم بوصفه أحد أهم روافع التنمية والتقدم ومواجهة تلك التحديات، وذلك الأمر لا يخصنا وحدنا، بل أن الولايات المتحدة الامريكية زعيمة النظام الرأسمالي العالمي وصاحبة أكبر قوة ونفوذ وهيمنة في عالمنا المعاصر، تعطي التعليم أولوية قومية فوق كل الاولويات حيث نجد الرئيس الأمريكي المنتخب جورج بوش في يناير ٢٠٠١ يطالب الكونجرس الامريكي إعطاء أولوية خاصة لقرارات تطوير التعليم وذلك حتى يمكنه أن يحقق بعض وعوده الانتخابية في أقرب فرصة ممكنة، ولقد اختار الرئيس الجديد موضوع تطوير التعليم الذي يحظى بتأييد قيادات الحزب الديمقراطي لتفادي المواجهات التي يمكن أن تحدث عند مناقشة تخفيض الضرائب الامريكية بمقدار ١,٣ تريليون دولار، ولقد طالب الرئيس الامريكي الجديد جورج بوش باعتماد مبلغ ٤٧ مليار دولار لتطوير التعليم في الولايات المتحدة، أليس لنا في ذلك عبرة وعظة ؟

إن عملية تطوير المناهج الدراسية في نظامنا التعليمي بالصورة الشكلية التي تتم بها، ومن خلال لجان عليا الهدف منها وجود زخم إعلامي يملأ الفضاء التربوي بأحاديث التطوير، لن تجدي كثيراً ، لأن الحادث أن هناك تطويراً مادياً في شراء أجهزة تكنولوجية قبل إحداث التطوير والتنمية البشرية، وأن صناعة المناهج في مصر يحتكرها قلة من البشر تدربوا على مهارات الحفظ والتلقين منذ سنوات. إننا في حاجة إلى ثورة حقيقية في تطوير مناهجنا الدراسية، لنحدد ماذا نعلم لأطفالنا في الألفية الثالثة؟، ومن هم القادرون على تحديد المعارف والعلوم والقيم وأنماط السلوك في ظل التحديات العالمية المشار إليها آنفاً. ■



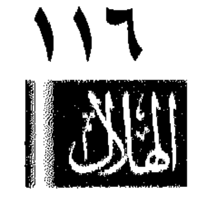
حرية الكلام في العصر الرقمى

كيف تراقب الحكومات الإنترنت؟

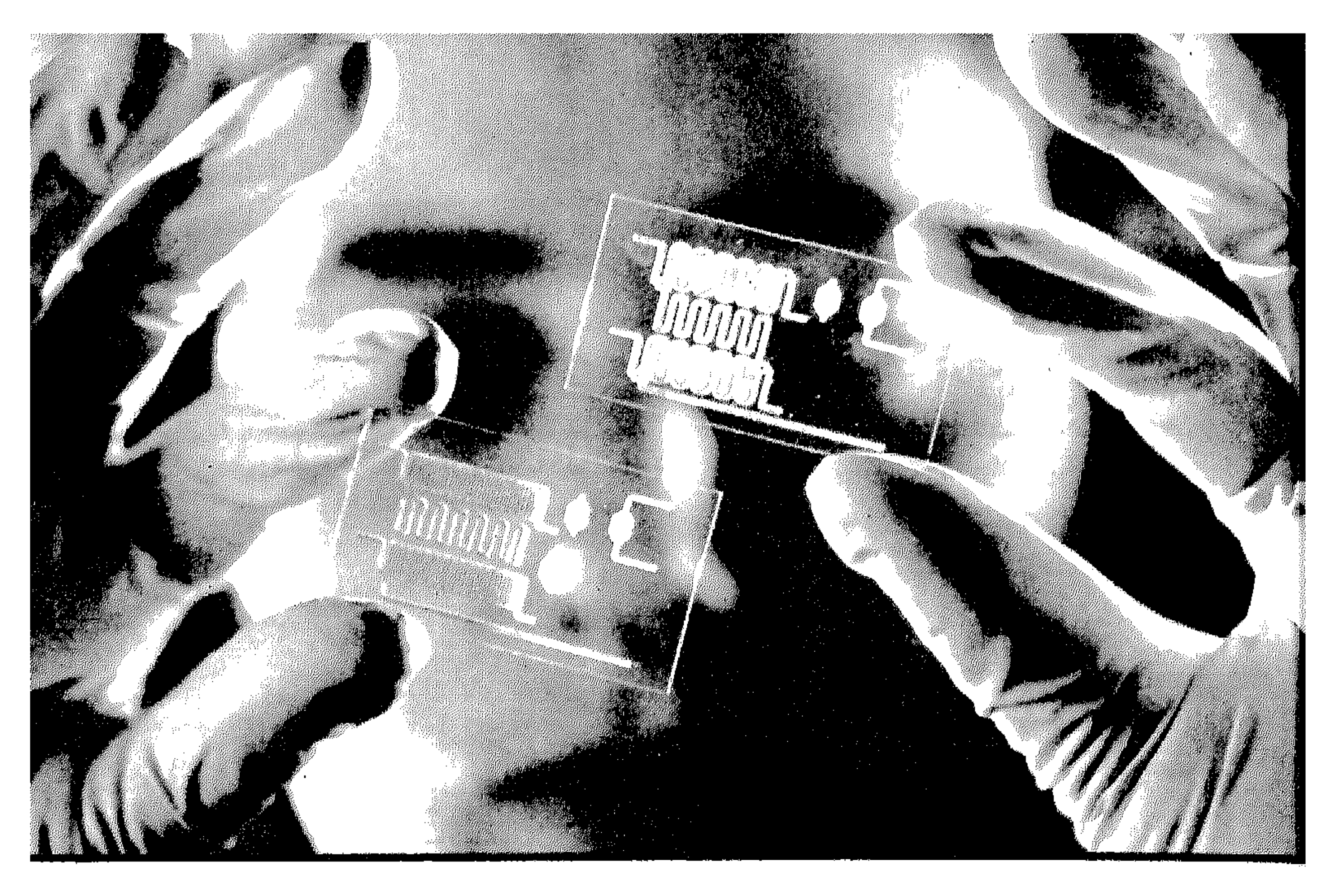
بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت يضمن ويدعم الديمقراطية ؟!

النقاد والسياسيون على حد سواء مغرمون جداً بهذا الادعاء ، لكنه بديهية فارغة وخطيرة فى نفس الوقت فعلاً لدى الإنترنت نزعة وميول ديمقراطية قوية . فهى منتدى وساحة شاسعة تشجع العديد من الناس على التفاعل مع بعضهم البعض، فالشبكة تجعل من الممكن للمواطنين حول العالم المشاركة على الملأ فى حوار عام . وهيكلها وبنيتها غير المركزية يساعد الأفراد على تجنب وتجاوز كل بوابات الرقابة والتحكم فى تدفق المعلومات والسلع . وبحكم طبيعة الإنترنت ليس لها مالك أو ملاك يملكون البروتوكولات التقنية التى تجعل عمل الشبكة مقيداً بأغراض حكومية أو يتحكمون فى درجة المصارحة والشفافية .



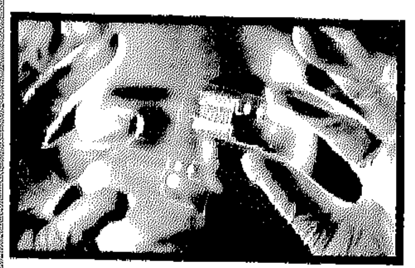
ومع ذلك فان هذه الميزات التى توفرها الإنترنت يمكن التحكم فيها وتحديدها بواسطة شفرة وكود من خلال برامج معينة يتم من خلالها حجب ماهو غير مرغوب . وباختصار ستكون التكنولوجيا، فى قلب صراعات السلطة المتنوعة فى العصر الرقمى. ولا يجب أن نكون مندهشين لرؤية الحكومات والهيئات تحاول أن تكود وتشفر الشبكة لحفظ سلطتهم أو أرباحهم . لكن



التشفير والتكويد ليس كل شيء ، حتى إذا أمكن أن نغلق ونتحكم ونلغى المميزات الديمقراطية للإنترنت ، فإن التأثير السياسى الأساسى لهذه التكنولوچيا (أو أى تكنولوچيا أخرى) يعتمد على ثلاثة عوامل أولها التصميم التقنى للتكنولوچيا نفسها، ثانيا طريقة ومقصد استعمال التكنولوچيا ، ثالثا البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية التى تنتشر فيها تلك التكنولوچيا . فالتصميم والاستعمال والبيئة ، تستطيع من خلالها الإنترنت أن تقمع الديمقراطية، وأيضاً يمكنها تنمية وترقية الديمقراطية.

هل الإنترنت يمكن أن تكون جنة المقهورين فى الأرض؟!

ربما ، تمكن الشبكة الأفراد أن يتحدثوا فى كل شيء، وتسمح لهم أن ينشروا رؤاهم فى كل مكان فى العالم من خلال عشرات الآلاف من الصحف الإخبارية الإلكترونية والبريد الإلكترونى، وتنشر أيضاً موسيقاهم من خلال الأشكال الجديدة لتخزين الموسيقى، وتسمح لهم بانشاء مواقع لهم يقولون فيها بصراحة أفكارهم وهواجسهم وعلى مدار الـ ٢٤. فالفوائد السياسية واضحة تماماً فى الإنترنت . فى ١٩٩٦، على سبيل المثال ، أعضاء المعارضة الصربية استعملوا الإنترنت لإذاعة برامج محطة الراديو المعارض للحكم ، والتى كان قد أغلقها الرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش. وانتشر صوت المحطة من الإنترنت حول العالم ، وفى بداية ١٩٩٩ مع حملات قذف حلف شمال الأطلنطى ، اضطر



حرية الكلام فى العصر الرقمى

ميلوسيفيتش تحت الضغط الدولى أن يعيد فتح المحطة .

المعارضة على الأنترنت

فى الصين ، لين هاى ، رجل أعمال يعمل فى برامج الكمبيوتر ، تلقى حكما لمدة سنتين بسبب استخدامه البريد الإليكترونى فى بث رسائل إلى ٣٠ ألف عنوان على الشبكة، إلى المعارضين والمنشقين خارج الصين ، ونشر عناوين بريدهم الإلكترونى فى مجلة إلكترونية على الويب تدافع عن الديمقراطية . وفى سابقة أدانتها جماعات حقوق الإنسان الدولية ، بدأت فى الصين لأول مرة هذه الأيام محاكمة مواطن انشأ موقعاً على شبكة الإنترنت، وكان هوان كى، الذى يبلغ السادسة والثلاثين من العمر قد اعتقل فى يونيو حزيران الماضى فى مدينة تشن دو جنوب غربى الصين حيث يحاكم حالياً بتهمة محاولة تقويض سلطة الدولة من خلال نشره مقالات على موقع الإنترنت الخاص به ، تتحدث عن انتفاضة عام تسعة وثمانين الداعية إلى الديمقراطية، ويذكر أن جميع المقالات التى أثارت غضب السلطات لم يكتبها المتهم ولكنها أرسلت إليه من قبل زوار الموقع الذى يتم إدارته من خارج الصين فى الوقت الحالى، وكان عدد من الصينيين قد تعرضوا للاعتقال سابقاً بسبب إرسالهم قوائم لعناوين البريد الإلكترونى إلى منظمات حقوق الإنسان خارج الصين. ويجدر بالذكر أنه بموجب قانون صدر فى ديسمبر الماضى فى الصين فإن النشاطات المعادية للدولة على شبكة الإنترنت تعد جريمة. ومن المعروف أن هناك إقبالا مرتفعاً على شبكة الإنترنت فى الصين أدى إلى مضاعفة عدد مستخدمى الشبكة ليصل إلى نحو سبعة عشر مليون نسمة . وفى بورما ، حيث كل التكنولوچيا التفاعلية تحت السيطرة ، مات واحد من مؤيدى حركة الديمقراطية فى السجن ، لأنه كان يستعمل ماكينة فاكس بدون رخصة.

والأمثلة السابقة لحكومات تستعمل الطريقة القديمة وهى القوة . لكن حتى بدون تدخل الحكومة ، فمنظر تكنولوچيا المعلومات الجديدة يوحى باختلاف حرية الكلام الديمقراطى التقليدى الذى نعرفه فالتفاخر بأن الإنترنت هى «سوق للأفكار» يفترض وجود منبر أو منتدى شعبى تذاع فيه الأفكار، ويحكم فيها على مصداقيتها، وليس على مصادرها . بالطبع الواقع فى الإنترنت مختلف تماماً وهناك مستويات مختلفة للوصول إلى هذا السوق يعتمد دائماً على وضع المتحدث ومكانته ومدى ثروته (على سبيل المثال ، ليس أى شخص فى قدرته أن يتحمل شراء الإعلانات لنشر رسالته عبر

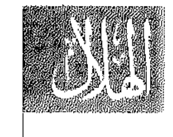
الويب)، علاوة على أن انتشار المعلومات وتكاثرها وانفجارها ، زاد من انتشار تكنولوچيات فلاتر وترشيح المعلومات ، وأصبح سوق الكلام فى الانترنت أكثر وحشية. وأصبح من المحتمل حتمية دفع مقابل مادى حتى يسمعك العالم بحرية . وفى عالم اليوم حيث يكون الانتباه نادرا بشكل متزايد ، فقدت فى فضاء الإنترنت (السيبرسباس) أصوات الكثير من المستفيدين المبكرين للإنترنت سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات صغيرة لا تربح من الإنترنت مثل محطات الإذاعة والموسيقى، التقليدية أو كوابل القنوات العامة كلهم غرقوا فى مزايدات من يدفع أكثر.

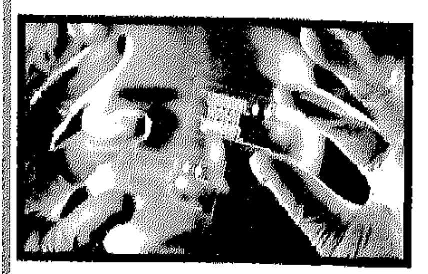
هل تستطيع الحكومات فرض سيطرتها على فضاء الإنترنت (السيبرسباس) ؟!

نفكر مرة ثانية . منذ عدة سنوات ، مؤيدو حقوق الحرية فى السيبرسباس، والمبدعون لتقنيات الإنترنت حاولوا جاهدين أن يجنبوا الإنترنت من الالتزام بلائحة حكومية صارمة بدفع وتشجيع تلك التفاعلات الفورية العلى الخط On-line interactions والتى تحدث من على بعد بين الحدود البعيدة ، وبعيدة تماماً عن متناول يد الحكومات. ليس فقط لأن اللائحة الحكومية غير شرعية، بل يقولون ببساطة انهم لا يمكن أن يفعلوا ذلك ، كدفاع ضد الرقابة واحتراما لحرية التعبير، وهو نقاش ومجادلة ماهرة. لولا أن جزءاً كبيراً من هذا النقاش غير حقيقى!.

لمسة ماكرة للحكومات المتسلطة

فبالإضافة إلى استخدام يد حديدية فى التحكم فيما يعرضه الإنترنت ، فإن الأمم المتسلطة أخذت بشكل متزايد تتبنى لمسة سيلكون ماكرة أكثر لكى تتحكم فيما يمكن أن يقرأه مواطنوها أو يسمعوه من تلك التفاعلات الفورية العلى الخط فى الإنترنت، من خلال برامج الفلترة وبرامج المرشحات وبروتوكولات الاتصالات التى تعتمد على اختيار نطاقات اتصال معينة ، كل هذه اللمسات الإلكترونية تعاير محتويات الإنترنت وتضع عليها بطاقات الصلاحية أو عدم الصلاحية لتكون هناك إنترنت مرضى عنها من قبل الحكومات المتسلطة ، وهذا يجعل الرقابة الآن أسهل كثيراً من الرقابة فى العصر قبل الرقمى. فبدلا من مصادرة الكتب والنشرات سرا كما حدث أخيراً فى معرض الكتاب بالقاهرة، فالحكومات فى العصر الرقمى يمكنها ببساطة فرض رقابة على كل اتصالات الإنترنت عبر بوابة إليكترونية تعرف باسم (Proxy Server) وهى برامج خاصة تعترض سبيل المعلومات من بين المصدر والمستقبل لغرابتها ومنع استقبال مواد معينة .. تعمل هذه البوابات القوية كمناخل حديثة ، وتمنع أيضاً الهجوم الإلكترونى على مواقعها، لأن الإنترنت اليوم أصبحت إحدى الوسائل الجديدة فى الصراعات





حرية الكلام في العصر الرقمى

السياسية التى تدور فى عالمنا المعاصر ، فقد شهدت السنوات القليلة الماضية، محاولات دولية لاختراق شبكات حكومية فى مختلف دول العالم ، مثل المحاولات الروسية لاختراق شبكات الوزارات الأمريكية، والهجمات المتبادلة بين الصين وتايوان على الشبكات الحكومية فى البلدين فى محاولة للحصول على المعلومات السرية، وفى اليابان دعت الحكومة إلى عقد اجتماع طارىء لاتخاذ إجراءات أمنية لحماية أنظمة الكمبيوتر الحكومية بعد أن تعرضت للتخريب من قبل متسللين استطاعوا النفاذ إلى مواقع حكومية على شبكة الإنترنت، وفى حالتين أخريين انتقد المتسللون الموقف اليابانى الرسمى من تاريخ الحروب اليابانية فى الصين . كما تم محو بيانات مهمة من الموقع الحكومى تتضمن إحصائيات عن تعداد السكان، ولا يختلف الأمر كثيراً فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى ، الذى بدأ يأخذ أشكال حروب إلكترونية متعددة بين المواقع العربية ، والمواقع الإسرائيلية على الإنترنت.

بوابات الكترونية مغربلة

ونشر فى نيويورك تايمز ، وأذاعت CNN ان الصين تستعمل تلك البوابات الإلكترونية المغربلة لمنع الكثير من صفقات البضائع الأجنبية التى تسعى المواقع المعارضة والمنشقة إلى دخولها الأراضى الصينية ، أحياناً ، وسنغافورة فرضت على شركات خدمات إنترنت استعمال برامج الفلترة والمرشحات التكنولوجية لمنع مواقع معينة للبورنوجرافك (الصور والأفلام الإباحية) . ورغم ذلك بالطبع هناك دائماً طرق للتهرب من مثل هذه المكائد الإلكترونية، وتنجح فى تجنب البوابات المغربلة ، لكن النظم المتسلطة مع زيادة التدفق الحر للكلام عبر الإنترنت، وانتشار الحرية الرقمية مستبعد تماماً ان تستسلم بسهولة، والا ستفقد أهم صفة تميزها وهى التسلط.

حتى فى دول غربية ليبرالية وضعت لوائح للإنترنت تقاضى بها المتبلدين وفاقدى الإحساس والحياء، فى ١٩٩٧، على سبيل المثال ، حكومة بافاريا فى المانيا حاكمت فيلكس سوم، الرئيس المحلى لشبكة لكومبسيرف للخدمة الفورية Online service Compuservo ، لأن واحداً من المشتركين فى شبكة كومبسيرف استعملها للحصول على مواد إباحية غير قانونية ، على الرغم من أن شبكة كومبسيرف لم تنتج تلك المواد الإباحية ، ورئيسها وموظفوها لايستطيعون معرفة من يستعمل الشبكة للحصول على تلك المواد . ومع ذلك وجهت تهمة لفيلكس سوم بالاتجار فى

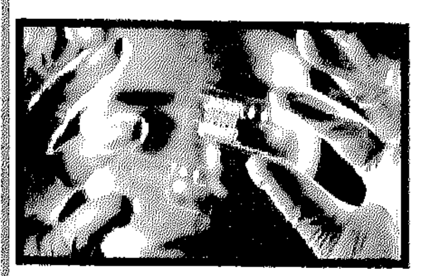
الأدب المكشوف . والولايات المتحدة فرضت قيودا شديدة على تطوير وتصدير أدوات التشفير، وفي أواخر عام ١٩٩٦، صنفت إدارة كلينتون أدوات التشفير والتكويد وفلاتر المعلومات كنوع جديد من الأسلحة، واعتبرت انتاجها نوعاً من إنتاج عتاد الحرب ، واعتبرت تصدى أو حمل تلك الأدوات من بلد لأخرى جريمة يعاقب عليها القانون. وقد حاولت واشنطن أيضاً، مع نجاح أقل، التحكم فى المواد الجنسية عبر التفاعلات الفورية فى الشبكة . ففى عام ١٩٩٧ ، المحكمة العليا هناك أصدرت قانون أدب الاتصالات ، لتقييد الكلام الغامض جداً والفاحش عبر الويب لدرجة أن الشخص الذى يضبط بنشر القبح عبر الشبكة سواء بالكلام أو نشر مواد جنسية كان يمكن أن يسجن.

تعامل العرب مع الإنترنت

من التقارير الأخيرة لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان عام ٢٠٠٠ و٢٠٠١، واعتمادا على التقارير التى تصدرها الـ CNN, BBC ومعهد بانوس فى لندن حول استخدام الإنترنت فى العالم تبين أن المنطقة العربية تعاملت مع الإنترنت بعقلية محاكم التفتيش حيث المصادرة والمراقبة والمنع، فى إيران مثلا برمجت وراقبت حجرات الدردشة فى مواقعها بحيث تسمح فقط لعدد اثنين من المتحدثين يتكلمان إلى بعضهما البعض فى كل مرة . (يظهر فيما يبدو ، السماح لثلاثة أشخاص يعتبر نوعا من المظاهرة يهدد الأمن العام ، حتى فى الإنترنت)، فى العراق خدمة الإنترنت التى تحتكرها وزارة الثقافة والإعلام فقط أتيحت للشعب العراقى لأول مرة فى ٢٧ يوليو الماضى بافتتاح مقهى للإنترنت فى بغداد ، وأعلنت السلطات أن هناك مراكز أخرى سيتم افتتاحها فى مدن أخرى فى المستقبل. إلا أن وزير النقل والاتصالات صرح بأن مستخدمى الإنترنت يمكنهم تصفح مواقع الشبكة التى لا تنتهك «مبادىء الدين الإسلامى» ولا تسىء إلى «القيم والأخلاقيات». إلا أن مستخدمى الشبكة فى العراق منعوا من الدخول إلى نظم البريد الإلكترونى المعتمدة على الشبكة وغير الخاضعة للرقابة.

وكانت المملكة العربية السعودية ، والبحرين ، وتونس، والإمارات العربية المتحدة من الدول التى منعت الاتصال بواحد أو أكثر من مواقع شبكة الإنترنت المعنية بالشئون السياسية أو بحقوق الإنسان والتى تثير استياء السلطات . ففى السعودية كمثال أصبحت الإنترنت متاحة للجمهور فى ديسمبر ١٩٩٨ بعد إضافة وسائل تقنية تسمح باستبعاد المواد التى تعتبرها السلطات ذات خطورة على أمن البلاد أو الأخلاقيات العامة . وتم تبرير ذلك رسمياً بأن «الحكومة السعودية من حقها حماية مجتمعها. ولا تريد أن تفتح الباب على مصراعيه بل تختار المادة المناسبة، وفى أغسطس الماضى، أغلقت السعودية





حرية الكلام في العصر الرقمى

موقع «نوادي ياهو» والذى كان يضم نحو ٢٥٠ نادياً سعودياً يزيد عدد أعضائها على ٦٠ ألف عضو. تحت مزاعم أن معظم المواد كانت تتنافى مع القيم الدينية والاجتماعية والسياسية للمملكة». وفى إبريل الماضى أغلقت الحكومة السعودية مقهى للإنترنت فى مكة كان يرتاده الكثيرون من طلاب الجامعة. ووفقاً لما روته هيئة الإذاعة البريطانية نقلا عن صحيفة «أراب نيوز» كان سبب ذلك الإجراء هو الدعوى التى رفعت فى إحدى المحاكم وذكرت أن مقهى الإنترنت الخاص بالنساء فقط كان يستخدم فى «أغراض لا أخلاقية، ولوحظ أن ابناء الجزيرة العربية هم الأكثر تفاعلاً واستفادة من شبكة الانترنت، فلا تكاد منطقة أو مدينة أو قرية إلا وقامت بإعداد موقع لها تاركة وراءها إعلامها الرسمى دون اكتراث.

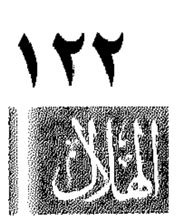
قرارات صارمة بذهنية بوليسية

لذلك صدرت هناك عدة قرارات صارمة بذهنية بوليسية ، تجعلنا نضحك حتى البكاء ، فنقرأ بعضاً من هذه القرارات:

١ - يلتزم كل مستخدمى الإنترنت بالامتناع عن نشر المعلومات التى تحتوى على كل ما يخالف الدولة أو نظامها ، وكل ما يمس كرامة رؤساء الدول أو رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين بالمملكة . كما يمنع نشر التقارير والأخبار التى لها مساس بسلامة القوات المسلحة كما يمنع نشر الأنظمة والاتفاقيات والمعاهدات، كما يمنع نشر ماينسب إلى المسئولين فى الدولة أو فى المؤسسات أو الهيئات» فهذه القرارات بدرجة من الوضوح الذى لا تحتاج إلى تعليق.

٢ - يقوم مقدمو خدمة الإنترنت بتجديد صلاحية الدخول على الإنترنت ...... وربط ذلك ببرامج متابعة وتدقيق تقوم بتسجيل الفترة الزمنية للاستخدام والعناوين التى تم الوصول إليها أو محاولة الوصول منها أو إليها وأحجام الملفات وأنواعها! وهكذا مراقبة إلكترونية لجميع مستخدمى الإنترنت لمعرفة نواياهم ، ومطاردتهم فى المواقع التى يذهبون لها ، وتحديد العناوين التى يحاول الفرد الوصول إليها ، ومعرفة الملفات وأحجامها التى حملت من الموقع!!

٣ - يقوم مقدمو الخدمة بإعداد سجل وثائقى يدوى والكترونى يشتمل على معلومات شاملة عن المستفيدين النهائيين وعناوينهم وأرقام هواتفهم وأغراض الاستخدام وأرقام الحسابات الخاصة بالدخول على الإنترنت وتزويد



الجهات الأمنية بنسخة منها إذا لزم الأمر». اعتقد اننا لا نحتاج أى تعليق على تلك القرارات..

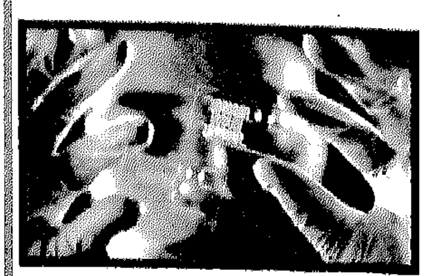
وفي تونس ، أصبح فى وسع التونسيين استخدام شبكة الإنترنت بسهولة أكبر من ذى قبل نظراً لانخفاض الأسعار وتسارع البت فى الطلبات وفتح أول مراكز عامة للإنترنت . ولكن التشريعات التونسية المتعلقة بالإنترنت تنتهك حقوق الحرمة الشخصية للمستخدمين، كما أن الحكومة تعمد إلى منع المستخدمين فى تونس من الوصول إلى موقع منظمة العفو الدولية على شبكة الإنترنت. وقد أعرب التونسيون عن تخوفهم من تعرض مراسلاتهم عبر الإنترنت للمراقبة على غرار مايحدث لاتصالاتهم بالهاتف والفاكس .

وفى الذكرى العاشرة لتوحيد اليمن فى شهر مايو الماضى ، عطلت الحكومة استخدام أجهزة الهاتف الدولى، والهواتف المحمولة ، ووسائل النداء الإلكتروني ، عدة أيام واستمر البطء الشديد مع ارتفاع التكاليف فى استخدام شبكة الإنترنت المتاحة عن طريق شركة حكومية واحدة فقط ، كما منع ارتياد بعض مواقع الشبكة التى تتضمن مواد سياسية. وقيدت الحكومة اليمن استخدام الجمهور لشبكة الإنترنت من خلال استخدام برامج وسيطة لغربلة وحجب محتويات معينة على الشبكة عن المستخدم النهائى.

وفي سوريا تملك الدولة الصحف والإذاعة المسموعة والمرئية وتفرض عليها سيطرة صارمة؛ لكن البلاد شهدت خطوات نحو تقديم خدمة الإنترنت على نطاق محدود لبعض شرائح المجتمع السورى، وإدخال خدمة الهاتف المحمول . وفى ٢٥ إبريل الماضى ورد أن نحو ٣٥ مؤسسة تابعة للدولة، منها جامعات ووزارات، أصبحت متصلة بشبكة الإنترنت. وفى ١٥ يوليو الماضى قالت صحيفة «الثورة» الحكومية إن مؤسسة الاتصالات السورية ستبدأ فى تقديم خدمة الإنترنت لشركات القطاعين العام والخاص، وكذلك خدمة البريد الإلكترونى للأشخاص ذوى الصفة القانونية فقط. وأضاف أن تقديم خدمة البريد الإلكترونى يقتضى من المشترك أن يكون ذا وضع مهنى مثل الأطباء والصحفيين والمحامين. وأشار مقال الصحيفة أيضاً إلى أن مؤسسة الاتصالات ستراقب المشتركين عن كثب، قائلاً إنها ستكون هى الجهة الوحيدة المنوطة بتقديم الخدمة ، وستقطعها عن أى مشترك يشفر ملفات أرسلت خارج الشبكة السورية.

أما في الأردن، ومصر، والمغرب، والجزائر، وبلدان أخري، لا توجد مؤشرات على ما يفيد بأن السلطات قيدت المحتوى السياسى للاتصالات بالإنترنت، وبذلك سمحت للمستخدمين المحليين بالاطلاع على معلومات محظورة فى وسائل الإعلام المحلية سواء المطبوعة أم المذاعة. غير أن





حرية الكلام في العصر الرقمي

مستخدمى الشبكة فى بعض البلدان، مثل تونس والبحرين، أعربوا عن توجسهم من احتمال وجود رقابة حكومية على البريد الإلكترونى و«غرف الدردشة» السياسية . ويذكر ان مصر أغلقت موقعا واحداً منذ عدة شهور لشركة دعاية مصرية تقدم خدمات الدعارة المختلفة.وفى منطقة كهذه، حيث تكاد جميع الحكومات تضيق على حرية التعبير بطرق متنوعة، اتبعت الكثير من السلطات منهجاً حذراً فى التعامل مع الإنترنت الذى يتيح للأفراد طريقة سهلة وسريعة وزهيدة التكلفة لتبادل المعلومات على نحو يتفادى رقابة الدولة . وقد لجأت حكومات المنطقة كما ذكرنا إلى طرق شتى لتقييد حرية المعلومات عبر الشبكة؛ فالمملكة العربية السعودية واليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة فرضت رقابة عليها عبر برنامج وسيط ، وهى برامج خاصة تعترض سبيل المعلومات من بين المصادر والمستقبل لغربلتها ومنع استقبال مواد معينة: وفى كثير من البلدان، ومنها الأردن، بات استخدام الإنترنت بفضل سياسات الضرائب والاتصالات عن بعد باهظ التكلفة حتى لم يعد فى مقدور الكثيرين الانتفاع منه - سواء أكان ذلك أم لم يكن هو الهدف المقصود من تلك السياسات . أما تونس فقد سنت أكثر القوانين المنظمة لاستخدام الإنترنت تفصيلا فى المنطقة، وقد أعد فى جانبه الأكبر على نحو يضمن ألا تفلت الاتصالات عبر الشبكة من القيود الصارمة التى تفرضها الحكومة على حق مواطنيها فى ممارسة حرية النقد والتعبير عبر أجهزة الإعلام الأخرى . وفى معظم البلدان التى لم تصدر قوانين خاصة بالإنترنت ، كان للقيود المفروضة بحكم القانون أو الواقع على حرية القول والصحافة أثر هائل على المواد المتداولة عبر الشبكة خاصة فى المنتديات العامة مثل النشرات المفتوحة أو «حجرات الدردشة».

رقابة على اتصالات الانترنت

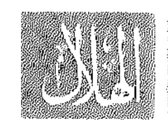
وفى منطقة درجت فيها الكثير من الحكومات على التنصت على هواتف المعارضين، يعتقد مستخدمو الإنترنت فى الكثير من البلدان، ومن بينها البحرين وتونس ، أن حكوماتهم تنتهك سرية مراسلاتهم عن طريق نظم مراقبة البريد الإلكترونى . وقد أمضى مواطن بحرينى أكثر من سنة فى السجن للاشتباه فى أنه يرسل معلومات «سياسية» لبعض المعارضين فى الخارج عبر البريد الإلكترونى . ويزيد على ذلك أن بعض الحكومات فى المنطقة أصبح شغلها الشاغل تتبع مواقع المعارضين

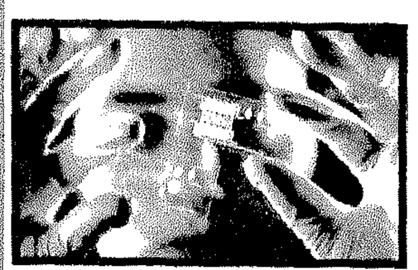
لها في الإنترنت ومهاجمة تلك المواقع وتدميرها، وأعرف موقعا معارضا يغير عنوانه فى الإنترنت كل فترة، لكى يفلت من المتابعة الإلكترونية التى تقوم بها حكومته.

وهناك بعض حكومات المنطقة قد انتهجت موقفاً أقل تدخلا إزاء الإنترنت - رغم أنها تفرض قوانين تفيد وسائل التعبير الأخرى - مما أوجد بعض المفارقات الظاهرية فى مصر والأردن حيث أصبحت الصحف أو المقالات التى منعتها الرقابة تأخذ طريقها بسرعة إلى شبكة الإنترنت ، وبات بوسع مستخدميها الاطلاع عليها وإرسالها إلى غيرهم دون أن تكون لذلك أى عواقب وهو ماحدث أخيراً فى أزمة وزارة الثقافة المصرية التى منعت ثلاث روايات من النشر تحت مزاعم حماية الاخلاق ، وبسرعة شديدة وجدت هذه الروايات طريقها إلى النشر فى الإنترنت، وأصبحت فى متناول الجميع. ولم تتخذ الجزائر والمغرب والسلطة الفلسطينية أى إجراءات تذكر لفرض رقابة على محتويات الاتصالات عبر الإنترنت، مما جعل فى متناول المستخدمين ثروة هائلة من المعلومات السياسية والمعلومات المتعلقة بحقوق الإنسان مما لاتستطيع الصحف أو وسائل الإعلام المحلية نشره.

حق الوصول للمعلومات الذكية

بعد هذه البانوراما السريعة، تبددت تماماً الأوهام التى كان يتصورها الكثيرون مع بدايات الإنترنت، بعدم قدرة أى حكومة أو سلطة منع أى فرد من الوصول لأى موقع فى الإنترنت، ونزعم هنا أن الموضوع ليس الإنترنت كتكنولوجيا جديدة، بل الموضوع خصائص المجتمع نفسه على المستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى وقبل كل ذلك خصائصه السياسية، فعندما يسيطر على أى مجتمع القهر السياسى، والتخلف الاجتماعى، والجمود الثقافى،والفقر الاقتصادى، ورجعية الفكر، ما الذى يمكن أن تفعله الإنترنت فى هذا المجتمع؟! لذلك حاول العالم فى أوائل التسعينات، وفى معهد أسبن بواشنطن، حاولوا التوصل إلى وثيقة دولية تتبناها الحكومات حول الحقوق والواجبات المتعلقة بالمعلومات، وجاءت مبادىء الوثيقة نتيجة مناقشات وابحاث لخبراء من مناطق العالم، وكان أول مبدأ هو حق الوصول والنفاذ إلى المعلومات الذكية ووجود بنية تحتية للاتصالات، وتفرع عن هذا المبدأ العام عدة مبادىء فرعية تتعلق بالاتصالية وسهولة الاقتناء والإلمام بأساسيات التعامل مع الكمبيوتر. والهدف من تلك الوثيقة ليس التحكم فى الإنترنت بل الفهم للمبادىء الضمنية التى قد تتحكم فى استخداماتنا للموارد العظيمة للمعلومات والاتصالات التى يعج بها العالم اليوم ، وظهرت هناك اتجاهات متعددة الأول يحبذ فرض المزيد من أشكال الحماية للتصدى لسوء الاستخدام المتوقع





والمحتمل، بينما يؤمن آخرون بأن الوسيلة الجديدة يجب أن تترك حرة لتواصل بروزها فى مناخ طبيعى، ويرى البعض الثالث الحاجة إلى حماية المستخدم فى الوقت الذى يرى فيه البعض الرابع هذه التوجهات ألاعيب للتدخلات التنظيمية ، لذلك هدفت الوثيقة لتبيان المساحات التى يتفق عليها الناس على إمكانية تطبيق هذه المبادىء ثم تترك للمجتمع والأفراد حرية تحديد أفضل الطرق لتطبيقها، فمثلا مبدأ المواطنة فإن المشاركة الأخلاقية فى مجتمع المعلومات تفترض: أولا : أن الأفراد يتحلون بالمسئولية.

وثانياً: الاستفادة من أنظمة وخدمات المعلومات والاتصالات بالطرق التى تتسق والصالح العام.

وثالثاً: إقامة واستخدام أنظمة المعلومات والنفاذ إليها بالطرق التى لاتتسبب فى إلحاق الضرر بهذه النظم ومستخدميها.

ورابعا: أن نكون مشاركين معلوماتيين فى المجتمع.

وخامساً : الصدق والكشف الأمين للمعلومات فى إطار حماية الخصوصية الفردية والمؤسسية.

وسادساً: الاشارة إلى المؤلف حينما تدعو الحاجة اتساقا مع الأعراف والتزامات التعاقدات.

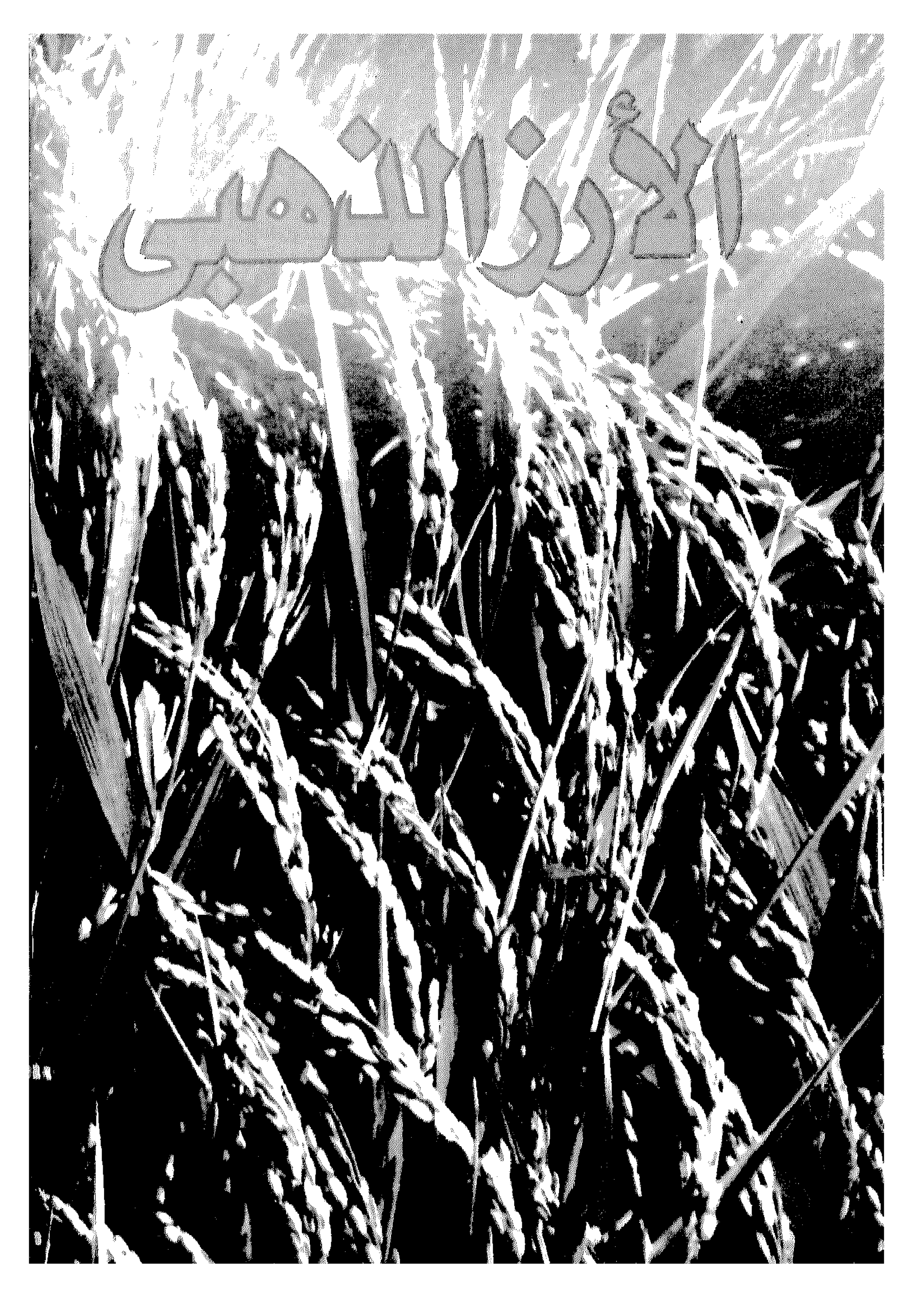
وسابعاً: احترام حقوق الآخرين فى الاختلاف عن رأى الجماعة. ففى كل حالة سابقة تختلف طريقة التطبيق من مجتمع للآخر. فمعظم المجتمعات تفرض عقوبات قانونية على إتلاف الممتلكات ولكن لا يوجد مجتمع من المحتمل أن يجرم شخصاً لكونه غير مشارك معلوماتيا.

تقنين حرية المعلومات

ويزداد الموقف صعوبة فى دول الجنوب حيث يتعمق فقر المعلومات عندما تضع بعض الحكومات رقابة على التدفق الحر للمعلومات عبر شبكة الإنترنت التى تمنح مستخدميها قدرات هائلة لممارسة حقهم فى التماس المعلومات والأفكار وتلقيها ونشرها بغض النظر عن الحدود الدولية. ولذا، بات من اللازم توفير الحماية الكاملة للاتصالات المباشرة بموجب الضمانات الدولية التى تكفل الحق فى حرية التعبير ، لأن حقوق الإنسان كل لا يتجزأ وهى تؤلف منظومة كلية من الخطر المساس بجزئية منها، فهى القيم الجوهرية التى تؤكد من خلالها أننا مجتمع إنسانى، فالحق فى حرية الرأى والتعبير وتدفق الاتصالات والمعلومات على قدم المساس مع الحقوق الأخرى للإنسان، لذلك العالم حولنا يناقش منذ سنوات تقنين حرية وصول

المعلومـات، وحـمـاية حـقـوق المؤلفين وضمانات الاستقلال لناشرى الخدمات الإلكترونية ، وحرية التعبير عبر الشبكة، والتحكم الفعلى على ممارسة الاتصال، وتحديد قواعد المنافسة ، وشروط النفاذ إلى شـبكات الاتصـال القـومـية، ونظام التسعير للمنتجات المعلوماتية، وتحديد مـقـاييس الأشكال الجـديدة للملكيـة الثقافية والفكرية، والحفاظ على سرية المعلومـات، ومـدى التـدخل الحكومى، وكلها قضايا يجب أن تطرح للمناقشة بجدية فى منطقتنا العربية.

إن حماية الحق فى حرية التعبير عبر شبكة الإنترنت لايحتاج فقط وضع سياسات خاصة بهذه الشبكة تحترم حقوق الإنسان، بل يحتم أيضاً إيجاد بيئة تكفل حماية حرية التعبير بوجه عام. فالقيود التى تعانى منها شبكة الإنترنت فى كثير من البلدان العربية لاتنبع من اللوائح التى تنظم استخدامها بقدر ماهى نابعة من قوانين الصحافة والنشر والقوانين الخاصة بالتشهير، والمحاذير غير الرسمية السابقة على دخول الشبكة إلى المنطقة . ويشمل الحق فى حرية التعبير الحق فى الاتصال المباشر عبر شـبكة الإنتـرنت، والحق فى طلب المعلومات وتلقيها وتداولها عبر الشبكة دون قيود تعسفية، والحق فى التخاطب مع الغير عبر الشبكة سواء بصورة سرية أم بدون الكشف عن الأسمـاء. وينبغى أيضاً أن تتخذ الحكومات التدابير المناسبة لتيسير سبل الانتفاع بوسائل الاتصال الإلكترونية أمام مواطنيها بتكلفة فى متناولهم جميعاً دون أى تمييـز، ويجب أن تقع على عاتق المستخدمين النهائيين للإنترنت وحدهم مسئولية تحديد مايرغبون فى حجبه أو غربلته من المواد التى يستقبلونها هم أو أطفالهم عبر الإنترنت ، واختيار الوسائل التى تحقق ذلك ، حتى لا تكون مثل الإمبراطور فى الصين القديمة الذى يذهب إليه المخترع ، ويعرض عليه اختراعه، متفاخرا بمزاياه التى ستجعل الإمبراطور يطير فى السماء، ويعبر الجانب الآخر للبحار والجبال، فيأمر الإمبراطور بإعدام المخترع، لماذا؟! لأن الاختراع سيمكن الأعداء من تجاوز سور الصين العظيم وغزو البلاد ، تماماً مثل ماتفعله حكومات المنطقة التى تمنع وتراقب الإنترنت خوفا على الشباب من أفكار الجنس وصور البورنوجراف، وخوفا على تلويث عقول مواطنيها بأفكار الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، أو من يطالب الآن فى المنطقة بإحراق كتب وأفكار الآخرين خوفا على التراث والثقافة من الاختراق، أو من يكفر أفكار المجتهدين، كلهم مثل إمبراطور الصين القديمة. ■


الأرز الذهبي

بقلم
د. أحمد مستجير

فى كل ليلة يأوى إلى الفراش، جائعين، ثمانمائة مليون شخص. فى كل شهر يصاب بالعمى أربعون ألف طفل بسبب نقص فيتامين أ. فى كل عام يموت مليون ومائة ألف طفل بسبب نقص فيتامين أ مع الحصبة . نعم، يحدث كل هذا ، فى عالمنا هذا، فى عصرنا هذا الذى نسميه عصر العلم. أما يستطيع هذا العلم أن يمد يد العون ؟

فى يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ وصل تعداد البشر إلى ستة بلايين نسمة . دخلنا القرن الحادى والعشرين والأرض تحمل هذا العدد المهول من البشر. سيزداد تعدادنا بليونا بحلول عام ٢٠١٣، وبليونا آخر على عام ٢٠٢٠ . كذا تقول تقارير الأمم المتحدة . من أين سيأتى الطعام لكل هذه الأفواه فى كوكب تشح فيه المياه وتتراجع فيه مساحات الأرض المزروعة؟ يتزايد البشر بمعدل يبلغ ١،٣٪ سنوياً ، فإذا كان للوضع الغذائى أن يبقى على ما هو عليه الآن، فمن اللازم أن يزيد إنتاج الغذاء بنفس هذه النسبة. لكن الزيادة السنوية الحالية فى إنتاج الحبوب – الغذاء الرئيسى للبشر – تقل عن ١.٣٪، بل ومن المتوقع أن تتناقص هذه النسبة، خصوصاً فى مناطق مثل جنوب الصحراء الكبرى والشرق الأوسط . ألغير العلم الذى وهبه لنا الله نلتجىء؟

الثورة الخضراء الأولى والثانية

فى ستينات القرن العشرين قامت الثورة الخضراء الأولى، واستطاعت بطرق التربية التقليدية المرتكزة على العلم أن تنتج سلالات من القمح والأرز غزيرة المحصول بشكل مذهل، كان لها أثر كبير واضح على الأمن الغذائى فى بلاد كالهند وباكستان. لكن نجاح هذه السلالات كان كأفضل ما يكون فى البيئات المتميزة لدى كبار الزراع الذين يستطيعون توفير ماتحتاجه من إضافات كبيرة فى السماد والمبيدات والرعاية.

ثم قيض الله للإنسان فى عام ١٩٧٣ أن يكتشف تقنية الهندسة الوراثية ، لتفتح أملاً جديداً فى ثورة خضراء ثانية يمكن أن تسهم فى حل مشكلة الجوع، وأن تتلافى مثالب الثورة الأولى. فإذا كانت الثورة الأولى هى ثورة «الكم» فإن الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا هى فى الأساس ثورة





الأرز الذهبى

«الكيف» . وإذا لم تكن فوائد الثورة الأولى قد وصلت إلى الفلاح الفقير بالشكل الكامل ، فإن فؤاد الكيف يمكن أن تصله كاملة وفى هدوء، لتبقى. فى مقدور الثورة الجديدة أن تجعل الطعام المتاح أكثر وأثرى غذائياً. النبات المهندس وراثيا ليقاوم الآفات والأمراض ، مثلاً، سيرفع الإنتاج دون حاجة – أو بأقل حاجة – إلى المبيدات غالية الثمن التى قد يعجز الفلاح عن شرائها، والتى تلوث بيئته. نبات الكانولا (الشلجم) المحور وراثيا لرفع قيمته الغذائية والصحية والذى تحمل زيوته نسبة عالية من الأحماض الدهنية غير المشبعة سيعالج النقص الغذائى بتحسين نوعية المنتج المأكول دون – أو بأدنى – تكاليف إضافية .

ولقد كان تقبل الفلاح لسلالات الثورة الخضراء الأولى سريعاً ، كانت سلالات غزيرة الإنتاج، يمكنه على الفور أن يكتشف تفوقها على سلالاته القديمة، ومن ثم يدرب نفسه على اكتساب الخبرة اللازمة لإتقان زراعتها . أما الثورة الخضراء الجديدة فلن يتسنى له أن يكتشف مزاياها بسهولة . فكيف يكتشف قيمة سلالة جديدة تقاوم مرضاً معيناً إلا إذا تفشى المرض وأصبح وباء؟ وكيف له أن يربط بين القيمة الغذائية المتميزة للسلالة الجديدة وبين تحسين الصحة؟ من هنا جاءت أهمية وجود جهاز إعلامى قوى مساند، لتوعية المزارعين، خصوصاً بعد أن أفسد جشع الشركات صورة البيوتكنولوچيا فى أذهان الناس (أنظر للتذكرة مقالاً لهذا الكاتب عنوانه «بذور شيطانية» نشرته «الهلال» فى عدد نوفمبر ٢٠٠٠)، وبعد كل ماقامت به ، وتقوم، جماعات البيئيين من تشويه لقيمة البيوتكنولوچيا الحديثة.

وإذا كان لثورة البيوتكنولوچيا الحديثة أن تحارب الفقر ، فلابد لبحوثها أن تتوجه نحو محاصيل الغذاء الرئيسية للفقراء، التى لم تحظ حتى الآن بما تستحقه من عناية ، لأنها لا تغرى القطاع الخاص كثيراً وأن تعمل عليها لترفع قيمتها الغذائية وغلتها وإنتاجها . على العلماء – كما يقول البروفسور إينجو بوتريكوس – أن يعملوا على هذه النباتات، وألا يكتفوا بالحديث عنها!

الأرز : أهم محاصيل العالم

والأرز بلاشك هو أهم محاصيل الغذاء، فعليه يحيا نصف سكان العالم، وحبوب الأرز تخلو تماماً من البيتاكاروتين، المادة التى يصنع منها جسم الإنسان فيتامين أ. لا غرو إذن أن تكون مشكلة نقص فيتامين أ. هى أهم مشاكل سوء التغذية فى العالم ، تعانى منه شعوب ٢٦ دولة على الأقل تعيش على الأرز أساساً وتضم المناطق المكتظة بالسكان فى آسيا وأفريقيا وآمريكا اللاتينية. ولقد قدرت اليونيسيف أن تدعيم الغذاء بفيتامين أ. سيقلل من

خطر موت أطفال العالم الثالث بنسبة تبلغ ٢٣٪

يصنع نبات الأرز البيتاكاروتين طبيعياً في كل أجزائه – إلا الإندوسبرم، الجزء النشوي من حبوب الأرز الذي نأكله. تضرب حبوب الأرز بعد الحصاد لإزالة الغلاف الخارجي (السرس)، ثم تجرى عملية التبييض لإزالة الطبقة المحيطة بالإندوسبرم بهدف تحسين الطعم وتجنب التزنخ عند التخزين . ماذا لو أمكن أن ننتج أرزاً يحمل هذا الكاروتين في الإندوسبرم؟

فكرة إنسانية وعلمية رائعة، شغلت البروفسور إينجو بوتريكوس، الأستاذ بمعهد علوم النبات في زيوريخ، فوظف علمه في خدمتها. تمكن عام ١٩٩٣ من الحصول على منحة من مؤسسة روكفيلر قيمتها مائة ألف دولار للبدء في البحث ، وتحولت المنحة إلى مشروع مدته سبع سنوات بميزانية وصلت إلى ٢.٦ مليون دولار . ساندته الحكومة السويسرية والاتحاد الأوروبي.شكل بوتريكوس مع زميله الألماني بيتر بيار فريقاً بحثياً استخدم الهندسة الوراثية في نقل ثلاثة جينات إلى نبات الأرز بحيث ينتج البيتاكاروتين في الإندوسبرم (بجانب جين واسم). ونجح الفريق في إنتاج أرز له لون الكاروتين الأصفر: «الأرز الذهبي»، الذي لم يكن من الممكن أبداً أن يطور بطرق التربية التقليدية . وفي المؤتمر العالمي السادس عشر لعلم النبات المنعقد بسانت لويس في أغسطس ١٩٩٩ أعلن بوتريكوس عن فتحه العلمي الكبير .

يقول بوتريكوس إن أرزه الذهبي لم تطوره شركة بل كان تمويله بالكامل من المال العام ، وبذا فلن يخلق أية صورة من صور التبعية ، وللفلاح أن يحفظ ماينتجه من بذور لاستخدامها كتقاو للموسم القادم . وهو يمثل حلاً مستديماً بلا تكاليف ويتجنب الآثار الجانبية المؤسفة للثورة الخضراء الأولى، إذ لايحتاج إلى مدخلات إضافية ومن ثم فلن يمنح أصحاب الأرض الأغنياء مزايا خاصة، ثم إنه لا يقلل التنوع البيولوجي أو الطبيعي ، وليس ثمة مايشير إلى أنه قد يتسبب في أية آثار سلبية على البيئة أو على صحة المستهلك . (من الطريف هنا أن نضيف قول بوتريكوس : إن من بين أسباب نجاحه في تحقيق هذا الفتح العلمي أنه كان ساذجاً متحمساً ، واعتقد في نجاح العمل!!)

موقف البيئيين العجيب

عندما أعلن عن الأرز الذهبي، رحب به المجتمع العلمي وتناقلت أنباءه وسائل الإعلام العالمية، وهللت له منظمة الأغذية والزراعة (الفاو) ومنظمة الصحة العالمية. فمن ياترى سيعترض على أرز يمنح من يأكله – دون مقابل – جرعة إضافية ، أياً كان حجمها ، من فيتامين أ. يحتاجها جسمه؟ وضع هذا النصر البيئيين المعارضين للهندسة الوراثية في موقف بالغ الصعوبة والحرج. أيتركون العمى ينتشر بين أطفال الفقراء والموت يحصد أرواحهم بالملايين في العالم الثالث، من أجل فكرة سيطرت عليهم





الأرز الذهبى

ورسخت فى عقولهم ترفض الهندسة الوراثية؟ والبيئيون جماعة من القطط السمان نذروا أنفسهم لتحطيم التكنولوچيا التى ستفيد فقراء العالم. ولقد غدت حركتهم شرسة للغاية فى معارضة النباتات المحورة وراثياً : النباتات التى تضاعفت مساحات الأرض المزروعة بها ٢٥ ضعفاً خلال السنين الخمس الأخيرة لتصل الآن إلى نحو ١٠٥ ملايين فدان فى ١٣ دولة بقارات الأرض الخمس. والواقع أن هذه الحركة أرستقراطية المنشأ، ظهرت فى بلاد تتمتع بالرفاهية والترف، وتجد مدعميها دائماً فى المناصب الرفيعة، فأكبر معضديها فى بريطانيا هو الأمير تشارلس الذى أقسم ألا يمس المائدة الملكية طعام محور وراثياً (الأمر الذى أثار تونى بلير رئيس الوزراء ليقول «إن هذا موقف مضاد للعلم، فمثل هذه الأغنية ستكون ضرورية لتغذية شعوب العالم الثالث»)، وأكبر مناصريها فى أمريكا هو آل جور نائب الرئيس الأمريكى السابق كلينتون.



يقدس البيئيون البيئة، يؤلهونها، فكل من يتجاسر بالقول إن باستطاعتنا أن نتفهم الطبيعة، وأن نتابلها لمصلحتنا، يوسم على الفور بأنه يدنس المقدسات. هم يقولون «بمبدأ الحيطة»، هذا قسم أبو قراط بالنسبة لهم، يطبقونه على كل تكنولوچيا جديدة. لكن هذا المبدأ لا يقيم ثمن الحرص إذا زاد عن حده. هم يقولون ما معناه إنك إذا استيقظت فى الصباح ولم يكن لديك ما يؤكد أن يومك سيخلو من المنغصات فالأفضل أن تبقى طول النهار راقداً فى سريرك - والبقاء فى السرير طول اليوم كما نعرف له أيضاً مخاطره.

البيئيون ملتزمون بطرق التربية التقليدية للنباتات، وينسون أن هذه أيضاً قد تنتج سلالات «مؤذية». هناك مثلاً سلالة من البطاطس نتجت عن هذه الطرق اسمها لينيب Lenape ، ثم سحبت من السوق فى ستينات القرن الماضى عندما اتضح أنها تحمل مستويات عالية من توكسينات (سموم) تسمى جلوكوسيدات السولانيدين . وهناك أيضاً سلالة من الكرفس جاءت بطرق التربية التقليدية وتم التخلص منها فى الثمانينات لأنها تحتوى على تركيزات مرتفعة من السورالينات، وهذه مواد مهيجة تسبب طفحاً جلدياً لمن يتعرض لها.

ثار البيئيون إذن عند الإعلان عن الأرز الذهبى المهندس وراثياً . أذاعوا أن من يأكل هذا الأرز سيفقد نصف شعره كما سيصاب بالعجز الجنسى! قالوا إن ما بحبوب الأرز الذهبى من الكاروتين لايكفى حاجة الجسم فالثلاثمائة جرام من الأرز التى يتعاطاها الشخص البالغ فى اليوم لن توفر له إلى ٨٪ من حاجته اليومية من

فيتامين أ، وأن عليه أن يأكل ٩ كيلوجرامات يومياً لسد حاجته ! (حتى هذا الحساب خاطىء)، أما الأم المرضعة فيلزم أن تأكل ١٨ كيلوجراماً! (الأمر الذى يعنى ألا لزوم لتناول أى طعام لايقدم الحاجة اليومية بالكامل!!). أكدوا أن مايعد به الأرز الذهبى ليس سوى وعود كاذبة، أن المشروع برمته خدعة دولية، أن المفروض أن ننفق أمواله فى البحث عن حل جذرى. تساءلوا متعجبين : كيف نتخيل علماء جادين، أو شركة ذات وزن، تحترم هذا التفكير؟ كتبوا أن الأرز الذهبى قد قدم على أنه الحل السريع الناجح لمشكلة صحية عالمية، وهو ليس كذلك، بل هو خداع فى خداع فى خداع! أما البروباجندة المدفوعة الأجر فلن تجدى إلا فى تعطيل المحاولات الحقيقية للوصول إلى الحلول الفعالة . شككوا فى قيمة هذا الأرز من الناحية الصحية فقالوا إن تحويل البيتاكاروتين إلى فيتامين أ، فى الجسم ثم نقله إلى الأنسجة التى تحتاجه، يتطلب غذاء فيه مايكفى من الدهون والبروتين ، فإذا كان الغذاء يفتقر إلى هذه المواد الغذائية ، أو إذا كان الفرد مصاباً بالإسهال - وهذه أمور شائعة فى الدول النامية - فلن يتمكن الفرد من الاستفادة من فيتامين أ بالارز الذهبى ! (صحيح أن الجسم يحتاج فعلا إلى الدهون ليمتص فيتامين ا، وإلى البروتين، فإذا كان كاروتين الأرز الذهبى لهذه الأسباب بلا فعالية، فلماذا ياترى لاتوقف البرامج الدولية لتزويد الفقراء بهذا الفيتامين؟). تساءلوا، لماذا لا نلجأ إلى النباتات الورقية الخضراء الثرية فى البيتاكاروتين ومنها الكثير جداً فى بيئات هؤلاء الفقراء؟ (فعلا، لماذا لا نلجأ إليها أيضاً، بجانب الأرز الذهبى؟). قالوا إن الطبقة الخارجية للبذور التى يتم التخلص منها عند تبييض الأرز تحتوى على الكاروتين ، فلماذا لايقدم الأرز للفقراء دون تبييض؟ (فليأكل الفقراء الأرز الذهبى أيضاً دون تبييض!!).

دفاع عن البيوتكنولوجيا

ليس بين المدافعين عن البيوتكنولوجيا من يدعى أن بها الحل لكل المشاكل التى تسبب الجوع فى العالم . لكن المؤكد أن مشكلة الجوع لا يمكن معالجتها دون مساعدة العلم. فإذا أنكرت «جرينبيس»، أو غيرها من منظمات البيئيين، على دول العالم النامى - حيث يعتمد أكثر من ٧٠٪ من الناس على الزراعة وينفقون معظم دخلهم على الطعام - إذا ما أنكرت عليهم الاستفادة من العلوم الحديثة بسبب إيديولوچية مضادة للتقدم والتطور، دون أن تقدم حلولاً بديلة لتحسين وزيادة إنتاج الطعام لعالم يتزايد سكانه، فإنها بذلك تكون قد تخلت عن مسئوليتها تجاه البشرية . إن صانعى الأرز الذهبى يطمحون إلى الوصول إلى أرز يحمل مايكفى من فيتامين أ. ليكون ذا أثر واضح على من يعانون من نقص هذا الفيتامين - لا أن يوفروا ١٠٠٪ من المقرر اليومى . هم يقولون إن هذا الأرز يوفر الآن بالفعل مايصل إلى ٢٠ - ٤٠٪ من هذا المقرر





الأرز الذهبى

اليومى إذا تعاطى الفرد ٣٠٠ جرام يومياً، ولكنهم يعملون لزيادة هذا التركيز، ولديهم من النتائج مايبشر، علينا فقط أن نتحلى بالصبر.

فى مؤتمر عقد فى بروكسل فى مايو ٢٠٠٠ عنوانه «الزراعة المستدامة فى الألفية الجديدة» قال أدريان دوبوك (من شركة زينيكا): إن مستويات التعبير عن طليعة فيتامين أ، والتى يهدف إليها مبتكرو الأرز الذهبى، والتى أنجزوها، تكفى لتوفير الحد الأدنى اللازم لمنع العمى عن ٥٠٠ ألف طفل سنوياً، ولخفض أمراض نقص التغذية التى تصيب ١٢٤ مليون طفل فى ست وعشرين دولة. وهذا كلينتون يقول : إذا تمكنا من أن نوفر الكثير من هذا الأرز الذهبى – هذه السلالة من الأرز المحور وراثياً الغنية بفيتامين أ – فإننا قد ننقذ فى كل يوم ٤٠ ألف روح لأناس يموتون من سوء التغذية.

وأخيرا تراجعت جرينبيس

لكل هذه الأسباب الإنسانية والأخلاقية أجبرت جرينبيس أخيراً على أن تعد بألا تخرب حقول اختبار الأرز الذهبى. قالت إنه على الرغم من معارضتها الكاملة للنباتات المهندسة وراثياً ، إلا أنها ترى أن الأرز الذهبى الغنى بفيتامين أ، يعتبر استثناء بالنسبة لقانون المنظمة الذى يقضى «بالبحث عن مثل هذه النباتات وتدميرها». لن تكون حقول الأرز الذهبى المحور وراثياً هدفاً لأعمال جرينبيس.

مشاكل فى تسجيل البراءة

بعد أن طور بوتريكوس سلالة أرزه الذهبى كان عليه أن يبدأ فى اتخاذ الاجراءات لنقلها إلى مزارعى الكفاف، مجاناً ودون قيود . كتب زميله بيتر بيار طلباً لتسجيل براءة السلالة، وكانا سوياً قد قرراً أن يتيحاً التكنولوجيا لكل من يرغب. كان تمويل المشروع كله من المال العام، ومن ثم ظناً أن الأمر سيكون يسيراً. لكن المفوضية الأوروبية كانت قد وضعت بنداً فى اتفاق الدعم المالى مع بيتر تقول «إن للشركاء من الصناعيين فى مشروع (الكاروتين الاضافى) – الذى يشكل مشروع الأرز الذهبى جزءاً ضئيلاً منه – حقوقاً فى النتائج». كانت مساهمة الاتحاد الأوروبى على أية حال ضئيلة ولم تتم إلا قرب نهاية المشروع . لكنهما أدركا أن مهمة نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية ، وتسجيل البراءات الدولية ، وحقوق الملكية الفكرية وملكية التقنيات التى استخدماها فى التجارب ، كل هذه كانت أموراً عسيرة تفوق قدراتهما الفردية. وبعد مفاوضات مرهقة تمكن العالمان من عقد صفقة مع الشركات الست التى تمتلك براءات وتراخيص التقنيات، بموجبها وافقت الشركات على منح التقنيات مجاناً للدول النامية، لتحتفظ هى بحقوق التسويق فى الولايات المتحدة ودول العالم الأول، على

أن يسرى ذلك أيضاً على كل مايلى من طلبات لاستعمال التقنية على نباتات المحاصيل الأخرى. وفى مايو ٢٠٠٠ قال ممثل شركة زينيكا مالكة الحقوق القانونية لاستخدام الأرز الذهبى «إن هذه هى المرة الأولى التى نتعاون فيها لنقل تكنولوجيا الغير إلى العالم النامى».

نقل الأرز الذهبى إلى العالم الثالث

ثم إن العالمين أنشأ «المجلس الإنسانى للأرز الذهبى» ليقوم بمهمة نقل التكنولوچيا إلى بلاد العالم الثالث وتسهيل تبادل المعلومات بين مشاريع هذا الأرز فى المناطق المختلفة من العالم، ودعم مراكز البحوث بأية دولة نامية تهتم به. وفى يناير ٢٠٠١ وصل الأرز الذهبى إلى المعهد الدولى لبحوث الأرز (إيرى IRRI) بالفلبين ليدخل كجزء من برنامج دولى لدراسته ونشره، كما وافق مجلس البحوث الزراعية بالهند على جلبه إلى الهند، وستعقد قريباً اتفاقية بهذا الشأن. ولقد عقدت بالفعل مثل هذه الاتفاقية مع عدد من المعاهد الزراعية فى جنوب شرقى آسيا والصين وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. لن يسلم الأرز إلا للمعاهد الحكومية كى تقوم بنقل صفة «اللون الأصفر» إلى سلالات الأرز المحلية.

(ربما كان لى هنا أن أضيف أن الدكتور أسامة الشيحى الأستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة قد تمكن من أسابيع قليلة من الحصول على الجينات التى تطعم فى الأرز لتحويله إلى أرز ذهبى).

فى الختام

قبل أن أكتب الفقرة الأخيرة فى هذا المقال وصلتنى بالبريد الإلكترونى رسالة غريبة تاريخها ٦ مارس ٢٠٠١، عنوانها «مؤسس جرينبيس يعضد التكنولوچيا» – والرجل المشار إليه هو الإيكولوجى باتريك مور الذى عمل تسع سنوات رئيساً لجرينبيس كندا وسبع سنوات مديراً لجرينبيس الدولية. يقول مور: «كان من الممكن للجدل الدائر الآن حول القدر المطلوب من الأرز للوقاية من نقص فيتامين أ، أن يقود إلى سبل بحثية صحية لحل المشكلة لكن الهدف الحقيقى للمعارضين لم يكن سوى تشويه سمعة العلم والعلماء، ومفهوم البيوتكنولوچيا برمتها. فإذا كان ثمة قضايا تتعلق بنقل الأرز الذهبى إلى السوق فلابد من مناقشتها كتحد، لا على أنها برهان يدين التكنولوچيا .. وإذا كان لدى جرينبيس أية معايير أخلاقية، إذن لقدمت الملايين لحل أية مشكلة خطيرة تواجه الأرز الذهبى، أو لقامت على الأقل بتشجيع الوكالات الإنسانية على تقديم الدعم. لكنها جلست على الخطوط الخارجية لشقاء البشر تصوب سهامها نحو ابتكار رائع، لتقوض حلاً محتملاً لتراجيديا تشجب أمامها مأساة شيرنوبيل. إننى أتفق مع ماقاله إينجو بوتريكوس فى ١٦ فبراير ٢٠٠١ من أن كل من يخطط لتدمير حقول اختبار الأرز الذهبى لمنع اختباره وتطويره لخدمة البشرية، إنما يرتكب جريمة ضد الإنسانية. ■

رسالة نيويورك

صلاح المراكبى

الأمريكيون

أكثر شعوب العالم استخداما للقوانين!



● بعض القوانين معقولة جداً وبعضها تمثل قمة الجنون!

● من حق اللص أن يقاضيك لأنه أصيب خطأ في بيتك!

الحياة في الولايات المتحدة تتحرك وتدور أكثر من أي بلد في العالم.. ولا يوجد شيء في حياة الناس قابل للتأجيل! ولا أحد يتصور إذا اعتدي علي شيء من حقوقك، أنك ستبتلع المقلب.. وتسكت!..

فمع تراجع دور الدولة وتداخل مصالح الناس مالكين ومستهلكين، وبائعين ومشترين، ومعرفة الناس بالقوانين واعتمادهم في كل إجراءاتهم علي المحامين، وسرعة القضاء، وحسم التنفيذ، أصبح اللجوء إلي القضاء عملا يوميا لا يفسد العلاقات في المجتمع، بقدر ما يزيدها تنظيما واحتراما.

فالقوانين تدرك قوة الشركات الكبري، والسعي المفهوم للقطاع الخاص في الكسب والمنافسة، فتعمل بكل الطرق علي حماية المستهلك، وإعطائه المكانة الأولي في المجتمع.. فأنت تستطيع أن تعيد أي سلعة اشتريتها وتحصل علي نقودك كاملة، حتي لو كانت مستعملة وحتي لو كانت ممزقة أو مكسورة لأن القانون يفترض أنك اشتريتها لأنك تحتاج إليها.. ومن المنطق أنك تعيدها لأنها بدت لك غير صالحة للاستخدام.. حتي لو كنت أنت الذي افسدتها.. لأن الدخول بحثا عمن أفسدها، سيكون في غير صالح المستهلك لأنه الأضعف!!.

رسالة نيويورك

* من الطبيعي أن نفهم أن الصورة التي نشأ بها الشعب الأمريكي، قد جعلته على هذا النحو! فهم مهاجرون جاءوا من كل بلاد العالم.. لا يجمعهم تراث ولا فكر ولا لغة ولا تقاليد.. ثم أن البلاد التي جاءوا إليها وأقاموا فيها لايوجد لها تراث ولا تقاليد .. ربما الشئ الوحيد الذي بدأ يصبح قاعدة حياة وعمل، هو اللغة الانجليزية ، باعتبار أن المهاجرين الأوائل الذين جاءوها هربا أو طمعا أو طموحا كانوا من أوروبا.

بحكم هذه النشأة وهي بالاضافة إلى هذا فهي نشأة حديثة لا تصل إلى ثلاثمائة سنة، كان من الطبيعي أن يجمع هؤلاء جميعا حتى يعيشوا في سلام، شيء واحد هو القانون! ساعد على ذلك أن فرص الحياة والكسب على هذه الأرض ولا تزال كبيرة، والفرص الكبيرة تخلق المنافسة لا الصراع..

الشركة مسئولة

* المحامية الأمريكية الشهيرة «دبراهنسلر» ولها أكثر من كتاب تقول أن القانون الأمريكي وتفاعلاته في خلافات الناس وقضاياهم ، قد وضع أعظم فرصة انسانية لتحقيق الحرية، ونمو الاقتصاد ، لأنه أرسى قواعد من الاطمئنان والثقة والطموح في مجتمع استطاع ان يخلق جوا من النجاح الذي أصبح مثلا على مستوى العالم.

القاضي جاك ونستن - قاضي محكمة شرق نيويورك - ٧٨ سنة - خصص حياته القضائية للحصول على حقوق أكبر للفرد الامريكي في مواجهة الشركات والمؤسسات ومراكز الأعمال، استطاع أن يحصل على أحكام في قضية قتل، ليس فقط ضد القاتل، ولكن ضد مصنع الأسلحة الذي اشترى منه القاتل سلاحه، كما استطاع أن يحصل على تعويض من شركة سجاير أصيب أحد مدخني سجائرها بالسرطان، مؤكدا أن الاشارة على كل علبة سجائر بأنه ضار ويصيب بالسرطان، يؤكد مسئولية الشركة ولا يعفيها كما يبدو من المسئولية - لأنه ما دامت الشركة تعلم أنه ضار فلماذا تنتجه، ولماذا تصنع له علبا تغرى بتصميمها وجمالها؟!.

ومن الطريف أن هذا القاضي يذهب إلى المحكمة بملابس عادية ولا يرتدى زى القضاة، وعباءتهم يريد أن يؤكد بذلك أنه مثل كل الناس، ولا يضيف إلى نفسه شكلا يوحى بالتميز أو الغموض، كما يريد أن يشعر الناس أن القانون ليس سلطة، بقدر ما هو خدمة يحصل عليها من يطلبها.. انتقاده الوحيد هو أن ما يحصل عليه المحامون من أتعاب على مستوى الولايات المتحدة، أصبح يمثل مقابلا هائلا وخرافيا، فالمعروف أن المحامين هنا، يحصلون على ثروات تضعهم في قمة الأعمال المهنية، إضافة إلى الأطباء ومبرمجي الكمبيوتر ! لكنه يعتقد أن تولى المحامين لكل خطوات التقاضي وارتفاع أجورهم، يجعلهم ضمانا عمليا لتحقيق سرعة الحركة القضائية وتدفق العمل وحسن إنجازه..

أخطأ في لحظة!

* المحامية اليزابيث كابرسر تقول إنه مع الوقت تتراجع خلافات كثيرة كانت



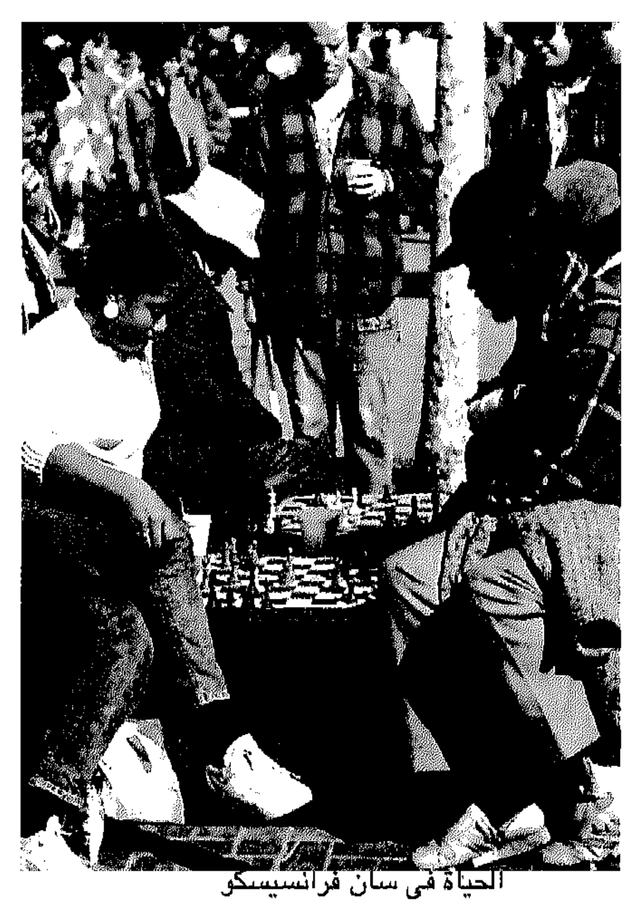
معروفة فى الماضى وأصبحت فى حكم «العرف» الذى يعترف الجميع به.. كما تنشأ خلافات جديدة بحكم تجدد النشاطات فى الحياة الأمريكية وهذا أمر طبيعى، لأن مهمة القانون أن يحفظ التوازن الاقتصادى والاجتماعى فى حقوق الناس، وأن يقلل مظاهر التناقض، وأن يواكب سلاسة الحركة فى المجتمع.

وتقول أن وجود المحلفين فى المحاكم وان كان أمراً تقليديا قديما، الاّ أنه يجعل القاضى محكوما بالتوجهات الاجتماعية والرأى العام بين الناس لأن القانون وحده يشبه عملية رياضية لا تعرف شيئا عن الاحاسيس الانسانية أو مشاعر الجمهور.. كما أن الهدف الاسمى والنهائى للقانون هو تحقيق السلام الاجتماعى، وينظر إلى مرتكب الجريمة على أنه انسان أخطأ فى لحظة، وليس مجرما بالطبيعة ، الاّ إذا كان كذلك بالفعل.

العلم المزعج

* فى ولاية ميريلاند المجاورة للعاصمة واشنطن، شكا أحد المواطنين لجاره أنه لا يستطيع أن ينام لأن صوت العلم الأمريكى الذى يرفعه الجار على سارية مرتفعة أمام بيته، مع شدة الرياح، يحدث ضربات عنيفة ومزعجة!.. لكن صاحب العلم أبى ولم يستجب للجار، باعتبار أنها حرية شخصية! تكررت شكوى الجار.. وخرج فى النهاية إلى العلم، فأنزله من السارية، وأشعل فيه النار وأحرقه.. ثم ذهب ليستريح وينام!!

رفع الرجل قضية على جاره.. عدد من المحلفين أدانوا الجار، فقد أحرق رمز البلاد.. وأهان مثلها الأعلى.. وأطاح بكل



الحياة فى سان فرانسيسكو

القيم الوطنية التى تملأ قلوب المواطنين بالعزة والفخار، وخاصة الشباب والأطفال!..

أغلب المحلفين حكموا ببراءة الجار، فالوطن هو المواطن، والوطن ليس هو تلك القطعة من القماش، ارتفعت أم لم ترتفع، بقيت أم احترقت، والعلم رمز لرفاهية المواطن وسعادته وراحته.

فإذا تسبب العلم فى ازعاج المواطن واقلاق راحته.. فلا شىء عليه أن يشكو.. وعلى الآخر أن يستجيب ! فإذا لم يستجب فليكن ما يكون، وليحترق العلم وليذهب إلى الجحيم!!

القضية لم تنته !

* خرج الجار بريئا.. لكن القضية لم تنته عند هذا الحد..! فقد ثارت ثائرة الرأى العام.. ونشرت الصحف مقالات وآراء.. ورفض الناس فى المجتمع الذى

رسالة نيويورك

يعيش فيه الجار أن يتعاملوا معه.. قالوا أن حكم المحكمة قد أفرغ القضية من دلالاتها الوطنية، فإذا كان العلم رمزا لا قيمة له إلى هذا الحد، فلماذا نتخذه فى حياتنا واحتفالاتنا وحروبنا ونجاحاتنا قيمة نحنى له رءوسنا، وتقبله، ولماذا نلف به جنازات الرجال الذين نقدرهم والشهداء.. إننا نتخذ الرموز فى حياتنا لتصبح قيما نلتف حولها.. ونحن نعلم أبناءنا فى المدارس أن العلم فى مقدمة الجيش لابد أن يبقى مرفوعا.. فإذا سقط حامل العلم لا يجب أبدا أن يسقط العلم، وعلى جندى آخر أن يتقدم ليجعله مرفوعا دائما.. ولا يجب أن يتم انزال العلم أو تنكيسه إلا للاحداث الكبرى التى تصيب الوطن!

وكان أعقل الآراء وأرشدها قد قال أنه من حق الجار أن ينزعج، ومن حقه أن يشكو، وإذا كان الآخر لم يستجب، فقد كان عليه أن ينزل العلم.. ويضعه جانبا.. لا أن يحرقه.. فالمشكلة هى فى حرق العلم لا فى إنزاله!!.

مائة جرام!!

* أحد الركاب المسافرين فى مطار ديترويت بولاية ميتشجان فى الشمال الشرقى لامريكا.. معه حقيبتان.. والقانون يسمح له بحقيبتين نزن كل منهما ٧٠ رطلا، أى نحو ثلاثين كيلو جراما.. طلبت منه موظفة شركة الطيران أن ينقص من إحدى الحقيبتين مائة جرام!! لأنها زائدة!! ولما أبدى دهشته لتفاهة الأمر.. قالت إن راكبا آخر منذ فترة كانت حقيبته تزيد كيلو جراما عن الوزن القانوني.. وتصادف أن العامل الذى حاول نقلها إلى الطائرة أصيب ظهره وهو يحملها وسقط على الأرض، فلما وزنوها اكتشفوا الزيادة، فرفع قضية على شركة الطيران، وحصل على تعويض ٢٠٠ ألف دولار!!

قانون الليمون

* أغلب الولايات الأمريكية لديها قانون اسمه «Lemon Law» يسميه العرب هنا سخرية قانون الليمون، لكن معناه قانون الخطأ أو الفشل فإذا اشتريت سيارة من إحدى الوكالات.. وظهرت فيها أى مشكلة، وذهبت إلى الشركة لاصلاحها.. ولم يتم الاصلاح لثلاث مرات، فمن حقك إعادة السيارة للشركة والحصول على ثمنها الذى دفعته حتى لو كان ذلك بعد شرائها بسنوات!..

مسئولية الشركة

* السوق الأمريكية تستهلك ٤٠٪ من انتاج العالم فى السيارات، ولذلك تحرص شركات السيارات العالمية على المنافسة فى هذه السوق وخاصة الشركات اليابانية.. شركة Lexus اليابانية اكتشفت أن هناك خطأ فى أحد موديلات سيارتها وكانت قد باعت منها بداية فى إحدى الولايات، ولالتزامها بالقانون الأمريكي الذى يبقى على مسئولية الشركة على علاقتها بما باعته طول الوقت.. فقد أحضرت قطع الغيار البديلة فى طائرة خاصة، ونشرت اعلانا تطلب فيه من المشترين أن يحضروا سياراتهم وأعطتهم سيارات مؤقتة.. حتى تم الاصلاح. وأعادوا لهم سياراتهم.

مبرر كاف

* مالكة سيارة فورد أصيبت فى



أناس من كل شعوب الأرض يعيشون فى أمريكا حيث فرص العمل والكسب مازالت كبيرة

حادث، ولم يكن بالسيارة «إيرباج» التى تنطلق أوتوماتيكيا مع أى صدمة حماية لصدر الراكب.. رفعت قضية على الشركة.. وحصلت على تعويض نصف مليون دولار.. الغريب أن السيارة موديل قديم، ولم تكن الشركة ولا غيرها قد بدأت وضع الايرباج فى السيارات على الأطلاق، لكن الشركة عندما بدأ استعمال الايرباج قدمت خدمة اضافية مجانية لسيارات تم اختيارها عشوائيا من الموديلات القديمة - ومنها موديل سيارة هذه السيدة - وأضافت اليها الايرباج!

وكان هذا المبرر كافيا.. لتحصل على التعويض!.

رفض الجميع

* سيدة أخرى طلبت من شركة سيارات منذ شهرين أن تبيعها سيارة بدون الايرباج، لأنها لا تحتاجها، فهى كبيرة فى السن، وعظامها هشة، ونظرها ضعيف.. وهى تضطر إلى ضغط المقود إلى أقصى درجة فى الأمام.. وتقود السيارة ببطء شديد.. الشركة رفضت.. وطلبت منها موافقة المرور.. ورفض المرور!

المحل مسئول

* سيدة اشترت كوبا من القهوة من محل عام، وقادت سيارتها وهى تشرب القهوة، وبخطأ منها بالطبع سقطت القهوة على جسمها، فأحرقته.

الطبيب الذى عالجها أثبت أن درجة حرارة القهوة كانت على الأقل ٤٣ درجة.. والمفروض حسب القانون ألا تزيد عن ٤٠ درجة.. وربحت تعويضا ١٠٠ ألف دولار من المحل!.

كرسي في الخلف

* أنت لا تستطيع أن تحمل طفلك داخل سيارتك حتى لو لم تكن أنت الذى تقود السيارة، وكنت تجلس بجوار السائق أو حتى فى المقعد الخلفى!

رسالة نيويورك

لابد أن تضع الطفل فى كرسى خاص، على المقعد الخلفى بالسيارة، وليس على الكرسى المجاور للسائق، وحتى لو كانت السيارة واقفة تماما.. ومن المفروغ منه بالطبع أن الجميع يستخدمون أحزمة المقاعد!

يمكن إعادته

* محلات «الهوم ديبو» التى تخصصت فى كل ما يتصل بالبناء والانشاءات داخل المنزل وخارجه، تصنع لك على سبيل المثال الدهان الذى تطلبه بالمواصفات التى تطلبها خصيصا من أجلك.. وتسمح لك بأن تعيده كله أو ما يتبقى منه، وتستعيد مقابل ما تعيده للمحل.. مع أنه صنع من أجلك ولكل المواصفات التى حددتها!

ابنك يشكوك

* أنت لا تستطيع أن تضرب ابنك أو ابنتك لأى سبب، ولو رآك أحد.. أو شكاك ابنك.. فانك تعاقب! فإذا تكرر فيك هذا، فذلك معناه أنك لست أهلا لتربية ابنك.. فيأخذون منك الطفل إلى دار رعاية، أو إلى أسرة أخرى بديلة.. وعليك الانفاق عليه، واستعادته إذا أثبت أنك أصبحت أهلا لذلك.

مقدمة البرنامج عوقبت

* هنا بعض الولايات المنتجة زراعيا لا تسمح لك بدخولها - وأنت أمريكى قادم من ولاية مجاورة، ومعك حتى أصبع موز، لأنك تنافس انتاجها .

* جان جونز.. وهى مقدمة برنامج شهير هنا، من التى يسمونها « Talk Shows» استضافت شخصا ، قال فى البرنامج كلاماً عن شخص آخر اعتبر مهينا له. عندما خرج من مبنى التليفزيون، وجد الشخص الآخر فى انتظاره بمسدس.. ضربه وقتله!! صحيح أن القاتل عوقب.. لكن مقدمة البرنامج عوقبت أيضا .. لأنها سمحت بما قيل.. بما تسبب عنه حادث قتل!.

خيط الاسنان

* أنا شخصيا كانت عندى مشكلة فى أسنانى.. وأجريت عملية استلزمت الخياطة، حدث هذا خلال زيارة لى إلى كندا، وكان مطلوبا أن أفك الخياطة بعد أسبوع.. وعدت إلى أمريكا.. وحاولت بعد أسبوع الاتصال بعشرات الأطباء لمجرد فك الخيط.. وهى عملية تستطيع أى ممرضة أن تقوم بها.. رفض الجميع.. فالمسئولية.. فى احتمال حدوث نزيف، وهو أمر كان واضحا أنه مستبعد.. وعرضت أن أقوم بالتوقيع بأننى مسئول عن اى نتيجة، وقال الجميع : وكيف توقع وأنت غير مسئول طبيا! واضطررت للسفر إلى كندا لفك الخيط..

لدى نفس الطبيب الذى أجرى العملية!؟.

انزلاق القدم

* أغرب هذه القوانين، أو أغباها كما يقول الأمريكيون ، هو أنه إذا حاول لص دخول بيتك، وأصابه أى ضرر، كأن انزلقت قدمه نتيجة وجود صابون على الأرض أو وجود سجادة غير مثبتة على أرض ناعمة.. فانك تكون مسئولا عن اصابته، هو يعاقب لأنه لص، وأنت تعاقب لأنك تسببت باهمالك فى إصابته! لانه أولا وأخيرا إنسان له حقوقه!؟



جسور حديثة وحياة عصرية واهتمام بوسائل المواصلات

والمعـــروف هنا بشكل عـــام، أنه لو إنزلقت قـدم أى عـابر فـى الشـارع أمـام بيتك نتـيجة وجـود ثلج أو حـجـر فـأنت مـسـئـول فـالمفـروض أن ينظف كل مـالك أمـام بيتـه.. المسـتـأجـرون طبـعـا غيـر مسئولين، إلا إذا كنت مـسـتـأجـرا للبيت كله!.

حارة خاصة

* فى أغلب الشوارع الرئيسية بالمدن الكبرى، توجد على يسار الشارع «حارة» Lane مخصصة لمسار كل سيارة بها أكثر من راكب.. وهى عادة خالية، والسير فيها سريع.. الهدف من هذا التخصيص هو تشجيع الناس على الركوب الجماعى وهو مايسمونه هنا بالـ « Carpool-ing » حفاظا علـى نظافـة البيئـة الذى تلوثه كثرة السيارات المتحركة..

تنبيه رسمي

* القصص كثيرة.. والحكايات لا آخر لهـا.. لكن يبـقى أطرفـهـا مـا نشـرته الصـحف هنا مؤخراً.. فمن العادة، ومع تعاملك مع أى موظف أو فى محل عام أن ينهى الآخر تقديم خدمته لك بقوله «أتمنى لك يومـا طيـبـا».. « Have a nice-day».. حـتـى رجل المرور الذى يعطيك مخالفة، فإنه يقولها لك أيضا.. فهى تكاد تكون جـزءا من التـعـامل اليـومى فى الولايات المتحدة.. رسالة لقارىء نشرت فى إحدى الصحف، اعتبرتها سخرية من رجل المرور.. فتقرر من المسئولين بالمرور ألا يقولوها.. صدر بذلك تنبيه رسمى!

هناك أمـور لا يجب المسـاس بهـا، أو الاقتـراب منها، أهمـهـا ألا تعـامل أحـدا بشكل مـعـين، على أسـاس الدين، أو الجنس، أو اللون.. وأخيرا.. أتمنى للجميع يومـا طيـبـا.. ! Have a nice day أو ..Have a nice Month ■



كيسنجر وإسرائيل والعرب

بقلم
محمد حقي

نشر الصحفى البريطانى كريستوفر هيتشنز تحقيقا صحفيا فى مجلة «هاربرز» على صفحتين فى عددى فبراير ومارس، ودعمهما بالوثائق التاريخية ليثبت أن هنري كيسنجر ارتكب عدة جرائم قاتلة فى فيتنام يستحق عليها أن يحاكم كمجرم حرب ، وأثار التحقيق عددا من ردود الفعل المكبوتة . ولكن نظرا لأن كيسنجر صنع من نفسه ما يشبه الأبقار المقدسة . فلم يلق تحقيق هيتشنز الضجة التى يستحقها ، رغم أنه قال فى تحقيقه إن كيسنجر كان يعلم أن سياساته كان من شأنها مقتل عشرات الآلاف من الأبرياء ، ولكنه ضحى بهم فى سبيل تحقيق مآربه .

ومنذ فترة ، كتب المعلق اليهودى ريتشارد كوهين مقالا يرد فيه على كيسنجر ، الذى كان يومها يكتب سلسلة من المقالات - فى عهد الرئيس بيل كلينتون الديمقراطى - يدافع فيها عن الصين فى أعقاب حوادث تليينامين والمظاهرات الصاخبة التى تطالب بالحريات واحترام حقوق الإنسان فى الصين ، وقال كوهين : نريد أن نعرف من السيد كيسنجر ، هل يكتب لنا هذه المقالات بصفته واحدا من أهم خبراء الشئون الدولية ، أم بصفته محاميا عن الصين ، ويتلقى أجرا يعد بمئات الآلاف من الدولارات لتمثيل مصالح الصين فى الولايات المتحدة ، ومع حكومتها ومجالسها التشريعية .

وقال لى الصديق ستيفن روزنفلد ، وكان يومها نائبا لرئيس تحرير صفحة الرأى فى «الواشنطن بوست» إن كيسنجر مصاب «باسهال» كتابة ، وأنه يرسل للصحيفة عشرات المقالات ، ولكنهم لا ينشرون منها إلا واحدة من كل اثنى عشر مقالاً يبعث بها ، وأنهم يفعلون ذلك فقط إكراما للسيدة كاثرين براهام صاحبة الصحيفة ، التى يتمتع كيسنجر بحظوة عندها .

ولكن أحدا فى الولايات المتحدة كلها لم يسأل كيسنجر عما إذا كانت مواقفة وكتاباته تجاه الشرق الأوسط مردها إلى انتمائه الروحى والدينى لإسرائيل ، أم لمصلحة مالية فوق ذلك ، أم لأن الاسرائيليين يوفرون له قدرا من السلطة والسطوة والقوة والدعاية ، أم لسبب آخر ؟.

وقد كتب عن كيسنجر - عشرات من الكتاب والمحللين الفطاحل ، منهم المؤرخ النفسانى بروس مازيش والكاتب المشاكس سيمور هيرش ، والأخوة مارفن وبرنارد كالب ، وغيرهم . ولكن واحدا فقط هو الذى تناول فى فصل مهم من كتابه عن «سطوة اليهود» - وهو جفرى جولدبرج ، ابن السفير السابق لدى الأمم المتحدة آرثر جولدبرج ، صاحب التاريخ المأساوى مع العرب ،



كيسنجر واسرائيل والعرب



عن حقيقة دوافع كيسنجر تجاه العرب !

كيسنجر وتشكيل مصير اليهود

وكان جولدبرج يتحدث فى هذا الفصل عن اليهود الأمريكيين الذين وصلوا إلى ذروة السلطة .

فى الولايات المتحدة ، وقدموا خدمات لا تقدر بثمن لاسرائيل ، وقارن جولدبرج بينهم وبين قصة سيدنا يوسف فى مصر ، ووصوله إلى قمة الهرم السياسى ، واستقباله لاخوته وتقديم خدمات هائلة لهم ، رغم أنهم كانوا يغارون منه وألقوه طفلاً فى الجب وتركوه هناك ليموت .

وينقل جولدبرج عن آبا ايبان ، السياسى الاسرائيلى المخضرم المولود فى جنوب افريقيا وعاش فى مصر ابان الحرب العالمية الثانية أنه قال : اثنان من اليهود الأمريكيين وصلوا إلى القمة ومارسوا سلطة حقيقية وواسعة ، استطاعا أن يشكلا مصير الشعب اليهودى كله ، وهما : آرثر جولدبرج وهنرى كيسنجر .

ويروى جولدبرج قصة ما حدث سنة ١٩٦٧ فى الأمم المتحدة عندما كان والده - آرثر - سفيرا للولايات المتحدة لدى المنظمة الدولية فى أعقاب حرب الأيام الستة ، وقال الكاتب إنه بينما كان الرئيس ليندون جونسون غارقا فى متاهات فيتنام ، ناور جولدبرج خلال شهور لكى يحمى اسرائيل من أن تفقد على شاطىء النهر الشرقى لمدينة نيويورك (حيث يقع مبنى الأمم المتحدة) ما كسبته على أرض المعركة . وكانت النتيجة هى القرار ٢٤٢ . وكرر الكاتب القصة الشهيرة عن كيف أصر جولدبرج على حذف الحروف «ألف لام» "THE" من النص الانجليزى من القرار ، الأمر الذى فتح أمام إسرائيل الفرصة فى أن تصر على اعتراف العرب بها قبل أن تناقش مبدأ الانسحاب ، وكيف شاءت الظروف أن ينغمس نيكسون تماما فى قضية ووترجيت بحيث ترك الحرية الكاملة كيسنجر لكى يتصرف بمفرده ويطلق ارادته تماما فى شئون الشرق الأوسط أثناء وبعد حرب سنة ١٩٧٣ .

ويدخل الكاتب فى سفسطة ليفرق بين اليهود الذين يعملون فى مراكز حساسة فى الادارة ، وما إذا كانوا يتصرفون كيهود ، أم كجزء من المؤسسة الحكومية التى يعملون بها وضرب جولدبرج مثلا بفريق التفاوض الأمريكى الذين بدأوا رحلة الوساطة بين العرب واسرائيل تحت رئاسة جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق، وهم دينس روس مدير إدارة التخطيط السياسى بالخارجية ، ويعاونه دانييل كيرتزر - السفير الحالى فى مصر - وآرون دافيد

ميهر ، ويقابلهم فى البيت الأبيض ريتشادر هاس ، بمجلس الأمن القومى .

وكانت النقطة التى أراد جولدبرج تأكيدها هو أن اسحق شامير وانصاره فى أمريكا ، كانوا يعتبرون هذا الفريق من اليهود الذين يكرهون أنفسهم ، بل ويشيرون إليهم أحياناً «بالخونة» و«المرتدين الملحدين» لأنهم كانوا يطالبون بتجميد المستوطنات ، أما بقية قادة اليهود غير الليكوديين فقد كانوا يعتبرونهم حلفاء أوفياء يحاولون قيادة سفينة العلاقات الأمريكية الاسرائيلية بغاية الحذر بين بوش واسحق شامير ، وأنهم كانوا ملتزمين بأمن اسرائيل الذى كانوا يؤمنون بأن السلام وحده هو الذى يضمنه ، ثم قال إن هاس كان يهتم بداية بمصالح أمريكا أولا . وأنهم كانوا يؤمنون بأن دفع اسرائيل للتنازل كان لمساعدتها على الوصول إلى السلام مع جيرانها . غير أن هاس مر بتجربة «هودته - تماما» فى ذلك اليوم من سبتمبر سنة ١٩٩١ الذى أدلى فيه بوش بخطاب «القوى العاتية» التى يقف وحده إزاءها ، بينما يحاولون هم الضغط على الكونجرس لتمرير توطين اليهود السوفيت دون التزام اسرائيل بتجميد المستوطنات .

كيسنجر ذراع نيكسون اليمنى

وكان جولدبرج يقصد بهذه المقدمة - التى نوجزها للغاية من عدة صفحات من كتابه أن يصل إلى شخصية هنرى كيسنجر ، الذى قدم من جامعة هارفارد إلى واشنطن سنة ١٩٦٩ ليعمل كمستشار للأمن القومى مع نيكسون أعطى مهمة مركبة ، فمن ناحية وسعت مسئولياته إلى أبعد من أى مستشار للأمن القومى قبله ، ذلك أن هذه الوظيفة كان القصد منها قبل تعيين كيسنجر هو أن يكون ضابط مرور لتنسيق وصول الأفكار الخاصة بالشئون الخارجية من وزارات الخارجية والدفاع والمخابرات إلى البيت الأبيض ، ولكنه طلب منه أن يقوم بما هو أوسع من ذلك ، وهو أن يشترك فى توجيه السياسة الخارجية واعادة تخيل دور «أمريكا فى العالم. «فقد كان نيكسون لا يثق فى وزارة الخارجية وبيروقراطيتها العتيقة ، وقرر أن يمارس هو دور وزير الخارجية بنفسه . وأصبح كيسنجر ذراعه اليمنى .

والمفارقة هنا أن جولدبرج يقول إن سلطات كيسنجر توقفت عند الشرق الأوسط وبقيت شئونها لدى وزارة الخارجية فى يد صديق نيكسون القديم وليام روجرز وزير الخارجية يومها ولم يسمح له نيكسون بأى دور فيها قبل سنة ١٩٧١ ، بعد فشل مبادرة روجرز ، واقتنع نيكسون بأن أسلوب كيسنجر ربما نجح ، وهنا بدأ نفوذه فى الصعود ، وعين وزيرا للخارجية بالإضافة إلى منصبه كمستشار للأمن القومى فى أغسطس ١٩٧٣ .

وكتب كيسنجر فى مذكراته سنة ١٩٧٩ ، فى «سنوات البيت الأبيض» أن سنتى نيكسون الأولين كانت تحكمهما

كيسنجر واسرائيل والعرب



علاقة نيكسون «الغامضة» بوليام روجرز ، لا سيما وأنه - أى كيسنجر - كان يسحب البساط من تحته ويحول سلطاته إلى البيت الأبيض ، وترك له فقط مشكلة الشرق الأوسط وهى أعقد المشاكل وأقلها قبولا وطواعية للحل ، فضلا عن أن نيكسون كان يضمن سيطرته على الأمور بالإيقاع المستمر بين مستشاريه . والجدير بالذكر أن كيسنجر ذكر أكثر من مرة أن نيكسون كان يعتقد أنه يميل شخصيا بحدة نحو اسرائيل . وأيد ذلك الاستاذ والباحث وليام كوانت الذى قال إن نيكسون كان يردد كثيرا أن خلفية كيسنجر كيهودى تجعله مشبوها ، وظل مبعدا له عنها فترة طويلة .

وفى معرض الدفاع عن كيسنجر - وبقية اليهود الذين يخدمون فى مناصب عليا فى الولايات المتحدة - يذكر جولدبرج أن فوز اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ ربما حقق لها حدوداً تضمن لها قدرا أكبر من الأمن والميزة والعمق الجغرافى . ولكنها عزلتها دبلوماسيا تماما عن بقية العالم ، ومن ثم لأنها لم تسمح لها أن تراجع افكارها التى تتعلق بالأرض والأمن ، وعليه فقد كانت تبحث دائما عن شخص يلعب دور «الخائن» ووجدته فى كيسنجر . وهو كلام موجه أساسا إلى الشعب الأمريكى الذى اعترف جولدبرج بأنهم كانوا يعتبرون كيسنجر صهيونيا ، وهذه التهمة التى وجهتها له اسرائيل ، أولا لأنه تلكأ فى امدادها بالسلاح فى الأيام الأربعة الأولى للحرب بسبب خسائرها الفادحة ، ثم قرار وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر الذى لم يمكنهم من تحقيق أهدافهم بالكامل ، وأخيرا بسبب مفاوضاته بين اسرائيل ومصر وسوريا ، التى انتهت بالتنازل عن بعض الأراضى مقابل التزامات عربية على الورق (وهو تعبير جولدبرج) .

تفانى كيسنجر فى خدمة اسرائيل

ولكن جولدبرج أراد أن ينصف كيسنجر فقال إن الواقع هو أنه طلب امداد اسرائيل بالمعونة فى ٧ اكتوبر أى فى اليوم الثانى للحرب مباشرة ضد اعتراض كل زملائه فى الحكومة تقريبا . وكان كيسنجر يتعمد ارسال رسالة واضحة إلى الاتحاد السوفييتى ، وهو المنظور الثانى الذى قصد جولدبرج أن يحول الأنظار عن تفانى كيسنجر فى خدمة اسرائيل ، وأنه أنما كان يقوم بدوره بنظرة استراتيجية تجاه موسكو !

وكان تسلسل الأحداث طبقا لرواية جولدبرج هو أن اسرائيل لم تطلب مساعدة أمريكا قبل اليوم الرابع من الحرب عندما تجلت خسائر اسرائيل

ومحنتها ، ففى فجر يوم ٩ اكتوبر ايقظ السفير سميحا دينتز كيسنجر فى منزله وطلب منه امداد اسرائيل بشحنات جوية فورية ، ولكن الشاحنات الجوية العملاقة لم تبدأ فى الإقلاع قبل يوم ١٣ اكتوبر . وكانت هذه الأيام الأربعة محل أبحاث تاريخية مكثفة تتساءل · هل تلكأ كيسنجر فى عمليات النقل الجوى ، أم أن وزير الدفاع يومها جيمس شليسنجر ونائبه وليام كلبمنتس هما اللذان تسببا فى التأخير .

ولكن كيسنجر نفسه كتب فى مذكراته سنة ١٩٨٢ «سنوات الزلزلة» أنه طلب هذه المعونة يوم ٧ اكتوبر.» غير أن أحدا فى واشنطن يومها كان يتوقع أن تصل خسائر اسرائيل إلى هذا الحد ، ولكنها عندما بدأت تصرخ ، بدت عدة عقبات فنية ، فقد اقترحت اسرائيل أن ترسل طائرات «العال» لشحن السلاح ولكنها لم تكن لديها طائرات كافية ، وخشى كيسنجر استخدام الطائرات العسكرية الأمريكية حتى لا يقدم العرب على استخدام سلاح النفط وحظره عن الغرب، فطلب استئجار طائرات شحن عملاقة ، ولم تكن هناك أى شركة مستعدة لارسال طائراتها إلى منطقة تجرى فيها معارك حربية وأخيرا عندما تكرر استخدام الطائرات الحربية الأمريكية ، رفضت البرتغال السماح لها بالطيران عبر أجوائها .

دوافع كيسنجر وسيكولوجيته

ولما كان يتحتم أن يتخذ القرار من أعلى ، فقد ركزت الأبحاث على من هو المسئول ، وفى كتاب سيرة حياة كيسنجر الذى كتبه والتر ايزاكسون ، ألصق الكاتب اليهودى التهمة بوليام كليمنتس على اعتبار أنه من رجال شركات النفط فى تكساس وأنه كان يتعاطف مع العرب ، وقال الكاتب أن أيزاكسون حمل المسئولية كذلك إلى شليسنجر وزير الدفاع . الذى اتهمه الكثيرون من غلاة اليهود بأن علاقته باسرائيل كانت مركبة لأنه ولد يهوديا ثم عمد كمسيحى وهو صبى وكل هؤلاء الذين يولودن يهودا ثم يتنصرون يعتبرهم غلاة اليهود بأنهم حاربوا اليهود فى تاريخهم كله ، ربما باستثناء بنجامين دزرائيلى ، الذى نصر وعمد وهو طفل ولكنه ظل يكافح من أجل اليهود حتى عندما كان ذلك غير مستحب وخطرا عليه ، على عكس كارل ماركس الذى نصره والداه وظل يضمر الكراهية لليهود طوال حياته !

غير أن جولدبرج يمضى فى سرد ما يراه من دوافع كيسنجر وسيكولوجيته أثناء الحرب ، فقال : إن كيسنجر نفسه قال إنه حاول تجنب استخدام الطائرات العسكرية الأمريكية حتى لا تنقطع الصلة تماما مع العرب : الأمر الذى كان يمكن أن يؤدى إلى استخدامهم لسلاح المقاطعة ومنع النفط وقد صدق حدسه فى ذلك .

غير أن نقاد كيسنجر (من غلاة اليهود طبعا) قالوا إن دوافعه كانت



كيسنجر واسرائيل والعرب



«شريرة» لأنه أراد أن تتلوى اسرائيل فى البداية بينما تزحف ضدها القوات العربية لعدة أيام حتى يتمكن من تحطيم العقبة السيكولوجية فى الشرق الأوسط ويخلق جوا جديداً ومناخا يصلح للتوصل إلى تسوية مبنية على التفاوض بعد انتهاء الحرب . ويقول الكاتب إنه لا يستبعد ذلك بناء على حسابات كيسنجر «الباردة» التى قد تتحمل بضعة آلاف من الضحايا . كما فعل فى فيتنام وكمبوديا لتحقيق قدر من التوازن بين القوى يمكنه من التوصل إلى ما يريد .

والغريب أن انصار كيسنجر تقدموا بنفس النظرية بالنسبة لوقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر فى سيناء ، حيث استطاعت اسرائيل تحويل دفة المعركه ، وعبرت قناة السويس ، والتفت حول الجيش الثالث ، الذى كان على الضفة الشرقية للقناة . وقد استدعى بريجنيف كيسنجر لمقابلته يوم ١٩ اكتوبر للتفاوض حول وقف اطلاق النار ، وذهب كيسنجر إلى موسكو وهو يعتقد أنه سيتفاوض من موقع القوة بدلا من البقاء فى واشنطن التى كانت تمزقها فضيحة ووترجيت ، وذهب لأنه كان يعتقد أن ذلك سيعطيه فرصة لتعطيل وقف اطلاق النار لاعطاء فرصه لاسرائيل أن تستمر فى تقدمها !

وهنا يتجلى غرض الكاتب فى الخلاصة التاليه .

«وقد كان هناك وجه قريب للشبه بين ما فعله كيسنجر فى محادثات وقف اطلاق النار فى موسكو وما فعله أرثر جولدبرج أثنا . حرب الأيام الستة فقد كانت المفاوضات تجرى طبقا لما يراه كل طرف مواتيا لمصلحة الدولة التى يعتبرها تابعة وصديقة له (CLIENT) فإذا تعبت أرخى وإذا هجمت تسدد . ولكن الشبه يتوقف هنا لأن كيسنجر قبل وقف اطلاق النار يوم ٢١ قبل أن تتمكن اسرائيل من الالتفاف وعزل الجيش الثالث بالكامل» .

صاحب اكبر فضل على أمن اسرائيل

أما بقية التفاصيل . فقد كتب عنها المؤرخون والعسكريون والسياسيون من الجوانب الثلاثة أو الأربعة فى الواقع بشكل أدق وأكثر حيادا من جولدبرج ، ولكن روايته لدوافع كيسنجر تأتى من منطلق هل كان وفيا ليهوديته ووفيا لاسرائيل أم لطموحاته الشخصية؟ - دون أن يذكر حرفا عن واجبه كأمريكى - وطنه الأصلى . بل إنه يقول إنه عندما أعلن الرئيس جيرالد فورد قرار «إعادة تقييم» علاقة أمريكا باسرائيل تفجرت مشاعر اسرائيل ويهود أمريكا ضد كيسنجر ، واتهموه مرة أخرى

بالتضحية باسرائيل ، ولكن جولدبرج يذكر له - فى مجال الدفاع عنه يهوديا - أنه صاحب أكبر فضل على أمن اسرائيل . فلولا وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر ، لما جرت محادثات الكيلو ١٠١ ، ولا عقد مؤتمر جنيف فى ديسمبر . الذى أتى بالمصريين والأردنيين إلى مائدة المفاوضات لأول مرة ولما وقعت اتفاقيات فصل القوات فى سيناء ، ولما وقعت اتفاقية كامب دافيد ، ولبقيت اسرائيل فى حالة حرب مع مصر، وهى الدولة العربية الوحيدة التى يمكن أن تهدد بقاء اسرائيل .

ويقول والواقع أن محاولات كيسنجر لاقرار السلام لاسرائيل لم تبدأ من حرب أكتوبر - وإنما بدأت منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها نيكسون الحكم ، وبدأ كيسنجر حربه ضد وليام روجرز ووزارة الخارجية التى كان يعتبر يومها أن اتباع سياسة متوازنة بين اسرائيل واعدائها «الراديكاليين الثوريين» الموالية للسوفييت يؤدى إلى معاقبة اصدقاء أمريكا ومكافأة اعدائها وتقوية السوفيت والأفضل نبذ عملية السلام لفترة وتأييد اسرائيل بقوة لإرسال رسالة إلى العرب أنهم لا يستطيعون الحصول على أى شىء بمعارضة أمريكا أو ضد ارادتها.

وكان كيسنجر يردد دائما أن اسرائيل سند استراتيجى ورصيد لأمريكا وأن دعم أمريكا له ليس مجرد تأييد أدبى وأخلاقى، فإن دعم اسرائيل حتى النهاية من شأنه اضعاف الكرملين وتقوية نفوذ واشنطن فى الشرق الأوسط

زيادة المعونة لإسرائيل

وهنا يضيف : وعندما نشبت المعارك سنة ١٩٧٠ بين الأردن ورجال المقاومة الفلسطينية ، وهددت سوريا بالتدخل ، ثم تراجعت أمام تهديدات اسرائيل ، ودفاع اسرائيل عن الأردن، وكسب كيسنجر نيكسون إلى صفه ، وكانت الأزمة كلها تدار من البيت الأبيض ، وأيدت رؤية كيسنجر الاستراتيجية التى تمسك بها على طول الوقت ، ثم بدأ كيسنجر فى مقابلاته السرية التى كان نيكسون ملما بها ، وهى المقابلات التى أجراها سرا مع جولدا مائير والملك حسين على مائدة الإفطار .

وقد كانت هذه هى المقدمات التى دفعت نيكسون إلى اعطاء زمام المبادرة بالكامل على كيسنجر فى سنة ١٩٧١ ، وإلى أن استقال نيكسون بعد فضيحة ووترجيت .

ومرة بعد مرة يدافع جولدبرج عن كيسنجر يهوديا ، فيقول على لسان بيتر رودمان ، مساعد كيسنجر يومها :

« لقد كان كيسنجر يعطف بكل مشاعره نحو اسرائيل ، ولكنه كان يميل إليها ايضا بعقله كرصيد قومى لأمريكا . ولم يكن نيكسون يكن أى مشاعر لاسرائيل ولكنه اشترى وجهة نظر كيسنجر الاستراتيجية»، ويمضى رودمان فى تحليله قائلا : إن تغيير

كيسنجر واسرائيل والعرب



مصر للجانب الذى تقف معه ، وليكن من السوفييت إلى الولايات المتحدة ، كان أهم حدث خلال العشرين سنة الماضية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نيكسون وهنرى (يقصد كيسنجر) . ولكنهما لم يكونا فطنين بما فيه الكفاية ، والواقع أن السادات ذهب إلى الحرب فى اكتوبر ١٩٧٣ لأنه لم تعجبه تصرفاتنا وما كان يستطيع أن يدفعنا للاستجابة له أو لوجهة نظره إلا عندما قرر الدخول فى الحرب ، وقد عدنا إليه فعلا بعد حرب اكتوبر» .

ويختم جولدبرج دفاعه عن كيسنجر بقوله : وقد ادرك كيسنجر حقيقة السادات وافاق للواقع فى أول اسبوع للحرب ومما رآه من شواهد على ما تستطيع القاهرة أن تفعله ، وهنا قام كيسنجر بأهم خطوة فى تاريخ هذه المنطقة التى لم يلتفت إليها أحد أهم خطوة فى تاريخه كوزير للخارجية ، وهى رفع المعونة إلى اسرائيل إلى ٢,٢ مليار دولار سنويا . أى إلى عنان السماء العليا ، وكان ذلك يوم ١٦ اكتوبر بحجة أن ذلك يدخل فى صميم العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفيتى ! (الباقى كما يقولون تاريخ!) .

وللتاريخ أيضا ، فقد كان الكثيرون من الزملاء فى مصر يعيبون على السادات ترديده أحيانا كلمة : «صديقى هنرى» . ولكنه سئل فى آخر زيارة له ، وكان ذلك فى أغسطس ١٩٨١ ، فى نادى الصحافة القومى ، وكان السؤال هو آخر سؤال فى المؤتمر الصحفى : «هل تثق فى هنرى كيسنجر؟» ، وسكت السادات برهة ، ثم قال ضاحكا لقد قلت له يوما ، باللغة الألمانية ، مثلا ألمانيا يقول : «إذا اعطيته إصبعا فسيأخذ ذراعك كله» ! وفهم الناس غرض السادات !. ■

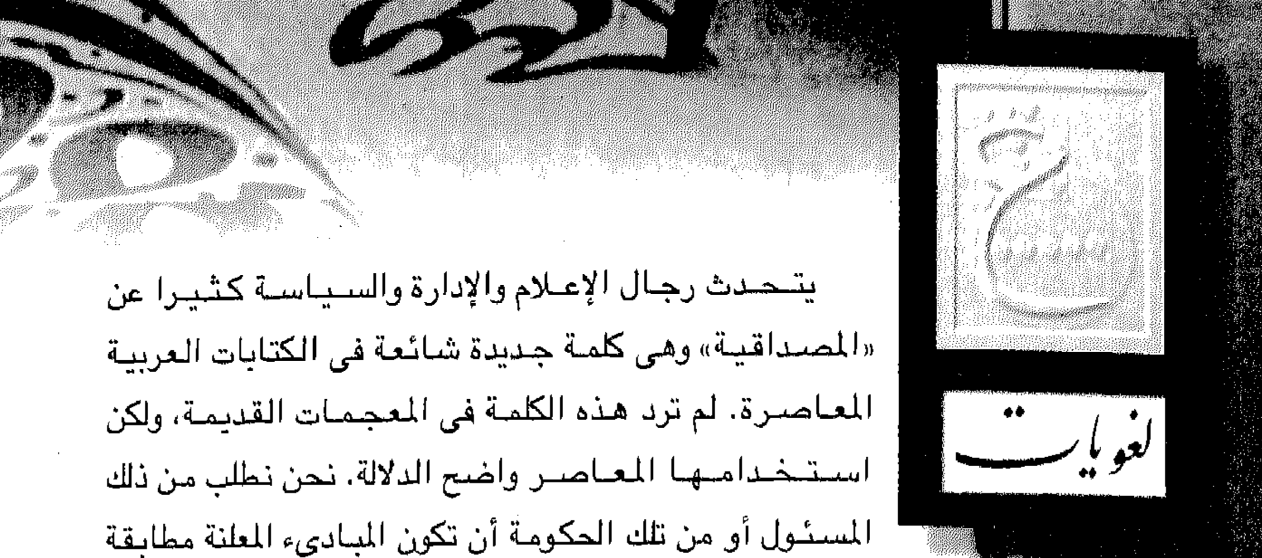
أقوال

«لا تكمن الحقيقة المطلقة لشخصية أمة من الأمم فى كيفية استجابتها للمحن وقت الحروب،وإنما فى كيفية تصديها لتحدى السلام»

ريتشارد نيكسون

« أحب الكتب لا لأنى زاهد فى الحياة ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفى»

عباس محمود العقاد



لغويات

د. محمود فهمى حجازى

يتحدث رجال الإعلام والإدارة والسياسة كثيرا عن «المصداقية» وهى كلمة جديدة شائعة فى الكتابات العربية المعاصرة. لم ترد هذه الكلمة فى المعجمات القديمة، ولكن استخدامها المعاصر واضح الدلالة. نحن نطلب من ذلك المسئول أو من تلك الحكومة أن تكون المبادىء المعلنة مطابقة للسياسة أو الاجراءات أو القرارات حتى تكون هناك مصداقية.

بحث مجمع اللغة العربية هذه الكلمة من حيث حروفها الأصولية والصيغة والدلالة واتخذ فى هذا الأمر قرارا فى ضوء بحث لرئيس المجمع العلامة شوقى ضيف. هذه الكلمة من مادة عربية أصيلة (ص د ق)، اللغة العربية تعرف الصدق والصادق، وذكر لسان العرب لابن منظور كلمة مُصَداق فى عبارات مثل: هذا مصداق هذا، أى ما يصدقه ويشهد بصدقه. ومن هنا كلمة مصداقية بزيادة اللاحقة المكونة للمصدر الصناعى (يّة)، وهى صيغة عربية صحيحة نعرفها فى مئات الكلمات المعاصرة. ودلالة الكلمة واضحة، نطلب من حزب ما أو دولة ما المصداقية وأن تكون الأفعال مطابقة للأقوال، كما نفترض فى الشخصيات العامة المصداقية مع المسئولية.

لقد ورد قرار - فى كتاب مجمع اللغة العربية فى الألفاظ والأساليب، القسم الثالث بإجازة استعمال كلمة مصداقية من حيث صيغتها من المصدر الصناعى، ومن حيث الدلالة الواضحة المرتبطة بالحروف الأصول (ص د ق) ومن حيث قبولها عند الكتاب المعاصرين. إنها كلمة جديدة لم يذكرها المعجم الوسيط فى طبعاته التى صدرت ، وهى جديرة بأن تدخل بصيغتها ودلالتها المتداولة فى الطبعة الرابعة منه، حتى يستخدمها الكُتَّاب فى ثقة وحتى لايشكك أحد فى صحة هذه الكلمة من الجوانب اللغوية بعد أن أقرها مجمع اللغة العربية.



جولة المعارض

رؤى تشكيلية

بين الحداثة والتأصيل

بقلم

عزالدين نجيب

كنت على موعد مع الفنان والناقد الكبير محمود بقشيش لكى أهديه كتابى الجديد «فنانون وشهداء»، ولم يدر بخاطرى أنه نفسه سيكون بعد أيام معدودة أحد هؤلاء الشهداء! .. فقبل موعدنا تلقيت الخبر الأليم بسقوطه فجأة يوم ١٧ فبراير الماضى بإحدى محطات مترو الأنفاق مصابا بنزيف فى المخ، ليدخل غيبوبة مستمرة، ولينتقل من مستشفى إلى آخر، فى انتظار قرار بتحمل الدولة مسئولية علاجه على نفقتها دون جدوى، فى الوقت الذى تتناثر الأخبار فى الصحف بعكس ذلك، أما الفواتير الباهظة للمستشفى الاستثمارى الذى أدخل إليه فقد سددت بالكامل من ثمن اقتناء لوحاته، فوق ما عاناه فيها من إهمال.

لكن بعد صراع الفنان مع المرض لقى ربه فى صبيحة يوم ١٣ مارس بعد رحلة عطاء طويلة فى مجالات الفن والنقد.



مأساة الحلاج - زينب ظاظا

وقد رأت أسرة تحرير «الهلال» ألا يغيب عن صفحات هذا العدد الباب الذي يكتبه محمود بقشيش بانتظام، تأكيدا لحضوره المعنوى حتى ولو غاب عنه قلمه وها أنا اليوم أكتب هذه المتابعات النقدية ، متمثلا قلم صاحب «الجولة» داعيا له بالرحمة والمغفرة.

من القصدية .. إلى العضوية

تتفاوت آليات ودوافع الابداع من فنان إلى آخر تبعا لتكوينه الذاتى فنيا وفكريا ومزاجيا، بين معالجة العمل برؤية ذهنية واضحة وتصميم مسبق ، متخذا خطا مستقيما متناميا يستجيب بوعى كامل لحوافز تحقيق تلك الرؤية، وبين البدء فى

جولة المعارض

العملية الفنية من حدس أو هاجس غامض لايوجهه وعى مباشر أو رؤية محددة، لتتخلق وتبزغ فوق السطح تدريجيا- بعد الملامسة الآنية العضوية له - ملامح كائن جمالى، وتتنامى بآلية التداعى الحر للأشكال.. وبين البدء فى العملية الفنية انطلاقا من فكرة ذهنية غامضة ، سرعان ما تبحث عن تجسدها الجمالى خلال طقوس الممارسة الفنية، وقد يتم خلال هذه الممارسة تغيير مسار الفكرة الذهنية الأولى نحو مسارات أخرى لم تكن فى حسبان الفنان، حيث يبدو مشحوذاً لاقتناص اكتشافات الصدفة التى تفرزها المعالجة الفنية، وتوجهها لتأليف أشكال جمالية جديدة... وتلك جميعا بعض آليات الفنانين للوصول إلى عوالمهم ورؤاهم الفنية، التى تتراوح بين الحداثة والتأصيل.

فى معارض الفترة المفصلية بين شهرى فبراير ومارس الماضيين تتحقق هذه الرؤى جميعا، بين قاعات اخناتون ومركز الجزيرة وأتيليه القاهرة.

الهرم مفردة تشكيلية

فى معرضه الأول بمصر بعد عودته من بعثته الدراسية بألمانيا، والذى أقيم أواخر فبراير الماضى بقاعة اخناتون، قدم الفنان حمدى أبو المعاطى، المدرس بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، رؤية متكاملة اختار لها عنوان «الهرم مفردة تشكيلية». تحققت عبر تقنيات الحفر «الطباعة على قوالب الخشب»، والرسم بالحبر الصينى والتصوير بألوان الأكريليك، وفى هذا المعرض نجد بعض الجوانب المشتركة مع معارضه السابقة، أهمها الرمز، باستخدام تصميمات خطية، تطبيقا لرؤية فكرية مسبقة، مستعينا بعنصر أو أكثر يحمل دلالات معنوية، وهو هنا يتمثل فى رمز الهرم بدلالاته الحضارية وقيم الثبات والتوازن واكتناز الأسرار ، لكنه يعمد إلى خلخلة هذا الثبات محققا نوعا من التوازن الحرج، عن طريق إطلاق الشكل الهرمى فى الفراغ وسط دوامات خطية، بل يعمد أحيانا إلى قلب الهرم على قمته لإيجاد توازن أكثر حرجا، بالتقابل الحاد بين قمم أكثر من هرم، أو بترديد شكل الهرم فوق مسطحات هندسية صماء تمزق سكونيتها حركة عاصفة من الأقواس والخطوط الحلزونية، تتقاطع مع مسطح الهرم وتلغى معنى الرصانة السكونية فيه، ليصبح قوة بث ديناميكية لاتكف عن إطلاق الذبذبات مثل طاقة كهرومغناطيسية مشعة، بما يوحى بمعنى جديد للحضارة المصرية ،

يمثل امتدادا وتواصلا بين الماضى والحاضر والمستقبل.

وإذا كانت طبيعة الفن تنفر من الأفكار المقولبة والأطر سابقة التجهيز، فقد نجا الفنان أبو المعاطى من ذلك، بإحالة «الموضوع» المحدد سلفا إلى «حالة تعبيرية» متجددة، تتوالد الشحنة الدرامية من داخلها توالدا ذاتيا، وتتكاثر بطاقة الابتكار الداخلى، متجاوزة إطار الفكرة الذهنية بخلق ذلك التوتر الدائم على سطح اللوحات، عبر تفاعل خطوط الأهرام مع حركة الذبذبات القوسية والحلزونية للخطوط البينية، وهنا يتراجع «الموضوع» ليصبح «الشكل» فى المقدمة، لكنه شكل دال مكهرب بشحنة تعبير تسمح بالتأويل، الذى قد يختلف من مشاهد إلى آخر .. وفى ذلك تكمن قيمة الفن الحقيقية.

المزاج الذاتى .. والجماعة

وعلى العكس من ذلك، يأتى معرض الفنانة نازلى مدكور «رقم ٢١» فى نفس الفترة ونفس المكان، ليؤكد مسارها الجمالى الذى تمضى فيه منذ سنوات بعيدة، متطلعة إلى خلق رؤى حسية وكونية على سطح لوحات «تجريدية / تعبيرية»، تساعد «الخامة» على إثراء نسيجها التصويرى بملامسها البارزة والمتوترة، دون وضع أفكار أو رؤى سابقة لبدء العملية الفنية، معطية للحالة الانفعالية وللشحنة التعبيرية الغامضة ثم للخامة البدائية الخشنة، أدوار البطولة فى قيادة الوعى - أو اللاوعى الكامن داخل الفنانة - نحو استكشاف رؤى طقوسية أو مناطق مجهولة فى الطبيعة أو فى داخل النفس البشرية، لكن ثمة عنصرا قياديا مهما لتلك العملية وهو ما تسميه الفنانة «المزاج الفنى» الذى يسبق العمل ويقود مختلف مراحل تكوينه... «.. فاللوحة تبدأ بقذف وبعثرة شتات من الإرهاصات الوجدانية و الفكرية على المسطح الفارغ للوحة. وهذا الأسلوب فى استهلاك العمل يساعد على شحذ طاقات الخيال اللاواعى - الجمعى أو الخاص - ويحقق مستوى أوليا من التطهر، كما يفيد فى توفير الظروف المواتية لاستدعاء المصادفة، وعندئذ يتدخل العقل الواعى للفنان لاستجلاء الصور واستنطاقها، وفى هذه اللحظات النادرة من التوحد بين الوعى واللاوعى قد يلامس الفنان النبع اللانهائى للفن..» حسبما تكتب الفنانة عن تجربتها فى مقدمة كتيب معرضها.

وقد يكون بوسعنا اكتشاف تأثرات فنية فى أعمال نازلى ببعض منجزات الفن العالمى - والمحلى أيضا - مثل أعمال رمسيس يونان ومرحلة الجزار الأخيرة



المسماة بعالم الفضاء فى الستينيات ، وغيرهما من الفنانين المعاصرين، كما يمكن استنطاق لوحاتها بمعان ورؤى كونية أو ميتافيزيقية أو حداثية، لكنها هضمت ذلك كله وتركته يذوب ويتغلغل فى نسيج لوحتها بحساسية عفوية مبطنة بوعى فكرى جيد لعملية الإبداع وغايته وخلفيته الاجتماعية..

هنا أجدنى أقف مترددا أمام سيطرة المشهد التجريدى المطلق على لوحاتها، التى تحررت من ملامح الخصوصية المحلية على عكس معارضها السابقة حيث نلمس أثر بعض اتجاهات ما بعد الحداثة فى الغرب على معرضها الأخير، بتكريس هذه الاتجاهات لدور الخامة على حساب أية عناصر أخرى، وتغنيها بالحس البدائى الغفل في الطبيعة ، بل والحس الطقوسى المفرغ من مضمونه الأنثروبولوجى، والفنانة بذلك تنغمس - ربما بغير وعى - فى رؤية ذاتية مغلقة بعيدا عن اهتمامها السابق بجذورها المصرية وارتباطها بالمجتمع، وهو ما تلفت النظر إلى دوافعه في مقدمة معرضها إذ تقول :

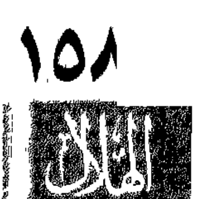
«إن انغماس الفنان فى الذاتية عادة ما ينبع من تراجع أمله فى الاندماج فى الجماعة والمساهمة فى تحديد مصيرها، وما ينتج عن ذلك من خيبة أمل أو التمرد أو رفض التواصل أو حتى السلبية الحالمة تجاه الواقع.» وهى مقولة صحيحة بالتأكيد.

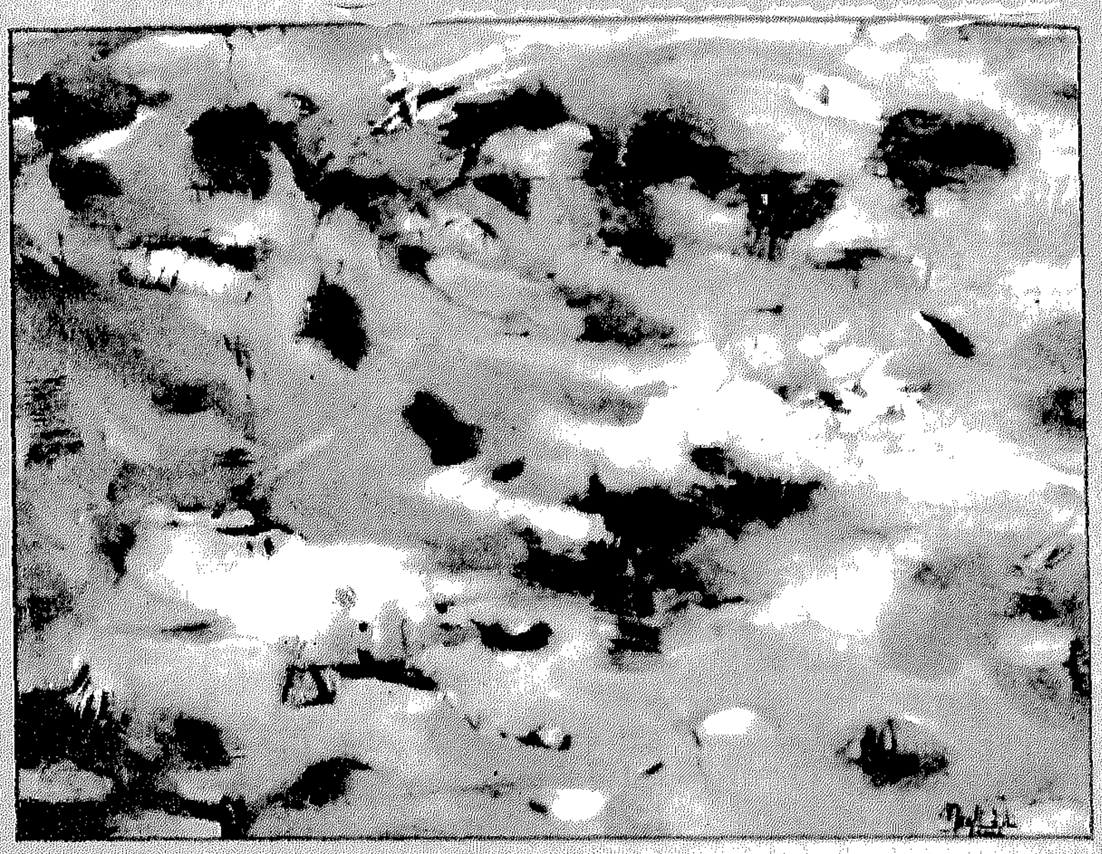
فهل جاء معرضها الأخير تعبيرا عن هذه المعانى؟!

موائد أخرى للقرابين

وفى الوسط بين الاتجاهين السابقين، يأتى معرضان آخران أقيما لفنانين شابين مع فارق السن والخبرة بينهما: الأول معرض الفنان السكندرى محمد فتحى أبو النجا، الذى أقيم خلال شهر فبراير بمركز الجزيرة للفنون، والثانى معرض الفنان طارق زايد الذى أقيم فى أوائل شهر مارس بأتيليه القاهرة.

فتحى أبو النجا فنان يؤمن بأن الفن عملية تجريب مستمرة فى الخامة والشكل، بحثا عن تقنيات جديدة تعمق جذور الانتماء إلى الأرض المصرية، فبعد عدة معارض عالج فيها موضوعات مستمدة من طقوس الحياة والموت والبعث، على خلفية من ملامح الطبيعة والبيئة فى مصر ، مستخدما الأسلوب التعبيرى الرمزى والألوان الزيتية على القماش، انغمس فى تجربة كانت مادتها أوراق البردى والورق





طقوس العبور - نازلي مدكور

المصنع يدويا من ألياف قطنية حسبما تعلم في منحته الدراسية باليابان، واستمد من هذه الخبرة رؤى جمالية تعتمد على الملامس والألوان التى تعطى تأثير الجدران القديمة والمعالم الأثرية ونكهة الزمن والتاريخ، مازجا فى تشكيلاته بين التجريد والتشخيص، لتأتى تجربته الأخيرة مستلهمة من الأحجار الفرعونية التى كانت تعد كموائد للقرابين الجنائزية التى تصاحب المتوفى إلى يوم البعث.. لقد بدأ الفنان تجربته بالفكرة - أو لنقل بالفرضية الذهنية - وهى إعادة إنتاج هذه الموائد مستخدما مادة الورق المصنع يدويا، وتجسيمه حول أطر خشبية ليحاكى الموائد الأصلية، مضفيا عليها حس الطين المتآكل، وعبر الممارسة التشكيلية تتكشف أبعاد جمالية جديدة، فتبدو تلك المجسمات أقرب إلى أشكال نحتية صنعتها الطبيعة فجمعت بين الشواهد الجنائزية وبين الطواطم السحرية والأنماط المعمارية الضاربة فى القدم ولاتزال تحمل آثار الحريق والدخان، لكن الدلالة التعبيرية التى خرج بها الفنان تتجاوز هذه المنطلقات، نحو اسقاطات معنوية صاغها بحس شعرى فى دليل معرضه بقوله:

«... من موائد قدمت للآلهة إلى بعث



جديد أكثر قوة ووفرة.. موائد تتواصل لتبث داخل روحى المغتربة شيئا من اليقين الصعب».

ويختم الفنان كلمته بسؤال حائر لاجواب له : لمن تقدم هذه القرابين ؟!

الشق والرتق !

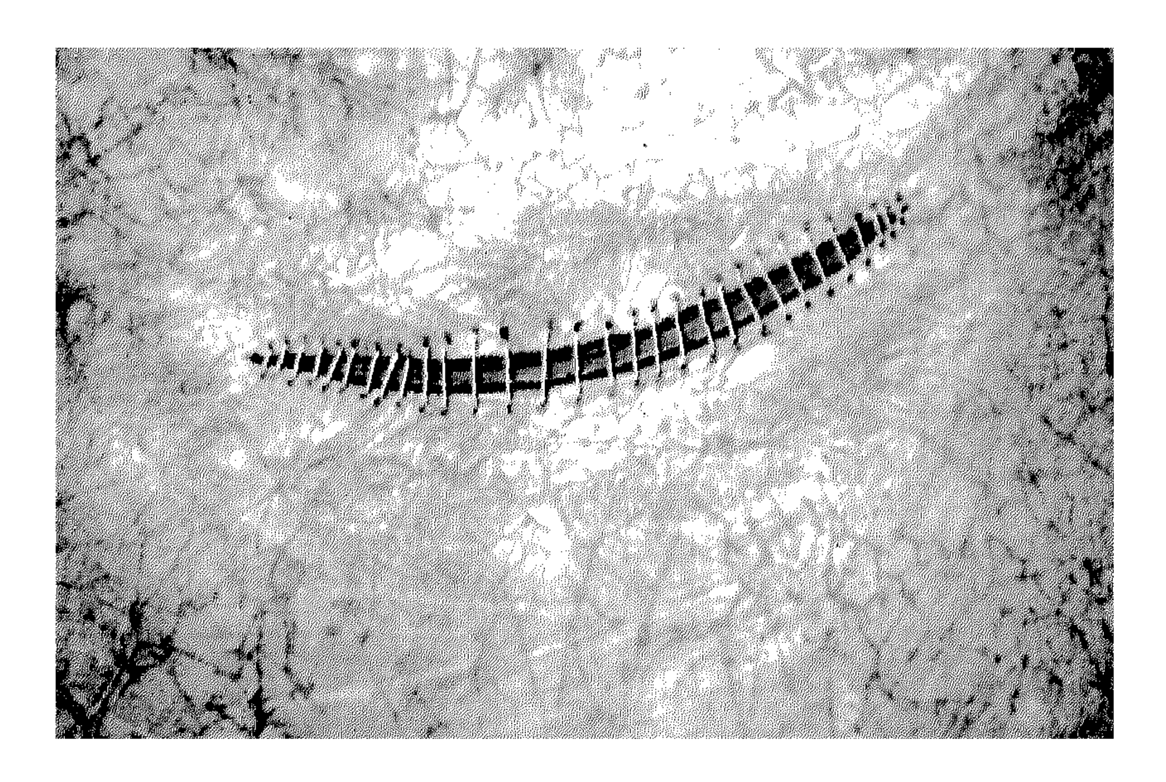
أما الفنان طارق زايد – الذى أقام من قبل عدة معارض بأتيليه القاهرة ثم غاب بعدها سنوات طويلة– فقد فاجأنا بمعرض صغير الأحجام لكنه كبير الأثر والقيمة.. إن التشققات والتجعدات اللونية على سطح الورق تنقلنا إلى عالم مخاتل مسكون بالغموض والسحر. لقد تقطرت ألوانه حتى صفت وشفت عن غلالات عنكبوتية ناعمة مغلفة بالأزرق اللاذوردى والبنفسجى الوردى بأطيافهما النورانية، كانت تلك هى الفكرة الأولية التى انطلق منها الفنان، وكان ذلك هو الأثر النفسى الذى يريد الوصول إليه.

وفجأة شعر بنوع من عدم الصدق الفنى والنفسى ، فليس فى الواقع مثل هذا المناخ الرومانسى! .. هنا عمد إلى طعن كل لوحة بسكين فى مكان القلب منها، محدثا شقا قوسيا غائرا ، ربما يتصاعد تأويله عبر مستويات الاحساس والتلقى لدى كل مشاهد حتى يصل إلى الإيحاء بشق الأوزون فى طبقات الجو العليا ! .. ويبدو أن الفنان – بعدما فعل بلوحاته ما فعل حتى أدماها – شعر بأن الجراح فى قلبه هو ، فسارع إلى رتقها بالإبرة والخيط الحقيقيين، علها تندمل وتحقق له وللمشاهد نوعا من التوازن المفقود!

وعلى مستوى الرؤية التشكيلية جاء هذا الرتق الغرائبى إضافة جمالية باتت هى نقطة الارتكاز الأساسية فى اللوحة ، وجواز مرورها بين محطات الحركة الفنية المزدحمة بكل التيارات، الباحثة بأى ثمن عن رؤى جديدة مبهرة. لكن مع نجاحه فى تلك اللوحات، فإنه لم يوفق بنفس القدر فى لوحاته التى ألصق فوقها أشرطة ورقية بيضاء بدت مفتعلة بلا عمق أو دلالة!

ثنائيات صوفية

وتنتهى الجولة بمعرض صغير أقيم بقاعة إنجى أفلاطون بأتيليه القاهرة فى فبراير الماضى، لم يتحدث عنه أحد، بالرغم من أنه حدث فنى مهم.. انه معرض الفنانة زينب ظاظا ، وربما قوبل بهذا الصمت لأن صاحبته اسم غير معروف بالحركة الفنية فى مصر، حيث علمت أنها تقيم بعاصمة أوربية منذ سنوات طويلة.



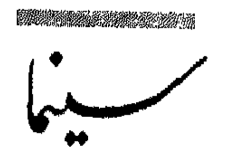
البعد الثالث - طارق زايد

المعرض يضم مجموعة تجليات صوفية مستوحاة من الشعراء الصوفيين أمثال ابن عربى والحلاج، ويمزج بين القصائد المكتوبة والرسوم التى تستلهم فنون الأطفال وتصاوير الكتب العربية والفارسية القديمة مثل أعمال يحيى الواسطى وبهرزاد ، لكن الصياغة فى مجملها نسيج محكم يجمع بين عبق التراث ونقاء الفطرة وجرأة الطفل والحداثة الفنية.

إن الكتابات المسطرة على سطح اللوحة ليست موضوعا للقراءة ، بالرغم من أنها نصوص شعرية مهمة، بل هى إيقاعات بصرية ذات ملامس ومستويات، وتستخدم الفنانة أسلوب «الكولاج» وتباين آثار الخامات المختلفة فوق السطح، أما الأشكال المشخصة من بشر وحيوان وطير وشجر فهى آتية إلينا تواً من عالم الحلم والأسطورة، عبقة بأريج الزمن وبراءة الطفولة.

ولم أعجب حين علمت أن الفنانة هى ابنة أستاذنا الحكاء العظيم د.حسن ظاظا الذى كان موسوعة لتاريخ الفن والأساطير والفنون الحضارية والملاحم الشعرية من كل الأوطان، ولم تكن أجيال الطلاب والفنانين تمل الاستماع إليه بمختلف كليات الفنون .. وهكذا تشربت روح ابنته هذا الرحيق المدهش، فتجلى فى لوحاتها بكل هذه العذوبة! ■





كتاب وفيلم وأوسكار

بقلم
مصطفي درويش

نعيش عصر ثورة المعلومات، ومن الأكيد أن لها ايجابيات وسلبيات، شأنها في ذلك شأن جميع الثورات.
ولعل أهم سلبياتها، اغراقنا بطوفان من المعلومات، على نحو أصبح من الصعب معه تمحيصها، بحيث لا نختار منها إلا ما ينفعنا.
وفي مجال السينما، كان المخرج الايطالي «فيديريكو فيلليني» من اوائل المعبرين عن ازمتنا من جراء ذلك الطوفان، وما يحمله لنا من تهديد، وذلك من خلال اكثر من فيلم، لاسيما «صوت القمر» رائعته التي ختم بها مشواره مع الاطياف، وكانت بحق مسك الختام.
كل ذلك أقوله، كمدخل لمؤلف ضخم اسماه صاحبه «دافيد بوتنام» - «الحرب غير المعلنة.. الصراع من أجل التحكم في صناعة الفيلم عالميا».

وبداية، من «بوتنام» هذا؟ هو منتج بريطاني، فاز بجائزة اوسكار عن اكثر من فيلم.

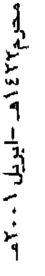
ومن بين الافلام التي قام بانتاجها، على امتداد اكثر من ربع قرن من عمر الزمان، اذكر على سبيل التمثيل «عربات النار»، «اكسبريس منتصف الليل»، «الحقول القاتلة» و«الارسالية».

وعلى غير عادة، عين عام ١٩٨٦، رئيسا لشركة كولومبيا، إحدى شركات هوليوود، القائمة على صناعة الأحلام.

وبفضل ذلك التعيين، كان أول أوربي يرأس واحدة من تلك الشركات، المتحكمة في صناعة السينما عالميا.

الأباطرة الجدد

غير أنه سرعان ما وقع الاصطدام بينه وبين أصحاب القرار من وراء الستار، واعني بهم أباطرة هوليوود وبالتالي لم







توم هانكس هل يفوز بأوسكار ثالثة ؟!

يكن ثمة مناص من قيامه بتقديم استقالته، وعودته من حيث أتى، ولما يكن قد مضى على رئاسته لتلك الشركة (المملوكة الآن لشركة سونى) ، سوى خمسة عشر شهراً. هذا ، ولم تمض سوى أعوام معدودة على استقالته تلك، حتى كان المهتمون بمصير السينما يتجادلون حول الأفكار التى ضمنها كتابه النفيس.

والحق، انه عندما ظهر الكتاب، تلقاه النقاد أحسن لقاء، وقدموه الى القراء تقديما فيه من الحماس له، والاشادة به، الشيء الكثير.

ولا غرابة فى هذا، فـ«بوتنام» قد عرض فيه لصراع مرير، بدأ فور تحرك الصورة، قبل مائة عام، واستمر حتى هذه الساعة.

والشيء الأكيد، أن قطبى ذلك الصراع هما أوروبا وأمريكا، وبالتحديد الولايات المتحدة.

أرباح تفوق الخيال

أما مداره، فصناعة وتجارة أفلام، تقدر أرباحها حاليا، لا بدولارات تعد بالملايين، وانما تعد بالبلايين .

وهنا يساورنا سؤال، لمن كان الفوز



«ذهب مع الريح » من علامات هيمنة هوليوود

في ذلك الصراع، ومتى؟

وتجيء الاجابة قاطعة بأن الفوز كان من حظ الولايات المتحدة، وهوليوود بالتحديد.

فالمعركة من أجل الجمهور الامريكى، خرجت منها أوروبا خاسرة، وذلك قبيل اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤).

والفضل في ذلك الفوز المبكر، انما يرجع الى عدة عوامل، من بينها نظام النجوم الذى ابتكره «ادولف زوكور» أحد بناة استديوهات بارامونت .

ولعل أهم نجوم تلك الفترة من عمر السينما، واكثرهم شهرة ومنزلة في قلوب الجماهير هم «مارى بيكفورد» و«ليليان جيش» و«شارلى شابلن» و«دوجلاس فيربانكس الكبير».

اختلال الميزان

وعلى كل، فبعد عقود من التنافس على الجمهور الاوربى، أخذ الميزان يميل شيئا فشيئا، لصالح السينما الامريكية، حتى انتهى الامر، قبل ثمانية عشر عاما، الى خروج صانعى الافلام الاوربيين من ساحة المعركة خاسرين والى تدهور وضعهم، حتى كاد الا يكون لهم رأى، ولا خيار في الحفاظ على السينما الاوربية، عفيّة قوية .

ولعلى في غنى عن ايراد الأمثلة التى جاء ذكرها في المؤلف للتدليل على خضوع السوق الاوربية لهيمنة هوليوود، فهى من

الكثرة، بحيث يعد ايرادها ضربا من العبث، ليس فيه غناء.

ومع ذلك، أرى من المفيد أن أذكر مثلا واحدا، على سبيل الاستثناء، وهو ذلك الخاص بالمواد المسموعة والمرئية الامريكية، وتصديرها الى أوروبا ففيما بين عامى ٨٤ و١٩٩٢ ، ارتفعت قيمة صادرات تلك المواد من ثلاثمائة وثلاثين مليون دولار الى ثلاثة بلايين وستمائة مليون دولار .

ومع مجىء عام ١٩٩٥ كان عجز ميزان الاتحاد الأوربى التجارى مع الولايات المتحدة، فى مجال تلك المواد، قد ارتفع الى ستة مليارات وثلاثمائة مليون دولار .

صعود وسقوط

فما سر ذلك الصعود الأمريكى، وذلك السقوط الأوربى؟

كلاهما يرجع الى الجذور، الى أيام السينما الأولى، فالشىء الذى لاشك فيه أن الرواد الأوربيين الذين هاجروا الى أمريكا كانوا أسرع ممن آثروا عدم الهجرة من أوروبا، فى فهم وتمثل حقيقة تبدو بديهية الآن .

وهى أن الاعتبارات التجارية تماثل فى الأهمية الاعتبارات الفنية.

وبدون المزاوجة الخلاقة بينهما، لا يكتب للعمل السينمائى أى نجاح .

ومما ساعد على ذلك الفهم والتمثل، طريقة «فورد» فى العمل من أجل أكبر قدر من الانتاجية، تلك الطريقة المثلى، التى سادت بطول وعرض الولايات المتحدة، طوال الربع الأول من القرن العشرين وكان نجاحها منقطع النظير، محل تقليد الصناعات الأخرى، غير صناعة السيارات، بما فى ذلك صناعة الأطياف

ومهما يكن من أمر، فما أن رسخت أقدام بناة هوليوود الاوائل فتوسعت صناعتهم بتشييد الاستديوهات العملاقة، وتخليق نجوم مثل جريتا جاربو، مارلين ديترش ، كاترين هيبورن، كلارك جيبل، ڤيڤيان لى، همفرى بوجارت ولورين باكال، وغيرهم كثير.

ما ان رسخت أقدامهم على هذا النحو، حتى عملوا جاهدين من أجل قفل أبواب السوق الأمريكية التى كانت تزداد ضخامة وتجانسا على مرّ الأعوام، دون هوادة فى وجه صانعى الأطياف الأوربيين.

وبفضل نجاحهم فى استعمار الخيال الامريكى، كما قال بحق المؤرخ الأمريكى «نيل جابلر» ، عملوا على تسويق أفلامهم فى مشارق الأرض ومغاربها.



«مارى بيكفور» .. بداية نظام النجوم

ومن حين لآخر ، حاولت أوروبا مواجهة هجمة هوليوود الشرسة، والصمود لها، بشتى الوسائل غير أن محاولاتها باءت، دون استثناء بفشل ذريع.

والمطروح حاليا، أن يتعلم صانعو الأطياف الأوربيون من تجربة فشلهم على هذا النحو فى حرب المائة عام، تلك الحرب غير المعلنة منذ مولد فن السينما.

ولكن كيف؟ هذا هو السؤال الذى حاول «بوتنام» أن يجد له جوابا .

فاذا ما انتقل الحديث بنا الى الفيلم فسنجد انفسنا أمام ظاهرة فريدة تنحصر فى أنه، وعلى امتداد الشهرين اللذين استهل بهما القرن الواحد والعشرين، لم يعرض خلالهما، عندنا هنا فى القاهرة التى تعد واحدة من أكبر مدن العالم، واكثرها تأثيرا، لم يعرض سوى فيلم واحد ذى مستوى رفيع، وذلك الفيلم هو «شاطىء النجاة» أو «وحيد فى الدنيا» لصاحبه المخرج «روبرت زيميكيس».

والحق فكل شىء فى فيلمه غريب، ومن غرائبه أنه كاد يكون فيلما صامتا . فعلى امتداد ساعة او يزيد لانسمع الا اصوات البحر والاشياء.

صوت الصمت

أما صوت بطل الفيلم «شك نولاند» ويؤدى دوره النجم «توم هانكس» ، فلا نسمعه ، لا لسبب سوى أنه يعيش وحيدا فى جزيرة صغيرة، تحاصرها أمواج

المحيط، ولا يؤنس وحدته فيها انسان، أو حتى حيوان. ومجيء «نولاند» الى تلك الجزيرة لم يكن بمحض ارادته وانما قسرا، بمشيئة الاقدار .

فالأحداث تبدأ به فى الولايات المتحدة (١٩٩٠)، حيث نراه قائما بتسليم طرد الى المرسل اليه فى مكان ما بوسط الغرب الامريكى، ثم مسافرا جوا الى موسكو، حيث يعمل على دعم فرع شركة «فيديرال اكسبرس» واختصارها «فدكس» وفى عاصمة الاتحاد السوفييتى سابقا، لا يمكث طويلا فالوقت عنده من ذهب، وكل دقيقة من عمره يعمل لها الف حساب .

قوة القدر

وهاهو ذا، فى أيام عيد الميلاد المفترجة، يلتقى، وهو فى عجلة من امره، بحبيبة قلبه «كيللى فريز» - وتؤدى دورها «هيلين هانت» الفائزة بأوسكار افضل ممثلة رئيسية قبل ثلاثة أعوام - يلتقى بها فى بلدة «ممفيس» لقاء سريعا.

ثم يفترقان ، بعد أن يتبادلا الهدايا، هو يعطيها دبلة الخطوبة، وهى تعطيه ساعة جيب عائلية محفوظة فى علبة ، ما أن تفتح حتى تطل منها صورة صغيرة لوجهها الصبوح، يشع براءة وجمالا .

ولقد كان من المفروض أن يكون فراقهما قصيرا، لا يدوم سوى أيام، هى تلك التى سيقضيها فى دورة تدريبية بأحد بلدان أمريكا اللاتينية، بعدها يعود الى «ممفيس»، حيث يحتفل الاثنان بعيد رأس السنة ثم يتزوجان ، ويعيشان فى التبات والنبات .

غير أن فراقهما طال .. لماذا؟

لأن طائرة الشركة التى استقلها اسقطها اعصار وفيما عداه، لم يكتب لأحد من ركابها نجاة .

والآن ، نراه، وبعد أن قذفت به أمواج المحيط الى شاطىء جزيرة، يصرخ مستنجدا، ولا من مجيب .

وعلى هذا الحال ، بقى فى عزلة تامة، أربعة أعوام، ولن أحكى كيف تحدى «نولاند» الطبيعة، ولا كيف اشعل النار، ولا كيف تغلب على الوحدة، وقهر الزمان فذلك شىء يطول.

وانما اكتفى بأن اقول بأن المخرج «زيميكيس»، كان فى عرضه لمحنة «نولاند» متأثرا بلغة الموسيقى الى حد كبير .

فيلم وسيمفونية

ومن هنا، مجىء فيلمه أقرب الى سيمفونية مرئية، سمعية من أربع حركات.

فكم كان ايقاع الفيلم سريعا، فى

البداية ونحن نرى البطل يعيش متنقلا بالطائرة بين أمريكا وروسيا، متغنيا بالوقت، بوصفه اغلى شيء في الوجود.

وكم كان بطيئا ، دون املال، والبطل يعيش وحيدا، بغير انيس، محاولا التغلب على محنته، تارة بمناجاة صورة حبيبته، وتارة اخرى بالحديث مع كرة مطاطية رسم عليها بدماء جرح تقاطيع وجه انسان

فاذا ما مرت الأيام أعواما بعد أعوام، وانتهى البطل، في اثنائها، من اعداد قارب نجاة بوسائل بدائية، لعله به يستطيع مغادرة الجزيرة اللعينة الى العالم المسكون عاد الايقاع سريعا متوترا، يعكس بذلك الاهوال التي تعرض لها ، وهو وحيد، يواجه رياحا عاتية، وامواجا عالية كالجبال، وكائنات بحرية، تثير الفزع في القلوب.

ومع نجاته، رغم كل ذلك، من هذه الاهوال، ووصوله سالما الى بر الامان، يتهاوى الايقاع وشيئا فشيئا، يصير بطيئا، هامسا، معبرا عن مشاعر الاحباط لدى «نولاند»، وهو في مفترق الطرق، يصارع نفسه، وقد استبان له ان عودة الزمن الجميل السابق على سقوط الطائرة، امر مستحيل.

تقان وتجل

وختاما تبقى لي ملحوظتان ..

اولاهما ان دور «هيلين هانت» قصير، كاد لا يحتل من زمن الفيلم سوى دقائق معدودات .

ومع ذلك ، ارتضت، وهي من هي، أداءه رغم قصره، لا لشيء سوى أن «زيميكيس» الفائز بأوسكار أفضل مخرج عن فيلمه «فورست جامب» (١٩٩٤) هو صانع «وحيد في الدنيا» ، وان «هانكس» الممثل الذى ستقف معه امام الكاميرا .

وفي اعتقادي، انه حتى ولو تقلص زمن وقوفها معه من دقائق الى ثوان، لما تراجعت عن قبولها للدور، وحماسها له حماسا شديدا. ومن الأكيد أن سلوكها هذا مثل يحتذى، ويا حبذا لو احتذى به نجومنا الكبار!!

أما الملحوظة الثانية فعن «هانكس» وبراعته في التعبير عن احاسيس «نولاند» المختلفة، قبل السقوط وبعده. وليس من شك ان هذه البراعة هي التي أهلته لأن يكون أحد الخمسة المبشرين بجائزة أوسكار أفضل ممثل رئيسي .

ومعروف عنه، أنه قد فاز بها مرتين، احدهما عن أدائه لدور محام مريض بالايدز في «فيلادليفيا» (١٩٩٣)، والأخرى عن أدائه لدور الانسان الطيب «فورست جامب» (١٩٩٤) .ومنذ ذلك الفوز المبين، يكاد لا يمر عام دون ترشيحه لها .

لكل سؤال جواب

ولو كتب له أن يفوز في الليلة الكبيرة (٢٥ مارس) بالاوسكار الثالثة، فسيكون بذلك الوحيد الفائز بها ثلاث مرات .

وقد يتساءل البعض، وأين «جاك نيكلسون»؟ أليس له نفس الرصيد من جوائز اوسكار؟ ولا خلاف على ذلك ، فهو الآخر قد فاز بها ثلاث مرات .

ولكن إحداها كانت عن ادائه لدور ثانوي في فيلم «شروط المحبة» (١٩٨٣) .

ومن هنا، الاكتفاء بمنحه اوسكار





هيلين هانت متوجة بأوسكار وترضى بدور صغير!

افضل ممثل مساعد، فى حين ان الجوائز الثلاث الفائز بها «هانكس» وذلك فيما لو كتب له الفوز عن ادائه فى «وحيد فى الدنيا» فهى، ودون استثناء، عن ادائه لادوار رئيسية، استحق عنها اوسكار افضل ممثل رئيسى .

ولأننى لم اشاهد، حتى الآن، من افلام الممثلين الأربعة الآخرين المرشحين معه للاوسكار سوى «المصارع»، بطولة «راسيل كرو»، فلا استطيع أن اقطع ان تمثيله افضل من تمثيل الثلاثة الذين لم اشاهد افلامهم .

ولكننى استطيع ان اقطع بأن تمثيله يفضل تمثيل «كرو» فى تقمصه لشخصية الجنرال الرومانى الذى صار عبدا، فمصارعا .

ولو اقتصرت المنافسة بينهما، اى «هانكس» و«كرو» لكانت اوسكار من نصيب الأول دون جدال .

ومع ذلك، يبقى لى ان اقول ان رأيى هذا لا يعدو ان يكون اجتهادا، قد يصيب، وقد يخيب ليلة الخامس والعشرين من مارس..

ولكل مجتهد نصيب . ■



سعد الله ونوس ورحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة

بقلم
مها محمود صالح

«نحن لا نصنع مسرحاً كى نثبت فقط أننا لاحقون بركب المدنية وأننا نعرف المسرح كسوانا.. إننا نصنع مسرحا لأننا نريد تغيير وتطوير عقلية، وتعميق وعي جماعى بالمصير التاريخى لنا جميعاً»..

سعد الله ونوس



محرم ١٤٢٢هـ - أبريل ٢٠٠١م

كثيرون لم يتعرفوا على مسرح ونوس إلا عند تقديم بعض مسرحياته على خشبة المسرح المصرى فى الثمانينيات والتسعينيات، وذلك على الرغم من تفرد التجربة الفنية التى طرحها منذ كتابة أول أعماله المسرحية «ميدوزا تحدق فى الحياة» عام ١٩٦٣، حتى «طقوس الإشارات والتحولات» التى كانت آخر أعماله المسرحية، وذلك قبل وفاته فى القاهرة متأثرا بمرض

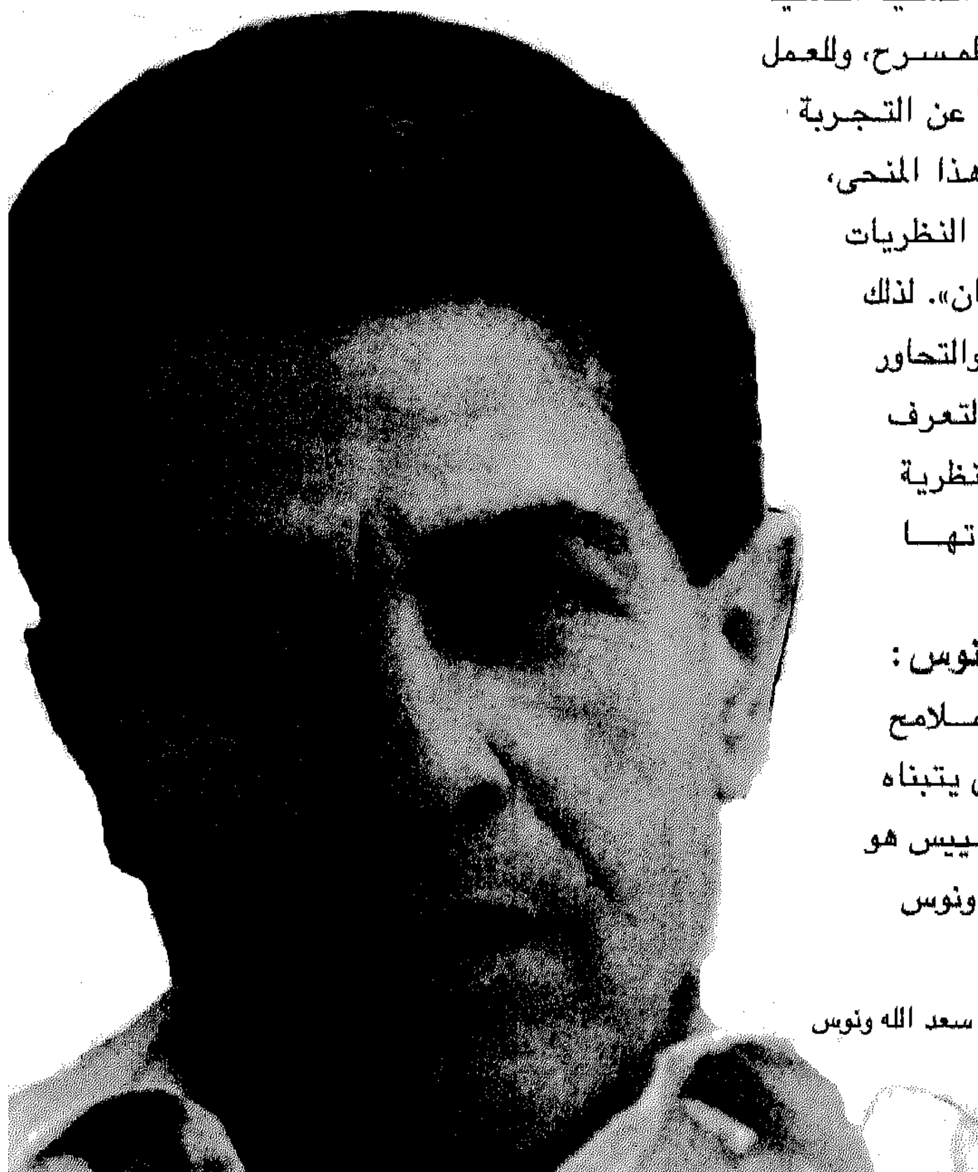
السرطان عام ١٩٩٧.

وتراث ونوس لا ينحصر فى أعماله المسرحية، وإنما يضم أيضاً، وبنفس القدر من الأهمية، مقالات وحوارات تحمل وجهة نظر فيما يجب أن يكون عليه المسرح والدور الذى يمكن أن يلعبه فى حياة الفرد والمجتمع.

يشير محمد دكروب فى تقديمه لكتاب ونوس «بيانات لمسرح عربى جديد » إلى أن كتابات ونوس التنظيرية «من نوع تلك الكتابات الذهنية التأملية التى تخترع نظريات للمسرح، وللعمل الفنى إجمالا، بعيداً عن التجربة نفسها، وبوهم أن هذا المنحى، التأملى، يجعل تلك النظريات صالحة لكل زمان ومكان». لذلك فإن فهم مسرح ونوس والتحاور معه لا يتأتى إلا بعد التعرف على تلك الكتابات النظرية والإحاطة بمنطلقاتها وأهدافها..

المسرح عند ونوس:

يمكننا أن نوضح ملامح مسرح التسييس الذى يتبناه ونوس، إن مفهوم التسييس هو كما جاء على لسان ونوس ص ١٠٨ «أننا نطرح


سعد الله ونوس

المشكلة السياسية من خلال قوانينها العميقة وعلاقاتها المتشابكة داخل بنية المجتمع الاقتصادية والسياسية، ونحاول فى الوقت نفسه استشفاف أفق تقدمى لحل هذه المشكلة». ويتلخص مسرح ونوس فى:

أولا: البدء بالجمهور:

المسرح، عند ونوس، هو فى الأصل «حدث اجتماعى» والظاهرة المسرحية فى أبسط أشكالها هى متفرج وممثل وغياب



مسرح

أحد هذين العنصرين فقط هو الذى ينفى الظاهرة المسرحية، أما العناصر الأخرى التى تمت إضافتها عبر مراحل تطور هذه الظاهرة مثل النص والإخراج.. وغيرها، فإن غيابها لا يؤدى إلى نفى الظاهرة المسرحية «ص١٩-٢٠.

وإذا كان للجمهور هذه الأهمية القصوى فى الظاهرة المسرحية، فإنه من الأهمية بمكان أن يتم التعرف على هوية الجمهور الذى يخاطبه العمل المسرحى: ظروفه وقضاياه وطموحاته. وبناء على ذلك تتحدد الأفكار والمعانى التى يطمح العمل إلى توصيلها إلى ذلك الجمهور، وذلك فى إطار المفهوم السابق ذكره. يأتى بعد ذلك السؤال الذى يربط بين القضيتين السابقتين وهو عن أفضل الصيغ الفنية لتحقيق أعمق وأفضل تفاعل مع ذلك الجمهور ص١٨-٢٢.

أما من الناحية الجمالية فعلى المسرح، كما يرى ونوس، أن يتبنى أشكال اتصال جديدة ومبتكرة لا يوفرها دائماً التراث الموجود فى المسرح العالمى أو العربى، ص١٠٩.

ولا ينتهى دور المتفرج، فى رأى ونوس، عند تقديم العمل المسرحى بشكله المكتمل على خشبة المسرح، وإنما على المتفرج أن يدرك أهميته فى أى عرض مسرحى فهو ليس تلميذاً تملى عليه الأوامر، وإنما هو مسئول عن ممارسة.. حقه كاملاً فى رفض أو قبول ما يقدم له ص٤٢-٤٤.

ثانيا: المسرح عمل جماعى

وليس ذلك بمعنى أنه حصيلة تراكم مجموعة من الجهود الفردية وإنما معناه عند ونوس هو أن العمل المسرحى هو نتاج جهود مجموعة من الأفراد يملكون حداً كافياً من التجانس ووضوح الرؤية والحماس والقدرة على البحث. هؤلاء الأفراد سيملك كل منهم القدرة على العمل المتخصص فى أحد أوجه العمل المسرحى: كتابة، إخراج، أو تمثيل، والقدرة فى نفس الوقت على التحاور مع زملائه من ناحية ومع جمهورهم من ناحية أخرى، حتى يصلوا بالعرض المسرحى إلى أقصى درجات تماسكه وقدرته على التأثير. ص٣٥-٣٨.

ثالثا: ينبغى أن نشحن

المسرح الذى يبشر به ونوس يجب أن يكشف وعى المتفرج بالواقع الاجتماعى والسياسى حوله. إنه ليس

مسرحاً يهدف إلي تفريغ المتفرجين من عوامل النقمة والغضب بل على العكس هو «المسرح الذى لا يريح المتفرج أو ينفس عن كربته.. هو المسرح الذى يقلق، ويزيد المتفرج احتقاناً».

هذا المسرح له أهمية خاصة فى رأى ونوس فى الفترات التى يسود فيها الكبت أو «اللاتسييس» المنظم.

فالمسرح «..من خلال جماعيته، وعمله اليومى، وعلاقته الحاضرة والمباشرة مع الناس إنما يعطى الوهم بنشاط أو عمل سياسى»، فكأنما المرء « يهز ولو جزئياً جدار اللاتسييس المعدنى»، ص٤٠.

ولقد اخترت أن أقدم قراءة لأحد أعمال ونوس المسرحية كنموذج لمسرح التسييس الذى دعا إليه. وهذا العمل هو رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة ١٩٧٨ ويلاحظ أن المسرحية هى كتابة جديدة لنص بيتر فايس كيف تخلص السيد موكينبوت من آلامه، ولعله من المناسب أن نذكر هنا رأى ونوس القائل إن النص المقتبس هو نص يحاور زمناً مختلفاً وبيئة مختلفة وهو بذلك يعد نصا جديداً برؤية جديدة.

من الغفلة إلى اليقظة

هذه المسرحية واحدة من أكثر مسرحيات ونوس ارتباطاً وتمثيلاً لمفهوم التسييس الذى يدعو إليه، أما حنظلة فهو رجل بسيط يعمل عداد صرافة فى بنك الازدهار والتجارة، أى أنه يقوم بعد وتصنيف العملات الفضية فى البنك. ومن اللحظة الأولى تتبدى لنا شخصية حنظلة استسلامية الطابع، تكاد تكون بلا ملامح، تخيم عليها مرارة لعله هو نفسه لا يدركها، إنها شخصية سلبية غير قادرة على تخطى حدود ذاتها. أبوه هو حامد الحنظلى وأمه زنوب الصفراوى «لاحظ دلالة الأسماء»، سنة ميلاده ضائعة، متزوج بلا ضنى، وزمرته الدموية «أى فصيلة دمه» سالبة، ولا هواية له إلا قراءة مجلة النجوم وهى مجلة تزيد من حالة التغييب التى يعيش فيها إذ لا تقدم له سوى التوقعات الفلكية للأبراج المختلفة، وهو بالمناسبة ينتمى لبرج الثور!.

ليس غريبا إذن أن تكون المبادئ التى تحكم هذه الشخصية العاجزة المنعزلة هى:« بينك وبين الجار سمك الجدار» «والطاقة التى يأتيك منها الريح سدها واستريح» «وامش الحيط الحيط وقل يارب السترة..»

تبدأ رحلة حنظلة من حال الغفلة إلى حال اليقظة عندما يتعرض، رغم سلبيته وعزلته، إلى القبض عليه فينزع من دفء حياته الرتيبة المطمئنة ويلقى به فى



السجن. هناك يتعرض للضرب والإهانة حتى يفقد يوما بعد يوم قدرته على الاحتمال. عندها يضطر أن يخرج تحويشة العمر التى كان أهون عليه، حسب قوله، أن يقطع من لحمه من أن يبدد قرشاً منها، وذلك لكى يلفت نظر العدالة التى يبدو أنها مشغولة عنه! وعندما تصل الرشوة ليد طالبيها يتاح لحنظلة الخروج من السجن.

يخرج حنظلة آملا أن يعود إلى حياته الدافئة المطمئنة، لكنه بدلاً من ذلك يبدأ رحلته المؤلمة التى تصل إلى ذروتها فى تلك اللحظة الكاشفة التى ينتقل فيها من الغفلة إلى اليقظة.



يترك حنظلة سجن الحكومة فيعود إلى بيته وهو يحلم بالعش الذى كان يجمعه بزوجته الحبيبة والأمسيات الجميلة التى كانا يقضيانها معاً. لكن الريح لا تأتى بما تشتهى السفن.. هكذا يدخل حنظلة بيته فتقابله زوجته بالشتائم والعراك، وينتهى لقاؤهما وقد أعلنت له أنها مسحتبه من حياتها. يقف حنظلة مشدوهاً مرتبكاً، وأمامه يقف عشيق زوجته لكنه لا يجرؤ أن يراه! هو فى الحقيقة غير قادر على مواجهة تبعات تلك الرؤية «المعرفة».

ينطلق حنظلة بعد ذلك إلى مقر عمله حيث يقابله مدير البنك بفظاظة، ولا يكتفى برفض إعادته إلى وظيفته وإنما أيضاً يرسل فى طلب الحارس ليرميه «مع القمامة فى الشارع»..

يحاول حنظلة البحث عن مساعدة فى مواجهة تلك المحن المتتالية فيلجأ أولاً إلى الطبيب الذى يسميه ونوس «الدكتور الاختصاصى فى الطب البسيكو إعلامى» أى أنه رمز للإعلام الذى يعمل على تكريس الحالة التغييبية التى يعيشها حنظلة. بعد أن يقوم الطبيب بشكل كاريكاتيرى بإجراء الكشف على المريض، يقوم بإجراء عملية جراحية تشبه غسيل المخ لاستئصال ما أسماه «كتلة عصيانية». لكن حالة حنظلة لا تتحسن، بل تزداد سوءاً إذ تنتابه حالات من الضحك الهستيرى فى اللحظات التى يتوقع فيها أن يبكى أو على الأقل يبدى بعض الجدية فى استجابته للأحداث!.

بعد الطبيب، يتجه حنظلة إلى الدرويش بحثاً عن حل لمشكلته فما يكون من الأخير إلا أن يحذره من الأسئلة التى تقود إلى الضلال وينصحه بالرضا

وذكر الله ثم يكتب له حرزاً «حجاباً» يحميه من تلك الأسئلة التى يزرعها الشيطان فى عقله. لكن حنظلة وقد روعه ذلك العالم المفزع بعد خروجه من السجن، لا يستطيع أن يحمل نفسه على الرضا، وإن كان فى الوقت نفسه يجد صعوبة شديدة فى محاولة الفهم وما قد يجره عليه ذلك من تبعات.

ونستمر جولة حنظلة فى طرق الأبواب بحثا عن حل لمشكلته. إنه يلتقى بالمثقف الذى يغرقه فى مستنقع من الكلمات المتحذلقة التى لا تجدى نفعا، ثم يتوجه إلى جمعية التآخى الاجتماعى حيث تستقبله سيدة موقرة تلقى عليه محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح الاجتماعى، بعدها تحمله رزمة ثقيلة من المنشورات والمطبوعات، التى ينتهى أمرها على الأرض تحت أقدام حنظلة!

يتوجه حنظلة بعد ذلك إلى قسم «الرقابة الشعبية» بجريدة «الوطن» حيث يتلقاه سيد محترم يستمع إلى شكواه ويدون بعض النقاط ويتركه على وعد أنه سيجد مشكلته معروضة على صفحات عدد اليوم التالى من الجريدة وتظهر المشكلة فعلا على صفحات الجريدة، ولكن باعتبارها حكاية مسلية عن مشكلة عاطفية بين زوجين، يعرضها المحرر ثم ينتقل إلى «مشاكل المواطنين الجادة» على حد تعبيره. وعند هذه النقطة ينفجر غضب حنظلة، رغم طبيعته البليدة المستسلمة، فيصيح: «أصبحت مسخرة: الكل يسخر مني، ويضحك على ذقنى. واحد يدغدغنى والثانى يروعنى بالمعاصى والثالث يدوخنى بالأحاجى والرابع ينصحنى بالتسامح الاجتماعى، والخامس يحول مصائبى إلى قصة هزلية سخيفة».

وبخروج حنظلة من موقف الاستسلام والبلادة يبدأ تحوله الحقيقى من حال إلى حال، ويكتمل ذلك التحول فى آخر لقاءاته محاولا استعادة حقوقه المهدرة. يلجأ حنظلة للقاء ممثلى الحكومة الذين يتلقونه بعبارات تحيى أمله فى أن يتلقى، أخيراً، معاملة منصفة إذ يقولون بلهجة خطابية: «نحن هنا.. فى الليل والنهار، فى الطقس البارد وفى الطقس الحار، كى نرعى المواطنين رعاية الأم للطفل الرضيع».

لكن هذه العبارات المشجعة تفقد معناها وأعضاء الحكومة ليس فقط يتجاهلون شكاوى حنظلة وإنما أيضاً يحاولون تبرير وتمرير ما حدث له. يشكو حنظلة مثلاً من إلقاء القبض عليه دون وجه حق فينبرى الشرطى مجيبا: «عندما ينعس المواطن ينام ملء جفنيه، ولماذا ينام المواطن ملء جفنيه؟ لأن الحكومة ساهرة كالأم الحنون عليها أن تحفظ



مسرح

الشوارع هادئة والبيوت آمنة، ورقدة المواطن هانئة. ولهذا يتحتم علينا، أن نعتقل الشبهة وشبهة الشبهة، وأن نسحق الشغب وهو لا يزال فى الخواطر والنوايا». ويضيف الشرطى: «ما سمعناه منك أسعدنا، وأثلج صدورنا، لأنه البرهان على أن رجالنا الأشداء يؤدون واجبهم على أحسن وجه».

وبالتدريج يتكشف لحنظلة أن الجالسين أمامه ليسوا إلا أولئك الذين سبق لهم أن ظلموه أو استخفوا به وسلبوه حقوقه! إن الجالسين على المنصة أمامه ما هم إلا الشرطى، والطبيب، والدرويش، ورب العمل، ومعهم سكرتيرة هى زوجته الخائنة. وبهذا الاكتشاف يتم انتقال حنظلة من حال إلى حال فيقول: «أنا أدور حول نفسى... وهم.... أنفسهم متفقون كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالى، ويعملون كى نبقى فى الجهل والظلام... كانوا يسخرون منى دائماً وأنا غافل.. يضطهدوننى، يسرقوننى، يستغلوننى وأنا غافل.. كانت حياتى السابقة كلها خدعة وينبغى أن تتوقف هذه الخدعة.. أستحق ما جرى لى».

عند هذه النقطة يدرك حنظلة أن «قولة امش الحيط الحيط وقل يارب الستره.. لا تقود إلى السترة» ويصبح مبدأه الجديد هو «كل ما حوله يعنينى لأن فيه مصيرى»..

حرفوش والتسيس

ولم يكن حنظلة فى رحلته الشاقة هذه وحيدا، وإنما لازمه فيها حرفوش الذى يكاد يكون نقيضه فى كل شئ، فلا يوضح سذاجة حنظلة التى تكاد تصل إلى حد البلاهة، ولا بطء فهمه الذى يقترب من الغباء إلا ذكاء حرفوش وحيويته وأحيانا دهاؤه. إن حرفوش هو مزيج من فرفور يوسف إدريس وحكواتى التراث الشعبى، ففيه من فرفور ذكاؤه وخفة حركته وخفة دمه.. وهو وإن كان لا يحمل مطرقة مثل فرفور، إلا أنه فى المقابل يملك لساناً حاداً يقوم بمحاورة حنظلة بذكاء حتى تكتمل رحلته إلى حال اليقظة، ومن ناحية أخرى يتميز حرفوش عن الحكواتى، كما يشير د.سمير سرحان فى كتابه المسرح والتراث الشعبى ص ٨٨، بأنه «عنصر فعال يغنى الحدث وليس مجرد راو يروى الأحداث وينظر إليها من الخارج أو يعلق عليها دون أن يكون له بها أدنى صلة».

حرفوش فى الحقيقة هو صوت وعى حنظلة المستلب وعقله الغائب، إنه يطرح على حنظلة الأسئلة التى كان يجب أن يطرحها على نفسه ويساعده على الوصول إلى الإجابات التى كان عاجزاً عن الوصول إليها بمفرده، فالتفكير لم يكن من عاداته والفهم على حد قول حنظلة «يحتاج إلى قوة خارقة أو تدريب طويل» .مثلا يخرج حنظلة من منزله مروعا بعد أن طردته زوجته وهو لا يفهم، أو لا يجرؤ أن يفهم، لماذا حدث ذلك، بعدها يسأله حرفوش: «أمتأكد أنها بقيت وحدها؟» فيجيب حنظلة أن نعم، فيعاود حرفوش الاستفزاز: «أما لاحظت أن القدمين «وهما قدما العشيق تطلان من تحت لحاف السرير» لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصا وكلسونا،... طبعا لم تشأ أن ترى، فأنت لا تدس أنفك فيما لا يعنيك»..

ويظل حرفوش يدفع حنظلة إلى تلك المواقف الكاشفة التى يعرى كل واحد منها واحداً من أوهامه. على سبيل المثال يقترح عليه حرفوش أن يذهب إلى الدرويش بحثا عن حل لمشكلته، فيقول: «أعتقد أن زيارته ستنفعك. وقد تجد لديه الحل الذى تبحث عنه». هو بالطبع يعرف أن ذلك ليس صحيحا، لكنه يدفع حنظلة لخوض التجربة ليصل إلى الفهم بنفسه. وعندما ينصح الدرويش » حنظلة بالرضى يظل حرفوش يستفز مشاعره بالتأكيد على ما يدعو إليه الدرويش وتكراره حتى يتساءل حنظلة: «من أين يأتى بالرضا بعد كل ما حدث؟». لكن حرفوش يستمر فى الاستفزاز: «لا تلحف فى السؤال، فإن السؤال يقود إلى الضلال. هذا ما قاله سيدنا الدرويش عندها ينفجر حنظلة قائلا: «هذه معاجزة. أفقد كل شئ، وتريدنى ألا أسأل من أين يأتى الرضا! منذ أن اعتدوا علىّ، لا أستطيع أن أرد الأسئلة. إنها تحفر رأسى كالمغارز..»».

حرفوش إذن هو أداة التسييس الرئيسية فى النص، ومن المهم ملاحظة أن حرفوش يأخذ حنظلة بشئ من الشدة، والسبب كما نستنتجه من كلمات حرفوش: «لا ضحية بدون جلاد ولا جلاد بدون ضحية» إذن حنظلة مسئول عما آلت إليه أحواله. لقد رضى لنفسه موقف الضحية فلا لوم إذن على الجلاد! أما إذا كان حنظلة قد قرر أن يستعيد حقوقه فإن أول ما يجب عليه هو أن يخلع رداء الضحية أى أن يغير مظهر الذلة والانكسار الذى يتلبسه، فالعدالة على حد قول حرفوش «تنفر من الوجوه البالية الذليلة».

إن ما يحتاجه حنظلة حقاً هو أن يفهم ما يحدث حوله، وها هو حرفوش





مسرح

يعلن للجمهور: «وخرج صاحبنا من السجن دجاجة منتوفة. هل نواسيه؟ لا ريب أن شيئاً من العطف والحنان يسعفه قليلا. لكن ما يسعفه أكثر هو أن يعرف أكثر. إذن لا تظنوا بى السوء لو أبديت نحوه بعض الخشونة».

والتوجه بالحديث إلى الجمهور ليس فقط مسألة شكلية هدفها كسر الإيهام المسرحى، وإنما هو أيضاً استدراج لكل متفرج لكى يرى نفسه وحياته على ضوء حياة حنظلة.

البناء المسرحي

يستخدم ونوس ما يمكن تسميته البناء العنقودى للأحداث. فكما تتجاور حبات العنب المتشابهة والمختلفة فى أن لتكون عنقودا من العنب، يتكرر تعرض حنظلة للظلم والاضطهاد بصور وملابسات مختلفة ومضمون واحد. هذه الصور تتجاور بل تتراكم حتى تقدم للمتفرج صورة واضحة متعددة الجوانب لما تعرض له من الظلم. وهى على مستوى الحدث المسرحى تقود حنظلة إلى نوع من التصعيد النفسى الذى يؤدى به فى النهاية إلى الوعى الكامل بالمأساة التى كان يعيش فيها والتى كان يراد له أن يستمر فى العيش فيها لولا أن تداركه حرفوش بالمساعدة للوصول إلى حال اليقظة.

ورغم هذا البناء التكرارى للأحداث فإن المتلقى لا يشعر بالملل فالمواقف المختلفة التى يتعرض لها حنظلة تتلاحق على خشبة المسرح فى لوحات متتالية، لكل منها سياقها المكانى المختلف، فمرة فى السجن ومرة فى البيت، ثم فى العمل وبعدها فى عيادة الطبيب ثم عند الدرويش، أما تجربة حنظلة مع المثقف الحكيم وسيدة جمعية التآخى الاجتماعى وأخيرا قسم الرقابة الشعبية بجريدة الوطن فكلها يعرفها المتلقى من خلال السرد على لسان حنظلة وحرفوش.

وتأخذ كل واحدة من هذه اللوحات شكلا متماسكا بدون استطرادات فى السرد أو تطويل فى الحوار ويتم الانتقال من لوحة لأخرى بنعومة بعد أن يلتقى حنظلة وحرفوش فى الهواء الطلق حيث يتم التعليق على الموقف السابق وتقديم المشاهد لما يحمله الموقف اللاحق. كذلك يمزج المؤلف بنعومة بين السرد والحوار على ألسنة شخصياته مما يساعد على عدم الإملال. ويكسر ونوس الإيهام المسرحى عن طريق إقامة ديكورات اللوحات المختلفة أثناء الحوارات السابقة

عليها، مثلا أثناء الحوار فى مشهد البداية بين حنظلة وحرفوش يدخل ممثل فيقيد رجل حنظلة بسلسلة مثبتة بالأرض ثم يدفع أمامه حاجزاً من القضبان هو جدار الزنزانة، وهكذا تبدأ لوحة السجن.

رحلة حنظلة عمل مسرحي تسييسي

فى ضوء ما أسلفناه من اعتقاد ونوس بضرورة تحديد رجل المسرح لجمهوره، نجد أنه قد اختار الإنسان العادى البسيط، الذى يمكن أن يرى فى حنظلة جزءاً من نفسه، جمهورا لهذا العمل المسرحى. وهذا يستتبع بالضرورة أن يتناغم «شكل التعبير مع أفق المتفرج الثقافى من جهة والمضمون من جهة ثانية» «راجع بيانات لمسرح عربى جديد ص٢٥»..

فى هذا الإطار يمكننا أن نتقبل سمة المباشرة التى تتميز بها المسرحية والتقريرية التى عبر بها المؤلف عن أفكاره، كذلك الميل إلى تقديم بعض الأحداث بشكل كاريكاتيرى، الأحداث فى عيادة الطبيب على سبيل المثال.

وفى نفس هذا الاطار تتبدى أهمية رسم شخصية حنظلة بشكل متوازن بحيث يتعاطف معه المتلقى لكن دون أن يتخلى عن إدراكه أنه «أى حنظلة» هو السبب فيما يعانيه، وهكذا يرثى المتلقى لحال حنظلة ولكنه يسخر بل وقد يتقزز منه فى بعض الأحيان، ليس المطلوب إذن أن يتوحد المتلقى مع حنظلة وإنما فقط ينظر إليه نظرة فاحصة فيرى فيه جزءاً من نفسه.. بمشاكلها وأحلامها المجهضة أما الشخصيات الأخرى فهى ذات بعد واحد وذلك بغرض تضخيم السلبيات إلى حد قد يصل إلى المبالغة، وهى مبالغة مقصودة يهدف بها ونوس إلى تحقيق أقصى استنفار لعقل ومشاعر المتلقى بغية بناء وعيه. الخلاصة، كما يقول ونوس فى حواره مع نبيل حفار، «ليست فيما يطرح على الخشبة فقط، وإنما فيما يتمخض عنه الجدل بين الصالة والخشبة».ص١٢٦

وإذ يبدأ حنظلة رحلة جديدة يتسلح خلالها بمحاولة فهم ما يدور حوله، فإن عليه أن يعى المشكلات المعقدة التى تواجه أمته العربية.. ولعل أكثر هذه المشكلات تعقيداً والحاحاً على الضمير العربى هى المشكلة الفلسطينية، ولقد قدم سعد الله ونوس طرحاً جديداً لهذه القضية المصيرية من خلال مسرحية «الاغتصاب» التى ستكون موضوع الجزء الثانى من حديثنا فى الشهر القادم، عن مسرح التسييس عند سعد الله ونوس.. ■



عنوان الحياة

بقلم
محمود قاسم

الانسان كائن ساخر ..

وبقدر ما يسخر من نفسه ومن الآخرين، بقدر ما يسعى لتحقيق هذه السخرية فنيا، إما شفاهة ، أو عن طريق ممارسة العديد من أشكال الآداب، الإنسان كائن ساخر أنه على قيد الحياة. وقد سعى إلى الفنون المختلفة كالشعر والقص.

وفي الفنون هناك المسرح والسينما، والفن التشكيلي . وفنون تعبيرية عديدة. وقد ظل إبداع الانسان اكثر صدقا كلما انتقد نفسه. مما يدل على معرفته التامة انه بشر محدود. مليء بالمسالب. كما انه عندما ينتقد ، أو يسخر من الآخرين . فهذا يعنى انه قادر على مجابهتهم.



لم يعجب الفنان المصرى القديم بالذين يعزفون الموسيقى
فرسمهم كما تصورهم على هيئة حيوانات لا تفهم معنى الموسيقى



«ها أنذا .. جئت للتفاوض ومعى طاقم السكرتارية » رسم منشور فى جريدة «صديق الشعب»
عام ١٩٣٦ للفنان شانسل



السخرية

عنوان الحياة

والفن الساخر حالة علنية من المجابهة، ولابد من وجود طرف ما للسخرية منه إما أنا أو الآخر بدرجات متعددة. وقد تباينت الفنون المختلفة في قدرتها على السخرية. كانت الموسيقى اخفها. أما فنون التصوير، بشتى أشكالها. فهى الأكثر قدرة على جعل المرء يشعر بالسخرية متمثلة أمامه كأنها الكائن الحي.

ولم يجد الإنسان نفسه أكثر قدرة على السخرية منه عندما اتجه إلى الكاريكاتير والذى احتفلت الأوساط الثقافية مؤخرا بمرور مائتى عام على ظهوره كفن يحظى بشعبية ملحوظة بين مختلف الفنون المصورة ومرتبط بظهور الصحافة حيث خصصت مجلة «ستوريا» التاريخية الفرنسية ملفا خاصا فى العدد الأخير أشارت فيه أن مصطلح caricatura هو إيطالي الأصل، وان كان له أصل لاتيني. وهو يعني المبالغة في الوصف والمتتبع لتاريخ هذا الفن سوف يندهش من العمر القصير له، قياسا إلى كل الفنون الأخرى. وإذا كانت الطباعة قد ظهرت فى القرن السادس عشر، فإن الكاريكاتير قد بدأ الظهور كفن شعبى فى اوائل القرن التاسع عشر. ويرجع ذلك المقام الأول الى أن الطباعة راحت تطور نفسها من خلال الكتب، ومن المعروف ان الفراعنة تركوا العشرات من الرسوم الساخرة على الجدران ، كأول كاريكاتير في العالم.

بدأ ذلك واضحا فى التطوير الذى حدث للكتاب ، سواء من حيث الشكل الخارجي، او توضيب الصفحات الداخلية، وقد حدث ذلك ابان الفترة التى كان فيها الكاتب هو الإنسان الأكثر حظوة من الآخرين.

لكن فى نهاية القرن الثامن عشر تطورت الصحافة المطبوعة ، كى تضم فى أروقتها الكثير من فنون الكتابة والإبداع البشرى. بعد ان كانت مجرد صحافة صماء، منذ آن ابتدعها «رينودو» عام ١٦٣١.

وفى القرن التاسع عشر تطورت فنون الحفر، ووجد الرسامون انها الفرصة الذهبية لنقل رسومهم الى الناس. وكانت افضل هذه الأساليب هى المبالغة فى تصوير الأشخاص والأشياء . وهنا تولد فن جماهيرى جديد راح يجد فرسانه ومجالاته.

فى البداية، كانت عيون القراء تروح إلى العناوين الجذابة فى الصحف والمجلات، ثم بدأت تنجذب الى الصور



موسولينى يعاقب بريطانيا بالضرب على مؤخرتها ، غلاف للفنان روجر روا

الملحقة، التى صارت تلعب دورا فى عملية القراءة، أكثر من ذى قبل. ولعبت الصورة الساخرة الدور الأكبر فى لفت الانتباه فكما أشرنا فإن الإنسان مخلوق ساخر بطبعه.

الرسوم الساخرة والسياسة

وقد استخدمت الرسوم الساخرة أثناء الأحداث السياسية العظمى لتوصيل الأفكار بشكل أسرع ، واقوى تأثيرا ، ومع بداية القرن التاسع عشر أدرك بعض الصحفيين اللامعين مدى قوة الكاريكاتير، فصدرت أول مجلة مرسومة بكامل صفحاتها وتلقفها الناس بكل حفاوة، مما شجع على انتشار هذا النوع من المطبوعات.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، لم تخل مجلة او جريدة من الرسوم الكاريكاتورية. وحرصت دوريات عديدة على اصدار ملاحق عديدة مزدانة بالرسوم الساخرة، حتى أصبح الكاريكاتير سمة عصر بأكمله.

وفى القرن العشرين، تهافت القراء لشراء المجلات والصحف المتخصصة فى الرسوم الساخرة، مثل جريدة «البطة المربوطة» فى فرنسا، وفى العديد من انحاء العالم، بما فيها الوطن العربى الذى وجد فرسانه من الرسامين ، أمثال صاروخان، ورخا، وصلاح جاهين، وأسماء أخرى كثيرة.

وأهم ما فى هذه الظاهرة أن تطور التصوير الفوتوجرافى، الذى استخدم فى الصحافة بقوة ملحوظة،لم يؤثر على جاذبية الرسوم الساخرة،وجماهيريتها. فهو الأكثر تعرضا لتعسف الرقابة خاصة فى البلاد ذوات الأنظمة الديكتاتورية. وربما أن رسما واحدا كان له من التأثير ملايين الكلمات، وكم صودرت مطبوعات ، وأغلقت مؤسسات من أجل رسم لاذع ، مؤثر وقوى، كان الشخص المقصود بالرسم هو بلاشك صاحب سلطة ونفوذ . أما الشخص الذى تعرض للرقابة فهو صاحب رسالة.

قوة الكاريكاتير

لكن السؤال هو: لماذا يتسم الكاريكاتير بهذه القوة؟

عنوان الحياة

منذ البداية، رأى الفنان أن أهم شيء عند استخدام المبالغة هو أن يكون الرسم تحفيزياً، فعندما ترى رسما يقوم بتطويل أنفك أكثر من اللازم، فلاشك ان انفك به طول ما يجذب الانتباه، بل والسخرية. وعندما ستحس ان انفك يمكن ان يكون مصدر تهكم من الآخرين، فلابد أن تتحسسه ، أو أن تستنفر للشخص الذى كان اول من نبه إلى هذا . ومن الواضح ان كافة الفنانين الساخرين قد ساروا على خطى الفنان جاك كالو فى نهاية القرن الثامن عشر، حين ابتدع شخصية «جوبى» ذا الرأس الكبيرة الموضوعة فوق جسد ضئيل للغاية.

فهذا التناقض الملحوظ، لابد أن يسبب اعلى قدر من الشعور الحاد بالسخرية من الشخص المرسوم ، خاصة اذا كان يمثل شخصا ذا هيبة. ويمكن رؤية نفس الرسم بمناظير مختلفة. فقد يؤدى التناقض الى عدم التناسق. وفى بعض الأحيان ينظر إلى الرأس الكبيرة كدليل على الذكاء الشديد للشخصية. وهنا لابد أن تنتفى سمة السخرية.

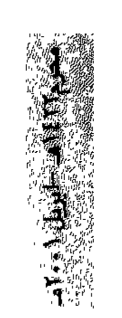
أى أن الكاريكاتير قد استخدم فى اتجاهين متناقضين: السخرية، والاطراء أو المديح. لكن لاشك أن الاستخدام الغالب لهذا الفن هو فى انه مسخ للكائنات التى تتناولها ، وهذا الامر صار سمة غالبة للشخصيات المأخوذة من الواقع.

وليست المبالغة هى الأداة الوحيدة التى استخدمت فى السخرية ، بل ايضا التشبيه بمخلوقات غير آدمية، خاصة الحيوانات، ورسوم تمثل ابليس. فالأسد يعكس ان الشخص المرسوم له صفات حميدة، وذيل الأفعى يعنى التحذير من الخطر الذى يكمن وراء هذه الشخصية، وأنه يجب الانتباه الى شرها.

عناصر قراءة الكاريكاتير

وتؤكد الباحثة د. هيلين دوتشينى أن قراءة أى رسم ساخر، يتطلب ثلاثة عناصر رئيسية: أولها أن معرفة الشخصية، خاصة اذا كانت من أصحاب المناصب الكبرى، وكيف يتصرف هؤلاء الأشخاص فى حيواتهم الخاصة والعامة. وطبائعهم وقدرتهم على الاختيار. واهم شيء ان يكون الرسم قريباً من الهيئة العامة للشخصية، بحيث أنك عندما تراه تردد فى داخلك : «أنه هو.. أنا أعرفه» فالرسام الساخر هنا يلجأ إلى المباشرة. ويعرف أن الناس جميعا ترى رسمه دون حاجة إلى مذكرة







بسمارك يقفز فوق النساء عام ١٨٨١ ، كل امرأة منهن ترمز إلى دولة: ايطاليا، النمسا، روسيا ، المفوضية الالمانية

تفسيرية.

أما العنصر الثاني، فإنه يتمثل في ان كلا الطرفين - الفنان والمتلقي - يجب أن تكون لديهما معلومات متقاربة عن الموضوع، والشخصية ، محل السخرية، كأن يعرفا مثلا أنه ديكتاتور، أو فنان ، أو شخصية عامة. مما يسهل الفهم . فالمرء لا يمكنه السخرية بنفس القدر من إنسان لا يعرفه . بقدر ما هو يريد التشفي سخرية من شخص موجود دائما في وعيه، وادراكه، فأنت مثلا لن تضحك من كاريكاتير يسخر من شخص بعيد في أمريكا اللاتينية إلا اذا كان يذكرك بشخص قريب منك، بل انك بلا شك، سوف تضحك اكثر من رسم مباشر لهذا الشخص، عن الضحك من شخص بغيض يشبهه.

ونحن، عامة، نضحك سخرية على شخص معاصر، أي على قيد الحياة ، أكثر مما نضحك على شخص في ذمة التاريخ، وهذا يمثل العنصر الثالث، فالناس ليست لديها رغبة في السخرية من الأموات، بقدر ما لديهم هذه الرغبة للسخرية من شخص موجود في دائرة الأحداث. وفي الكاريكاتير السياسي فإن المرء لا يضحك من مسئول صار

خارج السلطة بقدر ما لديه الرغبة فى الضحك من المسئول الذى لايزال يصنع الأحداث.

اذن ، فقد ارتبطت السخرية من خلال الرسوم الكاريكاتيرية بالنقد السياسى، وايضا الاجتماعى والحياتى. فما السياسة سوى اول واجهة للحياة الاجتماعية. لذا فإن الناس تحب ان ترى فى الرسوم الساخرة ماتتمنى ان تراه فى الواقع. ففى التاريخ، مثلا كم رسم الفنان الساخر وجه رجل سياسة فوق جسم خروف يسوقه راعى غنم يمثل جموع الفلاحين والشعب ، مما يعكس رؤية الفنان لهذا السياسى، وايضا رغبة الناس فى مشاهدة هذا الشخص بنفس الشكل الذى تخيله الرسام.

وفى التاريخ حالات عديدة ساعدت فى زيادة شعبية الكاريكاتير، مثل رسم الملك لويس الخامس عشر اشبه بالدابة وقد اعتلاه واحد من الرعية. وهذا الرسم وغيره فى اواخر القرن الثامن عشر كان السبب فى أن يظهر الرقيب لأول مرة: «ممنوع .. ممنوع النشر».وهذا المنع ساعد فى زيادة الغليان الوطنى وأدى الى انفجار الثورة الفرنسية.

وقوانين المنع فى كل أنحاء العالم ارتبطت بسيادة الطاغية، وايضا اثناء الحروب الكبرى. والمقصود هنا بالطبع السخرية من الحاكم اذ انه اثناء الحروب تتجه كل جهود الرسام الساخر كى يمارس الاستهزاء من العدو. وقد بدا هذا واضحا بكل قوة أثناء الصراع العربى الاسرائيلى طوال اكثر من نصف قرن. حيث تم الاحتفاء ، سخرية ، بشكل منقطع النظير، من كل من جولدا مائير، ونتنياهو، وشارون بالطبع اكثر من كل رؤساء الوزارات فى اسرائيل.

وينطبق نفس الحال على الزعيم النازى ادولف هتلر، وفى امريكا اللاتينية الجنرال بيونشيه الذى ظلت ظلاله حاضرة، رغم ابتعاده عن المنصب السياسى . ذلك باختصار لانه لم يفقد كل قوته السابقة بتمتعه بالحصانة. وايضا لأن كل جرائمه لاتزال ماثلة امام الناس، ولم يدفع عقابه عنها بعد.

الكاريكاتير تتنبأ بالمستقبل

وأهم ما فى الرسوم الساخرة هى قدرة الفنان على التنبؤ بالمستقبل. ففى فرنسا، تنبأ الرسام شانسيل بما سوف يفعله الطاغية هتلر بأوروبا، حيث نشر فى جريدة «صديق الشعب» فى ١٥ مارس ١٩٣٦ رسما ساخرا ترجم أحاسيس الناس هذا الرسم يظهر فيه أدولف مرتديا معطفه الثقيل، وقد تأبط



مسيح اسمه ديجول، كاريكاتير يصور فرنسا تحت الاحتلال ويبدو ديجول مغازلا لبنى اسرائيل من اجل كسب الأنصار

حقيبة المفاوضات، متقدما نحو مفاوضيه مرددا: «جئت معى بطاقم السكرتارية».

وفى الصورة من الخلف جحافل الجيوش الألمانية تحمل رايات النازية.

جاء هذا الرسم المعبر البسيط ليقرأ افكار الناس، وليتنبأ بالمستقبل قبل أن يهجم هتلر على بولندا ومن بعدها اوروبا بثلاث سنوات ونيف.

ترى، مم كان يسخر هذا الرسم البالغ الصدق؟ هل كان يسخر من هتلر، وانه مهما تمت المفاوضات معه فانه رجل حرب؟ وهل يعنى الرسم التحذير الشديد من الطاغية الذى دمر اوروبا لسنوات عديدة فيما بعد؟

أم أن الرسم يعنى السخرية من الحكومات الأوروبية التى فتحت أبواب التفاوض مع الطاغية دون أن تأخذ فى الحسبان ان تكون اطقم السكرتارية، الخاصة بهذه الدول المفاوضة، من جيوش الدفاع ضد الجحافل النازية؟

أم أن السخرية امتدت إلى الشعوب التى لم تأخذ مسألة التنامى النازى مأخذ الجد الحقيقى؟

السخرية عنوان الحياة

على كل. فإن للكاريكاتير هنا رؤية خاصة لعصر وقارة، بل وللعالم أجمع. والطريف أن النقاد، والمحللين السياسيين والمؤرخين، قد نظروا فيما بعد الى هذا الرسم كأنه وثيقة تاريخية أكثر منه مجرد رسم تحذيرى عابر، وتم النظر الى المانيا من خلال الرسم على انها تقوم فى تلك الفترة بتغذية الاحلام التوسعية فى أوروبا على الأقل. ان لم يكن فى انحاء شتى. مثلما فيما بعد.

وفى التاريخ الحديث، كانت بعض الشخصيات بمثابة مادة محببه للرسامين الساخرين.ولم يكن هناك أوفر حظا على مستوى الكاريكاتير العالمى من الرئيسين شارل ديجول ، وبيل كلينتون. حيث كانت فضيحة مونيكا بمثابة المادة الشديدة الخصوبة التى اضحكت الناس فى كل انحاء العالم. فقد رأى الرسامون فى البلاد المناهضة للولايات المتحدة فرصة ذهبية للنيل من هيبتها فى شخص رئيسها الذى بدا مزكوما حتى أنفه بفضائح الفراش، ورأت مجلات وصفحات الكاريكاتير الجنسى الفرصة خصبة لتقديم سخرياتهم بشكل واقعى. اى مستمد من الواقع اكثر مما هو متخيل .

الفنان الساخر يتنافس مع الأحداث

اما الرئيس الثانى، فهو فى عيون ابناء شعبه بطل . شارك فى التحرير، وتقدم قواده لدخول باريس المحررة، ومع ذلك، فان رسومات الكاريكاتير التى رسمت عنه يمكن ان تتسع مساحاتها مجلدات، وموسوعات ضخمة فى عدد صفحاتها . انه شارل ديجول.

وديجول، على المستوى الجسمانى، عملاق، طويل الانف. له اذن مميزة. ومواقف سياسية مضيئة ، وتولى حكم البلاد فى ظروف شديدة الحساسية وديجول رئيس دولة، ومناضل، وكما تقول مجلة ستوريا فى عدد مارس ٢٠٠١، فإنه رغم ذلك بطل لمئات الألوف من الرسوم الساخرة. وقد ساعد على ذلك بالفعل مشاركته للاحداث المهمة التى عرفها العالم فى السنوات التى تولى خلالها مهام المرء عمل بها فى المسئولية.

فقد تم تصويره كملك متوج على عرش فرنسا ابتداء من اعتلائه الجمهورية الخامسة، ورسمه العديد من رسامى الكاريكاتير اشبه بالملك لويس الخامس عشر - اكثر الحكام القدامى تعرضا لسخرية الساخرين الأوائل - وقد بدا الوزراء والمفكرون الذين استعان بهم فى وزاراته ، ومنهم الأديب اندريه







مايو ١٩٦٨ : صار ديجول طاغية فى مواجهة الثوار الشباب

مالرو، أشبه بالحرس الخاص الذين يتولون حمايته وليس مشاركته فى الحكم.

وقد استغل الرسامون الساخرون قوة صداقته لمالرو. فتعددت صور السخرية منهما اكثر من مرة حيث تم تصوير ديجول اقرب الى نابليون بونابرت فى خيلائه واقفا شامخا فى قصره الملكى، وقد تقزم مالرو الى حد ان اصبح طائراً ضئيل الحجم قيد عنقه بسلسلة امسكها ديجول بأطراف اصابعه، وبالاطراف الاخرى امسك صولجانه.

وعقب ثورة الشباب فى مايو ٦٨، رسمه الساخرون أقرب إلى هتلر فى الرسم السابق الاشارة اليه، فهو يقود، ضد الشباب، جيشا من رجال الأمن المدججين بالسلاح وقد حجز بين هذا الجيش، وبين شاب مصاب فى يده اليسرى ، من أثر المواجهات مع الامن المتوحش، سور رقيق. بينما راح هذا الشاب النحيل الرقيق يروى شجرة ورد تنمو فى أرض قاحلة. اما وجه ديجول فيبدو شديد الوضوح والقسوة.

ويحمل الرسم العديد من المعانى المتعلقة بمواجهة غيرت - فيما بعد - وجه اوروبا التى لم تتوقف عن الاحتفال - على حدة - بكل من الاثنين معا: شارل ديجول لمكانته فى التاريخ المعاصر. وثورة مايو، لما احدثته فى اوروبا ، وبقاع عديدة من العالم.

وهذا الرسم الساخر، يمثل الآن

عنوان الحياة

مرحلة تاريخية حساسة من العصر الحديث، كما يكشف ان الفنان الساخر لا يتصالح بسهولة مع الاحداث . بل انه اول من يصنع المواجهة.

ولو نظرنا الى الاحصائيات الخاصة بأعداد الرسوم الساخرة فسوف نرى ان الحاكم بشكل عام هو اكبر قدر من الاهتمام في كل انحاء العالم. ويكون الرسم به الكثير من الانتقاد في الدول الديمقراطية بينما يحصل الحاكم في الدول الاقل ديمقراطية ودول العالم الثالث بأقصى قدر من التبجيل، والتقديس. ويتم النظر اليه على انه مبعوث العناية الالهية ويبدو ذلك في رسوم كاريكاتيرية غير ساخرة لكن، ترى هل هذه الرسوم من فن الكاريكاتير، حتى وان رسمها فنانون بارعون للغاية؟

اما الشخص الثاني الذي حظى بأكبر قدر من السخرية، او فلنقل المادة الخصبة من الرسم الكاريكاتيري فهو المرأة ، باعتبار انها أم صانعة حدث، او وراء كل صناع القرارات في العالم ، كما انها مادة خصبة، موحية ، في الرسوم الاباحية التي تمتلىء بها الصفحات المتخصصة، والعادية ، في كل انحاء الدنيا.

وعليه فان العلاقات الزوجية والعاطفية، وما يحوط بهما من تفاصيل، تصير بمثابة الفاكهة الرطبة في الرسوم الساخرة. خاصة ابان اختفاء القلاقل السياسية أو الاجتماعية.

ولكل بلد شخصياته الكاريكاتورية التي تظهر بشكل منتظم، او متقطع ، حسب التغيرات الاجتماعية والظروف المتباينة ، والمناخ الجوي. والاحوال الاقتصادية، والغريب ان الفنان هو اقل الشخصيات العامة تعرضا للسخرية في هذه الرسوم رغم وجوده بشكل مكثف امام الناس، ربما لأن اخباره واعماله الفنية، موجودة دوما امام الناس . وعلى سبيل المثال حادث الانفصال الذي تم في بداية عام ٢٠٠١ بين النجمين نيكول كيدمان وتوم كروز.

فكم من صور وتحليلات واخبار نشرت في كل انحاء العالم . لكن لا نذكر ان رسما ساخرا واحدا قد نشرته جهة ما في احدى المطبوعات يسخر من هذا الانفصال المفاجيء.

الكاريكاتير، في العالم، يختلف عنه في دول العالم الثالث، باعتبار ان الطغاة اقل عددا في الدول الديمقراطية لذا فان الكاريكاتير السياسي الحديث، كثيرا ما يسخر من زعماء الدول الاخرى ومن سياسات العالم الثالث اما الكاريكاتير الجنسي فهو الاكثر انتشارا ويليه الكاريكاتير الاجتماعي وان كان تأثيره اقل بشكل ملحوظ. ■

قصة قصيرة



بقلم: محمد مستجاب

بريشة: محمد أبو طالب

ظلت ابتسامة الشمس كليلة مرهقة خارجة توّاً من غرفة العمليات الجراحية، ثم لم يلبث النور أن تهالك بين أفواه الريح الصارخة، أغلقت النافذة مضطرباً وحاولت الاحتماء بالفراش أو التدخين أو دورة المياه، كيف يتسنى لى أن أسمع الموسيقى فى ذلك الصباح؟، ما كان لأحد أن يأكل أو يحتسى الحزن أو يضاجع الأمنيات ووجه العالم لايزال كالحاً، حتى علبة البن الصدئة - أو الصدىء - قاومت محاولتى فى فتحها، فلما - آخر الأمر - انداحت تحت سطوة أصابعى: اتضح أن مسحوق البن قد التصق فى جدران العلبة صداً جديداً، أول أمس ذهبت إلى أخى، شقيقى، استقبلنى بهدوئه الجميل، المبتسم، وما كدت - بعد إراقة أشواق وحب قديم، حب أخوى قديم، حب أبوى قديم - أن اقترب من تلك المسألة المرهقة: حتى رفع رأسه إلى السقف ثم إلى الأرض، كان متبرماً، تشاغل فى معابثة أصغر عياله، سألته عن زوجته فظل وجهه كالحاً، أنا لست أخاك فقط بل إنى أبوك أيضاً، وفى حاجة إلى بعض النقود. حملتك يا أخى فى صدرى وعلى



القمقم !!

أكتافي مستمتعاً بقدرتي القائقة على الوفاء، لتكون في هذا الوضع المريح المرتاح، بعض النقـود فإني أعاني من ضيق واختناق تعرفه جيداً، بعض النقود فألقي أخي بالطفل بعيداً ثم انخرط عابساً داخل المنزل، كان الطفل يحاول الاقتراب مني لأعابثه، بعد دقائق أطل وجـه أخي لأراه لايزال عابساً قبل أن أرى ما في يده من نقود، وقفت هامساً - وكاذباً - أنني لا أقصد ذلك، ظلت غضون وجهه وارتباكة عيونه لا تصدقني، والله لا أقصد ذلك، لم تنجح ابتسامة واحدة في التسرب داخل غضون وجهه الكالح أو الكالحة، تمنيت لو أني اندفعت إليه متشبثاً برقبته كي أقتله.

- ١ -

مع أني تجولت في شقتي - التي لا تصلح للتجول ، وحاولت تشغيل المسجل ليفح بموسيقى واحد من الفصول الأربعة لفيفالدي الإيطالي، وفشلت في العثور على سيجارة، مع أني دخلت دورة المياه مرتين دون حاجة أو غرض، فقد قررت أن أنصت للريح، صوته يأتي فحيحاً لثعبان يتسلق جدران الفؤاد، عليك الآن أن تعيد التفكير من جديد، وأكثر الوسائل مناسبة لك الآن أن تتسلق الجدران أو الجبال أو الحكايات أو الذكريات أو الأحزان أو موائد المطاعم، أنت الذي بددت كل الأحلام، أنت الذي يجب أن يحاكم كي تلتف الحبال حول رقبتك، تود من الآخرين مساعدتك وهم يبتسمون، كيف؟ حتى قطف الورود يوخز الأنامل فتفح الوجوه بالضيق، وأول مرة تحقق الابتسام فيها كانت يوم أن حصلت على مفاتيح مغارة على بابا، إنها كلمة السر الغائصة في الجوارح: افتح يا سمسم، نعم : افتح يا سمسم، وتنداح أبواب مغارة على بابا إلى الخلف مطلقة أجمل موسيقى ذات رونق مزعج في العالم، كانت كل صناديق اللؤلؤ والنقود مرتبة في باحة المغارة وكأنها خطوط زخرفة رقاب وأجنحة وذيول الطاووس، الحكمة أن تأخذ من هذه الكنوز ما تحتاجه فقط، أنت إنسان قاصر تحتاج لمن يكون وصيا عليك، اقفل يا سمسم فاشتريت كرتونة سجاير - عشر علب سجاير دفعة واحدة، وكيلو كباب، وزجاجة براندي - الروم أفضل، وقليلاً من الجرائد والكتب وكونشرتو العود

للأسبانى رودريجو، افتح يا سمسم: فاشتريت صديرياً من الصوف وكرتونة سجاير وزجاجة من الروم - البراندى أفضل، وحاولت الدخول إلى جسد جارتي زوجة الخياط أو نجلاء فتحى أو شهر زاد، كان عشيقها قد اختنق فى البحار تحت سطوة عاصفة مدمرة لينهمك الكمان فى الصراخ ملتاعاً على اللقاء الذى لن يتحقق، تسلل صوت خشن من بين فواصل الباب، لكنى ظللت غائصاً فى رحاب زجاجة الروم ذات الأمواج الطاغية، كادت رسوم عبد الهادى الجزار تتساقط على رقبتى، افتح يا سمسم، لكن سمسم لم يفتح، افتح يا سمسم فظل الجو خانقا خالياً من أى موسيقى أو رونق أو - حتى - حفيف الريح، كان الموقف بالغ الإحراج، المغارة مفتوحة والباب الصخرى منهار والصناديق ملقاة - ومحطمة - خالية من أية أثر لنقود أو معدن أو لؤلؤ، حاولت التقاط زجاجة الروم من الأرض.

- ٢ -

يكون مؤلماً أن تلجأ إلى أعدائك، أن تضع أمنياتك بين أيديهم، إنهم - هؤلاء الأصدقاء الألداء - الذين دمروا لك مغارة على بابا، كيف يتسنى لك أن تواجه المسائل وحدك، رئيسك - فى العمل - بليد العيون والوجه، وكالح أيضا، رفاق المشرب الذين يميلون للمرح يمتلكون كل القرائح البليدة - والكالحة أيضا، عليك أن تنسى أمك وأباك وأخاك، البعض مات، الكل مات، أنت فى حاجة إلى وصى يرعى شئونك، يتحكم فى شئونك، وكل الآفاق المفتوحة تحب الريح وتزهو بالأعاصير، فأحسست بطائر الرخ وقد حلق فى السموات العلا، وما كدت أتمنى حتى اندفع الرخ نحوى بمخالبه الشرسة كى يحملنى إلى تلك السموات الغامضة، اهتاج الفؤاد لكن المشهد كان طاغى الجمال، ولم تكن جزيرة السندباد بعيدة عنى، أسقطنى فيها الرخ فى نعومة رقائق نغمات عود حزين، فأى مملكة تكون أكثر بهاء وجلالاً. مما أنا فيه، الأشجار والطيور والانسياب والنسيم والشمس تنحنى ممتثلة كى أسمح لها بالغروب، والليل جاء مفعماً بالصمت والنجوم وأهازيج الشعر، عاودت الانحناء كى التقط زجاجة الويسكى، فاتضح لى أن سجائرى نفدت، فاضطر الفجر أن يعابث النور دون اهتمام بسقوطى من فوق السرير، فاكتسحت

القمقم!!

الصفاء موجات شرسة شديدة العبوس.

- ٣ -

لعل الدوائر المتداخلة تسمح لى بأن أهرب من كل هذا العبوس ، حتى موظف البنك نظر فى الشيك ورفعه إلى أعلى بعيون - ظلت - عابسة، ثم إلى وجهى بعيون أكثر عبوساً، هل أقتله؟ ثمانية وثلاثون جنيها من بين أصابع وجه عابس لكنها تصلح لاختراق مكامن الحشرات، ولعل الجزيرة التى بددتها تعود إلى سندبادها، أنت لا تصلح للحياة - أقصد للتنفس - بمفردك، وعندما تتاح لك الفرصة كى تصبح سندباداً فعليك أن تصحب إلى جزيرتك أنثى جيدة: من بين شاشة التليفزيون أو السينما أو الشاشة الكبرى لأجساد المناطق الضيقة، ثم عليك أن تسعى إلى وصى ينظم لك...، دعك من كارثة الوصى الآن، كل الأوصياء عابثون عابسون، وذوو جلال أيضا.

حينئذ - وأثناء محاولتى الجلوس على المقعد - بدأت مسائلى تأخذ اتجاها مناسباً، دعك من النور والانشراح والتدخين وثمالة الزجاجات الفارغة، وانتبه، انتبه جيداً، ظللت جالساً على المقعد - أو فى المقعد - وعيونى - المغلقة - ترنو إلى تداخلات الألوان المتسربة من بين الرموش، نعم ، إنه القمقم، القمقم، هذه الزجاجة الساحرة التى تعلو على جميع زجاجات البراندى والروم والويسكى والزبيب والنبيذ، إنها تصطف - هذه الزجاجات الفارغة المنمقة المزخرفة - فى طابور طويل كسيح فاقد الهمة، أما القمقم فإنه نشيط يستجيب لك - أيها الواحد الوحيد المتوحد - دون وقوع فى مأزق مغارة الكنوز أو جزيرة السندباد، ظلت زجاجة القمقم ملقاة على الأرض دون أية زخرفة، كانت فوهتها مغلقة بتلك السدادة الخالدة، والتى راعنى أنها - الزجاجة أو السدادة - تنظر إلى أصابعى بابتسام أو امتثال أو سعادة، وتهامست الريح مع بعض النسيم لتصنع نوعاً من المشاكسة الحاقدة فى خشب النافذة ، القمقم يخليك من الأوصياء ومن توالى سطوة التحكم العبوس المكفهر ، سوف أطلب من المارد - بمجرد أن يتشكل فى انطلاق الدخان الخالد - أن يمنحنى ما أريد : كل

مالذ وطاب من مأكولات ومشروبات - لا تنس المائدة ذاتها التي يخلو منها مسكنك ، ثم عليه - هذا المارد - أن يحضر في نهاية الوقت السعيد ليجمع فضلات المأكولات والمشروبات وأعقاب السجاير ومناديل الورق، ما الذي سوف أفعله بمناديل الورق دون أنثى؟؟

ثم : إن كارثة السعادة التي تحيق بمن يعيش وحيداً هي إعداد المأكولات وترتيبها وبعدها التصرف في بقاياها، هذا - بالذات - ما يحتاجه اللوردات والباشوات والدوقات وأصحاب الهيلمان من الذين نراهم - دائما - يدورون حولهم ويمتثلون لأوامرهم وينحنون أمام علب السجاير الفارغة ، والوجوه الجميلة تعزف سعادتها على ألحان الوجوه الأخرى التي تلتف حولها ، لماذا فات على أمنياتي أن أمتلك القمقم؟؟

- ٤ -

في اللحظة المأمولة اقتربت من القمقم ، تشبثت أصابعي في رأس الزجاجة ليستدير غطاؤها، لقد بدا صعباً شرساً لكنه لبىّ آهة الضغط الحارة، وانفتحت فوهة زجاجة القمقم ليندفع الدخان السحرى في كل أركان الأرض، طارت الطواويس لتجذب الغربان إلي أوكار البلابل، تهلل وجه الجدران وبدأت تتراقص على وجيب الفؤاد، وارتعشت الملائكة متقافزة فوق اندفاع الدخان، ما صدقت أننى أستطيع الصمود بنفس القدرة التي واجهت بها انفتاح باب المغارة أو الهبوط الأزلي المرعب فوق وجه الجزيرة الخضراء، كان سقف المسكن قد استحال ذرى في الأعالي متناثرة على وجه القمر الجميل، وبدأ المارد يتشكل في الأفق رافعاً كل أحاسيسي إلى سراديب السماء : شبيك لبيك، عبدك بين يديك، شبيك .. لبيك.، عبدك وخادمك تحت أمرك .

وراق لي أن أستمتع قليلا بالإمعان في وجه المارد العملاق الرائع .

لكن وجه المارد كان كالحاً، بالغ العبوس، وتضخمت غضون الوجه الكالح الشرس ليأمرني من جديد: شبيك .. لبيك.

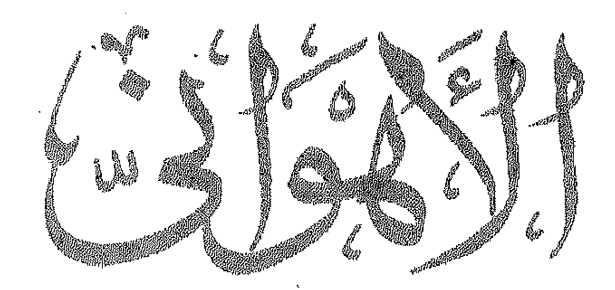
لكني رفضت أن أعلن عن رغباتي، وأحنيت دماغي إلى صدري متفادياً أن أتجاوب مع كل هذا العبوس.

ظللت صامتاً.

ولحظة الأمنيات الأخيرة تنزاح إلى الخلف حطاماً من حطب يابس. ■

مما وعته الذاكرة





فى حملة التعريب

بقلم
وديع فلسطين

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (١٩٠٨-١٩٧٠) من أساتذة الفلسفة المعدودين ومن المتخصصين فى الفلسفة الإسلامية ، وله عشرات من المؤلفات والمترجمات تشهد له بطول الباع فى هذا الميدان وقد عمل أستاذا للفلسفة فى جامعة القاهرة سنوات طويلة ، وانتدب للتدريس ولإلقاء محاضرات فى عدد من البلدان العربية وفى الولايات المتحدة . وكان إلى ذلك نبيلا فى الخلق عف اللسان يتسم سلوكه بالمثالية ويعامل طلابه وزملاءه بإنسانية أصيلة . وكان من حسن حظى أن جاورنى فى السكنى قبل أن ينتقل من حى مصر الجديدة إلى حى المعادى .



هذه المؤهلات الرفيعة أهلته لاختياره بشخصه وبالاسم للعمل فى احدى الجامعات العربية ضمن مشروع التعريب الواسع الذى كانت تضطلع به الدولة هناك. فرحب الدكتور الأهوانى بهذا العرض ، وعده من أسباب التقدير العظيم لشخصه فلا يجوز له رفضه . وحزم أمره ، وسافر إلى العاصمة العربية التى استدعته ، ونزل فى أحد فنادقها .

ولم يكن مسموحا وقتها لمن يغادرون مصر أن يحملوا معهم أكثر مما يعادل خمسة جنيهات مصرية ، ولهذا طلب من المسئولين فى الجامعة عند وصوله أن يدفعوا له مبلغا تحت الحساب يواجه به مصروفات الإقامة فى الفندق والنثريات الضرورية . ولكنه فوجئ برفض هذا الطلب بحجة أنه لم يعين بعد ، فلا يحق له أن يطلب أموالا تحت الحساب . فقال للمسئولين : ها أنا أمامكم جئت إليكم بنفسى من بلادى فعينونى فى الجامعة . فقيل له : لابد قبل تعيينك من الاطلاع على شهاداتك الجامعية موثقة بالطريق الدبلوماسى الرسمى ، فهذا هو نظامنا . فقال لهم : ولم لم تطلبوا هذه الشهادات عندما تم اختيارى بالاسم وبناء على تاريخى الطويل المعروف ، ولو طلبتموها قبل سفرى من القاهرة لكان من اليسير تجهيزها إلى جانب جواز السفر وتصريح العمل وتأشيرة الدخول . فقيل له : هذا هو نظامنا ، ولن تعين إلا بعد استيفاء الشروط المقررة ، ولا سبيل إلى تجاوزها أو التهاون فيها .

وإزاء هذا ، أبرق الدكتور الأهوانى إلى زوجته فى القاهرة لكى تجهز الشهادات المطلوبة وتقوم بتوثيقها بالطريق الدبلوماسى وموافاته بها .

وفى هذه الأثناء كان الدكتور الأهوانى يتلقى من إدارة الفندق الفواتير الخاصة بإقامته ، وهو يمهلها ريثما يشرع فى تسلم راتبه . وللمرء أن يتصور الحالة النفسية السيئة التى استولت على الدكتور الأهوانى ، فهو يعانى من الغربة المريرة ، ومن البطالة بسبب تأخر قرار تعيينه ، ومن مطالبات الفندق ، ومن المعاملة غير الكريمة التى لقيها من الذين استدعوه . وما كان لشخصية شديدة الحساسية كالدكتور الأهوانى أن تحتمل كل هذا العناء ، ففاجأته وهو فى الفندق نوبة قلبية قضت عليه . وقامت إدارة الجامعة بنقل جثمانه إلى ثلاجة وإخطار زوجته بوفاته . وصعقت الزوجة المكلومة ، وعبثاً حاولت الحصول على تأشيرة السفر إلى العاصمة العربية لاستصحاب جثمان زوجها ، وظلت خمسة عشر يوما تتردد على السفارة العربية وعلى وزارة الخارجية وتبعث بعشرات من البرقيات

دون طائل . وأخيرا شحن الجثمان إلى القاهرة ، فوصل ومعه فواتير الفندق التى لم تسدد .

وهكذا ساهم الدكتور العظيم أحمد فؤاد الأهوانى فى حملة التعريب !

الحساء الملوكى الأخضر

عندما أسندت رياسة هيئة الإصلاح الزراعى إلى المهندس سيد مرعى استعان بالصحفى محمد صبيح (١٩١٠ - ١٩٨٣) ليتولى إدارة العلاقات العامة فى الهيئة ويشرف على مطبوعاتها ونشراتها بما له من خبرة طويلة فى الصحافة والتأليف . ومن أسف أن محمد صبيح صاحب التاريخ الطويل فى العمل السياسى وفى الصحافة وفى نشر عشرات من الكتب هو اليوم من مظاليم الصحافة ، فلا يذكره أحد ولا تسعى إليه أسباب التكريم فى أعياد الصحافة والإعلام .

وذات يوم اتصل بى محمد صبيح قائلا إن وفدا من طلاب الجامعات الأمريكية يزور مصر للتعرف على أوجه الحياة المختلفة فيها ، وأنه ارتأى دعوة الوفد لتناول طعام الغداء فى قصر تم الاستيلاء عليه وكان مملوكا فى المرج لإحدى أميرات البيت المالك . ورجانى أن أقف معه فى الترحيب بهذا الوفد لأن أعوانه فى الإصلاح الزراعى لا يجيدون اللغة الانجليزية . ولما قلت لمحمد صبيح



سيد مرعى — محمد صبيح

إننى لا أعرف المكان ولا الطريق الذى يسلك للوصول إليه قال إنه سيدبر لى وسيلة مواصلات تنقلنى إلى هناك . فلبيت دعوته وذهبت إلى القصر ، حيث ألفيت مائدة ممتدة عامرة بصنوف وأشكال من الأطعمة المصرية ، ابتداء بالحمام المحشو إلى ورق العنب والكرنب المحشو إلى الأرز بالخلطة ، وقد روعى فى اختيار الأصناف أن تكون مصرية صميمة .

وانتشر الطلاب والطالبات حول موائد مستديرة ، وكان كل منهم يغترف فى صحفته ما يروق له من طعام أو ما يدعوه الفضول إلى تناوله من «غرائب» المأكولات المصرية . وكان مجلسى مع مجموعة من الطلاب والطالبات ، وعندما غرفت الملوخية فى صحاف خاصة لهم ، تساءلوا عما يكون هذا اللون من الطعام . وهنا تدخل محمد صبيح قائلا : إن اسم هذا الطعام بالعربية هو «الملوخية» وهو تحريف لكلمة «الملوكية» أى أن الترجمة الصحيحة لاسم الملوخية هى «الحساء الملوكى الأخضر» ! وتذوق الطلاب هذا الطعام الملوكى وأعجبهم

بفضل التقلية المشهورة .

ولكن طالبة خبيثة خاطبت محمد صبيح قائلة : لقد طردتم الملك ، ومع ذلك تتمسكون بهذا الحساء الملوكى ؟ فرد عليها صبيح قائلا : صحيح ما تقولين ، ولكن الشعب انتزع حقه من الملوك وجعل هذا الحساء شعبيا !



عبد الرحمن البيلى

الوزير والثعبان

كان من عادتى أثناء عملى فى الصحافة أن أراجع صحف الصباح الصادرة باللغتين الانجليزية والفرنسية عسى أن أقع فى أى منها على خبر فات الصحف العربية أن تنشره ، أو أن أصادف تعليقا يستحق الرد عليه وذات صباح فتحت جريدة «الجوربال ديجبت» الناطقة باللغة الفرنسية فقرأت فيها خبرا طريفا مؤداه أن موظفى قسم الأرشيف بوزارة المالية اكتشفوا أن بين أضابير الملفات ثعبانا يصدر فحيحا ، ففزعوا أشد الفزع ، وأغلقوا الغرفة ، ورفضوا أن يزاولوا عملهم إلى أن يزول هذا الخطر . فاستعانت الوزارة برفاعى من سكان أبى رواش الذى جاء ومعه آلات العزف والطبل، واستطاع أن يسحر الثعبان فخرج من مكمنه وقبض عليه وتنفس الموظفون الصعداء ، ونظرا لأن الصحف العربية لم تشر إلى هذا الخبر ، فقد ترجمته وعلقت عليه تعليقا ساخرا فى الجريدة التى كنت أعمل بها واخترت له عنوان «ثعبان فى وزارة المالية » ! واتفق قبيل ذلك أن كان هناك



ابراهيم ناجى



زوزو ماضى



زوزو نبيل

حسن توفيق

تعديل وزارى عين فيه المحامى عبدالرحمن البيلى وزيرا للمالية ، فتوهم الذين قرأوا عنوان «ثعبان فى وزارة المالية» بمن فيهم الوزير نفسه أننى أقصده بالذات ، ولكن مطالعة الموضوع بددت هذا الوهم .

الشاعر إبراهيم ناجي والزوزوات !

الذين أرخوا للشاعر الدكتور إبراهيم ناجى ، ولا سيما صالح جودت ، زعموا أن بطلة ملحمة الأطلال هى واحدة من ثلاث ممثلات يحملن اسم زوزو ، وهن زوزو ماضى ، وزوزو نبيل وزوزو الحكيم وظنوا أنهم كشفوا بذلك عن سر أدبى دفين هم أول من اهتدى إليه .

ولكن الشاعر حسن توفيق ، الذى نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجى وأتبعها بأعماله النثرية الكاملة أكد أن بطلة «الأطلال» هى عنايات محمود الطوير وكانت جارة لناجى فى حى شبرا الذى كان يقيم فيه فى شبابه ، وكانت هى حبه الأول ، إلا أن قيام أسرتها بتزويجها من شخص آخر حطم قلب ناجى ، فتفجرت شاعريته بملحمة «الأطلال» .

وقد اكتشف الشاعر حسن توفيق لإبراهيم ناجى مقالا قديما نشر فى مجلة «الاستوديو» فى عام ١٩٤٨ بعنوان «ثلاث زوزوات عرفتهن» أعاد إثبات نصه فى مجموعة «الأعمال النثرية الكاملة» .

ونظرا لطرافة هذا المقال أنقل منه آراء ناجى فى الزوزوات .

فقد قال عن زوزو ماضى : «عرفتها وهى أديبة صافية لم تشبها السينما بشائبة ، ولم ترنق حياتها أكدار الشاشة ، عرفتها وهى تستوحى البحر وتنظم فيه شعرا . قالت زوزو تناجى البحر :

عرفتك والمصيف عليك زاه
كقرن الشمس يضطرم اضطراما
عرفتك والشتاء يمد ظلا
وينشر فى جوانبك القتاما

هل تذكر هذا الشعر الآن فنانة السينما ، وهل تعاوده ، وهل تحن إليه ؟ إنها تحب كل شئ أزرق حتى رسائلها» .

وقال ناجى عن زوزو نبيل : «عرفت زوزو وهى فى مستهل جمالها وعنفوان رونقها ، عرفتها قبل أن تقبض عليها الإذاعة ، فتمرمط هذا الرونق فى تمثيلياتها وتقضى على اشراقها الفخم فى كواليس شارع علوى» .

أما زوزو الحكيم فقال عنها ناجى : «هى الأخرى أديبة صافية ، عرفتها قبل أن تنزلق إلى الشاشة ، عرفتها وهى تكتب مذكراتها عن أدباء مصر جميعا ، وقرأت لها أجمل فصل قرأته فى حياتى عن زكى مبارك . عرفتها وهى تجاهد فى تعلم الفرنسية وتناضل لتتعلم الانجليزية وتقاتل لتكون أول فتاة مثقفة فى مصر ! فلما جرفتها السينما انتهت إلى «عفريت مراتى» فسكن العفريت بيتها ، ومن يدرى هل دبّ إلى قلبها ؟

مسكينة زوزو .. إنها تحمل دماغا رهيبا وقلبا رقيقا طيبا » .

***

فهل يستنتج القارئ من هذه الأوصاف أن الشاعر ناجى كان متيما



بواحدة من الزوزوات ؟ ولا بأس أن أذكر أننى شاهدت زوزو ماضى على شاشة التليفزيون تعترف بأنها هى بطلة «الأطلال» .

ورحم الله الشاعر وكل بطلاته !

الشاعر أبو الوفا يرثي سيد قطب

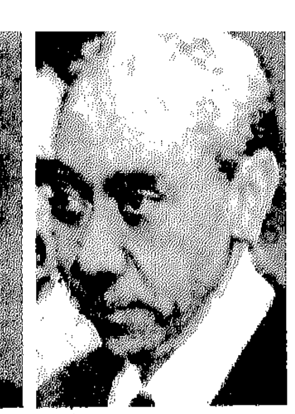
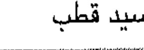
كان الشاعر محمود أبو الوفا صديقا حميما للناقد الأدبى سيد قطب وبحكم هذه الصداقة كان سيد قطب يبعث من السجن برسائل إلى أبى الوفا أطلعنى عليها بنفسه .

وعندما توفى سيد قطب فى ظروفه المأساوية ، لم يستطع أبو الوفا أن يكتم حزنه عليه ، فرثاه بقصيدة نشرها فى ديوانه المجموع تحت عنوان «سيد» حتى لا تمتد إليها يد الرقيب ، قال فيها :

يا سيدا كان عندى
أعـز من أصطفيه
يا طاهر الطرفين
من أمه لأبيه
يا أبعد الناس خلقا
عن كل فعل كريه
أخى ، ومن منك أولى
بكل وصف نزيه
وما ذكرنا عظيما
إلا رأيناك فيه

وختمها بقوله :

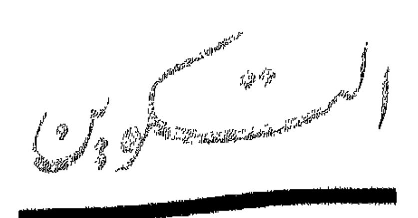
وما بكى أى عصر
إلا أعـز بنيه

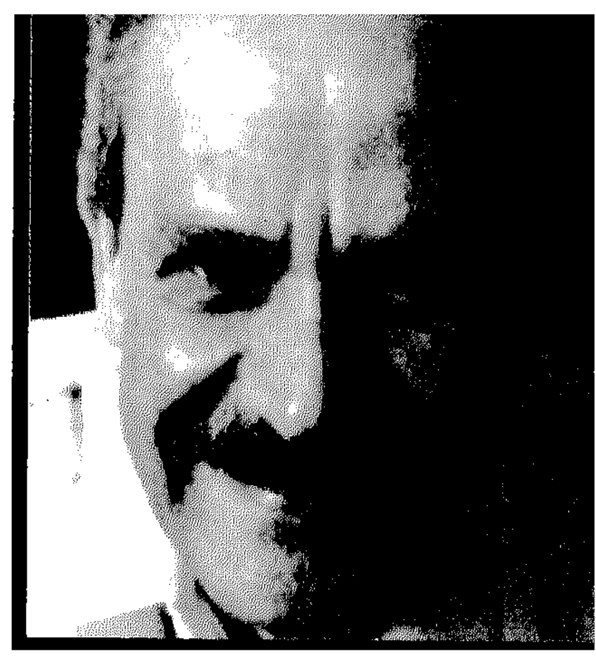


سيد قطب — عبد الرحمن شكرى

وقد صرح لى الشاعر قبل وفاته فى ٢٧ يناير ١٩٧٩ بأن أميط اللثام عن فحوى هذه القصيدة كى يعرف الناس أن هناك من يستطيع أن يعبر عن مشاعره فى لحظة الألم العظيم ، فلا يكتم شهادة ارتأى أنها شهادة حق فى صديق مأزوم

الشاعر عبد الرحمن شكرى يكتب بيسراه

عندما أصيب الشاعر عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) بفالج فى النصف الأيمن من جسمه ، عود نفسه على الكتابة بيسراه ، وبهذه اليد كتب ٣٢ مقالا بتوقيع ع ، ش (لأنه كان قد قرر اعتزال الحياة العامة) ونشرها فى مجلة «المقتطف» بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٥١ بعنوان «نظرات فى النفس والحياة» تناول فيها قضايا الفكر فى الأدبين العربى والغربى ، وقد أوصانا بأن نحتفظ باسمه سرا فلا نفشى للقراء أنه كاتب هذه المقالات . ■





دخلت مبنى وزارة الخارجية إنساناً فخرجت منه دبلوماسياً..

السفير شكري فؤاد

ولدت بمدينة أسيوط عام ١٩٣٢، وكان أبى بعد زواجه قد استمر فى الإقامة بمنزل العائلة فى الحى القديم من المدينة كما جرت العادة حينئذ، خصوصا أن والده كان قد توفى منذ مدة طويلة وأصبح هو رب الأسرة، وهو منزل كبير واسع الأرجاء تقيم جدتى فى الطابق الأول منه وأقمنا نحن في الطابق الثانى وقضيت فيه طفولة سعيدة لايكدرها شىء، فلما بلغت العاشرة من عمرى انتقلنا إلى منزل منفصل بأحد الأحياء الجديدة..



مع قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٥٢ (الاول من اليمين)

أول ما يعلق بذاكرتى عن جدتى انها سيدة فى أواخر السبعينات من عمرها، كف بصرها وثقلت خطواتها تحت وطأة جسمها المكتنز باللحم والشحم فكانت تستعين فى مشيتها بإحدى بناتها أو إحدى الخادمات لكنها كانت صافية الذهن حادة الذاكرة قوية الشخصية، وكنت الحفيد الأول لها من ابنها، فرأت فىّ امتدادا للعائلة ولزوجها الراحل وأحاطتنى بالرعاية والعناية وأحبتنى كثيرا فبادلتها حبا بحب وتعلقت بها وأصبحت أقضى أغلب يومى معها. وكانت سيدة كريمة محسنة لايكاد يخلو منزلها من طالبى الحاجات تعطف عليهم وتشملهم ببرها، وتحاول أن تخفف عنهم فى أزماتهم ومعاناتهم وتستعين بى وأنا طفل صغير فى مناولتهم ماتجود به عليهم من نقود أو ملابس أو طعام لأنال بركة دعواتهم وتمنياتهم الطيبة، وطبعنى هذا منذ الصغر بمشاعر التعاطف مع المحتاجين والمقهورين ولازمتنى هذه المشاعر حتى الكبر عندما تبلور ذلك فكريا فيما اعتنقت من مبادىء تنحاز الى الفقراء والمظلومين والمستغلين.

كان والدى قبل زواجه قد تحول من المذهب القبطى الأرثوذكسى إلى أحد المذاهب البروتستانتية فوقع هذا على جدتى وقوع الكارثة المروعة ويروون أنها ظلت أياما تنتحب وتنوح وهى تردد: «لو أنه أسلم لكان الأمر أهون علىّ، ثم ماذا أقول للقساوسة الذين يترددون علىّ ويطرحون البركة فى البيت .. إلخ» فهى ارثوذكسية تقية متمسكة بطقوس الكنيسة وإن كان

إيمانها إيمان العجائز ، وكان القديس المفضل لديها هو مارجرجس تستعين بشفاعته على قضاء حوائجها والخروج من أزماتها كمرضها أو مرض أحد ابنائها فتكثر له من النذور قائلة بعفوية أن سره باتع ولكنه يحب «البلص» أى الرشوة ، كما كانت ترسل عشية كل امتحان أدواتى المدرسية الى الكنيسة ليصلى عليها القسيس ويباركها ضمانا لنجاحى ولم أخيب ظنها فىّ أو فى صلوات القسيس، وحرصت جدتى على أن تنشئنى نشأة ارثوذكسية قويمة، تدعونى كلما زارها أحد رجال الدين ليصلى لى ويمنحنى بركته وترتب لى دائما من يصحبنى معه إلى الكنيسة، وتكرر لى دون ملل أننى ينبغى أن أصبح شماسا عندما أكبر، ولعل فى ذهنها أن يكون ذلك تكفيرا عن خطيئة والدى، فحفظت بعض مقاطع القداس أرددها باللغة القبطية دون فهم لأغلبها، ومع ذلك فعندما ماتت وكنت فى الثانية عشرة من عمرى بدأت مرات ترددى على الكنيسة تتباعد والتزامى بالطقوس يفتر بالتدريج، ولو أن العمر امتد بها الى يومنا هذا ورأت ما انتهى اليه مشروع الشماس الذى كانت تعدنى له وتدفعنى إليه لملأ الحزن قلبها.

التكوين



التعليم :

بدأت دراستى على يد مدرسة خاصة تأتى إلى المنزل لتعلمنى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب، وكانت وزارة المعارف العمومية قد افتتحت حديثا مدرسة «روضة أطفال أسيوط» وهى مدرسة مختلطة نموذجية يقوم بالتدريس فيها مدرسات مؤهلات أغلبهن جئن من القاهرة وكن شابات جميلات أنيقات على عكس مدرستى الخاصة التى كانت عانسا حرمت من أى مسحة جمال، وللمدرسة حافلة تمر على الطلبة والطالبات لتأخذهم من منازلهم وتعيدهم إليها فى نهاية اليوم الدراسى وكان ذلك فتحا جديداً فى أسيوط فسماها الناس الروضة «أم حلزونة» والحلزونة هى الأتوبيس، أهلنى سنى ومستوى دراستى للالتحاق بالسنة الثالثة روضة انتقلت بعدها إلى مدرسة أسيوط الابتدائية الأميرية ثم إلى أسيوط الثانوية الأميرية، كما كانت ...ى المدارس الحكومية فى ذلك

الوقت، وكانت المرحلة الثانوية خمس سنوات تنتهي بالشهادة التوجيهية التى حصلت عليها عام ١٩٤٨ .

كنت طالبا متوسط المستوى فى مراحل دراستى يأتى ترتيبى دائما فى منتصف قائمة طلبة الفصل ولم أتفوق إلا فى اللغة العربية، وكنت استعين فى الشهر الأخير من سنوات دراستى الثانوية بدرس خصوصى فى مادة أو أكثر من المواد التى لا أجيدها فالاستعانة بالدروس الخصوصية قديمة كما ترى، وليست ظاهرة حديثة ولكنها كانت فى ذلك الوقت لاتشكل عبئا ماليا على الوالدين لتدنى أجور المدرسين، فإذا علمنا أن مصاريف الدراسة فى المرحلة الثانوية كانت عشرين جنيها فى العام فإن بضعة جنيهات اضافية فى آخر السنة الدراسية لم تكن مما يؤثر على ميزانية الأسرة أو يرهقها كما يحدث الآن.

اخترت عند انتقالى إلى السنة التوجيهية شعبة أدبى وبعد نجاحى التحقت بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) واتجهت فى دراستى بالكلية الى قسم الفلسفة ، وهى اختيارات جمعت السوء من أطرافه فى نظر البيئة الاجتماعية التى انتمى إليها : فبدلا من الالتحاق بشعبة العلوم لأصبح طبيبا أو مهندسا التحقت بشعبة أدبى، وبدلا من دخول كلية الحقوق بعد ذلك كما فعل أغلب زملائى ذهبت إلى كلية الآداب ومن بين أقسام الكلية المتعددة اخترت قسم



أيام الطفولة والصبا.. مع والدتى فى القاهرة مارس ١٩٣٦

الفلسفة الذى لايؤهل إلى مهنة واضحة المعالم أو مجزية من الناحية المادية، ناهيك عما يحيط بالفلسفة ودراستها من محاذير وشبهات، ومع ذلك فإن والدى لم يعترض على شىء من هذا كله اعتراضا جادا، وكان يترك لى ولأخوتى هامشا كبيرا من الحرية فيما نفعل ونختار ولايطالبنا إلا بالنجاح فى نهاية العام وهو أمر كان يبدو غريبا فى مجتمع محافظ تقليدى يخضع فيه الأبناء لرغبات الآباء دون مجادلة، فزاد ذلك من تقديرنا لأبى وحبنا له وحرصنا على رضائه وتجنب ماقد يسىء الى مشاعره .

القراءة :

لم أكن طالبا متفوقا كما أسلفت ، كذلك لم أشارك بنشاط فى الجمعيات المختلفة التى شكلها المدرسون مثل

جمعية الخطابة أو جمعية الرسم أو جمعية التمثيل .. إلخ ومع أننى مارست رياضات متعددة فى النادى فإننى لم أكن أبدا ضمن الفريق الأول لأى منها، أما شغفى فكان منذ البداية بالكتاب فأصبحت قارئا نهما سريع القراءة جيد الاستيعاب لا أترك كتابا يمكن أن أحصل عليه دون أن أقرأه قراءة متأنية، وتعددت قراءاتى وتنوعت على المسار أو النمط الذى ساد بين أبناء جيلى: كان أساتذة اللغة العربية فى أواخر المرحلة الابتدائية وبداية المرحلة الثانوية يشجعوننا ويحثوننا على قراءة كتب مصطفى لطفى المنفلوطى لتحسين أسلوبنا فى الانشاء وزيادة حصيلتنا من المفردات والتعبيرات الأدبية، وأول كتاب أذكر أننى قرأته بعد قصص

التكوين



الأطفال وكتب كامل الكيلانى كان رواية ماجدولين التى ترجمها المنفلوطى. وجدتها فى مكتبة أبى الصغيرة التى تضم كتبا أغلبها دينية وقليلا من كتبه المدرسية والروايات، وبهرتنى ماجدولين بأسلوبها وأحداثها العاطفية المأساوية ومازلت استرجع حتى الآن فقرات من رسالة ماجدولين إلى ستيفن قبل انتحارها وهى تكرر «لم لم تعف عنى ياستيفن» أو ستيفن وهو يكتب لها قائلا «احقا يا مجدولين أن ماكان بيننا قد انقضى ..»، وكم اعدت قراءة هذه الرسائل وعيناى تفيضان بالدموع وقلبى يمزقه الأسى على هذا الحب الضائع، احببت المنفلوطى فاشتريت العبرات وبعض اجزاء النظرات ولكن ولعى كان برواياته مثل «الفضيلة» و«فى سبيل التاج» و«سيرانودى برجراك». واغرانى «أصدقاء السوء»، كما كان يسميهم مدرس اللغة العربية، بقراءة روايات الجيب وأشهرها روايات ارسين لوبين فاقبلت عليها بشراهة اقرأ فى اليوم الواحد رواية أو اثنتين وكانت روايات الجيب شائعة بين الطلبة ولم يكن مصروفنا يسمح لنا بشراء كل مانسعى إلى قراءته فظهرت مكتبة تؤجر الرواية لمدة يومين مقابل مبلغ زهيد نتبادلها فيما بيننا ونقرؤها فى الخفاء لأن الوالدين والمدرسين يرون فى قراءتها انحرافا عن السلوك القويم الذى ينبغى أن يتحلى به الطالب المجد المهذب .

لم تكن قراءاتى مخططا لها فى



فى مدرسة بنها الثانوية ..(الخامس الى اليمين من الصف الخلفى)

ذلك الحين فكنت اقـرأ كل مـا يقع فى يدى ولا آذكـر كيف انتقلت من روايات الجيب الى كتب أحمد الصاوى محمد مـثل «المرأة لعبـتـهـا الرجل» و«أوروبا ترقص فوق بركان» ثم اكتشفت روايات جورجى زيدان التى حببت الى نفسى التـاريخ الاسلامى وخلقت داخلى هذا الانحياز العاطفى، الذى يلازمنى حتى الآن، إلى الإمـام على وشـيـعـتـه، والإعجاب بثباتهم علي مايرونه حقهم، وقادنى الاهتمام بالتاريخ الى كتب عبد الرحمن الرافعى ومنهـا الى السيـاسة وادبيـاتـهـا ولم يشـغلنى هذا كله عن الأدب من نثر وشعر، وفى التوجيهية قرأت أول كتاب فى الفلسفة وكان قصة الفلسـفـة اليونانية لأحـمـد أمين وزكى نجيب مـحـمود فـأعجبت به وقررت أن تكون الفلسـفـة هى تـخـصـصـى فى دراستى الجـامـعـيـة ولما انتـقلت الى القاهرة والتحقت بكلية الآداب تفتحت امامى آفاق القراءة بلا حدود فى الأدب والفلسفة والاجتماع والتاريخ والتراث .

القاهرة :

ذهبت إلى القـاهـرة صـغـيـرا مع والدتى عدة مرات لا أذكر منها شيئا، فلما قامت الحرب العالمية الثانية انقطع أهل الصـعيد عن السـفر إلى القـاهرة والاسكندرية، إلا لضـرورة، خوفـا من الغارات الجوية وبدأت حـركة عكسية بالسفر من الوجه البحرى والدلتا إلى مدن الصعيد هروبا من اخطار الحرب والغـارات وكـان القطار القـادم الى أسـيوط يحمل كل يوم مـئـات ممن كنا نسميهم «المهاجرين» الذين أتوا للاقامة عند أقـاربهم وأصدقـائهم حـتى تنفرج الغمة، وبعد انتـهـاء الحـرب ذهبت إلى

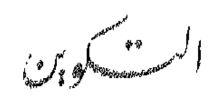


(اسرتي الصغيرة) قرينتي .. وابنتي وزوجها

مكتبة آواثنتين لبيع الكتب، فلما أقمت فى القاهرة كانت هذه أكبر نقلة فى حياتى أو أكبر صدمة حضارية كما يقولون الآن، دخلت كلية الآداب فكان أساتذتنا من الأسماء المرموقة التى نسمع عنها مثل الدكاترة عبدالرحمن بدوى وعثمان أمين وأحمد فؤاد الأهوانى ويوسف مراد، ودرست علم الاجتماع على الدكتور على عبدالواحد وافى وكان محاضرا موهوبا يرتجل محاضرته لمدة خمسين دقيقة فيسيطر على انتباهنا ولايتركنا إلا وقد ملأنا الإعجاب بطلاقته وبوضوح عبارته وصفاء ذهنه بالرغم من ملاحظاته الحادة أحيانا، وتعليقاته القاسية التى أذكر منها تعليقا له على بحث قدمه أحد الطلبة فأعاده إليه وقد كتب عليه «إذا كانت التفاهة امنيتك فقد بلغت اقصى امانيك» وتأثرت بالدكتور زكى نجيب محمود بهدوئه وتواضعه وكان يحاضرنا فى الأخلاق والمنطق الرياضى والوضعية المنطقية وتحليل معانى الكلمات ورأيت فى محاضراته فكرا جديدا فاعتنقته وبقيت فترة طويلة على اعجابى بالوضعية المنطقية حتى تحولت عنها الى آفاق أرحب .

كانت القاهرة بالنسبة لى عالما جديدا ألقيت بنفسى فيه ونهلت من مناهله العذبة والآسنة، بدلا من دار سينما واحدة أصبح أمامى عشرات الأفلام اختار منه ما أشاء، وبعد مسرح المدرسة للهواة الذى يقدم مسرحية ساذجة فى نهاية العام فتحت امامى أبواب الفرق المسرحية المختلفة وحضرت حفلات الرقص والغناء والطرب ومباريات كرة قدم وترددت

القاهرة وحدى لأول مرة عام ١٩٤٧ مكافأة لى على النجاح فى شهادة الثقافة (السنة الرابعة الثانوية) ولايمكن أن انسى مشاعر الدهشة والروع التى انتابتنى عندما خرجت من محطة مصر إلى ميدان باب الحديد فوجت نفسى وسط الضجيج والزحام اللذين يموج بهما الميدان وعجبت للمئات من الرجال والنساء والأطفال والباعة يتدافعون فى كل مكان وتساءلت من اين اتى كل هؤلاء الناس وما وجهتهم، وكيف يعرفون طريقهم وسط الحافلات والسيارات وكيف تتقاطع عربات الترام والمترو مع الشوارع وفى وسط الميدان دون أن تتصادم، وخيل الى أن الأمر لايمكن أن يكون حقيقة تتكرر كل يوم فلا بد أنه مهرجان يحتفلون به أو أن هناك مولدا لأحد الأولياء فى مكان قريب مثل مولد سيدى جلال فى أسيوط أو موكبا بمناسبة لا أعرفها يشبه موكب رؤية هلال رمضان الذى كانت تزدحم فيه الشوارع لمشاهدة عربات الحرفيين المزينة بالورود، وانتابنى الوجل عندما فكرت فى أننى سأعيش فى هذه المدينة لسنوات قادمة ولابد لى أن أعرف طرقاتها ومسالكها وأن اتنقل بين وسائل مواصلاتها، ومازالت رواسب هذه الصدمة المدهشة تعيش داخلى حتى الآن وتجعلنى انفر من الاماكن المزدحمة ويساورنى خوف دفين عند عبور مثل هذه الميادين.



وفى عام ١٩٤٨ سافرت إلى القاهرة بمفردى لالتحق هذه المرة بالجامعة، وغادرت أسيوط التى احتلت فى قلبى مكانة لاتشاركها فيها مدينة أخرى، قضيت فيها طفولتى وصباى ومطلع شبابى وهى من اسعد سنوات عمرى، وكانت اسيوط فى ذلك الوقت مدينة هادئة جميلة اهلها فى جملتهم محافظون فى سلوكهم الاجتماعى بها دار سينما واحدة تعرض فى النصف الأول من الأسبوع فيلما أجنبيا وفى النصف الثانى فيلما مصريا ولم يكن بها مسرح أو فرقة غنائية أو استعراضية ولم تكن قصور الثقافة قد ظهرت بعد ومصدر الاشعاع الثقافى الوحيد فيها هو «مكتبة البلدية» الغنية بكتبها ذات التجليد الفاخر وكانت تسمح بالاستعارة الخارجية، الى جانب



علىّ المتاحف ومعارض الفنون التشكيلية لأول مرة وكلها شئون جديدة على. ثم بدأت اسعى، مع اصدقائى، الى مقابلة رموز الحياة الثقافية فى ذلك الوقت من المفكرين والأدباء والشعراء فترددت على صالون العقاد عدة مرات ثم انقطعت وزرت طه حسين فى منزله أكثر من مرة وحرصت على ألا تفوتنى محاضرة أو لقاء عام مع نجوم الفكر والسياسة، وفى هذا كله كنت مراقبا أكثر منى مشاركا .

وفى القاهرة بدأت أقرأ، إلى جانب الكتب، المجلات والدوريات التى كانت لاتصل الى أسيوط مثل «الكاتب المصرى» التى يرأس تحريرها طه حسين و«الكتاب» التى يرأس تحريرها عادل الغضبان و«الآداب البيروتية» وغيرها، ووجدت بين زملائى واصدقائى من يكتب الشعر أو القصة القصيرة ولم يكن ذلك مألوفا اثناء دراستى الثانوية عندما كنت اعتقد أن الكتابة حرفة لايقوى عليها إلا العباقرة وانصاف الآلهة .

التكوين

وفى القاهرة ايضا تعرفت للمرة الأولى الى الشيوعية والشيوعيين، وكان الطلبة الذين يهتمون بالسياسة أثناء الدراسة الثانوية يتقاسمهم حزب الوفد وجماعة الاخوان المسلمون وكنا نقرأ أحيانا فى الصحف عن ضبط تنظيم شيوعى أو القبض على شيوعيين فى القاهرة أو الإسكندرية فإذا سألنا المدرسين عمن يكون هؤلاء الشيوعيون جاءت اجاباتهم غامضة مقتضبة محذرة فيذهب خيالنا مذاهب شتى ، فلما التقيت بهم وزاملتهم فى الجامعة وجدتهم بشرا مثلنا فكان هذا اكتشافا زادنى قربا منهم .

السياسة :

لم يكن لأبى اهتمام خاص بالسياسة أو الأحزاب المختلفة ولا أذكر أننى رأيته يتدخل فى نقاش أو جدل حزبى مع أحد ممن يترددون عليه، ولكن ابناء عمه انخرطوا فى العمل السياسى منذ البداية وانضموا للوفد وشاركوا فى ثورة ١٩١٩ لذلك كان الجو العام فى بيتنا وفديا دون نشاط يذكر، وعندما كنت استمع فى صغرى إلى الاصدقاء والأقارب يتحدثون عن اعمامى ودورهم فى الحركة الوطنية كان يملؤنى الإعجاب بهم والأمل فى

أن أصبح مثلهم وأسير على خطاهم وهكذا بدأ تطلعى الى المشاركة فى العمل السياسى.

تعرفت فى السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية الى زميل اسمه فتحى محمد أمين البيسرى نمت بينى وبينه صداقة حميمة وطيدة لم ينغصها منغص، والواقع أننى لا استطيع أن أكتب عن سنوات تكوينى دون أن أذكر هذا الصديق الذى أدين له بالكثير فقد كان له أكبر تأثير على توجهاتى الفكرية والسياسية فى مطلع الفترة التى بدأت أشق فيها لنفسى طريقا أسير عليه خصوصا وأنه زاملنى أيضا فى كلية الآداب التى سبقنى إليها ، ومع أنه كان يكبرن بأقل من سنتين فقط فإنه عاملنى كأخ أصغر له فأخذ بيدى وغمرنى بمودته ولم يبخل على بالمشورة، وامتدت صداقتنا طوال حياته التى قضاها فى التدريس، كان نبيل الصفات يأخذ نفسه بقواعد اخلاقية صارمة لايحيد عنها، هادىء الطبع يعرض عن الصغائر ويترفع عن المجادلات والمشاحنات التى تدور بين الطلبة فى جدهم ولهوهم فلا تكاد تشعر بوجوده إلا عندما يخطىء احدهم فيتناول حزب الوفد أو أحد اقطابه بكلمة لاترضيه فإذا به ينقلب شخصا آخر غير الذى نعرفه فيفارقه هدوءه ويشتعل حماسا ويرتفع صوته وتحتد لهجته ولايقنع بأقل من انسحاب الخصم من أمامه، فقد كان وفديا صميما ثابتا على مبادئه، له معرفة كاملة بتاريخ الحزب وانجازاته، وبزعمائه ونضالهم الوطنى لايتوانى لحظة عن الدخول فى معركة دفاعا عن عقيدته، وكان وفاؤه لأصدقائه لايقل عن وفائه لمبادئه .

لما التحقت بكلية الآداب تعهدنى فتحى بالتثقيف السياسى فشاركت

السفير شكرى فؤاد

- ولد فى أسيوط عام ١٩٣٢
- ليسانس آداب فلسفة جامعة القاهرة ١٩٥٢ .
- دبلوم معهد الصحافة جامعة القاهرة ١٩٥٥ .
- عمل بالتدريس من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٨ .
- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٥٨ وعمل فى سفاراتنا فى البرتغال وغانا وكمبوديا وبعثة مصر لدى الامم المتحدة فى جنيف.
- سفير مصر فى يوغوسلافيا من ١٩٨٥ حتى ١٩٨٩ ثم مدير ادارة التخطيط السياسى وادارة غرب أوربا بالخارجية .
- متزوج وله ابنة واحدة.

معه فى نشاط لجنة الطلبة الوفديين بالكلية، وشهد النصف الثانى من عام ١٩٤٨ آخر أيام حكومة النقراشى الثانية التى انتهت باغتياله فى ديسمبر من العام نفسه وتولى رئاسة الوزارة خلفا له ابراهيم عبدالهادى فاستمر فى سياسة مناهضة وقمع الوفديين والشيوعيين والإخوان المسلمين وكانت الجامعة تموج بالإضرابات والغليان السياسى والمواجهات بين الطلبة والشرطة حتى قدم عبدالهادى استقالته فى يوليو ١٩٤٩ وشكل حسين سرى وزارته الائتلافية التى تلتها وزارته المحايدة فى نوفمبر ١٩٤٩ وهى التى تولت اجراء الانتخابات العامة التى فاز فيها الوفد فوزا باهرا وحقق انتصارا كاسحا وكان يوم ٣ من يناير ١٩٥٠



الذى ظهرت فيه نتيجة التصويت يوم الفرح الشامل كما يقول الاستاذ طارق البشرى فى كتابه «الحركة السياسية فى مصر» وامتلأت شوارع القاهرة لأيام عديدة بمظاهرات التهنئة والتأييد للوفد حتى شكل النحاس حكومته .

وكان سرورى بنجاح الوفد كبيرا خصوصا أننى شاركت مع عشرات الطلبة الوفديين فى المعركة الانتخابية بدائرة باب الشعرية التى فاز فيها مصطفى موسى، ومرشح الطلبة، على سيد جلال الذى كان يتمتع على المستوى الشخصى بشعبية كبيرة لما أسداه لأبناء دائرته من خدمات .

وأعجبت اثناء هذه الفترة بالطليعة الوفدية التي كانت تمثل يسار الوفد والتيار التقدمى فيه وبزعمائها امثال الدكتور مندور والدكتور عزيز فهمى ومصطفى موسى والدكتور رياض شمس ورفيق الطرزى. وكنت احرص على قراءة مايكتبه مفكرو الطليعة فى صحف الوفد وتأثرت بآرائهم التى تربط بين الاستقلال الوطنى والعدالة الاجتماعية وتقف الى جانب جماهير الشعب والطبقة العاملة ضد الاستغلال والاستبداد وتؤكد على سيادة الأمة والديمقراطية البرلمانية السليمة والتمسك بالدستور والحريات العامة ودور الأحزاب التى تقوم عليها الحياة السياسية فى نظام دستورى برلمانى كما كانت لهم فى السياسة الخارجية مواقف رائدة فى مهاجمة السيطرة الأجنبية ورفض سياسة الدفاع

المشترك، والدعوة إلى التضامن الدولى لمكافحة الاستعمار والتنبيه الى دور الولايات المتحدة التى تحاول أن ترث الهيمنة البريطانية والفرنسية علي المنطقة .

وفى صباح يوم ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ استمعت من الإذاعة الى إعلان استيلاء الجيش على الحكم فطفى عليّ شعور بالأسف والحزن والخوف من المستقبل ذلك أن ثقافتى السياسية التى تشكلت فى ظل الطليعة الوفدية وقراءاتى فى القانون الدستورى خصوصا كتابات الاستاذ الدكتور السيد صبرى جعلتنى اخشى الانقلابات العسكرية وأرى فيها كارثة تحل بالدول حديثة الاستقلال فتجهض تجربتها الديمقراطية الناشئة وتروج لأفكار اللاحزبية والإصلاح على يدى المستبد العادل والتنظيم السياسى الواحد والاستعانة بالتكنوقراط مقطوعى الصلة بالشعب وبالجماهير، وقد نظرت إلى ماحدث فى ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ حينئذ على أنه انقلاب عسكرى وقضاء على الحياة البرلمانية والحريات والديمقراطية وزاد من شعورى هذا موقف النظام الجديد المعادى لحزب الوفد وهو حزب الأغلبية، وجاءت أحداث مارس ١٩٥٤ لتزيدنى اقتناعا بهذا الرأى ونفورا من الحكم العسكرى، ومازلت حتى الآن أعجب كلما قرأت لبعض المفكرين انهم فرحوا عندما اعلنت ثورة يوليو، رحبوا باستيلاء الجيش على الحكم وحل البرلمان والاحزاب والغاء الدستور وكنت أرى ذلك ثمنا باهظا حتى إذا كان مقابله طرد الملك وصدور قوانين الإصلاح الزراعى .

وظل هذا الموقف من الثورة يلازمنى حتى بدأت معركة عبدالناصر ضد الاستعمار والتبعية، وبلغت أوجها بقرار تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦ فبدأت أرى الجانب المضىء من ثورة يوليو ثم أخذ توجه عبدالناصر القومى العروبى يتحدد وتتضح معالمه وكنت قد بدأت الاتصال بكثير من الطلبة والدارسين العرب فى مصر لاسيما من سوريا والأردن ولبنان والعراق وكانوا ينقسمون بين حركة القوميين العرب والبعثيين فوجدت نفسى أقرب الى حزب البعث بسبب تبنيه للاشتراكية فى شعاراته فشاركت فى بعض نشاطات البعثيين فى مصر مع عدد من الأصدقاء المصريين وبقدر ما فرحنا بالوحدة ساءنا الاستمرار فى سياسة حل الأحزاب والاكتفاء بالتنظيم الرسمى الواحد فتفرق كل منا فى طريق حتى داهمنا الحزن بالانفصال عام ١٩٦١.

الصحافة :

حصلت على ليسانس الآداب عام ١٩٥٢ وليس فى ذهنى شىء واضح عما سأفعله بعد ذلك والواقع أننى لم أخطط ابدا لحياتى ومستقبلى على مدى طويل ولم أضع لنفسى غاية أو

هدفا مهنيا أسعى الى تحقيقه وأسير على الطريق الذى يأخذنى إليه بل كنت أقرر عند كل مفترق طرق فى حياتى السبيل الذى اسلكه، فبعد الحصول على التوجيهية وجدت اننى تلقيت كثيرا من الإجابات فى البيت وفى المدرسة ومن المدرسين ولكنى تمردت على الإجابات وبدأت ابحث عن الأسئلة وكانت الفلسفة امامى بابا مسحورا أريد أن أدخل منه إلى عالم ملىء بالأسرار والحوار والقلق والبحث فالتحقت بقسم الفلسفة دون أن أعرف ماذا سيكون من امرى بعد ذلك.

وبعد التخرج فى الجامعة عينت مدرسا فى مدرسة بنها الثانوية فقبلت الوظيفة لأبقى فى القاهرة وقررت فى الوقت نفسه أن أبدأ دراسة جديدة تؤهلنى لمهنة أخرى تستهوينى وفكرت فى كلية الحقوق إلا أننى فضلت العمل بالصحافة فالتحقت بمعهد الصحافة والتحرير والترجمة فى كلية الآداب والدراسة فيه مسائية لاتتعارض مع مواعيد عملى بالمدرسة، ومدتها ثلاث سنوات، فكنت اسافر كل صباح الى بنها وأعود بعد الظهور الى المعهد حتى حصلت على الدبلوم عام ١٩٥٥ بدأت بعدها أسعى للعمل بإحدى الصحف ولم تكن لى علاقة خاصة بأحد من الوسط الصحفى لأن أغلب اساتذتنا فى المعهد كانوا من الأكاديميين الذين لايعملون فى مجال الصحافة اليومية أو الأسبوعية .

كان الاستاذ على أمين يكتب كل يوم فى جريدة الأخبار عن الصعود من القاع الى القمة بالجهد والعمل والكفاح وأن الطريق الى النجاح فى الصحافة هو العرق والدموع وليس الواسطة، وله فى ذلك قصص خيالية طريفة لايكف عن ترديدها كما لايكف عن التأكيد على أن دار أخبار اليوم مفتوحة دائما للموهوبين والأكفاء - وكنت أظن نفسى واحدا منهم - فرأيت أن أختبر صدق مايقوله ويكتبه وأن أطرق باب العمل فى الدار رغم ماكان لى من تحفظات على صاحبيها لموقفهما السياسى السابق من حزب الوفد، توجهت لمقابلة الاستاذ على أمين من غير موعد سابق فلم أجده وعدت إليه مرة أخرى بعد أسبوع ولدهشتى قابلنى دون معرفة أو توصية وكان استقباله لى طيبا ودودا

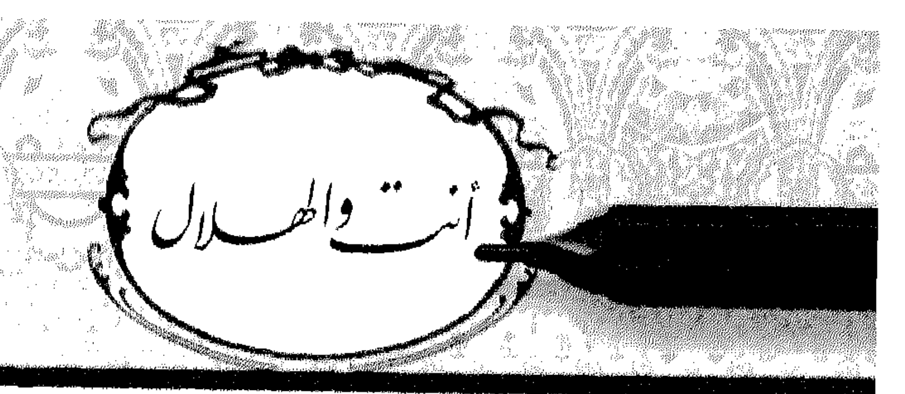


مشجعا، والحق أنه أتاح لى فرصة كاملة طالما تمنيتها، فاخترت العمل فى سكرتارية تحرير الأخبار وبدأت فى اليوم التالى.

كان يتولى سكرتارية التحرير فى الجريدة صحفيان يقتسمان بينهما العمل خلال أيام الأسبوع فكنت أجلس إلى كل منهما يشرح لى مايقوم به ويطلعنى على جوانب عمل سكرتير التحرير والقواعد التى تحكمه ولم يضنا علىّ بخبرتهما، وبمرور الوقت أصبحت على دراية لابأس بها ولكنى فشلت فى أن اقحم نفسى على العمل ولم يترك لى أحد فرصة للقيام بشىء مما تعلمته، ولم يطلب منى أن اتولى مسئولية محددة وبقيت على هذا الحال فترة طويلة أصبحت بعدها كممثلى الأدوار الثانوية والكومبارس فى المسرحيات، الذين يقفون على خشبة المسرح كل ليلة تراودهم أحلام بأن يختطف الموت بطل المسرحية فجأة أو أن يلم به مرض أو تصيبه كارثة تمنعه من الحضور فيتقدم أحدهم الصفوف ليعلن أنه يحفظ دور البطل ويستطيع القيام به ويوافق المخرج انقاذا للموقف فاذا بهذا الممثل المجهول يتفوق فى أدائه على البطل نفسه وتصعد اسهمه فى الفرقة لينتقل من أدوار الكومبارس الى مصاف الابطال، وبقيت اترقب اليوم الذى يتغيب فيه سكرتير التحرير لاقوم بعمله على أكمل وجه ولكن هذا اليوم لم يأت ابدا، وقضيت نحو عام استمتع بمراقبة مايدور حولى وبالنزول الى المطبعة ومتابعة عملية إعداد وإخراج الجريدة دون أن يكون لى دور فى هذه كله، وأخيرا رضيت من الغنيمة بالاياب وتوقفت عن المحاولة آسفا واقنعت نفسى بأن طبيعتى الهادئة الخجولة لا تلائم العمل بالصحافة.

فى مطلع عام ١٩٥٨، وبعد أكثر من خمس سنوات قضيتها فى التدريس، أعلنت وزارة الخارجية عن امتحان مسابقة لتعيين ملحقين دبلوماسيين بها فتقدمت إليه، وقد رأيت فى العمل الدبلوماسى أحد أشكال العمل السياسى الذى حرمت منه بعد حل الأحزاب، واجتزت الامتحان التحريرى ثم الامتحان الشفهى والكشف الطبى بنجاح صدر بعدها قرار تعيينى بالوزارة، وفى صباح اليوم الأول من شهر ديسمبر عام ١٩٥٨ توجهت إلى مبنى وزارة الخارجية بميدان التحرير فاستقبلنى موظف بإدارة المستخدمين استكملت معه بعض الأوراق المطلوبة ثم قدم لى نسخة من نموذج استلام العمل بالوزارة فلما وقعت عليه وقف خلف مكتبه وشد قوامه كالمنتصر وصافحنى بحرارة وهو يقول لى: «الآن فقط أصبحت دبلوماسيا فى وزارة الخارجية، مبروك»، وبمرور السنين أدركت أننى دخلت مبنى وزارة الخارجية فى صباح ذلك اليوم انسانا فخرجت منه دبلوماسيا، ولكن تلك قصة أخرى. ■





الابداع ليس له حدود

لا تزال قضية الوجود الجنسى للرجل والمرأة فى الأدب العربى .. تمثل مشكلة كبيرة للمحافظين والليبرالين على حد سواء .. وذلك لأن المحافظين يرون أنه من العيب وغير اللائق الدخول إلى مناقشة هذه التفصيلات العاطفية والجنسية بحرية واضحة .. وعلنية فى الأدب ؟!

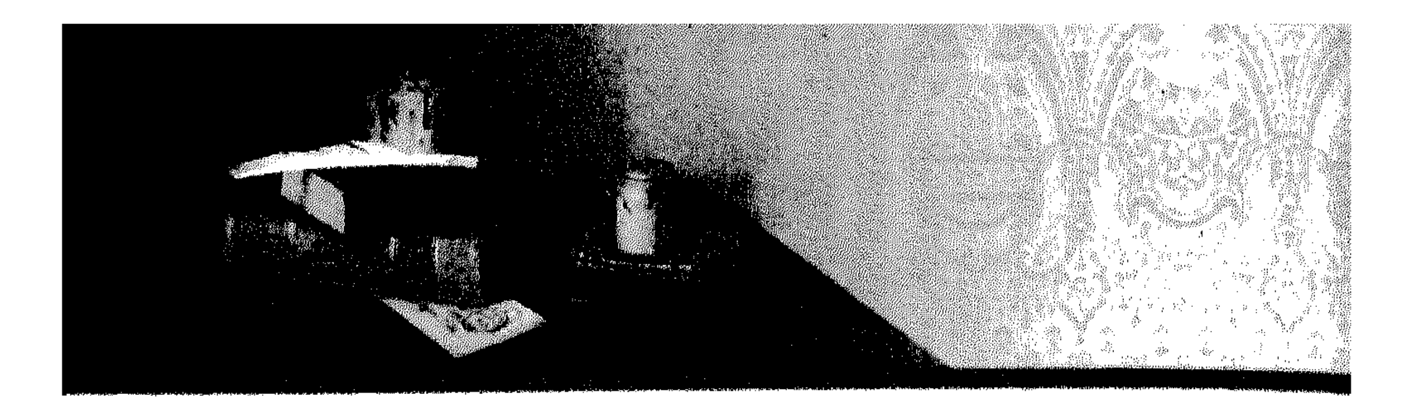
* أما الليبراليون فيرون أن عيب العيب ذاته يتمثل فى استمرار التمسك والعمل بهذه القيود والالتزامات ويطالبون .. بضرورة أن يفهم الجميع . محافظون وعاديون .. أن الإبداع ليس له حدود وهذه هى حقيقته ومجال تفرده ؟!

وهنا نشأت المشكلة بين المحافظين والليبراليين لكن بمطالعة المقال المهم للدكتور / ماهر شفيق فريد المنشور فى عدد مارس الماضى من مجلتنا القديرة الهلال «ماذا كتب العقاد ويحيى حقى ولطيفة الزيات فى الجنس» ؟. نراه .. قد قدم حلاً وسطاً لهذه المشكلة المتأججة ، رغم أنه لم يطلب ذلك صراحة وذلك عندما أتى سيادته / بنصوص قصيرة مقتطفة من إبداعات العمالقة الكبار - عباس العقاد - ابراهيم المازنى - يوسف الشارونى - ويحيى حقى وغيرهم فى قضية الجنس .

وفيها اتضح كيف يصح للأديب أن يتكلم فى كل المحرمات والمقدسات العاطفية والجنسية بحرية كاملة .. فى نفس الوقت الذى يحترم فيه حياء الآخرين ومشاعرهم وأذواقهم وذلك بتنقية ألفاظه وعباراته والابتعاد بهما عن مناطق السوقية .

لذا فتحية للدكتور / ماهر على هذا المقال المهم .. وكل الشكر للهلال على نشره .. والتطوير الرائع الأخير

ابراهيم شعبان مصطفى
جامعة المنوفية



غريب !

سادر في عتمة الدرب ، وأحلام الغريب
كوميض البرق ، ما إن تنجلي حتى تغيب
وتجيل الفجر وهْماً ، والدجى ظلا كئيب
فترى القلب خواء فيه لليأس دبيب

* * *

شاعر غنى على قيثارة الكون الرحيب
لحن عشق قد تسامى ، فيه يحتار اللبيب
عشق المجد ، وروح الشعر لو غنى تطيب
ونسيم الصبح يصفو ، وصدى اللحن يجيب

* * *

كم شدا للحب لكن ضيع الحب الحبيب
ورماه القوم - جهلاً - من بعيد أو قريب
أحرقوا فاه وكفّيه ، بجمر ولهيب
فغدا الشاعر قلبا صامتا ، دون وجيب

* * *

مل ظلم الناس ، جهل الناس ، والعزم السليب
ومضت تذروه ريح اليأس في جو المغيب
فانثنى يعطو (١) وحيداً ليس يلوى أو يجيب
ويزجي خطوه في القفر ، والقفر جديب

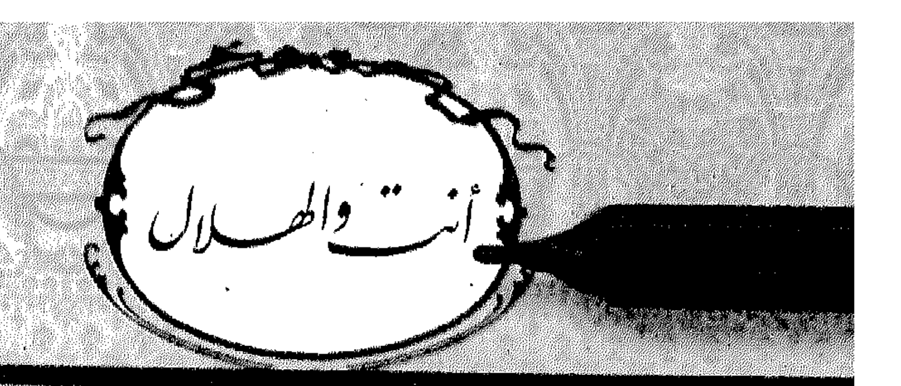
* * *

لو تراه الآن يهذي قلت : ذا شيء عجيب
لست تدرى هل يقول الحق ، أم ليس يصيب
ليس يشجيه - وإن راق - غناء العندليب
هل ترى حقّ لقلب ، هذّه طول النحيب
أن يرى شدو هزار ، مثل أصوات النعيب !

أماني حاتم بسيسو
عمان - الأردن

---

(١) يعطو : يمشي ببطء



منارة الثقافة العربية

التطور الذى لمسناه فى أعداد الهلال بدءا من يناير ٢٠٠١ هو فى واقع الأمر خير دليل على الدور التنويرى الذى تؤديه مجلة العرب الأولى ، والتى خرجت من عباءتها كل المجلات الثقافية الأخرى ..

وبلا أية مجاملة فيبقى للهلال بريقها ، وتبقى هى المنارة التى تضىء سماء الثقافة العربية ، بكل ما تحمله إلينا مع مطلع كل شهر من وجبة ثقافية تتنوع فيها أقلام كبار الكتاب ، وتحمل نبض التطور فى مجالات العلوم والتكنولوجيا .

وهذا التطور أتاح لإدارة تحريرها مواصلة العمل على إسعاد القارىء ، وتحرص تماما على تقديم كل عدد من أعدادها يحمل جديداً ، ويوصل إلينا ثقافة أدبية راقية .

إننى من على ضفاف الخليج من الإمارات العربية أهنىء دار الهلال وكل العاملين فى «الهلال» بهذا الجهد الكبير ، وما وصلت إليه الهلال من تطوير .

أحمد فوزى
دبى - الإمارات العربية المتحدة

مع ٢٢٠ الهلال ..



لحبى الشديد للقراءة الجادة عثرت على ضالتى قريبا منى متمثلة فى «الهلال» كنبع سخى للثقافة الجادة الشيقة فكان ارتباطى به منذ قرابة أربعة عقود . تابعت خلالها مراحل تطوره .

والغريب . أننى طوال هذه السنوات كنت أتطلع إلى «الهلال» وقد وقر فى ضميرى واستقر فى يقينى أنه اسمى من أن تطوله يدى بالتواصل معه أخذا وعطاء ويبدو أننى - لشدة أنانيتى - قد آثرت موقع الآخذ المتلقى . وأخيرا .. استطالت قامتى عندما فوجئت بأولى اسهاماتى الشعرية منشورة بعدد يناير ٢٠٠١ .

وإن كان إيثارى لموقع الآخذ المتلقى لم يمنعنى من الحديث عن «الهلال» فى وسائل الإعلام الأخرى ففى ٢٠٠٠/٣/٢٠ حيث نشر لى بريد الأهرام مساهمة تحت عنوان «مصر ٢٠٠٠ فى عيونهم» أشرت فيها على عثورى على مقال فى هلال أكتوبر ٤٣ عن تنبؤات منشىء الهلال جرجى زيدان عما ستكون عليه مصر سنة ٢٠٠٠ .

ولما كان «الهلال» هو صاحب السبق فلعلى أتوجه إليه بالسؤال الذى طرحته على كبار كتابنا ماذا ترون مصر والعالم سنة ٢١٠٠ م ليعيد طرحه على الجيل الحالى من كبار كتابه ومفكريه لنستشرف معاً



آفاق المستقبل من خلال إجاباتهم ونعيد بذلك تقليدا بدأه الهلال وأشرك فيه العديد من عمالقة الأدب والفكر من أمثال : توفيق الحكيم .. أمينة السعيد .. فكرى أباظه .. أحمد بهاء الدين وغيرهم كثير .

مهندس محمد محمد أبو خشبه - دسوق

دفاع عن هنرى كورييل !

تناول د . فهمى عبد السلام في عدد فبراير ٢٠٠١ هنرى كورييل ، وهاجمه هجوما عنيفا حيث اتهمه بالعمالة الصهيونية ، والرجل لم يرتكب جرما أو يقترف ذنبا يعاقب عليه بهذا الإتهام الخطير !

والملاحظ بصفة عامة أن كورييل أعلن موافقته على قرار تقسيم فلسطين ، لأنه وجد فيه أحد الحلول العملية للمشكلة الفلسطينية ، فهذا ما نسعى إليه جاهدين لتحقيقه الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن على حرب ١٩٤٨ ، ولا ينبغي أن نتهم كورييل بالعمالة للصهيونية إنما ننحى باللائمة عما حدث من أخطاء فى هذه الحرب التى لم يستعد لها العرب تماما .

د . صمويل لبيب سيحه
باحث تاريخى - المنيا

الهلال : ننشر رأى الدكتور صمويل بلا تعليق!

إسلامى

أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان
وإيمانى لى حصن إذا ما جاء طوفان
فلا أرض هى الوطن ولا نهر وأفنان
ولا قصر به ترف ولا نخل ورمان
أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان
أنا الايمان فى قلبي يجاهد كل كفران
يجاهد كل شيطان يجاهد كل عدوان
فوطنى كل منطقة بها الآذان عنوان
ووطنى كل منطقة لها الإسلام بنيان
أنا الإسلام لى وطن وجدران وبنيان

أحمد نادى بهلول - أسيوط



هل هناك خطر من التطور العلمى ؟!

حفلت الأعداد الأخيرة من مجلة الهلال بمقالات مهمة عن الثورات العلمية الحديثة كثورة الحاسبات والاتصالات والچينات والجينوم البشرى وغيرها ، مما يجعل الكثيرين منا يتساءل عما يمكنه أن يسببه هذا التطور العلمى المذهل من تأثير خطير على مستقبل البشرية . ولى بعض الملاحظات من بينها :

* إن قدراتنا العقلية على إجراء العمليات الحسابية قد ضعفت بشكل ملموس ، نتيجة للتوسع فى استخدام الحاسبات الألكترونية بدلا من عقولنا .

* القدرة على الحفظ والتذكر قد تراجعت أيضا نتيجة لانتشار أجهزة التسجيل ، فعلى سبيل المثال يستطيع الموسيقى الآن أن يدير شريط التسجيل وهو فى منزله ليحفظ اللحن والكلمات دون أن يرهق نفسه بالحفظ من مصدريهما .

* كما يمكنك الآن الحصول على أية معلومة أو خدمة من الكمبيوتر أو الانترنت وأنت قابع فى مكتبك دون الحاجة إلى البحث والتدقيق وبذل الجهد.

وفى مجال الصحة نجد تزايد ضعف البصر ، وقد ساهم العلاج الحديث فى اعتلال صحة الإنسان

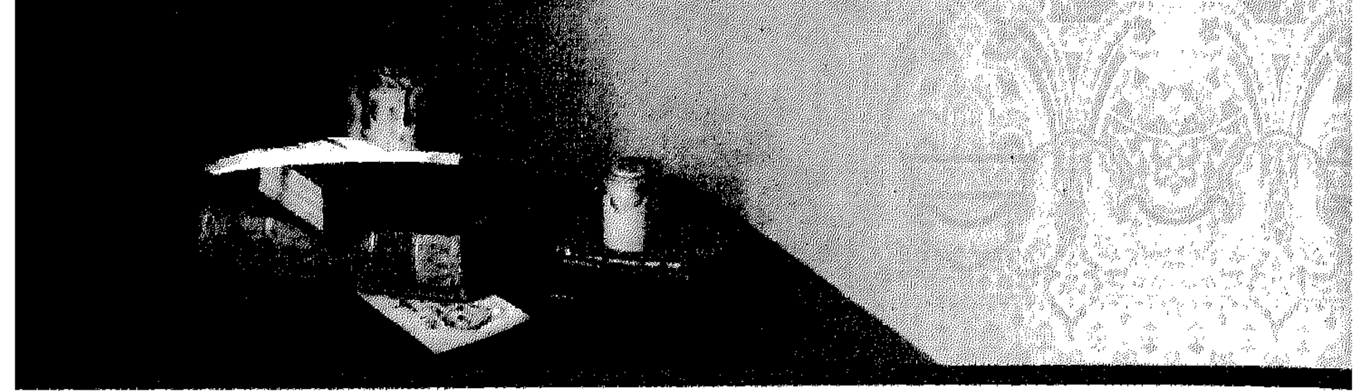
إن هذه ليست نظرة تشاؤمية ، بل هي تحذير لما يمكن أن يحدث مستقبلا ، فأشد أعداء النجاح ، هو أن يكون نجاحا بلا رقابة .

عادل شافعى الخطيب - القاهرة

الهلال : بالطبع رسالتك الطويلة أيها الصديق تناولت كل مستحدثات عصرنا ، ورأيت من وجهة نظرك أثرها السلبى على البشرية ، وربما تكون مقتنعا بكل ما تشير إليه .

لكن هل ترى أن آلاف العلماء القابعين فى معاملهم ليل نهار لم يقدموا دواء سحريا فعالا لأمراض كانت تفتك بالبشر ، ولم يقدموا حلولا ناجعة للتوصل إلى نظريات حديثة تسهل علينا أن ننطلق بالاقتصاد وبالثقافة وبالعلوم من خلال الحاسب الآلى وثورته المتصلة يوما بعد يوم .

لا يا صديقى .. فى مجال العلوم ، وخدمة قضايا الإنسان هناك تقدم مذهل يحقق للبشرية السعادة ، ولكن بشرط أن نعى الاستخدام الجيد والأمثل لهذه التكنولوجيا الجديد .



جـفف دمـوعك

جـفف دمـوعك يا قـمـر — وانشر شموعك فى السحر
السحب غاصت فى السما — والطير غـودر فى الشجر
والخطب مـل مع الخطا — فـوق المروج أو السطر
وتمرغت تحت الثـرى — أحـلامنا بعـد الغرر
والليل سـاج سـادر — والسامرون ولا خبر

* * *

شمس العروبة حية — وحبالهم سحر النظر
كفكف دموعك يا قمر — واسمع دعاء من انتظر
واصل كفاحك واصطبر — فالحق رائدك انتصر

سعيد عبد القوى محمد - بنى سويف

أصيلة

سكت الغـريد لما — صـار فى وضع صعيب
إن بكى قـالوا تغنى — أو شكا قـالوا : مريب
أو أراد العـدل يعلو — جعلوا الظلم النجيب
أو دعى للخير يسمو — ألبسوا السر القشيب

* * *

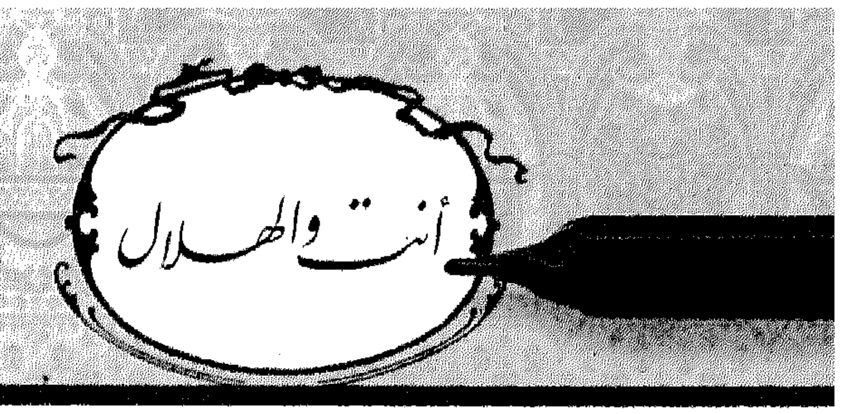
كـيف لا يهذى وتغدو رقة الشدو نعيب
وهو فى وكـر مخيف ، وله سقف سليب
قطعوا منقاره جهرا لكى لا يتغنى بالحبيب
قصقصوا أظفاره أنى له يحمى شقيقا أو قريب
إنه ومض ستره الغيم لكن لن يغيب

درهم جباري - سان فرانسسكو

من نوادر بشار بن برد

هو أحد شعراء العربية عاش فى اواخر العصر الأموى واوائل العصر العباسى كان مكفوف البصر ورغم ذلك كان شاعرا موهوبا يمدح ويهجو وله الكثير من الحكايات والنوادر ، التى تدل على ظرفه وخفة ظله وكانت له جارية تدعي ربابة تقيم معه فى بيته وتقوم على خدمته قالت له يوما :

- أتمدح الخلفاء والامراء فى شعرك وتبخل علىّ ببيت أو بيتين
- أنهم يقدمون لى الدنانير والدراهم نظير مدحى له اما أنت فماذا تقدمين لى



- ألا أقوم على خدمتك فأعد لك الطعام وأنظف لك البيت .. فقال بشار :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

كان التجار يهاجمون والد بشار لأنه تاجر صغير قليل الشأن فهاجمهم بشار فى شعره وسخر منهم ولما شكوه إلى والده لامه على ذلك فقال له بشار : قل لهم يا أبي إن الله تعالى يقول : ليس من الأعمى حرج ..

كان بشار يوما بمجلس الخليفة وكان من بين الحاضرين خال الخليفة فسأل بشار :

- ما صناعتك يا رجل
- أثقب اللؤلؤ
- كيف وأنت مكفوف البصر ولا ترى
- أو يصح منك أن تسأل ضريرا يتكسب من شعره هذا السؤال ؟!

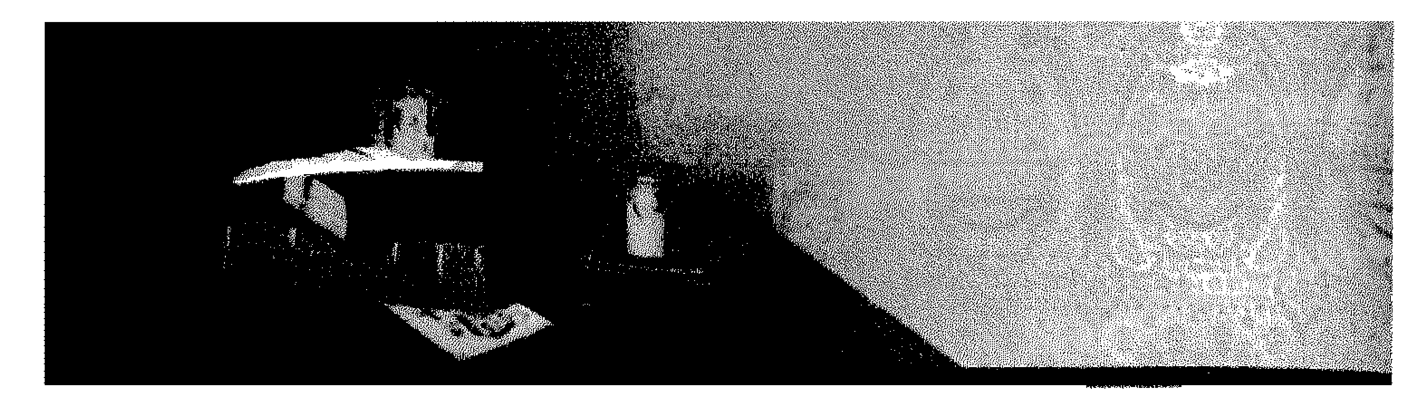
محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

أين المسرح الهادف ؟!

هناك روافد ثقافية كانت تزخر بالحيوية والنشاط وكانت تضيء حياتنا الفكرية والأدبية والثقافية والفنية ، وقد توقف عطاؤها ، بينما يمكن أن يكون وجودها اليوم متفقاً ومكملاً لمعطيات حياتنا الثقافية ولا يتعارض معها . من ذلك :

١ - مسرح الجيب الذى أنشيء إبان النهضة المسرحية فى الستينات ولم يعد أحد يذكره رغم ما قدم من أعمال تخاطب طليعة المثقفين ، وإعادة بعثه اليوم تشكل ضرورة ملحة حتى لا تسود مسرحيات «المقاولات» وحدها على الساحة المسرحية .

٢ - مسرح التليفزيون والذى أنشأه السيد بدير فى أوائل الستينات ، وقد قدم الكثير من عروضه فى الأقاليم فى إطار «القوافل الثقافية» وشملت هذه العروض مسرحيات واوبريتات غنائية متميزة إلا أنها فى الوقت نفسه كانت ملائمة لاجتذاب أهل الريف نحوها ، وعرف عن طريق هذا المسرح الكثير من الفنانين الذين كانوا مغمورين قبل إنشائه . ويمكن أن يقال أن تنوع المواد الدرامية التى يقدمها التليفزيون من خلال قنواته المختلفة فيها الكفاية ، لكنى أقول



إن ذهاب قافلة ثقافية لمحافظة من المحافظات وارتباط جماهيرها بانتظار هذه القافلة وترقبها ثم مشاهدة عروضها واختلاط الجماهير بالفنانين يمكن أن يبعد هذه الجماهير عن مساوىء برامج «الدش» الرخيصة ، ويحفز مواهب الكتاب الذين يمكن أن يؤلفوا لمثل هذه (المهرجانات الفنية الشعبية) فى نوعيات درامية غير تقليدية .

يحيى محمد حسين
القاهرة - مصر الجديدة

الهلال :

تكمن مشكلة في التدهور الذى أصاب المسرح المصرى ، وعجزت كل محاولات بعثه من جديد ، وربما نسى الناس هذا الفن الجميل الذى أدى دورا مهما فى حياتنا .

إلى الأصدقاء

* الصديقة السورية خيرية السقة : وصلتنا رسالتك التى تتحدثين فيها عن كتابك أضواء على الحريم والسياسى وذكرت أنك قدمت نسخا من هذا الكتاب إلى عدد من المفكرين والمثقفين المصريين ومنهم د . جابر عصفور والشاعران فاروق شوشه وأحمد عبد المعطى حجازى ، والروائى بهاء طاهر ، وتبدين عتابا شديدا لأن أحدا من هؤلاء لم يكتب عن هذا الكتاب .. برجاء إرسال نسخة من كتابك إلينا ، وسوف نتناوله من خلال هذا الباب .

* الصديق : زكى ابراهيم السالم - الإحساء - السعودية وصلتنا رسالتك والتى تتضمن قصيدتين هما (فى ذكرى الجواهرى) و(الألم والحرقة والأمل) وسوف ننشر قصيدة فى العدد القادم بإذن الله .

* د . أحمد حافظ عبد الباقى - منيا القمح .. شكرا لك على مساهماتك ، ومواصلة كتاباتك لنا ، برجاء تحديد المقال أو الفكرة التى تود نشرها .

* الصديق : عاصم البرقوقى : كتبنا عدة مرات عن رسالتك خاصة التى تطالب فيها بأن يكون هناك عيد للضحك .. ولكن يا صديقى ما هى مقومات هذا العيد ؟!

وتحية للأصدقاء : محمد عثمان - المنصورة ، ابراهيم محمدين - الفيوم ، جمال بركات - الزقازيق ، يوسف الحرمى - الدوحة - قطر .

الكلمة الأخيرة



في الجامعات.. وباء اسمه المذكرات!

د. الطاهر أحمد مكي

في البدء كان المعلم، يتحلق حوله التلاميذ يلقي إليهم بالمشكلات، يحاورهم فيها، ويسمع منهم آراءهم، وعبر ذلك يقوّم ويوجه ويمتهج، ويهدي إلى المصادر، ثم يدفع بهم إلى الحياة وقد استقامت عندهم إمكانات البحث، ودربوا على طرائق التفكير، فيقل في خطاهم الزلل والعثار.

وبينما الأستاذ يحاور ويحاضر، هناك من التلاميذ من يقيد ويدون، وقد يلتقي مع رفقته، فيعارضون بين ماكتبوا، ويصححون ما قد أخطأوا فيه، وقد يعرضونه على الأستاذ فيرضى عنه، أو يجري بفكره بين سطوره اضافة أو حذفا أو تعديلا. وترك هذا المنهج مصادر أمهات حملت اسم «الأمالي» أو «المجالس»، وهي شاهد حق وعدل على موسوعية الأستاذ وجدية التلميذ.

ثم كانت الجامعة الحديثة، لاتختلف عما كان عليه الحال قديما إلا في وفرة المصادر والمراجع، وتأكيد الأستاذ على تلاميذه بالعودة إليها، فالحوار معه ومعها الطريق إلى أوسع ساحات العلم والفهم وتنمية ملكة التفكير والابتكار.

وجاء عصر جامعات الأعداد الكبيرة، بلا استعداد ولا إمكانات، فنسي الأساتذة في جملتهم شيئا اسمه المحاضرة والحوار وأن وظيفة الأستاذ اكتشاف المواهب وتشجيعها، وتعميق روح التأمل والنقد، ونسي الطلاب بدورهم، بطريقة أشد، أن هناك شيئا اسمه المصدر والمرجع والكتاب، وحل مكانها في وجدانهم وذواكرهم شيء اسمه المذكرة!.

والمذكرة نوع من التأليف السري، نسخها صاحبها على عجل، اقتبسها في جملتها من هذا الأستاذ أو ذاك، وطبعها الطلاب وحدهم وبمددهم، يطبعها بأقل التكاليف، ويبيعها لتلاميذه بأغلى الأسعار، فإذا اطمأن إلى أنهم جميعا اشتروها، بدأ يحذف لهم صفحات من أولها، وأخرى من آخرها أو وسطها، ويبقي على القليل منها، بعد أن ينبه إلى المهم والأهم منها، ومايقرأ فحسب، وهكذا يضمن الطلاب المرور إلى الفرقة الأعلى

وقد لايملك طالب فقير ثمن المذكرة، والأستاذ يصر على أن تباع كلها، حينئذ يكتتب التلاميذ القادرون على شراء ماتبقى، حتى يرضى الأستاذ!.

ولأن المذكرة تطبع لعام واحد فقط، ولاتصلح لعام آخر، يتخلص منها الطلاب بعد الامتحان مباشرة، حتى ولو رسبوا لأن هناك مذكرة جديدة لكل عام.

سلام على أيام الكتاب النضرة، والأساتذة العظام الذين لايتحولون مهما كانت الظروف، إلى وراقين يتاجرون بحاجة طلابهم، ويا أيها المشغولون بأمر مصر ومستقبلها، جامعاتنا من الداخل خراب في خراب فتحركوا لإصلاحها، عافاكم الله!.

الهلال

- المرأة والرجل وضياع الحقيقة
- الخديو إسماعيل المفترى عليه
- الفلاح المصرى والإنترنت

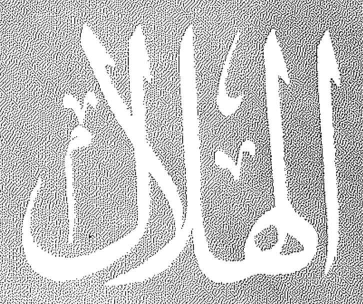


ذات الرداء الاصفـــــر

للفنان أحمـــد صبرى



لوحة وفنان



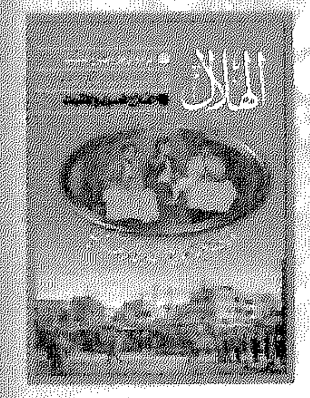
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079/ ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
صفر ١٤٢٢هـ - مايو ٢٠٠١م

الأبواب الثابتة



المجمع .. وضعف اللغة العربية !

أساتذة أجلاء.. مفكرون ومستشرقون من بلاد كثيرة، من أمريكا وآسيا وأفريقيا.. ومن كل أرجاء الوطن العربى، يحضرون كل عام مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ويبدأ نشاط الدورة السابعة والستين لهذا العام بخطب رنانة، وقصائد فى مديح المجمع وتقريظ أعضائه الذين إنكبوا لسنوات طويلة بهدف الارتقاء باللغة العربية، وفى مواجهة الإهمال الذى لحق بها، سواء فى أجهزة الإعلام ، أو عدم السيطرة على ما نراه من أسماء تطلق الآن مع التطور والتحديث، حيث أصبحت أسماء المحال التجارية .. تكتب بالانجليزية والفرنسية بحروف عربية، مثل «سوبرماركت» أو «جنتلمان» أو «هابى لاند» و«هابى دريم» دون أن نتوصل إلى السيطرة على هذه الظاهرة المنتشرة فى كل أرجاء الوطن العربى، أو نتمكن من وضع القوانين التى تحد منها، وتؤكد احترام لغتنا القومية.

والسؤال المطروح: هل اللغة العربية فى خطر؟ والاجابة بلا تردد: إن اللغة ليست فى خطر، بل أصحاب هذه اللغة هم الذين فى خطر، فليس هناك أخطر من أن يفقد الإنسان لغته، فيصبح بلا لسان، ويعيش بلسان مستعار والقضية تحتاج منا إلى وقفة، حيث كانت اللغة العربية فى عهود إزدهارها تبرز فى كتابات عدد من الكتاب والأدباء والشعراء فى النصف الأول من القرن العشرين، فإذا أردنا أن نتعرف على سر هذا التفوق ، فينبغى أن نتصور خريطة التعليم التى تربوا عليها، حيث كانت أعداد الدارسين قليلة، ومدرسو اللغة العربية مختاورن بعناية ، خاصة فى كلية دار العلوم وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب. وما نراه الآن فى هذه الكليات . يجعلنا لا نتفاءل فى الخروج من هذه الأزمة كما أن اللغة العربية فى مناهجنا الدراسية، وصلت الى مكانة متدنية، مقارنة بالمواد الدراسية المختلفة، بصرف النظر عن عدد الحصص الدراسية، ذلك انه بمقارنة درجة

اللغة العربية بفروعها ـ مثلا ـ بدرجة مادة الرياضيات بفروعها، نجد تفوق الرياضيات .، على الرغم من ان اللغة العربية مكون اساسي لكل متعلم ومثقف بينما الرياضيات لها أهميتها في بعض التخصصات.

ولنا أن نتصور حجم مشكلة الأمية الثقافية لكثير من خريجي الجامعات في وطننا العربي، والذين يجهلون في كثير من الأحيان القواعد الصحيحة للغتنا القومية.

***

وإذا عدنا الى دور مجمع اللغة العربية، نجد جهودا تبذل فى تعريب العلوم والاهتمام بالمعاجم وغيرها، لكننا لا نرى أن أعمال المجمع تسير على خطط محددة فضلا عن أنها تعيش فى عزلة عن سائر المؤسسات ، الأمر الذى يحول دون وصول منجزات المجمع إلى الناس، وهذا يتطلب إعادة صياغة مفهوم المجامع اللغوية فى الوطن العربى ونظام عملها.

لكن الغريب أن اجتماعات المجمع فى كل دورة تستمر لمدة أسبوعين، ويخرج بتوصيات لا نعلم هل هناك قوة للقانون تستطيع تنفيذ ولو توصية واحدة من بين ١٨ توصية صدرت هذا العام، موجهة إلى كل الوزراء المعنيين فى الوطن العربى تقول: «يوصى المؤتمر باستخدام العربية السليمة فى جميع وسائل الإعلام ، لأنها اللغة القومية المشتركة بين الشعوب العربية، التى تجعل من شعوبها اتحادا عالميا أمام التكتلات الأجنبية».

ونظن أن هذه التوصية تحمل فى طياتها مأساتنا كشعوب عربية أضعفنا لغتنا وأهملناها.. وأصبح المجمعيون داخل جدران مغلقة يستجدون من خلال توصياتهم الموسمية أن نهتم باللغة العربية، وأن تعمل وزارات الاعلام فى جميع الشعوب العربية على إلغاء الثنائية بين اللغة العربية والعامية فى وسائل الإعلام ، وكذلك بين اللغة العربية واللغات الأجنبية فهل من مجيب يا عرب!! . ■

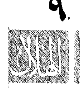
المحرر


محمد على — الملك فؤاد — د. محمود فهمى حجازى — سمير غريب

حمــاية وثائقنا القومية

بقلم:
د. رءوف عبــاس

أثار مشروع قانون المحافظة على الوثائق الذى تقدمت به الحكومة الى البرلمان حملة صحفية واسعة شاركت فيها الصحف الحزبية و«القومية» على السواء، انتهت بتجميد المشروع من جانب الحكومة لإتاحة الفرصة أمام أهل الاختصاص للمزيد من الدراسة، وهو ما يحدث الآن بالفعل.



وتعود قصة هذا المشروع الى عام ١٩٩٤ عندما شكل الزميل الدكتور محمود فهمى حجازى (رئيس دار الكتب والوثائق عندئذ) لجنة ضمت مجموعة من الخبراء فى الوثائق والدراسات التاريخية والقانون، للنظر فى تطوير دار الوثائق القومية التى كانت فى حال يرثى لها، وظلت اللجنة تعمل بجد لمدة عامين، فحصت خلالهما واقع الدار، وما يمكن عمله للنهوض بها، وانتهت الى اقتراح خطة للتطوير من شقين آحدهما قصير المدى يعالج المسائل الملحة التى لا تحتاج الى اعتمادات مالية كبيرة وثانيهما طويل المدى يستغرق تحقيقه خمس سنوات، يضع الدار فى مصاف دور الوثائق القومية العالمية لو صدقت الهمم وتوفرت الاعتمادات المالية اللازمة لها، أو قل - إن شئت - توفر الوعى لدى الدولة بأهمية النهوض بدار الوثائق القومية باعتبارها مستودع ذاكرة الأمة الذى يضم خلاصة تجاربها .

الحفاظ علي الوثائق

ولا يتسع المقام هنا لنضع بين يدى القارئ الكريم الخطوط المهمة لتلك الخطة، فذلك - رغم أهميته - يخرج عن إطار موضوع هذا المقال. ولكن ما نود الاشارة إليه هنا أن «لجنة تطوير دار الوثائق» أولت الحفاظ على وثائقنا القومية اهتماما كبيرا بعدما تبين لها أن مقتنيات الدار من الوثائق الخاصة بالقرن العشرين تكاد تكون معدومة لسببين : أولهما لأن الجهات السيادية فى الدولة (رئاسة الجمهورية، وزارة الخارجية، وزارة الدفاع، وزارة الداخلية) لا تهتم بتنفيذ نصوص لائحة المحفوظات الحكومية التى تقضى بضرورة انتقال الوثائق العامة للدولة الى دار

حماية وثائقنا القومية

الوثائق القومية بعد انقضاء مدة حفظها التى تحددها اللائحة بما لايزيد على خمسة عشر عاما، ثم تنظر فى أمر اتاحتها لجنة من خبراء دار الوثائق القومية وممثلين لجهة انتاج الوثيقة، فاذا تبين للجنة أن اتاحة الاطلاع عليها يعرض مصالح الدولة أو أمنها القومى للخطر تظل مغلقة عشرين عاما أخرى ثم تصبح بعدها متاحة للاطلاع، على النحو الذى يجرى العمل به فى الأرشيفات القومية فى مختلف دول العالم، وهو ما أخذ به المشرع فى القرار الجمهورى بقانونه الصادر فى ١٩٧٩ .

ونتج عن حجب الجهات السيادية لوثائقها عن دار الوثائق القومية ندرة الوثائق الخاصة بالقرن العشرين على نقيض وثائق القرون السابقة عليه وخاصة القرن التاسع عشر، فلا يوجد من وثائق القرن العشرين بالدار الا مجموعات محدودة جلبتها المصادفة المحضة الى الدار مثل مجموعة وثائق وزارة الدفاع المعروفة باسم «مجموعة مكتب المشير عبدالحكيم عامر»، وبعض وثائق الخارجية، وبعض تقارير الأمن (البوليس السياسى) قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. وبعض تلك المجموعات جاءت الى الدار بسبب ضيق أماكن الحفظ فى الجهات التى أنتجتها أو أنقذتها المصادفة المحضة من الضياع، مثلما كانت الحال بالنسبة لتقارير الأمن التى كانت أصلا النسخة التى يرفعها البوليس السياسى الى القصر الملكى، وكانت ضمن أوراق مكتب رئيس الديوان الملكى ثم تقرر تسليمها لشركة راكتا لانتاج الورق لإعادة تدويرها، وعندما نمى ذلك الى علم أستاذنا الدكتور محمد أنيس ضمها لمركز تاريخ مصر المعاصر ثم استقرت بدار الوثائق القومية.

ندرة الوثائق

أما السبب الآخر لندرة وثائق القرن العشرين فهو الأخطر لأنه يؤدى الى اهدار أهم وثائق الدولة وتعرضها للضياع أو التلف أو حتى التسرب خارج البلاد. ونعنى بذلك قيام كبار المسئولين الذين يتولون مناصب وزارية أو غيرها من المناصب الكبرى فى الجهات السيادية المهمة، بحمل أوراق مكاتبهم معهم عند ترك مناصبهم باعتبارها «أوراقا خاصة» وهى - فى حقيقة الأمر - وثائق رسمية ربما كان بعضها يمثل النسخة اليتيمة من الوثيقة. وفضلا عما يتيحه استفحال هذه الظاهرة من اطمئنان المسئول الى تعذر محاسبته عما فعل أثناء توليه المنصب، فإن حمله لهذه الأوراق المهمة معه يترك خلفه فى وضع محير، ويؤدى الى حدوث اضطراب فى عملية صنع القرار لانعدام تراكم الخبرة التى لا تتوفر الا اذا بقيت الوثائق فى مكانها الطبيعى بأرشيف الجهة، وهناك أمثلة كثيرة لوثائق بحثت عنها وزارات مهمة فى ارشيفها عند الحاجة دون جدوى لأن بعض المسئولين

السابقين حملها معه عند تركه لمنصبه، وهو أمر لا يحدث الا فى بلادنا وربما فى غيرها من البلاد التى تقل عنا تقدما .

وقد يحافظ المسئول السابق على هذه الأوراق مابقى له من عمر، ولكن الأمر المؤكد أن مآلها الضياع عندما تنتقل لورثته، فقد يتم التخلص منها بالإتلاف، أو التصرف فيها بالبيع ، وبذلك قد تصل وثائقنا السرية الى أيدى أطراف يهمها إلحاق الضرر بمصالح بلادنا، وربما بأمنها القومي .

لذلك كان لابد أن تعمل «لجنة تطوير دار الوثائق» على وضع مشروع قانون للمحافظة على الوثائق استغرق اعداده نحو عام كامل درس خلاله خبراء اللجنة قوانين المحافظة على الوثائق فى الدول الكبرى (بريطانيا ـ الولايات المتحدة ـ فرنسا) وبعض الدول العربية (العراق ـ لبنان ـ الأردن ـ تونس ـ الجزائر) والمعايير والقواعد التى وضعها الاتحاد الدولى للأرشيف القومى، هذا فضلا عن دراسة أبعاد واقع الوثائق القومية عندنا . وانتهت اللجنة الى وضع مشروع قانون المحافظة على الوثائق الذى ضم ٢٨ مادة ، وكان ذلك عام ١٩٩٦ .

وقد راعت اللجنة الأخذ بما هو معمول به فى دور الوثائق القومية فى العالم من حيث اشتمال الوثائق التى تودع فى دار الوثائق القومية على الوثائق العامة والخاصة على السواء، أى وثائق الدولة ووثائق الهيئات الخاصة ذات القيمة التاريخية، كما حرصت على الزام الجهات العامة والخاصة بضرورة الرجوع الى دار الوثائق القومية قبل الاستغناء عن وثائقها بعد انقضاء مدة حفظها حتى تنظر دار الوثائق فى ضم ما له قيمة تاريخية منها الى مقتنياتها ، كذلك وضعت الضوابط الخاصة بضرورة قيام الافراد بإيداع ما قد يكون لديهم من وثائق ذات قيمة تاريخية لقاء تعويض مادي ونصت على تجريم من يمتنع عن ذلك .

وقطع مشروع القانون الذى وضعته اللجنة رحلة طولها أربع سنوات قبل أن يقره مجلس الوزراء ويقدمه للبرلمان، فقد خلالها القانون الكثير من وزنه، فأصبح نحيلا لايضم سوى ١٢ مادة واختلفت ملامحه كثيرا عن ملامح مشروع القانون الذى وضعته اللجنة، فقد سقطت منه خلال تلك الرحلة العجيبة ـ بمختلف المعايير ـ المواد التى تمثل جوهر قضية الحفاظ على الوثائق والتى تجعل من دار الوثائق «الأرشيف القومى المركزى» الذى يضم ذاكرة الأمة ومحصلة تجاربها، من ذلك استثناء بعض الجهات (وزارة الدفاع) من الخضوع لأحكامه، حقا لم يتضمن الاستثناء رئاسة الجمهورية أو الوزارات السيادية الأخرى، ولكن استثناء أى جهة من الالتزام بايداع وثائقها دار الوثائق القومية بعد انقضاء مدة حفظها يوجد فجوات فى الأرشيف القومى ويقطع الطريق على دراسة تطور مصر، وخاصة اذا علمنا أن وثائق الجيش المصرى منذ محمد على حتى نهاية القرن التاسع عشر موجودة ضمن مقتنيات دار الوثائق القومية وكذلك الحال بالنسبة لوثائق مختلف الوزارات، فاذا استثنيت وزارة ما



حماية وثائقنا القومية

اليوم يمكن استثناء غيرها غدا، ولا يمكن ان تحتفظ الوزارات بكل ما تنتجه من وثائق دون أن تتخلص مما لا تجد نفسها فى حاجة الى الرجوع اليه من وثائق، وهنا يكمن خطر تبديد الوثائق التاريخية المهمة مادامت يد دار الوثائق القومية مغلولة بسبب استثناء بعض الجهات السيادية، ويفقد بذلك مشروع القانون الغرض الذى وضع من أجله، ويتم محو مساحات مهمة من ذاكرة الأمة .

وأسقط مشروع الحكومة مبدأ مهماً أخذت به «لجنة تطوير دار الوثائق» عند وضعها المشروع الأصلى للقانون، وهو حق المواطن فى الاطلاع على الوثائق المتاحة للاطلاع بالدار فى حدود اللوائح المنظمة لذلك.. وهو مبدأ معمول به فى بلاد العالم المتقدمة، فلا يسأل الراغب فى الاطلاع إلا عن بياناته الشخصية التي يكتبها في استمارة خاصة ثم هويته ، ويسمح له بالاطلاع فوراً ويسري العمل ببطاقة الاطلاع مدة عامين تجدد تلقائيا ، ولايسأل طالب الاطلاع عما يريد الاطلاع عليه الا من جانب الأمناء القائمين على خدمة رواد الدار. أما عندنا فلابد أن يكون راغب الاطلاع باحثا مسجلا للحصول على درجة علمية بإحدى الجامعات وأن يشفع طلبه بشهادة تدل على ذلك، ولابد من أن يحدد فى طلب الاطلاع الموضوع الذى يبحث فيه.فلا يحق له أن يطلع على وثائق تبدو خارج اطار موضوع بحثه زمانا أو مكانا، وبعد أن يملأ استمارة طلب الاطلاع يقدمها مشفوعة بعدد من الصور الفوتوغرافية، وينتظر موافقة الأمن التى قد يستغرق الحصول عليها ثلاثة شهور أو أكثر، يسرى ذلك على طالب الاطلاع المصرى والأجنبى على السواء، وفضلا عما يمثله ذلك من تبديد للوقت والطاقة دون مبرر ، يجعلنا أضحوكة فى الأوساط العلمية الدولية، لأن ما يتاح الاطلاع عليه من وثائق بدور الوثائق العالمية لم يعد سرا ، واجراءات اتاحته للاطلاع يراعى فيها أن الاتاحة لا تمس مصالح الوطن أو أمنه القومي بسوء، وبذلك لايصبح تصريح الأمن القومى للباحث بالاطلاع أمرا ذا قيمة. ناهيك عما قد يحتاج الباحث الاطلاع عليه خارج حدود بحثه الزمانية والمكانية إذ عليه أن يتقدم بطلب جديد واجراءات أمن جديدة. ويضيع من وقته وعمره شهورا أخرى، أما من يطرق باب الدار طالبا الاطلاع على الوثائق بعد انتهاء فترة البحث والحصول على درجته العلمية فلابد أن يقدم ما يفيد قيامه باعداد بحث لهيئة علمية ما ، ثم يمر بمراحل الحصول على ترخيص الأمن.. الخ. فاذا احتاج الى مراجعة بعض ملفات وزارة الخارجية المودعة بالدار أو الرجوع الى أوراق مكتب المشير أو الرجوع الى وثائق مجلس الوزراء، فعليه الحصول على موافقة الجهة المعنية قبل أن يسمح له بالاطلاع حتى لو كان يحمل بطاقة اطلاع

من دار الوثائق القومية. لقد احتاج باحث شاب حاصل على الدكتوراه أن يطلع على وثائق مجلس الوزراء، وعندما تقدم بالطلب الي الجهة المختصة بالمجلس رفض الموظف المسئول منحه الترخيص بالاطلاع لأنه مادام قد أصبح «دكتورا» فما حاجته الى البحث!!.

لهذا كان النص على حق المواطنين فى الاطلاع على الوثائق المتاحة أمرا مهما يتفق مع المبادئ المعمول بها فى الارشيفات القومية عالميا، ولكنه اسقط من مشروع الحكومة دون مبرر.

وأخذ مشروع القانون المقدم من الحكومة بمبدأ خطير وهو جعل الجهة المنتجة للوثيقة هى التى تحدد المدى الزمنى الذى يتاح بعده الاطلاع عليها، فجعل لسرية الوثائق درجتين فما صنف «سرى جدا» لا يسمح بالاطلاع عليه (بعد انتقاله الى دار الوثائق القومية) الا بعد خمسين عاما، وما صنف «سرى» لا يسمح بالاطلاع عليه الا بعد ثلاثين عاما، وهو مبدأ غير معمول به فى اى مكان فى العالم، فشتان بين درجة السرية التى تحددها جهة انتاج الوثيقة والاطلاع عليها بعد انقضاء مدة الخطر، لأن الظروف تتغير والزمن يمر، وما كان «محظورا» أو «سرى للغاية» أو «سرى» أو «خاص» عند وقت انتاج الوثيقة قد لا يصبح مبررا لحجبها عن الاطلاع فذلك أمره متروك لما تراه اللجنة الخاصة بذلك بعد انقضاء ثلاثين عاما من انتاج الوثيقة، فنحن نرى فى الارشيف القومى الأمريكى والأرشيف البريطانى وثائق مصنفة بأعلى درجات السرية متاحة للاطلاع بعد ثلاثين عاما، وأخرى مصنفة بأقل درجات السرية لا يسمح بالاطلاع عليها الا بعد مرور خمسين عاما، فالمعيار هنا هو مدى ما قد يسببه اتاحة الوثيقة من حرج للحكومة او اضرار بمصالح البلاد اذا سمح بالاطلاع عليها. ولدينا مثل طريف على ذلك فى الوثائق البريطانية اذ ظل الكثير من الوثائق الخاصة بالأردن والصادرة من الملك حسين مغلقا لمدة خمسين عاما رغم تواضع درجة سريته، لأن الملك ظل يحكم ردحا طويلا من الزمان واتاحة فرصة الاطلاع على خطاب أرسله لرئيس الوزراء البريطانى فى شأن ما قد يحرج الملك ويضر بالعلاقات الأردنية - البريطانية التقليدية.

أعلى درجات السرية

لقد كان أصحاب الانتقادات التى وجهت لمشروع القانون الذى تقدمت به الحكومة على حق عندما أبدوا تخوفهم من أن يصنف كل مسئول ما يريد اخفاءه من أمور بأعلى درجات السرية حتى لا يستطيع أحد كشف ما قد يكون وراء ذلك من وقائع فساد محتملة. وبغض النظر عن ذلك الاعتراض - على وجاهته - فإن حق الجهة المنتجة للوثيقة فى تحديد درجة السرية مكفول مادامت تنظمه اللوائح الخاصة المعمول بها بتلك الجهات، ولكن ليس من حق الجهة التى أنتجت الوثيقة أن تحدد مقدما المدى الزمنى للسرية الذى تستطيع بعد انقضائه دار الوثائق القومية اتاحة الاطلاع عليها .

وكان من الطبيعى فى مشروع قانون

حماية وثائقنا القومية

صيغ للمحافظة على الوثائق من أن يحتوى على مواد تجرم كل من يقدم على عمل من شأنه منع ايداع الوثائق مكانها الطبيعي وهو دار الوثائق القومية أو تبديد الوثائق أو اتلافها أو التصرف فيها، وكذلك تجريم كل من يفشي محتوى كل أو بعض الوثائق المصنفة على أنها سرية ممن يطلع على الوثائق بحكم عمله فى الجهة المنتجة لها أو من العاملين بدار الوثائق القومية بالنسبة للوثائق التى لازالت فى نطاق السرية ولا يسمح بالاطلاع عليها .

تغليظ العقوبات

ولكن من الملاحظ أن مشروع القانون الذى تقدمت به الحكومة بالغ فى تغليظ العقوبات، وتجاوز ما استقر عليه العرف التشريعي بأن جعل عقوبة السجن والغرامة متلازمين رغم مخالفة ذلك لنصوص قانون العقوبات الذى يعطى القاضى المجال للحكم بالعقوبتين معا (السجن والغرامة) او بإحدى العقوبتين حسب ظروف القضية التى ينظرها ، من المعروف انه كلما غلظت العقوبة وضاق مجال الاختيار أمام القاضى فى الحالات التى لا يرتاح ضميره فيها الى توقيع عقوبة مبالغ فى تشددها ، غالبا ما يتجه القاضى الى الحكم بالبراءة. فتغليظ العقوبة قد يكون ضرره أكثر من نفعه، كما يعرض القانون ـ فى حالة اجازته على هذا النحو ـ الى البطلان لمجافاته للعرف التشريعي، وتناقضه مع المواد المشابهة بقانون العقوبات .

إن الحاجة ماسة إلى قانون المحافظة على الوثائق ولا يجب أن يتعطل اصداره أكثر من ذلك، فقد تأخر بما فيه الكفاية وضاع بسبب تأخر اصداره الكثير من الوثائق، وحال دار الوثائق مازالت تدعو للرثاء ، فهناك جهود مخلصة للنهوض بها واستكمال النقص فيها ، ولكن يحول دون تحقيق تلك الجهود لما تنشده من أهداف عجز الدار عن الحصول على وثائق الجهات السيادية، ويكفى أن يعلم القارئ الكريم أن ارشيف قصر القبة يتضمن وثائق الديوان الملكى منذ أيام الملك فؤاد مروراً بالملك فاروق، وعلى الأقل فترة حكم الرئيس جمال عبدالناصر فى العهد الجمهورى ورغم ذلك لا تستطيع دار الوثائق القومية الحصول على تلك الوثائق التى بدونها لا يمكن كتابة تاريخ مصر الحديث، ويضطر الباحثون الى الرجوع الى الوثائق البريطانية والأمريكية التى تتضمن ـ أحيانا ـ مذكرات ومراسلات تلقتها تلك الدول من الجهات السيادية فى الحكومة المصرية، بينما لا يستطيع الباحث أن يجد أصول تلك الوثائق بدار الوثائق القومية وأخشى ما أخشاه أن يكون قد تم الاستغناء عن هذه الوثائق «الراكدة» لصالح غيرها من الوثائق «النشطة» بسبب ضيق مساحة ارشيف قصر القبة، عندئذ يصبح فقدان هذه

الوثائق كارثة قومية بكل المعايير .

كذلك لابد من فك روابط تبعية دار المحفوظات العمومية بالقلعة من وزارة المالية (مصلحة الأموال المقررة) وتبعيتها لدار الوثائق، فهى تضم وثائق على درجة بالغة من الأهمية منذ انشائها فى عهد محمد على حتى الآن. وقد باءت محاولات البحث عن حل لهذه الازدواجية التى تعرض وثائقنا القومية للضياع دون جدوى، فقد درجت دار المحفوظات العمومية على التخلص من محتويات مخازن بأكملها (بعضها تصل مساحته الى ٢٠٠ متر مربع) باعتبارها أوراق (دشت) لا يتم الرجوع اليها منذ عقود، وبذلك يتم بيعها للتجار، وقد فوجئت دار الوثائق القومية بعرض من أحد تجار الاسكندرية لبيع مجموعة من الوثائق لها، وبعد الفحص اتضح انها عبارة عن أوراق وسجلات مساحة أطيان وتقارير من مصلحة الرى ونصوص أحكام قضائية تحمل أختاما رسمية الى غير ذلك من وثائق بالغة الأهمية لدراسة تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى كان مقرها الأصلى دار المحفوظات العمومية، بيعت للرجل ولغيره كأوراق دشت مستغنى عنها، ولا يمكن معاقبة أحد بموجب القانون المعمول به حاليا، ولكن صدور قانون محكم الصياغة للمحافظة على الوثائق كفيل بتجريم كل محاولة لتبديد وثائقنا القومية .

ومهما بلغ القانون من الإحكام والدقة، فلابد من أن يصدر قانون آخر يحول دار الوثائق القومية من مصلحة تابعة لهيئة دار الكتب والوثائق الى جهاز قومى للوثائق يتبع سلطة السيادة، له وضع مماثل لوضع الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء أو الجهاز المركزى للتنظيم والادارة، ويجعل من ذلك الجهاز ارشيفا قوميا مركزيا تودع فيها جميع وثائق الدولة (بلا استثناء) ذات القيمة التاريخية، ولا يجوز لأى جهة أن تستغنى عن وثائقها بعد انتهاء مدد حفظها لديها دون الرجوع الى «الجهاز المركزى للوثائق القومية» لتقرر ضم ما له قيمة تاريخية منها والتوصية بالاستغناء عما لا تتوفر فيه هذه القيمة.

☆☆☆

لقد خلد محمد علي باشا اسمه في التاريخ بأعماله ومن بينها انشاؤه لدار المحفوظات العمومية (١٨٢٩) ، وكذلك فعل الملك فؤاد عندما أنشأ «دار الوثائق الملكية» عام ١٩٢٧ ، والآن جاء دور الرئيس محمد حسني مبارك ليتوج أعماله بإنشاء «الجهاز المركزي للوثائق القومية» صيانة لوثائقنا القومية ، وحفاظا علي تاريخنا القومي بما يتناسب مع أمة عريقة تعيش القرن الحادي والعشرين وتواكب التطور العالمي في مجال الوثائق والمعلومات . ■

الأمانة العلمية

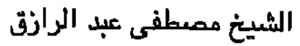
تأليفا - تدريسا - تقديما

بقلم
د. محمد رجب البيومى

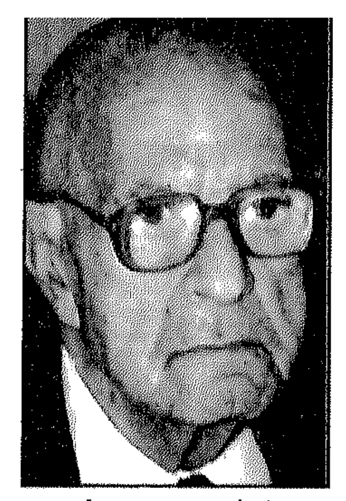
جاءني أستاذ كبير بإحدي الكليات الجامعية ساخطا كل السخط علي ما نشرته في الهلال عن الخيانات العلمية التي تقع من أدعياء التأليف، مؤكدا« أن السمعة العلمية لمصر في العالم العربي تهتز بمثل هذه المقالات!» وإخواننا العرب يعرفون أن الأساتذة ليسوا من طراز واحد، فمنهم الأمين المتحرز- وما أكثر هؤلاء من قبل لا الآن - ومنهم الدعي المتسرع، كما أن طلاب العرب في جامعات مصر، يعرفون عنها ما يعرفه المصريون جميعا ويقدرون الفاضل لفضله، ويهزاون بالدعي لانحداره! ففيم الخوف من كتابة مقال صادق ليس فيه كلمة واحدة لفقها الخيال!.

قلت هذا لمحدثي، فقال ولماذا وقد اعترفت بوجود هؤلاء النابهين من الأصلاء لا تكتب عن محاسنهم كما كتبت عن مساوىء الآخرين؟

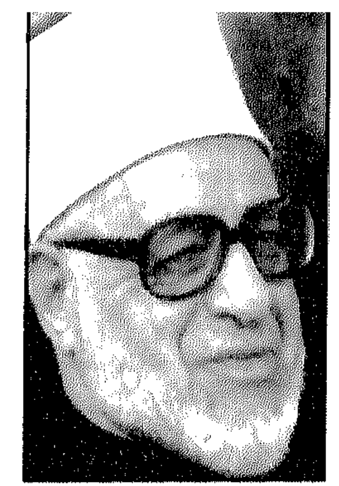
قلت يا سيدى إن الأصل فى أهل العلم أن يكونوا أمناء فإذا ساد هذا الأصل على سننه فهو المتوقع الذى لا يثير دهشة ولا يدعو إلى استغراب إنه أمر طبيعى كما تشرق الشمس صباحا من المشرق وتعود إلى ستارها فى المغرب، أما الذى يوجب الدهشة حقا فهو الشذوذ الطارئ فى هذه الخيانات المنكرة، وواجب



الشيخ مصطفى عبد الرازق



د. ابراهيم بيومى مدكور



الشيخ جاد الحق على جاد الحق

● هناك الكثير من الذين أنعم الله عليهم بسمو الخلق مع وثاقة العلم فضربوا أروع الأمثلة فى أمانة القول، تأليفا وتدريسا وتقديما

الكتاب أن يشيروا إليها دون استحياء. وقد بدئت على نحو متقطع فلم يكد يلتفت إليها أحد، ثم اتسع الخرق على الراقع فصارت ظاهرة مشهودة تحدث عنها الناس لسانا ويراعا أفنقول من بعد: إننا نسئ إلى مصر حين نشخص الداء ونلتمس الدواء!

وقد دعانى حديث صاحبى إلى أن أفكر فى كتابة مقال، يتحدث عن الأمانة العلمية ليكون مثلا مرجوا للشبيبة العلمية المنطلقة، وليصبح بحقائقه السافرة داعيا إلى الاحتذاء منفرا من السطو والادعاء، وقد سبق لى أن أشرت إلى بعض ما سأتناوله، فى صحف شتى فإذا اخترت مما ذكرت بعض ما يسعد القارئ ويدعو إلى الأسوة فقد بلغت ما أريد.

تأليفا

من أمثلة الأمانة العلمية التى أذكرها فى مجال التأليف الجامعى، ما أقرره عن كتاب «الجغرافية التاريخية الاسلامية»، للأستاذ محمد أحمد حسونة بك أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وهو أول كتاب عربى فى موضوعه، ومؤلفه مؤرخ فاضل له نشاطه فى الادارة التربوية وفى التأليف، وكتبه المدرسية وغير المدرسية شاهدة بفضله وقد جاوز الستين قبل أن يخط كتابه سنة ١٩٥٠، وقد أسندت إليه الكلية تدريس مادة الجغرافية الإسلامية وهى مادة جديدة لم يكتب عنها شئ من قبل، فماذا صنع الأستاذ الأصيل، لقد كتب كتابه مشكورا فوفق إلى خير كثير، غمطه حقه حين قال فى مقدمة الكتاب:

«ولما كنت عديم الخبرة بهذا الموضوع، فقد رجوت بعض علمائنا الفطاحل فى الجغرافيا أن يكتبوا فيه ولو كانت كتاباتهم

الأمانة العلمية

عن العناصر المهمة ولكنهم اعتذروا بضيق الوقت وهو عذر حقيقى بسبب ما ينوءون به من مهام الدولة، ومن ثم عكفت على تتبع آثارهم، وجعلت أساس عملى رسالة قدمها الأستاذ حسن بك جوهر لنيل درجة الماجستير فاحتذيتها احتذاء يكاد يكون كليا، واستعنت بما كتبه سعادة الأستاذ مصطفى عامر بك وكيل وزارة المعارف وحضرة الأستاذ الدكتور عباس بك عمار، ولم أتورع عن الأخذ من كتابات هؤلاء الأعلام وكثيرا ما نقلت أفكارهم بأسلوبهم خشية أن أضل إذا أنا حاولت تغيير الصيغة التى اختاروها ورحم الله امرءا عرف حدود جهله ووقف عندها، فما ورد فى هذه الوريقات من الصواب فمرده إلى هؤلاء العلماء وأمثالهم وما ورد من الخطأ فمرجعه إلى تقصيرى، ورجائى أن يكون هذا الخطأ من الجسامة بحيث يحفز أحد هؤلاء المتخصصين على التأليف فى موضوع حان الوقت لتدريسه».

هذا ما جاء فى مقدمة الكتاب! أما الكتاب نفسه فذو جهد مشكور واضح، إذ تعرض المؤلف بإفاضة إلى الحديث عن جغرافية بلاد العرب وعن طرق القوافل بالجزيرة ثم عن الظروف الجغرافية التى هيأت فتح العراق وفارس فأتى بما لم يسبق إليه وانتقل إلى فتوح الشام ومصر وبلاد السودان والمغرب، فتحدث عن العوامل الجغرافية بما لم يشغل بال المؤرخين من قبل!! وبعد ذلك كله يصارح الأستاذ طلابه فى الدراسات العليا وفى سنوات الكلية بأنه عديم الخبرة فى الموضوع وقد رجا المختصين أن يؤلفوا فاعتذروا، وقد اعتمد على مؤلفاتهم وكان أحيانا ينقل العبارة بحروفها خشية أن يضل إذا لجأ إلى الاختصار أو البسط وأن أخطاءه من الجسامة بحيث يجب أن تدفع هؤلاء إلى الكتابة الصحيحة تلافيا لعثراته . هذا القول الباهر الرائع لم ينقص من قدر الأستاذ بل زاده تقديرا وسموا، ولولا أنه يعرف أمانة البحث وضرورة التنبيه إلى بعض ما قد يعتوره من نقص ما أسهب فى تسجيل ما ينم عن قصوره وهو قصور متوهم.

لقد كان فى استطاعة الرجل أن يكتفى بمثل قوله إن الموضوع جديد وقد انتفع بمؤلفات فلان وفلان ثم يسكت، فلا يتحدث عن جهله بالموضوع بدءا وأنه ينقل النص بحروفه كيلا يضل، كان فى استطاعته أن يقول ذلك دون اعتراف بما تردد فى داخله من معان يظنها المغرور أنها تسئ إلى فضله ولكن حرمة العلم وجلال الأستاذية وخطورة التبعة الخلقية لا الإدارية كل ذلك قد فرض عليه أن يتحدث عما عانى وكابد!. وقد أعطى بذلك – رحمه الله – درسا خلقيا وأحب الاحتذاء وهو درس عملى يفوق كثيرا من الدروس المسجلة فى الكتب والمجلدات.

مقدمة ثانية

فى سنة ١٩٤٧م زار أديب الشام الكبير الأستاذ على الطنطاوى رحمه الله القاهرة مندوبا عن وزارة العدل السورية لدراسة بعض القوانين المصرية، وكان

يزور إدارة مجلة الرسالة كثيرا كثيرا ولما كنت أعلم أنه ألف كتابا عن بشار بن برد ولم تكن كتب المازنى والنويهى وغيرهما ظهرت بعد عن الشاعر العباسى، أردت أن يعطينى فكرة عن مستوى الشاعر إذ كنت مكلفا بإعداد بحث عنه فى الكلية وانتظرت أن أسمع منه شيئا عن كتابه «بشار بن برد» ففاجأنى بقوله:

إياك أن تعتمد على هذا الكتاب فى شئ فكله أخطاء لأنى نقلت روايات ثبت بطلانها ومدحت أبياتا لا تستحق المديح، وقد أوصيت من لديه نسخة منه فى دمشق أن يحرقها حرقا، أو تريد أنت أن ترجع إليه فى مصر.

تعجبت كثيرا مما سمعت لأن لهجة الأستاذ خيلت إلىّ أنه يتحدث عن كتاب ألفه أكبر أعدائه وقلت إنه حديث بين اثنين فقط وسيقضى أثره.

ثم وقعت فى يدى الطبعة الأخيرة من كتابه عن عمر بن الخطاب وأخذت قراءة مقدمتها فوجدته يقول عن الطبعة الأولى من كتابه:

«ولما رجعت إليه الآن وجدت فيه عيوبا لا يجوز معها أن يعاد طبعه منها أن فيه أخبارا باطلة لا أصل لها كقصة البطريق فى الصفحة الثالثة والعشرين، وفيه أخبارا ضعيفة السند، وأخبارا مكررة معادة وألفاظا تنبو عن أذواق القراء وأفهامهم من غريب اللفظ أو معقد الأسلوب ووجدت فيه تطويلا لا داعى له واستطراداً يدعو إلى الإملال ووجدت تعليقاتى عليه تعليقات الشباب فلم أرتض أكثرها، فحذفت الباطل منها والموضوع ثم جئت إلى الأخبار فهذبتها، وطرحت من الكتاب ما هو تطويل وليس من صميم الموضوع .. ومن آثر أن ينظر فيه على ما فيه من العيوب التى نجد من الأمانة الإشارة إليها، والتحذير منها استطاع أن يعود إليه».

قرأت ذلك فقلت يا لله! ما هذه القسوة الدقيقة القاطعة كان فى مقدرة الأستاذ أن يقول إن هذه الطبعة خلصت من أخطاء وقعت فى الطبعة السابقة، وهذا يكفى كل الكفاية للإفصاح عما يريد ولكنه قاض عادل، وقد رأى من الأمانة أن يعلن كل ما فى نفسه فى وضوح سافر، وقد زاده هذا رفعة فى نظر القارئ.

وحين ذهبت إلى جدة سنة ١٩٩٠ شرفت بلقاء الأستاذ فى مجلس علمى مشهود وتطارحنا حديث الأدب والأدباء على نحو واسع ممتد ، والأستاذ الطنطاوى كالسيل الدافق إذا تحدث عن أعلام العصر الحديث وقد قلت له فيما قلت: أتذكر يا سيدى ما حدثتنى به فى القاهرة عن كتابك بشار بن برد إنك أعدت تماما فى مقدمة كتابك عن عمر فى طبعته الثانية ما قلته لى عن كتاب بشار! فضحك كثيرا، وقال: من يدرى لعلى إذا طبعت كتابى طبعة ثالثة أقول فى الطبعة الثانية ما قلت فى الطبعة الأولى إلا أنى لا أرضى عن نفسى! فيالها من عبرة لمن اعتبر!

تدريسا

يقول الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق متحدثا عن ذكرياته عن دروس الفلسفة بكلية الشريعة حين كان طالبا بها وذلك فى كتاب رحلة إلى السنغال ص ٨٢:

الأمانة العلمية

«لقد قرأت الفلسفة ودرستها كمبادئ في السنة الأولى بكلية الشريعة وأذكر أن أستاذ الفلسفة كان يدعى الشيخ شبل يحيى وهو من خريجي الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم جميعا لقد حاز ثلاث شهادات من ثلاثة معاهد!!

يقول الإمام «وكان الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية الحالي فتيا تجاوز العشرين بسنوات قليلة، وكان يقوم بتدريس الفلسفة في الفصول الأخرى، ومن الأشياء التي تحضرني بامتنان عن الأستاذ شبل يحيى أنه كان يحضر دروس الدكتور إبراهيم مدكور جنبا إلى جنب مع الطلاب لكي يتعرف إلى المنهج الذي يدرسه الدكتور مدكور لطلابه والطريقة التي يتبعها في توصيل الفكرة إلى أذهان الطلاب ثم يسعى الشيخ شبل بعد ذلك إلى أن يكون أكثر عطاء مع الطلاب في الفصل الذي يدرس فيه».

ولهذا الكلام الذي قرره الأستاذ الأكبر تفصيل يوضح مغزاه، فقد كانت الفلسفة أحد الدروس المقررة على طلاب كلية الشريعة وقد استعانت بانتداب الدكتور مدكور من كلية الآداب وهو في الوقت نفسه منتدب لتدريس المادة بدار العلوم! فلم يكن وقته يسمح بقدر كاف لتغطية الفصول، ولما كان الشيخ شبل قد درس الفلسفة بمدرستي القضاء ودار العلوم فقد رأت الكلية أن يقوم بتدريسها زميلا للدكتور مدكور، وقد فكر الشيخ فوجد أن الدكتورمدكور قد درس الفلسفة في باريس وبعه أطول فلابد أن يفيض على طلابه بأكثر مما لديه، وقد أعد الدكتور مدكور مذكرة مطبوعة تضم خلاصة محاضراته وكان فيها غناء للشيخ إذ تيسرت له المادة مذللة مبسطة ولكنه أراد أن يعلم كل ما لدى الدكتور مدكور، فآثر أن يجلس مع الطلاب ليسمع كل ما يقول وليدونه في كراسة معه وقد عجب الدكتور لسلوك زميله واعترف له أن الامتحان لا يخرج عن المذكرة وعليه أن يقتصر عليها في درسه فلا يكلف نفسه مشقة الجلوس مع الطلاب، لاسيما أن طلابه في الفصل المقابل سينظرون إليه نظرة لا ترفع من قدره أمامهم ولكن الشيخ شبل قرر في اطمئنان أنه طالب عالم ويسره أن يعلم طلابه أن الدكتور مدكور وإن كان يصغره في السن فهو أكبر منه علما، ولا غضاضة في ذلك، وجعل من دأبه الحضور جالسا مع الطلاب وقد أراد الدكتور مدكور أن يكرمه فأحضر كرسيا بجواره ليجلس عليه الزميل فأبى الشيخ، وقال إن النتيجة واحدة وأن مجئ الكرسي لا يقدم ولا يؤخر فأنا مستمع مستفيد.

وأذكر أن أحد الأساتذة عرض على شيخ الكلية الأستاذ مأمون الشناوي – وقد صار شيخا للأزهر فيما بعد – أن يضم الفصلين معا في محاضرة واحدة، مادام وقت الدكتور لا يسمح بأكثر مما اتفق عليه وهو حل طبيعي مريح، ولكن الشيخ مأمون رفض في إصرار أن يكون عدد الطلاب في المحاضرة ستين طالبا، وأن الواجب أن يعرف المدرس طلابه



واحدا واحدا، وأن ينظر إليهم فى اطمئنان ليعرف من أسارير وجوههم من فهم الدرس ومن تعثر ليعيد ما قال فيكفى أن يكون أمامه ثلاثون على أكثر تقدير . فهل يعلم الشيخ فى مرقده المطمئن بضريحه الهادئ أن مدرجات الجامعة الآن تجمع ألفين من الطلاب فى محاضرة واحدة، وأن الأستاذ لا يهمه أن ينظر فى وجوه الطلاب ليعرف الفاهم والغافل! بل لا يهمه أن يلقى الدرس بتمامه اكتفاء بعناصر يسردها سردا، ثم يحيل إلى المذكرة. أين كنا؟ وكيف أصبحنا؟

ولى مع الشيخ شبل يحيى موقف مماثل كدت أنساه لولا ما ذكره الإمام جاد الحق عنه إذ أعاد لى ماكان، وكأنه الآن لقد كان الأستاذ يتولى تدريس المنطق لنا بكلية اللغة العربية سنة ١٩٤٧ وقد سار لى ذكر بين الزملاء بأنى أنظم الشعر، وأنشر ما أكتب فى الصحف والمجلات. وفى ظهيرة يوم من الأيام رأيت الشيخ يتقدم إلىّ باسم الثغر، ويقول فى صوت هادئ: معى يابنى قصيدة شعرية نظمتها استجابة لإلحاح جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة كى ألقيها فى احتفال الهجرة فى الأسبوع القادم وأخشى أن يكون بها بعض الكسر العروضى أو القلق فى القافية (فتفضل) «هكذا» تفضل بمراجعتها واحذف منها ما لا ترتضيه فأنا لا أحب أن أحرج بين الجمهور!! سمعت هذا الكلام فدارت الأرض بى ووضعت يدى اليمنى على رأسى ويدى اليسرى على الجدار خلفى كيلا أقع!! طويلب صغير بالكلية يأتيه أستاذ كبير ليقول له صحح ما تراه خطأ فى قصيدتى!! لقد شاهد الرجل اندهاشى، فصحبنى إلى مقهى الكلية وطلب لى فنجان قهوة وقال فى مودة يا بنى الشعر موهبة وليس كسبا، وقد يملأ العالم طباق الأرض ثم لا يقدر أن يقول بيتا، والقوم قد ألحوا علىّ أن أنشد قصيدة فى حفل الهجرة لأنى نظمت أشياء مهملة من قبل لا أرضى عنها! ففيم اندهاشك؟ خذ القصيدة واقرأها وأحضرها إلىّ من الغد. فلم أجد من بد من الإذعان، وقد قرأت القصيدة فوجدت مستواها مشرفا، وليس بها من الكسر العروضى، أو القافية القلقة ما توهم، فألحقتها بأبيات من الوزن والقافية أشيد فيها بمقدرة الشاعر، ونبوغه وأكبر تواضعه المثالى، وحان اللقاء فأسمعته ما قلت فجعل يقبل الورقة التى كتبت فيها أبياتى، وقال شكرا، لقد أعدت إلى ثقتى. ولم أكن من قبل أعرف قصة درس الفلسفة التى أشار إليها الإمام الأكبر ولكننى حين طالعت ما قال، عرفت أن معدنه الخلقى الرائع نفيس نفيس، وأنه طبع على هذا النموذج الفريد، إننا نشهد الآن زملاء المادة الواحدة يلمز بعضهم بعضا فى المحاضرات أمام الطلاب، وبعضهم يحاول إيهام سامعيه بأنه وحده العالم المتخصص وأن الأقدار قد ساعدت هؤلاء فصاروا زملاءه! نرى ذلك رأى العيان! فهل نجد فى هذا العصر من يحمل نفس الشيخ المتواضعة فيجلس طالبا فى محاضرة زميله ويدون ما قال، ليعيده على الطلاب.

«تقديما»

أما تقديم الكتب، فقد يكون موضع الحرج فى أكثر أموره، لأن من يطلب

الأمانة العلمية

المقدمة من المؤلفين - فى أكثر أموره - لا يطلب نقدا. وإنما يطلب تقريظا، وقد لا يقنع بصفحة تكتب، بل يريد عدة صفحات، فماذا يفعل إنسان متحوز يقدر أمانة الكلمة. إذا جاءه مؤلف يرجو مقدمة لكتاب قد لا يكون فى المرتبة اللائقة من الجدة والابتكار! قد يعتذر هذا الإنسان بدعوى الاشتغال بأمور لا تسمح التأجيل أو بتوعك فى الصحة. مثلا، فينصرف الراجى وقد أسر من الألم ما لا يبديه! ولكن ما القول فى إنسان يمنعه حياؤه من الاعتذار، ثم هو لا يرى فيما بين يديه من الصفحات جديدا يستأهل التقديم، هنا تقع المعادلة الصعبة كما يقولون!

لقد كان الحياء الفرط أظهر سمات الإمام العظيم حقا بخلقه وعلمه معا، الإمام مصطفى عبدالرازق شيخ الأزهر الأسبق، وقد قال عنه شقيقه الأستاذ الكبير على عبدالرازق فى مقدمة كتاب «من آثار مصطفى عبدالرازق»:

«كان أخى مطبوعا منذ الطفولة على فطرة رقيقة، فهو لا يحب الأذى ولا العنف، وكان خلقه الحياء، والحياء خير كله، والرفق والحياء إذا استمكنا من نفس كما استمكنا من نفسه تولد عنهما من الفضائل ومكارم الأخلاق ما يرفع إلى أسمى الدرجات».

لقد كان الإمام الأكبر فى مكتبه بالأزهر ذات صباح، فاستأذن عليه الأستاذ مصطفى الصاوى المدرس بالمعهد الدينى، فقام له الشيخ واقفا كعادته مع كل زائر، عظم أو صغر، ثم قدم إليه الزائر كتابا صغيرا فى «علم العروض» يشمل مقرر السنة الأولى بالمعهد الثانوى! كتاب مدرسى لا جديد فيه، وطلب أن يكتب الشيخ مقدمة للكتاب!!

لا أدرى ما الذى اعتمل فى نفس الإمام الأكبر حين تصفح الأوراق فوجد كتابا مدرسيا يحمل قواعد مشتهرة يعرفها الدارسون جميعا ! لو كان الإمام غير مصطفى ، لقال للمؤلف: ماذا صنعت يا رجل؟ وماذا أضفت؟ ثم اعتذر ساخرا! ولكن حياء الشيخ الذى تحدث عنه شقيقه قد وقف حائلا دون أن يرفض المطلب غير المستساغ، وكأنه أدرك أن المدرس أزهرى، ويحب أن ينال مجادة بتقديمه، فأخذ الكتاب. ووعده أن يكتب المقدمة، وودعه فى ابتسام. ثم خلا بنفسه ليقرأ ما بين يديه، وليرعى أمانة البحث دون أن يكسر خاطر المؤلف ، فكتب مقدمة وجيزة تتجمع فى هذه السطور.

«طلب الى فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوى المدرس بمعهد القاهرة أن أكتب مقدمة لكتابه فى العروض ، ومع أنى درست العروض، وحفظت فى عهد الطلب بعض فنونه المشهورة، وأديت فيه امتحان العالمية منذ عهد، ومع أنى كنت أقول منذ شبابى شعرا، ولا أزال أميز بين المنظوم والمنثور، لكنى اعترف أنى لست عروضيا بالذوق، ولا أعتبر نفسى فنيا فى العروض، واذن فإنى أرى من الجرأة أن أضع مقدمة لكتاب رجل فنى يشتغل منذ سنوات كثيرة بتدريس العروض.

ولكن لا يسعنى إلا أن أثنى على أستاذ يضع مجهوده فى صورة كتاب يقدمه للناس، ليستفيدوا من ثمرة مجهوده من ناحية، وليستفيد هو مما قد يصل إليه من ملاحظات، وأعتقد أن هذه هى السبيل إلى بلوغ الكمال، لأن المؤلف يستطيع على هذا الوجه، أن يعيد طبع كتابه، فيوضح ويستكمل، وعلى هذا الاعتبار أشكر للأستاذ الفاضل مجهوده وإخلاصه لفنه، وأسأل الله أن يوفقه إلى الكمال والنجاح».

هذه هى المقدمة التى ترعى أمانة الحقيقة، فلا تجازف بتقريظ زائف، أو تميل إلى تجريح غير قاصد، مع ما أبانت عنه من تواضع أمام جليل يقول عن نفسه «انه لايزال يميز بين المنظوم والمنثور ويرى من الجرأة أن يقدم بكلمة عن كتاب ألفه مدرس متمرس!» واذا دلت هذه الكلمات على الأمانة العلمية فقد أنبأت عن حياء وأدب وذوق!

ومما أذكره عن الإمام الأكبر فى هذا الصدد أن الطالب محمد سلام مدكور الطالب بكلية الشريعة، وقد صار فيما بعد «الاستاذ الدكتور محمد سلام مدكور رئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة» كان قد ألف وهو فى السنة الثالثة بالكلية كتابا تحت عنوان «جمال الدين الأفغانى» وتقدم به إلى أحد أساتذته فى الكلية ليضع مقدمته فأشاح عنه معتذرا وتألم المؤلف فوقع فى خاطره أن يذهب إلى وزير الأوقاف الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق إذ يعلم من سماحته ما قد ييسر له أن يكتب مقدمة الكتاب، وقد حدثنى المؤلف رحمه الله، أنه ذهب بالكتاب قبل تجليده إلى الأستاذ . وقلبه يضطرب هيبة من لقائه، ولكنه قوبل بابتسام مشجع، فتقدم الطالب بالملازم الى الشيخ عارضا طلبة فى استحياء! وما كاد الرجل الكبير يرى اسم «جمال الدين الأفغانى» حتى استنار وجهه بابتسام خالب، وقال فى حب وودود، وكأنه يخاطب ولده ممدوح ، لقد أثلجت صدرى يا بنى حين تحدثت عن جمال الدين ، وأنا أطمع فى كتاب آخر عن «محمد عبده» تعال غدا لتأخذ المقدمة.

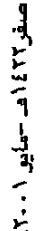
ثم جاءت مقدمة قوية التفاؤل مبشرة بمستقبل للطالب فى عالم البحث العلمى ولم ينس الشيخ عند عودته لتسلم المقدمة أن يلاطفه بحديث مشجع. ثم يشير الى بعض ملاحظات لم يشأ أن يدونها ، قال الدكتور سلام، وقد نشرت اعلانا كبيرا عن الكتاب فى الصحف اليومية قلت فيه ان مقدمة الكتاب «بقلم مصطفى عبدالرازق» لأغيظ من تذمروا من قبل اذ طلبت منهم التقديم . فأبوا فى استخفاف!.

أما بعد

فهذه قصص موجزة عن أمانات علمية لنفر ممن أنعم الله عليهم بسمو الخلق مع وثاقة العلم فضربوا المثل فى أمانة القول تأليفا وتدريسا وتقديما،وهم بفضل الله كثيرون، ولعل لدى غيرى من الأمثلة أكثر مما لدى، وهنا يلزم التنويه بهذه المآثر، لأنها فى واقعها الملموس، ومشهدها المرموق مبعث فخر لمن يحملون مصابيح الهداية من قادة العلم، وأولى المروءة، كما أنها تصفع وجوه الانتهازيين ممن يحسبون أنفسهم على شىء، وهو ضعفاء مساكين عناهم المتنبى حين قال:

ومن جهلت نفسه قدره
رأى غيره منه ما لا يرى



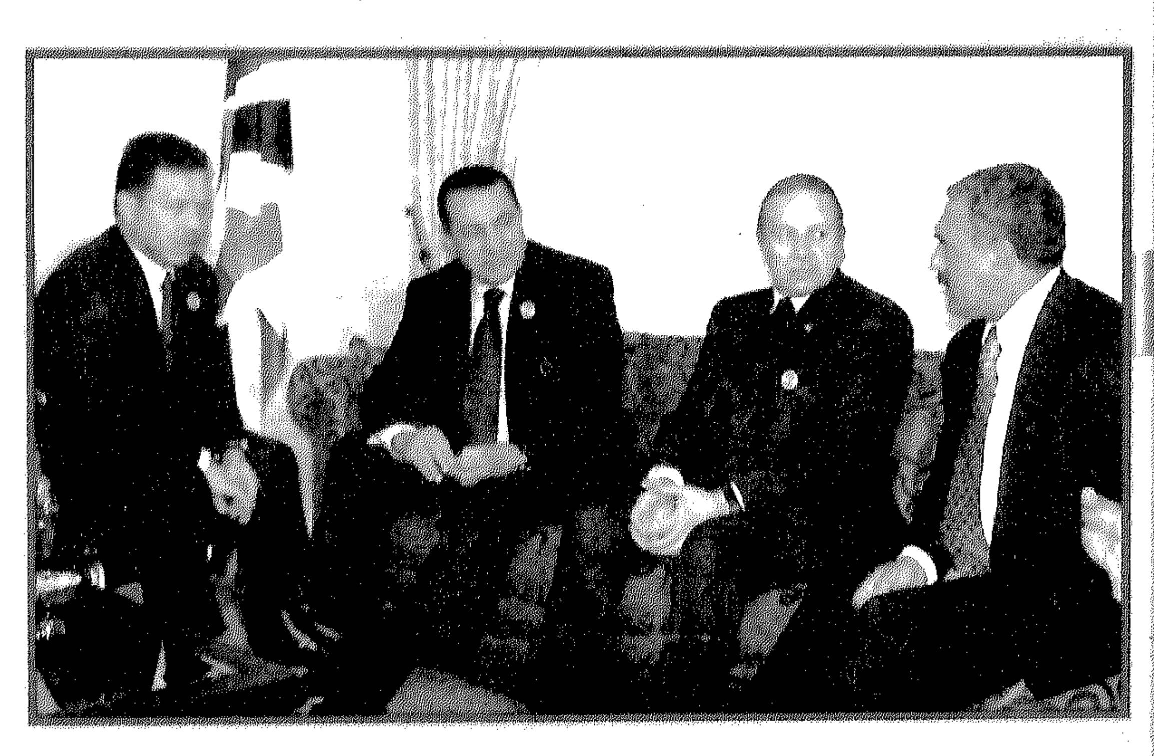


قمة عمان

ومستقبل النظام العربى

بقلم :
د.أحمد يوسف أحمد

عقدت القمة العربية فى عمان فى مواجهة تحديات هائلة للنظام العربي، والواقع أن هذا ليس بجديد على القمم العربية، فالمتابع لهذه القمم منذ بدايتها في أنشاص ١٩٤٦، وحتى آخر قمة انعقدت فى القاهرة فى ٢٠٠٠ قبل قمة عمان، سوف يجد أن هذه القمم قد انعقدت عادة لمواجهة أخطار حقيقية وشيكة على النظام العربى، أو لمواجهة كارثة ألمت بالفعل بهذا النظام، ولم يحدث مثلا أن قمة قد عقدت خصيصا لمتابعة عملية التكامل الاقتصادى العربى، أو لمناقشة قضية الثقافة العربية .. الخ .



غير أن قمة عمان الأخيرة فى مارس الماضى قد انفردت بسمة جديدة، تلك هى أنها أول قمة تنعقد بعد إقرار مبدأ دورية القمة فى وثيقة اعتبرت جزءا لا يتجزأ من الميثاق، ولذلك بدا أن الرأى العام العربى على اتساعه، والنخب العربية السياسية والفكرية بصفة خاصة يتطلعون جميعا بدرجة يعتد بها من الأمل فى أن تكون هذه القمة مختلفة. وبعد أن أنهت القمة أعمالها، وأصدرت بيانها الختامى وقراراتها لاشك أن درجة من الإحباط قد سادت أوساط الذين تفاعلوا بها ، ولعل هذا يثير سؤالا مهما حول طبيعة عمليات التقييم عامة والسياسى منها بصفة خاصة، إذ من الواضح أن هذه العمليات تتسم بنسبية ظاهرة، وعلى سبيل المثال فإن قمة عمان ٢٠٠١ لم تختلف عن قمة القاهرة ٢٠٠٠ فى خطابها السياسى المتشدد تجاه اسرائيل، أو موقفها من الولايات المتحدة الأمريكية، بل لعلها زادت فى هذا الصدد على موقف قمة القاهرة من قضية الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارات الدول اليها (وهو موقف عام لا يتجه لدولة بعينها، إن فهم بوضوح أنه يوجه رسالة للولايات المتحدة الأمريكية بالذات) نقول لعلها زادت تعبيرها عن الاستياء البالغ من الاعتراض الأمريكى فى مجلس الأمن على مشروع قرار الحماية الدولية للفلسطينيين، ومع ذلك فانه بينما قوبلت قرارات قمة القاهرة ٢٠٠٠ بحماس ظاهر صادفت قرارات قمة عام ٢٠٠١ لا مبالاة واضحة إن لم يكن إحباطا حقيقيا !

لغة القوة الهمجية

وفى محاولة للتفسير الموضوعى لتلك اللامبالاة أو هذا الاحباط يمكن للمرء أن يشير الى أكثر من احتمال، ومن هذه الاحتمالات مثلا أن الموقف بالنسبة للصراع العربى ـ الاسرائيلى تطور بين القمتين على نحو يجعله فى احتياج لمقاربة مختلفة، فقد سقط باراك وجاء شارون الى الحكم بسياسة لا تعرف إلا لغة القوة الهمجية، ولعل الشعور الذى يخالج الرأى العام العربى هو أن قرارات قمة عمان أيا كان إعجابنا بأحكامها الأخلاقية والقانونية على السياسة الاسرائيلية تقصر عن التأثير الفعلى فى مجريات الأمور ، والواقع أن هذه معضلة حقيقية تواجهها مؤسسة القمة العربية كطليعة للنظام العربى، فهذا النظام قد ارتضى منذ ١٩٨٢ خيار التسوية السياسية مع إسرائيل، والواضح الآن أن هذا الخيار يواجه مأزقا حقيقيا، وأن هذا المأزق لايمكن الخروج منه إلا بفعل مؤثر، تماما كما خرج عبدالناصر من مأزق مشابه بحرب الاستنزاف، والسادات بحرب أكتوبر ١٩٧٣، والشعب الفلسطينى بانتفاضة أواخر الثمانينات، وحزب الله بنضاله المسلح فى الجنوب، ولذلك فإن

قمة عمان

إحباط الرأى العام العربى ونخبه السياسية والفكرية مبرر مادامت القمة العربية غير قادرة حتى الآن على أن تضع فى ساحة الفعل ما يفضى الى خروج عربى جديد من المأزق .

قرض حسن !

بل لعل هذا الإحباط قد زاد عندما اكتشف المتابعون والمراقبون أن قرارا مهما لقمة القاهرة كقرار دعم الشعب الفلسطيني وانتفاضته بمليار دولار قد تقلص الى خمسة عشر مليونا من الدولارات تقدم شهريا لمدة أربعة شهور للسلطة الفلسطينية «كقرض حسن» بالاضافة الى الموافقة على تقديم مائة وثمانين مليون دولار أخرى على مدار ستة شهور لم يشر صراحة فى القرارات الى طبيعتها، وان كان يبدو من نافلة القول أنها ستكون بدورها «قرضا حسنا» ، ناهيك عن أننا لم نسمع بعد ذلك شيئا عن أى تنفيذ فعلى لهذه القرارات الغريبة.

ويبرر البعض ذلك الموقف بأن الجهات المانحة لا تثق فى السلطة الفلسطينية، وحسن انفاقها للمساعدات التى تقدم لها، وبعبارة أكثر صراحة فإنها تعتقد بوجود فساد مستشر فى أوساط هذه السلطة وحدها، ولو طبق هذا المعيار على كل من يتلقى مساعدة لما حصل أحد على شيء والأهم من ذلك هو الظرف الاستثنائى للشعب الفلسطيني، وأننا نستأمن السلطة الفلسطينية على مستقبل القضية برمتها ، ولا نستأمنها على مليار دولار، ناهيك عن أن ايجاد نظام صارم للتأكد من انفاق المساعدات فى وجهها الصحيح ليس بالأمر الصعب .

★★★

وثمة سبب آخر للإحباط الذى تولد بعد قمة عمان يرتبط بما آلت اليه جهودها لتحقيق المصالحة العراقية ـ الكويتية ، والواقع أن هناك من كانوا يعترضون أصلا على معالجة القمة لهذا الموضوع الشائك على أساس أنه يحرف القمة عن الموضوع الذى ينبغى أن تركز اهتمامها عليه، وهو دعم انتفاضة الشعب الفلسطيني، وهو رأى ينطوى فى تقديرى على مفارقة منطقية، فكيف نتصور امكانية الحديث عن موقف عربى مشترك تجاه اسرائيل وفى داخلنا خلاف خطير، كالخلاف العراقى ـ الكويتي، يمكن أن يجر المنطقة فى أى وقت الى مواجهات غير محسوبة تؤثر بالتأكيد على قدرتها على

تبنى موقف موحد تجاه أى قضية.

خطوة إيجابية

غير أن معظم الاحباط الذى تولد فى هذا الخصوص كان مصدره اخفاق القمة فى التوصل الى صيغة للحل توافق عليها الكويت، والعراق، والواقع أن تقييم أداء القمة فى هذا الصدد لا يجب أن يتم بهذا القدر من التبسيط، فلا يجب أن ننسى أولا أن مجرد فتح ملف «الحالة العراقية ـ الكويتية» بغرض تحقيق مصالحة بين الطرفين، ويبذل كل هذه الجهود من أجل هذا الهدف هو أمر إيجابى فى حد ذاته، ألم يعجز العرب عن عقد قمة لمدة قاربت ست سنوات مابين أغسطس ١٩٩٠ ويونيو ١٩٩٦ بسبب آثار الغزو العراقى للكويت؟ ألم تعقد قمة القاهرة فى يونيو ١٩٩٦ لمواجهة التداعيات الناجمة عن تولى ناتانياهو الحكم فى اسرائيل دون توجيه دعوة للعراق أصلا على أساس أن ذلك سوف يفجر القمة من داخلها، أو يحرمها أصلا من حضور دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وربما تلك المتحالفة معها أيضا؟ لماذا اذن ـ فى الاطار السابق ـ لا يعتبر انعقاد قمة القاهرة فى اكتوبر ٢٠٠٠ بحضور العراق خطوة ايجابية فى طريق المصالحة؟ ولماذا لا يعتبر فتح الملف وبحثه بجدية فى قمة عمان خطوة ثانية أكثر ايجابية بكثير، خاصة وقد كان ممكنا ـ كما تم فى حالات أخرى كثيرة ـ التوصل الى صيغة عامة تعتمد مبدأ «الغموض البناء» ولا تعنى شيئا فى واقع الأمر، والحق أن هذه النقطة تحديدا يجب أن تحسب لقمة عمان، ذلك أن الاخفاق المستتر أخطر بكثير من الاخفاق الصريح، فالأول ينطوى على رسالة بأن المشكلة قد حلت، ولا داعى لبذل مزيد من الجهود ، بينما الثانى يضع الجميع أمام مسئولياتهم، وأحسب أن مؤسسة القمة مطالبة من الآن فى شخص رئيسها أو لجنة متابعتها أو فيهما معا بمتابعة الملف العراقى ـ الكويتى بجهد دءوب حتى نصل الى قمة بيروت ٢٠٠٢ ـ وهذا ممكن ـ قادرين على انجاز مصالحة حقيقية.

★★★

ويبقى من الغريب أن النهج الذى تعاملت به قمة عمان مع القضايا المتعلقة بمستقبل النظام العربى لم يثر نقاشا واسعا مع أنها كانت مؤهلة أكثر من أية قمة أخرى سبقتها ـ بحكم أنها أصبحت مؤسسة من مؤسسات الجامعة ـ لتناول هذا الموضوع المصيرى. والواقع أن القمم العربية قد اهتمت به منذ قمة القاهرة ١٩٦٤ التى قررت دورية اجتماع القادة العرب سنويا، وانتهاء بقمة القاهرة ٢٠٠٠ التى نجحت أخيرا فى إقرار هذا المبدأ فى ملحق اعتبر جزءا لا يتجزأ من ميثاق الجامعة، أى أن النظام العربى احتاج إلى ما يزيد على ثلث القرن كى يقر مبدأ دورية القمة، كما أن نفس المدة قد مرت دون أن

قمة عمان

تنشأ محكمة العدل العربية التى أشار إليها الميثاق فى مادته التاسعة عشرة، ومر كذلك ما يقرب من نصف القرن على محاولة إنشاء سوق عربية مشتركة فى ١٩٥٧ دون أن ننجح حتى الآن فى استكمال منطقة التجارة الحرة العربية، وما يقرب من ربع القرن على وثائق قمة عمان ١٩٨٠ الطموحة باتجاه التكامل الاقتصادى العربى.

وفى الإطار السابق ـ للأسف ـ ينبغى النظر بحذر لقرارات قمة عمان ٢٠٠١ والتى تحدثت على نحو طيب عن اتحاد جمركى عربى، ومؤتمر اقتصادى عربى، وزيادة لفعالية الجهاز الفنى للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وتطوير الجامعة ذاتها.. الخ، وكلها دون شك أمور طيبة يجب أن ينظر اليها فى ضوء تدنى عملية المتابعة بصفة عامة فى قرارات القمم العربية المتتالية.

★★★

لم تهدف السطور السابقة بالتأكيد إلى أن تزيد من حالة الاحباط التى شاعت فى الأوساط العربية فى أعقاب اختتام قمة عمان الأخيرة لأعمالها.. بالعكس لقد تضمنت دفاعا عن نهج القمة فى التعامل مع الحالة العراقية ـ الكويتية ، وتفاءلت على نحو موضوعى بإمكان حسم هذه القضية فى خلال المدة المتبقية على انعقاد القمة العربية التالية، غير أن مؤشرات العجز عن تغيير الواقع الراهن فى الصراع العربى الاسرائيلى واضحة، ومهمة التغيير تكاد تكون موكلة على سبيل الحصر للشعب الفلسطينى وحده، كما أن اهتمام قمة عمان بمستقبل النظام العربى خلا كغيرها من القمم من حس المتابعة والنظرة الشاملة.

وثمة مسئولية واجبة على النخب العربية السياسية والفكرية والرأى العام العربى عامة فى أن يمارسوا جميعا ضغوطا على مؤسسة القمة العربية بالدراسات الجادة والرأى الموضوعى من أجل أن تكون أكثر جسارة ونجاحا فى مواجهة ما يعترض مسارها من تحديات، فبدون مثل هذه المدخلات غير الرسمية فى النظام العربى، والتى أثبتت جدواها غير مرة سوف تبقى مؤسسة القمة العربية متحررة من أية ضغوط تساعدها على الارتقاء بأدائها نحو مستقبل أفضل للنظام العربى. ■

أقوال معاصرة

● «أمامنا مشوار طويل قبل أن نستطيع اللحاق بمستويات الديمقراطية لمعظم الدول الديمقراطية»

جيمي كارتر الرئيس الأسبق للولايات المتحدة


جيمى كارتر

● «الغبى هو ذلك الشخص الذى لم ينجح فى كسب المليون مارك الأولى».

المليونير ماركو ابن ديكتاتور صربيا السابق سلوبودان ميلوسوفيتش

● «الغضب أسوأ مستشار للانسان».

چورج سوروس
رجل الأعمال العالمي

● «بداخلى طاقة على العطاء فى الفن لا يتخيلها أحد»

الفنانة أمينة رزق

● «أعتقد أن الحياة لا تطاق، لو أصبح العالم بدون فن».

ستيفن سودربرج
المخرج الفائز بالأوسكار عن فيلمه خيوط التهريب


جورج سوروس

● «نمر بمرحلة نواجه فيها خطر فقدان ثراء وتنوع الثقافة العالمية أمام خطر التوحد المتشابه»

بيتر سكارليت
مدير مركز السينماتيك الفرنسي
ومدير مهرجان سان فرنسسكو سابقا

● «الريف هو مصدر الحياة، واليوم الحياة معرضة لمتغيرات مرفوضة»

المخرج المجري بيلا تار
صاحب فيلم تانجو الشيطان

● «آن للمثقف الداعية أن يصمت، فلم تعد المرحلة تتحمل ثرثرته الببغاوية ومهاتراته الكلامية».

المفكر المغربي عبدالاله بلعزيز


امينة رزق

● «إذا كان عرفات إرهابيا.. فماذا يكون شارون .. الأم تيريزا؟

العقيد محمد دحلان
رئيس جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني
في رده علي اتهام شارون لعرفات بأنه إرهابي

● «انتخاب شارون رئيسا أحد أفظع الأمور التى حدثت فى تاريخ اسرائيل، وينذر شرا مستطيرا».

يوسي بيلين
وزير العدل في حكومة باراك

تنويعات على نغم الشر

بقلم
جميل مطر

لا أصدق أن القرن العشرين أسوأ القرون . لا أصدق لأنى لا أريد أن أقبل بدون مناقشة الحملة المتصاعدة من جانب المتشائمين الذين يزعمون أنه كان أسوأ القرون على الإطلاق. يقولون إنه فى هذا القرن وقعت مذابح درسدن ونانكنج وناجازاكى ورواندا والحل النهائى ومعسكرات سبيلا وسيبريا والقفزة الكبرى إلى الأمام ، ومن حقنا اضافة فلسطين وفيتنام والجزائر وربما أيضا كارثة الأرمن وفى هذا القرن تحرك ملايين البشر متحملين مخاطر جمة وآلاماً شديدة بحثاً عن معيشة أفضل أو حياة أكثر أمناً . أعرف أن الحقائق بالفعل مذهلة وتدعم الرأى القائل بأن المتشائمين بين المفكرين وصانعى الرأى كانوا أكثر عدداً وأشد إقناعاً من المتفائلين الذين بدأ انحسارهم الفعلى فى نهاية العصر الفكتورى نسبة إلى الملكة فيكتوريا فى أواخر القرن التاسع عشر .


هتلر
ستالين
شارون
ميلوسوفيتش

التأمل في هذا الجدل يثير قضايا مهمة آن أوان مناقشتها من جانب مفكري وصانعي الرأى في العالم غير الغربي . أقول هذا لأن التفاؤل والتشاؤم محوري الجدل هما في حقيقة الأمر متعلقان بالغرب . فالتفاؤل في القرن التاسع عشر جاء نتيجة لمرحلة توسع استعماري ورخاء اقتصادي وانتعاش علمي . ولذلك كانت الصدمة قوية عندما انتصرت اليابان على روسيا في مطلع القرن ولم تمض سنوات إلا واشتعلت الحرب العالمية الأولى التي ذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر. وبعد عقدين من انتهاء الحرب العالمية الأولى اشتعلت الحرب العالمية الثانية . تكفى هاتان الحربان لإثارة موجة من التشاؤم ، ناهيك عن أعمال الإبادة الجماعية . ولكننا لا نستطيع – ولا يجوز – التعميم فنقبل ما يقوله الغربيون عن القرن لمجرد أنهم هم الذين توصلوا إلى هذا الاعتقاد بعد مقارنة هذا القرن بقرن آخر كانوا فيه أسعد حالاً .القرن التاسع عشر الذى تفاءلوا فيه لأنهم توسعوا وهيمنوا هو نفسه القرن الذى عمت التعاسة فيه شعوب إفريقيا وآسيا لنفس السبب الدافع للتفاؤل في الغرب .. وهو الاستعمار والهيمنة الغربية .

قرن الإبداع والتقدم التكنولوجى

إلا أن الجدل القائم – رغم أنه غربى الدوافع والظواهر والممارسة – يمسنا مباشرة ، وستزداد أهميته النسبية لنا ، خاصة أن الأسباب التى دفعت الغرب إلى التشاؤم في القرن العشرين مازالت قائمة في القرن الحادي والعشرين . فالفجوة بين أغنياء العالم وفقرائهم تزداد اتساعاً ونوع

الفقر يزداد توحشا والسلاح الصغير يزداد وفرة وأسلحة الدمار الشامل تتنوع وتتزايد انتشاراً والحروب الأهلية لم تتوقف أو تقل عدداً . إن أى تحليل جاء بالتغييرات فى خريطة العنف فى العالم سوف يثبت أنه خلال عقدى الثمانينيات والتسعينيات نشبت حروب أهلية أكثر عدداً من تلك التى نشبت فى عقود أسبق . ففى هذين العقدين وحدهما نشبت حروب أهلية ، أو كانت ناشبة ، فى الصومال والسودان والجزائر والسنغال ونيجيريا وطاجكستان واليمن وأفغانستان وباكستان والفيلبين وأندونيسيا وكولومبيا ورواندا وأنجولا وسريلانكا وأندونيسيا والهند (كشمير) ، وفتن وصراعات طائفية وعرقية فى عدد آخر من الدول . كاد يصدق قول أحدهم أن الحرب تثير الغرائز والسلام يطفئها . ولذلك كان القرن فائراً وعامراً بالإبداع والتقدم التكنولوجى . ولا رد على هذا القول أفضل من إعادة الاطلاع على قائمة الدول التى انشغلت بالحروب . فباستثناء أوربا وأمريكا الشمالية ، لايبدو أن دولة أخرى استفادت من اشتعال غرائزها فأبدعت .

وفى وسط الجدل الدائر حالياً حول العنف وفلسفته ومنظومته الأخلاقية (أو اللا أخلاقية) .. صدر كتاب لجوناثان غلوفر بعنوان .. «الإنسانية .. تاريخ أخلاقى» يحكى تاريخ فظائع ارتكبها البشر خلال القرن العشرين ، ويقدم القصة الحقيقية لما يسمى بالحروب العادلة والحروب الضرورية ، وقائمة بالمشروعات القومية والاجتماعية العملاقة التى زهقت فى سبيل تنفيذها ملايين الأنفس . أما أهم ما يناقشه الكتاب فيدور حول السؤال المحورى الذى حارت الأجيال بين الإجابات - أو اجتهادات الإجابة - عنه ونصه يمكن أن يصاغ كما يلى «هل مسموح أن نقتل أبرياء فى سبيل إنقاذ حياة أبرياء ولكن أكثر عدداً ، مثل أن نقتل أبرياء فى سبيل إنهاء حرب لو استمرت لزهقت أرواح عدد أكبر من الناس» . ويقف وراء هذا السؤال ، عشرات الأسئلة . يتصدر هذه الأسئلة السؤال المتعلق بالعلاقة بين الإنسان والشر .إذ سادت بين المفكرين على مدى القرون حكمة تقول إنه لاتوجد علاقة حتمية بين الاثنين أى أن الشر ليس إحدى طبائع البشر التى تنشأ مع الإنسان وتبقى به مدى حياته . إنما الشر تصنعه المؤسسات



التى يصنعها الإنسان ومنها المؤسسات السياسية . وقد تبنت اليونسكو هذه الحكمة وأصدرت إعلانها المشهور الذى استند إلى الحجة بأنه «غير صحيح علمياً أن الحرب أو غيرها من السلوكيات الحقيقية التى يمارسها البشر مبرمجة وراثياً فى طبيعتنا البشرية» .

صراع الموارد والوحوش

ويأتى غلوفر فى هذا الكتاب الجديد ليرفض كلمة الأزمنة وإعلان اليونسكو ويقول إنه إذا نظر الإنسان بتمعن فى داخله لوجد شيئا قبيحاً ، أو وحشاً صغيراً قابعاً فى ركن من أركان جسده . ولا يحاول غلوفر بهذا الادعاء ، أو الدعوة، نشر التشاؤم أو دعمه ، ولا إنعاش الأفكار والمبادىء الفاشية والنازية . إنما يحاول حسب قوله - أن يدفع كلاً منا لنبذل جهداً لقمع هذا الوحش أو ترويضة .. وغلوفر متأكد أن الإنسان قادر على الانتصار على هذا الوحش لأن كلاً منا فى داخله عدد لايحصى من الموارد الأخلاقية ، وعادة ما يستنفرها هذا الوحش القابع فى داخلنا كلما تحرك . وما التاريخ الإنسانى إلا صراع بين هذه الموارد الأخلاقية وهذه الوحوش .

أما الوحوش فهى الأنانية المتطرفة والسادية والاستمتاع بأحاديث ومشاهد العنف وخاصة القتل ، وتقاليد القبيلة أو العشيرة التى تضع مقام الجماعة فوق الفرد وتسمح للعداوات والضغائن بين الأشخاص لتتحول حروباً عمليات إبادة . ومن الوحوش اقتناع الأفراد بأن فى الاقتتال بين الشعوب ضرورة للتقدم ، وما يعرف بمصيدة هوبز ، أى الرغبة فى شن الهجوم على الجار قبل أن يبدأ هو فى الهجوم .. تحت مسميات الردع وخلافه . ثم انظر إلى هذه القيم الجديدة التى تنتشر بسرعة تكاد تكون خيالية . ففى رواية عن مصنع فاشل فى روسيا ، يقول مدير المصنع «لا أعرف كيف حدث هذا . (أى الفشل) أنا لا أسرق وأفلس مصنعى، وجارى يسرق ومصنعه مزدهر» . أو تأمل فى الحكمة الروسية القائلة بأن «الشعب الذى تعاطف مع إيفان المرعب لاتتوقع منه خيراً» . وكما أن الوحوش كثيرة فالموارد الأخلاقية أيضاً كثيرة ، ومنها التماهى مع الغير والتعاطف معه والاحترام ، ومنها عزوف الإنسان عن قتل إنسان هارب ، وتوقف الجنود فى ساحات القتال فجأة عن إطلاق النار على الأعداء . ومن الموارد

أيضاً الهوية الأخلاقية ، أى احترام الذات والعداء ، أو حتى قادراً عليهما .

والنفس واستنفار الضمير ، ويشترك فى صنع هذه الهوية الدين والثقافة الموروثة والمكتسبة وتقاليد المهنة أحياناً (مهنة الطب مثلاً) .

عجز الموارد الأخلاقية

ويلاحظ غروفر أن معظم شرور القرن العشرين مورست عندما أصيبت الموارد الأخلاقية بالعجز صدفة أو عن عمد، ويلاحظ أيضاً أن معظم الفظائع التى ارتكبت جاءت مصحوبة برغبة متعمدة فى الإهانة والتحقير ، وأن أموراً مثل التكنولوجيا تلعب دورا فى زيادة أو انخفاض دور الشر عند الأفراد . ويضرب مثلاً بالطائرة والصواريخ التى أضعفت بشدة العطف كواحد من أهم الموارد الأخلاقية . فالعطف ينشأ ويتدعم بالاقتراب بين شخصين أو بين شخص وضحيته فتنحسر المسافة بينهما . فما بالنا بحالة الطيار أو الخبير العسكرى الجالس أمام أزرار تطلق الصواريخ ، الذى لايرى ضحيته وجهاً لوجه ، بل وقد لايعرف عنه شيئاً . لايعرف إن كان طفلاً أم شيخاً أم شاباً ، وإن كان متزوجاً وعنده أطفال ، وإن كان يبادله الكراهية

والهوية الأخلاقية ، مثلها مثل أى هوية أخرى ، ليست ثابتة أو دائمة ، إنما تتغير، بل وتزول فليس كل البشر قديسين ولن يكونوا . والمعروف أن الإنسان يكتسب هويته الأخلاقية ، أى يتعاطف مع أقرانه ويحزن لمصائبهم ويشاركهم أفراحهم من خلال وجوده وإختلاطه بجماعة بعينها . فإذا انهارت أخلاقيات الجماعة انهارت موارده الأخلاقية أو شحت . وقد يكون الفساد المثال الأبرز . إذ أنه حين يسود الفساد فى جماعة ويصبح قيمة فى حد ذاته تحت أى مسمى آخر يصير الإنسان ، عضو هذه الجماعة ، قابلاً للفساد مهما تعددت موارده الأخلاقية أو تعمقت . ولا يخفى أن فى مصر الآن موجة جارفة من العبارات والشتائم البذيئة يتبادلها أفراد المجتمع فى حياتهم العادية ، فى مناسبة أو بغير مناسبة . مثل هذه الموجة كافية لتجرف أمامها كل أو معظم الموارد الأخلاقية عند المواطن العادى . وتجعله يتحول إلى ذرة من ذرات الانهيار الجماعى.

أزمة عالمية شديدة

وكما أن الجماعة أو المؤسسة قادرة

على غرس الشر ودفع الإنسان لارتكابه أو ممارسته ، فإنها بنفس المنطق تستطيع كبح جماح الشر ، خاصة إذا كان على رأس الجماعة زعامة أو قيادة واعية لنوعية هذا الشر ومدى الخطر الذى يمثله لو ترك . يحكى مثلاً أن جون كيندى تلقى من خرشوف ذات يوم عصيب من أيام أزمة عالمية شديدة تسبب فيها الاثنان أو الدولتان الأعظم ، رسالة جاء فيها ما معناه «أنت وأنا يجب علينا ألا نشد نهايات الحبل الذى ربطنا فى نهايته عقدة الحرب .. لأنه كلما اشتد ازدادت العقدة إحكاماً ، وقد يأتى يوم تصبح العقدة شديدة الإحكام إلى درجة يعجز عندها الفرد الذى عقد العقدة عن حلها . عندئذ يجب قطعها عن الحبل» . هذان الزعيمان تعرفا على موقع الشر وعلى طبيعته وسببه ، ولذلك كانا معاً الأقدر على إيقافه فى الوقت المناسب . وهو ما يؤكد أن الشر ينشأ على أيدى زعماء وقادة مجتمع وسياسيين وبإرادتهم . ويكاد مؤلف الكتاب يذهب فى اتهامه هذا إلى حد التلميح بأن أغلب الزعماء السياسيين يتسمون بغلظة القلوب وقسوتها ، أى أنهم يفتقرون إلى موارد أخلاقية كثيرة ، وربما كان هذا الافتقار شرطا من شروط التأهل للقيادة ، أو لعله أول «مكتسب» يكتسبه الفرد بعد تقلده المنصب القيادى أو السياسى .

★ ★ ★

ألم يكن قائداً شريراً هذا الذى قرر أن يغير اسم أكبر سجن فى الأورجواى ليصبح «سجن الحرية» ، أو الآخر الذى أطلق على أكبر معسكر اعتقال فى شيلى اسم «معسكر الكرامة» ، أو الثالث الذى قرر أن يكون أشد سجون بلاده سوءاً وظلماً هو «سجن النهاية» . ثم ألا توجد قسوة متعمدة فى أن يصر رئيس جمهورية على أن تستخدم أجهزة إعلامه وصف الحالة متحدياً إرادة التغيير والموارد الأخلاقية للمجتمع ، أو يختار اسماً فيه كثير من التعالى أو العنف مثلما فعل الأمين العام الأسبق والأشهر للحزب الشيوعى السوفييتى حين اختار لنفسه اسم ستالين ومعناه رجل من الصلب ، وحين اختار زميل له اسم كاميتيف أى رجل من الحجر . والتاريخ حافل بقادة وسياسيين من نوع نيرون وهتلر وأريل شارون .. أبدعوا فى ابتكار تنويعات على نغم فضلوه .. ورددوه وطوروه فكان .. نغم الشر . ■

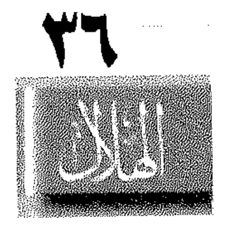


الأبحاث والدراسات تؤكد :

كراهية الإسرائيليين للعرب !!

بقلم
د. أحمد أبو زيد

في عدد سبتمبر عام ١٩٩٩ من (تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط) نشرت الكاتبة الصحفية مورين ميهان مقالاً عن الكتب الدراسية، وكتب الأطفال في إسرائيل وكيف انها تساعد على اشعال النزعات العرقية ومشاعر الكراهية ضد الفلسطينيين والعرب. وقد اعتمدت في كتابة المقال على ملاحظاتها الشخصية وعلى عدد من الدراسات الميدانية والبحوث الاكاديمية التي أجراها باحثون وعلماء إسرائيليون قاموا أثناءها بفحص وتحليل مادة الكتب المدرسية وبخاصة كتب التاريخ والأدب العبرى .



وانتهوا من دراساتهم وبحوثهم إلى أن هذه الكتب تغرس فى نفوس الاطفال اليهود منذ سن مبكرة الخوف والحقد والكراهية والاستعلاء إزاء العرب الذين تصفهم هذه الكتب بأقبح الصفات ابتداء من القذارة والكسل، مرورا بالكذب والنفاق والجشع والخيانة، وانتهاء بالميل الى العنف والإرهاب والقتل وسفك الدماء لدرجة انهم كثيرا ما يلجأون الى اختطاف الاطفال اليهود الصغار وقتلهم لإشباع رغباتهم العدوانية البعيدة عن كل القيم الانسانية الرفيعة. وتذهب الكاتبة الى أن الهدف من اتباع هذا الأسلوب فى الكتابة عن العرب بعامة وعن الفلسطينيين بخاصة وإلحاق كل هذه الصفات السلبية بهم وإظهارهم بهذه الصورة الكريهة المتدنية هو إشاعة الخوف من الإنسان العربى والشك فى نواياه ، وبالتالى الحض على ضرورة اتخاذ موقف الحيطة والحذر والعداء إزاءه طيلة الوقت بحيث يصبح ذلك جزءا أساسيا فى الثقافة الإسرائيلية. كذلك تذكر أن بعض مؤلفى هذه الكتب اعترفوا صراحة للباحثين بأنهم يتعمدون اللجوء الى هذا الأسلوب فى الكتابة حتى يمكن للأجيال التالية من اليهود ان يعدوا أنفسهم الإعداد اللازم للتعامل مع (الأعداء) فى المستقبل !.

نظرة العرب لليهود

وقد لا تختلف نظرة العرب الى اليهود فى إسرائيل اختلافا كبيرا عن رأى اليهود فى العرب. وهذا أمر طبيعى ومفهوم فى ظروف العداء المتبادل والناشىء فى الأصل عن سلب اليهود وطنا كاملا من العرب ثم وقوفهم موقف الغطرسة والتعنت من كل المحاولات لإيجاد تسوية (مُرضية) وإن تكن مجحفة للطرف الضعيف. ولكن الخطير هنا هو عملية تنشئة الأطفال اليهود منذ الصغر على الكراهية والشك، وإقامة الثقافة الإسرائيلية بالنسبة للأجيال التالية على أسس سلبية إزاء العرب وافتراض استمرار العداوة حتى ولو أمكن الوصول الى مثل تلك التسوية. ومما يلفت النظر فى هذه الكتب المدرسية على ما تقول مورين ميهان نفسها الإلحاح الشديد على حكاية التجاء العرب إلى خطف الأطفال اليهود وقتلهم ، وقد يكون فى هذا الزعم - وهذا فى رأيى أنا - شىء من محاولة التبرير الاخلاقى - أو اللاأخلاقى - لتعمد الإسرائيليين انفسهم قتل اطفال الحجارة الفلسطينيين - وليس فقط الحاق الإصابات غير القاتلة بهم - وكذلك الاغارات الإسرائيلية على المدارس وقتل التلاميذ الصغار سواء فى لبنان (مذبحة قانا) أو فى مصر (مذبحة مدرسة بحر البقر الشهيرة) والتى كان أبرزها من حيث حجم اهتمام الإعلام العالمى بها هو قتل الطفل محمد الدرّة وهو يحتمى بأحضان ابيه مما أثار ولو إلى حين ضمير العالم قبل أن يعود

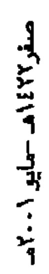
كراهية الإسرائيليين للعرب

ذلك الضمير الى الاسترخاء، ربما بفعل الدعاية الصهيونية المضادة .

وتاريخ اليهود فى كثير من البلاد مليء بالاخبار عن حوادث القتل التى قام بها اليهود عمدا ضد الاطفال غير اليهود بالاخص الاطفال المسيحيين . وقد شاعت فى مصر منذ سنوات طويلة بعض الحكايات عن اختطاف اليهود اطفال الاقباط بالذات وقتلهم واستخدام دمائهم فى صنع الفطائر اللازمة للاحتفال ببعض اعيادهم الدينية . وانتشار هذه الحكايات فى بلد مثل مصر حيث كان اليهود يعيشون فى وئام مع بقية فئات الشعب المختلفة لا يمكن ان يكون صادرا عن مشاعر معادية للسامية، وأنه قد يكون من المحتمل وجود اسباب موضوعية وراء هذه الحكايات التى كانت تؤلف على أى حال جزءا من الثقافة الشعبية فى ذلك الحين ، دون أن يكون هناك ما يؤيدها . ولكن إذا صدقتنى الذاكرة فإن ا لمؤرخ الاستاذ الدكتور يونان لبيب رزق اشار فى بعض مقالاته الشائقة فى الأهرام إلى بعض الحوادث التى وقعت فى مصر فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وأمكن تحديد الحاخام اليهودى الذى ارتكبها . ولذا فإن الأكثر احتمالا ان يكون هناك سبب متعلق ببعض المعتقدات اليهودية الشعبية وراء ارتكاب هذه الجرائم - إذا صدقت الأخبار - ضد الأطفال المسيحيين . وهذا هو على أية حال ماتؤكده معظم الكتابات الأجنبية التى تعرضت لهذا الموضوع والتى تشير الى وقوع احداث مماثلة فى الدول الأوربية وتضعها كلها تحت ما تسميه (القتل الشعائرى للأطفال) .

جرائم بشعة

ويبدو أن وقوع هذه الاحداث مسألة قديمة وأن اتهام اليهودية بارتكاب هذه الفظائع ضد الأطفال يرجع الى عدة قرون خلت . ولكن اول حادثة امكن إثباتها فى بريطانيا بالدليل القاطع يرجع إلى عام ١١٤٤ فى نوريتش وإن كان اشهر حادث اثار الرأى العام فى بريطانيا بحيث اعتبر الطفل القتيل من القديسين الشهداء كان فى عام ١٢٥٥ فى لينكولن ، وتعرف الجريمة باسم (مقتل القديس هيو الصغير) لأن الطفل الضحية خضع لعمليات التعذيب الشديد واستنزاف كل دمائه من جسمه قبل قتله ودفنه. وكانت هذه الحوادث الكثيرة سببا فى نفي اليهود من بريطانيا أيام الملك ادوارد الاول عام ١٢٩٢ . وفى كل هذه الأحداث كان يتم ختان الطفل ثم صلبه وإحداث بعض الجروح الغائرة العميقة فى انحاء معينة من الجسم مثل قطع الشرايين فى الصدغ الأيمن فى ثلاثة عشر



موضعا وفي الصدغ الايسر فى سبعة مواضع فقط وهكذا . ثم قتل الضحية بعد الحصول على آخر نقطة من الدماء فى الجسم ودفن الجثة بعد ذلك فى مكان بعيد عن المكان الذى ارتكبت فيه الجريمة. وفى حالة مقتل (القديس هيو الصغير) التى حدثت عام ١٢٥٥ امكن القبض على واحد وتسعين يهوديا بتهمة المشاركة فى العملية الشعائرية بشكل أو بآخر. وحكم بالاعدام على ثمانية عشر شخصا. ورفض الملك هنرى الثالث الصفح عن أى من رجال الدين الذين شاركوا في تنفيذ العملية.

نظرة اليهود لأنفسهم ولغيرهم

وثمة جرائم كثيرة مشابهة يعتقد أن اليهود ارتكبوها ضد الاطفال المسيحيين فى مناطق مختلفة، من أوربا فى فترات مختلفة وتم اكتشاف بعضها فى اوائل القرن العشرين كما ان هناك أحداثا أخرى مماثلة حدثت فى روسيا قبل الحرب العالمية الاولى وفى المانيا حتى قدوم الحزب النازى الى الحكم وإن لم يكن تحديد مرتكبى هذه الجرائم أو نسبتها الى أشخاص معينين بالذات، ولذا كانت تلك الجرائم تنسب الى الطائفة اليهودية ككل والى رجال الدين اليهود بالذات. ومن الطبيعى ان يحاول اليهود الدفاع عن انفسهم ورد تلك الاتهامات الى المزاعم التى يثيرها المتطرفون المسيحيون واعداء السامية ضد اليهود بل انهم لم يترددوا فى اتهام ملوك بريطانيا انفسهم باختراع تلك المزاعم لابتزاز اليهود واستنزاف أموالهم . كلما تعرضت البلاد للأزمات الاقتصادية .

انما قد يكون لهذه الممارسات الشعائرية - لو صدقت . بعد آخر يتعلق بنظرة اليهود الى انفسهم وإلى الآخرين وبالاختلافات الجوهرية من وجهة نظرهم بين جسم الإنسان اليهودى وروحه واجسام غير اليهود وأرواحهم ، وهى نظرة تعبر عنها الايديولوجيات المتطرفة التى توجه الحركات الاصولية فى اسرائيل وتضع مبادىء اساسية للتمييز بين الالتزامات الاخلاقية ازاء اليهود وازاء غيرهم من اتباع الاديان والعقائد الأخرى. وتحمل كثيرا من الاستعلاء الذى يقرب من الاحتقار والازدراء لهؤلاء (الاغيار) لدرجة أن أحد هؤلاء الحاخامات الأصوليين فى إسرائيل وهو الحاخام كول يذهب إلى حد القول إن (الاختلاف بين روح الانسان اليهودى وارواح غير اليهود جميعا وعلى كافة المستويات اوسع وأعمق بكثير جدا من الاختلاف بين الروح البشرية وارواح البهائم .

حياة اليهودى لها قيمة مطلقة

وثمة اعتقاد بين بعض الفرق الدينية اليهودية فى أن الله خلق العالم كله فى الاصل من أجل اليهود وحدهم، وأن خلق غير اليهود من البشر كان مسألة ثانوية فحسب وأن من الصعب اجراء أى نوع من المقارنة بين الانسان اليهودى وغيره من البشر لأن الاثنين

كراهية الإسرائيليين للعرب

ينتميان الى فصيلتين أو حتى نوعين مختلفين تمام الاختلاف من الكائنات الحية لأن خلايا جسم الإنسان اليهودى فيها عنصر (الهى) لا يتوافر فى خلايا الآخرين، وأن الاولويات يجب أن تعطى دائما فى كل الاحوال لليهودى على غيره من الناس مهما ارتفعت منزلتهم ومكانتهم ،الدرجة انه إذا تعرض شخصان للغرق وكان احدهما يهوديا والآخر من (الاغيار) فإنه يجب البدء بانقاذ اليهودى حتى وإن كان الشخص الآخر اقرب الى الخطر والموت، وأنه فى حالة المريض اليهودى الذى يحتاج انقاذ حياته الى استبدال كبد سليم بالكبد المريض فإنه يمكن (قتل) أى شخص بريء يتصادف وجوده وانتزاع كبده لإنقاذ حياة الشخص اليهودى وهكذا . فحياة الانسان اليهودى لها قيمة مطلقة .

القتل وسيلة حياة

مثل هذه الأفكار المتطرفة التى تجد لها سندا من المعتقدات اليهودية قد تصلح اساسا لفهم اسباب ارتكاب اليهود فى اسرائيل جرائم القتل الوحشية ضد العرب وضد المسلمين حتى اثناء الصلاة وفى دور العبادة على ماحدث فى حادثة قتل المصلين فى الاقصى على يد اليهودى الإسرائيلى الامريكى الاصل باروخ جولد شتاين، والتى راح ضحيتها ثلاثون شخصا ولقى عمله الثناء من الحاخام اسحاق جنزبرج، كذلك قد تصلح هذه الافكار لتفسير تلك القسوة البالغة النابعة من الكراهية العميقة التى تدفع الجيش الإسرائيلى الى تعمد قتل اطفال الحجارة ، فالمعتقدات اليهودية تبرر هذا السلوك وتدعو اليه كوسيلة للمحافظة على حياة الإنسان اليهودى عن طريق إبادة الآخرين دون النظر الى أية اعتبارات انسانية أو أخلاقية . وفى ضوء هذه الافكار والمعتقدات لا يعتبر الاستيلاء على أرض فلسطين مجرد نوع من السرقة او السلب لوطن يملكه غير اليهود، وإنما هو فى آخر الامر نوع من التطهير للأرض وتمجيدها وتقديسها وتخليصها من المجال الشيطانى ونقلها الى المجال الإلهى .. حسب هذه المعتقدات .

وإزاء هذه الافكار لابد من أن نتساءل : أى نوع من السلام يمكن أن يتوقعه العرب مع الإسرائيليين الذين يلعب رجال الدين المتعصبون دورا مهما فى الحياة اليومية والسياسية على السواء، وهل يمكن التعايش مع مجتمع يؤمن فريق كبير من اعضائه بأنهم خلقوا من عناصر إلهية ينفردون بها دون بقية البشر الذين هم - فى رأى بعض رجال الدين اليهودى المتطرفين اقرب الى البهائم ؟ . ■

مستقبل الجامعة العربية

بقلم
عبد الرحمن شاكر

فى منتصف هذا الشهر، مايو سنة ٢٠٠١، تنتقل مسئولية الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى السيد عمرو موسى، بقرار من مؤتمر القمة العربية الدورية الأولى التى انعقدت منذ أسابيع فى عمان، ويصحبها تكليف هو الأول من نوعه للأمين العام الجديد لجامعة الدول العربية، بأن يضع خطة لتطوير الجامعة وأساليب عملها!.



هناك إذن إقرار من كافة الدول التى تضمها الجامعة بأنها قد تقادمت وأصبحت بحاجة الى التطوير، كان أوله، والذى اتفق عليه فعلا، هو إقرار أن تنعقد قمتها بصفة دورية، كل عام على الأكثر، أسوة بسواها فى المنظمات الاقليمية، مثل منظمة الوحدة الأفريقية، والمؤتمر الإسلامى.

والحديث عن تطوير الجامعة العربية والحاجة إليه ليس بجديد، بل يثور كلما ثارت أزمة يتبدى فيها عجز الجامعة وأساليبها عن التحرك الفعال لعلاجها، وأصبح الحديث عن الحاجة إلى نظام عربى جديد، يتخطى الجامعة أو أوضاعها الحالية، يتردد فى أرجاء الوطن العربى.

فمن المعروف أن قرارات الجامعة العربية، لابد وأن تصدر بالاجماع، لكى تلتزم كل دولة من الدول المكونة لها بهذا القرار. وليس هناك قوة إلزام لدى الجامعة لأى من أعضائها، سوى اقتناع هذا العضو بتنفيذ ما اتفق عليه، أو الاستمرار فى تنفيذه، فإذا عدل عن ذلك، فلا يواجهه إلا اللوم الأدبى من جانب باقى الأعضاء!

كان هناك اقتراح قديم من ملك الأردن الراحل الملك حسين، بأن تكون قرارات الجامعة بالأغلبية، ولكن لم تتم الاستجابة لهذا الاقتراح، اقرارا بالواقع الذى يتمثل فى كون الأغلبية العددية لاتتوفر إلا للدول الصغرى فى الجامعة، سواء من حيث عدد السكان، والقوة العسكرية والاقتصادية والوزن الحضارى لها ، بحيث تصبح دولها «الكبرى» تحت رحمة تلك الأغلبية!

تاريخ من الفشل

كانت القضية الكبرى التى واجهتها جامعة الدول العربية بعد سنوات قلائل من إنشائها هى قضية فلسطين، التى صدر قرار بتقسيمها من الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧، وانسحب منها الانتداب البريطانى فى عام ١٩٤٨، وأعلنت دولة اسرائيل فى العام ذاته، وقررت الدول العربية شن الحرب على العصابات الصهيونية فى فلسطين لمنع تنفيذ قرار التقسيم وانقاذ عروبة فلسطين ولكن الجيوش العربية منيت بالهزيمة فى تلك الحرب، بعد موافقتها على اتفاقية للهدنة، تدفقت خلالها الأسلحة على العصابات الصهيونية، التى خرقت الهدنة وشنت هجومها المعتاد على الجيوش العربية، وعقدت فى عام ١٩٤٩ اتفاقية جديدة للهدنة توسعت فيها الدولة الصهيونية الى أكبر بكثير مما كان قد قرره لها قرار التقسيم، الذى رفضه العرب وقت صدوره.

وبدأت مرحلة جديدة فى المنطقة العربية بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فى مصر، وكان من أهم أسبابها الهزيمة التى سببها النظام الملكى السابق فى حرب فلسطين. وتبعتها سلسلة من الانقلابات العسكرية، أو الثورات المماثلة

فى عدد من الدول العربية، منها العراق وليبيا والسودان، وعملت ثورة ٢٣ يوليو على مساعدة الأقطار العربية التى كانت تحت الاحتلال الاستعمارى على التحرر من ربقته، وكانت كل دولة عربية تستقل يتم إلحاقها بجامعة الدول العربية فور طلبها ذلك حتى بلغ عددها حاليا اثنتين وعشرين دولة بعد أن بدأت عام ١٩٤٥ بسبع دول فحسب.

ولكن بقدر ما تزايد عدد الدول العربية المنضمة إلى الجامعة فى تلك الحقبة، إلا أنه شأنها فى الأوضاع العربية لم يتجاوز حد تسجيل عروبة الدول التى تنضم إليها! كان المشروع القومى الذى تتطلع إليه الجماهير العربية فى ذلك الحين، هو الوحدة العربية الكاملة، التى تستطيع أن تقهر العدو الصهيونى وأن تبنى دولة عربية موحدة كبرى، تستطيع أن تضاهى القوى الدولية العظمى فى العالم.

كانت مصر فى عهد جمال عبدالناصر هى رائدة هذا المشروع القومى الوحدوى الكبير. ورغم اخفاق تجربة الوحدة الأولى بينها وبين سوريا، إلا أن المشروع لم يتبدد، بل انقسمت حوله الدول العربية التى يضمها لواء الجامعة، خصوصا مع ارتباطه بالتوجه الاجتماعى الذى تمثل فى تطبيق صورة من التحول الاشتراكى ، على غرار ما كان حادثا فى الاتحاد السوفييتى السابق والمنظومة الاشتراكية فى آسيا وشرق أوربا. وانقسم العالم العربى الى جبهتين: إحداهما ثورية ذات نزعة وحدوية اشتراكية، والأخرى محافظة ذات نزعة اقليمية متمسكة بالاقتصاد الحر أو الرأسمالى الطابع.

وأوشكت الجامعة العربية فى تلك الفترة أن تصبح غير ذات موضوع، اللهم بعض اجتماعات تتم فيها المعارك الكلامية بين الفريقين، حتى أفاقت على وقع الهزيمة المنكرة أمام العدو الصهيونى فى عام ١٩٦٧.

بدء عهد القمم

كان جمال عبدالناصر هو ذاته الذى دعا إلى عقد مؤتمر القمة العربى الأول فى الخرطوم بعد تلك الهزيمة، وفيها تمت


الرئيس عبد الناصر


الملك حسين


عمرو موسى

المصالحة بين الجبهتين الثورية والمحافظة فى العالم العربى لمواجهة كارثة الهزيمة، وتراجع المشروع الوحدوى الى حد كبير، وذلك لان مصر، وعدداً من الدول العربية الأخرى، أصبحت تواجهها مهمة وطنية جديدة هى «ازالة آثار العدوان» بما يعنى استرداد أراضيها التى احتلها العدو الصهيونى عام ١٩٦٧. وأصبحت على استعداد لقبول تسوية سلمية عن طريق الأمم المتحدة، مادامت تكفل لها استرداد أرضها المحتلة!

وتلكأت محاولات التسوية المنشودة رغم صدور قرارات بشأنها من الأمم المتحدة أهمها قرار ٢٤٢ الذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧، حتى وقت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣، بمبادرة من مصر وسوريا ، وبدأت بعدها مفاوضات جديدة للتسوية لم تفلح أى منها ، الا بعد توقيع مصر معاهدة صلح مع اسرائيل، استردت بموجبها أرضها المحتلة فى سيناء، ولكنها عوقبت من جانب سائر الدول العربية باتفاقها على تعليق عضوية مصر فى جامعة الدول العربية، ونقل مقر تلك الجامعة الى تونس، إلى أن لقى الرئيس السادات مصرعه فى عام ١٩٨١، وتولى بعده الرئيس الحالى محمد حسنى مبارك الذى استطاع تحقيق المصالحة مع سائر الدول العربية وإعادة مصر الى الجامعة العربية، وإعادة مقر هذه الأخيرة الى القاهرة.

التجمعات الاقليمية.. ونكبة أخري

وبعد العودة المذكورة بدأت مرحلة من التجمعات الاقليمية فى عدد من الاقطار العربية المتقاربة جغرافيا والمتشابهة فى أوضاعها الداخلية، كان أهمها وانجحها هو مجلس التعاون الخليجى، ومحاولة ماتزال تتعثر حتى الآن للاتحاد المغاربى، أو ما يسمى بالمغرب الكبير.

ولكن فى الوقت ذاته شهد العالم تحولات دولية كبرى، منذ عام ١٩٨٥، حينما تولى ميخائيل جورباتشوف منصب السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفييتى، فشرع يطبق ما سماه «البريسترويكا» او اعادة البناء، بدءا من اقرار الديمقراطية فى الاتحاد السوفييتى، بدلا من ديكاتورية الحزب الواحد، الى محاولة استدخال اقتصاد السوق على طريقة لينين فى «السياسة الاقتصادية الجديدة» وانسحاب الجيوش السوفييتية من افغانستان ومن دول شرق أوربا وسقوط حائط برلين، وإعادة توحيد ألمانيا، وانتهاء الحرب الباردة وسباق التسلح بين المعسكرين، حتى وصل الأمر إلى حل الاتحاد السوفييتى ذاته، وانتهى الانقسام الايديولوجى فى العالم، وأصبحت الديمقراطية والاقتصاد الحر، هى الايديولوجية السائدة فى العالم شرقه وغربه .

فى هذا الوقت بالذات، أقدمت دولة



عربية تنتمى الى ما كان يعتبر الجبهة الثورية فى الدول العربية وهى العراق على غزو دولة الكويت المجاورة واعلان ضمها اليها! وعجزت الجامعة العربية عن حل هذه المشكلة حتى انتهى الأمر إلى قيام قوات دولية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية بشن الحرب على العراق واجباره على الانسحاب من الكويت!

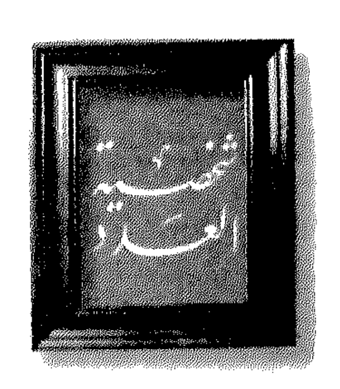
والآن، وبعد عشر سنوات على تلك الحرب، مايزال الحصار مستمرا على العراق، وماتزال القوات الامريكية مرابطة فى الخليج، تشن هى وحليفتها بريطانيا الغارات الجوية على العراق كلما راق لها ذلك!

وفى الوقت ذاته اندلعت الانتفاضة الفلسطينية بسبب الاستفزاز الصهيونى المتمثل فى محاولة الاستيلاء على المسجد الأقصى، واستمرار العدو الصهيونى فى احتلال ما تبقى من وطن للفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة واستمرار السياسة الصهيونية فى جلب المهاجرين الجدد وتوطينهم فى الاراضى الفلسطينية، وحتى وقت كتابة هذه السطور تشن القوات الصهيونية الحرب بكل الوسائل البرية والبحرية والجوية على الشعب الفلسطينى الأعزل، وكأنها حرب جديدة لإعادة غزو فلسطين!

إزاء النكبتين القائمتين سواء بوجود القوات الأمريكية فى الخليج واستمرار حصارها للعراق وقصفه، والعدوان الهمجى الصهيونى على الشعب الفلسطينى، يعود المشروع القومى للوحدة العربية ليطل برأسه من جديد، ولكن فى صيغة ديمقراطية ، لا تقوم على الاستبداد ولا على تحكم حزب واحد، ولا حتى الالتفاف حول زعيم واحد، ولكن على أساس أن يكون المواطن العربى الحر فى كل مكان هو أساس هذه الوحدة ، التى يمليها أيضا أنها الاطار الوحيد الذى يمكن فى ظله للوطن العربى أن يتدارك ما فاته من تطور علمى واقتصادى فى عصر الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات.

المطروح الآن فى الضمير العربى أن يكون أساس الوحدة العربية مؤتمر منتخب انتخابا حرا مباشرا من الجماهير العربية على غرار البرلمان الاوربى، وصولا الى ما يشبه الكونجرس الأمريكى، وخاصة وأن فكرة البرلمان الموحد قد جرى اقرارها بالنسبة للقارة الأفريقية فى قمتها المنعقدة فى سرت بليبيا فى العام الماضى، وغير معقول أن يكون الوطن العربى أكثر تخلفا فى هذا المجال أو أقل احتياجا لتلك الوحدة من أفريقيا.

.. فى اتجاه هذا الحلم الكبير، يكمن مستقبل جامعة الدول العربية فى عهدها الجديد!. ■



أفندينا في المنفى

الحاكم الذى أفقر البلاد وأسعد العباد !

بقلم
محفوظ عبد الرحمن

من يستطيع أن يخترق ضباب الزمن ليتخيل كيف كان رجلا كالخديو إسماعيل فى عام ١٨٧٩ ؟

لكن هناك من الدلائل ما تجعلنا نرى أن الرجل قد أحس بالاجهاد من رحلة حكم متعبة دامت ستة عشر عاما ، فلقد أشار مرات إلى استعداده للتنازل عن عرشه . حقاً نعرف أن إبداء هذا الاستعداد أمر يختلف تماما عن تنفيذه عند أصحاب الكراسى ، لكن من ناحية أخرى لم يكن من مفردات حكام هذا الزمان التلويح بالاستقالة ، فلقد كان فى يقينهم إنهم يحكمون بمد إلهى .

وكان إسماعيل الذى أدار معاركه بحماس كبير قد أحس بتعب أقرب إلى اليأس رغم إنه لم يكن قد وصل إلى سن الخمسين بعد .

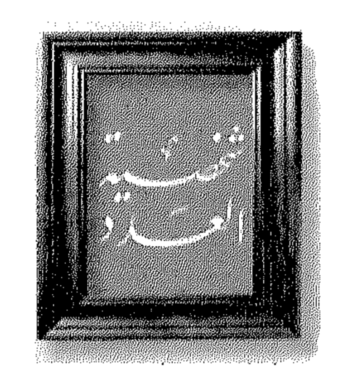

الخديو
اسماعيل

كانت قضية الديون قد أدخلته في صراع مع أوربا التي كانت تتطلع إلى إحتلال مصر في موجة الاستعمار النشطة في ذلك الوقت .

وكان الخديو قد أصدر في ٢٢ أبريل من العام الذي أشرنا إليه وهو ١٨٧٩ مرسوما بتسوية الديون مبنيا على الروح الوطنية التي تبناها من شريف باشا ، والتي بلغت ذروتها في إزاحة الوزير البريطاني والوزير الفرنسي المفروضين على الوزارة أو النظارة بلغة العصر .

إسماعيل يواجه أوربا

وانهالت الاحتجاجات على المرسوم الذي يحافظ على مصالح أصحاب الديون وعلى الاستقلال الوطني خلال شهري مايو ويونيو من ألمانيا في البداية وكان هذا غريبا لأن ألمانيا لم تكن لها طموحات معروفة في الاستيلاء على مصر ، ولكن بسمارك المنتصر كان يريد أن يلعب دوراً عالميا . وبعد ألمانيا احتجت النمسا والمجر وانجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. وهكذا بدا أن أوربا أعلنت الحرب على إسماعيل . وكان أهون أشكال الحرب أن تلجأ إلى الباب العالي لتحصل على فرمان بعزل إسماعيل . وبالطبع كانت هناك سابقة وحيدة في أسرة محمد علي هي عزل محمد علي نفسه عام ١٨٤٠ في فرمان ظل للنهاية حبراً على ورق .

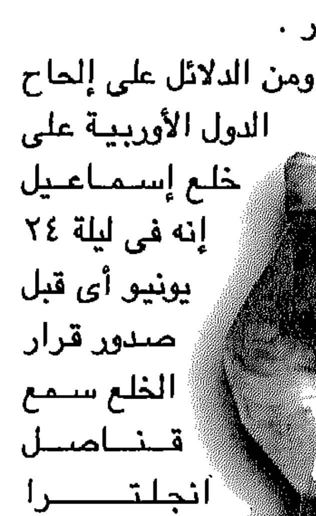


ويبدو أن الدول الأوربية تنبهت إلى أن حق العزل يعطى للسلطان العثمانى نفوذاً كان قد فقده فى مصر منذ زمن فحاولت الضغط على إسماعيل للتنازل عن العرش. ولكن إسماعيل حارب معركته إلى النهاية ، ورفض التنازل مشيراً إلى أن الأمر كله فى يد السلطان . وكان السلطان آنئذ هو عبدالحميد الثانى الذى لم يحب إسماعيل يوما . وكان ربما فكر إسماعيل فى أن السلطان يتوجب عليه أن يحافظ على هيبته أمام الدول الأوربية .

اسماعيل يتسلم فرمان عزله

ولكن عبدالحميد أصدر فى يوم الخميس ٢٦ يونيو ١٨٧٩ إرادة بخلع إسماعيل وتنصيب ابنه الأكبر محمد توفيق باشا خديو على مصر .

ومن الدلائل على إلحاح الدول الأوربية على خلع إسماعيل إنه فى ليلة ٢٤ يونيو أى قبل صدور قرار الخلع سمع قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا شائعة بأن قرار الخلع صدر ، فتوجهوا إلى سراى الخديو ليلا ليخبروه بالأمر ، وأن السلطان قد ولى الأمير توفيق بدلا منه . وهذا يدل على لهفة أوربا على خلع الخديو ، تلك اللهفة التى أوصلت قناصلها إلى حد الجلافة .



ووصلت البرقية إلى قصر عابدين فى ضحى يوم ٢٦ يونيو وتسلمها زكى باشا التشرفاتى . وحاول أن يتخلص من مهمة تسليمها إلى الخديو بإعطائها إلى أحمد خيرى باشا المهردار – وهو أحد رجال الخديو المقربين ومن رجال الدولة بما تعنيه هذه الكلمة من معان ، وكان على شيء من التنور يليق برجال إسماعيل . ولكن خيرى باشا استهول المهمة .

وساقت الصدفة شريف باشا رئيس النظار ، فأعطوه البرقية ، ورأى الرجل أن واجبه يحتم عليه أن يسلم الخديو البرقية ، فصعد إلى الدور الثانى فى عابدين ، وقدم للكه البرقية . وبالطبع لم يفاجأ إسماعيل، لذلك بدا هادئاً . وطلب من شريف أن يذهب إلى سراى الإسماعيلية ليدعو له الخديو الجديد .

وكان توفيق قد وصلته برقية مماثلة . وصحب شريف إلى عابدين ، ولكنه صعد إلى أبيه وحده . وناداه أبوه «أفندينا» .

والبعض يحكى فى هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى أن توفيق قبل يد والده أو حاول . والبعض يحكى أن إسماعيل قبل يد ابنه أو حاول . وقد يبدو هذا غريباً ، لكنه يبدو تجريداً لفكرة السلطة وأن الحاكم له كل التقدير حتى من أبيه . وربما

كان إسماعيل يحاول إعطاء ماضيه فى الحكم شرعية إذا كان حاول تقبيل يد ابنه أو يد حفيده كما قيل أيضا . وفى غالب الأمر هو أمر مستبعد .

إيطاليا ترحب بإسماعيل

وبعد أن واجه إسماعيل الكارثة الكبرى بدأ يواجه متاعب أخرى ربما بدت أفظع . فلقد اكتشف أن دنياه ضاقت حتى لايعرف أين يذهب . ذلك أن السلطان عبدالحميد رفض أن يعيش إسماعيل فى أسطنبول ولا فى أى مكان فى الدولة العثمانية ولم يكن أمام إسماعيل إلا الدول الأوربية التى أعلنت عليه كراهية أظن إنها مستمرة حتى الآن!

ولحسن حظ إسماعيل كانت علاقته بالأسرة المالكة الإيطالية علاقة طيبة . ولم تكن إيطاليا قد دخلت فى سياسة الضغط على إسماعيل . ولذلك رحب الملك فيكتور عمانويل بإسماعيل وخصص له أحد قصوره.

وفى يوم ٣٠ يونيو ترك إسماعيل القاهرة بالقطار متجها إلى الأسكندرية . وخرج موكب إسماعيل فى عربة ملكية وإلى يساره الخديو الجديد . وحول العربة الفرسان وصدحت الموسيقى تودع الخديو السابق .

وربما لم يدهش إسماعيل للوداع الشعبى الساخن . ولكن الجميع دهشوا له ، أما لأنه ليس من عادة الشعوب أن تودع بحرارة الحكام المهزومين ، وأما لأن إسماعيل كان فى أسوأ أوقاته . لكن إسماعيل الذى كان قد أغرق البلاد فى

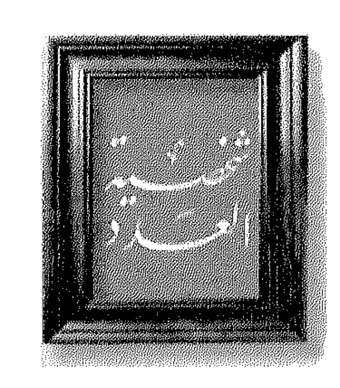


السلطان عبد الحميد — الخديو توفيق

الديون كان قريبا من الناس بإنجازات كثيرة من شورى النواب إلى الكتبخانة إلى السكة الحديد إلى التخطيط العمرانى إلى شىء من الاستقلال إلى المنابر الثورية خاصة متاتيا الأفغانى ، حتى قيلت كلمة فى وداعه «إنه أفقر البلاد وأسعد العباد» فعبرت عن الحالة .

وفى المحطة عانق إسماعيل ولده عناق الوداع . ولعله كان يعرف إنه لن يراه بعدها . وأوصاه بكلمات صاغها البعض غالباً فيما بعد وهى كلمات تقليدية فيها شى من الحكمة ووصل إسماعيل إلى نابولى وعاش فترة ظن إنها أسوأ فترات عمره . وظل يلح على السلطان أن يسمح له بالحياة فى أسطنبول . ويبدو أن السلطان أدرك أخيراً إنه خير له أن يجمع تحت بصره كل من يخيفونه بدءاً من إسماعيل وجمال الدين الأفغانى ، بدلا من أن يتركهم أحراراً فى أوربا .

وتوفى الخديو توفيق فى ٧ يناير ١٨٩٢ وهو فى الأربعين من عمره ، وتولى بعده ابنه عباس حلمى الثانى وهو دون سن الرشد . وبدأ الخديو الجديد



ثوريا يسعى للاستقلال وشارك الزعيم مصطفى كامل فى كثير من آرائه ، ومن بينها أن الدولة العثمانية بما لها من سلطة أسمية هى سندها فى الخلاص من الاحتلال البريطانى الذى نزل بالبلاد فى عهد توفيق ولذلك فكر عباس فى زيارة السلطان ليستمد منه العون على الكفاح ضد المستعمر .

لقاء حميم

وفى يوليو ١٨٩٣ أعلن الخديو عباس إنه سيسافر إلى الأستانة لتقديم الشكر للسلطان عبدالحميد الثانى على الموافقة على اختياره خديو مصر . وهو بالتأكيد يعرف أن الاختيار كان من الانجليز – كما قال كرومر فيما بعد – ولكنه أراد أن يحول العلاقة مع السلطان من علاقة شكلية إلى فعلية .



وكانت زيارة عباس للأستانة أول زيارة خديوية منذ زيارات جده إسماعيل . لذلك خرج فى ثلاث سفن هى «الفيوم» و«الشرقية» و«القاهرة» وتضم الحاشية ومائة من الأعيان .

وكانت هذه الزيارة هامة للخديو السابق إسماعيل الذى لم ينطفىء شوقه إلى مصر التى تركها قهراً . وركب زورقاً لكى يستقبل حفيده قبل أن يصل إلى أرض الأستانة التى عاملته – أى إسماعيل – بقسوة لم يتوقعها .

وماحدث متفق عليه بنسبة كبيرة . لكن الروايات تختلف داخل هذا الأتفاق .

عند أسفل سلم الباخرة وقف أحد الياورات يستقبل الخديو السابق ، الذى صعد السلم ليسلم على حفيده .

وهم الحفيد على إحدى الروايات بالنزول فكاد أن يتعثر فسنده الجد مما فجر حالة حميمية جعلت العيون تغرورق بالدموع . وأراد الحفيد – وهو الآن السلطة – أن يقبل يد جده ولكن جده لم يمكنه من هذا .

وصعدا إلى ظهر السفينة حيث دارت بينهما أحاديث لعل بينها رغبة إسماعيل أن يعود إلى مصر ليقضى فيها بقية أيامه.

دور الأعيان

وفى هذه الزيارة لعب الأعيان دوراً يكاد يكون مجهولا ، ذلك إنهم أتوا معهم بعريضة من المصريين تستنجد بالسلطان العثمانى لينقذ مصر من الاحتلال البريطانى . وظاهرهم فى مطالبهم جمال الدين الأفغانى الذى أصبح الآن ضيفاً على السلطان يمنحه ثمانية جنيهات شهرياً، ويحاصره بالبصاصين . ويتورط

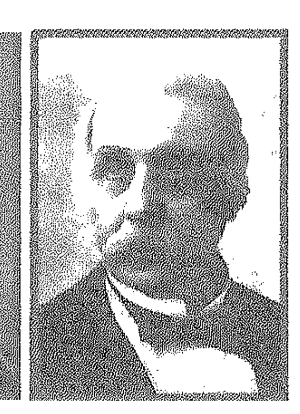
فيما بعد - على ما يقال - بقتله أو التعجيل بموته .

ولا أعرف كيف كانت علاقة إسماعيل بالأفغانى فى المنفى ، وهل كان يلتقيان أم أن كلا منهما كان مشغولا بأموره .

وكان إسماعيل حمى الأفغانى الذى لم يكن بالتأكد مناصراً له ، إلى حد أن قيل إنه دبر مؤامرة لاغتياله . ومع ذلك لم يطرد الأفغانى من مصر إلا فى عهد توفيق .

وأراد الأفغانى أن يقابل السلطان الأعيان المصريين ، ولكن السلطان تنصل وأولم لهم وليمة . وأراد الأعيان أن يحتفظوا ببطاقات الدعوة على سبيل التذكار . ولكن السلطان لم يوافق على هذا . وهو سلوك غريب لايبدو مفهوما إلا من عبدالحميد الثانى . لكنه وافق على أهدائهم بعض الزهور . وكأنه أراد أن يقول أن مساندته لاتتعدى عمر الزهور . وقال السفير البريطانى فى الأستانة أن السلطان نصح الخديو بأن يفوض أمره إلى الله فى أمر الاحتلال البريطانى ، وقال القائم بالأعمال أن الأعيان لم يقابلوا السلطان بل لم يقابلوا الخديو نفسه .

وطلب إسماعيل من حفيده أن يسمح له بالعودة إلى مصر ، فرحب بذلك . ولما عاد عرض الأمر على مجلس الوزراء فرفض . والبعض يحمل عباس مسئولية الرفض ، فلقد كان إسماعيل ذا شعبية كبيرة خلقت أسطورة احتمال عودته إلى الأريكة الخديوية . ومن الطريف أن نفس الأسطورة صاحبت عباس نفسه عندما عزل .



نوبار باشا

الخديو عباس حلمى

ويبدو أن نوبار باشا كان ذا ثأر لدى إسماعيل لذلك ظل يقاوم عودته إلى مصر بكل وسيلة .

وانهارت صحة إسماعيل إذ أدرك أن عودته صارت حلماً بعيد المنال ، وأنه صار سجين الأستانة لايرضى السلطان بسفره إلى أى مكان ، ولو للعلاج .

ولما ساءت حالة إسماعيل أرسل الخديو عباس الأمير أحمد فؤاد والأمير إبراهيم حلمى عمى عباس وولدى إسماعيل ليطمئنا عليه .

وفى احتضاره فى يناير ١٨٩٥ أوصى ولديه فؤاد وإبراهيم بأن يدفنوه فى مصر . ولما عادا بهذه الوصية بنى عباس قبر لجده فى مسجد الرفاعى .

وفى ٢ مارس ١٨٩٥ توفى إسماعيل فى قصره على البسفور الذى عاش فيه سبع سنوات سجين سلطان مستريب وكان قضى فى المنفى ستة عشر عاما كما قضى فى الحكم ستة عشر عاما ولما عاد جثمان «الرجل الذى أفقر البلاد وأسعد العباد» استقبله شعب مصر بحرارة فاقت وداعه . ■

ملاحظات حول

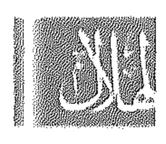


بينالى القاهرة الثامن للفنون التشكيلية

بقلم

د. صبرى منصور

افتتح فى منتصف شهر مارس الماضى بينالى القاهرة الدولى للفنون التشكيلية فى دورته الثامنة، وتوزعت أعماله بين قاعات وزارة الثقافة جميعا - مركز الجزيرة للفنون، قصر الفنون، متحف الفن الحديث، مجمع الفنون، قاعة الهناجر، قاعة الأوبرا، وقد شاركت فيه إحدى وخمسون دولة بفنانيها الذين بلغ عددهم مائتين وثلاثين فنانا، تنوع إبداعهم ليشمل كل الأساليب والاتجاهات الفنية بدءا من الأساليب التقليدية وحتى التجارب التى هى أقرب إلى البدعة والطرافة.



ولا شك أن وزارة الثقافة قد وفرت كل الإمكانيات المتاحة لإنجاح هذا البينالى الذى يحمل اسم عاصمة مصر، فدعمت جوائزه لتبلغ جائزته الكبرى أربعين ألف جنيه، وخمس جوائز قيمة كل منها عشرون ألف جنيه، وسبع جوائز قيمة كل منها سبعة آلاف جنيه، وذلك بالإضافة إلى تكلفة استضافة الفنانين ومصاريف إقامتهم، فمجموع كل ذلك يشكل مبلغا لا بأس به بالمقارنة بميزانية مصر المحدودة، مما يعكس اهتمام الدولة بقيمة وأهمية النشاط الفنى التشكيلى، ويمنح مصر دورا مرموقا فى رعاية هذا الفن، وإتاحة الفرصة كى يكون

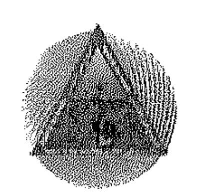


عمل المصور المصرى جورج البهجورى

وسيلة اتصال ثقافى وأداة حوار حضارى بين الأمم.

ظاهرة لافتة

والظاهرة اللافتة للانتباه فى هذه الدورة هى كثرة الأعمال الفنية التى اعتمدت على أفلام الفيديو، التى جاءت إما مكملة للعمل الفنى أو كانت أفلاما مستقلة بذاتها، مما يطرح تساؤلا عن مدى ارتباط هذه النوعية من الأفلام بمجال الفنون التشكيلية، فهى باعتمادها على التعبير بالصورة السينمائية المتحركة وتوالى المشاهد فيها فإنها تبلغ بالمشاهد ذروة معينة، وهى بهذا الاعتماد على عنصر الزمن فإنها تخرج عن دائرة الفن التشكيلى إلى دائرة تعبير مختلفة ليست أقل قيمة من الفن التشكيلى ولكنها لا



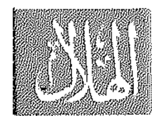
تنتمى إليه. ونضرب مثلا على ذلك بفيلم الفيديو للفنان الفرنسى « آلان ديكليرك» الذى يعرض مشاهد متوالية تؤدى إلى جريمة قتل، معتمدا فى ذلك على عناصر التصوير السينمائى التسجيلى وصناعة الأفلام، وهو بهذا قد تحول إلى فيلم روائى قصير رغم اعتماده على الجماليات العالية للصور والمشاهد، وإيلائه اهتماما فائقا للعناصر التشكيلية فيها.

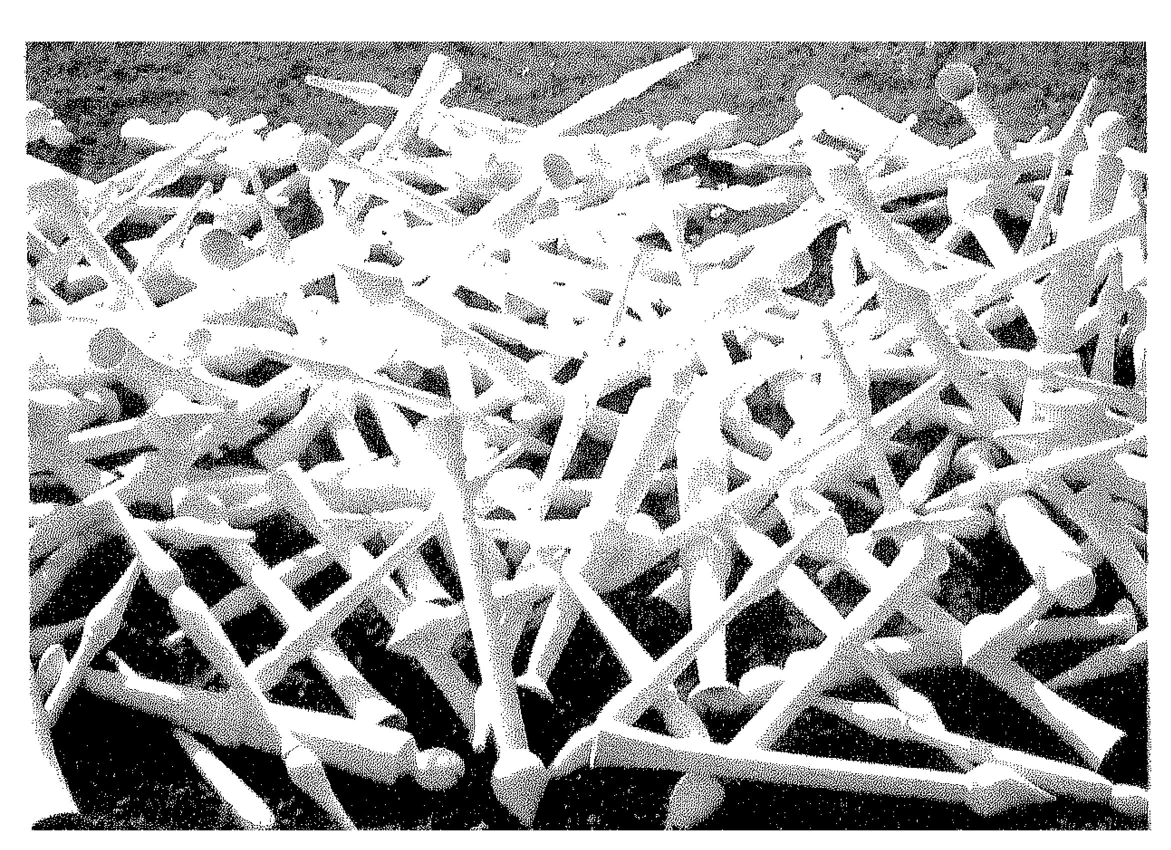
وصحيح أن الحدود بين الفنون تتلاشى، واستعارت بعض المجالات الفنية ملامح وسمات من فنون أخرى، ولكن لابد أن نحافظ على ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الفنون وبعضها، فإذا كان الفيديو - منذ سنوات عديدة - فى أوربا وأمريكا قد دخل مشاركا للعمل الفنى التشكيلى إلا أن مشاركته كانت بهدف الإضافة وإثراء جماليات هذا العمل بالضوء والإيهام بالحركة. أما الاتجاه نحو استقلال فيلم الفيديو واعتباره ابداعا تشكيليا فى حد ذاته فنعتقد أنه نوع من الخلط، فمكانه بين وسائط التعبير الفنية الأخرى الأقرب إلى طبيعته وتقنياته التى تحتاج إلى فريق عمل - مصور ومونتير وموسيقى - وستكون طبيعة عمل صاحبه هو الإخراج. وفى أوربا تقام لمثل هذه النوعية الجديدة من الابداع الفنى تجمعات خاصة بوسائل الاتصال والسينما، وفى سويسرا يقام مهرجان خاص بفن الفيديو فى مدينة جنيف منذ سبع سنوات وكذلك فى فرنسا وأمريكا، ويجب أن نتنبه فى مصر إلى فصل فن الفيديو عن معارض الفن التشكيلى، ويمكن أن نقيم له نشاطا خاصا إذا أردنا الاهتمام به وإلقاء الضوء على نوعية جديدة ومستحدثة فى مجال التعبير الفنى، أما إذا لم نفعل ونتنبه فلنا أن نتخيل البينالى القادم وقد تحول إلى شاشات عرض وأفلام فيديو روائية أو تسجيلية وما يعنيه ذلك من إفناء لفنون التشكيل من نحت ورسم وتصوير وجرافيك، وربما سيكون لهذه الظاهرة اللافتة لتقدير فن الفيديو أثر على عديد من شباب الفنانين المصريين، بالإضافة إلى أن ذلك سيخلق بابا سهلا يدلف منه - تحت دعوى الحداثة - أولئك الذين يفتقدون الإمكانيات والمواهب والحساسية الفنية التشكيلية.

أخطار العولمة في مجال الفنون

ولعل هذا المعرض بما يقدمه من نماذج متنوعة لإبداع الإنسان فى مناطق مختلفة من العالم تتباين ثقافاتها مما يسمح بعقد المقارنات والكشف عن مدى التأثر والتأثير فى الإبداع الفنى المعاصر، ومن السهل ملاحظة درجة عالية من التفوق الفنى تحققه البلاد المتقدمة، أو النخبة الثقافية المتطورة التى تتسيد العالم فى جميع المجالات اقتصادية كانت أو

عمل للمثال الايطالى بيتروكوفساجرا

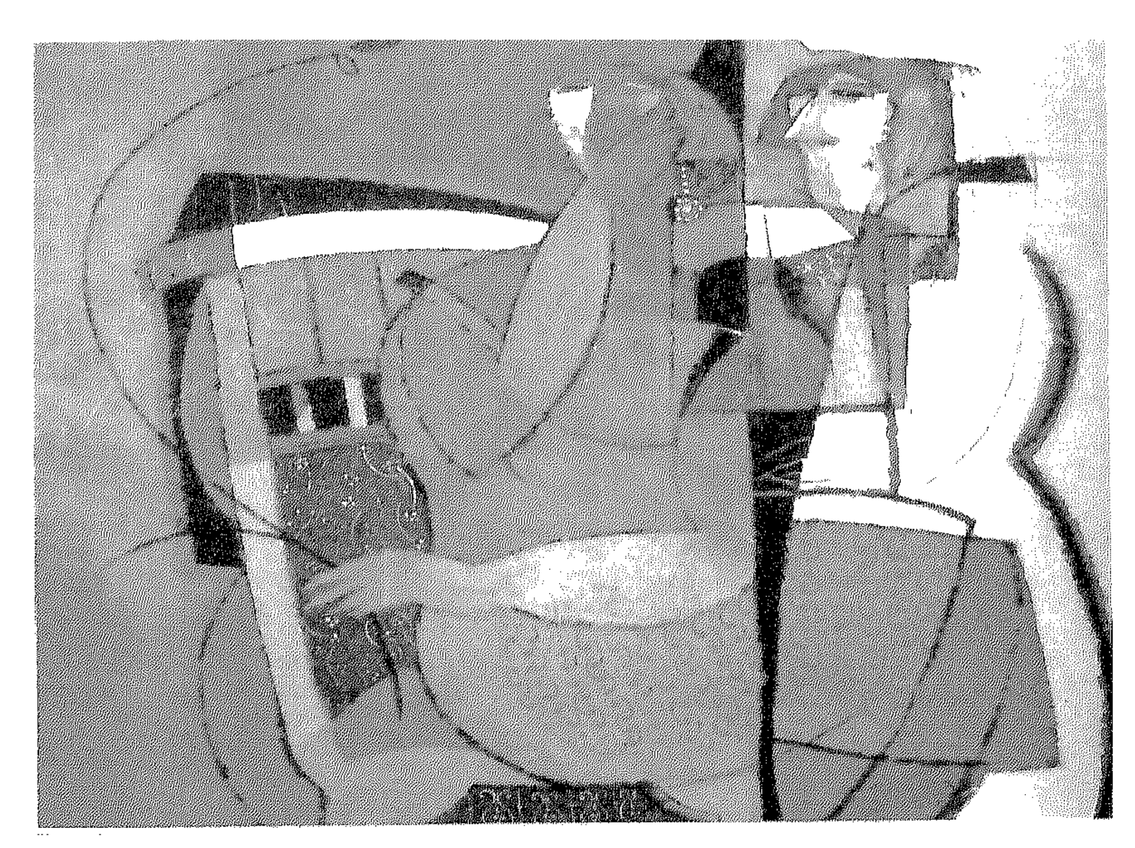




عمل للفنان الهولندى رمكوبوستوف

فنية، ومازال تأثيرها واضحا فى إبداع الدول النامية أو دول العالم الثالث. وكالعادة منذ سنوات عديدة تقدم أسبانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا نماذج من الإبداع المتفوق الذى يشهد ببراعة فنانيه وقدراتهم على التجديد المستمر، وارتياد آفاق جديدة فى أعمالهم وهم يحققون التفوق عبر وسيلتين الأولى هى الحذق والمهارة الفنية فى السيطرة على عناصر التشكيل والتعامل بحساسية فائقة مع المسطحات المرسومة أو الأشكال المنحوتة، وكل ذلك يبدو واضحا حتى فى تلك الأعمال الفنية المغرقة فى التجريب والتحديث، والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها أعمال الفنانين الإسبانيين ماريانا مونيز وخوسى لويس باخاريس، وكذلك الفنان الإيطالى جيوسيب موديكا الذى استطاع أن يوفق - فى نوافذه الضخمة المرسومة - بين المعالجات الأكاديمية المرهفة والمبهرة وبين حداثة الشكل والتصميم، وكذلك المثال الإيطالى بيتروكو نساجرا بمنحوتاته المسطحة العملاقة، وأيضا المصورة الإنجليزية باتريشيا ميلينز بمجموعة أعمالها التى عالجت فيها اللون الأزرق بمهارة فائقة.

أما الوسيلة الثانية التى تحقق لفنانى هذه الدول التفوق والريادة فهى استفادتهم مما تحقق فى بلادهم من تطور صناعى وتكنولوجى أتاح لهم استخدام خامات جديدة ووفر لهم امكانية تقديم أعمال

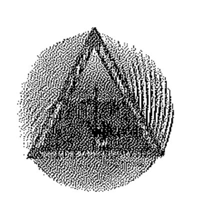


عمل للفنان ابراهيم محمد بوسعد - البحرين

تعتمد على عناصر تكنولوجية معقدة أسهمت فى إثراء الإبداع التشكيلى ومنحته عناصر تعبيرية مبتكرة.

وإذا كان التفوق الفنى واضحا فى ابداع الدول المتقدمة فإن النظرة المتفحصة لإنتاج الدول الأقل تقدما أو النامية ومن بينها بالطبع الدول العربية والإفريقية والآسيوية - للكشف عن مظاهر التميز والاختلاف، تظهر لنا مدى التبعية والانسياق لفنون الغرب، وذلك ليس فقط فى اتجاهاته الحديثة والمعاصرة كفن الفيديو والعمل المركب، وإنما بدءا من مدارس الفن الحديثة المعروفة والتى توالى ظهورها منذ بدايات القرن العشرين كالسيريالية والتجريدية، وفنانو هذه الدول يبدون منساقين إلى اتباع نماذج جاهزة وطرق تأليف وصياغة فنية تم استخدامها من قبل، وذلك على الرغم من الموضوعات المحلية التى تناولوها وعبروا عنها فى أعمالهم.

وذلك يدفعنا إلى التنبيه إلى خطورة تلك السيادة والهيمنة الفنية على فنون العالم، ويدعونا إلى ضرورة التأكيد فى أنشطتنا الثقافية على مخاطر الاندفاع نحو مجاراة أساليب التعبير الأوربى، وعدم السعى نحو تخليق أساليب بديلة لها مقوماتها الذاتية واستقلاليتها الفنية، ولقد كان مناسبا فى رأينا وقد انشغلت النخبة الثقافية فى مصر خلال السنوات الماضية بالحديث عن مخاطر العولمة، وعبر الجميع



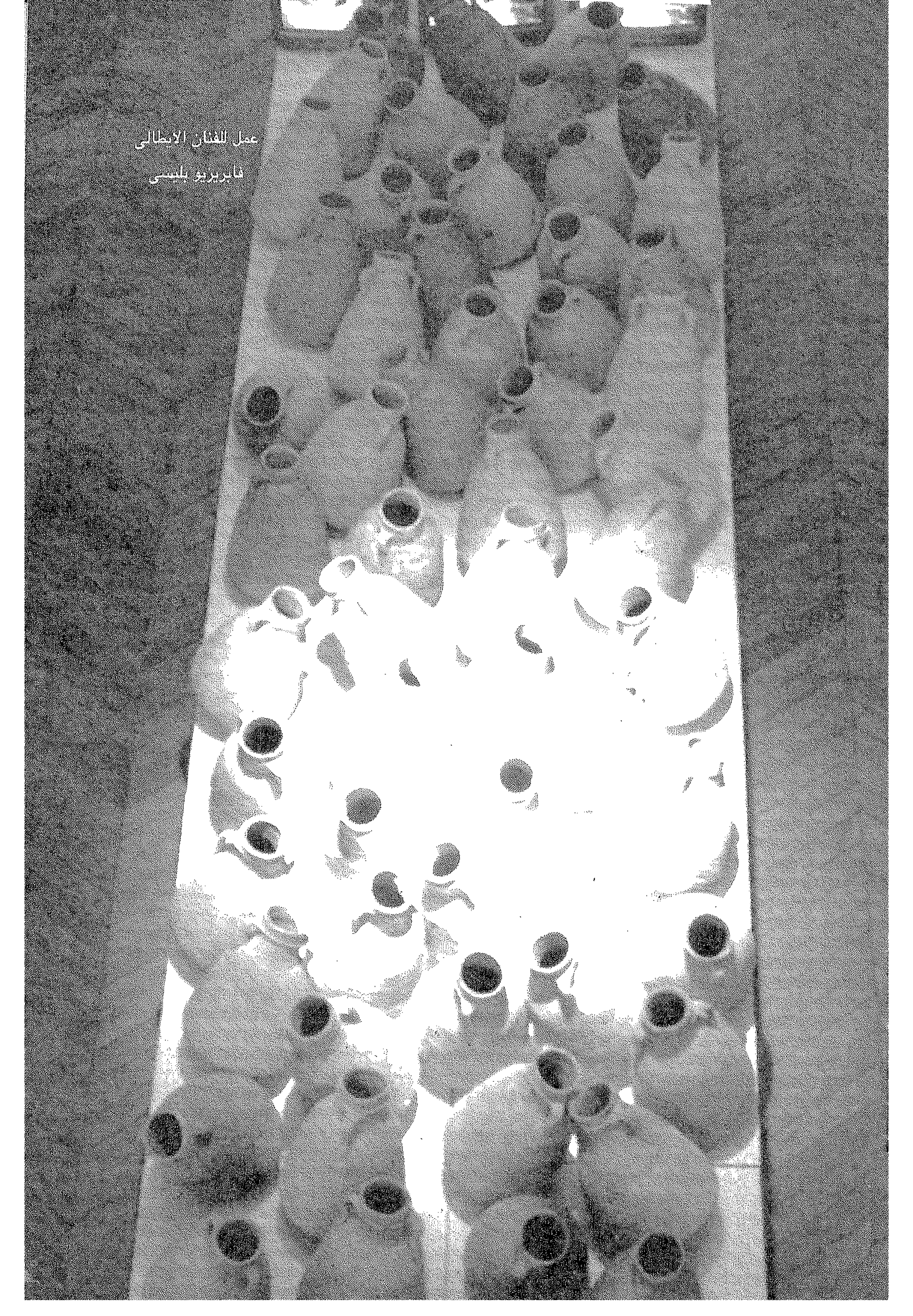
عن مخاوفهم من طمس ملامح الشخصية الثقافية المصرية، أن يكون محور البينالى لهذا العام هو الذاتية الثقافية وكيف يمكن للفنون التشكيلية أن تكون وعاء لها، فربما كان ذلك التكريس لموضوع الساعة بمثابة التنبيه لإحياء العوامل الإيجابية الخلاقة التى تدفع الفنانين فى بلدنا وبلاد مثيلة فى وضعنا الثقافى إلى تجسيد أساليب تشكيلية مستقلة ومتميزة تساهم فى إثراء التجارب الفنية الأخرى، ولكى يكون هذا البينالى بالفعل بمثابة حوار حقيقى بين ثقافات متمايزة ومتنوعة.

تمثيل الدول في البينالي

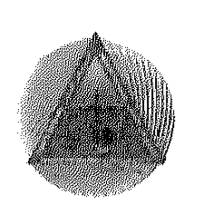
بدأ بينالى القاهرة أولى دوراته فى عام ١٩٨٤ تحت اسم بينالى الفن العربى، منطلقا من فكرة واضحة هى تجميع للرؤى الفنية الإبداعية على مستوى العالم العربى وضم أعمال فنانى اثنتى عشرة دولة، مختلفا فى ذلك عن بينالى الاسكندرية الذى كان مخصصا للدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط العربية منها والأجنبية، وفى الدورة الثانية لبينالى القاهرة رؤى تطعيم المعرض بخمس دول أوربية ازداد عددها تباعا فى الدورات اللاحقة متحولا بذلك إلى بينالى دولى، ولم يتم هذا التحول بناء على رؤية محددة واضحة تتسم بالاستقرار، ففى كل دورة تظهر مشاركات جديدة وتختفى مشاركات سابقة، وحين تفحص مدى الالتزام بمشاركات الدول فى كل دورة فلن تجد سوى أسبانيا وسلطنة عمان وفلسطين وقبرص، وحين تتابع أسماء الدول فلن تستطيع أن تفهم لماذا يقع الاختيار على تلك الدولة وليس على أخرى، وخاصة إذا تم تجاهل دول معينة معروفة بفنونها ذات المستوى الرفيع مثل اليابان والمكسيك وجنوب أفريقيا بينما تدعى هذا العام بلاد مثل بوركينا فاسو وموريشيوس وجورجيا.

فإذا كنا قد ألغينا مبدأ اقتصار البينالى على الدول العربية أفلا يجب أن نضع مبدءا ثقافيا جديدا يهدف إلى عرض المستوى الرفيع من الفن التشكيلى العالمى باختيار الدول وفقا للتمثيل الجغرافى ومدى نضوج الفنون التشكيلية فيها فى آن واحد، واعتمادا على ذلك فإنه يجب استبعاد البلاد التى مازالت فنونها فى طور الولادة والنمو، سواء كانت تلك البلاد عربية أو أجنبية فليس المهم هو كثرة الأعمال المعروضة فى البينالى، والدليل على ذلك هذا البينالى نفسه إذ ضم عشرات الأعمال التى ما كان يجب عرضها لهبوط مستواها وتدنى قيمتها الفنية وعدم احتوائها على ما يستحق التأمل والمشاهدة، بل إنها فى الواقع تسئ لمستوى البينالى الذى يجب أن يكون لديه حد أدنى لمستوى القيمة الفنية لا يتخطاه.

وعلينا فى نفس الوقت أن نلتزم بدعوة نفس الدول التى يتم اختيارها فى جميع



عمل للفنان الايطالى
فابريزيو بليسى



الدورات، لأن البينالى بهذا الالتزام يؤكد على انتظامه واحترامه للتقاليد المرعية فى نظم إقامة هذه المحافل الدولية.

وقد جاء أيضا عدد الفنانين الممثلين لكل دولة غير خاضع لنظام بعينه فهناك دول مثلت بفنان واحد فقط مثل جمهورية التشيك والنرويج وإيران وباكستان بينما مثلت دولة محدودة فنيا مثل البحرين بأحد عشر فنانا، كما بلغ عدد فنانى السعودية سبعة عشر فنانا، وقد فاق عددهم بذلك عدد فنانى مصر وعددهم ثلاثة عشر فنانا.

كما أن توزيع أماكن العرض لم يمنح الفرصة المتكافئة للدول فى عرض أعمال فنانيها والبيناليات العالمية -حرصا على هذا التكافؤ- توضح فى دعوتها للدول المشاركة أماكن العرض المتاحة بالأمتار المربعة.

ولم يتضمن المعرض أجنحة واضحة للدول، وهناك أعمال عديدة لدول تفرقت أماكن عرضها وذلك يعوق بالطبع تكوين فكرة عامة عن مستوى كل دولة برؤية جميع أعمال فنانيها فى مكان واحد، وهو ما تحرص عليه أيضا البيناليات الكبرى بل إنها تخصص جائزة لأفضل جناح بما يحتويه عامة من أعمال وهى جائزة حصلت عليها مصر نفسها فى إحدى دورات بينالى فينيسيا.

لجنة التحكيم

ويأتى أسلوب تشكيل لجنة التحكيم دليلا على عدم الالتزام بقواعد ثابتة ومستقرة ومستمرة للبينالى فمن ناحية عدد أعضائها فقد تفاوت منذ بدء البينالى عام ١٩٨٤ فمرة تكون من خمسة عشر عضوا ومرة من ثمانية أعضاء، ثم من خمسة ثم من سبعة أعضاء. وفى الوقت الذى يفرض فيه المنطق - بحكم أن البينالى عالمى الطابع - ألا تمثل دولة بأكثر من عضو واحد، فإننا نجد فى هذه الدورة عضوين من اسبانيا وعضوين آخرين من إيطاليا، وهكذا يمكن أن تقوم البلدان - فى حالة اتفاق أصوات محكميها الأربعة - بتحكيم البينالى إذ يمثلون الأغلبية بين السبعة أعضاء، وإذا أضفنا إلى ذلك أن رئيس اللجنة عضو من فرنسا فإننا نستطيع القول بأن التقييم يصدر عن رؤية ثقافية تشكيلية واحدة هى الثقافة الأوربية. ولقد خلت لجنة التحكيم هذا العام من أى عضو ينتمى إلى الدول العربية رغم مشاركة جميع الدول العربية فيما عدا ليبيا.

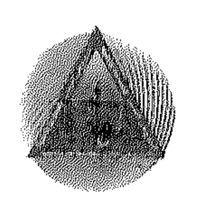
وذلك يدعو إلى وضع نظام مستقر للمبادئ التى تشكل على أساسها لجان التحكيم من ناحية عدد أعضائها وكذلك من ناحية تنوع تمثيلها للدول المشاركة مما يكفل عدالة أكثر من التقييم ويمنح الاطمئنان للدول المدعوة للمشاركة.

ضيوف الشرف

وكذلك من الظواهر اللافتة كثرة عدد ضيوف الشرف من الفنانين وقد بلغ ستة



جرافيك لمنصورة حسن - باكستان



من بينهم فنانان إيطاليـــان، ولا شك أن اختيار ضيف واحد أجنبى وآخر مصرى كان له معنى أفضل، وفيه تكريم حقيقى للفنان المستضاف.

ولقد احتلت أعمـال ضيوف الشـرف مساحات شاسعة من البينالى وتم عرضها متناثرة بين الأعمال الفنية المشاركة، وقد أدى ذلك إلى طغيانها على أعمـال باقى الفنانين أصحاب الحدث الأصليين وكان يجدر تجميع أعمال الضيوف فى مبنى أو مكان منفصل يستـقل بعـرض أعمـالهم محافظة على عرض البينالى نفسه ومنعا للخلط وإرباك المشاهد.

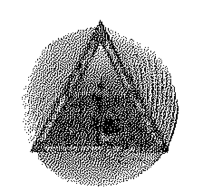
أما عن توصيف ضيف الشرف فهو أيضـا لم يكن واضحـا، فـهل هو الفنان صـاحب التـجربة الفنية المتـميـزة التى استقرت ملامحها واتضحت قيمتها؟ أم أنه الفنان الذى يمـتلك إلى جـانب هذه التـجربة تاريخـا عريضـا وأدرك مرحلة سنيـة تحـول بينه وبين المشـاركـة فى البيناليات كـمتسـابق تخضـع أعمـاله للتحكيم والتقييم، فلا يبقى هناك مفر من دعـوته كـضيف شـرف فى البينالى، لا ليعرض بعض أعماله الجديدة وإنما ليقدم بانوراما عـريضـة لإبداعـه، ونماذج من تدرج تجربته وملامح من مشواره الفنى. ولعل هذا الرأى يصـدق على الضـيـفـين المصريين الفنان جورج البهجورى والفنان صـالح رضـا، فكلاهمـا مـازال فى قـمـة عطائه وإبداعـه، وكـان الأجـدر أن يمـثـلا بلدهما مـشـاركين، وكلنا يذكر مشاركة الفنانين الراحلين حامد ندا ومنير كنعان فى أول دورة لهـذا البـينالى ذلك إذا كنا نريد بالفعل أن نسمـو بقيمـة هذا الحدث الفنى الكبير ونسبغ عليه القيمـة الرفيعة، تاركـين لصـالون الشـبـاب الأشكال التجريبية التى لم تكتمل ملامحها والتى تسيدت المشاركة المصرية هذا العام.

الدعوات الخاصة

ولعل من أغـــرب الظواهر فى هذا البـينالى ظاهرة الدعـوات الخـاصـة، فبالإضافة إلى عدم وضوح معناها وهدفها فإنها لم تعتمد على نظام أو قاعدة. وإذا كان من المفهوم لهذه الدعوات هو اهتمام إدارة البـينالى بضـرورة وجـود بعض الشخـصيات ذات المستوى الفنى الرفيع لذلك فهى إذ تحـرص على مـشـاركـتهـا وخـشـيـة من عـدم قـيـام الدولة المعنيـة باختـيارها لتمثيلها فإنها توجه دعوة شخصية لها للمشاركة فى البينالى، وربما يكون ذلك مقبولا رغم عدم استحسـانه لو تم فى أضيق الحدود الممكنة لما يمكن أن يسـبـبه ذلك الاختـيار من حسـاسـيات للمشاركة عن طريق أجهزة الدولة المعنية، إذ يعنى أنهم غير كافين للتمثيل الجيد، ولهذا وجهت دعوة شخصية لمن هو أجدر منهم بالمشـاركة. نضـيف إلى ذلك أنه لم يتم الالتزام بمبدأ توجيه الدعوة الشخصية



تكوين للفنان كير على من بوركينا فاسو



للفنانين أصحاب التجارب الراسخة والمتميزة، إذ يتضح من سيرة حياة العديد منهم أنهم مازالوا فى بدايات تجربتهم الإبداعية ولقد تم توجيه دعوة شخصية لثلاثة وستين فنانا من دول مختلفة بنسبة أكبر من ربع عدد الفنانين العارضين، وحين تراجع كيف توزعت تلك الدعوات الشخصية على جميع الدول فستجد أنها لم توجه لأى فنان من أسبانيا أو الكويت أو المغرب أو أمريكا أو إيران أو هولندا بينما وجهت تلك الدعوة الشخصية لخمسة فنانين من البحرين بالإضافة إلى الخمسة الذين رشحتهم الدولة، أما السعودية فقد رشحت الدولة ثمانية فنانين بينما وجهت الدعوة الشخصية إلى تسعة فنانين آخرين، أما مصر فقد رشحت خمسة فنانين بينما وجهت الدعوة الشخصية إلى ثمانية فنانين آخرين.

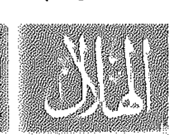
ولقد أدى ذلك إلى خلط لم يكن له ما يبرره، فقد خلق تصنيفات فى البينالى ما بين ضيوف شرف وفنانين متميزين وجهت لهم دعوات شخصية وطبقة أخيرة من الفنانين الذين اختارتهم بلادهم لتمثيلها، وقد وضح هذا التقسيم فى دليل المعرض الذى تم إعداده وفقا لهذا التصنيف الذى نراه بدعة لا تنتمى إلى تقاليد البينالى المعروفة.

ملاحظات على العرض

ولقد كان يحسن العمل على تضييق نطاق عرض البينالى ليشمل قاعات قصر الفنون ومجمع الفنون، وترك قاعات مركز الفنون والهناجر والأوبرا للنشاط التشكيلى الذى يتزايد عاما بعد عام، وخاصة أن فترة البينالى تمتد إلى ثلاثة شهور تمثل ذروة نشاط الموسم الفنى كما أن التوسع الزائد - دون داع - بتخصيص القاعات الستة للبينالى قد أدى إلى وجود أماكن كثيرة مغلقة لعدم الحاجة إليها سواء فى مجمع الفنون أو فى قصر الفنون، كما أدى إلى وجود حوائط عرض خالية لدرجة أنه تم عرض إعلانات البينالى على حائط مستقل إلى جوار الأعمال الفنية بقاعة مركز الفنون وذلك حتى لا يترك الحائط خاليا.

كما أدى هذا التوسع أيضا إلى تخزين الأعمال الفنية بمتحف الفن الحديث طوال شهور عرض البينالى الثلاثة، وما فى ذلك من تعطيل لمرفق ثقافى حيوى له دوره فى خدمة الثقافة المصرية.

ويجب إعادة النظر فى المدة التى يستغرقها عرض البينالى، ففى رأينا أن مدة الشهور الثلاثة مدة طويلة، وربما كان الداعى لها الأمل فى أن يسمح الوقت الممتد لأفواج المتذوقين بالحضور وإتاحة الفرصة للرحلات الثقافية القادمة من الأقاليم ومن الدول العربية والأجنبية لمشاهدة المعرض الكبير، ولكننا إذا كنا نعرف وندرك أن ذلك لا يحدث ويعانى المعرض منذ الأسبوع الأول لافتتاحه من الاهمال واللامبالاة من الجمهور ومن



المثقفين المصريين فإنه يكون من الصواب ألا نطيل المدة أكثر من اللازم، ولنعمل فى نفس الوقت على خلق الوسائل الكفيلة بجذب الجمهور وتحفيزه لمعايشة هذا الحدث الثقافى الضخم.

دليل البينالي وأسماء الأعمال

وللبينالى دليل ضخم جيد الطباعة، لكنه للأسف ملئ بالأخطاء، ودليل أى معرض هو وثيقة ثقافية تاريخية لها أهميتها أثناء المعرض وبعد انتهائه فالمعلومات المصاحبة عن الفنانين وسير حياتهم والمقدمات المكتوبة عن أجنحة الدول تعد مصدر تثقيف للمهتمين والمتابعين، لذلك كان يجب أن نوليه العناية والدقة الفائقة فى تنظيمه ومراجعة مادته. وإذا صرفنا النظر عن أخطاء الترجمة والأخطاء اللغوية الصعبة فسنجد صفحتين خاصتين بفرنسا فى أول الدليل وبعد حوالى خمسين صفحة نجد صفحة أخرى تكمل المعلومات عن الفنانين الفرنسيين، كما انتقلت إلى هذا الدليل ظاهرة تفشت فى عديد من المعارض فى مصر، فعند إعداد دليلها يتم نشر أى صور متاحة سواء كانت ستعرض أم لا، وذلك ما كان يجب ألا يحدث فى دليل معرض له ثقله الفنى مثل البينالى، إذ ضم ست صور للوحات الفنان جورج البهجورى لن تجد منها معروضا سوى لوحة واحدة.

أما أسماء الأعمال فقد تم تجاهلها فى هذا البينالى، وصحيح أن العديد من الأساليب الحديثة لا تعطى أهمية لوضع اسم للعمل الفنى يأتى مفسرا وموضحا له، ولكن ذلك لا يعنى عدم وضع الاسم حتى لو كان ذلك الاسم بدون عنوان فذلك الاختيار فى حد ذاته له صلة ما بالعمل الفنى، ومن المعروف أن أسماء الأعمال هى مداخل تساعد المتلقى فى الاقتراب من العمل الفنى وتمهد له السبيل بدرجة ما إلى تذوقه، ومن هنا كان يجب الحرص على احترام رغبة الفنان فى تسمية عمله، وتوضيح ذلك بجانب العمل المعروض، ونشره فى دليل المعرض كذلك، فمن غير المقبول أن نترك الأعمال هكذا مجهلة للمشاهدين يطلق عليها كل منهم ما شاء له من أسماء.

● وفى النهاية فإن كل تلك الملاحظات لا تقلل من قيمة الجهد الكبير الذى بذل فى إقامة البينالى لكننا إذ نبديها برغبة مخلصة وصادقة فى التحسين والارتقاء بهذا المهرجان الدولى ليبلغ أعلى درجة ممكنة من الكمال، فإننا واثقون من أن ذلك هو أيضا مسعى المركز القومى للفنون التشكيلية وعلى رأسه الفنان أحمد نوار بما عرف عنه من الجدية وحب الاتقان فلعل البينالى العاشر يأتى متلافيا لجوانب القصور، وبالغا المستوى الرفيع الذى ننشده جميعا لأنشطتنا الثقافية. ■

المرأة
نصف المجتمع
ونصف الحقيقة



هي المرأة وهي كـذلك نصف الوجـود علي هذا الكوكب، وفي فضائه، هي التي ما فتئت تناضل منذ الخليقة للاعتراف بكيانها وحقوقها، وقد أصبحت وغدت وأمست نصف المجتمع، ونصف الوجود، ونصف الحقيقة، وإنها جديرة بهذه المكانة في عالم اليوم والغد.

ومع تتابع المتغيرات وتبدل الأحوال، عبر الزمان والمكان، ومن خلال التفاعل المتبادل بينها وبين تصاريف السياسة والاقتصاد والمعرفة، أخذت مكانة المرأة تفرض نفسها كواقع موضوعي متجدد فاعل ومؤثر، بعد أن ظل زمانا ساكنا صامتا منفعلا، ويعزز هذا الواقع المتجدد حق المرأة وقدرتها علي المشاركة في صناعة الحاضر والمستقبل، منطلقا لا من مجرد كونها نصف المجتمع فحسب، بل الأهم والأفعل من كونها نصف الوجود، ونصف الحقيقة.

ولما كان تحرير المرأة من القيود التى تكبل حريتها نحو الفكر والفعل معيارا لتقدم الأمم، ورصيدا أصيلا لمشاركتها فى إدارة الحكم، دولة ومجتمعا، تكاثرت مؤتمرات المرأة تحت شعارات متعددة، سواء من قبل الحكومات أو الجمعيات النسائية أو منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة، أو جامعة الدول العربية ومنظماتها النوعية. ويجئ مؤتمر قمة المرأة الذى شاركت فيه السيدات الأوليات فى الدول العربية - والمنعقد برئاسة السيدة الفاضلة حرم السيد رئيس جمهورية مصر العربية فى مطلع هذا العام - يجئ هذا المؤتمر دليلا قاطعا وعلامة بارزة على مدى الاهتمام البالغ الذى توليه الحكومات والمجتمع المدنى والهيئات الإقليمية العربية والمنظمات الدولية لقضايا المرأة، حقا وواجبا، للمشاركة فى جهود التنمية المستدامة، ومواجهة تحديات العولمة بفرصها وإمكاناتها التى تمتزج بمخاطرها وتحدياتها.

بيد أن معظم توصيات المؤتمرات، بل وكثيرا من أوراق العمل والدراسات تعالج مشكلات تلك الثلاثية المتشابكة لحقوق المرأة وواجباتها بصورة منبتة عن سياقها الثقافى التاريخى بعبقه وعبئه، وتنتهى إلى توصيات جزئية كثيرا ما يقال إنها عملية. بيد أنه فى الأغلب والأعم تغفل أو تتجاهل تلك التوصيات والاقتراحات لتنمية المرأة



المرأة

نصف المجتمع ونصف الحقيقة

ولإدماجها فى جهود التنمية، إطارا مهما من إطارات حركتها. وهو المتمثل فى تراثنا الثقافى المتراكم عبر العصور، والذى احتكر الرجل صياغاته وصناعاته ومضامينه وعلامات المرور فى مساراته. ولا تزال ضغوط هذا التراث تمثل قيدا، ظاهراً أحيانا، وخفيا أحيانا أخرى على المشاركة الحرة والإيجابية لتطوير المرأة لذاتها ولمجتمعها ولأمتها.

اضطراب السياق التاريخي الثقافى العام:

من المسلم به منهجيا أن قضايا المرأة سواء على المستوى المحلى أو القومى أو العالمى، شأنها شأن أية قضية مجتمعية أخرى، لا يمكن عزلها أو استقطاعها عن سياقها التاريخى أو عن محيطها الزمانى المكانى، أو عن حركة الثقافة العامة السائدة وقيمها، وما تضطرب به من تيارات جديدة تتدافع وتتصارع مع تلك القيم السائدة الراهنة وعاداتها وتقاليدها ومواضعاتها.

إن تاريخنا الثقافى الحى المتغلغل فى حاضرنا كثيرا ما يمثل عبئا على فكرنا وحركتنا الراهنة وعلى توجهاتنا المستقبلية. وإذا كانت سنة الله فى خلقه هى سنة التطور والتغير، إلا أنها تحدث بدرجات متفاوتة فى مسيرتها وإيقاعاتها وإطرادها. والحاصل أن حركة التغير بطيئة لدينا بل تشهد تذبذبا وتعثرا، وأحيانا نكوصا وارتدادا يتصارع فيه القديم مع الجديد فيصرعه، وينتكس الحاضر وتتجمد مسيرته. وتبرز ثنائيات الاستقطاب والصدام فيما عرف بإشكاليات الأصالة والمعاصرة، وبين ثقافة العلم وثقافة العادات والموروثات، وبين الاجتهاد المبدع والتحريم والتكفير، وبين الحداثة والغزو الثقافى. وهكذا دواليك نقطع خطوات فى مسيرة الفكر والعمل إلى الأمام لنرتد مرة أخرى إلى الوراء وإلى أسفل بصدد ما كان قد استقر من قيم الثقافة المتجددة، وبذلك تختل معادلة الوفاق الفكرى والسلوكى، وتفتح دفاتر الجدل وتتعطل العقلانية. وقد يترتب عليها إجهاض أو توقف الامتداد فى الحركة الديمقراطية والحقوق الإنسانية لكل إنسان رجلا كان أم امرأة.

وعبء التاريخ وثقافته غير المتصالح مع المتغيرات العيانية الجارية ظاهرة قد تعيق حركة المستقبل فى مسيرة جميع الحضارات الإنسانية، لكن بعضها قد

استطاع – ولا يزال – المضى فى طريقه النضالى ورؤيته المستقبلية، وأن ينهى معاركه مع تاريخه بالحوار تارة وبالفعل المؤثر فيه دائما وبتصور موضوعى وقراءة جدية لتراث الماضى، وبإشراقات علمية مضيئة وبصر نافذ فى قوانين التغير والتطوير واكتساب القوة والمنعة والنماء.

وفى حالة ثقافتنا العربية، يظل عبء التاريخ وثقافته مصدرا للقلق، كما تظل العلاقة بينه وبين الحاضر والمستقبل محيرة بين مد وجزر، تشدها ردود أفعال تتمثل فى تصور البعض لنموذج مثالى للماضى – كما لو كان واقعة واحدة خالية من الشوائب – يراد فرضه على الحاضر وتكراره فى امتداداته المستقبلية. كذلك تندفع التوجهات أحيانا نحو نماذج مختارة سواء من حضارات أجنبية متقدمة ومغايرة فى سياقاتها التاريخية. وبين نموذج الثقافة التاريخية المثالية والنموذج الثقافى الحضارى الأجنبى المقتبس، لا تنفك مجتمعاتنا العربية ونخبها الفكرية عن الوقوع فى حالات من الضياع والجمود والتأزم أحيانا إلى حد الإفلاس، وعدم القدرة على توليد قوة دافعة للحركة إلى الأمام، نقدا للماضى وللحاضر، ومساندة لكل جهد ونضال نحو المستقبل.

وتصح أحيانا تلك المقولة التى ترى أن حركتنا تجد نفسها فى صراع متواصل بين جاهليتين، جاهلية الماضى وإحيائها، وجاهلية التقليد الأعمى للأجنبى الوافد واصطناع بريقه وتوهجه ومظاهر استهلاكه.

المرأة عبر التاريخ:

إذا ما تأملنا تطور الثقافة بعامة والثقافة العربية بخاصة عبر عصور التاريخ المتلاحقة فسوف يتولانا العجب حين ندرك أن بعض مفكرى الحضارات القديمة قد اعتبروا المرأة كما لو كانت من فصيلة الأسماك أو النباتات. وفى الحضارات القديمة كلها سواء البابلية أو الأشورية أو الإغريقية أو الرومانية أو الصينية أو المصرية كانت المرأة دائما قابعة فى الظل، وكأنما هى ضميرها الحضارى المذنب والمستتر وجوبا، فلا يتعدى محيط الإنجاب والعمل المنزلى. وفى تلك الحضارات كان تقسيم البشر فيها على أساس فئتين: الأحرار والعبيد، والأسياد والأتباع، والملوك والأباطرة ثم المحكومين والرعية، وعلية القوم والسفلة.

والمرأة فى جميع هذه الأحوال فى قاع الشطر الأدنى من تلك الثنائيات أو أنها خارجها لأنها من سقط المتاع، ولا وجود لها إلا فى حالات استثنائية نادرة ارتبطت بقداسة بعض نساء الفراعنة أو علاقات حميمة بالحاكم أو برئيس قبيلة له وقائع مشهورة فى الكر والفر.

وإذ ننتقل بسرعة إلى الحضارة العربية قبل ظهور الإسلام ليتحدد دور

المرأة
نصف المجتمع ونصف الحقيقة

المرأة فى أنها (تدفئ الضجيع وتروى الرضيع). وظاهرة وأد البنات أو حتى كراهية إنجابهن كانت من الأمور التى لا ينكرها المجتمع فى ذلك العصر. وقد صور القرآن الكريم خبر ولادة البنت فى الجاهلية بقوله تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون».

ويأتى الإسلام - الدين الخاتم - فيخاطب القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات فى عشرات الآيات، ويؤكد أن الرجل والمرأة من أصل واحد: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)، وتمتلئ آيات الكتاب بتكريم المرأة وإعطائها من الحقوق والواجبات ما للرجل، يقول الحق تبارك وتعالى: (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا).

ويؤكد الرسول العظيم فى حديثه الشريف (إنما النساء شقائق الرجال).

وإذا كان هذا هو موقف الرسالة الخاتم وهداياتها المنيرة فى مكانة المرأة ومساواتها بالرجل، إلا أن تلك المكانة قد تشوهت مع عصور الخلافة منذ أن أصبحت ملكا عضودا، وتم تجاهل تعاليم الهدى السماوى، وطغت التصورات القبلية والذكورية والعصبية تدريجيا حتي وصلنا إلى خلافة سلاطين آل عثمان، فإذا بنا نقرأ عن الحريم والحرملك، وتتواصل هذه الرؤية الهابطة للمرأة، ويقتصر الحديث عن بطولات الرجال وضعف النساء، ونقرأ قول أم أحد الخلفاء مؤنبة ابنها وقد تهاوى ملكه:

لا تبك كالنساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكأنما المحافظة على الوطن مسئولية الرجال وحدهم ولا شأن لها بالنساء.. ويجرى الفكر اللغوى مفاخرا بأن فى السويداء رجالا، وكأنما لا نجد فى السويداء نساء.

شيطانة أم ريحانة ؟!

وفى هذا الإطار من ثقافتنا العربية فى ترسباتها التاريخية تكثر الثنائيات والمغايرات على أساس الجنس، تنسب للرجل الحكمة والتعقل والحزم والطموح والإحاطة بالكليات والقدرة على تحمل

مسئوليات الحكم والعدالة والإدارة، بينما تتسم المرأة بالعاطفة وسيطرة الغرائز والضعف والرقة والقناعة والرضا والاهتمام بالجزئيات لا بالكليات، وهى لذلك نسميها تأدبا الجنس اللطيف.

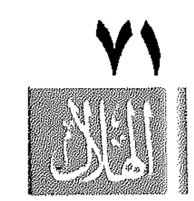
وقد أسهم فى هذه المفارقات وفى مكانة المرأة وأدوارها المجتمعية-المبررات التى سادت تزعم الاختلاف فى التكوين البيولوجى والذى ترتبت عليه اختلافات فى القدرات العقلية والتعبيرات الوجدانية والمظاهر السلوكية. وبينما دعمت تلك المفارقات اختبارات تحت مسوح العلمية فى سياقات مجتمعية وبيئية نمطية راكدة، فقد أظهرت تلك الاختبارات وغيرها عدم وجود فروق فى العمليات العقلية والذكاء والوجدان والسلوك وقدرات العمل بصورة مطلقة، اللهم إلا حين تتفاوت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والقيم الثقافية السائدة لكل من الجنسين أو فى المجتمع بصورة عامة.

ومع ذلك فلا يزال الشاعر العربى فى حيرة من أمر المرأة، أهى ريحانة أم شيطانة، لكنه لم يلتفت إلى أنها أولا وأخيرا إنسانة.

ولا تزال مفاهيم تلك الفروق وتجلياتها اليومية ومبرراتها، قائمة فى كثير من مجتمعاتنا وبيئاتنا العربية، سواء فى فرص العمل أم فى أنواعه حين يقال إن لها أعمالا تناسب طبيعتها، وعليها أن تقتصر عليها. أما شئون الحكم والقيادة فى المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية فهى أجدر بالرجل، ولا تتسع للمرأة إلا بمقدار محدود من قبيل الرمز وإبراء الذمة فى كثير من الحالات. ومما يمكن ملاحظته فى هذا الصدد ما يقال عادة من تمجيد لدور المرأة كأم وكربة أسرة ومع ما لهذا الدور من أهمية بالغة إلا أنه يساق أحيانا لدغدغة مشاعر المرأة أو لصرف نظرها عن التطلع إلى مجالات أخرى خارج مهمات تربية الأطفال وخدمات البيت، مع أن هذه المهمات تقع فى دائرة مسئوليات كل من الرجل والمرأة تعاونا ومشاركة فى إدارة الأسرة.

ومن هذا القبيل أيضا ما يقال من مبررات حول ما أطلق عليه حرمان الأطفال من حنان الأمومة لانشغالها بأعمال خارج البيت مما لا يتيح لها الرعاية الكافية لأطفالها. ومع ذلك فإننا لا نتحدث عن (حرمان الأطفال من حنان الأبوة) نتيجة لعمل الرجل خارج البيت فكلا النوعين من الحنان من الحاجات الأساسية للنمو السليم للأطفال.

وقد أوضح كثير من الدراسات النفسية والتربوية أن أهمية شعور الطفل بالأمن والحنان والمحبة من الوالدين لا تتحدد أو تقاس بمدى طول الوقت أو عدد الساعات التى يقضيها بجواره أحدهما أو كليهما وإنما يتحدد بنوعية ومضمون





المرأة
نصف المجتمع ونصف الحقيقة

التفاعل الذى يجرى بينهما وبين الطفل فى حالة وجودهما معه، وما يدور بينهما من لعب أو تعامل باللعب ومن الحكايات والتحادث والاستجابة لحاجاته وتساؤلاته.

أكرر هنا أن العبء التاريخى لايزال مهيمنا أحيانا وكامنا أحيانا أخرى فى تراثنا الثقافى الخاص بالمرأة بالذات، ومع ما جرى فيه تغيرات وتحولات متعددة، إلا أن تلك التحولات ظلت بطيئة وسطحية أحيانا ومتأرجحة غالبا، لم يحسم من خلالها كثير من قضايا المرأة والتى يضطرب حولها النقاش حتى اليوم.

ويتجلى ذلك على مختلف الأصعدة، ومن أمثلة تلك القضايا والإشكاليات العالقة:

أولا: طبيعة المرأة وتكوينها البيولوجى والنفسى والتى كثيرا ما يشار إليها بأنها كائن (ضعيف وعاطفى)، وفى رأى بعض العلماء يبدو مظهر أنوثتها فى بروز صدرها الممتلئ بالعاطفة دون الحكمة التى اختص بها الرجل.

ويترتب على هذه الطبيعة أن تكون مطيعة سلبية فليس لها حق المبادأة حتى فى الزواج ويقول كاتب عملاق كالعقاد (إن الوضع السليم فى الزواج محصور فى أن تكون المرأة هى المطلوبة دائما، وأن الرجل يكون هو الطالب لها والساعى وراءها، ذلك لأنها إذا كانت الساعية فقدت أهم سماتها الفطرية فقد أقام الله تكوينها النفسى والجسمى على نحو يجعلها متعة للرجل أكثر من أن يكون الرجل متعة لها) وهكذا يحظى الرجل فى تكوين طبيعته بالخصائص الإيجابية بينما تحظى المرأة بالمضامين السلبية، وفى أحسن الحالات تمتلك بعض السمات التى هى أقل قيمة وتقديرا من وجهة نظر الرجل.

ثانيا: موقف المجتمع (الذكورى) من المكانة الاجتماعية للمرأة وهل لها كيان مستقل كإنسان؟ وهل لها حاجات ورغبات عامة وخاصة؟ وهل لها حق فى التعبير عن الرأى الشخصى والمبادأة فى تصريف أمورها؟.. لكن ذلك الحق الإنسانى بل والإلهى تزعزعه بعض العادات وأفكار نفر من الفقهاء التى شاعت، بل واستقرت أحيانا، أعراف وتقاليد مجتمعية وتجد عادة ما يسندها من أقوال تتشح بالأثواب الفقهية. لقد ذهب بعض الفقهاء الأقدمين إلى أن على المرأة (ألا تصوم يوما واحدا إلا بإذن زوجها إلا لفريضة، ولا تقدم حسنة من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر، وعليها الوزر) كما أن عليها ألا تفرض عليه الإقامة فى بلد معين، أو تلزمه

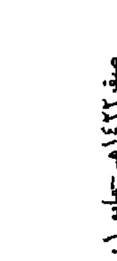
السكن فى شارع خاص (فهذا يرجع إلى تقديره هو لا إلى تقديرها هى. كما أن عليها ألا تمنعه نفسها ولو كان على ظهر بعير). كذلك عليها ألا تخرج من بيته إلا بإذنه ويقال لها إنها ملكة فى بيتها، لكنها ملكة تنعدم شخصيتها ويختزل كيانها الاجتماعى ليصبح الرجل صاحب القرار المطلق والرأى الأول والأخير.

ثالثا: ما يتصل بحقوق المرأة وواجباتها القانونية والدستورية: وهنا نجد أن بعض أقطار الوطن العربى قد حرمت المرأة من حق الانتخاب والترشيح للمجالس النيابية بدعوى أن عضوية تلك المجالس هى نوع من الولاية، وليس للمرأة حق الولاية.

وتختلط هذه الصورة الاجتماعية للمرأة أحيانا فى كثير من القضايا الأخرى منها قضية اختلاط المرأة بالرجل فى أنشطة الحياة المختلفة. فالمرأة عورة فى بعض التصورات، وهى مصدر للفتنة والإغراء فى جميع الحالات، ومن ثم فإن اختلاطها بالرجل يكون مجالا غير مباح ويكون مجلبة لفساد الأخلاق ويتشعب من هذا ما ينبغى أن يكون عليه ما يناسبها من اللباس والزى، وهى قضية كثيرا ما تشغل تفكير الرجال فى الجائز وغير الجائز فى موضوع الزى الذى يعتبر فى حدود الحشمة .بيد أن قضايا فتنة الرجال أو زيهم لا تدخل فى الحسبان ولا فى أى مناقشة فى هذا الصدد وكثيرا ما يعتمد فى قضايا الحقوق السياسية للمرأة على حديثين يساء تفسيرهما حين يتم ذلك خارج سياق النص وظروفه، ومضمون أحدهما هو أنه لا يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة، وثانيهما ما يشير إلى أن النساء ناقصات عقل ودين. وقد قدم العلماء والفقهاء الذين يعيشون عصرهم تفسيرات مضيئة لسياق ومضمون هذين الحديثين بما يختلف تماما عن ظاهر معنى كل منهما كما يفهمه العامة، ولا يتسع المقام لتفصيل هذين التفسيرين.

وفى بعض الأقطار العربية كمصر نلحظ المشاركة المحدودة نسبيا للنساء فى الإدلاء بأصواتهن، وبأعداد قليلة للغاية فى الترشيح للنيابة. ويعزى ذلك فى معظم الحالات إلى عدم اهتمام الأحزاب بمشاركة العنصر النسائى، أو بحكم قناعة المرأة بأن فرص النجاح لديها ضعيفة سواء نتيجة لبراعة المنافسين من الرجال فى الساحة الانتخابية، أو لقناعتها بأن شقيقاتها من النساء يفضلن الإدلاء بأصواتهن للرجال.

أضف إلى ذلك شيوع الأمية بين النساء والتفاوت فى الفرص التعليمية بين المرأة والرجل. ففى إحصاءات عام ٩٨ تبلغ نسبة الأمية فى مصر للذكور (١٥ سنة فما فوق) حوالى ٣٨٪، و٦٢٪ للإناث، والنسب المناظرة فى الأقطار العربية ٤٦٪





للذكور، وللإناث ٥٤٪.

ثم إن نسبة قيد الإناث إلى كل ١٠٠ من الذكور في التعليم الابتدائي في مصر بلغت ٩١٪ وفي الأقطار العربية المناظرة نفس النسبة. ووصلت في مصر في المرحلة الثانوية (إعدادي وثانوي) ٨٨٪ والعربية ٨٥٪، والمرحلة الجامعية في مصر ٦٤٪ والعربية المناظرة ٧٣٪.

ومع هذه الفروق التعليمية وتدني نسبها للجنسين عموما تتعذر يقظة الوعي والإدراك الكامل للحقوق والواجبات السياسية والاقتناع بممارستها. وفي بلد كمصر نالت المرأة حقوقها الدستورية في الانتخاب والترشيح منذ ١٩٥٦. ومع ذلك لم تزد نسبة اللاتي انتخبن أو تم تعيينهن في المجلسين النيابيين (الشعب والشورى) عام ٢٠٠٠ على ٤٪ من مجموع أعضائهما، بينما لم تتجاوز النسبة في الأقطار العربية ذات النظام النيابي التشريعي ٣ر٧٪ عام ٩٨. ومما هو جدير بالتنويه كظاهرة تستحق الالتفات والتشجيع نجاح سيدتين من محافظات الصعيد في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة ٢٠٠١، وقد تحقق فوزهما بعد معركة ضارية من التنافس مع عدد من المرشحين من رجال الصعيد في كل من الدائرتين.

رابعا: دور المرأة في المجتمع : مع ما تحقق في مجال اشتغال المرأة في سوق العمل، إلا أنه لاتزال ثمة هواجس وتحفظات واستقطابات في حق العمل المطلق للمرأة. ولعل أهم عوامل ذلك التقدم - والمتعثر في كثير من الأقطار العربية - ما نالته المرأة من تعليم أتاح لها العمل في الجهاز الحكومي والقطاع العام والقطاع الخاص.

ومع أن حق المرأة في العمل من الحقوق الدستورية وأقرته القوانين المدنية، إلا أن نسبتها في مجمل قوة العمل لا تتعدى ٣٠٪ في مصر، وفي متوسط الأقطار العربية ٢٧٪ من جملة القوة العاملة مع أنها تصل إلى أعلى من ٤٠٪ في عدد من الدول النامية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وتتراوح بين حد أعلى أقصى ٣٥٪ وأدنى ١٥٪ ولا تتضمن تلك النسب عمل المرأة بدون أجر خارج سوق العمل، كعملها في البيت أو في الحقل مع زوجها أو في الأعمال غير النظامية.

ومما يستحق الالتفات أن التقاليد والأعراف الثقافية كما سبقت الإشارة لا

تزال ترى أن بعض الوظائف أنسب لطبيعة المرأة عن غيرها. ومن ثم يجئ التركيز على فرصها فى سوق العمل وقطاعاته الحديثة فى مجالات الخدمات وبخاصة الصحة والتعليم، وامتدت أخيرا وبقدر محدود نسبيا إلى قطاعات الإعلام والفنون والمهن الطبية والهندسية والمصارف. كذلك تظل تلك التقاليد والمفاهيم الثقافية عائقا دون تكافؤ فرصها على أساس القدرات والكفاءات فى مجال كالإدارة العليا، حيث تمثل مصر أعلى نسبة فى هذا الموقع بين الأقطار العربية. ومع ذلك فإن النسبة لا تتجاوز ٥ر١٦٪ عام ٩٦ من مجموع الوظائف العليا فى حين أنها تصل إلى ما بين ٣٠٪ - ٥٠٪ فى الأقطار الصناعية. أضف إلى ذلك أن فى معظم الأقطار العربية هناك وظائف ليست متاحة للمرأة كمناصب القضاء المدنى، ورئاسة الجامعات (باستثناء الكويت حاليا) والمناصب الوزارية إلا فى حالات محدودة كتولى وزارات الشئون الاجتماعية والثقافة والبيئة، وهى كما نلحظ وظائف تعتبر ثقافيا من أقرب المهمات إلى طبيعة المرأة وعملها الأسرى فى المفاهيم التقليدية التراثية.

ومما يؤشر على التمثيل المنخفض للمرأة فى الوظائف الوزارية نسبة إلى جملة أعضاء الوزارة فى مصر عام ٩٦ حيث بلغت ١ر٣٪ كما بلغت ٩ر٠٪ فى المغرب، ٩ر٢٪ فى تونس، و٦٪ فى الأردن، بينما بلغت فى الأقطار الصناعية ما بين ١٥ - ٣١٪ وفى إسرائيل ١٣٪ ومتوسط دول أمريكا اللاتينية يصل إلى حوالى ١٠٪.

وهكذا تحتل المرأة العربية موقعا محدودا جدا على مستوى صناعة القرار، أو اتخاذه، ولاتزال بعض مفاهيم التراث تستدعى لتبرير ذلك ومساندته. وترتب على ذلك كله وضع حدود لمشاركتها الكاملة والفعّالة فى مسيرة التنمية المجتمعية، أو فى التعبير عما تتطلبه حاجاتها التنموية والحياتية الخاصة. ■

كلمات عاشت

«يشعر الرجل بقوته فيغدق رحمته علي المرأة . وتشعر المرأة بضعفها فتقسو على الرجل»

(برنارد شو)

«من خذلته أسرته .. لم تأت من الأباعد نصرته»

(أحمد شوقى)

«تجنب حب المرأة .. ولا تخف من كراهية الرجل»

(سقراط)

«دور المرأة يجب أن يظل دائما من خلال أولادها»

(تولستوى)

صفحات الحوادث

والتغيرات في الشخصية المصرية

بقلم
عزة عزت

تتناول صفحات الحوادث فى الصحف المصرية كل يوم مزيدا من القضايا والحوادث الدخيلة على مجتمعنا، ونلحظ أن اختلاف هذه الحوادث وتباينها، جاء نتيجة التحولات الاقتصادية الحادة التى حدثت فى السنوات الثلاثين الأخيرة.

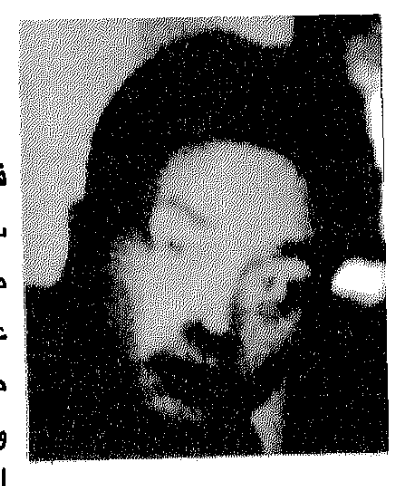
لكن هل ظل الشعب المصري كما هو دون تحول، رغم ما يتعرض له من هجمات إعلامية ضارية، وهل لم يصبه شيء من رزاز العولمة ، وإذا كان قد تحول ففي أي اتجاه كان هذا التحول وما مظاهره ؟

الحقيقة أن المتأمل لأنواع الجرائم في المجتمع المصري المعاصر ، سيدهشه أو سيصدمه تنوعها واختلاف أساليبها المبتكرة، والمختلفة من حيث الكم والكيف، عما كان قبل عدة عقود تقل عن أصابع اليد الواحدة، وحتي لا أكون من المغالين حاولت أن أستنطق الأفعال هذه المرة ولم أكتف بتحليل الأقوال والشفهيات : فقد يكون الفعل مختلفا عن القول، ولذا بدأت أجمع من صفحات الحوادث في عدد من الصحف اليومية (الصباحية والمسائية) عينة تمثل ما تنشره من حوادث يومية، وما تتابعه من حوادث مر علي وقوعها شهور.. أو حتي أعوام؛ لأقف علي دليل علمي ، قد يؤكد أو يدحض ما أدعيه من تحول في الشخصية المصرية، وكانت العينة مستقاة من شهور ثلاثة، ممثلة لنهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد (من أول نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٠ إلي نهاية يناير ٢٠٠١م)، عدد مفرداتها ١٥٠ حادثة وجريمة ومخالفة وجنحة.. تمس كل غال وعزيز في مصر ، بدءاً بالأسرة الصغيرة وانتهاء بالوطن.

الأزمات الطاحنة التي يعاني منها الشباب وفي مقدمتها البطالة وازمة السكان ولدتا احساسا عميقاً بعدم الولاء لهذا الوطن

وقد ذهبت فى دراسات سابقة إلى أن الشخصية المصرية قد أصابها الكثير من التحول فى السنوات الثلاثين الماضية، الممثلة لنهايات القرن العشرين، وأننا ندخل القرن الجديد أو الألفية الجديدة بروح مختلفة عما كنا عليه عبر قرون، وقد قست هذه التحولات من خلال ما يجرى على ألسنة العامة من شفهيات متواترة - القديم منها والحديث - لأؤكد صدق ما أدعيه.. لكن الكثير من الباحثين وذوى الرأى قد اختلفوا مع ما ذهبت إليه من دعوى ، قائلين: بأن الشخصية المصرية مازالت بخير.. فلا داعى للقلق ، فالشخصية المصرية التى صمدت عبر قرون دون أن تتحول، لا يمكن أن يصيبها التحول فى ثلاثة عقود، وذلك لما تتسم به من الثبات والقدرة على التأثير فى الآخر.. دون أن تتأثر به، وهو ما تأكد عبر عمرها المديد.. رغم تعاقب صنوف من الحكام عليها، وتغير ديانتها ولغتها عدة مرات، وتراكم طبقات من الثقافات المختلفة على أرضها، بكل ما تركته من بصمات على شعبها، الذى أكد دوما أنه يصمد أمام أى غزو ثقافى أو حضارى وافد،





فالحضارات جميعا سادت ثم بادت وبقيت مصر وشعبها على عهدهم. شعبا ودوداً، طيبا وعفوياً، لأنه متدين، وهو يتمسك بالقديم من العادات والتقاليد والتراث لأنه عاشق للاستقرار، وهو شعب ذكى حكيم، وساخر فنان.

معظمنا يشعر بما يعترى الشخصية المصرية من تحول، وكلنا نتناول هذا التحول فى أحاديثنا التى بات يجللها مسحة من التحسر على الزمن الجميل، بكل ما فيه.. أيام زمان، وناس زمان، وأخلاق زمان، معللين ما حدث بأنه بتأثير من مقتضيات العصر، وبفعل الظروف الحياتية وصعوبات المعيشة، إلى جانب التأثر بالوافد والغريب من الأفكار والطروحات الوافدة من شاشات السينما والفضائيات، وشبكة الإنترنت، وشتى صنوف التأثير الإعلامى المستحدثة.. وأيا ما كان الدافع إلى التحول الملحوظ، والذى يجزم به الجميع تقريباً، فإن أهم ما يهمنا هنا هو الوقوف على مظاهر هذا التحول فى أقصى صورها السلبية ؛ ردا على من يزعمون أن ما حدث مجرد تغير قشرى قد شاب السلوك اليومى.. ولم يطل السمات الأصيلة والجميلة فى الشعب المصرى، وأن ما صدر عن هذا الشعب من أقوال مستحدثة تصورت - خطأ - أنها تعبر عن قيمه السائدة الآن، وقناعاته خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وفلسفته الجديدة التى عبر عنها بمنحوتاته اللفظية المستحدثة، قد رأيت - خطأ أيضاً - أنها بدأت تنسخ ما كان سائداً من معان وقيم، كانت راسخة لقرون .. وكان يتمسك بها المصريون على اختلاف طبقاتهم المتباينة .

فإذا سلمنا جدلاً بأن وجهة النظر الأخرى هى الصحيحة، وأن ما نلاحظه ليس تحولا حقيقياً.. إلا فى أسلوب الخطاب، وفى الكلام وليس فى الفعل ، وفى الظاهر وليس فى العمق - أقول إذا سلمنا جدلا بذلك - فلابد أن نقيس درجة هذا التحول من خلال مؤشرات أخرى دالة عليه، ولتكن حركة المجتمع التى تنعكس على صفحات الصحف، خاصة صفحات الحوادث، التى قد يتضح منها مدى ما تبقى للمصرى المتدين، الودود، الطيب من هذه السمات ، وما هى الطبقة أو الطبقات الاجتماعية التى بلغ بها التحول مبلغ الانحراف والعنف والجريمة؟ وأصبحت أسماء أفرادها وصورهم تزين صفحات الحوادث!!.

أنواع الجرائم

هل صحيح أن أنواع الجرائم قد اختلفت، واتسمت بأسلوب أشد عنفاً؟؟ وهل صحيح أن المصرى الذكى الفهلوى ، الذى كان يتحايل على البسطاء من الناس منفرداً بهم: ليبيع لهم الترام أو العتبة ظل كما هو ، حالة فردية محدودة العدد؟؟ أم أنه تطور وتحول وازداد ذكاء وحنكة، واستخدم أساليب متطورة ، ولم يعد يكتفى بالضحك على البسطاء؟! بل أصبح «يضحك على دقن» الدولة، وينهب



المؤبد لـ ٤ بلطجية اعتدوا على ربة منزل

بلطجية بورسعيد سرقوا بائع ال...

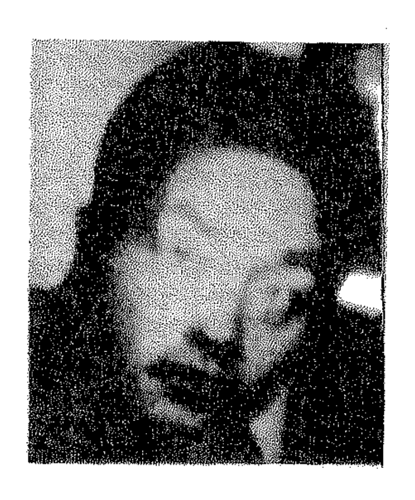
عاطل يهاجم المواطنين وامناء الشرطة بالسيف

أموالها، ويتحايل على القانون، وينوع فى أساليب هذا التحايل ما بين استيلاء على المال العام، وعلى أراضى الدولة، وتهرب من الضرائب، وتهريب كل شىء بدءاً بالمستورد من البضائع، والأدوية، والمنشطات، والمهدئات، والمخدرات ، وانتهاء بتهريب الذهب والآثار!!!

هذا وقد خلصت من تحليلى لهذه الجرائم إلى أنها تتعلق بشكل مباشر بما أصاب المصرى من تحول فى سلوكه

الذى كان يتسم بالودادة والطيبة والرومانسية، فتحول إلى عصبية واستفزاز دائم، وشجار، وعنف ، كما وأن الذكاء وما يتصل به من فهلوة قد زاد وفاض، ووصل إلى درجة النصب والاحتيال والتفنن فيهما، وحبه للاستقرار فى وطنه ، وانتمائه وولائه لهذا الوطن، تحول إلى رغبة عارمة فى الهروب منه بالهجرة أو بالتغييب العقلى بالإدمان،

وما كان يتسم به من حذر تحول فى المقابل لما يحدث الآن من تهور ومجازفة، وما كان يتسم به من أمانة وخلق مهذب يعلم الله إلى أين آل مصيره، وما كان يتسم به من إتقان فى المقابل نراه اليوم تسيباً وفوضى وإهمالاً، وقد انحسرت هذه الجرائم فى ١٨ نوعا من الجرائم لا أقسمها كما يقسمها الشرطيون وفقاً لنوعيتها ودرجة مخالفتها للقانون.. ولكنى قسمتها لتخدم ما أرمى إليه من هدف، وهو قياس علاقتها بسمات المصريين، وقياس ما لحقهم من تحول، وما لحق علاقاتهم ببعضهم ، وبالمقربين منهم على وجه الخصوص من أهل وأصدقاء وجيران، ووفقاً لما كان نتاجاً لما حدث فى المجتمع من تحول اقتصادى، وأزمات طاحنة (بطالة - إسكان) .

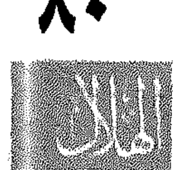


العاطفى، الطيب، الودود

إذا أردنا تقديم ما تعكسه أو تشير إليه الحوادث والجرائم المتصلة بسمة مهمة فى الشخصية المصرية وهى الطيبة والرومانسية والودادة، وما يتسم به سلوك المصرى من البعد عن العنف، خاصة فى علاقته بأحبائه وأسرته وأهله وأصدقائه وجيرانه، وبمن يلتقى بهم فى يومه فى الشارع، ومن يحتك بهم فى حركته الدائبة سعيا وراء رزق أو قضاء لمهمة، فسنجد أن المصرى الرومانسى المحب الوله مازال على عهده - وإن كان ذلك نادرا - «ينتحر حرقا من أجل خطيبته التى انفصلت عنه».. حتى وإن خلا المكان من أى ملمح من ملامح الرومانسية وسط زحام القاهرة، ونجد أن هناك من يقتل زوجته بدافع الغيرة والشك، وأن المصرى المحب مازال يعتبر أن محبوبته أو زوجته أو شقيقته هى شيء مقدس.. التعرض له يمس شرفه، وهو أمر لا يقبله ويقابله بقتل المعتدى عليه.. بل إن المشاعر المتصلة بالعاطفة كحب أو كجنس كانت دافعاً لجرائم قتل عديدة فى أنحاء متفرقة من مصر عاصمتها وأقاليمها، ولم يختلف هذا السلوك بين عامل وعاطل ومحام .. بل ونجد أنه مازال هناك من الأصدقاء والأهل من يتحركون للذود عن الشرف، سواء فى صعيد مصر أو فى عاصمتها.

أما عن المصرى المشبوب العواطف والغرائز فسنجد أنه قد بدأ يرتكب العديد من جرائم الاغتصاب الجنسى وهتك العرض.. حتى مع الأطفال والعجائز، ويسلك فى ذلك سلوكاً عنيفاً لا يتسق وطبيعته السمحة الطيبة؛ ولعل دافعه فى ذلك رغبة متأججة لا تملك إمكانات الإشباع الشرعى والسوى ؛ بسبب أزمتى البطالة والإسكان.. وإن كانت مهمتنا هنا ليست التبرير بقدر كونها إقرارا للواقع، الذى ينفيه المسئولون الرسميون ويرجعونه إلى الانحرافات الشخصية الفردية، ويهونون من جريمة الاغتصاب بالذات ؛ بوصفها لا تشكل ظاهرة ، كما قال وزير الداخلية فى برنامج «حديث المدينة يوم عيد الشرطة ٢٠٠١/١/٢٥م»، مؤكدا ذلك رقمياً بأن : «جرائم الاغتصاب كانت ١٦ جريمة عام ١٩٩٧، وصلت إلى ٢١ عام٩٨ وإلى ٢٥ عام ٩٩، وهبطت إلى ٩ جرائم فقط عام ٢٠٠٠؛ أى أنها تشهد هبوطا وتزايدا متذبذبا، فى حين هى ١٢ مليون حالة على مستوى العالم، وهى فى أندونيسيا البلد الإسلامى الكبير تصل إلى ١٢٠٠ حالة سنويا» - وأيا ما كان هذا التهوين من الأمر - فهو فى تصورى مؤشر لما يعلن عنه من جرائم، وليس مؤشر لما تتعرض له الإناث شابات أو صغيرات من إنهاء لعذريتهن وبكارتهن النفسية والفسيولوجية أو لبراءتهن، ويخجل ذويهن من إعلان عنها بإبلاغ الشرطة، ويكتفين بالحسرة، أو يلجأ بعضهم للانتقام الشخصى.

أما عن المصرى الودود فى تعاملاته حلو المعشر، الذى يُغلب العاطفة على



قلبه بالسكين ثم مزق شرايين يده وساقه وهرب !

طعنات «المنجل» مزقت شرايين القلب.. وضاع القتيل والقاتل !

المادة، الخلوق المهذب فى تعامله مع أسرته وعائلته، فنلاحظ من واقع العينة أنه «يقتل شقيقه فى مشادة بسبب ارتفاع صوت التليفزيون»، و«يقتل ابن عمه باشتراك مع صديق (غريب) للاستيلاء على نقوده» (مكذبا بذلك المثل القائل : وأنا وابن عمى ع الغريب)، وأن «الإبنة تلقى بوالدتها من الشرفة بعد أن توسعها ضربا» ، و«طالبة الثانوى تنصب وتدعى أنها سرقت بالإكراه ؛ لتستولى على مكافأة نهاية خدمة والدها»

وأن «غفير يقتل والدته بسبب ميراث والده»، وأن هناك من «يقتل ابن عمته بسبب دين قيمته خمسة جنيهات»، وأن هناك من «تحجر على أمها وتجمع بين زوجين وترفض الحياة الزوجية الشرعية لحياة عرفية»، وأن هناك من «يطعن شقيقه ويضرب أمه للحصول على المال»، وإذا ما بحثنا عن الأسباب دون محاولة التبرير فسنجدها المادية وضعف صلة الرحم فى أبسط الأحوال، وهى البطالة وانتشار الإدمان فى أسوأها.

أما إذا وسعنا دائرة الحركة الإنسانية للمصرى الطيب ، فى علاقته بمن حوله من جيران وأصدقاء فسنجد أن الازدحام والاحتكاك هو المولد الأساسى لمعظم المشاجرات التى تتسم بالعنف الحاد فى الشارع المصرى ، الذى افتقد بسببها المصرى حسن عشرته لجيرانه، ومراعاته للحسنى ولأوامر دينه فى ودهم ونجدتهم ، ناهيك عن تقديسه للصداقة الذى يكاد يصاب فى مقتل، كما اتضح من الجرائم المتعلقة بهذا الأمر والتى تصل إلى حد «قتل الجار بسبب لعب الأطفال»، أو لأسباب واهية، وأن الكثيرين يلقون مصرعهم فى



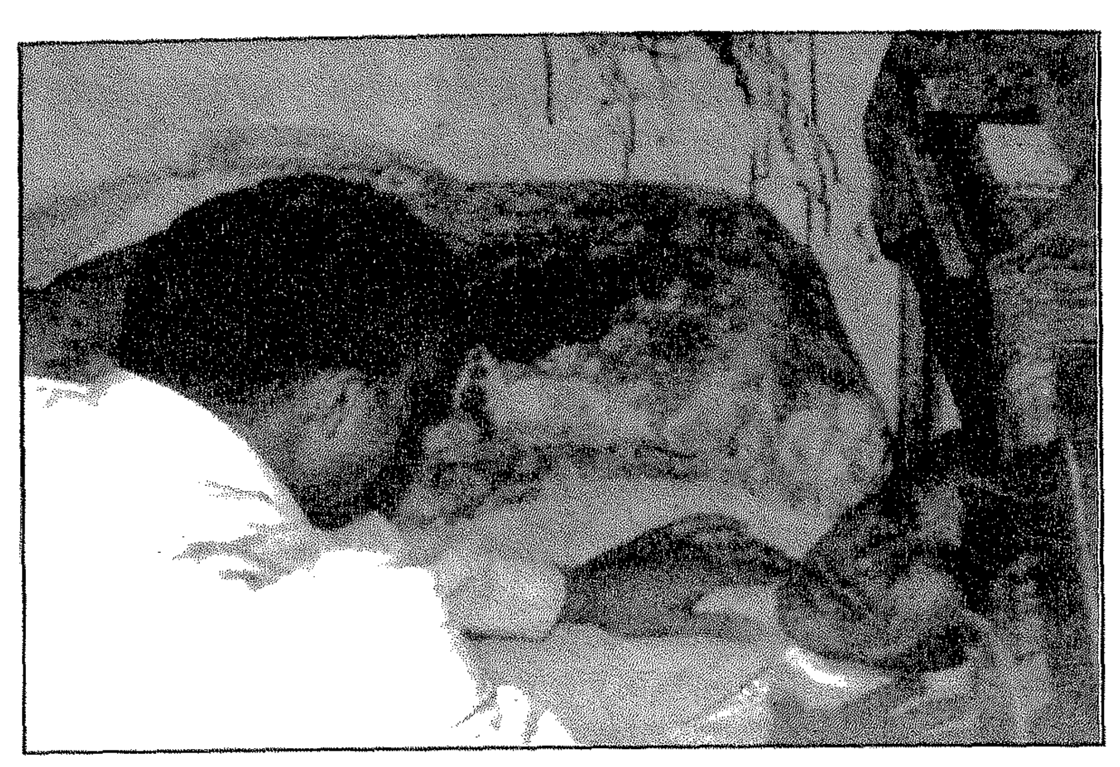
مشاجرات، وأن الجيران والأصدقاء لم يعودوا يكتفون بالقتل.. بل يمثلون بالجثث بسبب استعارة قميص أو جرعة مخدر، أو جلسة خمر، أو بسبب الاستفزاز والاستشاطة غضباً.. فأين المصرى الطيب من كل ذلك، ولا فرق هنا بين موظف، وأمين شرطة، وسائق، وبحار، ومحام، الكل يتصرف بالدرجة نفسها من العنف فى الشجار، الذى يصل إلى الضرب المفضى إلى الموت، أو القتل طعنا والتمثيل بالجثث، أو تعليقها فى هلب بحرى، أو إطلاق الرصاص.

ناهيك عن جرائم البلطجة التى أصبح يعج بها الشارع المصرى والتى تأخذ أحيانا طابع الحوادث الفردية، أو الجماعية المحدودة والمقصود بها شخص بعينه، وأحياناً أخرى تأخذ طابعا جماعياً «لإرهاب أهالى حى بأكمله، عن طريق الهاربين من الأحكام، والمسجلين خطر، والمدمنين، والبلطجية المأجورين»، كما حدث فى حى العصافرة بالإسكندرية «باستخدام السيوف والجنازير والمدى»، وما حدث أثناء الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى معظم دوائر محافظة الشرقية، التى شارك فيها ١٠٣ من المأجورين، وغيرها كثير.. وإن كان تماديهم قد جاء بسبب سطوة المال وإمكانية شراء من يروع ويفزع الآمنين، وأيضا كرد فعل لما تمارسه الشرطة من عنف، بحجة الحزم والضبط والربط فى حين أن التمادى فيه فى غير مناسبة الانتخابات كان سبب غياب الوجود الأمنى الحازم فى الشارع المصرى، وفى الأحياء النائية والهادئة.

المصرى الخلوق الأمين

من المعروف أن المصرى المتدين الطيب خلوق وأمين، ومن الغريب حقا أن نرى المصريين العاديين - وليس اللصوص المحترفين - قد بدأوا يتخلون عن هذه السمات، ومصداق ذلك كم الجرائم التى كان الدافع لها بين الأصدقاء خيانة الأمانة.. سواء كانت دين، أو وديعة على سبيل الاستثمار أو المشاركة ، فإذا ما طالب بها صاحبها كان مصيره القتل، وتقطيع الجثة إلى أجزاء، أو الادعاء بأن المبالغ قد فقدت فى حوادث سرقة بالإكراه ، ناهيك عن سرقات الخادمات لمخدوميهم ، وهو أمر قد تزايد بشكل لافت.

هذا وقد يقول البعض أن السرقة وخيانة الأمانة أمر وأرد منذ بدء الخليقة، وظاهرة عامة فى كل المجتمعات.. لكن الجديد فى الأمر الآن هو ما حدث من تحول فى طبيعة هذه الجرائم وكثرتها، واختلاف القائمين بها ما بين: تشكيل عصابى من طلاب الجامعات، و«جامعيين يسرقون ١٢ شركة كمبيوتر ، للانفاق على الإدمان»، و«سيدة زعيمة عصابة لسرقة السيارات الأجرة بالقوة، والاعتداء على سائقيها فى المناطق النائية»، و«موظف يشارك فى قتل والد صديقه لسرقته»، و«موظف كبير بجهة مهمة يسرق كراتين السيجار والسجائر المستوردة من السوبر ماركت»، ولعل



بعد أن قتل أبيه جاء ليمثل كيف قتله .. إنها جرائم دخيلة على مجتمعنا الآمن!!

أكثر هذه الحوادث فجاجة ودلالة على صدق ما أقول هو حادث السطو المسلح لسرقة بنك المراغة» وكأننا فى شيكاغو.. وليس فى مصر.

أما عن الجرائم التى تتصل بالأخلاقيات فحدث ولا حرج عن «٢٦ سيدة وفتاة من طالبات الجامعة يتزوجن من أجانب بعقود عرفية مخالفة للقانون، من خلال شقة تدار لهذا النشاط تتزعمها سيدة»، ناهيك عن ظاهرة الزواج العرفى المنتشرة فى الجامعات، والتى تناولتها باستفاضة وسائل الإعلام كبرامج، ودراما، وتحقيقات صحفية ، ناهيك عن إدارة أوكار القمار ، وما يشاع عن الفنانات وتنشره تفصيلاً المجلات الفنية، ويرد أيضا فى صفحات الحوادث.

أما عن المصرى المتدين الذى يعتز بمقدساته الدينية فأيضاً لم يعد كما كان.. رغم المد الدينى القوى بكل أشكاله - المظهرية، والخيرية، أو حتى الإرهابية - فبرغم ذلك نلاحظ وجود بعض الجرائم ذات الطابع الفكرى مثل : قضية «المؤلف المغمور الذى تطاول على الأديان وعلى الذات الإلهية والرسول الكريم»، ناهيك عن الزوبعتين اللتين قامتا بسبب نشر وزارة الثقافة للغث من الأدب الماجن والمكشوف الذى لا يرعى حرمة المجتمع، والأدهى ما ثار من جدل ولغط حول حرية المبدعين فى هذا الصدد، والذى عكس وجود تيار إباحى مرحب بهذا اللون من التنفيس الجنسى، والتشجيع على نشره بحجة حرية الإبداع.. وحتى لو قلنا إن هذا الأمر ليس بجديد فالأدب المكشوف أمر عربى شائع كان يتداول سراً.. فالجديد هو

المجاهرة بتحبيذه، والمطالبة بدعمه، وعدم الحياء في المناقشة حوله.. أسوة بالراعية الأم أمريكا، التي تُصدر لنا بيْن الحين والآخر موضوعات فجة، تتناولها الصحف بجرأة من مثل: قضية طيبة الذكر مونيكا ليونيسكي وفستانها الأزرق، ودواء العافية - الأزرق أيضاً - المسمى حبوب الفياجرا، وكلها أمور كانت سلفاً لا تناقش بهذه الفجاجة والقحة.

نهب المال العام

الأمر اللافت للنظر حقاً هو جرائم إهدار ونهب المال العام بالملايين، التي انتشرت، والتي رصدت أكبر عدد منها من خلال العينة، بكل أنواعها، بدءاً بالحصول على عمولة أو رشوة، والاستيلاء على أراضي الدولة، أو الحصول على قروض بنكية دون ضمانات والهرب بها، أو الاختلاس من أموال النقابات، أو جمع تبرعات كبيرة دون ترخيص رسمي وعدم إنفاقها في مصارفها، أو فرض أتاوات أو رشاوى شهرية حتى على جامعي القمامة من مسئولي الأحياء، أو التهرب الضريبي بالملايين أيضاً، من جانب أصحاب الملايين والمتربحين من رجال الأعمال والصناعة والسياحة والمحاجر، والجواهرجية، والفنانين، بالإضافة إلى الشركات التي تعمل لسنوات دون تراخيص، هروباً من أي إلتزامات حيال الحكومة أو أداء حق الدولة، ناهيك عن تهريب السلع المستوردة من ملابس إلى أدوية إلى مشغولات ذهبية، ومستلزمات طبية ومستحضرات تجميل، والمتاجرة في السلع الفاسدة، والمنتهية الصلاحية، والاستيلاء على بضائع بالملايين أيضا من القطاعين العام والخاص، والتلاعب بالزيادة في تحصيل الرسوم.. حتى بالنسبة لتصاريح العمل في مواسم الحج، والأنكى هو نوعية المتورطين في هذا القضايا من مثل : وكيل وزارة التربية السابق، وصاحب مركز بحثي عالمي مهم، ونواب برلمانيين، ومسئولين ورسميين كبار، ومديرو بنوك وشركات تأمين وأصحاب شركات كبرى، يتلاعبون بامال الشباب الحالم بالسفر والهجرة، والذي لم يجد السبيل بعد ليكون من الأثرياء الجدد ، الذين يعلم الله وحده من أين لهم هذا؟!!.

ويقودنا الحديث عن انتفاء سمة محب للاستقرار ومنتمي بشدة لأرضه إلى تناول موضوع تحولها إلى كراهية ورفض ورغبة في الهروب بأي شكل.. ولو بالتغييب والانخراط في آفة الإدمان.. التي قد يقول البعض أنها عادة مصرية قديمة، عانت منها الأسر المصرية بشكل حاد عام ١٩٣٠، حينما انتشر شم الكوكايين، وأنه حتى بعد أن قضى عليها ظل الغالبية من المصريين يتعاطون الحشيش.. لكن هذا القول مردود عليه أيضاً بأن الإدمان الآن قد أصبح ظاهرة مدمرة لشباب مصر ورجالها، وأنها لأول مرة تدخل النساء والفتيات أيضا دائرة الإدمان الرهيبة ..



سطو مسلح على أموال البنوك فى وضح النهار!

بكل أنواعها الطبيعية والتخليقية، ولم يقف الأمر عند حد التعاطى والاتجار بل تعداه إلى الجلب والتهريب والتخليق والغش فيه، والأدهى والأمر الزراعة وبمساحات شاسعة لنباتات البانجو بالذات، وفى أراضى الدولة المخصصة للخريجين ، واشتراك الصيادلة فى هذه التجارة الرائجة دون وازع من ضمير ، أو شعور بفداحة ما يفعلونه بتدمير الأمة، وهم المنوط بهم مداواة أمراضها وتخفيف آلامها.

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى أن الأزمات الطاحنة التى يعانى منها الشباب وفى مقدمتها البطالة وأزمة الإسكان قد ولدتا إحساساً عميقا بعدم الولاء لهذا الوطن، الذى لم يعد لا بل وبات يلفظهم ، حتى أن هناك بعض الجرائم التى تتسم بالعنف ولا تتسق وسمات المصرى الأصيل قد تسببت فيها هاتان الأزمتان تحديداً، وبلغت بالبعض إلى قطع صلات الرحم فى الصراع على السكن، و«القتل من أجل شقة» التى تورط فيها وكيل النائب العام، و«الشقيق الذى يطرد شقيقه من الشقة ، ليتزوج فيها فيخنق له عروسه»، ومن يلقون بوالديهم فى دور المسنين للانفراد بشقتهم والزواج فيها.. ناهيك عن كل الجرائم التى تنشب بين المتزوجين وما يشوبها من أساليب التحايل والتناحر والتقاضى حول شقة، وما تعج به المحاكم من قضايا وخلافات وصراعات حول الشقق والعقارات، وما شاب مجال الإسكان بالذات من حوادث الغش والمخالفات الصارخة ، والتحايل لاستغلال حاجة الناس إلى السكن، والرغبة فى الثراء السريع من خلال



الاستثمار فى قطاع الإسكان، الذى أدى إلى كوارث محققة راح ضحيتها المئات ، بسبب انهيار المبانى على رؤوس ساكنيها، عدا عن الخسارة المادية التى تقدر بالملايين .

الحذر المتقن

كلنا يعرف قدر ما يتسم به المصرى الفنان والصانع الماهر من حب للإتقان، ودقة فى الصنعة، وحرص على التدقيق فى كل شىء، تحسباً أو تخوفاً مما قد تأتى به الأيام، فالمصرى حذر بطبعه وغير مجازف، ومتأن فى كل أموره بحكم حياته الزراعية والنهرية، فهو ليس من الشعوب المغامرة.. ولكن أين هذا الحذر والحرص من كم الجرائم والحوادث التى تقع يومياً بسبب التهور والسرعة فى القيادة، والتى يروح ضحية لها الآلاف من الضحايا الأبرياء و ولا فرق بين جاهل ومتعلم فى هذا الصدد، ولا بين عاصمة مزدحمة ومدينة صغيرة، أو بين طريق ضيق وطريق سفر، أو بين كبرى علوى ومزلقان، فالصحف تطالعنا صباحية ومسائية بحوادث تصفها دائما بأنها وقعت بسبب «السرعة الجنونية، والتهور، والرعونة»، فهل هذه الصفات مصرية أصيلة؟!!

هذا ومن مكملات منظومة العجلة التى كان يرى المصرى فيها «الندامة»، برز الإهمال والتسيب والفوضى بدلاً من الاعتناء والنظام والتدقيق، ووقعت بسببهم الكثير من الجرائم، التى تسميها الصحف تجاوزا «حوادث قتل خطأ بسبب الإهمال الجسيم» ، ولا فرق فيها أيضا بين فئة أو مهنة وأخرى ، بدءاً بالإهمال فى المستشفيات وقتل المرضى من قبل الأطباء أو الممرضين، ومرورا بحرائق المصانع بسبب الخلل فى التخزين، وعدم مراعاة شروط الأمن الصناعى، وتباطؤ حضور قوات الإطفاء، وانهيار المنازل القديمة بسبب التواكل وإهمال قرارات التنكيس، وكوارث القطارات «الناجمة عن التقاعس عن غلق المزلقان»، أو مقتل طفلين فى الحمام بسبب إهمال والديهم، أو قتل طفلان آخران بسبب إطلاهما برأسيهما من نافذة الترام، أو موجة الانفجارات بسبب تسرب الغاز ، أو مقتل الكثيرين بسبب كابل كهربائى مكشوف، أو بالوعة بدون غطاء، أو حقل ألغام غير مسيج بعناية.. وحتى «الموتى لم ينجوا من الإهمال بسبب سيارات نقل القمامة التى تلقى حمولاتها فتحاصرهم فى المقابر»، عدا عن الطامة الكبرى التى وقعت حينما فقدت القوات المسلحة ٢٠ من خيرة رجالها بسبب عدم التدقيق أو مراعاة أبسط قواعد الأمن ، بتسفيرهم على طائرة واحدة من الولايات المتحدة الأمريكية غرقت بهم وبغيرهم فى المحيط، ولم يكن غريبا التطاول الأمريكى واتهام مصر بأنها السبب؛ لأنهم يعرفون عنَّا هذا الإهمال والتواكل، ولا يجب أن نستغرب هذا التطاول، ولا عجب فى أن

يصدقه عنا الآخرون!!!.

الذكى الفهلوى

ولا غـرابة أن المصـرى الذى دللنا على قدر مـا حدث فى شخصيتـه من تحول فى اتجاه السلب ، نجده يحتفظ بسمـة أصيلة فيـه هى الذكاء.. ولكن وللأسف الشديد يوجهه وجهة سلبية، ويغالى فى الفهلوة كسمـة فرعية طالما اتسم بها ، ودليلنا على ذلك كثرة جرائم النصب والاحتيـال بشكل لافت ، وتنوع أسـاليبهـا، وأن النصـاب لم يعد مجرد فرد ينصب على آخر أو حتى آخرين .. لا بل أصـــبح النصب يتم بواسطة مـجموعات لخداع الآلاف، ولعل أشهر حادثة نصب تعرض لها الشعب المصرى كانت قضية توظيف الأموال، التى ألقى فيها معظم المصريين بكل ما يملكون ، فى أيدى حـفنة من المغـامـرين، الذين لعبوا برغبتهم وحلمهم فى الثراء السريع مرتدين رداء الدين والتدين.. لكن جرائم النصب الآن برغم هذا الدرس القـاسـى مـازالت مـسـتـمـرة فى اللعب بأحـلام الشبـاب الراغب فى السـفر والهـجرة ، فكم من «شـركـة وهـمـيـة تتـاجـر فى التـأشـيـرات المزورة»، وكم من «شـركـة وهمية تستولى على بضائع بالملايين من أصـحـاب المصـانـع» ، فى ظل الركـود السائد منذ فترة، وحتى النصابات من النسـاء اللاتى كن يخـدعن الصـائغين بسـرقـة بعض المشـغـولات أصـبـحن يخدعونهم فى ٥ كيلو ذهب.. كيف ؟!! العهدة على ما تنشره الصحف، المهم أن النصب زاد وأصبح بالملايين أى زاد كما وكيفاً!!. وفى هذه السمة نرصد التحول فى الدرجة والشدة.. وليس التـحول إلى النقـيض.. فـهل يعنى هذا أن المصـرى ازداد ذكاءً؟! أم إن ذكاءه قد توجه أكثر للشر؟؟!!.

هذه خـــلاصـــة رؤيتى لما يدور فى مـصـر من حـوادث، ومـا يقع فـيـهـا من جـرائم ، ولا أرى فـارقـا كـبـيـراً بين الطبـقـات والفـئـات والمهن فى نسـبـة الانخراط أو التورط فى الجرائم فملائكة الرحمـة مهملون، والصيادلة يشـاركون فى ترويج المخدرات، والمحـامـون ووكلاء النائب العام يحتـالون ويقتلون، ومربون أفـاضل وضـبـاط شـرطة يتـورطـون فى تجارة المخدرات والإدمان، والأوراق قد اختلطت بشكل لا أدرى كيف سيعـاد ترتيـبـهـا.. ولعل ذلك مـا حـدا بى إلى تحليل طبيعة ما يقع من حوادث وجرائم فى الشارع المصرى ، كمؤشر لما اعترى المصريين من تحول حاد وملحوظ.. ومن يختلف معى فى هذه الرؤية عليه أن يقرأ بعناية مفردات العينة التى اعتمدت عليها فى اسـتـخـلاص هذه النـتـيـجـة، عله يستخلص منها عكس ما رأيت!!.

وإلى أن نلتـقى مـرة أخـرى حـول مؤشـر آخر لقياس درجة التحـول فى سمة مصرية أخرى، هى سمة «ساخر»، والتى سـأسـتـخلصـهـا من خـلال بريد القراء فى الصحف ، الذى أفرز عدداً لا بأس به من الكتاب السـاخرين.. لكنها سـخـرية لا تدعـو للضحك ، أو تدعـو لضحك كالبكاء على ما يدور فى واقعنا المصرى العجيب !!. ■


الإنترنت
والفلاحون
والتنمية

نحن الآن في عام ٢٠٢٠، دخل واحد من الفلاحين في إحدى القرى المصرية مكتب مهندس المعرفة الزراعية، ولم يجد على مكتبه أى شيء، ولا حتى جهاز كمبيوتر مثل الجهاز الذى يملكه الفلاح فى منزله! وجلس الرجل أمام المهندس يعرض عليه مشكلته، ويحمل فى يده عينة من نبات القمح المصاب في أرضه، فيخرج المهندس من جيبه كمبيوتر فى حجم الكف، على شكل مفكرة أنيقة جذابة ومليئة «بالزرائر والسرائر»، ويمسك قلما غريب الشكل ويكتب فى المفكرة، التي سرعان ما يكتشف المزارع أنها ليست مفكرة من ورق ولكنها تتقبل الكتابة بخط اليد، ثم يستأذن المهندس فى أن يلتقط لعينة القمح صورة بالكاميرا الفيديو، وإذا بالمهندس يستخدم نفس المفكرة الكمبيوتر للتصوير، وتأتى فى برهة على شاشة المفكرة إجابات عن أسئلة المزارع بالصوت والصورة وباللغة المحلية التى يفهمها المزارع .



فى أثناء ذلك تأتى إشارة من المفكرة العجيبة تدعو المهندس إلي دورة تدريبية، أو مؤتمر فى أمراض القمح، فينزعج المزارع ويهم بالاستئذان، فيعرض عليه المهندس أن يحضر معه المؤتمر دون أن يتحرك من مكانه، فهو مؤتمر بالفيديو من خلال الانترنت ، وتبدأ وقائع المؤتمر، وها هو صوت وصورة مستر سميث خبير القمح الأمريكانى يجيء من حقله التجريبى فى تكساس، ويقاطعه د.واطسن خبير القمح فى غرب أوربا من مكتبه بلندن، ويعلق د.حسن من معمله بمركز البحوث الزراعية المصرى بالقاهرة، ثم يقاطعهم د. هاشيمور من اليابان ويتحدث من منزله فى طوكيو، الذى يدخل على الخط بلكنته اليابانية وملامح صورته المميزة، ومن ايطاليا يأتى صوت وصورة مدير هيئة الفاو (F.O.A) (منظمة التغذية والزراعة) ويكمل الحديث بلكنته الايطالية، ولكن المهندس والمزارع يفهمان كل ماجاء فى المؤتمر لأن الترجمة تأتى فورية،

وينتهى المؤتمر والمزارع لايكاد يصدق ما رأى بعينه أو سمع بأذنه! كل ذلك من تلك المفكرة الكمبيوتر، ومن أجل عينة القمح المصابة!. والآن نستيقظ جميعا من الحلم الذى كاد أن يصبح حقيقة فى بعض الدول الآن، نحن فقط سافرنا معا فى رحلة زمن لمدة عدة سنوات قليلة قادمة وكان معنا كمبيوتر المستقبل الذى تحول فعلا الآن إلى مركز اتصالات كامل، والآن نأتى إلى تحليل تلك القصة الحلم.

التحديات المخيفة في القرن الجديد

البداية أن هناك أكثر من ١ر٣ بليون فرد فى العالم الواسع يعيشون فى فقر، وتقريبا ثلاثة أرباعهم يعيشون فى مناطق ريفية، وفعليا كلهم يعتمدون مباشرة أو بشكل غير مباشر على الزراعة فى حياتهم. بالرغم من عملية مواصلة التمدين، فإن حوالى ٣ر٢ بليون من الـ ٦ بلايين سكان العالم اليوم ريفيون وهم يمثلون حوالى ٥٣٪ من سكان العالم، وسوف تستمر نسبتهم على ثبات فى الـ ٣٠ سنة القادمة، ومجموع السكان الكلى النشيطون فى الزراعة حوالى ١ر٣ بليون ولن يتغير هذا الرقم كثيرا فى العشر سنوات القادمة، والكثير من الزراع أو الرعاة أو الآخرين الذين يعيشون على الغابات أو صيد الاسماك أو المعدمين يحتاجون إلى المساعدة فى انشطتهم الاقتصادية الصغيرة الحجم، ذات الانتاجية الضعيفة والعائد الهزيل، وإذا لم نستطع تحديد الأسباب الجذرية للفقر فى الريف، سوف يتزايد أعداد الفقراء فى الريف الذين يعيشون على هامش الحياة، وتتناقص فرصهم لحياة أفضل، ورغم التوقعات بأن يتناقص عدد الشعوب التى تعانى من نقص التغذية الى النصف تقريبا إلى مابعد عام ٢٠١٥ نتيجة جهود محاربة الجوع فى جميع دول العالم، والتى تعهدت بها كل البلدان كالتزام من المجتمع الدولى أثناء قمة الغذاء العالمية التى عقدت فى روما عام ١٩٩٦، فهناك أكثر من ٨٠٠ مليون فرد فى العالم لا يمتلك سبيلا إلى غذاء كاف يقابل احتياجاتهم، وفى عام ٢٠٢٥، سكان العالم قد يتجاوزون الـ ٨ بلايين واحتياجاتهم الغذائية قد تتضاعف خاصة فى الدول النامية تقريبا، فالفقر هو السبب الرئيسى لعدم الأمان الغذائى، والتواصل فى التقدم فى استئصال الفقر هو أحسن السبل إلى الأمن الغذائى، ومن زاوية أخرى معظم الدول فى العالم تتناقص فيها الأنشطة



الاقتصادية التي تعتمد على الزراعة، على الرغم من تزايد الطلب على إنتاج الطعام، فإن النسبة المئوية للسكان الذين يعيشون مباشرة على الزراعة مستمرة فى التناقص خاصة فى الدول النامية .

المعرفة مفتاح التنمية

ومع بداية القرن الحادى والعشرين أصبح سكان المناطق الريفية والنائية فى البلاد النامية يواجهون كثيرا من التحديات غير المتوقعة، التى نتجت عن عولمة الاقتصاد والتغييرات السياسية، بالاضافة إلى الأضرار التى لحقت بالبيئة، علاوة على الضغوط الديموجرافية، لذا أصبح من الأهمية بمكان لمواجهة هذه التحديات إدخال واستحداث نظم معلوماتية واتصالات حيوية توصل للريفيين وخاصة المزارعين منهم التكنولوجيا الجديدة والمعرفة، وإذا كان العالم يجب أن يعترف بخط التقسيم الرقمى وبحقيقة الفجوة الهائلة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بين الدول النامية والدول المتقدمة، يجب أيضا أن يعترف العالم بخط التقسيم الرقمى داخل كل دولة سواء كانت متقدمة أو نامية وأن المناطق الريفية والنائية فى كل دول العالم تعانى من نقص فى البنية التحتية لوسائل الاتصال، وبالحاجة الملحة للدول النامية للدخول فى مجتمع المعلومات بمزيد من القوة والسرعة، وأن البنية التحتية المتطورة فى وسائل الاتصال بالمناطق الريفية هى مفتاح التنمية الريفية المتواصلة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والخدمية، وهذا ما أعلنته وثيقة أعدت من قبل منظمة الفاو والبنك الدولى، ونشرت أخيرا فى روما مارس ٢٠٠٠، تحت عنوان «النظم المعلوماتية والمعرفية الزراعية من أجل التنمية الريفية رؤية استراتيجية ومبادىء توجيهية».

وتؤكد فيها على أنه رغم اختلاف الفلسفة السياسية والاقتصادية بين دول العالم فى ممارستهم للتنمية الزراعية طوال القرن الماضى، إلا أن تلك التجارب فى التنمية الزراعية اتفقت على مقولة مهمة تنص على أن التنمية تستطيع أن تؤدى دورها، فى حالة وجود المعرفة، فالمعرفة تقود إلى التنمية، وأن النجاح فى التنمية الزراعية لمواجهة الجوع يستوجب تعليم السكان الريفيين، وإذا كنا قد اعتدنا على التفكير بأن زيادة الانتاج هو مفتاح التنمية والنمو، فإن الآن فى عصر المعلومات، تعتبر المعرفة ، والمعرفة فقط هى الحقيقة المهمة للتنمية، فالمعرفة وتطبيقاتها سوف تقود

العمليات المختلفة للتنمية وتؤدى إلى النمو ومقاومة الفقر والجوع، ويمثل ذلك الاستراتيجية الأساسية للقرن الحادى والعشرين، فالمعلومات والمعرفة تلعب دورا أساسيا فى ضمان الأمن الغذائى والتنمية الريفية المتواصلة. فتكنولوجيات المعلومات والاتصال، وخصوصا الانترنت، جعلت كل الأنشطة البشرية تعتمد تماما على المعلومات، وبما فيها من أنشطة التنمية الريفية والأمن الغذائى، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (ICT) وفرت فرصا جديدة للأفراد والمجتمعات ليس فقط كمستهلكين للمعلومات ولكن أيضا كمنتجين لتلك المعلومات من خلال التقارب والتكامل بين وسائط الإعلام المختلفة التي عظمت من سرعة الوصول إلى المعلومات، وخفضت من تكلفتها، حيث توفر ثورة المعلومات للدول النامية وبالأخص المناطق الريفية والنائية فيها فرصة درامية لاختراق المستقبل وإنهاء قرون مضت من التخلف والانعزالية، بشرط تقريب الفجوة التكنولوجية المعلوماتية بين الشمال والجنوب، ويجب على الدول النامية أن تستغل هذه الفرصة وبسرعة، وقد أثبت المستخدمون المبكرون للإنترنت فى الدول النامية أنهم يستطيعون تنمية وتطوير خدمات محلية متميزة ومصادر معرفة مناسبة محليا تتناسب وطبيعة وواقع مجتمعاتهم المحلية.

تكنولوجيات المعلومات والاتصال من أجل التنمية

ومنظمة التغذية والزراعة FAO كجهة مفوضة لتحسين حياة السكان الريفيين وتقديم الدعم للتنمية الزراعية تلعب دورا مهما وتاريخيا فى التأكيد على منافع وفوائد الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات التى تصل للريف عبر هيئات تنموية مختلفة تساعد حاليا فى مد خدمات الإنترنت الأهلية المنظمة فى الدول النامية، وهى التى رفعت شعار «الاتصال من أجل التنمية» كمدخل لخدمات الانترنت المساعدة وهو المدخل الذى يبدأ من حيث توجد احتياجات الناس فى المجتمعات المحلية الريفية والزراعية.

والدراسات التى قامت بها مؤسسات دولية مثل الفاو والبنك الدولى تظهر أن المعلومات والتعليم والتدريب، يتيح للزراع استخدام التكنولوجيا والمعارف الحديثة فى الزراعة، وأن كلا من التعليم الرسمى والتدريب والتعليم غير الرسمى مثل برامج تعليم الكبار وبرامج الإرشاد

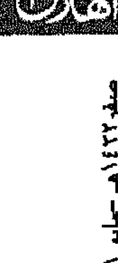
الزراعى ذات تأثير فعال فى زيادة الإنتاجية الزراعية

وتكنولوجيا المعلومات تساعد فى تنمية الموارد البشرية من خلال استخدامها فى عمليات التعليم والصحة، والتغذية، وخدمات تحديد النسل، فتكنولوجيا المعلومات الجديدة يمكن أن تربط بين كل من المتعلمين والبحاث، والطلبة، وصانعى السياسات وبين مؤسساتهم سواء فى داخل البلاد أو خارجها، وهذه التكنولوجيات تعطى إمكانيات كبيرة للتعلم عن بعد، وللتعليم الجماهيرى عبر وسائل الإعلام الجماهيرى، ومشروعات البنك الدولى، أوضحت كيف يمكن لفنيين وقرويين ذوى معرفة منخفضة فى القراءة والكتابة، يستطيعون تعلم الجرافيك والاتصالات البصرية من خلال الكمبيوتر. فى فنزويلا تم توصيل خدمات الاتصالات والقمر الصناعى والانترنت للمناطق الريفية النائية مما مكن من توصيل الرسائل الاعلامية التى كانت تستغرق ٩٠ دقيقة فى وقت قصير للغاية.

فى زامبيا وزيمبابوى وفر الانترنت جميع المعلومات حول الأسواق لمشروعات التنمية الزراعية والأمن الغذائى، واستعملت الانترنت فى التحذير المبكر من المجاعات، ومساعدة متخذى القرار. ومن خلال الانترنت استطاعت السويد التغلب على العزلة الجغرافية التى تواجه المناطق الريفية النائية فيها بتقديم خدمات أساسية لتلك المناطق تتمثل فى توفير الدخول على قواعد البيانات الاقليمية والقومية، وتوفير الخدمات التعليمية وتسهيل خدمات الفاكس والبريد الإليكترونى من خلال الإنترنت لتلك المناطق.

فى الولايات المتحدة الأمريكية يتوفر للمناطق الريفية والنائية فيها كل الخدمات الزراعية والتعليمية والصحية والمعلوماتية من خلال ما يسمى بالحكومة الاليكترونية أى توفير الخدمات الحكومية من على بعد من خلال الانترنت، وبدأت فى مصر هذه الأيام تبث خدمات الحكومة الاليكترونية فى بداية متواضعة، ولكنها بداية تفتح الطريق لوصول الخدمات الحكومية بفعالية للمناطق الريفية والنائية، فى استراليا توجد شبكة مؤتمرات مرئية ومسموعة من خلال الإنترنت تغطى كل المناطق النائية والريفية لتقديم كل الخدمات الزراعية والتعليمية والصحية والثقافية. فى شيلى تخدم الإنترنت عبر منظمات الزراع هناك الريفيون، وتقدم لهم كل المعلومات عن المحاصيل المحلية والعالمية، ومواقيت زراعتها وأسعارها والأسواق والطقس والمعلومات والبرامج التدريبية والفنية واستخدام البريد الإليكترونى فى التواصل مع منظماتهم.

وفى ماليزيا يتوفر نظام معلوماتى



يسمى Klosks يقدم للريفيين والمنظمات غير الحكومية العاملة فى الريف والمناطق النائية كما هائلا من الخدمات المعلوماتية تشمل التليفون والفاكس ومكتبات الفيديو وتبث من خلالها كافة المعلومات فى مجالات الصحة والتدريب والتعليم، بيانات للأسواق والخدمات الحكومية والبريد كل مايحتاجون فى عصر المعلومات ويعتبر هناك محركا قويا للتنمية الريفية. وفى المكسيك وشيلى تقدم خدمة الإنترنت للمناطق الريفية عبر منظمات الزراع واتحاداتهم، وتقدم لهم كل الخدمات المعلوماتية الحياتية خاصة فى الزراعة والتسويق، الصحة والتعليم، وتنمية المشروعات الصغيرة. وقرأنا فى الصحف فى مصر هذه الأيام عن مناقصات لوزارة الاتصالات لإقامة شبكة اتصالية لتقديم الخدمات الصحية والثقافة السكانية، وشبكة أخرى تغطى كل الخدمات البريدية.

وتجب الإشارة هنا إلى أن مفهوم مراكز معلومات المجتمع المحلى، ليس بالمفهوم الحديث، ولكن الإنترنت هو الذى أتاح تسهيلات جديدة لبناء مراكز كثيرة فى المناطق الريفية، إذ أن السكان فى المناطق الريفية يستطيعون الحصول على معلومات من كثير من المنظمات التى يمكن أن يطلق عليها مفهوم مراكز معلومات المجتمع المحلى مثل المدارس، والمكتبات الريفية، المنظمات غير الحكومية المحلية، اتحادات المنتجين، مراكز المساجد والكنائس، الوحدات الصحية، مراكز تنظيم الأسرة إلخ. وكثير من تجارب دخول الإنترنت المناطق الريفية فى العالم تمت من خلال خريجى وطلاب الجامعات فى تلك المناطق الريفية لأن هؤلاء الطلاب والخريجين يتعرضون لمنافع الإنترنت فى مؤسساتهم التعليمية، فيتوفر لديهم الوعى والإدراك بأهميتها، فعلى سبيل المثال فى منطقة Hermosillo بالمكسيك استمر ثلاثة خريجين من الجامعة يقدمون من الإنترنت المعلومات الزراعية القيمة لأهالى تلك المنطقة الريفية لمدة ثمان سنوات بدون أجر، وفى شيلى امرأة شابة تخرجت حديثا من الجامعة، وبدون سابق خبرة فى الكمبيوتر، تدربت وأصبحت مسئولة عن تقديم المعلومات الزراعية الجديدة من الإنترنت لمنظمات الزراع. لذلك أوصت دراسات الفاو بأن يؤخذ فى الاعتبار ضرورة جذب الشباب من خريجى الجامعات والكليات للعمل فى التجارب الأولية والاسترشادية لتعميم خدمات الإنترنت للمنظمات والسكان فى الريف وخاصة فى الدول النامية، وتلك التجارب نحتاجها فى مصر، فهناك آلاف من خريجى الجامعات ذوى الأصول الريفية وعاطلين عن العمل، وأخص منهم خريجى



كليات الزراعة، وكليات الطب البيطرى أمامهم فرصة لعمل ما يسمى دكاكين الإنترنت بدعم حكومى ونشرها فى المناطق الريفية لتقديم كل المعلومات الزراعية والبيطرية الجديدة والثقافة السكانية والمعارف الحياتية المختلفة التى تسرع من عمليات تحديث الريف، فهناك الآن فى ريف مصر بعض الشباب من الأطباء البيطريين فتحوا عيادات إليكترونية عبارة عن مكان صغير به كمبيوتر وفيه برامج نظم خبيرة خاصة بالرعاية البيطرية، يحضر المزارع بحيوانه المصاب أمام حجرة الكشف ويشخص الطبيب الأعراض المرضية التى فحصها ويدخلها الكمبيوتر فتخرج روشتة العلاج.

البنية التحتية الاتصالية في الريف

تشير الاحصاءات إلى أن كثافة خطوط التليفونات الريفية أصغر من ١ لكل ١٠٠٠ نسمة بل إن مساحات كبيرة من أقاليم الدول الأقل نمواً بدون أى خطوط تليفونية، فهناك ٥٣٥٠٠٠ قرية فى الهند ، و ١٥١٠٠٠ قرية فى أفريقيا و٥٨٠٠٠ قرية فى أندونسيا بدون أى خط تليفونى، وهو ما يترجم فى مصطلح «نقص البنية التحتية الاتصالية فى الريف»، وسد هذا النقص يحتاج إلى أموال طائلة لمساعدة الدول النامية فى بناء وتحسين شبكة اتصالاتها وتطوير تكنولوجيات الاتصال المرتبطة. فمسئولية بناء البنية التحتية الاتصالية صعبة ومكلفة على الوقت الطويل، خاصة مع وجود حقائق كالجوع وموت الأطفال. لكن البنك الدولى تبين دراساته أن الاستثمارات فى البنية التحتية الاتصالية تعود بفوائد مرتفعة ١٨٪ أو ٣٦٪ تحسب كفوائد غير مباشرة وتصبح مصدرا ثابتا من الدخل العام. ولكى تلحق الدول النامية بالدول الصناعية معلوماتيا يجب أن تنمو شبكتها الاتصالية مرتين أو ثلاثة أمثال متوسط النمو العالمى لشبكات الاتصال والمقدر بـ ٥٪ سنويا. وهذا يتطلب استثمارات جديدة وضخمة لتحديث تلك البنية فى هذه الدول، وقد قدر أنه فى عام ٢٠٠٥ سوف تنجز الدول النامية ٣٠٪ من مشروعاتها فى البنية التحتية الاتصالية بحوالى ٩٠٠ بليون دولار أمريكى، والعالم كله سينجز ويطور ١٦٪ من البنية الاتصالية بحوالى ٥٢٠ بليون دولار أمريكى.

والحلول يجب أن تكون فعالة ومنصفة، أولها الاهتمام بالمناطق الريفية وتحسين نوعية الحياة فيها، والعديد من الدول تضع استراتيجيات طموحة مسبقة لتنمية البنية التحتية لاتصالاتها المحلية، فالفلبين مثلا تستهدف خط تليفون لكل فرد يعيش فى قراها البالغ عددها ٤٠٠٠٠ قرية، الصين مثلا تأمل أن يكون لها أكثر من ١٤٠

مليون خط تليفونى حتى عام ٢٠٠١ . هذا وتعتبر مصر من أوائل الدول التى وعيت بأهمية البنية الأساسية للاتصالات، فانتشرت فيها خطوط التلغراف مع أول خطوط للسكك الحديدية، ثم غطت أغلب المدن المصرية قبل نهاية عصر اسماعيل باشا ١٨٧٨، ومهد ذلك لانتشار التليفونات فيما بعد ووصل عدد المشتركين عام ١٨٨٦ إلى ٨١٧ مشتركا مما يعتبر بمقياس العصر وقتها عددا كبيرا. فالاتصالات التليفونية فى مصر لها تاريخ طويل يواكب دخول التليفون فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا، ويحفزنا ذلك أن نذكر هنا بالكتلة البشرية الغاطسة الهائلة والتى تبلغ حوالى الخمسين مليونا من البشر والتى تكلم عنها كثيرا الدكتور رشدى سعيد فى مقاله المهم الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى، ووصفها اقتصاديا وثقافيا فهى تمثل الفقر بكل أبعاده، ويهمنا هنا أن هذه الكتلة الغاطسة من البشر فى مصر والتى تحصل على حوالى ٢٦٪ من جملة الدخل القومى، ويمثلون ٨٦٪ من جملة سكان مصر، ويسكن منها حوالى ٥٦٪ من أسر هذه الشريحة فى الريف والباقى فى الأحياء الشعبية فى المدن أو على أطرافها فى مناطق عشوائية، كما أن هذه الكتلة الغاطسة ليس لدى أحد فيها أى تليفون خاص بل ويمكن القول إن هذه الكتلة الغاطسة محرومة كلية من استخدام التليفون، فمعظم القرى والأحياء التى يسكنونها ليس بها تليفونات عامة.



ويعتبر نقص البنية التحتية الاتصالية واحدا من أهم العوامل المهمة التى تقود السكان للهجرة من الريف للحضر، لدرجة أن المخططين للتنمية الريفية فى دولة مثل كندا أكدوا على أن تحسين البنية الاتصالية فى المناطق الريفية يأتى فى المرتبة الأولى من حيث الأهمية وترتيب الحاجات لإحداث التنمية الريفية، بل إنها تأتى قبل تحسين الخدمات الصحية أو الخدمات التعليمية لأن توفر البنية التحتية الاتصالية هو العامل المؤثر فى تفعيل الخدمات الصحية والتعليمية فى المناطق الريفية، فنقص تلك البنية الاتصالية يؤدى إلى طرد الكفاءات العاملة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، وإذا كان نقص البنية التحتية الاتصالية فى المناطق الريفية هو التحدى الأول المعيق لدخول الإنترنت المناطق الريفية، فالتحدى الثانى الذى يواجه تنمية الاستثمار فى مجال التكنولوجيا فى المناطق الريفية يتمثل فى نقص المعرفة الثقافية والقدرة على تحديد أى من التجارب التنموية يمكن أن تنجح فى منطقة بذاتها وهو ما يسمى بالتوافق المكانى، التحدى الثالث فى تمويل التكنولوجيا ذاتها.

ولمواجهة النقص الواضح فى البنية التحتية الاتصالية للإنترنت فى المناطق الريفية والنائية، توصى البحوث فى هذا المجال بأنه يجب على الدول توفير منح وقروض ميسرة لتوفير المستلزمات لمولين لخدمات الإنترنت فى المناطق الريفية، وكفالة حرية استخدام الخدمة لمدة ثلاث سنوات لتشجيع القطاع الخاص، والمساعدة فى التدريب والتمويل وتنمية الوعى بالإنترنت، وتؤكد الدراسات أن هناك علاقة ارتباطية قوية بين تحسين نظم الاتصالات فى الدول النامية وبين سياسات الاتصالات القومية التى تفيد فى تحرير خدمات الاتصالات، ففى أوغندا وزامبيا وغانا هناك تزايد مستمر فى خدمة الإنترنت فى هذه الدول لأنها تبنت سياسات تحريرية لنظم الاتصال، ويذكر أيضا أن قرار الحكومة المصرية بدعم خدمات الإنترنت للقطاع الخاص، قد جاء نتيجة للانفجار فى خدمات الإنترنت والنمو والموازى له فى أعداد المستخدمين، فقد سمحت الحكومة المصرية بالترخيص بإقامة شركات تجارية تقدم خدمات الإنترنت فى مايو ١٩٩٦ وبدأت وقتها فورا ١١ شركة فى القاهرة وكذلك ثلاث شركات خاصة فى هرارى زيمبابوى، حيث تقدم هذه الشركات خدمة الإنترنت لمن يملك جهاز الكمبيوتر وخط تليفون. وكذلك نشأت عدة شركات صغيرة فى المراكز الحضرية تقدم خدمة الإنترنت لمن لا يملك جهاز كمبيوتر كما حدث فى المكسيك ومصر وماليزيا والسنغال، فكانت بدايات مشجعة للفاو أن تبدأ فى تلك الدول مشروعاتها البحثية الاسترشادية التى تكلمنا عنها لتقديم خدمة الإنترنت للمناطق الريفية لتدعيم التنمية الريفية المتواصلة.

وعلى الرغم من النمو السريع فى خدمات الإنترنت، فإن الوعى العام بفوائد الإنترنت الإيجابية مازال ضعيفا بالدول النامية، حيث توضح نتائج البحوث أن أغلبية مستخدمى الإنترنت فى الدول النامية يقعون تحت واحدة من المجموعة الآتية: خريجى الجامعات حديثى التخرج، المنظمات غير الحكومية الممولة دوليا، مشروعات التنمية الدولية من خلال الهيئات العامة، المنظمات الدولية، الوحدات الحكومية ذات الصلة بالهيئات العليا بالدولة، الجامعات والقطاع التعليمى بصفة عامة، الباحثين، الهيئات السياحية الحكومية والمحلية، الأفراد الذين يعيشون خارج مجتمعاتهم المحلية، المؤسسات الدينية ذات الانتماءات الدولية الهيئات الصحية، ووسائل الاعلام، وشركات الكمبيوتر والاتصالات.

وهناك طرق عديدة لتنمية الوعى بالإنترنت فى المناطق الريفية منها، حلقات المناقشة المحلية، وإنتاج وتوزيع شرائط فيديو حول أهمية واستعمال الإنترنت فى

الزراعة مثلا، تشجيع وإطلاق ونشر خدمات الإنترنت فى المناطق الريفية مع التركيز على دور المنظمات غير الحكومية، وتعزيز خدمة التليفونات القائمة، تطبيق فكرة الإنترنت المتنقل internet buses وهى أتوبيسات الإنترنت لنقل التسهيلات التى يتيحها الإنترنت إلى المناطق الريفية النائية باستخدام تكنولوجيات الأقمار الصناعية.

ويستطيع الاستخدام المخطط للإنترنت فى الريف أن يساعد فى تبادل الخبرات بين السكان وتسهيل الحوار بين الريفيين والمخططين الحكوميين من بحاث زراعيين وفنيين، التنسيق بين جهود التنمية على المستوى المحلى والاقليمى والقومى، كما يمكن للإنترنت التغلب على المعيقات الناتجة عن الأمية واللغة والاختلافات الثقافية والعزلة الطبيعية من خلال نقل الصوت والصورة والحركة، وتوظيف ودمج وسائل الاتصال التقليدية مثل الفلكلور الشعبى، الاذاعة الريفية، وفيديو المشاركة فى الإنترنت.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإنترنت ليست هى البلسم الشافى والحل الوحيد لمشاكل التنمية الريفية فى مصر، ولكنها عامل فعال فى نجاحها لأن من خلال الإنترنت نقدم مصادر جيدة للمعلومات، وفتح قنوات اتصال بالمجتمعات الريفية والنائية، وكسر الفجوة بين المخططين والمتخصصين فى عمليات التنمية والسكان الريفيين، وتتيح التفاعل بين الخبراء والريفيين، وتنمى العلاقات بين المنظمات التى تخدم فى الريف، ويستطيع الإنترنت بناء آليات تمكن من إجراء حوار بين القمة والقاعدة فى عمليات التنمية، والمشاركة فى المعرفة المحلية.

إرادة الفراعنة

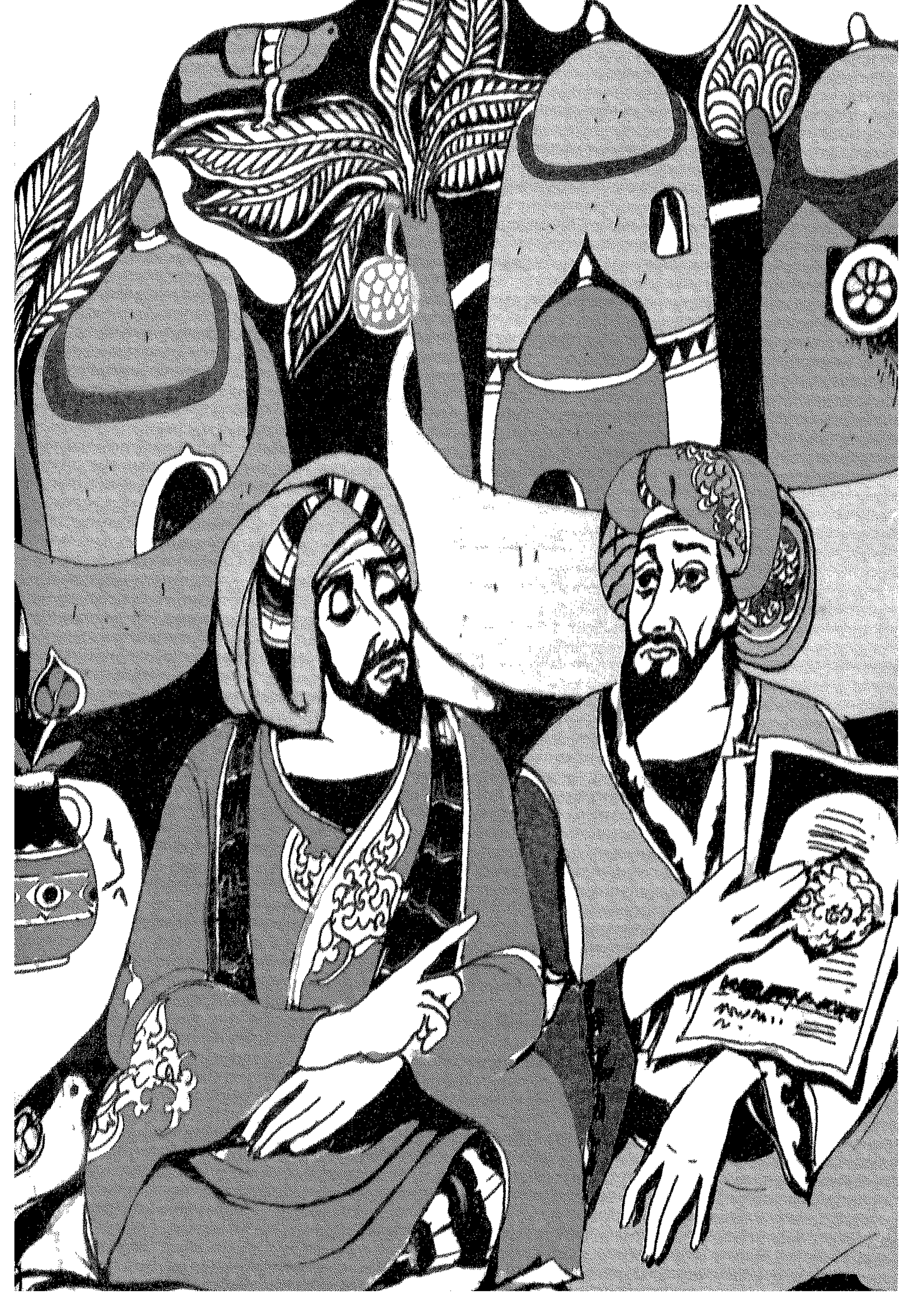
فحتى وقت قريب جدا كان يعتقد أن عمر الزراعة المصرية ١٨ ألف سنة منذ عام ١٦٢١٩ قبل الميلاد حيث أثبتت الحفريات ذلك فى وادى الكوبانية فى كوم أمبو، وأثار هذا الاكتشاف الكثير من الجدل والنقاش ليس هنا موضعها، لكن الشىء المؤكد أن الزراعة المصرية يمتد عمرها قبل هذا التاريخ بكثير، وأن التقدم الزراعى فى مصر الفرعونية كان بكل ما يعنيه مصطلح زراعة من رعاية أرض، ورى وصرف، وتربية حيوانات ومزارع سمكية وادخال واستيراد محاصيل جديدة... إلخ. والسؤال الآن كيف تم هذا التقدم الزراعى؟ إن الإجابة على هذا السؤال تستدعى الكثير من البحث والدراسة الدقيقة والمنقبة، ولكن لا يمكن الاختلاف على أن التقدم الزراعى فى مصر القديمة لابد أنه اقتضى نظاما إداريا واتصاليا وتعليميا وبحثيا، وتعاونا واتصالا أيضا بين الزراع أنفسهم،

وأيضا بينهم وبين العلماء فى المعابد، فانعكست آثار هذا التنظيم فى صورة تقدم زراعى ملحوظ فى مصر الفرعونية.

إن الباحث المدقق والمنقب فى تاريخ مصر القديمة لابد أن يعثر على الكثير من الدلائل والشواهد التى تؤكد وجود نوع من الاتصال بين الزراع والبحث الزراعى فى مصر القديمة، لأنه لايمكن أن يكون هذا التقدم ناتجا من فراغ، وإذا كانت الكلمات السريعة السابقة ماهى إلا مجرد محاولة للوعى بالتاريخ، واستجماع لانطلاق! فهل آن الآوان لأحفاد هؤلاء الفراعنة أن يشحذوا ارادتهم لتوظيف تكنولوجيات المعلومات والاتصال من أجل التنمية الريفية والزراعية، وتوظيف الإنترنت للوصول للزراع الجدد فى المشروعات الزراعية القومية الجديدة ليكونوا على اتصال دائم بتكنولوجيات الزراعة الجديدة، واسمع من يقول الآن علينا بمحو أمية الزراع أولا ! والرد على ذلك بسؤال هو كيف نوظف الإنترنت فى الوصول لكل مكان فى مصر مهما كان بعيدا لمحو أمية من يجهل الأبجدية الهجائية، وفى نفس الوقت نمحو أمية استعمال الكمبيوتر والانترنت فى نفس اللحظة أيضا نوصل له التكنولوجيا الزراعية الجديدة، ونحقق ثلاثة أهداف بضربة واحدة.

ولا أحد يمكنه أن يتوقع للمزارعين الفقراء أو لسكان المناطق الريفية التى تعانى من تدنى المستويات الاقتصادية والاجتماعية، أن يمتلكوا أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الاتصال الرقمية الحديثة وخدمة الإنترنت كوسائل لتحسين حياتهم. لكن هناك الكثير من النظم المختلفة التى تخدم هؤلاء السكان عندما تتجمع مع بعضها فى شكل شركات صغيرة ومتوسطة فى المناطق الريفية، ويمكن لهذه الشركات أيضا أن تنتفع بالميزة التكنولوجية فى تحسين الكثير من أوجه الحياة فى المناطق الريفية. ويمكن هنا أن تلعب المنظمات الوسيطة مثل المنظمات الريفية غير الحكومية، والوحدات الصحية والوحدات الاجتماعية والبيطرية أن تجتمع معا فى شكل شركات صغيرة ومتوسطة لتقديم خدمات الإنترنت أو بمعنى أدق توظيف تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات فى خدمة التنمية الريفية المتواصلة.

ولاشك أن المنظمات غير الحكومية يجب أن تلعب دورا مؤثرا ومزدوجا لنقل اهتمامات ومشاكل الريفيين إلى مستوى صناع القرار، فالمنظمات غير الحكومية كاتحادات الزراع والجمعيات التعاونية التى تخدم المجتمعات الريفية والزراعية أفضل العناصر المتاحة لتطوير وتدعيم خدمات الإنترنت والاتصالات والمعلومات بهذه المجتمعات. ■



أشهر مترجم في التاريخ



حنين بن إسحاق

بقلم
حسين أحمد أمين

هو أشهر وأعظم مترجم عرفه التاريخ، وأبرز من أسهمت ترجماته فى إثراء الحضارة الإنسانية. لا لأنه ترجم مائتين وستين كتابا فى الطب والفلسفة والفلك والرياضة، وإنما لكونه أهم من نقل علوم الإغريق إلى العربية؛ ولأن ترجمته الدقيقة الواضحة الفذة لكتب بقراط وجالينوس فى الطب كان لها الفضل فى أن يصبح الأطباء العرب فى العصر الوسيط خير وريث لطب اليونان، وذوى أعمق تأثير فى الطب الأوروبى حتى القرن الثامن عشر؛ ولأنه أرسي دعائم صنعة الترجمة ووضع الشروط اللازم توافرها فى النقل السليم عن اللغات الأجنبية، بحيث يمكن القول بأن أسلوب تعامله مع اللغة فى ترجماته لا يختلف فى قليل أو كثير عن الأسلوب المتبع فى العصر الحديث .



حنين بن اسحاق

ولأنه أشار إلى طرق التحقق من صحة أو زيف نسبة الكتب إلى من زعم أنهم مؤلفوها؛ ولأنه اعتمد فى ترجمته للعهد القديم من الكتاب المقدس إلى العربية على أصول يونانية هى أقدم بعدة قرون من تلك التى كانت فى حوزة الأوروبيين، فساعدت ترجمته تلك مترجمي العهد القديم فى أوروبا علي التثبت من النص وتصحيح الترجمات المتداولة لذلك الكتاب على ضوئها؛ ولأن بعض ما ترجمه إلى العربية والسريانية من كتب الإغريق قد ضاعت أصوله اليونانية، فأصبح اعتماد الأوروبيين اعتماداً كليا علي ترجمات حنين لهذه الكتب فى نقلهم إياها إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة؛ ثم لأن أسلوب حياته، وسمو أخلاقه، وجهده الدءوب فى الإنتاج والعمل، وحرصه الدائم على الأرتقاء بمستوي اللغات التي درسها، والمؤلفات التى وضعها ، والترجمات التى اضطلع بها هو وابنه إسحاق وابن اخته وسائر تلامذته، هى خير ما يمكن للمؤلفين والمترجمين وسائر الناس أن يقتدوا به.

نشأته

ولد حنين بن اسحاق العبادى (بكسر العين وتخفيف الباء) عام ٨٠٨م (١٩٢ هـ) قبل عام واحد من وفاة هارون الرشيد. وكان مولده بمدينة الحيرة فى العراق ، وهى مدينة عريقة القدم (بنيت قرب بابل في القرن السادس قبل الميلاد)، وتقع جنوبى بغداد، لا يفصلها عن الكوفة غير مساحة صحراوية ضيقة. وكثيرا ما ورد ذكر الحيرة فى قصائد الشعراء وكتب المؤرخين العرب. فقد كانت مدينة غنية، ومركزا تجاريا هاما، وعاصمة للأمراء اللخميين الموالين للفرس، كما كانت قبيل ظهور الإسلام بؤرة سياسية للمناطق الواقعة غربى وجنوبى نهر الفرات، ومقرا لأسقف النساطرة الذى كان يلقب بأسقف العرب.

فأما أهلها فمسيحيون على مذهب فرقة النساطرة، ظلوا بعد ظهور الإسلام وانتشاره مخلصين لعقيدتهم وكنيستهم، رافضين الدخول فى الدين الجديد، غالبيتهم من قبائل تنوخ، وطيء، وتغلب، وعدد من القبائل الصغيرة الأخرى.. وبفضل بذخ الأمراء اللخميين، واهتمام رجال الكنيسة النسطورية بنشر التعليم، اشتهر أهل الحيرة عند العرب بأنهم أهل شعر وعلم وفنون وصنائع. كما كان

سكانها المسيحيون أقدم مجتمع مسيحي عربى خالص، يلقبون بالعباد، ومنها نسبة العبادى فى اسم حنين. ورغم اختلاف الانتماء القبلى لهؤلاء السكان، فقد اختفت بينهم بمرور الزمن النزاعات والعداوات، وأضحوا (عكس القبائل العربية الأخرى) جماعة متماسكة مترابطة بفضل المذهب الديني المشترك الذى حل لديهم محل مشاعر العصبية القبلية التقليدية.. كذلك اشتهر أهل الحيرة بالتجارة، وكان تجارها - ومنهم من كان يمتلك بها دورا وقصورا فاخرة - كثيرى السفر - حسنى السمعة بين كافة العرب، بل وكان العرب يرونهم خير وسيط بين المدن وبين عالم الصحراء. وقد وسعت كثرة الرحلات والصلات من مدارك أهل الحيرة وآفاقهم العقلية، ورفعت من مستوى الثقافة فيها.

فأما عن لغتهم فقد كانوا يستخدمون العربية فى الحديث، والسريانية فى الكتابة. وكانت السريانية هى اللغة التى يتلقى بها التلاميذ تعليمهم فى المدارس التي ترعاها الكنائس والأديرة. ومع ذلك فقد كان للصفوة فى الحيرة فضل تدوين أقدم تراث أدبى باللغة العربية، ولشعرائها فضل نظم القصائد شديدة الاختلاف فى معانيها وأغراضها عن الشعر البدوى، وكان أبرزهم الشاعر الجاهلى عدى بن زيد.

كان والد حنين صيدليا ميسورا عُنى بأن يتقن ولده اللغتين العربية والسريانية فى صباه إتقانا تاما، ثم أضاف إليهما حنين فى شبابه لغتين أخريين هما اليونانية والفارسية، ويلاحظ أن حنينا، بعدما استقر به المقام فى بغداد واشتغل بالترجمة، كانت ترجماته من اليونانية إلى السريانية أكثر منها إلى العربية، وذلك لسببين: الأول، أن عنايته اتجهت فى المقام الأول إلى ترجمة المؤلفات الإغريقية فى الطب والفلك والرياضة، فوجد أن اللغة العربية فى زمنه فقيرة إلى المصطلحات العلمية المتعارف عليها، واللازمة لترجمة مثل تلك الكتب، وأن السريانية والفارسية، ناهيك عن اليونانية، أغنى من العربية بكثير بتلك المصطلحات، وقد كان سبيل حنين وتلامذته إلى الخروج من هذا المأزق فيما بعد هو أن يتجنبوا قدر الإمكان حرفية ترجمة المصطلحات، وبذل الجهد من أجل صياغات مصطلحات علمية جديدة باللغة العربية.

وأما السبب الثانى فهو أن حنينا كان يهتدى فى نشاطه برغبات المتعاملين معه، وكان المسيحيون النساطرة فى ذلك العصر أحرص الناس على ترجمة التراث اليونانى إلى السريانية لغة كنيستهم، وذلك



حنين بن اسحاق

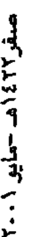
لدواع لابد من ذكرها فيما يلى:

فالمعروف أن النساطرة هم أتباع نسطور الذى نصب بطريقا فى القسطنطينية عام ٤٢٨م.ثم أطيح به فى مجمع إفسوس عام ٤٣١ بسبب الخلاف الذى دب بين المسيحيين حول طبيعة المسيح. فطرد من حظيرة الكنيسة وحكم عليه بالنفى. وقد كان أن اتجه مناصروه شرقا، خاصة إلى فارس المعادية للروم، ثم أضحت النسطورية المذهب الرسمى للكنيسة فى الإمبراطورية الفارسية، كما انتشرت فى المناطق الشمالية للشام والعراق وشرقي تركيا، ثم بين القبائل العربية حتى اليمن وحضرموت، ففى الهند والصين ، حتى باتت كنيستها أعظم الكنائس الشرقية نفوذاً ، وحتى اعترف الخلفاء العباسيون ببطريقها رئيسا لكافة نصارى المشرق على اختلاف مذاهبهم.

وقد حرص علماء النساطرة ورجال الدين منهم منذ البداية على أن يكون لمذهبهم لاهوت وفلسفة مختلفان أشد الاختلاف عن لاهوت الكنيسة البيزنطية وفلسفتها فكان أن أقبلوا إقبالا عظيما على ترجمة كتب أرسطو وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة إلى السريانية، ونسخها والتعليق عليها وتفسيرها، ونشرها بين المؤمنين على نطاق واسع، حتى تصبح مادتها من المنطق والميتافيزيقا أساسا للاهوت كنيستهم. ثم كان أن اتسع بعد ذلك نطاق اهتماماتهم حتى شمل جانب المنطق والميتافيزيقا مختلف علوم الإغريق ، خاصة الطب. ومن حسن حظهم أن وافق نشاطهم هذا في ذروته بدء اهتمام خلفاء العصر العباسى الأول بتنشيط الحركة الثقافية فى دولتهم، وإقدامهم على تكليف من يثقون فى كفاءتهم بنقل علوم اليونان إلى العربية، وتأسيس «بيت الحكمة» في بغداد عام ٨٣٢ ليكون البؤرة الرئيسية لذلك النشاط الذى ظل علماء المسيحيين النساطرة على مدى أربعة قرون أبرز القائمين عليه.

مع يوحنا بن ماسويه

كان حنين بن إسحاق فى الرابعة والعشرين وقت تأسيس الخليفة المأمون لبيت الحكمة. وكان قد سعى قبل ذلك إلى إتقان قواعد اللغة العربية التى قيل إنه قصد البصرة لدراستها، جالبا منها معه كتاب «العين » للخليل بن أحمد . أما ما زعمه ابن جُلْجُل وآخرون من أن حنينا التقى بالخليل، فزعم غير مقبول على ضوء



تاريخى ميلاد ووفاة كل من الخليل وحنين. وعلى أى حال فقد شهد كل من كتبوا سيرة حنين من المؤلفين العرب القدماء أنه ترك البصرة إلى بغداد «فصيحا لسنا ينظم الشعر بالعربية».

فأما عن كيف أتقن حنين اليونانية ذلك الاتقان المذهل، فيذكر شاهد عيان هو يوسف بن إبراهيم فى رواية جديرة بالتصديق. فهو يروى أن حنينا بدأ دراسة الطب فى بغداد على يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧م) الذى ترجم بعض كتب الطب اليونانية لهارون الرشيد، ثم كان بعد ذلك طبيبا خاصا لكل من المأمون والمعتصم، ومديرا لبيت الحكمة، ولأهم مدرسة ببغداد لتعليم صناعة الطب.. ورغم أنه كان أيضا من المسيحيين النساطرة، فقد ضاق بعد مدة بحنين لكثرة أسئلته العويصة أثناء الدرس مما كان ابن ماسويه يعجز عن الإجابة عنها، كما كان يستنكر أن يدخل فى صناعة الطب أبناء التجار من أمثال حنين. وكثيرا ماكان يعبر عن غيظه بقوله له : «ما لأهل الحيرة وأبناء التجار والطب! أقعد على الطريق مع بضاعة تبيعها فإن ذلك أنفع لك من صناعتنا»! وقد وصل الأمر فى النهاية إلى حد فصله إياه، فخرج حنين من مدرسته باكيا مكروبا.. وهنا اختفى حنين عن العاصمة لعدة سنوات تذكر المصادر أنه أقام خلالها بالإسكندرية بمصر ثم فى عدد من مدن الدولة البيزنطية. فلما عاد بعد ذلك إلى بغداد كان قد أتقن اللغة اليونانية تماما، لدرجة أنه كان يحفظ بها أجزاء طويلة من ملحمتى هوميروس، بالاضافة إلى ما اقتناه من مخطوطات يونانية فى كل من مصر والشام وفلسطين.

يقول يوسف بن إبراهيم: «دخلت يوما في زمن المأمون على الطبيب جبرائيل بن بختيشوع، فوجدت عنده حنينا وقد ترجم له أقساما من كتاب لجالينوس فى التشريح، وجبرائيل يخاطبه بالتبجيل ويناديه بَربَّن حنين (ربن أى المعلم) . وإذ تبين جبرائيل فى وجهى الدهشة لهذا التبجيل، قال لى : لا تستكثرن ما ترى من تبجيلى هذا الفتى. فوالله لئن امتد به العمر ليفضحن غيره من المترجمين . فلما خرجت إذا بحنين فى انتظارى بالباب، فناولنى نسخة مما ترجمه وقال: إدفع بهذه النسخة إلى يوحنا بن ماسويه ولا تخبره بمن ترجمها.. ففعلت ذلك من يومى. فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول كثر تعجبه وقال: أترى المسيح أوحى فى دهرنا هذا إلى أحد؟! قلت: ما أوحى إلى أحد. ولا كان المسيح إلا أحد من يوحى إليهم. فقال: دعنى من هذا القول! ليس



حنين بن اسحاق

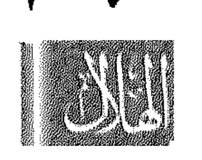
هذا إلا إخراج مؤيد بروح القدس. قلت : هذا إخراج حنين بن إسحاق الذى طردته من مجلسك وأمرته أن يقعد على الطريق ببضاعة يبيعها! فحلف ابن ماسويه أن ما قلت له محال، ثم صدق القول بعد ذلك، واستقبل حنينا فاعتذر وأحسن إليه، وأعاده إلى مدرسته، ولم يزل مبجلا له بعد ذلك».

نشاط فى ميدانى الترجمة والتأليف

عكف حنين، إلى جانب دراسة الطب، على الترجمة لابن ماسويه، فترجم له كتبا كثيرة، خاصة من مؤلفات جالينوس، بعضها إلى السريانية وبعضها إلى العربية. ثم كان أن سمع به الخليفة المأمون، فاستدعاه مكلفا إياه بأن ينقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وبذل له من الأموال والعطايا شيئا كثيراً. وكان المأمون قد طلب من الإمبراطور البيزنطى أن يوافيه بمجموعة ضخمة من الكتب القديمة المخزونة فى بلاده، فأجابه إلى طلبه بعد تردد. فلما وصلت الكتب أمر المأمون حنينا بأن يترجم ما يقدر عليه منها، وأن يصحح ما ينقله غيره. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما يترجمه من الكتب.. كما كانت ثمة وقتها جماعة من ثلاثة إخوة ، هم بنو موسى بن شاكر، تشرف على حركة مستقلة للترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد، وتخصص للمترجم خمسمائة دينار فى الشهر الواحد مقابل عمله، وكان من بين المترجمين لهم حنين بن إسحاق. وقد ذكر حنين أن الجماعة كلفته بالسفر إلى بلاد كثيرة، وأنه وصل إلى أقصى بلاد الروم فى طلب الكتب التى يهمه ترجمتها.

لم يذكر أحد من الذين كتبوا سيرته أنه عمل ببيت الحكمة. ويبدو لنا أن نشاطه كله كان بمثابة مشروع خاص، يعمل فيه معه ولده إسحاق ، وابن اخته حبيش، وتلميذ له هو عيسى بن يحيى. وحيث أن حبيشا وعيسى لم يكونا على دراية كافية باليونانية، فقد كانا يعدان ترجمات سريانية لما ينقله حنين من اليونانية إلى العربية، أو ترجمات عربية لما ينقله إلى السريانية، ثم يراجع حنين أو ابنه إسحاق ترجماتهم على الأصول اليونانية ويصححانها.

نهض حنين وصحبه. بترجمة عدد هائل من الكتب فى عهود تسعة من الخلفاء العباسيين (من المأمون إلى



المعتمد). وقد كان من أهم ما ترجمه حنين - كما ذكرنا - العهد القديم من الكتاب المقدس، وهى ترجمة وصفها المسعودى فى كتابه «التنبيه والإشراف» بأنها «أصح نسخ التوراة عند كثير من الناس» . وبين أيدينا رسالة كتبها حنين بعنوان «رسالة إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس وبعض ما لم يترجم»، ذكر فيها الترجمات المختلفة لمؤلفات جالينوس التى كانت معروفة فى زمنه. وقد أورد حنين قائمة بعناوين مائة وتسعة وعشرين كتابا لجالينوس، ترجم هو منها نحو مائة إما إلى السريانية أو العربية أو اللغتين معا. فإن كان أبوبكر الرازى ألف فيما بعد رسالة بعنوان «فى استدراك مابقى من كتب جالينوس مما لم يذكره حنين ولا جالينوس فى فهرسته»، فإنه يجدر بنا أن نذكر أن حنينا كتب رسالته بعد أن صادر الخليفة المتوكل مكتبته (كما سيجىء)، وهو ما ذكره فى الرسالة.. وقد عبر حنين عن اعتقاده أن عددا من الكتابات المنسوبة إلى جالينوس ليست من تأليفه وإنما نسبت إليه كذبا. وهو اعتقاد تقره نتائج تحريات العلماء فى العصر الحديث.

أورد حنين فى رسالته عددا من الملاحظات حول منهجه فى الترجمة فقد كان من دأبه أن يجمع كل ما يستطيع جمعه من مخطوطات يونانية للكتاب الواحد ويقارن بينها من أجل الوصول إلى نص كامل موثوق به قبل أن يشرع فى ترجمته. غير أن ثمة مأخذا واحدا يمكن للبعض أن يأخذه عليه، وهو أنه - شأنه فى ذلك شأن المترجمين المسيحيين فى عصره - كان يرى من واجبه استئصال كل أثر للوثنية من كتب الإغريق، كما فى حالة استعاضته عن ذكر آلهة الوثنين بذكر الله أو الملائكة. غير أن هذا الحذف لم ينتقص من القيمة العلمية لترجماته.

غير أن نشاط حنين لم يقتصر على الترجمة. فقد نهض بتأليف مائة وخمسة عشر كتابا، خاصة فى الطب، وأيضا فى الفلسفة، وعلم طبيعة الأرض، والظواهر الجوية، وعلوم الحيوان واللغة والدين. كذلك فإن له كتابا فى تاريخ العالم من آدم إلى عصر المتوكل. أما كتبه فى الطب فكثير منها فى صورة أسئلة وأجوبة، وأهمها كتاب «المسائل فى الطب» الذى ترجم فيما بعد إلى العبرية واللاتينية. كما أن ثمة ترجمتين إلى اللاتينية لكتابه «العشر مقالات فى العين». وله أيضا «فى الضوء وحقيقته»، و«نوادر الفلاسفة» الذي يحوى مجموعة من القصص والرسائل والأقوال الحكيمة المنسوبة إلى فلاسفة الإغريق، مع تعليق حنين عليها، وكتاب «فى كيفية إدراك



حنين بن اسحاق

حقيقة الديانة» ويتضمن ردودا ذكية حذرة على فقهاء المسلمين.

عاداته وأخلاقه

كان شديد الورع والتمسك بتعاليم دينه، يلبس زناره فى كافة المجالس التى يحضرها. ويقول ابن أبى أصيبعة فى كتابه «طبقات الأطباء» إن حنينا كان إذا فرغ من عمله اليومى «عاد إلى داره، فدخل الحمام فيصب الماء عليه، حتى إذا ما انتهى من الاستحمام التف برداء من قطيفة وقد أعد له وعاء من فضة فيه رطل شراب يشربه مع كعكة مفتوتة. ثم يقوم فيتبخر، ويقدم له طعامه ، وهو فروج كبير ورغيف ومرق ، ويشرب شرابا عتيقا. ولم يذق غير هذا طوال عمره. فإن اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى والرمان والسفرجل».

وكان لطيف المعشر والشمائل دمث الخلق.. يقول عبيد الله بن جبرائيل بن ختيشوع فى كتابه «مناقب الأطباء» إن حنينا لما قوى أمره وانتشر ذكره بين الأطباء، أمر الخليفة باحضاره، «(لم يذكر عبيد الله ولا غيره ممن أوردوا هذه القصة فى حديثهم عن حنين اسم هذا الخليفة»، ودفع إليه خمسين ألف درهم، فشكره حنين. قال الخليفة: أريدك أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا. فقال حنين: ياأمير المؤمنين، لم أتعلم إلا صناعة الأدوية النافعة، وما ظننت أن أمير المؤمنين سيطلب منى غيرها. فأمر الخليفة بحبسه، فمكث فى الحبس مدة يترجم ويفسر ويصنف، وهو غير مكترث بما هو فيه. فلما مرت المدة. استدعاه الخليفة وقال: لابد مما قلته لك. فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال أمامك، وإن امتنعت قتلتك شر قتلة. قال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين إنى لا أحسن إلا الشىء النافع، ولم أتعلم غيره. فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليقتلنى». قال الخليفة: ما يمنعك؟ أجاب حنين: الدين وصناعة الطب. الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف مع غير أعدائنا؟ وصناعة الطب تمنعنا من الإضرار بالناس لأن الغرض منها نفعهم. وفى رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة ألا يعطوا دواء قتالاً ولا ما يؤذى. فأمر الخليفة بالخلع فخلعت عليه، وخرج حنين من عنده وهو أحسن الناس حالا وجاها».

محنته فى عهد المتوكل

وسواء صحت هذه القصة أم لم تصح فإنه من المؤكد أن حنينا عانى الأمرين من نزوات الخليفة المتوكل الذى كان كبيرا لأطبائه، وأنه وقع فى عهده ضحية دسيسة حاكها له زملاء مسيحيون، إما حسدا منهم له، أو لرفضه عبادة الأيقونات

والتماثيل الدينية. وقد ألف حنين فى أواخر أيامه «رسالة فيما أصابنى من المحن والشدائد من الذين ناصبونى العداوة من أشرار أطباء زمانى المشهورين»، جاء فيها:

«لحقنى من أعدائى الجاحدين لحقى، الظالمين لى، من المحن والمصائب ما منعنى من النوم، وأشغلنى عن مهماتى. وكل ذلك من الحسد لى على علمي وما وهبه الله لى من علو المرتبة على أهل زمانى. وأكثر هؤلاء هم ممن علمتهم وأحسنت إليهم: كافأونى عوض المحاسن مساوىء بحسب ما أوجبته طباعهم. حتى ساءت بى الظنون وحتى كان يحصى على ألفاظى ويكثر اتهامى، وحتى أوقعوا بغضى فى نفوس سائر أهل الملل، فضلا عن أهل مذهبى، و حتى آلت القضية إلى أن بقيت محبوسا مدة من الزمان، لا تصل يدى إلى شىء من ذهب ولا فضة ولا كتاب ولا ورقة أنظر فيها.

«وكيف لا أُبغض ويكثر حاسدى، ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب، وتبذل الأموال من أجل قتلى ، ويعز من شتمنى، ويهان من أكرمنى، وهم الذين رأونى فوقهم، عالياً عليهم بالعلم والعمل، أنقل إليهم العلوم الفاخرة من لغات لا يحسنونها ولا يعرفون شيئا منها، فى عبارة حسنة فصيحة، لا استغلاق فيها ولا لحن. يسمعها من ليس صناعته الطب، ولا دراية له بالفلسفة، فيستحسنها ويعرف قدرها، ويفضل نقلى على نقل من قبلى. فإن كان سائر أهل الأدب، وإن اختلفت مللهم، محبين مكرمين لى، فإن هؤلاء الأطباء النصارى يرومون سفك دمى. فمرة يقولون: من حنين؟ إنما حنين ناقل لهذه الكتب ليأخذ على نقله الأجرة كما يأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم، ولا فرق عندنا بينه وبينهم.. ثم ما له والكلام فى صناعة الطب، وما حرصه هذا على أن يقال عند حنين الطبيب، لا حنين الناقل، الأجود له لو أنه لزم صناعته وأمسك عن ذكر صناعتنا! فكنت كلما سمعت شيئا من هذا ضاق به صدرى، وهممت أن أقتل نفسى من الغيظ، لكنى كنت أكتمه فى صدرى ، علما منى بأن الحسد هو دافعهم، ولم يزل الحسد بين الناس قائما منذ قتل قابيل أخاه هابيل لأن الله لم يقبل قربانه وقبل قربان أخيه.

«ومن العجب أن أكثر هؤلاء إذا دهمهم مرض صعب قصدونى وطلبوا منى صفة الدواء!.. ومع ذلك فإنى لا أشكو منهم إلى أحد . فإن قيل لى إنهم يسبونك ويتنقصون منك فى مجالسهم ، أنفى ذلك وأظهر أنى غير مصدق لما يقال لى ، لأنى وهؤلاء تجمعنا ديانة واحدة ، وبلدة واحدة، وصناعة واحدة .

ثم يمضى حنين بن إسحاق فى



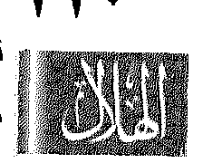
حنين بن اسحاق

رسالته فيروى « قصة المحنة الأخيرة القريبة » . وخلاصتها أن طبيبا نصرانيا للمتوكل حمل إلى الخليفة أيقونة بصورة مريم وفى حجرها المسيح الطفل وحولهما الملائكة . فأعجب المتوكل بها ، بينما أقبل الطبيب على الأيقونة يقبلها مرات عديدة فى خشوع . فسأله المتوكل : لم تقبلها ؟ فقال : يامولانا ، إذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل ؟ قال الخليفة : أكل النصارى يفعلون هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إلا رجل زنديق فى خدمتك ، يكذب بالرسل ، هو حنين بن إسحاق . فأمر الخليفة بإحضار حنين . فلما دخل رأى الأيقونة بين يديه . قال له المتوكل : ما تقول فيها ؟ فأجاب : صورة جميلة . قال : أليس هذا ربكم وأمه ؟ فقال حنين : معاذ الله يا أمير المؤمنين ! وهل لله صورة أو يمكن تصويره ؟! ماهذه إلا صورة كغيرها مما نجده فى سائر المواضع . قال الخليفة: فهى لا تنفع ولا تضر ؟ أجاب حنين : لا تنفع ولا تضر . قال المتوكل : فيجوز للناس إذن أن يطأوها بأقدامهم وأن يبصقوا عليها ؟ قال : نعم . عندئذ صرخ الطبيب النصرانى قائلا : يبصقون على مريم أم سيدنا وعلى سيدنا المسيح؟!! لو قال هذا الكلام مسلم لن أله لأنه لا يعرف مقدار الصورة . غير أن حنينا هذا نصرانى جاهل وزنديق ، لو أراحنا أمير المؤمنين منه لأراح الدنيا وكشف عن الدين محنة عظيمة قال المتوكل : فما يسر النصارى أن أفعل به ؟ قال الطبيب : تُريح العالم منه . فأمر الخليفة بإحضار السوط والحبال ، فجرد حنين من ملابسه وضرب مائة سوط ، ثم أمر بحبسه والتضييق عليه ، وبمصادرة ما فى داره من أثاث وكتب وأموال .

يقول حنين :

« فأقمتُ معتقلا فى قصره ستة أشهر فى أسوأ ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رآنى . وكان يوجه إلىّ كل بضعة أيام من يضربنى ويجدد لى العذاب ، فلم أزل على ما ذكرته حتى مرض أمير المؤمنين مرضاً خطيرا أقعده عن الحركة ، فيئس الأطباء منه ، ويئس هو أيضا من نفسه . ثم إذا بخادم للخليفة يأتينى يوما فى سجنى فيمضى بى إلى الحمام ، ويأمر بغسلى وتنظيفى ، ثم ألبسنى ثيابا فاخرة وأدخلنى على الخليفة وهو راقد فى سريره . فلما رآنى قال :

أشر علىّ بما ترى فقد طالت علتى . فأشرت عليه بأدوية زالت علته بتناوله إياها



فلما صلح حاله استدعاني وقال لي : أبشر يا حنين بكل ما تحب . فقد عظمت مرتبتك عندي ، وسأعوضك أضعاف ما كان لك ، وأرفعك على سائر أهل صناعتك . ثم إنه أمر بأن يحمل إلى داري سائر ماكنت محتاجا إليه من الأواني والفرش ، وردّ عليّ كتبي ، وأمر لي في كل شهر بخمسة عشر ألف درهم ، وأطلق لي الفائت من رزقي في وقت حبسي ، وصرت المقدم على سائر الأطباء عنده » .

ثم يختم حنين رسالته بقوله :

« وكان أعدائي الذين أوقعوا بي يأتونني بعد ذلك في داري إن كانت لهم حاجة عند أمير المؤمنين ، أو يستشيرونني في أمراض ألمت بهم وحاروا فيها ، فكنت أسارع في قضاء حوائجهم ، وأخلص لهم المودة ، ولم أكافئهم على شيء مما صنعوه بي ، فكان الناس يعجبون لما يرون مني .. وإنما ذكرت سائر ما تقدم ذكره ليعلم العاقل أن المحن قد تنزل بالعاقل والجاهل ، والقوي والضعيف ، والكبير والصغير ، فما سبيل العاقل أن ييأس من تفضل الله عليه بالخلاص مما ابتلي به ، بل أن يثق بخالقه ، ويزيد في تعظيمه وتمجيده .. فالحمد لله حمدا دائما إذ منّ علي بتجديد الحياة ، وأظهرني علّى الظالمين لي » .

وقد ظل حنين بن إسحاق في منصب كبير الأطباء للخلفاء الخمسة الذين حكموا بعد المتوكل ، إلى أن توفي عام ٨٧٣ (٢٦٠ هـ) في خلافة المعتمد عن خمسة وستين عاما . وكان ابنه إسحاق من بعده خير خلف لخير سلف . ■

أقوال

– الحب لايسأم ولا يمل ولا يعرف الفتور ولا يخاف الخفاق لكنه يلح حتى يظفر أو يفنى صاحبه

«طه حسين»

– الفن ليس سوى غرفة انتظار«الواقع » على أن يدخلها لكن قبل ذلك يجب ان يبدعها

«هنري ميلر»

– المثل العليا نجوم لا يسعك أن تلمسها بيديك ولكنها كبوصلة البحار يتخذها المرء مرشداً له ويتبعها فيبلغ غايته



الــدولــة والتنميــة

من عصر القومية إلى عصر العولمة

بقلم

د. جلال أمين

من الذى كان يتصور، منذ خمسين عاما، أن يحدث ما حدث لنظرتنا إلى الدولة ولدورها فى التنمية الاقتصادية؟

كان الجميع، منذ نصف قرن، يسلمون بأهمية هذا الدور، ويعتبرون هذا من قبيل المسلمات التى لا تحتاج إلى نقاش: على الدولة أن تقوم بدور حاسم فى تعبئة المدخرات والاستثمارات، أو على الأقل فى حفز الناس على الادخار والاستثمار، والدولة دون غيرها هى التى تستطيع النهوض بمشروعات البنية الأساسية: الطرق ووسائل المواصلات الأساسية، ومحطات الكهرباء، ومشروعات الرى والصرف، والمدارس والجامعات، ومراكز التدريب والمستشفيات، بل وقد يكون من الضرورى أيضا، من أجل إنجاح التنمية، القيام بإصلاح زراعى يعاد عن طريقه توزيع الأراضى الزراعية، وما يترتب عليه من عمليات الإرشاد الزراعى للنهوض بمستوى الإنتاجية الزراعية. ومن الذى يمكن أن يقوم بهذه المهمات كلها غير الدولة؟.



كل الكتب الصادرة عن التنمية كانت تقول ذلك، باستثناءات نادرة كان يتجاهلها التيار السائد بين اقتصاديي التنمية، إذ كانوا يعتبرون من يقول بغير ذلك رجعيا ولا أمل فى إصلاحه.

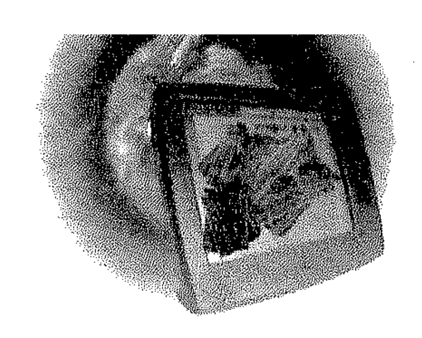
ولم يقتصر الأمر على كتب الاقتصاديين الأكاديميين، بل شمل أيضا المؤسسات الدولية الكبرى المعنية بالتنمية، وعلى رأسها البنك الدولى وصندوق النقد الدولى. كانت منظمات الأمم المتحدة منذ أواخر الأربعينات قد بدأت تقوم بتلك المهمة الخطيرة التى مازالت تمارسها حتى الآن وهى ما يمكن تسميته دون كثير من المبالغة «صناعة فكر التنمية»، فقد كانت منظمات الأمم المتحدة ، منذ أن بدأ الاهتمام بقضية التنمية منذ خمسين عاما أحد المصادر الأساسية للأفكار والتصورات المتعلقة بالتنمية والتخلف، فيتلقفها منها السياسيون والأكاديميون ووسائل الإعلام، وسرعان ما تروج وتنتشر وتصبح هى «الحكمة الشائعة» أى تصبح المسلمات التى يقبلها الجميع، وذلك ريثما تصدر من هذه المنظمات نفسها أفكار وتصورات جديدة، فتلقى الشيوع والرواج نفسه، وتصبح هى المسلمات التى تحل محل المسلمات القديمة.

حكومات العالم الثالث أصابها الوهن بسبب وقوعها فى براثن الفساد

مسلمات الخمسينات والستينات

كان من بين هذه المسلمات التى شاعت وراجت فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين أن على الدولة فى البلاد المتخلفة مسئوليات خطيرة، وأن التنمية لا يمكن أن يقدر لها النجاح إلا بقيام الدولة بهذه المسئوليات. وكان من بين هذه المسئوليات والمهمات مهمة التخطيط. إذ ألا تتعلق التنمية بالمستقبل! وهل من الحكمة والرشاد أن يترك الإنسان مستقبله يتحدد بقوى لا ضابط لها؟ أليس من البديهى إذن (هكذا كان يقال فى ذلك الوقت) أن تحزم الدولة أمرها وتضع أهداف التنمية لفترة زمنية مقبلة، ثم تحدد وسائلها وطريقة بلوغ هذه الأهداف؟ بل أليس من الأحكم والأكثر مدعاة للانضباط والأكثر ضمانا لبلوغ الأهداف أن يكون هذا التخطيط شاملا ومركزيا؟ إذ ما دام الأمر يتعلق بالسيطرة على المستقبل،

الدولة والتنميـــة



أليس من الأفضل أن تكـــون السيطرة شـــاملة؟ أو ليس من باب الاحتياط أيضا وضمان الفعالية والنجاح أن تتركز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية فى يد واحدة تعبـر عن الآمـال الموحـدة للأمـة، وتصب عندها كافة المعلومات، وتتوفر لديها كافة وسـائل الالزام، بدلا من تشـتيت سلطات اتخـاذ القرارات، فـتـتعـدد هذه القـرارات وتتـضـارب، وتمارس كل هيـئـة سلطتـهـا لتحقيق مصـالح ضيقة قد تتـعارض مع مصلحة الأمة ككل؟.

هذا هـو نوع الفكر الذى كـان سـائدا فى الخـمسـينات والسـتينات فـيمـا يتـعلق بدور الدولة فى التنمـيـة. وهو كـمـا يرى القارىء عكس ما هو سائد الآن بالضبط. وهدفى من هذا المقـال أن أحـاول تفسـيـر هذا التحـول، الذى يبـدو وكـأنه تحـول من الشىء إلى نقيضه، ومن ثم يثير فى الذهن هذا السـؤال: هل كان الأمـر مجرد حماقة من الحمـاقـات الإنسـانيـة التى احـتـاج كـشـفـهـا إلى بعض الوقت، عـاد بعـده الاقـتـصـاديون إلى رشـدهم وأدركـوا خطأهم؟ (والرجـوع إلى الحق، كـمـا تعلم جيدا، هو دائما من الفضائل).

سـوف أثيـر فى هذا المقـال الشك فى صـحـة هذا الاعتـقـاد، فأحاول أن أبين أن الحالة هى أبعد ما تكون عن حالة «رجوع إلى الحق»، وإنما تتعلق بتغير الأفكار كلما تغيرت الظروف والأحوال.

***

أمـــا انتـشـــار فكرة أن للدولة دوراً أساسياً لابد أن تلعبه فى التنمية ، طوال الخمسينات والستينات، فليس من الصعب تفسيره. لقد تضافر لانتشار هذه الفكرة أكثر من سبب.

فـمـن ناحـيـة كـان العـقـدان التـاليـان مباشرة لانتهاء الحرب العالمية الثانية هما العـصـر الذهبى لدول العـالم الثـالث من حيث حصولها على الاستقلال السياسى. وكـانت الحكومـات الوطنيـة التى مـارست مهام الحكم بعد هذا الاستقلال يرأسها فى أغلب الأحوال الشخصيات نفسها التى قاومت الاستعمار وخاضت معارك التحرر منه. لم يكن هناك شك كـبـيـر إذن، لدى شـعـوب العـالم الثـالث، أن هذه الحكومـات الوطنيـة الجـديدة جـديرة بخـوض مـعـارك التنمية والنهوض الاقتصادى كما أثبتت جدارتها فى معركة التحرر الوطنى. هكذا

بدا الأمر إذن سهلا وميسورا.

وقد دعم هذا الشعور ما ساد فى العالم كله خلال هذين العقدين من تفاؤل بالمستقبل، ربما يرجع بعضه إلى التطلع إلى عالم جديد بعد مآسى الحرب العالمية الثانية، أو إلى ما شهده هذان العقدان فى العالم الغربى من معدل غير مسبوق فى النمو الاقتصادى السريع.

أثر تجربة الاتحاد السوفييتي

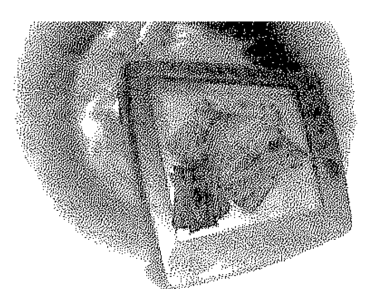
كان الاتحاد السوفييتى خلال هذين العقدين مصدر إلهام وعاملا من عوامل دعم هذا التفاؤل لدى شرائح واسعة من شعوب العالم الثالث المتطلعة إلى تحقيق نهضة اقتصادية. فها هى دولة كانت هى نفسها متخلفة من الناحية الاقتصادية تخلفا واضحا عن العالم الغربى، منذ فترة لا تزيد على ثلاثين عاما، فإذا بها تتحول فى نهاية هذه الثلاثين عاما (١٩٢٠ - ١٩٥٠) إلى دولة عظمى تنافس أقوى دولة فى العالم فى القوة النووية والقدرة العسكرية، وتحقق معدلا مذهلا فى النمو الاقتصادى خلال هذه الفترة، وتقدما باهرا فى نشر التعليم والخدمات الصحية والارتفاع بمستويات المعيشة لغالبية شعبها. «إذا استطاعت روسيا تحقيق ذلك، فلماذا لا نستطيعه نحن؟»، هكذا قالت لنفسها شعوب العالم الثالث، ولكن

احتكار الدولة كثيراً ما يكون أهون وأخف وطأة من الاحتكار الفردى

روسيا حققت ذلك لا بالاعتماد على قوى السوق ولكن بالاعتماد على تدخل الدولة. لقد ابتدعت روسيا فكرة الخطة الخمسية، وحققت هذا النجاح الباهر بالتخطيط المركزى الشامل. فالظاهر إذن أن التنمية لا يحتاج نجاحها إلا لبعض الخطط الخمسية، تحدد الأهداف وترسم الوسائل الكفيلة بتحقيقها. فأى شىء أسهل من ذلك؟

أثر الحرب الباردة

من ناحية أخرى كان هذان العقدان التاليان للحرب هما أيضاً فترة اشتداد الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى، وظهور سياسة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، وقد دعمت هذه الظروف من قوة الدولة فى العالم الثالث من أكثر من وجه. كانت هناك، من ناحية، بعض الدول القليلة من دول العالم الثالث، كالصين وكوبا وكوريا الشمالية، التى تبنت العقيدة الشيوعية فأوكلت أمر التنمية كلها إلى الدولة، وكانت هناك من ناحية



الدولة والتنميــة

أخرى الدول الأكثر عددا المرتبطة ارتباطا حميما بالمصالح الأمريكية، كالغالبية العظمى من دول أمريكا اللاتينية، والتى استمرت تعتمد فى نموها الاقتصادى على قوى السوق، ولكن عدداً كبيراً من دول العالم الثالث، من إندونيسيا فى آسيا إلى الجزائر فى أفريقيا مروراً بيوغوسلافيا الأوربية، تبنت سياسة عدم الانحياز، وتمتعت حكوماتها، لفترة من الزمن، بالقدرة على الاحتفاظ بمسافة واسعة بينها وبين كلتا القوتين العظميين، وقد سمح لها ذلك بتطبيق ما تراه من سياسات التنمية مما يتعارض مع مبدأ حرية السوق من ذلك فرض الحماية لصناعاتها الوطنية، والتقييد الصارم للواردات والتدخل الحازم فى سعر الصرف، واشتراط موافقة الدولة على مختلف أوجه النشاط الاقتصادى فى مجالات الاستثمار والبناء والتجارة.... إلخ ولم تجد الدول الكبرى فى الغرب، أو المؤسسات الدولية الدائرة فى فلكها، حاجة أو ضرورة للتدخل لمنع ذلك، إذ كان يكفى هذه الدول وهذه المؤسسات، فى تلك المرحلة، ألا تقع هذه الدول «غير المنحازة» تحت النفوذ السوفييتى وقوعا كاملا.

دور المعونات الأجنبية

كان التغلغل الاقتصادى للولايات المتحدة ودول الغرب عموما، وللمؤسسات الدولية الواقعة تحت نفوذها، فى دول العالم الثالث، يتخذ فى الأساس صورة «المعونات الأجنبية»، وكانت هذه المعونات، خلال الخمسينات والستينات، تمثل الجزء الأكبر من حركة رءوس الأموال بين الدول الغربية ودول العالم الثالث، تمييزا لها عن الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

ولكن الجزء الأكبر من هذه المعونات الأجنبية كان يتكون من «معونات رسمية» أى أموال تعطيها حكومة لحكومة، سواء مباشرة، أو عن طريق هيئة دولية، الأمر الذى كان لابد أن يزيد من قدرة الدولة فى العالم الثالث، المتلقية للمعونة، على التدخل فى الحياة الاقتصادية.

أثر كينز

ولكن من المهم أيضاً أن نتذكر أن العالم الرأسمالى لم يكن هو نفسه، محصنا ضد فكرة تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية إذ فلنتذكر أن ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية «٤٥ – ١٩٧٠» كان يمثل العصر الذهبى لانتشار الكينزية التى توكل مهام أساسية للدولة فى إدارة دفة الاقتصاد القومى، للخروج

من الانكماش مرة ولمحاربة التضخم مرة أخرى، كما شهد هذان العقدان ازدهار فكرة «دولة الرفاهة» التى تدين بدورها للأفكار الكينزية من ناحية، وللأفكار الاشتراكية من ناحية أخرى، والتى كانت تعنى نهوض الدولة بمسئولية توفير الخدمات الأساسية للناس بصرف النظر عن مستوى دخولهم.

فى مثل هذه الظروف، الداخلية والخارجية، وفى هذا المناخ المشجع من كل ناحية على قيام الدولة بمهمات أساسية فى الاقتصاد القومى، كيف يمكن أن نتوقع غير هذا الذى حدث فى العالم الثالث؟

وهو شيوع الاعتقاد بأن التنمية لا يمكن أن تنجح بغير دور كبير للدولة، وإيمان راسخ بفائدة التخطيط الشامل بل وضرورته، وتأكيد مستمر لا على انسجام المصلحة الفردية مع المصلحة العامة بل على عجز الأفراد فى كثير من الأحيان عن تحقيق ما فيه مصلحة المجتمع ككل، وأنه لا يستطيع أن يحقق هذا إلا الدولة..

* * *

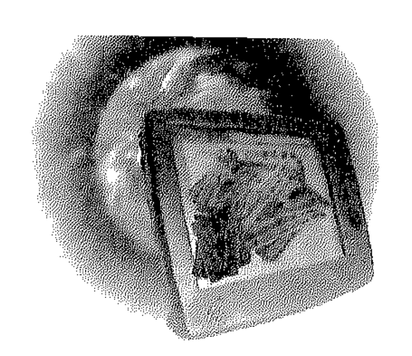
نحن نعرف جيداً أن المناخ السائد الآن هو عكس ذلك بالضبط، إن الذى يدعو الآن إلى توسيع دور الدولة فى الاقتصاد، أو يدافع عن القطاع العام، أو

ارتفعت معدلات البطالة داخل الدول الصناعية فضعفت النقابات العمالية

ينبس بلفظ التخطيط الاقتصادى، خاصة إذا كان من نوع التخطيط المركزى أو الشامل، أصبح يعامل معاملة المعتوه أو المصاب بلوثة، أو كالمتكلم بلغة غريبة على الأسماع، أو كالقادم من عصر سحيق من عصور الماضى، هكذا أصبحت قوة وسائل الإعلام وقدرتها على تشكيل الميول والأفكار بحيث أصبح باستطاعتها تحويل الأذهان من فكرة إلى فكرة، بمجرد الإلحاح على الفكرة الحديثة إلحاحاً مستمرا حتى ينسى الناس أن الأمر كان عكس ذلك بالضبط منذ سنوات قليلة.

يبدو الأمر غريباً بوجه خاص فيما يتعلق بالموضوع الذى نتكلم فيه الآن، لأنه لم تظهر فى الحقيقة أى حجة جديدة لصالح الاعتماد على قوى السوق وضد تدخل الدولة، كل ما يقال الآن لصالح هذا أو ضد ذاك سبق قوله منذ أكثر من مائتى عام، ويدور حول أهمية الحافز الفردى ومساوئ البيروقراطية. ولكننا كنا دائماً نعرف ذلك، من ناحية أخرى كان أنصار

الدولة والتنميـة



تدخل الدولة يقولون إنه فى ظروف معينة تصبح مساوئ البيروقراطية أهون من مساوىء الاعتماد المطلق على قوى السوق، وأن احتكار الدولة كثيراً ما يكون أهون وأخف وطأة من الاحتكار الفردى، كل هذا ومثله كان دائماً معروفا ومشهوداً، فما الذى جد ليرجح كفة ضد أخرى؟

انحسار دور الدولة

حدث أن كل هذه الظروف التى ذكرتها، والتى كانت تشجع على ازدياد دور الدولة فى الاقتصاد، أصابها الانحسار والأفول، الاتحاد السوفييتى أصابه الضعف ثم سقط «ليس بالضرورة بسبب أن الدولة تدخلت أكثر من اللازم، كما يحلو لكثيرين أن يقولوا، بل ربما لأسباب مختلفة تماما»، والمعونات الأجنبية التى تعطى من دولة لأخرى حل محلها، أكثر فأكثر، الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

وحركة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز أصابها الضعف بسبب ظهور سياسة الوفاق بين المعسكرين، ثم بسبب تدهور مركز الاتحاد السوفييتى ثم انتهاء الحرب الباردة كلية، وحكومات العالم الثالث أصابها الوهن بسبب هذا كل من ناحية، وبسبب وقوعها فى براثن الفساد الذى لا ينفصل انفصالا تاما، هو نفسه، عما يحدث فى ساحة العلاقات الدولية، بل قد يكون وثيق الصلة بها..

ولكن وراء كثير من هذه العوامل كان هناك ذلك العامل الحاسم: نمو الشركات العملاقة ومتعددة الجنسيات، وانتشار نشاطها حتى كاد يغطى الكرة الأرضية كلها، وقد طغت قوة هذه الشركات، فى كثير من المجالات على قوة الدولة، فى الداخل والخارج. فالدولة الوطنية لم تعد تستطيع التحكم فى نشاط هذه الشركات أو منعها من الخروج للبحث عن عمالة أرخص فى خارج حدودها، فارتفعت معدلات البطالة فى داخل الدول الصناعية، فضعفت النقابات العمالية وقلت قدرتها على المطالبة بحقوق جديدة للعمال، أو حتى على المحافظة على ما سبق لهم نيله من حقوق فى ظل دولة الرفاهية، وهذه الشركات العملاقة التى تريد أن تفتح أمامها الأبواب فى الخارج، أضعفت الدولة فى البلاد الأقل نموا بشتى الوسائل، إن

لم يكن بالرشوة ومنع المعونات والقروض، وبضغوط المؤسسات الدولية الخاضعة هى نفسها لنفوذ هذه الشركات، فبإفساد الحياة السياسية ولو إلى حد قلب الحكومة وجلب حكومة جديدة.

تخطيط للعالم بأسره

من الذى يجرؤ فى هذه الظروف أن يشكك فى أفضيلة ترك كل شئ لقوى السوق لتفعل بنا ما تشاء؟ ألا يعنى التدخل فى قوى السوق الآن محاولة للسيطرة على هذه الشركات العملاقة؟

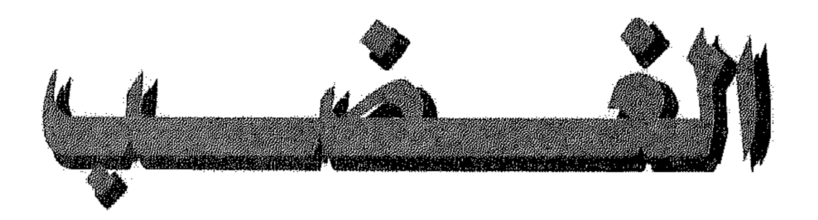
ومن الذى يستطيع ذلك أو حتى يجرؤ على محاولة القيام به؟

ومن الذى يجرؤ على امتداح نظام التخطيط؟ صحيح أن الشركات العملاقة تقوم هى نفسها بالتخطيط، بل وبتخطيط «مركزى» بكل معنى الكلمة، فهى تخطط للعالم بأسره من مركزها فى إحدى مدن المجتمع الصناعى، وهى تضع الأهداف كما تضع الوسائل و الوسائل تتراوح من التدخل فى أسواق العملات إلى تشجيع دولة على الهجوم على دولة مجاورة... الخ.

ولكن هذا التخطيط «الحميد» شئ، والتخطيط «الكريه» من جانب الدولة شئ آخر تماما، ومن الذى يجرؤ على انتقاد الاحتكار الذى تمارسه هذه الشركات؟ من المسموح به انتقاد احتكار الدولة، أما احتكار هذه الشركات فنقده غير مسموح به. ومن الذى يجرؤ على فتح موضوع الفساد الذى تمارسه هذه الشركات فى مختلف البلاد التى تمارس فيها نشاطها أو تريد دخولها؟ من الجائز بل ومن المطلوب التأكيد على الفساد الناتج عن تغلغل الدولة فى النشاط الاقتصادى، ولكن من غير الجائز الكلام عن غير ذلك من فساد..

حركة عدم الانحياز أصابها الضعف بسبب ظهور سياسة الوفاق بين المعسكرين

هكذا وضعت لنا الشركات متعدية الجنسيات «جدول الأعمال» الجديد، الذى يحدد للاقتصاديين والكتاب فى موضوع التنمية ما يجوز لهم مناقشته وما لا يجوز، وكان جديرا بالاقتصاديين أن يدركوا أن الأمر لا يتعلق «بالرجوع إلى الحق» أو باكتشاف ما كانوا يرتكبونه من حماقات فعدلوا عنها، بل يتعلق فقط باستبدال جدول أعمال بجدول أعمال آخر، بما يتلاءم مع مصالح وأهواء آخر من يتحكم فى مصير العالم. ■



ضد مساوىء العولمة

بقلم
د.محمود مرتضى★

لعل هذه الانفجارات الاجتماعية التى جرى التعبير عنها فى المنتجع السويسرى ، الذى ضم منتداه في دافوس هذا العام ثلاثين رئيس دولة وحكومة وحوالى مائة وزير ومئات من رجال الأعمال والسياسيين، هى الخلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة تمتد إلى بقاع كثيرة من العالم وتضم مئات الألوف من البشر من سياتل إلى واشنطن وملبورن ولندن وجنيف وبراج وباريس وبورتو اليجرى البرازيلية ثم نيس وغيرها .

(★) سفير مصر السابق في اليمن



وتشـتـمل حـركـة مـقـاومـة الرأسمالية الكوكبية المتمثلة في العـولمة وتجلياتـهـا الاقـتـصـادية والسياسيـة والثـقـافيـة والاتصـاليـة، على جماعات متعددة ومتنوعة الخلفيات الفكرية والسـيـاسيـة، كـمـا يشـارك فيـهـا العـمـال النقابيون والمزارعون، وأنصـار البـيـئـة ، ودعاة السلام، والحركات التعاونية، وبعض المنظمات النسائية ، وممثلو المنظمات غير الحكوميـة المهـتـمـة بحـقـوق الأنسـان والديمقراطية ، وجماعات الدفاع عن دول العالم الثالث ، وإلى جانب الطلبة واساتذة الجامعة والأعلاميين وعناصر أساسية من الأنتلجنسيا الغربية .

وتكمن نقطة الاحتجاج الأساسية فيما تصنعه العولمة من نتائج تنعكس في زيادة الفـقـر واتسـاع البطـالة ، في الوقت الذى تستفيد فيه الاحتكارات الدولية . كما أن لائحة الاتهام تتوجه أساساً لمثلث (البنك الدولي – صندوق النقد – منظمة التجارة العالمية) كأدوات لصنع سياسات تحرير التـجـارة واسـقـاط الحـدود ، أو أدوات الهـيـمنة التي تمتص في الواقع دمـاء الشعوب الفقيرة .

وتسـتند هذه الاتجـاهات الرافـضـة للهيمنة الاقتصادية على العالم إلى كتابات لأساتذة جامعيين ينتقدون دور المؤسسات الثـلاث سـالفـة الذكـر ، ويبـينون أسلوب الهيمنة الجديد الذى يسمح للبنك الدولي بصـفـة خـاصـة ، بالتـدخل في النشاط الإقـتـصـادى للدول المقتـرضـة ، ويفرض عليها سياسات لاتهدف إلى مساعدة هذه الدول على الإصلاح الاقتصادى ، بل على تحقيق أكبر عائد من الربح للبنك ، فضلاً عن الهيمنة السياسية . وفي منشوراتهم يذكرون أن حجم تعامل هذا البنك يصل إلى تريليونى دولار ، وأن الفائدة العائدة من هذه القـــروض تصل إلى ٣٥ ٪ تحصلها الولايات المتحدة لدورها الأكبر في عملية القروض ولتحقيق هيمنتها السياسية المترتبة على ذلك .

موت محقق للعالم الثالث

أما منظمـة التـجـارة العـالمـيـة ، فـهي المنظمة التي تجسد الليبرالية الجديدة في صـورتهـا المتطرفة. وهي تعني ضـمن مـا تعنى – موتاً محققاً – للعالم الثالث، إذ تذكر الاحصاءات أن عدد سكان المعمورة نحو ستة مليارات ، يعيش أكثر من ثلثهم في دول الجنوب ، والغالبية العظمى منهم لاتعيش عيشة انسانية ، والدليل على ذلك أن ١٣ ٪ فـقط من سكان العالم ينفقـون ٦٨٪ من الانتـاج العـالمي . انهـا عـدم مسـاواة صـارخـة ورهيبـة . والمؤسف أن منظمة التـجـارة العـالمية هي الانتـصـار السـاحق لدكتـاتورية رأس المال في أبشع صورها ، كما أن هذه الليبرالية الجديدة والسـوق الرأسـمـاليـة الموحـدة خلقـا رأسمالية الغابة ، التي تعني نهاية الدولة الوطنية والسيادة الشعبية ونهاية التنوير والقيم المصاحبة له، مثل التضامن والعدالة الاجتماعية ، كما تعني أيضاً ضياع مائتي عام من الثورة الديمقراطية .

وتنظر العولمة إلى النتاج العالمى ، سواء أكان سلعة أو مادة استهلاك أو إحدى الخدمات، أو ابداعاً فكرياً ثقافياً ، أو هوية أو لغة ، وكيفما كان المنشأ والانتماء، نظرتها إلى البضائع التجارية التى تزيد أو تنخفض قيمتها ويغلو ويرخص سعرها بمقياس إقبال السوق العالمية عليها ، بعد أن يخضعها المتقايضون (بائعين ومشترين) لكسب رهان تعظيم الأرباح .

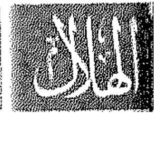
إن العولمة أو الكوكبية الرأسمالية لا ترحم المفلسين لأنها انشئت لخدمة (اوليجارشية) الأثرياء العالميين . فرأسمالية الشركات متعدية الجنسية (التى تعادل إيرادات أكبر خمسمائة ومنها ٤٣,٥ ٪ من مجموع الناتج المحلى الاجمالى فى العالم) تفرض سلطان رأس المال فوق سلطة الدول القومية .

وفى حركة العولمة تضافرت عدة عناصر بالغة الأهمية فى مقدمتها جميعا ثورة الاتصالات والمعلومات، اذ صار التحرك المتجاوز لكل الحدود الجغرافية ولمبادئ سيادة الدولة ، مباحاً، وصارت الحكومات أضعف من أن تقاوم هذه الاندفاعات الدولية . بل ومن الناحية الفعلية، صارت الحكومات تتبع سياسة ترضى تلك الشركات بما فى ذلك رفع الأعباء المختلفة عن كاهل الاستثمارات الرأسمالية ، فالقانون الأوحد الذى يحكم حركة رأس المال المتجاوز للقوميات هو الربح ، وحيث يكون الربح أكثر تتوجه المشروعات .

سلطة اقتصادية كاسحة

فالعولمة هى سلطة اقتصادية كاسحة دون أن تقابلها سلطة سياسية تعلو الدول القومية، وذلك على نقيض ما يسجله تاريخ الرأسمالية نفسه من أدوار مهمة للدولة القومية فى فرض ما يحد أو يخفف من الآثار السلبية لنشاط الرأسمالية بما يحفظ المجتمع ، ويساعد على أن يستمر النظام الرأسمالى مهذبا بالاجراءات السياسية، مثل تشريعات العمل ونظم التأمين الاجتماعى واشكال الديمقراطية النيابية واحترام حقوق الانسان ..... الخ .

وعليه ، ففى إطار العولمة قد ينساق كثير من الدول فى سباق نحو القاع أو الهاوية ، اذ أنها فى اطار التسابق إلى مزيد من الاعفاءات والحوافز والميزات النسبية التى تعرضها على المستثمر الأجنبى ، لجذب الاستثمارات العالمية، تجد نفسها فى مواجهة عجز متزايد فى إيراداتها ، كما أنها فى اطار الاستجابة لشروط العولمة ، تجد نفسها مضطرة إلى تقليص أو ايقاف الدعم لغير القادرين ، والغاء التأمين على المهمشين والافراد الأكثر تعرضاً للمخاطر. ويصبح الأمل الوحيد أمام الفقراء والبؤساء هو أن



يتذكرهم الأغنياء ، على حد تعبير توماس فريدمان .

إن التنين الالكترونى ذا الالف مخلب الذى تقوم عليه الرأسمالية الكوكبية قد تحول إلى وحش كاسر ، وحتى يتضح ذلك جلياً ، فان هذا التنين يتحكم فى نصف رأس المال العالمى من خلال ٢٥ سوقاً مالية تتعامل فى أكثر من عشرين تريليون دولار . ولا يقتصر تحكم هذا التنين على الأسواق المالية، ولكنه يضارب فيها ويزعزع احتياطياتها ويستنزف مواردها ، كما أن له ايضاً مؤسساته العقابية، التى يوكل اليها مهمة المراقبة والتلصص على الدول والمؤسسات والتسلل داخلها لمراقبة مدى التزامها بشروط العولمة وقوانينها ، فإذا ما عصت أو تلكأت أطلقت عليها كلاب الصيد تنهش اقتصادياتها ، وتبرز لها كروتاً حمراء تطاردها من السوق وتقوض مؤسساتها . ومن اللافت للنظر ان الشركات الخمس الكبرى فى مهنة المحاسبة الدولية مثلاً، شركات أمريكية تابعة للتنين الالكترونى ، وأن من شروط العولمة الرئيسية أن تتم المراجعة المالية والاقتصادية فى إطار عالمى .

التنين الالكترونى ضد الصالح العام

ومن يرضى بشروط التنين وإدارته ، فانه يحصل على صكوك الغفران ، ويعطى شهادات صلاحية تمهد لمزيد من الاستثمارات الأجنبية والوجود العولمى والشروط التى يمليها التنين الالكترونى نمطية واجبارية ، الخصخصة لكل الشركات المملوكة للدولة، وتحرير التجارة الداخلية والخارجية ، ورفع الحوافز الجمركية ، والحد من التضخم ، وتقليص قدرة البيروقراطية الحكومية ، والغاء كافة القيود على الاستثمارات الأجنبية وتحرير أسواق المال، واطلاق حرية الأجانب فى التملك ، والغاء الدعم ، وتحزير نظام التأمين والمعاشات وترك المسئولية فى ذلك للأفراد ، والنمطية فى نظام المحاسبة والمراجعة المالية الخاضعة للاشراف العولمى .

ولا يخفى أن نظام العولمة لايفكر فيما نتعارف عليه فى مجتمعنا حول ما يطلق عليه أو ما اصطلح على تسميته (بالصالح العام) ، بل إن النظام الرأسمالى الكوكبى وصل الآن إلى درجة تصور فيها انه لايحتاج للصالح العام، كما أن التنين الالكترونى، فاق جشعه ونهمه كل الحدود لدرجة انه لا يعطى الاهمية للصالح العام.

وإذا كانت معظم بلدان العالم اليوم تدرك أن تسارع العولمة يعد العقبة الأكبر أمام تحقيق التنمية الاجتماعية ، كما تهدد العولمة البيئة وحقوق العاملين والمصالح المحلية واحتياجات الشعوب قبل كل شئ فان ذروة المأساة تتمثل فيما تؤدى اليه

العولمة من تعاظم الفجوة بين الأغنياء والفقراء، اذ أن مشكلة الفقر تظل هى التحدى الكبير الذى يواجه الحكومات فى البلاد النامية، حيث يعانى واحد من كل خمسة أفراد أبشع حالات الفقر . كما ان الفشل فى القضاء على الفقر أصبح يهدد الدول الغنية والفقيرة على السواء. اذ تتسع المسافة بين الأغنياء والفقراء حتى فى داخل الدول الغنية نفسها .

انتشار البطالة نتيجة العولمة

وحتى يتضح لنا مدى الهوة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، فان املاك أغنى ثلاثة مليارديرات فى العالم تفوق كثيراً الاجمالى الكلى للناتج المحلى للبلدان الأقل تقدماً مجتمعة اضافة إلى ممتلكات سكانها المقدر عددهم بحوالى ٦٠٠ مليون نسمة . اما داخل الدول الصناعية المتقدمة ، ففى الولايات المتحدة التى تقود الرأسمالية الكوكبية ، بلغ التفاوت فى الدخول فيها مستوى لم تعرفه فى تاريخها ، اذ أصبح ٤ ٪ من الأمريكيين يملكون أكثر مما يملك ٥١ ٪ ممن هم أقل دخلاً ، مما تسبب فى شرخ اجتماعى هائل داخل المجتمع ازداد معه تآكل الطبقة الوسطى . ومما يفاقم من هذا الشرخ الاجتماعى أن من نتائج العولمة انتشار البطالة ، لأن كل تجديد تكنولوجى يرفع من انتاجية العمل ، يؤدى بالتالى إلى تسريح المزيد من العاملين. وتصيب البطالة أساساً الشباب (وبصفة خاصة من الاقليات العرقية) . وفى فرنسا ظهرت طبقة جديدة من العاطلين والباحثين عن العمل ، كما يتزايد اعداد المهددين بالبطالة، ووراءهم مئات الآلاف من الذين يعيشون دون مأوى ، ومئات الآلاف من الشحاذين، مما حدا بالرئيس شيراك إلى أن يقر بأن فرنسا مهددة بالانقسام إلى مجتمعين ، أولئك الذين يستفيدون مما توفره الثورة العلمية والتكنولوجية من ناحية ، وأولئك الذين يضارون منها ضرراً جسيماً من ناحية أخرى .

طبقة الواحد فى المائة تحكم العالم

وفى ضوء هذه الوضعية البائسة التى تطال جميع الدول غنيها وفقيرها معاً، يمكن القول أن طبقة عالمية جديدة هى طبقة الواحد فى المائة هى التى تحكم العالم فى عصرنا الراهن. ان الواحد فى المائة من كل مجتمع متقدم أو متخلف ، غنى أو فقير ، والتى تستحوذ على المال والتجارة والأعلام، هى التى تفرض سلطتها على التسعة والتسعين فى المائة الباقين . وطبقة الواحد فى المائة هذه هى طبقة عابرة للقارات ليست لها انتماءات قومية أو دينية أو عرقية ولا ولاءات لوطن، فهى موجودة فى واشنطن وباريس وجاكرتا وكوالالمبور وموسكو وبكين

والقـاهرة وطوكـيـو ومـدريد وأوسلو وبرازافـيل . فـهى تتـوحـد وتتـضـامن وتتواصل عبر الكمبيوتر، وتتداول الأسهم وترفع من اسعار النفط أو تخفض اسعار النحـاس وتبـيع السـلاح وتصنع القـادة والزعمـاء وتسـقط الأنظمـة السـياسـية ، وتتـسـبب فى افـلاس دول أو شـركـات أو مـصارف وهى تتربع على عروش الأعـلام فتصنع الشريط والقرص والسى دى روم ، وتنتج برامج الكومبيوتر . هذه الطبقة هى فى الحقيقة «العولمة» بكل قبحها وجبروتها ووحشيتـها فـالقـاعـدة التى تقوم عليـهـا العـولمة هـى أن الأغنيـاء فى المجـتـمـعـات الغنية يجب أن يحكموا العالم ، يتنافسون فيما بينهم، ويقمعون من يقف فى طريقهم ، ويسـاعـدهـم فى ذلك الأغنيـاء فى الدول الفـقـيـرة ، والآخـرون يخـدمـون ويطيـعـون ويتحملون .

وفى مـواجـهـة هذا الطوفـان الكاسح ، والإعـصـار المدمـر ، يكون من الطبـيـعى والمنطقى والضرورى ، أن يتصدى ضحايا العـولمة فى كل مكان منددين بغـضب ضد عقيدة الربح والمنفعة .

واذا كـان من السـابق لأوانه أن نتنبـأ بما إذا كـانت هذه الحـركـة الاحـتـجاجـيـة الواسـعة سوف تتبلور فى مسـتقبل الأيام إلى تيـار سياسى جديد أو سـوف تنتـهى بظهور حـزب أو نظرية سياسـيـة جديدة . الا أن القـدر المتـيـقن منه هو أن الوضـع العام مـأزوم وأن عصـر العولمة الجديد، لم يتـمكن من بلوغ مـشـروع فكرى وايديولوجى مـقنع أو ذو وجـه انسـانى مقبول . ■

مأثورات

- روى أن الامـام علي بن ابي طالب كـرم الله وجـهـه لقى كبيرا من كبـراء فـارس فقال له: من أحـمـد ملوككم سيـرة؟ قـال : أحـمـدهـم سيـرة « أنو شـروان » فـقـال لـه: ومـا كـان أغلب خصاله عليه قال: الحلم والاناة ، فقال له : هما توأمان ينتجهما علو الهمة .

- أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود اليك، ويوم انت فيه لا يدوم عليك ، ويوم آت لا تدرى مـا حـاله ولا تعـرف من هم أهله .

مستقبل العولمة

جزء خاص

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

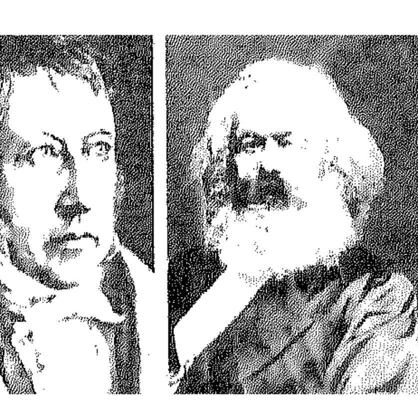
بقلم
د. محمد عمارة

منذ صك الإعلام الغربي مصطلح «العولمة»، وأحله محل مصطلح «النظام العالمي الجديد»، عقب انهيار الاتحاد السوفيتي، والمنظومة الشيوعية ١٩٩١م - وهناك خلط - في دوائرنا الفكرية والإعلامية - بين مصطلح «العولمة».. ومصطلح «العالمية» وهو خلط يزيف المضامين، ويخلط الأوراق التي لا يجوز فيها الاختلاط.. بل ويحول دون الحوار الجاد حول مفاهيم القضايا التي تعبر عنها هذه المصطلحات ومقاصدها.. الأمر الذي يستوجب البدء بتحرير وتحديد مضامين مصطلحي «العالمية» و«العولمة»، على وجه الخصوص.



فالعالمية نزعة إنسانية وتوجه نحو التفاعل بين الحضارات، والتلاقح بين الثقافات، والمقارنة بين الأنساق الفكرية، والتعاون والتساند والتكامل والتعارف بين الأمم والشعوب والدول، ترى العالم «منتدى حضارات، بينها مساحات كبيرة من «المشترك الإنسانى العام»، ولكل منها «هوية ثقافية تتميز بها»، ومصالح وطنية وقومية وحضارية واقتصادية وأمنية لابد من مراعاتها، فى إطار «توازن المصالح»، وليس «توازن القوى» بين هذه الأمم والحضارات..

وإذا كانت عين الفاحص لا تخطئ التمايز الحضارى فى هذا المنتدى العالمى، عندما ترى الخصوصيات الحضارية لكل من الصين والهند واليابان والغرب والإسلام - وغيرها من الحضارات - فإن عقل الباحث لا يخطئ أيضاً تميز بعض هذه الحضارات «بالمحلية» - مثل الهند والصين واليابان - بينما تميزت وتتميز كل من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بصلاحية التمدد العالمى، وإمكانات العطاء خارج الحدود الجغرافية التاريخية لشعوب هاتين الحضارتين.. تميزت بذلك النزوع العالمى الحضارة الأوربية - الغربية، منذ طورها الإغريقى -



كارل ماركس هيجل

الرومانى.. وتميزت به الحضارة الإسلامية منذ أن خرجت من بين دفتى القرآن الكريم..

فمن القرآن الكريم ولدت مقومات الأمة الإسلامية الواحدة، وخرجت الصبغة الإسلامية لحضارة هذه الأمة، وجاءت عالميتها كثمرة من ثمرات عالمية الرسالة الإسلامية والشريعة الإسلامية، التى شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يختم بها شرائع السماء إلى الإنسان.. ولهذه الحكمة جاء الحديث القرآنى عن هذه العالمية منذ العهد المكى للرسالة والدعوة «وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين» - يوسف:١٠٤- «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» - الأنبياء:١٠٧- «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا» - الفرقان:١.. فكانت هذه الأمة الإسلامية وحضارتها دائمة التحقق حيثما امتدت تعاليم الإسلام وقيمه وثقافته، على

امتداد الزمان والمكان..

لكن هذه العالمية الإسلامية لا تعنى - فى الرؤية الإسلامية - انفراد الحضارة الإسلامية بالعالم، وإلغاءها للآخر الحضارى.. بل إنها تعنى التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر، فى ظل التأكيد على أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافى والاختلاف فى الشعوب والأمم والقبائل.. وفى الألوان والأجناس والأعراق.. وفى الألسنة واللغات - ومن ثم القوميات -.. وفى الشرائع والملل الدينية.. وفى المناهج والمذاهب والثقافات والحضارات.. إن كل هذا التنوع والاختلاف هو القاعدة الطبيعية، والقانون التكوينى، والسنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير» - الحجرات: ١٣٠ - «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» - الروم:٢٢- «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» - هود: ١١٨ ١١٩- «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» - المائدة:٤٨.

فالناس سعيهم شتى «إن سعيكم لشتى» - الليل:٤- «ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات» - البقرة:١٤٨- و«التدافع» والحراك والتسابق هو سبيل رأب الصدع وتعديل الخلل وإعادة الميزان - الوسط .. العدل - إلى العلاقات بين الطبقات أو الأمم أو الحضارات «إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» - فصلت: ٣٤ وليس «الصراع» الذى يصرع فيه وبه طرف الأطراف الأخرى، فينفرد هذا الطرف بالساحة والثمرات والامتيازات، منها التعدد والتنوع والاختلاف.. «صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية» - الحاقة:٧-٨..

ذلك هو المفهوم الإسلامى للعالمية: نزوع عالمى، يرى التعدد والتنوع والاختلاف القاعدة والقانون، ويؤمن أن التفاعل هو الوسط العدل بين «العزلة»

وبين «التبعية»، فتصبح الصورة الحضارية للعالم هي صورة «منتدى الحضارات»..

ولقد تميز هذا المفهوم الإسلامي للعالمية عن المفهوم الغربي للعالمية، ليس فقط في حقبتنا الراهنة - حقبة العولمة - وإنما منذ فجر الحضارة الأوربية الغربية.. «فالنزعة المركزية» لصيقة بالنموذج الحضاري الغربي، منذ العصر الروماني، الذي رأى أصحابه أن الإنسان هو الروماني الحر وحده، ومن عداه برابرة، وأن ما يتدين به الرومان هو الدين الوحيد، وما عداه واجب الاستئصال.. ولقد طبقوا هذه النزعة الواحدية المركزية في عصر وثنيتهم بإبادة النصارى، بعد تشديد اليهود، وفي عهد نصرانيتهم باضطهاد المذاهب النصرانية المخالفة لمذهبهم الملكاني.. وامتد ذلك فيما عرف «بالحروب الدينية» بين مذاهب النصرانية - الكاثوليكية والبروتستانتية - التي امتدت منذ منتصف القرن السادس عشر وحتى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر «١٥٦٢ - ١٦٨٨»، أي حتى عصر «التنوير»، والتي أبيد فيها نحو عشرة ملايين، أي ٤٠٪ من سكان وسط أوربا «١»!!..

ثم واصلت هذه «النزعة المركزية» الغربية صراعها مع الآخر طوال عصر

• العالمية نزعة إنسانية ترى العالم منتدى حضارات

• العولمة الغربية طور جديد على طريق النزعة المركزية الغربية والعالمية.

استعمار الغرب للأمم والبلاد والحضارات غير الغربية، وتم هذا الصراع والاستئصال على مختلف الصعد والميادين والجبهات - على الجبهة الفكرية بإبادة البنى التحتية للمواريث الفكرية لحضرات الشعوب المستعمرة «٢» - وعلى الجبهة القيمية، باختراق منظومة القيم الخاصة بالشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الثقافية بتغريب المستعمرات - وعلى الجبهة اللغوية، بفرنسة أو جلنزة ألسنة الشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الدينية، بتنصير العالم بالنصرانية الغربية - وعلى الجبهة الاقتصادية، بالنهب الاقتصادي الاستعماري، الذي بنى رفاهية الغرب بالفائض الذي تحقق من إفقار الأمم والشعوب المستعمرة - وعلى الجبهة الأمنية، بتحويل العالم إلى هامش للأمن الأوربي والغربي، وتسخير الشعوب المستعمرة وإمكاناتها وقودا في الحروب الاستعمارية، كما كان الرومان والفرس يصنعون - قديما - مع الغساسنة والمناذرة، في النظام العالمي القديم!..

ذلك هو المفهوم الغرب «لعالمية»

حضارته الأوربية.. مفهوم الواحدية الحضارية الذى يرى أن الحضارة الغربية هى وحدها العالمية والإنسانية - بل هى وحدها «الحضارة» التى يجب أن تكون النموذج الوحيد للتحضر والتقدم.. والقالب الأوحد الذى يجب أن يصب فيه العالم جميعا..

بل لقد رأى الغرب - ولا يزال يرى - أن الصراع والصدام هو الخيار الرئيسى فى تحقيق هذه الواحدية الحضارية.. ولذلك بسبب «الصبغة الصراعية» التى تماهت فى بنية تكوين الحضارة الغربية، والتى أفصحت عنها - ثم بررت لها - النظريات الرئيسية التى صبغت فلسفة الأنوار الوضعية الأوربية وفكر الحداثة الغربية وثقافتها.

● فلسفة القوة والصراع والنفعية المتحللة من الأخلاق، هى جوهر فلسفة السياسة الميكيافيلية - كما صاغها ميكيافيلى «١٤٦٩ - ١٥٢٧م» فى كتاب «الأمير».

● وفلسفة التاريخ عند هيجل «١٧٧٠ - ١٨٣١م» تقيم علاقات العصور على الصراع، الذى ينسخ فيه الجديد القديم..

●والداروينية - كما صاغها داروين «١٨٠٩ - ١٨٨٢م» فى «أصل الأنواع» - تجعل الصراع هو قانون التقدم والتطور فى عالم الحياء، فالبقاء للأصلح، والأقوى هو الأصلح للبقاء.. ونسخة للآخرين - الضعفاء - هو القانون!..

● وكذلك الحال فى الفكر الاجتماعى، والعلاقات بين الطبقات - عند ماركس «١٨١٧ - ١٨٨٣م» وغيره - وهو تطبيق للفلسفة الصراعية الداروينية والهيجلية فى الاجتماع - فالجديد يستأصل القديم، والطبقة الجندية يتم نموها على حساب فناء الطبقة السائدة.. و«العبودية» قد نسخت المشاعية البدائية.. ثم جاء الاقطاع فنسخ العبودية.. ثم جاءت الرأسمالية فنسخت الاقطاع.. ولقد بشرت الماركسية بنسخ الشيوعية وديكتاتورية البروليتاريا لليبرالية الرأسمالية..

وكأنما شعار هذه «الفلسفة الصراعية» - التى صبغت الحضارة الغربية - هو: «كلما دخلت أمة لعنت أختها» - الأعراف:٣٨-وأبادتها!

●وهذه النزعة المركزية الاستئصالية، هى التى جعلت حتى مفهوم «الإنسان» فى

الحضارة الغربية - هو الإنسان الغربى وحده.. ثم جعلت هذا الإنسان الغربى - فى عصر الاستعمار - يمارس استئصال الآخر، الحضارى والثقافى - براحة عجيبة للضمير، هى أشبه ما تكون بموت الضمير!، لأنه يمارس ذلك الاستئصال «كرسالة»، وكإعمال للقانون العلمى والطبيعى، الذى يحكم عالم الأحياء والاجتماع - فى عالم الحضارات والثقافات.. فاستئصال الشعوب - بالاستعمار الاستيطانى - فى أفريقيا وفلسطين - هو تمدن وتحضر لهذه البلاد!.. وتنصير المسلمين هو تحقيق «الخلاص» لأرواح هؤلاء الكفار المحرومين!.. وإزالة المواريث الحضارية للشعوب غير الأوربية، هو تحرير لها من التخلف والرجعية والبدائية والجمود!!..

مفهوم العولمة:

وإذا كان هذا هو مفهوم «العالمية» - فى الرؤية الإسلامية.. وفى الرؤية الغربية - فما هو الجديد المفاهيمى الذى يطرحه مصطلح «العولمة»، الذى طرأ على الساحة الفكرية منذ سنوات؟..

إن الجديد فى هذه العولمة الغربية - عن «العالمية الغربية» - هو جديد فى «الدرجة»، وليس فى «النوع».. فنحن أمام تصاعد فى درجة النزعة المركزية الغربية..

تشارلز داروين

وتصاعد فى حدة التطبيق الغربى لهذه النزعة المركزية.. وأسباب هذا الجديد - جديد العولمة - هو التطورات الموضوعية الجديدة التى طرأت على العالم، ومن ثم على علاقة النظام الغربى بالعالم غير الغربى..

لقد مر الغرب فى علاقات أممه ودوله القومية بعضها بالبعض الآخر - منذ عصر التنوير - بمراحل عدة: مرحلة الحروب الدينية.. ومرحلة الحروب القومية.. ثم جاءت مرحلة الحروب الاستعمارية.. ثم شهدت العقود الأولى للقرن العشرين ذلك «الانشقاق الاجتماعى» بين الشمولية الشيوعية وبين الليبرالية الرأسمالية، فى قلب النموذج الحضارى الغربى.. ولقد شغل هذا الانشقاق والشقاق الاجتماعى واستنفد الكثير من الطاقات الصراعيا لقوى النظم الغربية.. وانضم إليهما - نحو ربع قرن - صراع هذين القطبين مع الفاشية والنازية - وفى ظل هذه «الفرصة التاريخية» نمت حركات التحرر الوطنى فى البلاد المستعمرة، واستفادت الدول التى حققت استقلالها السياسى عقب

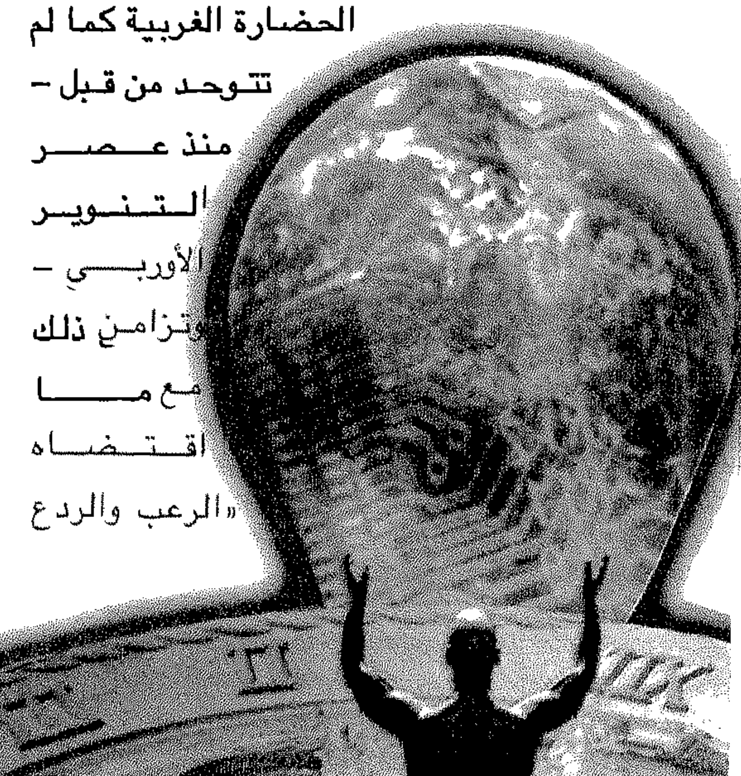
الحرب الاستعمارية العالمية الثانية من هامش الحرية الذى أتاحه لها الصراع الداخلى بين شقى الحضارة الغربية، فحققت - بعد الاستقلال السياسى - مقادير متفاوتة من التنمية الثقافية والاقتصادية والعسكرية..

صحيح أن التغريب كان تيارا ضاغطا على خيارات هذه الدول والشعوب.. لكن التناقض الرئيسى فى جسم الحضارة الغربية قد أتاح لشعوبنا مقادير من حرية الاختيار، فى اطار هذا التغريب، الذى مثل يومئذ «غواية الترغيب والترهيب».. لقد كان غواية، تستخدم أساليب الترغيب والترهيب.. لكن ظلت لنا معها مقادير لا بأس بها من حرية الاختيار..

فلما حدث وسقط النموذج الشمولى الماركسى - فى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - وتوحدت قبضة الحضارة الغربية كما لم تتوحد من قبل - منذ عصر التنوير الأوربى - وتزامن ذلك مع ما اقتضاه «الرعب والردع النووى: من ضبط الغرب لتناقضاته الداخلية والاقتصادية عند حدود وسقف الصراع غير العنيف» واقترنت هذه اللحظة التاريخية بثورة متسارعة وغير مسبوقة فى تقنيات وسائل الاتصال - فى الفكر والثقافة والإعلام.. وفى المال والاقتصاد - كان ذلك الصعود الجديد لنزعة المركزية الغربية من طور «العالمية» - بمفهومها الغربى، الذى أشرنا إلى خصائصه - إلى طور «العولمة الغربية»، التى أرادت وتريد إلغاء «هامش الاختيار» الذى كانت تتمتع به الشعوب والأمم والحضارات غير الغربية، وإحلال مرحلة «الاجتياح» محل مرحلة «غواية الترغيب والترهيب»..

فالعولمة الغربية، هى طور جديد على طريق النزعة المركزية الغربية والعالمية، بمفهومها الغربى.. إنها طور الاجتياح الذى يطمع فى صب العالم داخل القالب الغربى - على مختلف الصعد والميادين: الاقتصادية .. والسياسية.. والقيمية.. والثقافية.. والعسكرية.. والتشريعية.. إلخ..إلخ.

إنها مرحلة «الطوفان الغربى»، الذى هو - فى الدعاوى الغربية - نهاية التاريخ.. ومن لم يركب فى سفينة النموذج الحضارى الغربى طوعا، فخطوط الصراع



والإكراه معه وضده تحددها خطوط الثقافات والحضارات!.«٣».

وإذا كان «واقع» هذا الاجتياح العولمى الغربى، هو الشاهد على صدق التحليل والتوصيف.. فإن فى مصطلح «العولمة» شاهدا ودليلا، أيضاً..

فالعالمية - حتى بمفهومها الغربى - ونظرا لملابسات التناقضات التى صاحبتها، لم تكن تحرمنا من هامش اختيار.. أما هذه العولمة، التى مثلت وتمثل طور وحدة القبضة الغربية، وثورة التقنيات التى جعلت وتجعل العالم أشبه ما يكون بالقرية الكونية، مما يؤدى إلى تصاعد مخاطر الاختلالات فى موازين القوى على الأمم والحضارات المستضعفة.. أما هذه العولمة، فإن مصطلحها - حتى المصطلح - ينبئ هو الآخر عن هذا الجديد الذى تمثله..

فالصيغة الصرفية «فوعلة» غالبا ما تعنى الدمج المخطط والقسرى فى قالب واحد، ونفى التنوع والتعدد والاختلاف.. نفهم ذلك - وقد عرفناه وعانيناه - عندما اكتوت شعوبنا «بالفرنسة» والجلزنة والروسنة والأمركة والأسرلة.. إلخ فهى - أى العولمة - مرحلة الاجتياح الغربى - وخاصة الأمريكى - لصب العالم فى قالب النزعة المركزية الغربية، على نحو غير

● الحضارة الإسلامية ثمرة من ثمرات عالمية الشريعة الإسلامية

● العالمية الإسلامية تعنى التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر فى ظل التعددية الحضارية والتنوع الثقافى

مسبوق، ودرجة لم يسبق لها مثيل، بفعل المستجدات الجديدة، فى بنية الحضارة الغربية - بتزايد «فرعونيتها» و«قارونيتها».. وبضبط تناقضاتها.. وبفعل مستجدات عالم التقنيات وسلطان المعلومات..

ذلك عن تحرير وتحديد مفاهيم المصطلحات..

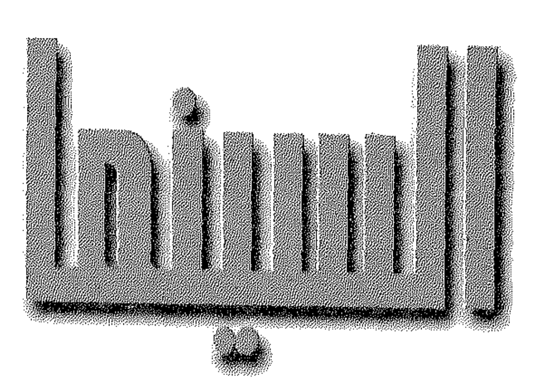
الهوامش

(١) هاشم صالح (التنوير الأوربي ردة فعل للاقتتال المذهبي) - صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - في ٢٦/٢/٢٠٠٠م.

(٢) الجبرتي (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) ص٣١٠-٣١١ تحقيق: حسن محمد جوهر وعمر الدسوقى -طبعة القاهرة ١٩٦٩م.

(٣) انظر: د.محمد عمارة (الحضارات العالمية: تدافع أم صراع) - سلسلة (في التنوير الإسلامي) - طبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٩٨م و(مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية) نفس السلسلة - والناشر - طبعة القاهرة ١٩٩٩م. ■





السينما بين المهرجانات وفساد المعايير

بقلم
مصطفى درويش

لست أدرى كيف وجدتنى أحاور النفس قائلا : ها أنا ذا فى مطار نيووارك بولاية نيوجيرسى، على وشك مغادرة مدينة نيويورك، بعد زيارة لبلاد العم سام، هى الأولى، وربما الأخيرة، عائدا بعد ساعات إلى ألمانيا، ومنها بعد أيام إلى مصر.

فمن أين لى المال اللازم لسفر طويل، عبر المحيط، تزداد تكاليفه على مر الأعوام.

ومن أين لى العافية أمام زحف الشيخوخة، حتى أواجه بها مشاق سفر، تختلط فيه الأزمنة، على نحو ترتبك معه دورة الليل والنهار.

وما كنت أدرى فى لحظة الحوار تلك، أنه لن تمضى سوى بضعة أشهر، إلا وأرانى، معلقا بين الأرض والسماء، فى الطريق إلى نيويورك، لسبب لايخطر على البال، هو المشاركة فى فعاليات مهرجان الفيلم العربى الإيرانى، وفترة انعقاده لم تزد على ثلاثة أيام .. ومتى ؟

فى أثناء شهر فبراير، وبالتحديد أسبوعه الأخير أى فى عز شتاء قارس البرد، تتنازع أيامه ولياليه ثلوج ورياح، ولا أقول أعاصير .

ونيوريورك ، حيث وول ستريت شارع المال والأعمال، وحيث برودواى شارع الملاهى بأضواء لافتات مايعرض فيه من مسرحيات وأفلام وقد تحول بها الليل إلى نهار، مدينة لاتنام .

صوت الموسيقى

وفى أثناء الأيام السبعة التى قضيتها

جوليا روبرتس مع الفائزين معها بالأوسكار

بتلك المدينة، شاهدت، علاوة على أفلام المهرجان، مسرحيتين موسيقيتين وفيلمين.

والمسرحيتان هما «شيكاغو» و«شبح الأوبرا» .

والأولى صاحبها المخرج ومصمم الرقصات «بوب فوس» ذلك المبدع الذى امتعنا قبل وفاته بقليل رائعته، «كل هذا الجاز» .

أما الثانية فصاحبها «فرانك لا لويه فيبر» ذلك الموسيقار الذى أمتعنا بأكثر من مسرحية موسيقية رائعة، أذكر من بينها على سبيل التمثيل «المسيح نجم أعظم»، «يوسف ومعطفه السحرى» «متعدد الألوان»، «قطط» و«شارع الغروب» المأخوذ عن فيلم بالاسم نفسه، أخرجه «بيلى ويلدر» قبل نصف قرن من عمر الزمان .

يبقى الفيلمان ، وهما «النمر الواثب والتنين النائم» لصاحبه المخرج الصينى «انج لى» وهو من جزيرة تايوان، ومقيم فى الولايات المتحدة الآن .

و«هانيبال» لصاحبه «ريد لى سكوت» ذلك المخرج البريطانى الذى فاز فيلمه «المصارع» قبل بضعة أسابيع، بخمس جوائز أوسكار، من بينها جائزتا أفضل



النمر والتنين .. درة سينمائية

فيلم، وممثل رئيسى «راسيل كرو» .

و«المصارع» تدور أحداثه وجودا وعدما حول قائد رومانى «ماكسيموس» أيام حكم الإمبراطور الحكيم «ماركوس أوريليوس» تنكرت له الأقدار، فإذا به ينحدر من سيد إلى عبد، فمصارع، منتصر على «كومودوس» ذلك الإمبراطور المستبد الذى قتل أباه «أوريليوس» وأصدر أمرا بتصفية «ماكسيموس» جسديا، ولكن ، ولأمر ما، كتبت له النجاة من موت مؤكد .

الرعب والدهشة

ويختلف «هانيبال» عن «المصارع» فى كل شىء فهو فيلم رعب، بطله «لكتر هانيبال» ذلك السفاح العشوائي المتعطش للدماء فى «صمت الحملان» ويؤدى دوره انطونى هوبكنز، الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن تقمصه لتلك الشخصية، قبل تسعة أعوام .

وبعض أحداث الفيلم تدور فى «فلورنسا» تلك المدينة الإيطالية الرائعة الجمال.

أما معظمها فيدور فى الولايات المتحدة ، حيث نرى مشاهد مرعبة يشيب من هولها الولدان، أذكر من بينها، منظر المليونير القعيد، المشوه وجهه علي نحو لايظهر من معالمه شيئا، ويعيش لا لهدف سوى الانتقام من «هانيبال» .

ومنظر الخنازير المتوحشة، المدربة علي افتراس الآدميين، وهى تلتهم ذلك المليونير.

وأخيرا وليس آخر منظر زميل «كلاريس» «جوليان مور» فى المباحث الإتحادية، الذى ناصبها العداء، منظره و«هانيبال» يعذبه أمام «كلاريس» بشكل يثير القشعريرة فى الأبدان.

ومما أثار دهشتى أن الفيلم، ورغم هذه المناظر، وهى بعض من كثير، لم يقصر عرضه فى مصر على الكبار، خلافا لما حدث فى بلاد العم سام.

وصاية

وفى اعتقادى أن إجازة عرضه دون تفرقة بين كبار وصغار إنما يرجع الى قيام الرقابة بتخفيف بعض المناظر المرعبة، حتى لاتعمل رخصة قصر عرضه علي الكبار .

فى حين أن تلك الرخصة قد خولها القانون حماية للكبار والصغار على حد سواء .

فبفضلها يحمى الصغار من مشاهدة الأفلام التى من نوع «هانيبال» .

وفى الوقت نفسه لايحرم الكبار من مشاهدة مثل هذه الأفلام كاملة، غير منقوصة، وذلك بحكم أنهم راشدون، يستطيعون التمييز بين ماينفعهم ومايضرهم.

ومن ثم لا تحق الوصاية عليهم، بمقولة حمايتهم من أنفسهم .

والآن إلى «النمر والتنين».

بداية أرى من المفيد أن أذكر أننى عندما رأيته فى نيويورك كان متكلما بلغته الأصلية، أى الصينية، وذلك رغم أن الجمهور الأمريكى معتاد على مشاهدة الأفلام الأجنبية، غير المتكلمة بلغته، مدبلجة بالإنجليزية كما أنه دخل معترك الصراع من أجل الفوز بجوائز أوسكار متكلما بالصينية، لا الإنجليزية، وبوصفه فيلما صينيا لحما ودما

ولأنه من الأفلام القليلة التى يزداد الاستمتاع بها بصريا وسمعيا، كلما شوهد أكثر من مرة، فقد اسرعت بمشاهدته عند عرضه عندنا فى القاهرة.

لغة الاستعمار

ولدهشتى وجدته متكلما لا بلغته الأصلية، وإنما بالإنجليزية، وكأن فهم الجمهور العادى للغة «الأنجلوسكسون» عن طريق السمع، يفوق فهمه للغة الصينيين.

لقد اشترط «انج لى» الابقاء على اللغة الصينية المتكلم بها أبطال الفيلم، لحكمة، هى الحفاظ علي الجو العام «للنمر والتنين» حيث تدور جميع الأحداث من البداية وحتي



كاترين زيتا جونز بطلة خيوط التهريب



راسيل كرو

النهاية على أرض الصين، ومن خلال أساطير وشخصيات صينية.

ورغم ذلك الشرط ، جرى ترشيح «النمر والتنين» لعشر جوائز أوسكار، من بينها جائزتا أفضل فيلم وأفضل فيلم أجنبى . وترشيحه لهاتين الجائزتين معا، أمر لم يحدث فى تاريخ جوائز أوسكار إلا نادرا.

والحق، أنه لو كان توزيع تلك الجوائز يجرى بميزان دقيق، لما اكتفى بمنحه جوائز أفضل فيلم أجنبى وموسيقى تصويرية وتصميم مناظر وتصوير .

ولمنح ، فوق هذا ، جائزتا أفضل فيلم وإخراج فهو ، يفضل بكثير، المصارع وخيوط التهريب الذى فاز صاحبه «ستيفن سودربرج» بجائزة أفضل مخرج .

ومن غرائب الترشيحات أنه أى «سودربرج» كان مرشحا لأوسكار أفضل مخرج عن فيلم آخر «ايرين بروكوفيتش» علاوة على «خيوط التهريب» .

وعن أدائها لدور «بروكوفيتش» فازت «جوليا روبرتس» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية.

وفوزها بتلك الجائزة، وترشيح «سودربرج» عن إخراجه لفيلمين، لا فيلم واحد، خروجا عن المعتاد، لايعنى ارتقاء مستوى إخراجه لأى منهما أو كليهما إلى مستوى إخراج «انج لى» لرائعته «النمر والتنين».

ومن البديهى أن التكريم، فى مجال



سوسن بدر فى الأبواب المغلقة

الجوائز، يجب أن يحسب على أساس الكيف، لا الكم، وإلا فسدت المعايير .

فـ «النمر والتنين» فيلم فريد، يندر أن يكون له مثيل .

وعندى أنه أفضل فيلم جادت به قريحة صانعى الأطياف، خلال العام الأخير من القرن العشرين.

وأغلب الظن أنه لن يكتب لنا أن نشاهد فيلما يرقى إلى منزلته فى أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين، بل وربما لبضعة أعوام.

الصمت والصبر

وأعود إلى مهرجان الفيلم العربى والإيرانى لأقول إنه فى أيامه الثلاثة جرى عرض ستة عشر فيلما بين روائى وتسجيلى، وطويل وقصير .

وكان من بينها أفلام فلسطينية، أو بمعنى أصح أفلام عن فلسطين؛ أذكر منها الصبار لصاحبه «باتريك بورج» وهو أول فيلم لمخرجه الشاب، ذى الجنسية السويسرية، وفيه يعرض لمأساة الفلسطينيين المقيمين علي أرض إسرائيل، حيث فقدوا ديارهم وقراهم التى جرى إزالتها، ولا دليل على أنه كان ثمة وجود لها سوى نبات الصبار.

ومن هنا اختيار «بورج» الصبار عنوانا لفيلمه الذى يعد بين الأفلام التى عرضت لمحنة الشعب الفلسطينى أكثرها طولا «٩٧ دقيقة» وأكثرها جدية والتزاما كما أذكر منها فيلم «محمود درويش ـ هذه اللغة من هذه الأرض».

وفيه تابع مخرجاه الفرنسيان «سيمون بيتون» و«الياس سانبار» رحلة الشاعر من الضفة الغربية إلى باريس، مرورا بالقاهرة وبيروت.

كما سلطا الأضواء علي شعبيته، وعلى الأحاسيس الكامنة فى كلماته وقصائده المستوحاة من شقاء فقد أرض الآباء .

هذا، وفيما عدا فيلمين لبنانيين، أحدهما قصير «العلكة الحمراء» والآخر طويل «الاعصار» فيما عداهما، لم يكن ثمة حضور لأفلام من المشرق العربي.

فلا سينما العراق، ولا سوريا، ولا أية دولة من دول الخليج، كان لها حضور بأى فيلم فى المهرجان.

وفيما عدا «ليبيا» كان للسينما فى كل من مراكش والجزائر وتونس، حضور بثلاثة أفلام هى «مبروك» لصاحبه إدريس شويكة ، و«العيش فى النعيم» لصاحبه «بورلم غير ديجة» و«موسم الرجال» لصاحبته مفيدة تلاتلى، تلك المخرجة التونسية التى بدأت مشوارها مع صناعة الأطياف مؤلفة «مونتيرة» للأفلام ثم جاءتها الشهرة بفضل «صمت القصر» أول فيلم من ابداعها كمخرجة.

أين مصر؟

وإذا ما استثنينا فيلما مصريا صامتا «عشر دقائق» اسمه «الجوع كافر» «١٩٢٣» لصاحبه «محمد بيومى» أحد الرواد الأوائل الذين لعبوا دورا فى تمصير السينما، وذلك ابان عقد العشرينات، باستثنائه، لم يكن للسينما المصرية، بجلالة قدرها، وجود إلا بفضل فيلم يتيم «الأبواب المغلقة» لصاحبه عاطف حتاتة.

فى حين أن السينما الإيرانية كان لها حضور مشرف بثلاثة أفلام «الدائرة» لصاحبه «جعفر بناهى»، «صفصاف ورياح» لصاحبه «محمد على طالبى» و«يوم آخر» لصاحبه «بابك بيامى».

وبالفيلم الأخير، جرى اختتام عروض المهرجان ويتصدر الأفلام العربية من ناحية الموضوع والتناول الجاد له بلغة سينمائية جيدة، يتصدرها «العيش فى النعيم» و«الاعصار» .

النعيم الجحيم

وأحداث الفيلم الأول تدور على أرض فرنسا، فى ماض قريب، قبيل فوز الجزائر بالاستقلال، تتويجا لثورة تعرف بثورة المليون شهيد . وأرض الجزائر لاتظهر فى الفيلم إلا فى مشهد يتيم، نرى بفضله الحياة الرعوية فى واحة هادئة، تكاد تبتلعها الرمال، وفى احضانها ترعى الأغنام آمنة، مطمئنة .

ولم يستغرق ذلك المشهد سوى بضع ثوان .

وكان القصد من الزج به، هو تسليط الضوء على اسلوب معيشة بطل الفيلم، قبل مغادرته الجزائر، مهاجرا إلى أرض الميعاد.

وكيف أنه على النقيض تماما من اسلوب معيشته فى ضاحية «نانتير» على بعد بضعة أميال من باريس.

فمن تلك المقابلة بين أسلوبى معيشته، يتضح لنا أنه انتقل من النور إلى الظلمات.

الواقع والوهم

فحوارى مدينة الصفيح بتلك الضاحية الباريسية حيث يعيش، حوار موحلة،

معتمة، واسقف العشش تتسرب من خلال شقوقها مياه الأمطار، مفسدة الحياة والأشياء.

وتبلغ المعاناة ذروتها، عندما تطير الأسقف بتأثير الرياح العاتية.

وعندما يتعرض الجزائريون لارهاب الشرطة الفرنسية، متمثلا فى القبض، والضرب، والتنكيل.

والمدهش أن الفيلم قد اعطيت له امكانيات هائلة وحشدت له جموع غفيرة من الجزائريين.

ومع ذلك، رأيناها لم تصب بتوتر المسحور، بالوقوف لأول مرة أمام الكاميرا.

ولم تنطق بأنها تتحرك على خطوط مرسومة بالطباشير، بل بدا تحركها وكأنه تعبير تلقائى، الأمر الذى يذكرنا بفيلم «معركة الجزائر» لصاحبه المخرج الايطالى «چيل بونتكورفو».

غرائب وعجائب

ومن غرائب المهرجانات فى الوطن العربى، واخص منها بالذكر أول مهرجان للسينما العربية فى إمارة البحرين «٢٠٠٠» من غرائبها الا يفوز «العيش فى النعيم» بجائزته الكبرى، وبدلا منه يفوز بها «الأبواب المغلقة» بطولة سوسن بدر ومحمود حميدة.

فالفيلم المصرى، عكس الفيلم الجزائرى، يعانى من فقر الامكانات، ومن صوغ الحياة فى مصر، وفقا لرؤية جاهزة يغلب عليها الافتعال.

أما الفيلم الثانى «الاعصار» وصاحبه المخرج اللبنانى «سمير حبشى» فتاريخ إنتاجه إنما يرجع إلى العام الأول من عقد التسعينات، عندما عاد السلام إلى ربوع لبنان، بعد انتهاء حرب أهلية طائفية، تعد من أقذر الحروب داخل الوطن الواحد.

والغريب، أنه ورغم تناوله لضحايا تلك الحرب بأسلوب يقطر شعرا، فقد جرى منع عرضه فى لبنان زمنا طويلا.

فإذا ما أتيحت له فرصة العرض، روعى أن تكون فى أضيق الحدود.

وحتى فرصة العرض تلك لم تتح له فى أى بلد عربى آخر، على امتداد الوطن من الخليج إلى المحيط !!. ■

مسرح

قراءة فى مسرح سعد الله ونوس

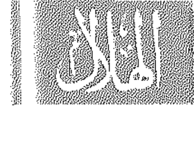
مسرحية الاغتصاب

رؤية جديدة

«فى زمن المجازر، لا يوارى الشعور بالعقم، أن نشير إلى المجزرة، أو نتحدث عنها مواربة. يجب أن ينخرط المسرح فيها، أن يحقق ذوره فى سياقها واحتمالاتها. دون ذلك لا يمكن تحاشى التمزق.. لا يمكن الفرار من هذا الإحساس الباهظ بالهامشية والعجز».

سعد الله ونوس

بقلم
مها محمود صالح



فى حديثنا السابق عن مسرح ونوس تعرفنا على مفهوم التسييس الذى يتبناه هذا المسرح ويدعو إليه، كما تعرفنا على خصائصه والتى تتلخص فى ثلاثة مبادىء هى : البدء بالجمهور - المسرح عمل جماعى - ينبغى أن نشحن لا أن نفرغ.

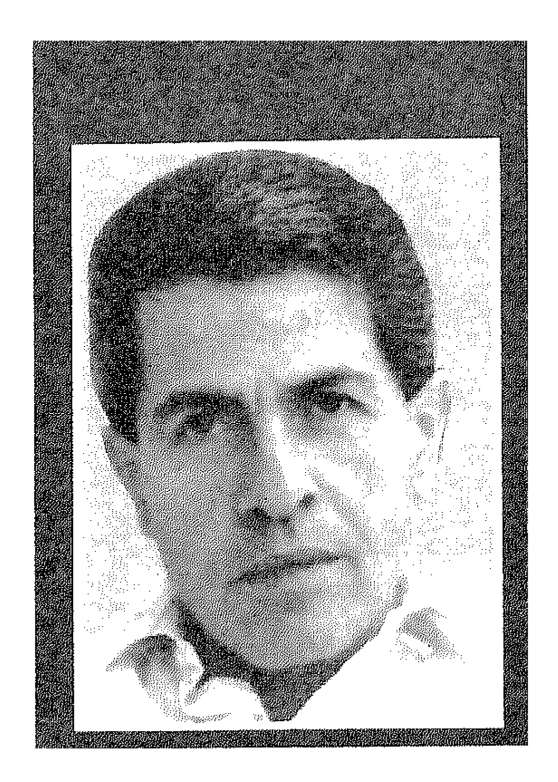
كذلك قدمنا في حديثنا السابق مسرحية «رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة» كنموذنج لمسرح ونوس أما حديثنا هذا الشهر فسيكون قراءة لمسرحية «الاغتصاب»، وذلك حتى تتكامل رؤيتنا لمسرح ونوس الذى لا يكتفى بتكثيف الوعي وإنما يتخطى ذلك إلى محاولة استشفاف الآفاق المستقبلية لهذا الواقع.

ومسرحية «الاغتصاب» سنة ١٩٩٠ هي إعادة كتابة لمسرحية «القصة المزدوجة للدكتور بالمي» للكاتب الأسباني بابيخو، ولعله من المناسب أن نشير إلى رأى ونوس الذى ذكرناه سابقا وهو أن النص المقتبس هو نص يحاور زمنا مختلفا وبيئة مختلفة وهو بذلك يعد نصا جديدا برؤية جديدة. (راجع سعد الله ونوس: الأعمال الكاملة، المجلد الثانى ص ٦٣، الأهالى، ١٩٩٦).

يقدم ونوس من خلال هذا العمل حكايتين تتداخلان وتتبادلان النمو، حكاية فلسطينية وأخرى إسرائيلية.

الحكاية الفلسطينية تضم إسماعيل الفلسطينى المنخرط فى صفوف المقاومة الفلسطينية، وأخته «الفارعة»، وقد سميت بذلك الاسم لكثرة ترددها على سجن الفارعة لزيارة حبيبها السجين هناك، ثم «دلال» عروس «إسماعيل» الشابة التى تتزوجه رغم معارضة أهلها الأثرياء، وهى لا تعرف شيئا عن انضمامه للمقاومة. أما الحكاية الإسرائيلية فتدور حول أسرة «إسحق» الذى يعمل فى فرع الأمن الداخلى الذى يختص بالتعامل مع الفلسطينيين، وتضم أسرته زوجته «راحيل» وأمه «سارة» وطفله الصغير «دافيد».

يقع التماس بين الحكايتين عندما يتعرض «إسماعيل» للتعذيب على أيدى «إسحق» وزملائه الذين يتمادون فى الضغط عليه ليس فقط بهدف الحصول عليه وإنما أيضا، وهو الأهم، بغرض كسر كبريائه. هكذا تنتهى حفلة التعذيب وقد تم تحطيم رجولة «إسماعيل» بينما تعرضت «دلال» للاغتصاب على أيدى زملاء

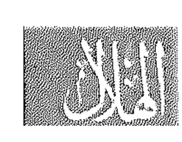


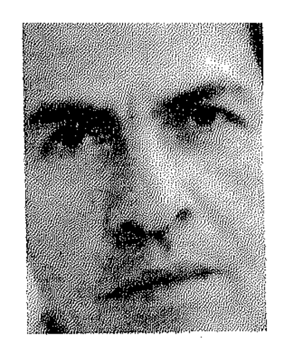
سعد الله ونوس

«إسحق». أما إسحق فهو حقا لا يشارك فى الاغتصاب، ولكنه وقد أراد ألا يبدو أقل قسوة من زملائه، يتقدم نحو المرأة الضحية ممسكا شفرة يشق بها أثلاما فى لحمها وينتهى به الأمر وقد قطع حلمة نهدها الأيسر!

بعد هذا الحدث الكاشف تتداخل الحكايتان وتبدأ الشخصيات الرئيسية فى التحول فى اتجاه مصائرها المحتومة. أما إسحق فإنه يصاب بعجز جنسى يفسره له الطبيب النفسى «ابراهام منوحين»، وهو يهودى ليس صهيونيا، بأنه نوع من عقاب النفس على الوحشية التى تعامل بها مع السجين وزوجته والعلاج الوحيد، فى رأى «د. منوحين» هو «إما الإقرار بالجرم الرهيب أو الاقتناع المطلق بأن هذه الأعمال جديرة بالاحترام!».

وتبدأ الأسرة الإسرائيلية فى الانهيار حيث تتعرض «راحيل» للاغتصاب على يد «جدعون»، زميل زوجها الذى ذهبت إليه آملة أنه يستطيع مساعدة زوجها فى







محنته، فتقرر الرحيل للحاق بعمتها فى أمريكا. ويحاول «إسحق» الحصول على فرصة للعمل خارج إسرائيل حتى يصحب زوجته على أمل أن يتمكنا معا من اجتياز آلامهما، لكن «مائير» رئيسه فى العمل يرفض إعطاءه تلك الأجازة ويتطور الحديث بينهما حتى يعلن إسحق: «اكتشفت ومن خلال جسدى، أن ما نفعله ليس مقنعا، وأن من نسميهم القتلة، لهم عيون ومشاعر ، ويحسون بالظلم .. لم أعد متأكدا أن الحق كله إلى جانبنا». ويحتدم الحوار حتى ينتهى بمصرع «إسحق» على يد رئيسه وأبيه الروحى «مائير».

أما بالنسبة لشخصيات القصة الفلسطينية فإن «دلال» تخرج من تجربتها الرهيبة تتقد باليأس والغضب فتنضم إلى المقاومة وقد تحولت من امرأة ناعمة تغرق فى بحر من الأمان الزائف إلى امرأة صلبة تشحذها رغبة عارمة فى الانتقام ويملأها يقين أن «إما نحن وإما هم».

أما «إسماعيل» فإن جسده ينهار تحت وطأة التعذيب على أيدى «مائير» ورجاله وعندما يتسلم ذووه جثمانه تبدأ أحداث الانتفاضة الفلسطينية سنة ١٩٨٧ وتصاب «الفارعة» بطلقة رصاص تغيبها عن الوعى ثم تعود لتجد شرر الانتفاضة وهو ينطلق عبر الأراضى الفلسطينية من بيرزيت إلى غزة.. ومن الخليل إلى القدس.

الاغتصاب للأرض

إن لحظة اغتصاب «دلال»، التى هى فى الحقيقة رمز للاغتصاب التاريخى للأرض العربية منذ ١٩٤٨، قد تطورت لتؤدى إلى انهيار الأسرة الإسرائيلية وتنبىء بانهيار المجتمع الإسرائيلى إذا استمر الحال على ما هو عليه. بينما نفس تلك اللحظة أدت إلى تصعيد الوعى على الضفة الأخرى إلى الحد الذى أطلق شرارة الانتفاضة الفلسطينية الهادرة.

التسييس فى الاغتصاب :

إذا كانت مسرحية «حنظلة»، لسعد الله ونوس ، تهدف إلى إثارة الوعى بما يحدث فى داخل المجتمع العربى فإن مسرحية «الاغتصاب» تحاول أن تبنى وعيا جديدا بالواقع الذى يعيشه المجتمع الفلسطينى والمجتمع الإسرائيلى كل على حده من ناحية، وبحقيقة الصراع الدائر بينهما فى تلك اللحظة من التاريخ، من ناحية أخرى.

المجتمع الفلسطينى :

إن أحداث الانتفاضة الأولى منذ سنوات ثم انتفاضة الأقصى التى اندلعت، ولازالت مشتعلة منذ شهور، تدفع المرء، بصرف النظر عن معتقداته وتوجهاته، إلى التساؤل عن حقيقة ما يحدث فى الأرض المحتلة. عن الشعب الفلسطينى الذى ما أن يبدو وكأنه قد استكان فى مواجهة الكيان الإسرائيلى المدجج بالسلاح والكراهية، حتى يندفع فى مواجهات مفاجئة بعضها ذات أمد قصير، عمليات انتحارية مثلا، وبعضها أطول أمدا، مثل أحداث الانتفاضتين.

الدولة الحلم

إن ونوس من خلال «إسماعيل» و«الفارعة» و«دلال» يحاول أن يفهم ويساعدنا أن نفهم كيف تنبعث تلك القدرة

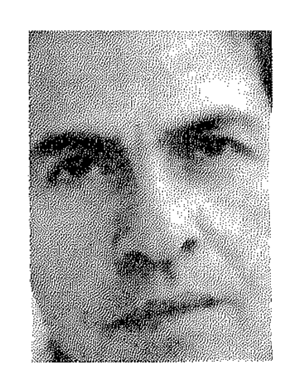
الأسطورية على المقاومة من أعماق الواقع الفلسطيني الكالح الظلمة. أما «إسماعيل» فإنه يمتلك حلما يكاد يقترب من الخيال أن تكون دولة تتسع للإسرائيليين والفلسطينيين معا، يتمتعون جميعا فيها بحقوق متساوية وحريات مكفولة. هذه الدولة الحلم ستقوم بالطبع على أرض الوطن الذي لم يعرف هو وأجداده سواه. يقول «إسماعيل» مخاطبا «مائير»: «هنا وطني وهذه أرضي.. منذ قرون وقرون ونحن نحيك مع هذه الأرض العلاقات والمواثيق. تبادلنا الترويض والملاينة. وشممتنا وشممناها. غذتنا أحياء وتغذت بنا أمواتا.. خلال قرون وقرون ونحن نعجن الطين والماء والهواء بخمائرنا. خمائر البشر الذين يحزنون ويفرحون ويثمرون.. وبهذا التخمر البطيء والمديد تتشكل الأوطان». وإذا كان «إسماعيل» قد استشهد فإن «الفارعة» لازالت هناك من بعده تجدل ذلك الحبل السري الذي يربطها بل يربطهم جميعا بأرض الوطن وبتاريخه! ها هي تخاطب الطفل الرضيع الذي تتولى رعايته بعد إبعاد أمه فتقول: «لا شيء يضاهي رائحة الخبز، إلا رائحة الأرض المروية. هاتان الرائحتان هما ألطف وأنبل روائح الكون. إنهما النعمة التي تغذي الشوق إلى البيت والحب والعمل». وهي في سياق آخر تحكي له صفحات مضيئة من تاريخ ذلك الوطن فتقول: «.. واحتل الصليبيون القدس، وأسسوا فيها الممالك والقلاع.. وظنوا أن الأمر استقام لهم.. لكن القائد صلاح الدين الأيوبي أعد عدة الحرب وانقض عليهم..».

إن الفارعة تقوم بدور أساسي في تسييس، أي تكثيف وعي، الشخصيات في الحكاية الفلسطينية. ها هي تحث دلال على الخروج من وهم العالم الآمن الذي تغرق فيه إلى الواقع القاسي فتقول لها: «إنه أمان كاذب. لم تغتصب إسرائيل بلادنا كي توفر لنا الأمان.. إن واقعنا مرعب. موت واعتقالات.. بيوت منسوفة وأطفال بلا أمهات أتريدين أن يولد طفلك بلا هوية وبلا أمل!.. في حالتنا، الانزواء عن المشاكل يعني الفناء البطيء.. ونحن لا نريد أن نفنى».

«الفارعة»، التي يعني اسمها الحاسرة والقوية أخت الرجال، هي روح المقاومة الفلسطينية التي لا تموت. تفقد الفارعة والدها في أيلول الأسود، ويدخل حبيبها المعتقل محكوما عليه بالسجن المؤبد، ويستشهد أخوها الأصغر، فلا يهتز حلمها بالوطن الحر المستقل، ولا تملك سوى الخيال تشحذه أملا في أن يكتسب كثافة الواقع. إنها نموذج للمرأة الفلسطينية التي قد تقضي العمر تنتظر عودة الزوج أو الابن المعتقل بأمل لا يتزعزع في الغد: «حولنا الآلاف من النساء المنتظرات. ولكننا نتعلم كيف نصبر، وكيف نتهيأ للحظات الفرح القادمة».

قد تبدو الفارعة رمزا أكثر مما هي شخصية حقيقية، لكنني شخصيا لا أشك في إمكانية وجودها على أرض الواقع؛ فلولا وجود أمهات وزوجات مثل هذه الفارعة، لما أمكن للانتفاضة الفلسطينية أن تستمر لسنوات ثم تعاود الانفجار مرة أخرى منذ شهور!.

لكن الحكاية الفلسطينية لا تضم فقط



مسرح

أبطالا وحكماء اختاروا الحلم المستحيل، وإنما هناك أيضا من حاولوا التكيف مع الواقع أو حتى الاستفادة منه، وبعضهم نجح فى ذلك . هناك على سبيل المثال محمد الأخ الأكبر لإسماعيل الذى لم يستطع أن يسير فى طريق المقاومة المسلحة، واكتفى بأن يحيا حياة أسرية عادية مع امرأة يحبها هى سهام، ولكن ، على حد قول الفارعة: «من يملك أن ينجو بسعادته فى هذه الظروف». إن السلطات تبعد سهام خارج الوطن، مما يدفع محمد إلى قبول العمل فى ورشة إسرائيلية آملا أن يهيىء له ذلك الحصول على الموافقة على طلب لم الشمل مع زوجته، لكنهم يطلبون منه، لكى يحقق أمله، أن يقوم بالتجسس على أهله المنضمين إلى المقاومة. يحاول محمد لكنه لا يستطيع فالنذالة كما يقول «تحتاج إلى قوة داخلية رهيبة».

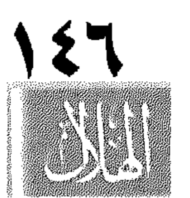
النموذج الآخر لمن تكيفوا مع الوضع القائم بل واستفادوا منه هو السيد بشير البوسى والد دلال الذى يعيش فى قوقعة من الثراء والتجارة ولا يهمه إلا أمواله. هو نادرا ما يذكر إسرائيل، ولم يخف شماتته بعبد الناصر وأنصاره بعد هزيمة ٦٧. لقد رفض السيد بشير مصاهرة إسماعيل لفقره، وعندما أصرت ابنته على هذه الزيجة قاطعها. أما بعد اعتقال إسماعيل ودلال فقد أقسم أن يتبرأ من ابنته أمام الجميع خوفا من أن تسبب له متاعب مع السلطات!.

المجتمع الإسرائيلى

أما الوقع الإسرائيلى كما تقدمه الحكاية الإسرائيلية فهو واقع، رغم قوته الظاهرة وقسوته فى مواجهة الآخر، إلا أنه فى الواقع يحمل بذور انهياره الداخلى.

إن ضمير الحكاية الإسرائيلية وراويها هو د. أبراهام منوحين طبيب الأمراض العصبية الذى يعلن لإسحق أن العجز الجنسى الذى أصابه ما هو إلا عقاب له على ما اقترفه فى حق العربى إسماعيل وزوجته. يحكى د. منوحين عن شعوره عندما سمع القصة من إسحق ، فيقول: «حين روى لى ما فعلوه شعرت بالاعتلال، وبما يشبه التورط. كان يجرنى معه شاهدا على تاريخنا.. ما فعله لم يكن جريمة فردية تخصه وتخص علم الأخلاق، بل كان حدثا له مغزاه وأثره على تاريخنا جميعا». (حقا إن هذه الجريمة الفردية ما هى إلا رمز وإشارة إلى ذلك الاغتصاب الجماعى لوطن بأكمله!).

لا يستطيع د. منوحين إذن أن يلتزم بحياد الطبيب المعالج بل يغلبه النفور. ويستشف إسحق ذلك النفور فيتهم الطبيب أنه واحد من أولئك الذين «ليس لديهم ما يقدمونه لدولة إسرائيل إلا الوساوس والشكوك». د. منوحين لا ينكر التهمة بل ويعلن فخره بها : «نحن نفخر بوساوسنا لأنها حمتنا من البؤس الروحى الذى تغرق فيه دولتنا المعجزة». ويؤكد د. منوحين لإسحق أنه «فى تربيتنا الصهيونية يعلموننا الكراهية بصورة دءوبة ولكنهم لا يبالون بالحدود التى يمكن أن تتحملها بنيتنا الإنسانية. إن الكراهية المطلقة هى الحد الذى يمكن أن يسوغ كل شىء،



ويمنع الاختلال، ولكن من هو الإنسان الذى يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟».

ويخرج إسحق من العيادة وهو غير مقتنع بكلمات الطبيب، لكن جرثومة الشك التى زرعها الطبيب تظل تنخر فى عقله حتى تؤدى به إلى اكتشافات مرعبة . إن السجين العربى الذى سبق له أن حطم رجولته وانتهك جسد زوجته يعود من المستشفى ليموت بين يديه فى حفلة التعذيب الثانية. لقد تكشف له في تلك اللحظة أن ذلك العربى : «لم يكن حشرة. ولم يكن قمامة نرميها فى المزبلة. كان رجلا له عينان مروعتان، ووجه تتكلم ملامحه وتصرخ. كان إنساناً».

رمع اكتشافه لإنسانية ضحيته تبدأ تساؤلات إسحق عن مشروعية ما يفعله هو وزملاؤه، ثم تتوالى الاكتشافات المرعبة لتقوض أركان العالم الآمن الذى أحاط به. يتبين لإسحق أن مائير رئيسه فى العمل ما هو إلا رجل عاجز مثله لكنه يخفى هذا العجز خلف قناع من القسوة والترفع. أما أبوه، الذى لا يذكر منه إلا صورا غائمة، فقد قتله مائير بأعصاب باردة لمجاهرته بالعداء للفكرة الصهيونية. وأخيرا فإن أمه سارة ليست إلا شريكة لمائير في علاقة ظاهرها قوة بلا خطيئة ، وباطنها كذب وعقم وخواء!. وبمعرفة إسحق بواقعة اغتصاب زوجته يتأكد له صحة التساؤل الذى يطرحه أبراهام منوحين: «من هو الإنسان الذى يصير كراهية مطلقة ولا يتداعى؟»:

إن جدعون هو مثال حى ونموذج واضح لذلك التداعى حقا هو راض عن نفسه ولا يشكو من أى أعراض مرضية واضحة ، لكنه فى الواقع ينهار كإنسان. هو كما يصف نفسه لراحيل واحد من أجيال الصابرا الذين تعلموا أن «الرجل الفعلى لا يحتاج إلى أصدقاء، وعليه ألا يثق بأحد». ويضيف جدعون : «حين كنا صغارا علمونا أن نحذر الشفقة والحنان، وأن ننتزع ما نريده انتزاعا». إن جدعون هو صورة نموذجية للجندى الإسرائيلى الذى لا يتوانى، وقد تحول إلى كراهية مطلقة تجاه الإنسان الفلسطينى، عن استخدام السلاح فى مواجهة أى حركة عدائية ولو كانت لا تزيد عن حجر فى يد طفل فلسطينى! وهو لا يشعر بأى انتهاك لشرف جنديته عندما يصوب طلقات سلاحه على إنسان أعزل ولو كان طفلا فى حضن أبيه!

وإذا كان جدعون يمثل أجيال الصابرا أى الأجيال التى ولدت فى إسرائيل، فإنه من الضرورى أن نتعرف على ما يمكن تسميته الجيل المؤسس لدولة إسرائيل، ويمثله فى مسرحية الاغتصاب مائير وسارة بنحاس. يعلن مائير المزاعم الدينية التى تأسست عليها إسرائيل فيقول : «نحن هنا لأن الرب وعدنا، ولأن الرب أعطانا، ولأن الرب أقسم أن يسقط فى أيدينا كل أعدائنا. ولن تسقط كلمة واحدة مما كلم به الرب بنى إسرائيل». أما الأم سارة بنحاس فهى نموذج آخر لهذا الهوس الدينى المرضى الذى بنيت عليه إسرائيل . لقد هاجرت سارة إلى إسرائيل بصحبة زوجها جوزيف بنحاس. لكن بينما اندمجت هى فى المجتمع الجديد تميز هو بفتور استجابته التى تحولت إلى عداء مرير لكل ما آمنت به سارة: الحركة الصهيونية، والهجرة، والوطن القومى، وهذا خلق بينهما هوة أخذت تتسع يوما





بعد يوم. وتلتقى سارة بمائير فى أحد الكيبوتزات فى إسرائيل فترى فيه البطل الخارق الذى سيعيد مجد الدولة اليهودية! ويستغل مائير هوس سارة الدينى فيقنعها، مداريا بذلك عجزه الجنسى، الذى هو فى الواقع رمز لعقمه الإنسانى أى عجزه عن التواصل والامتداد، يقنعها أنه لا داعى لأن تنفصل عن زوجها لأن العلاقة بينهما يجب أن تظل على طهارتها فمعجزة إسرائيل لن تبنيها إلا «قوة بلا خطيئة». وتسيطر على سارة أوهامها الدينية فلا تدرك التشويه الذى تلحقه بروح إبنها وهى تستعديه على العرب لتحقق به نموذج الكراهية المطلقة: «ما تفعلونه أقل مما أوصانا به الرب.. أوصانا الرب ألا نعفو عنهم، وأن نقتلهم رجلا وامرأة طفلا ورضيعا، بقرا وغنما، جملا وحمارا».

ومن السهل تبين التشابه بين سارة ومائير من ناحية وبعض الرموز الواقعية لجيل مؤسسى دولة إسرائيل من ناحية أخرى. على سبيل المثال فإن قارىء «اعترافات جولدا مائير» (ترجمة عزيز عزمى - مؤسسة دار التعاون ١٩٧٩) يمكنه بسهولة تمييز التشابه بين سارة وجولدا. كلتاهما على سبيل المثال ارتبطتا بزوجين لم يشاركاهما الحماس تجاه إقامة الدولة اليهودية. تقول جولدا مائير فى كتابها المذكور عن زوجها موريس : «.. بطبعه العاطفى كان أقل تأكدا من الصهيونية منى.. فكان يحلم بعالم يسوده السلام. أما الحكم الذاتى القومى فلم يكن يستثيره . ولم يكن يعتقد أن دولة ذات سيادة يمكن أن تخدم اليهود حقا» ص ٨١.

أما التشابه بين شخصية مائير وجولدا مائير فهو يتعدى مجرد التشابه فى الاسم إلى التشابه فى أسلوب التفكير . ها هو مائير يواجه إسماعيل قائلا: «من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد فلسطينيون». تماما كما قالت جولدا مائير جملتها الشهيرة : «لا يوجد شعب اسمه الشعب الفلسطينى» ص ٣٣ من المذكرات، سارة بنحاس إذن هى رمز للروح التى تأسست عليها الدولة اليهودية ، وعلينا ألا نغفل مقارنتها بالفارعة التى تمثل كما أسلفنا الروح الفلسطينية. إن «الفارعة» رغم اختيارها للكفاح ومقاومة الوجود الإسرائيلى مقاومة عسكرية ومدنية أيضا، ورغم ما تعرضت له من مآسى الاحتلال الإسرائيلى، فهى لا تسمح لغضبها أن يتحول إلى كراهية مطلقة. تخاطب الفارعة دلال قائلة : «لولا الصهيونية لما كانت بيننا وبين اليهود عداوة.. نحن مناضلون يا دلال، ولسنا قتلة. قضيتنا عادلة، وهدفنا هو أن ندحر الصهيونية، لا أن نقتل البشر». سارة بنحاس على الجانب الآخر لا تكتفى بإفساد حياة ابنها بل التضحية بها على مذبح أوهامها الدينية، وإنما تعمل أيضا على مصادرة الأمل فى المستقبل!. إنها لا تكف عن تلقين حفيدها الرضيع دافيد قصة سميه داود «اليهودى» الذى واجه جوليات وانتصر عليه. كما أنها ترتل له المزامير التى تعزز توجهاتها العنصرية «تقلد سيفك على فخذك. وبجلالك اقتحم. شعوب تحتك يسقطون».

إن الفارعة وسارة كلاهما أم لكن

الأولى تدعو إلى الاحتفاء بالحياة بينما لا تتورع الثانية عن قتل الحياة! فلأى منهما ستكون الغلبة فى المستقبل؟!

كراهية مطلقة

وتنطوى شخصية جدعون وأيضا مائير وسارة بنحاس على ما يشبه التحذير للمجتمع الإسرائيلى. فالإسرائيلى المدرب على الكراهية المطلقة فى مواجهة الأغيار يمكن أن يصبح كالوحش الكاسر الذى أطلق من عقاله . هذا الإنسان لن يجد حرجا فى التعامل بنفس القسوة واللاإنسانية مع أولئك الذين يفترض أنهم معه على الجانب نفسه. هكذا لا يجد جدعون غضاضة فى اغتصاب زوجة زميله فى العمل، ولا يتردد مائير فى قتل تلميذه وربيبه إسحق برصاص مسدسه لأنه رفض أن يستمر فى قتل الأبرياء، تماما كما قتل والد إسحق منذ سنوات لأنه عبر عن رفضه للفكر الصهيونى. أما الأم سارة بنحاس فإنها وقد سيطرت عليها أساطيرها الدينية تتقبل ببرود، نظنه مرضيا ، مقتل ابنها على يد نبى حركتها مائير باعتباره، أى ابنها ، كان ثمرة فاسدة يجب استئصالها.

وإذا كان نموذج سارة ومائير وجدعون هو الأعلى صوتا والأقوى تأثيرا فى المجتمع الإسرائيلى، فإن هناك نموذجا آخر يزعم سعد الله ونوس أنه موجود، وإن صعب تمييزه، وهو نموذج دكتور أبراهام منوحين. إن د. منوحين يربأ بنفسه عن استخراج النصوص الدينية من سياقها لتغذية نزعات عنصرية مريضة كما تفعل سارة وأمثالها ، وإنما هو يرى فى النص الدينى نبعا للحكمة ودافعا للتأمل. وقد أمده ذلك بالإضافة إلى ما أسماه ولاءه للعدالة بقوة روحية ساعدته أن يكون يهوديا ومعاديا للصهيونية فى وقت واحد. لقد رأى د. منوحين ببصيرته أن الرب لا يمكن أن يكون بهذه الصورة التى يروج لها الصهاينة، كما وردت على لسان إسماعيل .. «يصطفى العنصرى.. وتشغفه المضارية على الشعوب والأراضى .. وتلذه رؤية المجازر».

ماذا عن المستقبل؟

كانت «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» هى أول عمل مسرحى يكتبه ونوس فى إطار مسرح التسييس طامحا إلى إنجاز ما أسماه «الكلمة الفعل» وهى تلك التى «يتلازم ويندغم فى سياقها، حلم الثورة وفعل الثورة معا». كان الموضوع بالطبع هو هزيمة ١٩٦٧، أما الهاجس الرئيسى للنص فقد كان محاولة كشف وتعرية أوجه الخلل التى استشرت فى المجتمع العربى والتى أدت إلى تلك الهزيمة القاسية.

أما فى مسرحية «الاغتصاب»، التى كتبت بعد ما يزيد عن عشرين عاما من الهزيمة ومن كتابة «حفلة سمر..»، فإن ونوس يتناول مرة أخرى الصراع العربى الإسرائيلى ولكن بشكل أكثر درامية وتعقيدا، وهذا على كل حال يتفق مع ما طرأ على وقائع الصراع من تعقيدات وتحولات. لم تعد إسرائيل، كما كانت قبل حرب الأيام الستة، مجرد دولة دخيلة على المنطقة تتربص بالعرب وتحاول اقتلاعهم من أراضيهم. لقد أصبحت إسرائيل الدولة واقعا جغرافيا وسياسيا واقتصاديا يبدو وكأنه لا إمكانية للقضاء عليه. إن إسرائيل فى «الاغتصاب» هى كيان عنصرى توسعى ، قد لا يمكن إزالته، لكن من



مسرح

الضرورى ترويضه ومقاومة عنصريته وميوله التوسعية، وذلك يستدعى محاولة الغوص داخل المجتمع الإسرائيلى وبذل الجهد لفهمه ، وكما رأينا فإن ونوس يحاول فى هذا العمل المسرحى تلمس بعض النماذج الإنسانية التى تختلف عن الصورة النمطية للعدو الإسرائيلى. وهذه بدون شك، مغامرة!.

فى الفصل الختامى «سفر الخاتمة» ومن خلال ما أسماه ونوس حوارا محتملا بينه وبين د. أبراهام منوحين يعلن ونوس تأكده من وجود شخصية نزيهة مثل هذه الشخصية ويؤكد فى الوقت ذاته على تعدد الحواجز التى كان عليه أن يتخطاها حتى يستطيع أن يميز تلك الشخصية ويقدمها «.. الريبة التاريخية التى تمنع الاعتراف بوجودك. والغوغائية السياسية التى تحول دون تمييزك، وخوف المهزوم من الخديعة، وبرزخ الضحايا والجراح، وفوق هذا مكائد الشرطة وصائدى الجواسيس».

إن ونوس يخاطب فى د. منوحين المثقف الإسرائيلى ويطالبه أن يكون الرائد الذى لا يكذب أهله فينبههم «أن الدروب التى يسلكونها خطيرة، وأن الصهيونية التى يستهدون بها ورطة».

ولكن هل يمكن حقا أن يخرج من المجتمع الإسرائيلى شخصيات تحاول أن تفضح قسوته وعنصريته كما فعلت راحيل أرملة إسحق التى يحثها د. منوحين على نشر ما جرى خارج إسرائيل قائلا: «لن نتواطأ معهم، ولن نسمح لهم بمصادرة المستقبل».

هل يمكن حقا أن يخرج من داخل المجتمع الإسرائيلى، الذى يتبنى الكراهية المطلقة تجاه العرب، من يعمل من أجل دولة مثل تلك التى عناها إسماعيل وهو يخاطب مائير قائلاً : «.. دولة كريمة تتسع لى ولك. دولة حقوقنا فيها متساوية. وحرياتنا مكفولة». إن إسماعيل نفسه، صاحب الحلم، يدرك فى اللحظات الأخيرة من حياته استحالة تحقيق ذلك الحلم، فيقول لمائير: «حقاً لا فائدة .. ستكون هناك حروب، تتلوها حروب، وستسفك دماء كثيرة حتى يحسم الصراع».

★★★

وكأنما كان ونوس يتنبأ بما يحدث الآن فى المنطقة، والدماء الفلسطينية الطاهرة التى تسيل فى الأرض المحتلة احتجاجاً على محاولات الحسم الظالمة التى تتبنى العنف أسلوباً لها!

★★★

يبدأ ظهور شخصيات الحكاية الإسرائيلية ، فيما يسميه المؤلف ترتيلة الافتتاح، على خلفية من أصوات انفجارات يقوم بها اليهود لنسف البيوت العربية، وسارة بنحاس تعلن عن إسرائيل التوراتية: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان، من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربى يكون تخمكم» تستمر الدعوة إلى العنف على ألسنة سارة وموشى ومائير الذى ينتهى به المشهد قائلاً : «عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التى سوف نبنى حضارتنا على

أنقاضها». هكذا بنى مائير ورفاقه دولتهم على أشلاء العرب أصحاب الأرض، ولا زالوا يتبنون أسلوب العنف في مواجهتهم. يقول مائير عندما يسمع عن أعمال احتجاجية فلسطينية: «.. لا حل إلا بالاستيطان المكثف والترويع.. علينا أن نضغط ونضغط حتى نجبرهم على الرحيل».

ولكن ألا يفهمون! أن العنف الإسرائيلي الذي بدأ على الأرض العربية حتى قبل أن تعلن الدولة العبرية قد دفع الآلاف من الفلسطينيين إلى الفرار من أراضيهم حينئذ، إلا أنه وبعد أكثر من خمسين عاما على قيام الدولة، لم ولن يؤدي إلى فرض أمر واقع مستقر يقبل فيه الفلسطينيون بوجود إسرائيل بشكلها الحالي!

ماذا علينا أن نفعل؟

لكن الحلم الفلسطيني بوطن حر مستقل لا يتطلب فقط تغييرا على الضفة الأخرى، وإنما يتطلب أيضا وأولا تغييرا داخليا في المجتمع الفلسطيني والمجتمع العربي ككل، على مستوى الأفراد والحكومات. يقول ونوس مخاطبا د. منوحين: «إن الورطة على ضفتنا معقدة. وإن الخروج منها يقتضي نضالا مركبا وصعبا». إنه نضال الأفراد ضد أهوائهم ومصالحهم الشخصية الصغيرة وأيضا نضال الأنظمة ضد ميلها المتوارث إلى مع معارضيها بالقمع.

والنماذج السلبية في الاغتصاب متعددة. هناك مثلاً حسين الصفدي الفدائي الشهيد الذي أثمرت قسوته على ابنه البكر محمد ضعفاً في شخصيته جعله يرفض الانضمام إلى المقاومة ويكتفي بالبحث عن وسيلة لجمع الشمل على زوجته حتى لو كانت العمل في إسرائيل. وهناك أبو قحطان متعهد العمل الذي يراوغ في دفع المستحقات المالية لمواطنيه، فكأنما يدفعهم دفعاً للعمل في إسرائيل.

أما الشعوب العربية فإن عليها ألا تكتفي بالكلمات. فإن الذين يواجهون طلقات الرصاص لن تفيدهم الأناشيد، لكن «بعض الدم والطحين» قد يعزز قدرتهم على الصمود والمقاومة!

فإذا نجحنا كأفراد وكأنظمة حاكمة في هذا النضال، فإننا سنستطيع مواجهة من أسماهم ونوس «بعض امتدادات الصهيونية في الوطن العربي».

★★★

إن حنظلة بعد انتقاله من حال الغفلة إلى حال اليقظة قد بدأ رحلة جديدة سلاحه فيها هو وعيه بما يدور حوله وهدفه هو المشاركة في صنع مصيره. وهو بالتدريج يدرك أن مصيره مرتبط بمصائر مواطنيه في كل البلاد العربية، وأن الصهيونية وامتداداتها في الوطن العربي هي الخطر الحقيقي الذي يتربص به وبمستقبل المنطقة كلها. وذلك يلقي عليه مسئوليات جسيمة عليه أن يتحملها. ونحن لا نملك إلا أن نقول له ما قاله سعد الله ونوس في سياق آخر:

«نحن محكومون بالأمل. وما يحدث لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ». ■

قصة قصيرة

في بهو الفندق العريق

بقلم : د. فهمي عبد السلام

بريشة : سميحة حسنين

(١)

كل شيء حوله كان مصقولاً ولامعاً ، المشايات الحمراء الوثيرة، أعمدة النحاس اللامع التي تربط المشايات، الخشب الذي يغلف الجدران بلون البن المحروق ، الثريات الكريستال الفاخرة اللاتي يتدلين من السقف العالي ويبعثن الأضواء الصفراء التي راحت تنعكس من كل شيء فتبعث بريقاً ذهبياً ساحراً ، جلس في المكان المعتاد في بهو الفندق يتململ كالعادة كلما انتظرها.

كانت جلسته إلى جوار النافذة الضخمة، ومن خلال الستارة المخملية الأرجوانية كان بمقدوره أن يرى صفحة النيل الرمادية الداكنة، والسماء الحبلى بغيوم لنهار احترق ومات، وراحت قطرات المطر تسقط في بطء على النافذة ، وفوق صفحة النيل الرمادية المهيبة، حلق طائران بالقرب من الماء.

كان كل شيء حوله يشي بهجران وشيك ، البهو الواسع الخالي من الزبائن، الغروب الحزين ، البيانو الضخم الجميل في أقصى القاعة ، الجرسونات بستراتهم القرمزية وهم يسيرون بهدوء كي لايحدثوا جلبة، والنغمات التي إنسابت من البيانو والعازف الكهل القابع خلف البيانو، ونغمات أغنية مائدة وحيدة لشخص واحد. لم يكن في البهو الواسع سواه ، إلا مائدة بعيدة، جلس عليها رجل وإمرأة ، كانا من بقايا الجاليات الأجنبية المنقرضة التي لم يكن ليخطئها ، كان الرجل يرتدي معطفاً وثيرا ، وكان كل شيء به مهندما، أنيقا ، المعطف الفاخر رباط العنق الأحمر الشعر الفضي المصفف بعناية، ولم تكن المرأة تقل عنه أناقة بشعرها الرمادي الجميل وبثيابها الفاخرة الأنيقة، وحينما راح يضيع الوقت وملل الانتظار بمراقبتهما، اكتشف أن الرجل والمرأة كانا في حالة هيام لاتتناسب مع عمريهما، يتهامسان



ويمسكان أيديهما، ويميل عليها وتميل عليه، أعجبته هذه الحالة الرومانسية التى لم يتمكن الزمن من هزيمتها..

لماذا يبعث حبها فى قلبه كل هذه الكآبة ، هكذا سأل نفسه وهو يتذكر محاولاتها المضنية كى تتجاوز أصولها الطبقية ، حينما دعاها على الغذاء فى مطعم «بابريكا» أصرت على أن تستخدم الشوكة والسكين وهى تقطع الخبز، محاولاتها المستميتة للعمل كموظفة بالجامعة الأمريكية ، تذكر وجهها الجميل المؤلم الذى عصف به منذ عدة شهور، ولم يستطع أن يخرج من إساره حتى الآن، كان يستطيع استعادة ملامح الوجه الجميل من الذاكرة الذى حفظ تفاصيله عن ظهر قلب، الأنف الصغير المترفع، الوجنات المرتفعة قليلاً لتضفى سحراً إضافياً على العينين السوداوين الرائعتين، ألق العينين كأنه قمر كامل يسبح فى بحر عميق من السواد، البشرة النضرة وكأنها فاكهة صيفية، والصوت المبحوح العميق

الذى يوقف الدم فى العروق... كل هذا الجمال عصف به ذات مرة وإلى الأبد.

(٢)

نغمات البيانو تصدح فى البهو وكأنها بللورات فضية، صاحبة الوجه القاتل تجلس أمامه وقد تألق جمالها وتوهج تحت الأضواء الصفراء ، ألقت بإعتذار واهن عن تأخرها وجلست واجمة وراحت تدخن سيجارة، وراح يراقب إصبع يدها الصغير اللطيف

- «بصى على الراجل والست إللى قاعدين هناك دول .. شوفى هايمنين علي الآخر إزاى، كبار فى السن بس عايشين حاجة جميلة قوى»..

نظرت بعدم اهتمام وأردف هو:

- حاجة جميلة إن الإنسان يحب الحياة ويتعلق بيها.

أشاحت بوجهها ، وأدرك أن الكلام ليس على هواها، وتجمد وجهها الجميل وتمنى أن يعرف ماذا يدور فى رأسها ، وأن ينزع عنها هذا القناع القاسى ، وتذكر أنها طيلة



علاقتهما كانت حريصة على أن تقدم له هذا القناع القاسى الأليم.

كان عازف البيانو يعزف موسيقى أضواء المسرح عزفاً بارعاً ، وراح يحدثها عن هذه المقطوعة الحزينة الوحيدة التى ألفها شارلى شابلن ، وقال لها إن شابلن كان فناناً حزيناً ، وإن شابلن جاع وتشرد، ورأى أمه بعينيه وهم يأخذونها إلى مستشفى المجانين ، وقد فقدت عقلها بسبب الجوع والبؤس!

لم تعلق سوى بكلمة آه.. وشعر بأنه يثرثر بكلام فارغ ، وشعر بالحيرة فماذا يقول لها. أقلقه صمتها الطويل الذى ينذر بهجران وشيك لا طاقة له به، وراح يقلب لها الشاى وهو يتمنى أن يعرف ماذا يدور داخل رأسها ، وأفاق من شروده القلق على صوتها المبحوح العميق وهى تقول:

- أنا سمعت أنك ملحد ؟!

هكذا باغتته وهو يقدم لها الشاى، وضحك ضحكة بلا معنى ، فأردفت:

- الكلام ده صحيح ولا لأ .. أنا رايحة التواليت !

ألقت بقذيفتها وراح يراقبها وهى تسير، الوسط النحيل، والجسد الجميل والمشية الواثقة التى تفيض سحرا وأنوثة ولا علاقة لها بإيمان أو بإلحاد ، وروج وبودرة ومساحيق وجه وبارفانات وعلى سنجة عشرة وجامعة أمريكية وفى الآخر استجواب عن التدين، ماذا يقول لها، منذ عدة أسابيع حينما حومت حول هذا الموضوع ، تحداها أن يتزوجها وأن يعيشا معاً فى منزله الريفى الذى ورثه عن أبويه، وأن يهجرا القاهرة ، وأن يفتتح عيادة شعبية وأن يهبا حياتهما لعلاج الفلاحين الفقراء فأصيبت بالهلع ، تسأله الآن عن الإيمان ، بالجامعة الأمريكية وبمس حمامصى تريد أن تنكر أدغال السيدة زينب والبيت الذى

تهدم من القدم، وشقتهم البائسة فى شارع فيصل بين الترع والمزارع ، وتذكر مساومات أمها له أنهم لن يساهموا فى أى شىء وأن زوجها السابق كان وغداً وأكل كل حقوقهما، وتذكر شقيقها الأكبر وقد غاب عن الوجود وهو يأكل عصير المانجو بالمعلقة زهاء نصف ساعة .

— ٣ —

عادت إلى مقعدها ، وكانت قد وضعت البودرة والمساحيق، فتألق جمالها وتوهج وشعر بألم ممض فى صدره وهى تسدد له نظرة ثاقبة جامدة ، ماذا يقول لها الآن، هل يقول لها أن كل ما تقوله عن إيمانه أم إلحاده ماهى إلا حجج فارغة ومحض هراء وأن المشكلة بينهما هى رغبتها أن يصارح أهله بأنه سيتزوج من مطلقة ،وأنه قال لها أنه سيخفى هذه المسألة وسيجعل أهله يعرفون فى الوقت المناسب، وأنه بعد موت أمه وأبيه ليس لأحد سلطان عليه ، لم يشأ أن يقول شيئا من هذا ، وشعر بإبتذال أفكاره وبذاءة كل هذا الإلتواء.

فجأة إذا بإمرأة تقتحم البهو ، إمرأة من نفس الجالية الأجنبية المنقرضة التى لم يكن ليخطئها ، وفى خطوات سريعة كانت قد وصلت إلى المرأة والرجل المتقدمين فى العمر ، وإذا بالقادمة الجديدة تهب كالإعصار وتنهال على الرجل والمرأة باللكمات والصفعات وتخلع حذاءها وتنهال به على المرأة ، صراخ عنيف وهياج وبكاء هيسترى .

راحت المرأة القادمة تصرخ وتردد:

أختى مع زوجى أختى مع زوجى أختى مع زوجى!

خلال ثوان كان البهو الصامت قد ساده الهرج والمرج وامتلأ بالجرسونات ورجال الأمن وتم التحجيز بين المرأة والعاشقين.

— ٤ —

– أصل الدنيا ما بقاش فيها إسلام.. لو فيه إسلام ماكنتش حاجة رديئة زى دى حصلت ..

شعر فى نبرتها بأنها تتشفى فيه، وفى تقديره الخاطىء لغرام الشيوخ ، الذى أسفر عن مأساة أخلاقية فاجعة.

زفر زفرة حارة على هذا التباكى على الإسلام ، وتذكر رئيسها الشاب وهو يرمقه فى تعال جدير بمستر فى الجامعة الأمريكية ، ويقول «How do you do» ، هل هذا يندرج تحت بند السنة أم الفروض ، هل يقول لها إنه مر بفترة قلعة داهمتة ولازالت تمزقه هل يقول لها عن رأى الدين فى تطلعاتها ، هل يدافع عن إيمانه.. ، لبث صامتاً وقد أدرك أن هذا اللقاء سيكون آخر عهده بها.

— ٥ —

سنوات عديدة والوجه الجميل القاسى لايفارق مخيلته، وكان يهنىء نفسه أنه مر أربعين يوما وهو يجاهد الحنين الذى يجرفه إليها ، تركته وقد تركت فى قلبه جرحاً لم يندمل ، وعندما ترامى إليه أنها طلقت بسبب الخيانة الزوجية ، وأنها إستعادت زوجها نفسه بعد ثلاثة أيام من واقعة الخيانة راح يتذكر الحنين الذى كاد أن يجرفه. ■


التصوف والحب لله
بقلم
حسن سليمان

فسيان عندي البعد والقرب والنوي
وما هابني قبضي ولا أبتغي بسطا
(الحسن الشوشترى)

«أنا عارف أعمالك، أنك لست بارداً ولا حاراً.
ليتك كنت بارداً أو حاراً.
هكذا لأنك فاتر، ولست بارداً ولا حاراً.
أنا مزمع أن أتقيأك من فمي
(الرؤية الثانية - الاصحاح الثالث - آية ١٥ الإنجيل)

قالت: أنا أعرف كل شيء.

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، فلا يعرف التصوف إلا من عرف الحب، ولا يعرف الحب إنسان جبان، يريد ألا يخسر دنياه فيخسر آخرته، إن الأمر ينتهى به المطاف دائماً مع التصوف إلى المحبة، ولابد أن تحتل فكرة الحب مكان الرغبة، ولا رهبة مع الله ، فالمحبة الآلهية هى أبرز ظواهر العبادة فليس الحنين فقط أو الخوف دعامة للعبادة.

قالت: أنا أعرف هذا..

قلت لها : وهل تفهمينه؟ هل سمعت عن زين العابدين بن على بن الحسين اذ قال عن الصوفيين: «القوم إن عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، والآخرون إن عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، لكن يوجد قوم يعبدون الله شكراً، وتلك عبادة الأحرار».

كان ابن مسلمة يكره أن يقول: «اللهم اعتقنى من النار»، فانما يعتق من النار من رجى الثواب من الله أو يقول: «تصدق على بالجنة» فالله يتصدق بالجنة على من يريدها.

إنه الحب ياسيدتى اذ تصير معرفة الله تعالى هى الغاية، تقوم على أساس الفناء فيه أول الأمر. ووصف «حبيب بن عامر الثابت» المتصوف بأنه: «الصابر فى ذات الله المحبوب». وهذا يدل دلالة واضحة على فكرة الحب والفناء فى الذات الآلهية، فمع محبة الله تعالى يكون احتمال الأذى ومهما عظم من المحب حباً صافياً، لأنه جزء من احتمال الأذى من الله تعالى، واحتمال ذلك هو الاتصال بين الخالق والمخلوق.

قالت : أنا لم أفهم شيئاً؟ كيف أربط بين الخالق والمخلوق فى آن واحد؟

قلت لها: أنت لا تفهمين شيئاً

إن الأمر مع الصوفى يحمله على نُشدان الحقيقة خارج حدود العقل المحدود، والتحرى عنه فى عالم القلب اللامحدود.

قالت : أنا لا أفهم بالضبط سوى أن



التصوف والحب

المتصوف هو الذى يرتدى الملابس الصوفية البيضاء، ويعبد الله، ويقوم بالذكر، ويتمم التمارين الروحية، ويقول الورد.

قلت لها: لازلت لا تعرفين شيئاً، إن التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم يشغلك ، وأول فرض فرضه الله على خلقه هو المعرفة، والمعرفة عند الصوفيين لا تدرك إلا بالبصيرة، وهذا يأتى بعد تمارين طويلة مجهدة للذات البشرية، إنها وليدة الالهام، إنها الابصار بلا إحاطة، دون ادراك نهاية له، ولاقيمة لما هو فيه من حزن أو خوف أو فقر أو صبر أو جوع. إن «السقطى» المتصوف وصل به الحال أن يسكر من حب الله فلا يضيق إلا إذا حس باتحاده معه.

قالت : وكيف أتحد معه ؟

قلت لها : أنه يختلف من صوفى لآخر، وهو لا يبوح به، فان باح ضلّ.

قالت : إنى أعرف أن الصوفيين متشابهون.

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، إن التصوف مدارس متعددة هى بمثابة شعب لأصل واحد، أصل واحد تزدهر فيه نزعة المحبة، ولا تصوف دون حب، يجب أن تعرفى الحب أولاً، ومن عرف الحب عرف ربه. «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه».

قالت : قد أفهم هذا، فهمت بعض الشىء، لكن من هم حتى نحبهم؟

قلت لها: إنهم قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها بينهم، وجوههم نور وهم على منابر، لايخافون إن خاف الناس ولا يحزنون إن حزن الناس.

وأنت تخافين وتحزنين.

قالت : كيف عرفت ؟

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئا، هل وقفت بسرائرك بين يدى الله ؟

قالت : وهل يجب أن أرتدى الصوف الأبيض كى أكون صوفية؟

ضحكت وأجبت: أنت لا تعرفين شيئاً، إنما لُقبوا بالصوفيين لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُفة، الذين كانوا فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . إن التصوف قديم قدم الانسان ، والأديان جميعها عرفته فى مختلف حياة البشر الروحية، إن كل انسان يحمل فى ذاته نواة التصوف، لا تحتاج هذه النواة إلا لمن يتعهدها ويسهر عليها، قال «برجسون»: «إن كل انسان له شخصية صوفية تحتاج لمن يوقظها من ثُباتها» . وحالة التصوف لا تولد أو تنشأ تحت تأثير عوامل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، إنها ظاهرة نفسية خاصة، فما الذى دفع «نظير بن أدهم» أو «السرى السقطى» أو «المحاسبى» إلى التصوف، أهى الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه؟.

لقد كان الأول من كبار الملوك، وكان الثانى من كبار التجار، وكان الثالث من أثرياء الملاك، لكن تخلى كل واحد منهم عن الجاه والمال مفضلاً وجه الله، وحياة خالية من المجاهد مجردة من المفاتن.

قالت : لماذا تصر على الحب؟

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، يقول «الحلاج» : «ذات الله هى الحب»، أنه يردد ما ذهب إليه القدامى فى نظرية الحب لقد كانت غاية الحب القصوى عند أفلاطون هى الاتصال بالله، وهذا بالضبط ما ذهب إليه المتصوفة فى أقوالهم وأفعالهم، هل تعلمين أن من تجربتى، وأنا فى هذه السن أدركت ألا حب لإمرأة إلا اذا كانت مثقفة جداً؟ هل تعرفين أن الحب له ارتباط بالمعرفة؟ هكذا ربط المتصوفون الحب بالمعرفة، لكن «أفلاطون» كان أدق للحب إذ جعل له مراتب ومنازل، وكذلك كان شأن المتصوفة حينما هددوا منازل الحب الإلهى، ولافرق بين الحب الإلهى والحب الصادق لانصهار رجل وامرأة دون منفعة ذاتية، إنها مثلما قال «ابن حنبل» «ارادة حرة غير مشروطة، ولا تدخل للأب أو وصاية».

إن الحب يجب أن يكون متحرراً من طغيان المنافع، وما يؤكد هذا عرفه «الجنيد» الصوفى الكبير بأن المحبة هى ميل القلوب، إذ لا محبة لله إلا بعد أن يعرف المرء ميل قلبه لطرف آخر فى سموه، وهكذا ياسيدتى فعليك توجيه قلبك لله من غير تكلف. إن مشكلتك الحقيقية هى التكلف؟

قالت: كيف عرفت ؟

قلت لها : أنت لا تعرفين شيئاً، فهل سمعت عن «عبدالله القرشى» الصوفى؟ إن حقيقة الحب أن تهبى كلك لمن أحببت فلا يبقى منك شيئاً، هل ملكت القدرة كى تهبى جزءا حتى منك لمن أحببت؟ هل سمعت عن شيخ يدعى «الشبلى» الذى وصف المحبة بأنها تمحو من القلب كل شىء إلا المحبوب. هل انمحت منك نزعتك إلى التفاخر أو التظاهر؟ أو انقشعت عن نفسك رغبتك الدائمة لنيل إعجاب المحيطين؟

قالت : إنك هكذا خرجت عن الموضوع، فلم أعد أفهم شيئاً، إننا نتحدث عن التصوف.

قلت لها: إنه التصوف ، فالحب والتصوف وجهان لعملة واحدة، فلهما ارتباط بالباطن.. لقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «سألت الله عز وجل عن علم الباطن، فقال: «هو سر من أسرارى أجعله فى قلب عبدى، لا يقف عليه أحد من خلقى». وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه أحد إلا أهل المعرفة بالله».

سيدتى .. إن من يعرفون الله لا تعرفينهم، ويجب ألا يعرفهم أحد، فمن أباح ضلّ. أرددها دائماً. لماذا تحاولين دائماً أن تسترعى الانتباه إلى أنك صوفية؟ إن الصوفية أجلّ من أن تسمى وأدق من أن توصف، إنما هى كامنة



التصوف والحب

كمون النار في الحجر، إن قدحتيه أورى، وإن تركتيه توارى. هل فهمت الآن ؟

قالت : إنى أحب.

قلت لهـا : الحب وليـد التـصـورات المجنحـة، تغـذيه أحـلام قلمـا تتـحـقق أنه بفـضل هذه الإيهـلام يسـتـمـر ويحـيـا، لا ينتـهى كـوجـبـة «السـاندوتش» فـمـا الذى فعلتيه كى يتحقق وصالك؟

هل يعنى الحب عندك إمـا أن تمتلكى وإلا فلا؟

إنك لا تـعـرفين شـيـئـاً. الحب يعـرف بالحياة، ولا يعلمه الآخرون لنا، إننا يجب أن نعـرفـه بأنفـسنا، فـقط إنهـا الخبـرة والوفاء فى طريق الحب هما اللتان تنمياه، الوفـاء والإخلاص للمـحـبوب مـهـمـاً حـدث منه. أوهئ ولك أنه حدث منه تعفين عنه.

إنك لم تصلى بعـد إلى الســرائر، فحياة المحب يجب أن تبقى مغلقة ما بقيت طلاسم الحب مغلقة، يجب أن تبقى ساوية فى معبد لا منافذ له، إننا نترك هذا المعبد وبنا ضـراعـة وورع، وفى مـحـرابه نصلى، ولا نبـالى من أى أحـد مـهـمـاً قـرب منا الوعـيـد، إنك لم تركـعى أبداً فى هيكله، فالمرأة أعجز من أن تركع فى هيكله. وإن انقشع كل شىء أمام بصيرتها تخشى توهج النور فتـهـرب، تفـر دائمـاً من تذوق معنى الحياة كاملاً.

إن تذوق الحيـاة هو سبيل الاشـراق، والاشـراق سـبـيل الكشف، ومن الكشف ندعو الله الهداية.

قالت : من قال لك هذا؟

قلت لها : هذه الدنيا وما ملكت بيديك لابد أن تكون نشوة حب يموج بها القلب، لكنك مملوءة بأن ترنى للعالم بمرآة ذاتك، وتحاولين أن تحلقى وريشك لم ينبت بعد.

فى أعماقنا طاقة كامنة تنمو وتزدهر مع الحب والحب هو اللغز الموجه لأفكارنا، والحافز الخفى لمشاعرنا، ودونه نعيش فى تابوت هذه الطاقة. فلا هواء ولا سماء ولا أفق.

حينئذ فهو السجن خوفاً من الحرية، وهو القيد خوفاً من الانطلاق، إننا نفرض على ذاتنا هذا المصير الأليم لتأثير عاملين عـامل فـردى ينجم عن عـجـز الانسـان، وعامل اجتماعى ينشأ من تحقيق التناغم بينه وبين المجتمع. وبعد ذلك يأتى تحقيق التناغم بين فـرد وآخـر. إن حـيـاة الفنان الحقيقى ترتكز على هذه الركيزة، والفن هو رسـالة قلب يخـفق بالحب. وأخـيـراً ياسيدتى أقول عن المعرفة أن لها صلة وثيقة بما يجيش فى أعماق صدر الانسان من همس نجوى وبث شكوى، وقد كـانت الدافع الرئيسى لما يسمى بالشعر الغزلى الصوفى وغير الصوفى من شعر أصيل يمتلك رموزاً وأبعاداً تذهب بالانسان فى رحلة من الذهاب والإياب أى فى رحلة من نشوة صوفية، إنه دون هذا الحس المتدفق

الصوفى لدى الفنان تجعله واقفاً لا رائد له، تتقاذفه الأهواء المتضاربة والنزوات المتباينة يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ليجد نوراً يهتدى به فلا يجد أمامه غير الظلمة المطبقة التى تتقاذفه من يأس إلى يأس لا خير فيه ، أو توقعه فى ثُبات لا نفع معه، وفى غمرة تلك الحلكة للمثقف تتوقف دروب الحضارة، وتتعطل مدارك الفكرة، لأن القوة المبدعة فى ذات الانسان تنكمش ثم تنكمش بينما يجب أن يكون لمدارك الفكر طريقاً آخر ليضفى نوراً على النور الكامن لدى بقية البشر مفجراً إياه.

إن كلامى هذا بمثابة تحذير وتخويف من أن يفقد المجتمع الانسجام كما فقد الاتزان بتسخير الفكر لخدمة مصلحة مادية مجردة أى تسييس الفكر نفسه، فهو يجب أن يكون لمصلحة مثالية مطلقة، فالفكر إن وضع فى خدمة النفعية التى تمليها الانانية لا هم له فى الحياة إلا تأمين أغراض الفنان المادية، هكذا يضيع الانسان بذلك دون أمل له فوق الأرض أو رجاء له فى السماء.

إن الفكر المبدع الخلاق لا مكان له ولا وجود الآن، بل الذى نجده هو الفكر المبتذل الرخيص الذى لا رسالة تاريخية له، ولا مهمة انسانية ملقاة على عاتقه، انه لا أكثر ولا أقل من نتاج انسان يلهو بالزمن ولا ينظر إلى الحياة نظرة حقيقية خالدة، أبدية الازدهار.

الابداع الحقيقى هو المعول الهدام لذلك الطابع النفعى الذى وقع فيه وتحت وطأته كل المثقفين المصريين، ونحن الآن فى غمرة حالكة حافلة بالخيبة الزاخرة بالقنوط، فيها يرتد الانسان مكتئباً إلى عالمه الذاتى متحرياً عن مثله الأعلى فى عالم الذات، فيلف حول نفسه ويدور دون الوصول لشىء، إذ أنه فقد المثل الأصيل الذى يتمثل عنده فى الحب خارج وجوده الذاتى، فنجده يرتد ليتأمل ثانية نفسه متأزماً أو كاذباً عليها ليجد مخرجاً من هذه الحلقة المفزعة حتى إن لاح له ضياء يهتدى به إلي الحب الحقيقى ليعرف الانسان كيف يسير على هداه يفقده لينكمش ثانية على ذاته مكتئباً يائساً من كل شىء. إن العزلة الاختيارية ليست انطواءً، إنها وسيلة لكى تعرف النفس وجودها، وكل ما انطوى على هذا الوجود من خير وحقيقة وجمال، حتى لا تصبح المثل العليا حقيقة خارجة عنه، بل حقيقة داخله هو ، رغم أنه فى ذات الوجود المترامى اللا متناهى يجد نفسه متكاملاً، ولا تكامل إلا بمثل هذا الحب حتى يحصل على ضالته المنشودة، فلا يتبرم من شىء، ولا يضجر من شىء، ذلك لأن الحياة تنطوى أمامه على أفق ذاتى، وعلى اضفاء نور الحقيقة الذى بداخله على هذا الأفق ليشع ويزدهر، فكل شىء فى الحياة يصبح خليقاً بأن يُحب مادمت قد أنكرت الأنا (فى ذاتك) حتى تؤتى بالقدرة المبدعة، وتظل مثل هذه القوى فى اضطراب يدفعها ونور يتجدد من الأعماق فقط مع الحب، هل يمكن أن يكون هناك رائد بجسد الانسان غير قلبه؟

الانسان يؤمن بالحياة لأنه يؤمن بنفسه، هذه النفس التى هى أسمى شىء فى الوجود، إنها الحقيقة أكيدة تتجلىّ لنا



التصوف والحب

متى تجلت أنفسنا، ومتى تجلّت هذه الحقيقة عرف الانسان كيف ينثر الخير، ويبعث الجمال، ويضفي على الوجود الحب.

«وهكذا فإن الحب البشرى هو البرزخ الوجودى للحب الآلهى».

خطاب إلى سيدة صوفية:

سيدتى ..

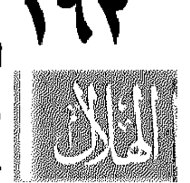
لازالت الدنيا تستثيرك، ولن تكونى صوفية لو ظل الأمر هكذا، لكننى أنصحك حين تصحبى أحداً، فعليك أن تختاريه أميناً، غيوراً عليك وعلى دينك، فإن الأمين يحملك إلى الصدق، ولا تخاصمى صديقاً لانتهاء ما بينكما من نفع، لأن نفسك ليست ملكاً لك، هى ملك لخالقها، دعيه يحركها كيفما يشاء، واستغفريه كثيراً، عسى أن يغفر لك، ولا تنس أن الاستغفار فى الأسحار هو أعلى مراتب العبادة، يكون حقيقياً حين يحس العبد تقصيره فى جميع أفعاله فيستغفر منها.

أما الطمأنينة إلى الآخرين دون تمييز فهى عجز وتواكل ليست توكلاً كما تدّعين، لأن المتوكل هو الذى يرضى بحكم الله فيه، والأمر عندك ليس هكذا.

لقد وجهتك كثيراً، لكنك لم تفهمى، كان لابد. أن تتحلى نفسك بالصفاء، وسريرتك بالنقاء المتجدد، لكننى كنت مخطئاً فى حسن ظنى بك، لأنه شرطاً كى يكون الفرد صافياً أن تكون أفعاله كلها خالية من الرياء، خالية من السعى نحو تحقيق المنافع الذاتية، وهذا ما لم تحاولى سماعه لمرة واحدة من نصحى لك . ربما كان علىّ أن أُذكرك مراراً بأن المحبة تبدأ من القبول، وأن المحب هو الذى يؤثر محبوبه على كل شىء، وعلى المرء أن يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من والديه، لأن أبويه هما سبب وجوده الفانى، أما معلمه فهو سبب وجوده الباقى.

فإن تهيأت مشاعرك فى شكل ما ، وأحببت أحداً فى الله، فلا تبالى متى يكون اللقاء.

وتذكرى دائماً أنه حين يعفو المرء يجب ألا يذكر خباية من عفى عنه خاصة اذا كان من عفى عنه هو من يحب فالحب وجد مقيم يصهر النفس البشرية لتشرق وتتألق بتلك الوحدة العميقة التى تؤلف بين ظاهر وباطن الوجود لتوحد بين المحبين، لأنه غاية تصبو إلى الجمال المطلق الأذلى الذى ينشد بضراعة الناسك وصفاء الورع، ومثل هذا الحب هو نزوع إلى جمال لا يتحقق لمسه، انه فى ذاته غاية تتطلب من صاحبها الفناء فيها، وليس فى مقدور هذا الدرب من الجمال إلا بالتجلى والاشراق فيما يتوفر للانسان من صفاء غامض، يظهر فقط مع مثل هذا الحب، مع هذا تتحقق تجربة التوحد على أتم صورة، وأجمل شكل، ومع مثل هذا الحب يفيض



الجمال الباطنى للمحبوبة، الجمال الداخلى الذى يفيض على الشكل، ويصبح هو سر الجاذبية للطرف الآخر، إنه النقاء الذى تتحلى به النفس الشفافة.

فلا تكونى فاترة حين تعطى، لأن الحب تضحية من أجل العطاء، والمصلحة أنانية من أجل الأخذ، ولن تجتمع التضحية والمصلحة فى آن واحد. الحب ياسيدتى هو أسمى مراتب التوحد، ودونه لا يتم الابداع، فالابداع الحقيقى ينعكس من الفنان وإليه ويرتد إلى المتلقى، الحب كالفن يؤثر فى الذات والآخرين ، وبذلك يتحقق التجاوب.

هما بمثابة جفاف وارتواء، استكفاء ولا استكفاء، والشوق موجود ومتدفق، حتى وإن ضلّ أحد الطرفين، ولا يمكن التوحد مع الله نهائياً إلا بتوحد المرء مع آخر، ثم توحده مع الكون نفسه ، وأخيراً يتم توحده مع الله لتحقق غاية العبودية، وغاية الحرية الكاملة. فالذاكرون لله فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأنه لا ذكر إلا ذكره طوال الليل والنهار، وبهذا يكون المرء معصوماً من الخواطر الفاسدة، وحركات أهل الغفلة.

تذكرى دائماً ..

إن كل مصيبة تصيب الفرد هى بمثابة امتحان جديد له.

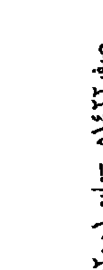
إن ما يهمنى أن أهتدى إلي الطريق المستقيم، قالت العرافة فى قدس الأقداس حينما سألها «سقراط» عن الحكمة أجابته: «إعرف نفسك أولاً» . ولم تخرج كلمات كثيرة من أساتذة التصوف عن مثل هذا المعنى اذ قالوا ما يفيد: إعرف نفسك لكى تعرف الله.

فهل تعرفين نفسك ؟؟. ■

فوائد

– في الصمت سبعة آلاف خير ، وقد اجتمع ذلك في سبع كلمات في كل منها ألف ، فالصمت عبادة من غير عناء وتعب ، وزينة من غير حلي ، وهيبة من غير سلطان ، وحصن من غير حائط ، والاستغناء عن الاعتذار لأحد ، والراحة ، وستر العيوب.

– سئل الاسكندر الأكبر عن أعدائه وأصدقائه قال: لقد استفدت من أعدائي أكثر مما انتفعت من أصدقائى .. لأن أعدائي كانوا يعيرونني ويكشفون لي عن عيوبى ، وبذلك اتنبه الى الخطأ فأستدرجه . أما أصدقائي فكانوا يزينون لى الخطأ ويشجعوننى عليه فاللهم احفظنى من أصدقائى

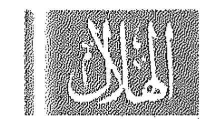


احتفالا بمائة عام على ميلاده



صوته الحلو الرنان يخفف الأشجان عنا

فى ١٣ مارس الماضى كان عيد ميلاد عبدالوهاب. قالوا مرت مائة عام على مولده بحساب أنه من مواليد ١٩٠١. لكن هذا تاريخ غير متيقن. وماذا يهم إن كان مولده منذ مائة عام أو ألف ؟. المهم أنه قد ولد وعاش وقدم فنا جميلا، بديعا، شجيا، مطربا لكل الأمة العربية، بل وكل أذن شرقية، ولكل شرائح الناس من المثقف والمتعلم و«القنزوح» إلى السائد والأمّى وابن البلد والفلاح والذى لا يجد قوت يومه. التاريخ المؤكد أن محمد عبدالوهاب رحل عن دنيانا يوم السبت ٤ مايو ١٩٩١، وهذا يعنى أنه قد مرت عشر سنوات على غيابه الجسدى، لكن فنه لم يغب عنا لحظة منذ أن أذاعوا خبر وفاته.







محمد عبدالوهاب

قابلت عبدالوهاب في حياته ثلاث أو أربع مرات، منها مرتان في مطلع عملي الصحفي عام ١٩٥٨ أو ١٩٥٩، قبل زواجه من السيدة نهلة القدسي، سجلت فيها جلسته مع الدكتور مصطفى محمود، الذي كان يعزف العود ويغني، وعبدالوهاب يتكلم ويتفلسف، وكلاهما يقول للآخر «الله الله الله» إعجابا. في تلك الجلسة كان عبدالوهاب متخليا عن تكلفه وحرصه الشديد على مظاهر الأناقة والتأنق، كان يأكل بيديه من طبق الفول - من دون وسوسة - على منضدة صغيرة في غرفة المعيشة بعيدا عن صالونات بيته ومناطقه الرسمية. أذكره في تلك الأمسية مرحا، ساخرا، متحررا من كل تحفظ في إبداء رأيه، حتى أنني حين قلت لا أحب صوت عبدالحليم حافظ لأنه «مطجن»، بدا سعيدا برأيي مقهقها لوصفي. بعد ذلك رأيته في مناسبة تقلده أحد أوسمة القطر السوري، في حفل أقامه له الصديق الراحل الأديب سامي الدروبي سفير سوريا في مصر عام ١٩٦٦ أو مطلع ١٩٦٧ - قبل هزيمة ٥ يونيه عام ١٩٦٧. وكان عبدالوهاب مبتسما مسروراً لكنه يلبس كل أدوات الدبلوماسية والرسمية وطقوس المراسم المحافظة والمتحفظة. في ذلك الحفل، الذي كان يغص بالمثقفين والأدباء والصحفيين ونجوم السلطة، كانت هناك السيدة أم كلثوم تقف في أحد الأركان مع ابن أختها ، وعندما اندفعت إليها بحب لأصافحها، كبستني كبسة سوداء، ولولا ثباتي لما مدت يدها إلى يدي الممدودة بالمصافحة ، وكان كل همي في ذلك الموقف المحرج أن أجد لنفسي انسحابا مشرفا من أمامها، وعندما هرعت إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين في مكان آخر في الحفل أحكي له ما حدث ، ضحك، سألته لماذا تضحك وأنا أكاد أموت غيظا من نفسي لأنني لولا جيشاني الفني لما وقعت في هذا المطب، فقال لي الفنان بهجت عثمان: «طبعا نضحك، حد يقرب من أم كلثوم يوم تكريم عبدالوهاب؟ تستاهلي!». بعد ذلك دعاني الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى منزله لأداوي جراحي في عشاء خاص أقامه على شرف أم كلثوم ودعا إليه محمد عبدالوهاب والأستاذ محمد حسنين هيكل والفنان بهجت عثمان، ولكن عقدتي من أم كلثوم كانت قد استحكمت ولم أقترب منها، بل أذكر أنني لم أنبسط في ذلك العشاء ولم أنطلق بالكلام والمرح كعادتي في بيت الأستاذ بهاء، وكانت صديقتي ديزي، زوجة الأستاذ بهاء، تروح وتجيء تسألني: مالك؟ فينك، لسه مكبوسة؟.. الذي أذكره أن عبدالوهاب ظل مرسوما، وظلت شخصيته الودودة المرحة والمشاغبة


سيد درويش


ام كلثوم


احمد بهاء الدين

ـ التى رأيتها فى جلسته مع مصطفى محمود عام ١٩٥٨ أو ١٩٥٩ ـ مختفية داخل الصدفة الاجتماعية الصلدة الجامدة، لا تظهر أبدا إلا حين يأمن صدق الصحبة والصحاب.

★★★

ولدت وعبدالوهاب نهر جار، إذا نظرت خلفى لا أحدد بداية وإذا نظرت أمامى وجدته ممتدا، وإذا نظرت حولى كان محيطا بى من كل جانب، جيلى بالذات ـ مواليد الثلاثينيات ـ هو الجيل الذى عرف وألم بكل أطوار عبدالوهاب وارتبطت معظم لحظات حياته بأغنية أو نشيد من أغنيات وأناشيد عبدالوهاب. إنه بالنسبة إلىّ موسيقار ومغنى القرن العشرين بحق. فى مرحلة ما قلنا سيد درويش، ورغم عظمة سيد درويش وتقديرى لأدواره الفذة «أنا عشقت» و«أنا هويت» و«منيتى عز اصطبارى»، وحبى لصوته الشجى الذى لا يظن الكثيرون أنه من الأصوات الجميلة، إلا أن عبدالوهاب شىء آخر. ولقد كان عبدالوهاب ذكيا فى أنه لم يتورط فى فخ حمل تراث سيد درويش على أكتافه، بمعنى أنه كان معجبا به، ويعرفه ويعطى أحيانا نماذج من أعماله يغنيها بصوته فى حوارات إذاعية ، لكنه لم يخضع للابتزاز بأنه من واجبه أن يخلد سيد درويش بصوته أو يحمل هم ومسئولية التعريف به والتنويه عنه. كان محمد عبدالوهاب مشغولا مائة فى المائة بمحمد عبدالوهاب . كان لديه مشروعه الموسيقى المختلف الذى نجح فى أن يحقق به المزج المتقن بين أصول النغم الشرقى ومحزاته المطربة، وبين اختياراته من الموسيقى الإنسانية العالمية: كلاسيكية ، وروسية، ويونانية وأرمنية، وتركية، ولاتينية، بلا أدنى إحساس للأذن بالترقيع والقص واللزق والوصل. مزج منصهر سيال، تحسه منك قديما وعريقا، وإليك جديدا وطريفا. اتهموه بالاقتباس، وبالسرقة، وبالنقل، والحقيقة أنه كان يغمس ريشته فى كل الألوان بما يخدم ويضيف إلى لوحته التى لا يسيطر عليها إلا لونه هو شخصيا: لون محمد عبدالوهاب. وإذا

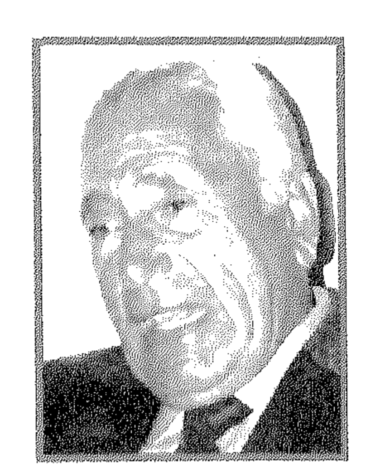


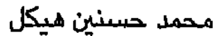
محمد عبدالوهاب

كان طه حسين ، في الأدب، أزهريا درس في السربون، لا سربونيا استشرق في الأزهر، فإن عبدالوهاب في الموسيقى مثل طه حسين في الأدب: أزهري، شرقي، عربي تذوق جيدا، واستمع جيدا لأرقى صنوف الموسيقى الغربية وخدم بها متطلبات الوجدان العربي والمصري في أدق مراحله التاريخية: الوطنية في سنوات نهاية العشرينيات وكل الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

★★★

غنى عبدالوهاب ، للحب، وللفن، وللطبيعة، وللآثار، وللوطن. لم يغن سياسة، لكنه غنى لعاطفة الوطنية، «حب الوطن فرض عليّ، أفديه بروحي وعنية»، «أحب عيشة الحرية زى الطيور فوق الأغصان»، «أيها الخفاق في مسرى الهوى»، «أخي جاوز الظالمون المدى»، «كنت في صبرك مكره، كنت في ضمتك مرغم..»، «سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق»، «هتف الداعي ونادى للجهاد أي بشرى..»، «مصر نادتنا فلبينا نداها»، «إلام الخلف بينكمو إلاما ، وهذى الضجة الكبرى علاما؟». وحين ارغموه على غناء السياسة، خضع ونفذ ، لكن فنه لم يخضع فخرجت «دقت ساعة العمل الثوري» نشيدا راقصا مضحكا يدلل على أن عبدالوهاب عصفور لا يجيد الغناء داخل الأقفاص. كان هناك غيره من يجيد «الخطابة» الموسيقية و«الهتاف» الغنائي، لذلك لم يفلح عبدالوهاب - رغم غنائه للملك - ان يكون مغنى الملك ويحصل على لقب «بك»، ولم يفلح ان يكون «الحظوة» المتماشية مع قرارات «مجلس قيادة الثورة»، ولقد ترك تلك «الحظوة» لعبدالحليم حافظ الذى كان جديرا بها، فلقد هتف كل المطلوب بما تقوى عليه الحنجرة، ولكن عندما غنى عبدالوهاب «كل ده كان ليه لما شفت عنيه. قال لى كام كلمة يشبهو النسمة في ليالى الصيف.». في حفل للقوات المسلحة في مطلع حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، قال له عبدالناصر: «رجعت لنا شبابنا» - مع أن عبدالناصر كان وقتها في شرخ شبابه - ولذلك حافظ العنصر «اليوليوى» على مكانة عبدالوهاب بفنه الذى ظل مغذيا للأجيال، صوته ، الأنيق الجذاب، خفيف الظل، شديد الحضور، المتغلغل برومانسيته وحنوه في أرجاء الروح، يكمل سياقه الموسيقى متضافرا معه، يشد بعضه بعضا في شموخ وأصالة لا يستعاض عنهما، ولم يكن لعبدالوهاب أبدا أن يكون رمزا لأى سلطة أو بوقا لشعاراتها رغم أنه لم يناوىء ولم يتصادم، لكنه بذكائه وصدق فنه تمكن أن يظل ويحافظ على مكانته




محمد حسنين هيكل



نهلة القدسى



د. مصطفى محمود

جالسا على «عرش القلوب». المضحك أن شركات الاسطوانات القديمة «صوت سيده» وغيرها، كانت تكتب على اسطواناته «مطرب الملوك الاستاذ محمد عبدالوهاب» حتى تصححت الصيغة الى «مطرب الأجيال» لأنها الصدق والواقع والحقيقة.

★★★

تميز عصر عبدالوهاب بأصوات غنائية قوية ومؤثرة: عبدالمطلب، كارم محمود، محمد قنديل، عباس البليدى، محمد فوزى، فريد الأطرش، إسماعيل شبانة، عبدالغنى السيد، عبدالعزيز محمود، - «وأنا أرتب الأسماء وفقا لأفضليتها عندى» - وكان للجميع المجال والنصيب من النجاح والانتشار ، فلم يحجب حب الناس لعبد الوهاب حبهم للآخرين، ولم يلعب عبدالوهاب بنفوذه دور المؤذى لفرص الآخرين. كانت الساحة تستوعب الجميع وتشعر بثراء التنوع والاختلاف وترحب بالأنماط المتعددة، وتتسع لكل طابع حتى ولو كان غناء محمود شكوكو وإسماعيل ياسين.


★★★

اشتريت أشرطة فيديو أفلام عبدالوهاب: «الوردة البيضاء»، «يوم سعيد»، «يحيا الحب»، «ممنوع الحب»، «دموع الحب»، و«لست ملاكا» - فى نسخته الناقصة - و«رصاصة فى القلب» حين بدأت فى الاعتذار لابنتى الشابة عن «تمثيل» عبدالوهاب وأنه أساسا «الموسيقى» و«المغنى»، قالت لى: بالعكس أنا أجده ممثلا ظريفا غاية الظرف، خاصة وهو يقول فى فيلم «الوردة البيضاء» لزكى رستم:

«أرجوك ثيب كتفى، أنا مش مجرم!» . ضحكت. لأننى كنت فى قلبى أوافقها فى الرأى كل الموافقة.


★★★

رحم الله زعيم الغناء الخالد: الموسيقار محمد عبدالوهاب فى عيد ميلاده المئوى وفى ذكرى وفاته العاشرة.

ص.ك

كشك وبحيرة
حديقة الازبكية

القاهرة

في مطلع القرن العشرين

إعداد : محمود قاسم

الحنين .. مرض يصيبنا جميعا دون أن تكون لدينا الرغبة في الشفاء منه و أعراض مرض الحنين هي الشوق الي الأمس ..بأزمنته وأماكنه وقد صار القرن العشرون حالة متدفقة من الحنين . خاصة العشرينات التى أكدت كافة الأقلام أنها«السندات الأجمل في كافة مجالات الحياة عربيا، وعالميا وفي تلك السنوات تواصل العالم أكثر .. بعد نهاية الحرب العظمى». وإلي مصر، علي سبيل المثال ، جاء أدباء العالم وعادوا إلي بلادهم كى يكتبوا عن هذه الرحلات

من هؤلاء الرجال الكاتب اليونانى نيقوس كازانتزاكيس وحول هذه الرحلة قدم الي مصر كتاباً شهيراً .

والكتاب هو رحلته التى قام بها إلى مصر عام ١٩٢٧ ، حيث سجلها فى كتاب بعنوان «ترحال»، نشر مرتين باللغة العربية الأولى فى مدينة عمان بالأردن عام ١٩٩٠، وهو الجزء الخاص بفلسطين، أما الجزء الخاص بمصر، فقد نشر تحت عنوان «رحلة إلى مصر» «الوادى وسيناء» عن كتاب «أدب ونقد» عام ١٩٩١، من ترجمة محمد الظاهر، ومنية سمارة .

و«نيكوس كازانتزاكيس» هو أهم أدباء القرن العشرين قاطبة فى الأدب اليونانى رغم عدم حصوله على جائزة، ورغم أن هذه الجائزة قد منحت لتلاميذ له، من أمثال «چورچ سيفيرس»، و«أورسيوس ايلينس» .

و«كازانتزاكيس» هو واحد من الأدباء اليونانيين الذين جذبتهم حضارة الشرق، بعضهم عاش هنا، معنا، فى مدننا، وكتب عن هذه المدن بعشق شديد مثل «كافافيس» و«سيركاس» والبعض الآخر جذبته المدن العربية، فتجول فيها فى الواقع، ونقل هذا التجوال إلى الكتب مثلما فعل «كازانتزاكيس» .

والكاتب مولود عام ١٨٨٨ ورحل عام ١٩٥٧ وقد ترجمت أعماله كلها إلى اللغة العربية عدة مرات عدا رواية واحدة ترجمت خارج مصر هى «الإغراء الأخير للسيد المسيح»، ومن هذه الروايات الشهيرة «زوربا اليونانى» المنشورة عام ١٩٤٣، و«المسيح يصلب من جديد» عام ١٩٤٨، و«الحرية أو الموت» عام ١٩٥٣، و«الاخوة الأعداء» عام ١٩٥٤ ، وله مسرحية مشهورة بعنوان «ميلسا» عام ١٩٣٩ .

وأغلب هذه الأعمال تحول إلى أفلام سينمائية أمريكية ويونانية، أما كتابه «ترحال» فقد نشره عام ١٩٢٧، وأعيد طبعه عام ١٩٦١ ، بشكل منقح، أى بعد رحيل المؤلف بأربع سنوات.



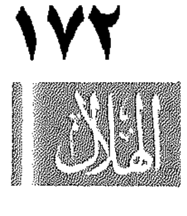
شارع بولاق (فؤاد الأول) ٢٦ يوليو

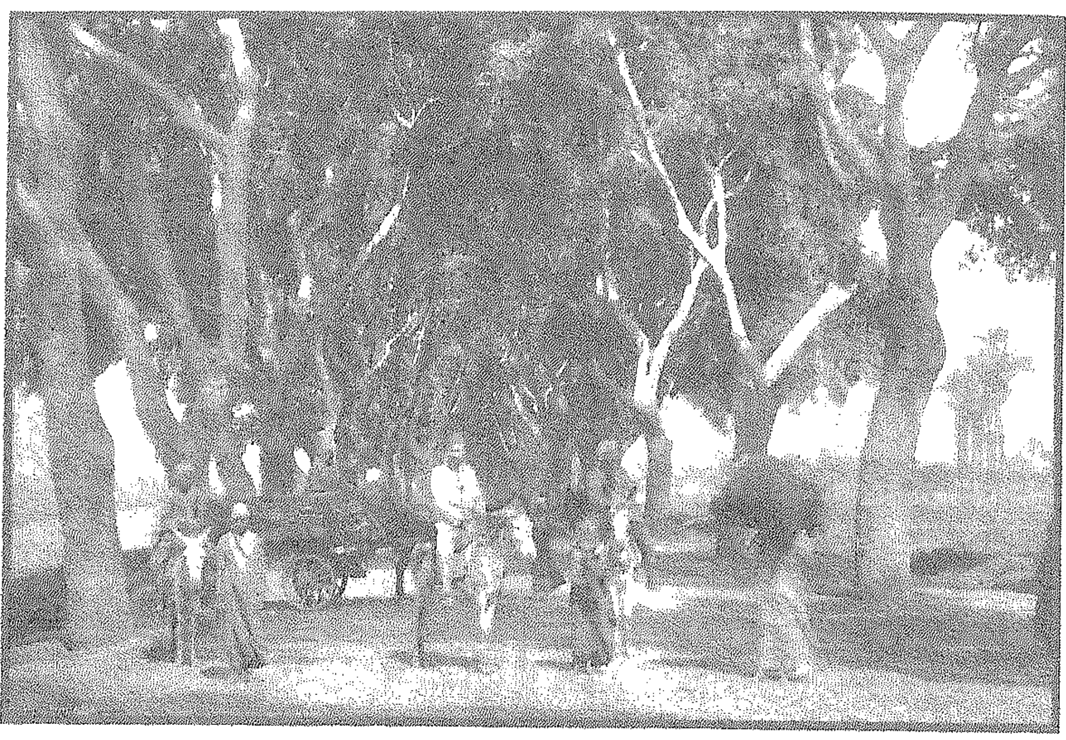
ولأن رحلة الكاتب إلى مصر بالغة الأهمية، فإننا يمكن أن نتجول فيها أكثر من مرة، خاصة حديثه عن نهر النيل الذى يخترق المدن، والقرن، والنجوع، فصنع الحضارة الخالدة على شاطئيه، ثم حديثه فى فصل منفصل عن مدينة القاهرة، وأيضا عن مدينة الطور فى سيناء التى اطلق عليها اسم «ريثو» .

ومدينة القاهرة، ظلت فى مخيلة الكاتب دوما، مهما ابتعد عنها، حيث تحدث عنها أكثر من مرة، سواء فى الفصل الخاص بنهر النيل، أو بالفصل الخاص بالمدينة نفسها، ثم فى فصل تحت عنوان «الحياة المعاصرة» .

لذا .. سوف نتوقف عند هذه المدينة من خلال أكثر من منظور، المدينة هى كما أشرنا زارها الكاتب فى عيد الميلاد عام ١٩٢٦ .

يقول «كازانتزاكيس» عن المدينة من خلال إطلالة على نهر النيل : «هذا هو النغم المعذب الذى كان ينبثق من مصر كلها، حيث طلعت عليه الشمس فى صباح اليوم الأول لوصولنا، لو أننى سافرت إلى مصر فى أيام القديس فرنسيس لكان بامكانى سماع الروح البشرية وهى تغنى غناءها الوثنى وتدعو المسيح كى يخلصها، ولو أننى سافرت فى أيام القوطية، لكان بإمكانى التمتع بهذا الهارمونى الجديد الذى ينبثق من الكنائس العملاقة الباردة وأمتلىء بالبهجة وأنا استمع إلى الصوت الهادىء .. للقساوسة وهم يباركون الفتى الإغريقى الموله، وهى يوغل فى غموض





نزهه بمنطقة الجزيرة

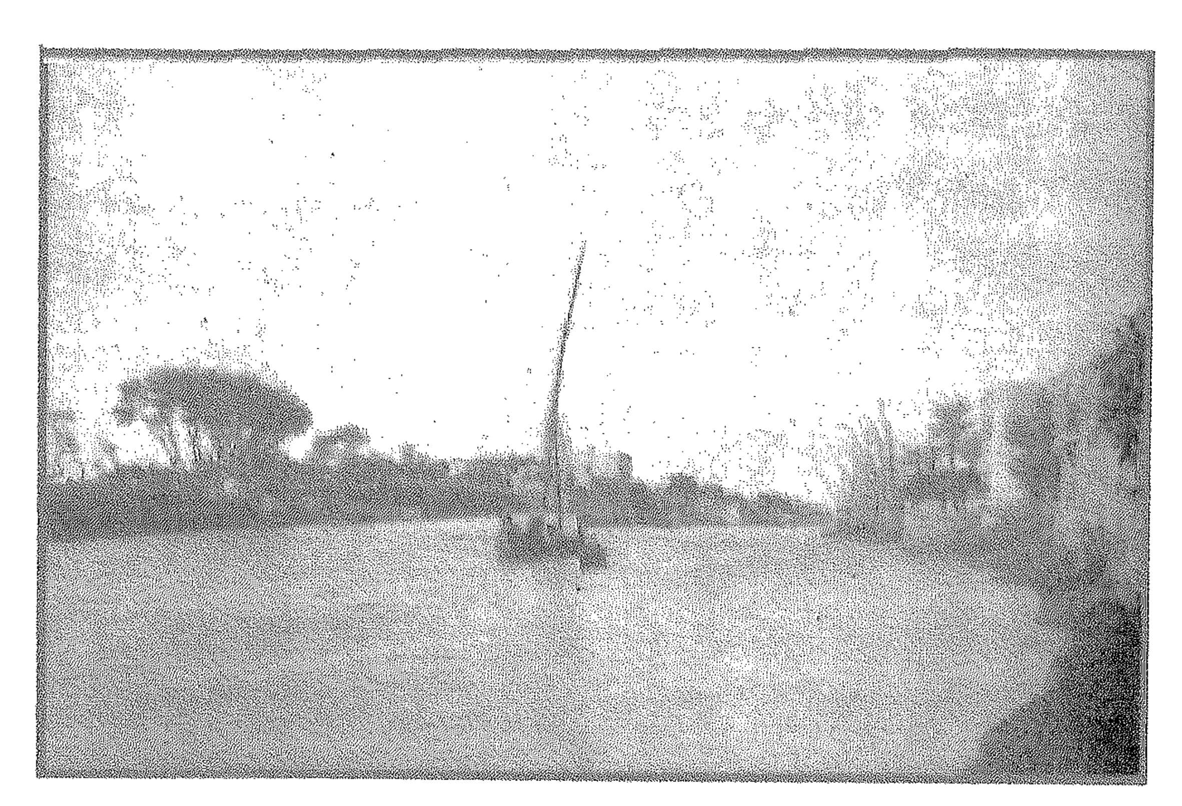
الحياة والموت» .

أما عن حديث الكاتب عن المدينة من خلال فصل بعنوان «القاهرة» فإنه يقول:

«فى شوارع القاهرة، كنت أتمتع برؤية المحصول الإنسانى المعاصر للنيل، الفلاحون النحيلون الرشيقون، المرهقون من العمل والجوع، والأقباط، والبدو الطوال الصامتون المحزمون بالأحزمة ، فى عيونهم نظرات النسر الحادة، وممتلئون بالأنفة والكبرياء، والتنوح بنظراتهم المفترسة وشفاههم الغليظة، وعيونهم المكورة، ونسوة كحيلات العيون يرتدين الخلاخيل الفضية التى تعبق منها رائحة المسك والروث، كنت أرى أولئك الأوربيين الشاحبين كالمرضى، تحت حرارة الشمس العربية، الذين لفحت الشمس وجوههم وجعلتهم كالمصابين بالدوار» .

الكاتب «نيكوس كازانتزاكيس» رأى المدينة من خلال شخوصها أكثر مما رآها من خلال أماكنها، أو معالمها القديمة، فهو لم يأت إلى مصر من أجل رؤية الآثار، رغم أن المجلة اليونانية التى أوفدته فى هذا الترحال، طلبت منه الوقوف عند معالم مصر، وقد فعل ذلك فى أضيق الحدود.

ويتحدث «كازانتزاكيس» عن الفتوات، بمنظور مختلف تماما عما جاء فى العديد من روايات نجيب محفوظ، فهم أشخاص يركضون وهم يحملون محارق البخور البرونزية الخفيفة، يحثون الخطى، وهم يدخلون أو يخرجون من هذا الدكان أو ذاك، وعند هذا الوقت كانت الشمس قد



النيل فى منطقة مصر القديمة

بلغت الظهيرة، وكانت الشوارع قد امتلأت بالجلابيب ، وفاحت رائحة البهارات من أعماق السلال الصفراء، وامتلأت الشوارع المرصوفة بالفواكه، وروث الجمال، والأغنام، ومرت غانية طويلة القامة، متهتكة، وأخذت تسير بتمهل، ورائحة المسك تعبق منها، تاركة ملاءتها تتماوج على ركبتها، ومرسلة ضحكاتها المتواصلة».

أغلب الظن أن «كازانتزاكيس» يقصد بالفتوات هنا، حملة المباخر، أو المجاذيب الذين يمرون على المحال، لنشر روائح البخور مقابل صدقة بسيطة، ويقول الكاتب عن القاهرة عام ١٩٢٧ وكأنها أيضا المدينة نفسها عام ٢٠٠١:

«هذه المدينة مثلها، مثل أية مدينة شرقية، تملأ الرأس بالضجيج، والحيرة، ألوان، عطور، رجال ، نساء ، أفكار، وقضايا أخلاقية، ومشاكل اقتصادية، وكنت أحس بأن كل هذا الفوران السريع الزوال ينبض فى طمى النهر، وينضج تحت شمس إفريقيا الواسعة».

وفى حديثه عن مصر المعاصرة، عاد الكاتب ليعبر عن رؤيته فى المدينة وكما سنقتطف من فقرات ، فسوف نلاحظ أنه أيضا يهتم بالاشخاص أكثر من الأماكن، حيث يقول:

«لقد عدت إلى القاهرة إلى القلب النابض بالحيوية فى مصر الحديثة وكنت انطلق من الصباح حتى المساء، لأرى

رجال المال ورجال السياسة، ورجال الصحافة، و المثقفين، إنهم رجال متحمسون، ماكرون، وطنيون، وماكرون فى التحايل، وقد حاولت أن اطلع على الأمور بقدر ما أستطيع، ماهى الدوافع التى يتذرعون بها لإعادة انبثاق مصر الحديثة».

«كيف يستطيع العقل الشرقى أن يهضم ويتمثل الافكار الأوربية، الأهم من ذلك ماالذى ستتركه حمى مابعد الحرب العالمية الأولى، على ضفاف النيل، وماهى الصلة والعلاقة بين هذا الأمر، وبين الحقيقة الواقعية الرهيبة، والمجهولة لعصرها، ألا وهى حقيقة استيقاظ الشعوب الشرقية؟» .

وقد توقف «نيكوس كازانتزاكيس» طويلا عند التغيرات التى حدثت فى مصر، فبدا وهو الكاتب الملتزم، أكثر اهتماما بالتحولات الاجتماعية، من اهتمامه، فى هذه الفصول بشكل خاص بالتاريخ، وقد تبدو عباراته أحيانا كالمبضع، لكنه واقعى، وهو يردد :

«صحيح أنه لاتوجد حضارة شرقية الآن، وصحيح أن الإنسان الشرقى بسيط وساذج، وأن الزمن قد تجاوزه وهو غير متكيف مع الحياة المعاصرة، ولكن من أجل أن يبدع هذا الشرق حضارته الخاصة، فإنه يتحتم عليه أن يربط نفسه بفعل الضرورة بالغرب، عليه فى البداية أن يكمل مرافقه بالحضارة الغربية، وقد بدأ ببناء مرافعته، وتبنى وسائل التقنية الأوربية فى الإنتاج، الوسائل الجديدة فى الصناعة والتجارة، والوسائل التحليلية النقدية فى التفكير، وهو مصمم على تبنى الطريقة الشرقية فى الحياة جنبا الى جنب مع العلم الغربى».

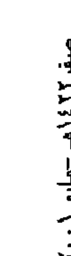
ويقول الكاتب فى نهاية فصله عن القاهرة وهو يسوق كلمات أغنية مصرية قديمة، حفظت على ورق ثمين يسمى البرشمات:

تمتع بكل يوم . أدهن جسدك بالعطور
واجعل أنفك يتشمم الروائح المعطرة
واعقد باقة من اللوتس لحنجرتك،
ومجسد المحبوب الجالس بالقرب منك

اسع لملاهيك الاتية، واهرب من متاعبك ومسئولياتك ، حتى تأزف الساعة التى سيأخذونك منها إلى ذلك المكان الهادىء الذى تحب وتذكر: «لا أحد يمكنه الرجوع من هذا المكان أبدا».

ويعلق الكاتب عن انطباعه النهائى :
«أما أنا الذى أحب القول الفصل «نعم» و«لا» فقد تمتعت بعمق، بهذين الوجهين لمصر:

الوجه الأخضر .
والوجه الصحراوى الرمادى. ■



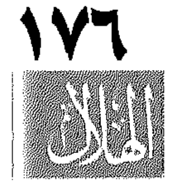


رواية
عشيــــق الأم

الاشتباك مع الواقع على الطريقة السويسرية

بقلم
جميل عطية ابراهيم

أحرزت رواية «عشيق الأم» للكاتب السويسرى «أورس فيدمر» والصادرة باللغة الألمانية قرب نهاية عام ٢٠٠٠ شهرة واسعة فى الأوساط النقدية والإعلامية ليس فى سويسرا وحدها ، ولكن فى ألمانيا والنمسا أيضا .. احتفل النقاد والمعلقون بهذه الرواية - صغيرة الحجم - فى كل وسائل الإعلام إلى درجة أنها وردت كمادة إعلامية فى نشرات الأخبار والتقارير الإخبارية المرئية والمسموعة ، إلى جانب الندوات النقدية التى أفردت لها عشرات الدراسات النقدية التى صدرت عنها إلى جانب التعليقات السريعة على الرواية .

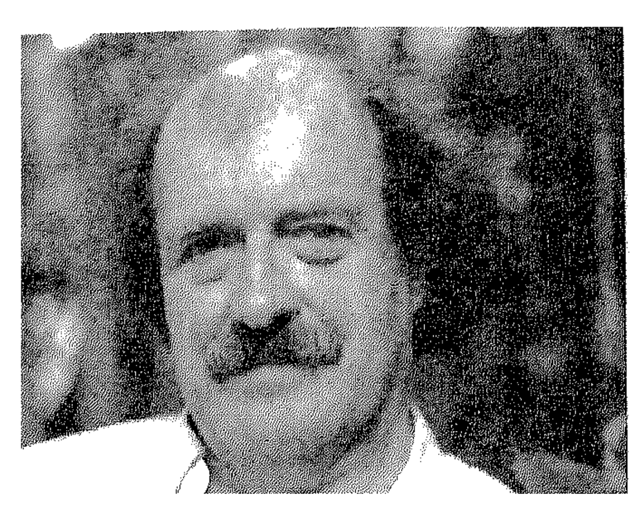


والسؤال هو لماذا كل هذه الحفاوة برواية حجمها ١٣٠ صفحة ؟ وما هي القضايا المثيرة التى تفجرها هذه الرواية لتلفت الأنظار إليها فى الدول الناطقة بالألمانية بعد أيام قليلة من صدورها ؟

والإجابة على هذه الأسئلة تتلخص فى عدة كلمات : رواية «عشيق الأم» تشتبك مع الواقع السويسرى بقوة وتتعرض للأوساط الراقية وتكشف عن جوانب خفية من خلال الفن وليس من مدخل الإثارة أو الفضائح . وإذا انتقلنا من التعميم إلى التفصيل قلنا إن الرواية واردة على لسان راو محايد يروى حياة والدته «كلارا» وما صادفها من عثرات بطريقة حيادية بل وفى برود شديد أيضا على يد موسيقى يدعى «إدوين» . راو يقدم الأحداث بتواريخها كما وقعت . راو يقدم المأساة لنا ولا يعلق عليها . راو لايظهر تعاطفا أو إدانة . راو لايصدر أحكاما أخلاقية ولا يتحيز إلى والدته على حساب الآخرين . باختصار هو راو محايد يخبرنا بما وقع لوالدته كلارا على يد إدوين الذى استغلها أبشع استغلال ثم يتركها عندما ابتسمت الحياة له دون رحمة ولا شفقة .

صبى موسيقى وصبية فاتنة

والحكاية كما يقدمها الراوى تتلخص فى أن والدته فى صباها المبكر أو فى سنوات مراهقتها صادفها صبى موسيقى يدعى إدوين فتعلقت به وكانت صبية وفاتنة وثرية فتفرغت للعناية به والعمل من أجله - علمته الكثير وعملت



الكاتب السويسرى (أورس فيدمر)

له خادمة وسكرتيرة ومديرة أعمال وعشيقة أيضا .

وتقدم الرواية ما وقع لوالدته الصغيرة وما وقع لهذا الموسيقى الشاب الذى كان يكبرها بعدة سنوات قليلة مع كر السنين ذبلت الصبية المليحة مع كر الأيام بسبب هذا العشق وفقدت ثروتها وعرفت العوز والفاقة والحرمان بسبب هذا الصعلوك المتوحش إدوين بينما صعد نجمه فى سماء الفن كالشهاب فكل خطوة إلى الأمام كان إدوين يقطعها كانت تقابلها خطوة إلى الخلف فى حياة كلارا .

لقد افترس إدوين كلارا جسدا وروحا ومالا على نار بطيئة على مر السنين أكلها ولم ترجف له عين ثم لفظها عن طريق النسيان . بل والحقيقة المرة أنه لم يتوقف عندها منذ لحظة تعارفهما وكأنها وجدت لخدمته فقط .

كان إدوين مشغولا منذ صباه بتعلم فن قيادة الأوركسترا ليقدم رؤية جديدة لأعمال كبار المؤلفين الموسيقيين فى

روابة

عشيق الأم

العالم فى النصف الأول من القرن العشرين . ولم يهتم بكلارا فى سنوات كفاحه الأولى عندما كانت تقف إلى جانبه بمالها وشبابها ولم يكترث بما قدمته له عندما بزغ نجمه وتابع دراسته الموسيقية . يأخذ منها ولا يقدم الشكر أو المودة . لا يعرف سوى أنها منبع عطاء لاينضب وهى الفتاة الجميلة الثرية التى يتعلق بها الجميع بينما هو فقير صعلوك لايجد مأوى له فى الليل .

ومع صعوده السريع كالشهاب لم يعرف إدوين شيئا عما أصابها من علل وسقم أو فقدانها لثروتها أو مفارقتها الحياة .. واجهت الإجهاض بسبب نزواته ولم يعرف .

ويقدم الراوى لنا حكاية شيقة عن تعرف الصبية كلارا على إدوين ثم اهتمامها به شيئا فشيئا ثم متابعتها له وتقديمها له فى البداية الخدمات البسيطة ثم اندماجها كلية فى عالمه الموسيقى .

اهتمام بالنوتة الموسيقية

ومن جانب آخر وفى فصول منفصلة يقدم لنا الراوى بداية هذا الصبى الفقير الذى أتقن قراءة النوتة الموسيقية فى المدرسة لآلة موسيقية واحدة ودون أن يمتلك آلة موسيقية فى حياته ثم توقف عن الدراسة بسبب العوز والحاجة فيتفرغ إلى قراءة المدونات الموسيقية لعدة آلات موسيقية دون مساعدة من أحد ودون معرفة بأصول علم التأليف الموسيقى .

ويظل إدوين يضرب فى بحور الموسيقى عن جهل إلى حين تعرفه على موسيقى عجوز من عازفى الشوارع يتمتع بقدر ما من العلم والدراية بفنون التأليف والتوزيع الموسيقى . يعجب الرجل العجوز بموهبة هذا الشاب المعجزة ويرحب به فى بيته ويعطيه الدروس الموسيقية ومبادىء التأليف الموسيقى والتوزيع ويسمح له بالتدريب على البيانو القديم الذى يمتلكه والمبيت فى داره فى أوقات غيابه وينفق عليه ، ثم يعرفه على مكتبات المعاهد الموسيقية فى مدينة بازل ليحصل على المدونات الموسيقية ويقدمه لبعض الأساتذة . وبعد سنوات قليلة يقول له العجوز لقد علمتك كل ما عندى وليس لدى المزيد وأنت فى حاجة إلى أساتذة كبار ويكون إدوين قد وطد علاقته بالمعاهد الموسيقية فيبدأ فى جمع مجموعة من عازفى الشوارع لتكوين فرقة موسيقية لتقديم معزوفات عالمية فى كهوف العمارات .

ويعمل إدوين جاهدا فى تعليم هؤلاء البسطاء أصول العزف الجماعى لأصعب المقطوعات التى يسعى لتقديمها بتفسيرات جديدة أيضا مخالفة لما هو شائع ويكون الموسيقى العجوز هو العازف الأول فى فرقته . ويظهر إدوين جلدا وصبرا فى التعليم وفى السيطرة على هذه الفرقة الصغيرة .



كلارا وإحياء الفرقة الموسيقية

وفى إحدى الحفلات تشاهد كلارا هذا القائد الشاب رث الثياب والخشن المسلك وتتعرف عليه وتمد له يد العون وتعلمه فنون اللبس وتكتب له الإعلانات عن حفلاته بيديها ، وتجمع له ما بدأت تكتبه الصحافة عن معزوفات هذه الفرقة وتقف فى الشباك لتحصل ثمن التذاكر وفى نهاية الحفل توزع العائد على الموسيقيين وإذا زادت النفقات سددت الفرق من جيبها .. وشيئا فشيئا تصبح جزءا من عالم هذه الفرقة الموسيقية أو شيئا فى عالم إدوين المشغول دوما بالمدونات الموسيقية الحديثة وكيفية الحصول عليها وتقديمها بطريقة فذة لاتسمح بها إمكانات فرقة عازفى الشوارع المتطوعين . إدوين فى حاجة إلى كبار العازفين العالميين لتقديم هذه الموسيقى الحديثة . والمقصود هنا بهذه الموسيقى الحديثة تلك الموسيقى التى نبعت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وغيرت من مفاهيم التأليف والتوزيع الموسيقى ومن روادها إيجور سترافنسكى وبيلا بارتوك وغيرهما من المؤلفين المحدثين. إدوين لم يكن يحلم بتقديم الموسيقى الشائعة أو المعروفة كان يبحث عن الجديد والعميق وهذه الموسيقى عسيرة الفهم والقراءة والتقديم لكنها العبقرية ياسيدى أو الجنون . وبعد زيارات إلى فرنسا وتقديم حفلات هناك بدأت هذه الفرقة تلفت أنظار النقاد وفى عام ١٩٢٩ يشكل إدوين فرقة موسيقية ويقدم معزوفات سترافنسكى وبارتوك ويدعوهما لحضور حفلاته وكل ذلك بفضل كلارا .

هل شخصية إدوين هذا القائد الموسيقى الفذ والموهوب والخشن السلوك من بنات أفكار الكاتب السويسرى أورس فيدمر المولود عام ١٩٣٨ فى مدينة بازل السويسرية حيث وقعت كل أحداث الرواية؟

حقيقة هى قليلة الأعمال الروائية التى تتناول حياة موسيقيين وتستغرق فى تفاصيل الموسيقى ، وهذه رواية مليئة بالتفاصيل الفنية الموسيقية خاصة دراسة الايقاعات المركبة التى أبدعها مؤلفو النصف الأول من القرن العشرين وأبدع إدوين فى تقديمها .

وفى الإجابة عن هذا التساؤل مربط الفرس كما يقال فشخصية إدوين كما وردت فى الرواية هى شخصية الموسيقار السويسرى بول زاخر وفقا للتواريخ والتفاصيل والأحداث . وبول زاخر وحتى وفاته قرب نهاية القرن العشرين كان نجما ساطعا فى سماء سويسرا ومن نجوم المجتمع العالمى .

إدوين فى الرواية أو بول زاخر فى الحقيقة يتزوج فجأة من مايا هوفمان شتالين التى آلت إليها ملكية شركة لاروش - وهى فتاة من نجوم المجتمع السويسرى وشركتها من حيتان الصناعة فى العالم وهى قد تفرغت لرعاية الفن والفنانين وإقامة المتاحف على نفقتها . وهكذا يستقر الموسيقار فى المرفأ المناسب لعبقريته منذ منتصف



رواية

عشيق الأم

القرن الماضى وحتى نهايته .

صعود فنان وتدهور روحى لكلارا

وهكذا تتعامل هذه الرواية مع الواقع الخشن وتقدمه فى شفافية فالمأساة هنا أعظم وأعمق من البكاء وقد توقف كبار الانقد عند تقديم أورس فيدمر الفذ لقصة صعود الفنان وفى مقابلها قصة التدهور الروحى والعقلى والجسمانى لكلارا . وهى أيضا شخصية حقيقية توصل بعض النقاد لمعرفتها وتحقيق شخصيتها وقد تعرف على شخصيتها بعض الأحياء من كبار السن فى مدينة بازل .

وبقى تساؤل فج . هل كاتب الرواية أورس فيدمر ابن هذه السيدة ؟ قال فيدمر بالفم الملآن على التليفزيون إن السيدة كلارا ليست والدته . وألمح بعض النقاد فى دراساتهم إلى أنها والدته . وهذا تساؤل فى حاجة إلى تحقيق بعيدا عن النقد الأدبى . فهو لا يضيف شيئا إلى القيمة الأدبية للرواية وقد توقف عنده النقاد السويسريون فى إشارات سريعة عابرة . أما النقاد الألمان فلم يشغلهم هذا التساؤل بالمرة وقال شيخهم رايش رانيتسكى : هذه رواية فذة تتناول حياة موسيقار عبقرى وتقدم لنا قصة تدهور وتلاشى سيدة ، أما ما يتعلق بالطبقة الأرستقراطية فى سويسرا وأحاديث الصالونات فهذه أمور لا علاقة لها بالرواية. وتوقف هذا الناقد المخضرم طويلا أمام شخصية الموسيقار إدوين وليس زاخر الحقيقى ، وقال إنه يعشق قراءة الروايات التى تتناول شخصيات الموسيقيين .

رواية «عشيق الأم» تثير قضايا عديدة حول الحقيقة والخيال ودور الكاتب . ولم يعلق أحد من شركة لاروش على الرواية ولم ترفع قضايا على المؤلف ولم يطارد صغار الصحافيين المؤلف لمعرفة علاقة الدم بينه وبين السيدة كلارا .

والخلاصة أن هذه الرواية قد كتبت على الطريقة السويسرية وكل ما جاء بها موثق والخيال يتبلور فى شفافية القص وكان استقبال النقاد والقراء لها أيضا نابعا من تقاليد عريقة فى تقبل الرأى الآخر .

وبقى لنا تعليقان أولهما يخص المؤلف فهو من الجيل الثالث من الكتاب «من مواليد ١٩٣٨» الذين يطلقون على ماكس فريش وفريدريك دورنمات صفة الجد كما يفعل جيل الستينات فى مصر بالنسبة لأستاذنا نجيب محفوظ .

وثانيهما يتعلق ببعض أحداث الرواية حيث تتضمن الرواية واقعة غريبة وهى قدوم شاب زنجى من شمال أفريقيا إلى عائلة فى وسط سويسرا ويقضى ليلة واحدة فى ضيافتها أو ليلتين ويمنح إحدى بناتها اللون الغامق فى ذريتها . وهنا نتوقف عن قول المزيد إلى حين قراءة هذه الرواية فى روايات الهلال فى الشهور المقبلة . ■





د.محمود فهمى حجازى

هناك آراء متداولة عند بعض المهتمين باللغة العربية تجاه بعض الكلمات تجعل لها استخداما محدودا، وترفض هذه الآراء أى استخدام آخر. ويعتمدون فى هذا كله على ما ورد عن بعض النحاة ومن ذلك كلمة «كافة» هناك رأى بأن استخدامها الصحيح يقصر استخدامها على وظيفة نحوية محددة وهى أن تكون حالا، من ذلك مثلا ورود كلمة «كافة» فى القرآن الكريم (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) كلمة «كافة» فى مثل هذا الاستخدام تكون حالا، ولا شك فى صحة هذا التركيب، الحال هنا ترد بهذه الصيغة ولا تعرّف أى لا تدخلها ال للتعريف، وتكون فى صيغة النكرة.

ولكن المشكلة أن بعض اللغويين رفض استخدام هذه الكلمة فى أى سياق آخر، كأن استخدامها الصحيح يقتصر على ذلك، ولكن واقع اللغة عند بعض الكتاب واللغويين الكبار فى إطار الحضارة العربية الإسلامية يعطى شواهد أخرى، من ذلك استخدام كلمة «كافة» معرفة، «الكافة» بمعنى الجميع ومنذ نحو ألف عام ذكر الجوهرى فى معجمه المعروف باسم الصحاح: «كلمة الكافة»، وشرحها بأنها تعنى الجمع من الناس.

كما وردت كلمة «كافة» مضافة فى مقدمة كتاب من أهم كتب النحو العربى، وهو المفصل للزمخشرى، كان المؤلف هادفا إلى عمل كتاب محيط «بكافة الأبواب»، وهنا استخدام الكلمة معرفة بالإضافة.

وفى القرن العشرين طرح مجمع اللغة العربية مشكلة استخدام هذه الكلمة للبحث، وأعد شيخ المحققين عبدالسلام هارون - رحمة الله - بحثا فى استخدام الكلمة، تابع آراء النحاة من جانب ونصوص العربية من جانب آخر، وذكر قدرا من الشواهد اللغوية الموثقة تدل على أن ذلك القيد الصارم الذى ذكره بعض النحاة يمثل حقيقة جزئية. وانتهى البحث إلى إجازة استعمال كلمة «كافة» متصرفة تصرفا تاما وعلى أساس هذا البحث قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة جواز استعمال كلمة «كافة» فى الحال وغيرها معرفة ونكرة لا يقتصر استخدامها على أن تكون حالا، بل من الصحيح استخدام كلمة «الكافة» بمعنى الجميع. اللغة تجيز ذلك، ومجمع اللغة العربية وافق عليه. ■

في ندوة استراتيجية للثقافة العربية

دعوة للحفاظ على الشخصية القومية

امانى عبد الحميد

هل من الممكن إقامة حوار حقيقى يحترم التعدد والاختلاف بالرغم من تردى الأوضاع السياسية والاقتصادية لبعض الدول فى ظل هيمنة النظام العالمى الجديد.. ؟ ،هل من الممكن تخطى حالة الذعر التى أثارها مصطلح العولمة نظرا لأهدافه الرامية إلى ضم البلاد الأقل حظا إليه وتحويلها إلى مجرد توابع ؟ هل من الممكن خلق تيار فكرى جديد يعمل على إقامة حوار بين الثقافات المتعددة بدلا من إطلاق الصيحات التحذيرية ، واتخاذ كافة التحصينات لحماية الشخصية القومية المهددة بالسيطرة الغربية «السطوة الأمريكية».. تساؤلات عديدة لاتزال مفتوحة أمام المفكرين والباحثين فى جميع أنحاء العالم.

نادت بعض المجتمعات بضرورة الحد من الانفتاح الكامل على الثقافات الأكثر حظا من ناحية التقدم الثقافى والتكنولوجى والمعلوماتى لما قد يؤديه من اختراق لثقافاتها الوطنية وتراثها واستبدالها بثقافات وافدة أجنبية «الغزو الثقافى» وبالتالى فقدان هويتها وشخصيتها المميزة. وهل من الممكن استبدال مصطلح التدفق بالغزو خاصة أن مفهوم التدفق الثقافى بما يحمل معه من غزارة ثقافية تتدفق فى الحضارة الأكثر تطورا أو إنتاجا نحو الحضارة

الثقافية الأقل تطورا والأكثر فقرا.. والذى قد يواجه برد فعل ذى اتجاهين.. أحدهما هو رد فعل القوقعة التى تتقوقع وتتغلف بصدفة لا تمتص أى تدفق ثقافى ولا يكون لديها سوى الرواسب المتكلسة على قشرتها الصدفية، فى حين يتخذ رد الفعل الآخر هيئة الإسفنجة التى تمتص التدفق الوافد إليها وقد يتغير لونها الثقافى لكنها لاتزال تحتفظ بكينونتها وهويتها الحقيقية فأين تقف ثقافتنا العربية؟ وهويتنا وقوميتنا؟ وإلى أى اتجاه تميل إلى رد الفعل الصدفى المتعلق، أم إلى رد الفعل الاسفنجى القادر على امتصاص أى تدفق ثقافى جديد؟

استراتيجية قوية

ومن منطلق احتياج مجتمعاتنا العربية لتبنى استراتيجية قوية ثقافية قادرة على مواجهة الرؤى والأفكار الجديدة التى تجوب العالم على رأسها «العولمة» ، نظمت اللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة ندوة جادة بعنوان «استراتيجية الثقافة العربية». أوائل الشهر الماضى بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة «أليكسو» استعرضت تقرير اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية، وناقشت عدة محاور مثيرة للجدل تتعلق بقضية العولمة بما تحمله من معانى الهيمنة والسطوة الثقافية علاوة على نقد نظريتى «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» للمفكرين الأمريكيين صموئيل هانتجتون وفرانسيس فوكوياما. ودور وسائل الاتصال فى إثراء الثقافة العربية . كما تناولت محور الثقافة بوصفها عملية إنسانية حيث دارت المناقشات حول قضيتى الديمقراطية وحقوق الإنسان. ثم محور الثقافة وتفاعلها مع القطاعات الأخرى وموقعها داخل عصر المعلومات والثورة التكنولوجية ومحاور الثقافة والقوى البشرية «الطفل - الشباب» والدراسات والبحوث الثقافية من أجل التنمية خاصة فيما يتعلق بمفهوم «تصنيع الثقافة» وتنميتها وأخيرا محور التراث الثقافى والإبداع ومدى تشجيع ورعاية الابداع لتفعيل مشاركة المبدعين فى الحياة الثقافية.

وعلى الرغم من تنوع المحاور التى قامت عليها الندوة ومن أن الأبحاث المقدمة على قدر كبير من التعمق والفهم المستنير لما قد تواجهه أمتنا من تدفق ثقافى جارف إلا أن المداولات والمناقشات لم تخرج فى ختامها بأى ملامح حقيقية أو بصيغة واضحة تمكننا من رسم الاستراتيجية المنتظرة لثقافتنا العربية لمواجهة المخاطر المحدقة بها وحتى تتمكن من التعامل مع

الثقافات المختلفة.

فيما يلى نستعرض بعض الأبحاث المقدمة:

الثقافة العربية والعولمة

فى ورقته البحثية أكد د. أحمد أبوزيد أن محاولات فرض التجانس الثقافى من خلال العولمة على المستوى العالمى أصبحت تواجه جهودا ضخمة لمقاومتها للتأكيد على الهويات الثقافية للشعوب أو ما يطلق عليه التمايز الثقافى. فمفهوم العولمة بما يدعو إليه من توحيد الأفكار والقيم وأنماط السلوك على مستوى ثقافات العالم كخطوة لإقرار الفهم المتبادل قد يخفى وراءه إمكانية تجريد الشعوب من مقوماتها الثقافية المتميزة والمتفردة لتتولى صياغتها وتشكيلها الشعوب الأكثر تقدما وبالتالى تهميش تلك الثقافات.

صدام أم تفاعل

كما ألقى د. ميلاد حنا الضوء على التوجهات الفكرية المضادة للآراء الأمريكية الخاصة بصدام الحضارات مثل مفاهيم «الحوار بين الحضارات» من أجل ترسيخ مفهوم «قبول الآخر» والاهتمام بمستقبل البشرية. موضحا أن عملية قبول الآخر بمميزاته وعيوبه تلحقها عملية «التحرك الايجابى» حيث إن القبول يقود إلى الحوار وبعدها التعارف ثم الصداقة ومن ثم تظهر «الأرضية المشتركة» أى أننا مختلفون ولو فى أشياء بسيطة وهى فى الواقع ميزة.

ثقافة الديمقراطية

ومن منطلق أن الديمقراطية شرط للتقدم يطلق د. محمد نور الدين فرحات دعوة للتفكير فى الشروط المطلوب توافرها من أجل إشاعة مناخ من الثقافة الديمقراطية، ويتساءل عن كيفية حدوث ذلك، هل بإعادة صياغة نظام التعليم لتحتل التربية على احتدام الديمقراطية وحقوق الإنسان مكانا «بارزا» ؟ أم بالعمل على تجديد الفكر الدينى؟ أم بتبلور طبقات اجتماعية ترتبط مصالحها بعملية التنمية الديمقراطية ؟ أم بتنشيط أدوار الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدنى الأخرى لتلعب دورا فى إشاعة ثقافة الديمقراطية ؟ أم بكل ذلك ؟ أم بغير ذلك؟

تطرح الورقة المقدمة من د. محمد السيد سعيد وهى بعنوان، « نحو تنمية الصناعات الثقافية فى مصر» قضية شائكة هى تصنيع الثقافة وخصوصيتها فى مصر، وتلقى الضوء على الأبعاد التى تنطوى عليها القضية خاصة مع ما تتسم به البنية الثقافية من تناقض بين مدى

خصوبتها والضعف البالغ الذى أصاب البنية الصناعية وافتقادها للديناميكية. حيث يرى أن مفهوم تصنيع الثقافة مفهوم حديث بيد أنه مفهوم غير متجانس ملىء بالصراعات لكنه يحمل أصولا فكرية . فمن وجهة نظره يجب أن تكون الثقافة متعالية عن «التسويق» فعملية تحويل المبدع إلى مصنع أو تاجر من شأنها أن تحول عملية الإبداع برمتها إلى النقيض . فالرسالة الإبداعية هى رسالة بين المبدع والمتلقى دون أى وسيط تجارى يؤثر عليه كما يوضح أن افتقار البنية الصناعية والثقافية للديناميكية والتركيز الشديد على أسلوب التنميط فى الرسالة الإعلامية والتعليمية والسياسية أدى إلى انخفاض القدرة على خلق مبدعين جدد . لذا فإن ما يرمى إليه هو التأكيد على أن تصنيع الثقافة لا ينطوى بذاته على حل اشكاليات ومعضلات الحيوية الثقافية والتكنولوجية للمجتمع لكنه يوفر آلية حفز مناسبة تسهم فى حل هذه الاشكالية على المدى الطويل. وهو ما يتطلب توفير قوة دفع مناسبة للصناعات الثقافية فى بيئة تفتقر إلى التصنيع ويعوزها آليات التجديد الثقافية والتكنولوجية وعلى سبيل المثال الأزمات التى تهز أركان صناعات ثقافية قائمة بالفعل مثل السينما والأغنية.

أما د. هدى وصفى فقد تعرضت من خلال ورقتها لأهمية ورعاية الإبداع لتفعيل مشاركة المبدعين فى الحياة الثقافية. وقامت برصد بعض النقاط الهامة التى تمس جوهر القضية وهى:

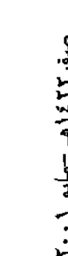
١ - رصد الواقع الراهن للثقافة المصرية من نهاية القرن العشرين وتحديد اشكاليتها الاساسية والتحديات التى تواجهها.

٢ - تحديد الأهداف المبتغاة للعمل الثقافى فى القرن المقبل.

٣ - تحديد القضايا الأساسية للعمل الثقافى فى المرحلة القادمة.

٤ - اقتراح المشروعات المستقبلية الأساسية فى مختلف المجالات الثقافية فى مصر مع تحديد أولويات التنفيذ.

ويكشف د. محمد فتحى عبدالهادى أن الإنتاج الفكرى العربى المتاح من أشكال الكترونية لايزال محدودا ويعانى بعض الصعوبات أهمها أن الطابع الغالب عليها هو الطابع الدينى أو الطابع الترفيهى دون التوجه نحو الأعمال العلمية والتراثية وأعمال الموسوعات الضخمة لذا يدعو إلى الاهتمام بصناعة المعلومات بكل السبل على اعتبار أنها الصناعة الواعدة وأساس المجتمع المعلوماتى الحديث. ■



«معيد النعم ومبيد النقم»

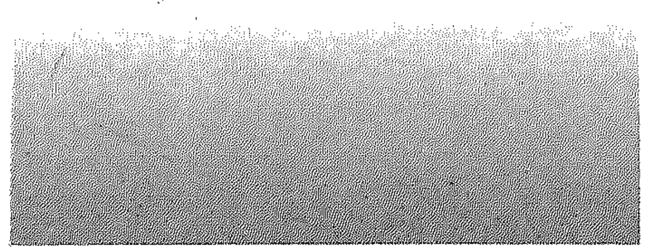
للعلامة

تاج الدين السبكي

بقلم
صافى ناز كاظم

عالم فاضل معاصر من علماء مصر ومثقفيها الذين برزوا بمساهماتهم الأدبية والتربوية فى مطلع القرن العشرين، مع بروزهم فى إنكار الذات، تواروا حياء من تزكية أنفسهم، فتاهوا فى زحام النسيان وغمط الحق. أقصد بهذا المدخل الباحث والمترجم الأديب «محمد الصادق حسين بك»، الشقيق الأكبر لرائد طب العظام والأديب الدكتور «محمد كامل حسين» صاحب كتاب «قرية ظالمة». وقد ولد الأستاذ محمد الصادق حسين فى نهاية القرن ١٩، وتوفى عام ١٩٦٤، وشغل المناصب المهمة فى «وزارة المعارف العمومية»، بعد تخرجه فى المعلمين العليا، ثم سافر إلى لندن ودرس الاقتصاد وعاد ليعمل فى وزارة المالية حتى وصل إلى منصب «مراقب حسابات الحكومة».



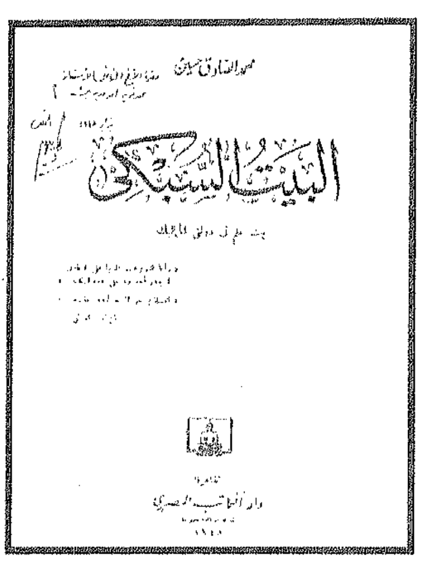


لم تشغله مناصبه الوظيفية عن إنجاز العديد من الأبحاث الأدبية والأعمال الثقافية . شارك الأب قنواتي في إعادة ترجمة «مزامير داوود» بصياغة شعرية لها مكانتها العالية، أما كتابه الممتع «البيت السُّبكي، بيت علم في دولتي المماليك»، فهو بلا شك من أهم إسهاماته في تحقيق التراث، وتحت يدي صورة من هذا العمل النادر عليها إهداء بخطه إلى: «حضرة الأخ الفاضل الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك، المخلص محمد الصادق حسين، فبراير ١٩٤٨». وهو صادر عن «دار الكاتب المصري، شركة مساهمة مصرية، ١٩٤٨»، ويتصدره مقتطفان من كلام العلامة تاج الدين السبكي، الذي ولد بالقاهرة عام ٧٢٧ هـ، ١٣٢٦م في عصر السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون، وتوفي بالطاعون في دمشق وهو في الثالثة والأربعين، سنة ٧٧١ هـ، ١٣٦٩م في سلطنة الأشرف زين الدين بن حسين ابن محمد بن قلاوون. نص المقتطف الأول تقييم ذاتي يقول فيه تاج الدين عن نفسه: «.. وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحد يرد عليّ هذه الكلمة..»

ويبلور مقتطفه الثاني جوهر جهاده واجتهاده إذ يقول: «الفلاح حر لا يد لآدمي عليه».

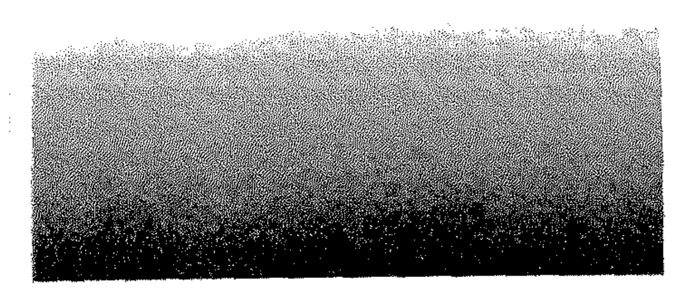
★★★

تمتد جذور الأستاذ «محمد الصادق



● تاج الدين السبكي رجل من رجال الإصلاح في مصر إضافة لعلمه ومكانته العالية.

حسين» في بلدة «سُبك الضحاك» بالمنوفية، وهو يمت بقرابة وثيقة إلى عضو هيئة كبار العلماء الشيخ عبد اللطيف السبكي، شيخ الحنابلة في مصر ورئيس لجنة الفتوى سابقا، ويمت كذلك بصلة قرابة إلى صديقه وزميله الأديب الروائي الرائد محمد فريد أبو حديد، من جهة جده لوالدته حفيدة الشيخ عفيف السبكي شيخ رواق الحنابلة بالجامع الأزهر الشريف. ولعل اهتمام «محمد الصادق حسين» بالعلامة تاج الدين السبكي، من القرن الرابع عشر الميلادي، قد بدأ من منطلق

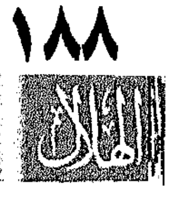


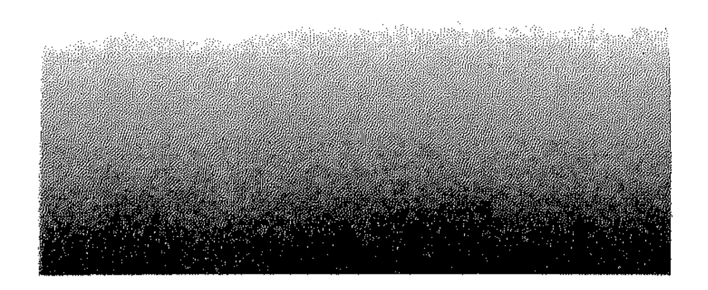
«بلدياتى»، وإن أثبت بعد ذلك أنه ليس من بلدة «سبك الضحاك»، بل من «سبك العويضات» التى لا تزال تعرف عند العامة «بسبك الحد» أى «الأحد»، لكنه يعلو عن هذا المفهوم الضيق «للبلديات» فنفهم أن افتخاره يعود إلى أن تاج الدين ووالده تقى الدين، علماء لهما شأنهما من المنوفية، من مصر!. وفى إهدائه يقدم بحثه إلى والده «محمد على حسين صاحب الفضل فى توجيه قراءتى العربية منذ صباى» وإلى «روح تلميذه خالى وأستاذى عبد الحكيم محمد صاحب هذا الفضل فى شبابى، أرشدنى رحمه الله إلى طائفة من الكتب صالحة منها: مُعيد النّعم ومُبيد النقم». ويوجه الشكر إلى «حضرات موظفى دار الكتب المصرية الذين لم يألوا جهداً فى إمدادى بالمصادر - مخطوطها ومصورها ومطبوعها - التى اعتمدت عليها فى هذا البحث».

★★★

يقع كتاب «البيت السبكى» فى ٩٦ صفحة: مقدمة وأربعة فصول: ١ - رجل وكتاب، ٢ - البيت السبكى، ٣ - سُبك وسبك، ٤ - نسبة السبكية. يوضح محمد الصادق حسين خطة بحثه فى مقدمته كالتالى: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فهذا بحث تاريخى فى السبكية، وهم تلك الأسرة المنوفية ذائعة الصيت فى دولتى المماليك، بمن أخرجت من الرجال الممتازين فى العلم وفى مناصب التدريس والقضاء.

وهو بحث أساسه كتاب: مُعيد النعم ومبيد النّقم، ومؤلفه تاج الدين السبكى، من حيث هو مصلح مصرى لمس نواحى الضعف فى حكومة الأتراك وفى طبقات الأمة لذاك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الإعجاب، ثم وصف وسائل الإصلاح وهى تدور حول قيام كل بواجبه فى دائرة عمله. حرّك فىّ الرغبة لهذا البحث، إعجابى بتاج الدين السبكى وما رأيته من أن مؤرخينا، وإن وفوه حقه واعترفوا بمكانته، من حيث هو فحل من فحول العلماء وإمام من أئمة الدين، لم يشيروا إليه من حيث هو رجال من رجال الإصلاح فى مصر، ولم يعنوا بمؤلفه الجليل فى هذا الموضوع وهو: مُعيد النعم ومُبيد النقم، ومن عنوا به من المستشرقين الذين كتبوا عن تاج الدين وغيره من السبكية، أخرجوا لنا مع دقة بحثهم صورة للكتاب ينقصها، فيما أرى، اللون المحلى، تنقصها الصبغة المصرية وعليها المعول فى إدراك الحقيقة . وقد شفعت هذا البحث باستقصاء أفراد السبكية رجالاً ونساء وذكر نبذة عن كل منهم بقدر ما تسمح المصادر التى تيسرت لى، فإنى رأيت من كتبوا عن السبكية قد اقتصروا على البارزين منهم، وفى المصادر التاريخية عدد لا يستهان به منهم وإن لم





يكونوا ككبارهم فأحببت أن تكون منهم مجموعة وافية. ثم بينت الصواب فى قرية سبك التى هم منها، وأنه خلاف ما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك طيب الله ثراه وجزاه عن أمته خيرا. واختتمت البحث بما قيل فى أن أصلهم من الخزرج. والله أسأل أن يكون بحثا موفقا . محمد الصادق حسين، الحلمية، خط المطرية فى يناير سنة ١٩٤٧».

★★★

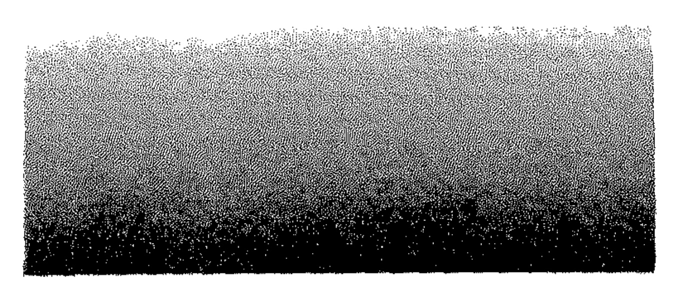
يظل الفصل الأول من «البيت السبكى»، هو بيت القصيد، رغم المعلومات الطريفة التى أوردها محمد الصادق حسين فى الفصول الثلاثة الباقية والتى منها أن كلمة «سبك» تعنى تمساح باللغة المصرية القديمة، والإسهاب فى توضيح الفروق بين «سبك الضحاك» التى هى «سبك الثلاثاء» و«سبك العويضات» التى هى «سبك الأحد».. إلخ.

★★★

يستغرق هذا الفصل الأول المعنون «رجل وكتاب» ٤٥ صفحة، أى ما يقرب من نصف الكتاب، وتتبدى فيه حماسة محمد الصادق حسين لإثبات كل سلبيات العصر المماليكى متكئا على ما بينه تاج الدين السبكى من مخالفات شرعية لأساليب الجور فى ممارسات حكم ذلك العصر، وقد كان من الممكن أن نسايره فى غضبته التى أطلق فيها العنان لتحامله على ما أسماه «نقمة الحكم التركى»، بل ونعجب بشجاعته لتدوين غضبته إبان ذروة الحكم الملكى، المحسوب على العرق التركى، عام ١٩٤٧، ونشرها عام ١٩٤٨، لولا تلك الأسطر العجيبة التى أنهى بها الفصل بعد كلامه الثرى وبحثه الشيق عن تاج الدين السبكى، حين يقول: «.. هذا وقد زالت عن مصر نقمة الحكم التركى وصار العاملون فى حكومتها من أبنائها، وقيض الله لها من الفرنسيين والإنجليز

• الكتاب إثبات لسلبيات العصر المملوكى وسبل إصلاحها ورغم قدمه فهو أمثلة حية من وثيقة حقوق الانسان التي يتباهى بها الغرب حديثا.

من ساس النيل حتى ضبطه وأمنت البلاد شر طغيانه وتقصيره، كما قيض لها من هؤلاء وغيرهم من الغربيين من كفوها الكثير من شر الأوبئة والأمراض المتوطنة ومن أنقذوا ماليتها من الإفلاس حتى لم يكد يبقى علينا إلا الروتين. فهل شكرنا النعمة وأدى كل واجبه فيما نيط به من عمل؟ لا أظن . كأننا لا نزال نحن إلى أساليب السادة الأتراك والشراكسة: نفخة كذابة وإسراف فى المظاهر الخلابة وبعد عن الحقائق واشتغال كل امرىء بنفسه،



لايزال عاكفا عليها يعبدها ويرتكب الشناعات فى سبيل توفير مطالبها حتى صارت نفوسنا الصغيرة آلهتنا الحقيرة...»

ولاشك أن تاج الدين السبكى ، وهو يصارع الإدارة الجائرة فى دولة المماليك، لم يكن يقصد أن ينحاز لفرنجة عصره وما بعد عصره، بل كان يرجو أن يثوب الحاكم المسلم إلى قواعد الحكم الشرعية بدليل قوله: «إن الله لم يول السلطان على المسلمين ليكون رئيسا آكلاً شارباً مستريحا بل لينصر الدين ويعلى الكلمة...».

★★★

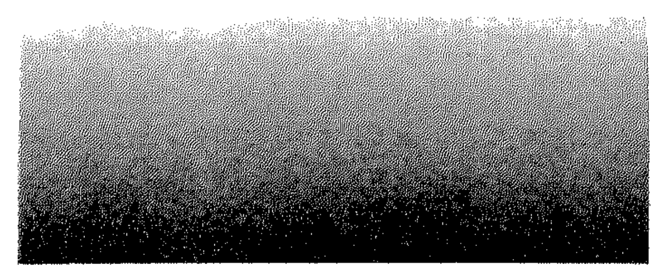
يصف «محمد الصادق حسين» كتاب «مُعيد النعم ومُبيد النّقم» بأنه «كتيب صغير الحجم كبير القيمة». ويستنتج أن تاج الدين السبكى لم يكن قد أتم وضعه فى قالبه النهائى، اعتماداً على أنه لم يدون تاريخ الفراغ منه، وأن الطاعون عاجله فمات قبل أن يتمكن من مراجعته الأخيرة، وأنه ألفه بعد اثنين من أشهر مؤلفاته وهما: «جمع الجوامع» فى أصول الفقه وقد فرغ منه سنة ٧٦٠ هـ، و«طبقات الشافعية الكبرى» سنة ٧٦٦ هـ.

وينقسم «معيد النعم ومبيد النقم» إلى ثلاثة أقسام: ١ - مقدمة موجزة فى الباعث على تأليفه ونظرية المؤلف فيما يحفظ النعم ويعيدها إذا زالت، ٢ - خاتمة موجزة فى فوائد المحنة بإنزواء النّعم، ٣ - أمثلة عملية تناول فيها تاج الدين، طبقات الأمة حكومة وشعبا وبيّن ما على كل من واجبات.

وقد أورد تاج الدين فى مقدمته جوابه على من سأله عن كيفية استعادة نعمة دينية أو دنيوية فقدت، فقال: «طريقه أن يعرف من أين أتى فيتوب عنه ويعترف بما فى المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها.... فإن النعمة لاتزول سدى وإن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. واعلم أنها لم تزل عنك إلا لإخلالك بالقيام بما يجب عليك من حقوقها...» ومن حقوق النعم الشكر، ويخصص للشكر أركانا ثلاثة: القلب، واللسان، والأفعال. ويوضح الشكر بالأفعال من خلال أمثلة فيقول: «... ونحن نرى أن نخص غالب الناس بأمثلة تستوعب معظم الوظائف التى استقرت عليها قواعد المسلمين فى هذا الزمان ونذكر ما يطالب به صاحب تلك الوظيفة ويخشى عليه سوء العاقبة بسبب التفريط فيما يكون موقظا من سنة الغفلة ومرشداً لعل الله سبحانه وتعالى ينفع به أقواما».

★★★

يستعرض الأستاذ محمد الصادق حسين لنا أمثلة تاج الدين السبكى. «المثال الأول شكر نعمة العينين، والثانى شكر نعمة الأذنين، ثم ينتقل بسرعة إلى سلسلة طويلة من الأمثلة بدأت بالمثال



الثالث وانتهت بالعاشر بعد المائة أو الرابع عشر بعد المائة - لاختلاف فى النسخ... فإذا بها جل الكتاب، وإذا بها تتناول طبقات الحكومة والموظفين من الخليفة والسلطان فنازلا، وبعض طبقات الأمة إلى أن تصل إلى من يسميه... الشحاذ فى الطرقات لله.......... ويقول بعد الفراغ من الأمثلة: والحاصل وهو المقصود أنه ما من عبد إلا ولله سبحانه عنده نعمة يجب أن ينظر إليها ويشكرها حق شكرها بقدر استطاعته حسبما وصفناه ولا يستحقرها ولا يربأ بنفسه عليها... فإن هو تلقاها بغير قبول ولم يعطها حقها خشى عليه زوالها عنه واحتياجه إليها ثم يطلبها فلا يجدها وإذا زالت فليعلم أن سبب زوالها تفريطه فى القيام بحقها...».

★★★

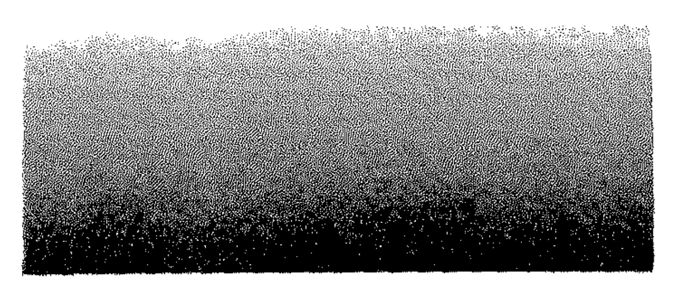
حين يضرب تاج الدين السبكى الأمثلة التى تخص رجال الحكومة فى زمانه يقول فى مثال رقم «٣»:« .... كثيراً من الأتراك يميلون إلى أول شاك، وما ذلك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم إلى أن صيرت قلوبهم كالأرض الترابية التى لم ترو بالماء فإذا أتاها ماء رويت سواء كان ذلك الماء صافيا أم كدراً ، زلالا بارداً أم كدراً حاراً، ثم إذا رويت وجاءها ماء آخر صاف حسن لم تشربه، وصار مائعا عليها فهذه هى القلوب الغافلة عن الحق». وفى المثال «٥»: يقول: «السلطان: إن الله لم



محمد فريد أبو حديد(١٨٩٣-١٩٦٧)

● يبهرنا المؤلف من على بعد سبعة قرون مضت بتوضيحه الفذ لمعنى «الحق» الذى ارتبكت دلالاته.

يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلا شاربا مستريحا بل لينصر الدين ويعلى الكلمة. ومن وظائف السلطان أن ينظر فى الإقطاعات ويضعها مواضعها..... فإن فرق الإقطاعات على مماليك اصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة وافتخر بركوبها بين يديه وترك الذين ينفعون الإسلام جياعا فى بيوتهم ثم سلبه الله النعمة وأخذ يبكى.... فيقال له يا أحمق أما علمت السبب، أو لست الجانى على نفسك؟، وإن استكثر على الفقراء ما

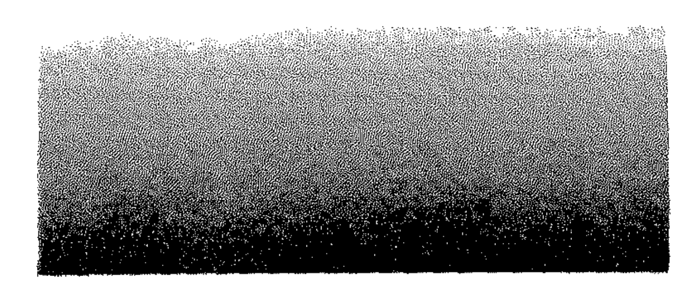


بأيديهم وتعرض لأوقاف وقفها أهل الخير، ممن نقدمه، عليهم، فهو بلاء على بلاء.. فإن ضم إلى ذلك أنه يبيعها بالبرطيل ويضعها فى غير مستحقها فما يكون جزاؤه؟.

ومن وظائفه بيت مال المسلمين، وقد قرر الشارع المصارف فيه وجعل لكل مال قواماً وقدراً فإن تعدى هذا كله وصرفه فى شهواته ولذاته وحسب أن الملك عبارة عن ذلك فلا يلم إلا نفسه... وإن أخذ يصرف الأموال على خواصه ومن يريد استمالة قلوبهم إليه لبقاء ملكه وأعجبه مدائح الشعراء لكرمه فذلك خرق. ولقد رأينا منهم - (يعنى السلاطين والحكام) - من يعمر الجوامع ظانا أن ذلك من أعظم القرب فينبغى أن يفهم مثل هذا الملك أن إقامة جمعتين فى بلد لا يجوز - إلا لضرورة - عند الشافعى وأكثر العلماء، فإن قال قد جوّزها قوم قلنا له إذا فعلت ماهو واجب عليك عند الكل، فذاك الوقت افعل الجائز عند البعض، وأما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا ليقال هذا جامع فلان، فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً» ثم يقول: «ومن أقبح البدع تقبيل الأرض بين يدى الملوك» وفى المثال ٩ عن: «الأستادار» - (وهو من يتكلم فى أقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم) - يقول: «... وعليه أن يرفق بأهل القرى ويؤدى أمانة الله التى علقها فى رقبته للفلاحين وغيرهم من رعية الأمير كما عليه أن يؤدى حق الأمير، بل إن هؤلاء أحوج من الأمير إلى الرفق بهم واعتماد الحق معهم». ويطلب من «كاتب السر» فى المثال ١٣، أن يقوم بإفهام الملك الأمور المكتوبة والتى يقوم «كاتب السر» بالتوقيع عليها عن الملك، ويقول: «.... فإن أكثر الملوك يعسر عليهم الفهم ويؤتون من قبل ذلك»!.

وفى المثال ١٦ عن «البريدية» يقول: «وكانت أئمة العدل لا تبرد البريد إلا لمهم من مهمات المسلمين، والآن أكثر ما نهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والأمتعة، وإذا ركب فقيه فرس بريد أنكر عليه ذلك وقيل... البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا من شراء مملوك مليح أو استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص أنهى عنه ما لا صحة له... ومن حق البريدي أن لا يجهد الفرس بل يسوقها بقدر طاقتها وقد كثر منهم سوق الخيول السوق المزعج بحيث تهلك تحتهم، أفما علموا أنها خلق من خلق الله تعالى؟». ويقول فى ناظر الجيش: «ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين فى الإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمى عليه وهو أمير نفسه». وفى المثال ٢٢ يتحدث عن «الجمدارية: وأكثر ما يكونون صبيانا مرداً.. يكونون مع المخدوم حتى وقت





نومه. وقد تناهت الرغبة فيهم لاستيلاء شهوة المرد الملاح على قلوب أكثر أهل الدنيا، وصارت الجمدارية تتنوع فى الملابس المهيجة للشهوات البشرية ويتزينون فى ذلك على النساء، ويفتنون الناس بجمالهم، وحرام على جمدار أن ينصب نفسه لهذا الغرض وأن يتشبّه بالنساء فيما خلقن له وليس له أن يمكن مخدومه من أن يتلوّط به ولا أن يقبله». وفى المثال ٢٩ يأتى «الحاجب»: «فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه، فعرّفه أنه باغ جهول أحمق حمار، دولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع، وهو شقى فى الدنيا والآخرة، وإذا أخذه الله لم يفلته... فإن قال حمار من هؤلاء من أين أعرف هذا - (يعنى القرآن وأحكامه) - وأنا عامى تركى لا أعرف كتاباً ولا سنّة قلنا له.. إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر.... وإن عجزت عن الفهم، فما لك والدخول فى هذه الوظيفة؟، دعها»!.

وفى المثال ٣٤ يعود ليوصى بالفلاحين: «الأجناد: فمن حق الله سبحانه وتعالى عليهم وشكر نعمته اللطف بالفلاحين، فلو شاء الله تعالى لقلب الفلاح جنديا والجندى فلاحاً، فإذا كان لا يشكر نعمة الله تعالى على أن رفعه على درجة الفلاح، فلا أقل من أن يكفى الفلاح شره وظلمه...» ولا ينسى مع الفلاحين البنائين، فيقول فى المثال ٧٤: «شاد العمائر، ومن حقه اللطف والرفق بالبنائين وأن لا يستعمل أحداً فوق طاقته ولا يجيعه، بل يمكنه من الأكل أو يطعمه.... وعليه أن يطلق سراحه وقت الصلوات فإنها لا تدخل فى الإجارة وما يعتمده بعضهم من تسخير البنائين وإجاعتهم وإعطائهم من الأجرة دون حقهم واستعمالهم فوق طاقتهم، من أقبح الحرمات وأشنع الجرأة على الله فى خلقه، وأقبح من ذلك أنهم يعتمدونه فى بناء المساجد والمدارس، فليت

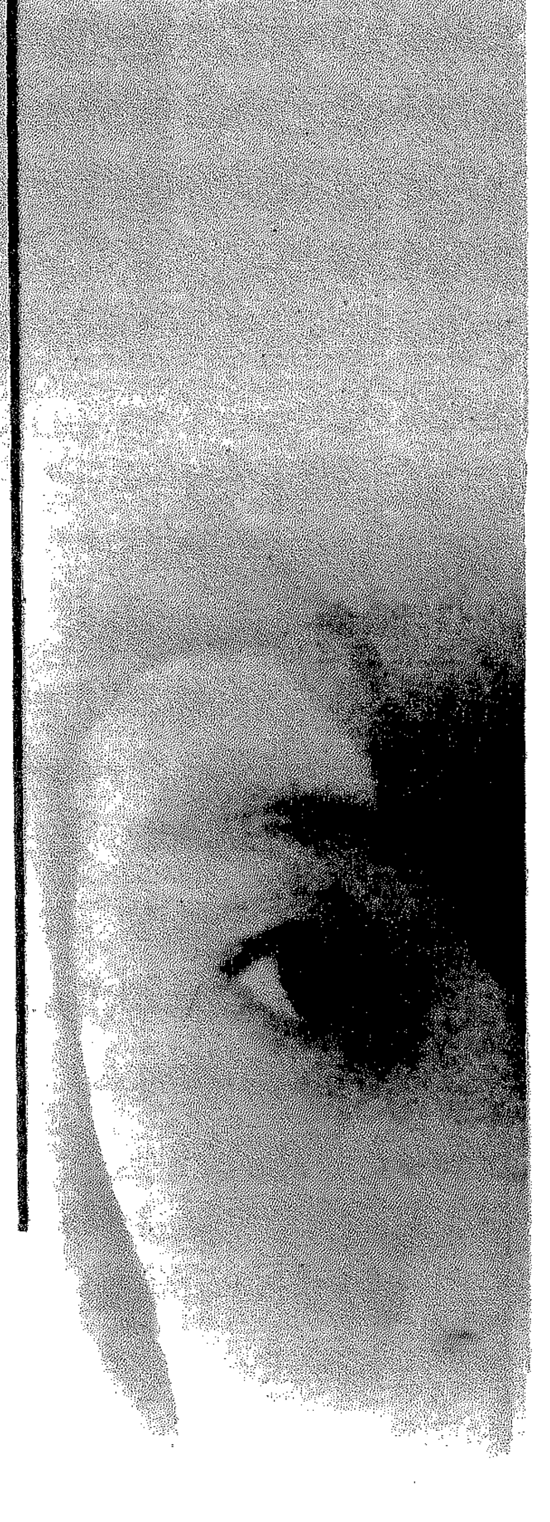
● أنجز العديد من الأبحاث الأدبية والأعمال الثقافية رغم مناصبه الوظيفية المتعددة

شعرى بأى قربة يتقربون؟».

★★★

تلك أمثلة من وثيقة حقوق الإنسان، يثبت فيها تاج الدين السبكى أولاً حق الإنسان تجاه نفسه، ألا يظلمها بظلمه لأخيه الإنسان، فتاج الدين السبكى، العالم، والمدرس، والقاضى، والفقيه، والمرجع، يبهرنا من على بعد سبعة قرون مضت بتوضيحه الفذ لمعنى «الحق»، الذى ارتبكت دلالاته واختلطت سبله. ■

الدمعة السجينة



اهبطي.. اهبطي وكوني سجية
واستقري فوق السفوح الندية
أين يادمعتي العنيدة عمر
عشت فيه مع اللقاء هنيه
كلما.. كلما ترقرقت نشوى
وعبرت المسارب الخلفية
واعتزمت الهروب من ظلمة
الكهف سجينا هفا الى الحرية
وترددت فى هبوطك حيرى
فارتفقت المشارف الهدبية
وتدحرجت جمرة تتلظى
وحصاة على فمي ملحيه
ثم أرخيت للغناء زماما
وتلاشيت فى يديّ ضحية
كلما زرتني ولامست خدى
وتألقت نجمة فضية
صفّقت للقاء أجنحة الروح
ونامت أحزانها البشرية
واستحم الفؤاد فى نبعك
الصافى وأرخى أعصابه الدموية
وتعرّى من الهجوم وليدا

شعر

جليلة رضا

هذه آخر قصيدة قدمتها الشاعرة الكبيرة جليلة رضا ، التى رحلت في صمت في منتصف شهر مارس الماضي ، بعد رحلة عطاء مديدة ، كانت فيها من أبرز الشاعرات العربيات ، حيث قدمت عطاء ثرياً تمثل في دواوينها « اللحن الباكي ، اللحن الثائر ، الاجنحة البيضاء ، صلاة الي الكلمة »...

وتجلّى قطيفة مخملية
وتغنى على لقائك حرا
وتغنى.. ويالها أغنية..!

●●●

فتعالى.. يادمعة فى عيونى
تتأبى.. عنيدة وعصية
أن روضى مستوحش وجديب
والمماشي مصفرة رملية
فاعبرى من خلال قضبانه السود
ورفى كنسمة فجرية
رطبى.. رطبى جفاف زهورى
وأعيدى دماءها الوردية
واسكبى طلك النقى عليها
وأريقى عطورك القدسية

●●●

لست ضعفا ولست دمعة ذل
بل إباء وكبرياء.. حيه
يا لكنز من الصفاء دفين
يا لنبع من راحة نفسية
إنت ريح تطوى الهشيم وتبقى
فى رياضى.. على جذوعى القوية..؟

شخصيات طواها النسيان

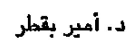
عرفت فى سكة الحياة عدداً من أهل الفكر الذين كان لهم ظهور فى زمانهم، فلما غيبهم القدر فى برديه، طواهم النسيان ولم يعد أحد يذكرهم من الذين جاءوا فى أعقابهم، وأتناول فى هذه العجالة طائفة من هؤلاء الأعلام، لعل فى التذكير بفضلهم ما ينفع الناس.

بقلم
وديع فلسطين



د. أمير بقطر

محمد عطية الابراشي



د. راشد البراوي



نقولا يوسف

د. محمد علي الغتيت

الدكتور راشد البراوى

كان الدكتور راشد البراوى أستاذاً للاقتصاد بجامعة القاهرة، وكان من أشد الداعين إلى المذهب الاشتراكى حتى قام بترجمة كتاب «رأس المال» وهو انجيل الاشتراكية، وكان واسع النشاط، يلقى محاضراته فى كثرة من المنتديات، ويشارك فى المؤتمرات، وينشر فصوله فى الصحف معبراً عن آرائه فى القضايا العامة، فضلاً عن عكوفه على التأليف والترجمة حتى تجاوز عدد كتبه الخمسين، منها قاموس اقتصادى، بل إن بعض

كتبه طبع أربع طبعات وخمساً مثل كتابه «حرب البترول فى الشرق الأوسط».

وعند قيام الثورة، كان راشد البراوى من أوائل من احتفوا بـها، فأصدر كتاباً طبع طبعتين عنوانه «حقيقة الانقلاب الأخير» ترجمه كذلك إلى اللغة الإنجليزية فلقى رواجاً واسعاً، وقد لمع نجمه مع مجىء الثورة، إذ عهد إليه فى إعداد قانون الإصلاح الزراعى، وعين عضواً فى مجلس الإنتاج القومى، واختير أول رئيس لمجلس إدارة البنك الصناعى، ولكن ، لأن الدهر قُلّب ، فقد اتهم فى قضية خاصة بالبنك قُضى فيها بإدانته، وأمضى فى السجن سنوات . ولما أفرج عنه عين بقرار سرى مستشاراً اقتصاديا فى رياسة الجمهورية، وجهز له مكتب فى قصر عابدين، وهو وإن كان اغتبط لهذا الأمر إلا أنه صارحنى بأنه كان يتمنى أن يصدر قرار تعيينه علناً كرد شرف له. كما اختاره اتحاد نقابات العمال مستشاراً له. وانصرف فى سنى عمره الأخيرة إلى ترجمة عشرات من كتب الاقتصاد والسياسة، ولكن الغريب أن الدكتور البراوى الذى بدأ حياته ماركسياً صار المترجم الأول لبرنامج الكتب الأمريكية، بل ترجم كتاباً كبيراً عن الرئيس الأمريكى لندون جونسون، وتوفى البراوى فى ١٣ مايو ١٩٨٧ وكان قد فجع فى ابنه الوحيد الذى مات مختنقاً بالغاز فى حمام بيته فى حى فم الخليج قبل أن ينتقل إلى حى الزمالك.

محمد خليفة التونسى

سمعت مؤخراً أن رسالة علمية عن محمد خليفة التونسى (١٩١٥ - ١٩٨٨) نوقشت فى كلية دار العلوم ولو نُبهت بها لحرصت على شهود المناقشة العلنية لأن التونسى هو بدوره من مظاليم الأدب الذين نسوا أو كادوا ينسون .

كان محمد خليفة التونسى من المجموعة الصغيرة التى أحاطت بأستاذنا عباس محمود العقاد إحاطة السوار بالمعصم، وكان موضع سره وثقته فى آن معاً، وكان أديباً ممتازاً وعالماً لغوياً فقيها مما كان يؤهله لعضوية مجمع اللغة العربية لولا أنه اختار أن «ينفى» نفسه فى الكويت التى عاش فيها سنوات طوالاً إلى أن أدركته منيته فى ١١ يناير ١٩٨٨ فدفن هناك حسب وصيته. ومن أعمال التونسى المهمة ترجمته لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» ، وهو كتاب ترجمه كذلك العلامة اللبنانى عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) فى جزءين كبيرين . وللتونسى دراسات أدبية مطبوعة فى عدة كتب.

وقد التقيت به للمرة الأخيرة فى مؤتمر أدبى.فى تونس عام ١٩٨٥ وكانت الشيخوخة قد حطت عليه بكلكلها حتى كان يجر ساقيه جرا وهو يمشى. ومما قاله لى آنذاك إنه فى اليوم الذى توفى فيه العقاد، استدعى من بيته على عجل - وكان يقضى فيه عطلته السنوية - فجاء للمشاركة فى ترتيبات الجنازة، ولاحظ وقتها أن عامر العقاد (ابن شقيق العقاد والمتوفى فى ١٩٨٥) يقلب فى أوراق عمه بحثاً عن ورقة معينة، فلما اهتدى



إليها قام بتمزيقها إلى قطع صغيرة. ولما سألت التونسى عن سر هذه الورقة قال إنه لا يعرف على وجه التأكيد ، ولكن لعلها خاصة بوصية كتبها العقاد أو بورقة عرفية أراد عامر اخفاءها. وبسبب ظروف الحزن والجنازة لم يحاول التونسى استيضاح عامر عن حقيقة هذه الورقة.

ومع أننى لا أحب أن أشارك فى ترويج شائعات لا أعرف حظها من الصدق، فالذى حدث بعد وفاة العقاد أن طلع علينا أنيس منصور بحكاية مؤداها أن العقاد كان متزوجا من ممرضة تعوده زواجاً عرفياً وأنه أنجب منها ابنة انتحرت حزناً على وفاة العقاد فى يوم رحيله.

ولأنه لا عيب فى الزواج - إن كان قد تم - فقد سمحت لنفسى أن أشير إلى هذه الواقعة منسوبة إلى أنيس منصور الذى يؤكدها، ولا أظن أنه كان يقصد «التشنيع» على العقاد.

الدكتور أمير بقطر

من يراجع أعداد مجلة «الهلال» على مدى فترة شبابها، يلاحظ أن الدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ - ١٩٦٦) كان من أكثر الكتاب انتظاماً فى الكتابة فيها وفى أعدادها الممتازة. بل إن دار الهلال نشرت له ثلاثة كتب هى «لا تخف» و«٢٠ سنة فى غرفة الاعترافات» و«أنت وأنا : من أين جئنا»، هذا عدا كتبه الأخرى ومنها «كيف تتعلم لتعيش» و«اتجاهات حديثة فى التربية» و«دانيمركة ومدارسها الشعبية» و«التربية فى الشرق الأوسط العربى» وقد ترجمه عن رودريك ماثيوز ومتى عقراوى، وكتابه «التطور والتوسع فى التعليم فى مصر» وقد نشره باللغة الإنجليزية.

ومع أن أمير بقطر تخرج أصلاً من مدرسة الحقوق بالقاهرة، إلا أنه أولع بالتربية وعلم النفس فكان من أوائل المصريين والعرب الذين تخصصوا فى هذين العلمين حيث نال درجة الماجستير من جامعة كولمبيا فى عام ١٩٢٤ ودرجة الدكتوراه من نفس الجامعة فى عام ١٩٣٦.

وبمجرد عودته إلى مصر، اقترن اسمه بكلية التربية بالجامعة الأمريكية فكان مديراً لها ثم عميداً منذ عام ١٩٥٢ وإلى وفاته فى عام ١٩٦٦، وعن هذه الكلية أصدر مجلة فصلية اسمها «مجلة التربية الحديثة» حررها منذ عام ١٩٢٨ وإلى عام ١٩٦٦ وشاركه فى تحريرها المتخصصون فى علوم التربية وعلم النفس سواء من خريجى كليته أو من غيرهم.



وكانت كلية التربية تقدم دراسات مسائية لتأهيل المدرسين تربوياً ونفسياً وتمنحهم درجة البكالوريوس في التربية وعلم النفس بعد عامين من الدراسة المكثفة. فالتحق بالكلية كثيرون من المدرسين طلباً للتأهيل التربوى وأصبح عدد منهم وكلاء لوزارة المعارف.

وكان الدكتور أمير بقطر متزوجاً من سيدة إنجليزية لم ينجب منها وتوفيت قبله، فبقي يقيم بمفرده فى شقة بعمارة قديمة فى حى جاردن سيتى، وهى شقة كانت مطمع صاحب العمارة الذى كان راغباً فى هدمها وتشييد ناطحة سحاب مكانها، وقد أدركت أمير بقطر الوفاة وهو يصطاف فى ريف النمسا، فشحن جثمانه إلى القاهرة، وورى فى مقابر مصر القديمة ، وبادر صاحب العمارة بالإبلاغ عن وفاة منْ لا وارث له، وعندئذ جاء مندوب بيت المال، وهو بنك ناصر، وأفرغوا الشقة من محتوياتها وباعوا الأمتعة بالمزاد العلنى، أما المكتبة الخاصة بأمير بقطر التى أفنى العمر فى جمع مفرداتها فى علوم التربية وعلم النفس باللغة الإنجليزية ، فقد رأيتها مزجاة على سور حديقة الأزبكية يسومها كل مفلس!

وكان من بين مقتنياته لوحة زيتية رسمتها له زوجة رئيس الجامعة الأمريكية، فبيعت بدورها فى سوق المزاد بأبخس الأسعار.

وكان طاهر الطناحى (١٩٠٣ - ١٩٦٧) صديقاً للدكتور أمير بقطر، وتوافق معى على أن نقيم له حفلاً لتأبينه، ونظم فعلاً قصيدة طويلة فى رثائه قدمها إلىّ لكى أقرأها باسمه لأنه كان مصاباً بفالج وخشى ألا يتمكن من إلقائها بنفسه، ولكن بسبب النكسة التى حدثت في عام ١٩٦٧ و«لا صوت يعلو على صوت المعركة» ألغيت جميع المناسبات الأدبية والاجتماعية، ومنها حفل التأبين الذى كنا نرتب له، وبقيت القصيدة عندى إلى هذا اليوم.

محمد أبوالفضل إبراهيم

منذ ما تخرج محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٠٥ - ١٩٨١) من كلية دار العلوم وقد اقترن اسمه بالتراث، سواء وهو يعمل فى دار الكتب الوطنية أو وهو يقوم بتحقيق عشرات من كتب التراث الضخام، منها «تاريخ الطبرى» و«معجم الأمثال» للميدانى و«سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون» و«ديوان البهاء زهير» و«ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب» وديوان النابغة الذبيانى و«إنباه الرواه على أنباه النحاة» و«سجع الحمام فى حكم الإمام» وغيرها وغيرها، وكتاب واحد من هذه الكتب الشوامخ كان

شخصيات طواها النسيان

يكفى لكى تسعى إليه عضوية مجمع اللغة ، ولكنها عزّت عليه.

كان أبو الفضل إبراهيم يعقد فى بيته - وهو جار لى - ندوة أسبوعية يؤمها كثيرون من الباحثين والعلماء والمستشرقين الذين كانوا يحرصون على حضورها للإفادة من علم أبى الفضل وللاتئناس بصحبته وطيب معشره وخلقه، ولكن توافره الدوؤب على تحقيق كتب التراث عزله عن المجتمع، فكان قلما يغشى ندوة أو جمعية اللهم إلا إذا كانت عنايتها منصرفة إلى كتب التراث، ولعل هذا هو السبب الذى حرم أبا الفضل من شهرة يستحقها ومن جوائز تخطته إلى سواه من «الاجتماعيين».

محمد رشاد عبدالمطلب

عصامى لا يضارع فى تثقيف نفسه بنفسه حتى صار حجة فى كتب التراث يرجع إليه حتى ثقات الثقات من العلماء. عمل محمد رشاد عبدالمطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) فى الجامعة العربية وكيلاً لمعهد المخطوطات منذ إنشائه فكان أبصر من جميع العاملين فيه بكتب التراث ومواضعها فى المكتبات فى أنحاء العالم. طاف ببلدان شتى لتصوير المخطوطات المودعة فى خزائنها فكان يستقبل حيثما حل بكل ترحاب بسبب تمكنه من مادته وسعة معلوماته، ولكن علمه الواسع كان مكنوزاً فى صدره لا على سن قلمه، ولهذا لم يترك من المؤلفات إلا «فهرس العقد الفريد» و«فهرس مؤلفات العرب المخطوطة والمطبوعة فى الطب والصيدلة»، كما حقق كتاب «ذيول العبر فى خبر من غبر». ولو تفرغ لتحقيق المخطوطات لتفوق على كثيرين من الأقران.

كان بريده الخاص أكبر من كل بريد معهد المخطوطات، يوافيه من جميع أنحاء العالم من الراغبين فى الاستنارة بعلمه ومعارفه، ولم يكن يضن بها على أحد. فالمخطوطات وأخبارها على أطراف أصابعه أو هى فى واعيته الحية، يبهر بمعلوماته حتى المتخصصين ، وكان رشاد عبدالمطلب يحتفى بكل قاصد إليه من رجال المجامع وأساتذة الجامعات ومحققى كتب التراث، فيجدون فيه ضالتهم التى تغنيهم عن البحث والتنقيب، فعاش لغيره أكثر مما عاش لنفسه. ولو احتكر علمه وأفرزه فى تحقيق عشرات من المخطوطات لكان من أبرز المحققين وأدقهم وأصدقهم.

ومع أن اهتماماتى تنأى كثيراً عن اهتمامات رشاد عبدالمطلب، فقد كنت أجد منه الرغبة الصادقة فى المساعدة والتوجيه والتشجيع.

نقولا يوسف

عمدة الإسكندرية مع أنه من مواليد دمياط، ولكنه بقى على ولائه لمسقط رأسه إلى

آخر يوم فى حياته، ولكن استقرار نقولا يوسف (١٩٠١ - ١٩٧٦) فى الإسكندرية جعله محور الحركة الأدبية فيها، يجمع حوله أدباء الثغر على مدار العام، والأدباء المصطافين فى أشهر الصيف ، وإلى جانب اهتمامه بالأدب الروائى حيث أصدر رواية «إلهام» ومجموعتين قصصيتين هما «دنيا الناس» و«مواكب الناس» ، فقد أصدر كتابين ضخمين عن «أعلام دمياط» و«أعلام الإسكندرية».

ولأن نقولا يوسف كان تلميذاً للشاعر عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) وصديقا مقرباً منه، فقد أشرف على إصدار المجموعة الكاملة لشعر شكرى وقوامها سبعة دواوين نشرت فى حياة الشاعر وديوان ثامن قام نقولا يوسف بجمع مفرداته من الصحف والمجلات . وأعانه فى مراجعة الديوان والتقديم له أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى. وقد أدهشنى أن أعرف أن المجلس الأعلى للثقافة قام مؤخرا بإعادة نشر ديوان شكرى المحقق أصلا، ولكن بتحقيق الشاعر فاروق شوشة!

كان نقولا يوسف على اتصال بريدى بعدد كبير من الأدباء فى الداخل والخارج، وكذلك بالمستشرقين وكان يحتفظ بمجموعة من رسائل عبدالرحمن شكرى فنشرها فى مجلة «الأدب» التى كان يصدرها الشيخ أمين الخولى (١٨٩٥ - ١٩٦٦) كما أن بعضاً من أصدقاء نقولا قام بنشر ما لديه من رسائله فى مجلة «الأديب» اللبنانية بعد وفاته متأثرا باستسقاء الكبد.

كان نقولا متزوجاً من سيدة يونانية أنجبت له توأماً من الإناث ، ففجع بفقد إحداهما فى صباها الباكر.

نجيب العقيقى

عمل نجيب العقيقى (١٩١٦ - ١٩٨١) اللبنانى الجنسية فى الإدارة الثقافية للجامعة العربية، ولكن الوظيفة لم تكن شاغله الوحيد، بل كان شاغله الانصراف إلى وضع الكتب الموسوعات، وأبرزها كتاب «المستشرقون» الذى صدرت طبعته الرابعة فى ثلاثة أجزاء، وكتاب «من الأدب المقارن» الذى صدرت طبعته الثالثة فى ثلاثة أجزاء، هذا عدا رواياته «أرض الله» و«برج بابل» و«تجفيف المستنقعات».

وعندما أحيل العقيقى إلى التقاعد من عمله فى الجامعة العربية، آثر أن يقيم فى القاهرة مكتفياً بزيارة قريته «كفر ذبيان» فى جبل لبنان فى فصل الصيف، على الرغم من أن المشروعات السياحية التى أقيمت حول القرية رفعت أسعار الأراضى التى يمتلكها هناك إلى رقم الملايين (طبعاً قبل انخفاض سعر الليرة اللبنانية حالياً).

ويكاد الجزء الثانى من كتاب «من الأدب المقارن» يكون المرجع الموثق الوحيد لسير الأدباء فى مصر وسورية ولبنان والعراق والمهاجر الأمريكية وفلسطين والأردن، وكذلك للأدباء الذين صاروا يؤلفون كتبهم باللغات الأجنبية . ولأن الكتاب صدر فى طبعته الثالثة فى عام ١٩٧٦، أى منذ ربع قرن، فقد صارت مادته تحتاج إلى «تحديث» لأن هناك أدباء رحلوا وآخرين استجدوا ، ولأن الآثار المنشورة أضيفت إليها آثار جديدة.

ولو مُد فى عمر نجيب العقيقى ولم يخترمه الموت بازمة قلبية فى ٢٤ ديسمبر ١٩٨١ لأخرج لنا طبعات موسعة ومحققة من كتابيه المعلمين : «المستشرقون» و«من الأدب المقارن».

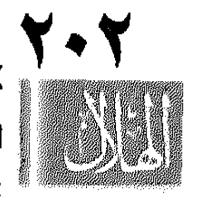
محمد عطية الإبراشى

كان محمد عطية الإبراشى (١٨٩٧ - ١٩٨١) أستاذاً مربياً جليلا يعمل مفتشاً فى وزارة المعارف العمومية، وكان يهتم بصورة خاصة بكتب الأطفال فنشر عشرات منها تتفق مع كل مرحلة عمرية. كما كان من أوائل الدارسين لعلم النفس والمؤلفين فيه. وكنت أصادفه بوجهه السمح وابتسامته الحلوة وصوته الموسيقى، فلا أراه إلا عاكفا على التأليف والتصنيف، وقد شكا لى فى المرة الأخيرة التى قابلته فيها من أن ناشرى كتبه باتوا يحاسبونه بواقع ٥ فى المائة فقط من سعر الغلاف، وهى نسبة شديدة التواضع. كما كان يسألنى كلما لقينى عن تلميذه الوفى القاص الكبير يوسف جوهر.

محمد على الغتيت

عرفت القانونى اللامع محمد على الغتيت (المتوفى فى ١٢ يونيو ١٩٨٩) بعدما كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، وكان يعمل وقتها مستشاراً قانونياً لواحد من البنوك. وبمجرد أن انتهت الحرب، قرر أن يسافر إلى أوربا لزيارة البلدان التى كانت مسرحاً للقتال كى يستطيع فى ضوء مشاهداته وملاحظاته أن يتصور عالم ما بعد الحرب، وهى قضية كانت شغله الشاغل. وكنت أجلس معه ساعات طويلة نتحدث عن مصير العالم فى المستقبل، وكان هو متفائلاً فى حين كنت متشائماً. وقد عرضت لهذه المناقشات فى افتتاحيات الجريدة التى كنت أعمل بها. وقد نشر محمد على الغتيت كتاباً كبيراً عنوانه «الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس» .

رحم الله الجميع، ولا مات من خلف وراءه كتاباً مطبوعاً. ■



كل ما يشغلني يرتبط بحفظه المكلية الفكرية في مجال المأثورات الشعبية

أحمد مرسي

مازلت أذكر ذلك اليوم من أيام الصيف ، وكأنه كان أمس أو أول إمس.. كنت أجلس الي جوار أبي - رحمه الله - علي المصطبة أمام بيتنا في القرية ، كعادته كل عصر ، وكعادة كثير من الكبار أثناء الصيف ..

كانت الأرض أمام البيت قد كنست ، ورشت بالماء كي لا يضايق التراب الذي تثيره أقدام المارة ، ومرور الماشية ، الجالسين علي المصطبة.. وكانت الحصيرة المعّدة خصيصا لتناسب طول المصطبة وعرضها قد فرشت.

كنت قد عدت من القاهرة لقضاء اجازة الصيف، مع إسرتي ، كالعادة كل عام وكان يحلو لأبي أن يدعوني كي أجلس مع الكبار من الأعمام والأخوال وغيرهم ممن يرتادون جلسة العصر هذه.. كنت أجلس صامتا أستمع لما يدور من أحاذيث وما يحكي من حكايات ونوادر وأخبار .. وحدث أن تأففت من التراب الذي اخذت تثيره الماشية العائدة من الحقول مع قرب غروب الشمس .. لم أكن أتصور أن أبي يلحظ تأففي أو ضجري، لانهماكه في الحديث مع الكبار ..





د. أحمد مرسي اثناء مناقشة إحدي الرسائل العلمية

وآذنت الشمس بالمغيب ، وبدأ الجمع الموجود فى التفرق للاستعداد لصلاة المغرب، والعودة الى البيوت لتناول العشاء.

وانتظر أبى حتى انصرف الجميع ليستوقفنى قبل أن أدخل البيت وقال - وهو ما لا أنساه الى الآن - أنا شايفك قاعد يَتْقَلَّق (قلقا متضجرا) من شوية التراب اللى البهايم حدفتهم (ألقتهم) علينا واحنا قاعدين .. اسمع (بلهجة غاضبة) التراب الى انت كنت عمّال تتقلق منه ده.. لحم اكتاف ابوك منه. وهوه اللى بيأكلك وملبسك الهدوم (الملابس) اللى انت بتتعايق بيها فى مصر .. وإن ما احترمتوش (وان لم تحترمه) مش هايبقى لك خير لا فى نفسك ، ولا فى حد.. فاهم !!

أساس تكوينى

هل يمكننى القول أن تلك العبارات ظلت مختزنة في ذاكرتى ، وأنها كانت الأساس فى تكويني، وتوجيهى بعد ذلك دون قصد للتخصص في المأثورات الشعبية .. مأثورات أهلى من الناس العاديين الذين لايتأففون من «شوية تراب»، وإنما يخرجون من هذا التراب مايقيم الحياة ، ويعمل على استمرارها ..

وهل كان لهذه العبارات أثر فى مشاركتى بعد ذلك فى العمل العام.. والاهتمام بقضايا الوطن .. ربما ..

أعترف أننى أصبت بحيرة عميقة عندما طلب منى الصديق عاطف مصطفى زميل الدفعة مدير تحرير هذه المجلة المتميزة أن أكتب عن تكوينى .. أى تكوين، فالكلمة كبيرة جداً غامضة جدا من وجهة

نظرى.. فعن أى تكوين أكتب.. عن التكوين منذ بداية الوعى - وعيى أنا بالطبع - حتى الآن .. أم عن التكوين المستمر الذى مازلت اقوم به ، وأعانى منه.. أم عما أطمح أن أكونه ، وقد يتحقق أو لا يتحقق ، فيما بقى لى من عمر ..

هل أكتب عن التكوين الإنسانى عامة، أم عن التكوين العلمي، أم عن التكوين السياسى، أم الوظيفى.. ام كل ذلك .. !!

وهل ينفصل الإنسانى عن السياسى عن العلمى.. أم أنها كلها جوانب متصلة يفضى بعضها الى بعض، ويسلم كل منها إلى الآخر ..

ظللت في حيرة شديدة، لا أعرف كيف أبدأ ، أو من أين أبدأ ..؟!

وأمسكت القلم مرات ومرات محاولا أن أبدأ.. من أى نقطة .. أو من أى زاوية.. لكننى لم أستطع .. !!

تساؤلات !!

انتابنى الشعور نفسه وأنا أبدأ رحلتى مع الدراسة العلمية بعد انتهاء مرحلة الدراسة الجامعية الأولى ، عندما عينت معيدا ، وكان على أن أدرس للحصول على الماجستير ، وأن أكتب رسالة للحصول على الدرجة ..

كانت الكتابة شيئا عسيرا مرهقا.. أجلس معتقدا أننى اهتديت إلى نقطة البداية.. فالمادة موجودة.. والخطة واضحة، والأدوات متوافرة مستكملة وأستاذى رحمه الله - يستحثنى على الكتابة .. لكن شيئا ما كان يجعلنى غير قادر على أن اكتب السطور الاولى، هل هو الخوف ؟! هل هى الرهبة باعتبارها التجربة الأولى؟! هل هو الإحساس بأننى مازال ينقصنى الكثير من المعرفة ومن التعمق فى الموضوع كى أبدأ الكتابة؟! لا أعرف .. !!

انتهيت آنذاك الى أننى يجب أن أجلس لأكتب وليكن ما يكون .. هذه هى المادة التى جمعتها .. وهذا هو ما حصلته.. وهذا هو ما فهمته .. وهذا هو ما انتهيت اليه.. وليحكم علىّ اساتذتى بما استحقه ..

كنت قد استشعرت سعادة بالغة عندما توصلت الى هذا القرار.. لكننى تبينت ان الوصول الى قرار ، رغم كل العناء والمشقة، يظل امرا سهلا، بالمقارنة بما ينبغى عمله لتحقيق القرار.. فلا الكلمات تطاوعنى ، وإذا طاوعتنى شعرت انها تخرج ماسخة بلا طعم، ثقيلة لا تعبر عما أريد ..

كنت أشعر أننى كمن يقف أمام مخزن ضخم هائل ملىء بكل ما يخطر - وما لا



يخطر - على البال، قليل الحيلة ، عاجز عن ان يمد يده ليختار مايريد ، لما يريد..

أخرجني من حيرتي الحالية .. ما أخرجني من حيرة سابقة، صوت حنون باسم ساخر، هو صوت استاذي الدكتور عبد الحميد يونس - رحمه الله - قائلا ، ما كان قد قاله من قبل ليحفزني على البدء في كتابة رسالتي للماجستير يا واد (ياولد) اكتب.. انت لن تأتي - ولن يأتي غيرك - ببيضة الديك .. اكتب يا حصان (كان استاذي رحمه الله يستخدم كلمة حصان بديلا لكلمة اخرى) .. أكتب .. واخلص .. ولا تخف ..

ربما كان الأمر آنذاك خوفا، ورهبة بحكم السن وقلة الخبرة.. لكنه ليس كذلك الآن بالطبع .. ربما هو شيء آخر.. ربما هو الحيرة كما ذكرت.. وربما كان تساؤلا مشروعا عما إذا كان هناك ما يستحق الكتابة عنه فعلاً .. !!

هل يهم أحدا أنني ابن اسرة ريفية حرصت على تعليم ابنائها مهما كلفها ذلك؟!

اظن ان هناك ملايين مثلي ينطبق عليهم الأمر نفسه ..

هل يهم أحدا انني اصبحت استاذا جامعيا ؟! أظن ان هناك آلافا حققوا ذلك وتفوقوا فيه.. ولابد لكي يصلوا الى ماوصلوا اليه ان يكونوا قد قرأوا كثيرا، وأن يكونوا قد كتبوا وألفوا ، واتقنوا لغة - أو عدة لغات - اجنبية ، وسافروا شرقا وغربا .. وشمالا وجنوبا.. وأشرفوا على رسائل الماجستير والدكتوراه ، وناقشوا كثيرا منها أيضا.. وتخرج على ايديهم آلاف من الطلاب يملأون الدنيا، ويعملون في كل مكان .. ولابد ان كثيرين منهم قد استضافته برامج إذاعية وتليفزيونية، وشاركوا في مؤتمرات وندوات ولجان ومجالس وقدموا استشارات نفذ بعضها ولم ينفذ معظمها .. الخ.. وأن كل هذا شكل - ومازال يشكل - اركانا اساسية في تكوينهم وفي وصولهم الى ما وصلوا إليه ..

خبرات كثيرة

هذه مشكلة .. ثم إن هناك مشكلة أخرى لعلها تخصني وحدي.. وربما كانت تخص آخرين غيري أيضا.. وهي ترتبط بشعوري بأنني مازلت لم أحقق التكوين الذي حلمت به، ومازال يشغلني ..

ربما يبدو للوهلة الأولى أن تكويني قد اكتمل ، فأنا واحد من أقدم الاساتذة العاملين في الجامعات المصرية.. اشغل هذه الاستاذية منذ إحدى وعشرين سنة. وقد أتيح لي أن أحصل على خبرات كثيرة نتيجة لأعمال متعددة مارستها في سن مبكرة الى جانب عملي الجامعي .

لا شك أن عملي مستشارا ثقافيا لمصر في إيطاليا في أواخر السبعينات ، ثم في اسبانيا في أواخر الثمانينات قد اكسبني كثيرا من الخبرات ، واتاح لي أن اتعلم لغات لم افكر في تعلمها..

ولا شك أيضا أن عملي استاذا زائرا في بعض الجامعات الامريكية المتميزة، والأوروبية ، والعربية، قد علمني الكثير، واكسبني خبرات، ومهارات اسهمت في

تعميق تكويني العلمي، ورؤيتي الإنسانية ، وفتح امامي آفاقا رحبة لم أكن أعرفها أو أتوقعها ..

كما أن مشاركتي في عشرات المؤتمرات العلمية والسياسية طوال مايزيد على ثلاثين عاما ومازال هذا قائما الى الآن قد صقلتني علميا.. وفتحت عيني وعقلي على الكثير .. الكثير اما العمل العام مع الشباب وبينهم وفي حقل الثقافة عامة طوال اكثر من ثلاثة عقود، علمني ، ومازال يعلمني .. وأثر ومازال يؤثر على رؤيتي في كثير من قضايا الوطن ، ومشكلاته ..

مثل شعبي أحبه !

أحب هذا المثل الشعبي المصري الذي يقول «اللي يحبي يقطعها جبال» أي أن الذي يحبو (أي يمشي على يديه وركبتيه كالطفل) ويظل يحبو، لابد أنه سيقطع الجبال.. احب هذا المثل، وأشعر بقدر هائل من الأسى والحزن ، عندما اسمع مثقفينا، وسياسيينا ، عندما يريدون ان يستحثوا همم من يتحدثون اليهم، وأن يبعثوا في نفوسهم الأمل، يستخدمون تلك العبارة التي تنسب الى ماوتسي تونج: «إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة» وهي عبارة جميلة معبرة موحية دون شك، لكنها من وجهة نظري.. أقل كثيرا، من جميع النواحي من هذا المثل المصرى الأصيل، الذي قاله مصرى مجهول، لكنه عبر به عن جوهر الوجود المصرى واستمراريته ..

ويمكن ان نستغرق هذه الصفحات في شرح ما يعبر عنه المثل رغم وضوحه الشديد .. وعلاقته بالثقافة المصرية، ودلالاته الإنسانية والتاريخية .. الخ .. لكن هذا ليس غرضنا هنا .. الآن على الاقل ..

أثر فيّ هذا المثل كثيرا .. فأكسبني إصرارا وتحديا وعنادا حتى مع نفسي .. كما كان دائما مترسبا في أعماقي.. عن وعي أو عن غير وعي.. كنت اشعر أنني في حاجة إليه.. ومازلت اشعر انني في حاجة اليه، وإلى ما يمثله من قيمة معنوية وسلوكية ..

والآن كيف أبدا الحديث عن رحلة التكوين هذه ، ومن أين ؟!

المؤكد انني لن أتحدث عما قرأت أو شاهدت أو عما أثر فيّ من كتب قرأتها أو أماكن زرتها.. أو تجارب مررت بها .. لعلي افضل أن أتحدث عن بشر عن وكلما كنت قادرا على التواصل – غير المشروط – مع الناس تعلمت منهم ، وكلما تعلمت منهم – زادت قدرتك على التواصل معهم ، وهكذا ..

البشر .. الناس هم الأهم .. هم المدرسة .. والجامعة .. هم الحياة بكل ما فيها .. هم من قال عنهم المثل الشعبي المصري «جنة من غير ناس ماتنداس ... هم الذين يعطون للجنة معناها .. على حد قول المثل ..

«أناس» أثروا في اكثر مما أثرت



يوم حفل مجلة المواكب ويظهر فى الصورة الدكتور يوسف خليف وزملاء الدفعة

الكتب وغيرها مما لابد أن تكون قد أثرت، فقد كنت – ومازلت الى حد ما – «فأر كتب» يقرض الكتب فى أى تخصص وفى أى مجال ..!!

تعلمت أن الإنسان ليس مجرد وجود فيزيقى .. وإنما هو خلاصة تجارب وحيوات وخبرات .. كل إنسان – مهما كان عمره أو قدره أو موقعه – مكتبة حية مسموعة ومقروءة ، وهكذا علمنى العمل فى جمع المأثورات الشعبية الفولكلور ..

من هنا تحولت الى شىء اشبه بالاسفنجة التى تمتص كل ما يصل اليها ، رغم مظهرها الذى يبدو وكأنها لا تحمل شيئا بداخلها .. لكنك إذا عصرتها اخرجت بعض مااختزنته ، ثم عادت لتمتص من جديد وهكذا .. ربما كنت في هذا مصريا اصيلا .. !!

ناس .. هم الجنة .. هم بالنسبة لى ما أنا عليه.. اسهموا على نحو أو آخر فى صياغة حياتى وتكوينى .. صوابا أو خطأ .. إيجابا او سلبا .. أذكر بعضا منهم هنا، ذلك أن المساحة المتاحة للكتابة لا تتسع للحديث عنهم جميعا ، ولا الزمان مناسب لذلك .

أبى ..

قرر أبى رحمه الله – ان يرسلنى الى القاهرة لأتعلم فى مدارسها ، فقد اكتشف أن الجيل السابق على من أبناء الاسرة لم يكملوا تعليمهم .. وكان تفسيره وهو صحيح ان السبب فى ذلك انهم ظلوا قريبين من القرية متأثرين بها، يتفاخرون بأنهم أبناء ملاك أراض، لا حاجة بهم للتعليم ، وانعكست الصراعات الصغيرة بين العائلات عليهم، فانصرفوا عن التعليم، وتفرغوا للمهاترات والصراعات التى لا معنى لها .. كانت وجهة نظر أبى أننى إذا

بقيت فى القرية ، فسينتهى بى الأمر الى نفس النهاية .. وكان هو يرى أن التعليم حياة ووجود .. لابد من أن يوفره لأبنائه .. ربما لأنه حرم من إكمال تعليمه لظروف خارجة عن إرادته .. وبسبب ظروف القرية وأسرته أيضا ..

مرت بنا ظروف صعبة ماديا.. بسبب ضعف إنتاج الأرض الزراعية التى نمتلكها .. ومرض أخ لى، هددت بعودتى – أنا وأخى الثانى – الى القرية توفيراً للنفقات .. ورفض أبى أن يستمع إلى نصيحة كبار الأسرة بأن نعود لنتعلم فى عاصمة المحافظة القريبة من القرية.. وأصر على أن نستمر فى القاهرة ..

سمعت هذا الحوار يدور ذات ليلة بين أبى وأمى ، فى غرفتهما ، ليلا :

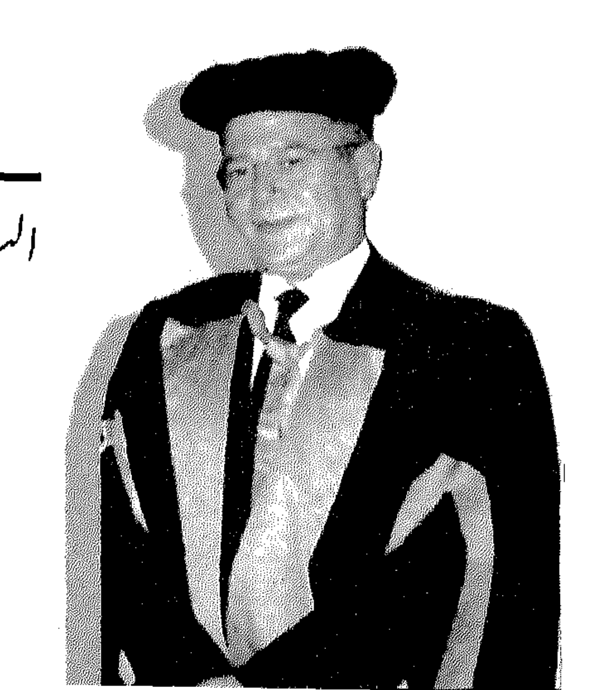
أمى : ياشيخ العرب (هكذا كان يلقب أبى) جلاليبك الصوف بقت (أصبحت)، قديمة وماعدتش (ولم تعد) تنفع .. وانت بتروح (تذهب) تهنى (تهنىء) وتعزى.. ومقامك كبير فى البلد وحوالينا (وحولنا فى القرى المجاورة) .. وأنا رايحة (ذاهبة) بكرة، مع سعد أخويا طنطا، باقول (اقترح) اقطعك لك حتتين صوف (اشترى لك قطعتى قماش صوف) تفصلهم جلاليب.. لاحسن عيب تلبس الجلاليب القديمة دى.. دى ماهياش مقامك (لا تليق بمقامك ومكانتك) .

أبى : اسمعى يا آم احمد.. أنا على المرسى.. بجلابية صوف أنا على المرسى.. بجلابية دمور (أرخص أنوا ع القماش الذى كان يرتديه الفلاحون آنذاك) أنا برضه علي المرسى .. بجلابية مهربدة (ممزقة) مرقعة، أنا على المرسى.. وفرى ياأم احمد الفلوس اللى هاتشترى بيها الجلاليب لأولادك اللى فى مصر.. لأن دول ماحدش يعرفهم هناك .. وإن ماكانوش لابسين كويس ماحدش هايحترمهم .. نامى يا آم احمد ..

***

فى صيف ١٩٦٠ وصلنى بالقرية برقية من صديق لى تهنئنى بأننى الأول على طلاب الفرقة الأولى بقسم اللغة العربية.. فرحت ، وفرح الأهل جميعا، ووزع الشربات على المهنئين .. لكن أبى لم يقل شيئا.. عبرت عن ضيقى لأمى.. فقد كنت أتوقع منه أن يهنئنى سعيدا بما حققته .. لكن ذلك لم يحدث .. قالت أمى لتخفف من ضيقى ، إن أبى فرح سعيد بالطبع وإلا فمن الذى أتى بالشربات ، ومن الذى يستقبل الأهل الذين يأتون للتهنئة.. كنت أدرك كل ذلك بالطبع، لكننى انتظر من أبى – وكنت ومازلت اجله

التكوين



واحترمه ان يقول لى «مبروك» .

شاعت الصدفة ايضا أن استمع الى حوار بين أبى وأمي حول هذا الموضوع .

- أمي : ياسي على .. احمد صعبان عليه منك ..

- أبى : ليه .. خير ..

- أصل انت ماقلتلوش مبروك .

واقول له مبروك ليه ..

عشان نجح .

ليه هوه ما كانش عايز ينجح .

وسكتت أمي .. وتعجبت أنا .. ثم نمت.

في الصباح وبعد أن انتهينا من الافطار.. وقبل أن أقوم لألقى الاصدقاء من ابناء الأعمام والأخوال كعادتنا كل يوم وجه إلى أبى الحديث قائلا :

- قل لى يا أحمد .

- نعم يا بابا ..

- انت ناقصك حاجة ..

- لا .. الحمد لله.. كتر خير حضرتك

- يعنى جيت فى يوم وقلت عايز بنطلون .. قلت لك لأ - لأ ماحصلش

قلت عايز قميص او شرز (بلوفر) او عايز تروح رحلة.. اولازمك حاجة قلت لك لأ .. قلت عايز مصروف عشرة.. قلت لك لأ .. كفاية خمسة ..

- لا يابابا .. كتر خير حضرتك .. بتقول لى لأ خد خمستاشر ..

- طيب .. لما يبقى مش ناقصك حاجة.. وعندك كل ما يلزمك وأكتر .. يبقى مطلوب منك إيه ..

- أذاكر

- ولما تذاكر .. مين اللى وفر لك إنك تقعد تذاكر ..

- حضرتك .

- يبقى مين اللى يشكر التانى ويبارك له . أنا اللى اشكر حضرتك .. و لم أنتظر حتى يكمل عبارته .. قاطعته ..

- لا أنا اللى اشكر حضرتك طبعا.. وأنا اللى أبارك لحضرتك ..

اظننى لست فى حاجة إلى بيان ما تحمله هذه المشاهد التى لا أنساها ، ولا تفارق مخيلتى من دروس وقيم .. لأننى إن فعلت اسأت من يقرأ ، واستهنت بقدرته علي التماس ما بين السطور وهو واضح اشد الوضوح ..

أمــى

هذه السيدة الجميلة الطيبة.. التى تزوجته فى سن مبكرة جدا، وجاءت بى إلى الحياة وعمرها ستة عشر عاما ، ورحل عنها زوجها - أبى - وعمرها لما يتجاوز الخامسة والثلاثين ، تاركا لها ستة من الأبناء ، بين التاسعة عشرة والسادسة ، وأحدهم مريض بذلت هى مع أبيه كل ماإستطاعا لعلاجه .

أعرف أننا جميعا نشيد بأمهاتنا، وأن كلا منا يعد أمه نموذجا فى التضحية .. وأنها تمثل الخير كله.. الأم مقدسة.. كل ذلك اعرفه.. لكن هذه السيدة التى باعت ما ورثته من ارض ، وما كانت تتزين به من مصاغ - مما يعد امانا للمرأة ، تقليديا ، فى مجتمعنا ، إزاء غدر الزمن أو الزوج او نكران الأبناء - كى نكمل تعليمنا ، وكى يعالج اخى، وكى لا يضطر أبى إلى

بيع أرضـه ، مما يعـد عـارا، وفق نظرة القرويين الى من يفعل ذلك مهما كانت الاسباب ..

هذه السيدة التى اكتفت ، ومازالت ، باقل القليل ، كى يصل ابناؤها الى ما حلمت به ، وما حلم به أبوهم .. رافعة الرأس ، كريمة على نفسها .. وعلى ابنائها ايضا .

هذه السيدة التى رأيتها لا تنام أياما وليالى .. تسند ابنها المريض الذى لا يستطيع أن يتحرك.. الى صدرها .. لاتتبرم ولا تشكو.. ولا تطلب .. من أين جاءت بهذه القوة ؟!.. من أين جاءت بهذا الرضا؟!.. ومن أين جاءت بهذا الصبر؟!

هل أنا فى حاجة إلى أن أذكر كيف أثر هذا فى تكوينى، وصياغة رؤيتى لنفسى ولغيرى؟!

أخي النجومي

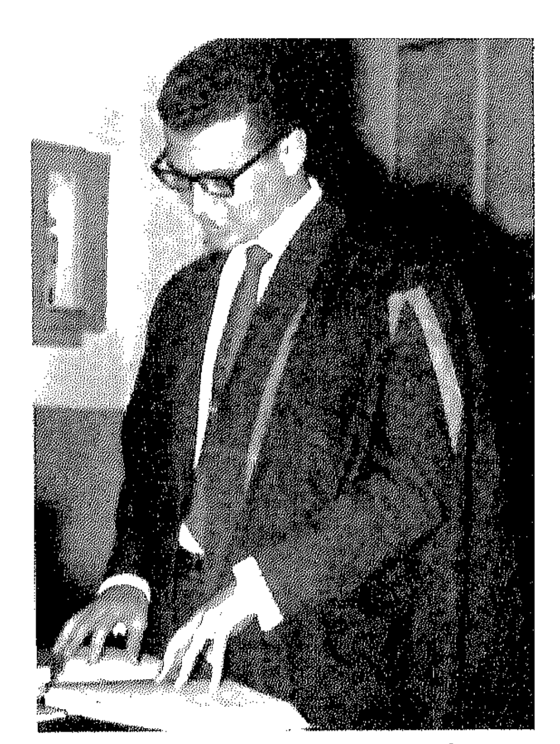
هو هذا الأخ – رحمه الله – الذى كان مريضا بمرض معروف الاسم علميا، لكن اسبابه وكيفية مواجهته ، مازالت فيما اظن – مجهولة الى الآن .

كان اقرب إخوتى الى قلبى وعقلى ، ربما لأنه كان الاكثر حاجة إلى .. ولقد صحبته، بعد وفاة ابى ، طوال اثنين وعشرين عاما ، طفنا فيها على كبار الاطباء مصريين وغير مصريين، ودخلنا فيها كثيرا من المستشفيات لإجراء عمليات جراحية مختلفة ، يقطع فيها فى كل مرة قطعة من جسمه، ولا يتوقف المرض.. كان يسير على عكازين.. وكان يذهب الى المستشفى كمن يذهب إلى نزهة.. راضيا مبتسما.. لم يكن يسأله أحد عن حاله الا وسمع ردا واحدا لا يتغير رغم كل ما به وما يعانيه .. «الحمد لله» ..

رأيته خلال تلك السنوات الكثير الكثير.. مما جعلنى أكره عيادات الأطباء والمستشفيات ، وما جعلنى لا أخشى شيئا او أخاف شيئا، قدر خشيتى وخوفى من المرض.. الموت نفسه لا يخيفنى ... لا قيمة لمال او جاه او آى شىء إزاء المرض.. الذل هو المرض ..

عصمتنى علاقتى بأخى وصديقى وابنى النجومى من كثير مما كان يمكن ان أقع فيه من لهث وراء مال او جاه .. كان هو – ومازال – الضمير الذى يراقب ويوجه ويحمى ويخفف من عناء الحياة ، رغم كل معاناته هو .. فما نفع المال او الجاه .. أكان ايهما او هما معا سيعيدان إليه ساقه التى بترت تماما فى إحدى العمليات الكثيرة التى أجريت له .. أكان أحدهما او كلاهما قادرا على وقف زحف المرض.. أكان أحدهما او كلاهما قادرا على أن يخفف من وقع هذه العبارة التى اعتاد الأطباء ان يقولوها بعد فحصه بالانجليزية ، حتى لا يعرف اخى أو أمي طبيعة المرض .. It's almost hopeless case .. «إنها حالة ميئوس منها تقريبا ..

كثيرون علمونى وأثروا فى تكوينى .. أول


أثناء مناقشة رسالة الماجستير


أمي .. السيدة الطيبة التى ضحت كى نكمل تعليمنا

معلم لى .. الشيخ عوض أبو زرد.. شيخ الكّتاب فى القرية - الخادمية «كفر الشيخ» - الذى علمنى وعلم جيلى من أبناء القرية القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وجدول الضرب، وكان أبا ومعلما، ودودا بشوشا، صارما فى آن واحد . الأستاذ الكفراوى، مدرس من جيل من المدرسين، يصعب وصفه أو شكره .. قال لنا ذات يوم :

اسمع ياولد أنت وهوّه .. لما الواحد منكم يروح يشترى شقة فول أو طعمية «ساندوتش» طبعا بتاع الفول ها يلف له الشقة فى ورقة جورنال «لم تكن الأكياس معروفة آنذاك» وأنت بتاكل .. ماترميش ورقة الجورنال .. بص فيها .. اقرأ .. يمكن تتعلم حاجة جديدة أو تستفيد معلومة تكبر دماغك، وتوسع مداركك .. وتخليك بنى آدم..» .

الأستاذ محمود موسي ناظر المدرسة التوفيقية الثانوية .. أواخر الخمسينات

كنت تلميذا صغير السن، متفوقا، مزعجا، مدللا من جميع المدرسين، رغم «شقاوتى» فقد كان يشفع لى إزاء تلك «الشقاوة الطفولية» أن المدرسة كانت تعتمد علىّ اعتمادا كبيرا فى الحصول على كأس أوائل الطلاب الذى كانت تقدمه الإذاعة آنذاك عن طريق عقد مسابقات بين مدارس مصر ..

لكن حدث ذات مرة أن تجاوزت حدود الشقاوة والازعاج المحتملين أو المسموح بهما، وقرر الأستاذ محمود موسى، ناظر المدرسة، حرمانى من دخول المدرسة أسبوعا، وضرورة حضور أبى .. كانت أية عقوبة يمكن أن توقع علىّ، أو حتى الموت نفسه، أيسر علىّ من أن يعرف أبى بما

فعلت، ومايترتب على ذلك من حضوره الذى كنت أعرف ماذا يعنيه ذلك بالنسبة له .. انتابنى خوف شديد، وخرجت من حجرة الناظر باكيا .. لا أعرف ماذا أفعل؟! ذهبت إلى المدرس الذى يشرف على أوائل الطلاب، وحكيت له ماحدث باكيا معتذرا، مقسما ألا أعود لمثل مافعلت أبدا .. ورق المدرس لحالى، بعدما وجه إلىّ اللوم الضرورى، وصحبنى عائدين الى حجرة الناظر ليتوسط لديه فى الصفح عنى، والوعد بأن هذه آخر مرة . دخلنا إلى حجرة الناظر ودار الحوار التالى الذى مازلت أذكر تفاصيله كلمة كلمة .

المدرس : معلهش ياحضرة الناظر .. أحمد دا ولد كويس .. هوه شقى شوية ..

الناظر : الولد دا لازم يتأدب ..

– معلهش ياحضرة الناظر .. على ضمانتى المرة دى.

– مافيش معلهش .. فيه أدب .. فيه احترام .. دا ولد قليل الأدب ولازم يتربى.

– أنا مسئول عنه ياحضرة الناظر .. ومعلهش سامحه المرة دى.. وهوه هايمشى كويس بعد كده .. وإذا حصل منه حاجة بعد كده .. يتفصل نهائى .. وبعدين فيه حاجة مهمة ياحضرة الناظر ..

احنا عندنا آخر مباراة على كاس أوائل الطلبة بعد يومين .. وحضرتك عارف .. أحمد دا بنعتمد عليه أد إيه .. من غيره نخسر الكاس ..

– نخسر الكاس يا أستاذ .. أنا مايشرفش المدرسة أن ولد زى ده قليل الأدب هوه اللى يخليها تكسب .. مش عايزين الكاس ولاعشر كاسات .. الولد دا لازم يعرف إن التلميذ تلميذ وإن المدرس مدرس .. وفيه حاجة اسمها كبير .. ويعرف يعنى إيه احترام الكبير .. واحترام اللى بيعلموه .. لازم يعرف يعنى إيه مدرسة .. لازم يجيب أبوه أو ولى أمره .. عشان يربيه أو يساعدنا فى تربيته .

– خلاص ياحضرة الناظر .. اعتبرنى ولى أمره .. واللى سيادتك تأمر بيه يتنفذ.

– خلاص ييجى المدرسة، ولابد من عقابه قدام زملاته .. عشان يبقى عبرة لغيره .. ومايشاركش فى أوائل الطلبة .. مايهمنيش الكاس .. إنما يهمنى الأخلاق .

خسرت المدرسة الكأس .. وكان يوما لاتنفع أى كلمة أعرفها فى وصف شعورى يومها بالحزن .. لكننى تعلمت من أستاذى محمود موسى رحمه الله إن كان فى رحابه، ومتعه الله بالصحة إذا كان حيا .. جزاء ماعلمنى ..

أستاذي د. عبد الحميد يونس

أستاذى الدكتور عبد الحميد يونس .. الذى أدين له بالكثير .. فما أتاحه لى بصحبتى له سنين طويلة يحتاج إلى كتاب كامل .. ولا تفى به صفحات محدودة .. يكفى أن أذكر ماقاله لى ذات يوم – وأنا مازلت فى بداية الطريق – اسمع يا واد .. سأقول لك ما قاله لى من قبل أستاذى المرحوم الشيخ أمين «أمين الخولى» وضع



التكوين

ما سأقوله لك حلقة فى أذنك .. احفظ هذه المعادلة جيدا .

ط = أ + ز.

فلما سألته عن معنى المعادلة . قال «الطالب يساوى الأستاذ زائد الزمن» إنك إذا أصبحت مثل أستاذك.، فمعنى هذا أننا لانتقدم، وأننا «محلك سر» وإذا أصبحت أقل من أستاذك فهذه مصيبة، ومعنى هذا أن نرجع إلى الوراء .. إن عليك أن تكون خطوة بعد أستاذك .. تضيف إلى مافعله، وتبنى عليه .. هذا هو مايجب أن يكون .. وينبغى أن تعرف أن الأستاذ العظيم إنما يقوم به طالب عظيم..»

لا أظننى فى حاجة إلى التعليق !!

هل يمكن القول إن ماحكيته يشكل بعض أسس التكوين ... أظن ذلك !!

وسأستأذن فى القفز إلى تكوين حالى أحاوله، خاصة أنه بالنسبة لى على الصعيد الوطنى، وعلى الصعيد الشخصى أمر بالغ الأهمية لأنه يرتبط بالحاضر والمستقبل، خاصة فيما يثار الآن عن «العولة» و«اتفاقيات الجات» ومايترتب على كل ذلك من تغيرات حادة ستشهدها المجتمعات الإنسانية، إن آجلا أو عاجلا . والموضوع الذى يشغلنى الآن هو مايرتبط «بحقوق الملكية الفكرية فى مجال المأثورات الشعبية» فى إطار الاهتمام العالمي الآن بهذا الموضوع .

لقد بادرت الدول النامية، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضى بالمطالبة بضرورة توفير الحماية لمواد الفولكلور والمعارف الشعبية، وهو ما نصطلح علميا فى ثقافتنا العربية على تسميتها «المأثورات الشعبية» وذلك عن طريق جمعها وتصنيفها وتوثيقها بهدف منع استغلالها دون مقابل .

وفى هذا المجال فإن هناك من يرى أن طبيعة المواد الفولكلورية ، والمعارف الشعبية «المأثورات الشعبية» باعتبارها كلها ميراثا ثقافيا، وتعبيرا عن شخصية وثقافة شعب معين أو جماعة معينة، وتعد فى حد ذاتها عائقا أساسيا أمام توفير الحماية بأشكالها التقليدية المعروفة.

ويأتى هذا فى المقام الأول - تبعا لوجهة النظر هذه - من أنه ليس هناك شخص بعينه يستطيع إدعاء ملكية هذه المواد، وطلب الحماية لها، على أساس أنها مجموعة أنظمة من الحقوق المتوارثة، تخص الشعب أو الجماعة .

هذا بالإضافة إلى أن هناك صعوبات سياسية وفنية كبرى تقف حائلا دون



د.أحمد مرسي

- خريج كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية سنة ١٩٦٣
- يعد من أقدم الأساتذة العاملين فى الجامعات المصرية
- عمل مستشاراً ثقافيا لمصر فى ايطاليا أواخر السبعينات وفى أسبانيا أواخر الثمانينات
- عمل استاذا زائراً فى بعض الجامعات الأمريكية المتميزة والأوربية والعربية
- شارك فى عشرات المؤتمرات العلمية والسياسية طوال مايزيد على ثلاثين عاما .

تحديد دقيق للمواد أو المصنفات الفولكلورية والمعارف الشعبية بجميع أشكالها، من جانب المتخصصين فى كل مجال من المجالات التى تشملها هذه المصنفات وبالتالى يمكن إدراجها ضمن إطار قانونى يسمح بفرض عقوبات محددة على مايعتبر حقوقا للغير.

والحقيقة أن قضية حماية هذه المواد من القضايا الشائكة فى مجال الحماية الفكرية، باعتبارها أولا : قضية ذات طبيعة عالمية، وثانيا : لوجود صعوبات متعددة ترتبط بتحديد صاحب الحق فى الملكية الفكرية لهذه المواد، وثالثا: لأن هذه المواد ذات طبيعة خاصة تختلف عن غيرها من المواد والمصنفات الفكرية والفنية والعلمية التى تشملها قوانين حماية الملكية الفكرية.

إننا نرى أن هذه المشكلات والصعوبات ناشئة – فى المقام الأول – من أن هذه المواد والتعبيرات المطلوب حمايتها، لم تجمع جمعا علميا منظما فى بلدنا، وبالتالى لايوجد أرشيف يقوم على توثيق هذه المواد وحفظها وصونها، ومن هنا فإن الجهد ينبغى أن يكون مضاعفا لتجميع وحصر وتوثيق وتصنيف هذه المواد، ونعنى بها مواد المأثورات الشعبية، التى لايختلف المتخصصون عليها، مهما اختلفت الثقافات والمجتمعات، وعلى ذلك فإن إنشاء الأرشيف يصبح هو الخطوة الأولى والأساسية لتحقيق الحماية والصون بالمعنى الأوسع والأشمل، قبل أن نتحدث عن الحماية القانونية ضد الانتهاب وسوء الاستخدام، ونحن نرى أن هذا لن يتحقق دون أن يتفق – ولا نقول أن يجمع – المتخصصون فى المأثورات الشعبية «الفولكلور والمعارف الشعبية» على تحديد واضح، على الأقل، فى إطار الثقافة الوطنية التى نتمنى إليها، للمواد التى يرون أنها فى حاجة إلى الحماية.

أما الخطوة الثانية من وجهة نظرنا فهى تحديد أكثر دقة للعناصر الجديرة بالحماية، وهنا لعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة لمناقشاتها فربما ساعدت الاجابات التى يتم الاتفاق عليها فى حل كثير من المشكلات العلمية، ومن ثم القانونية:

– هل الأجدر بالحماية المأثور الأقدم، وماهو معيار القدم؟

– هل الأجدر بالصون المأثورات الحية المتداولة بين الناس والتى يخشى عليها من الضياع نتيجة تأثير وسائل الاتصال الحديثة من راديو وتليفزيون .. إلخ .

هل يكون المعيار الأخلاقى مثلا محددا لما هو جدير بالحماية، دون النظر إلى أى اعتبار آخر ؟

منذ عدة سنوات ، وأنا لايشغلنى إلا التعرف على القوانين الخاصة بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، وكل مايرتبط بالملكية الفكرية التى تعد من وجهة نظرى أهم ماتفرضه اتفاقيات الجات.. وأحاول مع زملاء يقلقهم الأمر أن نصل إلى طريق نطمئن إليه، وإلى أنه سيؤدى بنا فى النهاية إلى الحفاظ على مأثوراتنا الشعبية وحمايتها، وتأكيد ملكيتها لأصحابها الناس ..

وهنا تنشأ الصعوبة الكبرى التى نجتهد فى ايجاد حل لها





أثنا اللقاء مع الملك خوان كارلوس ملك إسبانيا

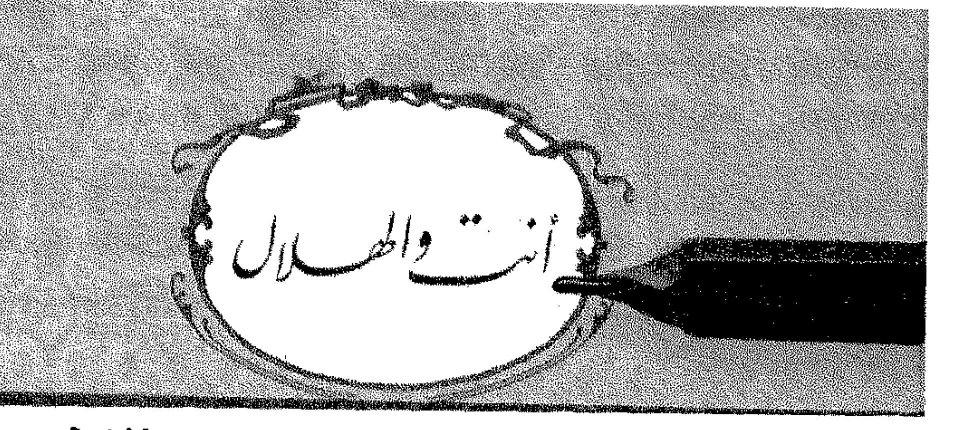
إننا نقترح، قياسا، على ماورد فى الاتفاقيات والقوانين الخاصة التى تنظم حقوق الملكية الفكرية مايلى:

أولا : مادامت ملكية الفولكلور والمعارف الشعبية «المأثورات الشعبية» ملكية عامة، لأنها بطبيعتها لاتخص فردا بعينه، ولايستطيع فرد أن يدعى ملكيته لها، وإنما هى ملكية للجماعة أو المجتمع، فإننا نقترح أن تكون الدولة باعتبارها الكيان السياسى والقانونى الممثل لأفراد المجتمع وكيلا لهؤلاء المؤلفين الشعبيين المجهولين، ممثلة فى أرشيف وطنى لهذه المأثورات تنشئه وتقوم على توفير الامكانات البشرية و المادية الضرورية للجمع والحفظ والتصنيف والأرشفة.

ثانيا : يترتب على إقرار هذا المبدأ، اعتبار المؤدين سواء كانوا رواة سير، أو مغنين شعبيين، أو رواة حكايات، أو صناعا شعبيين، أو معالجين شعبيين .. الخ، نوابا على المؤلف الأصلى، وتطبق عليهم فى هذا الصدد المواد القانونية المتضمنة فى قوانين حماية الملكية الفكرية وفى هذه الحالة من الضرور أن تتضمن القوانين المحلية للملكية الفكرية قواعد توزيع العوائد المادية، وفقا لنسب محددة، يشترك فيها الأرشيف والجامعون والمؤدون.

هذا آخر ماشغلنى ويشغلنى وماجعلنى أقرأ، وأشارك فى حضور مؤتمرات، وورش عمل فيما يتصل بهذا الموضوع الحيوى الهام الذى يمس جوهر ذاتيتنا الثقافية .

وكل ما أرجوه أن يجد الاهتمام الذي يكافىء أهميته وخطورته. ■



مجلة العرب الاولى

نتوقف طويلا عند قضايا الثقافة التى تطرحها الهلال، وهذا التنوع الذى نشهده فى الموضوعات المختارة التى تحقق لنا المتعة ونظل نقرآها على مدى شهر كامل فى انتظار العدد الجديد، وما يحمله لنا من موضوعات أراها فى غاية الاهمية لأنها تناقش قضايا معاصرة، نهتم بها نحن الشباب.. خاصة فى مجال الكمبيوتر والانترنت ، وتلك الموضوعات المهمة التى يتناولها الكاتب والعالم الكبير الدكتور أحمد مستجير ، ولابد أن أشيد بمقالات الدكتور مصطفى سويف الذى يفلسف لنا ما مر فى حياة مصر من أحداث جسام، ورؤيته الثاقبة لهذه الأحداث وتعليقه عليها بشكل يؤكد لنا عمق نظرته وخبرته الطويلة كأستاذ جامعى له مؤلفاته التى يعتد بها.

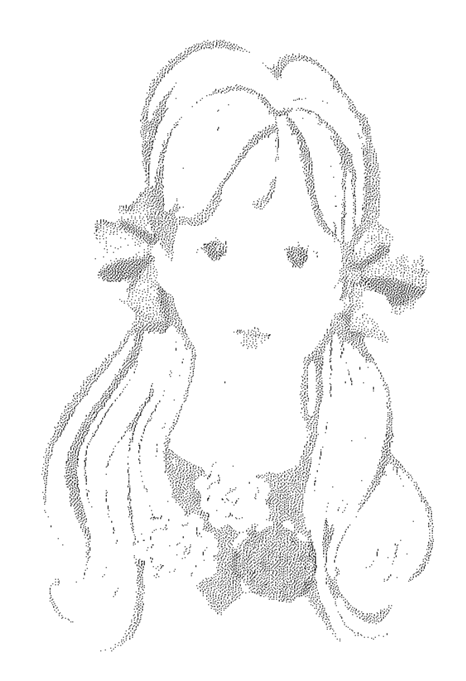
لكن يأتى إلى صديقى يحدثنى، ترى هل زاد ثمن نسخة «الهلال» وياترى هل يعود إلى أسعاره القديمة وأتعجب .. كيف يتوقف عند ملاحظة كهذه ونسى أن يرى هذا التطور فى اختيار المادة، وتنوعها ، فضلا عن الاهتمام الشديد بالإخراج ونوع الورق، حتى أصبحت «الهلال» بحق هى مجلة العرب الأولى، تواصل دورها التنويرى.

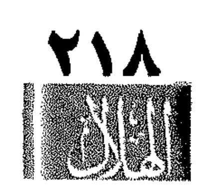
نود المزيد ونحرص على اقتنائها ، فإلى الأمام.

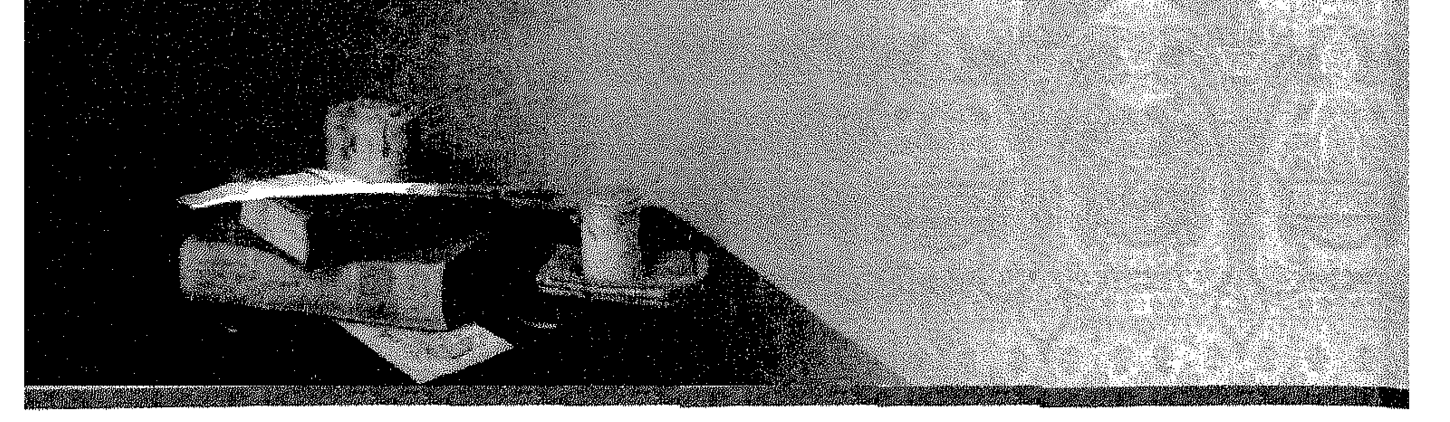
صلاح المغربى
بلقاس - دقهلية

نور العيون

تطحن الحب وتطهو الأمسيات
فى فطائر
من مشاعر
تعصر التفاح ممزوجا بتعبير مسكر
وتصب الكأس عنبر
من حكاياها القديمة
وتحيل الليل ذى الستر الموشى
حلم شاعر
وبساتين جميلة
وخميلة
تحمى أفراخا وتلقى
بظلال من حنان
وتحيل الريح أنساما عليلة
وصباح اليوم يسعى
خطوها نحو الحياة







تمنح الأطفال أسباب الحياة
تمنح الدم لشريان الحياة
تنزف اليوم تفاصيل الحياة
تتهاوى قلعة الحب تسلم
بعد أن جفت ينابيع الحياة
فى العيون
لن تهون
استحالت دمعة بين الجفون
أصبحت فى العقل والقلب شجون
روحها فينا ودم القلب ينبض
لن تهون
كونها كل لجزئى
كونها نور العيون

د. حسنة عبد الحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

فن الزجل والمونولوج

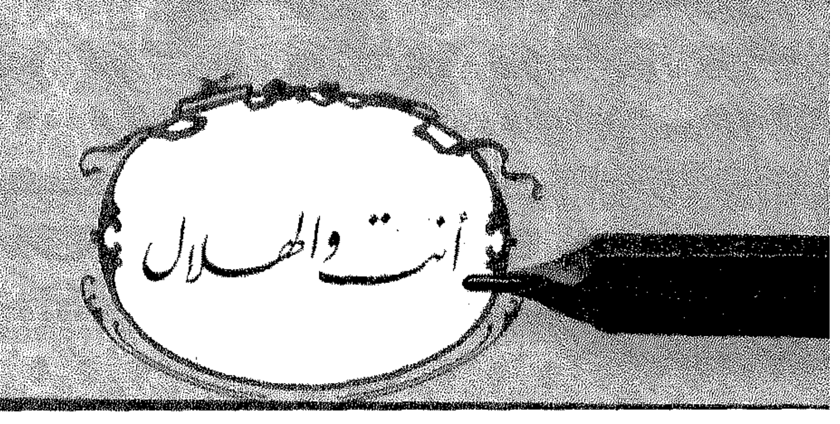
مجالات التعبير بالزجل رحبة واسعة قلما يتسع لها شعر الفصحى نظراً لارتباط الألفاظ العامية المستخدمة فيه بواقع حياتنا اليومية المعيشية، والتصاق هذه الألفاظ بمفاهيمنا مما يعطى للغة الزجل تفوقا فى مجال التعبير خاصة بالنسبة للذين لايستطيعون استيعاب شعر الفصحى . ومن هنا ارتبط فن الزجل بفن المونولوج.

وكان لفن الزجل إسهامات وطنية مؤثرة فى إذكاء الروح الوطنية إبان ثورة ١٩١٩، وكذلك فى المواقف الوطنية للشعب المصرى فى فترات تولى الحكومات المناوئة للروح الوطنية فى الكفاح ضد الانجليز قبل جلائهم عن مصر عام ١٩٥٣.

وأبرز زجالى التاريخ المعاصر بيرم التونسى وبديع خيرى ثم محمد مصطفى حمام وأبو بثينة وابن الليل وأبو السعود الابيارى وجليل البندارى، والأربعة الأخيرون يعدون من أبرز مؤلفى المونولوج خاصة فيما أداه اسماعيل ياسين وشكوكو وسعاد أحمد وثريا حلمى وغيرهم.

وكان توقف صدور مجلة (البعكوكة) راعية هذا الفن فى مصر فى أوائل الخمسينات ضربة قاصمة لهذا الفن الجميل إلى أن ظهر صلاح چاهين فى أواخر الخمسينات فانعشه بعض الشىء - حتى توفى .

يحيى محمود حسين
القاهرة - مصر الجديدة



حبيبتى

ياشـــمعة ضـــاءت لـــى كل الدجـــى
وتفتـــحت أزهارهـــــا برضـــــاكى

وترنمـــت كـــل الطيـــور .. حبيبتـــى
غنـــت على أوتارهـــــا اهــــواكى

كل البـــلابل يعرفـــــون لصــــوتك
دفئـــاً وألحـــاناً وعــــودا «باكـــى»

ياوردة بعثـــت أريـــــج محبـــة
وتنفســت كـــل الطيــــور هـــواكى

وترنـــم الكـــروان فيـــك بصـــوته
وتذكـــــر اللـــــه الـــذى ســواك

وتنفس الصـــبح المضـــىء بنـوره
من لحظـــك الفتـــان والفتــــاك

صمت اللســـان عن الكـــلام تأدبـاً
واهتــــزت الأغصـــان حين لقـــاكى

وترقرقـــت عينـــاى بالدمــع الذى
يبديـــه قلـــب حبيبـــك المشـــتاق

وتسمرت قدمـــاى فـــى دار الهوى
واستنشـــق القلـــب الغـــريم شـذاكى

أحمد نادى بهلول
المندرة بحرى - ديروط

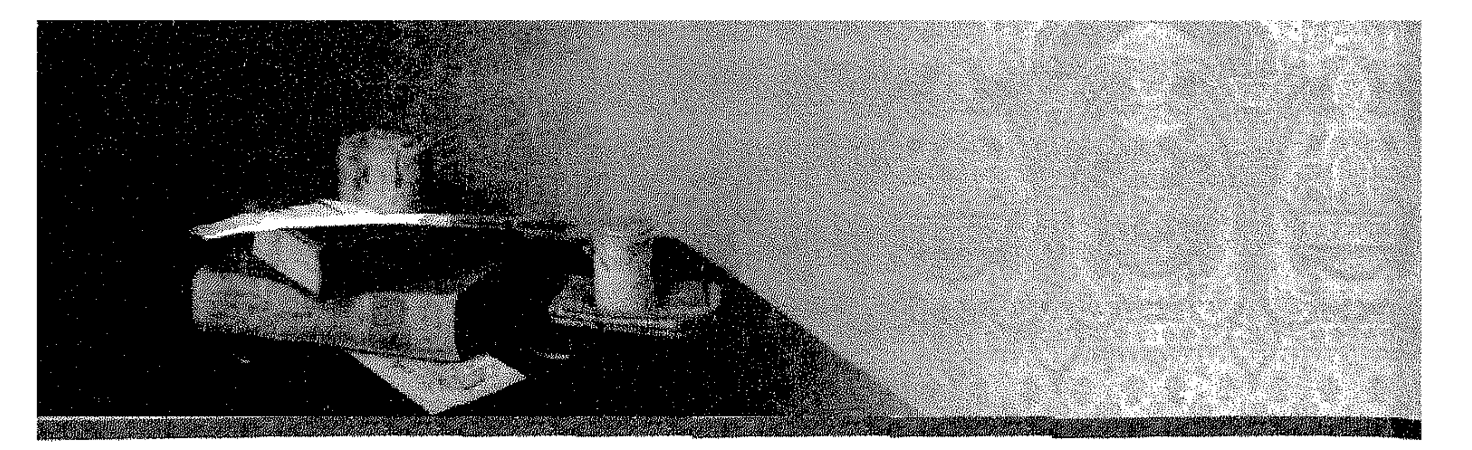


رحيل الفنان محمود بقشيش

فقدت الحركة الثقافية والتشكيلية العربية واحداً من أنبل فرسانها هو الفنان. محمود بقشيش حيث كان نموذجا للفنان المؤمن حقا برسالته وبقضايا أمته.

حصل محمود بقشيش على جائزة الدولة التشجيعية فى الرسم عام ١٩٨٧، كما حصل على جائزة التحكيم فى الرسم فى بينالى القاهرة الدولى الرابع، عن لوحات مرسومة بأقلام الرابيدوجراف.

تضمنت كتاباته انحيازات وتوجهات ومعارك صريحة عشق منذ صغره خامة الأقلام الرصاص، وعدها خليقة بتحقيق وعدها المأمول بالحرية، فاقام لها معرضا كاملا بأتيليه القاهرة سنة ١٩٧٧، أطلق عليه اسما لافتا للنظر والانتباه ، هو العودة إلى



البدهيات، وكأنى به يخوض معركة المفهوم والتأسيس، أو المادة والشكل ضد الصورة، حيث الصورة هى الشكل الأخير بلغة أرسطو، من هنا اكتشف بقشيش مدينة سيوه، وأطلالها القديمة المتداعية فى مطلع الثمانينات.

أسهم فى إصدار مجلة سنابل مع الشاعر محمد عفيفى مطر كما كانت كتاباته فى الهلال نوعاً من النقد الهادف البناء الذى ينير الطريق إلى جيل من الفنانين..

فسلاما على روح بقشيش الطاهرة بعد رحلة من العطاء فى مجالات الفن والثقافة.

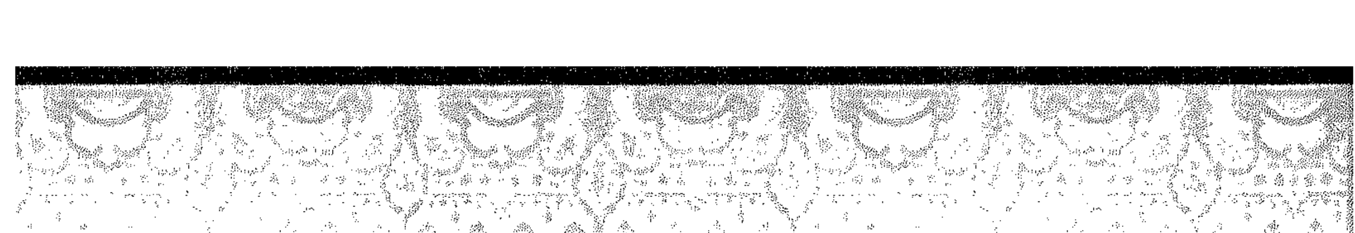
أسامة عرابى - القاهرة

ذات مساء



من سبع سنين ذات مساء
كادت ترمينا الأقدار
بسهام الفرقة والاعصار
كادت تنفينا / تشطرنا
كى تصهرنا فى بوتقة النسيان
تنفينا بقصر التيه
بقرب أشواك الصبار
كى نفقد أحلي امانينا
وحتي ننسى ماضينا
فتواجهنا بخطايانا الموءودة
وتمزقنا احلام الغد
فننسي حوار اغانينا
لكن قوانا اجتمعت
عادت ثم انتلفت
من بعد خصام
صار يضام
عاد الحب يجمعنا
عن حب هم يضيع
فتلاشت أيدى الخطر الممتد
وراحت كسراب التيه

عصام شريف- الجيزة



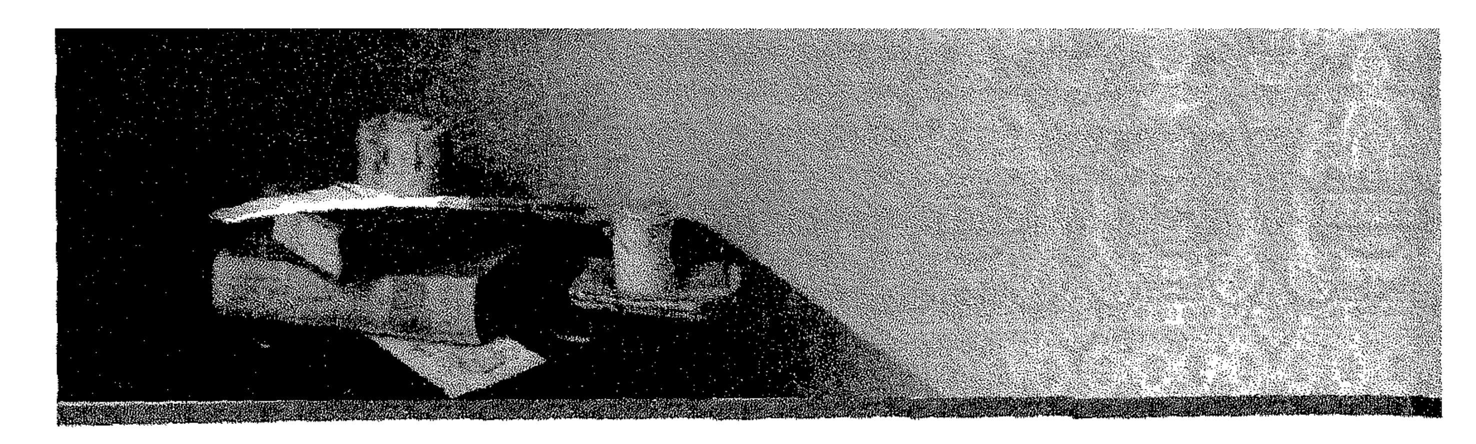
اقفل الراديو

قصة قصيرة

ليس من الأهمية فى شىء أن تكون الأزرار متحدة النوع، مادام واضحاً أن لون الجلباب واحد، تلك البقع الشاحبة التى تتعاون لترسم دائرة على كل كتف ، يستطيع المتأمل المدقق أن يكتشف أنها بفعل الطبيعة ... ما ألعن أن يدمن الإنسان طعاماً واحداً، ترى هل يشقى «البهوات» بأكلهم اللحم يومياً كما نشقى نحن بأكل الجبن ثلاث مرات يومياً معظم السنة، ومرتين يومياً فى موسم نضج الباذنجان والفلفل ..؟... اللحم!!... أذكر بوضوح آخر مرة ذقته فيها .. يومها أعلن فى البلدة عن قدوم بعثة حكومية «لتعفير» بيوت الفلاحين ... كانت الحكومة وقتها تحارب القمل والبق والبراغيث اللعينة التى تمتص دماءنا فى شراهة «وتنط» بعيداً دون أن نتمكن من الإمساك بها .... يومها ... - يوم أن ذقت اللحم آخر مرة - ماتت عنز جارتنا أم العز بعد أن أكلت حشائش حملتها إليها صاحبتها من حقل مرشوش بالمبيدات الحكومية..

- ومازالت اللجنة الاقتصادية المشتركة المشكلة من الأحزاب السياسية تواصل اجتماعاتها للبحث عن بدائل إلغاء الدعم، ومن المنتظر أن ..

- اقفل الراديو ..
- فيه مباراة بعد النشرة يابا .
- فيه إيه ؟
- مباراة ....
- إيه؟
- لعب كورة يابا ...
- كورة إيه ؟ اقفل الراديو يا ابنى ......
- لا يابا ... اعمل معروف .... دى مباراة قومية.
- مين؟
- مصر هتلعب يابا ....
- يابن الكلب ... هو احنا مافيش ورانا حاجة غير اللعب؟
- يابا ... اعمل معروف.



بعد غد السبت ... يكون قد حل موعد القسط الأسبوعى ..جنيه وريال من ثمن الجلباب، جنيه ونصف من ثمن الراديو ، الراديو ترف لم يكن لازماً لولا زوجتى المريضة التى تحتاج إلى تسلية، يقضى الولدان الكبيران يومهما فى مقاومة اللطع فى حقول القطن، وهى وحيدة فى المنزل وهذا «المفعوص» ليس يعنيه شىء سوى اللعب ، المدارس تفسد الأطفال الآن، إنهم يعلمونهم في المدارس «الكورة» ويطلبون منهم شراء «فانلات» وهذا مايغيظنى.

طبيبة الوحدة الصحية رفضت بقاء زوجتى فى المستشفى نهائياً حجزتها أسبوعاً ثم طردتها فطابور المنتظرين للحجز أكبر من عدد سرر المستشفى، معظم المنتظرين دخول القسم الداخلى سينعمون بأكل الرز، لاأنسى طعمه يوم حجزوا زوجتى.

حتى البرشام الذى كانوا يوزعونه على المحجوزين قيل لنا إن فيه غذاء وشفاء وصحة..

– وتؤكد الحكومة أنه لامساس بمحدودى الدخل ... وأن الإجراءات التى يقترحها صندوق الـ ..

– يابا اعمل معروف سيب الراديو .. مصر هتلعب بعد النشرة.

هل تلعب مصر فعلاً؟ مؤكد أن هذا الولد يعبث بى ... إن الحكومة لايمكن أن تلعب أخواه الكبيران يكسبان لأنهما لم يلتحقا بالمدرسة أما هو فليس يهمه غير ...

– الله يخرب بيتكم ... كورنر تانى؟

– يخرب بيت مين يا ولد ؟

– الله حى .. هوب .... هوب .

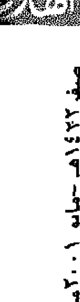
– انت يابجم ؟

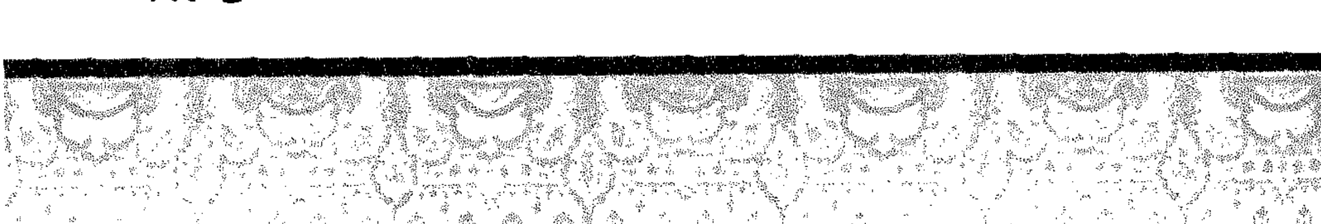
– يا مسهل .. ياللا ..

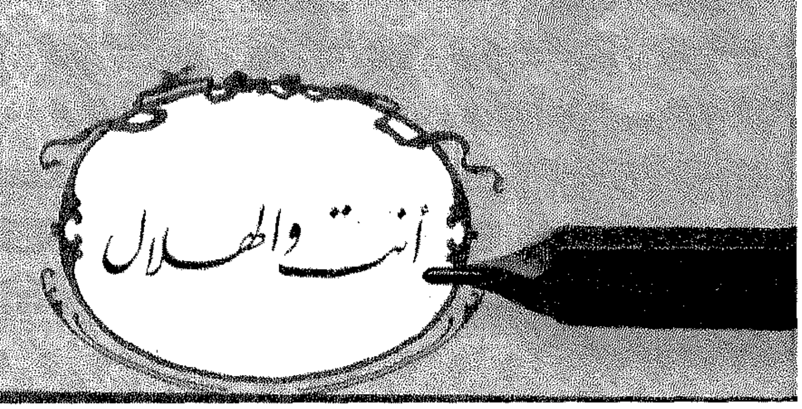
– ....

– يابا اعمل معروف سيب الراديو ... مصر بتلعب حلو ..

د. مصطفى رجب







المنفى .. المقيم

إلي المنفى من الوطن المقيم فى قلوب الملايين الشاعر الرفيق : أحمد مطر

إلى من تجلى بحـسـن النظر ... وابصـر فـينا جليل الخطر
فـهـبت ليـوقظنا قـائلاً: ... آلا فـانهـضوا ياغفـاة البشر
افـيقـوا فـقـد طال هذا الرقـاد ... أمـا للضمـائر من مـزدجـر؟!
فـقـد عبثت فى حـمانا القـرود ... وسـادوا علينا رعـاة البـقـر
وحكامنا ثلة آقـسـمت ... بآلا تبـالى بهـذا الخـبـر
وأن تجـعل الشـعب خـدامـهـا ... وعـبـادها، أو ندامى السـمـر

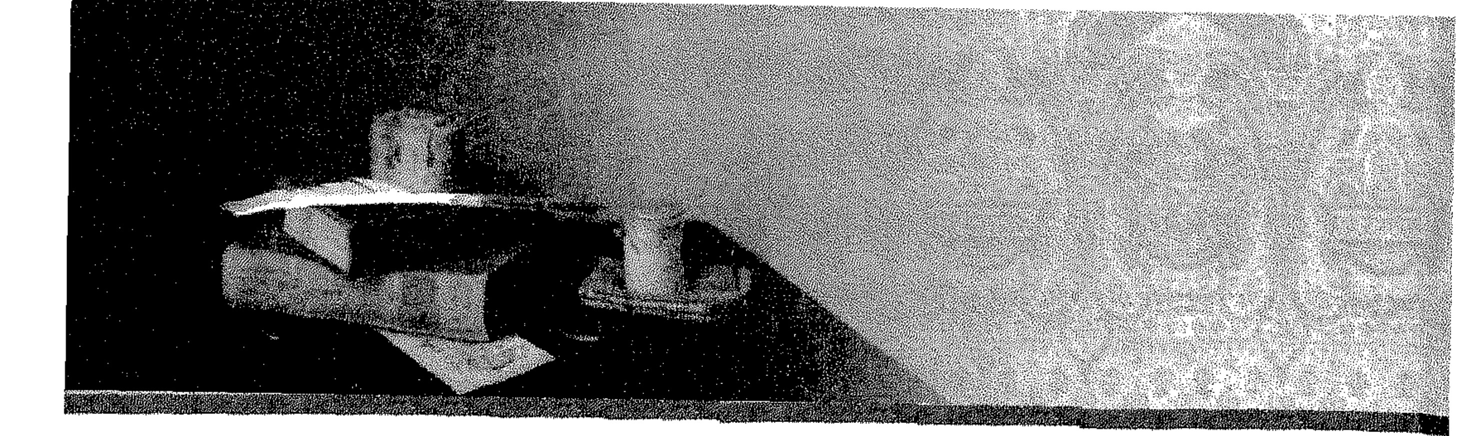
★★★

إلى من قـوافـيـه نبض الفـؤاد ... وأحـرفـه للطغـاة شـرر
وأسلوبه إن بدا سـاخـراً ... ولـكـنـه مـن ثـمـين الـدرر
يحـن إلى الدار فى لوعـة ... ويشـتـاق أغـصـانها والثـمر
ويشـتم أنسامـهـا من بعـيـد ... ورغم المسـافـات يطوى السـفـر
غـريب ولكنه عـاشق ... لنهـر الفـرات وضـوء القـمـر
يتـوق إلى باسـقـات النخـيل ... وفى قلبـه رائعـات الصـور

★★★

أخى، إننا فى زمـان عـجـيب ... وعـيش مـرير وعـمـر أمـر
تقـاذفنا الموج فى أبحـر ... وعن عـمـقـهـا مـالنا من مـفـر
على أننا لن نحـيـد الطريق ... وفى أرضنا غـيـثكم يامطر!!
لك المجـد ياأصـدق الثـائرين ... ويامن لنا جـاد فـيـه القـدر
نفـوك من الدار لم يعلمـوا ... بأنهم المنفـيـون الاخـر
وأنك فى كل قلب مـقـيم ... وأنت تجـود بأحلى الفكر

درهم جبارى
سان فرانسيسكو-أمريكا



من أجل ما تبقى من آثار دمياط

فى حياة كل أمة مدن تاريخية ساهمت فى تشكيل ملامح تاريخها، ويعد ثغر دمياط احدى هذه المدن التاريخية التى أثرت بموقعها الجغرافى المتميز ونشاطها الاقتصادى على حركة التاريخ المصرى السياسي والاقتصادى منذ أن كانت ميناء مصر الأول وأهم ثغور العالم الاسلامى. ونتيجة ذلك عانت دمياط من ويلات هجمات الروم على الشواطىء المصرية خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى بعد الفتح الاسلامى، كما كانت دمياط محطا لانظار أشد الحملات الصليبية شراسة (حملة جان دى بيرس ولويس التاسع) هذا بالاضافة إلى دورها التاريخى المهم فى العصر الرومانى والذى دلت علية آثار تل البراشية المكتشفة حديثا بدمياط . وعلى الرغم من هذا الدور التاريخى المهم إلا أن الزائر لهذه المدينة العظيمة لايكاد يشعر بالثقل الحضارى والتاريخى لها وذلك لقلة آثارها الباقية مقارنة بالمدن التراثية المصرية (كرشيد وفوة والقاهرة والاسكندرية والاقصر) وغيرها وذلك لاندثار معظم آثار دمياط لظروف تاريخية وطبيعية كهدم دمياط عن آخرها فى عصر بيبرس للتخلص من خطر الحملات الصليبية وفترات اضمحلال دمياط والتى باعت خلالها الأوقاف تكايا ووكالات دمياط وهدمت منارات المساجد الأثرية دون التفكير حتى فى تصويرها.

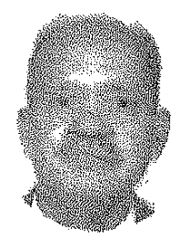
ومأساة **مسجد المعينى** ذى الواجهة الصخرية العظيمة فحدث ولا حرج هذه التحفة التى ابدعتها الهندسة الاسلامية عام (١٣١٠م) فى عهد قلاوون عصر الفن والجمال تحول هذا المعهد الدينى والمسجد الشامخ إلى مأوى آمن للزواحف والحيوانات الضالة وذلك بعد هدم مناراته الاثرية واغلاقه منذ سنوات بعيدة والاكتفاء ببناء زاوية صغيرة للصلاة خلف المسجد الاصلى .

اعيدوا إلى دمياط مكانتها التاريخية الحقيقية اعيدوا آثارها وقصر ثقافتها المغلق اضمن لكم عائشة عبدالرحمن أخرى وعلى مشرفة آخر وغاياتى آخر وأبو فاشة وزكى نجيب محمود و........و......... الخ.

محمد إبراهيم القبرصلى
دمياط



الكلمة الأخيرة



نظامنا التعليمي في أزمة

بقلم: د. عبد العظيم أنيس

مع الاعتذار للأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين ينبغي أن نعترف أن نظامنا التعليمي في أزمة. فرغم الجهد الكبير الذي يبذله الوزير في تحسين صورة التعليم، فإن الجو العام لأحوال المجتمع المصري من انفتاح (سداح مداح) وأزمة اقتصادية وبطالة وتغير في القيم.. إلخ، أقوى أثرا بالسالب على صورة التعليم من أي جهد يبذله الوزير. وإليك بعض مظاهر هذا التدهور الذي يراه الجميع وإن أنكره البعض:

● عودة المصروفات: وأنا أطلب من القارئ ألا يصدق هذا الحديث المجوج عن مجانية التعليم في مصر فطالب الابتدائي في المدرسة الحكومية (وهم أفقر شعب مصر) يدفع ٢٠ جنيها سنويا والاعدادي ٣٠ والثانوي ٤٠ جنيها أما المدارس التجريبية وهي مدارس الحكومة فيدفع التلميذ ٣٠٠ جنيه سنويا.

● وباء الدروس الخصوصية: عندما كنا تلاميذ كان هناك القليل من الدروس الخصوصية للتلاميذ الضعاف في مادة أو مادتين لكن ما هو موجود اليوم هو تعليم مواز لتعليم الوزارة في البيوت والشقق المستأجرة يكاد يساوي في أهميته - أو يفوق - جهد المدارس الحكومية، وأولياء الأمور يدفعون سنويا ٧ مليارات جنيه في الدروس الخصوصية، وهي أحد أسباب حالة الركود الاقتصادي في رأي بعض علماء الاقتصاد. والدروس الخصوصية تتم في كثير من الأحيان بمعرفة المسئولين في المناطق التعليمية والحزب الوطني في الأقاليم.

● تعليم أجنبي ضد التعليم الوطني: هناك العديد مما يسمى مدارس دولية أمريكية أو بريطانية أو فرنسية إلخ، وهي تدرس مناهج خاصة بها وليست المناهج الوطنية وكأننا لم يعد يكفينا أن يوجد منذ الطفولة تعليم ديني وتعليم مدني فأصبح لدينا تعليم أجنبي. حتى المدارس الخاصة مثل B.B.C تفخر أنها مدارس دولية!.

● تعليمنا تعليم طبقي: فأبناء الفقراء مصيرهم إلى المدارس الفنية التجارية والزراعية والصناعية وهناك نسبة غير صغيرة منهم تتسرب من التعليم الأساسي وخصوصا البنات وبدون فهم هذه الحقيقة يستحيل أن نفهم ظاهرة اشتغال الأطفال في سن مبكرة.

● تعليمنا لا يشجع على الابداع: ويتمثل هذا في سوء المناهج وضخامتها وعدم إعداد المعلم الكفؤ وبالتالي فتلميذنا هو تلميذ التلقين الذي يفشل غالبا عند الوصول إلى مرحلة الجامعة رغم الدرجات العالية في الثانوية العامة.

● انتشار ظاهرة الغش في الامتحانات العامة: وأخبار منطقة الحسينية في الشرقية مثال على ذلك والله أعلم ماذا يحدث في أقاصي الصعيد أو الواحات!.

كيف نصلح تعليمنا إذن ونخرجه من أزماته؟ لا حل إلا بإصلاح أحوالنا كلها ومن بينها قطاع التعليم، بدلا من الاقتراحات الغريبة لرئيس الوزراء التي تزيد من طبقية التعليم ولا ترضى إلا كبار الأثرياء.



باقة من الأسعار الخاصة المخفضة

بمناسبة موسم الربيع على خطوطها إلى مدن

أوروبا

جنيه

٨٦٠ برشلونة

١٠٧٥ مدريد

١٥٥٠ دوسلدورف - فرانكفورت - ميونخ

١٦٥٠ جنيف - زيورخ - ميلانو - روما

١٧٠٠ أمستردام - بروكسل - كوبنهاجن

لندن - باريس - ستكهولم

الخليج العربى

جنيه

١٠٩٠ العين - رأس الخيمة

الدوحة - البحرين

١٣٥٠ أبوظبى - دبى

الفجيرة - الشارقة

١٦٠٠ مسقط

* الأسعار السابقة لتذاكر السفر للذهاب و العودة بخلاف الضرائب و سارية حتى ٣١ مايو ٢٠٠١

* للحجز و الأستعلام : مكاتب مصر للطيران المنتشرة بالقاهرة و أنحاء الجمهورية أو وكيلك السياحى.

www.egyptair.com.eg

روايات مصرية للجيب

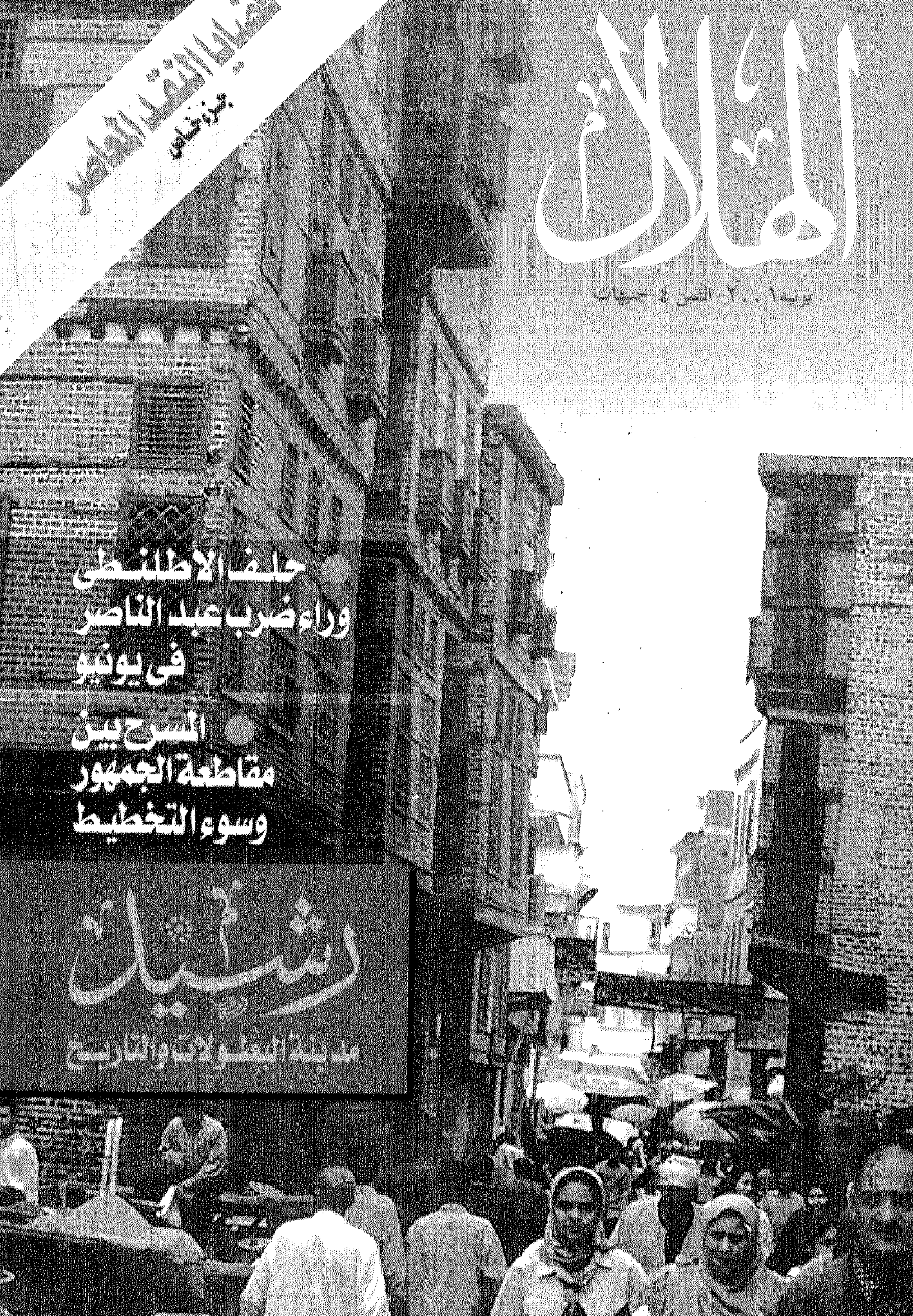
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه



روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٤٩ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس ٠٢/ ٢٨٢٧٠

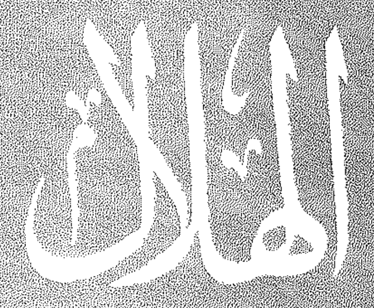

قضايا النقد المعاصر
الهلال
يونيه ٢٠٠١ الثمن ٤ جنيهات
حلف الأطلنطي
وراء ضرب عبد الناصر
في يونيو
المسرح بين
مقاطعة الجمهور
وسوء التخطيط
رشيد
مدينة البطولات والتاريخ

لفتة..

للفنان صلاح طاهر



لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام التاسع بعد المائة
ربيع أول ١٤٢٢هـ - يونيه ٢٠٠١م

قضايا النقد المعاصر

الأبواب الثابتة



مكتبة الاسكندرية منارة للفكر الإنساني

بدأت الاستعدادات المكثفة للاحتفال بافتتاح مكتبة الاسكندرية، حيث أعلنت السيدة سوزان مبارك عن موعد الافتتاح فى ٢٣ابريل عام ٢٠٠٢ أى بعد أقل من عام واحد من الآن، ويضم مجلس الأمناء عددا من رموز العالم السياسية والفكرية والعلمية.

ومكتبة الاسكندرية القديمة أنشأها بطليموس بعد أن طلب منه الاسكندر الأكبر إنشاء مدينة الاسكندرية ومكتبتها ولتصبح أعظم مكتبات الأرض فى هذا الزمان، وإحدى عجائب الدنيا، حيث قدمت للحضارة الانسانية الثقافة والمعرفة وظلت تؤدى دورها الحضارى على الرغم من الدمار الذى لحق بها على مر العصور.

وفى سنة ٣٩١ ميلادية أحرق الامبراطور ثيودوسيوس الكتب التى كانت مخبأة فى «سرابيوم» الاسكندرية. وكان هذا إيذانا بنهاية دور هذا الصرح الشامل، وليتأكد لنا أن العرب حينما دخلوا الاسكندرية بعد فتح مصر سنة ٦٤٢ ميلادية ، كانت هذه المكتبة قد دمرت تماما، وأصبحت مجرد أسطورة !

وحينما بدأ التفكير فى انشاء هذه المكتبة من جديد سنة ١٩٧٢، كان كل العلماء والمفكرين ينادون بأن تكون مكتبة دولية، تليق بالمكتبة القديمة التى عرفها العالم كله، وتليق أيضا بتاريخ مدينة الاسكندرية العريق.

وقد دعا الرئيس حسنى مبارك فى عام ١٩٨٨ إلى اجتماع تأسيسى بمدينة أسوان لانشاء مكتبة الاسكندرية بحضور عدد كبير من ملوك ورؤساء العالم والذين وعدوا بتقديم كل الدعم المادى والفنى والكتب والوسائط المعرفية لهذا المشروع الثقافى الكبير، وقدموا بالفعل الكثير من هذه الإسهامات التى ساعدت على سرعة الانتهاء من هذا المشروع الضخم الذى سوف يتكلف نحو المائتى مليون دولار..

وفى كل يوم يمر نشهد جديدا فى هذه المنارة الثقافية، والتى سوف تفتح أبوابها من الخريف المقبل كما سيتم عقد مؤتمرات علمية وندوات ثقافية بها ابتداء من شهر أكتوبر القادم.

والمكتبة بتصميمها الحالى وإحيائها لقديمها الزاهر ستكون مأوى لأفئدة

العلماء والمفكرين والباحثين فى كل أنحاء العالم، وبهذا تعود مصر إلى سيرتها الأولى، أن تكون مبدعة الثقافة ومهبط الأديان، وقاعدة العلم والإبداع فى جميع أنحاء العالم.

وكل العلماء فى جميع أنحاء العالم سوف يشهدون افتتاحها، وهى مزودة بأحدث ما أنتجه العلم الحديث من تقنيات تساعد المبدعين فى كل فروع المعرفة من خلال المعهد الدولى للدراسات والمعلومات ومتحف الخطوط والآثار والمكتبة السمعية للمكفوفين وتلك المطبعة التي تنشر البحوث العلمية.

هى ليست مكتبة عادية ، وإنما ستكون مركزا للابحاث ومنارة للإشعاع العلمى.

فكل ما نتمناه أن نستعيد دور مكتبة الاسكندرية القديمة وجوهر الحضارة القديمة من خلال هذا المشروع العملاق، والذى يضم ملايين الكتب والوثائق والدوريات التى أتت من كل بلاد العالم المحبة للمعرفة، والتى تدعم هذا الصرح الثقافى العالمى.

إن إحياء مكتبة الاسكندرية والتى تعد مكونا ثقافيا وحضاريا لهذه المدينة العربية، يعد استلهاما للماضى فى صورة حديثة والمكتبة الآن وهى تواجه عصر الانترنت والكمبيوتر حيث لم تعد المهمة فى الكتاب ككتاب، ولكن أصبحت المعرفة الحديثة موجودة فى أقراص الـ C.D، فقد أصبح من الممكن تخزين عشرات الكتب على C.D، صغير الحجم وهذا يختزل أشياء كثيرة، نستطيع من خلالها أن نطلع على ما نريد بأقل جهد ممكن.

وهذه الشخصيات العالمية، من علماء ومفكرين وندوات تقام بها وورش عمل تتواصل ليل نهار سوف تجعل من مكتبة الاسكندرية وبحق منارة، بل تعود إلى سيرتها الأولى احدى عجائب الدنيا فى عصرنا الحديث .

ويبقى أن ننتظر هذا الحدث الثقافى المهم وأنظار الدنيا تتجه من جديد إلى الاسكندرية التى أرادها الاسكندر الأكبر أهم عواصم العالم.. ولم لا؟ فهى بحق الآن تعود إلى الازدهار من جديد بفضل تضافر كل الجهود المخلصة من الدولة ومن علماء مصر ومفكريها الذين يعملون بدأب لتعود الريادة الثقافية لنا فى الانترنت وثورة المعلومات وثورة الاتصال والانفتاح على العالم.. ■

وقف العنف
أم
تصعيد المقاومة

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

بين حين وآخر تقتحم حياتنا السياسية والفكرية مفردات ومصطلحات جديدة ذات دلالات ملتبسة، يبدأ استخدامها أولا كنوع من بالونات الاختبار، ثم تبدأ في الشيوع والانتشار، إلى أن نعتاد عليها، ونجد بعد مدة ـ قصرت أم طالت ـ أننا ـ أو بعضنا على الأقل ـ أخذنا نرددها، ربما دون إدراك لمضامينها الحقيقية ، أو دون اتفاق على هذه المضامين.



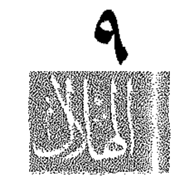
وقد نذكر كيف تسلل لنا في مناخ التسوية مع إسرائيل مصطلح «ثقافة السلام»، وهو مصطلح لا يختلف حول نبله إثنان، إذا نظر إليه على نحو مجرد، غير أنه بوضعه في السياق الذى أريد له من دوائر غير عربية بالأساس يكشف عن غطاء فكرى رفيع لمقاصد خبيثة حاولت تحطيم المناعة الذاتية للأمة العربية في مواجهة صراعها الممتد مع إسرائيل.

ومنذ تولى أحد مجرمي الحرب رئاسة مجلس الوزراء في إسرائيل أخذ في الإلحاح على واحد من هذه المصطلحات الذى اتخذ في الحالة الراهنة شكل مطلب سياسى إسرائيلى من الفلسطينيين، وهو ضرورة «وقف العنف» كشرط لبدء المفاوضات ، وإن هى إلا أيام قليلة حتى بدأ المصطلح يتردد في تصريحات سياسية رسمية صادرة عن مسئولين في دول ومنظمات دولية عديدة، غير أنه بدأ بعد ذلك يدخل في بعض تصريحات سياسية عربية، ربما كان مقصدها الرئيسى في حالات النوايا الحسنة أن تبين الالتزام بتحقيق الهدوء والاستقرار ، كسبا لتعاطف دولى لن يجيء، وعملا على حماية الفلسطينيين من مغبة استمرار عنف إسرائيلى لن توقفه أية تصريحات، لكن الأمر كله لا يمكن أن يعالج على هذا النحو المبسط والمباشر، ذلك أنه ينطوى على أبعاد متداخلة متشابكة ينبغى توضيحها، وثمة ملاحظات اربع أساسية على الأقل يمكن تسجيلها في سياق مناقشة مثل هذا المصطلح المراوغ.

مساواة بين المجرم والضحية

الملاحظة الأولى التى تتبادر إلى الذهن على الفور أن مصطلح «وقف العنف» يمثل امتدادا لمنطق المساواة بين المجرم والضحية، فعندما نصف عنفا وقع بين اللص والمسروق دون أن نشير إلى التباين الهائل في الهدف من العنف الذى مارسه كل منهما، أو دونما أن نسمى الأشياء بمسمياتها، فنقول إن اللص قد اعتدى على المسروق بغرض سلبه بعض أو كل ممتلكاته، وأن الأخير إنما كان يدافع عن نفسه يكون تصويرنا للموقف بعيدا كل البعد عن الدقة، ناهيك عن الإنصاف.

ويذكرنى هذا بمصطلح آخر شاع في مرحلة ما قبل شارون كان يشير إلى أن التقدم في جهود التسوية يتطلب «تنازلات مؤلمة من الطرفين»، وعندما كانت أطراف دولية تستخدم مثل هذا المصطلح كان المرء يعزو هذا إما إلى التحيز أو الجهل ، أما عندما كانت أطراف عربية رسمية أو غير رسمية تستخدمه فإن الأمر بدا في حينه مستعصيا على التفسير، ذلك أن



الفلسطينيين لم يعد لديهم أى «تنازل مؤلم» جديد يقدمونه بعد كل ما فرض عليهم من تنازلات ، كأنك تسأل شخصا يتعلق بحبل خشية السقوط المميت أن يتنازل لك عن هذا الحبل حتى يكون بمقدورك أن تنقذه.

حقيقة الأمر إذن أن الموقف الراهن وإن انطوى على عنف متبادل ومتصاعد إلا أن ثمة فارقا بنيويا هائلا بين «العنف الإسرائيلى» و«العنف الفلسطينى» إذا جاز التعبير، فالأول يمثل فعلا استعماريا فاضحا، والثانى يمثل مقاومة متواضعة لهذا الفعل، وهو موقف أكثر تعقيدا بكثير من أن يجسده مصطلح واحد شديد التبسيط كمصطلح وقف العنف.

جذور العنف

أما الملاحظة الثانية فتشير إلى عقم مصطلح «وقف العنف» فيما يتعلق بجذور الموقف الراهن، فهو - أى هذا الموقف - يعود إلى عقود تكاد تصل إلى قرن من الزمان من عنف استعمارى مباشر وغير مباشر طال الشعب الفلسطينى منذ أعلنت أرضه هدفا لمشروع بناء الدولة الصهيونية العبرية، وإذا كان البعض الآن يتحدث عن العنف المباشر الذى تسيل فيه دماء الطرفين على نحو غير متناسب بأى معيار من المعايير فإن التذكرة واجبة بعقود طويلة من العنف المباشر الذى ارتبط من حيث مصدره بالحركة الصهيونية فحسب، بل إن ثمة عنفا «بنيويا» أخطر قد ترتب على المشروع الصهيونى، وبالذات منذ تجسد فى شكل دولة منذ ١٩٤٨ تمثل فى تشريد ما يقرب من شعب بأكمله خارج وطنه، بحيث عاشت قطاعات واسعة منه فى ظل ظروف لعل ضحاياها أكثر عددا مئات المرات من ضحايا العنف المباشر الراهن، ذلك أن تدنى ظروف المعيشة من الناحية الاقتصادية والصحية .. الخ.. يبدو من منظور «العنف البنيوى» أشد خطرا على حياة الإنسان وأمنه واستقراره من الرصاصات التى تنطلق لتصيب الأبرياء فى مقتل، وتصيبنا بدورنا بالانزعاج الشديد، مع أن هذه الرصاصات ليست إلا محاولة لحماية ما هو أخطر منها، وهو الأوضاع التى تحميها القوة المستترة وراء إطلاق النار على الأبرياء ، ومن هنا فإن مقاومة أسباب المرض تبدو أهم ألف مرة من التوقف عند أعراضه الظاهرية.

ومن عجب أن أحدا - وبالذات من القوى الدولية ذات الصلة - لم يناد بوقف العنف عندما كان الشعب الفلسطينى ساكنا صامتا بوقع الصدمة من الفعل

الصهيونى أو بسبب الأمل فى حل عربى، ولم يبدأ الحديث عن وقف العنف إلا عندما بدا أن مقاومة الشعب الفلسطينى للعدوان الواقع عليه قد أخذت تسبب بعض الألم والضرر للمعتدى، ولذا يجب أن يكون واضحا أن المطالبة «بوقف العنف» فى الظروف الراهنة تساوى المطالبة بوقف مقاومة الاستعمار والاحتلال والعدوان.

ما بعد العنف

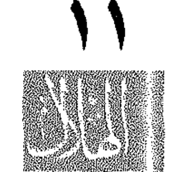
تشير الملاحظة الثالثة إلى أمر مهم يغيب عن أولئك الذين يطالبون بوقف العنف، فهم لا يهتمون كثيرا بما بعده، إن اهتموا على الإطلاق. بعبارة أخرى لنفترض أننا سنتفق على أن وقف العنف مطلوب، وأنه يخدم الأمن والاستقرار والسلام، ويحفظ دماء الأبرياء على جانبى الصراع.. إلى آخر كل هذه العبارات «الخيرة». هنا نلاحظ أن أحدا لا يكلف نفسه مشقة النظر إلى ما هو أبعد من استئناف المفاوضات، فلا أحد يسأل عن أية مفاوضات نتحدث . وفى ظل أية موازين للقوى.

لقد انبثقت عملية التسوية التى تم وأدها فى أيام باراك الأخيرة من إطار أوسلو الذى مثل لدى البعض أملا فى التوصل إلى تسوية مقبولة، ولا نقول متوازنة، ناهيك عن أن تكون عادلة، لكن إسرائيل أثبتت فى أشد حالاتها اعتدالا أن أقصى ما تستطيع أن تقدمه لا يمكن أن يصلح أساسا لمثل تلك التسوية، فهل يعقل أن تنجح المفاوضات بعد أن قدم الشعب الفلسطينى ما قدمه من تضحيات استنادا إلى ذات الأسس القديمة، وذلك بالإضافة إلى أن شارون لم يكتف بعدم الاعتراف بهذه الأسس، ولكنه نكص عنها، وارتد إلى مقولات استعمارية تقليدية من شأنها أن تقضى على أى أمل فى نجاح المفاوضات بغرض إمكان وقف العنف.

وفى الواقع أن ما سبق يمثل المعضلة السياسية والأخلاقية التى ينطوى عليها مصطلح وقف العنف، فأنصار هذا المطلب يريدون من الفلسطينيين أن يتوقفوا عن ممارسة العنف «أى الدفاع عن النفس أو المقاومة» بدعوى الحرص على السلام الذى لن يكون فى هذه الحالة سوى غلاف من الهدوء والسكينة للعنف البنيوى المستمر ضد الشعب الفلسطينى منذ ما يزيد على نصف قرن على أقل تقدير، ومن ثم فلن يكون سوى مرحلة مؤقتة تفضى إلى انفجار أشد خطرا بكثير مما نشهده حاليا.

وقف العنف والحماية الدولية

تنبثق الملاحظة الرابعة والأخيرة من أن مطالبة الدولة الصهيونية والقوى



الدولية المتحالفة أو المتواطئة معها للفلسطينيين بوقف العنف تنطوى على تناقض صارخ لايبدو أن العرب يتحركون على نحو كاف - إن كانوا قد تحركوا على الإطلاق - لكشفه .ذلك أنهم - أى الصهاينة وحلفاءهم - يقفون بالمرصاد فى الوقت نفسه للمطلب الفلسطينى - العربى بالحماية الدولية للشعب الفلسطينى ، ذلك أنهم إن كانوا راغبين حقا فى وقف العنف فإن إحدى الآليات المضمونة لذلك تتمثل فى الاستجابة لمطلب الحماية الدولية، غير أنهم يريدون الحسنيين : الاحتلال ووقف العنف معا، فوجود قوات الحماية الدولية على الرغم من أنه سوف يحول دون أن يواصل الفلسطينيون مقاومتهم للاستعمار الصهيونى والاحتلال الإسرائيلى على نحو ما يجرى الآن فإنه سوف يكسب المسألة طابعا دوليا أكيدا قد يصعب النكوص عنه لاحقا، أو على الأقل ستبقى له دلالاته دائما.

وعلى الرغم من ضآلة الأمل فى أن تفضى الحماية الدولية إن تمت الى خطوات ايجابية أبعد من ذلك، طالما بقيت موازين القوى على ما هى عليه، فإن ثمة احتمالا فى أن تمثل مع خطوات أخرى تطورا إيجابيا فى الوضع الدبلوماسى الفلسطينى و العربى ، وكلها دلالات واحتمالات لا يمكن أن ترضى بها الدولة العبرية وحلفاؤها ، مفضلين جميعا أن تلقى الضحية بسلاحها، وتعترف بذنبها ، وترضى باستمرار الأسر، وانتظار الفتات الذى سيلقى به إليها على موائد التسوية الشوهاء.

إن الطريق المضمون لوقف العنف - إذا استخدمنا ذلك المصطلح المشبوه - هو رد الحقوق لأصحابها، وإذا كان ذلك مستحيلا بسبب طبيعة المشروع الصهيونى من ناحية ، وموازين القوى بينه وبين الفلسطينيين والعرب من ناحية أخرى فلن يكون هناك سبيل الآن أو مستقبلا سوى استمرار المقاومة المشروعة للاستعمار والاحتلال ، وذلك اذا استخدمنا المصطلحات الصحيحة، وبعدنا عن تبنى ذلك المصطلح المضلل المسمى بوقف العنف.

وعندما يطرح مطلب استمرار المقاومة بل وتصعيدها يتباكى البعض عادة على التكلفة البشرية والمادية الهائلة التى ينطوى عليها مثل هذا المطلب، متهمين المنادين به بالاستهتار بالأرواح البريئة للشعب الفلسطينى، ويلفت فريق آخر النظر من ناحية ثانية إلى الخلل

الفادح فى ميزان القوى بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، الأمر الذى سيفضى الى نتيجة محتومة لغير صالح الفلسطينيين والعرب.

وتنبثق المقولات السابقة - بافتراض حسن النية - من عدم إلمام كاف بخبرة حركات التحرر الوطنى المعاصرة، وطبيعة الموقف الاستعمارى- التحررى، ان الشعوب لا تناضل وتدفع الثمن الفادح من أجل حريتها لأن كاتبا أو سياسيا هنا أو هناك يدعوها إلى ذلك ، ولكنها تصل عادة إلى نقطة زمنية تدرك فيها أن التكاليف الفادحة التى ينطوى عليها النضال التحررى أهون بكثير من استمرار الوضع الاستعمارى، وهذا هو السبب الموضوعى لما رأيناه ونراه من بطولات قد تبدو غير مفهومة لدى البعض فى سياق حركة التحرر الفلسطينى الراهنة، تماما كما كان الأمر فى حركات تحرر وطنى سابقة.

ومن ناحية أخرى فإن التذكير مطلوب بأن حركات التحرر الوطنى قد انطلقت عادة فى إطار موازين القوة المادية مختلة على نحو فادح لصالح المستعمر، ولذلك فإنها أبدعت دائما من الاساليب ما يتناسب وهذا الخلل فى موازين القوى، وليس صحيحا أن تلك الحركات قد لجأت دائما إلى اقصى صور الممارسة للقوة المادية، فبينما هزم الفيتناميون الأمريكيين بالقوة المسلحة تغلب غاندى على الإمبراطورية البريطانية بالمقاومة السلمية، والمهم أن حركات التحرر الوطنى قد انتهت دائما بالانتصار على المستعمر على الرغم من الخلل الفادح فى ميزان القوى المادية لصالحه، ولندع مهمة تفسير هذه الظاهرة «كواجب منزلى» لأصحاب الحجج الفارغة علهم يدركون أسبابها التى أدركها وعى الشعوب منذ عقود طويلة من الزمن.

وختاما فإن الأهم من كل ما سبق أن امتناع الشعوب المستعمرة عن «ممارسة العنف» كما يقول المضللون «بفتح اللام الأولى أو بكسرها» لم يوفر فى أية خبرة استعمارية ماضية ضمانة من أى نوع ضد عنف المستعمر، ذلك أنه عرض أصيل من أعراض المرض الاستعمارى ، بل ان الممارسة المباشرة والبنيوية لهذا العنف كانت عادة هى المعول الذى هدم الأفكار المغلوطة عن مهادنة الاستعمار، فهل نطمح إذن إلى بلورة خطاب عربى سياسى يضع الأمور فى نصابها، ويستخدم المصطلحات الصحيحة فى وصف موقف ينطوى على تهديد حقيقى لأمن العرب ورخائهم حاضرا ومستقبلا؟ ■

الطريق الى هزيمة
يونيو ١٩٦٧

حلف الأطلنطى وراء ضرب عبد الناصر ومحاولة تصفيته



بقلم
د. رءوف عباس

إن ما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧ من هزيمة مشينة للعرب أتاحت للكيان الصهيونى فرصة إحتلال كامل التراب الفلسطينى إضافة إلى سيناء والجولان، كان نقطة تحول فى تاريخ أمتنا العربية، تحولت بموجبه إسرائيل إلى قوة إقليمية كبرى وتكرس دورها كقاعدة لحماية مصالح الغرب فى الشرق الأوسط. وطويت صفحة التيار القومى العربى. فانحسر على هامش المسرح السياسى بعد أن كان يتصدره، أو قل إن شئت انحسر دور مصر الإقليمى، فانكفأت على نفسها داخل حدودها تسعى للم شعث قواتها المسلحة، وإعادة بنائها لتحرر سيناء، وتبحث لنفسها عن دور جديد يتناسب مع عملية «التحجيم» التى فرضتها عليها هزيمة ١٩٦٧.

ولا يعني ذلك أن إسرائيل استطاعت وحدها أن تصفى الدور الإقليمى لمصر لصالحها، ولكنها كانت رأس الحربة للغرب في مشروع التصفية الذى بدأ التخطيط له فى شتاء ١٩٦٤ فى اجتماع عقده حلف الأطلنطى خصيصا بناء على طلب تركيا لوضع حد للمتاعب التى يثيرها عبدالناصر فى منطقة الشرق الأوسط ضد مصالح الغرب ولذلك كانت ورقة العمل الرئيسية المقدمة للاجتماع من اعداد وزير الخارجية التركى وتحمل عنوان «تصفية عبدالناصر».

مصر وزعامة عبدالناصر

بعد مقدمة طويلة شرح فيها الجانب التركى الدور المشاكس لمصالح الغرب الذى لعبته مصر بزعامة عبدالناصر منذ قيام الثورة وخاصة تحريضها لشعوب المنطقة ضد السيطرة الغربية ومقاومتها لسياسة الأحلاف، ثم تبنيها لحركة القومية العربية التى اشتد عودها بعد كسب عبدالناصر سياسيا من وراء حرب السويس ١٩٥٦، وما كان من قيام الوحدة بين مصر وسوريا التى قلبت الموازين الاستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط، ورغم ضرب الوحدة، نجح عبدالناصر فى أن يمد نفوذه ووجوده الاستراتيجى إلى اليمن بمناصرته لثورتها وتدخله العسكرى هناك. وبذلك يضع عبدالناصر الغرب تحت رحمته، فهو يسيطر على قناة السويس وعلى البحر الأحمر، ومن ثم يتحكم فى الطريق البحرى الذى ينقل عبره البترول إلى الغرب، كما أن وجوده فى اليمن يجعله المتحكم الفعلى فى مناطق انتاج البترول لو ترك له الحبل على غاربه، فهو يستطيع أن يلحق ضررا كبيرا بالمصالح الغربية في المنطقة وخاصة أن لمصر علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتى.

ومضت ورقة العمل التركية تحدد الأطراف العربية التى تخشى على وجودها من اتساع مساحة الدور الإقليمى لمصر بزعامة عبدالناصر، فذكر الأردن والسعودية وليبيا، كما لفت النظر إلى توتر العلاقات العراقية المصرية، والسورية - المصرية، ومن ثم فإن الوقت ملائم لتوجيه ضربة بجلاء عبدالناصر تقابل بالتأييد من البلاد العربية فى المنطقة.

أما خطر عبدالناصر على المصالح الغربية فى أفريقيا فلا حاجة لتأكيده فضلا عن تدخله غير المعلن فى عدن وجنوب الجزيرة العربية والخليج.

وانتهت ورقة العمل التركية بإقتراح خطة للتخلص من عبدالناصر عن طريق تحويل الوجود المصرى فى اليمن إلى مستنقع يصعب الخروج منه طوعا،





الجيش المصرى وقت الاستعداد قبيل حرب يونيو

واتخاذه سبيلا لاستنزاف قوة مصر العسكرية واقتصادها الوطنى، يلى ذلك مساعدة إسرائيل على القيام بعمل عسكرى كبير موجه ضد مصر فى الوقت المناسب الذى يحدد على ضوء استنزاف القوة المصرية العسكرية والاقتصادية فى اليمن.

وثائق حلف الأطلنطي

وقد عقد مجلس حلف الأطلنطى ثلاث جلسات لمناقشة ورقة العمل التركية، أطلعت على محضر الجلسة الأولى منها فى النسخة البريطانية من وثائق الاجتماع ، أما الجلستين الأخريين فلن يسمح بالاطلاع عليهما الا بعد مرور خمسين عاما «أى عام ٢٠١٤».

وفى الجلسة الأولى «المتاح الإطلاع عليها» عارضت كل من اليونان وإيطاليا ما ذهب إليه الجانب التركى من أن عبدالناصر قد بلغ من الخطر حدا كبيرا على مصالح الشعوب يتطلب تصفيته بل ذهب الجانب اليونانى إلى حد استنكار اتهام عبدالناصر بالعمل فى الشرق الأوسط لصالح السوفييت، وأكد أن عبدالناصر حريص على استقلال بلاده وأنه ربما يكون قد تجاوز الخط الأحمر بتدخله فى اليمن، ولكن هذا التدخل مؤقت، بل إن زعامة عبدالناصر تشكل عنصر استقرار سياسى فى المنطقة وأكد الجانب الإيطالى أن سياسة عبدالناصر تجاه الغرب تتسم بالاعتدال ، وأن سياسة مصر الخارجية متوازنة

فيما يتصل بالعلاقة مع كل من الغرب والاتحاد السوفييتى. أما الجانب الفرنسى فطالب بعدم التسرع فى استخلاص النتائج قبل دراسة الوضع دراسة متأنية لأنه يرى أن المخاوف التركية لا تخلو من مبالغة لا مبرر لها.

تصفية عبدالناصر

ونحن لا ندرى ما تم التوصل إليه فى الجلستين التاليتين اللتين تدخلان فى نطاق السرية، ولكننا نعتقد أن فيهما تحديدا أكثر وضوحا لما استقر عليه الرأى بالنسبة لخطة «تصفية عبدالناصر» ولا ندرى ما إذا كان جميع المشاركين فى الاجتماع على علم بها، فذلك ما سنعرفه تماما عند الكشف عن الوثائق الخاصة بالجلستين ، ولعل ما تمتاز به النسخة البريطانية من وثائق الأطلنطى اشتمالها على المشاورات الجانبية مع الجانب الأمريكى، واستطلاع آراء أصدقائها وحلفائها بالمنطقة ومن بينهم الملك حسين.

لعل ما جاء بملفى الجلستين من اتفاقات جانبية يتضمن سيناريو ما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧، خاصة أن بريطانيا كانت تواقة الى الثأر من عبدالناصر لما لحق بها وبهيبتها فى المنطقة والعالم بعد فشلها فى تحقيق أهداف حرب السويس ١٩٥٦.

ودليلنا على ذلك التصعيد المستمر للموقف ضد الوجود المصرى فى اليمن منذ ١٩٦٤ واستخدام المرتزقة من مختلف الجنسيات الأوربية، وعمليات نقل السلاح إلى اليمن التى فضحها الطيارون العرب، والانقسام الذى حدث بين قيادات الثورة اليمنية ذاتها، كل ذلك يبين بوضوح أن اقتراح تحويل اليمن إلى مستنقع يصعب الخروج منه بسلام يستهدف استنزاف قوة مصر العسكرية والاقتصادية قد تحقق بالفعل على مدى السنوات الثلاث ٦٤ ـ ١٩٦٧.

كذلك يتضح دور إسرائيل فى التحرش بمصر فى الإعلان عن مشروع تحويل مجرى نهر الأردن. بما ترتب عليه من تصعيد مستمر للتوتر، حاول عبدالناصر احتواءه عن طريق مؤتمرات القمة. فلم يكن الدخول فى حرب ضد إسرائيل. يوما ما على جدول أعمال عبدالناصر، بل صرح ذات مرة فى خطاب علني أنه ليس مستعدا فى الدخول فى حرب ضد إسرائيل اذا سعت لجرنا إليها، ومن ثم كان التصعيد الإسرائيلى للموقف له دلالته باعتباره من المقترحات الأساسية التى أوردها الجانب التركى فى خطة «تصفية عبدالناصر» التى عرضت على الاجتماع الوزارى لمجلس حلف الأطلنطى.

دليل آخر على تركيز الاتفاق على





اتخاذ إسرائيل رأس حربة لتنفيذ مخطط الغرب، الاتفاق الذى أبرمه رئيس الوزراء الإسرائيلى أشكول مع الرئيس الأمريكى «جونسون» الذى وافق الأخير بموجبه على تزويد إسرائيل بأسلحة تتضمن تفوقها على الدول الأربع المحيطة بها «مصر، وسوريا ولبنان والأردن» بنسبة ثلاثة أضعاف التسليح العربى، بعد أن كان الخط الثابت فى السياسة الأمريكية تحقيق توازن بين قوة إسرائيل العسكرية وجيرانها العرب، وأعلن «أشكول» فى مؤتمر صحفى أثناء الزيارة أن إسرائيل تريد أن تتوسع لتوفر مكانا لكل يهودى فى العالم حتى لو كان لا ينوى الهجرة إليها حاليا . وكان هذا استفزازا علنيا واضحا.

وفى غضون تلك الأيام اتخذ الكونجرس قرارا فى ٢٦ يناير ١٩٦٥ بوقف مبيعات القمح الأمريكى إلى مصر خدمة لهدف الاستنزاف الاقتصادى لمصر، لأن البديل الوحيد أمام الحكومة المصرية هو شراء حاجة البلاد من القمح من السوق العالمية بأسعار السوق، بينما كانت مبيعات القمح الأمريكى تتضمن تسهيلات ايجابية لصالح مصر، فكان ايقاف مبيعات القمح الأمريكى لمصر ضربا من الضغط لزيادة الأوضاع الاقتصادية حدة فى الوقت الذى ازداد فيه الانفاق على القوات المصرية فى اليمن زيادة مطردة.

كذلك قدمت المانيا الغربية لإسرائيل فى الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٦٤ صفقة ضخمة من السلاح تضمنت مدرعات وطائرات ومدافع وقطع بحرية قيمتها مائة مليون دولار ـ هدية دون مقابل ، وكان ذلك بايحاء من الولايات المتحدة الأمريكية وتحت رعايتها، مما فجر أزمة فى العلاقات المصرية ـ الألمانية كانت على درجة كبيرة من الحدة ولكن دلالة ذلك تعجل الولايات المتحدة لتحقيق التفوق العسكرى الإسرائيلى الساحق تمهيدا لقيام إسرائيل بلعب الدور الأخير فى خطة «تصفية عبدالناصر» أو تصفية الدور الإقليمى لمصر وتحقيق الحلم الصهيونى ـ الأمريكى.

وفى تاريخ معاصر لذلك التاريخ تقريبا بدأت إسرائيل دخول النادى النووى ببناء مفاعل «ديمونة» وبذلك حسم التفوق العسكرى الإقليمى لصالحها، ولم يبق إلا الحصول على شهادة اعتراف بذلك على طريق شن حرب تلحق هزيمة مهينة بالعرب.

كانت المذكرة أو ورقة العمل التركية التى قدمت للمجلس الوزارى لحلف الأطلنطى فى شتاء ١٩٦٤ ترى أن نجاح إسرائيل فى إلحاق هزيمة بالعرب أو



احتلال أرض عربية، سوف يكشف ظهر عبدالناصر، ويقضى على شعبيته، ويدفعه إلى ترك منصبه أو يقوم البعض باسقاطه، ولكن لم يدر بخلد وزير خارجية تركيا الذى صاغ الورقة أن الهزيمة التى ستلحق بالعرب ستكون بالحجم الذى كانت عليه فى يونيو ١٩٦٧، واذا لم تكن الهزيمة قد حققت هدف التخلص من عبدالناصر بسبب تمسك الجماهير به ، فقد حققت الهزيمة الهدف الاستراتيجى الذى سعى إليه الغرب وهو تحجيم مصر، وتصفية دورها الإقليمى.

ولا يعنى نجاح خطة «تصفية عبدالناصر» أن نحمل أصحابها وحدهم وزر هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧، فلاشك أن عوامل داخلية كثيرة لعبت دورها الايجابى فى مساعدة الغرب على التخلص من دور مصر الإقليمى لتعيد ترتيب أولوياتها الاستراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط فى مرحلة لها طابعها الخاص من مراحل حقبة الحرب الباردة.

ولعل ما يدعم ما نذهب إليه من أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ تم إخراجها على يد حلف الأطلنطى كفكرة ثم تبنتها الولايات المتحدة ولعبت دور المنتج لها بالتحالف مع إسرائيل وتركيا «صاحب المشروع»، وكان من الطبيعى أن تطلع عليها بعض أصدقائها العرب الذين يهمهم التخلص من كابوس عبدالناصر ، لعل ما يدعم ذلك كله ما ذكره محمد حسنين هيكل فى كتابه «الانفجار ١٩٦٧» من أن الصحفى البريطانى «انتونى بيرسوف» الذى كان يعد دراسة عن حادث سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» التى أغرقها الطيران الإسرائيلى عمدا، اذ جاء بدراسته أن مدير إدارة العمليات بالمخابرات المركزية الامريكية عقد عدة اجتماعات عام ١٩٦٥ مع مسئولين من الموساد، لبحث متى وكيف يمكن التخلص من عبدالناصر، وأن رأيهم استقر على امكانية تحقيق ذلك من خلال هزيمة عسكرية فى مواجهة بين مصر وإسرائيل تضعه فى موقف لا يستطيع الانتصار فيه. فاذا تراجع أو هزم كانت نهايته. وأشار إلى أن عقد الاجتماعات استمر بين الطرفين فى تل أبيب وفى واشنطن وحضر تلك الاجتماعات بعض ضباط الأركان الإسرائيليين وقد تقرر فى هذه الاجتماعات شن حرب يمكن احتواؤها بين مصر وإسرائيل لا تمتد إلى الأردن وسوريا. وتم الاتفاق على استغلال مواقف عبدالناصر المتشددة وتأييد السوفييت له، وكذلك الوضع فى سوريا لاثارة الرأى العام وتهيئته لقبول الحرب ، على أن تقع الحرب فى إطار





الجامع التوفيقى ببورسعيد أصابه الدمار من جراء العدوان الاسرائيلي سنه ١٩٦٧

يمكن احتواؤه مع الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الحكام العرب الذين يتمنون التخلص من عبدالناصر مثل حسين وفيصل.

ويذكر هيكل نقلا عن بيرسون انه نظرا لأهمية خطة احتواء الحرب وتحديد اطارها بهزيمة مصر وحدها كان وجود السفينة «ليبرتى» لتضمن التزام الإسرائيليين بما تم الاتفاق عليه، ولكن إقدام إسرائيل على تنفيذ خطة تقوم على توسيع نطاق العمليات للاستيلاء على مجمل أرض فلسطين، وتقدمها السريع فى سيناء والجولان ، جعلها تقصف السفينة وتغرقها حتى لا تتحرك الولايات المتحدة لالزامها بما اتفق عليه غير ان الولايات المتحدة غفرت لحليفتها هذه الجريمة بعدما استطاعت أن تحقق ما لم يدر بخلد أمريكا، فاذا كانت إسرائيل قد استطاعت أن تفرض تفوقها الاقليمى، فقد نجحت فى تحجيم مصر وتصفية دورها الاقليمى وهو ما كانت تتمناه الولايات المتحدة الأمريكية.

ترى.. هل بدأ المشروع العدوانى على مائدة مجلس وزراء الأطلنطى ثم تبنته أمريكا ونفذته بالاشتراك مع اسرائيل أم أن أطرافا أخرى فى الحلف ساهمت فى المشروع ؟! إن كشف ما دار فى الاجتماعين الثانى والثالث لمجلس وزراء حلف الأطلنطى سيلقى الضوء على حقيقة الأمر وإن عام ٢٠١٤ لناظره قريب.

قصة العالم الثالث

من الإنطواء على النفس

إلى الإنفتاح على العالم

بقلم
د.جلال أميـــن

عندما بدأ الاهتمام بقضية التنمية الاقتصادية فى بلاد العالم الفقيرة، منذ نحو خمسين عاما، كان من الواضح للجميع أن عقبة أساسية فى وجه هذه التنمية تتمثل فى العلاقات الاقتصادية بين هذه البلاد والعالم الخارجى .كانت «التجارة الخارجية» تمثل مشكلة كبيرة وكان لابد من العثور على حل لها.

ذلك أنه كان من الواضح أنه متى بدأت الدولة تخطو أولى خطواتها فى التنمية السريعة فسوف تجد أن عليها استيراد أشياء جديدة وبكميات كبيرة، خاصة من السلع الإنتاجية أى من الآلات والمعدات والمواد الوسيطة اللازمة للتصنيع وكان التصنيع ينظر إليه وكأنه يكاد يكون مرادفا للتنمية الاقتصادية كلها. هذه السلع الإنتاجية كان لابد أن تستورد من الدول الصناعية المتقدمة التى تملك ناصية التكنولوجيا الحديثة والعلم والخبرة اللازمة لإنتاج هذه السلع. ولكن زيادة الاستيراد يتطلب بالضرورة زيادة التصدير، إذ من أين ستدفع تلك الدول الفقيرة ثمن ما تستورده من آلات ومعدات إلا من حصيلة ما تصدره من سلع وخدمات؟ نعم - هناك المنح والقروض التى يمكن أن تقدمها الدول الغنية للدول الفقيرة ، ولكن المنح قليلة ، ككل أنوا ع الإحسان، وهى إذا أعطيت فإنها تقترن عادة بشروط سياسية أو اقتصادية قد يكون من الأفضل تجنبها. والقروض يجب أن ترد، إن عاجلا أو آجلا.. وهى بالإضافة إلى ذلك تتطلب دفع فوائد، وبنفس العملات الأجنبية التى قدم بها القرض - ومن ثم فلابد، إن عاجلا أو آجلا، أن تزيد قدرة الدولة على التصدير لتسديد القروض ودفع فوائدها. وكل مثل هذا الاستثمارات الأجنبية الخاصة، التى لابد أن يثق أصحابها فى قدرة الدولة التى يأتون إليها على توفير العملات الأجنبية اللازمة لتحويل أرباحهم للخارج من ناحية، ولتحويل رءوس أموالهم نفسها متى قرروا العودة بها إلى بلادهم.

ما أصعب زيادة الصادرات:

ما العمل إذن؟ ما الذى لدى الدولة الفقيرة لتصدره؟ سلع صناعية؟ وهل يتصور أن السلع الصناعية الحديثة التى سوف تقوم بإنتاجها سيكون بإمكانها منافسة ما تنتجه الدول العريقة فى



قصة العالم الثالث

التصنيع؟ صحيح أن لدينا سلعا كالمنسوجات والأحذية قد تكون قادرة على مثل هذه المنافسة، إذ أنها قديمة نسبيا في بلادنا ولدينا فيها خبرة أطول. ولكن هذه هي بالضبط السلع التي تفرض عليها الدول الصناعية الحماية، فلا نستطيع التغلغل في أسواقها الا بشق الأنفس. أما صادراتنا الزراعية فهي صادرات سيئة السمعة. إذ حتى نفترض أننا نستطيع زيادة إنتاجنا منها، فإن أسعارها مشهورة بالتقلب بين سنة وأخرى، فضلا عن صفة أخرى شرحها بوضوح تام، في مطلع الخمسينات، اقتصادي أرجنتيني هو «راؤول بريبيش» R.prebisch وهي ما عرف باتجاه معدل التبادل الدولي ضد مصلحة السلع الزراعية «والمواد الأولية عموما» ولصالح السلع الصناعية. ومعنى ذلك اتجاه النسبة بين أسعار السلع الزراعية وأسعار السلع الصناعية إلى الانخفاض على المدى الطويل، ومن ثم يكون على الدول المصدرة للسلع الزراعية أن تصدر أكثر فأكثر من أجل الحصول على نفس الكمية من الواردات ، وكأن عليها أن تجري أسرع فأسرع لكي تظل ثابتة في نفس المكان.

لا عجب أن شاع في ذلك الوقت تعبير «العملات الصعبة» فقد كانت العملات الأجنبية «عملات صعبة حقا» ، خاصة عملات تلك الدول التي تحتاج لاستيراد المزيد من سلعها من أجل التصنيع.

ما أسهل ضغط الواردات

إذا كان كل هذا صحيحا، فقد بدا وكأنه ليس أمام الدول الفقيرة، إذا أرادت حقا أن تقوم بالتنمية الصناعية السريعة، إلا أن تضغط وارداتها الأخرى. «أي الواردات التي تعتبر ضرورية لاتمام عملية التصنيع» إلى أدنى قدر ممكن. فكل ما كان يستورد من سلع كمالية يجب أن يمنع استيراده أو تفرض عليه رسوم عالية للغاية حتى ينخفض استيراده إلى أقل حد ممكن، أما السلع الاستهلاكية الأخرى غير الكمالية، كالسلع الغذائية مثلا أو الملابس أو الورق أو الاثاث فإن كل ما يمكن إنتاجة محليا يجب بالفعل أن ينتج محليا، وبهذا يستخدم كل ما يمكن أن تحصل عليه من عملات صعبة في استيراد ما يلزم للتصنيع.

كان هذا الحل وما عرف باسم استراتيجية «التصنيع بالاحلال محل الواردات» Import Substitution IndulI Strialization ويمكن تلخيص المقصود منها في كلمتين : «كل ما كنت تقوم باستيراده ويمكنك أن تستغني عنه

فلتستغن عنه، فإذا كان لابد منه وكان يمكنك أن تنتج بديلا له محليا فلتنتجه محليا، فإذا كان لابد منه حقا ولا يمكن أن تنتجه محليا فلا بأس من استيراده، ولكن فلتحصل على تصريح بذلك من السلطات المختصة».

حظيت هذه الاستراتيجية بانتشار واسع طوال الخمسينات والستينات ، بل وحظيت أيضا بدرجة لا يستهان بها من التأييد والرضا حتى من جانب المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية نفسها. وقد ساعد على هذا الانتشار، عدا ما كان يواجه البلاد الفقيرة، من صعوبات فى توفير العملات الأجنبية اللازمة للتصنيع عدة ظروف اقتصادية وسياسية داخلية ودولية . يهمنا الآن ان نذكرها.

كانت ذكرى الثلاثينات والحرب العالمية التى تلتها مازالت قريبة من الأذهان. ولكن ما الذى كانت تطبقه الدول الصناعية نفسها خلال الثلاثينات وخلال الحرب إلا هذه السياسة بعينها: سياسة الاحلال محل الواردات ؟ لقد كانت كل دولة خلال أزمة الثلاثينات تحمى سوقها الوطنية ضد الواردات من الدول الأخرى فى محاولة لخلق فرص عمالة لعمالها المتبطلين . ثم طبقت نفس البسياسة مضطرة فى سنوات الحرب لصعوبة الاستيراد أصلا. فإذا كانت هذه السياسة جائزة ومشروعة فى بعض الظروف حتى للدول الصناعية نفسها. فلماذا لا تكون مشروعة للدول التى تحاول اللحاق بها؟

كان هناك أيضا النموذج السوفييتى فى التنمية، الذى كان لايزال خلال الخمسينات والستينات يتمتع بجاذبية كدول العالم الثالث، فقدها بالتدريج بعد ذلك. والنموذج السوفييتى كان يقدم مثالا ناجحا لدولة تحولت من دولة متخلفة إلى دولة عظمى بالانطواء على نفسها وإغلاق أبوابها. والاعتماد على سوقها ومواردها المحلية، وضغطها للواردات إلى أقل مستوى ممكن .

أضف إلى ذلك أنه فى تلك السنوات الأولى التى تلت بداية الاهتمام بتنمية العالم الثالث . كانت الفكرة الشائعة أن دول العالم الثالث تبدأ من حيث بدأ العالم الصناعى قبل نحو مائتى عام فالعالم الثالث يحاول ان يحقق ثورته الصناعية، متأخرا بعض الشىء. ولكنه يحاول أن يقوم بنفس العمل ويكرر نفس التجربة التى بدأتها الدول الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وهذه الدول الصناعية كان عليها بالضرورة ، فى ذلك الوقت، أن تعتمد فى الأساس على نفسها، إذ كانت تفعلشيئا جديدا لم يسبقها فيه أحد. صحيح أن آدم سميث والاقتصاديين الكلاسيكيين البريطانيين كانوا يتغنون بمزايا حرية التجارة، والتخصص، اى أن الأفضل أن تتخصص كل دولة فى إنتاج ما تجيد



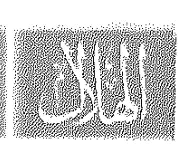
قصة العالم الثالث

إنتاجه من سلع وتستورد غيرها من الخارج.

ولكن بريطانيا فى ذلك الوقت كانت تتمتع بحماية طبيعية ولا تخشى حرية الاستيراد لأنها كانت أكثر الدول تقدما، أما الدول الأقل تقدما فى ذلك الوقت، كألمانيا والولايات المتحدة . فقد لجأت هى نفسها إلى تطبيق استراتيجية الاحلال محل الواردات، سواء أعلن اقتصاديوها ذلك صراحة، مثلما حدث فى ألمانيا، أو كان الاقتصاديون يرددون ما يقوله الاقتصاديون البريطانيون. باعتباره منتهى الحكمة، بينما دولتهم تفعل العكس بالضبط، كما كان يحدث فى الولايات المتحدة طوال القرن التاسع عشر.

ضغط الواردات يحظى بمباركة الجميع:

ولكن كان هناك سبب آخر ، قد يكون أهم من كل ما عداه . لانتشار استراتيجية الاحلال محل الواردات خلال الخمسينات والستينات، وهو سبب عملى بحت، ويتعلق باتجاه المصالح الاقتصادية السائدة . كانت أوربا خلال هذين العقدين منكفئة هى أيضا على نفسها، إذ ما كادت تتم عملية إعادة بناء ما دمرته الحرب فى منتصف الخمسينات حتى انشغلت بتكوين السوق الأوربية المشتركة ، وكان اهتمامها بأسواق العالم الثالث . كمجال لتصريف سلعها، أقل بكثير مما اصبح بعد ذلك بعقد أو عقدين من الزمان. فيما يتعلق بالولايات المتحدة فقد كانت أسواق العالم الثالث،. كمجال لتصريف سلعها، أقل أهمية بكثير من السوق الأوربية ، وأقل أهمية بكثير كذلك مما أصبح لها فيما بعد. من الممكن اذن ان نقول إن انطواء العالم الثالث على نفسه فى الخمسينات والستينات لم يكن يشكل مشكلة كبيرة ولا عائقا مهما أمام توسيع السوق أمام العالم الصناعى، إذ كانت السوق الأساسية والمرغوب فيها ومحل الأنظار هي سوق الدول الصناعية نفسها . نعم لقد دخلت الكوكاكولا والبيبسى كولا فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث فى تلك الحقبة من الزمن، ولكن هذا الدخول إلى أسواق العالم الثالث لم يكن مسألة حياة أو موت فى نظر هاتين الشركتين مثلما اصبح بعد ذلك بعقد أو عقدين من الزمان..وقل مثل هذا عن غيرهما من الشركات المتعدية الجنسيات، فعندما أصبح دخول أسواق العالم الثالث مسألة حياة أو موت فعلا، فى نظر هذه الشركات ، لم يعد من الممكن السكوت أو الصبر على ما يسمى «باستراتيجية الاحلال محل الواردات».



هذا هو السبب الأساسى، فيما يظهر ، لاقامة هذا الاحتفال الصاخب باستراتيجية مناقضة تماما، وهى استراتيجية التصنيع (Export Pro-motion) عن طريق تشجيع الصادرات.

وهى استراتيجية تقوم، لا على الانطواء على النفس ، بل على الانفتاح على العالم فمنذ أوائل السبعينات بدأ الهجوم يشتد على سياسة الاحلال محل الواردات وأخذ اقتصادى بعد آخر ينضم إلى جوقة لا تعزف الا نغمة واحدة تدور حول الفكرة الآتية : «كانت سياسة الاحلال محل الواردات حماقة كبيرة أو على الأقل تجاوزها الزمن ولم تعد صالحة على الاطلاق. وعلى دول العالم الثالث الآن أن تفتح أبوابها على مصاريعها وتهجر الى الابد ذلك التوجه المريض الى الداخل . فتترك الاستيراد حرا طليقا .

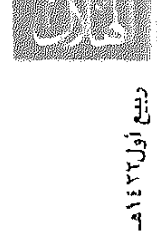
أما ما تحتاجه من عملات أجنبية لتمويل هذا الاستيراد الذى لا يحده حد، فعليها تحقيقه عن طريق زيادة صادراتها .

احتجاج العالم الثالث

هذه الدعوة الجديدة لفتح الأبواب فجرت أصوات احتجاج من كل ركن من أركان العالم الثالث، وكان هذا الاحتجاج يتخذ صورة كهذه:

«صادراتنا؟ أين هى هذه الصادرات بالضبط؟ وأى صادرات تعنون؟ أنتم تعرفون ما نواجهه من صعوبات فى زيادة صادراتنا الزراعية والصناعية على السواء. صادراتنا الزراعية محدودة بأراضينا الزراعية المحدودة، والزيادة السريعة فى السكان تقلل بدورها من حجم المتاح للتصدير من هذه السلع الزراعية ولكن حتى لو امكننا زيادة الصادرات الزراعية فأنتم تعرفون ما تواجهه هذه الصادرات من اتجاه اسعارها الى الانخفاض بالمقارنة بأسعار ما نستورده منكم من سلع صناعية ، وذلك لأسباب كثيرة لا مجال للخوض فيها الآن، وعلى كل حال فأنتم أنفسكم تزيدون الطين بلة بحماية مزارعيكم ضد منافسة صادراتنا الزراعية .

أما صادراتنا الصناعية فمشكلتنا فيها أوهى وأعوص فكفاءتنا فيها منخفضة ، وأنتم لم تتركونا لشأننا مدة كافية نمارس فيها الحماية حتى تشب صناعاتنا على قدميها ، فأسرعتم بالضغط علينا من أجل فتح الأبواب، فوئدت بسرعة كثير من صناعاتنا التى كانت تبشر بالخير. تقولون «فلتركزوا على الصناعات كثيفة الاستخدام للعمل، كالمنسوجات والأحذية، فأنتم فيها أكفأ» ولكن نفاقكم فى هذا الأمر لا حد له، فهذه بالضبط هى السلع التى تفرضون فيها الحماية لصناعاتكم وتتحججون فى تبرير ذلك بمختلف الحجج. مرة تقولون إن ضغوط العاملين فى هذه الصناعات





عندكم اقوى مما تستطيعون مواجهته، ومرة تقولون اننا ندفع اجورا منخفضة لعمالنا لا يسمح به «الضمير الإنساني» ومرة تقولون ان سبب كفاءتنا في هذه الصناعات هو استغلالنا للاطفال الصغار وهذا عمل يتنافى مع حقوق الانسان فماذا نفعل معكم؟ وعلى أي حال، فلنفرض ان دول العالم الثالث كلها قد أخذت بنصيحتكم وشرعنا كلنا في تصدير مثل هذه السلع إليكم، فهل يمكن حقا لأسواقكم ان تستوعب كل هذه الصادرات؟ ان ما يمكن لدولة واحدة ان تنجح فيه اذا قامت به وحدها. لا يمكن لعدد كبير من الدول أن تنجح فيه إذا قامت به كلها في نفس الوقت.

إننا لا نقول إن سياسة التصنيع عن طريق زيادة الصادرات سياسة خاطئة، ولكننا نقول فقط إنها للأسف ، في مثل الظروف التي نعيش فيها، غير ممكنة، ربما نجحت بعض دول جنوب شرقي آسيا في زيادة صادراتها بشدة خلال العشرين عاما الماضية ولكن هذه الدول كانت تصدر في ظروف دولية مواتية بل كان هناك في بعض الحالات اسباب سياسية وعلى أي حال فقد كانت مجموعة صغيرة من الدول، ما ينطبق عليها لا يمكن ان ينطبق على عدد كبير من دول العالم الثالث إذا حاولت كلها أن تزيد صادراتها الصناعية بسرعة في نفس الوقت».

لا حياة لمن تنادى

كل هذه الحجج لم تفلح في أن تثني عزم الداعين إلى سياسة الاعتماد على الصادرات والمهاجمين لسياسة الاحلال محل الواردات. واستمرت الحملة الدائمة لفتح أبواب التجارة تزداد قوة، يقوم بها الاقتصاديون من الأكاديميين والرسميين،والمؤسسات الدولية وكأنهم على اتفاق تام على ما يجب عمله، وتنتهي هذه الحملة بنجاح باهر لهم جميعا يتمثل في اتمام اتفاقية أورجواي في سنة ١٩٩٤، والتوقيع عليها من عدد كبير من دول العالم، بما فيها دول كثيرة من العالم الثالث، وكأن هذه الخطوة الكبيرة نحو مزيد من تحرير التجارة وفتح الأبواب أمام الواردات والصادرات هي في مصلحة البشرية كافة، وإذا بالجميع يشتركون في التهليل لعصر «العولمة» ويصفقون فرحين «لقد انتهى عصر الانطواء على النفس، وجاء عصر الانفتاح على العالم».

ولكن حقيقة الأمر ليست بهذه البساطة.. فالاختلاف بين سياسة تشجيع الصادرات وسياسة الاحلال محل الواردات ليس في الحقيقة اختلافا

بين الحق والباطل، بين الصواب والخطأ، بل هو فى الحقيقة ليس الا خلافا بين القوى والضعيف.

تسمية الأشياء بغير اسمائها الحقيقية :

فأولا: يجب أن نلاحظ أن تسمية السياسة المضادة لسياسة الاحلال محل الواردات باسم «استراتيجية التصنيع عن طريق تشجيع الصادرات» ليست تسمية بريئة تماما. ذلك أن المقصود منها فى الأساس ليس هو بالضبط تصنيع العالم الثالث ، بل هو أن يفتح العالم الثالث أبوابه للاستيراد من الدول الصناعية. إنها فى الأساس سياسة «تحرير الواردات» ، وليست فى الأساس «تشجيع الصادرات الصناعية» قد يقال ومن أين لدول العالم الثالث القدرة على زيادة وارداتها دون أن تزيد صادراتها الصناعية؟ الرد على هذا أن دول العالم الثالث لديها أشياء كثيرة يمكنها أن تبيعها لتسدد بثمنها قيمة وارداتها المتزايدة ، ولكن هذا البيع ليس دائما فى صالحها، هناك مثلا ثرواتها المعدنية، من بترول وفوسفات الى حديد خام.. إلخ.. مما كان يعقد عليه الأمل، فى فترة الاحلال محل الواردات فى أن يصبح أساسا لصناعات جديدة ولديها أيضا السياحة، أى أن دول العالم الثالث، بدلا من أن تصبح دولاً صناعية مثل غيرها ، تتحول إلى دولة للفرجة ، يأتى السياح من الدول الصناعية المتقدمة للاستجمام والراحة ومشاهدة الآثار. إن هذا ليس شيئا سيئا بالضرورة اذا تم فى حدود معقولة لا تتحول معه نسبة كبيرة من العمالة فى هذه الدول إلى الاشتغال بتقديم الخدمات ، من مختلف الأنواع، للسياح.

ولكن دول العالم الثالث لديها أيضا أشياء أخرى يمكن لها بيعها، عدا الثروات الطبيعية والتاريخية، وهى الأصول الرأسمالية التى سبق لها بناؤها فى فترات سابقة، هى فى الأساس فترات «الاحلال محل الواردات» انى أعنى بذلك ما يطلق عليه «الخصخصة» ، وهى، إذا أردنا الحقيقة ليست فى الأساس إلا بيع دول العالم الثالث لصناعاتها لرأس المال الأجنبى دون تمييز بين الرابح منها والخاسر، وبأثمان اقل من قيمتها الحقيقية، تحت ضغط ديون سبق لها الوقوع فيها بسبب تورطها اكثر من اللازم فى الاستيراد وفتح الأبواب بلا ضابط أمام الواردات.

إن كل هذه الطرق (فيما عدا السياحة) لتسديد قيمة الواردات السابقة، ولدفع قيمة واردات جديدة ، لا يمكن بالطبع أن تستمر إلى الأبد ، ولكنها يمكن أن تستمر لأمد ليس بالقصير، وخلال هذه الفترة وحتى تستجد ظروف أخرى، يمكن ان يستمر الترويج لسياسة فتح أبواب الاستيراد على مصراعيها. تحت هذا



قصة العالم الثالث

الاسم الجذاب «سياسة تشجيع الصادرات».

الكفاءة.. الكفاءة:

ثانيا : إن حجج المدافعين عن سياسة تحرير الواردات والاعتماد فى تمويل ذلك على زيادة الصادرات والمهاجمين لسياسة الاحلال محل الواردات يمكن تلخيصها كلها فى كلمة واحدة هى «الكفاءة» إذ أليس من الاكفأ أن تنتج للعالم كله بدلا من أن تنتج لسوق دولتك الصغيرة؟ إنك إذا أنتجت للعالم الواسع أمكنك أن تزيد من حجم إنتاجك بما يسمح لك باغتنام مزايا الانتاج الكبير، وان تتعرض للمناقشة من منتجين أقوياء فيحفزك هذا على التحسين المستمر فيرتفع مستوى كفاءتك. وأنت على أى حال ، اذا تخليت عن تلك الأسوار العالية التى تحمى بها صناعات غير كفؤة، سوف تتخصص فى انتاج ما أنت مؤهل له، أى تتمتع فيه بكفاءة عالية.

كل هذا صحيح، ولكن «الكفاءة» ليست كل شىء فى الحياة فإطلاق العنان لاعتبار الكفاءة دون غيرها. موقف دارويني قبيح لا يعنى فى النهاية الا الحكم بالموت على الجميع الا الأقوى، فبأى حق تحرم المزارع الصغير من الحياة لمجرد انه اقل كفاءة من الشركات العملاقة صاحبة المزارع الواسعة؟ ولماذا نجبر صاحب الورشة الصغيرة التى يشتغل فيها هو وأسرته على اغلاقها ليذهب للعمل، كعامل اجير، فى المصنع الكبير؟ هل يكفى لتبرير ذلك ان هذا المصنع الكبير يستطيع ان ينتج نفس السلعة بنفقة اقل؟ قد يقال ان فى هذا مصلحة المستهلك، ولكن الإنسان ليس مستهلكا فقط، ورضاه عن حياته ونفسه لا يأتى فقط من قدرته على شراء السلع بثمن أقل، بل يأتى من أشياء كثيرة أخرى من بينها قدرته على التعبير عن نفسه كمنتج ومن شعوره بالاستقلال والحرية ومن علاقاته بأسرته وقومه ، ناهيك بالطبع عما اذا كان لديه عمل يتكسب منه أو متبطلا.

ثم إن هذه الكفاءة التى لا يكف عن الكلام عنها أنصار حرية الاستيراد والتصدير، هى فقط نوع معين من الكفاءة، وهى الكفاءة الاقتصادية ، ولكنها ليست كل الكفاءة فأنا قد أكون اقل من غيرى فى الكفاءة الاقتصادية ولكن نمط حياتى قد يكون أجمل أو افضل. بأى حق مثلا تحرمنى من استخدام لغتى العربية لمجرد أنها ليست لغة رجال الأعمال «أو لغة «البيزنيس» ؟ ولماذا تجبرنى على أن أتعلم شيئا اسمه «علم التسويق» وهو لايزيد كثيرا عن فن خداع المستهلك؟ ولماذا تضطرنى لفتح

أسواقى لسلع تهدد صحتى وحياتى وحياة أولادى لمجرد انها أرخص أو أكبر؟

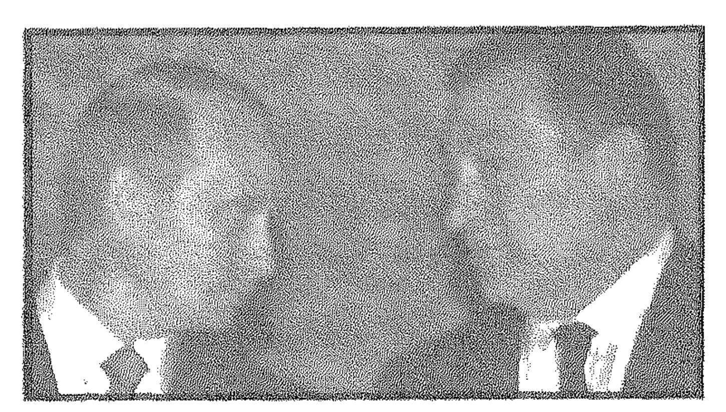
بل حتى بصرف النظر عن هذا وذاك، ما الذى يجعلك تحكم من مجرد النظر على مستوى كفاءتى الحالية بأنى سأظل كذلك إلى الأبد؟ لماذا لا تسمح لى ببعض الحماية ريثما ارفع من مستوى كفاءتى إلى المستوى الذى تطلبه، ثم تحكم على بعد ذلك؟ كما سبق أن فعلت كل الدول التى تعتبر اليوم فى عداد الدول المتقدمة: حمت نفسها اولا ولم تنفتح على العالم الخارجى الا بعد أن اطمأنت على قدرتها التنافسية. إن المنافسة قد تكون شيئا طيبا حقا ولكن بشرط ألا تتضمن عملية قتل. وفتح أبواب الاستيراد قبل الأوان قد لا يؤدى إلى زيادة الكفاءة بل الى الموت.

اختزال الحياة في بيع وشراء:

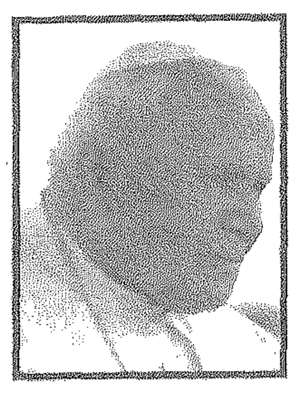
كل هذا الكلام لم ينجح فى إثناء عزم أنصار الانفتاح على العالم أو فى ردهم عن غيهم. فقد استمروا يرددون نفس الحجج بتصميم مدهش، بل وبتكرار من شأنه أن يبعث السأم فى النفوس. لولا ان احدا لا يستطيع ان يعترض طريقهم أو أن يصفهم بما يستحقون من أوصاف، ذلك ان لديهم كل الأسلحة وكل اللازم لكسب المعركة: البنادق والمال ووسائل الدعاية وغسيل المخ. وهم باستخدام هذا كله يستمرون فى تجميل القبيح، وفى اختزال الحياة كلها وكأنها ليست أكثر من عملية بيع وشراء. وهم يستخدمون اللغة ويصكون المصطلحات على النحو الذى يخدم مصالحهم مهما كان هذا الاستخدام مفضلا.. فرغبة الشعوب فى التمتع بالاستقلال وحرية الارادة وحماية ثقافتها القومية يسمونه «انطواء على النفس» inword looking وكأن هذه الشعوب مريضة نفسيا وتحتاج إلى علاج، وقتل الصناعات الوطنية لصالح صناعات الدول الأقوى يسمونه انفتاحا على العالم"out word looking" .

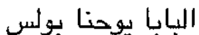
وكأن هذا هو التصرف الوحيد الذى ينتظر من شخصية سوية لا تخشى مواجهة الأخطار والتحديات، أو يسمونه تحريرا "Liberalization" بافتراض انه ليس هناك شيء افضل من الحرية والتحرير، حتى ولو كان تحريرا من الحماية التى يحتاجها الطرف الأضعف.

هذه هى النقطة التى بلغتها قصة العالم الثالث فى الوقت الحاضر ولكنها لحسن الحظ ليست بالضرورة نهاية المطاف. فتاريخ العلاقات الاقتصادية بين الدول يدلنا على انه مهما ظن القوى بنفسه الظنون ومهما اشتدت خيلاؤه وازداد اعجابه بنفسه ، فسوف يتصدى له بعد حين من هو أقوى منه، وهنا تحين فرصة الأطراف الأضعف للهرب بأنفسهم. المهم أن ينجح هؤلاء الضعفاء فى أن يؤجلوا لأطول مدة ممكنة ، تلك اللحظة التى ينقض فيها عليهم ملك الغابة الحالى لالتهامهم. ■



مبارك وبوتين





البابا يوحنا بولس

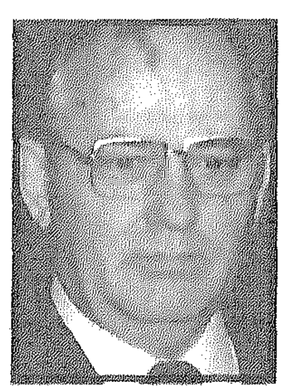
روسيا والعرب
والتوازن المفقود

بقلم
عبدالرحمن شاكر

ردا على سؤال عما إذا كان يتوقع نشوب الحرب ما بين الدول العربية ودولة الكيان الصهيونى، رد أحد وزرائها بقوله إن الحرب كانت تنشب فى الماضى لوجود الاتحاد السوفييتى الذى كان يقوم بإمداد الدول العربية بالسلاح! ومعنى ذلك أن هذا الوزير يرى أن انتهاء هذا الوضع يعنى أن يكون فى وسع «دولته» التى لم ينقطع عنها مدد السلاح الأمريكى الوفير المتجدد المتطور باستمرار، أن تستمر فى عربدتها العسكرية كما يحلو لها، فى مأمن من أن تبادرها الدول العربية بالحرب لوقف تلك العربدة عند حدها.



خروشوف



جورباتشوف



يلتسين



من ذلك اكتسبت الزيارة التى قام بها الرئيس محمد حسنى مبارك أخيرا إلى روسيا الاتحادية أهمية كبرى، ومن حيث أشير فى تلك الزيارة إلى العلاقة التاريخية ما بين مصر والاتحاد السوفييتى السابق، فقد سمح بعض المراقبين لأنفسهم بتصور أن يكون موضوع السلاح، من بين ما تناولته المحادثات المصرية الروسية على ذلك المستوى الرفيع، خاصة أن القوات المصرية لايزال لديها رصيد من الأسلحة «السوفييتية» قد يحتاج إلى تجديد يجعله صالحا للاستعمال، بالإضافة إلى ما تملكه القوات المصرية من مصادر أخرى أهمها المصدر الأمريكى ذاته، مع احتمال بأن تكون الترسانة الروسية فى صنع السلاح، قد أدخلت أو أبتكرت هى الأخرى أنواعا جديدة من الأسلحة قد يكون فى صالح القوات المصرية أن تقتنى منها ما يلائم أغراضها الدفاعية مما لا توفره لها الترسانات العسكرية الأخرى التى تتعامل معها.

ذلك فضلا عن كون الأسلحة التى تملكها سوريا لايزال كلها أو معظمها من نتاج الترسانة السوفييتية السابقة والروسية حاليا. كل ذلك داخل فى إطار محاولة استعادة التوازن العسكرى المفقود ما بين الدول العربية والدولة الصهيونية، باعتبار أن هذا التوازن ضرورى فى واقع الأمر لكفكفة الغلواء الصهيونية والغطرسة والعربدة المتمثلة .فى استمرار عدوانها على الشعب الفلسطينى وإنكار حقوقه، وتهديدها الموجه إلى لبنان الذى انسحبت منه، بما فى ذلك قصفها مؤخرا للرادار السورى فى لبنان بدعوى أن سوريا لاتزال تدعم المقاومة اللبنانية التى لاتزال بدورها تقوم بعمليات ضد الدولة الصهيونية نظرا لاستمرار احتلالها

لمزارع شبعا التى تعتبر جزءا من الأرض اللبنانية.

واستعادة التوازن العسكرى ما بين الدول العربية والدولة الصهيونية، من خلال تعاون جديد مع روسيا الاتحادية قد يكون واردا وبشكل مُلِحٍّ ، مع وضع كافة المتغيرات التى طرأت على كلا الجهتين، سواء من حيث أوضاعها الداخلية، أو علاقاتها الدولية فى الاعتبار، تحت شعار تحتمه الظروف المستجدة ، مؤداه أنه لا عودة للماضى، ولكن لا يأس من المستقبل! .

قضايا شبه أيديولوجية!

وقد تكون لروسيا الاتحادية مصلحة اقتصادية مباشرة فى أن تبيع السلاح لمصر وسوريا ومن عداهما من الدول العربية. وقد تكون لها مصلحة سياسية فى ألا تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية، مع انحيازها الواضح للدولة الصهيونية بمعالجة ما يسمى بقضية الصراع العربى الإسرائيلي فى الوقت الذى تعتبر فيه روسيا أحد راعيى ما يسمى بعملية السلام فى الشرق الأوسط، وتجريدها من القيام بأى دور، أو افقاد هذا الدور فاعليته بالمرة فى غير صالح سمعتها ومكانتها التى تحاول حاليا استردادها كقوة دولية كبرى. وإذا كانت روسيا تضيق فى أوروبا بمحاولات توسعة حلف شمال الأطلنطى بحيث لا يشمل حلفاء سابقين لها مثل بولندا والمجر.. الخ فحسب، بل يحاول ان يمتد إلى ما كان جزءا من الاتحاد السوفييتى السابق مثل أوكرانيا، أقرب أشقائها إليها فى ذلك الاتحاد، الذى كان على نحو ما استمرارا للامبراطورية الروسية التقليدية! إذا كان ذلك كذلك، فالمشرق العربى والإسلامى، وما يسمى بالشرق الأوسط، هو ايضا بدوره جار لروسيا ومناطق نفوذ إمبراطوريتها السابقة مهما يكن اسمها! وليس من صالحها ان تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالنفوذ فيه، واستفحال هذا النفوذ من خلال ركيزة خطيرة من نوع الكيان الصهيونى الذى تتركز وتتفاقم قدراته العسكرية، ويحاول ان يترجمها الى توسع اقليمي من ناحية، وتضخم ديموغرافى من ناحية أخرى من حيث يحلم شارون رئيس وزراء هذا الكيان بأن يهاجر إليه حتى سنة ٢٢٠٠ معظم يهود العالم! وبالطبع لن تكفى هؤلاء الرقعة الحالية المعترف بها دوليا للدولة الصهيونية ، ولا الأرض المحتلة فى فلسطين والجولان

التى يتواصل فيهما الاستيطان ، بل لابد من اقتطاع مساحات جديدة فى الأرض المجاورة وخاصة فى منطقة الشام، فضلا عن حلمه المجنون الذى يراوده حاليا بل يحاول تنفيذه عاجلا وهو السماح لليهود بدخول الحرم القدسى الشريف رغم أنف المسلمين اذلالا للعالم العربى والإسلامى ، وإعلانا بأن الكيان الصهيونى قد اصبح هو الحقيقة الكبرى الرئيسية فى هذه المنطقة من العالم!

العدل لا يتجزأ

إذا كانت روسيا سوف تعود بوزنها الكبير على نحو ما إلى المنطقة العربية الإسلامية، أو ما يسمى بالشرق الأوسط، فإن عودتها تلك ، يرجى لها أو يرتقب منها ان تصب فى موازين العدالة الدولية المفقودة فى المنطقة بحكم العربدة الصهيونية المستندة الى الدعم الأمريكى غير المحدود بمعنى أن يكون موقفها السياسى مطابقا للحد الأدنى من مقتضيات تلك العدالة من منظور دولى. وهو ما يطالب به الفلسطينيون والدول العربية من انسحاب دولة الكيان الصهيونى من كافة الأراضى العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، طبقا لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن

ويرتبط بذلك أيضا الموقف من العراق، التى لروسيا فيها مصالح متعددة اقتصادية واستراتيجية وخلافه، بحيث عليها أن تتخذ مواقف أكثر حزما فى نصرة العدالة الدولية إزاء هذا القطر المغلوب على أمره أمريكيا، والذى يتعرض لعدوان مستمر سواء باستمرار العقوبات الدولية المفروضة عليه واستمرار الحصار والتجويع لشعبه، وتعرضه للقصف العشوائى من جانب الطائرات الأمريكية والبريطانية.

ولأن العدل الإنسانى لا يتجزأ فقضايا العدالة الدولية المطروحة آنفا لها علاقة أيضا بالأوضاع الداخلية فى الدول المعنية، بما فيها روسيا ذاتها، التى يلاحظ الآن أنها تحاول أن تفيق من آثار السياسة الانتحارية التى قادها إليها رئيسها السابق بوريس يلتسين، الذى أقدم على حل الاتحاد السوفييتى، ثم ألقى باقتصادها فى هاوية ما يسمى العلاج بالصدمة، والتحول العشوائى نحو الرأسمالية مما أدى إلى استيلاء المانيا الجديدة، المتداخلة مع العصابات اليهودية محليا ودوليا للسيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية والسياسية والاعلامية ونهب الموارد على نحو شنيع، وإلقاء الجماهير العريضة فريسة للجوع والبطالة، مع تدنى

القدرات الانتاجية لتلك البلاد ذات الموارد الهائلة، على نحو لم يعرف له التاريخ مثيلا.

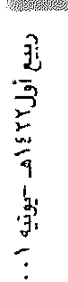
لذلك كانت مشاركة روسيا فى الثورة العالمية الجديدة على «الرأسمالية المتوحشة» التى التهمت الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وشرق أوروبا، ظاهرة للعيان فى عيد العمال فى أول مايو . على نحو ما حدث فى البلدان الرأسمالية العريقة ذاتها فى بريطانيا العظمى والمانيا وفرنسا وكندا، فضلا عن المظاهرات التى شهدتها مدن امريكية من قبل، ضد الطغيان الرأسمالى المستفحل، والذى زاد الهوة بين من يملكون ومن لا يملكون، أفرادا وطبقات دولا، على نحو شنيع.

الوجه الإنساني للاشتراكية

فى المظاهرات التى نظمها الحزب الشيوعى الروسى، والذى هو أكبر كتلة برلمانية فى مجلس الدوما الروسى، كان يسير فى مقدمة المتظاهرين تحت الأعلام الحمراء، وصور لينين وستالين، الرئيس السوفييتى السابق والأخير ميخائيل جورباتشوف . كان يشارك المتظاهرين فى هتافاتهم المنادية بالعدالة الاجتماعية ولم يحاول احد من المتظاهرين إلى جواره أن يوجه اليه اهانة ما. أو يقول له أنت المسئول عما أصاب بلادنا من تحول عشوائى إلى الرأسمالية أدى إلى الحال المتدنية التى تحاول الخروج منها الآن، فالكل يعلم أو يحس بمضمون الشعار الذى سبق الاشارة إليه فى هذا المقال، وهو أنه لا عودة إلى الماضى ، ولا يأس من المستقبل.

فحينما أقدم جورباتشوف فى منتصف الثمانينات على اعلان سياسته فى البريسترويكا، أى إعادة البناء، والجلاسنوست، أى الشفافية والمصارحة، وأقدم على إلغاء «ديكتاتورية البروليتاريا» المتمثلة فى انفراد الحزب الشيوعى السوفييتى «المعروف باسم البلشفى» بالحكم والعمل السياسى، وقام بسحب القوات السوفييتية من أفغانستان ودول شرق أوروبا، وسمح بإعادة توحيد ألمانيا، وبحل حلف وارسو وإنهاء الحرب الباردة وسباق التسلح، إنما كان يهدف الى اعطاء الاشتراكية وجها إنسانيا، وانهاء الانقسام العالمى الذى كان يستنزف الموارد البشرية فى سباق التسلح، وهو امر كان متوقعا ونودى به عقب إدانة نيكيتا خروشوف لسياسة سلفه ستالين





الاستبدادية فى المؤتمر العشرين للحزب البلشفى عام ١٩٥٦. (١)

لقد عبرت سيدة بريطانية مسنة كانت تشترك فى مظاهرات اول مايو فى لندن عن بعض مطالب مظاهرتها ضد الرأسمالية، حيث قالت: إن المسألة مسألة أولويات ، والأموال الطائلة التى تنفق على التسلح كان ينبغى أن توجه لرعاية الأطفال والأرامل، ورفع مستوى معيشة الجماهير بصفة عامة . هذا المطلب الذى لم يتحقق بعد انتهاء الحرب الباردة لحرص الرأسمالية «المتوحشة» على مكاسبها من صنع الأسلحة وتجارتها من ناحية، وسعيها الى الهيمنة العالمية بما تملكه من تلك الأسلحة من ناحية أخرى.

لقد حاول الجامدون من أعضاء الحزب الشيوعى السوفييتى الانقلاب على جورباتشوف وسياسته فى الجمع ما بين العدالة الاجتماعية والديمقراطية ، فأتاحوا الفرصة لعملاء الرأسمالية من أمثال يلتسين للاطاحة به، وحل الاتحاد السوفييتى الذى قال عنه احد عتاة الساسة الرأسماليين وهو الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون: إنه لو بقى الاتحاد السوفييتى إلى القرن الحادى والعشرين لأصبح المسلمون أغلبية فيه. لأن معدل المواليد فى المناطق الآسيوية الإسلامية هو ثمانية افراد لكل أسرة، بينما هو فى المناطق الأوروبية المسيحية طفل واحد لكل أسرة!

وليس جورباتشوف وحده هو من يثور الآن على الرأسمالية المتوحشة، بل إن صاحب هذا التعبير هو بابا الكاثوليك الحالى يوحنا بولس الثانى، الذى قام بدور فى تدمير النظم الشيوعية الاستبدادية فى شرق اوروبا لايقل عن دور جورباتشوف بتأييده الهائل لنقابة تضامن العمالية المستقلة فى بلده بولندا، ولكن بعد ان رأى ما أحدثه بها وبسواها التحول العشوائى إلى الرأسمالية، وتدنى مستوى معيشة الجماهير على نحو مروع، لم يتردد فى اطلاق هذا الوصف عليها واستنكار ممارساتها الأنانية الاستغلالية وبقى ان نقول: إن الحزب الشيوعى الروسى الجديد بزعامة زيوجانوف لايدعو إلى عودة ديكتاتورية البروليتاريا بل إلى الديمقراطية الاشتراكية ، التى هى أمل العالم فى الجمع ما بين الحرية والعدل الاجتماعى على مختلف الصعد الإنسانية محليا ودوليا! . ■

(١) انظر كتابى بعنوان «الثورة الاشتراكية العالمية» الصادر فى القاهرة عام ١٩٦١ .

أم المعارك.. ثقافية!

الصراع بين الكتاب الورقى والكتاب الإلكترونى

بقلم
جميـــل مطـــر

كنت مازلت طالباً بالجامعة عندما قبلت عرضاً للعمل فى حقل الكتب والمكتبات. وأظن أن الاختلاط بالكتب والوثائق فى هذه السن المبكرة خلّف آثارا لم تزل باقية. خلف مثلاً رغبة متجددة للدخول إلى مكتبة إذا صادفتنى فى الطريق واحدة، لا للقراءة أو شراء الكتب بقدر ماهو للاستمتاع برائحة الكتب الجديدة. فللكتب، عند وصولها، من المطبعة رائحة خاصة، وللمكتبة، تجارية أم عامة، رائحة لا تجدها فى دكان أو مخزن أو صالة عرض أخرى.



ثم تطورت العلاقة مع الكتاب وغيره من المطبوعات الورقية واستمرت دون أن يعكر صفوها علاقة أخرى حتى جاء يوم جلست فيه إلى جهاز كمبيوتر. فى هذا اليوم عرفت أننى بهذه الجلسة بدأت علاقة أخرى سوف تتسبب إن آجلاً أو عاجلاً فى خلخلة جانب مهم من جوانب الاستقرار فى حياتى. عرفت أن مكانة مصادرى الورقية سوف تنحسر لصالح مصادر غير ورقية، وأن جوانب من سلوكى سوف تتغير لصالح سلوكيات جديدة.

لذلك كان اهتمامى بكتاب صدر حديثاً تحت عنوان DOUBLE FOLD. وبالمناسبة لم أجد ترجمة مناسبة خفيفة على الأذن. فالترجمة الحرفية قد تكون «التعطيفة المزدوجة» أو «الطية المضاعفة» أو «الثنية المزدوجة». إشارة إلى غلاف الكتاب المقوى.

أثار فضولى أمران، أولهما: حجم التغطية الإعلامية التى حصل عليها والعدد الكبير من دوريات الكتب التى نشرت عروضاً نقدية متفاوتة الترحيب والاعجاب والاعتراض والاحتجاج. أثار فضولى أيضاً بساطة موضوع الكتاب. فموضوعه من نوع الموضوعات التى يشعر الإنسان أنه كان يود دائماً كتابتها أو أنه بالفعل كاتبها، موضوع يشغل الكثيرين، وفى الوقت نفسه ولفرط الحديث عنها تبدو عند القراءة غير بالغة الأهمية فقد استهلكوها نقاشاً وجدلاً.

الموضوع هو «مذابح» الكتب والوثائق ومختلف السجلات الورقية. كلنا نعرف أن أمناء المكتبات العامة فى كل دول العالم وخاصة المتقدمة منها يجردون يومياً أرفف مكتباتهم من كتب ومجلات وجرائد راقدة فوقها ثم يقومون بتفسيخها، أو يذبحونها ذبحاً حسب تعبير «نيكولسون بيكر» مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا، وتصويرها مصغرة على شرائح الميكروفيلم. هؤلاء «السيافون» يقولون إنهم يدمرون الكتب للحفاظ عليها. والمؤلف بيكر يقول هم يفعلون ما فعله الجيش الأمريكى فى ڤيتنام عندما «كان يدمر القرى ويذبح سكانها ويحرق مزارعها وبيوتها للحفاظ عليها». حتى أن التعبير بالانجليزية Destroy to Preserve صار شائعاً فى حقول أخرى. أصبح حراس الكتب والأمناء عليها سيافيها، وهو ما جعل إحدى الناقدات تصف ما يفعله أمناء المكتبات بكتبهم قبل تصويرها بأنه مثل عمل المقصلة، التى تذبح رقبة الكتاب وتنزع سلسلته الفقرية وتفصلها عن جسده.

التخلص من الكتب جريمة!

لا يخفى بيكر أنه منحاز فى هذه القضية لصالح المطبوعة فى شكلها الورقى، أى الأصلى. ويعتقد أنه يحب

الحفاظ عليها مهما كان تكلفة هذا الحفاظ. بل إنه يكاد يصل إلى هاوية التطرف فى كتابه حين يقرر أن التخلص من الوثائق والسجلات والكتب وكل المطبوعات الورقية بحجة ضيق المساحة جريمة. «وأنا منحاز.. وفى هذا الكتاب أتقمص شخصية المدعى فى قضية خطيرة، لقد تم ايقاظ المدعى فى داخلى، لأننا نفقد أشياء لن نستعيدها مرة أخرى، «فقد أعدم حوالى ٩٧٥٠٠٠ كتاب بعد تصويره على الميكروفيلم، وأعدمت مجموعات بلا حصر من الجرائد الورقية لا يمكن تعويضها. ويبدو أن المذبحة بدأت بالجرائد اليومية.

ويكاد القارئ يشعر بالمؤلف يتألم وهو يصرح أنهم - أى أمناء المكتبات - لا يتخذون قراراً فى شأن كل كتاب على حدة، إنما يذبحون صفاً وراء صف من الكتب من رف وراء رف من أرفف المكتبة. يتألم كما لو كان يصف عمليات إعدام بالجملة أو إبادة قبل التحقيق فى كل حالة على حدة. زعموا أن الكتب فى خطر. فالورق يتغير شكله أو تتآكل أطرافه، والحقيقة غير ذلك. الحقيقة هى أنهم يريدون أن يفسحوا مكاناً، يفعلون ما تفعله المكنسة الكهربائية، وما فعلته منذ أربعة قرون أو أكثر الحكومات حين طاردت كهنة الأديرة وتدخلت بحماسة لإعدام وثائق وسجلات أصلية كانت الأديرة تحتفظ بها. ثروة ورقية أعدمت ولن تسترد.

ويرد بيكر على أنصار ذبح الكتب وتصويرها بالميكروفيلم الذين يدفعون بأن الورق مهدد بالخطر. فبقليل من العناية وأحماض جديدة يمكن إطالة عمر الكتاب ثلاثمائة أو خمسمائة سنة أخرى، وأغلب الكتب التى أعدمت كانت بحالة جيدة. وعلى كل حال فالميكروفيلم ليس أفضل. إذ أن بقعاً تنتشر على النسخة بعد مرور سنوات فضلاً عن أن عملية التصوير والطباعة والحفظ باهظة التكلفة، أما الصيانة فأكثر كثيراً.

وقبل أن يصل بيكر إلى الحل الذى يقترحه وهو الجمع بين الاثنين أى الحفاظ على النسخة الورقية وتصويرها إن توفر المال اللازم والتكنولوجيا الرخيصة والمناسبة، اندفع نحو المبالغة من فرط حماسته وانحيازه. كتب يتهم المخابرات الأمريكية بأنهاكانت الدافع والمحفز للمذبحة. فقد طرح مكتب الخدمات الاشتراكية OSS فى نهاية الحرب العالمية الثانية الفكرة، أى قبل أن ينجب وكالة المخابرات الأمريكية. ويقول أنه لاحظ أن معظم

مبشرى «التصغير» أى النقل إلى الميكروفيلم اشتغلوا فى وكالة المخابرات الأمريكية كأمناء مكتبة أو كمسئولين عن الوثائق أو كمستشارين. كذلك جلس على مجلس إدارة «المجلس القومى الأمريكى لموارد المكتبة» وهو أعلى هيئة مشرفة على حقل المكتبات فى أمريكا، ضباط سابقون وعملاء معروفون ومستشارون فى وكالة المخابرات الأمريكية. وبذلك جاء توقعى فى محله. فقد توقعت وأنا أقرأ لبيكر عن دور المخابرات الأمريكية أنه سيربط بين هذا الدور وبين شعار الإبادة الذى رفعه أمناء المكتبات. «دمر الكتاب لتنقذه». بل إنه ذهب إلى أبعد مما توقعت، إذ وجدته يكتب صارخاً أو لعله كان يصرخ كتابة، «لقد وضعوا الكتب فى أفران الغاز، أقاموا لها محرقة HOLOCAUST » .

أشعر، وأظن أن كثيرين يشعرون بنفس الشعور، أن الكتاب مازال يمثل حلقة وصل أساسية تربطنا بالماضى. وأشعر أيضاً أن كتابى إن فقدته فلن يعود ولن يحل محله كتاب أو شىء آخر، فما بالك والكتاب قد دمر تدميرا. ورغم كل ما قيل ويقال عن الحفاظ على الكتاب بالميكروفيلم، لا أذكر أننى عدت إلى كتاب على الميكروفيلم لأقرأه أو أستعيد فقرات قرأتها من سنوات. فالكتاب بالنسبة لكثيرين أعرفهم ليس رائحة فحسب، وليس زاد علم ومعرفة وحسب، إنما هو أيضاً رفيق، يأخذه القارىء معه حيثما ذهب، إن شاء، فقد يأخذه معه إلى فراشه ويغفو عنه وهو على صدره راقد فى رقة وسكون. وأظن أن هؤلاء الكثيرين لايرضون بغير الكتاب رفيقاً فى أماكن لها قدسية خاصة أو أماكن لها خصوصية شبه مقدسة. نأخذه معنا فى هذه الأماكن ولانأخذ جهاز ميكروفيلم، مهما بلغ إلحاح حاجتنا إلى معلومة أو قضية أو رفيق. نحن نهدى الكتب فى المناسبات الحميمة ونتلقى هدايا كتب، وتزداد سعادتنا مع كل كتاب مهدى. ولكن أحدا لن يهدينا ولن نهدى أحداً صورة فيلم على كتاب ومعها جهاز ميكروفيلم.

ورغم ذلك، أعرف أننا نعانى من بعض ما يعانى منه أمناء المكتبات. فقد اكتظت بيوتنا ومكاتبنا بالكتب ومطبوعات الورق، واحترنا ماذا نفعل بها وقد ملأت الأرفف ضعفاً وضعفين وثلاثة، وتراكمت الصحف القديمة على حالها أو فى قصاصات، ولا يخلو بيت أو مكتبة من مناوشات وتحرشات من وراء منظر الأرفف وأكوام الصحف والدوريات وقصاصاتها. وكثيراً ما يتردد السؤال ولايجد جواباً شافياً أو مريحاً، إذا كان الكتاب لم يمس على امتداد سنوات عشر أو عشرين فلماذا الاحتفاظ به؟.

هذا ما طرحه وبقوة أحد الذين تصدوا

لنيكولسون بيكر. وجه بيدر زين في مقال تحت عنوان «حياة وموت الكلمة»، سؤالاً إلى جميع القراء نصه كالآتي: كم كتاباً من كتب القرنين السادس عشر والسابع عشر اخترت لتقرأ خلال العام الأخير أو العقد الأخير، أو حتى خلال حياتك بأسرها؟ ويسأل، كم عدد الكتاب العظام في القرن العشرين الذين سيتذكرهم الناس في القرن الثاني والعشرين». ويجيب أن الغالبية العظمى من الكتب التي ينعيها بيكر بعد أن ذبحها أمناء المكتبات لتحويلها إلى نسخة ميكروفيلم لم يكن أحد يقرأها قبل ذبحها إلا نادراً. بيكر يعرف هذه الحقيقة. وأعداء الميكروفيلم والتكنولوجيا الرقمية يعرفونها. ومع ذلك خرج بيكر - كما يقول زين - بكتاب عن شيء لا أهمية له ، ومن أجل هذا يستحق الإعجاب، ولكنه يستحق إعجاباً أكثر لأنه أثار زوبعة هائلة وعاصفة من الاهتمام والتعاطف والتأييد بين الجمهور والنقاد بسبب كتاب في موضوع غير ذي قيمة. لقد نجح بيكر في وضع موضوعه في صدارة «دورة حياة الأدب» ولا يتوقف زين عند هذا الحد. بل نراه في عرضه ونقده لكتاب بيكر يتحدى مفهومه للتاريخ، فيقول إن التاريخ ليس كياناً ساكناً يتكون من «ما حدث»، وإنما التاريخ سجل ديناميكي يتكون من «ما نتذكره وكيف نتذكره». فالإنسان يقوم كل لحظة بعملية تتميز بالانتقائية العميقة فلا يحتفظ في ذاكرته من خبراته وتجاربه الحياتية وقراءاته إلا ببعض قليل فقط ويتجاهل الباقي. نحن لا نتذكر .. ولن نتذكر.. إلا حجماً معيناً من المعلومات اخترناها بوعي كامل وأسقطنا أضعاف أضعافه فلا نتذكره.

ثم كتبت «إيلين شولينو»، وكانت هي التي أطلقت تعبير المقصلة على الطريقة التي يستخدمها أمناء المكتبات للتخلص من الكتب والوثائق الورقية، كتبت تعترف بأنه لا يوجد قانون في أمريكا، وربما في معظم الدول يجبر أمين مكتبة على الحفاظ على نسخة ورقية من كل كتاب ينشر، وتضيف أن مكتبة الكونجرس أشهر مكتبات العالم الحديث.. تحتفظ بنسختين من كل كتاب. ولكنها غير مجبرة على الاحتفاظ دائماً بواحدة من النسختين.

والمعروف أن مكتبة الكونجرس دمرت ٣٠٠.٠٠٠ كتاب في الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٤ ثمنها عشرة ملايين دولار، ودمرت بقية مكتبات أمريكا في نفس المدة ٩٧٥ ٠٠٠ كتاب، وتلفت شولينو النظر إلى أن بيكر لم ينتبه

إلى أشياء أخرى فقدت ولا تستبدل، مثل الأصوات التى سجلت مبكراً جداً لهنود حمر على اسطوانات شمعية هى أيضاً مهددة بحرارة الجو أو الرطوبة أو الزيوت التى تفرزها مسام الاسطوانات. مهددة أيضاً أصوات مسجلة لرؤساء جمهورية في أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى.

ويدافع أمين عام مكتبة الكونجرس عن عملية «تدمير الكتب للحفاظ عليها» فيقول إن المكتبة تستخدم حالياً مركبات كيماوية لإطالة عمر الكتب الراقدة على الأرفف إلى ٥٠٠ عام، وبالفعل أمكن علاج ٣٠٠٠٠٠ كتاب، وأن المكتبة تبنى حالياً مخزناً مكيف الهواء للدوريات والكتب على مساحة ١٠٠ هكتار فى ولاية ميريلاند. وقد حاول المستر بيللنجتون أمين مكتبة الكونجرس التقليل من حجم الأزمة الناتجة عن ازدحام المكتبات بالكتب وكذلك فعل آخرون مثل روبرت دانتون فى مقاله بعنوان «مذبحة الكتب الكبرى»، واستخدم فى دفاعه العبارة الأثيرة عند الصحفيين «جريدة اليوم هى المسودة الأولى للتاريخ.. ولاشىء (أكثر موتاً) من جريدة الأمس». ولكن الناقدة الأشد عنفاً على بيكر كانت السيدة «باتين» مديرة مكتبة جامعة كولومبيا، فهى التى تزعمت حركة «تطهير» الأرفف من الكتب وتحويلها إلى ميكروفيلم، وسعت لدى الكونجرس لإصدار تشريع مناسب وتخصيص التمويل اللازم، حتى أن بيكر أطلق عليها لقب «عدو الورق». وقد حصلت على جائزة من الرئيس كلينتون فى عام ١٩٩٩ تقديراً لجهودها للتخلص من التراث الورقى للإنسانية.

فقدنا الكثير وسنفقد أكثر. قابلت يوماً من يعلمني قراءة الجريدة اليومية، ولم أزل التلميذ النجيب. أقرأ الصفحة الأولى باعتبارها خريطة الأمس. أتجول فيها من اليسار إلى اليمين، وأتوقف عند الصور. وأختارمن العناوين ماوضع لى لأقرأه بتمهل وأخرى لأقرأها بسرعة. وعلمنى آخرون كيف أقرأ كتاباً فى تخصصى، وكتاباً فى غير تخصصى، ورواية فى كتاب. تعلمت وعلمت آخرين كيف يقلبون صفحات الكتاب، آين يبدأون وأين يتمهلون، وأين يتوقفون لالتقاط أنفاسهم أولشحن طاقة الاستمتاع أو الاستذكار. فقدنا الكثير من هذا وذاك، وسنفقد أكثر مع كل ساعة نقضيها أمام الكمبيوتر، تختلط أنفاسنا بأنفاسه، نقرأ ما يريد منا أن نقرأ.. ويقرأ ما يريد أن يقرأه فينا، وهو يعرف ماذا يريد.

وعلى كل حال لا أجد ما يدعو للتشاؤم. يكفى أنه فى وقت يخاف بيكر فيه على الكتاب أن يختفى، تنشأ، وتزداد انتشاراً، الدوريات المتخصصة فى عروض الكتب حتى أصبحت الدليل على حيوية

الثقافة فى المجتمع. هاهى دوريات الكتب الأمريكية تثير على مستوى واسع قضية هذا الكتاب، وتثير أيضاً وعلى نفس المستوى قضية كتاب آخر لا يقل امتاعاً وعنوانه «أمة الوجبات السريعة».

بيكر محق فى كثير مما كتب، والآخرون محقون فى بعض ما كتبوا. وجدت نفسى متفقاً مع الآخرين عندما سألت نفسى السؤال التالى، هذه المقالة التى كتبتها وكدت أصل إلى نهايتها، إذا نشرت ولم تجد من يقرأها بعد ١٠٠ سنة أو ٢٠٠ سنة، ماذا يهم إن هى بقيت فى طبعتها الورقية أو تحولت إلى فيلم أو طبعه .. رقمية؟ ثم وجدت نفسى أتوجه ناحية القضية الثقافية الأهم، أى ناحية المذبحة الأعظم، أو المحرقة الأكبر، أو أم المحارق حسب التعبير السائد هذه الأيام، فالمكتبات التى نزل عليها الكتاب الذى بين أيدينا بقسوة شديدة ليست فى الحقيقة أكثر من مستودعات كتب، ومخازن للثقافة والعلوم والآداب، المكتبات لا تضع ولا تخلق ثقافة وعلوما وآدابا. المكتبات لا تروج لكاتب أو كتاب. والأمناء عليها، أى حراسها، هم حملة مشاعل مهمتهم عرض الكتاب بإلقاء الضوء المناسب عليه. وبالتأكيد لن تكون مهمتهم - ولا يجب أن تكون - استخدام مشاعلهم لاشعال النار فى الكتب أو حتى تخفيض أو تكثيف الضوء على كتاب دون غيره. ومع ذلك ها نحن نرى أمناء المكتبات يقررون إن كان كتاباً يعيش فى ذاكرتنا أو يموت على أرفف المكتبات موتاً طبيعياً أو مذبوحاً بمقصلة أو ممزقاً ومشفوطاً بمكنسة كهربائية.

ليسوا وحدهم على كل حال، إن الذى يقرر أن كتاباً سيعيش هم الناشرون والنقاد ومحلات بيع الكتب والقراء المحايدون. الناشرون يقررون إن كان كتاباً ينشر أو لا ينشر، أى أنهم يقررون أحياناً إعدام الكتاب وهو جنين. فمخطوطة الكتاب قد تكون عظيمة ولكنهم يرفضونها إن شعروا أنها لن تحقق الربح المناسب. وقد يقررون نشر كتاب حقاً عظيم، ويكتشفون بعد النشر أنه لم يحقق الربح المطلوب فيقومون بإعدام النسخ المتبقية. بمعنى آخر هم وحدهم يقررون حق أو إبادة كتاب لم يحقق هامش ربح كبير. وغير قليلة فى التاريخ الأعمال العظيمة التى حققت هامشاً ضئيلاً من الربح .. فأعدمت. وغير قليلة كذلك الأعمال التى حققت هامشا ضئيلا من الربح وبقيت إلى يومنا هذا، نقرأها ونحافظ عليها، لأن ناشرين فضلوا أن يساهموا فى إثراء وعى الإنسان وعقله. ■

أقوال معاصرة

«أقول رسميا بأن الاشتراكية ماتت ودفنت»

الرئيس الجزائري عبدالعزيز بوتفليقة



عبد العزيز بوتفليقة

«أفضل خدمة البلاد من خلال تولى مسئولية القيام بدور ثقافى، بدلا من تولى الرئاسة مجددا»

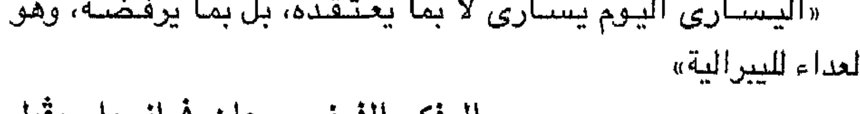
الرئيس الايراني محمد خاتمي

«إسرائيل أهم صديق للولايات المتحدة»

الرئيس جورج دبليو بوش

«المثقفون العرب تعودوا مجرد الكلام»

د. عاطف العراقى



«اليساري اليوم يسارى لا بما يعتقده، بل بما يرفضه، وهو العداء لليبرالية»

المفكر الفرنسي جان فرانسوا ريفيل



جورج دبليو بوش

«المشكلة أن مصر تمشى وراء اليابان دون ان تحاول معرفة الى أين وصلنا»

نوتا هارا

أستاذ الأدب العربي في جامعة طوكيو

«الأدباء ليسوا رهبانا أو وعاظا، وفى تمردهم ما قد يفيد الأمة»

الدكتور منصور الحازمى

الناقد والأكاديمي والمؤلف السعودى

«الحضارات واحدة فى أسسها ، فهى قائمة على تلبية حاجات الإنسان»

الدكتورة سلمي الخضراء الجيوسى

استاذة الأدب العربى



سميح القاسم

«أعداد كبيرة من المثقفين العرب تحولوا الى أدوات فى أيدى الانظمة لتبرير ما يجرى، وليس لتغيير ما هم قائم»

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

«الهجرة تزحف على لبنان كالجراد، وتأتى على الأخضر واليابس»

المفكرة اللبنانية «زلفا صغير»

دائرة حوار

التجمع العربى ضرورة حياة

بقلم
محمد التهامى

صحا الإدراك العربي أمام الأهوال الدائرة علي أرض فلسطين مما يراه ويسمعه العالم صباح مساء من مذهلات صور العدوان وضياع الحقوق وهوان القيم وتخطي القرارات والقوانين والأعراف الدولية ونكوص الرأي العام العالمي عن الانتصار الفاعل لهذه القيم المهدرة.

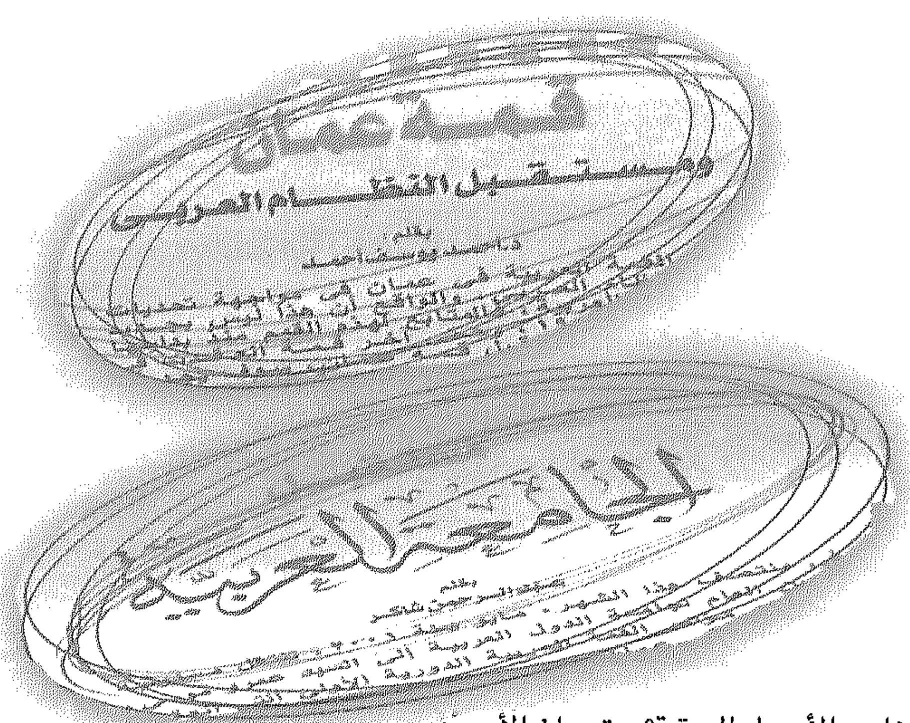
وفى جو العولمة الخانق الذى يملأ سماء العالم كله عامة ويخيم على رأس الأمة العربية بشكل خاص حيث وضعتها الأقدار فى مواجهة دوامة العاصفة التى تهدد هويتها، وتنذر بزعزعة ثوابتها وتسلبها حتى اسمها لم يجد العرب مناصا من الاستماتة فى المحاولات الدائبة لحل مشاكلهم وجمع صفوفهم، وهم يرون أن الخرق قد اتسع على الراتق وأن أزماتهم أشد من قدراتهم المتاحة لحلها فاستصرخوا الجامعة العربية مؤسستهم القديمة ونجحوا فى أن يحولوا مجلسها إلى مؤتمر قمة سنوى دورى دائم، لعله يتجاوز العقبات التى عرقلت الجامعة طويلا واهتدوا إلى أن يعقدوا مؤتمرا اقتصاديا يقدم قراراته للقمة على أمل أن يحرك الطاقات العربية المادية والبشرية الكبيرة المتوافرة لتتفاعل وتصبح طوق النجاة بعد أن ظلت زمنا طويلا حبيسة لوغاريتم غير مفهوم من التشتت الاقتصادى فى صغار الأمور وكبارها.

فقد ظل رجل الشارع العربى حتى الذى لم يشب عن الطوق يتساءل فى عفوية وبراءة فطرية: لماذا تستورد الدول العربية البن من البرازيل ولديها البن فى اليمن؟ ولماذا تستورد اللحوم من استراليا وأوربا وهى تحمل فيروسات جنون البقر والحمى القلاعية وعندها الماشية فى السودان والصومال؟ ولماذا تتاجر فى سجاجيد الصلاة والمسابح المصنوعة فى تايوان؟ ولماذا تستورد القمح ولديها الأرض الخصبة الشاسعة والماء الوفير فى السودان والعراق؟ ولماذا.. ولماذا..؟؟؟

حلم السوق العربية المشتركة

أما الآن فقد نضجت هذه التساؤلات وبلغت إلى: لماذا نجح الاتحاد الأوربى وقامت السوق الأوربية وألغيت القيود والحدود فى تنقلات البشر ورءوس الأموال بين دول مختلفة





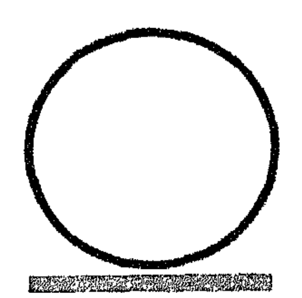
اللغات والأصول العرقية؟ حتى بلغ الأمر بأن تدعو ألمانيا إلى قيام دولة أوربية واحدة تضم حتى انجلترا وهى جزيرة منفصلة!.. لماذا تم هذا كله قبل أن تفعل الجامعة العربية شيئا ذا بال؟ أو تخطو السوق المشتركة العربية خطوة واحدة؟ وقد سبق مولدها منظمات أوربا فضلا عن أنها تقوم بين دول تتحدث لغة واحدة وتتواصل دون فواصل طبيعية من جبال وبحار؟ .

ولن تطول الحيرة إلى أن يدرك السائل جوابه حيث يكتشف أن المنظمات العربية تحمل فى نسيجها جراثيم معوقاتها فمنظمات الجامعة العربية تستلزم الاجماع لترى مشروعاتها النور، ويكفى اعتراض دولة واحدة ليقف المشروع أما الأوربية فتكفى الأغلبية لقيام المشروعات ونفاذها كما أن بعض الدول العربية تشترط موافقة مؤسساتها الدستورية على اشتراكها فى المشروعات وكثيرا ما تعترض هذه المؤسسات.

ونعتقد أنه قد آن الأوان للتخلص من هذه المعوقات والتعلات ومبررات النكوص وخاصة وقد وثبت إسرائيل لتلقن العرب عواقب الوقوف والتعثر وتمد يدها بالشرق أوسطية بديلا عن العروبة لتسيطر التقنيات الحديثة الأمريكية والعالمية وتملك زمام الحركة الحضارية فى هذه البقعة العربية الشاسعة الممتدة من الخليج إلى المحيط ، وتسخر أهلها بكل قدراتهم وامكانياتهم المادية والبشرية لتكون سوقا رائجة وبقرة حلوبا وبشرا خاضعا لآلهة التكنولوجيا والتقدم العلمى والتقنى المسيطر ونرجع إلى أسواق النخاسة وتعاد مآسى الهنود الحمر.

وهكذا اتضح لكل ذى عينين أن الموجة الزاحفة من أرض فلسطين تتزامن مع مقدمات عواصف العولمة وكان لزاما أن تستيقظ الجامعة العربية وأن تتعدد وتتوالى مؤتمرات القمة وأن يعقد المؤتمر الاقتصادى العربى.

وأصبح واجبا على كل ذى طاقة أن يعرض فكره ورأيه ما وسعه وأن يمد يده ليفعل كل ما يستطيع وخاصة وقد حفلت وسائل الأعلام العربية وخاصة الفضائيات مع الأخبار التى لا تطاق عن ملحمة الانتفاضة.. حفلت بالتساؤلات المحيرة من العرب أفرادا وجماعات من كل مكان وكأن الناس يستنجد بعضهم بالبعض الآخر.



دائرة حوار

وقد حرصت مجلة «الهلال» على عادتها طيلة عمرها الخصب المديد على أن تخوض غمار الفكر وتستنفر عقول كبار الباحثين حول أخطر قضيتين معاصرتين هما أبعاد العولمة، والموقف الواجب منها والتجمع العربي والعبرة من ماضيه والحلم بمستقبله، وقد استغرق هذان الموضوعان الأغلبية الغالبة من مقالات عدد شهر مايو ٢٠٠١ والقضيتان متصلتان غاية الاتصال ومتفاعلتان تفاعلا وثيقا وتجر إحداهما الأخرى جرا.

ونبدأ بأن نقف أمام قضية التجمع العربي فقد كتب فيه في العدد نفسه الأستاذان الدكتور أحمد يوسف تحت عنوان «قمة عمان ومستقبل النظام العربي» والأستاذ عبدالرحمن شاكر تحت عنوان «مستقبل جامعة الدول العربية».

ونتمنى أن تواصل «الهلال» تبنيها لقضية التجمع العربي ومحاولة استثارة أفكار وآراء القادرين على الخوض فيها من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية إذ هي قضية العصر لا محالة، ثم تبسط هذه الأفكار والآراء على الساحة الواسعة للرأى العام العربي من أصغر قارىء إلى أكبر مسئول وتحاول أن تستصرخ القادرين على الحركة في أى مجال لتتحول الأفكار الناضجة إلى خطط عمل وبرامج إنتاج ومرتكزات وثوب إلى شواطىء الأمل. والهلال ولا شك جديرة بهذه الريادة التى أصبحت فرض عين على كل من يقف على ثغر من ثغور التنوير فى هذا الظلام الدامس الذى إذا أخرج الإنسان يده فيه لم يكد يراها.

وفى مقال الدكتور أحمد يوسف بالهلال نظرة ثاقبة إلى مؤتمر قمة عمان وقراراته حول العدوان الإسرائيلي والموقف الأمريكي المحابي له والموقف العربي في مؤازرة الانتفاضة وكذلك الموقف من قضية العراق والكويت وخلص إلى أن القرارات لم تكن على مستوى تطلعات الشعب العربي، وأن الرأى العام العربي أصيب بالاحباط ولكن الايجابية فيه أنه كان إحباطا معلنا وليس مخدوعا بالتمويهات المضللة التى كانت تعلن أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان.

ويختتم الدكتور مقاله بالقول حرفياً : وثمة مسئولية واجبة على النخب العربية السياسية والفكرية والرأى العام العربي عامة فى أن يمارسوا جميعا ضغوطا على مؤسسة القمة العربية بالدراسات الجادة والرأى الموضوعي من أجل أن تنجح القمة فى الوصول بالنظام العربي إلى مستقبل أفضل .

أما الأستاذ عبدالرحمن شاكر فيستعرض تاريخ الجامعة العربية والمشروع القومي العربي و يخلص إلى أن المشروع القومي الجديد للوحدة العربية يجب أن يقوم على مؤتمر منتخب انتخابا حراً مباشراً من جماهير الأمة العربية على غرار البرلمان الأوربي والكونجرس الأمريكي وخاصة وأن هذه الفكرة جرى إقرارها بالنسبة للقارة الافريقية في مؤتمر « سرت » في ليبيا فى العام الماضي .

ودعونا نلتقط الخيط فيما يتعلق بالنخب العربية وكيفية تحركها وفى هذا المجال نطالب الاتحادات العربية القائمة كاتحاد المحامين العرب واتحاد الصحفيين العرب واتحاد الغرف التجارية العربية واتحاد الجامعات العربية واتحاد البرلمانيين العرب واتحاد الكتاب العرب وغيرهم .. وغيرهم ... وكوسيلة متاحة فعلا لقيام تجمع شعبي عربي لعقد مؤتمر من أعضاء مجالس إدارات هذه الاتحادات تنبثق منه لجان تدرس مختلف القضايا العربية السياسية والاقتصادية والثقافية وتستعين هذه اللجان بكل الخبراء ومراكز البحث المتاحة

لتقدم إلى مؤتمر القمة خلاصة الفكر العربى المعاصر الحديث فى مناهج عمل مدروسة ميسورة التنفيذ مبرأة من شطحات الخيال والعنتريات تتعامل مع الواقع والامكانيات المتاحة بمنطق عادل لا يجور على حق من الحقوق ولا يهمل واجبا من الواجبات بل يضع الكل على جميع المستويات أمام مسئوليتهم التاريخية .

شركات عربية عملاقة

وكمثال لهذا التحرك العربى العام وخاصة والمؤتمر الاقتصادى العربى على الأبواب نسأل الاقتصاديين العرب فى كل مكان أن يشبعوا نهم الشعب العربى ويدرسوا وسائل تحقيق أحلامه حول إمكانية قيام شركات انتاج عربية عملاقة تستثمر الطاقات العربية كلها بشكل عام يتعدى الحدود ويتركز حول العائد الاقتصادى الأمثل انتاجا وتسويقا بصرف النظر عن الحدود القطرية لمختلف الدول العربية .

وإنا نناشد هؤلاء العلماء الاقتصاديين أن يسارعوا إلى تسليط الأضواء على كل القضايا الاقتصادية المثارة والمطروحة على المؤتمر الاقتصادى مثل قضية السوق العربية المشتركة وقضية المناطق التجارية الحرة ، ويبينون أن هذه المشروعات على جدواها الاقتصادية الهامة جدا يجب أن تسبقها قضايا أكثر أهمية وهى المشروعات الانتاجية الزراعية والصناعية العربية العملاقة المشتركة ، فهذه المشروعات هى ركيزة المشروعات التجارية وبدونها تظل التجارة البينية العربية مهما نظمت تدور فى فلك ٢٪ أو ٨٪ على أحسن الفروض إذ يجب أن تتوفر المنتجات لتقوم عليها التجارة .

ولذلك نتمنى على هؤلاء العلماء أن يبادروا إلى إعداد ونشر دراسات علمية واقعية منطقية لقيام الشركات العربية الانتاجية العملاقة على أساس تشريعات يتبناها المؤتمر الاقتصادى بحيث لا يخضع نشاطها للقوانين والاجراءات المحلية القطرية وبحيث تضمن هذه التشريعات العربية العامة الحقوق الكاملة لرأس المال المستثمر وللدولة صاحبة الموقع والدولة صاحبة المواد الخام وللعاملين فى المشروع وأن تضمن حرية التنقل لكل هذه العناصر بين الدول العربية المختلفة بدون أدنى شرط أو قيد ، وأن تتوفى العدالة المطلقة فى تبادل المنافع وتوزيع المسؤليات والواجبات والحقوق للجميع على سواء وأن تكفل ذلك كله بأسلوب حضارى رفيع يبعث الاطمئنان والرضائية ويدفع إلى إقبال الجميع على المساهمة بكل ما يستطاع لنجاح المشروعات بحيث تسود العدالة ولا يطغى عنصر على عنصر ويتحقق النفع العام .

وأن الرأى العام لرجل الشارع العربى وقد رأى نجاح المشروع العربى المشترك فى الأكاديمية البحرية العربية مثلا يسأل هؤلاء العلماء الكبار عن إمكانية أن تقوم صناعة بتروكيماويات عربية عملاقة على أساس مشروعات موحدة تتركز فى المكان الأكثر ملاءمة صناعياً وتجارياً، ويتوفر لها من عناصر القوة مايجعلها تحطم قيود التسويق التى وضعتها فعلا أوربا أمامها وعلى غرارها تقوم مشروعات استغلال الحديد الخام الموجود فى مختلف الدول العربية وكذلك الفوسفات المتناثر هنا وهناك وأخيراً وليس آخراً المشروعات الزراعية فى مختلف المحاصيل زراعة وصناعة وتجارة كالقطن والقمح وغيرها كتربية الماشية ومنتجات اللحوم والألبان .. إلخ

وهذه أمثلة وغيرها الكثير والكثير مما لا يتوافر بهذا الشكل التراكمى إلا فى البلاد العربية على اتساع رقعتها وإذا تأخرنا فى استثمارها ستمتد إليها أيدى القراصنة الذين بدأ زحفهم وفى يدهم الامكانيات الهائلة .

إن المؤتمر الاقتصادى العربي على الأبواب وسيأتى بعده مؤتمر القمة العربية الدورى وأن هذه الأبواب مفتحة أمام النخبة العربية فى مختلف المجالات للبحث والدرس والاقتراح والنشر على الرأى العام . ■

ماذا يراد بها؟!

بقلم
د.الطاهر أحمد مكى

الناس فى تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم للكون مرتبطون بالعادات التى اكتسبوها خلال ممارساتهم اللغوية .

«الفيلسوف الألمانى ولهم همبولدت»

اللغة دون نزاع أوضح خصائص الجنس البشرى ، تمييزا له ، ودلالة على طبيعته ، وتأكيدا لدوره فى أنه أرقى الكائنات الحية على الأرض ، هى مرآة العقل ، وأداة الفكر ، ووعاء المعرفة ، وحجر الأساس الذى يقوم عليه المجتمع ، وهى ظاهرة نفسية وفسيولوجية ، ونشاط جماعى يولد من التفاعلات الاجتماعية ، ويرتبط وثيقاً بحاضر الجماعة التى تتكلمها وبتاريخها ، تسمو بأهلها ومعهم ، وتنحط بهم مع انحدارها وتخلفها ، وتغطى آثارها مختلف جوانب الحياة ، تربوية وثقافية ، وسياسية واقتصادية وتقنية وعسكرية ، ومع التقدم الهائل الذى بلغته تكنولوجيا المعلومات وأجهزة الإتصالات ، تغلغلت آثارها فى أدق شرايين المجتمع وأخفاها ، على نحو لم تعرفه فى أى عصر من العصور الخوالى ، وأصبح لها الصدارة لأنها أهم مقومات الذكاء الإنسانى ومصدر الذكاء الصناعى للحاسب الآلى ، أداة المجتمع الرئيسية الآن .

وكلما بلغت الأمة درجات متقدمة في الرقي والتحضر والقوة ، بالغت في الاعتزاز بلغتها ، والحفاظ عليها ، وما يجرى في الدول الكبرى على أيامنا هذه ، أوربية وأسيوية ، شيوعية ورأسمالية ، شاهد ماثل لا يحتاج إلى ذكر أسماء .

مميزات اللغة الواحدة

بعضهم يحسب ، جهلا ، أو بسوء نية، أن اللغة مجرد أداة للتعبير الأدبي ، يحملون هذه المقولة ويشيعونها ، ويقفزون منها إلى الغاية التي تحركهم ، طائفية أو عرقية أو مذهبية : ومادام الأمر كذلك فليست هناك مشكلة ، أو هي يسيرة ، إذ يمكن التعبير بالعامية ، فهي أسهل وأيسر، وانطلاقا منها ، يسمون من يكتب الزجل ، مهما كان مستواه ، شاعرا كبيرا، ومن يحطم أبنية اللغة وقواعدها وأصولها مجدداً عظيما ، وهو تبسيط للأمور وراءه جهالة قاتمة ، موغلة في البلادة ، لأن للغة وانضباطها - والعامية غير منضبطة - دورها في شتى مناحي الحياة ، وسأدع السياسة والاجتماع والفن وألمح إلى دورها في الاقتصاد.

إن الصراع الهائل الصامت الذي يدور الآن بين الولايات المتحدة واليابان في نطاق البرمجيات والسيطرة على سوقها يعود أساسا إلى اللغة، وما تتمتع به الأولى من ميزة وتفوق في السوق، مردهما شيوع الإنجليزية وبساطتها وسهولة تعلمها وتعليمها بالنسبة إلى اللغة اليابانية .

وتشعر أوربا الغربية الآن، وقد قطعت شوطا كبيرا في الطريق إلى وحدتها ، فلها برلمانها الموحد، يتم عن طريق الانتخاب الحر المباشر، ومجلس وزراء واحد، وسوق أوربية مشتركة، وحلف عسكرى يوحد قواتها ، أن تعدد اللغات فيها ، وتنوعها بين دولها ، وربما في الدولة الواحدة ، يقف عقبة كأداء ، ويمثل صعوبة أساسية تحول دون انصهارها في كيان واحد، ويؤثر عن الاقتصادي الفرنسي مونتيني ، ويعد أبا السوق الأوربية المشتركة، قوله بعد سنوات من قيامها، وأدرك فداحة هذه الصعوبة قوله : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لبدأت بتوحيد اللغة والثقافة» .

ولا تقف علاقة اللغة بعالم التكنولوجيا عند الطباعة والاتصالات والبرمجيات ، وإنما في الدور الخطير الذي سوف تلعبه في إحداث ثورة في عالم الحاسبات فالمتخصصون والشركات يتحدثون عن حاسب لغوى غايته الأولى كسر حاجز العزلة اللغوية التي تعاني منها اليابان ، ومعه تأمل في السيطرة على سوق المعلومات العالمي، وفيه يبدو تعامل تكنولوجيا المعلومات مع لغات العالم المتعددة عاملا حاسما في تحقيق هذه السيطرة ، ومع ذلك فإن خضوع اللغة لتقنيات العصر ودخولها في مصاف

العلوم المنضبطة أمر بالغ الصعوبة ، لتعقدها وتشابك ظواهرها ، اجتماعيا ونفسيا وتربويا وتشريحيا . ماذا يصنع الانسان فى أداة تستعصى على المنهجة والتنظيم، فى لغة، أى لغة، يقول عنها شيخ البلاغيين والنحويين العرب، عبد القاهر الجرجانى : «تبين فى لبسها ، وتغمض فى سطورها ، وتختصر حين تطنب ، وتبين حين تختصر» وفيها ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد فى الإفادة» .

لم يعد ثمة أدنى شك فى أن المعرفة قوة طريقها اللغة ، والقوة معرفة يفرزها العلم ، ومحصلة هذا كله مال وموارد وثروات ، عمادها الحاسبات والمعلومات والشفرات والإشارات ، تتبادلها المصارف والشركات فى معاملاتها المالية أليكترونيا، وما يحمله التفجر المعرفى فى طيات ضميره أشد هولا وعجبا ، ويحلق بنا فى أودية من الخيال بلا حدود ، وغد مجهول بلا شواطىء ، والواقف يتفرج دون أن يقتحم أمواج هذا المحيط الهائل من الإمكانات تفوته الفرصة، ولا مكان له فى غد الاقوياء .

لقد فجرت تكنولوجيا المعلومات مشكلات اللغة على نحو لم يعرف من قبل، وبدت الحاجة ماسة إلى مراجعة شاملة متطورة لكثير من قضاياها، ووجد علماء اللغة وعلماء الحاسبات أنفسهم أمام تحد حقيقى ، مصدره أن ما هو متاح حتى الآن من علم وتقنية لا يكفى لمواجهة المشكلات اللغوية فى الحاسب ، ولا مناص من استخدام مناهج مبتكرة ، وشق دروب علمية جديدة ، فى مناطق لم يتطرق إليها العلم من قبل، مما أدى إلى إنشاء مراكز بحثية متخصصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والإتحاد السوفيتى ، وفرنسا وألمانيا واليابان ، وربما فى مناطق أخرى من العالم لم يصل خبرها إلىّ .

مشكلات اللغة العربية

أما مشكلات اللغة العربية فتبدو وكأن أحدا لا يفكر فيها ، لأن واقعها المعيش ، بحثا ودراسة وحديثا وإبداعاً ، متدن بلا حدود ، ومثل هذا الواقع لا يفكر أهله فى المستقبل ، ولا يشغلهم الارتقاء ، ولا يفكرون فى القيم العليا التى تعيش المجتمعات القوية عليها وبها ، ولم نبذل حتى الآن جهدا يذكر فى التغلب على المشكلات التى نواجهها مع عصر الحاسبات ، رغم كثرة هذه المشكلات ، واختلافها عن قضايا اللغات الأخرى ، وتتمثل فى مرونتها ، واتساع مفرداتها ، وتعدد معانيها ، وتباين استخدامها ، وتفشى مجازها ، وحذفها ، والكشف عن مضامين كناياتها ، وبنية جملها ونصوصها ، ونحن فى انتظار أن يحلها لنا غيرنا، وغيرنا لن يفعل ، إنه يصمم الآلة لتخدم لغته، وعلى الآخرين أن يطوروا

لغاتهم لتوائم ما يصنعون ، وتفيد منه، وهو أمر قد ينتهي بها في نهاية المطاف إلى أن تصبح لغة أخرى .

جاءت معرفتنا بالحاسب في مصر متأخرة جدا، فمنذ حوالى خمسة عشر عاما كان الدكتور فتحي سرور وزيرا للتعليم ، وذهب في رحلة إلى الخارج عاد بعدها مبهورا بما رأى ، وبدأ يبشر: إن مصر يجب أن تدخل عصر الحاسبات ، مع أن العالم في ذلك الوقت كان قد تجاوز هذا العصر إلى مراحل علمية أخرى أكثر تقدما وخطراً : الليزر ، والاتصالات السريعة، والجينات ، أما الحاسب نفسه فقد أصبح في العالم المتقدم فأصبح جزءا من أثاث بيت ، ينظم للأسرة مواعيد تناول الطعام ، وألوانه ومكوناته ، وميزانية البيت وأوجه انفاقها ، ويعين الأطفال على المذاكرة والمراجعة ، وشبابها على البحث والدرس .. وترك الدكتور سرور وزارة التعليم ، وكل ما فعله في هذا الجانب تنبيهنا إلى هذا الجهاز الخطير .. شكرا له على أية حال .

وخلفه الدكتور حسين بهاء الدين فاهتم بالأمر، وأعطاه كل عنايته ، وأمد المدارس بآلاف الحاسبات، لكن المناخ السيء السائد جعل عائدها عدما ، فقد أرسلت مثلا إلى مدارس في قرى لم تصلها الكهرباء ، أو ليس فيها من يعرف كيف يستخدمها، وتعليمها ، أو لا يملك الأفق الواسع الذى يقدر خطرها ودورها ، أو يراها ترفا في مدارس لا تملك مرافق ، فظلت «عهدة» في الصناديق التي حملتها ، ولأن صناعة الحاسبات تتقدم وتتطور سنويا فقد أصبحت الآن متخلفة ، وربما تتهيأ المدارس لبيعها كهنة !

خارج منظومة التعليم العام هناك مؤسستان في مصر تهندسان للغة العربية، وتهتمان بها ، وموكول بهما التخطيط لكل ما يتصل باللغة العربية، تخطيطاً وتطويراً وحماية ، وتؤهلهما ثقافتهما وعلمائهما وتاريخهما لهذه المهمة : كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ومجمع اللغة العربية . أما المجمع فلا يستخدم الحاسبات إلا في الإداريات .

الحاسب الآلي في دار العلوم

ولم يوظفها علميا بعد ، وأما دار العلوم فلم تعرف على المستوى العلمي شيئاً اسمه الحاسبات إلا هذا العام ، على يد عميد زكي متطور ، منفتح الذهن ، واسع الأفق : أ.د. علي أبو المكارم ، فقد أدخل هذا العام ، لأول مرة، الحواسب بكثرة وجعل لكل قسم علمي حاسبا ، وخصص قاعة لشبكة الإنترنت ، والأمر من قبل ومن بعد يحتاج إلى خطوات عملية : تدريب الأساتذة والمدرسين ومساعديهم

على طريقة استخدام الحواسب، والإفادة من «الإنترنت» ، وأن يكون للمتمكن من هذا ميزة علمية وإدارية ومالية تحسب لصاحبها فى مجال التقدير والترقيات .

وتبقى ملاحظة يجب أن يأخذها المهتمون بالأمر بعين الاعتبار : يرى بعض العلماء أن إخضاع اللغة لضوابط العلم الصارمة وهم خادع ، فلا الرياضيات ولا المنطق ولا الإحصاء يمكن أن يلم بهذا الكم الهائل من ظواهر اللغة المعقدة ، ولا تستطيع الآلة الصماء أن تحاكى ملكة اللغة بموروثها ومرادفاتها وشحنة الانفعالات الكامنة وراء كل صوت فيها ، فمهما كانت دقة الآلة وإحكامها ، ولكن إمكانات العقل البشرى فى تخيلها وإبداعها لم تعد تهتم بكلمة المستحيل أو تقيم لها اعتبارا ، وترى من الحتم أن تتلاقى اللغة مع الحاسب، لأن اللغة تجسيد لما هو جوهرى فى الإنسان، نشاطه الذهنى بكل تجلياته ، وغاية الحاسب فى النهاية أن يحاكى وظائف الانسان وقدراته الذهنية ، وتدرجه نحو هذا الالتقاء يتحقق فى وثبات متتالية، وبلغ درجة عالية من التفاعل العلمى والتقنى ، من خلال تصميم لغات البرمجة ، وأساليب الذكاء الصناعى ، وما يتطلبه هذا من لغات برمجة تتسم بالقوة والمرونة معا، وتستهدى بالكثير من خصائص اللغات الإنسانية فى تصميم هذه اللغات الاصطناعية ، التى تستخدمها نظم الآلات الخبيرة، التى تشخص الأمراض ، وتقدم الاستشارات الفنية والقانونية ، وبعضها يقوم بالتعليم الذاتى ، وكل هذه الحواسب تتطلب قدرة على الحوار مع الانسان الذى يستخدمها ، فى لغة سهلة تقترب من لغته الطبيعية .

تخلف شديد!

تعانى اللغة العربية فيما يتصل بنظم الحاسبات تخلفا شديدا فى التنظير ، وهذه حقيقة لا مهرب من الاعتراف بها ، فقد وقفت دراسة النحو جديا على القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تقريبا، وفى مجال فقه اللغة الحديث لم تتقدم خطوة واحدة بعد دراسات الدكتور إبراهيم أنيس فى الخمسينيات ، من أن الكثير من أساسيات علم اللغة الحديث تجد أصولها فى تراثنا اللغوى، وتحتاج فقط إلى من يكشف عنها، ويضعها فى صورة حديثة متطورة ، بعد أن دفعت تكنولوجيا المعلومات بالدرس اللغوى إلى آفاق بعيدة فى مجال التحليل والتنظير والترجمة الآلية . وهذا التخلف يعود إلى أمرين أساسيين ، أحدهما يتصل بالعقل العربى عامة، والمصرى خاصة ، والآخر يعود إلى مكانة اللغة فى المجتمع المصرى

يبدو تخلف العقل العربى إجمالا، والمصرى خاصة ، ظاهرة واضحة فى عصرنا ، لقد انتهى زمن العلماء العظام ،

أو كاد ، فى مختلف المجالات، ولم يعد لدينا أفذاذ حتى فى المجال التطبيقى ، فضلا عن الابتداع ، ونعيش فى حياتنا العلمية على بقية من السلف الصالح ، تودعنا واحدا وراء الآخر ، دون أن يخلفهم فى تخصصاتهم وقدراتهم أحد ، وأحسب أن الأمر يحتاج إلى خبراء فى علم النفس والتاريخ والاجتماع ، يدرسون واقع الشخصية المصرية المعاصرة ، لمعرفة هذه الظاهرة الآن ، وردها إلى أسبابها ، وتشخيصها ، لعلنا نبدأ فى علاجها. نعم، أعرف من قوانين الحضارات أنها كائن حى، تولد وتنمو وتزدهر وتشيخ وتموت ، شأن كل الأحياء ، ولكنى أعرف أيضا أن نموها يتطلب وقتا، وازدهارها يعمر طويلاً، ويجىء موتها بطيئا ، أما حال اللغة العربية فى مصر فجد مختلف : نهضت سريعا، وتألقت فى زمن قصير ، وأعطت ثماراً يانعة فى الأدب والفكر والسياسة ، ومهدت بشعرائها وكتابها وعلمائها ومفكريها لثورة عظيمة، كانت المثل والقدوة لتحرير منطقتنا كلها، وعمت بخيرها بنى عمومتنا وجيراننا ، ومن اتصل بنا أو التقى معنا فى الفكر أو العقيدة ، وبعد عقد واحد من قيامها بدأ كل شىء يتخلى عن القمة، ويأخذ طريقه إلى السفح : الأخلاق والانتماء والقيم ... واللغة ! . وجاء كل هذا ثمرة طبيعية لغياب الديمقراطية ، وغابت معها حرية الرأى ، وإحساس الانسان المصرى بذاته ، وأنه سيد بلده، فساد التواكل، وعدم الانتماء ، وهاجر المتميزون ، وسيطرت على مصائر الأمة قلة تتسم بالجهل ، وضيق الأفق، والنفور من المشورة ، تكره العلماء ، وتضيق بالمفكرين وأصحاب الرأى الحر ، وتحيط نفسها ببطانة ، متخلفة فاسدة تقدم لها من الرأى ما يدغدغ زهوها وعجبها ، ويرضى غرورها ونزواتها ، لا ما فيها خير أمنها وصلاحها ، وأدى ذلك ضرورة إلى حدوث انفصام بين السلطة والصفوة ، فتوقف العقل المصرى عن المغامرة العلمية ، فى الداخل على الأقل، ومع ركود الحياة اعتاد الناس التخلف ، كأنه قدرهم الذى لا مفر منه ، واستطاب الذين بيدهم الأمر هذا الواقع المريح ، ونسوا أن الموت هو أعلى درجات الراحة ، والقلة اليقظة ، من الصفوة الواعية، آثرت أن تغمض عينيها فى انتظار القارعة ، وما أدراك القارعة ، فقد بدت علائمها ، وتوافرت شرائطها، ومن خصائصها أنها تحل مفاجأة ، لا تعلم أحدا، ولا يعلم بموعدها إلا الله .

اللغة .. والطبقة الجديدة

والأمر الثانى يعود إلى تدنى اللغة العربية فى المجتمع المصرى، على نحو لا يعرفه تاريخها ، ونظلم الجامعات



والمدارس والكتب والمناهج والمدرسين والأساتذة والنحو والصرف حين نرد إليهم الأمر ، فهذه الأشياء كلها عوارض داء وليست المرض نفسه .

البلاء كله يكمن فى الطبقة الجديدة ، فيما أرى، إنها وراء جل الشرور التى أصابت حياتنا، كونت ثرواتها الطائلة بوسائل قذرة ، من الاتجار فى الأغذية الفاسدة إلى نهب المصارف الوطنية، وفى طريقها إلى قمة الثروة تدوس على كل ما تعارف الناس على احترامه من تقاليد وعادات وأخلاق وأعراف وقيم، وتشترى بأموالها ضمائر الآخرين وصمتهم واحترامهم أيضا، وتخلق حولها مناخا يتواءم مع سلوكياتها ، وتبدو فيه متميزة عن كل ما حولها ، وهى فقيرة من أى ثقافة ، إن لم نقل معدمة، تعوض هذا باحتقار الثقافة القومية ، والتباهى بكل ما هو أجنبى ، فشركاتها تحمل أسماء أجنبية ، تكتب بحروف عربية حينا ، ولاتينية حينا آخر ، وزوجاتهم يضعن حملهن فى بلاد أوربية ، أو فى أمريكا، ليجىء المولود إلى الحياة ، وهو يحمل آليا جنسية البلد الذى رأى فيه الحياة لأول مرة، بلا تعقيدات ولا إجراءات ، وبحكم دورها فى المجتمع تؤثر على من حولها ، وطبقا لقوانين التقليد تصبح نموذجا للفقراء ، وللطبقة الأدنى، وهكذا تجد أسماء أجنبية ، على محلات صغيرة للبيع أو الشراء، أو الحرفيين ، فى الحوارى والأحياء الشعبية ، ويصبح البعد عن اللغة العربية رقيا ، والحرص عليها تخلفا ورجعية، وأمام هذا الزحف تراجعت قلاع العربية التقليدية ، واجتاح الوباء الإعلام ، وهو أخطر جهاز ، فى كل مستوياته ، مرئيا ومسموعا ومقروءاً فى التحرير والإعلان والحوار والندوات وفقدت الدولة سيطرتها على التعليم ، وأصبحت المدارس «كشوب ضم سبعين رقعة» على حد تعبير شاعر النيل حافظ ابراهيم ، فهناك مدارس تتبع شتى السفارات الأجنبية ، وتسير على مناهج التعليم فى أوطانها، وتقبل أبناء المصريين القادرين على دفع نفقاتها العالية، ومدارس أهلية بنفقات مرتفعة ، تتبع نظاما أجنبيا تتباهى به ، أمريكية وإنجليزية وفرنسية وألمانية ، وأخرى مثلها ، تسير على النهج المصرى، ولكنها تتخذ من اللغة الإنجليزية لسانا ، ومدارس تقيمها الوزارة تحمل اسم مدارس اللغات ، بنفقات أقل، وتعطى اللغات الأجنبية عناية أكبر، وفى هذه المدارس كلها، وبعضها لم أذكره ، وهى كثيرة ومتعددة ومتنوعة ، تنزوى العربية خجلا ، كتابا ومعلما ومادة وتلاميذ ، أمام زهو الأغنياء ، وخيلاء الرطانة .

قلعة شامخة

ويتجاوز الأمر التعليم العام إلى المستوى الجامعى، فهناك الجامعة الأمريكية، وكانت قبل نصف قرن أعلى من مدرسة ثانوية وأدنى من كلية ، فأصبحت قلعة شامخة للثقافة والقيم والأخلاق الأمريكية ، وسط قاهرة المعز ، وشارة زهو للأبناء والبنات والآباء أيضا ، وكلهم مصريون!

ونحن الآن فى الطريق إلى جامعة فرنسية ، وأخرى ألمانية ، والبقية تأتى! ولابد أن يكون المرء مغيبا ليصدق أن هؤلاء جاءوا لتعليم المصريين شفقة عليهم ، ورغبة فى النهوض بهم، لوجه الله والسيد المسيح وكل القديسين ، دون غاية أبعد من الرغبة فى عمل الخير!

ودخل الأغنياء المصريون اللعبة أيضا، هذه المرة رغبة فى الربح لا فى التميز ، فأقاموا الجامعات الأهلية، تفتح أبوابها لكل من لا تسمح لهم إمكاناتهم الذهنية والعقلية بدخول الجامعات الحكومية ، ماداموا يدفعون ، وفى خطوة غير مسبوقة ، بدأت الجامعات الرسمية تنشىء كليات أو أقسام فيها تدرس باللغة الإنجليزية ، فى الحقوق والتجارة والعلوم والإعلام ، مقابل مبالغ عالية، لا يستطيعها إلا الأغنياء ، وهكذا تتحول الجامعة شيئاً فشيئاً إلى نوعين : تعليم متواضع عليه قتامة الفقر وذل الحاجة يجرى باللغة العربية، وآخر لأبناء الذوات ، القادرين على دفع النفقات العالية، يتم باللغة الإنجليزية!

شموع مضيئة

وسط قساوة الواقع ، وكثافة الظلمة – تظل بعض الشموع مضيئة هناك ، خافتة ولكنها هادية : عودة الكتاتيب إلى الازدهار فى القرية المصرية، هذه الينابيع الثرة التى أمدتنا يوما برفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومصطفى لطفى المنفلوطى، وعباس العقاد، وطه حسين وآخرين كثيرين، وبعض قنوات الإذاعة التى تحرص على استخدام اللغة العربية دائما ، مثل صوت العرب، ومعظم المحطات العالمية التى تتوجه إلى العالم العربى ، ونجاح المسلسلات التاريخية التى حافظت على لغة العصر والشخوص التى تمثلها ، وفى مقدمتها مسلسل عمر ابن عبدالعزيز ، وتقبل الذوق العام للقصائد الفصيحة التى يغنيها كبار المطربين ومع ذلك كله ، فلا أمل فى أن تسترجع العربية عصورها الزاهرة فى مصر ، إلا إذا تغير المناخ جذريا وكله ، أما الترقيع والإصلاح الجزئى فلا يجدى نفعا. ■



كيف يملأ التعليم فجوة الانقسام الرقمى

بقلم
د. أحمد محمد صالح

التعلم شيء خطير جدا، والتعلم بدون عقيدة يعد جهداً ضائعاً، والفكر بدون تعلم يصبح محفوفا بالمخاطر، وإذا سألت الرجل الواقف على بوابة القرن الجديد أن يعطيك ضوءا ينير طريقك خلال المجهول فى القرن الحادى والعشرين، وقتها سوف يعطيك الرجل جهاز كمبيوتر متصلاً بالانترنت، لكن هذا الرجل الواقف على بوابة القرن لن يعطى جهاز الكمبيوتر لكل إنسان على كوكب الارض، بل سوف يعطيه لمن يملك مؤهلات إنتاجه، وتطويره، وتشغيله، وتوظيفه فى حل مشكلاته، بمعنى أدق هناك فرص غير متساوية بين سكان العالم للوصول للمعلومات وتوظيفها، وهو ما أطلقنا عليه فى مقال سابق فى الهلال «خط التقسيم الرقمي» The digital divide أو الانقسام الرقمي أو الفجوة الرقمية التى تفصل بين الذين يملكون المعلومات، وبين الذين لا يملكون، ويفهم كظاهرة متعددة الأبعاد، حيث يعكس التباينات والتفاوتات بين الدول الصناعية المتقدمة، والدول النامية، وفي نفس الوقت يعكس الفجوة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات فى الدولة الواحدة.

الهاوية الرقمية :

ونتيجة الانقسام الرقمى لن تشارك كل البلاد حول العالم بالتساوى فى الانتقال الى الاقتصاد العالمى الجديد. وخط التقسيم الرقمى بين بلاد السوق الناشئة والمتقدمة هو الآن أكثر تشبيها بالهاوية الرقمية، لأن مستخدمى الإنترنت الذين يتركزون فى الدول الصناعية يمثلون الآن الأغلبية الشاسعة للنشاط الاقتصادى المتصل بالمعلومات وتكنولوجيات الاتصالات، لكن بين البلاد الصناعية نفسها يوجد خط تقسيم رقمى آخر، حيث تتصدر الولايات المتحدة وكندا والبلاد الاسكندنافية دول العالم الصناعى فى تكنولوجيات المعلومات والاتصال، ووفقا لمؤشر مجتمع المعلومات لعام ٢٠٠١ يوجد تصنيف لأهم ٥٥ دولة تخصص جزءا من مواردها لتوفير البيئة التحتية الاتصالية، والتجهيزات اللازمة لتعميق اندماجها فى عالم تكنولوجيات المعلومات، وقد اعتمد هذا المؤشر على عدة معايير منها: أولا مؤشر البنية التحتية الأساسية ويضم نسبة الطلبة الداخلين الى المرحلة الإعدادية ونسبة الداخلين الى المرحلة الثانوية، ونسبة الطلبة قراء الصحف، ومقدار حرية الصحافة والحريات المدنية المتوفرة. ثانيا مؤشر البنية التحتية الاتصالية والمعلوماتية ويضم نسبة خطوط التليفون لكل منزل، نسبة أعطال التليفون لكل خط، تكلفة المكالمة المحلية، نسبة اقتناء التليفزيون لكل فرد، نسبة اقتناء الراديو لكل فرد، نسبة اقتناء الفاكس لكل فرد. نسبة اقتناء التليفونات المحمولة لكل فرد، الاشتراك فى المحطات التليفزيونية الخاصة (الكيبيل)، ثالثا مؤشر امتلاك أجهزة الكمبيوتر ويضم نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية لكل فرد. نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية المنزلية لكل بيت، نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية الحكومية، نسبة أجهزة الكمبيوتر الشخصية الموجهة للمؤسسات التعليمية الكلية/ والطلاب، ومدى الاتفاق على البرامج/ والأجهزة. رابعاً مؤشر البنية التحتية فى قطاع الانترنت ويضم حجم التجارة الإليكترونية، عدد مستخدمى الانترنت منزلياً، عدد مستخدمى الإنترنت تجاريا، عدد مستخدمى الإنترنت تعليميا. وفى ضوء تلك المقاييس صنفت الـ ٥٥ دولة الى دول عبرت خط التقسيم الرقمى من زمان، ودول لم تعبر حتى الآن هذا الخط، بالنسبة لدول المجموعة الأولى التى عبرت خط التقسيم الرقمى صنفت الى مجموعتين: الأولى دول متقدمة جدا فى تكنولوجيا المعلومات، وتعيش فعلا عصر المعلومات، ويمكن تجاوزت خط التقسيم

الرقمى الى ما بعد عصر المعلومات وتضم ١٥ دولة على الترتيب هى: السويد، النرويج، فنلندا، الولايات المتحدة الأمريكية، سويسرا، استراليا، سنغافوره، هولندا، اليابان، كندا، المانيا، النمسا، هونج كونج.

المجموعة الثانية دول صناعية منطلقة جدا فى تكنولوجيات المعلومات، وتعيش فعلا عصر المعلومات، وتضم ١٢ دولة مرتبة من ١٦ حتى ٢٧ وهى على الترتيب نيوزيلندا، بلجيكا، تايوان، كوريا، أيرلندا، فرنسا، إسرائيل، إيطاليا، أسبانيا، البرتغال، اليونان، جمهورية التشيك. أما بالنسبة لمجموعة الدول التى تعيش خلف خط التقسيم الرقمى فهى تصنف فى مجموعتين أيضا: الأولى هى الدول التى تجرى فعلا نحو عبور خط التقسيم وتضم ١٦ دولة مرتبة من ٢٨ حتى ٤٣ وهى الإمارات، المجر، بولندا، الأرجنتين، ماليزيا، تشيلى، بلغاريا، رومانيا، كوستاريكا، بنما، جنوب افريقيا، فنزويلا، روسيا، تركيا، المكسيك، الأكوادور. والمجموعة الثانية والأخيرة هى الدول المتلكئة فى عبور خط التقسيم وتضم ١٢ دولة مرتبة من ٤٤ حتى ٥٥ وهى على الترتيب: السعودية، البرازيل، كولومبيا، تايلاند، الفلبين، بيرو، الأردن، مصر، الصين، إندونسيا، الهند، باكستان والآن هل لاحظت الفرق بين إسرائيل ومصر فى تكنولوجيا المعلومات، الأولى تجاوزت خط التقسيم وترتيبها الـ٢٢ والثانية تعيش خلف خط التقسيم بمسافة كبيرة ومتلكئة في عبور الخط وترتيبها الـ٥١ من ٥٥ دولة!، وإذا كان خط التقسيم الرقمى يعكس الوصول الجائر غير المتساوى الى تكنولوجيا المعلومات والاتصال بين البلاد الفقيرة والغنية، وداخل البلد الواحد بين المميزين من الأغنياء والفقراء المعدمين، فهو يهدد أيضا بمضاعفة أعداد المجموعات المهمشة والمعدمين الى أبعد مدى ويتضمن ذلك فقراء ومعدمي الريف، وحجم الانقسام الرقمى فى العالم كبير جدا، ومرتبط بخطوط التقسيم الأخرى؟! فمن تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة عام ١٩٩٨ يتضح أن بليون فرد فى كوكب الأرض يعيش فى فقر مدقع ويحاولون ان يعيشوا على أقل من دولار فى اليوم، وهو ما يوازى سعر زجاجة مياه معدنية أو ثمن فنجان قهوة، أو نصف سندوتش هامبرجر.

وصنف التقرير دول العالم وفقا لمؤشرات أساسية هى طول العمر والتحصيل التعليمي ومستويات المعيشة مقاسا بنصيب الفرد من إجمالى الدخل المحلى. فالدول الصناعية متوسط العمر



المتوقع فيها أكبر من ٧٤ عاما مقابل ٦٢ عاما في الدول النامية، ومعدلات تعلم البالغين تزيد على ٩٨٪ في الدول الصناعية مقابل ٧٠٪ في الدول النامية، ونصيب الفرد في الدول الصناعية من إجمالي الدخل المحلي أكبر من ١٦ ألف دولار مقابل ٣ آلاف دولار في الدول النامية. أما في الدول الأقل فالعمر المتوقع ٥١ عاما، نسبة تعلم البالغين أقل من ٥٠٪، ونصيب الفرد من إجمالي الدخل المحلي حوالي ١٠٠٠دولار، فهناك تفاوت كبير. فيما يخص طول العمر، التعليم وإجمالي الدخل المحلي بين دول العالم على مستوى المؤشرات السابقة، وهناك أيضا تفاوت كبير في درجة الوصول الى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فالمواطنون في الدول الصناعية لديهم فرص كبيرة للغاية للوصول الى تكنولوجيا المعلومات، وتتوفر لديهم كل القدرات والمؤهلات في توظيف تلك التكنولوجيا الجديدة في العمليات والاغراض التعليمية بداية من ورق الطباعة حتى الإنترنت.

ويتضح من الإحصاءات الدولية أن أغلبية السكان في العالم حتى الآن لم تستشعر وتلمس نتائج وأبعاد ثورة المعلومات، وأن الاقتصاديات الجديدة المنبثقة والتي تتميز بالاعتماد المتزايد والسريع على قيمة الإبداع القائم على المعلومات والمعرفة، تتمركز غالباً في الدول المتقدمة، وبالتالي أغلبية الناس، خصوصا في الدول النامية، لن تستفيد من فوائد الاقتصاد الرقمي الجديد، ويعتبر خط التقسيم الرقمي هو جزئيا نتيجة الانقسام المعرفي، (Knowledge divide)وهو في نفس الوقت أيضا معوقا كبيرا للتغلب على مثل هذا الانقسام المعرفي، الناتج من الانتشار الواسع للأمية في العالم وانخفاض جودة التعليم، وهما من أهم أسباب إعاقة مجهودات الدول النامية للتطور واستعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وفي نفس الوقت يعتبر الانقسام الرقمي معوقا كبيرا لتحسين الجودة التعليمية، ولتحقيق عدالة الوصول للمعلومات خاصة عندما يغيب نظام فعال لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فهي حلقات متصلة، لكل حلقة نتيجة وسبب.

ما العلاقة بين تكنولوجيات المعلومات والاتصالات والتعليم؟

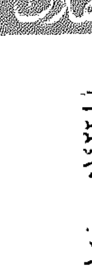
ومن مؤشرات المقاييس السابقة يتضح جلياً أن التعليم هو أهم بنية أساسية لعبور خط التقسيم فالتعليم هو المفتاح الاستراتيجي الأساسي لإحداث التغييرات الضرورية التي تضمن التطور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وأيضا حماية البيئة

والأمن الغذائي. وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة توفر الفرص المتعة لمثل هذا التعليم. ولسوء الحظ، مثل هذه الفرص لا توزع بالتساوى بين سكان العالم، وفى هذا العصر، عصر العولمة والمعرفة المساندة للاقتصاديات الضخمة، هناك تقريبا ٨٠٠ مليون أمى بالغ، وتقريبا ١١٣ مليون طفل خارج المدرسة مركزين غالبا فى الدول الأقل نموا، والتى يتركز فيها أيضا أغلبية من الذين يعانون سوء التغذية، حوالى ٨٠٠ مليون فرد. والتعليم هنا يمكن أن يكون العامل الحاسم والفعال فى توزيع عادل ومتساو للمعرفة، وفى محاربة الفقر ونقص التغذية، لذا يجب من الآن أن يصل التعليم إلى كل البشر، وإذا لم ينجح العالم فى ذلك سوف تتزايد الفجوة الرقمية، وتكون النتيجة تفاوتات أضخم، ونزاعات متكررة - والمؤتمر العالمى من أجل التعليم للجميع، الذى عقد فى جومتين فى ١٩٩٠، نادى بمقابلة حاجات المعرفة الأساسية لكل الأطفال، والشباب والبالغين. ويمكن أن تساعد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى مواجهة هذا التحدى، لاسيما بتوسيع قاعدة التعليم الأساسى فى اتجاه المستبعدين من التعليم، وأيضا بتحسين حالة فصول التعليم.

والدراسات والتجارب التى أجريت فى السنوات الأخيرة تشير إلى إمكانيات وحدود تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى تحقيق التعليم للجميع: فالتعليم الأساسى الجيد للدول النامية هو ما يتيح الفرصة للأعداد الكبيرة ويستجيب لحاجاتهم. انه إصدار عادل يراعى تكافؤ الفرص. وتستطيع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فى بعض الحالات، أن تعوض وتكون بديل المدارس الابتدائية التقليدية فى توصيل التعليم الأساسى، على سبيل المثال، يمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تساعد السكان الذين لا يتوفر لديهم مدخل إلى التعليم أو لديهم تعليم ردىء الجودة. ولكن هذا، يتطلب موارد مالية وفيرة ومدرسين مدربين على استعمال الكمبيوترات فى الفصول، وكل ذلك غير متوفر فى الدول النامية، لذلك فالراديو هنا يكون أكثر ملاءمة فى ان تصل من خلاله خدمات التعليم الأساسى بتكاليف أكثر تواضعا من استخدام التليفزيون أو الكمبيوترات وتبين الدراسات أن استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتدريب المدرسين ووكلاء التغيير فى كل مجالات التنمية يعتبر وسيلة أكثر اقتصادية واكثر تأثيراً فى الارتفاع بجودة التعليم بالمقارنة بالاستعمال المباشر لتكنولوجيا المعلومات

والاتصالات فى التعليم الاساسى او فى محو الأمية بين البالغين. واتضح أيضا أن استعمال تكنولوجيات المعلومات والاتصالات فى التعليم أكثر كفاءة وأنسب لمستويات التعليم العالية (مثل التعليم المهنى والثانوى والجامعات، والتدريب التجارى والصناعى والزراعى وتنمية الموارد البشرية) وبالمقارنة فى توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى المدارس الابتدائية، والتعليم الأساسى. ومحددات ومعوقات إدخال الكمبيوتر فى التعليم ليست فى القصور المالى أو التقنى ولكن أيضا هناك محددات اجتماعية وتنظيمية، مثل الروتين، وفوبيا التكنولوجيا الجديدة، وصعوبة تغيير تقاليد فلسفة التعليم البالية فى الدول النامية مثل الحفظ والتلقين، واشكال الامتحانات العتيقة.

وهناك بعض التجارب التى استعملت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى التعليم بتدعيم وإشراف الفاو مثل المشروع الذى سوف يبدأ قريبا فى شيلى، بتدريس علوم التغذية فى مقررات المدارس باستعمال الإنترنت . وبين التجارب التى تعنون تحت التعليم غير الرسمى تجربة «الاتصال من أجل التنمية » حيث استخدمت الإنترنت فى توصيل المعارف والمهارات لصغار الحائزين من المزارعين، وتدريب وكلاء التغيير، وأثبتت التجربة نجاحا فى أمريكا اللاتينية، وقريبا تنتشر التجربة خلال المنطقة وبعيداً إلى : الصين، مالى، أندونيسيا، جمهورية كوريا، الأرجنتين ،كوستاريكا، هندوراس والمكسيك. ومن تلك التجارب وغيرها تبين أن التعليم من على بعد يجب أن يقوم على أسباب حقيقية ومنطقية . وأن الأهداف التعليمية هى التى تقود قرارات التكنولوجيا وليس العكس ، وأن التكنولوجيا ليست نشاطا تعليميا، بل هى مجرد وسيلة وأداة لتحقيق الغاية. والتعليم عن بعد يجب أن يكون حساسا ومتكيفا للسياق السياسى والاجتماعى والثقافى والبيئى للمتعلمين، فقد يستهدف محترفين مدنيين مثقفين يستعملون أحدث تكنولوجيات الاتصالات ولديهم مهارة كبيرة فى برامج الكمبيوتر، وقد يستهدف أيضا ريفيين أميين فقراء يفتقدون الكهرباء وخدمات الاتصالات مثل التليفون، ويفضل أن يعتمد التعليم عن بعد على إمكانيات البنية التحتية الاتصالية الحالية بطريقة تضمن استمراريته ، وذلك أفضل من محاولة مد بنية تحتية واتصالية جديدة إلى المتعلمين ، مهددة دائما بتوقف اعتماداتها المالية، ومبادرات التعليم عن بعد يجب أن تكون حذرة ومبتكرة فى استعمالها للبنية التحتية المتاحة، فتكنولوجيا المعلومات



والاتصالات قد تكون مناسبة فى سياقات معينة وغير مناسبة فى سياقات أخرى . وفى التعليم من على بعد يجب إشراك المستهدفين فى عمليات التخطيط والتطبيق والتقييم، ويجب أن يكون على أساس فلسفة تربوية واضحة ونماذج إدارية سليمة.

واخيرا نقدم تلك العجالة السابقة للمسئولين فى مصر عن الدعوة لانشاء شبكة التعليم عن بعد، وفى حدود علمى ، قد بدأت الخطوات الفعلية فعلا لتنفيذها بالاتفاق مع بعض المؤسسات الدولية، ونذكر هنا أننا نعيش فى عالم فيه أكثر من بليون فرد يعيشون على أقل من دولار فى اليوم ، وان حوالى ٥٠ ٪ من الأسر المصرية تعيش تحت خط الفقر ، وحوالى ٦٠ ٪ نسبة أمية ، وإن إمكانيات تنمية تكنولوجيا المعلومات والإتصالات فى مصر مشكوك فيها لغياب الشروط السياسية والأقتصادية والاجتماعية اللازمة لنموها وتوظيفها ، وأننا نحتاج فى مصر لكسر الحلقة المفرغة التى تربط بين خط الانقسام الرقمى وبقية الخطوط ، مثل ضعف جودة التعليم المقدم للمصريين ، وإنخفاض الدخل، ونقص الرعاية الصحية، وأمن غذائى ومائى مشكوك فى استمراره، وبنية تحتية غير كافية خاصة فى مجالات الاتصالات،فكلها عوائق رئيسية تقف حائلا أمام مشاركة أغلبية الناس فى الدول النامية ومنها مصر فى ثورة المعلومات والاتصالات، فهل نستطيع فى مصر أن نحول الانقسام الرقمى داخل الوطن إلى فرصة رقمية للتنمية؟!. ■

كلمات عاشت

● **الاختلاف فى الرأى ينبغى ألا يؤدى إلى العداء، وإلا لكنت أنا وزوجتى من ألد الأعداء.**

(غاندى)

● **افعل شيئا واحدا فى المرة الواحدة وافعله كما لوكانت حياتك تتوقف عليه**

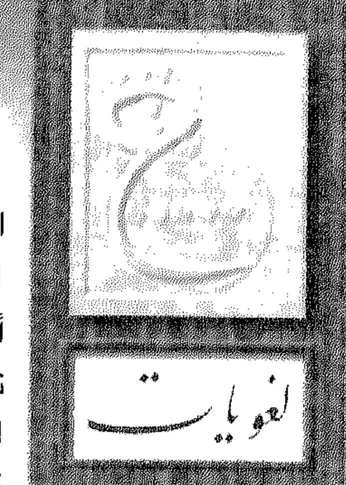
(يوجين جرش)

● **لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه**

(على بن أبى طالب)

● **لا حرية بدون إرادة**

(ديكارت)



د.محمود فهمى حجازى

كلمة «التسييس» من الكلمات الجديدة التى لانجدها فى المعاجم العربية المتداولة ، ولكن الكلمة مستخدمة بمعنى جعل الموضوع فى إطار سياسى ، وكتبوا أيضا عن نزعة التسييس أو الاتجاه إلى التسييس بمعنى إعطاء الأمر طابعا سياسيا أو توجيه الموضوع توجيها سياسيا. ومشكلة هذه الكلمة أنها من المادة اللغوية «س و س» ، هذه المادة موجودة بالواو فى المعاجم العربية : الفعل فى الماضى ساس ، وفى المضارع يسوس . وصيغة المضارع دالة على أصل الكلمة وأنه بالواو .. وقد نظر مجمع اللغة العربية فى مدى صحة كلمة تسييس فى لجنة الألفاظ والأساليب.

إن كلمة سياسة عمرها تجاوز ألف سنة ، استخدمها السيرافى «المتوفى ٣٦٨هـ» وهو النحوى الكبير شارح كتاب سيبويه . وأثبت ذلك أبو حيان التوحيدى فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة »، كما وردت فى الوقت نفسه فى : «رسائل إخوان الصفا»، كتبوا عن السياسة الملوكية والسياسة البشرية وغير ذلك . واستقرت كلمة سياسة فى اللغة العربية على مدى أكثر من ألف عام ، وإن كان استخدامها تفاوت من عصر لآخر . إن كلمة سياسة بالياء وليست بالواو ، وإن كانت حروفها الأصول س و س . ولكن الكلمة استقرت وأصبحت من رصيد اللغة العربية.

ومن هنا كان منطلق قرار مجمع اللغة العربية بشأن كلمة التسييس بالياء، اعتمادا على وجود كلمة سياسة وقبولها عند الكتاب على مدى الزمن. إن هذا الرأى جعل التمييز بين كلمات متقاربة من حيث الحروف الأصول أمرا ضروريا ، وذلك لأداء المعانى المختلفة ولايجوز أن تختلط وتتداخل . التسويس من السوس الذى ينخر فى الخشب وغيره ، هذا الكلمة بالواو . أما التسييس من السياسة ، وهذه الكلمة بالياء ، ولايجوز هنا خلط المفهومين فى كلمة واحدة. ولهذا كان قرار مجمع اللغة العربية إجازة لكلمة تسييس لضرورة التفرقة الدلالية بين هذه الكلمة من جانب، وكلمة تسويس من الجانب الآخر. إن اللغة نظام هادف إلى التعبير عن الحياة والمفاهيم، وتمييز الدلالات أمر مهم . ولهذا أجاز مجمع اللغة العربية كلمات كثيرة فى هذا الاطار.

في ذكرى المولد النبوي

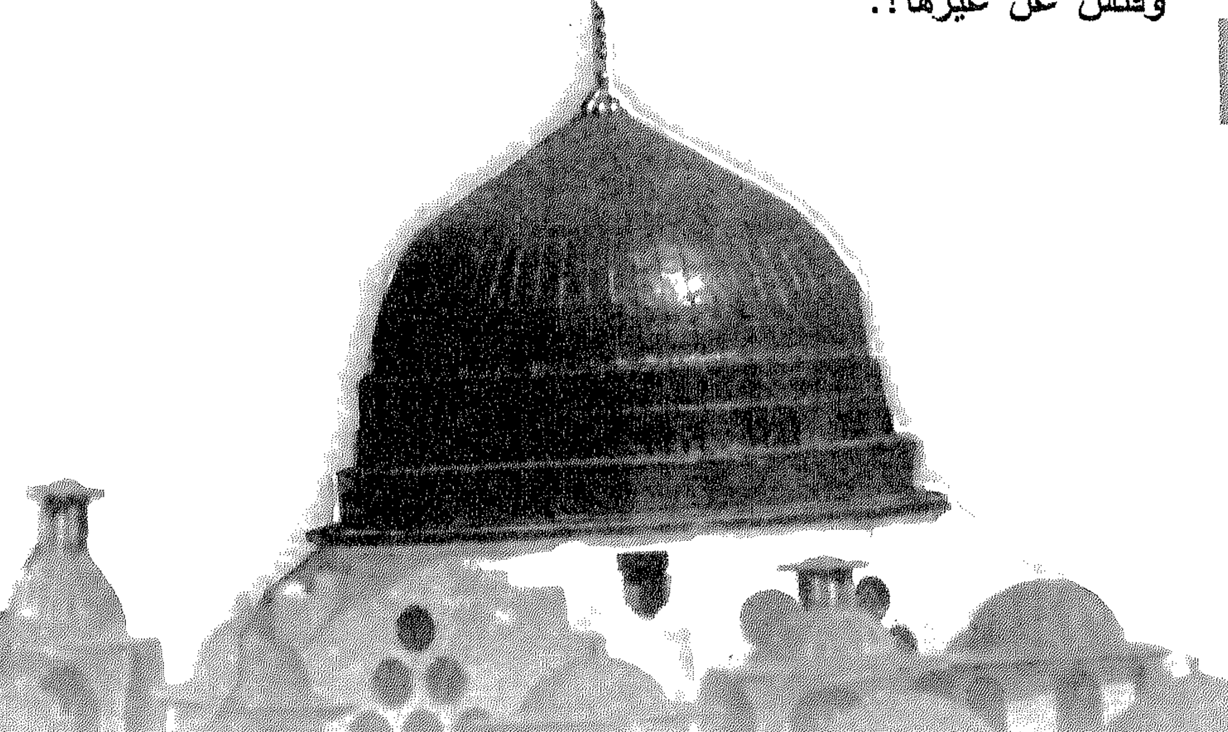


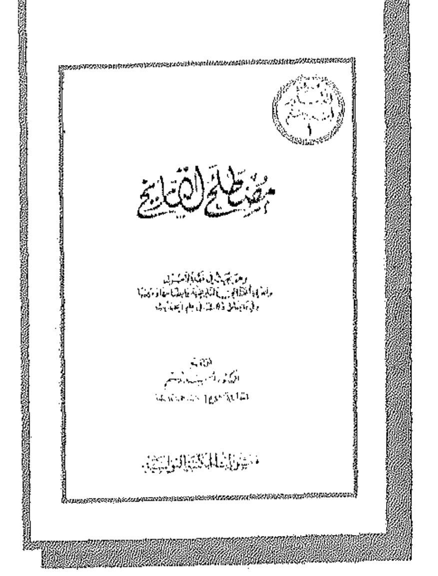
منهج يحتذيه المؤرخون

بقلم
د. محمد رجب البيومي

تصنعت الحلم، فلست بحليم، وأنا استمع لطبيب مشتهر في طبه، يتحدث عن السنة المطهرة في تعاظم كان عليه أن يخفف منه إجلالاً لصاحب السنة الشريفة، فأخذ يقول إن القرآن الكريم وحده هو مرجعه في فهم الدين، وأن السنة تضم أحاديث موضوعة يعترف بها علماء الحديث أنفسهم، فلماذا ألتزم بها، وعلماؤها يشكون فيها» ؟

لم أشأ أن أناقشه مناقشة العلماء، لأن حديثه المشتط ينخفض به عن مكانة هؤلاء، فأردت أن أسأله كالمستفهم، فقلت له : هؤلاء العلماء الذين اعترفوا بوضع بعض الأحاديث، ألم يعترفوا بأكثر من تسعين في المائة مما روته كتب الحديث؟ فقال في حيرة : ماذا تعني؟ قلت: لماذا تجعل السنة الشريفة مرفوضة لديك مستدلا بشك علماء الحديث في بعض مانسب للرسول ، ولا تستدل على صحتها بتصديقهم للكثرة الكاثرة، مما روى عن رسول الله؟ مادمت تستند إلى مايقولون ، فاترك إذن الأحاديث الموضوعة كدليل لاتهام الأحاديث، وفتش عن غيرها!.





ورأيت الموقف يسمح لى بالاستطراد، فقلت إن اعتراف العلماء بهذه الأحاديث الموضوعة، يدل على أنهم أجهدوا أنفسهم فى الفحص والتنقيب ، والجرح والتعديل، حتى ميزوا الطيب من الخبيث، وجعلوا القارىء مطمئنا لما أكدوه، وقد وثق الجمهور بما يقولون ، فاستمرت السنة الشريفة تبعث ضياءها للعالمين، فتؤازر القرآن الكريم فى هداية المؤمنين.

إن مثل هذا المعترض يتكرر موقفه بين الحين والحين وتقوم الردود المفحمة فى وجهه فلا يرتدع، بل إن عصابة من ذوى النيات المدخولة أرادت أن تلبس الحق بالباطل، فأعلنت أنها «قرآنية» لاتتبع غير القرآن، والذى يسمع هذا اللغو يتخيل أن القرآن شىء، والسنة المطهرة شىء آخر، والحقيقة أن السنة موضحة للقرآن، مفصلة لمجمله، شارحة لمراميه، فكيف يفترقان؟.

قلت لبعض من صدمنى بقوله «أنا قرآنى ولا أعرف الحديث»، أنت لست قرآنيا ! فقال محتجاً: وكيف؟ وأنا أرجع إلى القرآن، وأعترف أمامك بما جاء فيه ؟ قلت : لو رجعت إليه لاستمعت إلى قوله تعالى فى محكم كتابه:

(١) وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب (الحشر : ٧) وقوله (٢) وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون (النحل : ٤٤).

وقوله (٣) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (النساء : ٦٥).

وقوله : يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا (النساء : ٥٩).

فالقرآن إذن يأمر بالرجوع إلى الرسول، وقد نزل القرآن فبين الرسول معانيه للناس، فكيف تخالف القرآن وتقول إنك قرآنى ؟!

ثم قل لى : ألست تصلى ؟ فمن الذى بين لك فروض الصلاة وعدد ركعاتها ووقت أدائها! ألست تزكى؟ فمن الذى حدد لك مقدار الزكاة وميعادها ، وفى أى شىء تؤدى؟ ألست تصوم! فمن الذى شرح لك كيفية الصيام وشروطه ومبطلاته؟ ألست تحج؟ فمن الذى وضح لك مناسك الحج على سننها المعهودة؟ أسئلة لم تجد الجواب، ولكن سامعها تكبر على الإذعان.

خطأ الفكرة

وأكثر ما تؤتى الفكرة من ناحيتين، الأولى اعتناقها مبدئياً دون بحث ، إذ يخطر الوهم فى نفس الباحث ، متجها إلى رأى معين، فيزاول البحث لا لينشد الحقيقة، بل ليلتمس ما يؤيد هذا الوهم من دلائل يجتهد في تصويبها مع ما بها من العوار، وهؤلاء الذين ينكرون حجية السنة قد سمعوا كلاماً زائفاً حول هذه الحجية، فآمنوا به، وأخذوا يتلمسون أسباب ترجيحه فى عبارات تحتمل وجهين، أو فى نص مريب قذف به قائله لحاجة مريضة، أو فى حديث غاب عنه تأويله ، فإذا وجدوا مايعارض اتجاههم أشاحوا عنه، وحاولوا إخفاءه، أما الناحية الثانية فالجهل الجاهل بطرق البحث، وادعاء المعرفة سفهاً دون دراية ، وقد كانت التقوى الكاذبة من قبل هى وسيلة الادعاء والتباهى عند من يرون العبادة فى إطلاق اللحية ، وتقليب حبات المسبحة فينخدع بهم العوام ، أما الآن فقد انتقل التباهى إلى العلم فأصبح أدعياؤه من الكثرة الكاثرة بحيث كاد الفضلاء يتوارون منكمشين، وكل سلاحهم الرجم بالظنون وتصعيد القشور.

ولكن الحق لايعدم النصير ، وقد يكون هذا النصير ممن لايعتنقون الإسلام، ولكنه وجد الحق صريحاً فنادى به عن يقين، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ فى الجامعة اللبنانية حيث أصدر كتاباً فى الأربعينيات تحت عنوان (مصطلح التاريخ) وقال فى عنوانه «هو بحث فى نقد الأصول، وتحرى الحقائق التاريخية وإيضاحها فيما يقابل ذلك من علم الحديث» وفكرة الكتاب التى يدور حولها هى ماقاله فى المقدمة إذ نص على أن

«أول من نظم نقد الروايات التاريخية . ووضع القواعد لذلك، هم علماء الدين الإسلامى فإنهم اضطروا اضطرارا إلى الاعتناء بأقوال النبى وأفعاله، وتوزيع العدل فقالوا إن هو إلا وحى يوحى، ما تلى منه فهو القرآن، وما لم يتل فهو السنة. فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها ، فاتحفوا علم التاريخ بقواعد لاتزال فى أسسها وجوهرها محترمة فى الأوساط العلمية حتى يومنا هذا ، وهو ما سيتاح الاطلاع عليه فى تضاعيف هذا الكتاب».

ثم قال بعد أن سرد اهتمامه بالتاريخ ودرس قواعده فى جامعات الغرب، وتدريسها فى جامعة بيروت ، - قال : «لقد اضطررت أن أرجع إلى مصطلح الحديث لسببين أولهما الاستعانة باصطلاحات المحدثين،

وثانيهما ربط ما أضعه لأول مرة بما سبق تأليفه فى عصور الأئمة المحدثين .. ومن أهم ماوجدت نسخة من رسالة القاضى عياض فى علم المصطلح (طبعت هذه الرسالة فيما بعد) فاستنسختها وبدأت فى درسها وتفهم معانيها فإذا هى من أنفس ماصنف فى موضوعها. وقد سما بها القاضى عياض إلى أعلى درجات العلم فى عصره، والواقع أنه ليس بإمكان أكابر رجال التاريخ اليوم أن يكتبوا أحسن منها فى بعض نواحيها، وذلك على الرغم من مرور سبعة قرون عليها، فإن ماجاء فيها من مظاهر الدقة فى التفكير، والاستنتاج تحت عنوان (تحرى الرواية والمجىء باللفظ) يضاهى ما ورد فى الموضوع نفسه فى كتب الفرنجة فى أوربا وأمريكا، ولو أن مؤرخى أوربا فى العصور الحديثة إطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا فى تأسيس علم الميثودولوجية حتى أواخر القرن الماضى، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا فى الغرب، فنؤكد لهم بأن مايفاخرون به من هذا القبيل، نشأ وترعرع فى بلادنا، ونحن أحق الناس بتعليمه، والعمل باسمه وقواعده، ولعلى أول من حاول أن يربط ما توصل إليه علماء الحديث بما وضعه علماء الغرب فى هذا الحقل من العمل».

كتاب فخم يعرفه الدارسون

وكتاب (مصطلح التاريخ) يدل على أن الدكتور أسد رستم لم يكتف بقراءة رسالة القاضى عياض وحدها، والتعبير بالرسالة موهم اليوم، لأنه يوحى بأن المكتوب قدر محدود، أما هو فى حقيقته فكتاب فخم يعرفه الدارسون، ويضعونه موضعه الجهير، وقد جرى القاضى على مصطلح عصره فسماه رسالة، أقول إن كتاب القاضى عياض كان باعثا حثيثاً للدكتور رستم دفعه إلى استيعاب كثير من المؤلفات الخاصة بمصطلح علم الحديث، فقرأ لأمثال ابن الصلاح وابن المبارك والشهرزورى وابن أبى حاتم الرازى، وأبى حامد الغزالى وابن تيمية وابن خلدون ومن قبلهم مالك بن أنس والشافعى وابن حنبل، قرأ هؤلاء قراءة المتأمل الدارس، فاكتشف كنوزا من التحقيق العلمى الدقيق دفعته إلى تأليف كتابه آملاً أن يتبع المؤرخون فى منهجهم العلمى سبيل المحدثين فيما سطروه بكتب المصطلح، والكتاب حافل بالنصوص الصريحة التى تؤكد كفاح هؤلاء العلماء فى تصحيح الحديث النبوى، وبيان صحيحه من موضوعه على نحو دقيق لا يجد أدنى مغمز!! فليت شعري أيجىء اليوم من لا يحسن قراءة نص واحد مما نقله الأستاذ

الدكتور أسد رستم ويقول إن الأحاديث موضوعة، وإنه قرآنى، وهو لايفهم القرآن ولا الحديث! أى غرور هذا؟.

وحين ظهرالكتاب رحبت به الدوائر العلمية ورن صداه شرقاً وغرباً، وقد قال عنه الأستاذ على الطنطاوى بمجلة الرسالة (١٥/٧/١٩٤٠)م.

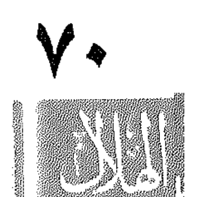
«هو أول كتاب فى موضوعه فى اللغة العربية، وقد نحا فيه المؤلف إلى تطبيق هذا العلم الجديد على قواعد مصطلح الحديث، واستعمال طرائقه، فكان هذا الكتاب تلخيصاً وافياً لمصطلح المحدثين، فضلا عن أنه ينقل إلى العربية علماً جديداً، وكان عمله فيه سنة حسنة، يكون من نتائجها وصل نهضتنا الجديدة بنهضة أجدادنا، وإقامة بناء الحاضر على أساس متين مما بنوا، وقد بحث فيه المؤلف عن «التقميش» أى جمع الأصول، وعن العلوم الموصلة، ويعنى بها وسائل المؤرخ، وعن نقد الأصول، وتنظيم العمل، وتفسير النص، ثم بحث فى العدالة والضبط، وتكلم عن سبق علماء الحديث فى هذا المضمار، وإثبات الحقائق المجردة، والربط والتأليف ، والاجتهاد، والتعليل، والإيضاح، والعرض».

وهذه كلها فصول ذات عناصر ونصوص تدل على تحرى أصحاب الحديث جانب الدقة فى الحكم، والعدالة فى التجريح والصواب فى التعديل بما لا مزيد عليه، ولا أدرى لماذا لم ينهج المؤرخون من قبل نهج زملائهم المحدثين فيما سطروه من أنباء التاريخ، إن آمثال الطبرى وابن الأثير والمسعودى كانوا علماء قبل أن يكونوا مؤرخين، ومؤلفاتهم تشهد بإلمامهم الوافى بمصطلح الحديث، فلماذا لم يفطنوا إلى مافطن إليه ابن خلدون فيما بعد وباعدوا بين منهج المحدثين ومنهج المؤرخين؟ سؤال يبحث عن الجواب !

لقد أخذ الدكتور أحمد أمين فى الجزء الثانى من ضحى الاسلام ص ٣٥٩ على المؤرخين، ضعف النقد لديهم، والتعصب لقبائلهم، وتلوين التاريخ ببعض العقائد، وهى مآخذ حقيقية كان الاتجاه إلى منهج المحدثين كافياً للتخلص منها ، ولكن فهم الأوائل منهم لطريقة التدوين جاء مسيطراً على من تلوهم من التلاميذ، فصارت الرواية بإسنادها هى الهدف الرئيسى، ولا ننكر أن لهم نظرات نقدية فى بعض مادونوه، ولكنها قطرات تتلاشى فى محيط عجاج.

أسد رستم وثلاثون مؤلفا

وقد آن لنا أن نعرف بالدكتور أسد رستم، فننقل ماذكره الزركلى عنه فى كتاب (الاعلام) وهو كاف للإضاءة عن حياته العلمية، حيث يقول



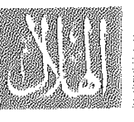
بعد أن حدد وجوده مابين عامى (١٨٩٧ و١٩٦٥م) «أسد بن إبراهيم بن رستم، دكتور فى الفلسفة ومؤرخ لبنانى من العلماء بالوثائق مولده ومدفنه فى الشوير، تعلم بالجامعة الأمريكية ببيروت، وتخرج بجامعة شيكاغو، وعاد فعين أستاذا بالجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٢٣، فأستاذا للتاريخ الشرقى سنة ١٩٢٧، وجمع لمكتبتها كتباً كثيرة ، من الوثائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية عن الأقطار الشامية فى عهد الحكومة المصرية، ونشر منها خمسة مجلدات ضخمة وبقى منها ثلاث من المخطوطات»..

وبلغ ما أصدره منفرداً أو بالاشتراك مع البستانى ثلاثين مؤلفاً عدد الزركلى بعض أسمائها ، ونكتفى بالإشارة إليها دون استرسال.

فالرجل ثبت مكين، له جهاده الكبير فى دنيا البحث التاريخى الهادف ، ومثله وقد اقتعد مكان أستاذ التاريخ فى جامعة عريقة ، لا يكتفى بترداد الذائع المشتهر، بل لابد أن يفكر فى وضع أصول دقيقة يهتدى بها المؤرخون ليتخلصوا مما وجه إليهم من نقد، والذى يؤلف أكثر من ثلاثين كتابا بعد أن تلقى العلم فى جامعات الغرب لابد أن يفكر فى منهج يلتزم به فى بحوثه التاريخية ويلزم به تلاميذه الذين يتواردون كل عام على الجامعة ، وقد اتسع نظره العلمى إلى غير صحف التاريخ، فاهتدى إلى كتب المحدثين ، ورأى من وسائل التوثيق ، ما دعاه إلى احتذائها، وأسلوبه علمى دقيق موجز، حيث لم يشأ أن يسهب فى شرح ما دعا إليه إسهاب الأديب الفياض، ولكنه نهج نهج العالم ، حين رصد المقدمات، وسار بها إلى النتائج الملزمة فى ظلال النصوص القاطعة، والقول الصريح.

مثال واضح





حين يتعرض الدكتور رستم لموضوع درسه المحدثون، وأفتوا فيه ، فإنه قبل إتيانه نصوص المحدثين يمهد بما يجلو حديثهم للقارىء المعاصر، كى يكون على وعى دقيق لما سيتلوه من النصوص، فهو يبدأ مثلا باب «تحرى النص، والمجىء باللفظ» بقوله : ص ٣٣.

وهذه مأثرة أخرى من مآثر علماء الحديث، فإنهم قالوا بالأمانة فى نقل الحديث، وفرضوا وجوب تحرى النص، لأجل الوقوف على اللفظ الأصلى ، ومنهم من أبى أن يصلح الخطأ أو يقوم اللحن، واكتفى بإبداء رأيه فيه على الهامش.

ثم يأتى بنصوص للقاضى عياض، وللإمام مالك، تدل على هذا

المنحى، وفيها مايجيز التغيير فى الأصل إذا ظهر الخطأ، مع النص على ماجاء بالأصل، ومالا يجيزه إطلاقاً مع التعليق بالهامش على خطأ الأصل. وكلاهما جائز ذو صواب ثم تنتهى بعد هذه النصوص إلى قوله ص ٣٤ .

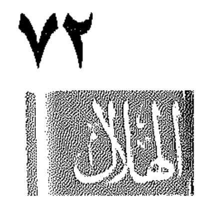
هذا ما توصل إليه علماء الحديث فى القرون الأولى، وهو المعول الآن عليه لدى المؤرخين المعاصرين، والفرق بين الاثنين أن المؤرخين المعاصرين يعممون قول المحدثين على الحديث وغيره من النصوص التاريخية ، أما المحدثون فقد اقتصروا فيما أوردوه من هذا القبيل على الحديث الشريف».

والمحدثون حين يقتصرون على الحديث فى تطبيق ما رأوه من قواعد، لا ملامة عليهم فى شىء، لأنهم ليسوا أصحاب سلطة يلزمون غيرهم من المؤرخين والإخباريين باتباعها، إنما اللوم على المؤرخين الذين أوضح لهم المحدثون سبيل البحث والفحص ولم يسلكوه.

صدى الكتاب

وحين صدر كتاب الدكتور أسد رستم فى بيروت ، كان موضع انتباه المؤرخين فى الجامعات العربية، حيث رأوا به من الجديد مايجب الالتفات إليه، فالدكتور حسن عثمان أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية، اعتمد عليه فى كتابه (منهج البحث التاريخى) وقال فى مقدمة كتابه «إن الدكتور أسد رستم يقوم بتدريس منهج البحث التاريخى منذ سنوات فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وقد نشر نتيجة دراسته فى كتابه القيم «مصطلح التاريخ» وهو أول كتاب فى اللغة العربية عن منهج البحث التاريخى بالمعنى العلمى الحديث».

وفى الفصل الثامن الذى عقده تحت عنوان (النقد الباطن السلبى) اعتمد اعتماداً واضحاً على ماذكره الدكتور رستم بشأن الفحص الداخلى والخارجى للنص ، وأشاد بجهد الدكتور أسد فى إيضاح ذلك، وتابعه حين ذكر نصوصاً لشيوخ الحديث عن الخبر وعدالة الراوى، والجرح والتعديل، والرواية عن الشخص المجهول، والرواية عن الشخص المبتدع، وعن التائب من الكذب، وعمن أخذ على التحديث أجرا، وعمن عرف بالتساهل، وعن الألفاظ المستعملة فى الجرح والتعديل، ناقلا عن الأئمة: الغزالى وابن الصلاح وابن أبى حاتم الرازى، ومشيرا إلى مانقله عن الدكتور أسد رستم، وهو بذلك يعتبر ميزان المصطلح من أقوى الموازين فى تحرى الخبر، والحكم على الرواية، ويدعو الدارسين إلى الاهتمام بمصطلح الحديث، وهو علم درسناه لأول مرة فى السنة الأولى من القسم الثانوى بالأزهر الشريف، ثم اتسع فى دراسته



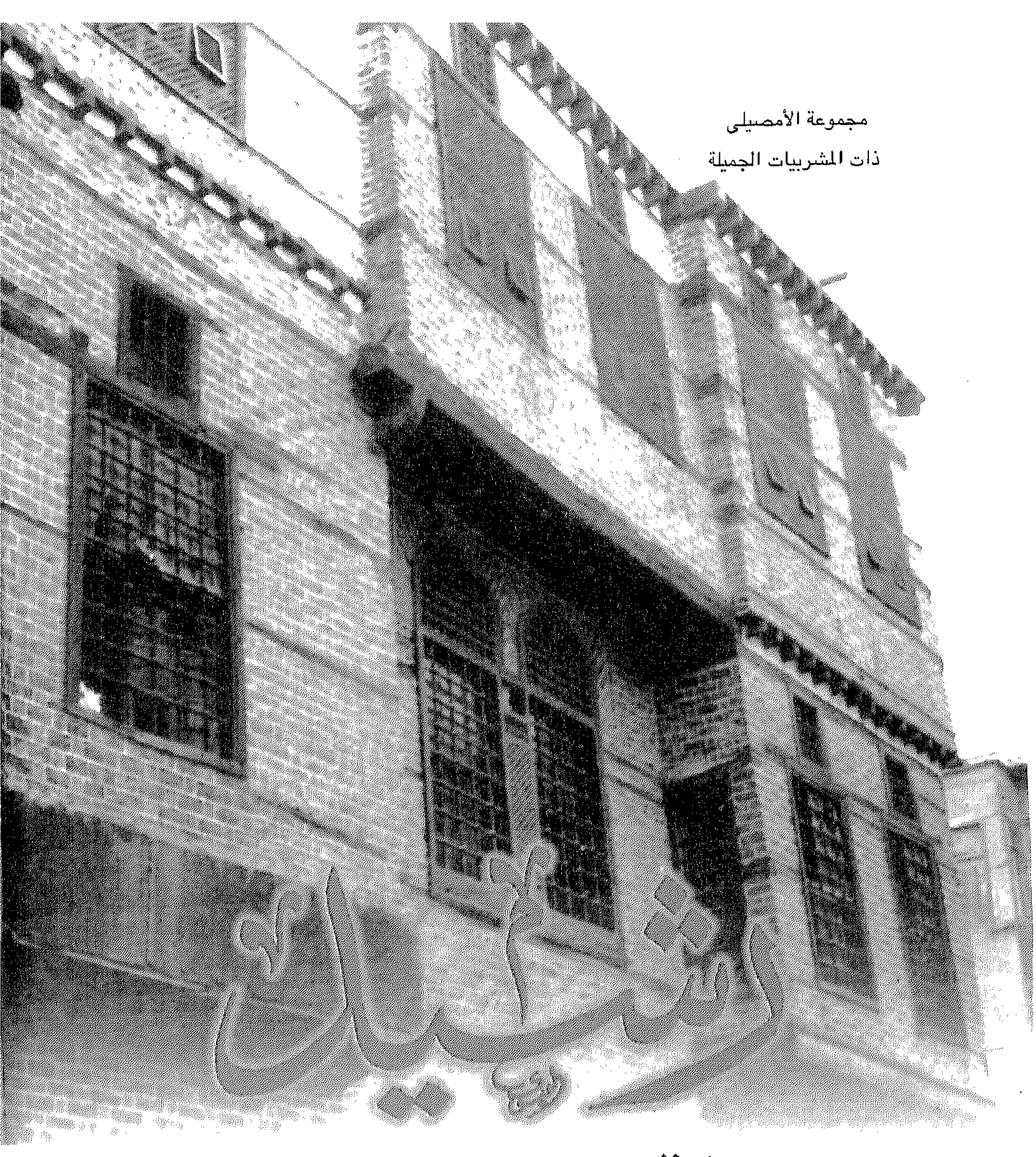
المتخصصون بكليات الشريعة الإسلامية الآن، وظهرت فيه كتب مبسوطة تناسب روح العصر، ولكنها في الوقت نفسه تدعو إلى مراجعة الأصول وهضم مابها من حقائق غالية هي عماد ذوى النظر من المؤرخين والمحدثين.

وعلى نحو مافعل الدكتور حسن عثمان قام الدكتور على سامى النشار في بحثه (المسلمون ومنهج البحث التاريخى) بالاستفادة من كتاب الدكتور أسد رستم، وقال بصدد حديثه عن جمع الأصول، إن عالما مسيحيا هو الدكتور أسد رستم قد أكد جهود المحدثين وأوضح فضلهم على التاريخ كما قال ، إن الدكتور رستم هو أول من توصل إلى تلك النظرات المقارنة بين مصطلح الحديث ومصطلح التاريخ، وفى حديثه عن الجرح والتعديل ذكر الدكتور النشار رأى الدكتور أسد رستم فى ماكتبه القاضى عياض عن تحرى الألفاظ، وضرورة عدم التغيير، مرددا قوله «إن هذه الرسالة كأحسن ماكتبه علماء المناهج التاريخية فى أوربا بعد كتابتها بقرون طوال».

وبعد :

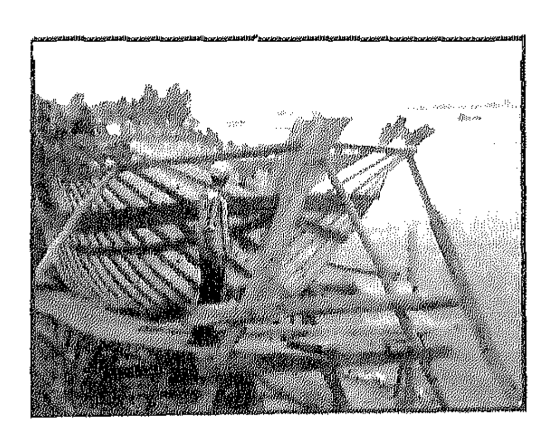
أفليس من المخجل الفاضح أن يأتى غر من أعزاء المسلمين لايعرف شيئا عن الجهود المضنية التى كتبها علماء المصطلح، وما دار حولها من شروح وتحليلات ملأت عشرات الأسفار، وأصبحت خلاصتها ميزانا دقيقا لرصد الأخبار التاريخية، وكل مايروى عن العلم والعلماء فى فن من الفنون، أليس من المخجل الفاضح أن يأتى هذا الغر فيقول إنى لا أعتمد على الحديث لأنه موضوع، ثم يجمع حوله ذيولا من طرازه، يدفعهم إلى الخوض فيما لايعرفون عنه شيئاً إذا طالعوه فى مصادره، ولأميتهم الفاشية، وبعدهم الشاسع عن موارد العلم الصحيح! وقد يتجرأ فينشر مقالا فى جريدة ليس بين القائمين عليها من يفهم شيئاً فى علوم الثقافة الاسلامية، ويعد ذلك نصرا مؤزرا يدفع به إلى مصاف المجددين، وفى زمن التصوير الضوئى يطبع من المقال عشرات النسخ، ويرسلها إلى من يشاء كأنه يقول : هأنذا، وما درى أنه حين يهاجم الراسخ الثابت من الأصول إنما ينطح صخرة تفرى رأسه فريا فيتحول إلى ذرات.

وقد نبح الكلب النجوم ودونها
منادح تقصى ناظر المتأمل



مدينة التاريخ والبطولات

تحقيق : امانى عبد الحميد   تصوير : شوقى مصطفى



صناعة مراكب الصيد على شاطئ النيل

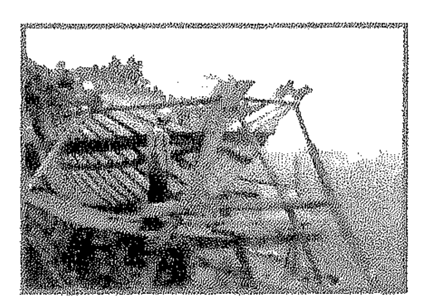
● أهدت إلى العالم أول قاموس عرفته البشرية من خلال حجر رشيد

● هزمت الإنجليز.. وظلت لفترة طويلة تحافظ على التراث الإنسانى

● حاليا.. تعانى من الفقر والإهمال وحرفها الموروثة مهددة بالزوال

● تضم أكثر من ٤٠ موقعاً أثريا من العصر العثماني

رشيد.. ثانى المدن الأثرية الإسلامية بعد القاهرة.. تعد متحفاً مفتوحاً للذاكرة المصرية.. شوارعها وبيوتها ومساجدها تحوم فيها حكايات ومرويات عصور مضت.. عاشت عصورا تاريخية متعاقبة توالت عليها حالات ازدهار وانحسار بدءا من الدولة المصرية القديمة وأسرتها الأولى حتى نهاية العصر العثمانى.. شاهد على أحداث دامية فى تاريخنا وأحداث نعتز بها.. أهدت العالم حجرها الأسود البازلتى مفتاحاً لفهم أقدم لغات العالم «الهيروغليفية» وأعادت اكتشاف أعظم حضارة عرفتها الإنسانية «الحضارة الفرعونية».



رشيد

أرضها شهدت انهزام جيوش الإنجليز عام ١٨٠٧، وشهدت زواج أشهر جنرالات الحملة الفرنسية «مينو» بجميلة الجميلات زبيدة البواب.. حصلت على جائزة التراث المعمارى من منظمة المدن العربية فى يناير ١٩٩٠ لتميزها وحفاظها على التراث الإنسانى وصانت على مدى السنين الطراز الإسلامى العثمانى المميز بالعقود والقباب والأعمدة والأسقف الخشبية المحلاة بالصدف والأخشاب المتداخلة برسوم هندسية والمشربيات حيث تضم ما يقرب من ٣٥٠ مشربية نادرة متقنة الصنع من خلال آثار ٢٢ منزلا و ١٢ مسجدا علاوة على طاحونة وحمام وبوابة وقلعة قايتباى.

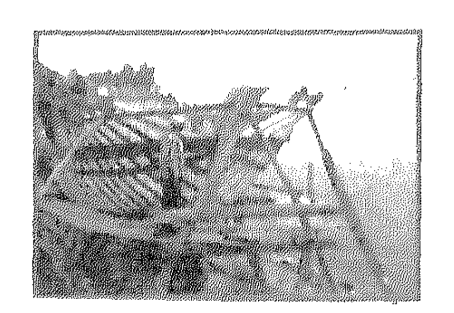
وهى صاحبة موقع فريد تحتضن النهر والبحر.. بعد رحلة طويلة قطعها نهر النيل من أواسط أفريقيا بطول ٥ آلاف كيلو متر ليصب مياهه فى البحر الأبيض المتوسط، تقف عند الملتقى بغابات نخيلها.. كان يطلق عليها خلال العصر الفرعونى بفرع «البولبوتينى» أو اسم «بولبتين».. وخلال عهد الأسرة السادسة والعشرين أصبحت مقرا لصناعة العجلات الحربية.. وخلال العصر القبطى أطلق عليها «رشيت» كما أطلق عليها اسم «روزيتا» .. ومع بدايات العصر الإسلامى تحولت إلى «رشيد» ونقلت إلى موقعها الحالى. بنى عليها الخليفة «المتوكل» حصنا عسكريا لكنه اندثر.. وبنى السلطان قنصوة الغورى سورا حول المدينة بقيت أطلال منه، كما جاء على لسان د. محمد عبدالعزيز مدير عام آثار وجه بحرى وسيناء. مؤكداً أن رشيد تعتبر توءما لمدينة فوة.. تتبادلان موقع صدارة إقليم الدلتا، كما أن طرازها المعمارى يحمل سمات طراز الوجه البحرى المبنى بالطوب الأحمر والأسود والمكحل بوصلة بيضاء. واشتهرت باستخدام المشربيات والقيشانى بأنواعه المغربى والتركى. وظلت مركزا للتجارة العالمية والميناء الأول فى مصر خلال حكم الإمبراطورية العثمانية لقربها من العاصمة «استنبول»، وهى أحد العوامل التى ساعدت على بناء الخانات والشوادر لتخزين البضائع داخل الأدوار الأرضية للبيوت فى رشيد. وقام المجلس الأعلى للآثار بالاشتراك فى منظمة «متاحف بلا حدود» لاعتبار مدن القاهرة، رشيد، فوة مدنا أثرية مفتوحة تمثل آثار حوض البحر الأبيض المتوسط.. يتم افتتاحها فى سبتمبر القادم، وفى الواقع نجد أن تحويل رشيد إلى متحف مفتوح يحتاج إلى مجهودات ضخمة من أجل إخلائها من ساكنيها وتحويل شوارعها للمشاة فقط ليمنع دخول السيارات ، إلى جانب ترميم كافة آثارها الموجودة حاليا والتى يعانى الكثير منها من الإهمال وتعوم فوق بحيرة من المياه الجوفية. وكان لابد لنا أن نقوم برحلة لزيارة المدينة لنتعرف عن كثب على آثارها ولنقدر قيمتها التاريخية حق تقدير.

متحف رشيد القومى

بطريق طويل متعرج يبلغ طوله حوالى ٥٥ كيلو مترا تركنا أنا وزميلى المصور مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة قاصدين مدينة رشيد.. ووسط طريق تحفه الأشجار على الجانبين تراءت لنا غابات النخيل التى تحيط بها.. وعند اقترابنا شيئا فشيئا شعرت بأن الزمن رجع بنا إلى الوراء ما يقرب من مائتى عام.. ومنذ دخولى المدينة قابلتنا شوارعها الضيقة العتيقة المتراصة عموديا فوق بعضها ..



شباك الصيد ..صناعة مهددة
بالاندثار، يمتهنها كبار السن فقط



رشيد

كل منها يحكى قصة تفوق الخيال.. إحداها عن وقوع الجنرال «مينو» قائد جيوش الحملة الفرنسية فى غرام زبيدة غادة رشيد وزواجه بها فى حفل فاخر أقيم داخل منزل الميزونى البواب.. وأخرى تخص أهالي رشيد وروحهم الشجاعة لكفاحهم ودفاعهم عن مدينتهم الصغيرة ضد جيوش الإنجليز.. وقمنا بجولة سيرا على الأقدام حاولنا أن نتلمس ملامح التاريخ داخل شوارع رشيد.. بدأنا رحلتنا بمتحف رشيد القومي الذى اقيم داخل أحد البيوت الإسلامية الأثرية وهو منزل «عرب كلى» الذى بُنى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ويتكون من أربعة طوابق على الطراز التقليدى لمنازل رشيد.. وللأسف وجدناه خالى الوفاض فقد تم تخزين محتوياته تمهيداً لبدء أعمال الترميم داخله. وبسؤال مسئول العلاقات العامة بمجلس المدينة علمنا أن المتحف كان يضم وثيقة زواج زبيدة من الجنرال عبدالله مينو، ووثيقة معاهدة الجلاء التى قام بتوقيعها محمد على باشا وقائد الحملة الإنجليزية إلى جانب بعض أنواع الأسلحة التى استخدمت فى مقاومة حملة «فريزر» بما فيها ملابس جنود الانكشاريين الأتراك.

شوارع لها تاريخ

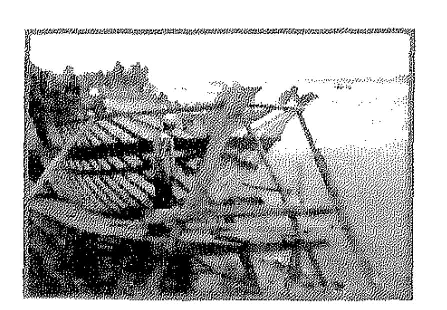
انتقلنا إلى شارع دهاليز الملك.. ضيق صغير تبدو عليه علامات الإهمال.. لكن تاريخه يمثل نقطة نور فى تاريخ رشيد.. أكبر وأهم شوارعها يضم على جانبيه مساكن الأمراء المماليك خلال عصر محمد على باشا.. وشهد موقعة حملة «فريزر» الشهيرة عام ١٨٠٧م. حيث رسم الأهالى خطة محكمة للقضاء على جيش الأعداء الزاحف بمعاونة حاكم المدينة آنذاك على السلانكلى ونقيب الأشراف بها حسن كريت. استخدموا خلالها الخديعة.. فقام الأهالى الرجال والنساء والشباب والشيوخ بالاختباء فوق أسطح المنازل فى انتظار إشارة البدء المتفق عليها.. وبعد رحلة شاقة قضاها جيش الإنجليز داخل منطقة الملاحات وبثقة كبيرة نتيجة احتلالهم مدينة الإسكندرية بسهولة .. دخل الجنود شارع دهاليز الملك يغريهم السكون الذى يخيم على المدينة وظلال المنازل تحجب عنهم أشعة الشمس الحارقة ويلفحهم الهواء الرطب فى يوم حار.. ومن مئذنة مسجد زغلول ومع صيحة «الله أكبر.. الله أكبر» التى أطلقها المؤذن لا للصلاة إنما لإعلان الإشارة المتفق عليها وإيذانا ببدء المقاومة الشعبية.. لتشتعل المعركة بالأسلحة اليدوية البسيطة وباستخدام المياه والزيت المغلى.. والتى تغلبت على جحافل الجيش المسلح وقتلت أحد قواده الجنرال «ويكوب» على عتبة باب منزل «رمضان».

أم الآن فلم يتبق إلا ستة منازل أثرية.. وهى بيوت «بسيونى» - كوهية - الجمل - محارم - علوان .. أشهرها منزل ووكالة «علوان». حيث شهد لقاء الزعيم أحمد عرابى بعلوان بك كبير تجار رشيد خلال جولته بجميع محافظات مصر من أجل كسب مساندة الشعب له عام ١٨٨٢، كذلك منزل «رمضان» بيت أحد حكام رشيد فى العصر العثمانى وهو «عثمان خوجاه» الذى شهدت بوابته مقتل القائد الإنجليزى «ويكوب» كما اشتهر بوجود «جب» كان الحاكم يلقى فيه أعداءه .

ومن دهاليز الملك انتقلنا فى اتجاه شارع قنديل حيث يضم مجموعة أثرية تمتاز بجمالها وحفاظها على الطراز



نخلة نادرة من
نخل رشيد لها
ثمانية أفرع
ترسم لفظ الجلالة



رشـــــــيد

المعمارى .. يضم مسجد الشيخ قنديل ومنزل القناديلي ومنزل ثابت ومجموعة الأمصيلي ومنزل درع والمناديلي والبواب وجلال وطبق من أشهر تلك البيوت هو مجموعة الأمصيلي والتي تضم منزل الأمصيلي وحسيبة وطاحونة أبو شاهين .. حيث قام ببنائه عثمان أغا الطوبجي عام ١٢١٣ هـ، ١٨٠٧ م.. يمتاز بطرازه المعماري الرائع المعتمد على التشكيلات المطعمة بالصدف وسن الفيل، وبه أسقف خشبية مطرزة بنقوش عربية وأطباق نجمية، وتزينه مشربيات ذات أشكال هندسية وموجود بأسفلها فتحة تساعد النساء على رؤية الغير دون أن يراهن أحد. ويشتهر أيضا بوجود «دولاب أغانى» يتسع لاثنين من السيدات مزين بعقود مطعمة بالصدف. أما منزل حسيبة فهو ملحق بالأمصيلي ومخصص للخدم ويمتاز بوجود كميات كبيرة من الخرط الخشبى وتتوسطه «السرة» المخصصة لوضع قنديل للإنارة وبنى عام ١٢٢٣ هـ / ١٨١٧م. وملحق بالمنزل طاحونة أبو شاهين والتى تعد النموذج الوحيد المتبقى من طواحين العصر العثمانى المزدوجة ذات المدارين وهى صالحة للاستخدام حتى الآن.

وداخل الشارع زرنا منزل البواب الذى بناه عبدالرحمن البواب عام ١١٢٣ هـ ويمتاز بشكل بواكيه المسماة «عجمى» ويذكر أنه المنزل الذى عاشت فيه زبيدة زوجة الجنرال «مينو» . كما يضم الشارع حمام «عزور» الوحيد المتبقى والمبنى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى والمميز بأرضياته الرخامية واستخدام القيشانى فى تغطية نافورته وبجمال سقفه وهو عبارة عن مجموعة قباب تتخللها أطباق زجاجية للإنارة.

«زغلول» هزم «فريزر»

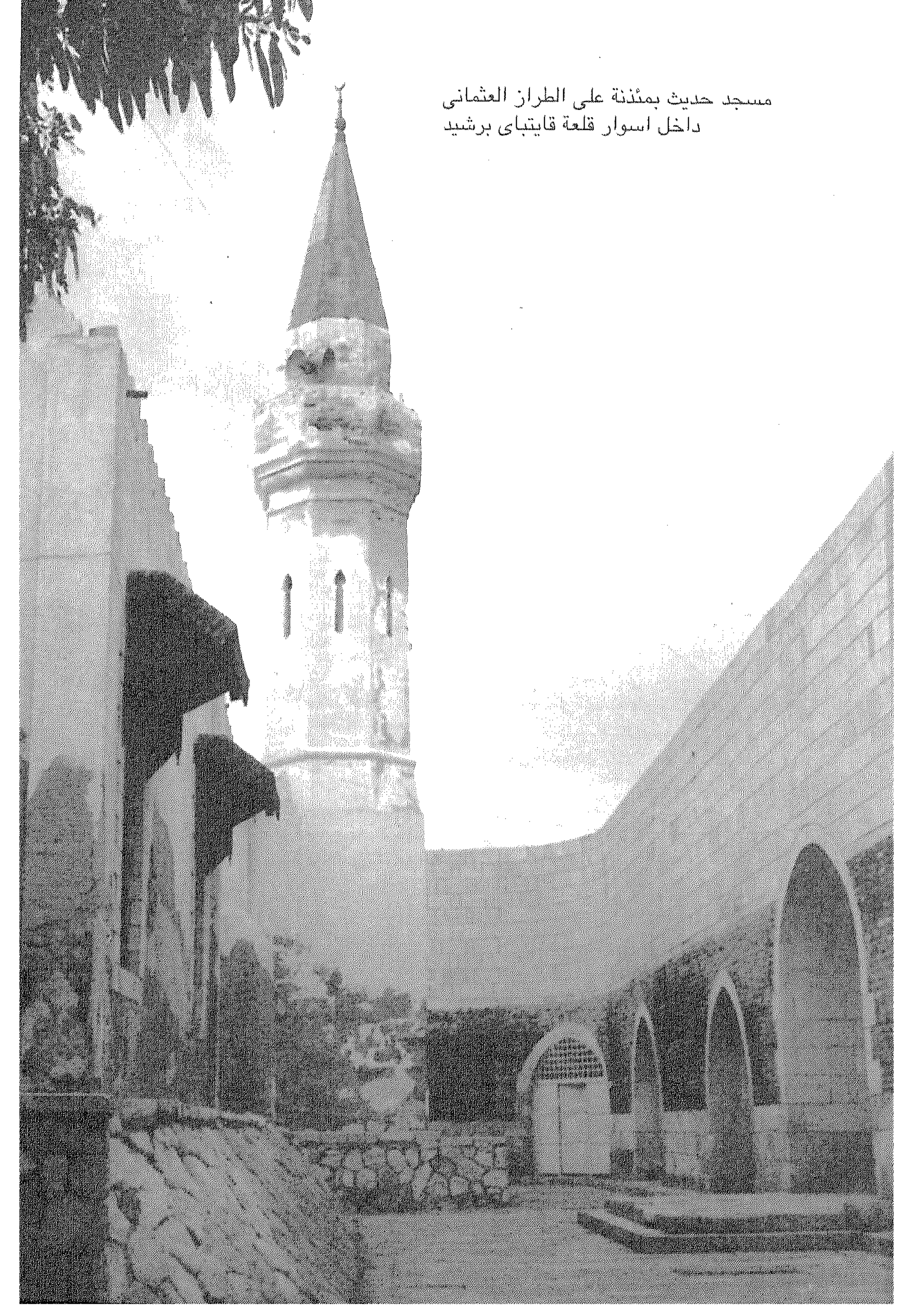
برغم صغر حجمها إلا أن رشيد تشتهر بوجود عدد كبير من المساجد الأثرية والتي يصل عددها إلى ١٢ مسجداً.. أشهرها وأكبرها مسجد «زغلول» الذى بناه زغلول مملوك السيد هارون عام ١٥٤٥ ميلادية على مساحة «٤٠٠٠ متر» ويحتوى على ٢٤٤ عموداً من الرخام والجرانيت وتحمل ٢٠٠ قبة صغيرة تمثل السقف المبنى على الطراز العثماني.. احتل المسجد مكانة كبيرة بعد جامع الأزهر من حيث تأثيره فى الحركة العلمية الدينية.. ومنه انطلقت كما ذكرنا سابقا إشارة بدء الانقضاض الشعبى على الحملة البريطانية.. وجاء انتقام الإنجليز بتحطيم إحدى مئذنتيه.. وحاله الآن حال مدينة رشيد حيث زحف التصدع والإهمال عليه بسرعة محبطة وتحول إلى بركة من المياه الراكدة خاصة مع هطول الأمطار طوال فصل الشتاء.

أما «مسجد» سيدى على المحلى فيعتبر ثانى مساجد رشيد من حيث المساحة بنى عام ١١٣٤ هـ ويشتهر بجمال الضريح الذى يتوسط المسجد.. ويقوم على ٩٩ عمودا. ويضم مكتبة تضم الكتب الإسلامية وبعض المصاحف المكتوبة بخط اليد ومخطوطات قديمة معظمها أوقفها «آل جارم» للمسجد ويبلغ عددها ٢٠٠٠ كتاب قديم.

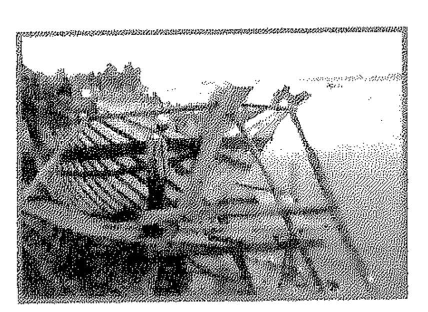
وعلى شاطىء النيل وأول ما يقابل الزائر لدى دخوله رشيد يجذبك مسجد العباسى بعمارته المزركشة بالطوب الأحمر والأسود، بناه محمد بك طبوزادة عام ١٢٢٤ هـ/ ١٨٠٩ م ويحتوى على







مسجد حديث بمئذنة على الطراز العثمانى
داخل اسوار قلعة قايتباى برشيد



رشـــــيـد

نقوش خشبية مطعمة بالصدف على شكل نجوم بعدد فصول السنة مقسمة إلى أشهر.

أبومندور وكوم الأفراح

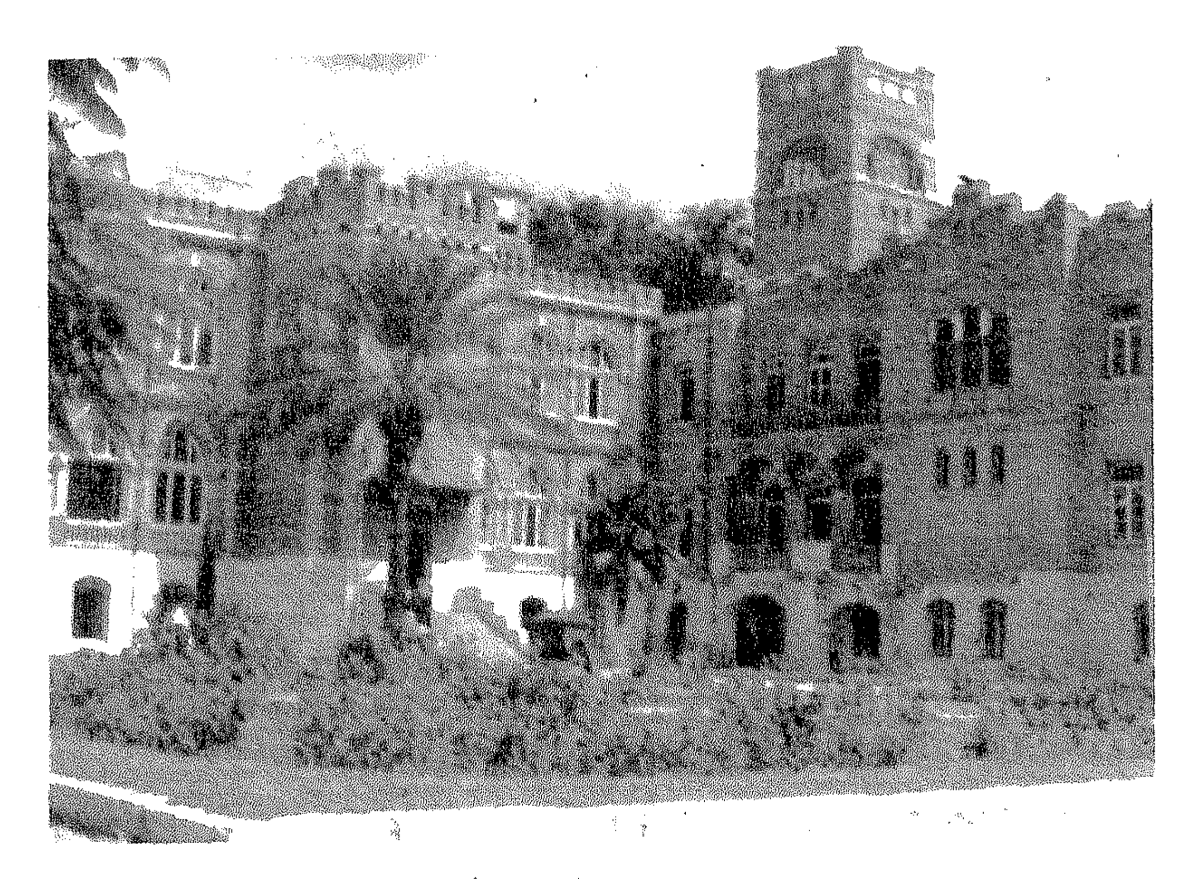
بفلوكة صغيرة أخذناها من أمام الميدان الرئيسى قمنا برحلة نيلية بمحاذاة الشاطىء لنصل إلى شبه جزيرة صغيرة تحيط بها مجموعة مزارع للنخيل ويعلوها تل يطلقون عليه «كوم الأفراح» بجوار موقع رشيد القديمة. ذلك التل الصغير يضم رفات أهالى رشيد والمدن القريبة.. وبرغم أنها مجموعة من المقابر من المفترض أن يخيم عليها الحزن لكن الأهالى أضفوا عليها صفة الفرح ولأن الموت عندهم عنوان للفرح بلقاء الله أسموها «كوم الأفراح».. اختاروا موقعها لارتفاعها عن مياه فيضانات النيل التى تتعاقب عليهم وتغمر بيوتهم ومقابرهم .. لذا اختاروها لينقلوا موتاهم بمراكب نيلية حتى كوم الأفراح.. وأسفلها بنى مسجد العارف بالله أبو النظر «أبو مندور» ويحكى أهالى المنطقة أنه أحد مواطنى كربلاء ومن سلالة على بن أبى طالب.. وهو مبنى على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المزخرفة بنقوش إسلامية.

أول قاموس عرفته البشرية

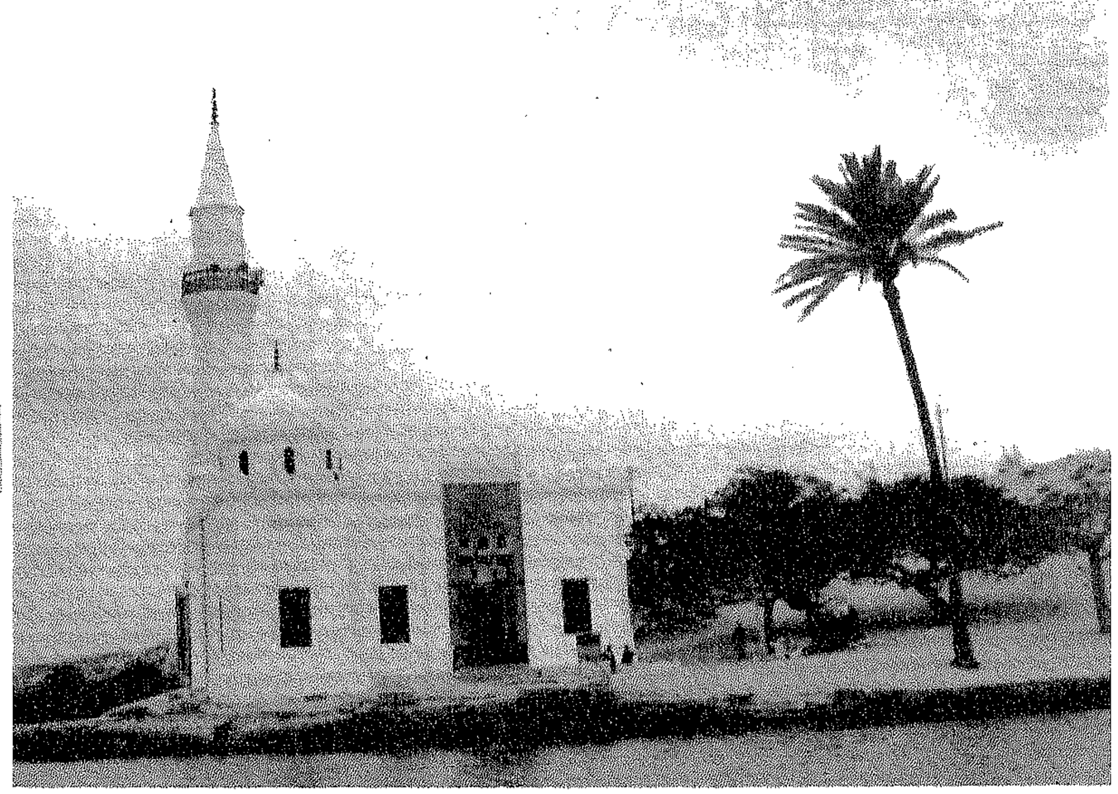
على بعد ستة كيلو مترات من المدينة وعلى الشاطىء الغربى للنيل فى منطقة برج رشيد.. شيد السلطان قايتباى قلعته كنموذج مصغر للحصن الداخلى لقلعته الشهيرة بالإسكندرية.. وبمصادفة تاريخية بحتة عثر فى عام ١٧٩٩م أحد ضباط الحملة الفرنسية بيير فرنسوا بوشار على حجر من البازلت الأسود عبارة عن لوحة منقوشة بثلاثة خطوط بين جدران أسوار القلعة خلال ترميمها وعمل تحصينات جديدة بها دون أن يجول بخاطره أنه الحجر الذى سيكشف سر الحضارة المصرية القديمة ويصبح أول قاموس عرفته البشرية على مر العصور. ظلت الحضارة الفرعونية مثارا للاهتمام والدهشة بفضل جلال آثارها وغرابة ديانتها كما يظهر جليا فى كتابات هيرودوت وديودور الصقلى واسترابوك وبلوتارك وأن انتشار الديانة المسيحية خلال القرن الرابع الميلادى إبان عهد الإمبراطورية الرومانية، وإغلاق «تيودوس» الأول عام ٣٩ جميع المعابد الوثنية أدى إلى انقراض الكهنة المصريين شيئا فشيئا.. ومع بداية القرن السادس الميلادى لم يعد يوجد أحد لديه القدرة على قراءة النصوص المنقوشة على الآثار أو المدونة على أوراق البردى. ولكن مع اكتشاف حجر رشيد فى أغسطس ١٧٩٩ وبنقوش تحمل نصا مرسوما للكهنة المصريين للاحتفال بذكرى تتويج بطليموس الخامس ملك مصر منذ عام ٢٠٥ وحتى ١٨٠ ق . م والمكتوب بثلاث لغات الهيروغليفية والديموطيقية (اللغة الشعبية فى مصر آنذاك) واليونانية توافر مفتاح لفهم اللغة المنسية منذ زمن طويل. وكان شامبليون أول من وضع قائمة كاملة بالحروف الهيروغليفية ومقابلها فى اللغة اليونانية. مما وفر الأساس اللازم لترجمة كل النصوص الهيروغليفية المصرية.

ما مصير الحرف والصناعات الموروثة ؟

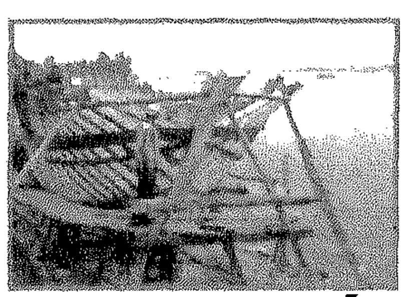
كما ذكرنا كانت رشيد تعيش أوج عصورها خلال العصر العثمانى على اعتبار أنها أقرب الثغور المصرية إلى «استنبول» حيث تقعان على خط طول



قصر الملك بادفينا .. توأم قصر رأس التين



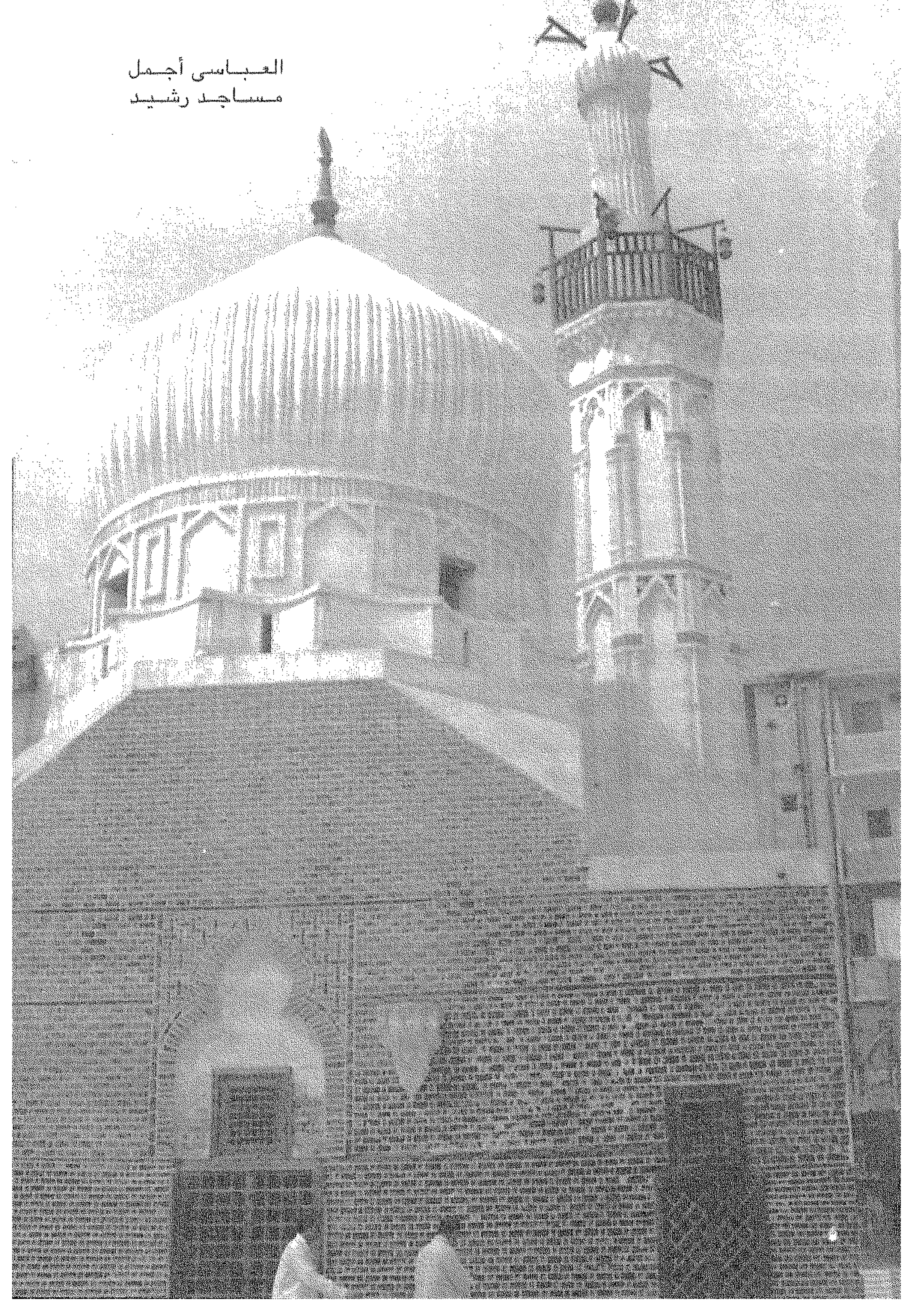
جامع ابو مندور .. ويبدو في الخلفية « كوم الأفراح»



واحد.. فلم تتوقف الحركة التجارية فى مينائها.. وكان لوجود مصب النهر واتصاله بالبحر الأبيض المتوسط أهمية فى انتشار مهن مثل صيد الأسماك وصناعة المراكب وغير ذلك من الحرف اليدوية الموروثة والمعتمدة عليها مثل صناعة الشباك والحبال وحركة الاتجار بالأسماك وتسويقها.. ولكن الواقع الحالى أصبح يختلف كثيرا عن الماضى.. فمهنة صيد الأسماك والتى يعمل بها حوالى «١٥ ألفاً» من سكان رشيد أصبحت تعانى فالبحر لم يعد يطرح السمك كما كان فى الماضى وأصبحت المهنة لا تسد احتياجات الصيادين كما يقول «عم أحمد» أحد صيادى رشيد القدامى.. أما مهنة صناعة المراكب والسفن والتى يعمل بها حوالى عشر ورش متراصة بجوار بعضها على شاطىء النيل.. فلاتزال تقوم على أسلوب الطلب فقط وبالمواصفات التى يرتضيها المشترى .. الريس محمود عوض تعلم المهنة من أبيه عن جده يكسب من مهنته ما يكفيه ولكن ليس ما يكفى أبناءه الذين قد لا يبقون على ولائهم لمهنة والدهم.. ويرى أن صناعة أى مركب تستلزم أشجار التوت والكافور المعمرة والتى يصل عمرها من ٣٠ إلى ٥٠ سنة حتى يخرج مركب صيد متينا يحتمل مياه المالح «البحر» .. ولايزال كبار السن وعواجيز النساء حتى اليوم يمتهنون مهنة قديمة وهى صناعة شباك الصيد اليدوية وبرغم ظهور الشباك المصنعة آليا فإنهم يتمسكون بها ويصرون على مواصلة عملهم بدلا من الجلوس بلا عمل. وإن كانت كل المؤشرات تؤكد أن المهنة التى تعد من الحرف اليدوية قد أصبحت فى طريقها إلى الاندثار أيضا.. والصناعات اليدوية الأخرى والمهددة بالزوال صناعة الأقفاص من جريد النخيل نتيجة انتشار وسائل التعبئة البلاستيكية.

وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك محاولات للحفاظ على بعض الحرف اليدوية ذات الأهمية التاريخية مثل إقامة معهد الحرف الأثرية داخل منزل ثابت الأثرى المبنى فى عام (١١٢١ هـ) بهدف تعليم الأجيال الجديدة حرفة خرط الأخشاب الخاصة بالمشربيات الإسلامية. كذلك إقامة مدرسة لتعليم الفتيات النسيج على النول وإنتاج أنواع من المشغولات النسيجية والسجاجيد.. وبالرغم من انخفاض جودة إنتاجها وافتقارها إلى الشكل الفنى المتقن إلا إنها محاولة تستحق الرعاية.

وفى نهاية جولتنا ونحن نودع مدينة رشيد نقف فى حيرة أمام هذا التناقض الغريب.. تناقض بين تاريخ طويل حافل بالكفاح والازدهار والتفرد وبين واقع مرير فقير لا يمت إلى الماضى بصلة.. ولا يسعنا سوى أن نطرح بعض التساؤلات هل من الممكن أن تتحول مدينة رشيد إلى مدينة أثرية مفتوحة تكون محط الأنظار وقبلة عشاق الجمال والتفرد؟ برغم حالة الإهمال التى تعيشها تلك المدينة القابعة عند ملتقى نهر النيل بالبحر الأبيض المتوسط وبرغم حالات الضياع التى تعيشها حرفها اليدوية والصناعات الحرفية الموروثة عن الجدود برغم كل شىء هل من الممكن أن يتحول الحلم إلى حقيقة؟ ■


العباسى أجمل
مساجد رشيد

شعر: سليم الرافعي طرابلس - لبنان

بالله .. ما أنت ؟ قل لي أيها العلم ... أقسمت فيك غموسا لست أحتشم

بكيت .. ناديت آفاقا ملطخة ... بالشمس تشحب أو بالليل تنبهم

ما أصغر الكون يخلو من أبوته ... أبي .. وأمي .. وأجدادي الذين هم

من نشوة الشمس حتى أصبحت مزقا؟ ... فإنني لا أرى والشمس تنقسم

يانخلة في الأعالي نام عاشقها ... لم يدر عاشقها ما تلهم القمم

هذا هو العرش عرش الملك مؤتلقا ... تكذب القمة الأقزام مازعموا

هذا هو الوتر العملاق مضطرما ... مازال يسعر والأشجان تضطرم

عود من النخل غنانا .. فخلدنا ... في وعينا منه أو لا وعينا نغم

ناجى السماء وحياها فكيف سما ... بالصبر والعاصفات الهوج تلتطم ؟

إن الجذور التي تبني حقيقتها ... هي الإرادة .. منها تولد الأمم

أيصرخ الشرق من بؤس ومن ألم ... وكان يشرف منه البؤس والألم

ألم يلذ واحة غناء في زمن ... شاد العظائم فيه الروم والعجم ؟

ياأيها الأسد الوسنان في أجم ... يداس في نومك المستغرق الأجم

هي الحضارة لايهجو أشعتها ... إلا الذين نأوا عن ضوئها وعموا

فلتشرق الشمس من صحراء مؤمنة ... بآية العلم .. منها يرفع الكلم

يقدس الكون إيمانا ومكرمة ... فما الحضارة إلا الروح والكرم

زهر وعطر هما استشراف عاصفة ... في الشرق من عبقري الروح تلتثم

تلك الأبوة في التاريخ ما سلمت ... بالسيف يقطر لكن صاغها القلم

يوحد القلم الأجيال مقتحما ... حدود أوطانها .. فالرأي يقتحم

لولا الشاعر في الأقوام ما نبضت ... لهم عروق .. ولا .. أوافم علم

قضايا النقد المعاصر .. ملف خاص

وظيفة النقد الأدبى

بقلم
ابراهيم فتحى

أمسى النقد الأدبى هدفا معتادا للهجوم والسخرية وخاصة من بعض الكتاب والشعراء. فالنقد غائب والنقد فى أزمة والنقد يستورد النظريات ولا يؤسس نظرية نقدية عربية. ويبدو أن الكثيرين قد حددوا إقامة النقد الأدبى كمواطن من الدرجة الثانية فى مملكة الأدب، فدوره أن يلاحق كل ما تقذفنا به المطابع من «إبداعات» وأن يقدم قراءة بريئة منزهة عن أى افتراضات نظرية أو أيديولوچية لشىء معزول مغلق على ذاته اسمه «النص»، قراءة تمضي مباشرة ودون وسائط عبر ومضات وحدوس وسوانح فورية إلى ذاتية المبدع المتجسدة فى لغة النص.

وقد عبر كاتب قصة فى إحدى الدوريات الثقافية بلهجة تعال مضحكة عن اشفاقه فى الندوات على النقاد المصريين كلهم وهم يتصببون عرقا فى محاولاتهم إخضاع النص إلى أحد المناهج. وسخر فى سطحية ودون مناقشة من المناهج النقدية جميعا التى يبدو أنها لا تروق له أو أنه لم يهتم بقراءة أى شىء عنها. سخر من البنيوية والتفكيكية والسيكولوجية ... إلخ مكتفيا برصها معا مصحوبة بضحكة هازئة. وبعد ذلك أبدى إعجابه بناقد عربى، وهو جدير حقا بالإعجاب، ولكن لماذا؟ لأن القاص يستمتع بنقده كما لو كان يستمع إلى موسيقى عذبة (!!)، ودون أن يعرف حتى أنه ينتمى إلى النقد الثقافى الذى يقدم تركيبا جدليا حافلا بالمصطلحات من بعض المناهج التى سخر منها القاص.

هل نحن أمام رأى يستحق النشر أو المناقشة؟ نحن فى الحقيقة أمام تحيز منتشر عند بعض الكتاب والشعراء ومخبرى الصفحات الثقافية والأدبية الذين انتقلوا إليها من تغطية أخبار الحوادث. ووظيفة النقد الأدبى الحقيقى عند هؤلاء مقصورة على التعليق الصحفى الواضح البسيط على آخر الإصدارات، يبرز تقييما يستحسن أن يكون إيجابيا فى اتجاهه العام، ومن الأفضل أن يكون مصحوبا بصورة فوتوغرافية للمبدع أو المبدعة.

فالنقد الأدبى هو فرع من فروع العلاقات العامة لصناعة النشر، لتلميع القلة المختارة من الأحياء أو الذين رحلوا حديثا باعتبارهم نجوما فردية متلألئة.


طه حسين

ولا يخلو الهجوم على الدراسات النقدية الجادة من التعبير عن حنين إلى أيام النقد المجيدة فى الماضى، أيام طه حسين والعقاد ومندور ولويس عوض. ويدل هذا التعبير الذى يمجد ماضى النقد الأدبى على أن أصحابه لم يقرءوا شيئا لهؤلاء الأعلام، فقد كان نقدهم يتجه فى عكس اتجاه معجبى آخر الزمان. لقد كان النقد الأدبى الحديث فرعا مهما من فروع النزعة الإنسانية الليبرالية المتجذرة فى الثورة الوطنية وأسهم فى إبداع قيم الفردية والحرية والاستقلال.



نقد مدرسة الديوان

كان العقاد فى فترته «الثورية» الأولى معنيا بفكرة النهضة. ويقول الدكتور مصطفى ناصف فى «اللغة والبلاغة والميلاد الجديد». إن النهضة فى نظر العقاد هى إرادة الحياة، وإرادة الحياة ليست هى إرادة البطالة والفراغ والمجانة. فلا غرابة إذا أنكر العقاد بعض البحث


عباس محمود العقاد

اللغوى المتوارث فى شروح لغة الشعر وجهد القدماء فيما سموه باسم النقد والبلاغة، فهل تستطيع هذه الشروح أو هذه البلاغة أن تدعم الإحساس المرجو الذى نسميه باسم النهضة؟ ويمضى الدكتور مصطفى ناصف فى تتبعه العميق لمفهوم النقد عند العقاد. فهناك فلسفة حيوية كامنة وراء بحوث اللغة وشروحها، فالممارسة اللغوية والأدبية ينبغى عنده أن تخدم النهضة.

وكانت بواعث الحياة القوية خلاصة مرامى العقاد، والحياة القوية هى حياة التعبير الصادق الجميل، والحياة الضعيفة هى حياة التعبير الكاذب الشأن، وكان يقول لا فلاح لأمة لا تصحح فيها مقاييس الآداب، لأن الأمم التى تضل مقاييس آدابها تضل مقاييس حياتها، والأمم التى لا تعرف الشعور الحق مكتوبا مصورا لا تعرفه محسوسا عاملا. وقد طابق العقاد بين الحرية والجمال ويرضى عن كل شعر وكل بلاغة إذا هى خدمت حاجتنا إلى التحرر أو ألفت بين التحرر والالتزام بطريقة تعصم الإنسان من النزق والعبودية.

ويرى الدكتور مصطفى ناصف أن للعقاد نظرة إلى فن استعمال الكلمات، فالكلمات عنده ذات نشاط متنوع، وبعض الناس يقفون من هذا النشاط عند جانب واحد، ولكنه يعتقد أن نشاط الكلمات غائر فى سياقات حيوية. وأن للكلمة وحدة على الرغم من تشتتها أو تنوعها، واستعمال الشاعر للكلمات يوقظها أو يوقظ تاريخها ويجمعه فى نقطة واحدة لم تتح لها من قبل. فالكلمات التى يصنع منها الأدب مواقف إنسان وليس للكلمات وجود موضوعى بمعزل عن الإنسان، وحياة الكلمات هى نشاط وعينا. فالعقاد يختلف عن الذين يقولون الآن إن شئون التحليل اللغوى للنص الأدبى تستقيم بغير فلسفة أو بغير ملاحظات قائمة على استبطان الوجدان - مثل مدرسة النقد الجديد - فقد كانت العنبطة بالحياة التى يسميها أحيانا باسم الحرية، وأحيانًا باسم الصدق أثيرة عنده، لا من أجل الخلاص من البلاغة فحسب، بل من أجل المجتمع العربى كله، ولم تكن النهضة أو البعث شيئا أكثر من تنمية هذه الحاسة وكشف العوائق المانعة.

ولكن العقاد عموما فى مرحلته الأولى لا يقصر دور الشعر على التعبير عن أى ذاتية فهو يهدف إلى أن يطبع فى وجدان السامع وفكره صورة واضحة مما انطبع فى نفس الشاعر الذى يمتاز على سواه بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء. (الديوان ص ٢٠-٢١) فقد كانت خصوصية النقد الأدبى متكاملة مع موقف يرى للأدب دورا ثقافيا واعيا فى تحقيق النهضة.

وبناء الإنسان المتحرر من التبعيات العتيقة. ولم يقف النقد عند «متابعة» الإنتاج الصادر فى مصر والعالم العربى بل كان يدير المعارك مع اتجاهات هذا

الانتاج المرفوضة ويردها إلى جذورها، ويحاول إقامة افتراضات نظرية حول اللغة الأدبية وحول وظيفة الشعر.

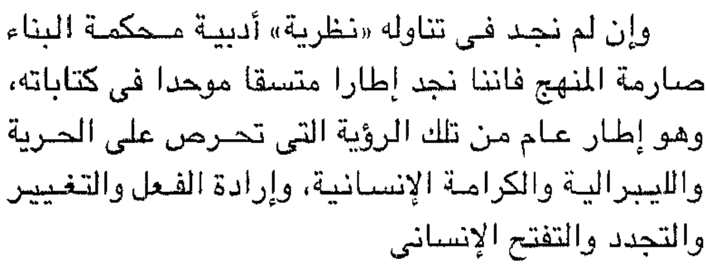
ومن المعروف أن «مدرسة الديوان» كما كانت تسمى لم تكن تابعة لمؤسسات الدولة التعليمية أو السياسية وإن تكن تنتمي إلى الحركة الوطنية الديموقراطية عموما وإلى أشد أجنحتها تماسكا وجذرية. وقد أسهم العقاد في تعريف القراء عبر مطالعاته في الكتب والحياة بالمناهج الأدبية والفلسفية العالمية وبنقدها، وببعض رؤى كتاب وشعراء ونقاد عالميين (كل ذلك في المرحلة الثورية الأولى).

وظيفة النقد عند طه حسين

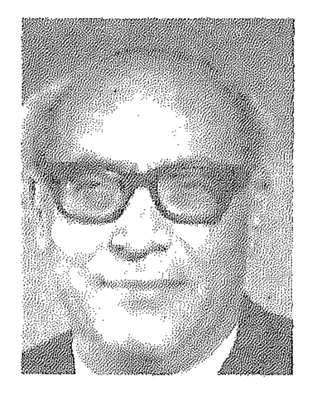
وإذا انتقلنا إلى طه حسين فلن نجد داعيا للإطالة حوله، ومن المعروف أنه دعا إلى بحث علمي للأدب (منهج في الثورة الفكرية) يقوم على عدم الاستسلام لما قاله القدماء والشك في أقوالهم، بتبني منهج ديكارت في الموضوعية المتجردة من كل عاطفة أو هوى أو انحياز قومي أو ديني مسبق. وكان لهذا المنهج دوره في تأسيس فكر وضعي ليبرالي يواجه التفسيرات الغيبية للعالم. ويربط طه حسين بين النقد الأدبي وتاريخ الأدب، ويؤكد طه حسين دور تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في تطور الأدب وتطور اللغة تطورا ملائما لمقتضيات الحياة التي يحياها أصحاب هذه اللغة ولم ير طه حسين في تأثر الأدب بما هو واقع خارجه شيئا معيبا يبعد الأدب عن نوعيته فلم يكن ينظر إلى العمل الأدبي باعتباره نصا في ذاته مستقلا عن كل ما عداه، كما لم ير العمل وثيقة اجتماعية أو تاريخية. فالعمل محصلة تفاعل بين الظواهر الاجتماعية والذاتية والإنسانية. ويذهب محمود أمين العالم إلى أن طه حسين كان يتناول الأدب في إطار رؤية متعددة الجوانب تجمع وتتراوح بين التناول التاريخي والتناول العقلي العلمي والتناول التحليلي والتناول الاجتماعي والتناول النفسي والتناول الذوقي والانطباعي والجمالي والقيمي عامة.



محمد مندور



وإن لم نجد في تناوله «نظرية» أدبية محكمة البناء صارمة المنهج فاننا نجد إطارا متسقا موحدا في كتاباته، وهو إطار عام من تلك الرؤية التي تحرص على الحرية والليبرالية والكرامة الإنسانية، وإرادة الفعل والتغيير والتجدد والتفتح الإنساني



لويس عوض

النقد عند محمد مندور

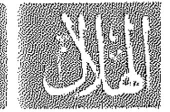
وماذا عن وظيفة النقد الأدبي عند محمد مندور

ولويس عوض؟ إن ناقدا مدققا مثل صبرى حافظ يختزل مسارى محمد مندور ولويس عوض إلى «مقولات النقد الاجتماعى التى تعود تبسيطاتها وآليتها إلى القرن الماضى، دون إفادة من المناهج الحديثة فى فرنسا أو انجلترا وأمريكا مثل مدرسة دى سوسير فى حالة محمد مندور والنقد الجديد فى حالة لويس عوض » (فصول يولية أغسطس سبتمبر ١٩٨٦ ص ٨٥) . ومن المفارقات أن محمد مندور لم يصل إلى النقد الاجتماعى على العكس مما يزعم صبرى حافظ إلا بعد مروره بمرحلة جمالية خالصة فى الأربعينات من هذا القرن. ففى «الميزان الجديد» ص ٧٥ يفند القول بأن الصدق فى الأدب هو قياسه الوحيد، فهو عنده قول بدائى لأن الأدب أعمق من الصدق، فهو ليس تصويرا للواقع ولا تسقطا لأصداء الحياة، فهو خلق للصدق. فلم يكن مندور قد اكتشف بعد السياق الاجتماعى للأصول الجمالية فى الأدب.

وقد أخذ مندور عن دى سوسير أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات. ويحصد د. أحمد ابراهيم الهوارى ما يترتب على ذلك من أن المهم فى العمل الأدبى ليس الألفاظ بذاتها بل الروابط التى تقام بينها أى ما أصبح يطلق عليه التشكيل الجمالى. وإذا كانت تلك الروابط هى المعانى المختلفة التى يعبر عنها الأديب، فعلى الناقد أن يوليها كل الاهتمام. فالأدب فن لغوى لا يمكن فهمه أو تقييمه إلا بتحليل علاقاته التى يتشكل خلالها بتفردها فى كل عمل أدبى أى بصياغة متفردة. ويتحدد دور النقد فى تمييز صياغة كل عمل من حيث هى فى ذاتها أولا، ومقارنتها بغيرها ثانيا، وبعد هذه المرحلة الجمالية انتقل مندور إلى النقد الأيدلوجى فى الخمسينيات والستينيات بمعنى خاص لكلمة أيديولوجية. فهو يعنى بها الالتزام بموقف واضح من القضايا الاجتماعية وبمعارك الشعب ومصير الإنسانية. ولكن المرحلة الجمالية لم تنقض دون تأثير فقد ظل مندور يكرر أن ما يجعل الأدب أدبا هو خصائص صياغته وظل فى كل كتاباته النظرية يفرق بين العمل الأدبى والوثيقة الاجتماعية. وفى مرحلة النقد الأيديولوجى يأخذ مندور بنظرية الانعكاس فى مفهومها الجدلى، ولا يأخذ بالشائعات التى تحيط بها وتفرض عليها الآلية. فالثقافة والفكر والأدب فى المحل الأول انعكاس لواقع الحياة وتطورها ولكنه ليس انعكاسا سلبيا بل انعكاسا إيجابيا يأخذ من الحياة ثم يعطيها أكثر مما أخذ، وقد يسبق الأدب تطور الحياة أو يمهد له، فهو انعكاس خلاق (أحمد ابراهيم الهوارى. نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث فى مصر ١٩٧٨.

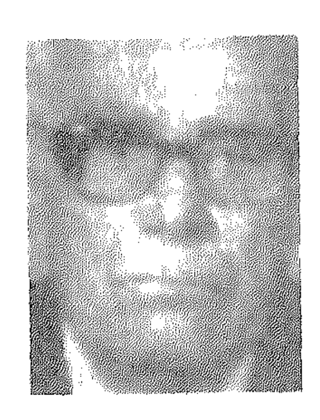
النقد عند لويس عوض

أما لويس عوض فقد تجاوز فى كتابات النضج الفكرة التى كانت تسود مقدمة



بروميثيوس طليقا، عن تعبير الأشكال الأدبية تعبيرا مباشرا عن التطور الاقتصادى، وهو يدعو إلى أدب للحياة بدلا من أدب للمجتمع، وهذا الأدب للحياة هو أيضا أدب للإنسانية. وهو يقيم مصالحة بين اجتماعية الأدب واستقلاله الفنى. وهو يعتبر أن مدرسة الأدب الهادف قد «عاشت» فى أدبنا الجديد تسخره لشعارات الكفاح ولكفاح الشعارات. وحينما يواجه هذه المدرسة يتحدث عن حياة إنسانية ومعايير فنية فوق المجتمع والسياسة ولكنه حينما يواجه نزعات كلاسيكية أو شبه كلاسيكية يتحدث عن المجتمع وحدود العصر أنه يتساءل هل هناك ما يمكن أن نسميه الطبيعة الإنسانية، وهل هناك شعر ينفصل عن المجتمع أو عن العصر الذى «أفرزه»، وهل هناك إنسان مجرد (أو ذات فردية) إنسان أفلاطونى له صفات الثبات، ويجيب لويس عوض بأن الطبيعة الإنسانية (التجربة) ليس لها هذا الثبات المزعوم، وهناك عناصر فى التكوين النفسى للإنسان وفى قدراته على التعبير بطيئة التغير، وعناصر أخرى سريعة التطور. ويصل من ذلك إلى أن ليس هناك ما يسمى الجوهر بالمعنى المطلق، لأن الجوهر نفسه يتغير والصيرورة هى الأساس وليس الثبات ويرفض انطلاقا من ذلك القول بجوهر ثابت للشعر.

والثورة الحقيقية فيما كان يسمى بالشعر الجديد عند لويس عوض هى اختلاف النظرة إلى العالم. وعنده أن الشاعر بعد أن كان يمسك بربابة ويتغنى بحالة وجدانية تحول إلى إنسان يعبر عن هموم الإنسانية أو هموم جيله فى فترة معينة. والشاعر ينقل وعينا من معالجة فردية لوجدان فردى إلى معالجة «فلسفية» لموضوع إنسانى أو قومى. ولويس عوض يؤكد أننا يجب ألا أن نركز على الشكل إلا من حيث قدرته على التعبير عن المضمون. وهو ليس مضمونا سابق التجهيز يأخذه الشاعر من حزب أو نظرية اجتماعية محددة.



مصطفى ناصف

التراث النقدى

ومن الواضح أن تراث النقد الأدبى فى مصر هو تراث شديد الفاعلية تآزر مع دور الإبداع فى خلق ملامح جديدة للشخصية الإنسانية الحرة، وفى تعميق طاقاتها الحسية والانفعالية والفكرية ضد كل قوى القهر، وفى اقتراع نماذج متعددة لتجسيد قدرات التشكيل بكل تنوعها، تشكيل المصير الإنسانى، والتشكيل اللغوى فى أجناس مختلفة توقظ الفنان داخل القارىء.

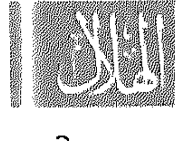
وليس من الممكن النوم على هذا التراث النقدى أو



صبرى حافظ

محاكاته فى عالم اليوم المتغير. وقد تعرضت المفاهيم الأساسية لهذا التراث لمعارضة قوية من جانب الإبداع الأدبى المحلى والنظريات النقدية الوافدة. ونتيجة لأن الأدب تعرض في مجتمعات ترفع رايات الثورة الاشتراكية والقومية للقمع السياسى على نطاق العالم ولفرض الالتزام بالسلطة الحاكمة وأهدافها وأوهامها على الكتابة فقد كف الأدباء عن آن يرتضوا لأنفسهم التبعية وتغليف البضاعة السياسية. وأصبحت كلمات من قبيل السياسة والأيديولوجية والالتزام مرتبطة فى الأذهان بحركات اجتماعية وفكرية وحاولت تغيير العالم ولكنها حينما نجحت فى الوصول إلى السلطة أقامت بعد الثورة أنظمة قمعية خانقة. وفى المجال النقدى بدأت مناهج مختلفة فى الظهور تناوىء الوظيفة الاجتماعية للنقد «الشكلانية » وفى مصر عرفنا النقد الجديد عند مدرسة رشاد رشدى. وقد دعا إلى فصل النقد عن دراسة الخلفيات الاجتماعية والأفكار والسياسة وسيكولوجية المؤلف هادفا إلى تنقية النقد من الاهتمامات الخارجية وإلى تركيز كل على النص وحده. فهو يستكشف بنية العمل وليس أذهان المؤلفين أو استجابات القراء، أى أنه يدافع عن نظرية وحدة عضوية فى الأدب بدلا من تصور ثنائى للشكل والمضمون. ولكن ما قدمه رشاد رشدى فى كتابه «ما الأدب؟» (١٩٦٠) من تفسير متطرف أحادى الجانب لمدرسة النقد الجديد الأمريكية أثار معارضة محمد مندور وعبد القادر القط ومحمد غنيمى هلال. ولم يكن هؤلاء المعارضون رافضين لكل ما جاء به النقد الجديد من اهتمام بالقيم الجمالية وتجويد لكل ما جاء به النقد الجديد من اهتمام بالقيم الجمالية وتجويد للأدوات الفنية، فهم قد سبقوا رشاد رشدى إلى الاهتمام بها فى كتاباتهم، إنما كانت معارضتهم منصبة على الزعم بقطع الصلة بين الأعمال الأدبية ووظيفتها الاجتماعية ويرى بعض مؤرخى النقد الأدبى أن مدرسة النقد الجديد فى أمريكا عند بدايتها حددت للقراءة الفاحصة (أو اللصيقة أو الدقيقة) مهمة فحص البنية الأدبية وتقييمها. وهى تتألف عندهم من مركب موحد من العناصر النصية لغوية وبلاغية ودلالية. وتقوم تلك البنية على التوازن والانسجام.

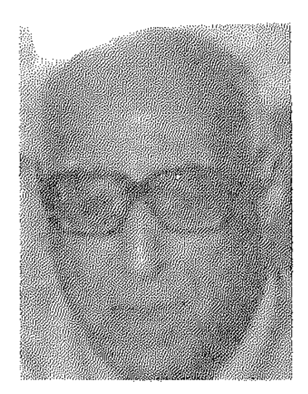
وهذا الانسجام يتحقق بالتغلب على عناصر التوتر والصراع والإبهام والتناقض. أى آن هدف التحليل النقدى هو البنية الموحدة لعدد من التوترات والتباينات، فهى تمثل النوعية الخاصة بالأدب، وكلما تحقق إضفاء الانسجام على التوترات والتناقضات كان النص أجود ويتحقق هذا الإنسجام دراميا لا منطقيا بتوازن القوى. ويصل المعارضون لهذا الاتجاه الشكلانى إلى أن مفهومه عن تلك البنية العضوية المنسجمة للعمل الأدبى لم يكن مجرد مفهوم جمالى تقنى بل كان يعكس مفهومهم الأوسع «الإيديولوجى» عن المجتمع والثقافة عموما. فقد كان



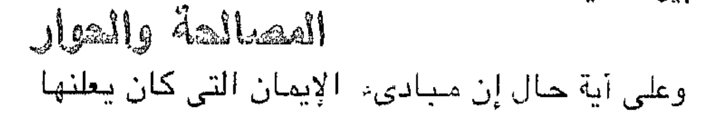
النقاد الجدد الأوائل كما كان رشاد رشدى وأفراد مدرسته محافظى النزعة، وإن كان النقاد الجدد الأمريكيون الجنوبيون يرفضون المجتمع الصناعى الحديث الذى أدى إلى اغتراب الفرد الإنسانى عن نفسه وعن عالمه فقد ملأهم الحنين إلى المجتمع السابق العضوى المنتظم الذى لم يتفكك ولم يضمحل. وكانت البنية المنسجمة المتوازنة بديلا ومهربا يوتوبيا من تناقضات العالم قبل أن تكون معايير أدبية وفى مصر كانت تلك الشكلانية الفنية أيديولوجية سياسية تقف مع رفض الصراع الاجتماعى المحتدم ضد القوى السائدة وتدعو إلى قيم التوازن والانسجام وكان اعتبار النص أيقونة لغوية تتوحد أجزاؤها وتتوازن تصوراتها ومواقفها ومعانيها يجمله رشاد رشدى بقوله : إن العمل الأدبى مماثل لسجادة من سجاد العجم. فهو سلعة من سلع الاستهلاك الترفى الفاخر مقصور استهلاكها على الصفوة. وفى أيام السادات كان رشاد رشدى من رموز السلطة الثقافية السياسية وقد كتب بعض «المسرحيات» التطبيقية لمنهج النقد الجديد، عن حل الصراعات التى يدبرها الأشرار وتحقق وحدة عضوية، ورخاء وسلاماً وراء رمز «فنى» أسطورى شعرى هو بطل الحرب والسلام. وكانت الوظيفة الجمالية قد تحولت بقدرة قادر إلى وظيفة لا علاقة لها بالجمال. وقد راج مفهوم «المعادل الموضوعى» عند بعض الشعراء والأدباء نقلا عن إليوت بواسطة رشاد رشدى. وهو يعنى أن يقدم الأديب سلسلة من الأحداث أو وضعا معيناً، أى وسائل لا شخصية لتوصيل الشعور لكى يثير مثيله فى المتلقى. وقد انتقد جابر عصفور هذا المفهوم موضحا أنه يقودنا منذ اللحظة الأولى إلى ماهو خارج عن النص ، وإلا ما كان هناك معنى لهذا «الجسم المحدد» الذى يعادل الوجدان المعين الذى يراد التعبير عنه، فمن يبحث عن هذا المعادل (بكسر الدال) لابد أن يبحث عن المعادل (بفتح الدال) ليتيقن من موضوعية التعادل بين الوجدان ومعادله الموضوعى، أى أنه يقيس منذ الوهلة الأولى النص بمقياس خارج عنه، بمقياس يردنا إلى منطقة الشعور فى داخل الأديب وليس فى داخل النص. ويذكر جابر عصفور بعض الاعتراضات التى وجهت إلى المعادل الموضوعى من قبيل أنه مفهوم آلى للإبداع وأنه عبوة جديدة لنظرية التعبير القديمة.



محمود أمين العالم

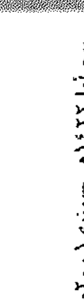


زكي نجيب محمود



المصالحة والحوار

وعلى أية حال إن مبادىء الإيمان التى كان يعلنها



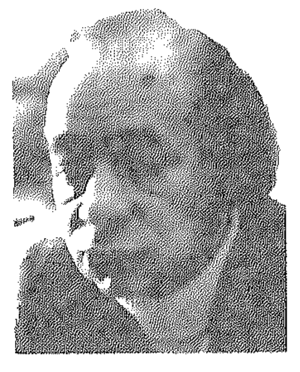
أنصار النقد الجديد كان يتم التخلى عنها فى التطبيق. وعند محمود الربيعى وعبد العزيز حمودة ورشيد العنانى لم تعد الأسس البلاغية مثل المفارقة والتوتر والتناقض... إلخ تجريدات آلية تخنق قراءة النصوص بل أصبحت وسائل إجرائية لربط النص بالعالم وإبراز خصوصيته الأدبية فى الوقت نفسه، وهم لا يختلفون كثيرا فى الدراسات التطبيقية عن نقاد المنهج الاجتماعى والحضارى (عبد القادر القط، محمد شكرى عياد). ولم يعد النقاد الماركسيون فى دراساتهم التطبيقية لا فى تعقيباتهم السريعة يقفون عند المضمون بل يبرزون التشكيل الجمالى كمدخل للوصول إلى الدلالة (محمود العالم، عبد المنعم تليمة، سيد البحراوى)، وقد ساعد على «التقارب رغم الخلافات الخصبة بين المناهج أن النقاد فى مصر لا ينتمون إلى «مؤسسة نقدية» ترعاها السلطة وتحدد لها وظيفتها . فهم موزعون بين الجامعات المختلفة وأقسام اللغات المختلفة ومبعثرون داخل الحركة الثقافية والأدبية بروافدها المختلفة. وليس للسلطة السياسية فى مصر ولم يكن لها مذهب فلسفى أو أدبى تدعو إليه بل كان المعول عندها وما يزال ألا يناصبها الأدب أو النقد العداء المباشر. فأيام الناصرية لم يكن هناك خط ثقافى فلسفى نقدى محدد للسلطة، ولم تتبن الواقعية أو الواقعية الاشتراكية.

لقد كان فى قمة «السلطة» الثقافية ثروت عكاشة ويوسف السباعى وسهير القلماوى وعزيز أباظة وزكى نجيب محمود. وكلنانذكر موقف لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب من شعر التفعيلة ومذكرتها عن «الشعراء القرامزة». وداخل السلطة والمؤسسة كانت هناك اتجاهات نقدية متعددة رومانسية وسيكولوجية وواقعية وتقليدية كلاسيكية وخاصة فى الأجهزة التعليمية ولم تكن تلك التعددية بالشىء السىء. وقد دارت «المعارك» والمناظرات والحوارات الكثيرة. وكانت هناك تعددية فى الإنتاج الأدبى أيضا. وحينما جاء البنيوية فى الانتاج الأدبى أيضا. وحينما جاءت البنيوية من باريس بنزعتها الخلاصية العلمية، وشفراتها الكلية وجدت نغمة كبيرة فى عيون بعض الأكاديميين ، ولكنها لم تكن اتجاها سائدا. وبعد فترة قصيرة من دخولها المتحف مع النقد الجديد فى أوروبا وأمريكا لم يعد أحد من النقاد يتبناها تبنيا كاملا. وقد دار حوار «حاد» بين النقد الجديد والبنيوية وما بعدها بدأه عبد العزيز حمودة الذى لم يعد منغلقا داخل مسلمات النقد الجديد اللاهوتية. وقد ميز عبد العزيز حمودة بين الوصف اللغوى البنيوى والنوعية الأدبية والاستجابة الجمالية. وهو يرى أن النموذج اللغوى عاجز عن تحقيق المعنى. ولاشك فى أن البنيوية قدمت استبصارات عميقة فى فهم السرد

الروائى والقصصى وفى تحليل جانب من اللغة الشعرية، ولكن جانبها الشكلانى وجهازها المصطلحى وضع عوائق أمام النقد والقراء. وتتبع كتابات البنيويين «السابقين» تدلنا على أنهم جميعا يستخدمون اجراءات ذلك المنهج دون سجن للنص بين دفتى كتاب أو رفض لفاعليته الاجتماعية.

وطوال الصراع بين الاتجاهات النقدية المختلفة فى مصر حاول ممثلو المنهج الاجتماعى الإفادة من انجازات الشكلانية وإجراءاتها التحليلة، وخصصوا لها مشروعية جزئية يقومون بتعديلها وتحويلها داخل نطاق منهجهم الشامل، ومن ناحية مقابلة لم يرفض ممثلو الاتجاهات الشكلانية إقامة علاقات الدلالة بين النصوص الأدبية والواقع الاجتماعى والثقافى داخل الوظيفة الجمالية.

فالمشروع النقدى الأدبى، يتسع لنقد للحياة وللتجربة الإنسانية وللأذواق السائدة. وهو يدرس اللغة لا ككلمات محنطة فى قاموس أو تراكيب فى كتب النحو بل له وظيفة نقد اللغة الزائفة السائدة التى لم تعد اللغة اليومية البسيطة للناس فهى لغة يصنعها (كما يقول مؤلف كتاب موت الأدب ترجمة بدر الديب) مهندسو اللغة الجدد ومندوبو العلاقات العامة من الصحفيين فى وسائل الاتصال الجماهيرية والشخصيات التليفزيونية وصانعو النصوص الإعلامية، والبيروقراطيون ورجال التسويق والسياسيون لصب البشر فى قوالب جاهزة بمحض إرادتهم، وتقوم بتصنيع الواقع ليختار الناس أغلالهم بكل حرية، فالوقائع هى ما يظهر على شاشة التليفزيون وفى مانشتات الجرائد، والاحتياجات التى تخلقها هذه اللغة التى تتكلم فنيا ليست احتياجاتنا الحقيقية. هذه اللغة العمومية توحى بأن كل شىء يساند الأوضاع الراهنة فى العالم وهى جزء منه.


رشاد رشدى

مفاهيم وتصورات واستعارات

إن على النقاد والأدباء من جميع الاتجاهات أن يقوموا بدورهم فى تشكيل لغة أنقى للعشيرة، تنقذ التجربة المعاشة من قيود أن الأيديولوجية السائدة وتمكن البشر من أن يروا بأعينهم واقعهم الحقيقى بدلا من أن يستمدوا من صور وسائط الإعلام الجماهيرية دون وعى حسهم بالواقع وموقعهم فيه. ■

عبد القادر القط

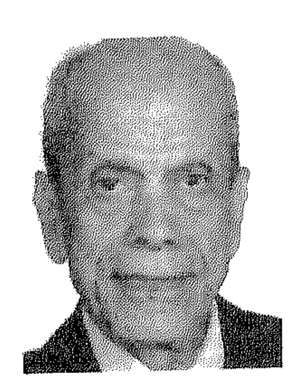
مشهد الخطاب النقدى

بقلم
د. صلاح فضل

يروق لى أن أستخدم كلمة المشهد بدلاً من الصورة في وصف الخطاب النقدى اليوم ، ربما لأن المشهد منظومة مركبة من الصور المتحركة فى الزمان والمكان ، لا يقتصر على اللقطة الثابتة المنفردة كما توحى الصورة ، وربما لأن كلمة المشهد تضمر معنى الشهادة والمشاهدة معا ، فهى تحتضن الفعل والفاعل ، ولا تزعم تلك الحيدة الآلية التي يدعيها فعل التصوير الخارجى .

كما أن إضافة المشهد إلى الخطاب ليس مجرد استدعاء لمصطلح رائج لم يفقد نضارته وجدّته ، بل لأنه يشير إلى جملة الممارسات النقدية وما يحف بها من سياقات واستراتيجيات ، تشمل المرسل والمخاطبين وأوضاع النص وحالات التلقى وملابساته العديدة . أما اليوم فأعنى به المسافة الزمنية الواقعة فى الربع الأخير من القرن العشرين ، هذا الفضاء الذى انبثقت فيه حركات النقد الحداثى وأثارت من التداعيات وموجات الإعجاب والاستنكار ما حرك مياه الفكر الأدبى المعاصر ، وغير وجه البحوث والدراسات فى الجامعات العربية ، وتسرب بمشقة إلى لغة الصحافة الأدبية ، لكنه تركز فى المقام الأول فى إنجاز كوكبة من النقاد العرب ، أصبحت لهم لغتهم المتميزة ، ورؤاهم الشاملة ، وفاعليتهم اللافتة .

أبرز اتجاهات الأمس



علي الراعى

ومع أننا نتحدث أساسا عن اليوم ، غير أنه لابد من إطلالة سريعة على الأمس الذى يضاهيه فى الطول والامتلاء ، مقتصرين على الأمس القريب فحسب ، أى منذ منتصف القرن حتى مطلع السبعينيات ، لنرصد بإيجاز مكثف أبرز اتجاهاته وأعلامه ، وهى تدور فى ثلاث دوائر متماسّة :

- النقد الاجتماعى الواقعى ، الماركسى حينا ، الوجودى حينا آخر ، الاشتراكى القومي فى معظم الحالات ، حيث يرتكز على مفهوم الالتزام ومنطق التطور التاريخى ، ويعنى بتوجيه الأدب لنقد الحياة والإسهام فى صياغة المستقبل الواعد لثقافة منتشية بانتصارها بقدر ما أصبحت موجوعة بانكساراتها ، ويمارسه نقاد محترفون لأول مرة ، لا يكتبون الأعمال الإبداعية ، من أمثال محمد مندور ولويس عوض ، ومحمود أمين العالم وحسين مروة وعلى الراعى وغيرهم .

- النقد الجامعى الذى يؤثر التركيز على ظواهر الأدب وجمالياته ويجرب المناهج النفسية فى تحليله ، مستفيدا من النقد الجديد في الغرب ومبشراً ببعض مبادئه ، ويمتد من رشاد رشدى ، ومدرسته « الإليوتية » إلى إحسان عباس وطريقته التوفيقية ، وغنيمى هلال فى رؤيته الموسوعية ، وعبدالقادر القط وهو يصوغ اتجاهه الوجدانى وعزالدين إسماعيل فى تجاربه الجمالية والنفسية الأولى ، ومصطفى ناصف فى مقارباته التأويلية المبكرة ، وغيرهم من هذا الجيل الوسيط .

- أما التيار الثالث فقد صنعه النقاد الصحفيون ، وهم يستقون منظوماتهم النظرية مما يفرزه أصحاب الاتجاهين السابقين ويكيفونها طبقا لمقتضيات السوق الأدبى بتحولاته السريعة ، ويمتلك بعضهم حضورا نقدياً فائقاً مثل أنور المعداوى ومن بعده جلال العشرى ورجاء النقاش

في ذروة تألقه المبكر ، عندما كان يملك عين الصقر فيكتشف كبار المبدعين ويقدمهم للحياة الأدبية مثل محمود درويش والطيب صالح وغيرهما .

ـ ولا يمكن أن يكتمل مشهد هذا الأمس القريب إلا بمجموعة من الخطوط السريعة في شكل ملاحظات أولية تتصل باستراتيجية النقد العربي عامة والسمات المميزة لإنتاج هذه الفترة بصفة خاصة ، حيث حافظ على التوازن بين حركة الواقع الأدبي وشبكة العلاقات التي تربطه بمصادره في الفكر والحياة على النحو التالي :

١ ـ اعتبار التفاعل الخلاق مع الواقع التاريخي الراهن والانتاج الابداعي الذي يعبر عنه العنصر المهيمن في وظيفة النقد الأدبي بحيث لا يقدم خطابا متجاوزاً ولا منفصماً ولا متعالياً ، حتى لدى أنصار الاتجاهات الجمالية التي تسعى لإعلاء شأن الجانب الفني في هذا الإبداع ذاته ، فالفكر الأدبي خطاب متوحد في الإبداع والنقد .

٢ ـ ممارسة التواصل الحقيقي مع المعطيات السائدة في النقد العالمي بكل ما تحمله من تيارات أيديولوجية وتطورات منهجية وتقنية دون أية حساسية ، فليس هناك تميز على مصدر دون آخر إلا بقدر ما ينصهر في البوتقة العربية ، وكلما امتلك أحد النقاد أدوات أفضل للمعرفة كان أقوى تأثيراً وأبرز حضوراً ، على ميل واضح لدى أبناء هذا الجيل ـ باستثناء الأكاديميين ـ إلى إخفاء عدتهم المنهجية وتذويب أسماء مصادرهم تيسيراً على القراء .

٣ ـ الاعتداد بمنطق الحياة الأدبية الطبيعي في تنمية الجذور القابلة للبعث من التراث النقدي دون وضعها في إطار مضاد لما تتمخض عنه التطورات الجديدة ، بل إن الوعي المحدث هو الذي يعين على اكتشاف الموروث وإعادة رؤيته في ضوء جديد ، سواء كان هذا الموروث عربياً أو عالمياً ، فكلمة « تراث الإنسانية » كانت تمتلك جاذبية خاصة يندرج فيها ما هو عربي بغيره دون شعور بالنقص أو العجز أو حاجة إلى التفرد والمطاولة .

زمن البنيوية وذريتها :

لم يصلنا من إرهاصات البنيوية التي كانت تتردد أصداؤها في الفكر اللغوي

والأدبى سوى النقد الجديد فى تركيزه على الجانب اللغوى للأدب ، والاقتصار على دراسة النصوص فى حد ذاتها بطريقة جمالية إبان نشوتنا بالأيديولوجيا وافتتاننا بالفكر الوجودى والاشتراكى معا ، وانعزالنا نسبياً عن إيقاع التحولات العالمية فى الخطاب النقدى بعد منتصف القرن ، مما جعل صدمة البنيوية قاسية على القارئ العربى الذى كان يستمرئ لذة اجترار المقولات الرائجة ، وضاعف من هذه الصدمة عدة عوامل من أبرزها:-

- حداثة المصطلحات البنيوية الجديدة، وكثافة مفاهيمها ، واعتمادها على ركائز علمية فى اللسانيات والأنثروبولوجيا والفلسفة الظاهراتية لم تكن مألوفة فى الخطاب العربى ، وتعدد الاجتهادات العربية فى ترجمتها وتبيئتها بين المشرق العربى الذى كان يحتكر إنتاج المعرفة النقدية والمغرب الذى تقدم ليحتل موقعه فى الخارطة الثقافية فى العقود الأخيرة .

- الفطام الذى شرعت البنيوية فى تطبيقه بصرامة على التيارات الأيديولوجية المهيمنة على التفكير العربى ، مما أحدث قطيعة قسرية مع الماضى القريب لم يستسغها غالبية أبناء الجيل السابق ، ولم يطيقوا نتائجها لأنها تمثل فصما لعلاقة الأدب بالمجتمع على مستوى التحضير المباشر لتصنع علاقة أخرى أكثر تعقيداً فى تثوير الفكر الأدبى على ذاته وتجديد خلاياه .

- انحسار موجات الأساتذة النقاد المتخرجين فى الجامعات الغربية ، خاصة فى المشرق العربى أيضا ، وضعف الصلة باللغات الأجنبية ، مما جعل أجيال الباحثين تعتمد على الترجمات الركيكة الوسيطة ، وتفقد القدرة على صناعة مادتها البحثية من الدرجة الأولى ، الأمر الذى أحال الكثيرين منهم ، باستثناءات فذة ، إلى باحثين ونقاد من الدرجة الثانية ، يخطفون المعرفة ويخلطونها بما لديهم ، ويدافعون عن عجزهم بادعاء التعالى والرفض ، وافتعال الصراعات بين الأنا والآخر ، مما يعد نبرة غير مسبوقة فى خطاب النقد الأدبى ، اقترنت بالتحولات الموجعة بعد انكسار المد القومى وتبدد حلم الوحدة وبروز الأصوليات الدينية التى تغذت من الإحباط ورفعت شعار العودة المستحيلة للوراء ، فى ظل هذه التغيرات

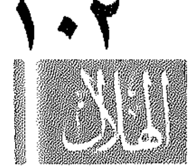


الجذرية فى المناخ الثقافى أصبح الفكر الأدبى بشقيه النقدى والإبداعى عرضة للتهميش والاتهام ، وساء ظن كثير من المثقفين فى صواب خياراتهم المنهجية باستثناء الطلائع التى تملك من المعرفة والبصيرة ما يجعلها فى موقف الريادة الفعلى.

على أن هذه الصفحة الجديدة فى الخطاب النقدى العربى فى اتساقها مع المنطق الذى يحكم حركته قد حققت عددا من المنجزات اللافتة بوسعنا أن نشير إلى أهم مرتكزاتها فى الجوانب التالية: ـ

– إعطاء الأولوية لإضاءة النصوص الأدبية فى ذاتها وتأمل آلياتها التقنية لاكتشاف وظائفها الجمالية فى المقام الأول، مما أدى إلى تحليل المستويات التعبيرية بكفاءة عالية لم تتوفر للنقاد من قبل ، ويكفى أن نراجع مثلا نقد طه حسين للشعر لنجده فقيرا فى إدراكه لطبيعة اللغة الشعرية وكيفية إنتاج الدلالة فيها، يعتمد على الملاحظات البلاغية القديمة دون أن يعثر على أدوات تحليل منهجية تسمح له باشباع ما كان يتوق إليه من شرح وتفسير للظواهر الفنية التى يحدس بأهميتها دون أن يقدر على إدراجها فى منظومة معرفية شاملة، وكذلك فيما يتصل بنقد مندور للمسرح مثلا حيث يجتهد فى التقاط الخيوط الدقيقة لنسيجه دون أن يعثر على منوال يبرز عبره كيفية التحامها ودرجة كثافتها، فجاءت البنيوية بنظرياتها فى الشعرية والسرد لتقدم أجهزة متطورة من الاجراءات والمفاهيم كفيلة بتحليل الأبنية الأدبية واضاءة شبكات تعالقها النصى وتفسير مدى كفاءتها فى توظيف التقنيات التعبيرية والفنية.. على أن ذلك لا ينتقص من قدر طه حسين ومندور بقدر ما يشير إلى مظاهر التقدم المنهجى فى النقد بعدهما، وقد كان لهما فضل التبشير به والدعوة إليه، ولو كانا قد أدركا عصر البنيوية لكانا من ألمع من يأخذ بمعطياتها ويكيفها ويتحمس فى الافادة الرشيدة منها جريا على منطقهما فى استيعاب منجزات العصر والاضافة الخلاقة إليها.

– ولعل أبرز منجزات البنيوية هى التقليص الصارم لهيمنة الاتجاهات الأيديولوجية على الابداع الأدبى الذى كان يخضع لسطوتها ولا ننسى بمناسبة



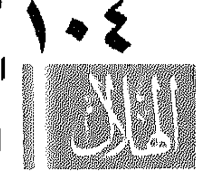
ذكر مندور انه بعد أن دعا للشعر المهموس لانقاذ الشعر العربى من الخطابية الجارفة التى أعلت نبراته العامة والخاصة انتهى إلى تبنى ما أسماه بالنقد الأيديولوجى الذى يضع رسالة الأدب فى المقام الأول مقياسا لجودته وأعنف من ذلك ما انتهت إليه التيارات الماركسية والوجودية فى اليسار العالمى، واتجاهات اليمين العربى من اعتبار الأدب مجرد دعاية ذكية لها تتوافق مع نظمها القيمية وكانت صدمة البنيوية فى تنمية هذه التيارات كلها بالاصرار على موت المؤلف ونزع الادب.. بشكل مؤقت عند التحليل من سياقاته الاجتماعية فى خطوة اشبه بعملية العزل التى تجرى عند تعقيم المريض عند إجراء عملية جراحية له - ضمانا لنظافتها من المؤثرات الخارجية قبل إعادة وصله بشرايين المجتمع مرة اخرى ليكتسب حيويته وفاعليته، ثم محاولة تلخيص نتائج هذا الفحص المجهرى لأبنيته بطريقة تستبعد ما كان جهيرا وخارجيا وعديم الأدبية فى كينونته.

- ومع أن كلمة «المنهج العلمى» كانت قد وظفت بكثرة لدى اصحاب التيارات الايديولوجية السابقة فى النقد الماركسى والاجتماعى والتاريخى والنفسى، غير أنها قد اكتسبت مع بداية الحركة البنيوية حتى الآن دلالة أكثر دقة وانتظاما ، حيث ارتبطت دراسة الادب بالفعل بمادته الأولية وهى اللغة، وأخذ النقد يوظف منجزات العلوم اللغوية فى تنمية مقولاته وصناعة تصوراته كما أخذ يوظف نتائج بعض البحوث التجريبية فى الذكاء الاصطناعى وعلوم النفس ليضىء آليات عمل الذاكرة وكيفية تخزينها للمعلومات ، خاصة تلك المعلومات الجمالية التى يرتكز عليها الأدب وكان التقدم الذى أحرزته مجموعة العلوم المتعلقة بالنسق المعرفى القريب من الأدب هى «بنك» المعلومات والمصطلحات التى أخذ النقد يوظفها فى حركة متنامية متراكمة ومع أن بعض النقاد قد أسرفوا على أنفسهم أحيانا فى تمثيل النتائج التى يصلون إليها فى جداول إحصائية ورسوم بيانية شارحة فإن ذلك قد اتخذ مادة للتنديد بهم والسخرية منهم ولم يكن قد لجأ إلى ذلك سوى بعض الشباب المفتونين بهذا الطابع الجديد للدقة العلمية دون امتلاك حقيقى

للوعي الفلسفي والقدرة التحليلية على قراءة الأرقام واستخلاص مؤشراتها ونتائجها في درس مادة مراوغة كثيرا ما كانت تتخذ لتبرير الشيء وضده في الآن ذاته.

كان هذا الطابع العلمي - المبالغ في قابليته للترجمة إلى نماذج رياضية - مصدرا لفضائح البنيوية عند صغار ممثليهـا لدى من لايزالون على ولائهم لمنطلقات المغالطة الأيديولوجية التقليدية، وبدلا من مطالبتهم بحسن توظيف الأشكال الرياضية والتعمق في شرح دلالتها وما يطرأ عليها من تغيرات وتعديلات حرصوا على اعتبار ذلك جريمة أدبية تقتل روح الشعر وتجافي طبيعة الأدب، وهم يخلطون عن سوء نية بين الأدب ودراسته، لأن منتج الأدب ذاته وهو الإنسان ليس أقل تعقيدا واستقصاء على الاختزال الرياضي ومع ذلك فإن مسعى العلم الانسان دائما هو تقديم صورة دقيقة عنه قادرة على احتواء المناطق المستعصية فيه للبحث والفهم والتمثيل البصري.

وقد أسفرت المناهج البنيوية في النقد العالمي والعربي معا، في حركة متناغمة ومتزامنة - عن أجيال منهجية جديدة التأمت مقولاتها النظرية لتدارك جوانب القصور لدى الأم، ثم أخذ ت تجرب اجراءاتها التطبيقية لتصحيح حركتها شأن التيارات العلمية الحية دائما بالافادة من الاتجاهات السابقة واللاحقة ، وكان من أبرزها النقد التفكيكي الذى عمد إلى خلخلة النظم الثابتة في الخطاب الفلسفي والأدبي وزرع التساؤل في صلبها وإثبات التأجيل الدائب للمعنى باستراتيجيات تحليلية تهدف إلى الكشف عن التناقض القائم وراء اليقينيات المزعومة، ومع كثرة من غمرتهم دوامة التفكيك لدينا واستخدموا بعض تقنياته فإن البحث العميق قد انتهى إلى ضيق هامشه في الثقافة العربية الى حد كبير وكان حظ الدراسات السيميولوجية في النقد العربي أكثر سعادة لكفاءتها في رصد الظواهر الثقافية في أطرها الشاملة عبر رصد منظومة العلامات التي تؤديها، وقد أثبتت فعاليتها الفائقة في اختراق الحواجز بين الاجناس الأدبية وإضاءة فنون المسرح والدراما التليفزيونية بربطها بما يتجانس



معها من إشارات ثقافية عامة، فاستطاعت تطوير المناهج الاجتماعية ووضعها فى خدمة النصوص المفتوحة للأدب، وربما كانت الممارسات النقدية «السيمائية » فى المغرب العربى مكافئة لما فعله النقاد المشارقة فى هذا الخصوص.

وربما كانت البحوث الأسلوبية التى طورت علوم البلاغة العربية القديمة واستخدمت منجزات اللسانيات الحديثة ومعطيات الحواسب الآلية لرصد شبكات العلاقات النصية وتحديد معالمها الاسلوبية بدقة توشك أن تحقق مفهوم «البصمة الاسلوبية» من أنجح ما نجم عن البحوث البنيوية فى الدراسات الادبية العربية ، بحيث اصبحت الرسائل الاكاديمية التى توظف الاسلوبية لبحث الادب القديم والحديث تمثل جسدا متناميا متراكما يعطى للمعرفة الجامعية خاصة إطارا ناظما فعالا. على أن تيارات القراءة والتأويل التى فتحت الباب واسعا لعودة لون من التاريخانية الجديدة، على أسس منهجية دقيقة قد استطاعت أن تلتقط علاقة النصوص بالقراء وآفاقهم المختلفة عبر المراحل العديدة، بما يجعل النقد يحتضن التأويل بدرجاته المختلفة، مطلقا حرية القارىء فى الفهم وحق النص فى الضبط وأفق الثقافة فى التوالد باتساق حقيقى يثرى الفكر الأدبى فى جملته.

وإذا كانت هذه فى تقديرى حركة المشهد النقدى اليوم فإن وضع النقاد المختلفين فى مشروعاتهم وإمكاناتهم وطاقاتهم على هامشها أو فى بؤرتها الجامعة يتطلب بحثا إشكاليا آخر يعكف على إنجازه شبان متخصصون فى الجامعات العربية من منظورهم العلمى، وأحسب أن طيف الناقد المعاصر لابد أن يكون قد أطل على بعض مناطق هذا المشهد بحركة بطيئة أو سريعة، ليركب على خلفيته صورته الخاصة، ويشكل مزاجه ومسعاه دون أن يلتصق بأحد جوانبه . كل ما أريد أن أؤكده هو أنهم جميعا لم ينحرفوا عن منطق الأجيال السابقة عليهم ولم يقصروا فى صياغة مشروعاتهم فى عمليات تركيبية متطورة جسدت عطاءهم المتميز والمتفاوت وأمدت الخطاب النقدى المعاصر بحيويته ونضرته وإشكالياته الساخنة. ■

النقد الأدبى وحاضره الراهن فى الغرب

بقلم
د. صبرى حافظ

يشكو الواقع الثقافي عندنا من أزمة نقدية خانقة، وهي في حقيقة الأمر أزمة معرفية وأزمة تعبيرية في المحل الأول. أزمة معرفية لأنها تسفر عن نقص معيب في المعرفة بما يدور في النقد الغربي، وتقاعس عن محاورة انجازاته بندية وبشكل خلاق. وأزمة تعبيرية لأن النقد يزدهر في مناخ الحرية الكاملة، والمناخ العربي مناخ يعاني من القهر والهوان والتبعية، ويفتقر للمشروع القومي الذي يحدد أولويات الثقافة ويدير حواراتها وفق هذه الأولويات. وإذا ما اجتمع نقص المعرفة مع انتفاء الحرية بالمعني العميق لهذا المصطلح كان من الطبيعي أن يحس الجميع بالأزمة النقدية. لأن الفكر النقدي لايقتصر تأثيره علي مجالات تطبيقه المحدودة في الآداب والفنون، وإنما يمتد إلي تكوين العقل النقدي الخلاق القادر علي التعامل بشكل نقدي حر مع كل قضايا الواقع ومشاغله. بدلا من العقل القطيعي أو السلفي أو الذرائعي الذي يرتع في الساحة العربية في غياب العقل النقدي.

ولأن الواقع يكره الفراغ، ولذلك فإن غياب النقد الحقيقى سرعان ما يخلق فراغا يملأه النقد الشائه أو الزائف، والذى يحمل فى جميع قسماته ميسم العجز، وفكر الأزمة، ومعالم غياب المعرفة الحقة. ومن يقرأ ما تنشره الصحف المصرية بين الحين والآخر باعتباره نقدا يدرك حقيقة الأزمة التى تتجلى فى سيادة تلك اللغة العمياء كما يسميها الراحل الكبير غسان كنفانى. فقد

أعلن غسان كنفانى قبل أكثر من ثلاثين عاما فى محاضرة بعنوان «أفكار عن التغيير واللغة العمياء» ألقاها فى بيروت عام ١٩٦٨.

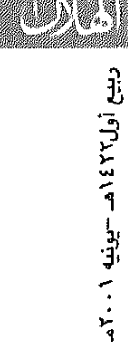
يقول غسان كنفانى: «لقد ولدت فى المنطقة خلال السنوات العشر الماضية ما نستطيع أن نسميه لغة عمياء. وليس ثمة شيء يستخدم فى حياتنا اليومية أكثر من هذه اللغة العمياء. لقد باتت الكلمات التى لاقيمة لها إلا إذا كانت معبرة، لاتعنى شيئا على وجه التحديد. إن التعريف لم يعد موجودا. وبات لكل كاتب قاموسه الخاص،، يستعمل كلماته على ضوء فهمه الخاص لها. وهو فهم غير متفق عليه، ولذلك فهى لاتعنى شيئا. ... يبدو أننا فى حاجة ماسة إلى إعادة القيمة للكلمات، كتعاريف محددة تعنى شيئا متفقا عليه. وهى خطوة كانت لازمة لجميع شعوب العالم فى أواخر القرن التاسع عشر وهى على عتبة انطلاقها نحو العصر».(١) ويربط غسان كنفانى هذه اللغة التطريبية العمياء بالهزيمة والعجز وسوء القصد. فقد «صار بالوسع أن يستخدم إنسان ما اللغة ليستر عجزه، أو ليخفى مقصده. وصار بين أيدينا الآن تراث من اللغة العمياء التى أفقدت الحوار قيمته الفعلية، ومن الممكن أن تستخدم لأغراض متناقضة فى وقت واحد. إن الاختباء وراء غموض الكلمات هو سلاح أساسى للذى يشعر بعجزه عن تحقيق هدفه. أو الذى لا هدف على التحديد لديه». فالكلمات العاطلة من الدلالة ليست مجرد كلمات زائدة عن الحاجة فحسب، ولكنها أساسا وفى الوقت نفسه أدوات لتمسييع الرؤية

فريدريك نيتشه

وطمس الحقيقة وتكريس العجز.

نقد باللغة العمياء

غير أن أهم إضافات غسان كنفانى فى هذا المجال هو ربط هذه اللغة العمياء بفكر أعمى مثلها، يسميه بـ «الفكر الغنائى» الذى يستبدل الوضوح بالتغنى، ويرشو غياب الهدف بالكلمات الطنانة التى ترضى الشاعرية الموجودة فى أعماق كل منا دون أن تزيد فى رؤياه. إن هذه اللغة العمياء قد تكون فى نهاية التحليل مبعث اطمئنان أولئك الذين يخشون التغيير». هذا الفكر الأعمى هو الذى يكشف لنا مدى تجذر الأزمة المعرفية فى الواقع العربى، ومدى تفشى تجلياتها الفكرية فى شتى مناحى حياتنا حتى اليوم. فما ينشر فى كثير من صحفنا باسم النقد لاعلاقة له من قريب أو بعيد بالنقد. قد تكون له علاقة بتبادل المنافع، والمجاملات، وفى أحسن الأحوال بالتلخيصات المدرسية المتحذلقة للنصوص الأدبية، ولكن علاقته بالنقد الأدبى بالمعنى المعروف فى الغرب منذ أرسطو وحتى اليوم واهية إلى أقصى حد. ليس فقط لأن هذا النقد ينم عن نقص فاضح فى المعرفة بما يدور فى مجال عمله وهو النقد الأدبى، ولكن أيضا لأن أغلب

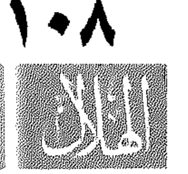


هذا النقد مكتوب بتلك اللغة التى يسميها غسان كنفانى باللغة العمياء، وينطوى بسبب ذلك على فكر أعمى مثلها. وكلما قارنت ما أقرأه فى الصحف والدوريات المصرية والعربية من نقد، بما أقرأه فى الصحف والدوريات الانجليزية من نقد أدركت مدى عمق الازمة التى يعيشها النقد الأدبى عندنا.

ثراء النقد فى الغرب

فأنت تقرأ المقال النقدى فى الصحيفة العامة أو الدورية المتخصصة فى اللغة الانجليزية فتدرك أول ما تدرك ثراء هذا النقد المعرفى. لأنه لايزيد معلوماتك فى الموضوع المطروح فحسب، ولكنه يرهف باستمرار عقلك النقدى إزاءه. أما إذا قرأت مقالا نقديا فى أى صحيفة مصرية أو عربية فستفاجأ بغياب أبسط المعلومات الضرورية لموضوعه، ناهيك عن العقل النقدى الفاعل في المقال كله. وقد يكون الكاتب معذورا فى كثير من الحالات، لغياب الموسوعات التى تؤسس للمعرفة وتوفرها، وتمكن الكاتب من الحصول على تواريخ ميلاد الكتاب ووفاتهم وتواريخ طبع كتبهم، وما رافق ظهورها من سياقات وأحداث بمجرد استشارتها، وتمكنه من تمحيص المعلومات الواردة فى الكتاب لنقود والتأكد من صحتها. فالثقافة العربية تعانى من غياب هذه الموسوعات وهى جميعها من أدوات الثقافة الثقيلة، جريا على التمييز فى الصناعة بين الصناعات الثقيلة والخفيفة. فثقافتنا تعانى من غياب مصادر الثقافة الثقيلة الحية فيها، بالرغم من أنها الثقافة التى اخترعت القواميس والموسوعات فى عصورها الزاهرة. وقد يتعلل الناقد بغياب أدوات الثقافة الثقيلة تلك، ولكن مسئوليته تظل فادحة فى أغلب الحالات لأن ما يتوفر له من معلومات بسيطة لايوفرها لقارئه، ولا يشعر بأنه مسؤول أزاءه. لأن معظم الكتابات النقدية تغيب فى طوايا تلك اللغة العمياء ولا يوفر كاتبها لقارئه أبسط المعارف التى يتطلبها من موضوعه. فكثيرا ما قرأت عن كتب دون أن يقدم لى ناقدها أبسط المعلومات عنها، عنوان الكتاب، وموقعه من انتاج مؤلفه، ومكانه فى المشهد الثقافى، وفى مسيرة الجنس الأدبى الذى ينتمى إليه. ناهيك عن من نشره، وثمن الكتاب وكيف تعثر عليه إن أردت الحصول عليه، وغير ذلك من المعلومات البسيطة والبديهية والتى يوفرها أى ناقد انجليزى لقارئه فى أى صحيفة أو دورية أسبوعية أو شهرية، ويوفر معها كذلك ثمن الكتاب وعدد صفحاته فى هامش أساسى فى نهاية كل مقال نقدى.

فقد اعتاد الناقد، حتى فى أكثر الصحف الانجليزية ضحالة وشعبية ــــ ولكل صحيفة انجليزية ناقدها الأدبى، وناقدها المسرحى، وناقدها الموسيقى، وناقدها التشكيلى، وناقدها الأوبرالى، وناقدها التليفزيونى، ومراجعوا الكتب بها ــــ على توفير هذه المعلومات البسيطة والأساسية لقارئه قبل تقديم أى رأى نقدى متخصص له. أما الدوريات المتخصصه فلكل منها فريق كامل للعمل فى هذه المجالات الأدبية والفنية المختلفة. لايقدم للقارئ خدمة جليلة فى مجالات تخصص كل منهم فحسب، ولكن يعمل على أن تظل ذاكرته الثقافية والتاريخية حية ومتقدة



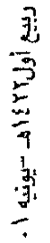
باستمرار، حتى يشكل القارئ قوة من قوى المراقبة على مستوى الأداء النقدى. لأن القارئ الذى يعانى من فقدان الذاكرة . وواقعنا العربى كله يعانى من فقدان الذاكرة التاريخية منها والثقافية ــ لا يستطيع أن يقرأ قراءة نقدية تمحص ما تقرأ وتحكم عليه. ويقظة الذاكرة هى الأساس ليقظة الشعوب ولتطورها، فلانهضة لأى شعب يعانى من فقدان ذاكرته، تماما كما لايمكن لنا أن نتصور أن يتقدم فرد يعانى من الجهل وفقدان الذاكرة. لأنه لن يستطيع التمييز بين العدو والصديق، أو بين ما ينفعه وما يضره.

ولأن النقد فى الدوريات والمجلات المتخصصة على درجة عالية من الرقى، فإنه فى أكثر الصحف الشعبية ضحالة يتسم بالدقة والوضوح كذلك، ولا يستطيع النزول عن حد معين من الجدية واحترام المعرفة والقارىء. لأن هناك دائما فى كل ثقافة من الثقافات مسافة معينة بين أرقى ما تقدمه فى مجال من المجالات وأقل ما تقدمه جودة. فالمسافة بين السطح والقاع تحافظ دائما على نفسها. فكلما ارتفع مستوى أرقى ما تقدمه هذه الثقافة فى ميدان من الميادين كلما رفع معها أقل المستويات جودة فيه، بمعنى أنه كلما ارتفع السطح كلما شد معه القاع، لأنه لايمكن النزول عن حد معين. ولأن المسافة بين السطح والقاع فى الثقافة تحافظ على نفسها فى أغلب الأحيان إن لم تضق كلما ارتفع السطح وازدهى. أما إذا ما هبط السطح ــــ كما هو الحال فى واقعنا المصرى ــــ فإن القاع لايهبط فحسب إلى الحضيض، بل ترتع معه فى غياب الذاكرتين الثقافية والتاريخية ــــ السلفية والخرافة والفكر المتخلف، ويتبنى بسهولة تصورات أعدائه ومفاهيمهم كذلك. وهذا هو السر مثلا فى أن الثقافة الانجليزية تنفق بسخاء من أموال الدولة على عدد من أرقى المسارح البريطانية برغم نجاح هذه المسارح الجماهيرى، لأن هذا هو سبيلها للحفاظ على رقى المسرح التجارى نفسه، والذى لايستطيع أن ينزل عن مستوى معين مادام هناك هذا المسرح الراقى الذى يقدمه المسرح القومى أو فرقة شكسبير الملكية. فإذا كان أرقى منبر ثقافى عندنا يتسم بالتخبط وتسود فيه اللغة العمياء، فلا يمكن أن ننتظر من أكثر المنابر ضحالة ألا يتورع عن الإسفاف والابتذال.

ثورة معرفية كاسحة

وحتى ندرك سر هذا الرقى فى تناول النقد لمختلف الفنون فى الصحافة والدوريات الأسبوعية الانجليزية، لابد لنا من معرفة الميراث النقدى المتخصص الذى تنهل منه، والذى يمنعها عمقه الفكرى من التردى إلى ما يتردى إليه النقد العربى عندنا من ضحالة وشللية ومجاملات وتبادل للمنافع. لأن ما انتاب النقد الأدبى فى القرن العشرين ليس أقل من ثورة معرفية كاسحة وغير مسبوقة، ولايمكن استيعابها فى مقال قصير من هذا النوع. فما أضافه هذا القرن إلى النقد الأدبى يعادل ما أنجزه النقد الأدبى منذ أرسطو وحتى نهاية القرن التاسع عشر مع استقصاءات سانت بيف وهيبوليت تين الفرنسية، إن لم يفقه. فقد بدأ هذا القرن





بمغامرة الشكليين الروس الشيقة، وما نجم عنها من استقصاء فيكتور شكلوفسكى، وفلاديمير بروب وميخائيل باختين اللامعة، وهى استقصاءات أسست دراسة الأدب على أسس أدبية خالصة، بعدما كان كل من الدراسات النقدية وعمليات التحقيب الأدبية تعتمد على منجزات العلوم الأخرى، سواء منها الطبيعية أو الاجتماعية. واهتمت بمعرفة ما يجعل نصا من النصوص أدبيا بينما لا يستحق نص آخر هذه الصفة، أى بما دعوه بأدبية الأدب. وأسست هذه الأدبية على قاعدة من التحليل الهيكلى واللغوى للأدب، وليس على قواعد مستقاة من علم النفس أو الاجتماع أو غيرهما. كما طور الشكليون الروس واحدة من أهم الإضافات النقدية فى مجال تحليل النص السردى والحكايات الشعبية على السواء. وهى التفرقة المهمة بين ما دعوه بالـ fabula أى الحكاية التى يرويها أى نص سردى فى ترتيب أحداثها التاريخى والـ sjuzhet أى العرض السردى لهذه الحكاية. وبترتيب لايخضع غالبا لتسلسل وقوع أحداثها التاريخى، ولا يمنح التفاصيل المختلفة للحكاية فى سرده لها ثقلا متساويا مع ثقل هذه التفاصيل خارج السرد. بمعنى أن النص قد يخصص فقرة لأحداث استغرقت أعواما، بينما يخصص صفحات طويلة لأحداث لم تستغرق إلا دقائق أو ساعات. ومن خلال وعى الناقد بالجدل المستمر بين الحكاية والسرد يفك شفرات النص ويتعرف على دلالاته ورؤاه.

لكن أبرز إنجازات هذه المرحلة النقدية الباكرة من القرن العشرين قاطبة هى أعمال الناقد الكبير ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥)، والتى تشكل وحدها ثورة نقدية عارمة. فقد أسس باختين إنجازه النقدى على قاعدة صلبة من نظرية اللغة أولا فى كتابه المهم (الماركسية وفلسفة اللغة). ثم دخل بعده فى حوار نقدى خلاق مع أفكار التشكليين الروس ورؤاهم، ودحض الكثير من أفكارهم الأساسية، مؤسسا من خلال هذا النقد تصورا جديدا للغة يختلف كثيرا عن تصور الشكليين، وعن تصور البنيويين فيما بعد، لأنه تصور لايفصل اللغة عن سياقها ولا عن الخطاب الذى تنتجه. وهذا التصور الحوارى للغه والذى بلوره باختين فى دراسته المهمة (شعرية ديستويفسكى) يعتمد على ازدواجية الصوت وحوارية الكلمة. وهو التصور الذى دخل به إلى ساحة الرواية فغير نقدها إلى الأبد. فلايمكن اليوم لأى نقد للرواية يستحق هذا المصطلح أن يتعامل مع النص الروائى دون الوعى بحواريته التى صاغها باختين فى دراساته اللامعة عن (الرواية والملحمة) وعن (الخيال الحوارى). فقد غيرت هذه الدراسات تصور النقد للرواية، ودخلت بها إلى مرحلة من النضج والعمق غير مسبوقتين.

نقد المسرح

ثم امتدت تأثيرات هذه المغامرة الروسية الكبيرة بفرعها الشكلى لا الباختينى إلى براغ ومدرستها المرموقة التى برز منها يان موكاروفسكى(١٨٩١-١٩٧٥) ورومان ياكوبسون(١٨٩٦-١٩٨٢). فطور ماكاروفيسكى الأساس الإشارى المزدوج للتعامل مع المنتج

الثقافي كعلامة أو بالأحرى بنية متشابكة من العلامات. لها استقلالها النسبي وفعالياتها داخل العمل الفني من ناحية، ولكنها تتعرض أثناء عمليات التوصيل والتأويل لعدد من التحويرات المهمة التي لايمكن التغاضي عنها في التعامل مع العمل الفني. واستطاع مكاروفيسكي بذلك الأساس الإشاري المكثف تطوير نقد المسرح والعلامة المسرحية بطريقة بدأ بها العرض المسرحي يحتل مكانة مرموقة في نقد المسرح بعدما كان هذا النقد قاصرا في الماضي على النص المسرحي وحده. كما طور من خلال هذا النقد جماليات جديدة للمسرح لايزال تأثيرها فاعلا في نقد المسرح حتى اليوم. أما ياكوبسون فقد أصبح أبرز أعلام مدرستي الشكليين الروس وبراغ في الغرب بسبب دراساته اللغوية، واستقصاءاته المهمة عن عمل اللغة وآليات عملية التوصيل من ناحية، وتطبيق هذا كله على نقد الشعر من ناحية أخرى. بصورة أصبح معها أحد مؤسسي المقترب البنيوي في نقد الشعر فيما بعد.

وترافق هذا كله مع إنجازات تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) الأمريكي وفرديناند دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) السويسري، ولوي هيلمسليف (١٨٩٩-١٩٦٥) النرويجي اللغوية، وما ترتب عليها من مناهج نقدية وإضاءات لامعة لكيفية عمل اللغة في النص الأدبي. وهي إنجازات تحتاج إلى وقفة إزاءها لأنها غيرت النقد الأدبي، ونتج عنها عدد من المقتربات المهمة من البنيوية وحتى التفكيكية. وقد ترافقت هذه الاجتهادات الثلاثة بمعزل عن بعضها البعض برغم اقتراب نتائجها من بعضها البعض. فقد غير هؤلاء اللغويين الثلاثة طبيعة دراسة اللغة، فتغير مع ذلك فهمنا لها، ولدورها في عملية التوصيل والفهم. إذ يعد بيرس المؤسس الأول لعلم الإشاريات أو دراسة العلامات وواضع حجر الأساس للبنية الثلاثية للعلامة (إشارة، مشار إليه، دلالة)، وهو الأمر الذي سيتوصل إليه السويسري دي سوسير بعد ذلك بسنوات دون معرفة بإنجازات بيرس الأمريكي. لأنه بدأ دراسته للغة بهذا الجانب الإشاري فيها، وتنبأ عام ١٨٦٧ بتأثير الإشارية المحتمل على دراسة الآداب والفنون والقانون، وهي كلها مجالات سرعان ما استفادت منها فيما بعد. واستطاع التمييز بين مجالات مختلفة للإشارة: مجالها الإيقوني، ومجالها التصنيفي، ومجالها الرمزي مما ساهم في إرساء علم الإشاريات، أو السيميولوجيا كما يحلو للبعض، وتعميق مفاهيمه فيما بعد على يدي سوسير وهلمسليف.

تجديد الثقافة الغربية

وقد ترافق تأسيس هذه القاعدة اللغوية لعملية الاتصال في علم كامل هو علم الإشاريات مع بزوغ مدرسة النقد الأدبي الجديد في الولايات المتحدة والتي بدأت بإليوت وريتشاردز واستمرت مع ألان تيت ورانسوم وحتى كلينيث بروكس ونورثروب فراي. وقد كرست هذه الاستقصاءات النقدية جميعا، على اختلاف مقترباتها وتكامل هذه المقتربات معا مجموعة من الأدوات النقدية المرهفة للتعامل مع النصوص الأدبية باعتبارها منتجات لغوية في المحل الأول لابد من فك

شفرات عمليات توليدها للمعنى وتوصيله قبل الحديث عن أى شيء آخر خارج العمل الأدبى. وكان هذا كله يدور بموازاة تبلور نقد أدبى يستلهم نظرية ماركس المادية الجدلية فى الاقتصاد السياسى والمجتمع من ناحية، وآخر يستلهم استقصاءات فرويد فى التحليل النفسى وتطبيقها على الأدب من ناحية أخرى، وثالث يستلهم الوجودية فى تأويلاتها الجدلية مع سارتر وكامى أو الظاهراتية مع ميرلو بونتى من ناحية ثالثة. وما أن انتصف القرن حتى اندلعت عملية تجديد واسعة فى شتى مناحى الثقافة الغربية، بدأتها البنيوية الفرنسية معتمدة على سيميولوجيا ياكوبسون وجريماس، وإضافات تشوميسكى وبينڤينيست اللغوية المهمة، وتحليلات ليڤي ستراوس الأنثروبولوجية، واستقصاءات لاكان النفسية، وكتابات بروديل التاريخية أو بالأحرى الحضارية الشاملة. وبلغت هذه البنيوية ذروتها الأدبية فى إبداع رولان بارت النقدى اللامع وأعمال تلاميذه الموهوبين من جيرار جينيت إلى تزيڤتان تودوروف وجوليا كريستيڤا. وأثرت هذه البنيوية استقصاءات مابعد البنيوية، وما انطلق من رد فعل عليها على ثلاث محاور مختلفة: أولها محور ميشيل فوكو وأركيولوجيا المعرفة عنده والتى يدين فى الكثير منها إلى أستاذه جورج كانجوييم الأقل شهرة من تلميذه، ولكنه لايقل أهمية عنه بأى حال من الأحوال. وثانيها محور جاك ديريدا وإيمانيويل لاڤيناس ونظرية التفكيك التى أثرتها استقصاءات ديلوز الفلسفية الشيقة، وثالثها وأهمها جميعا فى اعتقادى هو محور بيير بورديو ونظريته عن مجال الانتاج الثقافى المعرفى المترع بشبكة بالغة التعقيد من علاقات القوى الرمزية والعنف الرمزى. وإذا كان المحور الأول يستمد إلهامه الفكرى من المفكر الإيطالى الكبير جيامباتيستا ڤيكو وكتابه (العلم الجديد) الذى نشر عام ١٧٤٤، بينما يستمد المحور الثانى إلهامه الفكرى من الفيلسوفين الألمانيين فريدريك نيتشه ومارتن هايديجر، فإن محور بورديو الثالث هو أكثر هذه المحاور استيعابا لأفضل ما فى البنيوية ومزاوجته مع أفضل ما فى الماركسية فى مزيج فكرى جديد بالغ العمق والحصافة.

وكان كل هذا يدور فى فرنسا فى موازاة موجة من الاستقصاءات الماركسية الشيقة التى بدأت قبل ذلك بالطبع مع جورج لوكاتش فى المجر وتلميذه النجيب لوسيان جولدمان وبنيويته التكوينية التى وضعت أسسا جديدة لعلم اجتماع الرواية، طوره بيير ماشارى فى نظريته المهمة عن الإنتاج الأدبى. وتطورت هذه الاستقصاءات كذلك مع لوى ألتوسير وألان تورين فى فرنسا، وڤالتر بنيامين وتيودور أدورنو ومدرسة فرانكفورت فى ألمانيا، وإرنستو لالكلو فى الأرجنتين، وفريدريك جيمسون فى أمريكا، وتيرى إيجيلتون فى بريطانيا، وإعجاز أحمد فى الهند. وموجة أخرى من الاستقصاءات التفكيكية الأمريكية عرفت باسم مدرسة ييل التى كان أبرز نقادها بول دى مان وهارولد بلوم وهيليس ميلر. وموجة ثالثة من النقد النسوى الذى انحدرت أغلب استقصاءاته من عباءة سيمون دي بوڤوار



وجنسها الثاني الفكرية. وهي العباءة التي خرج منها الجيل الأول من منظرى الفكر النسوى من الأسترالية جيرمين جرير، وحتى الأمريكيتين كيت ميليت ومارى إلمان. ثم أخذت تلك النزعة النسوية في النقد الأدبى عدة مناحي تحليلية وفكرية مختلفة مع جوليا كريستسڤا وكاثرين كليما وهيلين سيكسوس ولوس إريجارى في فرنسا، وإيلين شووالتر وباربرا جونسون في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوريل موى في النرويج، وساندرا جيلبرت وسوزان جوبار وكارول بيتمان في بريطانيا، وغيرهن.

إضافات إدوار سعيد

ولايمكن أن يكتمل الحديث عن ثورة النقد الأدبى في القرن العشرين دون الإشارة إلى آخر الإنجازات النقدية الكبيرة في هذا القرن، والتى يعتبرها البعض من أهمها جميعا، ألا وهى إضافات الناقد العربى الأمريكى الكبير إدوار سعيد. وما نجم عنها من تشكل تيارين نقديين جديدين: أولهما هو تيار نقد مابعد الاستعمار، وهو التيار الذى يمد جذوره في كتابات فرانز فانون والذى أخذ ينتشر انتشارا واسعا في حقل الدراسات النقدية والأدبية في العالم الناطق بالإنجليزية خاصة، وأنجب حتى الآن عددا من الأعلام المرموقين من هومى بابا وجياترى سبيڤاك إلى بينيتا بارى ونيل لازاراس. وثانيهما هو تيار النقد الثقافى الذى يمزج إنجازات إدوار سعيد بإنجازات الناقد الانجليزى الشهير رايموند وليامز، والذى برز فيه عدد غير قليل من النقاد المعاصرين من ستيوارت هول وسايمون دورنج حتى فرانكو موريتى وإدوارد سوجا وبيتر بيرجر. وبالإضافة إلى إنجاز سعيد الكبير الذى أصبحت له الغلبة في حقل النقد الأدبى في الجامعات الغربية الآن، لابد ألا ننسى مدرسة القراءة والتلقى الألمانية والتى ركزت على استجابة القارئ، وعلى أفق التلقى وتوقعاته. وكان من أبرز أعلامها ومؤسسيها هانز روبرت ياويس وولفجانج إيسر في ألمانيا ثم أصبح لها مؤيدوها ومريدوها في الولايات المتحدة مثل ستانلى فيش ومايكل ريفاتير ونورمان هولاند، وسويسرا جورج بوليه وبريطانيا جين تومكينز وديفيد بليتش ووالتر ووكر. وتيار نقدى آخر يستمد مرجعيته الفلسفية من أعمال هانز جورج جادامر هو التيار التأويلى الهرمنيوطيقى وأبرز نقاده هما الفرنسيان جاستون باشلار وبول ريكور.

هذه الثورة النقدية الضخمة لايمكن الإحاطة بإنجازاتها في كتاب واحد، ناهيك عن مقال قصير مثل هذا هى التى تؤسس السقف النقدى الغربى المتميز بطريقة لاتسمح بأن ينحدر القاع إلى ما يدور عندنا من إسفاف نقدى. ومن الممكن أن نعود إلى تفاصيل هذه الثورة أو إلى جوانب من استقصاءاتها المهمة في مقالات قادمة حتى يستفيد النقد العربى معرفيا مما يدور فيها على الأقل.

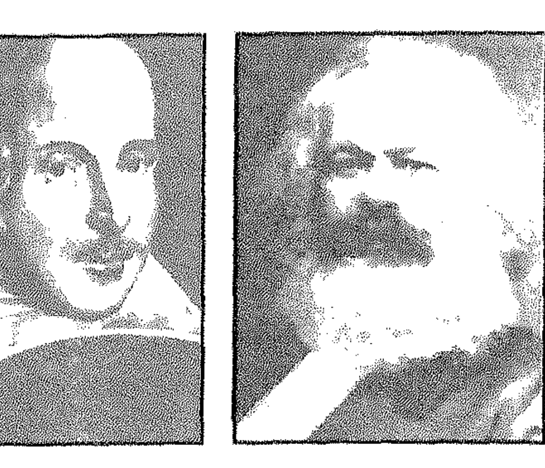
هامش

(١) وهى محاضرة ألقيت في ١١ آذار (مارس) ١٩٦٨ ضمن سلسلة محاضرات لمناقشة هزيمة ١٩٦٧، ثم نشرت بعد أكثر من عشرين عاما في مجلة (الهدف) العدد ٩١٩ في ١٧ يوليو ١٩٨٨، ص ٤٦-٤٩، والعدد ٩٢٠ في ٢٤ يوليو ١٩٨٨، ص ٤٣-٤٥. ويود كاتب هذا المقال أن يشكر الصديقة الدكتورة فريال غزول التى لفتت نظره إلى هذا المقال المهم. ■

النقد
بين الالتزام السياسى واستقلال الفن

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

منذ ارتأى أفلاطون - وهو الشاعر العظيم صاحب أمثولة الكهف، وأستاذ النثر اليونانى الذى لايبارى - أن يطرد الشعراء من جمهوريته، لما لهم من أثر ضار فى معنويات الشباب وصلابته، ومنذ رأى أرسطو فى «فن الشعر» أن للمأساة وظيفة سيكولوچية أساسا، تتمثل فى تطهير مشاعر النظارة من خلال انفعالى الخوف والشفقة، ومنذ ذهب هوراس فى رسالته التى تحمل الاسم نفسه إلى أن وظيفة الفن هى الامتاع والإرشاد معا - منذ ذلك كله تبلورت مسألة من أخطر مسائل فلسفة النقد الأدبى، وأكثرها استحواذا على عقول الباحثين عبر العصور، وهذه المسألة : هى أيكون المرجع فى الحكم الأدبى هو العمل الفنى فى ذاته مستقلا عن أى اعتبارات أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية، أم أن للفنان رسالة نحو مجتمعه تتمثل فى تطويره وإزالة مساوئه والرقى بإنسانيته، ومن ثم لا يمكن للنقد - فى إصداره حكما على العمل الأدبى - أن يقتصر على جوانبه الفنية وحدها ؟ أو فلنقل - بلغة أقرب إلى رطانة عصرها - هل النقد ملتزم سياسياً (بأوسع معانى كلمة السياسة) أم أنه يدعو إلى استقلال الفن عن كل الاعتبارات الخارجية ؟.



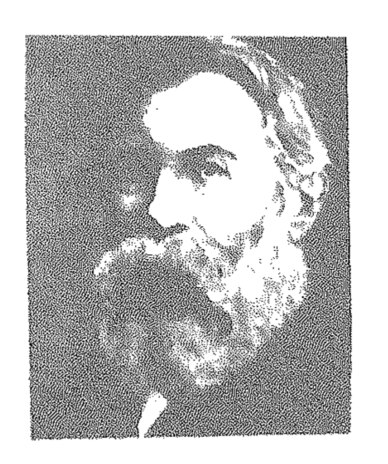
كارل ماركس — شكسبير

● النقد الماركسى يبصر بأصول العمل وعلاقته بمجتمعه ورؤيته للعالم
● النقد الجديد يزيدنا علما بجماليات العمل بناء ونسيجا ، معماره الفنى ونسيجه اللغوى

بين هذين القطبين المتقابلين - وبينهما درجات كثيرة من اللون الرمادى ومحاولات التوفيق والمصالحة - ظل البندول النقدى يتأرجح مائلاً حينا إلى هذا الجانب وحينا إلى الجانب الآخر. ويمكن أن نرى أبلغ تمثيل للموقف الأول - موقف الالتزام - فى النقد الماركسى ، بينما نرى أحر دفاع عن استقلالية الفن فى النقد الأنجلو - أمريكى الجديد (وهو شديد الاختلاف عن «النقد الجديد» فى فرنسا). وعلى هذين المحورين، وما شب بينهما من خلاف فى الرأى وتباين فى التوجه نظرا وتطبيقا، يدور مقالنا .

النقد الماركسي

لنبدأ بالنقد الماركسى لأنه الأسبق زمنيا، ولأنه كان - حتى عهد قريب - أعمق أثرا إذ ساد الاتحاد السوفييتى والصين ودول الكتلة الشرقية (تبنى الاتحاد السوفييتى ، تحت ستالين ، مذهب الواقعية الاشتراكية منذ ١٩٣٤ : انظر مقالة غالى شكرى الكلاسيكية : «ودعنا ردانوف إلى غير رجعة»). ذهب ستالين إلى أن الأدباء هم مهندسو النفس البشرية، وردّ جورجى بليخانوف النقد الماركسى فى الاتحاد السوفييتى. وعلى نحو مسقبل ذهب تروتسكى - وهو مثقف عالى الذكاء أقرب إلى الطراز الأوربى الغربى، وإن كان لايقل دموية عن خصمه الجورجى الجلف - فى كتاب «الأدب والثورة» (١٩٢٤) إلى أن وظيفة الأدباء



إنجلز

هى رفع لواء الثورة البروليتارية الدائمة ، وإقامة المجتمع اللاطبقى بعد أن يستنفد جهاز الدولة أغراضه ويذبل تلقائياً .

كان الناقد الروسى بلنسكى قد سبق، فى القرن التاسع عشر ، إلى إبراز الوظيفة الاجتماعية للأدب، ولكن هذه الوظيفة لم تتبلور إلا على يدى ماركس وانجلز . كان ماركس – فى مرحلته الباكرة على الأقل – مثقفاً هيومانيا رضع لبان الثقافة الغربية فى أصولها : هوميروس واسخولوس وشكسبير وجوته . وكانت لإنجلز استبصارات بارعة فى النقد الأدبى إذ لاحظ مثلا أن النظر والتطبيق عند كاتب كبلزاك يتصادمان : فهو نظريا يقف فى صف الملكية والرجعية ولكنه، فى أعماله ، لا يملك إلا أن يكشف النقاب عن فسادها وحتمية سقوطها . وفى كتابهما «العائلة المقدسة» (١٨٤٤) – لاحظ العنوان الساخر من مقدسات المسيحية إن نقدا رواية الكاتب الفرنسى يوچين سو «أسرار باريس» على نحو غدا نبراسا لكثير من النقاد التالين:

يركز النقاد الماركسيون على عدة قضايا أهمها : أصول الحساسية الجمالية وخصائصها ، الاغتراب الرأسمالى وتدمير القيم الجمالية ، الشيوعية ونهاية الاغتراب فى الفن ، القيم الطبقية فى الأدب، الاستقبال الطبقى للقيم الفنية، مشكلة الواقعية ، الأدب الهادف، التعبير عن القيم الإنسانية الأساسية وصمودها، الشكل والأسلوب (انظر د. رمسيس عوض، موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٤، ص ٥٢). وتسرى هذه الخيوط، بدرجات متفاوتة ، فى نقد جوركى وبرخت وڤالتر بنيامين وألتوسير وكودويل وجرامشى وجولدمان وماشيرى وإطلتون وإدجل ريكورد وريموند وليمز وغيرهم.

عند الماركسيين أن الأدب ، شكلاً ومضموماً على السواء ، عميق التأثر بالقوى التاريخية والاقتصادية والاجتماعية. ويذهب الناقد المجرى جورج لوكاتش، صاحب مفهوم «الواقعية النقدية»، إلى أن عمل عظماء الكتاب غير

الاشتراكيين (مثل بلزاك وولتر سكوت) يمكن أن يجاوز حدود أيديولوچية الكاتب ذاته ويكشف عن التوترات الأساسية فى عصره (انظر مادة «النقد الماركسى» فى : رفيق أكسفورد إلى الأدب الانجليزى، تحرير مرجريت درابل، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٨٧). والمقصود بالأيديولوچية هنا : منظومة الأفكار والقيم والمعتقدات السياسية الكامنة فى النص تحت السطح.

ومن مبادىء النقد الماركسى أنه ينبغى النظر إلى النص على ضوء علاقته بالنظرة الماركسية إلى التاريخ ، حيث فكرة الصراع الطبقى تحتل مكان الصدارة، والصلات وثيقة بين الأدب والتركيب الاقتصادى للمجتمع الذى انتجه.

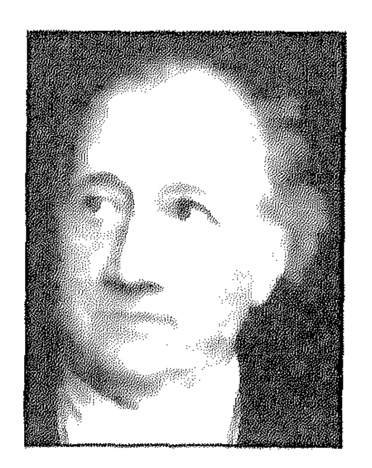
ويذهب چون بك ومارتن كدول فى كتابهما «المصطلحات الأدبية والنقد» (ماكميلان ١٩٨٧) إلى أن النقد الماركسى، فى أكثر أشكاله فجاجة، يستبعد كل أدب باعتباره ترفا بورجوازيا يكتب فيه كتاب من الطبقة الوسطى عن مشكلات طبقتهم . ولكنه، فى صوره الأرقى والأعمق، يكشف عن توقير لدور الفن فى حياة الإنسان، وينظر إلى الفنان على أنه ناقد لمجتمعه، ينبغى الإصغاء إليه. وكان من الطبيعى أن يتركز اهتمام النقاد الماركسيين على الرواية الواقعية باعتبارها تقدم صورة بانورامية للمجتمع (انظر مثلا كتاب الناقد الماركسى الانجليزى رالف فوكس «الرواية والناس» ١٩٣٧).

والنقد الماركسى ، شأنه فى ذلك شأن النقد النسوىّ، معنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية التى يثيرها الأدب، إنه مدخل جذرى لنزعة، يرمى إلى تغيير الطريقة التى يواجه بها المجتمع ذاته ، ويركز اهتمامه على محتوى العمل وعلى تقديم نقد ملتزم للقيم والأفكار التى يشف عنها صراحة أو ضمنا.

النقد الجديد

على نحو مغاير، بل يكاد يكون مناقضا، ينظر «النقد الجديد» إلى وظيفة الأدب، وطبيعة الخلق الفنى، ومكونات العملية النقدية.

وأول من نحت مصطلح «النقد الجديد» هو الناقد الأمريكى ج. ا. سبينجارن فى ١٩١٠، ثم مالبث ناقد أمريكى آخر - چون كرورانسوم - أن أصدر كتاباً بهذا الاسم فى ١٩٤١ للإشارة إلى حركة نقدية بدأت تظهر فى انجلترا والولايات المتحدة



جوته

الأمريكية عقب الحرب العالمية الأولى، ثم بلغت ذروتها في السنوات التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، وسادت المشهد النقدي في عقدي الأربعينيات والخمسينيات حتى أوائل الستينيات حين بدأت تنازعها مكان الصدارة اتجاهات أخرى كالبنيوية ثم التفكيكية. وأهم ممثلي النقد الجديد هم : ت. س. إليوت، أ. أ. ريتشاردز، ج. ك. رانسوم، وليم إمبسون، آيفور ونترز، ر. ب. بلاكمر، كنيث بيرك، ف. ر. ليفيز، آلن تيت، كليانث بروكس، روبرت بن وارن، و . ك. ويمزات.

وقد عمد النقاد الجدد إلى إعادة تقويم أدب الماضي، صراحة أو ضمنا، على ضوء الكتابة الحداثية المعاصرة، وتقويم أدب الحاضر على ضوء منجزات الماضي. آمنوا دائما بضرورة الالتصاق بالنص، ورفضوا النزعة الذاتية الرومانسية، وأقاموا (متابعين في ذلك إرفنج بابت الأمريكي وت. و. هيوم الانجليزي) ضربا من الكلاسية الجديدة أميل إلى المحافظة الاجتماعية والسياسية والدينية، مع ثورية في الشكل والتقنية. هذا مافعله إليوت في «الغابة المقدسة» (١٩٢٠) ورتشاردز في «أصول النقد الأدبي» وإمبسون في «سبعة أنماط الابهام» (١٩٣٠) وليفيز في «إعادة تقويم» وتيت في «مقالات رجعية في الشعر والمجتمع» (١٩٣٦) وبروكس في «الإناء المحكم الصنع» (١٩٤٧) ورانسوم في «بدن العالم» (١٩٣٨) وغيرهم (انظر مقالة رون هورننج عن «النقد الجديد» في رفيق أكسفورد إلى شعر القرن العشرين، تحرير إيان هاملتن، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٤).

أكد النقاد الجدد استقلال الأدب متابعين في ذلك إليوت الذي قرر أن القصيدة ينبغي أن تدرس باعتبارها قصيدة لا باعتبارها صفحة من حياة مؤلفها ، ولا انعكاسا لظروف المجتمع، ولا وثيقة تاريخية أو نفسية - إن العمل الأدبي بناء لغوي يتحقق التوازن بين عناصره من طريق التوازي والتقابل والمفارقة والتورية الساخرة وتحميل الكلمات بكل ظلال المعنى ، ولغته هي الرمز والصورة ليست لغة الشعر إشارية

تدل على موضوعات فى العالم الخارجى وإنما هى ذات وظيفة انفعالية، وأقضية!؟ الشعر - بتعبير ا. ا. رتشاردز - ليست إلا «أقضية زائفة».

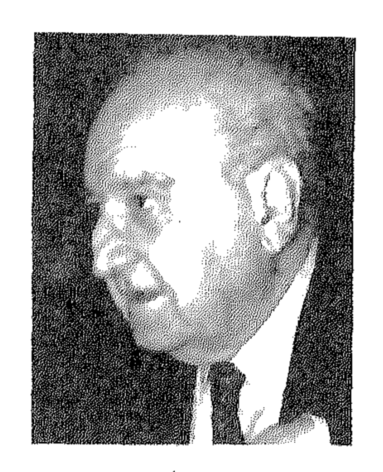
وقد سعى النقاد الجدد إلى تحرير النقد من الانطباعية السطحية ، ومن ثم كان المنزع العلمى الصارم لدى ناقد مثل رتشاردز أحال فصوله الدراسية - فى كمبردج وغيرها - إلى معامل لاختبار قدرات الطلاب ، وعاداتهم فى القراءة ومدى فهمهم لنصوص حجب عنهم أسماء مؤلفيها. كذلك كانت فصول ليڤينج الدراسية تدريبات مكثفة على «النقد التطبيقى» الدقيق ، بعيداً عن الإيماءات البلاغية العريضة أو التنظيم المجرد.

يقوم النقد الجديد على القراءة الوثيقة للنص ، والاهتمام بالفروق الدقيقة بين دلالات الكلمات وظلال معانيها ، وذلك على نحو ما كانت تفعل مدرسة «شرح النصوص» الفرنسية. واقترن هذا بتطبيق لعلم الدلالة (السيمانطيقا) على النص، كما فى نقد ا. ا. رتشاردز ووليم إمبسون.

والنقد الجديد يوجه النظر، مثلما فعلت الشكلانية الروسية من قبل، إلى «أدبية» النص - ما يجعله أدبا وليس شيئاً آخر - بصرف النظر عن مصادره أو خلفيته الاجتماعية أو تاريخ الأفكار الكامنة وراءه أو الآثار السياسية والاجتماعية التى قد تنجم عنه . إنه أشد اهتماماً باستكشاف بناء العمل منه بفحص عقل مبدعه وشخصيته، أو ردود أفعال قرائه المتنوعين، ليس هناك من ينكر أن العمل الأدبى قد كتبه، بطبيعة الحال، بشر ، وأنه قد تكون له آثار مختلفة فى البشر الذين يقرءونه. ولكن النقاد الجدد يعالجون الموضوع الأدبى فى حد ذاته أكثر مما يعالجون أصوله وآثاره - إنهم يصفونه من الناحية الشكلية لا من ناحية الجذور التى انبتته ، أو الانفعالات التى يثيرها فى أنفس القراء.

هكذا عمد النقاد الجدد إلى تطهير النقد الأدبى من كافة الشوائب غير الأدبية، ومن ثم اتهموا - ظلما - بأنهم يفصلون الأدب عن الحياة. وهم يميزون بين الفن من ناحية والدين والأخلاق من ناحية أخرى (خلط ماثيو أرنولد فى العصر الڤيكتورى بين هذين الأمرين).

ويرفع النقاد الجدد القواعد من نظرة عضوية إلى الأدب، رافضين ثنائية الشكل والمضمون، ويرون أن علم البلاغة القديم - بكل زخارفه الموشاة - قد أخفق فى التوحيد بين الأمرين . إنهم ينظرون إلى سياق العمل بأكمله، وما بينه من علاقات



روجيه جارودى

متفاعلة، ناظرين إلى كل كلمة فى العمل لا على انها تسهم فى السياق الكلى فحسب، وإنما على أنها تستمد معناها من موقعها!؟ فى هذا السياق . من هنا كان احتفالهم بمصطلحات من قبيل : التورية الساخرة، الابهام، المفارقة، التوتر، إلخ.. إشارة إلى غنى العمل الأدبى وتعقد نسيجه وتعدد مستوياته . إنهم مهتمون بالكلمات باعتبارها أنماطا من المعنى، والشكل الأدبى فى نظرهم هو تنظيم المعنى ذاته (انظر مادة «النقد الجديد» بقلم كليانت بروكس ، فى : موسوعة برنستون فى الشعر وفن الشعر، تحرير ألكس برمنجر، ماكميلان، طبعة ١٩٨٦).

رسم خريطة الشعر

أعاد النقاد الجدد رسم خريطة الشعر الانجليزى فعاد الشعراء الميتافيزيقيون فى القرن السابع عشر، والأوغسطيون فى القرن الثامن عشر، إلى مكان الصدارة ، على حين توارى ملتون والرومانسيون فى مطلع القرن التاسع عشر والڤيكتوريون فى باقى القرن فى المؤخرة، وأصبح بن جونسون وجون دن ودريدم وبوب وهوبكنز هم العلامات الكبرى فى مسيرة الشعر الانجليزى، لادورد زورث وشلى وتنسون وبروانج وسونبرن، كما فعل النقاد الأمريكيون شيئا مشابها بشعر بلادهم، فأصبحت إميلى وكنسن - الشاعرة المعتزلة هادئة النبرة - أقرب إلى الحاسبة الحديثة المتسمة بالتعقد الشعورى والابهام الفكرى والازدواج الوجدانى من وتمان ولندزى وساندبرج وأضرابهم من ذوى النبرة العالية والرسالة الاجتماعية. وبرز إلى المقدمة - من شعراء القرن العشرين - باوند وولاس ستفنز وميريان مور باعتبارهم رافعى لواء الحداثة والمعبرين عن حساسية جديدة .

ركز النقاد الجدد ، كما هو طبيعى اهتمامهم على القصيدة الغنائية القصيرة أكثر مما ركزوه على فن الرواية أو المسرح (وإن عنى بعضهم بالمسرحية الشعرية عند شكسبير ومعاصريه). كانوا ينظرون إلى القصيدة بمعزل عما حولها : فهم لا يهتمون بنية كاتبها الأصلية (سموا ذلك : مغالطة النية) وإنما المهم هو الكلمات على

الصفحة، فى ترتيبها المرسوم. إن الشعر نوع خاص من اللغة، أو هو ، على الأقل - استخدام خاص للغة، يقول أشياء لايمكن أن تقال بأى طريقة أخرى ولا تقبل البسط أو الشرح النثرى ، ومن ثم كانت القصيدة ذات وحدة عضوية (وهو مفهوم يرتد بأصوله إلى كولردج، ومن قبله أرسطو). ووظيفة الناقد هى دراسة مبنى العمل أو تركيبه، وتحليل النسيج اللفظى المعقد للقصيدة، حيث ان معناه لايتكشف إلا من خلال مثل هذا التحليل الوثيق ، ومقارنتها بغيرها من القصائد حاضرا وماضيا.

وربما كان أفضل تلخيص لعقائد النقد الجديد هو ذلك الذى قدمه كليانث بروكس تحت عنوان «عقيدتى» فى مجلة «كينون رڤيو» الأمريكية (السنة ١٣، العدد ١، شتاء ١٩٥١). ويقول بروكس:

- النقد الأدبى وصف وتقويم لموضوعه.

- الوظيفة الأولى للنقد هى مشكلة الوحدة . أعنى نوع الكل الذى يشكله العمل الأدبى أو يخفق فى تشكيله، وعلاقة الأجزاء المتنوعة ببعضها البعض فى بناء هذا الكل .

- العلاقات الشكلية فى العمل الأدبى قد تتضمن - ولكن من المؤكد أنها تجاوز علاقات المنطق.

- فى العمل الناجح لايمكن الفصل بين الشكل والمضمون.

- الشكل هو المعنى.

- الأدب ، فى النهاية ، مجازى ورمزى.

- العام والكلى لا يتحصل عليهما من طريق التجريد وإنما من خلال العينى والمخصص.

- ليس الأدب بديلا للدين.

- مادة الأدب ، كما يقول آلن تيت، هى «مشكلات معنوية محددة» ولكن ليس هدف الأدب هو إبراز درس معنوى.

- أصول النقد تحدد المنطقة ذات الصلة بالنقد الأدبى، ولكنها لاتشمل منهجا للاضطلاع بالنقد.

عود إلي النقد الماركسي

تلزمنى الأمانة - وأنا عدو الماركسية ، نصير النقد الجديد - أن أضيف أن النقد الماركسى، فى مراحله اللاحقة ، قد تخفف كثيراً من قيود الواقعية الاشتراكية ، والخطوط الحمراء للالتزام الحزبى، وتحرك نحو أفق أكثر إنسانية وأشد رحابة. رفعت الصين فى مهد ثورة ماو الثقافية شعار «دع مائة زهرة تتفتح» وأعلن نبورج عن ذوبان الدوجماطيقية. وفى هذا الصدد تبرز جهود فنانين كبار مثل جوركى



ت.س.إليوت

وبرخت ، كما تبرز جهود ثلاثة نقاد أحدهم مجرى، والآخر نمساوى والثالث فرنسى. أعنى جورج لوكاتش، وإنست فيشر، وروچيه جارودى.

فلوكاتش الذى دعى «أقدر تلاميذ ماركس الحديثين» و«أكثر النقاد الماركسيين ذكاء» و«أعظم الفلاسفة الماركسيين» يتناول فى كتابه «معنى الواقعية المعاصرة» (١٩٥٧) أدباء من طراز إليوت وبكيت وفوكنر وجويس فلا يهيل عليهم تراب الشتائم، وإنما يسعى بصبر وأمانة إلى ولوج عوالمهم وتفسير منحاهم الفنى على ضوء اللحظة التاريخية والإطار الحضارى (انظر الترجمة العربية للكتاب بقلم د. أمين العيوطى، دار المعارف، ١٩٧١).

وإرنست فيشر (١٨٨٩ - ١٩٧٢) فى كتابه «ضرورة الفن» المنشور لأول مرة فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٥٩ يتحدث عن وظيفة الفن، وبداياته الأولى، والفن والرأسمالية، والمضمون والشكل، وضياع الحقيقة واكتشافها، من منظور ماركسى رحيب جعل كتابه من أكثر الكتب الصادرة بعد الحرب العالمية الثانية تأثيرا. (انظر الترجمة العربية للكتاب بقلم أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١).

كتب الناقد البريطانى كنيث تاينادن عن كتاب «ضرورة الفن» يقول:

«فى هذا الكتاب الجديد المتحدى الذى ظهر فى سلسلة «بليكان» يمسح إرنست فيشر، الشاعر والناقد النمساوى، تاريخ المنجزات الفنية بأكمله من خلال نظرة ماركسية. لقد كان الناس دائماً بحاجة إلى الفن: ولكن لما كانوا يحتاجون إليه؟ وما الذى صاغ الصور التى كانوا يشبعون بها حاجتهم؟ إن إجابات فيشر على هذه الأسئلة ينبغى أن تدرس وتناقش هنا بنفس الشراهة التى درست بها ونوقشت على ظهر القارة (الأوربية).

والكتاب حافل بالدلائل على أن فيشر ماركسى تجريبى أكثر مما هو نظرى، فأنت لاتشعر قط بأنه يقص أوجاعه على النحو الذى يجعلها تناسب نظرية. وهو يقول:

«إن الفن الجديد لا ينبع من المذاهب وإنما من الأعمال ، فأرسطو لم يسبق ... هوميروس وهزيود وإسخالوس وسفوكليس، وإنما استمد منهم نظرياته فى علم الجمال».

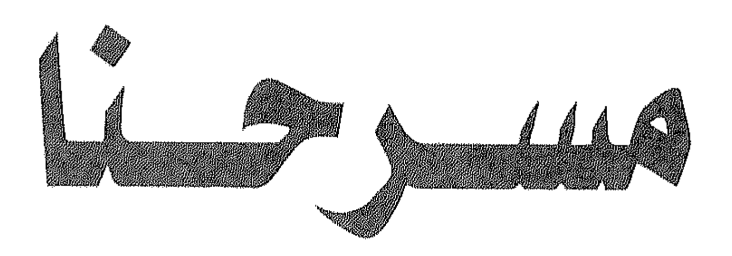
لقد ظلت الماركسية بحاجة إلى أرسطو (خاص بها) زمنا طويلا . وإن شكوكى لتتجه إلى أنها قد وجدت فى إرنست فيشر رجلها».

أما روچيه جارودى فقد شق دربا جديدا بكتابه «واقعية بلا ضفاف» (تقديم أرجون، ترجمة حليم طوسون، مراجعة فؤاد حداد، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨) وذلك حين تحدث عن بكاسو وسان جون بيرس وكافكا، وكلهم فنانون كان الحزب الشيوعى ينظر إليهم بعين الشك، ويرى فى تجاربهم الفنية الجريئة نزعة شكلية معادية للمجتمع ، فأعاد جارودى قراءتهم بمنظار جديد كشف عن القيم الإنسانية الحارة التى تنبض بها أعمالهم.

وعود إلي النقد الجديد

ومن ناحية أخرى نجد أن كثيرا من النقاد الجدد قد كفكفوا من غلواء نزعتهم الجمالية الباكرة فصاروا يوجهون مزيدا من الاهتمام إلى الرحم الثقافى الذى أنجب الأعمال الأدبية، وموروثها التاريخى (انظر مثلا كتاب بروكس عن فوكنر، روائى الجنوب الأمريكى) وإلى مسائل الأدب المقارن، والأنواع الأدبية، ودراسة الحبكة، ورسم الشخصية، وهو ما يتجلى فى نقد الأرسطيين الجدد فى شيكاغو (ر. كرين ووين بوث وزملائهما).

لقد أصبح كل من النقد الماركسى والنقد الجديد الآن جزءا من التاريخ، ومن ثم غدا بمقدورنا أن ننظر إليهما نظرة محايدة لاتتعسف. سنجد- من منظور اللحظة الراهنة - انهما وإن انشعبت بهما السبل يمكن أن يتعاونا على إلقاء الضوء على العمل الأدبى من زوايا مختلفة، النقد الماركسى يبصرنا بأصول العمل وعلاقته بمجتمعه، ورؤيته للعالم، وموقفه من صراع الطبقات؛ بينما النقد الجديد يزيدنا علما بجماليات العمل بناء ونسيجا ، معماره الفنى وتشكيله اللغوى، وذلك بدراسة الأدوات الفنية التى يتوسل بها كاتبه إلى نقل رؤيته للناس والأشياء. وكلا المنهجين مشروع ومطلوب، وإن مالت الكفة بالناقد - كما هو طبيعى - إلى هذا الجانب أو ذاك، وفقا لخلفيته ومعتقداته ومزاجه الفكرى وتكوينه النفسى. ■



بين مقاطعة الجمهور والحلول الغائبة

بقلم
مهدى الحسينى

يتلقى المواطن العربى معرفته الأولى بفن المسرح فى المدارس وفى الموالد والاحتفاليات الشعبية، ومراكز الشباب فى القرى والمدن الصغرى، والأحياء الفقيرة وبيوت الثقافة وقصورها، والجمعيات الخاضعة للشئون الاجتماعية ونوادى النقابات العمالية والمهنية، وفى المسرحيات الدينية بالكنائس، وفى المسرح الجامعى.


توفيق الحكيم


نعمان عاشور


الفريد فرج


صلاح عبد الصبور

● أصبح التمثيل التليفزيوني أهم من التمثيل المسرحي لأنه أقصر طريق الى الرواج والنجومية الزائفة
● تدني الخدمات الثقافية والفنية وغياب التخطيط أصاب الإبداع بفقر مدقع أعاق طموح الأجيال

ولكن حدث في النصف الثاني من السبعينيات خاصة « بعد مايسمى بانتفاضة الحرامية» ، أن سلطت الجماعات السلفية على الحركة الجماهيرية كي تنحرف بها عن أهدافها العادلة المتعلقة بالحريات وحق الحياة الكريمة، والديمقراطية والاستقلال الاقتصادي والتحرر الوطني، منتهزة حالة اليأس التي أحاقت بالناس حيث لم يصيبوا من نصر أكتوبر الحياة اللائقة الآمنة التي كانوا يبتغون أو يحلمون، بل أخذ الطفيليون والطبقة الجديدة ينشبون أظفارهم في أبدانهم وحياتهم وعقولهم وأرواحهم وآمالهم، ومستغلة هزيمة الفكر الاشتراكي، الحقيقي منه والزائف، لتقدم لهم منظومة فكرية سلفية بديلة. «كان الفن أحد ضحاياها» كما قدمت لها الصحافة الرسمية وشبه الرسمية وقودا يوميا من الفضائح الصغيرة لعناصر من الوسط الفني، وبعض قضايا لبعض فتيات الإعلان، وبعض الصور المكشوفة لبعض الفنانات المصريات والأجانب، مما يؤجج المشاعر البدائية الدنيا، والساذجة، للجماهير المأزومة بكل أنوا ع الأزمات، فيلهيهم عن البؤرة الرئيسية ويحيلهم إلى الاهتمامات الهامشية، كما دارت في كواليس الحياة الاجتماعية للفنانين إغراءات ممهورة بأموال - لاندرى مصدرها - كي تتحجب بعض الفنانات اللواتي وصلن إلى سن اليأس «الفني أو البيولوچي» وبعض الفنانين الذين لم يعودوا صالحين للعب دور الفتى الأول أو الثاني .. وإنما يفكرون في قضاء شيخوخة سعيدة مما يتطلب الكثير من المال بعيدا عن متاعب العمل وواجبات النساء بعد استبدال الأدوار بالأوراد، وهاجم بعض كبار الوعاظ الذين تعدت اتصالاتهم حدود مصر الوسط الفني والثقافي بشراسة مدهشة وحجج ملفقة تتذرع رج بالدين، وكأن هذا الوسط هو مصدر كل الشرور والمصائب، وكأنه السبب في ارتفاع الأسعار وأزمات المواصلات والاتصالات والمرور وضعف أداء التعليم خاصة الجامعي وعدم تعيين

الخريجين وانحراف الفتيات «وكأن السبب ليس التأخر القسرى لسن الزواج وأزمة الإسكان وبطالة الشباب وغياب الثقافة عن الحياة اليومية وضعف الوعى السياسى والاجتماعى وغير ذلك من الأسباب» وإلى آخره من أزمات قديمة استفحلت فى السبعينيات والثمانينيات، والعجيب أن المسرح التجارى «القطاع الخاص» لم يحظ من جانب هؤلاء بأية هجوم أو استهجان، ولعل ذلك كان احتراما للإخوة السياح الخليجيين الذين كانوا يأمونه بكثافة مربحة .

وبعد ١٩٧٣ تم تجهيز الطائرات والاستوديوهات فى الخليج وقبرص ولندن وميونخ وتونس وغيرها لاستقبال مئات الفنانين المصريين «المحبطين فنيا والمفلسين ماديا والمهددين بارتفاع الأسعار وتزايد المطالب المعيشية والاجتماعية» لاستغلالهم فى إنتاج مسلسلات الجيم المعطشة والخاء المقعرة واللام المقلقلة يلوكونها بلهجة فجة ونطق غليظ فى موضوعات تراثية لم يبق منها سوى الدشداشة والسيوف الخشبية، هذه الدراما البترولية أخلت بميزان القوى الأدبية والفنية، وبسببها تساوى صغار الكتاب مع أقلام توفيق الحكيم، ويوسف إدريس ، ونعمان عاشور، وألفريد فرج، وصلاح عبد الصبور، وميخائيل رومان، ونجيب سرور ، كما تساوى صغار المخرجين مع توفيق صالح وكمال سليم، وصلاح أبو سيف ، وهنرى بركات، وكمال الشيخ، فصعدت أسماء لاتستحق الصعود، وأخذ الأقزام يتطاولون على العمالقة مادامـوا يحملون حقائب «السامسونايت» ويرتدون الملابس اللامعة والساعات اليابانية ويركبون الطائرات ويهجرون بيئاتهم الشعبية الى أحياء الطبقة الجديدة والقديمة، وأصبح التمثيل التليفزيونى «أهم» من التمثيل المسرحى لأنه أقصر طريق الى الرواج والنجومية الزائفة وأرخص السبل إلى المال وحيث مجتمع محدثى النعم واللذائذ والمتع الصغيرة فهكذا حدث الخلل المتعمد فى ميزان القيم الثقافية والمعايير الفنية فى وسطنا الفنى وفى حياتنا الاجتماعية، وتلك كانت ضربة فى الصميم .

أشباه الهواه !

ومع أن حركة مسرح الأقاليم والجامعات والشباب، خاصة مسرح الثقافة الجماهيرية، قد نشطت فى ذلك الوقت كرد فعل لهذا الانهيار للبنية المسرحية المصرية ممثلة فى مسرح الدولة القاهرى ومسرح القطاع التجارى والمصايف «وقد أنجزت بعض الإنجازات» إلا أنها - فى النهاية - حركة هواة وأشباه هواة وأشباه محترفين، وهم - مع الأسف - معوقون بالضرورة بفعل البيروقراطية والفساد الإدارى والرقابة ورداءة المناخ العام، أضف إلى ذلك - وهو الأهم - أن الجماعات السلفية نجحت فى منع أغلب الأنشطة الفنية فى الأفراح والموالد والاحتفالات الشعبية والدينية الأمر الذى اضطر السلطات الى التدخل الأمنى فى كل التجمعات الشعبية .

كما كان العائدون من باكستان وأفغانستان والسودان والبوسنة وكوسوفو والخليج قد نجحوا فى منع الأنشطة الفنية والثقافية فى أغلب التجمعات الشعبية خاصة فى الأقاليم والمناطق البعيدة عن

المركز، فنصبوا أنفسهم رقباء قبل وبعد الرقابة الرسمية، محاكم تفتيش على كل مايقال وينشر ويعرض وأولوا اهتماما خاصا بكل مايتعلق بـ «العورة» .

فى هذه الأوقات العصيبة كافح كل من العصفورى، والشافعى، والجندى، والسلامونى، كتفا إلى كتف مع كل من أفلتوا من قبضة الفاشيست فى الجامعات والأقاليم، ولكن يظل هذا الدور محدودا بحدود الأفراد والإمكانات المتاحة والمسموحات المباحة، فى حين هاجر إلى المشرق والمغرب كل من كرم مطاوع، وسعد أردش، وأحمد عبد الحليم، وذهب ألفريد فرج إلى الشمال، ورحل مصطفى بهجت، ويوسف إدريس، ومحمود دياب، ونجيب سرور، ورومان ، ونعمان عاشور .. الأمر الذى أخلى الميدان لأرباع الموهوبين

وفى هذه الحقبة أيضا أغلقت الجماعات السلفية وأنصارها قاعات المعارض والترفيه والملاعب والمسارح والمعامل وجمعيات النشاط العلمى والأدبى والفنى فى أغلب مدارس مصر بحجة إقامة بيوت الله .

وكذا ماحدث فى مراكز الشباب والنوادى الرياضية والاجتماعية والجامعات حيث سيطر المتعصبون على مجالس الإدارات والاتحادات والنقابات العمالية والمهنية، فكانت الانحرافات عن اللوائح والقوانين والأهداف الأصلية لهذه المؤسسات الشعبية القاعدية، أما فى الثقافة الجماهيرية فإن النشاط عموما كاد أن يكون صوريا، فرغم كثرة المسرحيات وتعدد المسميات، فإن أغلب العروض تكاد تكون لليلة واحدة فقط، ولو أراد المخرج أو المؤلف أو الفرقة غير ذلك، فإن سمعتهم الحسنة تصبح سيئة حيث تشن إدارة الموقع عليهم وعلى من يتعاون معهم حروبا أسوأ من أن نسميها حروبا نفسية، والأمر نفسه ينطبق على باقى الأنشطة، رغم هذا فقد كافح مثقفو وفنانو الثقافة الجماهيرية من أجل اثبات ذواتهم الفنية وتعميق رسالتهم الثقافية بمواصلة تقديم عروضهم ومعارضهم وإنتاجهم الفنى والثقافى، فكان أن نجح البعض نسبيا فى بعض المواقع وبعض المواسم وفى ظروف جد صعبة أو حالكة وهنا شكل مثقفو الأقاليم وفنانوها - خلال هذه الحقبة - ملمحا مميزا .

ولاشك أن فرق القرى والمدن الصغرى والأحياء الشعبية والنقابات والنوادى والجمعيات والمدارس والكنائس والجامعات تشكل قاعدة عريضة كفيلة بأن تمد المستوى الاحترافى بالمواهب البارزة والعناصر الماهرة والجادة، لذا كان يجب أن تنظم لهم دورات تدريبية وتعليمية وتثقيفية دورية ودائمة لتعليمهم أسس التمثيل والتأليف والشعر الدرامى المسرحى والتأليف الموسيقى والتصميم الحركى وفنون السينوجرافى وتقنياتها ومبادىء الإخراج المسرحى .. والتذوق الجمالى فى بعديه الاجتماعى والإنسانى غير أن تدنى الخدمات الثقافية والفنية وغياب التخطيط على مستوى القاعدة واختناق مجاليها المكانى والزمانى وفقر إمكاناتها المادية والمالية، وتراجع الحياة الفكرية والروحية بين بسطاء الناس أمام الردة الرجعية والتخريبية والسلفية، قد جعل الإبداع يصاب بفقر مدقع أعاق طموح الأجيال وقلل من اجتهادها وهدأ من ايقاع كفاحها وكلها أمور لايمكن استعادتها بغير دعم ومساندة المجتمع

ومؤسساته الأهلية والرسمية، ولا أقل من أن أسوق ملاحظة لمحتها في الانتخابات الأخيرة، وهي أن الثقافة والفنون لم يحظيا - في برامج الأحزاب - بقدر لائق من الاهتمام .

ثمة خلط وتعويق وعجز ذاتي في المنظومة التربوية والتعليمية والثقافية، قائمة على نظرة مريضة للفن - عمليا - على أن الفن حرام وعار وترفيه وترف وتسلية ، لاضرورة مطلقة لمشروع النهضة المصرية .

التعليم الأكاديمي للفنون المسرحية

بعد معهد التمثيل المسائي الذي كان لايلتحق به إلا الموهوبون فقط ولايتخرج فيه سوى فنانين، أثبت أغلبهم حضورا ممتازا على الساحة الفنية، تأسس المعهد العالي للفنون المسرحية في أكتوبر ١٩٥٨ تحت شعار أن «الموهبة وحدها لاتكفي»، وأنه لابد من تعليم منهجي متخصص، وأصبح لايقبل إلا طلابا حاصلين على الثانوية العامة ويخرج «فنانين» حاصلين على درجة البكالوريوس ، وهكذا أصبح معهد الفن، معهدا للشهادات مهمته - كما قال لي أحد عمدائه ذات مرة - تخريج مساعدي إخراج يلبون حاجة الإذاعة والتليفزيون وساعات الإرسال .. وليس بالضرورة أن يخرج فنانين، وهكذا ابتلعت «القوى العاملة» خريجيه ليصبحوا موظفين بدرجة فنانين أو فنانون بدرجة موظفين، لذا أصبح من النادر أن يخرج من بين صفوفه فنانين كبار من نوع نجيب سرور، وكرم مطاوع، وسميحة أيوب، وسناء جميل، الذين تخرجوا من المعهد المسائي، وإنما قام بتخريج تلاميذ نجباء ومواطنين مطيعين صالحين، مروضين .

أقسام المسرح بالجامعات

وفي آداب عين شمس تأسس قسم للأدب المسرحي والنقد، وكذا في آداب القاهرة، وفي آداب حلوان تأسس قسم للمسرح وكذا في جامعة الاسكندرية، وكثر عدد «الدكاترة» وزاد حملة الشهادات، ورغم هذا ازدادت حركة المسرح فقرا وجهلا وانهيارا وتدنيا، فلماذا ؟ هل هذا بسبب «زيادة العلم والمصطلحات» ؟ أم بسبب «وفرة الدكاترة» أم بسبب «توفر البعثات» ؟

في الماضي حين كانت الحركة الفنية تتميز بالموهبة والقوة، وكانت الدرجات العلمية معدودة على الأصابع والبعثات نادرة، وأشهر مبعوثين في أواخر الأربعينات كان نبيل الألفي، وحمدي غيث، تبعهم في أواخر الخمسينيات كل من كرم مطاوع، ونجيب سرور، وسعد أردش، وجلال الشرقاوي، ومن قبلهم مبعوث واحد فقط كل عشر سنوات «ومنهم من سافر ليدرس على حسابه الخاص» أي ثلاثة أشخاص بالإضافة الى يوسف وهبي، ومع ذلك كانت الحركة الفنية أكثر علما وخصوبة وموهبة، لأن «الرأي» و«الرسالة» و«الجمهور» و«الحرية» و«الوطن» و«الذوق الرفيع» أمور كانت في رءوسهم.

ولابد أن أشير أيضا إلى أنه بالإضافة إلى نقص وخلل في برامج هذه المعاهد والأقسام وفي اكتمال طاقم التدريس بما يتلاءم مع المواد الدراسية الضرورية التي يجب أن تتسم بالعمق وسعة الأفق ، هناك عجز فادح في أداء هذه الكيانات من ناحية التجهيزات وملاءمة المباني لتدريس



كرم مطاوع





سعد أردش

نجيب سرور



سمير العصفورى

فن شامل كفن المسرح، وكلها لاتفترق عن استعدادات المدارس الإعدادية، ابتداء من عجز المكتبات، حتى رداءة قاعات المحاضرات،

إن مبنى معهد الفن يجب أن يكون مزودا - الى جانب جمال طرازه - بمكتبات المدونات الطباعية والصوتية والمرئية من كل نوع ولون، فضلا عن قاعات الصوت «الإذاعة» والصورة «الفيديو والسينما» والأداء الحى «المسرح» وصالات الأداء الحركى والرقص، ومعمل للهجات، واتيليهات للتصميم والتشكيل، بالإضافة إلى المتاحف والمعارض الدائمة والحدائق والملاعب، وقاعات العروض المزودة بأحدث الأجهزة من كل المساحات والأنواع، وأن يتسع المبنى لكل سنوات الدراسة والدراسات العليا وحلقات البحث والتجريب والمؤتمرات، ولكل التخصصات والأنشطة، بحيث يسيطر المعهد العلمى على مادته، وألا يكون مجرد رد فعل لما يحدث فى الحركة المسرحية المحلية والأجنبية خارجه .

وعدا قلة قليلة من الأساتذة المبدعين والأمناء، الذين لم يكتفوا بتدريس بعض الكتب المترجمة وبضع كراسات عبارة عن ملخصات قديمة ومذكرات منقولة ومحاضرات حائلة، وشذرات من أدوار تمثيلية مكررة ومستهلكة، أو كروكيات لمسارح ومسرحيات انتجت فى الخارج، بل استطاع هؤلاء النابهون أن يصنعوا منهجهم الخاص، وأن يدمجوا ماحصلوا عليه بمجهوداتهم الذاتية مع مادرسوه فى البعثات تلبية لحاجات الطلاب الفنية والمعرفية والعلمية على ضوء حياة الوطن والمواطنين والفن والجمال .

إننا ضد العلم الشكلى والمعرفة الزائفة، بهدف الحصول على «شهادات» و«ألقاب» لأغراض الوجاهة الاجتماعية والمال، وضد البعثات كمزية شخصية يحصل عليها المحظوظ أو المرضى عنه، إنما نحن مع العلم الحقيقى والمعرفة ذات المعنى والدلالة والفائدة، مع العلم المتوائم مع واقعنا وشخصيتنا التاريخية الوطنية، وضد البعثات طويلة الأجل فى بلد واحد، لأنها تعزل المبعوث عن واقعه وشعبه ووطنه، فيعود عاجزا عن الانفعال بنا والوعى بخصوصيتنا وإدراك احتياجاتنا المادية والروحية والكفاح من أجل تحقيقها.

والوضع الآن لم يزل - كما قال هذا العميد السابق حين طالبته بتدريس علم الجمال - أن هذا المعهد لن يدرس أفكارا بل مهنا وحرفا - ورغم علمى أن بتلك

المعاهد مواد لعلم النفس والاجتماع والموسيقى والفنون الشعبية .. وحتى السيميوطيقا، ولكنها محض «ساعات» منفصلة عن منهج فكرى كلى وشامل، وعن تصور متكامل عن دور مسرحنا فى مجتمعنا، وهل نحن نريد مجرد حرفيين بدرجة مخرج أو ممثل أو مهندس ديكور؟ أم نحن نريد المفكر الفنان والفنان المفكر ؟ هل نريد لفنانينا أن ينافسوا معاهد أوربا وشرق آسيا والهند والولايات المتحدة وروسيا ؟ أم يقلدونها ؟ هل يغوصون فى أعماق تراثنا الثقافى والفولكلورى أم يتركونه نهبا للآخرين؟ هل يذهبون الى قلب افريقيا حيث جذور الحضارة المصرية؟ هل يزورون روما وأثينا حيث امتداد حضارتنا القديمة ؟ ماهى ينابيع فننا ومصادره؟ وماهو المرمى الإبداعى لكل مايبدعه فنانونا؟ ماهى السمة الفنية والجمالية الخصوصية التى تميزنا .. أم نظل مجرد نقلة وردود أفعال؟ هل نحتاج إلى بعثات العزلة الطويلة بعيدا عن الجمهور والواقع والوطن؟ أم نحن فى حاجة الى بعثات قصيرة الى مراكز الابداع المهمة فى أنحاء العالم، بعثات قصيرة مبرمجة وفق احتياجات خطة نهضوية واضحة؟

أسلوب الإنتاج

فى أطر متتالية اعتبارا من المؤسسة العامة للمسرح والسينما والفنون الشعبية إلى هيئة المسرح الى قطاعى المسرح والفنون الشعبية كان الإنتاج المسرحى لما يسمى بـ «القطاع العام».. ومن « مجنون بطه » و « سلك مقطوع » ومسرح الفرق التليفزيونية العشرة إلى الفنانين المتحدين وما أشبه كان مسرح ما يسمى بـ «القطاع الخاص» . بدأ الأول بهيمنة صارمة للدولة كرقيب ومنتج ومفكر ومروج «أى النقد» وبدأ الثانى فى ظل فكر تليفزيونى ترفيهى «امتدادا لساعة لقلبك وتكرار ردىء للفودفيلات القديمة» زاد نفوذه كنتيجة مباشرة لليأس والضياع الذى أعقب الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ .

يكاد القطاع الأول ينتج أعماله لمدينة القاهرة على الأغلب ويقدمها فى الدور المسرحية العامة التى لايتجاوز عدد مشاهدى الليلة الواحدة فيها ٤٠٠ مشاهد ولاتتجاوز أعداد العروض ٢٨ ليلة للمسرحية الواحدة وإذا ما تحققت هذه الأرقام فإنها تعتبر معجزة مع اعتبار أن الإيرادات القصوى لاتتجاوز ٢٥٪ من التكاليف المباشرة للعرض المسرحى الواحد هذا إذا غضضنا النظر عن التكاليف غير المنظورة وأن تليفزيون الدولة يمتنع عن شرائها، ومثل هذه العروض تخضع لكل أنواع الرقابة العامة والخاصة والذاتية ولابتزاز الصحافة الصفراء أيضا. أما القطاع الثانى فينتج أعماله للقاهرة والمصايف وغالبا الإسكندرية ويضع فى حسابه التكلفة والعائد وتغض «الرقابة» الطرف عن أشياء مشينة كثيرة على اعتبار أنها «مصنفات سياحية من إنتاج الملاهى» وينفق المنتج أموالا طائلة على نصوص التسلية الرخيصة التافهة ومايسمى بالنجوم «وهم فى الأغلب لايتقنون فن التمثيل وبعضهم فضل هجرة الفن لحساب المال والشهرة السهلة» كما يعتمد الممول على إعلانات فاضحة لمسرحيته طمعا فى بيعها لمحطات التليفزيون غير المصرية ولشركات الفيديو كى يتمتع بها الأشقاء فى الخليج، أو

يعتمد فى تمويله على صفقات عليها الكثير من الغبار مع كبار صغار الموظفين فى صيغة عجيبة أطلق عليها نظام المنتج المنفذ مرة ومسرح التليفزيون مرة أخرى.

وفى حين يتحرر المنتج الخاص من كل شىء حتى القوانين أحيانا، يلتف حول جسد مسرح الدولة الأغلبية البيروقراطية من الموظفين الماليين والإداريين والحقوقيين، ليستهلكوا قسما هائلا من ميزانية الإنتاج فى حين يمتنع التليفزيون عن تقديم أى تخفيض فى أجر الإعلان، ويشترط لنقل مسرحيات القطاع العام موافقة رقابته «المتشددة المتهاونة» وأن يكون هذا النقل .. بل والإذاعة بلا أى مقابل .

وبينما يستبعد المنتج الخاص كل مايتعلق بالمعايير الفنية والمهنية والحرفية والاجتماعية فهو المتصرف والمستبد الأوحد فى شئونه، لايوجد أى بعد ديمقراطى فى إدارة الفرق الحكومية أو دور العرض، وليس للكاتب العريق ولا المخرج الأصيل أى رأى فى كيفية تسيير الحياة المسرحية فى مصر.

إبتزاز المسئول!

وليس للمكاتب الفنية الصورية أى سلطة، فمدير المسرح أو الفرقة دكتاتور صغير ورئيس القطاع دكتاتور أكبر وهكذا تدار الأمور وفقا للأمزجة والمصالح والشائعات والعواطف الطائشة ، وليس لمجلس إدارة القطاع أى قيمة، ولا للجان الفرعية مثل لجان القراءة التى ترفض نصوصا فتنفذ وتقبل نصوصا فلا ترى النور أبدا، ليس هناك أسس أو قواعد أو ميثاق شرف يتم الاطمئنان والتعامل بهما مع الفنانين والكتاب، بل يستطيع أى صحفى صغير قليل الثقافة والموهبة أن يبتز هذا المسئول أو ذاك بنصف مقال فيفرض نفسه مؤلفا ومخرجا ورقاصا وأن يفرض صديقته نجمة فى ضربة واحدة .. وإلا فإنه سوف ينشر النصف الثانى من مقاله الملىء بالأراجيف وأنصاف الحقائق.

وهكذا يفقد الفنانون الحقيقيون الثقة فى سير الأمور وفى هؤلاء الزملاء السابقين الذين صعدوا فتحولوا إلى كائنات أخرى، وهنا يتم استبعاد كُتّاب المسرح المصرى التاريخيين الراحلين والأحياء، وهكذا ضاعت المنجزات الفنية الثمينة لكل من عزيز عيد و زكي طليمات وفتوح نشاطى وعبد الرحيم الزرقانى، والألفى وغيث وسرور وكرم مطاوع وأحمد عبدالحليم، وأصبح التأليف مهنة من لايعرفون القراءة والكتابة وغدا الإخراج مهنة من أخطأوا طريقهم إلى الفن، وأصبح التمثيل عمل من يستطيعون تدبير تبادل المنافع .

وفى قطاع الفنون الشعبية تجاهلوا أعمال سيد درويش، وبديع خيرى، وفؤاد الجزايرلى، وأحمد صدقى، ولم يعد أحد يستطيع إنتاج أعمال مثل «العشرة الطيبة»، و«القاهرة فى ألف عام»، و«الليلة العظيمة»، و«زباين جهنم»، و«حمدان ويهانة»، و«وداد الغازية»، و«الكل فى واحد»، ولم يعد لديهم إلا «الرائعة المدهشة المعجزة المشرفة» زكية زكريا !!

عجز المباني

لقد انحصرت مسارحنا فى القومى والطليعة والسلام والبالون والهناجر، أما باقى الـ ١٥ مليون مواطن الذين يقطنون العاصمة فلا أحد يسأل عنهم إلا عروض الهواة، ولم تبن الدولة مسرحا واحدا فى الأطراف كحلوان وشبرا الخيمة، والهرم،

وامبابة ، ومصر الجديدة، ومدينة نصر وعين شمس، كما تجاهلت خططنا السفر إلى أقاليم مصر، حتى أن عرضا محترما مثل «ناس النهر» من إنتاج الطليعة قد ووفق على سفره الى أسوان بصعوبة وبعد ضغط بذله الأستاذ مختار جمعه نائب النوبة بينما المفروض أن مهام القاهرة أن تقدم النماذج الفنية الى جمهور الأقاليم المتعطش الى فن مسرحى محترم.

كما لم تعد هناك فرق مسرحية، فكلها لافتات بلا مضمون، ولايوجد عرض واحد يكون ممثلوه من نفس الفرقة، فهناك تعاقدات وانتدابات وانتقالات، بينما لم يدرك المهيمنون على المسائل أن استقرار الفرق وتعايشها الفنى معا كان أحد عناصر نجاح فرقة المسرح القومى فى الستينيات فأنت حين تتعامل معها فإنك تتفاعل مع كيان حى متجانس له فكر وروح وطابع «توفيق الدقن وشفيق نور الدين وسميحة أيوب وسناء جميل وصلاح سرحان وعبدالسلام محمد.. الخ» .

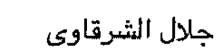
الإبداع والنقد

طفت على التسعينات منظومة اليأس، ومقولة «محدش واخد منها حاجة»، وهنا لايقصدون «الدنيا» بل يعنون المكاسب الجائرة التى دستها الطبقة الجديدة الطفيلية فى سراويلها من وراء الشعب . هى المقولة نفسها التى يمليها البنك الدولى وصندوق النقد على وكلائه وهذا نداء موجه للشعوب ألا تفكر – ولو بالفن – فى تغيير الأوضاع، لذا كانت أغلب عروض التسعينات متشائمة بمسحة من نبل زائف ونبرة تراجيدية زائفة أو روح كوميدية ملفقة تجعل كل القيم السلبية والايجابية متساوية، وبعد انكشاف هذه الموجة ظهرت حالة جديدة تسمم برامجنا المسرحية: كثير من الكلام الفارغ حول الحداثة ومابعد الحداثة والتجريب وعدم العزلة عن الآخر «أرجو ألا يكون هذا الآخر هو إسرائيل» زائد كمية مهولة من العروض الصغيرة التافهة المتناثرة كالطفح الجلدى تتخذ أسماء «مثقفة للغاية» مثل تجربة ومداخلة وتنويعة.. إلخ من العناوين المتحذلقة المضللة، هذا التشرذم ضد فكرة النسق الثقافي ومفهوم الرسالة والمضمون والهدف على اعتبار أن هذه أفكار «شمولية» بائدة، وليست أفكارا كلية تشكل توجها كليا للأمة التى تسعى للنهضة، وفيما عدا عروض نادرة أفلتتها المصادفة البحتة أهدرت الأموال والطاقات والهموم العامة فيما لاطائل- للأمة وللفن – من ورائه . إننا فى حاجة الى عروض كبيرة بكل المعانى تخاطب أعرض الجماهير وتثير أهم القضايا ولاتطرح إلا الجوهر .

ولقد لعبت الصحافة الصفراء دورا فى «تغطية» كل هذا الهراء الذى مضى بنا من اليأس إلى التشرذم، وهذا الدور المشئوم والمشبوه ليس وليد الحقبة الأخيرة، فحسب، فإنه وعلى سبيل المثال لم تنجح مقالات المديح فى مسرح رشاد رشدى وفى شخصه أن تعطى الحياة لمسرحه بعد موته .

ولعلنا نذكر حكاية «الفتى مهران» للشرقاوى وكرم مطاوع التى هاج ضدها ٩٩٪ ممن كانوا يمتهنون النقد بسبب أن الفتى قال للسلطان «لا تذهب بالجيش خارج مصر» قاموا بتحريض السلطات ١٩٦٦ «حين كان السجن الحربى فاتحا أشداقه» ضد الشاعر والمخرج، لولا أن السلطات أوعزت لموسى صبرى أن يدافع



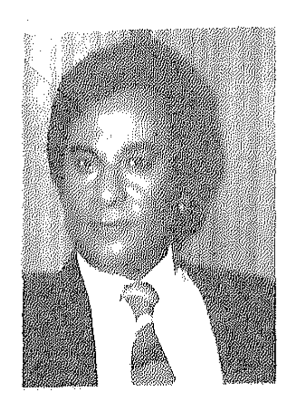


جلال الشرقاوى



سيد درويش

بديع خيرى



أحمد عبد الحليم

عنهما كفرصة لاظهار «سماحة» النظام، ورغم هذا فقد أعمل الرقيب «الحداد» مقصة فى النص وقلمه الأسود فى الإخراج ولم يعش العرض أكثر من ١٧ يوما أصبحت من السجل المشرف للمسرح القومى، فأين ذهب هؤلاء النقاد ؟ وأين ذهب الماء فى وجوههم .

وأذكر أيضا أن اليوم الأول لعرض «ليلى والمجنون» صلاح عبدالصبور، والزرقانى قد عرضت على مسرح الطليعة فى الخميس السابق لـ ١٥ مايو فنشرت إحدى الصحف القومية مقالا لواحد ممن امتهنوا النقد يهاجم فيه المسرحية و كاتبها حتى كاد أن يدخله السجن، ولكنه - وياللعجب - كتب فى الخميس التالى يتحدث عن نبوءة عبدالصبور وفكره الحر !!

واليوم يقوم بعض الصحفيين بانتحال دور النقاد ويحتلون الصفحات ودور العرض ويطاردون الكتاب والفنانين الحقيقيين فالأمر بالنسبة لهم ليس فنا ولارسالة وإنما هو «لقمة عيش»

الجمهور الحقيقى غائب

كل هذا لأن أصحاب المصلحة الحقيقية دافعى الضرائب مقاطعون لمسرحنا التعس، ولهذا السبب نستغيث بهم، ونرجوهم أن يحضروا معنا وأن يطرحوا أحاسيسهم وأفكارهم، وأن تعلو أصواتهم وأن يزاحموا لا أن يقاطعوا و أن يخرجوا من سلبيتهم المعتزة بنفسها .

إننى أدهش كيف يقبل فنان مسرحى على نفسه أن يخاطب مقاعد خالية، أو يكتفى بمخاطبة جمهور غوغائى طفيلى لايزور المسرح إلا وبيده دعوة مجانية .

بينما هناك قوى اجتماعية هى التى تصنع الحياة فى مصر وهى القادرة على تغييرها إلى الديمقراطية والتنمية والنهضة والاستقلال ، وهم المهندسون والعلماء والبحاثة، والمحامون والقضاة والأطباء، ورجال الإدارة وأساتذة الجامعات والضباط وعمال الصناعة، والفلاحون المستديمون والقادة النقابيون والقاعدة العريضة من المثقفين وطلاب الجامعات،. كم من هؤلاء يؤمنون المسرح ؟ هم لب المجتمع وقوام الجمهور المأمول للمسرح المصرى، فهل نكتب لهم وعنهم ومن أجلهم وهل نخرج ونمثل ونصمم ونعزف ماينعش أرواحهم ويذكى عقولهم وقلوبهم ؟، كيف نمضى فى خضم هذا القرن الجديد الملىء بالصراعات القاسية الحاسمة والاختبارات المصيرية ؟. ■

قـــراءة نقـــديـــة لمسلسلات التليفزيون

انتقال الصراع من الشاشة الصغيرة إلى الحياة اليومية للمصريين !!

بقلم
د. عـــزة عـــزت

كلنا يعرف أن الدراما - أية دراما - تقوم على فكرة الصراع، سواء كان ذلك الصراع يدور حول الحصول على شئ ذى قيمة حقيقية مطلقة، أو يدور حول الحصول على المال والجاه والسلطة .. وهى أشياء كان موضعها فى سلم القيم المصرية يأتى متأخرا .. لابل متأخرا جداً، والحق يقال إن المرء ليعجز عن تحديد أيهما كان أسبق؟ انقلاب السلم القيمى فى المجتمع المصرى وعلو قيمة المال والنفوذ ؟؟ أم العكس هو الصحيح، إذ بدأت الدراما تعلى من قيمة المال والسلطة والسطوة فوق القيم المطلقة على الشاشة ؟؟ ومنها انتقلت العدوى إلى الشارع المصري، أو الشخصية المصرية ؟!!



ولا فــرق هنا بين دراما تليفزيونية ودراما سينمائية، فكلتاهما يطالعها المشاهد المصرى بكل ما تحويه من صراع إلى حد الاقتتال العنيف على الشاشة الصغيرة (شاشة التليفزيون)، التى أثبتت الأبحاث العلمية فى مجال الإعلام أن العامة من الناس تتعرض لما يقدم على الشاشة الصغيرة من دراما لمدة ست ساعات يوميا على الأقل، ويتعرضون وهم فى حالة استرخاء يسمح بالتلقى السلبى، دون أدنى إعمال للذهن فيما يقدم، بما لايسمح بالتقويم والمناقشة بالرفض أو القبول .. المهم هو أن جرعة مكثفة من الدراما - الممثلة فى الأفلام والمسلسلات - يتلقاها المشاهد المصرى يوميا، يعد الصراع الحاد والعنيف هو البطل الأول فيها وبتكثيف شديد .

يحدث ذلك فى ظل أن الصراع لم يعد مقصوراً على مجرد شرير واحد villain كان يقصد به نذل أو وغد أو حد كرمز للشر المحرك للصراع، أو الذى يحرك الأحداث لتتصاعد نحو الصراع، وكان فى الأغلب الأعم شخصية كريهة ، أوكان كاتب الدراما والمخرج والممثلون المؤدون لها يحاولون أن يحددوا ملامح سلوكها ومظهرها وكل أبعادها كشخصية درامية بحيث يكرهها المشاهد من الوهلة الأولى،

وكانت تصرفات هذه الشخصية تنحصر غالباً في الوقيعة بين المحبين، أو الدس بين الزملاء والصعود على أكتافهم ، أو التحايل بأساليب ماكرة أو داهية بمفهوم ساذج أحياناً، أو حتى محنك .. لكنه لايقاس بحال بما نراه الآن من دهاء يحار فيه إبليس نفسه .. ولا يقاس بما نراه اليوم على الشاشة من ألاعيب مافيا المال والأعمال، فى المسلسلات المصرية، قبل أن نتهم المسلسلات الأجنبية .

فالوغد أو النذل على الشاشة زمان كان يعمل منفردا، أو على الأقل فى إطار عصابة من الأشرار الذين لا يقاسون بأشرار هذا الزمان .. بل هم ملائكة أطهار قياسا بهم .. سواء فى الدراما التمثيلية أو فى دراما الحياة، وهنا أيضا يحار المرء فى تحديد أيهما كان سابقا للآخر ؟؟ وأيهما استقى مادته من الآخر ؟؟ هل الدراما التمثيلية هى التى تعكس ما يدور فى الحياة مضافاً إليه زخم من خيال المؤلفين وكتاب السيناريو ؟! أم أن الدراما هى التى قدمت للجمهور على الشاشة النماذج التى يتمثلها، ويتوحد معها، ويقلدها فى الحياة ؟!!

تصوير الواقع ورسالة الفن

أيا ما كان الأمر البيضة أولا أم الدجاجة ؟؟ المهم أنه قد وقع المحظور، واختلطت الأوراق ، ولانستطيع تفنيطها، لتحديد من الذى حاكى الآخر ؟ وأين الأصل وأين الصورة ؟؟ فربما أن الخطين قد سارا متوازيين ، فكتاب الدراما غالباً ما يستقون مادتهم بكل – أو ببعض – عناصرها من الحياة، وينتقون شخصياتهم ممن يلتقون بهم سواء فى واقعهم المعاش فى البيت والشارع والعمل، أو حتى من صفحات الحوادث فى الصحف، ولا لوم عليهم فى ذلك فالفن مرآة للمجتمع، لابد أن يعكس ما فى هذا المجتمع .. وإلا ظل معزولا عنه وعن الجمهور الذى يشاهده .. لكن الفن عليه أيضا مهمة تجميل هذا الواقع، والسمو به، والارتقاء بالمجتمع على هذا الواقع الذميم، وتقديم النماذج المتنوعة والمختلفة، والقطاعات والطبقات كلها دون تركيز واضح على الغث والملوث، والمنحرف، والمدمن، والمجرم، والقاتل ، واللص ، والمرتشى، والمرأة الغانية والخائنة، والراقصة، والضالعة فى شتى صنوف الانحراف، والتى أصبحت تنافس الرجال فى كم ما تمارس من عنف وهيمنة فى مجالات المال والأعمال، أو عالم «البزنيس»، كما يسمونه .

كل هذا وما قلته حتى الآن يدور فى إطار العموميات دون تخصيص، أو ذكر العمل بعينه من الأعمال الدرامية، التى نستطيع أن نلقى باللوم عليها تحديدا، لنقول إنها تعد سبباً مباشراً، أو حتى تعد عنصراً مشاركا فيما حدث فى المجتمع المصرى من تغيير ، وما أصاب الشخصية

المصرية من تحول، لأن ما حدث كان نتاجاً لعوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، وإعلامية ، كانت الدراما عنصراً فرعيا فيها.. لكنه مؤثر بشكل فاعل، خاصة وأنه قد هب على الشخصية المصرية فى موجات متلاحقة من العنف والشر بكل ألوانه .

الاختراق الإعلامى

مما لاشك فيه أن الانفتاح على العالم اقتصاديا كان عنصراً أساسيا وفاعلا فيما حدث للمصريين .. لكن الخضوع للغزو الثقافى والاختراق الإعلامى، والرضوخ للهجمة الفضائية الشرسة ، التى يتعرض لها الشعب المصرى والعربى .. بل وكل شعوب العالم النامى ، والدول ذات الحضارات العريقة، أو الهويات المتميزة، هذه الهجمة بكل ما يتوافر لها من عوامل جذب، لها دورها الفاعل فيما يصيب الشخصية المصرية من تحول، وقد كانت البداية أو القيادة للسينما الهوليودية بكل ما لها من عناصر إبهار ، لفرض النموذج الأمريكى، وطراز الحياة الأمريكية بكل ما فيها من تناقض مع واقعنا الشرقى العربى الإسلامى، وما تلا ذلك من مسلسلات أجنبية شدت إليها جمهورا كبيراً من المشاهدين المصريين، بكل ما تحمله من سخف درامى، وصراع على أشياء دنيا وقيم وهمية لا تستحق.

ويكفى أن نذكر تدليلاً على ذلك مسلسلين فقط ممتدى الحلقات (مائة حلقة أو يزيد)، بما يعنيه ذلك من إلحاح إعلامى له تأثيره التراكمى على الفكر والسلوك، وهما مسلسل «فالكون كريست» و«الجرئ والجميلات»، اللذان قلدهما التليفزيون المصرى أو رد عليهما بسلسلة من مسلسلات «الهلس العائلى» و«الخلط المزوق »، فى مسلسلات تعتمد على الإبهار بالأزياء والممثلات الجميلات ، وديكورات القصور و«السفرجى أبو حزام »، من نوعية «هوانم جاردن سيتى» و«كلمات » وما سبقهما لنفس المؤلفة من مسلسلات الجوارى المنفلتات من القيود ، والحريم والحرملك .. وإن كانت هذه المسلسلات تمزج بعضاً من سلوكيات مرفوضة بتصرفات مهذبة مقبولة ، تمثل تقاليد طبقة منقرضة.. وعلى أى حال فإن هذه النوعية ليست مربط الفرس، أو العامل المحرك للتغير فى الشخصية المصرية .. لكنها وسيلة تغييب كان لها أثرها على الشخصية المصرية الراضية القانعة بالقليل، وسحبها إلى حلم الحياة المترفة كخطوة – لم يحسب مقدمو هذه النوعية من الدراما

حسابا لما يليها من خطوات – من حيث إمكانية تحقيق مثل هذه الحياة على أرض الواقع، بطرق مشروعة أو غير مشروعة، كما لم يحسبوا حساب إلهاب خيال المشاهدين من البسطاء والعامة برغبات هى بالنسبة لهم مستحيلة أو شبه مستحيلة، أو إثارة أحقادهم على هذه الفئة من البشر ، الذين يعيشون فى بلهنية.

هذا وقد أحدثت التأثير نفسه أيضا مسلسلات أخرى صورت حياة تجار المخدرات ومافيا الرشاوى والعمولات ورجال الأعمال، التى كان لها تأثير أبلغ وأعمق فى النفوس المتعطشة لحياة النعيم المقيم، الذى تراه على الشاشة الصغيرة ولا تستطيع تحقيق حلمها فى الثراء السريع .. بعد أن استثارت هذه النوعية من الدراما هذا الحلم بتوحش ، وأفقدت المصرى أحد أهم سماته الأصيلة وهى : الرضا والقناعة والصبر ، ومن ثمة التفريق الواضح بين الحلال والحرام من منطلق أن من أبرز سماته التدين .. التى تنبثق عنها سمات أخرى بارزة فى شخصية المصريين، ضربت أيضا فى مقتل بفعل عوامل اقتصادية، بعد اتباع سياسة الانفتاح، وبفعل نوعية أخرى من المسلسلات والأفلام التى أعلت من قيمة القوة فأفقدت المصرى الطيب المسالم المتسامح ملمحا مهما ملامحه .

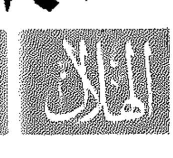
سيادة قيم الهيمنة والقوة

مما سلف يمكننا القول بأن حلم الثراء ووهم الرفاهية ليسا الاتجاهين الوحيدين اللذين صدرتهما لنا أمريكا .. لكن هناك سلسلة من التوجهات التى صدرتها – ومازالت تصدرها – لنا مرة فى شكل موجة من أفلام العنف أو الـ Action ، التى بدأت بأفلام رعاة البقر Cowboys أوال western ، التي يتساقط فيها البشر كالذباب، بوابل من الرصاص دون ذنب جنوه .. إلا الرغبة فى حصول القتلة على الذهب ، أو الاستيلاء على الأرض، وقطعان الأبقار ، والخيول الوحشية وإرهاب الآمنين بكل ما تضمنته هذه الموجة من الأفلام من إساءة وتشويه لصورة شعب آمن هم الهنود الحمر – رغم أنهم سكان أمريكا الأصليون – وبكل ما تضمنه ذلك من ترويج لفكرة أو وهم الهيمنة بالقوة، وإعلائها كقيمة على قيم الحق والعدل، ثم تصفية رعاة البقر لبعضهم البعض بخسة ونذالة منقطعة النظير، بكل ما يعنيه ذلك من إعلاء وانتصار للشر على الخير فى الصراع، أو على الأقل هيمنة الشر وانتصاره على طول الخط وانتصار الخير فى الدقائق الأخيرة فقط، وقد حاولت السينما المصرية تقليد هذه الموجة أيضا ، دون مبرر مفهوم أو مستمد من واقع الحياة المصرية إلا أن يتربح أو يسترزق الطوخى

أشهر مصممى المعارك فى السينما المصرية .

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن السينما أو الدراما التليفزيونية الأمريكية - والحق يقال - كانتا صادقتين مع ما تريد أمريكا تحقيقه من توجهات لشعبها ولجمهورها فى كل أنحاء العالم ، إذ كانتا تعكسان بحق ما يدور على أرضها من تحقيق للسيادة والهيمنة بالقوة، فأمريكا قامت كدولة بهذا الأسلوب الذى قدمته الشاشة، وثبت لدى المشاهدين هذا الأسلوب فى تحقيق الأهداف بناء على أن الغلبة للأقوى.. ولكن ما علاقتنا نحن فى مصر الآمنة الراسخة عبر القرون بهذا الدرس المكرر فى كل الأعمال الأمريكية !!؟

ولم تكتف أمريكا بهذه الموجة الرامية لتكريس قيمة القوة والعنف .. بل أتبعتها بموجة أفلام جيمس بوند ورامبو ومازينجر ، التى حاولت السينما المصرية تقليدها بصورة ركيكة ومهزوزة، فى أفلام لها نفس الطابع العنيف، بدأت بأفلام حركة وعراك وقتال غير مبرر ، ولحقتها موجة من أفلام المطاردات بين عصابات المخدرات والتهريب ، التى سادت الإنتاج السينمائى المصرى لفترة طويلة ، وتواكبت معها قلة من أفلام الضرب للضرب، التى تولى بطولتها بطلا كمال الأجسام والكونغ فو فى مصر: الشحات مبروك ، ويوسف منصور، تقليداً لطيبى الذكر فندام وسلفستر استالونى وأرنولد شوزينجر واستيفن سيجال، الذين يحارب الواحد منهم أمة بمفرده، والنتيجة أن يعجب بهذه الأفلام ويقبل عليها الشباب المصرى - دون وعى بما تطرح من قيم إعلاء للقوة الجسدية ، وبالتالى القوة الغاشمة بكل صورها - ويغرمون بنجومها، ويتمثلون الشخصيات السينمائية بكل ما تطرحه من قيم سلبية، ولا غرابة بعد هذا الزخم من الأفلام والمسلسلات سواء الأصلى منها أو التقليد - أن يتخلى المصريون عن كثير من سماتهم الشخصية .. سواء كان ذلك على مستوى المظهر والسلوك، أو على مستوى القناعات، أو تبنى أفكار تعد دخيلة على الشخصية المصرية الودودة الطيبة الملتزمة بقيم مطلقة تعلى من قيمة الخير والحق والعدل، وتنحى أو تضع القوة والبطش والسطوة فى آخر أولوياتها .



كل ذلك فى إطار تنحية قيمة السلطة الأعلى التي يحترمها المصرى الأصيل والتى تعد من أبرز سماته الممثلة فى احترامه للأكبر ، وللسلطة فى كل أشكالها سواء كانت سلطة أبوية أو السلطة الممثلة فى العمدة أو الشرطة أو الحاكم، فقد فاجأتنا الدراما المصرية - أفلام أو مسلسلات - بكم من الأعمال التى تحض على استخلاص الحق بالذراع (سلسلة أفلام عادل إمام) ، بعد أن يسيطر على العمل ككل سطوة القوة الغاشمة، وعجز الشرطة أو القضاء عن رد المظالم ، وإعادة الحق لأصحابه سواء كان ذلك من خلال تواطؤ الشرطة مع العمد ورجال المال والأعمال، وترابط مصالح كل هذه الفئات الممثلة للنفوذ والسطوة، أو لتورط بعض رجال الشرطة مع ذوى النفوذ والسطوة ، أو نتيجة تباطؤ الشرطة فى الوصول إلى الجاني، وظهورها فى آخر لحظات العمل الدرامى تهرول ببلاهة تحسد عليها «بعد خراب ملطا »، أو لخضوع أفرادها لضغوط أصبحت محفوظة، من كثرة تكرارها فى معظم الأعمال الدرامية المصرية دون تحديد أو تخصيص لعمل بعينه .

المهم أنه نتيجة لهذه النوعية من الأعمال ترسخ فى ذهن جيل كامل من الشباب المصرى أن تخليص الحق يتم باستخدام كل فرد لإمكاناته ونفوذه ومصادر قوته ليحصل على حقه ، مما أشاع لوناً من الفوضى والبلطجة فى الشارع المصرى ، لابد من الأعتراف بأنه كان نتاجاً لكثرة ما تعرض له الجمهور من دراما محرضة على الانتقام بمنطق «الكونت دى مونت كريستو «أو «أمير الانتقام» والعودة بنا إلى عصور ما قبل النظم الشرطية والقضائية، متجاهلين أن المناخ العام مختلف وأن طبيعة الجمهور المصرى مختلفة، وأصبح الشارع المصرى يتميز بالعنف الذى لم يكن يوماً ما سمة مصرية بحال من الأحوال .

وللجنس قصة أخرى

أما عن فوضى العرى والجنس وفجاجته فحّدث ولاحرج، عما تقدمه الدراما الغربية بوجه عام، والأمريكية على وجه الخصوص، مما تنتجه السينما ويعرض التليفزيون المصرى بعضه ، ويعرض بعضاً من نماذجه المقلدة فى السينما المصرية بكل ما تحويه من تركيز على النماذج الشاذة والغريبة على مجتمعنا ، الذى يفترض أنه مجتمع متدين محافظ يحترم ما اتفق عليه العرف وأقرته التقاليد، ويتمسك بقيم تحض على الحياء والالتزام الأخلاقى، وإعلاء قيم الشرف بمفهومها الدقيق .. ومع ذلك تفوقت الأفلام المصرية على الغربية فى دعم

مفاهيم مغلوطة في هذا الصدد تمجد الراقصة الشريفة والمجرم أو القاتل المحترف والهاربين من العدالة بوصف أن لهم وجها آخر لا نعرفه، يتسم بسمات من النبل والشرف !! وغني عن الذكر سلسلة أفلام المخرج حسن الإمام ، وما قدمته مسلسلات التليفزيون أيضا من تمجيد للنجوم - ولا اعتراض منا على ذلك -إلا من حيث وجود تجاهل تام لرموز وقمم مصرية أخرى فى شتى مجالات الحياة العامة والعلم لم تحظ بهذا التقدير من الدراما التليفزيونية والسينمائية، وكأن مصر لم تنجب غير المطربات والراقصات وأهل الفن !!! أما بالنسبة لبرامج التليفزيون فحدث أيضا ولا حرج عن تمجيدها للفن والرياضة وأهلهما .. دون باقى الأعلام والقمم .

هذا على الرغم من أن السينما المصرية فى فترة المد الثورى ، التى استغرقت عقدى الخمسينيات والستينيات اللذين كان الإنتاج السينمائى فيهما تشرف عليه مؤسسة عامة لها توجهاتها وأهدافها الواضحة المحددة، قد أنتجت كما لا بأس به من الأفلام المتميزة فنيا وقيمياً، من حيث حضها على مبادئ ثورة يوليو (الاتحاد والنظام والعمل) ، أو الحث على التعاون بين الفئات المغلوبة على أمرها، والتى قهرت طوال سنين ما قبل الثورة من العمال والصيادين والفلاحين ، فى مواجهة القوى المستغلة لجهدهم، وقد نجحت هذه الأفلام ، وأيضا مسلسلات التليفزيون فى بداياته فى بث روح جديدة فى الشخصية المصرية ، وفى السواد الأعظم من الشعب المصرى .

أما فيما تلى ذلك من عقود فقد تخبط الإنتاج السينمائى والتليفزيونى بين توجهات شتى ، لايجمعها رابط أو ضابط فمنها ما يمجد نضال الطبقات الكادحة، ومنها ما يمجد نضال الباشوات وحدبهم وحنوهم على الفقراء ، فى مقابل حقد وتطلع هؤلاء الفقراء ، وتدنى أخلاقياتهم كنتيجة مباشرة لأصولهم الوضيعة ، على حد تصور بعض كتاب الدراما التليفزيونية ، وفى مقدمة هؤلاء جميعا مسلسلات ثروت أباظة ، المجدة لحقبة ما قبل الثورة ، والمنددة بكل ما تم بعدها من إنجازات وما اتخذ من قرارات ، من خلال دراما

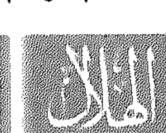
متعالية على الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى ، الممثلة الحقيقية لشخصيته الأصيلة، فى مقابل الطبقات الممثلة لبقايا الأرستقراطية التركية .

وهنا يجب ألا نغفل ما أحدثته هذه النوعية عن المسلسلات من بلبلة لدى الشباب - ممن لم يعيشوا فترة المد الثورى أو بدايات الثورة - إذ هدمت هذه المسلسلات والأفلام رموزها الوطنية، وصورتها على أنها أحلك أيام مصر، وأن الشعب المصرى إبانها كان يغوص فى برك الدم، وأن السجون والتجاوزات القانونية والتعدى على الحريات كانت السلوك اليومى للسلطة والمعاناة اليومية للشعب، وهنا أيضا لابد من التسليم بأن مثل هذه البلبلة والتخبط - سواء اتفقنا أو اختلفنا معه - قد أحدثت شرخا فى الشخصية المصرية، لسبب بسيط هو أن هذه الأعمال هدمت ما سبق ولم تقدم القدوة البديلة ، والرمز الذى يجب أن يحتذى ، فافتقد الشباب القدوة، وافتقد معها الولاء والانتماء لشخص أو لشئ أو حتى لوطن أو أرض ، ولعل تخلى المصرى عن اعتزازه بذاته كان نتيجة مباشرة لذلك .. اللهم إلا بارقات من آمال أعادت للشخصية المصرية توازنها واعتبارها، واعتزازها بذاتها من خلال بعض المسلسلات والأفلام السينمائية والتليفزيونية ، من مثل: «رأفت الهجان» و«دموع فى عيون وقحة» و«الثعلب» و«الحفار» رغم ركاكة تنفيذ الأخير - بالإضافة إلى عدد من المسلسلات المأخوذة عن ملفات المخابرات العامة، فى حين فشلت السينما والتليفزيون فى إنتاج عمل يرقى إلى مستوى حدث مثل نصر أكتوبر، أو أى من المعارك العسكرية المصرية فيما عدا «الطريق إلى إيلات»، وكأن البطولة المصرية قد انحسرت فقط فى مجال الجاسوسية والمخابرات.

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن التليفزيون قد تفوق على السينما فى مجال مهم هو مجال الدراما التاريخية، التى تمجد حقباً متعددة من تاريخ مصر الفرعونية ، والإسلامية والمتصلة بتاريخ مصر الحديث، وبعض رموز هذه الحقب، ناهيك عن الاعتزاز بكل الرموز العربية والإسلامية ، التى قدم فيها التليفزيون - ومازال - الكثير مما يحمد له من أعمال، كان لها أثرها فى نفوس المشاهدين، مما يعتبر تعديلاً لكفة الميزان فى صالحه، وفى صالح الدور الذى يفترض أن يقوم به فى مجتمع نام يحتاج إلى كل ما يصقل شخصية أفراده ، ويدعم تمسكهم بقيمهم الأصيلة ويؤكد اعتزازهم بهويتهم.

وضعية مميزة للتليفزيون

من كل ماسبق يمكننا القول بأن



السينما كان لها تأثير سلبى أكثر منه إيجابى، فيما يتعلق بهدم رموز ، وطرح قضايا لا تمثل الواقع المصرى، بشكل أساء إلى الشخصية المصرية أكثر مما مجدها ، ولعل ذلك ما حدا بعدد من الباحثين إلى دراسة صورة المرأة فى السينما المصرية ، وصورة رجل الشرطة فيها، وصورة رجل الدين، نظراً للشعور العام بأن السينما أساءت إلى هذه النماذج البشرية المشرفة فى المجتمع المصرى ، بشكل يخجل منه المصريون العاملون فى الخارج، الذين يجابهون بأسئلة تستفسر عن حقيقة المرأة المصرية ، وهل هى حقا راقصة وخائنة و..و..و.. ؟؟!!.. لكن التليفزيون هو الوسيلة الإعلامية الأكثر تأثيراً الآن لأسباب عدة، أبرزها دخوله كل بيت ليس فى مصر وحسب .. ولكن كل بيت عربى فى كل بقاع الدنيا، بسبب السماوات المفتوحة، وانتشار القنوات الفضائية، الأمر الذى يحمل التليفزيون مسئولية أكبر فى أن يكون مرآة للمجتمع المصرى يعكس ما يدور فيه من أحداث .. دون مغالاة فى تصعيد الفج والشاذ من الأحداث والشخصيات .. ودون الخوض فى المستنقعات فقط دون القمم .. كى يستطيع تقديم النماذج المشرفة، وتغطية شتى فئات المجتمع السلبى منها والإيجابى، وتحسين صورة هذه الفئات، والعلو على الواقع للنهوض به .. دون أن تستغرقه الدراما المبنية على الصراع الحاد بين الأخوة وأبناء العمومة ، وصراع الأجيال بشكل دام بأسلوب يتعلم منه النشء قيما سلبية بأكثر من تعلمه قيماً إيجابية أصيلة، لذا فإن ما نراه اليوم من صراع أسرى حاد لاشك أنه مردود مستقى مما يشاهده الناس على الشاشة.

★★★

فلتستق الدراما من المجتمع أفضل ما فيه من نماذج .. أو على الأقل توازن فى الاختيار بين الغث والثمين، حتى لا تكرس السلبى وتطبع المجتمع كله بسماته، فالفن وظيفته السمو بالمجتمع وليس الهبوط به، وليس أدل على ذلك من التأثير التطهيرى الذى أحدث عرض المسلسل اليابانى«أوشين»، الذى لم يكرر التليفزيون المصرى عرض مسلسل على غراره دون مبرر مفهوم!! وأيضا مسلسلات مثل : رأفت الهجان »و«أم كلثوم»و أفلام مثل : «الطريق إلى إيلات » ، و « ناصر ٥٦ ».

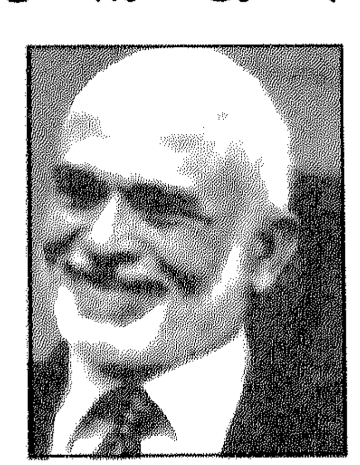
■

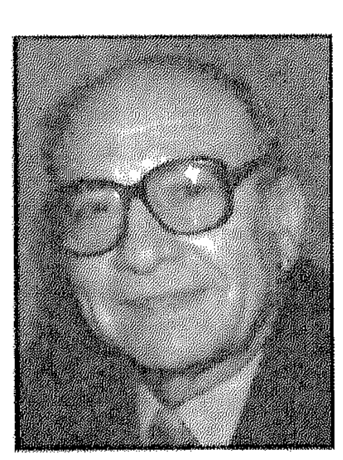


بقلم
د. عبد العظيم انيس

ليس هذا عنوانا رومانسيا، وإنما أشير هنا إلى ذكرياتى فى صحيفة «المساء» المصرية وكنت قد أشرت فى مقال سابق بالهلال أننى عندما عدت من بريطانيا أثر العدوان الثلاثى على مصر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بعد أن استقلت من عملى فى لندن، اتصل بى الاستاذ خالد محيى الدين عارضا علىّ أن أعمل معه فى صحيفة المساء، فقبلت لأنه لم يكن أمامى من عمل آخر .

ولابد أنه فى تخمينى قد استأذن عبد الناصر قبل أن يتصل بى وأن عبد الناصر وافق على ذلك. واخترت أن أهتم بالشئون العربية فى صحيفة المساء.


الملك حسين


خالد محيى الدين

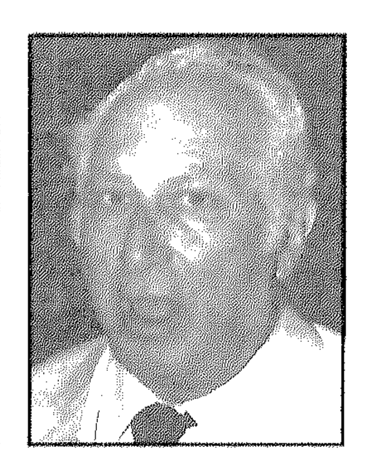

على صبرى

كانت تلك الفترة من تاريخ مصر مشرقة ومليئة بالآمال.

لقد هزم العدوان الثلاثي واضطرت القوات الاسرائيلية إلى الإنسحاب من سيناء ومن قطاع غزة بعد أن دمرت خط السكه الحديد الذى يربط مصر بغزة، كما انسحبت القوات البريطانية والفرنسية من منطقة القنال. ولا شك أن الولايات المتحدة قد ضغطت على حلفاء العدوان الثلاثي للانسحاب بالإضافة إلى تهديد خروشوف بالتدخل العسكري إن لم يتم الانسحاب .

وكان موقف الولايات المتحدة هذا - وايزنهاور بالذات - يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا أخفتا عن واشنطن تفاصيل مشروع العدوان الذى تم التوقيع عليه سرا فى معاهدة «سيفر». ولم يغفر أيزنهاور لإيدن هذا العمل وكان التهديد بزعزعة الجنيه الاسترلينى فى الأسواق الدولية كافيا لا للانسحاب فحسب بل لإخراج إيدن من زعامة حزب المحافظين بعد ذلك، وبالطبع كانت أمام أمريكا فرصة ذهبية لكى تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) فى الشرق الأوسط، وهكذا بدأ تقديم «مشروع ايزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة كما يزعمون، بعد الانسحاب مباشرة.

وبالطبع كان عبد الناصر يدرك أهداف مشروع ايزنهاور ، لكنه فى ظنى كان فى حرج للدور الذى لعبته أمريكا فى تحقيق الانسحاب ، ولذلك آثر أن تبدأ الحملة على مشروع إيزنهاور فى صورة خطابات من الرأى العام إلى



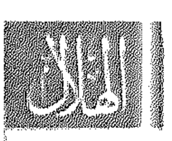
لطفى واكد



عبد الرحمن الخميسى



سليمان النابلسى



جريدة الشعب (وكان الاستاذ لطفى واكد رئيسا لتحريرها آنذاك) تدين المشروع . وبالطبع كانت جريدة المساء ضد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميه . لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هو أن تعرف واشنطن أن الشعب كله ضد المشروع.

وهكذا اتصل بى الاستاذ لطفى واكد ذات صباح وطلب أن أن أزوره فى مكتبه بصحيفة الشعب . فلما ذهبت وجدت على صبرى حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقاء . وقال لى لطفى واكد: إنه يريد من قوى اليسار أن تغرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع إيزنهاور وأنه يطلب منى المعونة فى هذا . وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع إيزنهاور . ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذى لعب دورا فى قتل المشروع فى المهد .

انتصارات الحركة الوطنية العربية

وبالطبع لم تسكت واشنطن ، خصوصا بعد أن تعددت انتصارات الحركة الوطنية العربية ، فطرد الجنرال جلوب من الاردن وحل محله على أبو نوار كقائد للجيش وتحركت الأحزاب الوطنية فى الأردن لتحقيق حكم وطنى برئاسة سليمان النابلسى حيث كان الكثير من زعماء الاحزاب الوطنية وزراء فى تلك الحكومة ومنهم على سبيل المثال شفيق أرشيدات للتعليم وعبد الحليم النمر للداخلية .... الخ .

على أن هذا التحول فى الأردن لم يظل طويلا إذ جرى انقلاب وزارى آخر وإن لم يكن انقلابا كاملا ، إذ ظل سليمان النابلسى وزيرا للخارجية بعد أن كان رئيساً للوزراء وظل عدد من وزرائه فى مواقعهم ، بينما تولى الرئاسة أحد الموالين للملك حسين .

كانت هذه بداية التهديد التركى بغزو سوريا من الشمال ، وكان التهديد جديا ولعبت الأحزاب المعادية للقومية العربية دورا فى اهتزاز الأوضاع فى سوريا باغتيال العقيد عدنان المالكى الذى كان يشغل منصبا حساسا فى الجيش السورى فيما أتذكر ، كل هذا كان فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

واختار عبد الناصر أن يرسل وحدات من الجيش المصرى إلى اللاذقية واستقبلت تلك القوات استقبالا يفوق

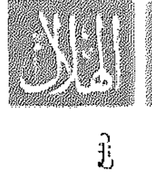
الوصف فى سوريا . وكانت هذه هى الظروف التى سافرت فيها إلى سوريا موفدا من صحيفة المساء .

ومع أهمية البحث عن الوضع فى سوريا بعد وصول القوات المصرية ، إلاّ أننى أدركت أهمية زيارة عمان أيضا حيث كان الصراع على أشده بين الأحزاب الوطنية فى الأردن ورجال الملك حسين . وهكذا سافرت إلى عمان لقضاء ثلاثة أيام فقط ونزلنا فى فندق نادى عمان وكان يقيم به عدد من الوزراء الأردنيين الذين يعيشون أصلا خارج العاصمة ، وهكذا توثقت صلتى بعدد منهم من بينهم شفيق أرشيدات وعبد الحليم النابلسى. كما استعنت بالصديق حسن النابلسى لمقابلة سليمان النابلسى وفهم الأوضاع منه فوجدت منه عتابا على عبد الناصر لأنه يشتد فى رأيه فى معاملة الملك حسين . لكن الجو كان مكهربا خصوصا أن الأحزاب الوطنية قد قررت عقد مؤتمرها فى نابلس وكان الملك حسين مصمما على إفشال المؤتمر ومنع المقيمين من أعضائه فى عمان من السفر إلى نابلس ، إذ أنه حاصر مخارج عمان بقوات الشرطة .

وفى هذه الظروف حدث أغرب ما يمكن أن يحدث لصحفى خالى الذهن عن العمليات السرية . فقد اتصل بى الملحق العسكرى المصرى فى الفندق وطلب منى أن أمرّ عليه فى مكتبه فلما ذهبت إذ به يطلب منى أن أسافر إلى نابلس فورا ومعى اثنان من قيادة الحركة الوطنية فى سيارة من سيارات السفارة . ولما سألته كيف ستسمح الشرطة الاردنية بخروجنا من عمان أجاب ببساطة : لا تحمل هم ذلك ، وطلبت منه أن أعود إلى الفندق لاحضار بعض الملابس معى إلى نابلس ، ولكنه رفض ثم سألنى فجأة : هل تجيد إطلاق الرصاص ؟ فضحكت وقلت له إننى لم أمسك مسدسا طوال حياتى . فقال : إذن يذهب معك فاروق القاضى لأنه يجيد إطلاق النار .

السفر إلى نابلس

وهكذا سافرنا فى ظلام الليل إلى القدس ومعنا اثنان من قادة الاحزاب : فائق دراد الذى أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعى الأردنى بعد وفاة فؤاد نصار ، والآخر هو عيسى مدانات أحد قيادات الحزب ، وفى ظلام الليل لم أعرف من ركب معنا السيارة أنا وفاروق القاضى ، ولكن خطر فى بالى أنهما



رجلان فى ملابس شبه نسائية ، وبالفعل عندما وصلت السيارة إلى نقطة التفتيش فى مخارج عمان أبرزنا للشرطى جواز سفرى وجواز سفر فاروق القاضى فأشار إلينا بالذهاب ، ولم أصدق أننا بهذه السهولة اخترقنا نقاط حصار الملك حسين ، وكان المطلوب منا هو توصيل الرجلين إلى منزل القنصل المصرى فى القدس ، ووصلنا بالفعل إلى منزله حوالى الساعة الثالثة صباحا فوجدناه فى انتظارنا ورحب بنا غاية الترحيب ونمنا بضع ساعات فى غرفة الجلوس ، ثم قمت أنا وفاروق القاضى بالسفر وحدنا إلى نابلس مارين برام الله حيث استرحنا فى منزل كمال ناصر (الذى اغتاله الاسرائيليون فى بيروت بعد ذلك بسنين طويلة) وتناولنا الغذاء فى منزله ثم ودعناه إلى نابلس التى وصلناها فى المساء ، ووجدت أن المنظمين للمؤتمر قد رتبوا لى النزول فى منزل قدرى طوقان ، فاتجهت من فورى إلى قاعة المؤتمر فى نابلس حيث حضرت جلسته الختامية ، وقابلت د. عبد الرحمن شقير زعيم الجبهة الوطنية آنذاك وفؤاد نصار أمين عام الحزب الشيوعى الأردنى وفهمى السلفيتى وبقية قادة الاحزاب الاردنية .

وربما يتيح لى الزمن أن أتحدث عن متعة الاقامة فى بيت طوقان والاحاديث الجميلة التى دارت بينى وبين قدرى طوقان والشاعرة فدوى طوقان وحافظ طوقان ، وكيف ظللنا نتحاور فى الامور المختلفة حتى الصباح تقريبا .

وكان من الواضح لى أن الملك حسين يستعد لضربة ردا على قرارات الاحزاب الوطنية ، وبالفعل فلم أكد أعود إلى عمان وأنزل فى نادى عمان حتى أعلن الملك حسين الأحكام العرفية وغير الوزارة بوزارة من الموالين له ، ومنع الخروج من نادى عمان بالأمر العسكرى .. وبذلت السفارة المصرية جهودها للتصريح لى بمغادرة عمان . وبالفعل غادرت عمان إلى دمشق ، لكن عبد الرحمن الخميسى كان قد طير خبرا لجريدة الجمهورية باعتقالى فى عمان . ولم يكن الخبر بالطبع صحيحا ، وعندما وصلت إلى دمشق وعلمت بالموضوع وسألت الخميسى لماذا فعلت هذا؟ أجاب وهو يضحك : من باب الاحتياط!.

التهديد التركى لسوريا

عندما وصلت إلى دمشق كانت أزمة التهديد التركى لسوريا فى أشدها ، وكانت القوات المصرية قد أخذت

مواقعها فرأيت أن من المناسب أن أزور عددا من المدن السورية لاستكشاف الاستعدادات لمواجهة الغزو التركى المحتمل . وبالفعل ذهبت إلى المكتب الثانى (المخابرات) وقابلت عبد الحميد السراج (رئيسه آنذاك) وطلبت منه ترتيب التصريح لى بزيارة عدد من المواقع .. فى حمص واللاذقية وحلب ... الخ .

فرحب بذلك وأصدر لى تصريحا بزيارة هذه الاماكن ومقابلة قادتها . وعندما علم بعض الصحفيين المصريين فى دمشق بذلك أبدوا رغبتهم فى أن يكونوا معى. كان معنا فى السيارة حسن شاه الهاكع وأحمد سعيد مراسل وكالة الشرق الأوسط فى دمشق وصحفية ثالثة من أخبار اليوم هى فاطمة سعيد . وبالفعل غادرنا دمشق فى الفجر فى سيارة مكتوب على زجاجها الأمامى (صحافة مصرية) .

ومهما حاولت أن أصف حفاوة الشعب السورى بنا فلن أستطيع ، سوف أذكر قصة واحدة تشير إلى ذلك . عندما وصلنا إلى الميدان الرئيسى فى حمص أوقفنا بعض الأهالى وصمموا على أن ننزل لتناول الافطار فى منزل أحدهم : فلما أخبرناهم أننا تناولنا بعض الافطار فى السيارة ونحن فى الطريق وشكرناهم على كرمهم رفضوا الاستماع إلينا وحلف أحدهم بالطلاق أنه لابد من أن نتناول الافطار فى منزله ، وبالطبع رضخنا لهذا الكرم الحاتمى وأفطرنا مرة أخرى .

ثم ذهبنا بالسيارة إلى موقع القيادة حيث قابلنا الضابط السوريين والمصريين الذين رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى مكتب محافظ حمص حيث واجهنا أعظم مفاجأة !

كان الزملاء المصريون معى قد اتفقوا على أن أتولى- باعتبارى أكبرهم سنا - تقديمهم إلى الجهات المختلفة التى نزورها . وقد قمت بهذا عند وصولنا لمكتب المحافظ ، فوجدت منه حفاوة شديدة بأحمد سعيد الذى معنا ظنا منه أنه أحمد سعيد المشرف على صوت العرب ، وأدركت بسرعة المشكلة وحاولت أن أشرح بهدوء للمحافظ أن الصحفى الذى معنا ليس أحمد سعيد صوت العرب . فإذ به ينفعل ويقول إن ما وصله من المكتب الثانى من أسماء لصحفيين مصريين من بينهم أحمد سعيد جعله يدعو شعب حمص للاجتماع

فى الميدان الكبير بعد الظهر للاستماع إلى خطاب من أحمد سعيد صوت العرب

وبالفعل كانت الميكروفونات الثابتة والمتنقلة فى سيارات تدعو إلى اجتماع بعد الظهر لسماع أحمد سعيد . وأدركنا أننا فى ورطة ! ماذا نفعل ؟

حاولت أن أقنع أحمد سعيد الذى معنا فى الوفد أن يتكلم فرفض بإصرار وهدد بالعودة إلى دمشق فورا . قلت له : سوف أكتب لك الخطبة وما عليك إلا قراءتها فرفض . إنه شاب خجول لا يجيد الخطابة أمام الناس (وهو بالمناسبة أصبح وكيل التليفزيون المصرى بعد ذلك بسنين طويلة) .

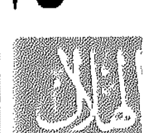
وبالتالى فلم يكن هناك مفر من أن أتكلم أنا ، وأنا طبعا لست أحمد سعيد . ووقفنا فى شرفة المحافظة .. ممثلو الاحزاب الوطنية السورية ورجال الدين مسلمين ومسيحيين وبعض الضباط والصحفيين المصريين . وتكلم رجال سوريا أولا ثم عندما جاء الدور علينا لم تستمع الجماهير إلى اسم الشخص الذى سوف يتحدث لأن إطلاق النار من الأهالى ترحيبا قد غطى على كل شيء .

وبعد انتهاء الاحتفال نزلنا إلى السيارة لمغادرة حمص إلى اللاذقية فأصرت الجماهير السورية على إخراجى من السيارة للترحيب بى وتقبيلى ، وبعضهم لا شك قد أدرك أنى لست أحمد سعيد ، وإن كانت كلمتى قد سرتهم .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن أهل حمص معروفون فى الشام بطيبتهم وسذاجتهم تماما كما نتحدث نحن عن أهل الشرقية الذين عزموا القطار أو عن الصعيدى الذى اشترى الترام . عرفت ذلك من عفيف البرزى قائد الجيش السورى آنذاك ، وعندما أخذنى بعد ذلك فى سيارته أنا وخالد محيى الدين لزيارة حمص مرة أخرى ألفيناه يضحك مع المحافظ ويعيد قصة أهل حمص مرة أخرى .

بعد وصولنا إلى اللاذقية كنت متلهفا للوصول إلى حلب إذ كان واضحا لى أن أولى معارك الجيش التركى - لو قرر الهجوم فعلا - سوف تكون فى حلب .

وفي حلب وجدت الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق.. حفر خنادق وإقامة استحكامات، وكانت قلعة حلب هي، المكان الذى تطل منه على ما



يجرى فى المدينة.

الغريب أننى وجدت من بين الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الميلشيات على أعمال المقاومة الضابط حسن صبرى الخولى (الذى أصبح فيما بعد المبعوث الشخصى للرئيس عبد الناصر فى أعمال سياسية عربية كثيرة).

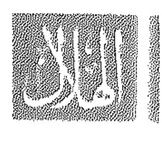
وكنت أعرف حسن صبرى الخولى من العباسية حيث نشأنا سويا وظللت على علاقة به بعد الثورة، لذا فرحت جدا بلقائه، وقد دبر - ترحيبا بنا - زيارة للحدود السورية التركية عبر الجبال الشاهقة والطرق الضيقة.

***

بقى أن أذكر أننى كنت أول صحفى مصرى يزور قطاع غزة بعد جلاء الإسرائيليين عنها وعودة الادارة المصرية (أعتقد أن ذلك تم فى يناير سنة ١٩٥٧. حيث أن الاسرائيليين دمروا خط السكة الحديد الذى كان يصل بين غزه والقنطرة شرق فلم يكن هناك مفر من تأجير تاكسى فى القنطرة شرق يأخذنى إلى غزة، وكان فى السيارة أناس آخرون ذاهبون إلى هناك وقبل وصولنا إلى غزة بنحو ربع الساعه فوجئنا برتل من السيارات يسد الطريق تماما. وعندما وصلنا إلى السد أدخل أحد الواقفين رأسه فى سيارتنا وسأل عنى وعرفت بعد ذلك أنهم يمثلون وفدا من شباب غزه عرفوا لا أدرى كيف أنى قادم إلى غزة وأنهم خرجوا للترحيب بى، وقضيت أسبوعا فى غزة نزلت خلاله فى منزل جمال الصورانى وقابلت قيادات غزة الوطنية: حيدر عبد الشافى وجمال الصورانى ومعين بسيسو والبقية . وكنت أتناول الغداء يوميا فى أحد منازل أهل غزة ، وكان الغداء التقليدى هو المنسف والكنافة النابلسية .

والمنسف هو طبق كبير من الأرز والعيش واللحم، يأكلونه بأيديهم على طريقة الاعراب. أما الكنافة النابلسية فهى من أجمل ما ذقت من الحلويات.

ومن نتائج هذه الزيارة أنى كتبت مقدمة ديوان معين بسيسو «مارد من السنابل» عن المقاومة التى نظمت ضد الاحتلال الاسرائيلى آنذاك وحتى اليوم لايزال الكثيرون من رجال غزة يزوروننى فى القاهرة ونتذكر سويا أيام هذه الزيارة الجميلة التى أوقدت حبى لأهل غزة ونضالها. ■





قضايا المرأة عبر التاريخ

بقلم
د. حامد عمار

نتابع فى هذا المقال توضيح الفجوات القائمة بين الواقع العيانى لأوضاع المرأة ومكانتها من ناحية ، وبين التصور الإنسانى المتطور عبر التاريخ من الناحية الأخرى .

وهى فى هذا التصور الأخير نصف المجتمع ديمغرافيا وحجما بشريا بفئاته وأعماره ، وهى كذلك نصف الوجود فى التناسل والتوالد وتجدد الحياة وتعاقب أجيالها، كما أنها شريكة الرجل فى الفكر والرأى حيث يمثل منظورها نصف الحقيقة الذى يتكامل مع منظور النصف الآخر للرجل. وهكذا نرى المرأة نصف المجتمع ونصف الوجود ونصف الحقيقة كما أوضحنا في المقال السابق. ومن ثم فإنها مع الرجل بالضرورة شريكة حياة ومصير على سطح هذا الكوكب، وقد يغدو ذلك واردا على سطح بعض الكواكب الأخرى فى مستقبل غير منظور .

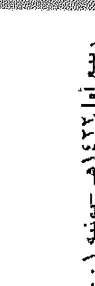
بيد أن هذا التطور الشامل لما تكتمل أبعاده فى ثقافتنا العربية، رغم ما حدث فى مدركاته ومفاهيمه من تطور تفاوتت تحولاته وانتقالاته عبر الزمان والمكان بفعل الاختلاف فيما يموج بهما من قوى وموارد اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية وقد يبرز التطور بصورة قاطعة جلية أحيانا، بينما نخاله فى صورة قلقة مترددة أحيانا أخرى ، كما نحسبه حركة مترجرجة بين التقدم والنكوص فى بعض اللحظات .

وفى أحوال الثقافة العربية على وجه الخصوص أشرنا إلى أن حركة التطور لم تندفع فى خط متصاعد ومتصل دوما وإلى الأمام، نتيجة لتأثير ما أطلقنا عليه فى مقالنا السابق مصطلح (عبء التاريخ الثقافى) على حركة المرأة العربية ومع ما لهذا العبء من تأثير على مجمل التطور الحضارى والحداثى فى أحوال المجتمعات العربية ، إلا أنه كان أشد وطأة فى حركة جزرها أكثر من مدها على مسيرة التطور لدى المرأة العربية .

(★) سفير مصر السابق في اليمن

وقد يقال إن المرأة العربية قد انتقلت عبر مراحل النهضة المجتمعية الحديثة خلال مواقع متلاحقة أكثر تقدما وإنسانية، وأفضل تقديرا واعتبارا ويتم رصد تلك النقلات والمفاخرة بها ضمن قائمة ما يعرف عادة باسم (مكاسب الحركة النسائية) وقد تصح هذه المقولة فى مجملها ، وليس فى إطلاقها وجميع مكوناتها فما تزال رواسب ورموز المفارقة بين الذكر والأنثى قابعة أو كامنة هنا وهناك ، إذ أن التراث التاريخى لا يموت بسرعة مادامت مبررات وجوده موجودة وحتى لو وهنت حيويته، بل إنه لا يفتأ يطل فى الواقع بين الحين والآخر .

وما انفكت سمات تفوق الرجل على المرأة متجسدة فى بعض العادات والتقاليد ، وفى القوانين ، وفى الحقوق والواجبات، بل وحتى فى أفضليات الإنجاب ومع الإقرار بآثار ما تغير فى تضييق مساحة اللامساواة بينهما فى المكانة والدور الاجتماعى، إلا أن المفاضلة تظل قائمة لم تحسم حسما





مبدئياً إنسانيا قاطعا، ولنستمع إلى قول الشاعر :

وما التأنيث لاسم الشمس
عيب ولا التذكير فخر للهلال

ثم أليس هناك تصنيف من أجل المفارقة لما يسمى بالأدب النسائي والفن النسائي تمييزا لهما عن النتاج الذكوري ، إلى غير ذلك من الثنائيات التي أشرنا إليها في التمييز والتمايز بين الجنسين والحاصل أن كثيرا من التيارات الحداثية تحمل قدراً من غبار الماضي، وأن ما جرى من مياه التطور لم يخل من بعض طحالب التقاليد الراكدة. وفي عصر وحدة المعرفة وتكاملها وجدلية ديناميات تغيرها لم يعد ثمة مجال لثنائيات تتعايش في انفصال سكوني ووجودي وحقيقي. ومن أخطرها ثنائية الرجل والمرأة مع افتراض تدني مكانة المرأة في مجال المقارنة والأوضاع.

مسارات التطور وبقايا تشوهاتها :

على الصعيد الوطني والقومي والعالمي نلحظ انتقال قضايا المرأة عبر التاريخ في موجز المراحل التالية، حيث أخذ يبرز الاتجاه نحو :

١- النظرة الإنسانية للمرأة كما هو الموقف من إنسانية الرجل وهو ما ميزهما الله بها عن سائر المخلوقات .

٢- تحرير المرأة كيانا مستقلا لا كمجرد تابع للرجل ، وإنما شريكة حياة ومصير .

٣- مساواة موقع المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات لها ماله وعليها ما عليه.

٤- تكافؤ الفرص بين المرأة والرجل في المشاركة السياسية، والعمل والجزاء والخدمات .

٥- الإقرار بدور المرأة في عمليات التنمية وإسهامها في مختلف مجالاتها ومستوياتها كقوة تضيف إلى رصيد الطاقات الإنتاجية المجتمعية .

٦- إتاحة موقع للمرأة في صنع القرار وفي اتخاذه على المستوى المجتمعي العام وعلى مستوى وجهة نظرها واحتياجاتها النوعية الخاصة .

وقد استطاعت المرأة العربية عموما أن تتحرك في تاريخها الحديث إلى تقدم وتطور في جميع المراحل، لكننا نود أن نؤكد هنا مرة أخرى على أن هذا التقدم لا يزال عرضة لأزمات ثقافية، ومد وجزر، وحدود وشروط في الإقرار الكامل والاقتناع الحقيقي والملتزم به . وينعكس ذلك في كثير من مفاهيمنا وممارساتنا اليومية وفيما يدور في المجتمع من أحداث وسياسات ومؤسسات وقوانين، فضلا عن الاستقطاب والأزمات الثقافية بين من يرون أن المراة قد اكتملت نضجا ، وغدت تلك المراحل حقا من حقوقها المستقرة الثابتة التي لا تنازل عنها، وبين فريق آخر يرى أن ثمة تحفظات وكوابح في معظم تلك المراحل أو في بعضها أو حتى فيها جميعها .

وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض تلك المفاهيم والتشوهات الثقافية التي تعوق تمكين المرأة من أن تكون شريكة كاملة في الحقوق والواجبات للرجل، والإيمان بأنهما معا صانعان للحاضر والمستقبل والحاصل



أن بعض تلك المفاهيم والقيم والأحكام الثقافية الشعبية تنكر أو تتعامى عن تجسيدات الواقع، وما حدث من تطور فعلي في حياة مجتمعاتنا وما حققته المرأة من أدوار في صنع الحياة. ثم إنه إذا كانت بعض قطاعات المرأة في الشرائح الاجتماعية العليا قد استطاعت أن تكتسب سمات التطور الحضاري المشار إليه، فإن قطاعات أخرى كبيرة من شرائح الطبقة الوسطى والأدنى ومن الأسر الريفية والحرفية والعمالية لاتزال تتعثر وتضطرب في انتقالها من المرحلة الأولى. ومن الملاحظ كذلك أنه حتى بين نساء الشرائح العليا يحدث تردد وعدم اقتناع تام بالتطور في مختلف المراحل التي مرت بها المرأة عبر الحضارات الإنسانية وكثيراً ما تتشح هذه الأفكار بتصورات وعادات اجتماعية أو تبريرات فقهية سلفية كما أوردنا ، وهي في معظمها ليست من صحيح الدين. ومن بين أهم الصور والمعتقدات المتجسدة والعالقة في تلك الإشكاليات ما يلي

١- اختلاط الجنسين في التعليم وفي العمل، ومظاهر عدم التقبل للاختلاط، أو الأصح المشاركة والتعاون، مما يعتبر من المحظورات في عدد من الأقطار العربية.

٢- حقوق المرأة في الزواج وتكوين الأسرة ، وما يرتبط بذلك من قوانين الأحوال الشخصية التي لاتزال مجالاً للجدل والتغيير والمد والجزر منذ أكثر من نصف قرن في معظم الأقطار العربية .

٣- زي المرأة بين العورة والفتنة والحشمة، والتساؤل عن زي شرعي للمرأة وقضية الحجاب ، ومدى اتباع الموضات .

٤- عمل المرأة وقصره على مجالات معينة ، واعتبار مجالات أخرى غير مباحة لها ، بل يصل إلى الرأي بعدم إباحة عملها في سوق العمل، وتفضيل بقائها في البيت، وإذا كانت قد وصلت إلى معظم الأعمال والوظائف في بعض الأقطار، فإن أعمالا أخرى تظل غير مباحة لها بحكم العادات والتقاليد أو مبررات فقهية كالقضاء .

٥- التردد في مشاركة المرأة في الألعاب الرياضية والأنشطة الثقافية كالسينما والمسرح والموسيقى والغناء ، بل إن بعض ما أصاب تلك الأنشطة من تحريم أو كراهية قد يعزى إلى حد كبير لمشاركة المرأة فيها .

٦- أهلية المرأة للمشاركة السياسية وفي التمثيل النيابي ، ولعل دولة الكويت مثال واضح على مقاومة تلك المشاركة رغم ما حصلت عليه المرأة من تعليم ومستوى معيشي وحياتي متميز. ولعل ما يحدث من تطوير ديمقراطي للحياة في البحرين خلال الأسابيع القليلة الماضية يمثل خطوة رائعة نحو تحرير المرأة بصورة عامة ونحو تمتعها بحقوقها السياسية الكاملة شريكة للرجل في الحكم في الدولة والمجتمع ، وليس بمستبعد أن يكون للنموذج البحريني أثره في تطور الأقطار الخليجية الأخرى بما في ذلك المشاركة الكاملة في الحياة السياسية والديمقراطية .

٧- تحديد مراحل التعليم للبنت ومدى تمكينها من مواصلة تعليمها في المراحل الثانوية والجامعية ، ومن الملاحظ أن نسب التسرب أو الانقطاع عن التعليم بين الإناث أعلى من نسب الذكور .

٨- القيود الأسرية والمجتمعية على حرية الحركة والتنقل وتوظيف أوقاتها للمشاركة في صناعة الحاضر والمستقبل ، ولاتزال قضية حق المرأة في السفر بموافقة زوجها مثار نقاش فكري وفقهي

في مصر .

٩- مفهوم المرأة ذاتها عن قدرات وإمكانات جنسها ، وهذه من المفارقات التي نجد أنه في الوقت الذي تناضل فيه المرأة لاستكمال حقوقها الإنسانية تلقى رواسب التاريخ واعبائه بظلالها الموحية لها بأن الرجل أقدر منها عندما يتطلب الأمر الاختيار لأي منهما في بعض المواقف .

١٠ - الحرمان من مصادر الثقافة وفتور استمرار الرغبة في التعليم والتعلم بعد التعليم الأساسي في كثير من الحالات وعلى الأخص بعد الزواج، والاقتصار على الأعمال المنزلية .

١١- تنظيم الإنجاب وفتراته، مما يمثل هما من هموم الأسرة، وهما من هموم المجتمع، وكثيرا ما تفقد المرأة مكانتها كزوجة إذا لم تنجب ، وقد يكون مصيرها إلى الطلاق .

١٢ - الضغوط والتوترات الناجمة عن ضرورة إنجاب الذكور للمرأة المتزوجة، مما يؤدي إلى تكرار الحمل حتى تنجب ولي العهد .

١٣ - تحرير عقل المرأة دون تحرير عقل الرجل ، وتحرير عقل الرجل دون تحرير عقل المرأة .

١٤ - مظاهر الحداثة وارتباطها بمجالات الاستهلاك وحفلات الزواج وتقاليدها الباذخة والباهظة بالنسبة لجميع طبقات المجتمع .

تلك بعض الإشكاليات التي تحد من المشاركة الفعالة للمرأة في روح من الثقة والاقتدار والحرية مع الرجل في صنع الحياة على أرض الوطن العربي .

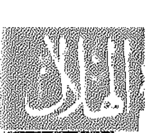
وإذا كان بعض النساء ممن ينتمين إلى الثقافة العالمية المتجددة من الشرائح الاجتماعية العليا قد استطعن أن يتجاوزن قيود تلك المفاهيم والتقاليد الثقافية التاريخية بدرجات متفاوتة إلا أنهن يعشن في بيئات لايرضيها في كثير من الأحوال التجاوزات في معيشة أولئك النساء المترفات ، ومن ثم تعتبر حياتهن تقليدا أعمى لانماط الحياة الأجنبية، وبذلك يتولد الاستقطاب الثقافي بين الفئتين وفي الوقت ذاته نجد أن معظم النساء ممن ينتمين إلى الثقافة التقليدية الجماهيرية لايزلن في ذلك الأفق الضيق من الإطار الثقافي، يفكرن ويتحركن في تشوهاته، وبخاصة حين تصاغ مبررات ذلك الأفق بمبررات فقهية ليست من صحيح الدين، أو من خلال مبررات خرافية أسطورية من أوهام التاريخ وممارسات العرف والمواضعات السائدة .

ومما لاشك فيه أن للأوضاع الاقتصادية والتعليمية دورا مهما في ترسيخ تلك المفاهيم سواء البيئات الفقيرة والمحرومة من مؤشرات التطور الحضاري الإنساني، أو من خلال الانخراط في تيارات التمدين ومظاهره للفئات القادرة في المدن، والتي نفذ غير قليل من طقوسها إلى بعض صور الحياة الريفية أو بين الفئات محدودة الدخل عموما .

التوجهات المستقبلية لتنمية المرأة العربية :

سوف نركز هنا على التوجهات الثقافية دون تقليل من أهمية الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في تنمية المرأة العربية ، ومن بين أهم تلك التوجهات :

أولا : الوعي الحقيقي المدرك لأن تخلف المرأة بصورة عامة ملتحم ومتفاعل مع ما يشوب التنمية البشرية من قصور ومن ثم فإن هذا التخلف هو سبب ونتيجة



لتدنى أحوال التنمية البشرية والتنمية الشاملة اقتصادياً واجتماعياً، ومن ثم يقتضى معالجة ذلك التخلف ضمن معالجة السياق العام للمجموعات الثقافية بمكوناتها التربوية والفكرية والإعلامية والدينية (الفقهية) والعادات الاجتماعية والمفاهيم والممارسات التقليدية.

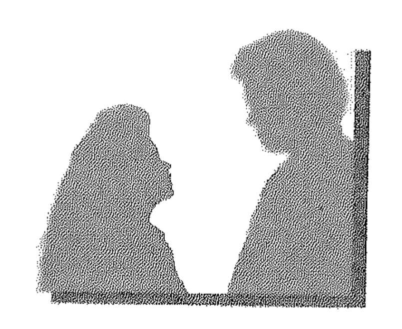
ثانيا: الحديث عن البعد التربوى فى المنظومة الثقافية لتنمية المرأة مجال واسع كثرت فيه الآراء والخبرات والدراسات التربوية تنظيرا وممارسة وسياسات ومؤسسات. ويعنينا هنا التركيز على تنمية قدرات المرأة الإنسانية بصورة متكاملة يعزز بعضها بعضا دون تضحية لبعضها على حساب البعض الآخر أو إنكار لإمكانيات وجود بعضها وطاقات نموه ونقصد بذلك تنمية جملة الطاقات والقدرات البدنية والعقلية والوجدانية والاجتماعية والمهارية والروحية، إلى أقصى مستوى يمكن أن تبلغه من نمو ونضج. وعلينا ألا نكبت أو نغفل نمو أى استعداد أو قدرة تظهر فيها البنت تميزا أو رغبة أو اهتماما، وتسويغ ذلك الإغفال على أنها ليست فى حاجة لهذه القدرة فى مستقبل حياتها، أو أنها سوف تصرفها عن أمور أخرى ترى التقاليد والثقافة السائدة أولويتها للبنت فى تكوينها ومسيرة تعليمها واهتماماتها الحياتية.

ثالثا: توفير مختلف الخدمات الصحية والاجتماعية والبيئية للنمو السليم للمرأة، فضلا عن توفير حق العمل والمشاركة فى المشروعات الإنتاجية والخدمية باعتبار العمل حقا وواجبا انسانيا، كما أنه مجال للتعلم والتدرب والوعى بحقوق المواطنة وواجباتها. وهذا يعنى الالتزام بتمتع المرأة بكافة حقوق الإنسان التى أقرتها الشرائع السماوية، وشرعته حقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية وبخاصة اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة وإقرار مساواتها بالرجل.

ولعل من الضرورى فى هذا الصدد أن نسوق المقولة الرائعة للإمام محمد عبده فى تقريره بأن (الرجل والمرأة متساويان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان في الذات والشعور والعقل. واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة بيوتهم، إنما يلدون عبيدا لغيرهم).

رابعا: التطوير العلمي للفكر الثقافى السائد الذى يعتمد فى مصدره إلى حد كبير على مفاهيم السلطة المهيمنة وموحياتها وتوجيهاتها سواء فى نظام الحكم أو فى الأسرة أو فى المجتمع الصغير أو فى مختلف مواقع الرئاسات ومصادر القوى المختلفة. والواقع أننا فى حاجة إلى ساحة ثقافية تحترم العقل وتثق فيه وفى مناهجه وأخلاقياته العلمية، ثقافة تكشف ولا تزيف، ثقافة تظهر ولا تستتر نتمكن من خلالها مواجهة مشكلاتنا ومتابعة حركتنا بخطى وقدرات أكيدة وطيدة لإزاحة مختلف قوى التخلف وتوفير مساحات متزايدة لحرية الفكر والعمل وكرامة الإنسان، رجلا كان أم امرأة. ومن ثم يغدو المنهج العلمى بمختلف شروطه وأبعاده وعملياته هو العمود الفقرى للفكر الثقافى السائد الذى يتيح فرص التجدد والإبداع للبشر والمؤسسات. وذلكم شرط من الشروط الرئيسية اللازمة للتحرير الكامل للمرأة العربية وللرجل العربى كذلك.

خامسا: وفى سياق هذا المناخ المتحرر بالعلم وبالثقة فى النفس وبالمسئولية تبرز قضية المرأة على أنها تتضمن خيارات سياسية جديدة لابد من



اتخاذها لمواجهة قوى المقاومة والخيارات التقليدية القابعة. والمطلوب دوما أن يتسع دور المرأة فى المشاركة الإيجابية كمواطن وكقوة عمل، تواجه تحديات التنمية ومطالبها فاعلة فيها ومنفعلة بها، تعطى لها وتأخذ منها دون عوائق، تنتج كما تستهلك، تفيد وتستفيد، تضغط وتنظم، تفكر وتخطط وتعبر، وتشارك الرجل فى القرار والمسئولية. ومن ثم ينبغى أن تتحرك وتتطور قضايا المرأة مع غيرها من قضايا النهضة والتجديد لخلايا المجتمع العربى وتنمية طاقاته البشرية وتحسين مستويات معيشته، وترسيخ مبدأ العدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص، واقتران الحق بالواجب، والقضاء على مشكلات الفقر والبطالة والجهالة.

وهذا يتطلب بالضرورة إيلاء اهتمام متمايز لقضايا المرأة فى خصوصياتها الناجمة عن ظروف وأوضاع تاريخية ومجتمعية - وليس لطبيعتها البشرية - مما يستحق جهدا خاصا فى الفهم والتشخيص والفعل، سواء فى المجالات التعليمية أو الصحية أو الثقافية أو فى الثقافة العلمية والدينية.

سادسا: الاهتمام الجاد بالمعالجة الرصينة الهادفة لقضايا المرأة فى أجهزة الإعلام.وقنوات الثقافة وبخاصة فى البرامج التليفزيونية من مختلف مصادر بثها بحيث لا تقتصر فيها البرامج الموجهة إلى الشرائح العليا والطبقة الوسطى فحسب، بل تتوازن وتمتد وبصورة أكثر جاذبية ومضمونا إلى المرأة الفقيرة والمحرومة وأن تتناول مشكلاتها ومعالجتها. وعليها أن تأخذ فى الحسبان البرامج الملائمة لمختلف مراحل عمر المرأة، طفلة وشابة وزوجة وأما وكهلة ومسنة. وعلى تلك البرامج أيضا أن تتناول قضايا المرأة العامة كمواطنة إلى جانب خصوصياتها مع الاهتمام بعرض وجهة نظر المرأة فى مختلف القطاعات ودروب الحياة. وكما يقال بحق فالمرأة ليست نصف المجتمع فحسب، بل إن الأهم هو كونها نصف الوجود ونصف الحقيقة أيضا.

سابعا: النشر والتعريف على أوسع نطاق وبمختلف الوسائل الإعلامية والمنابر باجتهادات الفقهاء فيما يتصل بفقه المرأة. ومن هذا القبيل نشر كتيبات مبسطة ورسوم كاريكاتورية وصور لمضمون تلك الاجتهادات الفقهية.

وقد أشرت فى كثير من فقرات هذا المقال إلى الأهمية القصوى للتخلص من عبء التاريخ والتقاليد والأعراف والمفاهيم الثقافية التى تمثل عائقا لمشاركة المرأة مشاركة فعالة فى حياة أسرتها وفى مجالات العمل الوطنى والإنمائى وأوضحت أن كثيراً من تلك المفاهيم الثقافية قد تلبس بغطاء فقهى دينى، مع أنه ليس من صحيح الدين، كما إن بعضه إنما هو من قبيل الخرافات والخزعبلات والأساطير الشعبية المتواترة من عصور تختلف فى مطالبها وسياقاتها عن تحديات الحاضر والمستقبل التى تواجه الأمة العربية فى الداخل ومن الخارج. ولعل قضايا التزمت فى المعاملات والسلوك المفروضة على قطاعات كبيرة من سكان الريف وعلى

الفقراء بالذات من دعاوى الاتكالية، بل وعلى النخب النسائية أحيانا هى أمور يجرى تبريرها بقاعدة سد الذرائع أحيانا أو بالطبيعة البشرية الخاصة بالمرأة أحيانا أخرى، كما تسند كذلك إلى أحاديث أحادية أو غير صحيحة، فهل يعقل مثلا أن يتنبأ حديث نبوى شريف بأن معظم سكان النار من النساء. وهل يعقل أن يفهم حديث الرسول ﷺ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم لامرأة» دون فهم لسياق الحديث وللظروف التى قيل فيها، كما بين ذلك كثير من العلماء. وهل يعقل أيضا أن يقال إنه (محظور شرعا على المرأة أن تكون قاضية لأن ذلك يتطلب كمال الرأى، وهى ناقصة عقل ودين؟) وتلك أمور فندها أيضا علماؤنا من المجتهدين الذين يعيشون عصرهم.

مؤلفات عالم أزهرى فى تحرير المرأة:

استرعى اهتمامنا أخيرا قضايا التجديد فى الفقه الإسلامى، ومن هؤلاء المجتهدين الشيخ عبد الحليم أبو شقة مؤلف كتاب (تحرير المرأة فى عصر الرسالة، دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحى البخارى ومسلم) من ستة أجزاء: الجزء الأول عن «معالم شخصية المرأة المسلمة»، والثانى عن «مشاركة المرأة المسلمة فى الحياة الاجتماعية» والثالث عن «حوارات مع المعارضين لمشاركة المرأة فى الحياة الاجتماعية» والرابع عن «لباس المرأة المسلمة وزينتها»، والخامس عن «مكانة المرأة المسلمة فى الأسرة»، والسادس عن «الثقافة الجنسية للزوجين».

وقدم لهذا الكتاب فضيلة المرحوم الشيخ محمد الغزالى، مفتتحا تقديمه بقوله (وددت لو أن هذا الكتاب ظهر منذ عدة قرون، وعرض قضية المرأة فى المجتمع الإسلامى على هذا النحو الراشد، ذلك أن المسلمين انحرفوا عن تعاليم دينهم فى معاملة النساء وشاعت بينهم روايات مظلمة وأحاديث إما موضوعة أو قريبة من الوضع، انتهت بالمرأة إلى الجهل الطامس.. كان تعليم المرأة معصية، وكان ازدراء الأنوثة خلقا شائعا، والسطو على حقوقها المادية والأدبية هو العرف المستقر).

ويقرظ الكتاب أيضا فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى بقوله (الكتاب يسير فى اتجاه التيسير ورفع الحرج والإعنات عن المرأة وسبب ذلك أن الاتجاه الذى ساد العالم الإسلامى قرونا هو اتجاه التزمت والتشديد على المرأة وسوء الظن بها، ويعزى ذلك التشديد إلى جهل الأكثرين بالنصوص الشرعية التى تتضمن التيسير من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فضلا عن سوء فهمهم للنصوص التى عرفوها).

ويتابع فى تعريفه بالكتاب بأن الإسلام الذى يلتزم به المؤلف (ليس إسلام مذهب معين من المذاهب المتبوعة، ولا إسلام عصر من العصور التاريخية السالفة، ولا إسلام قطر من الأقطار الإسلامية المعروفة، إنه إسلام القرآن والسنة فحسب، ولذا حرص غاية الحرص ألا يكون استناده فى بحثه إلى أقوال فلان أو علان من العلماء، فكل عالم يؤخذ من كلامه ويترك مهما علا كعبه فى العلم أو الفتوى).

ولعله من المفيد أن نشير إلى بعض ما ورد فى الأجزاء الستة مما يوضح كيف طغى عبء التاريخ على مكانة المرأة فى الإسلام، وانتهى بنا إلى تلك الحقب المظلمة التى تردد فيها حديث زائف

يخالف ما ورد فى القرآن والسنة الصحيحة والذى مضمونه «أنه أصلح للمرأة ألا ترى رجلا ولا يراها رجل» ولنقرأ للشيخ أبو شقة صور بعض النساء فى عصر الرسالة، واجتهاداته فى كثير من مواطن التزمت والتشدد الفقهى:

– النساء يطالبن الرسول ﷺ بمزيد من فرص التعلم.

– ام عطية تشارك زوجها فى ست غزوات.

– مواجهة أم سلمة لعمر بن الخطاب يوم إنكاره على نساء النبى مراجعتهن للرسول ﷺ.

– حفصة بنت عمر تستدرك على عبد الله بن عمر.

– المرأة تتمسك بحقها فى اختيار الزوج، وبحقها فى مفارقته.

– زينب بنت المهاجر تحاور أبا بكر الصديق.

– المرأة المسلمة تستقبل الضيوف وفيهم رسول الله ﷺ وتقدم لهم الطعام.

– المرأة المسلمة تجلس مع زوجها ويشاركان الضيف طعام العشاء.

– المرأة المسلمة تخدم الضيوف الرجال فى وليمة عرسها وتتحف الرسول بشراب طيب.

– كشف الوجه هو السائد فى العهد النبوى وهو الأصل. أما النقاب فكان مجرد عادة من عادات التجمل عند بعض النساء قبل الإسلام وبعده.

– لم يفرض من طراز محدد بشأن اللباس، ولكن فرض ستر البدن، ولا جناح فى تعدد الطرز حسب الظروف المناخية والاجتماعية، ولا صحة للحديث الذى يقرر أن من أهل النار (الكاسيات العاريات)، أى اللابسات لما يصف أو يشف.

– ثبت أن القرار فى البيت الوارد فى الآية الكريمة (وقرن فى بيوتكن) والحجاب كانا من خصوصيات نساء النبى، كما ثبت أن كرائم الصحابيات لم يقتدين بأمهات المؤمنين.

– مشاركة المرأة المسلمة فى الحياة الاجتماعية من سنة نبينا وسنة الأنبياء من قبله.

– إطراد لقاء المرأة بالرجال فى عصر الرسالة فى المجالات العامة والخاصة كان تيسيرا على المؤمنين والمؤمنات.

– مشاركة المرأة فى مبايعة الرسول وفى العمل المهنى وفى النشاط الاجتماعى والسياسى.

– حقوق الزوجين متماثلة، والآية الكريمة «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» والدرجة التى يندب الرجال إليها كما يقرر الإمام الطبرى هى (الصفح من الرجل لامرأته عن التقصير فى بعض الواجب له عليها، وأداء كل الواجب لها عليه).

– ومن بين الآراء المضيئة لفضيلة الشيخ أبو شقة تقريره بأن (سد الذريعة قاعدة أصولية صحيحة، لكن وقع غلو فى تطبيقها فحرّم كثير مما أحل الله، ومنعت المرأة من المشاركة الجادة فى شئون المجتمع).

تلك بعض الاجتهادات الفقهية لعالم فاضل وقد يقبلها القارئ وقد لا يرضى عنها، لكنه اجتهاد فى جميع الحالات، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر.

ومن المهم أن هناك سعيا وفيرا فى السنوات القليلة الماضية لاجتهادات تدعو إلى فقه متجدد وبخاصة فى فقه المرأة امتدادا لاجتهادات الإمام محمد عبده، ولاشك أن انطلاقة هذه الحركة الاجتهادية إنما فرضتها المتغيرات والتعقيدات فى

الحياة المعاصرة وتحدياتها. هذا فضلا عن اتساع أدوات المعرفة ومضامينها الجديدة والمتجددة التى فتحت آفاقا جديدة فى الفهم والرؤية والحكم. ومن المطلوب فى جميع الأحوال العمل على نشر هذه الاجتهادات التى تنزل النص على الواقع تفسيرا وتأويلا له، لتصل إلى أن الشرع حيث تكون مصلحة المسلمين، ومن أهم مصالح المسلمين حاضرا ومستقبلا مشاركة جميع المواطنين رجالا ونساء مشاركة فعالة فى حياة مجتمعهم طولا وعرضا وعمقا.

الاجتهاد فى دراسة التقاليد الاجتماعية الفاسدة:

لا جدال فى أن للاجتهاد الدينى دوره البالغ فى تحرير المرأة وتنمية قدراتها وتمكينها من المشاركة الفعالة فى حياتها وحياة أسرتها ومجتمعها، ويكمل ذلك الاجتهاد فى دراسة وفهم بعض المفاهيم والمعتقدات والتقاليد والممارسات الاجتماعية المعوقة لتنمية المرأة وفتح آفاقها المعرفية وتثقيفها للإلمام بشئون الدنيا ومتغيرات الحياة وسداد تفكيرها وسلامتها، مما يستحق التركيز عليه، ومن أمثلة ذلك عادة الختان، أو مقاومة أسباب تنظيم النسل، أو اللجوء إلى أنواع التداوى بالأحجبة والمزارات، وتلبس الجان للبشر وغيرها من الأمور الصحية والأسرية التى تسئ إلى المرأة فردا ومجتمعا.

أما بعد،

فتلك بعض الخواطر التى لا تتجه مباشرة إلى تحديد التحديات والتوصيات المكرورة مما تعج به المؤتمرات القطرية والعربية والدولية، وإنما هى محاولة لاستكشاف العوامل الثقافية الكامنة فى فضاء المرأة العربية والتى كثيرا ما يتم تجاهلها والقفز فوقها. واتجه سعينا فى مقالينا إلى أن نلقى مزيدا من الضوء للوعى بمخاطر عوامل ومضامين الثقافة التقليدية، وضرورة معالجتها والعمل على إزاحتها بفكر ثقافى جديد ومتجدد، وجهد دءوب لتهيئة الطريق وإضاءته من خلال برامج الثقافة الجماهيرية، وغيرها من برامج القوى الثقافية المؤثرة فى حياة الأفراد والمجتمع.

ومن ثم فإن هذا المنطق الثقافى فى تقديرنا وبخاصة فى أبعاده الاجتماعية والفقهية يمكن أن يتحقق من خلاله إنجاز أوفر وأخصب فيما يتخذ عادة من قرارات وتوصيات ووضع للاستراتيجيات والبرامج والمشروعات التعليمية والصحية والإنتاجية والخدمية فى إطار تنمية بشرية متكاملة. وفى إطار هذه المعالجة الثقافية تتعزز بصورة أفعل عوامل تحقيق أهداف التنمية الشاملة التى تتمحور حول تحقيق إنسانية الإنسان، رجلا وامرأة فى مسيرة مشتركة نحو الكرامة والتقدم والرخاء.

من مراجع هذا المقال:

١- الشيخ محمد أبو شقة ، تحرير المرأة فى عصر الرسالة (٦ أجزاء).

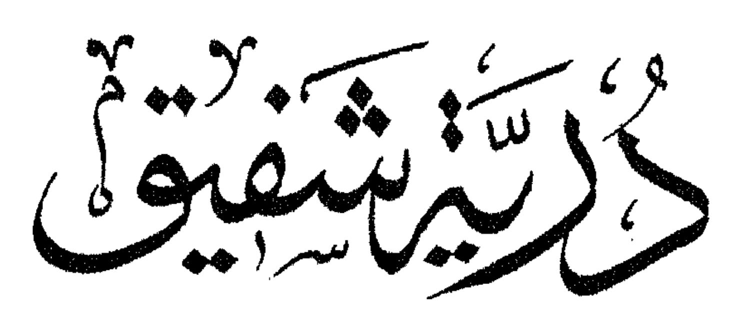
٢- عبد المنعم النمر، الاجتهاد.

٣- حامد عمار، فى بناء الإنسان العربى.

٤- د. عبد المعطى بيومى ، مقالات متفرقة فى المصور.

٥- د. إيناس طه، مقالات متفرقة فى الأهرام.





بنت النيل

بقلم
أحمد السيد عوضين

عادت درية من فرنسا وهى تحمل شهادة الدكتوراه فى الفلسفة من «السوربون» ، متوهمة أن الأبواب ستكون مفتحة أمامها، وأن السبيل سوف يكون ميسرا لها لتبلغ ما ترى أنه أولى حقوقها، وكانت صدمتها الأولى فيما قوبل به طلبها بأن تعمل فى كلية الآداب بتدريس الفلسفة من رفض لسبب فى غاية الغرابة - فى نظرها على الأقل - وهو أنها سيدة جميلة وأنيقة ومتعطرة ، ولأول مرة تدرك أن الجمال قد أصبح عقبة فى سبيل بلوغ أحلامها.

وكذلك فإنها عندما وجهت نشاطها إلى الاتحاد النسائى الذى ترأسه أمها الروحية، وصاحبة الفضل الأكبر عليها: هدى شعراوى، فإنها لم يطل ارتباطها به طويلاً. فقد صدمت بجو غريب عليها ، تشيع فيه روح التآمر والدسائس من سائر «العضوات» - ربما غيرة منها - فما لبثت أن نفضت يدها منه، وانصرفت عنه رغم مافى ذلك من ألم لها، ومن إساءة تفسير بالنسبة لموقفها . إذ يظن بها أنها ناكرة للجميل، متنكرة لصاحبة الفضل عليها. وما هى فى الحقيقة على شىء من ذلك، فما كان دافعها سوى ايثارها العمل فى وضوح وإخلاص، وربما كانت فكرتها عن العمل الوطنى فى ذلك الوقت غير واضحة القسمات : لقد كانت رسالتها «التكميلية» - للحصول على درجة الدكتوراه - تدور حول الإسلام والمرأة ، ولكى تعد تلك الرسالة كان عليها أن تقرأ وتدرس كل ما كتب عن المرأة فى الإسلام من مكانة ، وعما هو مقرر لها من حقوق، وما هو مفروض عليها من واجبات، وعن علاقاتها





بالآخرين، وعن دورها فى المجتمع، وحقها فى العمل الشريف ، والحياة الكريمة، بل وكان عليها أن تحيط بذلك كله من مصادره الأساسية : القرآن الكريم، والسنة المطهرة والمراجع الفقهية المعتمدة .. ولكن يبقى بعد ذلك أن الأمر لم يزد على الدراسة النظرية التى تعتمد على القراءة والمراجع ، وتقليب الرأى فيما تقرأ .. إذ لم تكن لها تجارب عملية فى الحياة الإجتماعية سوى تجربتها الشخصية التى إن كشفت عن إرادة صلبة، وعزيمة قوية إلا أنها لاتزيد على كونها - تجربة محدودة بمحيطها العائلى الذى اتسع قليلا ليشمل أسرتها وأسرة زوجها.

حياة عائلية مستقرة

وكانت طوال دراستها توافى بعض الصحف والمجلات التى تصدر - فى مصر - بالفرنسية بمقالاتها ، فتنشرها لها، وتحمل آراءها وأفكارها التى كانت تدور حول المرأة وحقوقها وحول الوطن وأوضاعه، وبالطبع كان المجال أمامها محدودا لضيق الدائرة التى تطالع تلك الصحف والمجلات ، وقد استمرت محصورة فى اطار هذا النشاط المتواضع لفترة طويلة حتى أصبحت معروفة فى أوساط قراء ذلك النوع من الصحافة - كما أن الصحف اليومية كانت لا تفتأ تنشر أخبارها باعتبارها من الشخصيات الشهيرة فى المجتمع، بل وكانت تحرص على نشر صورتها مشيرة إلى ماتتميز به من أناقة ورشاقة، وطريقة متفردة فى إظهار حاجبيها على نحو يكاد يقارب رسم العدد (ثمانية وثمانين) وإن تباعد رقماه..!!

● بسبب جمالها وأناقتها وتعطرها رفضت كلية الآداب تعيينها بقسم الفلسفة

وكانت إلى حد ما تعيش حياة عائلية مستقرة : فزوجها يعمل أستاذاً فى الجامعة ، وهى تسكن فى عمارة متميزة فى حى الزمالك ، والحياة بالنسبة لها تمضى فى يسر وبساطة، وبخاصة لما كان يجمعها بزوجها من ود وتفاهم يساعدان على التغلب على كل ما يواجههما من مشاكل عائلية .

ومع ذلك فلم تكن فى أعماقها راضية عن وضعها . كان بداخلها طموح تحس أنه يدفعها لتبحث له عن متنفس، وكانت لديها طاقة تود أن تفرغها فى عمل نافع يعود خيره على الجميع - وجاءتها الفرصة فى صورة دعوة من الأميرة «شويكار» لتتولى إصدار مجلة «المرأة الجديدة» بالفرنسية ، ورغم أنها لم يسبق لها الاشتغال بالصحافة، ولم تكن لها أية خبرة فى هذا المجال - فإنها لم تتردد فى الموافقة على العرض رغم ماكانت تدركه من أن ذلك سوف يزيد من الهوة التى تبعدها عن «هدى شعراوى» وجماعتها ، بل يضعها موضع العداء منها، ولعل تحرقها إلى ألا تبقى طويلا فى الظل كان هو الدافع الأول لهذا القبول لمهمة رئاسة التحرير والعضوية الشرفية لمجلس إدارة

جمعية المرأة الجديدة (التى ترأسها الأميرة)، ولم تكن المهمة سهلة، وبخاصة لأن سائر العضوات كن من زوجات وبنات الأسر ذات المكانة الرفيعة فى المجتمع ، ومن ثم لم يرحبن بتلك القادمة من الطبقة المتوسطة، وهى فوق هذا تتميز عنهن بجمالها فضلا عن ثقافتها ، ومع ذلك قررت أن تصمد فتواجه هذه المهمة المعقدة التى تؤديها فى ظروف أشد تعقيدا ، وبخاصة لما أشاع عنها المغرضون من أنها تعمل ضد التيار الوطنى المتزايد - فى ذلك الوقت - غير أن ذلك كله لم يزدها إلا إصرارا على المضى فى طريقها ... وأصدرت بالفعل مجلة «المرأة الجديدة».

ولعل أقسى سهام نقد وجهت إليها كان مصدرها ماهو قائم من تنافس يصل إلى درجة العداء بين جماعة «هدى شعراوى» وجماعة «الأميرة شويكار» فالأولى تمثل التيار الوطنى، والكفاح الشعبى.. والثانية تمثل الطبقة الارستقراطية التى تتخذ من «العمل الاجتماعى» مجالا للظهور، وبخاصة لما هو معروف من أن الأميرة - مطلقة الملك الراحل ، فؤاد الأول - كانت تبحث لها عن دور ومكانة مستغلة ثراءها فى تحقيق غاياتها، ومن ثم كانت المتقربات منها تدفعهن المصالح الشخصية ، والتى تنأى بهن عن أن تكون الأهداف الوطنية تمثل بالنسبة لهن هدفا واضحا.

«بنت النيل».. تثقيف للمرأة

ولم يكن ذلك خافيا على درية شفيق، كما أنه - فى نفس الوقت - لم يكن مما يتفق مع طبيعتها ولا أهدافها .. مما أصابها بضيق، ومع ذلك فقد صبرت ، وواجهت الموقف .. غير أن ذلك لم يدعها تهمل ما وجه إليها من انتقادات، ولم يجعلها تغفل عن أن وضعها فى مجلة وجمعية المرأة الجديدة إنما يبعدها عن الطبقات الشعبية ، ويدخلها ضمن طبقة أخرى - وهى طبقة تتلقى درية بغير ترحيب ، بل وباشمئناط ، وكان ذلك مما يؤجج من كراهية درية لتلك الطبقة .

ومن هنا اتجه تفكير درية إلى أن تصدر مجلة «باللغة العربية» واستعانت فى ذلك برائد الصحافة الدكتور إبراهيم عبده ، وأصدرت بالفعل العدد الأول من مجلتها «بنت النيل» فى نوفمبر عام ١٩٤٥ «لتكون أداة لتعليم المرأة المصرية والعربية بكل معنى الكلمة، أى العمل على تفتيح وعيها» (درية شفيق - امرأة مختلفة - ترجمة نهاد أحمد سالم - ص ١٤٦) - وقد حرصت درية على أن تضمن مجلتها أبحاثا ومقالات حول القضايا النسائية ، وحول الشئون الأسرية ، دون أن تغفل عن نشر صفحات عن الأزياء و«المودة» .. وقد وجدت المجلة إقبالاً أغنى درية عن أن تستمر فى عملها «مفتشة وزارة المعارف» - فاستقالت من وظيفتها لتتفرغ لنشاطها فى إصدار هاتين المجلتين .

وإذا كان د. إبراهيم عبده قد ساعدها على أن تسير بالمجلة قدما، فقد كان ساعده الأيمن فى ذلك هو خليل صابات الذى كان مايزال طالبا بكلية الآداب ، ولكنه كان طالباً متميزاً - يجيد اللغتين الفرنسية والعربية كلتيهما - وقد حدد دوره الذى استمر طويلا، فقال : «عملت كسكرتير تحرير لدرية شفيق، أكتب وأترجم المواد للمجلة ولمجلة الأطفال «الكتكوت» التى أصدرتها درية أيضاً. وكانت هى تقرأ العربية وتتكلم العامية بطلاقة، ولكنها لاتستطيع أن تعرب عن أفكارها باللغة الفصحى مباشرة، فكنت أترجم ملاحظاتها وأفكارها إلى العربية

ثم يضعها الدكتور إبراهيم عبده فى شكلها النهائى» (المرجع السابق - ص ١٥١).

ولم تقف جهود درية عند إصدار مجلتها .. بل مضت تستجيب لما يوجه إليها من دعوات لزيارة الدول الأخرى، فزارت فلسطين - بل وألقت هناك محاضرة باللغة العربية، تتحدث عنها فتقول «وكم كانت دهشتى لما نجحت ولم أتعثر بسبب اللغة ، وقد شجعنى ذلك كثيرا» (المرجع المذكور - ص ١٥٤) .. كما أنها أخذت تتناول المسائل السياسية - فى مجلتها - فتتحدث عن القضايا السياسية ، والمشكلة الفلسطينية ، فضلا عن المشاكل الإجتماعية فراحت تطالب - فضلا عن جلاء قوات العدو من بلادنا - بجلاء آخر لا غنى عنه إلى جانب الاستقلال السياسى، وهو جلاء الفقر والمرض والجهل.

وبلغ من نجاح «بنت النيل» أن عرضت (دار الهلال) ضمها إليها على أن تبقى لدرية رئاسة التحرير ، ولكنها لم توافق ،



أصدرت «بنت النيل» لتكون أداة لتعليم المرأة المصرية والعربية

رسالة غير مألوفة تنبعث من ضباب التاريخ

ومع موت الأميرة شويكار فى عام ١٩٤٧ وتولى الأميرة فايزة - شقيقة الملك فاروق - رئاسة جمعية المرأة الجديدة تعرضت المجلة للتوقف ، إلا أن درية بادرت فنقلت الترخيص باسمها ، وتحملت وحدها مسئولية استمرار صدور تلك المجلة - إلى جانب مجلة بنت النيل - .. بل واكتسبت المجلة فى عهدها الجديد «سمعة محلية ودولية كمجلة ثقافية وأدبية رفيعة المستوى» وإن كان قراؤها قد اقتصروا على الصفوة الميسورة من الناطقين بالفرنسية فى مصر والشرق الأوسط ، وتتحدث درية عن مجلتها فى عهدها الجديد فتقول : «أردت أن أعطى المرأة طابعا خاصاً وتوجها فنياً، وكل عدد يكرس لجانب من جوانب التراث المصرى، ولشكل من أشكال الإبداع المصرى». (ص ١٥٨ - المرجع المذكور).

وقد مضت درية فى إصدارها لمجلتها العربية والفرنسية : فالمرأة الجديدة تركزت مهمتها فى كونها رسالة الشرق إلى الغرب تكشف له عن تطور «المرأة الجديدة» فى الشرق : وهكذا كتبت : «المرأة الجديدة رسالة ، رسالة غير مألوفة، تنبعث من ضباب التاريخ، وتتقدم نحو المستقبل ، رسالة تكشف عن كنوز مكنونة ، وترفع عن كاهل مصر عبء أسرار عديدة حملتها هى وحدها لمدة ستة آلاف سنة - رسالة تسبر غور الزمان . وتكشف عن كنوز مجهولة لا حد لها .المرأة الجديدة رسالة فن أنطق الحجر، ونفخ فيه الحياة . ولكنها أيضاً رسالة تكشف عما تغير فى مصر، وتكشف عن نهضتها» . (المرجع السابق - ص ١٦٠).

أما «بنت النيل» فلم تكن تخاطب النساء وحدهن، بل كانت تخاطب المجتمع كله : رجاله ونساءه، شيوخه وأطفاله أغنياءه وفقراءه .. بل بلغ بها حرصها على أن تساهم فى حسن تربية النشء أصدرت مجلة للأطفال أسمتها «الكتكوت» – كان هدفها التربية من خلال التسلية (ص ١٦٢) .

الالتزام بالمنهج

ومع ذلك فقد كانت سهام النقد تلاحقها من كل جانب ، فهى فى نظر البعض متعالية ، ومتكلفة، وأشبه بعارضة أزياء منها بسيدة أعمال وهى فى نظر البعض الآخر خارجة على الدين ، وفى نظر أخريات يمينية لاتساير تيارات التقدم.. ولم تعبأ درية بشىء من ذلك كله، بل مضت فى طرقها واختطت لنفسها منهاجا تلتزمه ، وهو أن تخصص كل وقتها للعمل ، ولا تضيع وقتا للرد على الهجوم ، أو على مايطلق عليها خصومها من شائعات.

فى تلك الفترة توفيت هدى شعراوى عن ثمانية وستين عاما . وليس من شك أن درية تأثرت لوفاتها كثيراً، فقد عاشت تذكر لها أفضالها عليها، وتتمنى أن تعود إلى لقائها والعمل معها حتى أوشك ذلك الرجاء أن يتحقق ، وتحدد يوم «ثلاثاء» لتقوم درية بزيارة هدى هانم، إلا أن القدر لم يشأ لهذا اللقاء أن يتم، فقد جاءت الوفاة قبل موعد اللقاء بيوم أو يومين .. وقد انتهزت درية فرصة الحفل الذى أقيم فى ذكرى الأربعين لتلقى كلمة تعبر فيها عن عرفانها بأفضال هدى شعراوى وعلى الحركة النسائية بصفة عامة ، وتصفها بأنها «حاربت لتخلق مجتمعا أبياً ومثقفا» وتهيب بالحاضرين قائلة : «تذكروها حتى تفهموا ما أنتم مدينون به لها، فهى قد عاشت لكم، وماتت من أجلكم .. وأنا حريصة على أن يدفعنا حزننا إلى المضى فيما بدأته. فلا يكفى أن نذرف الدمع على هدى شعراوى فهى أكثر من ذلك. حافظوا على ذكراها العطرة بكفاحكم، فكلما تعلمت إمرأة القراءة والكتابة ، أو ذهبت إلى الجامعة ، أو وقفت تدافع فى محكمة ، أو نزلت الحقل تعمل، أو دخلت البرلمان يوما ، فإنها تحيى هدى شعراوى تحية أجدى من الدموع ومن النحيب لموتها» (المرجع المذكور – ص ١٦٧).

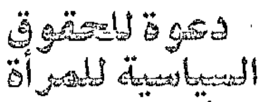
مؤتمران لاتحاد بنت النيل

ولم تشأ درية أن تقف بجهودها عند حدود الحلول الفردية أو المقالات الدورية بل قدرت أن الوقت مناسب لإحياء الحركة النسائية .. و انتخبت درية شفيق – رئيسة للإتحاد مدى الحياة، واختارت للإتحاد مجلسا تنفيذيا من شخصيات نسوية لها مكانتها.

وتقول مؤلفة سيرة درية شفيق أنه «مع حلول عام ١٩٤٨ بدأت رسالة بنت النيل تتغير وتتركز ، مما يوحى بأن درية بدأت تعبر عن نفسها وبوضوح دون رقابة من إبراهيم عبده أو من زوجها» – ص ١٨٠ – ومضت تكتب سلسلة من المقالات ذات النبرة السياسية الواضحة التى تحمل رسالة نضال نسائى «فهى تطالب الرجال المصريين بإفساح المجال للمرأة حتى تسهم فى الحياة العامة، مستندة إلى أن حرمان المرأة المتعلمة من حق يتمتع به الأميون من الرجال جريمة فى حق مصر، وسيظل المجتمع محروما من الديمقراطية طالما بقيت المرأة محرومة من كامل حقوقها السياسية ، والرجال الذين يقفون بين المرأة وبين

حقوقها هذه، إنما هم رجال لايحبون بلادهم إذ يحرمون مصر من خدمات أولئك النساء» (ص ١٨١).

ثم راحت تعدد أهداف «بنت النيل» على نحو أكثر تركيزا وتحديدا، عندما كتبت تقول «نحن لا نطالب بالعمل فى السياسة من خلال اتحاد بنت النيل ، فهذا ما يحدده الساسة، وكل من ينضم إلى الأحزاب السياسية - كل ما نطالب به هو المساواة فى الحقوق السياسية ، فليس لبنت النيل مآرب سياسية، فكل ما تأمله هو أن المرأة عندما تحصل على حقوقها السياسية ستستخدمها فى خدمة المجتمع حتى نضمن للأسرة حقوقها فى مواجهة مساوىء المجتمع، فلا طلاق دون تقدير واع لعواقبه ، ولا زواج من أجل المتعة وحدها، ولا أطفال مهجورين ، ولا جهل فى البيت أو فى العمل من شأنه أن يقضى على صحة المرأة وكيانها. فالمرأة تعانى من كل ذلك . وإن أردنا معالجة تلك الأمور فلابد أن نختار من يمثلنا من النساء، أو على الأقل - أن ننتخب من الرجال من يتعاطف مع قضيتنا ونحن نطالب بهذه الأهداف العادلة والتى ليست بأهداف سياسية» . (المرجع نفسه - ص ١٨٣).



دعوة للحقوق السياسية للمرأة

ولعل الحرص ، والخوف من إثارة مختلف التيارات ضدها هما اللذان دعياها إلى إعلان أن بنت النيل ليست لها أهداف سياسية ، وأن كل ماتطالب به هو أن تنال المرأة حقوقها وأن تحتل مكانتها ، وأن يتاح لها أن تؤدى رسالتها فى الحياة على نحو مثمر ومفيد تنعكس آثاره عليها، وعلى أسرتها ، وعلى مجتمعها الكبير..وبخاصة لأن تلك الفترة - أواخر الأربعينات - كانت تشهد صراعا سياسياً عنيفا وبخاصة بعد أن مر المجتمع بمأساة فلسطين، ثم اشتداد مظاهر العنف على أثر بروز التيارات المعارضة من مختلف الاتجاهات التى تتخذ العنف وسيلة لها .

وكأنما أرادت درية بذلك أن تجنب نفسها، وتجنب حركتها الإصلاحية شبهة الانضمام إلى التيار اليمينى المتشدد، أو إلى التيار اليسارى المتطرف، لأن كليهما كان موضع عداء بل ومحاربة وملاحقة من السلطات الحاكمة آنذاك بصفة مستمرة .. وبذلك تسنى لدرية أن تمضى فى سبيل مطالبتها بالحقوق السياسية للمرأة، حتى لقد سافرت - على نفقتها - فى صيف عام ١٩٤٩ إلى زيورخ لتسجل اتحاد بنت النيل لدى «المجلس الدولى للمرأة» - ثم كتبت تقول «مأساتنا أن العالم المتحضر لا يعرف عنا شيئاً ولا عن وضع المرأة أو دورها العظيم فى تنشئة



● اكتسبت المجلة فى عهدها سمعة محلية ودولية كمجلة ثقافية وأدبية رفيعة المستوى

جيل جديد والإسهام فى بناء مصر الحديثة . لذلك قررت تسجيل اتحاد بنت النيل لدى المجلس الدولى للمرأة ، وأن أعلن للعالم تاريخ المرأة المصرية ، ودورها البارز فى حياة وادى النيل فى عصرنا الحديث» (عن المرجع السابق - ص ١٨٨).

وما أكثر ماتعرضت له درية شفيق - فى تلك الفترة - من هجمات ضارية حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن وصفها بأنها «عميلة لأعداء بلادها» واتخذوا من مطالبتها بحقوق المرأة، ومناداتها بتخفيف عبء الحجاب، ومعالجة قضية الطلاق، والحد من تعدد الزوجات ومنح المرأة حق الانتخاب ودخول البرلمان - وسيلة للطعن عليها، وتحريف مقاصدها ، وأنها فى ذلك مدفوعة من قبل الاستعمار.

برنامج طموح للإصلاح الاجتماعي

غير أن ذلك كله لم يثن درية ، ولم يقلل من نشاطها، بل راحت توسع من رقعته فأعلنت عن برنامج طموح للإصلاح الإجتماعى يستهدف أساساً «النهوض بالمستوى الاجتماعى والثقافى للمرأة المصرية وإعدادها لحسن ممارسة حقوقها» (المرجع المذكور - ص١٩٥) ومن ثم كان اتجاهها لنساء الطبقة العاملة تقدم لهن خدمات عديدة، وتنظم لهن محاضرات وندوات عامة لرفع الوعى السياسى لدى المرأة بشأن حقوقها وبشأن القضايا الإجتماعية. ومن ذلك جهودها من أجل محو الأمية المتفشية بين الكثيرات من النساء فى مصر فى ذلك الوقت .. و استمر حرصها على السفر إلى أوروبا واقامتها العديد من الصلات الإجتماعية والثقافية فى كافة الأوساط المصرية والأجنبية ، مما حقق لها شهرة كبيرة كانت تساهم فى ازدياد من يحاربونها ولا يكفون عن الهجوم عليها وإن تنوعت دوافعهم إلى ذلك - فبعضها كان عن ضيق أفق يضيق بكل جديد، ويتعصب دائماً للقديم، وبعضها كان دافعه التنافس، والغيرة مما يحققه الآخرون من نجاحات، والبعض الآخر كان مرجعه ما كان يسود المجتمع من صراعات حزبية وطبقية وسياسية واجتماعية بما يدفع إلى إعلان الهجوم - بل الحرب - على كل «الآخرين».

وإذ أجريت انتخابات حرة أسفرت عن وزارة «للوفد» اختارها الشعب بإرادة حرة، فقد التقطت درية مما ورد على لسان رئيس الحكومة - مصطفى النحاس - فى أثناء حملته الإنتخابية - ما وعد به من تأييد لحقوق المرأة وأن من أهدافه منح المرأة المصرية حق الإنتخاب - وراحت درية فى مقالاتها تناشد رئيس الوفد بأن يفى بوعده، غير أن الأمر سرعان ما بدا لها أن تحقيقه غير ميسور فى وقت قريب. فراحت تخطط لعمل آخر: مظاهرة نسائية منظمة تقتحم البرلمان، وتعلن عن مطالب المرأة. وكان أن خططت لقيام تلك المظاهرة فأحسنت التخطيط، وهكذا اجتمعت - فى عصر يوم ١٩٥١/٢/١٩ - مع عضوات الإتحاد وغيرهن ممن انضممن لها، فى قاعة ايوارث بالجامعة الأمريكية، فما أن اكتمل حشدهن حتى انطلقن فى مظاهرة ضمت أكثر من ألف امرأة إلى البرلمان وقمن باقتحام أبوابه، ودخلن إلى أبهائه، مطالبات بحقوقهن السياسية حيث التقين بوكيل



⊙ أعلنت درية عن برنامج طموح يستهدف النهوض بالمستوى الاجتماعى والثقافى للمرأة المصرية

المجلس وواجهنه بمطالبهن، فلم يبد ترحيبا، بل راح يلومهن على هذا الاقتحام المخالف للقانون.. فاتجهت درية إلى مكتب رئيس مجلس الشيوخ، الذى لم يكن حاضرا لوعكة ألمت به، فاتصلت به تليفونيا، وحدثته عن «المطالب» وذكرته بتفسيره للمادة الثالثة من الدستور التى تنص على أن كل المصريين متساوون فى الحقوق ولا تمييز بينهم، وكان أن وعدها خيرا وأنه سيتولى المسألة بنفسه.

حدث له صداه

وهكذا أعلنت درية - واتحادها - مطالب المرأة فى الحقوق السياسية فى قلب البرلمان، وهو الحدث الذى كان له صداه فى الصحافة المصرية، بل ووصل دويه إلى الصحافة العالمية، الأمر الذى دعا درية شفيق أن تطلب تحديد موعد لمقابلة رئيس الحكومة لمطالبته بتنفيذ ما سبق أن وعد به بشأن الإستجابة لتلك المطالب.

غير أنها فوجئت بحملة تصدر فتاوى دينية بحرمة ما تطالب به ومناقضته للدين، فما زادها ذلك إلا إصرارا على موقفها ومطالبها فانطلقت ترد وتناقش وتنشر آراء تؤيدها ترد إليها من شرق ومن غرب.

كما فوجئت برئيس الحكومة يرجىء مقابلتها - التى كان قد تحدد موعدها - كما فوجئت بتقديمها للمحاكمة «لإقتحامها مبنى البرلمان بطريقة غير قانونية»، وحضر معها نفر كبير من المحامين الذى تطوعوا للدفاع وكان على رأسهم مفيدة عبد الرحمن، وكانت المحكمة مظاهرة لفتت الأنظار إلى درية، وبنت النيل، ومطالب المرأة.

فرقة عسكرية من عضوات بنت النيل

وإذ اشتد المد الثورى فى تلك الأثناء تجاه الإنجليز المحتلين، وحدثت مصادمات عديدة مع جيش الإنجليز، وأعقب ذلك إعلان رئيس الحكومة إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦.. ولم تكن درية بعيدة عن ذلك المد الثورى، فقد كانت مقالاتها تترى بالتأييد، بل وراحت تدعو نساء مصر إلى الانضمام إلى صفوف المعركة، وأعلنت عن إنشاء أول فرقة عسكرية فى البلاد من الشابات - عضوات بنت النيل - للنضال مع الرجال، ولإعدادهن لأعمال التمريض وسائر الخدمات الميدانية، انضمت إليها أكثر من ألفى فتاة، كما راحت تجمع التبرعات لمساعدة أسر عمال القناة الذين فقدوا وظائفهم لتركهم «العمل فى معسكرات الجيش البريطانى».

ومع مطالع عام ١٩٥٢ اشتد الغضب الشعبى، ولم يعد

الغضب مقتصرا على المحتل، بل اتجه إلى الملك وإلى الحكومة بصفة عامة، واندست عناصر مخربة، وقد نظمت درية مظاهرة من الإتحاد، بل واختارت عشرين فتاة فى زى عسكرى من كتيبتها، ورأت أن تكون مشاركتها بأن تحاصر بنك باركليز، وتحول بينه بين التعامل مع الجمهور لمدة يوم، واجتذبت مظاهرتها الكثيرين، بل وتداخل فيها عدد من الفوضويين الذين راحوا يطلقون الهتافات المحرضة على التعدى على البنك، فبادرت درية تمسك الزمام، وتحول دون اشتداد درجة العنف إلى أن جاءت قوات الأمن، فتداركت الأمر وألقت القبض على درية، إلا أنها أفرج عنها بعد قليل.

حق المرأة فى الانتخابات

وكانت الكارثة التى آلمتها هى حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ - فقد ملأها الشعور بالأسى لتقديرها لعواقب الحادث السيئة، وبالفعل فقد سادت البلاد حالة قلق وعدم استقرار، وحل مجلس النواب، وتوقفت الحياة النيابية، وتعاقبت الحكومات فلم تكن تستقر إحداها فى الحكم لأكثر من شهر أو شهرين، ومع ذلك فلم تركن درية إلى الهدوء، فما أن أعلن أحد رؤساء تلك الحكومات أنه بصدد إعادة النظر فى القوانين الإنتخابية، حتى دعت إلى اجتماع لمجلس الإتحاد، واقترحت فيه أنه عندما يفتح باب الترشيح أن يتقدم بعض العضوات بأوراقهن دون التفات إلى ما تجرى به الأوضاع من قصر ذلك على الرجال، وكان سندها فى ذلك - الذى أوضحته فى طلبها - أن الدستور لم يفرق بين المصريين، فهم سواء - وبالفعل تقدمت درية بأوراقها للترشيح عن حى عابدين - ولم يزد تصرف جهة تلقى الطلبات عن أن رفعت أوراقها إلى وزير الداخلية الذى احتفظ بها طرفه إلى حين انتهاء موعد الترشيح، فأعادها مع تأشير بعدم القبول حيث أن القانون لا يعطى للمرأة ذلك الحق، فما كان منها إلا أن أعلنت ما حدث، ونشرت تفاصيله، وبادرت تطعن على هذا الإجراء أمام مجلس الدولة.

غير أن ذلك التصرف كان له صداه إذ تناولته الصحف، ودارت حوله مناقشات عديدة ما بين مؤيد ومعارض، بل وصدرت فتوى من المفتى تؤيد وجهة النظر المعارضة لمنح المرأة حق الإنتخاب، ولم تثن تلك الفتوى درية عن مواصلة المطالبة، والرد على معارضيها بمن فيهم المفتى، بل وتطوع الدكتور أحمد زكى بتفنيد ما ساقه المفتى من أسانيد، وخلص إلى تأكيد أنه ليس فى الإسلام ما يحول دون تحقيق تلك المطالب، ومن هنا أعلنت درية شفيق أنها ستطعن بعدم دستورية استبعاد المرأة من الحياة السياسية وأنها ستمضى فى معركتها إلى أن تحقق لها مطالبها..

وإذ قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، فقد تغير بقيامها مسار الأحداث، وكان لدرية شفيق منها أكثر من موقف - مما كان لذلك من انعكاسات شديدة الأثر والتأثير ليس فقط بالنسبة لنشاطها السياسى والاجتماعى، بل وعلى حياتها العائلية، ثم على وجودها ذاته. ■



الطيور والمدينة
ممدوح عمار

حوار الأجيال في المشهد التشكيلي المصري

بقلم
عز الدين نجيب

من بين «توابع» بينالى القاهرة وأشقائه - مثل بينالى الخزف وترينالى الجرافيك - توقف مسيرة نهر المعارض الفردية للفنانين بقاعات الدولة لمدة شهرين متصلين كل عام، اذ تحتلها جميعا أجنحة البيناليات والترياليات، بل تفيض عنها لتحتل قاعات متحف الفن المصرى الحديث بالاوبرا، ما يجعل الحركة الفنية المصرية تحيا بلا ماض أو تاريخ، ولو بالنسبة للزوار والفنانين الاجانب المشاركين فى هذه المناسبات خلال فترة اقامتها ، وأصبح هذا تقليدا سنويا تقترفه وزارة الثقافة بلا أى شعور بالاثم وهى تتفرد به وسط جميع دول العالم، بل على العكس من ذلك: نراها تفتخر بتميزها الحضارى عبر اقامة هذه المهرجانات، والحقيقة أنها تقتطع لإقامتها أغلب ميزانيات المعارض والمطبوعات والاحتفاليات ونفقات السفر والشحن والتأمين بالوزارة بما يحسب بالملايين، وان الفنانين المصريين يعانون الضيق والحصار والتمييز العنصرى فى كل موقع، وأننا لو بحثنا عن العائد



من أعمال صدقي الكفراوي

بعد «هوجة» الانفتاح والإعلام فلن نجد غير ندرة تعد على الأصابع من مشاهدى هذه «الأنشطة الدولية» كل أسبوع، فيصدق عليها القول: ضجيج ولا طحن!

لكن نهر الحركة الفنية أصبح من قوة التدفق والخصوية بحيث يحفر مجراه خارج الموسسة الرسمية، من خلال قاعات الجمعيات الأهلية أو التابعة للأفراد.. وهكذا نشطت حركة المعارض خلال شهر أبريل وأوائل شهر مايو الماضيين، من خلال قاعات مثل: الشموع، سفرخان، جرانت، خان المغربى، إكسترا، سلامة، مشربية، تاون هاوس، جميلة، أتيليه القاهرة، وقد نجت قاعة واحدة من القاعات الرسمية من «هجوم الربيع الشامل» للبينالي، وهى قاعة المركز المصري للتعاون الثقافى الدولى بالزمالك، الشهيرة بقاعة الدبلوماسيين الأجانب، ربما لأنها أصغر من أن تستوعب بعض أجنحة البينالي.

جولة المعارض

واليوم نختار ثمانية من هذه المعارض، تمثل مختلف الأجيال والاتجاهات الفنية لنقدمها لقارئ «الهلال» .. وعلى غير العادة شهدت حركة معارض هذه الفترة غلبة انتاج شيوخ الفنانين، وتلاهم عددا شباب ثابت القدم فى الساحة، وأخيرا بعض الشباب فى أول الطريق.. لكن رؤاهم لا تتناقض أو تتصارع، بل تتحاور وتتكامل كلوحة تمثل الوجه الايجابى للحركة الفنية فى مصر اليوم .

ممدوح عمار:

أول معارض شيوخ الفنانين كان للفنان ممدوح عمار (٧٣ سنة) بقاعة سفرخان بالزمالك، ويجمع عمار فى معرضه طرفى رحلته الفنية الممتدة، فهناك مجموعة من أعمال السنوات العشر الأولى (من ١٩٥١ - ١٩٦١) وفى المقابل مجموعة أعمال سنة ٢٠٠٠، دون أن يقدم شيئا عن مراحله الوسيطة بين هاتين الفترتين، مفضلا أن يفرد لها معارض قادمة، ولعل حرصه الشديد على الاعلان عن استمرارية ابداعه الفنى حتى اليوم كان وراء اختياره مجموعة ٢٠٠٠، قافزا على التسلسل الزمنى لمراحله الفنية.

فى أعمال المرحلة الأولى نجد كل ملامح النبوغ المبكر لممدوح عمار، التى تصل الى مستوى الأستاذية وتضعه فى مصاف رواد الحداثة من جيل الجزار وندا ورافع، وتقارب بينه وبين عالمهم المضمخ ببخور العالم السفلى للمعتقدات الشعبية، من سحر وشعوذة وتقديس للأولياء وخضوع «للأسياد» ، لكنه يتميز عنهم بطلاقة خطية وجسارة لونية، وبقدر أقل من التحريف فى ملامح المشخصات وعناصر الواقع الخارجى، ويستعيض عن ذلك باستخدام الدمى الذكية «الأراجوز» لتمارس اللعب وتتبادل الأدوار مع الانسان كما نجده أكثر ميلا الى رسم المناظر الخارجية، وان اختار مواقع غريبة مثل المقابر والأماكن المهجورة والموحشة والفضاءات الممتدة التى جاءت مزدحمة بمساحات لونية ضارية ، وهى أعمال توحى - فى مجموعها - بنزعة تأملية و«حوشية» معا، تسعى لاكتشاف عالم مجهول .

ثم تأتى القفزة الأخيرة نحو لوحات «عمار» عام ٢٠٠٠، وقد نحا من خلالها منحى رمزيا، باستعارة عنصر الغراب وتوظيفه توظيفا دراميا، ليس من المنظور الشائع حول هذا الطائر كرمز للخراب والوحشة والعيش على الجيف، بل من منظور الحكمة والنظر الى الأشياء من بعيد متفلسفا حول شئون البشر، أو واقعا ضحية ظلمهم، أو دائرا فى دوامتهم، أو منشغلا فى شئون جنسه.. إننا نرى تكويناته العديدة للغربان، متراوحة بين لقاءات القمة لحكمائها، وبين التحليق فى أسراب فوق المدينة التى تبدو كعلب الكبريت، وبين الوقوع ضحايا بطش الانسان وتعليقه إياهم كالمشنوقين .. وفى كل الأحوال يحقق عمار من خلال شكل الغراب بلونيه الأسود والرمادى ايقاعا بصريا شديد التميز والحيوية، خالقا مساحة واسعة من الخيال لدى المشاهد، لاستحضار رؤى ذاتية من خلال العلاقة بين عالم الغربان وعالم البشر!

عمر النجدى :

وكان المعرض الآخر من شيوخ الفنانين للفنان عمر النجدى (٦٧ سنة) بقاعة جرانت بعابدين، وقد اختار مجموعة من انتاجه فى التصوير خلال العامين الأخيرين، يواصل من خلالها عزف ألحانه الأساسية التى شكلت بنية



الزفاف -عمر النجدي

شخصيته الفنية، وهى فى الحقيقة تنويعات على لحن أساسى واحد : هو البيئة والموروث الشعبى وحسن الطفولة، من منظور ابداعى معاصر .

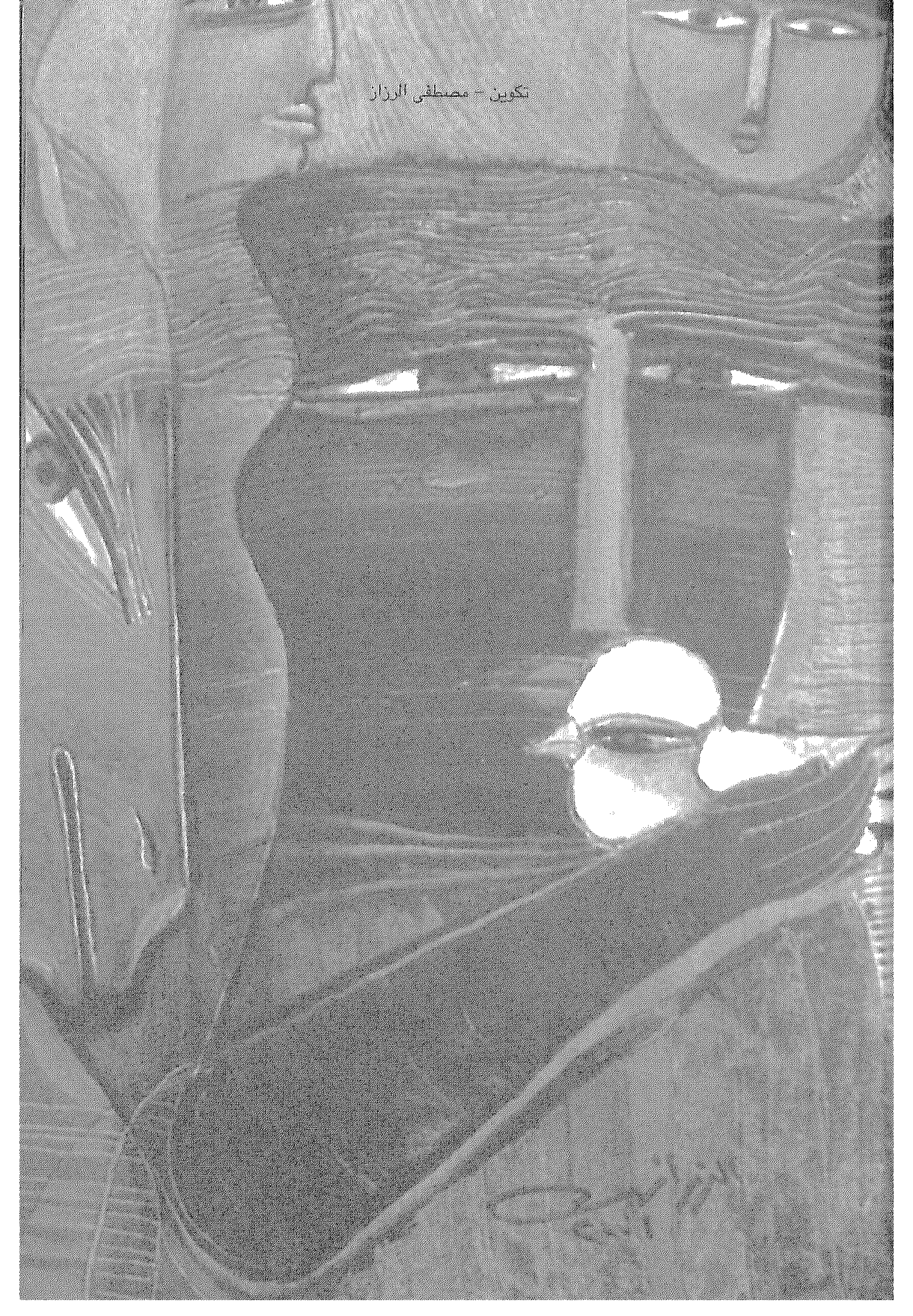
فمن رحم الحارة، وميراث العمارة، وتجليات الزخرف الشعبى، ودفء العلاقة الأسرية ، وحس الابداع الفطرى للأطفال والكبار، ومخزون المعتقدات والتقاليد، وعواطف الأنوثة والحب والأمومة، وتلقائية اللعب والنزوات البريئة، تبزغ كائنات النجدى وكأنها تأتى من عالم سحيق ومعاصر معا، عبقة بملمس الزمن على الجدران والأسطح ، متحررة من أناقة المحترفين وحذلقة الشكلانيين، لتتيح لأشخاصه وعناصره أقصى قدر من الانطلاق وحرية الحركة والتعبير، أو ما يمكن أن نسميه «العشوائية المحسوبة» ، حيث تحقق - داخل حدود المستطيل - نظاما جماليا خاصا، يجعل من وجوه الفتيات والأطفال، ومن الأعضاء البشرية والطيور والحيوانات والأوانى والأرائك وحروف الكتابة وتشققات الجدران، علامات واشارات دلالية وايقاعية فى آن واحد، وحسا بالكثافة والشفافية، وبالتركيب والتسطيح، وبالتماهى والمحدودية فى الوقت ذاته.. واذا كان الخط بمنحنياته واستقامته، باتصاله وانقطاعه ، يمثل رابطة قوية تجمع التكوين،. واذا جاءت ملامس السطح الخشنة لتعطى للأعمال مذاق الزمن وحيوية النبض، فإن الألوان تشارك فى هذه المنظومة، بانتمائها لألوان الأرض والجير والمقابر المصرية القديمة داخل الجبل، وكذلك باستيعابها لحركة تيار الشعور العفوى المتدفق داخل الفنان.

لكن يبقى السؤال : ما الجديد الذى أضافه النجدى من خلال هذا المعرض؟.. والحق أن الجديد قليل، قد ينحصر فى مزيد من الجرأة فى تشريح سطح اللوحة، وفى تداخل عناصرها بما يقترب أحيانا من التجريد، وفى عفوية الأداء بما يقترب من الدراسة التحضيرية ، وقد يكون صغر مساحة القاعة وطبيعتها الخاصة حاكما فى اختيار الأعمال صغيرة الحجم البعيدة عن شطحات التجريب.

حافظ الراعى :

وتفاجئنا قاعة إكسترا بالزمالك بمعرض لفنان جاوز الثمانين من عمره دون أن تعرف الحركة الفنية فى بلادنا عنه الا القليل جدا، هو حافظ الراعى، على الرغم من خصوبته الابداعية كما وكيفا حتى عام ٢٠٠٠، دون أن يفقد روح المثابرة وجرأة التجربة وتوهج الفطرة ونقاءها .

حافظ الراعى مصور مشحوذ الحواس تجاه الطبيعة بكل تجلياتها، بين المنظر الطبيعى وحياة الفلاحين والصيادين والحارة الشعبية ، لكنه لا يحاكى ذلك كله بأسلوب وصفى مباشر، بل يعيد صياغته بنزعة تحليلية تركيبية لعناصر الطبيعة والعمارة والبشر، مع ميل الى تشريح المساحات وتعشيقها بحس أقرب الى التكعيبية أو الشفافية البللورية، وقد يثقل على نفسه أحيانا بمحاولة تقديم دراسات تفصيلية للمشخصات الواقعية، فيكون ذلك على حساب النسب والقواعد التشريحية الصحيحة، لكنه ينجح أكثر فى لوحاته التى تتداخل فيها العناصر بغير تفاصيل محددة، وكذلك فى لوحاته عن الزهور والطبيعة الصامتة، ففيها وهج الألوان وانطلاق السجيّة المشرقة للفنان، أما لوحاته عن الصيادين أو عن فتيات أسوان والنوبة ومواكب الأفراح الريفية



تكوين - مصطفى الرزاز

فتمثل ذروة مسيرته الابداعية التى تمتد منذ عام ١٩٣٩ حين تخرج فى معهد ليوناردو دافنشى بالقاهرة، أو منذ عام ١٩٤٨ حين تخرج من القسم الحر بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة، حيث تتلمذ على أيدى الفنانين أحمد صبرى وكامل مصطفى وحسين بيكار.

إن حافظ الراعى نموذج للفنان الذى ابتلعته دوامة الوظيفة، حيث عمل منذ تخرجه رساما بمتحف التعليم، وظل يتدرج حتى أصبح موجها عاما بالتعليم الثانوى، وكم من مواهب كهذه جرفها تيار الوظيفة وقسوة الواقع.. لكن هاهو يثبت أن المواهب لا تضيع!

أحمد منيب :

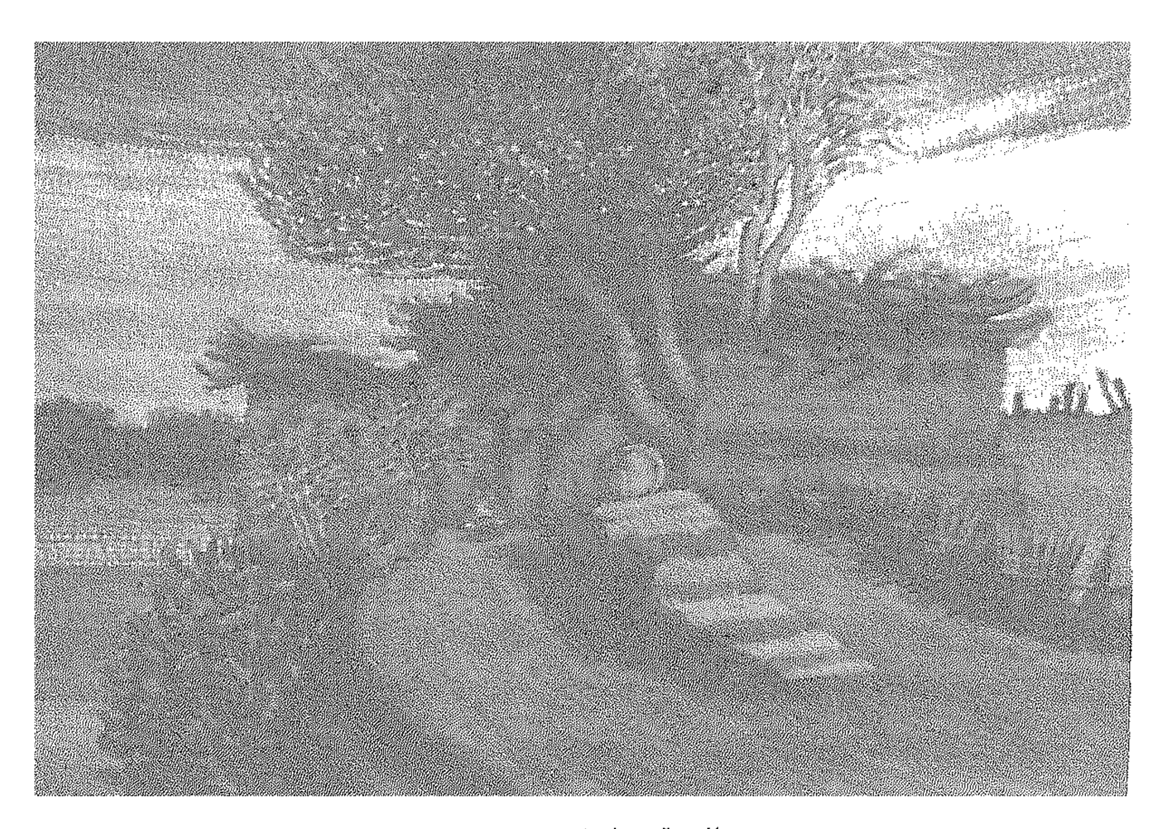
وهذه موهبة أخرى أوشكت أعباء الوظيفة أن تبتلعها، لولا اصرار صاحبها على انقاذها بعد أن تحرر من نير هذه الوظيفة مؤخرا... فالفنان أحمد منيب - الذى أقام معرضه خلال شهر أبريل بقاعة الشموع بالمعادى - ظل مخلصا لوظيفته بوزارة القوى العاملة والهجرة حتى أصبح وكيلا للوزارة، وأحيل الى المعاش فى يناير ٢٠٠٠، لكنه ظل محتفظا برباط وثيق بعالم الفن، بالرغم من أنه لم يدرسه دراسة أكاديمية، حيث تخرج فى كلية الحقوق، بيد أن عشقه للفن فتح أمامه عوالم الإبداع عبر الممارسة والاطلاع، سيما خلال فترات مهامه الرسمية الممتدة خارج مصر عدة سنوات، مما هيأ له تأمل كنوز الفن العالمى خاصة الحركة الانطباعية التى صار من عشاقها ومريديها .

إن هناك خطا وهميا بين مرحلتى الهواية والاحتراف فى الابداع الفنى، فلا غنى لإحداهما عن الأخرى.. ذلك أن الفنان المحترف بغير قدر من روح الهواية والمغامرة التى تجعله ينتج للاستمتاع الذاتى ويستطيع أن يتمرد على ما حققه دون انتظار لمردود ، يصبح جهازا حاسبا حفيظا على التى حقق من خلالها نجاحه ووجوده ، والفنان الهاوى الذى يمارس فنه قانعا بامتاع نفسه أو امتاع الآخرين بما يحبون دون استنفار موهبته واختبارها على محكات عوالم الابداع لدى الآخرين، معرض للتجمد والتكرار النمطى كذلك .

وعند هذا الخط يقف أحمد منيب : موهبة قوية متدفقة مليئة بالطموح الى الوجود والتفاعل مع الحركة الفنية، والمجتمع بروح المحترفين، وفى الوقت نفسه يسجن هذه الموهبة فى قالب المدرسة الانطباعية الأوربية فى نهايات القرن التاسع عشر، دون أن يوظفها بذكاء لاستخلاص سمات الفرادة والتميز فى الطبيعة المصرية، على نحو ما فعل أسلافه من الانطباعيين المصريين مثل يوسف كامل وحسنى البنانى وكامل مصطفى وصبرى راغب وموريس فريد. لقد شغلته ذبذبة بقع الضوء واللون لدى التنقيطيين - مثل فان جوخ وسوراه وسيزلى - فجعل من لوحته شلالات من أطياف قوس قزح، لكن القليل منها يعكس روح الطبيعة المصرية ، إنه يصنع فردوسه الذاتى من مخزون عالم الآخرين، وهذا حقه، لكن من حقنا عليه أن يفك أسر هذه الموهبة الحبلى بخبرة كثيفة وقدرة على عمل توليف لونى بالغ الثراء!

مصطفى الرزاز:

عبر ثلاثيته الشهيرة بعناصر المرأة والطائر والحصان، يعود الفنان مصطفى الرزاز بمعرض جديد بقاعة خان المغربى بالزمالك، معتمدا على لوحات صغيرة الحجم للغاية، وان شمل بعض اللوحات



القرية - ابراهيم غزالة

الأكبر حجما حتى تقارب المتر المربع .

إن النظرة العابرة لأعمال الرزاز تجعل المشاهد يشعر وكأنه داخل قاعة ملأى بالوجوه الصينية، فلا يكاد يجد اختلافا بين ملامح الوجوه، لكن المتأمل المتابع لتجربته الفنية يدرك التمايز بين لوحاته حتى ولو ضمت نفس الشخوص والملامح والأشكال. إن لكل لوحة نسيجها الخاص. وكلمة «نسيج» ليست مجرد تشبيه أدبى/ مجازى، بل اعنى بها فعلا تأثير نسيج القماش فى ملمس اللوحة، اذ يجرى الفنان فرشاته وخطوطه فى متوازيات أفقية أو قوسية بموجات بالغة الدقة والرهافة، ما يجعلها تقترب من البصمة، وكثيرا ما يتم ذلك عن طريق الكشط من قشرة اللون، فيبدو لون الأرضية السابق ، ويتخلل اللون القديم مسام اللون المضاف مغطيا سطحا مخاتلا .

ولقد كانت المشكلة تكمن فى ثبات الرزاز عند هذا النسق الذى تحول الى اطار يسجن رؤيته الفنية فى قالب «الطقطوقة» المتكررة الايقاع، لولا اختلاف البصمة الملمسية، لكنه فى معرضه الأخير أطلق العنان لبعض تكويناته وألوانه، وبقى بعضها الآخر على منواله القديم، أما الجديد فهو اللون البنى المحروق فى وجوه فتياته اللاتى يحملن نكهة نوبية دافئة، وكذا التلاعب بالعيون الفرعونية المستطيلة الموازية كالشق الضيق أو كالأهلة الوليدة وهى تتغامز فى ومضات متفرقة على سطح اللوحة، لقد استوى اللون فى هذه اللوحات وتخلى عن الحلاوة الزخرفية الزائدة التى كانت سمة الأعمال السابقة للفنان .

منصور المنسى :

فن النحت هو الوسيط الذى يصعب خداع المشاهد من خلاله بموهبة زائفة، لأنه الأكثر ارتكازا على الحقيقة المجردة

للشكل فى الفراغ، سيما لو تخلى الفنان عن عناصر المشابهة والمحاكاة لملامح الواقع المرئى، فيصل الى ذلك الجوهر النقى للكتلة كما تجلت فى النحت المصرى القديم. لهذا يقل عدد النحاتين فى العالم كله - وليس فى مصر وحدها - حتى يبلغ حد الندرة، ويقل - أكثر - عدد المعارض الخاصة بالنحت، فهى - فوق تحدياتها الإبداعية والتقنية - باهظة التكلفة وعسيرة على الاقتناء، ما يجعل من تجربة النحات مسلسلا لا ينتهى من الخسارة والإحباط.

والفنان منصور المنسى لم يكتف بمواصلة خوض تجربة النحت واقامة معارض متلاحقة لأعماله بالقاهرة، فيما يعمل ويقيم بمدينة أسيوط كمدرس بكلية التربية هناك، بل ينفذ أعماله مباشرة فى أحجار الجرانيت والرخام، وقد أقام خلال شهر أبريل معرضه الجديد بأتيليه القاهرة من عشرات الكتل الجرانيتية والرخامية، فى وقت يلجأ بعض النحاتين الى استخدام المواد الصناعية الهشة والنفايات الزائلة.

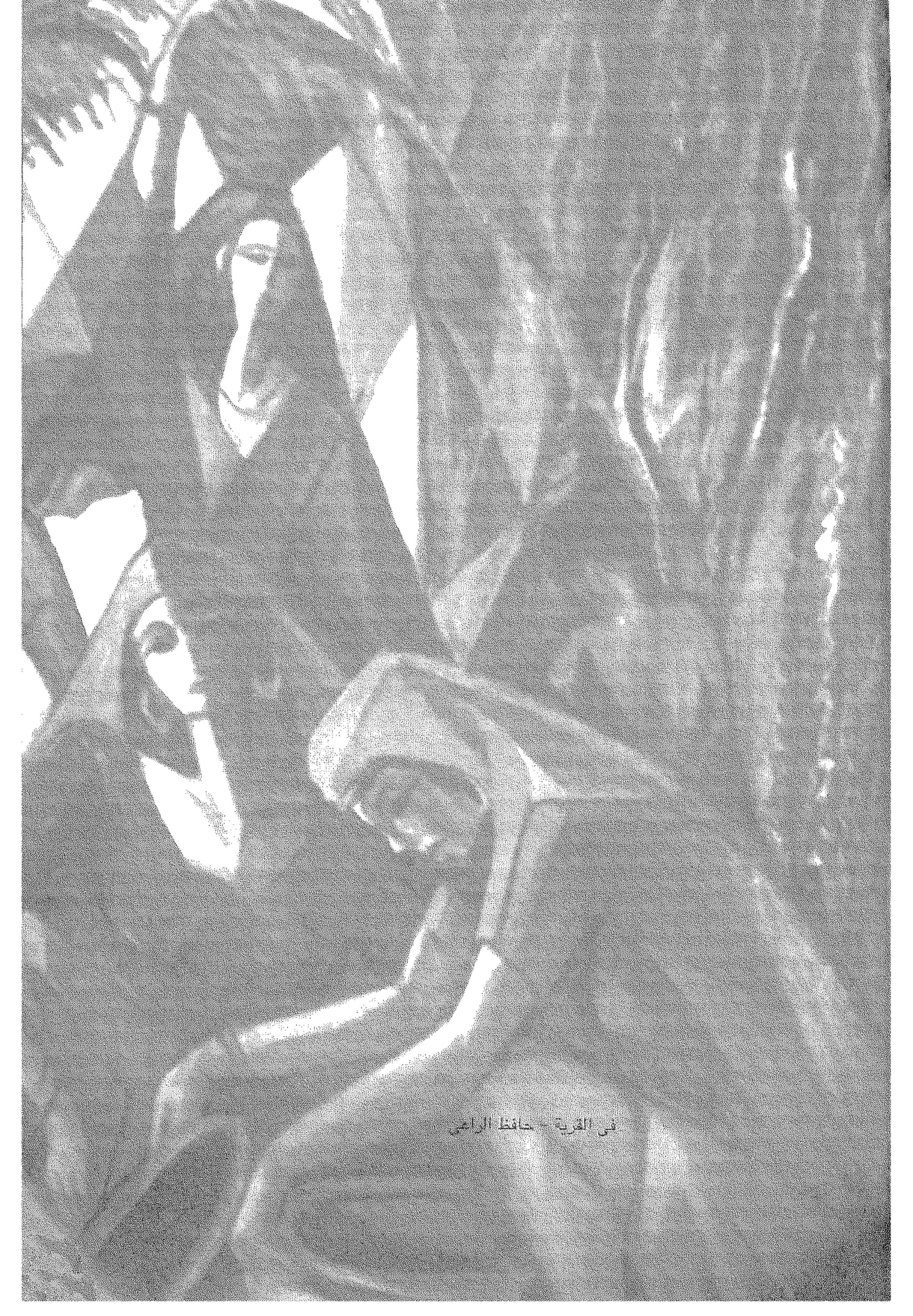
ولقد استهوى الشكل المجرد المصمت رؤية الفنان، بعد أن دأب - فى تجاربه السابقة - على اللعب بالأشكال الحلزونية والمدببة الأطراف والتجاويف الغائرة.. إنه يتطلع هنا الى ذلك الجوهر النقى للكتلة الموحية بالأسرار وهى أقرب الى الطبيعة الغفل، فيبلغ درجة متقدمة فى مضمار الحداثة، فيما يضرب بجذوره فى أرض بلده وفى تقاليد النحت المصرى القديم، بما يحمله من قيم التأمل والخلود والايجاز البليغ.

وبقدر ما تميزت تماثيله الحجرية البيضاء، أخشى أن يكون قد خانه التوفيق فى تماثيله التى تبدو وكأنها مدهونة باللون الأسود، فافتقدت - بلمعتها الشديدة تحت الضوء، وبرخص خامتها الأصلية - درجة النفاسة والأصالة للمنحوتات الحجرية فى نفس القاعة، هذا بالرغم من أن المعالجة النحتية للشكل فيها لا تقل عن مثيلتها فى الأعمال الحجرية

إبراهيم غزالة:

كثيرا ما ينخدع المشاهد عند الوقوف أمام بعض الأعمال الفنية ذات الشبه بالواقع الخارجى فيعتبرها أعمالا واقعية، فيما هى تنتحل قناع الواقع لتصل من ورائه الى «واقع آخر» مستقل عن الأصل، وهذا ما نسميه «الواقع الفنى».

ومعرض ابراهيم غزالة الذى أقيم أوائل شهر مايو بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى بالزمالك مثال واضح على ذلك، والفنان نفسه يشارك فى الخدعة فيطلق عليه عنوان «مناظر مصرية» مهيئا المشاهد لرؤية مجموعة من المناظر الطبيعة، وهى بالفعل مشاهد من البيئة الريفية تشمل بيوتا وأشجارا ومدرجات طينية وأبراج حمام ونخيلا وبشرا على شاطىء النيل، لكن ذلك جميعه ليس الا «موضوعا» أو مبررا للفنان لصنع عالم جديد مواز لعالم الواقع، انه يصنع فردوسه الخاص من خلال بناء فسيفسائى ونغمى عن طريق البقع اللونية الوضاءة المتجاورة بنظام هندسى محكم يتصاعد ويتنامى عبر آلاف البقع اللونية المصفوفة ، فيخلق فى النهاية «حالة غنائية صداحة» مستعينا بايقاعات النور والظل، وبجماليات العمارة الشعبية فى النوبة والصعيد، وبنثريات الحياة اليومية فى القرية وهى - بارتعاشاتها وذبذباتها اللونية - تصنع فى النهاية «متتاليات موسيقية شعبية» بتوليف سيمفونى بين عدة ألحان تتداخل



فى القرية - حافظ الراعى

وتتصاعد في لحن أساسي كورالي الصدى.

وقد تغلب القصدية والاحكام الهندسي على بناء لوحاته، ولذلك تتميز عن المدرسة الانطباعية - التنقيطية - التي تقوم على الاسقاط العفوي اللحظي لضربات الفرشاة، لكنها - أي اللوحات - من ناحية أخرى، مهددة بأن تتحول الى تصميمات زخرفية متأنقة، بفعل هذا الاحكام الهندسي، لكن لعل التجربة تصل الى منتهاها فتكتسب نبضها العفوي، وتتخفف من أناقتها المترفة وحلاوتها اللونية الزائدة .

مجدى الكفراوى:

فى قاعة جميلة بالمعادى كان معرض الفنان الشاب مجدى الكفراوى فى التصوير الزيتى يوم ١٠ مايو، وهو معرضه الأول بالقاهرة بعد معارض سابقة بمحافظة الغربية منذ تخرجه فى كلية التربية الفنية.

انها حقا بشارة بميلاد فنان حقيقى يبحث بإخلاص ودأب عن «لغة وفكرة وموقف» للوحته، وليس عن بريق واثارة وصخب، كما اعتدنا فى معارض الشباب فى السنوات الأخيرة. انه ما يزال يحترم منطق «اللوحة» بمفهومه المتعارف عليه، دون أن يخضع للأساليب التقليدية، أو أن ينساق لمحاكاة عمياء لاتجاهات التغريب، فخرجت أعماله رصينة البناء متماسكة التكوين متصاعدة الايقاع متناغمة الألوان هامسة التعبير قادرة على مخاطبة مستويات التلقى المختلفة لدى المشاهدين، بما تملكه من احترام لعناصر الواقع وبما تحمله من مدركات رمزية وفكرية، ولعل الأيام تعجم عوده فيحقق مزيدا من السيطرة على أدواته الفنية.

خطوة واحدة:

تحت هذا العنوان أقيم معرض لثلاثة فنانين شباب بقاعة انجى أفلاطون بأتيليه القاهرة فى شهر أبريل، من بينهم أختان توأمتان هما غادة وهبة خليفة، وثالثهما تامر شاهين. وبالرغم من أنهم من خريجى كلية الفنون الجميلة حديثا، فقد تخلصوا من تأثير الدراسة الأكاديمية «المقولبة»، وحاول كل منهم أن يشق طريقه باحثا عن رؤيته الأسلوبية الخاصة بأقصى قدر من الجرأة والعفوية والثقة بالنفس، وبالرغم من طموحهم الجارف للتحقق الفنى ، فإنهم لا يركبون موجة جيلهم اللاهث خلف جوائز صالون الشباب بالبحث عن الاثارة والتغريب عن طريق الخامات والتركيبات الاستفزازية ، فلديهم قناعة بأهمية الدراسة والتجريب انطلاقا من احترام سطح اللوحة ومدركات الرؤية، سواء كانت خارجية أو باطنية، لذا فإن الأختين غادة وهبة التحقتا لمدة عامين خلال وبعد تخرجهما من الكلية بالمرسم الحر لجمعية أصالة وشاركتا فى معارضها ، واليوم تتعاملان - ومعهما زميلهما تامر - مع القيم الفنية المجردة انطلاقا من الطبيعة، فيأتى التجريد أو الشحنة التعبيرية أو الدلالة الرمزية بسلاسة وبدون افتعال.

إنها حقا خطوة، لكنها من الجدية والثقة بحيث تحمل وعودا بميلاد فنانين ذوى أقدام راسخة!. ■

حديقة الاورمان - احمد منيب



ربيع أول ١٤٢٢هـ - يونيه ٢٠٠١م

●● إذا سئلنا عن السينما المصرية خلال النصف الأول من السنة التى بدأت بها الألفية الثالثة والقرن الحادي والعشرون، فمن الحق علينا أن نقول أنها سينما تلهو ومرآة لشعب يلعب.

فباستثناء فيلم يتيم «أسرار البنات» لصاحبه مجدى أحمد على، ذلك المخرج الجاد، والاستثناء لا حكم له كما يقال، فجميع الأفلام الأخرى أقرب أن تكون معرّه، منها إلى أى شىء آخر.

وليس أدل على ذلك من أن أكثرها تحقيقا للايرادات، وبقاء فى دور العرض منذ العيد الكبير، وحتى كتابة هذه السطور هو «صعيدى رايح جاى» ●●

وعنده ، وعند أفلام ثلاثة أخرى، أقف قليلا وبداية، فاثنان من بينها انتجتهما الدولة، من خلال مدينة الانتاج الاعلامي، التابعة للتليفزيون المصرى، ذلك الصرح الذى ولد عملاقا.

وهما «يمين طلاق» و«العاشقان».

وابدأ بيمين طلاق لا لسبب سوى أن عرضه تصادف مع عرض الفيلم الأمريكي «التهريب».

وكلاهما لمخرج كبير، الأول صاحبه على عبدالخالق الذى بدأ مشواره مع الأطياف «بأغنية على الممر» (١٩٧٢) وبعده أخرج حوالى أربعين فيلما ومسلسلا تليفزيونيا لعل أهمها «العار» عن الاتجار بالمخدرات.

أما التهريب فصاحبه ستيفن سودر برج، وأحيانا يختلط الأمر على البعض، فيظنونه ستيفن سبيلبرج صاحب الفك المفترس، قائمة شندلر وحديقة الديناصورات.

وفى فيلميهما، يعرض المخرجان المصرى والأمريكى لمأساة إدمان المخدرات.

وسأكتفي هنا بعرض كل منهما باختصار، بادئا بالتهريب، وبكلمات قليلة تعرّف بصاحبه.

الشاب المعجزة

بهر «سودر برج» مهرجان كان، قبل ثلاث عشرة سنة بفيلمه الأول «جنس أكاذيب وشريط فيديو» فكان أن فاز، ولدهشة الكثير، بالجائزة الكبرى لذلك المهرجان (السعفة الذهبية)، وهو لايزال فى ريعان الشباب.

ومنذ ذلك الحدث الكبير لم يخرج سوى ثمانية أفلام معظمها لم يحقق نجاحا كبيرا، غير أن السنة الأخيرة من القرن العشرين كانت سنة سعد بالنسبة له، ذلك أن المقادير أتاحت فرصة الق... خلالها، باخراج... هما «أيرين بروكوفيتش

وأتاحت لكلاهما أن يحقق ايرادات فاقت المائة مليون دولار، وهو أمر لم يتحقق، من قبل، لأى فيلم له، بما فى ذلك فيلمه الفائز بسعفة مهرجان كان.

ومن دلائل السعد الأخرى ترشيح الفيلمين لأكثر من جائزة أوسكار.

«ايرين بروكوفيتش» لثلاث، من بينها، جائزة أفضل ممثلة رئيسية «جوليا روبرتس»، وبالفعل فازت بها، قبل أسابيع.

والتهريب لخمس جوائز، فاز منها بأربع، هى جوائز أفضل مخرج وممثل مساعد (بينيشيو ديل تورو) وسيناريو

مقتبس وتوليف (مونتاج).

وسودربرج يكاد يكون وحيد نوعه بين مخرجي مصنع الاحلام.

فله أسلوب متميز، تنفرد به أفلامه على نحو تبدو معه وكأنها أوروبية.

ولعل ذلك يفسر بعض الشيء، الحماس الشديد لفيلمه الأول في «كان»، وعدم الاقبال على مشاهدة أفلامه اللاحقة في بلاد العم سام .

بداية مذهلة

وأول مشهد فى التهريب، يؤكد المنحى الفريد، غير المألوف فى سينما «سودربرج».

فكم غير قليل من لقطاته ذو طابع أوروبى ولانها كذلك، تمر أمام أعيننا، قبل أن نتيقن من أن ما نشاهده ليس الا فيلما أمريكيا فالأشخاص فى المشهد يتكلمون بالاسبانية، والصحراء تحاصرهم من كل جانب، والألوان يغلب عليها اللون البنى، والكاميرا تتحرك بينهم وبين اللورى الملىء بأكياس الهيروين، محمولة على كتف المخرج، الذى هو فى نفس الوقت مدير التصوير، وثمة طائرة محلقة فى الأفق، سرعان ما تحط على الطريق، ويخرج منها عسكر، بكامل السلاح وعلى أهبة الاستعداد.

بهذا المشهد تبدأ أولى قصص الفيلم، وهى ثلاثة، متداخلة، محكمة البناء.

وأحداثها تدور فى المنبع، أى حيث المكان الذى تعبر منه المخدرات المهربة، بكميات هائلة إلى الولايات المتحدة، أرض الميعاد ، مع اللذات.

ومكان العبور هذا ، هو باختصار الحدود بين الجارتين المكسيك والولايات.

وأحداث القصة الثانية تدور فى المصب، وبالتحديد «سان دييجو» بولاية كاليفورنيا، حيث العصابة، بشبكة أفرادها الذين يقومون بعمليات الاستيراد والتوزيع.

أما أحداث القصة الثالثة فتقع فى العاصمة واشنطن، حيث يعين البيت الأبيض مسئولا كبيرا مشرفا على هيئة منوطا بها مقاومة التهريب، ويؤدى دوره مايكيل دوجلاس، النجم الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه فى فيلم «وول ستريت» (١٩٨٧) وتتداخل القصص الثلاث بفضل سيناريو مأخوذ عن مسلسل انجليزى بنفس اسم الفيلم، ومكون من أربع حلقات.

عسكر وحرامية

وتبدأ أحداث القصة الأولى بشرطيين يواجهان العصابات، عند الحدود بين المكسيك والولايات، ويؤدى دور أحدهما «بينيشيوديل تورو».

وسرعان ما تقتحم المشهد طائرة حربية، يترجل منها جنرال مهيب فى الجيش ، مكلف بمحاربة التهريب.

غير أنه ، ومع تسلسل الاحداث، يبين أنه يعمل لحساب كارتل اجرامي قوى، يسعى إلى احتكار تهريب المخدرات إلى الولايات، وذلك لن يكون الا بالنجاح فى تصفية كارتل آخر منافس، بكل الوسائل بما فى ذلك التصفية الجسدية والارهاب والتعذيب .

وفى سان دييجو يعيش زعيم أحد الكارتلين الاجراميين، مع زوجته الحسناء

كاترين زيتا جونز وابنهما الصغير.

وتبدأ أحداث القصة الثانية مقبوضا عليه، فى قصره، وأمام زوجته الملتاعة، وذلك لانها لم تكن تعرف من أسرار ثرائه شيئا.

بيد أنها ما أن تعرف السر الكبير، وهو أن زوجها الرأس المدبر لأهم عمليات التهريب، حتى تنقلب امرأة شرسة.

وفى سبيل انقاذ صغيرها من الخطف، وربما القتل وانقاذ زوجها من آثار حبس مهين، تلجأ إلى استئجار قاتل محترف، مهمته اسكات صوت شاهد الاثبات الوحيد.

أولاد الاكابر

وتتداخل أحداث القصتين مع أحداث القصة الثالثة، حيث يكتشف المسئول الكبير، الواقف لتهريب المخدرات بالمرصاد، أن ابنته الوحيدة «اريكا كريستنسين» ، وقعت فريسة الادمان.

وبسببه سقطت فى مستنقع بيع الجسد، من أجل الحصول على بضع دولارات، تدفع ثمنا لشمة هيروين.

كل هذا فى فيلم واحد من مائة وخمسين دقيقة، تمر وكأنها ثوان.

ومن اعجازات السيناريو، تشابك احداث قصصه الثلاث، دون أن تلتقى شخصيات أى منها، ولو لقاء عابرا.

ولقد اختار «سودر برج» لبعض الأحداث طابعا تسجيليا، مما اضفى على الفيلم صبغة واقعية، قاسية إلى حد كبير.

كما اختار لكل قصة لونا خاصا، حتى يكون فى وسع المشاهد أن يفرق بين الأماكن المختلفة، دون كبير عناء.

يبقى لى أن أقول أنه، ورغم كل ما نعرفه، نحن المتفرجين، عن المخدرات وتجارتها وتعاطيها، وهو كثير، الا أن سودر برج، زاد بفضل فيلمه من معرفتنا لأبعاد مأساة الادمان، دون وعظ وارشاد.

فها هو ذا الادمان يطرق باب بيت الشخصية الأولى التى اختارتها ادارة أقوى وأغنى دولة فى العالم لقيادة الحرب ضد المتاجرين فى المخدرات، وينال من ابنته التى ليس لها من العمر سوى سته عشر ربيعا.

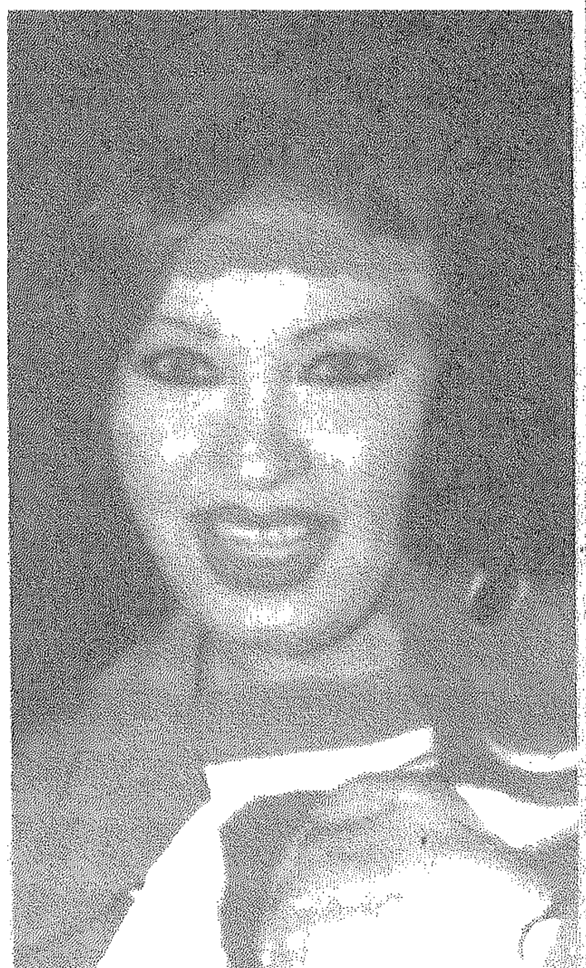
ويبدو من أحداث الفيلم بنهاياتها الفاجعة، أن تلك الحرب كما تقودها الولايات المتحدة مآلها الفشل الذريع.

انتصار الاشرار

فحجم المال الدائر فى تجارة المخدرات أزيد من حجمه فى أية تجارة أخرى، بما فى ذلك تجارة السلاح والمال الذى يملكه بارونات التهريب له قدرة فائقة على إفساد السلطة، رجالا ونساء، بكل وسائل الاغراء.



العاشقان فيلم عجوز



فيفى عبده بطلة يمين طلاق

كاترين زيتاجونز -امرأة قيصر المخدرات

وهم ، أى البارونات، يقاتلون من أجل الحفاظ على أرباحهم الخيالية بضراوة تفوق ضراوة حيوان الغاب.

فعلاوة على الترغيب ، لا يتورعون عن الترهيب.

كل ذلك عرضه، ولا أقول فضحه سودر برج فى «التهريب».

بداية مخجلة

وإذا كان «سودر برج» قد استهل فيلمه بلقطات مذهلة فاللقطات التى استهل بها «يمين طلاق» كانت ، والحق يقال، مخجلة بسوقيتها وسوء تصويرها، إذ نشاهد فيها «تيسير فهمى» هى وزوجها يتشاجران ويتضاربان خارج شقتهما ، أمام الجيران.

وما هى إلا لحظات، حتى تنطلق من فم الزوج الغاضب عبارة «روحى وأنت طالقة» ، بعدها تتشرد تيسير، هى وصغيرها منه، إلى أن تعثر على مأوى فى بيت صديقة «شادية عبدالحميد» زوجها، لسوء حظ تيسير، أو بمعنى أصح الصغير، زير نساء «أبو بكر عزت» هكذا بدأ فيلم على عبدالخالق الأخير أما كيف انتهى، فبنداء على لسان الصغير، بعد أن صار شابا يافعا «نادر حسن» ، يقول فيه، والكاميرا مسلطة على وجهه، فى لقطة كبيرة «أبغض الحلال عند الله الطلاق».

وفيما بين لقطات الاستهلال، وهى سابقة على العناوين، ولقطة الختام، حيث تحوّل «نادر» إلى مرشد لنا، يهدينا سواء السبيل.

فيما بينهما تجرى أحداث يغلب عليها التلفيق والافتعال.

عيش عايش

ولن أحكى شيئا من تفصيل تلك الأحداث، وإنما أحكى خلاصتها فى كثير جدا من الايجاز .

فلو حكيت تفصيلها ، لتنقلت من شىء سخيف إلى شىء أشد سخفا.

فتيسير المطلقة يشتهيها «أبو بكر» من أول نظرة، فيطلق «شادية»، ويتزوج «تيسير» فتشرد «شادية» هى وابنها الوحيد، كما تشردت ، من قبل «تيسير».

أما لماذا طلق «أبو بكر» رغم أنه صائغ، واسع الثراء، ومن حقه شرعا الجمع بين «شادية» و«تيسير» ، زوجتين فى الحلال ولماذا ارتضت الأخيرة أن تشرد صديقتها التى آوتها، وأن تهان ، فذلك لا نجد له أى تفسير منطقى فى سيناريو «يسرى الهياتمى» المليء بالثغرات.

القصد الاوحد من طلاقهما، وأن يكون لكلتاهما صغير ينحرف مع مرور الايام، فيصبح مدمنا، فمجرما محترفا، القصد منه التأكيد على فكرة تزعم بأن الطلاق شر،

مؤداه، بحكم اللزوم، انحراف الابناء.

ولم يكتف السيناريو ، تأكيدا لتلك الفكرة، بشابين انحرفا بسبب طلاق الامهات، بل أضاف اليهما شابا ثالثا «ماهر عصام» انحرف هو الآخر، فسقط فى هاوية الادمان، وأرجع انحرافه إلى شقيقته المطلقة هى الأخرى «فيفى عبده» .

وعلاوة على ذلك فالسيناريو جعلها ، أى «فيفى» مجرمة فى عصابة تزييف للدولارات بزعامة «مصطفى متولى» الذى تهز أمامه «اردافها يمنة ويسرى من حين لآخر، وهو ممسك بالجوزة متغزلا.

وبطبيعة الحال أرجع السيناريو انحرافها إلى يمين طلاق أطلقه خليجى، عندما رفضت الاستجابة إلى طلبه التخلص من الجنين الذى فى آحشائها، بالاجهاض .

وكل هذا الزيف والسخف، يجرى عرضه أمام أعيننا، دون ذوق مهذب، من خلال مشاهد تعاطى كثيرة، بدءا من الجوزة، وانتهاء بالشم، مرورا بمشاهدة الأفلام الزرقاء مع الانفاس، لاقصد منها سوى التهريج الرخيص.

أما الصدق والاقتراب من الواقع ولو قليلا، فقل عليهما السلام!!

فيلم هوى

والآن إلى أول فيلم يخرجه نور الشريف «العاشقان».

ومما يعرف عن ذلك النجم أنه ليس مبتدئا فى دنيا الاطياف، فله، حتى الآن ، فى مجال التمثيل السينمائى زهاء مائة وسبعين فيلما.

ومن المؤكد أن ذلك العدد الكبير من الأفلام كاف فى حد ذاته، لأن يجعل من «نور» فنانا ناضجا.

ومع ذلك ، فلم يأت فى فيلمه بشىء يوحى بأنه استفاد من ذلك الكم من الأفلام.

فلغة السينما فيه عتيقة، أقرب إلى أن تكون لغة مدرسية لطالب مجتهد، لم يتعلم من لغة السينما سوى ألف بائها، ويعمل على تطبيق ما تعلمه بالحرف، دون ابتداع فى استعمال اللغة، ودون ابتكار فى الرؤى، كل ما هنالك قصة ملفقة، افتعلت أحداثها المؤلفة «كوثر هيكل» ، وسيناريو أكثر تلفيقا وحوار غير متصل بما ينطق به لساننا، فى أثناء ممارستنا لحياتنا يوميا، ولا حتى بهموم تلك الحياة، ما كان منها عاديا أو رومانسيا.

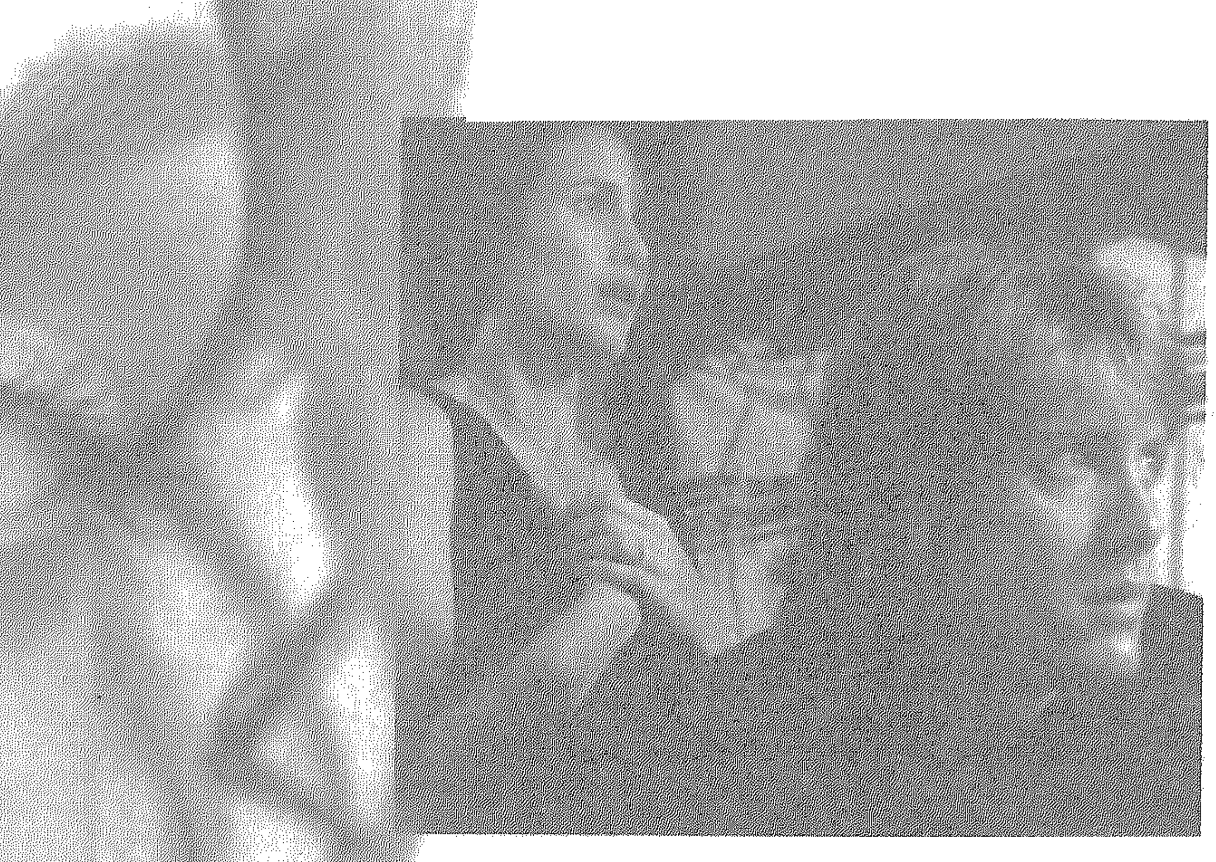
فموضوع الفيلم، عماده التلفيق جملة وتفصيلا .

ومن هنا ابتعاده عن الصدق كثيرا ، وعدم اقترابه من الواقع الا قليلا.

باختصار العاشقان فيلم زائف، خال من الاهتمام بالهموم المعاشية الحقيقية، قوامه ادعاء ، شديد الاملال، بانتهائه، ومع كلمة ختام، نتنفس الصعداء.

هذا عن الفيلمين اللذين انتجتهما الدولة، من خلال مدينة الانتاج الاعلامى ، وياليتها ما أنتجتهما، فوفرت الوقت والمال ، وجنبتنا احباطا، نحن فى غنى عنه فى هذه الأيام الحالكة السواد.

فإذا ما انتقلنا إلى الفيلمين الباقيين وهما «لو كان ده حلم» و«صعيدى رايح جاى»، والأخير أنجح أفلام السنة، حتى هذه الساعة، فسنجد أنفسنا أمام عملين



جنس ..اكاذيب وشريط فيديو اول فيلم لسودربرج

أحدهما أقرب إلى الكليبات، والاخر أقرب إلى مسرح على الكسار فى الربع الأول من القرن العشرين.

لو كان ده فيلم

والفيلم الأول من تأليف واخراج طارق النهرى والراجح أنه ليس له رصيد لا فى دنيا التأليف ، ولا فى دنيا الاخراج.

وذلك لا يعنى أنه فنان دون ماض فى دنيا صناعة الأطياف.

فأغلب الظن أنه ذو ماض، ربما فى صناعة الكليبات، ولعله من جيل الشباب.

ومن هنا جنوحه إلى اختيار أبطال فيلمه من بين جيل جديد، ليس له سابق عهد بالسينما، أو عهده بها قريب، مثل «طارق لطفى» و«ماجد الكدوانى» و«أميرة فتحى».

وباستثناء الأخيرة ، فجميع من وقع عليهن اختيار «النهرى» لأداء الأدوار الرئيسية ليس بينهن واحدة، غير مبتدئة، وأثر ذلك انعكس على أدائهن الذى جاء مشوبا بالجمود والبرود فى أكثر الأحيان.

عشوائيات

وكل ذلك يهون لو كان قد جنح صاحب الفيلم إلى اقامته على سيناريو محكم البناء، وليس على سيناريو ملىء بعورات التخليط.

فأحداث فيلمه، وحتى منتصفه على وجه التقريب، يبدو منها، وكأننا مقبلون على مشاهدة ملهاة موسيقية، الجميع فيها يغنى، مشيدا بالعمل الحرّ، والكسب الحلال.

وبين الحين والحين تصاحب الغناء،

تشكيلات راقصة.

ولكن ما أن ينتصف الفيلم، حتى ينسى «النهرى» أنه من نوع الملهاة الموسيقية.

وإذا به فجأة يوقف الرقص والغناء، ويتحول بفيلمه إلى عمل ميلودرامي زاعق، قوامه جريمة اغتصاب.

ولسوء حظ «أميرة» يقع اختيار النهرى عليها لتكون فريسة ثلاثة ذئاب بشرية، أو ربما أربعة ذئاب.

أما لماذا لا أتذكر ما إذا كانوا ثلاثة أو أربعة، فذلك لان وقائع الاعداد للاغتصاب والشروع فيه، ثم ارتكابه، اختلط فيها الحابل بالنابل، لعيب جسيم فى السيناريو والتوليف (المونتاج).

وداعا للذوق السليم

وكانت أميرة، بعد الاغتصاب، فى أسوأ حالاتها من الناحية الجمالية، ولو كان النهرى يجيد لغة السينما، أو حتى يعرف مفرداتها مثل نور الشريف، ويريد الابقاء على صورتها فى ذاكرة المتفرجين، لحذف لقطات مدير التصوير «محمد حمدى» لوجهها، وقد شوهه اعتداء الذئاب غير أن شيئا من ذلك لم يحدث.

وكان لبقاء تلك اللقطات القبيحة أثر سيء علينا، نحن المتفرجين، ولعلها الشيء الوحيد المترسب على شاشة ذاكرتنا من فيلم ردىء، يندم المرء على الوقوع فى شرك مشاهدته.

صمت البحر

أما الفيلم الثانى فصاحبه مخرج مقلّ، ليس له رصيد من أفلام، على امتداد اثنى عشر عاما، سوى أربعة آخرها «الهجامة» (١٩٩٢)، إنه «محمد النجار» الذى ظل مختفيا عن الانظار، زهاء تسعة أعوام

ولان أفلامه الأربعة كانت توحى بإننا إزاء مخرج واعد، فقد أثار الدهشة، قيامه - بعد انقطاع أخباره زمنا طويلا - باخراج فيلم هزلى، جوهره التهريج، تحت اسم صعيدى رايح جاى، وبطله «هانى رمزى» أحسن رموز المسرح التجارى السائد، هذه الأيام.

ففى أولى لقطات الفيلم، نراه مؤديا دور مدرس تاريخ جديد، لتوه آت من الصعيد.

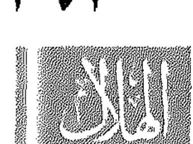
وبتكليف من ناظر المدرسة، يلقى كلمة يقدم فيها نفسه إلى الطلبة، بأسلوب يذكرنا بمدرسة المشاغبين.

سينما أم مسرح معلب

ومن هذه البداية، وحتى آخر اللقطات، حيث نراه فى الأقصر مع «نادين»، والاثنان فى قمة السعادة، تحيط بهما آثار الفراعين، وأنا حائر اتساءل هل ما تراه عيناى على الشاشة عملا ينتسب إلى فن السينما، بمفردات لغته، ولو من بعيد.

أما ما تراه، لا يعدو أن يكون عملا مسرحيا معلبا، مرتدا فى كل شيء، خاصة طريقة الأداء، إلى المسرح القائم على الالحاح والمبالغة والزعيق والتشويح.

وأياما كان الامر، فقصة الفيلم، كما ألفها كاتب السيناريو «محمد صفاء عامر» إنما تدور أحداثها بين القاهرة وصعيد



مصر، حيث لا يزال يطلب الثأر للشرف المهان.

وبطل القصة يعيش فى القاهرة، حيث يعمل مدرسا، ويسكن فى شقة، حيث تطارده، وتغازله ، إحدى بنات الجيران ، ليل نهار، ودون حياء.

أما لماذا عاد إلى الصعيد، فذلك لان أباه العمدة «عبدالله فرغلى» قد جاءه الموت فجأة فى حادث تصادم، وهو فى طريق عودته من القاهرة إلى قريته، بعد صفقة عمر، بموجبها باع مقتنيات مقبرة أحد الفراعنة بمليون جنيه، أو ربما دولار.

ولأن العمدية من أمجاد أسرة «هانى» وعشيرته فقد فرض عليه أن يتولاها ، حفاظا على تلك الأمجاد.

تلفيق وتكرار

ومن خلال سيناريو ضعيف، ظاهر التلفيق والافتقار إلى المنطق، نتابع رحلته فى الصعيد، حيث يتهدده الموت، حيثما ذهب برصاص بنادق الاعداء.

والسؤال من هم هؤلاء الاعداء المتربصون له فى كل مكان؟

إنهم أفراد عشيرة شيخ البلد «يوسف داود» المطالبون بالثأر له، لانه مات مقتولا، وأدلة الاتهام جميعها تشير إلى العمدة، بوصفه العقل المدبر لجناية قتله، وذلك قبل وفاته فى الحادث الأليم.

وبدءا من عودته إلى الصعيد، والمطاردات تتكرر ، مفتقدة التجديد.

وينحدر التلفيق إلى الحضيض، عندما تختطف مذيعة التليفزيون ««نادين» ثم يجرى انقاذها بأسلوب أفلام التحريك «الكارتون».

الاقحام والافتقار

والحق، أن دور «نادين» مقحم فى الأحداث، شأنه فى ذلك شأن دور الجارة المولعة بهانى، المقتحمة شقته فى القاهرة، تراوده عن نفسه، كما يحلو لها، وفى كل مكان، وهو يأبى كسيدنا يوسف فى سالف الزمان.

وهنا، لا يفوتنى أن أشير إلى دور الأم لأقول أن «انعام سالوسة» أدته على النحو النمطى المعهود فى رسم شخصية المرأة الصعيدية فى الأفلام الهزلية التى تعرض لأسلوب الحياة فى جنوب مصر، بشكل ساخر، مشوب بعنصرية مقيتة، تصور الصعايدة وكأنهم همج، لا يقيمون وزنا للحياة، ولا يتصرفون الا كما يتصرف البلهاء.

وإن يكون هذا الفيلم أكثر أفلام العام الجديد نجاحا لخير دليل على أننا أمة تلهو وشعب يلعب. ■

قصة قصيرة

ابتهال

قصة : د.محمد حسن غانم

بريشة : سميحة حسنين

كل حبال المودة تهرأت ، والجسور تحطمت ، ولم يبق إلا طريق الشوك غصباً أساق فيه إلى نهايته ، بغض النظر عن الدماء التى تسيل، والقلوب التى ستحترق .إذ أرسل لى والدى خلال العام الأول من الغربة أن أتعجل بالزواج ، وفى الخطاب التالى أخبرنى أنه قد عثر على العروس بنت الحلال والتى ستغزل معى خيوط الأيام والأحلام ، الليل فى الغربة طويل ، والريح دائما متقلبة تحمل الغبار والأتربة ، وتخترق القلب وحناياه بضراوة . فى لحظة جنونية أرسلت لوالدى التوكيل بأن يفعل كل ما يراه



فى صالحى . أمى تهدج صوتها فرحاً وهى تخبرنى عبر الهاتف أنها بذلك ستطمئن لأن الزوجة خير ونيس فى الغربة. تعد لك طعامك ، تسامرك فى الليل الطويل ، وتحكم عليك الغطاء حين تطيح به هواجسك الدموية، ضحكت حتى الأعماق وأنا اقول لها : بحسبك فأنا رجل وقد عبرت بالأمس سن الثلاثين ، غير أنها قاطعتنى بحدة : الأولاد مهما تقدم بهم العمر سيظلون فى نظرنا مجرد أطفال يستحقون الاهتمام .

– ٢ –

إلى المطار ذهبت . تفتت قلبى من الدق المتواصل فى انتظار العروس والتى لا أعرف عنها سوى النزر اليسير مشاعر مضطربة أغرقتنى وسط اللج المجهول . أديم النظر فى الصورة الفوتوغرافية .. أتساءل هل تنطبق الصورة مع الجسد النابض ، الطازج . أفقت حين انبعث الصوت الداخلى يعلن عن وصول الطائرة ، تمزقت تماما . أجلت النظر فى صفحة السماء طالبا من الله أن أعبر هذا الموقف بلا أدنى اضطراب.. عزائى الوحيد أنها ستكون مرتدية ملابس الزفاف ، وهذا فى حد ذاته علامة فارقة تجعلنى أقترب منها بلا أدنى تردد .

– ٣ –

غرقت فى بحور الحب حتى الثمالة . ثم أفقت على واقع مؤلم متشابك كخيوط العنكبوت . كنت أحاول استدراجها لكى تحدثنى عن حياتها إلا أنها طلبت منى أن أبدأ أنا .. فحدثتها عن الطفل الصغير الذى التزم وانتظم فى صفوف الكتاب ثم الدراسة ، وحاول رغم الصعاب أن يواصل حتى حصل على الشهادة الجامعية ثم لم يستسلم لغول البطالة ولعن الأيام الخوالى والتى تربعت فى قلوبنا هما وأشواكا . فالتحقت بالعمل فى عدة وظائف هامشية . ثم أتت فرصة السفر فانطلقت فى الاتوبيس البرى أعبر الفيافى وأقابل الغربة بثقة وامتنان فى الغد .

– ٤ –

حدثتنى عن الطفلة اللاهية الشقية والتى تسارع أمها – بعد وفاة والدها الثرى – إلى تلبية كل مطالبها . حتى الطهى لا تجيده . تطلب منى أن احضر الطعام جاهزا من المطاعم . تتأفف من مجرد ذكر «تقشير البصل» أو «تفصيص الثوم» أو الانتظار الممل حتى ينضج الطعام. حاولت فى الأيام الأولى أن أتجاهل هذا الاكتشاف المريع ، وكنت أدخل إلى المطبخ وأعد الطعام ، وهى تنتظرنى متعجلة أن أسرع ، غير أننى قد تساءلت بعد عدة أشهر .

وإلى متى سيظل هذا الأمر؟!

تنتظرنى حتى أعود ، لحظتها أكون كخرقة بالية من عمل لا يرحم . فأبدل ملابسى . أكتم ثورات الغضب المتأجج أوارها بداخلى وأدخل إلى المطبخ أطهو الطعام . أتظاهر بالابتسام ، ثم بعد ذلك تتراكم الأوانى والصحون كالتل العاق فى حوض المطبخ لعدة أيام. حتى ثارت اعصابى ذات يوم، والشمس كانت كبقع الزيت الباهت فى الفضاء ، والامطار قد حولت أسفلت الشارع إلى وجه ملىء بالجدرى والنمش .

– لماذا إذن تزوجتينى؟

فردت بعفوية جارحة

– لأنك دفعت فىّ الكثير .

– ٥ –

أعود من العمل مرهقا، أحيانا لا أتناول الطعام ، أريد أن أنام ولو ساعة حتى أريح هذا الجسد الذى استعبد إلا أنها كانت تطلب منى

إبتهال
قصة قصيرة

ألا أنام بحجة أن الفراغ والهواء المكتوم قد حولا حياتها إلى جحيم . أتمالك أعصابى . نجوب الشوارع بلا هدف، ننزل إلى الأسواق ..تتلمظ عيناها تطلب منى أن اشترى لها هذا وذاك من الذهب والثياب .. وإذا لم أفعل تتأفف بصوت عال ، تندب حظها، تتهمنى بالبخل والتقتير ، فأفعل على مضض وأحيانا بلا هدف . حتى استيقظت على حقيقة أن هذه المرأة التى أضاجعها أحيانا لا تنتمى إلىّ ولا أنتمى إليها ، وقد ضبطت نفسى أتساءل .

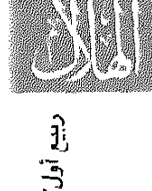
– ما الذى تفعله هذه المرأة هنا فى شقتى ؟!

– ٦ –

مع الأيام انتفخ بطنها . تراقص بداخلى – رغم كل ذلك – الأب الرابض فىّ، قلت فى نفسى : فلتنهمر الأمطار دفقة واحدة ، ولعل المولود القادم يضفى على زوجتى تعقلا ونضجا . أحطتها بكل صنوف الرعاية . رفضت المراجعة فى مستشفى الولادة رغم حديثى المتواصل عن الخدمات الجيدة وأحدث الأجهزة . عند طبيبة خاصة انتظمت . بعد تسعة أشهر من الترقب والانتظار المحبب رزقنى الله بابتهال .

– ٧ –

الأمور ازدادت سوءا ، وحتى نظافة الشقة وترتيب السرير قد تبدد من سمائى بحجة أنها مشغولة طوال اليوم والليل بالبنت. ترفض إرضاعها من صدرها بحجة أنها تريد أن تحافظ على رشاقتها . تتعرض البنت لحالات من الاسهال والبرد الشديد والسعال الحاد المتواصل فآخذها إلى الأطباء فلا اعثر عليهم فى هذا الوقت الذى تجمع فيه النجوم خيوطها لتنام .



فـــارتبطت بى البنت . ورطبت كـــآبة الواقع والغربة التى أنسجها من أعـصـــابى فى العـمـل والبيت .

— ٨ —

— لا مفر من الطلاق

هكذا أخـــذت أردد لنفسى بعد أن احتدم النقاش بيننا ذات ليلة ، وفـقـدت السيطرة على أعصابى ، فهويت على صدغها بكف يدى برفق . إلا أنهـــا حـــولت هذا المشـهـد والذى كان من الممكن أن يمر دون أن تلحظه الرقابة إلى مـا يشبه المأساة الاغريقية . إذ انهالت على صدغيها لطما وسبا وسط ذهولى وبكاء البنت . ثم فى لحظة جنونية فتحت باب الشقة وصرخت بأعلى صـوتهـا أن زوجـهـا يضربها وعلى الناس أن تسرع حتى تنقذها من بين أنياب هذا الذئب .

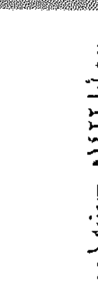
— ٩ —

استقر القرار . من الغد سأذهب إلى مكتب الطيران لترحل فى أقرب وقت . منذ أسبوع وأنا أرمى جسدى المنهمك على مرتبة متهرئة استلقت فى نفور على أرضية الحجرة الأخرى. رغم أننا فى شقة مكونة من غرفتين وصالة إلا أننى لم أعد التقى بها . والبنت هى التى تهلل لقدومى ، وتبكى حين أقوم مبكرا للذهاب إلى العمل . تستيقظ معى. تعد لى الحذاء والجورب . تحوطنى برعاية تجعلنى أتمزق وأنا استشرف المستقبل بمنغصاته . هذه البنت ستعيش مع أمها ثم نبدأ فى خوض زلزال الطلاق وتداعياته .، وهذه البنت ما ذنبها وماذا سأفعل بها ولها.

— ١٠ —

من الغد ستسافران

وقد قسوت على البنت فى الأيام الأخيرة حتى لا تتشبث بى ، وحتى أنفض عن قلبى هذا الحب الكبير لهـا . سأصاب بالاكتئاب إذا مر يوم دون أن أراها . فلأحصن نفسى وأتظاهر بالقسوة ، حتى تكون لحظة الرحيل بلا دماء . حتى فوجئت وأنا مستلق على المرتبة المتهرئة فى أرضية الغرفة الثانية بالباب يفتح على حذر . كنت ما بين النوم واليقظة . استيقظت تماما على يدين صغيرتين تحوطان بعنقى وبفم صـغـيـر يغرقنى بالقبلات . وجدتها ابتهال .. قالت لى من بين دموعها .. «بابا أنا أهبك» تجاوبت معها دموعى وتساءلت : هل هذه البنت ، فى هذه السن تفهم المأساة . بغتة أضىء نور الحجرة وجدت زوجتى . سمعت الحوار . استلقت معنا على المرتبة . خيل لى أنها وعدتنى من بين دموعها أنها ستتغير ، وأنها ودعت وإلى الأبد أيام النزق الأولى توسطتنا الطفلة فرحة مهللة . ولأول مرة أرى ضوء القمر يترقرق طربا من نافذة الحجرة . ويغسل بضوئه الحنون وجوهنا المتعبة . ■



أسماء لها تاريخ

بقلم
وديع فلسطين

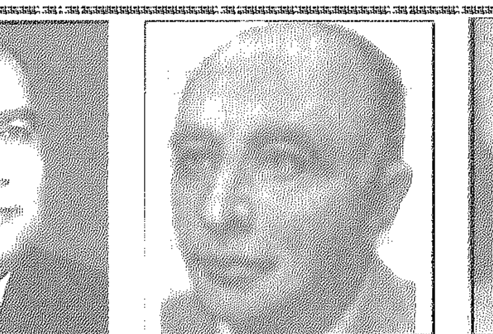
الشاعرة جليلة رضا تغيب في صمت

غابت الشاعرة جليلة رضا فى صمت وانسحبت من دنيا الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء دون أن يحس بها مجتمعنا الأدبى المنشغل بالصراعات والحزازات والصراع على القصاع، أدركتها المنية فى الثانى عشر من مارس ٢٠٠١ (وهى من مواليد ٣١ ديسمبر ١٩١٦) وقنعت الأسرة بنعى من خمسة أسطر فى صفحة الوفيات ضاع فى زحام المناعى ذات الأطر والمجاملات من ذوى المناصب والرتب الفخيمة ورجال المال والأعمال .

وقد وجمت عندما قرأت نعيها الحيى، وفزعت بآمالى إلى الكذب كالمتنبى وزاد من وجيعتى أننى قلبت بعد ذلك صفحات الأدب ومجلات الأدباء التى صدرت بعد يوم النعى عساى أقع فيها على ما يوحى بأن المجتمع الأدبى استشعر الفجيعة فى رحيل هذه الشاعرة الأصيلة، فلم أقع فيها على شئ وكأنما غياب شاعرة كانت آخر المبدعات في الشعر لايحرك ساكنا فى هذا المجتمع - الذى أكاد أصفه بالمزعوم - ولا ينبهه إلى الفجيعة المرة التى حاقت بدنيا الشعر ودنيا الأدب ودنيا الأخلاق والمثل العليا .



جليلة رضا



إبراهيم ناجى

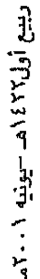
عبد الله شمس الدين

غِبَّ وفاة الشاعر إبراهيم ناجى قررت رابطة الأدباء التى كان يرأسها وكنت وكيلها مع جمهرة من أصدقاء ناجى إقامة حفل حاشد لتأبينه ، واخترنا قاعة جمعية الشبان المسلمين للقيام بهذا الواجب . واصطف المؤبنون على المنصة فى صفين، وكان موضعى فى الصف الثانى خلف سيدة اتشحت بالسواد وأرسلت شعرها الفاحم الطويل وراء ظهرها، وهى سيدة كنا نراها للمرة الأولى، فحسبناها من كرائم سيدات الأسرة جاءت لتلقى باسمها كلمة شكر للمحتفين برحيل عميدها إبراهيم ناجى.
ولما نادى عريف الحفل قائلاً: الشاعرة جليلة رضا تلقى قصيدتها فى رثاء ناجى، إشرأبت الأعناق إلى هذه الشاعرة المبتدئة فمن أين جاءت ؟ ومتى بدأت تقول الشعر ؟ وهل تراها تستطيع الصمود بشاعريتها الغضة فى هذا الجمع؟ إنها لمغامرة حقاً قد تكتب لها الخيبة!

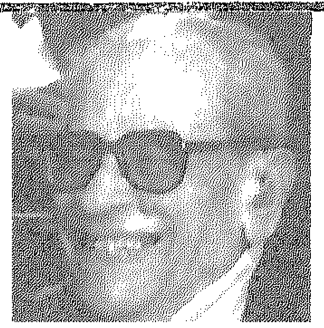
ونهضت جليلة رضا بقامتها المشوقة ووجهها الذى عاف الألوان والأصباغ ، وألقت قصيدة من ذوب فؤادها أدركنا من عباراتها أنها كانت تعرف الشاعر إبراهيم ناجى، وأنها تعد نفسها تلميذة له، وها هى - وقد صدمتها وفاته المفاجئة - تسمعنا هذه الأبيات المبكيات. لقد خيبت ظنوننا وبددت خشيتنا، حيث دانت لها ملكة الشعر وقبضت على ناصيتها ، فأفحمت كل من تشكك فى شاعريتها ، وأنا منهم .

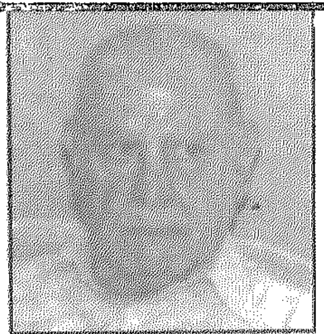
تلميذة ناجى

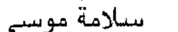
لم تدهشنا جليلة رضا بشاعريتها بقدر دهشتنا لمعرفة أنها تلميذة لناجي كنا وقتها فى رابطة الأدباء نكاد نعد الأنفاس على ناجى، ونكاد نعرف عنه كل ما يتصل بحياته الشعرية - لا الطبية طبعا - ومع ذلك ، فلم نسمع منه أبداً اسم جليلة رضا، ولا عرفنا أن له تلميذات يتعهدهن بالرعاية والتشجيع والحدب. وظل هذا اللغز خافياً عنا إلى أن نشرت جليلة رضا سيرة حياتها فى سلسلة «كتاب الهلال» منذ بضع عشرة سنة ، وفيها أفصحت عن حكايتها مع ناجى. إذ كانت تقيم فى حى شبرا ، وكان ناجى يملك عيادة فى شارع شبرا على ناصية شارع ابن الفرات وقد زرته فيها كصديق لا كمريض - وعندما أعوز جليلة رضا مراجعة طبيب ليداويها






نجيب محفوظ


عادل كامل



سلامة موسى

من متاعبها الصحية اختارت غشياني عيادة الدكتور ناجي. وهناك صارحته بأنها تهوى الشعر، وأطلعته على بعض محاولاتها، فأخذ يوجهها ويشجعها ويدلها على المحجة فصارت تكثر من التردد على عيادته ، وصار هو يزداد اقترابا من شاعريتها وهى فى طور النضج والنماء . وكانت تجربتها الأولى فى الظهور أمام الملأهى الوقوف بين المؤبنين لتبكى بشعرها أستاذها الغالى الذى مهد لها الطريق، ولم يضن عليها بالسديد من الآراء والتوجيهات .

ومنذ هذا التاريخ بدأت جليلة رضا تغشى منتديات الأدب ، وتجرب حظها فى نشر شعرها ولا سيما فى مجلة «العالم العربى » التى كان محررها أسعد حسنى يحتفى فيها بالشباب من الأدباء. ولكن جليلة رضا لم تمر بمرحلة التجريب والمحاولة ، بل وقفت راسخة القدمين منذ أول ظهورها أى أنها ولدت شاعرة مكتملة الأداء ، تحاذى الشاعرتين الكبيرتين جميلة العلايلى وروحية القلينى .

صخرة حطمت حياتها

ولئن كان الشعر بالنسبة لجليلة رضا مسلاة وترويحا عن النفس ، فقد عاندتها الأيام فى حياتها الشخصية التى تحملتها صابرة مؤمنة. كان زوجها الأول مستشاراً من رجال القضاء، وعاشت معه فى بحبوحة جميلة إلى أن رزقت - إلى جانب ابنتها الوفية ثريا - بابن متخلف عقليا وعلى هذه الصخرة تحطمت حياتها العائلية وكأنما هى المسئولة عن هذا الحظ العاثر وقد عاش هذا الطفل فى كنفها أكثر من أربعين عاماً ترعاه وتعالجه دون أن تستقيم أموره إلى أن فقدته فى حادث سيارة وهو فى شرخ الشباب، فاهتز لذلك كل حياتها اهتزازاً عنيفاً.

ولم تكن جليلة تجد عزاء لها إلا فى الشعر ، تنظمه وتطالع به الناس الذين لا يعرفون أن وراء هذا الشعر قلباً ينزف ومحنة قاسية تحملتها الشاعرة دون ضجر، وإن كانت أطياف هذه المحنة تتجلى فى دواوينها السبعة ومنها «الأجنحة البيضاء» و«اللحن الباكى» و«اللحن الثائر» و«العودة إلى المحارة» وغيرها وقد رشحتها شاعريتها لعضوية لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فزاملت فيها كبار الشعراء ، ولم

تكن تتخلف عن جلسات اللجنة ولا عن اجتماعات رابطة الأدب الحديث فى عهد رائدها العظيم مصطفى عبد اللطيف السحرتى - وهى الرابطة التى خلفت رابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر إبراهيم ناجى . بل لقد ألمحت فى مذكراتها إلى أنها انجذبت لشخصية السحرتى دون أن تفضى باسمه، واعتبرته خليفة لناجى فى رعاية شاعريتها والأخذ بيدها بل لقد كتب عن شاعريتها فصلا طويلا فى كتابه «شعر اليوم».

وفى لجنة الشعر التقت بالشاعر عبد الله شمس الدين - شاعر نشيد الله أكبر فوق كيد المعتدى - وهذا أسمعها من عبارات الغزل والمديح ما عزف به على أوتار قلبها . وإذ كانت تسعى جاهدة فى سبيل تحقيق السعادة المفقودة، فقد ارتضت أن تتزوجه إزاء إلحاحه المتواتر، وكانت تحسب أنها الزوجة الوحيدة فى حياته ولكنها فوجئت ذات يوم بسيدة عراقية تطرق باب بيتها ومعها جيش من البنين والبنات وقالت إنها زوجة شمس الدين ، وهؤلاء هم أولاده .وكانت مفاجأة غير سعيدة لجليلة رضا التى اعتذرت لطارقة الباب قائلة إنها لاتسر بتحطيم هناءة أسرة، وطلبت الطلاق من الشاعر . ولكن يبدو أنها ظلت مسحورة به لأنها نشرت قصيدة فى مجلة الهلال جاء فيها ما مؤداه :نادنى من آخر الدنيا فألبى دعوتك. وواضح أنها كانت تقصد هذا الشاعر ، ربما لأنها - كشاعرة - وجدت فيه خير رفقة .

وفى سعيها الحثيث لإدخال السعادة إلى حياتها جربت بعد ذلك حظها بالزواج للمرة الثالثة من الصحفى محمد السوادى المحرر البرلمانى لجريدة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة باشا وصاحب جريدة «السوادى» .وكان السوادى خارجا لتوه من السجن لاتهامه فى قضية سياسية، وكان بلا عمل وبلا صحة وبلا مال وبلا شباب. ولكن الشاعرة الصابرة تحملت هذا الرجل اشفاقا منها على تاريخه واحتراما لقلمه المتمكن فى التعليق على مناقشات مجلس النواب «تعليقا» لا يخلو من فكاهة ومداعبة و«قفشات » ولكن السوادى عزل جليلة رضا عن المجتمع الأدبى فلزمت دارها معظم الوقت ، وكفت عن غشيان مجالس الأدب ، وتحالفت عليها الأمراض وآثار الشيخوخة وكادت تنسى لولا ما كانت تنشره من شعرها فى الحين بعد الحين فى مجلة «الهلال»وفى مجلة «قافلة الزيت» وقد رعت جليلة رضا شيخوخة السوادى إلى أن لحق بربه .

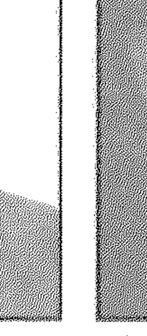
ولئن كان الشعر هو الميدان الأصيل لجليلة رضا، فقد أصدرت إلى جانب دواوينها السبعة كتابا من جزءين فيه دراسات لدواوين الشعراء كتبتها بقلم نقدى بصير ذواقة للشعر.

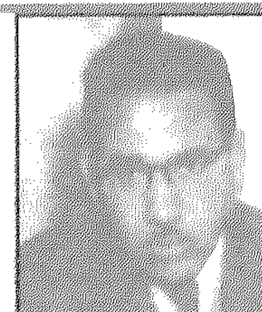
وليت المجتمع الأدبى الجاحد يكفر عن جحوده بنشر المجموعة الكاملة لشعر جليلة رضا حتى لا يضيع بدوره فى سراديب النسيان

النقاد الأوائل لنجيب محفوظ

كانت بداية نجيب محفوظ بداية متواضعة وليس فى هذا عيب فقد احتفى المفكر سلامة موسى ونشر له بعضا من كتاباته الفلسفية فى «المجلة الجديدة » كما


عبد الحميد جودة السحار

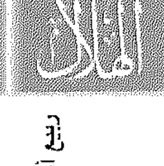

علي أحمد باكثير


محمد عبد الحليم عبد الله

نشر له كتابا مترجما عن مصر القديمة، ولكن بدايته الحقيقية جاءت عندما انضم إلى «لجنة النشر للجامعيين» التى أنشأها الأديب عبد الحميد جودة السحار (برأس مال هو مجوهرات زوجته حسب اعترافه)، وهي لجنة كانت تضم في أول الأمر السحار ونجيب محفوظ وعادل كامل وعلي أحمد باكثير ، وكان ذلك عام ١٩٤٣ قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها كان الإظلام الحالك بسبب الحرب، وانخفاض عدد صفحات الصحف اليومية إلى أربع صفحات واقتصار الإذاعة على محطة واحدة ، وانفضاض الناس عن غشيان دور السينما والمقاهي بسبب صفارات الإنذار التى تطلق إيذاناً بوجود إغارة جوية تحتم على الناس اللجوء إلى المخابئ المعتمة تحت الأرض، هذه الظروف جميعا أورثت الناس ساعات طويلة من الفراغ فانتهزها أحمد الصاوى محمد الذى أخذ يصدر سلسلة شهرية من الكتب راجت رواجا كبيرا حتى قيل إنه اشترى ضيعة من إيرادها، فتشجع السحار بدوره على إصدار سلسلة من الكتب لأعضاء لجنة النشر للجامعيين ، وكان بعضهم قد فاز بجوائز عن رواياته من السيدة قوت القلوب الدمرداشية ووزارة المعارف، وهكذا توالى صدور مؤلفات أعضاء اللجنة قبل أن ينضم إليهم آخرون ومنهم محمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب وبعض كبار الكتاب مثل محمود تيمور بك وكامل كيلاني وسيد قطب ووداد سكاكيني وإبراهيم المصرى وغيرهم .

وقد تناول بعض النقاد أعمال أعضاء هذه اللجنة فكانوا رواداً في التعريف بالمؤسسين الأربعة (السحار ومحفوظ وعادل كامل وباكثير) وذلك قبل أن يلتفت الأكاديميون والنقاد المحترفون والدارسون لآثارهم .

وفيما يتعلق بنجيب محفوظ، قام صديقنا على شلش باستقصاء النقاد الأوائل ، الذين عالجوا رواياته من واقع الصحف والمجلات المنشورة واثبت في كتابه «نجيب محفوظ: الطريق والصدى» كلمات هؤلاء النقاد بترتيب ظهورها في الصحف والمجلات الأدبية مع تاريخ كل



مقالة وموضع نشرها، وأعد قائمة بأسماء ١٤ ناقدا رتبهم وفقاً لترتيب ظهور مقالاتهم وهم : محمد جمال درويش ووديع فلسطين (الذى كتب ٥ مقالات عن نجيب محفوظ وتنبأ له فى إحداها بالوقوف على قدم المساواة مع كتاب الرواية العالميين) وسيد قطب وأحمد عبد الغفار ومحمد سعيد العريان وسهيل إدريس وأديب مروة ومحمد فهمى وغائب طعمة فرمان وأحمد صالح وأنور المعداوى وثروت أباظة وزكى المحاسنى ومحمد عبد الغنى حسن. وفاته مقال للروائى يوسف الشارونى نشر فى «مجلة علم النفس» فى شهر يناير ١٩٥٠ مما يجعله سابقا من حيث الترتيب على المعداوى.

وعندما فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أعلن - وهو ما كرره غير مرة - أن أول من كتب عنه فى بداياته هو أنور المعداوى. وطبيعى أن هذا الكلام المرتجل لا يتفق مع الواقع الذى حسمه على شلش فى كتابه المذكور ، فالمعداوى هو الحادى عشر من النقاد، وإذ يسبقه الشارونى فيصبح الثانى عشر فى الترتيب .

والنوبلى معذور إذا كانت ذاكرته لم تستوعب إلا اسما واحداً وتنسى أسماء الذين لهم فضل الأولوية فى التعريف بنجيب محفوظ ، ولكن هذه المقولة غير الصحيحة باتت تتناقل على أقلام الكتاب وآخرهم نبيل فرج. فهل من مذكر للنقاد والدارسين الجدد بأن المعداوى سبقه أحد عشر ناقدا لنجيب محفوظ لايصح أن تهتضم حقوقهم الأدبية - إذ ليس لهم حقوق مادية كما هو معروف ؟

أول امرأة تدخل مجمعا عربيا

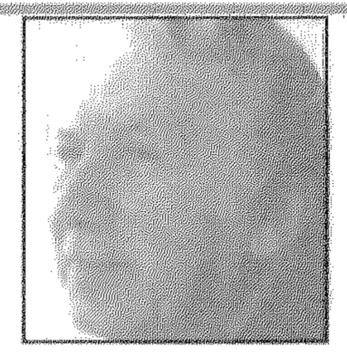
كان لمجمع اللغة العربية بدمشق السبق فى اختيار أول امرأة لعضويته، إذ أن جميع المجامع الأخرى مازالت موصدة أمام دخول المرأة .

فقد عينت الدكتورة ليلى الصباغ، وهى أستاذة تاريخ متخرجة من جامعات مصر، أول امرأة تنظم إلى عضوية مجمع دمشق، وهى خطوة قوبلت بالترحيب الكبير، ولعلها تفتح الباب أمام انضمام أخريات إلى المجامع العربية فى مصر والأردن والعراق والسودان وفى دار الحكمة فى تونس وفى الأكاديمية فى المغرب .

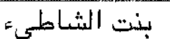
وكانت الدكتورة بنت الشاطئ والدكتورة سهير القلماوى قد حاولتا المرة بعد المرة اقتحام متاريس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فلم تفلحا على جدارتهما الآمرة بالعضوية، مما ثبط همة غيرهما من النساء من محاولة الانضمام إلى مجمع الخالدين .

وليس فى قوانين المجامع نص صريح يمنع المرأة من التمتع بعضويتها، ولكن الأعراف شبه المستقرة جرت على أن المجامع للرجال وحدهم حتى وإن كانت أغلبية العاملين فى الجهاز الإدارى للمجمع من النساء - كما هو الشأن فى مجمع القاهرة .

أما وقد فتح مجمع دمشق الباب أمام المرأة، فلعله يشجع خليفات بنت الشاطىء وسهير القلماوى - إن وجدن - على تجربة حظوظهن، لاسيما وأن عضوية المجمع وإن


نزار قبانى


سهير القلماوى


بنت الشاطىء

علت سن معظم أعضائها من الرجال - لاتشترط سنا معينة فى المرشحين .

نزار قبانى فى الأندلس

عندما كان الطبيب الروائى السورى عبد السلام العجيلى وزيراً للخارجية في سورية ، عرف أن صديقه الشاعر نزار قبانى غير سعيد فى عمله فى السفارة السورية فى الصين ، فقرر استثناء من كل القواعد نقله إلى مدريد ليعيش فى الأندلس ، فتزداد شاعريته توهجا فى هذه الديار وكان نزار يصف الفترة التى قضاها مستشاراً فى سفارة سورية فى مدريد بأنها «المرحلة الوردية ».

واتفق أن كان السفير السورى فى مدريد هو الدكتور نادر الكزبرى زوج الأديبة الكبيرة سلمى الحفار الكزبرى فأصبحت السفارة منتدى أدبيا، وأصبح الحديث عن الشعر والأدب أغلب من الحديث عن السياسة ومشكلاتها . ولهذا أطلقت سلمى على هذه الفترة من حياتها بأنها مرحلة «الزمن الأخضر».

ومن أجمل الكتب التى تمزج بين ذكريات الأندلس وندوات الشعراء كتاب «ذكريات أسبانية وأندلسية مع نزار قبانى ورسائله » الذى أصدرته الأديبة سلمى الحفار الكزبرى لتروى فيه فترة من أحلى فترات العمر، ثم لتضيف إلى ذلك مجموعة من رسائل نزار - بخط يده - يسجل فيها خواطره ومشاعره وأحلامه ورؤاه وهو يعيش فى الجو الأندلسى الحالم، وهى رسائل بقيت من ضنائن سلمى الحفار الكزبرى إلى أن قررت الإفراج عنها لتغدو متعة مشاعة للقارئين. ومن أحلى القصائد التى استوحاها نزار من الأندلس وسجلتها سلمى فى كتابها قصيدته الموسومة «إلى أندلسية» وفيها يقول انه اجتمع بفتاة من الأندلس سمراء ذات ملامح شرقية فلما سألته : من أين جئت ؟ قال : من دمشق التى تتجلى فى ملامح وجهك وختمها بقوله :

ياليت وارثتى الجميلة أدركت
أن الذين عنتهم أجدادى
عانقت فيها عندما ودعتها
رجلاً يسمي طارق بن زياد

التكوين

أبي رسّخ لديّ مبدأ الانتماء وحب العلم

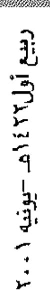
كمال بشر

بالنسبة للنشأة الأولى فأنا فى الأصل ابن فلاح. وكان أبى فلاحا من الفلاحين الكبار ذوى المنزلة الاجتماعية والاقتصادية المرموقة فى القرية. وتربيت فى حجر والدى ووالدتى : فلاح عادى جدا فى كل أنماط السلوك والتقاليد والأعراف أشاركهم فى كل عمل يقومون به سواء فى الحقل أو فى المنزل، وظللت على هذه العادة إلى أن أتيت إلى القاهرة.

أما بخصوص النشأة التعليمية والتثقيفية فقد بدأت بالكُتّاب كعادة أبناء القرية آنذاك، كان ذلك فى العشرينيات تقريبا حوالى عام ١٩٢٧-١٩٢٨، حين دُفع بى إلى كتاب الشيخ حسن فى القرية ذاتها، وحاولت حفظ القرآن على يديه ولكنى تركته بعد شهور قليلة لأسباب كثيرة منها قسوة زوجه على الأولاد طلاب الكُتّاب. حيث كانت تطلب منهم أن يقوموا بأعمال خارجة عن عملية القراءة والكتابة فى القرآن الكريم، مثل جمع جريد النخل واستخلاص الخوص لصنع بعض الأدوات مثل «القفف» وما شابه ذلك .

حفظت القرآن فى تسعة أشهر

نقلت بعد ذلك إلى ما يسمى بالمدارس الأولية حيث كانت فى مركز دسوق مدرسة واحدة لا تتبع الحكومة ولكنها تشرف عليها، وكان صاحبها رجلا غنيا وخصص لها أوقافا للإنفاق عليها، ودرست فيها ثلاث سنوات. وفى صيف من الأصياف كان والدى يجلس مع زوج عمتى وأنا أرعى البهائم بجوارهما أمام البيت، فسمعت والدى يقول لزوج عمتى: «نعمل إيه فى الولد ده يا شيخ على»، فقال جملة كتبت فى السماء ولازمتنى حتى صرت أحمل درجة الليسانس، قال: «نخرجه من المدرسة الأولية ويذهب إلى كتاب الشيخ محمود»، وبالفعل خرجت من المدرسة إلى كتاب الشيخ محمود الذى كان شيخا عميقا عريقا حافظا مجيدا للقراءة والإقراء، فحفظت القرآن على يديه فى تسعة أشهر وكانت وصية الشيخ على



لوالدى أن أدرس بالأزهر بعد حفظى للقرآن ثم أدخل دار العلوم وقد كان .

ذهبت إلى الأزهر وقضيت فيه أربع سنوات كاملة لأنتقل إلى الثانوية ووالدى لايعرف هذه الأشياء بالدقة الكافية، فأوصاه أحد الأصدقاء بألا يبعث بى إلى معهد طنطا الذى تتبعه منطقتنا لأن الطلبة فيه يغلب عليهم الشغب والمظاهرات - كما يقولون - ورأى أن يرسلنى إلى معهد الاسكندرية وتقدمت إليه وقبلت. وكان الذهاب إلى هناك مهمة عسيرة فى ذلك الوقت: كيف يصل الولد وكيف يعيش، وماذا يأكل وغير ذلك. اصطحبنى والدى إلى الاسكندرية عن طريق دمنهور.

جلست مع القفة على عربة الخضار

عندما نزلنا فى المحطة فى حى محرم بك اكتشفنا أن المكان الذى سوف أعيش فيه «المسافر خانة» وهو سراية بجوار قصر رأس التين، والمسافة بين رأس التين ومحرم بك كبيرة جدا لايمكن أن يعبرها الانسان على قدميه ومعه الزوادة وهى قفة كبيرة جدا مثقلة بما فيها من الطعام الريفى، فطلب والدى من صاحب أحد «الحناطير» توصيلنا ولكنه طلب عشرة قروش وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت فرفض والدى، ووجد عربة خضار خالية يجرها صبى فطلب منه أن يوصلنا فطلب قرش صاغ فوافق، وأجلسنى مع القفة على العربة التى يبيع عليها هذا الصبى الخضار، وجرها الصبى ووالدى يمشى على الأرض طوال هذه المسافة هذه لفتة أبوية لا أنساها طوال حياتى.

كانت «المسافر خانة » هى مكان الإقامة والدراسة معا، حيث كنا ندرس فى الدور الثانى وننام فى الدور الأول، وقضيت هناك سنتين كاملتين حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فانتقلنا إلى معهد طنطا الذى رأى والدى ألا أدخله فى البداية فقضيت هناك ثلاث سنوات وأخذت الشهادة الثانوية من الأزهر . وكان ترتيبى العاشر على مستوى القطر المصرى. وكان والدى قد توفى وأنا فى الاسكندرية حيث كنت استعد لامتحان السنة الثانية .

رحلتى إلى دار العلوم

بعد حصولى على الشهادة الثانوية الازهرية فكر الناس - بعد فقد والدى الذى كان يفكر لى - إلى أين أذهب وكنت أرغب أن أظل بالقرية مع إخوتى لأننا كنا



صغارا والعدد كبير، هكذا كان شعورى فأصرت الأسرة على أن أنتقل إلى الدراسة العليا فى مكان ما وكان أغلب الاتجاه إلى دار العلوم، كما قرر زوج عمتى منذ سنوات فأبيت أول الأمر وطلبت أن أدخل كلية أصول الدين لأننى كنت مغرما «بالعمامة والكاكولا» - الزى الأزهرى- فأصر أقاربى ، وأحضر والد زميل لى استمارات الالتحاق بدار العلوم لأدخلها انا وابنه محمد.

وتحت الضغط العائلى والمعارف تقدمت إلى دار العلوم التى كانت تحتاج إلى واسطة لدخولها، وقيل لنا لابد من دخول امتحانين أحدهما تحريرى من يجتازه يدخل الامتحان الشفوى، وهو عبارة عن لقاء مع بعض الأساتذة وأوصونا أن نقرأ كتب على الجارم فى البلاغة والنحو الواضح لكى نستعد للامتحان، وشاء الله أن أنجح ودخلت لقاء الشفوى وتعرفت فيه على استاذنا المرحوم على حسب الله استاذ الشريعة بالكلية آنذاك لأول مرة والذى كان له دور فى تكوينى.

رسب زميلى «محمد» الذى جئنا معا من البلد، ولكن هذا الزميل رحمه الله كان مصرا على دخول دار العلوم، فقضى سنة كاملة فى كلية الشريعة استعدادا للدخول فى العام القادم وبالفعل دخل دار العلوم بعد سنة من دخولى ، وقضينا أربع سنوات فيها.

دار العلوم والأزهر

كان الفرق بين الدراسة فى دار العلوم والأزهر ليس فى الكم وإنما فى الكيف فالمادة الازهرية راسخة فى الأذهان، ولكنها شبه جامدة فى أذهاننا أى كنا نستعيدها حفظا. فصقلت دار العلوم هذه المواد أو حاولت أن تفسرها أكثر، وكانت الدراسة فيها تشتمل على اللغة الانجليزية وبعض المواد غير الازهرية مثل الكيمياء والرسم وكان مادة نجاح ورسوب وكذلك الأشغال اليدوية والخط.

وكان اسم دار العلوم مناظرا لدار الفنون فى الأستانة، وقد أنشأها على مبارك لهدف أساسى وهو تخريج معلمى اللغة العربية، وبدايتها كانت دار علوم فعلا فيها الطب والزراعة والهندسة واللغة العربية والشريعة. وعلى مبارك كان يحضر بعض المحاضرات بنفسه، وكان مقرها آنذاك فى جامع فاضل باشا فى شارع بورسعيد بالسيدة زينب، وانتقلت فى أكثر من مكان فكانت فى البرامونى، وانتقلت إلى جوار مدرسة السنية، ثم بالقرب من المدرسة القربية بباب اللوق، واستقرت لفترة طويلة فى المنيرة من عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠ حتى ١٩٨٠ حيث استقرت فى جامعة القاهرة .

دار العلوم من مدرسة إلى كلية

فى هذه الاثناء كانت دار العلوم التى دخلتها مدرسة تابعة لوزارة المعارف لا كلية، وفى السنة الرابعة فكر أحد الزملاء النبغاء وهو محمد حامد الأفندى: لم لا نلحق دار العلوم بالجامعة

التكوين

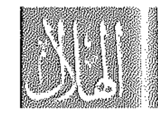
بعد الحصول علي الماجستير في لندن ١٩٥٣

وتصير كلية لها حقوق الكليات من بعثات ودراسات عليا إلخ.

وطالبنا بذلك فعلا، وكونا لجنة من الطلاب تمر على أعضاء مجلس النواب الذى يسمى الآن مجلس الشعب لاقناعهم بالفكرة، وعارضتنا الوزارة بشدة، قمنا بالاضراب أكثر من نصف العام على فترات حسب الظروف، نسأل مرة ونترك أخرى حتى جاءت الليلة الفاصلة اعتصمنا بالكلية وكنا حوالى ثمانين طالبا، ونعلم جيدا، أن الاعتصام ممنوع، فى هذه الليلة وأذكر انها كانت ليلة أم كلثوم أى مساء الخميس اتصل أحد الزملاء من مكتب وكيل الكلية بالحكمدار (مدير الأمن الآن) وأخبره اننا معتصمون وسوف نحرق الكلية، فما هى إلا لحظات ووجدنا الكلية محاطة بالجنود ولسوء الحظ انطفأ النور بالكلية ليس بفعل فاعل، والباب مغلق فاقتحم الجنود الكلية وجمعونا وأخذونا إلى قسم السيدة زينب بعد أن أعطوا كلا منا «علقة» ساخنة وحققوا معنا حتى الصباح ووزعونا على عدة أقسام وكان نصيبى قسم الخليفة، وأذكر أننى كان معي كتاب «نشأة اللغة عند الانسان والطفل » لاستاذنا عبد الواحد وافى

د.كمال بشر فى سطور

- من مواليد قرية محطة دياى - دسوق - كفر الشيخ
- أول خريجى دار العلوم بعد تحويلها إلي كلية١٩٤٦ ماجستير ودكتوراه من انجلترا.
- استاذ ورئيس قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية لمدة تسعة عشر عاما.
- عميد كلية دار العلوم ١٩٧٣ - ١٩٧٥.
- من أهم مؤلفاته تسعة كتب اهمها «دراسات فى علم اللغة» «علم الأصوات» «اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم».
- حاصل على جائزة الدولة التقديرية ووسام العلوم والفنون من الطبقتين الأولى والثانية.
- عضو بالعديد من الهيئات والمجامع العلمية والمجالس القومية.
- رئيس جمعية حماة اللغة العربية.



أذاكر فيه بجوار المراحيض حيث وضعونا، ثم نقلنا إلى السجن وكنا خمسة فى مكان لايزيد على متر × متر، وجلسنا عدة أيام، ولكن الزملاء فى الخارج قاموا بأعمال بطولية منها الاتصال بالجهات العليا وببعض أعضاء مجلس النواب، وقاموا بمظاهرات كبيرة وكانوا يأتون لنا بالطعام لدرجة أن السمك الذى كان يقدم لنا ونحن فى السجن لم أذق مثله فى حياتى .

ونتيجة لجهود عديدة صدر المرسوم الملكى فى ٢٤ ابريل ١٩٤٦ بضم دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول « القاهرة الان » على أن تبقى محتفظة باسمها التاريخى، وخرجنا من السجن وانضممنا إلى الطلبة، وحينئذ قُرر لدار العلوم ما يقرر لكل الكليات. ومن حظى أننى كنت أول الخريجين فى أول سنة يحصل عليها طالب دار العلوم على درجة الليسانس. ومن هنا دخلت دار العلوم عالم البعثات وكنت أحد أبنائها الحاصلين على بعثة إلى انجلترا، وكان من قبلنا الدكتور على الجندى رحمه الله والدكتور محمد الكفراوى فى انجلترا الآن والدكتور محمد حلمى رحمه الله ومن الاحياء الدكتور عبد الرحمن أيوب والدكتور تمام حسان.

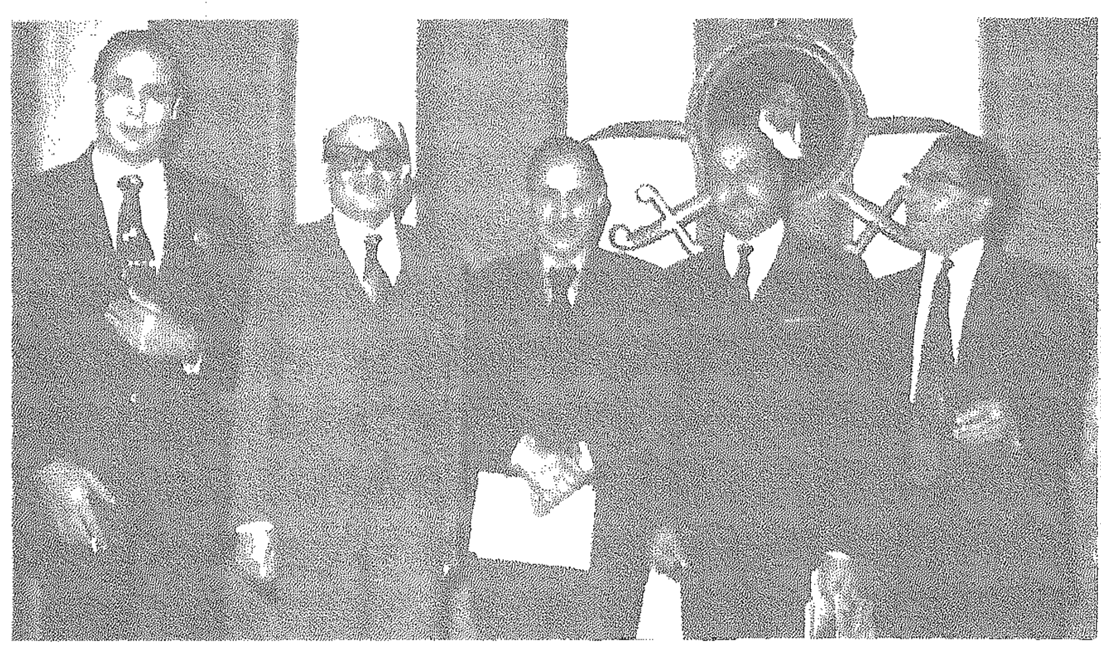
قرأت خبر بعثتى فى الشارع

بعد الليسانس التحقت بالمعهد العالى للمعلمين وكان يقع بجوار دار العلوم، ويقضى فيه الطالب عامين لتهيئته مدرسا وبالفعل تخرجت وعينت فى مدرسة الأورمان وكنا نقوم بالتدريس للمرحلتين الابتدائية والثانوية معا فلم تكن توجد المرحلة الاعدادية بعد، وجاءت البعثة فى هذه الأثناء وأذكر أنها قُررت لى فى ٨ نوفمبر عام ١٩٤٨ وقرأتها فى الأهرام وأنا أمشى فى الشارع. وتقرر السفر إلى انجلترا على سفينة انجليزية وكان معنا مجموعة من الشباب من الكليات المختلفة وأذكر منهم الصديق المرحوم عبد المنعم الصاوى رحمه الله وكان ذاهبا للندن ليكون مراسلا لجريدة المصرى (الوفد الآن).

ومن أطرف المواقف التى شهدتها انه عندما سمعت القرية أننى ذاهب إلى انجلترا قامت الدنيا ولم تقعد ابتهاجا وفرحا بل خرجت القرى المجاورة أيضا احتفاء بى وتم توزيع الشربات والشاى والقهوة طوال خمسة عشر يوما حتى يوم السفر، وعند السفر اجتمعت الآلاف ولا أقول المئات لتوديعى، وأرادوا توديعى إلى السفينة ولكن طُلب منهم ألا يثقلوا على أنفسهم، وعلى الرغم من ذلك فقد وصل معى إلى ميناء بورسعيد خمسون رجلا من أهالى وأعيان القرية والقرى المجاورة وفيهم عمدتان، فلك أن تتصور كم عدد الرجال الذين قاموا بتوديعى ابتداء من قريتى محلة دياى مرورا بطنطا فالقاهرة فبورسعيد .

وكان دخولى السفينة مشكلة حيث اننى لا أجيد اللغة الانجليزية فكيف

التكوين



ندوة خبراء اللغة العربية بالرياض مارس ٧٧ من اليمين د.كمال بشر ورمضان عبدالتواب ود.شكري فيصل و د. شكري عياد ، والأستاذ فايق فهيم

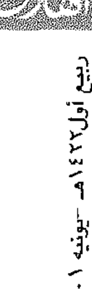
أعرف مكانى أو كيف أتفاهم فقام بالمهمة ابن عم لى وهو أخو زوجتى، ومن عجب اننى لم أشعر بما فى الحقائب التى أحملها معى فى الرحلة حتى وقعت فى ورطة فى محطة ثاوث هامبتون فى انجلترا ولذلك قصة طريفة.

خذ معك هدية !

استاذى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد رحمه الله استاذ المنطق فى دار العلوم قال لى: يا كمال انت ذاهب إلى انجلترا؟ قلت: نعم ، قال: يابنى الناس هناك خارجون من الحرب فلو أخذت معك هدية لفرحوا بك . قلت: وماذا تقترح؟ قال: بعض الارز والفاصوليا الجافة وحينما أبديت هذه الرغبة لوالدتى أرسلت إلى الاسكندرية وطلبت من أحد الأصدقاء أن يشترى لنا حقيبتين الواحدة: متر ونصف × متر وملأت إحداهما كاملة بالارز والفاصوليا وأنا لم أشعر بها مطلقا طوال الرحلة لاننى لم أكن أحملها ولكن طابور المودعين كان يتناوب حملها. حتى وصلت إلى ثاوث هامبتون فأحسست بالمشكلة، واكتشفت انه لايمكن لأى انسان على وجه الأرض حمل الحقيبة ووقفت حائرا ، فشعرت بى إحدى السيدات الانجليزيات وطلبت أن تحمل عنى الحقيبة الخفيفة التى بها ملابسى على أن أتصرف أنا فى الحقيبة الكبيرة وفعلا جررتها إلى محطة القطار، ولكن كيف لى أن أرفعها إلى القطار والقطار يطلق صفارته استعدادا للانطلاق فما كان من عبد المنعم الصاوى إلا أن قال : يا كمال ميل الحقيبة واركبها ففعلت، فقام بجرى أنا والحقيبة ودخلنا عربة القطار معا. ووصلنا لندن واستقبلنا بعض الزملاء وأقمت بضعة أيام ثم توجهت إلى مكتب البعثات لتسليم نفسى.

إنت منهم ؟!

ذهبت إلى مكتب رئيس البعثات وكانت السكرتيرة مس جاكوب تعرف العربية لانها عملت فى قصر الملك فاروق قبل ذلك. وحينما نظرت إلىّ قالت: «إنت منهم»، ففهمت على الفور ماذا تقصد



تعنى اننى لا أجيد اللغة الانجليزية فقلت نعم. فطلبت منى ألا أنتظر فى لندن يوما واحدا وحينما تساءلت عن السبب أشارت إلى وجود المطعم المصرى أسفلنا وبه كل ما لذ وطاب وبالتالى فلن أتعلم الانجليزية مطلقا، وبالفعل حينما خرجت من مكتب رئيس البعثات فوجئت بها تقول لقد أعددت لك العدة لمغادرة لندن اذهب للدكتور كامل الباقر والذى كان رئيس جامعة أم درمان فى السودان فيما بعد وكان فى بعثة على حساب الملك فاروق، قالت هو فى بلدة تدعى توركى بلدة بعيدة عن لندن، وفعلا ذهبت الى هناك وحضرت دورة فى اللغة الانجليزية ولكنها لم تفدنى كثيراً، فأشار علىّ أحد الاساتذة أن أتوجه إلى بلدة جلفرد لأن هناك مدرسة جيدة للأجانب وقد كان.

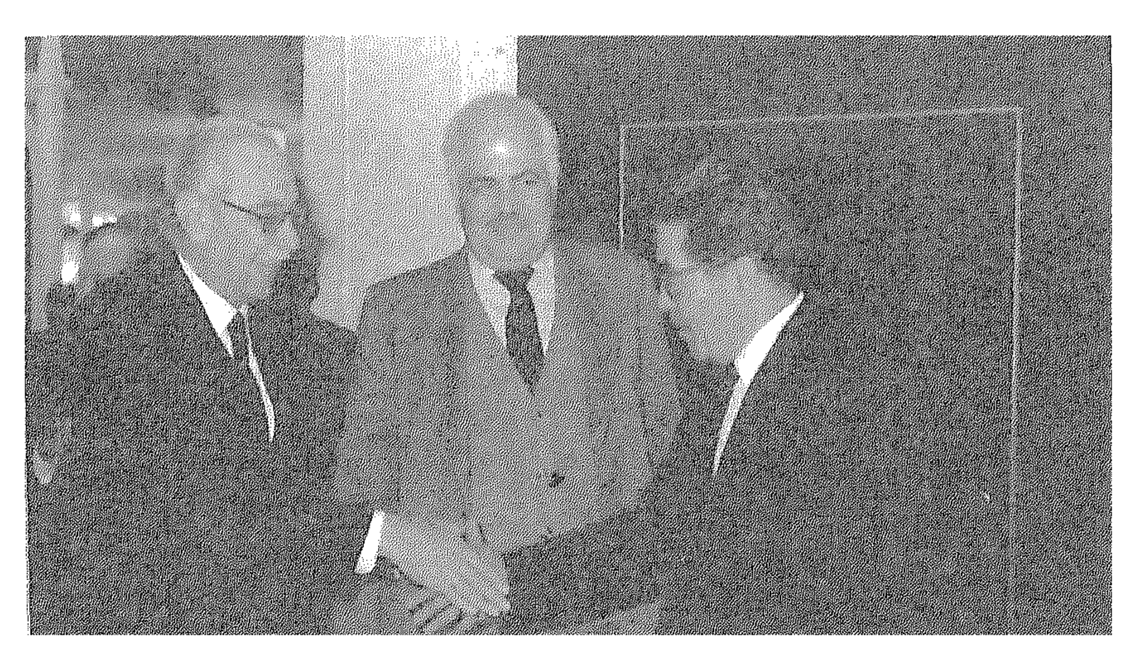
أسعد أيام حياتى

استقبلتنى على محطة جرين مان السيدة التى سأقيم عندها مع زوجها. وقضيت عندهما تسعة أشهر هى أسعد أيام حياتى على الاطلاق. وفى «جلفرد» تعلمت اللغة الانجليزية لا من الكتب ولكن طبقا للقاعدة التى وضعتها أنا حديثا «اسمع وأسمع» بمعنى أن تسمع اللغة التى تود أن تتعلمها وأن تتكلم هذه اللغة جهرا، أن تسمع نفسك وتُسمع الناس وقد آتت هذه القاعدة أُكلها. كما كان للرجل والمرأة دور فى تعليمى اللغة فقد كان الرجل يعمل زمارا فى الكنيسة وطلب اصطحابنا معه أنا وزملائى أحدهما من الهند الصينية والآخر من بلجيكا - إلى الكنيسة يوم الأحد ، فكنا نذهب معه واستمعت إلى الأغانى وكم دمعت عيناى عند سماع هذه الأغانى المصحوبة بالموسيقى والأصوات المتسقة المتزنة الراقية الرقيقة، حتى إننى قلت فى نفسى آنذاك لم لا يكون لنا نوع من الأغانى العامة نغنيها فى الميادين إن لم تكن فى المساجد، لأن الأغنية الجماعية فى غاية الأهمية لتوحيد الذهن والفكر والاتجاه». ودرجنا على هذه المدة تسعة أشهر ثم عدت إلى لندن وقابلنى الدكتور تمام حسان وهو فى التخصص نفسه فأخذ بيدى للأستاذ الذى سأتعامل معه فى دراستى وبدأت مرحلتى الدراسية مع الماجستير والدكتوراة والتى استمرت سبعة أعوام بالتمام والكمال.

الأدوار المؤثرة فى حياتى

الدور الأول لوالدى فقد كان فلاحا ذكيا إلى أقصى حد، حتى إن فقيه القرية قال: لم يرد علىّ مثل هذا الرجل فى ذكائه وحفظ القرآن وفهمه. وكان الرجل مرموقا فى قريته وله كلمة، يصحبنى دائما حتى صنع منى صديقا فى كل حله وترحاله، وفى وقت الفراغ كنت أجلس بجانبه على «الدكة» وأرى ما يصنع وما يقول وما يتعامل به مع الناس فأخذت شيئا من هذه القيم والمبادئ الأصيلة وكان رحمه الله يصلى الفجر ويقرأ سورتين كاملتين ، ثم يذهب إلى الحقل، فقلت له يوما: لماذا تذهب إلى الحقل يا أبى كل يوم؟ .قال : «يابنى

التكوين



في مؤتمر مجمع اللغة العربية يسلم علي الدكتور مصطفي كمال حلمي

الغيط بيفرح بصاحبه». هذا ما رسخ فىّ مبدأ الانتماء.

فى الازهر فى المعهد الدينى رزقت بمجموعة من الاساتذة فى غاية العمق والاخلاص والصدق رحمهم الله جميعا أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الشيخ حفنى الذى قال لنا فى الحصة الأولى فى المعهد الابتدائى فى درس النحو: يا أولاد هل معكم كراسات قلنا له : لا يا شيخ نحن معنا الكتاب قال: لا إننى حين أشرح يا أبنائى أقول كلاما خارج الكتاب وخارج المقرر فعليكم أن تكتبوا ما أقول وأنشد يقول:

العلم صيد والكتابة قيده

قيد صيودك بالحبال الواثقة

وكان الرجل يشرح ويخرج عن المقرر بفائدة عظيمة وعمق كبير وفى طوال العام.

فى السنة الثالثة رزقنا بشيخ فاضل لايقل عن سابقه فضلا وعلما وإخلاصا وصدقا الشيخ عبد الرحمن جلال كان يدرس لنا المطالعة، ومن عجب انه كان يدرس لنا فى هذه السن المبكرة «نهج البلاغة» المنسوب لعلى بن أبى طالب الذى لو قدمته الآن لطالب الماجستير فى اللغة العربية لايستطيع أن يصحح سطورا منه، وهذا الكتاب مازال عندى بالمكتبة وبه بخط يدى التعليقات التى كنت أسمعها من هذا الشيخ العظيم الذى علمنا كيف ننطق الكلمة وكيف وكيف.. ومن عظيم قدرى انه حينما علم اننى حضرت من انجلترا ومعى الدكتوراه جاء إلى الكلية ليقابلنى ويسلم علىّ.

وفى الاسكندرية أيام الدراسة بالأزهر درسّ لنا الشيخ محمد الديب كان كله إخلاصا وصدقاً وأمانة وكان أستاذ الفقه الحنفى المنتمى أنا إليه يشرح ويقول: اقرأ يا كمال، كل درس يشرحه يقرأ من المتن وعلى أحد الطلاب أن يقوم بقراءته، فكان هذا دوراً آخر على تعويد اللسان على النطق السليم،

وعلى تفعيل هذا السحر المسمى جهاز النطق.

انتقلنا إلى طنطا فى السنة الثالثة، وكان استاذ النحو الشيخ على رسلان وكان ضعيف البصر، ولكنه قوى البصيرة عميق العقل والذهن ومسيطر على تخصصه ،ومادته وهى النحو العربى، وكان المقرر كتاب « أوضح المسالك» لابن هشام وهو كتاب أشبه بعناوين قواعد اللغة العربية أى لايدخل فى التفاصيل وإنما يأتى بالزبد وبالأساسيات والجوهريات حتى أن ابن هشام نفسه حينما يريد الائتناس بأقوال ابن مالك فى الألفية لا يأتى إلا بالنقطة المعينة المتصلة بهذه القاعدة فقط. وفى حصة النحو هذه كل يوم يعد الشيخ مشكلة إعرابية فى ذهنه ويدخل الفصل ويقول من يعرب يا أولاد بيتا من الشعر الجاهلى أو غيره فكنت من المبادرين للقيام بهذه المسئولية.

ومن هذه اللحظة بدأ ميلى للدراسات اللغوية – فى إحدى المرات قال: أنت لا تكتفى بالتوضيح اذهب واقرأ التصريح. والتصريح هو شرح للتوضيح وهو كتاب كبير من عدة أجزاء وفيه شرح الشرح، فاستهوانى هذا الاسلوب فى الأخذ والرد والجدل والتعليق والإضافة والزيادة والتخطئة والتصويب إلخ بدأت التفت إلى اللغة بسبب هذه التجربة وهذه الخبرة.

انتقلت إلى السنة الخامسة وكان أستاذى الشيخ أحمد الخطيب فى النحو والشيخ دويدار فى البلاغة ولقد كان الشيخ أحمد الخطيب بارعا واسع المعرفة بالنحو، فأوصانا بأن نقرأ كتابا لم يكن فى ثانوية الأزهر آنذاك وهو كتاب «الأشمونى» وكان مقرراً على الكليات فى ذلك الوقت فعجل الرجل بنا لنقرأ هذا الكتاب فازداد حبى للنحو والدراسات اللغوية وتعرفت «حاشية الصبان» وهى من أهم الحواشى فى النحو العربى على الإطلاق.

ثم انتقلت إلى دار العلوم حيث وجدت بها عددا من الأساتذة أخص منهم بالذكر الأستاذ على حسب الله. والذى كان منضبطا يطلب أن تجيب بمنطقية وعقلانية لا بحفظ وإرسال الكلام ارسالا، فقد لاحظت فيه هذا ولذلك سرت على نهجه حتى هذه اللحظة: أين تضع النقطة وأين تضع الفاصلة، وأين تبدأ؟ وكيف تجيب من نفسك اذا كنت مستوعبا وأخذت منه كل هذا.

كان يدرس لنا علم التوحيد المسمى الآن بعلم الكلام وهذا العلم من أصعب العلوم ومازال أصعبها حتى هذه اللحظة ويشاركنى فى هذا بعض الدارسين وهى فعلا مادة صعبة وكان عدد الناجحين ضئيلا لدرجة أن بعض الطلاب ظل يرسب فى هذه المادة حتى توفاه الله، أنا لا أنسى هذا . وفقنى الله وأخذت تقريبا الدرجة النهائية فى الامتحان التحريرى فما كان من الرجل إلا أن سأل عنى فى إدارة الكلية وأرسل لى خطابا على عنوانى: أنا أريد أن أراك فجئت إلى



الرئيس حسني مبارك يسلمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولي - يوليو ١٩٩٥

الكلية وقابلته فى الوقت الذى حدده فقال: يا ابنى انك أخذت درجة لم أعطها لأحد منذ ثلاثين سنة.. أريد أن أقدم لك هدية قلت: بكل الشكر قال: هل اشتريت الكتاب قلت نعم قال: فلتأخذ ثمنه قلت :لا يا أستاذنا. فقال إذن سأعطيك كتابا آخر هدية وكتب عليه صفحة كاملة فى أول الكتاب منها كلمة لم أكن أعرفها حتى ذاك الوقت وهى إلى التلميذ النابه، كلمة «النابه» أنا أعرف النبيه لكن كلمة النابه كانت أول مرة تدخل ذاكرتى، ومازالت المذكرة فى دولاب أمى حتى هذه اللحظة التى نحن فيها محتفظا به مع بقية الأشياء الغالية.

عندما انتقلنا للمعهد العالى للتربية لحقنا استاذنا الدكتور عبد العزيز عبد المجيد وكان استاذا فى دار العلوم ومنتدبا فى بعض المواد فى معهد التربية فتبنانى وأخذ يعاوننى فى علوم النفس والتربية حتى استطعت أن أعرف بعض المصطلحات وبعض الحوارات وأن أعرف شيئا عما يجول فى نفس الانسان من زاوية علماء النفس فأفادنى.

ثم جاءت البعثة وصنعت ما صنعت ووفقت إلى رجل وهو استاذنا العظيم، وأنا أصر استاذنا العظيم «فيرث» والذى أشرف علىّ فى الماجستير والدكتوراه هذا الرجل كان لايفرق فى معاملته للطلاب بين الانجليز والأجانب فى كل الأحوال. كان النظام أن نحضر محاضرات دائمة منتظمة طوال الوقت ونحن فى فترة الماجستير. ولذلك أنا أقول للحكومة المصرية لا يصح أن نقصر البعثات على طلبة الدكتوراة بل العكس يجب أن نرسلهم فى درجة الماجستير أولا لأن درجة الماجستير هى التى تصنع الباحث والدارس من المناقشات والاطلاعات والمحاورات والنجاح مرة والرسوب أخرى، أما طالب الدكتوراة فيذهب إلى المكتبة ويعمل. وقد

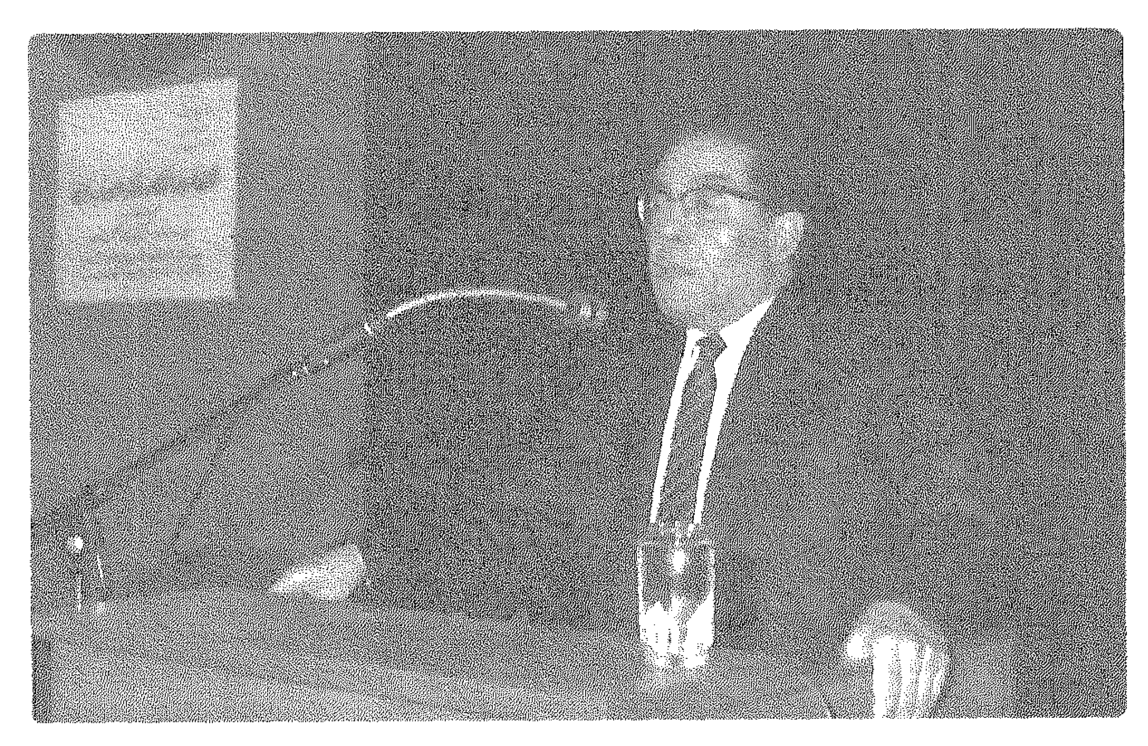
ناديت بهذا أكثر من مرة «أيها الناس اجعلوا البعثات للماجستير قبل الدكتوراة وهى أهم لأن الطالب هناك يكتسب الحالة الاجتماعية والحالة العلمية ويأخذ الحوار ويأخذ المناقشات والاعتماد والثقة بالنفس والاطلاع على المراجع وهى تجربة ودربة وخبرة عظيمة جدا »

كانت الدراسة تجرى على محورين: محاضرات منتظمة، وكان أستاذنا العظيم «فيرث» يقدم لنا محاضرة يوم الاربعاء لمدة ساعتين عندما ننتهى من المحاضرة نوزع حسب تخصص كل واحد منا وحسب قدرته العلمية، مجموعة مع المعيد فلان وأخرى مع المدرس فلان هذا الذى نوزع عليه كانت وظيفته الاشراف على السيمنار، وهو ما يطلق عليه الآن «قاعة البحث» يجلس إلينا ويقرر على كل منا موضوعا معينا لتقديمه فى اجتماع المجموعة فى يوم كذا الساعة كذا ليناقشنا ويوجهنا. هذا هو الذى ربانا وعلمنا الانجليزية والتفكير اللغوى وغير التفكير اللغوى وأجدت اللغة الانجليزية، حتى إن أستاذة من هيئة التدريس حينما قدمت لها أوراق الماجستير لمراجعتها قالت لى لغتك الانجليزية جيدة جدا إذن أنت لغتك العربية جيدة جدا. قلت لها فعلا هذا هو رأيي من يجيد اللغة الأم يجيد اللغة الأجنبية، هذه قاعدة لا أنساها ولذلك أقول للأولاد عندما تتعلمون لغة أجنبية يجب أن تكونوا على معرفة مناسبة باللغة العربية لأن القواعد الأساسية متشابهة فى المقدرة اللغوية عند الانسان.

حصيلة التكوين

حصيلة التكوين عدد من الكتب ، منها ستة كتب أعدت طبعها وتنقيحها ومراجعتها وتصحيح ما فيها من هنات أو تجاوزات والباقيات على الطريق وهى «دراسات فى علم اللغة» «علم اللغة الاجتماعى» «علم الأصوات» «خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة» ثم «اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم» ثم كتاب مترجم عن الانجليزية سميته «دور الكلمة فى اللغة» والآن أراجع كتابا آخر يسمى «فن الكلام» ولدى ثلاثة كتب جاهزة للمراجعة إذا كان فى العمر بقية أما البحوث فهى كثيرة.

وكانت هذه الكتب محصلة رجوعي إلى دار العلوم حيث رجعت مدرسا فاستاذا مساعدا فاستاذا وتوليت وكالة الكلية عاما واحدا عام ٧٢ ثم عميدا عام ٧٣ لمدة ثلاث سنوات، واستاذا ورئيس قسم اللغة والدراسات السامية والشرقية لمدة تسعة عشر عاما كاملة،وكانت حياتى كلها سعادة وطموحاً وكلما تقدم الزمن تعمق الفكر والمعلومات. أنا الآن استاذ غير متفرغ ولكننى أقدم الآن انتاجنا علميا أكثر مما مضى، لأننى الآن أنصرف إلى عملى وأكتب، وفى الوقت نفسه أحاضر فى معهد الدراسات والبحوث العربية التابع لجامعة الدول



يلقي إحدى المحاضرات في الموسم الثقافي لوزارة التربية والتعليم - الدوحة ١٩٨٤

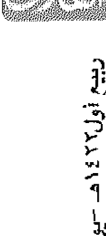
العربية وأنا مستشار اللغة العربية فى معاهد التدريب الإذاعى والتليفزيونى، وألقى محاضرات لا تقل عن خمسين أو ستين ساعة فى الدورة الواحدة و٩٥٪ من مذيعى الاذاعة والتليفزيون بدءا برؤساء الاذاعة، بالذات الاستاذ عمر بطيشة ورئيسة التليفزيون الاستاذة مرفت رجب، كل هؤلاء حضروا أمامى وحاضرتهم. وأنا عضو فى مجلس الثقافة وفى مجلس التربية والتعليم بالمجالس القومية المتخصصة، وعضو مجمع اللغة العربية وعضو المجمع العلمى المصرى ورئيس جمعية حماة اللغة العربية التى أنشئت حديثا.

التقديرات

أما عن التقديرات التى نلتها فقد درست فى جامعات العالم العربى فى السعودية وقطر والكويت وكنت منتدبا لتدريس اللغة العربية للمذيعين فى إذاعة وتليفزيون أبو ظبى من ١٩٧٨ إلى ١٩٩٥ تقريبا وناقشت رسائل كثيرة فى الاردن والسعودية والكويت وغيرها من الدول العربية.

كنت أنا والدكتور تمام حسان أول من حصل على جائزة صدام فى الدراسات اللغوية سنة ١٩٨٨ وهى أول جائزة فى العالم العربى، وحصلت على وسام العلوم والفنون من الدرجتين الأولى والثانية ، ثم على جائزة الدولة التقديرية وسلمنى السيد الرئيس محمد حسنى مبارك بنفسه الوسام.

وبعد هذا الطوفان من الكلام فان حصيلة هذا كله ثقافة عجيبة أحمد الله عليها ثقافة ريفية أصيلة وثقافة دينية عربية عميقة وثقافة متنورة مصقولة فى دار العلوم ثم ثقافة أجنبية محترمة ذات تخصص عال وتفكير حر صنعت ما وصلت إليه والحمد لله. ■



أنت والهلال

كيف نحفظ وثائقنا القومية

أثار د. رءوف عباس قضية حماية وثائقنا القومية فى عدد مايو من الهلال ٢٠٠١..

واننى استأذنكم واستأذن أستاذنا الجليل فى أن أقدم فى عجالة مدى أهمية الحفاظ على وثائقنا القومية وحمايتها فى ظل الثورة المعلوماتية وبعد أن أصبحت السموات فتوحة والقنوات منتشرة، قد غطت أركان الدنيا الأربعة .

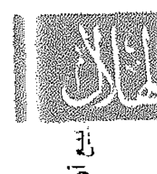
ومن هذا المنطلق، يتعين علينا أن نكون على قناعة تامة بأدوات هذا العصر الذى نعايشه لتطوير وحماية وثائقنا القومية وكذلك دور حفظها. ووضع قوانين حاسمة ومرنة في آن ، حفاظا على تراثنا القومي وتاريخنا .

وحول الفكرة ذاتها، فان راحلنا الكريم الدكتور محمد أنيس المشرف على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر إبان السبعينيات من القرن العشرين جزاه الله خيرا عندما انقذ تقارير الأمن فى نسختها الأصلية التى كان يرفعها البوليس السياسى إلى القصر الملكى قبل تسليمها لشركة (راكتا) لانتاج الورق - لإعادة طبخها وتدويرها -!! وذلك عندما ضمها إلى مركز تاريخ مصر المعاصر ثم استقرت بدار الوثائق القومية!! ويحتم علينا أن ننقذ دار الوثائق القومية على وجه السرعة، لأنها فى حال يرثى لها وتلك قضية تثير الفزع فى صفوف المؤرخين والباحثين المصريين وتضطرهم إلى الالتجاء لدور الوثائق البريطانية أو الأمريكية ناهيك عما يتجشمه الباحث من جهد ونفقات باهظة، والوثائق التى تتبع تلك الاماكن لا تخلو من سلبيات واخفاء بعض الحقائق الهامة ويتعين على المسئولين عن تلك الدور دار الوثائق القومية المصرية بذل قصارى الجهد بتحويلها من مصلحة تابعة لهيئة دار الكتب والوثائق إلى جهاز مركزى للوثائق القومية يتبع سلطة السيادة على غرار الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء!!

د.صموئيل لبيب سيحه
باحث تاريخي - المنيا

إلى أمى

إلـــى أمـــى، إلـــى قــلـب — يجـــاور نبضـــه نبـــضى
أحس بلوعـــة الأشجـــا — ن، فـــى قلبى، ولـــم أفـــض
نتـــوه، وهـــــذه الأقـــدا — ر، فـــى رفـــع وفـــى خفض
ويبقـــى حضـــنك دفـــئا — يجمعنــــــا إلـــــى بعـض
نشــانــــا فى اغتــــراب لا — نـــرى فـــى الليـل من ومض





وتــاقت نفسنـــا لسمـــا ء أحـــلام، بـــلا ارض
فكنت بظلمـــة الليـــلا ت، نجمـــا سائـــرا، يمضـى
وأرضـــا ملؤهـــا الأمـــا ل، ذات الطـــول والعـــرض
فمـــا نوفيـــك، مـــر الدهـــ ر، إلا الغيـــض مـــن فيض
إلـى عينيـــك يـــا أمـــى ثنـــاء علـــه يـرضـى

أماني حاتم بسيسو - الأردن

مؤسسة الفكر العربي لاستعادة مكانة الأمة العربية

تراثنا العربي يحتاج إلي من يرعاه ، وأمتنا العربية تمتلك من الفكر والعلوم الإنسانية ما يجعلني أتساءل .. لماذا لا نري دورا فاعلا من الأفراد والمؤسسات تجاه هذا الفكر الذى استفاد منه الغرب واندفع يحقق نجاحات فى جميع الميادين ، ونحن محلك سر؟

علاء عبد العظيم -طوخ -قليوبية

الهلال : أطمئن القارىء بأنه فور تلقينا لرسالته هذه وصلتنا دعوة من «مؤسسة الفكر العربى» وهى مبادرة تضامنية بين الفكر والمال للنهوض بالأمة العربية واستعادة مكانها اللائق بين الأمم. وعلمنا بأن الاجتماع الأول لهذه المؤسسةسيبدأ فى الثانى من يونيو ، ونظرة سريعة على المؤسسين ومن بينهم إصحاب السمو والسادة والسيدات خالد الفيصل بن عبد العزيز، وبكرمحمد بن لادن، وبهية الحريري، وجمعه الماجد ، وسعاد الصباح ، وعبد العزيز البابطين ، ومانع سعيد العتيبة ،ومحمد القباج ، وسلمان بن حمد آل خليفة.

المؤسسون ٢٣ من كبار الشخصيات العربية المتهمة بالفكر الذين يحققون مقولة أن يصبح المال فى خدمة الفكر..

وهى خطوة مهمة من اجل نهضة عربية فكرية وثقافية نرجو لها الازدهار والنجاح

رحيل الأم

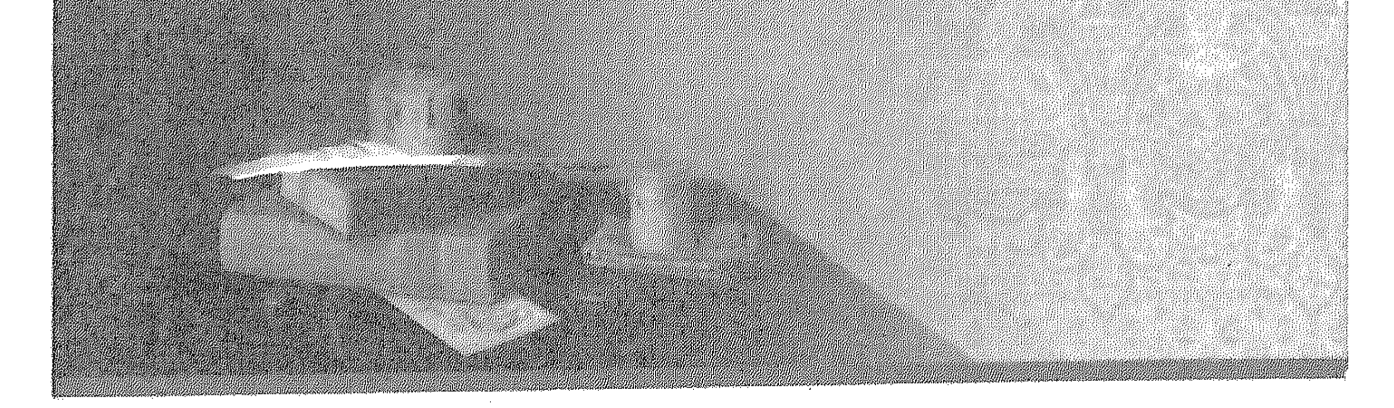
تطحن الحب وتطهو الأمسيات
فى فطائر .. من مشاعر
تعصر التفاح ممزوجا بتعبير مسكر
وتصيب الكأس عنبر
من حكاياها القديمة
وتحيل الليل ذا الستر الموشى
حلم شاعر

وبساتين جميلة
وخميلة
تحمى أفراخا وتلقى
بظلال من حنان
وتحيل الريح أنساما عليلة
وصباح اليوم يسعى خطوها
نحو الحياه
تمنح الأطفال أسباب الحياة
تمنح الدم لشريان الحياة
تنزف اليوم تفاصيل الحياة
تتهاوى قلعة الحب تسلم
بعد أن جفت ينابيع الحياة
فى العيون
لن تهون
استحالت دمعة بين الجفون
أصبحت فى العقل والقلب شجون
لن تهون
روحها فينا ودم القلب ينبض
لن تهون
كونها كلا لجزئى
كونها نور العيون

د. حسنه عبد الحكيم عبد الله
كلية بنات عين شمس

المرأة نصف الحقيقة

هل يحق لصحفية شبه مغمورة مثلى ان تدعى ان عالما جليلا مثل د. حامد عمار تأثر أو اقتبس فكرة عبرت عنها فى إحدى مقالاتها؟ بل وأن تزعم أنه اقتبس نفس اللفظ التى تدعى انها قامت بنحته؟!



هذا بالضبط ما أريد قوله

فأنا أصر أني صاحبة الفكرة التي وردت في مقال د. عمار بل وصاحبة اللفظ نفسه الذي استخدمه في مقاله المنشور بمجلة الهلال.

فقد كتبت قبل أربع سنوات مقالة في جريدة الأهرام حيث أعمل بعنوان المرأة نصف الحقيقة نشرت بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٩٦ قلت فيها بالضبط ما قاله د. عمار في مقالته بعنوان «المرأة نصف المجتمع ونصف الحقيقة» والمنشورة في مجلة الهلال في مايو ٢٠٠١.

وقد ذكرت في مقالتي انه ليس مهما ان تكون المرأة نصف المجتمع ولكن الأهم ان تكون نصف الحقيقة.

وأوضحت أن للمرأة رؤية خاصة بمقدورها ان تضيفها للعالم وتساءلت لماذا يراود المرء احيانا شعور ساخر مؤداه هبها لم تكن نصف المجتمع فهل كان عليها في هذه الحالة ان تذهب إلى الجحيم؟!

وعبرت في مقالتي عن عدم ارتياحي لعبارة أن المرأة نصف المجتمع أو بمعنى ادق عن عدم ارتياحي لعبارة أن علينا ان نهتم بالمرأة لأنها نصف المجتمع وقلت إنه ربما تكون التداعيات الكمية التي تحملها العبارة هي وراء الإحساس بالضيق، أو هذا الشعور بأن علينا أن نسوق مبررات خارج المرآه ككيان وانسان لنبرز اهتمامنا بها. وأكدت على أن الأهم أن المرأة نصف الحقيقه.

وهذه النقطة الأخيرة هي بالضبط ما قاله د. عمار في مقاله في الهلال التي حملت نفس العنوان!

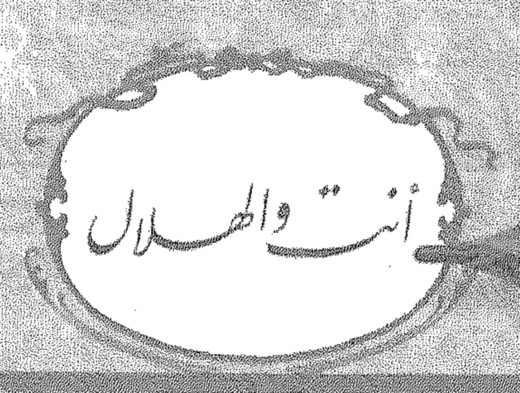
وفي الحقيقة اني حين تصفحت مجلة الهلال الأخيرة فرحت بوجود المقالة عن المرأة من عالم كبير مثل د. عمار ولكن حين قرأت العنوان - أقصد عنوان المقالة دهشت وتحولت الدهشة إلى صدمة حين فرغت من قراءة المقالة دون أن أجد اى اشارة للمصدر ولو في الهامش!

د. إيناس طه

الهلال: ننشر وجهة نظر الكاتبة حول مقال د. حامد عمار عملا بحرية الرأى، وننتظر من عالمنا الجليل د. حامد التعليق على ما جاء في هذا الرأى.

الحجارة النووية

يا أيها الحجر السماوى انطلق	كقذيفة نووية .. كن خالدا
كن في بلاد البرتقال قتيبة	بردى يؤيد طائرا متمردا



والنيل أيضا والفرات ودجلة — وصوارم من مكة مدت يدا
قد فجر الحجر المخضب دمعتى — فاهتزت الفيحاء من هول الصدى
شتان بين حجارة وقنابل — أين التكافؤ فى صراع أرعدا؟
يا طفل غزة يا شموخ عروبتى — هل من دمائك قطرة هل من ندى
لست الوحيد، أنا هنا فى جلق — ألقى الحجارة صوب أحداق العدا
قد سجل التاريخ إسمك فى السما — ورثتك أسياف الشهامة والفدا
ورثتك بكر فى الخيام ووائل — بدم الرمال أرى القصائد كالمدى
إن البلاد لنا فلا تخش القنا — ستموت مزهوا وتبعث أمردا
سينير زيتون وتزهر قبة — سيزور رهبان الكنيسة أحمدا
النصر دوما كالسلافة أحمر — سل كل من مروا على درب الهدى
هل يكبح الأوغاد سيلا جارفا؟ — رعد الجنان أتى به كى يزبدا

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

من التراث العربى

كان مقاتل بن حسان واليا على البصرة وذات يوم سأله احدهم عن مسألة فقال له مقاتل:

- لا أعرف.
- كيف لا تعرف وأنت والى المدينة.
- وما فى ذلك ان الثور أعظم من الحمار ومع ذلك لا يستطيع ان يجرى مثله.
- ومن منا هذا ومن منا ذاك.
- انا أنبلهما وأعظمهما أى الثور.

وفد عروة بن أزينه على هشام بن عبد الملك وشكى اليه حاجته ورقة حاله فقال له هشام: كيف تشكو الحاجة وانت القائل:

لقد علمت وما الإسراف من خلقى
ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى اليه فيعييني تطلبه
وان قعدت أتانى ليس يعيينى

قال عروة: نعم قلت ذلك

قال هشام: وتأتى من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق





قال عروه: انى وعظت فابلغت وصدقت.. ثم تركه وانصرف فلما كان الليل لم يستطع هشام النوم لما فعله مع عروه ورده دون ان يعطيه شيئاً فلما كان الصباح ارسل اليه مع رسول الف دينار فقال له عروه : قل لهشام كيف رأيت قولى: ان الذى هو رزقى سوف يأتينى فلزمت دارى فأتانى رزقى حيث كنت.

محمد أمين العيسوى- الاسماعيلية

إبحـــــار..

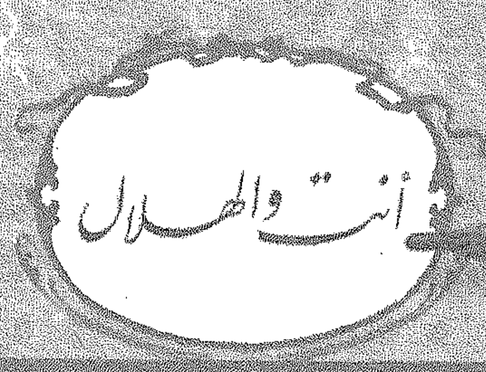
أنا يا فتاتى
من جذور عاطفية
فتشت عن شريان وجدى
فى دهاليز الهيام
وفى خيام (العامرية)
فتشت فى الأحراش
فى كل اتجاه
فى سنا الأحلام
فى عبق الجنان النرجسية
أنا يافتاتى
قد عبرت إلى تواريخ الحنين
وللمدارات الجوانح
والشموس العسجدية

عبد الناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

الموسيقار محمد عبد الوهاب

بتوقيع ص. ك نشرت مجلة الهلال بعدد مايو ٢٠٠١ مقالا عن الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده، وهو يتناول بعض النواحى المهمه فى حياة هذا الفنان العظيم، منها أنه نجح فى تحقيق المزج بين الموسيقى الشرقية والموسيقى العالمية، وانه أتهم بالسطو على بعض الألحان الغربية، ومنها أيضا أنه لم يكن يجيد التمثيل.

وبالنسبة للأمر الأول فإن الكثير منا يعتقد أن سبب نجاحه فى هذا المزج يعود إلى أنه أدخل بعض الآلات الغربية كالجيتار والسكسفون والترومبيت وغيرها إلى التخت



الشرقى وأنه قد اهتم بالهارمونى والتوزيع الموسيقى، إلا أن ذلك فى رأيى لم يكن السبب الوحيد، بل ان السبب الأهم هو أنه كان يعمد بمقدرة فائقة إلى الانتقال من مقام شرقى شديد الحساسية إلى مقام آخر غربى بحت، ويتجلى هذا فى عملين على وجه التحديد، الأول هو آوبريت مجنون ليلى الذى استهله بمقدمة شرقية من مقام الحجاز، ليتحول منه بسلاسه إلى عدة مقامات غربية أبرزها مقام رى ماچير وبنفس السرعة يتحول به إلى مقام البياتى من درجة رى وهو مقام شرقى أصيل والغريب أنه أنهى الأوبريت بمقام النوى أثر بعد تصويره بصعوبه على مقام رى الكبير أيضا

والعمل الثانى هو أغنية إنسى الدنيا وريح بالك، حيث بدأها بمقام البياتى ليلج بعدها المقام رى الكبير باداء جميل لآلة جيتار الهاواى وتنتهى الأغنية بمقام الكورد عشيران وهو مقام يختلف تماما عن مقام البياتى الذى استهل به الأغنية.

ويلاحظ أن هذه المحاولات التى تتكرر كثيرا بعد ذلك قد واكبت التحاق عبد الوهاب بالمعهد الايطالى للموسيقى فى مطلع شبابه.

وبالنسبة لاتهامه بالسطو فإنه قد رد بنفسه على هذا الاتهام بمقولة عبقرية حيث قال:

«إنى كالنحلة التى تنهل من رحيق الأزهار من كل لون لتخرج منها بعد ذلك شهدا ذا مذاق خاص .

أما فيما يتعلق بقدرته التمثيلية فقد يكون صحيحا أنه لم يكن ناجحا بالنسبة لفيلميه الأولين الا أن فيلما كفيلم رصاصة فى القلب أرى أنه قد سبق عصره بتلقائيته وطبيعيته وعدم المبالغة فى الانفعالات فى ظل حوار رشيق.

عادل شافعى الخطيب

ولو للخلق أسماع

علـى إشـبـاع مـن جـاعـوا ... طـوال العـمـر إجـمـاع

وهـذا الحـال لا شـبـع ... ولا رى لمـن ضـاعـوا

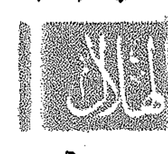
هنـا إخـواننـا عـاشـوا ... ومـا فـى العـيـش إشـبـاع

فـلا عـيـش ولا مـوت ... لإخـوان لنـا جـاعـوا

وضـاعـوا العـمـر فـى الدنيـا ... وهـم جـوع وأوجـاع

كـم اجـتـمـعـوا بـلا جـدوى ... فكـل الجـمـع أطمـاع

كـثـيـرا حـاولوا حـلا ... بـدا سـهـلا ومـا اسطاعوا





وكم قالت قيادات ... لها في القول إبداع
تقول وقولها يحلو ... كأن القول إرضاع
ولايجدى هنا قول ... يقال العمر ويذاع
وقول عدونا فعل ... له صوت وإسماع
سلاما.. كلنا صمت ... وأنظار وأسماع
أمن فعل لما قلتم ... أم الأقوال أنواع؟!
أفيقوا يا أئمتنا ... وراعوا أمة راعوا
شبعنا من طموحات ... إلى سلم وقد باعوا
لنا أعداؤنا رصدوا ... وهم للحرب صناع
وكم مكروا وكم غدروا ... وراعونا وما ارتاعوا
نريد الرد فى نحر ... كما فى نحرنا شاعوا
نكيل لهم كما كالوا ... فذا صاع وذا صاع
نموت ولا نرى ذلا ... له كالنار إخضاع
نرى استشهادنا حلا ... به للنصر إسراع

حسن أبو الغيط

ردود سريعة

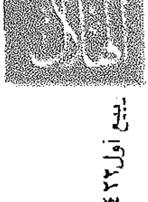
- عاصم فريد البرقوقى الاسكندرية : فكرتك التى طرحتها عن أملك فى أن يصبح هناك «عيد للضحك فى مصر» باعتبار أن الابتسامة هى الطريق إلى الحب والأمل والتوازن النفسى فكرة طريفة.

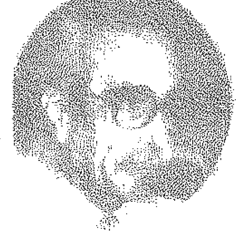
- عمارة الهاشمى الطيب (الجزائر) .. يمكنكم الكتابة مباشرة إلى قسم الاشتراكات بدار الهلال لتزويدكم بالأعداد المطلوبة من مجلة الهلال.

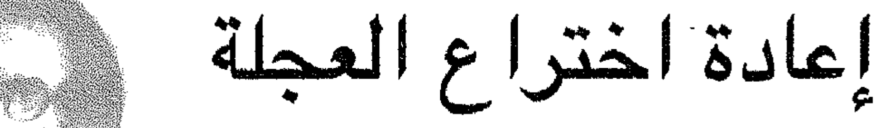
- نادر شفيق أسعد : قصتك القصيرة «الأحلام تعيد الأساطير لمبدعيها» جيدة الأسلوب، وتعالج فكرة جديدة وتنبئ عن موهبة حقيقية فى المستقبل.

- حسن منتصر : مقالكم عن معنى المشروع القومى يتضمن أفكارا تعليمية وتربوية طيبة أما فكرتك بخصوص تغيير نظام الامتحانات على ضوء التجربة العينية فهى فكرة تحتاج لدراسة واسعة للبحث عن مدى امكانية تطبيقها فى مصر من عدمه.

إلى قراء الهلال الأعزاء تسعدنا رسائلكم ومشاعركم الفياضة نحو الهلال وكنا نود نشر كل مايرد منكم إلا أن محدودية صفحات أنت والهلال. تحتم علينا نشر رسائلكم تباعا، فمعذرة لكل من تأجل نشر رسالته إلى الأعداد القادمة.







إعادة اختراع العجلة

بقلم: د. مصطفى سويف

كان إمبذوقليس واحدا من كبار الكبار بين فلاسفة الإغريق، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو العصر الذى عاش فيه غيره من الكبار، بارمينيدس، وهيراقليطس، وأنكسجولاس.. إلخ. وقد عُرف عن إمبذوقليس مذهبه فى حركة التاريخ الكونى، وهو ما عرف باسم «العود الأبدى»؛ فالكون مكوَّن من عناصر. والعناصر تحركها قوتان متعارضتان هما التجاذب والتنافر، وتمضى القوتان كل فى طريقها، فالتجاذب يعمل على تجميع العناصر فتتجمع معاً حتى إذا اكتمل التجميع بدأ التنافر يفعل فعله فى بعثرة العناصر، حتى إذا اكتملت البعثرة أو التفريق عاد التجاذب يعمل عمله، وهكذا دواليك، حركة دائبة هى «العود الأبدى».

وقد رأيت فيما يشبه الكشف أو الحدس النافذ أن هذا النموذج يصلح لتفسير حركة مجتمعنا المصرى فى كثير من تجلياتها؛ وسوف أضرب للقارىء على ذلك مثالين اثنين، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل توضيح الرؤية وتجسيمها. أما المثال الأول فأختاره من تاريخ واحدة من مؤسساتنا المهمة، وهى المؤسسة الجامعية؛ فقد عرفنا الجامعة أصلا وهى تأخذ بنظام الانتخاب لعمداء الكليات، ينتخبون من بين أساتذة كلياتهم، ويقوم بانتخابهم زملاؤهم الأساتذة فى هذه الكليات. ثم إذا بالحكومة تلغى القانون المنظم لهذا الركن من أركان الحياة الجامعية وذلك فى أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢، وتحل محله قانونا يقضى بتعيين العمداء، ينفرد بتعيينهم وزير التربية والتعليم، ومضت الأمور على هذا النحو حتى سنة ١٩٧٢. ثم إذا بالحكومة تلغى هذا القانون وتحل محله قانونا آخر يقضى بالعودة إلى انتخاب العمداء، فعادت الجامعات إلى الانتخاب، حتى كانت سنة ١٩٩٤، ثم إذا بالحكومة تلغى هذا القانون لتحل محله قانونا يعود بالجامعة إلى نظام تعيين العمداء، ينفرد بتعيينهم وزير التعليم. وهكذا دواليك فى المثال الأول.

وأما المثال الثانى فأختاره خاصا بالأحزاب؛ فقد عرفت مصر تكوين الأحزاب بصورة متبلورة مع عشرينيات القرن الماضى، جاء هذا مواكبا لثورة سنة ١٩١٩ وما تداعى بعدها من أحداث سياسية. ثم إذا بالحكومة تلغى الأحزاب فى أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢، وينفرد الحاكم بعملية التسييس فى حكم البلاد. ومضت الأمور على هذا النحو حتى سنة ١٩٧٤، ثم إذا بالحكومة تدعو إلى تكوين الأحزاب. وعاد المواطنون يكونون الأحزاب. وهكذا دواليك فى المثال الثانى. وثمة أمثلة أخرى عديدة أستطيع أن أضربها لتجسيم مذهب «العود الأبدى» كما صاغه لنا إمبذوقليس. (من هذا القبيل ما حدث ويحدث فى ميدان مكافحة المخدرات، وما حدث ويحدث فى تنظيم العمل فى مدارس التربية والتعليم،... إلخ)، ولكنى أعفى القارىء من حشو الكلام، وأكتفى بالمثالين اللذين ضربتهما، فهما يوضحان إلى درجة التجسيم ما قصدته باختيار نموذج العود الأبدى، وهو ما يعادل فى مأثورات أحاديثنا اليومية «إعادة اختراع العجلة». وللقارىء بعد ذلك أن يستنتج مما قدمت ما يشاء من نتائج ودلالات سياسية واجتماعية وحضارية .